لوامع المقتطف الشهرية

يناير ١٩٤٦

فك الأغلال

بحث في الثقافة التقليدية وعلاقتها بالتربية القومية

تأليف

اسماعيل مظهر

رئيس تحرير المقتطف

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٦

مقدمة

اتجاه مبارك ذاك الذي حمل جملة من متفقهي هذه البلاد ورجالات التعليم فيها على عقد مؤتمر التعليم الذي نشرت قراراته في صحفنا منذ حين .

ومهما يكن من أمر تلك القرارات ، ومهما يكن من أمر البحوث التي ألقاها في المؤتمر فئة من أهل الرأي ، فانها جميعاً تنطوي على اتجاهات تنظيمية ، لا تتعدّى تنظيم مدارج التعليم والنظر في بعض خصّيّـاته ، مع الاحتفاظ بالروح القديم الذي جرى عليه التعليم حتى الآن ، أو على الأقل بأكثر ما في هذه الروح من ماهيـات . بل إن الأمر قد تعدّى هذه الاتجاهات الى الـكلام في مسائل تجريدية منها تنشئة حس الجمال . وليس لنا أن نتكلم في مثل هذا . فليس المجال مجال نقد لما تصدّى له المؤتمر ، وانما المجال مجال القول في الغرض الذي ينشده التعليم ، والمرمى الذي ترمي اليه التربية .

لا ريب مطلقاً في ان لـكل عمل انساني غرض أصيل يرمي اليه . فما هو الغرض الذي نرمي اليه من التعليم ؟ وما هي السبيل التي ينبغي أن نسوق فيها الشباب ؟

ذلك ما لم يعرض له المؤتمر بطريقة واضحة . وعندي ان الغرض الأسمى من التربية هو تنشئة رجال مستقلين . رجال ، الاستقلال أخص ميزاتهم . رجال مستقلون في الرأي والخلق وفي كسب الرزق الحلال ، بحيث تضعف فيهم صفة التطفل الاجتماعي والتواكل ، بقدر ما تقوى فيهم صفة الانتاج والأصالة .

أريد أن أقول ان التعليم الصحيح الذي يسد هذا الغرض ، هو أن نصل بين التعليم والحالات الاجتماعية التي تكتنفنا في هذه البقعة التي نشغلها من كرة الأرض . كما أريد أن أقول إنه أساس التعليم السليم الذي يمكن أن يخرج هذه الطبقة من الرجال ، هو التعليم الذي يتصل بثقافتنا التقليدية .

هذه النظرية الجديدة المقتطعة من صميم بيئتنا ، هي موضوع هذا البحث الذي ننشره معتقدين أن في الأخذ بنظريته ، فكّ الاغلال ، والاتجاه نحو آفاق الحرية الاجتماعية السليمة من أمراض التطفل والجشع الاجتماعي .

الثقافة التقليدية

وعلاقتها بالتربية القومية

قرأت في العهد الأخير تقريرين عن التعليم في مصر كتبهما عالمان استقدمتهما وزارة المعارف ، لينظر كل منهما في ناحية خاصة من نواحي التعليم ودرجاته ، وأفضى كل منهما بآراء ناضجة فيما كُلِّفَ به من بحث ، فكتب مستر « مان » ، مفتش المدارس وكليات المعلمين بادارة المعارف بانجلترا ، تقريراً مدعماً بالاحصاءات فائضاً بالأفكار والنظريات ، وكتب مسيو « كلاپاريد » ، أستاذ علم النفس في كلية العلوم بجامعة جنيف ، تقريراً آخر عمد فيه إلى نظريات حديثة في علم النفس والتربية ، لا نعلم مقدار ما فيها من خطإ أو صواب ، لأن الحكم في مثل هذه الأشياء ، يجب أن يرجع فيه إلى أهل الاختصاص ، وإن كانت النظرة العاجلة التي ألقيتها على هذا التقرير قد أقنعتني ، وقد أكون مخطئاً ، بأن نظريات « كلاپاريد » ربما تكون قد أسلمت به إلى نتائج لا يؤيدها الواقع ، ولا تسندها الحقائق التي يعرفها كثير من المصريين معرفة أولية لا تحتاج إلى نظر علمي ، ولا إلى استنتاج من مقدمات .

هذا إلى أن العالمين الأوربيين ان كانا قد بحثا في التعليم المصري كل من ناحية اختصاصه ، فان بحثهما إنما جاء قاصراً على الدائرة التي عينتها وزارة المعارف ، وفي ضوء المعلومات التي زودا بها ، وفي الحدود التي رسمت للتعليم في مصر منذ خمسين سنة مضين . فإن كانا قد أحسا شيئاً من النقص ، أو وقع لهما شيء يستحق النقد ، فانما وقع لهما فيما هو داخل في هذه الحدود أو مشمول بها . فلم ينظرا مثلاً فيما يجب أن يؤدي التعليم في مصر من حاجات الحياة العامة فيها ، وفي علاقة التعليم بالحالات الجديدة التي تكتنف الحياة المصرية في تطورها الحديث . على أن هذا لا ينزل من مكانة ما كتب العالمان الفاضلان أو يقلل من قيمة آرائهما. فان المصريين أنفسهم أحق بأن يتلمسوا مكان النقص الذي يحسونه في التعليم من ناحية علاقته بالحياة عامة ، وبالحالة الاجتماعية خاصة

ومهما يكن من أمر الباحث الأوربي في الشؤون المصرية ، ومهما يكن من علمه وتمكنه فيه ، فانه من المتعذر عليه كما قال مستر « مان » في تقريره ، أن يلم به المام المحيط بالحقائق الأساسية التي يحس بها المصريون أنفسهم ، من غير استعانة بآراء أو نظريات . ذلك بأن لكل أمة إحساساً بما يعتورها من نقص ، لن يفقه الغريب عنها شيئاً من خصائصه ، الا بالجهد الشديد ، وطول التأمل والتفكير . مثل ذلك أن التقريرين اللذين وضعهما العالمان الأوربيان لم يلمسا الحقائق الأولية في حياتنا الاجتماعية وعلاقتها بالتعليم ، ذلك في حين أن كل مصري يشعر شعوراً عميقاً بأن عصراً من عصور التطور الفكري قد آذن بأن تشرق شمسه في سماء مصر ، وأن عصراً آخر قد أخذ في الأفول . أضف الى ذلك أننا نشعر بأن حالاتنا الاجتماعية قد اتجهت في تطورها متجهاً ألقى على التعليم في مصر عبئاً جديداً لم يشعر به آباؤنا ، وقد نشعر بعض الأحيان بشيء من القلق ، وقد نشعر بأن هذا القلق قد يتضاعف بعض الأحيان ، حتى ليذهبُ بالبعض إلى اليأس من مستقبل آلاف الطلبة الذين يتعلمون اليوم في المدارس وتخرّجهم الكليات زرافات كل عام . بل إننا أخذنا نشعر بكل ما شعر به الأستاذ هنري جيمس عند ما قال : إن الاحتفاظ بحالة اجتماعية ثابتة الدعائم قوية الأركان في جمعية يكتب على المتعلّمين فيها عيش الفقر والذلّة ، لأمر فيه من البُعد عن حقائق الطّبع البشريّ بقدر ما في محاولتك بناء هرم يرتكز على رأسه لا على قاعدته ، من بُعدٍ عن حقائق الطبيعة الكونيّة »[1] .

ولقد يُماري مفكر في أنّ ذلك الشعور العميق الذي يكتنف تفكير الكثيرين من المصريين ، إنما له أسبابه الغامضة البعيدة عن إدراك الذين لا يفكرون في التعليم إلاّ بقدر ما يفكرون في أداة لتخريج المتعلمين ، ولا يزيد خطره في نظرهم عن خطر آلة تخرج أحذية أو لفافات تبغ ، في نظر عامل يجهل حقيقة الآلة التي يديرها ، ولا يعرف عنها إلاّ أمرين : شكلها الظاهر ، وثمرُها الذي يجنيه منها .

على أن الثمر الذي أخذنا نجنيه من أداة التعليم عندنا قد جدَّت عليه ظاهرتان : الأولى :

(١) العبارة هنا منقولة بالمعنى لا بالحرف

أنّ طعمه أخذ يتغيَّر، والثانية: أن صنفه أخذ ينحطّ مع كثرة الانتاج. ولاشك في انهما ظاهرتان يعلَّل بهما كثير من الظواهر الاجتماعية التي تمر علينا في كل يوم صورٌ منها، وأخصها كثرة المتعطلين من المتعلمين، والجهد الفادح الذي يلقاه المجدُّون منهم في تحصيل رزقهم الحلال.

ولا ريب في أن هذه الظاهرات ترجع الى أسباب أخذت تتجمَّع منذ أكثر من نصف قرن من الزمان، حتى أفضى بنا التطور الى الحالة التي تكتنفُنا اليوم. ولما كان الغرض الذي أرمي اليه إنما يتجه الى وصف العلاقة التي تقوم اليوم بين التعليم والحالة الاجتماعية، والمهمة الكبرى المُلقاة على عاتق التعليم في تنظيم الحالة الاجتماعية، ودرء الأخطار التي قد يتعرَّض لها المجتمع المصري، بقدر ما في مستطاع التعليم أن يدرأ منها، وجب أن أظهر أولاً أن أشد الأخطار التي يتعرَّض لها الكيان الاجتماعي في مصر من ناحية التعليم، أن الشاب المتعلم في مدارسنا العليا يفقد مع التعليم استقلاله الذاتي، باعتباره قوة لها حقيقة مستقلة عن القوى الأخرى التي تكتنفها. وقد يشعر بذلك الشاب المتعلم، وقد يشعر به الذين يعلّمون أولادهم، حتى لقد نجد أن بعض القادرين على التفكير ينظرون نظرة تشاؤم إلى المستقبل القريب، وإنَّ لهم في ذلك لحقًّا، وإن لهم في تشاؤمهم لأسباباً تبرّره وحقائق تعلّله، ومن أجل أن نظهر تطوُّر الحالات التي أفضت بنا الى هذه النتائج، ينبغي لنا أن نذكر حقائق خمْساً نرجع فيها الى تاريخنا بعض الشيء:

أولاً: حُكِمت مصر منذ أبعد العصور على نظام تباين الطبقات الاجتماعية، وعلى أساس الفوارق في الحقوق العامة، غير أن الطبقات أخذت تتقارب حقوقها الطبيعية وتنتفي من بينها الفوارق من عهدٍ قريب، فالكل الآن متساوون أمام القانون، ولو نظريًّا على الأقل، ولكل مصري حق الانتخاب والحكم من طريق مجلس النواب. فأخذ مظهر وجود طبقتين متمايزتين في الحقوق المدنية يزول شيئاً بعد شيء. فلقد كانت مصر القديمة مكوّنة من ثلاث طبقات هم: الحكام والكهنوت والشَّعب، ومنذ غزْو الأسكندر وحكْم البطالمة إلى حكم المماليك حتى بدء الاحتلال الانجليزي، كانت هناك طبقات تختلف حقوقها وامتيازاتها. أما الآن فقد انتفت هذه الفوارق نظريًّا، ونقول نظريًّا، لأننا لا نزال

نشكو من بعض مساوئها ، بالرغم من أن أصغر فلاح في مُكْنته أن يقاضي أعظم عين في البلاد ، وأن يأخذ حقه منه إن كان له حق .

ثانياً : بالرَّغم من أن نظام الطبقات المتباينة في الحياة والحقوق ، هو النظام الذي أُتّبع في مصر منذ أبعد العصور ، وبالرغم من أن حالة مصر الاجتماعية من خمسين سنة مضين كانت تكفل الاستقلال المادي لطبقتي ذوي الامتيازات والفلاحين معاً ، بأن تحمل طبقة الفلاحين وهي الطبقة العاملة ، عبء كفاية نفسها وكفاية حكامها ، بقدر الاستطاعة ، فإن الحالة الجديدة ، حالة التساوي أمام القانون في الحقوق ، قد أحدثت ظاهرة اجتماعية جديدة ، مجملها أن الفلاح قد خرج من كونه عاملاً لا حقَّ له في ملكية الأرض ، إلى رجل حرٍّ له حق العمل متى شاء ، والانقطاع عنه متى أراد ، وله فوق ذلك حق الملك ، بل نقول إنه انتقل من عامل إقطاعي إلى رجلٍ حرٍّ . فحدث بذلك تطور جديد .

ثالثاً : هذا التطور الجديد الذي حدث بتحرير الفلاح المصري ، وعتقه من نظام الاقطاع الذي ظلَّ خاضعاً له طوال القرون ، قد قلب آية الحياة الاجتماعية في مصر ، فإن هذا الفلاح لم يكن ينقصه من شيء ليكون مستقلاً تمام الاستقلال في حياته إلاَّ قانون يحميه ، ونظام اجتماعي يجعله يشعر بأنه قوة لها أثر في الحياة ، فلما وقع ذلك بالفعل أصبحت الطبقة الدُّنيا أي طبقة الفلاحين المسخرين ، والتي كان عليها أن تحفظ استقلالها واستقلال الطبقة التي تعلوها ، سيدة نفسها ، وأصبحت طبقة الملاَّك وأصحاب الجاه ، كما كانت في الحالة الأولى ، عبئاً عليها ، ولكن في صورة جديدة ، أخذت شكل صراعٍ خفي بين طبقتين .

رابعاً : ولقد انحصر مظهر هذا الصراع في طبقة تحرَّرت من قيود النظام الاقطاعي ، وهي الطبقة المنتجة العاملة بيدها ، فأصبحت مستقلة بنفسها ، وهي طبقة قادرة على الحرث والغرس والحصاد في بلاد لن يزرعها غيرها ، ولن ينتفع بها غيرها ، فهي مستقلة ما دامت من فوق الأرض التي يغذيها النيل بشرايينه المحببة ، وهذه الخطوة الجديدة أحدثت ظاهرة أخرى .

خامساً : عكفت الطبقة الأخرى ، طبقة أصحاب الجاه على مطلب آخر تتقي به النتائج التي تترتب على استقلال الطبقة العاملة ، ولم تجد من وسيلة أقرب من تعليم أولادها ليكونوا

حكام البلاد . ولكن طبقة الفلاحين أخذت تزاحم الطبقة الأولى في هذا المضمار ، ومضى الأثرياء منهم يعلمون أولادهم ليكونوا حكاماً ، فنجحوا . ولكن بعد أن مُلئت الحكومة بما تحتاج من حكام وكتبة ، قام شعورٌ جديدٌ بأن أولاد موظفي الحكومة والأثرياء الذين أخرجوا أولادهم من محيط الفلاحة الى محيط العلم ، أقلُّ استقلالاً مع تعلمهم من أبناء الفلاحين الجهلاء . وأصبحنا الآن والموقف بين متعلم متعطل يتطلع إلى مرتب أبيه أو ثروته ليعيش ، وفلاَّح جاهل لا عمدة له في الحياة إلاَّ خبرته الموروثة في فلح الأرض وقوة عضلاته ومحراثه وفأسه وماشيته ، فهو رجلٌ مستقل تمام الاستقلال في الحياة ، على العكس من المتعلم المتعطل . فاذا كانت الغاية من التعليم تخريج رجال مستقلين يكافحون في الحياة كفاح المنتج ، لا كفاح المستغل لكفاح غيره، رأينا أن التعليم لم يفز ببلوغ الغاية الأخيرة منه ما دمنا نرى أن ابن الفلاح بخبرته الموروثة مستقل في حياته منتج بعمله ، في حين أن المتعلم يفقد مع التعليم استقلاله الذاتي ، ويتطلع دائماً إلى حياة الركود ، لا إلى حياة الكفاح التي يهيء له تعليمه طريقها الواجب .

على أن قليلاً من التأمل في هذه الالمامة التي ألممنا فيها بأوجه التطور الاجتماعي الذي انتابنا منذ خمسين سنة خلت ، يحمل المفكر على المضي خطوة أخرى في تأملات إذا أحطنا بها ، نكون قد فرغنا من التمهيد للفكرة التي نريد أن تكون الدعامة التي يقوم عليها أساس التعليم في مصر فنرى ما يأتي :

أولاً : إن طرق التعليم التي عكفنا عليها إلى الآن شطرت الأمة معسكرين ، الأول : معسكر المتعلمين على القواعد الأوربية التي اتبعناها في مدارسنا ، وخرجوا بهذا التعليم عن جوّ ثقافتنا التقليدية ؛ فأصبحوا نصف مصريين ، والثاني: معسكر الفلاحين الذين أبعدناهم عن الثقافة الحديثة ، وحافظنا على ثقافتهم التقليدية ، فصاروا بذواتهم في القرن العشرين وبعقليتهم في مصر الفرعونية .(١)

ثانياً : كوّنا بهذا طبقتين غير متجانستين ، بل مختلفتين تمام الاختلاف ، بحيث لا تجمع

(١) قد يظن البعض أن الفتيان والفتيات ممن يتعلمون في المدارس الأجنبية قد يؤلفون معسكراً ثالثاً. ولكن اعتقد أن الفارق بين الذين تخرجهم مدارسنا المصرية والذين تخرجهم المدارس الاجنبية ، من حيث الاتصال بثقافتنا التقليدية ، ضئيل ولا يكاد يرى .

بينهما من رابطة الا الرابطة الطبيعية التي هي رابطة الدم ، فكنا بذلك أشبه بالمستعمر الذي يرغب دائماً في أن يزيد من الصدوع التي تفصل بين طبقات الأمة ، لا أشبه بالمصلح الذي يعمل دائماً على أن يرأب تلك الصدوع ، ويقرّب بين الطبقات حفظاً للتوازن الاجتماعي. ولا شكَّ في أن هذه السياسة تؤدي بطبعها ، وعن غير قصد ، الى حرب الطبقات التي نحن مقدمون عليها حتماً ، اذا استمرَّ التعليم على نماذجه الحاضرة، وأخذت تلك الصدوع والفوارق تزيد عاماً بعد عام .

ثالثاً : دليلنا على هذا أن ابن الفلاح إذا أثرت فيه الثقافة الحديثة سواء أكان تعليمه في مصر أم في إحدى جامعات أوربا ، أصبح لا ينشق في جو بلاده نسيم الثقافة التي نشأ فيها فتلحظ فيه روح التبرُّم بأبيه الفلاح وأمه الفلاحة ، وتأنس فيه نزعة قديمة تدفعه دائماً الى حب العودة الى الجو الذي نشأ فيه ، فتراه قلقاً غير مستقر ، هدَّاماً لا بنَّاء ، يريد لو تتاح له الفرصة ليعود الى الجو الذي كان فيه ، فاذا أعيته الحيلة ، كما يحدث دائماً ، واضطر الى البقاء في جو بلاده هجر الريف ، مرباه الأصيل ومربى آبائه وأجداده منذ قرون طويلة ، ومنشأ تقاليده منذ أزمان لا تعيها الذكريات ، ليسكن مدينة من المدن ، فيفضّلها مع عيش الفقر والعوز ، على الريف مع عيش الراحة والهناءة ، وتراه ينزع الى الفراغ والدعة في مدينة ، دون العمل الذي هو أجدر بحياة الرجولة في الريف . ومن هنا تتكوَّن الطبقات المتبرمة بالحياة ، العاملة على الهدم دون الاصلاح ، النزَّاعة الى الأفكار المتطرفة والثورات . أولئك الذين عناهم العلامة هنري جيمس بكلمته التي سقناها من قبل .

رابعاً : وأنت أينما ولَّيت وجهك رأيت أثر المعسكرين اللذين كوَّنهما التعليم المصري ظاهراً جليًّا . فأنت تنتزع الولد من حضن أبيه الفلاح وأمه الفلاحة ، فكأنك تنزعه من حضن « مصر الفرعونية » لتنشّئه في حضن « مصر الاوربية » وتخرجه بعد ذلك قاضياً أو محامياً أو مهندساً أو تاجراً أو رجل إدارة أو غير ذلك ، ولكن بروح أوربية تكسوها ثياب مصرية شفافة فضفاضة ، وبالأحرى تخرج رجالاً انبتَّت صلتهم بتقاليدهم الثقافية القديمة ، وأنت في دور العدل ، وفي المتاجر ، وفي مراكز الادارة ، وفي عيادة الطبيب ومكتب المهندس ، واقع في كل دقيقة على مظهر من مظاهر التفرقة بين المعسكرين . فالفلاح

البعيد عن مدنية المدن . وبالأحرى البعيد عن جوّ الثقافة الأوربيـة الذي نشأ فيه القاضي والمحامي والتاجر ومأمور المركز ومعاون الادارة وطبيب القرية ، يمثل معسكر مصر الفرعونية ، أما هؤلاء فانما يمثلون « مصر الأوربية » . ولاشك في أن هذا مظهر من مظاهر الانحـلال الاجتماعي ، لا يسأل عنه في مصر شيء ، بقدر ما يسأل التعليم ، وأساسه الذي يقوم عليه .

خامساً : بالرغم من أن المتعلم قد نزع بفكره نزعةً أبعدته عن ثقافة آبائه التقليدية ، فقد أثرت تلك الحال في مزاجه وتصوراته ونظرته الفنية في الحيـاة ، تلك النظرة التي يجب أن تكون مصرية صميمة ، ويجب أن نحافظ عليها نقية على سجيتها لنكون مصريين جديرين بالمصرية ، وكان من نتائج هـذا أن المتعلمين يفضلون أقذر قرية أوربية على ريفنا الجميل ، وبحيراتنا الفاتنة، حتى لقد تقوى النزعة الأوربية فينا على وحي النيل نفسه . والسبب في هذا اننا كنا في خلال الخمسين عاماً الماضية كالمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، إذ انتزعنا من أرواح ناشئتنا « مصريتها » ولم نترك فيها من المصرية إلاّ لون البشرة ولقحناهم بالروح « الأوربيـة » فلم نبق مصريين كأهل الريف ، ولم نستطع أن نكون أوربيين كفتيان « پيكادلي سركس » (١)

سادساً : بدأت هذه الحال تؤثر في مرافقنا الحيوية ، حتى لقد نزعنا إلى القول بأن كل ما هو أوربي جميل، وكل ما هو مصري رديء ، وكل فكرة مصرية لعب ولهو، وكل فكرة أوربيـة جدّ ورجولة ، وكل فن مصري بدائي وغير متفق وروح العصر ، وكل فن أوربي ، مهما كان فيه من بعد وتضاد مع نزعاتنا وتقاليدنا المصرية ، بل ومع آدابنا المرعية والعرف الانساني ، حضارة وتمدين . وشملت هذه الحال فتياتنا وفتياننا ، فألسنتهم لا تتحرك إلا بكل ما هو أوربي غربي ، وقلوبهم لا تهفو إلا لـكل ما هو بعيد عن المصرية .

ولا شبهة في أن المعسكرين يتهيآن الآن : الأول للعمل على خراب الريف ، والثاني لا حول له ولا قوة ، فسوف ينهزم ليترك الريف خراباً . وإنما يخرب الريف بخراب القلوب التي يجب أن تؤمن بأن الريف هو مصر ، وان مصر هي الريف ، وان المدن أسواق

(١) Picadilly Circus ميدان في لندن

لهذا الريف لا أقل ولا أكثر . انما يخرب الريف بأن نحب المدينة ونهجر الريف ، فكأننا هجرنا مصر ، ولا مخرج لنا من هذا الا بأن نصل ثقافتنا الحديثة بثقافتنا التقليدية ، فيكون المصري فلاحاً مصرياً روحاً ، ونزعة وخلقاً ، ثم قاضياً ومحامياً وطبيباً ورجل ادارة من بعد ذلك . يجب أن تكون ماهيتنا مصرية وأعراضنا أوربية ، لا أن نعكس الآية بأن نعمل أولاً على محو مصريتنا . فاذا تم لنا ذلك رحنا نتيه بأننا أتينا بأعراض أوربية ولقحنا بها ذوات لا ماضي لها ، وبالأحرى لا ماهية لها .

تلك مقدمات لا بد منها اذا أردنا أن نبحث حالتنا الاجتماعية من جهة علاقتها بالتعليم. وسنرى كيف يمكن أن نستفيد منها .

***

أظهرت في العبارات السابقة الوجوه التي تربط بين التعليم والحالة الاجتماعية ، وعددت كثيراً من التأملات التاريخية التي قد يكون لها اتصالاً ، كبيراً أو صغيراً ، بالحالات الجديدة التي تكتنفنا ، غير أن الاقتصار على تعديل وجوه الارتباط بين التعليم والحالة الاجتماعية ، والقول بأن التعليم يجب أن يتجه اتجاهاً اجتماعياً ، أمر يجب أن يعزز باظهار المخاطر الشديدة التي يتعرض اليها كياننا الاجتماعي ، من جراء الفصل بين سياسة التعليم ، وبين ملابساتها الاجتماعية .

ولقد ظهر في العهد الأخير أن القائمين بأمر التعليم قد اضطروا في مواقف عديدة أن يتجهوا الى معالجة بعض الأمور علاجاً قائماً بعض الشيء على طبيعة الحالات الاجتماعية . واني لآسف إذ أقول إنهم لم ينجحوا فيما قصدوا اليه . وليس السبب براجع الى قصور منهم أو تقصير عن أداء واجباتهم كاملة ، وإنما يرجع في الحقيقة الى أن سياسة التعليم الحاضرة لا تواتيهم بكل الأسباب الضرورية التي تمكنهم من تنفيذ برامج تتفق وما تتطلب الحالة الاجتماعية من صنوف العلاج . ولا أريد أن أعدد هنا حالات بذاتها ، وإنما أريد أن أبحث في مجمل الظواهر التي تترتب على الفصل بين سياسة التعليم والملابسات الاجتماعية ، قدر ما تتيح لي تجاربي القليلة .

كتب الفيلسوف هربرت سبنسر في أواخر القرن الفارط مقالاً عنوانه « الكائن الاجتماعي » شبّه فيه بنية الاجتماع الانساني بكائن متعضّ ، وأخذ يقيس الظواهر المتقابلة فيهما ويوازن بين حالات خاصة في جسم الفرد وجسم المجتمع . ولاشك في أن هذا الفيلسوف الكبير قد غفل عن أمر ذي بال ، جعل بحثه هذا محتاجاً الى كثير من التحوير بل لا نبالغ إذا قلنا ان غفلته عن ذلك الأمر ، قد أثرت في النتائج التي حاول الوصول اليها فجاءت مفككة غير موصولة ولا مؤدية الى فكرة محدودة ينتهي اليها البحث . ذلك بأن بين الحي والكائن الاجتماعي فروقاً رئيسية تميز بينهما تمييزاً لا يقف عند حد الظواهر ، وإنما يتعدى الى التكوين الوظيفي فيهما . وقد يعلم الذين يدرسون علم الاحياء ، أن الحيَّ يتكوَّن من خلايا دقيقة هي وحدات بسيطة التركيب تحتوي على نواة هي سر الحياة . ولكن تجمّع هذه الوحدات البسيطة التركيب ينتج حيًّا عويص التركيب معقد التكوين جهد ما نتخيل. ذلك في حين أن الكائن الاجتماعي إنما هو كُلٌّ بسيط التكوين ، يتركب من وحدات غاية في التعقيد . وعلى معرفتك هذا الفرق الوظيفي ، يتوقف وصولك الى النتائج الصحيحة . فالخلايا لا قوام لها ولا حياة بغير اندماجها في بنية الكلّ الحي . أما الوحدات (الذَّوات العاقلة) التي يتركب منها الكائن الاجتماعي ، فكلما كانت أكثر استقلالاً عن ذلك الكائن، برز أثرها وتميزت وظيفتها واستبانت قيمتها ، ورجُل فرعها ، وأصبحت قوة قادرة على التأثير في الكائن الاجتماعي بما يحفظ حياته الاجتماعية ، ويحرّكه نحو الرقي الاجتماعي ، ويبث فيه روح التطلع الى الارتقاء المدني ، وبالجملة على جعله كائناً اجتماعيًّا معتزًّا بأثره العمليّ في الحياة . ذلك على الضّد مما لو اندمجت هذه الوحدات العاقلة في بنية الكائن الاجتماعي . فانها إذ ذاك تفقد استقلالها وقوتها على التأثير بالعمل على رقي الجماعة ، لأن اندماجها هذا انما يسلبها القدرة على التفكير والتأمل في حقائق الأشياء ، ويفقدها أخلاقها الشخصية ، وبوجه عام يدمجها فيما يسميه الاجتماعيون عقليّة الجماهير .

هذه حقيقة أوَّلية ، على ما فيها من تعقيد وحاجة الى الفهم من الضروري أن نعيها وأن نجعلها نصب أعيننا كلما فكرنا في وظيفة التعليم باعتباره عاملاً من عوامل استقرار الحالات الاجتماعية في كل أمة من الأمم . أما وقد وعيناها فانّا نتساءل : أيُعنى التعليم عندنا بإخراج

رجال فيهم من الاستقلال الخلقي والعلمي ما يجعلهم في المستقبل قوى مؤثرة في الكائن الاجتماعي ، أم على العكس من ذلك ، يخرج رجالاً قنعاً يكتفون من الحياة بالاندماج في جسم الكائن الاجتماعي ، فيظلون طوال أعمارهم مغمورين في عقلية الجماهير ؟ وإني لآسف إذ أقول إن تعليمنا بعيد عن أن يخرج رجالاً مستقلين على النمط الذي تتطلبه طبيعة الحالات الاجتماعية الجديدة ، التي أخذت تشعرنا بأننا مقدمون على انقلابات فكرية خطيرة.

إذاً فواجب التعليم ينبغي أن ينحصر في إخراج رجال مستقلين بعيدين عن التأثر بروح الجماهير . وتكوين استقلال الفرد ، يجب أن يكون بداءة التعليم ونهايته . أما العمل على شحن العقول بشتى المعلومات وتكوين ملكات خاصة في الأدب والفن ، فلن يكون لها من أثر في الحياة ، ولن تقوّم من عوج الكائن الاجتماعي ، ما لم يسبقها الاستقلال الذاتي ، وتدريب الملكات الخاصة على مماشاة ما تتطلبه مقتضيات ذلك الاستقلال .

ولقد أظهرنا من قبل أن ابن الفلاح أكثر استقلالاً في الناحية العملية ، من المتعلم الذي فقد استقلاله الذاتي ، بحكم الظروف التي نشأ محوطاً بها . غير أن استقلال الفلاح العامل استقلال ناقص ، اذ هو استقلال أشبه بالاستقلال الحيواني منه بالاستقلال الانساني ، ذلك بأن عدته في هذا الاستقلال تقوم على قوة عضلاته وعلى صبره واحتماله ورضاه بمحيطه الذي يعيش مكتنفاً به . وعامة ذا ليس فيه شيء من مؤهلات الاستقلال الانساني ، وانما هو استقلال يشارك فيه الفلاح كثيراً من الحيوانات . وعلى ذلك نجد ان ما عندنا من مكملات الاستقلال الفردي عند الفلاح ، تنقصه الناحية الثقافية التي تمكنه من أن يصبح ذا أثر عملي في تكييف حالات الكائن الاجتماعي . ولكن هذا الاستقلال مهما كان فيه من ضروب النقص فهو استقلال على كل حال . أما المتعلم المتعطل فحالته تناقض هذه الحال . فان تعليمه لم يمكنه من أن يكون مستقلاً من ناحية الثقافة ، في حين أن نشأته ومحيطه قد سلبتاه ناحية الاستقلال الأخرى .

***

أما الأسلوب الذي يجب أن ينتحى في التعليم حتى يكون أداة صالحة لتخريج رجال مستقلين ذوي أثر في تكييف حالات الكائن الاجتماعي ، فسنفرد له صفحات خاصة . وسنقصر

كلامنا الآن على المخاطر التي يتعرض لها كياننا الاجتماعي من وجود فلاحين استغلوا حيوانياً، ومتعلمين فقدوا كل ضروب الاستقلال .

***

على الرغم من أن الأخطار التي يتعرض لها مجتمع تناصرت عليه كل هذه الظواهر الكثيرة المتعددة ، فان أعظم هذه الأخطار وأشدها أثراً في مستقبله ، إنما حدث بما يدعوه الاجتماعيون « التطفل الاجتماعي » . والتطفل الاجتماعي حالة ترهق فيها طبقات غير عاملة طبقات عاملة بمطلوبات حياتها ، ولهذا التطفل مظاهر عديدة أخبثها أن تكون الطبقة المتطفلة هي بذاتها صاحبة السلطة العليا في المجتمع ، كما حدث في أوربا في خلال القرون الوسطى ، وكما هي الحال في كثير من ممالك الشرق في حالته الحاضرة . والويل لمجتمع تسود فيه هذه الحال .

التطفل حالة طبيعية لا سبيل إلى نكرانها . فهنالك حيوانات تتطفل على نباتات ، ونباتات تتطفل على حيوانات ، وقد يتطفل حيوان على حيوان أو نبات على نبات . فهو ظاهرة تكاد تشتمل كل نواحي العالم الحي ، وتحتكم في الكثير من مظاهره الجلي . غير أن نظرة واحدة في هذه الحقيقة الطبيعية ، تظهرك على أن التطفل حيثما كان ، وأياً كانت وسيلته ومظاهره ، لن ينتج إلا هدماً في الحياة، ولن يبرز إلا فساداً ، ولن يؤدي إلا إلى إرهاق عامل في القوى الحيوية، تختلف درجاته ومظاهره ونتائجه باختلاف الظروف ، وقلما يستطيع عالم طبيعي أن يحصي تلك الظروف التي يتجلى فيها فعل التطفل في عالم الأحياء . فان ذلك من الأشياء التي يستعصى على العلم تعديد مظاهرها عامة وخاصة ، وفعل كل متطفل في مختلف الظروف ، على كل متطفل عليه في متباين الحالات . وإنما يستطيع الأحيائي أن يدرس ظواهر التطفل في حالات يقف عليها ، وأن يدرس أثر الحي المتطفل في بنية الحي المتطفل عليه ، محصياً في كثير من الحالات أوجه العلاقة بينهما ، وتأثير دورة حياة الحي المتطفل في حاضنه .

ولن يعدو العالم الاجتماعي هذه الحال عينها ، فليس في مستطاعه أن يحصي أوجه التطفل الاجتماعي في مجتمع بعينه ، ولا أن يدرس الحالات درس توفر على دقائقها وتدرجاتها التي

تكفل له الوصول إلى نتائج مقطوع بصحتها قطعاً تامًّا . والعالم الاجتماعي أضعف وسائل من العالم الطبيعي . فان هذا بين جدران معمله ، يستطيع أن يحصر الحالات ويحدد الظواهر في حين أن زميله الاجتماعي ، إنما يتأمل من حالات عامة غير محصورة ولا محددة ، تحديداً تجعل الحكم القاطع على أصولها وظواهرها أمراً سهلاً هيناً . غير أن هذا كله لن يحول بين الباحث الاجتماعي وبين تبيز الحالات الكابية التي يتخذ درس مظاهر التطفل الاجتماعي وسيلة إلى اكتناهها .

من الحالات الكابية في التطفل الاجتماعي ، بل ومن أظهر تلك الحالات أثراً في الجماعات الحديثة عامة ، وفي مصر خاصة ، تسلط غير ذوي الكفايات ، وإن شئت فقل المتعطلين ، على موارد ما تنتج الأيدي العاملة من ناحية ، وعلى انتاجها نفسه من ناحية أخرى ، من غير أن يكون لهؤلاء المستغلين أي ضلع في تكوين المورد أو في الانتاج . ومن هنا تحدث حالة من حالات التطفل الاجتماعي تستنفد فيها أيدٍ متعطلة ثمرات الجهود التي تبذلها أيد عاملة ، بغير أن تنال الأيدي العاملة من ثمرات جهودها ما يكفي لحفظ حيويتها أو قدرتها على العمل والانتاج .فان من شأن المتطفل أن يجتهد في استغلال حاضنه بكل صور الاستغلال وإن يبلغ من الانتفاع بحيويته جهد ما يستطيع، وكلما قلت قوى المقاومة في الحاضن ، ازداد المتطفل شرة وبأساً ، حتى ينتهي الأمر بما يسميه الاجتماعيون « بالتنكس الاجتماعي »(١) وهي حالة تتساوى فيها طبقات المجتمع لا من حيث الكفايات العلمية ، ولكن من حيث العجز عن العمل المنتج . وما لهذا الأمر من نتيجة إلا الفوضى الغامرة ، ولا ينكر أحد أن في مجتمعنا هذه الظاهرة الخبيثة . فالأيدي العاملة لا تنال من منتوج عملها ما يكفي للاحتفاظ بحيويتها ، والأيدي المتعطلة تبدد ثمرات تلك الجهود . وعلم ما يترتب على ذلك عند الله .

ومن تلك الحالات هجر الريف والعيش في المدن . ولقد بحث هذه الظاهرة كثير من الكتاب منهم . ادمون ديمولاند الفرنسي ، والأستاذ استن فريمان الانجليزي في بحوث مستفيضة عالجوا فيها الحالات التي نشأت في فرنسا وانجلترا ، وعطفوا بعض الشيء على

(١) Social Degeneration

حالات نشأت في غيرها من البلدان في أوربا . ولا جرم أن هذه الحالات تتشابه ، فالأسباب التي تدعو الفرنسي أو الانجليزي الى هجر الريف والاقامة في المدن ، أو بالأحرى حبّ التحضّر (بمعنى المعيشة في الحواضر) تكاد تكون نفس الأسباب التي تحمل المصري على أن يفعل ذلك . غير أن النتائج تختلف باختلاف البلدان ، على مقتضى ما في كل شعب من الاستعداد والصفات ، وفي الأكثر على مقتضى الثقافة التقليدية التي يختص بها كل شعب من الشعوب .

ولسوف نبين عن فكرتنا في أثر الثقافة التقليدية في الكيان الاجتماعي لكل أمة من الأمم . ونكتفي الآن بأن نقول بأن شعباً كالشعب المصري ، الزراعة ثقافته التقليدية منذ أبعد عصور التاريخ ، لا بدّ من أن يتأثر بزيادة الميل الى التّحضر ، تأثراً عظيماً لا يحسه شعب آخر ثقافته التقليدية غير زراعية . بل على العكس من ذلك ، أعتقد أن الشعوب التي تكون ثقافتها التقليدية صناعية أو تجارية ، يجب أن تحتمي بحياة التحضر صيانة لمصالحها. أما تحضر شعب ثقافته التقليدية الزراعة ، فتلك هي الطامة الكبرى على كيانه الاجتماعي ، وتلك هي الطفرة العظيمة الى أبشع صور التطفل الاجتماعي .

ونحن نعلم علم اليقين بأن مدننا المصرية مدنٌ غير صناعية بالمعنى المفهوم من ذلك في أوربا . بل أعتقد ، وأظن انني اعتقد بحق ، أن مدننا ليست إلا أسواقاً تستهلك فيها منتوجات الريف ، وهذه الحقيقة وحدها كافية لأن تظهرنا على أن ميلنا الى التحضُّر ، مع التعطل عن العمل ، يرهق المنتج ويرهق السوق المستهلكة ، لأن المتعطل في الواقع عبء على الجمعية ، ذلك بأنه قوة مستنفدة لا قوة منتجة من ناحية ، ولأن الحاجات التي يستنفدها لا يُنتج ما يقابلها لصالح الجمعية من ناحية أخرى ، وبذلك يصبح المتعطل عبئاً على الحاضرة التي يسكنها ، وعبئاً على العناصر المنتجة معاً . وهنا يتضاعف تطفله ، إذ يصبح متطفلا باعتبارين : الأول انه يزاحم أهل المدن ويشاركهم أرزاقهم من غير انتاج من ناحية ، والثاني انه يرهق العناصر العاملة في الريف بأن يستهلك ولا ينتج ، وبالأحرى بأن يأخذ ولا يعطي .

ومن تلك الحالات ما يسميه الاجتماعيون « الجشع الاجتماعي » — Pleonexia ، ولا اريد هنا أن اطنب في تعريف « الجشع الاجتماعي » ولا أن أناقش في مختلف التعاريف

التي وضعها المؤلفون الذين أتيح لي الاطلاع على مؤلفاتهم ، وانما أقتصر على ذكر حالات يستطيع القارىء أن يدرك منها ، مطبقة على حالات تقوم بين ظهرانينا ، ما يقصد بالجشع الاجتماعي .

وعندي أن أخبث ما يؤدي اليه الجشع الاجتماعي من تكييف عقلية طبقات خاصة في مجتمع ما بمقتضياته، إنما ينحصر في أن تتطفل جماعات، لا أفراد ، على جسم الكائن الاجتماعي وقد تلبس الجماعات التي تنتابها سورة الجشع الاجتماعي صوراً مختلفة ، فمن اتحادات تجارية الى اتحادات صناعية ، الى جمعيات علمية أو اقتصادية أو سياسية تتخذ التأثير على عقلية الجماهير بمختلف الوسائل ، طريقاً تسلكه الى غرضها الذي ترمي اليه ، والذي يجعلها جديرة بأن تنعت بأنها جماعات مصابة بجنون الجشع الاجتماعي . أما ذلك الغرض فينحصر في أن تنال من الجمعية أقصى ما يمكن أن تصل اليه من الربح المالي أو النفوذ أو السلطة أو الجاه أو الحكم ، بأقل جهد ممكن أن يبذل ، أو تضحية يضحى بها من ناحيتها .

وفي مثل هذه الحالات تتضاعف خبائث التطفل الاجتماعي ، بأن يصير تطفلاً مركباً ، لا تطفلاً بسيطاً . ونعني بالتطفل « المركب » أن هذه الجماعات المصابة بجنون الجشع الاجتماعي ، يكون فيها عنصر خاص يعيش متطفلاً على جسم الجماعة نفسها . ذلك العنصر هو عنصر انتهازي لن تسلم منه جماعة أصيبت بذلك المرض الخبيث . فكما أن الجماعة تتطفل على جسم المجتمع ، يتطفل ذلك العنصر الذي هو « واجب الوجود » فيها بما يقتضي تكوينها النفسي ، على بَقِيَّة عَنَاصِرها .

وتسير قافلة المتطفلين، ولكن الى البوار الصرف. مثلها كمثل حُبَيْبَاتٍ زرعت على مادّة هلامية في زجاجة اختبار في معمل من المعامل ، فانها تتكاثر ثم تتكاثر ، حتى إذا ملىء فراغ الزجاجة واستحالت المادة الهلامية أجساماً حية ، انتكس الأمر ، وبدأت الأحياء تنحدر إلى الهلاك المحتوم .

هذه إلمامات موجزة في حالات نشاهدها قائمة من حولنا . فهل يمكن أن نتخذ التعليم أداة إصلاح نتقي بها بعض ما يكتنفنا من شرور وخبائث ؟ وهل يمكن للتعليم أن يؤدي إلى الأجيال المقبلة رسالة إصلاح عملي يرفع عن كاهلهم بعض ما نتوقع لهم من متاعب ؟ أظن

أننا نستطيع ان نجيب بالايجاب ، وأن نقول موقنين « نعم » ، لو أن فينا رجالا ، وفينا رجولة .

أرى واجباً عليّ قبل المضي فيما سوف أسوق الكلام فيه ، أن أبدأ باستدراك لابدّ منه . فقد يعيب عليّ بعض من المفكرين أني أنكر فيما كتبت ناحية ذات شأن من نواحي الحياة في مصر لم أعرها التفاتاً . وقد يعتقد هؤلاء أن لتلك الناحيــة خطرها في صبغ الحالة الاجتماعية في مصر بصبغة خاصة . وقد يشيرون إلى الأزهر . ولو أنهم أشاروا إلى غير الأزهر إذن لكان لما يعيبون به عليّ من الوزن ، قدر غير يسير . أما وانهم قد يعنون الأزهر ، ويقولون بأنه معسكر ثالث من معسكرات العوامل المؤثرة في الحالة الاجتماعية في مصر ، ينبغي لنا أن نحسب حسابه ، وأن نتناوله بالتحليل والنقد ، وأن نزن أثره في تكييف الحالات الاجتماعية ، فأكبر ظني اني ان أسلم برأيهم مهما ساقوا في سبيل اثباته من بيّنات . ذلك بأن بيّنة واحدة تكفي لهدم جميع ما يقيمون من دلائل . فان القوى التي تؤثر في حالة اجتماعية بعينها ، إنما هي القوى الموجبة لا القوى السالبة ، والأزهر ، ولا شبهة ، قوة سالبة . قوة اتجهت بكل ما فيها من عوامل الحياة الى الأخرويّات لا الى الدنيويّات .

وأنت ترى في كل الأطوار التي تقلبت فيها الأمم منذ بداءة العصر الانتاجي الحديث ، أن القوى السالبة فيها انحصرت في فئتين : الأولى رجال الدين ، والثانية رجال الحكومة ، وهما بما فيهما من صفات السلب والمحافظة ، كانتا في كل الحالات دريئة طالما حمت جسم المجتمع من كثير من الهزّات العنيفة والانقلابات الخطيرة التي يجنح اليها الغلاة من المصلحين أو السياسيين ، وان لهذا الموضوع ظرفاً آخر غير هذا الظرف قد يتاح لنا فيه أن نبحثه بحثاً أوفى .

فرغنا من الكلام في التطفل الاجتماعي وأحطنا ببعض ظواهره ، وأثبتنا أن هذه الظاهرة تنخر في عظام مجتمعنا كما ينخر السوس الحب . والآن ننتقل الى ظاهرة اجتماعية أخرى ، لا تقل عن ظاهرة التطفل الاجتماعي فعلاً وأثراً ، تلك ما أسميه ظاهرة «الرجعية» ولا أعني بها رجعية فكرية أو سياسية أو غير ذلك ، فلو انها كانت من هذا الطابع لهان الخطب ، ولما أعرتها كبير اهتمام . ذلك بأني أعتقد أنّ بعض ظواهر الرجعية ، كالرجعية

الفكرية أو السياسية ، وما يجري مجراها ، تحمل في تضاعيفها أسباباً تولد قوى ارتقائية وإنما أعني بها الرجعية الاجتماعية ، وأكبر ظواهرها عزوفنا عن التفقه بفقه ثقافتنا التقليدية .

ولا مرية في أننا نحتاج الى تعريف هذه النظرية الجديدة التي نسوقها اليوم ، لتكون أساساً في علاج حالات اجتماعية بعينها . بل نقول إن بعدنا عن درس هذه النظرية ، سبباً كان من الأسباب الرئيسة التي هيأت المقتضيات الأولية للشعور بأننا قد أقدمنا على أزمات اجتماعية ربما أصبحت في المستقبل بالغة منتهى الخطورة .

أما ما نعني « بالثقافة التقليدية » فمجموعة الحالات والملابسات التي ينشأ شعب من الشعوب مكتنفاً بها من حيث طبيعة الأرض والاقليم ، وما يتطلب ذلك من العكوف على فن خاص من فنون الحياة . وبمعنى أوسع تدل الثقافة التقليدية على العناصر التي ورثها شعب من الشعوب على مدى الأزمان ، من طريق التأثر الطبيعي بالبيئة والمحيط ، كما تدل على مجمل ما ثبت في عقليته باللقاح السلالي من عادات وأساطير وعلوم وآداب ، نشأت بنشأته في مرباه الأصيل ، وعلى الجملة نقول إن الثقافة التقليدية لشعب من الشعوب ، إنما هي في الواقع جماع ما يرث من صفات حيوية ومعتقدات وفنون من أسلافه الأولين .

وما كان لشعب من الشعوب أن يحاول الافلات من أقطار ثقافته التقليدية الا وباء بالفشل المحقق فيما يحاول . ذلك بأن الثقافة التقليدية ، هي الأصل الذي يرتكز عليه الطبع الماثل في أخلاق الأمم ، وطرق سلوكها في الحياة . وما قولك في ثقافة يرتشفها الطفل مع ما يرتشف من لبن أمه وهو رضيع ، ويشب مكتنفاً بها إذا يفع ، ويفتتن بفنونها اذا تفتى ، ويغرم بها إذا اكتهل ، ويموت وهي مرتسمة في تصوراته جميعاً إذا هرم ، لا مرية في أنها تصبح جزءاً من طبعه ، وركناً من أركان نفسه ، بل إن شئت فقل إنها الركن الأصيل في حياته النفسية والعقلية ، وما عداها توابع لها ولواحق بها . وانما تتأثر التوابع بالأصل ، وتتكيف اللواحق بالأرومة . فما من ثقافة حديثة تضاف الى ثقافة تقليدية الا وتكيف الدخيل تكيفاً يتابع فيه ما يحتاج اليه الأصيل من ملابسات . مثل ذلك أن الطبع المصري ، وان شئت فقل « المصرية » ، ان تنسخ منها الأوربية شيئاً إن هي احتكت

بها، وانما تتكيف « الاوربية » بعوامل المصرية ، إن هما تنافستا في ميدان واحد . وليس في ذلك أي خطر على كياننا التقليدي . ولكن الخطر كل الخطر أن نضعف من مصريتنا بالبعد عن ثقافتنا التقليدية ، فتكمن في تضاعيف النفس ولا تظهر الا ضعيفة منهوكة ، ونقوي من « الأوربية » فنأخذها غير مكيفة بمقتضيات ثقافتنا التقليدية . ناهيك بأننا لسنا أوربيين بالدم والتقاليد ، فلا نستطيع أن نفهم من روح الأوربية على ما يفهمها الأوربي الا ظواهرها الكاذبة، فنصبح وقد قمعنا مصريتنا من ناحية ، واقحمنا عقولنا بالأوربية من جهة أخرى . وما كل هذا الا طلاء خادع ، ومن ورائه تختفي الحقيقة التي يجب علينا جميعاً أن نفطن اليها ، وأن ندرسها أوفر الدرس ، وأن نكب على تفهم روحها أقوم فهم ، حتى نستطيع أن نهيىء للأجيال الآتية سبيل التكيف بروح العصر ، تكيفاً مطابقاً لثقافتنا التقليدية ، فنخطو بثبات نحو حالات اجتماعية أثبت من حالتنا الحاضرة . وفيما تقدم من شرح ، مجمل ما نعني « بالرجعية الاجتماعية » : فهي قمع لمقتضيات التكيف بثقافتنا التقليدية من طريق الفصل بين هذه الثقافة الموروثة ، وفنون الحياة في العصر الحديث

تتصل ثقافة الشعوب التقليدية اتصالاً وثيقاً بحالاتها المعيشية أولا . فاذا استكملت هذه الثقافة الأسس المعيشية التي تعين الشعوب على البقاء ، أثرت هذه الثقافة تأثيراً آخر في مزاج الشعب ، نهايته أن تتكيف فيه أشياء ثلاثة هي في الواقع ظواهر هذه الثقافة . الدين واللغة والفن ، وفي هذه الأشياء جماع ما يتجلى لناظريك في الأمم من الخصائص الأخرى ، كالخلق والحالات النفسية إلى غير ذلك .

ولا بدَّ لنا من أن نضرب بعض الأمثال لنفصح بعض الشيء عن حقيقة هذه النظرية . فالبداوة مثلاً ، ثقافة تقليدية لكل القبائل التي تعيش متبدية ، وجميع ما يتصل بالبداوة من الأسس التي تقوم عليها ناحية من نواحي الحياة في أهل البدو . والبداوة لأهل البادية بداية الحياة ، لأن فيها تتجلى روح القبيلة التي بها تحتفظ الجمعية ببقائها ، وتصون كيانها ، ومن مجموع التصورات والإدراكات التي تتمثل لأهل البادية ، تنشأ الفكرة الدينية ، ثم تنشأ اللغة ، ثم ينشأ الفن ، ومن بعد ذلك تتحوَّر الأخلاق ، فتأخذ طابعاً خاصاً ، ومن ثمت يتكوَّن قانون العرف البدائي ، وهلمَّ جرَّا ، فهل من المستطاع مثلاً أن تنفكَّ جمعية

طبيعتها البداوة عن كل ما ورثته على مدى الأجيال ؛ وتنسلخ عن كل ما انتقل اليها عن أسلافها الأقدمين ، فتلبس من الأخلاق ثوباً جديداً ، وتتبدل من التصورات والأفكار والأخيلة والعقائد واللغة والفن وغيرها ، بما لا علاقة له بثقافتها التقليدية ، ثم تستطيع بعد ذلك أن تحتفظ بكيانها الأصيل ، من غير أن يهز ذلك التغير الطارئ ، أعماق وجودها هزاً عنيفاً شديداً ؟ .

كذلك الحال في أمة أخرى ثقافتها التقليدية صناعية كانجلترا أو فرنسا مثلاً . فان انفكاك أمة منهما عن الصناعة ، معناه تحطيم لروحها الموروث ، بل واكل ما تقوم عليه حياتها ، أدبية أو مادية ، من القواعد الأصيلة في نفسيتها وغرائزها . وأظن أن المصريين لا يخرجون عن مقتضى هذه القاعدة . فان لمصر ثقافتها التقليدية ، وهي الثقافة الزراعية التي ورثناها بحكم وجودنا على ضفاف النيل . وواجبنا كأمة رشيدة أن نقيم كياننا أصلاً على أساس هذه الثقافة الموروثة ، نكملها بمقتضيات ما يتطلب هذا العصر من ضروب الثقافات الأخرى . أما عكس هذه الآية ، وذلك ما ننتحيه الآن مع الأسف ، فنهايتها الخراب العاجل والدمار الشامل .

إن ما يزرع من أرض في هذا الوادي الخصيب في هذا الزمن ، جزء قليل مما يمكن استغلاله ، ولكنه على قلته لا يستغل الاستغلال الوافي ، ولهذا أسباب يطول بنا شرحها ، وإنما نذكر ذلك لنقول بأن كل متعطلي هذا الزمان . إنما هم متعطلون بحكم الثقافة التي تلقوها ، وبحكم الظروف التعليمية التي نشأوا محوطين بها ، وأن بلاداً كمصر تستطيع أن تعضد من السكان ضعف ما تعضد الآن ، من العجيب أن تقوم فيها مشكلة تعرف بمشكلة التعطل وأن تؤلف في سبيلها اللجان وتعصر الأفكار ، وتسهر الأعين الليالي الطوال ، ونصف الأرض المزروع فيها يكاد يكون بوراً . والنصف المزروع لا يغل أكثر من نصف ما يجب أن يغل ، إذا أحسن القيام عليه بالطرق العلمية الحديثة ، وأكبر ظني أن السبب المباشر في قيام هذه الحال ، إنما يرجع الى أننا نسينا أن لنا ثقافة تقليدية ، يجب أن تكون أساس الحياة في هذا الوادي . واذن يجب أن تقوم سياسة التعليم أول شيء ، على فكرة الاتصال بثقافتنا التقليدية .

لقد مضينا حتى الآن نقيم قواعد التعليم على النظريات ، لا على طبيعة بلادنا . لهذا نرى أن كل النتائج قد اتجهت اتجاهاً سلبيًّا ، لا اتجاهاً ايجابيًّا . وعكس ذلك ما نطلب أن يكون .

جدَّت في مصر مشكلة عرفت بمشكلة المتعطلين من المتعلمين ، وما من سبب لهذه المشكلة في الواقع إلاَّ السياسة التي جرى عليها التعليم في بلادنا ، بالفصل بين ثقافة أولادنا التي يتلقونها بين جدران المدارس ، وثقافة آبائنا الأقدمين . وحدث في مصر أن انشقت معسكرين لا اتصال لأحدها بالآخر ، معسكر المتعلمين المتعطلين الذين لا اتصال لهم بثقافة بلادهم التقليدية، ومعسكر الفلاحين الذين اتصلوا كل الاتصال بثقافة بلادهم الأصلية من غير أن يلقحوا بشيء من مقتضيات الحياة في العصر الحديث ، وبدأت في مصر روح التبرم بالحياة المصرية ، نتلقى منها كل يوم ألواناً مما ينتج على يد المتعلمين الذين إن لم تعوزهم الهمة إلى العمل، فقد يعوزهم المجال الذي يعملون فيه ، بقدر ما هيأهم التعليم النظري الذي عكفوا عليه، ولسوف نتقدم خطوة بعد أخرى متمادين في العمل على زيادة معسكر المتعطلين، ما دمنا نعكف على تعليم أولادنا على أساس النظريات لا على أساس العمليات ، وما دمنا نخرج رجالاً لا يعرفون عن طبيعة بلادهم شيئاً . ولن أكون مبالغاً إذا قلت إن ابن الفلاح الذي يتخرَّج في كلية من الكليات العليا ، ليس بأكثر علماً بطبيعة بلاده من زميله ابن المدينة الذي يتخرج وإياه في معهد واحد . فاذا لم يجدا لهما مرتزقاً أصبحا صنو بطالة، ولم يمتز ابن الفلاح على ابن المتحضر بشيء مما امتاز به جدودهما من أهل الريف ، من قدرة على الانتاج ، والعيش بما تغل سواعدهم من ثمرات الأرض .

ويخيل اليَّ ، وربما كنت على كثير من الحق فيما أتخيل ، أن الخطأ الذي نلحظه في سياسة التعليم في بلادنا ، غير قاصر على قمع ثقافتنا التقليدية أن يكون لها أثر في تكويننا العقلي والخلقي ، بل إننا أضفنا إلى هذه خطيئة أخرى ، هي أننا عملنا دائماً على تضخيم المعلومات التي يتلقاها الطلبة في مدارسنا الثانوية والكليات . فقد يخرج المتعلم الى ميدان الحياة العملية بعد حياة أمضاها في جوٍّ من النظريات الصرفة، وهو يعتقد انه قد ملىء علماً بالحياة ، ثم لا يلبث أن ينكشف له الحق ، وإذا به يرى أن كل ما يعرفه من نظريات العلم

والأدب والفن ، لا يكفيه رزق يومه ، ولا يغنيه عن الإكباب على ناحيـة أخرى من نواحي الحياة العملية يدرسها لتكون له في الحياة عوناً على تحصيل الرزق . ولا شك أن ذلك يحدث ارتجاجاً عظيماً في حياة شاب ملأه الأمل في الحياة ، والزهو بما تجمع في رأسه من المعلومات . وما من ريبة في أن هذه الصدمة المعنوية ، لها أثرها البالغ في سلوك الشاب وتفكيره ، ربما لازمه طوال حياته .

يعكف الشاب المصري بين جدران معهده على ناحية نظرية من العلوم بعيدة عن تجارب الحياة ، ويتلقى أنواع المعارف المختلفة ، ويمضي مكباً عليها عمراً ، حتى يكون له نظرة خاصة ويتجه بفكره وقلبه اتجاهاً معيناً ، وينشىء في عقليته قيماً للأشياء ، وفناً ينظر من طريقه في الحقائق. وعلى الجملة يتخيل أنه يتكوَّن من طريق معارفه تكويناً يؤهله لأن يكون وحدة مستقلة في جسم اجتماعي . فاذا استبان له الواقع ، وواجه الحيـاة بما استجمع من معارف ، فعلم أن للحياة طريقاً آخر غير الطريق الذي صرف فيه عمره ، وأن لها قيماً اخرى غير القيم التي يؤمن بها ، وأن لهـا فنّـا غير فنه الذي ينظر من طريقه في حقائق الوجود ، انقلب على الماضي ثائراً ، ومن المستقبل يائساً ، وخيل إليه أن المجتمع جنى عليه ، فسلبه سلاح العمل ، وجرده من عدة الهجوم والدفاع في ميدان المنافسة الاجتماعية . وما بالك بهذا الشاب نفسه ، إذا هو أراد أن يرتد إلى مصريته فيصبح فلاَّحاً كأبيه أو جَدِّه ، وأن يتصل مرة أخرى بثقافة بلاده التقليدية ، فيتضح له أن علمه بطبيعة بلاده ضئيل ، وان علاقته بطريقة الحياة فيها لا تواتيه بالعدة الكافية للحياة في وسط مصري أصيل ، الفلاح سداه ، والفلاحة لحمته ؟

من الأخطاء التي لا ينبغي لنا أن نغفل عن وزنها وزناً صحيحاً ، ان تعليمنا الأدبي في الكليات ينقل إلى الأذهان صوراً من الأخلاق ، وفنوناً من السلوك ، ومذاهب من الفلسفة النفسية ، تختلط في عقليتنا اختلاطاً عظيماً ، حتى لَنكوِّن منها مقاييس جديدة بعيدة جد البعد عن المقاييس الخلقية والسلوكية التي يؤمن بها الفلاح الساذج . فان عصور الظلم والاستبداد التي عانى فلاَّح مصر في خلالها الأمرّين ، وتوالي الدول في الحكم على ضفاف النيل ، قد طبعت الخلق المصري بطابع خاص ، وصبغته بصبغة خاصة ، ويجب أن يعني بدرسها أوفى الدرس المصري المتعلم ، وأن يكب على تفهمها كلّ الاكباب ، قبل أن يظن أنه قادر على

أن يعايش ذلك الفلاّح الخشن الجاهل ، وأن يعلم، في أول ما يجب عليه أن يعلمه ، أن جهل الفلاح من جهة العلم بالنظريات ، قد عوضته عنه الطبيعة ذكاءً حادًّا وقدرة على التحايل وفطنة في ادراك الحقائق ، وأيقظت فيه قوى العقل الباطن إيقاظاً شديداً ، حتى يكاد يكون عند بعضهم إلهاماً في توقع الأشياء وحدوثها . أضف الى ذلك أن طبيعة البلاد قد ثقفته بثقافة ورثها على مدى العصور ، ثقافة أحيت فيه روح اليقظة ، يتلقى بها الأحداث مكتمل الهمة، ثابت القلب، قوي الجنان، عظيم الثقة بنفسه . فان بلاداً تتوالى فيها دورات الزراعة كبلادنا ، ويفيض فيها النيل في مواعيد محدودة ، قد غرست في نفسه بالتجربة أن الحياة فرص يجب انتهازها ، وعلمته أن اهمال ساعة أو يوم قد يفوّت عليه رزق عام . هذا الفلاح الذي اكتملت ثقافته العملية من هذه النواحي وأمثالها ، وهي كثيرة متعدّدة ، هو بذاته موضوع درس عميق لا يستغنى عن معرفته مصري يريد أن يعيش فوق أرض مصر، وعلى ضفاف نيلها مرتزقاً بغلاّتها مفتنًّا في إحياء خيراتها . ولاشك في أن هذه الناحية الضخمة من نواحي ثقافتنا التقليدية ، مهملة في معاهدنا كل الاهمال ، فالمصريون مع الأسف أجهل الناس بتاريخ بلادهم ، ذلك في حين أن تاريخ كل شعب جزء لا يتجزأ من ثقافته التقليدية . وأعني بتاريخ بلادهم تاريخها الاجتماعي والنفسي ، لا تاريخ الشهور والأعوام والقرون والغزو والموت والحياة ، تلك الأحداث التي هي عندي في طبيعة الأمم والجمعيات أشبه بالأحلام .

فالشاب المتعلم الذي يدرس مذاهب اليونان الفلسفية وتاريخ رومية والأغارقة، ومذاهب الأدب ومقدمة القوانين ، إلى غير ذلك مما يتلقى الشباب بين جدران معاهدنا ، من غير أن يتصل بثقافة بلاده التقليدية ، شابٌّ مصري بالاسم ، لا بالروح ولا بالتقاليد . هو يجهل طبيعة بلاده وخلق أهله ، وتاريخ العصور التي توالت على وطنه أحداثها ، وشكل الحكومات التي تناوبت الحكم فيه ، والميراث الذي ورثه عن أجداده الأقدمين . ولا ريبة في أن شابًّا هذا شأنه ، إنما يخرج من معاهد العلم متعلماً جاهلاً ، وان شئت فقل يخرج متعلماً مشحون الذهن بكثير من المعلومات التي من شأنها أن تفصله عن طبيعة بلاده وتصيّره في محيطه غريباً ، كأنه غلطة جديدة في طبيعة شيء قديم. ومن هنا يكون عجزه عن الكفاح في الحياة ،

وعن الاتصال بالأرض التي أنشأته وأنشأت السلالة التي انحدر منها منذ أقدم عصور التاريخ .

والمحصّل أننا مشرفون على أزمات اجتماعية أساسها الظاهر الآن كثرة المتعطلين من المتعلمين الذين فصل التعليم بينهم وبين ثقافة بلادهم التقليدية ، فأصبحوا فيها غرباء ، وسنعالج في الصفحات التالية مجمل ما صوّرنا حتى الآن من نقائص حياتنا الاجتماعية من حيث علاقتها بالتعليم .

***

ظاهر إذن مما سبق القول فيه ، ان لكل أمة من الأمم ثقافة تقليدية ترثها عن أسلافها ، وان هذه الثقافة تصبح بالوراثة قطعة من غريزتها وجزءًا من فطرتها ، لا تنفكّ عنه أمة من الأمم أو تكون قد انفكت عن أخص مميزاتها ، وأعظم مظاهرها الاجتماعية . وعقبت على ذلك كله ، بمجمل العلاقات التي تربط كل أمة بثقافتها التقليدية إظهاراً لوجهة نظري في هذه المسألة الحيوية .

على أن ما أحطت به فيما سبق قد قصر على بيان العلاقة التي تربط الثقافة التقليدية في كل أمة بمظاهرها الاجتماعية ، من حيث أنها مظاهر اقتصادية لا غير ، والآن أريد قبل أن أختم هذه البحوث ، أن أظهر أن انظريتي في الثقافة التقليدية أثراً في تكوين العقلية الفردية ، وتكييف العقلية الجماعية منشّأةً في كل أمة من الأمم ، بمقتضى الظروف والحالات التي لابستها منذ أقدم عصورها التاريخية .

ومن أجل أن نبين عن حقيقة ما نقصد اليه ، نقصر الكلام على أخص الظواهر التي ثارت من حولها عجاجة النقد وكثر فيها الجدل ، حتى أصبحت من عقلية الجمهور المتعلم ، جزءًا لا يتجزأ .

ولا ريبة أنّ في حياتنا الحاضرة مظاهر ، هي بحكم العصر الذي نعيش فيه والحالات التي تكتنفنا ، أجلى من غيرها وأبين في تكييف عقليتنا من كل الظواهر الأخرى ، وأقصد بذلك الأدب من ناحية ، والوطنية من ناحية أخرى .

وأول ما يبدو إلى ذهن الباحث في هذا المقام أن يسأل : أمِنْ علاقة بين الثقافة التقليدية والأدب ، أهناك صلة بين هذه الثقافة والوطنية ؟ أيكون لماضي الأمم أثر في تكوين أدبها

وصبغ وطنيتها بصبغة خاصة ، وهل من رابطة تربط بين تصورات ومشاعر وعواطف درجت عليها القرون ، وبين أبناء جيل يخيّل اليهم أنهم نفضوا أيديهم من الماضي وأزالوا عن كواهلهم تراب الأزمان الغابرة ، فأصبحوا خلقاً جديداً ، وأمة مستحدثة من عناصر لا تمت إلى القديم بسبب من الأسباب ؟

ماكان لباحث أن يسأل هذا السؤال وماكان لهذا السؤال أن يدور في مخيلة مفكر لو أن لنا بثقافتنا التقليدية صلة أو كان لهذه الثقافة علاقة بأدبنا أو صلة بوطنيتنا . وإنما يدور هذا السؤال في مخيلة كل مفكر يحكم أننا قطعنا صلتنا بالماضي وفرطنا عقد رابطتنا بعصر القديمة ، وبالأحرى حللنا العقدة التي تصل بين حبل حياتنا الحاضرة والخيوط التي تتكوّن منها شبكة حياتنا الماضية . ولا شك في أن الفرد ثمرة الماضي . قبل أن يكون ابن الحاضر ، وصلته بذلك الماضي صلة وراثة . أما صلته بالحاضر فصلة ضرورة

ولا مرية في أنّ هذا السؤال غير طبيعي في أمة أحكمت صلتها بماضيها ، وَوَثَّقَت روابطها بثقافة آبائها الأوّلين . فهو بمثابة أن تسأل مثلاً : أمِن علاقة بين دمي الذي يجري في عروقي ، ودم جدّي أو جدّ جدّي ؟ وهل من صلة بين تصوراتي ومشاعري وميولي ، وبين طبيعة الأرض التي تغذيني ، والهواء الذي ينميني والسماء التي تظلّني ؟ ذلك بأن الأمم متى أحكمت صلتها بماضيها ، ونَشَقَتْ دائماً عبير الرّوح الذي سرى في كيانها منذ أبعد العصور ، لن تشعر يوماً بأنها في محيط غير محيطها الطبيعي ، أو أنها في بيئة غير بيئتها الفطرية ، فيظهر أثر ذلك كله معكوساً في جمّاع مظاهرها ، وبخاصة في آدابها وفي وطنيتها . أما ونحن نشعر الآن بأن أدبنا أدب مصنوع ، لا أدب فطري ، وأن وطنيتنا وطنية ظاهرية لا وطنية حقيقية ، فإنّه من الطبيعي أن نسائل أنفسنا عن سبب ذلك ، ومن الطبيعي أن نجد الجواب في النظرية التي أدلينا بها من قبل في العلاقة التي تقوم بين المظاهر الاجتماعية والثقافة التقليدية التي تختص بها كل أمة من الأمم ، وتختص مصر بصورة منها .

قرأت منذ سنوات قصيدة عنوانها « قبرة شيلي » . وعكفت كعادتي في كل ما أقرأ في المترجمات على مقابلتها بالأصل ، فألفيت أن الشاعر المترجم قد أجاد في المحافظة على المعاني الأصيلة قدر ما تهيئ أوزان الشعر وقوافيه ومفردات اللغة العربية لمترجم أن ينقل شعراً من

الانجليزية الى العربية ، واتقد أحسن الشاعر المترجم سبك المعاني في قالب عربي يلائم روح التجديد ، مع المحافظة على جرس الأسلوب العربي ، فأكبرت القصيدة وأعدت تلاوتها مرات مبالغة في الوقوف على ما فيها من أوجه النقد ، ووزنها على مقتضى المعايير التي أومن بها في تقييم الشعر ، ولم ألبث أن أحللتها بين ما اعتقد أنه من جيد الشعر الحديث .
غير أني بعد كل هذا كنت أشعر بأن في القصيدة ماهية أخرى تبعدها عن طبعي ، وتقصيها عن تصوراتي وتجاريبي ، وتلقي في روعي أني غريب عن الجو الذي تخلقه من حولي . فلا الجوّ الذي وصفه « شيلي » وغشاه بالسحاب القاتم الشديد السواد هو الجوّ الذي أعرفه ، ولا الغناء القوي الحنون الذي ترسله قبرته هو نفس الغناء الذي أتعهده في قبراتنا ، ولا لونها الأصفر الزريابي الذي يجعلها تظهر تحت السحب السود كأنها شرارة من لهب ، هو لون القبرة المغبرة السفعاء التي آنسها في حقولي ، كذلك رأيت في ذكر السيول والأمطار الغامرة التي ترسلها سماء انجلترا شيئاً جديداً لا علاقة له بمحيطي ، ولا صلة له ببيئتي . وعلى الجملة شعرت بأني أقرأ خيالاً انجليزيًّا في شعر عربي . خيال يجذبني من ناحيته الى ثقافة غير ثقافتي التقليدية ، بل يقصيني عن تجاريبي ومشاهداتي . وان كل ما يهيء لي القصيدة من قدرة على التصور ، هو ما تحمل ألفاظها العربية من معان أتخيلها تخيلاً وأتصوّرها تصور الحدس والوهم ، وأن آلة الأداء ، وهي اللغة العربية ، هي الناحية الوحيدة التي تقرّبني بعض التقريب من الجو الشعري الذي تكيّف به القصيدة مشاعري ، ولا شك في أن الشعر شيء ، وآلة ادائه شيء آخر ، وانما يكون الشعر متصلاً بطابع الانسان متى استمدّ عناصره من ثقافة تقليدية لا يُعنت التصور إدراكها ، ولا يتعب الخيال تصورها ، فيشتمل على نواحي النفس ويخاطب الروح بديئة ، قبل أن يخاطب العقل .

عقبت على هذا بقراءة قصة مترجمة عن كاتب روسي مشهور ، فآنست فيها شططاً في الوصف ومغالاة في التقدير ، وتحليلات نفسية معقدة غاية التعقيد ، بعيدة كل البعد عن بساطة الروح المصري الذي آنسه في الفلاح الساذج الذي نشأت محوطاً بثقافته التقليدية .
ولا أريد أن أبحث شخصيات هذه الرواية لأحكم إن كان في الدنيا شخصيات حقيقية تقابل

—٤—

الشخصيات التي وصفها الكاتب وحلل نفسياتها [1] ، وإنما أريد أن أقول إن تحليل ذلك الكاتب ، مهما كان فيه من حق وبعد عن المغالاة ، وسواء أكانت الصفات التي أضفاها على شخصياته تلك صفات يمكن لنفس بشرية أن تنطوي عليها ، أم أنها شخصيات خيالية لا تقوم لها حقائق في الخارج ، فجل ما أرمي اليه أن أقول إنها شخصيات لا تربطني بها رابطة ، ولا تصلني بها صلة ، وأن محيطي الذي أعيش فيه ينكر وجودها وينفي حقيقتها ، وبالرغم من أن شخصاً آخر في محيط آخر ، قد يرى أنها شخصيات طبيعية ، بل قد يجسمها خياله على مقتضى تجاريبه التي يشهدها في حياته .

ولا أقصد بذلك أن مثل هـذا الأدب غير مفيد في توسيع مجال الخيال ، ومدّ آفاقه وتنويع الصور المتخيّلة ، وتوطيد قواعد الأدب المصري من حيث صلته بالآداب الأخرى . وإنما أقول انه مهما كان فيه من المميزات ، فهو أدب دخيل لا أدب أصيل . أدب لا علاقة له بثقافتنا التقليدية ، فهو من طبع غير طبعنا ، وفطرة خلاف فطرتنا ، انمـا هو أدب تصويري ، لا أدب حقيقي ، تقيسه معاييره بقياس حياتنا الخاصة ، ومحيطنا الخاص . أدب لا تهضم منه فطرتنا إلاّ القليل النادر . هذا على اعتبار أن العلم بالأدب شيء ، وهضمه وتمثيله في الروح شيء آخر . ولن يكون للادب من أثر في الحياة إلاّ بأن تمثله الروح ، فيصبح جزءاً منها ، فتسترشد بمثله وتتعظ بمثلاته ، وتدرك منه الحقائق إدراك استيعاب ، لا إدراك علم بها ، دون الايمان بما فيها من حقّ ووقائع .

وما أريد أن أستطرد في ضرب الأمثال ، فان فيما أوردت منها غنىً عن ذكر غيرها . ذلك بأن كثيراً مما نقرأ في الصحف والمجلات ، وكثيراً من المؤلفات يجري هـذا المجرى ، ويسيل هذا السيل ، حتى لقد أصبح أدبنا الحديث ، لـكثرة ما فيه من الرقع والرتوق ، ولـكثرة ما فيه من صور الأمم الاوربية ، كأنه « عصبة أمم » ولـكن في صحف ، سطرت بكلمات عربية .

في وسط هذه الصور العجيبة المتنافرة ، وفي غمرة تلك الفوضى السائدة في الأدب على مختلف ألوانه وعلى متضارب وجوهه ومتباين ضروبه ، أتقع على الأدب المصري الصحيح

(١) رواية العلامة الروسي دوستويفسكي : الاخوة كارامازوف

الذي يمثل الروح المصرية ؟ بكلمة واحدة أقول « لا » وبودي لو يتسنى لي أن أكتب كلمة « لا » في صحيفة وحدها ، وبأكبر قطع تعرفه المطابع العربية .

يشعر كل المشتغلين بالأدب ، أدباء كانوا أو طلاب أدب ، نقاداً كانوا أو قارئين ، بأن الأدب الذي يعكفون على درسه أو قراءته ، بينه وبين نفوسهم بوناً شاسعاً وصدعاً متنائياً . وأن بينه وبين أرواحهم الممثلة في أخيلتهم ومشاعرهم وعواطفهم وأمزجتهم ، فارق ما بين السماء والأرض . وقد يأخذهم القلق حيناً ، وقد تتملكهم الريبة أحياناً ، في أحقية ذلك الأدب بالبقاء في بيئة لا تعرفه ولا يعرفها ، ولكن قلقهم لا يلبث أن يهدأ وريبتهم لا تني الاّ قليلاً حتى تزول إذ يرون أن ذلك الأدب أدب الساعة لا أدب العمر مستدلين على ذلك بأن الآثار الأدبية التي ظهرت في العشرين عاماً الماضية لم يفلح جماعها في تكوين مذهب واحد ثابت الدعائم قوي الاركان محدود الغايات بين المثل ، فعاش ولم يمت . أما السبب في أن كل انتاجنا الأدبي إنما هو للفناء فراجع إلى أنه أدب مسروق أو على الأقل أدب مسلوب من آداب الأمم الأخرى وليس فيه من أثر المصرية إلاّ أنه مكتوب بلغة عربية ولكن بأساليب أصبحت بدورها أضعف من أن تحسن أداء رسالة الأدب .

ولقد سمعت من بعض المشتغلين بالأدب يقولون إن نقل الآداب الأوربية إنما هو بمثابة دم جديد يغذي أدبنا بالحياة ويمده بأسباب البقاء. غير أن هذا الرأي على ما في ظاهره من حق فانه أشبه بحق يراد به باطل . ووجه الباطل فيه أنهم يفرضون أن لنا أدباً يغذيه الأدب الاوربي وذلك ما لم يَقُمْ عليه أي دليل حتى الآن . فأين الشعر المصري الحقيق بأن يدعى شعراً مصريًّا ؟ وأين القصة المصرية التي تصوّر حياة مصر تصويراً صحيحاً مقتطعاً من الطبع المصري ومن الثقافة المصرية الصحيحة ؟ بل أين الأديب الذي عكف على درس العقلية المصرية ، وقَصَرَ جهده على تفهم الروح التي تنطوي عليها ضلوع ذلك الفلاح السَّاذج الذي هو لغز الألغاز وسر الإسرار ؟ أين الأديب الذي أحاط بتاريخ مصر منذ أبعد عصورها ، وكَوَّن من ذلك التاريخ صوراً تظهر معكوسة في أدبه شعراً أو نثراً ، وأين الأديب الذي يُصَوِّر ما نزل بنا من نوائب الدهر وبلايا الأيام ، وما حاق بنا من مظالم يصرخ بها تاريخنا ؟ بل أين الأديب الذي يرينا كيف ابتاع الفلاح الساذج الهادىء

الطبع اللّيّن الجانب ، بما فيه من قوة المقاومة السلبيّة ، الفرس والروم والرومان والعرب ، والماليك والأتراك ، ولا يزال مستعداً لابتلاع خمسين قيصرية من أمثال هذه القيصريات العظام وهو قابع في عقر حقله الصغير ، وفي كسر بيته الطيني ، تاركاً دورات الحظ تدور بالسعد حيناً وبالنحس حيناً آخر ، وما يهمه في الحياة من شيء . إلاّ أن يضحك ساخراً من الأمم والأقدار .

على أن الاطناب في مثل هذه الأشياء تحصيلُ حاصل . والاستطراد في ذكر الشواهد عبث . لأننا نشعر شعوراً كاملاً بأن الأدب المصري اسم على غير مسمى . وإن شئت فقل إنه فرض لا حقيقة له . وأنما أقصد بالأدب المصري . الأدب المقتطع من حياتنا ومن أنفسنا ومن أخيلتنا . الأدب الذي إذا قرأته تبينت فيه مصر وأرض مصر وسماء مصر وتاريخ مصر وعلى الجملة كل ما توحي به مصر من الموحيات الدفينة في نفوسنا الراسبة في طبعنا الحائرة في أرواحنا .

أما السبب في كل هذا فهو أننا بَعُدْنا عن ثقافتنا التقليدية، بل أننا قطعنا صلتنا بالماضي وهمنا في فلوات لا نعرف فيها طريقاً يُسلك ، لا إلى الأمام لنصير أوربيين صرفاً . ولا إلى الوراء لنعود إلى مصريتنا مرة أخرى . وإذن فنحن في التيه . ولكنه التيه الذي سوف لا نخرج من ظلماته ما دمنا غير قادرين على تقييم حقائق وجودنا تقييماً صحيحاً . وما دمنا عاجزين عن إدراك تلك الحقيقة الأولية . حقيقة أن ثقافتنا التقليدية هي الملجأ الأخير الذي يوقظ فينا « الروح المصرّية » التي من طريقها نُكوّن الأدب المصري الذي ينبغي أن يكون من حياتنا الأدبية بمثابة الجهاز الهضمي في الحيوان . فيه تهضم الآداب الأخرى . ثم تمثل [1] أدباً جديداً ملائماً لآدابنا ومشاعرنا وأخيلتنا . وفي الوقت نفسه تطرد النفايات . تلك النفايات التي تسمم أدبنا وتفسده . لأن أدبنا الجديد أضعف من أن يفرزها إلى الخارج جسمه المتهدم الضئيل .

هذا من حيث الأدب . أما الوطنية المصرية ، ووصفها بأنها وطنية ظاهرية . فلا يرجع إلى حب الأغراب . ولا إلى حب النقد بغير دليل يقام . أو حجة مقبولة . لهذا نقسم الوطنية

(١) بالمعنى الاحيائي : أي تتحول جزءاً من الفطرة

قسمين : قسماً يمثله الشباب المتعلم وعلى رأسه الأحزاب . وقسماً يمثله الفلاح الساذج .

على أنه ينبغي لنا قبل الاستطراد في شرح صفات القسمين . أن نتعرّف كيف نشأت الوطنية ، ومن أي نبع تستمد تصوراتها . وما من شك في أن الوطنية المصرية إنما استمدت أولى خطواتها من آداب الثورة الفرنسية الكبرى التي قلبت نظام الحياة في أوربا في أواخر القرن الثامن عشر . والدليل القاطع على هذا أنه منذ عصر عرابي الى اليوم ترى أثر القسمين واضحاً جليّـا في كل ما أدت الوطنية المصرية من الخدم الجسام لمستقبل مصر الحديثة . فالقسم الأول يأتم بالنظريات التي ذاعت في فرنسا في عصر ثورتها وظلّ مؤتمّـا بها حتى الآن. والقسم الثاني ظلّ مستمسكاً بتصوراته القديمة التي عكف عليها طوال العصور التي ظلت فيها مصر ميداناً لتطاحن الأمم والقيصريات .

أما الفئة الأولى ، وهي الفئة التي عكفت على النظريات الأوربية تستمد منها تصورات الوطنية فكانت في كل الأدوار التاريخية منذ ستة عقود من الزمان ذات الأثر الواضح في تكييف الظروف التي لابست كياننا السياسي . فهي التي بثّت الروح الجديدة وساقتها في طريق أجبر مقاوميها على أن يعدلوا من موقفهم إزاءها تدريجاً على مقتضى قوتها أو ضعفها حتى أصبحنا اليوم وفي حياتنا السياسية عنصر جديد لم تعرفه مصر منذ عشرين قرناً من الزمان . غير انه مهما قيل في هذه الوطنية فان مظاهرها قاصرة على تصورات فئة قليلة العدد مقيسة ببقية الذين يؤمنون بالوطنية مسبوكة في القالب الذي صوّره الفلاح المصري ليكون حدًّا لوطنيته . وأن كلامنا إنما ينصب على وطنية هذا الفلاح دون غيرها .

قد تعجب ويشتد بك العجب إذا أنا قررت هنا الفلاح المصري شديد الوطنية مغالٍ فيها ، بل متطرف في وطنيته أشد تطرف ، ولكنك بجانب هذا تسأل أين الآثار التي تتجلى فيها هذه الوطنية . فأجيبك بأنها تظهر كل يوم على صفحات جرائدنا الاخبارية ، وتشغل بها الحكومة في أكثر أيام السنة ! ألا تقرأ كل يوم أن فلاحاً حزّ رقبة أخيه لأنه اعتدى على حقله فهدّ جزءًا من حدوده ؟ ألا تسمع أن أسرة شهرت السلاح في وجه أخرى لأن أحد أفرادها أراد أن يأخذ نصيب آخر من الماء ، وأن الموقعة انجلت عن قتيل وجرحى وأسرى هم رهن التحقيق ؟ إذن فاعرف أن هذه هي الآثار التي تترتب على وطنية الفلاح المصري .

أما الوطنية نفسها فتنطوي على حب الحقل والدفاع عنه بالمال وبالولد وبالروح ، ذلك بأن الفلاح الذي فقد حقوقه المدنية والسياسية طوال عصور قلما تعيها الذكريات ، ونزل به من الفادحات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، لم يصبح عنده في الدنيا من شيء ذي قيمة الا ذلك الحقل بحدوده الاربع ، وإلا ذلك النزر من الماء الحي الذي يجود عليه بالرزق الحلال .»

أما السبب في أن تنضمر الوطنية المصرية حتى تصبح في نظر الفلاح الذي هو أهم عناصر مصر الحيوية محوية في داخل هذه الحدود الضيقة فراجع الى أسباب تاريخية . فانه منذ غزو الاسكندر المقدوني ، ومن قبله بعشر سنين ، أي منذ أن طرد الفرس آخر ملوك الفراعنة واسمه « نقطانيبو » لم يَسُد المصريون في بلادهم يوماً واحداً ، وظلّ المصريون بين الحقول يزرعونها ليعولوا أنفسهم ، ويعولوا أسيادهم الذين يتسلطون عليهم من أية أمة كانوا ، وبأي دين دانوا . فقد استطاع المصريون قبل الغزو الفارسي الأخير أن يستردوا حريتهم المرّة بعد المرّة ، عقيب كل غزو دهمتهم به أمة أجنبية كالهكسوس وغيرهم ، وأن يقيموا على عرش بلادهم أسراً من الفراعنة تحيي تقاليد الحكم والثقافة واللغة ، تلك التقاليد التي نشأت وربت في مدى عصور متعاقبة . ولكن تلك الغزوة كانت آخر عهد ملوك الفراعنة الذين تجري في عروقهم الدماء الوطنية بالحكم على ضفاف النيل والى آخر الدهور . فمنذ فتح الاسكندر ، خضعت مصر ألف سنة لحكام هلّينيي الحضارة من مقدونيين ورومان ، وفي نهايتها صارت مصر جزءاً من جسم الاسلام ، فبدّلت تبديلاً ، وأصبحت لها لغة أخرى ، ونظام اجتماعي لا عهد لها به ، ودين جديد ونبذ الآلهة الذين عبدوا في مصر على أنهم آلهتها الخواص الآلاف من السنين نبذاً أبديًّا ثم دفنوا في ثراها.

ومنذ ذلك التاريخ لم يفز مصري أصيل بالحكم على شطآن النيل ، بل لقد مرّت عصور طويلة كعصر البطالمة مثلاً لم يكن في الحكومة كلها من مصري شغل مركزاً أكبر من مركز صرّاف يجبي المال . بل رأى المصريون معابدهم المقدسة تستباح فيتخذها المقدونيون موضعاً للهوهم وعبثهم وسكرهم وعربدتهم ورأوا الفرس يذبحون عجلهم المقدّس من قبل ذلك .

ولقد كان لهذه الملابسات التاريخية آثار كيّفت الوطنية المصرية فحدّتها بحدود الحقل المقدّس . وانما صار الحقل مقدساً في عين المصري لانه كان الملجأ الوحيد الذي لجأ اليه فحماه

من الانقراض التام . ولولا ذلك الحقل إذن لأصبحت مصر اليوم إما رومية وإما لاتينية . ولكن الحقل قام سدًّا بين الغزاة وبين المصريين أين منه سد يأجوج ومأجوج . ذلك بأن ترى مصر لم يكن ليزرعه إلاّ المصري ولا يقوى عليه غير المصري . لهذا عبده المصريون بعد « أبيس » وقدّسوه في الأعصر الحديثة تقديساً ليس فوقه عندهم شيء إلاّ خشية الله . ففي الحقل رزقه وقوته وفي طرف منه قطعة سويت لا تزيد مساحتها عن بضعة أقدام مربعة فرشت بنبات الحلفاء هي مصلاّه . فالحقل للفلاح عالم صغير مقدّس يذود عنه بالروح ويبذل في سبيله الدم لأنه ملجؤه الأخير وملاذه ومبتغاه . وبالجملة أصبح له كما يقول « هوجو » البيضة والعش والسكن والوطن والكون .

فلا عجب اذن في أن تنحصر الوطنية المصرية ونعني بها وطنية السواد من أهل مصر في حدود ذلك الحقل ولا تتعداه . وكيف تتعداه وقد آنست فيه الحياة آلاف السنين واستقرّت في تربته الأجيال ثم الأجيال .

وكما أننا عجزنا عن أن نكوّن أدباً مصريًّا صحيحاً قوي الروح والأخيلة بأن بعدنا عن ثقافتنا التقليدية فكذلك عجزنا عن أن نخرج لهذا السبب عينه وطنيتنا من حدود الحقل الى حدود مصر ، وليس هذا وحده السبب في أن وطنيتنا ظاهرية ، بل أن هنالك سبباً آخر يتجلى في أن أصحاب الفريق الاول من وطنيينا وهم الذين يستمدون تصوراتهم الوطنية منقولة من أوربا ، لم يتغلغلوا في صميم مصر ليفهموا حقيقة السبب في ضعف الوطنية المصرية ، وإنما يجب علينا أن نعكف على ثقافة تقليدية ننتزعها من صميم مصر ، لتكون عوننا في بناء صرح المجد كاملاً اقتصاداً وأدباً ووطنية .

وأما فشلنا في هذا حتى الآن فالى أي شيء نعزوه ؟ إلى السياسة التي جرى عليها التعليم في بلادنا بغير جدال . وسنظهر في ما يتلو من البحث ، جهد مستطاعنا ، كيف ننجو بثقافة تقليدية مستحدثة تنقذنا من البوار المحتوم .

لقد بلغنا من البحث ذلك المبلغ الذي يهيء لنا أن نخلص إلى النتائج فقد شرحنا الأسباب التي أفضت بنا إلى تخريج متعلمين متعطلين لا عمل لهم ، ولا بيئة يمكن أن ينتفع فيها بما تعلموا ، وصوّرنا مجمل النتائج الاجتماعية التي تترتب على هذه الحال ، وطبّقنا النظريات

فاستنبطنا منها صورة لما سوف يكون عليه مجتمعنا في المستقبل القريب ، والنتائج السيئة التي ستظهر آثارها جلية واضحة في عجزنا عن الاحتفاظ بحالة اجتماعية ثابتة قوية الأركان ، وعطفنا من ثمت على وصف صورة من أدبنا ووطنيتنا ، وعزونا كل النقائص إلى نظرية جديدة محصلها أن الانفصال عن ثقافتنا التقليدية كان السبب في أن نصبح ككائن حي لا معدة له يأكل ولا يهضم فتراكمت في كيانه كل النفايات التي لا تلائم طبعه ، ولا تتفق ومزاجه . وأن ذلك كان سبباً في ألاّ تظهر له شخصية خاصة به وأصبح كلاًّ على غيره بأن فقد استقلاله الذاتي .

ويجدر بنا بعد ذلك أن نعيّن مِمَّ تتكوّن الثقافة التقليدية ليتيسر لنا أن نحدد البحث تحديداً منطقيًّا مقبولاً فإن لكل ثقافة تقليدية اختصت بها أيّة من الأمم مكونات تنتهي إلى أصول بعينها . وعندي أن للثقافة التقليدية عنصرين . الأول: عنصر عقلي. والثاني عنصر معاشي وكلاهما موروث . فالأول يتكون وراثة من اللغة والدين والتاريخ والأدب والفنون الخ. والثاني: يتكوّن وراثة من كل ما يتعلق بالأحوال المعيشية وهي في مصر الزراعة وما يتعلق بها من المنتجات ومن أجل أن يكمل استقلال الفرد استقلالاً عمليًّا في الحياة . ينبغي أن يتجه تنشيئه إلى أصل أساسي وبالأحرى إلى سياسة عملية ترمي إلى وصله بالعنصرين وصلاً وثيقاً حتى يستطيع أن يمثل جميع ما يلقح به من مقتضيات الثقافة الحديثة فيكيفها على حسب ما تتطلبه حاجات ثقافته التقليدية . وأن ينفي عن جسمه كل ما هو غير ملائم له فيظل سليماً ، شأن كل كائن حي اتصف بكل ما تمده به حيوية مكتملة من الصفات الضرورية للحياة، وتتكافأ في كيانه كل الأفعال التي ترجع إلى قدرة أعضائه على تنظيم وظائفها المتبادلة تنظيماً دقيقاً يساعد الطبيعة على أن تفسح له في الحياة مركزاً جديراً بما يتصف به من صفات وبما له من مقدرة على الاستقلال بذاته .

تتصل مصر بثقافتين من أمجد الثقافات التي خلفها النوع الانساني : ثقافة العرب : ديناً ولغة . وثقافة المصريين : فنًّا وحياة . ولا شك في أن الثقافتين تمتزجان الآن في المصريين امتزاجاً عظيماً حتى ليتعين علينا أن نقول إن ما نعني بالثقافة التقليدية ينحصر فيما ينتج مزيج الثقافتين القديمتين من حالات تشعر بأن ماضينا مكوّن منهما، وأن دمنا ملقح بها ، وأن تصوراتنا

ومشاعرنا وجماع ما فينا من صفات انما تنعكس عنها وتنبعث منها. وكذلك اذا قلنا «المصرية» فانا لا نعني بها شيئاً الا مزيج تينك الثقافتين الجيدتين اللتين كوّنتا لنا على مرّ العصور تراثاً قويّاً نستند اليه، ودعامة مثلى لمجد ينتظرنا إذا نحن استوحيناه، واسترشدنا بوحيهما واتخذناهما أساساً نقيم عليه لمستقبلنا ولم نعزف عنهما شأننا الآن.

وإذاً يكون لنا من ثقافتنا التقليدية ناحيتان. الأولى: ثقافة زوّدتنا بها اللغة العربية والدين الاسلامي. وهذه الناحية تكوّن أكثر ما فينا من نزعات الأدب والعلم. والثانية: ثقافة زوّدتنا بها مصر القديمة وهذه بدورها تكوّن متجهنا الفني والمعاشي: ومنهما يتكوّن ذلك التراث الخالد الذي ندعوه ثقافة المصريين التقليدية.

ولن يكون هذا البحث كاملاً الا إذا عرفنا قيمة اتصالنا بهذه الثقافة ومقدار ما نحتاج اليها في تكوين نهضتنا الحديثة تكويناً نضمن معه الثمرة العملية التي ترجى من جيل جديد قادر على الكفاح في الحياة والعمل المنتج الذي يعيننا على اقرار الحالات الاجتماعية على أساس ثابت. وآمل أن أكون قد أفلحت بعض الشيء في تصوير ذلك في سياق هذا الحديث.

لا ريبة في أن التعليم العام هو الاداة التي تمهد لنا سبيل الاتصال بثقافتنا التقليدية. ولقد وضح لنا حتى الآن أن السياسة التي جرى عليها التعليم في بلادنا قد أضعفت من وسائل هذه الأداة إضعافاً ظهر أثره جليّاً في كل مرافقنا، بل وفي كل نواحي حياتنا عقلية ومادية.

عمد الأوربيون منذ عهد النهضة الأدبية الحديثة الى الاتصال بثقافتين أوربيتين كانتا المهاد الأول والسنادة العظمى في تلك النهضة. عمدوا الى ثقافة اليونان وثقافة الرومان حتى لقد غالوا في ذلك باتخاذ اللغة اللاتينية لغة رسمية في العلم وفي الأدب وفي الفن. فأحيوا بذلك ثقافتين لم يكن لهما مناص من احيائهما لتكونا الوصلة بينهما وبين ماضٍ صبغ ثقافة حوض البحر المتوسط قروناً بصبغة خاصة ولون خاص. ولا تزال جامعات أوربا حتى اليوم تعني العناية كلها بتلقيح عقول الناشئين بتراث الثقافتين معاً. بل وتجعل درس اللغتين اليونانية واللاتينية أصلاً من أصول التثقيف العالي. فلمَ كان ذلك؟ ولأي من الأسباب الحيوية التي شعر بها الأوربيون في بدء نهضتهم ترجع هذه الظاهرة؟ إنما ترجع كما قلنا الى أن الثقافة التقليدية هي

الأصل الذي يجب أن يظل ثابتاً في بناء الأمم الأدبي والاجتماعي ليكون مَلْقَحاً للآراء والنظريات وضروب الثقافات الدخيلة احتفاظاً بالطابع الأصيل في الأمة، ذلك الطابع الذي هو جزء من كيانها وقطعة من وجودها وليكون في الوقت ذاته العدَّة في تمثيل ما يتصل بثقافة الأمة من الثقافات المنتحلة غير الأصيلة، وتكييفها تكييفاً يتفق ونزعاتها ومشاعرها وأخيلتها. وعلى الجملة يتفق وثقافتها التقليدية. فهل اتبعنا في نهضتنا هذه السبيل القويمة ؟ وهل كفل لنا التعليم الوصول إلى هذه الغايات العليا ؟

كلاً. لم يكفل لنا التعليم شيئاً من هذا، وأقصد به التعليم بناحيته: الناحية التي تمثل وراثتنا عن العرب لغة وديناً، وأعني بها الأزهر، فانه لم يلقح بشيء من الأساليب الحديثة التي يجب أن يلقح بها لتكون له بمثابة الدم الجديد يجري في العروق القديمة. وكذلك لم تعن الناحية التي تمثل ثقافتنا الدخيلة: أي الثقافة الأوربية وأعني بها ناحية التعليم الزمني، بأن تكون فينا تلك الفطرة التي تصلنا بثقافتنا التقليدية لتكون معملاً حديثاً يتحلل فيه ما يصلنا عن أوربا ويخرج منه مصبوغاً بصبغة مصرية أصيلة. ومثل الأزهر في ذلك كمثل كائن حي هضم ولم يأكل، ومثل التعليم الزمني كمثل كائن حي أكل ولم يهضم. فناحية جائعة، وناحية متخومة.

لقد ظلَّ اتصال الازهر بذلك الجزء الذي يمثله من ثقافتنا التقليدية غير مكيف بمقتضيات العصور والحالات التي قامت خلالها، وهو أقل تكيفاً بمقتضيات هذا العصر منه بمقتضيات كل عصر مضى. أما إذا آمنت بأن كلمة الثقافة تدل على تكييف الذهن تكييفاً تاريخياً أول شيء، ونقصد بالتكييف التاريخي خلق تصورات جديدة من تاريخ الأمم القديمة — فما من شك إذن في أن الأزهر لم يتصل بالثقافة التقليدية من ناحيتها التي تخلق هذا التصور، وإنما اتصل بناحية من الثقافة التقليدية صدَّت التصورات عن الانبعاث في سبيل الابتكار. وكذلك ظلَّ تعليمنا الزمني بعيداً عن الاتصال بثقافتنا التقليدية من جميع نواحيها تقريباً. ومن هنا ذلك الصدع المتنائي الذي نلاحظه قائماً بين الناحيتين.

وقد يخيل إليَّ أن ما مضينا فيه من بحث هذه الناحية كاف للبيان عما نقصده من ضرورة الاتصال بثقافتنا التقليدية من الوجهة العقلية. أما الوجهة الفنية الماشية ؛ وهي

الناحية التي لها الأثر الأكبر في علاج الحالات الاجتماعيـة التي قامت حفافيـنا من الناحية الاقتصادية،فتلك ما سوف أصور كيفية الاتصال بها تصويراً عملياً لأن هـذا هو الغرض الأول من بحثنا هذا .

إذا كان ما قلنا صحيحاً من أن التعطل في مصر والتعليم أمران متصلان أشد الاتصال باعتبار ان أحدهما مرض،والثاني علاج،فالواجب يقضي علينا بعد أن أظهرنا أوجه الاتصـال ان نبين عن الطريق العملي الذي يجعل العلاج ناجعاً في القضاء على الداء . ولما كانت ثقافتنا التقليدية من الوجهة المعاشية هي الزراعة تحتم علينا بحكم الضرورة أن ننقل درجتي التعليم الأوليين أي الابتدائي والثانوي،وهما الدرجتان التكوينيتان في مراحل التعليم،من المدن الى القرى،وأن نقيمهما على سياسة تختلف اختلافاً تاماً عن السياسة التي يجريان عليها الآن .

***

تجري سياسة التعليم الآن في هاتين المرحلتين على أساس نظري بعيد عن أن يجعل لنا أي اتصال بثقافتنا التقليدية من وجهتيها العقلية والمعاشية . ولا أكون مغالياً إذا قلت إن هـذه السياسة لا تصلنا بثقافة أوربا أيضاً بحيث تجعلنا قادرين على فهم ما ننقل منها فهماً صحيحاً مفيداً . وما قولك في شاب يخرج من التعليم الثانوي جاهلاً بلغته العربية وأصولها وآدابها ، غير متصل بآداب دينه غـير عارف بشيء من تاريخ بلاده . وبالأحرى من تاريخ العرب أو تاريخ مصر ، عاجز عن التعبير تعبيراً صحيحـاً بأي من اللغتين الأوربيتين اللتين يتلقاهما في مراحل ذلك التعليم ؟ أضف إلى ذلك أنه بجانب هـذا يخرج من التعليم الثانوي غير متصل بشيء من ثقافة بلاده التقليدية من الوجهة المعاشية،غير متصل بطبيعة الأرض التي أنشأته أو بطرق استغلالها مشحون الذهن بنظريات وأوهام يتعذر معها أن يعايش الفلاح وأن يدرك شيئاً من سر حياته وتقاليده وخطراته ونفسيته . فكأننا بهذا التعليم نخلق من حوله جواً مصطنعاً وبيئة عقلية غريبة عن طبعه . فيصبح بذلك أداة عاطلة في جسم الاجتماع وبزرة حية للتبرم بالحالات القائمة من حوله في مرباه،بل ومنشأ للقلق ومرتعاً لغرس الأفكار المتطرفة الخاطئة.وعلى الجملة يكون موضعاً خصباً لغرس بزور الشر

والفساد والعمل على قلب النظم الاجتماعية طمعاً في الحصول على نظم تلائم كفاياته . وتتفق ومؤهلاته التي أهله التعليم لها . ذلك بأن كل عقلية لها تكوين خاص تنشد من طريقه دائماً البيئة التي ترضيها ، وعجز المتعلم المتعطل عن الانتاج إنما يحمله بمقتضى موحيات عقله الباطن على أن يعمل على تكوين البيئة التي تلائمه متخذاً من النظم الاجتماعية التي نشأ فيها ، مادة يجرب فيها مقدار ما في نفسه من قوة التحليل ، لا من قوة التشييد ، على خلق البيئة التي ترضيه ، والنظم التي توائم عقليته وكفاياته . وما لنا أن نقول لهم من شيء إلاَّ ما يقول آرل بلفور لأمثالهم من أهل بيئته : بأنهم إذا مزّقوا القيم القديمة وأرسلوها أباديد ، فقد يتعذّر عليهم الاحتفاظ بالقيم الجديدة على وجه الاستمرار . . .

إن الخطوة الأولى التي ندعو إليها وهي نقل درجتي التعليم الأوليين من المدن إلى القرى لخطوة ضرورية في علاج سياسة التعليم ، وهي الخطوة الأساسية في وصل التعليم بثقافة البلاد التقليدية من الوجهة المعاشية . أما الخطوة الثانية فتنحصر في اقامة مدارس الحقول ، فتشيد المدرسة على أرض فسيحة تكفي لأن تكون ميداناً يتعلم فيه الطلاب طرق الزراعة العملية على القواعد الحديثة ، ويجب مع هذا أن تلغى الشهادة الابتدائية ويكتفى بشهادة التعليم الثانوي ، وأن يبدأ الطالب حياته التعليمية في هذه المدارس من الثامنة ، ويفرغ من تعليمه الثانوي بعد عشر سنين ، فيخرج من المدرسة وله من العمر ثماني عشرة سنة أو عشرين سنة . فاذا أراد أن يتخصص بعد ذلك في التعليم العالي فله ذلك ، ولكن بعد أن يكون قد اتصل بثقافة بلاده التقليدية وقامت معلوماته على أساس عملي رشيد ، يكون إليه مرد رزقه إذا تخصص وعجز عن كسب رزقه الحلال

***

هذا هيكل من الرأي يحتاج إلى شرح وجيز . فاننا لا نعني أن تعليم الطلاب في تلك المدارس الزراعية العملية يجب أن لا يصل الطالب بالناحية النظرية ، وإنما نعني أن يكون أساس التعليم فيها الزراعة العملية ، وما يتصل بها من العلوم ، وبجانب ذلك تعليم نظري قائم في أول الأمر على الاتصال بثقافة المصريين التقليدية من الوجهة العقلية ، مع العناية بأمر

اللغات الأوربية عناية كبرى حتى يتيسر لنا الاتصال بثقافة العصر اتصالاً وثيقاً صحيحاً .

أضف الى ذلك أن الطالب ينبغي أن يلقن كل ما يتصل بالانتاج الصناعي من الوجهة الزراعية ، فيخرج ملمّاً بطائفة من الصناعات المتصلة بمحصولات بلاده الزراعية ، عارفاً بسرها ووجهة الانتفاع بها . ولا أغالي إذا قلت إن كثيراً من الذين ينجحون من أهل أوربا في بلادنا أكثر اتصالاً بثقافة بلادنا التقليدية من الوجهة المعيشية من الطالب المتخرج من كلية عليا من كلياتنا ، وفي هذا سر نجاحه العملي ، وسر تعطل شبابنا عن العمل . ولهذا يتحتم علينا أن ندعو الى نشر الصناعات التي تتصل أول شيء بمنتوجاتنا الزراعية ، وأن نصدف عن غيرها لأنها لا تفيدنا شيئاً في حياتنا المعيشية أو تثبت حالاتنا الاجتماعية المرتجة الشاذة ، وبخاصة اذا وعينا أن دور التعليم على اختلاف نواحيها تخرج كل عام عدداً من المتعلمين تعليماً غير عملي زائداً عن حاجة البلاد .

وانما يجب أن يتجه التعليم في الحقول الى غاية أخلاقية محصلها أن يغرس في طبيعة المتعلمين تصور جديد في شرف المهنة التقليدية التي ورثناها عن أسلافنا ، ألا وهي الزراعة. فان التلميذ يجب أن يضع يده في كل عمل يمكن أن يؤديه الفلاح بنفسه ، وان يتصل عن طريق عضلاته بكل ما تتطلبه مهنة الزراعة من أعمال جسمانيـة ، وأن لا يرى في ذلك شيئاً خادشاً لعزته أومذلاً لنفسه .

***

أورثنا الحكم التركي المشئوم عادة احتقار الفلاّح، لأن كلمة « فلاّح » كانت توازي عند التركي أحط ألفاظ الشتم وأشنع كلمات السباب . ولطول الأمد الذي اعتدنا أن نسمع فيـه هـذه الكلمة مؤدية ذلك المعنى ، غـرس في طبيعة المصريين أنفسهم ، بطريق التكرار وموحيات العقل الباطن ، ميل الى احتقار الفلاح واحتقار مهنته ، والاعتقاد بأن العمل اليدوي في الزراعة انما هو عقاب نفسي مرهق للنفس خادش للعزة . وأنت ترى أن الأعراب في مصر قد انتحلوا هذه العادة . فانك اذا سألت أعرابيّاً أفلاح أنت ؟ أجابك على الفور «كلاّ ! أنا أعرابي » ولـكن بنبرات تدل على انه يعتبر الـكلمة اعتداءً على مكانته السامية ،

وقد يكون من خشاش الناس ومن ذؤبان العرب ، مهلهل الثياب قذر المنظر والمخبر .

ولم يقف الأمر عند هـذا الحد ، بل إنك تجد أن الفلاح إذا قضى خدمته العسكرية وسرّح من الجيش ، أنف أن يعود الى الحقل ، أو أن يحمل المحراث، أو يقود الماشية ، فاذا عجز عن أن يكون شرطيًّا ، قضى وقته في القرية عاطلا أو محترفاً حرفة أخرى غير الزراعة، فتجـده نجاراً أو حداداً لا يملك قوت يومه . وقد يتطرّف بعضهم في احتقار مهنة آبائه فيغشى المجالس عازفاً على قيثارة ، لأنه كان في موسيقى الجيش ، مستجدياً بها ، كأنما هو يعتقد أنّ الاستجداء بالعزف على قيثارة أشرف من العمل في الحقول . ولاشك في أن هذه الظاهرة قد أورثتنا نقصاً نفسيًّا يمكن تعليـله علميًّا ، ولـكن ليس هنا مكان ايضاحه . ولـكن ذلك لا يحول دون القول بأن هـذه الظاهرة من السهل علاجها بأن نعوّد أولادنا الاعتقاد بشرف المهنة التي تربي جسومهم ، وعليهـا قامت مدنيتهم منذ أقدم العصور ، على أن نفهمهم أولاً أن لهم مدنية وماضياً جديرين بالاحترام .

***

والمحصل اننا لن نخلص من نتائج التعطل إلاّ بالالتجاء الى اقامة سياسة التعليم على قواعد جديدة أساسها الأول الرجوع الى ثقافتنا التقليـدية ، فنخرج رجالاً مستقلين بأنفسهم ، يعرفون كيف يرجعون الى حضن أمهم الأولى « مصر » اذا أرادوا الحياة سعيدة هنيـة . ومن أجل أن نصل الى هـذه النتيجة ينبغي لنا أن ننتحي أسلوباً معيـناً ينحصر في تنفيذ الآتي :

أولاً — جعل مدة التعليمين الابتدائي والثانوي عشر سـنوات يمتزج فيها التعليم النظري بالتعليم العملي الزراعي ، وأن يغرس في الطلاب روح الاعتقاد بشرف مهنـة آبائهم التقليـدية ، وأن يقترن هذا التعليم بتلقين الصناعات الزراعية وبخاصة ما يتعلق بالزراعة العملية منها .

ثانياً — درس تاريخ العرب والمصريين درساً تحليليًّا وافياً .

ثالثاً — درس مبادىء العلوم والآداب العامة وهي الجهـة التي تلقح بها عقولنا من الثقافة الحديثة .

رابعاً — درس مبادىء الأدب ومبادىء الدين العليا .

خامساً — درس عقائد المصريين القدماء وطرق معيشتهم وآثارهم وأعيادهم ، وعلى الجملة كل ما يتعلق بحياة الجماعة في مصر القديمة .

وهنالك بجانب هذه أشياء يجب أن يُـهَـيَّـأ الناشىء بمعرفتها ، ولـكنها جميعاً تفاريع على هذه الأصول فلا محل لذكرها .

فاذا تخرَّج الطالب وله من العمر ثماني عشرة سنة أو عشرين ، أصبح على الحكومة له واجباً تؤديه ، هو أن تمنحه قطعة من أرضها المملوكة يؤدي لها فيها ثمناً قليـلاً على أقساط طويلة ، وأن تمده برأس مال ان احتاج إليه يسدّد مع ثمن الأرض ليكون عونه على اعداد عدَّته لحياة العمل والكفاح .

***

هذا طريق الخلاص ، وهو وحده طريق القضاء على التعطُّـل ، وإخراج جيل جـديد منـشَّـأ على طرق عملية ، جيل مكافح عامل خالٍ من آثار الأمراض الاجتماعية ، جيل يشعر بأنه مستقل في الحياة ، وأن له عِزَّة الرجولة وشرف الانتساب إلى مصر الخالدة ، جيل هو جيل الاستقلال الحقيقي والعمل لمجد النيل .

لواحق المقتطف الشهرية

يونيو ١٩٤٦

موسكو برلين لندن

تاريخ سياسي لفترة ما قبل الحرب العالمية الثانية

بقلم

عصام الدين حفني ناصف

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٦

الثورة البلشفية

وحرب التدخل

كان الناس من قديم يشكون الجهل والخوف والفاقة والعبودية ، ويتلمسون قبساً من النور يبدّدون به ما يكتنف حياتهم الاجتماعية — الاقتصادية من ظلام . وكان مفكروهم يحلُمون بمجيء عهد فيه تفيض الأرض بالخيرات ويخف فيه عناء العمل ويَسعَد الناسُ بالرفاهة والمناعة والأمن ، فلما بدا أولَ مرة في تاريخ البشر أن تحقيق هذا الحُلم اللذيذ أصبح في متناول اليد فزع خفافيش الناس وهبّوا يُهولون ويولولون وينادون بالويل والثبور، ويُرهبون بني جنسهم أن هذا الذي يحسبونه نوراً وهاجاً ليس إلاّ ناراً حراقاً . وتآزرت مصالح الرأسماليين ونفعية السياسيين المحترفين وفساد ذمم الصحفيين وتعصب رجال الدين ، وتضافرت مع كل أولئك شتى عناصر الشر على أن تبلبل أذهان الشعوب وتغشي على أبصارها بغشاوة الجهل المطبق والتعصب الذميم ليظلّ أبناؤها مستكينين لاسُخرة يديرون طواحين السادة المالكين ، فيظل السادة ينعَمون بما تدرّه عليهم من الخيرات .

ضاق الشعب الروسي ذرعاً بمفاسد قيصره وأمرائه الطغاة وأغنيائه السادرين في غَوايتهم فأطاحهم وأطاح حكومتهم الفاسدة المتعفنة . وشكل كِرنسكي حكومة ديمقراطية عاجزة ما عتّم الروس أن علموا أنها ألعوبة في يد بعض الدول وأنه ليس في عزمها ولا في مقدورها أن تنتشلهم من وهدة الحرب وأن تحبُوَهم السلامَ والخير ، فهبّوا في وجهها . وسَرعان ما برزت من خلال دخان المدافع شخصية زعيم منقطع النظير، وأعلنت روسيا أنها قد رضيت لنفسها الشيوعية نظاماً . فإذا بالفريقين المتقاتلَين يتألّبان عليها وقد أعماها الحقد والفزع ، فاندفع جنودها يفتِكون ويقتلونَ ويحرقون . وقد أجزلا الأموال والأسلحة والأومئة للعناصر الرجعية والقواد القيصريين من أمثال دِنكين وكُلتشاك ويودِنتش وفُرَنجل ليعيدوا سلطان الحكم القيصري . وهبطت جيوش الحلفاء

مُـرْمَـنْـسك وتوغلت كتائب اليابانيين في شرق سيبريا حتى بحيرة بَـيْـكال ، وأرسلت فنلاندا ، التي منحتها حكومة السوفييت استقلالها ، تدعو ألمانيا في مارس ١٩١٨ أن ترسل جيشاً الى أراضيها ليزحف منها في سهوله الى الاتحاد السوفييتي فيَقمع ثورته ، فاتصل القائد الألماني فون دِرْجُـوتـز بالجنرال مَـنَـرْهايم ، وزحفت جحافل الهون على أكرانيا ، وافتتحت كييف وأُدِسّـا . وعانى الشعب السوفييتي من الحلفـاء ودول وسط أوربا ما لا سبيلَ الى توفيته حقه من الوصف . وقد قُـوِّم ما أصـاب مناحي الثروة في بلاد السوفييت من الخسائر بما لا يقل عن ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٤ من الجنيهات . وناهيك بما انتزعه الحلفاء منها من الولايات الهامة مثل إستونيا ولاتفيا ولِتوانيا ، التي جعلوا منها دويلات البلطيق ، والجزء من أكرانيا وروسيا البيضاء الذي أدمجوه في بولونيا ليجعلوا منها دولة كبيرة عدد أفرادها ٣٥ مليوناً (بعد أن كان ١٥ مليوناً) وبسارابيا التي ألحقوها برومانيا : ذلك الحبل من الدويلات التي خلقوها من العدم ليضيّـقوا به الخناق على الاتحاد السوفييتي حربيّـا وتجاريّـا وسياسيّـا أو التي أسماها كليمنسو في وقاحة كلبية « الحاجز دون الوباء » cordon sanitaire

وعرَف البلاشفة الثائرون كيف يوقِعون الهزيمة بأعدائهم « البيض » مرة بعد أخرى . وطالت « حرب التدخّـل » وضجّـت شعوب الحلفاء من أعمال حكوماتها وجأرت بالشكوى من تخلّـف أبنائها المجنّـدين عن العودة الى أوطانهم ، وامتنع حمّـالو ميناء لندن من شحن الذخائر الى بولونيا ، وقام العمال بسلسلة من الاعتصابات وهدّدوا بالإضراب العام ، فلم يبق أمام الحلفاء إلاّ أن يُسرّحوا جنودهم وهكذا انتهت الحرب العسكرية . ولـكن المهاجمات العَـدائية لم تنقطع ، وقد صرّح لويد جورج رأس الحـكومة في ذلك الوقت بأن دولتـه قد بذلت من المال والجهد لتأييد النظام القيصري على الثورة الشيوعية أكثر مما بذل غيرها من الدول .

فماذا كانت نتيجة هذه المحاولة ؟ لقد أحصى بعضُ ما خرب في جبهـات القتال البالغ طولها ٠٠٠ر٧ كيلومتر ، فاذا هو يشمل ٣٦٠٠ جسر عاديّ و٣٦٧٠ جسر من جسور السكك الحديدية و ٤٣٠٠ محطة تلغرافيـة و ٨٧٠٠٠ ميل من الأسلاك البرقيـة . ونقصت مساحة

الأراضي التي زرعت حبوباً سنة ١٩٢٠ — ٢٣ في المائة عما كانت عليه سنة ١٩١٦ ، ومساحة الأراضي التي زرعت قطناً وتبغاً وما الى ذلك ٥٦ في المائة ، وهبط محصول الفدان الى ٧٠ في المائة عن محصوله قبل الحرب . أما الصناعة فقد تقهقرت كثيراً إذ هبط صُنع الزُبد من ١٠٠ في المائة سنة ١٩١٣ الى ٧٧ في المائة سنة ١٩١٧ الى ١٨ في المائة سنة ١٩٢٠

ويمكن تلخيص هذه الخسائر على النحو الآتي : نزلت المحصولات الزراعية في آخر الحرب العالمية الأولى الى ٨٨ في المائة عما كانت عليه قبل الحرب ثم نزلت في آخر الحرب الأهلية الى ٦٢ في المائة . وهبطت الصناعة الى ٧٧ في المائة في آخر الحرب العظمى ثم الى ١٨ في المائة في آخر الحرب الأهلية .

الاتحاد السوفييتي يستجم

كان الاتحاد السوفييتي منذ نشأته ينشُد السلام ، ويرغب في التعمير لا في التدمير ، وقد خرج من الحرب العالمية والحرب الأهلية والمجاعة أكثرَ حرصاً على السلم وأقوى تمسكاً به إذ أصبح عليه أن ينظف بلاده من أنقاض الهدم وأن يحوّلها من مجموعة مزارعَ سيئة الأدارة الى دولة صناعية حديثة وأن يشيّد مدناً عظيمة ذاتَ مساكنَ صحية مبهجة ومنشآت عامة فأعلن أساطين الحكم البلشفي أنهم لا يريدون « قيد بوصة من إقليم خارجي » وأن دولتهم تبغي أن تعيش مع الدول الرأسمالية في وئام وأنهم راغبون عن فرض نظامهم على أي شعب راغب عنه ، إذ أنهم يعتقدون أن الثورة لا تُفلح في بلد حتى تتهيأ فيه عواملها وملابساتها ، ولا يكون هذا التهيؤ إلاّ عن تطور في حياة هذا الشعب . قال لنين في حديث له مع آرثر رنسوم عن الدعاية الشيوعية في البلدان الأجنبية « قل لهم أن يجعلوا على كل بلد من بلادهم سوراً كسور الصين وأن يسخّروا مَن عندهم من عمال الجمارك والحدود وخفراء السواحل وأن ينفوا مَن شاءوا من البلاشفة . إن نشوب الثورات لا يقوم على الدعاية ، وليس ثمة ضربٌ من ضروب الدعاية يستطيع أن يعجل قيام ثورة لم تتوافر عواملها ولا أن يؤخرها إذا توافرت لها تلك العوامل » .

انتهت الفترة الأولى من تاريخ ا.ج.س.ا. (اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية)

U. S. S. R. (Union of Soviet Socialist Republics) وهي فترة حرب التدخل (١٩١٧ ـ ١٩٢٢) عند ما زايلت الجنود اليابانية ميناء فلاديفستك في أكتوبر ١٩٢٢ ، وانتهت معها شيوعية الحرب ، أي سياسة تخصيص كل ما في الدولة من الممتلكات والمرافق الاقتصادية لكسب الحرب دون نظر إلى أثر ذلك في الأفراد المالكين لها أو المنتفعين بها. واستبان للبلاشفة ضرورة تجميع بعض المواد الاحتياطية في يدي الدولة لكي يكون الإنتاج في الصناعة على نطاق متسع المدى يسمح بتجهيز الجيش بالعدة وتزويد الزراعة بالآلات اللازمة لادارتها طبقاً للنظام الاشتراكي ، فأعلنوا السياسة الاقتصادية الحديثة ، N. E. P. (New Economic Policy) ومنحوا أصحاب رؤوس الأموال الأجانب بعض الامتيازات موقتاً واستعانوا بالخبراء الأجانب على اختلاف أجناسهم ولم يضنوا بالأثمان المرتفعة في شراء الآلات من الخارج ، حتى زعم البعض أن هذه السياسة إن هي الا عودة إلى الرأسمالية . وقد احتفظ الاتحاد السوفييتي بالهدوء المستمر إزاء ما كانوا يرمون به في الصحف ومن فوق المنابر من الشتم البذيء المستمر .

بيد أن ذلك لم يطفىء لظى السخيمة المتأججة في صدور الدول الأخرى ، فبينما اعترفت الحكومة البريطانية بالحكومة المؤقتة التي وليت الحكم بعد انهيار الحكم القيصري في روسيا ولما يمض على قيامها أسبوع واحد ، إذ مرت سبع سنوات قبل أن ترسل حكومة العمال البريطانية الى الاتحاد السوفييتي سفيراً (غير مزود بسلطة كاملة) ومع ذلك فإن هذه الحكومة القصيرة الأجل لم تكد تسقط من فوق منصة الحكم نتيجة للرسالة المزورة التي استعملها خصومها لإثبات تدخل الكومنترن Commintern (مكتب الدولية الشيوعية Communist International) في بعض الشؤون البريطانية ، حتى خلفتها وزارة من المحافظين أوشكت أن تقطع العلاقات بين الدولتين . وكان ممثلو الاتحاد السوفييتي يعاملون أينما ساروا معاملة الأعداء ، فاغتيل فويكوف سفيره في بولونيا ، اغتالوه في جنيف ، وقتل اليابانيون موظفاً من موظفي السكة الحديدية بمنشوريا ، ونهبت دار البعثة السوفييتية في شنجهاي ، وأخذت شتى الحكومات ترسل الى الاتحاد السوفييتي إنذاراتها ، بل إن بعضها قطع علاقته به ولم يعد الى وصلها الا خضوعاً للرأي العام .

في سنة ١٩٢٢ أعلن وزير بريطانيا الى الوفد السوفييتي في المؤتمر المجتمع في جنوا للنظر في تعمير ماخربته الحرب ، أن دولتهم تستطيع أن تظفر بالمعونة التي ترغب فيها لتعمر ما أتلفته الحرب والحرب الأهلية ، على أن تتخلى عن خطتها الاشتراكية وعلى أن تعيد اليها الرأسمالية . وهنا أثبت ساسة السوفييت مقدرتهم على الانتفاع بما بين مصالح الدول الرأسمالية من تباين وتضارب في تقوية مركزهم ، فقد استطاع تشيشرين أن يتفق مع مندوبي ألمانيا وأن يعقد معهم معاهدة راپللو التي تقرر فيها إعادة العلاقات السياسية كاملة وإعادة العلاقات التجارية المشربة بروح الود بين الدولتين ، فكان لذلك أثر ملموس في القضاء على التدخل . وقد أثار إمضاء تلك المعاهدة في صفوف الحلفاء من السخط والشعور بالمرارة ما أثاره إمضاء ميثاق عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفييتي وألمانيا بعد ذلك بـ ١٧ سنة .

وفي سنة ١٩٢٣ أرسل مركيز كرزون الى الاتحاد السوفييتي إنذاراً في مسائل تتعلق بصيد السمك وما اليه من أمور قليلة الخطر .

وكثر التهديد في سنة ١٩٢٤ عند ما خط رمزي ماكدونالد كلمة فوق الرسالة الحمراء المزورة (وإن مزوري الخطوط ليجدون دائماً في أركان وزارتي الخارجية والداخلية سوقاً نافقة لوثائقهم المزورة)

وأفاض سير وليم هكس في الحديث عن « الخطر الأحمر » ثم جرد حملة من الشرطة على وكالة السوفييت التجارية « أركوس » مما أدى الى انفصال العلاقات السياسية ، وهذا ما يكون في كثير من الأحيان نذيراً بالحرب . وفي الحق أن هذه الإغارة كانت بمثابة إعلان بعزل الاتحاد السوفييتي وتأليب الدول لمقاتلته .

وفي سنة ١٩٢٥ بعد أن قضى وزير الخارجية البريطانية سير أوستن تشمبرلن شهر العسل في البحر المتوسط مع بنيتو موسوليني، عقدت معاهدة لوكارنو، فهللوا لها على أنها ضمان للسلم بين فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا وبولونيا وتشكوسلوفاكيا وبلجيكا .ضمانٌ من مَن ؟ هذا ما أجاب عليه مستر أورمسبي جور (لورد هارْلِش) إذ قال في حديث له : « إن تضامن المتمدنين بالمدنية المسيحية ضرورة لإيقاف أعظم نمو مشئوم ارتفع في تاريخ

أوربا . . . وقد كان النضال في لوكارنو ، في رأيي، هو هذا : هل ترى ألمانيا أن مستقبلها مرتبط بمصير الدول الغربية العظمى ، أم هي سائرة في طريق العمل مع روسيا لتدمير المدنية الغربية . . . إن لوكارنو تعني أن المانيا ، ما دام أمرها بيد هـذه الحـكومة ، قد تخلت عن روسيا وألقت بحظهـا مع الفريق الغربي » .

وفي سنة ١٩٢٧ تحـدَّث سير أوستن تشمبرلن (والد نفيل تشمبرلن) بلهجة إنذارية حادَّة عن صورة كاريكاتورية نشرتها صحيفة سوفييتية ورأى فيها غضًّا من مقامه الموقَّـر .

وفي سنة ١٩٢٩ قام المارشال الصيني تو ـ تشون حاكم منشوريا بالهجوم على حدود الاتحاد السوفييتي . فأرسـل الوزير الأمريكي ستمسُن مذكرة الى فرنسا لتخاطب الحـكومة السوفييتية في شأن سكة حديد منشوريا التي تُـعد « مصلحة أممية » (لم يكن يستطيع مخاطبة ا . ج . س . ا . رأساً لأن العلاقات السياسية بين الدولتين كانت مقطوعة)، فلما نكَّـل البلاشفة بالجيش المعتدي وألحقوا به هزيمة نكراء ، سحب الوزير الأمريكي أنفه من الموضوع .

وفي سنة ١٩٣١ — ١٩٣٢ استولى اليابانيون على منشوريا ، فلم يزل سير جون سيمون وزير خارجية بريطانيا ، بعصـبة الأمم حتى أغضت عن ذلك الاعتداء ، مما جعلها تذوي وتزدهف نحو الفناء ، وجعل شركات صنع الأسـلحة تنتعش إذ توقعت أن يؤدي استيلاء اليابان على منشوريا الى غزوها ولايات الشرق الأقصى السوفييتية .

وفي سنة ١٩٣٣ هاج هائج هذه الوزارة القوميّة إذ ألقت الحـكومة السوفييتية القبض على بعض المهندسين البريطانيين لأنهم كانوا يتجسسون في بلادها ويخرّبون ، كما جاء على لسان واحد منهم ، وطالبت باخلائهم ، في لهجة أشبه شيء بتلك التي تخاطب بها مشايخ القبائل في مناطق نفوذها ، فلما أعرضت الحـكومة السوفييتية عن تلبية طلبها شرعت هذه تقاطع تجارتها (على حين أنها لم تعمد الى شيء من ذلك عندما قبض اليابانيون بعد ٤ سنوات من ذلك الحادث على عدد من الرعايا البريطانيين وجرّدوا بعضاً منهم من سراويلهم على قارعة الطريق وضربوا الشرطة البريطانيين ضرباً مبرّحاً وعندما حبسوا ملحقاً حربيًّـا بريطانيًّـا وصبّـوا مقذوفات الرشاشات على سفير بريطاني وأطلقوا نيران مدافعهم على سفن يخفق عليها علم بريطانيا) .

ولكن الحكومة السوفييتية أبت أن تنساق لهذا الاستفزاز المستمر ، إذ كان عليها أن تجد « فسحة تنفس » طويلة تستجم فيها ، مهما يكن الثمن ، وقد كان من حسن طالعها أن الدول المتاخمة لبلادها ، هي وغيرها من الدول ، كانت قد نهكتها الحرب حتى أصبح من خرق الرأي أن تخوض غمار حرب أخرى تتعرض فيها لحرب بين الطبقات المختلفة في داخلها .

ظلت الدول المتحالفة بعد إخفاق حرب التدخل متألبة على الاتحاد السوفييتي ، بل إنها ما أنشأت عصبة الامم إلا للقضاء عليه وعلى الامبراطوريات المنافسة لها ، وهذا ما أوضحه في مارس ١٩٣١ مستر لويد جورج الذي كان رأس الحكومة البريطانية وأبرز رجالات مؤتمر فرساي إذ قال في رسالة بعث بها الى ذلك المؤتمر « إذا أردنا أن نهب لاوربا بديلا من البلشفية وجب أن نجعل من عصبة الامم حامياً للشعوب التي لديها استعداد لمعاملة جيرانها معاملة منصفة ومهدداً لاولئك الذين يعتدون على حقوق جيرانهم ، سواء أكانوا أمبراطوريين استعماريين أم شيوعيين استعماريين » .

واستمر الرأسماليون الدوليون ، مع ما بين دولهم من تباغض وتحاسد ، يحيكون مؤامرة عالمية ليُنزلوا بالشيوعية — قبل فوات الأوان — ضربة ساحقة ، قال ونستون تشرشل لمستر ا . ج . كوك : « لقد كان من الخير أن نهشم البيض الباشفي قبل أن يُفرخ بدل أن نجد أنفسنا مرغمين على الجد في اصطياد الفراخ البلشفية من جميع أصقاع الارض »

كان الحلفاء قد طرحوا ألمانيا بعيداً عن عصبة الامم وعاملوها معاملة المنبوذين . وناء الشعب الالماني بالأعباء التي ألقتها معاهدة فرساي على كاهله ، وأخذ يقتنع بأنه لا منجى له مما يكتنفه من البؤس إلا أن يتخذ الاشتراكية له نظاماً وأخذ ينجرف في تيار الصداقة السوفييتية والمبادىء البلشفية . على أن الحزب الشيوعي في ألمانيا كان حديث النشأة وكان يعوزه زعماء من طراز لنين ورفاقه . فأرسل البلاشفة اليه بعثة على رأسها كارل رادك لتقدم الى الثوريين الالمان ما هم في حاجة اليه من صالح المشورة ، ففزع الحلفاء وعملوا على إصلاح الخطأ الذي أوقعهم فيه قصر النظر ، فمدوا يد المعونة الى الرأسمالية الالمانية وأقرضوا ألمانيا قروضاً كبيرة . وقد وقعوا بذلك في مأزق ضيق لقُوا فيه القصاص الطبيعي ، إذ أن إصلاح الاقتصاد الالماني أحيا مطامع الطبقة الحاكمة في المانيا ، فانتبذت هذه معاهدة فرساي وتبوأت من جديد مركزها تحت الشمس .

أوربا الديمقراطية

عالىء الفاشية

وحمل هتلر لواء الاستعمارية الألمانية الناقهة . وأخذ النازي بيده أعنة الحكم ، فلاح للطرب جوانح تشمبرلن ودلادييه ومن لف لفهما ، فقد كانوا يرون في الهتلرية حاجزاً منيعاً دون البلشفية ، وقد طرقت مسامعهم صيحات النازيين لانتزاع أوكرانيا من الاتحاد السوفييتي وقصرت أبصارهم عن رؤية الحرب النازية المقبلة على بلادهم فهللوا لهتلر ومجدوه، ومن ذلك ما كتبه لويد جورج في جريدة التيمس الصادرة في ٢٢ سبتمبر ١٩٣٣ إذ يقول : « إذا أفلحت الدول في محق النازية في المانيا ، فما الذي سيكون بعد ، إنه لن تكون ثم حكومة محافظة أو اشتراكية أو حكومة من الأحرار ، بل حكومة شيوعية متطرفة . ولا يمكن أن يكون هذا هو الغرض الذي ترمي اليه هذه الدول ولا ريب » .

تغير الموقف في أوربا تغيراً تامًّا ، وكذلك تغير الموقف في الشرق الأقصى نتيجة لذلك ، فان اليابانيين الذين كانوا في حرب التدخل آخر من جلا عن الأراضي السوفييتية ، عثروا في ألمانيا على الحليف الذي كانوا ينشدونه ليكرهوا الاتحاد السوفييتي على القتال في جبهتين ، فتتابعت حوادث الحدود ، بين الفصائل اليابانية والسوفييتية ، وبدأت فترة الاعتداء . وأصبح من العبث أن تستمسك الحكومة السوفييتية بسياسة فترة ولت وانقضت ، ولذلك استبدلت بسياسة مواثيق عدم الاعتداء الفردية سياسة مقاومة جماعية تنتظم الدول المهددة ، لأن السلم لا يتجزأ ، ونادى مكتب الدولية الشيوعية بـ « الجبهة الشعبية لمكافحة الفاشية وصون السلام » . وانتظم الاتحاد السوفييتي في سلك عصبة الأمم في سبتمبر ١٩٣٤ وأصبح مركز الثقل في عالم السياسة ، وبلغت السياسة السوفييتية في مسايرة الواقع والصلابة في الحق ورعاية أصول الخلق الدولي شأواً بعيداً لا سبيل معه الى الموازنة بينها وبين سياسة غيرها من الدول ، تلك السياسة التي عبدت لألمانيا السبيل الى شن الحرب .

تعطّف الاتحاد السوفييتي رداء عصبة الأمم وأدحض مفتريات النازية والفاشية وأوضح أنهما أعظم خطر يتهدد الحضارة ودعا إلى التدرع بـ (الضمان الجماعي من الاعتداء) فأبت الدول الرأسمالية أن تنظر الى الأمر من ناحيته الموضوعية ، وأخذ أعداء الثورة يصخبون بأن هذه الأحداث والتطورات إن هي إلاّ نُذُر شرٍّ بأحداث مشئومة .

ويحسن أن نذكر هنا للدّلالة على الروح الذي كان يهيمن على تفكير ساسة الغرب ما أورده دُدْ سفير أمريكا في برلين في مذكراته بتاريخ ٦ مايو ١٩٣٥ : « كتب إليّ لورد لوذيان في ذلك رسالة تلقيتها اليوم . . . وقد أبدى في جلاء أنه يودّ أن تتحد الديمقراطيات لصدّ أية حركة توجه نحوها ولتحويل اتجاه النشاط الألماني نحو الشرق . ويبدو أنه لا يكرُبه كثيراً أن يؤدي ذلك الى نشوب الحرب بين روسيا وألمانيا ، بل يبدو أنه يرى في نشوبها حلاً حسناً للمصاعب التي فرضتها معاهدة فرساي على ألمانيا . ومشكلة الديمقراطيات في رأيه هي أن تجد لليابان ولألمانيا مكاناً أمكن في إدارة شؤون العالم ، وهو ما تؤهلهما له قوتهما وتقاليدهما ، وهو يأمل أن يكون في الوسع القيام بذلك دون أن تبذل الأمبراطورية البريطانية أية تضحية وبأقلّ ما يمكن من خنق الحرية الانسانية »

كان على رأس الوزارة البريطانية في ذلك الوقت سياسيّ صوّر له نظره القصير أن أعين النازي مسددة نحو المشرق فبعث ذلك فيه الرضا فقصّر في تسليح بلاده ، منتظراً في بلادة واطمئنان أن تستعر نار الحرب بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي فيكفيانه أنفسهما بأهون الطرق ، بل إنه في الواقع أخذ يمالىء دول المحور ويُغضي عن اعتداءاتها المتوالية وما فتىءَ يُفسد آلة السلامة الجماعية ويقيم العقبات في سبيل الاتحاد السوفييتي كلما سعى الاتحاد الى صون السلام .

فعندما عقد الاتحاد السوفييتي وفرنسا في سنة ١٩٣٥ ميثاق التساعد على المعتدي وسجلتاه في عصبة الأمم أبت بريطانيا أن تشارك في ذلك وحملت صحفها على الميثاق حملة منكرة .

وفي تلك السنة نفسها عقدت بريطانيا وألمانيا ميثاقاً خاصّاً بأسطوليهما البحريين ، وأباحت لها فيه أن تبني من الغواصات ما تشاء دون التفات الى مصالح فرنسا ومع ما في ذلك من نقضٍ للوعد الذي قطعته على نفسها للعصبة ومن دَلالة على أنها غيرُ جادّة في مكافحة الفاشية وغير راغبة في أن تصير العصبة قوة حقة .

حرب الحبشة

وسرعان ما أعقب ذلك وثوب ايطاليا على الحبشة في ٣ اكتوبر ١٩٣٥ فأعلنت الحكومة السوفييتية أنها مستعدة لتنفيذ كل ما تتخذه العصبة من قرارات لمساعدة الحبشة غير أن سائر دول العصبة، وفي مقدمتها بريطانيا، أظهرت كل ما استطاعت أن تظهر به من عجز عن معاقبة الدولة المعتدية عقاباً إيجابيًّا رادعاً كإقفال قناة السويس في وجهها أو عقاباً سلبيًّا ناجعاً كمقاطعة صادراتها مقاطعة تشل اقتصادياتها المرتبكة، والامتناع من إرسال زيت الوقود اليها، وهو ما كان يؤدي على الأرجح الى أفول نجم موسوليني سريعاً وانهيار النظام الفاشي وهذا ما لم تكن تريده الحكومة البريطانية في ذلك الوقت.

وقد بسط مستر تشرشل أخيراً موقف بريطانيا من حرب الحبشة في النداء الذي وجهه في ٢٣ ديسمبر ١٩٤٠ الى الشعب الايطالي يدعوه الى نبذ موسوليني والى اتباع بيت سافوا، قال:

« إننا في حرب معكم، فيالها من كلمة غريبة مروّعة! من كان يظن قبل الأعوام المؤلمة الأخيرة أن الأمتين البريطانية والايطالية تحاول كل منهما أن تقضي على الأخرى... كيف كان هذا ولِمَ كل هذا؟ أيها الايطاليون، سأصارحكم بالحقيقة: إنما هذا كله من أجل رجل واحد... أما أنه رجل عظيم فاني لا أنكر ذلك. كذلك لا ينكر أحد أنه بعد ١٨ عاماً تمتع فيها بالسلطان المطلق قاد بلادكم الى حافة الدمار الرهيب...

فما هو الدفاع الذي قُدّم تسويغاً لهذا العمل؟ هو ولا ريب تلك المشاحنة حول العقوبات ومسألة الحبشة، فلننظر في ذلك...

جاءت الحبشة وقرعت الباب طالبة الاندماج في عضوية العصبة فقدّمنا نحن نصيحتنا بألاّ يكون ذلك، فقد كنا في شك من وصول الأحباش الى مستوى من التقدم يسوّغ ضمهم الى مثل هذا الميثاق الخطير، ولكن كان سنيور موسوليني هو الذي أصرّ على أن

تكون الحبشة عضواً في العصبة ... وإنني لأصارحكم بأنه لم يحدث شيء في تلك المشاحنة الحبشية يمكن أن يكون سبباً أو مسوغاً لهذا الكفاح الرهيب . . .

وهذه هي الرسالة التي أرسلتها الى سنيور موسوليني : الآن وقد توليتُ رياسة الوزارة ووزارة الدفاع ، أصارحكم بأني لم أكن في يوم من الأيام عدوًّا للعظمة الايطالية ولم أكن في قلبي عدوًّا لايطاليا . . . » الخ

أجل ، علت في انجلترا صيحات شعبية كثيرة تندّد بالاعتداء الايطالي ، بيد أن الحكومة البريطانية لم تقاوم هذا الاعتداء ، بل لقد بذلت ما في وُسعها لمعاضدته وفقاً لاتفاق سنة ١٩٢٥ . وتأثرت الكاي دور ساي (وزارة الخارجية الفرنسية) وزارة بريطانيا في الاقتصار على معارضة موسوليني معارضة صورية ، بل هي قبلت أن تحمل تبعة الفشل والتهاون فأتاحت للوزارة البريطانية أن تتبدّى في صورة الملك البريء الذي يريد أن يعمل ولكنه يُلفي نفسه عاجزاً عن العمل . لقد كانت فرنسا تأمل بتهاونها المزري في المسألة الحبشية أن تجد من موسوليني نصيراً على هتلر ، ولكنه ما كاد ينتهي من ازدراد الحبشة حتى انتبذ فرنسا كما ينتبذ الإنسان ليمونة معصورة ، فعادت من جديد إلى الارتماء بكلّيتها في أحضان بريطانيا . وقد اضطرت الوزارة القومية قبيل انتخاب مجلس العموم الى أن تُحل سير صمويل هور محل سير جون سيمون الذي كان قد أسخط الشعب بتأييده ايطاليا. وقد طلب صمول هور ولافال أن تدمغ العصبة ايطاليا بالمعتدية وأن تعيّن لجنة من الخبراء ترسم الخطة الصالحة لمعاقبتها عقاباً رادعاً ، فاستقرّ رأي الخبراء على أن تمسك الدول عن إصدار الألومنيوم إليها ، وهو المعدن الذي تستنبطه إيطاليا من مناجمها وتُصدر منه الى الدول ما يفضُل عن حاجتها . بيد أن الانتخابات ماكادت تنتهي في مصلحة الوزارة القومية حتى أعلن مشروع هور — لافال في ديسمبر ١٩٣٥ وهو يمنح موسوليني قسماً كبيراً من الحبشة ويجعل الباقي منطقة للنفوذين البريطاني والفرنسي . وقد أثار هذا المشروع سخط الشعب البريطاني حتى لقد طرد صمويل هور من الوزارة .

لقد كان في وُسع الوزارة البريطانية أن ترسل الى أهالي الحبشة ما يحتاجون إليه من مال وعَتاد بدلاً من تركهم للايطاليين يجندونهم لمقاتلة البريطانيين وإجلائهم عن الصومال

البريطاني . وكان في وسعها ، وهي المسيطرة على مدخل البحر الأحمر ، أن تمنع الأمداد عن أولئك الـ ٤٠٠٫٠٠٠ من قطّاع الطرق وعمال الطرق بدلا من أن تتركهم يقطعون عليها طريق البحر الأحمر ، فضلاً عن إثارتهم العرب عليها ليقطعوا الطريق البرية التي تبدأ من الخليج الفارسي الى قناة السويس مارّة بالعراق وشرق الأردن وفلسطين .

وهكذا استمرّت الحرب الظالمة التي لم يُرد أحد منعها ، حتى فتح الجيش الايطالي العاصمة أديس أبابا في ربيع ١٩٣٦ . وقد قال مستر إيدن وزير الخارجية ، في مجلس العموم في ١٨ يونيو ١٩٣٦ « يجب علينا أن نعترف أن الغرض الذي قصدنا اليه من فرض العقوبات لم يتحقق ، وليس من الضروري أن ندلي بتفصيلات عن أسباب ذلك ، ولكن أحد تلك الأسباب أن ذوي الرأي من رجال الحرب في معظم الدول أساءوا التقدير إذ حسبوا أن هذا النزاع سيدوم أطول كثيراً مما كان ... » . ومعنى هذا أن الذين فرضوا العُقوبات لم يكونوا يريدون بها وقف الحرب الاعتدائية ، بل كانوا يبغون بها إطالة أمدها . وقد أجاد أحد الصحفيين إذ كتب متهكماً أن مستر إيدن قد شكا من « أن هؤلاء الزنوج الملعونين خانوا واجبهم نحو الإمبراطورية لكي ينقذوا عصبة الأمم » .

حرب إسبانيا

وما أسرع ما انكشف الستار عن مأساة إسبانيا التي لعب هتلر وموسوليني أهم أدوارها . لقد استوْرَت نار الحرب الأهلية في تلك البلاد في يوليو ١٩٣٦ فقد تذمر ضباط الجيش من الإصلاحات التي قامت بها الحكومة الجمهورية التي تلت دكتاتورية بريمو دي ريفيرا ووجدوا في ذلك غضاً من مركز أسرهم في المجتمع . إذ كان الضباط في العهد الملكي يختارون من أبناء الأشراف الأقطاعيين وكبار الملاك والصيارفة . فارتمت هذه الطائفة من أصحاب الامتيازات — كما هي العادة — في أحضان مستعمر أجنبي ، في أحضان موسوليني الذي لم يكن قد تكشف بعد عن طبل أجوف . وقام الضباط العصاة بالفتنة فانبرى لهم عمال المناجم والمصانع متسلحين بما استطاعوا أن يحصلوا عليه من السلاح

ودافعوا عن وطنهم وطبقتهم أشد دفاع ، وناهيك بما ألحقوه بالايطاليين من الهزيمة التاريخية في وادي الحجارة .

وقد كان ثمّ خطر أن تحتلّ جيوش هتلر وموسوليني جبال البرانس ، حتى لقد طالب أركان حرب الجيش الفرنسي ببناء خط ماجينو في البرانس ، كما كان احتلال الجنود الايطالية لجزائر البليار يهدد طرق فرنسا البحرية الى مستعمراتها في إفريقيا . ومن الواضح أن ايطاليا لم تنفق وحدها ٤ ملايين من الليرات دون أن تكون لها أطماع خاصة (كان سعر المائة ليرة إذ ذاك ١٠٥ قرش ، أما الآن فهي لا تساوي كثيراً) . ولكن وزارة الخارجية البريطانية القابضة على دفة السياسة الخارجية الفرنسية ، كانت تنظر في سرور الى هذا العصيان المسلح ، فكلما فشا الدمار في اسبانيا أصبح جبل طارق أقل تعرضاً للهجوم عليه من البر الاسباني ، وكانت تأمل أن تسيطر على اسبانيا فيما بعد بما تستطيع أن تبذل لها من قروض يعجز موسوليني عن بذل مثلها ، فهي تترك دافعي الضرائب الايطاليين يدفعون نفقة ذلك العصيان المشئوم لكي تجني هي ثمرته وأرباحه بمهارة الصيرفي القدير ، ولذلك أعلنت بريطانيا وفرنسا أنهما لن تتدخلا في النزاع (دون أن تأبه بريطانيا لما نال بعض رعاياها من اعتداء وما أصاب تجارتها من كساد) وهذا الإمساك عن التدخل يذكرنا بإمساك الشيطان « مفيستو فيليس » عن التدخل في المبارزة بين فاوست وشقيق عشيقته مرجريت [1] . ولما تدخّل الاتحاد السوفييتي في الأمر بعد ذلك لمصلحة الحكومة التي انتخبها الشعب ، أبدت حكومتا بريطانيا وفرنسا تضجرهما من هذا التدخّل . وقد شرح ستالين سياسة الدول الديمقراطية في الامتناع من التدخّل ، فقال « قد يفسرون سياسة عدم التدخّل على النحو الآتي : فلندع كل دولة تذود عن نفسها قدر استطاعتها فليس هذا من شأننا ، وسنتّجر مع المعتدين وضحاياهم على السواء . إن هذه السياسة ، من الناحية العملية ، إن هي إلاّ إغضاء الطرف عن الاعتداء وإرخاء العنان للحرب ، ومن ثمّ تحويل الحرب الى حرب عالمية » .

وقد لاذ ستالين بالدّعة ، رغبةً منه في ألاّ يفسد سياسته مع الغرب ، ولم يحرّك ساكناً إلاّ بعد أن صار من الجليّ أن ايطاليا وألمانيا تتدخلان في الأمر . وكان يعلم أن انتصار الفاشيين

(١) في رواية « فاوست » تأليف جوته

في اسبانيا يعرّض حليفته فرنسا للأخطار ، فشرع يرسل الخبراء الحربيين السوفييتيين إلى الجيش الجمهوري . وأخذ الشيوعيون يكتّبون الكتائب من شتى الأمم لمقاتلة البغاة ، فأبدى سادة انجلترا وفرنسا استياءهم من هذه اليقظة السوفييتية وأعلنوا اقتناعهم بأن ألمانيا وايطاليا إنما تقاتلان ذياداً عن الحضارة الغربية . وهكذا اندفع حكام الدول الديمقراطية يخدمون أبعد أغراض خصومهم عن الديمقراطية .

وبينما كان الجمهوريون الاسبانيون ينادون أن افتحوا الحدود وساعفونا بالعتاد ، كانت السيتي City (دوائر أصحاب رؤوس الأموال في لندن) تبدي عطفها على فرنكو صراحةً ، وكان الرجعيون الانجليز والفرنسيون ، وفي مقدمتهم تشمبرلن وبونيه ، يتحرّقون رغبةً في أن يروا ذلك الدفاع المفعم بالبطولة قد انقضى . وقد دأبت الصحف الرجعيـة في بريطانيا وفرنسا تحض الجمهوريون على إلقـاء السلاح وتذيع أنباء خلافات تزعم اضطرام نارها بين رجال الحكومة الجمهورية ، وكانت في بعض الأحيان تلتمس من الحكومة البريطانية أن تسعى بالوساطة بين الفريقين .

وسار هتلر في طريقه قُدُماً فانقضّ بجيوشه على الجمهورية النمسوية . فلما اقترح الاتحاد السوفييتي بهذه المناسبة في ١٧ مارس ١٩٣٨ أن تعقد الدول غير المعتدية مؤتمراً يعمل على توطيد السلام ، أبت ذلك بريطانيا وفرنسا .

وانتقل مسرح المأساة الى تشكوسلوفاكيا ، فألقى هتلر في مؤتمر النازيين بنورمبرج خطاباً حمل فيه على تلك الجمهورية الصغيرة حملة منكرة وهدد الدول الضامنة لها وأعلن أنه قد اعتزم « حماية » السوديت (الذين نزح أسلافهم من ألمانيا الى الجنوب) وكان ذلك الخطاب إشارة الهجوم ، فهبّ السوديت يهاجمون مسالح الشرطة ودور البريد ومحطات السكك الحديدية ويطلقون الرصاص على أبناء الشعب الذي آواهم فأحسن مثواهم ، وطفقوا يلوّنون الأبنية برسم الـ « سفاستكا » (الصليب المعقوف) وأبى زعيمهم هنلاين قبول ما اقترحته براج من مشروعات يراد بها تنظيم حقوق الأقليات ، ودأب يثير الشغب ، ممثلاً في تشكوسلوفاكيا الدور الذي مثله فرنكو في اسبانيا وسايس إنكوارت في النمسا .

وسنت الحكومة التشكوسلافية الأحكام العرفية ، ووقفت بتأثير الرأي العام في بلادها

وفي العالم موقفاً حازماً فالتاث الأمر على هتلر .

ولم يسع نفل تشمبرلن أن يقف ساكناً في هذا المأزق الذي زجَّ بنفسه فيه ، فبادر بالرحيل الى مقر « الزعيم » في برشتسجادن ليقبل عثرته وليقر إجراء استفتاء بين السكان .
لقد كانت سياسة انجلترا ، وسياسة فرنسا تبعاً لها ، قائمة على التسليم للمعتدين ، تسليم تشكوسلوفاكيا لألمانيا ، وتسليم فلسطين للصهيونيين ، وتسليم الاسكندرونة لتركيا ، وتسليم مقاليد بلادهما للرأسماليين . وقد كان هتلر على علم بذلك وكان يعتمد على ضعف الروح المعنوية في الحكومات الرأسمالية الديمقراطية أكثر مما يعتمد على قوته الحربية .

وقد أعلن الرفيق كالنين رئيس الاتحاد السوفييتي في ١١ مايو ، وأعلن سفير الاتحاد السوفييتي في الولايات المتحدة الأمريكية في ٢٥ أغسطس ١٩٣٨ أن الاتحاد السوفييتي غير ناكل عن تنفيذ عهوده لفرنسا وتشكوسلوفاكيا بنصها وروحها ، ولكن هذا القول لم يلقَ أذناً واعية . فلما استغلظت الأزمة بعد ذلك في النصف الأول من سبتمبر ، اقترح الاتحاد السوفييتي في جنيف أن يقوم هو وبريطانيا وفرنسا بعمل مشترك لمصلحة التشك وأن تطبق المادة ١١ من ميثاق عصبة الأمم ، بيد أن بريطانيا وفرنسا وقَرَت آذانهما عن استماع هذا الصوت مرة أخرى .

مؤتمر ميونخ

وعقدت ألمانيا وإيطاليا وبريطانيا وفرنسا مؤتمراً رباعيًّا في ميونخ ، مغفلين دعوة الاتحاد السوفييتي اليه ليحبطوا بذلك سياسة التعاون بينه وبين الدول الغربية ، وقد داست بريطانيا وفرنسا على عهدهما لتشكوسلوفاكيا وأبتا أن تحاربا من أجلها متآزرتين مع الاتحاد السوفييتي . وطابت أنفسهما أن يقدما ، عربوناً لصداقة ألمانيا المنشودة ، حليفتهما الصغيرة التي كانت بجبالها البوهيمية وتحصيناتها الحديثة وتسليحها الكامل ، سياجاً منيعاً يحول بين ألمانيا والتقدم نحو الشرق .

وتسلَّمَ الجيش الألماني خط التحصينات العظيم المشيد على صورة خط ماجينو واطلعوا

فيه على كل أسرار خط ماجينو . قال موريس توريز في خطبة له «إن يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٣٨ سيكون في التاريخ ذكرى مخجلة لأفظع خيانة للشعب الفرنسي ، ارتكبتها حكومة جمهورية تحوه ونحو السلام والديمقراطية .... إن أولئك الذين كانوا يصلوننا نار الحرب ونحن نقاوم أخطاء معاهدة فرساي وما يمكن أن ينجم عنها من أخطار قد راحوا اليوم يؤيدون هتلر ويقرّون مطالبه . إن تشمبرلن يريد أن يجعل من هتلر حارساً لأوربا الرأسمالية الجديدة في وجه الطبقة العاملة والاتحاد السوفييتي . ألا فاسمعوا ما تقوله جريدة لجور ، تقول : إن مزية هذا الاجتماع الأساسية هي أن الاتحاد السوفييتي قد حرم حقّ الاشتراك فيه ، ولن يكون أكثر من هذا العمل لأبعاد الاتحاد السوفييتي عن أوربا ورجعه الى آسيا والى نضالاته الداخلية » .

لقد تردّت فرنسا في حضيض الخزي والاستكانة إذ أظهر وزير خارجيتها بونيه استعدادها للتخلي لألمانيا عن نفوذها في شرق أوربا وأقرّ فون ربنتروب على أن الاتفاق الذي عقدته هي والاتحاد السوفييتي إن هو الاّ « استمرار لسياسة فرساي التطويقية » .
أما بريطانيا فقد كانت ما تزال في غفوتها سعيدة بحلمها اللذيذ أن هتلر لا يريد أكثر من أن يعيد سائر أبناء «شعب السادة» Herrenvolk الى أحضان بلاده ، يسيطر عليها أعتقادها المريح بأن « السلم يسود وقتنا هذا » . وهكذا ألفى الاتحاد السوفييتي نفسه في خريف ١٩٣٨ بلا حلفاء ، وكان الخطر محدقاً به ، فلم يستطع أن يفعل لتشكوسلوفاكيا شيئاً .
وحرّكت « ميونخ » شهية ألمانيا إلى أن تزدرد دولاً جديدة ، واحدة بعد أخرى ، على أن يسوى الأمر في ميونخ ثانية وثالثة ، فأخذت ترفع الصوت عالياً مطالبة بما كان لها من مستعمرات وطفقت تتحدث عن أكرانيا وتبذل نشاطاً خبيثاً بين الاكرانيين الذين انفطتهم الثورة الى برلين . بل إن إيطاليا نفسها ملأت الجو بعواء «أبناء آوى» تطالب بأن تمنح إقليم سافوا وجزيرة كورسيكا وتونس وامتيازات في قناة السويس،وبأن تنزل فرنسا لها عن سكة حديد أديس أبابا — جيبوتي . على أن الأمر لم يقف بالألمان عند حد الاحاديث، فقد تحرّك الجيش الألماني في منتصف مارس ١٩٣٩ واجتاح ماكان قد بقي من دولة التشك ، فبدّد ضجيج دباباته في براج أحلام النائمين في لندن وباريس. حتى إذا ما أتم الفيرر Führer ابتلاع

تشكوسلوفاكيا كما افتضح الميونيخيون الذين كانوا يتشدّقون بأن الحل الذي جادت به ميونخ ظفر لسياسة « المنطق والروية » ، فأخذوا يعصرون أعينهم ويجاهرون بأن عهود هتلر إن هي إلاّ قصاصات من الورق لا وزن لها ولا يصح بعد أن يركن اليها . ومع ذلك وقف سير جون سيمون ، أسوأ من ولى وزارة الخارجية البريطانية ، في مجلس العموم يوم ١٥ مارس وهو اليوم الذي اغتصبت فيه براج ، وطفق يندد بسياسة الضمان الجماعي الذي كان هو المخلّص الوحيد مما وقعت فيه أوربا الديمقراطية . ولم يدع هتلر الوقت يمر سدًى ، بل وجه الى رومانيا إنذاراً بأن تبيع من ألمانيا كل ما تنتجه من زيت الوقود ومن المواد الغذائية، على أن تأخذ في مقابله مصنوعات ألمانية ، ويطلب اليها أن تقصر جهودها على إنتاج المواد المطلوبة منها وأن تتخلى عن كل مسعى لأن تكون دولة صناعية ، ويعدها في مقابل قبول هذه الطلبات بأن « يضمن حدودها » ، وذلك يعني في لغة المغتصبين أنها إن أبت أضحت حدودها بلا ضمان .

وذهب سفير بريطانيا لدى موسكو في ١٨ مارس ١٩٣٩ يبلغ الحكومة السوفييتية أن لدى دولته من البواعث ما يحملها على الخوف من أن تهاجم ألمانيا رومانيا ويسألها ما عسى أن يكون موقفها بإزاء هذا التهديد ؟ فكان جوابها أن قدّمت مقترحاً يشبه المقترح الذي قدّمته عقب غزو المانيا للنمسا في مارس ، والذي لو قبلته بريطانيا وفرنسا لما كان ثَـمَّ ميونخ ، كما أنه يشبه المقترح الذي قدَّمته عند ما احتدمت الأزمة التشكوسلافية فكان نصيبه الردَّ . كذلك اقترح الاتحاد السوفييتي في هذه المرة أن يعقد ببخارست في الحال مؤتمر سداسي يضم ممثلي بريطانيا وفرنسا وبولونيا ورومانيا وتركيا والاتحاد السوفييتي للنظر في الأمر والبتّ فيه .

لو أن هذا المقترح ظفر بالقبول لما كانت الحرب في تلك السنة لأن هتلر كان مصرًّا على أن يتجنب الحرب في جبهتين كما ثبت ذلك من تصرفاته التالية ، إذ أنه لم يشن الحرب على الاتحاد السوفييتي إلاّ بعد أن سدّ الطريق اليه بافتتاح البلقان وكريت وبالاتفاق مع تركيا . وقد استمرَّ بعد ذلك يحارب في جبهة واحدة هي الجبهة الروسية ، فاذا حدث بعد ذلك أن وقعت حرب في جبهة ثانية فسيكون ذلك نتيجة شيء واحد هو سوء تقديره لقوة الاتحاد

السوفييتي) ، ولـكن مستر تشمبرلن كان ما يزال راغباً في إطلاق يد المانيا في الشرق ، فلم يقبل هـذا المقترح زاعماً أن المؤتمرات تستغرق وقتاً في حين أن الأمر يحتاج الى سرعة في العمل ، ولذلك اقترحت بريطانيا أن تدلي هي وفرنسا والاتحاد السوفييتي وبولونيا بتصريح مشترك . فاذا كان يتضمنه ذلك التصريح ؟ لقد كان يتضمن — على ما نشرته التيمس في ٢٣ مارس — « اتفاقاً على المشاورة إن حدث ما يدعو اليها » وهو تصريح رنّان ولـكنه لامعنى له ، بل هو يعني إعلان أن بريطانيـا لا تنوي أن تفعل شيئاً . ومع ذلك أبدى الاتحـاد السوفييتي رغبته في أن يوقع على هذه الوثيقة رؤساء الوزراء ووزراء الخارجية ، بيد أن الحـكومة البولونية ، أبت أن يوقع ممثلوها على أية وثيقة تحمل توقيعات زعماء الحـكومة السوفييتية ، وهكذا اخترم الموت هذا المسعى ساعة ميلاده . وذاقت بولونيا ثمار حماقتها بعد أشهر معدودات .

وقد رأت الحـكومة السوفييتية أن تحاول التفاهم مع الدول الديمقراطية مرة أخرى ، فاقترحت في ١٧ أبريل أن تعقد هي وبريطانيا وفرنسا ميثاقاً ثلاثيـاً لمقاومة الاعتداء حيث يكون ، فتجاهلت بريطانيا هذا المقترح .

ورأت المانيا أن تدعم مركزها بالعودة موقتاً الى سياسة فيمـر الذهبية[1] ، سياسة التعاون مع الاتحاد السوفييتي في الشؤون الاقتصادية والسياسية ، وانصرفت عن التغرير ببولونيا وحفزها الى اقتطاع قسم من أكرانيا . وعرضت على الاتحاد السوفييتي في أوائل سنة ١٩٣٨ أن تعقد معه معاهدة تجارية تقرضه بمقتضاها ٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ مارك فأبى ، فأعادت المانيا اليه مقترحها معدلاً في أواخر تلك السنة .

وأراد الاتحـاد السوفييتي أن يحـذّر بريطانيا وفرنسا التحذير الأخير فأعلن مفوض الشعب للشؤون الخارجية أمام مجلس السوفييت الأعلى (البرلمان) في ٣١ مايو ١٩٣٩ أن بلاده على وشك أن تدخل مع المانيا في مفاوضات . ولـكن الدولتين الرأسماليتين لم تستطيعا أن تتصورا أن هتلر سيوجه اليهما ها ضربته الأولى ، وحسبا أن البلاشفة يقومون بمداورات يبغون بها رفع ما يتقاضون من ثمن ، فوضعا أصابعهما في آذانهما وأصرّا على تجاهل دعوة الاتحاد السوفييتي إياهما الى محالفته ، كما أنهما لم ييأسا من إمكان التفاهم مع المانيا وايطاليا .

(١) وهي المدينة التي وضع فيها الدستور الالماني بعد الحرب العالمية الاولى

مفاوضة بريطانيا
والاتحاد السوفييتي

بيد أن الشعب الإنجليزي ثارت ثائرته وأكره وزيره الأول على أن يفاوض الاتحاد السوفييتي لتنظيم جبهة سلام عملية في وجه الاعتداء . على أن الوزير لم يكن يريد أن يصل الى نتيجة ، ولهذا اختار لتمثيل بلاده موظفاً صغيراً وزوّده بأسوأ النصائح والإرشادات. اقترح ممثلو الاتحاد السوفييتي إقامة جبهة منه ومن بريطانيا وفرنسا وكذلك من بولونيا إن أمكن ، على أن تقدم كل من هذه الدول مساعدتها للأخريات . فأما بريطانيا فقد تحامت الإشارة الى المساعدة المتباذَلة وطلبت الى الاتحاد السوفييتي أن يبادر الى إنجاد بريطانيا وفرنسا إذا اشتبكتا في حرب تحقيقاً لضمان استقلال بولونيا ورومانيا ، دون أن تشير الى أنهما هما أيضاً تقومان بمساعدة الاتحاد السوفييتي إذا اشتبك في حرب تحقيقاً لضمان استقلال دول أوربا الشرقية ، وبذلك ، كما قالت صحيفة إزفستيا ، « نرى أن الاتحاد السوفييتي لن يكون — نتيجة للمقترح البريطاني — على قدم المساواة مع بريطانيا وفرنسا . وهنالك أمر على جانب كبير من الخطر ، ذلك أن الرد على الاعتــداء سيكون منوطاً بقرار من بريطانيا وحدَها، أو من فرنسا وحدَها ، مع أن الاتحــاد السوفييتي — بسبب وضعه الجغرافي — هو الذي سيتحمل عبء العمل في هذا الرد » .

***

وقد نشرت صحيفة برافدا في ٢٩ يونيو مقالاً هامًّا بقلم زدانوف Zhdanov رئيس لجنة الشؤون الخارجيــة بالبرلمان السوفييتي والسكرتير باللجنة المركزية للحزب الشيوعي ، تضمن إنذاراً صريحاً لحكومات الدول الديمقراطية الغربية ، وقد أوضح فيه أن البريطانيين والفرنسيين ليسوا خالصي الرغبة في عقد ميثاق بالمساعدة المتباذَلة ومقاومة الاعتداء الفاشي مقاومة حقة ، وذكر أنه من بين الخمسة والسبعين يوماً التي استغرقتها المفاوضات ١٦ يوماً

قضاها الاتحاد السوفييتي في إعداد أجوبته ومقترحاته في حين أضاع الفرنسيون والبريطانيون ٥٩ يوماً . واتهم حكومتيهم بأنهما تريدان عقد ميثاق ذي ناحية واحدة ، يلزم الاتحاد السوفييتي بمساعدتهما عند الحاجة دون أن يقيدهما بتقديم أية مساعدة في مقابل ذلك «وهو ميثاق لا يمكن أن توقع عليه دولة تحترم نفسها » .

***

وقد علق لويد جورج في جريدة سنداي اكسبريس على سير المفاوضات ، فقال في عرض كلامه « تسير مفاوضاتنا مع روسيا منذ ٤ أشهر متلكئة ، وهي تبدو الآن بعد هذا الزمن الطويل أسوأ مما كانت حين ابتدأناها ... والحقيقة التي أراها أن مستر تشمبرلن ولورد هليفكس وسير جون سيمون يكرهون الاتفاق مع روسيا . ولولا ذلك لما أشخصوا للمفاوضة كاتباً من كتبة وزارة الخارجية . وقد كان على مستر تشمبرلن أن يقصد بنفسه الى موسكو لعقد الاتفاق ، وإنه لموفور النشاط جم الحركة ، سافر قبلُ ٣ مرات الى ميونخ وتوجه بالزيارة مرة الى موسوليني ليبشره بالاعتراف بفتحه للحبشة وليطمئنه على مصير إسبانيا ، فلِمَ لا يسافر بنفسه الى روسيا ولِمَ لا يسافر لورد هليفكس أيضاً ؟ » .

وقد اقترح البلاشفة على بريطانيا أن ترسل اليهم بعثة حربية ، وكانت أزمة دانتسيج تتفاقم باطراد وكانت سائر الأحوال والملابسات تجعل إرسال هذه البعثة في التو أمراً لا مندوحة عنه ، غير أن البعثة لم تخف للسفر الا في ٥ أغسطس ثم إنها انتخبت لرحلتها أطول الطرق حتى إذا ما ألقت رحالها تبين أنها لا تملك حق البت في أي أمر ، ومن ثمَّ كان عليها أن تتصل بحكومتها في كل ما يعرض لها ثم تنتظر تعليماتها .

وانتهى الأمر بأن أبت حكومة بولونيا أن تقبل أي ميثاق يُبيح للجيش الأحمر أن يساعدها فوق أراضيها ، وأعلنت الحكومة البولونية أن بولونيا مستعدة وقادرة على أن تقاوم أي اعتداء ألماني دون مساعدة السوفييت .

***

بذل الاتحاد السوفييتي حتى ربيع ١٩٣٩ كل ما وسعه في سبيل السلم ، لا يثنيه عن

ذلك ما تواجه به مساعيه من ردٍّ مهين وجحودٍ شائن . لقد رزئت الدول الديمقراطية (أو البلوتوديمقراطية كما كان يسميها هتلر إشارة الى أنها محكومة برأس المال) في السنوات السابقة للحرب بساسة حمقى وغيرت صدورهم على الاتحاد السوفييتي فطمست السخيمة على قلوبهم فقصروا عن إدراك مرامي الفاشية وكلّت أبصارهم عن رؤية الخطر الزاحف على بلادهم فلبثوا يشهدون في شبه غيبوبة مصرع الديمقراطية في أوربا ، ويرون في هدوء جمهوريات النمسا وتشكوسلوفاكيا وإسبانيا تسقط صريعة تحت أقدام أولئك الطغاة ، العاملين على بسط سلطانهم على العالم أجمع .

***

تفاقم قلق الكرملين في سنتي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ فإن الميثاق الذي عقدته ألمانيا واليابان في نوفمبر ١٩٣٦ قد انتظم إيطاليا أيضاً في السنة التالية ، وظلّ الداعون الى مصادقة المحور يزعمون أن هذا الحلف لم يبدّل من حالة أوربا شيئاً ، ويصمّون آذانهم عما أنذرهم به البلاشفة من أن هذا الميثاق المعادي للكومنترن ينطوي على تحالف مناوىء لبريطانيا وفرنسا . وقد استبدلت بوزارة الجبهة الشعبية في فرنسا وزارة راديكالية . وأخذت معركة الصين تدور في غير مصلحة حليفة الاتحاد السوفييتي . وقد سعى مستر تشمبرلن في ميونخ ، هو ومن معه من أنصار التهدئة ، لا في أن يقهروا التهديد الألماني ، بل في أن يحوّلوا اتجاه مجراه من الغرب الى الشرق ، وفي أن يمهدوا السبيل لاشتراك بريطانيا في شنّ الحرب على الاتحاد السوفييتي الى جانب ألمانيا ،

***

وقد أبى البلاشفة أن يحالفوا الناتسي على الدول الديمقراطية ، فأما هذه فما فتئت تأبى العمل مع البلاشفة وتسعى الى إحباط جهودهم في سبيل الضمان الجماعي ، وظلت مستمسكة باعتقادها أنها تستطيع أن توجّه جيوش الفاشيين نحو الاتحاد السوفييتي بعد انتهائها من ابتلاع الشعوب الصغيرة . ولم يكفّوا عن مكاشفة الاتحاد السوفييتي بالعدوان حتى بعد أن كبت الناتسي عواطفه وسارع الى الاعتراف بحدود الاتحاد السوفييتي .

ميثاق عدم الاعتداء

يئس الاتحاد السوفييتي من الحلفاء بعد أن ظلوا يقابلون مقترحاته بالزراية والاحتقار وعلم أن الاستمرار في اتباع سياسة الضمان الجماعي التي لاقت خيبة مستمرة من سنة ١٩٣٤ الى ١٩٣٩ ، يعرّضه للاصطلاء بنار حرب صليبية يقف فيها وحيداً ويتألب عليه الجميع ، فلم يجد بدّاً من اهتبال الفرصة الأخيرة للتنكب عن طريق الحرب في هذا الطور من التاريخ الذي كانت الحرب الاستعمارية فيه موجهة الى الدول الديمقراطية التي أبت في إصرار أن تبسُط يدها اليه ، ولاتقاء خطر تحويل سكة حديد الحرب الى بلاده . لذلك أقدم على مفاوضة ألمانيا ، وكانت مفاوضة سهلة يسيرة قوي فيها مركزُه بوجود وفد بريطانيا في موسكو . ولم يكن الألمان يريدون من الاتحاد السوفييتي غيرَ الحياد ، وكان الاتحاد السوفييتي منذ نشأته على استعداد لعقد مواثيق بعدم الاعتداء مع كل دولة ترغب في ذلك . وهكذا أمضت الدولتان ميثاق عدم الاعتداء في ٢٤ أغسطس ١٩٣٩ وبذلك بدأت فترةٌ جديدة في حياة الاتحاد السوفييتي .

وارتجت الدول الرأسمالية الديمقراطية من هول الصدمة ، وهبتِ من سباتها وقد طرقت الحرب عليها الأبواب لتذيقها ثمار سياستها .

وقد أوضح مولوتوف الموقف في ٣١ أغسطس ١٩٣٩ بين يدي مجلس السوفييت الأعلى إذ كان يطلب اليه إقرار ذلك الميثاق ، فقال « ولما كانت المفاوضات (مع الحلفاء) قد أظهرت استحالة قَبولهم عقد ميثاق للمساعدة المتبادَلة ، لم يسعْنا إلاّ أن نبحث عن وسائل أخرى ممكنة لتأمين السلم ولإزالة خطر اشتباك ا . ج . س . ا في حرب مع ألمانيا ، فإذا كانت حكومتا بريطانيا وفرنسا تأبيان الاعتراف بذلك فهما وشأنهما . أما نحن فواجبنا أن نفكر في مصالح ا . ج . س . ا ولاسيما أننا مقتنعون اقتناعاً راسخاً بأن مصالح ا . ج . س . ا تطابق مصالح شعوب البلدان الأخرى » .

لم يتخلَّ الاتحاد السوفييتي بعقده هذا الميثاق عن شيء من مبادئه الماركسية — اللانينية ،

كما أنه لم يحد بالتزام الحياد الدقيق عن خُطته في تأييد الشعوب التي يُعتدى عليها (كما أيد الأسبانيين الجمهوريين على الألمانيين والايطاليين وصنائعهم) وكما أيد الصينيين على اليابانيين ولم يكفّ عن تأييدهم حتى بعد أن عقد مع اليابان ميثاقاً بعدم الاعتداء، وكما أبدى استعداده لتأييد التشك على الألمان إذا وفت فرنسا بالتزاماتها نحو تلك الحليفة الصغيرة).

ولا يدل وضع مولوتوف على رأس مفوضية الشعب للشؤون الخارجية في المكان الذي كان يشغله لتفينوف — على الانثناء عن الاتجاه السياسي السابق، فليس الاتحاد السوفييتي كالدول الرأسمالية يستطيع كل وزير أن يجري فيها على سياسته الخاصة أو سياسة الكتلة التي ينتمي اليها، بل إن مفوضية الشعب للشؤون الخارجية تتبع السياسة التي تضعها الحكومة السوفييتية والحزب الشيوعي. وإنما كان هذا الحياد أمراً عارضاً اقتضته الملابسات السياسية الطارئة وحاجة البلاد الى «مهلة للتنفس» فهو لا يعني الأخلاد الى السلم بل لعله أن يعني التأهب للحرب. وإنه لمن الخطأ أن يُقال إن الاتحاد السوفييتي قد شايع ألمانيا بعقد هذا الميثاق، كذلك كان من الخطأ أن يقال إنه كان يشايع بريطانيا حين كان ينشد الضمان الجماعي وإنما الحق أنه كان ولا يزال يشايع شعبه ومبادئه وحدها.

لقد أظهر عقدُه هذا الميثاق يقظة السياسة السوفييتية وحماقة الساسة الديمقراطيين، أولئك الذين أبوا أن يحالفوا الاتحاد السوفييتي متجافين عن كل ما لهذا التحالف من المزايا التي اهتبلها منافسوهم الفاشيّون.

وقد تجرّم منذ عُقِد هذا الميثاق سنوات عِدّة، ففي مقدورنا الآن أن نحكم على نتائجه حكماً منزهاً عن الهوى:

(١) ربح الاتحاد السوفييتي بقاءه بعيداً عن لظى الحرب ١٨ شهراً، ولولا انهيار فرنسا وحلفائها ذلك الانهيار السريع الذي لم يكن يتوقعه أحد، لامتدّ وقوفه بعيداً عن الحرب زمناً بعيداً. وقد أكمل الاتحاد السوفييتي في هذه الفترة تأهّبه لملاقاة الغزو الألماني، فان ميثاق عدم الاعتداء لم يُزحزح الجيش الأحمر عن شعاره «كن دائماً على أهبة؟».

وقد زاد الاتحاد السوفييتي عدد ساعات العمل اليومي واختزن ما يحتاج اليه من المواد ولاسيما ما يستورده من الخارج، ونظم اقتصاده تنظيماً أكثر ملاءمة لأوقات الحرب.

(٢) أحسنت القيادة الحربية السوفييتية مراقبة الأسلحة والخطط الحربية الحديثة التي استخدمها الجيش الألماني في غزو بولونيا والأراضي الواطئة وفرنسا، فأعدّت من الخطط الدفاعية ما يصلح لإحباطها (وذلك على نقيض ما فعل الجيش الفرنسي الذي لم يقتبس علماً من غزوة بولونيا، وركن الى الزعم بأن انهيار بولونيا إنما كان من فساد الجيش البولوني وانحلاله لا من تقدم الفن الحربي الألماني وارتقائه.

(٣) ضمن ا. ج. س. ا. اضطرار أمريكا الى خوض غمار الحرب في زمن مبكر بعض الشيء حتى لا تضيع الفرصة الأخيرة لإنقاذ بريطانيا كما أضاعتها مع فرنسا. وضمن أن تكون سائر الديمقراطيات في صفه عند ما يحين لألمانيا أن تنتهك حرمة الميثاق المعقود بينهما وتنقضّ على بلاده.

ولو أنه أبى أن يعقد هذا الميثاق لبدأت ألمانيا بحربه، فقدكانت الحرب ضرورة ماسةً لهتلر، وكان من الميسور له في تلك الحالة أن يظفر بمحالفة الدول الديمقراطية، تلك الدول التي ظلت ٥ سنوات تأبى أن تعقد ميثاق الضمان الجماعي من المعتدي، والتي أثبتت في كل فرصة أنها تتربص بالاتحاد السوفييتي شرًّا. ويجب ألاّ ننسى كذلك أن الحرب في الجبهة الغربية قد ظلت بعد انهيار بولونيا ٨ أشهر في فترة هدنة حقة كان من الميسور لهتلر والدول التابعة له أن يحاربوا خلالها. ا. ج. س. ا. وحده في حين يظل كل شيء هادئاً في الميدان الغربي.

(٤) وقد انتهز الاتحاد السوفييتي فرصة خلوّ الدول العظمى للحرب وتوطد نية ألمانيا على ألا تحارب في جبهتين، فأزال حاجز كليمنسو الصحي الذي ضربه الحلفاء حوله، واستردّ الولايات ذات الخطر الاستراتيجي العظيم، فتلقت عنه الصدمة الأولى المباغتة بدل أن تتلقاها لنينجراد، وموسكو، وستالينجراد، فكانت تلك الولايات رصيفاً تكسرت عليه أمواج الهجوم الألماني الخاطف، كما انها منحت الاتحاد السوفييتي بعض الوقت اللازم لاتمام التجنيد العام، وأتاحت له فوق ذلك أن يعيد الى أحضانه ٢٣٫٠٠٠٫٠٠٠ من أبنائه المشردين ليحاربوا معه بدل أن يساقوا الى محاربته.

غرب أكرانيا

لا شرق بولونيا

وينبغي لنا بهذه المناسبة أن نوضح ما قد يكون ملتبساً على بعض الناس في هذا الشأن:
ما كاد الجيش الألماني يجتاح بولونيا الأصلية ويقضي القضاء المبرم على جيشها ويلجىء حكومتها الى التأهب للفرار ، تلك الحكومة نصف الفاشية التي أبت في عناد أن تقبل أية معاونة من الجيش الأحمر، حتى بادر الجيش الأحمر في ١٧ سبتمبر ١٩٣٩ فاستعاد منها أكرانيا الغربية وروسيا البيضاء الغربية ، وهما اللتان كانت قد اغتصبتهما من بلاده ، كما أعاد الى لاتفيا البلاد التي كانت بولونيا قد اغتصبتها منها .

وسكان هذين الإقليمين من الروس البيض والأكرانيين (وبينهم عدد كبير من اليهود) لا تربطهم ببولونيا رابطة جنسية أو لغوية أو دينية، ولا تسمح العدالة ولا حق تقرير المصير بضمهم اليها، ولا يقر الضمير الإنساني الحر إبقاءهم في ربقتها . وقد استولت بولونيا على معظم هذه البلاد عقب الحرب مع الجمهوريات السوفييتية (وهي الحرب التي اعتصب فيها حمالو ميناء لندن عن شحن الباخرة جورج الفكه jolly George بالأسلحة التي أريد إرسالها الى الجيش البولوني بمقتضى معاهدة ريجا التي عقدت في مارس ١٩٢١ . وظل سكان تلك البلاد ١٨ عاماً يتحملون — بوصفهم أقليات قومية — الإرهاق والعسف من حكومة نصف فاشية ويتعرّضون للسلب والنهب من الإقطاعيين البولونيين الذين هم أجانب عنهم . وقد ذكر لويد جورج في كتابه « الحقيقة عن معاهدات الصلح » الصادر سنة ١٩٣٨ أن مذابح البولونيين قد بلغت في جاليسيا الشرقية سنة ١٩٣٠ (على أثر اشتداد أزمة سنة ١٩٢٩) — ولا سيما في اليهود — مبلغاً أثار ثائرة الشعب البريطاني ، وأن المذابح قد استفحلت بعد موت مارشال بلسودسكي في مايو ١٩٣٥ . وكتبت صحيفة منشستر جارديان في ١٠ اكتوبر ١٩٣٨ تقول : « تجري تهدئة pacification أخرى في أكرانيا البولونية منذ أوائل الربيع

المبكر . ففي خريف ١٩٣٠ هدّأت أكرانيا البولونية بسريّات من الخيالة البولونيين والشرطة الراكبة كانوا ينتقلون من قرية الى أخرى فيلقون القبض على الفلاحين ويضربونهم ويدمرون ممتلكاتهم . وبلغ عدد من ضربوا هذا الضرب آلافاً عدّة . أما في هذه المرة فإن التهدئة تتخذ طرقاً أخرى ، تتخذ صورة حملة عامة مستمرّة على التشكيلات الأكرانية السياسية والتعليمية والاقتصادية » .

***

وقد ظلّ الاتحاد السوفييتي مع هذا كله لا يحرّك ساكناً ، حتى امّحت بولونيا من الوجود ، فتقدّم لاستعادة بلاده المغتصبة المعذبة . وإن « قانون الضرورة » الذي طالما استندت اليه الدول الأخرى في تسويغ أعمالها ، ليسوّغ للمرء أن يدخل بيت جاره لإطفاء النيران قبل أن تلتهم بيته هو أيضاً ، أما هذه الولايات فلم تكن ملك جاره لأنها أقاليم روسية أكرانية، ولأن ذلك الجار كان قد فارق الحياة . وهذا ما سلّم به ونستون تشرشل ، وكان وزيراً للبحرية ، في حديث أذاعه بالراديو في ٢ اكتوبر ١٩٣٩ إذ قال : « . . . أما الحادث الثاني في هذا الشهر فهو إثبات روسيا لمقدرتها ، فأنها قد اتبعت سياسة المنفعة الخاصة . . . ولكن وقوف الجيوش الروسية على هذا الخط كان بالبديهة ضرورياً لتأمين روسيا من التهديد النازي . وعلى أية حال فها هو ذا الخط الروسي هناك . تقوم عليه جبهة شرقية لا يجسر الألمان النازيون على اقتحامها .

. . . عند ما دعي فون ربنتروب الى موسكو في الأسبوع الماضي كان ذلك لكي يفهم ويقبل الحقيقة التي هي أن خطط النازي المرسومة في بلاد البلطي وأكرانيا قد قضى عليها أن تضمحل وتزول . . . ولا يمكن أن يتفق مع مصلحة روسيا وسلامتها ترسيخ ألمانيا النازية لقدمها على شواطىء البحر الأسود ولا اجتياحها دول البلطي وإخضاعها الشعوب الصقلبية في جنوب أوربا الشرقي . وهكذا . . . أعلن في هذا المساء اقتناعي بأن الحادث الكبير الثاني في أول شهر من أشهر الحرب هو أن هتلر وكل ما يمثله هتلر تلقى إنذاراً واضحاً بالابتعاد عن شرق أوربا وجنوبها الشرقي » .

ولقد اختار الجيش الأحمر أصلح الساعات للعمل ، فلو أنه تقدّم ولو ٢٤ ساعة ، لكان

في ذلك مساعدة محسوسة للجيش الألماني ، ولو أنه وَنَى ولو ٢٤ ساعة لسبقه الجيش الألماني الى الاستيلاء على تلك البلاد وتاخم حدود أكرانيا التي ما أكثر ما تغزّل فيها هتلر في كتابه « كفاحي » .

ولقد كان في حرمان الجيش الألماني من خيرات تلك البلاد ومن سواعد أبنائها نفع عظيم لبريطانيا وحلفائها ، بيد أن وزارة تشمبرلن أعلنت تحالفها مع حكومة بولونيا المهاجرة في الوقت الذي كانت فيه هذه الحكومة تصرّح أنها في حالة حرب مع الاتحاد السوفييتي .

***

ومن المدهش أن عدداً من أبناء الامبراطورية التي تكوّنت من ضم الأراضي اليها ، أولئك الذين ما فتئوا منذ ٢٠ عاماً يقرفون الاتحاد السوفييتي بكل ما يخطر بالبال من التهم، قد كشفوا فجأة أنه يخطف الأراضي ويتعامل على نمط الدول الرأسمالية ، وأنهم زعموا أن استرداده لما سلب منه قبلاً إنما هو وليد تواطؤٍ شامل بينه وبين ألمانيا . فهل هذا حق ؟ لنقرأ البرقية التالية :

« لندن في ١٣ أكتوبر ١٩٣٩ : تنشر الصحف الألمانية اتهامات عن ارتكاب الروس فظائع بالجملة في المناطق التي احتلها السوفييت في شرق بولونيا ، إذ يزعمون أن مئات من القسس قتلوا وأن ألوفاً من المستنيرين وأصحاب الأطيان أهلكوا .

وتقول رسالة من أمستردام أن لهجة جميع الصحف الألمانية تشف عن العداء لروسيا وأن انزعاج الألمان من توغل الروس نحو الغرب يزداد بسرعة وبصورة جلية واضحة » .

لا ريب أنه قد أصبح من الواضح أن هتلر قد صدم صدمة قوية إذ وجد أول مرّة في حياته قوة لا ترهبه ولا تخشاه بل تستطيع أن ترغمه على أن يتجافى عن قسم من أرباحه ومطامعه . ومع ذلك فقد عرفت الإذاعة الألمانية كيف تستغل الحالة لإلهاب مخاوف البريطانيين من أن يكون لميثاق عدم الاعتداء ملحق سري يجعل منه محالفة عسكرية ، فتمادى أعداء الاتحاد السوفييتي في بريطانيا وفرنسا يشنون التهم على رأسه .

الاتحاد السوفييتي يصحح حدوده

الحرب الفنلندية

ولم يلبث الاتحاد السوفييتي دون أن سوّى مسألة دويلات البلطي على نحو مسيء جداً لألمانيا ، التي وجدت نفسها مكرهةً على أن تجلب رعاياها من هذه الدويلات لتخليها للدولة التي تنافسها في حلبة السياسة وتعاديها في ميدان النظام الاجتماعي .

وقد كان انضمام هـذه الدويلات الى الاتحاد السوفييتي مادياً شرعياً ، إذ ظفرت الأحزاب الشيوعية فيها بكثرة أصوات الناخبين وشكلت حكومات أعلنت النظام الشيوعي بموافقة المجالس النيابية ، ثم قدَّمت طلبات بأن تنتظم في سلك الاتحـاد السوفييتي فوافق الاتحاد . أنظر البرقية التالية :

« لندن في ٢٢ يوليو ١٩٤٠ : تقول الأنباء الواردة من تالين وكَوْناس وريجا إنه قامت مظاهرات حافلة تأييـداً للقرارات التي اتخذتها المجالس النيابيـة في إستونيا ولتوانيا ولاتفيا بالانضمام الى الاتحاد السوفييتي » .

ومع أن الحـكومة البريطانية قد أبت قبلُ أن تكفـُلَ اسـتقلال هذه الدويلات (من الخطر الألماني) ومع أنه لم يكن لها فيها نفوذ يُـذكر ، فقد رأى تشمبران أن ينتهز الفرصة فيستصفي ما في بلاده من ذهب هذه الدويلات وسفنها . ولم يَـجُـل بخَـلَـد الحكومة البريطانية أن تعدل عن هذا الموقف إلاَّ منذ ٢٢ اكتوبر ١٩٤٠ إذ قدم سفيرها لدى موسكو سير ستافورد كريبس مقترحات معتدلة بعض الاعتـدال ، إلاَّ أنه ما كاد يقدمها حتى استصفت الحـكومة البريطانية ١٣ سفينة سوفييتية أخرى .

ويمّم الاتحاد السوفييتي بعد ذلك شَـطر الحـكومة الفنلندية نخاطبها في أمر حدودها المشتركة التي فُـرضت عليه حين نهكته الحرب والمجاعة ، تلك الحدود التي تهدد ميناءه العظيمة ومركز صناعته الهامّ لنينجراد تهديداً خطيراً لقرب ما بينهما . وقد أشار مولوتوف في بيانه الذي ألقاه في ٢٠ مارس ١٩٤٠ أمام مجلس السوفييت الأعلى الى قول التيمس في سنة ١٩١٩

« إذا ألقينا نظرة على المصوّر الجغرافي وجدنا أن خير منفذ الى بتروجراد هو من البحر البلطي وأن أقصر السبل وأيسرَها هو من فنلاندا التي لا تبعد تخومها عن عاصمة روسيا إلاّ ٣٠ ميلاً ، ففنلاندا هي مفتاح بتروجراد وبتروجراد مفتاح موسكو »

على أن فنلاندا التي تُربي رؤوس الأموال الأجنبية فيها على أربعة أمثال رؤوس الأموال القومية ، والتي لم تكن هي في واقع الأمر أكثر من مستعمرة لشتى الدول المعادية للاتحاد السوفييتي وبخاصة لألمانيا التي يفرض أسطولُها سيطرته على البحر البلطي ، فنلاندا التي استعانت سنة ١٩١٨ بالجيش الألماني على سحق الثورة في بلادها والتي دعت ذلك الجيش الى أن يتخذ من بلادها متبوّأ للزحف على أراضي الاتحاد السوفييتي . والتي أظهرت أنها لا تتورّع عن إعادة تمثيل هـذه المأساة كلما تاحت لها الفرصة ، فنلاندا التي ما فتئت تسيّر سياستها الخارجية وفق هوى فلهلم شتراسه [1]

فنلاندا التي أثبتت محاكمةُ بعض الجواسيس أن سفارتها لدى موسكو كانت بريداً لهؤلاء الجواسيس ، تنقل رسائلهم في حقيبتها السياسية الى مراكز الجاسوسية في بلادها ، تلك المراكز التي أنشأتها بعض الدول لتدير منها أعمال التجسس والتخريب الصناعي والاقتصادي في بلاد الاتحاد السوفييتي ، فنلاندا هـذه أخذت تمطل وتمطل في المفاوضة حتى نالت من الدول الحامية لها بعض المعونة الحربية وحتى حلّ الشتاء بزمهريره القارس في تلك الأصقاع القطبية التي يتخللها ما لا عداد له من البحيرات الصغيرة والمستنقعات والغابات مما يتعذر معه قيام الحركات الحربية في ذلك الفصل من تلك السنة ذات القُرّ الذي لم تسجّل المراصدُ مثله من قبل . وتقدّمت الحكومة السوفييتية آخر الأمر الى قائد منطقة لنينجراد بأن يدمّر خط مَنَرْهيم وأن يحتل برزخ كاريليا والأراضي اللازمة لتأمين سكة حديد مُرْمَنْسك . وقد كان يراد بهذا العمل اتخاذ الأهبة للدفاع عن بلادها اذا ما هاجمتها ألمانيا غدراً كما حدث

على أن الميثاق الذي كان الاتحاد السوفييتي قد عقده مع ألمانيا قد يسّر للعناصر الرجعية في الدول الرأسمالية الديمقراطية أن يُبرزوا حملة فنلاندا في صورة عمل مناوىء للحلفاء ، فطفقوا ينفخون في أبواق دعايتهم مظهرين الاتحاد السوفييتي مظهر الدولة المعتدية ،

---

(١) الشارع الذي فيه وزارة الخارجية الالمانية

مذيعين الأحاديث المستفيضة عن جشع السياسة السوفييتية وتحلل الجيش الأحمر الذي زعموا أنه لا يحسن إدارة الآلات الحربيـة التي اشتراها وأنه يبيع أسلحته من العدو بثمن معلوم لكل نوع منها .

لقد وجـد الرجعيون المساكين ولاسيما الفرنسيين منهم ، في تلك الحملة فرصـة ذهبية أرسلتها العناية الالهية لتحويل سير الحرب من كفـاح بينهم وبين ألمانيا الى كفاح بينهما معاً وبين الاتحاد السوفييتي ، فلما انتصر الاتحاد السوفييتي وعقد مع فنلاندا صلحاً كريماً لم يأخذ منها بمقتضاه إلاّ ماكان قد طلبـه منها قبلُ ، كان من المدهش حقّـا أن تظل بريطانيا فترة متحفظة في الاعتراف بهذا الصلح ، كما ترى في البرقية التالية :

« لندن في ٢٩ مارس : خطب الرفيق مولوتوف في البرلمان السوفييتي بحضور ستالين وفوروشيلوف فقال : لقد كثرت الأمثلة خـلال الخمسة الأشهر الماضية على عَداء فرنسا وبريطانيا للاتحاد السوفييتي ... إن حربنا لفنلاندا لم تكن محض كفاح للقوات الفنلاندية إذ أنّـا لم نكن نحارب القوات الفنلاندية وحدها . بل كنا نحارب قوات استعمارية مشتركة لطائفة من الدول بينها بريطانيا وفرنسا .

ولقد أعلن مستر تشمبرلن في مجلس العموم يوم ١٩ مارس أسفَـه الشديد على ما أصابهم من خيبة في منع انتهاء الحرب الفنلاندية ، وبذلك كشف العـالم كله عن روحه الاستعماري المحب للسلم »

والواقع أن اهتمام بريطانيا بفنلاندا كل هـذا الاهتمام ، مع أنه ليس لهـا فيها مصالح مباشرة ، مما يحمل على الظن بأنها كانت تفكر حقّـا في استخدامها ذات يوم لأغراض معادية للاتحاد السوفييتي .

وفي ٢٩ مارس ١٩٤٠ : تحدّث مولوتوف الى مجلس السوفييت الأعلى عن « مسألة بسارابيا التي لم يُـقر الاتحاد السوفييتي قط استيلاء رومانيا عليها » .

وقد سلّـمت رومانيا مذعنة للإنذار السوفييتي ، فأصلحت الخطأ الذي اقترحته من قبل وسمح لأبناء بسارابيا المنتشرين في أرجاء رومانيا بالعودة الى موطنهم اذا شاءوا ، فتزاحمت الألوف المؤلفـة من العمال الرومانيين أنفسهم على محطـات السكك الحديدية للمهاجرة الى

بسارابيا تخلصاً من عسف الدكتاتورية الرومانية ، فلم يكن من رجال الشرطة الا تشتيتهم بإطلاق الرصاص عليهم .

وهكذا وسع الاتحاد السوفييتي رقعته الى حدوده القديمة على الدانوب ، وأصبح بذلك من الدول التي يحق لها أن تشترك في الإشراف على شؤون هذا النهر المنحدر من أواسط أوربا ، ومن ثمّ فإنه على رغم أنف الألمان الذين تجاهلوا أنه قد أصبح من دول الدانوب أرسل ممثليه الى المؤتمر وأبى أن يسمح للألمان باتخاذ قاعدة بحرية لهم على البحر الأسود الذي يغسل نحو ألف ميل من شواطىء بلاده والذي تصب فيه أربعة من أكبر أنهار بلاده .

وكان من المدهش أن يثور ثائر حكومة تشمبرلن لاشتراك الاتحاد السوفييتي في هذا المؤتمر، وأن تزعم أنه بهذا الاشتراك قد أخلّ بالحياد.

***

وقد طفقت هذه الإساءات الى دولة العمال تتوالى الى ما قبيل غزو هتلر لليونان ، إذ عمل تشرشل (وقد خلف تشمبرلن في ١٠ مايو ١٩٤٠) على أن يجتذب تركيا وسائر الدول البلقانية والاتحاد السوفييتي الى صف بلاده .

***

كان على رأس الدول البلقانية رجال مشايعون للنازيين وان كانوا يؤثرون ألاّ يشتركوا في الحرب ، وقد حاول الاتحاد السوفييتي سنة ١٩٤٠ أن يعقد محالفات مع هذه الدول ، فأبت بلغاريا ذلك وتحوّلت الى شبه مستعمرة لألمانيا ، فوجه اليها الاتحاد السوفييتي إنذاراً شبه رسمي وأعلن ميثاق صداقة مع الحكومة اليوجوسلافية القصيرة العمر ، تلته الثورة على حكومة البرنس بول المشايعة للنازيين ، ولم يكن ذلك الا مظاهرة سوفييتية في وجه تهديد النازيين لمصالحهم .

— ٥ —

حماقة تشمبرلن ودلاديه

كان الأجدر أن تخفف محنة الحرب من تجني المتجنين على الاتحاد السوفييتي وهو يحارب من أجل بلادهم أيضاً. لكنهم أخذوا يندِّدون بالميثاق الذي كانوا هم السبب في عقده ببقائهم • سنوات متتالية يرفضون فكرة الضمان الجماعي، وزعموا أن الاتحاد السوفييتي قد غدا تابعاً لألمانيا، وأن الحياد السوفييتي إن هو الا تحالف مقنّع، وهذا ما لم يقرفوا به إسبانيا الفاشيّـة التي ظفر رجال الحكم فيها بكراسيهم بفضل جيوش هتلر وموسوليني، ولا السويد التي استمرَّت تبيع ألمانيا كل عام ٦ ملايين طن من الصلب الذي يصلح لصنع الأسلحة. وفي الحق أن مسلك وزارة تشمبرلن نحو الاتحاد السوفييتي هو الذي أضفى على حياد الاتحاد السوفييتي ثوب التشيع للمحور. وقد زعموا أن من الإجرام أن يبيع الاتحاد السوفييتي ألمانيا بعض ما كان يفضل من حاجته، مع أن بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية قد لبثتا حتى الهجوم على بيرل هاربور تبيعان سلعهما الى اليابان حليفة ألمانيا.

لقد كانت سياسة تشمبرلن ودلاديه هذه ممعنة في الحماقة، فقد أوغرت صدور الشيوعيين في بلاد الحلفاء على حكوماتهم فجعلتهم في الأشهر الأولى من الحرب يتراخون في معاونتها، إذ أن حكومتي تشمبرلن ودلاديه كانتا تحاربان الألمان متكرهتين، ولأن هؤلاء الشيوعيين كانوا يشفقون أن ينقلب اتجاه سير الحرب فيتناسى الحلفاء ما بينهم وبين المحور ويلتمسون الخلاص من ورطتهم بمؤازرته في محاربة الاتحاد السوفييتي، وبذلك تكون جهود العمال في المصانع الحربية قد سخرت لتحطيم الاتحاد السوفييتي الذي يعُدّه الكثيرون منهم وطناً روحيّـاً وضماناً ماديّـاً لهم. ولم يكن الشيوعيين مخطئين في هذا التخوف كل الخطأ، فاذا كان انهيار فرنسا وحلفائها هذا الانهيار السريع العجيب لم يتح لها فرصة للانضمام الى المانيا، فليس معنى ذلك أن رجال المال والحكم فيها لم يكونوا راغبين في هذا الانضمام. واذا كانوا قد حالفوا هتلر على أوطانهم وسهلوا لجيشه اجتياحها كي يقضي على الحركة الشيوعية فيها ويعصمهم من أن تصير ممتلكاتهم ممتلكات قومية فإنهم لم يكونوا ليتردّدوا لحظة في محالفته على الاتحاد السوفييتي حصن الشيوعية العالمية ومبعث الخطر الدائم على ثرواتهم وامتيازاتهم

سقوط أوربا الغربية

كان التفكير الميونيخي قد أوهن بناء الدول الديمقراطية فما كاد هتلر يأمر جيوشه بمهاجمتها حتى أخذت تتهاوى كما يتهاوى رماد لفيفة التبغ ، دولة تلو أخرى . وتعوّد الناس أن يقرءوا أمثال هذه البرقيات :

وارسو في أول سبتمبر ١٩٣٩ : بدأت الحرب في منتصف الساعة السابعة صباحاً على جميع الحدود الألمانية البولونية وعلى الحدود السلوفاكية أيضاً .

برلين في ٢٧ سبتمبر ١٩٣٩ : أصدرت القيادة الألمانية العليا بلاغاً رسميًّا جاء فيه أن قائد القوات البولونية في وارسو قد عرض تسليم المدينة والحامية .

بروكسل في ١٠ مايو ١٩٤٠ : اجتازت القوات الألمانية الحدود (في بلجيكا وهولاندا)

لندن في ١٥ مايو ١٩٤٠ : أذاع القائد العام الهولاندي منشوراً يدعو فيه الجنود الى وقف القتال .

لندن في ٢٨ مايو ١٩٤٠ : قال مستر تشرشل في مجلس العموم « ليعلم المجلس أن الملك ليوبولد ملك بلجيكا أرسل أمس رسولاً الى القيادة الألمانية طالباً وقف القتال في الميدان البلجيكي ... وكفّ الجيش البلجيكي عن مقاومة الغزو في الساعة الرابعة من صباح اليوم .

باريس في ٩ ابريل ١٩٤٠ : جاء من نيويورك أن محطة اذاعة كولومبيا قطعت برنامجها في الدقيقة المتممة للأربعين بعد منتصف الليل لتذيع أن الألمان اجتاحوا الدانمارك .

لندن في ٩ أبريل ١٩٤٠ : يقول نبأ من امستردام إن ملك الدنمارك أصدر بياناً . . . دعا فيه الشعب الى الهدوء .

أوسلو في ٩ ابريل ١٩٤٠ : أذاع راديو أوسلو أن القوات الألمانية نزلت الى المواني النروجية في الساعة الثالثة من صباح اليوم .

لندن في ١٠ يونيو ١٩٤٠ : أعلن رسميًّا أن القوات الفرنسية والبريطانية انسحبت من شمال نروج . وقد وصل ملك نروج ورجال حكومته الى بريطانيا .

برلين في ٥ يونيو ١٩٤٠ : أذاع هر هتلر منشوراً أعلن فيه وقوع هجوم ألماني جديد فقال إن الفرق الألمانية وأسراب الطائرات استأنفت القتال صباح اليوم .

روما في ١٠ يونيو : أعلن راديو روما بعد ظهر اليوم أن كونت تشيانو سلّم التبليغ التالي الى سفير فرنسا « إن جلالة الملك الامبراطور يصرح بأن ايطاليا تعدّ نفسها في حرب مع فرنسا ابتداءً من غدٍ ١١ يونيو .

باريس في ١٣ يونيو : أُلصقت على جدران المنازل في باريس إعلانات جاء فيها أن عاصمة فرنسا مدينة مفتوحة وأن جميع التدابير اتخذت لتأمين سلامة السكان وتموينهم .

لندن في ١٧ يونيو ١٩٤٠ : أذاع مارشال بتان اليوم رسالة الى الأمة الفرنسية قال فيها « وإني أخبركم اليوم بقلب محطم كسير ، أنه لا بدَّ من وقف القتال . ولقد خاطبت العدو ليلة أمس لأسأله هل هو مستعد لأن يبحث معي الوسائل التي تضع حدّاً للقتال » .

لندن في ٢٣ يونيو ١٩٤٠ : تقول وكالة الأخبار الرسمية الألمانية أنه أمضيت شروط الهدنة بين فرنسا وألمانيا في غابة كومبيني في الساعة السادسة والدقيقة المتممة للخمسين من مساء أمس .

وهكذا انهارت بولونيا قبل مضي شهر، وهولندا قبل أسبوع ، والدنمارك قبل ساعة ، من الهجوم عليها ، وفرنسا قبل أسبوعين ، فرنسا التي كانت تعدّ نفسها ويعدّها معظم الناس أصرم دول الأرض وأقواها بأساً ، والتي تحصنت بخط ماجينو أمنع حصون العالم وأكثرها حظّاً من مستحدثات فنون البناء العسكري .

هذه الهزائم الماحقة التي منيت بها مختلف الدول الرأسمالية الديمقراطيـة في أوربا هي ثمار ما غرسته أيدي تشمبرلن ودلادييه ومن لفّ لفهما . وهنالك خمسة عوامل تآزرت هي وغيرها في إنزال هذه الهزائم بها ، وهي :

١ — مظاهرة الحكومات الديمقراطية لهتلر في استلحاقه النمسا ، وغزوه تشكوسلوفاكيا ، وقد كان ذلك رغبةً منها في حمله على الاتجاه باعتداءاته نحو الشرق .

٢ — تقصير تلك الحكومات في تسليح بلادها اتكالاً على أنه يزمع محاربة أوربا الشيوعية لا أوربا الرأسمالية ، مع أن قراءة كتابَ « كفاحي » بتمعن ومراقبة الحوادث

من سنة ١٩٣٣ الى ١٩٣٩ يريان بوضوح أن الحرب كانت آتية على بريطانيا لا ريب فيها .

٣ — تجافي الحكومات الديمقراطية عن سياسة الضمان الجماعي ، مع أن هتلر كان يسعى الى تدويخ العالم طرّاً ، فكان الواجب أن يجتمع العالم لمقاومته .

٤ — مناصرة رأسماليي البلدان الديمقراطية لهتلر لينصرهم على الأحزاب الشيوعية التي كان يطرد نموها في بلادهم .

٥ — فشوّ الاعتقاد في فرنسا وبلجيكا وغيرهما بأن انجلترا تتبع معهم الأساليب التي تتبعها مع مستعمراتها ، وأنها تضحي بآخر جندي من جنودهم في حين هي تضن بأي جندي من جنودها فلا ترسل منهم الى حومات الوغى غير عدد قليل ثم لا تلبث أن تستردّهم اذا ما جدّ الجِد .

وهكذا سقطت القارة الاوربية بين مخالب النَّسر الألماني ، فأما الانجليز فقد قبعوا خلف النفق الإنجليزي (بحر المانش) مطمئنين الى أن هتلر لو أراد أن يغزوهم في عقر دارهم لاحتاج الى ١٠ أطنان من السفن لكل جندي من جنود الغزو ، ولما كان لا يملك هذا القدر من السفن فقد اجتزأ بمحاصرتهم بألغامه وغواصاته ومغازلتهم بطياراته . ودام ما يسمى معركة بريطانيا بضعة أسابيع قتل الألمان فيها ألوفاً من الأطفال والنساء ، فصبَرت بريطانيا على هذا العبث ، ولم يكن في وُسعها إلاَّ أن تصبر ، وتحملت في صمت ما أصابها من خَسارة ، عالمة أنها تربح الوقت والوقت يلد العجائب . وقد كانت الأعجوبة أخيراً ، فقد حمل الرأسماليون الألمان ، هتلر على أن يوقّع على الأمر بالانقضاض الغادر على الاتحاد السوفييتي ، فكان ذلك بمثابة التوقيع على أمرٍ بموته وتحطيم طغيانه . .

ما يبلغ الأعداء من جاهلٍ ما يبلغ الجاهل من نفسه

وتنفّس الانجليز الصُّعَداء

إذن فقد كان كذباً ما زعمه أعداء الاتحاد السوفييتي من أن الميثاق السوفييتي الألماني ينطوي على نصوص سرية تجعل منه تحالفاً لامحضَ ميثاق بالإمساك عن الاعتداء ، وإذن فقد كان كذباً ما زعموه من أن الاتحاد السوفييتي قد استعاد ما استعاد من أراضيه المغتصَبة ، برضا الألمان وموافقتهم والتواطؤ معهم ، وكان كذباً ما زعموه من أن الاتحاد السوفييتي

قد عدّل حدودَه مدفوعاً بشهوة الفتح والاستعمار، لا تأميناً لبلاده من حرب مبيّتة لم يكن أمرها بخافٍ على فطنته.

وإذن فقد كان كذّاباً ذلك الطيارُ الجريء في الكذب، لندْ برْج، الذي اعتمد تشمبرلن أيامَ ميونخ على تقريره القائل ـ بضئالة قوة الطيران السوفييتي ـ في مخادعة الشعب البريطاني، وإقناعه بحكمة إبعاد الاتحاد السوفييتي عن مؤتمر المتآمرين، وبتسليم تشكوسلوفاكيا إلى ألمانيا، وقد فضح نفسه حين قال في أول يوليو ١٩٤٠ أي عقب الانقضاض الألماني الغادر على الاتحاد السوفييتي «لقد كنت أوثر مائة مرة أن أرى بلادي في حِلْف مع ألمانيا !!! على أن أراها تحالف القسوة والإلحاد والبربرية التي في روسيا».

الاستعماريون والفاشيون

في بريطانيا

وقد ألقت الحكومة البريطانية القبض في أول الحرب على سير أُزْوالد موزلي الذي كان قد رُشّح لأن يلعب دور كويسلنج في بريطانيا، ثم أطلقته أخيراً. وما تزال بريطانيا تعِجّ بفريق من الرأسماليين ذوي النفوذ وأُجَرائهم، يرتسم حب المال في نفوسهم المريضة في صورة كراهة الاتحاد السوفييتي كراهة تتجاوز كل حد وتحجب كل شيء، تحجب مصلحة الوطن وخير الجنس البشري، فهم يشعرون أنهم رأسماليين أكثر منهم بريطانيين وأناسي ؛ وهم يرَون أن انتصار النازية على بلادهم أهون من صيرورة ألمانيا الى الشيوعية. لذلك ظاهروا الرجعية على التقدم في كل ما شهد العالم من أحداث، فلم تكن ثمة مشكلة من مشاكل الشؤون العالمية لم يكن مسلكهم بإزائها مثيراً للخجل والاشمئزاز. وقد أخذوا في عمامهم ورعونتهم يدفعون ببلادهم الى روما، ثم الى ميونخ وبرشتسجادن، ثم الى الحرب التي كان من الميسور لهم اتقاؤها بمحالفة الاتحاد السوفييتي قبل سنة ١٩٣٩، أولئك هم مرضى القلوب الذين قفز البهلوان «هس» من طائرته لينزل بين أحضانهم حاملاً رسالة عبيد العجل الذهبي في ألمانيا الى عبيده في بريطانيا. ونذكر في طليعة هؤلاء الرجعيين «جماعة السياسة الامبراطورية Imperial Policy Group» التي تكوّنت سنة ١٩٣٣ من بعض أعضاء مجلسي

الوردات والعموم وغيرهم ، وهي تصدر صحيفة تدعى صحيفة الشؤون العالميـة Review of World Affairs كانت هذه الجماعة قبيل نشوب الحرب تطالب بإلغاء المادة الخاصة بالعقوبات من عهد عصبة الامم .

وفي أغسطس ١٩٣٩ (أي قبـل الحرب ببضعة أيام) أنكرت هـذه الجماعة إمكان أن تستعر حرب في أوربا ، وقالت « إن الإنتاج البريطاني للطائرات هو على الأرجح أعظم إنتاج من نوعه في العالم » .

وعند ما أشفت فرنسا على السقوط طفـقت هذه الجماعة تكيل المدح لفيجان وبتان . فلما سقطت فرنسا تلك السقطة المنكَرة طفقت الجماعة تكيل القدح لحـكومة الجبهة الشعبية التي كانت تحكم فرنسا قبل الحرب . ومما جاء في صحيفتها « ليس ثمة شيوعي بارز إلاّ وهو معروف جيداً أنه أجير للألمان » .

وفي خريف ١٩٤٠ نشرت تلك الصحيفة في مكان بارز وبعناية ظاهرة عرض هتلر للصالح ونوّهت بقلة خطر القارة الأوربية فيما يتصل بمصالح بريطانيا الهامة . وأبدت رجاءها أن يعامل هتلر البلاد المقهورة بكرم وفطنة .

وظلت بين الفينة والفينة تنصح بإعادة العلاقات الودية مع فيشي وتبدي أسفها على اعتراف بريطانيا بديجول (في ديسمبر ١٩٤٠)

وكانت تقول إن الاتحاد السوفييتي ، وهو يضم نحو ٢٠٠ جنسية ويجمع شتيتاً من اللغات والأديان ، سينهار تحت وقر الضربة الأولى ، وأن الجيش الألماني سيمضي فيه مضيّ السكين في الزبد .

فلما وقّـف الجيش الأحمر هجوم الألمان في سمولنسك في أغسطس ١٩٤١ زعمت تلك الصحيفة أن الألمان هم الذين وقفوا ذلك الهجوم بمحض اختيارهم ليتفرغوا الى عزل لنينجراد وفتح أكرانيا

وقالت في أكتوبر ١٩٤١ « يجب ألاَّ نعبأ كثيراً بسياسة الأرض المحروقة فإن ما يقال بشأنها مبالغ فيه كثيراً » .

وكتبت في أواخر نوفمبر ١٩٤١ تعزو فترات الوقوف في التقدم الألماني الى « المسائل الفنية المتصلة بالمواصلات » .

ومن قولها : «إن موسكو وروستوف ستسقطان ولا ريب» فلما استعاد الجيش الأحمر روستوف وصدّ الألمان عن موسكو، وتقهقر هؤلاء في ديسمبر، تحدّثت الصحيفة عن «الثمن الفادح» الذي دفعه الروس، فلما اطّرد تقدمهم في يناير، زعمت انهم أحضروا قوات احتياطية من سيبيريا .

وفي يونيو ١٩٤٢ نشرت الصحيفة حديثاً تقلل فيه من شأن محالفة بريطانيا وروسيا . فمن قولها : «قد يطرد الروس من الفولجا والأورال ويفقدون اتصالهم بالقوقاز في الجنوب وبمرمنسك وأركنجل في الشمال وفلادفستك في الشرق دون أن يكون في ذلك هزيمة لبريطانيا وأمريكا» واستمرت الصحيفة في أضاليلها التي لم تؤيدها ببرهان، فقالت «وروسيا — مع كل المزاعم القائلة بعكس ذلك — متوقفة كل التوقف على ما يصلها من الأمداد الخارجية التي لا سبيل اليها الا من ثلاث طرق» مهددة بالبديهية . هذا ما زعمته تلك الصحيفة بعد سنة من اشتراك الاتحاد السوفييتي في الحرب، في وقت كان ينتج فيه من السلاح والعتاد مقادير هائلة ولا يتلقى من الخارج الا الشيء الطفيف الذي يبدو أنه وضع قسماً منه في المخازن ليكون احتياطيّاً فلم يكن هو العامل الأول فيما ظفر به الجيش الأحمر من انتصار على هتلر وعلى أوربا الرأسمالية معه . وقد نشرت الصحف في ٢٠ اكتوبر ١٩٤٣ أي بعد مرور أكثر من عام على ذلك الوقت، البرقية الآتية :

«لندن في ١٩ أكتوبر : جاء من استانبول أن ضابطاً نمسويّاً وصل الى تركيا أخيراً قال ما خلاصته : أن ٩٨ في المائة على الأقل من غنائم الحرب التي استولى عليها الألمان من الروس خلال الستة الأشهر الماضية، من صنع الروس أنفسهم . لذلك يعتقد الضباط الألمان أن الروس لا يستخدمون الأسلحة البريطانية التي حصلوا عليها بموجب قانون الإعارة والتأجير، بل يحتفظون بها لغرض غير معروف، ولا يبعد أن يكونوا قد اختزنوها للشتاء» .

وقد دأبت هذه الصحيفة على التهوين من قوة الاتحاد السوفييتي الحربية وعلى إطلاق الشاعة ذات الهوى عنه، كحديث خرافة القائل بأن الفصائل السوفييتية انما تساق الى الحرب سوقاً، فقد نشرته على النحو الآتي : «علمنا ان التشكيلات السياسية قد وضعت خلف

الصفوف الروسية ، وقد عهد اليها بأن تعمد الى العمل المباشر في الجنود أو الوحدات التي يبدو عليها أقل رخاوة أو عجز أو تردد » .

وتحدثت الصحيفة كذلك عن ٠٠٠ ر ١٥٠ أكراني قد انتظموا في جيش يقاتل الروس تحت قيادة أمير الاي وصفته بأنه من دعاة التحرير الأكراني . ويعلم العالم أن الاتحاد السوفييتي هو الدولة الوحيدة التي لم يكن فيها طابور خامس . أجل ، كان في برلين وغيرها من العواصم الأوروبية مهاجرون من الحرس الأبيض الأكراني ، وكانوا على اتصال بالأوساط الرجعية في لندن . وقد أريد منهم أن يقاتلوا الاتحاد السوفييتي توفية لما أنفق عليهم من المال ، ولكن هؤلاء كانوا على قلة عددهم ، غير جديرين بأن يسموا أكرانيين . أما الأكرانيون الحقيقيون فقد باروا الروس في مقاتلة العدو .

وهنالك صحيفة مشئومة أخرى . إلا أنها أوسع انتشاراً من الرينيو ، أخذت تحمل على المعاهدة الأنجلو سوفييتية حتى بعد عقدها ، تلك هي « كاثوليك هرالد » ، انظر الى قولها في يناير ١٩٤١ في تعليل بطولة الجنود الحمر في حرب الشتاء « إن الانقياد لسلطة صارمة وللملابسات العنيفة التي تكتنف حملة الشتاء لما يرحب به الروح الروسي على أنه ضرب من التقشف الذي يشاكل حبه للتعذب » . فهي ترى أن أبناء الاتحاد السوفييتي يستلذون الجوع والشظف والجراح والخصَر حتى الموت (قرس البرد) .

وهـذه الصحيفة ، التي سكتت عن جرائم ايطاليا وألمانيا في بلادهما وفي أوربا ، وعن دعايتهما الخبيثة في انجلترا ، كانت لا تفتأ تعيد الى الذاكرة حوادث قديمة مزعومة وتتحدث عن : النزاع الذي لا يقبل صلحاً بين المسيحية والشيوعية التي أوحاها اليهودي الألماني كارل ماركس .

وهنالك جماعات وأفراد شتى لم ينفكوا عن تسويء سمعة الاتحاد السوفييتي والتشكيك في مقدرته الحربية ، فأخذوا يشكون من أن الوفدين البريطاني والأمريكي في موسكو لا يمنحان كل ما يحتاجان اليه من معلومات وبيانات ، مستدلين بذلك على أن الاتحاد السوفييتي غير أهل لأن يعوّل عليه ، ثم أخذوا يحتجون على ما يسمونه تغلب الجناح الأيسر في الإذاعة البريطانية ، لأن هذه الاذاعة كانت تدعو شعوب أوربا الى الثورة على مستعبديها .

ومن ذلك قول صحيفة إيفننج ستاندرد في ٢٩ مايو ١٩٤٢ « يجب ألاّ نضع جميع بيضنا في السلة الروسية » .

هؤلاء القوم لم يكونوا أعداءً للاتحاد السوفييتي وحده ، بل للشعب البريطاني كذلك ، بل هم أعداء الانسانية جمعاء وأعداء المعاني الانسانية السامية جميعاً ، وهم بمحاولتهم أن يفتّوا في عضد الاتحاد السوفييتي قد أظهروا الرأسمالية البريطانية بأنها لا تقل عن الفاشية خطورة ، وبخاصة بعد أن أوشكت الفاشية الألمانية أن تختفي من الوجود الى حيث لا رجعة .

خذ مثلاً موقفهم من مسألة الجبهة الثانية فقد ظلوا يمانعون في فتح تلك الجبهة تصريحاً وتلميحاً راغبين في ترك الشعب السوفييتي يتحمل وحده عبء الضغط الألماني ، بل لقد طلبوا اليه أن يعلن الحرب على اليابان وأن يمسك عن الزحف الى البلقان . لقد قدّموا اليه من المطالب أكثر مما قدّم اليه من الأسلحة .

نشرت صنداي تيمس في ١٩ يوليو ١٩٤٢ تقول « ليس ثمة شيء في محله مثل فتح الجبهة الثانية إذا — ولكن فقط إذا — أمكن جعلها متسعة النطاق ناجحة ، وإلى أن يكون ذلك ، قد يكون من الممكن حقّاً سحق الروح المعنوي الألماني بغارات تدمير بالجملة » .

يسمع البلاشفة هتلر يسخر علناً من تهديده بجبهة ثانية ويرونه يسحب خيرة فرقه الفتية من فرنسا وبلجيكا وغيرهما ليقذفهم بها ، ويعلمون أن بريطانيا قد احتفظت في جزائرها « خوف الغزو الألماني » بملايين من الجند يتلقون منذ قرابة ٥ سنوات أكمل تدريب وأوفر تسليح ، وهم يعلمون أن عهود بريطانيا ومصلحتها الخاصة كانت تحتم عليها أن تفتح الجبهة الثانية قبل نهاية عام ١٩٤٣ ، ثم يسمعون رجال الطابور الخامس في انجلترا ينصحون بالتريّث في فتحها ، فيتساءلون : اذا كان هذا الجيش اللجب لا يتحرك لمقاتلة الألمان فمن عسى أن يقاتل ؟ إن للدول المتحالفة ، التفوق التام على الألمان في الجو ، وبخاصة بعد أن قضى الاتحاد السوفييتي على معظم أسطولها الجوي ، ولها السيادة في البحر ، وبخاصة بعد أن ألقى الأسطول الايطالي إليها بالمقاليد ، ولها في أوربا المحتلة بالألمان ملايين من الشيوعيين والوطنيين متأهبين لمناصرتها على الفاشيين ، وهذا ما برهن عليه بدمائهم أولئك

الخمسمائة من الرجال والنساء الذين ضحوا بأرواحهم في دييب عند ما حسبوا غارة الكوماندو عليها غزواً جديّاً للقارة .

ألا ما أقسى ما سيحكم التاريخ على أولئك الذين يثبطون الهمم في الأوقات العصيبة ، فاذا كان حكم التاريخ لا يهمهم فما أشدّ ما سيعصف بهم حكم الحوادث .

نجاح الاقتصاد السوفيتي

بذل الاتحاد السوفييتي في السنوات الأخيرة جهده في دعم السلام العالمي . ومن البديهي أن يحرص الاتحاد السوفييتي على استتباب السلام وأن يتكالب أعداؤه على الحرب ، لأنه ينال في السلم ما لا يطمحون الى نيله إلاّ بالحرب ، فهو ناجح في أعماله ، ولديه الكثير من أسباب النجاح ، وهم مخفقون متورّطون في الضيق ، وقد فحصوا جميع السبل وحاولوا ما استطاعوا فلم يوفّقوا لحلّ معقول ولم يهتدوا الى بصيص من نور ، فالخيبة محتومة عليهم ما استمسكوا بطرقهم الاقتصادية العتيقة .

فالإنتاج الموحّد الواسع النطاق الذي ينظّم — على ضوء الاحصاءات — وفق خُطط مرسومة لا يراعي فيها إلاّ مصلحة المنتجين ، والذي ينفّذ بأقل الكُلَف تحت قيادة أمهر الإخصائيين ، هذا الإنتاج المنظم في الاتحاد السوفييتي لا يقابله في البلاد المعادية إلاّ فوضى من الإنتاج المتقهقر الكثير الكُلَف لا تراعى فيه حاجة المستهلك بمقدار ما يراعى جشع المنتج .

ولذلك نجد الاتحاد السوفييتي يزيد كل عام من أجور عماله وموظفيه في حين يخفضها أعداؤه ، صراحةً أحياناً وتحت ستار تضخم النقد وخفض سعر العملة في أحيان أخرى .

ولا نجد فيه متعطلاً من الأغنياء ، ولا من الفقراء ، فإن لكل فرد من أفراده حقّ العمل وعليه واجب العمل . والحال على عكس ذلك في أوربا وأمريكا ، إذ قد بلغ عدد المتعطلين فيهما قبل الحرب زُهاء ٣٧ مليوناً كانوا يعانون أشد الآلام ويتحملون أشق المتاعب .

ولا نجد فيه مكاناً للجهل والأمية ، فإن عدد طلبة الجامعات والمعاهد العليا فيه يُربي على مجموع ما في أوربا الرأسمالية . ولا يعزُب عنا أن هتلر قد أمر بنقص الطلبة في الجامعات

الألمانية الى نصف ما كانوا عليه في السنوات التي مضت .

ثم هو لا يَشغَل أبناءه التعصبُ الديني والحوازات الجنسية وفوارق الطبقات وما إلى ذلك ، بل هم يشتغلون جميعاً رجالاً ونساءً ، مسلمين ونصارى ، كأنهم أسرة واحدة ترفرف عليها السعادة ، على حين تعجّ البلاد الأخرى بالتباغض والتحاسد والتمرد والانتقاض .

مشروع خمس السنوات الثانية

وقد لخصت صحيفة موسكو التي تصدر بالانجليزية ، في يوم ٦ فبراير ١٩٣٩ نتائج برنامج خمس السنوات الثانية (سنة ١٩٣٣ — ١٩٣٧) ومنه يؤخذ أنه :

بلغ الإنتاج الصناعي الجماعي (الذي تديره الدولة والهيئات التعاونية) في نهاية سنة ١٩٣٧ — ٩٩٫٨ في المائة من إنتاج الاتحاد السوفييتي كله ، وبلغ الانتاج الزراعي الجماعي ٩٨٫٦ في المائة ، وكان ٩٠ في المائة من جرّارات الحرث وما اليها ، مما أنتجته البلاد في خلال برنامج خمس السنوات الثانية . وقد نجح هذا البرنامج نجاحاً لم يكن مقدّراً له ، وذلك على الرغم من المخرّبين الذين ألحقوا بالإنتاج أضراراً بليغة .

وقد ازداد عدد العمال والموظفين في خلال السنوات الخمس ١٧٫٦ في المائة عما كان ، وارتفع مجموع الأجور ١٥٠ في المائة ، وازداد ما تنفقه الدولة في خدمة الجمهور (التعليم والصحة الخ) من ٤٫٤٠٠ مليون روبل الى ١٤٫٠٠٠ مليون وارتفعت أجور الفلاحين الجماعيين ٣٥٠ في المائة في ٤ سنوات (من سنة ١٩٣٣ الى ١٩٣٧) . وبلغ إنتاج السلع الاستهلاكية ضعفَي ، وفي بعضها ٣ أضعاف مثله من سنة ١٩٣٢ ، وازداد عدد التلاميذ في المدارس الأولية والثانوية من ٢١٫٣ مليوناً الى ٢٩٫٤ مليوناً وبلغ عدد طلبة الجامعات والمعاهد العالية ٥٥٠٫٠٠٠ طالب .

ويشير التقرير الى أن الاتحاد السوفييتي قد أصبح مستغنياً في الشؤون الاقتصادية ، وهو يزوّد اقتصاده القومي وقواته الدفاعية بكل ما يلزمهما من الضروريات .

وقد بلغ إنتاج الصناعة في سنة ١٩٣٧ — ٣٧١ في المائة بالقياس على ما كان عليه سنة ١٩٢٩ . أما الصناعة التي تُنتج على نطاق واسع فقد بلغت ٧ أمثال ما كانت عليه قبل الحرب العالمية الأولى .

خمس السنوات الثالثة

كان ثمن المنتجات الصناعية في سنة ١٩٣٧ (مقدَّرة بحسب أسعار سنة ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧ ٩٥ر٥٠٠ مليون من الروبلات). وقد وضع برنامج السنوات الخمس الثالثة على تقدير أن يرتفع هذا الرقم الى ١٨٠ر٠٠٠ مليون أي بزيادة ٨٨ في المائة أي بمعدل ١٣ر٥ في المائة سنويـًا

ونذكر على سبيل المثال أنه كان المقدر أن يصل إنتاج المواد الآتية في سنة ١٩٤٢ الى المقادير الآتية :

وسائل الإنتاج	١١٢ر٠٠٠ مليون روبل	أي بزيادة ١٠٣ في المائة عما كان عليه سنة ١٩٣٧
سلع للاستهلاك	٦٨ر٠٠٠ » »	» ٦٩ » »
المواد الكيميائية	١٣ر٤٠٠ » »	» ١٢٧ » »
الفحم	٢٣٠ مليون طن متري	» ٨١ » »
(الحديد) الزهر	٢٢ » »	» ٥٢ » »
الصلب	٢٧½ » »	» ٥٦ » »
أسياخ الصلب rolled	٢١ » »	» ٦٢ » » ١
الأسمنت	١٠ » »	» ٨٣ » »
السكر المكرر	٣½ » »	» ٤٤ » »
الأحذية الجلدية	٢٣٥ مليون حذاء	» ٤٣ » »
مأكولات محفوظة	١ر٨٠٠ » علبة	» ١٠٦ » »
القوة الكهربائية	٧٥ر٠٠٠ » كيلووط ساعة	» ١٠٦ » »

ويرى من ذلك أن صناعة (بناء) الآلات قد أعطيت من العناية أكثر في الجملة مما أعطيت الصناعة في مجموعها ، فكان المقدر أن يزداد إنتاج الطوربينات في الخمس السنوات الثالثة ٣٨٠ في المائة والمراجل البخارية ٣٦٠ في المائة ، كما أنهم كانوا يعملون على إيجاد « باكو » أخرى لاستغلال حقول زيت الوقود بين نهر الفولجا وجبال الأورال أحسن استغلال مع تزويد البلاد بمخازن للزيت وأنابيب لتوصيله إليها . أما الصناعات الكيميائية فكان المقدَّر أن تكون من أعظم الصناعات شأواً ، حتى أصبح من الممكن أن يسمى مشروع السنوات الخمس الثالثة بمشروع السنوات الخمس الكيميائي ، فقد روعي فيه زيادة حمض الكبريتيك ، وحمض النيتريك والأمونيا التركيبية والألياف الاصطناعية زيادة جسيمة .

وكان من المقدّر أن تزداد قيمة الإنتاج الزراعي من ١٩٫٨٠٠ مليون روبل في سنة ١٩٣٧ الى ٣٠٫٢٠٠ مليون في سنة ١٩٤٢ أي بزيادة ٥٣ في المائة ، وأن يصل معدّل المحصول السنوي من الحبوب الى ١١٥ مليون طن (أي نحو ٧٧٥ مليون أردب) بزيادة ٢٧ في المائة عن معدّل السنوات الخمس الثانية ، وأن يبلغ إنتاج السكر ٣٠ مليون طن أي بمعدّل ٢٠ طنًا في الهكتار (والهكتار ١٠٫٠٠٠ متر مربع أي ما يقرب من ½ ٢ فدان) وإنتاج القطن الخام ٣٫٣ مليون طن بمعدّل ١٫٩ طن في الهكتار من الأراضي التي تروى بالآلات (وليس بالمطر) وألياف الكتان ٨٥٠٫٠٠٠ طن بمعدل ٠٫٤٦ طن في الهكتار وأن يزداد عدد الخيل ٣٥ في المائة والأبقار ٤٠ في المائة والخنازير ١٠٠ في المائة والغنم (الضأن والماعز) ١١٠ في المائة ، وأن تكمل إدارة الزراعة على نمط صناعي الى أقصى ما يستطاع وأن تمد خطوط جديدة في السكك الحديدية طولها ١١٫٠٠٠ كيلو متر، وأن يزدوج ما طوله ٨٠٠٠ كيلو متر من الخطوط المفردة وأن تدار السكك الحديدية إلى حدٍّ كبير بالكهرباء وأن يكمل مد الخدمة التليفونية الى القرى والمزارع الحكومية ومحطات الجرارات الزراعية وأن يدخل التليفزيون في عدّة مدن كبيرة .

* * *

وكان من المقدّر أن يزاد عدد العمال والموظفين ١٧ في المائة ومعدّل الأجور ٣٥ في المائة وأن يزاد ما تنفقه الدولة على التأمين الاجتماعي والتعليم والصحة وما اليها من الخدمات الاجتماعية من ٣٠٫٨٠٠ مليون روبل في سنة ١٩٣٧ الى ٥٣٫٠٠٠ مليون في سنة ١٩٤٢ أي بزيادة تقرب من ٧٠ في المائة . وإنما يزداد دخل الفلاحين الجماعيين نتيجة لازدياد الانتاج ، لازدياد غلة المحاصيل ونتاج الحيوان .

وكان من المقدّر أن يزداد عدد طلبة الجامعات والمعاهد العليا الى ٦٥٠٫٠٠٠ وأن يزاد عدد دور السينما ٦ أضعاف وأن تزاد المنتديات والمكتبات والمستشفيات وملاعب الرياضة البدنية ، وأن يُبنى من المنازل والمنشآت الصناعية ما مساحته ٣٥ مليون متر مربع ، وأن يزاد حوانيت البيع بالتجزئة المملوكة للدولة والهيئات التعاونية ٢٦ في المائة .

وكان من المقدّر أن يزداد الدخل القومي نحو ٨٠ في المائة .

الاستعداد الدفاعي

هذه صورة مصغرة من النجاح الذي بلغه الاتحاد السوفييتي في شؤونه الاقتصادية . ومنها نرى أنه يسير باطراد الى الأمام ثابت القدم راسخ اليقين متخطياً جميع العقبات ، لا يرغب في أكثر من أن يخلو الى مرافقه المختلفة فينميها ويهذبها ليكفل الهناءة لأبنائه وحفدته . وهو أبعد الدول نزوعاً عن محاربة مخالفيه ، ولا سيما أنه يؤمن بأن نظامهم الاقتصادي عتيق هرم يزدهف الى الموت ازدهافاً ولا مفرّ له من مواجهة نهايته المحتومة في وقت قريب . على أن السلام الذي يبتغيه الاتحاد السوفييتي إنما هو سلام «لاميونيخي» إذ أن السلام عنده شيء آخر غير البله . وهو وإن لم ينتج المدافع بدل الزُبد ، لا يستغنى بالزُبد عن المدافع، وفي الحق أنه كان الدولة الوحيدة التي استطاعت أن تنتج وفراً من الزُبد والمدافع . وهل كان في إمكانه أن يغفل عن التأهب وهو يرى شعوب المحور تجنّد اقتاله وهو يسمع الفاشيين المجذوبين يكفحون له بالعداوة ويتهدّدونه في صيحاتهم الهستيرية ويرى مهرّجي نورمبرج(1) يستنفرون سائر قوات العالم الرأسمالي لمؤازرتهم عليه ويسألون الحلفاء أن يتغاضوا عن جرائمهم الاستعمارية ثمناً للحرب الصليبية المنتظرة .

لقد طالما سمع البلاشفة بذاءة النازي وأشياعه ، وكانوا يعلمون أن تشمبرلن ومعيّته يبغضونهم ويعملون على عزلهم وتأليب الدول عليهم ، وأنهم إذا كانوا لا يتواقحون معهم تواقح النازيين فليس ذلك إلاّ لأن أسلوبهم يباين أسلوب النازيين . وكان رد الاتحاد السوفييتي على هذه البذاءة وتلك البغضاء أن أمعن في التسلح واقتطع جانباً كبيراً من أمواله وجهوده لتقوية منشآته الدفاعية لكي يكون على الذين تحدثهم أنفسهم بالاعتداء أن يفكروا طويلاً قبل التورّط فيه وأن يكونوا على ثقة أنه « لن يسمح للخنازير أن تدنس حديقته » . فهذا الاستعداد الحربي ليس دليلاً على نية الغزو والاعتداء ، بل هو دليل على الرغبة في التجرد للتقدم السلمي ، وهو كذلك دليل على مدى السموّ الذي ارتفع اليه العلم السوفييتي والفن السوفييتي والصناعة السوفييتية .

---

(١) البلد الذي كان النازيون يعقدون فيه مؤتمرهم كل عام

هتلر ينطح الصخر

ولو أن هتلر كان يعلم اذ ذاك ما علمه بعد فوات الوقت لما أقدم على نطح تلك الصخرة الصلدة

كناطح صخرةً يوماً ليوهيَها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعِلُ

ولكنه كان يجهل ويتجاهل . وقد أكثر من مخادعة الناس حتى خدع نفسه ، فحفزه طمعه الأشعبي في نشوة انتصاره على الدول الغربية المتفسخة ، الى أن يتجه نحو مشرق الشمس ، فأعدَّ غزوته الغادرة بمثل النذالة التي أعدَّ بها الايطاليون غزوتهم لبلاد اليونان . واختار يوم ٢٢ يونيو للبدء بها تشبهاً بنابليون وتحدياً له ، فما وافت الساعة الرابعة صباحاً حتى فغرت المدافع الألمانية أفواهها واجتازت الدبابات ، التخوم وطفقت أرسال اللوفت ڤافه Luftwaffe ترود في سماء أكرانيا والقريم ولتوانيا وهي تمطر شآبيب الموت والدمار. فلما بلغت الساعة السادسة منتصف السادسة دعا جراف (كونت) فون شولنبرج سفير ألمانيا لدى موسكو مفوض الشؤون الخارجية الرفيق مولوتوف ليدلي اليه بأن دور روسيا قد أتى . وهذه هي الحرب الخاطفة Blitzkrieg .

وبلغت سرعة الغزاة أول الأمر حدًّا أدهش عالماً تعوَّد أن يدهش من خوارق أعمالهم واصطنع الألمان في إذاعة انتصاراتهم أسلوباً شعريًّا خياليًّا أشبه بالملاحم الاغريقية وصرَّح الكثيرون من رجال النازي بأن تدويخ روسيا لن يستغرق أكثر من أسبوعين ، أو ثلاثة أسابيع . ثم أعلنت الدعاوة الألمانية أن عدد القتلى والأسرى من البلاشفة قد ناهز الملايين وأن الجيش الأحمر قد تفانى وأن السلاح الجوي الأحمر قد أصبح لا وجود له .

وقد جرى في حسبان هتلر أن حربه للاتحاد السوفييتي ستجلب تحت لوائه جماعات المهدئين Appeaser من أبناء البلدان الديمقراطية جميعاً ، وكأنما هو تاجر ماهر يلف سلعه بأوراق مكتوب عليها « الحرب الصليبية على الشيوعية » آملاً أن يكون لهذه الكلمة السحرية من الأثر ما يفقد الناس آلام المخمصة والسخرة والارهاق ويحجب عن أبصارهم الاختلاسات المتكررة وأسلاك معسكرات الاعتقال ومدافع الجستابو الرشاشة ، ولكن ساحر برشتسجادن لوَّح بعصاه هذه المرة وتمتم بألفاظه السحرية فلم يخرج من برنيطته ولا أرنب واحد .

وقد أثار شن تلك الحرب الغادرة شعوب البلقان على ألمانيا فأعلنت بلغاريا أنها لا تقاتل الاتحـاد السوفييتي وأنشأت شعوب يوجوسلافيا ثلاث جمهوريات سوفييتية تشُن الحرب على الألمـان وصنيعتهم الجديد ميخايلوفتش وتجليهم عن البلاد قرية قرية ، واحتجّ جوليو مانيو رئيس حزب الفلاحين في رومانيا على اسـتمرار الرومانيين في القتال وراء الدنيستر معلناً أنه يرى في ذلك دلالة على أنهم ليسوا إلاّ مخالب قطط تلتقط الكستناء للألمـان ، وأبت الشعوب المحتلة أن تسلم طوعاً ما عندها من معادنَ وحاجٍ الى الألمان وعمد عمالها الى التخريب ونسف المناجم والمصانع والقطارات متشجعين بمقاومة الجيش الأحمر .

الجيش الاحمر يكتسح أعداءه

لقد انتصب أمام الطغيان الهتلري في هذه المرة شعب من نوع آخر ، شعبٌ ذو مِرّة (عزيمة) يعرف ما يريد ويفعل ما يريد ، شعبٌ لم يتردّد ولم يهنْ ولم تذهب نفسه شعاعاً حين هبط عليه بالمهابط شياطين الموت الذين كانوا في أوربا الغربيـة ينشرون الذعر والهلع حيثما هبطوا ، ولم تتهافت أعصابه وهناً حين انقضّـت عليه طائرات ستوكا حتى كانت لتكاد تدس رؤوس أبنـائه ، شعبٌ لم تجدِ معه الأسلحـة النفسية التي أرهقت الفرَنسيين من طبول تُـقرع وأناشيدَ للنصر ترتفع بها العقائر على حين تُـرنّـق فوقهم الطائرات الصخبة مساقطة عليهم قنابرَ صافرة .

أجل ، تقهقر البلاشفة رَدَحاً من الدهر ، حتى تمّ تجنيد الشعب الذي يحوي عُشر سكان الارض في سدس مساحتها ، ولـكن هذا التقهقر على خلاف ما شاهدنا في البُـلدان الاخرى كان خُـطة لا هزيمة . ولم يضـنّ البلاشفة بأية تضحية تحول بخلد انسان ، فنقلوا — وهم يتقهقرون — الى المؤخرة كل ما استطاعوا نقله من آلات وعتاد ودمروا كل ما لم يستطيعوا نقله . على أنهم لم يتخلوا عن قطعـة من الأرض قبل أن يغطوا ثراها بأشلاء جنود الألمان ودباباتهم . وقد استغلوا تهوّر النازيين وإسرافهم في الأرواح والعتـاد فأنزلوا بهم خسائر فادحة . وقد كان إسراف النازيين في غرب أوربا ضرباً من الاقتصـاد يبلّـغهم المراكز

الحيوية وييسر لهم القضاء على المدافعين أما الاتحاد السوفييتي فقد ضاعف النازيون إسرافهم مثنى وثلاث دون أن يتيسر لهم إضعاف الروح المعنوية في البلاشفة . وهكذا دفعوا في ما افتتحوه من الأراضي السوفييتية ثمناً باهظاً من الجند والعتاد والروح المعنوية ، أصبح معه ذلك الافتتاح انتحاراً لا انتصاراً .

وسرعان ما انبثقت الدبابات السوفييتية من تحت الأرض كأنما قد جلبها سحر ساحر ، وبدأت البلاغات النازية تشكو ظهور « جيوش جديدة وعتاد جديد » . وتحطمت على صخرة المقاومة الصلدة أوامر التقدم مهما يكن من ثمن ، ولم تغنهم الفرق الجديدة الفتية يستبدلون بها الفرق القديمة الممزقة حيناً بعد آخر . وأخذ البلاشفة يكيلون لهم لطمة بلطمة ليست هذه حرباً خاطفة بل هي حرب إبادة طويلة الأمد . لقد ماتت الحرب الخاطفة وقبرت في ثلوج الاتحاد السوفييتي .

***

وانكفأ النازيون يهبطون بعد أن تسنموا الذروة من الانتصار ، وتفانى أملهم في الظفر السريع وأخذوا ينزفون قواهم على حين ما فتىء عدوهم الجبار يزداد قوة على قوة ، فقد أراقوا ما عندهم من البترول حيث أرادوا الحصول على البترول . ودمر البلاشفة لهم حقول الزيت الرومانية ومعامل تكريرها في بلويشتي دون أن يرووا ظمأ دباباتهم من آبار باكو . وهبطت منتجات الصناعة الحربية في ألمانيا سنة ١٩٤١ بمقدار ٢٠ الى ٣٠ في المائة مما كانت عليه سنة ١٩٣٩ وهبط إنتاج الفحم ١٠ الى ١٥ في المائة والصلب ١٥ الى ٢٠ في المائة . ولم يزل الهبوط يزداد سرعة حتى أوشك أن ينفد ما ادخر هتلر للحرب من مواد ، فأصبحت دروع الطائرات الألمانية عارية من النيكل ، بل إن أهم أجزاء آلاتها قد أصبحت خالية منه ، ولم يستطع الفيرر أن يحصل على المعادن الناقصة التي يحتاج اليها — من (الخردة) كما كان القيصر يفعل في الحرب العالمية الاولى ، إذ أن ألمانيا كانت قد استنفدت خردتها قبل الحرب . أما مزارع أكرانيا الخصبة فقد وجدها مهجورة من الفلاحين خالية من المواشي والآلات التي سبقتهم نحو الشرق فكان ما أقلته القطر الى مطاحن ألمانيا من القمح أقل مما أقلته الى مستشفياتها من الجرحى .

وهكذا خاب فأل هتلر وأخطأ حسابه في كل ناحية ، حربيًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا ونفسيًّا ، وكان خطؤه عظيماً عظم التأهب السوفييتي لسحق هجومه . وقد قال في خطاب له في قصر الألعاب الرياضية في ٣ اكتوبر يعتذر من كثرة الموتى « لقد أخطأنا خطأً واحداً ، هو أننا لم نعلم مدى جبروت التأهب الروسي لكفاح ألمانيا »

المراجع

1 — . T. Murphy : Russia on the march

2 — D. N. Pritt : Light on Moscow

3 — Victor Gollancy : Russia and ourselves

4 — Barbara Ward : Russian foreign policy

5 — Lucien Zacharoff : "We made a mistake"...

6 — Reginald Bishop : Russia's enemies in Britain.

7 — Maurice Edelman : How Russia prepared

8 — Gaetano Salvemini : Italian fascsism

9 — Illustrierte Geschichet des Bürgerkrieges in Russland 1917 - 1921

10 — جريدة صوت الشعب (البيروتية) تعليقها على السياسة الخارجية في سنة ١٩٣٩

11 — برقيات الصحف المصرية اليومية

فهرس الكتاب

سجل الخالدين

لواحق المقتطف الشهرية

لورد كليف

مؤسس الامبراطورية البريطانية في الهند

تأليف

ماكولي

نقله بتصرّف الى العربية

عبد المنعم صادق

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٧

نشأة كليف

في القرن الثاني عشر هبطت أسرة كليف مقاطعة شروبشير واقتنت مزرعة قريبة من «ماركيت درايتون». وظلت تعيش على ما تغله من إيراد . . . وفي خلال حكم الملك جورج الأول آلت هذه المزرعة الى مستر ريتشارد كليف الذي لم يكن يتميز عن أي رجل عادي بأية موهبة أو كفاءة ، ولكنه أصبح من رجال القانون. وكان وقته موزعاً بين واجباته كقانوني والتزاماته كزارع يشرف على مزرعته . وتزوّج في مانشستر من سيدة من أسرة هاسكيل . أنجبت له عدة أبناء كان أكبرهم روبرت كليف مؤسس الامبراطورية البريطانيـة في الهند، وكان مولده في التاسع والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٧٢٥ .

ودرج الطفل من مهده وبدأت تتجلى فيه تلك الصفات التي صحبته في صباه وشبابه ولازمته في رجولته وكان أبلغها ظهوراً قوة إرادته وحدة عاطفته وشجاعته التي لا حدّ لها والتي كان يصحبها أحياناً تهوّر واندفاع مما دعا الناس الى اتهامه بالجنون . ولقد حكي عنه بيلي كليف إنه كان مولعاً أشد الولع بالمقاتلة فكان يغضب ويتشاجر لاتفه الاسباب . ولقد كان أهل القرية يذكرون تلك العصابات التي كان يكوّنها في صغره من زملائه في الطفولة ويفرض على أرباب الحوانيت إتاوة ليضمن لهم سلامة واجهات محالهم . وسببت هـذه الصفات لاهله كثيراً من المتاعب فأخذوا ينقلونه من مدرسة الى أخرى دون أن يحصل على أي قدر من العلوم بل يزداد شهرة في الاعتداء على الناس باليد واللسان . ومع هذا فقد تنبأ له أحد أساتذته وهو الدكتور ايتون بأنه « لو عاش هذا التلميذ حتى صار رجلاً وتهيأت له الظروف المساعدة، فانه سيكون رجلاً عظيماً ». ولكن الاعتقاد العام في روبرت كان . « أنه غبي شرّير » وكانت عائلته لا ترجو منـه خيراً ، فلم يكن غريباً منها حين بلغ الثامنة عشرة من عمره أن توافق على تعيينه كاتباً في خدمة شركة الهنـد الشرقيـة . وودعه ذووه على ظهر السفينة

التي حملته الى فرع الشركة في مدراس وكانوا يرجون له الثراء أو الموت .

وكانت شركة الهند الشرقية شركة تجارية محضاً وتشغل بضعة أميال مربعة في بلاد الهند تدفع عنها إيجاراً سنوياً للحكومات الوطنية . وكان لها فصائل من الجند قليلة العدد لا تكاد تكفي للاشراف على ثلاث أو أربع قلاع متتابعة مقامة لحماية مستودعات الشركة . ولم يكن هؤلاء الجنود ومعظمهم من الوطنيين الهنود قد تدربوا على النظم العسكرية الاوربية وكان سلاحهم السيف والدرع أو القوس والنشاب . وكانت مهمة موظف الشركة تنحصر في جرد البضائع أو دفع عرابين لعملاء الشركة من التجار أو الاشراف على شحن السفن . هذا الى مراقبة حركات التجار الذين يجرؤون على مزاحمة الشركة. وكان صغار الموظفين مضطرين الى الاستدانة اضافة لمرتباتهم ، أما كبارهم فكانوا يشتغلون لحسابهم الخاص فأصبحوا على شيء من الثراء . أما أولئك الذين كانوا في الوظائف الرئيسية فقد تيسر لهم جمع ثروات طيبة .

أما فرع الشركة في مدراس حيث عين روبرت كليف ، فكان أهم فروعها حيث قلعة سان جورج التي أنشئت في سنة ١٦٤٠ في مكان قاحل تغير عليه دائماً أمواج المحيط الصاخبة . وكان على مقربة منها ثلاث قرى كل منها في شمال الأخرى وتكوّن في مجموعها مدينة مدراس، فأولاها المدينة البيضاء حيث يقيم ثلثمائة انجليزي وبضعة أوربيين آخرين و « المدينة السوداء » حيث تجار الأرمن والهنود وثالثتها قرية يقيم بها الوطنيون الفقراء . وكان عددهم آخذاً في الازدياد .

وفي داخل القلعة وما جاورها كان للانجليز من الحقوق ما كان لأي مالك هندي آخر في ممتلكاته ولكنهم لم يطمعوا يوماً في الاستقلال بهذه البقعة من الأرض التي كانت تابعة لأقليم الكرنات الذي كان عليه « نواب » ينوب في حكمه عن « نظام » الدكن الذي كان يستمد سلطانه من المغل العظيم سليل جانكيز خان والمتربع على عرش دلهي .

الى الهند

وكانت رحلة كليف مجهدة له ولاسيما في تلك السن المبكرة . وقد رست السفينة خلال تلك الرحلة على ميناء ريو دي جانيرو حيث ظلت تسعة أشهر واستطاع المغامر الشاب أن يلم

الكثير عن البرتغاليين في إقليم البرازيل . وكان طول اقامته فيها سبباً في أن يأتي على ما كان معه من نقود وان يقترض من ربان السفينة. وبلغت السفينة مدراس بعد أكثر من عام . وكان كليف مفلساً ومرتبه ضئيلاً إذ لم يكن يتعدى خمسة جنيهات في الشهر . واضطرّ الى الاستدانة . وكان مقامه في سكن لا يصلح لسكن أوروبي في ذلك الجو الحار وكان حين وصوله يحمل خطاب توصية لرجل كان من المحتمل أن يجد فيه عوناً له ، ولكنه لم يجد الرجل إذ كان قد سافر الى انجلترا قبل مقدمه. ومنع كليف حياؤه ثم كبرياؤه من أن يتقدم الى من لا يعرفهم وهكذا قضى في بلاد الهند بضعة أشهر قبل أن يتعرّف الى غيره أو الى أسرة واحدة. وأثر المناخ وسوء الاقامة في صحة الفتى ونفسه إذ لم يكن ما يؤديه من عمل يتفق مع نشاطه وجرأته فأحسّ بحنين الى وطنه واشتد حنينه اليه فكتب الى صديق له في انجلترا يقول « لم أشعر يوماً منذ غادرت أرض الوطن أني سعيد وان الحزن والأسى ليعترياني حين أفكر في انجلترا وكم أكون سعيداً عند ما تتاح لي فرصة زيارتها لا سيما مانشستر محط آمالي » .

ووجد شيئاً من الراحة حينما كان يسمح له وكيل الشركة بزيارة مكتبته وصار يقضي بين جدرانها أوقات فراغه وأقبل على الاطلاع على ما حوته الكتب التي وصلت الى يده .

ولكن لا المناخ السيء ولا الفقر القاسي ولا الدرس والاطلاع ولا مرارة النفي ، قد هذبت من نفسه المتمردة فكان موقفه من رؤسائه دائماً هو موقفه من أساتذته في المدرسة حتى كاد يفصل من عمله يوماً ما واشتد به اليأس مرتين فحاول الانتحار في كليهما ولكن الرصاص لم ينطلق من مسدسه في واحدة منهما ، فانقلب يأسه أملاً واعتقد أن الأيام تدخره لعمل عظيم .

الضابط كليف

وكانت انجلترا في حالة حرب مع فرنسا في أوربا وكان طبيعياً أن تكون الحال كذلك في بلاد الهند ، فقد هاجم لابوردونيه حاكم موريشيوس الانجليز في مدراس واستولى على قلعة سان جورج وعلى المدينة ورفرفت الأعلام الفرنسية على اقامة واتفق مع الانجليز

على أن يعتبروا أنفسهم أسرى حرب وتعهد بأن تبقى المدينة في يد الفرنسيين حتى تدفع لهم التعويضات اللازمة فيرحلوا عنها .

ولكن انتصار لابوردونيه أثار غيرة مواطنه دوبليه حاكم بندتشيري فأعلن أن لابوردونيه قد تجاوز حدود سلطته في عقد هذه المعاهدة وان جميع المقترحات التي تتم في بلاد الهند تحت الراية الفرنسية انما تكون خاضعة لحاكم بندتشيري وحده . وبهذه النظرة ضم مدراس اليه وساق كبار موظفي الشركة الى بندتشيري وسيرهم في شوارعها باحتفال كبير شهده خمسون ألفاً من المشاهدين . واستطاع كليف أن يهرب من الأسر ليلاً فأوى الى قلعة سان دافيد وكانت احدى القلاع التابعة لمدراس ولم تسقط بعد في يد الفرنسيين .

وهكذا تهيأت لكليف الظروف التي تتناسب مع صفاته ومميزاته وطلب من أولي الأمر في سان دافيد أن يعينوه ضابطاً في القوات البريطانية وأجيب الى طلبه . وكانت سنه وقتذاك احدى وعشرين عاماً . وحدث أن اشتبك في عراك مع أحد جنود الفرقة التي كان . وكان هذا الجندي مشهوراً بالقوة البدنية الهائلة وكان مصدر ذعر الفرقة كلها وانتصر عليه فزاد قدره عند زملائه والتفوا حوله وبدأت الأنظار تتجه اليه لما امتاز به من الشجاعة والعدل والحكمة والاخلاص في طاعة الاوامر، وبدأ نجمه في الصعود في أثناء المعارك المحلية التيكانت تدور بين الانجليز والفرنسيين حتى استرعى بأعماله نظر قائده الميجور لورانس

- وعقد الصلح بين انجلترا وفرنسا فعادت مدراس الى الانجليز وبهذا عاد الضابط الشاب الى الحياة المدنية ثم تركها الى الزي العسكري ولم يمكث به غير قليل حتى عاد الى وظيفة الكتابية . وبينما كان في تنقلاته هذه بين الحياتين العسكرية والمدنية حدث ما حدد مصيره واتجاهه. ذلك ان الحرب وإن وضعت أوزارها في أوربا إلا أنها قد شب أوارها في الهند بين الشركتين الانجليزية والفرنسية اللتين كانتا تتنازعان للحصول على أملاك تيمورلنك في الهند

ولقد كانت الامبراطورية التي أسسها المغول في القرن السادس عشر من أوسع وأعظم الامبراطوريات التي نشأت في التاريخ حتى ذلك الحين ، من حيث عدد السكان أو مقدار الثراء أو مظاهر الترف والنعيم . إلا أن سياسة الحكم في تلك الامبراطورية حتى في أوج مجدها كانت سيئة جداً وذلك لأن نظام الحكم المطلق هو الذي كان سائداً فيها وما نشأ عن

حكم التتار وهم أقلية لشعب كبير العدد من أجناس متباينة ومن وجود خلافات قامت بها قبائل الهندوس . ولكن هذه الأحداث لم تؤثر في مظهر الدولة الخارجي فبدت عظيمة متماسكة وان كانت قد هدت من كيانها الداخلي . وظلت على هذا الوضع حتى أواخر حكم أورنجزيب في سنة ١٧٠٧ وبموته إنهارت الدولة كأنها بيت من الورق.

فقد تولى الحكم بعد هذا الامبراطور في خلال أربعين عاماً، ملوك قنعوا بأن يكون لهم الملك الاسم والاقامة في قصور تهيأت لهم فيها كل وسائل النعيم والترف والخمول والدعة والخمر الحشيش والنساء وأهازيج الأوتار ، وذلك في وقت كان المغيرون فيه ينتقصون الدولة من أطرافها ويلتهمون ثرواتها، فهبط نادر شاه ملك فارس في ١٧٣٩ سهول الأندوس في الشمال الغربي من بلاد الهند واقتحم أبواب دلهي وحمل منها كنوزها إلى بلاده وأعقبته قبائل الأفغان والراجبوتانا ثم قبائل المهراتا . وكانت أشد القبائل المغيرة وحشية وقسوة وأصبحت مصدر رعب دائم للهنود . فما كان يسمع الفلاح صوت قرع طبولهم حتى يحمل ما يتيسر له حمله من متاع ويهرب الى الجبال أو الغابات حيث يجد في مجاورة السباع أمناً لا يجده في مجاورة الذين كانوا يفرضون الجزية على الولايات والتجار الأوربيين ، بل إن الامبراطور نفسه كان يدفع لهم مايفرضونه عليه صاغراً وهو يرى من نوافذ قصره في دلهي ، نيرانهم فوق قمم الجبال الغربية .

***

وتقاسمت القبائل المغيرة أملاك الامبراطور ونشأت فيها دويلات صغيرة في طول البلاد وعرضها ، كانت لا تلبث أن تضعف وأن يسترد السلطان فيها نواب ينصبون أنفسهم حكاماً تابعين إسمًا للامبراطور الضعيف يرسلون له الهدايا الفاخرة دليلاً على تلك التبعية التي تكسبهم صفة شرعية لحكم البلاد التي يحكمونها وكانوا فيها اصحاب السلطة الحقيقية لا يمكن عزلهم أو نقلهم إلى جهات أخرى وكان هؤلاء النواب مسلمين، فكونوا أسراً اسلامية تولت الحكم في اقليمي البنغال والكرنات .

ورأى دوبليه وكيل شركة الهند الفرنسية هذه الفوضى الضاربة أطنابها في بلاد الهند، ورأى بثاقب فكره المتوقد وقوة ذهنه الجبار، انه يمكنه أن يستفيد من هذه الفوضى الشاملة فيؤسس على أنقاضها امبراطورية فرنسية تضم تحت لوائها المسلمين والهندوس على السواء والهنود الوطنيين وقبائل المغيرين معاً وان يؤلف من تلك الشعوب المتباينة في الجنس واللغة والدين والعادات شعباً واحداً يدين بالولاء لفرنسا . ولم يقنع دوبليه بتحديد الغاية بل رسم الخطة التي توصله الى تحقيق هذه الغاية، وذلك في وقت كان فيه أقدر موظفي الشركة الانجليزية لا يشتغلون إلاّ بأعداد الفواتير وجرد المخازن والاشراف على الشحن ومراقبة التجار المحليين .

وكان دوبليه يرى أن ما يمكن لاي أمير هندي جمعه من جند لا يستطيع أن يقف — مهما كان عدد جنوده من الكثرة — في مواجهة قوة صغيرة من الجنود النظاميين والمدربين على النظم الاوربية ، وانه من الميسور تدريب الجنود الوطنيين على النظم الغربية الحديثة فيصبحون قوة عظيمة، وان الطريقة المثلى للمغامر الاوربي هي مراقبة الحوادث والاستفادة من تطوراتها وان يتخذ من الخلافات التي تنشأ بين الأمراء سبيلاً للتدخل بينهم واتخاذ بعضهم ستاراً يعمل من ورائه على تحقيق غايته — هذه هي السبل التي رسمها دوبليه وسار فيها الانجليز فيما بعد.

ولقد حدث أن توفي « نظام » الدكن في عام ١٧٤٨ وورث ملكه إبنه ناصر جنج وكانت « الكرنات » أغنى المقاطعات التابعة له يتولى الحكم فيها « نواب » أنوار الدين منذ عام ١٧٤٠ وكان طبيعيًّا في تلك الفوضى الشاملة أن يظهر أمراء طموحون يطالبون بالعرش، وأن يجدوا العون في أولئك الوصوليين الذين يهبون مع كل ريح طمعاً في المغانم والأسلاب، فظهر مطالب بعرش الكرنات وكان إسمه شندا صاحب، ومطالب آخر بعرش الدكن وإسمه ميرزا فاجنج الذي كان حفيداً للنظام الراحل . واتحد هذان المطالبان وانضم تحت لوائهما الكثيرون ولم يكتفيا بذلك ، بل طلبا من الفرنسيين شد أزرهم في هذه المطالبة . ووجد

الفرنسيون الفرصة سانحة لتحقيق أغراضهم ونيل مآربهم فأمدوها بقواتهم واطمأن المطالبان الى هذا المدد كل الاطمئنان ، لاسيما وقد رأيا الفرنسيين ينتصرون على الانجليز في ساحل « كروماندل » .

وتقرر أن يبدأ بغزو مقاطعة الكرنات فسارت الحملة وقد زاد في قوتها ما أمدها به الفرنسيون من قوات بلغ عدد أفرادها أربعمائة جندي فرنسي وألفي جندي هندي مدرب على النظم الأوربية . وكان طبيعيًا أن ينتصر الحلفاء على قوات « نواب » الكرنات وأن يظفروا به ويقتلوه وأن يهرب إبنه محمد علي الذي لجأ الى « تريشنوبولي » وأن تتم بهذا سيادة الغزاة على مقاطعة الكرنات . فنصب شندا صاحب نوابًا عليها . وكان دوبليه المساهم الاول في هذا التنصيب فأصبح صاحب النفوذ الأول فيها والحاكم الحقيقي لتلك المقاطعة .

وبعد بضعة أشهر قضاها الحلفاء في حروب ومفاوضات ومؤامرات برزت فيها كفاءة دبليه وساعده حسن حظه فأصبح صاحب الامر والنهي في إقليم الدكن كله، ذلك أن ناصر جُنْج قتله أتباعه وتولى مكانه ميرزافا جُنْج، وبهذا انتصرت السياسة الفرنسية في ذلك الجزء من بلاد الهند وأقيمت حفلات التتويج الرائعة في مدينة بوندشيري حيث أطلقت المدافع ودقت أجراس الكنائس وبعد أن تم تتويج ميرزافا « نظامًا » لاقليم الدكن أعلن هذا تعيين شندا صاحب « نوابًا » لمقاطعة الكرنات و« دوبليه » حاكمًا على ذلك الجزء من بلاد الهند الذي يقع بين راس كومورين ونهر كريستنا والذي يبلغ عدد سكانه ثلاثين مليون نفسًا ومنحه من الامتيازات ما فاقت به امتيازات شندا صاحب ، فقد عين رئيسًا لسبعة آلاف فارس وجعل صك النقود قاصرًا على بوندتشيري ، واستولى على جميع خزائن المال والنفائس التي كان أمراء الدكن قد جمعوها طيلة حياتهم . وقد تواترت الانباء عن قدر ذلك المال الذي انساب الى خزائن دوبليه ومنها ما يحدد قدره بمائتي الف جنيه . وفي الواقع لا يمكن تحديد ما جناه الحاكم الفرنسي من وراء تلك الحملة فضلاً عن انه أصبح الحاكم المطلق على ثلاثين مليون نفس إلى نفوذه الكبير في الاقليم كله فان أمرًا ما كان يبت فيه قبل استشارته .

ولم يبق ميرزافا جُنْج في مركزه العظيم سوى أشهر قلائل . ثم تولى مكانه أمير آخر من نفس الأسرة مستندًا الى نفوذ الفرنسيين فوافق على جميع الامتيازات التي منحها لهم سلفه

وأصبح اسم دوبليه يلقي الرعب في النفوس حتى في نفس الامبراطور في دلهي . وكان الأهالي يعجبون كيف أتيح لذلك المغامر الاوروبي أن يحرز كل هذا التوفيق في مدة لا تزيد على أربعة أعوام . ولم يكتف دوبليه بهذا النصر ، بل استولى عليه الغرور فشاء أن يرسخ في أذهان الهنود والانجليز على السواء ما ظنه بعيداً عن تلك الأذهان من قوة مركزه واتساع سلطانه، فأمر بإقامة مسلة في نفس المكان الذي سقط على مقربة منه ناصر جنج وعين ميرزافا جنج وأن يكتب على هذه المسلة أنباء انتصاراته وأن يكتب كل وجه من وجوه المسلة الأربعة بلغة غير التي يكتب بها الوجه الآخر حتى يعلم الشرق كله من هو دوبليه وما هي فرنسا . وحول هذه المسلة أنشئت مدينة دوبليه الفاتح .

وقام الانجليز بمحاولات ضعيفة لوقف تفوق الشركة المنافسة وظلت تعترف بمحمد علي كنواب لمقاطعة الكرنات رغم أن هذا الأمير لم يكن له سوى قرية تريشنوبولي ، وحتى هذه القرية أصبحت الآن محاصرة يقف على أسوارها شندا صاحب وأعوانه الفرنسيون . وكان لا بدّ من رفع هذا الحصار ولكن هذا الأمر بدا مستحيلاً ، فقيادة الانجليز في مدراس كانت بدون قائد لأن الميجور لورانس عاد الى انجلترا ولم يكن هناك ضابط واحد يمكن الاعتماد عليه . وكان الهنود يرون أن الفرنسيين هم سادة المستقبل فقد رأوهم يوم استولوا على قلعة سان جورج وشهدوا الأعلام الفرنسية ترفرف عليها ورأوا كبار موظفي الشركة الانجليزية مسوقين في ركاب المنتصرين في شوارع بوندتشيري ، ولمسوا انتصار جيوش دوبليه في كل مكان حلت به ورأوه صاحب الأمر في الأقليم كله بينما لم يروا من الانجليز إلا الضعف . في تلك اللحظة ظهر شاب انجليزي مغمور تجلت فيه الشجاعة والقدرة، فتغير مجرى الأمور .

اركوت

كان كليف في تلك الأثناء قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره، وبعد أن قضى فترة طويلة في تلك الأثناء بين حياتيه العسكرية والمدنية، عين بصفة دائمة في وظيفة تجمع بين الناحيتين وهي وظيفة ضابط تموين فصائل الجند برتبة كابتن . واستطاع هذا الضابط الشاب أن يقنع

ولاة الأمر في مدراس بأنه من الواجب أن يبذل مجهود لانقاذ تريشنوبولي ، وإلاّ فان تلك القرية ستسقط في أيدي الفرنسيين وتقتل محمد علي وتفني أسرة أنوار الدين وتتم بهذا سيطرة الفرنسيين على شبه جزيرة الهند كلها . وأنه لا بدّ من القيام بغزوة كبيرة . فمثلاً اذا وجهت هذه الغزوة الى اركوت عاصمة الكرنات التي يفضل المقام فيها حكام الكرنات ، فليس من المستبعد في هذه الحالة أن يرفع الحصار عن تريشنوبولي . ورأى رؤساء كليف أن فكرته وجيهة تستحق التنفيذ ، لأنهم كانوا يخشون أن يجيء يوم تعلن فيه الحرب بين فرنسا وانجلترا في أوروبا وتصل الى الهند فتهجم قوات فرنسا الموجودة ببلاد الهند على أملاك الشركة الانجليزية في مدراس وتدمر المدينة نهائيًا ، وتبعاً لذلك وافقوا كلية على ما ذهب إليه، وفوضوه في أمر تنفيذ الفكرة،وجعلوا تحت إمرته مائتي جندي انجليزي وثلثمائة جندي هندي مدربين تدريباً أوروبيًا . ولم يكن بين ضباط هذه الحملة سوى إثنين شهدا الحرب وعرفا ما هي . وسارت الحملة في جوّ عاصف مطير حتى بلغت أبواب أركوت فذعرت الحامية وأخلت القلعة وولت الادبار فاحتلها كليف دون أن يطلق رصاصة واحدة .

وكان كليف يعلم أنه لن يترك آمناً في اركوت وإنه سيهاجم حالاً فأقبل على جمع الأقوات والذخائر وتقوية الاستحكامات إستعداداً للحصار ومواجهة الهجوم المتوقع . وكانت الحامية التي هربت عند مقدمه الى ضواحي المدينة قد جاءها مدد أصبحت به عدتها ثلاثة آلاف رجل عسكرت بظاهر المدينة حتى أقبل المساء ، فخرج عليهم كليف فجأة، وأعمل فيهم القتل ، فمات كثيرون وهرب الباقون . وأخيراً عاد الى قلعته دون أن يخسر رجلاً واحداً من رجاله .

وبلغت أنباء هذه الأحداث الى شندا صاحب، حيث كان يحاصر هو وحلفاؤه الفرنسيون مدينة تريشنوبولي، فجرّد أربعة آلاف رجل من جنوده وأمرهم بالسير الى اركوت . وهناك انضمت إليهم فلول حامية المدينة التي بقيت من المعركة السابقة كما جاءهم مدد آخر ، إن يكن أقل عدداً، إلاّ أنه كان أكثر أهمية من الوجهة الحربية . وكان هذا المدد مكوناً من مائة وخمسين جنديًا فرنسيًا أرسل إليهم من بوندتشيري . وبهذا أصبح عدد القوات المتحالفة عشرة آلاف مقاتل يتولى قيادتهم راجا صاحب ابن شندا صاحب .

وتقدم بهذه الحملة نحو قلعة اركوت مصمماً على حصارها ، وكان يرى أن هذا الحصار كاف للإستيلاء عليها لأنها في رأيه لم تكن لتحتمل الحصار الطويل لتهدم جدرانها وجفاف الخنادق المحيطة بها وضيق العيون المخصصة لتصويب المدافع في أعالي الأسوار.

ودام الحصار خمسين يوماً تناقص خلالها عدد الحامية فأصبح ١٢٠ أوروبيًّا و٢٠٠ وطني ، ولم يكن بين هذا العدد من الضباط سوى أربعة . أما القوة فأوشكت على الفناء وكان الذي يتولى قيادة الحامية شاب في الخامسة والعشرين من عمره كان عمله أصلاً كاتباً في أحد مكاتب الشركة .

ولكن هذا الشاب « كليف » أبدى في قيادته الحزم والقدرة واليقظة ما لو أبداه أي قائد عظيم في أوروبا لنال من أجله أعظم الأوسمة وأفخر النياشين . ولكن الانحلال بدأ بعد هذه المدة الطويلة يدب في قوى الحامية إذ بدأت تحس وطأة الجوع القاسي . ولكن رغماً من قلة عدد الضباط ورغماً من اختلاف العناصر التي كانت تتألف منها تلك الحامية لم تظهر روح التمرد والعصيان بين الجنود ، وهي الروح التي كان من المحتمل أن تظهر بين أمثالهم في ظروف مشابهة . ذلك لأن حب كليف الذي كان قد تمكن من قلوب جنوده وإعجاب هؤلاء به ، قرّب بينهم وأزال الفوارق الدينية والعنصرية وزاد روح التضحية عندهم قوة . ويمكننا أن نعلم قوة هذه الروح بين أولئك الجنود من تقدم الوطنيين الى كليف وهو في إبان أزمته ، لا ليشكوا قلة الجراية المخصصة لهم ، ولكن ليقترحوا عليه أن يخصص الحبوب كلها للاوربيين من زملائهم لأنهم على حد قولهم أكثر حاجة الى التغذية منهم لأنهم لم يتعوّدوا الصبر على الجوع كما تعودوه ، ولأنهم غرباء أحق بالرعاية . وعرض أولئك الفدائيون على قائدهم أن يطعمهم بنشاء الأرز الذي كانوا قد تعودوه غذاء لهم ولم يرو التاريخ أروع من هذا المثل في التضحية والوفاء العسكري ، ولا أبلغ منه دلالة على محبة الجنود لقائدهم .

* * *

ولقد حاولت حكومة مدراس أن ترفع الحصار عن أركوت ، ولكن هذه المحاولة فشلت ، وظلت الحامية تقاسي متاعب هذا الحصار حتى لاح بريق الأمل من ناحية أخرى . ذلك أن جيشاً قوامه ستة آلاف من جنود (الماهراتا) الذين اتخذوا الجندية مهنة وقطع الطرق

ومياه المعيش بقودهم موراري راو كانوا قد استؤجروا انجدة محمد علي في ترشنوبولي، الا انهم أحجموا وقتاً طويلاً عن هذه النجدة .

فقد كانوا يظنون أن قوة فرنسا لا تقاوم ، وأن النصر حالف لشندا صاحب الذي تشد أزره هذه القوة ، فظلوا لا يحركون ساكناً مقيمين على حدود الكرنات . حتى إذا علموا نبأ حصار أركوت وتلك القوة العجيبة التي أبداها الانجليز في مقاومة هذا الحصار، أيقظهم ذلك من سباتهم وأعلن موراري راو أنه لم يظن أبداً أن الانجليز يستطيعون الحرب الى هذا الحد . أمّا وقد رأى منهم ما رأى، فانه سيساعدهم ما وسعته المساعدة . وعلم راجا صاحب أن المهراتا في طريقهم اليه، وانه لا بد من الاقدام على عمل سريع يتفادى به الالتحام مع تلك القوة الخطرة ، فحاول بادىء ذي بدء مفاوضة كليف وعرض عليه رشوة كبيرة لعله يقبل شروط الصلح التي عرضها عليه، ولكن هذا رفضها بامتهان وصلف، فاضطرّ راجا صاحب إلى أن يثور ويعلن أنه اذا لم تقبل شروطه فانه سيقوم بهجوم عام على القلعة وانه سيقتل جميع من فيها بلا استثناء . فردّ عليه كليف في ازدراء وتهكم بهذا الوعيد .

وأخذ كليف يعد عدته لمقاومة الهجوم المنتظر ويقوي من استحكامات القلعة ويرتب مواقف الجنود ويجهز الذخائر ويصلح من أدوات القتال . حتى بدأ الهجوم العظيم — فتقدمت الفيلة التي تغطي رؤوسها صفائح الحديد .

كان قائد المهاجمين مطمئنّا الى أن أسوار القلعة ستتداعى تحت أقدام هذه الفيلة وأن الأمر لن يكلفه أكثر من ذلك . ولكن هذه الفيلة ما اصطلت بنار الانجليز حتى ولت الأدبار وداست بأقدامها في تقهقرها أولئك الذين كانوا يسوقونها . الاّ أن بعض جنود راجا صاحب استطاعوا عبور الخندق المحيط بالقلعة ولكن رصاص المدافعين ردهم عنها أكثر من مرتين . ودام القتال ساعة سقط فيها أربعمائة رجل ولم يفقد المدافعون غير خمسة أو ستة رجال . وقضى كليف ليلة عصيبة كان يتوقع خلالها أن يقوم راجا صاحب بهجمات جديدة ، ولكن ما انبثق ضوء الفجر حتى لم يعد للمهاجمين أثر ، فلقد فروا تاركين وراءهم سبعة مدافع وكمية كبيرة من الذخائر . وهكذا رفع الحصار عن أركوت .

النصر

ووصلت هذه البشرى الى قلعة سان جورج فعمّ السرور والابتهاج ، وأصبح كليف في أعين مواطنيه وجنوده قائداً موفقاً ، فأرسلت اليه حكومة مدراس مائتي جندي انجليزي وسبعمائة جندي هندي لتعزيز قواته . فلما وصلت كليف هذه الامدادات تحول بها من الدفاع الى الهجوم فزحف بقواته على قلعة تيمري واستولى عليها ، وهناك اتصل بجزء من قوات موراري راو فضمها تحت لوائه وسار بهذه الجيوش لمهاجمة راجا صاحب الذي كان على رأس خمسة آلاف رجل بينهم ثلثمائة فرنسي فدارت بين الفريقين معركة حامية نال فيها كليف نصراً حاسماً استولى به على خزانة راجا صاحب، وانضم اليه على أثره ستمائة هندي من جنود الراجا واستسلمت له كونجفرام دون أن يطلق رصاصة واحدة،وكذلك انضم اليه حاكم «أرنيه » بعد أن ترك جانب شندا صاحب وأقرّ بولاية محمد علي.

ولو كان الأمر بيد كليف وحده لسار به الى نهاية طيبة وسريعة ولكن الحذر والضعف اللذين كانت حكومة مدراس تبديهما في قراراتها وأوامرها، كل هذا أطال أجل الصراع دون أن تكون هناك ضرورة لذلك ، فاستطاع راجا صاحب خلال فترة التردد هذه أن يجمع شمله وان يسير على رأس جيش قوي بينه أربعمائة جندي فرنسي الى قلعة سان جورج، فلما صار في ضواحيها اعتدى على مساكن موظفي الشركة الانجليز وخربها ولكن كليف سارع اليه واستطاع أن يحيط بجنده ويهزمهم هزيمة منكرة قتل فيها فيمن قتل مائة جندي فرنسي وكان هذا خسارة كبرى . تعادل خسارة بضعة آلاف من الوطنيين . وحينئذٍ اتجه كليف ببصره نحو قلعة سان دافيد .

سار كليف وقد قويت روحه المعنوية كثيراً الى قلعة سان دافيد ومرّ وهو في طريقه اليها بمدينة دوبليه الفاتح والنصب التذكاري المقام بها وأمر بتدمير المدينة والنصب تدميراً شاملاً . ولم يصدر في ذلك الأمر عن غيرة شخصية ، ولكنه صدر عن رغبة ملحة لازالة العقيدة التي تتركها في نفوس الأهالي اقامتها . وليبدد ذلك المظهر الرائع الذي كانت تلك الآثار تضفيه على الفرنسيين حتى تسرّب الى نفوسهم الاعتقاد بأن فرنسا لا تقهر ،وانها هي الدولة الأوربية الأولى التي لا يمكن للانجليز مقاومة سياستها .

وقررت حكومة مدراس أن تمد كليف ، وقد تهيأ له كل هذا النصر، بفرق قوية لانقاذ حامية قلعة تريشنو بولي . وما تمّ اعداد الحملة حتى كان الميجور لورانس قد وصل من انجلترا وتقرر أن يتولى القيادة العامة . وكان المتوقع في مثل هذه الظروف أن يتحكم الغرور في نفس كليف بعد كل ما تهيأ له من نصر رائع في العمليات الحربية التي قام بها أو تثور فيه نزعاته القديمة التي ظهرت فيه طفلاً وصبيًّا من العناد والمكابرة والمشاكسة فيرفض العمل تحت قيادة الميجور لورنس. ولكن المدهش حقًّا والذي يدل على علوّ نفس كليف، أنه خضع لقيادته . فلم يبد أي تراخٍ في أداء واجباته بل كان مخلصاً كل الإخلاص مطيعاً نشطاً .

ولم يكن لدى الفرنسيين قائد يستطيع أن يقف أمام الصديقين، إذ أن شهرة دوبليه كانت قائمة على أساس أنه سياسي داهية ساهم بنصيب كبير في تلك المؤامرات والمفاوضات التي تمت حينذاك في بلاد الهند . أما دوبليه المحارب فلم يكن ليستطيع أن يقود جيشاً أو يخوض معركة فلم يكن جنديًّا يوماً ما ولم تكن به رغبة ليصبح كذلك حتى لقد اتهمه أعداؤه بالجبن . ولكي يدحض هذا الاتهام حكي عنه أنه في خلال إحدى المعارك سارع الى قنبلة ملقاة على الأرض عقب إشعالها ولكنه بلغها متأخراً . فلما انفجرت كسته بطبقة من التراب فالتفت الى جنوده قائلاً (ها أنتم ترون يا أبنائي أنها لا تضر) . ويرى النقاد الحربيون أنه لم يكن قائداً بل كان كل ما يصلح له إنما هو وضع الخطط الحربية . ولقد دفع دوبليه عن نفسه تهمة الجبن بقوله إنه يفضل الابتعاد عن مواطن الضرب، لأن الهدوء والسكينة تخلقان الجو المناسب له ، والذي يستطيع فيه أن يضع خططاً محكمة تجيء متى نفذت بدقة ، بنتائج طيبة . ولكنه كان دائم الشكوى من أنه لم يكن لديه ضباط يحسنون تنفيذ خططه بإحكام . ذلك بعد أن تركه «باسي» ولحق ببلاط النظام وبقي في خدمته يرعى مصالحه الشخصية ويخدم وطنه عن طريق السياسة، وان من بقي لديه من ضباط إنما كانوا شباناً يجهلون شئون الحرب ولم يكن بينهم من كان متصفاً بأية مهارة أو حذق .

وانتصر الانجليز في كل مكان فبعد أن كانوا محاصرين في قلعة تريشنو بولي أصبحوا هم يحاصرون أعداءهم ويكرهونهم على الاستسلام . ووقع شندا صاحب أسيراً في أيدي المهراتا وأعدم . ويقال إن هذا الإعدام تمّ بناءً على طلب محمد علي . وبهذا تمّ انهيار سياسة دوبليه

وغضبت عليه ادارة الشركة الفرنسية في باريس فكفت عن مده بالعون والتشجيع . ورغم هذه الصعوبات ، فان دوبليه لم يتطرق اليأس الى نفسه، ولم تثبط همته ، ولا نضبت موارده . فواصل مقاومة الانجليز بالطريقة التي يتقنها ، طريقة الدس والمؤامرات وبذل المال بالرشوة والاسراف في الوعود الخلابة، حتى نفذت ثروته بل اضطر الى الاستدانة . كل ذلك في سبيل إثارة أعداء جدد على حكومة مدراس . واستطاع أن يجد أعواناً له ولكنه رغم هذا كله قد ذهبت جهوده أدراج الرياح لأن قوة بريطانيا في الهند كانت قد أخذت في النماء على عكس ما حدث لقوة فرنسا التي بدأت تنهار وكان انهيارها سريعاً .

ولم تكن صحة كليف منذ أن نزل أرض الهند طيبة يوماً ما ، ولكنها بلغت من السوء ما حمله على أن يصمم على العودة الى انجلترا . وساقت إليه الظروف عملاً وحتمت عليه أن يؤديه قبل رحيله وكان هذا العمل الذي وكل إليه به ، هو حملة مجهدة زادت متاعبه وآلامه . ولكنه قام بها بكل نشاط ومهارة . ذلك أن قلعتي كوفلونج وشنجلبت كانتا في أيدي الفرنسيين ورأي الانجليز أن يقوموا باحتلالها ووضعت الخطة لإتمام هذا الاحتلال. ورأى ولاة الأمور أن خير ضابط يمكن اسناد رئاسة الحملة إليه هو كليف ، وكان قوامها خمسمائة هندي حديثي عهد بالتدريب العسكري ومائتي إنجليزي جدد استطاعت الشركة أن تجمعهم من سكان أحط أحياء مدينة لندن، وكانوا يتصفون بسوء السلوك وفساد الأخلاق . ولم يكونوا على شيء من الروح المعنوية . ورغم هذه الظروف جميعاً تولى كليف قيادة هذه الحملة وهو مريض وضعيف وسار بالحملة الى كوفلونج الى أن صار تحت أسوارها . وما أن أطلقت منها رصاصة على جنوده وصادفت مقتلاً من أحد هؤلاء الجنود وهوى صريعاً بين زملائه حتى راعهم الأمر وولوا الأدبار. وقاسى كليف الأمرّين في سبيل إعادة الطمأنينة الى نفوس الجند وحملهم على الثبات في القتال ومجابهة الخطر ، وكان يضرب لهم المثل الطيب بوقوفه بينهم وفي الصف الأول من صفوفهم حتى استطاع أن يجعل من تلك القوى المنحلة قوة واحدة متماسكة وقوية، استطاعت أن تفتح كوفلونج . وعلم كليف إذ ذاك أن حملة قوية قد أرسلت من شنجلبت لإنقاذ كوفلونج . فأعدّ لها كميناً في الطريق وقع فيه الفرنسيون القادمون ومات منهم مائة رجل وأسر ثلثمائة وفرّ الباقون، وأخذ يتعقب كليف هؤلاء الفارين حتى أبواب

فنجلبت وكانت من كبريات المدن المحصنة بالهند وحاصرها حتى استسلم له قائدها .

وعاد كليف الى مدراس منتصراً ولكن حالته الصحية كانت قد ساءت الى حدٍّ كبير وزاد في ضعف صحته ذلك الإجهاد الكبير الذي عاناه في حملته الأخيرة فكان لا بدّ له لا سيما وقد تزوّج ، من أن يعود الى انجلترا بصحبة عروسه التي كانت من عائلة كبيرة وكانت هذه العروس فتاة رشيقة ومتعلمة ومخلصة وهبته كل قلبها .

العودة الى الوطن

وأبحر كليف عقب الزواج مباشرةً ومعه عروسه ووصل انجلترا فاستقبلته البلاد رغم أنه كان في السابعة والعشرين من عمره إستقبال الغزاة الفاتحين ، لأنها كانت ترى فيه أحد قوادها المبرزين . ذلك لأن أوروبا كانت في تلك الآونة تتمتع بالسلام فلم تكن هناك حرب إلاّ في أقاليم الكرنات في الهند بين الانجليز والفرنسيين ، وكانت أعمال دوبليه تثير قلقاً كبيراً في لندن وكان لكليف الفضل الأكبر في إزالة هذا القلق بشجاعته وكفاءته اللتين أبداها في الانتصار على الحاكم الفرنسي . وأطلقت عليه الشركة لقب الجنرال كليف . وبهذا اللقب نودي في جميع الإحتفالات التي أقيمت له . وقدمت له هدايا ثمينة كان بينها سيف مرصع بالجواهر ، ولكنه رفض قبوله ما لم يمنح الميجور لورنس مثيلاً له . وكان هذا اعترافاً منه بفضل صديقه ورئيسه ووفاء منه له ، ولم يقتصر تكريم كليف على الشركة ، بل كان تكريمه عامّاً ساهمت فيه الهيئات والأفراد .

وكذلك أحسنت أسرة كليف استقباله والترحيب به بعد إذ أبهجها نجاحه وسرها ما نال من توفيق وعجبت كيف أصبح روبرت الخامل في صباه ، رجلاً عظيماً في شبابه بل إن والده كان لا يؤمل قطعاً في أن يبلغ روبرت أي نجاح أو يصل الى أي نبوغ حتى علم أنباء دفاع كليف عن أركوت، حينئذٍ قال إن أمله في ولده بدء يبعث من جديد . وما زال تقدير مستر ريتشارد لولده يزداد عقب كل نجاح يحرزه ، حتى تمكن من فؤاده حبه وتقديره، بل وأصبح يفخر بذلك الابن .

وأصاب روبرت كليف بعض المال قبل عودته الى أرض الوطن وزاد نصيبه مما منحته اياه ادارة الشركة في لندن ولم يكن أنانيّاً ولا جشعاً كما انه لم يكن ابناً عاقّاً فسدد ديون

أبيه كلها وعمل على اصلاح مركزه المالي اصلاحاً شاملاً وشمل مزرعته بعنايته فتولاها بالاصلاح والرعاية والتجديد حتى عاد لها بهاؤها ورونقها وشبابها وزاد انتاجها وتضاعفت خيراتها . وحتى أمكن الى أن يطمئن الأب أن يعيش مما تغله من خير كثير في أمان . وكما كان باراً بأبيه كان باراً بنفسه فأخذ يصرف عن سعة وعاش مدى عامين في انجلترا عيشة بذخ وترف أتت على ما كان قد بقي لديه .

وحينئذ فكر في العودة الى بلاد الهند وكما كانت الحكومة تفكر في اعادته الى تلك البلاد كذلك كانت الشركة ترى ضرورة ارساله اليها حيث كانت الحال تستدعي وجوده هناك واستغلال مواهبه وكفاءته وخدماته، إذ انه رغماً من وقوف الحرب بين الانجليز والفرنسيين في مقاطعة الكرنات بعقد معاهدة كانت في صالح الانجليز أعقبها عزل دوبليه وعودته الى فرنسا — بعد اذ فقد ثروته التي كان قد قضى زمناً طويلاً في جمعها وفقد أمله في تكوين إمبراطورية فرنسية في الهند—حيث مات حزيناً . فان الدلائل كلها كانت تنذر بوقوع حرب طويلة بين الفرنسيين والبريطانيين وكان لا بد من ارسال قائد ماهر الى ممتلكات الشركة الانجليزية بالهند فتقرر تعيين روبرت كليف حاكماً لقلعة سان دافيد ومنحه الملك رتبة لفتننت كولونيل في الجيش البريطاني . وهكذا اجتمعت في هذا التعيين رغبات ثلاث . رغبة الحكومة ورغبة الشركة ورغبته الشخصية . فأبحر الى اقليم الكرنات في عام ١٧٥٥ .

في اقليم البنغال

وكان أول عمل حربي قام به كليف بعد عودته الى الشرق هو الاستيلاء على معقل القرصان (انجيريا) في (غريا) الحصينة والمقامة على شبه جزيرة صخرية يحيط بها الماء من معظم جهاتها . وتعاون معه في هذا العمل الاميرال وطسن بأسطوله واستطاع بهذا التعاون الاستيلاء على الحصن وعلى جميع ما كان به من مال بلغت قيمته مئة وخمسون الفاً من الجنيهات تقاسمها الغزاة .

وعاد كليف الى مقر عمله في قلعة سان دافيد ولم يمض على مقامه بها أكثر من شهرين حتى بلغه نبأ أثار حيويته ونشاطه الذهني .

وكان هذا النبأ يتعلق باقليم البنغال الذي كان يمتاز بوفرة حاصلاته وجمال مناظره وخصب

أراضيه ، فضلاً عن وداعة أهله ورقتهم ، وحبهم الدائم للسلم،ولباقتهم في الحديث . وكانت الشركات التجارية الأوربية قد انشأت لها فروعاً بين ظهراني أهل الاقليم.فالفرنسيون استقروا في شندر ناجور، والهولنديون في هينصورا، والانجليز في منطقة قريبة من البحر أنشأوا فيها قلعة وليام لتحمي كنيستهم ومخازنهم ومنازل كبار موظفيهم القريبة منها والممتدة على شاطىء نهر الـكنج . وعلى كثب منها قامت قرية وطنية كثيرة السكان كبيرة الحركة كان يقيم بها بعض كبار التجار الوطنيين . وكان هذا الجزء من الاقليم الذي اختاره الانجليز لمقامهم أهم أجزاء اقليم البنغال لقربه من البحر ولوفرة حاصلاته ماكان منها ينمو على سطح الأرض وما يعيش منها تحت سطح الماء .

وكان اقليم البنغال وأوريسا وبيهار خاضعاً لحـكم علي واردي خان الذي كان يتبع امبراطور المغول اسمياً ، ولـكنه كان يتمتع في حدود مملـكته بكل سلطات النفوذ الواسع وكان منشأ علي وردي خان هذا انه كان خادماً في اقليم بيهار واستطاع أن يستغل الظروف الواحد تلو الآخر ، حتى أصبح نواباً لتلك المقاطعة ثم استغل أيضاً فرصة اكتساح نادر شاه لبلاد المغول في عام ١٧٣٩ فقام بثورة على الأسرة التي كانت تحـكم اقليم البنغال كله باسم ملك المغول وقَـتَـلَ في معركة غريا في يناير سنة ١٧٤١ـ رأس هذه العائلة وحلّ محله على العرش. وفي العام التالي استطاع أن يقدم الى الامبراطور كثيراً من الهدايا فوافق جلالته على تعيينه نائباً له في اقليم البنغال وأوريسا وبيهار ولم يكن علي وردي خان في حاجة الى هذه الموافقة إلاّ ليكتسب صفة شرعية في حكم البلاد .

ومات في عام ١٧٥٦ وورث عنه ملـكه حفيده الشاب سراج الدولة الذي يحكى عنه أنه ولد بغير عاطفة ، فقد كان في طفولته يتلهى بتعذيب الحيوانات الصغيرة لا سيما الطيور وكان كلما تقدمت به السن نحو الشباب ازداد قسوة ووحشية نحو الحيوان بل ونحو اخوانه في الانسانية وأصبح يحلو له أن يشهد الناس يتألمون ويبهجه عذابهم . وكان سكيراً مدمناً أتت الخمر على ما كان قد بقي من عقله الذي ولد به . ولي الحـكم في العشرين من عمره وكان مستبداً بطيء الفهم يرضيه ما تبذله له حاشيته من ألفاظ منمقة ، وما تتملقه به من مديح وإطراء .

ولقد كان سراج الدولة يمقت الانجليز منذ طفولته ويكرههم بغير ما سبب ويستحل سلب أموالهم ، والآن وقد آل اليه الأمر فقد تلمس سبباً لاعلان الحرب عليهم ووجد هذا السبب في قيامهم بتحصين قلعة وليم وكان سر هذا التحصين هو ان الانجليز كانوا يتوقعون نشوب حرب مع الفرنسيين وساء سراج الدولة أن يلجأ الانجليز الى هذا التحصين دون أن يحصلوا على اذن منه بذلك . وثمة سبب آخر تذرع به سراج الدولة لحربه مع الانجليز، ذلك أنهم آووا في كلكتا ثرياً من أثرياء الهند كان قد بلغ من الثراء مبلغاً يستبيح فيه أمير الاقليم عادةً قتل أمثاله وسلبهم أموالهم وكان هذا الثري قد عين حاكماً على دكا في الوظيفة التي خلت بقتل حاكم تلك المدينة والاستيلاء على أمواله . فلما رأى ذلك الثري المصير الذي ينتظره تظاهر باعتزام الحج . وجمع أمواله كلها وأرسلها الى ولده في كلكتا ، ثم لحق به الى هناك . فلم يقبل الانجليز تسليم اللاجىء الى طالبه . ورأى سراج الدولة في هذين السببين مبرراً كافياً للقيام بحملة ضد الانجليز فسار إليهم على رأس جيش كبير .

وكان الانجليز في أقليم البنغال غير إخوانهم في منطقة مدراس فهؤلاء أصبحوا رجال سياسة وحرب بفضل احتكاكهم بدوبليه ، أما أولئك فلم يعدوا كونهم رجال تجارة فحسب ، فان وكيل الشركة نفسه لما علم بمقدم سراج الدولة إليه ، وكان يعلم قبلاً مبلغ قسوته . إنتابته الحيرة والارتباك ، فلم يدر ما هو صانع حيال ذلك الخطر الداهم ، وأخيراً إهتدى إلى وجوب الإلتجاء إلى إحدى السفن الانجليزية الراسية في الميناء . وكذلك حذا حذوه قائد حامية قلعة وليم . وقنع الاثنان بالأمان في مخبئهما ، ولم يقوما بأية محاولة لإنقاذ باقي رفقائهما الذين كان من الممكن جداً إيواؤهم في تلك القوارب التي كانت تملأ مجرى النهر ولقد سجل التاريخ عليهما هذه المعرّة إذ لم يروا شبيهاً لها في تاريخ الامبراطورية البريطانية على وجهٍ خاص .

وبعد مقاومة هزيلة استولى سراج الدولة على القلعة وأمر من وجدهم فيها من الانجليز، حتى إذا استتبّ له الأمر جلس في قاعة الشركة الكبرى . وأمر فأحضر بين يديه مستر هولويل الذي كان أهم رجل بين الأسرى ، وتحدّث إليه عن مبلغ إساءة الانجليز إليه واعتدائهم عليه . وأبدى له استياءه من قلة ما وجد من المال إلاَّ أنه وعد بإطلاق سراح أسراه من الانجليز . ثم أمر رؤساء جنوده بالمحافظة على هؤلاء الأسرى وآوى إلى مضجعه .

غرفة الموت

وفي تلك الليلة حدثت الجريمة التاريخية الكبرى التي امتازت بالوحشية والأعمال الانتقامية التي قام بها الانجليز عقب ذلك ، فان الأسرى الانجليز حشروا حشراً في غرفة ضيقة سيئة التهوية لا تزيد مساحتها عن ٢٠ قدماً مربعة . أما الذين سجنوا فيها فقد كان عددهم مائة وستة وأربعين رجلاً . فلم يستطع أحدهم أن ينحني أو يجلس ، وقد كان منهم المسن والضعيف . وكان الجو في تلك الليلة خانقاً خارج الغرفة الجهنمية فما بالك به في داخلها . وذهبت محاولات أولئك الأسرى للافراج عنهم سدى وتوسلاتهم أدراج الرياح ، وأغلق الباب عليهم ، وظلوا فيها طول ليلهم ، فاستبد بهم العطش والتعب ، يطلبون الرحمة فيقابلهم الحراس المطلون عليهم من كوى بأعلا الجدار بضحكات السخرية والاستهزاء وحاولوا بعامل اليأس تحطيم الباب ولكن الباب كان متيناً . وحاول هولويل رشوة الحراس ولكنهم قالوا إن الأمر كله بيد سراج الدولة ، وعظمته نائم لا يمكن إيقاظه بل إنه من الخطورة بمكان أن يحاول أحد إيقاظه . وأخذ الأسرى وقد ذهب برشادهم اليأس يتزاحمون في محبسهم ويدوس بعضهم بعضاً في تدافعهم نحو منافذ الهواء الضيقة ليطلبوا شربة ماء ، فلا يقابلوا إلا بالاستخفاف والامتهان . وأخيراً لجأوا إلى أن يطلبوا من الموكلين بهم إطلاق النار عليهم لاراحتهم من عذابهم الذي كانوا يقاسونه ولكن كان نصيب طلبهم هذا الإهمال . وتقدم الليل وتقدموا هم إلى الفناء فقلت المحاولات ، وضعفت القوى ، وخفضت التنهدات وانعدم البكاء ، حتى إذا انبلج الصبح واستيقظ صاحب العظمة وأمر باطلاق سراح السجناء لم يبق من يطلق سراحه إلا عشرون هيكلاً بشرياً . وأخذ الحراس يزيحون أجسام القتلى يميناً ويساراً ليفسحوا ممراً بين الجثث لتلك الهياكل المتمايلة تخرج منه الى الهواء متساندة من الضعف والخور مغادرة غرفة الموت . وحفرت حفرة واحدة جمعت فيها بقايا الهالكين وهيل عليهم التراب .

ولم تأخذ سراج الدولة رحمة بمن ماتوا ، ولا رأفة بمن بقوا ، بل أمر فأوتي بهم إليه وهددهم بشتى أنواع التنكيل إذا هم لم يبوحوا له بسر مكان خزائن الشركة . ثم سيرهم في شوارع المدينة زيادة في التشهير بهم ، ولكن ذلك كله لم يفده شيئاً . وأخيراً عفى عنهم لا لأنه

رأى أن العفو أصلح ، ولكن لأن بعض قريباته توسطت لديه في شأنهم بعد ما سمعته من الانجليزية الوحيدة التي قدّر لها أن تعيش بعد ما شاهدته في تلك الليلة الليلاء في غرفة الموت ثم ضمت الى حريم عظمته .

تجرة كليف

وأرسل سراج الدولة الى جلالة الامبراطور في دلهي ينبئه بما فعل بالانجليز وغادر كلكتا بعد أن غير إسمها الى «ميناء الله» وبعد أن أبقى بقلعة وليم حامية هندية. وفي ١٦ أغسطس من ذلك العام وصلت الى مدراس أنباء سقوط كلكتا ، فأثارت حقد الانجليز وأخذوا ينادون بوجوب الأخذ بالثأر والانتقام . واجتمع الرأي على تجريد حملة إلى أقاليم الهوجلي تحت قيادة كليف وأن تصحب الحملة قوات بحرية تساهم معها في العمليات الحربية المنتظرة . وأن يتولى أمرها الأميرال الأمير ال وطسن ، وفى ١٦ اكتوبر أبحرت الحملة وكان قوامها تسعمائة جندي انجليزي من خيرة الجنود، وألف وخمسمائة جندي من الهنود المدربين تدريباً عصريـًّا. ولم تصل هذه القوات إلى أقليم البنغال إلاّ في شهر ديسمبر من نفس السنة ذلك، لأن الرياح لم تكن مواتية . وحينما نزل الجنود إلى البر في أقليم الهوجلى وبلغت أنباؤها مسامع الأمير وهو في مرشد آباد استهان بأمرهم إذ لم تكن لديه أية فكرة عن الجيوش الاوروبية ونظامها ورغم هذه الاستهانة فقد أمر بجمع قواته كلهـا في مرشد آباد حتى إذا تمّ له ذلك زحف بهذه القوات صوب كلكتا . واستولى كليف على بدجبدج وطرد أتباع سراج الدولة من قلعة وليم واستعاد كلكتا وفتح أقاليم الهوجلى جميعه، وراع الأمير ما بلغه عن قوة الانجليز وما رآه من سرعتهم في الفتح والاستعمار ، فعرض الصلح على الغزاة على أساس أن يستردوا ما كان قد أخذه منهم وأن يدفع لهم تعويضاً عما لحق بهم من خسائر .

وداخل كليف الشك في عروض الأمير سراج الدولة ولكنه كرجل حرب رأى أن قواته محدودة فعقد مجلساً حربيـًّا كان بين أعضائه موظفو الشركة الذين كانوا قد هربوا من كلكتا . وكان كل همهم أن يعودوا إلى وظائفهم وأن يظفروا بتعويض عن الخسائر التي لحقتهم . وفي ذلك الوقت كانت الحرب قد نشبت في أوربا وخشيت حكومة مدراس احتمال قيام الفرنسيين بهجوم عام عليهم ، وأصابهم من أجل هذا الخاطر قلق عظيم وصارت تنتظر

عودة كليف اليها بفارغ الصبر . ورأى روبرت أن عروض الأمير سخية، وان نتيجة النضال معه غير مأمونة، وانه من الخير أن يصطلح معه مبدياً أسفه، لأن الظروف لم تتح له نصراً مؤزراً كما يبغي ويشتهي .

بدأ كليف حياته عسكريـًا من الطراز الأول، ولـكنه أضاف الى هذه الصفة منذ تلك المفاوضات التي دارت بينه والأمير صفة السياسي ، بل غلبت هذه الصفة على صفته الأولى، ونال في ميدان السياسة من النجاح ما فاق كل نصر أحرزه بصفاته العسكرية قبلاً . الاّ أن هذا الميدان كان شؤماً عليه، وكان العامل الأول في سبيل هدمه .

ويرى ماكولي أن كليف لم يكن رجلاً سيئاً بطبعه ، بل كان شجاعاً الى حد التهور مخلصاً الى حد الانخداع بالظواهر، مندفعاً في صداقته صريحاً في عداوته . لم يحاول مرة سواء في تلك البلاد النائية عن وطنه ، أو بين مواطنيه أن يخدع أحداً من بني جلدته . وقد كان يرى أن السياسة في بلاد الهند تستدعي منه أن يكون على الصفات التي اتصف بها فيما بعد . فكان يعلم انه سيعامل رجالاً ما يأبهون كثيراً بالمحافظة على الوعود أو العهود ، ولا يحجمون في سبيل تحقيق أغراضهم عن الالتجاء الى الغش والتزوير . ورأى انه من الخرق في الرأي أن يتمسك بالمثل الأخلاقية العليا في محيط من الناس لا يؤمن بها . ولهذا خلع كليف رداء الجندية ، وماكانت تمليه عليه من مبادىء وصفات عادية ، واكتسى ثوباً يتناسب مع عقيدته الجديدة التي زادها تمكناً من نفسه أول تجربة شهدها مع الأمير سراج الدولة.

إذ بينما كانت المفاوضات دائرة بين كليف من جهة وسراج الدولة من جهة أخرى ، وكان يمثل كليف فيها وكيلان أحدهما مستر وطسن الموظف بفرع الشركة في اقليم البنغال، وثانيهما أحد البنغاليين واسمه أوميشند ، وكان أوميشند هذا تاجراً ثريـًا من أثرياء كلكتا ، وضاعت ثروته كلها خلال حملة سراج الدولة على كلـكتا وكان يؤمل الحصول على تعويض طيب من وراء هذه المفاوضات الدائرة، وكان ذا تأثير كبير في مواطنيه، كما كان على قدر كبير من صفات الهندوس، ومنها قوة الملاحظة، وسرعة البديهة والذكاء ، وحسن التصرف، وكان يجمع إلى هذه الصفات رذائل الهندوس ، ومنها ضعة النفس والجشع والخيانة ، بينما هذه المفاوضات سائرة في طريقها الطبيعي، اذا بسراج الدولة يحاول القيام بعمل حربي طمعاً في

أن يؤثر ما يسفر عنه في سير المفاوضات، ولكنه رأى في صمود الانجليز وقوة بأسهم ماجعله يكف عن الحرب، ويرضى بشروط كليف للصلح . وما انتهت المعاهدة حتى غير سراج الدولة اتجاهه، وعوّل على مناهضة الانكليز بكل الوسائل، فتآمر مع السلطات الفرنسية في شندر ناجور، وطلب الى باسي أن يسير من الدكن الى الموجلي ليطرد الانجليز من ذلك الاقليم . وعلم كليف ووطسن بسر هذه المؤامرة، فصمم الرجلان على أن يقوما بضربة قاضية، وان يغزوا شندرناجور ،فسهاقبل أن تصل اليها امدادات جديدة سواء من بوندتشيري أو من فرنسا. وترأس وطسن القوات البحرية وتولى كليف قيادة الحملة البرية وكان نجاحهما سريعاً ورائعاً فان القلعة ، وحاميتها وقوات المشاة والمدفعية كلّ هذه استسلمت سريعاً للانجليز وكان بينها عدد من الفرنسيين يقرب من خمسمائة .

مؤامرات

وهكذا ضاعت على سراج الدولة فرصة ضرب الانجليز للفرنسيين وازداد خوفه منهم وكراهيته لهم معاً ، وأخذ يتردد بين مسالمة الانجليز ومظاهرتهم بالعداء ، فبينما كان يرسل بعض المال كجزء من التعويض المفروض عليه الى كلكتا، إذا به في اليوم التالي يبعث الى باسي هدية سنية طالباً اليه أن يسرع لانقاذ البنغال من أيدي كليف ، ويصدر أمره للجيش بالزحف على الانجليز، ثم يعود ثانية الى الغاء هذا الأمر فاذا جاءته رسالة من كليف مزقها وألقى بها في وجه الرسول . وأخيراً يكتب الرد على هذه الرسالة ويتحرى الأدب واللياقة في هذا الرد . ولقد حدث أن طرد مستر وطسن من حضرته، ثم عاد فأمر بادخاله عليه ، واعتذر له عما بدر منه في حقه . وكان سوء أخلاق الأمير وجنونه وسوء سياسته ، وايثاره الدهماء على أوساط الناس وكبارهم ، سبباً في أن ينفر منه هؤلاء سواء كانوا من المسلمين ذوي النخوة والصراحة، أم من الهندوس الماكرين الخنوعين، وأن تجتمع كلمة هؤلاء النافرين على الائتمار به وفي هذا يقول كليف في رسالة له الى مستر بيجوت حاكم مدراس (كانت صفاته سبباً في أن تمقته فئة من الرجال الممتازين في الاقليم. ويمكن أن أقول لك أن مؤامرة واسعة النطاق تحاك خيوطها الآن بمهارة بأيدي عظماء المملكة وعلى رأسهم جاجت سيت بنفسه، ولقد طلبت

مني المعاونة واني لمقتنع كل الاقتناع بأنه لن يكون هناك سلام أو أمان حيث يحكم مثل هذا الشيطان،وستسمع قريباً عن ثورة تضع حداً لآمال الفرنسيين في البقاء في هذه البلاد).

وكانت المؤامرة التي أشار اليها كليف في رسالته تشمل راجا دولاب رام وزير المالية ومير جافير القائد العام للجيش وجاجت سيت أغنى ممول في الهند. وكان الانجليز على علم بها كما جاء في رسالة كليف وكان الاتصال مستمراً بين المتآمرين في مرشد اباد والمجلس الانجليزي في كلكتا.

وفي هذا المجلس الذي كان بطيئاً في قراراته،وقف كليف الى جانب المؤتمرين واستطاع أن يتغلب على الآراء المعارضة،وان يحصل على موافقة المجلس على مساعدة أولئك المؤتمرين لخلع سراج الدولة عن عرشه واجلاس ميرجافير مكانه وحصل المجلس من ميرجافير هذا في نظير العرش المرتقب على وعد بدفع تعويضات مجزية للشركة الانجليزية وموظفيها ولجنود الجيش والبحرية وأعضاء المجلس.

قد يبدو ما لقيه الانجليز على يد سراج الدولة في غزوته الأولى، وما كان محتملاً أن تلقاه تجارتهم من بوار إذا هو ظلّ على العرش مبرراً لمشاركتهم في التآمر عليه.

ولكن لم يكن هناك ما يبرر اتباع كليف سياسة ذات وجهين مع الرجل؟ كان يكتب لسراج الدولة بعبارات معسولة كانت تنزل السكينة والطمأنينة في قلبه. وفي نفس البريد الذي يحمل تلك الرسالة كان يبعث إلى مستر وطس برسالة يجيء فيها « قل لمير جافير لا تخش شيئاً وإني سأمدّه بخمسة آلاف مقاتل لا يعرفون التقهقر، وأكد له أني سأسير إليه ليل نهار وسأفنى بجانبه حتى آخر رجل لديّ ».

وكان من المستحيل أن مؤامرة واسعة النطاق كهذه تبقى سرّاً دفيناً. فقد وصل إلى سراج الدولة ما أثار شكوكه، ولكن أوميشند استطاع بلباقته وكياسته، وسرعة بديهته، أن يهدىء من روع الأمير بما كان يخترعه من حكايات وأقاصيص حتى زالت شكوك سراج الدولة، وأوشكت المؤامرة وقد أجيد حبك أطرافها أن تؤتي أكلها حين علم كليف بأن أوميشند يستطيع أن يبقي على أرواح الكثيرين،أو يقضي عليها لا سيما أرواح واطس ومير جافير وسائر المؤتمرين، ولقد شاء أوميشند أن يستفيد من مركزه القوي، وأن يملي إرادته،

فأفصح عن طلباته وحددها بثلثمائة ألف جنيهاً ثمناً لسكوته وعدم إفشاء سر المؤامرة فضلاً عن مساهمته فيها، وغضب المجلس لهذا الطلب واعتبر اقدام أوميشند عليه خيانة منه لا تغتفر، وخشي ما قد يؤدي إليه من نتائج وسرت الحيرة في جو المجلس.

ذلك أن أوميشند الذي استطاع أن يكبت عاطفة الكراهية الشديدة التي يكنها لسراج الدولة مغتصب ماله، الذي جعله لا يملك شيئاً البتة بعد أن كان من سراة كلكتا، وأن يندس في حاشية الأمير حتى أصبح أقرب المقربين اليه بل صار بمثابة الناصح الأمين له، يؤخذ برأيه ويعمل به، ووصل إلى ما وصل إليه بدهائه ولباقته وكياسته.

وكان في مركزه الجديد عين المتآمرين الساهرة، وأذنهم السميعة، ينقل إلى مركز قيادة القوة المتآمرة في كلكتا كل ما يهمها الوقوف عليه. وكان ينفذ كل ما يصدر إليه من هذه القيادة مستغلاً في ذلك حظوته عند الأمير، وتقربه منه.

دار في رأس كليف كل هذا في سرعة وأدرك خطورة الموقف، وشاء أن يخرج من تفكيره السريع بحل يحفظ سرية المؤامرة حتى يتم نجاحها.

وكما كان كليف يفكر كذلك كان أعضاء المجلس يفكرون كلٌ على طريقته الخاصة، فالكل كان يقدر خطورة ذلك الداهية البنغالي. ولهذا استولت على الجميع الحيرة. ولكن كليف تابع أوميشند في تفكيره وشاء أن يخدعه ورأى أن إخداع مثل هذا الرجل جائز. فلا بأس في أن تبذل له الوعود بسخاء ليؤمن جانبه في تلك الآونة الحرجة، حتى إذا تمّ الأمر، وتحققت المؤامرة يهمل أمره، ويكون نصيبه الازدراء، والتنكر له جزاء استغلاله لحلفائه في مثل ذلك الموقف.

وشرح كليف ذلك للمجلس فاقتنع بوجاهة الفكرة، ولكنه لم يجد وسيلة لخداع أوميشند الذي كان يصر على أن تضاف مادة الى المعاهدة المعقودة بين مير جافير والانجليز، وأن يرى بعيني رأسه تلك المادة التي يجب أن تنص على طلباته التي لم تكن تنحصر في الرشوة. بل شاء أن يعطى تعويضاً كبيراً عما لحقه من خسائر من جراء حملة سراج الدولة على كلكتا، إلا أن كليف لجأ الى طريقة التزوير فأعدَّ وثيقتين إحداها حقيقية ولونها أبيض. وثانيتهما مزيفة ولونها أحمر. وذكر إسم أوميشند والبند الذي طلب إضافته في الوثيقة الحمراء ثم وجدت

بصعوبة أخرى فان الأميرال واطسون لم يشأ أن يوقع الوثيقة الحمراء ، ورأى كليف أن خلو الوثيقة من توقيع الأميرال قد يثير شك أوميشند . وبالتالي قد يؤدي الى إنهيار المؤامرة فلم يتأخر عن تقليد توقيع الأميرال على الورقة الحمراء . ويقول جنج في كتابه عن كليف أن الأميرال وإن امتنع عن التوقيع إلا أنه أباح للمجلس استغلال إسمه بالطريقة التي يراها.

وهكذا تهيأت الظروف للقيام بالعمل الحاسم ، وهرب المستر وطس من مرشد أباد سرًّا وبدأت قوات كليف تتحرك فكتب الى الأمير بلهجة تختلف كثيراً عما كان يكتب له به قبلاً ، فذكره بأخطائه السابقة مع الانجليز ، ودعاه الى التحكيم فيما بينهما من اختلاف في قسيم بازار على أن يكون مير جافير حكماً ، وأعلنه أنه نظراً لقرب سقوط الأمطار. ولما كان انتظاره ردًّا منه قد يحتاج عدة أيام فانه رأى أن ينتظر هو ورجاله ردّ عظمته على مقربة من مرشد أباد .

معركة بلاسي

لجمع سراج الدولة حالاً جميع قواته ، وسار لملاقاة الانجليز . وكان من خطط المؤامرة أنه عندما تواجه جيوش سراج الدولة جيوش الانجليز ينفصل مير جافير برجاله عنها وينضم بهم الى قوات كليف . فلما جاءت اللحظة الحاسمة تغلّب على مير جافير خوفه، ونسي أطماعه والوثيقة التي وقع عليها مع حلفائه ، فتردّد وطال تردّده الى أن استبدت بكليف مخاوفه من النتيجة لغموض الردود التي كان مير جافير يرسلها إليه على استفساراته عن سبب تأخيره .

وكتب كليف من كاتوة الى المجلس في كلكتا بتاريخ ١٩ يونيه يقول : (يعتريني قلق من جراء قلة الأنباء وغموضها ، فاذا لم يكن مير جافير خائناً ، فان بروده أو ضعف قوته قد يكون سبباً في فشل الحملة ، وإنما أحاول الآن محاولة أخيرة للتأثير على مير جافير بوساطة أحد البراهمة لينضم إلينا . ولقد اخترت بلاسي لتكون ميداناً للمعركة القادمة ، وذكرت له أنه إذا لم يفعل ما طلبت منه أو لم يقدم دليلاً على حسن نيته في الوفاء بوعده ، فاني لن أعبر النهر) .

وهكذا كان كليف في موقف دقيق، اذ أنه لم يكن لديه ما يحمله على الاطمئنان الى اخلاص حليفه. ومهما يكن من شأن كفاءته العسكرية، أو قدرة ونظام من كانوا تحت إمرته،

فانه مما لا شك فيه أن انضمام قوات مير جافير التي كانت تبلغ في مجموعها عشرين ضعفاً لعدد قواته لم يكن بالأمر الهين . وزاد في حرج مركز كليف أنه كان لا بد له من عبور النهر ليلاق أعداءه، فاذا قدر له أن ينهزم فقد كان لا بد له من العودة عبر النهر ، وفي ذلك كارثة مؤكدة إذ لا يحتمل أن ينجو من رجاله في هذه الحالة أحد . وهكذا حدث لكليف ما لم يحدث له من قبل، إذ فارقته سرعة بديهته ، وخانته شجاعته ، ازاء المسئولية الخطيرة التي قد تترتب على اتخاذ قرار ما . فعقد مجلساً حربيًّا وفي هذا المجلس رأت الأغلبية العدول عن الحرب . ونزل كليف على رأي الأغلبية . ثم استدرك قائلاً انه لم يسبق له عقد مثل هذا المجلس. وانه إذا أخذ بهذا الرأي فانه لن يقدر للبريطانيين أن يسودوا اقليم البنغال يوماً ما . وانفض المجلس، وانفرد كليف بنفسه في ظل شجرة، وقضى ساعة يفكر وأخيراً تنبهت حواسه القديمة وبرزت صفاته التي لازمته طوال حياته ، فقرر ترك كل شيء للظروف ، وأصدر أوامره بالاستعداد في الحال لعبور النهر في الغد .

وعبر الانجليز النهر وآووا الى خميلة من أشجار المنجو قرب بلاسي ، ولم يكن بينهم وبين أعدائهم سوى مسافة ميل واحد . وقضى كليف ليله ساهراً لا يغمض له جفن يستمع الى قرع طبول جيش سراج الدولة فاستولى عليه الفزع اذ كان يتوقف على تلك المعركة سواء في حالة النصر، أم في حالة الهزيمة ، نتائج على غاية الخطورة ، هذه النتائج التي ستقرر بعد بضع ساعات من بدء المعركة.

ولم يكن سراج الدولة أحسن حالاً من كليف إذ كانت أعصابه مهتاجة ، واستبدت به المخاوف وتمكن منه القلق ، وأخذت تتراقص أمام عينيه أشباح ضحاياه ممن قتلوا في الغرفة السوداء . فانعدمت ثقته في قواده وحاشيته ، حتى أصبح يستشعر الخوف من كل من يتقدم اليه ، أو يقترب منه ، كما كان يخشى الوحدة في نفس الوقت ، ولكنه اضطر الى أن يفضل الوحدة فانفرد بنفسه في خيمته تنتابه الهواجس والأفكار .

وطلع نهار ذلك اليوم الذي تقرر فيه مصير بلاد الهند فبعد شروق الشمس بدأت جنود الأمير تنساب من المعسكر متجهة صوب الانجليز وكان عددهم أربعين الفاً من المشاة مسلحين بالكرات النارية والحراب والسيوف والقوس والنشاب . فانتشرت هذه القوات

في السهل فلاته على سعته ، يحميهم خمسون مدفعاً ضخماً يجر كلاً منها بضعة ثيران بيضاء ويدفعه من الخلف فيل هائل . ومدافع أخرى صغيرة ، يشرف عليها جنود فرنسيون كانوا من الوجهة الحربية أكثر أهمية من أولئك المشاة على كثرتهم . أما الفرسان ، وقد بلغ عددهم خمسة عشر الفاً من الرجال الأشداء الذين جيء بهم من المقاطعات الشمالية ، كانوا كما لاحظ كليف يختلفون كثيراً عن أهالي اقليم الكرنات . ولم يكن لديه لصد تلك الجموع والتغلب عليها سوى ثلاثة آلاف رجل منهم ألف جندي انجليزي والالفان الباقيان هنود ، دربوا تدريباً انجليزياً ، ويقودهم ضباط من الانجليز .

وبدأت المعركة . كما يقول كليف « في الساعة السادسة صباحاً بدأوا هجومهم علينا بقذائف مدافعهم الثقيلة ، يصحبها هجوم الجيش برمته . وضغطوا علينا ضغطاً شديداً بضعة ساعات ، وصار موقفنا سيئاً جداً ، إذ كنا محصورين بين الاشجار ، ووراءنا شاطىء طيني . وكان الرد على طلقات مدافعهم بمثلها مستحيلاً لصعوبة حركة مدافعنا ، ولانهم كانوا يحيطون بنا على شكل نصف دائرة ، فرأينا أن ننتظر قدوم الليل لنقوم بهجوم عام ينقذنا مما كنا فيه ، وبقينا في مراكزنا صامتين . ولكن حدث عند الظهيرة أن انسحب العدو من الميدان ، وآوى الى معسكراته » . واكتفى سراج الدولة بأن أمر المدفعية باطلاق النار على الانجليز ، ولم يكن الاطلاق محكماً فكانت القذائف تسقط بعيداً عن أهدافها وأجابت مدفعية الانجليز بالمثل ، ولكن قذائفهم سقطت وسط معسكر الامير فقتلت كثيراً من ضباطه ، وعمت الفوضى وانتشر الذعر . وكان الامير أكثر من سواه ذعراً ورعباً ، لاسيما بعد أن سقط المطر وأصاب ذخائره بالتلف . وبعد أن مات مير مادان أشد قواد الامير اخلاصاً له . فلما تقدم راجا دولاب رام وأسر اليه بالتقهقر . وكانت هذه النصيحة لحليفه جزءاً من المؤامرة المتفق عليها ، كان سراج الدولة كأنما ينتظر من يدلي اليه بمثل هذه النصيحة فأمر بتنفيذها فوراً . وكان هذا التنفيذ سبباً فيما حل به بعد ذلك من كوارث متعاقبة . فانتهز كليف الفرصة وأمر جنوده بالتقدم في الحال ، وساعد على نجاح هذا التقدم ان جنود سراج الدولة لم تكن عندهم رغبة في القتال ، ولا كان النظام سائداً بينهم . وهكذا انتصر جيش كليف على قلة عدده على جيوش الامير . وكانت الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم ، ولم

يصمد في الميدان سوى الجنود الفرنسيون الذين ظلوا يقاومون حتى الساعة الخامسة مساء. وأخيراً هربوا فيمن هرب . وهكذا لم يجد الانجليز أمامهم سوى العتاد الحربي من المؤن والذخائر التي تركتها قوات الأمير في هربها . فلم يخسر كليف غير اثنين وعشرين قتيلاً وخمسين جريحاً دفعها ثمناً لامبراطورية غنمها لبلاده في تلك المعركة .

لم يقدم ميرجافير أية مساعدة للانجليز خلال المعركة ، ولما رأى أن النصر حليفهم وأن الواقعة تنتهي سريعاً على هذا النحو انسحب بالجيش الذي كان تحت امرته من الميدان. وأرسل تهانئه الى حليفه . وفي الصباح ذهب الى معسكر الانجليز على ظهر فيل وهو يتوقع استقبالاً رائعاً . ولكن الذي حدث أن الحرّاس حين رأوه ورفعوا أسلحتهم لتحيته ، ظن أنهم يريدون به شرّاً وشاء أن ينسحب . ولكنه رأى كليف نفسه يتقدم لمصافحته فترجل عن فيله ، وعانق كلا الرجلين الآخر ، وحيّاه كليف بقوله « يشرفني أن أستقبل في معسكري حضرة صاحب العظمة أمير البنغال وبهار وأوريسا » . فارتاحت نفسه واطمأن وأثلج صدره ، لا سيما بعد ان طلب منه كليف أن يسير توّاً الى مرشد أباد ويباشر سلطته هناك » .

وكان سراج الدولة بعد أن هرب من ميدان القتال قد أسرع في العودة الى مرشد أباد على ظهر جمل سريع ، فوصلها بعد أربع وعشرين ساعة ، وجمع حوله مستشاريه يتدبر معهم الأمر ، فأشار عليه أكثرهم حكمة بأن يسلم نفسه للانجليز الذين لن يفعلوا به أكثر من أن يخلعوه من عرشه ، أو يسجنوه ، فثار لهذه المشورة واتهم المشيرين بالخيانة ، وأشار عليه غيرهم بمواصلة الحرب مع الانجليز، ورأى هو وجاهة هذا الرأي ، فأصدر أوامره بالاستعداد للحرب ، ولكن قواه المعنوية كانت قد انهارت ، وقضى على ما بقى منها سماعه نبأ وصول ميرجافير على رأس جيشه ، فزاد ذعره ، ولم يعد يحتمل تلك الانفعالات النفسية التي أخذت تنتابه ، فارتدى ثياباً رثّة ، وحمل معه كيساً مملوءاً بالجواهر ، واتخذ من الليل ستاراً، وتسلل من نوافذ قصره ، وصحبه تابعان ونزل ثلاثتهم الى قارب كان ينتظرهم في النهر وركبوه الى مدينة باتنا .

وفي يوم ٢٩ يونيه وصل كليف إلى مرشد أباد على رأس مئتي جندي انجليزي وثلثمائة

هندي،ونزل في قصر كان قد أعدّه له مير جافير من قبل،وعسكر جنوده في حدائق القصر .
وأعدّ الاحتفال بتولية مير جافير على عرش البنغال على عجل ، وقاد كليف الأمير الجديد الى (المسند) وأجلسه عليه وأهداه هدية ذهبية ،كانت العادة في الهند قد جرت على أن يقدمها الى الأمير يوم توليته ذوو الحيثية في الأقليم . ثم التفت الى الجماهير التي ملأت جوانب القاعة ، وهنأهم بتلك الفرصة الطيبة التي مكنتهم من التخاص من الحاكم الظالم سراج الدولة

والآن وقد تمّ لـكليف وحلفائه ، تنفيذ خطتهم ، وقد بقيت خطوة لا تقل أهمية عما سبقها من خطوات ، وهي خطوة اقتسام الغنائم ، وتدبير أمر المملكة الجديدة ، وعقد المؤتمر الذي كان عليه أن يبت في هذه الأمور في منزل جاجيت سيت الممول العظيم ، وحضر هذا الاجتماع كل من دعوا اليه . وكان كل منهم مطمئنـاً الى تحقيق رغائبه ، لا سيما وقد سبق أن اتفق على قرارات هذا المجلس مقدماً . وكان أكثر هؤلاء الأعضاء ثقة واطمئناناً هو أوميشند . وذلك لما كان يلقاه من كليف من مجاملة وعطف . فقد كان هذا يسرف في احتفائه به خداعاً ومداراة ، حتى تمّ له الفوز والانتصار . وكان أول عمل يجب اجراؤه هو قراءة الوثيقة التي كانت قد أبرمت في كلكتا ، فأخرج مستر سيكرفتون الموظف بالشركة الانجليزية الوثيقة البيضاء لتلاوتها، وحينئذٍ مال كليف على أذن مستر سيكرفتون قائلاً بالانجليزية « جابه أوميشند بالحقيقة » فتحول سكرفتون الى أوميشند وقال له باللغة الهندستانية (ان الوثيقة الحمراء كانت خدعة يا أوميشند . وليس لك أن تؤمل شيئاً) .
فهوى أوميشند بين أتباعه فاقد الحس والشعور . ثم أفاق فيما بعد ، وقد اضمحلت قواه العقلية الى حدٍ كبير وما زالت تضمحل حتى جنّ الرجل . وقابله كليف يوماً ما في طريقه فتأثر بما رآه منه ، وأشار عليه بأن يحج الى الأماكن المقـدسة في الهند لعله يسترد صحته وقواه ووعده اذا ما تمّ له ذلك بتعيينه في أحد مناصب الدولة الـكبرى . ولـكن أوميشند لم يعش غير بضعة أشهر كان خلالها يأتي أفعالاً مضحكة تثير الشفقة في أقسى القلوب وبعد ذلك مات .

ولم يكن أوميشند الضحية الوحيدة ، للثورة فان سراج الدولة كان الضحية الثانية . فقد حدث أنه وقع أسيراً في يد مير جافير عقب هربه بأيام قلائل ، فأتى بنفسه على الأرض

مذعوراً بين قدمي ميرجافير مسترحماً ، مستغيثاً ، وهو الذي ما كان للرحمة في قلبه مكان وكاد مير جافير يرحم أسيره ، لولا تدخل ابنه ميران الذي كان شاباً في السابعة عشرة من عمره ، وكان قد نشأ على غرار سراج الدولة . وكان يتصف بكثير من صفاته ، فطلب من أبيه أن يكل اليه أمر الأسير ، وأجابه الأمير الجديد الى طلبه ، فقيد سراج الدولة الى غرفة سرية ، حيث وافاه اليها زبانية الموت والعذاب وعلى رأسهم ميران .

الثروة

ومن ثمّ بدأت الثروة تنهال على الشركة وموظفيها وكانت أول رسالة أرسلت إلى قلعة وليم عبارة عن مبلغ ثمانمائة ألف جنيه كلها من العملة الفضية وكان الأسطول الذي حمل هذه الرسالة مكوناً من مائة مركب ترفرف عليها الأعلام ، وتصدح فوق ظهورها الموسيقى ، كأنما هي موكب النصر ، وكان هذا المال سبباً في بعث الحركة والنشاط في مدينة كلكتا بعد أن كانت مهجورة قبل انتصار كليف ، وانتعشت التجارة في تلك المستعمرة الانجليزية من اقليم البنغال . وظهرت آثار النعيم والترف على كل بيت انجليزي . أما كليف نفسه فقد خصه من هذا المال مبلغ يتراوح بين مئتي وثلثمائة ألف جنيه ، ولو شاء زيادة عن ذلك لنال فلم يكن هناك ما يحول بينه وبين تحقيق أية رغبة يبديها في هذا الشأن . وتوالت الهدايا والهبات من حكومة ميرجافير على الانجليز الذين كانوا كأنما عثروا على كنوز كانت مخبوءة من قبل .

ولقد أصبحت تلك العلاقات التي قامت بين ميرجافير وكليف موضوع اتهامات أثيرت في مجلس العموم البريطاني . ووجهت فيها الى كليف تهمة الرشوة واستغلال المركز الذي صار فيه ، والسرقة باكراه من حليف ضعيف ، على أنه من انصاف الرجل أن نقول إنه لم يكن موظفاً رسمياً يفرض مشيئته على الناس ، بل كان موظفاً في شركة تجارية ، وان الهدايا التي قدمت اليه كانت تجيزها العوائد المتبعة في بلاد الهند في ذلك الحين ، وان لم تكن معروفة في انجلترا . ولو كان أحد الذين اتهموه بتلك التهم ، في مثل مركزه ورأى كنوز بلاد البنغال تنفتح تحت قدميه في مرشد أباد ، لعلم كيف كان كليف قنوعاً حين ارتضى لنفسه ما وصل اليه . فضلاً عن ان الرجل كان صريحاً فلم يخف عن الناس ما وصل اليه بل جاهر دائماً بأنه قد أصاب من

ثروة الأمير المنهزم ما جعله ثرياً . وهذا يدل على أنه كان يعتقد أنه لم يأت سوءاً لأنه لم يمس مصالح الشركة، بل زاد من الارباح التي كانت تجنيها . ولا هو فرط في حقوق وطنه، بل كسب له أقاليم جديدة واسعة وغنية وآهلة بالسكان . وانما قبل هدايا في أقطار تبيح تبادل الهدايا كما وإنه لم يكن هناك نص في دستور انجلترا يحرم عليه ذلك . ولكن ماكولي يرى أن كليف كان مخطئاً على كل حال لأنه كان قائداً ، والقائد خادم لحكومته وليس لسواها . وتبعاً لذلك فكل هدية تقدم إليه يجب أن تكون عن طريق حكومته، أو على الأقل تكون هذه الحكومة على علم بها وتوافق عليها ، وتنطبق هذه القاعدة حتى على الهدايا التي لا تعدو أن تكون نيشاناً أو وساماً . وأن قبول الضباط لمثل تلك الهدايا المغرية إذا تم بغير علم ولا موافقة الحكومة التي يتبعونها إذا صار ذلك قاعدة معمولاً بها ، فان الامر كان يفسد والفوضى تعم . حقاً لم يكن هناك قانون يحول دون قبول الهدايا من الحلفاء والاصدقاء . ولكن المنطق وسلامة الذوق كانا يقضيان على كليف بعدم قبول هدايا ميرجافير .

واطمأن ميرجافير الى عرشه والى انه لن تستطيع يد أن تمتد اليه بسوء الآن اذا تخلت عن حمايته تلك اليد التي رفعته .

وكان ميرجافير رجلا حسن الأخلاق حميد السيرة لكنه لم يكن على شيء من الصفات التي تكسبه محبة الشعب واحترام الأمراء ، لا سيما وقد أصبح انتقاد أولي الأمر ميسوراً وخلعهم جائزاً بعد تلك الثورة الماضية ، فلقد كان ميرجافير نفسه وليد الثورة . ولهذا لم يكن عجيباً أن تثور النفوس من جديد تبعاً لخلاف وجهات النظر والعقائد ، وان يتولى نواب مقاطعة أود زمام هذه الثورة ، وان يتحرج الموقف ويصبح جو السياسة في اقليم البنغال ملبداً بالغيوم . ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تحمي ميرجافير من هذه الأعاصير ، وتعيد الأمور الى نصابها سوى قوة كليف وكفاءته . ولكن الذي حدث انه في هذه الظروف العصيبة وصلت سفينة الى كلكتا تحمل بريداً من مقر الشركة في انجلترا يبدو انه كتب قبل أن تصلهم أنباء معركة بلاسي وفيه قرار مديري الشركة أن يتولى السيطرة على ممتلكات الشركة في اقليم البنغال حكومة مكونة من أشخاص لم يكن كليف واحداً منهم. وكان أعضاء الحكومة الجديدة الذين وقع عليهم الاختيار لا يتصف واحد منهم بأية قدرة أو كفاءة

لحمل أعباء تلك المسؤولية الكبيرة ، وأظهروا شعوراً طيباً نحو كليف فتضامنوا في التنحي عن قبول هذا التعيين متحملين مسئولية مخالفة أوامر الشركة، وسلموا كليف مقاليد الامور يتصرف فيها كيف يشاء .

ولما وصلت الى مقر الشركة في لندن أنباء انتصار كليف الباهر في بلاسي عدّل المديرون قرارهم في الحال وأصدروا أمرهم بتعيين كليف حاكماً عامّاً لممتلكات الشركة بالبنغال مع تقديم تقديرهم وثنائهم لما قام به من جلائل الأعمال . وبهذا أصبحت سلطة كليف مطلقة وفاقت في قوتها كل ما كان دوبليه يتمتع به في الجنوب . وكان مير جافير يعتبره سيده ومنقذه فقد حدث إنه عنف مرة أحد كبار الاشراف لأن أتباعه كانوا قد اشتبكوا في عراك مع بعض جنود الشركة من الهنود وقال له خلال حديثه « هل أنت في حاجة لأن أقول لك من هو الكولونيل، وبأي قدر قد حباه الله من التكريم والتعظيم ؟ » . فنفى الشريف عن أتباعه تهمة اعتدائهم على أتباع كليف . ويقول ماكولي إن كليف كان ينظر الى الهنود والاوروبيين بمنظار واحد، فالانجليز كانوا يرون فيه القوة التي تستطيع أن تكره مير جافير على تنفيذ تعهداته له ومير جافير كان يرى فيه حامي ملكه من شعبه المتمرد ، وجيرانه من الأمراء الطامعين والذين كانوا يتحينون له الفرص .

وأرسل كليف فورد أحد قواده الى شمالي اقليم السكرنات حيث كان للفرنسيين نفوذ كبير، وكان لا بد من اجلائهم عنه . وأثبت نجاح حملة فورد أن كليف كان موفقاً في اختياره لقيادتها .

وبينما كان جزء كبير من قوات الانجليز في البنغال منهمكاً في الحملة سالفة الذكر ، إذ هدد الحدود الغربية لذلك الأقليم خطر جديد عظيم الشأن . وتفصيل ذلك أن المغول العظيم كان سجين قصره في دلهي . وكان أكبر أبنائه شاه علام ألعوبة في يد كل من يريد تسخيره لأغراضه، فكان مرة أداة في أيدي المهراتا، ثم أصبح فيما بعد صنيعة للانجليز . وكان الذين يسخرونه في تحقيق أغراضهم إنما يفعلون ذلك لما يتمتع به الأمير من احترام الشعب الهندي كله له. ولهذا السبب نفسه إستماله أمير أود إليه ، فتجمع له تحت لوائه جموع كبيرة من

المغامرين الحربيين من جميع أنحاء البلاد ، وبهذا تألف تحت إمرته جيش كبير قوامه أربعون ألف رجل يختلفون بعضهم عن بعض في الجنس والدين واللغة والعادات ، ووضع الأمير الخطة التي يستطيع بها خلع ذلك الرجل الذي استند الى حراب الانجليز في تولي عرش البنغال ليتولى مكانه أميراً على أقاليم البنغال ، وأوريسا وبهار .

وعلم مير جافير النبأ ففزع واستبدّ به الخوف لما سمع ، ورأى أن الحل الوحيد لتلافي ذلك الخطر الداهم هو عقد محالفة مع شاه علاّم ولو اضطره الأمر الى دفع مبلغ جسيم . وكان ذلك الخاطر هو نفس الخاطر الذي كان دائماً يخطر على بال من جلسوا قبله على عرش البنغال إذا ما هدّدهم خطر على الحدود ، ذلك لأنّ سكان هذا الاقليم كانوا دائماً محبين السلم ، ويخشون الحرب ، ويدرؤون خطرها بأي ثمن ما دام هـذا الثمن لا يتعدى أن يكون مالاً . ولكن كليف سخر من هـذا الخاطر وكتب لمير جافير «إذا أنت فعلت ذلك اجتمع عليك جيرانك جميعاً وهدّدوك نفس التهـديد ليحصلوا منك على جميع ما لديك من مال حتى لا يبقى لديك شيء في خزانتك ، وأنا أرجو يا صاحب العظمة أن تثق في حلفائك الانجليز وفيما لديك من جنود » .

وبمثل هـذا الأسلوب كتب كليف الى حاكم باتنا بأن يقاوم الى آخر رجل لديه ، وأن يطمئن الى أن الانجليز قوم أوفياء وأقوياء ، وأنهم لن يتأخروا عن مد يد العون الى أصدقائهم في الشـدائد وأنهم لا يتوانون عن خوض غمار الحرب في سبيل ما سبق لهم أن حاربوا من أجله .

ونفذ كليف وعده ، ذلك أن شاه علاّم حاصر باتنا وكان على وشك اكتساحها حينما بلغته أنباء زحف كليف صوب المدينـة . ومع أن القوات الانجليزية لم يتجاوز عددها أربعمائة وخمسين أوروبيـا ، وألفين وخمسمائة وطني ، إلاّ أن ما كان قد اكتسبه من صيت في الحروب جعل اسمه مصدر رعبٍ وفزع ، فما لاحت طلائع الجند حتى ولى المحاصرون الأدبار وحاول الفرنسيون المتطوعون في جيش الأمير شاه علام إقناع سموه بالثبات ، ولـكن محاولاتهم هذه ذهبت أدراج الرياح . وبمثل هذه السهولة تبدّد ذلك الجيش الضخم الذي كان يهدّد مرشد أباد ويسبب لأميرها كثيراً من القلق والفزع .

وعاد القائد المنتصر الى قاعدة وليم وبهذا تبددت مخاوف مير جافير ثقة وفرحاً وأهدى منقذه هدية سنية . ذلك أن الشركة الإنجليزية كانت تدفع إيجاراً لأمير البنغال عن تلك المساحات الشاسعة التي كانت تشغلها جنوبي كلكتا . وكان هذا الإيجار لا يقل عن ثلاثين ألف جنيه سنوياً . فلما هدأ بال مير جافير من ناحية شاه علام ، ورأى أن يقدم لكليف هدية مناسبة لم يجد خيراً من أن يوقف ذلك الإيجار على كليف مدى حياته .

وقبل كليف هذه الهدية ووافقت ادارة الشركة على هذا القبول ، ولكن صداقة مير جافير لم تدم طويلاً فلقد كان يساوره شعور قوي بأن الحليف القوي الذي أعانه على بلوغ الامارة قد يهدمه في أية لحظة ، وإنه بهذا الوضع كان تحت رحمة كليف ، وساءه أن يكون مهدداً هكذا باستمرار ، فأخذ يبحث عن حليف جديد يدرأ به خطر الإنجليز إذا هدده منهم خطر ما في يوم من الأيام ، ولم يفكر أبداً في أن يكون حليفه من الهنود لأنه كان يعتقد كل الاعتقاد أن الهنود ما كانوا ليجرؤون يوماً على الوقوف أمام كليف ، إذ كانوا يرهبونه ، وكذا لم يفكر في الإستعانة بالفرنسيين ، لأن قواتهم في أقليم البنغال كانت قد تلاشت فاتجه ببصره الى الهولنديين الذين كانوا يتمتعون بصيت ذائع لم تخدشه بعد الوقائع . فهم كانوا قد استولوا على مستعمرات الأسبان والبرتغال أثناء حروب الاستقلال واحتكروا تجارة الشرق الأقصى وجزر الهند الشرقية التي احتلوها ، وكانوا قد استقروا في امبوينا في سنة ١٦٢٣ ، وفي ملبير في سنة ١٦٦٣ ، وفي ملقه سنة ١٦٤١ ، وفي جزيرة سيلان في سنة ١٦٥٨ ، وكانت عاصمة الامبراطورية الهولاندية في الشرق الأقصى في باتافيا حاضرة جزيرة جاوة . ولم تكن أنباء هزيمة هولندة في أوروبا قد بلغت الهند بعد ، فاتصل مير جافير بمقر الشركة الهولاندية في شينسورا واتصلت هذه الشركة بولاة الأمور في باتافيا بارسال حملة لا تقل في قوتها عن القوة الانجليزية الموجودة في اقليم البنغال . وسر ولاة الأمور في باتافيا بهذا العرض فقد كانوا يشكون من انفراد الانجليز بتجارة الملح وقصر استخدام من يقومون ببعض الأعمال الملاحية في الهوجلي على الانجليز ، وقيام هؤلاء بتفتيش جميع المراكب القادمة الى الهوجلي ، ورأوا فيه فرصة لخدمة وطنهم وأشخاصهم على السواء . فقد كانوا يطمعون في مثل الثراء الذي أصابه الانجليز في تلك البلاد ، ولهذا جهزوا حملة قوية حملتها سبع سفن كبيرة سارت بها من جاوه حتى بلغت

الهوجلي فجأة في اكتوبر سنة ١٧٥٩. وكان عددها خمسة آلاف مقاتل نصفهم من الأوربيين.
وكانت الظروف ملائمة للهولنديين ، إذ كان جزء كبير من قوات كليف في اقليم الكرنات لمحاربة الفرنسيين وكان ما لديه من قوات لاتستطيع مكافحة هؤلاء الغزاة. وبلغه أن مير جافير رحب سراً بالهولانديين. وكانت هناك صعوبة أخرى تواجه كليف هي أن هولانده كانت صديقة لانجلترا في أوربا ، وذلك في وقت كانت بريطانيا فيه في حرب مع فرنسا ، وكانت تحرص كل الحرص على ألا تحارب هولانده في نفس الوقت . وكان كليف يخشى أن يشتبك مع هذه القوات الهولندية فيغضب ولاة الأمر في لندن فلا يوافقون على عمله ، بل قد يتعرض من جراء مثل هذا العمل للحساب والعقاب ، إلا أنه كان مقتنعاً بأنه لو سمح لهؤلاء الهولنديين بالمرور في النهر فبلغوا مقر الشركة التي يتبعونها في شنسورا فان مير جافير سيلقي بنفسه حتماً بين أحضانهم ويصبح الموقف خطراً على السيادة الانجليزية في اقليم البنغال كله . ولهذا رأى أن يتخذ قراراً سريعاً وحاسماً على ضوء هذه المعلومات دون أي اعتبار خارجي ووافقه ضباطه على ما ذهب اليه .

* * *

وحاول الهولنديون أن يمروا بالقوة وكانت كل سفينة من السفن التي تحملهم مجهزة بستة وثلاثين مدفعاً. وكانت بينها سفينتان مجهزة كلاهما بستة وعشرين مدفعاً. ولكن الانجليز كانوا يحيطون بهم براً وبحراً ، إلا أن العدو كان متفوقاً في القوة عدداً وعدة . ومع هذا التفوق استطاع الانجليز أن ينتصروا على الهولنديين وأن يستولوا على سفنهم بعد أن قتلوا وأسروا معظم رجالهم من الأوربيين . وعقب هذا الانتصار تقدم الانجليز نحو شنسورا فاستسلمت بسرعة . وأملى كليف شروط الصلح في شنسورا . ومن هذه الشروط أن يتعهد الهولنديون بألا يقيموا استحكامات دفاعية في تلك المدينة ، وألا يجندوا أكثر من القوة اللازمة لحفظ النظام في مؤسسات الشركة ، وانهم في حالة مخالفة أحد هذه الشروط يكونون قابلين للعقاب الذي ينزله بهم الانجليز .

العودة الى انجلترا

بعد هذا النصر الذي توّج اسم كليف في انجلترا بإكليل الغار قبل أن يذهب هو اليها حتى قال الوزير العظيم بت عنه في مجلس العموم (لقد فقدنا المجد والشرف والصيت الطيب في كل مكان ما عدا الهند لأن العناية الالهية قد وهبت الوطن هناك قائداً عبقريّاً فذاً لم يسبق له أن درس فنون الحرب . ومع ذلك فقد هاجم بحفنة من الرجال جيشاً هائلاً دون خوف أو وجل هذا الرجل الذي حافظ على سمعة وطنه وزاد في مجده وكانت قوة عزمه مما يندهش له أعظم القواد الحربيين وحضور بديهته مثار اعجاب الهنود) . مما بلغ كليف وهو في الهند فملأه بالرضى عن نفسه ، ولكن هذا الرضا لم يبلغ مبلغ الغرور .

وفي ٢٥ فبراير سنة ١٧٦٠ غادر كليف أرض الهند في طريقه الى انجلترا وعند وصوله الى لندن لقي من الترحيب الشيء الكثير . وتوالت عليه الهدايا والهبات إلاّ أنه كان يتوقع في أكثر مما رأى، فاذا أخذنا في الاعتبار سن كليف عند وصوله إذ كان لا يتجاوز الخامسة والثلاثين ورتبته في الجيش وقتذاك ومنبته المتوسط الذي منه درج لوجدنا ان ما قوبل به من حفاوة وترحيب كان شيئاً عظيماً، فأرلندا منحته لقباً أصبح به من أشرافها، وفتح هذا أمامه أبواب الأمل في أن يصبح من أشراف انجلترا نفسها ، لا سيما بعد أن أحسن الملك جورج الثالث — الذي اعتلى عرش انجلترا حديثاً — استقباله ، وأحاطه الوزراء بالتكريم والتقدير .

وكان كليف قبل وصوله الى انجلترا قد أرسل اليها ثمانين ومائة الف من الجنيهات عن طريق الشركة الهولندية ، وأكثر من أربعين الفاً من الجنيهات عن طريق الشركة الانجليزية، ومبالغ أخرى لا تقل أهمية عن هذه عن طريق مؤسسات أخرى . وفضلاً عن كل هذا المال فقد حمل معه من الماس والجواهر قدراً لا يستهان به، وما كان يملكه في بلاد الهند من أراض قدّر بنفسه ثمنها بمبلغ سبعة وعشرين الف جنيه، كل هذه الثروة التي لم تتح فعلاً لرجل بدأ معدماً كما بدأ كليف، ساعدته ومكنته من أن يصرف المال عن سعة وبذخ حتى بذّ أشراف انجلترا في هذا الباب .

وكان كليف باراً بأهله فقد أرسل عقب معركة بلاسي — التي كان انتصاره فيها مفتاح كنوز ثروته — الى أخواته عشرة آلاف جنيه، وأعان كثيراً من الأصدقاء والأقرباء الفقراء، وأمر وكيله بأن يدفع ثمانمائة جنيه سنويّاً لأبويه ، وأن يشتري لهما عربة تجرها الجياد ، كما رتب خمسمائة جنيه سنويّاً لرئيسه السابق لورنس ، الذي كانت أحواله المالية على درجة كبيرة من السوء . وبلغ ما أنفقه كليف في هذا السبيل خمسين ألفاً من الجنيهات .

وأكثر كليف من شراء الأراضي واستطاع أن يصبح عضواً في مجلس العموم البريطاني عن شيروزبري، ورغم ذلك فلم يلعب دوراً هامّاً في سياسة بلاده . ففي أول عهده بالسياسة اتصل بالمستر فوكس، ثم أعجب بعبقرية ونبوغ المستر بت . وأخيراً انضمّ الى جورج جرنفيل في عام ١٧٦٤ . وهكذا تنقل في أهوائه السياسية .

ولم يصب كليف أي نجاح في السياسة البريطانية رغم أنه كان محبوباً من جميع مواطنيه من الملك ومن الوزراء وممن دونهم من أفراد الشعب ، ذلك لأن ما كان ينعم به من ذيوع صيت ومجد وتقدير انما كان أساسه ما ناله من نجاح في بلاد الهند، سواء في ميدان السياسة أم في ميدان الحرب . ولو كان رجل غير كليف لقنع بما أحرز من ألقاب ، وما نال من ثراء، وما نعم به من ترف وسعادة من أهله وأحبائه ، ولكنه كان رجلاً تعوّد الكفاح والحركة، فأخذ يرقب عن كثب ما يرد من أنباء اقليم البنغال كأنما كان يتنبأ بأن الحال هناك ستدعوه حتماً يوماً من الأيام الى تولي قيادة الأمور في تلك البلاد النائية .

الحال في الهند

وكانت الأخبار تترى عن فساد الحكم والادارة في اقليم البنغال واضطراب الأمور فيه. ولعلّ ذلك كان راجعاً الى أن مركز ادارة شركة الهند الشرقيـة في لندن كان بعيداً عن ميدان أعمالها بعد أن حال بينها وبين مراقبة موظفيها في كلكتا . فجهلت كل شيء عنهم وعن تصرفاتهم لأنه لم يكن يهمها الا ضمان الأرباح التي تعود على المساهمين

واستفاد هؤلاء الموظفون من جهل رؤسائهم بأحوالهم. فاستغلوا التجار الوطنيين والأهالي استغلالاً عجيباً، ناسين كل اعتبار، الا أن يجمعوا الأموال الطائلة في أقصر مدة ممكنة حتى اذا عادوا الى وطنهم عادوا أثرياء . ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل بلغ بهم الأمر أن تدخلوا في

سياسة الحكم باعانة بعض الأمراء على بعض، بل خلعوا ميرجافير ذلك الأمير الذي اجلسه كليف على عرش البنغال وأحلوا ميرقسيم محله لقاء جعل معين ومزايا وعدوا بها، ولكن هذا الأمير كان ذا شخصية قوية وارادة حازمة وروح تميل الى الاستقلال فلم يشأ أن يذيب أفراد شعبه في بوتقة الظلم ليكون منه سبيكة خالصة من الذهب يقدمها الى أولئك السادة، لأنه رأى أن هذا الشعب قد استبدّ به البؤس، واشتدت به الفاقة، ولم يعد في ضرعه قطرة من اللبن، ذلك الشعب الذي بدأ أفراده يهربون الى الجبال خشية الاضطهاد، وهرباً من الاستعباد.

وأسف حضرات الموظفين لتولية مير قسيم لأنه لم يعطهم ما طلبوا ولا حقق لهم ما رغبوا فيه، فسرعان ما خلعوه عن عرشه، وأعادوا ميرجافير مكانه، ولم يكتف موظفو الشركة في أقليم البنغال بفرض سلطانهم على الأمراء ومن في حكمهم، بل عمدوا الى بث وكلائهم ومندوبيهم في القرى لإكراه الناس على أن يبيعوا لهم بضائعهم وحاصلاتهم بثمن بخس، وعلى أن يشتروا ما يؤمروا بشرائه منهم بثمن عال. وكان أولئك المندوبون والوكلاء يستندون في عملهم هذا الى السلطان المخول لهم من ادارة الشركة المحلية والتي كانت تعتمد في إظهار قوتها وجبروتها على قواتها المسلحة، ولو لقي الهنود هذا العنت والاضطهاد من أمرائهم لثاروا عليهم وخلعوهم من عروشهم كما كانوا يفعلون قبلا. أما والذين كانوا يفعلون بهم هذا من الانجليز فقد كان الأهالي يؤمنون بأنهم قوم لا يمكن أن ينالوا بسوء، أو يسدى إليهم نصح حتى قوي هذا الاعتقاد عند الهنود فأصبحوا يرون أن الانجليز ليسوا من البشر إنما هم فئة من الجن. وكثرت حوادث الهرب. فلقد كان الهندي يهرب من الانجليز كما كان يهرب من المهراتا الى الجبال الموحشة، والغابات المسبعة، لعله يجد في جوار سباع الفلاه أمناً لا يجده في جوار أولئك المستعمرين، فما كانت تصل إحدى القرى أنباء وصول سائح انجليزي حتى يبادر اهلوها الى اخلائها فوراً، فاذا دخل الرجل القرية وجدها بلقعاً يباباً.

وتسرّب الفساد من ادارة الحكم الى الجيش نفسه فالضباط أصبحوا هم الآخرون يرفلون في ثياب الترف والنعيم، ويتمتعون بكل ما يستطيعون الحصول عليه من لذائذ وطرائف وتفشى بينهم روح التمرد والعصيان. وانتقلت هذه العدوى الى الجنود الأوربيين منهم والهنود وكثرت المؤامرات وعمت الفوضى والاضطراب بلاد الهند وقلّ ايراد الشركة فقلقت

الخواطر في لندن لهذه الحال وزاد في قلقها توارد الأنباء عن الاخطار التي كانت تهدد حدود تلك البلاد .

وأخذت الأنظار تتجه الى كليف الذي كان غيابه عن اقليم البنغال خمس سنوات سبباً في كل ما حلّ به من سوء، ودارت على الألسنة عبارة أن كليف وحده دون سواه هو القادر على اعادة الأمور الى نصابها في الامبراطورية التي أوجدها .

وظهر هذا الرأي واضحاً وصريحاً في الجمعية العمومية التي عقدها مساهمو شركة الهند الشرقية وأجمع الكل عليه ، ونادى المنادون بأنه يجب تناسي ما نسب الى الرجل ، وان يتفق معه على القيام بهذا العمل .

وقبل كليف في ذلك الاجتماع أن يذهب الى اقليم البنغال ، وان يصلح من شأنه، وان يعمل على زيادة أرباح الشركة ، ولكن على شرط أن يتخلى مدير الشركة (سوليفان) عن منصبه، وكان هذا منه تحدياً ظاهراً لغريمه القديم ذي السلطان القوي والنفوذ الكبير . ولكن الحاجة الى كليف حدت بالمساهمين الى إجابة طلبه ، وذلك بإعادة انتخاب مجلس ادارة الشركة وجاءت نتيجة هذا الانتخاب مرضية لكليف . فعين وكيلاً للشركة وقائداً عاماً الممتلكات البريطانية في أقليم البنغال .

تطهير

في هذه الظروف سافر كليف الى الهند للمرة الثالثة والأخيرة ، فبلغ كلكتا في مايو من عام ١٧٦٥ حيث وجد أن ادارة الحكم كانت في واقعها أكثر فساداً مما سمع عنها ، فان مير جافير كان قد مات عقب وفاة ولده ، واستهتر موظفو الشركة بأوامر رؤسائهم البعيدين عنهم كل البعد ، والجاهلين بشئونهم كل الجهل ، تلك الأوامر التي كانت تحظر عليهم قبول هدايا من الأمراء الوطنيين ، وشجعهم على هذا الاستهتار ، جشعهم للمال والربح . فأقدموا على عرض عرش البنغال للمزايدة ، وتقدم إليهم من دفع لهم أربعين ألف جنيه ثمناً لذلك العرش فتقاسمها تسعة من ذوي النفوذ في الشركة ، وارتقى العرش ثمناً لهذه الصفقة طفلٌ من سلالة الأمير الراحل . وكان كليف قد بلغته أنباء هذه المساومة وهو في طريقه الى مقر عمله فاستاء لما سمع ، وزاد استياؤه حينما رأى وعلم ، فكتب الى صديق له في إنجلترا يقول (وأسفاه لما

أصاب سمعة الانجليز ، فإني أخشى أن لا أستطيع اصلاح ما حلّ بشرف الشعب البريطاني واني أشهدك وأشهد الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور : أني جئت هذه البلاد ، وضميري نقي لا ترقى اليه شائبة ، وأني عزمت على أن أبيد هذه المساوىء التي نخرت في كيان البلاد أو أهلك دونها) .

واجتمع مجلس ادارة فرع الشركة في كلكتا بناءً على دعوة كليف الذي أعلن الأعضاء خلال ذلك الاجتماع بعزمه على أن يقوم بعملية تطهير واسعة ، وأنه سيستعمل في هذه السبيل كل سلطة مخولة له ، سواء أكانت هذه السلطة مدنية أم عسكرية . وثار أشد الأعضاء جرأة ، وأبلغهم قحة ، وأسودهم صفحة ، لهذا القرار ، ولكن كليف أسكته بقوله (أتريد أن تعترض على الحكومة الجديدة وسلطانها ؟). ولكن الثائر المحتد اعتذر وجلس متخاذلاً واسودّت وجوه إخوانه وشملهم حزن عميق ولم يستطع أحد منهم أن ينطق حرفاً .

ونفذ كليف وعده ، ففي خلال الثمانية عشر شهراً التي أقامها حاكماً بأقليم البنغال أحرز نجاحاً أي نجاح في تنفيذ مهمته التي جاء الهند من أجلها ، وكانت تلك الفترة من حياته أسعد أيامها ، ظلّ يذكرها بالفخار حتى أخريات أيامه .

وموضع الفخار أنه كان يستطيع أن يضاعف ثروته خلال تلك الفترة بأن يغمض عينيه عما كان يأتيه موظفو الشركة مع شعب وديع مسالم لا حول له ولا قوة من استغلال ، بل واستنزاف موارده ، فذلك الشعب الذي كان يجهل أين تقع تلك البلاد التي نكبته بارسالها إليه أولئك المضطهدين القساة . ولكنه لم يشأ أن يبيح لنفسه ما جاء لتحريمه على سواه . وكان يعلم أنه في هذا التحريم سيصطدم برغبات بني جلدته من المغامرين الجشعين ، وأنه سيتعرّض لثورة هائلة يثورونها عليه إذ فوّت عليهم جمع أكبر ثروة مستطاعة في أقل مدة من الزمن . كان الرجل يعلم كل هذا فأعدّ للأمر عدته ، رغم أن النجاح كان يبدو في أول الأمر مستحيلاً ، ولكن العوائق أخذت تنهار الواحدة بعد الأخرى أمام شجاعته ، وقوة إرادته ، فمنع قبول هدايا الهنود ، وحرّم على الموظفين الاتجار . وأحسّ كليف استياء هؤلاء وغضبهم لهذا فأعلن في حزم ما يتطرق اليه شك في أنه إذا لم يجد في حامية قلعة وليم القوة التي تكفيه لتنفيذ أمره فإنه سيأتي بتلك القوة من جهة ما ، وأتبع القول العمل فطرد الذين

أصرّوا على مقاومته ، واستبدل بهم غيرهم ، فلما رأى الباقون ما حلّ بالثائرين استسلموا لأمره ، ورضخوا لمشيئته ، وبهذا استتبّ له الأمر في أقليم البنغال .

ولكن كليف كان يعلم أن قوته الشخصية هي التي بدّدت تلك المساوىء التي كانت البلاد تئن منها وترزح تحت أثقالها . وأنه من المحتمل أن تعود الى سابق قوتها إذا ما هو ترك مركزه هذا لسبب من الأسباب ، ورأى من الخير استئصال أسباب العلة .

العلاج

فان الشركة كانت قد جرت على منح موظفيها مرتبات ضئيلة لا تكفل لهم الحياة الهانئة أو تضمن لهم الراحة والرفاهية ، وهم الذين تركوا بلادهم وارتضوا العمل في ذلك الجو الخانق الذي لم يتعوّدوه في أوطانهم . وكان طبيعيّاً أن أي رجل متوسط الكفاءة أو المواهب لا يرضى مثل هذه الظروف إلاّ إذا كان قد رسم لنفسه خطة ينتهجها إنتجاعاً للرزق وطلباً للمال .

وعوّل كليف على أن يفتح لأولئك الموظفين باباً للرزق يدر عليهم ربحاً طيباً حلالاً يغنيهم عن قبول هدايا الأمراء ، وفرض إرادتهم على التجار والوسطاء، سواء أكان ذلك في البيع أم الشراء ، ولا يدعهم ينتظرون عبثاً من أولي الأمر في لندن زيادة مرتباتهم ، وهو أبغض الحلول عند أولئك المديرين . وفكر الرجل طويلاً في أمر (الملح) وكوّن (شركة الملح) التي كان لها احتكار تجارة الملح في الأقليم كله ، وساهم فيها كبار الموظفين بمبالغ تتناسب مع درجاتهم وكانت الأرباح التي تعود عليهم من أسهمهم تتفق وما اكتتبوا به . وقال كليف في هذا الصدد (ان المزايا التي تعود على المساهمين من تأسيس هذه الشركة والتي لها مطلق الحرية في احتكار هذه المادة هي أكبر حائل يمكن أن يحول دون قبول هدايا الوطنيين من الهنود، ثم هي لا تضير شركة الهند الشرقية بشيء ما .)

ومهما برر كليف انشاء شركته هذه فإنها كانت تتعارض مع الأمر الاداري الذي صدر من مركز الشركة الرئيسي في لندن في ٨ فبراير سنة ١٧٦٤ خاصًّا بتحريم الاتجار في بعض المواد ومنها الملح على الموظفين . فأتهمه أعداؤه ثم أتهمه التاريخ بأنه خالف أوامر الشركة ونكث عهده الذي عاهد ادارة الشركة عليه ، وانه بدلا من أن يقضي على دابر التجار ، وزاد في

الشركة لحسابهم الخاص كما كان مفروضاً فيه عند مجيئه الى كلكتا نظم هذا الاتجار ووسع في أركانه ويرى ما كولي ان احتكار تجارة الملح كان مقصوراً على الحكومات المختلفة في بلاد الهند قبل أن يولد كليف وانه بقي كذلك أمداً طويلاً بعد مماته، وان كل ما فعله الرجل لا يعدو أن يكون فتحاً لباب من الرزق لموظفيه يزيد من ثرائهم قليلاً قليلاً. ولكن هذه الزيادة منتظمة وثابتة، لأنها تجعلهم مطمئنين الى مستقبلهم، فيسيرون في عملهم باخلاص ويكرّسون له جهودهم ووقتهم فيزداد نجاحاً وتعود فائدة ذلك كله على الشركة ومساهميها.

بهذا قضى على مناوأة الموظفين المدنيين بمشروعاته الاصلاحية فاتجه ببصره الى العسكريين وكانت الشركة قد خفضت مرتباتهم تحقيقاً للاقتصاد الذي يرضي مساهميها، وتخفيفاً لضغط المصروفات. ولولا أن كليف كان في كلكتا في ذلك الحين لصار الأمر على أكبر جانب من الخطورة، فهؤلاء كانوا أرباب السيف في بلاد لا يمكن أن تحكم بغير السيف. ودبر مئتا ضابط من الانجليز مؤامرة ضد الحكومة وصمم المتآمرون على الاستقالة من خدمة الجيش وضربوا لذلك موعداً يستقيلون فيه دفعة واحدة عالمين أن كليف وهو خير من يقدر أهميتهم لا يقبل أن يترك الجيش بغير ضباط. ولكن كليف لم يأبه بهذه الاستقالة فاعتمد على اخلاص من لم يشترك في تلك المؤامرة وأرسل الى قلعة سان جورج في طلب مدد جديد من الضباط، وعين في الوظائف التي خلت باستقالة أولئك الضباط مدنيين ممن يثق بهم. أما الجنود الانجليز منهم والهنود فقد ظلوا على اخلاصهم ووفائهم لقائدهم الذي كان موضع اعجابهم وتقديرهم، وأمر بجمع الرؤوس المفكرة لتلك المؤامرة في الحال وشكل محكمة لمحاكمتهم وقررت المحكمة فصلهم من خدمة الجيش. أما الباقون فقد راعهم ما حلّ بزعمائهم فالتمسوا سحب استقالتهم، وأعلنوا توبتهم، فعفى كليف عن صغار الضباط. أما كبارهم فقد كان معهم صارماً، لا عن حقد ولا كراهية شخصية، ولكن لأنهم ارتكبوا جريمة العصيان.

السياسة الخارجية

الآن وقد تمّ له تطهير الادارة الحكومية مدنية كانت أم عسكرية، اتجه كليف ببصره الى السياسة الخارجية، فكان وصوله الى اقليم البنغال بشيراً بالسلام. فان نواب أود كان قد جمع جيشاً على حدود مقاطعة بهار، وكان هذا الجيش يضم بين صفوفه كثيراً من قبائل الافغان

والمهراتا . وكان المحتمل أن تنضم اليه عناصر أخرى كبيرة من الهنود ضد الانجليز . فما ان بلغ الأمير المهاجم نبأ وصول كليف الى كلكتا حتى عدل عن فكرة مهاجمة مقاطعة بهار وطلب الصلح من الانجليز فقبل طلبه وكان كليف هو الذي أملى شروط هذا الصلح .

وكانت العلاقات بين الانجليز والحكام الوطنيين غامضة غير واضحة الأسس والمعالم ، وان كان الأولون أصحاب السلطان الحقيقي في اقليم البنغال . ولقد شاء كليف أن يكسب للانجليز صفة شرعية في حكم ذلك الاقليم فحصل من ذلك الامبراطور الضعيف والذي لم يكن له حول ولا قوة مقابل قليل من المال على تصريح يفوض فيه الانجليز في حكم وتحصيل ضرائب أقاليم البنغال وأوريسا والبهار . تلك السلطات التي كان الانجليز يمارسونها فعلاً قبل صدور ذلك التصريح ولكن بقي هناك أمير أو على الأصح شبه أمير كان الانجليز يتخذونه تكأة في حكم اقليم البنغال ، وأراد كليف أن يمحو ذلك الشبح ولكنه عاد فأبقى عليه لانه رأى في بقاء تلك الصورة الهندية ما يفيده في سياسته مع تلك السلطات الأوربية الأخرى التي لا ترى غضاضة في النزول على رأي أمير وطني اعتادت احترامه من قبل مما يساعده هو على تحقيق أغراضه، ولكنه عاد فخشى أن يصبح ذلك الأمير في يوم من الأيام ألعوبة في يد الآخرين فعدل عن الابقاء عليه .

العودة الأخيرة

وبعد أن قضى كليف في بلاد الهند ثمانية عشرة شهراً اضمحلت صحته وتبدد فيها جزء كبير من قوته أبحر عائداً الى وطنه المرة الأخيرة في يناير سنة ١٧٦٧ .

ولم يجد كليف من مواطنيه في أوبته هذه ما لقيه منهم في المرة الأولى من ترحيب وحفاوة ، بل لقي كل اهمال وانتقاد مرّ مما آلم نفسه ، وحزّ في قلبه ، وحطم أعصابه ، حتى عجل به الى قبره . وكان أول من ناصبه العداء أولئك الذين كانوا يحقدون عليه في ادارة الشركة،وكانوا ذوي نفوذ قوي وسلطان متين ، وتطوّع للانضمام اليهم في حملتهم على الرجل فئة من الموتورين الذين طالما عاثوا في اقليم البنغال فساداً، فاقتلعهم من أرضها اقتلاعاً،وطهر البلاد منهم تطهيراً . وزاد في قوة هذه الجبهة التي اتحدت للقضاء عليه استعانتهم بالصحف في التشهير به وإثارة الرأي العام عليه .

وكانت قد تكونت في انجلترا طبقة جديدة من أولئك الذين عادوا من الهند أثرياء، بلغ بهم ثراؤهم مبلغ الأشراف في الترف والنعيم. وإن لم يرفعهم الى مصافهم في الخلق والعادات، فكانوا مثار بغض الناس وانتقادهم، وحقدهم، لأن هؤلاء الناس كانوا يعلمون أن هذا المال لم يأت إليهم حلالاً طيباً، ولا كان ثمرة كدّ أو عمل، ولكنه كان مالاً مغتصباً من قوم سذّج بسطاء سليمي الطوية مسالمين استغلوا استغلالاً قبيحاً واستنزفت أموالهم بل وأقواتهم، وجاء أولئك المغتصبون يبذرونه في غير أوجه التبذير، ويبعثرونه حيثما اتفق، لا يعنيهم إلاّ أن يبدو وجهاء، وإلاّ أن يقول عنهم الناس إنهم عظماء، ولكنهم لم يصلوا الى غاية من الغايتين بل أصبحوا موضع السخرية والانتقاد المر والتحقير في كل مكان حلوا به، حتى لقد بلغ بهم الأمر أن الناس كانوا يخلون لهم نواديهم إذا هبطوا عليهم بها.

***

وكان الشعب يريد أن يفرج عما كان يشعر به من ضيق إزاء أولئك المغتصبين بعد إذ رأى القصور يشيدونها في وقت قصير، وما كانت تلك القصور تحويه من وسائل الترف، وما كانت تضمه من الخدم والأتباع، فسرعان ما صدق ما جاء بتلك الصحف المأجورة عن كليف، بل واعتبره المثل الحي لأولئك المغتصبين فصبّ عليه غضبه ونقمته.

ولو نجحت مشروعات كليف في اقليم البنغال لكان ذلك شفيعاً عند الرأي العام، ولكن كان من سوء حظه أن أثر تلك النظم التي وضعها لحكم ذلك الاقليم أخذ يضعف شيئاً فشيئاً، وسياسته التي رسمها لإدارته تركت ظهريًّا، وبعثت المساوىء التي أماتها من مرقدها وزاد في سوء الحال أنه حدث في صيف عام ١٧٧٠ أن كفت الأمطار عن الهطول، وقلّ ماء نهر الجنجز وضحل، ومات الزرع، وجف الضرع، وعمت المجاعة وادي ذلك النهر، وانتشرت الأوبئة والأمراض، ونشر الموت جناحيه على سكانه، بل أدى الأمر الى أن برزت السيدات المحجبات الناعمات من خدورهن وخرجن الى الطرقات حاملات أطفالهن كالزهور الذابلة، يتسولن طالبات حفنة من الأرز لسد رمق أولئك الأطفال. وازدحمت شوارع كلكتا بالجثث حتى تعذر المرور فيها. ولم يكن ميسوراً للأحياء أن يحملوا تلك الجثث الى المقابر أو الى النهر الذي أصبح مليئاً بأمثالها لضعفهم، وخورهم. فتولت

الوحوش الضارية مهمة التهامها نهاراً ، وراح ضحية تلك المجاعة ملايين من الهنود . وبلغت الأنباء لندن فضاعفت اهتمام الناس بأخبار الهند ، وكن أشد الانجليز اهتماماً بها أولئك الساهمون الذين قلقوا على مصير أرباحهم ، وبدأت النفوس تحس الأسف والأسى والعطف على ذلك الشعب البائس المنكود ، وتولد عن هذا الاحساس شعور بالغضب على أولئك الذين كانوا سبباً فيه . وأخذ الرأي العام يتهم موظفي الشركة الانجليزية الهندية بأنهم كانوا سبب تلك الكارثة لما كانوا يقترفونه من إكراه الهنود على بيع محصول الأرز رخيصاً لهم ، ثم شرائه منهم بثمن غال فوق طاقتهم، في وقت كانت الطبيعة قاسية عليهم فحرمتهم المطر الذي عليه تتوقف حياتهم ، وان أولئك الموظفين في إتيانهم ذلك المنكر إنما إستندوا الى حق أباحه لهم كليف فاستقر سخط الشعب على هذا الرجل

ويدفع ماكولي عن كليف هذه التهمة بقوله إنه كان وقت حدوث المجاعة قد غادر بلاد الهند منذ سنين ، وإنه ليس بين أسباب هذه المجاعة سبب واحد يتعلق بالقوانين التي سنها وقت أن كان متوليا منصبه في تلك البلاد ، وان موظفي الشركة باشتغالهم بتجارة الأرز انما خالفوا تلك القاعدة التي سنها لهم والتي عمل على توطيدها بكل ما أوتي من قوة وان كل ما أباحه له ، انما هو تجارة الملح ، ولكن الناس كانوا قد اقتنعوا بأن كليف هو المسئول عن كل تلك المساوىء وانه من الواجب أن يؤدي عنها حساباً .

الحساب

والى ذلك الحين لم يكن البرلمان قد أعار المسألة الهندية أي اهتمام ، فمنذ وفاة الملك جورج الثاني تعاقب على حكم بريطانيا حكومات ضعيفة قصيرة الآجل كانت كل منها تذهب ضحية رجال البلاط ، ووجدت في المصاعب الناشئة عن المؤامرات في قصر الملك والشغب في العاصمة والثورات في المستعمرات الاميركية ما شغلها عن العناية بمشكلة الهند فاذا ما تهيأ لها من الفراغ ما تستطيع أن تكرسه لدرس تلك المشكلة كان أثرها فيها ضعيفاً .

وأخيراً عم الشعور في سنة ١٧٧٢ بأنه أصبح على البرلمان واجب الاهتمام بسياسة الهند . وكانت الحكومة اذ ذاك أقوى حكومة اضطلعت بأعباء الحكم منذ استقالة

الوزير بت في سنة ١٧٦١ ، إذ لم يعد يشغل الأذهان من السياسة الأوربية ولا من المشاكل الداخلية شاغل . وكانت أزمة الشركة الانجليزية الهندية قد بلغت ذروتها ، وكان الرأي العام قد ركز المسئوالية كلها في كليف .

وكان مركز الرجل دقيقاً وحرجاً إذ أصبح مكروهاً من الشعب كله ، ومكروهاً في ادارة الشركة . ومكروهاً من أولئك الموظفين الأثرياء الذين كسر شوكتهم ولم يكن كليف ضالعاً مع أي حزب من الأحزاب السياسية في بريطانيا حتى كان ذلك الحزب يتولى الدفاع عنه في البرلمان . وكان أعداؤه أقوياء قوتهم في كثرتهم وفي نفوذهم وكانوا لا يريدون أقل من أن يفقدوه سمعته وثروته ، وان يصلوا الى طرده من البرلمان ومصادرة أملاكه . ولم يبد على أولئك الناقين أن تحقيق هذه الغايات يشبع رغبتهم في الانتقام منه .

وكان دفاع كليف في البرلمان يشبه كثيراً خططه الحربية فقد كان وحيداً محاصراً يفوقه أعداؤه في كثرة عددهم ونفوذهم ، ورغم كل هذه الأخطار المحدقة به لم يشأ أن يقف موقف المدافع عن نفسه بل آثر الهجوم . ففي بدء المسائل الهندية في ٣٠ مارس سنة ١٧٧٢ وقف كليف وألقى خطاباً مطولاً منمقاً دفع فيه عن نفسه معظم التهم المنسوبة اليه . وكان بليغاً في خطابه هذا حتى أثر في مستمعيه أثراً طيباً ، إلا أنه لم يدافع إلا عن أعماله في تلك الفترة الأخيرة من ادارته فرع الشركة في البنغال التي بدأت من عام ١٧٦٤ . ونجح في هذا الدفاع حتى ان أعداءه وقد سقطت حجتهم في اتهامه عن هذه الفترة وجهوا جهودهم ونجحوا في استجوابه عن الفترة السابقة لها .

وكانت هذه الفترة مليئة بنقط ضعيفة يمكن مهاجمته منها ، واختيرت لجنة من أعضاء المجلس بالانتخاب لبحث قضية الهند ، وتولت هذه اللجنة فحص تاريخ تلك الثورة الكبرى التي أدت إلى اسقاط سراج الدولة وتولي ميرجافير مكانه . واستجوبت تلك اللجنة كليف استجواباً دقيقاً خالياً من أية مجاملة . وكان الرجل شجاعاً وصريحاً في اجاباته ، فاعترف بأنه خادع أوميشند وان ضميره لا يؤنبه لهذا الخداع ، بل وصرح بأنه إذا أتيحت له في المستقبل ظروف مشابهة فسيلجأ إلى نفس الطرق التي اتبعها مع ذلك الرجل كما أقر باستلامه مبالغ طائلة من ميرجافير ، ولكنه أنكر استعماله في سبيل ذلك ما يخل بالشرف أو يتنافى مع

الاخلاق . وقال انه في ذلك لم يكن أنانيًا ولا جشعاً ووصف في أسلوب رائع مركزه الذي صار اليه عقب انتصاراته الكبيرة يتملقه الأمراء العظام ، وتنفتح تحت قدميه كنوز الذهب واللآلىء ويتنافس المموّلون الكبار في سبيل ارضائه، وأبدى عجبه قائلاً (ياسيدي الرئيس . إني لأعجب في لحظتي هذه من قناعتي وقتذاك) .

وطالت مناقشة الاستجواب حتى انتهت اللجنة من عملها وكان من السهل معرفة نتيجة هذا العمل ، فاعتبر كليف مذنباً ومقترفاً لآثام لا يمكن تبريرها ، إلاّ بخرق النظم المشروعة والقوانين الموضوعة . ولكن المجلس لم ينكر على كليف ماكان يتصف به من صفات عالية ويتحلى به من فضائل جمة ، وما كان قد أداه من خدمات خالدة لكل من وطنه والشعب الهندي .

وما كان واجباً أن تجري محاكمة النابغين من الرجال لأخطاء ارتكبوها ، أو هفوات أتوها تحت مؤثرات قوية لم يستطيعوا احتمالها كما تجري محاكمة المجرمين العادين ، بل كان يجب أن يقدرهم معاصروهم التقدير الذي ينالونه فيما بعد من الاجيال التالية . حقًا ان الاعمال السيئة سيئة على كل حال ، لا يجوز الباسها ثوب الحسن . ولكن يجب الموازنة بين ما قاموا به من أعمال ، وما أتوه من جرائم . فإذا رجحت كفة حسناتهم وجب أن يقتصر الجزاء على لومهم . فكم من حاكم عظيم في التاريخ لم يسلم من ارتكاب غلطة أو اثنتين فأي من أولئك جميعهم كان يسلم من مثل تلك المحاكمة لو أن لمواطنيهم من القوة التي تدينهم كالتي أدانت كليف ، إن أفضل محكمة لمثل هؤلاء دائماً هي محكمة التاريخ .

كانت هذه الآراء نصب أعين العقلاء والمعتدلين من جميع رجال الأحزاب ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يبرئوه من اللوم كما أنهم لم يشاءوا أن يتركوه تحت رحمة تلك الذئاب الآدمية من ذوي العقول الضعيفة والتفكير السقيم . الذين قدموه لهذه المحاكمة وكانوا متعطشين للقضاء عليه .

وفي خلال المحاكمة أنعم الملك على كليف بلقب (مير) ودعاه إلى التشرف بالمثول بين يديه . وفي تلك المقابلة أنعم عليه بلقب لورد . ولما قبل يدي الملك جورج الثالث أبدى جلالته عطفه العظيم عليه وأذن له بمقابلة خاصة . تحدث اليه خلالها مدى نصف ساعة عن

السياسة الهندية . وكان تأثر جلالته عظيماً حينما حدثه القائد المتهم عن خدماته وعن الجزاء الذي ناله نظيرها .

ثم عرضت القضية على مجلس العموم البريطاني ووقف موقف الاتهام بورجوين رئيس اللجنة التي تولت التحقيق، وتورلو النائب العام . أما وودربرن مساعد النائب العام فقد وقف الى جانب كليف ودافع عنه دفاعاً بليغاً ومنطقياً ، ودافع كليف عن نفسه دفاعاً وان كان أقصر وأقل مهارة من دفاعه في بدء محاكمته إلا أنه كان أكثر حرارة ونشاطاً ، وربما سامعيه أن يذكروا أن حكمهم ان ينصب عليه وحده ، ولكنه سيشملهم أيضاً . وبهذا ختم دفاعه — وانسحب من المجلس .

الحكم

وقرّر أعضاء مجلس العموم

« إن ما تحرزه قوات الدولة ملك لهذه الدولة وحدها وان احراز موظفي الدولة لتلك الممتلكات عمل غير قانوني ، وان الموظفين الانجليز في اقاليم البنغال قد تعوّدوا مخالفة هذه القاعدة » .

وفي يوم تالٍ قرر أعضاء المجلس .

«أن كليف نال مبالغ طائلة من ميرجافير بحكم وظيفته كقائد عام القوات البريطانية في الهند » .

وهنا وقف الأعضاء عن اتمام النص الى النتيجة المنطقية .

ولما أثيرت مسألة اساءة استعمال كليف سلطة وظيفته وضربه مثلاً سيئاً للموظفين ، دارت مناقشة حامية حول هذه النقطة ، ووقف وودربرن واقترح (ان اللورد كليف قد أدى في نفس الوقت لوطنه خدمات عظيمة وجليلة) . وبهذا انتهت المناقشة .

وهكذا اجتاز كليف تلك المحنة القاسية والأزمة القاتلة وساعده على هذا انه لم يكن رجلاً حزبيـًا تتحامل عليه الأحزاب الأخرى ، بل كان بطلاً وطنيـًا فساهم المجلس كله في انقاذه مما كان مسوقاً اليه .

وأصبح كليف آمناً على ثروته وشرفه ، يحيط به أصدقاؤه وأقاربه ، إلا أنه كان يقاسي كثيراً من المتاعب الجسمية والعقلية . وخيمت على عقله سحب من الآلام والأحزان ولقد كان منذ شبابه المبكر فريسة الأفكار السود التي كانت تحبب اليه الموت، حتى لقد حاول الانتحار مرتين حينما كان كاتباً في خدمة الشركة في مدراس . ثم حالت كثرة ما قام به من أعمال وما نال من نجاح دون استمرار تلك الأفكار السود . ففي الهند شغلته الأعمال العظيمة التي كان مضطلعاً بها، وفي انجلترا صرفه عنها ثراؤه وما ناله من رتب وتقدير فبدأ يرضى عن نفسه ويعد نفسه سعيداً . أما الآن فقد خلا من كل خاطر يشغله، أو أمل يرجيه، أصبح كالريشة في مهب الريح ، لا سيما بعد أن نال ما نال من عنت أصدقائه وإهانة اللجنة التي تولت التحقيق معه ، وذلك الاتهام الذي وجهه إليه مجلس العموم وإن كان في ثوب مقبول ، وما كان يشعر به من أن مواطنيه يعدونه قاسياً وخائناً وظالماً . كل هذه الاعتبارات تجمعت في ذهن كليف ، وسببت له القلق والآلام وضيق الخلق.

وحينما كان في المناطق الحارة أصابته عدة أمراض مضنية والتمس شفاءها فيما أشار عليه به المشيرون بتعاطي الافيون ، حتى أصبح هذا التعاطي عادة وأصبح هو أسيراً لها . وقد كان يظل ساكناً ساعات طويلة تحت تأثير المخدر . ثم يصحو فتصحو معه مميزاته العسكرية والسياسية فيناقش أية مسألة تعرض عليه بجلاء وحكمة ثم يعود الى إغفاءته واطراقه الحزين .

وزادت حدة المناقشات بين انجلترا ومستعمراتها الأمريكية حتى دعى الأمر الى امتشاق السيف ، وفكرت الحكومة في الانتفاع بمواهب كليف لو كان قد ظل على ما كان عليه يوم رفع حصار « باتنا » . وعند ما قضى على الجيش والبحرية الهولندية عند مصب نهر الجنجز . ولكن كليف لم يكن عند ظن أولئك الوزراء به ، فان عقله الجبار كان قد أجهدته المتاعب والآلام، حتى اذا جاء اليوم الثامن والعشرون من شهر نوفمبر سنة ١٧٧٤ انتحر كليف وكان قد بلغ التاسعة والأربعين من عمره .

وهكذا انتهت حياة مؤسس الامبراطورية البريطانية في الهند بعد ان ترك صفحة رائعة في سجل الخالدين .

وللمعرب

١ — فتاة الجيشا : صورة جميلة ناعمة للحياة الداخلية في بلاد اليابان محلاة بالصور .
٢ — زينيدا وقصص أخرى : من ألطف ما كتب أنطون تشيكوف.
٣ — غرام الأميرال : صورة حية لأروع الوقائع الغرامية في التاريخ محلاة بالصور .
٤ — الجلد المسحور : قصة رائعة تحليلية لأونوريه دى بلزاك محلاة بالصور .
٥ — بائع الخضر وقصص أخرى : مجموعة من خير ما كتب أناتول فرانس .
٦ — دون جوان وقصص أخرى : » » » » » أونوريه دي بلزاك .
٧ — روائع الأدب الألماني : لأشهر كتاب المانيا
٨ — مجد امرأة وقصص أخرى : مؤلفة
٩ — باقة البنفسج : مختارات من أشهر المآسي

لواحق المقتطف الشهرية

فبراير ١٩٤٦

الألوهية والفكر

القسم الاول

بحث في العقائد المألوفة

وهو السلسلة الثانية من محاضرات « جيفورد »

ألَّفها وألقاها

أرثر جيمس : إرل أوف بالفور

بجامعة غلاسكو في سنتي ١٩٢٢—١٩٢٣

نقلها وعلَّق عليها

اسماعيل مظهر

رئيس تحرير المقتطف

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٦

مقدمة

سُنَّةٌ جديدة أردت أن يجري عليها « المقتطف » وقد رفعته سبعة عقود ونيف من الزمان الى قمة « الفكر العربي » التي يطلّ منها على ماضيه الخالد ، هي أن نلحق بكل عدد من أعداده كتاباً كاملاً في موضوع من موضوعات المعرفة التي يتعلق بها العقل الانساني في العلم والأدب والفن والفلسفة والاجتماع . وقد بدأت بذلك في عدد يناير الماضي فألحقت به كتاب « فك الأغلال » وهو بحث في « الثقافة التقليدية » وعلاقتها بالتربية القومية ، واتخذت الحالات القائمة في مصر موضوعاً لمناقشة هذه النظرية على ضوئها ، وهي نظرية روّجت لها ودافعت عنها من عدة سنين خلت ، واني الآن لأشد اقتناعاً بها ، مما كنت عندما ساورتني أول بدهيّاتها .

والآن أعقب على « فك الأغلال » بالقسم الأول من « الألوهية والفكر » وهي محاضرات ألقاها «إيرل أوف بلفور» في جامعة غلاسكو سنة ١٩٢٢—١٩٢٣ أيّد فيها فكرة الألوهية بأسلوب فلسفي رائع ، وناقش منطق العلم الجديد مناقشة اتخذ فيها قاعدة « الشك الاسلوبي » ، وهي القاعدة التي يألفها العلم ، سبيلا إلى نفي « المادية الطبيعية » واثبات أن المجرّدات إن هي إلاّ حقائق واقعة لا تقل عن حقائق العلم شيئاً .

واني لأعد قرّاء « المقتطف » أن أزوّدهم بالقسمين الآخرين من « الألوهية والفكر » خلال أعداد هذا العام رغبةً في تنويع الموضوعات التي نلحقها بالمقتطف واستجابةً لميول مختلف قرّائه في الأقطار العربية وفي المهاجر .

وقد علقت على ما بدا لي التعليق عليه من عبارات المؤلف ، وشرحت بعض النظريات التي تصدّى إلى ذكرها في سياق بحثه . ولعلي أكون قد وفقت في النقل ، ولعلي أكون ، بنقل هذا الكتاب ، عند حاجة قرّاء « المقتطف » ، وفيهم النخبة المنتقاة من قراء العربية .

اسماعيل مظهر

الفصل الاول

مدخل إلى البحث

— ١ —

منذ أن تكلمت هنا آخر مرّة ، صُدِمت الحضارة صدمة لا تزال تترنح بتأثيرها [1]. ففي خلال أربع سنوات ونيف ، ظلت جميع مُقَوِّماتها مصدّعة مُتَفَكِّكة . ولم يكن تأثير تلك الصدمة في عالمي الجُهْد النَّظَريّ والكشفْ العلميّ ، بأقل منه في عالمي الانتاج الاقتصادي والحياة الاجتماعية .

عُطّلت الجامعات وانصرف الأساتذة إلىَ عمل الحرب ، وانغمر العلم في الاختراع المدمر ، وخَفَتَ صوتُ الفلسفة، وحُشِدَ الطلاّب في الخنادق ليقاتلوا ويموتوا—وعلى هذا ظلّ ذلك المظهر المحزن تلك الأربع السنوات، ومن سوء طالعنا أن نكون من شهادها وعاركي أحوالها .

أما أن سلطات هذه الجامعة العظيمة ، في ظروف أخذت ترأب فيها ما تمزّق من خيوط الحياة الجامعية ، وقبل أن يوقع في عهد السلام [2] ، تبدي رغبتها في أن أكمل النصف المتخلف من محاضرات « جيفورد » [3] ، فتحية فذّة غالية [4] .

---

(١) بدأ إيرل بلفور يلقي محاضراته بجامعة غلاسكو في ربيع سنة ١٩١٤ ثم نشبت الحرب الاوربية الاولى واستمرت اربع سنوات ، والى هذا يشير في مستهل المجموعة الثانية من المحاضرات . ونشرت المجموعة الاولى في كتاب عنوانه « الالوهية والنشورية » : Theism and Humanism

(٢) معاهدة فرساي التي عقدت بين حلفاء الغرب والمانيا عقيب الحرب العالمية الاولى : ١٩١٤-١٩١٨

(٣) آدم جيفورد Gifford, Adam; (١٨٢٠ - ١٨٨٧) ولد بأدنبره ، وقبل محامياً بايقوسيه سنة ١٨٤٩ ، ثم صار قاضياً ١٨٧٠ باسم لورد جيفورد . وقد ترك في وصيته مبالغ كبيرة منها ٢٥٫٠٠٠ جنيه استرليني لجامعة أدنبرة و٢٠٫٠٠٠ لكل من جامعتي غلاسكو وأبردين و١٥٫٠٠٠ جنيه لجامعة القديس اندروز للانفاق منها على القاء محاضرات حرة لا مذهبية تتناول مسائل اللاهوت الطبيعي (أنظر معجم تشامبرس للتراجم ص ٤٠٩ طبعة ١٩٢٠)

(٤) سيصدر عما قريب بحثان متممان لهذا البحث ، وسنشرع في اصدارها بمجرد ظهورها في اللغة الانجليزية ، في لواحق المقتطف الشهرية .

هذا الواجب قد أرجأه أسباب كثيرة، وتولاه صعاب أنسأته. ذلك على الرغم مما فيه هو ذاته من صعاب. بعض هذه الأسباب شخصي، وبعضها راجع إلى نظامات الجامعة، ولكنَّ أعظمها جميعاً، هي تلك الفترة التي فصلت بين مجموعة المحاضرات الأولى [١]، ومجموعتها الثانية [٢]. وفضلاً عن أن هذه الفترة قد تلوح قصيرة إذا التفتنا إلى الماضي، فان هذه السنوات المرعبة المخيفة، قد أعقبت بين الماضي والحاضر صدعاً، هو أبعد غوراً من كل صدع قد يحدثه مجرد مرور الفصول وتعاقب الدَّوْرَات. وحتى أولئك الذين هم هنا اليوم، وكانوا ممن تفضلوا بسماعي في ربيع سنة ١٩١٤، لا نكاد ننتظر منهم أن يستجلوا الفكرة التي حاولت أن أبثها في « الألوهية والنشورية » [٣]. أما أكثر الذين يسمعونني أول مرَّة، فإنهم ولا شبهة يفتقدون حتى تلك الذكريات التي أبلتها الحرب، وينبغي، من أجلهم، أن أبدأ سلسلة محضراتي الجديدة، ببيان موجز أشرح فيه وجهة نظري في المحاضرات الأولى. ذلك بأن تلك الوجهة، هي المحور الذي سوف تدور من حوله البحوث التالية [٤]

— ٢ —

شاعت عبارة مجدت منذ جيل فرط، ولكنها أصبحت في الفترة الحديثة، أقل دوراناً. تلك عبارة « الصراع بين اللاهوت والعلم » [٥] كانت هذه العبارة بعض الأحيان نتاجاً للتكييفات التي ظن أن نقد المتون [٦]، والبحوث التاريخية، وزيادة العلم بالحفريات [٧]

---

(١) نشرت مجموعة المحاضرات الاولى بعنوان « الالوهية والنشورية » Theism and Humanism. والنشورية اصطلاح أطلقناه ليقابل المصطلح الاعجمي Humanism والنشوري Humanist والنشوريون Humanists. وهو من النشور بمعنى البعث، اذ يقصد بالاصطلاح الاعجمي حركة احياء الآداب القديمة وبعث الانسان من رقاد القرون المظلمة.

(٢) الالوهية والفكر: Theism and Thought

(٣) Theism and Humanism

(٤) اذا كانت الحرب العالمية الاولى قد أعقبت بين الماضي والحاضر صدعاً هو أبعد غوراً من كل صدع يحدثه مجرد مرور الفصول وتعاقب الدورات كما يقول بلفور، فأية صدوع خلفت الحرب العالمية الثانية وقد بلغ تدميرها مبلغاً لا يقاس به تدمير الحرب الاولى بوجه من الوجوه ؟

(٥) Conflict between Theology and Science (٦) Textual criticism (٧) Palaeontology

وعلم الانسان[1]، ومقارنة الأديان، تحتاج إليها في عرض المذاهب الدينية . كما أشارت أحياناً أخر ، وبصورة أثبت وأوضح ، إلى الدعوى بعدم كفاية كل من السنَّة الطبيعية ، والعناية الفَوْقِيطَبَعِيَّة[2]. وليس من همّي الآن أن أتناول مثل هذه الأشياء. أما ما أتوجه له هنا فصورة تنابذية حادَّة [3] ، حديثة العهد بالوجود نسبيًّا ، وترجع غالباً إلى أفقنا العلمي وإتساعه من حيث الامتداد والعمق . فكلنا يعرف ، وإن كنا لا نعي دائماً ، مدى ذلك الاتساع ومقدار حداثته . ولا شك في أن القدماء قد وضعوا أسساً ذات بال في الرياضيات والفلك والميخانيقا والتشريح . ولكنّ ما وضعوا لم يتجاوز حدّ أنه أسس لا أكثر . فقد مرّ ألف وستمئة سنة أو أكثر على التقريب [4] منذ أن وضعت تلك الأسس ، ولم تقم محاولة ما لتشييد بناء علويٍّ من فوقها . عرف من قبل كثيرٌ من فنون الحياة العملية — في الهندسة وتعبيد الطرق وبناء السفن والملاحة والزراعة والطبّ . ولكن نظام الطبيعة معتبراً شبكة واسعة معقدة ، خيوطها علل ومعلولات متآصرة ، تمتد قدُماً في مكان لامتناه ، وخلفاً في زمان لامُتناهٍ أيضاً ، فالقدماء لم يعرفوا منه غير القليل ، كما أن معرفة أخلافهم في القرون الوسطى به كانت أقلّ . عنيَ هؤلاء بما في دنيا المادة من عظائم ومبهرات ، ولكنهم لم يعنوا بسننها إلاَّ قليلاً ، حتى أنه منذ موت بطلميوس[5] في الأغلب ، لم يكن للفلسفة واللاَّهوت والجمال من منافس في عقول المفكرين ومتجهاتهم . فان كونية الرواقيين [6] أو ذرية الأبيقوريين [7] ، كلتاهما لم تكن غير تحوير الى المادة [8] في مذاهبهم الأخلاقية . وسواءٌ أكانت صحيحة أم خاطئة ، فان الوصول اليها أو تعزيزها ، لم يكن

(١) Anthropology (٢) Supernatural (٣) Antagonism = Subtle form of antagonism

(٤) مات ابرخس سنة ١٢٠ ق. م. ، وكوبرنيكوس سنة ١٥٤٣ ب. م. ويقول وليم سميث صاحب معجم الاعلام اليونانية والرومانية القديمة ان ابرخس ذاع صيته بين ١٦٢ و١٤٥ ق. م.

A celebrated Greek astronsmer, was native of Nicaea in Bithynia, and flourished B. C. 162-145. He resided both at Rhodes and Alaxandria.

أما كوبرنيكوس فقد ولد في ١٩ من فبراير سنة ١٤٧٣ ومات في فراونبرج في ٢٤ من مايو سنة ١٥٤٣ ، وهو أبو الفلك الحديث .

(٥) Ptolemy : the astronomer (٦) Cosmic Theories of the Stoics.

(٧) Atomism of the Epicureans (٨) أي نازع الى المادة كقولك فلان الى اللهو، وفلان الى الجد.

نتاج عمليـة تجريبية أو تقديرية حسابيـة ، على الصورة التي يعترف رجل العلم الحديث ، توًّا وبلا تردّد ، انها علمية : Scientific

ولقد أظنُّ أنه لا يوجد الآن من ينزع الى الاقلال من شأن ذلك التقدُّم العظيم الذي مضى فيه الاستكشاف العلمي منذ عصر النهضـة بسرعة أخذت تتعاجل [1] ، لا في مرافق الانسان الاجتماعية والاقتصادية لا غير ، ولـكن في نظرته الـكونية أيضاً . وكأني أرى نتيجة واحدة لهـذه الحركة [2] لم تقدر القدر الـكافي [3] — ذلك بأنها ، على الأرجح ، لا يتيسر أن تنعت بأنها عالا في المعرفة أو القدرة [4] ، وهي ، فوق ذلك ، انفعالية ، أكثر منها عقلية أو عملية ، من حيث الصفة . والأصح أن أصوّر صفتها بأن أذكركم أن الـكون الطبيعي يزوّدنا الآن بمـا لم يزوّدنا به في الماضي . يزوّدنا بموضوع فيه ما يستغرق انتباه أعاظم الجنس البشري ويفعم تصوراتهم . لم يكن هذا شأن الـكون الطبيعي على الدوام . فاذا حدث منذ خمسمئة سـنة ، أن انساناً مضى يجرّب في الـكيمياء ، انصرف همه الى تحويل الرصاص إلى ذهب . فاذا أخذ يدرس النجوم ، اتجه الى قراءة الحظوظ لظهير أو سيّـد له . فاذا كان طالب علم ، أو مفـكراً ، أو محبـًّا للمعرفة لذاتها ، أو باحثاً عن الحق لأنه الحق ، لم يكن لديه غير قليل من الاختيار : فاما أن يصبح لاهوتيـًّا من المتكامين [5] أو فيلسوفاً متزندقاً [6] — ويظلُّ أحد هذين ، حتى تدركه حركة إحياء العلوم Revival of Learning . فاذا شاء أن ينتمي اليها كان نحويـًّا [7] أو معلقاً على المذاهب [8] . ليس له قدرة الطالب الحديث على التغلغل في معرفة الطبيعة ، لا لأنه كان من الممكن أن يحرق حيـًّا في الغالب لو انه عالج ذلك ، بل لأن المحاولة نفسها كانت بحكم الطبع غير عملية . لم يكن حينذاك من كتلة متراكمة من العلم الطبيعي . ذلك بأن هذه الـكتلة لم تستحدث إلاّ بعد أن تقدَّم الزمن بالعصر الحديث . ولنذكر فوق هذا ، انه حتى في القرن الثامن عشر ، وهو عصر «التنوير» [9] الذي يقال انه استقلَّ واكتفى بذاته [10] ، وامتاز بأن اتخـذ العلم بديلاً من الخرافات

(١) يزداد عجلة Accelerating (٢) أي النهضة (٣) أي لم توزن الوزن الكافي (٤) Power (٥) Scholastic theologian (٦) Heterodox Philosopher (٧) Grammarian (٨) Commentator (٩) Enlightment (١٠) Complacent

والأوهام ، والعقل بديلاً من الافراط في الحس والمغالاة ، لم ينظر في المادة والانسان غير نظرة ضيقة بالقياس على ما عقبه من الزمان . ولقد مضى القرن التاسع عشر في طريقه قدماً ، قبل أن يعترف العلم بصحة النظرية التموجيـة للضوء [١] ، أو التكوين الذري للمادة [٢] . فالـكهراطيسية [٣] لم تتقدم تقدماً كبيراً حتى بلغ ذلك القرن عقده الثالث . ولم يتحقق بقاء الطاقة [٤] تحقيقاً تاماً إلا حوالي سنة ١٨٥٠ ، وأصل الأنواع [٥] لم يظهر إلاَّ عقيب ذلك بتسع سـنوات : ١٨٥٩ ، ورسالة المطياف [٦] لم تفسر تفسيراً عملياً حتى سنة ١٨٦٠ . وأرى انه من الصـدق أن نقول إن رجال العلم لم يفكروا على نمط نشوئي [٧] حتى النصف الثاني من العصر الفيكتوري [٨] . والنظريات الحديثة في التركيب الذري [٩] ، والتفسيرات الجوهرية للمادة والـكمّ المادي [١٠] ، إنما هي من عمل بحّاث لا يزالون في ربيع الحياة [*]

— ٣ —

ومن البين ، على ما أظنّ ، أن هذا العرض الموجز ، يظهرنا في القرن العشرين ، على عالم ماديٍّ ، إذا قسناه على سوابقه ، كان أرحبَ وأغنى وأكثر تنوعاً ، وأحوى للعجائب وأبعث على الاهتمام ، وأنفذ أثراً في النفس ، من العالم الذي تطلّع اليه « روجر باكون » [١١] في القرن الثالث عشر ، أو « كوبرنيكوس » [١٢] في القرن السادس عشر ، أو « غليليو [١٣] ونيوتن » [١٤] في القرن السابع عشر ، أو « كافِندش [١٥] ولافوازييه » [١٦] في القرن الثامن عشر.

....

(١) Wave theory of Light (٢) Atomic Constitution of Matter (٣) Electromagnetism (٤) Conservation of Energy (٥) Origin of Species (٦) Spectroscope (٧) Terms of Evolution (٨) Victorian Epoch عصر الملكة فيكتوريا في انجلترا (٩) Atomic Structure (١٠) Mass - Quantity of matter a body contains. Oxf. Concise Dict. p. 704 (*) أي في سنة ١٩٢٢

(١١) Roger Bacon — فيلسوف نصراني ولد حوالي ١٢١٤ ومات سنة ١٢٩٢ أو ١٢٩٤ م في اكسفورد (١٢) Copernicus — فلكي ١٤٧٣ — ١٥٤٣ (١٣) Galeleo ولد في بيزا في ١٨ من فبراير سنة ١٥٦٤ ومات في ٨ من يناير سنة ١٦٤٢ م (١٤) Newton — سير اسحاق نيوتن رياضي وفوزيقار ولد في ٢٥ من ديسمبرسنة ١٦٤٢ ومات في ٢٠ من مارس سنة ١٧٢٧ ودفن بكنيسة وستمنستر (١٥) H. Cavendish ولد في ١٠ من اكتوبر سنة ١٧٣١ ومات في لندن في ١٠ من مارس سنة ١٨١٠ م . (١٦) Lavoisier — مجدد الكيمياء ولد بباريس في ٢٦ من اغسطس سنة ١٧٤٣ ، ومات على المقصلة في ٨ من مايو سنة ١٧٩٤ م

لا حاجة بنا لأن نكون خبراء في العلم حتى نحقق إلى أي حدّ فاقت الحقائق التجريبيّة أبعد الخيالات إفراطاً في إرضاء شهوتنا إلى العجائب والمفارقات ! . وإذا صحّ هذا من حيث معرفتنا بالطبيعة ، فان شيئاً مماثلاً له قد يصدق على معرفتنا بالانسان [1] . ومن الحق أن إحاطتنا بتاريخه غير المدوّن، لا يزال حتى الآن ضئيلاً . فاستيطان سلالاته العائشة وخصائصها، والشواهد الدالة على هجراته القديمة ، والآثار النادرة التي ترجع إلى قدم موغل ، وبعض الأسلحة وحاجات الزينة والأدوات ، وقليلٌ من العظام ، والقبور التي اتخذ منها الانسان القديم مدافن ، والكهوف التي عاش فيها وخلف على جدرانها نقوشه ، وبقايا الحيوانات التي اغتذى بها ، هي ، على ما أتخيل ، الميراث الأساسي الذي خلفته لنا أجيال لا يحصيها العدّ من أسلاف الانسان . أما الرواية التي تقصُّ هذه المخلفاتُ وغيرها وَقَائِعَهَا علينا ، فقليلة الغناء ، ولكنها تثبت على الأقل ، أن هنالك قصة مستفيضة قد ترويها . ولم يكن تاريخ منذ ثلاثة أو أربعة أجيال فرطنَ ، أكثر من ترجمة عن حياة بعض الشعوب الممتازة خلال مئات قليلة من السنين ، استمدّت في الغالب من حوليات[2] لم يغربلها النقد بدقة ، ومن أساطير هضمت بشراهة حيناً ، ونبذت وشيكاً حيناً آخر . فلما نمت المعرفة في العصر الحديث ، تزوّدنا منها بفكرة أولية عن ميزان الأشياء — بحيث استطعنا أن نحدس بعضاً من تلك العلاقات الزمانية التي تتصل من طريقها تلك الومضات الضئيلة من التاريخ المدوّن بفلوات الماضي الطويل ، الذي يتضمن تاريخ الانسان غير المدوّن ، والذي يصل هذا التاريخ بتلك الأبدية المجهولة التي داعبها بعض المداعبة ، علماء الأرض [3] والهيئة [4] . وإن أخملنا ذكراً في هذا العصر ، ليفخر بأن له من العلم بتاريخ الماضي ، ما تعذّر ، في زمان أجدادنا الأقربين ، أن يكون من نصيب « غيبون » [5] أو « نيبوهر » [6] .

إذا وعينا جميع ذلك في عقولنا ، كان لي أن أوعز اليكم أن جزءاً ما على الأقل من دعوى

(١) أثبت العلامة الكسيس كرل أن المعرفة بالانسان ناقصة جداً . انظر كتابه « الانسان : ذلك المجهول » Man : The Unknown. (٢) Annals : مدونات تاريخية تقص الحوادث تتابعها حسب الايام والسنين ، والحولية نسبة الى الحول أي العام .
(٣) Geologists (٤) Astronomers (٥) Gibbon : مؤرخ انحلال الدولة الرومانية المعروف
(٦) Niebuhr

القول « بالصراع بين اللاهوت والعلم » ليس في الواقع اصطراعاً مذهبيّاً ، وإنما هو تسابق إلى الزُّلـفى[١] . وإنه بقدر ما يهم العلم ، وبالحري الطبيعية العلمية[٢] ، نرى أن هذا التسابق حديث في معظمه . ولئن لم نسلّم باللاأدرية العقيدية[٣] ، — أو قل التزمُّتيَّـة — فانه يكون من حق طالب العلم أن يكلم بالنمط الآتي شخصاً يناصر وجهـة النظر الالهي ؟ قد يقول له :

« أنت تقول بأن الانسان في أسعد حالاته لا يستطيـع أن يعيش حبيساً في سجن تتألف جدرانه من مقولتي « هنا » و « الآن » [٤] ، وأنه يتوق إلى أن يعامل اللانهائي[٥] ، وأنه من أجل أن يواجه حاجاته يحتاج إلى إلـه له كل الخصائص التي هي ، بناءً على وجهة نظرك ، تثير الاعجاب والتقديس — وأنه قادر كلي القدرة ، عادل ، بارٌّ ، محبٌّ . قد تكون مصيباً . ولـكني على أية حال لا أعترف بأن مثل هذا الكمال هو من نصيب الـكون الطبيعي الذي يملك عليَّ جميـع لباناتي ويثير فيَّ الهيام به . وإلـهك هذا ! أليس هو بعيد قصي ، وحقيقته مشكوك فيها بعض الشكّ ؟ هلاّ أكون راضياً بمحسوس بينما هو حقيقي حاضر في الواقع ، هو كذلك لا نهائيّ في مقداره ، لا نهائيٌّ في تنوعه ، متعذّر على الادراك ، في تمامه ؟ ألا تذهل عظائمه تصوراتنا ، وتخبل أسراره عقولنـا ، وتبذّ جمالاته فنوننا ؟ أليس هـذا بكافٍ » ؟

« إذا قلت لي إنه لا يوجد في هذه المعجبات غير مكانٍ ضيق للعقل أو للفضيلة ، وإنه فيما وراء هذه الدورة المتناهية الصغر التي يدورها سيار[٦] صغير ، وأنه فيما وراء جزءٍ قمي من الزمن المقيس[٧] لا نملك من أساسٍ علمي يسوّغ لنا أن نفرض أن العقل والفضيلة قد

---

(١) ابتغاء كسب الانصار (٢) Scientific Naturalism

(٣) Dogmatic Agnosticism : ذلك بأن التسابق في التزلف الى كسب الانصار انما يتألف بالضرورة من عنصرين : الاول لا أدري طبعاً ، لان مجرد التسابق الى كسب الانصار أمر بعيد عن الاقتناع المنطقي الصرف ، والثاني : أن اللاأدرية اذا أخذت صورة دعوى الى الناس أصابها التزمت والجمود والتعصب والتسابق الى كسب الانصار مناورة يضحى فيها بروح البحث الحر . فالمؤرخ في تاريخ الفكر يسلم تلقاء هذا باللاأدرية العقيدية أي بوجودها في مثل هذا التسابق (٤) Here and Now : الهنا والآن : أي المكان والزمان (٥) He longs for commerce with the infinite

(٦) أي الارض (٧) الزمن المقيس بدورة الارض ، والقمي ء الصغير القليل

بوجدان البتّة ، فلماذا أنشقّ وأنحرف عن مذهبي ؟ قد تقول إذا شئت ، إن خيالاً مدرباً ربما يقضي بأن روحاً واعياً واحداً ، قد يبذّ من حيث القيمة عدداً لا نهائيّاً من العوالم المادية . قد يصح ذلك . أما أنا فلا أحاول أن أقارن بين ما لا مجال للمقارنة بينهما. ولكن لي في الوقت ذاته ألاّ أنظر في الكون ، وقد لايكون في أساسه أكثر من مادة صماء، على أنه شيء دنيء القيمة . فان مجرد الحجم، يثبت إلى جانب أن له « كمّاً »[١] ، أن له « كيفاً[٢] » أيضاً، وأرى أن ذلك المصنع الهائل المؤلف من مادة لا تفكر ، قد يلوح ، بصرف النظر عن تعقيداته وأسراره ، عظيماً باهراً من حيث الصفة » .

« أسلم بأنه ليس فيه من احساس أدبي . وهنالك من يلوح لهم انه رذلٌ ولا فضيلة فيه . ولكنه ، مع هذا كله، قد يكون حاضنةً فذةً لتربيب أعظم الفضائل المحبوبة . ولئن تنفق الأيام والليالي في البحث وراء الحق ، وأن تستغرق في هذا البحث الشاقّ على أمل أن الحق إذا وجد فقد يؤدّي ،كما تنبأ باكون ، الى رفع مستوى الانسان ، فذلك أمرٌ يكفيه عظمة ، انه يرضي أنبل الأغراض ، ويشبع أسمى المطامع . وبالرغم من أن المعرفة كلما زادت ونمت ، فان أهمية الانسان قد تتقلص بنسبة ذلك ، ولو ان تاريخه ، إذا نظر في ماضيه نظرة صحيحة ، هو فترة تافهة بالقياس على السَّوق اللانهائي الذي نلحظه في تفاريق الكون ، فأجدر بذلك أن يثير فينا من البواعث ما يحملنا على الأخذ بالفضائل الرواقية [٣] . وأن الانسان إذ تكفله دنيا هي بالنسبة اليه : إما محايدةٌ وإما معاديةٌ ، وليس له فيها آمالٌ وضّاحة لمستقبله أو مستقبل جنسه ، فإنه من طريق التمرّس بالحرمان ، قد يولد بالصبر ، روحه الذي لا يقهر » .

على هذا النمط قد يتكلم طالب العلم ، ومن غير أن يكون متحاملاً على الألوهية ، يملؤه الشك في انها في هذا العصر، لا أكثر من مخلفة منبوذة ورثت عن ماضٍ زائل ، ولا يمكن أن تقتحم الى هيكل المعرفة الحديثة طريقاً ، بغير مرّة[٤] أو عنف .

ينبغي لنا أن نسلم بأن زُلفاه هذه فيها وزن وقيمة . وزنٌ لا يلوح انه سوف ينقص أو يقل بمرور الزمان . بوعي أو بلا وعي ، ستهزّ هذه الزلفى عدداً وفيراً من المتعلمين

(١) كمية (٢) كيفية (٣) Stoic Virtues (٤) المرة : القوة Force، والعنف Violence

وأنصاف المتعلمين في بلادٍ متفرقةٍ ، هم من التابعين اسمًا لديانات كثيرة . فالانسان الذي يملكه الاضطراب إزاء المعجزات ، أو الذي يقتحم ميدان النقد السامي ، أو ذاك الذي تقسمه الصور المأثورة التي قدّس بها الدين ، أو يصيبه النصب من تلك العبارات المألوفة التي يفسر بها الدين في العادة ، يرتد بغريزته ، ابتغاء النجاة ، الى أحدث صور المعرفة ، على أمل أن يجد فيها عقيدة غير مدخولة بالتخليط والتناقض — عقيدةً منطقيةً بينةً مقنعةً ، قد اسفر عن عناصر روحية من شأنها الصفاء والسلوى ، ولكنها على الأقل ، تقوم على حقائق واضحة متفقةٍ مع عقل غير مفسدٍ بالسفسطة ، وتفخرُ بأنها « علميَّة » ، بحيث تقف غير مقهورة بالتجربة .

عندي أنه مخطىء . إنه لن يجد مثل هذه العقيدة . ولست أجد طريقاً لكي أثبت هذا ، أهون وأسهل من أن أنظر في عقائده التأملية في الطبيعة والخُلُق[1] والجمال ، وأن أظهره على أن قيم هذه الأشياء لا يمكن أن نحصلها إلاَّ ونحن على استعداد لأن نتخطَّى إلى ما وراءها — انه إذا لم نستعل عليها ، فقدت ولا شك قوتها وحيويتها ، وان معالجة مشكلات هذا العالم على هذا النمط ، لن يهيىء لنا فلسفة . ولكن هذا النمط ، لا ينبغي أن يهمله الفلاسفة من أجل ذلك ، في حين أن الاستعلاء فيه قد يلذ لتلك الفئة القليلة من المفكرين ، الذين يرون أنّ التأمل البعديطَبَعي[2] ، أقلّ جدارة بانتباه ذوي الجدّ ، من اللاهوت الشائع نفسه .

إذن فالمادة التي حاولت أن أتخذها موضوعاً في الأشهر الأولى من سنة ١٩١٤ ، يجوز أن توصف تعميماً بأنها جملة المسلمات العادية التي نعتنقها عن الطبيعة والانسان . وربما لحنا لأول وهلةٍ شيئاً من البلبلة ، إن لم يكن من التناقض ، في هذه التقدمة . يظهر أننا بذلك نقلب نسق الاستنباط الصحيح ، إذ نأخذ في بناء هيكل صمّم بحيث يتضمن الكون ، لا على نفس الأشياء التي نعتقدها ، ولكن على حقيقة أننا نعتقدها — كأنما نحن نترجم عن أنفسنا على صورة فيها قصُور يؤسف له ، عما تقتضيه كرامة البعديطَبَعيَّات[3] . وليس من شأننا هنا أن نناقش في البراهين المأثورة[4] في وجود الله ، تلك التي دمَغَ بها « كَنت »

---

(١) Moral (٢) Metaphysical (٣) Metaphysics (٤) Classical : القديمة

البحوث الانطلوغية[١] والكونية[٢] والطبيعيلاهوتية[٣]، وهل هي من الفساد بحيث وصفها؟ غير أن وراء هذه البراهين تقليداً فلسفياً عظيماً على الأقل — ذلك بأنها قد استصرخت الواقعية[٤] واللانهائية[٥]. وحتى أكثر هذه البراهين تواضعاً، وأعني به البرهان المستمد من «القصد»[٦]، وهو برغم قدمه لا يزال ذا اعتبار، قد قام على أساس من حقائق الطبيعة. وكأنما نرجح أنه قد يوزن ببرهان آخر يرمي إلى الوصول إلى ذات النتيجة، ولكن من طريق عقائدنا المترددة المفككة التي نكونها عن هذه الحقائق ـ يعني حقائق الطبيعة ـ وإني لأسلم بأن هذه النقود[٧] لها وزن وقيمة. غير أني أمت اليكم ألاّ تسارعوا إلى الحكم قبل أن أفصح عن بعض المبهمات التي قد يسوق إليها أسلوب العرض الذي مضيت فيه.

— ٤ —

أول شيء إذن، ينبغي ألاّ يسبق الى حدسكم أني عندما أصف فكراتنا عن الانسان وعن الأشياء بأنها «مجموعة من الاعتقادات»[٨] أو أنها «عقيدة»[٩]، فإنما تتجه رغبتي أن لا أبث فيكم أنها من الممكن أن تصب في قالب مذهب جامد بين المعالم ظاهر القسمات، على غرار تلك الرموز الصلبة الجامدة التي ابتهج قدامى اللاهوتيين بأن يبلوروا بها مسلماتهم الدينية. إني إنما أتكلم في شيء أوسع في المدى، وأشد تفككاً في التركيب. إن معالمه غامضة. تختلف متضمناته من زمن الى زمن في نفس الفرد الواحد، كما تختلف بين فرد وفرد في الجمعية الواحدة.

إذا تصورنا مثلاً أعضاء هذا المجتمع وقد عبّر كل منهم بجرأة وبصدق عن فكراتهم ومعتقداتهم في الجمال والخير، وفي التاريخ وعلم النفس والفوزيقا، وفي الدين واللادين، فأية فروق عجيبة تفصح عنها نتيجة الاستفتاء؟ لن يقف الأمر عند مجرد الفروق الذائعة بين المعرفة والجهل، أو بين المعتقدات التي نعتبرها «خاطئة»، والمعتقدات التي نعتبرها

(١) Ontological (٢) Cosmological

(٣) Physico-theological (٤) Reality (٥) Infinity (٦) Design

(٧) انتقادات كنت سالفة الذكر (٨) Body of beliefs (٩) Creed

« صحيحة » ، بل إننا سوف نقع على درجات من الفروق في القوة والاتّساع والصّبغة واكتمال المعنى ولطافة التفريق بين المفهومات . ومع هذا فنحن أبناء حضارة واحدة ، ونتكلم لغة بعينها ، ونعيش في ذات العصر ، ونَتّبعُ في الرعوية دولة واحدة ، واجتماعنا في أصيل هذا اليوم يوحي بأننا نهتم بمسائل معينة . ومهما عظمت بيننا الاختلافات ، فانها ولا شك أقل من تلك التي تفرق بين جماعة مماثلة في العدد أُنْتُقِيت خبط عشواء من كتلة الجنس البشري . فكيف يتيسر إذن لمعتقداتهم على غموضها وتزايلها [1] ، وعلى ما يغلب فيها من البلاهة والخطأ ، أن تكون أساساً ثابتاً لنظريّات بعيدة الغَوْر في بناء الكون ؟

ومهما يكن من أمر ، فإن هذا الاعتراض ينحرف حقيقةً عن غرضي . وكل ما يهمني الآن أن أُثْبتَ ، فذاك الذي لا ينكره أستاذ من أساتذة المادّيّة الطبيعية — ألا وهو أن المعتقدات التي نتقبلها هنا اليوم ، والتي يتقبلها غيرنا من المعاصرين في أنحاء أُخَر من الغرب ، إنما ترجع إلى مرحلة متأخرةٍ من مراحل عملية نشوئية مطردة ، ترتد في تواصلها واطرادها إلى عمليات حيوية تناولت العضويّات الدنيا التي انبعثت قبل أن تتجه مملكتا النبات والحيوان قُدُماً في خطتهما التطورية المستقلة [2] .

كان لهذه العضويات البُدائية حياة ، ولكن لم يكن لها عقل . وقد نشأت بطريقة مجهولة بتأثير منظومة [3] مادية من الأسباب ، هي بمقتضى الرأي السائد معدومة الحياة ، معدومةُ العقل. وليس من الهيّن أن نَسْتَجْلي المراحل التي تعين طور الانتقال من الحياة اللاّعقلية ، إلى الحياة العقلية . أما تلك المراحل التي تعين طور الانتقال من حالة اللاحياة إلى حالة الحياة ، فأظن أننا عاجزين عن أن نؤلف فيها تصوراً أو فكرة على إطلاق القول [4] . ولكن هذا من حيث غرضي هنا ، ليس بذي أهمية . ومهما يكن من أمر الفرضية [5] التي نخفي من ورائها جهلنا بالماضي ، وإنقاصنا من شأن ما أثارته المادة الجامدة من ضروب

....

(١) التزايل : الاختلاف والتباين .

(٢) المقصود بهذه العبارات أن أكثر العقائد العلمية المألوفة اليوم إنما ترجع الى ذيوع مبدإ النشوء الطبيعي الذي أبدعه العلامة « درون » ثوبه العلمي بنظرياته الفذة في الانتخاب الطبيعي وبقاء الاصلح والتناحر على البقاء (٣) Series (٤) ما لم نلجأ الى التخلص من هذه الصعوبة بأن نحتضن فكرة ما في الوحدة الروحانية (المؤلف) (٥) Hypothesis

النشاط العقلي فينا وفي معاصرينا ، فمن الجلي أن الخيوط التي هيأتها الحياة في بناء العلل والمعلولات التي تربط بعض تلك المراحل الطويلة ببعض ، حديثة من حيث الزمن ، قليلة من حيث العدد ، وأقل منها عدداً وأحدث زماناً ، تلك التي هيأها العقل [١].

وعلى مقتضى فرضية المادية الطبيعية[٢]، تكون كل معتقداتنا ، أخاطئة كانت أم مصيبة ، أمحسوسة أم متوهمة ، أثابتة أم مرفوضة ، هي في الأكثر لاعقلية من حيث منشئها القريب ، أما من حيث منشئها البعيد ، فلا عقلية بصورة قاطعة [٣] .

على هذه المقابلة بين العلل المنشّئة للعقيدة ، والأسباب المؤدية اليها [٤] ، يقوم البحث الذي ضمنته الجزء الأول من محاضراتي ، وكذلك هو نقطة التحول إلى الجزء الثاني من هذه المحاضرات . فاذا سألتني كيف يمكن ذلك ؟ متى رأيت أنني ، بعد كل ما أدليت به وفي أوسع معالمه ، لم أقل شيئاً من شأنه أن يؤلف جزءاً واضحاً من نظرية تطورية ، وأنه ليس في نظريات التطور نزعة ضِمْنِيَّة تنابذ الألوهية ، أجَبْتُك : إنه ليس ما تتضمن نظرية التطور هو الذي يهمنا هنا ، ولكن ما تنفيه قصداً بوضعيتها المادية هو الذي يعنينا . إنني لا أشكو من أنها تسلم بوجود عناصر لا عقلية بين الأسباب المؤدية إلى الاعتقاد ، بل إنها في نهاية ما تلجأ إليه من حيلة ، لا تسلّم بشيء غير هذه العناصر[٥] . وبذلك تلقي بنا وبكل تفكيرنا ، في أحضان قوى فيها من العماء بقدر ما فيها من القسر والقهر . فهي تنفي عن العقل والقصد والعناية كل سلطة تأثيرية في مسائل الاعتقاد ، وأن هذه الأشياء ، إذا ظهر لها أثر في المراحل الأخيرة من تكوين الفكر ، فليس ذلك الأثر بأكثر من مظهر زُخْرُفي . إنها تخدعنا في بعض لحظات الخمول ، فتسوقنا إلى الفرض بأنه إذا خَرَّجْنَا ، بصبرٍ وأناة ، حلاً لمشكلةٍ معقدةٍ مثلاً ، فإننا بذلك نكون قد وصلنا إلى نتيجة ، مردها العقل وحده ، وهو

---

(١) أي التعليلات التي وصل اليها العقل الانساني في هذه المشكلة ، مشكلة الكشف عن حقيقة العلاقات التي هيأتها الحياة بين العلل والمعلولات التي تربط بين مراحل التطور العضوي .

(٢) Naturalistic hypothesis (٣) يقصد المؤلف بذلك انها عمياء لا قصد ورأءها ولاعقل يسيرها .

(٤) المقصود بهذا أن عقائدنا الضرورية تسبق بمراحل طويلة ، أية من أسباب قد يكون في مقدورنا أن نحسها لها . (٥) أي العناصر اللاعقلية (انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب)

المسئول عنها. ولكن هذا الاقتناع الذي يتملق غرورنا ، هو بمقتضى نظرية المادية الطبيعية لا أساس له البتة ، ولو أنه من السهل تبيان سببه وإيضاحه . فإنه إنما يرجع إلى حقيقة أننا بأنانيتنا ، نفرغ انتباهنا على عنصر واحد من بين سوابق من أمثاله لا عداد لها ؛ ومنه ينساق استنتاجنا . هذا العنصر الوحيد، عقلي صرفٌ، ومن عند أنفسنا . نحن خلقناه ، ونحن نفخر به، ونحن نقيس أهميته بما ينبغي له من عطف وتحيز أبوي . غير أن هذا التحيز لا ينبغي أن ينسينا أن هذا الاستنتاج ليس أكثر من واحد من العلل المتآخذة العديدة ، المنثورة في خلال ماض أبدي ، ليست علة واحدة منها عقلية ، ولا واحدة منها تقع في أسرنا ، في حين أنها جميعاً تشترك في إحداث جزء ضروري يلزم لاحداث العلة الأخيرة .

— ٥ —

أعتقد أنني الآن قد أبنت عن أمرين، الأول : أن معتقداتنا قد تعتبر نتاج محصلتين (١) مختلفتين تمام الاختلاف ، وبالحري إلى نوعين من المحصّلات: النوع العلّي، والنوع العقلي. فالنوع العليّ ، ينساق من السوابق إلى اللواحق . وأما العقلي فمن المقدمات إلى النتائج . ولا شك في أن هنالك عناصر يشترك فيها النوعان . فعلة من العلل قد يتفق أن تكون سبباً بعض الأحيان . أما السبب فإنه نتيجة دائماً ، بل إنه لن يكون إلا نتيجة . وبالرغم من أن تينك المحصلتين هما في الجوهر مستقلتين ، بضرورة أن إحداهما تتعلق بسوق الحوادث في الزمان ، والأخرى بترابط المعتقدات في المنطق ، فإنه من الحق أيضاً أن أي معتقد هو بالرغم وبلا استثناء ، محتومٌ عليًّا ، وفي مردّه محتومٌ بسوابق ليست بذاتها معتقدات ، كما أنها ليست أحداثاً روحانية بنوع مّا ، ولكنها ترتد ، بصورة كلية ، الى عالم اللاعقل ، أي عالم المادة والحركة .

الى هذين الاستنتاجين ينبغي أن نضيف ثالثاً، هو من وجهة النظر التي بثثتها في « الألوهية والنشورية » ، وفي المحاضرات التي سوف تلي ، أهم الثلاثة وأكبرها شأناً . طبيعة هذا

(١) Two processes

الاستنتاج تنحصر في أنه يوجد بين المنظومتين[١] : العقلية والعلّية ، كما صوّرتهما ، وعلى مقتضى فرضية المادية الطبيعية ، تضادٌ لا تناقض فقط . انهما لن يعيشا في سلام ضمن مذهب عقلي واحد . انهما لا يفترقان . وكذلك هما لا يجتمعان[٢] .

أنظر في العلاقات الواقعة بينهما . إن العقل إذا لبس ثوب العلم ، فانما يتعقب أصل كل الأشياء المتعاصرة والحوادث ، ويردّها رُجعاً الى قوى العالم المادي غير العاقلة . وعند هذا يتركها العلم . والمادية الطبيعية تنكر فكرة أن هذه البُدايات اللاَّعقلية ، هي الآن ، أو كانت ، خاضعة لتوجيه عقلي . فالعلم إذن ، إذا لزم المادية الطبيعية ، أو ألزم بها ، فانه بذلك يعلن صراحةً عن أصله اللاّعقلي الأصمّ . ولكن إذا كانت أصول العلم لاعقلية ، فبأية مصادفة عجيبة ينقلب حقّا وصدقاً ، اذا كان حاقّا وصادقاً ؟ وما هي التجاريب التي يمكن لنا أن نطبقها على العلم ، بحيث لا يكون لها نفس الأصول التي يستمد منها العلم ، ولا تنطوي على نفس تلك النقائص التي شرحناها ؟ ونرى من جهة أخرى انه اذا كان لا عقليّا ، فان نتيجة البحث تبدّد مقدماتها بذاتها ، وكذلك تندثر الهيولانية العلمية[٣] ، بفضل ذلك الكمال الذي دثر كل نظرية في الأصول التي تتضمن عقيدة في العقل أو القصد أو الغاية .

— ٦ —

هذه هي الفكرة الرئيسة التي يقوم عليها البحث المنابذ للمادية الطبيعية ، وهي تلك التي عبرت عنها في سلسلة محاضراتي السالفة ، وأقدّر أنها سوف تلاقينا في سياق هذه المحاضرات الفينة بعد الفينة . ولا مخلص لي من أن أصرفكم الى الكتاب[٤] نفسه إذا أردتم الوقوف على وجوه التوسع أو البحوث الثانوية وتطبيقها على الأخلاق والجمال خاصة . ولكن ، بما أنني اتصلت في هذه المحاضرة بموضوعي أساساً من ناحية المعرفة ، فهنالك جواب علي لما أثرت من نقاشٍ ، ربما كان من المرغوب فيه أن يقال فيه بعض القول ، قبل أن ألج رحاباً أخرى.

---

(١) Two series (٢) المنظومة العقلية تقوم على قياسات عقلية صرفة ، والمنظومة العلية على تطبيقات واقعية تتخذ فيها السوابق مقياساً للواحق ، وهما لا يفترقان لان مصدرهما العقل الواعي ، ثم هما لا يجتمعان لتضادهما في الاتجاه.

(٣) Scientific Materialism (٤) كتاب المؤلف الالوهية والناسورية Theism and Humanism

يمكن أن تعرض المسألة بالصورة الآتية : « نسلم ، حبًّا في متابعة البحث أن أسباب الاعتقاد، إذا تأثرناها رُجعاً إلى حدٍّ كافٍ ، كانت بمقتضى فرضية المادية الطبيعية ، لاعقلية بصورة قاطعة . أهذا مقنع إقناعاً كليًّا ؟ ألم تهيء لنا نظرية الانتخاب الطبيعي [١] مخرجاً سهلاً من هذه المشكلة ؟ ألم تظهر لنا ، وفقاً لمقتضيات المادية الطبيعية الثابتة ، كيف أن القصد في الخلق ، قد يمكن محاكاته محاكاةً قريبة ، حتى أن « پيلي » [٢] نفسه ، مؤيَّداً بكتيبة كاملة من كتّاب مقالات « بِرِدْجْوُوتر »[٣] ، كاد يضل عن استبانة هذه الخدعة» ؟

نعم . كانت نظرية الانتخاب الطبيعي من الانتصارات العظمى في القرن التاسع عشر . وبالرغم من حقيقة أنه في ضوء البحوث التي تلت ذيوعها ، لم يظهر أنها قادرة على تحقيق كل ما توقعناه منها [٤]، فإن ذلك لا يزلزل مكانتها باعتبارها نقطة تحوُّل في التفكير العلمي .

....

(١) ومحصل ذلك أن الاحياء في الطبيعة تخضع في تطورها لقانون شامل أساسه ثلاث نظريات مترابطة: الاولى نظرية التناحر على البقاء ، ومؤداها إن كل الاحياء تتوالد بنسبة رياضية بحيث اذا لم يفن العدد الاكبر من مواليدها ازدحمت الارض وضاقت عن ان تمضد كل ما تلد الاحياء . والطبيعة اذ هي تسرف في الانتاج تفن جداً بالابتكار . فاذا تناحرت الاحياء على البقاء تبعاً لتكاثرها وتجالدها على الرزق والحياة ، بقي منها الافراد التي هي أقدر على الانتصار في هذه المعركة الحيوية. واذن تنتخب الطبيعة أو كأنها تنتخب من أفراد الاحياء ما هو أقوى جسماً أو أكمل عدة أو غير ذلك . وهذا ما يسمى بالانتخاب الطبيعي وهي النظرية الثانية . أما النظرية الثالثة : فهي بقاء الاصلح ، ومحصلها ان ما تنتخب الطبيعة من الافراد الذين يفوزون في التناحر على البقاء هم الاصلح للبقاء في الطبيعة والتفرد باخلاف النسل وعندي أن هذه النظريات الثلاث ما هي الا مظاهر لقانون شامل هو قانون « البقاء » . وللتوسع في معرفة هذا القانون اقرأ الفصلين الثالث والرابع من كتاب «أصل الأنواع» الذي ترجمته الى العربية ونشر منذ ثلاثين سنة.

(٢) Paley (٣) Bridgewater Treatises : منذ تسعين سنة خلون ا من سنة ١٩٢٣) طبعت في انجلترا ثماني مقالات انتخبها رئيس الجمعية الملكية موضوعها «الله : قدرته وحكمته وخبرته وأثرها الظاهر في الخلق » . وقد كان آرل « بردجووتر » الداعي الى تأليفها والمنفق على طبعها ونشرها فعرفت باسمه

(٤) قد ينزع القارىء الى أن يسأل : اذا كانت نظرية الانتخاب الطبيعي قد ظهرت في خلال ما تلى القول بها من البحوث انها أقل أثراً مما قدر لها في التطور العضوي أول الامر ، فاني لذلك السبب نفسه لا أقنع بأن أقبل مكانها النتائج التي وصل اليها علم الاحياء : Biological Secience وجوابي على هذا وبقدر ما أعلم ، أن الانتخاب الطبيعي لا يزال يزودنا بما يقر في نفوسنا بديلا من « القصد » على الصورة التي ادرك بها هذا الرأي قبل أيام « درون » ، ومثلنا آراء كتاب مقالات « بردجووتر » سالفة الذكر (المؤلف)

إلى هنا ، وبالقدر الذي يهم في وجهة هذا المبحث (١) ، نلحظ نقصاً مستباناً فيه ، بالرغم بما قد نقدره له من قيمة باعتباره أداة تطورية ذات أثر بيّن ، ظلّت عاملة خلال دور زماني قصير نسبياً . نحن هنا نزن ، كما تتذكرون جميعاً ، تلك الشبكة العلية التي تصل معتقدات العصر الحاضر ، أي معتقداتكم ومعتقداتي ، بالمادة والطاقة في حالة توزعها القديم الأولي — أي كما كانت في الطور السديمي ، قبل أن تتكوّن الأجرام السماوية . في فترة مجهولة لدينا ، وبالحرى فترة غير معروفة ، وفي مدى ذلك التطور النشوئي ، برز سيّار هُيِّئ بمجموعة الخصائص والحالات التي يعرفها العلم في حالته الحاضرة ، وكان من طبيعتها أن تنطوي على الحاجات الضرورية اللازمة لتنشئة صورة من صور الحياة العضوية . في الطور الذي قطعه ذلك السيّار مستكملاً العدة لتنشئة الحياة ، لم يكن هنالك من محل للانتخاب . وكذلك لم يكن للانتخاب من أثر في تهيئة المدرج التالي من مدارج التطور — وأعني به ذلك المدرج الذي شهد بدء الحياة ، وهو أعظم المدارج الانقلابية جميعاً . قبل وقوع ذلك الحادث الانقلابي لم يكن لنا من معرفة بما يضاف إلى جملة الأشياء ، أو يُستخلص منها . إن عوالم لا عداد لها ولدت ثم بادت . ولكن أعظم ما وقع من نكبات وأحداث في عالم الأجرام ، لم يتجاوز حدّ أنه توليف معادٌ لما كان موجوداً بالفعل . تتالت التغيُّرات ، واحدة إثر أخرى على مقاس من العظمة والفخامة قلما يتصور . غير أن عامة هذه التغيرات الفوزيقية ، لم تأت بجديد فيه صفة الاصالة والجوهرية . لم يكن في النتيجة من شيء تشكل بصورة أو بأخرى ، لم يسبق له وجود في العلة . والكون لم يأتِ بشيء جديد اللهمَّ إلاَّ إعادة تنسيق نفسه . ولكن ببزوغ الحياة ، بدأت دورة جديدة . ومهما يكن من أمر ما أعتَنِقُ من فكرة ، فلست أدعي هنا أن الحياة ، حتى في أدنى مدارجها ، أكثر من توزع ضروب خاصة من المادة صُبَّت في قوالب معينة ، وأن أفعالها وأركاسها جميعاً (٢) ، قد تُفَسر بمقتضى سنن الكيمياء والفوزيقا تفسيراً كاملاً . فعلى أي وجه نقلب هذا الرأي ، فلا شكّ يساورنا مطلقاً في حقيقة الشعور والفكر والارادة . فإن هذه الأشياء كانت دائماً زوائد على مجرّد إعادة توليف المادة في صور ما ، وهي فوق ذلك أشياء ، بقدر ما لأرضنا هذه من صفة

(١) مبحث الانتخاب الطبيعي وأثره في التطور الوجودي .

(٢) Actions and Reactions

الحدوث الزماني ، جديدة . نعم جديدة . وحقاً إنها لباعثة على أشد العجب .

لم يكن للانتخاب الطبيعي من أثر في ابراز هذا المتجه الجديد .كما أنه لم يكن له من يد في أن يحدث حدثاً يسير به قُدُماً عند ما بدأت الحياة بالوجود ، ولكن عند ما أصبحت تلابس عضويات من طراز ملائم . فعندما وجدت ، بطريقة غير محدوسة (ا) مركبات عضوية معقدة (ب) ليس لها صفة الحياة لا غير (ج) بل تكاثرت (د) وفي تكاثرها استحدثت أعقاباً ، لها بها ، على اطلاق القول ، مشابهة ، ولو أن هذه المشابهة (هـ) صحبتها تغايرات (و) متوارثة : قبل أن تقع هـذه الأحداث الجسام وتأتلف ، لم يكن في مستطاع الانتخاب الطبيعي أن يعمل وأن يبرز تلك المستحدثات الأحيائية ، التي يحاول البحث العلمي اليوم ، بجهدٍ بالغ ، أن يفصح عن أسرارها المعقدة .

— ٧ —

من هنا يتضح أن تدخل الانتخاب الطبيعي في السوق العِلّي للاهياء ، تدخلاً من شأنه أن يزوّد العقل الانساني ، حتى بما يشاكه أصلاً عقلياً ، قد بدأ مؤخراً في تاريخ الكون ولكن لديّ شيء آخر أقوله . فان تدخله لا يبدأ بتحقيق هذا الغرض مؤخراً جداً لا غير ، بل إنه ينتهي مبكراً جداً أيضاً . فإن أفعاله التأثيرية تموت وتفنى سريعاً ، حتى ليعجز عن الافصاح عما ينبغي الافصاح عنه،وأعني بذلك الافصاح عن مثاليات الحب والحسن[1] والمعرفة

بالنسبة لي ، تظهر هذه المسألة كأنها ثانوية القيمة . فان تلك الأهياء الباهرة العظيمة ، إذا كانت ، في غائيتها ، هي من عمل اللاّعقل ، فانه لا يعنيني غير قليل إذا كان صدورها المباشر راجعاً الى اللاّعقل ملابساً صورة من الانتخاب الطبيعي محوَّراً فيما يشبه القصد ، أو أسفرت في صورة مصادفة مكفوفة . إن النتيجة ، بقدر ما يعنيني ، واحدة . ولكن هنالك من يقتبلون قبلة أخرى . هم يطلبون تفسيراً علمياً . أعطهم هذا ، وهم بعد لا يعنون بما يكون واقعاً بين العلة والنتيجة من التفكك وعدم الالتئام . ولذا تراهم قانعين راضين ، ما أثبتّ لهم أن خصائص أية محصّلة من المحصّلات التطورية ، تتضمن قيمة بقائية .

....

(١) Beauty : اي الجمال

وبمقتضى نظرتهم هذه ، تمّحي كل القيم الأخرى ولا تساوي عنـدهم دانقاً ولا سحتوتاً . يكتفون بأن أسمى وأندر ما في الجمال والأخلاق والفكر ، أشياء لا تفعل للانسان إلاَّ ما تفعل الوسائل الخسيسة لأقل كائن طفيلي حقير — بمعنى أنها تساعد على الاغتذاء والتكاثر .

إن هؤلاء المفكرين لا يعوزهم الافراط في الطمع ، ومع هذا فاني أشك في أن مراميهم ، على تواضعها ، قد تحققت في مثل هذه الدنيا التي نعيش فيها . إنهم يخطئون إذ يفرضون أن هذه القيم العليا ذات أهمية في التناحر على البقاء . فالقديسون والفلاسفة والفنانون ، لم ينجحوا إطلاقاً ، على قدر علمي ، في أن ينشئوا أسراً كبيرة بأنفسهم . وكذلك هم لم يساعدوا الجمعيات التي فتنت بهم وأخرجتهم الحين بعد الحين ، على أن يبذوا كثرة ونسلاً ، غيرهم من الجمعيات في بقاع أخر من الأرض . وبمقتضى قياس الطبيعة للمنفعة ، هم لا فائدة فيهم . أنهم ليسوا ، من حيث ذلك ، أكثر من نماءات خبيثة في مجمل الحصالة التطورية ، ولا يكوّنون جزءًا من نسيجها الجوهري . إنهم ، بناءً على فرضية المادية الطبيعية، حَدَثٌ اتفاقي، أنتجه حدثٌ مثله.

ليس في الناحية الروحانية للتطور من شيء هو أعجب من هذا . وربما لا يكون عجيباً ان هـذه الحركة الاستدراجية التي مضت فيها هـذه النشوءات ، والتي أدّت الى النجاح الاحيائي ، قد تذهب بها الى آفاق تمّحي فيها كل كفاياتها البقائية أو جلها . ولكن العجب الحقيقي انه في هذه الآفاق ، أو في بعضها على الأقلّ ، قد تحوز قيماً أجدد وأرفع ، بحيث تعجز المادية الطبيعية عن الافصاح عنها أو تفسر وجودها ببيان . فالديانات البدائية ، بما فيها من الخرافات والأوهام الفجّة ، والحماقات والافراطات ، قد يكون لها قيمة تلبس تلك الصورة التي يقرّها الانتخاب الطبيعي . ربما تكون قد ساعدت الانسان ، بصور متفرقة ، مساعدة مباشرة في مدارج حضاراته الأولى ، أن يحتفظ بعدده ، أو أن يكثر ويزداد . ولا شك مطلقاً في أن هذا يصدق أيضاً على الآداب البدائية ، وعلى العلم البدائي ، وربما صدق أيضاً على الفن البدائي . لهذا نقول إن الأحياليين(١) الذين يعالجون علم الأحيال(٢) على انه فرع من علم المواليد(٣)، محقون في اعتبار أن هذه الأشياء قد تعود بعض الشيء الى

(١) Anthropologists (٢) Anthropology (٣) Natural History

التناحر على البقاء. ولكن التناحر على البقاء ليس له تأثير مباشر على مدارجها النشوئية العليا. فأية قيمة بقائية مثلاً لحب الله كما نباشره في الممارسات الدينية العليا ؟ وأية فائدة تلك التي جناها انسان ما قبل التاريخ من أن كفاياته العقلية وتصوره، تلك التي نلمح أن بداياتها الدينيّة قد ربيت بديًّا في أسلافه بعوامل الحرب والجوع والمرض، قد تتحوّر فتنشأ منها تلك الكفايات، التي هي بعد مرور آلاف من السنين، سوف تيسر لأخلافه، سبيل العمل والنجح في تتبع خطا معرفة هي الى التجريد الصرف، والبعد عن الكسب المباشر، وهي لأول وهلة معدومة القيمة ماديًّا ؟ وأي تأثير شامل، من حيث الاحتفاظ بالنوع، حدث بنشوء صفة الحب الخيالي الخالص من دنيات الشهوة الحيوانية ؟ اذا سلمنا بأن الانتخاب الطبيعي قد يكون له أثر في تنشئة العطف الأسَري والطاعة القَبَليَّة، فلأي شيء تزدهر هذه الصفات فتصير رحمة بريئة قوية تشمل في دائرتها كل النوع الانساني، وهي فوق ذلك تخص من يُدْعَون بغير الصالحين لا الأصلحين، بعطف أكبر وحنان أعظم ؟

— ٨ —

وأخيراً : ماذا يكون قولنا في هذا الصدد عن الحسن — عن امجاد الفن الابتكاري الخلّاق ومفاتن التأمل الجمالي ؟ وعلى ما يذكر قرّاء كتابي « الألوهية والنشورية »[١] لم أستطع بحال ما أن استدرج نفسي الى الظن بأن هذه الأشياء لها بصورة ما، فائدة في التناحر على البقاء . فبناءً على فرضية المادية الطبيعية إذن، تكون قيمتها اتفاقية في أساسها . ليس من ورائها قصد أو محاكاة لقصد . انها تظل معلقة في الهواء . غير مؤيدة ولا مفسرة. دع أمثال دافيد «شتراوس»[٢]، أولئك الذين يظنون أن المقدّس الذي يحاولون أن يطردوا منه الدين، قد يحتله الفن ويكون له نفس الوزن الذي للدّين، يقفون ساعة أمام هذه الأشياء متأملين . فقد يقتنعون بأنهم إذا مزقوا القيم القديمة وأرسلوها أباديد، قد يتعذر عليهم الاحتفاظ بالقيم الجديدة على وجه الاستمرار .

إذا كان للحسن أن يحتفظ بقيمته ووزنه، فإنما ينبغي له أن يكون نتاج القصد، ومن

(١) Theism and Thought (٢) David Strauss

وراء ما يملكنا من الافتتان بالحسن (الجمال) ، ينبغي أن يختفي ، ولو على وجهٍ غامض ، الشعور بوجود القاصد . فإننا عند ما ننظر في قطعة ممتازة من محصول الفن ، يكون القاصد هو الفَنَّان . وهنا تواجهنا مرة أخرى مشكلة كيف ، بمقتضى فرضيــة المادّية الطبيعية ، أن تغاراً اتفاقيّاً كالعبقرية الفنية ، من دون أن يكون من ورائه قيمة بقائية ، يمكن أن يلعب دوراً كبيراً في الحيـاة العليا للسلالة البشرية [1] ؟ ولكن إذا صحّ هذا عن فكرة الحُسْن المولَّدَة من الجُهْد البشري ، فكيف الحال بالحسن الذي تهبنا إياه الطبيعة ؟ وواضح أننا هنا لا نكون أمام مسألة فن وفنانين . فإن ما نُفْتَنُ به ، بل إن ما نُفْتَن به في الحقيقة فتنة فيها عاطفة وتفانٍ ، إنما هو ، بمقتضى فرضية المادية الطبيعية ، المظهر الخارجي للمادَّة المرتبة ترتيباً عليّاً . فالأنهار الدافقة والأجَمات الخريفية ، وأشعة الشمس فوق القُنَن المُضَبَّبَة ، والسحب ، إلى غير ذلك من مظاهر الطبيعــة المرئية ، على تلك النظرية ، هي نتاج اتفاقي لتجمع ذُرَيْرات حدث اتفاقاً ، ثم اتصلت اتفاقاً أيضاً بالإحساسات البشرية ، التي هي بدورها عبارة عن أعضاء نشأت اتفاقاً لتكون وسائل لادراك الحسن ؟ فاذا تركتنا هذه النظريَّة نتخبَّط غير قانعين ، فمن المستحيل إذن أن نستبدلها بخيالات أشبه بحوريَّات النبع والأجمة ، وجنيات الدغل والوادي اللفيف ، أي بأساطير وأوهام . وفي هـذا الموطن ينبغي لي بجرأة أن أقول بأحد شيئين : إما بالألوهية ، وإما بلا شيء . ومنهما اختار القول بالألوهية . ذلك بأن كل هذه القيم العليا تندفع قُدُماً كلٌّ في متجهه ، إلى الاكتمال في الله . وكما أن أصلها وأرومتها ينبغي أن تكون في الله ، ما ظلت قيمتها باقيــة خالدة ، كذلك ينبغي أن يكون في الله اكتمالها وانتهاؤها ، إذا كانت رسالتها سوف تؤدى . فإن الطبيعة ، إذا أسرت في مجال المادية الطبيعية ، فلن نجد لهـذه الأشياء مبتدأً ولا منتهى يناسبان واقعيتها الصحيحة .

أما إذا شككنا في ذلك ، فهذا لأننا لا نزال تغشانا بعض الأوهام القديمة الموروثة عن الأسلاف الأولين . فالناس لا يزالون يتكلمون على نمطٍ ذاع في القرن الثامن عشر ، إذ يقولون إنه من الطبيعي أن يعلو الانسان روحيّاً ، كما يسقط الماء ماديّاً . فهم يعاملون الطبيعة على

(١) Human Race

أنها مُصْطلحٌ اجتماعي لبيب فهيم يعمل جاهداً إذا لم تعقه العوائق إلى جعل الدنيا أحسن حالاً وأحد عقلاً وأعظم سعادة. غير أن الطبيعة على ما تفهمها مادية القرن العشرين، مخالفة تماماً للطبيعة كما صوّرت بمقتضى فكرة الألوهية في القرن الثامن عشر. ليس فيها معنىً مفهوماً ولا قصداً خيراً. وإذا صحت نظرية الانتخاب، فالقصد ولاشك على ما رأينا من قبل يكون قد حوكي بنجاح. ولكن بالرغم من ذلك فان ذلك القصد لم يكن ليجعل الناس أخير أو أعقل أو أسعد، بل يجعلهم أوفر عديداً لا غير.

أما من حيث الأشياء العليا، فالانتخاب الطبيعي: إما محايدٌ وإما معادٍ. وإذا كان الى جانب الأشياء التي تنتجها أوجه نشاطه، قد جدّت أشياء عليا بطريقة غير مباشرة، فإن هذا الحادث إما أن يعزى الى الاتفاق، وإما الى الهداية. وإني لن أتردّد في أن أصوّت مع الهداية.

في هذا إذن جوهر البحث الذي عالجته باطناب في « الألوهية والنشوريّة »، والذي أحاول أن أعالجه باطناب أكبر في « الألوهية والفكر »(١). على أن الصعاب التي نعالجها هنا، تعود جميعاً الى غلطة بعينها؛ ويمكن حلّها بطريقة واحدة. إن جماعها(٢) مغروس في المادية الطبيعية، وأخذُها بأن هداية المحصّلة العلية، لا أثر لها في جميع الأشياء التي تنابذ تلك المادية الطبيعية من مجموع معرفتنا. وكل هذا، على اعتقادي، يمكن محوه، إذا قضينا على هذا القول وهدمناه. وبهدمه نقيم أساساً للمعرفة والحب والحسن (الجمال)، ونردها جميعاً الى أرومة تتفق وفطرتها الجوهرية، ونبرّر القيم، التي ظلت أسمى الغرائز الانسانية، على استعداد لأن تضفيها عليها.

---

(١) أي هذا البحث (٢) أي جماع تلك الصعاب

الفصل الثاني

بحث في الانسان والفلسفة والعلم

— ١ —

تلك كانت معالم البحث الذي أطنبت فيه عندما ألقيت محاضرات جيفورد سنة ١٩١٤. وظاهر منه أن هذا البحث لم يرم إلى تأليف مذهب بعديطبيعي[1].

وليس هذا براجع الى نقائص تعتور طريقة العرض لا غير، ولو أنني أعتقد أن هذه النقائص غير كثيرة، بل لأن للبحث نفسه غرضاً آخر مختلفاً عن هذا الغرض، وأقل طامعاً في أن يبلغ هذا المبلغ. إنه ليس أكثر ولا أقل من بحث في الانسان. انه نداء فردي صرف خوطبت به عواطف الأفراد ومعتقداتهم. إنه نداء يوحي الى كل قارىء أو سامع بفكرة أنه اذا لم يتقبل حقيقة أن الكون يخضع للهداية الروحانية، فان كل القيم التي هي في نظره فائقة وسامية تتضاءل وتمحي، وأن الحب والحسن* لن يحتفظا بقيمتهما غير منقوصة ولا محجوبة، إذا هما اعتبرا من الحلقات الانتقالية أو الاتفاقيات العارية من الأثر والفعل في خطا تطور مادي.

فمن أراد أن يتقي مثل هذه الكارثة، انبغى له أن يكيف تعاليم المادية الطبيعية الصرفة بأن يلقح نظريته في الكون بفكرة القصد في الأخلاق والجمال[2] وهي أشياء لا أثر لها في المادية الطبيعية. هنالك كثيرون يستهويهم هذا الضرب من التفكير ويداخلهم مداخلة، حتى إذا اقتصر على القيمتين الأوليين[3]. فهم لا يعلقون أهمية على الانكارات المادية. كذلك هم لا يقلقهم ولا يقض مضاجعهم كثيراً تلك الصعوبات التشاؤمية التي يشهدونها. فتراهم

---

(١) Metaphysical

(٢) الحسن (٣) الحب والحسن (انظر عند العلامة *)

إذا ما تأملوا مفاتن الطبيعة أو سبروا غور الحب، فانهم بغرائزهم ينفرون من الظن بأن هذه الأشياء ليست أكثر من آثار مكفوفة عمياء [١] تحدثها آلية جامدة .

غير هؤلاء طائفة يختلف مزاجهم عن هذا . أولئك الذين لايكفي عندهم ما في نداء القصد من قوة الفتنة مقصوراً أثره على الحب والحسن وحدها ، أن يؤدي اليهم الرسالة التي ينبغي أن يؤديها . يعتبرون ذلك وسيلة أو أداةً لحماية عقائد الانفعال — هو انفعال استشرافي [٢] قطعاً ، ولكنه عندهم انفعال فحسب — من قوة النتائج المحطمة التي تقذفنا بها الكشوف العلمية . أما الفرصة التي تتهيأ لهم، فهي عندهم فرصة المفاضلة بين ما هو حقيقي وبين ما هو جذّاب أخّاذ لا أكثر . يقولون :

«إن للحقيقة ضريبة على ولائنا، ضريبة سامية لا مخلص منها ولا معدًى عنها . والمعرفة في تقدمها الذي لا يصحبه شيء من تعنيف الضمير أو الأسف، إذ تلقي الى التراب بكل المثاليات الاخرى، فانها برغم ذلك اذا اعتبرت « معرفة » فمن الواجب إذن تتبع موحياتها باحترام، وأن تطاع بصبر وأناة . إننا لا نقدر الحبّ والحسن بأقل مما يقدره أصحابنا الأولون . ولكنك إذا قلت لنا إن قيمهما لا يمكن أن يحتفظ بها إلاّ بانكار النتائج التي يفتح لنا العلم السبيل اليها ، فهنالك يتجلى اختيارنا . ولن نتلكأ في تفضيل أحد الطرفين [٣] » .

من الخطأ أن نقول إن الذين هم بهذا المزاج لايستجيبون لنداء براهيننا . إن ذلك النداء ليستلبنّهم، غير انه لايترك فيهم أثراً . هنالك طائفة ثالثة لايستجيبون للنداء بتّة . فليس كل إنسان مستعدًّا لأن يهتم بالقيم الانفعالية . هؤلاء اللاّمستجابيون، لايدركون حقيقة الصراع القائم بين المثاليات المتناظرة، والبحث في الانسان عند هؤلاء، ليس أكثر من خواء لا يتضمن، حتى عند التسليم بموحياته، شيئاً يفتقدونه إذا ما فقدوه .

— ٢ —

هذه الأنماط الثلاثة إنما تظهرنا بوضوح على أن البحث في الانسان إذا اقتصر على القيمتين الأوليين وحدها [٤] فقد شيئاً من وزنه وتأثيره . لقد يقل نصراؤه ويفقد الشمولية [٥] . يترك

(١) أي غير مقصودة ولاهداية فيها (٢) Transcendental
(٣) أي يفضلون ناحية العلم بنتائجه المعروفة (٤) الحب والحسن (٥) Universality

بغير اقتناع، عدداً عظيماً من أولئك الذين يظنون أن المعرفة اليقينية[١] إنما تقوم على أساس أثبت، بل ومختلف تمام الاختلاف، عن الاساس الذي تقوم عليه عقائد العاطفة، ولو أن هذه تهزهم وتختلبهم في الغالب من الأعماق. إنها لا تهز، كما أنها لا تقنع، أولئك الذين يعتبرون عقائد العاطفة كأنها لا شيء أو انها لا شيء أصلاً. وإن من المتعذر أن يقضى على هذه النقيصة إلاّ بالقضاء على سببها. ولا يمكن القضاء على سببها، الاّ بأن نظهر أن قيم المعرفة إنما تقوم على مظاهر روحانية، شأنها في ذلك شأن قيم الحب والحسن. فاذا نجحنا في هذا فان الشمولية التي نرغب فيها ونرمي اليها، تتراءى لنا كما لو أنها قد حيزت ومُلكت. فان الناس من حيث احترامهم للنهى[٢] والعلم وسلامة الذوق، سواء. ذلك بأنهم جميعاً وبحكم الطبع ذوو عقيدة[٣]. ونداء النفس الذاتي قائم عند الجميع، ثابت عند الكافة. وقد يستجاب اليه، وقد ينكر. ولـكن ما من بشر في مستطاعه ان يطرحه. ذلك بأن كل عمل من أعمال حياته الواعية، إنما توجهه اعتقادات تقحمه قسراً في دائرة ذلك النداء.

— ٣ —

بينما أرى أن البرهان المستمد من القيمة الثالثة من هذه القيم العظمى[٤] معزّز المكانة، أثير المحل، فلا أنكر أن شمولية ندائه أميل إلى أن تكون نظرية أكثر منها عملية. فظاهر أنه مستحيل، كما أنه مُنَـفِّـر، أن تعكف السلالة البشرية متسائلة متأملة كيف أن الحق — أو على الأقل كيف أن الاتجاه نحو الحق — الحال في عقائدها المألوفة، يمكن تبيانه، وما هو أقوم سبيل الى استجلائه؟ وبالرغم من أن مثل هذا التساؤل ملائم لمزاج كائنات مفكرة من طرازنا تعيش في عالم كعالمنا، فان القليل هم الذين يميلون الى الأخذ بهذا التساؤل والعكوف عليه، وأقل منهم أولئك الذين يعنتون أنفسهم، في تفهم أيٍّ من جواب مصطبغ بصبغة بعديطبيعية[٥] يجاب به عليه. ولا مرية في أن كثيراً من الناس تعنيهم الألوهية. ولـكن قليلاً منهم مَن تهيَّأوا للنظر فيها من طريق التعاليم المحجَّبة التي تنتحلها المذاهب المدرسية. أخشى أن أقول إن

....

(١) Positive (٢) Common Sense (٣) أي ان من فطرتهم الاعتقاد (٤) أي المعرفة.
(٥) Metaphysical

الفلاسفة في خارج إبقورسيا ليس لهم منزلة مرموقة عند الناس. فالمفروض أنهم يتشككون في ما لا يشك فيه أحد، ويعملون على تبيان ماهو مفهوم عند أيٍّ من الناس. بل يقال إن تجارتهم بضاعتها الفكرات الغامضة، مؤداة في لغة خشنة وبراهين فيها مهارة، ولكنها لا تنظر الى ناحية ولا تقنع أحداً. ويقال إنه برغم أن المأثور من تاريخ الثقافة قد يحمل الناس على احترامهم بعض الشيء، فان ذلك لا يتفق وما في قلوب الناس من نكران وكفران بكل ما يقولون. ذلك متجه العامة. غير أني لست في حاجة إلى الدفاع عن الفلاسفة أمام جمعية مثل جمعيتكم هذه، ولو أني أسلم أنه تلقاء مثل هذا التحامل - وهو تحامل شعوري لا تعبيري - يحسن بي أن أمضي في بعض ملاحظات تتناول الصلة بين الفلسفة وطريقة البرهنة العامة، التي أخذنا بها أنفسنا في هذا المجال.

— ٤ —

برئت من قبل من أي قصد يرمي إلى توليف مذهب خاص بي. ولا أميل إلى الدفاع عن مذاهب غيري من النـاس. وأني لأشفق، لأسباب أبديتها قبل، من أن أعبر عن آرائي، إذا ظفرت إلى موضوعات بحثها في العادة مقصور على الفلاسفة، أن أسوقها في لغة تقل فيها الاصطلاحية جهد المستطاع. ولكن قد يسأل: كيف أن متجهاً كهذا يمكن تبريره؟ إذا سلمنا بأن المسائل التي أعكف على بحثها فيها ناحية فلسفية، فلماذا، إذا عالجتها، أجعل بينها وبين الفلسفة فوت ذراع؟ إن أولئك الذين يتكلمون عن أجرام السماء يستفتون الفلكيين، والذين تسوء صحتهم يستأنسون بالاطباء. وليس هذا، على ما أتخيل، لأنهم يتعلقون بخيال يخدعهم عن أن الاخصائيين في هذه الموضوعات وما إليها، غير معصومين من الخطأ، بل لأنهم يعتقدون أن نصيحة الاخصائيين، سواء أكانت طيبة أم رديئة، هي على الأقل أفضل ما يمكن الحصول عليه. فلماذا إذن لا نعامل الفلاسفة معاملتنا الفلكيين والأطباء. لا يدعي أحد أنهم أقل من هؤلاء كفايةً أو أمانة! فلم نعاملهم على أنهم أقل مقدرة وأدنأ حظًّا؟

هذه المساجلة، على ما يلوح فيها من نزعة إلى الصواب، إنما تقوم على مغالطة. فليست

الفلسفة مهنة كالطب ، ولا هي بعلم كالفلك ، ولا هي بمحكمة استئناف عام ، العلوم على استعداد إلى الاعتراف بسلطانها . ما هي الفلسفة إذن ؟ ومن هم الفلاسفة ؟

ربما كان من حقنا أن نجيب على هذا السؤال قائلين : أن كل من يؤلف بوعي مذهباً عاملاً في الكون ، يمكن أن ينعت بأنه فيلسوف . فاذا نالت نظرياته، على ما خطط هو من معالمها ، أو كما يخططها أنصاره ، حظ التأثير في دنيا الانسان ، فإنها بذلك تنال إجازة بأنها أوسعت من أفق الفلسفة .[1] مما بهذه الوسيلة كتلة من المحرَّرات وبالحَرِى « سجل » من المدوّنات ، قُدِّرَ له أن يكون مقدّساً يضم شتات الفكر الفلسفي ، ذلك الفكر ، الذي مضى ، من عصر إلى عصر ، محتفظاً ، على ما يلوح لنا ، بانتباه النوع البشري ، وحظي بتقديره . ولست في حاجة لأن أقول إن محتوياته لا تُظهِرُنا على وحدة في الغرض أو ثبات في المُحَصِّلة . لقد كتبت هذه المدوّنات في عصور متفرقة ، ومن وجهات نظر مختلفات . إنها لا تدعي حق البقاء والثبات بأية حال . ولكن بالرغم من هذا كله ، تنم عن حيوية خاصة ، تظهر لنا أنها أكبر شأناً وأعظم مكانة مما نُقَدِّر لها ، عند ما نقرنها بما حدث ، مماثلاً لذلك ، في حلبة العلم . ذلك بأن تعاليم كبار الفلاسفة ، برغم أنها لا تستهوي إلاّ القليل من الناس ، فقلما استطاع غيرها أن يحتل مكانتها تماماً على ما يظهر . إنها لم تهمل الاهمال المطلق . وربما كان سبب ذلك لأنها لم تمثل في العقول التمثيل الكافي . وليس الشأن كذلك مع كبار المستكشفين . فالناس لا يزالون يستصرخون أفلاطون وأرسطو وهيوم وكَنْت ويستهدونهم . ولكن من ذا الذي يستهدي كوبرنيكوس في الفلك ، أو بويل في الكيمياء ؟ أمثال هذين أسماء لامعة، لن تقف مهددة بالنسيان والدثور بحال . إنها صُوًى لن تدرس قائمة على حفافي الطريق الرئيسي إلى المعرفة . ولكن المستكشفات والتعميمات الحديثة قد تضيف كثيراً إلى تعاليمهم الأساسية وتمحو الكثير من أخطائهم إلى حيث تنسى وشيكاً، حتى إننا قلما نجد عندهم ما نتعلمه ، ما لم نتخذهم أمثالاً ومُثُلاً . إن آخر الأشياء في العلم هي الأنضج ، وآخر مقالة فيه هي بالضرورة الأغنى بالمعرفة ، والأقدر على التلقين .

(١) هذا بالضرورة تبيان فج لكلمة تستعمل بأقصى التوسع . فان الحد الفاصل بين الفلسفة واللاهوت على الاخص (وذلك حيث يكون لاهوت) يمكن أن يستمر النقاش فيه الى غير نهاية . ولاضف هنا اني في سياق هذه المحاضرات لا أهتم بغير النظرات الغربية وطرق التفكير الغربي (المؤلف) .

إن من المتعذر أن نقول مثل هذا القول عن الفلسفة . شأنك في ذلك مع الأدب — تلك حقيقة تلوح باعثة على العجب لأول وهلة . وربما توقعنا أن نرى انه في خلال تلك المساجلات الطويلة التي تروي قصتها تواريخ الفلسفة ، تعاليم تبرز تدرجاً ثم تقبل تدرجاً ، أيضاً بحيث تصلح أن تكون قاعدة لمنتوجات نقتحم بها الطريق الى مخاطرات ، نكون إذ نحاولها أثبت قدماً وأرسخ خطواً . حدث مثل ذلك في العلم على مقياس واسع . ولكن قليلاً هم من يسلمون بأن مثل هذا قد حدث في الفلسفة . أكثر ما نستطيع أن نقول إن بعض أخطاء قد رفضت ومحيت محواً ، وان بعض النظريات الكريمة قد حررت من شوائب علقت بها ولم تكن من جوهرها في شيء ، وأنه في بعض مفازات الفلسفة الأخاذة المغرية ، لم يعبد بعد « طريق سلطاني » هو من السعة بحيث لا يقف أجرأ المستكشفين تلقاءه هنيهةً متريثاً ، قبل أن يرتد على عقبيه .

***

يلوح لنا أن هذه نتيجة ذليلة ، خرجنا بها من ستٍّ وعشرين قرناً قضيناها في النظر والتأمل . ولا شك في انها لتكون كذلك لو أننا طبقنا على الفلسفة نفس القانون الذي نطبقه بحق على العلم . قد نستحث على أن نقضي بأن الفلسفة إذا كانت تشبه العلم من حيث أنها تعمل على ترقية المعرفة النظيمة ، فانها كذلك تشبه الآداب من حيث أنها لا تعبر عن مظهر بعينه من مظاهر العصر الذي ينشئها ، بل هي تعبر عن صفة خاصة لعبقرية فردية . إن للعلم لقيمة تذهب لأبعد من قيمة تعاليمه. ذلك بأن شخصيته تحتفظ بقوتها وسحرها ، حتى بعد أن تصيبها الشيخوخة . ومن هنا يحدث أن الطلاب يجوبون حقل الفلسفة المرة بعد المرة ، وبعد أن يكون قد حصده من سبقهم ، باحثين مسترزقين ، وربما وقعوا على إلهامات توحيها إليهم بعض مذاهب ليست فكرة واحدة من فكراتها الأساسية ، كما صاغها مؤلفها الأول ، مقبولة لديهم .

***

لا ريبة في أن هذه الخصائص تجعل من أصعب الأمور علينا أن نقيس القيمة الصحيحة للعمل الذي أدّته الفلسفة للرقي الانساني. فالمذاهب تنشأ ثم تسقط لها يومها .كالفن . والأدب واللباس : هي رهن بما يقبله ذوق الناس . ولأسباب ليس من الهين الافصاح عنها، يسيطر على الفكر مذهب آناً ثم يخلفه آخر غيره . ولكن سواء أطفت هذه المذاهب مع الزبد أم نزلت الى الغمر ، فإنا نسأل : أي تأثير كان لها على المعتقدات السائدة في صدور الناس ؟ تلك المذاهب عند ما انتزعت منها براهين ذات وزن في مساجلات لها فائدة عامة ، كان يتقبلها أولئك الذين كانوا يتخذون منها حليفاً وظهيراً بالهتاف ، إذا عجزوا عن أن يتقبلوها بفهم وإدراك . ذلك بأن ميادين الفلسفة لا تختلف في شيء عن ميادين السياسة أو الحرب . ولكن الى أي حدّ بلغ أثرها في تصوير الصفة العامة للفكرة المتحضرة وتكييفها ؟ والى أي حد احتكمت في توجيه الفكرة العامة ؟ والى أي حدّ كانت بمثابة مرآة عاكسة ارتسمت عليها هذه الفكرة ؟ والى أي حد حاذتها أو تخطتها ؟

إن الفلاسفة الذين يختلفون في أكثر الأشياء ، يختلفون أيضاً في تعيين قيمة الفلسفة وأهميتها . ونظرتي الخاصة (واني لأعبر عنها في كثير من التهيب وعدم الثقة) أننا بينما نرى أن التأملات التي يتضمنها الدستور الفلسفي في عالمي الدين والاخلاق لها تأثيرٌ فذٌّ بالغ ، اذا بنا نجد أنها في عالم العقائد المألوفة التي نستمد منها مادة هذه المحاضرات تافه حقير ! ولننظر هنيهة في حال العلم . هل هنالك من بينة على أن العلوم قد كيّفت ، ولو بدرجة تافهة، عقائدنا عن عالم الطبيعة ؟ فان من التأملات الاغريقية ما يتعذر علينا أن نسجله ، عند أول مولده ، في سجل العلم أم في سجل الفلسفة . لأنها في الحقيقة كانت من كليهما . أما العلم الحديث ، على قدر علمي، فليس مديناً بشيء للفلسفة(١) . ولقد قضى بعدم مشروعية استعمال بعض المقولات القديمة مثل « الجوهر » و « الماهية » وكذلك بعض المسلمات كقولهم « العلة تساوي المعلول » و « المعلول يذهب بذهاب العلة » ، على اعتبار أنها أشياء عاقت التقدم في بعض

(١) انظر ملاحظاتي على النظرية الذرية في كتابي الالوهية والنشورية (المؤلف)

الحالات . غير أني لست واثقاً من صحة ذلك . واذا كان صحيحاً ، فان أثره تافه في تأييد الغرض المقصود منه . فلما بلغنا عصر « هيجل » ، الفيلسوف الذي في لحظة سيئة الطالع ، حاول أن يحدّد عدد السيارات بمحض قوانين الفكر المجرد ، بدأت الفلسفة تقحم نفسها في ميدان العلم . ولكن مثل هذه الغارات الفلسفية ، لم تكن ذات أثر على الاطلاق ، بل انها اطُّرحت ونفيت، ويغلب أنها لن تتكرّر مرة أخرى. وهنالك فلاسفة ، مثل أرسطوطاليس في العصر القديم ، وديكارت وليبنتز في العصر الحديث ، قد نهضوا بالعلم فقدموه تقدماً عظيماً . ولكنهم لم يفعلوا ذلك بأنهم فلاسفة ، بل بأنهم مواليديين ورياضيين وفوزيقاريين. كذلك باكون ، رسول العلوم التجريبية والتطبيقية ، قد خدم بعبقريته وبلاغته تلك العلوم ، بأن وضعها الوضع الصحيح . ولكنه من حيث المعرفة العلمية ، فان أثره ضئيل . والفلاسفة الذين هم من طراز هيوم ، قد تربّعوا على عرش الشهرة وبعد الصيت ، بنقودهم التي وجهوها الى الأسس التي يقوم عليها العلم . وهنالك فلاسفة غير هؤلاء ، مثل كَنْت ، قد عرفوا وذاع أمرهم بما وضعوا من الاجابات النقدية . ولكن العلم — وهو مستغرق في عدم اكتراثه سواء أبالهجوم أم بالدفاع — قد مضى غير شاعر ، بل لقد أمعن في لاشعوريته ، بأن مصيره ، من ناحية ما أصدرت فيه التأمليـة الفكرية من أحكام ، كان يتأرجح في ميزان علق في الهواء .

هذه الأمثال ، على ما أظن ، تعلمنا بعض الشيء . فان شكية هيوم قد ذاعت في عصرها — ولا تزال مشهورة حتى اليوم . ولكنّ سواد الناس ممن فقدوا الحسّ الفلسفي ، قد انحدروا بها الى حيث ظنّ أنها إنما وجهت ضد الدين . والحق غير ذلك . فلقد كان العلم، ولو نظريًّا، في خطر أعظم من الخطر الذي اكتنف اللاهوت . ولكن بينا نرى أن اللاهوتيين قد أدركوا أن هيوم قد استخدم براهين كان من صميم عملهم أن يعارضوها ، فانه لم يخطر ، على قدر علمي ، لرجال العلم أن خنادقهم هم أيضاً كانت في نطاق النار ، وانه كان لزاماً عليهم أن يعزّزوا من دريئاتهم . كانوا متعلقين، وبثقة مؤيدة بالاقتناع ، بفكرة انه مهما لاح لأولئك الذين كانوا يحاربون بقذائف كلامية من انكشاف ظهر العلم لهذه الهجمات ، فانه في عالم العمل، كان منيعاً لا يرام .

من هنا حدث أن الفلسفة ولو أنها أخذت نفسها ، شيئاً بعد شيء ، بالنظر في جوهريات العلم وآساسه ، فان العلم لم يردّ لها التحية، ولم يتبع خطاها . ان العلم لقليل الاهتمام بمبادئه الأولية ، ولا يأبه كثيراً بأولئك الذين يهتمون بها . وحاشاي أن أقول إن طريقته غاشمة . وإنما أسلّم أنها باعثة على إيقاظ انتباهنا ، وانها ليست خلواً من ناحية خلقية ، سوف أعاود الكلام فيها قبل أن أفرغ من هذه المحاضرات .

ينبغي أن انعي فوق ذلك ، ان عدم الاكتراث الذي يبديه العلم نحو الفلسفة ، برغم أنه غير مدوّن في عبارات ، فان فيه لجدًّا ، وان فيه لنفوذاً واكتمالاً . هنالك ضرب من عدم الاكتراث يمتاز بطرازه ، من حيث انه لايبلغ مبلغ الأول إكتمالاً وابتكارية . فرجل نظر بغير فهم في مقال تناول نظرية الكهراطيسية ، قد يلقي بها جانباً ، معبّراً بذلك عن أنه موضوع لا يعرف عنه شيئاً ، ولا يريد أن يعرف عنه شيئاً . ولكنه في الواقع لا يدل بفعله هذا على أن المقال ، يتناول أموراً لا تهمه بحال من الأحوال . على النقيض من ذلك ، يغلب أن يكون شاعراً بأهميته . إن ما يعني في الحقيقة ، انه في عالم وزّع فيه العمل توزيعاً دقيقاً فصار نواحي اختصاص ، وهيئ بأنواع مختلفات من شتى المواهب ، فليس من شأنه الخاص أن يستفرغ جهده في استيعاب فرع غامض مبهم من المعرفة ، يعوزه الميل اليه ، ويفتقد القدرة على فهمه .

***

ما لم أكن مخطئاً خطأً كبيراً ، فقد أقضي بأن هذا المتجه ليس هو المتجَه الذي يأتمّه أكثر رجال العلم تلقاء التأمل الفلسفي . فان حب الفلسفة اذا تملك من أحدهم كما قد يحدث كثيراً ، فليس ذلك بدافع أنه يرى أن فلسفته قد تلقي بأي ضوء على علمه ، بل لأنه يهتم بمشكلات تحاول الفلسفة حلها ، ولا يحاول العلم لها حلاً . فاذا ساء الحظ وتنابذ أسلوبا البحث العلمي والفلسفي ، فلن يخطر له ببال أن علمه هو الذي ينبغي له أن يخلي الطريق ، بالرغم من أن سياق المنطق قد يوحي اليه بأن فلسفته هي على التحقيق الأكثر جوهرية والأنفذ أثراً . قد يكون هذا المتجه حقّاً أو باطلاً . غير أن فيه على الأقل دلالة أن العلم إذ يعنى بالفلسفة كثيراً ، فالفلسفة لا تعنى بالعلم إلاّ قليلا ، كما ينبغي لنا ان نضيف هنا أن الفلسفة بينما هي لا تعنى بالعلم

إلاَّ قليلاً ، فانها عند سواد الناس ومن حيث صلتها بحاجاتهم العادية ، أقل غناءً مما هي عند رجال العلم .

تحملنا الضرورة هنا على أن لا نشعر بحاجة الى الظن بأن الفلسفة إذ هي كما نعلم جميعاً تميل الى مظاهرة الدين، فانها بخضوع كبير تتلقى الأوامر من العلم . لا أعني بذلك طبعاً أن العلم يرسم لها طرائقها أو انه يحتكم في نتائجها . بل أعني أن العلم عند ما يتكلم بصوت جهوري واضح النبرات، لا تخاطر الفلسفة بمعارضته. إنما نحن نعيش في عصر علمي . وهذا المتجه بقدر ما يلوح الآن طبيعيّـاً وثابتاً ، فقد كان من الممكن أن يلوح غير طبيعي ورجراج منذ بضعة قرون خلت — وسواء أكان طبيعيّـاً أم غير طبيعي ، فانه من المحقق شاذ متناقض. فعندنا في جانب، علمٌ قائم على ذوق عام لم يصقله النقد، وهو مع ذلك منتصر ناجح متحد الأجزاء. وفي جانب آخر فلسفة بلغ منها الانقسام على نفسها مبلغاً عظيماً، وأخذ بخناقها الشعور بأن لها رسالة عظمى، ولـكنها عاجزة عن أن تتلمس الطريق إلى أدائها . في جانب نرى العلم وكأنه لا يكاد يعلم بأن للفلسفة وجوداً ، بل يجهل بتة أن لنتائجهـا أية قيمة علمية — وفي الجانب الآخر نرى الفلسفة تتقبل باحترام كل النتائج العلمية ، ولو أنها في بعض الأحيان قد تحس بتلك الصعوبات المستعصية ، تلك التي إما أن يهملها العلم بهدوء ، وإما أن ينبذها باحتقار . في جانب نرى العلم في هيبة السيد المسيطر على ميدانه العظيم ، ميدان عقائده الخاصة . وفي الجانب الآخر الفلسفة ، بحكم وضعها ، في هيبة القاضي الذي يحكم في عالم المجهول ، تحاول أن يكون لها شيء من شرف تابعها الكلي القدرة ، ولـكن عبثاً ما تحاول ، وسدًى ما تنشد .

إذا ظنَّ أي انسان أن في هـذه الصورة مبالغة ما ، سواء أمن حيث القول بخضوع الفلسفة للعلم من ناحيـة نتائجه ، أم من حيث اعتماد العلم منطقيّـاً على الفلسفة من ناحيـة مقدماتها، أو شكَّ في حقيقة إخفاق الفلاسفة في الاتفاق على نظرية بعينها للمعرفة ، أو عدم الاكتراث التام الذي يبديه العلم نحو اتحادها أو تخاذلها ، فما عليـه الاَّ أن يوازن تواريخ الفلسفة بتواريخ العلم في الحقبة منـذ بداءة القرن السابع عشر إلى القرن العشرين ، وإني لأقدم على القول بأنه سوف يغيّر من رأيه ، ويعدّل من متجهه .

هذه الملاحظات ، على نقصها ، ربما فسرت لماذا يجنح عدد عظيم من المتعلمين إلى معاملة

الفلسفة بالنبذ والترك . إنهم إنما يستمدون نظرتهم العالميـة ، إذا فعلوا [١] ، إما من العلم الذائع ، وإما من اللاهوت [٢] الشائع ، أو من كليهما . إن « القانون » أو « الدستور » الفلسفي ، سواء أكان قديماً أم حديثاً ، لا يعنيهم شيئاً ، ولا هم يصلون عقـائدهم بشيء من المذاهب البَـعْـديطَـبَـعيَّـة، تلك التي كان لها نصيب من الرواج في المدارس. إن موقفنا في هذه المحاضرات يختلف عن ذلك بعض الشيء . إننا كغيرنا من أهل الدنيـا جميعاً ، نتقبلُ الجملة العامة من العقائد المألوفة ، علمية أو غيرها، ولـكن هذه الجملة إنما تكوِّن بدايات بحوثنا ، لا نهاياتها . إن الجولة لا تزال امامنا، ولسوف نتصل في أثناء هذه الجولة ، وفي بعض الاحيان بمشكلات ، شاءت حكمة الانسان أو شاء تهاونه ، أن يتركها جذلاً للفلسفة . وإني لأحزن من جرَّاء هذه الضرورة . ذلك بأني شاعر تماماً بأني أعرِّض نفسي لنقد مزدوج : فالفلاسفة سوف يتأففون من أني قد تورَّطت في مجادلات كان من الواجب أن لا أتورَّط فيها البتة ، أو أن اقول فيها أكثر مما قلت ، في حين أن أولئك الذين يرون أن كل المساجلات الفلسفية هي إما بائرة، وإما هي فوق الادراك، سينفرون من محاولة اقحامهم في أساليب من الفكر غير مألوفة لديهم . الأخيرون هم الذين أرغب أكثر شيء في أن أكرِّر عليهم توكيـداتي . لا أنكر ان الطريق الذي يمتد أمامنا أقل سهولة من الطريق الذي اجتزناه . وليس ذلك لأنه سوف يبعدنا عن الأشياء العامة السائدة ويسوق بنا في مفاوز التأمل البَـعْـديطَـبَـعي وقممه المستعلية ، بل لأنه حتى سفوح الفلسفة قد تعوزنا الى جهود هي من نوع ، ان لم يكن في جوهره وأرومته صعب شاق ، فانه غير مألوف بعض الشيء . وربما كان لهذا السبب غير مغرٍ

إن عندي من الجرأة ما يكفي لـكي أؤمل أن أقل الناس مرانة في اجتياز هذه المفاوز، سيجدون بعد قليل من التمرس ، أن هذه الجولة ليست من المشقة ولا من العنف بقدر ما يتصوَّرون .

(١) أي إذا فعلوا وكان لهم نظرة عالمية

(٢) لا أقصد بذلك أن اللاهوت لم يتأثر بالفلسفة . أنظر ما سبق القول فيه (المؤلف)

الفصل الثالث

الشك الاسلوبي [1]

— ١ —

لما كان الغرض من هذه المحاضرات هو البحث في قيمة العقائد المألوفة وجب عليَّ أن أعقب على ما سبق بأن أسأل : من أية ناحية يمكن لي أن أعالج هذا الموضوع بوجهٍ مرضٍ ؟ ظهر لي بعد تفكير وتأمل أرضياني أنه ما من سبيل أقـوم من أن أنتفع ببعض تأملات في الأسلوب الفلسفي وضعها مستر « برترند روسل » وقد كان في الوقت الذي ألقيت فيه محاضراتي الأولى في جامعة « غلاسكو » مشغولاً بمثل ما كنت مشغولاً به في جامعة « هارفارد » . وقد ظهرت نتائج جهده في كتاب ذي قيمة كبيرة عنوانه « معرفتنا بالعالم الخارجي » وبه أصبحت تلك المحاضرات الخاصة في متناول كل الناس . ولكن سنة ١٩١٤ [٢] والسنين التي تلتها لم تفسح للبحوث الفلسفية مع الأسف غير فرصة تافهة. ولم يتح لي أن أقرأ الكتاب عند أول ظهوره . يحزنني هذا كثيراً . فبرغم أنه يصعب. على ما يخيل إليَّ. أن تقع على رجلين يختلفان في نتائج بحوثهما كل هذا الاختلاف ، فان هنالك مشابهات خاصة في نظرياتنا عن الأسلوب الفلسفي تجعل البحث مفيداً، وترده خصباً منتجاً .

قد يتفق أن يقتبل مستر « روسل » وجهة نظر أخرى . وعلى أية حال فإنه يحسن أن أنبِّـه على أن هنالك أجزاء من كتابه. وربما كانت أكبر الأجزاء تلبيةً للميول العامة واتصالاً

---

(1) Methodology : A branch of logic whose office it is to show how the abstract principles of the Science are to be applied to the production of knowledge : Cent. Dict. 3741 Vol. IV.

الاسلوبية : فرع من المنطق وظيفته ان يظهر كيف تطبق مبادىء العلم المجردة ابتغاء الوصول الى المعرفة.

(٢) حيث اعلنت الحرب العالمية الاولى (١٩١٤—١٩١٨)

بالمنافع ، علاقتي بها من حيث هذا البحث غير مباشرة — وأعني بها هجومه على « المثالية » ودفاعه عن « المنطق الجديد » . فموقفه من المثالية بالغ منتهى الاحتقار في حين أن موقفه من « المنطق الجديد » بالغ منتهى الاعجاب والافتتان . والعاطفتان متصلتان اتصالاً وثيقاً . ذلك بأنه يعتقد أن نقائص المنطق القديم ، هي السبب في الأخطاء التي تكتنف المثالية في أكثر الأمر[1] .

لا أناصر المثالية ، ولا أميل الى الدفاع عن المنطق القديم . ربما بلغ هذا المنطق من الارهاق والحذلقة والتفاهة والتغلغل في الخطأ بحيث يصفه أقسى منتقديه . وربما كان في المنطق الجديد كل ضروب الحصافة والفراهة التي يفتقدها المنطق القديم افتقاداً باعثاً على الحزن والأسى . من حيث هذا لا يشك مستر « روسل » أي شك ولا تساوره أقل ريبة . انه يتكلم بلغة المتعصب الحمس . بل إن مصلحاً ما لم يستطع قبله أن يصوّر الأشياء التي يحاول هدمها في صورة أشد سواداً ، ولم يضف على الاشياء التي يؤيدها ويحاول بناءها ألواناً أعظم روعة أو أزهى ظلالاً . فعنده أن المنطق القديم قد ردَّ « أكثر الفلاسفة عاجزين عن أن يبينوا بشيء عن عالم العلم أو الحياة اليومية » ، وأن المنطق الجديد ، من ناحية أخرى ، « يوسع من تصورنا المجرَّد ، ويزوّدنا بعدد لا نهائي من النظريات الممكنة ، يتسنى تطبيقها في تحليل أية من المعلومات المعقدة » . فاذا « وضع المنطق القديم الفكر في قيد » ، فان « المنطق الجديد قد أنبت له أجنحة » . إنه سيفعل بالفلسفة ما أمَّل « باكون » أن يفعل بعلوم الطبيعة ، بل إنه سيفعل بها ما حقق غليليو فعلا في الميخانيقا . وأنه ، توقعاً لعصر العقل الذهبي « سيخلي الطريق[2] مما تراكم فيه بكثرة من نفايات البَعْديطَبيعيات »[3] .

هذا مديح غال . وقد أثق أن فيه جدارة . بيد أني لا أشعر أنني في هذه الناحية كثير الاتفاق مع مستر « روسل » وأرجح أني أدنى إليه في مجالي أخر من خطته الهجومية العامة التي ناء بها على مشكلات الفلسفة الكبرى .

---

(١) المعنى هنا ان نقائص المنطق القديم ما دامت هي السبب في الاخطاء التي تكتنف المثالية ، فعاطفة مستر روسل من حيث تحامله على المثالية وعاطفته من حيث افتتانه بالمنطق الجديد ، عاطفتان متصلتان .

(٢) أي المنطق الجديد (٣) Metaphysical

— ٢ —

بديًّا ، هو مدْرَهٌ يدافع بحرارة واقتناع عن تلك الطريقة التي دمغها باسم « الشك الاسلوبي » [١] ، لا سيما إذا اتصفت « بالابتكارية والتوسع » . أما أنه يستخدم هذا الأسلوب بحيث يفضي الى أعظم المنافع، فذلك أمرٌ آخر . أما الأسلوب نفسه فلا يسعني أن أضفي عليه من شيء الاَّ التقدير والاطراء . لقد دافعت عن هذا الاسلوب واتبعت موحياته بأقصى ما أهلت بي مواهبي منذ أكثر من أربعين سنة . وإني لأدافع عنه الآن أيضاً وبأقصى ما تصل مواهبي . إني أعتقد أنه راجح .

فوق هذا ، أعتقد أن مستر « روسل » إذا كنت قد فهمته حق الفهم، يقصد بهذا الأسلوب تحقيقاً ، أو بما يقرب من التحقيق ، ما أقصد به شخصيًّا ، وأن « شكه الأسلوبي » يبدأ حيث ينبغي أن يبدأ في رأيي ، أي بالعقائد المألوفة التي يشترك فيها الناس جميعاً . هذه العقائد هي أوّيلات ما يهم الفلسفة ، أو هي ينبغي أن تكون كذلك . إنها تؤلف المادة الواضحة التي يجب أن يُمْتَحَن بها النقد الفلسفي . إن المباحث التي هي أعلا من هذا مرتبة، أو هي قصيَّة بعيدة عن العقائد السائدة، ينبغي أن تنتظر دورها بعض الشيء . إنها سوف لا تهمل أو تنسى . لهذا يحسن مستر « روسل » بأن يبحث هل توجد أمم أخرى ؟ وهل يحق لنا أن نتخذ شهادة العيان أساساً لتلقّي المعلومات ؟ وهل نقبل قانون السَّببية ، وبأي معنى نقبله ؟ وهل هنالك عالم مادي مستقلٌّ عنا ؟ وهل إذا وجد هذا العالم هو من النوع الذي ينشده العلم ؟ وكيف تكون إمكانية الخطأ ؟ وكيف نحل المتناقضات التي تتضمنها الحركة ؟ إلى غير ذلك من المشكلات التي يلوح لنا أن حلولها واضحة حتى نبدأ نفتش عن هذه الحلول .

هذا هو النقد كما ينبغي أن يكون . ولهذا الامتحان الشاق المرهق ، ينبغي أن تخضع عقائدنا السائدة ، قبل أن يكون لها حق الولوج الى دنيا العقيدة الفلسفية [٢] . انها ، على ما يقول مستر « روسل » ، قبل أن تمر من هذا الامتحان ، « عادات مكفوفة » أكثرمنها

(١) انظر كتاب روسل « العالم الخارجي » ص٢٤ (٢) انظر كتابه « العالم الخارجي ص٢٣٩ »

« اقتناعات عقليـة » ولـكنه ، بالرغم من أنه حتى في حالة الافراط في الاعتقاد البعيد عن حكم العقل ، قد يتعلق بالأمل في أن أكثرية هـذه الأشياء سوف تنجو في النهاية وتفوز بالبقاء ، كما أنه على يقين من أن أقلية هامة منها سوف تندثر وتزول في أثناء الطريق .

— ٣ —

إلى هنا نتفق . ولـكن يعتورنا في تطبيق « الشك الاسلوبي » بتبصر وأناة ، خطران، لا ينبغي أن ننساهما أو نغفل عنهما . قد يمكن أن يستخدم الشك الأسـلوبيّ : إما بعناد ، وإما بتناقض . في الحالة الأولى قد ينتكس الشك الأسلوبي فيصـير « شكية بائرة » ، وفي الثانية قد يفقد شباته النقدية ، فيتجرَّد من كل ما فيه من الكفاية الفلسفية . الظاهر أن مستر « روسل » يخشى إسقولاً [1] ، أما أنا فأسلم بأن « خرُوْبديس » أعظم خطراً ، وأنكى تهلـكة .

إن « الشكيّ البور » ، الذي يتناول البحوث العادية ، موجود ولا شبهة — هو ذاك الذي يجوب العالم فلا يجد فيه من عمل يستحق أن يُـعْـمـل، ولا يقع فيه على شيء جدير بالافتتان أو خليق بالحب ، أو حقيق بأن يعرف . إن الشكية التي هي من هـذا الطراز ، لا تخرج عن كونها تعبير يخدعنا عن الاكتظاظ بالضجر ، وليس لها عند أي إنسان أقل قيمة أو وزن ، اللهمَّ إلاَّ لمعتنقها ، وربما تخطته الى الأقربين ممن يلوذون به .

« الشكيُّ البور » ، الذي يُـسدِّد اليه مستر « روسل » قوسـه ، ولـكن في شيء من الأدب المشوب بالقلق ، انسان من طراز آخر تماماً . لقد ظهر ، وربما لم يكن ظهوره هنالك

(١) Scylla & Charybdis : في الاساطير اليونانية القديمة : ان اسقولا خطر مشخص اي مرموز له بكائن خرافي يشير الى خطر يتعرض له الملاحون في الشواطيء المحفوفة بالصخور . وفي هوميروس ان اسقولا وخروبديس واقعان ازاء بعضهما في مكان مالم يعين في الاساطير تعييناً دقيقا . والمروي ان خروبديس لم يشخص تشخيصاً تاماً . ويروى عنهما اساطير عديدة راجع بعضها في قاموس الاعلام القديمة ص ٨٥٤ :

The Classical Dictionary, by Sir. W.M. Smith and G. E. Marindin p. 854-1932.

ويري المؤلف هنا بذكر الاسمين الى ان مستر « روسل » اذا خشي من عناد الشك الاسلوبي ، فانه اي المؤلف، اكثر خشية من تناقضه . وكلاهما خطر ينبغي أن يتقى.

أول مرة ، في صفحات كتبها « هربرت سبنسر » عنوانها « البرهنة على الواقعية » . ولقد ظهر هناك لا شيء إلاّ ليتلقى علانية أقصى ما يفرضه عليه القانون من عقوبة . ولكن لمَ يظهره مستر « روسل » على المسرح مرة أخرى ، أو لماذا تكون شكيته البائرة في طبيعتها أشد بوراً من شكية مستر « روسل » نفسه ؟ ذلك ما لم أستطع فهمه بدقة ووضوح . أمن أجل ان « الشكي البور » يترىب في « كلية المعرفة » بينما ان الشكي الذي يوافق مزاج مستر « روسل » يترىب فقط في العناصر التي تتألف منها هذه الكلية ؟ يقول : « ان الاستشفاف الفلسفي » ولو انه مترىّب شاك في كل التفصيلات ، فانه غير شاك بالنسبة الى الكلّ » .

ولكن لمَ لايكون ؟ أصحيح اننا لانتنازع في انه من الممكن أن نكون شكيين على نفس النمط الذي يشك به مستر « روسل » فنترىّب في حقيقة وجود عالم ماديّ مستقل عنا وفي وجود أمم غيرنا، وفي قانون السببية وفي العلاقة القائمة بين الأمكنة الخاصة التي يشغلها كل فرد بالنسبة الى «المكان» في مجموعه ، وفي الأزمان الخاصة التي يسلخها أي انسان بالنسبة الى « الزمان » في عموميته، ومع ذلك لا نكون شكيين إزاء « المعرفة في كليتها » ! وفي الحق إن ما يتبقى بعد ذلك مما ندعوه « كلية المعرفة » بعد أن تقع أكثر أجزائها الهامة فريسة لمثل هذه العملية التقطيرية المهدمة، لاريب يكون تافهاً حتى لقد يزدرده أكثر الشكيين تحفظاً، من غير أن ينتابه شيء من التخمة العقلية .

— ٤ —

على أية حال ، أجرؤ على الظن بأن مستر « روسل » كان من الممكن أن يكون أهدى سبيلاً ، لو انه بيَّن بوضوح أكبر ، وضبط أصرح ، قصورات الطريقة الشكية — على ما يدركها — تلك الطريقة التي يعتنقها كلانا . إذا حكمت بمقتضى الطريقة التي اتبعها ؛ وهي على ما أتصوَّر سبيل التمشي معه في طريقة تفكيره ، فهنالك أقع على اختلاف كبير يفصل بيننا . فاني لا أرى أي فضل « للشك الاسلوبي » اذا ما أقلعنا عن التمشي به حتى يبلغ حدوده التأملية . وبرغم إننا لا نحتاج ، بل اننا لا نقدر ، أن نتقبل هذه الحدود في مسالك الحياة ، فانه ينبغي على الأقل أن نعرف في أيٍّ من شعابها تكمن ؟ ولكن أنّا لنا أن نعرف ذلك ، اذا نحن تخلّفنا من الطريقة، كما هددت عقائدنا الأثيرة المحبوبة ؟

كثيراً ما يسقط مستر « روسل » فريسة هـذا الضرب من الضعف . ولست أجد من أثر مهما تفه وذلّ ، للقوة والتماسك في ممارساته . فقد تراه بعض الأحيان مفرط الدقة في مسائل البرهنة . فتصديقات إقليدس السريعة ، وتصوراته الاثباتية ، وفروضه الطائشة ، تلك التي ظلت مستخفية لعجز الخبراء من الرياضيين ، تملؤه نفوراً وضجراً . وقد تجده شديداً الى القسوة في حكمه على أولئك الذين نعتهم « بالباطنيين الخياليين ». « فالاعتقاد في وهمية عالم الحس » — وهي صفة يضفيها عليهم — « إنما تنشأ بفعل أمزجة خاصة لاتقاوم » — لها ، على ما يقول — « أساس فزيولوجي[1] بسيط ، ولـكنها برغم ذلك لها قوة إغرائية نائقة »[2] فاذا « فاض الافراط العاطفي المنبعث من مثل هذا المزاج ، فهنالك يبدأ البحث وراء الأسباب المنطقية . « وبما أن صفة الاعتقاد قائمة بالفعل ، فأية من الأسباب تتقدم اليه ، فانه يحتضنها مرحباً ، وهو يرى أن المنطق الذي يقوم بمثل هذه الوسيلة ، لن يكون مستقلاً ولن يكون صريحاً »[3]

إن قصورات إقليدس لا تعنيني . وكذلك شأن أولئك « الباطنيين الخياليين » . ولـكن ألاَ تلقى هذه العبارات ، إذا نظر فيها لذاتها ، أو قرنت بعبارات أخرى يعالج فيها صفة العلم والذوق العـام ، بضوء خاص على الطريقـة التي ينتحيها مستر « روسل » في تطبيق أسلوبه المختار ؟ ظاهر أنه يرى أن « أساساً فزيولوجيـّا بسيطاً » لا يصح أن يكون أصلاً موثوقاً به ثقة كبيرة بحيث ترتد إليه الأمزجة التي تولد الاعتقاد . ولـكن هل لمعتقداته من أرومة أكرم من هذه ؟ هل منها أرومة واحدة ليس من أصولها بعض « أسس فزيولوجية بسيطة » ؟ هنا نرجع سعياً ، وبحكم الطبع ، إلى تلك المشكلة التي كثيراً ما أشرت إليها في هـذه المحاضرات ، وأعني بهـا المشكلة القائمة على التفريق الذي ينبغي أن يُـلاحَـظ بين علل الاعتقاد والأسباب المؤدية إليـه[4] . والظاهر أن مستر « روسل » شاعر بأهمية هـذا

(١) وظائفي (٢) كتابه « العالم الخارجي » ص ٤٥ (المؤلف)

(٣) بعض هذه العبارات نقل حرفي وبعضها تلخيص (المؤلف)

(٤) معناه ان عقائدنا الضرورية تسبق بمراحل طويلة اية من اسباب قد يكون في مقدورنا ان نتحـسها لها (انظر هذا في ص ٤٢)

التفريق عند ما يتصل الأمر بالبَعْديطَبَيعيَّات . ولكن لا أثر له عنده ، إذا ما نظر في الفوزيقا . ذلك برغم أن الفوزيقا ، لأسباب سوف تتضح لنا بعد ، هي من حيث الخطر في أنكى الموقفين .

— ٥ —

مهما يكن من أمر ، فليست هذه هي النقطة التي أريد أن أتشبث بها . إني أمام مستر « روسل » وهو يعامل مختلف طبقات الاعتقاد بتميز وعدم مساواة . ذلك بأن هذا النهج يمس من الشك الأسلوبي ، جوهره الرسيس .

ينبغي أن أقول إنني لا أقضي بأنه يجب أن يكون اهتمامنا بمختلف فروع المعرفة متساوياً. وليس من همأني أن أوازن بين الفوزيقا والبَعْديطَبَعيات من حيث القيمة النسبية . وفوق كل هذا ، لا أرمي إلى تأييد جملة من المعتقدات ، بأن أجلل غيرها بالشك . أرى ، ولقد رأيت دائماً، أننا إذ نُسَيِّر حيواتنا بمقتضى عقيدة عملية لجة تسيطر على عالم الانسان وعالم الأشياء ، فان الفلسفة ينبغي أن تبدأ بدراسةٍ عميقة لهذه العقيدة . لهذا أراني متفقاً مع مستر « روسل » إذ يقول إننا يمكن أن نتقبل — « كتلة المعرفة العامة ونتخذها أساساً لتحليلنا الفلسفي »[1] . أما عن نفسي فأراني أميل إلى أن أقول « ينبغي » بدلاً من « يمكن » وكذلك أوافقه على : « أننا ، باعتبارنا عمليين ، لا نرحب لحظة واحدة بنظرية أن صرح المعرفة العامة برمته ، يمكن أن يقام على أسس خائرة غير ركيزة » ، على شريطة أن يقوم محور الثقل على كلمة « عمليين » ، وعلى شريطة أن العقائد تؤخذ على أنها مكفولة « عمليًّا » وإن كانت لا تزال في نطاق الشك التأملي . على هذه الصورة يتألف اقتناعي . فكأننا نعيش بالعقيدة . إن عقائدنا الضرورية ، تسبق بمراحل طويلة أيَّة من أسباب قد يكون في مقدورنا أن نتحسسها لها . وإلى أن تصلح الفلسفة هذه الحال (وتقدير مستر « روسل » لقوة المنطق الجديد يولد فينا أملاً في بلوغ هذا الإصلاح) فعلينا أن نقنع بوجهة من النظر موقوتة على قدر الامكان . أما أن كثيراً من مرافق حياتنا العملية في هذا

(١) كتابه « العالم الخارجي » ص ٦٦ (المؤلف)

العصر، ترتكز على أسس غير قائمة على حكم العقل، لحقيقة يجب ألاّ يغفل عن تقديرها مذهب فلسفي ، موقوتاً كان أم نهائيًّا .

لست متحققاً من أن مستر « روسل » يوافقني على هـذا . يظهر لي أن لغته غامضة، ومتجهه رجراج قلق غير مستقر . أعزو غموضه - كما أعزو رجرجته. إلى تردده في تطبيق أسلوبه نفسه . يقول مثلاً إن : «الحقائق العلمية هي أرسخ الحقائق قدماً وأحقهـا بالثقة والاعتقاد » . ثم يخبرنا أنه كيفما كان السبب الذي يحملنا على الاعتقاد في الفوزيقا ، فإن من الممكن تغليباً تفسيره في حـدود الحس » . كما يوقن : « بأن معلوماته أو مفروضاته » – (أي المعرفة العامة) —« تحتكم بصورة ما في تصديقنا . وهي في بعض التفسيرات صحيحة بقدر كافٍ » .... وفي الواقع أن تحقيقاته هذه قد تهدأ وتلين ، إذا حدث أنه أحب الشاهد عليها وأنس به .

طبيعي ، إذا كان قصده أننا في حالة الفحص عن مستوى الممارسات العادية ، ينبغي لنا أن نراعي ما في العقائد السائدة من حق وصدق ، لم يصبح بنا من حاجة الى مخاصمته. ولكن ماهي قيمة العقائد المألوفة مقيسة بمقياس « الشك الأسلوبي » ؟ على هذا النحو أرى أننا مضطرين أن نسأل : كيف توثقت هذه الحقائق العلمية ، ولأي شيء هي خليقة بأن يُعتقد ويُـؤمن بها ؟ يلزمنا أن نعرف على أي أساس من التوكيد ، يُـوحَى الينا بأن : « حقائق الفوزيقا يستطاع تفسيرها بأشياء الحس » ، وبأي دافع نساق الى الفرض : « بأن معلومات المعرفة العامة » التي « بصورة من الصور تفوز بتصديقنا ، هي صحيحة الى حد معقول » وما هو الفارق بين هذا المعتقد الساذج والاتكال الأعمى على : « البـدَائـه المرضية» : تلك التي اذا انتحلها « الباطنيون الخياليون » كانت ملعونة كل اللعنة ، منبوذة كل النبذ ، عند مستر « روسل » . اذا نظرنا في تينك الناحيتين [1] نظراً عقليًّا حرًّا خالصاً ، فانه يلوح لنا أن ليس لأحداهما ما تفضل به الأخرى ، الاّ في التافه اليسير من أمرها . وإذا صحّ على ما يقول مستر «روسل» ان الجهة الثانية [2] منهما قد أنجبت منطقاً لم تكتمل فيه صفتا أنه صريح ونزيه ، فأي طراز من المنطق أنجبت الناحية الأولى[3] ؟

(١) الفوزيقا Physics والمعرفة العامة او العقائد المألوفة ، والاولى يمثلها العلم والثانية يمثلها الباطني الخيالي (٢) العقائد المألوفة (٣) العلم.

لم تنجب من منطق يلوح لأول وهلة أنه أرضى لنفوسنا وأشبع لعقولنا . لأنه ليس « الباطني الخيالي » وحده هو الذي يصل الى عقائده من طريق بداهة [١] . ان هذا عند مستر «روسل» هو الحظ المقسوم للجميع [٢] . صحيح أن بدائه الباطني الخيالي قد توصف بأنها « مرضيــة » أو «مغرية» واتكاله عليها قد ينعت بأنه « أعمى » . ذلك في حين أن مثل هذه النعوت لا تُضْفَى عادة على بدائه السواد من الناس . وبعد كل هذا فان شيئاً ما إذا كان «مرضياً» أو «مغرياً» فما ذلك بجريمة عظمى تلصق به . وكل «بديهة» محتوم عليها أن تكون عميــاء ، إذا قصد بالعمى ، على ما يلوح لي أنه مقصود به هنــا ، أنها تقوم على مجرد تفكير عابر [٣] .

يتضح من القدر الذي عالجنــاه من تعاليم مستر «روسل» أن عقــائدنا تستمد أصلاً من بدائهنا ، وأن بدائهنا قد تكون أحياناً جيدة وأحياناً رديئة . ولكن ليس لدينا من الفروض ما يدنينا من امكان التفرقــة بين الرديء منهــا والجيد . على أنه يصعب ان يرضي هذا أي منطيق [٤] . ولكن هذا كله لم يثبط من حمــاسة مستر « روسل » فيمضي مثبتاً باتــا (١) أن المعرفة التي تستخلص بهذه الطريقة ينبغي إجمالاً : «ان تقبل اذا كان ثمة إمكان لوجود الفلسفة » (٢) وان « القوانين» [٥] — (وهي على قدر علمي لم تحصَ هنا ولم تفسر) : «التي أمكن بها الحصول على هذه المعرفــة لا بد من أن تستخرج » (٣) وأن : أخطاءها يلزم أن تكون قابلة للاستكشاف والتنقيح بنفس الأساليب » التي أبرزتها [٦] الى الوجود .

إذا قضينا بأن الأساليب التي أبرزت هذه المعرفة الى الوجود هي في الغالب مؤلفة من تعقلات مدخولة بالشك ، وقائمة على بدائه ملتبسة ، لبدت لنــا هذه الأقوال غريبة الجرس عجيبــة الوقع . ولا شك في أن جرسها يكون أغرب ووقعهــا أعجب ، اذا تذكرنا أن المنطيق الذي ألّفها هو بذاته مدره عنيد يدافع عن « الشك الأسلوبي » بحرارة ، ويرغب فوق ذلك في أن يخضع كل «عقائدنا المألوفة » الى « امتحان الشك» [٧] قبل أن يؤذن لها بالولوج الى

---

(١) كتاب روسل العالم الخارجي ص ٢١ (المؤلف) (٢) اي الوصول الى العقائد من طريق البداهة (٣) Intuitions او تعقل Reasoning (٤) المنطيق البليغ ، ويصرف هنا على ذي المنطق (٥) Canons
(٦) اي المعرفة .
(٧) روسل في كتاب العالم الخارجي ص ٢٣٩ (المؤلف)

دنيا الفلسفة، والا ظلت « عادات، مكفوفة » أكثر منها « اقتناعات عقلية » . وانه ليصعب عليَّ حتى لو ادرعت بأصفى ما في الدنيا من حسن النية وطهر الارادة، أن ألائم بين هذه النظرات المتناقضة، فأخلق منها كلاً مؤتلفاً متناسقاً . ذلك بأن الفيلسوف الذي يحصي « من الأشياء التي ينبغي أن نجللها بالشك الحسوس والعقل والخلق، بل وكل شيء » يكون عدد الأشياء التي سوف ينجح في الاعتقاد بها كبيراً الى حدٍ عجيب . وبالرغم من أن « الرغبة في استكشاف أسباب تؤيد النتائج الأثيرة أو المحببة » كانت في اعتباره « العقبة الكنود التي اعترضت كل تفلسف أمين » لم يلح لي أنها كانت عقبة أمامه حاول هو بنفسه أن يستعلي فوقها ويتغلب عليها .

— ٦ —

أبادر الى القول وأقضي بذلك على نفسي، اني لا اعتبر ان الرغبة في العثور على أسباب جيدة لنتيجة اقتنعت بها بديًّا ، تكون بالضرورة خطيئة او جريمة . أما اذا اعتبرت(١) كذلك، فان مستر « روسل » قد أخطأ تحقيقاً في حق أسمى سور الفلسفة. واضح كل الوضوح ومن ناحية تاريخية صرفة، أن بناة المذاهب العظمى قد حركتهم على الدوام رغبة عالية في أن يعززوا بنزاهة وفي نواحٍ من تركيباتهم الفلسفية ، آراء تبنوها ونزعوا الى احتضانها، وكانت نتاجاً إما للمزاج وإما للتربيــة . لا أتعرض بشيء هنا لرجال المدارس، اولئك الذين يرميهم بعض النقاد في غير كثير من الحق، بالغفلة والقصور، بحجة أن تعاليمهم قد تلقوها بوحي السلطة . ولكني أنظر في أمر الفلاسفة الاحرار الذين هم بالتحقيق بعيدين عن مجال هذا التقريع . أليس واضحاً أن بعديطبعيات « شوبنهوور » هي ثمرة تشاؤمه، وأن تشاؤمه ليس ثمرة لمذهبه البعديطبعي ؟ هل يتصور انسانٌ ما أن « هيجل » اذا لم يكن قد صمم على أن يلائم بين فكرته والواقع ، أكان يقتنع بنفس جدلياته، ويمضي موقناً بها ؟ واذا لم يكن « ميل » قد اقتنع بفكرة أن العلم ، كما عرفه، انما يقوم على التجربة كما فهمها ، أكان يقيم نظريته في الاستقراء ويزجيها بمثل تلك السهولة المرحة التي كانت سبباً في أن يصاب منطقه بالفتور ، ثم يعقم فلا ينتج ؟

خذ من ناحية أخرى مثلاً أروع من هذا وقد أشرت إليه من قبل . إن أول ما حفز « كنت » إلى الاخذ بجهوده النقدية العميقة كانت شكية « هيوم » المعروفة . إنه من أجل

---

(١) اي الرغبة

أن يهزم هذه الشكية ، قد مضى في تهيئة تلك الأداة الغليظة المعقدة التي دَعَم قواعدها في نقده الأول [١] . إن الذي رمى إليه ، والذي اعتقد أنه استكشفه ، إنما كان أساساً حقيقاً بأن تقوم عليه المعرفة « بالظاهرات » التي بغيرها يكون العلم مستحيلاً . لقد فكر ، وبحق ، أن هذا الأساس على الصورة التي بحثه بها الفلاسفة السابقون ، قد ألْغَمَه ذلك الشكي الأيقوسي [٢] . وبكل ما استطاع من جهدٍ وقدرة مضى يفسد تلك الألغام . حقٌّ كل هذا . ولكن ماذا يحل بذلك « التفلسف الأمين » الذي يتنكب أو يستحي من مغريات النتائج « الأثيرة » ؟ أليس العلم من هذه الأثيرات ؟

هذا التساؤل بذاته قد يوجه إلى نواحٍ أخر من مذهب « كَنْت » . ولست راغباً في أن أبحث هذه الناحية، لأنه من التوافه ولا شك ، أن نحاول في سنة ١٩٢٢ أن نحدد ما استقرَّ بفكر كَنْت في سنة ١٧٨٢ . غير أني أكتفي بأن أمثال الذين يناقشون في وجهة نظري : ألا يرون أن هيكل فلسفة النقد برمته لم يصممه واضعه إلا ليواجه به الحاجات الضرورية التي قامت في العصر الذي عاش فيه ؟ إني إنما أتكلم هنا بجلاء عن الرغبة التي يمارسها واضعو المذاهب العظمى ليعثروا على « وسائل نزيهة » يعززون بها آراءهم الأثيرة . إن الآراء التي آثرها « كَنْت » هي في الفوزيقا والدئستية [٣] والأخلاق ، كما عرفت هذه جميعاً في القرن الثامن عشر . من كل واحد من هذه الأشياء شيد « كنت » جناحاً فخماً أضافه إلى صرح فلسفته . هذا ، وبالرغم من أن واجهة ذلك الصرح كانت فخمة أخاذة ، فلا بدَّ من أن بعضاً من التنافر قد جرى في تفاصيل الطراز الذي احتذاه ، وإن قليلاً مما شيد اختصَّ بالبقاء والخلود . ذلك ما أراه .

مثالٌ آخر أقتطعه من فيلسوف هو من طراز آخر . إذا وجد من مذهب خلص من نزعة الرغبة في تأييد « النتائج الأثيرة » فلا شك أنه أخلاقيات « إسبينوزا » . فإن ما في تضاعيف هذا المذهب من الصرامة العقلية ، والسير استقامةً في متجه البحث ، وتحطيم الآمال والعقائد العامة بغير اعتذارٍ أو ندمٍ ، كل هذا يشير إلى رغبة أكيدة عند مؤلفه في أن يستحدث فلسفة خالصة من العواطف ، غير مدخولة بالتفضيلات اللاهوتية . ومع هذا

---

(١) Critique of Pure Reason (٢) أي هيوم . (٣) Diesm

فإني أرى أن هذا الحكم يتضمن تقديراً بالغ الخطأ لذلك الرجل « المخمور بالله » . بالرغم من أن « كلّيو جوديته[1] » قد هزّت البَعْديطَبيعيين والشعراء من الأعماق ، فإنها ، على ما أتخيل ، إنما فعلت بهم ذلك من طريق ندائها التصويري الخيالي ، لا من طريق ندائها العقلي. إن إثباتاته لا تحمل في تضاعيفها اقناعاً ، وفي كل ما يأتي به من تعقلات ، قلما يرضي العقل . والأعجب من جميع هذا التناقض ، أنه بحرارة هي أشبه بحرارة المتدين ، ناهيك بصفاته الذاتية ، يملك في الغالب عواطفنا واحترامنا . فيما يختص بي ، في استطاعتي أن أفتتن بشيء ، ولكن ليس في مستطاعي أن أوغل مع العاطفة . إن الجوهر الذي هو عنده ند الله ، والله الذي هو عنده الطبيعة ، والذي هو غير مشخص ، ولا هو يأذن بضرب من ضروب الحرية ، موضوع يستحق الدرس ، ولكنه تحقيقاً غير خليق بالحب . فاذا مضى « إسبينوزا » يضفي على هذه الذاتية البَعْديطَبَعية ، كل الكُنىَ التي يقتضيها الورع الديني ، كان عندي أشبه بطفلة تمطر دميتها حبّاً وعطفاً وحناناً ، ومن ثمت تتركها كما وجدتها ، آلة نزع منها الحب ونزعت منها الحياة .

— ٧ —

بأية حال ، ليس من غرضي أن أنتقد ذلك العبقري الفذ . بل غرضي أن أثبت إلى أي حد تذهب الصعوبة بأيّةٍ من فلسفة تشييدية ، سواء أكانت فلسفة مستر « برتراند روسل » أم غيره ، إذا هي حاولت بجمود وصلابةٍ ، ان تظل لصيقة نهج عقلي صرفٍ مجرَّدٍ . هنالك بغير شبهة أهل مدرسة لها أثر وقيمة ، اذا كنت قد فهمت تعاليمها بصحة ، ينكرون بوضوح وفي غير استخفاء ، على أية فلسفة تشييدية استطاعتها الأخذ بهذه الخطة ، بل هم يحضون على محاولة نكوصها عن الأخذ بها . يقولون إننا في الحقيقة نبدأ ، وينبغي أن نبدأ ، بفروض غفل ، أي غير ممتحنة ، وأنه في سرى التطورات البطيئة التي تصيب الفلسفة ، يكون للارادة كما للقصد ، من الأثر قدر ما للتفكير النظري ، وأن الرغبة هي الدافع الذي يحفزنا الى كل مخاطرة تفكُّرية ، أو مجازفة نظرية ، وان الفكر لن يستطاع فصله عن الفعل . واستناداً الى مثل هذه الأسس ، يقضون بأن فلسفة عقليـة صرفة ، لا بدَّ من أن تكون ضيقة وباطلة .

---

(1) Pantheism

يقولون انها تنكر تنوع الحياة الانسانية وضروبها ، وبذلك تصبح لا عقلية بتماديها المفرط في حب العقل الصرف ، كما تصبح خيالية بحكم استغراقها في البحث وراء حقيقة الماهية .

ان في هذا التفكير لكثيراً مما يحملني على العطف عليه . ولما كان موضوعي محصوراً في الكشف عن الأملود [١] اللاعقلي المتفرّع من شجرة النسب التي نشأت أقوى عقائدنا ، فلا يسعني إلاّ أن ألتفت بحنانٍ الى نظرات تلقي بضوء كهذا على بعض مجالي تلك الحقيقة ومع هذا فأراني اذا قبلت ، بأوسع المعاني ، هذه المقدمات السيكولوجية (النفسية) فلا يسعني أن أقبل في الجملة النتيجة الفلسفية . ان الناحية العملية تتركني قليل الرضا والاقتناع ، فأن المذهب المقابل - الذي يبشر به مستر « روسل » - وإن كان لا يطبقه على وجه الدوام، هنالك قسط من الحق يمكن الوقوع عليه في كلتا الناحيتين . أتفق مع العمليين [٢] إذ هم يرفضون أن يطلبوا من الفلاسفة أن يتصلوا ببحوثهم متغلباً عليهم مزاج من الحيدة العاطفية الكاملة، وأن يكونوا على استعداد لأن يتأثروا نواحي البحث ومعالمه بحماسة متساوية القوة، وأن يرحبوا بكل النتائج ويتقبلوها بنسبة واحدة من الحرارة والعطف. أوافقهم وأسلمّ معهم بأن هذه ليست الوسيلة التي تتم بها الأشياء ، أو يمكن أن تتم بها . فالفلاسفة ما داموا آدميين، فلا بدّ إذن من أن يوجد عنصر آدمي حتى في أساليبهم التي يتتبعون بها الحق . ولا ريبة في أننا نخطىء ويكون خطؤنا فاحشاً ، اذا نحن عاملنا الباحث الذي يتقصّى المعاني المجردة ، كما لو كان من نوع آخر من المخلوقات ، غير النوع الذي ينتمي اليه قانص الوحوش ، أو الباحث عن الذهب .

ومع كل هذا ، فان مستر « روسل » على حق إذ يقضي بأن الرغبة في نتائج معينة، سواء أكانت هذه النتائج لاهوتية أم علمية ، باطنية أم بَعْديطَبَعية ، أو كيفما شئت ، قد ردّت الفلاسفة الى ضرب من التسمح جعلهم ينتحلون تفكيرات غير حاسمة . أرفض أن أتشدّد معهم تشدّده . ولا حاجة بنا لأن نتهم سماحة المنطق عند أي انسان . ولكننا إلى جانب هذا قد نجيز لأنفسنا أن نلحظ الى أي حدٍّ من الخلل بلغ الأساس الذي شيدت فوقه كثير من التركيبات الفلسفية المهيبة الظاهر ، والى أي مدى وصلت الثقة بمهندسيها في تعزيز مكانتها.

---

(١) الفرع (٢) Pragmatics

كذلك ليس من شأن ما سقنا القول فيه أن نقرّر أن السعي عقليّـا لاثبات النتائج الأثيرة ، محرّم علينا . ولـكن الذي ينبغي هو أن لانسفسط العقل، ونحن في طريقنا الى هذه النتائج. فالآمال والمخاوف والمفضلات وحتى التحاملات، يمكن ان تجاز ويرخص بها، وربما كانت فوق ذلك عناصر مفيدة في مجموع الحوافز المعقدة التي تحفز الناس لأن يكدّوا في البحث النظري . أما أنا فلا أنكر (ولو أن البعض ينكرون) أن التطلع الصرف، وحب العرفان لمجرد المتعة به ، قد يكون حافزاً من أقوى الحوافز، كما لا أنكر أن هذه الصفة قد توجد محررة من أية رغبة ما في أن ترتد المعرفة المنشودة منها نحو هدف نهائي، أو غرض أخير، شخصيًّا كان أم اجتماعيًّا، دنيويًّا كان أم دينيًّا. فانها قد تزهر من غير أن يسندها نفع ذاتي . وقد تكون سادرة[1] حتى عن مجد الله » أو « رفع مستوى الانسان». قد تكون مرضية للنفس كافية لها،لا أكثر ولا أقل . هذا وأقول إن اولئك الذين يقضون بأنه من المستحيل أن نجرد كل باعث نحو البحث والدرس من كل شيء الاهمَّ إلاَّ الرغبة المجرَّدة في بلوغ الحق «بوجه عام»، ليسوا مخطئين . هنالك قيم أخرى ينبغي الاهتمام بها الى جانب القيم العقليـة . ومن الجائز، من غير ان نلام ، أن نميل الى بعض النتائج من قبل أن نصل الى أية فكرة جلية عن كيفية إثباتها . ولا شك في أن مستر « روسل » لا يتجاوز حقه إذ يتخذ العلم أو حتى الفهم أو النهى[2] في حمايته الفلسفية ، برغم أني سأحاول فيما أبحث بعد، أن أتنكب تحيزيته.

---

(١) Indifferent : السادر المتحير كالسدر : سدر كفرح سدراً وسدارة ، والذي لا يهتم ولا يبالي ما صنع (قاموس : ٤٦ : ٢)

(٢) Common Sense

الفصل الرابع

عقيدتنا المألوفة

— ١ —

لنمض اذن في تطبيق أداة « الشك الأسلوبي » على ذلك الشيء الذي يدعوه مستر «روسل» — «جملة المعرفة العامة » ولنطبقه بلا خوف أو تحيز .

أما وقد عمدنا الى انتحاء هذه الطريقة، فلا شك اذن أنه من المفيد ان نصهر هذه « الجملة »، جملة المعرفة، ونجبل في مصهورها ضرباً ما من العقيدة يوائم غرض التجربة ، على أن تكون مادة ذلك المصهور مؤلفة من المعتقدات او صنوف المعتقدات التي يعتنقها عامة النــاس في لحظاتهم العادية . وليس من شأننا أن نحاول الاحاطة الكاملة التامة مهما كانت صفتها من حيث التجريد والبيان ، بما يظن الناس او يتخيلون أنهم على علم أو معرفة به . فمن الجائز ان يكون هذا العمل جديراً بالجهد الذي يبذل في سبيله ، كما يجوز أن يكون غير جدير به البتة.

ليس هذا ما أرمي اليه على أية حال . يكفي توصلاً لما أهدف اليه، ان تكون المعتقدات او ضروبها التي سوف أعددها ذات قيمة غير مشكوك فيها ، وأن تكون مقبولة بالاجماع وان تكون سهلة الوصف يسيرة التصوير .

يقضي علينا ما نتوخاه في السهولة واليسر ، ان نقصر ما ننتقي من المعتقدات على تلك التي هي بصورة ما يقبلها العلم بوجهٍ عام ، كما يقبلها الفهم الدنيوي . لهذا قد نترك الدين والفَـو ْقيطَـبَـعيات والخلقية والجمال، وندعها جانباً حتى حين .

وان كان من الحق ان هذه الموضوعات قد برهنت على انهــا قد تخنع بسهولة خاصة لتجاريب الشك، فانه من الجائز لهذا السبب نفسه ان تكون الشكوك التي تثيرها اقل ما تكون مصدراً للعرفان واللقانة . ذلك بأن الرحاب التي تعيَّـن عادة للمناورات العسكرية، قلما تكون مشهداً للمواقع الحاسمة .

كمدرج أولي في تطبيق « الشك الأسلوبي » أقترح صورة لعقيدة [1] تتضمن بعضاً من المعتقدات المألوفة. ولكن أشعر بحاجة الى أن أعتذر عن استعمال هذه الكلمة [2] قبل ان أمضي في الكلام فيما احاوله.

إنها غير محكمة على كثير من الاعتبارات. «فالعقيدة» — دينية كانت هي ام سياسية، فنية ام اخلاقية، او ما شئت — تشير في العادة لأكثر من مجرد قائمة تعدد مفروضات معينة. هي مكتنفة بعنصر من التحدي. إن من طبعها أن تفصل بحدة بين اللذين يؤمنون، والذين يكفرون بها. انها ترتئي أن تجمد المعتقدات أو بالحرى أن تبلرها [3] في موضوع خاص. إنها في وقت واحد أداة لخلق المطابقة [4] ووضع المطابقة موضع الامتحان.

أما جملة ما سوف أحصي من المعتقدات المألوفة، فلا يرمي لشيء من هذه الاشياء، كما أنها بعيدة عن الخلافية. ولو انني استطعت أن أدل عليها بكلمة غير كلمة « عقيدة » لما ترددت. ولكن لم تعرض لي كلمة أصلح منها. إن ما سماه مستر «روسل» — جملة المعرفة المألوفة يعبر عن نفس فكرتي هذه، وسوف أستعمل عبارته، أو ما يقابلها، اذا ما استطعت ذلك، غير انه لم يصغ هذه العبارة للتعبير عن اغراض اصطلاحية. ولو انه رمى الى ذلك. اذاً لكانت غليظة وفيها اطناب [5]. ولهذا أمت الى القارىء أن يعي هذه الايضاحات آملاً أن يجيز لي استعمال كلمة « عقيدة » في هذه الصورة البيانية الرجراجة، التي حاولت تحديدها فيما سبق.

— ٢ —

ان الدلالة التي أعنيها من « جملة المعرفة المألوفة »، وهي ما أعني — « بالعقيدة المستمدة من المعتقدات المألوفة » — يجري على الآتي :

كل انسان يعتبر نفسه كائناً حياً يعايش كائنات حية. ويرى خاصة انه انسان بين أناسي، أي واحد من الكائنات المتشابهة التي من صفاتها أن «تعرف» وأن «تشعر» وأن «ترغب»

(١) العقيدة تتكون من جملة معتقدات، ونقصد بالعقيدة ما يقابل لفظ — Creed، ومعتقد Belief

(٢) اي العقيدة (٣) بلر الشيء جعله متبلراً أخذاً من بلورة : Crystal والفعل Crystallise وهو استعمال خاص ربما دخل اللغة وصار منها بالتداول (٤) Conformity

(٥) اي عبارة مستر « روسل »

وأن « تريد » وأن « تعمل » . كائنات لا يقوم بينها تواصل متبادل من نوع ما لا غير ، بل إن هذا التواصل،على الظاهر،ضروري للبقاء السوي .

من شأن كل انسان أن يفكر في نفسه وفي أنداده ، وأنهم نزلاء دنيا تتألف من أشياء مادية . دنيا لها صفة المكان وصفة الزمان . دنيا من شأنها الامتداد ومن خصائصها البقاء . وكل انسان يعتقد أنه يملك ، في الحالات السوية ، القدرة على تحريك بعض هـذه الأشياء المادية ، ومن بين هـذه الأشياء جسمانه ذاته ، وأنه يعزو مثل هـذه القدرة إلى غيره من الناس،وإلى كثير من الحيوان . إنه لا يفرض أن استعماله هذه القدرة — مهما كانت قيمتها للذين يملكونها — يمكن أن يكيّف تلك الكتلة المادّيّة التي يتألف منها العالم المحيط به. إن ذلك العالم إنما يمضي في سبيله المحتوم المستقل ، من غير أن يمسه شيء من أوجه النشاط الذي تجريه الأحياء ، ولا يهتز ، بل ولا يتأثر ، بالفكرات أو التصورات أو الرغبات التي تقوم في أنفس أفراد السلالة البشرية .

يعزو كل انسان إلى هذه الدنيا المادية قسطاً موفوراً من الانتظام والتوالف ، وإن كثيراً ممن يتفق لهم قراءة هذه العبارات ، يدركون أنه فيما عدا ظاهرتي الحيـاة والارادة — التي قد تتناولها الجدليات — لا يعتور انتظام العالم خللٌ أو فساد . لهذا نستطيع أن نستشف، اعتماداً على معرفة لنا تامة بحالة الكون الطبيعية ، وبما لنـا من قدرة تقييمية مناسبة ، مستقبل الكون الفوزيقي حتى آخر الزمان — ما لم يتكيّف مجرى انتظامه بمؤثرات غير فوزيقية . على أنه بالرغم من أن تكييف العالم الفوزيقي لا يزال قصيّاً جدّاً عن مثل هـذه النهاية ، فإن أكثر المُحدَثين من أصحاب العلم ، يـربّبون في نفوسهم الفكرة بأن ذلك العالم ينحدر ، ولكن ببطء ، نحو هذا التكييف . على أننا في ذات الوقت ، نجد أن الاعتقاد في نواميس الطبيعة ، أو على الأقل في نهجها ، يؤلف أعظم جزء من محصلة الفهم الانساني العام

إن المعتقدات التي عددناها حتى الآن ، إنما هي معتقدات مترامية النطاق واسعة التعميم. ومن أجل أن نكمل الصورة الأوليـة التي نحاول رسمها ، ينبغي لنا أن نذكر أربعة أنواع من المعتقدات .

(١) بعض المبادىء المجردة ، أي تلك التي ندعوها مبادىء منطقية أو رياضية ، والتي

لا نقول إنها صحيحة بالإضافة إلى هذا العالم الذي نعيش فيه ، بل صحيحة بالاضافة إلى كل عالم يتيسر الاعتقاد في وجوده .

(٢) مجموعة كبيرة من التعميمات أو فئ من تلك.

(٣) معتقدات عديدة تتعلق بمسائل مسلمة بعينها — بعضها يعالج أشياء موضوعية أو أحداث لها قيمة بقائية ، وبعضها يتعلق بالأشياء الانتقالية أو التـوافه .

(٤) اعتقاد في أن قسطاً من معرفة الحقائق — خاصة وعامة — ممكن من طريق إدراك الحس والذاكرة والتعقل والبديهة والشهادة الانسانية .

***

من المهم أن نَـعِـيَ أنه كلما حاولت العقيـدة معالجة شيء من أنواع المعتقدات التي حصرتها تحت رقمي (٢) و(٣) ، فإن ما يعزى إليهـا من التطابق يكون ذا طابع خاص . إن الناس قد يتفقون على تقبّـل بعض ضروب تنطوي تحت هذه الأنواع ، ولـكن ليس هناك من اتفاق على ما هي تلك الضروب؟ فـكل انسان ، مثلاً ، ينطوي في نفسه على مجموعة من المعتقدات إزاء بعض المسلمات ، وصلت اليه بطريق إدراك الحس أو التذكر أو الاستنباط أو النقل بالتواتر . ولـكن ليس من الناس أجمعين إثنان يتفقان ضبطاً في الانطواء على مجموعة بعينها من المعتقدات ، أو في أنهم وصلوا اليها بطريقة واحدة . لهذا نجد أن عقائدهم ، ولو تصوّرنا أنها استظهرت كاملة ، قد تـكون متفقة في كثير من خصائصها العامة ، ولـكنها لن تكون بحال ما متطابقة . كذلك لن تـكون حاصلة من نفس التذكرات أو الادراكات الحسية ، أو نفس التعقل أو التواتر النقلي .

إذا اتضح لناقد من النقاد أن مجموعة هذه المسلمات ناقصة من حيث المنطق الذي تقوم عليه ، أو من حيث الاكتمال الظاهر ، فاني لا أتردد في موافقته . إنها لا ترمي في النهاية إلى غرض لا يتعدّى مطمعي فيه إلى أكثر من أن أحيط ، بصورة عامّـة ، ببعض نواحٍ هامة من « جملة المعرفة العامة » ، وظني أنها كافيـة لسد هذا المطمع . وبقـدر ما يتصل بموضوعي هذا ، أراها تبين بلغة مفهومة فهماً حسناً ، عن المعتقدات او عن ضروب المعتقدات التي تنطوي عليها نفسي إزاء عالم الانسان ، وعالم الأشياء ، الذي أقول إنني أعيش فيه . فاذا أدّت نفس هذا المعنى لأي من قراء كلامي هـذا ، فاني أستطيـع إذن أن أتحدث اليهم ، وفي رفقتهم أتابع البحث مستهدياً بطريقة « الشك الأسلوبي » .

— ٣ —

نقطة التحول التي ننتحيها في هذا البحث جلية ظاهرة ، وقد يمكن التعبير عنهـا بمسألة بسيطة: «إن لنا عقيدة ، فلمَ ينبغي لنا أن نؤمن بها» ؟ على أنه يلزمنا دائماً أن نفرق بيقظة بين هـذه المسألة وأخرى ، كثر ما نخلط بينهما : « إن لنا عقيدة ، فكيف آمنا بهـا » ؟ المسألتان متآصرتان جـدّ التآصر ، ولـكنهما مختلفتين . فاذا وقع لنا أن نعالجهما معاً ، وجب علينا أن لا نخلط بينهما . أما المسألة الاولى ، وهي التي يعنينا علاجها هنـا ، فمسألة مردّها الى التفكير التأمُّلي . إنهـا في أخص معانيها مسألة فلسفية . أما الثانيـة فمسألة يرد علاجهـا الى علم النفس والوراثة والتاريخ الاجتماعي والتاريخ الذاتي للفرد . ونحن مجبرين في سياق هـذا البحث أن نظلّ في تراوح بينهما ، فإلى هذه مرة ، وإلى تلك أخرى . ولـكنا سوف نحترز من أن نفعل ذلك سـادرين غير متيقظين الى ما بينهما من خلاف . وكذلك سوف لا نسوق البحث ، إذا ما كنا في مجال إحداها ، بأسلوب لا يتصل إلاّ بنظيرتها .

نحن الآن في المستوى الفلسفي[١] ، والمسألة التي وضعتها أمامي منـذ هنيهة ، توحي إليّ بأخرى . إذا طلبنا تبريراً عقليًّا لعقيدتنا ، ألا يكون أول ما نبحث فيه هو أيّ ضرب من ضروب التعقل يمكن أن يرضي غرضنا هـذا ، إذا حسن حظنا ووقعنـا على ذلك الضرب ؟ وما دمنا على اتفاقٍ من حيث الأشياء التي نؤمن بهـا ، ألا يمكن أن نصل الى نوعٍ ما من الاتفاق عامّ ، على الأسس التي يقوم عليهـا إيماننا بطريقة معقولة ؟ يلوح لنا أول شيء أن هذه أمنيةٌ يستحيل تحقيقها . فقد نسأل لماذا يتفق الفلاسفة ، الذين يختلفون على كل شيء ، إزاء هذه المسألة ؟ وفوق ذلك نرى أن هـذه القضية ضيقة الحدود ، مضغوطة الأطراف ؛ وحلها لا يتضمن ضرورة تأليف فلسفة خاصة بها ، بل يقتضي أن نصفي[٢] فكراتنا لندرك أي ضرب من الفلسفة نتوق أن نحصل عليه ، اذا استطعنا أن نصل الى ضرب منها . وهذا القول نفسه بعيد المرمى قصي الغرض ، طالما نحن نعلم أن الفلسفة التي نمضي في هذه الساعة باحثين عنها ، لا ترمي الى استيفاء جميع مطامعنا . ليس لها من مطمع سماوي ، ولا هي تحوم نحو اللانهائي . انهـا بتواضع تقصر نفسها على المعتقدات المألوفة في الحيـاة العامة . تلك

---

(١) المقصود بالمستوى الفلسفي التفكير التأملي الذي يرتد اليه علاج المسألة الاولى : « إن لنا عقيدة ، فلم ينبغي لنا أن نؤمن بها » . (٢) أي ننقيها ونجعلها صافية

المعتقدات التي أهملها فئة من أعاظم أصحاب التأمل وطرحوها ظهريًّا وراء عقولهم .

فأي طراز إذن يمكن أن يتفق وهذه الفلسفة التي ندعوها «فلسفة المألوفات» ؟ فلنمض إذن في اختيار بعض الطرز التي تنهض طبيعةً في عقليتنا . فهل نقبل ، مثلاً ، طرازاً أو أسلوباً يعالج جميع العناصر المختلفة التي تتألف منها عقيدتنا على اعتبار أن هذه العناصر حقائق لاتتصل ببرهان، وتزهى بأنها أشياء مستقلة مكتفية بذاتها ؟ ظاهر جدًّا أن جوابنا هو «لا». قولنا إن « يوليوس قيصر مات » ، أو « الطاقة باقية » — وهما مثلان نضربهما لمعتقدين أحدهما تاريخي والثاني علمي — ليستا قضيتين ذاتيتي الوضوح . قد تكونا قضيتين صحيحتين، ولكن صحتهما يجب أن تثبت وتتحقق . إذا سلمنا بهذا ، لم يصبح هنالك من حاجة الى أن نتتبع أو نبحث بوجه من الوجوه الفكرة، القائلة بأن عقيدتنا إنما هي مجموعة من الاعتقادات ، كلها بدهيات أولية ، وكل منها مستقل عن صاحبه .

لنمض إذن في تتبع احتمال آخر من احتمالات البحث . لنفرض أن أي معتقد بعينه من معتقداتنا ، اذا نظر فيه مستقلا بذاته ، لايكون له قيمة ثبوتية خاصة به ، وأن معتقداتنا في مجموعها وكليتها ، تؤلف كلًّا عقليًّا مكتفياً بذاته. بديًّا، يلوح لنا أن لهذه النظرية وجوهاً من الشبه بنظرات فلسفية في الحق والواقعية، اعتنقها بعض الاطلاقيين من المثاليين . فهم يعتقدون بأن الأجزاء اذا أخذت فرادى ، لم تجز حد أنها ظواهر . الكل وحده عندهم هو الحق . الكل وحده ، هو الذي له صفة الثبات والبقاء . ولكن لا ينبغي أن يفلت من بصيرتنا حقيقة أن « كلهم » ، اذا كان له وجود البتة ، هو كل حقيقي ، فيه سمات الفردية والاكتمال وكلية الشمول . لا يزيد بالجمع ولا ينتقص بالطرح . أما اذا قسنا « جملة المعرفة العامة » بهذا المقياس ، فانها لن ترتقي الى مرتبة « الكل » ، وانها على بعدها عن « كلية الشمول »، فانه من المسلم به انها ليست أكثر من « واحة » من المعرفة في صحراء غير مصورة من الجهل. وعلى بعدها عن الثبات وقربها من الخضوع للتغير ، فان تغيرها واقع في كل يوم . وفضلاً عن هذا فان اعتقادنا في الأجزاء ، ينبغي له أن يقوم على اعتقادنا في الكل . فحتى نصل الى معرفة الكل ، يظل اعتقادنا في الأجزاء معلقاً في الميزان . مستحيل أن يكون هنالك حدٌّ نصيف بين العلم الشامل والجهل المطبق . فاما أن نعرف الكل ، أو لا نعرف شيئاً البتة.

وما دمنا عاجزين عن بلوغ أحد الطرفين ، فنحن ، على هذه النظرية ، مجبرين على ان نهبط الى درجة الوهن التأملي .

ضروري إذن أن نلجأ الى طراز ثالث تأتلف معه اعتقاداتنا . أو بالحري ضروب اعتقادنا، تلك التي تؤلف المعرفة العامة . وضروري ايضاً ان يحتاج هذا الطراز الثالث الى ان تكون صحة السلسلة مغروسة في صحة الأجزاء الأساسية التي منها تتألف. إن الأجزاء الاستمدادية[1] يجب ان تستنبط بحال من الأحوال او بصورة من الصور . في ظل هذه الطريقة قد تختلف العناصر المؤلفة لعقيدتنا اختلافاً كبيراً في صفتها المنطقية ومنزلتها . قد يتخذ بعضها أسساً وقواعد . وقد يتخذ بعضها للبناء الأعلى . قد يكون بعضها نهائيًّا غائيًّا ، وبعضها استمداديًّا . نقول على وجه الاختصار ، إن مجمل معرفتنا المألوفة ، اذا كان سوف يقف بنفسه آمناً بغير سند استشرافي[2] ، فان عناصره النهائية ينبغي أن تكون محققة واقعة ثابتة بذاتها ، وان العلاقة بينه وبين عناصره الاستمدادية ، يتحتم أن تتفق وقوانين منطق معقول .

— ٤ —

تلك هي الخطوط الواضحة التي تعين « الفكرة في فلسفة المعرفة المألوفة » . وقبل أن نبحث الى أيّ مدى حُقّقت هذه الفكرة أو الى أي مدًى يمكن تحقيقها ، سنحاول ان ننشّئها من حيث التفصيل شيئاً ما . سنبحث اول شيء : أي ضرب من ضروب الاتصال بين العناصر الاستمدادية والعناصر الغائية في عقيدتنا،من الممكن اعتباره مقبولاً عند العقل، وأية خصائص ينبغي أن تكون للعناصر الغائية اذا كانت هذه العناصر سوف تزوّد العناصر الاستمدادية بسند يؤيدها ويركزها . واني لسعيد إذ أقول أني في ما أحاول من معالجة لهذين الأمرين، سوف أعود مرة أخرى الى الأخذ عن مستر « برترند روسل » . فانه في محاضراته بجامعة « هارفرد » التي أشرنا اليها قبلاً ، قد علق على بضعة من صنوف المعتقد مختلفة ، وتكلم في بضع مسائل استنباطية ، بطريقة لا يسعني الاّ تأييدها — ذلك بأنها قريبة جهد

(١) التي يستمد منها توليف الكل (٢) Transcendental Support

القرب من المنحى الذي حاولت في كثير من الظروف أن أتحيه . وفي هذا سأعتمد على ما كتب مستر « روسل » بعض الأحيان ، وأحياناً على ما كتبت .

فاذا تأملنا في المسألة الأولى [١] التي أثرتها منذ هنيهة وبحثنا كيف أن معتقداتنا التي اذا تأملناها ، اعترفنا بأنها قد استنبطت ، يمكن أن تستمد من تلك التي اذا تأملناها سلمنا بأنها غائية ، وجدنا أنفسنا مضطرين الى القول بأربعة مبادىء متفقة في كل من نظرية المعرفة التي يقول بها مستر «روسل» ، والنظرية التي أقول بها .

يقول في المبدأ الأول : ان من الجوهري في كل استنباط ، هو الصورة (أو الشكل) أو كما أقول : ان كل ضرب من المنطق ، إذا حدث وكان فلسفيًّا ، ينبغي أن يكون صوريًّا (او شكليًّا) وأنه في استنباطين لهما نفس الصورة أو الشكل ، أحدهما كاذب والآخر صادق ، فالنسق الذي يربط بينهما ، يكون فلسفيًّا غير ذي قيمة .

وفي المبدإ الثاني : نتفق في القول بأنه لم يتفق لانسان أن استكشف أسلوباً مَّا ، أمكن به الوصول الى استنباط صوري أو شكلي بالاستمداد من الأحكام الخاصة (أي الذاتية) وحدها

وفي المبدأ الثالث : يؤمن كلانا بأن كل الممارسات انما هي ممارسات (تجارب) تتعلق بالاشياء الخاصة (اي الذاتية) وانها لا بدَّ من ان تكون متضمَّنَةً في الاحكام الخاصة (أي الذاتية) .

ومن هذه المبادىء الثلاث يستنتج كلانا المبدأ الرابع ، ومحصله ان الممارسات (التجارب) الذاتية ينبغي أن تشترك مع الاحكام العامة ، قبل ان تصبح مفيدة منتجة . ذلك بأننا اذا تتبعنا تسلسل كل معتقد من المعتقدات الاستمدادية تتبعاً منطقيًّا ، وجب أن نعثر على فرض عام ، ليس هو بذاته استنباط .

ومن الجلي انه استناداً على هذه المبادىء الأربعة في مجموعها ، لا بدَّ من أن نلزم القول بأن الممارسات (التجارب) الخاصة (الذاتية) وحدها ، لا يمكن أن تخرج معرفة تمتد الى أبعد منها [٢] وأنَّ التجريبية المحض [٣] ما هي الاَّ حلم من الاحلام .

(١) مسألة اي ضرب من ضروب الاتصال بين العناصر الاستمدادية والعناصر الغائية في عقيدتنا من الممكن اعتباره مقبولا عند العقل (٢) أي أبعد من تلك الممارسات الخاصة ، ولا يمكن أن تتعدى لا كثر من حدودها العقلية والفعلية (٣) Pure Empiricism

صحيح ان مستر «روسل» يضيق شيئاً ما من حدود النتيجة التي وصل اليها كلانا منتحياً نفس الطريق ، فيحاول أن يحدد أثر هذه النتيجة التي لا يرغب فيها ، بأن يقصر حكمها على ما يسميه «التجريبية القديمة» ويعني بها تجريبية «جون ستيوارت مل». ولكن اذا كانت التجريبية تدل ، وكما ينبغي دائماً أن تدل ، على فلسفة تقوم في آخر صورها النهائية على التجربة، دون غيرها ، فلا وجه اذن لوضع مثل هذه الحدود . فان كل صورة أو شكل يمكن لمثل هذه الفلسفة أن تلبسه ، سواء أسميته قديماً أم حديثاً ، يكون ولا شبهة محويّـا في ذلك النطاق . واذا توخينا الدقة والضبط في التعبير ، نقول إن تجريبية ما ، اذا احتاجت الى سند من مبادىء لا يمكن أن تثبت بالممارسة ، فقدت معنى التجريبية تماماً ، وضرعت الينا أن نبررها بانتحال اسم آخر نصرفه عليها . واني لأعترف بأن التمرس الفلسفي قد ردّ تطبيق مثل هذا القانون تطبيقاً تراعى فيه خشونة الضبط والدقة ، امراً غير مريح بالفعل .

— ٥ —

تقوم هذه النتائج على اعتبارات مجردة يراها البعض شاقة ، ويراها آخرون تناقضية . من المحقق انها لا تتفق ونظرية الاستقراء المحض، كما انها تهمل اهمالاً تامـّا فكرة انه بالتجربة والمشاهدة، يمكن إقامة المعرفة العامة كلها أو بعضها على أساس يرضي العقل . ومع كلّ فليست هذه هي النظرة التأملية الوحيدة التي يصطدم بها القارىء العادي . لسوف يشعر بأن كل هذا الـكلام الذي درنا به من حول المعتقدات التي هي غائية ، والمعتقدات التي هي استمدادية ، ومن حول المبادىء العامة،والمشاهدات الخاصة (اي الذاتية) ، لا تقتصر فقط على انها متعبة شاقة ، بل هي فوق ذلك لا تطابق الموضوع الذي نتكلم فيه . سوف يسأل : « أية علاقة لهذه الفراهات المنطقية بما يحلو لك ان تسميه عقيدتي ؟ إن كثيراً من أهم عباراتها إنما تصف اعتقادات استمرأتها منذ كنت في المهد . فقد علمت أني « أعيش في عالم مكوّن من أشياء مادية » ، منذ الساعة التي حاولت أن أبتلع فيها ساعة جدّي . واقتنعت بأني « مخلوق حي ، أعايش مخلوقات حية » ، منذ الساعة التي صرعني فيها أخي الاكبر . ولم أشك مطلقاً في نظامية كون تتالى فيه أحداث الليل والنهار والمشي والأكل والنوم، من غير ان ينتابها تغير،

وعلى اطراد واحد. أما فيما يتعلق « بالاعتقادات الكثيرة العديدة الخاصة بأشياء الواقع المتصل بي » تلك التي نقول بحق إن جميع الناس مزوَّدين بها ، فاني أسلم وبحرية من ضميري ، أن القدر الذي أخذته منها ، إنما قد انتحلته من الناس الذي أعمل معهم والصحف التي يتفق أن أقرأها ، وتصرفات جيراني ، معقباً على ذلك ضرورة ، بذكريات ما تلقيت في المدرسة او لحظته خلال جولتي في هذه الدنيا. أما إذا كنت من عدم الحصافة بحيث تسألني لماذا أعتقد في نهاية امري بهذه الأشياء كلها أو بعضها، فربما ارتجَّ عليّ الأمر، إذا حاولت أن أجيب. غير أني سوف لا أحاول ، تحت تأثير أي ظرف مهما كان شأنه ، أن أتصيد تعليلاً لما سمَّيتَه «العناصر الجوهرية » التي تقوم عليها« عقيدتي » ، أو أضرب الحصى وراء تلك الأساليب التي بها يمكن استنباط ما سميته « العناصر الاستمدادية » بطريقة حقة. وبصفة كوني من سواد الناس الذين ركَّزت الفكرة في معتقداتهم، ومضيت تفحص عنها هذا الفحص ، فلا شك في أني أعذر إذا صارحتك ، بأن لي من الشئون ما هو أجدى عليَّ من ذلك » .

كثير من هذه الأقوال يؤيدها الاحساس الصادق. وبالرغم من أن فيها إثارات من الحق والنزق ، فإنها في جوهرها جديرة بأن تقال. أقل ما فيها من حصافة ونهى ، انها تنفس عن حقيقة

إنه بينما نرى أن عقيدتنا قد تكون متمشية مع حكم العقل ، فانها مع ذلك ليست نتاجاً لفعل تعقلي واضح القسمات إلاَّ قليلاً ، وإننا في ما نستجلي من عالم المجهول على قلته ، أشبه بالنقيل ينزل أرضاً غير أرضه. هذه مسائل قد نستفيد من الاكباب على درسها ، وإذا فهمناها فهماً جيداً. فانها سوف تضيف مهيئات جديدة تساعدنا على تتبع « الفكرة في فلسفة المألوفات » ، التي نشغل أنفسنا بالكلام فيها.

— ٦ —

إن ما سقنا القول فيه حتى الآن ، قد يكفي ، على ما أظن ، لاقناعنا بأن هذه الفلسفة ، إذا شئنا وضعها بحيث ترضى مثلنا في النقد ، فلا ينبغي لها أن تستحدث من استنباطات

صادقة تستمد من مقدمات محققة لاغير ، بل يجب أن يقترن بهذه المقدمات طرزٌ بعينها من الاعتقاد . كذلك يجب أول شيء ، أن تتضمن هذه الطرز اعتقادات معينة مردّها الى التجربة ، إذ أنها إذا لم تكن كذلك ، خرجت عن أن يكون لها أية صلة بعقيدة ، ان لم تكن هي بذاتها تجريبية ، فانها تستند الى التجربة في كل خطوة تخطوها . وثاني شيء، ينبغي أن تتضمن اعتقاداً أو أكثر من الاعتقادات العامة ، ذلك بأنها إذا خلت من ذلك ، فان هذه العقيدة يتعذّر عليها أن تتنشأ فتصبح مذهباً عقليّـا .

***

هل يصدق هذا الوصف على مقدماتنا ؟ هل لنا معتقدات عامة وواضحة بذاتها ؟ هل لنا تجاريب لايساورها الشك ولا تدخلها الريبة ؟ وهل لنا ، إذا لم نكن حائزين لشيء مما ذكرنا ، اعتقادات فيها قدرٍ كافٍ من التغليب البدهي (١) ؟

أتفق مع الرأي السائد في أننا نملك ذلك ، ولكن هل نملك من هذه الاشياء قدراً يكفي حاجات عقيدتنا ؟ هذا سؤال آخر . سؤال لا يمكن على ما أرى ، الاجابة عليه بغير الاحاطة ببعض مشكلات تأملية ، ربما لم تكن مذاهب الفلسفة الكبرى ، قد أعارته جانباً من الالتفات والدرس .

سأبدأ بواحدة من أهم هذه المشكلات . لقد ذكرت آنفاً « المعتقدات الواضحة بذاتها ، والتجاريب التي لايساورها الشك ولا تدخلها الريبة » . لمن ينبغي أن تكون هذه المعتقدات واضحة بذاتها ؟ ومن ذا الذي يصدر حكماً نهائيّـا في أنها غير صادرة بالشك ولا مدخولة بالريبة ؟ ذلك بأن الأغراض الجوهرية من التأمل النظري ، انما تنحصر في الفرد المتأمل أو في الذات المتأملة ، وفيه وحده دون أي شيء آخر . ينبغي أن يكون أنت أو أنا أو أي شخص آخر، هو الذي يهتم بأن يبرّر لنفسه أو للآخرين جملة«معرفته المألوفة» .هذا الشخص لا يكفيه ايمان شخص آخر بمعتقد مّا، أن يكون سبباً نهائيّـا يحمله على اعتناق ذلك المعتقد. لا أناقش هنا في ذلك الأثر البالغ الذي نلحظه في ما نسميه « الشهادة الانسانية » و « الأثر

---

(١) Intuitive Probability : للمؤلف بحث عنوانه « التغليب : حسابياً وبدهياً » سوف نأتي على ترجمته مع القسم الثالث من هذه المحاضرات . وقد وعدنا قراء المقتطف بنشره في لواحق هذا العام.

الاجتماعي» في تكوين الفكرات . إن أثر هذه الأشياء ، لا يمكن أن يبالغ فيه (١). قصدي أن أقول إن الشهادة والأثر الاجتماعي ، حتى في أقصى ما يبلغان من قوة باعتبارهما عللاً أو أسباباً ، لن يكونا كافيين بذاتهما . انهما على وجه الدوام يحتاجان الى عضد . يحتاجان أن يستندا إلى شيء ، لا هو شهادة ، ولا هو أثر اجتماعي . بل هو باطرادٍ معتقد ذاتي خاص مقصور على الشخص نفسه . فاذا مضينا قدماً في بحوثنا هذه وصلنا إلى حيث تصبح المعتقدات الخاصة « تفرديَّة معدومة الصفة والأهلية » (٢) .

ولا ينبغي أن يبعث فينا هذا الأمر شيئاً من القلق أو الضجر . فليس هنالك من ضمانٍ للحق ، أكثر من أن يكون الحق واضحاً بذاته . وهو إذ يوجد ، وإذ يستقوى على النقد التأملي ، يصعب أن تزيده السلطة قوة وتأييداً (٣) . وأضرب مثلاً . اني متحقق من أنك تعتقد ، كما أعتقد أنا ، أن شيئين ، إذا كانا في محيط حالة بعينها ، يساويان شيئاً ثالثاً ، يكونان متساويين . بالرغم من أنَّك تشاطرني في هذه الحال معتقدي هذا ، فانك تعجز عن أن تضيف اليه شيئاً . أثق بأني أكثر اقتناعاً بهذه البدهية ، مني بأنك تعتقد أنها صحيحة. وفي الحق أشعر بأني أكثر اقتناعاً بها ، مني بأنك موجود . حتى ولو كان الأمر بالعكس ، فان تسليمك هذا (٤) ـ ولا أنسى أن أشير الى أن هذا التسليم انما يعرف عن طريق الاستنباط ـ لا يزودني إلا ببرهان ضعيف مشكوك فيه يسوقني الى أن أكون — بقدر ما يتعلق بي هنا — أكثر اقتناعاً بشيء لا يحتاج إلى برهان البتة (٥). إنَّ في ذلك الاعتقاد ما أتطلع اليه من الصدق الفطري ، ولست أعرف كيف أطلب المزيد منه . وكذلك أنت فإني أراك

(١) يعني أننا مهما بالغنا فلا نكون مبالغين .

(٢) Unqualified Individualism أي تفردية ليس لها لون عقلي ولا منطقي ، ولا أثر لها في تكوين فكرات محدودة واضحة القسمات .

(٣) المعنى ان الحق اذا بان واتضح ، وقوي على مصارعة النقد التأملي ، لا يحتاج الى تقوية تمده به السلطة .

(٤) أي تسليمك بما اعتقد في المثل المضروب .

(٥) اذا ساقتك البديهة الى الاعتقاد بأن شيئين مساويين لشيء ثالث يكونان متساويين ، فان اعتقادك هذا أقرب اليك من الاعتقاد بوجود شخص أقل ما تحتاج اليه في إثبات وجوده استعمال الحواس .

عاجزاً ، ولو تذرَّعت بما في أركان الدنيا الأربعة من قوة وإرادة حسنة ، ان تزيدني منه شيئاً

إلى هنا ، يمكن لكلٍّ منا أن يضع لنفسه عدداً من الأحكام البدهية العامة. فمثلاً : هل يحوز كلٌّ منا أيضاً عدداً من التجاريب الخاصة غير المدخولة بالشك ؟ بمؤهلات خاصة سوف أتكلم فيها بعد، أظن أنه يحوز عدداً من هذه التجاريب. ولكني لا أظن أنه يحوزها الى الدرجة التي يلوح أننا نميل الى فرضها . ينبغي لنا أن نعيَ أن ما ذكرت منذ هنيهة « عن التفردية » في فلسفة المعرفة ، ينطبق على التجاريب المفردة ، انطباقه على الحقائق العامة . وفي الحق أنه أكثر انطباقاً على التجاريب، أو هو على الأقل أظهر انطباقاً عليها . فان بدهية من البديهيات قد يتفق أن لا تكون أكثر أهلية كي تتخذ حجراً أساسيًّا في بناء معتقدي، بحكم أنها في الظاهر معتقداً بها من أهل الدنيا جميعاً . غير أنها على الأقل تكتسب شيئاً من الوقار بشموليتها . أما تجاريبي ، من ناحية أخرى ، فهي في جوهرها خاصة بي ، وفي ماهيتها لي وحدي . ان هذه التجاريب لن تكون متماثلة في فردين ، وحتى لو تماثلت ، فانها لن تكون متطابقة على وجه الضبط والدقة . ما لي ، هو لي على الدوام . وما لك، هو لك على الاستمرار.

ومما هو أبعد خطراً في هذا الأمر، أن تجاريبك لن تفعل لفلسفتي، ما تفعل هي لفلسفتك. إنها لن تهيء لي شيئاً من المعتقدات الغائية (النهائية) . إنها لن تصلني إلاَّ من طريق شهودك . وما دام — كما أبنت من قبل — أن صحيَّة الشهادة هي أمر استنباطي، فكل التجاريب التي يعتقد بها من طريق الشهادة ، يمكن اعتبارها سطحية ولا أثر فيها من الجوهرية [1] .

— ٧ —

يجب أن نعترف بأن هذه الاعتبارات تُضَيِّقُ على صورة جِدّ ممضة ، الأسس التي تقوم عليها معتقداتنا. فان القَوْل بأنَّ «أنت» « وأنا » لا يقدر كلانا أن يبني ويشيِّد إلاَّ

(١) كتب الفيلسوف دافيد هيوم مقالين عن المعجزات نشرا مع ما نشر من مقالاته أقام فيهما البرهان القاطع على أن المعجزات ما دامت تقوم على الشهادة الانسانية ، فانها تكون مدخولة بشك يقضي على وجودها . وكنت أود أن أشرح براهين هيوم لاظهر ما فيها من آصرة برأي بلفور هنا ، ولكن تكفي الاشارة لمن يريد أن يتوسع في هذا البحث .

من فوق قاعدة أعدَّت لتكون أساساً لما هو « لك » وما هو « لي » ، بتجاريب ومبادىء نعتبرها في الغالب فطرية كافية بذاتها ، أقَول تدفعنا غريزتنا إلى أن تقف منه موقف الارتياع . قد نسلم في العادة ، وعلى معيار خاص ، إننا ورثة النوع البشري . وإن التجاريب الانسانية قد استجمعت وكثرت على نسبة كبيرة، وأن كل فرد يخرج إلى هذه الحياة له حق مساوٍ لحق غيره في أن يستمد من مخزونها العام . وعلى ذلك ـ وبكل ما لديه من مؤهلات ـ له أن يفعل [1] : إذا كانت عقيدتنا المألوفة حقة وصحيحة . إذا رضينا بهذا وأذعنّا له ، تبدَّدت كل صعابنا . غير أن هذا [2] هو الشيء الوَحدُ الذي نرمي إلى اثباته . ولقد حاولت من قبل ، باذلاً جهداً فوق الحاجة ، أن أظهر أننا لا نستطيع أن نثبت ذلك ، إلاَّ بطائفة من المقدمات ، هي مع أشياء أخر ، ينبغي أن تكون عند الفرد المفكر كافية بذاتها . هل هذه الطائفة من المقدمات حاصلة « عندك » و « عندي » ؟ أما إذا لم تكن حاصلة فان « فلسفة المألوفات » ، على ما صوَّرتها ، تظهر ، على الأقل ، في موقف يحفها الخطر بعض الشيء .

قد تظهر هذه المسألة في ثوب أجلى وصورة أبين، إذا ضربت مثلاً جامعاً لهذه الصعوبة. ومثلي الذي أضربه هو قانون « السَّبَبيَّة » أو « التَّسبيب » الذي يستند إليه ، عند أكثر الفلاسفة ، التعليل العلمي لدنيا الطبيعة . هذه التعميمية الكبيرة ، لا يمكن أن تنزل منزلة البدهيات الرياضية أو غيرها . إنها ليست ذاتية الوضوح ، على الصورة التي تدرك بها الأشياء الواضحة بذاتها . وكذلك لا أرى أن محاولة « كَنْت » [3] إذ أراد أن يعتبرها مُضَمَّنَة استشرافيًّا في ما نأنس من « تجربة التعاقب »[4]، في حاجة لأن « تحصل » ، وعندي أنها ليست « تستحق » ، أن يكون لها سند من الفكر الحديث . وفوق هذا ، فهنالك ، على ما أظهرنا من قبل ، مشكلات منطقية تلفّنا لفّاً ، في محاولتنا تثبيت هذا

....

(١) أي يستمد من تجاريب الانسانية ومخزون معرفتها اذا شاء .

(٢) أي اثبات ان الاذعان لذلك ، أي الاستمداد من عقيدتنا المألوفة ، هو الذي يبدد كل مشكلاتنا .

(٣) استشرافياً Trancsendentally وتجربة التعاقب "Experience of Successiou" تقودنا الى الاعتقاد في صحة شيء بتوالي حدوثه ووقوعه في الزمان أو المكان (٤) Philosophical Doubt p. 124

المبدأ العام أو غيره ، بمجرد استجماع دلائل مؤيدة له مهما كان هـذا الاستجماع غامراً [1].
والذي أتشبث به هنا من وجهة نظري ، أن هذا الاستجماع ، استجماع الدلائل المؤيدة التي هي في متناولي ومتناولك ، بعيـداً عن أن يكون فائضاً غامراً . حقيقة أن الفلاسفة التجريبيين يذكروننا ، وبهم شيء من الثقة ، أن قانون السببية إنما يقوم على مشاهدات سجلتها العصور المتعاقبة . ولكنهم نسوا أن يلاحظوا أننا اذا لم نعتقد بديّا في « الناموس » [2] ، فلا يكون لدينا غير قليل من الحق في أن نعتقد بصحة المشاهدات . وحقيقة أن النوع البشري قد ظلّ « يلاحظ » المئـات والألوف من السنين ، أمر لا يمكن أن يعرف بالعلم المبـاشر . الاستنباط متضمَّنٌ في مثل هذا على الدوام . وعلى أي وجه قلّبنا هـذه المشكلة ، فسنجد دائماً أن أصلاً من أصول هذا الاستنباط : هو الاعتقاد باطرادية الطبيعة — وهذا بذاته هو النتيجة التي نرغب في تقريرها .

— ٨ —

الصفة الدقيقة التي تكتنف « الصعوبة الفردية » [3] التي أدلينا بالكلام فيها آنفاً ، ربما أمكن الابانة عنها بوضوح اذا حاولنا الاجابة على التساؤل الآتي :

« كيف أستطيع ، معتمداً على تجاريبي الشخصية المحضة ، وهي سنادة ضيقة الحدود ، وبرغم أنها قد تعتمد على المنطق أو على غيره من المبادىء الموثوق بها ، أن أقيم ذلك البناء المعقد الذي أدعوه « عقيدتي ». كيف يتهيأ لي ، مستنداً إلى مقدمات ركيكة ، أن أستنبط بتعقل ، كل ما أستمسك به اعتقاداً ؟ كيف يقع لي ، مؤيداً بمثل هـذه الأداة الضعيفة من أدوات البحث والفحص عن الأشياء ، أن أُلِـمَّ إلماماً ذا أثر بدُنْـيَـا ، وجوه علاقتي بها مَـوْصُـومَـةٌ بأنها قليلة ، انتقالية ، مدخولة بالشك » .

ينبغي لنا أن نعي أن هذا التساؤل لا يلقي بأي شك على حقائق العقل أو صحة التجربة.

---

(١) Philosophical Doubt, p. 71, from which much of what follows is a quotation.

(٢) Law (٣) الصعوبة التي يعانيها الفرد في مواجهة المشكلات المنطقية التي تعاوره في تثبيت أي مبدأ عام كمبدأ السببية أو غيره.

كل ما فيه من شيء أنه يقرر أن كل ما فيّ من أثر العقل إنما هو من عقلي وحدي ، وأن التجربة تجربتي . هو يقتصر على التساؤل : إذا كان هذا كل ما عندي مما أجري عليه ، فهل هو كاف ؟ وإذا لم يكن كافياً . فكيف أكمله ؟

هذا هو « الشك الأسلوبي » . وأن علاقته لقليلة جهد ما يكون بجهود ذلك « الشكي المنهي » الذي يفرض فيه أن يقضي على فلسفته بأن يحلل بالشك نفس شكوكه التي تساوره. ومع هذا فان هنالك دوائر فلسفية لم يلتفت اليها الالتفات الكافي ، فبعض المثاليين الامتثرافيين(١) مثلاً ، ليس لهم من زاد غير الكلام الجواف يرمون بها في وجوه أولئك الذين يفرضون انه ليس من الضروري ولا من المشروع في الفلسفة ، ان يلجأ انسان ، في آخر ما يلجأ اليه ، الى عقله وحده ، او الى تجربته الخاصة . هذا عندهم «ذاتية» (٢) مجردة معدومة القيمة والنفع ، في نظر أولئك الذين يتطلعون الى المعرفة الموضوعية (٣) . حتى ولو قالوا بأن التجربة تتضمن «مركزاً شاعراً » (أو) «مركزاً واعياً» من شأنه أن يجرّب ، فإنهم لعلى استعداد لأن يصبوا اللعنة على كل شخص فيه من القوة ما يجعله قادراً على أن يشخص هذا «المركز الواعي» في فردٍ تاريخي يشعر ويفكر، يعتقد ويشك، يحفظ وينسى. ان تشجيعك للفردية على هذه الصورة ، هو عندهم أمرٌ هادم للفلسفة . أما الفلاسفة الانجليز، من حيث ذلك فقد برهنوا، بغير كثير من الحيطة على أنهم أشد المعارضين شكيمة، واكثرهم عناداً .

من سوء حظي أنه ليس من الضروري لي أن أعالج باستفاضة هذه المسألة الجدلية المهيبة. وإنما أقتنع بأن أشير الى أني ، ومعي أولئك الذين هم يشاطرونني وجهة نظري اذا وجدوا ، انما نعيش في أصقاع بعيدة قصية عن تلك المطرحات التأملية ، لنكون في مأمن من هجمات أولئك الذين يحتلونها . أما مطامعنا فمعتدلة ، نريد أن نعرف ،كل منا لنفسه ، لم يتفق أن معتقدات بعينها ، وهي تدر مقسوم لنا جميعاً ، ينبغي أن تؤخذ على أنها صحيحة ؟ مثل هذه الرغبة قد تلوح لأول وهلة ، إما حماقة وإما اعوجاج . ولكن هذه الرغبة هي ملكنا .

---

(١) Transcendental Idealists (٢) Subjectivism (٣) Objectivism

فليكف إذن أولئك الذين يزعجوننا من أجلها عن إزعاجنا . ولكنهم إلى جانب هذا لا ينبغي لهم أن يربيوا في أنفسهم ذلك الوهم ، وهم أنهم يحلوا ذلك الضرب من الصعوبة الذي نشعر به، بأن يطلبوا منا أن تكون نقطة انفصالنا هو « الفكر » عامة — الفكر الذي ليس هو فكري او فكرهم أو فكر أي فرد مفكر . ربما انقلب هذا إلى و «جودية »[1] طيبة حسنة القسمات . أو ربما تهيئنا ببحث مرض في «الواقعية» [2] . بعيد عليّ أن أفكر أن الكون قد يكون في جوهره روحانيًا . وأن ماهية الروح قد تكون « فكرة » ، وانه في وحدية [3] هذه الفكرة الاستشرافية ، قد تنحل كل الفوارق كالتي تفصلك عني ، وتفصلنا معاً عن الكائن المطلق [4] ، من غير أن تتحطم وتبيد . ولكن ما لم تكن هذه المذاهب العليا مؤيدة بذاتها فطريًا ، فيجب أن تبرر جدليًا . وهذه الجدلية ينبغي أن تكون مغروسة في معتقدات تتقدمها منطقيًا. هذه المعتقدات ، يجب على وجهة نظري ، أن تكون معتقداتي ، ومن وجهة نظرك هي معتقداتك ، وفي كل حالة من الحالات ينبغي ان تكون عقائد أشخاص معينين . عقائد « ذوات مجربة» [5] من رجال أو نساء ، ليس لهم أن يدعوا بأن من حقهم أن يؤلفوا الكون ، أكثر مما يكون ذلك من حقنا .

هذا هو الطراز الذي ، على ما أرى ، يتلاءم مع فلسفة للمألوفات مرضية . ليس هنالك من فائدة في أن تقول لي أنها « ذاتية » . آخر الأمر أقول أني لست غير « ذات » ، واني كأي شيء في الدنيا ، يجب أن ألزم تقائصي . ليس لي من هذا مهرب . ولكن ينبغي أن لا يساء فهم ما أقول . فان التفردية التي أدعو اليها لا تتجه ولا تقصد الى عزل الفرد ، حتى في الأشياء التي هي عقلية صرفة ، وأقل اتجاهاً الى عزله في الأشياء التي تتعلق بالارادة أو العواطف . أما أنا فاستمسك بأن النظرية العادية في الاتصال الانساني ، إنما هي نظرية ضيقة

(١) نظرية الوجود.

Ontology : The theory of being; that branch of metaphysics which investigates the nature of being and of the essence of things, both substances and accidents Cent. Dict. 4115—IV.

(٢) Reality (٣) Unity (٤) Absolute (٥) "Empirical egos"

الحدود منقوصة الأطراف . إنها بغير موجب ، تنكر كثيراً مما هو واقع ، وكثيراً مما هو ممكن ، في علاقات روح بروح في الحياتين الاجتماعية والدينية . ولكن ليس هذا من شأننا القول فيه هنا . إن ما هو من شأننا هو أن نقيم ، رجالاً أو نساءً ، عقائدنا المألوفة على أساس من العقل . هذه مسألة تفرديّة ، أجدى ما تعرض به من الأساليب هو الأسلوب التفرّديّ ، ولن تحل إلاَّ حلاًّ تفرديًّا . ومنها قيل في أمرها من حيث ما في بحثها من الحكمة أو نقيضها ، فان الصورة التي عرضتها بها لا يقوم عليها ، كما أوقن ، اعتراضات ذات وزن مَّا .

صدر مع مقتطف يناير

فك الأغلال

بحث في الثقافة التقليدية وعلاقتها بالتربية القومية

تأليف

اسماعيل مظهر

سيصدر مع مقتطف مارس

الفريد دي موسيه

بحث في حياته وشعره

بقلم

الاستاذ صلاح الدين الشريف

اطلبهما مع « الألوهية والفكر » الذي سيصدر
مع مقتطف فبراير من ادارة المقتطف
مطبوعة طبعة خاصة مستقلة عن المجلة
وثمن النسخة ١٠ قروش

لواحق المقتطف الشهرية

يوليو ١٩٤٦

فلسفة التفاحة

او

جاذبية نيوتن

Newton's Gravitation.

بقلم

نقولا الحداد

الثمن ١٠ قروش صاغ

مطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٦

فهرست الكتاب

صفحة

اصلاح اخطاء

نرجو من القارىء ان يصلحها بقلمه

صفحة	سطر	خطاء	صواب
١	١١	احدى	أحدث
٥	١٤	قرأت	قرئت
٥	٢٣	استنبطها	استنبطه
٩	٩	اكتشاف	اكتشف
١٣	٩	لما	كما
١٦	١٤	Seclor	Fector
١٧	٥	٢٠/٢٩	٢٠/٢٦
٢٠	١٠	صُلّ	صلّ
٢٠	١٥	٦٥و٢٤	٢٤،٦٥
٢٠	١٩	الدورات	الدوران
٢٦	٣	المنحدرة	المنحدر
٣٠	٧	عن الآخر	عنه
٣٢	٢٣	تنحل	تنحل الى
٣٦	١٨	منها	عنها
٤٣	٦	لتحصيل	لتحليل
٤٥	١١	$(10)^{79}$ الخ	$184 \times (10)^{5} \times (10)^{79}$
٥١	٢١	Symetry	Symmetry

مقدمة

هذا كتابٌ في موضوع علمي خاص — جاذبية نيوتن الفيلسوف الطبيعي العظيم الذي يعد في قمة علوم الطبيعة منذ القديم الى اليوم . وقد كُتب بأسلوب بسيط جداً سهل الدراسة يفهمه العامة المتعلمون تعليماً بسيطاً . ويجد فيه الخاصة بحثاً وافياً في سنَّة الجاذبية من جميع نواحيها ، وكشفاً لأعمق أسرارها وحلاً لجميع ألغازها . وقد اُفتُتح بسيرة نيوتن نفسه كاشف أسرار الطبيعة وضابط قواعدها ونواميسها .

وقد أُضيف الى هذا الكتاب ملحق رياضي لبرهنة القضايا المهمة في الجاذبية لكي يستفيد به فريق القراء الذين لا يستصعبون القضايا الرياضية بل يستلذونها ، ولعله يكون حافزاً للقرَّاء الذين قلَّت معرفتهم الرياضية ، أو هم لا يريدون أن يُعنتوا أذهانهم في تفهُّم تلك القضايا ، وممارستها

وقد استعنت في تصنيف هذا الكتاب بإحدى المؤلفات العصرية لأساطين العلم ومنهم السير جايمس جينز والسير ادينغتون واينشطين وبرتراند رصل وغيرهم ، وبمتن الفلك لكبار الفلكيين الاميركيين الأساتذة الثلاثة رصل ، ودوغان ، وستيورت ، الذين نقحوا كتاب الفلك المشهور لسلفهم الفلكي الكبير يونغ ، ودائرة المعارف البريطانية .

نقولا الحداد

الفصل الاول

من هو نيوتن

١ — ملاحظة التفاحة

روى ستكلي صديق نيوتن الحميم، وقد وقف على الطبعة الثالثة من كتاب المبادىء لنيوتن : «كان نيوتن جالساً ذات يوم تحت شجرة تفاح يفكر كعادته حين يكون منفرداً ، فرأى تفاحة سقطت من الشجرة من تلقاء نفسها — لعلها تجاوزت دور النضج — فحوّلت تفكيره الى سبب سقوطها، وقال في نفسه ، ما الذي أسقط هذه التفاحة الى الأرض ».

وكان قد عرف نظرية طيخو براهي عن مسارعة الأجسام الساقطة . فتراءى له ان التفاحة سقطت متسارعة — تراءى له تسارعها على الرغم من ان سقوطها لم يتجاوز ثانيتين وهي مدة لا تكفي لملاحظة المسارعة . فاستطرد يقول لنفسه : وما الذي جعلها تسقط متسارعة . وما هي القوة التي تُهبط الأجسام من أعلى الى أسفل — من الشجرة ومن الجو ومن رأس الجبل ومن البرج الخ . ألا يمكن أن تكون هذه القوة هي نفس القوة التي تفعل بالقمر فيدور حول الارض، بدل أن يندفع في خط مستقيم وفقاً لما نعلمه بالبديهة . ألا يمكن أن تكون هذه القوة في الارض نفسها ، قوة تجذب ما حول مركزها اليه ؟ ألا يمكن أن تكون نفس القوة التي تحرج السيارات أن تدور من حول الشمس .

وما عتم أن شرع يفكر في سنة طبيعية توجب على الأجسام أن تدور من حول مركز . ولأنه كان رياضيًّا بالفطرة وقد نبغ في الرياضيات منذ حداثته شرع يبحث في خطة هذه القوة . لا بدّ أن يكون ثمت نظام حسابي لهذه القوة تسير فيه على قاعدة واحدة مهما اختلفت الأجسام حجماً وتباعدت مسافة أو تفاوتت زمناً .

الغاية الرئيسية من هذا الكتاب بسط سنّة الجاذبية كما اكتشفها هذا الفيلسوف العظيم نيوتن في جميع ظروفها ومقتضياتها . ولكن البحث في هذه الغاية يستلزم البحث في حياة نيوتن نفسه .

هذه السنة التي برزت من ذلك الدماغ الذي بقيت ألياقه تلمع لمعات الذكاء برهة ثلاثة أرباع القرن حتى انهـا أضاءت عالم العلم منذ مولد ذلك الفيلسوف الطبيعي الى اليوم والى الأبد — هذه السنّـة فتحت باب أسرار الطبيعة للعلماء الحديثين فانجلت لهم حقائق عديدة عن الكون المادي .

منذ عهد نيوتن الى الآن انجلى من أسرار الكون ما يعادل الف ضعف ممـا استجلى الانسان منها من قبل .

قال أحد المدركين قيمة عمل نيوتن العلمي « كانت نواميس الطبيعة غامضة وفي ليل حالك من الجهل الى أن قال الله : « ليكن نيوتن » . فضاءت المعرفة وأنارت الكون كله »

قبل البحث في موضوع الجاذبية ينبغي ان نرفع الغطـاء عن مشعال الذكاء الذي كشف القناع عن الجاذبية — ينبغي ان نجمل للقارىء سيرة حيـاة نيوتن الملقب بحق فيلسوف الطبيعة وزعيم فلاسفتها

٢ — نشوؤه

ولد اسحق نيوتن في ٢٥ من ديسمبر سنة ١٦٤٢ في منزل وضيع في وولتروب قرب جرانثام من ولاية لنكشير في انجلند . وقيل انه من نسل السير جون نيوتن . وكان أبوه قد توفي في اكتوبر السابق . وفي سنة ١٦٤٥ تزوجت أمه برنابا سمث قسيس نورث ولهام من ليستشر . وبعد زواجها الثاني عاش اسحق مع جدته مسز اسكوف من وولتروب ايضاً . ولكنها استعادته اليها بعد ترملها الثاني

وكان في اول عمره نحيفاً ضعيف البنية لم تُرجَ له الحياة، يقال لأنه ولد قبل موعد الولادة

ولازم نحو سنتين المدرسة الابتدائية في جرانثام اذ كانت تحت رعاية المستر ستوكس . ومنذ دخل المدرسة بدت عليه مخايل الذكاء . بيد انه لم يتفوّق بل كان نجاحه قليلاً . ولعلّ السبب انه كان يلهو بالألعاب وصنع أشياء منها . وقد ورد في كتاب أعلام المقتطف : « قيل انه لم يكن ليلتذ مهتمّـا بمعاشرة رفاقه التلاميذ وملاعبهم بل كان ينفرد عنهم ويلهو بالألعاب الميكانيكية وتقليد ما يراه منها ، فاصطنع بيده منشاراً وقدوماً ومطرقة وسـائر أدوات الصناعة بحجم صغير يناسبه . وكان يستعملها بحذق غريب . فصنع بها ساعات يديرها الماء المنحدر . فكانت بغاية الضبط والاتقان .

« وفي ذات يوم أنشأوا في المدرسة مطحنة هوائية كانت لذلك العهد غريبة عجيبة فما زال يدرسها حتى فهمها وصنع مثلها . وزاد عليها أن جعل الطحان فاراً يطحن الدقيق ويأكله » (باختصار) .

وأولع أيضاً بالرسم والتصوير وبنظم الشعر فانصرف عن درسه بهذه الألعاب والفنون الى أن تفوّق أحد رفاقه عليه في إحدى المنافسات . فأثار الأمر في نفسه حماسة المناظرة وما لبث أن صار رأس فرقته .

وكان يستلذ مراقبة نجوم السماء . فلا بدع أن يُغرق بعدئذٍ في التفكير في الجاذبية التي تربط أجرام السماء .

في الرابعة عشرة من عمره سنة ١٦٥٦ أخرجته أمه من المدرسة لكي يساعدها في الحقل . وهل المخلوق لكي يفلح السماء يطيق أن يفلح الأرض ؟ طبعاً لم ينجح في هذا العمل لأنه كان لاهياً في العمليات الرياضية حين كان يجب أن ينشغل في الزرع والقلع والحرث والعزق . وكانت أمه ترسله الى سوق جرانثهام لكي يبيع غلة الحقل ومعه خادم مسنّ . فكان يحيل أمر البيع في السوق إلى هذا الخادم ويجنح الى الصديق كلارك الصيدلاني حيث يطالع فيما عنده من كتب علمية وكيماوية .

ولما رأى خاله وليم ايسكوف قس بورتون كوكجل والعضو في كلية الثالوث (ترينتي) في جامعة كمبردج ميله الى الرياضيات والعلم نصح لأمه أن ترده الى المدرسة لكي يستعد لجامعة كمبريدج . وكان ذلك ١٦٦٠ وفي سنة ١٦٦١ استتمّ استعداده للدخول في كلية الثالوث . وفي سنة ١٦٦٥ نال شهادة بكلوريوس علوم . وفي سنة ١٦٦٧ أختير معلماً في الكلية المذكورة .

٣ — اكتشافاته الرياضية

وفي سنة ١٦٦٥ اكتشف النظرية الرياضية المسماة « الكميات الثنائية » وهي عبارتان جبريتان تربطهما علامة الايجاب أو علامة السلب . وما لبث أن استنبط الفن الرياضي المسمى « حساب التكامل والتفاضل » Calculus وقد سماه Fluxions وترجم المقتطف الكلمة

« فن السيالة » ولهذا الفن شأنٌ عظيم جداً في العلوم الرياضية النظرية والعملية كالهندسة الميكانيكية وهندسة البناء الخ .

وفي مايو من السنة التالية دخل في الطريقة العكسية لهذا الفن وهي طريقة حساب المنحنيات وأحجام المجسمات . وقال : « وفي تلك السنة ١٦٦٦ جعلتُ أفكر في قوة الجذب (أو في الثقل) الممتدة الى فلك القمر . وأخذت أقابل القوة اللازمة لحفظ القمر في فلكه بالقوة الجاذبية التي على سطح الأرض .كان ذلك في سنتي ١٦٦٥ و ١٦٦٦.و ذلك أول شبابي»

٤ — اكتشافه سر الالوان

ومنذ ذلك الحين جعل يبحث في البصريات وأسباب الألوان. وفي ١١ من يناير سنة ١٦٧٢ أرسل شرح اختباراته الى الجمعية العلمية الملكية . وفي تلك السنة عينها اختير عضواً في الجمعية مع لقب أستاذ ، وفي الحال شرع يرسل رسائله الى اوكدنبرج كاتب السر في الجمعية لكي تتلى فيها .

ومما كتبه حينئذٍ : « سأبذل جهدي أن أبدي شكري للجمعية بتقديم ما تستطيع مجهوداتي المتواضعة أن تؤثره في ترقية البحث الفلسفي » .

وقرأت نظريته عن النور والألوان في ٨ من فبراير في المجمع العلمي الملكي أي الجمعية المذكورة آنفاً . وأظهرت العمليات التي شرحها أن النور مؤلف من مجموعة من الأشعة مختلفة الانكسار . أي انها إذا مرَّت في موشور (أصبع من بلور مثلث الزوايا) خرجت أشعته ملونة منكسرة على زوايا مختلفة مع الشعاع الأصلي . ومعنى ذلك أن الألوان ليست صفات للنور المنعكس عن الأجسام الطبيعية كما كان يظن ، بل هي خواص أصلية في النور نفسه تختلف باختلاف الأشعة المنكسرة . أي إن اللون ليس في الجسم الذي يعكسه بل في النور نفسه الذي انعكس عليه .واختلاف الألوان يتوقف على اختلاف زوايا الأشعة المنكسرة كما نعلم نحن الآن . ونعلم أن زوايا الانكسار هذه تختلف باختلاف أحوال الموجات الضوئية وذبذباتها . والتي تُحدث في شبكية العين نفس الاختلاف . والدماغ يتصوَّر لكل ضرب من الموجات لوناً خاصًّا أو هو استنبطها

وفي المدة التي كان فيها منشغلاً في هذا البحث وفي تحقيق نظريته عين أستاذاً للرياضيات ،

إذ استقال سلفه الأستاذ بارولكي لكي يحل هو محله . ومن ثمّ كانت السلسلة الأولى من محاضراته عن البصريات مؤيدة بالمعادلات الرياضية . وهذا ما حمله على الاستمرار في البحث والاختبار التجريبيين بواسطة الموشور المشار إليه الذي اشتراه في معرض ستوبوردج سنة ١٦٦٦ إلى أن بلغ بحثه قمّته في رسالة إلى الجمعية (أي المجمع العلمي الملكي) سنة ١٦٧٢ حيث قامت قيامة المناقشات الحادة بين العلماء الطبيعيين في هذا الموضوع ، على ان المجمع أثنى عليه باحترام كلي وشكر له بحثه العظيم الشأن وأبلغه ان المجمع عُني به عناية خاصة .

٥ — مناظرة العلماء له

وحاول روبرت هوك مع «وارد» مطران سالسبوري وروبرت بويل أن يتمادوا في البحث تخطئةً لنظرية نيوتن . وهوك في كتابه ميكروجرافيا وصف عمليـة تجريبية بالموشور . ولكنها لم تعد بتأييد رأيه . وجميع انتقادات هؤلاء الثلاثة انتهت بتأييد رأي نيوتن

وكان في التلسكوب (المقراب) في ذلك الحين عيب لوني . فعانى نيوتن في اصلاح هذا العيب الى حدٍّ ما . وصنع التلسكوب المُصْلَح لاول مرة سنة ١٦٦٨ . ثم صنع تلسكوباً ثانياً وأرسله الى المجمع الملكي في ديسمبر سنة ١٦٧١ .

وتطاول البحث والنقاش في البصريات بينه وبين العلماء سنة ١٦٧٥ وكتب في تلك السنة: « لقد تعبت جدًّا في هذه المباحث التي دارت حول نظريتي في النور حتى اني لمتُ نفسي أخيراً لحمقي في هجر نعمة راحتي لكي أعدو وراء خيال أو ظل » .

على ان هذه المباحث كانت ذات فوائد جمة لأنها أدَّت به الى تحقيق تأثيرات الالوان الأخرى ، والى البحث في سبب صدور النور ، والذهاب الى أن النور ذريرات تصدر من الجسم المنير وتنطلق في الفضاء الخالي بسرعة فائقة . وقد حسبها حينئذٍ ١٩٠ الف ميل في الثانية وهي الآن بالتحقيق ١٨٦ الف ميل ، فما ضلَّ كثيراً على الرغم من فقر عصره بالآلات الفلكية والعلمية.

ثم انه تبسط في أسرار انعكاس النور وانكساره كما هو معلوم الآن في علم الطبيعيات . وعاد هوك يتصدّى إلى نقده في هذا الموضوع في كتابه ميكروجرافيا ١٦٦٤ اذ استند على نظرية هوجنس Huyghens في أن النور قوة تنتقل بحركة موجية في الايثير المالىء الفضاء . ولكنه لم ينجح في تطبيق هذه النظرية على الانتشار (المتعامد) لكل الجهات والانعكاس

والانكسار الى غير ذلك من خواص النور . ومع ذلك كان نيوتن مضطراً في تعليل هذه الظاهرات إلى فرض ان النور المنتشر ذرات من الجسم المنير تنطلق متموجة في الاثير .

ومضى زمن بعد نيوتن كان يعتقد فيه العلماء ان النور أمواج اثيرية لا ذرية . ولكن بعض علماء هذا العصر عادوا الى نظرية نيوتن بتنقيح كثير فيها . وقد سمى السير تجايمس تجينز أمواج الذرات النورانية Wavicles وهي نحت من كلمتي Wave-Particle

وكانت عبارة نيوتن الأخيرة فيهذا الموضوع سنة ١٦٧٥ « أظن أن النور ليس أثيراً ولا أمواجاً اثيرية بل هو شيء آخر ينتشر من الجسم المنير » . ويظن أيضاً «أن النور والأثير يتفاعلان الواحد مع الآخر »

على أن شهرة نيوتن لا تتوقف على هذا البحث ولا تقف عنده بل على اكتشافات علمية أخرى تخلد اسمه الى الأبد وأهمها « ناموس الجاذبية » .

٦ — قوة الجذب

وفي سنة ١٦٦٦ حين عاد الى وولتروب بسبب انتشار الطاعون فيكمبريدج، جعل يفكر في قوة الجذب الممتدة الىفلك القمر الى أن اكتشف ناموسها . ولكن لمَّا لم يصح تطبيق هذا الناموس على القمر الدائر حول الأرض . لم يشأ أن ينشر شيئاً بشأنه مدة طويلة لظنه انه خطأ وأن الفكرة سخيفة .

والغريب أن يظن نيوتن ان لوقوع الجسم على الأرض ودوران القمر حولها ناموساً. أليس غريباً أن يعتقد نيوتن ان القوة التي اجتذبت التفاحة الى الأرض هي نفس القوة التي تدير القمرحول الأرض . عجباً اذن ! لماذا لايسقط القمرعلى الأرض كما سقطت التفاحة وكما يسقط كل جرم . وأعجب من ذلك أن يدرك نيوتن هـذا السر وهو غريب على الأذهان وبعيد عن الأفهام [1] . وبناءً على فهمه هذا السر عمل حسابه فضـلاً لأن المعلومات التي بني عليها كانت ناقصة كما سيرد بيانه . وكما سيعلم القارىء السر الذي أدركه نيوتن .

في ذلك الحين كان بعض أعضاء المجمع العلمي يخمنون تخمينات مختلفة فيما لاح لنيوتن

(١) سترى تفسير ذلك في ٤ و ٥ من الفصل الثاني .

من قبيل قوة الجذب التي تجذب الأجسام نحو المركز والسيارات نحو الشمس والقمر نحو الأرض الخ . وكان منهم رن ، وست وارد مطران لسبوري ، وروبرت بويل ، وهوك ، وهالي ، الى أن التقى هالي بهوك ورن يوم الأربعاء من يناير سنة ١٦٨٤ . فقال رن انه اكتشف البرهان على نواميس الحركات الفلكية . أما هالي فاعترف بجهله . وانبرى حينئذ السير كريستوفور مشجعاً البحث في الموضوع وقال انه يهدي كتاباً بأربعين شلناً لمن يجد حلاً لمسألة دوران السيارات في أفلاكها . وأمهل المشتغلين بها شهرين .

بقيت المسألة بلا حل حتى شهر أوغسطس حين زار هالي نيوتن في كمبريدج وقال له : وصل إليَّ انك توفقت الى الحل لهذا السؤال : وهو ان تأثير قوة مركزية على جسم متحرك تختلف كربع البعد . فكيف ذلك وما البرهان ؟

فوعده نيوتن بأن يبحث عن نسخة البرهان التي أهملها منذ ١٨ سنة لعدم ثقته بصحته . على ان نيوتن لم يجد النسخة فأعاد كتابة البرهان من جديد وأرسله الى هالي في نوفمبر من تلك السنة . وعاد هالي الى كمبريدج وألحَّ على نيوتن أن يقدم البرهان للمجمع .

وفي العاشر من ديسمبر سنة ١٦٨٤ أبلغ هالي الى المجمع ان نيوتن أراه رسالة مستغربة وانه ألحَّ عليه أن يرسلها الى المجمع لكي تسجل فيه . فأرسلها نيوتن . وسُجِّلت بالفعل في فبراير سنة ١٦٨٥ وعلى حاشيتها تاريخ صدورها في ١٠ ديسمبر سنة ١٦٨٤

ولكن في أوائل سنة ١٦٨٥ أدَّت حساباته بهذا الشأن الى اعتبار ان كلاً من الشمس والسيارات كأنها نقطٌ متجمعة في مراكزها أي ان الجرم كله كتله مضغوطة في مركزه ، وفي هذا المركز مقرّ القوة الفاعلة . ولكن أحقيق هذا ؟ أم ان الجرم مهما كان كبيراً أو صغيراً يعتبر كله مركزاً إذا قورن بالمسافة السحيقة بينه وبين الجرم الآخر ؟ . وما هي هذه القوة التي تستطيع بها الشمس مثلاً أن تجتذب جرماً خارجاً عنها .

ومن ثمّ جعل نيوتن يحسب حساباته على فرض ان كل ذرة في الشمس تجذب كل ذرَّة في الجسم الآخر البعيد عنها بقوة مناسبة لحاصل ذرَّات هذا مضروبة بذرَّات ذاك وبنسبة مربع البعد بينهما .

ولما خرج نيوتن بناموس الجاذبية نتيجة لحساباته سنة ١٦٦٥ رأى ان دوران القمر

أمهل نموذج لاختبار صحة الناموس . فحسب حسابه على اعتبار أن القمر يبعد عن الأرض نحو ٦٠ مرَّة طول نصف قطر الأرض . فكانت النتيجة خطأً . وبعد مدة من الزمن ظهر ان قطر الارض أطول مما كان يظن . فعمل حسابه على اعتبار الطول الجديد فصحَّ وثبتت السنة التي اكتشفها .

(وسيأتي شرح ذلك فيما بعد في الملحق الثالث القسم الثالث)

وبعد ذلك تجرَّأ نيوتن أن يعلن ناموسه وأن يجاهر به بثقة عظيمة ثم طبَّقه على جميع دورانات السيارات . ثم صار يطبقه على كل حركة فلكية وكونية مهما كانت عظيمة وشاسعة وبعيدة أو صغيرة أو كبيرة .

وبواسطة قانون الجاذبية اكتشاف تسطيح الارض عند قطبيها . وسبب تغير الثقل بتغير الارتفاع عن سطح الارض . وبها فسَّر مبادرة الاعتدالين وسير المد والجزر . وقال بامكان معرفة حجم السيارات بواسطة معرفة جذبها بعضها لبعض واضطراب حركاتها . وتعليل تقدم نقطة الرأس في الفلك الأهليليجي الى غير ذلك من الحركات الفلكية .

الناموس الطبيعي لا ينقض بوجه من الوجوه . هو أساس النظام الثابت .

٧ — فلسفة المبادىء الطبيعية

عاد نيوتن بعد ذلك الى كمبردج وشرع يؤلف كتابه المشهور العظيم الشأن « المبادىء » Principia سنة ١٦٨٦ وقد سماه فلسفة المبادىء الطبيعية الرياضية Philosophiae Naturalis Principia Mathematice وأتمه في ثلاثة مجلدات وطبعت في ١٦٨٧ .

وكانت الجمعية (أي المجمع العلمي) في ذلك الحين فقيرة فأخذ هالي نفقات الطبع على عهدته . وكان يزيل كل ما يستطيع من الصعوبات من امام نيوتن لكي يتم هذا العمل العظيم . وما عتمت هـذه المؤلفات الثلاثة النفيسة ان انتشرت في كل اوربا . ونشرت معها شهرة عظيمة له . وبقيت المرجع العظيم الشأن لعلماء العصر الى اليوم . ومعظم نظريات علم الاكوان والافلاك تستند الى المبادىء التي قرَّرها نيوتن .

٨ — مرضه وتفوقه الرياضي

في سنة ١٦٨٩ انتخب نيوتن عضواً في الجامعة ثم انتخب ثانيةً في سنة ١٧٠١ وفي سنة ١٦٩٠ عاد الى كمبردج واستمرَّ في مباحثه الرياضـية ، وما عتم أن انتابه داء الأرق بين سنتي ١٦٩٢ و ١٦٩٤ . وقيل انه أصيب باضطراب عصبي حتى باختلال عقلي أيضاً وحينئذٍ كتب هيفن الى بستر : « لا أدري ان كنت قد علمت بما حدث للفاضل المستر نيوتن . وهو انه أصيب بالتهاب دماغي دام ١٨ شهراً . وقيل ان أصـدقاءه عالجوه بأدوية مختلفة . وحجزوه ومنعوه من الخروج » .

وقد حاول أصدقاؤه مرة أن يردوه الى عمله في سنة ١٦٩٥ ومنهم رن وصديقه تشارلس مونتاجو ولورد هاليفاكس الذي كان سابقاً أستاذاً في كلية الترينتي، ثم وزيراً للمالية بعد ذلك. وعرضوا عليه وظيفة مراقب مصلحة سك النقود. فقبل الوظيفة وبقي أستاذاً في كمبردج . وبعد ٤ سنين صـار مدير المصلحة . وفي تلك السنة انتخب واحداً من الثمانيـة الأجانب لعضوية الأكاديمية الفرنساوية في الفرع العلمي .

في سنة ١٦٩٦ نشر جون برنولي الرياضي السويسري رسالة على رياضيي أوربا يقترح فيها عليهم حل قضيتين رياضيتين، وأمهلهم ستة أشهر. وفي ٢٩ من يناير ورد لنيوتن في فرنسا نسختان مطبوعتان من هذه الرسالة . وفي اليوم التالي أرسل نيوتن حلهما الى مونتاجو الذي كان حينئذٍ رئيس المجمع العلمي الفلـكي . فأرسل الحلاَّن بلا توقيع الى برنولي ، ولـكن برنولي لما اطلع على الحلين وهما بلا توقيع قال : « عرفتـه كما يعرف الأسد بجبروته . هو نيوتن » .

وقضى لبنتز المنافس لنيوتن في الرياضيات ستة شهور يفكر في المسألتين ولم يوفق الى حلهما .

وفي سنة ١٧٠١ استقال نيوتن من الأستاذية في الترينتي (كلية الثالوث) وانتقل الى لندن وبقي قائماً بواجباته كأستاذ ذي انتاج ممتاز الى أن توفي سنة ١٧٢٧

وكان في سنيه الأخيرة ذا مقام عظيم يذكر له . ففي سـنة ١٧٠٣ كان رئيساً للمجمع العلمي الملـكي . وبقي ينتخب لهذا المنصب كل سنة الى آخر حياته .

٩ — مقامه

زارت الملكة حنة كمبردج سنة ١٧٠٥ ونزلت ضيفاً على الدكتور بنتلي رئيس كلية الثالوث وهناك منحت نيوتن وسام فارس ولقب سير .

وفي ذلك الحين ابتدأ النقاش بينه وبين لبنتز بشأن حساب التكامل والتفاضل . وقد نشرت إحدى المجلات مقالاً بلا امضاء يزعم فيه كاتبه ان نيوتن اقتبس فكرة فن السيالة Fluxion من لبنتز . ولكن من يصدق ان ذلك الدماغ العظيم تتدنى نفسه الى اقتباس نظرية رياضية من غيره وهو رب الرياضيات .

واستمرت المناقشة بينه وبين لبنتز سنتين الى أن مات لبنتز سنة ١٧١٦ ولكنها استمرت بين الرياضيين الآخرين نحو قرن .

ومات نيوتن بعلة الحصاة في ٨ مارس من سنة ١٧٢٧ ودفن باحتفال عظيم يليق بعظيم مثله في دير وستمنستر .

١٠ — نبوغه

لم يقتصر نبوغ هذا العبقري العظيم على ضرب واحد من ضروب العلوم والمعارف ، بل شملها جميعاً . كان رياضيًّا بالفطرة . لم يسبقه أحد في إدراك الرياضيات العليا كأنها سجية في عقله ، فلا يُعنت فكره في فهم قضاياها، فكان اذا رأى شكل قضية هندسية واطلع على نص القضية يفهم البرهان من غير أن يدرسه أو يطلع عليه ، واستنباطه لحساب التفاضل والتمام الذي تحل به معضلات العمليات الرياضية يدل على ان عقله كان من درجة أسمى من مستوى عقل البشر . وله مصنفات في الجبر والمعادلات وفي الهندسة .

كان أيضاً عالماً كيماويًّا . وله في الكيمياء كتاب بحسب ما كان علم الكيمياء في عصره وربما توفق لزيادة على ما كان .

وأما في العلوم الطبيعية فمباحثه في النور وفي نواميس القوة والحركة كما هي محصية في كتابه « المبادىء » لا تزل الى اليوم مستند أهل العلم الطبيعي . وله مصنفات في الفلك والنظام الشمسي .

ومع كل دراساته العلمية التي أحاطت بكل العلوم في الطبيعة والكون كان عالماً في

اللاهوت وله مباحث في العقيدة بوجود الله . ولكنه لم يكن يعتقد بالتثليث — وكيف يمكن ذلك العقل المنطقي الرياضي أن يقتنع به .

١١ — أخلاقه

كان دمث الأخلاق لا يغضب ولا يعادي ولا يحقد ، حتى انه إذا قسي عليه في جدال عدل عن الموضوع تحاشياً للنفار والجفاء . ولذلك لم يكن له أعداء بل أحباء معجبون .

وعلى سموّ عقله واتساع دائرة علمه كثير التواضع لا يفخر ولا يدعي ولا يتبجح .

وحين كان صحبه حوله يعجبون بسعة علمه وسمو عقله كان يقول : «أراني طفلاً يلهو على شاطىء من أوقيانوس المعرفة حتى إذا عثرت على صدفة أخذتها . وهل يفرغ البحر من الأصداف » ؟

وعاش عزباً . ويقول انه قلما شغل قلبه الحب . ولعله لم يحب . ومن كان مشغول اللب دائماً لا يبقى عنده وقت للحب .

قيل انه ترك ثروة تقدّر بنحو ٣٢ الف جنيه . ولم يكن مسرفاً وانما كان محسناً جواداً يعمل الخير ليس لذويه فقط ، بل لكل من يعرف بفاقته وبؤسه .

لا يزال أساطين العلم منذ عهده الى اليوم وبعد اليوم يضعونه في مقام الملاك في دولة العلم ، أو الجبل الشامخ المشرف على روابي المعرفة .

قال لابلاس : إن كتاب « المبادىء » الذي صنّفه نيوتن أعظم نتاج عقلي ظهر في العالم

وسألت ملكة بروسيا ذات يوم لبنتز (خصمه) رأيه في نيوتن . فقال : إن كل ما أنتجه العقل البشري منذ بزوغه الى اليوم من الفنون الرياضية وأساليبها لا يساوي ما انتجه نيوتن .

وكان كبار العلماء من معاصريه مثل هوك ، وهالي ، وبويل في انكلترا ، وهوجنس في هولاندا ، وتورنلي في ايطاليا ، وباسكال في فرنسا يشاركون الفيلسوف لبنتز الألماني عقيدته في عبقرية نيوتن .

وفي عصرنا قال تجايمس تجينز عنه إنه أعظم العلماء على الاطلاق . وقال اينشطين : « ان ما جاء من النظريات العلمية الطبيعية بعده لم يكن الا نموًّا طبيعيًّا لنظرياته » . ولذلك لم ينقض اينشطين رأي نيوتن في الجاذبية كما ظنّ البعض . بل هو زاد على تلك الدوحة غصناً ، كما انه لم ينقض هندسة اقليدس بل زاد مداها .

الفصل الثاني

القوة القصوى

١ — البديهيات

متى شرع الطفل يستوعب شيئاً من الأحداث التي تطرأ عليه يشرع أيضاً يسأل عن أسباب بعضها مما يراه مستجداً أو مغايراً لما تكرّر له وألفه. يسأل مثلاً لماذا لا يخطف الكلب الجبن عن المائدة وهو يعهد الكلب يأكل الجبنة اذا رآها على الأرض. ولماذا ليس له وشم في يده كما في يد آخر رآه لأول مرة وهو يظن ان الوشم خلقة في اليد. أو لماذا ليس لأبيه أسنان من ذهب كما لجاره. ونحو ذلك. أعني أنه منذ يسعى يشرع يظن أن لكل شيء سبباً. ولهذا تكثر على الطفل الأسئلة لما هو معلوم.

ولكنه لا يسأل البتة لماذا تطلع الشمس كل صباح من وراء أفق الشرق وتغرب وراء أفق الغرب. ولا يسأل لماذا لا يستطيع أن يرفع حجراً كبيراً وهو يستطيع أن يرفع حصاة. ولا يسأل لماذا العصفور يطير وهو لا يطير.

ان ما وعى له أولاً وهو يراه كل يوم لا يسأل عن سبب له لاعتقاده انه أمرٌ طبيعي، فكأنه بديهي عنده، وأما ما يستجد لادراكه وشعوره يود أن يعرف له سبباً.

ما أكثر البديهيات عند الطفل. فطلوع الشمس وغيابها. واحراق النار وألمه، والجوع والعطش والنعاس الى غير ذلك مما لا يحصى — كلها بديهيات عند الطفل. ولكن عند الناضجين ولا سيما المثقفين فلكل هذه أسباب أو لا بدَّ من تعليلها وتفسيرها وتبيان علل لها. حتى لطلوع الشمس كل صباح وغيابها كل مساء أسباب كما هو معلوم مهما تراءيا بديهيتين.

وقد تطوّع بعضهم الى انكار كل بديهية حتى البديهيات الرياضية كقولك: «الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين». و«الخطان المتوازيان لا يلتقيان». و«العددان اللذان يساوي كل منهما عدداً ثالثاً هما متساويان». والحقيقة ان هذه الاوليات ليست بديهيات وانما هي تعريفات. فاذا قلنا الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين عنينا ان الناس

اصطلحوا على تسمية أقرب مسافة بين نقطتين بالخط المستقيم: فكأن الكلمة وتفسيرها مترادفان. وكذلك سموا الخطين اللذين كيفما امتدا في سطح واحد لا يلتقيان خطين متوازيين. وقضية الخطوط او الكميات الثلاثة المتساوية كل منهما يساوي كلاً من الخطين الآخرين أو الكميتين الأخريين هي تحصيل حاصل، كما ان الأربعة تساوي ٢ و٢ هي تحصيل حاصل والنكتة في التعبير .

ومعنى ذلك انه ليس تحت شيء بديهي بالمعنى الذي نقصده . العقل لا يعرف شيئاً بالبديهة كما نظن وانما يعرفه بتكرار الملاحظة حتى يعتقد انه شيء طبيعي لا يحتاج الى برهان. فسماه « بديهية » . ولا شيء أشد بداهة من قولك لا يوجد شيء في مكانين في وقت واحد معاً . ولكن بحسب ناموس النسبية هذا ممكن لشخصين راصدين في مكانين مختلفين .

واذا سألت العامي : لماذا المياه تجري من اعالي الجبال الى أسافل الاودية ثم الى البحر دهش لسؤالك هذا وقال : « ويك أتريد أن تصعد المياه من الاسافل الى الاعالي ؟ » .

تقول له : « لمَ لا ؟ » .

يزداد دهشة واستغراباً ويقول « هذا مستحيل »

— « قل لي . لماذا هو مستحيل ؟ ماذا يمنع ان تصعد المياه من الأسافل الى الأعالي ؟ ماذا يرغمها ان تنزل ولا تصعد ؟ » .

حتى اذا تحير ولم يحر جواباً لجأ الى ما وراء الطبيعة وقال : « هكذا خلقها الله . خلقها تنزل ولا تصعد » .

وإذا سألته : لماذا تسقط التفاحة عن الشجرة إذا تقادم نضجها ؟ لماذا لا ترتفع في الفضاء ؟ استهجنَك لهذا السؤال لأنه لا يرى سبباً لهذا الشيء المألوف عند جميع العقول منذ آدم إلى اليوم، وهو أن الأشياء تسقط إلى تحت ولا ترتفع إلى فوق من تلقاء نفسها أو إذا لم تقذف قذفاً بقوة، وأخيراً مصيرها أن تهبط إلى تحت . هذا أمر بديهي عنده كما أن طلوع الشمس صباح غد وموج البحر الخ كل هذا بديهيات عنده .

ولكن نيوتن لم يسلم أن سقوط التفاحة شيء بديهي . بل قدّر له سبباً وجعل يفكر في السبب . وعبرت القرون على الكرة الأرضية والعقول حتى الفلسفية منها تعتقد أن سقوط التفاحة وانحدار الماء وغير ذلك من أشكال السقوط إنما هي أحداث طبيعية . أي

هي من سجايا الوجود . ولا سبب لها ولا تحتاج إلى برهان . فقال هذه بديهية .

لم يخطر لأحد أن يبحث عن هذا السر العجيب الغامض.. ولكن نيوتن لم يقتنع بهذه البداهة . فرام أن يفهم لماذا سقطت التفاحة أمام نظره من تلقاء نفسها ولم ترتفع إلى فوق . ففكر كل حياته ومات وهو لم يفهم ذلك السر، ولا فهمه أحد آخر إلى الآن ، وإنما خمنوه تخميناً . ولذلك اضطرّ العقل البشري أن يرضخ لحكمة الطبيعة الغامضة ويقول : ليس هناك سر . فما ذلك إلاّ إرادة الطبيعة . كذا أرادت الطبيعة وكذا يكون . واللاهوتي يقول : هناك يد الله تعمل .

على أن نيوتن إذا لم يعرف ذلك السر العميق الخفي فقد عرف بتفكيره البعيد الغور ناموس ذلك السر ومقتضياته . وحسبه هذه المعرفة وكفى

اكتشف أن لذلك السقوط سنة سرمدية نظامية رياضية. وظهر بعدئذٍ للعلماء أن جميع سنن الطبيعة رياضية كأن الطبيعة نفسها أستاذ رياضي ، أو بالأحرى إن الله تعالى البارىء عالم رياضي أعلى وقد برأ الكون كله على قواعد رياضية . وكذلك لسقوط الأجسام من أعلى إلى أسفل ناموس طبيعي رياضي . وهو ما جعل نيوتن يفكر ويبحث عن هذا الناموس .

٢ — اكتشاف نيوتن السر

ولما كان نيوتن قد علم من كتابات كوبرنيكس وبعض أسلافه من العلماء إن الأرض كرة تدور حول نفسها وتطوف حول الشمس في مدار (فلك) واسع أدرك أن الأجسام تسقط في اتجاه واحد نحو المركز فخمن أن في مركز الأرض قوة غير منظورة تجذب الأجسام نحو المركز .

لما رأى نيوتن أن التفاحة أو أية مادة أخرى أينما كانت فوق سطح الأرض تسقط سقوطاً محتمًا الى الارض ، أي انها تتجه حتماً الى مركز الأرض ، تنبه الى أن هذه القوة الجاذبة نحو المركز منتشرة في جميع الجهات بالتساوي . يؤيد ذلك ما علمه من ناموس الأجسام الساقطة الذي اكتشفه جاليليو [1] ان الجسم كلما تقدم نحو المركز كان أسرع هبوطاً.

(١) مات جاليليو يوم ولد نيوتن . وكأن علم الفلك شرع يتعرى من علم التنجيم ويتسلسل سلماً نقياً منذ عهد كوبرنيكس، فكبلر، فجاليليو ، فنيوتن الخ

(انظر تفسيره في الملحق الأول في آخر الكتاب)

وعلم نيوتن ورأى أن هذه القوة تشتد كلما قرب الجسم الساقط الى المركز . فهي إذن في أشدها عند المركز وأضعفها كلما ابتعدت عن المركز ، ولكن على أي حساب تقوى وتضعف ؟ أو ما هي قاعدة استقوائها وضعفها ؟

وكان طيخو براهي قد سجل لعدة سنين مدارات (أفلاك) السيارات التي كانت معروفة لعهده مستعيناً بالمقراب (التلسكوب) الذي اخترعه جاليليو . ثم جاء بعده كپلر ودرس أرصاد طيخو براهي هذه درساً دقيقاً . فلاحظ أن هذه السيارات لا تسير في الفضاء اعتباطاً بلا نظام ، بل هي تسير في دوائر على أبعاد مقررة من الشمس . وليست مداراتها مستديرة تام الاستدارة بل هي اهليلجية الشكل قليلاً والشمس في أحد محترقي الاهليلج . ولاحظ أيضاً ان سرعاتها متناسبة وبالتالي مدات دورانها متناسبة أيضاً بالنسبة الى أبعادها عن الشمس . فاكتشف لحركاتها ثلاثة نواميس ثابتة لا تتغير .

١ — جميع أفلاك السيارات اهليلجية كثيراً أو قليلاً (الفلك هو المدار الذي يدور فيه السيار حول الشمس . والاهليلجي منه هو البيضي الشكل أي دائرة مستطيلة Oval) .

٢ — خط القوة Radius Sector في كل سيار يمسح في أوقات متساوية مساحات متساوية (خط القوة هو الخط الوهمي الممتد من مركز الشمس الى السيار يطول أو يقصر حسب ابتعاد السيار عن الشمس أو قربه منها في فلكه الاهليلجي)

٣ — نسبة مربع المدة التي يقضيها السيار الواحد الى مكعب بعده عن الشمس كنسبة مربع مدة أي سيار آخر الى مكعب بعده (١) .

٣ — الناموس أو القانون

ثم جاء نيوتن فدرس ملاحظات كل من كوپرنيكس ، وجاليليو ، وطيخو براهي ، وكپلر درساً دقيقاً فاستنتج منها ناموس القوة التي تجذب الأجسام نحو المركز ، إذ ثبت له أن مركز الشمس يفعل في السيارات التي حولها كما يفعل مركز الأرض في القمر وفي الأجسام التي عليها . أما ما هي هذه القوة الفاعلة فلم يَدْرِ . وإنما دَرَى ان هناك قوة ، وأن لها نظاماً

---

(١) ترى شرح هذا في الملحق الرابع

رياضيًّا ، فسماها جاذبية واستخرج نظامها الرياضي وهو الناموس الذي نحن بصدده :

ان القوة التي تجذب الاجرام أو الاجسام نحو المركز تنقص كمربع البعد عن المركز .

مثال ذلك إذا كان الجرم المنجذب نحو المركز على بعد مقياس واحد (قل ميلاً أو فرسخاً أو ما شئت) يزن $\div 1^2$ وزنة (وأحسب الوزنة رطلاً أو طنًّا أو ألف طن كما تشاء) فعلى بعد مقياسين يزن $\div 2^2$ وعلى بعد ٣ مقاييس $\div 3^2$ وعلى بعد ٤ مقاييس يزن $\div 4^2$ وعلى بعد ٥ يزن $\div 5^2$ وهلمّ جرًّا .

هذا هو ناموس الجاذبية [1] الذي اكتشفه نيوتن ورأى انه يصدق على جميع حركات السيارات وأقمارها . فالسيارات كلها تدور من حول الشمس بحسب هذه السنّة . والقمر يدور من حول الأرض حسب هذه السنة أيضاً.

(وسترى تتمة الناموس في الفصل الثالث)

وأخيراً رأى علماء الفلك الطبيعي Astrophysics ان جميع الأجرام أفراداً وجماعات تجري في الفضاء في أفلاك (مدارات) حول مراكز معينة حسب هذه السنّة أيضاً .

وفي يقين العلماء الآن ان سنة الجاذبية هي سنة تحرّك الأكوان على الاطلاق .

٤ — سر الدوران

وهنا لا بدّ من أن يعترض القارىء اعتراضاً وجيهاً قائلاً : ان دوران القمر من حول الأرض ودوران الأرض وسائر السيارات من حول الشمس، ودوران مجموعات الأجرام من حول مراكزها، ودوران الأكوان العظمى من حول مركزها الواحد[2] — جميع هذه الدورانات ليست كسقوط التفاحة على الارض ولا كانحدار المياه من الأعالي الى الأسافل ولا كتساقط الشهب الى غير ذلك. تلك الأجرام تدور من حول مراكزها والتفاحة تهبط الى جهة المركز حيث تستقر على السطح الذي يحول دونها ودون المركز . فكيف يطبق ناموس سقوط الأجسام على

(١) انظر شرحه في الملحق الثالث في آخر الكتاب

(٢) الكون مجموعة مجرات كمجرتنا المسماة درب التبان وكلها تدور من حول مركز واحد . ويقال ان عددها نحو مليوني مجرة.

دوران الأجرام في أفلاك — ليس بين نوعي الحركة المذكورين من تماثل أو تشابه ، حتى يصدق عليهما ناموس واحد [١] .

هذا هو الظاهر في الحقيقة ، ولكن لا بدَّ له من تفسير يتضح منه أن نوعي الحركة المذكورين يخضعان لناموس واحد ، الأمر الذي انتبه له نيوتن جيِّداً : وهو يدلك على سموّ عقل هذا الذي لا تكفي لوصفه كلمة عبقري .

ان حركة الدوران حول المركز نتيجة فعل قوتين متعامدتين ، الأولى اندفاع الجرم في الفضاء بقوة خاصة (سنفرد لها نبذة خاصة بعد أن نفرغ من هذا التفسير الذي نحن بصدده — النبذة الخامسة التالية) . والثانية جذب المركز له بقوة جاذبية نيوتن — نسميها « جاذبية نيوتن » تمييزاً لها عن أية قوة أخرى محركة كما سيتضح فيما بعد .

لو كان الجرم يندفع في الفضاء بقوة واحدة فقط لكان يندفع في خط مستقيم. هذا أمر بديهي إذا شئت أن تعتقد في البداهة وإلاَّ فعليك بالاختبار. وإذا كان لايسير في خط مستقيم فلأي ناحية يميل وما الذي يميله ؟ ـ ليس له طريق طبيعي الاَّ الطريق الذي يندفع فيه وهو الطريق المستقيم .

ولكن إذا طرأت عليه قوة أخرى في خط اندفاعه زادت سرعة اندفاعه في خط سيره. واذا طرأت عليه في خط معاكس لخط اندفاعه ردَّته الى الوراء ان كانت أقوى من القوة التي دفعته أولاً ، أو اذا كانت أضعف ارتدَّت هي ولكنها تنقص من سرعته بقدرها. ولكن اذا طرأت عليه قوة في خط معارض لخط اتجاهه حوَّلت اتجاهه الى اتجاه آخر بين اتجاه القوتين معاً كما هو واضح في كتب الطبيعيات ويعلمه جميع طلبتها .

فاذا قذفت أية قذيفة في الفضاء بقوة يد أو قوة منجنيق أو قوة مدفع وكان الجو خالياً من الهواء الذي يقاومها ، وجب أن تنطلق في الفضاء في خط مستقيم الى ما لا نهاية له ، لولا أن قوة جاذبية الأرض تعترض خط اندفاع القذيفة فتستميله نحوها . وحينئذٍ تتجه القذيفة في خط ثالث هو نتيجة خطَّي القوة المتعارضين وَفقاً للقاعدة التي ذكرناها آنفاً .

(١) انظر الملحق الثاني . قانون المسارعة الدورانية .

ولما كانت قوة الجاذبية نحو المركز أقوى ، فلا بدَّ من أن تسير القذيفة الى مركز الأرض . فنرى خط سيرها ينحني الى أن تسقط على سطح الأرض أخيراً . ولو كانت الأرض غازية لطيفة رقيقة المادة ، لانحدرت القذيفة الثقيلة الى مركز الأرض .

ما انحنت القذيفة في سيرها الاَّ لأن قوة الجاذبية نحو مركز الأرض أقوى من القوة التي دفعتها إلى الفضاء .

لو كانت القوة التي دفعتها في الفضاء في خط أفقي فوق طبقة الهواء تستطيع أن تقذفها بسرعة ٤ أميال وتسعة أعشار الميل في الثانية ، لما سقطت هذه القذيفة الى الأرض بتاتاً ، بل لبقيت تدور حول الأرض كقمر صغير حولها الى أبد بعيد جداً ، لأن القوة التي دفعتها في تلك المنطقة حول مركز الأرض تعادل قوة جاذبية مركز الأرض لها (١) في تلك المنطقة . أي أن القوتين متعادلتين فتسير القذيفة في خط متوسط بين خطي القوتين وهو بينهما عند ٤٥ درجة لكل منهما كما هو معلوم للرياضي الطبيعي (انظر قانون المسارعة في الملحق الثاني)

٥ — القوتان المتعامدتان

وهنا يبدر الى ذهن القارىء هذا السؤال :

فهمنا ان القوة التي كانت تستميل القذيفة نحو المركز بحيث تسير في خطٍّ منحنٍ هي قوة جاذبية مركز الأرض ، وكذلك هي نفس القوة التي تحني خطوط جميع السيارات من حول الشمس . فهمنا ذلك . ولكن ما هي القوة الأخرى التي قذفت بالقمر وبالسيارات أولاً فاندفعت في الفضـاء ثم لاقتها قوة الجاذبية فاستمالتها وحنت خطوط اندفاعها ؟ .

هذا سؤال وجيه أيضاً . وله تفسير لا نقول إنه بسيط ، ولكن يمكننا ان نقول انه تفسير بديع .

هذا البحث يردنا الى : أولاً ، كيفية انبثاق السيارات من الشمس . وانبثاق القمر من الارض . بل يردنا ثانياً الى كيفية تكوُّن الأجرام . وهذا نرجئه الى الفصلين الثامن والتاسع .

(١) البرهان في الملحق السادس في آخر الكتاب

وأما انبثاق السيارات والاقمار . فهو انتثار هذه الاجرام الصغيرة من أمهاتها بأسباب اختلف عليها فقهاء الفلك . ونحن نعبأ بأحدثها وأصوبها وهو ما شرحه العلامة الكبير السير تجايمس تجينز . ولا محل لشرحه هنا بالاسهاب وانما نشير الى مجمل النظرية .

وهو ان الأجرام تتجاذب فيما بينها بحكم سنَّة الجاذبية . فاذا تقارب جرمان في سيرهما وهما في الحالة الغازية ارتفعت من سطوحهما أكوام بفعل الجذب كما ترتفع مياه البحر عندنا بفعل جاذبية القمر ، فيحدث ذلك على الشاطىء جزراً ثم مداً بعد ابتعاد القمر . هذا نفس ما حدث للشمس حين اتفق اقترابها من جرم آخر . فكلاهما فعل في الآخر مثل ما يفعل القمر في بحار الأرض . والأكبر يفعل بالأصغر اكثر مما يفعل هذا به .

سُلَّ ذلك الجرم من جرم الشمس كومةً عظيمة تفتتت بعد تباعد الجرمين — الشمس والجرم الآخر الاكبر — وكان الفتات هذه السيارات .

وعلى هذا النمط ولد القمر من الارض .

ان بيان ميلاد السيارات والاقمار ليس الجواب المباشر لسؤال القارىء الآنف الذكر، بل هو توطئة له

اذا كنت ملمّاً بشيء من علم الفلك، فانك تعلم ان جرم الشمس ككل جرم يدور على محوره، ويتم الدورة كل ٦٥ و ٢٤ يوماً تقريباً . واذا علمت ان محيط الشمس الاستوائي أي محيط منطقتها الوسطى ، نحو ٢،٧١٥،٧٤٣ ميلاً تقريباً علمت ان سرعة ذلك المحيط نحو ٩٣و٠ من الميل في الثانية . في حين ان سرعة محيط الارض أقل من ثلث ميل في الثانية .

وندرك حينئذٍ ان الكتل التي تنتثر منها تنتفض بمثل هذه السرعة أو سرعة فائقة على كل حال . ولكنها تنقذف بنفس اتجاه الدورات . لانه معلوم طبيعيّاً بالملاحظة والاستقراء (وبالبديهة اذا شئت) ان الجسم يأخذ دائماً نفس حركة الجسم الذي انفصل عنه ونفس سرعته .

إن جميع الاجرام تدور كالشمس على محاورها في اتجاه واحد على الاطلاق . ثم إنها تسير دائرة من حول مركز عام لها في نفس ذلك الاتجاه، كأنها موكب حافل عظيم يطوف في الفضاء

من حول ذلك المركز العام بسبب سنة الدوران أيضاً (١) .

الجرم الذي مرّ بمقربة من الشمس أو هي مرّت بمقربة منه وهو أضخم منها جدًّا كان يجذب كتلة الشمس كما تقدم القول في نفس اتجاه دوران الشمس على محورها واتجاه سيرها واتجاه سيره هو أيضاً في اتجاه واحد ، فاتخذت تلك الكتل المنتثرة من الشمس بفعل ذلك الجرم الغليظ الذي كان والشمس يتقاربان وهما في اتجاه واحد أيضاً ولكن أحدهما أسرع من الآخر — اتخذت تلك الكتل اتجاهاً أفقيًّا بالنسبة إلى الشمس فكان ذلك الاتجاه هو الخط المعامد أو المعارض لخط قوة جاذبية الأرض .

ولما تباعد ذلك الجرم والشمس بقيت تلك الكتل السيارة تجري في الفضاء بعيدة عن سطح الشمس ، ولكنها لم تستطع أن تشرد في الفضاء لأن قوة جاذبية الشمس كانت لا تزال تكبحها وتمنع شرودها ولا سيما لأن ذلك الجرم شرع يفارقها وتناقصت قوة جذبه لها وضعفت جدًّا .

ولا يخفى عليك أن مثل ذلك حدث في الجرم الذي سطا على الشمس وارتفعت منه كتل. ولكنها لم ترتفع أكثر مما يرتفع الماء عندنا في حالة المد ، لأنه أكبر من الشمس جدًّا ، فلا تؤثر الشمس فيه أكثر مما يؤثر القمر على أرضنا .

وهنا ملاحظة أخرى لا بدّ من انتباه القارىء لها وهي أن الشمس كانت أكبر حجماً منها الآن ، وكانت ألطف كثافة وكانت سرعة دورانها المحورية أشد . فالأجرام المنتثرة منها أخذت تلك السرعة القديمة .

ذلك هو مصدر « القوة الخاصة » التي أشرنا اليها في نبذة سالفة (٤) القوة التي كانت تدفع الكتلة المشتقة في خط معارض لخط جاذبية الشمس الذي كان يحنيه . هذه هي القوة التي تعاونت مع قوة جاذبية المركز في الزام السيارات أن تدور حول الشمس .

فترى ان مصدر القوتين واحد . الجاذبية — جاذبيتان من جرمين مختلفين حجماً وسرعة تعاونتا في احراج جرم أن يدور حول مركز .

(١) بعض أقمار السيارات تدور في اتجاه مخالف للاتجاه العام . والى الآن لم يعلل الفلكيون هذا الشذوذ تعليلا مقنعاً

ثم هناك نتيجة أخرى لانسلاخ كتل من جرم وبقائها تطوف من حوله كما حدث في انسلاخ السيارات من الشمس . وهذه النتيجة هي أن الكتلة المنسلخة من الجرم (الشمس مثلاً) تكتسب منها حركة الدوران على محورها . إذ هو معلوم أن جميع كتل الشمس في بدنها في ثورات دورانية عنيفة تتقلب ملتفة حول أنفسها . فاذا أفلتت من الشمس بقيت لها هذه الحركة الالتفافية . ولهذا ترى أن السيارات كلها تدور على محاورها ، حتى القمر الذي لا يرينا الا وجهاً واحداً منه يتم في الفضاء دورة واحدة على محوره كلما أتمّ دورة من حول الأرض. أي كل شهر قمري .

يكفي ما تقدم بياناً لتسبيب الجاذبية حركة الدوران من حول المركز ومن حول المحور. وقد ظهر منه بوضوح أن التفاحة الساقطة على سطح الأرض لم تدر حول الأرض كالسيار لأنه ليس ثمة قوة أخرى معامدة لخط قوة الجاذبية كافية لكي تحرجها الى الدوران . وكذلك القذيفة التي قذفتها اليد أو البندقية أو المدفع، فانها سقطت أخيراً على سطح الأرض لأن القوة القاذفة لم تكن مكافئة لقوة الجاذبية لكي تمنحها حركة الدوران .

بقي بحث خطير الشأن في تعميم سنة الجاذبية على كل جرم وكل جماعة أجرام . وكل جزء من أجزاء الجرم وكل ذرة من ذراته وذريراته . وسنفرد له فصلا خاصا فيما يلي .

الفصل الثالث

شمول ناموس الجاذبية

١ — تجاذب الكتل

أشرنا فيما سبق الى أن ناموس الجاذبية الذي ذكرناه لنيوتن ليس إلاَّ إجمالاً للناموس فهو غير كامل كما ضبطه نيوتن . وقد أشرنا الى ذلك في نبذة ٣ من الفصل السابق . وقد ضبطه نيوتن هكذا : —

« كل ذرَّة من كل جرم تجذب كل ذرَّة من ذرَّات الجرم الآخر بنسبة مربع البعد بينهما بالقلب » : يعني أن الأرض والشمس تتجاذبان بحاصل ضرب عدد ذرَّات كل منهما بعدد ذرَّات الآخر بنسبة مربع البعد بينهما هكذا :

$$\text{الجاذبية} = \frac{\text{الارض} \times \text{بالشمس}}{\text{مربع المسافة بينهما}}$$ وبعبارة رمزية

$$ج = \frac{ض \times ش}{م^2}$$ باعتبار ان ج رمز الجاذبية وض رمز الارض وان ش رمز الشمس و م رمز المسافة

وستتضح هذه المعادلة البسيطة جيِّداً في الملحق الثالث قسم ثان في آخر الكتاب .

ان تجاذب الأجرام هو بالحقيقة تجاذب ذرَّاتها من جرم الى جرم بنسبة مربع البعد بينهما. ولا يخفى عليك ان الثقل هو عبارة مرادفة للجذب . وبالتالي هو مقدار الجذب نفسه . فثقل القنطار مثلاً على الارض هو مقدار جذب ذرات الأرض لذرَّات القنطار بنسبة بُعد مركز الأرض . وإذا روعيت كتلة كل من القمر والأرض ونصف قطر كل منهما كان القنطار على سطح القمر يزن ٦ قناطير على الارض .

ومن حيث البعد عن المركز ترى ان الجسم يزن بالميزان الحلزوني على قمة الجبل أقل مما يزن على شاطىء البحر ، لأن هذا أقرب من ذاك الى مركز الأرض .

٢ — توازن الاجرام حول المركز

وهو معلوم في علم الطبيعيات ان الجسم مهما اختلف شكله الهندسي واختلفت كثافة كتلته ولطافتها فلابدَّ من أن يكون له مركز تتوازن جميع أجزائه من حوله. ويسمى هذا المركز

« مركز الثقل » . مثال ذلك : اذا كان عندك علبة مستطيلة من خشب وقد طوقت بعض حدودها بالحديد ووضعت في جانب منها رصاصاً وملأت باقي فراغها بالورق والقطن فلابدَّ أن تكون في ناحية منها نقطة تتوازن من حولها جميع أجزائها ومحتوياتها حتى اذا علقت بحبل في تلك النقطة المركزية كانت متوازنة فلا تميل الى جانب دون آخر . هذه النقطة المذكورة هي مركز الثقل .

والقمر والأرض باعتبار انهما جرمان متلازمان كجرم واحد ومتجاذبان ، فمركز الأرض يختلف باختلاف موقع القمر من الأرض . ويكون دائماً أقرب إلى ناحية القمر وأبعد عن المركز الأصلي لأنه هو المركز المشترك بينهما .

كذلك المركز المشترك للشمس وسياراتها يتغير كل دقيقة بحسب تغير مواقع السيارات من حولها لأنها وسياراتها تعتبر كجرم واحد وتشترك جميعاً بمركز ثقل واحد .

وإذا اتفق في دهر من الأدهار ان جميع السيارات كانت في خط واحد من ناحية واحدة من نواحي الشمس أصبح مركز الثقل في الشمس أبعد عن مركزها الأصلي عدة أميال . ثم يعود فيقترب إلى المركز الأصلي تدريجيّاً كلما تشتتت السيارات من حول الشمس. وفي نفس ذلك الوقت تتغير مراكز السيارات أنفسها أيضاً حسب نسبة مواقعها بعضها إلى بعض وإلى الشمس.

٣ — تفاعل القوى الجاذبة

وتقارب السيارات بعضها من بعض يقوي التجاذب بينها وقد يقاوم جاذبية الشمس مقاومة زهيدة ، فتتغير سرعتها بسبب هذا التجاذب كما لاحظ الفلكيون ذلك جيداً

ولهذا السبب كان السيار أورانوس في بعض الازمان يختلف ميقاته وتختلف ايضاً سعة فلكه (أي مداره) وموضعه . فدرس هذا الاختلاف بعض الفلكيين وبينهم ليمونيه درساً دقيقاً طويلاً الى ان قرّر هذا ان هناك سياراً آخر يؤثر عليه فضلاً عن تأثير زحل جاره . وما لبثت المراصد ان اكتشفت السيار نبتون بحسب نبوءات ليمونيه وزملائه .

وبمثل هذا السبب وهذه الملاحظات الرصدية حُكِم بوجود السيار بلوتو الاخير ثم أكتشف كما تُنُبِّئ به وكان المتنبئون يعوّلون في تنبوءاتهم على تأثير الجاذبية في الاجرام المتقاربة والمتباعدة . وحساباتهم الدقيقة كانت تكشف ليس عن مواقع السيار المتنبأ به فقط بل عن بعض خواصه أيضاً كمقدار كتلته وحجمه وكثافته الخ .

وحاصل القول ان اكتشاف نيوتن لناموس الجاذبية مهّد الطريق لاكتشافات علمية عديدة فلكية وغير فلكية . وأثبت ان كل حركة في الكون انما هي تتجه بقوة الجاذبية . الجاذبية قوة القوى . القوة القصوى .

الفصل الرابع

مصدر القوى

١ — ظاهرات الجاذبية

الجاذبية مصدر كل قوة في الوجود على الأطلاق . ولايضاح ذلك نشرح ظاهرات القوى العاملة على الارض .

نأخذ أبسط هذه الظاهرات أولاً .

أقدم ما عرفنا من الآلات لإستخدام المياه المنحدرة المطاحن أو الطواحين المائيـة التي يُـدار فيها حجر الرحى بقوة المياه المنحدرة من علٍ في شبه بئر يجري اليها الماء ثم يندفع من كوَّة في أسفلها بزخم شديد مساوٍ لارتفاع البئر أي عمقها . فتصدم المياه أضلاع دولاب موضوع وضعاً دقيقاً ومحوره متصل في غرفة الطحن بحجر الرحى فوقه . فيدور هذا الدولاب ويدور به حجر الرحى على حجر آخر ثابت ويرسل القمح من ثقب كبير في الحجر الأعلى الى ما بين الحجرين فتسحق الحنطة بينهما

أما الدولاب الذي نحن بصـدده فهو قرمة غليظـة من الخشب مستديرة غرزت في محيطها الاضلاع التي أشرنا اليهـا آنفاً على أبعاد متساوية متقاربة وعرضها مائل نحو ٣٠ درجة على الأفق والمحور العمودي المار بالقرمة والمثبت فيها مركّز على حفرة صغيرة مستديرة مقعرة لـكي يدور عليها ، حتى اذا تدفقت الميـاه على الضلع الواحدة دفعتهـا فخلت محلها الضلع التي وراءها فيدفعها الماء فتأتي التي وراءها الى محلها . وهكذا دواليك فيدور الدولاب ويدور به حجر الرحى .

هذه أقدم عملية آلية تتحرك بقوة اندفاع الماء . ولا نعلم متى اخترعت ، ولا من اخترعها وكيف تنبه لها القدماء وأدركوا أن للمياه المنحدرة قوة يمكن استخدامهـا والانتفاع بها .

على نفس هذا المبدأ تستخدم الآن المياه المنحدرة لادارة الدِّينَمو لتوليد الـكهرباء . وأظن أن أول ما استعملت المياه المنحدرة لهذا الغرض بقوة كبيرة كان في شلالات نياغرا

في أميركا حيث تولد قوة نصف مليون حصان . والآن قد شاع هذا النمط لتوليد القوة في كل بلد في أميركا وأوربا حتى في لبنان أيضاً .

فكأن قوة الماء المنحدرة قد تحولت إلى قوة كهربائية كما لا يخفى . وهذه القوة تمتاز على القوة المائية بامكان نقلها إلى مسافات بعيدة بواسطة الأسلاك ، وامكان توزيعها بمقادير مختلفة حسب مشيئة الانسان ، واستعمالها لادارة الآلات المختلفة الأغراض ، وتحويلها إلى نور وحرارة وإلى أمواج كهرطيسية كأمواج الراديو مثلاً وإلى أغراض أخرى عديدة

فمن أين هذه القوة التي في المياه المنحدرة وقد أدارت حجر الرحى والدينمو (المحرك الكهربائي).

هي ثقل الماء الهابط . والثقل معادل للكتلة الهابطة. وسبب الثقل هو جذب كتلة الأرض للماء نحو مركزها . الماء هابط بفعل الجاذبية . إذن فالذي يدير الرحى هو الجاذبية . والذي يدير الدينمو هي ، أيضاً بفعل الماء الهابط ، الجاذبية .

ومن أين جاءت المياه المنحدرة .

من المطر الذي يسقط من الجو ويتغلغل في أتربة الجبال وشقوق صخورها ، والثلج الذي يهبط من الجو في الشتاء ثم يذوب في الصيف وينحدر بفعل الجاذبية .

ومن أين ماء المطر والثلج ؟

من بخار الماء الذي كان أخف من الهواء فتصاعد في الجلد ثم برد هواء الجلد فتقلص وانعصر ماء البخار منه فهبط مطراً أو ثلجاً . فالبخار كان وهو يتصاعد يعاكس فعل الجاذبية ، لأن الهواء أثقل منه فيرسب . فلما برد ثقل وهبط فكأنه كان بصعوده يختزن قوة الجاذبية . فلما هبط ردّ قوة الجاذبية التي كان يختزنها .

وما الذي بخّر الماء ؟

حرارة الشمس. فكأنها فعلت فعلاً مضادًّا لفعل الجاذبية الأرضية وخزنت بالبخار هذه القوة . وسترى ان الحرارة فعل جاذبي أيضاً .

قد يقول القارىء هناك دينمو يدور بقوة الآلة البخارية. وحجر الرحى يمكن أن يدور بقوة البخار. وكثير من الآلات تدور بها أيضاً . فمن أين قوة البخار هذه التي تدير الآلات؟

هو معلوم ان قوة الآلة البخارية ناتجة من تمدد البخار المائي . وهذا التمدد ناجم عن الحرارة التي تبعد الذرات بعضها عن بعض والصادرة من إحراق الفحم والحطب والبترول أو أي شيء يحترق . والحرارة حركة نشطت من الاشعاع الشمسي والحركة حاملة قوة . فالحرارة إذن قوة أيضاً .

ومن أين جاءت الحرارة للفحم حين كان يحترق مع إنه كان بارداً قبل الاحتراق .

كان الفحم وسواه نباتاً في الأصل والنبات نبت ونما بفعل حرارة الشمس ونورها . فبينما هو ينمو كانت الحرارة تخزن فيه ، أي الحركة كمنت . فلما أحرق اتحد الاكسجين مع ذرات الفحم وغيره مما يحترق . وأثار الحركة ثانية بصورة حرارة . فالحرارة قوة أيضاً .

ومن أين حرارة الشمس ؟ .

حرارة الشمس ونورها أيضاً شكلان لإشعاع واحد يسمى شعاعاً كهرطيسيًّا ، أي كهربائيًّا مغنطيسيًّا . وهو تموج من صنف تموج الراديو — كهرطيسي .

وما هو مصدر التموج الكهرطيسي ؟ .

٢ — تركب الذرة

هنا نرانا مضطرين أن نأتي باختصار وبكل بساطة على تركيب الذرة ، أي الجوهر الفرد Atom لكي نتأثر مصدر الكهرطيسية . وهو بحث طويل جداً يستغرق مجلداً فننوه به تنويهاً باختصار كلي .

الجوهر الفرد هو الجزء الأول للمادة لأنه لا يتجزأ كيمويًّا . ولكن العلماء رأوا أخيراً أنه يتجزأ كهربائيًّا . هو الجزء الذي تتألف منه أجسام المادة من حجر وماء وشجر ولحم والى ما لا يحصى مما يرى من أشكال المادة . والجواهر الفردة أي الذرات ٩٢ صنفاً كيماويًّا تختلف باختلاف اعداد العنصرين أي الذريرتين اللتين تتألف منهما الذرة (الجوهر الفرد) وهما الأُوَيّل (البروتون) والكهيرب (الالكترون) .

نواة الذرة تؤلف من بروتونات مفردة في الهيدروجين ومتعددة في ما سواه الى أن تبلغ ٩٢ بروتوناً في الاورانيوم جد الراديوم يصحبها ١٤٦ نيوتروناً . ولكل بروتون

كهيرب يقابله دائراً حول النواة في فلك كالسيار حول الشمس . والقوة التي تدير هذه الكهيربات من حول نفسها أولاً ثم من حول النواة في أفلاك ثانياً ، هي نفس قوة الجاذبية التي تدير الأرض حول محورها ثم حول الشمس .

دورانات النواة والكهيربات على محاورها ودورانات الكهيربات من حول النواة كلها في اتجاه واحد كدورانات السيارات حول الشمس .

فالذرة صغيرة كالهيدروجين أو عظيمة كالأورانيوم تعتبر نظاماً جاذبيًّا قائماً بذاته كالنظام الشمسي تماماً .

وهنا أتخيلك تتعمق في التساؤل عن أصل هذه القوة العظمى ، أمّ القوى ، أو عن مصدرها الأول — ما هو مصدر هذه القوة ؟

— إذن يجب أن نتعمق في البحث عن أصل المادة — الهيولي . فاليك البيان .

٣ — الهيولي

الهيولى ، أي ذرات المادة (الذرات الأصلية الأولى) هي أدق الذرات . هي أصغر من الكهيرب . إن ١٨٤٠ كهيرباً تساوي بروتوناً . والكهيرب إذا طبق على البروتون انحلاً بلمعة شعاع الى فوتونات أي ضويئات .

ينحل الكهيرب الى عشرة آلاف فوتون . فالبروتون اذن ينحل الى ١٨٫٤٠٠٫٠٠٠ فوتون والفوتون هو أدق أجزاء المادة . الى الآن لم يعرف إن كان الفوتون مؤلفاً من أجزاء أدق . يعتبر الآن هو المادة الأولى — الهيولى .

وجدت الهيولى او الفوتونات ، أو خلقها الخالق ، ولها ثلاث سجايا أو طباع أو خواص :

١ — خاصية الامتداد الثلاثي : الطول والعرض والسُّمك .

٢ — متحركة : تتحرك حركة دورانية على نفسها . دورة محورية . وجميعها في اتجاه واحد .

٣ — متجاذبة — يجذب بعضها بعضاً الأقرب فالأقرب . والأقرب أقوى من الآخر الأبعد بالنسبة لواحد آخر بينهما

هذه خواص ذريرات المادة الأولى

اذا لم تكن لها هذه الخواص الثلاث ولا سيما الأولى فماذا تكون ؟ اذا لم تكن ذات امتداد فهي عدم وليس للحيز نفسه وجود . إن الذي أوجد المكان أوجد المادة فيه . ولولا وجودها لما كان للمكان وجود . تصور الفضاء خالياً من المادة فهل تستطيع أن تتصور وجوداً . ينعدم المكان بانعدام المادة التي تشغله [١]

واذا لم تكن متحركة فما هي موجودة أيضاً . تصور أجزاء المادة أو ذراتها أو ذريراتها أو فوتوناتها أو مجموعاتها ثابتة غير متحركة . تصورها هكذا . فما الفرق بينها وبين العدم وكيف نحس بوجودها . بل قل لي كيف تتصور العدم . كيف تتصوره غير هذا الجمود المطلق . واذا لم تكن ثمت حركة فكيف يكون ثمت زمان . الزمان مقياس الحركة .

واذا لم تكن متجاذبة فكيف تتجمع في كتل وأجرام الخ . تصورها غير متجاذبة . تبقى ساكنة في أماكنها وحينئذٍ تكون كالعدم أيضاً .

نذهب الى أن لذريرات المادة الأولى هذه الخواص الثلاث الرئيسية ، لأن علماء الفلك الطبيعي والرياضي تحققوا ان لجميع الأجرام دورانات محورية في اتجاه واحد وان مجموعات الأجرام تدور من حول مراكزها في اتجاهٍ واحد أيضاً .

وكذلك علماء الجوهر الفرد — أي الذرة — لاحظوا ان ذريراتها الكهيربات (الكترونات) والبروتونات تدور على محاورها وتلك تدور حول هذه في اتجاه واحد أيضاً . ودورانها خاضع لسنة الجاذبية تمام الخضوع .

فمن هذه الملاحظات نستنتج ان جميع أجزاء المادة وجماعاتها من ذريرات وذرات وكتل وأجرام وجماعات أجرام سائرة في هذا الفضاء العظيم مواكب مختلفة وسرعات مختلفة بحسب البعد عن المركز . ولكنها كلها في اتجاه واحد . والعامل الوحيد في هذا السير هو الجاذبية . الجاذبية بين الذريرات وبين الذرات وبين جماعات الذرات وكتلها الخ [٢] ...

وأخيراً لك أن تقول ان كل حركة في هذا الكون الأعظم هي نتيجة قوة الجاذبية .

---

(١) تجد في كتابنا « هندسة الكون — النسبية » فصلا ضافياً بهذا المعنى تحت عنوان « الزمكان » (الزمان المكان)

(٢) تجد بحثاً في جاذبية ذريرات الذرة في كتابي « علم الذرة » الذي سيصدر قريباً ان شاء الله

٤ — ناموس السرعة

فهمت مما تقدم ان الجاذبيـة قوة ، والقوة تحدث حركة . وللجسم المتحرك سرعة بعدة معينة . فقدار السرعة اذن من فعل الجاذبية . وله ناموس مشتق من ناموس الجاذبية نفسه .

وقد علمت ان قوة الجذب تنقص كربع البعد عن المركز ، وكذلك مقدار السرعة ينقص بنسبة البعد عنه على هذه القاعدة : وهي نسبة مربع سرعة الجرم الواحد في الثانية الى مربع سرعة الجرم الآخر كنسبة بُـعد الآخر الى بُـعد الأول . وبعبارة رياضية أخرى أبسط .

مربع مقدار سرعة الواحد مضروب في مسافة بُـعده عن المركز تساوي مربع مقدار سرعة الآخر مضروبة في مسافة بُـعده عن الآخر .

وقبل التمثيل على هذا القانون نلفت نظر القارىء الى اصـطلاح العلماء على الأقيسة في النظام الشمسي . فقد اتفقوا على جعل بُـعد الارض عن الشمس أي طول المسافة بينهما مقياساً للابعاد أو المسافات الفلكية فسبوه متراً فلكيًّا واحداً (مع انه ٩٣ مليون ميل او ١٤٩٫٤٥ مليون كيلومتر) والأفضل ان نسميه « المقياس الفلكي » .

فاذا قلنا ان نصف قطر فلك المشتري ٥٫٢ مقياس فلكي عنينا ان متوسط بُـعد المشتري عن الشمس خمس مرات وعُـشر ان كبُـعد الارض .

(وكذلك سموا السنة الأرضية مقياساً زمنيًّا لدوران السيارات حول الشمس)

فبناءً على قانون السرعة المشار اليه إذا كانت سرعة الأرض في فلكها ١٨½ ميل بالثانية فيجب أن تكون سرعة المشتري ٨٫١ ميل في الثانية ، لأننا إذا طبقنا هذه القاعدة على هذه النسبة كان لنا .

مربع سرعة الأرض (١٨ ½) ٢ × بعدها بالقياس الفلكي وهو واحد = مربع سرعة المشتري (٨٫١)٢ × (٥٫٢) بعده عن الشمس هكذا (١٨ ½)٢ × ١ = (٨٫١)٢ × ٥٫٢ امتحن ذلك .

(لبرهنة القانون انظر الملحق الخامس بآخر الكتاب) .

الفصل الخامس

سر التجاذب

١ — نظرية الايثر

أول عقبة قامت أمام نظرية الجاذبيـة هي الإجابة على السؤال الآتي : ما هي الوسيلة التي تنتقل عليها أوفيها أو بها هذه القوة من ذريرة الى ذريرة ومن جرم الى جرم ؟ — لأنه إذا كانت الذريرات كالأجرام تدور بعضها حول بعض بفعل قوة الجاذبية فاذاً بينها فراغ تحيط به أفلاك (مدارات) فكيف تعبر تلك القوة هذه المدارات . وباصطلاح العلماء كيف يمكن أن يكون الفعل عن بُـعد — عن مسافة ؟

تشاهد هذا الفعل السري أو الغامض إذا كنت تدني مسماراً مثلاً الى نضوة مغنطيس. فترى ان المغنطيس اجتذب المسمار قبل أن تقربه اليه وبينهما في نظرنا فراغ ، فما في هـذا الفراغ من الواسطة أو الوسط لنقل هـذه القوة من المغنطيس الى المسمار ، ومن الأرض الى القمر ومن الشمس الى سياراتها ؟

مثل هذه العقبة السرية المحيرة قامت في سبيل انتقال نور الشمس وحرارتها الى الأرض — أو انتقالها على الاطلاق — أيضاً .

أما من حيث انتقال النور والحرارة معه فقد زعم نيوتن أن النور ذريرات Corpuscles تنطلق من الجسم المنير بسرعة ١٩٠ ألف ميل في الثانية (والسرعة التي تقررت أخيراً ١٨٦ ألف ميل) ولـكن رئي أن النور يسير أمواجاً ، فقالوا إن الزعم الأصح ان تفرض مادة خفيفة جداً جداً مالئة الفضاء ، سموها ايثراً ، وان النور حركة صادرة من الجسم المنير تصدر أمواجاً في هذا الفضاء الايثري . ولا يزال فرض الأيثر بين الشك واليقين إلى اليوم . ولـكن بعض أساطين العلماء مثل تجينز ولودج وغيرها يرجحونه واينشطين لا ينقضه ، ولـكن يقول إن نظريته النسبية تستغني عنه .

هذا من جهة انتقال النور، وأما من جهة انتقال الحرارة فهي ضلع من النور مصاحبة له.

وأما من جهة انتقال قوة الجاذبية فلم يقل نيوتن شيئاً بل لم يقل كيف يحدث التجاذب عن بعد بتاتاً . فبقي هذا سرّاً غامضاً الى اليوم .

على ان اينشطين المغرم بنظرية « الزمكان » (اندماج الزمان بالمكان) ينسب للفعل الجاذبي زماناً . وبهذه النسبة نقح جاذبية نيوتن . فاذا كانت قوة الجاذبية تستغرق وقتاً في انتقالها فهي اذن كالنور تموج ايثري، أي أن حركات ذرات الجسم الجاذب تحدث أمواجاً جاذبية في الأيثر ، فتصدم الجسم المجذوب وتحدث فيه حركة الدورانين : الدوران المحوري والدوران المركزي ، من حول المركز .

٢ — لغز الجاذبية

اكتشف نيوتن ناموس الجاذبية وطبقه على جميع السيارات حتى على جميع الأجرام المتحركة . ولكنه لم يقل لنا ما هي الجاذبية أو ما هو سرها . أو بعبارة أصح ما هو سبب دوران السيارات حول الشمس بسرعات متناسبة مع أبعادها عن الشمس .

وما زال العلماء حتى اليوم حيارى في هذا السر ، حتى اذا كلّـوا عن فهمه قالوا لماذا نحسب الجاذبية سرّاً . لماذا لا نحسبها طبيعة في المادة ؟ لماذا لا نقول إن المادة مخلوقة يجذب بعضها بعضاً ؟ فلا سر هناك . وانما نحن اختلقنا لها سرّاً وجعلناه مجهولاً أو مستحيل التفسير، في حين أن المسألة بسيطة لا تحتاج الى إعمال فكر. الجاذبية صفة من صفات المادة كما ان الألفة الكيميائية صفة من صفات الذرات ، والتبلّـر صفة من صفات الجزيئات Molecules والذوبان صفة أخرى وهلمّ جرّاً . (والحقيقة ان لهذه جميعاً أسباباً طبيعية ليس هنا محل بيانها)

ولكن لو كانت الجاذبية تجاذباً فقط بين جسمين لاكتفينا بتفسيرها بأنها خاصية من خاصيات المادة ، ولكنها ليست مجرد تجاذب فقط ، بل هي مع ذلك دوران جسم حول مركز بسرعة مقيدة ببعد الجسم عن المركز . هذه أهم ظاهرة من ظواهر الجاذبية . وغرضنا هنا كشف هذا السر في صميمه إن أمكن .

٣ — ضلال الجاذبية

إذا حللنا ظاهرة الجاذبية رأيناها تنحل ظاهرتين : الأولى التجاذب بين جسمين

في خط مستقيم الى ان يتصل احدهما بالآخر كتجاذب المغنطيس والحديد وسقوط التفاحة من الشجرة الى الأرض .

الظاهرة الثانية دوران جرم صغير حول جرم كبير كدوران القمر من حول الأرض ، أو دوران الأرض وسائر السيارات من حول الشمس ، أو دوران جرمين غير متفاوتين بالحجم والكثافة المادية Mass كثيراً ، حول مركز التجاذب بينهما ، كدوران فرعي النجم المزدوج Binary star المتباعدين حول نقطة التجاذب بينهما .

في الظاهرة الثانية يدور الجرم الدائر حول المركز بسرعة مناسبة لبعده عن المركز . وهذه النسبة بين السرعة والبعد ، خاضعة لناموس الجاذبية كما تقدم بيانه في الفصل السابق ، حتى اذا اختلت نسبة السرعة هذه سقط الجرم الى المركز ان كان أبطأ أو شرد عنه ان كان أسرع من القدر القانوني (راجع نبذة ٤ من الفصل الثاني) .

فيظهر مما تقدم، أولاً : أن الجرم الدائر (كالقمر من حول الارض أو الأرض من حول الشمس) واقع تحت سلطة قوتين [1] القوة الواحدة تسوقه في خط سيره المستقيم ، والقوة الأخرى تستميله نحو المركز فتجعل خط سيره منحنياً في دائرة حول المركز . ولأننا نرى جميع الأجرام، سيارات وغير سيارات، تدور من حول مراكز خاصة بكل منها، وما من جرم شارد عن مركز ولا جرم هابط الى مركز — نفهم من هـذا ان القوتين المسيطرتين على الظاهرتين اللتين نحن بصددهما متكافئتان ، أو انهما متعاضـدتان ، أو انهما صادرتان من مصدر واحد [1] .

ويظهر أن الجاذبيـة تشتمل على حالتين من الحركة أو بالأحرى على قوتين متعامدتين تنتجان حركتين متعامدتين أيضاً : حركة الجذب نحو المركز وحركة الشرود عنه . والحاصل من تسلطهما على جرم واحد هو الدوران حول المركز — لا اقتراب ولا شرود . أي ان هذه الحالة تحول دون هبوطه كما ان تلك تحول دون شروده وهما : —

١ — قوة الانجذاب نحو المركز Centripetal Force

٢ — قوة الابتعاد عن المركز Centrifugal Force فلنبحث في كل منهما بحثاً تعليليًا .

....

(١) راجع نبذة ٥ من الفصل الثاني

الفصل السادس

الجاذبية والدافعية

١ — قوة الانجذاب نحو المركز

نبتدىء من مذهب ان التجاذب بين الذرات خاصة من خواص المادة (كما سبق هذا القول في نبذة ٣ فصل ٤) او طبيعة من طبائعها. أي ان المادة كذلك خلقت، ذرات يجذب بعضها بعضاً، أو اذا شئت فقل إن من طبيعة الذرات أن تقترب كل واحدة الى أقرب ذرة اليها من غير دافع خارجي عنها يدفع كلاً منهما الى الأخرى، الاَّ اذا طرأت عليهما قوة تفرّق بينهما فتتباعدان مرغمتين، كما لو مرت ذرة ثالثة في نقطة أقرب الى احدى الاثنتين فتتجاذب هاتان دون تلك. وحاصل القول ان الذرة لا تستطيع العزلة أو الانفراد.

وقد قلنا إن هذه هي طبيعة كل ذرة في الكون — فالبروتونات الأويلات والكهارب والفوتونات الضُّوَيئات والكتل المتجمعة منها والأجرام — كلها خاضعة لحكم هذا التجاذب. فاذا تصورنا جميع الذرات التي تألفت منها الأجرام منفرطة العقود ومشتتة في الفضاء المطلق، فهل يكون غريباً عن تعقلنا أو عجيباً لأذهاننا ان يتقارب بعضها الى بعض.

قد نتساءل بماذا تتقارب؟

هب أنها لم تتقارب بل بقيت مبعثرة أفلا يخطر لك أن تسأل لماذا هي مبعثرة هكذا؟ لماذا لا تتجمع. فتجمعها ليس أدعى للاستغراب من تشتتها. ربما كان العقل يرتاح الى تقاربها أكثر منه الى بقائها مشتتة.

٢ — سر التقارب

لنفرض أن تقارب الذرات بعضها الى بعض (كما هو الواقع) أو ثباتها في أماكنها من غير تقارب، سيان عند العقل المنطقي، أو أن لهذا التقارب سبباً نجهله، أو أن هناك قوة أجنبية عن المادة تحدثه (قوة الله)، على أن هذا التقارب حادث فعلاً. ومادمنا

لا نكتشف له سبباً فنعده خاصة من خواص المادة (الله خلقها بهذه الطبيعة) ولنسمه نزعة مادية . أي أن كل جسم مادي ، ذرة أو مجموعة ذرات ، ميّال أو نزوع الى الاقتراب لأقرب جسم آخر اليه . فمن هذه النزعة نبتدىء في تفسير سر الجاذبية .

بالبديهة نعلم أن كل ذرتين متعادلتين كتلة تتقاربان في المكان والزمان بالتساوي . أي أن كلاً منهما تقترب الى الأخرى مسافة واحدة في مدة واحدة ، كقولك مثلاً إن كلاً منهما تدنو نحو الأخرى سنتيمتراً في ثانية واحدة . فاذا تفاوت الجسمان في عدد الذرات كان تقارب كل منهما يجري على هذه القاعدة البديهية ، أي أن اقتراب الجسم الواحد الى الآخر يكون بقدر ما في الآخر من الذرات بالنسبة الى ما في الاول منهما .

لنفرض ذرة واحدة تبعد ١١ سنتيمتراً عن مجموعة تحتوي على عشر ذرات ، فحينئذ نتصور الذرة المفردة ميّالة للاقتراب الى كل ذرة من الذرات العشر سنتيمتراً واحداً ، كما ان كل ذرة من الذرات العشر ميّالة للاقتراب اليها . فاذاً كلما اقتربت الذرات العشر سنتيمتراً واحداً كان على الذرة المفردة أن تقترب اليها في نفس الوقت عشر سنتيمترات لكي توفي كلاً من العشر حقها من التقارب .

على هذا النحو : مجموعة ذات ٥ ذرات تقابل مجموعة ذات ٣٠ ذرة وبينهما ١٤ سنتيمتراً اقترب تلك ٦ سنتيمترات كلما اقتربت هذه سنتيمتراً واحداً . وفي آخر الثانية الثانية تلتقيان عند السنتيمتر الثاني عشر لأن ٥ × ٦ × ٢ = ٣٠ × ١ × ٢

وهذا يطابق الضلع الأول من قانون الجاذبية الذي اكتشفه نيوتن وهو ان الجاذبية هي حاصل ضرب كتلة الجرم الواحد بكتلة الجرم الآخر (والمراد بالكتلة مجموع عدد الذرات) ولكن الجاذبية ليست هذا الضلع وحده بل هي نسبة هذا الى ضلع آخر وهو مربع المسافة بين الجرمين ، وهذا يؤيد نبذة (١) من الفصل الثالث .

والضلع الثاني أهم من الاول وفيه معظم السر .

لو اقتصرت الجاذبية على الضلع الاول ، أي تقارب الذرات ومجموعات الذرات بعضها الى بعض ، لانطبقت جميع ذرات الكون وجميع أجرامه وسُدُمه بعضها على بعض بحيث لا يبقى أقل فراغ بينها ، وكان ضغطها بعضها على بعض في شدة لا يتصورها عقل . ولكن الضلع

الثاني يتدارك هذه الكارثة الكونية ويجعل للكون أنظمته التي نعلمها .

الضلع الاول يسمى القوة الجاذبة الى المركز وقد انتهينا منه . والضلع الثاني يسمى القوة الدافعة عن المركز وهو الذي نعلله فيما يلي :

٣ — قوة الابتعاد عن المركز

قلنا آنفاً إن من خواص المادة تقارب الذرات أو بالاصطلاح العامي تجاذبها . وبالتالي تجاذب الذرات وتجاذب مجموعاتها وأجرامها وسُدُمها . وهنا نقول : ان من خواصها أيضاً الدوران المحوري Rotation أي ان كل ذرة وكل جسم (مجموعة ذرات) مستقل في حيزه يدور على نفسه — على محوره — هذه ظاهرة طبيعية عامة مشاهدة في الكون — الشمس والأرض والسيارات والأقمار كلها تدور على محاورها. كذلك النجوم ومجموعات النجوم والمجرة والسدُم تدور على محاورها ، حتى أدق أجزاء المادة — الفوتون الضوئية والكهيرب والذرة المؤلفة منها تدور على محاورها . فكأن المادة مخلوقة ولها هذه الخاصة — خاصة الدوران .

ولكن هذا الدوران المحوري ليس النوع الوحيد بل هناك دوران آخر هو الدوران المركزي Revolution أي الدوران حول مركز عن بُعد . كدوران الأرض والسيارات من حول الشمس فضلا عن دورانها على محاورها. والدوران الأول هو سبب الدوران الثاني، وهو أيضاً سبب القوة الدافعة عن المركز ضد القوة الجاذبة الى المركز .

وهنا لا بدَّ أن يسأل القارىء كيف يكون ذلك ؟ وكيف يمكن أن يؤثر دوران جرم مركزي كالشمس في جرم آخر كالأرض على بعد سحيق بينهما ، بحيث يجعلها تدور من حول الشمس بسرعة مقرَّرة لا تتعداها، ولا تقصر منها لتتم الدورة في سنة كاملة ؟ فما هي واسطة الاتصال التي تنتقل بها القوة من الجرم المركزي الدائر على نفسه الى الجرم البعيد عنه لكي تضطره أن يدور حوله ، فلا تتركه يهبط الى المركز ولا تدعه يشرد عنه ؟

هنا تنبري وظيفة الايثر الى الميدان لحلّ اللغز . وهنا تتضح علاقة الجاذبية بالايثر. وهنا يتضح الدور الذي يلعبه الايثر في الضلع الثاني من الجاذبية ، واليك البيان :

تصوَّر الشمس ، مثلاً ، وهي تدور على محورها مع ما فيها من نتوءات وأغوار

وتصوَّر ما فيهـا من ذرَّات وجزيئات تدور على نفسها وكهيربات تدور حول بروتونات . وكل ذرَّة تصدر سلسلة تشعّعات Radiations — تصور جميع هـذه تصادم البحر الأيثري مصادمات متساوقة متتابعة في اتجاه واحد لأن دوراناتها متجهة اتجاهاً واحـداً — تصوَّر هذه المصادمات محدثة أمواجاً مسوقة في اتجاه تلك الدورانات المحورية ، وهي تنتشر بشكل حلزوني . وكلما ابتعدت الموجة تحدَّدت دوائر الشكل الحلزوني وضعفت قوته حسب قانون الانتشار ، ورقت الموجة أي قصر عرضها بين الارتفاع والهبوط ، ولـكن الموجة لا تزال تسرع مبتعدة عن المركز بالسرعة التي صدرت بها لأن السرعة تتوقف على دقة ذرات الوسط المتموّج (الأيثر) وعلى كثافته . وهنـا نظن القارىء يسأل : لماذا تنتشر التموجات بشكل حلزوني .

٤ — الدوران الحلزوني

يمكنك أن ترى شبهاً لهذه الحركة الحلزونية إذا ملأت « طستاً » واسعاً ماءً ووضعت في وسط المسافة بين مركزه ومحيطه فلينة. ثم وضعت أصبعك في المركز وحرّكته حركة رحوية حول المركز . وإذا جعلت بدل أصـبعك خشبة بعرض سنتيمترين أو ثلاثة سنتيمترات وسماكة سنتيمتر واحد وطفقت تديرها بسرعة ترى الموج يتولد من هـذه الحركة بالشكل الحلزوني ، ولا تلبث أن ترى الفلينة سائرة ببطء حول المركز في اتجاه الدوران الذي أنت محدثه . وإذا لم ترَ دوران الفلينة منتظماً فلأن الموجات ترتد من محيط الطست مفسدة نظام الموجات الواردة من المركز والمصدومة بها .

تصور هذه الأمواج الحلزونية صادرة ، ليس من دوران الشمس على محورها فقط ، بل من بلايين الذرات التي تتألّـف الشمس منهـا ، وهي تدور على نفسها بنفس اتجاه الدوران الشمسي . فهذه البلايين من الامواج المنتشرة بشكل حلزوني من المركز الى اللانهاية هي ما يسمى « الجوّ الجاذبي » .

والآن لـكي نفهم هذه الصورة التالية جيداً تصوَّر الشمس وهي تدور على محورها وتصوَّر نتوآتها الذرية التي لا تحصى تصدم الايثر صـدمات عرضية أي معامدة لنصف القطر ، فتحدث أمواجاً عرضـية متتابعة لا يحصى عددها ، تنتشر من حول الشمس انتشاراً

حلزونيًّا في اتجاه دورتها المحورية . ولتسهيل التصور نقتصر على تتبع الامواج التي يحدثها نتوء واحد كل هنيهة . فترى ان الموجة الواحدة التي يحدثها النتوء لا تتم دائرة حول الشمس بل تلتف التفافاً من حول الموجة التي تليها . فاذا تصورت ان نبرات الشمس في دورانها المحوري تحدث بلايين الأمواج في البحر الايثري على هذا النحو ، أمكنك أن تتصورها ملتفة بعضها على بعض بالشكل الحلزوني وهي تصدم الايثر أمامها صدماً عرضيًّا معامداً لأنصاف أقطار الدائرة

ثم تصوَّر الارض على بعد من الشمس وهذه الأمواج تصدمها على نحو ما تصوَّرناه آنفاً فلابدَّ من أن تتصوَّر أن الامواج تسوقها أمامها سوقاً ، أو تتصوَّر ان الأرض ، وهي قاصدة أن تقترب الى الشمس ، لا تستطيع الاقتراب لأن الأمواج تمنعها فتضطر ان تتدحرج أو تتزحلق على متون تلك الامواج في خطٍّ منحنٍ يتم في دائرة . فكأن الأرض تحت تأثير قوتين : قوة الانجذاب نحو مركز الشمس . وقوة الأمواج الصادمة لها في خط معامد لخط الانجذاب المذكور . ونتيجة القوتين المتعامدتين اتجـاه السير في خط دائري — حول الشمس — هو الفلك (المدار) الذي تدور فيه الأرض من حول الشمس . ولولا هذه الأمواج الحلزونية الأيثرية لسقطت الارض على الشمس . هذه هي « الدافعية » أي القوة الدافعة عن المركز ،

ولعلك تظن انه ما دامت الأمواج تسوق الأرض أمامها وهي حلزونية فلا بدَّ أن تسير الارض في خط حلزوني أيضاً فتبتعد عن الشمس مع ابتعاد الامواج الحلزونية الدافعة لها .

نعم كان يجب ان تتباعد الأرض عن الشمس بفعل هـذه الامواج لولا ان هناك قوة التجاذب (او التقارب) بين الجرمين التي شرحناها آنفاً . وهذه القوة تقاوم قوة الأمواج العرضية وتوازنها ،

ولعلك تسأل : اذا قذفنا حجراً أو قنبلة قذفاً أفقيًّا ، فلماذا لا يستمر دائراً من حول الأرض كما يدور القمر من حولها . أو لماذا لا يسقط القمر الى الأرض كما يسقط الحجر اليها ؟

أقول ان الجواب على هذا السؤال هو لباب ناموس الجاذبية لأن هذا الناموس لا يقتصر على تجاذب الجرمين فقط ، بل يشتمل على ناموس سرعة الدوران — دوران الواحد من حول الآخر . فالسرعة هي أهم ضلع في الناموس ، لأن مقدارها المناسب للبعد عن المركز هو الذي

يقي الأرض من الهبوط الى الشمس ، كما أنه يعصمها من الشرود عنها ، وهو الذي يقي القمر من الهبوط الى الأرض أو الشرود عنها .

لو أمكننا أن نقذف قنبلة بسرعة ٦/١ أربعة أميال في الثانية لجعلت تدور من حول الأرض كسيار أو قمر حولها . ولو أمكننا أن نقذفها بسرعة خمسة أو ستة أميال في الثانية لشردت عن الأرض وتاهت في الفضاء . والسهم الذي زعموا أن الأستاذ جودارد الاميركي يبتغي قذفه الى القمر لا يمكن أن يبتعد عن الأرض اذا لم ينقذف بسرعة تزيد على خمسة أميال في الثانية . فأين القوة الأرضية التي تستطيع أن تحدث هذه السرعة ؟ كذلك القمر لو أبطأ معدل سرعته ولو بعض الميل في الثانية لهبط الى الأرض لا محالة ، ولو طرأت عليه قوة من عالم الغيب تزيد معدل سرعته لشرد في الفضاء .

بقي أن القارىء يستغرب أن ذلك الأيثر الذي حسبنا لطفه جزءاً من ملايين جزء من لطف غاز الهواء تستطيع موجته أن تدفع أمامها الأرض التي هي أكثف من الهواء عشرات المرات . ولكن اذا تصوَّرت أنه ليس في البحر الأيثري قوة أخرى غير قوة أمواج الأيثر تتسلط على الأرض من أية ناحية البتة ، فمهما كانت قوة هذه الموجة ضعيفة في تصوُّرنا ، فهي ذات قوة كافية لأن تدفع جرم الأرض معها ما دام ليس هناك قوة ضدها .

الفصل السابع

الجو الجاذبي

١ — الامواج الايثرية

هذا البحر الأيثري المتموج الذي يوجب دوران الأجرام حول مركز كما رأيت هو ما يسمى « الجو الجاذبي » أو « المجال الجاذبي » Gravitational Feild

وكان فارادي أول من نبّـه إلى الجوّ الجاذبي فقال ان الحديد الممغنط يحدث حوله جوّاً جاذبيّـاً يوجب الحديد الآخر أن ينجذب نحوه . وكذلك الشمس تحدث حولها جوّاً جاذبيّـاً يحتم على السيارات أن تنجذب نحوها ، أي أنها تلتوي في سيرها أو تنحني انحناءً يرسم دائرة حول الشمس .

هذه الأمواج الأيثرية التي يحدثها دوران الذريرات والذّرات وسائر الأجرام تنتشر بسرعة واحدة في الفضاء أو البحر الأيثري على سنّـة « مربع البعد » أي انها كلما بعدت ضعفت قوتها .

كلها تسير بسرعة واحدة . ولـكنها تختلف بعددها (عدد الموجات) في الثانية . أي عدد الذبذبات Frequency وتختلف أيضاً بسعتها بين الموجة والموجة . وهذه السعة هي ما يعبرون عنه بطول الموجة (كما تعلم في اصطلاحات الراديو)

إذا ضربت عدد الموجات في الثانية في طول الموجة كان الحاصل ٣٠٠ الف وهو عدد ثابت لا يتغير ، وهي سرعة الأمواج مهما كان نوعهـا — نورية أو موجات راديو أو أشعة سينية أو أشعة ما فوق البنفسجي أو ما تحت الأحمر الى آخره .

يتوقف هذا الاختلاف في عدد الموجات وطولها على اختلاف مصادرها . ولا متسع هنا لشرح هذه النقطة .

في الطبيعة عددٌ كبير من أصناف الموجات من حيث الطول وعدد الذبذبات . وهي

مرتبة ترتيب درجات السلم الموسيقية السبع . أي ان كل درجة من سلم أعلى تكون ذبذباتها مضاعف ذبذبات درجة تقابلها في سلم أدنى منه، وانما يكون طولها نصف طول هذه.

ونحن لا نشاهد منها إلاَّ السلمَ النورانية التي تنحل بالمطياف الى الألوان السبعة . وغيرها لا نرى كموجات الراديو أو الموجات السينية أو موجات ما فوق البنفسجي وما تحت الأحمر والأمواج الكونية الخ . ويبلغ عدد هذه السلالم أو الطبقات أو الطقوم الموجية نحو ٦٩ أو ٧٠ طاقماً .

القوة التي رفعت المياه بخاراً من البحر والبر ، والقوة التي خُزنت في أعضاء النبات والحيوان الخ صادرة من الشمس وقد حملتها هذه الأمواج التي نحن بصددها .

هذه الأمواج هي ما نسميها الأمواج الكهرطيسية أي الكهربائية المغنطيسية Electro-magnetic Waves ولا محل هنا لزيادة التفصيل .

٢ — الفوتونات

ظهر معنا أن القوة المحركة في الكون هي هذه الموجات التي تصدر من دوران ذريرات المادة وذراتها ومجموعات ذراتها .

ولكن هذه الموجات الدورانية ليست كل ما ينقل القوة من الذرات بل هناك شذرات تنتثر من الذرات وتمضي مع تلك الموجات وبسرعتها . واليك بيان أمرها : —

إذا أطبق كهيرب (الكترون) على بروتونه أفنى كل منهما الآخر كما يفنى الموجب والسالب اذا تلاقيا — يفنيان في لمعة موجية تنتشر في الفضاء — يعني انهما لا يبقيان بروتوناً ذا شحنة ايجابية وكهيرباً ذا شحنة سلبية، بل يتفتتان الى شظيَّات تسمى فوتونات (ضويئات) لا شحنة كهربائية فيها . وانما لها القوة التي كانت كامنة في الذرة . فتنطلق هذه الفوتونات في الفضاء بسرعة الموجات الكهرطيسية التي نحن بصددها .

هذه الفوتونات هي القوة المحمولة في الموجات ، أو لك أن تقول هي نفسها الموجات الكهرطيسية

متى أطبق الكهرب على البروتون لاي سبب (ولا محل هنا لشرح الأسباب) انحلَّ

الى عشرة الاف فوتون. ولما كان البروتون يزن ١٨٤٠ مرة وزن الكهيرب كان ينحل بنوبته الى ١٨٤٠٠٠٠٠ فوتون (ضُـوَيئة) .

النور والحرارة اللذان نحس بهما هما من هذه الفوتونات . وكذلك سائر أمواج الراديو وما شذا كلها . وهذه الفوتونات هي التي يقع قسم منها على أرضنا بشكل حرارة ونور وما وراء البنفسجي الى آخره . هي القوة التي تخزن في عالمي الحيوان والنبات وتعود فتظهر بإحراقهما بالأوكسجين وبوسائل أخرى لا محل هنا لبيانها .

ويمكننا أن نقول إن العنصر الحيوي في الحيوان والنبات من مفعول هذه الفوتونات. والذين يتمرّضون لنور الشمس وحرارتها بغية الحصول على أمواج ما وراء البنفسجي في أبدانهم قد لا يخطئون الاّ بأنهم يفرطون في هذا الأمر الى حد الأذى وقد يكون شديداً. وقد يكون قاتلاً إذا تجاوز الحدود .

وتلك الموجات الكهربائية المغنطيسية التي تحملها أو تصطحبها هي التي تولد تيارات كهرطيسية أخرى في الكروموسوم (الصِّبْغيّ) في الخلايا الحية . وهي سر الحياة بحسب نظرية لاخوفسكي التي ظهرت حديثاً . وقد نشر المقتطف لي مقالة في شهر نوفمبر سنة ١٩٤٣ في هذا الموضوع .

تفقد الشمس بصدور هذه الفوتونات منها كل دقيقة ٣٦٠ طنّاً من مادتها .

وفي رأي بعض العلماء ومنهم العلامة تجايعس تجنز ان هذه الفوتونات هي ذريرات أثيرية أي إن البحر الأثيري هو فوتونات . كأن الأجرام والأجسام تولدت من هذه الفوتونات فلما فنيت عادت إلى بحر الفوتونات . « من الفوتون وإلى الفوتون تعود »

الفصل الثامن

نشوء الذريات والاجرام

يحسن بنا هنا أن نبحث في كيف نشأت الذريات والذرات والاجسام والأجرام بقوة الجاذبية أو بعمل خواص المادة الثلاث التي مرّ ذكرها في نبذة ٣ من الفصل الرابع

١ — اصل السدم

شكراً للنور وللآلات البصرية التي اخترعها العلم لتحصيل النور واستكشاف نواميسه وخواصه — شكراً له ولها لانهما جميعاً وَضعت تحت بصرنا كتاب الطبيعة المادية Cosmophysics مشتملاً على صور العوالم المادية من ملايين السنين الى اليوم. فهو يكشف لنا طبيعة مجموعات العوالم في عصور مختلفة ومتباعدة أكثر مما تكشف لنا الاحافير عن طبقات الارض

تصوَّر التلسكوب (المقراب) والسبكتروسكوب (المطياف) يجلوان لك كثيراً من ظاهرات سديم (١) يبعد عنا مئة مليون سنة نورية أو أكثر. يعني ان نوره يقضي هذا العدد من السنين لكي يصل الينا. فهو بعد مضي هذه السنين لم يبق كما نراه الآن سديماً غازياً بل لابد انه أصبح كمجرتنا. وقد تجمعت أجزاؤه في اجرام من شموس ومجموعات شموس (كوكبات) وربما كان بين شموسه شموس ذات سيارات كشمسنا. فبُعده السحيق عنا حفظ لنا في الفضاء صورته كما كان منذ مئة مليون سنة او مئات الملايين. فاذا وجهنا مرصدنا العظيم بمطيافه الى النواحي المختلفة في الفضاء او بالأحرى في الحيّز الكوني، نرى سُدُماً مختلفة الأبعاد وبالتالي مختلفة المظاهر تبعاً لاختلاف أبعادها. فنرى بعضها في الحالة الغازية الصرفة كأنها لهيب مندلع، وبعضها كأنها ضباب محترق، وبعضها ضباب يشتمل على عقَد أكثف من

---

(١) السديم مجموعة مادية عظيمة جداً كمجموعة مجرتنا، ولكنه في الحالة الغازية

الضباب . وبعضها نجوم ومجموعات نجوم . وأقربها الينا اكثر مشابهة لمجرتنا وأبعدها غازيٌّ صرف . فكل هذه الظاهرات الواصلة الينا على أجنحة النور اذا أدخلنا أبعادها المختلفة في الحساب تدلنا على انه لو كان في امكان عقلنا أن يتنقل بينها بأسرع من النور ألوف المرات أو فجأةً لكان يراها كلها متقاربة في النضوج الى مجرتنا . وربما كان بعضها أنضج منها

ومن ذلك نفهم أن كل جرم أو مجموعة أجرام أو كل مجرة كمجرتنا كانت في الأصل سديماً غازيّاً لطيفاً جدّاً . ثم جعلت ذراته تتجمع بعضها إلى بعض ، فتتكوَّن منها جماعات فجماعات أكثر من الأصل عدداً . ثم جعلت أجزاء كل جماعة منها تتجمع في جماعات أخرى أكثف منها فتتكوَّن مجموعات الأجرام الى أن بلغت مثل ما نرى في مجرتنا .

فلا شبهة في أن جميع العوالم كانت في الأصل سدُماً غازية لطيفة جدّاً . ثم تقلّصت وتجمدت أجراماً . والمطياف (السبكتروسكوب) يقول لنا ان جميع هذه السدم متشابهة المادة تشابهاً كليّاً . مثلاً يريك في كل منها عنصر الهيدروجين أو عنصر الهيليوم وكثيراً من العناصر التي عندنا في أرضنا منها . بل يريك صفات البروتونات والكهيربات فيها جميعاً. ولا يخفى ما في هذه الظاهرات من الدليل الجازم على ان السُّدُم جميعاً متكونة من أصل واحد أي من ذرات مادية متماثلة . فماذا كانت تلك الذرات ؟

لا يحتاج الجواب إلى تكهُّن أو الى تخرص . نحلل أية ذرة من الذرات المادية التي عرفناها . فما تنحل اليه نهائيّاً فهو الذريرة التي تألفت منها السدم بل تؤلف السديم الأعظم الذي انشقت منه السدم وانفصلت بعضها عن بعض . فقد علمنا فيما سبق ان آخر جزء تنحل اليه الذرة هو الفوتون (الضوئية) . ولا نعرف ذريرة أدق من الفوتون أو أن الفوتون ينحل الى أجزاء أدق منه، حتى اننا لاعتبارات علمية اعتبرنا الايثر بحر فوتونات . (وتجيز يظن هذا الظن) وربما كان بحر ذريرات أدق من الفوتونات والله اعلم .

٢ — البحر الفوتوني أو الضوئي

هب أن ذريرة الايثر أصغر من ذريرة الفوتون وان الفوتون مؤلف من ذريرات ايثرية فمهما تمادينا في تجزئة المادة فلا نستطيع أن نتمادى بلا تناهٍ . لأن عدم التناهي خارج عن منطقة العقل البشري فلا يتطوَّح العقل اليه ، ولأن المادة خاضعة لتصوّر العقل

فلا بدَّ أن تكون متناهية التجزئة . ولأن الفوتون آخر أجزائها كما نعلم حتى الآن ، فلنا أن نفرض أن السديم الاعظم الذي اشتقت منه جميع السدُم كان بحر فوتونات . وإذا شئت أن تتصوَّر بحر ذريرات ايثرية أدق من الفوتونات فلا بأس . وإنما لكي نجعل حدًّا لبساطة المادة ودقتها نفرض الفوتون الذي لم نعرف حتى الآن ذرَّة أبسط منه وأدق — نفرضه أصلاً لمادة الكون (الهيولى) . هو عنصر البحر الايثري والمادي .

في هذه الحالة نتصوَّر الحيز الكوني المتناهي (لا الفضاء الخالي اللامتناهي الذي نعتبره عدماً) في البدء مملوءاً فوتونات منتشرة فيه على مسافات متساوية تمام التساوي . وقد حسب بعض العلماء ذرات أو جزيئات جميع المجرات والسدم الكونية فاذا هي ٧٩ صفراً عن يمين الواحد أي هي عشرة مضروبة بنفسها ٧٩ مرة . وتكتب بالاختصار هكذا ٧٩(١٠) . وإذا كانت أصغر ذرة — الهيدروجن مثلاً — تنحل إلى نحو ١٨ مليون فوتون تقريباً (١٠٠٠٠٠) × (١٨٤٠) فيكون عدد فوتونات الكون ٧٩(١٠) + ٥ × ١٨٤ أي ١٨٤ وأمامها ٨٤ صفراً . هذا ما عدا ذريرات البحر الأيثري التي يمكن استخراجها بحساب آخر ليس هنا متسع له .

ثم حسب بعض العلماء نصيب كل جزيء من الحيز الكوني إذا تشتتت أجزاؤه بالتساوي فيه فاذا هي من ٢ إلى ٣ يردات مربعة أي إنه بين كل جزيء وكل واحد من جيرانه نحو ٢ إلى ٣ يردات . وبناءً على هذا الحساب يكون نصيب الفوتون الواحد من الحيز الكوني نحو سنتيمتر مكعب ، أي ان كل فوتون يبتعد عن جيرانه نحو سنتيمتر . هذا اذا انحلت ذرات الكون كله الى فوتونات وتشتتت هذه في الحيز الكوني .

أضف الى هذا الحساب الذي لا يستطيع العقل تصوره ان النور يقضي نحو ١٠ آلاف مليون سنة لكي يقطع الحيز الكوني من جنب الى جنب . وثمَّ تصور ما شئت من سعة هذا الكون .

حساب آخر . وقد حسب هوبل رئيس مرصد جبل ويلسن (أعظم مرصد في العالم الآن) في أميركا أنه لو انتشرت ذرات جميع الأجرام والسدم وتوزعت في الحيز الكوني توزعاً متعادلاً لبلغت كثافتها فيه ١٥ جزءاً من ٣١ صفراً الى يمين الواحد من كثافة الماء . وتكتب

الاختصار هكذا: ٥ر١ × (١٠)^٣١ . وبعبارة أخرى أن سنتيمتراً مكعباً من الماء يصبح حينئذٍ ١٥ الى يمينها ٣١ صفراً سنتيمترات مكعبة .

٣ — نشأة الكون الهيولي

تصوّرنا الحيز الكوني المتناهي في بدئه مفعماً بفوتونات أو ذريرات ايثرية متماثلة وموزعة فيه على نسبة واحدة ، أي أن كثافتها فيه واحدة في أي منطقة في ذلك الحيز .

وهنا يقاطع القارىء حديثنا بالاسئلة التالية :

١ — من أين جاءت هذه الفوتونات (أو الذريرات الايثرية ؟ أو كيف وجدت مرتبة هذا الترتيب ؟

الجواب إن هـذا السؤال استفزاز للعقل لـكي يثب من دائرة المتناهي الى دائرة اللامتناهي . وهو عاجزٌ عن هذا الوثوب .

إذا بحثنا عن سبب وجود فوتونات المادة ، أو إذا فرضـنا لوجودها سبباً أو موجداً انبرى أمامنا سؤال آخر ، وهو كيف وُجد ذلك السبب أو الموجد ؟ وعلى هذا النحو نستمر في سلسلة فروض لا نهاية لهـا . والعقل متناهٍ . فلا يستطيع أن يشمل اللامتناهي . نخيرٌ للسائل أن يكف عن هذا السؤال المحير لانه لا يستطيع أن يجد فيه مزيلاً لحيرته . فان كان يرتاح الى نظرية وجوب وجود الله موجداً المادة ، فذلك خير ما يعتقده ويريح باله . اللهمَّ إذا كان لا يجد بدًّا من السؤال « من أوجد الله » . وحينئذٍ فافتراض ان المادة وجـدت هكذا وجوباً يغنيه عن هـذا السؤال . لان افتراض ان المادة وجدت هكذا وجوباً هو كافتراض وجود الله وجوباً . إذن فلنقل ان المادة وجدت فوتونات مرتبة هكذا بكيفيـة يستحيل أن ندركها أو أن نخمنها . وجدت والسلام . أو أن الله الواجب الوجود أوجدها وهو منظمها ومدبرها والبحث في أصل وجودها عقيم .

٢ — متى وجدت فوتونات المادة ؟

الجواب ان الزمان ليس شيئاً قائماً بذاته . بل هو تعبير عن حركة المادة . فاذا كانت المادة ساكنة بلا حركة — ان كانت قد وجدت ساكنة — فلم يكن ثمت مرور زمن إذ لا نجد أثراً في الـكون له . ولذلك لا نستطيع أن نعين لبدء وجودها زمناً . وانما نعين لبدء

حركتها زمناً سواء أكانت الهيولى أزلية أو حادثة. ولا يستحيل علينا أن نستنتج بدء ظهور حركتها ، أي منذ كم من الزمن ابتدأت تتحرك . أي متى صارت الفوتونات تتألف في كهيربات وبروتونات ؟ فان كانت قد وجدت متحركة فنعلم بدء حدوثها أو وجودها من معرفتنا بدء حركتها . وانما نبقى جاهلين كيفية ذلك الحدوث كما تقدم القول . فهلاً بهذا السؤال الذي يمكن الجواب عليه وازالة الحيرة فيه . وحينئذٍ يعلم القارىء أن لا أزل ولا أبد . بل هناك بداية للكون المادي الذي نحن فيه الآن وكما نعرفه وله نهاية على الأرجح (أنظر الفصل العاشر)

٣ — كيف نعلم ان المادة وجدت فوتونات أولاً ثم تألفت من الفوتونات ذريرات فجزيئات وتجمعت منها سدم وأجرام ؟ ولماذا لا نقول إنها وجدت جزيئات تامة التركيب كما نراها في شمسنا وأرضنا ؟ ولماذا لا نقول إنها وجدت ذريرات أصغر من الفوتونات وهذه الفوتونات تألفت منها ؟ .

والجواب . أننا نرى في السدم المترامية جميع درجات التركيب من الفوتونات إلى البروتونات والكهارب إلى الجزيئات الخ ولم نشاهد أو نعثر على ما هو أدق من الفوتونات فان كان هناك ما هو أدق منها فالى الآن لم نكتشفه . ولا كلام فيما نجهله جهلاً مطلقاً . وفي أرضنا نرى خليات حيوية مؤلفة من جزيئات أيضاً . وكل ذلك يدلنا على أن التركيب حادث في المادة بعد وجودها . فلا يمكن أن تكون قد وجدت هكذا كما نراها مادمنا نرى تركباً وانحلالاً . نرى في درجات السدم دلائل التكاثف والتركب واضحة كالنهار . فنتأكد أن التركب طبع في المادة . واذن ابتدأ التطوّر منذ كان الحيز الكوني بحر فوتونات فقط.

٤ — بالبرهان على أن الحيز الكوني الذي كان مملوءاً فوتونات فقط ومتوزعة فيه بالتساوي ، كان متناهياً أي له حجم مقرّر . ولماذا لا يقال أنه غير متناهٍ ؟

الجواب : ان العلم مكننا من ارتياد الكون وأقنعنا بانه متناهٍ ، وان الحيز الذي يشغله محدود الحجم . وعلمنا أو اكتشافنا محصور في هذا الحيز المحدود، وبعده لا ندري شيئاً إذ لا وسيلة لاتصالنا بما بعده كما لنا وسائل الاتصال بجميع نواحي حيزنا هذا . ولكن جهلنا بما بعده لا ينفي نفياً قاطعاً امكان وجود حيز أو حيزات كونية أخرى لا وسيلة عندنا

الاتصال بيننا وبينها فهي بالنسبة الى عقلنا في حكم التخيل الظني فقط اذ لا تأثير لهـا على عقليتنا . فكأنها من مستنبطات عقلنا فقط . ولذلك من السخف ان نفرض أو نزعم أو نعتقد بما ليس له صلة بحواسنا أو عقلنا أو تعقّـلنا .

إذن نحصر بحثنا في حيز كوننا المادي فقط لأن لنا اتصالاً حسيًّا بنواميسه ، ولأن هذا الاتصال ينتهي عند حدود نستطيع أن نقيس أبعادها بالتقريب .

٥ — هل وجدت المادة متحركة أو ان الحركة طارئة عليها ؟

الجواب : ليس لأي من الأمرين جواب يرتاح اليه العقل أو يزيل الحيرة . فقد يمكن انها وجدت متحركة . ولا جواب للسؤال « كيف وجدت متحركة » إلاّ الجواب الذي بسطناه للسؤال الأول . وقد يمكن أن تكون الحركة طارئة عليها بعد وجودها . وحينئذٍ يتصدر السؤال التالي : —

٦ — إذا كانت الحركة قد طرأت على المادة بعد وجودها فما هي القوة التي أحدثتها ؟

والجواب على هذا السؤال من رتبة الجواب على السؤال الاول . فيستحيل على العقل البشري أن يتصوّر قوة مستقلة قد حرّكت المادة أو أثارتها فتحركت . لانه في الحال يقوم أمامه سؤال آخر وهو : ما هي هذه القوة . أو إذا كان يعتقد انه ليس هناك شيء قائم بذاته يسمى قوة ، بل ان ما نعنيه بالقوة وما عرفناه منها انما هو حلقة من سلسلة حلقات الحركة — اذا كان العقل البشري يعتقد هكذا فلا بدّ أن يسأل ما هي الحركة السابقة التي أحدثت حركة الفوتونات . وهكذا يدخل في سلسلة غير متناهية من الأسئلة .

فاذن نترك البحث في اللامتناهي لانه عقيم ونبحث في تطور المادة كما رأيناها منذ بدء تحركها، سواء أكانت قد وجدت ساكنة فطرأت عليها قوة فحركتها . أم وجدت متحركة فشرعت تتطوّر.

الفصل التاسع

تطور الكون

١ — وجوب وجود المادة متحركة

نعود إذن إلى تصور الحيّز الكوني مفعماً فوتونات فيها نزعة طبيعية إلى التقارب بعضها الى بعض ، ونزعة أخرى وهي الدوران المحوري الذي أشرنا اليه مراراً فيما سبق ومن هنا نعتبر بداءة تطورها .

نزعم انها ابتدأت بتطورها من حالة كونها موزعة فوتونات في الحيز الكوني بالتساوي. لاننا نرى دلائل التصور في سُدُمها واضحة كالنهار كما قلنا ، فلا بدَّ أن تكون هذه الحالة من درجات تطورها ان لم تكن أولى درجاتهِ . فصار السؤال الآن كيف شرعت تتطوَّر من بعد وجودها في هذه الحالة .

نراها الآن بواسطة المراصد كما كانت منذ ملايين السنين : مجموعات سُدُم غازية متفاوتة الكثافة ، مختلفة الأشكال بعض الاختلاف ، متقاربة الأحجام . وكلها تدور على محاورها . فاذاً، كيفية نشوئها واحدة ، كما ان المادة التي تكونت منها واحدة (الشكل والطبع) . فكيف نشأت متنوعة ؟ وما هي أسباب بعض الاختلافات في أشكالها وأحجامها وأوزانها .

والجواب الاجمالي انها نشأت بكيفية التكاثف في البحر الفوتوني . فكيف حدث هذا التكاثف ؟

نتصوَّر هذا البحر الكوني الفوتوني ككرة عظمى يحيط بها العدم . ونتصوَّر حركته أول أمرين أو كليهما معاً . الأول أن في كل ذريرة (فوتون) نزعة طبيعية للاقتراب الى أقرب فوتون اليه . والأمر الثاني . كل فوتون يدور على نفسه دورة مغزلية (على محوره) حتى اذا تحرك في اتجاه محوره كان يمر في الفضاء كالبرغي في الخشب . فرضناه هكذا لأن بعض العلماء مثل تجينز يعتقد أن الفوتون ينتشر من الذرة مندفعاً وهو يدور على نفسه

(على محوره) مارقاً في الفضاء بحركة حلزونية . هذا اذا تحرك محوره . وقد يتدحرك في اتجاه دورانه ، فتكون حركته كأنه يتدحرج في الفضاء كالعجلة .

يحتمل أن يكون الفوتون أو الذرية الاثيرية الأولى قد ابتدأت بالتحرك بحركة التقارب فقط، ثم جاءت حركة الدوران بعدئذٍ كنتيجة للتطور . أو يحتمل أيضاً انها ابتدأت بالتحرك بالحركتين معاً أي حركة الدوران وحركة التقارب . والحركتان معاً نتيجتا التطور وإنما هنا يتعذر على العقل السليم أن يتصوّر أن حركة الدوران نزعة طبيعية لحركة التقارب . ولا بدّ إذ ذاك من التشدّد في السؤال : أية قوة دفعت الفوتونات في هذه الحركة . وحينئذٍ نعود فندخل في دائرة اللامتناهي التي ينصرع العقل فيها حتى ولو فرضنا ان القوة المحركة للفوتونات قوة إلهية . لأن هذا الفرض ليس أقرب الى العقل من نسبة الحركة لطبيعة الفوتونات نفسها. ولأنه لا ينقذ العقل من ورطة اللامتناهي ، لأنه لا يستطيع أن يتملص من سؤال آخر وهو : من أين جاءَ ذاك المحرك الاول بالحركة ؟ أو من أين استمد قوته ؟ فان فرضنا محركاً آخر قبله مَنَحَهُ هذه الحركة درجنا في سلسلة اللامتناهي التي لا يخرج منها ولا يستقر فيها العقل مقتنعاً راضياً . فاذا لم يكن بدٌّ من فرض قوة واجبة الوجود كأصل أو علة لوجود الكون متحركاً أو لتحرك المادة فماذا يمنع أن تكون المادة المتحركة هي نفسها واجبة الوجود ؟ ولماذا نقدّم عليها قوة لا مزية لها وليس فيها اقناع للعقل أكثر مما في وجوب وجود المادة نفسها ؟ .

على أي حالٍ القارىء حرٌّ في تعليل وجود المادة متحركة . ونحن نبتدىء في شرح تطور الكون المادي من وجود بحر فوتونات لها على الأقل نزعة التقارب

٢ — ناموس التكاثف

في هذه الحالة نرى بعين العقل كل فوتونة بين ست فوتونات من حولها في الجهات الست وهي ميَّالة للدنوّ الى كل واحدة منها ، أو بتعبير الاصطلاح الجاذبي كل واحدة راغبة في استدعاء أية واحدة من اللواتي حولها اليها . ولأنهنّ جميعاً على مسافات متساوية بينهنّ فلا تستطيع الواحدة منهنّ أن تختار واحدة دون الأخريات حتى ولو كانت لهنّ خصلة الدوران المحوري .

فاذا فرضنا ان الكون غير متناه بل هو ممتد من جميع النواحي الى ما لا نهاية له ، وهو أمر يستحيل تصوّره فتكون الذرات الأثيرية أو الفوتونات في وضعها الذي تصورناه متوازنة فيما بينها . وليس ثمت من داعٍ أو عامل لتحريكها بعضها نحو بعض. بل تبقى كذلك الى أبد الآبدين . أو الى ان تطرأ عليها قوة أجنبية تحركها وتخل توازنها هذا فتشرع في تطورها تجمعاً وتفرقاً . فأين القوة الأجنبية

وانما نحن علمنا أن الحيّز الكوني متناهٍ أي محدود الحجم حوله فراغ نعتبره عدماً .

وليس عندنا دليل قط انه انشقّ من كونٍ أعظم غير متناهٍ ، وان كان هذا لا يستحيل حدوثه ، إلاّ عند عقلنا الذي لا يستطيع تصور اللامتناهي .

فلنبقَ على فرضنا الأول وهو أن كوننا المادي وحيدٌ فريدٌ . وقد وُجد منذ الأزل بحر فوتونات بشكل كروي يحيط به الفراغ المطلق أو العدم . وحينئذٍ نرى الفوتونات متوازنة فيما بينها إلاَّ في قشرة سطحه الكروي . فهناك نرى كل فوتون منجذباً الى خمس فوتونات من جهات خمس دون الجهة السادسة ، وان التوازن في القشرة السطحية مختل . واذن فوتونات القشرة تدنو الى ما بين الخمسة بحسب قانون تعدّد القوات المتسلطة على جسم واحد واختلاف جهاتها كما هو معلوم في علم الطبيعة . وحينئذٍ تصبح فوتونات الطبقة التي تحت القشرة أكثر عدداً وتقارباً فتجذب فريقاً من الطبقة التي تحتها ويحدث تجمع في قشرة جديدة فتختل الموازنة في الطبقة الرابعة وتهبط الى طبقة تحتها ويحدث تجمع آخر قد يكون أعظم من التجمع الأول أو أقل .

ولا يخفى أنه اذا اختلَّ التوازن في ناحية اختلَّ في جميع النواحي ، وحينئذٍ يطلق العنان لحركة التقارب والتباعد في كل ناحية . ولا يمكن تصوير كيفية ذلك بانتظام . فهو في نظر العقل البشري سلسلة مصادفات لا ضابط لها . وهكذا تحدث تجمعات متوالية تتعاضد بينها قوات تقارب مختلفة . ومهما كانت الطبيعة منظمة ومحافظة على التشاكل Symetry فلا بدّ أن يزداد اختلال التوازن من كل ناحية .

وفيما نحن نتصور التجمع في طبقات غضضنا النظر عن اختلال التوازن في الطبقات الكروية نفسها الأمر الذي يمزقها الى تجمعات صغيرة . وهذا التمزق محتمل جداً بل هو

منتظر اذا كان عدد فوتونات القشرة وتراً لا شفعاً ، أو وتر الوتر بحيث يستحيل أن تنقسم القشرة الى جماعات متساوية العدد من غير فضلة ، فالفضلة وحدها إما أن تكون مجموعة أصغر أو ان تنضم الى مجموعة أخرى أكبر. وهذا التفاوت في أحجام المجموعات واختلاف المسافات بينها يزيد في اختلال التوازن وينشيء اضطراباً في بحر الحيّز الكوني الفوتوني . وحينئذٍ نستطيع أن نتصور ذلك البحر الايثري اللطيف يتحوّل رويداً رويداً الى جماعات غيمية هنا وهناك بتناسب قليل وهي ما يسمونه سُدُماً (جمع سديم)

يمكنك أن تتصوّر هذه الدرجة الأولى في نشوء الكون المادي وتصوّره اذا ملأت اناءً حليباً ثم عصرت عليه ليمونة حامضة . يكفي أن تهزّ الاناء قليلاً فترى زلال اللبن تكتل كتلاً متقطعة . واذا ساعدت حركة التكتل بان تحرّك اللبن بملعقة لكي يتوزع فيه حامض الليمون رأيت الكتل متوزعة في مصل اللبن الصافي هنا وهناك . ولولا جاذبية الأرض لما كنت تراها ترسب متجمعة بل تبقى متوزعة في كل ناحية من المصل وتبقى في حركتها الدورانية التي أحدثها التحرك بالملعقة الى الأبد .

على هذا النحو نشأ التكاثف الأول في بحر الحيز الكوني وتولدت التكاثفات Condensations المتعددة التي هي السُّدُم الأولى. وهي الدور الثاني من ادوار الكون المادي.

٣ — ناموس الدوران

هذا التكاثف استلزم الحركة — حركة الانتقال في الحيز من نقطة الى نقطة — وقد فرضنا انها طبيعة في الفوتونات ومتبادلة بين بعضها والبعض على قاعدة ان الأقرب يقترب الى الأقرب . والعدد الأكثر يستدني العدد الأقل .

فاذا فرضنا ان جميع فوتونات الطبقة السطحية تهبط الى الطبقة التي تحتها (نعني الى جهة المركز) وكلتاهما الى ما تحتهما كانت النتيجة تقلص البحر الفوتوني وتكاثفه في كرة أصغر الى أن يصبح أخيراً جرماً واحداً عظيماً كثيفاً جدًّا . وأكثفه في مركزه بحيث لا يستطيع العقل تصور مقدار كثافته . ولا حركة دورانية فيه بل يكون بجملته ساكناً وأجزاؤه ساكنة بنسبة بعضها الى بعض . ولكن المشاهد في تعدد السدم يخالف هذا الفرض الذي ترفضه طبيعة الحال وينقضه قانون التجمع والتكاثف كما رأيت . فقد رأيت ان الاختلال في

التوازن بين الفوتونات يجعل حركات التجمع مختلفة الاتجاه الى جميع الجهات . ولذلك تحدث عدة تكاثفات .

ولذلك إذا تصورنا أن حركة التقارب بين الفوتونات وبين جماعاتها المتكونة حديثاً غير متجهة كلها اتجاهاً واحداً نحو مركز الحيز الكوني ، بل بعضها معامد وبعضها معارض على زوايا مختلفة وبعضها معاكس ، فحينئذٍ نقدر أن نتصور التكاثف مبتدئاً بحركة دورانية منذ بدأ تكاثف الطبقة الخارجية الاولى .

وبعدئذٍ نتصور كل تكاثف آخر مجارياً للتكاثف الأول في اتجاه دورانه . وحينئذٍ نرى البحر الكوني كله دائراً حول مركزه بسرعات مختلفة في مناطقه بعضها أسرع من بعض . وبعضها أبطأ من بعض وانما كلها تدور في اتجاهٍ واحد .

وإذا صح افتراضنا هذا وعززته الظاهرات وهو أن للفوتون حركة طبيعية أخرى أي حركة الدوران المغزلي مع حركة التقارب كان ثمت سبب آخر لتكون التكاثفات دائرة على محورها . وهو اكتساب هذا الدوران من دوران الفوتونات .

نرى شاهداً على هذا في الجيروسكوب فانه يدير معه الوعاء الذي هو فيه إذا لم تمنعه قوة أخرى. فاذا تصورت الفوتونات كلها تدور على محاورها في اتجاهٍ واحد سهل عليك أن تتصور مجموعاتها متخذة هذه الحركة نفسها وفي نفس الاتجاه . فالحركة الدورانية Angular Momentum التي يكتسبها الكل من أجزائه هي سنة طبيعية منطقية . ومن هذا القانون نشأ قانون بقاء الحركة الدورانية أي دوامها Conservation of Angular Momentum وتوزعها من الكل على الأجزاء التي تفرعت منها كما هي مشروحة في متون علم الميكانيكيات. فاذا تشبع ذهنك بهذا القانون جيداً سهل عليك أن تتصور دوران السدم وأجزائها كأنها موروثة من أصل واحد وهو دوران البحر الكوني منذ اختلال توازنه وبدء اضطرابه .

وكلما استقل تكاثف أو سديم (كما هو مصطلح على تسميته) بنفسه ورث حركة الدوران هذه من الأصل الذي اشتق منه وجعل يدور على نفسه بنفس الاتجاه . وان وجدت بعض السدم تتحرك أو تدور باتجاه مخالف للاتجاه العام فبسبب شيء من فوضى التكاثف والاشتقاق التي أحدثها اختلال التوازن كما تقدم القول . لأنه في بحر عظيم كهذا مؤلف من ذرات صغيرة بالنسبة الى عظمه وحركتها زهيدة بالنسبة اليه لا يمكن أن يشرع بتحركه الدوراني كمجموع تحركاً تام الانتظام والتشاكل بين أجزائه Symmetrical . فلا بد من حدوث شواذ زهيدة بين حركات أجزائه . فهذه النتيجة أي دوران متجمعات الفوتونات هي ما نراه في السدم الموجودة الآن والتي نرصدها ونرى نماذجها في أدوارها المختلفة ،

تراها جميعاً تدور على محاورها بسرعات متفاوتة من شبه السكون الى سرعة مئات الاميال بالثانية حسب موقعها في المجموع ، وبعدها عن المركز .

٤ — بدء عمل الجاذبية وقانون التكاثف

متى شرعت مادة الحيز الكوني تتكاثف على نحو ما شرحناه يشرع ناموس الجاذبية يتضح لنا جذباً فدفعاً . لانه حالما يبتدىء التكاثف يبتدىء أيضاً تكون البروتونات والكهارب اذ لا يوجد مانع يمنعها من التكون ما دامت موادها موجودة والحركة اللازمة لها حادثة . وحينئذٍ نرى الذريرات تتكوَّن من الفوتونات والذرات من الذريرات والجزيئات تتألف كيماويًّا ونرى بقيات باقية من ذريرات البحر الفوتوني أو ذريرات البحر الايثري إن كانت غير فوتونية تنصدم من دوران البروتونات ودوران الكهارب حولها.

وبالاختصار نقول ان قانون الجاذبية العام جذباً ودفعاً يشرع عمله بوضوح . وعليه فعملية التكاثف تكون خاضعة : — أولاً لقوة الجاذبية . وثانياً لسرعة الاجزاء التي يتكوَّن منها التكاثف بحيث لا يزيد السديم المتكوِّن عن حجم محدود ولا ينقص عن حجم آخر محدود والاَّ فلا يثبت . أي انه يجب أن يكون توازن بين قوة الجاذبية فيه وسرعة دوران أجزائه حول مركزه . وإلاَّ فهو مقلقل مزعزع (راجع قانون المسارعة في الملحق الثاني) .

ولا يخفى ان قانون بقاء قيمة الحركة الدورانية أي دوامها Cons rvation of the Angular Momentum يقضي بأن لا تتلاشى قيمة الحركة الدورانية بل هي ككل حركة يمكن أن تنتقل من جسم الى آخر أو تتوزع الى أجسام في الحيز حسب اتساعه . وبموجب هذا الناموس كلما تقلص جرم أو سديم وصغر حيزه ازدادت سرعة دورانه لأن قيمة حركته الدورانية لم تنقص بنقص حجمه . جميع حركات الدوران على الأرض متمشية على هذا القانون . والمشاهد من حركات السدم والأجرام الدورانية يطابق هذا المبدأ والقانون كل المطابقة .

***

بقيت أبحاث أخرى في تناسب المتجمعات الكبرى للصغرى . ونشوء المجموعات الكروية المسماة « الكوكبات العنقودية globular clusters التي كل كوكبته منها تدور على محور واحد كأنها كتلة واحدة متصلة بعضها ببعض مع أن بينها أبعاداً شاسعة . وهناك اعتبارات لم يعد يسع المقام الاسترسال فيها . (تراها في كتابنا نشوء الكون وتطوره المعد للطبع) .

الفصل العاشر

تمدد الكون وتقلصه

رأينا في الفصل السابق ان عناصر المادة تتحول تدريجيًّا من ذرات الى فوتونات تتفانى في بحر الأيثر بسبب ان الأحداث المختلفة في الطبيعة تفضي الى اطباق الكهرب على البروتون فينطلقان فوتونات في أشعة كهرطيسية في ذلك البحر الايثري كما علمت . فمادة الكون إذن تتناقص تدريجيًّا بسبب هذا التشعّع .

وقد حسب العلماء الأخيرون ان الشمس تنقص بهذه التشععات المتوالية كل ثانية ٤ ملايين طن من وزنها تقريباً أو نحو ٢٥٠ مليون طن كل دقيقة فبعد ملايين السنين تذوب الشمس (وكل جرم) ذوبان قطعة الجليد في ماء البحر . وهناك من يقول ٣٥٠ طنًّا في الدقيقة . والعلم عند الله .

ولا يخفى أنه كلما نقصت مادة الشمس وخفّ وزنها ضعفت قوة جاذبيتها . لأن الجاذبية تتوقف على حاصل ضرب ذرات الجرمين المتجاذبين كما علمت في فصل قانون الجاذبية . وبالتالي تتباعد سياراتها عنها . وقد حسب تجينز ان الأرض تبتعد في فلكها عن الشمس بهذا السبب نحو يردة كل قرن من السنين . وعلى هذا القياس تتباعد السيارات عن الشمس . وتتباعد الاجرام بعضها عن بعض لهذا السبب عينه . فتنتفخ المجرة لتباعد أجرامها وكوكباتها . وعلى هذا النحو تتباعد المجرات أيضاً . فالكون كله ينتفخ رويداً ويتسع حيّزه .

ليس هذا الانتفاخ الكوني مجرد تكهن أو تخرص او تفلسف . وانما هو حقيقة واقعة مشاهدة . فقد شاهد هوبل مدير مرصد ويلسن (أعظم مرصد في العالم اليوم) في كاليفورنيا أن الاجرام السحيقة تتباعد بسرعات مختلفة لا تكاد تصدق .

فهذا الكون العجيب العظيم الذي تجمعت فيه ملايين المجرات مصاب بمصيبتين : الأولى انه يتشتت بسرعة في الفضاء الفارغ . وعلى التمادي يملأ حيّزاً اكبر ، يضاعف أضعاف حيزه الحالي . والثاني انه يضمحل تدريجيًّا في امواج كهرطيسية حاملة فوتونات الى ان تمتزج فوتوناته في البحر الايثري ، وتلتبس فيه كمادة منه .

وتجينز يقول انه بعد هذا الاضمحلال النهائي على هذا النحو تعود الذريرات الفوتونية الاثيرية تتجمع في كهارب وبروتونات فذرات فجزيئات فكتل أجرام وجماعات اجرام الخ — تعود تتجمع بقوة التجاذب بينها كما فعلت اولاً على نحو ما شرحناه في الفصل السابق. فكأنّ الكون يعيد رواية نشوئه وتطوره من جديد. والله أعلم كم أعاد هذه الرواية قبلاً وكم يعيدها بعدُ. ذلك هو الأزل. وهذا هو الأبد — السرمد الذي تقف عنده الافهام حائرة ذاهلة.

أجل ان الكون الأعظم ينشأ ويتطوّر ويشيخ ويضمحل مرة بعد مرة الى ما لا نهاية له كما كان لا بداية له. فهو تطور دوري يطوي في كل دور ملايين ملايين الأدهار والأحقاب.

وكان اينشطين قد قدر بحسب نسبيته ان للكون الأعظم الشامل ملايين المجرّات قدراً معيناً من المادة يشغل حيّزاً معيناً من الفضاء بشكل بيضة فارغة لا زلال فيها ولا مح. أي ان مادة الكون تشغل قشرة البيضة فقط. وضمن هذا الحيز البيضي فراغ مطلق وحوله فراغ مطلق أيضاً. وقال ان حجم الكون هذا وشكله ثابتان لا يتغيران. ومجال الحركة فيه مقتصر على هذه القشرة.

ولكن لما أعلن هوبل أرصاده عن تباعد الأجرام والمجرات قام دي ستر ودرس أرصاد هوبل وبرهن ان الكون الأعظم آخذ بالانتفاخ، أي انه ليس ثابت الحجم كما قال اينشطين. ثم حسب دي ستر سرعة الاجسام أو الاجرام المتباعدة ومعدل الانتفاخ. ولكنه لم يقل متى ابتدأ الانتفاخ أي لم يبين الحالة التي كان عليها الكون حين ابتدأ ينتفخ.

وكان الأب ده لامتر العالم البلجيكي انه لما اطلع على نظرية اينشطين نشر رسالة في احدى المجلات الحقيرة (لأنه لم تتكرم مجلة معتبرة بنشر رسالته) فحواها ان الكون كما وصفه اينشطين، واستنتج حجمه وشكله من نظريته النسبية لا بد انه ابتدأ صغيراً جداً ثم جعل يتمدد حتى صار كما هو الآن. والاّ لما اقتضى أن يكون فارغاً في داخله. ان تفرّغه الداخلي دليل قاطع على انه كان كتلة كثيفة متجمعة حول المركز ثم صار ينتفخ كانتفاخ فقاعة الصابون اذا نفخت فيها.

فلما ظهرت أرصاد هوبل وأبحاث دي ستر عاد العلماء الى رسالة الأب لامتر التي لم يعيروها سابقاً أقل اعتبار، وقالوا كما قال، ان الكون يتمدد باستمرار. فالأب لامتر عرف بالمنطق والحساب ما اكتشفه هوبل بالرصد.

الـكون ابتدأ كما برهن الآب لامتر .

وهو الآن كما برهن اينشطاين .

ومستقبله كما برهن دي ستر .

أما اينشطاين فلما سمع بخبر أرصاد هوبل ذهب الى أميركا ونظر بنفسه الأرصاد ورصد مع هوبل فاقتنع بنظرية التمدد ونقح نظريته في شكل الـكون وتمدده .

***

وهنا يرى القارىء أن الجاذبية تلعب دورها في هذا التمدد كما لعبت دورها في التجمع .

وقد علم القارىء أن الجسم أو الجرم المندفع يأخذ بالطبع في سيره خطاً مستقيماً . ولـكن قوة جاذبيـة المركز تلويه نحوها . أي انه لولا جاذبيـة المركز لبقي مندفعاً في خط مستقيم .

ولذلك إذا كانت قوة الجاذبية تضعف قرب المركز بسبب نقص مادتها فلا بدَّ أن يضعف إحناؤها لهُ . وبالتالي يبتعد خط الانحناء أي انه يميل الى خط الاستقامة ما استطاع ، كالقضيب المرن إذا لويته يظل يميل الى الاستقامة بقدر ما تخف قوتك في إمالته . وهكذا الجرم يميل الى خط الاستقامة ما استطاع أو بقدر ما تطلق له قوة الجذب الحرية للعودة نحو خط سيره الأصلي (المستقيم) .

وقد نسبوا هذا الشرود عن المركز الى قوة النزوع الى الاستقامة على نحو ما قلنا هنا. وسموها قوة الدفع الـكوني Cosmic Repulsive أي ان للجسم المندفع نزعة طبيعيـة الميل الى الاستقامة .

لدى هذا التطور الـكوني العظيم يقف العقل البشري مدهوشاً ذاهلاً .

ولماذا هذا الذهول . أليس ان العقل نفسه هو الذي غاغل في أعماق هـذا الـكون وأدرك هذه الحقائق .

فما باله يدهش مما اكتشف وعرف .

أجل ، يذهل لأنه يرى نفسه حقيراً لدى عظمة هذا الـكون العجيب .

لا . لا تستصغر نفسك أيها العقل الأعجب والأعظم .

« أتزعم انك جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبر »

الخاتمة

تلك هي الجاذبيـة التي فتح الفيلسوف الأكبر اسحق نيوتن بضبط سننها بوابة حقل الطبيعة . ودعا رجال العلم منذ عصره الى اليوم لـكي يدخلوا الى ذلك الحقل الواسع الأرجاء ويطلعوا على ما فيه من كنوز عرفانية باهرة .

لا ريب أن الفتح العلمي الذي فتحه نيوتن كشف عن معظم أسرار الطبيعة، وبدَّد دياجير الجهل ومحا ظلاله، وفتح البصائر المنيرة لرؤية خبايا قوات الطبيعة واعتقالها لنفع المجتمع الانساني.

منذ عهد نيوتن الى اليوم تقدّم العلم النظري والعرفان العملي عشرة أضعاف ما كان قبله . وكان انه انقضى نحو ألفي سنة من عمر العلم الذي انتهى به عصر الجهل المطبق والعلماء ما زالوا يتخبطون في دياجير الخرافات والترهات ويبنون على أضاليلهم عقائد فاسدة ويعتسفون طريق الهدى في مسالكهم العملية الى أن جاء نيوتن .

وما خبَّ الانسان خبَّـه المتسارع في الاكتشاف والاختراع وفي العلم خاصة إلاّ بعد اكتشاف نيوتن سنَّـة الجاذبية وانتشار نظرياته في المبادىء الطبيعية التي تبسَّط فيها في ثلاثة مجلدات إذ أصبحت القواعد الأساسية التي يبنى عليها كل علم حديث تقريباً .

ففي عوالم الفنون الهندسية وفي الصناعات والزراعات وسلك البحور وفي الاختراعات التي لا تحصى ، النافعة والتي أسيءَ استعمالها كالأسلحة المختلفة — تجد السنن والمبادىء الطبيعية التي كشفها نيوتن ظاهرة في صلبها جميعاً ناتئة في حواشيها مالئة بطونها .

حتى في الاقتصاديات والسياسيات وسائر الاجتماعيات تجد ، إذا غلغلت فيها ، سنن نيوتن ومبادئه الطبيعية عاملة فيها.

فلا ريب ان العصر منـذ عهد نيوتن الى اليوم يعد سيد العصور الأعظم في العلم والاختراع . فهو على رأس العصور السالفة كالهرم البـاذخ الراسخ بين هضاب الصحراء وذلك الفيلسوف العظيم بين الفلاسفة العظماء منذ عهد طاليس الى اليوم هو كالشمس بين السيارات والنجوم التي تختفي تحت سطوعه .

ان جاذبية نيوتن ومباحثه في النور وطيفه ومبادئه في الطبيعـة أنارت الطريق أمام أساطين العلم مثل هرتز وهولمز وفاراداي ومكسوِل وميكاسون واينشطين وعشرات غيرهم ممن غابوا عن الذهن الآن .

لا ريب أن العقل البشري اتسعت تصوراته وعمقت تبصراته بعد نيوتن أضعاف ما كان عليه قبل ظهور ذلك العَـلَم المفرد . اذا كان في اللغة أبلغ من كلمة عبقري فهي لنيوتن وحده والا فهو العبقري الأوحد وغيره ممن نلقبهم بالعباقرة مقتفون .

انتهى

الملحقات الرياضية

لمن يشاء الاطلاع على البراهين الرياضية للقوانين الواردة في هذا الكتاب .

الملحق الاول

ملحق نبذة ٢ من الفصل الثاني

قانون جاليليو لسرعة الاجسام الساقطة

لاحظ جاليليو ان الجسم الساقط يتسارع بسقوطه ووجد بالاستقراء والاختبار ان سرعة سقوطه تزداد كلما اقترب الى الارض . فعلى سطح الأرض يهبط الجسم في نهاية الثانية الاولى ٣٢ قدماً . ولأن سرعته في أول الثانية صفر وفي نهايتها كلها ٣٢ فيكون متوسط سرعته $\frac{٠ + ٣٢}{٢}$ = ١٦ قدماً في الثانية الأولى .

وفي الثانية الثانية يكون ١٦ + ٣٢ = ٤٨

وفي الثانية الثالثة يكون ٤٨ + ٣٢ = ٨٠

وهلمَّ جرًّا . وإذا أردت مجموع السقوط في عدد من الثواني فاستعمل القاعدة التالية لقانون المسارعة ، أي تزايد السرعة هكذا :—

نرمز عن المسارعة بحرفي مس وعن مدة الثواني بحرف ث. فمعدل (أي متوسط) سرعة الجسم الساقط اذن $\frac{مس \times ث}{٢}$ في المثل الأول

فاذا ضربنا هذا المتوسط بعدد الثواني ث التي يقضيها في الهبوط كان مقدار المسافة التي يهبطها في عدد معين من الثواني مساوياً = $\frac{مس \times ث^{٢}}{٢}$

بهذه العبارة الرياضية يمكنك أن تحسب كم من الاقدام سقط الجسم في أثناء عدد من الثواني. وذلك بأن تضرب مربع عدد الثواني بالعدد ٣٢ وتقسم الحاصل على ٢ ، احفظ هذا ببالك :—

مسافة الهبوط = $\frac{مس\ ث^{٢}}{٢}$ (معادلة اولى)

جدول الامثلة
على قانون المسارعة

مربع الثواني بـ ٣٢ مقسوم ÷ ٢ = ١٦		مجموع أقدام السقوط في الثواني كل ثانية		المجموع معاً سبق		معدل السرعة كل آخر ثانية	السرعة الاضافية	عدد الثواني
		١٦						الأولى
٢)² × ١٦	=	٦٤	=	١٦	+	٤٨ = ١٦	+ ٣٢	الثانية
٣)² × ١٦	=	١٤٤	=	٦٤	+	٨٠ = ٤٨	+ ٣٢	الثالثة
٤)² × ١٦	=	٢٥٦	=	١٤٤	+	١١٢ = ٨٠	+ ٣٢	الرابعة
٥)² × ١٦	=	٤٠٠	=	٢٥٦	+	١٤٤ = ١١٢	+ ٣٢	الخامسة
٦)² × ١٦	=	٥٧٦	=	٤٠٠	+	١٧٦ = ١٤٤	+ ٣٢	السادسة
٧)² × ١٦	=	٧٨٤	=	٥٧٦	+	٢٠٨ = ١٧٦	+ ٣٢	السابعة
٨)² × ١٦	=	١٠٢٤	=	٧٨٤	+	٢٤٠ = ٢٠٨	+ ٣٢	الثامنة

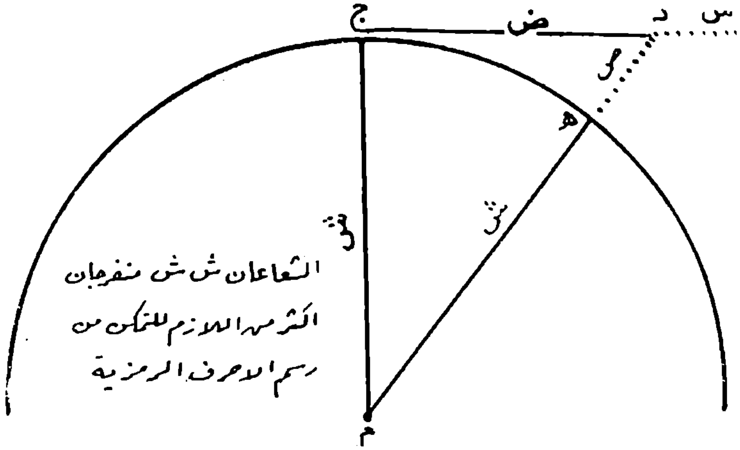
وهلمَّ جرًّا الى آخره

الملحق الثاني
قانون المسارعة الدورانية (١)

ذلك ناموس الاجسام الساقطة . ولكن الأجرام السائرة بسرعة وبقوة تعادل قوة الجاذبية لا تسقط سقوطاً وانما تنحني انحناءً نحو المركز فتدور حوله كالقمر حول الأرض . اليك قانونه : —

في ما يلي اكتشاف النسبة الثابتة بين سرعة الجسم اللازم لفلك دورانه (أي مداره) حول المركز ومسافة بُعده عن المركز — أي النسبة التي تساوي انحناء الجسم في دورانه عن خط اتجاه انقذافه المستقيم كما يتضح من الرسم التالي :

(١) ملحق نبذة ٤ من الفصل الثاني



الشكل الاول

لنفرض أن الجسم عند ج مندفع بسرعة س (قل أمتار أو أميال أو ما تشاء) فاذا لم يكن ثمت سلطة أية قوة أخرى عليه سار في اتجاه اندفاعه بخط مستقيم الى د وإلى ما لا نهاية له .

ولكن إذا كان ثمت قوة أخرى مركزية كالنقطة م مثلاً (القوة الجاذبة) انحرف عن اتجاه ج د الى اتجاه ج هـ المنحني . وبدل أن يصل في ثانية الى د يصل في الثانية الى هـ . فكأنه هبط من مستوى ج د في القوس ج هـ بعد أن ابتعد عن ج قدر س (وهو مسافة ج هـ) السرعة بالثانية أمتاراً أو أميالاً . فما هي مسافة هبوطه في الثانية ؟ وبأي قيمة نعبر عنها ؟ .

لا وسيلة للتعبير عنها الاَّ بقيمة النسبة الثابتة بين س (السرعة) و ش الشعاع نصف القطر أي مسافة بعد ج عن المركز . فكم تساوي المسافة د هـ ؟ من هذه النسبة ؟ فلنر .

لا يخفى ان الخط ج د مماس للدائرة التي حول المركز — الدائرة التي يدور فيها . وخط المسافة من ج الى م هو الشعاع . فاذاً الخط ج د معامد للشعاع ج م والزاوية عند ج قائمة .

ارسم الوتر م د . وهو مؤلف من ش الشعاع والخط الآخر ص (المسافة بين (د هـ) وهي مسافة الهبوط . فلنا اذن مثلث قائم الزاوية ج م د

بحسب قضية فيثاغورس مربع وتر هذا المثلث يساوي مجموع مربعي ساقيه أي (ج د)

و (ج م) فلنعبر عن ج د بحرف واحد ض وعن ج م بحرف واحد هو ش ٢ الشعاع. هكذا ·

$$(ش + ص)^٢ = ض^٢ + ش^٢ \quad \text{بالجبر}$$

$$ش^٢ + ٢ ش ص + ص^٢ = ض^٢ + ش^٢$$

احذف ش٢ من الجانبين واستغنِ عن ص٢ لأن قيمتها زهيدة جدًّا لا يعتدّ بها يبقى

$$٢ ش ص = ض^٢ \quad \text{أو}$$

$$ص = \frac{ض^٢}{٢ ش} \quad (\text{معادلة ٢}) .$$

أي ان ص مسافة هبوطه من د الى هـ تساوي مربع سرعتهِ (من ج الى د) مقسوماً على مضاعف مسافة بعده عن المركز الذي اصمّاله عن د الى هـ .

وهو معلوم ان المسافة ض تقاس بالسرعة مضروبة بالوقت هكذا ض = س ت (معادلة ٣) بحيث أن س رمز السرعة . و ت رمز الوقت (الثانية او الثواني) .

وبما ان مسافة ص هي مقدار الهبوط المعبر عنها هكذا في المعادلة الاولى .

$$ص = \frac{مس\ ت^٢}{٢} \quad \text{معادلة} (٤) .$$

ضع في المعادلة الثانية قيمة ض التي في المعادلة الثالثة وقيمة ص التي في المعادلة ٤ يكن لك:—

$$\frac{مس\ ت^٢}{٢} = \frac{س^٢\ ت^٢}{٢\ ش} \quad \text{أو}$$

$$\text{مسافة الهبوط} \quad مس = \frac{س^٢}{ش} \quad (\text{المعادلة ٥})$$

الجاذبية علة المسارعة ولهذا اعتبرنا ج (الجاذبية) = مس

أي أن المسارعة التي هي نتيجة فعل قوتين إحداهما مركزية تساوي مربع السرعة الناتجة عنها مقسومة على مسافة البعد عن المركز . وبعبارة أخرى ان النسبة التي بين السرعة ومسافة البعد عن المركز (المساوية لمسافة الهبوط) هي مربع السرعة مقسومة على مسافة البعد .

هذه النسبة ثابتة Constant وبموجبها كلما بعد الجسم الدائر حول المركز صارت سرعته أقل . وكلما كان أقرب كانت سرعته أعظم بحيث تكون المسارعة دائمًا مساوية $\frac{س^٢}{ش}$

فاذا اختلت هذه النسبة بحيث تفوق سرعة الجسم على مسافة بُعده شرد عن المركز . واذا قلت سرعته بالنسبة الى مسافة بعده هبط الى المركز . وما دامت هذه النسبة محفوظة فهو دائرٌ في مداره حول المركز الى الأبد .

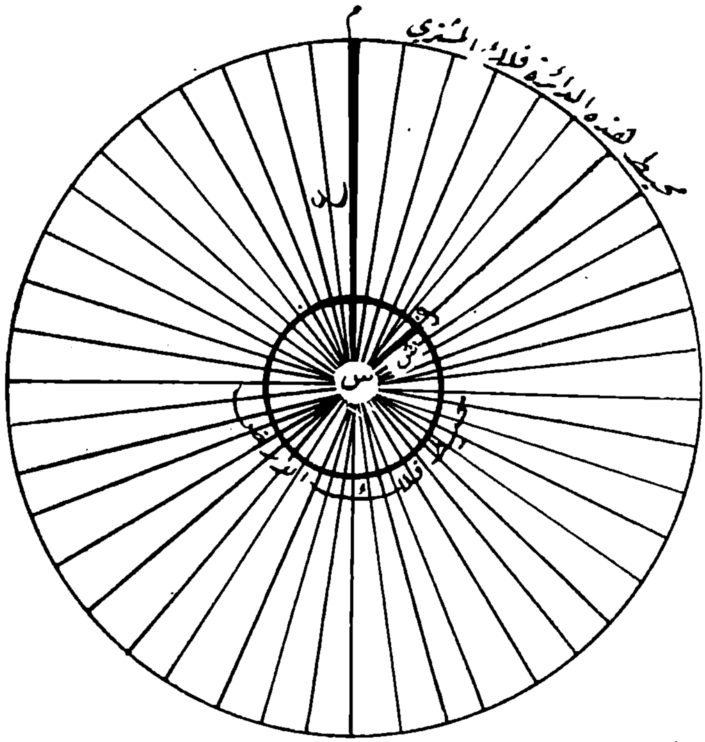
الملحق الثالث

قانون الجاذبية

(الملحق الثالث من الفصل الثاني)

قسم أول

اذا اعتبرنا الجو الجاذبي خطوط قوة منتشرة من المركز (مركز الشمس مثلاً) الى جميع الجهات بالتساوي فبالطبع يكون هذا الجو الجاذبي كثيفاً قرب المركز ولطيفاً كلما بعد عن المركز (كما ترى في الشكل الثاني) أي كلما كان أقرب الى المركز كان أقوى، وكلما كان أبعد كان أضعف ، فالسيار الذي يدور حول الشمس في فلك مقرر انما هو سابح في سطح كرة وهمية من



الخطوط الصادرة من مركز الدائرة (الشمس) هي خطوط القوة (الجاذبية)

الشكل الثاني

هذا الجو على بُعد واحد من المركز تقريباً . وهو تحت سلطة من قوة الجذب في هذا الجو مناسبة لبعده عن المركز، (أي نصف قطر تلك الكرة الوهمية التي نحن بصددها) فأينما كان السيَّار في سطح تلك الكرة الوهمية كان تحت فعل قدر واحد من قوة ذلك الجو الجاذبي .

مثال ذلك ض (في الشكل الثاني) الأرض تسبح حول س الشمس في خط غير معوّج على سطح كروي (والشكل قطاع الكرة) يبعد عن مركز الشمس بقدر الشعاع ش أي ض الى س ، وقوة الجاذبية منتشرة في ذلك السطح الكروي تساوي القوة موزعة على مساحة السطح الكروي (لا مساحة الدائرة) هكذا $\frac{ق}{٤ ب ش^٢}$

(حرف ب هنا هو (π الحرف اليوناني باي) هو عبارة عن قسمة محيط أي دائرة على قطرها (الذي هو ٢ ش . أي مضاعف شعاعها) كما اصطلح عليه الرياضيون وهو يساوي $\frac{٢٢}{٧}$ تقريباً . وأما (٤ ب ش^٢) فهي مساحة سطح أية كرة كما هو معلوم عند الرياضيين) . وحرف (ق) عبارة عن قوة الجاذبية .

وكذلك م المشتري يسبح كالأرض حول الشمس في خط غير معوّج على سطح كروي يبعد عن مركز الشمس بقدر الشعاع ع . (اي الخط م س)

فلنر الآن نسبة جذب الشمس للمشتري الى جذبها للارض على اعتبار ان المشتري يبعد عن الشمس خمس مرات كبُعد الارض عنها تقريباً (وبالتحقيق يبعد ٢ ، ٥ مرات)

$$ج (ض \times س) = \frac{ق}{٤ ب ش^٢} \quad \text{مساحة سطح الأرض} \quad (١)$$

$$ج (م \times س) = \frac{ق}{٤ ب ع^٢} \quad \text{مساحة سطح المشتري} \quad (٢)$$

بحيث ان: ج رمز الجاذبية ـ س كتلة الشمس ـ ض كتلة الارض ـ م كتلة المشتري ـ ق قوة الجذب ـ ش مسافة بعد الأرض عن الشمس (أي شعاع فلك الأرض) ـ ع مسافة بعد المشتري عن الشمس (أي شعاع فلك المشتري)

ناسب بين المعادلتين (١) و (٢) أي اقسم الواحدة على الاخرى

$$\frac{ج (ض \times س)}{ج (م \times س)} = \frac{\frac{ق}{٤ ب ش^٢}}{\frac{ق}{٤ ب ع^٢}} \quad \text{أبسط}$$

$$\frac{(ج) ض}{(ج) م} = \frac{\frac{١}{ش^٢}}{\frac{١}{ع^٢}} = \frac{ع^٢}{ش^٢} \quad (٣)$$

أي نسبة جذب الارض الى جذب المشتري كنسبة مربع شعاع فلك المشتري الى مربع شعاع فلك الارض هكذا : ض : م : : ع^{٢} : ش^{٢} (٣)

فاذا كان شعاع فلك المشتري (أي مسافة بعده عن الشمس) ٥ مرات شعاع فلك الارض (أي مسافة بعد الأرض عن الشمس) فبحسب المعادلة (٣) لنا .

$$\frac{\text{جاذبية الشمس للارض}}{\text{جاذبية الشمس للمشتري}} = \frac{٥^{٢}}{١^{٢}} = \frac{٢٥}{١} \qquad \text{لأن ع = ٥ ش}$$

أي ان جاذبية الشمس للارض ٢٥ مرة جاذبية الشمس للمشتري :

قسم ثان

$$\text{بقي علينا ان نبرهن نص نيوتن أي قوة الجاذبية} = \frac{\text{شمس} \times \text{ارض}}{\text{مربع المسافة بينهما}}$$

من قوانين الطبيعيات ان القوة = تساوي كتلة الجسم مضروبة في مسافة الحركة أي قوة = كتلة × حركة . ومنها الحركة = $\frac{\text{القوة}}{\text{الكتلة}}$ أو بالرموز ش = $\frac{\text{ق}}{\text{ك}}$ باعتبار أن ش رمز مسافة الحركة وق رمز القوة وك رمز الكتلة

مثاله : قوة حصان يرفع جسماً وزنه ٥٠ رطلاً متراً واحداً في ثانية، أو جسماً وزنه ١٠٠ رطل خمسة أمتار بنفس الوقت . هكذا :

$$\text{قوة حصان} = ٥٠٠ \times ١ = ١٠٠ \times ٥ = ٥٠ \times ١٠ \text{ أو } ٥ = \frac{\text{قوة حصان}}{١٠٠}$$

بناء على هذا القانون

$$\text{ش} = \frac{\text{قج}}{\text{ض}} \qquad \text{أي} \qquad \frac{\text{قوة جذب الشمس للارض}}{\text{كتلة الارض (وزنه)}}$$

(مسافة حركة الجاذبية أي سيرها من المركز الى المحيط وهو الشعاع ش)

$$\text{ومثله شش} = \frac{\text{قج}}{\text{مي}} \qquad \text{أي} \qquad \frac{\text{قوة جذب الشمس للمشتري}}{\text{كتلة المشتري (وزنه)}}$$

ض تمثل كتلة الارض — مي تمثل كتلة المشتري — ش تمثل بعد الأرض عن الشمس — شش تمثل بعد المشتري عن الشمس — قج تمثل قوة الجاذبية

وبناء على هذا تكون معادلة الجاذبية السابقة (٣) هكذا : —

$$\frac{\text{قج}}{\text{ض}} : \frac{\text{قج}}{\text{مي}} :: \text{شش}^{٢} : \text{ش}^{٢} \quad (\text{قوة الجاذبية})$$

$$\text{ومنها} \quad \frac{\text{ش}^{٢}\,\text{قج}}{\text{ض}} = \frac{\text{شش}^{٢}\,\text{قج}}{\text{مي}} \qquad (٤)$$

***

ولكننا في هذه المعادلة لم نحسب حساب المسافة بين الأرض والمشتري لأن التجاذب ليس بينهما بل حسبناها بين كل منهما والشمس باعتبار أن الشمس المركز الذي يجذب كلاً منهما وكل منهما يجذبها .

وكذلك غضضنا النظر عن التجاذب الذي بينهما . واقتصرنا على نسبة كل منهما اليها . فاذا رمنا أن نحسب حساب هذا التجاذب كانت شم (كتلة الشمس) مركزاً بين جانبي هذه المعادلة هكذا :

$$\frac{\text{ش}^{٢}\text{قج}}{\text{ض}} = \text{شم} = \frac{\text{شش}^{٢}\,\text{قج}}{\text{مي}}$$

أي أن كتلة الشمس تقوم مقام كلٍ منهما هكذا :

$\text{شم} = \frac{\text{ش}^{٢}\,\text{قج}}{\text{ض}}$ ومنها قج $= \frac{\text{شم} \times \text{ض}}{\text{ش}^{٢}}$ أي $= \frac{\text{الشمس} \times \text{الارض}}{\text{مربع البعد بينهما}}$ وهي معادلة قانون نيوتن كما تقدم نصها في أول الفصل الثالث .

بناء عليه اذا ضرب كل من طرفي المعادلة (٤) بقيمة $\frac{١}{\text{شم}}$ (او اذا شئت $\frac{\text{قج}}{\text{شم}}$) هكذا.

$$\frac{\text{ش}^{٢}\text{قج}}{\text{ض}^{٣}} \times \frac{١}{\text{شم}} = \frac{\text{شش}^{٢}\text{قج}}{\text{مي}} \times \frac{١}{\text{شم}}$$

تصبح كما يجب أن تكون هكذا

$$\frac{\text{شم} \times \text{ض}}{\text{ش}^{٢}} = \frac{\text{شم} \times \text{مي}}{\text{شش}^{٢}} = \text{قج}$$

وهي معادلة نيوتن بعينها ،

يعني ان قوة الجاذبية تساوي حاصل ضرب كتلتي جرمين مقسوماً على مربع البعد بينهما أينما كانا وعلى أي بعد كانا (بقطع النظر عن تداخل جرم ثالث على مقربة من احدهما أو من كليهما) وهذا هو معنى تعميم قانون الجاذبية على جميع الأجرام .

قسم ٣

امتحان القانون

لم يذع نيوتن القانون إلاَّ بعد أن امتحنه بتطبيقه وقانون المسارعة المشروح في الملحق الثاني على التجاذب بين القمر والارض .

المعلوم ان نصف قطر الأرض ٣٩٥٦ ميلاً وقد علمنا من الملحق الأول ان الجسم يسقط على سطح الأرض بمعدل متوسط ١٦ قدماً بالثانية كل ثانية . فعلينا أن نعلم معدل هبوط القمر نحو مركز الأرض وهو يبعد عنه ٢٣٨ ٨٥٧ ميلاً . والمعلوم ان سرعة القمر في الثانية ٣٣٥٠ قدماً أو $\frac{٣٣٥٠}{٥٢٨٠}$ من الميل (الميل = ٥٢٨٠ قدماً) .

وعلمنا من قانون المسارعة أن مس $= \frac{\text{س}^2}{\text{ش}}$ والمعدل الأوسط لِ مس في الثانية هو $\frac{1}{2} \times \frac{\text{س}^2}{\text{ش}}$ ابدل الأرقام بالحروف .

معدل مس $= \frac{1}{2} \times \frac{(٣٣٥٠)^2 \text{ السرعة}}{٥٢٨٠ \times ٢٣٨٬٨٥٧} = \frac{٠٫٠٠٨٩}{٢} =$ ٠٫٠٠٤٤٥ من القدم = (٠٫٠٥٣٤) قيراط وهو متوسط هبوط القمر نحو الأرض بالثانية ، هذا حسب قانون المسارعة

فلنرَ الآن هل الحساب حسب قانون الجاذبية يطابق الحساب حسب قانون المسارعة هذا ؟

اذا قسمنا متوسط هبوط أي جسم على سطح الارض على معدل هبوط القمر نحو الأرض هكذا $\frac{\text{١٦ قدماً}}{\text{٠٫٠٠٤٤٥ قدم}} =$ ٣٦٣٢ يعني كان لنا مقدار هبوط الاجسام على الأرض ٣٦٣٢ مرة كمقدار هبوط القمر

وبعبارة أخرى كان مقدار جذب الأرض للأجسام التي على سطحها ٣٦٣٢ مرة كمقدار جذبها للقمر . فاذا كان قانون الجاذبية صحيحاً وجب أن يكون مربع مسافة بُعد القمر عن مركز الأرض اذا قسناه بنصف قطر الأرض مساوياً لهذا القدر « ٣٦٣٢ » . فكم هو بعد القمر عن الأرض بمقياس نصف قطرها ؟ أي كم في هذه المسافة من أنصاف قطر الأرض

اقسم المسافة (بين القمر ومركز الأرض) على نصف قطر الأرض هكذا : —

$$\frac{\text{٢٣٨٨٥٧ مسافة بعد القمر عن مركز الارض}}{\text{٣٩٥٦ نصف قطر الارض}} = \text{٦٠،٢٧}$$

أي أن مسافة بعد القمر عن مركز الأرض تساوي نحو ٦٠ مرة وكسور كنصف قطر الأرض

ربع هذا العدد (٦٠،٢٧)^{٢} = ٣٦٣٢

وهذا العدد هو نفس العدد الذي مرَّ بنا سابقاً . أي هو عدد المرات لمقدار جذب الأرض للقمر اذا قيس بجذبها للاجسام على سطحها كما رأيت آنفاً .

إذن فناموس الجاذبية صحيح لانه مطابق لناموس المسارعة الذي عرف بالاختبار . وهو نتيجة الجاذبية .

لما خطر لنيوتن ناموس الجاذبية رام أن يمتحنه بما لهُ من المعلومات عن دوران القمر حول الأرض وعن ناموس المسارعة هذا الذي نحن بصدده فعمل العملية السابقة . وكان معروفاً حينئذٍ بعملية زاوية اختلاف النظر Parallax ان مسافة بُعد القمر عن مركز الأرض يساوي ٦٠ مرة نصف قطر الأرض .

وكان معلوماً حينئذٍ إن الدرجة من محيط الأرض ٦٠ ميلاً . فعلى هذا الحساب يكون نصف قطر الأرض ٣٤٣٦ ميلاً وهو خلاف الحقيقة . والحقيقة هي أنه ٣٩٥٦ . فلمَّا عمل نيوتن حسابه لم تأتِ النتيجة مطابقة لقانون المسارعة القمرية بل جاءت ٠،٠٠٤٤ من القيراط بدل ٠،٠٠٥٣٤ كما أبنَّا آنفاً . فلم يأخذه الغرور لكي يتسامح بهذا الفرق واعتبر ان نظريته خطأ . فعدل عنها من غير أن يفوه بكلمة عنها .

بعد ست سنين بلغ اليه أن بيكارد الفرنساوي قاس قوساً من الطول في فرنسا فوجد أن الدرجة تساوي ٦٩½ ميل (لا ٦٠ كما كان يظن) وان نصف القطر اذن ٣٩٥٦ (لا ٣٤٣٦ كما كان يُظن قبلاً) فأسرع نيوتن الى اعادة عمليته على اعتبار تصحيح نصف القطر .

ويقال أنه لشدة انفعاله لم يتمالك أن يعمل العملية الحسابية بنفسه — فكلف صديقاً له أن يسرع بعملها . فجاءت النتيجة نجاحاً باهراً . وثمَّ أذاع نظريته

الملحق الرابع

قانون كبلر الثالث

ملحق لـ (٢) من الفصل الثاني

قانون كبلر : نسبة مربع المدة التي يقضيها السيار الواحد من حول الشمس الى مكعب مسافة بعده عن الشمس كنسبة مربع مدة أي سيار آخر الى مكعب مسافة بعده . هكذا : —

ت٢ : تت٢ : ش٣ : شش٣

باعتبار ان ت مدة دوران الجرم الواحد وتت مدة دوران الجرم الآخر . وش بُعد الاول وشش بُعد الثاني عن الشمس

مثال ذلك نصف قطر فلك الأرض ش (مقياس فلكي واحد) ، ونصف قطر فلك المشتري ٥،٢ خمس مقاييس فلكية وعُشْرين .

(اصطلح الفلكيون على اعتبار مسافة بُعد الأرض عن الشمس مقياساً فلكيّاً واحداً أي متراً أو ذراعاً فلكيّاً . وسائر أبعاد السيارات تحسب بهذا المقياس (انظر ايضاً ٤ من الفصل الرابع)

فبهذا المقياس يبعد المشتري عن الشمس خمس مرات وعُشرين كبُعد الأرض

والمشتري يتم دورته «تت» في ١١،٨٦ سنة أرضية والارض تتم دورتها في سنة واحدة. فبناءً على معادلة كبلر ابدل الارقام بالرموز هكذا : —

١٢ : (١١،٨٦)٢ : : ١٣ : (٥،٢)٣ بالبسط

$$\frac{١}{١٤٠،٦٦} = \frac{١}{١٤٠،٤٤}$$ متساويان تقريباً

على هذا النحو يمكن القارىء أن يمتحن المعادلة في جميع السيارات فلا يجد فيها الاّ خللاً زهيداً بسبب ان بعض الأرقام المحصاة تقريبية .

وبواسطة هذه المعادلة تستطيع ان تستخرج أي ضلع واحد مجهول فيها اذا كنت تعلم الأضلاع الثلاثة الأخرى مثال ذلك :

نبتون يبعد عن الشمس ٣٠ مرة كبعد الارض تقريباً فكم مدة دورته ؟

$$ت^{٢} : تت^{٢} :: ش^{٣} : ششش^{٣}$$

$$١^{٢} : ك^{٢} = ١^{٣} : (٣٠)^{٣}$$

ك $= \sqrt{٢٧٠٠٠} =$ ١٦٤ سنة تقريباً مدة دورة نبتون

وافرض اننا نعرف مدة دورة المريخ ١،٨٨ سنة . فكم بعده عن الشمس

$$١^{٢} : (١،٨٨)^{٢} = ١^{٣} : ك^{٣}$$

ك $= \sqrt[٣]{(١،٨٨)^{٢}} =$ ١،٥٢ بُعده بالمقياس الفلكي

استخراج قانون الجاذبية

من معادلة كبلر

معلوم أن محيط الدائرة (الفلك) يساوي ٢ ش ب باعتبار أن ب = محيط الدائرة مقسوماً على القطر أي $\frac{٢٢}{٧}$ كما تقدم القول سابقاً

ومعلوم ايضاً ان الوقت ت يساوي المسافة مقسومة على السرعة فاذاً .

$$ت = \frac{٢ ش ب}{س} \text{ للسيار الواحد}$$

$$تت = \frac{٢ شش ب}{سس} \text{ للسيار الآخر}$$

ت رمز للوقت الواحد . وتت للوقت الآخر .

و ش بُعد الواحد وشش بُعد الآخر .

س سرعة الواحد وسس سرعة الآخر.

فاذا وضعنا القيمتين الآنفتين بدل ت وتت في معادلة كبلر كان لنا .

$$\frac{٤ ش^{٢} ب^{٢}}{س^{٢}} : \frac{٤ شش^{٢} ب^{٢}}{سس^{٢}} = ش^{٣} : شش^{٣}$$

بالبسط لنا

$$\frac{١}{س^{٢}} : \frac{١}{سس^{٢}} = ش : شش$$

أو $\frac{\text{س}^2}{\text{ﺳﺲ}^2} = \frac{\text{ﺷﺶ}}{\text{ش}}$ (معادلة اولى)

وبحسب قانون المسارعة الدوراني الذي شرحناه في الملحق الثاني : —

المسارعة (أي قوة الجاذبية في فلك الارض) $\text{ج} = \frac{\text{س}^2}{\text{ش}}$ او ج ش = س^2

وقوة الجاذبية في فلك المشتري $\text{قج} = \frac{\text{ﺳﺲ}^2}{\text{ﺷﺶ}}$ او قج ﺷﺶ = ﺳﺲ^2

ناسب بين هاتين المعادلتين أي اقسم الواحدة على الأخرى .

$$\frac{\text{ج ش}}{\text{قج ﺷﺶ}} = \frac{\text{س}^2}{\text{ﺳﺲ}^2}$$

عبارة $\frac{\text{س}^2}{\text{ﺳﺲ}^2}$ الواردة هنا وردت أيضاً في المعادلة السابقة الأولى فعادل بينهما هكذا :

$$\frac{\text{ج ش}}{\text{قج ﺷﺶ}} = \frac{\text{ﺷﺶ}}{\text{ش}}$$

وبالجبر $\frac{\text{ج}}{\text{قج}} = \frac{\text{ﺷﺶ}^2}{\text{ش}^2}$

وهذه هي معادلة قانون الجاذبية بعينها

يمكن استخراج معادلة كبلر أيضاً من معادلة قانون الجاذبية . ولا محل هنا لهذا .

الملحق الخامس

التناسب بين السرعة والبعد

في عملية استخراج معادلة قانون الجاذبية من معادلة كبلر ظهرت أمامنا المعادلة الاولى هذه

$$\frac{\text{س}^2}{\text{ﺳﺲ}^2} = \frac{\text{ﺷﺶ}}{\text{ش}} \quad (٢)$$

وفحواها أن نسبة مربع سرعة السيار الواحد الى مربع سرعة السيار الآخر كنسبة بعد الثاني الى بعد الأول

أو س^2 × ش = ﺳﺲ^2 × ﺷﺶ (٣)

أي حاصل ضرب مربع سرعة الواحد بمسافة بعده كحاصل ضرب مربع سرعة الآخر بمسافة بعده .

مثال ذلك :— الأرض بعدها مقياس واحد وسرعتها ٥ر١٨

$(١٨،٥)^٢ \times ١ = ٣٤٢$

وزحل بعده ٩،٥٣٨٨ مقاييس وسرعته ٦ أميال

$٦^٢ \times ٥٣٨٨،٩ = ٣٤٢$ عدد ثابت بناءً على المعادلة الثانية أو المعادلة الثالثة لا فرق.

$$\frac{س^٢}{مس^٢} = \frac{شش}{ش}$$

تستطيع أن تستخرج أي ضلع مجهول : افرض انك تجهل بعد المريخ وأنت تعرف سرعته ١٥ ميلاً بالثانية وتعرف سرعة الأرض ١٨،٥ ميلاً ، فلك

$$\frac{(١٨ ر ٥)^٢}{(١٥)^٢} = \frac{ك}{١} = ١،٥٢ \text{ مقياس فلكي}$$

الملحق السادس

ملحق لآخر (٤) من الفصل الثاني

اذا قذفت جسماً عن سطح الأرض قذفاً أفقيًّا لـكي يستمر دائراً حول الأرض على مقربة من سطحها كأنه قمر آخر لها قريب منها . فـكم يجب ان تـكون سرعته لـكيلا يقع عليها ولا يشرد عنها

علمنا أن مسارعة أي جسم على الأرض ١٦ قدماً بالثانية كل ثانية . بحسب معادلة قانون المسارعة في الملحق الثاني أي مس $= \frac{س^٢}{ش}$ بحيث ان س السرعة، ش البعد عن المركز، لنا

$$(مس) = ١٦ \text{ قدماً} = \frac{١}{٢} \times \frac{س^٢}{٣٩٥٦ \text{ نصف قطر الارض بالاميال}}$$

$س^٢ = ١٦ \times ٢٠٩٥٠٠٠٠$ بالأقدام

س = ٢٥٨٨٠ قدماً

س = ٤،٩ أميال

لواحق المقتطف الشهرية
اغسطس ١٩٤٦

الدعاية

قديماً وحديثاً

بقلم
سليم تاوضروس الاسيوطي

الثمن ١٠ قروش صاغ

مطبعة المقتطف والمقطم
١٩٤٦

فهرست الكتاب

صفحة

الدعاية
قديماً وحديثاً

الدعاية في مختلف أطوارها

توحي كلمة « دعاية » بكثير من المعاني ففي زمن الاصلاح الديني والاجتماعي في أوروبا تصدّعت الوحدة الروحية والوحدة الكهنوتية وفقدت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في العصور الوسطى سيطرتها على دول الشمال . وفي أثناء معركة الفناء والدمار التي تلت هذا بين قوات البروتستانتية ومعارضي الاصلاح وجدت الكنيسة نفسها إزاء إشكال الابقاء على سيطرتها بل وزيادة تلك السيطرة على الدول غير الكاثوليكية . وأرسل جورج الثامن بعثاً من الكرادلة في عام ١٥٧٢ : ١٥٨٥ أناط به نشر الكثلكة وتنظيم الشئون الدينية في أرض الهراطقة وبين الخارجين على الكنيسة أو الشعوب الوثنية ، وسرعان ما أصبح رئيس البعث الملقب بالبابا الأحمر رئيساً للدعاية وبعد مضي جيل من الزمان نشبت حرب « الثلاثين سنة » فجعل جورج التاسع في سنة ١٦٢٢ البعث دائماً وصار جمعية مقدسة للدعاية الرسمية وأسند اليها تنظيم البعوث الأجنبية ، وقوّمها بدخل تدرّه عليها ضرائب فرضت على كل من نصب كردينالاً . وبعد وقت قصير انتهى الأمر بأن تبلورت هذه المهمة وتركزت في كلية الدعاية التي تأسست لتعليم شباب القساوسة الذين سيلقى على كاهلهم أمثال هذه البعثات .

هذا المعهد الذي كان الأول من نوعه جماعة أنيط بها التقدم في نشر مجموعة من العقائد الدينية ، هذه الجماعة لم تكن ابتداعاً في ذاتها ولكنها كانت حدثاً جديراً بالملاحظة والنظر بسبب ما أحاط بها من الظروف التي رأت فيها النور وسرعان ما أصبحت كلمة « دعاية » تطبق على كل تنظيم يقصد به نشر عقيدة من العقائد وما لبثت أن طبقت على العقيدة نفسها التي

كانت تذاع بين الناس . وأخيراً طبقت على الوسيلة التي كانت تتبع في هذه الاذاعة وكانت ترتبط منذ البدء بالدين أعني بالعقائد التي تقوم على أساس ديني أكثر من قيامها على المنطق الانساني، بل وأكثر من ذلك صورة واحدة من الأديان الكاثوليكية الرومانية. وكانت معظم دول أوروبا تعارض بشدة الطرق التي التزمتها الكنيسة في هداية الناس أو في الاحتفاظ بهم في حظيرتها ، وبذلك صار لكلمة دعاية معانٍ أخرى رديئة بين دول أوربا الشمالية . وهي الدول التي انشقت على روما بينما في الدول اللاتينية التي ظلت على تبعيتها وولائها لروما لم يكن لكلمة دعاية بينها هذه المعانيْ البغيضة ، كما انه ليس لها هذه المعاني حتى وقتنا هذا . وكان مما يدعو الى البغض والكراهة أن تلقب جماعة أو فرداً بالداعية في بريطانيا العظمى ولم يكن لهذا الوصف من الأثر في ايطاليا مثل ما له في بلاد الانجليز .

ومن القرن التاسع عشر الى القرن العشرين نسمع قليلاً عن الدعاية بالنسبة لما كنا نسمعه عنها ،وكان لهذا الاصطلاح استعمال محدود، ومع انه لم يكن محبباً الى النفوس فقد كان غير مألوف وغير معروف وفي أثناء الثورة البيورتانية وقفت الدعاية بالرسائل والخطابات الخبرية بجانب الحركات الحربية . وكان جيش كرمويل يعمل على نشر العقائد الدينية والسياسية كما عمل على النصر في ميدان الحرب والقتال . وفي نهاية القرن الثامن عشر كانت حرب الاستقلال الأمريكية وحروب الثورة الفرنسية الكبرى وحروب نابليون ، حروب أفكار وآراء ومعتقدات ، وهدفها كهدف تلك الحروب التي ترمي إلى فتح البلدان تماماً . وكان يراد بها نجاح الثورة أو عرقلتها ،ولذا فقد وزع رجال حزب الجيروند نشرات بين قوات العدو يمنونهم فيها بالمنح، والفيء إذا هم تركوا صفوفهم وفروا من الجندية . وكتب ڤات في كتابه «تاريخ الجندية» إن جماعات من الجنود الفرنسيين ظهروا مجردين من أسلحتهم في طلائع جيش العدو وأعلنوا ولاءهم .. وخلفوا وراءهم حزماً كبيرة من نشرات تضمنت الفوائد التي تعود على الفرنسيين والبروسيين سواء بسواء من انسجام مصالحهما، ووقعوا ألحان الحرية والمساواة بلغة يفهمها الجند ويستسيغونها . وفي هذه الفترة من الزمان وقد ألهب الفرنسيون بروح الحماس الثوري بذوا الحلفاء في فن الدعاية الذي كانوا ينظرون إليه نظرهم إلى كل مستحدث عصري غير مشرف .

ولم تتخلل حروب الثورات الفترة التي تبدأ بنهاية الحروب النابليونيـة والتي انتهت بثوران بركان الحرب الأوروبية الـكبرى الأولى في عام ١٩١٤. ومن ثمَّ لم تكن هناك فرصة لازدهار الدعاية القوميّـة على مدى واسع ، وصارت الدعاية من الناحية التاريخيـة مرتبطة بفترات الهياج والشدائد التي كانت فيهـا المعارضة العاصفة للعقائد مصحوبة باستعمال القوة. وبدا من المتعذر إمكان تطبيقها على الطرائق العادية للمعتقدات السلمية التي تستعمل في زمن استقرار المجتمع وأمنه . لأن روح الدعاية التأثير على الأفراد كي يعملوا أعمالاً معينة ما كانوا ليفعلوها أو ليفكروا أفـكاراً خاصة ما كانوا ليفكروا فيها لو أنهم تركوا وشأنهم . وفي هذا المقام يختلف الداعية عن العالم أو الناس فهو لا يحاول أن يقنع نفسه بالبحث عن الحقائق أو اذاعتها وتركها تتكلم عن نفسها غير مهتم كثيراً أو قليـلاً بقبول دعوته أو رفضها . ولـكن على النقيض من ذلك فإن نجاح الداعية أو فشله يتوقف على هذا القبول أو رفضه، وليس صدق موضوع الدعاية محور الأهمية فيها ، ولـكن المهم هو جمهرة الناس الذين يراد التأثير عليهم وحملهم على التصديق والعمل كما يُـوحى إليهم . ويُـحكم على الدعاية بالوسيلة التي تتبع فيها ومدى ما تصل إليه من نجاح واستمرار هذا النجاح ، وليس مما يلازمها من عظمة ما يدعى إليه وخطره وأثره . وفي الحيـاة المثالية لا مدعاة ولا ضرورة للدعاية لأن الفرد فيهـا قادر على إدراك ما هو حق وما هو صالح له . وفي المجتمع العصري وبالأخص في الحالات المرضيـة في المجتمع . وفي أثناء الحروب والثورات، وزمن المصائب المادية، والمحن الاقتصادية، تبدو الدعاية ضرورة لازمة لحمل الناس على العمل قبل التفكير ،أو على الأصح قبل أن يجدوا متسعاً من الوقت ليتمموا عملية التفكير .وفي المجتمع الـكامل يكون الناس متساوين مستقلين اعتمادهم على أنفسهم . ولـكن في المجتمعات التي نألفها فالحاجة ملحة إلى ضوابط وحكومات من درجات متباينة تتدرّج من تنظيم أو إدارة ضرورية في ظل الحـكم الديموقراطي إلى المراسيم التي تصدر في دولة أوتوقراطية، ولـكنها تختلف وسيلة وقوة وتبلغ الحاجة إلى الدعاية أدناها بين أصحاب مذهب الفردية الذين تدرّبوا على أن يفكروا لأنفسهم وقد سبقوا غيرهم عقليًّـا . ولذا يمكن القول وفي اطمئنان الواثق أنه كلما زاد استعمال الدعاية في قطر كلمـا زاد بعدها عن الدولة المثالية .

وفي الواقع ، حتى في الدولة التي بلغت شأواً عظيماً من المدنية والتقدم لم يسلح المواطن الفرد فيها التسليح الكافي ليكون سديد الرأي فيما يصدره من حكم على الأشياء وليتصرف تصرفاً قائماً على العقل والتجربة في صدد الشئون العامة . ولكن جُلّ ما يعلم من معارف تأتي إليه عن طريق غيره ويقول « فاينر » في كتابه « نظرية الحكم ومزاولته » إن هناك صلات الأسرة بالفرد وما يتشعب عنها من تجارب فهو يتعلم شيئاً بل أشياء كثيرة عن الخلق الانساني في شتى مظاهره المتباينة ، فعليه أن يأخذ من كل شيء بطرف ، المهن الشريفة والأديان والمساجد والمعابد ويكون له إلمام بالجيش والبحرية والطيران والأحاديث التي تتداولها الألسنة في الأسرة بل وفي المجتمع كله أو الوطن بأجمعه . أما في الأقطار التي تجند الجنود وتحشد الجيوش فتجيء المعلومات عنها بالعمل والاشتراك فيها ، اشتراكاً فعليًّا . ومعظم الناس يتصلون برجال الشرطة في وقت من الأوقات حتى ولو كان هذا الاتصال ضئيلاً واهياً لأن عمدة البلدة أو عضو مجلسها المحلي أو عضو البرلمان يصرح للناس أنهم محكومون أو أنهم ملك للقوة الحاكمة، ويدعونهم للقسم علانية ليؤدوا يمين الطاعة والولاء، أو أن تكون السلطات الرسمية مصدر إلهامهم ولهوهم البريء . فالبريد معروف منذ الطفولة وإدارة الضرائب ومكتب تقدير الأثمان تصير حقائق ثابتة . وفي القضاء يساعد المحلَّفون على تحقيق العدالة، ويجد آلاف من الشعب لهم أمكنة في الهيئات الحكومية المحلية وفي داخل البلاد . فالحديث لا ينتهي عن الأثمان والأجور سواء في المنزل أو في المصنع، كما أن هناك المدرسة القديمة لازالت على طريقتها الرتيبة العتيقة ترغم على العمل وتبث الطموح في النفوس، كما أنها تهيء الفرص لمن يترقبونها، كما أن عملية النقل مهمة يومية لا تنقطع ، والمسارح ودور السينما والألعاب الرياضية تعطي تجارب لا يتاح للمواطن أن يلعب دوراً إيجابيًّا دونها ، وإلا بقي جامداً . وهذه المعارف والمعلومات التي تتسلح بها غالبية الشعب عدة قد تمكنها من أن تكسب قوتها، وقد يقويها ويدعمها المعارف المتداولة، والآراء المعروفة، فيتمكنوا من أن يختاروا نوع الحكومة التي تسيرهم ، ويصدروا قرارات هامة بسياسة شعبية ،ويصرفوا إيراداتهم بحكمة، ويفيدوا أكبر فائدة من العلم والثقافة، فالدعاية إذاً موجودة لأن عقول الأفراد إما متأرجحة أو مدرَّبة تدريباً سيئاً، فهي تقودك الى العمل في أقصر الطرق وأخصرها . ففي بعض الأحايين

تكون أوقية من عمل أثمن من رطل من الفكر، لأن الضرورة اللازبة في زمن الأزمات تقضي بأن العمل أولاً، ثم التفكير ثانياً. وقد درّب الأفراد على التفكير فيما يفعلون مقدماً. وقد برهنوا على بطئهم في الاستجابة لنداء ما تتطلبه الأزمات. فالدعاية على هذا الأساس أداة قوة تتطوّر الى مسئولية تلقى على كاهل الحكومات، أو تبعة تناط بها المجتمعات القومية، وتعطيها الحق في استعمالها إذا تراءى لها أن المجتمع يهدده الخطر وروح الدعاية التأثير على الأفراد دون النظر الى ملكاتهم المفكرة، فهي على هذا الاعتبار عملية غير منطقية ومع هذا فهي لا تطرح جانباً أو تغضي عن مظاهر التفكير والرأي. فالانسان حيوان مفكر في التمدن والحياة العادية وغمر الهمجية. فقد تعوّد على تدريب قواه المفكرة، فلكي نحمله على الاقلاع عن هذه العادة تفترض الدعاية عادةً بعض مظاهر التفكير. ومن الطبيعي أنه يمكن حمل الافراد على الخضوع قسراً للسلطان، وتنفيذ ما به يؤمرون. ولكن الدعاية تلجأ الى وسائل الاغراء أكثر مما تلجأ الى القوة والقسر لأنه يمكنها أن تصل الى هدفها بأحسن الطرق وأسهلها إذا ألقت في روع الفرد أنه يقبل الاغراء ملبياً نداء قواه المفكرة العادية. ولذا فهو يبقى على احترام ذاته بصفته حيواناً عاقلاً وانه يستطيع العمل في وقت أقصر اذا كانت قواه المفكرة لا تساعدها قوة أخرى ويترك وشأنه. وحينئذٍ فكلما تيسر الحال تفترض الدعاية إخفاء التعقل بستار الفضائل التي هي من مميزات العقل مثل الصدق والنصفة والعدالة والمنطق، والداعية الناجح هو أمهر من يأخذ على عاتقه صفة من يبحث عن الحق ويدقق في البحث عنه أو صفة العالم أو المربي.

ومن الأسباب القوية المهمة التي تصبغ الدعاية بصبغة الوقاية المعارضة التي تقوم في وجه الدعاية نفسها وهذه المقاومة تبدو من الفرد بالغريزة عندما يحس نفسه خاضعاً لتأثيرها في أوضح صورها، لأن الدراسة النفسية الرديئة هي التي تجعل الفرد يرى في نفسه فريسة للاغراء بينما في الامكان حمله على التفكير، لأن الاغراء صادر منه وواقع عليه، وقد أحاطت بالمجتمع الحديث ظروف جعلته أميل الى خلق مناسبات سيئة في كثير من الاحيان أو ايجاد كثير من الأشخاص الذين ملأت رؤوسهم فكرة تقصهم أو عجزهم اذا هم واجهوا ظروفاً تختلف والتي يعيشون فيها أو اعترضتهم اشكالات لم تكن تدور بخلدهم. فاذا أخذ الداعية

مرّة وأشعر الذين ينشر بينهم دعايته انه ينظر اليهم نظرة وضيعة تيقظت عقولهم واستثارت لجأة لتحول دون دعايته والانتشار. وتراقبه وتحرس الطرق التي يسلكها بينما الأمر على النقيض فيكون الفرد الذي به مركب النقص من أكثر الدعاة حماسة وحمية ويجد في إغراء الآخرين تعويضاً للنقص الذي في شخصيته وتكميلاً لعجزها لأن الدعاية لاتستمد قوتها من غريزة القطيع في الانسان ولكن تستمدها من فرديته وشأن النبي الذي يدوي صوته صارخاً في البرية، والذي بلا كرامة في وطنه، شأن الداعية من زعماء الشعب الذين يحملهم على الأكتاف وهم يثيرونه ويحركونه .

إن الغريزة التي تدفع الفرد الى العمل ضد الدعاية السافرة تجعله متبلد الشعور، جامد الحس، أو تجعله يقف موقفاً عدائيّاً إزاء التعليم والتربية . لأن الحد الفاصل بين الدعاية من جهة والتربية والتعليم من جهة أخرى، باهت ضعيف صعب التحديد، لأن بعض ذوي النظر يرى أن تعليم الأطفال وعلى الأقل في صوره التقليدية ليس أكثر من إخضاعهم لعملية دعاية مستمرة منظمة يشرف عليها راشدون . وفي هذه الحالة يكون الداعية المعلم، ونائب المجتمع، الذي رسم عن تجربة وتقليد مجموعة من المعتقدات والنظم ، ووضع طائفة من المعارف والافكار تفرض على كل فرد من أفراد المجتمع . والطفل لا يكوّن أفكاره الخاصة به ، ولا يحصل معارفه بنفسه، لأن المدرس هو الذي يزوّده بالقدرة على التفكير ، والتعود عليه ويزوّده بعادة الفكر التي سبق إعدادها فيخلع عن نفسه العقائد التي تبناها في طفولته أو بغيرها بينما يكون الأحرى به أن يهضمها ويدخلها في بناء تكوينه ليتسنى له أن يجعل منها أساساً يقيم عليه تفكيره في طور نضجه . وعلى أية حال فنحن نفرق عمليّاً بين التربية والتعليم من ناحية ، والدعاية من ناحية أخرى . فإن سوء سمعة الدعاية تتنزه عنها التربية والتعليم لأن عقل الطفل معتبر في جميع أحواله غير قادر على التقدم دون إرشاد . فإذا ترك وشأنه وقع فريسة لأي نوع من أنواع الدعاية مهما كانت خسيسة دنيئة المبادىء لا يرجى منها خير ، في حين أن المعلم وهو عضو معترف به في الهيئة الاجتماعية المعترف بها يعمل خادماً المجتمع على الاجيال ، ودعايته تمثل خليطاً من حكمة المجتمع على مرّ الزمن ، ذلك المجتمع الذي يستخدمه . ويجب حينئذ أن تستغل قوته

ويلقي عليه مسئولية كما يلقيها على رجال الدين ورغم أن كلاً من المعلم ورجل الدين لا يدخل ضمن الدعاة، فالشخص الرشيد الناضج العقل ينظر إليهما نظرة لا تخلو من شك وريبة لأن في كل ما يعملان دعاية كاملة ، فالحصيف يخشى أن المدرس وقد اعتاد تلقين الأطفال يحاول أيضاً وقد يكون عن غير قصد ووعي من أن يعلمهم ويربيهم كما يرغب ، كما أن رجل الدين وقد اعتاد التبشير والوعظ في الشعب يحاول أن يحوّل الطفل وجهة دينية أخرى . ويخلق هذا الخوف وذلك الحذر مقاومة لا يفطن إليها الفرد ضد المعلم أو رجل الدين قد تأخذ في النهاية صور الإهمال أو التراخي أو الترفع أو المخاصمة السافرة . ولذا فهذه الطبقات تكون عادة هدفاً لريبة جائرة أو حفيظة غير عادلة لا مبرّر لها في المجتمع الذي إليه ينتمون .

وتبعاً لهذه الصعوبة التي تقوم دون القدرة على التمييز بين الدعاية والتربية ، وتبعاً لأن الحقيقة الواقعة أن الدعاية تصبح أكثر صلاحية في المجتمع كلما انحطت تقاليده ، والعرف السائد فيه . وقد بُذلت محاولات لتوسيع معنى الكلمة ولتحديدها بمصطلحات لا تقوم على أساس التعمد ولكن تنهض على التأثير فكلمة دعاية ، إذاً ، اصطلاح يشمل كل الحركات التي تؤتى عن عمدٍ وقصد لإغراء عدد من أناس آخرين ليعملوا أو ليفكروا حسبما يريد الداعية . ولكن هل تشمل الدعاية الحركات التي ليس من الضروري تلونها بلون التعمد والاصرار والتي تعد في الواقع لتأتي بنفس الثمار ؟ الإجابة على هذا السؤال معقدة والتعقيد فيها صادر عن قياس كلمة « عمد » ووزنها لأن أبسط صور الدعاية أوضحها تعمداً فهي عارية مكشوفة . ولكن هناك حالات دقيقة تكون فيها الدعاية مقنعة الغرض إذا لم يكن مختفياً كل الاختفاء ، ويكون هذا بصفة خاصة في أحوال الدعاية التي تعمل للنظم المرعية وللعادات القائمة لأن في مثل هذه الأحوال يكون مجرد توارث العادات والاستمرار في هذا التوارث بتقوية التقاليد والإبقاء عليها بحالتها الراهنة لأنه يكفي وقاية الفرد من تسمم أفكاره، وصيانة حركاته، لكي نثق أنه سيقبع راضياً في عقر داره، قانعاً بما اعتنق من عقائد وما يأتيه من تصرفات، وهذا غرض من أغراض الرقابة الأساسية، وتكون في هذا المقام ترياقاً ضد الدعاية وشفاءً منها أو هي صورة من صور الحركات المضادة لها .

وتكون الدعاية مقنعة محجبة إذا كانت الدوافع خلفها ليست واضحة. فمثلاً هل كانت الدعاية

التي عملت في « إلدرعوت » للتجنيد والتسليح حقاً أم كان القصد منها مجرد إجتماعات ترفيه وتسلية لأغراض البر والاحسان ، أو كلاهما معاً ؟ وهنا يعرض لنا السؤال الآتي : هل صور نجوم هوليود السينمائية في الأفلام تعتبر دعاية لاستعمال أدوات التجميل ؟ لقد قيل إن جميع التصرفات البشرية ترمي إلى أغراض وأهداف. وعلى هذا فليست هناك أعمال توصف بالنزاهة عن قصد أو لا تقصد إلى غاية . وعلى ذلك فيجب أن نستريب شرعاً في الدعاية في كل أوجه النشاط الاجتماعي وتبعاً لهذا التسلسل المنطقي : « فكل حركة تؤدي في وجود نظارة أو أي حركة تقدم للجماهير عن طريق الصحف أو المذياع وتوضع موضع الالتفات من الجماهير الذين قد يتجمعون فيما بعد أحزاباً وشيعاً هي في الواقع ونفس الأمر دعاية وتحت ضوء هذا التعريف الذي جاء عن طريق التصرفات اذا وجدنا أن أية حركة تعمل لحمل الناس على التعبير عن آراء خاصة أو أن يفعلوا أموراً معينة لم يعتادوا الافصاح عنها ، أو اتيانها، فلا بد وأن تكون تلك الحركة قد أديت لخلق هذه الآراء ، أو ايجاد ذلك التصرف . وعليه فهي دعاية فمثلاً الأثر الذي يتركه حفل شعبي مثل مهرجان التتويج يقصد به إظهار الولاء الشعبي للعرش مضخماً ولذا فقد قيل ان التتويج دعاية للملكية . والاعتراض الذي يقوم في وجه هذا التعريف الفضفاض للدعاية أنه يبدو كأنه يردها عديمة المعنى. فمثلاً مباريات كرة القدم يشاهدها آلاف من النظارة الذين يدفعون أجوراً لمشاهدتها وهي مصدر نفع جزيل لمنظمي هذه الحفلات . ولكن أثراً من آثار إقامة مباريات الكرة تحويل أنظار الجماهير وعقولهم بعيداً عن ميدان السياسة ردحاً من الزمن ويخفف حدة ما يحملون من موجدة ضد النظام القائم في المجتمع . واذاً على هذا الفرض القائم على التصرف الخلقي تكون مباريات الكرة صورة من صور الدعاية التي تعملها الرأسمالية لتخدير الرأي العام . وقد كان هذا موضع نقاش حاد في استعماله إذ منه نخطو خطوة أخرى نصل منها الى أن الدعاية توجد في كل شيء وهذا الغرض يساعد الماركسيين في تفسيرهم للمجتمع بدعوى أنه طبقات دائمة الحرب بعضها مع بعض في حياتها المستمرة لأن الدعاية في صميمها أداة حرب لأنها تزدهر وتينع وتؤتي أكلها حينما يكون هناك صراع آراء وتكون الحاجة ملحة لوضع نهاية لهذا الصراع. فاذا اتخذ شخص « حرب الطبقات » أساساً لكل مجتمع قائم غدت الدعاية موجودة في كل مكان وفي مثل

هذه الأحوال فقط يصبح من المستحيل تفاديها ويعتبر النفع الذاتي وعدم التحيز والخلو من الغرض صوراً من صور النفاق المتعددة وليست مثلاً عاليا من العسير الوصول اليها لخدمة أغراض معينة بواسطة قوم يعينهم وإذوجهات النظر المشبعة بالتهكم أو المتطرفة عن المجتمع تنتهي بصدام سافر بين الفاشية وبتعبير آخر فهي تكشف عن نفسها في صورة معارضة لكل تطرف لا يتفق إلا في استبعاد العناصر المتزنة . وهذه الفكرة لم تلق ترحيباً في بريطانيا الديموقراطية ، والانجليز ليسوا مستعدين أن يروا الدعاية متغلغلة في جميع مرافق حياتهم لأنهم ما زالوا يفكرون في الفرد وملكات عقله وقدرته على الحكم على الأشياء ، وأن من حقه التفكير لنفسه لأن عدم المحاباة والفردية تتمشيان معاً يداً في يد .

يمكننا الآن أن نفهم لماذا كان لكلمة دعاية معانٍ مختلفة في البلاد المختلفة فهي صورة من صور النشاط الاجتماعي ،لأن أي محاولة تبذل من جانب شخص لإغراء آخر على شراء سيارة مثلا ليس دعاية بالمعنى المتعارف لأن الدعاية توجه إلى جماعة من الناس أو إلى الأمم وفي البلاد التي قويت فيها غريزة القطيع بينما روح الفردية لا تجد التشجيع الكافي ، تكون الدعاية الوسيلة الطبيعية لإثارة الرأي العام أو تكوينه ولكن في البلاد التي تعزز فيها روح الفردية يعترف بالدعاية على أنها شر لا بد منه،فتجيء في الرتبة الثانية الحسنة من مقومات الرأي العام وتكون الجيدة وعدم الميل ذات اليمين أو ذات اليسار فضيلة عقلية رفيعة وتكون التربية طريقة نزيهة لتزويد الطلاب بالمعلومات،حتى إن الدعاة يجدون تصرفاً حكيماً عاقلاً أن يحاولوا الوصول إلى العدل أو محاكاة وسائل التعليم ما وسعتهم الحيلة وما واتتهم القدرة فلا داعي لبث دعاية في بلاد ذات تقاليد تصبغها الصبغة الفردية القوية ويشيع فيها تعليم عام من الطراز الأول هذا التعليم من شأنه أن يكوّن مواطنين قادرين على التفكير والعمل وحسن التصرف حسبما توحيه ضرورته الحقيقية والدائم في كل شأن من الشئون التي تعرض لهم .

سبق أن قلنا إن الدعاية أداة حرب تزدهر وتينع حيث يوجد صراع بين الآراء وصدام بين المصالح ووجوب تفادي هذا الصدام والوصول إلى حلٍ مرضٍ .

وتوجد ثلاثة أنواع من الحروب في العصر الحديث .

(١) صراع المبادئ — التنافس بين الكنائس — المذاهب — مدارس الفكر والمعتقدات

(٢) الصراع الاقتصادي — حرب الطبقات — والتنافس بين الجماعات الاقتصادية أو بين أفراد كل جماعة على حدة — الاعلان

(٣) الصراع المادي — الحرب بين الأمم أو الحروب الأهلية .

في غضون أحد هذه الحروب تنمو الدعاية وتترعرع لأنها جميعاً تترك المناقشات العقلية جانباً ، تتركها كوسيلة للوصول إلى قرارات حاسمة . ففي أثناء الصراع بين المبادئ يوجد صدام بين رجال المعسكرات المتضاربة المعتقدات ، وبدلاً من أن نحكم العقل أو نلجأ إلى الوصول إلى الحقيقة بعد البحث والاستقصاء ، تهب الملاينة وتأخذ أقصر السبل نحو إغراء المعسكر المعارض. فاذا كانت مدارس الفكر المختلفة متشابهة الحال متكافئة القوى كانت الدعاية التي إليها يلجئون دفاعية مصطبغة بالصبغة العقلية . ومع أن في الحقيقة ليس هناك متسع من الوقت ولا ميل للتمشي وإحكام العقل والمنطق ولكن غالباً ما تقوم الخصومات العقائدية بين مدارس فكر موجودة بالفعل من جانب، ومدارس آراء مستحدثة أو ثورية من جانب آخر. وفي مثل هذه الحال تأخذ الدعاية المعارضة ألواناً مغايرة وصوراً مختلفة . فالمدارس الموطدة الأركان تلجأ الى السلطة العقلية والتقاليد في الدولة وتضع ثقتها في حكمة شائعة ذائعة استقرت وتركزت وتبلورت فرسخت واستقرت وارتبطت بالماضي وليس مهماً أن تكون هذه الحكمة جاءت إلينا عن طريق العقل أم لا . والداعية الذي يدعو الى السلطة القائمة يعتمد على القصور الذاتي العقلي الذي يحيط بمعظم الأفراد لأن المنطق وأعمال العقل ما زالت مهمة شاقة وعملية عسرة على الانسان في حاضره المتمدن ، فليس ثمت رجل يستطيع أن يقرع دائماً الحجة بالحجة أو يحيا حياة منتظمة انتظاماً قائماً على التفكير المنطقي ، لأن الغريزة والعواطف دائماً أبداً متداخلة كما أن العقل نفسه لا يستقر في وضع من الأوضاع إلا بعد زمن طويل ، وأن الفرد يتصرف بحكم العادة أو تحت ضغط تبعاً لمن يسيطرون على الموقف بعد أن أحرزوا قصب السبق في العمل، أعني أن الفرد يتصرف بدافع من السلطان في الدولة ، أو بوحي من عقول أخرى سبقته في التفكير. هذا هو الحقل الذي يجب أن يفاجئه داعٍ يدعو للسلطة المحلية القائمة ليبذر فيه بذوره. ولهذا السبب كانت الدعاية سلاح هؤلاء الناس الرئيسي فهي سلبية . ومن جهة أخرى

فانه لا يمكن لمدارس الافكار الحديثة أن تعتمد على قوة العقل الجامدة لأن ذوي العقول المفكرة المجددة ترى في الوقوف سقوطاً فيجب عليهم والحالة هذه أن يظهروا بمظهر من يخاطب العقل إلاّ الذين تمكنوا من أن يوقعوا على وتر حسّاس مشدود في العواطف الفطرية في طبيعة الانسان مثل الخوف أو الجوع وغالباً ما يحاول الداعون الثوريون اعادة بناء نظرية من النظريات أو مجموعة من المبادىء والأسس تقوم على المنطق في ظاهرها وهم يناقضون في هذا الداعين الذين يدعون للنظم المقرّرة المستقرّة ويعتمدون على أدلة صلبة وبراهين صلدة من تجارب الماضي.

أما في النضال الاقتصادي فتتركز صور الدعاية الرئيسية حول تنافس المنتجين لترويج بيع سلعهم بين المستهلكين في مجتمع حرّ التصرف فيما يأخذ وفيما يدع. والدعاية هنا الاعلان، والذي نسميه تجاوزاً نشراً، ووجدت الدعاية بالاعلان لقصور أحكامنا العقلية لأن الفرد في المجتمع الكبير ليس لديه من الوقت أو القوة ما يمكنه أن يعرف أي انتاج يختار لاستهلاكه من بين تلك التي ينتجها عدد كبير من المنتجين، وتعرض في الأسواق وتكون أنسبها لحاجته.

* * *

هنا يتقدم المعلن ليوفر عليك الجهد ويسد هذا النقص فيضمن ألاّ تعدم سلعة نافعة الجمهور الذي هي خليقة به اعتماداً على جهل المستهلك. ولكن منذ أن أصبحت الإعلانات موسومة بسمة التضليل والمغالاة في الوصف حلت محلها كلمة « نشر » للدلالة على لون من الإعلان أنزه وأحسن. وقد خلت من سوء العرض للجمهور. فالنشر صورة من صور الاعلان فهو دعاية تقوم بها جماعات لا ناقة لها ولاجمل مطلقاً في شئون الاستقلال الاقتصادي. فمصيف على شاطىء البحر مثلاً يعلن عن نفسه في حملة بالنشر والإذاعة قوامها ثروة عامة تؤيدها الافلام والصور والصالح التجاري لمجتمع ما يتضمن في هذا المجتمع نفسه في الواقع، وليس الصالح التجاري فقط لجزء من أجزائه دون سواه. والجماعات التي تؤدي خدمات اجتماعية أو التي تخدم أعمال البر والاحسان تروّج لنفسها بالنشر أيضاً منتحلة الأسباب والمعاذير المقبولة والمعقولة لهذه أو تلك ويقف هذا اللون من الدعاية عادةً موقف الأمين على التربية والتعليم

والخلق في أوسع معانيهـا وتعتمد على الحقائق أو على عاطفة الشفقة المتأصلة في النفوس . ولـكن الاعلان التجاري يمكنـه أن يحاكي « النشر » ما دام معظم المعلنين يلجئون في الظاهر إلى عقول المستهلـكين أو مصالحهم الخاصة ويجدون أن الأنسب صبغ الموقف بلون مصطنع من حب الخدمة العامة أو الحياد .

وعندما تنشب المشاحنات المادية بين الأمم أو في داخلها تتخذ الدعاية ، حينئذٍ ،أعنف صورها ، وليس من السهل أن تتبين للنظرة الأولى لماذا يحدث هذا . ولـكن من الواضح الجلي أن الحرب تحكيم القوة فإذا نجحت صـار الإغراء تافهاً وحينئذٍ فالدعاية في زمن الحرب محاولة مسخرة تتجدد لإغراء العدو وحمله على الاعتقاد بصدق ما يشاع ويذاع وإن في الأزمنة الأولى وفي مدى مئين من الأعوام التي تلتها لم تكن الدعاية لازمة معترف بها من ضرورات الحرب وقيام الدعاية بقيام الحروب مرتبط بالضعف المضطرد في استعمال الحرب نفسها وسيلة لحسم المنازعات الدولية. والحقيقة التي لا مراء فيها أن في مدى مائة سنة من الزمان لم يكن هناك أي غرض سافر للحرب بالمعنى الذي نفهمه عن الفتوحات التي قامت بها قبائل المغول في العصور الوسطى ولـكي تضطرم نيرانها ويشتد أوارها في ميدان القتال وفي ميدان الفكر سواء بسواء وتبعاً لما عليه الحروب من تعقيد وتبعاً لنمو المدنية صار الناس أقل استعداداً مما كانوا عليه في سالف العهود من حيث الالتجاء إلى الحرب فهم في حاجة إلى إقناع عقلي لحملهم على الايمان بضرورتها وتحكيمها ، حتى إن الشعوب التي تدافع عن كيانها ضد اعتداء المعتدين تحمل لواء حرب أخلاقيـة كما يفرضونها حرباً مادية . وانتهى الأمر بالحـكومات الحديثة الى أن اعترفت بالأهميـة القصوى في ضرورة ربط الآراء بعضها بالبعض الآخر بين رعاياها كما تحاول التفريق بين رعايا الدول المعادية وشطر الآراء فيهـا . ولما كانت الحروب تغذي الاختراعات كما تحتضن التنظيمات السياسية والاقتصـادية فهي ترعى الدعاية كما ترعى أي فن من الفنون ، لأن من الواضح أن دعاية الحرب أبعد منالاً وأصعب مأخـذاً من دعاية السلم . ومن المؤكد أنه أيسر للداعية أن يدعو الى التعاون والى الاتحاد والى التضامن بين بني وطنـه في زمن الحرب ولـكن من الوجهة الأخرى المعسكر المعـادي متحد متعاون متضامن يقظ بلغ به الشك غاية بعيدة ، فهو أقل قابلية واستعداداً للتأثر بالدعاية

الخارجية في هذه الظروف منه في ظروف الحياة العادية . فعبقرية الداعية ومهارته بذور تجد تربتها الخصيبة في أرض الوطن لغرس الآراء وتعهدها بالري والسقيا حتى تنمو وتترعرع وتقف على سوقها وتبلغ أشدها وتسيطر على الآراء والأفكار في الدول المحايدة وغيرها من بلاد العالم ، وتسفيه آراء العدو . وللوصول الى الهدف الاول يجب أن تكون الدعاية في صورة أبسط ومادة أقوى وأقل اعتماداً على العقل وتكثر من التلاعب بكلمات التحامل وما جرى به العرف ولكنها على النقيض من ذلك لأجل تحقيق الغرض الثاني يجب أن تكون الدعاية دقيقة غير مباشرة الى أقصى حدّ مستطاع ، ظاهرة في منطقها ، مناسبة في وضعها وأن يبدو الدافع اليها اعتبارات خيرة كريمة .

غني عن البيان أن موضوع الدعاية ظهر لأول مرة في الموسوعة البريطانية في الطبعة الرابعة عشرة ١٩٢٩. أما الطبعة الثالثة عشرة التي ظهرت قبل الحرب العظمى الأولى(١٩١١) فلم تكن ضمن الموضوعات التي عالجتها الموسوعة لأن حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ كانت الأثر الفعال في اعطاء الدعاية أهمية عصبية لأن في مائة السنة السابقة لهذه الحرب كانت الدعاية لا تعدو أن تكون مجرد عمل خاص يقوم به الأفراد أو الدور التجارية أو جماعات تطوّعت لهذا الغرض، ورأت الحرب العظمى الاولى لأول مرة في التاريخ أن الدعاية تصبح ادارة من ادارات الحكومة فنظرية « اتركه يعمل » التي طغت في غضون القرن التاسع عشر حالت دون اضطلاع الحكومات بمهمة التأثير والاغراء كمهمة متميزة عن التزويد بالمعلومات ، وقليل من الحكومات في الفترة السابقة لعام ١٩١٤ أعارت التأثير على الرأي العام في الأقطار الأخرى الأجنبية التفاتها.وكانت المانيا الدولة الوحيدة التي أوجدت دعاية عن طريق مكتب الصحافة في وزارة الخارجية الألمانية بين مراسلي الصحف الأجنبية في برلين ، وعن طريق الوكالة التلغرافية الرسمية الألمانية . وعلى هذا الغرار قام الممثلون الدبلوماسيون الالمانيون ، وموظفو فروع البنوك الألمانية وشركات الملاحة بمهمة نشر المعلومات التي تتفق وصالح وطنهم، ولا يقوم الدليل على أن هذا اللون من الدعاية لقي نجاحاً إلاّ حيث كانت مظاهره المناقشات الاقتصادية المرتبطة بجودة المصنوعات الألمانية المصدرة ، وانخفاض ثمنها ولم يكن اندفاع حكومات أوربا إلى المعمعة في سنة ١٩١٤ إتباعاً لسياسة موضوعة ولكن

كان نتيجة محتومة للفوضى التي شملتها ، والخوف الذي أضواها ، ونتج عن هذا أن رأت جميع الحكومات نفسها أمام ضرورة ملحة لتبرير دخولها الحرب أمام الشعوب التي تحكمها.

وقد أشار لورد بونسنباي Ponsonby الى هذا بقوله : « يجب أولاً على الحكومة التي عزمت على خوض معركة الحرب الرهيبة الهائلة أن تعرض حالة ذات وجه واحد لتبرر الحركات التي تقوم بها ، ولا تستطيع بحال من الاحوال أن تقوم على التصريح بأن الشعب الذي عقدت النية على محاربته له حجة ولو واهية أو حق ضئيل يتخلص به من تبعة اعمال فتيل الحرب . فالوثائق يجب أن تشوه والظروف المناسبة يجب أن تستر كما يجب تقديم صورة تغري بألوانها الزاهية الفطرية الجهلة من الناس بأن حكوماتهم لا لوم عليها ولا تثريب وأن قضيتهم عادلة وأن شرور العدو أكثر وأعظم من أن تحويها مناقشة ولم تعد موضوعاً للتساؤل. ويجب أن تفسر الامور تفسيراً أكثر وضوحاً في الدول الديمقراطيــة منه في الدول الاستبدادية . ولذا قصر الحلفاء جهودهم من أول الامر على الدعاية داخل تخوم الوطن. ففي بريطانيا كانت الدعاية ضرورة لازبة أكثر من أي دولة أخرى للحض على التجنيد وسرعان ما صدع هذا الدافع مقاييس الحق والانصاف وشجع على رواج الغش والخداع. وفي مثل هذه الظروف توجد غمرات قومية يسير فيها الافراد قدماً ويتذرعون بالكذب كواجب وطني. زد على هذا قلب أوضاع الأحداث التاريخية وإيجازها واستعمالها تفسيراً لاسباب الحرب . والذي يدعو الى الحرب في مثل هذه الدولة يستمسك بالجانب الخلقي في اعتداء المانيا على بلجيكا وغزو أراضيها ويؤلف قصصاً صادقة في أصلها ولكنها مكبرة يحشوها بالفظائع التي اقترفها الألمان في المراحل الأولى الناجحة من الغزو في فرنسا وبلجيكا . وكثير من هذه القصص استقصى المهتمون بالامر حقيقتها في مصادرها الاصلية ، فاستبان لهم أنها تلفيق متعمد أو تشنيع وتهويل أو مغالطة صريحة في سوء نية عرض هذه القصص . ومن أمثلة هذه الترهات والاكاذيب قصة تعذيب الممرضة وبتر الالمان ليدي طفل بلجيكي وتحطيم مذبح في مقاطعة لوفيا وصلب جندي من كندا واعدام كشاف فرنسي رمياً بالرصاص واقامة مصنع الجثث الآدمية (حيث قيل إن الألمانيين يغلون جثث الاسرى لاستخراج الدهن منها لاستعماله

في الأغراض الحربية) وكانت الصحافة في هذه الآونة الأداة الرئيسية للدعاية وكانت الدعاية تصدر في رسائل ووريقات .

ولكن كان للصحف الأجنبية النصيب الأوفر منها . ولما كانت هذه الدعاية قائمة على إثارة سخط الأهلين ضد حركات العدو فان الحقائق التي تكوّن هذه الدعاية كانت بالضرورة مأخوذة من ترجمة التقارير المدوّنة باللغات الأجنبية . وكان الخطأ في النقل عفواً أو متعمداً أحد الوسائل المنتظمة وأوفرها ثمراً في دعاية الحرب . وكانت تؤازرها الصور الفوتوغرافية المكذوبة والتزوير في أصول الوثائق وكانت نتيجة الدعاية ذات أثر قوي في الأغراض الحربية. وقد بلغ السخط القومي أوجه بهذه الحركة الملهبة للمشاعر وظلّ حيّـا زمناً أطول مما ندّر له إذ نظر اليه نظرة قومية بحتة ، لأن الحفيظة التي أثيرت في بريطانيا خلال السنوات الاولى من الحرب حالت دون انتهاز الفرص فأسف لذلك كثير من المراقبين لمجريات الأمور. ومن أجلها تقدّم لورد لانزدون « بخطاب السلام » لحسم الأمر عن طريق المفاوضة بدلاً من إملاء شروط فرسايل [1] وقد أفضى هذا السخط الى المناداة في انتخابات سنة ١٩١٨ بالنداء المشهور « اشنقوا القيصر » واليه تعزى الأخطاء التي ارتكبها الحلفاء في سياستهم مع ألمانيا ، تلك الأخطاء التي تشبعت بها الفترة التالية للحرب والتي أتت أكلها مرّا علقماً فيما بعد .

وبينما كانت دعاية الحلفاء ترمي الى خدمة غرضها العاجل في إثارة حماس الشعوب المتحالفة كانت الدعاية الألمانية تعمل على غرس بذور أسباب مصطنعة للحرب ، في الدول المحايدة وأهداف الدول المحاربة في هذه الحرب ، وقد قويت هذه الدعاية بالنصر الفعلي الذي أحرزته الجيوش الألمانية في السنة الأولى من الحرب . ففي فرنسا ، ولفترة من الزمن كانت مقاومة الدعاية تنحصر في عدم السماح للصحافة باذاعة نشرة الأخبار الرسمية الألمانية اليومية ولكن الرقابة أضرّت بالغاية التي تعمل لها لأن الصحف المحايدة والتي تضمنت

(١) كتب ويكهم ستيد كتاباً بعنوان « في عشرين عاماً » جاء فيه كيف هو بمساعدة صحيفة الديلي ميل أطاح بلورد لانزدون وبذلك أضاع الفرصة من يد أوروبا لاقرار الامور في سنة ١٩١٨ وتفاديها قيام الحركة النازية فيما بعد .

النشرات الألمانية تسربت اليها من الحدود السويسرية ، وتقوت المطالب الألمانية بتداولها لأن القراء افترضوا ضرورة توفر الصدق فيها إذا ما منعت حكومتهم نشرها . ففي بريطانيا العظمى كانت نشرات الأخبار الرسمية ترد بنظام في الصحف السيارة رغم أنها لم تكن كاملة دائماً ، وبذلك تمكن الجمهور من أن يقارن النشرات البريطانية بتلك التي يذيعها العدو لا ليستخلصوا لأنفسهم النتائج بالنسبة للحقائق فحسب ، بل ليقدروا أي النشرتين كانت أقرب الى الصدق والعقل. ففي الشهور الستة الأولى من الحرب كانت الصحافة في بريطانيا محكمة تماماً برقابة حكومية قوية ورقابة دولية غير رسمية يشرف عليهـا أصحاب الشركات الصحفية. ولم يصرح الحلفاء للمراسلين الحربيين بمرافقة الجيوش فانتهى الأمر بأن حلت الاشـاعات محل المعلومات ، وتداول الناس هذه القصص مثل مرور الجيوش الروسية داخل بريطانيا في شتاء سنة ١٩١٤ ، وبدأت قوة الصحافة في الانتعاش سنة ١٩١٥ عنـدما ظهر أن السياسة الفجة التي اختطتهـا الرقابة لم تكن رشيدة مثمرة وأضحى من الجلي أن التغيرات السياسية والحربية ضرورية لكسب الحرب وبدأ المزج بين سياسة « اتركه يعمل » وبين الرقابة يرسم طريقاً لتنظيم مقرر للدعاية . أما في المرحلة الأخيرة من الحرب فقد ازداد توجيه هذا التيار كثيراً نحو التأثير على العقول الأجنبية بطريقتين ؟

(١) حمل الدعاية الألمانية عبر البـلاد المحايدة وأمريكا وإقناعهـا بالحق الأولي للدول المتحالفة (٢) إضعاف الروح المعنوي القومي في المانيا وحليفاتهـا . ولم تنتظم الدعاية في بريطانيا إلاّ بعـد أن سلخت الحرب ثلاث سنوات وستة أشهر من عمرها . وفي ديسمبر سنة ١٩١٦ وجه الرئيس ولسن الدعوة الى الدول المحاربة لتحدد كل منها أهدافها الحربيـة وفي يناير سنة ١٩١٨ أجاب مستر لويد جورج على الدعوة في ملخص لشروط الصلح انتهى بالرئيس ولسن بعد ثلاثة أيام بالتنصل من المبادىء الأربعة عشرة التي اشتهرت عنه ، والتي قصدت الولايات المتحدة التمسك بها في مفاوضات الصلح. وكانت عروض الرئيس ولسن ورد المستر لويد جورج عليها دعاية للدول التي صدرت عنها وصاغتها وان لم تكن دعاية متعمدة في الواقع . وانها لصعوبة ملموسة أن تقوم بدعاية فعّالة ما لم تكن قد رسمت خطوط السياسة التي ستتبعها لأن الدعاية لا تشكل السياسة ولـكن يجب أن تتبعها وتسير خلفها .

وبعد شهر من الزمان في فبراير سنة ١٩١٨ — تعين لورد نورثكليف مديراً للدعاية في البلدان المعادية، وبذلك يكون الرائد الأول في فن الدعاية الحديثة، هذا الفن الذي خلقته ظروف الحرب . ولقد انشأ لورد نورثكليف إدارة في كروهاس Crewe House واختار لجنة استشارية من مشاهير الصحفيين والناشرين ضمت أمثال هـ.ج.ويلز ومستر ويكهام ستيد) ونجح في إيجاد تعاون بين إدارته والإدارات الحكومية الأخرى . وظفر في النهاية بتكوين مجلس دعاية مختلط للحلفاء.وكان دستور العمل في الإدارة الجديدة كما عبر عنه جيداً ويكهام ستيد في النصح الذي أسداه إلى لورد نورثكليف عند تقلده مهام وظيفته(١)

«تولد عقم الدعاية البريطانية من خلوها من حسن السياسة والتدبير فلا طائل يرجى من إغراق العالم بطوفان من الآداب تصف محاسننا ونبل أخلاقنا وضخامة استعدادنا الحربي فهذا لا يغني الناس بشيء إذ يجب عليك أن تعقد الخناصر أين وكيف يمكنك أن تكيل الضربات قاسية مريرة للعدو وهنا ابدأ عملك واعمل دون أن تتحدث عنه وللوصول إلى ذلك يجب أن تكون هناك سياسة مرسومة فإذا ظفرت بالتأييد وجب تنفيذها بشتى الوسائل الممكنة »

وكانت حملة كروهاوس موجهة ضد المانيا والنمسا والمجر وإلى بلغاريا ولكن بدرجة أقل وكانت الطرق المتبعة دعوة المؤتمرات الى الانعقاد لوضع ملخص الخطة السياسية ويقدَّم هذا الملخص إلى السلطات المختصة للحصول على موافقتها الرسمية.وحينئذٍ يمكن تنفيذ الدعاية على أساس الخطط المرسومة إذا ما لقيت الموافقة فأخذت هذه الدعاية صورة الوعود بمنح الحرية والاستقلال إلى الشعوب المحكومة في البلدان المعادية . وقد تجنبوا في حذر الإدلاء بتصريحات متعارضة أو الوعد بأمانٍ خلابة لا يمكن تحقيقها . وحيث كانت البلدان مرتبطة بألمانيا كانت الدعاية موجهة إلى بيان أوجه الخلاف بين قوات الحلفاء المتزايدة والبؤس الدائم بين شعوب أوربا الوسطى المحصورة والضعف المتفشي فيها .

كانت الوسيلة الرئيسية التي انتهجها كروهاوس إلقاء أوراق ونشرات من الجوّ خلف

(١) في كتاب « عشرين عاماً » الذي كتبه مستر ويكهام ستيد (١٩٢٤) يظهر هتلر في كتابه كفاحي بمظهر أحد تلاميذ ويكهام ستيد في قوله . « تعد الدعاية إعداداً يتناسب وعقلية الجماهير ويحكم على صدقها بصفة عامة ، بمدى أثرها الحقيقي

الخطوط الألمانية تحوي أخباراً عن القتال الدائر الرحى أو معلومات عن قوة الحلفاء وضعف ألمانيا. ولقد ألقي حوالي مائة ألف نشرة يومياً خلال شهر أغسطس سنة ١٩١٨. وفي خلال شهر اكتوبر من نفس العام ألقي خمس ملايين ونصف مليون نشرة كانت أساسها الدراسة العميقة للنفسية الألمانية مبنية على الأسرار التي حصل عليها كروهاوس : وزيادة على النشرات المشار إليها المتضمنة أخبار نجاح القوات المتحالفة موضحة بالخرائط والمصورات أعدت صحيفة سرية نسجت في أسلوبها نسج المطبوعات الألمانية وأعدت إعداداً جذاباً سهل تناولها. وقد ظهرت هذه الصحيفة وأمثالها في أرض ألمانيا تزينها صورة الامبراطور مقرونة باسمها وكانت تمد القارىء بمادة دسمة طريفة ممتازة تلمس الأوتار الحساسة من قلب الجندي الألماني وتكشف له عن حقائق كانت تمنع عنه حتى ذلك الوقت . . وكانت بعض النشرات دينية النزعة لأن في الخلق الألماني حساسية دينية قوية . وكانت هذه النشرات تعزي هزائم الألمان الحربية المتتالية إلى الخطايا والآثام التي تقترفها حكومتهم. وكانت إحدى هذه المقالات موعظة قصيرة على نص الآية[1] «فقال الرب لقائين لماذا اغتظت، ولماذا سقط وجهك ، وإن أحسنت أفلا رفع وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك اشتياقها وإن تسود عليها» وكان دعاة الحلفاء يتلاعبون بالحجج دائماً بأن المعلومات التي تذاع هي صدق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ونقتبس للمرة الثانية من أسرار كروهاوس أن « البديهية الأولى في الدعاية هي القول الحق » ولكن كان هذا في الواقع يحمل أكثر مما كانت الدعاية الانجليزية تعتقد في قدر الصدق والصراحة . والخطيئة الوحيدة التي جنتها الدعاية النشر المبتسر واذاعة الأكاذيب فيما تذيع . ولكن كان من بين الوسائل التي التجأت اليها الدعاية البريطانية إرسال « خطابات لندن » الى الصحف المحايدة في سويسرا أو دول الشمال على رغم أنها مكتوبة بروح ألماني ولكنها تحوي في الحقيقة دعاية في جانب الحلفاء فانخدعت الصحف الألمانية وتناولت هذه الخطابات وأعادت طبعها على أنها بكر . وكانت هذه الخطابات بالنسبة للألمان حملة نشرات حوت خطابات الأسرى الألمانيين مزورة مدسوسة عليهم وطبع اقتباسات مضللة منها وتوزيع مختارات ورسائل ممهورة بتوقيعات شعراء

(١) سفر التكوين الاصحاح ٤ (٦ - ٧)

الالمان وطول كتابهم وعباقرة ساستهم وإن هي الا كذب . وكان يدعي أنها طبعت في ألمانيا وكي أنها تحمل عنوان سلسلة « الركلام » المشهورة . وفي النهاية لما كان كثير من دعاية الحلفاء قائماً على نشر الأقوال الخاصة بالدعاية المتحدة والتي لم تنفذ فيما بعد قبل نقض شروط واسن الأربع عشرة فرغم أن الدعاية دقيقة كاملة في معناها الثانوي الا انها مضللة في معناها الأساسي لأن أساسها خطط كاذبة .

وبجانب توزيع النشرات لعب المذياع دوراً خطيراً في نشر المعلومات وأشرف على توزيع الأفلام في الخارج هيئة دولية في سويسرا . وقد استغل الحلفاء قسط الحرية الذي تمتع به المواطنون لهم أعظم استغلال . فأمكن تسريب الكتب المطبوعة داخل المانيا لدس الدعاية التي تروج حواليها في قناع الأدب الجاد ووكالات أنباء الدعاية التي تظهر بمظهر الاستقلال والاكتفاء الذاتي تأسست في البلدان المحايدة وعملت التسهيلات اللازمة لارسال صحف الحلفاء الى المانيا. ولسنا في حاجة لأن نقول ان المراسلين الحربيين للصحف الأجنبية والمحايدة كانوا تحت رعاية مناسبة. وكانت الطرق المقاومة للدعاية في المانيا عبثاً باطلاً لاطائل تحته . فمثلاً كانت تمنح الجوائز للذين كانوا يقومون بجمع النشرات واتلافها . وقد وصف الجنرال لندندورف في مذكراته تأثير دعاية الدول المتحالفة وصفاً دقيقاً قال « كان لورد نورثكليف سيد الموقف يوحي وحيه الى الجماعات . هاجمتنا دعاية العدو بتسريب التقارير والمطبوعات الى بلادنا عن طريق الدول المحايدة خصوصاً هولنده وسويسرا وطغت علينا بنفس الوسيلة في النمسا . وفي نهاية المطاف غزتنا في عقر دارنا من الجو. وقد فعلت الدعاية معنا هذا بوسيلة وقدر لم يستطع معهما السواد الأعظم من الناس التمييز بين إحساساتهم وبين ما تقوله دعاية العدو . . وكان لزعزعة الثقة العامة في أرض الوطن أثر عميق على الروح المعنوي الألماني وقتلت فينا الرغبة في القتال ». ويكمن سر دعاية الحلفاء في تعاونها الفعال مع لورد نورثكليف فإن الألمان في أغسطس سنة ١٩١٨ حاولوا تنظيم وزارة الدعاية الأمبراطورية في بلادهم ولكن لم يتمكنوا من السيطرة على الموقف إطلاقاً . وقد عانت جهود دعاتهم من الاضطراب بينهم والقفزات السريعة في عملهم وضاعت كل الجهود هباء . ولم يضع الدرس الذي ألقاه لورد نورثكليف على المانيا سدى ولكن لم تنضج ثماره قبل الثورة النازية في عام ١٩٣٣ . .

الدعاية

أسباب نجاحها

عُدّت الدعاية علماً . ولكن ليس علماً بالمعنى الدقيق للعلم ، أعني يمكن تطبيق قواعد ثابتة وقوانين راسخة على ما يعمل من دعايات يقوم بها الأفراد أو الجماعات ، لأن مجال الدعاية مترامي الأطراف متشعب الفروع وطرقها غامضة غير معبدة ومسالكها شائكة وعرة. فميدان الدعاية ومجال نشاطها يتصل بالعقول مؤثرة في الحوادث ، ومتأثرة بها . والعقول والحوادث عنصران يخضعان لعوامل متغيرة متقلبة ، أبعد ما تكون من صفات الثبات والاستقرار . ثم ان الداعية يخدم مبادىء ثابتة يضعها نصب عينيه ، ولكنها في نفس الوقت مطاطة فضفاضة . ويتوقف مقدار نجاحها على مدى تمسكه بهذه المبادىء ، إزاء ما يلاقي من مشاكل أو ما يواجه من عقبات ، أو إهماله أمر هذه الأسس وتلك المبادىء .

وقد فطن القائمون بأمور الدعاية الى ميدانها الواسع الفسيح وعرفوا أن هنالك طريقة مباشرة آلية تعمل على سحق المعارضة جهراً وعلانية ، وأخرى غير مباشرة وهي وسيلة دقيقة حذرة عاقلة ، توحي بالآراء التي ترى بثها في قلوب الناس في كياسة ولباقة ، فلا يفطن الى ما يتسرّب الى أذهانهم من آراء طريفة ومعتقدات جديدة . ويستقر في روعهم انهم قد وصلوا إلى ما وصلوا اليه من آراء وعقائد بمحض قوة ملاحظتهم ، ودقة استنتاجهم ، ولكل من هاتين الوسيلتين — المباشرة وغير المباشرة — قيمته وأثره في المحيط الذي خلقت له ، ولكن الداعية الذي يعتمد على الطريقة غير المباشرة ، أمامه مجال أوسع وأفسح لمدى نشاطه وهمته . والداعية لكي تكون له القدرة على إملاء رأي من الآراء على جمهوره ، يجب أن يستند الى هيئة سياسية منظمة تشد من أزره وتكون له عوناً ، كما يجب أن تكون له شخصيته القوية البارزة في جماعته ، المسيطرة سيطرة مباشرة على أولئك الذين يود التأثير فيهم ، فإذا تشعبت الأغراض وتفرّقت الأهداف حيث يجب أن تلتقي وتتصل بعضها ببعض ، فان الاغراء هو الوسيلة التي يجب اتباعها وهي وسيلة لها أهميتها وميزتها ،

إذ هي كفيلة باكتساب أتباع أشد اقتناعاً وأقوى ثقة بما يؤمنون . والقول المأثور « الرجل الذي يقتنع قسراً وضد إرادته ، يبقى على رأيه القديم » غالباً ما يتردد وقعه على أذني الداعية فيحيره في أمره ، بينما تجد أنه عندما يلجأ الى الاغراء يثبت الغرور الكاذب والخيلاء الباطلة في أذهان أولئك الذين اعتنقوا المذهب الجديد ، إذ أنهم يؤمنون إيماناً صادقاً انهم قد وصلوا الى ما وصلوا اليه من آراء ومعتقدات عن طريق العقل ، أحراراً مستقلين ، لم ترغمهم قوة أو يخضعهم سلطان . ولذا يكون من الصعب تحولهم ، إذ يجب عليهم في هذه الحال الاعتراف بما وقعوا فيه من أخطاء وبخاصة أن ليس هناك غيرهم يلقون عليه تبعة هذه الأخطاء ، ولذا فهم يميلون الى مقاومة كل حجج تتعارض وميولهم ، حتى ولو كانوا في دخيلتهم يصرحون بأنَّ لها قوتها ووجاهتها .

***

ولأجل أن يضفي الداعية صفة البساطة والسهولة على ما يدعو اليه من معقد الأمور ، وضعت سبعة أسس سميت أسرار نجاح الدعاية السبعة . والداعية الذي يطبقها في حملاته المستمرة يتيح لنفسه فرصاً طيبة للفوز ، ولكن هذا التحديد يؤكد لنا بأن الداعية كثيراً ما يكون تحت رحمة الحوادث . ولا أهمية لمهارة الداعية أو مثابرته أو حسن اعداد خطط الدعاية وانما النجاح موكول للظروف ، إذ أن الداعية معرَّض في كل وقت لخطر الهزائم المنكرة بسبب التغيرات الفجائية في مجرى الأمور والتي ليس له عليها من سلطان ، لأن العواطف وتذبذبها والأهواء وتأرجحها من أكثر المشاكل تحييراً للعقول إزاء القضايا العامة لأن الشرارة التي تبث الحياة في حركة من الحركات تخبو لغير سبب ظاهر . والدافع اليها يضمحل دون مبرر ملحوظ . فان معبودات جيل من الأجيال تحت رحمة محطمي الاصنام في الجيل التالي ، فاذا ما أخذ الداعية التكوين النفسي لمجتمع من المجتمعات أو جماعة من الجماعات على انه ثابت لا يتغير ، فقد ارتكب أخطر الاخطاء وأنكرها ، فيجب عليه أن يكون دائماً على حذر وأن يعد سياسته بحيث تتفق ونفسية الجماهير . والقواعد السبع الآتية لها أثرها الفعال وهي دستور الدعاية .

سر نسيان الجمهور

١ — التكرار هو السر الأول من أسرار نجاح الدعاية : ومن سرعة نسيان الجماهير ما نراه منها في حادث من الأحداث يلمع فجأة في وسط الظلمات ، وينفذ براقاً الى السطور الأولى في الصحافة ، ثم سرعان ما يخبو ضوؤه وتتزاحم الحوادث الواحدة أثر الأخرى قبل أن يجد الجمهور فسحة من الوقت ليتعرّف أهمية هـذه أو خطورة تلك ، ولـكن يطوي النسيان هذه وتلك معاً وفي سرعة فائقة . ففي قضية قتل ، مثلاً ، يتهم فيهـا عامل زراعي أمي مجهول مغمور ، تتداولها ألسنة آلاف مؤلفة بالذكر والترديد . ولـكن سرعان ما ينسى هؤلاء كل ما يتعلق بالقتل والقاتل ، ولا يعودون يذكرون حتى اسمه في مدى شهور قصيرة . ثم لنذهب الى الطرف المقـابل لذلك . سياسي يلقي خطاباً تتخاطفه أسلاك البرق في مختلف مناحي العالم وتتداوله الأقلام والأفواه بالنقد والتعليق في الصحف ومن أعلى أعواد المنابر ، كما تشغل ذهن رجل الشارع فيناقشها مستحسناً أو مستهجناً لها ، ولـكن سرعان ما يسدل عليها وعلى ما أثارت من ضجة ستار النسيان ، فكم منا يذكرون ، اذا سئلوا ، تصريح سير صموئيل هور المشهور الذي ألقاه في جمعية عصبة الأمم عام ١٩٣٥ عما بذلت بريطانيا من جهود ليكف موسوليني عن نشاطه في الحبشة ، بأن عرضت عليه عرضاً جديداً بشأن اعادة النظر في مشكلة المواد الخام .

وفي ضعف ذاكرة الجماهير والجماعات يقوم نجاح الدعاية وانتصارها المبين أو يكمن فيها فشلها الذريع . فذلك الضعف يساعد الداعية على أن يغير مسلـكه دون أن تلتفت اليه الأنظار ، وفي نفس الوقت تلقي على كاهله واجبات وتحتم عليه التزامات . فيجب أن يكرّر ويعيد دون أن يمل . ويجب على الداعية أن يقف إزاء ما يقع من الأحداث في كل يوم متحفزاً للعمل دائماً لا يفتر ولا يلين ، فاذا كان عمله مقصوراً على أن يبعث برسائله وتقريراته إلى رجال خاضعين للدولة ونظمها الاجتماعية والسياسية في كل ما يعملون ، كان عمل الداعية في هذه الحال سهلاً يسراً بالقياس الى غيره .

ولـكن إذا كان الداعية يعمل دون أن تظاهره قوة رسمية ، بل وربما كان يعمل معارضاً

الهيئة الحاكمة أو محارباً النظام الاجتماعي القائم، وجب عليه أن يكون ملماً بما تعقد من الأمور أو تشعب وتشابك منها، بأن يعرض الموضوع الواحد في صور لا عدد لها ولا حصر مختلفة الأوضاع متعددة الألوان، لأن التكرار يورث الملال والسأم إذا لم يصطبغ في كل مرة بصبغة الجدة، ويقعد الجمهور عن الاهتمام بما يدور حوله من مناقشات. ولكن الداعية إذا ثابر واكتسب إلى جانبه أعضاء جدد يتجهون اتجاهه ويأخذون برأيه ويؤيدون دعوته، لأنه لا يلبث أن يظفر بتأييد بعض طبقات العامة، وفي الوقت المناسب تصبح الدعوة التي ينشرها وآراؤه التي يبشر بها سدى العقول ولحمتها.

التكرار، التكرار، التكرار. ليكن هو رائد الداعية فإن من المؤكد أن في كل مكان وزمان يوجد فريق من الناس يحاجون أو يناقشون ويتولون بالنقد أو التقريظ موضوع الدعاية أيّا كان هو، لأن العدو اللدود لأمر من الأمور هو إهماله ونسيانه أو تناسيه، والحملات العنيفة، قطعاً، أفضل له من تجاهله. فمثلاً لما قذف المعتدون سير صامويل موزلي بالأحجار في اجتماع عام، قامت الصحف المعارضة تطالب بأن يترك وشأنه وحيداً أعزل دون حماية أو رعاية. ولكن سرعان ما أدركت الصحف جميعاً إنها كانت حمقاء وبسبب حماقتها قفزت الأخبار الفاشية الى الصفحات الامامية والسطور الأولى في الصحف وإن كان زعيم الحركة الفاشية وهو سير صمويل موزلي قد دفع ثمن هذه الدعاية غالياً. ولكن مما لا شك فيه أن الحادث كان دعاية ناجحة غاية النجاح.

يمثل هذا الحادث عنصراً أساسيًّا في الدعاية الصحافية التي قوامها التكرار. وجرت العادة أن تكون كل جرعة من الدعاية لها قيمتها الاخبارية، لأن قيمة الأخبار في الصحافة الحديثة لها قدرها وخطرها والحكم عليها قاس لا يرحم. وليست المعضلة في ملء أعمدة الصحيفة ولكن أن تضغط أخبار أربع وعشرين ساعة في حيز ضيق أمر يدعو إلى الشفقة بالقائمين بشئون الصحافة. وهناك نوع من الاعلانات الاخبارية المقنعة ويطلق عليها بالانجليزية Puffs (وهي إعلانات لهيئات تجارية أو سياسية توضع في صيغة أخبار دون أن يلحظ القارىء أنها مقصودة لمجرد الاعلان)، وقد أصبح الاعتراف بها حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها، كما لا يمكن تفاديها بحال، رغم ماتلقى من معارضة شديدة حدت بالمشرفين

على الصحافة الى ضغطها واختصارها إلى الحد الأدنى . والداعية الذي يعتمد على أوساط الحلول في عمله ، لا يلبث أن يجد نفسه بلا عمل فيجب عليه أن يصل بدعايته إلى الذروة دائماً وإلاّ أعطى خصومه الفرصة أن يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى محاربته .

الرئيس ومصارع الثيران

٢ — اللون هو الأساس الثاني من أسس الدعاية السليمة : لا يعبأ الفرد العادي بالمعنويات ولكنه يهتم كثيراً بالشخصيات والحقائق . وقد أدرك الداعية الحديث هذه الحقيقة ، فهو لا يحاول فرض حججه فرضاً على العامة ولكنه يسعى بنشر تقريراته التي يذيعها الى كسب العطف على قضيته أو ليثير السخط على خصومه ، وغالباً ما يكون لمثل هــذه الدعاية أثرها الفعال . ويجيء هذا الأثر عن طريق الحوادث يجمعها وتكون في مجموعها شاذة خارقة للعادة تترك أثراً عميقاً في النفس وان كان خادعاً . لأن من عادة رجل الشارع أن يناقش الأشياء الخاصة وينتهي بها الى مبادىء عامة .

ولا يهم الداعية أن يلتفت كثيراً الى هذا المبدأ عندما يكون هدفه التأثير في الجماهير. فبينما نرى القارىء يولي مسرعاً عن الدعاية الصينية القائمة على معاهدة الدول التسع ، نراه يقبل في حماس وشغف على قصة شارلي سنج الذي هاجر مفلساً معدماً الى الولايات المتحدة والذي غدت بناته الثلاث فيما بعد قابضات على السلطة في حكومة الصين ومجالسها ومدام شيانج كاي شك إحداهنّ ، ويلعبنَ دوراً خطيراً في تاريخ الصين الحديثة .

والمتكلمون من الطراز الأول وخطباء الطليعة يدركون ويعترفون بصحة هذا المبدأ . فلا بدّ وأن يتأكدوا من أن كل فرد من جمهور المستمعين يتتبع بشغف ما يناقشه الخطيب أو المتكلم ، لأنه ليس من الصواب أن نرغم الأقلية على تتبع ما نقول إذا كان فيما ندلي به من آراء ما يخص الأغلبية الباقية من المستمعين ، والأجدى لنا أن نخاطر بالادلاء بأحاديث عن شئون ملموسة بادية للعيان الى الأقلية الناجية من أن نسحر الأكثرية بما نقول .

ومما يقوي هذا القول حقيقة أن من السهل على غالبية الناس أن تتبع بحثاً مطبوعاً سهل

التناول مدعماً بالأدلة والبراهين ، من أن يستمعوا الى هذا البحث نفسه من فم خطيب على منبره ، فان الجهد الذي يبذله المستمعون لحصر إنتباههم في أثناء الخطابة ، أعظم منه في حال القراءة الهادئة الصامتة .

وفطن الهر هتلر الى هذه الحقيقة واستوعبها فصار هذا المبدأ أحد القواعد الأساسية التي يسترشد بهـا ، وإذا ما قارن نفسه بلويد جورج وبنثام هولوج [١] فهو يعزو عظمة السياسي الانجليزي المنقطعة النظير الى البساطة التي يتمتع بها والتي لها السحر المبين في أذان السامعين ، فالسهولة التي تصبغ خطبه ، واليسر الذي يتجلى في تعبيراته ، والصور الواضحة الهينة التناول التي يوردها في أحاديثه دليل قاطع على قدرة رجل ويلز [٢] السياسية الفائقة .

ولا يقتصر هذا على الدعاية الكلامية بل يشمل الدعاية الصحفية أيضاً ، فواجب الكاتب أن يكتب في حدود الكلمات المألوفة لدى القراء ، ويجب عليه أن يستغل ميولهم ويفيد من جهلهم ، ولكي يوضح « وول ايرون » هـذه النقطة يروي القصـة التالية عن الحرب الاسبانية ، فان الصحافة الاقليمية في هذا البلد كان من السهل على الداعية شراؤها بالمال تنفقه لتعيش وتبقى . نشرت هذه الصحف قصة ما عتمت الصحف الكبرى أن نشرت القصة ذاتها ، وهي تصف أن إحـدى كريمات الرئيس ولسن أحبت في أثناء زيارة لها في « بيرجوس » مصارع ثيران ، ثم ما لبثت أن تزوجت منه ، وأثمر هـذا الزواج طفلاً ذكراً . ولـكن الرئيس صليب القلب متحجره ، فأرغم ابنته على العودة الى أرض الوطن وهجر زوجها والتخلي عن وليدها . ولم يمض وقت طويل حتى لقي البطل حتفه في حلقة السباق وأسلمت الأقدار الطفل الى جديه المعـدمين اللذين كتبا للرئيس ولسن يستجديانه بعض المال لتربية حفيده ولـكن ضاعت جهودهما سدًى ولم يظفرا منه بطائل رغم الإلحاف في السؤال.

فالداعية الألماني الذي نسج خياله هذه القصة كان يعرف أن الرئيس ولسن هو الشخص الامريكي الوحيد الذي يسمع عنه الفلاحون الاسبان . وان للاسبان غراماً بالاطفال لا يفوقه غرام ، وان بطل كل اسـباني واسبانية هو مصارع الثيران . وسخف هذه القصة في نظر

(١) كبير وزراء المانيا في الحرب السابقة (٢) لويد جورج كبير وزراء انكلترا في الحرب الاولى

الناهبين يعادله ويقابله تقدير لعبقرية مخترعها حيث تمكن أن يخلق جوّاً يبدو فيه صادقاً صدقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وقصص التعذيب والارهاب تزدهر أيما ازدهار في جوّ الحروب الخانق المسمم . فانه من الضروري جمع وتركيز الكراهية القومية على العدو وعرف الدعاة أن خير الطرق لتنفيذ ذلك هو أن نعطي العواطف حركات مسرحية ونصبغها بألوانها ونضيئها بأنوارها ، ويكون ذلك بالتركيز على شخصيات البارزين فان شطحات الخيال وسبحاته في ابتكار قصص التعذيب أو تحويرها أو مسخها حتى تلائم الهدف الذي يُرمى إليه ، وقد وصلت آماداً بعيدة وبلغت آفاقاً نائية في الحرب الكبرى الماضية (١٩١٤ — ١٩١٨) بصورة تدعو الى الدهشة والاعجاب . وقد انغمس كل من الجانبين المتحاربين في ابراز صور التعذيب وألوانها . ولكن كان لدعايات الحلفاء نصيب أوسع وأكبر من الذيوع والانتشار من دعايات الأعداء لسيطرة الحلفاء على طرق المواصلات وتحكمهم فيها ، فقد كانوا سادة الموقف والقابضين على ناصية الأمر .

وقد أفاد الحلفاء ، ولا مراء ، مما ارتكب الألمان من أخطاء فاحشة فان «كابتن فريت» عند ما حاول أسر غواصة المانية بسفينة تجارية غير مسلحة ثم أخفق ، أعلن الألمان أن حقه كأسير حرب قد سقط ، وأعدموه رمياً بالرصاص . وقد هزّ إعدام هذا البحار الجريء العالم أجمع وألحق بالقضية الألمانية خسارة لا تقدَّر . فقد استغلّ الداعية هذا الحادث ، كما استغلّ حادث الممرضة « إيديث كافل » من قبل عند ما صوّر الحلفاء بطولتها في جلال وتعظيم جعل حياتها مشكاة تضيء ظلمات سني الحرب السود . فإن الهيئة التي أصدرت حكم الإعدام كانت من الغباء وقصر النظر لدرجة ظنت معها أن موت « إيديث » لا يهم فطالما أعدم كثير من النساء من كلا المعسكرين ، من قبل . ولأنها كانت تشترك فعلاً في مؤامرات سرية تدبر خلف الخطوط الألمانية ، فكشفت المحكمة باصدارها حكم الموت عن جهل مطبق بالطبيعة الانسانية والنفس البشرية .

وكان للحلفاء أيضاً ميزة كتّابها البارعين والرسامين والعباقرة الذين كانت كتاباتهم ورسومهم مرّة المذاق شديدة الوقع على الأعداء ، فانه من المستحيل أن تنظر إلى إحدى

صور « زايديكي » الهولندي دون أن تؤمن بمدى المعونة الهائلة التي قدّمها للحلفاء ، فقد صوّر في احدى روائعه اعتداء الألمان على السفن المحايدة واغراقهـا في لوحة تمثل اجتماع شرذمة من جنود الألمان اجتمعت متهالكة على نفسها في برج الحراسة في غواصـة حيث يراقبون اقتراب زورق وقف به السيد المسيح وكتب تحتها عبارة وجيزة ولـكنها بارعة : «إنه يبدو محايداً ، فلنغرقه » . مثل هذه الصورة كان لها تأثير صدع أركان الدعاية الألمانية، وقوّض أسسها في نضالها الحلفاء حينذاك .

٣ — الدعامة الثالثة من أسس الدعاية

يجب أن تكون الحقيقة البذرة الأولى للدعاية فتقوم على قدر ولو ضئيل من الصدق . وان كان هذا يبدو انه يتعارض وقصص القسوة والوحشية في التعذيب التي أشرنا اليها في الركن الثاني ولـكن حتى في قصص التعذيب هذه كانت الحقائق دائماً قوام صور الرعب والفزع التي يرسمها الدعاة

ولنضرب لذلك مثلاً بالجيش الألمـاني الذي كان يأخـذ الرهائن من كل قرية فرنسية وبلجيكية في أثناء الحرب العالمية الماضية فاذا زاد نشاط الارهابيين وعمال القتل والتخريب فيما جاورهم وتلا نشاطهم كثرة عدد ضحاياهم من الجنود الالمان ، أعدمت السلطات الألمانية الرهائن رمياً بالرصاص . وكان يتلو ذلك صدور الأوامر المشددة بأنه في حال وقوع اعتداءات على الألمان سواء في المدن أو القرى فان المنازل التي تحوم حولها الشبهات تدمر وتمحى ويقتل جميع من فيها من رجال ونساء وأطفال . وكانت هذه القوانين صارمة كل الصرامة عنيفة كل العنف ، لا صلة بينها وبين الشفقة والرحمة ، فقد سُنَّت لتحول دون ضعف الروح المعنوي للقوات الالمانية. وانه لمن السهل اليسير أن ندرك الى أي حد وجدت هذه الدعايات في البلدان المتحالفة المجاورة ، تربة صالحة خصبة نمت فيها وازدهرت وهيأت العقول لقبول ما يردّده الحلفاء عما يرتكب الالمان من تعذيب .

ومن جانب آخر ، فان مكافحة خطر الغواصات كان قائماً على الحقيقة ، فقـد كانت المانيا تحارب وظهرها الى الحائط ولم يكن في مقدورها أن تتحدى أسطول بريطانيا الجبار ، وكانت الغواصات ضرورية لوقف وصول سيل الذخائر والأطعمة والمواد الخام الى البلدان المتحالفة . وبنفس الطريقة عقدت بريطانيا وحليفاتها الخناصر على منع وصول الامدادات الحيوية الى

المانيا . ولكن أسقط في يد دعاة الألمان عندما حاولوا أن يعلنوا هذا على الملأ ، لأن في اعلان نجاح الحصار انهياراً لدعوامم بأثر غواصاتهم في أسطول الحلفاء بينما كانت كل قذيفة تطلق وكل سفينة تجارية تنسف وكل بحار يغرق دليلاً قاطعاً وحجة دامغة على صدق ما يقول الحلفاء ، وصارت مادة خصبة تغذي دعاية الحلفاء ، ومعيناً لا ينضب يردُونه فيغترفون منه مادة دعايتهم كل يوم .

والمبدأ القائل بأن لا بدّ لنجاح الدعاية من أن يكون لها قسط ولو صغير جدّا من الحقيقة يقصد به ضرورة توافر عنصر الصدق فيها ، فان كذبة صارخة قد تترك أثراً وتأتي بفائدة ، ولكنه أثر قد لا يكون عميقاً ، وفائدة ولكنها وقتية ، ونجاحها محتمل وعلى شريطة أن يلحق بها قبس من الصدق يبدّدها قبل أن تصل إلى هدفها.

وفي الحرب الحبشية الايطالية والحرب الاسبانية الأهلية وفي الصراع الذي نشب بين الصين واليابان ، استغلّ المعارضون قصص التعذيب استغلالاً فاق كل حد قصد الظفر بتأييد المحايدين . فحاول الايطاليون ، مثلاً ، إن يظهروا في غزوة الحبشة بمظهر الصليبيين جاءوا لتحضير المتوحشين وتمدينهم . فأغرقوا الشعوب المحايدة بمنشورات سجلت صوراً بشعة لما يرتكبه الأثيوبيون من ضروب الهمجية وألوان الوحشية . ومن هذه صورة حية تنطق بما يدّعون ، تلك التي صوّرت ما ذاقه هؤلاء الايطاليون الذين ألقى بهم سوء طالعهم في أسر القبائل الأثيوبية الموغلة في الوحشية والهمجية ، وقد وزعت هذه الصور في جنيف قبل أن تصدر عصبة الأمم حكمها النهائي في تلك الحرب .

وصوّر أصدقاء الأحباش الايطاليين يشقون طريقهم إلى أديس أبابا خلف سحب كثيفة من الغازات السامة وأبرزوا التقارير الطبية المنزهة عن الغرض دليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً على صدق ما يزعمون ، ولكن حملتهم باءت بالفشل ولم تلق ما قدّر لها من النجاح والتأييد فقد كانت الشعوب على استعداد ليصدقوا إن الايطاليين استخدموا الغازات المُسيلة للدموع وإن الأدخنة المتصاعدة من القنابل المحرقة تفعل بضحاياها ما تفعله الغازات السامة من حيث الأثر الذي تتركه كل منها .

وفي الأشهر الأولى من الحرب الاسبانية الأهلية وقع كثير من مآسي التعذيب من

كلا الجانبين ما في ذلك شك ، لأن الحروب الأهليـة لا تعرف الرحمة ولا دخل للشفقة فيها بل كل الأثر فيها للعواطف الثائرة الجياشة الصادرة عن جنون المبـادىء وتقديسها ، فان آلافاً من الذين اشتركوا في النضـال شعروا بأن الشيوعية تنفث سمومها والفاشية تنشر وباءها وكلا الخطرين يمكن زواله بزوال مصـدره ، ففي بداية الصراع دأبت الصحـافة البريطانيـة — باستثناء صحف اليسار منها — على ان تعلق أهميـة على ما وقع على جانب الحكوميين في اسبانيـا من وحشية ، ولـكن عند ما تدخل الألمان والطليـان إلى جانب « فرانكو » تدخلاً سافراً ، غـيَّـرَ عدد غير قليل من صحافة حزب اليمين النغمة السابقة فقد صارت الفظائع واضحة معروفة .

وكانت الحـكومة البريطانية الداعيـة الذي لا يمل ولا يفتر . فظلت دور الصحـافة البريطانية شهوراً طويلة تتسلم من « ڤالنسيا » حزماً حوت صوراً (فوتوغرافية) للأطفال الذين فتـكت بهم طائرات « فرانكو » ، وقد طبعت هذه الصور على ورق حقير بخس الثمن فـكان من المستحيل إعادة طبعها وكان القصد الأساسي منها أن تعطي الصحـافيين الانجليز صورة واضحة عن فظائع الغارات الجوية ، وقد أرسلت هـذه الصور (الفوتوغرافيات) من باريس وطبعت ونشرت ، بحسن نية ، في لندن .

ولما تقدمت الحرب الأهلية الاسبانية لم تعد الحـكومة الانجليزية في حاجة إلى إبتـكار ونسج قصص التعذيب ، لأن الحقـائق والأحداث كفتها مؤونة هـذا الجهد ، لأن قذف طائرات الثوار للمدن المفتوحة العزلاء بالقنابل أفزع العالم ، وهاله الدمار الذي حلّ بكبريات المدن مثل برشلونة وڤالنسيا وصغرياتهـا مثل ليريده سواء بسواء ، مع انه كان قد ألف تدريجيـاً أعمال العنف والتخريب .

وأحسن مثل لتطبيق الأساس الثالث من أسس الدعاية وأعني به ضرورة توافر بذور الحق فيما يذاع من دعايات كان في الحملة التالية للحرب العالمية الماضيـة التي شنتها المانيا ضد تشيكوسلوفاكيا فيما بين مايو عام ١٩٣٨ وسبتمبر من ذلك العام . جأر الألمان بالظلم الصارخ الذي يقع على السوديت الألمان والحيف الذي يحل بهم من جراء قيود اقتصادية ثقيلة فرضت عليهم ، وبسبب وعود قطعها الحلفاء على أنفسهم ، للسوديت ، ولم يفوا بها ، عند ما تـكوّنت

الدولة التشيكوسلوفاكية الحديثـة . ففي خطاب لورد « رونسيمان » الذي بعث به الى رئيس الوزراء في ٢١ سبتمبر بعد عودته من براغ لخص فيه الموقف في هذه الكلمات : « اني أعطف عطفاً كبيراً على قضية السوديت ، فانه من الموجع أن يرى الانسان أجنبياً يتحكم فيه ، ولقد غادرت هذه البلاد وبنفسي الأثر الذي انطبع فيها بأن الحكم التشيكي في مناطق السوديت في العشرين سنة الأخيرة كان طابعه التجرد من اللباقة والذوق السليم وخلوه من حسن الإدراك وروح التسامح وحسن تقدير الأمور، رغم انه من المقطوع به انه لم يكن جائراً أو ظالماً بالفعل بل بكل تأكيد لم يكن ارهابياً . وكان التذمر يتغلغل في نفوس الألمانيين والاستياء يتأصل فيهم ويدفع بهم نحو ثورة كان من المستحيل تفاديها » .

ولما تجمعت هذه الحقائق في قضية السوديت تناولتها وزارة الدعاية الألمانيـة وبدأت بها عملها . وقد أفاد منها خارج المانيا ، أولئك الذين يشاطرون الألمان عواطفهم ليؤكدوا عدالة مطالب السوديت الألمان . أما في داخل المانيا نفسها فان طوفاناً من صارخ السباب فاض ليغرق تشيكوسلوفاكيا . ولما أرادوا تصوير الشرور والمساوىء أضحى الرئيس « بنيش » هدفاً لهجمات لا تعرف هوادة وحملات لا تعرف رحمة . ولما بلغت الحملة ذروتها رمى الألمان المسؤولون الجنود بكل أنواع النقائص والشرور ولم يستثنوا منها إلا أكل اللحوم البشرية .

والمتشيعون لهذه الحركة خارج الريخ يظنون ان هـذا العباب الجارف من السباب والشتائم مصدره الحفيظة المتأصلة في النفوس ، ولـكن من وجهـة نظر دعاة النازيين ، لم يكن هو الغاية التي يعملون لها . فقد كان الغرض الذي يرمون اليه هو إلهاب ثورة السخط والغضب في نفوس الشعب الألماني ليثيروا ثائره ضد التشيك ، وإعداده للسير خلف الفوهرر في أية حركة يأتيها وأي اتجاه يتبعه ، بغية انقاذ ذويهم السوديت .

وتمكن الدعاة بفضل الرقابة الشديدة في المانيا على كل صور التعبير عن الرأي ، من الوصول بدعاياتهم الى أقصى حد مستطاع ، وان يغالوا ما شاءت لهم المغالاة وان يسرفوا ما شاء لهم الاسراف عامدين متعمدين وهذا غير متيسر أبداً في أية دولة ديموقراطية .

٤ — سحر الاسلوب

والركن الرابع من أركان الدعاية هو صياغتها في « سلوجن »

أعني تصوير حالة قائمة أو حركة من الحركات الشعبية في جملة قصيرة سهلة قوية التعبير عذبة

تصور في كلماتها القليلة المراد أبرع تصوير . فهو الايحاء في أقوى صوره في شئون الدعاية. وأصبح من البدهي أن القول بعدم فائدة التقارير المطولة في حملات الدعاية لغو ، ومع ذلك فكثيراً ما ينسى أو يتناسى الدعاة هذه الحقيقة فتمتلىء سلال المهملات في دور الصحف كل يوم بمقالات فياضة مطولة لم يفطن الذين أنشأوها أن ما عظم شأنه لديهم قليل الأهمية أو عديمها عند بقية المجتمع،وأن سطوراً قليلة تسترعي انتباه الجمهور خيرٌ من مقالات طوال تطوى كما نشرت لا يسمع بها أحد . وحتى لو حظيت المقالات المطولة بالطبع والنشر والاذاعة تظل عديمة القيمة لأن القارىء العادي لا يطيق الدخول في مجادلات ومناقشات طويلة اذ لا صبر له عليها فهو يعوزه الوقت الكافي والرغبة الاكيدة حتى يستوعب ما جاء فيها. ولذا فالأخبار في الصحف تقدم له سائغة سهلة التناول ، في عبارة قصيرة جلية ، لا التواء فيها ولا غموض . واذن فلكي ينجح الداعية في دعايتــه يجب أن ينهج نهج الصحفي في تقديم أخباره . والسلوجن يرفع الداعية الى أسمى درجات النجاح بأقل عدد من الكلمات ، فهو له أثره في النفوس وسحره في العقول ، ولذا وجب أن يكون بسيطاً خالياً من التعقيد بليغاً فصيحاً ، ذا رنة مسرحية في الأذن . وفي عصرنا الحاضر عند ما تتدافع الجماهير نحو المعارك الانتخابية يستعملون « سلوجن » كسلاح يظفر به على التأييد والنصر للسياسة التي يتبعونها ويدعون اليها .

هذا اللون من الدعاية ليس بجديد فان من أشهر ما صاغ الـكتّـاب في ذلك المضمار هو « السلوجن » الذي دبجته يراع الكاتب الروماني « كاتو الكبير » عند ما اصطدمت قوة روما الناهضة بمصالح امبراطورية قرطاجنة التجارية ، وكان كاتو يختتم كل خطاب يلقيه بالكلمات : « يجب تحطيم قرطاجنة» . ومناداته دائماً بوجوب تدمير قرطاجنة جعلت عبارته تعيش السنين الطوال حتى بعد أن اكتسحت الرمال مصدر الكراهية وطمرته .

« حرية ، مساواة ، مؤاخاة » كانت أقوى « سلوجن » اكتسحت به الثورة الفرنسية الكبرى أوربا من أقصاها الى أقصاها ، وقد وجه الى العمال نداء لا يقل عنه أثراً وقوة : « اتحدوا أيها العمال فليس لديكم ما تفقدونه إلاّ الأغلال » .

وفي بعض الأحايين يتقدَّم العدو « بسلوجن » من قول عدوه عند ما قال بيتمن هولوج

وزير الخارجية الالمانية : « تلك القصاصة من الورق » وهو يقصد الحط من قدر المعاهدة التي تضمن حياد البلجيك تلقفها الحلفاء ليشهروا بألمانيا الخائنة وليقف العالم أجمع على إجرامها . وكما يقود سلوجن الى نصر مبين يؤدي أيضاً الى هزيمة نكراء قاضية . ففي عام ١٩٢٩ وبعد أن سلخ المحافظون في انجلترا خمسة أعوام في دست الحكم وبعد أن حشدوا جيشاً جراراً من الناخبين يخوضون به خضم المعركة الانتخابية الحامية تفرقوا متجولين في المدن والقرى يدعون لأنفسهم ويروّجون لحزبهم وشعارهم «سلوجن» : السلامة أولاً . فكان خطأً فاحشاً دفعوا ثمنه غالياً ومنيت دعوتهم بالفشل وباءوا بالهزيمة .

وتجنيس الحروف في أوائل الكلمات المتتابعة والسجع وإحكام العبارة وحسن اختيار الحروف والكلمات في تأكيد الحقائق عناصر ومقومات ضرورية في بناء كل سلوجن .

والمبالغ الجسيمة التي يقدمها المعلنون التجاريون ثمناً لسلوجن يدعون به لبضاعة أو سلعة برهان قوي على ما له من قيمة .

ومجال السلوجن أوسع وأرحب في دائرة النشاط السياسي حيث يجد صدى عاطفياً تتجاوب به أنحاء البلاد عند ما لا تكون في الميدان مشاكل تجارية تقلل من شأنه .

٥ — نحو الهدف

والأصل الخامس من أصول الدعاية وجوب تسديدها الى هدف معين

خير مثال لتطبيق هذا الأصل وجوب تضمنه دراسة دقيقة لعادات وخصائص ومميزات كل فرد يراد التأثير فيه ففي حال القادة من رجال الصف الأول المجهود ضروري ما في ذلك شك وفي أثناء احتدام معركة الدعاية الحامية التي سبقت دخول الولايات المتحدة الامريكية الحرب في جانب التحالف الثلاثي : بريطانيا ، فرنسا ، ايطاليا ، في الحرب العظمى الماضية كان من الضروري للذين يعارضون مبدأ الاشتراك في الحرب أن يؤثروا في قادة الحكومة وقادة المعارضة على حد سواء وضرب البريطانيون على وتر حساس هو المبدأ السامي الذي نادى به الرئيس ولسون (مبدأ حق تقرير المصير للدول الصغيرة) نادوا بأن الحلفاء يخوضون المعركة دفاعاً عن الديموقراطية ، وفي نفس الوقت ركزوا اهتمامهم في ثيودورو روزفلت إذ تحققوا جيداً انه هو وحده الذي يستطيع الاحتفاظ بمن هم أكثر تطرفاً من أنصار العزلة والحيلولة دون تحولهم دفعة واحدة وفي خبائة مفاجئة نحو المعسكر المؤيد للألمانيين .

أما في الشؤون السياسية فان سبر غور الرأي العام مهمة شاقة عسيرة فالصحف والمفروض أنها دائماً مرشد أمين تجيء أحايين تكون الصلة بين الجماهير وبينها على غير ما يرام ، فلا تعبر تعبيراً صادقاً عن حقيقة الشعور السائد في البلاد ومعرفة اتجاهات الشعب وميوله العامة ذات قيمة للداعية فهي تغذيه بالمساعدة وتمده بالعون الذي يمكنه من إدراك مدى الحماس الذي استطاع أن يبثه في نفس جمهوره في كل مرحلة من مراحل الحملة .

فالداعية ، إذن ، يجب أن يتوقع كثيراً من الاخطاء وان لا يضيق بمجال الشك والتذبذب إذا طالت ما دام الأفراد مختلفين اختلافاً بيناً كل عن الآخر فيما بينهم . ويمكن الداعيـة أن يتثبت من أن باعثاً من البواعث يولد رد فعل خاص كذلك إذا حشد المجتمع ونظم طبقاته تنظيماً ثابت القواعد والأركان . وجدير بالذكر ان في الدول الفاشستية وروسيا الشيوعيـة يبذل القائمون بالأمر كل جهـد لحصر الشك في دائرة ضيقة بجمع طبقـات الأمة في حشود متشابهة قريباً بعضها من بعض .

والداعية الذي يعمل وينقصه ما يساعده على إزالة الشك من النفوس جهده ضائع إذا حاول التأثير في جماعات بالذات لأن الجماعات تلبي نداء الداعية إذا ما كانت من طبقات اجتماعيـة واحدة أو منحدرة من جنس واحد . وتكون تلبية نداء الداعية صورة مشابهـة للدوافع التي دفعت اليها . وتاريخ الدعاية منذ حرب ١٩١٤ — ١٩١٩ يذخر بأمثلة هـذه السياسة ، ففي بداية الحرب الماضية وقبل أن تتحول كراهية بريطانيا لألمانيا الى عاطفة جياشة كاسحة شاملة قوية من البغضاء والحقد والحفيظة تستعر بها قلوبهم كتبت مسرحيـة قوية تصور ما أصاب بلجيكا من ضنك وما حلّ بها من شقاء بعنوان « بلجيكا الصغيرة البائسة » أو ما نزل بصربيا من هوان في رواية « صربيا المجاهدة التعسة » . واستغل الداعية خاصية العطف على المنكوبين وهي عاطفة تتأصل في نفوس البريطانيين ، لتدعيم دعوته ونجاحها .

ويمكن ، طبعاً ، استخدام أي وسـيلة من وسائل الدعاية في شن هجوم على جماعة أو هيئة معينة ، ولـكن بعض هذه الوسائل تكون قليلة النفع بطبعها في حملة نبذل جهداً في إعدادها . فالراديو مثلاً نفعه عظيم الأثر جليل القدر وبه تنفذ الدعاية الى صميم الأذانيات عبر البحار ، بينما تقل فائدته في حملة غرضها وهدفها التأثير في طبقة اجتماعية معينة في الداخل

وتعامل على انها متميزة عن باقي المجتمع . والأفلام السينمائية مثلها مثل الراديو تقيدها نفس القيود وتقتصر على نفس التأثير بينما الصحف الاقليمية المحلية تسد هذا النقص . ولذا فان الموضوعات ذات الصبغة الوطنية يراعى في تصويرها الناحية القومية حتى تثمر الثمرة المرجوة عند الانتفاع بها باستخدامها على الشاشة البيضاء وسيلة من وسائل الدعاية في أماكن مختلفة . ومهما كانت الأوضاع فالصحافة اليوم تسد كل نقص فتقدم الصحف والنشرات الدورية والمجلات المتعددة الاختصاص والمتشعبة الاتجاهات ، مادة خصبة الى الجماعات والطبقات حتى الصحف التجارية المحضة والمجلات الاسبوعية وغيرها . . . وغيرها لها أسواقها التي تزدهر فيها وتروج وتحيا .

٦ — استئصال شأفة الشك

والأس السادس من أسس الدعاية اخفاء الدافع اليها

يعتبر بعض الكتّاب هذا العنصر الدعامة الاساسية في الدعاية « فورك » مثلاً يصل الى التعريف التالي « الدعاية حملة تخفي المعين الذي منه تنبع وتستر الدافع اليها أو كليهما معاً ، والغرض منها الوصول الى غاية معينة واصابة هدف خاص بالتأثير في الرأي العام واثارته » . والدعاية سافرة أو مقنعة كما أسلفنا فالدكتور جوبلز يلقب رسميًّا بوزير الدعاية وتنوير الرأي العام فهو لا يخفي شيئاً من طبيعة العمل الذي يقوم به في الدولة النازية ويعلن على العالم أجمع أن النظام الذي ارتضته المانيا لنفسها لن ينحرف يوماً عن الطريق المثلى التي اختطتها وسلكتها ، والذي ثبت صلاحه ونجاحه على الأيام . ومن وجهة نظره أن ما يميز الدعاية في دولة ديموقراطية عنها في المانيا أن في الأولى يرسم الرأي العام السياسة ويوجه الدولة بينما في المانيا الدولة هي التي ترشد الرأي العام وتوجهه وترسم السياسة التي يجب أن يتبعها ولا يمكن الاعتماد على الدعاية السافرة أو المباشرة فقط حتى ان دكتور جوبلز السافر لا يستطيع ذلك واتخذ احراق الريشستاغ المبيت موضوعاً لدعاية مستترة القصد منها التشهير بالشيوعيين واظهارهم بمظهر المجرمين أمام العالم .

وفي أكثر الدول طغياناً ، وعندما برهنت الايام والاحداث على أهمية زوال الشك من النفوس الامر الذي ينتج من الحقيقة الواضحة والعقيدة الراسخة في الاذهان أن الدعاية اذا

لبست ثوب التنكر اتسعت دائرة النقاش حولها وغدت موضع بحث وتعليق وبذلك تزول الحواجز التي تفصل الداعين عن الجمهور وتنتفي الشبهات التي تحيط بالدعاية وموضوعها وصدق القارىء العادي كل ما يقرأ ورجل الشارع كل ما يسمع . فاذا دبجت يراع رئيس التحرير » في صحيفة حازت ثقة قرائها مقالاً افتتاحيًا في فوائد الكهرباء كان مقاله أقرب الى قلوب القارئين من مقال في نفس الموضوع يكتبه بائع محترف في صفحة الأخبار المحلية لأن جمهور القراء يفطن بالغريزة الى أن رئيس التحرير منزه عن الأغراض لا يرمي الى هدف سوى النفع العام .

وفي مختلف البلدان والأمصار تنفق الأموال الطائلة لشراء الدعاية المقنعة والانتفاع بفوائدها الجليلة . نظمت في الحرب الماضية حملة ضيقة النطاق ترمي الى الحض على مصادرة الأسلحة والحيلولة دون تهريبها فبذل الألمان في دعوتهم أربعين ألفاً من الجنيهات على جماعات الصحف الصغيرة التي تصدر بلغات أجنبية في أمريكا وكان نداؤها قاصراً على الترويج للمبدأ في ذاته دون ذكر لألمانيا على الاطلاق ، وكانت الكتابات في الموضوع عامة وتهيب بالشعب أن يساعد على تخفيف ويلات الانسانية ولا يعمل على تدمير الحياة والمدنية بل يسعى جاهداً على حفظهما وبقائهما .

وكثيراً ما تطغى الداعية السافرة على الدعاية المقنعة أو هذه على تلك في حملة واحدة أو تبدو كل منهما في مرحلة من مراحل الحملة . ولنضرب لذلك مثلاً ممثل دولة أجنبية في لندن يريد عقد قرض لبلاده . فهو يعمل أولاً على أن تدس فقرات من الأخبار الخارجية في الصحف البريطانية تشيد بتقدم تلك البلاد وثبات مركزها المالي حتى اذا ما اتجه الرأي العام الى هذه المزايا وتنبه الناس اليها أعلن عن القرض سافراً صريحاً . ونجاح الجمع بين عنصري السفور والحجاب في الدعاية يتوقف كثيراً على الوقت المناسب للتحول من ظلام السرية الى نور العلانية .

ولقد افتتنت مؤسسات الذخائر وعتاد الحرب في السنوات الحديثة في هذا النوع من الدعاية المقنعة وأشهر مثال لها عرف حتى الآن يختص بمؤتمر نزع السلاح البحري الذي انعقد في جنيف عام ١٩٢٧ وبعد ان مضى عامان على انعقاد هذا المؤتمر قاضى مستر شيرر

ثلاث مؤسسات كبيرة لبناء السفن في الولايات المتحدة يطالبها فيها بأموال طائلة لأنه قد أدى لها خدمات جليلة بعمله على اخفاق المؤتمر في أغراضه التي كان يريد الوصول اليها فأخضع بناء السفن لمبادئه الخاصة به ، دون النظر الى المؤتمر وما يبغي . وقد تمكن شيرر من هذا لأنه كان مراسلاً لاحدى الصحف الصغرى الامريكية فنظم الدعاية لمحاربة بريطانيا وأعدَّ العدة لذلك وتمَّ له ما أراد بمساعدة الأخبار التي كان يوافي بها الصحف الامريكية الذائعة الصيت . وقد أميط اللثام عن هذه المؤامرة المدبرة عندما أمر الرئيس هوفر باجراء تحقيق على يد النائب العام للكشف عن هذه الفضيحة

والعاملون على اثارة الخواطر والقلاقل الدولية تعارضهم جماعات ناجحة كانت تنمو رويداً رويداً قبل الحرب الاخيرة ، وقامت تدعو للسلام قبل هذه الحرب ، وضمت أفراداً من نحل مختلفة وهيئات سياسية واجتماعية متباينة ، ولكن يجمعها كلها غرض واحد مشترك ومن هذه الجمعيات : « اتحاد عصبة الأمم ، واتحاد المتكلمين بالانجليزية » وتعمل كلها في وضح النهار وغايتها نشر السلام .

واتحاد عصبة الأمم جمعية تأسست عام ١٩١٨ وبلغ عدد أعضائها قبل الحرب الاخيرة الرحى ألف ألف وكانت مسئولة عن أعظم حركة للدعاية قامت بها جمعية للسلام واشتهرت بالاستفتاء للسلم عام ١٩٣٤ — ١٩٣٥ ، ولقد قامت ضجة كبيرة حول هذا الاستفتاء ووصفته بعض الأحزاب بأنه دعاية مقنعة ماهرة ضد الحكومة وقالت أحزاب أخرى أن الأسئلة التي وردت في الاستفتاء لا يمكن الاجابة عليها عدا الثاني منها وأعلن سير أوستن تشمبرلن ان المنشور الذي قدم للمقترعين للتصويت عليه هو « هل أنت في جانب السلم أم جانب الحرب ؟ إذا كنت تريد السلم فاقترع بنعم ، لأن الاقتراع بلا معناه نشوب الحرب » . فكان هذا ايحاء للاقتراع في جانب السلم .

٧ — خطاب لويد جورج في يوم السبت من كل اسبوع

وتقسيم الوقت أو اختيار الزمن هو الأصل السابع من أصول نجاح الدعاية في كل حملة من حملات الدعاية يجب على الداعية ألاَّ يضيع فرصة استغلال أي حدث من الأحداث تكون لها أهميتها التي لا يحسن به تناسيها أو اهمالها بل يجدر به الاستفادة

منها قدر المستطاع لتأييد دعوته والعمل على نجاحها حتى ولو تأكد ان هذا الاتجاه يتعارض مع توزيع الزمن الذي جعله أساساً منظماً لعمله . ومن الحكم المأثورة التي لها قيمتها في النشر والاذاعة ان حشد الجهود وتجنيد الكفاءات واعداد العدة واتقان العمل ثم الهجوم بحملة قوية خاطفة لا تترك ثغرة تنفذ منها قوة مضادة أو نقطة ضعف تتداعى عند أول صدام هي خير الطرق وأنجع الوسائل لكسب المعركة ، ثم يعقب هذا الهجوم القوي وفي فترات قصيرة متلاحقة تذكرات بموضوع الدعاية حتى لا يزول من الذاكرة وشيكا ، كما يجب أن تزاد هذه التذكرات قليلاً قليلاً كلما تقدمت الحملة في الزمن ويراعى في كل ما قصد به التذكرة والتركيز أن يكون قويًّا فعالاً ، وان يكون وحدة في سلسلة متصلة الحلقات

واذا ما وقعت أحداث غير منتظرة وتفتحت احتمالات جديدة أمام الداعية فلا ضرورة لتطبيق القواعد والقوانين وما عليه الا أن يتحين الفرص ولا يدع فرصة تفلت من يديه حتى يجني ثمار ما غرس . ويتشعب هذا المبدأ الى شعب متعددة . فالظروف هي التي تملي علينا اختيار الوقت الذي يجب أن تطلق فيه قذيفة الدعاية الأولى . فكانت سياسة لويد جورج أن يلقي خطاباته المهمة بعد الظهر من يوم السبت في كل أسبوع — ونهج هتلر نهجه فيما بعد — وبهذه الوسيلة يمد المتكلم صحف المساء بأخبار حديثة وتجيء صحف يوم الاحد بتفصيلات وافية لهذه الأخبار وتعليقاً عليها . أما صحف الاثنين الصباحية فتكرس مساحات أوسع لتعليق أوسع وأبعد مدى ، كما تعطي سرداً مفصلاً لما أحدثه الخطاب من رد فعل في الصحف الخارجية .

وفي أثناء الحرب الكبرى الماضية عني القائمون بأمر الدعاية البريطانية عناية فائقة بمبدأ الزمن وتقسيمه تبعاً للأحداث والخطوب فكان مراقبو النشر يمنعون كل خبر سيء ، مثل اغراق طرادة ، حتى يحرزوا نصراً في ميدان آخر أو يقع ما يدعو الى الابتهاج والاستبشار ويبعث على الفرح والتهليل وحينئذٍ لا بأس من اعلان ما سبق ان حظروا لأنه سيختفي حتماً ولا يؤبه له بجانب ضوء النصر الساطع . ويصرح ويروك في هذا الصدد ان الأوامر البريطانية الخاصة بمشاكل الحصر البحري روعي فيها التوقيت الدقيق فطبع التصريح الألماني

المتعلق بجعل القطن بضاعة قابلة للمصادرة كغيرها دون قيـد أو شرط ، جاء في نفس اليوم الذي كانت فيه الصحافة الامريكية في حالة انفعال شديد بسبب اغراق البارجة « ارابك » فأبان هذا التصريح أن الألمان الاشرار أحرزوا قصب السبق واتخذوا اجراءً اقتصاديًـا كان من شأنه أن تأثر النجاح الامريكي ولحقت الحقوق الأمريكية أضرار جسيمة .

ويقوي هذا المبدأ ويؤيده ادراك ما للكتمان من فائدة في حملات الدعاية فغالباً ما يكون نجاح الداعية ليس لمعرفته فقط متى يتكلم بل متى يجب أن يصمت لأنه عند ما تكون لدى خصومه قضية وطيدة الاركان مؤيدة بالأسانيد والحجج تلعب دوراً هامًـا لأنهم يفسرونها تفسيراً يتمشى ومبادئهم التي يعملون لها ويساعد على نجاح الحرب التي يخوضونها فاذا لم يقتنع الجمهور بما أدلي اليه من تفسير ظلت القوة في القضية نفسها ولكن تنتقل الى المعسكر المعـادي . وفي هذه الحال فان الطريق السوي أن يستمد الداعيـة وينتظر حتى ينسى الجمهور ويستعجل الداعية نسيانه بحملات هجومية مختلفة كل الاختـلاف بعيدة كل البعد عن الموضوع الأصيل ولا تقتصر فائدة هذه الخطة على توجيه الرأي العام وجهة أخرى بعيداً عن ميدان النضال الحقيقي حيث تحرّج الموقف وانسدّت عليه السبل ، بل أيضاً يمنع العدو عن متابعة نصره بارغامه فجأة من غير أن يتوقع ان يقف موقف الدفاع وهو موقف يظهر ضعفه وحرجه .

List of Books

Propaganda By Leonard W. Doob (1935)

Secrets of Crewe House By Sir Campel Stuart (1920)

Propaganda By Edward L. Bernays. New Work. (1928)

Propaganda By Richard S. Lambert

Propaganda Boom By A. J. Mackenzie (1938)

Through thirty Years By F. Wickham Steed (1924)

نوامس المقتطف الشهرية

فك الاغلال

بحث في الثقافة التقليدية وعلاقتها بالتربية القومية

بقلم اسماعيل مظهر — ظهر مع مقتطف يناير ١٩٤٦

الالوهية والفكر

بحث في العقائد المألوفة

مترجم بقلم اسماعيل مظهر عن لورد بلفور : وهو بحث مثبت للالوهية نافٍ لما يدعيه بعض الماديين من ان في المادية الطبيعية قصداً اوما يشبه القصد . ظهر مع مقتطف فبراير ١٩٤٦

الفريد ده موسيه

شاعر الحياة والالم

بقلم الاستاذ صلاح الدين الشريف ظهر مع مقتطف مارس ١٩٤٦

الازهر بين الماضي والحاضر

بحث في تاريخ الازهر الشريف وتطوره ومنزلته العلمية والدينية واتصاله بحياة الاسلام من قلم الاستاذ منصور علي رجب المدرس بكلية أصول الدين مع مقتطف ابريل ١٩٤٦

سبينوزا

حياته وفلسفته — عرض وتحليل - تأليف هنري سرويا — ترجمة سليم سعده ظهر مع مقتطف مايو ١٩٤٦

موسكو - برلين - لندن

تاريخ سياسي لفترة ما قبل الحرب العالمية الثانية

بقلم عصام الدين حفني ناصف — ظهر مع مقتطف يونيو سنة ١٩٤٦

فلسفة التفاحة

أو جاذبية نيوتن : بقلم نقولا الحداد : مقتطف يوليو ١٩٤٦

لواحق المقتطف الشهرية
مارس ١٩٤٦

الفريد دي موسيه

شاعر الحياة والألم

بقلم

صلاح الدين الشريف

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم
١٩٤٦

تصدير

— ١ —

حفل القرن التاسع عشر بنخبة ممتازة من أعلام الأدب ، وصفوة مختارة من رجالات الفن وأعلام الفلسفة والعلم ، وقد ازدان بهم ذلك العصر ، وازدهرت بجهودهم الفذّة ، وبذوب آلامهم وتضحياتهم حياته الفكريّة ، فبسق عودها واكتمل رواؤها ، وتعدّدت أفنانها ، وكثر فوقها المغرّدون من صوادح الفن ، وبلابل الشعر والموسيقى .

كان عصراً فذّاً تفتحت فيه خصوبة الفكر على آفاق للحياة رحيبة ، ومجالات للنفس الانسانيّة بعيدة المدى . وما انبثق فجره حتى كانت استنارة القرن الثامن عشر قد استتمت دورتها « الكلاسيكيّة » . وهي استنارة قامت خصائصها على تمجيد طيوف الماضي وفضائل الحياة الطهريّة الخالصة ، والنظر إلى الحياة من جوانبها التجريدية المتحرّرة من أوضاع الحاضر المحدود وقيوده المرهقة ، ومجانبة الاندفاع وراء بدَع الوثبات الفكريّة العارمة ، وما يتبعها من الاجتراء على الأقداس والحرمات والسخر بمأثور التقاليد ومسنون العادات . جاءت فاتحة هذا القرن بأحداث سياسيّة مدوية ، كانت بمثابة ردّ الفعل للثورة الفرنسية الكبرى ، انقلبت لها مقاييس الحياة التي سادت سابقه المنصرم . وراح الناس يتطلعون إلى مثل جديدة ومعايير مغايرة لما ألفوه في تركة الموروثات القديمة ، والمخلفات المهجورة ، من رتابة مسئمة، وأوضاع لاينطاع جفافها وجمودها لانبعاثاتها الباطنة وتوقانها الدائم للعواطف المشبوبة ، والخيالات المفرّزة ، التي تجمّل الحياة وتجعلها تنبض بالتوثب والحركة ، وتضفي عليها أبراداً من السحر والروعة ، مهما تغشّاها من هول وشذوذ ونكر !

لقد استنزفت أحداث الثورة الكبرى وما أعقبها من حروب طويلة وثورات مروّعة أعصاب الأبناء والحفدة الذين تجمع منهم جيل مبلبل حائر ، عكف على تضميد جراح الماضي بالاستغراق في لحظات الحاضر والفناء في فرص الحياة العابرة ونهزاتها العارضة ، وإستجاشة رواقد النفس ، وتحريك كوامنها ، وبعث ما هجع في أطوائها وهعابها المتعددة.

فهذه الحياة الانسانية المعقدة الأسباب المختلطة العالي بالسافل ، أقصوصة من أقاصيص الخيال الشارد والسحر الخالب ، وتجربة من تجارب الوجدان الطليق والعاطفة المرسلة وراء مشتهاها ومأمولها ، ولكنها أقاصيص تشيع فيها رنة الحزن وتسري فيها رجفة التشاؤم واليأس ، وتلوّنها مرارة التجربة وآلام المستور الخفي : الذي لا تبرح النفس التوّاقة متطلعة إلى استجلاء خوافيه ، وكشف غوامضه ، فاذا ما أجهدها الشوط فأقعدها عن الوصول الى مأمولها ، وأعجزها الجهد عن كشف المستتر وراء المشاعر الظاهرة والاحساسات المتناقضة والاحداث المروّعة التي حفل بها العصر ، نسيت مرارة الواقع بالاستغراق في سكرة الحياة المنتشية الحالمة ، فهي الكفيلة بأن تأخذ بحجزهم ، فلا يطلبون وراء مناعمها ومرافهها وراء !.

هذه الظاهرة الشاذة هي التي أطلقوا عليها « مرض العصر Le Mal du Siècle » وكانت سمة الحياة الأدبية والفنية وخصيصتها البارزة في النصف الأول من القرن التاسع عشر .

في طليعة شعراء تلك الحقبة ومن أبرز كتّاب هذه « الحركة الابداعية Romantisme » وأفتنهم شخصية وأخلبهم سيرة وأحبهم حديثاً وأرقهم إحساساً وأرهفهم شعوراً وأحفلهم خواطر وأبعدهم في الخيال مجالا « الفريد دي موسيه » الذي كانت حياته أقصوصة من أقاصيص الخيال ، بل قصيدة حالمة رقيقة ذاب درّها في موجة غامرة من الآلام المستعذبة ، وأنساب شذا عطرها الحاد الغريب وسط جوّ مشبع بنفثات الوجدان المكلوم ، ونسمات العاطفة الحائرة المقلقلة .

هذه الآلام والأوجال صاغتها نفسه الحالمة شعراً وجدانيّاً خالداً ، سجل حياته المنسابة دوماً في ضمير الانسانية وطوايا الزمن ، تهدي وتضلّ وتسحر وتروّع ، وتبكي وتضحك !

الشاعر رمز لعصره

لعلّ أفصح الدلائل وأوضح الصور على نفسية الشاعر أو الناثر ، هي آثاره التي تبين عن أطوائه المستخفية ومساربه المظلمة ، حيث تجد العواطف والاحساسات ، وشتى خوالج النفس ونبضاتها ، مسرحها الذي تعترك فيه، ومكمنها الذي تقرّ به وتهجع ، حتى تجد متنفسها في مظهر من مظاهر الاستجابة لحوافز الحياة ، وبواعث الشعور والحركة . وليس ثمة منجم أحفل ثراء بذخائر النفس ومكنوناتها ، من تلك النفثات المتوهجة بسعار الغرائز والجوارح ، المتلونة بحالات النفس في شتى انتقالاتها ، واستحالات مُثُلها وأشواقها . فهي مرآة مجلوّة الصّقال، تعكس لنا صور حياتهم متعددة الألوان، مختلفة الملامح، حافلة بما يبدد عنهم الرّتابة المملولة ، والسآمة المضجرة ، مترعة الكأس بروائع الضمير الانساني وعجائبه ، وهو في دورته الموصولة أبداً بعوامل التجاذب بين اليقين والشك، والاستقرار والثورة . ولا بدع في الأمر ولا تناقض، فان تاريخ الموهوبين من هؤلاء الأفذاذ الخالدين ، إنما هو قطعة نابضة من تاريخ القلب الانساني كله بنقائضه وعجائبه ، محامده ومقابحه .

وليس الشاعر الفرنسي الخالد « الفريد دي موسيه » إلاّ واحداً من هؤلاء الذين انطوت أرواح عصورهم في نسيج أفكارهم وأساليب حياتهم . فهو لم يُمنَح غريزة الإحساس المرهف ، والشعور المشبوب فحسب ، بل رزق معها موهبة التعبير الملتهب بحرارة الرغبات المتحجرة ، والخيال المتّقد بضرام الشوق إلى أحلام ومنى لا تصلها بالعالم الأرضي صلة الواقع المشوّه والوجود المحدود ، فجاءت أفكاره الهائمة ومشاعره الحائرة ولهفاته الوجلة ، مطبوعة بطابع مميّز لها ، خصيص بها . وهي في أصالتها وحرارة الصدق المنبعث من صرخاتها الشاجية ، وفي روعة آلامها المصوّرة لعذاباتها وشكوكها ، تعد رسالة أمينة نقلت إلينا أفكار ومشاعر جيل بأسره .

وهذه الترجمة الموجزة لحياة الشاعر تدلّ أوضح الدلالة على أن حساسية «موسيه» كانت مبعث آلامه ، ومصدر شقائه ، كما أنها كانت المعراج الذهبيّ الذي سما به إلى القمّة من ذهاب الصيت وذيوع الشهرة، وهيأ له أن يحتل مكانه من ديوان الصدارة في الأدب الفرنسي .

استلهم «ألفريد دي موسيه» خياله ووحيه من الحب، مدرسة التضحية والتعذيب والألم، وطلع على أبناء جيله بغرر من القصيد، وطرائف من الشعر ، هي صورة صادقة لكل نفس حزينة معذبة . وسنطالع في هذه السيرة القصيرة الحافلة مأساة الحياة الانسانية كاملة، تلك المأساة التي هي حب وتعذيب وتكفير وألم !.

— ٣ —

أسرة الشاعر

يتصل نسب الشاعر بعائلة ترقى أرومتها إلى منبت من منابت المجد الأثيل، وتصعد سلسلة أسرته من ناحية الأم الى العذراء الشهيدة « جان دارك » التي ظلت سيرتها الشاجية، منبعاً خصيباً لكثير من الروايات والأساطير.

وحدث أن هاجرت أسرته من موطنها الأصلي بدوقية « بار Bar » واستوطنت بلدة « ڤندوم » في القرن الخامس عشر ، إبّان حصار منيت به مدينة « أورليان » حيث بدأ بزوغ نجمها ، فنبغ منها كثيرون برّزوا في مهنتي السيف والقلم ، وقدّموا لوطنهم خدمات جليلة رفعت من شأنهم ، وعزّزت مركز أسرتهم في المجتمع .

ولما كانت الطبيعة في خلقتها للعظماء، وإنضاجها لمواهبهم وخلالهم ، تهيء لعمليّة الخلق ظروفاً وعوامل متعدّدة ، حتى تخرج الثمرة مكتملة ناضجة ، فانها هيأت للشاعر هذا الجو المبدع الخالق ، فالتقت في رحاب نفسه الناشئة مؤثرات البيئة الراقية المهذبة المترفة ، تبدءها أمٌّ سرية الخلق مفرطة الحساسية ، ووالدٌ تربى تربيـة عسكرية صقلت فيه خلال الرجولة القوية ولم تعدم فيه رقة الطبع ولين الجانب . وقد أزكت فيه هذه الرقة حب الانطواء على مضامين نفس محفوزة الى التورّع وأخذ الأمور مأخذ التأمل ، مما شجع والده ، أي جد الشاعر ، وهو أيضاً من الضباط القدامى ، على أن يجمع أمره وينعقد عزمه على إدخال ابنه

فيكتور في سلك رجال الكهنوت ، وكان قد تخرّج في معهد ڤندوم الحربي ، وقيل إن هذا العزم المبيَّت لم يكن إلاّ وسيلة تمكن الجدّ من أن يوصي بثروته الضخمة الى نجله الأكبر ، وقد بادر مسارعاً الى إنفاذ هذا العزم ، بأن أبى تزويج إبنه فيكتور ، الذي أعدّ نفسه بالفعل للحياة الرهبانية ، لولا نشوب الثورة الفرنسية التي أنقذته من هذا المصير ، وقلبت في أعين الناس مقاييس الحياة وأوضاعها . فالثورة الكبرى هي المنبثق الأول الذي هيَّأ للشاعر أن يبزغ نجمه في إبانه ، وما كان الشاعر لولاها ، إلاّ ذرّة منسربة في أطواء العدم ، لا يعرف عالمنا الأرضي من أمرها شيئاً ! .

***

وقد خدم فيكتور دي موسيه في جيش الثورة وشهد معركة مارنجو ، أيام مجد المعارك الامبراطورية التي شنها نابليون الأول على ملوك القارة وأقيالها ، وآب الى وطنه حيث شغل مركز رئيس لمكتب من مكاتب التفتيش بالجيش . وخلال هذه الفترة توفى والداه ، وكانت أواصر المعرفة قد جمعته بمسيو « ديزيربييه » الذي أصبح صهره بعد أن بنى بابنته ، ثم نقل الى وزارة الداخلية ، ولكنه لم يلبث بها طويلاً ، إذ فصل منها عام ١٨١٨ متهماً بالتشيّع للنزعات الحرّة ، وكان فيكتور رجلاً مطلعاً لم يعدم حاسة الذوق الادبي ، ولم ينس له أولياء الامر الجدد ، أنه كان معنيّاً بإخراج دراسات حرة عن حياة فلاسفة الثورة وآرائهم ، وكان آخر مؤلف له في هذا الصدد رسالة عن « جان جاك روسو » ، علق فيها تعليقات حرة على مؤلفات الفيلسوف الكبير وآرائه ومذهبه في الحياة والاخلاق وسياسة الامم .

***

وبالجملة كان فيكتور دي موسيه طوال مدة خدمته في الحكومة ظهيراً للفقراء والبائسين ، نصيراً للمضطهدين . وقد جلبت له رقته الفطرية الليّنة كثيراً من المتاعب ، إلاّ أنها كانت مصدر تلك الشمائل الحلوة والصفات الكريمة التي جعلت منه رجلاً محبوباً من معارفه وخلانه ، وشخصية لطيفة النفس مهذبة الاحساس ، ترحب بها الاوساط التي كان يغشاها ويتعرّف الى زوّارها ، وطبيعي أن تكون لهذه الصفات مجتمعة ، أثرها العميق ، بطريق الوراثة في شاعرنا الحالم المرهف الحس .

ميلاد الشاعر

وُلد « ألفريد دي موسيه »في الحادي عشر من ديسمبر سنة ١٨١٠ في حيّ قديم من أحياء باريس . وقد ظهرت عليه إمارات النبوغ ومخايل الذكاء الفطري منذ نعومة أظفاره ، وكانت تبدر منه بين الحين والحين دلائل شتى بطبيعة مزاج نفسيّ مقلقل . كان مبكّراً في سرعة تقلبه وتحوّله من حال إلى نقيضه ، وفي تعجله إشباع متعه ، وإرضاء رغائبه ونزواته.

وممّا يحكى عنه تأييداً لهـذه الحقيقة ، أنه لمّا كان في الثالثة من عمره . أرادت أمه أن تصطحبه معها في زيارة أو نزهة ، وعالجت أن تلبسه حذاء أحمر جـديداً بهر عين الطفل وملك عليه إعجابه ، فاندفع في ثورة عصبيّة ليحث أمه على أن تسرع غير متباطئة لتلبسه إيّاه ، وهو يقول لها : « إسرعي يا أماه ، وإلاّ أصبح الحذاء قديماً ».

وقد يبدو هـذا الحادث في نظر البعض أمراً يجري به مألوف العادة ويستقيم مع طبع الطفولة المتقلبة المتعجلة ، ولـكنه في حقيقة مرماه النفسيّ ، دليل شوق لاهف ورغبة كامنة في حب التمتع والمسارعة إلى انتهاز غفلات اللذة قبل أن تولي هاربة . وهي لذة تدرّجت في صورها من مشتهيات الطفولة الساذجة، إلى مطالب الشباب الحارّة المتوهجة، وأحلام الرجولة العريضة ، وخيالاتها البعيدة السامقة .

بل إن نزعته الشهويّة الحسيّة ظهرت في صورة من الميل الغامض المبكّر ، نبّه فيه غريزة الجنس، التي ما كان يعقل أن تستيقظ في غير أوانها . ولو صحّت الرواية التي يرويها عنه أخوه « بول دي موسيه » ، في ترجمتـه التي سجّل فيها سيرة الشاعر ، لـكان الأمر ضرباً من الشذوذ المستغرب ، بل الشعور العاطفي المعقد ، الذي قد يدلّ على بوادر الانتكاس في طبيعة حساسة مرهفة ، لم تكن قد جاوزت بعد عتبة الطفولة الغريرة الساذجة !.

فقد ذكر أخوه « بول » أن أوّل حبّ خفق له قلب الشاعر ، يرجع عهده إلى عام ١٨١٤ عند ما كان « ألفريد » لا يزال طفلاً لم يعْدُ بعد الرابعة من عمره ! ويؤكد بول إن ذلك الحب



الفريد دي موسيه

من صورة بريشة الفنان تشارلز لاندل

الوليد كان من العمق بحيث ملك على الطفل جوارحه ، واهتزّت له نفسه ، ثم ما لبث أن تحوّل إلى صداقة ودودة ، أكدت لمعاشري الطفل ما انطوت عليه نفسه الرقيقة المتوقدة ، من إحساس باكر مستوفز ، يعزّ مثاله ولا تجري العادة بمثله .

وقصّة هذا الحب العجيب ، أنه اتفق أن زارت والدته فتاة من بنات عمومته تقطن مع أهلها مدينة « ليبج » واستمع إليها الطفل متيقظ الحواس متفتح الجوارح وهي تقص في بلاغة أخاذة وحلاوة مشوّقة ، وقائع الهجوم الأخير الذي شنته جيوش الأمم على فلول الأمبراطور نابليون في أيام مجده القليلة الباقية . ومن وقتئذٍ والطفل بها هائم ولها وامق ! ولما ختمت حديثها اقترب « ألفريد » من والدته ليستفسر عن أمر الفتاة . وما إن عرف قرابته بها حتى بادر اليها مسارعاً ليطوّقها بذراعيه الصغيرتين ، وهو يصيح صيحة الطفل وقعت عينه على ما ينشده ويطرب له « إنها لي وحدي ! سآخذها واحتفظ بها ، لايشاركني فيها شريك ! » ، ولم يتوان الطفل في إنفاذ عزمه ، ولم يكاشفها ما يكنه من ميل شديد اليها بقدر ما تساعفه لغة الطفولة العذبة الساذجة ، ليظهر لها مكنون اعجابه وحبه ! أما صاحبتنا فلم تشأ روحها المرحة أن تخيّب ظن الطفل ، أو تحطم قصور أوهامه ، فراحت تستثير خياله وأحلامه بما تقصه عليه من قصص خيالية وخرافات سحرية . ولعلّ الناظر إليهما وهما متلاصقان على مقعد طويل بركن من أركان غرفة الجلوس ، وقد اختلطت أنفاسهما وتقاربت نظراتهما وتشابكت ذراعاهما ، في وضع هو أدنى الى أوضاع العشق والصبابة ، منه الى مجرد المجالسة والمحادثة ، ليعجب أيما عجب لهذه النقيضة من نقائض الجنس ، تتمثّل بارزة المعالم في كل حركة من حركات هذا الطفل المعقد العجيب ! ! .

وتأبى القصة إلاّ أن تتمّ فصولها ، فالطفل جاد في طلب يدها وهو يلحف عليها أن تعده صادقة أن تتم معه مراسم الزواج في حضرة القسيس ، حينما يبلغ السن المناسبة . ولما أن حان ميعاد أوبتها الى بلدتها خنقت « ألفريد » العبرات ولم يتمالك بوادر انفعاله وغيرته ، وعندما سمعها تودعه قائلة : « لا تنساني » تهدّج صوته الرقيق ، وأجابها في نبرة حزينة مستنكرة : « أنساك ! إن اسمك قد نقش بمدية في سويداء قلبي ! ! »

وعند ما تزوّجت الفتاة وكانت تدعى « كليلي Clélie » وكان « ألفريد » لا ينفتأ يذكرها

ويحن اليها ويرجو وصالها ، اتفق أفراد عائلته على أن يكتموا الخبر عنه ، ولما أن بلغه النبأ « المشؤوم » ذات يوم ، كان له وقع الصاعقة على نفسه الرقيقة ، وهاله الأمر وأخذ يتساءل في دهشة الطفل المرتبك الملتاع ، الذي تبدّد حلمه الجميل في لحظة ، وتحطمت لعبته العزيزة الغالية ، وهو لمّا يشبع منها نفسه ، لماذا سخرت منه وأخلفت ما واعدته عليه ؟ ! ولما هدّأوا ثائره وأكّدوا له أنها ستكون أختاً كبيرة له تؤثره بعطفها ، وتصفيه مودتها وإعزازها ، أجاب إجابة المحب القنوع المخلص « إذن سأكتفي منها بحب الأخت وعطفها ! » .

روينا هذه القصّة العجيبة مفصلةً ، لنضع عين القارىء على فرجة من هذه النفس الجياشة الحالمة التي استيقظت غرائزها وتنبهّت جوارحها منذ الطفولة الباكرة إلى نداء العاطفة المرهفة ، وتطلعت لهفانة إلى لون من مذاقات الجنس ، وسارعت توّاقة إلى إجتناء ما في الحياة من لذائذ ومتع ، وذلك دليل على مزاج شهويّ باكر . كان له في مُستأنف حياة الشاعر أعمق التأثير وأخطر الأثر .

وقضى ألفريد دي موسيه سني طفولته في عصر حفل بأحداثه الجسام ، وقلاقله المتلاحقة ، وانقلاباته الداوية ، وشهد مصرع المجد الامبراطوري ، وانهزام النسر الكبير ، وإبداعه قفص المنفى السحيق .

وكانت نفسه المشبوبة اليقظى ، وحسّه الدقيق المرهف ، ينفعلان بأصداء هذه الهزاهز المتعاقبة ، تصدُم بدويّها الرهيب ، جوارح أبناء الجيل ، وتزلزل أركانهم ، وترجّ كيانهم ، وهي لا تني متواترة متزاحمة ، يأخذ بعضها برقاب بعض . ويحدّثنا شقيقه « بول » أن « ألفريد » كانت تتملكه في الحين بعد الحين ، بوادر من الغضب المكتوم ، لا يملك إلا أن ينفّس عنها بهاطل من الدمع الهتون ، وهو ينصت مفجوع القلب ، إلى حديث المصائب التي إنصبت على رأس فرنسا بعد هزيمتها الكبرى في واترلو ، وما أثقل كاهلها من فوادح التبعات ، وباهظ المغارم وإن كان لم يدرك لصغر سنه مدى هذه المصائب وما خلّفته تلك الأحداث الرهيبة من عمق الاحساس بوقْع الفجيعة في نفوس أبناء الجيل ، ولكنه كان لفرط ما يسمع من ذويه ، وممن كانوا يلابسونه في بيئة البيت من أصدقاء وخلان ومعارف لأهله ، دائم الحسرة ساهر النفس على هذا العثار الذي مُني به وطنه . ولعله ، وهو يشهد جحافل البروسيّين المدجّجة تتخلل

باريس دخول الظافر ، قد طاف بمخيلته طائف من الأحلام الصبيانيّة المثيرة ، وهو يتصوّر فارساً من فرسان الأساطير قد هبّ لمطاردة هؤلاء الدخلاء الغاصبين وراح يعمل سيفه السحريّ في أقفيتهم وظهورهم فلا يدعهم إلاّ مِزَقاً مشتتة وأشلاء ممزّقة ، على نحو ما كان يسمعه من صديقته «كليلى» ويختزنه في طوايا واعيته الباطنة من أقاصيص الجان والمردة ، وأبطال الخيال والسحر ، الذين تنسب إليهم عجائب الأفاعيل !.

حقّاً لقد كان الطفل فذّاً في خياله ، فذّاً في ذكائه ، فذّاً في رهافة الحسّ ووقدته ، فذّاً بما وعاه واختزنه وأثار بلابله وأشجانه ، وهو بعد طفل لم يخط الى عامه السادس ، أي في المرحلة الأولى من مراحل عمره القصير الحافل !.

— ٥ —

مرحلة التعليم

وما هلّ عام ١٨١٧ حتى انتظم «ألفريد» مع أخيه في سلك الدراسة في معهد من معاهد التعليم الابتدائي ، وكان الخلاف على أشدّه يومئذٍ بين أنصار الملكية ودعاة الحرية وأشياعها . وطبيعي أن يكون لهذا النضال الناشب بين الفريقين في عنف وشدّة بعض أثره وصداه في أفكار غلمان ذلك العصر وصبيته . ولم تكن سماحة الرأي وحرية النقاش وسعة الصدر واحترام العقيدة بالصفات التي تتسم بها حقبة من الفتن كانت قد تردّت الى الحضيض الأوهد من جحيم الحزبية .

ومن ثمّ لم يكن نصيب المتعصب لعقيدته وبخاصة إذا كان ملكي النزعة أو أمبراطوريّ الهوى ، إلاّ الاضطهاد المرّ والتضييق الجائر والملاحقة المزعجة من الفريق الآخر ، فلا عجب إذ كان «ألفريد» وأخوه ، وهواهما أجمع مع الأمبراطور الذي طوّحت به الأقدار الى منفاه السحيق ، لا يلقيان من رفاقهما وأساتذتهما في المدرسة ، وهما الساذجان في إظهار متجه هواهما وخبيئة ميلهما إلاّ الاضطهاد والتضييق البالغين ، وقد خلفت هذه الذكريات المدرسية الموجعة صداها المُرنّ في مشاعر الصبي «ألفريد» ، فلا جرَمَ أن كانت قاعدة من القواعد التي بنى

عليها فيا بعد فكرة كتابه الرائع « اعترافات فتى العصر » والعين الثرّة التي صدرت عنها مواكب خطراته وسوانح أفكاره .

وما انقضى طويل وقت حتى عافت نفس الصبي هذا السجن الضيّق وبرمت بهذا المحبس الموحش الذي لا يجد فيه منطلق خياله وشبع حسه ، فهو يستشعر في صرامة نظمه ما يأخذ على عقله سرحاته الحالمة التي تفيض بالتأمل ويوشي حواشيها ذهبيّ الآمال . ولم ينقذ الفتيين من حياة المدرسة الرتيبة المرّة إلاّ إصابتهما بحمى « الحصبة » ووقوعهما فريسة لأوجاعها الناهكة . ومن ثمة اعتكفا بالمنزل حيث تتلمذا لأحد المدرسين يتلقيان عليه علومهما الأولية، فضلاً عن دروس الانشاء والبيان ومقطوعات من النثر والشعر تناسب سنهما وملكاتهما .

ولمّا كان « ألفريد » ميّالاً بطبعه الى القصة معلقاً فؤاده ، منذ أن تنبهت فيه غريزة التطلع وشبت عنده ملكة الخيال، على كل ما يروى له، وهو ملقٍ بسمعه ووعيه وبكل جارحة تنبض فيه الى من يقصّ عليه ويروي له ، فإنه قد وجد الفرصة المتاحة ليُشرب نفسه وحسه وذهنه وخياله بهذا المتاع العقلي المحبب اليه ، يستهلك في أجوائه الفنيّة وآفاقه الحافلة شوقه الذي يلعج قلبه الصغير ويستفزّه الى طلب الأقصوصة التي تشبعه والافكوهة التي ترضيه . فليس من عجب إذن ، أن نرى هذا القارىء الصغير ، قد غرق في مطالعاته القصصية الى أذنيه ، والواقع راح الفتى يعبّ في نهم ولذة كل ما صادفته يده من قصص وروايات ، قصرت أو طالت ، موضوعة بلغته أو منقولة عن غيرها من اللغات . وفي هذه الفترة التي تفيض بالخيال العاطف والتأمل الحالم، قرأ « ألفريد » رغم صغر سنه قصة « الف ليلة وليلة » واستنشى فيها ، وفي غيرها من القصص الفارسية والعربية ، جوّها العطريّ الفاغم واجتلى بعينيه المبهورتين مجالي الحياة الشرقية الساحرة ، تعرض على لوحة مخيلته أبدع الرؤى وأمتع الصور وأروع التهاويل ! . .

لقد سكرت حواس الفتى الناشىء بتلك الحياة الخليعة العذار ، وهي تعرض عليه مشاهد مُفزِّزة من العواطف المشبوبة والغرائز المسعّرة ، وما من شكٍّ في أنه قبس منها وهجاً حارًّا بقي له زاداً وعتاداً يلهمه أفانين من القول والفعل طوال أيامه التي عاشها .

على أن ميل « ألفريد » الفطريّ الى التشبع بالجو القصصي الحالم وجنوح مشاعره الى

الاستغراق فيه ، قد حببا اليه أن يحيا عن طريق التمثيل ، حياة أبطال القصص وينهج ، ولو بطريق الحركات والتعابير والاشارات المسرحية ، منهج شخصياتها الأخاذة ، وكأنما قد أحس في هذا الجو تفريجاً لطمحات نفسه وتنفيساً عن المحتجز المضمر في حناياها من الأحلام والخيالات ، ومن ثمّ راح يتخذ ، بمعاونة أخيه «بول» ، من أثاث البيت وحجره ودهاليزه مسرحاً يخرجان عليه ، بصحبة من الأتراب والأخدان ، تلك المشاهد والمواقف التي سحرت خياله وحركت في أعماقه كل نابضة ، ونبهت كل خامدة ! .

فهو دائب في ساعات فراغه وأوقات خلوته ولهوه ، على هـذا التمثيل والتخريج الذي أنعم نفسه بجوّ من الرموز والأسرار والخواطر ، كان له من بعد أكبر الأثر في تعميق ميله الى سمحات الفكر الشاعري التي بثّ فيها وهو شاب مكتمل الأشدّ ، آراءه وجماع فلسفته الخاصة عن كثير من الحقائق والمتناقضات ، وحاول أن يصوغها للمسرح قصصاً تمثيليّة تحلل عواطفه وتسجل آراءه في الحياة والأخلاق والناس.

وكانت العائلة تقطن وقتئذٍ مسكنها بشارع «كازيت» وهكذا بقي حال الفتى يسير على هذا النهج الذي اختطه لنفسه ورسمه لمواهبه وهواياته ، ملقياً حبل نفسه على غاربه مستمتعاً بفسحة من الحريّة يحسده عليها رفاقه ولداته ، إلى أن انتقلت عائلتـه في عام ١٨١٨ إلى منزل آخر مهجور في ضواحي باريس ، يقع بشارع «كليني» . وكان البيت الجـديد يشبه الأديرة في طرز بنائه وترسيم واجهته . ولـكن حديقته كانت متسعة الجوانب كثيرة الأشجار غاصّة بالظلال ، ففرح بها الصبيّـان واتخذا منها مسرحاً جديداً يعاودان فيه تمثيل ما يقرآنه من حكايات وقصص ، مواصلَيْن حياة لاهيـة ، هي أقرب إلى الفراغ والتبطّل ، تجري وفق الغريزة وتسير جنباً إلى جنب مع طباع الطفولة الحرة وأعصابها المتوثبة الجذلة .

وكانت الحديقـة تنتهي إلى حقول المزارع والمغايض المترامية ، مُدهامّـةً في ضباب البعد ، آخذة العين بما يتعاقب عليها في ساعات النهار المختلفة من انعكاسات الظلال والألوان وحركات السحب ، مشنّـفة الأذن بما يرن في جوانبها من أصداء وصدحات ترسلهـا الطيور المترنمة الشادية ، وهي تغادي أوكارها وتراوحها .

وكان التلميذان الصغيران يواصلان تلقي دروسهما في مبادىء التاريخ وعلم تقويم البلدان ،

ويستظهران نماذج من النثر والشعر بمجلس الدرس المعتود بالحديقة أو في المزارع ، وسط هذه الطبيعة الغنيّة الحافلة بألوان الجمال والجلال .

وفي نوفمبر من هذا العام عادت العائلة إلى بيتها الأوّل بشارع « كازيت » وكانت الدار القديمة موحشة قابضة ، لضيق رقعتها وانحسار مدى عرصاتها عن جدران البيوت الأخرى المتكاثفة ، التي تحيط بها إحاطة تكاد تأخذ عليها منافذ الجوّ ومسارب الهواء .

وما كان العجب ليداخلنا، وقد رأينا طباع « ألفريد » لا تلين أو تساس إلاّ في جوٍّ من الطلاقة الخالصة من عقال الحواجز ، الباسمة المشرقة لكل جوٍّ مرح حافل بألوان السرور والبهجة ، ما كان العجب ليداخلنا إذا رأيناه في أوبته مع أسرته إلى البيت الأول حزين النفس كاسف البال متجهّم صفحة الوجه ، فهو برم بوحشة هذا البيت ، مهتاج العصب لهذا الحيّ المزحوم بأبنيته وشواهق جدرانه ، الموقر منذ طلعة الصبح حتى مهبط الليل بأصداء زياط لا ينقطع وأصوات ضجيج يفزّز الأعصاب المرهفة المتوثبة . حقّا شتان الجوّان ، ويا ابعد ما بينهما من فارق ، وما أثقل ما يتركه هذا الفارق من ضيق وسخط وثورة تلهب مشاعر الصبي ، فتجعله عصبيّ المزاج ساهر النقمة ، وهو لا يكتفي بأن يجعل من نفسه المستوفزة ميدانًا لجيشان هذا السخط ، واصطراع ثوائره ، بل يجاوزها إلى ميدان البيت ، يفرغ فيه فيض تلك القوة المحتجزة ، فينهال على أثاثه ورياشه تحطيمًا وتمزيقًا ، غير عابئ بشيء ، ولا منصتٍ لصوت ناصح أو زاجر ! .

ولعمري ليس أقوى من هذا دليلاً على شدّة تعلق الشاعر ولصوق قلبه بالجوّ الطليق الحرّ ، وخاصة إذا تمثل له في نزهة المكان وراحة المثوى ، وجلوة للطبيعة العذراء تسفر له فيه عن بهيّ محاسنها . ومهما يكن من شيء فان شاعرنا ما زال موكولاً بإرضاء سعار تلك اللهفة الحارة على مطالعة القصص ، ونقع غلته بما يلتهمه من روائعها ، ولاسيما تلك التي تحفل بمعارض الفروسية وتعجّ بمواقف البطولة وأمجادها ، وما يتخلل ذلك من صرعات النفوس وانكدارات الأرواح ، لكثرة ما يعرض لها من غمرات الفناء والهلاك ، خلال معاركها المؤججة .

وقد كانت أمثال القصص التي تدور حول « تحرير أورشليم » ووصف حروبها التاريخية

وأحداث بطولتها الدامية ، تستهويه وتهزّ أعماقه وتثير رواقد شعوره الباطن ، وتفتح عينيه الحالمتين على مجالي النفوس الكبيرة ومصارع أهوائها وأحلامها ، فتتفتح في نفسه فُرَج جديدة تطل منها ميوله المستقرة وراء وعيه ، وهي ميول تشي بمزاج ثائر متقلب ، وان غلبت عليه في أكثر الأحيان النزعة الحنونة الحالمة التي تطامن من حدّته وتخفف من وقدته ، وتسمو به الى سماوات الوداعة واللين والرقة .

وضاق المدرّس ، ومعه أهل الشاعر ذرعاً بسرف الصبي في إشباع هوايته قراءة وتخريجاً وتمثيلاً ، وبمن كان يشركهم معه في هـذا التمثيل والتخريج من أفواج الصبية الآخرين ، فينمي في ثورة الجلبة ومعارك الكرّ والفرّ المصطنعة ، واجب التلميذ حيال درسه ، عامداً أبداً الى قتل الوقت بالإمعان في أفانين عبثه وتبطاله ولهوه ، ومن ثمة لم يجدوا بدّاً من أن يدخلوه معهداً نظاميّاً يتخرّج فيه ، والحقوه بالقسم الخارجي من كليّة هنري الرابع .

ومن طريف ما يحكى عنه في هذه الفترة ، أنه رجع في مساء اليوم الذي أدخل فيه ذلك المعهد باكياً ناشجاً ، تتحرق مسام سخطه وتتوقد زفرات غضبه . لقد سخر منـه زملاؤه ، وركبوه بالدعابة القاسية وطالعوه بالأهكومة السمجة ، عندما وقعت أنظارهم عليـه ، وقد أرسل شعره الذهبيّ الوحف ، يتدلى قريباً من كتفيه ، وعجبوا لتلك الثياب المهندمة على صورة هي أقرب الى زي النساء ، منها إلى زيّ الصبية الذين هم رئده في العمر .

حقّـا لقد كان « ألفريد » منذ طفولته الباكرة قسيماً وسيماً فاتن الطلعة ، فلا غرو تختار له أمه من الهندام والزيّ ما ينسجم ، في رأيها ، مع هذه القسمات الحسان وتلك الملامح الحلوة فجاءت ثيابه في جملتها وتفصيلهـا مظهراً لذوق نسويّ محض لا تتفق رقته وميوعتـه مع خشونة طباع الناشئة من الصبيّـة ، وما فيهم من ميل فطري إلى الانغمار في جوّ من الهرج والمرج والجلبـة والتعارك أثناء لهوهم ولعبهم ، وهو جوّ لا يوافقـه الاّ مراعاة الخشونة التامّـة في اختيار هندامٍ لهم واختصاصهم بزيّ لثيابهم .

وهكذا عبث المقراض بهـذا الشعر الذهبيّ الأشقر ، واستبدل صاحبنـا بثيابه الرقيقة أخرى تجدر بأمثاله من الصبية ، وانفثأت ثورة سخطه باندماجه في محيطه وتجانسه مع جوّه .

وأظهر « ألفريد » منذ بداية دراسته بالكليّـة تفوّقاً ونبوغاً ظاهرين ، وقد تجلى أثر

هذا التفوّق والنبوغ في أسلوب إنشائه ، فقد كان مُجلياً في توليداته ، بارعاً في صياغة عباراته ، مرهف الذوق ، دقيق الحس خياليّ المزاج فيما يسوقه من أفانين تصويره ومعارض أوصافه . ولا جَرَم كان لمطالعاته القصصية الطويلة ، أثر قوي انطبع في مخيلته ونمّى ملكة الابتكار عنده ، وترك ميسمه ظاهراً واضحاً في كل ما كان يكتبه في كراسته المدرسية من موضوعات لا نكون غالين إذا قلنا إن كثيراً منها ، إذا راعينا سنه ، بلغ مرتبة النماذج المختارة والمنتخبات المنتقاة .

وتوالت أيام الدراسة وتعاقبت فتراتهـا ، وإذا بحساسية الشاعر المفرطة ، تصوّر له في لحظات احتجازه وانطوائه على نفسه ضروباً من الأوهام والخيالات ، تتخذ صورة الأشباح والأطياف ، فهي رؤى تملأ عليه ذهنـه في اليقظة ، وتسحره وتبهره في مراقد أحلامه . فلما أن اشتدت عليه وطأتها ، أحسَّ بحاجة لاهفة الى من يفضي اليه بسرّها ، عساه يشاركه معتقده في ثبوتها وحقيقتها. وكان يجتمع بأخيه « بول » ، بعد أن فرّقت معاهد التعليم بينهما للحاق كل منهما بمدرسته ، أيام الآحاد ، وهي عطلة الأسبوع . ففي ذات يوم أفضى بحالته هذه الى أخيـه ، مستطلعاً رأيه في حقيـقة الأشباح ، فما راءه منه إلاَّ استهزاؤه وسخره بهذه العقيدة الفطرية البالية ، عقيدة « الجن والسحر » وتأكيده في لهجة المؤمن المستوثق ، أن أمثال هـذه الخرافات لا تحتويها غير مخيلة مؤلف من أمثال مؤلفي « الف ليلة » ومن جرى في الخيال مجراهم ، واشتطَّ في التخيل والتهويل شططهم .

وقد أسف «ألفريد» لعدم مشاركة أخيه له في معتقده، إذ كان يؤمن في قرارة نفسه بما تصوّره له مخيلته الطفلة من أن الانسان إذا لم يستطع أن يتجرّد أو ينفى عن جسمه حتى يصير كائناً غير مرئي ، فان في مقدور حيلته أن تصطنع له من ألوان السحر ما يعتاض به عن هذا العجز الكامن في طبيعته ، فيملك من خفيّ القوى ما يصوره في أعين الغير بصورة عفريت من عفاريت الجن ؟ ! .

وكان « ألفريد » في عُقبي كل حلم من هذه الأحلام، يحسّ كأنما قد جُهد به وأن يداً غليظة ضاغطة أخذت بكظمه ، وردّته الى متاهة من الصمت المروّع ، تستفيض موجاته استفاضة تستغرقه ، ولكنه صمت يصاصل في أذنيه بأرانينه الخرساء الموحشة ، ويجعله

صامتاً جامداً لا يعي من امره غير خفقات قلبـه كليلة عانية ، تتجاوب أصداؤها البعيدة كالهدير المكتوم بين أضالعه ، ثم لا يلبث أن يستشعر الخـدَرَ يتدسى إلى أعماقه ، فيحمله الى عالم غريب من الأحلام والرؤى ! .

وكانت هذه الحالات الغريبة تتناوبه في الأغلب على فترات متقاربة ، وهو إن ضاق بها حيناً ، حنَّ إليهـا أحياناً ، وترقبها ترقب المتلهف على ما يغذي نزعته إلى الخيـال الغريب والصور المفززة ، التي تدني من مقدوره الغرائب والمعجزات وتصوّرها في وهمه أشياء هينة تافهة ! وكأنما قد حان الوقت الذي يخلص فيه الصبي من أوهاق هـذه العقدة الموبقة ، ولغرب عن فـكره خيالاتها المزعجة ، فوقعت في يده قصة الـكاتب الاسباني « سرفانتس » وهي المعروفة « باسم دون كيشوت » ، وطالع فيها « ألفريد » وقائع البطولة الوهميّـة وتسلسل ملاحمها المزيفة ، فتبدلت حالته النفسية واستطاعت هذه القصّـة الفذّة أن تضع حدًّا لميله إلى عجائب الفروسيّـة ومعجزات السحر والسحرة .

وهكذا انقضت عند « ألفريد » فترة الحلم بالعجائب والمعجزات ، في وقت كانت تبدأ في غزو عقول غيره من الصبية ، ولم تخلّـف وراءها سوى أثر شعري رقيق ، وميل إلى اعتبار الحياة قصة من قصص المفاجئات والأعاجيب ، يلعب فيهـا الحظ دوره الأكبر ، عابثاً أبداً بمصاير الخلق ومقدرات الحيـاة ! ويظهر منه هذا الميل بأجلى معانيـه في قصصه التي أدار حوادثها حول أشخاص وهميين نسب إليهم أفـكاره ومشاعره التي كانت تخالجه خلال تلك الأزمات .

وفي صيف عام ١٨٢٢ رحلت العائلة إلى بلدة « فندوم » لقضاء العطلة عند عم « ألفريد » بقصر « كونييه » وكان فرح الصبي بالغاً عند ما استشرف لقصر العائلة القديم وطالعت عينه ذلك الطود الشامخ . وكان البناء قديم الطراز على نمط القصور القديمة ذات الدهاليز المتعددة والأقبية المظلمة والمسارب الخفيّـة والأروقة الممتدّة .

وقد أثارت قاعات القصر الموحشة ومساربه المتشابكة وجدرانه الصمّـاء العالية ، بلابل الفتى وهزّت كامن شوقه ، مرة أخرى ، إلى حياة الأشباح والخيالات ، ولكنه شوق ما التمع سراجه وتوهجت شعلته حتى خبا وانطفأ ، إذ لم يعد من وراء استطلاعاته وجولاته خـلال

مجاهل القصر ومهجور أجزائه بغير الغبار الخانق وأنسجة العناكب الضاربة شراذمها في فجوات الجدران ومحاني الأقبية، وهناك أيقن «ألفريد» أن وساوس الوهم يجب أن يسدل عليها ستار صفيق من النسيان ، فلا تعود تلقي في روعه الاضطراب والوهل ، وتركه بالذهول والحيرة .

وتكررت الزيارة عام ١٨٢٤ ، وكان «ألفريد» قد بلغ الرابعة عشرة من عمره . ويحدثنا «ألفريد» من ذكرياته السعيدة عن تلك الاجازات المروحة وأويقاتها الهنيئة الحلوة، أنه كان يقضي سحابة يومه منتشياً حالماً ، فهو تارةً في نزهة خلوية يجوب فيها أرباض الناحية ومروجها ، وتارةً يصطحب بندقيته في جولة من جولات الصيد مع أخيه ، وآونةً ثالثة يحمل ديواناً أو أكثر من دواوين الشعر التي تروق في عينه يقتل بها الوقت وهو مستند الى جذع شجرة فينانة تسدل عليه ظلالاً ندية من أفنانها الوارفة المتهدلة .

***

أما أمسياته فكان يقضيها بين « البلياردو » و « الشطرنج » فهما سلواه في صدر الليالي الطويلة الساجية . ولم تكن تخلو رسائله التي يبعثها من مصيفه الى الأثيرين من صدقانه وأصفيائه ، من ترنيمات متوهجة بسعار الغريزة الجنسية ، التي استحرت وجاشت في طلب المفيض والمتنفس . فهو في سن المراهقة ، دائم التحدث عن الجميلات من الفتيات اللاتي يريد أن يصل بهن حباله ويبثهن هيامه وإعجابه ، ولو عن طريق التخيل والتمني ! ولعل تلك الرسائل الطافحة بسورات الشباب وخواطر المراهقة القلقة الولهانة ، وهي التي تبادلها مع صديقه وزميله في الدراسة « فرديناند دورليان » — الدوق دي شارتر فيما بعد — دليل بين على استعار مزاجه الجنسي وتلهفه الحار على الأليفة والعشيقة التي تستجيب وإياه لنداء الجنس. وكان في تلك الفترة يديم قراءة شكسبير وشيلي ، وكان هذا الأخير يستهويه بالعواطف المؤججة والمشاعر المتقدة ، ويهزه ما فيها من عُرام وحدة .

والحق أن هذه الرسائل وان كان لخواطرها الشاجية صدًى بعيد في نفسه جعلها تزخر بالهواجس والبلابل والشكوك ، إلا أنه كما يقول في إحداها « ما كان ليفقد روحه الفرنسي الأصيل، ذلك الروح الذي يتجلى عند ما تهيء له المصادفة السعيدة فتاة أحلامه الجميلة ، لتأخذ

بيدهِ من وهدة هذه الشكوك والوساوس ، وتلقي على ظلماتها بنظرتها الساجية الحلوة فتذهب بها أباديد !

وتمرّ على الفتى الأيام والأسابيع والشهور وهو عاكف على دروسه ، مُجد في استذكارها دائب على تثقيف عقله بما يطالعه ويتذوّقه من طرف الأدب وغرر النثر والشعر، حتى هيأه ذلك إلى أن يكون دائماً في طليعة صفه وفي مقدمة زملائه من الطلبة . وكان مستقلاً في كل ما يرتئيه ويفكّر فيه، فله طابعهُ الخاص به وطريقته المقصورة عليه، وقالبه الذي ظلّ موكولاً بتسويته وصقله إلى أن جعله صالحاً لأن يصب فيه بدائع فنه وعجائب زخرفه البياني .

غير أن «أفريد» في غمار مطالعاته الخاصة،وفي مزدحم دراساته التي يتلقاها في الكلية،لم يكن بالمخدوع الفكر المضيع الحس الباهت البصيرة ، وقد تباعدت رويداً تلك الفترات التي لا يبدو فيها إلاّ فتىً حالماً مستغرقاً في سكرة حلمه الرائع ، يجتلي مشاهده ويجرع أفاويقه ، والواقع راح الفتى يعاير بأقيسة الشك والنقد كل ما تقع عليه عينه من قراءات ، وكل ما يصدم أذنه من مذاهب ونظريات . وقد قويت فيه نزعته الشاكة الناقدة ، إلى حد أن برز أثرها واضحاً في إنشائه وفي اجاباته على شتى اختباراته ويعزى ذلك الى ما تركته دروس الفلسفة والأخلاق من صدًى بعيد في نفسه ، كان له أعمق الأثر في غربلة آرائه ومعتقداته وزلزلة مقاييس نظراته التقليدية إلى الحياة والناس .

وهكذا عبر زورق فكره القلق المتشكك، خضم الفلسفة الرجراج اللجي، من سبينوزا إلى ديكارت ، الى غيرهما من الفلاسفة المعاصرين له ، غير أنها كانت رحلة محفوفة بالشكوك حافلةً بالأشواك ، مزحومة الأفق بالعواصف والأنواء ، لم يرجع منها بسعادة الطمأنينة التي نشدها عقله ، وما عتم أن استنجد بذخائر قلبه وفيوض وجدانه يستلهم سناها اللألاء لينير له دياجي المشكلات وغوامض النزعات الفكرية التي لا تكاد تبدو له بين غبار الأهواء والحوافز المظلمة، وهكذا لم يجد شاعرنا بُدًّا من أن يعتصم في آخرة أمره بإيمانه بالله، مستلهماً وحي« اللانهاية » ، مستفتحاً أبواب نعيمها الروحي ، ففيها الخلاص من لوثات الشك والمطهر من وساوس الزيغ والضلالات .

وقد تجلى ، فيما بعد ، هذا الاستسلام الطيّع وذلك اليقين الدافق في كثير من خطراته ،

عن مشكلات الحياة، وفلسفة الجمال، ولن يعدم الباحث المدقق وراء بعض الجمل والعبارات والتشبيهات مكامن خفية للشك تكاثب مرامي آرائه، وتسابق مطارح أفكاره!

— ١٧ —

هوايات الشاعر

وعندما أتمّ «ألفريد» دراسته بالكلية، ألفى أن جوّ الحياة العملية تشغله مهنتان تقليديتان، هما الطب والمحاماة. ولكنه لم يجد في قرارة نفسه ميلاً جديًّا الى أيتهما، وكان يكرّر هذا القول لكل من لامه واحتثّ عزيمته على معالجة واحدة منهما: «لن يستطاع الانتزاع بي قط في إحداهما ولن أمارس مهنة منهما!». وهكذا انقطع عن مواصلة دروس الطب بعد أن واظب عليها فترة من الزمن.

وانتابته موجة من التبلبل والحيرة، أي المسالك يختطّ لنفسه وأيّ الطرق يسلك؟ وكاد يفقد الأمل في نفسه لولا تأكيد أستاذ الرسم له بأن في مكنته أن يصبح في يوم ما رساماً عظيماً، لو أنه عكف على متابعة دراسته له وتمرسه بشتى فنونه، وهكذا اشتدّت هواية الرسم عنده وتمكنت ملكتها منه. ولم يمض طويل وقت حتى كان «موسيه» يرسم الصور المعروفة باسم «الكاريكاتير» بيد متمكنة وذوق فني سليم.

وفي ربيع عام ١٩٢٨ استأجرت العائلة داراً جميلة في أوتي «Auteuil» وهي ضاحية صغيرة هادئة من ضواحي باريس، وتمتاز بقربها من العاصمة الفرنسية. فكان «ألفريد» يرجع من معهد الرسم والتصوير ظهراً الى بيته ماراً في طريقه بغاب بولونيا، وفي يده ديوان الشاعر «أندريه كينييه «André Chenier» وكان شديد الاعجاب به، يخف أدبه على نفسه، ويخصّ آثاره بنصيب كافٍ من أوقات فراغه. ولم يكن أحبّ اليه، وهو يسير متباطئ الخطو، مرسل الطرف، مسرّح الخاطر، من أن يستظهر الكثير من أشعاره. وكانت تلك الفترة غنيّة بالعوامل النفسية والاجتماعية التي استثارت فيه شاعريته وحفزت كامن ميله الى نظم القريض، والواقع كما قال أخوه «بول»، إن الطريق بين رواية «ألفريد» لطرائف الشعر وبين نظمه لغرره وبدائعه، كان قصير المدى إلى حدّ يثير العجب والدهش!

وبالفعل أراق « ألفريد » ذوب هواجسه وخواطره وأحلامه في مقطوعة شعرية حزينة، تنبض بالأسى وتفيض بالشجن واللاوعة ، ولشدّ ما أبهج فؤاده وأثلج صدره أنْ أتيحت له فرصة زيارة الشاعر الناثر الكبير « فيكتور هوجو » رأس الكتّاب الابداعيين في عصره.

كان الصراع على أشدّه بين أنصار « الكلاسيزم » ودعاة « الرومانتيزم » . وكانت حركة التصوير الرومانتي للحياة ، ثمرة من ثمرات الثورة الفرنسية الكبرى ، فاستحوزت الرومانتية على النفوس في مطالع القرن التاسع عشر ، وكانت هذه الروح كما قلنا مولعة بالغرائب ، موكلة بالأسرار . تستهويها عصور الغرائب والمدهشات والكرامات ، فلوّنت الأدب بنزعة الخيال العاطف وطبعته بطابع الاستهواء والصوفية ، وبكل ما يثير لواعج العواطف الانسانية ويبرزها في شتى حالاتها وصورها وشواغل أحلامها .

وفي دار فيكتور هوجو، تنسم « ألفريد» الشاعر الناشيء أول جوّ أدبي لأعظم أندية العصر ، فقد كان بيت عميد الأدب الفرنسي ، بمثابة منتدى لجمهرة من الأدباء يتطارحون فيه عيون النثر والشعر ، ويتناولون حركات الفكر وتيارات الثقافة بالنقد المرّ والتعليق الحرّ . وكان الجميع ، بطبيعة الحال ، أسبق في عالم التأليف شهرة وأرسخ في دنيا الأدب قدماً ، ومع كلّ فإن « ألفريد » لثقته واعتداده بنفسه لم يهله طول الشوط ولا راعته سعة الميدان ، وأقدم على الاندماج في هذا الجوّ الأدبي الرفيع وكان جريئاً في إقدامه ، إلى حدّ شجعه بعد قليل على عقد أواصر الصداقات بينه وبين كثير من الشعراء والكتّاب ، فتعرّف إلى « بروسبير ميريميه P. Mérimée » و « سانت بيف » و « ألفريد دي فيني A. de Vigny » وغيرهم من أفذاذ الرومانتيزم . وقد أصابته عدوى هذا الجو الحماسيّ ، فسارع لهفان النفس إلى نظم الشعر وترجيع سجعات القصيد ، حتى صار وسواساً له وشاغلا . وكانت ثاني مقطوعاته الشعرية قصيدة حزينة تحكي قصة عذراء إسبانية شاء لها عثار الجد أن يموت خطّابها واحداً في أثر الآخر ، فترملت وهي بعد كاعب في زهرة العمر وميعة الصبا . والواقع أن إنحراف « ألفريد » إلى استلهام نواحي المأساة في الحياة الانسانية طبع جانباً من قصائده بطابع الحزن الذي قارب أن يكون تشاؤماً ويأساً . ويقال أن « هوجو » كان له ، في بداية أمر الشاعر ، أثر المنقح الذي يصقل بالدسات الدقيقة نسيج الشعر ، ويحكم له التطابق بين مصارع الأبيات .

وما لبث أن توسط أحد أصدقائه ويدعى « فوشيه » في نشر مقطوعة أخرى له باسم « الحلم » في مجلة تصدر ببلدة ديجون . وكان ذلك في اغسطس ١٨٢٨، وقد ذيل « ألفريد» المقطوعة بالأحرف الاولى من اسمه واحتفظ بالعدد الأول الذي ظهر فيه . وفي أصبوحة يوم من أيام عام ١٨٢٨، سارع «ألفريد» الى منزل «سانت بيف» وأيقظه من نومه، وصاح في وجهه صيحة الطفل الظافر ، والنشوة تهز جوانبه ، قائلاً : « وأنا أيضاً أنظم الشعر ! » وأتيح « لسانت بيف » أن يقرأ « لموسيه » بعض مقطوعاته الشعرية الحزينة التي توالت من يومئذٍ وتدافعت موجاتها مجلجلة بأحلامه وأمانيه ونشواته وأصداء نفسه القلقة الحائرة في بحثها الطويل عن العاطفة المشبوبة الخالدة .

ولم يسع «سانت بيف» إلاَّ أن يشيد بمواهب هذا الشاعر الناشىء ، فالتقى يوماً بأصدقائه من زوَّار الندي وأنبأهم في لهجة الواثق المؤمن بما يقول : « إن بينكم طفلاً عبقريًّا » ، وسرعان ما التفَّ حول «ألفريد» جمهور الحاضرين من الأدباء وأوسعوه تقريظاً وثناءً ، وكالوا له آيات المديح ، بعد أن سمعوا شهادة عميد النقد في عصره ناضحة بالثناء عليه والتقدير له.

وفي ذلك الحين كان جسم « ألفريد» قد اكتمل نموّه وبسق عوده واتخذ سمت الرجولة المُدلة بجمالها ورشاقة تكوينها ، وكان أنيق الهندام معنيًّا بانسجام زيه وسلامة مظهره، والواقع كان «ألفريد» لايبدو دائماً إلاَّ قشيب الثياب معطر الأردان مرجّل الشعر تيّاه المشية حالم النظرة . وكان قد تخلص من عادة الخوف والتهيب والوهم ، وأخذ من وقتئذٍ يعتاد ارتياد المساهر والملاهي وغشيان محافل السمر الليلي ومراقص الحانات والمطاعم ، وراح يسرف في إلتهام لذائذ الحياة العصرية ومسرّاتها المتعددة وألوان متاعها الناهك.

وبدأ يتعرّف الى النساء واحدة في أثر الأخرى ، فما تصافح وجهه مليحة من حسناوات العصر ويتعرّف اليها حتى يملّ عشرتها ويوليها ظهره ! وما يأفل من أفق حياته كوكب حتى يبهره في سماء العشق لألاء كوكب جديد بازغ ، ولكن ثمة نساءً قلائل كان لهنّ في حياته وإنتاجه أعمق الأثر .

كان يشغل وظيفة كتابية في شركة من شركات التدفئة ، توسط له فيها والداه ، وماكان دخله منها ليفي ، بطبيعة الحال ، بمطالب شاب متلاف ينسج على منوال أثرياء باريس وينهج

في الحياة نهجهم . فلم يجد بدًّا ، وهو بعد لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، من أن ينزل الى جحيم المقامرة ليجرّب حظه فيها ، ويتعوّض بما قد يربحه عما ينفقه على مطالبه المتعددة. ولكن الخسارة ما كانت لتمهله طويلاً ، وعندئذٍ ينعي سوء بخته ، ويستبدل بثيابه القشيبة أخرى بالية ممزّقة ، ويمضي صدراً من الليل حبيس جدران البيت رهين حجرة من حجره القابضة الموحشة ! ولكن طبيعته العابثة المرحة لا تلبث أن تعاوده فيلين مزاجه ويعتدل طبعه ويرتدي أفخر ثيابه، وكان يؤثر الملابس المزخرفة المفوّفة على عادة الزي الشائع في ذلك العصر، ويخرج ليقضي ليله حتى مطلع الفجر معربداً متسكعاً بين المراقص والمسارح والحانات ومساهر اللهو ومهاوي المجون والعبث ، ملقياً دبر أذنيه بنصائح أمه رامياً عرض الحائط بزجرها وسخطها ، فلا جرم كانت تؤثر ابنها «بول» عليه ، وإن كان حبها القديم لفتاها الأشقر الصغير «ألفريد» ، لايلبث أن يطوّع قلبها الحنون له ، فتجيبه الى كثير من طلباته ، كأنها تعاود معه تدليل الطفولة وأغاني المهد ، ناسية أنه اليوم شاب تام العنفوان مكتمل الأشد !

— ٧ —

أول العهد بالانتاج الادبي

كان موسيه مولعاً بالقراءة منذ مطالع صباه الباكر ، وقد رأيناه فيما تقدّم من أخبار نشأته الأولى عاكفاً على قراءة القصص الخيالية الغنية بطرائف صورها ومعارض أحلامها وغرائب أبطالها . وقد نما فيه هذا الميل الفطري وتدرّج مع مراحل نموّه ، ثم أخذ جادًّا في تنمية معارفه ومعلوماته عن الحياة والناس وأفانين المعقولات ، بالقراءة وباستيعاب ما يقرأ . ولما بدأ يندمج في أوساط الأدباء ويغشى بيئات المثقفين من أفذاذ العصر وصفوة أعلامه ونوابغه، تطلع متفتح الجوارح متوثب الميول لهفان الشوق الى أن يأخذ فن الحياة كما يأخذون ويداول الرأي مع أحداثها وجديد ما تطالعه به كما يداولون . ومن ثمّ قضى في برج فكره العاجي عام ١٨٢٩ ، وهي أولى سنواته الغنية بخواطرها وأحلامها ، قارئاً لا ينفد

له صبر ولا تهدأ له طلعة، محلّلاً، إن تخونه المنطق السديد مرّة لم يعوزه الشعور الصادق والحدس الصائب مرّات.

وبدأت تهبط إليه من سماوات مستوحاه الفكري الالهة الشعر« Lamuse » فكان يحسن لقاءها ويكرم وفادتها عليه ويأخذ عنها فنون البيان والحكمة يرفد بها حصائل فكره ومدخرات عقله الباطن. وألهمته الهة بدورها غرر الشعر وروائع القصيد، وهدته الى الخفي الكامن من هجسات النفوس وخطرات الأوهام وخلجات العواطف. وراحت تنفث فيه من سحرها ما يسكر حسه ويؤجج لهيب قلبه، ويصوّره في أوهام الناس شاعراً خيالي النظرة، إلى الحياة والناس، حالم المثالية، ولهان المشاعر، متقلب الأهواء والطباع!

وفي تلك الفترة الفنية بخيالاتها وتأملاتها، جمع «ألفريد» من مقطوعاته الشعرية الكثيرة كتابه الذي سماه «قصص من اسبانيا وايطاليا» وأردفها بترجمة قصة عن الانكليزية بعنوان «آكل الأفيون». ولم يكن مستغرباً أن تضيع ثماره العقلية الأولى وسط العواصف الداوية والتيارات العارمة التي كان يحدثها في محيط الأدب الجائش، أمثال «هوجو» و«بلزاك» و«سانت بيف» و«جوتييه» وأضرابهم من أفذاذ ذلك العصر.

عافت نفس الشاعر وضاعة الوظيفة وتفاهة الأجر الذي يعطاه، كما لم ينسه هوس المقامرة فجاعة ما تنطوي عليه من شعور بالكآبة والخيبة وسوء الطوية، وهكذا ولّى وجهه شطر الانتاج الأدبي، عاقداً العزم على صدق العمل ومواصلة الدأب، معلّلاً النفس بالتفوق والسبق وذيوع الصيت واستفاضة الشهرة، فهي الطريق السوي إلى اتساع نطاق دخله وانفتاح الأغلاق له عن كنوز الذهب النضار والنعم السابغة. ولا وجه للاستحالة في الأمر فهو يأنس بالأفذاذ من معاصريه الذين جلب لهم انتاجهم ودأبهم الثراء العريض والجاه البعيد، وفتح أمامهم أبواب المجتمعات الراقية والأوساط الرفيعة، وجعلهم قبلة الأنظار وملء الأسماع ومهوى الأفئدة.

ولعلّ مما يدلك على صدق عزم الشاعر على بدء حياة خصبة منتجة يأخذ نفسه فيها بالأعنات واعتصار قوى الأعصاب واستجاشة ملكات الذهن، ما يحكى عنه من أنه ذهب ذات يوم الى أحد الناشرين، ويدعى مسيو «كانيل» ليطلب إليه طبع مجموعة من أقاصيصه

الشعرية في كتاب ، فلما أحصى الناشر عدد صفحاتها وقدر الحجم الذي تفرغ فيه بعد الطبع وجدها ما تزال في حاجة الى زيادة تضاف إليها لتستوفى الحجم المطلوب ، وما إن أبدى ملاحظته تلك الى الشاعر ، حتى استمهله الى موعد قريب ليوافيه بخمسمائة بيت من عيون شعره. وما عتم أن استأذن « ألفريد» رؤساءه في أجازة قصيرة وشخص إلى بلدة « مانس » حيث عكف على النظم بحماس وحمية ، فما انقضى أجل الاجازة ، وكان عشرين يوماً ، حتى دفع إلى الناشر بأوراقه التي تضمنت ما ينيف على ستمائة بيت من الشعر المطبوع ، فكمل بها الكتاب وأخرج لجمهور القرّاء في قطع وافٍ وحجم مقبول.

ولم تكن هذه العجلة المستكرهة ، على ما فيها من نصب وكدّ ، لتنأى بشاعرنا الموهوب عن إلهام الطبع وقواعد الصنعة ، واستيفاء شرائط النظم القيم البعيد عن التخابيط والضعف والتهافت ، فهو في تعجله وتأنّيه مطبوع موهوب ، يصدر عن فطرة سليمة وطبيعة غير كدرة ، لا تشيل به كفة ولا يخف له وزن !

وفي أول يوم ظهر فيه الكتاب أقنع والداه بأن يقيما له حفلاً بالبيت يدعو إليه زهرة شباب الأدباء، ممن تربطهم « بألفريد» أواصر المعرفة، واستجاب الأب لطلب ابنه الأثير عنده وجاء في مقدمة المدعوّين : « مريميه » و« دي فيني » و« لويس بيرانجيه» واستمعوا إلى الشاعر الشاب وهو يلقي عليهم في صوته الرقيق ونبراته الحنونة وتنغيماته الشاجية ، مجموعة من أبيات ديوانه ، ما إن رنت في آذانهم وتذوّقتها حواسهم الأدبية، حتى استجادوها ونالت إعجابهم وإطراءهم ، واستنهضوا همة الشاعر ليوالي إنتاجه ويواصل العزف على مزهر الشعر الخافق ، يستلهمه روائع ألحانه ومتماويّ نغمه . ومن يومئذٍ دبّت به الرجل في وعور حياة التأليف والانتاج ، وتوالت أشعاره، مقطوعات وأقاصيص تحكي نوازع نفسه وتصوّر مطارح فكره وتهجس بوساوس حسه ، وهو بين هذا وذاك يذوق حلاوة الفوز مرة ، ويتجرّع غصص الإخفاق أخرى ، وتتوزّع قلبه الرقيق بوارق الأمل في مستقبل باسم مرّات .

وهفت نفسه الى معاودة حياة التمثيل التي علقها منذ صباه الأول ، فهو يود الآن أن يطأ عتبتها كاتباً مؤلفاً ، لا زائراً متفرجاً ، وهكذا اتجه صوب المسرح ، وعزم جادًّا أن يصوغ له قصصاً تمثيلية من معدن شعره ، ترد له غارب روعته وتخلع عليه سالف مجده !

— ٤ —

وكان أن نظم رواية شعرية باسم « مخالصة الشيطان La quittance du diable » كان يستعد لإخراجها على المسرح حين شبت ثورة يولية ١٨٣٠ فعوقت غرضه إلى أن هدأ ثائرها وعندئذٍ نشطت قرائح الكتّاب والمفكرين وغمرت الجميع موجة دافقة من الانتاج والتأليف. وكان لإحياء ذكرى نابليون ، بمناسبة عودة رفاته الى أرض الوطن ، نصيب ملحوظ في إذكاء حركة النظم والنثر ، وبعث رواقد الشعور الوطني في قلوب الجماهير .

وتعرّف « ألفريد » الى مدير مسرح « الأوديون » الذي طلب منه تقديم إحدى قطعه لتمثيلها على مسرحه ، فقدَّم له « موسيه » مسرحية كان قد ألفها في تلك الآونة . وعنوانها « ليلة من ليالي البندقية » وقد مثلت على خشبة هذا المسرح في أول ديسمبر ١٨٣٠ ، ولكنها منيت بهزيمة نكراء ماحقة ، وتعالى صفير النظارة وضجيجهم وتصاعدت الصيحات الساخرة من وراء المقاعد والمقاصير . فكان لهذه النتيجة المشئومة أسوأ أثر في نفسه ، حمله على تطليق المسرح وهجر التأليف له فترة من الزمن مكتفياً بنشر بعض الأقاصيص في مجلة « La Revue Fantastique » ولكنه ما لبث أن انقطع أيضاً عن نشرها ، وولى وجهه خالصاً صوب القريض ، يصوغ بأشطاره سلسلة نظيمة من أفكاره وأخيلته ، وينفض فيه ما ينقدح بين جوانحه من أشتات الأحاسيس .

وهكذا عجز « موسيه » الذي عرفناه ممثلاً صغيراً ناشطاً أن يكون في فترة من شبابه ويفاعته مؤلفاً مسرحيّاً ناجحاً ! وفي تلك الفترة الجيّاشة بفنون إنتاجه الشعري ، كان « موسيه » يحيا حياة خليعة العذار ، سادراً في غلوائه ، مسيماً سرح اللهو في العابث الماجن من سلوياته ، معرضاً عن تلك النصائح الممجوجة الغثة يتخمه بها ذووه فتثيره وتسخطه أكثر مما ترضيه وتقنعه ! وكان يتخذ من « كافيه دي باري » الأنيقة مكاناً مختاراً يلتقي فيه بزملائه من الكتّاب والشعراء الابداعيين ، حيث يتواعدون على مواعيد للتنزه والرحلات والولائم يقسمونها بين أصابيحهم الباسمة ، وأماسيهم الزاهرة ، فهم جمع من الشبيبة العابثة المتغطرفة ، التي لا ترى الحياة إلا كأس لذة موصولة أو جام نشوة مسكرة الرحيق !!.

وما كان « موسيه » ليخرج من هذه الحياة الموكولة أبداً باستجاشة رواقد الغريزة فيه ، خالي الوفاض من التجارب ، صفراً مما ينمي فيه مواهب الذهن ويؤكد عنده أصالة الطبع التي

سمت به وشيكاً الى الذروة من عبقرية الشعر ، بل أوقدت له هـذه الحياة النابضة أقباساً متلألئة من وهجها، وكست إنتاجه مسحة من الطرافة المستعذبة والمثالية المحلقة ، التي تعكس لقارىء شعره في الحين بعد الحين، بوارق من حياة الشاعر التي عاشها وذاق حلوها وبلا مرّها، وجاز بالمفاوز الداجية من ظلماتها ، وحلّـق في السامق البعيد من آفاق ضيائها .

وفي أواخر عام ١٨٣٢ ظهر له كتاب آخر باسم « Spectacle d'un fauteuil » قابله النقّـاد بعاصفة داوية من الدهش والاعجاب ، حتى لقد همس « ميريميه» في أذنه قائلاً له « إنك تقدّمت يا صاحبي تقدّماً عظيماً» ، أما« سانت بيف» شيخ نقادة عصره فقد كتب في عدد « مجلة العالمين » الصادر من ١٥ يناير ١٨٢٣ ، ما نصه « هذه أبيات عاطفية رقيقة لم ينسج على منوالها ، بل لم ينظم مثلها كثيرون ممن اقتعدوا في الأكاديمية أماكنهم بين صفوف « الخالدين » ، وإني أتحدّى كائناً من كان أن يأتي بمثلها أو بصورة منها ! »

ومع ذلك لم يعدم«موسيه»من حساده مَن أثار عليه ثائرة فريق آخر من النقّـاد الناقمين فأتهموه بأنه شاعر غير مبتكر ، لا يتقن غير التقليد الآلي المقيت ، وانه ظل منسوخ للشاعر الانكليزي الكبير« لورد بايرون» ، كما انه اناء أصم لاشعار معاصره «فيكتور هوجو» ، وكل إناء ينضح بما فيه ؟ !

والواقع أن « موسيه » لم يكن ظلاً« لبايرون» أو تبيعاً مسيراً يتأثر طريقته ويحتذي حذوه بل كان يتلاقى وإياه في رحاب العاطفة الرقيقة والحساسية الروحية وفي مسارعته الى تقديم عذابات الجسد والنفس قرباناً مبذولاً على مذبح الحب والألم.

كذلك كانت علاقته بـ« هوجو »لا تعدو الاعجاب والمصاحبة،ورغم أن فترة اتصال« موسيه» بعميد الأدب الفرنسي دامت ثلاث سنوات ، الاّ أن القارىء لشعر موسيه لا يستشف منه لمحة واحدة تدل على انسكاب روح صاحبه في روحه هو . ويا ليت شعري ما حاجته الى اقتباس المدد والذخيرة ، وفي أعماقه الغائرة نفاثات وجد مكتوم وتباريح صبابة لاعجة وأفاويق عطف غامر ، فيها جميعاً لفيض قريحته الموهوبة وإلهام قلبه الخافق غناء ومقنع ! . ومن يومئذ تكاملت عدد إنتاجه واستوفى حظه من التمام والاحكام ، وتراحبت آفاق نظره في شعاب النفس وخبايا القلوب ، واستشفّ من صميم الحياة الانسانية جوانبها الشاجية، وعرض

على الأنظار مآسيها المروعة ، سالكاً صوره ومشاهده وتجاربه في سلسلة نظيمة من الشعر العذب الحنون ، تترقرق فيه التلاحين الساحرة المرنّة .

وتعاقد معه المسيو « فرانسوا بيلوز F. Buloz » صاحب « مجلة العالمين — La Revue de deux Mondes » ليوالي الكتابة في صحيفته ، وكانت ملتقى للاقلام المختارة ، وميداناً تتصاول فيه قرائح الابداعيين في ذلك العصر ، فطار بها صيته وعلا نجمه واشرأبت اليه أنظار حسّاده تلاحقه بحمم كيدها المستعر وترميه بشواظ حفيظتها الفائرة ، محاولين تخذيله وتثبيطه ، ولكن كان له من صدق عزمه ومضاء نيته ومعاونة « فرانسوا بيلوز » واخوانه له ما جعله يوقن بأنه لن يجد منصرفاً عن الغاية التي نشد ، والنهج الذي نهج .

— ٨ —

جنة الحب وجحيمه

قضى « موسيه » ردحاً طويلاً من شبابه مطلقاً العنان لغرائزه ، يلهو ويمرح مع نساء عابثات مستهترات ، أمتعنه بكل ما في الحيـاة من ملاذ حسية وضيعة ، سرعان ما تتبدد وتخلف القلب البشري في عزلته الأبدية ، يجد في البحث عن نعيم الحب وسعادة الهوى .

كان شاعرنا رجلاً حاد المزاج سريع التحول متوثب الأعصاب ، خيالي النظرة إلى المرأة والحياة ، والواقع ان إمعانه في مخالطة أولئك النسوة زاده رغبة في المرأة الكاملة المنشودة التي كان خيالها يطوف بذهنه ويحتل عقله ويعكر عليه صفو لياليه ويبتليه بضرب من الحزن العميق الممزوج بالضجر والتبرم والحسرة

كان يخشى أن يموت قبل أن يعرف الحب ، وكان يخاف أن يصرعه القدر وهو لم يعرف غير اللذة الغادرة التي تزول بزوال الساعة ، وكان شعره في تلك الفترة من حياته رجع صدى نفسه القلقة الحائرة في بحثها الطويل عن العاطفة المشبوبة الخالدة .

وفي تلك الحالة النفسية المقلقة ، وفي فترة كاد فيها قلبه يجدب ، ومعين نفسه يجف ، تعرّف « موسيه » إلى الكاتبة الروائية المبدعة « جورج ساند » وتعرّفت هذه اليه ; وتلاقت نظرتان

وخفق قلبان ، فتحابا وتساهما الود ، وتعاهدا في منسك الحب أن يكونا لعهد الهوى أوفياء ولموثقه مخلصين . وكانت « جورج ساند » امرأة ناضجة الأنوثة وافرة قوى العقل مضطرمة الحواس جليدة الأعصاب حديدية الارادة ، عاشت وأحبت واختبرت الرجال وعرفت منهم عدداً كبيراً من صفوة عظماء عصرها ونخبة أفذاذه ونوابغه .

واليك قصة هذا التعارف في ايجاز :

دعا المسيو « فرانسوا بيلوز » معاونيه البارزين في تحرير « مجلة العالمين » الى حفلة عشاء شائقة أقامها بمقهى لوانتييه ، تكريماً لهم ، وكان من بين المدعوين بطبيعة الحال ، الشاعر الشاب « ألفريد دي موسيه » الذي جاء مقعده مجاوراً لمقعد سيدة صبيحة الوجه دقيقة الملامح حلوة الحديث ، تسمي نفسها بذلك الاسم الذي عرفت به في عالم الادب « جورج ساند » . وقد تجاذب الأديبان أطراف حديث ودّي ما انتهيا منه حتى كان كل منهما متعلقاً بصاحبه مؤثراً له ، راغباً في المزيد من عطفه وحبه وايثاره . فمن ترى هذه السيدة التي أحدثت من بعد ، في حياة « موسيه » أكبر انقلاب عاطفي تغلغل في الصميم من قلبه ونضح على صفحات شعره ونثره ؟ .

كانت « أمادين أورور لوسيل دوبان » ، أو مدام « ديدوفان » ، تكبر « ألفريد » بست سنوات وستة أشهر . وهي ابنة « موريس دوبان ابن مدام دوبان دي فرانساي » ، الابنة غير الشرعية للماريشال « موريس دي ساكس » ، بطل موقعة فونتينوا ، وكان بدوره إبناً غير شرعي لأحد ملوك بولونيا .

كانت والدة « أمادين » تعمل كمساعدة صغيرة في محل لحياكة الملابس حينما شبت الحروب النابليونية ، فاصطحبها أحد الضباط معه في حملة ايطاليا وعبرت مع الجيش جبال الالب ، وثم تعرفت الى « موريس دوبان » فتزوجت به وهجرت صاحبها الضابط ، وجاء الزوجان معاً إلى باريس ورزقت الأم بابنتها « أورور » ومات الوالد في عنفوان شبابه ، والابنة ما تزال طفلة فحملتها أمها الى نوهان حيث تقيم جدة « اورور » ولما كانت المرأتان على خلاف دائم ، تركت الأم إبنتها في كفالة جدتها ، وهجرت « نوهان Nohant » شاخصة الى باريس لتقيم فيها .

وقد عنيت الجدة بتثقيف حفيدتها « اورور » فأدخلتها أحد أديرة باريس حيث قضت

عدة سنوات تتلقى علومها ، ولما قفلت راجعة الى نوهان عكفت على قراءة مؤلفات فولتير وروسو ، واتخذت لنفسها ثياب الغلمان ، تغدو بها وتروح بين المنزل وانحاء البلدة ، مثيرة بهذا الزي دهشة القرويين وعجب الفضوليين من أهل الناحية . ولما توفيت جدتها ، هجرت بدورها البلدة ورحلت الى باريس لتقيم مع أمها ، وهناك اشترت كرامتها وحريتها بل وضمنت مستقبلها ، كما كانت تظن ، بزواجها من « البارون كازيمير ديدوفان » ومن ثم عادا إلى نوهان ليعيشا معاً فيها .

ورزقت أورور من زوجها البارون بابنة وابن ، ولكن لم تذق طعماً للسعادة التي تخيلتها في جواره فقد كان رجلاً فظاً غليظ القلب لا خلاق له ولا وازع من ضمير أو ثقافة ، فهو أقرب الى الجلافة والوحشية لا يهزه شعور من نبل أو عاطفة من رحمة ، متجهم صفحة الوجه مبتسر الأسارير دائم التعبيس ، وبالجملة يدل مظهره على مخبر سوء وشراسة طبع وشذوذ خلقة . ولما ضاقت به ذرعاً أرادت أن تروح عن أعصابها المكدودة ، فرحلت الى كوتريه Cauterets بجبال البرانس ، وهناك التقت بمحام من بوردو يدعى أورليان دي سيز ، فهام بها وهامت به ، وتبادلا حباً مبرحاً دام الى سنوات ، حتى شك أخف نقادها وطأة عليها في طبيعة هذا الحب وحقيقته ، ونفوا أن يكون من النوع الأفلاطوني الخيالي ، الذي تموت فيه نزوات الجسم وتحيا به روحانية القلب ! وعلى كل فقد أيقنت في غمرة من يأسها أن الحياة مع البارون فوق طاقتها ووراء مقدورها فما عتمت أن هجرت بيتها وزوجها وأولادها وشخصت إلى باريس لتحيا حياة الأدباء وتنهج نهج الخليين الأحرار من سكان مدينة النور !

والواقع كانت أورور امرأة موهوبة الذهن دقيقة الحس متقدة الخيال ، حصلت جانباً كبيراً من ثقافة العصر ومعارفه . وقد اعتمدت على ارادتها الحديدية وعلى ما تحسه في نفسها من مواهب جائشة ، لتبدأ صفحة جديدة من حياتها ، وهكذا أخذت ميمتها إلى باريس والطموح يعتمل بين جوانحها والأحلام العريضة في مستقبل باسم تداعب خيالها وتهز أفكارها ومشاعرها .

وفي طريق السفر تعرفت الى « جول ساندو » وهو شاب من فقراء الأدباء الذين خلا جيبهم من الدرهم والدانق ، وحفر البؤس على وجوههم صورته ، وضاقت أمامهم الحياة إلا

من فسحة الأمل . وفي باريس عاشا معاً ، مدة قصيرة من الزمن ، خالصين للادب ، فارغين للقراءة . ومن الأحرف الأولى لاسم صاحبهـا اشتقت لنفسها اسم « جورج ساند » الذي حملته بقية أيام حياتها واشتهرت به في دنيا التأليف والـكتابة .

كانت « جورج ساند » في تلك الفترة قد أوفت على الثلاثين من عمرها ، وكانت تحيا ، بعد انفصالها عن « ساندو » ، وحيدة في بيتها ، تقتل فراغ الوقت بما لا تني تسوّده من الصفحات بالـكتابة . كانت تشعر بالوحشة القابضـة فتحنّ بطبيعة الأنثى الى الرفيق أو العشيق، إلى من يستجيب لغريزتها المشبوبة وعواطفها المتوهجة بسعار الجنس ، إلى من تلتقي بين أحضانه بهذا الجسد الشهيّ المبتل الذى استتم بفاعة الشباب وعنفوانه .

وكان اسمها قد بزغ في عالم الأدب عقب نشرها لقصتيها « إنديانا » « وليليا » فتقرّب الـكتّاب والأدباء إليها ، كل يودّ أن يحظى بصحبتها ، إن لم يفز بحبها وقلبها .

بدأت«بعير عيه» ولـكنها وهي الهوائية المتقلبة، ضاقت به ذرعاً بعد أسبوع ، فهجرته في طلب غيره ! وأسرّت الى صديقها« سانت بيف» بحاجتها الى الأنيس والسمير الذي يخف خلاطه على نفسها وتطفىء به أوام روحها، فعرض عليها أن يعرّفها بصديقه« موسيه»ولكنها أبت ، لما كانت تسمعه عنه من سرعة تقلبه وكثرة تشرده بين الحانات والمراقص ، وطلبت اليه أن يحضر لها« اسكندر ديماس »[1] ولـكن الطبعين ما كانا ليأتلفا أو ينسجما في مشرب أو ذوق أو ميل ، فبرمت به هو الآخر،وقلبت له ظهر المجن، وكتبت الى«سانت بيف» تقول إنها في حاجة الى من يشـعرها بالحنان والعطف ، في حاجة الى حب جـديد تنفس به عن المكبوت المـكظوم في سويدائها .

وفي تلك الحالة النفسية القلقة ، التقت« بموسيه» في حفلة مقهى لوا نتييه واستهلت معه صفحة عشق جديدة ! . ورجع« موسيه» بعد الحفلة الى بيته مشدوخ الرأس واجب القلب منتفض الجوارح ، لقد أقامت هذه المرأة قيامته . نعم ، انه يشعر بأن حلمه قد تحقق ، وان المرأة المنشودة الجامعة الى فتنة البدن جمال العقل والروح ، أصبحت له وحده ، فهومستطيع أن يستلهمها أروع القصص وأبدع الاشعار ، وأن يذوق وإياها كأس السعادة صفواً غير

(١) هو الـكاتب الروائي الـكبير اسكندر ديماس الاب

مُـرْنق، وأن يعتصرا معاً ما في الحياة من متع ولذاذات . وأقبل على كتبها يقرأها من جديد، فهو يستخرج اليوم من بين سطورها خبيئها الذي غمّ عليه فهمه من قبل ، انه يقرأ فيهـا ببصـيرة وضيئة حبيبته وملهمته ، بل يراها سافرة أمام عينيه ، لا تحجبها عنه الصـيغ والتراكيب والاشارات ، فما أسعده بها وأسعدها به ، وحرام أن يظل عمره بعـد الآن نهباً موزعاً بين الأوهام والخيالات .

وخطا في الحب خطوته الثانيـة ، فرسم حبيبته بيد الفنان العاشق المدنف في أوضـاع تخطيطية جميلة ، تأخذ العين بطرافتها المستملحة وبساطتها المستعذبة . فهي فيها جميعاً . كما في لوحة الرسام« دلاكروا» ، ذات عينين سوداوين وسيعتين ، تلحظ فيهما العمق والجاذبية ، يزينهما حاجبان رفيعان رسمت اسـتدارتهما يد مزخرفة مبدعة ، أما الأنف فرفيع أقنى ، شمخ به قليلاً شمم دقيق في وسطه زاده جمالاً وفتنة . والفم صغير منفعل الحنايا امتلأت شفته العليا قليلا لتجتذب الأخرى في شبه ابتسامة حالمة . والوجنتان نضاحتان بالحيوية . والجبهة ترتفع قليلاً لتنتهي استدارتها عنـد شعر أثيث وحف بلون الظلمة الحالـكة ، انسدل على صفحتي الوجه وتدلـت ذوائبه الى الـكتفين طليقة مرسلة.

وامتزجت الروحان وانسجم الذوقان وشغف كل منهما صاحبه هياماً وحبّـا وأولاه إيثاراً وقرباً . نعمت بحنانه وعطفه ونعم بأنسها اليه وتقربها منه ، وازدهاه فناؤها في مطاوعته واستماتتها في إرضائه ، وهكذا وجدت«جورج ساند» في هذا الحب الوليد ، وهي العاطفية بفطرتها الحساسة بمزاجها وسليقتها ، ما تفرج به عن المحتجز المـكظوم من فيوض أحاسيسها وشجونها وما تهدىء به سورة الهائجات الحرار من آلامها وأوجالها !

كان هذا الحب تجربة من تجارب الحياة التي عرضت«لموسيه» وكشفت له ، من بعد ، عن جوانب خفية من حياة النساء . وكان كذلك لوناً جديداً من الحياة تحياه الـكاتبة بوجدانها وشعورها ، مما أكد لنا أن تجاربها الماضية لم تـكن سوى صدى لأهوائها القلقة المتقلبة . إنه حب أكيد عميق ، يصدر عن قلبها الجائع الصديان ، ذلك القلب الذي شقي طويلاً في بحثه عن قدس العاطفة ونعيمها . كيف لا ، وهي تـكتب الى أستاذها ونجي سرها « سانت بيف » فتقول مؤكدة : «إنني اليوم أحب ، وإني لأقرر لك ذلك وأنا جادة صادقة ، أحب



جورج ساند

من صورة زيتية بريشة المصور دولاكروا محفوظة بمتحف اللوفر بباريس

«ألفريد دي موسيه» ، وليس حبي له بنزوة من النزوات العارضة ، ولكنه رباط وثق بين قلبينا بل اتحدت به روحانا » .

ولازم« موسيه» بيت حبيبته بشارع «الكاي ملكاي» . وكانت تقيم مع« جورج ساند» ابنتها الجميلة« سولانج» التي لم تكن وقتئذٍ تتجاوز الرابعة من عمرها، وكان يقيم معهما الوصي « بوكوران » ، وعاش الجميع هانئين ناعمين بصحبة بعضهم بعضاً ، يقطعون أماسيّم الجميلة بالموسيقى والقراءة ومجاذبة أطراف الأحاديث مع من يزور البيت من معارف وخلان .

أما « ألفريد» فكان يوزع وقته بين الموسيقى وبين ما يرسمه من صور «الكاريكاتور» بفاتنته في مختلف أوضاعها ، وشتى حركاتها وسكناتها ، بيد أن جو العاصمة لم يلبث أن ثقلت وطأته عليهما ، فذهبا الى فونتنبلو في رحلة جميلة هي أشبه باجازة شهر العسل ، حيث اختلسا لحبهما فترة قصيرة من الزمن ، بعيدين عن أعين الرقباء وتثقيل المثقلين من الزوار وأهل الفضول .

وبغتهما طارق من الخوف على حين غرة ، فخشيا لفرط إحساسهما بالسعادة أن تخفق التجربة وتنطفأ جذوة الحب في قلبيهما . فلا تعود تقبسهما حرارة التدله ووقدة الشعور بفناء المحب في شخص محبوبه ، أو تعجز عن أن تدفىء جوانحهما المقرورة باحساسات العاطفة الفياضة المضطرمة وإلهامات الوجد اللاعج الزخار !

وهكذا انتابتهما الوساوس والأوهام وألحت عليهما الخيالات السوداء ، تنذرهما بأن الأعين الحاسدة ترصد نعم هذا الحب وأطايبه ، وتعد عليهما الحركات والسكنات، وتودّ لهما مرارة الغصص والآلام ، وتتمنى لهما عاجل الفرقة وفاضح الخذلان ! .

أرادا أن يفرّا بكنزهما إلى أنأى مكان لينعما فيه بالوحدة والعزلة ، ويتساقيا كؤوس الهوى والأحلام مليئة مترعة . نعم أرادت «جورج ساند» ألاّ ينازعها في حبيبها إنسان وأراد «موسيه» أن يباعد بينها وبين مفاتن باريس، وأن ينتزعها من أيدي المعجبين بها، وأن يطمئن في العزلة إلى حبه ويتطهر من شوائب الغيرة ولوثات الشك فاتفقا على ترك العاصمة والسفر الى البندقية ، مدينة الهوى والحلم .

ولكن ما سبيله الى الفوز بموافقة والدته على هذه الرحلة المفاجئة وهي التي لا تطيق

فراقه ساعات ، وتخشى عليه خشية الأم على طفلها الرضيع ! لقد تكفلت الحبيبة بأن تذلل له كل عقبة ، وأن تنتزع من والدته ، وهي السيدة الرقيقة الشفيقة ، رضاها وموافقتها بل ودعاءها الطيب المبرور .

وهكذا تحقق « لجورج ساند » ما أرادته ، ففازت بثقة الأم وموافقتها وحزم العاشقان ما لهما من متاع وبدءا رحلتهما الطويلة الى جنة النعيم الموعود .

— ٩ —

مدينة الهوى والحلم

كان وداع الأم لابنها بالغاً مؤثراً فقد شيعته بطرف باكٍ وعين دامعة وإن خفف عنها بعض ما تجده في قلبها لهذا الفراق الموقوت ، وعد ابنها لها بأنه سيراسلها على فترات متقاربة ليهدأ طائرها ويطمئن بالها عليه ، ما غاب عنها في رحلته تلك .

وخلف العاشقان باريس في أمسيّة عابسة متجهمة ، تزاحمت سحبها وتكاثف ضبابها ولكن عربة البريد أوصلتهما سالمين إلى ليون ، ومن هناك مخرا الرون في سفينة نهرية منحدرين إلى مرسيليا . وكانت الرحلة النهرية ممتعة ومروّحة ، التقيا فيها ببعض الأدباء من أهل الظرف والفكاهة ، فقطعا معهم بالأحاديث الفكرية والمنادرات المرحة المسافة إلى ذلك الميناء ، ومن ثمّ أقلعا في سفينة إلى جنوا . وأصيب « موسيه » بدوار البحر ، على حين لم تشعر « جورج ساند » في بادىء الأمر بأيما تعب من طول الرحلة ، فكانت تتخذ مجلسها على ظهر المركب ، مدخنة سيجارها ، مسرّحة طرفها في عرض البحر كأنما تستلهم زواخر أمواجه الخيال والشاعرية .

وفي جنوا روّح « موسيه » عن جسمه المكدود بما شاهده واجتلاه في المدينة من الحدائق المونقة وبساتين الثمار اليانعة ومخاضر المروج البديعة ومتاحف الصور والرسوم ، ثم أخذا ميمتهما الى « فلورنسا » حيث درس الشاعر بعض سجلاتها التاريخية ، وطوّف مع حبيبته في كثير من نواحيها وأماكنها التاريخية ، مشاهداً مستطلعاً منقباً ، كأنما يتهيأ لكتابة

مأساة شاجية لحقبة من حقب التاريخ الانساني الحافلة . وبعد أن أهبما طلعتهما من هذه المشاهد الرائعة ، تقارعا على قطعة من النقود أي المدينتين يقصدان : روما أم البندقية ؟ وقررت القطعة مصير الرحلة ، وهكذا ألقيا عصا التسيار بالبندقية ، مدينة الهوى والخيال والحلم .

وصلاها ليلاً ، وقد وجداها عن بعد مزحومة الأفق بما يشبه الضباب ، مقفقفة من الزمهرير ، كابية حالكة . وكانت «جورج ساند» قد فتر نشاطها وتراخت أعصابها وغص ريقها ، إذ هدّها الاعياء أخيراً من مشاق الرحلة ووعثاء السفر ، فلما استشرفت لمعالم المدينة في تلك الليلة الموحشة ، خالتها الكفن أعدّ لها ولحبيبها في خاتمة مطافهما ، لتطوي فيه آمالها وأحلامهما !

وركبا الجندول ، أعجوبة المدينة وزورقها التقليدي الحالم ، ماخرين به القنال الكبير الى الفندق ، وحسر «ألفريد» ستائره الحريرية الهفهافة ، فطالعتهما أضواء الثريات والشموع منبعثة من نوافذ القصور والمباني ، وهي تحاول عبثاً أن تبدد غياهب الظلمة المخيمة ، ثم انحدر بهما الجندول الى نهير « ديليشيا فوني » حيث يقوم بناء الفندق الضخم بشرفاته المطلة على المياه الباهتة المرتعشة ، وهنالك حطا رحالها وشغلا فيه بضع غرف تتوسطها قاعة تطل نوافذها على صفحة الماء الرجراجة المازجة التي تعكس الرائين أشباح المغاني والقصور وهي تميد وتتراقص مختلطة بأضواء الشموع والثريات الكثيرة المتلألئة .

سرّ الشاعر وملأت الفرحة جوانحه ، فقد انغمر بمشاعره وبكل نابضة من حسه في هذا الجو الشاعري العامر بشوامخه التاريخية وطرفه الأثرية ومشاهد جماله الباهت .

وأخذ من نفسه كل مأخذ منظر هذا الفندق العتيق وقد ناء بعبء السنين وتوالي دوراتها عليه فعكس على صفحة الجدول الكبير شبحاً غريباً متجهماً ، تجوز به زوارق الجندول متهادية في غدوها ورواحها وقد ارتسمت على سقائفها وجنباتها ظلال غامضة مرتعشة من رسومه وجدرانه . حقاً إنها في نظره روائع تصور لفكره الشاعري مدينة من مدن الخيال والسحر !

أما الحبيبة الموموقة ، فانها استشعرت الضيق والبرم ، فلقد قعدت بها نزلة الاعياء ، وثقل

نهضتها التهافت والمرض ، وذهب بمرحها الدائم وإشراقها الفاتن وعكة عصبية مباغتة لم تملك لها دفعاً ، وودت وهي في حالتها تلك أن تظفر من حبيبها بكلمة عطف مشجعة أو إشارة غزل مسرية . انتظرت المسكينة أن يناقلها ، كعهدها به ، أحاديث الهوى والصبابة ، أن يغمرها بمداعبته وتدليله ويحيطها بحنانه وعطفه ، ولكن هيهات ! .

لقد جبهها وهو متجهم صفحة الوجه عابس الأسارير بمقالة من ضاق بصاحبه ذرعاً وارتد لوقته مغيظاً منه محنقاً : «إن من المؤلم حقاً أن يعكر المرء صفو مزاجه برفقة امرأة مريضة متعبة ! » .

ونفذت الكلمة كطعنة الخنجر المسموم إلى الصميم من قلبها ، ولكنها لم تشأ التعقيب على كلمته الطائشة ، فما نبست ببنت شفة ، وتظاهرت بأنها عدت على الأمر في غير احتفال، ودخلت مخدع نومها ، وجلست الى منضدتها الصغيرة ، وراحت تنفث على الصفحات البيضاء ما يلعج قلبها من سخط ونقمة وما يؤج بين جوانحها من وقدة الغضب ولذعة الحسرة . وصر اليراع صريره المتدافع في تلك اليد الرخصة الناعمة ، ذات الأصابع المطواعة اللينة ، المشابهة في لينها لمادة الهلام (١)

كان أمامها عمل كثير مرهق وجهاد طويل الشقة ممدود مراحل البعد وما أزمعت القيام برحلتها تلك الا لتتخلص وحبيبها الى مكان ناء قصي ، يفرغان فيه لحبهما وعملهما ويبدءان منه حياة إنتاج خصيبة حافلة تحقق لهما ما يبغيان من مجد وشهرة وتنقش اسميهما معاً لامعاً متوهجاً في سجل الحب والخلود .

كانت موارد دخلها في تلك الفترة مقصورة على مصدرين ، هما مؤلفاتها التي تنشرها ومقالاتها التي تراسل بها « مجلة العالمين». فبقدر نشاطها في الانتاج وكد قوى القريحة تكون سعة الدخل ووفرة الرزق ورغد العيش . انصرفت الكاتبة جادة الى العمل مستغرقة قواها وملكاتها في التأليف والكتابة ، شاغلة أوقات فراغها بالنافع المجدي من القراءات والمشاهدات ، مؤثرة حياة البيت الهادئة على حياة التشرد بين مباهر الليل ومراتع اللهو والمجانة ، على حين انطلق صاحبها في لهفة المنهوم يقتطف لذائذ الشباب لذة في اثر الأخرى،

(١) هذا الوصف لاسكندر دياس الابن.

ويمضي في المدينة متفتح الجوارح الى مراتع الأنس وملاعب الهوى والفنون ففيها مسترادة ومراحه ، بل فيها شبع حسه ، ومنطلق خياله وشعره ! .

***

كان يقضي نهاره وليله متجولا في شوارع المدينة ، ماخراً بزوارق الجندول ترعها وقنواتها ، معرّجاً على مكامن الخلان والعشاق ومغاني المجون والخلاعة ، متجولاً وسط المباني الأثرية ، مستطلعاً أسرار المعالم التاريخية التي تمتلىء بها المدينة منذ أزهى عصورها وأحفلها بالأمجاد والمفاخر . إنه مبهور مسحور ، لا ترتوي له غلة ولا تشبع له غرثة ، محموم الفكر مأخوذ المشاعر . لقد وجد لشاعريته في مدينة الهوى والأحلام ثقافها وصقالها ، بل وحيها وإلهامها ، فهو يصفيها إعجابه ووده ، ويحبس عليها قلبه وحبه ، ويشعر وهو في غمرة الحلم والنشوة ، انه شاعرها الناطق المبدع ، وقيثارها الصادح المطرب ! .

فلا عليه إذا اعتنق اليوم بين ذراعيه أناسها وأهلها جميعاً ، ولا عجب إذا وسع قلبه الرقيق صداقات الكثيرين من أبنائها وبناتها ، من العلية والصفوة الى العامة والدهماء ، فهو انساني في قرارته ونزعته ، وشعبي في عطفه ومحبته وأن الجميع لاخوانه وخلانه ، بل أهله وأقرباؤه ، وان لهم عليه لولاءً وقرباً وإن لهم عنده لنسباً ورُحماً ! . وبالجملة كان الشاعر يحب الناس على حين كانت « جورج ساند » تكرههم ، وكان مولعاً بالحياة في المجتمعات ، بعكس حبيبته التي كانت تهوى التأمل والعزلة .

لقد استحب الشاعر الكسل واستنام الى سكرة الحياة العابثة اللاهية ، فهو يقضي سحابة نهاره متنزهاً في القوارب ، فاذا ما خرجت الحبيبة بعد عمل اليوم الشاق لتبحث عن حبيبها التقت به في الحانات سكران معربداً ! .

إنه يعيش في الخارج أيامه ، لا يفهم معنى للنظام والدعة ، ولا يستسيغ إستقرار الحياة البيتية وسلامها ، فهمه الأوّل أن يتجوّل في أنحاء المدينة ويغشى أحياءها الشعبية ، مصطحباً في جولاته رهطاً من البحارة وفئة مختارة من بنات الهوى ! .

لم يقف أمر الشاعر عند هذا الحدّ ، بل كان في طبيعته طيش ونزق ، يعد بشيء ثم ينسى فيخلف الوعد ، يقتنع بفكرة ثم يتأثر بنقيضها فجأة وبغير سبب ، يهتمّ بشخص ثم يعرض

عنه بغتة وفي غير أدب ، يظهر إعجابه بحبيبته ثم يطري أمامها محاسن من صادف في المدينة من فتيات وغانيات ! :

وهنا ضاقت المرأة به ذرعاً ، وبرمت بطباعه وأخلاقه وثقلت عليها وطأة حبه ، وكرهت لنفسها أن تستعبدها العاطفة لمن هو أضعف منها شخصية وأهون ارادة وأقلُّ عزماً وهكذا بدأت عوامل الصراع المخيف بين رجولة «جورج ساند» وأنوثة «ألفريد دي موسيه» وهي عوامل أسفرت من بعد عن تمزق فؤاد الشاعر وانهيار حلمه وخيبة أمله وتقوّض الصرح الذي شاده بعقله ودمه .

أخرجها السخط عن طبيعتها ، وهي المرأة الحساسة المرهفة ، ونال من كبريائها هذا السرف المنهوم في ارتشاف أفانين المتع ، واستثار عزّتها المجروحة غرور الشاعر ورعونته واستهتاره ، فأطلقتها في وجهه صيحة عاصفة مدوية ، عقب شجار عنيف شبَّ بالفندق : « إننا لا نحب بعضنا بعضاً ، فقد انقضى ما بيننا ولن يخفق قلبانا بعد اليوم ، فما عرفنا الحب من قبل ولا مستنا مواس من لواعجه وتباريحه ! »

لقد طار العصفور من قفصه ، وما كانت هذه الكلمات اللاذعة ، الفائرة بحرارة الغضب وسعير السخط إلاّ فصل الخطاب في مصير هذا الحب الوليد ، إنها فاتحة الثورة على الميثاق المبروم والعهد المقطوع ، بل هي جواز العبور إلى منطقة كانت من قبل عليها حراماً ، فهي مستطيعة أن تحيا فيها اليوم متحررة من التزامات العهد ، بريئة من موثقه ، فما عاد العهد عندها مسئولاً ! . إنه تقليد جرى عليه عشاق باريس في ذلك العصر وسُنّة متبعة بينهم اتخذوها لهم في دنيا الحب شرعة ومنهاجاً ! .

وكأنما هيأت لها الأقدار ، في تلك الفترة الدقيقة التي انقبضت فيها عن صاحبها «موسيه» وانطوت محصورة على مضامين نفسها تبكي حبها وتندب حظها ، رجل الأحلام المنشود ، ليهب لها شطرها المفقود الذي تستتم به هناءة النفس وسعادة الروح .

وتفصيل الأمر ، أنها كانت جالسة بشرفة الفندق ذات يوم صفا أديمه ورقَّ نسيمه حتى أنعش بأنفاسه البليلة ربوع المدينة ومغانيها ، وكانت مرتدية ثوباً حاكى في تفصيله زي الرجال ، وقد علت جيبه بنيقة منشاة ناصعة البياض ، زانتها ربطة عنق عريضة ، كتلك التي

يزين بها الرجال أعناقهم . وكانت في تلك اللحظة تدخن سيجارها الكبير وتتابع بفكرها ولحظها حلقات الدخان المنفوثة في الهواء ، كأنها موجات أثيرية لفكرها المبلبل الحائر ، على حين راحت هبات النسيم الناعمة تتلاعب بخصل شعرها الجميل الوحف ، وتعبث بذوائبه المموجة ، ذاهبة بها كل مذهب . وظلت مستغرقة في سبحاتها الحالمة غير ملتفتة الى صاحبها «موسيه» الذي اتخذ له مقعداً بجوارها ، وكانت تبدو لأعين المارة في هذا الوضع الغريب الفاتن وهي جالسة جلستها الشاعرية الآخاذة ، حين مر على مقربة منهما شابان ايطاليان أنيقان .

أما أحدهما فكان غزير شعر الرأس أشقره ، قسيماً وضيئاً ضامر البنية ، يبدو في السابعة والعشرين من عمره ، فهو شاب في ريق الصبا وزهرة العمر ، وقد عرفت فيما بعد ، انه طبيب وان اسمه « بترو باجيللو » ، أما الشاب الآخر فهو صديق «باجيللو » وصفيه . وتشاء غرائب الصدف أن يكون صاحب الفندق الذي نزل به « الحبيبان» صديقاً للطبيب الشاب ، وتواصل الصدفة حوك نسيجها وحبك أطرافها ، فيستدعي الرجل صديقه الطبيب لعيادة أحد النزلاء ، ويجيء « باجيللو » فيقاد الى غرفة المرأة التي شاهدها وصديقه بالأمس وأطلقا عليها اسم « المدخنة الحسناء ! » .

دخل عليها « باجيللو » فوجدها منكسة رأسها في استرخاء وضعف وقد أحاطته بكلتا يديها وهي تشكو من صداع أليم ، وتتململ في جلستها ، شأن من وقذه المرض وبرحت به نوبته !

أمسك بيدها يتحسس راحتها ويختبر نبضاته ، وهي مقدمات الفحص المعتادة عند كل طبيب ، ولكن « باجيللو » أداها وهو منتش حالم ، ثم اقترح عليها أن يفصدها فوافقته على رأيه ، واستشعرت بعد الفصدة راحة فرجت عنها ما كانت تحس من ألم ، واطمأنت الى أنها مستطيعة النزول الى ملهى الفندق « Le casino » لتمضي سهرتها فيه ، وقبل أن تبتعد عن «موسيه» ، الذي كان مشاهداً لواقعة الحال من بدايتها الى ختامها ، بادرها الحبيب المبهور وهو يصر على ناجذيه صرير الغضب المكتوم ، قائلاً : « جورج ، لقد أخطأت وأعجلني الوهم حتى ضللت في فهم شعوري نحوك ، فعذرة اذا قلت لك اني لا أحبك ! » .

وفي تلك الليلة الحاسمة في تاريخ علائقهما الغرامية ، أغلق كل منهما الباب على نفسه ، واستقل بغرفته حتى مطلع الصبح !

كان عليها أن تهجره بعد أن قضى فيها أمره ، وعالنها بحقيقة شعوره ، وكشف لها خبيئة قلبه ، ولكنها تشبثت بالبقاء في الفندق يوماً أو بعض يوم ، مدفوعة الى ذلك . كما تزعم في مذكراتها ، بعاطفة من الأمومة كانت تحسها نحو حبيبها ، فقد عزّ عليها أن تخلفه وحيداً في مدينة غريبة لا يفقه لسان أبنائها ، وهو إلى جانب ذلك مملق خالي الوفاض من الدرهم والدانق .

وكأنما أراد القدر أن يبقيه قسراً الى جانبها ولو فترة من الزمن ، فقد انتكست وعاودها المرض، ولم يمض قليل وقت حتى كان «موسيه» هو الآخر طريح الفراش ، يشكو أعراض حمى خبيثة ، على حين برئت « جورج صاند » بعد أيام من نكستها تلك .

لقد حالت حماه بينه وبين كل مقاومة ، وقع فريسة للمرأة وهو لا يدري ! سلمته المقادير اليها وتركتها تفعل به ما تشاء . واصطنعت المرأة الحنان وتكلفت العطف وتظاهرت بالاخلاص والتضحية ، وأخذت في البدء تعنى به وتسهر عليه وتحرص على معاونته في كبح جماح المرض ثم تراخت عزيمتها وفترت همتها وابتردت حماستها ، وعادت الى الخروج ليلاً مع أصدقائها متناسية ذلك المريض المنبوذ الذي يئن في وحدته عذاباً وحسرة ! .

ولكن شعوراً من العطف النبيل ما لبث بعد قليل أن تملكها ، فعادت إلى تمريضه بعد أن اشتدت عليه وطأة الداء ، وكتبت الى صديقها الوصي « بوكواران » تنبئه بحقيقة ما صار اليه حالها ، راجية إياه ألا ينبيء أحداً من أصحابهما وحسادها بباريس عن هذا الذي ألمّ بهما،وألحفت في الرجاء ألا ينبس ببنت شفة عن مرض« موسيه »أمام والدته الرقيقة، لئلا يروع النبأ شفقتها على ابنها ويصدم أعصابها صدمة تتلفها . وكتبت اليه رسالة ثانية تنبئه فيها بما صار اليه حالها من كلال وضعف وضنى ، وما انتابها من أرق موبق حرمها لذيذ الرقاد وتركها مسلوبة الحواس منهوكة الأعصاب . ثم تغلبها عاطفة صادقة من الايثار، فتناشده مرة أخرى أن يكتم نبأ مرض« موسيه»عن أمه ، خشية أن يودي بها الخبر وتعجل الصدمة بوفاتها

وكتبت الى المسيو « بيلوز » تقص عليه واقعة حالها مع زميلها في الرحلة ، وترجوه في إلحاح وإلحاف أن يرسل اليهما بعض المال يستعينان به على تدبير أمورها ، بعد أن أخذت تسير من سيء الى أسوأ . لقد قالت له متوجعة ، ان الطبيب جزم بأن أزمة المرض لن تزايل

خطورتها «موسيه» قبل أسبوعين، ثم يظل عاجزاً عن مغادرة الفراش مدى شهر كامل، ونفقات التمريض والعلاج كثيرة لا تنقطع والمال يتسرّب من بين أناملها جزافاً لتسد به نفقاتهما المتزايدة، وما عادت تملك في حقيبتها سوى ستين فرنكاً لا تغني ولا تشبع، بل لعلها تؤلم وتفزع. وبجمل القول إن الموقف حرج والوضع ميؤوس منه، إن لم يتداركهما الغوث وتسرع اليهما النجدة. ثم هي لا تنسى أن تذكر له في خاتمة خطابها أن صاحبها «موسيه» أصبح في حال فاجعة من الهذيان واللوثة، شأن المحموم الذي وقذه الداء وبرحت به وطأته حتى أن كتابة هذا الخطاب المؤلف من صفحات ثلاثة استغرق من وقتها تسع ساعات كاملة!.

وكانت «جورج ساند» قد استدعت طبيباً مسنّاً لتشخيص الداء ووصف الدواء، ولكنها لم تستشعر الثقة فيما فعله الطبيب وما قال به، وأكد شكها أن حالتها وحال مريضها لم تتحسن قيد أنملة على علاج هذا الطبيب وعندئذ لم تجد بدّاً من استدعاء طبيبنا الشاب «باجيللو»، وسارعت تكتب اليه ترجوه أن يعجل بعيادة مريضها الفرنسي، على أن يصطحب معه طبيباً آخر للمشاورة وتبادل الرأي فيما يجب أن يتخذه من علاج. وقد قالت للطبيب في خطابها أن أخشى ما تخشاه هو سوء حالة المريض العقلية من جراء تخليط الحمى وجنونها فهي تخشى على عقله أكثر مما تخشى على حياته! ثم انها لا تستطيع أن تقف مكتوفة اليدين إزاء هذه الحالة، فهي تناشد علمه وفنه أن ينقذا هذا المريض من عذاباته، لأنه مريض ليس كمثله مريض آخر، انه شاعر مفلق وناثر مبدع، ورجل في مقتبل العمر له في فرنسا أنصار ومعجبون وهي تؤمل في شفائه، لأن ما ألمّ به لم يكن إلا نتيجة لسرفه وإفراطه في السهر والمقامرة ومعاقرة الخمر ومعاشرة النساء الساقطات وإجهاد العقل وكدّ القريحة في الانتاج والنظم، وهو في حال من خَدر الحسّ وإعياء الجسم لا تُوصف! والدليل عندها على بدء اضطراب قوى عقله وتبلبلها، ما كان يطيف في وهمه، من أشباح وخيالات: يراها ويشاهدها في كل مكان من الغرفة، محيطة به مطبقة الخناق عليه، فلا يملك إلا أن يصرخ فازعاً من الرعب والوهل، لقد كان يبكي أحرّ البكاء، وهو موقن بالتلف، فاذا عاوده الصحو وهدأ قليلاً في فراشه، جَزَم في قرارة نفسه بأنه مشرف على الجنون لا محالة!.

ثم هي، بعد أن تعرض على الطبيب حالته المؤلمة، تكاشفه بحبها للشاعر وإيثارها له،

فهو معشوقها الذي تدلهت في هواه واختارته لنفسها من بين الناس أجمعين ، وهي من أجله حزينة والهة ، وعليه متحسرة حانية ، وله متوجعة باكية ! . واختتمت رسالتها مؤكدة « لباجيللو » إنها تثق في صداقته وإخلاصه، فهي مؤمنة بأنه سيمد لغريبين وحيدين يداً عطوفة شافية ، ترد لهما الهناءة المفقودة وتسبل عليهما البرء والعافية . وهكذا حلّ الطبيب الشاب محل زميله الطبيب المسن ، واتخذ من حجرة المريض بفندق « دانيلي » متردده الذي يمكث فيه الساعات الطوال مطبباً ممرضاً . وأحضر «باجيللو» زميله الدكتور « زوانون » طبيب مستشفى « سان جيوفاني » للمشاورة وتبادل الرأي والتروي في أمر الفحص والعلاج . وقد أسفر تشخيص المرض عن إصابة « موسيه » بحمى التيفود العصبية ، وهي أشد أنواع الحمى خطراً وأنكاها أثراً .

ولقد كانت « جورج ساند» في بداية تمريضها لصاحبها الأهوال والمتاعب إذ كانت تجلس مع الطبيب « باجيللو » على أريكة مجاورة لفراش المريض ، ساهرة الليل حتى مطلع الفجر، مراقبة مشاعرها ، حانية عليه ، مستجيبة له مسرية عنه ما وسعها الجهد ، حتى انها لم تتمكن من خلع ثيابها لتستبدل بها غيرها مدة ثمانية أيام كاملة ! .

وأتيحت للطبيب الشاب الفرصة سهلة مواتية ليجاذب من وقعت في نفسه موقع الافتتان والاعجاب ، أحاديث الأدب والشعر ، ويناقل هذه الغانية الناضرة المصقولة العقل والفكر ، منادرات الأدباء والشعراء ، ويلقي في أذنيها المأثور العذب من أخبارهم وطرائفهم . تحادثا في الأدب الايطالي ، وتطارحا الرأي في كتّابه وشعرائه ، وانعطفا في حديثهما الشيق ، والحديث ذو شجون ، نحو الفن الايطالي ومدارسه وكبار فنانيه ، وكان الطبيب يحدثها في كل هذا ، وفي تاريخ البندقية وآثارها ، وعادات أهلها وطباعهم ، حديث العارف الملم بما يرويه ويحكي عنه . وكأنما كان الرجل يكتم عاطفة تبري جوانحه ، فهي تنضح على لهجة حديثه وتفصح عن مخبوئها بما يقطع نبرات صوته من تهدج وتحبس ، وما يعتري أعصاب يديه وجفنيه من إختلاج ورعشة ! .

وكانت« جورج ساند» تفاجئه بين الحين والحين بسؤال غريب ، فهي تستفسره عن سر ما يفكر فيه ، ولماذا تبدو نظراته أحياناً ذاهلة ، كمن غاب بعقله بعيداً عن مجال الحديث .

ولكن الطبيب صامت لا يحير خطاباً ، كأنما يخشى أن يخونه المنطق فيفضح المكتوم من سره ويظهر المخبوء من أمره . أما هي فترميه بنظرة ملؤها السحر والفتنة ، وتسبيه بلحظ فاتن جمع بين الكَحَل والنَّجَل ، وتعابثه بسذاجة معبودة وبعبارات رقيقة مختارة ، كأنما تستصفحه عن لغوها وتثقيلها ! .

لقد أقامت المرأة قيامته ، وسلبته حسه ووعيه ، وتركته خافق القلب منتفض الجوارح مبلبلاً مدهوشاً ؟ !

إنها وقعت في نفسه منذ اللحظة التي شاهدها تدخن سيجارها في شرفة الفندق ، ولكنه اليوم بها هائم ولها وامق ، لا يطيق فراقها لحظات قصاراً ، ولا يربط متمناه بأمل غير أمل البقاء بجوارها ليظل مأخوذاً بعذب حديثها ، مجذوباً بسحر عينيها ، مفتوناً بجديد ما تطالعه به كل يوم من أفانين عبثها ودلالها ، كأنها تتعمد أن تستثير بها نوازعه وأن توقد بلهيبها مراجله ! .

وضاق المريض ذرعاً بهذه الأحاديث ، التي لم يكن ليعي مرماها وهو محموم غائب الرشد وبرم بجلبة الصوت وضجة الكلام ، ولم يتحرَّج ذات ليلة أن ينهرهما وهو نافد الصبر مهتاج العصب ، ويطلب إليهما مخاشناً ، أن يبتعدا عن فراشه ليهدأ في رقدته ويستغرق في نومته فما كان منهما إلاّ أن زحزحا مقعديهما لَصِقَ منضدة صغيرة بجوار المدفأة ، وواصلا ثمَّ المطارحة والحديث ! وختم «باجيللو» كلامه قائلاً لها : «أحسبك تنوين الكتابة عن البندقية، فهلاَّ سجلت ، ياذات البيان ، ذكراها في قصة خالدة من قصصك الجميلة الرائعة ؟» . وأجابته جورج موجزة : «أحسبني سأفعل» ، ثم تناولت ورقة ، ومرَّت على سطورها بيراعها الكفي مرّ البرق إذا خطف ، على حين تناول «باجيللو» قصة الشاعر الروائي «هوجو» وراح يقلب صحائفها ببصر زائغ وعقل شتيت ونفس شاردة ، وظلت صاحبتنا تكتب مدى ساعة من الزمن ، ثم ألقت بالقلم جانباً وطوت الورق وغلّفته ، واسترخت في جلستها ، بعد ان أحاطت رأسها الجميل بيديها الناعمتين وظلت في مقعدها صامتةً جامدةً لا يسمع منها صاحبها غير تردد انفاسها تعلو بصدرها البديع وتهبط .

وأخيراً أمسكت بالقلم وحاولت أن تخط على الغلاف شيئاً ولكنها لم تفعل ، وناولت

الطبيب الرسالة فانتظر اشارتها ظناً منه أنها ستكلفه تسليمها إلى بعض من ستذكرهم له وأفصحت نظرة الرجل عن سؤاله ، وعندئذٍ أمسكت الكاتبة بقلمها وخطت على الغلاف هذه الجملة : « إلى الغبيّ باجيللو ! » . ثم تناولت مصباح الشمع ، وخطت في دلال الى فراش مريضها ، الذي كان مستغرقاً في نومه ، ورنت الى الطبيب الواقف بجوارها رنوة ذات معنى وتكلفت أن تسأله عنه ، وهل سينام ليلته هادئاً مطمئناً ، فلما أجابها بالايجاب ووعدها بالرجوع لعيادته صباح الغد ، أذنت له بالانصراف ، فتناول الرسالة وودّعها قاصداً بيته ، وسار في الطريق مستحثاً خطاه ، وهو يتحرّق شوقاً إلى قراءة ما خطته أنامل فاتنته .

كانت رسالة المرأة صدًى مردّداً لوساوس ضمير قوّام على إيلامها . لقد حاولت أن تخدع نفسها بمداورة عواطفها ومخادعة ضميرها وقلبها ، لتحدد شعورها حيال هذا الذي يطاردها بنظراته الدالة الملمحة ، ويتابعها بأنفاسه الآنة الشاكية، ويلاحقها بكلماته الساحرة وحركاته الفاتنة ، ولكن هيهات ، فقد كان لتأثيره المغلغل في قرارتها دوي وصدى ، فانجذبت في غير وعي اليه . وإن حاولت التحفظ بضرب مكشوف من الدلال والتأبي ؛ وتكلفت الأناة والريث لتستكنه حقيقة ما خالج قلبها من شعور وما ارتكض فيه من عاطفة ! قالت له أن كلاً منهما وُلد تحت سماء تغاير سماء الآخر ، وقد طبعت البيئة كلاً منهما بخصال خاصة ، مزكية فيه أفكاراً ومثلاً تباين أفكار الآخر ومثله ، فهل يمكن أن يتماثل القلبان ويتجاوب الشعوران ، فيعاطف كل منهما الآخر بعد هذا الاختلاف والتباين ؟ .

نعم ، إن سماءها المتجهمة الغائمة بلون القتام ، قد نمّت فيها طباعاً سوداوية عميقة غائرة تشيع فيها رجفة الكآبة ، وإن كانت كآبتها غير المبارحة تشرق في بعض الأحايين بالمرح والعذوبة والرقة ، محاولة أن تبدّد من ظلماتها الخيمة ، على حين ان سماءه المشرقة ذات الشمس السافرة الصالية ، قد غرست فيه من المشاعر الحارة والعواطف المضرّمة ، ما سكب في قلبه أفاويق الوجد والوله ، ونضح على وجهه القسيم بهذه السمرة المتوهجة بالفتنة والحسن، فهو ابن الطبيعة الحساسة الشاعرة ، التي يثيرها الحفز والاستدعاء ، ولا يحمّلها الإعراض والترك ! .

لقد كاشفته في خجل مثير ، بما توحيه اليها نظرته الجريئة المتقحمة ، وأساريره القوية

المعبرة، من استشعار الخوف والفزع ، فهوله العارمة التي تطالعها واضحة على صفحة وجهه ، وتقرأها مبثوثة في نظرات عينيه ، تروّع دعتها وأمنها ، وتسلبها الرزانة والعقل وتجعلها مبهورة مضيعة ، عاجزة عن كبح جماحه ومطامنة غلوائه .

إنها لتعجب لهذا كله وتملك الحيرة عليها مسالكها ، فلقد عهدت من قبل هذه العاطفة المشبوبة الضرام في وطنها، ولا لفتها مثل الذي شاهدته هنا من حرارتها وقوتها وغنى ألوانها. إنها لتحب وتتألم وتستغرقها عذابات الحب وآلامه، وتتقدم الى فارس أحلامها وهي موزعة القلب بين الرجاء واليأس ، والطمأنينة والخوف ، ولكن نزقه وخبلته في إظهار كوامنه ، أعجزاها عن فهم عقدته واستبطان خبيئته.

فهي لا تعرف إن كان هذا هو الحب حقاً أم أنه شيء آخر سواه، لا تعرف إن كانت لغة القلب تكفيهما لكي يتفاهما معاً ويتبادلا عن طريقها الأفكار والخواطر ، ما دام كل منهما يعجز عن أن يجيد لغة الآخر، ويأخذ عنها ما يسنّي له صور التعبير الكلامي ويطوع عصيها أمامه ، أم أن الأمر على النقيض مما تخال وتظن ؟ ثم هي من بعد ، لا تستطيع أن تخرس ألسنة الوساوس ولا أن تهدىء ثوائر الشكوك ، فتوحي الى نفسها الطمأنينة والثقة بأن صاحبها رغم مباينته لها في كل شيء ، سيكون في هواه أوفى المحبين ! .

نعم ! إنها لا تدري ما إذا كان يفهم حقاً آلامها وأوجالها ، أو يقدر صادقاً همومها وأحزانها ، وهل تراه يعطف عليها عطف المحب على محبوبه ، أم يشفق عليها إشفاق السيد التياه المتجبر، على عبده الضعيف المتذلل ؟ ! ثم هي تسأله ملحة مشفقة في آن

ماذا جذبه اليها وعطفه عليها ؟ أهي فتنة إمرأة الحريم تُربّب في المقاصير، لتكون بعيدة منال الزمام على كل من رامها ، ولتخلص لوجه مولاها وجلادها وحده ، أم تراه سرّ من الأسرار طالعه فيها . وغمّ عليه خبيئه فأراد أن يهتك حجبه ويكشف أمره ، ليشبع متعة له عارضة ، أو يرضي نزوة للشباب سوارة متعجلة ؟ !

فاذا كان حقاً قد مرسته الآلام والأوجاع ، وعركته الأحزان المغلغلة في القلوب المصدوعة والكبود الذائبة ، وإذا كان عرف كيف يسيل قلبه من عينيه ، وكيف تتلهب نار الحزن في أنفاسه وزفراته ، ولا يبخل على حبه أن يبكيه بدموع محرّقة لا ترقأ ولا تجف،

إذا كان حقاً عرف هذا كله وأحسه واكتوى به ، فانها لقمينة أن تضمن عطفه على حظ عاثر قاسته ، وأن تؤمل في إشفاقه على جسم موجع عرقته الهموم وأضنته ، وتردّى في هاوية الألم حتى قرارها ، وعندئذٍ تمد اليه يد الصداقة البريئة الخالصة ، بل الأخوة النبيلة المكافئة ، بل ذراعي المحب الوفي ولهّه الهوى وبرّحت به وقدة الهيام والعشق.

إنها لن تحجم عن أن تدفع بنفسها في أحضانه ، ليرتشفا معاً ، خمائر الحب من الشفاة والروية النادية بنبع العاطفة ومفيضها العذب، ويتساقيا أنخاب الوفاء ليتفاديا، ويتكاشف كل منهما لصاحبه عن أقصى ما يقدر عليه من التضحية والايثار والبذل !

قرأ صاحبنا الرسالة المرة تلو المرة ، وحار طويلاً في أمر صاحبته ، ولجّ به الدهش والعجب ، وتساءل وهو يقلب عينيه بين سطورها للمرة الأخيرة : أتراه وحي القلب العميد وإلهام الطبع الرهيف ، يرفعان معبوده الى أسمى طباق الطهارة والملائكية ، أم هي وساوس نفس رجيمة ليس من طبعها أن تكون طاهرة الدّخلة مأمونة المغيّب، فهي تتوهم في غيرها ما تحسه معتملاً بين جنبيها ، ويعجزها أن تتصوّر في هذا الغير ما أعوزها أن تراه محققاً في نفسها ؟

ولم ينقذه من عذابات شكه وحيرته الا اطمئنانه مؤقتاً الى وجه من التفسير يؤكده سياق الواقع وترضاه نتائجه، فهو طبيب صغير ناشىء ، ما زال يخطو على عتبة الحياة الجادة العاملة ، يود صادقاً أن يجوز خطاها الأولى لا يلوي على شيء ، ولا يتلبث في غير ما يدعو اليه منهج هذه الحياة من وناء وريث ، وليس وراء الاستسلام لحُمَيّا العاطفة غير الركود والجمود والشطط مع الأهواء بعيداً عن محاسبة الضمير وتأثير زواجر النفس ، وفي ذلك إطراح لكل أعباء الواجب الانساني الذي يجب أن يستهديه في كل خطوة يخطوها في طريق الحياة ! ثم أن مريضه رجل أجنبي ناءٍ عن الدار والأهل ، بعيد عن المؤاساة والعطف وقد وثق في شرف طبيبه ومروءته ، واطمأن الى صدقه ورعايته . فكيف يرضى لهذا المريض العاجز أن يكون مثلوم العرض مهدور الشرف ، وكيف يقدم بنذالة على الاجهاز على هذه الوصلة النبيلة التي تصله بمهنته كطبيب ، وتربطه بحاضره ومستقبله كانسان شريف النفس طاهر الذيل ، امين على أسرار الناس وأعراضهم ؟ !

ولـكن ما حيلته وهذا هو وضعه من قضاء القدر العجيب الذي نصَّ عليه حكمه، وقدَّرَ له مخالطة أبطال الحادثة وملابستهم في محنتهم تلك ، وهيأ له أن يسير طائعاً مختاراً الى حيث مهوى فؤاده ومراد خاطره ؟ ولـكنه يصطدم بصخرة الواجب ، وللواجب قانون حقيق أن ينسخ الهوى الحرام ، وينهي مشدداً عن تبذل الاسفاف والدناءة ، ومع كلّ فهو محب وامق ، يضطرم قلبه بسعير للعاطفة لا يرحم ولا يخف ، ولن يسرّي عن مكظومه؟ إلاَ أن يفضي بما يلقى ، وينفضفض عما يحس ، أما خنق الصوت وكتم الأنفاس ، فوراء مقدوره وفوق طاقته ، وهما لن يجديا غير معاناة المرهقات المزلزلات للصبر والعزم ! ! .
ولـكن حسبه من هواه أن يتمتع بقرب من يهوى ويتزوّد بالنظرة المروّحة من عين من يحب، فما بعد الهوى الشريف، والحب العفيف، لذة لحس، أو متعة لنفس، أو نجوى لقلب.

ولـكن ما وضع صاحبنا «موسيه» من هذه القصة المرّة التي تحاك فصولها الفاجعة على مقربة منه، وتتوالى مشاهدها الجريئة على قيد خطوات من فراش مرضه ؟ ! هل لاحظ فشكَّ هل استشعر وقع الفجيعة ، فبكى بقلبه حبه ، ولم يخرج بسر ما عرف عن موضع الـكتمان من صدره ؟ يا للشاعر المسكين ، انه رجل منكود الحظ ، عاثر الجد ، فما كان تخليط الحمى وهذيان المرض ، ليحجبا عن عينيه ، مأساته التي يوشك أن يتردَّى في قرارها المظلم، بل أن حساسيته التي أرهفها المرض وزاد في وقدها ونبضها ، هي التي هدته الى مكامن الخيانة ولواطن الاثم، ووقفته على مباذل هذا الحب الشائن، وخزيه الفاضح، وسلحته بالعلم اليقين، والحق المبين ، عن هذا الحادث الجلل، وبهما تلقف موجع الفؤاد ، مثلوم الـكرامة، منزوف الصدر ، لجيعته الصارخة في حبه ، ولمس بيديه مقاذر خيانة من اصطفاها قلبه الرقيق وعلقها فؤاده البريء ، ونزّهها ضميره الطاهر الطيب عن مشاين الغريزة، وحوافزها العمياء المظلمة !.

فاجأها بدلائل خيانتها، وجبّهها بشواهد إثمها، وأخذ عليها نافقاً حنثها بالعهد، وميثاقها بالموثق . ولـكنها استخفت به وسخرت منه ، وزادها استخفافاً وسخراً ، شحوبه البادي وضعف جسمه الضارع وتخاذل أعضائه من وقدة الداء ونهكته ، وعجزه بطبيعة الحال عن إنفاذ تحديه أو إظهار مقاومته . فهو منهما بموضع المنبوذ الممتهن !

كانت تعيّره بجنونه ولوثته ، وتصرخ في وجهه لتذكره بأنه ضائع الرشد ملتاث العقل،

وتهدده بارساله الى مأوى المجانين بالمدينة ، ليقضي ثمّ عمره حبيس جدرانه ، رهين أسواره وسلاسله ! وكان لضعفه ووسوسته ، يكاد يوقن في قرارة نفسه أنها مستطيعة إنفاذ عزمها ، بل قد تذهب مع عشيقها الى ما هو أنكى من هذا وأقبح ، ففي مقدورها أن تقتله غيلة، وفي مقدور عشيقها الطبيب أن يساعدها على مواراة الجثة وإخفائها ؟!

وهكذا كان المسكين ضائعاً بين وساوسه وأوهامه، موزّع الحس بين أطيافه وخيالاته، لا يستطيع أن يقضي أمراً أو يعقد عزماً أو يهتدي سبيلاً !

وتزيد وساوسه وتحز في نفسه وتوجعه ، فكل حركة مألوفة هي عنده دليل خيانة فاضحة وبرهان إثم جديد .

فهذه المنضدة الرتيبة المنسقة ، التي يعلوها قدح الشاي وسائر أدواته الفضية اللامعة، هي بغير شك معدة لاكرام العشيق ، مهيأة لمطارحات الخلوة وتشاكي الصبابة . لقد صدق حدسه وارتبط قلباهما برباط واحد لأنهما شربا من قدح واحدة ، جرياً على مصطلح العشاق ، وأخذاً بسنتهم المعهودة، وعادتهم الجارية ! . ثم ها هي ذي تجلس الى فراشها في ليلة هادئة ساجية، لتكتب على ضوء الشمعة رسالة طويلة تستغرقها، فاذا فاجأها في جلستها تلك ، وسألها عما تكتبه وإلى من ، اضطربت وعلاها الوهل والجزع ، وتبادر مرتبكة الى إطفاء الشمعة ! ويعجب المسكين لشذوذ مسلكها ، ولا يستطيع في بادىء أمره أن يفسر التناقض البادي في هذا العمل ، فتزيد شكوكه وتتجسم أوهامه ، وخاصة عندما يراها تغادر الغرفة مهرولة ، فيزيدها لعناً وتقريعاً ، ويجري خلفها صائحاً فيها ، مشهراً بإثمها ، معلناً خيانتها وفجورها، وبعد فما عاد هناك ستر يحجب سرائرها عنه ، لقد شاهدها بعيني رأسه تكتب لعشيقها الغادر ، وهذا حسبه من مفصّل الأمر ومجمله ! .

وهكذا أدرك المسكين ، وبقايا الحمى تلهبه وتكاد تذهب بقوى عقله ، أنّ ذلك الطبيب أصبح عشيقها ! . أدرك أنها اغتنمت فرصة مرضه وخدعته ! أدرك أنها تعمدت ارتكاب هذه النذالة لتجهز على البقية الباقية من أمله وتقطع بينهما في المستقبل كل صلة ! أدرك هذا كله إدراكاً عميقاً جارفاً ساحقاً . وفي تلك اللحظة التي خلدها من بعد في أشعاره، أحس «موسيه» إحساساً طارئاً غريباً، أن كل شيء قد انتهى، وأن الكرامة أثمن من الحب

وأن الحرية أغلى من الهوى ، وأن الحيـاة أرحب وأجمل من أن تحصر في شخص امرأة واحدة ، فعقد العزم على أن ينقذ نفسه ، ويحطم قيده ، ويتخلى عن « جورج ساند » متى استطاع مغادرة الفراش .

ولقد ردّ اليه الألم رجولته ولم تثنه الحسرة الدفينة عن عزمه . فلم يكد يشفى حتى جمع أمتعته وحزم حقائبـه وودع المرأة المنشودة ، وعاد بمفرده من حيث أتى .

عاد إلى باريس يحمل شخصية رجل ، ولـكن قلبه كان قد مات ، مات فترة قصيرة من الزمن لتبعث عذاباته في خلالها شعراً خالداً على مر القرون والأجيال .

— ١٠ —

تـكفير وانتاج

كان لوقع الصدمة في نفس الشاعر حزٌ عميق دونه حز النصل المغلغل المرهف . وكان جرح قلبه الصبيب من العمق إلى الحد الذي يكاد يصعب معه دواؤه وشفاؤه ، لقد كادت تخلف له الفجيعة عقدة نفسية في مكنتها أن تنكأ جرحه كلما التأم ، وتستوقد ضرام قلبه بالسخط الفائر كلما استقرَّ أو هدأ . كان قد وعد أمه المتلهفة على أخبـاره ، في رسالة متأخرة منه إليهـا بالعودة وشيكاً ريثما يبل من عقابيل دائه ويبرأ من أوهاق مرضه ، ويَنـقَـه جسمه الضارع وتستوسق بنيته المحطمة . وقد ذكر وهو في غمرة جارفة من حزنه ويأسه ، أنه سيعود، إليهم حاملا جسماً منحلاً ونفساً محطمة وقلباً ينزف دماً ، ولـكنه لن ينزف رقته وطهارته وما يكنه لهم من إعزاز وايثار وحب ! .

عاد «موسيه» إلى باريس وحيداً مستوحشاً ، في أواخر مارس ١٨٣٤. لقد كان المسكين حزيناً على ما خلفه من حطام القلب وعثار الجد، متحسراً على هناءة ولّت، وسعادة أدبرت، ونعيم لألأ سناه في سماء العمر لحظة لحت كومضة البرق، ثم خبا وانطفأ . ولكنه مرتاح البال مطمئن الضمير ، فقد كان وفيـًّا لعهده، خالص النية في الولاء لموثقه . ولم يكن سرفه في طلب المتع والشطط مع الأهواء ، إلاّ مظهراً لحبه المبرح وسعادته المتوهجة، أراد أن يشاركه

الناس في سعادته ومرحه ، وأن يبادلوه أنخاب الهناءة والمحبة ، وأن يعانقهم ويعانقوه ، وهم جميعاً في غمرة من حُميَّا السرور والنشوة ، تتجاوز بهم حدود الخير والشر ؟ ! :

ولكن صاحبته أساءت به الظن ونال من كبريائها هـذا المظهر الشائن ، لأنه في رأيها دليل أنوثة متميّعة ، لا رجولة مدلة برزانتها وثباتهـا ورجاحة عقلها . وثقل عليها هـذا اللون العجيب من الحب الطائش النزق ، وجرح كبرياءها كأنثى مسترجلة الطباع ، مخشوشنة في خصالها وخلالها ، أن تظل أسيرة لهذا الحب الذليـل المخنث ، فهي تؤثر عليه الرجولة القوية الآسرة ، تزينها الارادة المصممة الماضية ، والعزم النافذ العجلان ! .

ولـكن الشاعر ما وصل إلى « بادوفا » حتى انتكس عزمه واستخذت إرادته ، ولان قلبه لمن خلّـف وراءه في جنّـة الهوى والحب ! لم يتمالك نفسه لجمع أشتات قلبه ، وصبّ ذوبها المتقد في رسالة حارة تفيض بالشكوى وتئن من التوجع بعث بها إليها من جينيف .

قال لها في رسالته تلك ، إنه تركها متعبة منهوكة ممـا قاسته طيلة شهرين كاملين ، وتمنى لها أن تكون سعيدة هانئة في حياتها ، وأمّـل أن تكون هـذه الحياة مليئة بحلوياتها ومشوّقاتها ، بعد أن غصت بأتراحها ومنغصاتها ! إنه لم ينكر في رسالته ما قاساه هو الآخر من العذاب والألم ، ومن التنغيص والحسرة . لقد قاسى بدوره طويلاً وبكى بقلبه كثيراً ، لا لشيء إلاّ لأنه ما زال يحب طفلته المدلّـلة «جورج» ويطوي على دفين غرامها جوانحه !

إنه لأمرٌ جدّ عجيب ، ولـكن ما تفسير ما حدث ؟.

لقد قامت بينهما شبه عقـدة من شذوذ النفس لـوّنت غرامهما بالشذوذ وطبعته بطابع الغرابة ، وفتحت عينيه على الهوة التي فصلت بينهما وبتت روابط غرامهما في لحظة ! إنه حب بعيد المنال مُـمَـنّـع ، كذلك الذي ينشأ بين الاقارب المحرّم زواجهم عرفاً وشرعاً ؟!

وردّت عليه الـكاتبة برسالة أخرى تقول له فيها: إنها لا يعنيها في شيء أن تكون أمه أو عشيقته ، فسواء عندها أألهمته الحب أو الصداقة ، سعدت معه أو شقيت ، فهذا كله لن يغيّـر من أمرها معه شيئاً، وما أمرها معه إلاّ أنها تحبه أعمق الحب وأقواه ! كيف لا وهي ما إن سمعت بأذنيها ما نسبه اليها — في ساعة من ساعات هذيانه وتخليطه — من العجز عن إشعاره بلذائذ الحب ونعمه، حتى استخرطت في بكائها ، ولجت في حزنها وسخطها، ولـكنها

الآن تشعر واثقة ، بأن ثمة جانباً من الحقيقة يلمع فيما قاله يومئذٍ لها وقت أن كان محموم الجسم مدخول الذهن ، ولكن أنى لها أو له أن يعدا ذلك أو يدركاه على وجهه الحق ؟

لقد كانا بحبهما المشبوب العارم ، في شُغُل عن كل ما يقطع عليهما سلسلة الأحلام الجميلة ومواكب الآمال العذاب . ثم جاءت في نهاية رسالتها بوصف قصير لحياتها بالبندقية ، ولم تنس أن تبثه في ختامها الحار أشواقها المؤججة ، وأن تطبع على ثغره ، على البعد ، قبلاتها العديدة الملتهبة !

ووصل « موسيه » إلى باريس في ١٢ ابريل سنة ١٨٣٤ ، وحاول أن ينسى كل أحداث هذه الرحلة وأهوالها ، ولكن المحاولة كانت فوق طاقته . فلقد ألحت عليه الذكريات الموجعة ، ونكأت في قسوة جراحه المندملة .

ولما أن لجَّ به الشوق واستبدت بقلبه العاطفة ، كتب إليها يقول : « إن المباهج التي ذقتها وأنا حالم ، بين ذراعيك ، كانت أطهر من كل سرور آخر عرفته ، ولكن لا تقولي إنها كانت أقل من غيرها أو أهون شأناً . لقد قضيت بين ذراعيك لحظات تردني ذكراها عن التطلع الى أية امرأة أخرى في الوجود » ؟!

وقتل الشاعر آلامه وأوجاله ، وفرَّج عن شكوكه وعذاباته ، بالاستغراق في لجج القراءة والكتابة والتأمل . وكان في تلك اللحظة يديم قراءة قصة « جان جاك روسو » الخالدة : « هيلويز الجديدة » .

وظلت خطاباتها تتوالى عليه ، فهي تكلفه بما لها من دلال عليه قضاء كثير من حاجاتها ومهامها في باريس ، وهو يرد عليها مؤكداً لها صداقته ، شاكياً اليها حاله ووجده !

والعجيب في أمر صاحبنا أن « جورج ساند » لما عالنته بعزمها على المجيء الى باريس ، وفي صحبتها صديقها « باجيللو » ، سارع يكتب اليها مرحباً بها وبه ، حاثاً إياه ، بدعوة خاصة من عنده ، على الحضور معها إلى باريس !

وحضرت « جورج » مع « باجيللو » في أغسطس سنة ١٨٣٤ ، وقد اختار الطبيب فندقاً من فنادقها للاقامة فيه ، على حين قطنت « جورج » في شقتها بالكاي ملكاي .

ولما أن علم « موسيه » بمجيء حبيبته ، هاج هائج العشق في صدره من جديد وثارت كوامن

حبه وولهه ، وكتب اليها راجياً أن تفسح له في فرصة لزيارتها ، فهو يود مخلصاً أن يودعها الوداع الأخير ويطبع على ثغرها قبلته الأخيرة ، نافثاً فيها سموم حبه ، وحمم قلبه وصدره.

واستجابت المرأة الى ملتمسه وجلة مشفقة ، وجاء « موسيه » ومكثا عندها مدة من الزمن ، تشاكيا فيها تباريح قلبين مفطورين أقصدهما من كنانة الدهر سهم مُراش، وما رجع الشاعر حزيناً الى داره حتى حزم أمتعته على عجل ، وشخص من فوره الى باد Bade ، عساه ينسى في وحدته الجديدة وساوسه وهواتفه .

ولكن جوّ حياته ما زال معتكراً كابياً ، وقلبه ما زال منزوفاً ينبض بألمه وشجوه ، فما وجد ثمّ سبيلاً الى النسيان والسلو ، ولج به الحنين الى « ملاكه » النائي ، وعروس أحلامه المضيعة ، فكتب اليها رسالة تتوهج بسورات التبريح وتتقد بنفثات اللوعة والوجد ، رافعاً اليها أحرّ التوسلات وأوجع الاعترافات ، فهو يقول فيها : « أي جورج حبيبتي الموموقة ليس ثمة رجل أحب كما أحببت ! إنني امرؤ عاجز مضيع ، غريق في لجة الحب حتى قرارها . إنني لا أدري إذا كنت أنهج في حياتي نهج الآخرين ، فأمشي وآكل وأتكلم ؟ ! كل ما أعرفه أنني أحبك وهو حسبي من كل شيء ! »

وأرسل إليها خطاباً آخر ينبئها فيه بعزمه على العودة الى باريس ، مصمّاً أذنيه عن تحذيرها له من شكوك « باجيللو » التي بدأت تقض مضجعه وتنغّص عليه عيشته : اسمعه يقول لها : « إنني لأعترف لك بأني لن أراعي أحداً فيما أقوله وأفعله بعد اليوم ، وإذا كان هذا «البندقي» يتألم ، فليتألم ما وسعه احتمال الألم ، إنه علمني بدوري كيف أكتوي بغصص الألم وكيف أجرع كؤوسها حتى الثمالة ! »

ولما رجع « موسيه » إلى باريس ، أرسلت إليه «جورج ساند» خطاباً حزيناً تلح عليه فيه أن يملي لها في فرصة للقائه من جديد. ولم يكن أمام صاحبنا المتيم بُدٌّ من أن يستجيب إلى هذا النداء الجميل ، فذهب تقوده أمانيه اللاهيفة، إلى حيث سعد منها بساعة لقاء وعتاب اختلساها من غفلة الزمن ، ولكنها كانت جمرات من الحسرة والغيرة تلظى بلهبها قلب الحبيب « باجيلو » الذي لم يطق أن يظل واقفاً منهما موقف الرقيب المشاهد ، لا يملك بوادر غيرته ويعجز عن أن يصب عليهما جام نقمته ، فقفل راجعاً من حيث أتى ، لا يلوي على شيء !

وظلت قصة العاشقين سلسلة من التلاقي والانفصال ، حتى قرَّ رأيهما على أن يساكنها في منزلها ، وكان ذلك في اكتوبر من ذلك العام .

ولـكنهما ما تلاقيا حتى قام بينهما ، من جديد ، ما يشبه عقلة السحر . فافترقا فراقاً لا لقاء بعده. وضجرت «جورج ساند» من حياة المدينة، وثقّـل عليها جوّ باريس، فشخصت الى نوهان في ديسمبر عام ١٨٣٥ . ولم يعد «موسيه» يطلب عودتها أو يشتاق رؤيتها . وهكذا أسدل الستار على الفصل الأخير من مأساة شاعر الحب والألم !

قد يتداخل القارىء العصري الذي طغت عليه إصداء الحيـاة المادية فـكادت تتلف الأوتار الحساسة في روحه وعقـله — أقول قد يتداخله العجب العاجب من هـذه الحياة العاطفية المضطرمة ، المليئة أبداً بصور شذوذها ونقائضها . ولـكننا نسارع فنقضي عجبه ، عند ما نقول له ، إن منهج العصر الرومانتي الذي كان يقوم على تغليب العاطفة على الفكر ، وإعلاء شأن القلب ليسيطر على الذهن ، والمغالاة في الجنوح إلى إتيان ما لا يقره المنطق كله من أعمال وأفعال وأخيلة وآراء ، كان الموجّـه الاول لشبيبة ذلك العصر الوهانة الحالمة والهادي لها في كل ما كان يأخذ بكظمها من مشاعر عواطف ، وما كان يقود زمامها من حوافز وأهواء !

وفرغ « موسيه » لانتاجه الأدبي العظيم مرة أخرى ، وعكف من يومئذٍ على كتابة ذكرياته الفاجعة في صورة اعترافات أليمة مرّة ، غلبت المرارة فيهـا النشوة وطغت فيها الشقاوة على الهناءة . وهكذا سوّد « موسيه » كتابه « اعترافات فتى العصر » من سواد قلبه وصدره ، وطبعه بطابع تشاؤمه وحيرته ، وأجرى عليه أقيسة وساوسه وشكه ، وجعله رمزاً أبديًّـا لتلك العلة الغائلة التي ابتدع لها اسمها الطريف « مرض العصر » فعبر بها أصدق التعبير وأبلغه عما كان يخالج شبيبة عصره ، وما ظلَّ يخالج شبيبة الأعصر المتعاقبة !

وصف الشاعر في كتابه هذا قصة شاب عاطفي المزاج هو « أوكتاف » . والمطالع لما ساقه « موسيه » من أوصاف لهذا الشاب ، وما زحم به أفق حياته من العواطف المؤججة التي تزيد سُعارها الطرائف والمفارقات ، يوقن أن « أوكتاف » هـذا ليس إلا شاعرنا « موسـيه » الذي تقمص شخصية البطل وأدلى على لسانه أفكاره وخواطره في الحياة

والأخلاق . كما يوقن أن بطلة القصة « بريجيت برسون » ليست إلاَّ صورة صادقة « لجورج صاند » . أما صاحبنا « باجيللو » فهو ، بغير شك ، « سميث » بطل القصة الثالث . وصاغ من « ديجينيه » وهو شخصية أخرى من شخصيات القصة البارزة ، رمزاً يمثل كل من استعبدتهم شهوات الجسد في فترات التخاذل النفسي ، وكأنه يرمز بها أيضاً إلى نفسه .

وقد لا نكون غالين اذا قلنا ان « موسيه » بوضعه هذه القصة قد اقترب قليلاً من المذهب الواقعي في الأدب ، ذلك المذهب الذي يستهدي صميم الحياة فيما يعالجه من صور وأفكار وخواطر ، ويحلّل ما يقود الحياة الانسانية من خفيّ الأحاسيس .

وهكذا ظلَّ الألم الفاجع منبعه الثَّر الذي يعده بكفايته من الوقود والحَفْز لمواصلة إنتاجه وإبداعه .

نعم إنه اليوم ابن الألم وشاعره ، يستوحيه سوره وآياته ، ويستلهمه في الحياة روائعه وبيناته . قال لأخيه مرّة وهو غارق في سبحات فكره : « إنه لمن بؤس الانسان أن يكون الألم عنده مصدر شعور باللذة فينعم به كما لو كان ينعم بحادث سعيد ! »

وقد أحسن «موسيه» وصف حالته من بعد ، فكتب عام ١٨٣٩ يقول : « كنت أعتقد أني لن أشعر بأدنى ندم أو ألم من جراء البعاد والهجر . نعم ، لقد ابتعدت مزهوّاً ، ولكن ما إن قلبت النظر حولي حتى رأيتني أخبط في صحراءيهما ، وأحسست ان جميع أفكاري تتساقط من حولي تساقط الورق اليابس من منابته على الغصون وأخذ يدب في نفسي شعور مبهم ، ولكنه أشاع فيّ الحزن العميق ، ولما أن أعجزتني مقاومته ، استيأست وتركت حبل نفسي ملقى على غاربه ، ووقعت فريسة الألم ، وتنكرت لعاداتي وخصالي . وقطعت ما بيني وبين العالم ، وحبست نفسي في غرفتي مدى أشهر ، أبكي حظي وأندبه . وظللت وحيداً لا يقع نظري على مخلوق . ثمَّ ما لبثت أن هدأ ثائري وصفت أخلاطي ولانت نزعاتي ، ذلك لأني عرفت معنى التجربة ، وآمنت صادقاً أن الألم يعلمنا حقيقة الحياة ! »

وفي تلك الفترة طلب الى صديقه مسيو « بيلوز » رئيس تحرير مجلة العالمين أن يكتب له قطعاً خيالية ، فأعطاه بعد قليل قطعة نثرية هزلية باسم « لا يُلهى بالحب » . وكثير من أجزاء القصة يحمل في أطوائه وصفاً بارعاً لحالة الشاعر النفسية في ذلك الوقت . فبطلاها

« كاميل » و« برديكان » يتجاذبهما صراع عنيف بين الحب والكبرياء . وكانت قصته المسماة « فانتازيو » ، وقد سلمها « لبيلوز » قبيل الرحيل إلى ايطاليا ، من خيرة قصصه التي صوّر فيها بأمانة خواطر الشباب وأحلام المراهقة ، فهي أنموذج حي صادق لكل انسان يعيش بقلبه أكثر مما يعيش بذهنه .

وعاد الشاعر الشاب الى حياة اللهو والقصف ، واتصل في ذلك الحين بجماعة من شبيبة العصر التياهة المتغطرفة ، كان على رأسهم الأمير « Belgiojoso » الايطالي وزوجه « كاترين » الكاعب الحسناء التي كانت واسطة عقد الجماعة وبدر أنسها الساطع . وقد انغمس معهم « موسيه » في كثير من مباذلهم وصحبهم في مباءات متعهم ومراتع لهوهم ، وهكذا أغرق في حميا نشوته بالخمر والمرأة والشعر ، البقايا الداخنة من حياة غرامه التاعس مع « جورج ساند » .

وقد عاب عليه بعض نقاده شدة انغماسه في لهوه وتبذله في مرحه وعربدته الخرقاء ، مما أضاع عليه كثيراً من فرص الانتاج والنظم ، ولكن المتأمل في ظواهر نشاطه العقلي خلال تلك الحقبة (١٨٣٥ — ١٨٣٦) يروعه منها كثرة التوليد والانتاج ، وتعدد ألوانه ومناحيه . فقد كتب من المسرحيات الشعرية لوسي ، ومغزل باربرين ، والشمعدان ، وأكمل « اعترافات فتى العصر » . ونظم ليالي مايو واكتوبر وديسمبر . وكانت قطع إنتاجه جميعاً موفية على التمام والاحكام ، شأن من يصدر فيما يكتب وينظم عن ملكة مطبوعة لا كلفة فيها ولا اعتساف . وقد كانت تلك الحقبة أغنى حقب عمره جميعاً بالروائع والبدائع .

سأله صديقه « ألفريد تاتيه A. Tattet » في احدى أمسيات مايو البديعة الساجية ، عن سبب اطراقه وصمته وظهوره أحياناً بمظهر السائم الذاهل ! فأجابه « موسيه » قائلاً : « منذ عام وأنا أعيد قراءة ما سبقت لي قراءته ، لقد قلبت النظر في الحياة والناس ، وتأملت في مجتمعاتهم ومحاشدهم ، فلم يطالعني منهم غير المشهد المتكرر المسئوم الذي طالما طالعته عيناي من قبل . لكم بذلت من جهود طويلة شاقة ، كي أطرد فلول الذكريات التي ظلت تهاجمني وتنغص عليَّ هناءتي . فلما بكيت واستخرطت في بكائي غسل دمعي حزني ، وعندئذٍ شعرت بأني أقوى من ذكرياتي وأحزاني ، واستطعت أن أتحرر من ربقة الماضي . وها نذا اليوم قد دفنت شبابي الأول بيدي ، ودفنت معه غروري وكسلي . »

كان تصوير الشاعر لحالته ، انما هو تصوير للحظات السابقة لمرحلة تمخضت فيها شاعريته عن طرفة جديدة من طرفه الرائعة ، تلك التي خلدت نجمه متلألئاً ساطعاً في سماوات القريض .

إنها « ليلة مايو » تنتظره على موعد من مواعيد الربيع ، موسم الحب والأحلام والأزاهير .

ففي ليلة من تلك الليالي القمراء الزاهية ، أسمع « موسيه » أخاه « پول » بعد عودتهما من نزهة بديعة ، ما دار من حوار بينه وبين عروس شعره « La muse » . وها هي ذي عروس الشعر تناجي شاعرها منشدة :

أيها الشاعر ، أمسك بقيثارك الصادح ، واطبع على ثغري قبلة .
فهذه الأزاهر والورود ، قد نضت الأكمام عن نوّارها .
ان الليلة ميلاد الربيع ، والأنسام مضطرمة بأنفاسه .
وهذه الأطيار المزقزقة ، تباكر غصونها في انتظار فجره .
إنها تحلق فوق الشجيرة المخضوضرة ، لتحط على أعوادها الرطبة .
فأمسك القيثار ياشاعري ، واطبع على ثغري قبلة .
آه لكم سريت عنك مض الألم .
فيالهفي على شبابك الغريض ، تذبله وقدة الحب وترديه .

—

لا شيء يسمو بقلب المرء كالألم العظيم .
فأجمل ما تسمع من أغاني الحياة ، ينبع من هوة اليأس العميم ، تلفظها آنّة معولة في نشيج أبدي أليم .

—

أتراه قد سُرّي عنه ؟ أهو مستطيع أن ينهض من كبوته ، فيمشي بين الناس طليقاً من عقال همه ، غريقاً في صفاء قلبه ، يرضع من ثدي الحياة مواجده الجديدة ، ويرشفها حالماً بمذاق جديد ؟

هيهات هيهات ؟ فما كان شاعر الألم لينسى نشوة الألم ، وما كانت عذابات قلبه المعنَّى لتنسيه ، وهو مخدور ، حلاوة التعذيب !

لم تمهله عروس شعره طويلا ، لقد لقنته وحيها من جديد ، وهذا هو ثائر باكيا مستضحكا يئن أنات الذبيح ، وينفث في سمع الدهر حسرات ليلة ولهانة يفرطها من عقد لياليه !

وهكذا بدأ الشاعر نشيد « ليلة ديسمبر » بوصف شبح غامض ظلَّ يلازمه ويتابعه منذ أن كان صغيراً يطلب العلم ، حتى شبَّ يافعاً غريراً يضطرم قلبه بحميا الحب . ثم خلص من وساوس ذهنه الى وساوس قلبه ، فأمسك بقيثاره ووقع لحبيبته المهجورة ، على أوتار قلبه، ترانيم غضبه ويأسه : —

ارحلي ارحلي . فالطبيعة الخالدة ،
لم تهد اليك ما تشتهين ،
يا طفلتي المسكينة المستملحة .

—

ألا تعرفين الفقر والعوز ؟
اذهبي اذهبي ، واتبعي القدر ،
إن من يفقدك لم يفقد كل شيء ،
فهيا ألقي الى الريح هوانا المنتهي !

—

يا السهي الأبدي ، أنت الذي طالما أحببته ،
إذا أنا عصيتك ، فلم تصفيني محبتك ؟

—

ثم يكشف الستار عن هذا الرفيق الحزين — أي شبحه — ويناجيه قائلا : —

لقد منحتني السماء قلبك ،
فحينما يثقلك وقر الألم ،

جئني ولا يداخلنك القلق ،
فاني متابعك على نهجك ،
ولكنني لن أمسك ،
أيها الصديق : إنني الوحدة !

— ١١ —

فوق قمة المجد

لم يكن من عادة الملك « لويس فيليب » أن يحبو الأدب بتشجيعه ، وعطفه ، وما كان أكابر أدباء عصره ليفوزوا منه بأكثر من ابتسامة عابرة ، وكلمات لا تغني ولا تشبع .

ولقد حزّت هذه الهضيمة التي مني بها الادب في نفس شاعرنا المرهف . وكان يشعر في قرارة نفسه بعظم الفارق بين عهد هذا الملك وعهد سلفه العظيم « لويس الرابع عشر » . ولهذا كان دائم الرجاء في أن يعتلي صديقه وزميل دراسته « الدوق دورليان » عرش فرنسا ليمد إلى الادب ورجاله يداً مشجعة حافزة ، ويرصع بنجومهم المتلألئة بلاطه وقصره . وقد كان هذا الامل نعم الحافز له على مواصلة الانتاج والدأب ، فقطع عامي ١٨٣٧ ، ١٨٣٨ وهو عاكف على قراءاته ونظم أشعاره وكتابة مسرحياته . وقد استهوته قصص القاص الايطالي « بوكاشيو » وأثرت الى حد ملحوظ في منهجه القصصي .

وتلقى في أحد الايام كيساً مترعاً بالأصفر الرنان ، وصله من أحد معجبيه ، الذي لم يشأ أن يذكر له اسمه ، فكان لوقع هذا الحادث السعيد في نفس « موسيه » ما هيأ له مادة وحي جديدة . فعزم على أن يكتب قصة يصف فيها سمات الحياة الباريسية وعجائبها ، وهكذا قدم للادب المسرحي قصته الخالدة (Caprice) أي النزوة وأتبعها بقصة أخرى سماها « اميلين » ، حاول أن يصور فيها كيف تكون تضحية الهوى على مذبح العقل والواجب .

وأوحت إليه علاقاته بمن تعرّف إليهنّ في تلك الفترة من نساء ، « كأيميه دالتون » و« پولين جارسيا » و « راشيل » ، وغيرهنّ من كواعب المجتمع الباريسي في ذلك العصر ، أن

ينظم ليلة أخرى من لياليه اليتيمة، ارتفع فيها نجمه إلى أعلى ذرى السمو الروحاني [١].

وكان ما زال مهووساً بقراءاته الفلسفية التي لم تهده الى سعادة الطمأنينة واستقرار المعتقد، فأنشد قصيدة سماها «الأمل في الله» أودعها جماع آماله في الله عزّ وجلّ، وناشده سبحانه العفو والرحمة، مما دلّ على استعار قلقه الباطن وتطلعه إلى هدوء النفس وراحة الضمير، وهو ما ظل العمر ينشده ويرتجيه.

وكتب في مايو عام ١٨٣٨ قصته المعروفة باسم «ابن تيسيان» رسام النهضة الخالد بعبقريته على لوحة الزمن. ولم يكن الابن كأبيه في خصوبة انتاجه وغنى لوحاته، إذ لم يرسم إلاّ صورة واحدة لحبيبته، ولكنها كانت آية من آيات الفن ودرة يتيمة من دراريه. وقد دافع الشاعر في هذه القصة عن رأيه الذي طالما أكده للائميه، وهو أن الفنان في غير حاجة الى الانتاج الكثير ليظهر نبوغه ويؤكد رسوخه، فحسبه منه القليل الأصيل.

وفي عام ١٨٣٨ تعرّف الى ممثلة «التراجيدي» الموهوبة «مدموازيل راشيل». وكان «موسيه» وهو وقتئذٍ يشغل منصب الأمين لمكتبة وزارة الداخلية، أوّل من اعترف بنبوغها، وحفزها على المثابرة لتصعد خطوات مجدها بقدم ثابتة. فهو دائم الحضور لحفلاتها وسهراتها، وما لبث أن انقلبت موجة إعجابه الى عاطفة حبّ ووله، وقد تبادلا معاً أنخاب هذا الغرام مدة من الزمن!

وكان في ظهور «مدموازيل راشيل» كممثلة تراجيدية ناجحة، إحياء وبعث لقصص «كورنيل» و «راسين» وغيرهما من زعماء المذهب الكلاسيكي القدماء.

واستثار هذا النجاح حفيظة «الابداعيين» الذين راحوا يزعمون أن الجمهور الفرنسي قد خدع في ذوقه وضلل عن نهجه، وأن القصة التراجيدية ليست الاّ صحوة الموت الأخيرة للمذهب القديم!

وقد حفزت هذه الدعوى الباطلة صاحبنا «موسيه» الى أن يدلي برأيه في القضية، فانتضى قلمه وكتب مقالاً ضافياً ممتعاً، نشر في مجلة العالمين في أول نوفمبر سنة ١٨٣٨، ردّ به ردّاً بديعاً على مزاعم الناقمين، قاصداً الى أن يوفق بين المذهبين، ويوحّد بين الاتجاهين،

....

(١) هي ليلة اكتوبر نشرها بمجلة العالمين في اكتوبر سنة ١٨٣٨

مؤكداً إمكان قيام « التراجيدية » القديمة بجوار المسرحية العصرية التي تجود بها قرائح الابداعيين وهكذا ظلّ يتوقل صُـعُـداً في معارج الشهرة الى أن انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية واقتعد مقعده بين صفوف الخالدين.

ومن يومئذٍ والشاعر عاكف على انتاجه ، موالٍ لنظم أشعاره ونثر كتاباته . ولكنه في غمرة دأبه وجهده ، لا ينسى مطالب القلب . فهو يتنقل ، ولو برغمه ، بين محابه ومواجده ، كالنحلة لا تني ترفرف فوق الورود والرياحين ، لترشف من عطورها وتمتص من رحيقها ، شهدها الجني ورضابها المعسول .

ولكنه أبداً شاعر الألم والحزن ، لا يسلمه الحب إلاّ الى التعذيب ، ولا يسلمه التعذيب الاّ الى البكاء والأنين :

لقد فقدت قوتي وحياتي ،
وخجعت في صداقتي ومرحي ،
وسُلبتُ حتى افتخاري ،
الذي كان يُشعرُ بنبوغي .

—

وحينما عرفت الحقيقة ،
ظننتها وفية صديقة ،
فلما فهمتها ووعيتها ،
مججتها وكرهتها !

—

ولكنها أبدية سرمدية ،
وهؤلاء الذين مجوها ،
جهلوا كل شيء !

***

ومن يومئذ توالت عليه النكبات والمتاعب ، وجاء عام ١٨٤٢ مليئاً بهمومه وأحزانه

فقد روّعه نبأ وفاة صديقه «الدوق دورليان» الذي كان يعقد عليه أعظم الآمال . ثم ما لبث أن فجعه القضاء في صديقه وصفيه «ألفريد تاتيه» . وأناخت الأحداث المتتابعة على كاهله المثقل ، فبدا كالمحطم اليائس الذي استنزفته الأيام ذخائر قلبه ، وكادت تسلبه حساسة وجدانه.

وأسلم همومه وأحزانه الى الموسيقى ، يستلهم روحانية أنغامها العزاء والسلوى . وصبَّ سموم نفسه في الشعر ، يبكي بعيونه ما شاء له التوجع والأنين :

ثم تسلى بعزالة الكتابة للمسرح ، حتى أخرج له سلسلة رائعة خلدته من بعد في سماء الأدب العالمي الرفيع . واشتهرت له مسرحياته المعروفة بالأمثال « Les Proverbes » . وقد توّج هذا المجد المتلألىء مسرحيته الكبيرة « لورانزاسيو » التي استلهمها مما اختزنه في طوايا حسه الباطن ، أثناء مشاهداته الطريفة في رحلته الى ايطاليا مع حبيبته «جورج ساند» .

الخاتمة

كانت هذه الحياة المترعة الكأس بمآسي الحب وشواغل القلب ، كالسهام المسنونة ، سلطت على هذا الجسم الرهيف النحيل ، فانتاشته في كل موضع حتى سقط صاحبه صريعاً وهو يجاهد مستيئساً جراحه وكلومه الغائرة .

كان قد أصيب بذات الرئة في شتاء عام ١٨٤٢ ، وظلت نكسات العلة تلم به على فترات متباعدة ، حتى إذا جاء شتاء عام ١٨٥٦ ، كان الاجهاد المستمر والرهق المتصل قد أذبلا زهرته وأطفئا سراج مقاومته وجلده . لقد شاخ هذا القلب العاني الكليل ، وجُهِدَ به ، بعد أن ظلّ العمر كله يخفق بين الجوانح خفقات الحياة والحب والألم .

لقد كان نبيلاً حتى في ضعفه وعجزه ، فلقد استنجزه وفاؤه لأصدقائه واجب التقدير والمجاملة ، فبينما كان مريضاً نضو سقام ، يتطوّح على فراشه من علة القلب في مارس عام ١٨٥٧ ، إذا به يسمع أن صديقه « اميل أوجيه » قد رشح لعضوية الأكاديمية . فما توانى في أن يركب عربة ليحضر الحفلة ويمنحه صوته ، ويشاطر الصديق فرحته ، وهو في أثناء ذلك لا يكاد يتماسك من هزاله وضعفه !

واشتدت عليه وطأة العلة في اليوم الأول من شهر مايو سنة ١٨٥٧ . ورغم أنه لم يفقد إشراقه وهدوء نفسه إلى حد أن راح كعادته يتحدث عن مشروعاته الأدبية التي يزمع إنفاذها بعد ابلاله من مرضه ، الا أن نوبته في هذه المرة كانت مميتة قاضية. وبينما هو يسأل من احتاط به من الأهل والأصحاب الحزانى الجزعين عن سائر خلانه وأصدقائه ، إذا به ينهض على حين بغتة ، كأن هزته رجفة عصبية ، ويضع يده على قلبه يتحسس خفقاته الضئيلة المتقطعة ، وإذا وجهه يتجهم ويغص بريقه . ولما أن سئل عما اذا كان يشكو من شيء ، أجاب في صوت خفيض لاهث الأنفاس . وهو يضع رأسه على الوسادة : «سأنام ، وإنها لنومتي الأخيرة»!

وما خالج الجميع شك في انه رقد لينام ، لولا انها نومة الأبد ، التي صعدت بأنفاسه الغالية بعد طول انتظار وعذاب .

لقد زاره الموت «كصديق رقيق» كما كان يتمنى .

وهكذا كانت أيامه الأخيرة حزينة فاجعة ، عانى فيها الهوان والسقم ، وعرف خلالها الوحدة المروعة لولا وفاء بعض الاصدقاء . وكانت تعود به الذكريات إلى أيام مضت وأماسي انقضت من سني الشباب ، فيتذكر حبيباته من النبيلات ومتوسطات الحال والبغايا . ولكن طيف الحبيب الأول ما كان ليفارق مخيلته ، انه خيال المرأة التي أشعرته بجميع انفعالات القلب المتناقضة ، من كبرياء الانتصار الى حرارة العاطفة الى شفقة المصاحبة الى ذلة الخيانة الى ألم الغيرة وفجيعة الهجران ، انها المرأة ذات العيون العميقة السوداء ، إنها « جورج صاند» ! ألا ما أصدقه حين قال :

« ليس ثمة ما يبقى على وجه الزمن » ،
«غير دموع تسكبها العيون بين حين وآخر ! »

المراجع : References

1 -- Biographie d'Alfred de Musset (par Paul de Musset)
2 -- La vie amoureuse d'Alfred de Musset (par Maurice Donnay, de l'Academie. Française.
3 -- Un grand amour romantique (par A. Feugère).
4 -- Alfred de Musset (by Henry Dwight Sedgwick).

فهرس الكتاب

فك الاغلال

بحث في الثقافة التقليدية وعلاقتها بالتربية القومية

بقلم اسماعيل مظهر — ظهر مع مقتطف يناير ١٩٤٦

—

الالوهية والفكر

بحث في العقائد المألوفة

مترجم بقلم اسماعيل مظهر عن لورد بلفور

وهو بحث مثبت للالوهية نافٍ لما يدعيه بعض الماديين

من ان في المادية الطبيعية قصداً او ما يشبه القصد

ظهر مع مقتطف فبراير ١٩٤٦

—

الفريد ده موسيه

شاعر الحياة والالم

بقلم الاستاذ صلاح الدين الشريف

يظهر مع مقتطف مارس ١٩٤٦

—

الازهر

بين الماضي والحاضر

بحث في تاريخ الازهر الشريف وتطوره ومنزلته العلمية والدينية واتصاله بحياة الاسلام من قلم الاستاذ منصور علي رجب المدرس بكلية أصول الدين

يظهر مع مقتطف ابريل ١٩٤٦

اطلبهما مع مقتطف مارس . وثمن النسخة ١٠ قروش



في العلم الروحي الحديث

تأليف

أحمد فهمي أبو الخير

يتضمن هذا الكتاب أحدث البحوث والنظريات الروحية التي تهدم الى حد كبير تلك الآراء السيكولوجية والمادية المتقلقلة السائبة . فهو يحدثك عن ظواهر عالم الروح ، ويحدد لك مقره في لوحة الكون ، ويشرح لك طرق الاتصال به . ويفسر لك النوم والاحلام والموت الظاهري والاسراء والمعراج ، ويتصل لك علاقة العلم الروحي الحديث بالجريمة ، ويتكلم عن المجلوبات الروحية والمأخوذات وعن الموسيقى الروحية والفوتوغرافية الروحية والعلاج الروحي كما يراه أساتذة الطب في الغرب . ويصف تجارب العلاج الروحي التي تمت في القاهرة موضحة بالصور الفوتوغرافية ومدعمة باعترافات المرضى وشهادات بعض حضرات الاساتذة في كلية الطب بمصر . وقد حضر بعضهم جلسات العلاج

ويجد القارىء فيه رسائل ممتعة في العلم والادب والشعر والاجتماع بعث بها المقيمون في عالم الروح من علمائنا وقادتنا وغيرهم . وعدا هذا يشتمل الكتاب على بيان مسهب يحل لغز الساحر هوديني الذي كان وسيطاً متساحراً ، ويفصح عن قانون تكوين الارواح أو الاشباح ، وعن جيراننا غير المرئيين من غير الارواح وغير ذلك .

ويتناول الكتاب تطبيق النظام الموجي على الظواهر الروحية ويختم بخمسة بحوث مترجمة .

الاول — « الظواهر الروحية في ضوء العلم الحديث » للعلامة هايوارد .

الثاني — « البحث الروحي كدراسة جامعية » للعلامة السيكولوجي الاستاذ مكدوجل أحد محكمي لجنة مجلة السينتفك أمريكان لبحث الظواهر الروحية .

الثالث — « هل يستحق البحث الروحي أدنى عناء ؟ » للدكتور ولتر فرنكلن برنس رئيس جمعية البحوث الروحية الامريكية وأحد محكمي لجنة مجلة السينتفك أمريكان سالفة الذكر .

الرابع — « البحث الروحي والفلسفة » للعلامة هانز دريش أستاذ الفلسفة في جامعة ليبزج ورئيس جمعية البحوث الروحية البريطانية .

الخامس — « بعض الوجوه المنطقية للبحث الروحي » للعلامة شلر أستاذ الفلسفة في جامعة اكسفورد

والبحوث الاربعة الاخيرة نصوص محاضرات ألقاها هؤلاء العلماء الاعلام في جامعة كلارك الامريكية سنة ١٩٢٧ بدعوة منها ، أي قبل أن يصبح العلم الروحي دراسة جامعية كما هو الآن في جامعة كمبردج وغيرها .

والكتاب كله مزين بالصور والرسوم ويقع في نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير

قريباً يظهر هذا الكتاب

كتب أخرى للمؤلف

بين تأليف وترجمة

أولا — روايات قصصية :

المملوك المفقود	..	سنة ١٩٢٦
الأميرة المصرية	..	سنة ١٩٢٦

ثانياً — كتب علمية :

مذكرات التاريخ الطبيعي	..	سنة ١٩٢٥
السينماتوغراف وهندسته	..	سنة ١٩٢٩
علوم العرب الرياضية وانتقالها الى أوربا		سنة ١٩٣٠
هرم الجيزة الاكبر — مقاصده وعملياته البنائية		سنة ١٩٣٠
حرب الغازات (محاضرة)	..	سنة ١٩٣١

ثالثاً — في العلم الروحي الحديث :

ظواهر الروحية (ملخص أعمال سير وليم كروكس)		سنة ١٩٣٩
خلق الانسان من تراب	..	سنة ١٩٣٩
عالم الروح في ضوء العلم الحديث	..	سنة ١٩٤٠
العلاج الروحي كما يراه الطبيب الدكتور ادوين فردريك باورز		سنة ١٩٤٠
الروحية والجريمة	..	سنة ١٩٤٢
العلم الروحي الحديث في الجامعات	..	سنة ١٩٤٤
السيكولوجيا والروح	..	سنة ١٩٤٥
العجيبة الثامنة	..	سنة ١٩٤٦
ظواهر الطرح الروحي	..	سنة ١٩٤٦

لوامع المقتطف الشهرية

فك الاغلال

بحث في الثقافة التقليدية وعلاقتها بالتربية القومية

بقلم اسماعيل مظهر — ظهر مع مقتطف يناير ١٩٤٦

—

الالوهية والفكر

بحث في العقائد المألوفة

مترجم بقلم اسماعيل مظهر عن لورد بلفور

وهو بحث مثبت للالوهية نافٍ لما يدعيه بعض الماديين

من ان في المادية الطبيعية قصداً اوما يشبه القصد

ظهر مع مقتطف فبراير ١٩٤٦

—

الفريد ده موسيه

شاعر الحياة والالم

بقلم الاستاذ صلاح الدين الشريف ظهر مع مقتطف مارس ١٩٤٦

—

الازهر

بين الماضي والحاضر

بحث في تاريخ الازهر الشريف وتطوره ومنزلته العلمية

والدينية واتصاله بحياة الاسلام من قلم الاستاذ منصور

علي رجب المدرس بكلية أصول الدين

مع مقتطف ابريل سنة ١٩٤٦

—

سبينوزا

حياته وفلسفته — عرض وتحليل —

تأليف هنري سروبا — ترجمة سليم سعده

يظهر مع مقتطف مايو ١٩٤٦

اطلبها مع مقتطف ابريل وثمن النسخة ١٠ قروش

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد العاشر بعد المئة

١٠ مايو ١٩٤٧ — ١٩ جمادى الثاني ١٣٦٦

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صروف و الدكتور فارس نمر

رئيس تحريرها اسماعيل مظهر

قيمة الاشتراك — في القطر المصري ١٢٠ قرشاً مصرياً وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق ١٤٠ قرشاً مصرياً وفي الولايات المتحدة ٧ دولارات اميركية وفي عدن وأفغانستان وايطاليا والمانيا وبلاد الانجليز ٣٠ شلناً

اشتراك الطلبة والمدرسين — قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بقيمة الاشتراك وبشهادة من رئيس المدرسة تكون ١٠٠ قرش مصري في مصر و ١١٠ قروش مصرية في الخارج بالبريد العادة

الاعداد الضائعة — الادارة لا تعد بتعويض المشتركين ما يضيع من اعدادهم في الطريق ولكن تجتهد ان تفعل ذلك

المقالات — لا تقبل المقالات للنشر في المقتطف الا اذا كانت لهُ خاصة ولا يعد قلم التحرير بارجاع المقالات التي لا تنشر فنرجو من حضرات الكتّاب ان يحتفظوا بنسخة من المقالات التي يرسلونها

العنوان — ادارة المقتطف بالقاهرة — مصر

AL-MUKTATAF

An Arabic Monthly Review of Current Science and Literature.

Published in Cairo Egypt

Founded 1876 by Drs. Y. Sarruf & F. Nimr

Edited by I. Mazhar

هدية المقتطف السنوية

لمحات

من الدراسات المصرية القديمة

بقلم

الدكتور باهور لبيب

أمين منتدب بالمتحف القبطي

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر

١٩٤٧

مقدمة

أتيحت لي فرصة البحث في الدراسات المصرية القديمة ، ونشرت عدة بحوث موجزة في سنوات متعددة وفي مجلات متفرقة كالمقتطف ، ومجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، ومجلة القانون والاقتصاد ، ومجلة المهندسين ، ومجلة الكتاب ، والثقافة ، والرسالة ، ومجلة بلادي ، ثم رأيت أن أجمعها مع جزء آخر في هذا الموجز الذي سميته « لمحات — من الدراسات المصرية القديمة »

وأرجو أن يسد هذا الكتاب فراغاً صغيراً من الفراغ الكبير الذي سبقتنا الى ملئه الأمم الأخرى ، لاسيما وان مصرنا العزيزة في حاجة الآن الى تربية قومية حقة عمادها دراسة تاريخ مصر القديم ، ومعرفة تاريخ وحدة وادي النيل في عصور مصر الزاهرة

والله المستعان يوفقنا الى ما فيه خير البلاد في ظل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول ملك وادي النيل .

ولا يفوتني أن أشكر ادارة المقتطف الغراء لاهتمامها بطبع هذا الكتاب وجعله هدية المقتطف السنوية الى مشتركيها الكرام .

عين شمس في اول سبتمبر سنة ١٩٤٧ — باهور لبيب

الفصل الاول

بحوث تاريخية

تطور التاريخ المصري

القديم

اعتاد علماء التاريخ المصري القديم أن يقسموه الى عصور رئيسية أطلق على كل منها اسم معين غير اننا لو تعمقنا في دراسة التاريخ وآثاره نرى أن معظم هذا التقسيم القائم بتسميته غير مطابق للحقيقة والواقع .

فالعصر الأول : يقصد به الفترة التي يرجع تاريخها الى ما قبل الأسرة الأولى وأطلق عليه « عصر ما قبل التاريخ » على أساس أن التاريخ يبدأ عند وجود الكتابة ويعتمد على النقوش المدونة فقط .

على أن هناك بلاداً لم تعرف الكتابة قديماً ، وأخرى عرفت الكتابة ولم نستطع قراءتها ، وبالرغم من هذا فان لها تاريخاً . فتكون الكتابة وتدوين الحوادث اذن ليست الوسائل الوحيدة للتاريخ . بل هناك وسائل أخرى أساسها علم الانسان وعلم الحيوان ، وعلم طبقات الأرض ، وعلم الآثار وقد أرشدتنا هـذه العلوم مجتمعة الى معرفة تاريخ هذا العصر الطويل الذي يبدأ من حوالي سنة ٨٠٠٠ قبل الميلاد الى سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، كما أن هذا العصر أول قسم نبدأ به تاريخنا لذلك كله نطلق عليه اسم « فجر التاريخ » .

العصران الثاني والثالث : يطلق الأول منهما على عصر الأسرة الأولى والثانية ويسمى بالعصر العتيق . والآخر على عصر بناة الاهرام من الأسرة الثالثة الى السادسة ويسمى باسم الدولة القديمة ، فيقتطع أصحاب هذا الرأي الأسرتين الأولى والثانية بدعوى أن المرجع في تحديد ذلك الى بناء الاهرام .

لكننا نرى أن الدولة القديمة تبدأ من الأسرة الأولى وتستمر الى الأسرة الثامنة أي من حوالي سنة ٣٢٠٠ ق . م الى سنة ٢٢٤٥ ق . م . لأن بناء الاهرام يجب ألا يوضع في المكان الأول ويتخذ أساساً لتقسيم دول التاريخ المصرى القديم ، لأن التقسيم كان قائماً

على التوحيد السياسي للبلاد تحت رعاية ملك واحد ، بعد أن كانت عبارة عن ولايات مفككة[1] والذي كان من نتائجه أن أصبحت البلاد جميعها ملتفة حول العرش ورمز البلاد . ولقد تمّ وحدة مصر الأولى على يد الملك مينا (نعرمر) أول ملوك الأسرة الأولى حوالي سنة ٣٣٠٠ ق . م. ونطلق عليه اسم « عصر الوحدة الأولى » .

العصر الرابع : وهو العصر المتوسط الأول ويشمل الأسرات السابعة الى العاشرة في نظر المؤرخين ولكننا ذكرنا أن عصر الوحدة الأولى ينتهي بالأسرة الثامنة. وبذلك يمكننا أن نطلق على المدة من الأسرة التاسعة الى منتصف الحادية عشرة اسم « عصر تفكك الوحدة الأولى » وذلك لأن التوحيد السياسي قد تفككت أوصاله في هذه الفترة من ٢٢٤٥ ق. م. الى ٢٠٧٠ ق . م.

العصر الخامس : يطلق عليه المؤرخون عصر الدولة الوسطى ويشمل من أول الأسرة الحادية عشرة الى آخر الأسرة الثانية عشرة ، ونرى هنا ان الوحدة السياسية قد عادت الى البلاد على يد الملك « نب ـ حبت ـ رع » منتوحتب الثاني حوالي سنة ٢٠٧٠ ق . م . أي من منتصف الاسرة الحادية عشرة ، واستمرت حتى منتصف الأسرة الثالثة عشرة (حوالي سنة ١٧٥٧ ق .م) ونسميه « عصر الوحدة الثانية »

العصر السادس : ويطلق عليه العصر المتوسط الثاني ويشمل من الأسرة الثالثة عشرة الى آخر الأسرة السابعة عشرة ونحن هنا نسميه عصر تفكك الوحدة الثانية من منتصف الأسرة الثالثة عشرة الى الأسرة الخامسة عشرة أي من سنة ١٧٥٧ ق.م الى سنة ١٧٣٠ ق.م . وعصر حكم الغزاة الهيكسوس من حوالي سنة ١٧٣٠ ق . م الى سنة ١٥٨٠ ق.م . ويشمل من الاسرة الخامسة عشرة الى الاسرة السابعة عشرة .

العصر السابع : عصر الدولة الحديثة ويبدأ من الأسرة الثامنة عشرة الى أواخر الأسرة العشرين . ونحن نسميه « عصر الوحدة الثالثة » من حوالي سنة ١٥٨٠ ق . م الى حوالي

---

(١) هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان التحديد الذي اتخذه المؤرخون ـ وهو بناء الاهرام ـ لا يؤيدم فيما ذهبوا اليه من أن الدولة القديمة تنتهي بالاسرة السادسة فنرى فيما بعد أن الملك امنحات على سبيل المثال وغيره من بعده قد أقاموا اهرام مختلفة .

سنة ١٠٨٥ ق.م. (أي أنه بدأ على يد بطل حرب الاستقلال الملك أحمس الأول واستمر حتى عهد رمسيس التاسع.

وأهم ما لوحظ من مزايا عصور الوحدة القومية بجانب الازدهار في السياسة والحضارة ووحدة وادي النيل أن ملوك تلك العصور وجهوا نظرهم الى سياسة خارجية خاصة نستطيع أن نقول إنها أصبحت سياسة تقليدية لكل ملك قوي يعتلي عرش مصر الموحدة ، أخذها الخلف عن السلف لدرء الخطر عن أجزاء المملكة المصرية الموحدة تحت عرش ملك واحد

(العصر الثامن): ويبدأ من الاسرة الحادية والعشرين الى أواخر الاسرة الخامسة والعشرين أي من حوالي سنة ١٠٨٥ الى سنة ٦٦٣ قبل الميلاد ويطلق عليه عصر اضمحلال الامبراطورية ونحن هنا نسميه عصر تفكك الوحدة الثالثة .

وقد أطلقنا عليه هذه التسمية لأنه قبل وفاة آخر ملك من ملوك الرعامسة حوالي سنة ١٠٨٥ قبل الميلاد ضعفت سلطة الملك وقوي نفوذ كهنة آمون وخملت الروح الحربية بين المصريين . وقد أدت هذه العوامل التي ظهرت عند نهاية عصر الوحدة الثالثة إلى انقسام مصر إلى دولتين : احداهما جنوبية عاصمتها مدينة طيبة ويحكمها الملك حريحور ، وأخرى شمالية عاصمتها مدينة تانيس ويحكمها الملك نيسو بانب دد Nesubanebded (١) المعروف باسم سمنديس .

وقد اضطر الملوك في هذا العصر إلى استخدام الجنود المرتزقة من الليبيين وغيرهم مما دعا الى اسناد أكبر الوظائف الحربية الى الليبيين ، وقد ساعدهم هذا الى اعتلاء عرش مصر وتأسيس ما هو معروف في التاريخ بالأسرة الثانية والعشرين .

وكانت الممالك المجاورة لمصر آخذة في النهوض في تلك الآونة أي في عصر الاسرتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين فانتهزت فرصة التفكك والضعف في مصر وغارت عليها

---

(١) يظن كثير من العلماء أن Nesubanebded كان حاكما أو أميراً لمنطقة تانيس والواقع انه كان رئيس كهنة آمون وان حريحور كان رئيساً لكهنة آمون وقد ظن عنه Kees بأنه كان قائداً للجيش المصري ولكنا نرى ان حريحور جمع بين رئاسة الجيش ورئاسة كهنة آمون قبل توليه الحكم

من كل صوب ولم يقو ملوك مصر الضعفاء على حماية البلاد وضاعت أملاكها الاسيوية وفصلت النوبة عن مصر .

سعى ملوك النوبة [١] المتمصرين بمساعدة كهنة آمون على ضم مصر بقسميها ونجح الملك بعنخي في تأسيس أسرة نوبية في مصر وهي الاسرة الخامسة والعشرين غير أنَّ سلطتهم كانت ضعيفة في الدلتا لان عدداً من الامراء المحليين الاقوياء كان ينازعهم السلطة.

وفي ذلك الوقت كانت دولة الاشوريين قد اتسعت في آسيا حتى بلغت حدودها فلسطين مما سهَّل لهم التغلب على الدلتا حوالي سنة ٦٧٠ قبل الميلاد . ولكن الملوك النوبيين ظلوا في حرب معهم نحو عشر سنوات وأخيراً استطاع ملك الاشوريين المدعو آشور بانيبال طرد النوبيين فصارت مصر تحت حكمه مدة عشر سنوات وبقيت بها حامية منهم وعين حكاماً مصريين على الاقاليم المختلفة .

(العصر التاسع) : ويطلق عليه العصر الصاوي أو عصر النهضة المصرية وعصر الاسرة السادسة والعشرين . أما نحن فنسميه هنا بعصر وحدة مصر الرابعة وذلك لان إبسماتيك كان في أول الامر أميراً على سايس (صا الحجر) من قبل الاشوريين إلا أنه عمل على التخلص من حكم الاشوريين فاستمال باقي الامراء إليه وجلب الكثير من الجنود المرتزقة من الاغريق وقبل المساعدة التي قدمها له ملك ليديا الذي كان يريد هو أيضاً التخلص من سيادة الاشوريين فتمكن إبسماتيك حوالي سنة ٦٦٣ قبل الميلاد من طرد الحامية الاشورية ثم إخضاع الامراء الآخرين مستعيناً ببعضهم على البعض الآخر حتى استقل بمصر وأعاد الى مصر وحدتها الرابعة واعتلى عرش مصر باسم الملك إبسماتيك الاول وخلفه إبنه نخاو ونهج نهجه وعاد الى مصر مجدها ثم تولى الحكم بعدهما الملك أحمس الثاني .

وفي عهد إبسماتيك الثالث آخر ملوك هذه الوحدة أي حوالي سنة ٥٢٥ قبل الميلاد تغلب قمبيز ملك الفرس على مصر .

(العصر العاشر) : ويطلق عليه عصر استيلاء الفرس على مصر أو عصر الاسرة السابعة

---

(١) تمصرت النوبة تماما قبل انفصالها وعبد أهلها الآلهة المصرية لا سيما الاله آمون مما زاد فيها من نفوذ كهنته وكانت عاصمة ملوك النوبة المتمصرين جهة نباتا .

والعشرين ، ونحن نسميه بعصر تفكك الوحدة الرابعة أي من حوالي سنة ٥٢٥ الى سنة ٤٠٥ ق.م .

ولقد حكم مصر في هـذا العصر بعد قمبيز الملك دارا الأول وأراد أن يصلح ما أفسده سلفه من هدم المعابد المصرية الى قتل المعبود المصري العجل إبيس فأبدى احتراماً كبيراً للمعبودات المصرية وشيد معبداً لآمون بواحة سيوه وبالرغم من تحبب الفرس الى المصريين تمكن المصريون من طرد الفرس وأسس الفراعنة[1] الأسرة الثامنة والعشرين سنة ٤٠٥ ق.م.

(العصر الحادي عشر) : عصر وحدة مصر الخامسة ويشمل حكم ملوك الأسرة الثامنة والعشرين ثم حكم مصر ملوك الاسرتين التاسعة والعشرين والثلاثين ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ باستقلالهم طويلاً إذ تمكن الفرس من استعادة غزو مصر في عهد الملك نختنبو الثاني حوالي سنة ٣٤٢ قبل الميلاد وبقيت مصر تحت حكمهم الى سنة ٣٣٢ ق . ب أي الى أن انتزعها الاغريق على يد الاسكندر الأكبر .

(العصر الثاني عشر) : العصر اليوناني الروماني من سنة ٣٣٢ قبل الميلاد الى سنة ٦٤٠ ميلادية ونحن نطلق عليه اسم العصر القبطي المصري .

(العصر الثالث عشر) : من سنة ٦٤٠ ميلادية ونحن نطلق عليه العصر القبطي العربي .

....

(١) ورد اسم اول فرعون لهذه الاسرة في نص ديموتيقي « امون هور » بينما في نصوص المؤرخ مانيتون Amyrtaios

وحدة وادي النيل
في التاريخ القديم

كان وادي النيل منذ فجر التاريخ أي حوالى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد من البحر المتوسط شمالاً إلى حدود الحبشة جنوباً ، الذي يضم الوجهين البحري والقبلي ومعظم السودان الحالي — مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً — وكانت العلاقات بين شعوبه قائمة .

ولقد تطورت هذه العلاقات بطبيعة الحال تطوراً تدريجياً حتى وصلت ذروة الرابطة الوثقى .

فان اهتمام الفراعنة كان قوياً للسعي إلى توحيد أجزاء وادي النيل ويرجع هذا إلى سببين أساسيين :

أولها العلاقة الطبيعية والحيوية ، وثانيهما العلاقة القومية والسياسية.

وكان الدافع إلى هذا الاهتمام بوحدة وادي النيل جريان نهر واحد،في وادٍ واحد،ووطن واحد . وبالتالي ضرورة تبادل المعرفة والمنفعة بين سكان هذا الوادي وسائر أنحاء أطرافه المتدانية والمتباعدة ليكون التعاون بينهم سهلاً ميسوراً حول عرش ملك واحد وحكومة واحدة .

فان المشروعات المائية والتبادل الاقتصادي لابد للمحافظة عليهما أن يكونا تحت سلطة مركزية واحدة،لاسيما وأنه لا توجد حواجز أو حدود طبيعية بين أجزاء هذا الوادي .

وكان من نتائج الاهتمام بالوحدة ، أن التحم الملك مينا الذي يلقب بنعرمر حوالى سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد مع خصمه حاكم الوجه البحري في مكان مصر القديمة الحالية وأراق ما أراق من دماء في ميدان الحرب لا للغزو والفتح بل لصالح مصر العام حتى وفق أخيراً لضم الوجهين البحري والقبلي .

منذ ذلك التـاريخ ، تاريخ ، اتحـاد الوجهين ، شعر الجزء المتحـد من الوادي بقيمة الاتحـاد والالتفاف حول عرش ملك واحد ، وتذوق الشعب ثمار هذا الاتحاد ونعيم هذا الالتفاف .

وهنا لأول مرة في التاريخ القديم ابتدأ تعاون الشعب والحـكومة على وجوب ضم شمل شتات باقي أجزاء الوادي أي السودان تحت لواء ملك الوادي ملك مصر

وكان من الطبيعي ان الوادي الذي يجري فيه نهر واحد ، والذي تقوم أجزاؤه على أسس واحدة ، يجب أن يكون ملتفـًا حول عرش ملك واحد، وحكومة واحدة ونظام واحد، لضمان تبادل المنفعة العامة والمصالح المشتركة بين جميـع الناس سواءً بسواء، ولإقامة الحق والعدل بين الجميع ، والدفاع عن أرض الوطن من اعتداء البلاد المجاورة .

وكانت حالة مصر المتحدة قد بلغت من الحضارة شأواً فاقت به وقتئذٍ كل بلاد العـالم . فهي أول بلد ساد فيه نظـام الملـكية في حكومة مركزية تهدف إلى ادارة المصلحة المشتركة بين سكان وادي النيل .

وكان لهذه الحضـارة أثر ظاهر في مختلف نواحي العـلوم والهندسة والفنون والآداب والسياسة والقانون مما جعل مصر الفرعونية مصدر الحضارات القديمة ومهد العلوم والمعارف في العالم القديم .

إذ أن الملك مينا هو أول من أنشأ وظيفة الوزير في العالم القديم وكانت مهمته القيام بالأعمال الادارية والتفرغ لما فيه استتباب الأمن وسن القوانين وشق الترع وإقامة الجسور وغيرها من المصالح التي تهم الشعب المصري السوداني .

ولهذا ارتضى أهل الشمال والجنوب على وحـدة وادي النيل تحت تاج الملك مينا لجمع النيل السعيد بذلك شعوب الوادي قاصيها ودانيها حول عرش مصر ، وساهم كل فرد بنصيب في رقية بلاده واسعادها فيما خصص له .

وكان من نتيجة هـذه الوحدة أن أخذ النظام القضائي شكلاً رسميـًا فدونت القوانين ونظمت المحاكم بعد ان أخذت اللغة المصرية والـكتابة بها شكلاً ثابتاً لم تحد عنه طول حكم الفراعنة .

ومن الطريف أن نظام التسجيل المعروف لدينا الآن كان متبعاً في ذلك الوقت وكانت الملكية لا تنتقل إلا بالتسجيل ، كما روعي في الوصية أن تكتب على يد اخصائي بحضور شهود — وكان يكتب الموصى أنه حائز على جميع قواه العقلية والجسدية ، وكذلك عرف في ذلك العصر نظام الضرائب على الأملاك : المنقول منها والثابت .

نهضت مصر حينذاك نهضة علمية تدعو إلى الاعجاب فقد عرف التخصص في المهن فكان هناك طبيب للعيون وطبيب للاسنان ومهندس ري وهكذا .

ويرجع الى عصر وحدة وادي النيل الأولى تقدم حساب الدورة الشمسية وتقسيم السنة الى اثنى عشر شهراً ، وتقسيم النهار والليل الى ساعات ، وكذلك عرف هذا العصر بتقدم فنون المعمار والنحت .

وكان مصريو ذلك العصر أول من نفخ في البوق في النداءات العسكرية ، وأول من دق على الطبل لتنظيم السير في المناورات الحربية بخطوات عسكرية واحدة ، وأول من ابتدأ السير في الاستعراضات العسكرية بالساق اليسرى على خلاف ما تعتقد الأمم الحديثة الآن بأنها هي التي ابتكرت هذا النظام .

وكأن النيل قد شعر بحاجيات سكانه فزادهم ربطاً أوفر ، وتكاتف سكان الوادي في تقوية الروابط بينهم وازدياد النفع المتبادل ، فوجهوا همهم للنيل فسكنوا واديه الخصيب وأخذوا يراقبون مواعيد فيضانه فزرعوا وحصدوا ورسموا الأعمال الهندسية فأقاموا الجسور وبنوا الخزانات وحفروا الترع ، فسهل لهم السفر في قوارب وسفن لتبادل المعرفة ومبادلة التجارة والمصالح . ولا سيما أن اختلاف أنواع المحاصيل المصرية والسودانية طبقاً لاختلاف الحرارة في البلدين ساعد على مبادلة التجارة وتقدمها .

وكفل النيل بذلك لهذا الوادي وسكانه كل أسباب قيام الحضارة واستقرارها فيه و قيام الصناعات التي ترتبت على وجود الزراعة كالنسيج وغيره .

هذه أمثلة قليلة لمزايا عصر وحدة وادي النيل الأولى يظهر فيها بعض ما وصل إليه المصريون في نواحي النشاط المختلفة من نتائج رائعة كانت ثمرة اتحادهم والتفافهم حول عرش ملك واحد وتمسكهم به في ولاء ووئام .

والذي يقدر ما للنيل من مآثر غراء على مصر والسودان وسائر بلدان واديه من أهمية حيوية، لا تكبر عليه مغالاة قدماء المصريين في وصمه وصماً مقدساً، ورفعه الى مرتبة الآلهة وإطلاقهم عليه الاسم المسجل تسجيلاً خالداً «حاعبي» إذ أنه صاحب الفضل الاول في حفظ حياتهم وهذا ما أوحى الى هيكاتيه الجغرافي اليوناني كلمته المشهورة «مصر هبة النيل» نقلها عنه المؤرخ هيرودوث وقد صدقا في ذلك لأن كيان مصر الاقتصادي قائم على أساس الري والزراعة، فمن طميه الذي يجلب من الحبشة عاماً بعد عام تكونت تربة الوادي الخصيبة السوداء وقد كان المصريون القدماء يطلقون على مصر اسم كمت أي الأرض السوداء وبقيت في اللغة القبطية Xhmi أي مصر.

وينبع النيل من الجنوب ويتجه شمالاً على عكس نهر الفرات الذي ينبع من الشمال ويتجه جنوباً ولذلك سماه قدماء المصريين النهر المعكوس، بالنسبة لنيلهم. وهذا يدل على ما كان للنيل من أثر في تفكير قدماء المصريين.

واحتفلوا بعبادة النيل وأقاموا له الأعياد السنوية ولا يزال المصريون يحتفلون بفيضانه الى اليوم وفاء لما أنعم عليهم من خصوبة ونماء.

وقد ترامت أخبار ما عم مصر والسودان من اصلاح في ذلك العصر الى الأقاليم المجاورة للوادي، فرحبت ليبيا بفكرة الانضمام تحت لواء ملك وادي النيل وتم لمصر ذلك بعد حرب لم يطل أمدها.

فعلمت مصر العالم القديم قواعد الحضارة وأصولها ونشرت نور مدنيتها على جاراتها مختلفة في ذلك شدة أو ضعفاً بحسب ما هيأت لها الظروف ذلك.

زعمت مصر بذلك أقطار الشرق في تاريخها القديم واشتركت في تقديم التفكير البشري كما تزعم هي الآن أمم الشرق في التاريخ الحديث.

وظلت مصر والسودان محتفظين بوحدتهما زمناً طويلاً وأخذت العلاقات تقوى وتزداد بين القطرين الشقيقين حتى حوالي سنة ٢٨٠٠ قبل الميلاد حين راجت سوق التجارة بين شمال الوادي وجنوبه عن طريق القوافل.

وكانت تلك القوافل تختلف تمام الاختلاف عما نتصوره الآن عند ذكر اسمها من صف

الجمال الذي يخترق الصحراء ، إلى صف من الحمير يحمل كل منهـا العاج والذهب الأبنوسي من السودان، كما كانت تستعمل أيضاً في نقل المحاصيل الزراعية من مصر الى السودان .

وكانت تستعمل السفن أيضاً لنقل البضائع وغيرها بين القطرين بالنيل .

إلا أن هذا الطريق المائي بين مصر والسودان كان ضيقاً وعراً — وقد حدت أهمية هذا الطريق الحيوي بالكثير من ملوك مصر الاقدمين للاهتمام بدراسته ، وكان أول ما ظهر من هذا الاهتمام أن رأى الملك مري ـ أن ـ رع حوالي سنة ٢٥٧٠ قبل الميلاد تكليف أحد كبار موظفيه المختصين المدعو « اوني » حفر خمس قنوات عند مناطق الشلالات لتسهيل سير السفن بين مصر والسودان .

والظاهر أن حفر هـذه القنوات كان جزءاً من سياسة عامة تنطوي على ترقية الملاحة وعلى كشف كل الجهات الجنوبيـة من الوادي كشفاً منظماً للتعرف عليها ولمعرفة السودان كامل المعرفة بأرضه وأهله وموارده ، وتحسين طرق التجارة والعمل على انمائها بين مصر والسودان ، فملكوا بذلك زمام البر والبحر ، وكان هذا النشاط تمهيداً مستمراً للمصلحة العامة المشتركة بين القطرين الشقيقين ،لأن مصر والسودان مرتبطان بروابط طبيعية وقومية كما ذكرنا .

ولقد كان توحيد شمال الوادي وجنوبه سبباً في تسهيل رحلات نهرية استكشافية كقيام أحد أمراء أسوان المدعو Hw - i - Hor بأربع رحلات إلى السودان في عهد الملك مري ـ أن ـ رع حوالي سنة ٢٥٧٠ قبل الميلاد .

* * *

ويعتبر Hw - i - Hor هـذا في نظر التاريخ الكاشف الاول لمجاهل الاصقاع الواقعة في وسط أفريقيا .

فكان للسودان أثره العظيم في تسهيل هـذا الكشف إذ أنه كان بقعة مصرية آمنة مطمئنة .

وظلت مصر محتفظة بوحدتها وبالتالي ظلت وحدة وادي النيل قائمة ، وقد أدى الاتحاد الى كثير من الخير ، فركزت جهود بني الوطن مجتمعين الى سعادته ورفاهيته ، وعم الرخاء الزراعي والاقتصادي بلاد وادي النيل زمناً طويلاً الى أن انقسمت مصر فترة وجيزة

بسبب المنازعات الداخلية حتى جاء الملك نب — حبت — رع الذي يلقب بمنتوحتب الثاني في الأسرة المصطلح عليها بأنها الأسرة الحادية عشرة فأعاد الى مصر الفرعونية وحدتها للمرة الثانية حوالي سنة ٢٠٧٠ قبل الميلاد وكان هذا العصر استمراراً في تقدم الحضارة والمدنية والعلوم، واطراداً في تطور ما وصلوا اليه في عصر الوحدة الأولى .

واقتنع الشعب المصري مرة أخرى بأن رفاهيته وعظمته في الاتحاد وفي الالتفاف حول العرش .

ونجح الملك نب — حبت — رع في ضم أجزاء الوادي فوفق ملك مصر لضم السودان ثانية كما سجل ذلك وزير مالية هذا الملك المدعو خيتي على جرانيت أسوان وأصبحت هذه الفكرة الوطنية فكرة وحدة وادي النيل تحت تاج ملك مصر برنامجاً وطنياً لكل ملك يعتلي عرش مصر .

واستمرت وحدة وادي النيل الثانية مدة من الزمن فأعيد ما بين طرفي الوادي من ود وصفاء ولكنه في العام التاسع والعشرين من حكم الملك امنمحات الأول أول ملوك الأسرة المصطلح عليها بالأسرة الثانية عشرة حوالي سنة ١٩٧١ قبل الميلاد بدأ اضطراب على الحدود الجنوبية فأرسل الملك أمنمحات ولي عهده الشاب وشريكه في الحكم المدعو سنوسرت الى السودان فنجح في تهدئة الحالة .

وعندما تولى سنوسرت بدوره حكم وادي النيل تولى قيادة إحدى الحملات التأديبية بنفسه الى السودان لتأمين حدود الوادي الجنوبية ضد المغيرين فنجح . وهكذا تجشم من الصعاب ما ذللها اعتقاده بأن سلامة الوطن لا تقوم الا بوحدة واديه .

ثم التفت الملك المصري الى أهمية السودان من الناحية الحيوية لمصر فرأى من خير الوسائل لتحقيق أمنيته تعيين «حبجا فى» حاكم أسيوط المصري الجنسية حاكماً عاماً للسودان معلناً بذلك اهتمامه بأدارة شؤون السودان ومؤكداً بأن نفع السودان وخيره يرتكزان على الانضمام والاتصال لا البعد والانفصال .

وبلغ من إعزاز هذا الحاكم للسودان أنه بالرغم من وجود مقبرة له في أسيوط إلا أنه آثر أن يدفن في مقر عمله ببلدة « كرما » الواقعة بالقرب من الشلال الرابع مما يدل على أن

مصر والسودان كانت وطناً واحداً في نظره .

وبعدئذٍ أجرى هذا الملك سنوسرت تعديلاً في سائر الشؤون الكفيلة لنفع القطرين فعدل النظام الاداري في مصر بتعيين وزير ثانٍ الى جانب الوزير الاول يختص أحدهما بشؤون الوجه البحري ويختص الثاني بشؤون الوجه القبلي .

وفي عهد الملك سنوسرت الثالث حوالي سنة ١٨٨٧ الى سنة ١٨٥٠ قبل الميلاد حفر قناة في النيل في مناطق الشلال الجرانيتية بعد أن تهدمت مع مرور الزمن القناة التي حفرها أوني الذي سبق ذكره في عهد الملك مري - أن - رع ، فضمن سنوسرت الثالث بتجديده القناة استقرار الصلة بين مصر والسودان ، وسميت هذه القناة بطريق سنوسرت الجميل - وقد ظلت هذه القناة مستعملة إلى عهد الملك تحتمس الثالث أحد ملوك عصر الوحدة الثالثة تقريباً .

وزيادة في تأمين حدود السودان أقام هذا الملك سنوسرت الثالث — حصنين متقابلين أحدهما في سمنه (جنوبي وادي حلفا أي بين الشلالين الثاني والثالث) والآخر في قه لكي يضمن بذلك سلامة البلاد واستتباب الامن ، ولا تزال آثارهما باقية لتتحدث عن الدقة في اختيار مراكز التحصين بما ينم عن روح هندسية بارعة .

ثم أقام عدة قلاع لصد غارات الثائرين ولإمكان مراقبة جميع الطرق الموصلة الى وادي النيل والذود عن كيان الوادي وحفظ سلامته .

وهذه القلاع كانت تكون سلسلة من أربع عشرة بلدة محصنة تمتد من هاتين القلعتين جنوب الشلال الثاني وتمتد شمالاً الى اسوان — وبديهي أن يكون لهذا النجاح العسكري مقابل من الرخاء المادي كما تشهد بذلك بعض النقوش المصرية .

وتحسن الاشارة هنا الى أن أقدم اتصال مائي بين البحر المتوسط والبحر الأحمر منذ عهد هذا الملك ، كان يجري لمسافةٍ معينة متبعاً نفس الطريق التي تجري فيها قناة السويس الحالية ، وفي هذا ما فيه من مصلحة ومنفعة للسودان .

وقد اقتضى تبادل المنفعة بين مصر والسودان ان يضع الملك أمنحات الثالث حوالي سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد مقاييس للنيل في بلدة سمنة السابقة الذكر للتعرف بها على أحوال النيل

من حيث ارتفاع مياهه أو انخفاضها . وفي الحق ان مسألة النيل ومياهه من أهم مقومات وحدة وادي النيل التي لا غنى للسودانيين والمصريين عنها .

وجعل من هذه المقاييس فضلاً عن فائدتها للري معياراً لرخاء ذوي الأراضي الزراعية وأساساً للنظام المالي تجبي بمقتضاه الضرائب .

* * *

ولست أريد أن أطيل في ذكر أعمال كل ملك من ملوك عصر الوحدة الثانية خاصة وأني أوردت أمثلة عدة تبين مختلف وجوه النشاط المصري في السودان، فمن مشروعات مائية إلى عمرانية إلى حربية .

وغني عن البيان ان المصريين كانوا يبذلون كل ما في وسعهم من جهد لاسعاد السودانيين وتوفير كل خير لهم فسمحوا لاخوانهم السودانيين بالانضواء تحت راية جيش ملك مصر، ومنهم من كان ينتخب ضمن رجال الشرطة أيضاً . وقد استمر الحال على هـذا المنوال طوال العهد الفرعوني . وما زالت الشواهد تظهر في كل عصر ودور لمن يمعن النظر حتى الآن . إذ نرى في وقتنا الحاضر بوليساً من السودانيين يسمى « بوليس الهجانة » ومركزهم الرئيسي بلدة عين شمس الأثرية ، فنرى أن التـاريخ يعيد نفسه ويدل على أن السودان ومصر جزء لا يتجزأ .

واستمرت هذه العلاقات الطيبة في تاريخ البلدين تزداد وتقوى حتى نهاية عصر وحدة مصر الثانية أي حوالي سنة ١٧٥٠ قبل الميلاد

وظلت مصر محتفظة بعظمتهـا طوال أيام مجدها حتى شعر رجال الجيش وحـكام الاقاليم بقوتهم فأخـذوا يتعدون عن العرش ويحاول كل منهم الانفراد بالسلطة والجاه ، وبدأ التناحر والتنازع بينهم وقد أدى ذلك الى ضعف مصر فداهمها العدو المعروف في التاريخ باسم الهيكسوس واستولى على جزء كبير منها كان ذلك حوالي عام ١٧٣٠ قبل الميـلاد وظل الأجنبي يستعمر مصر حوالي قرن ونصف قرن إلى أن شعر المصريون بخطإهم وعرفوا أن التناحر على الحكم والانقسام وعـدم الالتفاف حول العرش كان سبب نكبتهم وتفكك وحدتهم واحتـلال بلدهم فقاموا قومة رجل واحـد ملتفين حول الملك أحمس الأول (بطل حرب

الاستقلال في دورها الأخير) فتمكنوا من طرد المستعمرين الأجانب حوالي سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد من أرض الوطن .

وعادت مصر للمرة الثالثة إلى مجدها القديم بفضل وحدتها والتفافها حول مليكها .

وبعد أن انقشعت غمة الاستعمار بطرد المحتلين وبعد وحدة مصر والتفاف شعبها حول ملك مصر نجد أن العلاقات بين مصر والسودان يتصل حبلها من جديد في صورة رائعة ، وكانت هذه الوحدة هي الشعلة الوقادة التي تضيء للوادي سبل الحياة والحضارة

ونجد أن منصب حاكم السودان العام يعاد ويضاف لشاغله لقب الابن الملكي للسودان وليست كلمة ابن هنا معناها أن يكون الحاكم حقـًا من أبناء البيت المالك ولكن هذا اللقب في الواقع معناه أن حاكم السودان مقرب من الملك وله شرف الاتصال بمليك الوادي وفي هذا اللقب اشارة جليلة وجلية الى اظهار عدم تفريق ملك الوادي بين مصر والسودان من جهة الحكم والادارة كما ان فيه أيضاً شعوراً سامياً لأهل السودان بأن ملك مصر قد أرسل لهم من هو في حكم ابنه ليدير دفة شؤون البلاد الشقيقة .

ومن طريف ما يحدثنا به التاريخ القديم في هذا الصدد أنه عندما تولى الملك تحتمس الأول عرش الوادي حوالي سنة ١٥٣٧ قبل الميلاد أرادت الحكومة المصرية ارسال نبأ تولية الملك الجديد على عرش الوادي فكتبت ما معناه :

« أمر ملكي إلى حاكم السودان العام المدعو توري لكي تعلم ان جلالة الملك تحتمس أصبح ملك الشمال والجنوب ولكي تنشر ألقابه ولكي تعلن بأن حلف اليمين أصبح باسم الملك تحتمس . . . »

وكان من اختصاص حاكم السودان العام تصريف الشؤون الادارية والاشراف على المسائل القضائية والمالية .

ويحدثنا التاريخ أن كل حاكم عام للسودان كان بادارته الحازمة يعمل على رخاء البلاد الشقيقة ونشر الأمن فيها .

وكان مركز حاكم السودان العام أحد المناصب الكبيرة في تاريخ مصر الفرعونية وله من المسئوليات ما لا يقل عن منصب الوزير نفسه . فكما كان للملك حق تعيين الوزير فإنه

الحق أيضاً في عزله ، وكما كان للملك مصر وحده حق تعيين حاكم السودان العام كان له وحده حق عزله .

وكان وجود منصب حاكم السودان العام على هذه الصورة وبهذا اللقب أقوى برهان على اعتبار السودان جزءاً من مصر وعلى اعتبار السودان أرضاً مصرية .

ولقد استمر الصفاء ناشراً أجنحته على وادي النيل مصره وسودانه وزادت الروابط الثقافية بين البلدين فأنشأ ملوك مصر بلاداً مصرية في السودان وأقاموا فيها المعابد المصرية لتوحيد اللغة والعبادة بين أطراف الوادي فعلى سبيل المثال أقام الملك تحتمس الثالث معبداً على نسق معبد الكرنك لعبادة الإلـه آمون في بلدة نباتا بالقرب من الشلال الرابع .

كذلك نعلم أن المصريين قد أسسوا مصانع ومتاجر في مختلف أنحاء السودان لكي يسعد أهل السودان من جراء تعليم الحرف والصناعات فيمكن للسودان بذلك أن يجاري مصر في نهضتها الصناعية وفي رقيها التجاري والاقتصادي .

وكانت مظاهر الوادي كله مصبوغة بصبغة واحدة هي الصبغة المصرية فنجد على سبيل المثال في مقبرة « حوى » حاكم السودان العام في عهد الملك توت عنخ آمون حوالي سنة ١٣٤٠ قبل الميلاد رسماً يمثل وفداً سودانياً حضر الى مصر ليقدم فروض الولاء والطاعة لملك مصر ويحمل الهدايا اليه ، ومما يستحق الذكر أن أعضاء هذه البعثة كانوا يرتدون الملابس المصرية ، أي أنهم كانوا مصريين في حياتهم الخاصة وحياتهم العامة وبذلك استوى الشعبان المصري والسوداني في النهضة والرقي .

وظلت مصر والسودان محتفظة بوحدتها زمناً طويلاً واستمرت العلاقات تقوى بين مصر والسودان فقد زار الملك حور محب السودان حوالي سنة ١٣٠٠ وعند رجوعه نراه ممثلاً على جدران معبد جبل السلسلة محمولاً في محفة على أكتاف صفوف من جنوده كل صف يتكون من ستة من الجنود يتقدمه فريق من فرق الجيش السوداني . وهذا يرينا إلى أي حد امتزج السودانيون بالمصريين واشتركوا في أعيادهم وحفلاتهم ويرينا أن فكرة استعمار المصريين للسودان غير صحيحة .

كما كان من أهم أعمال الملك رمسيس الأول الداخلية اصلاح الطريق الموصلة الى مناجم

الذهب بصحراء النوبة الشرقية وهذا يعود بالخير الوفير على مصر والسودان معاً .

ومن الطريف أن نذكر أننا نجد الكهنة في حفلة تتويج الملك رمسيس الثاني الذي حكم من حوالي سنة ١٢٩١ الى سنة ١٢٢٤ قبل الميلاد يحملون تماثيل بعض الملوك الذين حكموا قبل عهد هذا الملك على الترتيب الآتي :— الملك مينا ، ثم نب حبت رع ، ثم أحمس .

وهكذا يسجل التاريخ ان أقدس ما يمثله الملوك والحكام إيمانهم بتخليد صحائف العزة القومية فتعرض في مواسم جلوسهم على عرش آبائهم وأجدادهم علائم النهضة ومواكب الأمجاد ومفاخر الأجيال ، إذ أن هذه الاسماء الثلاثة كانت ترمز في أفكار قدماء المصريين الى أهم أعلام وحدة وادي النيل .

وخلاصة القول إن الآثار والنصوص تملأ الوادي من الشمال الى الجنوب . وتنوه بوحدة الأغراض الداخلية والخارجية للقطرين الشقيقين وتؤيد حق مصر في السودان .

فالقطران الشقيقان يرتبطان بعرى النيل الوثيقة منذ فجر التاريخ حتى عصرنا الحالي لاغنى لأحدهما عن الآخر .

ويعيد الآن التاريخ نفسه في اجماع شعب الوادي — مصره وسودانه — على الالتفاف حول مليك الوادي فاروقنا المحبوب الساعي لتحقيق أهداف الوادي القومية والحيوية . حفظ الله الملك لمصر ذخراً ولشعب الوادي قدوة وفخراً .



أهم أعلام وحدة وادي النيل

١ — الملك نب حبت رع

مؤسس الدولة الوسطى (عصر الوحدة الثانية)

حوالي سنة ٢٠٧٠ قبل الميلاد

اختلفت الآراء في تعيين مؤسس الدولة الوسطى[١] ، فزعم البعض أن ذلك المؤسس هو أول ملوك الأسرة الحادية عشرة ، أي — في تقديرهم — الملك انتف (واح عنخ)[٢] . ورأى آخرون أن المؤسس الحقيقي للدولة الوسطى هو الملك أمنمحات الأول أول ملوك الأسرة الثانية عشرة[٣]

والرأي عندنا أنه لا هذا ولا ذاك، وانما هو « نب ـ حبت ـ رع » ، وذلك لما نورده من اعتبارات فيما يلي :

أولاً : يقول أصحاب الرأي الأول أن الملك انتف (واح عنخ) هو مؤسس الدولة الوسطى ، لأنه أول ملوك الأسرة الحادية عشرة، وقد أثبتت الحفائر الأخيرة خطأ هذا الرأي ، لأن حفائر المعهد الفرنسي بالقاهرة في منطقة « طود » كشفت لنا عن ملك غير معروف من قبل يدعى انتف (سهرتاوي)[٤] ، وقد تولى المُلك قبل انتف (واح عنخ) فليس لنا بعد ذلك أن نعتبر أنتف (واح عنخ) أول ملوك الأسرة الحادية عشرة ، ولهذا لا نأخذ بهذا الرأي ثم إننا لا نرى أن نجعل مبدأ الأسرة بدءاً للدولة ، لأن الدولة إنما تبدأ حين تتم وحدة البلاد ، فتتجمع أقسامها تحت سلطان ملك واحد . والواقع أن انتف

---

(١) الدولة الوسطى هي القسم الثاني من الاقسام القومية الثلاثة الكبرى التي قسم بها التاريخ المصري القديم في عهد الاسرات الفرعونية ، وكان فراعنة مصر في أثنائها يحكمون مصر الموحدة .

(٢) من أنصار هذا الرأي Breasted في كتابه History of Egypt صفحة ١٣١ ، ٢٣٣ .

(٣) من هذا الفريق Junker في كتابه Die Aegypter صفحة ٨٧ .

(٤) راجع Vandier, Un Nouvel Antiq. de la XI Dyn. (Bulletin de l'Inst Fr. XXXVI)

(واح عنخ) لم يقم بهذا التوحيد ، وإنما رجعت الى مصر الوحدة القومية على يد الملك « نب-حبت-رع » ، بعد أن سادتها الفوضى قبيل أواخر الأسرة الثامنة، وبعد أن انقسمت البلاد المصرية الى قسمين متعاصرين ، أحدهما تحت حكم ملوك البيت الإهناسي ، والآخر تحت حكم ملوك طيبة[1] . ويثبت ذلك أن الملك نب-حبت-رع قد سجل على حوائط معبده في « جبلين » مفاخرته بقهره المصريين والاجانب على السواء ، فنجده يصف نفسه في المناظر المنقوشة على إحدى القطع بأنه « قهر رؤساء القطرين ، ووطد الأمن في الشمال والجنوب وكذا في البلاد الأجنبية ، وفي البلدتين (أي العاصمتين) » . فهذا النص يدل على أنه وحد الوجهين ، وأخضع البلاد المجاورة — هذا وإن المناظر المنقوشة تحت ذلك النص على نفس القطعة السابقة تمثل الملك وهو يضرب أربعة من أعدائه ، وهم يمثلون بالتتابع (١) المصريين (٢) النوبيين (٣) الأسيويين (٤) الليبيين : فالعدو الاول ولو انه لا توجد فوقه كتابة تدل عليه إلا أن شكله يدل على أنه مصري ، ومعنى ذلك أن الملك حارب المصريين وانتصر عليهم سواء في ذلك أهل مصر الوسطى والوجه البحري ، ولم يميز الملك بين عدوه المصري وعدوه الاجنبي فوضع المصري مع أعدائه الاجانب ، وبعبارة أخرى أن الملك لم يفرق بين انتصاره على الوجه البحري أو مصر الوسطى وانتصاراته على البلاد المجاورة لمصر .

ويظهر أن هذه الحرب التي شنها هذا الملك على مصر الوسطى أدت الى سقوط آخر ملوك الاسرة العاشرة في إهناسيا، وبذلك تمكن هذا الملك من حكم مصر الموحدة .

أما العدو الأسيوي المهزوم فيرمز الى نصر الملك على الأسيويين القاطنين في شمال الدلتا الشرقية ، وهذا يؤيد ما نقوله من أن نب-حبت-رع وحد مصر ، لأنه لا يستطيع هزيمة الأسيويين إلا بعد بعد أن يتم له الاستيلاء على مصر الوسطى والدلتا .

أما النصر على العدو الليبي فلا يتصور إلا إذا كانت سيادة الملك قد امتدت على حدود مصر الغربية .

(١) وطبيعي ان هذا التوحيد الذي تم في عهد نب-حبت-رع لم يتم في يوم وليلة، بل مر بأدوار طويلة وحروب كثيرة بين ملوك اهناسيا أي ملوك الاسرتين التاسعة والعاشرة وبين أمراء طيبة الذين كونوا في التاريخ ما هو معروف بالاسرة الحادية عشرة.

ثانياً : والدليل الثاني على ما نرى أننا نجد اسم الملك « نب ـ حبت ـ رع » يظهر كثيراً على آثار متأخرة ، لانه كان معتبراً أهم ملك في الأسرة الطيبية الاولى . بل نجد برهاناً أدل على ذلك إذ قد ورد اسم هذا الملك في معبد الرامسيوم[1] بين اسم الملك مينا مؤسس الدولة القديمة واسم الملك أحمس الأول مؤسس الدولة الحديثة فنجد الكهنة في حفلة تتويج رمسيس الثاني يحملون تماثيل بعض الملوك الذين حكموا قبل عهد رمسيس الثاني على هذا الترتيب: الملك مينا . ثم الملك نب ـ حبت ـ رع، ثم الملك أحمس الاول ، ثم باقي ملوك الأسرة الثامنة عشرة ما عدا الملكة حتشبسوت ، ثم ملوك عصر العمارنة، فالملك حورمحب ، فرمسيس الأول، ثم سيتي الأول ، ورمسيس الثاني .

* * *

واننا نلاحظ أن اسم هذا الملك قد ذكر بين أسماء مينا وأحمس ، وهما ملكان يرمزان في عقلية المصريين القدماء إلى ابتداء عصرين عظيمين في التاريخ المصري القديم ، فمينا هو مؤسس الدولة القديمة وأحمس هو مؤسس الدولة الحديثة . وهذا الوضع يدل بداهة على أن « نب ـ حبت ـ رع » كان يعتبر أيضاً أنه ابتدأ عصراً جديداً ممتازاً في تاريخ مصر ، وهو المعروف « بعصر الدولة الوسطى » ، لانه وحد مصر كما وحدها من قبله مينا ومن بعده أحمس[2] .

فمن هذا نستدل على عظمة « نب ـ حبت ـ رع » تلك العظمة التي نوه بها من خلفه من الملوك لتوحيده مصر من جديد .

ثالثاً : من الواضح أن الملك نب حبت رع كان اسمه قبل أن يتم له توحيد مصر «نب-حبت-رع ، ذا التاج الأبيض المقدس «منتوحتب» ، فلما وحد الوجهين استبدل باسمه الحوريسي اسماً مناسباً لموقفه الجديد وهو «سماتاوي» ، أي موحد الارضين ، (والمقصود

....

(1) R. Lepsius, Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien, III Tafel 163

(٢) ومما يلاحظ في هؤلاء الثلاثة أنهم من الجنوب ، وان كلا منهم استولى على الدلتا ، أي أن كلا منهم حكم وجهي القطر المصري على أساس غزوه للدلتا ثم مد سلطانه على الشمال .

بهما الوجهين القبلي والبحري) . فأصبح اسمه نب ـ حبت ـ رع السما تاوي (١). فهذا الاسم أيضاً يدل على أن الملك « نب ـ حبت ـ رع » قد حكم الوجهين القبلي والبحري وكذلك شمل نفس التغيير لقب نبتي ، أما الاسم الشخصي فقد بقي في الحالتين « منتوحتب » . وكذلك اسم العرش أو اسم التتويج ، فقد بقي في الحالتين واحداً في النطق ، ولا عبرة باختلاف الرسم (٢). وقد كان الباحثون من قبل يعتقدون أن اسمي « نب ـ حبت ـ رع ذي التاج الابيض ، ونب ـ حبت ـ رع ـ السما تاوي » أطلقا على ملكين مختلفين لا على ملك واحد ، ويقولون إن معبد الدير البحري الذي يرجع تاريخه إلى الاسرة الحادية عشرة (٣) إنما بناه ملكان اسم أحدهما « نب

....

(١) ولتأييد هذا أضيف أن ظاهرة تغيير أسماء الملوك موجودة في تاريخ مصر القديم قبل عصر هذا الملك ، ولنذكر خاسخم على سبيل المثل فقد غير اسمه الى خاسخموي . راجع :
G. Möller, Namenwechsel von Königen des olten Reichs و K. Sethe, Zunt Namenswechsel des Königs Pipj I. (طيبي بعده اخناتون وتوت عنخ آمون وحرمه)

(٢) نجد اختلافاً كبيراً بين العلماء حول قراءة خرطوش هذا الملك ففريق من العلماء ، وعلى رأسهم برستد (Anc. Records, Hist. of Eg.) ودريتون مثلا E. Drioton et J. Vandier, Les Peuples de l'Orient Méditerranéen, 1938 p. 234) يلقبه بلقب « نب ـ خرو ـ رع » ، وفريق آخر من العلماء وعلى رأسهم نافيل في كتابه Naville, the XI Dyn. Temple at Dier - Bahari p. 3-5 و Sethe, ä Z. 62 (1927) . Hall, History of the Near East يلقبه بحق بلقب « نب ـ حبت ـ رع » . أي أن الخلاف منحصر في قراءة العلامة المقذاف هل تقرأ « خرو » أو « حبت » ، ولكن كلا من الاستاذين Naville و Sethe قد أثبت بحق أن هذه العلامة « المقذاف » تقرأ في هذه « حبت » ، لا سيما وأن اسم هذا الملك قد ورد لنا في بردية Abbott مكتوباً منتهياً بحرف التاء ، فهذا يثبت لنا أن علامة « المقذاف » لا يمكن في هذه الحالة أن تنطق « خرو » . وعلى هذا الاساس يكون النطق الاصح لاسم هذا الملك هو « نب ـ حبت ـ رع » . ومن الجائز أن اختلاف العلماء في قراءة هذه العلامة هو الذي أدى البعض الى أن يظن أن هناك ملكين بدلا من ملك واحد .

(٣) قوة هذا الملك وعظمته تتجلى بأوضح بيان في معبده الجنائزي في الدير البحري ، فانه بعد أن تمكن من القضاء على الحروب الاهلية ، وبعد أن عمل على راحة الشعب وعلى وجود السلام والتقدم بعد عصر الفوضى والاضطراب ، عمل في بناء معبده العظيم الذي كان يعتبر في عصره أكبر وأهم بناء في العاصمة طيبة . وهو يقع جنوبي معبد حتشبسوت ، وقد ابتدأت الحفائر للبحث عن هذا المعبد سنة ١٩٠٣ ، وقام بها الاستاذان Naville و Hall ، وكانت نتيجة حفرهما أنهما أخرجا للعالم بناء عظيما لا يخضع لقواعد البناء التي كانت معروفة قبل ذلك ، وهذا المعبد قد أوحى فيما بعد الى المهندس Sen-n-mut بالفكرة التي بنى عليها معبد الدير البحري الخاص بالملكة حتشبسوت .

حبت ـ رع ـ ذي التاج الابيض» ، واسم الثاني « نب ـ حبت ـ رع (نب ـ خرو ـ رع)
السماوي » .

ولكن البحوث الفنية المعمارية كانت تناقض فرضهم وتضعف حجتهم، لان H. Bonnet [(1)]
أثبت أن معبد منتوحتب نب ـ حبت ـ رع الموجود بالدير البحري من بناء ملك واحد لا ملكين

أما نحن فقد بينا أن الملك حمل الاسمين جميعاً ، ورفضنا قول الذين جعلوه ملكين حكما على التعاقب ، ونحن بهذا نقدم برهاناً جديداً على صحة رأي Bonnet . فلنا إذن أن نفترض أن الملك « نب ـ حبت ـ رع » بدأ في بناء هذا المعبد قبل توحيد البلاد المصرية ثم انتهى من بنائه بعد التوحيد[(2)].

رابعاً : مما يؤيد قيام هذا الملك بتحقيق الوحدة المصرية تمثال له في المتحف المصري يمثله لابساً تاج الوجه البحري الأحمر .

خامساً : نجد رسماً لهذا الملك في جهة « شط الرجال » [(3)] (بالقرب من أسوان) ، يحمل على رأسه تاج الوجهين القبلي والبحري ، وذلك يؤيد النتيجة السابقة .

فمن كل هذه الادلة يثبت لنا أن « نب ـ حبت ـ رع » أول من وحد المملكة المصرية في عهد الأسرة الحادية عشرة . وعلى هذا الاساس يكون هو المؤسس الحقيقي للدولة الوسطى ، وليس أنتف الأول

وكذلك لا يمكن الاخذ بالرأي الثاني ، وهو رأي يونكر وغيره من العلماء ، من أن أمنمحات الاول هو المؤسس الحقيقي لهذه الدولة، لاننا أثبتنا الآن أن أول من قام بتوحيد المملكة في هذا العهد هو الملك « نب ـ حبت ـ رع » ، وهو سابق لامنمحات، ونحن نعلم تمام العلم أن توحيد المملكة استمر في عهد من خلفه من الملوك، فحادث استيلاء « نب ـ حبت ـ رع » على كل أرض مصر وتوحيدها من جديد حادث تاريخي هام جداً .

وعلى العموم فقد كان هذا الملك رجلاً عظيماً وحد البلاد، فبدأ بذلك عصراً جديداً

(1) H. Bonnet : Zur Baugeschichte des Mentuhoteptempels (ä, Z 60 40)

(2) فلكل هذه الاسباب مجتمعة سأجعل من « نب ـ حبت ـ رع ذي التاج الابيض » و « نب ـ حبت ـ رع السماوى » شخصية واحدة تحت اسم الملك « نب ـ حبت ـ رع » منتوحتب الثاني .

(3) انظر Maspero : The Dawn of Civilisation p 463.

ممتازاً في تاريخ مصر . وقد أنشأ عاصمة جديدة هي طيبة ، فاشتركت هذه المدينة لأول مرة في الحياة السياسية ، وامتد نفوذ إلهها آمون في الحياة الدينية . وكان هذا الملك بناء كبيراً وإدارياً عظيماً ، وقد استطاع فوق ذلك أن يوجه عنايته للسياسة الخارجية بعد توحيده البلاد المصرية ، وسيطرته على النوبيين[1] في الجنوب فحارب قبائل العامو[2] في الشمال الشرقي والليبيين في الشمال الغربي[3]

ولعل تساند هذه العلل وتماسك تلك الحلقات — من نصوص وآثار ومقارنة — مما يرفع الشك ويزيل الخلاف .

---

(١) ونجد على النقوش الموجودة على الصخور بجهة أسوان أحد موظفي مالية هذا الملك المدعو خبي واقفاً في حضرة الملك « نب - حبت - رع » ، وبجانب تلك الرسوم نجد النص الآتي : —

« في السنة الحادية والاربعين من حكم الملك نب - حبت - رع أتى حامل ختم الملك ظافراً وعاد بالسفن من واوات» فمن هذا النص نستنتج تاريخياً أنه في عهد « نب - حبت - رع » هذا قد ارسلت حملة إلى إحدى بلاد النوبة (الواوات) . ومما يؤكد ذلك أن لدينا قطعة من معبده ، وهي الآن في متحف جنيف ، رسم عليها أسير ملون باللون الاسود لون أهالي بلاد النوبة ، وكذلك عرفنا محاربته للنوبيين من نصوص ونقوش معبده في جبلين كما بينا سابقاً . ومما تجدر ملاحظته هنا أن تاريخ هذه الغزوة هو السنة الحادية والاربعين من حكم هذا الملك ، مما يثبت لنا أن منتوحتب الثاني (نب - حبت - رع) قد حكم على الاقل إحدى وأربعين سنة ومما يدل على طول مدة حكم هذا الملك أيضاً ، أنه توجد لوحة حجرية في متحف تورين لاحد موظفي هذا الملك المدعو Merw وأهمية هذه اللوحة أنها تثبت لنا أنه قد حكم على الاقل ستاً وأربعين سنة ، بل أكثر من ذلك ، فقد وصل إلينا مدة حكم هذا الملك على بردية تورين مقدرة باحدى وخمسين سنة ، وقد مكنه طول مدة حكمه هذا أن ينهي مشروعاته العظيمة Farina, Il papiro die Re, Roma 1938.

(٢) لدينا قطعتان حجريتان مكسورتان من نص تاريخي تفيد ان أن الملك نب - حبت - رع حارب قبائل العامو الساكنة على حدود مصر الشرقية ، وكذلك وجدنا رسوماً للعامو وللاسيويين في معبده أي أنه ثبت لنا تاريخياً أن « نب - حبت - رع » هذا قد حارب العامو . وبما أننا نعرف أن العامو يسكنون على حدود مصر الشمالية الشرقية ، فاننا نستنتج تواً أن الملك الذي يحارب هؤلاء الاقوام لابد أن يكون أولا مسيطراً على الدلتا حتى يستطيع أن يتفرغ لمحاربتهم ، لانه لو كان أهل الدلتا معادين للملك لقطعوا عليه خط الرجعة ، ولهلك الملك وجيشه ، وهذا من أهم الادلة التي تؤيد سيطرة الملك على الوجه البحري

(٣) عرفنا محاربته لاهل ليبيا من نصوص ونقوش معبده.

ب — الملك امنمحات الأول [1]

كيفية اعتلائه العرش : عقب وفاة الملك منتوحتب الرابع (نب ـ تاوى ـ رع) آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة بغير وارث قام نزاع بين الأمراء [2] على تولي الحكم ويظهر أنه لم يكن بينهم أحد ذو شخصية بارزة . لهذا نرى أن امنمحات — وقد كان وزيراً لآخر ملوك الأسرة الحادية عشرة — يتطلع الى المُلك ويمهد لنفسه بما أذاعه في البلاد من نبوءة ادعى وجودها منذ عصر سنفرو ، وهي تصف ما سيحل بمصر من الخراب وتنادي بأنه سيظهر ملك من الجنوب اسمهُ « امينى » وهو مختصر امنمحات) يحكم الوجهين القبلى والبحري حكماً صالحاً فيوطد حكمه طمأنينة الناس وفرحهم .

ولقد ساعد على تحقيق مأربه واعتلائه العرش ما عرف عنهُ وهو وزير من نفوذ كبير فقد كان يحمل ألقاباً سامية غير الوزارة

على أن بعض العلماء يشك في أن الملك امنمحات هذا هو امنمحات وزير الملك منتوحتب الرابع آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة على أحدث الآراء . ولكنهم لم يستطيعوا أن يفسروا لنا اجتماع العوامل المختلفة على تأييد وجهة نظرنا . فانه مسلّم من ناحية بأن الملك منتوحتب الرابع توفي عن غير وارث ، وأنّ أحداً من الأمراء لم يثبت انه كان إذ ذاك يسمى باسم امنمحات وإن هـذا الاسم كان على وجه اليقين لوزير الملك المتوفي وان هذا الوزير كان ذا سطوة ونفوذ فليس هناك ما يدعو الى الوقوف عن ترجيح الرأي بأن يغتصب هذا الوزير

---

(١) حكم من عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد الى عام ١٩٧٠ ق. م. وليلاحظ الخطأ الشائع في بعض المؤلفات العربية من ايراد اسمه بالهاء (امنمحت) أو بالياء (امنمحيت) بدلا من الالف وهذا الخطأ منشأه التعريب من المصرية القديمة . وليلاحظ اني أخالف كثيرين من العلماء في عدم عده مؤسس الدولة الوسطى وليلاحظ ان اسمه يبدأ بلفظ الاله « أمون » وانه يمكننا أن نستنتج من ذلك ان صاحبه من الجهة التي كانت عبادة الاله أمون سائدة فيها وبذلك الحين وعلى ذلك يكون امنمحات الاول من جهة الاقصر وأرمنت

(٢) هؤلاء الامراء كانوا عبارة عن ملوك صغار في أقاليمهم فلكل منهم جيشه الخاص وحاشيته الخاصة ومقبرته الخاصة التي حفرها في صخور عاصمة ملكه .

المُلك خصوصاً وان التاريخ من ناحية ثانية قد ضرب لنا أمثلة أخرى لمثل هذه الحالة عند ما قام الوزير « پارمسو » نفسه ملكاً باسم رمسيس الأول وعند ما انتزع القائد حور محب العرش وتسمى باسم الملك « حور محب »

على ان هذا المنطق تؤيده أدلة تاريخيــة أخرى فكيف يمكن أن نجمع بين ما ورد في النبوءة السابقة الذكر من ان ملكاً من الجنوب سيتولى الحكم وبين ما هو ثابت من ان هذا الوزير كان من الجهة المذكورة ، لو لم يكن ما ذهب رأينا اليه صحيحاً .

ما اتخذه في سبيل تأييد عرشه وأهم أعماله : ما إن أحست البـلاد المجاورة بأزمة الحـكم في مصر حتى حشدت جنودها على الحدود الشمالية الشرقية والجنوبية تطلعاً الى آمال الغزو فبادر امنمحات فوراً الى طرد العدو بحزم وشدة شكيمةمن تلك الحدود فأعاد الطمأنينة الى البلاد وكسب ثقة رعاياه.

اما الأمراء والحكام فقد سعى الى استمالتهم بما منحهم من اقطاعيات وما وسعه من دائرة أراضي بعضهم كما فعل مثلاً مع خنوم حوتب الاول إذ عينهُ حاكماً على منمات خوفو (بني حسن) ثم أقطعه بعد ذلك اقليم قسم الوعل وذلك مكافأة له على اخلاصه له ومساعدته إياه في حروبه الداخلية والخارجية .

وجرى الملك امنمحات الاول على سياسة توحيد الكلمة بين المتخاصمين فأخذ يطوف في القطر ويفض المنازعات بين الحكام ويبسط العدل .

وقد اقتضت الحـكمة من ذلك الملك أن يهدم من سلطة حكام الأقاليم بإقامة كبار الموظفين منافسين لهم في النفوذ وجرى على تلك السياسة الادارية ملوك الأسرة الثانية عشرة من بعده حتى زال ما للحكام من سطوة نهائيـّاً .

وقد راعى الملك في توزيع السلطات الادارية ان يكون لولي عهده قسطٌ فيها حتى يلم شيئاً فشيئاً بمختلف نواحي الحـكم ويتدرّب عليه ويمهد له السبيل ضماناً لبقاء العرش خلاله فأشركه معهُ في الحـكم إشراكاً فعليـّاً عشر سنوات كاملة قبل وفاته . وقد جرى على هـذا النحو خلفاؤه من بعده. ولعلَّ ما أوعز اليه باتخاذ هذا التدبير تدبير مؤامرة غير موفقة لاغتياله وقد تطلب تركيز السلطة الادارية في العاصمة ، نقلها من طيبة (لم يكن مكانها يتوسط

القطر إذ هي نائية عن مصر الشمالية وقريبة من الحدود الجنوبية) الى اثيتاوى (ومكانها الآن بالفيوم بالقرب من بلدة اللاهت الحالية وعلى بعد أربعة أميال من جنوبي منف) .

والى جانب هذا التعليل الاداري الذي يستند الى معنى « اثيتاوى » وهو قابضة الأرضين (أي الوجهين القبلي والبحري) قد تكون العلة في اختيار العاصمة الجديدة بين منف والفيوم متصلة بمشروعات الري العظيمة التي بدأت في ذلك العصر ولا سيما أن معظم الأراضي بجوار منف كانت ملكاً للبيوت القديمة التي أصبحت الآن ملكاً للتاج ومن ممتلكات الملك .

وإذا أضفنا الى واقعة بدئه حكمه باختيار موقع عاصمته الجديدة بين منف والفيوم ، وجود مقبرة له في شكل هرم بالقرب من الفيوم ووجود هرم ابنه سنوسرت الأول في جهة الفيوم أيضاً ووجود لوحة حجرية له في بلدة المجيمج بالفيوم ، وكذلك وجود بقايا مسلة له ما زالت كائنة في مزارع تلك البلدة ، رأينا في ذلك ادحاضاً صريحاً لما يزعمه بعض المؤرخين من ان اهتمام قدماء المصريين بجهة الفيوم قد بدأ في عهد الملك امنمحات الثالث وتأييداً لما نقوله من ان عناية ملوك الأسرة الثانية عشرة بها ترجع الى عهد الملك امنمحات الأول .

بعد ان فرغ الملك امنمحات الأول من التنظيم الاداري للبلاد بدأ في ارسال البعثات الى منطقة سينا لاستغلال المناجم واستخراج مسحوق معدن النحاس لتنمية موارد البلاد المالية وقد سار باقي ملوك هذه الأسرة على ما بدأ به هذا الملك في هذا الصدد . ولقد ظن بعض العلماء أن ارسال البعثات الى سينا لم يكن قد بُدىء فيه في عهد الملك امنمحات الأول وأنه قد استقل بذلك دونه من أتى بعده من ملوك هذه الأسرة . غير ان هذا القول مردود بما وجدناه في سينا من آثار للملك امنمحات ذاته . ويجدر بنا ان نذكر أن أهم ما كان يستخرج من مناجم سيناء هو مادة تسمى « الملخيت »[1] كانوا يطحنونها ثم يعمدون الى

(١) لا يوجد النحاس في مصر معدناً منفرداً في الطبيعة ولكنه موجود في مركباته ومع ذلك فقد عرفه واستعمله قدماء المصريين منذ فجر التاريخ ، وكانوا أول من اكتشفه في العالم ، وأهم خامات النحاس المعروفة لمصر هي « الملخيت » واسمه باللغة المصرية القديمة « شمت » وهو مكون من كربونات النحاس القاعدية ولونه أخضر وهو يكثر في شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية، ويعد أقدم وأهم خامات النحاس التي استعملها قدماء المصريين . وقد استعملوه كذلك في أغراض شتى كتكحيل العيون والتلوين باللون الاخضر وكذلك في عمل الطبقة الزجاجية فوق القاشاني وفي عمل الخرز .

تسخين المسحوق الناتج الى درجـة حرارة عالية فيحصلون منها على معدن النحاس . وهـذا المعدن كان من أهم موارد الدولة في ذلك الحين . بل اتخذه ملوك هذه الأسرة مقوماً ماليًّا في التعامل .

وقد زاملت هذه البعثات بعثات أخرى لاستغلال المحاجر فقد ورد في النصوص ان هذا الملك بعث موظفيه الى وادي الحامات لجلب حجر البرشيا وهو أحد الاحجار الجميلة التي كانت تستخرج من الجهة الواقعـة بين النيل والبحر الأحمر ليصنع منهـا الملوك تماثيلهم وتوابيتهم

وأقام هذا الملك حصناً أطلق عليه « جدار الملك » في وادي طميلات لا لحماية حدود البلاد فحسب، بل لمراقبة القوافل الاسيوية الرحالة مما يدل على يقظة هـذا الملك وحذره من أولئـك الاسيويين . وقد دلتنا النصوص على ان اليقظة كانت شديدة والحراسة دقيقة في هذا الحصن .

ثم شيد الملك امنمحات الأول في طيبة مسقط رأسه معبداً عظيماً للاله آمون . كما بنى كما ذكرنا على شكل هرم مقبرة له بالقرب من الفيوم . ولما كان الملوك قد جروا على اقامة بلدة بجوار كل هرم يسكن فيها من ساهموا في بناء هذه الدار الخالدة من مهندسين وصناع وعمال ومراقبي العمل والنظام من رجال الجيش وكهنة وغيرهم فقد أقام هذا الملك بجوار هرمه بلدة كانت تسمى « كانفرو » .

أما سياسته الخارجية فقد قلنا فيما سبق إنه وقت أن ولي الحـكم الملك امنمحات الأول تطلع الاسيويون في الشمال الشرقي الى مصر والنوبيون في جنوبها الى تهديد الحدود المصرية وإنه بادر الى ردهم على أعقابهم .

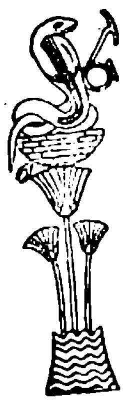
وقد حدث بعد أربعة وعشرين سنة من توليه الحـكم أن قامت اضطرابات جديدة على الحدود الشمالية الشرقية من قبـل الاسيويين فأرسل الملك حملة عسكرية قوية بقيادة قائده « نسومنتو » أخضعهم بها إخضاعاً لم يقم لهم بعدها قائمة لحين وفاته .

ثم بدأ اضطراب في العام التاسع والعشرين من حكمه على الحدود الجنوبية فأرسل ولي

عهده الهاب « سنوسرت » على رأس الحملة لإخضاع النوبيين فأفلح في غزو منطقة الواوات بالنوبة . ولعلّ تلك الحملة لم يكن غرضُها مجرد إخضاع النوبيين ، بل قصد بها أيضاً إلى الاستيلاء على ما اشتهرت به بلاد النوبة من الذهب والعاج وريش النعام والجلود . وهو ما تحقق على يد وليّ العهد رئيس الحملة.

وتروي لنا قصة « سنوهي » عن حملة ثالثة بعث فيها الملك بولي عهده سنوسرت على رأس جيش لمعاقبة الليبيين المتمردين على حدود مصر الشمالية الغربية . فعاد ولي العهد بعدد كبير من الأسرى ورؤوس لا تحصى من الماشية . ومع أن القصة لم يرد فيها تاريخ معين لهذه الحملة فإننا نستطيع أن نستنتج أنها تأتي في المرتبة الزمنية بعد الحملتين الأوليتين بما جاء في تلك القصة من أن ولي العهد اضطر في جنح الظلام الى العودة الى العاصمة تاركاً رآسة الحملة الى أحد قواده بمجرد أن بلغه خبر وفاة والده الملك .

وانتهى حكم هذا الملك بعد ثلاثين عاماً من توليه العرش . ونستطيع أن نقول إنه قد أصابه توفيق كبير في كلتا سياستيه الداخلية والخارجية، فبينما أفلحت وسائله في تركيز النفوذ في يد صاحب العرش بما كفل معه الاتجاه بجهوده الى تحقيق الاصلاحات الداخلية نرى أن حملاته العسكرية الثلاث قد أوتيت نجاحاً . فلا عجب أن يكون هـذا التوفيق المزدوج سبباً في أن : « يعم الأسى رعاياه عند وفاته » كما حدثتنا قصة سنوهي .



حـ - الملك أحمس الأول

لا يعدّ هـذا الملك من قديم الزمان أول ملوك الاسرة المصطلح عليهـا بأنها الأسرة الثامنة عشرة فحسب، بل يعتبر أيضاً على رأس عهد تاريخي نسميه الآن عهد وحدة مصر الثالثة (الدولة الحديثة)

وقد حكم أحمس الاول حوالي ٢٢ سنة أي من حوالي سنة ١٥٨٠ الى سنة ١٥٥٨ ق.م وهو ابن الملك الملقب بسقنن رع الثالث والملكة اياح حتب. ويغلب على الظن انه أخ للملك كاموزا، ولو ان هذه المسألة لا تزال موضع خلاف. وقد تزوج الملك أحمس الأول بالملكة احمس نفرتاري

﴿أهم أعمال هذا الملك﴾: كان هذا الملك من أعظم الفراعنة الذين جلسوا على عرش مصر لا لأنه أخرج الهيكسوس من مصر كما سنرى فيما بعد، بل لأنه وضع أساس سياسة داخلية جديدة للبلاد بل وسياسة خارجية سار عليها من جاء بعده من الملوك. وقد عادت هذه السياسة على مصر بفوائد جمة لمـا أدخله من الانظمة الادارية لقيام حكومة مركزية قوية في هـذا الحين ضماناً لاصلاح ما أفسده الهيكسوس ولاصلاح أحوال البلاد الاقتصـادية وتوطيد سلطة العرش والقضاء على كل سلطة محلية معارضة

فنرى الملك أحمس الأول هو القائد الأعلى للجيش وهو في نفس الوقت رئيس للحكومة يتدخل في كل كبيرة وصغيرة وذلك طبيعي في مثل هذه الأوقات التي تعقب جلاء الغاصبين.

وكان على الملك غير إشرافه على وزرائه أن يراقب موظفي المالية. وكان النظام المالي في ذاك الحين يقضي بفرض الضرائب السنوية على الأراضي والبهائم والأملاك الأخرى ما عدا المعابد والأملاك الخاصة بالآلهة، وعلى الأخص المملوكة للإلـه آمون فهي معفاة من الضرائب.

وقد قسم الملك احمس الأول المملكة المصرية الى أقسام إدارية وجعل على رأس كل قسم موظفاً يلقب «بحاتي عا» بشرط ألا يتصرف هذا الموظف في أي أمر إلا بعد عرضه على الملك.

فكان هذا الحاكم أو الامير في مركز مماثل لمدير المديرية في الوقت الحاضر .

وأما القرى الصغيرة فكان يعين عليها أحد الكتبة تحت إشراف رئيس . وأهمية وظيفة الكاتب معروفة في مصالح الحكومة حتى اليوم .

ولقد امتدت مظاهر الرخاء المالي الى الناحية البنائية، ففي عهد هذا الملك فتحت المحاجر من جديد واستخرج الحجر الجيري الابيض الجميل من محاجر طره (أي بالقرب من المعصرة) واستعملت تلك الاحجار في بناء المعابد لآمون وبتاح وغيرهما .

وقد أصاب التلف والبلى أغلب آثار هذا الملك فنجد بقايا معبد له قرب أبيدوس . ويرجح أنه بني على شكل مدرج مثل معبد الملك منتوحتب الثاني من قبل ، والملكة حتشبسوت من بعد . ولم يقتصر النشاط الحربي لهذا الملك على مطاردة الهيكسوس ومتابعتهم الى فلسطين وتوحيد مصر بل يتعدى ذلك الى اتمام وحدة وادي النيل تحت عرشه وإخضاع السودان تحت لوائه .

وقد ترك لنا بعض كبار الموظفين تراجم حياتهم وما قاموا به من أعمال توضح لنا تاريخ عصر هذا الملك في السودان ، فهذا نص القائد البحري احمس بن ابانا يحدثنا أن قلب جلالة الملك كان مفعماً بالسرور بعد ان أخضع الثوار في السودان ثم أبحر الى مصر بعد انتصاره .

وكان الملك يقابل إخلاص موظفيه وقواده بمنحهم الاراضي والعبيد ، فقد وهب أحمس ابن ابانا القائد السابق الذكر جزءاً يقدر بخمس أرورات من الاراضي الزراعية (والارورة عبارة عن مائة ياردة مربعة) . وهذا مثل يدل على السلطة المطلقة للملوك في إعطاء الاراضي لمن يريدون . وهناك مثل آخر ولو انه وصل الينا من عصر متأخر أي من عصر رمسيس الثاني ولكن بعض عبارات هذا النص ترجع الى عهد هذا الملك . وهذا النص عبارة عن قضية معروفة بقضية Mes وتفيد أن أحد أجداد Mes كان معاصراً للملك أحمس فوهبه بعض الاراضي .

ولما قام به هذا الملك من جليل الاعمال لوحدة مصر ولوحدة وادي النيل نعلم تمام العلم انه أله هو وزوجته بعد وفاتهما في العصور اللاحقة .

٤ — الملك رمسيس الثاني

رمسيس الثـاني هو ابن سيتي الأول من زوجته Tuya وهو يعـدُّ من أعظم ملوك الفراعنة ذيوع اسم وأوسعهـا شهرة . وقد استمر حوالي سبعة من الفراعنـة يسمون أنفسهم باسمه

وقد حكم الملك رمسيس الثـاني حوالي ٦٧ سنة أي من سنة ١٢٩١ الى سنة ١٢٢٤ قبل الميلاد .

ويعتبر عصره من أزهى عصور الامبراطورية المصرية كما ان له مثل هذا الاعتبـار من جهة وحدة وادي النيل تحت تاج ملك مصر .

وقد بدأ رمسيس الثاني اصلاحاته الداخلية باستغلال مناجم الذهب في النوبة التي عني والده سيتي من قبل عناية كبرى باستغلال هذه المناجم .

وتذكر لنا النصوص ان حاكم السودان العام في عهد الملك رمسيس الثاني نجح في اصلاح الطريق الموصلة بمناجم الذهب وحفر الآبار ونصب لذلك حجراً أثريـاً في وادي العلاقي عند كوبان .

وقد اتسعت الامبراطورية المصرية في عهد رمسيس الثاني فلم تعد طيبة المدينة الفرعونية العظيمة تصلح لأن تكون عاصمة لتلك الامبراطورية فاختار الملك رمسيس مكاناً بين أنحاء الامبراطورية التي تشمل سوريا شمالاً وبلاد السودان جنوباً فوقع اختياره على بلدة تانيس المجاورة للحدود الآسيوية وسماها « بر رمسيس »

وقد وصل الينا وصف هذه المدينة الجديدة في الاشعار المصرية القديمـة وبانتقـال العاصمة الى تانيس أصبح للدلتا مركز ممتاز فعظم شأنها .

ويعتبر عصر الملك رمسيس الثاني من أزهى عصور مصر من جهة فن العمارة والحفر فأضخم المعابد تنسب اليه ، وكذلك أضخم التماثيل والمسلات . وقد جدد معبد والده في

أبيدوس ، وأنشأ المعابد في تانيس ومنف والنوبة ، كما بنى الرمسيوم بطيبة ، وأضاف الى معبد الأقصر حوشاً كبيراً وصرحاً شامخاً . أما القاعة الكبرى ذات العمد بالكرنك التي بدأ سيتي بتشييدها فقد أتمها رمسيس الثاني وهي تعتبر من أعظم عمارات العالم القديم والحديث .

وأقام في السودان أكثر من ستة معابد وشيد في أبي سنبل أجمل معابد النوبة .

وقد عقد هذا الملك معاهدة دولية مع ملك الحثيين وهي تعتبر من أقدم المعاهدات الدولية (١)

وقد ذكرنا عند الكلام على الملك نب-حبت-رع أن في حفلة تتويج الملك رمسيس الثاني كانت تحمل الكهنة تماثيل بعض الملوك الذين حكموا قبل رمسيس الثاني أمثال الملك مينا ونب-حبت-رع وأحمس الأول .

وهذا يرينا أن حفلة تتويج هذا الملك العظيم كانت ذات أهمية تاريخية لاحتفالها أيضاً بذكرى أعلام وحدة وادي النيل الى جانب الاحتفال بتتويج الملك .

---

(١) أول فرعون أقام سياسة المعاهدات والتحالف هو الملك تحتمس الرابع ابن الملك امنحتب الثالث فقد عقد معاهدة صداقة مع بلاد الميتاني ضد دولة الحثيين .

الحروب بين ملوك الشمال

وملوك الجنوب

قبل عصر وحدة مصر الثانية

وصلت الينا أخبار الحروب الداخلية، التي قامت بين ملوك اهناسيا في الشمال [1] وملوك طيبة في الجنوب [2] من الطرفين المتحاربين بصورة تجردت نصوصها من معرفة السبب الحقيقي الذي من أجله نشبت تلك الحروب

فيمكن أن يكون سببها (ا) خلاف بين الفريقين المتحاربين على منطقة واقعة في حدود طينة (بلدة ازوريس) ادعاها ملوك الشمال لأنفسهم وكانت في يد ملوك الجنوب (ب) وقد يكون السبب نزاع على الاختصاص الاداري بين موظفي الحدود كالحراس أو موظفي الضرائب في كل من المملكتين الشمالية والجنوبية (حـ) وقد يكون شعور أمراء الجنوب بالحاجة إلى توسيع حدودهم وشعورهم بقوتهم و بضعف الفريق الآخر (د) وقد يكون تطلع أمراء الجنوب الى الرغبة في توحيد مصر مدفوعين الى ذلك بعامل القومية كما فعل الملك مينا من قبل والملك أحمس الأول فيما بعد .

واني شخصيًّا أرجح السبب الأول مع السبب الرابع وذلك لأن الملك خيتي الثالث (واح كارع) وهو من ملوك الشمال اعترف في وصيته لابنه خيتي الرابع (مري كارع) بأنه ندم على تعديه على طينة وقداستها مما اضطر ملك الجنوب الى الدفاع عن حدود منطقته الشمالية ردًّا للاهانة وسعيًا وراء توحيد القطر المصري كله

والذي نعلمه عن هذه الحروب هو ان أول ملك من ملوك طيبة ذكر التاريخ أنه حارب

....

(١) وكان سلطان فراعنة اهناسيا يمتد من الدلتا وينتهي عند طينة او بلدة العرابة المدفونة ومقر عاصمتهم بلدة اهناسيا المدينة .

(٢) اما نفوذ فراعنة طيبة فكان يمتد من اسوان جنوباً وينتهي عند طينة شمالاً .

البيت الاهناسي هو الملك أنتف الثـاني (واح عنخ) وذلك لأنه من الثابت ان المنطقة التي كان يحكمها هذا الملك تبدأ من الفنتين جنوباً وتنتهي في طينة شمالاً أي في القسم الاداري المصري القديم رقم ٨

* * *

وقد عرفنا من لوحة حجرية وجدت في الجورنه مؤرخة من عصر الملك (واح عنخ) وموجودة الآن في المتحف المصري وهي للسمير الأوحد چاري وفيها يذكر : « . . . بعد الحروب التي نشبت مع ملوك البيت الخيتي في المنطقة الغربيـة من طينة » ففي استطاعتنا أن نجزم من هذا النص بأن ميـدان الحرب بدأ في أقصى المنطقة الشماليـة التي كانت تحت حكم الملك انتف (واح عنخ) أي في بلدة طينة الواقعة في قسم ابيدوس

والظاهر أن نتيجة هذه الحرب كانت في مصلحة ملك طيبة لأننا نعلم فيما بعد ان حدود هذا الملك الشمالية وصلت الى منطقة أعلى من طينة وهي منطقة قسم الثعبان أي أنها وصلت إلى القسم العاشر الاداري من أقسام مصر الادارية

* * *

وقد حافظ هذا الملك على هـذه الحدود إلى السـنة الخمسين من حكمه لأن بالمتحف المصري لوحة مؤرخة في السنة الخمسين من حكمه يسجل فيها : « ... ان حده الشمالي وصل الى قسم الثعبان » أي ان هذه المنطقة قد اعتبرت حدًّا شماليًّـا . وعليه فالنتيجة النهائية هي انه في السنة الخمسين من حكم (واح عنخ) لم يتم الاستيلاء على اقليم ابيدوس فحسب، بل وصل الى القسم العاشر

ولـكن حكم ملوك طيبة على هذا القسم العاشر الذي انتصر عليه (واح عنخ) لم يستقر ولم يكن نصيبه الهدوء والسكينة ، بل ثارت بعض الاجزاء على من حكموا بعده كما ذكرت لنا لوحة حجرية لموظف يدعى « ايكا أورانتف » فنجد حاكم أسيوط المدعو « تف ابي » والذي كان يعاصر ويهاجم الملك الاهناسي خيتي الثالث (واح كارع) يجلي جيش طيبـة في موقعة بحرية على القسم العاشر باسم ملك الهال ويضطره للرجوع جنوباً إلى حـدود الطرفين القديمة أي إلى طينة .

ثم أرجع الملك منتوحتب الأول قبيل وفاته حدود مملكته كسابق عهدها الى قسم الثعبان أي القسم العاشر .

ونعلم ان ابن « تف ايبي » المدعو خيتي والذي كان معاصراً لملك الشمال خيتي الرابع (مري كارع) قد حارب مع ملوك الشمال في القسم الحادي عشر ضد ملك الجنوب .

وبعد ذلك نجح ملوك طيبة في امتداد سلطانهم إلى شمال المنطقة الشمالية السابقة فاستولوا على أسيوط نفسها وهي في القسم الثالث عشر ، وبذلك ينتهي تاريخ أمراء أسيوط فعلاً أيام خيتي بن (تف ايبي) . وتكون منطقة القسم الثالث عشر هي أعلى ما بلغ اليه ملوك طيبة .

ونعلم بعد ذلك من نصوص حاتنوب الواقعة شمالي أسيوط أي في القسم الخامس عشر أن حروباً قامت في هذه الجهة أدت الى استيلاء ملوك طيبة على هذه المنطقة .

***

وأخيراً استطاع ملك طيبة المدعو « نب ـ حبت ـ رع » (منتو حتب الثاني) بعد ذلك من توحيد المملكة المصرية فابتدأ بذلك حوالي سنة ٢٠٧٠ قبل الميلاد عصراً جديداً ممتازاً في تاريخ مصر القديمة وهو المعروف بعصر وحدة مصر الثانية (عصر الدولة الوسطى)

وقد استمر توحيد المملكة المصرية في عهد خلفه « سعنخ كارع » (منتو حتب الثالث) ونب ـ تاوي ـ رع (منتو حتب الرابع) وباقي ملوك عصر التوحيد الثاني .

وبهذه المناسبة نقول إن عدد ملوك بيت طيبة (المعروفين بملوك الأسرة ١١) وترتيبهم كالآتي على حسب أحدث الآراء :

(١) انتف الأول (سهرتاوي) (٢) انتف الثاني (واح عنخ) (٣) انتف الثالث (نخت ـ نب ـ تب ـ نفر) (٤) منتو حتب الأول (سعنخ ايب تاوي) (٥) منتو حتب الثاني (نب ـ حبت ـ رع ويقرأ خطأ نب ـ خرو ـ رع) (٦) منتوحتب الثالث (سعنخ كارع) (٧) منتو حتب الرابع (نب ـ تاوي ـ رع) .

ويلاحظ ان بعض هؤلاء الملوك كان معاصراً لملوك البيت الاهناسي كما شرحنا .

الهيكسوس

أصلهم وموطنهم الأول

اختلفت آراء المؤرخين في تحقيق أصل الهيكسوس وموطنهم وهم الذين غزوا مصر حوالي سنة ١٧٣٠ قبل الميلاد.

فبعض المؤرخين يؤكد أنهم الفريق الذي هاجر الى مصر من سلالة آرية[١] كان موطنها بلاد ما بين النهرين [٢] في وسط آسيا، ثم هاجروا الى غربها حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد.

والبعض الآخر يقول إن أصلهم من أعراب شبه جزيرة العرب [٣] غير ان الأبحاث الحديثة قد أسفرت عن أنهم من أصل سامي [٤] وموطنهم فلسطين [٥] وانهم من طائفة اليهود الذين ورد ذكرهم في التوراة والقرآن الكريم

وقد رجحتُ الرأي الأخير في ملخص رسالتي للدكتوراه[٥] مستنداً في ذلك الى عوامل متعددة: منها ما أورده المؤرخ المصري القديم مانيتون من أن الهيكسوس «قوم شرقيون أتوا الى مصر من الشرق وانهم من بني اسرائيل بعد أن فند ما زعمه البعض من أنهم عرب»[٦]

ثم إننا نستخرج من مجرد تسمية المصريين للهيكسوس ما يؤيد الرأي المتقدم. فقد لقب الهيكسوس بألقاب متعددة في النصوص المصرية القديمة. أطلق عليهم اسم «حقاخاسوت» أي حكام قبائل فلسطين (حرفيا الاراضي الجبلية). وسموا «عامو» أي الاسيويين وعلى

---

(١) N. D. Mironov, Aryan Vestiges in the Near East, Acta Orientalia 11 (1933) p.150 50 ff.; Junkea, Geschichte der Aegypter, 1933 p. 105

(٢) E. Brogelmann, Noch einmal : Die Hyksosfrage, Z. D. M. G. Bd. 90 (1963).

(٣) King, Studies in Eastern History.

(٤) R. Dussaud, Revue de l'Histoire des Religions 1934 p. 113 ff. Pahour Labib, Die Herrschaft der Hyksos in Aegyptne, 1934 p. 8 ff.

(٥) Pahour Labib, Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten, 1934 p. 8 ff.

(٦) Waddell, Manetho, in Loeb classical Library, 1940 p 77 ff.

الأخص الساميين . وكذلك أطلق عليهم « منتيومتت » وهو اسم القبائل التي كانت تسكن الصحراء في شمال شرق مصر جنوب فلسطين . وأخيراً سموا باسم « شاسو » الذي كان يطلق على سكان شمال شرق مصر ويقصد به قبائل جنوب فلسطين أعني الجزء الذي به قبائل جنوب فلسطين والذي به قبائل سامية .

فجميع هذه الأسماء المختلفة التي أطلقها قدماء المصريين على الهيكسوس تدل دلالة واضحة على أنهم من أصل سامي وان لهم علاقة بفلسطين وهي الجهة التي كان يقطنها اليهود .

ومن الأشياء التي تساعدنا على تأييد التعليل السابق أن أغلب الاسماء التي جمعت عن ملوك الهيكسوس وأفرادهم في عهد وجودهم بمصر وهي التي لم يعرف أنها أسماء مصرية ، ترجع الى أصل سامي كنعاني . فعلى سبيل المثال نرى ضمن أسماء الملوك « يعقوب إل » « وعنات إل » وكلاهما اسم سامي كنعاني كما هو ظاهر . ومن أسماء الأفراد « عابد » و « نحمن » وهي أيضاً سامية كنعانية . فهذا يدل على أنهم كانوا من أصل يمت بصلة كبيرة الى العبرانيين .

غير ان بعض المؤرخين (١) يشير الى أسماء بعض ملوك الهيكسوس التي لم يثبت للآن أنها سامية مثل سلاتيس وبنون وأباخنان . ولكننا لا نرى في ذلك شيئاً من الغرابة إذا لاحظنا أن مثل هذه الاغارات تتكوّن في غالب الأحايين من عناصر مختلفة . مع ملاحظة ان هذه الأسماء وردت إلينا عن طريق المؤرخ مانيتون باللغة اليونانية فقط . وقد نقلها بالطبع عن اللغة المصرية القديمة ويحتمل جداً ان يكون قد أصابها التحريف فلا يمكن اذن الجزم بأنها ليست أسماء سامية .

وقد ظهرت في مصر على أثر غزوة الهيكسوس أسماء آلهة سامية كانت تعبد أصلاً في فلسطين وتلك الآلهة هي « عنات » و « بعل » . فلو لم يكن الهيكسوس ساميين لما نقلوا معهم آلهتهم السامية الى مصر .

* * *

ومن المسلّم به أن الهيكسوس هم أول من أدخلوا استخدام الجواد والعربة الى مصر

---

(١) Junker, Die Aegypter p. 105

ونحن اذا تتبعنا تسمية المصريين للجواد وللعربة وجدنا انها أسماء سامية كنعانية . فالجواد كان يسمى « سسمت » وهي كلمة كنعانية سامية . وأطلق على العربة « مركبات » وهي كلمة أيضاً سامية كنعانية . ولا يجوز عقلاً ان نفرض استعمال الهيكسوس لغير لغتهم الاصلية في تسمية هذه الاشياء ما لم يقم الدليل على ضدّ هذا .

وقد أظهرت لنا الحفائر الأخيرة في فلسطين [1] عدة مقابر ترجع الى عصر الهيكسوس ومؤرخة بأسماء ملوكهم فهـذا دليل مادي على وجود صلة ما بين اليهود في فلسطين وما بين الهيكسوس في مصر .

كذلك معروف أن العبرانيين كانوا يعبـدون الحمار فاذا توصلنا الى التحقق من عبـادة الهيكسوس له استطعنا أن نقيم الدليل على أنهم من أصل سامي .

وفي سبيل ذلك نقول أنه وجدت في المقابر السالفة الذكر أربعة حمير مدفونة في مستوى أعلى من مستوى الاشخاص أنفسهم .

وفي هذا وحده دليل على عبادة هذا الحيوان . إذ لو كان دفنها في المقابر بقصد القربان لوجدت في مستوى الاشخاص أو تحتهم . وليس فوق هذا المستوى كما قد لوحظ فعلاً من وجود جياد مدفونة كقرابين في مستوى أقل .

وما دمنا قد ذكرنا أن هـذه المقابر مؤرخة بأسماء ملوك الهيكسوس فإننا نستنتج من ذلك أن عبادة الحمار كانت سائدة بين الهيكسوس يؤيد ذلك أيضاً أن أحد ملوك الهيكسوس كان يسمى « عافن » أي « الحمار القوي » [2] ومعروف ما جرى عليـه الملوك من إدخال أسماء الآلهة في ألقابهم وقد أقر الاستاذ Bissing في مقاله :

"Das angebliche Weltreich der Hyksos" in Archivder Orient. Forschung. Iuni 1937 p. 325 ff. هذه الاسانيد صراحة فيما عدا هذا الدليل إذ يعترض بقوله أنه عثر على حمير وجياد مدفونة في مقابر أبي صنبل وترجع الى القرن الرابع والسادس الميلادي . وعلى هذا فدفن الحمير في مقابر فلسطين لا يدل على معاصرتهـا لملوك الهيكسوس . غـير أنه فاته أن

---

(١) Petrie, Ancient Gaza, I, p. 3 ff.

(٢) Pahor Labib Die Herrschaft der Hyksos in Aeg., 1934 p. 25.

دليلنا قائم على ما هو ثابت من أن المقابر السالفة الذكر مؤرخة بأسماء ملوك الهيكسوس وهو دليل مادي حاسم . يضاف الى هذا استنتاجنا في عبادة الهيكسوس للحمار قائم كذلك على طريقة دفنه وهذه الطريقة لم تتوافر اطلاقاً في مقابر أبي صنبل . هذا فضلاً عن ان العالم المذكور لم يعترض على الحلقات الأخرى التي تساندت في تأييد بعضها بعضاً .

يضاف الى ما تقدم أنه على أثر غزوة الهيكسوس لمصر اختار الغزاة أحد آلهة المصريين وهو «ست» وساووه بآلهتهم . وكان مظهر هذه المساواة أن جعلوا الاله «ست» في لغتهم مخصصاً لكلمة حمار « عا »

ثم هناك مسألة أخرى تؤيد ان الهيكسوس أصلهم سامي ومن فلسطين ، وذلك انه معروف أن القوم المسمون باسم « خبيرو » في خطابات تل العمارنة المحررة بالخط المسماري هم قوم ساميون استولوا على فلسطين ومنها وسعوا سلطانهم وانهم مقيمون في فلسطين الى عهد أخناتون .

دلت أبحاثنا على ان كلمة «خبيرو» ترادف الكلمة المصرية القديمة «عبري» وهي عبري الحالية . وذلك لأن الخط المسماري لم يعرف حرف العين فكتب « خ » بدل « ع » . أما ابدال الباء بـ « پ » فمعروف في اللغة المصرية القديمة ، فمثلاً كلمة كرباج تكتب بالمصرية الفرعونية اسبر أو اسپر مع انهما استعملا معاً في عصر واحد في عهد وحدة مصر الثالثة (الدولة الحديثة) .

وأخيراً وجدت في إحدى مقابر بني حسن في أحد أركان الحجرة صورة تمثل قبيلة كنعانية مؤلفة من ٣٧ شخصاً من رجال ونساء وأطفال وفدت من فلسطين الى مصر في أيام الملك سنوسرت الثاني . وأول ما يلاحظ على تلك الصورة هو ان ملامح هؤلاء الاشخاص ولباسهم وأوصافهم واضحة الدلالة على انهم من أصل سامي . كما ان تلك الصورة ذكرت نقوشها انها كانت برآسة «إبشا» الذي يحمل لقب «حقا خاسوت» وهذا اللقب هو الذي اختاره ملوك الهيكسوس فيما بعد لأنفسهم ، بل أكثر من ذلك فان هذا النعت قد أطلقه المصريون على قبائل هؤلاء الغزاة قبل غزوهم مصر وبعد طردهم منها .

فاذا كانت هذه القبيلة سامية الأصل فلسطينية الموطن وملقب رئيسها بلقب ملوك

الهكسوس فذلك مما يبعث على الاطمئنان الى تأييد ما نقوله من أن الهيكسوس كانوا من ذلك الأصل ومن هذا الموطن .

والى جانب ما تقدم هناك عدة أسانيد أخرى أوردناها في ملخص رسالتنا للدكتوراة لا نرى محلاً لها في هذه المقالة . غير أننا نستطيع ان نضيف الى تلك الأسانيد حجة جديدة لم نرد في رسالتنا تؤيد وجهة النظر السالفة من حيث ان الهيكسوس ساميو الأصل وهي ان هناك أثراً من العاج على هيكل أبي الهول يضرب بأظافره مصريًّا يمثل أحد ملوك الهيكسوس. وقد لاحظ العلامة شارف في كتابه « Handbuch der Archaeologie » الذي ظهر في عام ١٩٣٩ « إن ملامح هذا الملك الهيكسوسي واضحة الدلالة على أنه سامي الأصل »

* * *

عاصمة ملكهم ومدة حكمهم

يشوب عصر الهيكسوس ظلام قال عنه الاستاذ بريستد في كتابه عن تاريخ مصر ما ترجمته : ان هؤلاء القوم لم يتركوا بعدهم في مصر إلا آثاراً يسيرة يصعب على الأثريين الاستدلال بها على شيء حتى على الوطن الأصلي لهؤلاء الغزاة ومدة حكمهم وكيفية سيادتهم »

على أنه بالرغم من هذا الظلام فقد تحدثنا عن أصل الهيكسوس وموطنهم الأول فأمكننا جلاء الغامض على قدر الجهد في هذه الناحية ونستطيع أن نكشف اليوم من هذا العصر أيضاً ، عن ناحية عاصمة ملكهم ومدة حكمهم .

يحدثنا مانيتون « ان الهيكسوس اختاروا بلدة هوارس عاصمة لهم وان الباعث على تسميتها بهذا الاسم يرجع الى أسباب دينية » فعندما نقارن هذا بما حدثتنا به الآثار نجد انهُ في الوقت الذي كان يحكم فيه ملوك طيبة في الجنوب اتخذ الهيكسوس لهم في الشمال بلدة تدعى « حات وعرت » (هوارس) عاصمة لهم ونرى أنها في الاصل الهيروغليفي تكتب بصورة القدم وهذه الكتابة تعطينا فكرة عن سبب رواية مانيتون من ان تسميتها راجعة الى أسباب دينية .

ويصح ان مانيتون عند ذكره هذا جالت بفكره قصة أوزوريس . والمعروف ان أهم شيء في هذه القصة هو ان أجزاء جسم أوزوريس قطعت بواسطة الاله ست ويصح ان يكون عضو من جسمه وهي القدم قد استقرت في هوارس (حات وعرت) وبذلك يكون معنى الاسم بلدة معبد قدم أوزوريس . ومن جهة أخرى نرى ان كلمة « وعرت » تعني « قدم » وهذا المعنى وصل إلينا كذلك من اللغة القبطية (المصرية) مما يجعلنا نقول ان التسمية من الوجهة الدينية جائزة .

وقد وصل الينا اسم هذه العاصمة في عصور متأخرة عن عصر الهيكسوس كما في بردية ساليه الأولى مثلاً ، مكتوباً في صورة أخرى غير صورة القدم وهي صورة رجلين أيضاً الى جانب القدم . فمن الجائز جداً ان المصريين بعد طرد الهيكسوس رسموا اسم المدينة بهذا الشكل للدلالة على خروج الهيكسوس منها . إذ أن معنى هذا الرسم الجديد هو مكان الهروب.

وذكر لنا نص الملكة حتشبسوت في معبد بالقرب من بلدة القوصية أنها أصلحت التلف وأكملت النافص بعد ما كانت البلاد تئن تحت حكم الهيكسوس الذين كانوا في عاصمتهم بلدة حات وعرت (هوارس) في الدلتا . فنستوثق من هذا النص ان عاصمة الهيكسوس حات وعرت في الدلتا . ولا بدّ لنا من تحديد موقعها على وجه الدقة . لدينا لوحة حجرية لأحد الموظفين عاش في ادفو يخبرنا فيها : « انه سافر شمالاً حتى بلدة حات وعرت (هوارس) وجنوباً الى كوش » . وهذا النص يرينا أن الموظف سافر الى أقصى الشمال في الدلتا بالقياس الى كوش الواقعة في أقصى الجنوب .

ولدينا رسم لاسم المدينة يدل على انها واقعة على الساحل فهي إذن تقع في شمال الدلتا بالقرب من الساحل .

بعد ذلك لدينا رسم آخر لاسم المدينة يدل على أن شطراً منها يطل على طريق صحراوي وأخيراً بطريق مقارنتها مع بلدة أخرى تدعى « حات وعرت امنتت » أي حات وعرت الغربية » نعلم أنّ الأولى (عاصمة الهيكسوس) لا بدّ أن تكون في الجهة الشرقية . فهي إذن تقع في الشمال الشرقي من الدلتا على الحدود الصحراوية وعلى البحر .

وقد اختلف العلماء كما هو معروف في تحديد موقع عاصمة الهيكسوس . غير أنّ

Gardiner (١) توصل الى نتيجة يمكن الاطمئنان إليها معتمداً على عوامل متعددة . والعوامل التي بلغت به اليها يمكن تلخيصها فيما يلي : —

(أولاً) المكتشفات التي قام بها الأثري Montet (٢) في بلدة تانس

(ثانياً) ثم تحليل Sethe (٣) للوحة حجرية مؤرخة في السنة الأربعمائة من تجديد عبادة الإله ست .

وعلى ذكر ما تقدم نقول إنه الى عهد قريب كان الرأي السائد بين العلماء هو أن عبادة الإله « ست » لم تأت إلى شمال شرقي الدلتا إلاَّ أيام حكم الهيكسوس . والحقيقة أنها أتت الى هذه الجهة قبل ذلك بدليل النص الوارد في مقبرة « بحر نفر » الذي أثبته الأستاذ يونكر في مقالة عام ١٩٣٩ كالآتي : —

« كاهن الإله ست قائد المحاربين الذي في بلدته سررت » والذي علق عليه بقوله سررت هذه هي المنطقة التي تقع شمال شرقي الدلتا » فاذا كان تاريخ هذا النص هو الأسرة الرابعة فمعنى هذا أن عبادة الإله ست ترجع الى الدولة القديمة أي إلى ما قبل دخول الهيكسوس في تلك الجهة وهذا يفسر لنا لماذا كان جد ملوك الرعامسة وبعض ملوك قدماء المصريين يعبد الاله ست إله تلك الجهة .

(ثالثاً) تحليل نصوص مصرية أخرى ونصوص يونانية .

(رابعاً) مقارنة تبين أن الآلهة التي عبدت في « بر — رعمسيس » عاصمة الرعامسة وبينها الآلهة التي عبدت في « حات — وعرت » (هوارس) عاصمة الهيكسوس وعلى رأس هذه الآلهة الاله « ست »

***

وقد أسفرت هذه البحوث عن أن عاصمة الهيكسوس هي تلك البلدة التي اختارها فيما بعد الرعامسة عاصمة لملكهم وسموها « بر — رعمسيس » وكانت تسمى لدى الهيكسوس

---

(١) A. Gardiner, Tanis and Pi-Ramesse, A Retractation, Jour. Eg. Arch XIX p. 122

(٢) P. Montet, Les Nouvelles Fouilles de Tanis; P. Montet, Les Dieux de Ramses aimé — d'Amon à Tanis (in Studies Presented to Griffith) p. 406 ff.

(٣) Sethe, Der Denkstein mit dem Datum des Jahres 400 der Aera von Tanis

«حات-وعرت « هوارس » ثم أطلق عليها اليونان اسم « تانس » ثم أطلق عليها العرب الاسم الحالي « صان الحجر » الكائنة في شمال الدلتا الشرقي [1] حيث وجدت أخيراً آثار الملك شيشنق . ونحن نلاحظ أن مدينة هوارس (حات-وعرت) التي اتخذها الهيكسوس عاصمة لهم لم تنشأ من العدم وانما قامت على أنقاض بلدة صغيرة كانت معروفة من قبل . وكانت الحكمة من جعلها قريبة من الحدود الشرقية للدلتا،هي أن تكون قريبة من بلادهم الأصلية ليسهل عليهم العودة الى وطنهم الأصلي في وقت الحاجة،أي بعبارة أخرى لأسباب جغرافية سياسية .

مدة حكم الهيكسوس

اختلف العلماء القدماء منهم والحديثون في تقدير مدة حكم الهيكسوس في مصر .

فيحدثنا مانيتون عن طريق افريكانوس ان مدة حكمهم في مصرهي ٩٢٩ سنة كما يحدثنا أيضاً عن طريق يوسيفوس ان مدة حكمهم في مصر لا تبلغ إلا ٥١١ سنة وهناك فريق من العلماء يسمون أصحاب التوقيت المطول الذين يتبعون توقيت مانيتون مثل Petrie يقدرون حكم الهيكسوس بمدة تقرب من خمسة قرون وربع قرن .

وهناك فريق آخر من العلماء يسمون اصحاب التوقيت المختصر مثل Breasted و Meyer يخالفون الرأي السابق ويعتقدون ان هذه المدة هي مائة سنة فقط. أما Dubois Richard [2] فيظن وهو من أصحاب التوقيت المختصر أيضاً انها مائتا سنة .

أما نحن فنرى أن مدة حكم الهيكسوس تبلغ نحو قرن ونصف قرن أي من سنة ١٧٣٠ ق . م الى سنة ١٥٨٠ ق . م [3] وقد توصلنا إلى هذه النتيجة مما يأتي : — من المستحيل الأخذ بفكرة التوقيت المطول لأنها تتعارض مع الآثار المعاصرة ومع التاريخ المقارن والتاريخ الفلكي وعلى هذا الأساس فان المدة التي وصلتنا عن طريق مانيتون وعن

(١) Pahor Labib, Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten, p. 20 ff.

(٢) Dubois–Richard, Essai sur les Gouvernments de l'Egypte, Le Caire 1941, b. 50

(٣) Pahor Labib, opp. cit p. 22

أصحاب التوقيت المطول مبالغ فيها كل المبالغة لأن كل الفترة التي ما بين آخر الأسرة الثانية عشرة وأول الأسرة الثامنة عشرة لا تتعدى مائتي سنة وسبع سنوات (من ١٧٨٧ ق . م الى ١٥٨٠ ق . م) .

وأما نظرية بريستد وماير في أن مدة حكم الهيكسوس هي مائة سنة فقط فخطأ . ذلك لأن بردية الملوك بمتحف تورين تذكر لنا أن مجموع مدة حكم ستة ملوك من الهيكسوس هو مائة وثماني سنوات (١) وهؤلاء الستة هم المعروفون بملوك الأسرة الخامسة عشرة أي ان مدة حكم أول أسرة هيكسوسية بلغ مائة وثماني سنوات فتكون أسرة واحدة من الهيكسوس حكمت وحدها أكثر من المدة التي قدرها بريستد وغيره من العلماء ، ولذلك لا يمكننا الأخذ بهذه النظرية . وكذلك نرى أن قول Dubois Richard مبالغ فيه أيضاً ، ذلك لأنه لدينا أهم مستند في هذا الموضوع يساعدنا على تحديد مبدأ دخول الهيكسوس مصر وهو لوحة حجرية كبيرة وجدت في مدينة تانيس وهي من عصر الملك رمسيس الثاني وهذه اللوحة التاريخية أقامها رمسيس الثاني تخليداً وتمجيداً لذكرى والده سيتي ولجده الأكبر المدعو أيضاً سيتي وتجديداً لعبادة الإله ست . وتتحدث هذه اللوحة عن ملك اسمه Nubtj وأوردت له إسماً ثانياً وهو « ست » القوي وأرخت هذه اللوحة بيوم ٤ مسرى من السنة الأربعمائة من حكم « نوبتي » ست القوي ونعرف أن « نوبتي » هذا هو اسم الاله « ست » وهو مشتق من المدينة التي عبد فيها هذا الإله . إذاً هذه اللوحة التاريخية تتحدث (أولاً) عن عصر يرجع إلى ما قبل سنة ٤٠٠ من تاريخ إقامة هذه اللوحة . و (ثانياً) تتحدث لوحة الأربعمائة سنة عن تمجيد وتخليد ذكرى والد الملك رمسيس الثاني المدعو سيتي والمعروف بالملك سيتي الأول . وتتحدث كذلك عن أحد أجداد رمسيس الثاني وهو جده الأكبر المدعو سيتي أيضاً . وكانت وظيفته « رئيس فرقة الأقواس » تحت حكم الملك حور محب أي حوالي سنة ١٣٣٠ ق . م ومعنى ذلك أن كلاً من والد رمسيس الثاني وجده تسمى باسم الاله ست لأن معنى كلمة سيتي « المنتسب الى الإله ست » لهذا نجد أنه ليس غريباً أن تتحدث

---

(1) Pahor Labib, op. Cit., p. 22

عن لوحة خاصة بتجديد (وليس تأسيس كما يزعم بعض المؤرخين) عبادة الإله ست في شرق الدلتا لأن عبادته وجدت قبل ذلك ولأننا نعلم أن الآلهة الذين عبدوا في عصر الهيكسوس في بلدة تانيس هم نفس الآلهة الذين عبدوا في هذه البلدة في عصر الرعامسة وعلى رأسهم الإله ست. وكذلك عرفنا أن عاصمة الهيكسوس « هوارس » هي نفس عاصمة الرعامسة « بر - رمسيس » وكلاهما مكان تانيس أو صان الحجر الحالية.

والآن بعد أن عرفنا أن الجد المقصود بهذه اللوحة هو سيتي وانه معاصر للملك حور محب فلنضيف الاربعمائة سنة الواردة في هذه اللوحة من عصر هذا الجد الذي كان معاصراً للملك حور محب الى السنة التي تولى فيها حور محب العرش وهي سنة ١٣٣٠ ق. م. فينتج لنا سنة ١٧٣٠ ق. م. وهي سنة تجديد عبادة الآله ست ومبدأ دخول الهيكسوس مصر لأن عبادة الإله ست جددت في أول عهد الهيكسوس عند ما جدد بناء العاصمة تانيس (هوارس).

والآن بعد أن عرفنا ان سنة دخول الهيكسوس مصر هي سنة ١٧٣٠ ق. م. وان أول حكم الأسرة الثامنة عشرة هو سنة ١٥٨٠ ق. م. وهي سنة طرد الهيكسوس نهائياً من مصر نستطيع أن نؤكد ان مدة حكم الهيكسوس هي مائة وخمسون سنة.

مدى توغل الهيكسوس في مصر

يحدثنا المؤرخ مانيتون أن « الهيكسوس استولوا على مصر بسهولة وبغير حرب لأن أهل مصر كانوا في ثورة وهياج » وكلام مانيتون صحيح تؤيده مقارنة الآثار، إذ أننا نرى أنه ابتداء من منتصف الأسرة الثالثة عشرة (أي حوالي سنة ١٧٥٧ ق. م) عمت الفوضى البلاد وبدأ الضعف يدب في صميم الدولة

فبردية Sallier I (وهي محفوظة في المتحف البريطاني وتاريخها يرجع الى عصر الملك منفتاح ومحتوياتها ترجع رغم ذلك الى عصر الهيكسوس) تورد الجملة الآتية: —

« حدث أنه كان في أرض مصر خطر أو وباء ولم يكن هناك سيد ما ملكاً بينهم ».

نستنتج لنا من هذا النص التاريخي القديم إن مصر كانت في حالة فوضى وأن المصريين عجزوا من إقامة ملك منهم مما سهّل فيما بعد على الهيكسوس الاستيلاء على مصر حوالي سنة ١٧٣٠ ق.م

وقد جاءت أحوال مصر السيئة مؤاتيـة للغزاة في وقت كان الضغط عليهم في بلادهم يزداد شدة ويدعو الى هجرتهم نتيجة لإغارات حلت في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وكان مردُّها الى حركة اندفاع الشعوب الهندية الاوروبية (الآرية) في آسيا وهجرتها ولاسيما وقد دخلوا مصر بخيلهم وعرباتهم وغير ذلك من الفنون الحربية التي يجهلها المصريون فتفوّق الهيكسوس من الوجهة الحربيـة سهّل لهم الاستيلاء على المدن والقرى فاستولى الغزاة على منفيس برغم موقعها الحربي المنيع. ونعلم ذلك من نص مكتوب بالهيراطيقي على لوحة معروفة بلوحة كارنارفون

وعلى لوحة كارنارفون هذه نصٌّ آخر يؤيد بردية ساليبه السابقة الذكر وفيه أن «ملكاً من الجنوب من طيبـة يدعى كامس جمع قوّاده وخاطبهم قائلاً: «أريد أن أعرف ما هي قوّتي اذا كان هناك أميرٌ في بلدة حات وعرت (عاصمة الهيكسوس) وأميرٌ آخر في بلدة كوش وأنا جالس مع أسيوي ونوبي [1] كل واحـد منهما يملك نصيبه في أرض مصر ويشاركني الأرض أنا لم أعطهِ الفرصـة أن يصل حتى منفيس ولكن أنظار الآن فقد تمّ استيلاؤه على الاشمونين» [2].

فمن هـذه النصوص نخرج بأن الهيكسوس توغلوا في الدلتا ثم استولوا على منفيس ثم وصلوا الديار المصرية الى بلدة الاشمونين.

وفي ردّ القواد السابقي الذكر على الملك كامس، وهو ردٌّ نجده أيضاً على لوحة كارنارفون نجد أن هؤلاء القواد ردّوا على الملك قائلين: «ولو أن الهيكسوس وصلوا الى بلدة القوصية (الواقعة بالقرب من ديروط) وأخرجوا ألسنتهم دفعة واحدة سنكون في هدوء لاننا نملك مصرنا ولأن (الفنتين) قوية والجزء الاوسط من مصر في حيازتنا حتى القوصية وعلاوة على ذلك

....

(١) دليل على أن السودان فصلت عن مصر

(٢) Pahor Labib, Die Herrschaft der Hyksos, p. 17 ff.

تحرث لنا أحسن أراضيهم ومواهينا ما زالت في الدلتا فالغلال ترحل الى خنازيرنا وكذلك لم يستولوا على مواهينا »

فمن هذا النص نرى أنه يمكننا تعيين الجهة التي وصل إليها الهيكسوس في مصر وهي جهة القوصية، بل يرينا هذا النص كذلك أن الهيكسوس في الدلتا لم ينزعوا ملكية الأراضي التي كان يملكها فيها أهل الصعيد. ومع ذلك فهناك طائفة من العلماء أمثال بتري وأدوارد ماير ويونكر تظن أن الهيكسوس توغلوا في الأراضي المصرية الى أبعد من ذلك. ويستندون في رأيهم هذا إلى قطعتين من الحجر وجدتا في جبلين (بالاقصر) عليهما أسماء الملك خيان [1] والملك أبوفيس.

ولكننا لا نعد هذين الحجرين دليلاً كافياً على صحة ما تذهب اليه هذه الطائفة من العلماء وذلك لأننا نلاحظ أن الملوك الذين أتوا في العصور المتأخرة عن عصر الهيكسوس أخذوا آثار الهيكسوس ونقلوها من مكان الى آخر

فمثلاً: ان جاردنر وجد أناء من الجرانيت للملك عا أوسر رع أبوفيس في مقبرة الملك امنحتب الاول في طيبة.

إذن فلنمض في تأييد وجهة نظرنا ولنورد نصاً آخر يؤيد نص لوحة كارنارفون وهو نص الملكة حتشبسوت في معبد Speos Artemidious بالقرب من القوصية فقد جاء فيه ان الملكة أصلحت معبد حاتحور وجددته وقد كان في جهة القوصية وكذلك المعابد الأخرى التي هدمها الهيكسوس حتى بلدة القوصية. وهو يحملنا على الظن أن معبد بلدة القوصية هو آخر معبد وصل اليه تخريب الهيكسوس. والنص بالحرف يقول: « لقد أصلحت التلف وأكملت النقص بعد ما كانت البلاد تئن تحت حكم الهيكسوس الذين كانوا في عاصمتهم بلدة هوراس (حات وعرت) في الدلتا ». فهذان النصان يؤيدان أن الهيكسوس وصلوا فقط إلى بلدة القوصية.

(١) هو المعروف عادة بأنه أعظم ملوك الهيكسوس لأن معظم آثاره وجدت ليس في مصر فحسب بل في جزيرة كريت وفي فلسطين وبغداد، فمن انتشار آثار الملك خيان بهذه الكيفية استنتج بعض العلماء ومن بينهم ماير وبريستد أن امبراطورية الهيكسوس كانت ضخمة ممتدة من الفرات إلى الشلال الاول. والبعض قال إن ملك خيان لم يشمل جميع هذه الارجاء وانما امتد نفوذه اليها، والحق أن لا هذا ولا ذاك.

ثم أننا نجد تعزيزاً لهذا الرأي في ادارة الحكومة في الأسرة الثامنة عشرة أي بعد طرد الهكسوس مباشرة . فالمنطقة من بلدة الفنتين الى ما بعد أسيوط بقليل أي الى ما يقرب من القوصية كانت من اختصاص أحد الوزراء ، ثم من القوصية الى أعلى الدلتا كانت من اختصاص وزير آخر .

فالرأي ان المنطقة من الشمال الى القوصية هي المنطقة التي استولى عليها الهكسوس لا سيما وإننا نعلم أنه كان بين المنطقتين حدود محصنة ترجع الى ما قبل عصر الهكسوس نوقف عندها تقدمهم في أغلب الظن . ونجد هذا التقسيم يستمر الى ما بعد عصر الهكسوس فقد استمر الى عصر الملك بعنخي مما يدلنا على ان هذا التقسيم كان مهمًا وأن هذه الحصون يصعب اقتحامها .

ومن ظريف ما يروى في هذا الصدد أن اسم أسيوط بالمصرية القديمة معناه « الحارس » وهذا مما يؤيد وجهة نظرنا ويرينا كيف تمتزج السياسة بالدين .

وهناك سبب آخر يؤيد القول بأن الهكسوس لم يستولوا على مصر بأجمعها ذلك أننا نعلم تمام العلم أن هناك ملوكاً وطنيين جعلوا مقرهم في طيبة وطردوا الهكسوس من مصر كما سنرى فيما بعد .

ومن الطبيعي أن طيبة كان لها ملوكها المصريون طيلة عهد الهكسوس فكان هناك في الواقع فريقان: فريق الشمال وهم الهكسوس الذين حكموا حتى بلدة القوصية ، وفريق آخر مصري حكم من الفنتين الى القوصية ، وبذلك تكون غزوة الهكسوس قد اقتصرت على الدلتا حتى بلدة القوصية .

مطاردة الهيكسوس في مصر

جازت هذه المرحلة أدواراً كثيرة أهمها :

ما وصل الينا من عهد الملك « سقنن رع » الملقب « قن » أحد ملوك الأسرة السابعة عشرة والدور الذي لعبه ذلك الملك في مطاردة الهيكسوس مذكور في بردية ساليه بالمتحف البريطاني ، ثم ما ورد في لوحة معروفة بلوحة كارنارفون بالمتحف المصري ، وهي لوحة خشبية

كتب عليها بالهيراطيقية ملخص الحرب التي دارت بين الملك كامس والهيكسوس، ثم النص الذي يحدثنا فيه القائد أحمس بن أبانا عما قام به الملك أحمس الأول في سبيل طرد الهيكسوس من مصر .

أما المصدر الأول فيذكر ان الملك « سقنن رع » كان ملكاً على اقليم طيبة وكان يعاصره ملك من الهيكسوس يدعى « ابوفيس » . وقد جمع ابوفيس في أحد الايام كبار قومه وتحدث معهم وربما كان الحديث حول تدبير مؤامرة لاغتيال الملك « سقنن رع » وها هو ذا جزء من هذه النصوص تدلنا ترجمته على ما ذهبنا اليه : « ... انقضى زمن طويل بعد ذلك، فأرسل الملك ابوفيس الى الملك « سقنن رع » بالعاصمة الجنوبية (طيبة) رسالة ولما وصل رسل الملك أبوفيس الى طيبة أحضروا الى ملكها — فسأل أحد رسل الملك أبوفيس هذا السؤال : لماذا جئت الى العاصمة الجنوبية ولاي سبب سافرت مع زملائك طوال هذه المدة ؟

فأجاب أن الملك ابوفيس أرسلنا اليكم لنخبركم بأن دب البحر الساكن في بحيرة طيبة يمنع جلالته من النوم نهاراً وليلاً وصياحه يزعج أذني الملك » . « حزن الملك سقنن رع وتألم ولم يرد الجواب. ثم عاد رسول الملك ابوفيس الى سيده ... » ومن سياق الكلام نفسه نعلم انه على أثر ذهاب رسول ابوفيس الى سيده دعا سقنن رع قواده ورؤساء حكومته وأخبرهم برسالة الملك أبوفيس فسكتوا جميعاً ولم ينطقوا بكلمة واحدة (وهنا سقط الاصل) ولم تكمل القصة التي كانت تحوي كثيراً من المعلومات التاريخية .

فمن الجائز أن يكون رسل الملك أبوفيس عبارة عن أفراد عصابة أرسلها الملك لاغتيال حياة « سقنن رع » ولما خابوا في مهمتهم عادوا بعد أن اختلقوا الحيل ولفقوا الاسباب التي من أجلها أرسلهم ملكهم . كذلك نعلم أن جثة هذا الملك « سقنن رع » وجدت في معبد الدير البحري وفيها آثار جروح نتيجة ضربات مميتة فهل معنى ذلك أن هناك مؤامرة دبرت لاغتيال هذا الملك العظيم ؟ أم أنه سقط صريعاً في ميدان القتال ثم أنقذ أحد أتباعه جثته من العدو ؟

أرجح شخصياً الرأي الثاني وذلك لان آثار الجهاد واضحة في جثة هذا الملك وهذا ما يحملنا على الظن أنه ثار على الغزاة وأوقد الحمية في صدور شعبه، فقاموا قومة رجل واحد

ليطردوا الهيكسوس من مصر . ويؤيد ذلك أن خليفة هـذا الملك وهو إبنه كامس واصل الحرب ضد الهيكسوس .

أما المصدر الثاني وهو لوحة كارنافون فقد عرفنا تفاصيلها عند ما تكلمنا عما وقع تحت حكم الهيكسوس من المناطق المصرية .

والمصدر الثالث عبارة عن نص القائد البحري أحمس بن أبانا . إسمه أبانا نسبة الى اسم أمه وقد كان ذلك شائعاً عند قدماء المصريين مما يبين لنا مركز المرأة قديماً . أما إسم والده فقد كان « بابا » وقد كان بابا والد القائد أحمس هذا معاصراً للملك سقنن رع .

وقد ظهر هذا القائد في المرحلة الأخيرة من مطاردة الهيكسوس وعاش في بلدة الـكاب. وقد بدأ حياته العملية أيام الملك أحمس الاول الذي عينه قائداً في إحدى السفن والذي يهمنا في نص هذا القائد (١) من الوجهة التاريخية في موضوع مطاردة الهيكسوس هو ما يأتي :

« ... كنت اتبع الملك ماشياً عندما ركب عجلته وعند ما حاصر الملك بلدة حات وعرت (هوارس) وقد أظهرت شجاعة على قدمي ماشياً أمام جلالته وبعد ذلك رقاني (جلالته) الى السفينة المسماة «خع ام من نفر» ثم حارب الملك على مياه قناة باجودكو الواقعة جهة حات وعرت (هوارس) ثم حاربت وأحضرت يداً وبُلّـغت هذه المسألة الى كاتب سر الملك فأنعم عليَّ بعد ذلك بذهب الشجاعة ، وحارب الملك بعد ذلك في أجزاء مصر الواقعة في جنوبي هذه البلدة » .

وقد اختلف العلماء فيما هو المقصود من البلدة التي حارب الملك جنوبيّـيها فبعضهم يقول إن المقصود بها « بلدة هوارس » المذكورة في النص ، والبعض الآخر يقول إنها بلدة الـكاب حيث مقبرة هذا المؤلف الذي كتب لنا عن تاريخ حياته . وأرجح أنا شخصيّـاً الرأي الثاني لانه ليس من المعقول أن تثور مصر كلها في هذا الوقت العصيب ضد الملك أحمس الاول . فالمقصود إذن هي مدينة الـكاب. ويستنتج من ذلك أيضاً استمرار إغارة النوبيين على مصر .

وقد جاء في نفس نصوص هـذه المقبرة ذكر تلك الإغارة التي كانت في عهد الملك الذي

(١) K. Sethe, Urkunden der 18. Dynastie

سبق احمس وهو كامس . « وبعد ذلك استولى الملك على مدينة حات وعرت (هوارس) وكنت قد أحضرت من هناك غنيمة رجل واحد وثلاث نسوة أي أربع رؤوس (أسرى) »

ثم يستمر النص فيقول : « وقد أعطاهم جلالته إياهم كعبيد » « ثم حاصر الملك بلدة شاروهن مدة ثلاث سنوات واستولى جلالته عليها »

فمن هذا النص نستنتج محاصرة الملك بلدة هوارس عاصمة الهيكسوس ثم استيلاءه عليها وبعد ذلك مطاردته الهيكسوس في عقر دارهم ومحاصرته بلدة شاروهين بعد أن تعقبهم الملك إليها ثم استولى عليها بعد محاصرتها ثلاثة أعوام . وهذا مهم من الوجهة التاريخية إذ يبين لنا ان أحمس الاول طرد الهيكسوس من مصر بعد ان استولى على عاصمتهم ثم طاردهم إلى جنوب فلسطين .

وبذلك نختم الجزء التاريخي الذي يهمنا في مطاردة الهيكسوس من نص القائد أحمس ابن أبانا .

وبحكم الملك أحمس الاول ينتهي حكم الهيكسوس ويعتلي ملوك طيبة ثانية عرش مصر ويبدأ تاريخ عصر هام تحقق فيه توحيد مصر من جديد وهو ما نسميه « بعصر الوحدة الثالثة » و « المسمى بعصر الدولة الحديثة » طبقاً لما هو شائع . وذلك لأنه على يدي أحمس الأول تمت مطاردة الهيكسوس من البلاد المصرية وعلى يديه كذلك رجعت الى مصر الوحدة القومية لأن حرب مطاردة الهيكسوس لم تكن حرب استقلال فقط بل هي أيضاً فرصة اغتنمها ملوك طيبة لكي يسيطروا على القطر المصري بأجمعه . وقد تمّ لهم ذلك على يد مؤسسها الملك أحمس الأول . وهنا نرى ظهور نفوذ طيبة السياسي للمرة الثانية بعد أن ظهر أولاً في أيام الدولة الوسطى ولم يكن أبرز الأشياء في هذا العهد انتصار فراعنة على آخرين وإنما كان مطاردتهم شعباً أجنبيـًّا .

وبالرغم من الاضرار التي عادت على مصر من حكم الهيكسوس من تفكك في الادارة وتصدّع الوحدة إلاّ أن المصريين جنوا من عصر هؤلاء المغيرين الفوائد الآتية :

عند مطاردة الهيكسوس أخذت مصر تتطلع إلى البلاد الاسيوية المجاورة لها ولا سيما فلسطين وسوريا وأصبحت جزءاً من مصر أي نظرت اليها كأجزاء لا يمكن الاستغناء عنها

وبذلك أصبحت مصر أمة غير منعزلة عن باقي العالم وأصبح لها مقام دولي هام حدد في مراسلات أو معاهدات دولية . كذلك كان لغزو الهيكسوس لمصر مزايا لا يمكن انكارها ظهرت آثارها فيما بعد ظهوراً واضحاً بما أثمره من رخاء . فمثلا استفاد المصريون أشياء كثيرة أثرت في الصناعة المصرية ومنها صناعة العربات التي كانت سبباً في تعلم المصري هذه الصناعة وترقيتها وتشغيل الأيدي العاملة من المصريين والسودانيين فيها فيما بعد وما يتبع ذلك من عمل الجلود وغيره للعربة وللجياد وهناك كذلك صناعة أخرى هي صناعة الأسلحة ولا سيما الخناجر فبذلك زادت أعمال الشعب المصري في هاتين الصناعتين .

ومن مميزات غزو الهيكسوس لمصر إنشاء جيش نظامي دائم مجهز بالأسلحة ومزود لأول مرة في تاريخ مصر القديم بالجياد والعربات الحربية وذلك لأن الهيكسوس هم أول من أدخل الجواد والعربة في مصر ، وزيادة على ذلك استفاد المصريون أثناء وجود الهيكسوس في مصر استعمال الجواد والعربة في الحروب فتعلموا من الهيكسوس الفنون الحربية وطرق الكفاح المختلفة فثاروا في وجه الغزاة كما تقدم ثورة موفقة وعلى ذلك كان حكم الهيكسوس في مصر من العوامل التي قوت في الشعب المصري لأول مرة في تاريخه روح الكفاح .

طلب الحرية فنالها ثم عرف طعم الحرب وتذوق معنى الانتصار فخرج من مصر يطلب الغزو والحرب فتولدت في الشعب المصري روح الاستعمار . ومن الطبيعي أن يتبع ذلك كثرة الوظائف الحربية والمدنية أي وجود أيادٍ عاملة في مصر وفي خارجها وقد استنتجنا ذلك من الألقاب التي كان أكثرها غير معروف قبل عصر الهيكسوس

وكان المصريون يفخرون بوظائفهم الحربيـة وقد أشارت الى ذلك نقوشهم وازداد تشجيع الملوك للقواد الحربيين فأعطوا الأراضي ومنحوا النياشين بل فرض أغلب ملوك عصر الوحدة الثالثة على أولياء عهودهم دراسة الفنون الحربية في مدرسة أو كلية أنشئت خصيصاً لذلك في منف [1] بل أكثر من ذلك فقـد فرض على أوليـاء العهود أن يتولوا إدارة مصنع بناء السفن والأسطول (دار الصنعة) الذي أنشئ في هذا العصر على مقربة

(1) Helck, Der Einflnss der Militärführer

من منف . ونذكر هنا أن ولي العهد امنحتب بن الملك تحتمس الثالث وهو الذي عرف فيما بعد باسم الملك امنحتب الثاني كان يشرف على ادارة مصنع بناء السفن والأسطول(١). وكذلك كان من نتيجة غزو الهيكسوس مصر تأسيس امبراطورية مترامية الأطراف تدفقت الخيرات منها على مصر كما تدفقت الأموال على بيت فرعون فعمّ الرخاء وازدادت موارد مصر كثيراً مما أدى الى تقدم المدنية المصرية .

وكان من الفوائد والمميزات الكثيرة التي عادت على مصر بالخير أيضاً بعد غزوة الهيكسوس ظهور شبه انقلاب في السياسة وفي الحالة الاجتماعية حتى أدمجت في اللغة المصرية نفسها كلمات كنعانية كثيرة .

(١) Glanville, Aeg. Zeitschrift, 66.



الوزير امحوتب اله الطب

الملك ايخ - إن - آتون [١]

الملك إيخ - إن - آتون ، أو كما يسميه كثير من كتّاب التاريخ المصري القديم ، اخناتون على سبيل التخفيف هو ابن الملك امنحتب الثالث من زوجته « تي » التي اختارها الملك من طبقة الشعب المصري لا الآسيوي ، كما زعم بعض المؤرخين ، فهي كريمة الأبوين المصريين يويا وتويا .

وأهم دافع حفزني للبحث في هذا الموضوع هو دراسة نظام الحكم في عصر هذا الملك وسابقيه من ملوك عصر الوحدة الثالثة (الدولة الحديثة) وبيان مبلغ سلطة هؤلاء الملوك : أكانت استبدادية مطلقة حقًّا كما يقول المؤرخون أمثال بريستد وماير ويونكر وموريه وبتري وسائر الباحثين ، أم أن الرأي بعكس ذلك كما انتهت اليه بحوثي وعلى ما سأعرضه الآن

كان نظام الحكم في مصر القديمة يتوقف على مقدار ما تتصف به سلطة الملك من القوة والضعف . واذا عرفنا أن الحكومة والملك شيء واحد ، وأن الحكومة قديمًا كانت تمثل في شخص واحد هو الملك وتتجمع في شخصه مختلف السلطات ، أدركنا أن الحكومات كانت تتغير حسب سلطة الملك قوةً وضعفًا فتصبح مطلقة أو مقيدة بقوة أخرى،وهذه الظاهرة لم تقتصر علىعصور الفراعنة المصريين ، بل نجد ما يشابهها في فرنسا فيزمن الملك لويس الرابع عشر حينما ابتدع نظرية « الحكومة أنا وأنا الحكومة » .

والرأي السائد حتى الآن بين العلماء والباحثين أن سلطة الملوك في الفترة بين احمس الاول وايخ - ان - آتون كانت استبدادية مطلقة وأن نفوذ الأمراء زال تمامًا تبعًا لانضوائهم في خدمة الملك كمديرين لمقاطعاتهم .

ولكن عند التعمق في دراسة هذا العصر وبحثه يجد الفاحص المدقق أن هناك مشكلة دقيقة تواجه المؤرخ وهي هل كانت سلطة الملك ايخ - ان - آتون ومن سبقه من ملوك

---

(١) زوجته الملكة نفرتيتي صاحبة التمثال الجميل المشهور بمتحف برلين ، ونفرتيتي معناه باللغة القديمة « الجميلة اتت » .

عصر الوحدة الثالثة استبدادية مطلقة ، أم كانت سلطتهم يضعفها وجود نظام اقطاعي خاص ؟

وبعبارة أخرى هل كان الملك ايبخ - إن - آتون ومن سبقه من ملوك عصر الوحدة الثالثة منذ أيام تحتمس الثالث في قوتهم وسلطانهم كما يظهرهم التاريخ هم الواضعون لأساس النظام الاقطاعي الذي ظهر جلياً في عهد الملوك الذين تولوا الحكم بعد تحتمس الثالث بحيث انه عند ما تولى ايبخ - إن - آتون الملك . ورث النظام الاقطاعي الخاص الذي كان على أيام سابقيه ، والذي قيّـد من سلطتهم ، خلافاً لما كان معروفاً عنهم من قبل ؟

للاجابة على هذا السؤال يجب أن نرجع قليلاً إلى الوراء ، فنجد أنه يمكننا القول ان الملوك المصريين القدماء لم تبلغ سلطتهم من القوة مثل ما بلغت في عهد الملك احمس الأول ومن تلاه من الملوك حتى عهد تحتمس الثالث (لأنهم أصحاب الفضل في تخليص مصر من أيدي الغزاة فأمكنهم أن يركزوا في أيديهم كل السلطات المختلفة في مقر عاصمتهم طيبة). ولكن من سوء الحظ كان الملك احمس ومن خلفه من الملوك على عرش مصر يمنح الآلهة المتعددة في مختلف الأقاليم (أمثال آمون في طيبة ورع في عين شمس وبتاح في منف وهكذا) أراضٍ يجعل ملكيتها باسم الآلهة المختلفة ويلحق بها امتيازات كان الملوك يعتبرونها في بادىء الأمر اعترافاً بجميل هذه الآلهة على ما نالوه من نصر في حروبهم أو بعثاتهم .

وهنا نرى شيئين خطيرين . أولاً : ان الملوك وهبوا أراضٍ واسعة للآلهة في مختلف الأقاليم . ثانياً : ان الملوك أعفوا هذه الأراضي من الضرائب بل وأضافوا اليها امتيازات أخرى .

***

وقد زادت هذه الأراضي زيادة غير منتظرة ولم يصبح منحها اعترافاً بالجميل للآلهة ، بل أصبح دليلاً على الضعف والتودد وانعكست الآية في عهد الملوك اللاحقين لعصر تحتمس الثالث ، فلم يعد الكهنة خاضعين لسلطان الملك كما كانوا في أول الأمر بل شعروا بنفوذهم وسلطانهم الذي أخذ في الازدياد في الوقت الذي أخذ فيه سلطان الملوك يضعف ويتقلص .

فما بوادر هـذا الضعف من جانب الملوك وما هي مظاهر هذا الجاه وتلك السطوة من جانب رجال الدين ؟

(أولاً) : لم تصبح ادارة المعابد بعد خاضعة لادارة الحكومة المركزية كما كانت من قبل ، بل استقلت عنها تماماً . وبالتالي أصبح موظفو هذه المعابد ومديروها من الموظفين الدينيين تحت إمرة رئيس الكهنة في كل معبد .

وكانت ادارة هذه المعابد وأملاكها تتناول كثيراً من النواحي الزراعية والصناعية والفنية والاقتصادية والعلمية .

ففي الناحية الزراعية كان عدد كبير من العمال يعمل في زراعة الأرض والري والحصاد وتربية المواشي وشق الترع وغرس الحقول والحدائق بالفاكهة والأعناب .

ومن الناحية الصناعية كان عدد كبير يعمل في مستخرجات الماشية ومستخرجات الكروم وغيرها مثل عمال النسيج وعمال النبيذ .

ومن الناحية الفنية كان عدد كبير يعمل في بناء المعابد وملحقاتها وهندستها وفي النقش والنحت والرسم .

ومن الناحية العلمية ، كان عدد كبير أيضاً يعمل في علوم الدين وعلوم الفلك وفي الطب وشؤون الكتابة والقضاء والهندسة والكيمياء والرياضيات .

أضف إلى ذلك أن جمهوراً عظيماً لا يستهان بعدده من الرجال ، كان يعمل في كل معبد من هذه المعابد وملحقاتها في أعمال تتصل بالخبازة والحلاقة ومنهم الحلواني وصانع النعال والصائغ وحارق البَخُور وغالي الزيت وحامل المياه ومقدم القرابين .

يضاف الى هؤلاء أيضاً أنواع من الخدم كالحارس والبواب .

أما فيما يختص بمدينة الأموات التابعة لكل رئيس كهنة فادارتها معروف أمرها للجميع .

ولم يكتف رجال الدين برعاية شؤون الدين وإدارة معابدهم بل كانت لهم في كثير من الأحيان صلات وثيقة بكثير من الأعمال الحكومية أو بعض المهام الملكية ، فكثيراً ما كانوا ينتدبون لادارتها أو الإشراف عليها . ولعلّ من أهم الأمثلة التي تؤيد ذلك ما يلاحظ على ألقاب الكاهن الأكبر « حابو سنب » .

بل وأكثر من ذلك أصبح منصب رئيس الكهنة وراثيًا ، فكان الخلف يعقب السلف دون أن يقوم نزاع أو خلاف كالذي كان يقوم عادةً بالنسبة لتوارث الملك في ذلك العهد .

وأظهر مثل لدينا على هـذا كبير كهنة منف الذي مثّل سلالته على احدى الجدران في أربعة صفوف في كل صف منها خمسة عشر كاهنا من أفراد أسرته ، وظلوا جميعاً متربعين في منصب الرياسة الدينية في منف ما يقرب من ألف وثلاثمائة عام تقريباً . وهناك قطعة أثرية أخرى بمتحف كوبنهاجن تمثل توارث كهنة عين شمس على هذا النسق .

أما كهنة آمون فقد نشر عنهم « لا فيفر » الـكثير كما هو معروف للجميع. زد إلى ذلك أن سلطة الرئيس الديني لا تنتهي بوفاة الملك المعاصر له بل تستمر ولا تعتبر منتهية إلا بوفاة هذا الرئيس . وربما ازدادت بما يصيبهم من ثراء على أيدي الملك اللاحق ، وبما يصيبهم من امتيازات جديدة وهدايا جديدة بصرف النظر عما وهبه لهم أسلافه . فيكدسون بذلك الأحجار الثمينة والذهب وتتكاثر الأراضي والمواشي ويزداد عدد اتباع كل معبد .

ولم يكتف الرؤساء الدينيون بكل ما نالوه من هذه الامتيازات بل أطلقوا على أنفسهم لقب أمير « حاتي عا » فتشبهوا بحكام المقاطعات في ألقابهم وفي نفوذهم .

(ثانياً) بينّا أن طبقات الـكهنة أصبحت مستقلة عن السلطة المركزية. ولهذا الاستقلال مظاهر متعددة فمن الناحية السياسية تدرّج الأمر برؤساء المعابد إلى أن أصبحوا في وقت واحد يجمعون بين منصبي « الرئيس الديني لجميع معابد آلهتهم في مصر العليا والسفلى » ومنصب « الوزير » وهو رئيس الدولة بعد الملك مباشرةً أي أنه قد تطوّر نفوذ رجال الدين بالتدريج حتى أمكنهم الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية أو الجمع بين السياسة والدين ويحدّثنا التاريخ أن « بتاح مس » كبير كهنة بتاح بمنف في عصر الملك أمنحتب الثالث جمع بين الوزارة ورئاسة كهنة بتاح بمنف ، كما أن « حابوسنب » كبير كهنة آمون في عصر الملكة « حاتشبسوت » قد جمع أيضاً بين الوزارة ورئاسة كهنة آمون بطيبة .

فأصبح رؤساء المعابد بذلك يشتركون اشتراكاً فعليّاً في حكم البلاد مع الملك .

ومن الناحية الادارية كان يقوم بادارة هذه المعابد وأملاكها من ضياع ومصانع وغيرها رجال دينيون يخضعون مباشرةً للرئيس الديني الأعلى للمعبد لا للسلطة المركزية. وكان اختصاص هذا الرئيس يتسع ويضيق تبعاً لمقدار انتشار عبادة الاله القائم بعبادته وخدمته

ومن الناحية الاقتصادية كانت معابدهم وما تمتلك من أرض وحيوان معفاة من والي

الموارد من الضرائب سنويًّا ، كما أن ميزانية هذه المعابد كانت منفصلة عن الميزانية العامة للدولة انفصالاً تامًّا ، فكان لهذه المعابد بيوت للذهب ، وبيوت للفضة خاصة ، ومخازن غلال خاصة ، ومراكب خاصة لجلب الدخل والخيرات من البلاد التابعة لهذه المعابد ، غير بيوت الذهب والفضة ومخازن ومراكب الحكومة .

ومن الناحية الاجتماعية ، دلتنا النقوش على أن رؤساء المعابد كان لهم المقام الأول والاعتبار الأعظم . كما أن المعابد كانت تعتبر في ذلك الوقت بمثابة معاهد ثقافية تشبه دور العلم أو الجامعات في وقتنا هذا ، وكان الرؤساء الدينيون يعتبرون كعمداء لهذه المعابد .

ومن الناحية القضائية كانت تمثل رجال الدين في مختلف المحاكم .

أما وقد رأينا الآن ما انتهى اليه أمر هؤلاء الرؤساء الدينيين ، الذين يحق لنا أن نسميهم الكهنة الأمراء ، من سلطان مطلق في ادارة معابدهم وعلى الشؤون المتعلقة بالمالية والقضاء .

نخرج بنتيجة واحدة وهي أن نفوذ هؤلاء الكهنة الأمراء طغى على نفوذ الملك وتضاءلت هيبة الملك بجوار هيبتهم — فحق لنا أن نسمي هذه المعابد بدويلات داخل الدولة المصرية ، وان نسمي هؤلاء الرؤساء الدينيين « الكهنة الأمراء » .

وكان طبيعيًّا ، وقد شبهنا هذه المعابد بدويلات ، ان يكون لكل منها بوليس خاص لمراقبة جميع الأعمال والعمال ولحفظ الأمن .

وكذلك كان طبيعيًّا أن يكون لكل منها جيش خاص يذود عنها ويدفع عنها اعتداءات الغير ، فكان وجود هذه الجيوش مما يقوي من هيبة الرؤساء الدينيين ويضعف من هيبة الملك .

زد الى ذلك ان رؤساء المعابد كانوا هم رؤساء الجيوش ، في حين ان القاعدة ان الملك هو الرئيس الأعلى للجيش .

أصبح الكاهن الأعلى لكل معبد ، أو رئيس كل دويلة ، يزاحم الملك سلطته وسلطانه على البلاد .

فليس غريبًا بعد كل ما رأيناه من مختلف المظاهر لازدياد سلطة الكهنة الأمراء ، أن

نحس بانكماش سلطان الملك وتضاؤل سلطته في هذه النواحي المتعددة التي سبق أن تكلمنا عليها .

وأخيراً يجب ان نطرح السؤال الآتي : ما هي أركان النظام الاقطاعي وأهم خواصه وما مدى توافقها وانطباقها مع ما انتهى اليه حال الأمة والدولة المصرية وكهنتها عندما ورث الملك إخ — ان — آتون عرش مصر ؟

إن خواص النظام الاقطاعي وأركانه تنحصر في أربعة أمور رئيسية : —

(أولاً) — الامارة : وقد رأينا ان الرئيس الديني انتهى الأمر به الى لقب أمير

(ثانياً) — التوارث : وقد أصبح منصب الرئيس الديني وراثيًّا يتوارثه أولاده ثم أحفاده دون نزاع أو خلاف .

(ثالثاً) — التعدد : وقد كان عدد هذه المعابد وممتلكاتها يتزايد للاله الواحد في جهات مختلفة . فلما جاء إخ — أن — آتون وجد عددها منتشراً في أجزاء مختلفة من أقاليم القطر المصري .

(رابعاً) — الانفصال عن السلطة المركزية : وقد بيّنا سابقاً أن هذه المعابد كانت منفصلة عن السلطة المركزية من جميع نواحي النشاط السياسي والاداري والمالي والقضائي والحربي والعسكري والاجتماعي والاقتصادي .

***

من هذه الخواص مجتمعة ومما رأيناه من انطباقها وتوافقها على ما كانت عليه الأمة المصرية ، وما وصلت اليه حال الكهنة حتى عهد الملك إخ — ان — آتون يمكننا القول أن كلمة « نظام اقطاعي » تنطبق على هذه التركة التي ورثها الملك إخ — إن — آتون مع فارق فني بسيط ، وهو أن هذا النوع الجديد من النظام الاقطاعي كان لأمراء المعابد بدلاً من أمراء المقاطعات المدنيين وذلك النظام الجديد من النظام الاقطاعي في هذا العهد يمكن تسميته بالانجليزية Temple Feudal System وبالفرنسية Féodatité de Temple وبالالمانية Templfurstentum « والعربية اقطاعيات المعابد » لأنه في هذا النظام الجديد حل المعبد وممتلكاته محل المقاطعة ومشتملاتها وحل الأمير الديني محل الأمير المدني .

والملاحظ أن هذه الظاهرة الجديدة ليست قاصرة على عهد الملك اخ – إن – آتون فحسب، بل إننا نجد لها نظيراً في كثير من العهود الفرعونية الأخرى .

ولما جاء اخ – إن – آتون إلى العرش أخيراً وجد الحال كما بينا ، وهو حال من النظام الاقطاعي الخاص ، جعل الملك الشاب لا يستسيغه بل وينتهز الفرص للايقاع بهؤلاء الأمراء الكهنة الذين أصبحوا خطراً على ملكه ، فشاء ان يتحرر من قيود هذا النظام الاقطاعي الذي ورثه عن أسلافه ، فثار ثورته المعروفة في السنة السادسة من حكمه حوالي سنة ١٣٧٧ قبل الميلاد ليتخلص من أولئك الكهنة الأمراء ومن سلطانهم ، بل ومن معبوداتهم وكثيراً ما تلعب السياسة دورها تحت ستار من الدين .



منصب الوزير
في مصر الفرعونية

جرت عادة ملوك مصر الأقدمين على أن يلقوا عبء الإجراءات الحكومية من إدارية وقضائية ومالية وحربيـة على عاتق أكبر موظف في الدولة وهو الوزير ، وكان يسمى باللغة المصرية القديمة « ثات » .

وكان لمن يشغل منصب الوزير من الأهمية والسلطان قدر كبير ، وذلك لأن الوزير كان هو رجل الدولة الأول الذي يلي الملك مباشرةً في الأهميـة والنفوذ والسلطان . ولأن الوزير كان بمثابة حلقة الاتصال بين الملك وبين الإدارات المختلفة ، سواء في العاصمة أم في الأقاليم .

وبسبب هذه الأهمية التي كانت للوزير كان ينتخب من اعرق العائلات الخالصة للعرش المتفانية في ولائهـا وخدمتها له بل كان يعين أحياناً من أولياء العهد ، أو أبناء الملك ، أو أقارب الملك في بعض العصور ، وفي عصور أخرى كانت وظيفة الوزير وراثية . وفي ظروف خاصة جمع بعض الوزراء بين منصب الوزير ومنصب رئاسة كهنة إلـه الدولة الرسمي .

وأقدم من ذكر من الوزراء وزير الملك مينا (نعرمر) : الموحد الأول لمصر القديمة ومؤسس الدولة القديمـة (عصر وحدة وادي النيل الأولى) وقد جرت العادة في العصور الأولى من تاريخ الحضارة المصرية القديمة أن يكون وزير واحد للملك والدولة .

وبابتداء عصر الوحدة الثانية (الدولة الوسطى) نجد على الأرجح ظاهرة جديدة في تاريخ ملوك مصر الأقدمين ، وهو أن اثنين من الوزراء يعاونان الملك في وقت واحد . ولكن نصوص هذا العصر لا ترينا تحديداً للاختصاص ، ولكن من الثابت أن الدؤون

المصرية القديمة للمملكة الفرعونية قد زادت في هذا العصر نتيجة لازدياد الفتوح الأجنبية ، مما يدل على أن الحاجة كانت ماسة لأكثر من وزير .

أما في عصر الوحدة الثالثة (الدولة الحديثة) ، فقد وصلتنا نقوش ونصوص كثيرة تعطينا فكرة من مهام الوزير ، فقد كان لمصر وزيران أحدهما للشمال ، واختصاصه المنطقة التي تمتد من شمال أسيوط حتى البحر المتوسط ، والآخر للجنوب ، ومنطقته تمتد من جنوب أسيوط حتى حدود مصر الجنوبية . وكان مركز الأول عين شمس أو منف أو تانس (بر رمسيس) ، والثاني كان مركزه طيبة .

وأهم المعلومات عن منصب الوزير يمكن استقاؤها من النقوش والنصوص المدونة على جدران مقبرة رخمي رع الذي كان وزيراً للملك تحتمس الثالث ، وأوائل عصر الملك امنحتب الثاني ، فنستنتج منها أن الملك هو الذي له حق تعيين الوزير . وكما أن للملك حق تعيين الوزير فله الحق أيضاً في عزله كما دلت نصوص أخرى على ذلك .

ومن الطريف أن الملك تحتمس الثالث عند تعيينه رخمي رع في منصب الوزارة للجنوب أسدى إليه الإرشاد ونصحه نصائح جليلة . وقد دلتنا النصوص على أن هذه التعليمات التي كان يقولها الملك لوزرائه كانت تقليدية ، إذ وجدناها تقال عند تعيين كل وزير فقد عثرنا في مقبرة الوزير أوسر ، خال الوزير رخمي رع ، على نصوص تؤيد ذلك ، كما وجدناها قد وجهت الى الوزير حابو وزير الملك تحتمس الرابع ، من ذلك على سبيل المثال قولهم : « كن يقظاً لكل ما يجري في الوزارة . وإذا أتاك مشتكٍ فيجب عليك أن تبحث بنفسك في شكايته ، عاملاً حسب القانون . واتتبع الحق ولتعلم أن غضب الإله يحل على من يؤثر المحاباة .. لتكن معاملتك لمن لا تعرفه مثل معاملتك من تعرفه ، ولمن هو قريب منك مثل من هو بعيد عنك » . وزيادة على تعليمات الملك لوزيره بأن يحكم بالعدل ، وبألا يحابي أحداً كان يرشده إلى ما يجب اتخاذه يومياً . فيبدأ الوزير عمله في كل صباح بأن يقابل الملك ويعرض عليه المسائل الحكومية لكي يبدي فيها رأيه . ومن هذا نرى أن الملك كان هو الرأس المفكرة العليا التي تدير سياسة البلاد .

وفي أثناء مقابلة الوزير للملك يكون رئيس المالية منتظراً عند إحدى سواري القصر .

فاذا خرج الوزير تداول معه في أمور الدولة . ثم بعد ذلك يدخل رئيس المالية على الملك ويعرض عليه الشؤون المالية وما اعترى خزينة الدولة من نقص أو زيادة (وطبيعي كانت في شكل مواد أولية كالأخشاب والخضر والجلود والأقمشة وما أشبه) . وبعد ذلك يأمر الملك بفتح دواوين المصالح الحكومية مما يدل على أن الملك كان يرشد كل وزير على ما يجب أن يبت فيه من أمور تهمه وتهم الدولة المصرية القديمة .

وفضلاً عن إشراف الملك على وزير المالية ، فقد كان هذا الوزير تحت رقابة ورئاسة الوزير الأول للدولة الذي كان يعتبر عندئذٍ كرئيس الوزراء الآن . إذ دلتنا النصوص على أنه كان يكتب التقارير للوزير الأول باستمرار ليطلعه على الحالة المالية العامة للدولة .

وقد كان لمنصب الوزير الأول للدولة في هذه العصور القديمة من الأهمية الكبرى والمكانة العظمى ما لمنصب رئيس الوزارة في العصور الحالية . فقد كان الرئيس الأعلى للقضاء . ففي مقبرة رخمي رع نجد رسماً لمجموعة قوانين مطوية في أربعين ملفاً بردياً محفوظة داخل أغلفة من الجلد وموضوعة أمام الوزير بصفته القاضي الأعظم « ساب سبختي » وهو جالس في دار المحكمة في إحدى الجلسات العلنية . (مع ملاحظة أن المرجع الأخير للمسائل الجنائية كان الملك ، والمرجع الأخير في المسائل المدنية كان الوزير . وحتى في عصرنا الحاضر نجد العفو في المسائل الجنائية من حق جلالة الملك) .

كما كان وزير الحربية ، وبصفته هذه ، يشرف على الجيش والأسطول ، وبمعنى آخر كان الرئيس الأعلى للجيوش البرية والبحرية . وكان لمصر أسطول عظيم سطر في سجل التاريخ انتصارات كبيرة . وكان الوزير أيضاً المشرف على الشؤون الداخلية ، وكان بهذه الصفة رئيساً للبوليس في منطقة اختصاصه ومحافظاً للعاصمة .

ثم كان أخيراً المشرف على الشؤون الزراعية .

نرى من كل ما سبق مبلغ ما كانت عليه مصر القديمة من رقي ومدنية في الحضارة ، وترتيب وتنظيم في الشؤون الإدارية ، ودقة ومهارة في تكييف الأمور والتصرف فيها .

حاكم السودان العام

في تاريخ مصر الفرعونية

من طريف ما يحدثنا به التاريخ إنه عند تولي الملك تحتمس الأول عرش الوادي حوالي سنة ١٥٣٧ قبل الميلاد في ظلال الوحدة أرادت الحكومة المصرية ارسال نبأ تولية الملك الجديد على عرش الوادي فكتبت ما معناه : (أمر ملكي إلى حاكم السودان العام المدعو نورى لكي يعلم ان جلالة الملك تحتمس ملك الشمال والجنوب وينشر ألقابه ويعلن انحلف اليمين أصبح باسم الملك تحتمس)

وكان يلقب حاكم السودان العام بلقب الابن الملكي للسودان وليست كلمة ابن هنا معناها ان يكون الحاكم حقاً من أبناء البيت المالك ولكن هذا اللقب في الواقع معناه ان حاكم السودان مقرب من الملك وله شرف الاتصال به ويهدف هذا اللقب الى اظهار عدم تفريق ملك الوادي بين مصر والسودان من جهة الحكم والادارة وحتى يشعر أهل السودان ان فرعون مصر قد أرسل اليهم من هو في حكم ابنه ليدير دفة شؤون البلاد الشقيقة

وكان لحاكم السودان العام نورى السابق الذكر شرف الخدمة في عهد ملوك عديدين ، فقد تقلد منصبه في أواخر عهد الملك احمس الاول مؤسس عصر وحدة وادي النيل الثالثة وبقي حتى عهد الملك تحتمس الثاني — مما يدل على ان شاغل مثل هذا المنصب يبقى فيه طيلة عمره ما دام يؤدي عمله على الوجه الأكمل ومخلصاً لملك الوادي .

ومن الطريف أيضاً انه بابتداء عصر الملك امنحتب الثالث حوالي سنة ١٤٠٥ قبل الميلاد نجد حاكم السودان العام يحمل لقباً آخر وكان يحمله الوزير أيضاً معناه (حامل المروحة على

يمين الملك) مما يدل عن ان حاكم السودان أصبح أكثر تقرباً في بلاط ملوك عصر الوحدة الثالثة (الدولة الحديثة)

وكان من اختصاص حاكم السودان تصريف الشؤون الادارية والاشراف على المسائل القضائية والمالية .

أما شؤون السودان العسكرية والحربية فقد كانت من اختصاص رئيس جنود الرماة بالقوس في السودان .

وقد كان الحد الفاصل بين منطقة اختصاص حاكم السودان ومنطقة اختصاص وزير الجنوب عند جزيرة بجا القريبة من جزيرة فيلا بأسوان .

وكان يساعد الحاكم العام للسودان موظفان آخران أحدهما لقبه (ادنوان واوات) واختصاصه من أسوان الى الهلال الثاني ، والثاني لقبه (ادنوان كوش) واختصاصه الاقليم المحصور بين الهلالين الثاني والرابع .

كذلك كان يساعد الحاكم العام للسودان موظفون آخرون كالكتبة ومحاسب الذهب لاهمية الذهب في السودان وكثرة وجوده بكميات وفيرة هناك في تلك العصور .

هيرودوت في مصر

زار هيرودوت مصر حوالي عام ٤٦٠ قبل الميلاد ضمن البلاد الأخرى التي زارها ، ولم يمرّ هيرودوت بمصر وبغيرها من الأقطار مروراً عابراً بل كان خلال رحلاته شديد الملاحظة يسأل ويدقق النظر في كل معبد أو بناء مشهور يراه وفي عادات أهل البلاد التي يمرّ بها .

لذلك ألّف هيرودوت تاريخه عن مصر من وحي مشاهداته وما سمعه خلال رحلته فدوّن ذلك مؤيداً برأيه الخاص أحياناً . وفي هذا يقول « يجب عليّ أن أقصّ الرواية كما قيلت لي ولست مجبراً على تصديقها » لا سيما وقد اعترضته صعوبة عدم معرفته اللغة المصرية الفرعونيــة فكان يعتمد على ما يرويه له الأدلاّء وخدم المعابد وصغار الـكهنة الذين كانوا بدورهم لا يعرفون اللغة اليونانيــة معرفة تمكنهم من الإدلاء بما يعرفونه من المعلومات ، ورغم كل ذلك فقــد كتب هيرودوت موسوعة تاريخيــة خصص منها لمصر الجزء الثاني وفصول من الجزء الثالث ، واننا لايسعنا إلاّ القول بأن علماء الآثار والتاريخ والاجتماع يعتبرون نصوص كتاب هيرودوت العمدة في تاريخ مصر . إذ أن هــذا الـكتاب اليوناني أول كتاب مفصل متعدد النواحي وصل إلينا عن مصر القديمة ، فضلاً عن النقوش المصرية القديمة التي لم يوفق العلماء إلى قراءتها والـكشف عنها إلاّ في القرن الماضي .

* * *

وقد صدق هيرودوت في بعض معلوماته التاريخية عن مصر نذكر منها على سبيل المثال وصف اللابيرنت (فقرة ١٤٨) وطريقة بناء الاهرام (فقرة ١٢٤ ، ١٣٤) واكتشاف علم المساحة في مصر وانتقاله منها إلى اليونان (فقرة ١٠٩) وأن المصري أول من عرف السنة الشمسية (فقرة ٤) وطريقة التحنيط (فقرة ٨١) وذكره الملك مينا (فقرة ٤ و٩٩) .

كما أنّ هناك معلومات جغرافية صحيحة في كتاب هيرودوت جديرة بالتنويه نذكر على سبيل المثال ما أورده عن حدود مصر الجغرافية شرقاً وغرباً (فقرة ٨) وبحيرة موريس (فقرة ١٤٩) وأسماء بعض البلاد المصرية وموقعها مثل هليوبوليس وطيبة ومنف (فقرات ٣ ، ٥٩ ، و ١١٩ ، و ١٥٣) وفروع نهر النيل (فقرة ١٧ ، و ١٥٥) .

وطبيعي أن نجد الى جانب معلومات هيرودوت الصحيحة بعض الاخطاء التاريخية وبعض المعلومات الجغرافية الناقصة وقد أشار الى ذلك حضرة الأستاذ وهيب كامل في كتابه « هيرودوت في مصر » .



الفصل الثانى

بحوث اجتماعية

١ — عيد الجلوس الملكي في تاريخ مصر الفرعونية

٢ — ما أسدته مصر القديمة للعالم الحديث

٣ — الطب عند قدماء المصريين

٤ — الموسيقى عند قدماء المصريين

٥ — النسيج عند قدماء المصريين

٦ — مركز المرأة في مصر القديمة

عيد الجلوس الملكي

في تاريخ مصر الفرعونية

كانت حفلات التتويج في مصر الفرعونيـة تتبع نظاماً خاصًّا يكاد أن يكون هو نفس النظام المتبع في الدول الحديثة . وقـد ترك لنا التاريخ وصفاً رائعاً لحفـلات تتويج الملك رمسيس الثاني الذي كان من أقرب ملوك الفراعنة الى قلوب أبناء وادي النيل .

بنى الملك رمسيس الثاني ، الذي حكم وادي النيل من سنة ١٢٩١ الى سنة ١٢٢٤ تقريباً قبل الميلاد معبداً كبيراً في الجهة الغربيـة من طيبة (الأقصر حالياً) هو معبد الرمسيوم ، ووصف على إحدى جدرانه مناظر ونصوص تتويجه التي كانت تسير على النهج الآتي :

أولاً : تلاوة صلاة خاصة .

ثانياً : رش مياه الطهارة والحياة المقدسة على الملك .

ثالثاً : اعلان ألقاب الملك الرسمية .

رابعاً : اعلان اختياره وتقديمه لرجال البلاط .

خامساً : ارسال الخبر الى حاكم السودان العام .

سادساً : اطلاق أربع حمامات تحمل كل حمامة رسالة في عنقها فيها خبر تتويج الملك الى الجهات الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية .

ثم يلي ذلك احتفال عظيم يطلقون عليه اسم « الشروق » لأن الملك رمسيس يشرق عليه أمام شعبه كما يتجلى الـه الشمس رع أو كما تطلع عليهم شمسه المشرقة .

ثم يلي هـذا ظهور الملك على رأس موكب عظيم يضمُّ كهنـة يحملون تماثيل من ملوك مصر : وعلى رأسهم تماثيل ملوك مينا ، ونب ـ حبت ـ رع ـ ، واحمس الاول . وهم واضعو

أسماء مصر وحدة وادي النيل الأول والثانية والثالثة كما سبق الاشارة اليها .

وهذا يدل على أن قدماء المصريين قد أدركوا ان كلاً من هؤلاء الملوك الثلاثة يبدأ عصراً تاريخيًّا هامًّا وفترة قائمة بذاتها لها خصائصها ومميزاتها ، فان كل حالة من هذه الحالات الثلاث تبدأ عند بدء اتحاد مصر والتفاف شعب وادي النيل حول عرش ملك مصر

ولقد كانت حفلة تتويج رمسيس الثاني ذات أهمية تاريخية لأنها الى جانب كونها احتفالاً بذكرى ارتقاء الملك عرش مصر فهي ذكرى لقيام وحدة وادي النيل تحت تاج ملك مصر في عصور مصر الزاهرة المختلفة .

وكان يدعى الى هذه الحفلة الأمراء وكبار الموظفين ورجال البلاط ومن اليهم ليشتركوا في الاحتفال وليروا الملك الجديد .

وبعد ذلك يتقبل الملك التهانيء من رجال بلاطه وحاشيته ومن كان غائباً يرسل تهانيه بالرسائل كما تنص نصوص أخرى على ذلك .

وكان يحيط بالملك الجديد عدا الوزراء عدد كبير من موظفي القصر الملكي يرأسهم رئيس الديوان الملكي (تبي شنوت) وكبير الأمناء (اوحم - حا - ان - نيسوت) والأمين الأول (تبي - اوحم - ان - نيسوت) والقضاة وقادة الجيش[1] .

وكان يسمح لكبار رجال الدولة بتقبيل يد الفرعون ، وأما الأمراء فكانوا ينحنون فقط احتراماً في حضرة مليكهم .

(١) نفاخر بأن مصر هي الدولة الاولى في التاريخ القديم التي وضعت أساليب الحرب التي يتبعها قواد الجيش الحديثون ، هذه الاساليب التي أهم ما فيها تقسيم الجيش الى فرق والى قلب وجناحين كما ان الجندي المصري استعمل النبال (المقلاع) بجانب معداته الحربية القديمة فكان لهذا التجديد في حروب الرماية أشبه شيء باختراع المدافع في العصر الحديث .

ما أسدته مصر القديمة

للعالم الحديث

ليس من ينكر ما كان للحضارة المصرية القديمة من أثر في نواحي العلوم ، والفنون والآداب والفلسفة ، منذ فجر التاريخ لأنه بالرغم من قيام حضارات مختلفة في العصور القديمة ، في أجزاء متعددة من انحاء العالم فقد كان وادي النيل مهد الحضارة البشرية الأولى ، ومنه انتشرت الى بلاد الشرق والغرب على السواء ، لذلك تدين الحضارات الحديثة لقدماء المصريين بكثير من الأشياء .

فمن أهم ما أخذه العالم الحديث ،عن مصر القديمة . استعمال بعض عناصر الأبجدية في اللغات المختلفة ، لأن من أهم عناصر الحضارة الحديثة ، طريقة كتابة اللغات بالحروف الأبجدية . ومن الثابت تاريخيًا أن الفينيقيين اقتبسوا أصول التصوير عن الهيراطيقي ، واخترعوا لأبجديتهم إشارات خاصة ، للدلالة عليها ، واستعملوها لكتابة لغتهم ، وعنهم اقتبسها اليونان والرومان ، ومن ثمَّ انتشرت في كثير من بقاع العالم الحديث ، فكانت هذه أول أبجدية ظهرت في العالم ، وبذلك تركت مصر أثراً ظاهراً في البلاد الأخرى .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل انَّ مصر اخترعت الحبر (والورق البردي) فسهلت بهذين الاختراعين عملية تدوين آثار الانسان العقلية ، وثروته الذهنية وقدمت للعالم أجلَّ أثر ، وأجمل يد .

أما فيما يختص بالتقويم ، فقد كان قدماء المصريين أول المتحولين عن التقويم القمري ، الى التقويم الشمسي ، إذ تنبهوا عام ٤٢٤١ ق . م . الى أن السنة الشمسية تشتمل على ٣٦٥ يوماً . والتقويم المصري هذا هو التقويم الذي حمله (يوليوس قيصر) من مصر ، حوالي عام ٤٨ ق . م. الى روما ، وهو التقويم الذي عدَّله مجمع الكرادلة الذي عُقد برئاسة البابا

« جريجوار الثالث عشر » تعديلاً طفيفاً عام ١٥٨٢ م ، ثم صار تقويم العالم كله اليوم .
ويعتبر هذا الاكتشاف الميقاتي واستعماله في شؤوننا العالمية ، خطوة كبيرة نحو الرقيّ والمدنية وفخراً عظيماً للوطن الذي اكتشفه ، كذلك قسم قدماء المصريين سنتهم الى إثنى عشر شهراً ، وجزّءوا كلّ شهر الى ثلاثين يوماً ثم أضافوا آخر كل إثنى عشر شهراً خمسة أيام كي تكمل السنة الشمسية ، (أو ستة أيام كلّ أربع سنوات كما حصل في عهد بطليموس الثالث) وابتكر المصريون أيضاً طريقة لقياس ساعات اليوم ، وهي المزاول (الساعات الشمسية) للنهار ، والساعات المائية لليل . فقياس الزمن بالسنين والأشهر والأيام والساعات كما هو حاصل اليوم يرجع في حقيقته الى مصر القديمة .

* * *

أما في فن العمارة ، فقد برع قدماء المصريين منذ أقدم العصور فيه ، وتركوا أثراً ظاهراً في البلاد الأخرى ، فالمصريون هم أول من اخترعوا قوالب الطوب المستعملة حتى اليوم في البناء ، لا في مصر وحدها ، بل في كثير من البلاد الأجنبية . كذلك هم أول من استعملوا الحجارة في البناء ، وأول من وضعوا (الجبس) بين الحجر والآجر ، ففي الحفائر التي يقوم بالإنفاق عليها مولانا جلالة الملك فاروق الأول أدامه الله بجهة حلوان ، والتي يرجع تاريخها إلى الأسرة الأولى ، (حوالي سنة ٣٢٠٠ ق . م .) نجد استعمال (الجبس) بين احجار مقابر هذا العهد السحيق . ثم بدأت منذ عصر الاسرة الثالثة ، المباني العظيمة من الحجر ، كهرم (زوسر) ، والأعمدة المرتكزة على حوائط معبده . فاذا ما وصلنا الى الأسرة الرابعة ، وجدنا هرم (خوفو) المقام من كتل عظيمة من الأحجار على مساحة تبلغ الاثنى عشر فداناً ، وارتفاعه حوالي ١٤٠ متراً وهو أشهر عجائب العالم السبع ، ولا يزال ماثلاً للعيون ، ويزيد عمره على ٤٠٠٠ سنة ، ومع هذا فهو باق يشهد بمجد مصر الخالدة . ولو علمنا أن تلك الكتل الحجرية الكبيرة ، التي استعملت في بناء هذا الهرم تبلغ نحو ٢٣٠٠٠٠٠ حجراً متوسط ثقل الحجر طنان ونصف طن ، لهالنا أن نتصور ما يتطلبه نقلها وحملها الى الارتفاعات المطلوبة من مقدرة في فن العمارة وغيره من العلوم ، كالهندسة ،

والحساب ، والرياضيات ، مما تحكم بأن الاهرامات[1] ماهي إلا آية من آيات فن البناء، وما هي في الواقع إلا مدى الخطوات الواسعة التي خطاها فن المعمار والعلم في تلك العصور السحيقة. وهذا التطور في البناء من الطين الى الطوب ، الى الحجر ، إلى بناء الاهرامات ، كانت نتيجة حتمية لتطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، والدينية في مصر القديمة. وقد راق هذا الفن في أعين أثرياء الرومان الذين بنوا مقابرهم على شكل هرم صغير حتى إلى عهد أغسطس قيصر روما .

ومن الأمثلة العديدة لتقدم فن المعمار في مصر القديمة معابد الدير البحري والكرنك وأبي سنبل ، ومقابر الملوك وغيرها مما يضيق المقام بذكره .

أما من حيث الزخرفة المعمارية ، فلسنا بالمغالين إذا قلنا ان العالم الحديث مدين في كثير من زخارفه للمصريين ، فالتزيين بالزهور لا سيما زهرة اللوتس المصرية ، والبردي والبشنين واستعمال سعف النخيل ورسم قرص الشمس ذي الأجنحة واقامة المسلات وتشييد الأعمدة لا سيما النوع المعروف بالدوري (دوريك Doric) ماهي الا زخارف مصرية ، اقتبسها الاشوريون ، والفرس عن المصريين ثم انتقلت عنهم الى الاغريق والرومان ، وبعد ذلك رأها تنتشر مع تغيير طفيف في أنحاء العالم المتمدين .

ولم يكن حظ قدماء المصريين من الزراعة بأقل من حظهم في الفنون الاخرى فهم أصحاب أقدم حضارة زراعية عرفها العالم الى اليوم ، لأن انسان العصر الحجري الحديث (نيوليتكم) ابتكر زراعة الأرض ونجح في استئناس الحيوان ، وإخضاعه لأغراضه ، بعد ان كان يعيش على الصيد في العصر الحجري القديم واستخدم الفأس ، والمحراث وغيرها من الآلات التي ما زلنا نستعملها الى يومنا هذا .

أما أثر قوانين قدماء المصريين في التشريع الحديث ، فالبحوث العلمية أثبتت أن أغلب القوانين الرومانية التي تعتبر أساساً للقوانين الحديثة ، ترجع الى قوانين قدماء المصريين .

---

(١) من الطريف ان الملك كان يبني الاهرامات في أيام فيضان النيل فقط وكان يقوم ببنائه المصريون وقد خدموا الملك أيام الفيضان للبناء حتى يساعد الفلاح المصري الذي تغمر المياه أراضيه في ذلك الفصل من السنة على اكتساب قوته وايجاد عمل له وذلك خلافاً لما هو شائع من أن بناء الاهرامات سخرة للمصريين أو ان أسرى قاموا به .

الطب عند قدماء المصريين

قلنا إن المصريين هم أول من خط بالقلم على الورق البردي لأنهم مخترعوه ولورق البردي أهمية خاصة فالفضل مثلاً في اظهار تاريخ الطب عند قدماء المصريين يرجع الى ما وجدناه مدوّناً على ورق البردي .

وقد وصل الينا كثير من مؤلفات قدماء المصريين في الطب ، وأقدم الكتب الطبية يرجع تاريخه الى الملك « تتا » ثاني ملك من ملوك الأسرة الاولى . وقد حكم حوالي سنة ٣١٧٠ ق.م (أي أوائل عصر الوحدة الاولى) . كما أن بعضها كتب في الجراحة على أساس علمي صحيح دل على أن الجراحين القدماء شخصوا كثيراً من الحالات تشخيصاً صحيحاً وعرفوا طريقة علاجها ، بل أنهم استعملوا أدوية لتخدير الأجزاء التي يراد قطعها وتشريحها. ومن أهم هذه المؤلفات التي تبحث في الجراحة بردية « أدون سميث التي تحوي ٢٢ صحيفة ، ويرجع تاريخها الى حوالي سنة ١٥٥٠ ق . م (أي أوائل عصر الوحدة الثالثة) . وتعتبر أقدم مرجع في العالم في فن التشريح والجراحة . ومن المحتمل أن تكون هذه البردية نسخت من مؤلفات سابقة لعصرها .

وتشتمل هذه البردية على الجروح التي تصيب الجسم ثم تشخيصها وعلاجها وتبتدئ بذكر جروح الرأس وتنتهي بالقدمين ، أي متوخية ترتيب الأعضاء من أعلى الى أسفل. ولعلّ الاتجاه الى هذا الترتيب هو الخطوة الأولى في مقدار معرفتهم بالطب ودقتهم فيه وتنظيمهم له . ويمكن اختصار أهم حالات الأمراض الواردة في هذه البردية بالطريقة الآتية :

أولاً : أمراض الرأس . ثانياً : أمراض الأنف . ثالثاً : أمراض الفك العلوي . رابعاً : أمراض الصدغ . خامساً : أمراض الأذن والفك السفلي . سادساً : أمراض الشفتين والذقن . سابعاً : أمراض الحلق والرقبة . ثامناً : أمراض الكتفين . تاسعاً : أمراض الصدر والثديين.

عاشراً : أمراض العمود الفقري ، (والبردية أتلفت هنا ثم ذكرت أمراض إصبع القدم) . نتضح من ذلك أن الطبيب المصري القديم راعى حسن الترتيب بطريقة علمية منظمة .

كذلك قسمت الجروح الى جروح نتيجة لمعارك أو عضّ ، وجروح من أثر حريق ، وجروح نتيجة ضرب . ثم ذكرت كسر العظام والضلوع ، وكسر الذراع وهكذا . وهذا مما يدل على مهارة الطبيب المصري القديم في تحرّيه الوقوف على سبب المرض أو سبب الجرح ثم علاجه ، أي وصف الداء ، ثم إعطاء الدواء كما يجري الآن في وقتنا هذا .

وكذلك وصلتنا أوراق بردية بهـا وَصفاتٌ لطرق علاج الأمراض المختلفة التي كانت سائدة في ذلك الوقت : مثل ما نسميه اليوم البلهارسيا (البول الدموي المصري) ، والحمَّى القصيرة أو الطويلة ، وأمراض المعدة ، والديدان المعوية ، والقلب والكبد ، وباقي الأمراض الباطنيـة ، وأمراض النساء كالتهاب الثدي أو ارتخائه ، ونزيف الرحم وإيقاف النزيف والتهاب الرحم وغير ذلك .

ومن أمراض الأسـنان مثلاً التهاب اللثـة أو تلف الأسنان أو تثبيتها . و من أمراض الأذن فقد السمع أو ضعفه أو نزول الصديد من الأذن . ومن أمراض العيون غزارة دموع العين ، وضعف النظر ، وورم العين والتهابها أثناء الزكام، والرمد الصديدي و الحبيبي وغيرها .

وكذلك وصلت الينا الطرق التي تعالج بها حالات القيء كإيقافه أو تلطيفه أو إحداثه عند اللزوم في بعض الحالات .

وكذلك عرفوا المسهّلات ، بل كان قدماء المصريين يعرفون أن الشرايين تبدأ من القلب وتأخذ منه الدم ثم تذهب إلى كل عضو ، أو بعبارة أخرى عرفوا أن القلب له علاقة بجميع الأوعية ومتصل بكل عضو ، بل زيادة على كل ذلك فقد عرفوا النبض .

وقد وصلت دقة المصريين القدماء في تلك العهود السحيقة إلى ما نحن نكافح من أجله في عصرنا الحاضر وهو الوقاية من الأمراض واستعملوا الحقن في إدخال السوائل في الجسم

وليس أدلُّ على مقـدرة المصريين القدماء في الطب وبراعتهم فيـه من فن التحنيط وما استعمل فيه من آلات ، فوصل تحنيط جثث الفراعنة إلى أعلى درجة من الإتقان بدليل تلك الموميات التي أُخرجت من مراقدها بعد مضيّ آلاف السنين وما زالت تحتفظ بشكلها

الآدمي كما كانت وقت الحياة . والسبب في اهتمامهم بالتحنيط هو أن من بين معتقداتهم الدينية أن الحياة لا تنتهي بالموت ، بل إن هناك حياة أخرى بعد الموت وهي البعث . ومن شدة اهتمام المصريين القدماء بعودة الروح لتزور جثتها أن القانون المصري القديم جعل الاعدام عقوبة من يسرق من مقبرة ويمس المومياء . فلا غرابة في أن نجد لذلك عند المصريين رجالاً اختصوا بفن التحنيط وغالباً كانوا من طبقة الأطباء .

وأهم شيء في عملية التحنيط هو استخراج الأحشاء بواسطة شق جدران البطن بسكين حاد وتنظيفها ثم وضعها في صندوق يعرف بصندوق الأحشاء ثم استخراج المخ من منافذ الأنف بقضبان عقفاء من حديد فيجذبون منه ما يمكن إخراجه من الجمجمة ، وما بقي يستأصلونه بعقاقير يقذفونها في تجاويف الجمجمة ، ثم يعالج كل الجسم بالنترون ، ثم يغسل ويلف في لفائف من الكتان .

كذلك مما يدل على براعة المصريين القدماء في الطب تخصص أطبائهم في مختلف أمراض فروع الطب . فبعضهم كان يختص بأمراض النساء ، والبعض بأمراض الأسنان ، والبعض بأمراض العيون ، والبعض بالأمراض الباطنية ، والبعض يختص بأمراض الحيوان ، (وكانت الحيوانات والطيور المقدسة تحفظ لاعتقادهم بقداستها كالعجل آبيس وأبي قردان) .

وكان يطلق على الطبيب باللغة المصرية القديمة اسم سن (سيني) .

وكان للملك طبيب أو أكثر من طبيب خاص . ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن أحد وزراء الملك مرض مرة فأرسل له طبيبه الخاص مما يدل على مبلغ ما كان يكنه الملك لوزيره من عطف ومودة .

وكان يتناقل مهنة الطب الابن عن الأب في أغلب العصور .

ودلت البحوث الطبية الحديثة على أن لقدماء المصريين فضل السبق على اليونان في عالم الطب . فقد كان اليونانيون يشيدون بذكر الأطباء المصريين ، ويتناقلون كتب طبهم ويحفظونها ليهتدوا بها . وعن اليونان أخذ الكثير من ممالك العالم الحديث

الموسيقى

عند قدماء المصريين

المصري القديم مرح بطبعه يغني في المنزل وفي الشارع وفي الفرح وفي كل مناسبة من مناسبات الحياة . ونلاحظ حتى الآن أن الفلاح يغني في الحقل وكذلك الفلاحات عند ملئهن الجرار من النيل مما يدل على وراثة المصريين لحب الغناء .

وقد تفنن المصري منذ القدم في نوع هذه الأغاني ، فنها ما يتصل بالعمل ومنها ما يتصل بالعبادة ومنها ما يتصل بالغرام . ومن الصنف الأخير نجد الأغنية الآتية :

« عند ما أقبّل الحبيبة وأفتح فمها لا أحتاج إلى خمر أشربها .

أذهب إلى فراشي وقد أعياني داء الغرام وعادني جيراني وبينهم حبيبتي التي زجرت الطبيب عند ما حاول علاجي لأنها أعلم بموطن دائي » .

وغير الغناء نجد الموسيقى . وقد أثبت المؤرخون أن أجدادنا استعملوا آلات الطرب المختلفة منذ أقدم العصور ، سواء أكانوا في منازلهم في الولائم والأفراح أم في الحال العامة في الأعياد والاحتفالات الدينية . ونحن نستطيع أن نفرق بين نوعين منهما موسيقى منزلية وأخرى عامة ، ونحن نعني بالموسيقى المنزلية هذه الموسيقى التي تحتاج إلى الآلات التي كان من السهل العزف عليها لغير المحترفين ، كما نعني بالموسيقى العامة هذا النوع الذي يحتاج إلى مجموعة من الآلات التي لا بدّ منها لتكوين فرقة موسيقية كاملة وهذه الآلات الموسيقية كما عثر عليها في الآثار أو جاءتنا عن طريق الصور أو النصوص تدل دلالة واضحة على براعة قدماء المصريين في صنع هذه الآلات وإجادة العزف عليها . فنصوص الدولة القديمة وصورها تطلعنا على أن (مري-بتاح-رع) كان يرأس فرقة موسيقية تتكوّن من مغنٍّ ومن عازف على العود وآخر للربابة ونافخ في الناي . كما أن (حم رع) كان يرأس فرقة موسيقية تغني فيها امرأة .

أما إدارة الفرقة قديماً فكانت لا تختلف كثيراً عن إدارة الفرقة الموسيقية الأوربية مع ملاحظة أن المدير كان يُرَى جالساً أحياناً . ومن الجدير بالذكر أن هذه الاشارة التي كان يقوم بها الرئيس يعبر عنها في اللغة المصرية القديمة بفعل مخصص باليد لأن اليد هي العضو الهام في تأدية هذه الحركة .

وكانت الألحان في ذلك العصر من هذا النوع الهادىء الرقيق . وهذا الطابع الموسيقي كان ملحوظاً أيضاً في الموسيقى الراقصة التي كانت تتفق تمام الاتفاق وحركات الرقص وأوضاعه في ذلك الحين . وليس معنى هذا أنه كانت تستتبع وجود آلات موسيقية للرقص ، بل كثيراً ما كانت تكتفي باليدين . ونجد أحياناً بعض الراقصات يغنّين أثناء رقصهن .

أما أوضاع الجسم فكانت تتغير تغيراً كثيراً حسب ما تتطلبه الرقصة المطلوبة فنرى أحياناً صورة امرأة وقد ألقت رأسها وصدرها الى الخلف ، أو قدمت إحدى ساقيها على الأخرى ، وهكذا من ضروب الرقص الكثيرة .

وكان المثل الأعلى في الموسيقى المنزلية هو ما يوجد في القصر الملكي إذ كانت تعزف فيه فِرَق كثيرة متنوعة تحت اشراف فنان عظيم .

ومثل الدولة القديمة مجد الدولة الوسطى ، بينما في الدولة الحديثة نرى الموسيقى وقد تطوّرت تطوّراً عظيماً ، فمن هدوء رقيق إلى صخب مقلق . ولعلّ ذلك يرجع إلى الأثر الآسيوي الذي دخل البلاد في ذلك العصر مع الهيكسوس . فمثلاً الآلات الموسيقية ذات الوتر الواحد تعددت أوتارها التي كانت تصنع من الليف المضفور ، وتنوعت أحجامها أيضاً وقد دخلت آلات موسيقية جديدة في ذلك العصر كالآلة الكنعانية المسماة (كنور) والقيثارة والرق والرباب الجانبي (مندولين) وحلّ المزمار المزدوج محلّ الطويل المنفرد كما شاع في ذلك الوقت بين الشعب النافرون بالعصي والمصفقون بالصاجات .

وكما كانت الموسيقى حماسية قوية في ذلك العهد ، كذلك كان الرقص والغناء ، حتى إن بعض المغنيات المصريات كنّ يرحلنَ الى الأقطار المجاورة لنشر فن الرقص والغناء المصري في الأقطار الأخرى ، كما نعلم ذلك من قصة سياحة (ونامون) .

وقد استمرّ الحال كذلك حتى العصر اليوناني الروماني ، وخاصة الآلة المصرية المدونة

(مستروم) . بل نجد (فيثاغور) أما الموسيقى عند اليونانيين يحضر إلى مصر ويتعلم الفنون الموسيقيـة كما حدثنـا بذلك (ديوجينيس) ويتحدث هيرودوت أبو التاريخ كثيراً حديث الاعجاب عن الآلات الموسيقية المصرية كحديثه مثلاً عنها في عيد (أرتميس) في تل بسطا .

***

هذا عرض موجز لموسيقى المدنية عند قدماء المصريين وليس معنى هذا أنه كانت تنقصهم الموسيقى الحربية . فالنصوص والرسوم والآثار التي وصلت الينا كثيرة في هذا الصدد ، وهي تجمع على ان المصري منذ فجر التاريخ كان أول من نفخ في البوق في النداءات العسكرية وأول من دقّ على الطبل لتنظيم المشي في المناورات الحربيـة بخطوات عسكرية واحدة . وهم أول من ابتدأوا السـير في الاستعراضات العسكرية بالرجل اليسرى مع أن الأمم الحديثة تعتقد أنها هي التي ابتكرته . مما تقدم نرى أن المصري القديم لم يحرم نفسه لذة الطرب والغناء والموسيقى والرقص



النسيج

عند قدماء المصريين

كفل نهر النيل لهذا الوادي وسكانه كل أسباب قيام الحضارة واستقرارها فيه وفي قيام الصناعات التي ترتبت على وجود الزراعة كالنسيج لذلك كانت مصر منذ فجر التاريخ مشهورة بمنسوجاتها الكتانية ففي حفائر مرمدة (بني سلامه) عثر المنقبون على قطع من غزل الكتان فلا شك إذن في أن الغزل والنسيج كانا من أقدم الحرف في مصر .

ومن الطريف أن صور هذه الصناعات وجدت منقوشة في بعض المقابر . ففي مقابر بني حسن التي يرجع تاريخها إلى عهد الأسرة المعروفة في التاريخ بأنها الأسرة الثانية عشرة نرى رسوم الأدوار التي تمر على نبات الكتان من تعطين ودق وتمشيط وغزل ونسج . هذا إلى أنه كشف عن نماذج لنساء يشتغلن بالغزل والنسيج في مقابر الأسرة الحادية عشرة في طيبة .

كما وجدت في كثير من المقابر والمباني المدنية كالمنازل بقايا بعض الملابس والمنسوجات وأدوات النسيج .

وكانت الأقمشة الكتانية تصدر الى بلاد اليونان في العصور الفرعونية الأخيرة كما حدثنا بذلك هيرودوت وكما ذكر في سفر أشعيا .

وتلي صناعة الكتان في الأهمية صناعة الأصواف ويرجع تاريخ هذه الصناعة الى عصر فجر التاريخ فقد وجد الأستاذ زكي سعد في الحفائر التي يقوم بالإنفاق عليها حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول بجهة حلوان بعض الآثار المصنوعة من الصوف .

واستمرت في العصر القبطي مزاولة صناعة الغزل والنسيج في المنازل الى جانب المصانع وكانت هناك ضرائب تفرض على الناسجين كضريبة الترخيص بمزاولة صناعة نسيج الكتان .

ومن الطريف أن نلاحظ أن زخارف المنسوجات الملونة كانت منقوشة بطريقة التابستري Tapestry أي بتقاطع خيوط اللحمة بخيوط السداة حتى اذ وصل النساج الى النقطة التي يريد زخرفتها أوقف عملية الحشو بخيوط اللحمة وأخذ في عمل الزخرفة بخيوط جديدة تختلف في لونها عن خيوط اللحمة الأصلية . وقد تختلف عنها في نوعها وذلك بنسج هذه الخيوط الجديدة مع خيوط السداة الأصلية ، وبعد الفراغ من عمل الزخرفة تنظم خيوط السداة كما كانت من قبل ثم تستأنف عملية النسج التي كانت تزاول قبل الزخرفة — وكان للمصريين قدرة فائقة في استعمال الالوان .

وهذه الطريقة طريقة التابستري هي التي حذقها أجدادنا الفراعنة وبلغوا فيها شأواً عظيماً وقد ورثها عنهم أحفادهم الأقباط وحافظوا عليها طوال العصور .

ولقد كان لجوّ مصر الفضل في الابقاء على الكثير من المنسوجات وعلى الاحتفاظ بألوان زخرفتها الزاهرة كما نشاهد في آثار الملك توت عنخ آمون وفي قسم المنسوجات والأقمشة بالمتحف القبطي .



مركز المرأة
في مصر القديمة

مقام المرأة من الوجهة الاجتماعية

تعدد الزوجات أمر لم يكن معروفاً عند قدماء المصريين الا انه كان للرجل الموسر الحق في أن يضم اليه كثيرات من المغنيات والجواري كما انه كان للملك الحق في أن يتخذ الى جانب زوجته الشرعية (الملكة) زوجات أخريات لا حق لهن في وراثة العرش .

وكانت الزوجة تعرف باللغة المصرية القديمة بما معناه « زوجته المحبوبة وربة الدار » .

فكانت هي التي تشرف على إدارة المنزل وتربية الاطفال بجانب اهتمامها بزوجها .

وبجانب هذا الشأن الذي لها في حياة الاسرة وكيانها فقد كانت ذات شأن في الحياة العامة كما سنرى ذلك فيما بعد .

ولم يكن اهتمامها بالمنزل وبأسرتها عائقاً لها عن التزين والتأنق فكانت تخضب أنامل يديها وأصابع قدميها وتكحل عينيها وتلون شفتيها باللون الأحمر كما تفعل المرأة الحديثة في أيامنا ، ولكن بطريقة تختلف عن الطريقة العصرية لأنها كانت تستعمل الفرشاة عند التلوين وتضع على وجهها مختلف المساحيق التي تظهرها بالمظهر الفتان . وكانت تجعد شعرها بحسب العادة الجارية في عصرها ، وتزين صدرها وعنقها ويديها بالحلي والجواهر .

والأدب المصري زاخر بالعبارات التي تبين حب الابن لأمه والابنة لأمها وزاخر أيضاً بالعبارات التي تبين علاقة الرجل بامرأته فكان يقبلها ويداعبها ويعانقها ويعاملها بالحسنى ولا يهجرها ، وكذلك يتيح لنا هذا الأدب معرفة الكثير عن خواطر المرأة والرجل وما بينهما من صلات الصداقة والحب

وعلى سبيل المثال أورد القصة الآتية وهي مكتوبة على ورقة بردية محفوظة بمتحف ليدن

وهي أن رجلاً مرض بعد وفاة زوجته فاستشار أحد السحرة في ذلك فأخبره أن يكتب خطاباً الى روح زوجته فكتب إليها خطاباً وذهب به الى مقبرتها في أحد الأعياد وقرأه بصوت عالٍ ثم ربطهُ بتمثالها حتى يصل إليها وقد جاءَ فيه : « أي ذنب جنيته نحوكِ أيتها الحبيبة حتى أقع فيما أنا فيه من بؤس وشقاءٍ ؟ أي ذنب جنيته أيتها الحبيبة حتى تساعدي أرواح الشر ضدي ؟ وماذا فعلت معكِ منذ زفافنا الى اليوم ؟ تزوجتكِ وكنت رجلاً يشغل منصباً صغيراً وتدرّجت بعد ذلك من منصب الى منصب وما جال بخاطري يوماً أن أهجرك وما فكرت أبداً في أن أجلب الحزن الى قلبكِ . ذلك كان شعوري يوم كنت صغيراً وما تحوّلتُ عنه لما صرتُ كبيراً في خدمة فرعون . فلم أهجركِ بل حافظتُ عليك في السرّاء والضرّاء . . . وعندما مرضتِ ألم أحضر لكِ كبير الأطباء فبذل كل شيءٍ في سبيل شفائك . إني لا أعلم يوماً قصرت فيه في واجبي نحوك » .

وقد كان للمرأة المصرية القديمة حظٌّ موفور من الثقافة مما يسترعي النظر . فالسيدات المصريات كنّ مولعات بالعلوم والفنون . يحدثنا موظف يدعى « خنوم ردى » بأنه كان أميناً لمكتبة سيدة عظيمة القدر تدعى « نفرو كابيث » ثم يقول ما ترجمته : « هذه السيدة عيّنتني في دندرة مشرفاً على خزائن الكتب الخاصة بأم تلك السيدة التي كانت مولعة بالعلوم والفنون » ونجد بعد ذلك أن هذا الموظف ابتدأ يصف ما قام به من أعمال عظيمة في أثناء إدارته لتلك المكتبة فيقول : —

« قد زدتُ في عدد مجاميع الكتب الموجودة بها وجلبت لها كثيراً من المؤلفات الثمينة حتى أنها لم تعد في حاجة الى توسيع أكثر من ذلك على ما أعلم ورتبت هذه المكتبة ترتيباً حسناً لم يحدث مثله من قبل . وقد ربطت ما كان مفككاً (يعني أنه ربط لفافات البردي المحلولة) .

وأما من الوجهة المدنية فقد كان للمرأة كامل حقوقها في التصرف في أموالها والتصرف في عقارها دون الرجوع الى زوجها أو ابنها أو فرد آخر من عائلتها . وقد حدث ان تصرفت أم « الموظف امتن » بكامل حريتها في ملكها بالوصية والهبة .

مقام المرأة

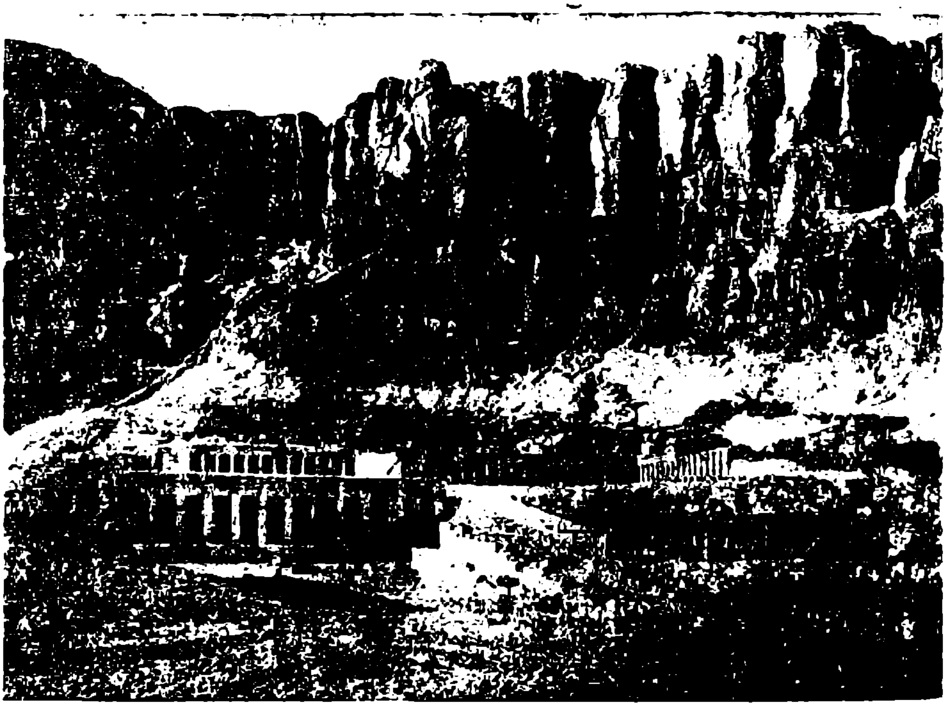
من الوجهة السياسية

كان نظام الحكم المصري يبيح للمرأة حقّ تولي عرش مصر فلم تقعدها الانوثة عن ركوب الصعاب فشاركت الرجل في هذا الجهاد ، وتاريخ مصر القديم حافل بعدد وافر من شهيرات النساء اللواتي جلسنَ على عرش مصر . ففي الدولة القديمة نجد الملكة نيتوكريس (خنت كاواس ؟) وفي الوسطى « سبك نفروورع » وفي الحديثة الملكة حاتشبسوت وفي عهد البطالمة الملكة كليوباترة الاخيرة (أعني كليوباترة آخر من تولى عرش البطالمة . وقد أخفقت في سياستها وبعد وفاتها سنة ٣٠ ق . م دخلت مصر تحت حكم أغسطس قيصر روما) . وسأقصر الكلام على الملكة حاتشبسوت التي تعدُّ من أعظم الملكات اللواتي عرفهنّ التاريخ القديم وهي التي حكمت مصر من سنة ١٤٩٣ ق . م الى سنة ١٤٧٩ ق . م وتركت لنا آثاراً كثيرة كما انه وصل الينا شيء كثير عن أخبار بعض موظفي هذه الملكة .

وتمتاز عهدها بأنه كان عهد سلام ووئام مع الممالك المجاورة لمصر فلذلك تمكنت من أن توجه جهودها الى أعمال السلام بالرغم من المنازعات الداخلية التي نشأت بسبب التنازع العائلي على العرش وبسبب زيادة نفوذ كبار كهنة آمون . وقد ساعدها على تنفيذ الاعمال السلمية حروب والدها تحتمس الاول ، وكذلك المعارك التي خاض غمارها أخوها وزوجها الاول تحتمس الثاني وهي المعارك التي ثبتت أركان الامبراطورية . هذا من جهة . ومن جهة أخرى صغر سن تحتمس الثالث ابن زوجها الاول تحتمس الثاني من زوجة ثانية . فقد ساعدتها كل هذه الظروف على ان تكون على جانب عظيم من القوة والدهاء .

وقد استغلت هذه الملكة مناجم شبه جزيرة سيناء سواء في سربوت الخادم أو في وادي المغارة ، فأرسلت هناك البعثات تلو البعثات للحصول على مسحوق معدن النحاس والمواد الأولية اللازمة لعمل الزجاج .

وقد وجدنا كثيراً من الزجاج في هذه الجهة عليه اسم هذه الملكة وطبيعي ان صناعته استلزمت وقوداً كثيرة مما يدل على استعمال الكثير من الخشب ويجعلنا نرجح غناءَ هذا الاقليم بالاشجار ولم يكن صحراءَ جرداءَ كما هو مشاهد الآن .



« معبد الدير البحري الذي أقامته الملكة حاتشبسوت بطيبة الغربية »

واهتمت الملكة حاتشبسوت كذلك بالمعابد فأكثرت من تشييدها . ولعلَّ أهم ما شيدته معبدها المعروف « بمعبد الدير البحري » وقد سمي بهذا الاسم حتى لا يختلط علينا في العصر القبطي مع دير آخر بُـني في الجهة القبلية وأقصد به « دير المدينة » . ويتكوَّن معبد الدير البحري من ثلاث شرفات مدرّجة ، الشرفة العليا تنتهي بصف من الحجرات . وقد بني هذا

المعبد حوالي السنة الثامنة من حكم الملكة حاتشبسوت . ومن حسن الحظ أن خلد اسم المهندس الذي شيّده وهو « سن إن موت »

أما الذي كلف الإشراف على صنع أبوابه من البرنز المطعم بخليط من الذهب والفضة فهو أحد رؤساء المالية الذي يدعى « ثحوتي »

* * *

ومن المناظر والنصوص التي بقيت لنا من هذا المعبد وهي ذات قيمة تاريخية فيما يخص عصر هذه الملكة ، تلك التي توضح لنا طريقة ولادة الملكة حاتشبسوت بناءً على وحي الـهي من الاله آمون (إلـه الدولة في ذلك الحين) وما يثبت حق الملكة الشرعي في الاستيلاء على عرش مصر

وقد أرسلت الملكة حاتشبسوت بعثة تجارية الى بلاد پنت (الصومال) فقد بعثت في السنة التاسعة لحكمها اسطولاً مكوّناً من خمسين سفينة أقلع من المياه المصرية قاصداً الصومال متبعاً نهر النيل شمالاً حتى وصل شرقي الدلتا، ومن شرقي الدلتا عبر هذا الأسطول قناة وادي طميلات (قرب اقليم السويس) الى البحر الأحمر

وبعد وصول الأسطول سالماً الى بلاد پنت عاد الى مصر محملاً بخيرات بلاد الصومال فاستقبلت الملكة حاتشبسوت قائده ورجاله في الكرنك بطيبة وقدمت للمعبود آمون بعض واردات الصومال .

ومن أهم ما شيدته الملكة أيضاً من الآثار ما أضافته الى معبد آمون بالكرنك واقامتها مسلتين عظيمتين فيه .

وقد بلغت ثروة المملكة المصرية في ذلك الحين درجة من الرخاء عظيمة وكانت جزية المستعمرات تصل الى مصر بانتظام . بل من ظريف ما قالته هي عن عصرها « إنها تكيل المعادن النفيسة كالحبوب أي بالمكاييل الكبيرة »

لقد ساهمت المرأة تقريباً في كل ناحيـة من نواحي الحياة في مصر القديمة فكان فيها ملكات،وكذلك كاهنات في المعابد،وطبيبات وكاتبات وموظفات وربات دور ومغنيات

الفصل الثالث

بحوث قانونية

١ — مجموعة قوانين مصرية . قانون الملك حورمحب

٢ — القانون الجنائي عند الفراعنة

٣ — دور العدالة :

ا — المحاكم الوطنية

ب — المحاكم المختلطة

مجموعة قوانين مصرية

قانون الملك حور محب

جرت عادة لا يبررها استقصاء بين علماء علوم الآثار المصرية وهي أن يقال عند الكلام في نظام الحكومة القضائي إن المادة لهذا الموضوع غير كافية ، كذلك جرت العادة بين علماء القانون عند الكلام في تاريخ القانون أن تهمل مصر الفرعونية تماماً بحجة أن الفراعنة لم ينشئوا قانوناً جامعاً يدل على المواد التي كانت تتبع إذ ذاك مثل قانون حورابي عند الآشوريين وقانون اللوحات الاثنتي عشرة عند الرومان .

وكان أول من حاول الخروج على هذه العادة Révillout [(١)] ثم Pirenne [(٢)] ثم أخرج أخيراً الأستاذان شارف وزيدل [(٣)] كتاباً يبحث في تاريخ القانون المصري القديم ويعالج بعض المشاكل التي تقابلنا في نظام القضاء الفرعوني .

وسأحاول في هذا الفصل أن أعرض باختصار لبعض مجموعات القوانين المصرية ، وسأحاول أن أبين باختصار كذلك منزلة التشريع المصري القديم في تاريخ القانون وتأثير هذا التشريع على الحضارات القديمة من يونانية ولاتينية .

أما المجموعات فانه لم يصلنا كثير منها ، ولكن الثابت أنه كانت توجد مجموعات منذ أقدم

---

(١) E. Révillout, Cours de droit Egyptien, Paris 1884.

(٢) J. Pirenne, Histoire des Institutions et du Droit Privé de l'Ancienne Egypte, Bruxelles 1932-1935.

جمع هذا المؤلف المواد اللازمة لهذا الموضوع وطبع ثلاثة أجزاء للدولة القديمة فقط . والذي يؤخذ على هذا المؤلف أنه أضاف بعض النصوص التاريخية والدينية التي لا علاقة لها بدراسة القانون .

(٣) A. Scharff und E. Seidl, Die Rechts geschichte des alten Aegypten, 1939.

العصور فقد أثبت بعض المؤرخين القدماء أن الملك مينا (حوالي سنة ٣٢٠٠ ق . م) أول ملوك الأسرة الأولى ومؤسس الدولة القديمة سن القوانين . ويقول في ذلك ديودور[١] إن القوانين كانت موضوعة في عصر الملك مينا ، ولا غرابة في هذا ، فإن الكتابة كانت قد تقدمت في هـذا العهد[٢] أي أننا نجد في مبدأ عصر الوحدة الأولى القانون المصري قد وُضع وسُنّ .

وليس من شك في أن مثل هـذه القوانين قد تكرر سنّها في العصور التالية لحكمه ، فقد أشير غير مرة في مواضع عدة إلى قوانين قديمة جداً نذكر منها على سبيل المثال:

١ — نصوص الوزير منتوحتب (أحد وزراء الملك سنوسرت الأول حوالي سنة ١٩٧٠ ق . م)[٣] .

٢ — تعليمات الملك تحتمس الثالث (أحـد ملوك الأسرة الثامنة عشرة حوالي سنة ١٤٨٠ ق . م) لوزيره رخمي رع التي يشير فيها إلى قوانين قديمة جداً[٤]. وفي مقبرة الوزير نفسـه نجد رسماً لمجموعة قوانين مطوية في أربعين ملفـاً من الجـلد موضوعة أمام الوزير[٥] بصفتـه القاضي الأعظم (ساب سبختي) وهو جالس في دار المحكمة في إحدى الجلسات العلنية . ولا نعلم بالطبع ماكانت تحوي هذه الملفات من مواد قانونية .

أما مجموعات القوانين المصرية التي وصلت الينـا فأهمها قوانين الملك حورمحب وهو موضوع هذا البحث .

والملك حورمحب (١٣٣٠ ق . م) هو أول ملوك الأسرة التاسعة عشرة على أحـدث الآراء . فلما تولى العرش كان أول ما اهتم به القضاء على الفساد الذي عمّ البلاد بسبب الثورة الدينية والاضطرابات الداخليـة التي بدأت من عهـد الملك اخناتون واستمرت إلى أواخر الأسرة الثامنة عشرة .

---

(١) Diodor, I, 54. (٢) K. Sethe, Vom Bilde zum Buchstaben.

(٣) Weil, Die Veziere, 38-39. Breasted, Ancient Records. I. p. 255.

(٤) K. Sethe, Die Einsetzung des Veziers unter der 18. Dynastie, (Unters. V.)

(٥) P. E. Newberry, The Life of Rekhmara, plate 4.

ولقد كان من أهم عيوب هذا العصر انتشاراً تفشي الرشوة بشكل محسوس ظاهر بين عمال الضرائب وموظفي الحكومة من قضاة وغيرهم لأنهم أمنوا اشراف رؤسائهم على أعمالهم فأسرفوا في استخدام نفوذهم في ابتزاز الأموال من الأهالي فعمّ الخلل كل الأعمال الحكومية . فلذلك كان أول ما قام به حورمحب حين تولى العرش القضاء على هـذه الحال وعلاج هذه العلل المتفشية فدرس أسبابها وعللها وسنّ قانوناً من عدة مواد بعضها خاصّ بالمرافعات وبعضها الآخر بالعقوبات .

وقد نقشت مواد هـذا القانون على لوحة حجرية طولها ٥ أمتار وعرضهـا ثلاثة أمتار بالأقصر [1] غير أن مما يؤسف له أن هذه المجموعة وصلت الينـا مهشمة فضاع بذلك أكثر من ثلثي نصوص هذا القانون .

وقد وجدنا صوراً لهذا القانون في جهات أخرى مثل أبيدوس [2] مما يدل على أن الملك تولى نشرها على الشعب في أمكنة مختلفـة مخصصة لذلك . غير أن ما وجد من صور هـذا القانون كان في حالة أسوأ من لوحة الأقصر .

وقد اكتشف هـذا القانون ماسبرو [3] سنة ١٨٨٢ بجوار بوابة حورمحب في معبـد الكرنك بالأقصر ويبدأ الملك هذه اللوحة بقوله : « سنّ جـلالتي هذا القانون وأصدرته لضمان رفاهيـة شعبي » فيتضح من هـذا صفة الملك حورمحب كمصلح وكمشرّع . ثم يسرد مواد القانون ثم يقول في آخر اللوحة « نفذوا أوامري التي أصدرتها . . . . نظراً لما شاهدته من الظلم الصارخ بهذه البلاد » فمن ذلك يظهر أن الغرض من وضعه هذا القانون غيرته على راحة شعبه وعلى تخليصه من الظلم الذي كان واقعاً عليه .

وأعجب ما في هذه الصيغة أنها تذكرنا بالصيغة الحديثـة للقوانين إذ تشمل الإصـدار والتنفيذ .

---

(١) Breasted, Ancient Records, III §. 45-67

(٢) P. Lacau, Stèles du Nouvel Empire. I, 203

(٣) G. Maspero, Note on the life and Monuments of Harmhabi (in, Th. Davies. The Tombs of Harmhabi and Tout- ankh-Amoun, 1912).

مواد القانون (١)

المادة الأولى — خاصة باستعمال القسوة مع الأهالي عند جمع الضرائب (٢) وبمن يسلب ضرائب البيرة والمطابخ الملكية من الأهالي ، فمن يوجد معه هـذه الضرائب المسلوبة أو المراكب التي تحملهـا تجدع أنفه وينفى إلى بلدة ثارو (٣) سواء أكان الغاصب جنديًا في الجيش أم أي رجل آخر .

المادة الثانية — خاصة بابتزاز مال الاهالي عن الأخشاب المستحقة للملك . (وعقاب من أتى ذلك غير موجود بسبب الكسر) .

المادة الثالثة — خاصة بإعفاء الشخص الذي سرقت منـه الضرائب المستحقة وهي في طريقها إلى السراي الملكية (ديوان الحكومة) . (وعقاب من سرق الضرائب غير موجود بسبب الكسر) .

المادة الرابعة — خاصة بسرقة الضريبة المستحقة للحريم الملكي والضريبة التي في شكل هبات للآلهة بواسطة الجنود فكل جندي يرتشي تجدع أنفه وينفى الى بلدة ثارو

المادة الخامسة — خاصـة بسرقة جمع نبات خاص يدعى « كت » وقد اندثر وكان يستعمل للعلاج . (وبسبب الكسر فان هذه المادة غير واضحة) .

المادة السادسة — خاصة بسوء معاملة العبيد من الذكور والاناث (وتكملة هذه المادة غير واضح بسبب الكسر) .

المادة السابعة — خاصة بسرقة ضريبة الجلود فكل جندي أو جابي ضرائب علم عنه أنه دخل المساكن قبل ميعاد حلول الضريبة لأجل سرقة الجلود يحكم عليه بمائة جلدة وبجرحه في خمسة مواضع وتسترجع منه الجلود المسروقة .

---

(١) آسف لعدم امكاني الآن اعطاء ترجمة حرفية لنصوص مواد هذا القانون وذلك لاني تعهدت بعدم نشرها لحين طبعي الاصل الهيروغليفي .

(٢) وكانت الضرائب في ذلك العهـد تدفع في شكل مواد أوليـة كالاخشاب والخضروات والجلود وما أشبه .

(٣) وثارو هذه بلدة منعزلة على الحدود الاسيوية بجوار القنطرة .

المادة الثامنة — خاصة بالمفتشين العديمي الذمة المتواطئين مع محصلي الضرائب التي ينفق منها على الرحلات الملكية .

المادة التاسعة — خاصة بسرقة ضريبة الخضراوات (وعقاب من لم يراع نظام جمع الضريبة من الموظفين المختصين غير موجود بسبب الكسر) .

المادة العاشرة — خاصة بجمع ضرائب الحبوب (ومعظم نصوص هذه المادة ضائع بسبب الكسر) .

المادة الحادية عشرة — خاصة بشروط تعيين القضاة في أنحاء المملكة المصرية .

المادة الثانية عشرة — خاصة بالتعليمات اللازمة للقضاة . على سبيل المثال « ليحكموا بالعدل بين الناس » وحذّرهم الملك من الاختلاط مع عامة الشعب وحذرهم من الرشوة قائلاً : « لا تأخذوا أي هدية من أحد وإلاّ فكيف يمكنكم أن تحكموا بالعدل اذا كنتم أنفسكم جناة على القانون » .

المادة الثالثة عشرة — خاصة بترتيب أنواع المحاكم المختلفة (وبالأسف معظم هذه المادة غير واضح بسبب الكسر) .

***

من هذا نرى أن المشرّع المصري قد وضع نصب عينيه حماية الشعب مع مراعاة الصالح العام ، وملحوظ في هذا التشريع أيضاً أن العقوبات البدنية كان لها شأن كبير .

وترينا هذه المواد الناقصة بالاجمال عناية المصريين القدماء بسنّ القوانين المنظمة لجباية الضرائب وتنظيم المحاكم .

شيء عن القانون الجنائي

عند الفراعنة

ذكرنا أن أول مجموعة قانونية معروفة عند الفراعنة هي مجموعة الملك حورمحب[1] ورأينا أنها تشمل مواد خاصة بالعقوبات ومواد أخرى خاصة بالمرافعات

وفضلاً عن هذه المجموعة بقيت لنا أوراق بردية ونقوش متعددة ورد فيها ذكر لجرائم مختلفة . وسنذكر هنا الجرائم والعقوبات التي وردت في مجموعة قوانين الملك حورمحب وبعض جرائم وعقوبات أخرى من أوراق البردى والنقوش . مرتبة حسب أهميتها ومعرفتنا لها .

أولاً — جريمة الاعتداء على الملك [2]

ميز قدماء المصريين هذه الجريمة عن غيرها من جرائم الاعتداء الأخرى . وقد وصلتنا نصوص تثبت انا محاولة الاعتداء على حياة الملك ، أهمها الشروع في اغتيال حياة الملك بيبي الاول[3] والملك امنمحات الأول[4] واغتيال حياة الملك امنمحات الثاني[5]

---

(١) مجلة « القانون والاقتصاد » العدد الخامس من السنة الحادية عشرة صحيفة ٦٣٣ وما بعدها .

(٢) قارن « قانون العقوبات » المعمول به فى مصر لغاية مؤتمر مونتريه مادة ٧٧ .

(٣) K. Sethe, Urkunden des Alten Reichs, 1932, II, 99; J. H. Breasted, Ancient Records of Egypt I 142. الملك بيبي الاول هو ثالث ملوك الاسرة السادسة من الدولة القديمة (أي عصر الوحدة الاولى وعاش حوالي سنة ٢٥٩٠ ق . م .

(٤) Griffith, Zeitschrift fuer Aegyptische Sprache und Altertumskunde, Vol. 34 p. 35 ff.; Breasted, Anc. Rocords of Egypt, I, 228 ff. الملك امنمحات الاول هو أول ملوك الاسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى (عصر الوحدة الثانية) وعاش حوالي سنة ٢٠٠٠ ق . م .

(٥) W. G. Waddell, Manetho, London 1940, p. 67. الملك امنمحات الثاني هو ثالث ملوك الاسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى وعاش حوالي سنة ١٩٣٨ ق . م .

والشروع في اغتيال حياة الملك رمسيس الثالث [1] .

ولما كان ما وصل إلينا عن محاولة اغتيال الملك بيبي الأول وكذلك الملك امنمحات الأول وكذلك عن اغتيال الملك امنمحات الثاني على غاية من الاختصار بعكس ما نعرفه مفصلا من حادث محاولة اغتيال الملك رمسيس الثالث ، لهذا سنقصر كلامنا عليه .

كان ذلك حوالي سنة ١١٦٧ قبل الميلاد وكانت العادة المعروفة في توارث العرش عند الفراعنة أن يؤول العرش للابن الشرعي الأكبر للملك . وكان للملك أن يتخذ فضلاً عن زوجته الشرعية زوجات أخر ليست لهن هذه الصفة ويعتبر أولاده منهن غير شرعيين .

وكان ابن رمسيس الثالث الشرعي الذي سيخلفه في الملك يدعى « الأمير بنتاور » .

وقد علمت الملكة « تي » زوجة الملك رمسيس الثالث الشرعية أنه اعتزم أن يورث عرشه أحدَ أبنائه غير الشرعيين دون إبنها الأمير « بنتاور » .

لذلك رغبت في تدبير مؤامرة لاغتيال حياة الملك رمسيس الثالث فاتفقت مع بعض الضباط ونساء بعضهم ومع كبار موظفي القصر الملكي وعلى رأسهم « بنتاور » ولي العهد على قتل الملك والتخلص منه حتى يخلص المُلك لابنها « بنتاور » .

إلاّ أنه قبل تنفيذ المؤامرة عدل أحد أفرادها عن الاشتراك فيها فكان لعدوله الأثر الأكبر في فشلها وافتضاح أمرها . فشكلت محكمة من أربعة عشر قاضياً (وكان المتبع في ذاك الوقت أن يجلس للحكم في القضايا الجنائية عدد من القضاة يتراوح بين ستة وثمانية [2]) ضماناً لعدالة الحكم . ولو أنه كان للملك بحكم سلطانه الإلهي الحق في إعدامهم دون الرجوع الى القضاء .

ولكي تأخذ العدالة مجراها لم يكتف بأنه أوصى القضاة بعدم التأثر بأي عامل خارجي

---

(١) Lemm, Aegyptische Lesestücke p. 108 ; Breasted, Anc. Records, IV p. 210 ff

الملك رمسيس الثالث هو ثاني ملوك الاسرة العشرين من الدولة الحديثة (عصر الوحدة الثالثة) وعاش حوالى سنة ١١٩٨ ق . م .

(٢) E. Seidl, Rechtsgesgeschichte, Ubersetzungen und Abhandlungen zum vorptolemäischen Rechte Agyptens, in Kritische Vierteljahresschrift für Gesetzgebung und Rechtswissensenschaft p. 228.

عند إصدار أحكامهم على المتآمرين بل تنحى عن حقه في أنه المرجع الأخير في تقرير العقاب كما هو المتبع عادةً في القانون الجنائي بخلاف القانون المدني اذ كان الوزير هو المرجع الأخير (١) .

وقد أصدرت المحكمة أحكاماً مختلفة فبرأت المتآمر الذي عدل عن الاشتراك في الجريمة وحكمت بإعدام الأمير « بنتاور » (٢) ومعظم المتآمرين والمتآمرات (٣).

ونحن نرى شبهاً كبيراً بين ما اتخذته المحكمة من تبرئة المتآمر الذي عدل عن الاشتراك في المؤامرة وما يتبعه القانون الحديث حيال « شاهد الملك » .

نستنتج من هذه الجريمة التي وصلت الينا تفاصيلها عدّة نتائج على غاية من الأهمية في تاريخ القانون :

معرفة الفراعنة لجريمة الاعتداء على حياة الملك وتفريقهم بينها وبين الجرائم الأخرى . ورأينا أن الملك قد امتنع عن القضاء في هذه الجريمة التي تمسه شخصياً خلافاً لما كان متبعاً في الجرائم الأخرى من أنه المرجع الأخير في تقرير العقوبة .

وبذلك نرى احتراماً وتطبيقاً لمبدأ الفصل بين السلطات .

كذلك نرى أن العقاب الذي وُقّع على المشتركين في المؤامرة هو نفس العقاب الذي كان ينالهم لو أننا طبقنا القانون الجنائي المصري الحالي وهي عقوبة الإعدام (٤) . وأن المتآمر الذي عدل عن الاشتراك في الجريمة كان جزاءَ عدوله البراءة . وهذا يشابه في نتيجته العملية ما هو متبع في العصر الحديث (٥) اذ أن الذي يعدل عن ارتكاب الجريمة باختياره ومن تلقاء نفسه يعفى من العقاب مع الفارق الفني الضئيل بين البراءة والإعفاء من العقوبة.

---

(١) تناولنا بحث هذه النقطة بالتفصيل في كتابنا :
"Die Innere Verwaltung : Die Stellung des Königs und des Wesirs im Ramessidenreich'
الذي سيظهر قريباً والذي أشار اليه الاستاذان شارف وزيدل في كتابهما .
"Die Rechtsgeschichte des alten Aegypten".

(٢) وقد طلب من الأمير « بنتاور » أن ينتحر (قارن ما كان متبعا عند اليونان) .

(٣) كما حكمت بقطع آذان وأيدي من سهل للمتآمرين تنفيذ الشروع في المؤامرة دون الاشتراك معهم.

(٤) قارن « قانون العقوبات » المعمول به في مصر لغاية مؤتمر مونتريه مادة ٧٧ .

(٥) قارن « قانون العقوبات » المعمول به في مصر لغاية مؤتمر مونتريه مادة ٨٧ .

ثانياً – جرائم السرقة :

كانت سرقات القبور شائعة في العصر الفرعوني نظراً لاحتوائها على أشياء نفيسة بل على كل ما هو لازم لحياة الانسان في العالم الآخر .

ومن أهم الأمثلة لهذا النوع من الجرائم ما حدث حوالي سنة ١١٢٠ ق . م . من سرقة عدة مقابر لأفراد وموظفين وملوك دفنوا منذ حوالي خمسمائة سنة من تاريخ السرقة [١] ويفهم من تطبيق العقوبة عليهم رغم اندثار أقارب الموتى بعد هذا التاريخ الطويل أن هذه الجريمة كانت تعتبر في حكم ما نسميه نحن الآن « حق النظام العام » فكانت الدولة هي المجني عليها في هذه السرقات باعتبار أنها مخلة بأمن المجتمع وكيانه .

وكان عقاب هذه الجريمة أن يعدم المجرم على الخازوق [٢] أو يحبس (يسجن ؟) [٣].

ومن أمثلة جرائم السرقة أيضاً ما نص عليه في قانون « الملك حور محب » فقد نص في المادة السابعة من مجموعات قوانينه على عقاب سارق ضريبة الجلود : بضربه مائة جلدة وبجرحه في خمسة مواضع [٤]

ومن أمثلة جرائم السرقة أيضاً ما نص عليه في معاهدة التحالف التي عقدت بين الملك رمسيس الثاني وبين ملك الحثيين : « اذا ارتكب أحد رعايا الطرفين سرقة وجب نفيه وتسليمه لدولته » [٥] فهذا النص الصغير الصريح يدل على أن النفي كان محتماً على كل فرد من رعية أحد المتحالفين اذا ما ترك وطنه لسبب جنائي [٦]

....

(1) T. E. Peet The Great Tombrobberies of the Twentieth Egyptian Dynasty, Oxford 1930. 2 Volumes.

(٢) وكانت هذه هي طريقة الاعدام الشائعة عندهم ومن الغريب أنها كانت موجودة في العصر التركي وآخر ما وصلنا عنها ما وقعه رجال الاحتلال الفرنسي على « سليمان الحلبي) لقتله « كليبر »

(٣) كان الحكم باعدام السارق على « الخازوق » يوقع على من لمس المومياء وبعقوبة الحبس « السجن ؟ » على من سرق ولم يلمس المومياء .

(٤) وتسترجع كذلك من السارق الجلود المسروقة . يلاحظ ما هو متبع في القانون الروماني من أن جريمة السرقة لا يعاقب عليها إلا اذا طلب أصحاب المسروقات اتخاذ الاجراءات القانونية (راجع بالتفصيل كتاب الاستاذ علي بك بدوي : « أبحاث التاريخ العام للقانون » الجزء الاول سنة ١٩٢٦ صحيفة ١٢٣) . وكتاب الدكتور بدر : القانون الروماني ١٩٣٧ .

(5) Breasted, Ancient Records III, § 392 ff.

(٦) وهذا يذكرنا في القانون الحديث بنظرية « تسليم المجرمين » .

ثالثاً — جريمة اختلاس الأموال الأميرية :

عقابها واضح في قانون الملك « حور محب » وهو جدع أنف المختلس ونفيه الى بلدة « ثارو » على الحدود الشمالية الشرقيـة . راجع المادة الأولى من مجموعات قوانين الملك « حور محب » .

رابعاً — جريمة الرشوة

من جرائم الرشوة ما نص عليه في قانون الملك « حور محب » فقد نص في المادة الرابعة من مجموعات قوانينه على عقاب المرتشي بالنفي الى الحدود وجدع أنفه .

خامساً — جريمة شهادة الزور

يختلف العقاب فيها باختلاف أهمية الشـهادة وعقوبتها تتراوح بين حبس ونفي[1] .

سادساً — جريمة هتك العرض

يختلف العقاب في هذه الجريمة باختلاف حالة السيدة ومكانتها في الهيئة الاجتماعية متزوجة أو غير متزوجة ، وباختلاف حالة الجاني إن كان من الخدم أو الأقارب أو الاتباع وهكذا[2]

وهناك جرائم أخرى خلاف هذه الجرائم السابقة الذكر كالتزوير في المستندات الرسمية[3] ولـكنها غير واضحة لتلف في النصوص التي وصلتنا عنها .

يتضح لنا مما ذكرنا ما كان عليه القانون الجنائي عند الفراعنة من رقي وما كانوا يتخذونه في اقامة العدل بين الناس .

---

(١) F. Seidl, Rechtsgeschichte, Ubersetzungen und Abh., in Krit. Vierteljah., p. 228 ff

(٢) Cerny, Papyrus Salt, Journal of Eg Arch,., XV, 243, ff.

(٣) Gardiner, Inscription of Mes, in Sethe, Untersuchungen, IV, 3 ff.

دور العدالة

في مصر القديمة

١ – المحاكم الوطنية

تقديس المصري للعدل ظاهر في النصوص والاساطير المخلفة عن عصور التاريخ المصري القديم ، ولم تقل عناية الشعب والقائمين على شؤونه بهذه الناحية الاجتماعية عن عنايتهم بعباداتهم وتقديسهم لآلهتهم، وذلك لأن العدل أساس الملك، والعدالة شرط لا بدَّ منه إذا أريد للدولة الحياة وللأمة البقاء .

فلا عجب إذن أن نرى للعدل إلاهة تدعى « معات » تهيمن على ممثليها في الارض كالملك والوزراء والقضاة وسائر الأفراد . فالمعبودة « معات » هي التي ينتسب إليها القاضي ويدعى كاهنها ، و « معات » هذه هي التي كانت تتحلى بتمثالها الصغير القلادة التي يلبسها القاضي، حول عنقه عند النظر في القضايا ، ولعلَّها في ذلك الوقت كانت تشبه صورة مليك البلاد باعتباره حامياً للقضاء تتوج كل قاعة من قاعات العدل في وقتنا الحاضر ليطمئن المظلوم ويرهب الظالم .

فقد ورد في قصة بردية (الفلاح) أنَّ موظفاً حكوميًّا كبيراً في جهة الفيوم نازع فلاحاً صغيراً على ملكية منقول صغير فقدمت القضية الى المحكمة فأصدرت الحكم في مصلحة الفلاَّح الصغير ولم يستطع الموظف الكبير استغلال سلطة وظيفته .

ولم تقتصر المساواة على شيوعها بين الكبير والصغير بل تعدّت ما هو أهم وأعظم من هذا فقد ثبت من أوراق بردية (ابوت) أن جماعة من الشعب وموظفي القصر الملكي شرعوا في قتل رمسيس الثالث فرعون مصر ولكنه حرصاً منه على العدل كتب الى قضاته قائلاً

ما ترجمته : « إنّ هؤلاء متهمون لخفقوا في أمرهم بروح العدل » .

ومما يدل كذلك على عظم اهتمام الدولة الفرعونية بتقديس العدل وسرعة البت في القضايا والشكاوى وعدم المحاباة ما جاء في وثيقة تاريخية عن نظام القضاء بمقبرة « رخمي رع » أحد وزراء الملك تحتمس الثالث .

فقد ورد في هذه الوثيقة بيان الاختصاصات والمهام القضائية التي عهد فيها الملك الى وزيره عند تعيينه رئيساً للوزراء ووزيراً للعدل فقد كان الوزير هو القاضي الاول في الجلسة ومعه قضاة آخرون وكان يحمل في عنقه صورة المعبودة « معات » رمز العدالة

وكانت الهيئة تسمع المتقاضين في جلسة علنيـة واحداً واحداً ولا تسمح بسماع متأخر قبل متقدم . وكان يقف في الجلسـة كتبة لتسجيل كل ما يدور بشأن القضايا وموظفون إداريون لتنظيم صفوف المتقاضين حسب ما هو وارد في جدول الجلسة .

ولم يكن القانون المصري القديم يبيح الإطالة في القضايا والشكاوى بل يميل الى الفصل فيها بسرعة فان تقدمت للوزير على سبيل المثال شكوى عن أرض بعيدة عن العاصمة أرسل مندوباً لتحقيقها في خلال شهرين وان كانت قريبة من العاصمة حققت في خلال ثلاثة أيام طبقاً للقانون .

وسجل الوزير « رخمي رع » أسمى مظهر للعدالة بمقبرته في طيبة فانه كان يجول بين الشعب في الصباح الباكر ليسمع شكاوى الشاكين على اختلاف مراتبهم لكي يرفع الظلم عن المظلومين الذين لايستطيعون الوصول إليه أو الى مجلس القضاء لفقرهم أو لجهلهم بالقانون .

وكان يكلف الـكتبة الذين بصحبته أن يكتبوا ما يمليه عليهم الشاكون الأميون .

فمن هذه الأمثلة الموجزة يتبين مقدار احترام أسلافنا المصريين للقانون ومحبتهم للعدالة والدقة مع السرعة في تنفيذ القانون بما يكفل الطمأنينة لجميع أفراد الشعب على السواء .

ولتعميم العدالة في البلاد أنشئت في مصر القديمة محاكم من نوعين ، مدنية وجنائية — وكان اختصاص المحاكم المدنية الفصل في المنازعات العقارية من انتقال ملـكية أو بيع أو شراء أو هبـة أو وصية أو ميراث أو إيجار وما الى ذلك — وكانت المحاكم المدنية على ثلاث درجات : —

١ - محاكم كانت تعقد في القرى أو المدن الصغيرة — وكان يطلق عليها عادةً في اللغة المصرية القديمة إسم « جاجات » بمعنى مجالس قضائية ، وكان القضاة ينتخبون من الطبقة الخاصة من الموظفين المعروفين باسم « سرو » أي « الكبار » وكانت تعـقد جلسات هذه المحاكم بإشراف حاكم القرية .

٢ — الثانية محاكم عواصم الأقاليم — أو بالمصرية القديمة « حات ور » أي البيت الكبير وكانت تنظر في القضايا التي تشبه تلك التي تنظر أمام محاكم الدرجة الأولى وينتخب قضاتها من طبقة كبار الموظفين السابقة . وكانت تعقد جلساتها برياسة حاكم الاقليم — ووزير العدل هو الذي كان يعين قضاة محاكم الدرجتين الأولى والثانية .

٣ — الثالثة وهي محاكم استئنافية — تنظر أمامها قضايا محاكم الدرجة الأولى والثانية وتسمّى « سوتي حات ور » ويختار قضاتهـا الستة من أعضاء مجلس العشرة وكان يرأسها الوزير بصفته وزيراً للعدل والملك هو الذي يعين قضاة هذه المحاكم الاستئنافية .

ومما هو جديرٌ بالذكر أن القاضي كان يعرف في المصرية القـديمة باسم « ساب » أي المصلح إشارة الى مهمة القاضي والغرض من القضاء ، وهذا النوع من المحاكم لم يلازم الشعب المصري القديم في جميع عصوره ، بل تحوّل مع مرور الزمن . ففي عصر الوحدة الثانية (الدولة الوسطى) ظهر نوع آخر يعرف باسم « قنبت » واستمرّ في عصر الوحدة الثالثة (الدولة الحديثة) وامتاز بأن يجلس للحكم في القضايا الجنائية عدد من القضاة يتراوح بين ستة وثمانية . وكانت المحاكم الاستئنافية لهذا النوع من المحاكم تسمى «قنبت عا» . واستمر الحال على هذا المنوال حتى عصر البطالمة فبقيت هذه المحاكم الوطنية لتطبيق القانون المصري في النزاع بين المصريين والفصل في قضاياهم وسميت باليونانية « محاكم الـ Laocritae

٢ — المحاكم المختلطة

وقد لا يعرف الا قليل انه كان في مصر القديمة ما يسمى بالمحاكم المختلطة أنشئت لظروف خاصة وزالت بزوال تلك الظروف .

فقد كانت تطبق على الاغريق القوانين الاغريقية في محاكم اغريقية تسمى محاكم

الـ Chremaitistae » إذا كان فريقا النزاع منهم ، وهي تشبه المحاكم القنصلية ، ولكثرة نزوح الأغريق الى مصر بعد غزو الاسكندر الأكبر لمصر سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ثم قيام أسرة ملكية جديدة للبطالمة.

ولما زاد عدد الأجانب الذين وفدوا على مصر وكثرت المداولات التجارية مع وجود اختلاف بين القوانين المصرية المحلية والأغريقية ونشوء المنازعات بين الأجانب والمصريين واختلاف اللغة الأغريقية عن المصرية القديمة وضرورة الفصل في هذه المنازعات ، أنشئت محاكم جديدة عرفت باسم « Koinodikion » أي محاكم مختلطة » إبتدائيــة في الفيوم أو الإسكندرية وطيبة ومحكمة استئناف مختلطة في الاسكندرية (مقر الملك) تضم عدداً من القضاة اليونان أو المقدونيين والمصريين .

ولما انقضى الغرض الذي من أجله أنشئت هذه المحاكم زالت بزواله . وفي الوقت عينه تقلص حكم الدولة اليونانية المعروفة بدولة البطالمة وحلّت الامبراطورية الرومانية محله .

وكان يشمل اختصاص محاكم الـ Koinodikion هذه القضاء المدني والقضاء الجنائي ونذكر بهذه المناسبة أن خلافاً نشب بين شخص يدعى Marres وشخصين آخرين على تقسيم كرم . وبينما كان عمال ماريس هذا يشتغلون في الكرم جاء شخص رابع وطردهم ولكن الشخصين أطلقا أغنامهما في الكرم فأتلفت الزراعة عمداً .

فقدم ماريس شكوى لرجال البوليس يطلب تقسيم الكرم وتعويضه عن الخسائر التي تسببا فيها مع الشخص الرابع ولمعاقبة الشخص الرابع .

فأشر قائد البوليس على الشكوى بأنه في حالة العجز عن التوفيق بينهم تحال الشكوى على المحكمة المختلطة .

الفصل الرابع

بحوث أثرية

١ – منارة الاسكندرية

٢ – سرابيوم « الاسكندرية »

٣ – مصر العتيقة والحصن الروماني

٤ – الأثر الدنيوي في الفن القبطي

٥ – أدوات زينة المرأة في العصر القبطي

منارة الاسكندرية

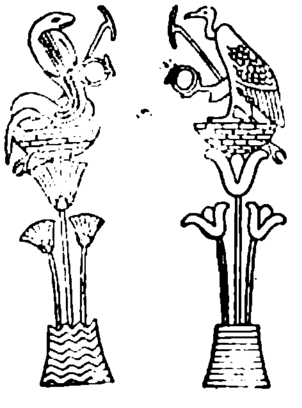
كان لأسطول بطلميوس الأول — الملقب باليونانيـة (سوتر) وبالمصرية (نج) أي المخلص — السيادة البحرية التامة على البحر المتوسط ، فتقدمت المدنيـة التجارية بالإسكندرية تقدماً عظيماً خاصة طول مدة حكمه كوالٍ (٣٢٣ — ٣٠٥ ق . م) أو كملك (٣٠٥ — ٢٨٢ ق . م) وقد بذل جهوداً جبارة لضمان تقدم البلاد تجاريـًا ورفع مستواها أدبيًا وعلميًـا ، فقام بكثير من المشروعات العمرانيـة الخالدة كبنائه منارة الاسكندرية الشهيرة لهداية السفن على جزيرة (فاروس) عند مدخل الميـنـاء ، وهي تعتبر أول منارة عرفها العالم القديم ، كما أنها أكبر منارة حتى يومنا هذا وهي تعدُّ إحدى عجائب العالم السبع .

وقد جرت عادة بعض المؤرخين إلى نسـبة بنائها إلى الملك بطلميوس الثاني الملقب (فيلادلفوس) إلاّ أن الحقيقة العلميـة لا تقرُّهم على هذا الرأي ، فقد ثبت أخيراً أن مشيِّدها الحقيقي هو بطلميوس الأول الذي أسـند مهمة الإشراف على بنائها للمهندس (اليوناني Sostratus) الذي نشأ في بلدة (كنيدوس Cnidos) إحدى البـلاد اليونانية ثم أتيحت له الفرصة فانضم إلى حاشية بطلميوس الاول . وقد ظلت هذه المنارة قائمة حتى القرن الرابع عشر الميـلادي حيث هدمها زلزال عنيف عام ١٣٠٧ م . ومن حسن الحظ أننا نجد وصفاً مستفيضاً لهذه المنارة في مؤلفات كثيرين من المؤلفين المتقدمين أمثال (سترابون) و (يوسيفوس) و (ابن الصائغ) و (ياقوت) كما وصلتنا أيضاً صورة لهذه المنارة على بعض قطع من العملة الرومانية التي عثر عليها أخيراً . ومن الأوصاف التي وردت في تلك الكتب وعلى بعض قطع النقود نستطيع أن نقول إن هذه المنارة كانت مشيَّـدة في فناء مربع يحيط به سور عظيم من جهاته الاربع وكان خارج هذا السور رصيف يسير عليه الناس . أما المنارة نفسها فكان ارتفاعهـا مائة متر ، وتتـكوّن من ثلاث طبقات بعضها فوق بعض ، فكانت

السفلى مربعة الأضلاع والوسطى مثمنة ، أما الطبقة العليا فكانت مستديرة، ويعلوها تمثال رجل من النحاس يحمل مصباحاً .

وقد أطلق على هـذه المنارة اسم الجزيرة التي شيدت عليها أعني (فاروس) فأصبح هذا اللفظ يدل في اليونانيـة وكثير من اللغات الهندية الاوربية على معنى (منار) والذي أصبح في العربية (فنار) وفي الفرنسية (فار Phare) وفي الانجليزية (فاروس Pharos).

ويعتبر علم الآثار هذه المنارة أقدم بناء من هذا النوع عرفه العالم ، وأن هذا البناء أصبح فيما بعد مثالاً يحتذى عند بناء جميع منارات العالم قديماً وحديثاً، بل تحفة فنية من تحف فن العمارة والزخرفة والهندسة التي ترجع الى ذلك العصر السحيق .



سرابيوم
معبد الاسكندرية

منذ أعوام قلائل اكتشف رجال متحف بلدية الاسكندرية بجوار عمود السواري آثاراً ترجع الى عهد الملك بطليموس الثالث . وقد نوهت بها بعض الصحف يومئذٍ وذكرت أن بينها لوحات ذهبية تدل على أن بطليموس الثالث هو المنشيء لسرابيوم الاسكندرية .

غير انه قد اتضح من بحث المراجع الأثرية والادلة التاريخية أن منشيء سرابيوم الاسكندرية هو بطليموس الأول لا الثالث .

ولقد كان الاسكندر الأكبر وحكام البطالمة يميلون الى مهادنة المصريين ومجاملتهم من الوجهة الدينية . ولذلك حذوا حذو ملوك الفراعنة فكانوا يزورون الآلهة المصرية في معابدها ، واتخذوا لأنفسهم الالقاب المصرية التي ترجع الى تاريخ معبودات مصرية قديمة كاللقب الحوريسي نسبة الى الاله حورس (إلـه السماء) ، الذي كانوا يعتقدون انه يحمي حامل لقبه، بل يعتبر من سلالته . واللقب صارع نسبة الى الإلـه رع (إله الشمس) ظناً منهم أن المسمى به يعتبر ابناً للإله رع .

ولم يكتف بطليموس الأول باستمالة المصريين وإرضاء كهنتهم بمثل هذه الطرق ، بل فكر في طريقة أخرى لايجاد عبادة مشتركة يونانية مصرية تربط الشعبين .

فغيَّـر اسم المعبود المصري (العجل آبيس) بتسمية مصرية يونانية (أوسرحابي ، أي العجل آبيس المتوفي) بسرابيس . وعبده المصريون في شكل الآلهة المصرية أزوريس أو العجل آبيس أو الالـه أنوبيس . واليونانيون في شكل الإلـه اليوناني هادس (إلـه الآخرة) أو اسكالبيوس (إله الشفاء) أو زيوس .

وبذلك أصبح كلٌّ من الشعبين لا يعتبر هذه الديانة رمزاً لديانة جديدة .

فكلّف بطليموس الأول المهندس اليوناني Parmenissus پارمنيسوس إنشاء معبد

الإلـه سرابيس بالاسكندرية فأقامه مكان عمود السواري الحالي ، وأطلق عليه اسم السرابيوم وكان هذا المعبد أهم مركز لعبادة هذا الإلـه في عصر البطالمة .

وقد أضاف أيضاً بطليموس الأول هيكلاً جديداً بسرابيوم منف [١] للمعبود العجل آبيس ، وهو أحد أشكال الإله سرابيس على الطريقة المصرية كما تقدم . ويرجع تاريخ سرابيوم منف الى الدولة الحديثة أو الى ما قبل هـذه الدولة في بعض الآراء . ولا يمكن القول بأن بطليموس الأول هو الذي أنشأ سرابيوم منف بناءً على التعديل الذي أجراه فيه [٢] .

كما أن وجود ألواح ذهبية باسم بطليموس الثالث بسرابيوم الاسكندرية منقوش عليها أنه أهدى إلى سرابيس المعبـد والحرم المقدس — لا يدل دلالة قاطعـة على انشاء هـذا السرابيوم ، بل يستنتج من النقوش فقط إنه اهتم بتوسيع هذا المعبد أو بتجديد بنائه كما حدث في سرابيوم منف في عهد بطليموس الأول لا سيما أن السرابيوم يشمل عدة مبانٍ .

وقد وجد علماء الآثار ألواحاً ذهبية ببلدة كانوب (بجوار أبي قير) باسم بطليموس الثالث منقوشاً عليها أنه أهدى هو وزوجته برنيكا المعبد للإلـه أزوريس . فالمقصود هنا أن الاهداء ينصب على ما أضيف بمعرفتهما بهذا المعبد . وتوجد إحدى هذه الألواح بالمتحف البريطاني بلندن .

مما تقدم نستطيع القول بأن بطليموس الأول لا الثالث أنشأ سرابيوم الاسكندرية [٣]

---

(١) سرابيوم منف عبارة عن هيا كل متصلة بمحاريب لدفن ما يموت من عجول آبيس وكانت توضع جثث العجول في توابيت وتدفن بهذه المحاريب . وكانت وفاة العجل آبيس تعتبر حادثاً تهتز له البلاد كما وعند ما يكون العجل أبيس على قيد الحياة كان يعيش في مكان بجوار هيكل بتاح على مسافة أربعة أميال تقريباً داخل بقعة منزرعة من الوادي تدعى « آبيوم »

وعلاقة الاله بتاح بالعجل آبيس هو أن المصريين في عصر الدولة الحديثة كانوا يعتقدون أن روح الاله بتاح قد تقمصت العجل آبيس

(٢) وفوق أهمية ما شيده بطليموس الاول في سرابيوم منف من الوجهة الدينية تقوم له هيئة فنية إذ انه أول بناء في مصر معروف حتى الآن ظهرت فيه الاعمدة اليونانية المسماة « كورنثي »

(٣) وقد وصلت درجة عبادة الاله سرابيس الى حد جعل جميع المصريين يعبدونه ، وكذلك يونانيو مصر إذ أصبح إله الدولة . وفي المسائل القضائية ذكر اسمه في القسم

كما أن عبادته انتشرت من الاسكندرية الى البلاد الاغريقية ثم فيما بعد الى الدولة الرومانية

مصر العتيقة

منذ عصر الملك مينا الى عصر الفاروق

والحصن الروماني

تقع مصر العتيقة على الضفة الشرقية من النيل جنوبي القاهرة ابتداءً من فم الخليج « رأس الدلتا » ، وكان يطلق عليها في العصور الفرعونية اسم « خري عحـا » أي ميدان الحرب ، ذلك لانه نشبت بالقرب منها حروب بين أهل الشمال « الوجه البحري » وبين أهل الجنوب « الوجه القبلي »[1] وربما أطلق عليها اسم « كمت » أي « الارض السوداء » لخصوبة تربتها . وكان يطلق هذا الاسم « كمت » على القطر عامة ، كما هو الحال حين يطلق الآن اسم مصر ويراد به « القاهرة » ، أو حين يطلق ويراد به على التعميم القطر المصري ، إلاَّ أن تسمية « خري عحـا » أصبحت أكثر شيوعاً وانتشاراً من التسمية الثانية حتى عصر البطالمة . فعلى سبيل المثال نذكر أن نصوص عصر الوحدة الاولى « الدولة القديمة » المكتوبة على حجر بالرمو ذكرت عند الكلام على الملك « نفرايركارع » نحو سنة ٢٧٣٠ قبل الميلاد كلمة « خري عحـا » ، كما ذكرت أيضاً في نصوص الاهرام في فقرة (١٣٥٠) ، وكذلك في عصر الوحدة الثانية « الدولة الوسطى » وعصر الوحدة الثالثة « الدولة الحديثة » في النصوص المكتوبة على لوحة أبي الهول ، وفي مقبرة الملك « سيتي الاول » ، وفي العصور المتأخرة

---

(١) ولتخليد ذكرى هذه الموقعة التي كانت خيراً وبركة على سكان وادي النيل وشعب مصر بقيت هذه التسمية « ميدان الحرب » حية حتى عصر البطالمة والفضل في ذلك يرجع الى العقيدة القائلة بأن تلك المعركة التي دارت رحاها في هذا المكان انما هي معركة بين اله مصر العليا (حورس) واله مصر السفلى (ست) وانتصار الاله (حورس) على الاله (ست)

بلوحة « بمنخي » عند التنويه بأنه زار هذه البلدة في طريقه من منف إلى عين شمس .

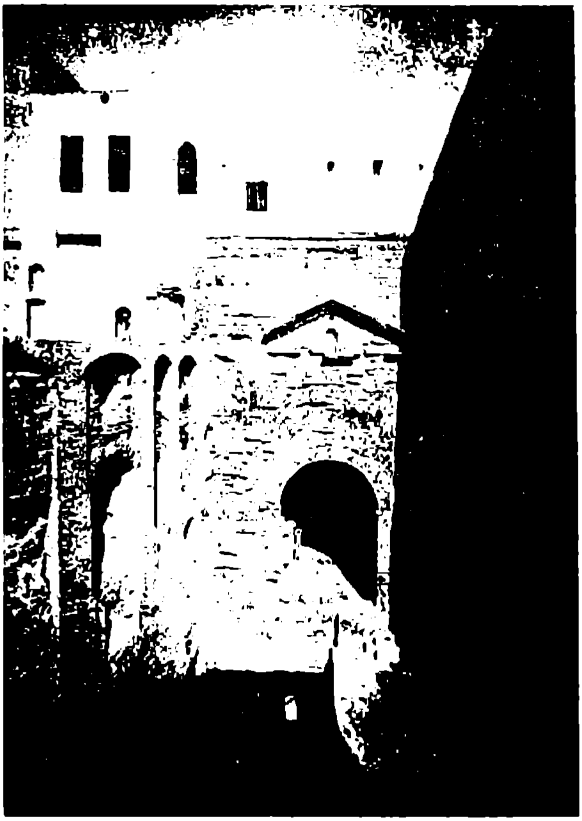
وقبل أن تصبح مصر ولاية رومانية عبّر عن « مصر العتيقة » باسم « بابليون مصر » كما هو وارد في النصوص اليونانيـة والقبطية ، وهي تسمية أكادية « أشورية » بمعنى « باب الله » أي دار أمان ، واتخذت فيما بعد عاصمة للرومان . وهناك من يرى ان معنى هذه التسمية « باب عين شمس » .

أما بعد الفتح العربي فقد أطلق عليها اسم « الفسطاط » . وكان قصد الرومان والعرب ومن قبلهم من هذه التسمية واحداً ، كما أن بعض الكتّـاب العرب أطلقوا عليها اسم « قصر الشمع » ، وهي تسميـة محرفة عن كلمة « كت » إحدى التسميتين الفرعونيتين مضافاً إليها كلمة « قصر » ومن الجائز أن تكون لفظة « قصر » أطلقت على بناء داخل الحصن ، إذ هي للقصر أقرب منها للحصن ، وسميت بعد ذلك حتى وقتنا هذا باسم « مصر العتيقة » . ويستنتج من اختلاف هـذه الأسماء لتلك المنطقة أن أدواراً تاريخية متشابهة قد مرّت بها . وبالرغم من كثرة العصور التي مرّت بها واستدعت إعادة تشييدها ، نظراً لتتابع الحروب في فترات مختلفة . فإن موقعهـا الجغرافي الحالي يكاد يكون في موقعها الأصلي منذ العصر الأول مع امتداد الى جهة الشمال .

* * *

كانت « مصر العتيقـة » في أغلب العصور المتقدمة عاصمة البلاد ولا تزال ، إذ أن القاهرة عاصمة الملك الحالية تقع شماليها ، كما أن سراي القبة الحالية التي اختيرت في العهد الحاضر مقرّاً للملك تقع أيضاً في شمال القاهرة وكذلك مصر العتيقة تقع شمالي مدينة « إنبو حدج » (الجدار الأبيض أو منف) العاصمة الفرعونيـة الأولى لمصر حينما وحّـدت في عهد الملك مينا « نعرمر » حوالي سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد . ويرجع السبب في اختيار « مصر العتيقة » عاصمة للبلاد وقوعها عند رأس الدلتا . ولأنها تقع أيضاً عند أول الصحراء الشرقية ، ولها من هـذه الناحية سيطرة حربية ، كما أنها تقع على النيل ، فهي ميناء نهريٌّ عظيم استخدم ولا يزال يستخدم في نقل الحبوب وغيرها . وكان السفر منها الى جهات القطر المصري شمالاً وجنوباً سهلاً يساعد الحكومات على الإشراف الإداري مساعدة جديّـة فعالة ، فهي لذلك مركز هامٌّ من الوجهة البحرية سواء التجارية منها أو الحربية .

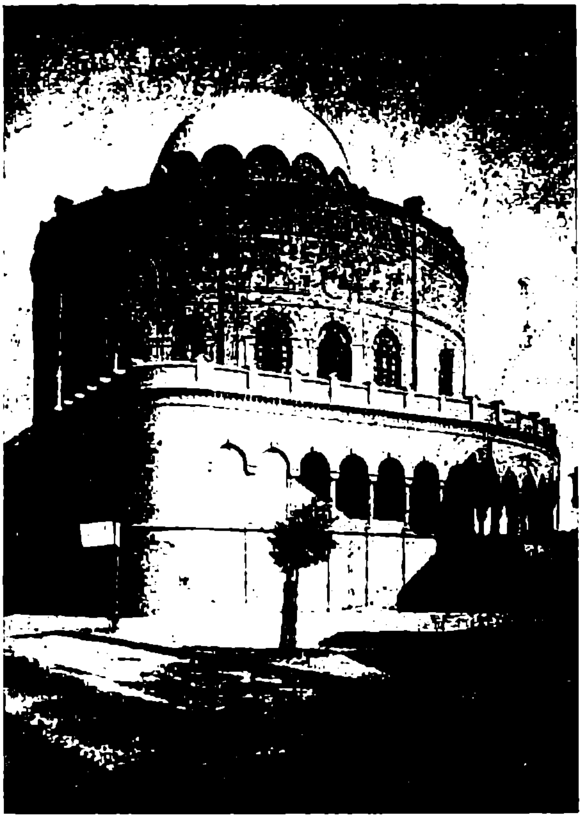
وقد كانت هذه المنطقة في جميع العصور موضع اهتمام الحكام والملوك. وأهم ما بقي فيها من مخلفات تلك العصور هو :



شكل ١ : الباب الرئيسي بين البرجين الجنوبيين
(عن صورة مهداة من جلالة الملك فاروق الاول إلى المتحف القبطي)

أولاً : حصن بابليون — شيده الفرس في عهد « قمبيز » وجدّده الرومان وجعلوه رمزاً لحضارتهم ، ثم أضافوا إليه تعديلات في عهد الامبراطور « أغسطس » ثم « تراجان » من بعده ثم من خلفهما من الأباطرة حيث رابطت فيه حامية كان الغرض منها تحقيق الهدف الحربي والسيادة التجارية ، ولا سيما أنه قد مرّ أكثر من أربعمائة عام من تأسيسه وهو بالٍ دون صيانة أو عناية بأمره . وذلك نتيجة انتقال العاصمة المصرية الى الوجه البحري ، ثم من هذه المنطقة الى الاسكندرية في عهد الإسكندر الأكبر ومن خلفه من البطالمة ،

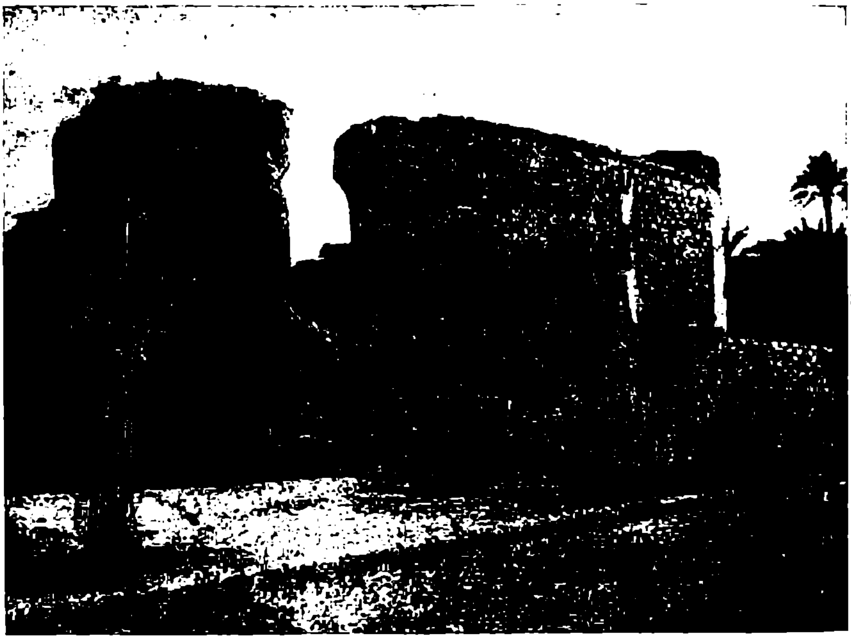
عدا ما استتبع ذلك من تهدم بعض أجزاء منه ، مما جعله في حاجة الى الترميم والإصلاح .
وعلى الرغم من أن بعض العلماء قد خالفوا هـذا الرأي . وقالوا بأن تراجان هو الذي أنشأ هذا الحصن في القرن الثاني الميـلادي فإنا لا نميل الى الأخذ بهذا القول ، ذلك بأن الحقيقة الثابتة تدل على أن ديودور الصقلي عندما كتب تاريخه عن مصر حوالي سنة ٥٠ قبل الميلاد



شكل ٢ : البرج القائمة عليه كنيسة مارجرجس
(عن صورة مهداة من جلالة الملك فاروق الاول إلى المتحف القبطي تبين حالة الحصن قبل ترميمه)

ذكر «بابليون» ، كما أن إسترابون الاغريقي عند ما زار مصر سنة ٢٥ ق . م. أي قبل عهد تراجان بما يقرب من مائتـين وثلاثين عاماً قال إنه « رأى في عين شمس المنازل العظيمة التي كان يسكنها الـكهنة الذين درسوا الفلسفة والفلك ، وإن من يسر الى عين شمس في النيل متجهاً الى الجنوب يصل إلى بابليون وهو موقع حصين » .

ولا نزال نرى بعض أبراج هذا الحصن حول جدران مباني المتحف القبطي ، فاذا ما تأملنا جدرانه الظاهرة من الخارج تبين لنا أنها على نمط البناء الروماني العادي وأنها ذات خمسة مداميك من الحجر الجيري الأبيض يتلوها ثلاثة مداميك من الطوب الأحمر . وأغلب أحجار هذا النوع مأخوذ من مبانٍ فرعونية لم تزل على بعضها نقوش هيروغليفية .



شكل ٣ : البرج الغربي القائم في حديقة المتحف القبطي
(عن صورة مهداة من جلالة الملك فاروق الاول إلى المتحف القبطي تبين حالة البرج قبل ترميمه)

ونرى أحد الجدران من الجنوب « الجهة القبلية » عبارة عن برجين كبيرين مستديرين يبلغ ارتفاع كل منهما نحو عشرين متراً ، وبينهما أحد أبواب الحصن (شكل ١) ، وعلى أحد هذين البرجين « كنيسة المعلقة الأثرية » . واكتشف في أطلال هذين البرجين نسر روماني ناشر جناحيه .

وفي الجهة الغربية برجان آخران كبيران بينهما مدخل المتحف القبطي ، وأحد هذين البرجين مشغول بكنيسة مار جرجس الروماني (شكل ٢) . والآخر في حديقة المتحف (شكل ٣) . والأمل كبير في أن تظهر الحفائر المقبلة كشف بوابة تربط بين البرجين على

رصيف الميناء النهري القديم إذ أن النيل قديماً كان يمرّ بجوار جدران هذا الجزء من الحصن . وكانت منطقة الحصن على ضفة النيل حتى تأسيس الفسطاط .

كل هذا يدل دلالة واضحة على ما كان عليه هذا الحصن من مناعة تفوق مناعة الحصون التي شادها العلم الحديث ، وعلى دقة بناء هذا الحصن ، فقد بقي حافظاً هيكله القديم مع أنه مرّ ما يربي على ألفي سنة على بنائه الذي تبلغ مساحته حوالي ٦٠ فداناً .

ثانياً : الكنائس الأثرية — وهذه الكنائس التي داخل الحصن الروماني هي : المعلقة، وأبو سرجة ، وقصرية الريحان ، ومار جرجس المصري، ومار جرجس الروماني، وأنبا شنودة، ومار مينا، والست بربارة .

ثالثاً : جامع عمرو — وهو أقدم جامع بني بالديار المصرية أسسه عمرو بن العاص عقب افتتاح العرب لمصر ، نحو سنة ٦٤٠ ميلادية أي بعد استيلائهم على الحصن الروماني ، ونت محت الإصلاحات الكثيرة التي أجريت بالجامع قبل عهد صلاح الدين ، كثيراً من المباني الأولى التي كان يتألف منها الجامع في عهد عمرو بن العاص . وقد تجلى في هذا الجامع فن العمارة والتصميم في العصور التالية لعهده .



الاثر الدنيوي

في الفن القبطي

من الأمور المتفق عليها حتى العصر الحاضر بين علماء الآثار والمؤرخين أن الفن القبطي إنما هو فنٌ دينيٌ مسيحيٌ محضٌ يعبر عن فن الأديرة والكنائس، مؤثراته دينية، كما أن أغراضه دينية أيضاً، بمعنى أنه لم يتأثر بمؤثرات دنيوية، وإنه لم يرم الى أغراض دنيوية (مدنية).

ويبدأ هذا الفن القبطي أو الفنّ البيزنطي في نظر هؤلاء العلماء منذ سنة ٣٩٥ ميلادية وقت أن أصبحت الديانة المسيحية ديناً رسميّـاً لمصر، ويستمر حتى سنة ٦٤٠ ميلادية، وهو وقت دخول العرب مصر.

ولكن إذا رجعنا إلى أصل كلمة قبطي وجدنا أنها في معناها ترادف كلمة مصري سواء بسواء، بمعنى أن جميع سكان وادي النيل كان يطلق عليهم قبل غزو الإسكندر الأكبر لمصر بمدة طويلة اللفظ اليوناني « ايجبتيوس »[1] الذي حُرِّف بعد ذلك الى لفظ قبطي.

وهـذا يقطع بأن كلمة قبطي لاعلاقة لها إطلاقاً بالنزعة الدينية، بل كان لفظها يستعمل قبل دخول المسيحية مصر وفي عهد المسيحية وبعدها.

نخرج من هذا بنتيجة هامة وهي أن الفن القبطي كان فنّـاً مصريّـاً قبل أن يكون فنّـاً دينيّـاً كما هو الرأي الشائع حتى الآن.

وبمجرد إعادة النظر في الآثار القبطية الموجودة بالمتحف القبطي، وفي باقي المتاحف المصرية، وكذلك في مختلف متاحف أوربا وأمريكا، وفي الأسباب التي استند عليها العلماء في رأيهم السابق، وفي ما قام به العلماء من حفريات — يدلنا على إنهم مخطئون فيما يذهبون إليه، فقـد خضع الفن القبطي كغيره من سائر الفنون لمؤثرات البيئة التي نشأ فيها وهذه

(١) وبقى لفظ Egypt في اللغات الاجنبية كالانجليزية والفرنسية والايطالية اسماً لمصر في الوقت الحاضر حتى اليوم

المؤثرات منها ما هو ديني ومنها ما هو دنيوي ، وهو ترجمان صادق للحياة المصرية في تلك الفترة من الزمن وما قبلها وما بعدها .

فمثلاً وجد في كثير من المقابر والمباني المدنية آثار بغيضة الى الدين المسيحي والمتدينين به ، فالمتحف القبطي زاخر بصور المراة وبأدوات الزينة من مكاحل وأمشاط وحلى السيدات من ذلك الخلاخيل والأساور المحلاة برأس الثعبان (وهي العادة الفرعونية القديمة والمنتشرة حتى الآن) وما الى الخلاخيل من العقود والخواتم التي على شكل زهرة اللوتس أو المحلاة بعلامة إيب الفرعونية (أي القلب) والحلقان الذهبية التي على شكل عنقود العنب ، والثياب المدنية المزركشة والمزخرفة بزخرفة فرعونية كالعجل المجنح أو علامة عنخ الفرعونية (أي الحياة) وهي بلا شك من آثار الحضارة المصرية الفرعونية .

كذلك ترك لنا الفن القبطي آثاراً منزلية كثيرة عليها بعض مناظر لأشخاص عراة أو لراقصين أو راقصات ، كما أن بعضها يشبه ما وجد في مقابر الفراعنة كالأواني الفخارية أو بعض الأواني المعدنية ، كالاناء الذي يشابه العلامة الفرعونية (حسى) أي ممدوح ، أو الملعقة الصدفية التي لها يد من حديد وتنتهي بشوكة وتشبه في شكلها تلك التي وجدت أخيراً في حفائر حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم بجهة حلوان وهي مصنوعة من العاج ويرجع تاريخها الى أوائل عصر وحدة مصر الأولى تحت عرش ملك واحد .

كما أن البعض الآخر من الآثار القبطية عليه مناظر نيل مصر ، من طيور ، وأسماك أو نبات البردي ، أو التمساح أو المراكب ، والنيل بلا شك قوام حياة مصر في كل عصورها ، ولا علاقة لكل هذا بالدين المسيحي لا من قريب أو بعيد .

كما أن هناك آثاراً عديدة من العصر القبطي لمصريين لم تكن المسيحية ديانتهم . وقد استوحى هذا الفريق من المصريين الذين لم يكونوا قد اعتنقوا المسيحية بعد في فنهم مؤثرات غير مسيحية ، وهذا يدل على ان الفن القبطي كان فناً مشتركاً بين المسيحيين وغير المسيحيين من المصريين .

زد على ذلك أن على كثير من المباني رسوماً حيوانية كصيد الاسد أو الغزال أو الطيور أو مناظر لبعض نباتات مصر كالنخيل واللوتس والبردي والرمان . وان أصل الكثير من

هذه الرسوم يرجع إلى مصر الفرعونية ، ويبين استمرار وحدة الفن المصري في عصوره المختلفة .

وفوق هذا عثر المنقبون على آثار قبطية هي عبارة عن أدوات زراعية كالفأس والشرشرة — ومصر بلاد زراعية — أو أدوات طبية ، كالمرود والسكين والمقبض ، أو أدوات الكيل ، والوزن ، أو أدوات الكتابة ، أو أدوات الطهي ، أو أدوات النسيج ، والكثير منها يرجع في أصله الى مصر الفرعونية .

ولا داعي للقول بأن كل هذه الأشياء لا تمت الى الدين المسيحي بأي صلة مما يؤيد الرأي الذي نقول به ، وهو أن الفن القبطي تأثر بمؤثرات دنيوية (مدنية) فوق تأثره بالمؤثرات الدينية المعروفة ، فالفن في كل عصر وفي كل بلد إنما هو ترجمان للحياة في شتى نواحيها

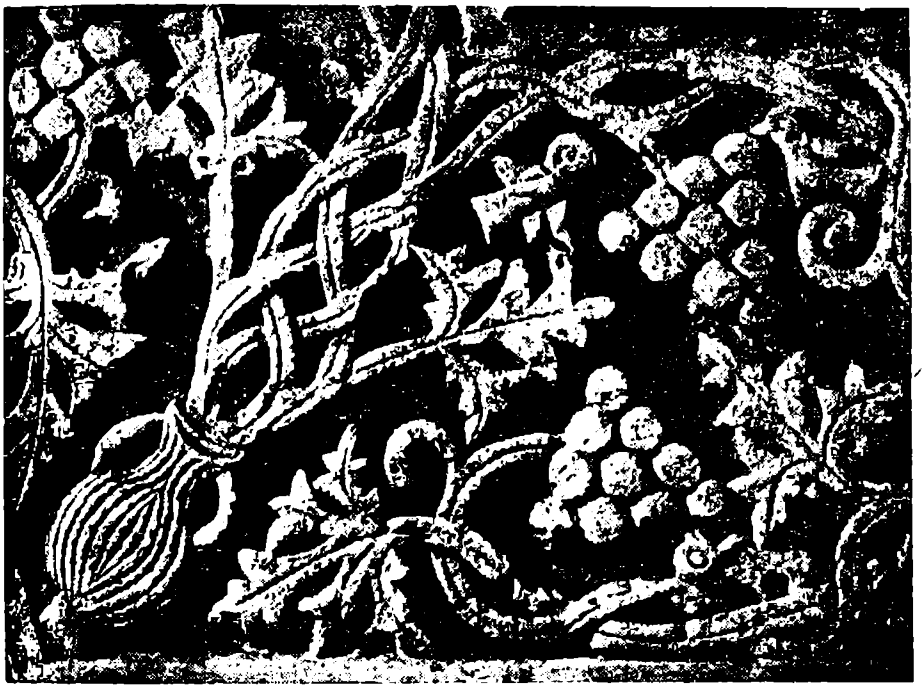
ويرجع كثير من الرسوم الجصية التي كانت تزين بها بعض المباني القبطية في أصلها الى نقوش فرعونية أو زينة فرعونية ، بل إنها كانت تصنع بنفس الطريقة الفرعونية . وكذلك كان التصوير بالألوان على لوحات المومياء يرجع الى تطور العادات المصرية الفرعونية .

وهناك كثير من الرسوم التي وجدها العلماء مرسومة على قطع من القماش تعبر في مرماها عن أشياء لا تمت للدين بصلة ما، رغم أنها رسمت بعد أن أصبحت المسيحية ديناً رسمياً للدولة الامبراطورية الرومانية التي كانت مصر في القرن الرابع الميلادي إحدى أجزائها .

ومما يقطع بصحة رأينا تلك الرسوم الكثيرة التي وجدها العلماء على جدران بعض الكنائس والأديرة التي لا علاقة لها بالدين اطلاقاً ، وإنما هي ترمز الى صور من الحياة المادية . فمثلا : ما علاقة عصفور يأكل عنباً (صورة رقم ١) أو صور أشجار وفواكه وأزهار أو صور هندسية بالدين ؟

بل من الطريف أن القبطي لم تفته روح الدعابة والمرح التي ورثها عن أجداده قدماء المصريين ، إذ ضمن رسومه حكماً وأمثالاً كانت متداولة في مصر الفرعونية، ولا زال بعضها مضرب الأمثال حتى وقتنا الحاضر . مثال ذلك: لعبة القط والفار المرسومة على جدران أحد مباني باويط .

وإذا ذهبنا مع هؤلاء العلماء مذهباً بعيداً لوجب القول بأن الفن القبطي (الفن البيزنطي في نظرهم) وجد معاصراً للعصر المسيحي بمعنى انه لم يوجد قبل هذا العصر ما يسمى فناً قبطيّاً.



صورة رقم ١ (تصوير المتحف القبطي)

ولكن اذا عرفنا أن الفنون التي نمت وازدهرت في أنحاء مصر أثناء الحكم اليوناني الروماني، أثرت في الفن اليوناني الروماني نفسه، وقد قلد اليونان والرومان في عمارتهم الكثير من أساليب العمارة الفرعونية وزخرفتها، وجب أن نخرج بنتيجة وهي أن الفن القبطي وجد قبل ظهور المسيحية بزمن طويل نستطيع تحديده نوعاً بدخول الاسكندر الأكبر مصر حوالي سنة ٣٣٢ قبل الميلاد، حتى لا نخلط بين الفن القبطي المصري والفن القبطي الفرعوني كما يجب أن نسميهما.

فقد ثبت انه كان للمصريين في العصر السابق للمسيحية فن مجيد ونهضة فنيّة رائعة رن صداها في كافة الأرجاء، وتأثرت بها سائر البلدان المجاورة.

ولا يمكننا بحال من الأحوال أن نوافق على رأي العلماء من أن الفن الذي ظهر في مصر في هذا العصر كان فنًّا يونانيًّا رومانيًّا فحسب ، أو نوافق على رأي الفريق الآخر من أن الفن الهيلينستي وهو المزيج من اليوناني المتأخر ، وفن بعض الشعوب الشرقية كفارس وسوريا وبابل هو الذي ساد في هذا العصر في مصر .

واننا لا ننكر ان الفن اليوناني الروماني أثر بدوره في الفن القبطي المصري ولكن هذه الظاهرة ظاهرة تأثير الفنون المعاصرة للفن المصري على الفن المصري نجدها في الفن الفرعوني إذ تأثر الفن الفرعوني في عصر الوحدة الثالثة بالفنون الاجنبية المعاصرة له .



٢ — صيد الأسد (تصوير المتحف القبطي)

وهذا لم يخرج الفن المصري عن صفته الفرعونية كذلك الفن القبطي لم يتأثر بالفنون المعاصرة له تأثيراً يجعلنا أن نطلق عليه « بيزنطي » .

بل كان يوجد معاصراً للفن القبطي المصري فن يوناني روماني في أرض مصر المطابقة

الحاكمة وجالياتها وهي يونانية ثم رومانية بطبيعة الحال ولا يدعو كل ذلك الى ضم هذا الفن (أقصد فنهم اليوناني الروماني) الى الفن القبطي لأن الفن اليوناني الروماني فن قائم بذاته وعلى هذا الاساس لا أضم كثير من الآثار المعروضة في المتحف القبطي الى الفن القبطي على سبيل المثال الآثار التي عليها قصة ليدا أو هيكل القنطور أما الفن القبطي العربي فقد تأثر ببعض التوجيهات التي أتى بها العرب منذ سنة ٦٤١ ميلادية .

والآن وقد سقنا هذه الأمثلة العديدة والأدلة التي بيناها نستطيع أن نؤكد بأن الفن القبطي ليس كما يقول العلماء فنًّا دينيًّا مسيحيًّا محضًا ، وانما هو فن مصري له مؤثراته وأغراضه الدنيوية ، كما أن له أغراضًا ومؤثرات دينية .

ومما يعزز قولنا هو تفرع اللغة القبطية الى لهجات منها : اللهجة البحيرية ، والصعيدية ، والأخميمية ، والفيومية ، التي تدل دلالة واضحة على التطور الاقليمي للغة المصرية القديمة .

ولم تؤثر اللغة اليونانية على القبطية الا من حيث بعض حروف الهجاء وبعض المفردات الدخيلة . وظاهرة دخول كلمات أجنبية في اللغة المصرية القديمة نجدها أيضًا في عصر وحدة مصر الثالثة وهذا لم يخرج اللغة عن صفتها المصرية .



أدوات زينة المرأة
في العصر القبطي

ذكرنا أنّ الفن القبطي قام قبل ظهور المسيحية بزمن طويل نستطيع إلى حدّ ما تحديده بعصر دخول الاسكندر الأكبر مصر حوالي سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ، حتى لا نخلط بين الفن القبطي المصري . والفن القبطي الفرعوني ، أمّا الفن القبطي العربي فيبـدأ بعد دخول العرب مصر .

ومن الخطأ أن يتصور المرء أن المصريين الأقباط لم يحفلوا بالعناية بجمال المرأة .

والجمال في المرأة ينقسم الى قسمين أساسيين :

أولاً — الجمال الحسي وهو جمال الوجه والبدن أو بعبارة أخرى الجمال الجسدي .

ثانياً — الجمال المعنوي وهو جمال الروح والعقل أو الجمال الروحي وكل منهما يبعث في نفس الرجل الإعجاب والاستحسان ، فالأول طريقه الحواس ، والثاني طريقه الشعور الباطن .

وموضوع هذا البحث يتعلق بالقسم الأول وهو الجمال الحسي وكان يرتكز على أربع دعامات أساسية لتكوين قوّة موحدة كاملة تستطيع أن تمتلك جميع الحواس .

فالدعامة الأولى : هي تزيين الوجه ، وتجميل الشعر .

والدعامة الثانية : هي تزيين الصدر .

والدعامة الثالثة : هي أدوات الزينة لليد والأصابع والقدم .

والدعامة الرابعة : هي استعمال الملابس المزركشة الالوان .

فللمرأة القبطية بالجمال غرام فكيف كانت تتجمل . وما هي الأشياء التي تزين بها وجهها وبدنها أو ما هي أدوات زينة المرأة في العصر القبطي ؟

فكرت المرأة القبطية في تزيين وجهها فاستعملت « الأثمد » الكحل لعينيها وغرام

القبطيات بالكحل يدل عليه ذلك العدد الوفير من المكاحل ، فعلى سبيل المثال مكحلة رقم ٥٨٤٣ بالمتحف القبطي وهي على شكل عمود ومصنوعة من البرنز أو مكحلة رقم ٥٨٥٤ بالمتحف القبطي وهي على شكل إناء صغير ومصنوعة من الزجاج ويرجع تاريخهما الى القرن الرابع الميلادي .

ومع بعد هذا العصر لا زال الى يومنا هذا تستعمل بعض القرويات المصريات هذه المكاحل بعينها .

كذلك استعملت المرأة القبطية الأمشاط ودبابيس الشعر لتجميل الشعر فعلى سبيل المثال مشط رقم ٥٦٦١ بالمتحف القبطي المصنوع من العاج ومنقوش عليه صورة بديعة تمثل حسناء متكأة على سرير تحته كلب وبجانب السرير خادمة تحمل طفلاً ، ولا يمكن لعقل رجيح الحكم بأن هذا المشط وما عليه من نقش يشير إلى شيء من الدين مطلقاً مع أن تاريخه يرجع الى القرن الرابع الميلادي أي بعد المسيحية بما يقرب من أربع قرون . ثم لدينا مشط آخر رقم ٥٦٥٥ بالمتحف القبطي يرجع تاريخه الى القرن الرابع الميلادي ومصنوع من العاج أيضاً ومنقوش عليه رسم يمثل وقوف السيد المسيح على قبر اليعازر . فهنا الصورة دينية ولكنها وضعت على مشط والمشط ليس من الدين بشيء ، وإنما من أدوات الزينة الدنيوية . ورغماً من أن هذا المشط وسابقه من أواخر القرن الرابع للميلاد إلا أنهما يشبهان كل الشبه أمشاط عصور مصر الفرعونية ، بل ومشط اليوم المعروف عند العامة « الفلاَّية »

وكذلك عثر المنقبون على أقراط تعلق في الأذن بعضها على شكل مستدير أو بيضاوي إلى غير ذلك من مختلف الأشكال ، ويتدلى من بعضها سلاسل على شكل حبات من الخرز ، وقد وجد منها الأستاذ احمد فخري في حفائر مصلحة الآثار المصرية جهة الواحات البحرية ، أقراط على شكل عنقود عنب ومؤرخة في القرن الرابع الميلادي ومصنوعة من الذهب .

فلم يتخذ بعض العلماء من عنقود العنب في الفن القبطي دليلاً أو برهاناً على المسيحية في الفن ، حقاً قال المسيح « أنا الكرمة الحقيقية وأبي الكرام » وشبه المؤمنين بالأغصان ومارس العشاء السري (الأفخارستيا) بعصير العنب ، وضرب مثل الكرم والكرامين ولكن معروف أن الله ضرب مثلاً كهذا لشعب اسرائيل قديماً (سفر أشعياء : الاصحاح ٥) فباله

عليكم قولوا أية علاقة توجد بين قرط تزدان به الأذن وبين المسيحية ، وقد وجد مثل هذا الرسم في أقراط من عهد الفراعنة أي قبل المسيحية بآلاف من السنين ، أليس العنب كثيراً في بلادنا في العصور الفرعونية والقبطية والعربية والحاضرة ، ومن أبدع الزخارف شكلاً ؟!

ونحن إذا مررنا بحجرات المتحف القبطي رقم ١٣ ، ١٥ لوجدنا مجموعات مختلفة من أدوات زينة الصدر كالعقود على أشكال متنوعة ومصنوعة من مختلف المعادن والأحجار ومنها ما يشابه عقود مصر الفرعونية من بعض نواحي الشكل .

هذا من جهة الدعامة الأولى والثانية. أما الدعامة الثالثة وهي أدوات الزينة لليد والأصابع والقدم أي الأساور والخواتم والخلاخيل الى غير ذلك فقد وجدت مجموعات متعددة بعضها من ذهب أو فضة، وغيرها من عاج أو عظم الى غير ذلك من مختلف الأنواع والأشكال وهي لا تخالف ما يماثلها من آثار العصر الفرعوني وما يماثلها من أدوات زينة العصر الحاضر في شيء يذكر .

والدعامة الأخيرة فيكفي ما يلاحظ من زركشة في الملابس المعروضة بالمتحف القبطي . وبعض نقوش مرسومة على الصناديق المصنوعة من العاج الملون في حجرة رقم ١٣ بالمتحف القبطي لسيدات أنيقات تمسك إحداهن مرآة في يدها .

أضف الى تلك الدعامات أوانٍ كثيرة للمواد العطرية موجودة بالمتحف القبطي ويرجع تاريخها الى القرنين الخامس والسادس . مما تقدم يستنتج أن الزينة الجسدية وأدواتها بأشكالها المختلفة وأنواعها المتعددة هي لمحض الجسد ولا علاقة لها بالدين وفي هذا دليل قاطع على أن الفن القبطي ليس خلواً من الأثر الدنيوي .



الفصل الخامس

بحوث أدبية

١ – روائع الأدب المصري القديم

٢ – اللغة القبطية

روائع الأدب
المصري القديم

المصريون من أقدم أمم الارض عراقة في المجد ورسوخاً في المدنية . فقـد استوطنوا وادي النيل قبل ميلاد المسيح بما لا يقل عن ثمانية آلاف سنة تقريباً ، وأقاموا الحضارة العظيمة التي بهرت أنظار العالم القديم وظلت مزدهرة حقباً طويلة من الزمن .

وان آثارها الباقية حتى اليوم من أقدم المخلفات التي تركهـا الانسان الأول وليس من شك في أن المصري القـديم قد صاغ تراثه الفـكري في المؤلفات الادبيـة بأسلوب جميـل لا يدانيه ما ورثه أي شعب آخر من أسلافه .

ومن المؤلفـات الأدبية الفرعونيـة ما يتصل بالآداب الدينية ، ومنها ما يتصل بالآداب الدنيوية . وسأقصر كلامي على دراسة الآداب الدنيوية في عصور وحدة مصر الزاهرة وعلى بعض عصور تفكك الوحدة .

كانت الآداب الدنيوية في عصور وحـدة مصر الزاهرة تقوم إما على نوع من الأدب العلمي الذي وصل إلينا في شكل حكم أو أمثال ، وإما على نوع آخر يعرف بالغزل ، وإما على نوع ثالث يعرف بالأدب القصصي .

فمن أنواع الأدب العـلمي الذي وصل إلينا كالحـكم والأمثال تعاليم الوزير بتاح حتب والوزير كاجمني من عصر الوحـدة الأولى ، وكتعاليم آني وإمن — إم — اوبي من عصر الوحدة الثالثة . وأما من عصر الوحدة الثانية فلدينا حكم وتعاليم من الملك امنمحات الأول لولي عهده سنوسرت .

وهي كلها تعاليم موجهـة للشباب في قالب نصائح إلى أبناء الـكتّـاب السابقي الذكر ، لتقويم أخلاقهم ودعوتهم للفضيلة وعمل الخير وحسن السلوك . وهاك مقتطفات من روائع تلك التعاليم : —

أولاً — التمسك بالصدق

« إذا كنت قائداً آمراً فاسع وراء كل كمال حتى لا يكون نقص في طبيعتك فإن الصدق جميل وقيمته خالدة — بتاح حتب »

« إن السكين ترهف لمن يحيد عن الصدق — كاجني » .

« قل الحق أمام القاضي — إمن — إم — اوبي »

ثانياً — أدب السلوك في الضيافة

« إذا هيىء لك الجلوس على مائدة من هو أكبر منك مقاماً فخذ ما يقدم لك مما هو أمامك ولا تنظرن الى ما وضع أمامه ، بل انظر الى ما وضع أمامك — بتاح حتب »

« إذا جلست مع أناس كثيرين فانظر الى الطعام في غير شره أو اهتمام حتى وان كنت تشتهيه، فان ضبط النفس لا يكلف الانسان أكثر من لحظة، وانه لمن العار أن يكون الانسان شرهاً فقدح ماء يروي الغلة — كاجني »

ثالثاً — التحذير من النساء

« إذا أردت ان تحتفظ بالصداقة لسيد أو أخ أو صاحب دخلت داره فاحذر الدنو من النساء فالآلاف من الرجال ذهبوا ضحيتها — بتاح حتب »

« هل حدث أن النساء اصطففن في ميدان الحرب ؟ — امنمحات »

« خذ حذرك من المرأة الاجنبيــة تلك التي ليست معروفة في بلدتها ولا تغمزن لها بعينك — آني »

رابعاً — الحث على الزواج

« هيىء لنفسك داراً واحبب زوجتك واجلب لها الطعام واستر ظهرها وقدم لها العطور وابعث السرور في قلبها طيلة حياتك فهي حقل نافع لزوجها — بتاح حتب »

« اتخذ لنفسك زوجة وأنت لا تزال شاباً لتنجب لك ولداً ، ويجب ان تنجبه لك وأنت لا تزال صغير السن . فما أسعد الرجل الكثير النسل ، فانه يحترم بحسب أولاده — آني »

خامساً — التحرّي عن أخلاق الأصدقاء

« إذا كنت تبحث عن أخلاق من تريد مصاحبته فلا تسأله ولكن اقترب منه وكن معه وامتحن قلبه بالحادثة ، فإذا أفشى شيئاً قد رآه أو أتى أمراً يجعلك تخجل له فاحذر عندئذٍ حتى من أن تجيبه — بتاح حتب » .

سادساً — الولاء للعرش

« إن الولد النجيب يقيم الحق وسيكون الملك مرتاحاً لك في كل ما يجري فقد بلغت العاشرة بعد المائة وحباني الملك بمكافأة تفوق كل مكافآت الأجداد لأني أقمت العدل للملك — بتاح حتب » .

سابعاً — سلوك الرئيس نحو مرءوسيه

« خذ الحذر من مرءوسيك ولا تثقنّ بأخ ولا تصطفينّ لك خلاناً لأنّ ذلك لا فائدة منه وعند ما تكون نائماً كن الحارس لنفسك — امنمحات » .

ومما خلفته مصر غير الأدب العلمي الذي يبين مقدار تقدم التفكير البشري في هذه العصور السحيقة وما يقوم به من جهد في الفكر بجانب غزارة المادة العلمية فإننا نجد نوعاً آخر من الأدب يعرف بالغزل وقد رأينا عند الكلام على الموسيقى كيف أن الشاعر يصف في خياله الرائع انه كان مريضاً وعند ما استدعي الطبيب لعيادته جاءت حبيبته فزجرت الطبيب لأنها أعلم بداء حبيبها ودوائه .

هذا فضلاً عن نوع ثالث من الأدب يعرف بالأدب القصصي يمتاز بالوصف والخيال وتصوير البلاد النائية كسوريا وبلاد البنت (الصومال) التي قام الكتّاب برحلاتهم إليها . وهاك مقتطفات من هذا الأدب على سبيل المثال لا الحصر :

﴿ قصة الغريق ﴾ — يرجع تاريخها الى عصر الوحدة الثانية ، أراد كاتب هذه القصة أن يصوّر البلاد النائية التي كان يرتحل اليها وما فيها من عجائب فيقص انه كان مسافراً على ظهر سفينة إلى بعض الأصقاع الغنية بمعادنها ليؤدي رسالة ملكية، وحدث أن هبت عاصفة حطمت السفينة وغرقت بمن فيها ولم ينج إلا كاتب القصة بعد أن لاقى من الأهوال في بادىء أمره

ما لاقى حتى حملته الأمواج الى جزيرة فيها من عجائب المخلوقات ثعبان كبير له رأس إنسان .

ثمّ ذكر على لسان ذلك الثعبان أنه أخذ يقص له مجازفة حدثت له وتشبه مجازفة كاتب هذه القصة بعد ان استقبله أحسن استقبال ويقول أنّ سفينة مصرية مرت بالجزيرة وحملته إلى أرض الوطن بخير وسلام .

وبخلاف المظاهر التي امتاز بها الأدب في عصور الوحدة من حكم وأمثال إلى غزل وقصص ، نلاحظ أنّ نجاح سياسة ملوك عصور وحدة مصر ، ووحدة وادي النيل لم يؤثر فحسب في حياة البلاد الاقتصادية وزيادة الرخاء ، بل نجد نصوصاً أدبية تتحدث عن ورود الكثير من الخيرات .

ويرجع الفضل في هذا النجاح إلى عناية الملوك بشؤون الدولة وإسناد الوظائف والمراكز الهامة الى أشخاص يتمتعون بثقتهم إلى جانب كفاءتهم الممتازة . ومنهم من يتحدث فيشير إلى أنه كان صديق الملك فاستطاع أن يقوم بالمهام الموكولة إليه على الوجه الأكمل .

وطبيعي أن تبلغ البلاد أوج مجدها في عهود الوحدة بفضل التفاف الشعب حول مليك الوادي ملك مصر،وبفضل جيل الموظفين الذي عمل ملوك الوحدة على تنشئته ليلتف حول عرشهم وليكون لهم نصيراً،فنرى هؤلاء الموظفين حريصين على بث روح الطاعة والمحبة لمليكهم بين ذويهم فيسردون لهم ما أنعم به عليهم فرعون مصر من تقدير ، بل ويشبهون عطفه عليهم بعطف الوالدين،وأكثر من ذلك فقد شبّهوه بالإله على الأرض .

وبينما نرى النصوص الأدبية السالفة الذكر تبين لنا أن قوّة الوطن تكون على أتمها حين يلتفّ شعب الوادي حول عرش ملك مصر . رمز الوحدة والاتحاد ، والقوة والضمان الأول والأخير لكل مواطن وهو السبيل الى نيل المطالب وبلوغ الآمال،نرى نصوص عصر تفكك الوحدة تبين لنا أن هناك فوضى عامة امتدت الى كل نواحي الحياة المصرية كما أنّ نصوصاً أخرى من عصر تفكك الوحدة تبين ضياع هيبة مصر في الأقطار الاخرى فليس أدلّ على ما كانت تعانيه مصر في عصر تفكك الوحدة الاولى من فوضى من أن الآثار الأدبية التي أنتجها هذا العصر كانت صدى لتلك الفوضى فتحوي الكثير من الأفكار التي تتمخض عنها عادةً الثورات الاجتماعية والسياسية،ولنذكر مثالاً على ذلك نرى منه مناقشة بين رجل كره

الحياة وبين روحه وهي مكتوبة على بردية محفوظة الآن بمتحف برلين. وقد صور فيها كاتبها رجلاً يائساً مثقلاً بهموم عصره لم يجد غير روحه يشكو اليها مصابه ، فأظهر لها رغبته في أن يضع حدًا لحياته بأن يحرق نفسه. وقد ألحت روحه في أن يخاطر هذه المخاطرة ولكنها امتنعت عن مرافقته في الانتحار لأنها خشيت أن يسوء مصيرها مع شخص فقير مثله لا قبر يأويه ، ولا خلف يقدمون له القرابين فتكون النتيجة أنها تصبح مهددة بالجوع والبرد والحر ، ولكن بعد محاولات نجح الرجل في النهاية وأقنع روحه بالاندماج معه عند الموت ثم أحرق نفسه ومات .

وهناك نصوص وصلت الينا في أناشيد شعرية [١] منها : —

« الى من أتكلم اليوم ، الاخوان شر وأصدقاء اليوم ليسوا محبين

« الى من أتكلم اليوم ، الناس يسرقون وكل انسان يغتصب متاع غيره

« الى من أتكلم اليوم ، اني مثقل بالهموم وفي حاجة إلى صديق وفيّ

« إلى من أتكلم ، الرذيلة تضرب الأرض وليس لها نهاية »

وهناك نصوص معروفة بأغاني العواد منها : —

« امض اليوم في سعادة وحبور ، وانظر فلا أحد يستطيع أن يأخذ متاعه معه ، وانظر فليس من يستطيع العودة للحياة ثانية » .

فهذه الجملة الصغيرة تدلنا على ما تطرق الى المصريين من الشك في تقاليدهم وعقائدهم وحتى في عقيدة الخلود ، كما تدلنا على اتجاه المصري الى التمتع بالحياة المادية .

فبينما كانت النصوص السابقة تبين لنا الفوضى التي امتدت الى كل نواحي الحياة المصرية في عصر تفكك الوحدة الاولى ، نجد أن قصة ونآمون تبين ضياع هيبة مصر في الاقطار الأخرى في عصر تفكك الوحدة الثالثة بعد أن كانت مصر متمتعة بسلطان واسع في عصور الوحدة بين أمم الشرق القديم .

---

(١) يمتاز الشعر بأوزان خاصة .

اللغة القبطية

نشأتها وتطورها

قبل أن نتحدث عن اللغة القبطية — نشأتها وتطورها — يجدر بنا أن نعرض لهذا اللفظ ومدلوله وأصله واشتقاقه لأن البحث عن أصل الكلمة يميط اللثام عن معالم كثيرة تنير الطريق للباحث وتبعده عن الوقوع في الخطأ . فلفظ (قبطي) نسبة الى (قبط) . وهنا نرى ياء النسبة العربية . أما كلمة (قبط) فهي تحريف للفظ اليوناني والروماني الذي أطلقه اليونانيون والرومانيون من بعدهم على مصر والمصريين بعد حذف السابق (أي) واللاحق (وس) وبقيت كلمة — جبط — بالجيم المعطشة التي تنطق عادة (ق) ، لذلك كتبت الكلمة بها أي (قبط) بمعنى مصري . ولا شك في أن يونانية هذا اللفظ الخاص بمصر وشعبها لدلالة قوية على العلاقات القديمة التي كانت قائمة بين مصر واليونان ، فالتاريخ يحدثنا، والآثار تؤيده ، على ان العلاقات اليونانية المصرية بدأت في أوائل الدولة الحديثة أي في عصر الوحدة الثالثة (١٥٨٠ — ١٠٨٥) ق . م . وذلك ان بعض الفراعنة استعان بالجنود اليونانيين المرتزقين في بعض حروبهم .

وأخذت هذه الصلة تنمو تدريجيًا حتى إننا نجدها تجارية في العصر الذي سبق حكم الفرس لمصر . وبعد دخول قمبيز عاهل الفرس البلاد نزح كثير من التجار اليونانيين وتبعهم عدد عظيم من علماء اليونان ومفكريهم الذين عنوا بدراسة تاريخ مصر وآثارها ودينها وأخلاق أهلها ، نذكر منهم هيرودوت المؤرخ وأفلاطون الفيلسوف وهوميروس الشاعر وارفيوس الموسيقي وغيرهم. وهكذا أصبحت مصر كعبة القصاد من بلاد اليونان المختلفة من تجار وعلماء وجنود حتى ان (بسماتيك الأول) مؤسس الأسرة السادسة والعشرين وأول ملك من ملوك مصر الوحدة الرابعة منح الجالية اليونانية جزاء المساعدة التي قدمها له جنود

اليونان بعض الاجزاء من البلاد لتكون خاصة بهم وبأسراتهم من بعدهم، كالحيّ الخاص باليونانيين في بلدة منف وفي بلدة دفنة . ثم في عصر الملك أحمس الثاني خصصت لهم مدينة (نوقراتيس) وموقعها الحالي بالقرب من صفط الملوك .

لذلك لا نعجب أن نرى بعد ذلك شعب مصر يرحب بقدوم الاسكندر ويرسم كهنة آمون له ابناً لكبير آلهتهم آمون ومنحه سائر الألقاب الفرعونية الخمسة . توفى الاسكندر وورثه البطالمة فأخذت الصلة بين مصر واليونان تقوى حتى صارت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية الى جانب القبطية .

وقد بقيت كذلك حتى دخول العرب مصر وتعدّت العلاقات الثقافية الى السياسة إذ أصبحت مصر تحت حكم اليونان مدة طويلة (٣٣٢ ق . م . الى ٣٠ ق . م .) . وكانت هذه المدة الطويلة كافية لتوثيق العلاقات بين الشعبين المصري واليوناني ، وكافية أيضاً لأن يلمس المصريون الفرق بين الكتابتين اليونانية والمصرية القديمة متمثلة في الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية ، فبينما الكتابة اليونانية ، وان كانت من أصل مصري ، تتطور وتصبح أكثر ملاءمة للحياة في ذلك الوقت، إذ بالمصرية تبقى محافظة على صورها وأشكالها القديمة المختلفة . لذلك شعر المصريون بالحاجة القصوى الى وجوب العدول عن الكتابة المصرية القديمة الى الأبجدية اليونانية التي كان المصريون قد أخذوا في استعمالها بخاصة في كتابة أسماء الأعلام . ثم قاد هذه الحركة فيما بعد العالم الاسكندري (بونثينوس) وتلاميذه المصريون حوالي أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني للميلاد. فقد نقحوا الاملاء القبطي وكتبوا اللغة في الأبجدية اليونانية البالغ عدد حروفها أربعة وعشرين ، وأضافوا اليها سبعة حروف وهي (شاي وفاي وخاي وهوري وجنجا وكشيما وتي) أخذت من الديموطيقية لعدم وجود أصواتها في اليونانية . ثم أضافوا حرفاً آخر وهو (سو) الذي يستعمل للدلالة على العدد « ٦ » كما هو الحال في اليونانية . ومن حسن الحظ أن حفظ لنا التاريخ بعض الكتابات القبطية القديمة التي ترجع الى العهد الذي لم يكن قد اعترف فيه بعد بالمسيحية ديناً رسميًّا للدولة بالرغم من دخول المسيحية البلاد أيام حكم نيرون على يد القديس مرقس عام ٥٤ م

ومن أشهر هذه الكتابات البردية التي طبعها العلامة (جريفث) [١] والنص المحفوظ بمتحف اللوفر ونشره (ارمان) [٢] فهذان النصان يعالجان أموراً تتصل بالسحر والفلك لا علاقة لها بالمسيحية بتاتاً . ففي البردية الأولى نجد ذكراً لنجم السعد ، وآخر لنجم النحس ، كما يوجد في النصين دعاء الى اوزيريس إلّه الموتى ، وانوبيس إلّه الجبانة ورع وايزيس . وغير هذه الكتابات عثر في اخميم على بطاقات للمومياء يرجع تاريخها الى القرن الثاني الميلادي وبعضها مؤرخ بالعام الرابع من حكم الامبراطور هدريان وقد نشرها (هتيندورف) [٣] . وكلما تقدم بنا العهد نجد المسيحية تتثبت في مصر فتنهزم أمامها الوثنية ويضطر الامبراطور قسطنطين الى الاعتراف بها ديناً رسمياً له وللدولة حوالي عام ٣٢٥ م . وحوّل خلفه بعض المعابد المصرية القديمة الى كنائس ، كما أغلق الباقي منها . ثم جاء الامبراطور (جوستنيان) فأرسل قائده (نرسيس) الى جزيرة الفيلة حيث قضى على البقية الباقية من عبادة ايزيس وأوزوريس . وهكذا نرى المسيحية تعزز بعد أن قدمت من ابنائها الشهداء الكثيرين أيام حكم (دوقلسيان) حوالي عام ٢٨٤ م . فأصبحت مصر بعد ذلك معقلاً للمسيحية ووطناً للديورة والرهبنة ، واستطاع الأقباط أن يخلقوا فناً قبطياً متأثراً باليوناني حيناً وبالفرعوني حيناً آخر .

* * *

أما اللغة القبطية وآدابها فقد استمرت حية حتى القرن العاشر الميلادي بدليل أننا نجد الأسقف ساويرس بن المقفع يقول ما معناه إن القلم العربي عرف عند أهل الديار المصرية كما اننا نعرف من جهة أخرى أن كثيراً من العرب عرفوا اللغة القبطية حتى نجد في أوائل الحكم العربي لغة الدواوين القبطية أو اليونانية . وظلت اللغة القبطية اللغة الرسمية لمصر حتى

(١) F. L. L. Griffith, The old Coptic Horoscope of the Stobar Collection, Aeg. Z. 38, pp. 71—85

(٢) A. Erman, Die aeg. Beschwoerungen des grossen Pariser Zauberpapyrus, Aeg. Z 1883, p. 89

(٣) Steindorff, Aeg. Z. 1890. p. 49 : Die Mumien Etiketten

عهد عبد الله أخ الوليد بن عبد الملك بن مروان . الذي أحلّ العربيـة محلها سنة ٧١٤ م . ولما كانت سنة ٩٩٧ م قام الحاكم بأمر الله بن عبد العزيز أحد ملوك الفاطميين وأمر بإبطالها لغةً حية . واللغـة القبطية كغيرها من اللغات تنقسم الى لهجات . وقد ظهر ذلك جليًّا عند استخدام الأبجدية اليونانيـة لاستخدام الحروف الصائتـة الى جانب الصامتة (المتحركة والساكنة) بخلاف الجاري في اللغات السامية التي تكتفي بالحروف الصامتة فقط . ونحن نستطيع أن نفرق بين خمس لهجات في القبطية ولا نستطيع أن نجزم بوجود أكثر من لهجتين في العصر الفرعوني . وأشهر اللهجات القبطية هي :

أولاً — البحيرية التي كانت أصلاً لهجة الاسكندرية عاصمة مصر الرسمية ، أيام اليونان والرومان ، وما جاورها في الوجه البحري . ومما زاد في انتشار هذه اللهجة انتقال بطاركة الاسكندرية الى (بابلون) أي الفسطاط أو مصر القديمة ، ثم الى القاهرة واستخدامهم اللهجة البحرية كلغة رسمية للـكنيسة . وما تزال هذه اللهجة مستعملة الى اليوم فقط في العبادات في الـكنائس الأرثوذكسية وبين قليل من الأمر ، ويلاحظ أنهـا أكثر اللهجات تأثراً بالمفردات اليونانية لقربها من مواطن الثقافة اليونانية .

وإننا لا ننكر ان هناك بعض كلمات دخيلة يونانية في اللغة القبطية ولـكن هذه الظاهرة ظاهرة دخول كلمات أجنبية في اللغة المصرية القديمة نجدها في عصر وحدة مصر الثالثة . فبعد غزوة الهيكسوس لمصر دخلت كلمات كنعانية كثيرة في اللغة المصرية القديمة وهذا لم يخرج اللغة عن صفتها المصرية .

ثانياً — اللهجة الصعيدية وهي لغة أهل طيبة (الأقصر) ومعظم سكان الصعيد الأعلى

ثالثاً — اللهجة الأخميمية وهي خاصـة بأهل اخميم وأقرب اللهجات الى المصرية القديمة وأبعدها تأثراً بمفردات اللغة اليونانية . وذلك لبعدها عن الأوساط الأجنبية .

رابعاً — اللهجة الفيومية وهي لغة سكان الفيوم وما جاورها من البلدان .

***

هذه نظرة عاجلة عرضت فيها للغة القبطية نشأتها وتطورها كما بينت أن لفظ «قبطي» هو اسمٌ يطلق على أبناء مصر مسيحييها ومسلميها .

ونذكر هنا حقيقة يجهلها بعض العلماء إذ يظنون أن آداب اللغة القبطية دينية محضة . والواقع غير ذلك ، فهي الى جانب ما حفلت به هذه الآداب من سِيَر القديسين والبطاركة والأناجيل لم تقف عند الجانب الديني فحسب بل تناولت الجانب الدنيوي .

فهناك نصوص تتعلق بالتاريخ وبالقانون كعقود البيع أو الميراث وبالرسائل والصكوك وما يختص منها بالضرائب أو التجارة ، كما ان هناك نصوصاً دنيوية أخرى تتصل بالفلك والسحر والطب (١)

وهنا أرى أن من الصواب تسمية اللغة القبطية باللغة المصرية القديمة في آخر مرحلة من مراحل تطوُّرها وإن كانت مكتوبة بالخط القبطي الذي هو مزيج من الأبجدية اليونانية والديموتيكية ، فأمامنا مثلٌ في العصر الحديث هو أن اللغة التركية في حالتها الاولى وهي كتابتها بالحروف العربية ، والثانية وهي كتابتها بالحروف اللاتينية لم يمنع ذلك من إطلاق اسم التركية عليها .

(١) نجد أيضاً أصول اللغة القبطية متشعبة من العصر الفرعوني فثات من المفردات القبطية التي يستعملها المصري في التعبير عن حاجة الفرد في حياته اليومية من مأكل وملبس ومشرب وما الى ذلك من مرافق الحياة في الزراعة وغيرها ترجع أصولها الى اللغة الفرعونية المصرية، كما ان أصول نحو اللغة القبطية كأدوات التذكير والتأنيث والضمائر ترجع الى نحو وأجرومية اللغة المصرية الفرعونية

الفهرست

أهم المراجع العربية

اسماعيل مظهر — بداءة عصر البطالمة — ١٩٣٨

اقلاديوس بك لبيب — قاموس اللغة القبطية

» » — مجلة عين شمس

سليم بك حسن — مصر القديمة ١٩٤٠

» » — الأدب المصري القديم ١٩٤٥

زكي علي — الاسكندرية (مجلة كليـة الآداب بجامعـة فاروق الأول سنة ١٩٤٥ صحيفة ١١٨ وما بعدها)

الدكتور حسن كمال — كتاب تاريخ مصر (ترجمة لـكتاب جيمس هنري برستد)

محمود بك حمزه — دليل المتحف المصري — ١٩٣٥

مريت بك غالي — دليل معرض الآثار القبطية ١٩٤٤

مرقس باشا سميكه — دليل المتحف القبطي

الدكتور محمد عبد المنعم بدر — القانون الروماني سنة ١٩٤٧

عبد القادر باشا حمزه — على هامش التاريخ المصري القديم سنة ١٩٤٠

عبد العزيز عبد الرحمن — تاريخ الطب والصيدلة — ١٩٣٩

دكتور نصحي ابراهيم — تاريخ مصر في عصر البطالمة ١٩٤٦

أهم المراجع الاجنبية

Agyptisches Wörterbuch

Agyptische Inschriften aus den königlichen Museen zu Berlin

A. Z. - Zeitschrift für ägyptische Sprache und Altertumskundhe, herausgegbene von G. Steindorff und W. Wolf, bis 1939

Annales du Service des Antiquités de l'Egypte

Anthes, R., Ein bisher unbekanntes Exemplar der Dienstordnung des Wesieres in Mélanges Maspro I S. 155

Breasted, J. H. A History of Egypt., New York 1908 (Ubersetzt von H. Ranke "Geschichte Agybtens, 1937)

Ancient Records of Egypt, 5 Bde. Chicago 1927 (abgekürzt) Anc. Rec.

Bonnet, H., Die Waffen des alten Orients, Leipzig 1926.
Drioton, Et. et., J Vandier, Les Peuples de l'Orient Méditerranéen
Griffith, The Abydos Decree of Seti I at Nauri
Gauthier, Les Nomes d'Egypfe, Nem. Inst. 25
Hanotaux, Hist. de la Nation Egyptienne
Kuentz, Ch. La Bataille de Qadech
Legrain, G. Au Pylone d'Armhabi à Karnak Recherches Geneologyques, in Rec. 31,201
Lepsius, R. Denkmäler aus Ag. u. Aethiopien (abgek. L. D.)
Lefebvre, G. Inscriptions concernant les Grande Pretres D'Amon Rome-roy et Amenhotep
Histoire des Grands Pretre d'Amon de Karnak
Linke, A. Correspondenzen aus der Zeit d. Ramessiden.
Mariette, A., Monnmente Divers
Maspero, Histoire
Moret Histoire de l'Egypte Pharaonique
الجزء الثاني من مجموعة Hanotaux التي طبعت تحت رعاية المغفور له جلالة الملك فؤاد الاول
Meyer, Ed. Geschichte
Müller, Max, Der Bündnisvertrag Ramses' II
Newberry, The Life of Rekhmara
Naville u. Hall, The XI. Dyn. Temple at Deir-et-Bahary
Otto, W., Priester und Templ in Hellenistischen Agypten
Baton, D., Early Egyptian Record of Travel
Scharff, A., (1) Ein Denkstein des Vezirs Rahotep
(2) Haremhabi, in Brunton, Great ones
(3) Ein Rechnungsbueh d. königl. Hofes
(4) Handbuch der Archälogie
(5) Agyptologische Forsehungen
Seidl, E., Rechtsgeschichte, übersetzungen und Abhandlungen zum vorptolemäisehen Rechte Agyptens in Kritische Virttllhahresschrift fur Gesetzgebung und Rechtswiss.
Sethe, K., Der angebliche Bericht im Haremhabs Verheiratung in seiner Thronbesteigungsinschrift, in Ae. Z. 44 S. 35
Die angebliche Rebellion des Hohenpriesters Amenhotp unter Ramse IX.
Untersuchnngen z. Geschichte u. Altertumskunde Agyptens
Die Prinzenliste von Medinet Habu
Sethos I. and die Erneuerung d. Hundssterr periode in Ae. Z 66 S. 1
Der Denkstein mit dem Datum des Jahres 400 der Aera von Tanis
Urkunden der 18. Dynastie
Die Berufung eines Hohenpriester des Amon unter Ramses II. I. A Z. 44, S. 30
Einsetzung des Vezirs
Zaki y. Saad, Royal Excavations at Saqqara and Helwan 1947

نظرية النسبية

«لألبرت أنشتين»

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر

١٩٢٩

تصدير

بقلم الاستاذ العلامة نقولا الحداد

مؤلف كتاب هندسة الكون حسب ناموس النسبية

لعهد العلاّمة العظيم السير اسحق نيوتن كانت العلوم الطبيعية تُعَدُّ فلسفةً . وقد قُسِمَ لنيوتن أن يبرع فيها براعة فائقة لتعمقه في فلسفة النور والحرارة وفلسفة القوة والحركة وتوسعه فيهما . وله فيهما ثلاثة كتب سميت principia أي المبادىء . وكانت هذه العلوم الطبيعية حتى آخر القرن الغابر تسمى « الفلسفة الطبيعية » Natural Philosophy . ولكن العلماء الذين رأوا أن هذه العلوم تستند الى الاختبار الحسي والامتحان والتجربة ، خلافاً للفلسفة التي تستند إلى التعليل العقلي المنطقي رأوا أن يفصلوها عن الفلسفة فسموها « طبيعيات » physics أي علم الطبيعة أو الطبيعيات . وما لبثت أن جاءت نظرية النسبية للعلاّمة العظيم البرت اينشتين . فوقف العلماء حائرين لا يدرون أيحسبون النسبية فلسفةً أم علماً طبيعيّاً ؟ لأنها وقفت بين الجانبين .

مدار العلوم الطبيعية المادّة والطاقة بجميع معانيهما . ومدار الفلسفة الوجود المطلق كما يمكن أن يفهمه العقل . ولكن مدار النسبية حركة الوجود المادي (حركة المادة لا المادة نفسها) فهي من الجهة الواحدة قائمة في العالم المادي المتحرك ، ومن الجهة الأخرى خائضة في تفسير حركة الوجود .

والأستاذ النبيه محمد عبد الرحمن مرحبا (الذي لا يزال طالباً في قسم الفلسفة بكلية الآداب) ناقش النظرية في هذا المجال المتوسط ناقشها كفلسفة علمية أو كعلم فلسفي . وقد

أصاب صميمها واستلّ لبابها . ولا غرو ففيما هو يدرس الفلسفة يسوقه التفكير الى التفلسف في كل ما يبحث فيه .

وقد سرّني بأن أطلعني على كتابه هذا قبل الطبع (بوصفي قد أصدرت كتاباً ضافياً عن النسبية بعنوان « هندسة الكون حسب ناموس النسبية ») وطلب اليّ أن أقدم كتابه للقراء بتصدير يوجز عقد الموضوع ووعورة مسلكه . فأشكر له هذه الثقة الغالية وأعترف له أني لست الشخص الثقة الذي يعتمد على رأيه أو يؤخذ بقوله . على أني ألبي رغبته بقدر ما تسنّى لي أن أفهم النسبية .

الموضوع كما يعلم القراء عويص جدّاً يقتضي قوة تصور فائقة ، ولا سيما من الناحية الفلسفية . ولذلك أعجبتُ بجرأة هذا الطالب النابغة في تصدّيه للبحث فيه . ولما اطلعت على مؤلَّفهِ وجدته قد أجاد وأصاب . فأهنّئه بنجاحه .

ربما كان من أسباب عَوَصِ النسبية أن المؤلفين الذين عبّروا عن النقط العويصة فيها أو الغريبة منها زادوها غرابة في أساليب تعبيرهم إذ جنّبوها أساليب التعبير العلمي المألوف حتى جعلوا القارىء يتوهم أن النسبية فوق أفهامهم ، كقضية الابعاد الأربعة، وعجز هندسة اقليدس عن ايضاح ما فيها من الغامضات المناقضة للبديهيات الرياضية الى غير ذلك من المستغربات من النظريات المخالفة للمألوف ولبعض حقائق العلم الطبيعي ومقرّراته الرياضية .

وأول مستغربات النسبية إن الجسم المتحرك يتقلّص وهو في اتجاه حركته بنسبة سرعته . وقد بني هذا القول على نتيجة عملية (ميكلسن ـ مورلي) التي أُريد بها اكتشاف سرعة الأرض في الاثير . فأخفقت العملية . وتحير العلماء في سرّ هذا الاخفاق ولم يجدوا له تعليلاً إلاَّ تقلّص امتداد الجسم المسرع في اتجاه حركته ، ولكنه لا يتقلص في الامتداد المعامد لذلك الاتجاه .

العاميّ لا يفهم ولا يمكنه أن يتصوّر أن السهم الذي يُريشه ينكمش طولاً فيقصر ولكنه لا ينكمش عرضاً ، وأن الأرض وهي سائرة حول الشمس بسرعة ٣٠ كيلومتراً في الثانية يكون قطرها الاستوائي أقصر منه لو غيّرت سيرها الى اتجاه قطبها .

والحقيقة أن الجسم لا ينكمش ولا يقصر بالفعل كما أوهمت عملية ميكلسن المشروحة

في هذا الكتاب . ولا تتراءى هكذا بالنسبة للمراقب المقيم مع جهاز ميكلسن . ولكنها تتراءى هكذا لمراقب خارج عن الأرض أو بالنسبة الى الشمس مثلاً أو الى أي جرم آخر غير مقيم على الأرض .

(راجع آخر الفصل ١٦ من كتاب نظرية النسبية لاينشتين نفسه)

ومن مقتضيات نظرية التقلص أن الجسم كلما أسرع ازداد تقلّصه بنسبة تسارعه حتى إذا بلغت سرعته سرعة النور أو أكثر اختفى بتاتاً (وبعضهم يتطرّف فيقول : يضمحل). والحقيقة أنه لا يضمحلّ ولا يتقلص للمراقب الذي يقيم فيه . ولكنه يتقلص ويختفي للمراقب الخارج البعيد عنه .

ولتعليله أو تمثيله تصوّر أنك وأنت على الأرض جعلت الشمس تبتعد عن الأرض أو الأرض عنها (ولا فرق) أو قل أنهما يتباعدان بسرعة كسرعة النور . فلا يعود نورها يدركنا ونحن نبتعد عنها بأسرع منه . فكيف يمكننا أن نراها إذاً ما دام نورها لا يصل إلينا ؟ فلا بدع أن تختفي . فليس لأنهـا تقلّصت بل لأن نورها الذي يرينا جسمها لم يعد يدركنا لأن التباعد بيننا صار في سرعة كسرعة نورها .

هكذا الجسم يتقلص نسبيّـا لا فعليّـا بسبب سرعته في مسيره .

٢ — إنّ بعض الكتّـاب الذين كتبوا عن النسبية أو كلهم تقريباً ، لشدّة إعجابهم بها زعموا ، أنها نقضت كثيراً من النظريات العلمية السابقة ، ومنها نظرية الإيثر المفروض . فقالوا إنّ عملية ميكلسن أثبتت أنه ليس في الفضاء إيثر — الإيثر الذي ظنه أو فرضه العلماء الذين لم يستطيعوا أن يعللوا بعض ظاهرات الطبيعة كالنور مثلاً إلاّ بفرض الإيثر ، وأنه لو كان الفضاء بحر إيثر لما خابت عملية ميكلس في اكتشاف سرعة الأرض فيه .

والحقيقة أن عملية ميكلسن مُخفقة على كل حال سواء كان ثمت إيثر أو لم يكن . وإنما هي أخفقت بالنسبة الى ميكلسن ومورلي أنفسهما لأنهما مقيمان على الأرض مع جهازهما . ولكنهما لو كانا يقيمان خارج الأرض لكانا يريان الأرض متقلصة كما تقدم بيانه . فالمسألة هي مسألة نسبية .

على أن اينشتين لم يجحد الإيثر وإنما قال صراحةً أو ضمناً ان نظرية النسبية تستغني

عن الايثر بل هي تثبت بوجوده وبعدمه . لأنَّ هـذا التقلص الذي أظهرته عملية ميكلسن ليس حقيقيًّا وإنما هو بالنسبة الى المراقبين فقط .

ان الايثر مفروض فرضاً لتعليل الظاهرات الطبيعية . ولا برهان إيجابي عليـه سوى سهولة هذا التعليل . وبعض عظماء العلماء كالسير تجايمس تجينز James Geans لا يجحدون الايثر أيضاً بل يقولون أنه لاغنى عنه في بعض الأحوال ، وإن كانوا لم ينجحوا في الوصول الى برهان حسي على وجوده .

وأهم سبب لافتراض وجود الإِيثر ثبوت أن النور موجات كهرطيسية . فكيف تحدث هذه الموجات اذا لم يوجد ثمت وسيط متموّج .

وبعض العلماء رجعوا الى نظرية نيوتن التي أهملت في القرن التاسع عشر وهي أن النور ذُريرات تصدر من الجسم المنير . واعترض آخرون بأنها اذا كانت ذريرات تصدر كرشاش (خردق) لبندقية فهي إذن تسير في خطوط مستقيمة غير متموجة . فكيف يمكن أن تكون متموّجة كما هو ثابت . على أن تجينز جمع بين النظريتين فقال إن النور ذريرات ولكنها تصـدر متموّجة . وليس ما يمنع أن تتموّج بخطوط متعرجة ولذلك سماها wavicles مختصرة من waves of particles

٣ — من مستغربات النسبية الأبعاد الأربعة في حين أن المعلوم أن الأبعاد ثلاثة فقط طول وعرض وعمق (أو سماكة) فمن أين جاء الزمان بُـعْـداً رابعاً وهو يختلف بطبيعته عن المكان ذي الابعاد الثلاثة . فإضافة الوقت أو الزمن الى هذه الأبعاد المكانية ظهر للعامة غريباً جدًّا .

ومن المعلوم أن أي جسم ثابت (أو أية نقطة في الفضاء) يتعين مكانه بتقاطع ثلاثة خطوط أو بالأحرى ٣ سطوح . ولا يمكن أن يتحدَّد بتقاطع خطين أو سطحين فقط . ولكن الجسم المتحرك في أي اتجاه لا يمكن أن يتحدَّد موقعه بتقاطع هـذه السطوح الثلاثة فقط بل بتحركها في كل لحظة من نقطة الى نقطة في خط اتجاهه . وتحركه في خط اتجاهه أو سيره فيـه يستغرق وقتاً . فإذن الوقت أو الزمان يشترك مع المكان في تحديد كل نقطة يتنقل فيها الجسم المتحرك . فالمراد اذن بالبعد الرابع هو تحرك الجسم في المكان

المقترن بالزمان . وما يلبل الأمر على العامي إلاً أن يسمى هـذا التحرك بعداً رابعاً من غير ذكر المكان معه كأنه من طبيعة الأبعاد المكانية الثلاثة وهو يختلف عنها كما ترى . ولهذا سميته في كتابي النسبية « الزمكان » أي « زمان ـ مكان »

٤ — يستغرب القارىء جداً القول بتحدُّب الزمان — حقـًا انه لقول يشبه الهذيان . كيف يتحدب الزمان ؟

لا يخفى أنه ليس للزمان وجود حقيقي محسوس . ما هو إلاً قياس لحركة المادة في المكان — في الحيـز . لما كان الجسم يتحرك في حيِّزه حركة دائرية كحركة الأرض حول الشمس وحركة الالـكترون حول النواة ، وهذه الحركة تستغرق وقتاً كما هو معلوم ، قالوا إنَّ الزمان يتحدَّب مع تحدُّب المكان لأنه مندمج فيـه . فهو قول مستغرب إلاَّ اذا قُـرِن بهذا التفسير : ما وجد الزمان الاَّ لأنَّ الجسم السائر في خط منحنٍ يتحرك في زمان فصار الزمان منحنياً أو متحدباً مثله .

ولا يستغرب القارىء أن الزمان لاوجود له لولا حركة المادَّة . فليتصوَّر هذا الـكون ساكناً سكوناً مطلقاً ، لا حركة فيه على الاطلاق ، فهل يستطيع أن يتصوَّر الزمان ؟ حتى المكان أو الحيِّـز أو الفضاء نفســه لا يبقى له وجود على الاطلاق اذا خلا من المادَّة أي الأجسام والاجرام خلوًّا مطلقاً . هل تستطيع أن تتصوَّره خالياً ؟ لا . اذن فالمادَّة أوجدت المكان . وحركة المـادة أوجدت الزمان . هما صنوان متحدان لا يمكن تصور الوجود فيما هما منفصلان .

٥ — لما كتب اينشتين رسالته عن النسبية العامة (بعد كتابته عن النسبية الخاصة) وهي نسبية الخطوط المنحنية قال ، وقال الذين تبعوه ، إن الخط المستقيم ليس أقصر مسافة بين نقطتين ، كما قالها اقليدس ، وانه قد يلتقي طرفاه ، خلافاً لقول اقليدس وللحقيقة المعروفة . وكذلك قالوا ان الخطين المتوازيين قد يلتقيان خلافاً للقول انهما لن يلتقيا ، إلى غير ذلك من مخالفات المألوف . وبعضهم هزأ باقليدس وأقواله هذه وقال ان هندسته أصبحت لغواً . وهو افتراء لايليق بعلماء . واينشتين نفسه لم يشجب هندسة اقليدس لأنه يعتمد عليها في جميع مباحثه . وانما الذي أفضى الى هذا الدحض لهندسة اقليدس ان اينشتين فرض خطًّـا

مستقيماً على سطح عظيم منحنٍ كسطح الأوقيانوس مثلاً حيث لا بد من أن ينحني هذا الخط على هذا السطح بانحناءِ السطح نفسه ، كما انه لا يمكن مرور خط مستقيم بين أوربا وأميركا في قلب الأرض ، ولأن السطوح الطبيعية التي تجري فيها الحركة منحنية . فكل خط يرسم عليها أو يسير فيها لا بدَّ أن يكون منحنياً حتماً .

فبطبيعة الحال الخط الذي يمتد على سطح الكرة مستقيماً أو بالأحرى منحنياً كانحنائها لا بدَّ أن يلتقي طرفاه . وخطَّا الطول على سطح الكرة المتوازيان يلتقي طرفاهما في القطب . والخط المستقيم بين نقطتين على سطح الكرة ليس أقرب مسافة بينهما لأن الخط الأقصر الذي يخترق تحدُّب الكرة بين نقطتين هو أكثر استقامة من ذاك

نعم هندسة اقليدس المختصة بالخطوط والزوايا والمستطيلات ليست للسطوح المحدَّبة، بل هي للسطوح المستوية . ولذلك فالتعبير بالخطوط المستقيمة عن السطوح المحدَّبة تعبير خاطئ . وهذا التعبير الخاطئ أفضى الى شجب اقليدس وهندسته بكل قحة . كان يجب أن يعطى الخط على سطح محدَّب اسماً آخر غير « الخط المستقيم » لكيلا يحدث هذا الالتباس في التعبير ولا يلتبس الأمر في ذهن العامي بهذا القول المخالف للمألوف ، كأن يقال مثلاً « الخط الأقصر المنحني » .

هندسة اقليدس هي هندسة مهندس الكون الأعظم الذي هندس الطبيعة ، فلا يمكن أن تُنْقَض . وانما يمكن أن تتطور لكي تفسر بها فلسفة « الزمكان » المتحدب .

واقليدس لم يغفل هندسة المنحنيات ، فله فصل خاص في الكرويات والمحدبات الخ . واينشتين وجوس Gauss وغيرهما لا يستغنيان عنها .

٦ — وهناك علماء قالوا إن اينشطين نقض جاذبية نيوتن . وهو قول سخيف كالقول السابق عن هندسة اقليدس . لأن اينشتين نفسه اعتمد على جاذبية نيوتن بصراحة حين برهن على محدودية الكون المادي في الفضاء الكوني اللامتناهي(١) . وذلك في حاشية الفصل الثلاثين من كتابه « نظرية النسبية » (صفحة ١٠٦ الترجمة الانكليزية طبعة مثوين وشركاه

(١) The universe is finite but not bonded

الطبعة العاشرة سنة ١٩٣١). وقد استهلّ ذلك البرهان بقوله : « بناء على جاذبية نيوتن ... الخ»

اينشتين لم ينقض جاذبية نيوتن وانما أضاف اليها اعتبار الزمان في حين أن نيوتن اقتصر على اعتبار المكان فقط . اينشتين عمم النسبية على الجاذبية ايضاً . فهو يعتبر الارض مثلاً تدور حول الشمس في فلك رباعي الأبعاد Continuum « زمكاني » ونيوتن يعتبر دورانها في فلك ثلاثي الأبعاد . ولذلك تفصيل طويل لا محل له في هذا التصدير .

٧ — وأغرب مستغربات اينشتين اعتباره الطاقة والمادة شيئاً واحداً . وأغرب منه أن المادة تزداد كتلة كلما [1] أسرعت . والغرابة الثانية تتوقف على الأولى .

حقاً ان هذا القول غريب جداً عند العامة لأن العامي يرى الجسم الثابت في مكان ما ليس فيه أثر للقوة المحركة . ولكي يتحرك لا بد أن تطرأ عليه قوة من الخارج فتصدمه فيتحرك . ولذلك يتراءى للعامي ان القوة شيء والمادة شيء آخر . ولذلك يستغرب قول اينشتين أن المادة والطاقة شيء واحد أو انهما وحدة واحدة . وقد وقف اينشتين الفصل ١٥ من كتابه نظرية النسبية المشار اليه آنفاً على تفسير هذا القول .

فهو يقول في عرض الكلام « ... قبل اكتشاف ناموس النسبية كان علماء الطبيعة يعلقون أهمية كبيرة على سنة عدم الفناء Indistructibility فكان في نظرهم أن المادّة غير قابلة الفناء ، بل تتحوّل من حال الى حال . وكذلك الطاقة (أي القوّة) غير قابلة الاضمحلال بل تتحوّل من صورة الى صورة . ولكن ناموس النسبية أثبت أن السنّتين سنّة واحدة (أليس لأن المادّة والطاقة شيء واحد) ... »

ثم ان الجسم المسرع باطراد تزداد طاقته كلما أسرع . خذ الجسم الساقط مثلاً كلما هبط زادت سرعته . وبالتالي تزداد طاقته . فهو قبل أن يبتدىء يسقط لا تكون له قوة . ولكن متى ابتدأ يسقط تظهر فيه قوة وتشرع قوته هذه تزداد كلما أسرع بالهبوط . ففي أول الأمر وهو مرتكز على مكان لا يسحق شيئاً ولكنه متى سقط من شاهق على أي

(١) يقول ادنجتون أن الكتلة نفسها لا يزداد عدد الكتروناتها وإنما يزداد حجم هذه الالكترونات والبروتونات بسبب زيادة الطاقة فيها .

شيء يسحقه . ومعنى هذا ان طاقته تزداد بازدياد سرعته .

وقال في ذلك الفصل نفسه أن كتلة الجسم الساكن ليست ثابتة (المقـدار) بل يتغير مقدارها بتغير طاقة ذلك الجسم ، فإذا كان الجسم الساقط يزداد طاقة بازدياد سرعتـه فكتلته تزداد بازدياد طاقته .

* * *

ومن هذا نرى أن سنة بقاء المـادة (أي عدم فنائها) هي نفس سنة بقاء طاقتها . هما سنة واحدة . ويلزم عن ذلك ان كتلة الجسم المتحرك على وتيرة واحدة Enertial إنمـا هي مقياس لطاقته . وكذلك تسارعه Acceleration هو مقياس لازدياد طاقته . وهل بيان أوضح من هذا لوحدة المادة والطاقة ؟

وحاصل القول أنه لا كتلة (مادة) بلا طاقة تقتضيها . وكذلك لا طاقة في الوجود بلا مادة تظهر بها .

أين الطاقة في الأجسام الساقطة ؟ أليست فيها نفسها فتظهر في سقوطها بفعل الجاذبية ؟ والجاذبية متبادلة بين الجسم الساقط ومركز الأرض الذي يسقط نحوه الجسم . فلـكل مادة طاقتها من ذرات الجسم الساقط إلى ذرات الأرض إلى ذرات الاجرام — كل على قدره .

يؤيد كل ذلك أيضاً تجينز في كتابه «العوالم من حولنا» صفحة ١٨٩ وهذا قوله بحروفه : « ... لقد ثبت أن الحرارة والنور والـكهرباء كلها مؤلفة من طاقة (كذا) . ونظرية فناء المادة تضاف أيضاً إلى القائمة . وهكذا المادة نفسها تصير شكلاً من الطاقة » .

وبحسب نظرية الفناء ، هذه الطاقة التي تنشيء الحيـاة على الأرض ، والنور والحرارة اللذان يحفظان الأرض دافئـة ويجعلان دفئها علة غلـتهـا وعلة طعامنا ، وإختزان نور الشمس وحرارتها في الفحم والحطب اللذين نحرقهما — كل هـذه تنشأ من فناء الـكهارب والـكهيربات في الشمس بتنافي قطبيها الايجابية والسلبية تفنى كهربائيتها ، لـكن مادتها تصبح طاقة بشكل حرارة ونور وتسمى فوتونات .

« فالذرات التي في الشمس والنجوم إنما هي قوارير . وكل قارورة معرضة لأن تنكسر وتريق طاقتها في الفضاء بشكل نور وحرارة . ومعظم الذرات التي ابتدأت بها الشمس

والنجوم حياتها قد لقيت هذا المصير. والذرات الباقية فيها صائرة الى المصير أيضاً...» الخ.
انتهى كلام جينز

وتجد نحوى هذا القول في كتاب الطاقة الذرية الذي أصدرته وزارة الحربية الاميركية في الصفحة الأولى منه

* * *

هذا موجز لمستغربات النسبية . وقد عبَرَها الأستاذ محمد عبد الرحمن مرحبا عبوراً فلسفيًّا . ولكن ببسطٍ وإيضاح كافيين فلا يُخشَى أن يتعثر به القارىء أو يمله ويجفوه بل يشكره له ويثني عليه . فأهنئهُ .

بقيت ملاحظة لا بدَّ من الاشارة اليها تحقيقاً للحقيقة . وهي ان الأستاذ ذكر في كتابه عمليتي الخيالية في كتابي التي تفسر كيف أن الوقت يختلف بين مكان ومكان بالنسبة الى المراقب ، فأشكر له ثقته بي وأرجو القارىء أن يعلم أن ذلك المثل الذي قدمته هو من تفكيري الخاص ولم أقتبسه من مؤلف آخر . ولذلك أرجو أن لا يقبله كقضية مسلّمة ، لأنه قد يكون برهاناً خاطئاً على نسبية الوقت على الرغم من أنه لا غبار عليه من الناحية الرياضية البسيطة .

ولي في كتابي « النسبية » بعض نظريات خاصة بي لم أقتبسها من مؤلف آخر ، كالبرهان الذي شرحته ورسمت رسمه لنظرية التقلص في اتجاه السرعة (صفحة ٣٧ — ٤١) ، وكنظرية اندماج الزمان بالمكان وقد سميتها « الزمكان » ، وكتعليل تحدُّب الجو الجاذبي ورسمه في صفحة ١٠١ ، وتعليل تقلص الخط المنحني صفحة ١٢٧ ، فأقول فيها ما قلته في نظرية الوقت المشار اليها آنفاً .

وهناك فكرات أخرى طرأت عليَّ في أثناء تأليف « هندسة الكون بحسب ناموس النسبية » فسجلتها وهي غير مقتبسة من مؤلف آخر . فإن كانت قد أصابت الحقيقة فهو توفيق من الله ، وإلاَّ فإني أمتنّ لكل من يتكرَّم بتصحيح لها أو ملاحظة بشأنها .

نقولا الحداد

كلمة لا بد منها

وبعد ، فهذا عرض موجز لقضايا النظرية النسبية وما يتصل بها أغفلنا فيها تقسيمها إلى نسبية خاصّة ونسبية عامّة ، كما جرى التقليد في كتب هذه النظرية ، وجعلناها كلاًّ واحداً لراحة القارىء العادي الذي لم يتزوّد بشيء منها بعد ، ولعدم إرهاقه بتفاصيل فنية معقدة لا شأن له بها ، فجاءت مُدْمجة متماسكة روعي فيها حاجة القارىء المتوسط من هذه النظرية وإبراز النواحي الوجيهة منها .

وقد تفضل الأستاذ نقولا الحداد فقدم لهذا الكتاب بتقديم يمكن اعتباره جامعاً شاملاً لحقائق النظرية النسبية كلها ومصححاً للأخطاء الشائعة عنها بحيث لا يمكن الوصول إلى هذه النظرية إلاّ بإستيعاب هذا التقديم وفهمه الفهم الكامل . فأشكر للأستاذ هذا العطف .

تقدمة

تحتل النظرية النسبية [1] اليوم ليس فقط مكانة ملحوظة بين خير النظريات العلمية والفلسفية الحديثة وحسب ، وإنما هي فوق ذلك ثورة على التفكير القديم وتوجيه جديد لم نعهد مثله من قبل ، لطرائق البحث ووجهات النظر وتطبيق مستحدث لما يجب أن يكون عليه النظر العلمي الصحيح .

وأهمية هذه النظرية لا ترتبط بقيمتها كانتصار على إبهام الكون المادي الذي يحيط بنا ، وفوز للجانب غير الآلي من التفكير حقق ما عجزت العلوم الوضعية الطبيعية عن تحقيقه ولا بمعادلتها الرياضية الجديدة المعقدة التي حملها الينا دماغ العلامة الكبير الدكتور « البرت انشتين » وتمخض عنها تفكيره العبقري فحسب ، وإنما بوصفها تستند الى حاجات العلم في تطوره ، وتؤلف وجهة نظر مستحدثة للكون وتصوراً جديداً لأركانه وأبعاده وتوسعاً في المعرفة ، قلب وجهة نظرنا الكونية رأساً على عقب .

وسنرى في مساق هذا البحث ان مقدرة هذه النظرية على تفسير الكون هي مقدرة عظيمة هائلة تفوق حتى الآن جميع ما سبقها من المقدرات والمحاولات والجهود التي ارتجلت له مختلف التفسيرات على أساس الأبعاد التقليدية الثلاثة — الطول والعرض والعمق — فكان من الطبيعي إذن أن يكون الفشل مقدوراً بل ضرورياً لها ، وان يُحتاج الى بديل منها ينجو من الأزمات التي خلقتها تلك النظرة المشوهة المتبعة ، نظرة التصور الثلاثي للأبعاد ، ذلك التصور القديم الذي لم يكن العلماء ولا الفلاسفة يملكون له بعد أساساً علمياً صحيحاً يبنون عليه صفات هذا التصور بحيث تتكامل فيه شروط البحث العلمي الايجابي الدقيق .

---

(1) La Rélativité

ولما جاء « انشتين » بنظريته « النسبية » لم يستطع أن يجاري التواضع التقليدي القديم الذي يفصل الزمان عن وجود الأشياء ويغفله في بناء نظرة عقلية صحيحة للكون، وبعبارة أخرى لم يستطع أن يحرم الأشياء من وجودها الزماني بوصف هذا الوجود شيئاً ضرورياً يدخل في تكوين الأشياء ولا ينفصل عنها، شأنه في ذلك شأن الطول والعرض والعمق، فهذه الأبعاد الثلاثة الى جانب الزمان — البعد الرابع — هي أشياء ضرورية بالنسبة الى وجود المادة، ومتصلة اتصالاً لا ينفصل ويجب فرضها معاً لتفسير وجود الموضوعات التي تحيط بنا. وعلى هذا ففكرة الزمان تملأ تصور الوجود عنده وهو — أي الزمان — ليس شيئاً وهمياً يضاف الى الأشياء إضافة تابعة شكلية، بمعنى أن الأشياء لابد أن توجد في زمان، كلا، فهذا ما لم يقصد إليه، لأن هذا التفكير الرجعي ينظر الى الزمان بحسبانه شيئاً اعتبارياً ثانوياً أو وعاء صورياً مفترضاً يحتوي الأشياء، أو شيئاً يمر بنا ويتخللنا، أو تماساً جانبياً وهمياً بينه وبين الأشياء، أي مجرد احتكاك الأشياء مع وجود وهمي يفترض افتراضاً، أو حاجة عقلية لتفسير تسلسل الأشياء، وبعبارة أخرى أن الزمان في هذه المعاني كلها هو أقل من شيء، أو هو معنى لم يصل بعد الى مرتبة الوجود. وهذا المعنى الذي تسلط على أفكار الأقدمين ومعظم المحدثين اليوم، لم يقصد اليه «البرت اينشتين» بل الزمان عنده هو شيء أكثر من معنى. وأكثر من وعاء أو تماس أو فرض وأكثر من مجرد تسلسل وتلاحق، وهو لا يقل عن الأشياء وجوداً، وهذا ما سيتضح لنا في سياق هذا البحث.

بقي علينا أن نشير هنا الى حقيقة هامة لا يجوز اغفالها وهي أن الإلمام بهذه النظرية ليس ضرباً من الترف العقلي الذي يمكن الاستغناء عنه، كلا فهي غنى من حاجة شديدة، بل أن حاجتنا إليها قد أصبحت اليوم تساوي حاجتنا الى شيء ضروري لا غنى عنه، نظراً الى أهميتها الخطيرة بالنسبة الى تصوراتنا الحديثة عن الكون، ولقد ساعد على أهميتها هذه حدوث أزمة في العلم والفلسفة يمكن لهذه النظرية أن تكون جواباً عن كثير منها، وهي وان تكن تمثل ما يصح أن يكون إثراء في معارفنا وتوسعاً عظيماً في معلوماتنا، فان ذلك لا يبرر عدم تكوين فكرة اجمالية عنها، خصوصاً وأن الأسس التي تستند إليها تبدو عاملاً

مهمًا في قواعد المعرفة الحديثة ، وتبشر بأخطر النتائج فيما يتعلق بتصورنا للكون وادراكنا لأبعاده وحدوده ، ولقد أصبحت هذه النظرية اليوم تدخل في إعداد كل مفكر متوسط الثقافة ، لا من حيث التفاصيل ، فهذا من اختصاص الخبراء الفنيين ، وإنما من حيث تكوين فكرة تقريبية تهيء للانسان العادي أن يقارب استكمال شروط نضجه وكماله ، كإنسان مفكر في عصر كلما أمعن الانسان فيه في ممارسة أمثال هذه التوسعات ، كان أمعن في حقيقة وجوده وتوكيد شخصيته ، واستيفاء أغراض الحياة .

هذا ولسنا نزعم بهذا التحمس الشديد للنظرية النسبية ان كفاية الأدلة في تأييدها كفاية مطلقة مبرأة من كل خطأ . ولا يرق إليها الشك بحال ما ، أو أن قدرتها على تفسير الكون قدرة حاسمة ، أو أن العلماء قد أقروها واعتمدوها كما جاء بها « اينشتين » وأبطال النسبية الآخرون بلا تجريح أو معارضة ، كلا فهذا التسليم ليس من طرائق البحث العلمي في شيء ، ويتنافى مع كرامة العلم . وليس من تقاليد التحقيق الموضوعي ، وهو غريب على حياة العلماء ويجافي كبرياءهم ، ولا يتفق مع سمو الغرض الذي تهدف إليه جهودهم التقدمية ومحاولاتهم الاستكشافية المخلصة للوصول الى الحقيقة المطلقة ، كما أنه ليست هنالك نظرية في العالم يمكن أن تصل الى هذا الحد من الموضوعية الثابتة وتسلم من النقد والتجريح ، بل وحتى النظريات التجريبية الواقعية المنيعة نفسها لم تنج في كثير من الأحيان من نقد العلماء وتجريحهم ، بله النظريات الميتافيزيقية أو الشبه ميتافيزيقية كهذه النظرية من حيث بعد بعض تفاصيلها الى حد ما عن الخضوع للتجربة والمشاهدة المباشرة ، وهي وان تكن غير ميتافيزيقية ، بالمعنى الفني لهذه الكلمة ، كما اتهمها بعض العلماء ، فقالوا انها نظرية ميتافيزيقية فلسفية لاغناء فيها ، أقول وان تكن كذلك ، فانها لم تصل بعد الى درجة الثبوت القطعي ، وان التهم التي وجهت إليها والمآخذ التي أخذت عليها ، وان المطاعن والمثالب التي رماها بها كبار العلماء ممن لايشك في كفاياتهم ومواهبهم ، أقول ان هذه الأشياء السلبية كلها قد تفوق في قوتها أحيانًا ما يقابلها من جهود الإثبات التي أيد بها العلماء الآخرون هذه النظرية ، ولكنها على كل حال ورغم كل هذا ، نظرية جبارة قيمة ، هي خير ما أمكن الوصول إليه من جهد في هذا السبيل ، فهي قد لفتت الأذهان الى

ضعف المواضعات التقليدية التي اصطلحنا عليها منـذ أمد بعيد وطعنت في كفايتها ، وما هذه الضجة التي تقوم حولها ، وما هـذه المناقشات الحادة التي يثيرها العلماء في وجهها إلا ثمن نجاحها ، ودليل على أهميتها وإثبات لقيمتها وكفاءتها كنظرية لابدّ أن تفرض نفسها وأسبابها على التفكير العلمي الراهن ، وتنتصر على هذه المناقشات العنيفة وتكتسب لنفسها صفة الموضوعية الثابتة ، أو على الأقل لابدّ أن تمهد — بما ثار حولها من جدل — الى التفكير الصحيح وأن تكون مفتاحاً لنظريات أخرى تحمل سر الوجود وتفسير الكون وقصة التاريخ ولغز الحياة والتطور

وكذلك لا يسعني أن أزعم لهذه النظرية أنها مرنة يمكن فهمها بسهولة دون أي عناء أو جهد ، فهي ككل نظرية رائعة أخرى ، تحتاج في فهمها الى جهد وملكة ، شأنها في ذلك شأن أمثالها من الاعمال الفكرية الانشائية الكبرى التي تأتي بجديد في ميدان الفكر ، وهي علاوة على هـذا نظرية غامضة وذات طبيعة معقدة ، وتمتاز من بين جميع النظريات العلمية والفلسفية الحديثة بأن ما يحوجها من الإجهاد واعنات الذهن هو أضعاف ما تقتضيه تلك النظريات مجتمعةً ، وما ذلك إلاّ لأنها تبدو عصيّةً على الفهم ، بعيدة عمّا درجنا عليه من التفكير ، وهي امتحان قاسٍ لعقولنا ، فلا يكاد الفكر يتشبث ببعض تفاصيلها البارزة ويقتنصه ، حتى تتفلت منه وتفر وهكذا . . . وما ذلك إلاّ لأنها ثورة على هـذا الفكر ، فهي جديدة كل الجدة لم يألف طرائقها بعد ، فكون الزمان بعداً رابعاً أو مقداراً يدخل في بناء الأشياء وكون الفضاء منحنياً ، والأشياء تتقلص في اتجاه سرعتها . وكون الخط المستقيم [1] يلتقي طرفاه وكذلك الخطان المتوازيان [2] يلتقيان . . . وكون زوايا المثلث لا تساوي زاويتين قائمتين [3] وزوايا المربع والمكعب ليست زوايا قائمة خلافاً لهندسة اقليدس ، الى غير ذلك من غرائب النظرية النسبية ، أقول هذه أمور تبدو منبمة على الخيال وبدعاً في التفكير الهندسي يصعب قبولها والتئامها مع طرائقه التقليدية القديمة دفعة واحدة ، وهذا بخلاف النظريات الأخرى ، فانها مهما تكن غريبة ، فهي لا تمعن في الغرابة الى هذا الحد ، بل ومهما تكن كذلك ، فلا بد أن يكون لها سند في الفكر ومبرر

(١) Ligne droit (٢) Les deux lignes parellèles (٣) deux angles droits

من طبيعته واستعداده ، وتجربة واقعية تستند اليها في الخارج ، أي لا بدّ لها ما يبررها من وجهة النظر الذاتية والموضوعية. أما النظرية النسبية هذه ، فمع خضوع كثير من فروعها للتجربة ، إلاّ أن الفكر ليس طيعاً مرناً في بادىء الأمر الى الحد الذي تتطلبه هذه النظرية ، وهذا هو السبب الذي هوجمت هذه النظرية من أجله ، وعورضت الاّ من نفر من العلماء اكتملت لهم تجارب لم تتهيأ لغيرهم ، وأوتوا من الحصانة والجلد والتحرر الذهني الذي لا يتوافر في كثير ممن تحجرت أذهانهم وغشيها التقليد ، وكما أن فهمها عسير ، فان بسطها للجمهور أشد عسراً ، ومع أنها لم توضع للجمهور ، بل للذين يؤلفون طبقة الارستوقراطية العقلية الممتازة ، وكيما يكون للقارىء فكرة عن متاعب الخوض في النظرية النسبية وبسطها لعامة الناس ، فاني ألفت الأذهان الى أني كثيراً ما أقرأ في الصحف والمجلات العلمية تلويحاً عن جوائز ثمينة لأولئك الذين يستطيعون بسط نظرية النسبية بأقل ما يمكن من التعقيد والاصطلاحات الفنية والمعادلات الرياضية ، وأكثر ما يمكن من الايضاح ، وعرضها للجمهور من غير أن يشوّهوا النظرية ، بحيث يشارك في فهمها أكبر عدد ممكن من عامة الناس ، وبحيث تصبح جزءاً من معرفة كل منهم . .

والواقع أن عملية كهذه هي عملية شاقة إلى أقصى حدود المشقة وصعبة الى أقصى حدود الصعوبة ، لأنها تفتقر الى ميزتين على الأقل هما :

(١) فهم شامل لهذه النظرية بما في ذلك الرياضيات العليا منها (٢) مقدرة عظيمة على بسطها خالية ما أمكن من التعقيد ونواحيها الفنية ومصطلحاتها الرياضية .

ولا يدعي هذا الكتيب — بل لا يحق له أن يدعي — توافر هاتين الميزتين ، ولا يعزو لنفسه مؤهلات أكثر مما هو معروف عن الناشىء العادي المبتدىء ، خصوصاً وإن أولاهما مقصورة على أفراد قلائل في العالم لا يجاوزون عدد الأصابع ، كذلك لا يقصد الى أن يضيف الى البحوث العلمية بحوثاً جديدة ممتازة — وان تكن قد تكشف لنفسك بنفسك عن مواضع التفكير المرتجل هنا وهناك — ولا أن يسد فراغاً في المكتبة العربية ، فهذا ما يجب ان يتوفر عليه رجال العلم ، وكل الذي أصبو اليه هو أن أشارك ، وأن يكون لي — وإن يكن ضئيلاً — نصيب من الجهد ، وأن يكون الكتيب محبباً الى الناس دائماً

بينهم ، فإمّا قدّر لهذه المحاولة بعض النجاح ، فقد أديت رسالتي وكان لي من ذلك غبطة ومسرة ، وإلاّ فحسبي متعة المحاولة ولينظر القراء في ظروف البحث التي تلابس هذه النظرية وأزمة مناقشتها وعسر الخوض فيها ، وإني أحتكم الى ادراكهم لهذه الظروف التي لا تشجع على العمل ، والى تقديرهم للملابسات الفنية التي تحيط بأمثال هذه الآراء الخطيرة ، وكل ما أرجو أن يكون الكتيب مقدمة لسلسلة من الجهود التي تملأ — بالفعل — الفراغ الشاغر في المكتبة العربية وتعوّض النقص الكبير الذي نستشعره في نواحي ثقافتنا العامة .

(طرابلس — لبنان) محمد عبد الرحمن مرحبا

البرت انشتين [1]

(١٨٧٩ -)

قبل أن نخوض في معنى النظرية النسبية ونعالج موضوعها الخطير ، وكيما يستكمل هذا الكتيب صفات الموضوع الشامل الذي يحتوي على عناصره الضرورية كلها ، يخلق أن نقدم أولاً بحياة مستكشفها العظيم وخالقها الأول ، ونعلق ما استطعنا على النتائج التي ترتبط بها أهمية هذه النظرية وأسباب كفاءتها بعد أن سبقتها محاولات الاخفاق التي حاولت تفسير الكون على أصول عصية على التطبيق وفروض فلسفية حمقاء لا غناء فيها .

وإذا ما ألقينا نظرة عابرة على تاريخ التفكير البشري نجد أن لهذا التفكير حالات قفز وطفرة هي أقرب الى الوحي والإلهام منها الى أي شيء آخر ، وهذه الحالات القليلة هي النواة التي تتألف منها الانقلابات الخطيرة والتطورات الفكرية الشاملة وأسباب التوسع في غزو الكون وفهمه على أساس علمي صحيح .

هذا وليست تلك الطفرات الانقلابية تتاح لكل أحد وفي مقدور كل إنسان ، كلا فإنها أبعد الأشياء عن المألوف وأكثرها خروجاً على العادات والتقاليد وأعصاها على التفكير وأقلها خطوراً عليه ، وإن ما يعوزها من خصب الخيال ومرونة التفكير ، وجرأة الفروض والتنبؤات لما لا يتأتى لكل إنسان في كل زمان ومكان ، وإن أعظم خطوة يخطوها الفكر هي التي تخلق ثم التي تضيف ، وإن تكن الحدود بين الخلق والإضافة غير واضحة تمام الوضوح في بعض الأحيان ، فالخلق أشق من الاضافة لأنه إنشاء وإيجاد ، لا ضم واستجماع ، فكشوف باستور وكوخ واسبلزاني وبول الخ ... على روعتها وجلالها ، مبنية على جهود أنطون لوفنهوك الهولاندي المستكشف الأول للميكروب والبحوث

---

(1) A. Einstein

الجرثوميـة ، فلولا كل أولئك لاستطاع هـذا أن يثبت شخصيته الفـذّة في التاريخ ويؤكد وجوده العالمي ، أما هؤلاء فهم على النقيض منـه ، ولولاه لـكانوا رجالاً عاديين أو شيئاً أكثر من ذلك قليـلاً ليس إلاّ ، فالفرق بين الجانبين إذن ، يوجد في استطاعة هذا أن يخلق وينشيء ، وفي عجز أولئك عن الخلق والانشـاء ، وكذلك فرادى وهرتز وأوليفر لودج ، فإن بحوثهم الـكهرطيسية (١) واللاسلـكية ، على خطورتها مدينـة لدماغ مكسول ، ذلك الرياضي الانجليزي الجبار الذي تنبأ بأمواج اللاسلـكي تنبؤاً معجزاً لم يسبقه إليه أحد ، وقل الأمر نفسه بالنسـبة الى اكتشافات وايزمن وفرنسيس فالتين ، فإن بحوث هؤلاء جميعاً امتـداد لتجارب القس النمسوي جريجوري مندل الذي خلق التجارب الوراثيـة ، واستحدث نظرياتها ... وكذلك هربرت سبنسر الذي عمم مذهب النشوء والارتقاء على كل شيء بما في ذلك أساليب التفكير ، فأي فضل له ولـكثير غيره من علماء البيولوجيا لولا زعيمهم الـكبير تشارلس روبرت داروين أستاذ القرن التاسع عشر .

وهكذا اللورد باكون (٢) الذي بدأ عصر النهضة بكتابه « اللاتيني الأداة الجديدة » (٣) وأوجد منطقاً جديداً هو المنطق الاستقرائي أو المنهاج العلمي ، فقامت العلوم بعده على أسس حديثة ، وأنقذنا من المنطق الصوري التقليدي (٤) منطق الأزهر الأنور والقرون الوسطى ، وقضى على الفلسفات العتيقة البائدة المتطفلة على معارف عصره والعصور التي أعقبتها ، والتي تدور حول استجلاء ماهية الموجودات واستكناه أسرارها ، وحول تطهير النفس من علاقاتها المادية وتسوق الى الأدب والحشمة — كما يقولون — فتأخر العلم من جراء ذلك قروناً طويلة لم تفد منها النهضة الحديثـة إلاّ فائدة ضئيلة ، وإلاّ من حيث قيمتها التاريخية ، فـكأن تلك الفترة الطويلة من حياة الانسانية قد ذهبت بدداً . وما كان أحراها أن تـكون خصبـة متحفزة ، وان تنصرف الى البحث والاستقراء لا الى التأمل والفلسفة ، وللنظر العقلي المثالي الخالص ، والاسراف في تصميم النظريات المجدبة التي تحلق

---

(١) Electramagnétique

(٢) تأثرنا في الـكلام عن اللورد باكون هنا بمقدمة الاستاذ الـكبير اسماعيل مظهر لمترجمه العربي أصل الأنواع تأليف تشارلس روبرت داروين .

(٣) Novum Arganum (٤) Logique formelle

في السماء وتتسامى ان تلامس الأرض ... فكان فضل الورد باكون انه نادى بأن الانسان عبد منفعته ، وان الفلسفة مسخرة للأغراض المادية ، وأن قيمتها ترتبط بمقدار أهميتها في الحياة العملية وبمقدار المنافع المادية التي تؤديها وبمقدار استعدادها للتطبيق ، فتقدمت العلوم والمعارف في أعقاب هذه الصيحة ، وتنفس العالم الصعداء واستقبل الانسان عهداً جديداً وحياة جديدة .

وعلى هذه الأسس نرى ان عظماء العالم أقلية ضئيلة لا يجاوزون الأصابع أو يزيدون قليلاً ، هم ما بين أنطون لوفنهوك واللورد باكون والحسن بن الهيثم أبو البصريات الهندسية ، وروس الدانمركي المكتشف الأول لسرعة النور وجوتنبرغ خالق حروف الطباعة ، فكولومبوس مكتشف العالم الجديد فجون والتن أبو البحوث الذرية ، فكوبرنيقوس ، فغليليو ، وهرشل ، ونيوتن ، ومكسول ، ولافوازييه ، وجوزيف بريستلي مكتشف الأزوت وظاهرة التنفس في النباتات ، فالاخوان رايط ولبرو اورفيل اللذان استحدثا معجزة الطيران الجوي ، ففرويد فداروين فبوفري مكتشف الصبغيات[1] الوراثية التي تنحل عادة تعرضاً الى مورجان ، فماكولم المكتشف الأول للفيتامينات ، ومندل وغلبرت زعيم البحوث الكهربائية ، فدام وبيير كوري ، فالدكتور واكسمان مكتشف عقار الستربتومايسين المستخلص من بكتيريا التربة ، فكان بذلك أول من لفت الأنظار الى هذه البكتيريا وخصائصها العلاجية ، وفرمي الايطالي الذي وضع الحجر الأساسي للقنبلة الذرية ، فالدكتور « البرت انشتين » .

أجل إن انشتين في طليعة هؤلاء الخالقين العظماء ، وهو عبقري من الطبقة الأولى ، وقد عده برنارد شو في مقدمة عظماء التاريخ الذين وصفهم بقوله « بُناة العالم » وصرح الكاتب الانجليزي المشهور « سليفن » [بأنه أحد ثلاثة أو أربعة فقط في تاريخ العلم يجلسون على القمة من الأرباب] والحق يقال انه في مقدمة العظماء العالميين الذين خلقوا ولم يضيفوا . ففكرة تحدُّب الفضاء الزماني جرأة لا يمكن أن تصدر عن تفكير عادي ، بل لا بد أن

(١) Chromosomes وهي وحدات انتقال بذور الخصائص الوراثية للجنس في الخلية الحية .

(٢) Enclide

يكون منشؤها تفكيراً غير عادي الى حدٍّ بعيد جدًّا ، فكفى هندسة « اقليدس » تحكمًا متطاولاً في شؤون التفكير ، وآن لها أن تخسر تلك الحرمة التي لازمتها خمسةً وعشرين قرنًا أو تزيد ، وآن لها أن تُقاضى وتُحاكَم .

أجل أن هندسة « اقليدس » لا تصلح لتفسير الكون الذي يحيط بنا ، لأنها تعتمد على خطوط وأطوال وأشكال وزوايا ونقط لا يمكن تحقيقها في وجود مشغول بالمادة ، وإنما مجالها فقط فضاء مثالي خالٍ وليس مشغولاً بشيء ، وإذن فتكون هندسة « اقليدس » من أخص صفات هذا الفضاء .

أما نسبية « آنشتين » فهي فلسفة المكان المشغول وفلسفة الوجود والواقع ، لا فلسفة الفضاء اللامكاني العدمي غير المشغول بشيء ، لأنه وان يكن الخط المستقيم أقل مسافة بين نقطتين معينتين ، إلاَّ أن هذا الفضاء شيء نظري فقط ، لأن المادة لا تسير فيه بل هي تسير في خطٍّ مُنحنٍ ، ولا يمكنها أن تسير إلاَّ فيه ، والفضاء ليس له وجود فعلي إلاَّ بمقدار ما هو مشغول بالمادة .

والمدة لا يمكنها أن تسير الاَّ في خطٍّ منحنٍ ، وهذا الخط هو أقرب الخطوط بالنسبة الى سير المادة ، وان يكن الخط المستقيم هو الأقرب نظريًّا ، أو على صفحة الورق ، وعليه فالفضاء بغير المادة هو العدم ، والهندسة التي تستند الى هذا الفضاء هي هندسة العدم ، « وأخص مميزات هذه النظرية الجديدة أنها تعني أشد العناية بما يحدث في الفضاء المجاور لدقيقة من الدقائق المادية كهرباء كانت أم شمسًا كبيرة ، ففي الفلسفة الطبيعية الجديدة لا يفرض ان دقيقة ما تجذب دقيقة أخرى مفصولة عنها ، بل يفرض أن الدقيقة المادية تتأثر بشيء أو بصفة خاصة في الفضاء الملاصق لها فتسير في أهون سبيل تقتضيه هذه الصفة ، فالكرة الصغيرة إذا وضعت في طرف أرض مقعرة سارت بطبيعة تقعر الأرض الى أوطأ نقطة فيها ، ودقائق الماء في الجدول تدفع وتوجه في سبيلها بالضغط عليها من جميع جوانبها ، أما ما هو الوسط الذي يدفع الشموس والسيارات الى المضي فيما يبدو لنا فضاء فراغًا فلا نعلم ، ولكن الباحثين يسلمون بأنه فضاء متصف بصفات طبيعية ، وان هذا الفضاء المتصف بهذه الصفات ، أو هذا الأثير ، إذا كنت ممن يعني بالأسماء يتأثر في جوار

الكتل المادية الكبيرة — الشموس — تأثراً يحدث نوعاً من التجعيد والتغضن في الفضاء، كما تتجعد الورقة عند ضغطها قليلاً، فتسير الأجرام في مسارات يقتضيها هذا التحول في شكل الفضاء، كما تسير الكرات الصغيرة في غضون ورقة مجعدة »[1]

أنا لا أنكر أن هذا كلام غامض لم أذكره الا من باب اثبات نتيجة هذه النظرية مقدماً، وهو لا بدّ أن يقترن بما يؤيده ويثبته اثباتاً لا يرقى اليه شك، وهو ما سوف نتوفر عليه في مساق هذا البحث.

ولد انشتين في «أولم» بألمانيا في ٤ أيار (مايو) سنة (١٨٧٩) ـ ولما بلغ السادسة من عمره ارسله والده الى مدرسة ابتدائية في « ميونيخ » حيث قضى حياته الأولى، فتبدّى فيه ميل شديد الى العزلة والوحدة والانكماش عن الناس والانطواء على نفسه، ويروى عنه في هذه السن انه لما رأى بوصلة [2] ارتجف وأصيب بقشعريرة شديدة، فظن والده أن به خبلاً وضعفاً عقلياً، وساعد على هذا الحكم ما حفل به ماضيه الصغير من الجمود والضعف العقلي، وكانت طفولته بطيئة ونموه متأخراً، ولما كان في الرابعة عشرة من العمر هاجر مع أسرته الى ايطاليا وألحق بمدرسة «آراد» ثم حضر محاضرات المدرسة البوليكنيكية في « زوريخ » حتى صار عمره إحدى وعشرين سنة. وفي سنة ١٩٠١ تخلى عن جنسيته الألمانية الى الجنسية السويسرية، وهنا بدا عليه تحول مفاجىء في قواه العقلية كلها، فأقبل على المطالعة بعد أن كان يضيق بها، وانصرف الى دراسة حقائق الطبيعة والبيولوجيا والجيولوجيا، وآمن بأهمية التجربة والمشاهدة والاختبار للوصول الى الحقيقة، وارتاب في العلوم الرياضية، ثم أقبل على دراسة الفلسفة الشكوكية، وعلى الخصوص فلسفة «هيوم». ولما تخرّج في أكادمية «زوريخ» عين في مناصب للتدريس متعددة، ولكنه عجز عن القيام بها، فاستقال منها لما امتاز به من النفور من الناس. وفي سنة ١٩٠٤ عين في منصب صغير في مكتب « الباتنتيه » في « برن » عاصمة سويسرا. وفي سنة ١٩٠٥ أخرج للعالم نظريته في النسبية الخاصة التي تدور حول التواقت وخطوط الحركة المستقيمة و... . وفي خلال هذه المدة أحرز درجة دكتور في الفلسفة من جامعة « زوريخ » وعين أستاذاً من

(١) أساطين العلم الحديث صفحة ٣٦ (٢) Boussole

الدرجة الثانية . وفي سنة ١٩١٠ عين فيها أستاذاً من الدرجة الأولى ، ولكن أعمال هذا المنصب كانت مزدحمة مرهقة ، وفي سنة ١٩١١ دعي الى منصب أستاذ الطبيعة في جامعة « براج » فبقي فيها سنة ، وفي سنة ١٩١٢ عاد الى المدرسة البوليكنيكية في « زوريخ » بمنصب أستاذ كامل ، وفي سنة ١٩١٣ أنشيء له منصب خاص في برلين ، إذ عين مديراً لمعهد القيصر ولهلم الطبيعي ، وانتخب عضواً في الأكاديمية البروسية الملكية للعلوم ، ولم تمض سنتان حتى أخرج للعالم نظريته في « النسبية العامة » التي تدور حول ضرورة اندماج الزمان بالمكان و . . . وفي هذه الأثناء أنتخب عضواً في أكاديميات « امستردام » وكوبنهاجن وغيرها ، وأنعمت عليه جامعات « جنيف » و « منشستر » و « روستوك » و « برنستن » برتب علمية فخرية ، وفي سنة ١٩٢١ أنتخب عضواً أجنبيًا في الجمعية الملكية بلندن ، ومنح جائزة « نوبل » الطبيعية ، وفي سنة ١٩٢٦ منح مدالية « كوبلي » من الجمعية الملكية بلندن ، والمدالية الذهبية من الجمعية الملكية الفلكية الانكليزية ، وفي سنة ١٩٢٩ نشر رسالتين قصد بهما الى التوحيد بين الجاذبية والكهرطيسية في معادلة رياضية واحدة ، وفي سنة ١٩٣٦ خرج من المانيا النازية احتجاجاً على معاملة اليهود فيها ، فصادرت الحكومة الهتلرية أملاكه وامتيازاته ، وهو الآن في جامعة « برنستن » بالولايات المتحدة أستاذ نظريته ومدرس الرياضيات العليا فيها .

دهشة وذهول

في الليالي الداجية الظلماء ، عندما يكون القمر نزيل الجانب الآخر من الأرض ، وحينما تكون السماء خلواً إلاّ من أضواء النجوم واجرامها الذهبية اللاّمعة ، لا سحاب يحجب عنا ومضاتها ولا ضباب ولا أشياء أخرى مما يعصف بجمالها وينتقص من سحرها وأمتاعها ، أجل في هذه الحالة ، وحينما تكون نفسك عميقة واحساسك مرهفاً وعقلك مشرقاً مستمدًّا للوحي والإلهام ، أقول في هذا الوجود القوي العنيف وأنت نشوان ثمل تتملى بهذه المشاهد ، في هذا الاستغراق ، في هذه التجربة الصوفية المتحفزة ، في هذه اللحظات الروحية الخصبة التي تخف فيها اعباء هذا العالم الثقيل وألغازه ...لا بدّ أن تستشعر البهجة والاشراق وتسترسل في الرؤى والأحلام ، فتُمتع بها وتتابعها بشغف وتعصب ، ولا يسعك

بعد هذا إلاّ أن تستسلم فتنام وتنفذ الى حياة الأشياء .

وأخيراً يرتد إليك وعيك فتجدك [1] في مدّ وجزر ... واذا طائف من الأسئلة يقفز إليك ، واذا بك تستشعر الرهبة تتلوها الرغبة والسكينة تتبعها الثورة ... وإذا بك تغزوك أحاسيس متضاربة ومشاعر متناقضة وتحفزات متباينة جامحة ، ولا بدّ أن تخوض معك [2] في هذا الكون ، صوراً من الكفاح الصامت والأسئلة المتساوقة ونظرات الاستطلاع التي تتلاحق تباعاً الى غير نهاية :

ترى ما هذا الكون العجيب وأي شيء هو وما مصدر هذا الاشعاع الذي لا ينقطع أو لم يأن لهذه المنابع من الطاقة أن تجف ويقف مددها !

ممَّ تتكوّن هذه النجوم ؟ وإلامَ تستند ؟ وما الذي يمسكها أن تقع علينا ؟ ما هذا الفضاء ؟ وما يملأ أرجاءه الفسيحة وينتشر في مساحاته ورحابه ؟ وهل ثمة ما يصل فعلاً بين هذه الأبعاد أم أن ذلك من خرافات القرن التاسع عشر ؟

ما هذا التناسق البديع ! وما هذا الجمال الأخّاذ ! وهل يكفي هذا الكون في تفسير ذاته أم لا بدّ له من خالق عظيم وضع تصميمه من قبل ؟

ثم من هذا الخالق وما طبيعته ؟ وهل هو كائن ضروري لا بدّ من وجوده أم هو مجرد حاجة عقلية وحيلة لا بد منها يقوم بها العقل للاحتفاظ بألفته وتكوينه ؟

وأخيراً هل لهذا الكون حدود ينتهي عندها أم هو لا يقف عند حد ؟ فاذا ما كانت له حدود فأي شيء خارج الحدود ؟ وإذا لم يكن محدوداً فكيف يكون في ذاته إذن ؟ وكيف يجب أن تكون فكرتي عنه ؟ وهل في مستطاع هذه الفكرة أن تطابق الصورة الأصلية للكون ؟ أم ان هذا حلم من أحلام العقل وأمل لا سبيل الى تحقيقه ؟

ثم من أنا وما أهميتي وقيمتي في هذا الوجود ؟ وكيف يتأتى لي أن أستمتع بهذه المشاهد وأخضع لسحرها وجمالها ؟

وهكذا لا تلبث ان تراك في مساق من الخواطر والأسئلة التي تغزوك تباعاً هي من صميم التفكير ، ومن ضروريات التعقل ، ومما لا تستغنى عنه تلك اللحظات المشرقة من

---

(١) فتجد نفسك (٢) مع نفسك

حياتك ، لحظات الالهام والخلوة الصامتة ، ولعلّ مما يلفت النظر أنه كلما أمعنت هذه الأسئلة في ضروريتها بالنسبة الى حياة الفكر ، أي كلما كانت ملحة وأدخل في تكوين الفكر وأقرب الى طبيعته وأعمق في جذوره كانت أعصى على الحل ، وأمنع على المعرفة ، وبعبارة أخرى ان هذه الأسئلة مع أنها ضرورية للفكر ، ومع أنه لا يستغنى عنها ، ومع أن إلحاحها عليه مستديم وأشد من غيرها مما قُطع به ، فإنها وحدها هي التي حُرمت فقط من الجواب الحاسم ، ومن صفته الموضوعية الجازمة وهي وحدها التي لم يُبت فيها حتى الآن . . . فكأن من قوانين الفكر ان الحاجات العقلية كلما كانت ضرورية وأكثر ضغطاً ، وكلما كانت أمعن في إلحاحها وأقرب الى أعماقه وآصل جذوراً في تكوينه كانت أعصى على الحل وأمنع على المعرفة الموضوعية الجازمة ، والعكس صحيح ، فكلما كانت أقرب الى السطح ولا تخطر إلاّ الماماً ، وفي سياق أفكار أخرى ، كانت أكثر موضوعية ، وكانت أكثر استعداداً لأن يبت فيها .

وعلى ضوء ما تقدم نرى أننا إذا ما أردنا تطبيق ذلك على تاريخ البحث العلمي ، فإننا نرى أن رغبة اكتشاف ماهية الأشياء وأصلها ومصيرها والغاية منها ... هي المتسلطة وهي أول ما يخطر للفكر ، وهي أكثر ضغطاً عليه من معرفة مظاهرها وأحوالها وخواصها الفزيائية والكيماوية ، فتمدّد الأجسام بنسبة تعرضها للحرارة و . . . . أشياء ليست من ضروريات التفكير الأولية ، وليس نفوذها عليه بمقدار تلك ، وليست أكثر ضغطاً عليه من فكرة الله والنفس وغاية الوجود ، أما أصل النجوم ومصيرها وكيفية ارتباطها بعضها ببعض ، والغاية التي يهدف اليه وجودها ، ومعرفة ما إذا كانت تكفي في تفسير وجودها أم لا بدّ لها من خالق مبدع . . . هذه المشاكل المعقدة التي أثارها الاغريق منذ خمسة وعشرين قرناً ، لا تزال تثار ولا تزال تثور ، ولا تزال العقول تخوض فيها الى أن يأتي يوم يمكن للعقل العلمي أن يغزوها ويحطمها مهما تكن مناعتها ، ومهما يكن اختصاص الفلسفة فيها كبيراً ، وأنه مهما تكن وظيفة العلم سطحية ووظيفة الفلسفة جذورية ، عميقة فإن العلم سوف يغزو الفلسفة ، وينازعها اختصاصها .

إن أرخص الأشياء أسرعها الى الكشف والحل وأطوعها للمعرفة ، وقيمة الأشياء

ليست في سرعة استكشافها ، وانما في مقدار حصانتها على العلم واستعصائها على الكشف واستمرارها على الادراك البشري ...

الاجرام السماوية

سبق أن قلنا أن هذا الكون عظيم فما معنى ذلك يا ترى ؟ وما وجه عظمته ؟ وهل هو أكثر من مادة صلبة ذات توزيع خاص في المكان ؟

الواقع ان الجواب على هذا السؤال هو كل شيء في التفكير وكل شيء في العلم وكل شيء في الفلسفة ، فهو يحمل سر الوجود وتفسير التاريخ ، وبمقدار نجاح العلم والفلسفة في المشاركة بهذا الجواب يكون إدراكنا موفقاً ، وتكون الصورة التي نكونها لانفسنا عن هذا الكون أدنى الى الصحة وأقرب الى الواقع .

وأول ما يتبادر الى الذهن في هذا الصدد هو شكل الأرض وموقعها من الفضاء وطريقة توزيع السيارات فيه ونسبة أبعادها بعضها الى بعض ، ومدى سرعتها وحركاتها .

فالأرض هي سيار صغير لا قيمة له بالقياس الى باقي الأجرام السماوية الأخرى ، انفصلت عن الشمس منذ ملايين السنين انفصالاً محدوداً جعلها لا تزال خاضعة لتأثيرها ، ولا تزال تقع في منطقة نفوذها بحيث استمرت تدور حولها في أفلاك اهليليجية [١] من الغرب الى الشرق بسرعة ١٨٫٥ ميل في الثانية ، وليست الأرض هي وحدها هي التي انفصلت عن الشمس في تاريخها الغازي ، وإنما هناك الى جانب الأرض تسعة سيارات أخرى متفاوتة في أحجامها وسرعتها انفصلت عن الشمس — الأم — كذلك ، وهي تدور حولها بانتظام في أفلاك اهليليجية تختلف ضيقاً واتساعاً وهي على هذا الترتيب (١) عطارد (٢) الزهرة (٣) الأرض (٤) المريخ (٥) النجيمات أو حطام سيار متحطم (٦) المشتري (٧) زحل (٨) أورانوس (٩) نبتون (١٠) بلوتو .

وتسمى الشمس وملحقاتها العشرة هذه بالمجموعة الشمسية أو النظام الشمسي [٢] وتسير بسرعة ٢٠٠ ميل في الثانية .

---

(١) بيضية الشكل لا دائرية (٢) Système solaire

هذا وليس الفضاء مقصوراً على المجموعة الشمسية هذه وحدها ، بل ان هنالك النظام المجرّي الذي تعد الشمس وتوابعهـا داخلة في نظامه ، فالمجرة [١] التي تبدو كلطخ سحابية ممتدة على طول معين من السماء ، ليست في الواقع وبعد الرصد الدقيق إلاّ مجموعات من النجوم [٢] التي تربو — حسب تقدير السير جيمس جينز — [٣] على مئة الف مليون نجم ، أكبرها يساوي ١٠٠ مرة حجم الشمس وبعضها يساوي ١/١٠ من حجمها ، على ان حجم الشمس عموماً هو المعدّل الأوسط لأحجام الجميع ، وهذه النجوم في توزيعها في المجرّة هي كالقرص المنتفخ ، تقع الشمس وتوابعها من جهة مركزه في ثلث المسافة بين المركز [٤] والمحيط ، [٥] وكيما تكون لديك فكرة تقريبيـة عن سعة عالم المجرّة هـذا ، تصور أن الضوء يقضي ثلث مليون سنة حتى يعبره من جانب الى آخر ، مع العلم بأن سرعة النور هي ١٨٦٠٠٠ ميلاً أو ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر في الثانية .

وكذلك إنّ الحركة ليست مقصورة على المجموعة الشمسية وحدها ، كلاّ ، فإنّ هذا القرص المنتفخ من المجموعات النجومية ، أو هذا النظام المجرّي الهائل ، الذي يحتوي على النظام الشمسي قرب مركزه ، يخضع — كغيره من الأجرام السماوية الأخرى — لقانون الحركة العام ، وهو يدور — كما تدور السيارات حول الشمس — حول مركز عام — قد يكون وهميّـاً ، هو من البعد بحيث أنّ الضوء يستغرق ، للوصول منه إلينا ، نحو ٥٠٠٠٠ سنة ، ولعلّ هـذا الدوران يفسر تسطح المجرّة واتّخاذها شكل القرص ، ثمّ إن النجوم الأقرب الى المركز أكثر ازدحاماً من النجوم المتباعدة عنـه ، وبالتالي هي أكثر حركة منها ، لسبب بسيط ، هو أنّ قوّة الجذب أكثر ما تكون عند المركز ، ثمّ تأخذ بالضعف كلما بعدت عنه ، كما هي الحال في النظام الشمسي ، فانّ أسرع السيارات أقربها الى الشمس وأبطؤها أبعدها .

وعلاوة على ذلك ، أن نظامنـا المجرّي الهائل ، لا يحتل كل الفضـاء ، بل ان العلماء قد اكتشفوا حتى الآن ، بفضل التقدّم في مستحدثات الرصد العلمية الدقيقة اليوم ، نحو

(١) درب التبان أو الطريق اللبني Voie lactée (٢) Costellations (٣) Sir J. Jeans
(٤) Centre (٥) Circonférence

مليوني نظام مجرّي كنظامنا ، وشبهوا هذه المجرّات بجزر في أوقيانوس الفضاء غير المتناهي

والرأي الغالب في الأوساط العلميـة اليوم ، إن مجموعتنا المجرية هذه ، هي من أعظم المجرات إن لم تكن أعظمها ، وهي بالنسبة إليها كقارة بالنسبة الى جزر متفاوتة في أحجامها ، وتبدو في المراقب كأنها سدم أو سحب بعضها مستدير الشكل ، وبعضها بيضي ، وبعضها حلزوني [1] يلتف بعضها على بعض ، وكلها يدور في الفضاء بسرعات خيالية :

ولما كان كل شيء في الفضاء في حركة دائمة ، ولما لم يكن هنالك مكان ثابت تنسب إليه مواقع الأجسام ، كان من المستحيل امكان الوصول الى شيئين :

(١) تحديد موضع جسم ما في الفضاء تحديداً مطلقاً .

(٢) اكتشاف السرعة المطلقة لهذا الجسم .

لنفرض أن سفينة كانت تسير بسرعة ميل واحد في الثانية ، فهل معنى هذا أن سرعتها المطلقة هي ميل ؟ لو كانت الأرض ثابتة لأمكن ذلك ، ولـكن الأرض تدور حول الشمس بسرعة ١٨٫٥ ميل في الثانية ، فيجب والحالة هذه ، أن تضاف سرعة السفينة الى سرعة الأرض كيما يكون حسابنا أكثر دقة أي ١٨٫٥ + ١ = ١٩٫٥ ميل في الثانية .

ولـكن لو كانت الشمس ثابتة والأرض تدور حولها بهذه السرعة لاستطعنا القول أن سرعة السفينة ١٩٫٥ ميل في الثانية ولـكن الشمس نفسها عدا حولهـا من سيارات تسير بسرعة ١٢ ميل في الثانيـة ، في اتجاه النجم المسمى « النسر الواقع [2] » التـابع لـكوكبة « اللور » أو السلياق » فلا بدّ إذن من حساب سرعة النظام الشمسي فضلاً عن سرعة الأرض .

* * *

ولـكن النسر الواقع هذا ليس ثابتاً بل هو متحرك أيضاً كأي سيار آخر في الفضاء بسرعة ٢٠٠ كيلو متر في الثانية حول مركز آخر في المجرة ، وهذه تدور حول مركزها كما تدور السـيارات حول الشمس ، وهكذا . . . . فلا نستطيع اكتشاف سرعة ما في الفضاء الاّ بالقياس الى نجم آخر .

---

(١) Spiral (٢) Vega

اذن ليس للسرعة المطلقة وجود بتاتاً ، أو على الأقل لا سبيل الى اكتشافها ، بل أن لكل سيار سرعة خاصة بالنسبة الى سيار آخر ، فالسفينة تسير بالنسبة الى الشاطىء بسرعة ميل واحد في الثانية ، وبالنسبة الى الأرض بسرعة ١ + ٥ ر ١٨ = ٥ر١٩ ميل في الثانية وبالنسبة الى الشمس بسرعة ... وهلمّ جرّا ... ومعنى هذا أن السرعة نسبية في السكون ، كما أن الحركة والسكون نسبيان أيضاً ، وبالتالي أنه لما كان اكتشاف السرعة المطلقة لسيار ما متعذراً ، استتبع ذلك أن اكتشاف موقعه المطلق أكثر تعذراً ، وتعيين مكانه في الفضاء انما هو بالنسبة الى سيار آخر متحرك أيضاً لا بالنسبة الى سيار ثابت .

ولكن هل هذا هو كل شيء ؟ وهل نظرية النسبيــة هي عبــارة عن كل هذه الاستطرادات المملة التي لا تنتهي ، وكل هذه المماحكات والفروض التي لا غناء فيها . هل نظرية النسبية هي عبارة عن أن كل سيار له سرعتان : سرعته وسرعة المجموعة التي ينتمي اليها ، وكل مجموعة سيارية [1] لها سرعتان ... وكل مجموعات مع بعضها لها سرعتان ... وهكذا الى غير نهاية ، ومعنى هذا أن لكل جسم في النهاية أكثر من مليون سرعة ....

* * *

لو كان الأمر كذلك لما كان في نظرية النسبية من جديد ، لأن كل هذا الحشد كان معروفاً لدى العلماء قبل أن يخلق « انشتين » وقبل أن يسمع العالم بهذه النظرية ، وبضاعة القدامى ، من هذه الذخائر والكنوز وغيرها ، لا تبارى والحمد لله .

الواقع أن نظرية النسبية لا تقتصر على هذه الأمور ، وان أهميتها مرتبطة بقيمتها ، كنظرية جديدة كل الجدّة ، لا تقل عن نظرية كوبرنيق [2] أو نظرية «دالتون» [3] الذرية أو نظرية « داروين» [4] في النشوء والارتقاء ، أو كشوف (مدام كوري) [5] الراديومية ، أجل لا تقل عنها في أهمياتها وآثارها الانقلابية الخطيرة ، فهي تعد بحق فتحاً جديداً في تطور العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية ، ولا بد أن يتضح ذلك فيما بعد .

---

(١) Planétaire (٢) N. Copernic (٣) J. Dalton (٤) Ch. R. Darwin (٥) Mme. Curie

سرعة النور

إن للنور أهمية كبرى في قياس الأبعاد ، وان اغفاله في التجربة الفلكية يؤدي الى نتائج غير نهائية حاسمة ، لذلك كان من الضروري أن نعني بهذه الناحية عناية خاصة ، ونلفت الأنظار الى الحقائق التاريخية ومشاهدات الرصد التي لابست جهود العلماء في اكتشاف سرعة الضوء ، لنرى الى أي حد تصدق تأكيداتنا السابقة فيما يتعلق بالسرعة النسبية في الكون ، والى أي حد يجب أن يبلغ ايماننا بهذا الاطلاق .

كان القدماء ينظرون الى الرؤية كشعاع ذاتي يخرج من العين ويلامس الأشياء التي يراد رؤيتها فتُرى ، واستمرّ هذا الزعم حتى عهد ابن الهيثم ، ذلك الرياضي العربي العظيم ، الذي نظر الى الرؤية تلك النظرة العلمية الصحيحة التي نؤمن بها اليوم ، وأثبت أن الشعاع يدخل العين من الجسم المرئي ، لا أن العين تخرج شعاعاً يلامس الأشياء ، ثم بحث الضوء وقوانين انعكاسه وانكساره مما لا يزال يعد بحق أساس علم البصريات [1] الحديث ومرجعاً هامّاً من مراجعه .

هذا فيما يتعلق بماهية الضوء ، أما سرعته في الفضاء وقياس هذه السرعة فمسألة لم يتعرض لها أحد من العلماء قبل أواسط القرن السابع عشر . ولعلّ « غاليليو » [2] الايطالي هو أول من حاول معرفة ما اذا كانت سرعة النور محدودة ، أم غير محدودة ، ولكن الآلات التي استخدمها في أغراض هذه التجربة لم تكن من الدقة بحيث يستطيع بها أن يبت فيما اذا كان انتقال الضوء من مكان الى آخر يستغرق وقتاً ما أو لا يستغرق ، وفي أواخر سنة ١٦٧٥ شاهد الفلكي الدانمركي « رومر » [3] خسوف أقمار « المشتري » [4] التي كان قد اكتشف بعضها « غاليليو » المذكور ، فكما ان للأرض قمراً واحداً يدور حولها ، كذلك للمشتري تسعة أقمار تدور حوله ، منها أربعة يمكن أن نراها بسهولة بمنظار صغير ، والمعلوم ان خسوف قمر الأرض معناه وقوعها في ظله ، أي وقوع الأرض بينه وبين الشمس ، وحجبها أشعتها عنه ، وهذا نفسه ما يحدث بالنسبة الى أقمار المشتري ، فاذا ما وقع هذا الأخير بين أحد أقماره وبين الشمس حجب أشعتها عنه ، وبعبارة فلكية

---

(١) Optique (٢) G. Galilée (٣) Römer (٤) Jupiter

أصبح ، خسف قمره لعدم وصول الشمس اليه ، ومن الطبيعي أن يكون لكل قمر من هذه الأقمار دورته الكاملة حول المشتري في مواعيد معينة ، وبالتالي لا بدَّ أن يطرأ عليه الخسوف في مواعيد معينة بحيث تطابق الفترة التي بين خسوف والذي يليه الفترة التالية التي بين هذا الخسوف الأخير والخسوف الذي يليه وهلم جرًّا . . . . هذه هي النتيجة المنتظرة التي كان يجب الحصول عليها ، ولكن « رومر » لم يحصل عليها لحسن الحظ ، بل لاحظ أن بعد الأرض عن المشتري وقربها منه يؤثر في النتائج التي حصل عليها ، فبدل أن تكون هذه الفترات الواقعة بين أوقات الخسوف كما ترى من الأرض منتظمة ، اذا بها ترتبط ببعد الأرض عن المشتري ، فتتناقص اذا كانت الأرض تقترب منه،وتتزايد اذا كانت تبتعد عنه . وقد فسر « رومر » هذه الظاهرة الغريبة بأن للضوء سرعة محدودة في الفضاء وان اللحظة التي نرى فيها خسوف قمر المشتري هي غير اللحظة التي حصل فيها الخسوف بالفعل ، والفرق بين الزمنين ، أي بين الزمن الذي ينتظر حدوث الخسوف فيه،وبين الزمن الذي شاهدناه فيه بالفعل ، هذا الفرق يجب أن يكون هو الزمن اللازم للضوء كيما يقطع المسافة التي بين المشتري والأرض . ولما كانت هذه المسافة غير ثابتة ، لسبب بسيط هو تغير حركة الأرض والمشتري حول الشمس ، فمن الطبيعي أن ينشأ تفاوت في طول الفترة بين خسوفين متتاليين . وبعد الحساب الدقيق والأرصاد الفلكية المختلفة صدق هذا التنبؤ وتبين أن الضوء يقطع نحو ١٦٨٠٠٠ ميل أو ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر في الثانية . ثم جاء « برادلي »[١] سنة ١٧٢٦ بتجربته في الزيغ الفلكي ، و « فيزو »[٢] سنة ١٨٤٩ بعجلته المسننة التي استخدمها « كورنو »[٣] سنة ١٨٧٤ و « يونج »[٤] و « فوربز »[٥] سنة ١٨٨١ و « بورتان »[٦] سنة ١٩٠٠ بعد أن أضافوا اليها تحسينات جديدة ثم « فوكو »[٧] سنة ١٨٦٢ بمرآته الدائرة حول محور ثابت ، وهي التي استخدمها « نيكلسون »[٨] سنة ١٨٨٢ مع بعض تحسينات ، وقد أيدت مشاهدات هؤلاء جميعاً وتجاربهم النتائج التي حصل عليها « رومر » مع فروض طفيفة لا يعتد بها ، كما أثبتت أن سرعة الضوء في الفضاء ثابتة لا تتغير مهما اختلفت مصادرها ، وواحدة في جميع الأكوان ، وليست هنالك سرعة تفوقها .

Perrotin (٦) Forbes (٥) Young (٤) Cornu (٣) Fizeau (٢) Bradly (١)
Nicholson (٨) Foucault (٧)

وعلى هذا نفرض أنك على متن طائرة ، وأن على الأرض شخصاً يراقبك ، وأنت تطير بسرعة كيلو متراً في الثانيـة ، مثلاً ، ففي كل ثانيـة بحكم أنك تبتعد عنه بمقدار كيلو متراً واحداً . هذا الحساب التقليدي الذي يبدو صحيحاً هو حساب علماء الطبيعة السابقين ولـكنه خطأ فاحش من وجهة النظر العامية الفلـكية الحديثة .

ومنشأ الخطأ ليس اننا أغفلنا سرعة الطائرة بالنسـبة الى سرعة الأرض ، وبالنسبة الى سرعة الشمس والنسر الواقع وهكذا الى غير نهاية .... كلاً ، فهذه أشياء لا يتخلى عنها العالم الفلـكي فلا حرمه الله منها ، وانما منشأ الخطأ هو اغفال سرعة النور في حساب سرعة ابتعاد الطائرة عن الشخص المراقب ، ذلك أن حساب المسافة التي تبتعد بها الطائرة عن هذا الشخص يتوقف على النور الذي ينقل اليه خبر بعدها عنـه ، فهو لا يراها في نفس الثانية التي انتقلت فيها ، بل بعد انتهاء هذه الثانية واستئناف ثانية جديدة أخرى ، أي بعد أن تكون الطائرة قد تقدمت قليلاً وقطعت شوطاً ما ، لأن النور الذي حمل إليـه صورة الطائرة من ذلك المـكان ، استغرق وقتاً ما مهما يكن ضئيلاً فهو وقت على كل حال ، وبعبارة أخرى إن صاحبك لم يرك حيث أنت بل حيث كنت قبل أن تقدمت .

وهذا الإسراف في الدقة ليس تمحلاً أو مماحكة كما يبدو لأولة وهلة أي أنه ليس نظريًّا إلاَّ بالنسبة الى الطائرة والأرض ، أي بالنسـبة الى المسافات القصيرة وحسب . أما بالنسبة الى الابعاد السحيقة والمسافات العظيمة كحركات الأفلاك والمجرات والسدم ، فهو شيء أكثر من عملي وشيء له كل الأهمية ، وما هـذا المثل إلاَّ نموذج تقريبي ، لتسهيل هذه المسألة وتقريبها الى الأذهان .

الأثير

عرضنا حتى الآن لأهمية النور في قياس الابعاد وسرعة هذا النور في الفضاء ، إلاَّ أننا لا ندري شيئاً عن طبيعة الوسط الذي يسير فيـه النور ، هل هو ملاء أم خلاء ، وهل هو متحرك أم ثابت ، وهل هو كثيف أم لطيف .

للإجابة على هذا السؤال يجب أن نشير هنا الى حقيقة هامة في العلوم الطبيعية أو على الأقل حقيقة سيطرت على أذهان العلماء مدّة طويلة ، وهي أن المادة لا تعـمل إلاَّ حيث

توجد، وانها لا يمكن أن تعمل حيث لا توجد، وأن الشيء لا يؤثر فيما كان بعيداً عنه، والتأثير عن بعد لا يتم الا بوجود وسط ناقل يحمل هذا التأثير من الجسم الفاعل الى الجسم المنفعل، ومن غير هذا الوسط يستحيل التأثير عن بعد، وقد اضطر العلماء الى فرض هذا الوسط، أو هـذا الأثير، بعد أن عجزوا عن تفسير ظاهرة التأثير عن بعـد، التي نشاهدها دواماً في الطبيعة.

وظاهرة التأثير عن بعد هذه كثيرة الحدوث في الطبيعة، فالحرارة تنتقل من جسم الى آخر بفضل وسط حامل لها، والظاهرات الكهربائية والمغناطيسية والألكترومغناطيسية معاً تنتقل من وسط الى وسط آخر دون أن نعثر بينها على موصل يحملها، وكذلك ضوء الشمس يستغرق نحو ثماني دقائق تقريباً للوصول الى الأرض و..... فهذه الظواهر وغيرها تجري في الطبيعة. ولـكن خواص المادة المعروفة عاجزة عن تفسيرها دون أن تفروض جود وسط ناقل أو أثير، يتخلل الـكون كله، ويتصرف كموصل جيـد بين الأكوان بعضها مع بعض؛ وعلى هذه النظرية ان الحرارة هي عبارة عن موجة اثيرية أثيرت في مـكان ما، ثم حملها الأثير الى مكان آخر، والمغناطيس هو عبارة عن موجة اثيرية انتقلت كذلك، والنور هو عبارة عن موجة أثيرية في حالة عدم الاستقرار انتقلت من الشمس الينا.

وعليه يستحيل أن نتصور هذه الموجات الا إذا قامت بجسم متموج، وقد عرّف اللورد «سلسبري»[1] الأثير بأنه[2] فاعل الفعل «تموج». وفوق هذا فان فريقاً كبيراً من العلماء يذهب الى أبعد من ذلك، فيرد الـكون كله، بما فيه الأشياء المادية، فضلاً عن الظاهرات الموجية الأخرى، الى مجموعات من الموجات تتفاوت في أطوالها وذبذباتها، وعلى هذا فمن الضروري وجود الأثير ولو لم نفهم طبيعته.

ولـكن هذا الأثير الذي اضطر العلماء الى فرضه اضطراراً هل هو موجود بالفعل، أم أن وجوده ليس أكثر من فرض؟ أي هل قابل العلماء هذا الفرض من غير تحفظ وأقروه كحقيقة لا بد منها أم انهم ثاروا عليه وقاوموه وكانت لهم فيه جهود تجريبية حاسمة؟.

الواقع ان العلماء ليسوا أطفالاً الى هذا الحد، وانهم لا يقـرون فرضاً أو بدعة جديدة في التفكير من غير أن يناقشوها مناقشة شاملة ويستقصوا جميع احتمالاتها، ويقلبوا

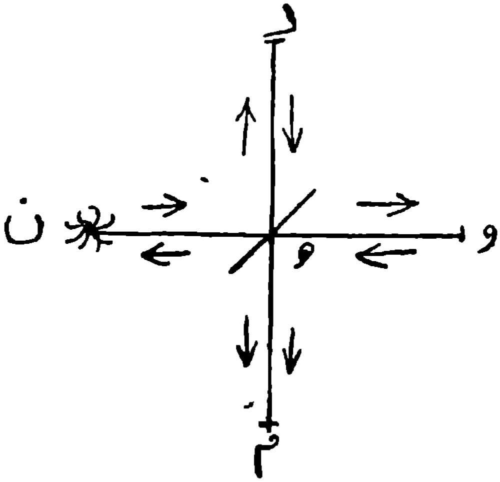
(١) Lord Salisbury (٢) The nominative of the verb "to undulate"

كل وجوه الرأي فيها ، حتى لا يبقى هنالك مجال للشك في جزئي من جزئياتها، وحتى تنساق الى العقل انسياقاً وتفرض نفسها عليه فرضاً لا يملك الانسان حق قبوله أو رفضه ، هذا هو التحقيق العلمي المتبع في اقرار الفروض الجديدة ، وهذا هو التقليد الذي جرى عليه العلماء منذ عصر النهضة ، وهذا نفسه هو ما اتبع بالنسبة الى وجود الأثير ، ولئن آمن به العلماء حقبة لا يستهان بها ، فهذا الايمان مؤقت ريثما ينكشف لهم من الحقائق . ومن خصائص المادة والطاقة ما ينهض بحاجات التفكير الجديد وما يستطيع أن يفسر ما أعوزهم تفسيره وما عجزوا عن التوفيق بينه وبين الحقائق التي وصلوا اليها ، وعلى هذا فالأثير لم يصمد لنقد العلماء ومشاهداتهم ، ولم يكن له من الحصانة ما يستطيع أن يثبت به الى ما بعد تاريخ وقوع تجربة (ميكلسون — مورلي) التي عصفت بوجوده وجعلته في خبر كان وسيأتي ذكرها بعد قليل .

ولعلّ من الانصاف أن نقول إنه لا تزال للأثير أنصار ومؤيدون يؤمنون بوجوده ايمانهم بشيء ضروري ، ولكن لا يعبأ بهؤلاء من حيث عقائدهم بالأثير ، لا من حيث خدماتهم وآرائهم العلمية الأخرى ، لأنهم يتّسهمون بميول تتصل بالعالم الروحي الحديث ، ونظريات استحضار الأرواح الأمريكية ، وليس هذا وحسب ، فذلك لا يغض من قيمة نظرياتهم العلمية الأخرى ما دامت سليمة من هذه الملابسات الروحية ، وهم أحرار في اختيار عقائدهم الشخصيـة ، اذا لم تسمم نظرياتهم العلمية الأخرى ، ولكن الذي لا يُقرّون عليه ، هو أنهم يمنحون هذا الأثير وجوداً روحيًا وصفات روحية لا تعترف بها خصائص المادّة المعروفة ، ويسندون إليه وظائف متناقضة ما أنزل الله بها من سلطان ، فهذا بالضبط هو ما لا يُغفر لهم مطلقاً ، خصوصاً وان النظريات العلميـة لا تكتسب أهميتها من صفات الأشخاص الذين يقولون بها ، مهما تكن جهودهم في خدمة العلم ، بمقدار ما تكتسبها من استعدادها للاختبار وخضوعها للتجربة ، ولا نكون متحاملين على العلم الروحي الحديث إذا قلنا انه لم يصل بعد الى هـذه المرتبة من القطع واليقين ، رغم تحمس أتباعه في مصر وأمريكا . وان الآراء التي يعتمد عليها لا تزال موضع شك جمهور العلماء ، وهذا لا يمنع أن هذا العلم يمر الآن بالأدوار التي تمر بها النظريات العلمية المستجدة ، فيرفضها العلماء بادىء ذي بدء ثم يقرونها إذا صمدت لتجاربهم وخضعت لشروطهم الصارمة .

تجربة ميكلسون ومورلي [١]

المعلوم ان الأرض تدور حول الشمس بسرعة معينة وتتجه من الغرب الى الشرق ، فاذا ما أرسلنا حجراً في اتجاهها مثلاً — من الغرب الى الشرق — فلا بدّ أن تختلف سرعته عنها ضد هذا الاتجاه — من الشرق الى الغرب — أو في الاتجاه العمودي [٢] عليه — من الشمال الى الجنوب أو من الجنوب الى الشمال وكذلك اذا كان الضوء يحدث في الأثير وكانت الأرض متحركة في هـذا الأثير ، فإن سرعة الضوء يجب أن تختلف باختلاف حركة الأرض في هذا الأثير ، فاذا كانت سرعته في اتجاهها حوالي ٣٠٠٠٠٠ كيلو متراً في الثانية ، فإن سرعته ضد هـذا الاتجاه يجب ألاّ تكون كذلك ، وإذن فإن سرعة الضوء يجب ألاّ تكون متساوية في جميع الاتجاهات بل يجب أن تزيد وتنقص تبعاً لهذه الاتجاهات لحركة الأرض في الأثير الراكد ، ومعنى هـذا أن سرعة النور يجب أن ترتبط باتجاه الأرض ، وإحداث أي تغيير في هذا الاتجاه يجب أن يؤثر في هذه السرعة زيادة أو نقصاً



الشكل الاول

لنفرض ان شعاعة النور (ن) تخرج من مصدرها وتقع على مرآة (ه) نصف عاكسة [٣] مائلة بمقدار ٤٥° . فلا بدّ أن تـشـق الشعاعة (ن) كما في الشكل الأول الى شقين — المعكوسة (ه د) والنافذة (ه و) التي هي امتداد الشعاعة (ن) ، وفي كل نقطة من (د) و (و) توجد مرآة عادية على بعد واحد من المرآة (ه) تعكس كلاً من الشعاعتين (ه د) و (ه و) الى المرآة المطلية (ه) وهنا عند التقائهما ثانية ، تعكسان عكساً نصفيّاً الى (م)

(١) Michelson-Morley Experiment (٢) Perpendiculaire

(٣) مطلية الى نصفها بالفضة

أي إن نصف الشعاعة الشمالية يخترق المرآة الى (م) ونصف الشعاعة الشرقية ينعكس عنها الى (م) أيضاً حيث يوجد جهاز فني خاص يكشف لنا عما اذا كانت الشعاعتان قد وصلتا معاً الى (م) في وقت واحد أم وصلتا متلاحقتين متتابعتين .

في هـذه التجربة توجد شعاعتان غير متحدتي الاتجاه بالنسبة الى اتجاه حركة الأرض وإذن فيجب ألاّ تكونا متحدتي السرعة فلا تصلا معاً بل يجب أن تصل إحداهما الى (م) قبل الأخرى .

على هذه الأسس أجرى الدكتور (ميكلسون) والأستاذ (مورلي) تجربتهما التاريخية الخطيرة بغاية الدقة والأحكام في معمل جامعة كليفلند في أوهايو[1] بأمريكا سنة ١٨٨٧ ولكن لسوء أو لحسن الحظ ، بدل ان تصل الشعاعتان متتابعتين كما هو المنتظر ، وصلتا معاً الى (م) في وقت واحـد ولم يظهر فرق بين مدتي رحلتي الشعاعتين ، كأن الأرض ثابتة في الفضاء غير متحركة ، غير إنه من المعـلوم أن الأرض تدور حول الشمس بسرعة ٣٠ ك م ف . ث فلم لم تعد إحدى الشعاعتين قبل الأخرى بل عادتا معاً ؟ هل معنى هـذا ان الأرض ثابتة في الأثير لا تتجه من الغرب الى الشرق فلم يعد هنالك فرق بين أن يسير النور في اتجاه الأرض أم ضد اتجاهها ؟ .

معنى هذا ان الأرض أما ان تكون ثابتة في الفضاء على الدوام ، وان الشمس وسائر أجزاء الكون تدور حولها ، وذلك يرجع بنا الى القول بأن الأرض مركز العـالم ، وان الشمس والكواكب الأخرى تدور حولها ، كما كان يقال قبل عصر (كوبرنيكوس)[2] وإما ان هنالك خللاً في التجربة ، وإما ان التجربة صحيحة لا خلل فيها ، وان الأرض تدور حول الشمس بالفعل ، ولكن هنالك قانوناً أساسيًّا في الطبيعة لا يزال مستخفياً على العلماء ، منيعاً على تجاربهم ومشاهداتهم ولا داعي لفرض الأثير .

فأما الأمر الأول وهو القول بمركزية الأرض في الكون فما لا يستطاع التسليم بأنه تفسير صحيح لنتائج هذه التجربة ، لأن دوران الأرض مبدأ أساسي في الطبيعة ظاهرته تجارب بلغت من الدقة حدًّا يستطاع معه قياس جزء من ٢٠٠ جزء من هذه السرعة .

وأما الأمر الثاني وهو وقوع خلل في التجربة فيمكن التغلب عليه بأن نذكر ان الضوء

(١) University of Cleveland (Ohio) _ (٢) Copernic .

يقطع ٣٠٠٫٠٠٠ ك . م ف . ث . فقياس الفرق بين سرعتي شعاعتين تقطعان بضعة أمتار بهذه السرعة الهائلة عمل في غاية الدقة ويحتاج الى مهارة شديدة ، فكان ان تمخضت عبقرية (ميكلسون) عن جهاز أسماه (الانترفروفتر) أمكن به قياس سرعة تعادل نحو عشر سرعة النور ، وذلك عند ماكان يشتغل في معمل (هلمهلتز)[1] الطبيعي ببرلين ، إلا أن اهتزاز أرض هذه المدينة من جراء سير العربات والقطارات الحديدية والكهربائية فيها ، يُشَكِّكُ في قيمة النتائج التي أمكن الحصول عليها ، فنقل هذا الجهاز الى (بوتسدام) ببروسيا ، ومع ذلك كانت النتائج لا تبعث على الارتياح ، ولما عاد الى الولايات المتحدة بنى ، بمعونة زميله الأستاذ (مورلي) «انترفرومتراً» كبيراً في كلية «كايس» بمدينة «كليفلند» بولاية (اوهيو) ومع ذلك وصلت الشعاعتان معاً ، مما يفضي بنا الى اعتبار سرعة النور واحدة في كلا الاتجاهين ، وهذا مخالف لما كان قد توقعه العلماء من قبل ، ثم أعيدت التجربة بواسطة مورلي واحد أعوانه في (كليفلند) وبوساطة ميكلسون في شيكاغو ، وكررت مثنى وثلاث ورباع وفي فصول مختلفة من السنة ، عسى أن يكون لموقع الأرض من الشمس تأثير في وصول الشعاعتين معاً . . . . . فكانت النتيجة واحدة في جميع الحالات ولم يظهر أي فرق في وصول الشعاعتين .

وأما الأمر الثالث وهو ان قانوناً في الطبيعة لا يزال مستسراً ، فهذا احتمال لا يُجَارَى في قوته خصوصاً وان المجهول في الكون ليربو على المعلوم ، وبفضل النتيجة السلبية في تجربة (ميكلسون) و (مورلي) تمكن العلماء من اقتناص هذا القانون واستكشافه استكشافاً أضاف الى حقائق العلم الطبيعي حقيقة جديدة قلبت وجهة نظرنا في المادة وفي نظام توزيع ذراتها رأساً على عقب ، وكانت مفتاحاً للنظرية النسبية باعتراف (انشتين) نفسه في أحد اجتماعاته العلمية بكليفورنيا .

قلنا أن العلماء قد تحيروا كثيراً في تفسير سلبية تجربة (ميكلسون — مورلي) ذلك انهم لو اكتشفوا أي فرق بين عودة الشعاعتين الى جهازها لاستطاعوا اكتشاف سرعة الأرض في الأثير ، في أي موقع من مواقعها حول الشمس ، ولاستطاعوا أيضاً اكتشاف

---

(١) Von Helmholty

سرعة المجرة ، بما فيها المجموعة الشمسية في هذا الأثير ، ولـكن لو .....

قد تقول ان سرعة الأرض في فلكها حول الشمس هي ٣٠ كـ م في الثانية أفليست هذه سرعتها في الأثير وغير الأثير ، ؟ كلاً ... ان الأرض تسير في فلكها بسرعة ٣٠ كـ م في الثانية وفلكها نفسه بما فيه يسير بسرعة ١٥ كـ . م في الثانية في اتجاه النسر الواقع) وهذا وفلكه والمجموعة الشمسية تسير بسرعة ٢٠٠ كـ م في الثانـية في المجرة ، والمجرة نفسها تسير بسرعة مجهولة ، والمجرات بمجموعها تسير بسرعة مجهولة أيضاً فسرعة الأرض المجرية ، أو سرعة الأرض المجموع مجرية ، أو سرعة الأرض في الأثير أو سرعة السرعات أو السرعة النهائية المطلقة للأرض إذن هي سرعة مجهولة وهي ما يريد العلماء اكتشافه .

تقلص الأجسام في اتجاه سرعتها

تسابق العلماء في أعقاب هذه التجربة ، الى تصميم الفروض والاحتمالات ولم يسلم واحد منها من الردود والاعتراضات الكثيرة ، وكان خيرها جميعاً هو اقتراح كل من (فتزجرالد) [1] عام ١٨٩٣ و (لورنتز) [2] عام ١٨٩٥ ، إذ قالا ، كل واحد منهما على حدة ، ان الأجسام تتقلص في خط اتجاه سرعتها بنسبة تزداد بازدياد هذه السرعة ، فالأرض تتقلص في خط اتجاه سرعتها تقلصاً يعوض الفرق النظري بين رحلتي الشعاعتين بحيث يعودان عمليًّا معاً في وقت واحد ، وكذلك تتقلص مقاييسنا الطولية كالمساطر والأمتار في خط اتجاه سرعتها أو حركتها ، وعلى ذلك فان جهاز (ميكلسون ومورلي) الذي يسير مع الأرض بسرعة ٣٠ كيلومتر في الثانية ومع الشمس بسرعة ١٥ كـ م في الثانية ومع الـ ... قد انكمش بنفس الطريقة في اتجاه حركة الأرض . وبذلك ينقص الزمان اللازم لحركة الضوء في اجتيـاز تلك المسافة المختزلة المتقلصة ، ويصير مساوياً لزمن الحركة العمودية على ذلك الاتجاه أو المعاكسة له ، الذي لم يتقلص بعد ، ويكون بذلك بديلاً يعوض الفرق بينهما ، فتستطيع الشعاعتان أن تصلا معاً في وقت واحد .

هذا وليس انكماش (فتزجرالد) و (لورنتز) مجرد فرض لامبرر له في العلوم الطبيعية

---

(1) G. F. Fitz Gerald (2) H. F. Lorentz

والرياضية ، ذلك ان المادة ، لما كان بناؤها كهربائيًّا محضاً ، أي ليس فيه إلاّ جُسيمات مشحونة بالكهرباء ، فإنها إذا ما تحركت فإن ذراتها يتغير توزيعها مؤقتاً بفعل الجوّ الالكترومغناطيسي الذي تخلقه حولها ، وعندما تسكن حركتها ، ينكمش الجسم بمقدار معين ثبت علميًّا إنه بالضبط المقدار الذي يتطلبه التعادل في تجربة (ميكلسون ومورلي)

وان هذا التفسير التقلصي ينطبق على كل مقياس مادي كما تقدّم . فاذا ما تحرك متر في اتجاه طوله فانه يتقلص بمقدار سرعته فيصير طوله أقل من متر ، والأرض التي تدور حول الشمس بسرعة ٣٠ كيلومتر في الثانية ينكمش قطرها (١) الى سبعة سنتمترات ... ولو أن الأرض تحركت بسرعة النور (٢) لتلاشت من الوجود ، لأن سرعة اندفاع الجسم إذا بلغت سرعته انتشار النور ، أو ما يقاربها بلغ التقلص أقصاه ، ولم يصبح للجسم عمق لدى النظر إليه لأن الأجسام عندما تبلغ من السرعة كل هذا الحد ، تلوح كصفائح رقيقة لا عمق لها سابحة في المكان ، ولذلك يستحيل أن توجد سرعة تساوي سرعة النور أو تفوقها ، والفروق بين الأجسام تنشأ من اختلاف سرعتها كما يرى الدكتور مشرّفة باشا ، وليس هذا فقط ، بل ان أطوال الأجسام تختلف مقاديرها باختلاف السرعة النسبية بينها وبين من يراقبها ، أي ان الأطوال ليست حقيقة مجردة ، بل هي مسألة نسبية بحتة ، فطول هذا المتر في نظري ليس هو نفسه في نظر انسان آخر ، يتحرك هو أو يتحرّك المتر أمامه بسرعة أخرى غير التي أتحرّك بها أنا ، أو التي يتحرّك بها متري ، ولنفرض أن شخصاً يتحرّك بالنسبة إلينا بسرعة تقارب سرعة النور مثلاً ، فلا بدّ أنه سيختلف معنا على أطوال أجسامنا الأرضية ، فيعزو إليها ما يقارب نصف الأطوال التي نعزوها إليها نحن . ولا بدّ أن يقول ان اطوالنا قد تقلصت في خط اتجاه سرعتها . وعلاوة على ذلك ان هذا التقلص تبادلي (٣) ، فكما ان هذا الشخص الذي يتحرّك بسرعة تقارب سرعة النور يتهم أطوالنا وأشياءنا بأنها منكمشة الى مايقارب نصف حجمها ، فكذلك هو بدوره يظهر لنا منكمشاً الى ما يقارب نصف طوله في خط اتجاه سرعته ... ومعنى هذا أنه لما كان هذا الإنكماش حادثاً لكل جسم من الأجسام الموجودة في مجموعتنا ، فإنه يستحيل علينا أن نقيس هذا

(١) Son diamètre (٢) أي ٣٠٠٠٠٠ كم في الثانية (٣) Réciproque

الانكماش أو نحكم بوجوده لأن كل مقياس نستخدمه للعثور على هـذا الانكماش ينكمش هو ذاته . وعلى هذا فلو استطاع (ميكلسون) أن يجد مقياساً يضبط الفرق بين وصول الشعاعتين فان هذا المقياس نفســه سوف ينكمش عندما يقيس به المسافة شرقاً وغرباً ، ويعود الى طوله الأول عند ما يقيس المسافة جنوباً شمالاً مثلاً . ومعنى هذا ان مقاييسنا لا يمكن أن تمتد الى كل نواحي الفضاء ، وإنمـا هي نسبية ، ولـكل عالم مقاييسه الخاصة به . وبالتالي ان كل تجربة لقياس الأطوال المطلقـة للأشياء يجب أن تخفق ، ويجب أن تمنى بالفشل ، إلاَّ أن ثمة مقاييس للطول يعرفها العلماء تبدو ثابتة . فلنر الى أي حد يمكن الاعتماد عليها ؟

هنالك مثلاً أشعة الضوء والقوى الـكهربائية وقانون الجاذبية ، وغيرها ، مما يمكن استخدامه في قياس الابعاد ، فتسابق العلماء الى اختبارها علها تنجح حيث أخفقت المقاييس الأخرى ، غير أن هـذه التجارب قد فشلت لسوء الحظ ، ولم يمكن للعلماء أن يعتمدوا عليها ، ويقال ان في (سيفر)[1] قرب باريس متراً مقياسيًّـا محفوظاً في وعاء زجاجي مفرغ وعلى درجة حرارة معينة ، قضى (ميكلسون) سنةً في باريس يحاول قياسه بأمواج الضوء الأحمر المنبعث من طيف عنصر الـكادميوم[2] ، فكانت النتيجة أن طول هـذا المتر يساوي ١٥٥٣١٦٣٫٥ الموجة ، ومهما يُبالَغ في أهمية هذه الطريقة ، فأقوال العلماء فيها كثيرة ،

وعلى هـذا يبدو لنا كما قال السير (جيمس جينز) « ان قوى الطبيعة بدون استثناء تشترك في مؤامرة منظمة أحسن تنظيم لإخفـاء سرعة الأرض في الأثير ... (المزعوم) وأن قوى الطبيعة هي التي تحول دون الـكشف عن حركة الأرض فيه » !

ولولا تجربة (ميكلسون ومورلي) لما تأتى للعلماء اكتشاف هذا التقلص الذي أحكمت الطبيعة اخفاءه .

ويتبع الاعتراف بنظرية التقلص ، الاعتراف بشيء آخر هو أن للنور سرعة ثابتة لا تتغير ، مهما يكن اتجاه الأرض في الفضاء ، وهو ينتشر في جميع الجهات انتشاراً متساوياً

....

(١) Sèvres (٢) Cadmium (cd)

ولا يخضع لأي ناموس من نواميس الحركة والقوة التي تخضع لها المـادة ، ولولا ذلك لوصلت شعاعة النور ، في تجربة ميكلسون ومورلي ، الواردة من الشرق قبل الشعاعـة الواردة من الغرب ، أو من الشمال ، لأننا ونحن نتجه مع الأرض من الغرب الى الشرق حول الشمس ، نستقبل الأولى — الواردة من الشرق — بسرعة ٣٠ كيلو متر في الثانية. ولكن لما كانت الأرض متحركة ، فلا بد أن يحدث في جرمها ، وفي خط اتجاه حركتها تقلص يقابل الفرق بين سرعة النور في هذين الاتجاهين بحيث لا يظهر لنا فرق في سرعة النور بين هاتين الحالتين ، مهما يكن مصدره ، حتى لـكأننا نظن لذلك أن الأرض ثابتة لا تتحرك بسرعة ٣٠ كيلو متر في الثانية. ولو لم تكن سرعة النور واحدة في الحالين لوجب أن يختلف وقت وصول الشعاعة الأولى عن وقت وصول الشعاعة الثانية ، وهذا ما لم تظهره التجربة ، بل وصلتا معاً .

ولما كان النور متناهي السرعة ثابتها ، اتخذه الفلكيون مقياساً عامّـا للأبعاد السحيقة. فاصطلح العلماء على قياس أبعاد الأجرام السماوية بالمسافات التي يقطعها النور في الثانية أو الدقيقة أو الساعة أو اليوم أو العام ، فيقال أن الشمس تبعد عنا نحو ثماني دقائق ضوئية . وان منكب الجوزاء يبعدعنا ٢٠٠ سنة ضوئية ، وان مركز المجرّة يبعد عنا ٥٠،٠٠٠ سنة ضوئية ، وأن السدم اللولبية تبعد عنا مليون عام ضوئي ، وان سدائم كوكبـة (ذات الشعور) تبعد عنا ٥٠،٠٠٠،٠٠٠ عام نوري ، وان محيط الكون ، حسب تقدير (جينز) ١٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ عام ضوئي ..

تقدّم أن كل تجربة لقياس الأطوال المطلقة للاشياء منيت بالفشل ، وأن ليس ثمة مقاييس ثابتة يمكن الاعتماد عليها واتخاذها اتخاذاً مطلقاً ، وان مقاييسنا الأرضية كلها تخضع في أطوالها للسرعات النسبية التي تسيرها ، وان استخراج الحركة المطلقة للجسم المحرك هي مستحيلة .

لذلك لم يكن غريباً أن تنضج هذه النتائج في دماغ كالذي يحمله « ألبرت آنشتين » ويتخذ منها أساساً يبني عليها نظريته في النسبية الخاصة ، فيعلن في شهر حزيران (يونيو) سنة ١٩٠٥ قانونه الطبيعي ، ويضعه في الصيغة الآتية : ان من شأن الطبيعة أن تجعل من

المستحيل تعيين الحركة المطلقة من طريق التجربة «أيّـا كان نوعها» فكان هذا التصريح أول صيغة للنظرية النسبية كما يقول (جينز) .

* * *

لقد أبـنّـا من قبل كيف فشلت جميع الجهود التجريبية التي بذلت لقياس سرعة الأرض في الأثير الراكد ، أو لقياس السرعة المطلقة للأرض ، وكيف أن هـذه السرعة المطلقة المزعومة لا أثر لها في المشاهدات ولا وسيلة لقياسها ، ومعنى هذا إنه لا داعي لفرض وسط اذا كانت كل وسائلنا الأرضية التي نملكها عاجزة عن قياس سرعتنا أو معرفة اتجاهنا فيه. ولو أن ثمة وسطاً راكداً بهذا المعنى تسبح الأرض فيه فان سرعة الأرض في هـذا الوسط لم يمكن قياسها أو معرفة مقدارها ، وكانت نتيجة التجربة التي أجريت على اعتبار أن الأرض يحوطها بحر من الأثير أن بدت سرعة الأرض في هذا الأثير لا شيئاً ، ودلت جميع نواحي هـذه التجربة على أن الأرض ساكنة على الدوام في الأثير ، ولذلك وصلت الشعاعتان معاً ، فلا فرق بين أن تأتي الشعاعة في اتجاه الأرض أو ضد اتجاهها ، كما دلت أن الشمس وملحقاتها تدور حولها ، وبدا ان ذلك يرجع بنا الى القول بمركزية الأرض في الكون . ومن الطبيعي أن تضع هـذه التجربة الفرض الأثيري في موضع شبهة ، فمن ناحية لا يمكن التسليم بأن الأرض ساكنة لا تتحرك ، والتضحية — في سبيل ذلك — بنظريات علمية ثابتة لا يمكن التخلي عنها ، ومن ناحية ثانيـة ، ان جميع التجارب الصحيحة قد عجزت عن قياس سرعة الأرض في هذا الأثير المزعوم .

وهنالك تجارب أخرى كثيرة ، غير تجربة (ميكلسون ومورلي) قضت على الفرض الأثيري قضاء تامّـا حاسماً وعجزت ، كسابقاتها ، عن تحقيق وجوده ، نذكر منها على سبيل المثال تجربة السير (أوليفر لودج) (١) .

هنالك قانون عام في الطبيعـة يعرف بقانون (فرنيل) (٢) مؤداه أن سرعة الضوء في وسط متحرك تكون أكثر من سرعته اذا كان الوسط ثابتاً ، ففي سنة ١٨٩٣ قام (لودج)

(١) Sir Oliver Lodge (٢) Fresnel

هذا باجراء تجربة اختبار وجود الأثير بنفسه ، فأدار عجلة ثقيلة حول محورها بسرعة كبيرة فإذا كانت العجلة تجر الأثير معهـا في حركتها ، فإن سرعة الضوء بالقرب من حافة العجلة يجب أن تختلف عنها في الفضاء الراكد ، فكانت نتيجة هـذه التجربة أنها أجهزت على البقية الباقية من وجود الأثير ، ولم يظهر فرق بين سرعة النور قرب حافة العجلة التي تجر الأثير معها في حركتها وبين سرعته في الفضاء الراكد البعيد عنها .

ومعنى كل هـذا أن المكان نسبي (١) غير مطلق وأن الحركة نسبية أيضاً ، كما تقدّم . والنتيجة الطبيعية لذلك ، هي أن الزمان نسبي أيضاً ، ولا داعي للتمسك باطلاقه .

لقـد أنكر (انشـتين) وجود مكان مطلق ، كما أنكر وجود زمان مطلق ، وكما أن الأطوال تنكمش فكذلك الزمن ينكمش أيضاً . ولإيضاح ذلك نعود الى مَثَل الشخص الذي يتحرّك بالنسبة إلينا بسرعة تقارب سرعة النور (٢) ، فكما أنه اختلف معنا واختلفنا معه على أطوال أجسامنـا الأرضية ، فنسب اليها ما يقارب نصف الأطوال التي نعزو إليها ، فكذلك يجب أن يمتد هـذا الخلاف بيننا وبينه الى قياس الزمن ، فهو لن ينظر الى الزمن نظرتنا إليه ، بل لا بدّ أن يرى ساعتنا نصف ساعته ودقيقتنا نصف دقيقته والثانية عندنا نصف الثانية عنده . وكما أننا تبادلنا الإتهام في مسألة الطول ، أي كما أن انكماش الأطوال شيء تبادلي بيننا وبينه ، فكذلك قياس الزمن . فكما أنه يرى ساعتنا نصف ساعة ، و ... فإننا بدورنا نرى دقيقته نصف دقيقتنا وثانيته نصف ثانيتنا ، وعليه فتباطؤ الزمن ، هو كانكماش الأطوال ، تبادلي بيننا وبينه على حدّ سواء .

يبدو هذا الكلام فكاهة أكثر ما يبدو حقيقة علمية ، ولا بد أن يستهجن القارىء العادي هذه المفاجأة غير المنتظرة ولا يُقرنا عليهـا ، لأنها تبدو تحكماً لا مبرر له ، وقد يستخفه الهزء فيشنع على هذه النظرية ، ويتخذ من صاحبها ــ المخرّف ــ موضوعاً لتهاريج وسخريات لاذعة فيقول ، بعـد إن يكاد ينفجر من عدم الاصطبار ، قد نقرك على النتائج المتقدمة ، وقد نقبلها على علاّتها رغم صعوبتها ، دون أن نحقق فيها ، لأنها معقولة أو تكاد ، أما ان الدقيقة في عالم هي نصف دقيقة في عالم آخر فهذا ما لا سبيل الى قبوله أو ارتضائه ،

---

(١) أي ليس له أصل ثابت مطلق كالاثير مثلا تنتسب الاشياء اليه (٢) صفحة ٤٠

ان الساعة ساعة والدقيقة دقيقة أينما كانت ، وان (التكتكة) [1] التي تتكها الساعة في الثانية لا بد ان تتكها سواء كانت على الأرض أم في السماء ، وسواء كانت في المريخ أم في الشعرى اليمانية ، وسواء كانت في سجيل أم في عليين .

الحق ان هذا هو المعقول بل الأكثر من المعقول ، ولكن ما العمل إذا كان الواقع شيئاً والأكثر من المعقول شيئاً آخر ؟ فكثيراً ما خالف هذا ذاك . وكثيراً ما وافقه . ولو كان الواقع هو المعقول ، لما وصلت الشعاعتان معاً في تجربة (ميكلسون ومورلي) ولما فوجئنا اليوم بأحكام ونظريات وآراء تخالف ما درجنا على احترامه منذ فجر الحياة ، ولأمكن لعقلنا المعصوم من الخطأ أن يحكم الكون كما يريد ، وان يرتجل له صوراً وتصميمات أقل إعناتاً له وأدنى الى راحته ، ولكن . . . .

وكيما نوضح هذا التخريف نلخص هنا مثلاً لأحد العلماء المعاصرين ، هو الأستاذ نقولا حداد بعد تلخيصه وايجازه وقد جاء في كتابه هندسة الكون فهذا المثل الذي ابتكره الأستاذ حداد هو خير ما وقعت عليه في هذا الصدد ، ولا بد أن يتغلب به القارىء على الصعوبات الذهنية التي تقوم في هذا السبيل .

تصوّر رجلاً في المريخ يحمل جهازاً لاسلكيًّا ينبض نبضة واحدة في الثانية ، يقابل هذا جهاز آخر مثله على الأرض يسجل كل نبضة ترد من المريخ ، وفي هذا الجهاز ساعة يدور عقرباها بفعل هذه النبضة المريخية بانتظام ، وتصوّر ان كلاً من الأرض والمريخ ثابت ، فمن الطبيعي إذن أن يتفق طول الثانية في ساعتنا التي تدور بفعل لاسلكي المريخ مع ساعتنا اليومية التي تسير عليها ، وان تكن « التكتكة » في ساعة المريخ لا بد ان تصل الينا أولاً متأخرة بمقدار المسافة التي تفصلنا عن المريخ ، إلاّ أن التكتكات ترد تباعاً فيسجلها جهازنا بانتظام ويكون طول أية ثانية في المريخ يعادل طول أية ثانية على الأرض .

ولكن المريخ ليس ثابتاً كما تصوّرنا وإنما هو متحرّك ، ويسير بسرعة ١٥ ميلاً في الثانية ، والأرض بدورها تسير بسرعة ١٨٫٥ ميل في الثانية ، ولنفرض ان المسافة بيننا وبين المريخ تنفرج بمقدار ١٨٫٥ ميل في الثانية ،[2] أي ان مسافة الانفراج التي نبتعد بها

(١) Le tic tac . (٢) أي تتمم ويزداد ابتعادنا عن بعضنا بهذا المقدار فقط

عن بعضنا تساوي جزءاً من عشرة آلاف جزء من المسافة التي تقطعها تكتكة لاسلكي المريخ للوصول الينا ، فعندما تمضي ثانية وتنفرج المسافة بيننا وبين المريخ بمقدار ١٨٫٥ ميل أو ٣٠ كيلومتر تتأخر تكتكة لاسلكي المريخ جزءاً من عشرة آلاف جزء من الثانية . وأخيراً لا بد ان نجد ان تكتكة ساعة جهازنا اللاسلكي الذي يسجل « تكتكات » المريخ تتأخر عن ساعتنا اليومية ، حتى إذا ما ابتعد المريخ عنا عشرة آلاف مرة المسافة التي يقطعها في الثانية تكون ساعة جهازنا اللاسلكي قد سجلت ٩٩٩٩ ثانية ، بينما نجد ساعتنا اليومية قد سجلت عشرة آلاف ثانيـة لا ٩٩٩٩ ، أو عشرة آلاف إلاّ ثانيـة ، أي ان الفرق هو ثانية واحدة في كل عشرة آلاف ثانية، وعلى هذا تكون ثانية المريخ في جهازنا اللاسلكي أطول من ثانيتنا بمقدار واحد من عشرة آلاف من الثانية . ولو ان لدى ساكن المريخ جهازاً لاسلكيـاً فيه ساعة كالتي في جهازنا، فلا بدّ أن يرى مثل ما نرى، أي لا بدّ أن يرى أن ثانيتنا عنده أطول من ثانيته . وهـذا هو معنى ما قلناه سابقاً بأن تقلص الزمن هو كانكماش الأطوال شيء تبادلي بيننا وبين ذلك الشخص .

هذا اذا كان المريخ يبتعد عنا أو كنا نبتعد عنه ، أما اذا كان يقترب منا أو كنا نقترب منه فتقل المسافة بيننا وبينه وتقصر ، فلا بدّ حينئذٍ أن ينعكس الوضع فنرى ثانيته أقصر من ثانيتنا ، وهو بدوره سيرى ثانيتنا أقصر كذلك .

وعلى هـذا فالثانية تطول وتقصر تبعاً لاختلاف المسافة بيننا وبين المريخ ، فأحياناً تكون طويلة وأحياناً أخرى تكون قصيرة وليس لها طول ثابت .

هـذا اذا كان المريخ يسير بسرعة ١٥ م في الثانيـة حول الشمس . أما اذا كان يسير بسرعة تقارب سرعة النور كذلك الشخص الذي فرضناه من قبل [١] فإن العشرة آلاف ثانية ليست كل الـ ٩٩٩٩ ثانية بل خمسة آلاف ثانيـة تقريباً ، أي لا بدّ لذلك الشخص أن يرى ساعتنا نصف ساعته ودقيقتنا نصف دقيقته وثانيتنا نصف ثانيته .

والآن قد تقول مهما يكن من شيء فاني لا أزال أتشبث ، بل لا أستطيع إلاّ أن

(١) أنظر صفحة ٤٠

أنشبث ، بأن طول الثانية هنا يجب أن يكون هو نفسه في المريخ . وهذا الفرق بين الطولين ليس ناشئاً في الحقيقة عن أن الطولين مختلفان في جوهرها ، وإنما هما كذلك نظراً الى المسافة الكبيرة التي اضطرت نبضة احدى « التكتكتين » أن تقطعها كيما تصل الى الارض ، مما جعل الطولين مختلفين غير متساويين ولكنهما في جوهرها ، وبصرف النظر عن المسافة بين الأرض والمريخ ، متساويان كل التساوي ، فما شأن ثانية المريخ بالمسافة بيننا وبينه ؟ أفليس المريخ ثانيته وللأرض ثانيتها ، والثانيتان متساويتان بصرف النظر عن المسافة الداخلية بيننا وبين المريخ وكفى الله المؤمنين القتال ؟

وقبل أن نرد على هذا الكلام نذكر القارىء بما رددناه مراراً ولا نزال نردده ، وهو ألا سكون مطلقاً في الكون ، وأن الفضاء ليس فيه جسم ثابت تنتسب الأجسام إليه . بل كل ما فيه حركة دائمة ، وتنقل مستمر ، وإن الأجرام السماوية ليست مستقرة في مكان بعينه ، بل هي تنتقل تباعاً من مكان الى آخر .

وعلى هذا فإن التشبث بتساوي الثانيتين في الأرض والمريخ له ما يبرره فيما اذا كان كل من الأرض والمريخ ساكناً ، وفيما اذا كانت المسافة بينهما ثابتة لا تتغير ، أو بعبارة أصح فيما اذا كان الكون كله ساكناً غير متحرك ، أما ونظرية النسبية لا تعترف بالمادة الثابتة التي لا تتحرك ، بل أن موضوعها هو المادة المتحركة التي لا تقف عند حد ، أما وإنها لا تكترث للأجسام بل لحركاتها المتساوقة فالنتيجة المنطقية لهذا ، هي أن تعني بالعلاقات النسبية بين الأجرام السماوية بعضها مع بعض وأن تقيم لهذه العلاقات كل الأهمية ، بل وتبني على هذه العلاقات كل فلسفتها في الكون .

فإذا قلنا أن عالماً ما يتحرك ، فمن الضروري أن نعين الجسم المتحرك الآخر الذي يتحرك الاول بالنسبة اليه ، لما ثبت لنا من قبل ، من أن ليس في الكون ـ لسوء أو لحسن الحظ ـ جسم ثابت كالأثير يتخذ أصلاً تنسب الأجسام إليه ، واذا قلنا أن سرعته كذا ، فيجب أن ننسب هذه السرعة الى سرعة أخرى ، واذا قلنا أن مسافته كذا ، فيجب أن نبين الى أي جسم تمتد هذه المسافة ... وهكذا اذا قلنا أن طول الثانية في عالم ما هي كذا ، فيجب أن يكون هذا الـ (كذا) بالنسبة الى طولها في عالم آخر فنقول أنها أطول أو أقصر من ثانية

المريخ مثلاً ، ولعمري أن قولنا بأن الثانية في الأرض هي أطول منها في المريخ ، ليس أمعن في الغرابة ، من قولنا أن طول اليوم في السيار (بلوطو)[1] هو ٢٤٨ سنة من سنواتنا الأرضية .

وعلى هذا فان قولنا ان الدقيقة في مكان هي غيرها في مكان آخر كلام له معنى وله ما يبرره ، وليس مجرد ثرثرة أو تخريف .

ومعنى هذا كله أن الوقت نسبي ، وليس هو قيمة مقررة ذات معنى مطلق .

(١) Pluton

مريوط

جنة الصحاري الأفريقية ودرة الصحراء الغربية

خميلة الحب .. وأيك الغناء .. وبشاشة الطبيعة

بقلم

عبد اللطيف واكد

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٧

الماء في الصحراء

بما أنّ الماء يكوّن ٨٥ ٪ من جسم الإنسان والحيوان ، وما يقرب من ذلك في مختلف أنواع النباتات، فقد وجب بحث مشكلته في الصحراء قبل كل شيء.. فحيثما وجد الماء وُجِدَتْ الحياة . وازدهرت جناتها ، وقد قال تعالى في كتابه العزيز « وجعلنا من الماء كل شيءٍ حي »

وقديماً . . وقبل معرفة الخلق للخالق عزّ وجل . . وحتى الآن . . اتخذ الناس من دون الله أرباباً . . فنهم من عبَد الشمس ، ومنهم من قدّس النار ، ومن سجد للشيطان ، ومن صلى بين يدي الحيوان ، الى غير ذلك من الاصنام والأوثان.. ولكنني لم أر أحداً يُلْتَمسُ له العذر ، فيما اتخذه معبوداً من دون الله ، غير المصريين القدماء ، فقد جاءت أجيال منهم ، وعبدت النيل . . ! !

أليس هو الذي يروي الزرع والضرع . . ويحيي بإكسيره الإنسان . . ! !

ليس هذا بحثاً في فوائد الماء ومنافعه ، وإنما هي إشارة لابد منها ، قبل أن نتحدث عن الماء في الصحراء . . ! !

ونستطيع أن نقسم الصحراء الليبية من الوجهة المائية ثلاثة أقسام :

١ — قسم فاقد الماء ٢ — قسم موسمي الماء ٣ — قسم دائم الماء . . !!

١ — القسم العديم الماء

وليس معنى عدم وجود الماء فيه ، أنه لا يحتوي على كائنات حية ، حيوانية أو نباتية. « كلاً » فانه ليضم مجموعة من النباتات الجافة (١) التي لها قدرةٌ على مقاومة الجفاف ، فتعيش رغم تقلبات الطقس ، على أقل نسبة من الرطوبة الجوية أو الأرضية .. وعلى هذه النباتات تعيش بعض الحيوانات الصحراوية البرية ..كالغزال الذي يكثر وجوده في هذه المناطق ، متخذاً من لونها الذي يشابه لونه ستاراً . . ويكتفي في ارواء غلته ، وإطفاء ظمئه بما يخلفه الندى ، الذي يهبط بغزارة في الصحراء آخر الليل ، على الصخور التي تتضمن أحياناً

(١) في آخر الكتاب تعليقات وشروح

تجاويف متعرجة ، يتجمع فيها ماء الندى ، فيأتي الغزال قبل شروق الشمس فيلعقه بلسانه .

وعلى هذا المأكل والمشرب يقضي حياته ، محتفظاً بما وهبته الطبيعة من رشاقة وجمال هما عند البشر مضرب الأمثال .

ويشمل هذا القسم الصحراء الجنوبية . وتمتاز هذه المنطقة بكثرة كثبانها الرملية المتنقلة التي يسميها أهل الصحراء بالغرود . !!

والغُرود (٢) واحدها غِرْد .. ولقد نتجت في هـذه المنطقة من تأثير الرياح على مكونات الأرض الرملية الرخوة في منخفض القطارة (٣) ثم انتقلت من مكان الى مكان حتى ترسبت أخيراً في الجنوب الشرقي للمنخفض ، على هيئة تلال شاهقة ، تقع في خطوط تكاد تكون مستقيمة بعض الشيء .. أما انتقالاتها فمع هبوب الرياح التي تحملها غالباً من شمال الشمال الغربي ، الى جنوب الجنوب الشرقي .. وتمر مع الهواء على هيئة سحب رملية رقيقة تسمى سافيات الرمال ، لا تلبث أن يتكاثف بعضها فوق بعض ، حتى يتكامل انتقال التل ، من مكان الى مكان آخر .

وتُغير هذه الغرود على القرى فتغمرها ، وعلى الحدائق فتطمرها ، كما حدث في قرية الموهـيَّة بالداخلة ، والزبو بالبحرية . . وعلى الدروب فتمحوها . وكثيراً ما كانت سبباً في ضلال الكثيرين من الضاربين في الصحراء ، وليس أدل على ذلك من هلاك جيوش قمبيز في طريقها بين الواحات الخارجة وسيوه عند ما أرسلها في عام ٥٢٥ ق. م. لتحطيم معبد آمون الذي كان له مركز عظيم في عالم اللاهوت ، في ذلك الحين . وكما أن لها مثل هذه الأضرار فلها فوائد أخرى ، إذ يلجأ اليها الأهلون بالواحات في ليالي الصيف هرباً من الدور التي تكثر فيها العقارب والحشرات الضارة إذ أن هذه لا يمكنها السير فوق ذراتها الدقيقة فيمكنهم تمضية الليل في هدوء واطمئنان من غارات هذه الأعداء الفتاكة في أثناء الليل فينعمون بنوم هادىء لا يشوبه فزع ولا قلق .

وليس في هذه المنطقة سكان قط غير سكان الواحات الواقعة فيها .

٢ — القسم الموسمي الماء

ويشمل المنطقة الممتدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين الاسكندرية والسلوم بعرض خمسين كيلو متراً في أغلب المواقع جنوبي الساحل. وهذه المنطقة ذات خصب وافر آهلة بالسكان من البدو الرحل الذين يكوّنون قبائل أولاد علي بنوعيها (٤) وهم يشتغلون

بتربية الابل والماعز والأغنـام ، وبعض زراعات أخرى صغيرة . ولهذه المنطقـة ثلاثة موارد للماء.

١ — المطر : أهم الموارد وعليه تتوقف زراعة الشعير ، وحياة الزراعات الأخرى ، إذ يهطل في هذه الجهات بغزارة في الشتاء ، حتى أن السيول المتجمعة منه تتلف أحياناً طريق السيارات المرصوف . وتجتاح الخط الحديدي الممتد على الساحل ، فتنقله من مكان الى مكان لشدة اندفاعها نحو البحر . ولقد احتاطوا لذلك ، بأن جعلوا لهذه السيول منافذ وممـرات تحت الخط الحديدي ، مشيدة بالأسمنت المسلح على هيئة قنـاطر تكبر وتصغر على حسب انخفاض البقعة بالنسبة لما يجاورها من الجبال والتلال ، إذ في المناطق المنخفضة المنحدرة نحو الشاطىء يقوى اندفاع ماء السيول ، وبالعكس ، ولقد أقاموا هذه القناطر في الأماكن التي تعـرضت لهجمات السيول غير مرة ، ثم قاموا بحفر جداول محـاذية للخط الحديدي تنتهي الى هذه المنـافذ ، حيث تنفذ منها الى البحر فيما صنعته لنفسهـا في الأرض من أودية عظيمة .

ويستغرق فصل الأمطار حوالي الخمسة أشهر إذ يبدأ في اكتوبر وينتهي في أواسط مارس . أما ما بقي من أشهر السنة فلا تتساقط خلالها الأمطار لذلك تشتد فيها حرارة الجو وتكثر العواصف الرملية .

ويبلغ متوسط سقوط الأمطار ١٦ سنتيمتراً في كل الأعوام تقريباً ، الا ما يجيء فيها مجدباً من الأمطار ، كالأعوام السبعة العجاف التي تنحصر بين ١٩٣٠ وعام ١٩٣٨ فانها كانت أقل من ذلك بكثير لدرجة تجعلها والعدم في صف واحد . وفي الأعوام الغزيرة الأمطار فوق العادة كعام ١٩٣٨ الذي هطل الغيث فيه بعد امتناعه أعواماً فبلغ متوسطه ٢٥٫٧ سم ولقد كان لهطول الغيث بهذه الغزارة أثر حسن ، ونتيجة عظيمة في وفرة المحصول .. وحمل الأرض على أن تخرج أسرارها ، التي احتفظت بهـا أعواماً سبعة ، على هيئـة أزاهير جميلة تنفح الجو بأريجها العطر . .

ويسمي البدو السنين العديمة الأمطار أو قليلتهـا (جَدَبْ) بتحريك الدال مفتوحة وتسكين الباء . . كما يسمون الأعوام الكثيرة الأمطار الوفيرة المحصـول (صَابَـا) . . والمطر عدا ذلك آثاره الملموسة في رفع منسوب الماء الأرضي . . وتغذية الآبار المنتشرة في عرض الصحراء بالماء . . إذ تتشربه التربة . . ثم تزجيه إلى الآبار بطريق الرشح . . !!

٢ — الآبار : ثاني الموارد وأهمها صيفاً ، إذ يشرب منها الناس والابل والأغنام . وتروى منها الزراعات الصغيرة التي لا تحتمل العطش ، وتجلب المياه منها إما بالسـواقي التي تقام عليها

أو بالماكينات الرافعة عند الحاجة اليها ، أو بواسطة طواحين الهواء .. أو بالبكرة والدلو.. وهذه الآبار أنواع كثيرة .. !!

ا — المعاطن : ويبلغ عمقها من ثلاثة إلى أربعة أمتار .. وتتجمع فيها المياه من رشح الأمطار والسيول ، التي تتشربها القشرة الأرضية. ومن أهم خواصها طول الاحتفاظ بالماء . وماء هـذه الآبار يصير مالحاً بعد مضي وقت قصير في بعض الجهات .. ويظل عذباً طوال أيام العام في بعض الجهـات الأخرى .. وذلك لاستمرار ورود الماء لهـا بالرشح ، بواسطة روافدها الـكثيرة التي تمتد مسافات بعيـدة في جوف الأرض .. ولقلة الأملاح المختلطة بالتربة الواقعة هي فيها .. وتكاليف حفر البئر من ٣٠ الى ٤٠ جنيهاً .. ويقوم بحفرها بعض الأهلين ممن تخصصوا في هذه الصناعة ..

أما طريقة حفرها فتبدأ بحفر البئر المركزية في الطبقة الأرضية العليـا .. إلى أن يصل الحفر الطبقة الصخرية التي تحتهـا ، والتي تحول دون تسرب ماء المطر الذي تتشربه الأرض بواسطة المسام الأرضية إلى أعماق بعيدة . ثم تحفر قنوات جانبية تمتد إلى مسافات بعيدة في جوف الطبقة السطحية كسراديب تكبر أحياناً حتى تتسع لمرور الرجل بقامته .. وتكون هذه السراديب بمثابة روافد تغذي البئر بالماء المختزن في جوف القشرة الأرضية من مخلفات السيول والأمطار ثم يتسرّب إلى مجاريها بالرشح .. وعلى قدر امتداد القنوات أو السراديب وكثرتها تكون وفرة الماء وقلته في البئر .

ب — آبار السماء : وهي خزانات عملت أول ما عُـملت في عهد الرومان ، وجهزت باستحكامات تضمن حفظ الماء فيها وقتاً ليس بالقصير ، ويأتيها الماء مما يتجمع حولهـا من السيول التي تتكوّن على أثر سقوط الأمطار فوق التـلال والهضاب المجاورة لمواقع هـذه الآبار ، ويدخلها الماء من فتحات جانبية بمستوى سطح الأرض . ويرفع منها من فتحات في أعلاها تقفل وتفتح حسب الحاجة .. وعادةً لا توجد أو لا تصنع هـذه الآبار إلاّ في منخفضات مسـتوية القاع بحال تضمن وصول الماء اليهـا مما حولها من مرتفعات ، وهي لا ترتفع عن سطح الأرض أكثر من قدم أو قدمين .. وتتراوح سـعة البئر بين ألف متر مكعب وخمسة آلاف متر تقريباً ، ويسكن البدو في خيامهم بجوار هذه الآبار أو بمقربة منها ..

جـ — آبار النواني Sub-soil water أي آبار تحت التربة .. وهي عبارة عن آبار ارتوازية يرفع ماءها بالماكينات أو السواقي . ولقد صنعت أيضاً في عهد الرومان الذين كانوا حريصين دائماً كل الحرص على ضمان بقائها جيدة سليمة عهداً طويلاً . وتعتبر « بئر البردويل » بالعامرية



بساتين الزراعة ببرج العرب سنة ١٩٤٥ وبها شجر الخروب



بئر الحجفة ببرج العرب وهي خزان روماني لمياه الأمطار

نموذجاً لهذا النوع من الآبار، ولقد بنيت جوانبها على عمق (١٦ متراً) تحت سطح الأرض ويبلغ قطرها (١٢ متراً) ويرتفع بناء هذه الجوانب ويكوّن خرزة فوق سطح الأرض بعلو ثلاثة أمتار تقريباً، ولها سقيفة من الخشب بشكل مخروط مربع، وتوجد نافذة بكل جانب من جوانب السقيفة عرضهـا (٨٠ سم) وطولها (٨٠ سم) وتستعمل للتهوية، وبداخل البئر سلم من الحديد يوصل الى قاعها. وعلى ارتفاع (٥٠ سم) من سطح المـاء، توجد ثماني فتحات حول البنـاء بشكل أبواب مقوسـة طول الواحد منها (١٢٠ سم) وعرضه (٦٠ سم) ويوجد تحت كل باب من هذه الأبواب فتحة أخرى طولها (٤٠ سم) وعرضها (٣٠ سم) ينصب منهـا الماء المحجوز خلفها الى البئر، وهـذه الفتحات الثماني تتصل بسراديب مبني بعض أجزائها على مسافة لم يتمكن أحدٌ من تحديدها الآن. وهذه السراديب في ثمانية اتجاهات مختلفة. ويظن ان المياه التي تأتي الى هذه البئر ترد اليها من أبعاد مختلفة اذ اتضح عند التطهير الذي أجري عام ١٩٢٧ بواسطة لجنة ميـاه الشرب الموفدة من قبل مصلحة الصحة (وزارة الصحة الآن) لفحص ميـاه الصحراء، أن مياه العيون الأخرى المجاورة جميعاً، والتي تقع في دائرة قطرها خمسة كيلو مترات حولها، كانت جافة.

ومدخل هذه البئر على مسافة (١٢ متراً) تقريباً من الجهة الجنوبية، وبعد صعود بضع درجات من السلم المبني في عصر الرومان. يصل الداخل الى البئر الى باب محفـور في خندق وهذا السلم تستمر درجاته داخل البئر وعددها (٤٥ درجة) وينتهي طرفه الى رصيف توجد في إحدى نهاياته فتحة سعتها ضعف سعة النوافذ الموجودة في البناء في جدار البئر (وقد سبق ذكرها) ويمكن لمن يقف في هذه النقطة أن يرى الماء المنصب من الفتحات الى داخل البئر ويختلط فيه بمائه.

وتوجد غرفة بالقرب من البئر بها الآلات الرافعة التي تدار بمحرك يدار بالمازوت قوته (١٥ حصاناً) وتوجد طلمبة ماصة كابسة تدار ثماني ساعات في اليوم. ويخرج الماء من ماسورة قطر فوهتها ثلاث بوصات. ويسير في قناة صغيرة مكشوفة طولها عشرة أمتار تقريباً. وينصب في مزارع مساحتها خمسين فداناً، والماء الذي يسحب يوميًّـا يكفي لري أربعـة أفدنة فقط.

٣ — ماء النيل: ويرصل إلى المدن الواقعة على الساحل بواسطة بواخر مصلحة خفر السواحل، إذ بهـا خزانات مجهزة لهذا الغرض، ويوزع على الموظفين وكبـار الأعيان لاستعماله في الشرب نظراً لأن مياه الآبار أغلبها ملحة غير مستساغة.. وكذلك يحمل القطار يوميًّـا فناطيس المياه من الاسكندرية لتوزيعها على المحطات.. وأخيراً مدت أنابيب المياه

من أبي المطامير حيث أقيمت مضخات كبيرة ماصة كابسة على نهاية ترعة النوبارية . ولقد بلغت المياه التي تضغطها هذه المضخات في الأنابيب الممتدة منها إلى طبرق في أيام الحرب الأخيرة وقد جعلوا في كل بلد تقريباً (حنفية) عامة لتوزيع الماء منها على الأهلين .

* * *

أما وقد عرفنا موارد الماء في المنطقة الساحلية فيمكننا أن نبين طرق الري فيها ولكي نتمكن من الوصول إلى طريقة مثالية سنتخذ من مزرعة قسم البساتين ببرج العرب أنموذجاً لطرق الري المتبعة في هذه المنطقة .

أولاً : الري شتاء : تهطل الأمطار فتغمر الأرض كلها . . فيرتوي الشعير . . والأشجار والحدائق وما نما من نباتات برية .

ويسقط المطر فيما يسقط على التلال والمرتفعات ، فينحدر مكوناً سيلاً يحتال عليه للانتفاع به ، فتحفر في سفح كل تل قناة ، في منحدر السيل ليتجمع فيها .. ومنها يوزع إلى أحواض الزراعة بواسطة مساق فرعية .. وتسمى القناة التي في سفح التل (ناي) ومجموعها نايات .. !!

ولما تبين للرومان أن توزيع المياه الناجمة عن سقوط الأمطار في مناطق متسعة الانبساط يكون عادة بحال لا يكفي لانتاج محاصيل وافرة . لما تبين لهم ذلك لجأوا الى عمل تلال صناعية في وسط كل مساحة متسعة من حولها ، حتى إذا ما نزلت الأمطار عليها انحدرت الى الأرض المجاورة المنزرعة فتضيف إلى ما نالته مما تساقط عليها من مطر كمية من الماء لا بأس بها ، فينتج عن ذلك زيادة في المحصول .. ونجاح في الزراعة .. وتشاهد آثار هذه التلال حتى الآن في مناطق كثيرة من الصحراء تعرف عند البدو بالكروم .

ولما كان الماء الأرضي يحتوي على ٤٠٠٠ جزء من الرواسب الملحية في كل مليون جزء فقد روعي الاحتراس منه بقدر الامكان عند استعماله للري خصوصاً للاشجار الصغيرة . لذلك لجأت المزرعة لادارة الماكينات أيضاً في الشتاء ، لخلط ماء المطر بماء الآبار المالح ، فيمكن الحصول بذلك على درجة رطوبة كبيرة تستطيع الأرض أن تحتفظ بها وقتاً طويلاً فتستفيد بها الأشجار الدائمة مع تخفيف نسبة الملوحة ، فيقل الضرر الذي ينجم عنها .. !!

ثانياً : الري صيفاً : كانت الأشجار تروى صيفاً بالماكينات والسواقي بالطريقة المتبعة في ري الحدائق بوادي النيل وذلك بأن يجري الماء داخل البواكي القائمة بها الأشجار .. ولكن تبين أخيراً ان هذه الطريقة ضارة بسوق الأشجار وجذورها . لوجود مركب كلورور الصوديوم في الماء بنسبة كبيرة ، فاتبعت طريقة أخرى ، أمكن بها تخفيف تأثير

الأملاح الضارة ، وذلك بأن جُعل مجرى الماء في قنوات تبعد عن السوق بمقدار نصف متر وكل عام يزاد البعد ، حتى يصير المجرى بين كل صفين من الأشجار ، وهذه الطريقة تستعمل للأشجار الصغيرة ، والمطعمة حديثاً . . وأما الأشجار الكبيرة فلا تروى صيفاً إلا إذا قلت نسبة الرطوبة في الأرض ويمكن معرفة ذلك بواسطة جور الاختبار ، التي تحفر في جهات متعددة بين الأشجار بعدد يضمن معرفة النسبة بالضبط ، فان قلّت درجة الرطوبة تروى كالأشجار الصغيرة، ولكن تبين أخيراً أن طريقة الري هذه غير مفيدة في كل الحالات إذ يمكن الانتفاع بها تماماً في التربة الكثيرة المسام التي ينفذ الماء بينها بسهولة. أما التربة التي لا ينفذ الماء فيها بسهولة فليس من الواجب النصح باستعمالها إذ ان الماء يتبخر بواسطة الشمس والهواء قبل ان يتخلل المسام الأرضية فيصل الى جذور الأشجار ، ولذا تتبع الطريقة الأولى في الحالة الأخيرة مع تقليل الري وجعله عند الضرورة .

أما كمية الماء اللازمة لري فدان مزروع أشجارُه على بعد خمسة أمتار مرة واحدة فهي نحو (٦٠ طنّـا) فقط ويستهلك في رفعها من الوقود ما تقدر قيمته بحوالي (٢٥ مليماً)[١] وكمية الماء اللازمة لري الخطوط مرة واحدة في زراعة العنب البالغة مساحتها فداناً هي (١٣٠ طنّـا) يستهلك في رفعها من الوقود ما تقدر قيمته بخمسين مليماً ذلك لأن العنب مزروع على مسافات قريبة أي ٢ × ٣ من الامتار . وقد يكفي لزراعة مائة فدان ماكينة واحدة قوتها عشرة خيول ، وطلمبة قطرها أربع بوصات .

٣ — القسم الدائم الماء

ويشمل الواحات المصرية جميعاً ، إذ العيون تنفجر بماء غير دائم الجريان ، لا ينضب له معين ، ولا يتوقف على عوامل جوية ، وإنما يتسرب الماء الى منخفضاتها خلال طبقات الخراسان النوبي ، الذي يوجد في هذه المنخفضات على سطح الأرض ، أو دونه بقليل ، تغطيه طبقة غير سميكة من الحجر الجيري . أو الرواسب البحرية الحديثة . التي يسهل الحفر فيها ، والوصول الى الماء من ورائها ، ولقد تضاربت آراء علماء الجيولوجيا في مصدر هذا الماء ، لا في طريقة وصوله التي علمناها . . فلقد ظن فريق منهم أنه يأتي من النيل ، عند مروره في منطقة النوبة فينسرب الى الواحات مباشرة ، ماراً بطبقات الخراسان النوبي التي تكثر في هذه المناطق . . ولكن فريقاً آخر عارض في ذلك . . والحجة التي أقامها المعارضون أن ماء النيل ينقص ويزيد . أما ماء العيون فثابت المنسوب ، فما هذا التباين والاختلاف . . ؟؟

(١) اسعار ما قبل الحرب

وقالوا إنهم يرون أن مصدر هذا الماء هو بحر الغزال ، حيث الأمطار دائمة الهطول .. والمستنقعات كثيرة تساعد على تسرب المـاء بكثرة ، وأقاموا الدليـل على ذلك بدفء ماء العيون والآبار ، في أغلب الواحات زاعمين أن سبب هـذا الدفء كون الماء يقطع مسافات كبيرة في جوف الأرض ، فيمتص بعض حرارتها .

وجاء فريق ثالث فاعترض على هذا الرأي ، بأن مستوى بعض الآبار أعلى من مستوى مـستنقعات بحر الغزال . وأنهم يرون غير هذا الرأي وهو أن مصـدر الماء الذي تتفجر به العيون ناتج عن الأمطار الغزيرة الموزعة على فصول السنة ، والمتساقطة على المرتفعات المكونة للحافة الشرقية لمنخفض بحيرة (تشاد) بالصحراء الفرنسية الكبرى التي تـكاد تـكون عديمة النباتات . وسبب ذلك أن الخراسان النوبي الذي يغطي الأرض يتشرب الماء الذي ينفذ خلاله الى الواحات . وربما كان هذا الرأي له نصيب من الصـحة ، وربما ظهر عليه ما يخالفه بعد سنين .

وقال « زيتل » في تقريره الذي نشره عام ١٨٨٣ عن جيولجية صحراء ليبيا أن لمياه العيون المنتشرة في الواحات بهذه الصحراء خزاناً عامـاً تحت الأرض » .

ومهما كان مصدر هذا الماء مختلفاً فيه أو متفقاً عليه ، فانه يصل الى الواحات متدفقاً بغزارة . وسنأخذ في دراسته وبحثه بكل واحة على حدة .

ا — واحة سيوه

وانه لما يستدعي النظر وانتباه الزائر لواحة سيوة ، كثرة عيونها المنتشرة في أرجائها . والموزعة بحالة تحمل على الاعتقاد بأن الطبيعة قد أوجدتها في أماكنها هذه ، لـكي تكون أنفع وأيسر تناولاً ، مما لو كانت في أماكن أخرى من الواحة . ومما لا يزال يردده الاهلون ان سيوة كانت في العصور القديمة تحتوي على أكثر من ألف عين . ويدللون على صحة ما يقولون بـكثرة المصارف القديمة المطموسة . ذلك لأنه لـكل عين مصرف ينقل الزائد من مائها عن الحاجة ، الى بحيرة الزيتون التي تمتد بين « أغورمي » (٥) و « عزبة الزيتون » . مسافة ثلاثين كيلو متراً تقريباً . أو بحيرة « خميسة » التي تمتد بين « خميسة والمراقي » (٦) ولا تزال آثار هذه المصارف هي معتمدهم الوحيد للاستدلال على العيون القديمة المطموسة كلما أرادوا إخراج عين جديدة .

والعيون الموجودة الآن مشيدة جميلة البناء .. البناء الذي يكون في أغلبها دوائر ترتفع عن الأرض بمقدار نصف متر . محيطاً بما يشبه بركة واسعة من الماء يتراوح قطر دائرتها بين

٣٠ الى ٦٠ قدماً . واذا ألقى الانسان عليها نظرة ، رأى ماءها الصافي صاجياً عند أطرافه ، أما في وسطه فتخرج فقاقيع من الزبد ، تطفو على وجهه ثم تتلاشى . وهذه الفقاقيع هي نهاية الماء المتصاعد من قاعها البعيد كحبات اللؤلؤ ترى عن بعد وهي صاعدة بألوانها الكثيرة الفاتنة ، التي تحمل رائيها على أن ينسى نفسه معها برهة غير قصيرة من الزمان . وتظل هذه الحبات اللؤلؤية متصاعدة في تعاقب ، حتى اذا ما وصلت الى السطح انسابت بين الماء ، على هيئة فوران خفيف . ومن العيون ما تشاهد فيها هذه الظاهرة عديدة وسريعة . حتى أن الماء ليبدو وكأنه في حالة غليان .

لذلك نجد أن الماء في عيونه كثير . ويزيد عن الحاجة ، حتى أنهم يتركونه يذهب سدًى الى الملاحات والبحيرات الكثيرة الانتشار في أرجاء الواحة . ولقد كانت هذه العيون قد وصلت الى حالة لا ترضي من الاهمال . فأوفدت وزارة الأشغال في عام ١٩٣٤ « المهندس البارع محمد أفندي عمر » لاصلاح ما فسد واخراج ما يمكن اخراجه من العيون المطموسة فكانت نتيجة ذلك أن خرجت عين « تجزرتي » وعين « الذكرور » تفيضان بماء غزير .

***

وتنقسم عيون الواحة لثلاثة أقسام وذلك من حيث الملكية

١ — عيون مشتركة : وهي العيون التي يملكها أكثر من واحد ، وينتفع أصحابها بمائها في ري زراعاتهم على السواء . ولهذه العيون نظام يتبع في توزيع الماء . إذ يوزع ماؤها بحساب « الوجبة » والوجبة : هي النهار فقط أو الليل فقط . إذ اليوم وجبتان — وتكثر وجبات العين وتقل على حسب اتساع مساحة الأراضي التي ترويها . وقوة تصريفها ، وتنقسم الوجبة ثماني أقسام ، ويسمى كل قسم « ثمناً » وتباع الملكيات الزراعية بحساب أو على أساس « الثمن المائي » ويساوي « الثمن » من ٢ الى ٢٤ جنيهاً . ويتوقف ارتفاع الثمن أو انخفاضه على كمية الماء التي تنتجها العين اذا كانت قليلة أو كثيرة . وحالة ملاك العين المالية ، وما هم عليه من غنى أو فقر ، فان كانوا أغنياء متوفرة عندهم القوة الشرائية ، ارتفع ثمن « الثمن » فيها ، وبالعكس اذا كانوا فقراء .

وتقدر ثروة الرجل بمقدار ما يملكه من ماء ، إذ على قدر الماء يستطيع أن يزرع ويجني الثمر (٧) .

ويقوم بتنظيم توزيع المياه في هذه العيون اثنان :

١ — مؤذن المسجد العتيق : وعليه اعلان الوقت ليلاً . إذ يؤذن من مأذنة المسجد العتيق ، بعد نصف الليل بساعة ونصف الساعة . ويسمى هذا الإعلان « الثناء الاول »

وبلهجة أهل سيوة « تَـانَـوّل » وله صيغة مخصوصة . ذلك بأن يبدأ بقراءة آيات من القرآن ثم يختم بصوت منخفض مؤذناً « الله أكبر » .

وبعد ساعة ونصف من الثناء الاول يؤذن أذاناً ثانياً يسمونه « تادِهّبْ » ومعناها أن وقت الثناء الاول قد ذهب . وأما صيغة هذا الآذان ، فهي أن يقول مبتدئاً « نسألك العفو والعافية ، والمعافاة في الدين والدنيا والآخرة » وهنا يترك الماء من هو ماض في الري ، ويبدأ من عليه الدور . ويعمل مؤذن المسجد العتيق بمنازل النجوم الى « تادهب » وبعد ذلك تسير المواعيد بطلوع الفجر ، وشروق الشمس الى أن يتسلم منه الرجل الموكول إليه التنظيم بالنهار .. !!

ب — الرّقّابُ : وحقيقتها الرقيب ، وهذا يعمل نهاراً منذ شروق الشمس الى غروبها على « المزولة » وعلى كل من له موعد استلام ماء أن يذهب اليه في مكانه الذي اتخذه عند خص «أبي عجاجة» ويخبره بموعده . فاذا ما حل أبلغ الرُّقّاب صاحب الموعد . وأبو عجاجة هذا رجل صاحب فضل وبركة ، قدم الى سيوه فابتنى له كوخاً أمام المسجد العتيق وأقام به فتسمى المكان باسمه ، ويظهر أنه من جهة « عجاجي » بالقرب من سيدي براني .

ويأخذ كل من « مؤذن المسجد العتيق و « الرقاب » أجراً على ذلك يقدّر بأربعين صاعاً (٨) من القمح لكل منهما . تصرف أو تجمع لهما من البلد عموماً . وكانت فيما مضى تصرف من بيت المال من المتحصل من مزادات العاقول (٩)

❁ تقدير الوجبات لكل عين ❁ : علمنا مما سبق أنّ العيون جميعها ليست متساوية في عدد الوجبات ، وبازاء ذلك نلمس أن نظام الوجبات تقديري في كل عين على حدة ، ولهم في ذلك طريقة خاصة يتبعونها في تقدير وجبات العين بعد اخراجها ،. ذلك بأن ينتدب أصحاب العين أميناً يرتضيه الجميع ليس من ملاكها ، غريباً عن حوضها ، ويكلون اليه أمر التقدير ، فيتولى هذا المندوب مراقبة الري الأصولي ، في جميع الاراضي الواقعة في حوض العين والتي ستروى منها فعلاً ويثبت في كشف بيده عدد الساعات التي تستغرقها أرض كل منهم في الري بالتوالي حتى اذا ما انتهت أراضي أصحاب العين جميعاً الذين أنفقوا في اخراجها كل على حسب ما يملكه من الأرض (١٠) فالذي يملك كثيراً يدفع أكثر من الذي يملك أقل منه ، وهكذا حتى لا يكون في الأمر غبن على أحد .

ويعيد الأمين الري مرة أخرى ويثبت الأرقام ، ثم يعيد الري مرة ثالثة ويثبت الأرقام أيضاً ، ثم يأخذ المتوسط للريات الثلاث ، فيكون هذا المتوسط — لكل مالك — هو ما يمتلكه من حق في ماء العين ، وبعد ذلك يجتمع أصحاب العين ويحررون دفتراً بهذه

المواعيد والساعات، ويوقعون عليه ، فيصير بعد ذلك نافذ المفعول ، لا يمكن الخروج عليه أو الشذوذ عنه ..

ولو فرض أن العين روت الأراضي الواقعة في حوضها ، والتي يملكها مخرجوها في عشرة أيام فتكون وجباتها عشرين وجبة ، ويكون دور الري فيها كل عشرة أيام .!

ولكل عين « حسّاب » يرشد أصحابها لمواعيد الري التي تخصهم فيها ، وهؤلاء يذهبون الى « الرقاب » فيخبرونه بمواعيدهم ، حتى إذا ما حلت نوبهم اليها . .

إذن فالرقاب واحد . وهو الذي يجلس في « خص أبي عجاجة » وأما الحسابون فهم كثيرون بعدد عيون الواحة ، فلكل عين « حساب » وبيد كل « حساب » كشف بمواعيد العين التي هو « حسّابها » ويأخذ الحساب أجراً على عمله هذا من أصحاب العين أنفسهم وهذا الأجر هو جزء من ماء العين فينتفع به ان كان يملك أرضاً في حوض العين ، أو يبيعه لأحد ملاك العين إن كان لا يملك أرضاً في حوضها الذي ترويه .

وأمثال هذه العيون : عين طموسي . والجوبة . وتلحرام !

***

وهناك عيون مشتركة لا تخضع لنظام « الحساب والرقاب » وإنما يوكل أمرها « لخفير الحطايا » (١١) يوزع الماء بالتوالي ، وأمثال هـذه العيون . أم هندد ، ودهيبة ، وبعض عيون خميسة والمراقي (١٢) وذلك لأن مواقعها تبعد عن البلد مسيرة ساعات فلا يتمكن صاحب الدور من أن يلحق به .!

٢ — عيون عامة : وهي التي لا يملكها أحد ، وللجميع حق الانتفاع بمائها ، بشرط ألاّ يستعمله أحد في الري ، إذ أنها تعتبر من المنافع العامة ، كعين (تابا) الواقعة خلف نادي الموظفين بسيوه .

٣ — عيون خاصة : وهي التي يملكها فرد أو عائلة، يروون منها زراعاتهم ، ولا يشاركهم فيها أحد ، كعين الزيتون التي كانت ملكاً للسادة السنوسية وقد اشترتها الحكومة أخيراً بين ما اشترته من أملاكهم في الواحة ، وعين أبي شروف التي يملكها السادة المدنية ، وعين قريشت التي يملكها الأمير محمد عبد المنعم .

وتنقسم العيون أيضاً ثلاثة أقسام من حيث استعمالات الماء :

١ — عيون تستعمل للزراعة والشرب كطموسي وتلحرام

٢ — « لا تستعمل إلاّ للزراعة فقط لملوحة مائها كعين قريشت

٣ — عيون تستعمل للشرب فقط كعين « تابا »

وتنقسم العيون غير ما تقدم ثلاثة أقسام من حيث الحالة الراهنة :

١ — عيون جارية : وهي التي تنتج ماء ينتفع به الأهلون

٢ — « جافة : وهي التي لا تزال موجودة ولكن ليس بها ماء

٣ — « مطموصة : وهي التي امحت ولا تزال آثارها تدل عليها

وتنقسم العيون عدا ذلك قسمين من حيث عذوبة الماء

١ — عيون عذبة

٢ — عيون مالحة . .

على أنّ ماء العيون العذبة في سيوة ، أقل عذوبة من ماء عيون الواحات الاخرى ، ولعلّ ذلك راجع الى أنها في صعودها الى سطح الأرض تخترق في طريقها الطبقات الملحية الثلاثية فتأخذ من أملاحها مقادير كبيرة . . وأهم الأملاح التي تحتويها هي الكلور وكلوريد الصوديوم بنسب كبيرة جدًّا .

وتنقسم العيون قسمين من حيث حرارة الماء :

١ — عيون باردة : وهي التي درجة حرارة مائها ١٥° سنتجراد فأقل كعين أم مغلى وغابة جوبدى .

٢ — عيون حارة : وهي التي درجة حرارة مائهـا ٢٠° سنتجراد فأكثر كعين ملول والجوبة وطموسي على أن يكون ذلك في فصل الشتاء وقلما تكون درجة حرارة الجوبين ٨° : ١٠° سنتجراد .

ويمكن تعليل اختلاف درجة الحرارة في ماء العيون ، باعتبار أن المياه ذات الحرارة المرتفعة تأتي من الطبقة المائية نفسها ، فتنفذ مباشرة وبسرعة صاعدة نحو سطح الارض دون أن تمر في شقوق أرضية ، وبذا تكون محتفظة بدرجة حرارتهـا الأصلية ، أو تفقد شيئاً قليلاً منها . . أما الميـاه المنخفضة الحرارة فيمكن افتراض أنها بسبب نفوذها في تضاعيف نفس هذه الطبقات ، أثناء صعودها تفقد جزءاً من حرارتها الأصلية ، فتنخفض درجة هذه الحرارة . . ؟

ويلاحظ أن عيون سيوة لا يُعرف بالضبط مقـدار ما تنتجه من الماء ، إذ لم يعمل لها ميزان تصريف ، على أن وزارة الأشغال قد قامت بحفرها وتطهيرها وبناء أغلبها ، ولكنها لم تقدر كمية الماء الناتج من كل منها . . !

(ب) قارة أم الصُّغيِّر

وهي واحة صغيرة منعزلة يتصل منخفضها بمنخفض واحة سيوه من الغرب ، وبمنخفض القطارة من الشرق ، وتحتوي على عشر عيون ماؤها مملوء بالأملاح لدرجة يتعذر معها شربه ، ولا يوجد بين هذه العيون غير عين واحدة عذبة وهي « عين القطارة » التي يستقي منها سكان الواحة ، وعين أخرى أكثر معدنية منها تسمى « عين ياجا » ويلجأ اليها الكثيرون لجلب الماء للاستعمالات المنزلية لقربها من القرية إذ الأولى تبعد نحو العشرين دقيقة ، وحاملات الماء ضعاف يتعذر عليهن المسير هذه المسافة وهن يحملن أحمالاً ثقالاً .

وكل ما قيل في عيون سيوه يمكن أن يقال في عيون « قارة أم الصغير » ولكن مع التبسيط .. !!

(حـ) الواحات الخارجة

العيون والآبار كثيرة الانتشار بالواحات الخارجة ، ولكنها مع كثرتها لا تفي بالغرض المطلوب ، ذلك لأن مساحة الأراضي القابلة للزراعة تزيد عن ٣٤٠٠٠٠ فداناً ويقع أغلبها في المنطقة الممتدة بين « بولاق » « وباريس » (١٣) في سهل خصيب لا يوازيه في خصبه غير الجزر النيلية على أن الحكومة آخذة في هذه السنوات الأخيرة في العمل على استعمار هذه المناطق زراعياً بإخراج عيون جديدة . واذا لم يوقف هذا المشروع الجليل ستصبح الواحات الجنوبية غنية في مائها وثروتها الزراعية في وقت وجيز .

ومن طريف ما يذكر أن الأهلين عندما علموا أن الحكومة قد عقدت النية على استخراج عيون جديدة ، ولم يعد بينها وبين التنفيذ إلاَّ اختيار مواقع هذه العيون . عند ما علموا ذلك راحوا يتظلمون خوفاً من أن تؤثر هذه العيون الجديدة على ما تنتجه عيونهم القديمة من ماء .. وذلك قياساً على ما حدث في آبار (شركة استغلال مصر الغربية) التي تأسست في عام ١٩٠٥ بقصد استثمار مساحة كبيرة من الأرض الواقعة شمالي الواحات الخارجة ، وكان رأسمال هذه الشركة يقدر بحوالي ٣٠٠٫٠٠٠ جنيه مصري ، موزعاً على أسهم ، ولكي تتصل هذه الاراضي بوادي النيل ، مدت الشركة خطاً حديدياً ضيقاً ، بين الواحات الخارجة ومحطة المواصلة بوادي النيل وأطلقت على محطتها بالواحات اسم « الشركة » وهي أول محطة يقف عندها القطار بعد أن يقطع طريقاً يمتد في جوف الصحراء

هابطاً تارةً صاعداً طوراً .. مسافة ٢١٠ كيلومتراً ، ويلي محطة الشركة ، محطة « المحاريق » (١٤) ثم محطة الخارجة .. وهي آخر الخط . ولقد كان في النية مد هذا الخط الى الواحات الداخلة على نفقة السلطة العسكرية في عام ١٩١٩ . وسار العمل فيه فعلاً الى نقطة الغراب التي تقع على بعد ثلاثين كيلومتراً غربي مدينة الخارجة ، ولأمر ما توقف العمل عن إتمام مد الخط الى الداخلة .

وقد انحلت هذه الشركة في عام ١٩١٤ لنضوب مواردها المالية . فقد استنفد مد الخط الحديدي ، جزءاً كبيراً من رأس المال . وأنفق جزء كبير آخر في شراء الأراضي والآلات الزراعية ، وحفر الآبار ، وضاع الباقي بين مرتبات الموظفين الضخمة التي كانوا يتقاضونها ، وكانوا جميعاً بين انجليز وأمريكان .

وعند ما انحلت الشركة استولت مصلحة السكة الحديد الاميرية على الخط الحديدي لموصل بين وادي النيل والخارجة ، ونقلت اليه القطارات والعربات التي كانت تعمل بين أسوان والشلال ولا يزال تحت إدارتها حتى الآن يؤدي خدماته الجليلة لسكان تلك البقاع النائية ، من نقل محصولاتهم وما يصدرونه من منتجاتهم الى استيراد ما يحتاجون إليه من وادي النيل .. !!

ولقد كانت مساحة الأراضي الموضوعة تحت تصرف الشركة كبيرة جداً إلا أن المساحة القابلة للزراعة كانت أول الأمر لا تزيد عن الألفين وخمسماية فدان ، ويزرع بها بنوع خاص القمح والشعير والقطن والفول ، وقصب السكر وغيرها من محاصيل الاستغلال .

أما الآبار التي حفرتها الشركة ، وكانت حافزاً لوقوف الأهالي في وجه الحكومة عند ما بدأت تحفر العيون الجديدة . فقد كان التداخل بين مياهها ظاهراً بشكل واضح . إذ أن البئر رقم (٦) التي كان معدل تصريف مائها سبعة قراريط (١٥) عند حفرها ، قد انقطع ماؤها عن السيلان . عندما حفرت البئر رقم (٥) وكذلك البئر رقم (٨) كان مقدار الماء المتصرف منها كبيراً إلا أنه تحوّل للبئر رقم (١٣) عند حفرها .. وهذه الأخيرة فقدت جزءاً كبيراً من مائها عند حفر البئر رقم (٣٩) وكذلك الحال في البئرين رقم (٣٧ و ٣٨) فقد قلّ تصريفهما عند حفر البئر رقم (٥١) التي كان تصريفها يقدر بثمانية قراريط . !

وقف الأهالي بما تعوّدوه من دل على الحكومة أمام هذا المشروع ، وإنّ لأهالي الحدود لدلاً على الحكومة غريباً حقّـا .. ولكن المهندس الامريكي الذي نيط به الأمر . استطاع أن يطمئنهم ، إذ أكد لهم أن المستوى المائي الذي سيخرج منه ماء العيون التي سيحفرها لا يتصل بمستوى ماء عيونهم القديمة في شيء .. وحقيقةً فقد استخرج العين

الاولى على مستوى ١٦٠٠ قدم بينما الأهالي يستخرجون عيونهم على بعد ٦٠٠ قدم فقط وذلك بإنزال ماسورة الحفر الى أصفحة مائيـة على عمق أبعد من الأصفحة المائية التي يحفر عليها الأهلون .. !!

ولقد تدفقت مياه « عين الفاروقيــة » التي استخرجت بجوار محطة سكة حديد مدينة الخارجة ، حتى أنها وازت أقوى العيون القديمـة إذ بلغ تصريفها ٤٨ قيراطاً .. وإن الماء لينحدر من فوهتها كالشلال له دوي وله زبد .. وجريانه شديد الاندفاع . حتى أنه ليبعث الروعة في النفس الى حدّ كبير .. !!

ومما هو جدير بالملاحظة أنّ ماء هذه العين يحتوي على بعض الأملاح والأحماض التي تساعد على الهضم بشكل ظاهر ، حتى أنّ الأهلين الفقراء لا يحاولون الشرب منها خوفاً من أن تعمل مياهها على هضم الـكتلة الغذائيـة سريعاً فيهاجمهم الجوع ، وتكون النتيجة أن تتعدّد الأكلات اليومية ، وهذا مما لا يستطيعونه . . ولقد تنبهت وزارة الصحة الى قيمة هـذا الماء . فرفعت نبأه الى الأعتاب الملـكية ، وكانت النتيجة أن أعجب به جلالة الملك فاروق الاول ، وأمر جلالته أن يؤتى له بمقدار منه كل أسبوع بقصد استعماله في الشرب ، فكلفت مصلحة الحدود ، جاويشاً من رجال الهجانة بالذهاب كل أسبوع الى الواحات الخارجة بالقطار ومعه صندوق به زجاجة كبيرة ، تملأ بواسطة وبحضور الدكتور والمحافظ من فوهة العين مباشرة ، وتختم بخاتم المحافظة ، وترسل برفقـة الجاويش المذكور الى السراي الملـكية . من هذا يتبين لنا ما لهذا الماء من قيمة ، وتأثير حسن على الصحة .

حفر العيون

يتبع في حفر العيون طريقتان : (١) الطريقة القديمة (٢) الطريقة الحديثة

١ — أما الطريقة القديمة فهي التي يتبعها الأهالي ، عند ما يقومون بحفر عين أو بئر وهي طريقة عتيقة ومملة ، إذ أنهم في بعض الاحيان يستغرقون من الوقت سنة كاملة أو أكثر في حفر بئر واحدة ، ملاقين في سبيلها صعاباً جمة ، ويرجع ذلك الى رداءة الآلات التي تستخدم في الحفر ، إذ أنها بطيئة ، تعتمد في كل شيء على قوى سواعد الرجال . وكثيراً ما يصيبها العطب أثناء العمل ، فيأخذون وقتاً طويلاً في إصلاحها . زد على ذلك قلة الأيدي العاملة التي لها دراية بحفر الآبار ، على أن الطريقة المتبعة عند الشروع في حفر عين أو بئر هي أن يجتمع من عقدوا النية على ذلك . ويتفقوا على شروط فيما بينهم ، تبين هذه الشروط حق كل منهم في العين بعـد خروجها ، وما عليه أداؤه أثنـاء الحفر ، على أن أهم شرط

بينها هو أن كل عامل يشترك في حفر العين أو البئر . يصبح مالكاً فعلياً لجزء منها ، وجزء من الأراضي التي ترويها » ومنهم من يشترك في الحفر بماله ، ومنهم من يشترك بساعده . . فاذا فُرض أن من اشتغلوا في إخراج العين أو البئر كان عددهم مائة بين منفق مال وعامل بساعده ، فتكون النتيجة أن يكون نصيب الواحد منهم جزء من مائة جزء .

واذا ما اتفقوا على هذه الشروط جميعاً بدأوا في العمل . وهناك بعض من ثراة الواحات ينفقون على حفر آبارهم من مالهم الخاص حتى إذا ما خرجت صارت ملكاً خالصاً لهم . وهناك بعض آخر اتخذ حفر الآبار وبيعها تجارة ، إذ يحفرون البئر ثم يبيعونها بعد خروج مائها ويربحون فيها .

* * *

أما طريقة الحفر ، فتبدأ بأنهم يحفرون حفرة مربعة مساحتها متراً مربعاً ، وعمقها خمسة أو ستة أقدام . وتبطن جوانب هذه الحفرة بجزوع النخيل المشقوقة ، كي لا تسقط هذه الجوانب على القائمين بالحفر ، ويستمرون بعد ذلك في الحفر والتبطين على هذا المنوال الى أن يصلوا طبقة لينة . عند ذلك يكون القاع شبه عجينة ، فتسوى هذه الطبقة (بمسطرين) ويضعون فوقها (صندوقاً) — كما يسمونه — وهذا الصندوق مربع طول كل ضلع من أضلاعه ٢٢ بوصة ، وارتفاعه يتراوح بين ٦ و ٨ بوصات . وليس لهذا الصندوق قاع ولا غطاء . ويوضع على السطح الذي سبق أن سوى (بالمسطرين) على أن يكون وضعه في وسطه تماماً ، وبدون أي ميل . ثم يملأ الفراغ الموجود حول الصندوق بالمونة والحصى حتى اذا ما وصلت (الدكّة) الى الحافة العليا للصندوق ، وضعوا فوقه صندوقاً آخر مماثلاً له ودُكّ حوله كما صُنع بالصندوق الاول .. وهكذا يضع الصناع صندوقاً فوق صندوق حتى يصلوا الى حافة الحفرة وبعد ذلك يؤتى بمثقاب قطره تسع بوصات يسمى (الآيسون) ويبدأ في حفر ثقب في الأرض عمقه من ٤٠ : ٥٠ قدماً — كما يتراءى لرئيس العمل — وفي نفس الوقت تكون هناك (ماسورة) من سيقان النخيل أو الدوم ، قد فُرّغت ، وقطرها الداخلي ثمان بوصات ، والخارجي تسع بوصات ، تكون قد أعدّت لتغرس في الثقب الى آخره ، فاذا لم يصلوا الى حجر الماء استعملوا مثقاباً آخر قطره ثمان بوصات ، يثقبون به الارض إلى عمق ٤٠ قدماً أخرى ثم تغرس به (ماسورة) ثانية أقل بوصة في قطرها من سابقتها ، حتى يمكنها المرور في داخلها .. وهكذا الى أن يصلوا إلى حجر الماء .. !!

وعند الوصول إلى حجر الماء الذي يتكوّن عادة من « الكوارتز » الذي يسهل ثقبه بواسطة مثقاب خاص ، غير الذي تقدم ذكره . . فإذا ما اخترق ، اندفع الماء من ورائه

فوّاراً إلى سطح الأرض .. وهـذا الحجر هو الحائل بين الأسفنجة المائيـة وما فوقه من طبقات .. !!

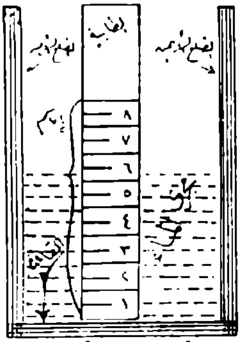
وبعد تفجر الماء تقدر كمية المياه الناتجة من البئر أو العين ليمكن معرفة كم قيراطاً تنتج حتى يتسنى معرفة كم فداناً يروي ماؤها .. وكم تستحق الحـكومة ضريبة عنها . إذ الضريبة تـدفع عن المـاء ، لا عن الأرض . وذلك بحساب القيراط المائي خمسين قرشاً . . أما القيراط فهو عبارة عن كمية الماء التي تكفي لري خمسة أفدنة في فصل الشتاء ، وأربعة أفدنة في فصل الصيف .. هذا إذا كان تصريف العين غزيراً ، إذ الماء يتدافع قوياً فيساعد على سرعة الري. أما إذا كان تصريف العين قليلاً وضعيفاً فإن سرعة الماء لا تقوى إلا على ري أربعة أفدنة شتاء وثلاثة في الصيف .

ويقوم بعملية القيـاس ، رجل يدعى (ريس الدواليب) معترف به من الحـكومة ، وحكمه نافذ على أي عين . . وتنحصر عملية القياس في أن يضعوا في غدير العين وهو جارٍ فـكاً من الخشب له قاعدة وجانبان . ويوضع بحيث تكون القاعدة ملاصقة لقاع الغدير بحال لا تسمح بمرور الماء إلا من فوقها ثم يمنع مرور الماء بين حافتي الغدير والضلعين الجانبيين للفك ، ويترك الماء يمر من الفك حتى يأخذ سيره الطبيعي . ثم يؤتى بمسطرة مقسمة إلى ثمانية أقسام متساوية مجموعها ٧½ سنتيمتراً تسمى (الطابية) وتبلل الطابية وتدفن في التراب بضع دقائق وبعد ذلك تؤخذ وتوضع عمودية على قاع الفك تماماً . وهنا يمسح الماء الجاري ما عاق بالجزء المغمور به — من الطابية — من تراب ، فيكون هذا الجزء هو ارتفاع الماء .. !!

أما الارتفاع فثابت لا يتغير ، وأما الجانبان فلا أساس لها في القياس إلا لضبط التصريف ، وأما القاعدة فعبـارة عن الارتفاع مكرراً يطول ويقصر على حسب غزارة التصريف ، فإن كان التصريف غزيراً تباعد الجانبان ، وذلك بتضعيف قيمة الارتفاع في القاعدة ، وبالعكس إذا كان التصريف قليلاً .. وبذلك تكون العملية كالآتي :

$$\text{القيراط} = \frac{\text{القاعدة} \times \text{الارتفاع}}{8} = \text{تصريف العين وعدد ما تنتجه من القراريط المائية .!}$$

مثال ذلك : نرمز أولاً للارتفاع بحرف « ا » وللقـاعدة بحرف « ق » ونفترض ان الماء وصل في (ا) إلى الخط السادس ، وأن القاعدة (ق) تساوي (ا) خمس مرات فتكون قوة ماء العين هي :



«جهاز قياس الماء بالواحات الجنوبية»

ولكن هذه الطريقة في تقدير تصريف العيون ناقصة إذ يتحتم لكي يمكن ضبطها أن نعرف السرعة لتيار الماء المراد قياسه ، فبعض العيون قوي التصريف ، سريع الجريان ، فلا يمكن أن تكون هذه العيون التي هذه حالها كتلك البطيئة . ولقد أرى أن الماء البطيء يتراكم ويعلو أكثر من السريع هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فان « ريس الدواليب » (١٥ م) غفر الله له . يستعمل في القياس طريقة خطأ أيضاً . إذ يحبس ماء العين في المجرى وقتاً حتى يرتفع مستواه ثم يبدأ القياس ، فينتج عن هذا أن يكثر عدد القراريط في حين أن ماء العين قليل ، ولا يتبع الريس هذه الطريقة العقيمة ، إلا إذا كان أصحاب العين ليس في « عينهم نظر » فلم يتحفوه بشيء لحسابه الخاص ، وأما اذا أعطوه ما يجود به الخيرون . فان الغدير يحفر مجراه حتى ينحدر ماؤه ويرق ، ثم تجري عملية القياس . . . وتكون النتيجة بالعكس ، ويتبع ذلك قلة الضريبة التي تدفع عن ماء العين للحكومة .

٢ — « الطريقة الحديثة » وتجري بالماكينات البخارية ، وذلك بانزال (ماسورة) قاعدتها حلزونية حادة تغوص في الأرض بقوة الماكينة ، وهذه الاسطوانة الحلزونية القاعدة هي الآلة الثاقبة ، وقطرها حوالي خمسة عشر بوصة ، وبعد أن تغوص هذه الآلة الثاقبة في الأرض بمقدار وصلة من الأنابيب التي تمتد في جوف الأرض مكان الطين الذي خلا جوف الاسطوانة الثاقبة منه يُنزلون الماسورة ثم يتبعون أنبوبة بأخرى ، حتى يصلوا الى الاسفنجة المائية . وكلما تعمقت آلة الحفر في الأرض صبوا الماء في داخلها لكي يجعل القشرة الأرضية أكثر ليونة تحت من الآلة الثاقبة ، وهكذا الى أن يصل الحفر الى الطبقة المائية ، وقد تستغرق هذه العملية حوالي ثلاثة أشهر أو أكثر حسب قرب الماء أو بعده . ويكلف حفر البئر أو العين ٣٠٠ جنيه مصري .

ولقد أنشئت عيون كثيرة بهذه الطريقة ، وانتفع بها الأهلون انتفاعاً كبيراً . وفيها عين الفاروقية بالخارجة . وقد بدأت مصلحة الميكانيكا والكهرباء في العمل بهذه الطريقة بالواحات الخارجة في عام ١٩٣٨ وأخرجت عين الفاروقية على عمق ١٥٥٣ قدماً وبلغ تصريفها ٤٣٠ جالوناً في الدقيقة ، وسمك الطبقة الاسفنجية التي بها الماء ٢٠ قدماً وبلغت نفقات حفرها ٩٥٠ جنيهاً . وبما هو جدير بالذكر أن هذه العيون الجديدة قد لا تعمر طويلاً

إذ أن المواسير الحديدية التي ينزلونها في جوف الأرض . لا تلبث أن يعلوها الصدأ ، فتتآكل ، وتصير غير صالحة لصيانة الماء من أن يتوزع في الطبقات الأرضية التي يمر فيها . وبذلك تضيع الفائدة التي حفرت من أجلها ، ويذهب التعب والنفقات التي أنفقت في سبيلها سدى ، ولو أنهم جعلوا بدلاً من هذه (المواسير) الحديدية ، أخرى من خشب الدوم ، الذي يكثر في الواحات الخارجة ، ويستعمل في العيون القديمة لهذا الغرض نفسه ، ومنذ مئات السنين ، لكان أضمن لنجاح هذا المشروع العظيم ، ذلك لأنّ خشب الدوم لا يؤثر فيه أي عامل طبيعي ، فيبقى على مر العصور مصارعاً الزمن والتلف والتآكل .. أما وهم يستعملون (المواسير) الحديدية ، فإنه يخشى على المشروع من أن ينهار من أوله وإن كان ولا بدّ من استعمال الحديد فليُطلى بالقار .

والماء حسابان : حساب الحكومة للأهالي .. وحساب الأهالي لبعضهم

١ — أما حساب الحكومة للأهالي فبالقيراط ، والقيراط ٢٤ سهماً ويدفع عنه ضريبة قدرها ٥٠ قرشاً سنويًّا .

٢ — وأما حساب الأهالي لبعضهم فبالوجبة .. والوجبة تساوي إثنى عشر ساعة .. وهي أربعة وعشرون سهماً .. وعادةً يباع السهم المائي بمبلغ يتراوح بين ٢ : ٤ جنيهات حسب كثرة قراريط الماء التي تنتجها العين ، وحالة مالكيها المالية .

ولضبط الوقت لإمكان معرفة مواعيد الري لكل مالك في العين يستعملون لذلك ساعات رومانية قديمة تسمى الساعات الرملية (١٦) . وأهم العيون بالواحة هي :

١ — عين الفاروقية : وقد سبق الكلام عنها ..

٢ — عين الشيخ : وهي نبع عظيم يرتفع الى أكثر من مترين ونصف متر عن مستوى سطح الأرض المحيطة بها ، ويجري جدولها المرتفع بين ظلال النخيل الى الحدائق الغناء التي يرويها .. وينحدر من هذا المجرى شلال صغير له روعة وجمال بخريره الدائم ، ومائه الصافي النمير يأخذ طريقه الى مصارف وزارة الصحة ليغذيها بمائه حتى لا تموت — بسبب الجفاف — الأسماك التي تربيها الصحة في هذه المصارف بالواحات جميعاً لإبادة بعوض الملاريا اذ أنها تتغذى على بيضه ويرقاته ، وترسل هذه الأسماك الى الواحات بالطائرات بين حين وآخر . وقد بلغت في بعض العيون أحجاماً كبيرة حتى أن الإيطاليين إبان إحتلالهم اسيوه كانوا يصيدونها ليأكلوها . ومن أهم صفات هذه الأسماك أنها عمياء لا تبصر .

٣ — عين القلعة : وهي عين أكبر من عين الشيخ قليلاً يجري ماؤها في قنوات ثلاث ، اثنتان خصوصيتان وواحدة عامة . أما الخصوصيتان فهما مملوكتان لعائلتين بالواحة ،

وأما العامة فلـكا الأهالي . يروون منها نخيلهم وحدائقهم وبعض حقول الأرز .

٤ — عين الرمَّاح : وتعتبر أهم عين في ناحية باريس . وكانت في بادىء الأمر عيناً صغيرة ، تصريفها لا يتعدى الخمسة قراريط . ولـكن الأهالي اجتمعوا وبدءوا في جهرها وحفرها من جديد .. وبينما هم يحفرون وهم مطمئنين الى أن الماء لا يزال بعيداً ، فاذا الماء يفور ، ويقذف بالآلات المستعملة في الحفر ، في وجه الحفارين ، وكان في تدفقه كالسيل الجارف .. وكبّـر الرجال وهللوا .. ثم حفروا لهـا المجرى ، وبقياسها وجد أن تصريفها أكثر من سبعين قيراطاً .. ثم أخذ يتناقص حتى بلغ الخمسين قيراطاً .. ! !

وتقع هـذه العين في سهل فسيح بين غردين من الرمال ، وتبلغ مساحة السهل حوالي ٤٠٠ فدان .. لا نزرع جميعها ، على أن المنزرع يغل غلة وافرة .. وحوض العين مختلف في مناسيب الارتفاع ، فبينما نجد أرضاً ارتفاعها متراً ، نجد أخرى أقل منها ، وثالثة أعلا من الأولى .. وينحدر الماء الى جميع الطبقات فيرويها (بالراحة) وهذه البقعة من الارض في حاجة الى إصلاح ، حتى يمكن استغلالها على الوجه الأكمل..

٥ — عين دخاخين : وينحدر ماؤها من أعلا الجبـل على شكل شلالات متعاقبـة على منحدر الجبل الذي تغطيه أشجار النخيل والسنط والبرتقال والعنب والليمون في شكل مدرج وكأنما هي غابة من غابات خط الاستواء الغزيرة النبت ..

وأخذني العجب بمنظرها الخلاب والشمس مائلة من وراء الأغصان ترسل بأشعتها التي تلطف من حرارتهـا ظلال الأشجار الباسقة والماء المتكسر فوق الصخور والأحجار .. حقـّاً..إنه لمنظر ساحر يحمل النفس الى عوالم غاية في الروعة والجمال . !

ويبلغ عدد العيون والآبار بالواحات الخارجة ٢١٤ عيناً وبئراً طمرت منها إحدى عشر والباقية جارية .. تنتج ٨٢٤ قيراطاً من الماء موزعة كالآتي :

البلد	عدد العيون	الجاري منها	المطمور	عدد القراريط	أقل عمق	أبعد عمق	ملاحظات
الخارجة	٩٣	٨٦	٧	٤٢٣	٢٠ قدماً	٧٨٠ قدماً	ويلاحظ أن عدد قراريط الماء المذكور بهذا الجدول هو مقدار الماء الذي ينتفع به الاهالي فقط.
المحاريق	٢٨	٢٧	١	٧٠	١٩٠ »	٩٠٠ »	
جناح	٠٩	٠٩	—	٣٦	٠٤٠ »	٥٠٧ »	
بولاق	٣٥	٣٢	٣	١٢٣	٨٠ »	١٠٠٠ »	
باريس	٤٩	٤٩	—	١٧٢	٠٥ »	٦٠٠ »	

ومن هذا الجدول يتضح لنا ان أقل بلاد الواحات الخارجة ماء ، هي قرية جناح ، ولذا فإنك ترى الفقر ظاهراً على أهليهـا ، والكآبة تظللها بظل أقتم .. ويرجع السبب في هـذا لكسل الأهلين واهمالهم عيونهم وتقاعدهم عن القيام بجهرها وعدم دأبهم على المحافظة عليها .. بل يتركونها نهباً لسافيات الرمال تعبث بها فتسد مجاريها منصرفين عنها بالهجرة الى القاهرة وسوف لا يمضي زمن طويل حتى تصير هذه البلدة أثراً بعد عين اذا لم يتداركها الله برحمته

(د) الواحات الداخلة

. . والماء دائماً مشكلة المشاكل في الصحراء وخصوصاً في الواحات الداخلة فلا تقوم العداوة بين فردٍ وفرد ، إلاّ من أجل الماء ، ولا تحقد بلد على أخرى ، إلاّ لأن هـذه منخفضة المستوى عنها ، وعيونها تسحب ماء عيونها .. وكما سبق أن بينا على قدر الماء الذي يملكه الأفراد تقدر ثرواتهم .

والعيون تكثر بالواحات الداخلة وتنقسم ثلاثة أقسام

١ — عيون جارية : وهي التي ينساب الماء منها الى الزراعات فيرويها بغير آلات رافعة

٢ — عيون غير جارية : وهي التي يرفع ماؤها بالسواقي .

٣ — عيون مطمورة : وهي التي جفت وردمت . ولـكن أصحابها لا يزالون يدعون ملكيتها ، ويؤدون عنها حصيلة الحكومة عن كل قيراط مما كانت تنتج خمسين قرشاً .. يقودهم في ذلك الأمل الى أنهم ربما يستطيعون إخراجها في المستقبل ، ولـكن أهالي البلاد جميعاً يقف بعضهم لبعض بالمرصاد ، فاذا ما أراد أحد إخراج عين طمرت ، ضجَّ الآخرون بالشكوى ، لولاة الأمور في مصلحة الحدود ، مدعين أن فلاناً سيخرج العين الفلانيـة ، وهـذه العين خطر على العيون الأخرى ، لأنها تقع في مستوى أقل من مستواها ، وأنها ستسحب ماءها بلا ريب ، وتقوم مصلحة الحدود بدورها فتمنع البادىء في الحفر من إتمام عمله .. حتى ضاقت بهم الحال . وبرمت مصلحة الحدود بكثرة شكاواهم . . وأخيراً فكرت الحكومة في اخراج عيون جديدة ليست ملكاً لأحد ، فاذا بهم ينهجون نهج أهل الواحات الخارجة ، في محاولة إيقاف العمل ، بنفس الحجة التي دائماً يتخذونها ذريعـة لمنع الخير عن بعضهم البعض .. إلاّ أن شكوى الشاكين لم تلق اهتماماً ، وبدىء بالعـمل فعلاً في البلاد القليلة المـاء أولاً ، فخرجت عين الفاروقية (بموط) (١٧) وقد بدأ العمل فيهـا في أوائل اكتوبر سنة ١٩٤٠ باشراف المهندس المصري (محمد افندي يوسف طويلة) واستغرق الحفر ثلاثة أشهر ... تفجرت بعدها العين بماء غزير . إذ بلغ تصريفهـا في الدقيقة ١٢٨٠ جالوناً

من المـاء من (ماسورة) قطرها عشر بوصات ، وبلغت نفقات الحفر ٥٠٠ جنيه مصري تقريباً . . أما عمقها فبلغ ٧٦٤ قدماً . وهاك قطاعات للطبقات الأرضية التي صادفها المهندس أثناء الحفر :

قدم	سمك الطبقة بالقدم	نوعها	البعد عن سطح الارض بالقدم
٧٦٤	٨٣ قدم	طين أحمر	
	٢٧٠	طبقات رملية مختلفة	وهذه هي الأسفنجة المائية الأولى التي يحفر عليها الأهالي لاخراج آبارهم بطريقتهم وتبعد عن سطح الأرض ٨٣ قدماً
	٢٠٥	طين أزرق	٣٥٣ قدماً .
	٢٠٦	طبقات رملية مختلفة	وهذه هي الأسفنجة المائية الثانية التي تحفر الحكومة عليها في الواحات الداخلة . وتبعد عن سطح الأرض ٥٥٨ قدماً

وجملة العمق الذي وصلوا اليه ٧٦٤ قدماً

وعند ما تفجر ماء العين قامت مصلحة الحدود بتوزيعه على المستحقين الذين لا يملكون ماء ، أو يملكون ماء قليلاً . واحتفظت لنفسها بالنصف من ماء العين ، على أن تفرض عليهم ايجاراً للماء الذي أعطتهم إياه بعد ثلاثة أعوام ... !

وبعد الانتهاء من فاروقية موط ، أخذت الماكينة تتنقل بين البـلدان الأخرى مبتدئة دائماً بالبلدان القليلة الماء ، ثم التي أحسن حالاً منها وهكذا . . وكانت النتيجة ان خرجت في القلمون عين لا تقل عن فاروقيـة موط في تصريفها ، وبذلك أنقذ القضاء أهل القلمون من شيئين :

الأول : طول المسافة التي يقطعونهـا لاجتلاب ماء الشرب إذ أن ماء العيون المحيطة بالبلدة والقريبة منها مرّ وبه مادة حديدية قوية جدًّا حتى أنه إذا وضع قليل منه على الشاي اسود لونه وصار قاتماً .. وهذا يستعمل في المنازل للضروريات .

والأمر الثاني : هو أن الأطفال ينحدرون الى مجاري هـذه العيون فيستحمون فيها ، وتؤثر المياه الحديدية على عيونهم فتصير نصف مقفلة كالعوراء وما هي بعوراء (فرد كريمه)

أما وقد تفجر الماء العذب حول القرية فقد تخلص الأهالي من هذين الأمرين .

وخرجت عيون أخرى بالجديدة وبدخلو ، ولا يزال العمل مستمراً .. !!

وتحاسب الحكومة الأهالي على الماء كالخارجة .. ويحاسب الأهالي بعضهم بعضاً .. بالأميلة .. والأميلة = ١٢ ساعة وتساوي أيضاً ٣٠ قدماً وتساوي أيضاً ٦٠ حبة كبيرة وتساوي ١٢٠ حبة صغيرة ومقدار الحبة الصغيرة ست دقائق .. ويستعملون لضبط الوقت في توزيع الماء ساعات مائية (١٨)

ويؤخذ من كشوف الحصر الذي أجري على قراريط الماء بالواحات الداخلة عام ١٩٠١ أن بلاد الواحات الداخلة كانت تجري عيونها وينابيعها بحوالي ٢٤٠٢ قيراطاً من الماء يزرع عليها مساحة ١٢٤١٠ فداناً ، وكان الأهالي قليلين ، وأما الآن وقد صار عددهم يربو على العشرين ألفاً فإن ماءهم نقص الى ١٨٧٢ قيراطاً .. وتبع نقص الماء ، نقص في المساحة المنزرعة إذ بلغت ٩٣٦٠ فداناً مما أدى الى سوء الحال وضياع بعض الزراعات التي كانت تغل غلة وافرة . ولنضرب مثلاً على ذلك ما ترتب على جفاف عين الرحمة بالراشدة ، وكانت تنتج واحداً وعشرين قيراطاً ، وصارت بعد جهد جهيد لا تنتج غير ثلاثة قراريط .. وسميت ببئر الرحمة ، وبجفافها مات من الأشجار ٤٠٠٠ نخلة .. و ٥٠٠٠ شجرة مشمش و ١٠٠ زيتونة و ٥٠٠٠ شجرة برتقال . ولو فرض لكل نخلة عشرة قروش كغلة في العام ولكل شجرة مشمش مثلها ، ولكل زيتونة عشرين قرشاً ولكل شجرة برتقال عشرة قروش أيضاً لكانت الخسارة التي تكبدها أهالي هذه القرية :

٤٠٠٠ × ١٠ + ٥٠٠٠ × ١٠ + ١٠٠ × ٢٠ + ٥٠٠٠ × ١٠ = ١٤٢٠٠٠ قرش في العام عدا ما كانت تنتجه أراضي العين من محاصيل القمح والأرز .

على أن الأمل قوي في أن مشروع الماء الجديد سيعيد الى البلاد ما كانت عليه من عز ورفاهية . ومن الغريب الذي يلاحظ إن الماء قل ولا يزال الأهلون يؤدون عنه الضريبة كما ربطت في عام ١٩٠١ والعيون بعضها غاض ماؤه من زمان بعيد . .

وماء عيون الواحات الداخلة مرتفع الحرارة .. وتبدو هذه الظاهرة بوضوح في آبار الشمال أكثر من آبار الجنوب ، ذلك لأن درجة حرارة البلدان الشمالية مرتفعة جداً إذ تبلغ في بئر « الدينارية » مثلاً (٤٠°) سنتجراد وهذه البئر عمقها ١٤٤ متراً . أما بئر العمدة المشهورة في قصر الداخلة فتبلغ حرارة مائها أيضاً (٤٠°) أما البئر الحامية فكان ماؤها ينضج البيض إذا وضع فيه بضع دقائق وذلك منذ سبعين عاماً كما يقول بعض المعمرين في الداخلة .

وقد ذكر (بندل) أنه من الصعب معرفة الأسباب التي يعلل بها ارتفاع درجة حرارة مياه آبار الواحات الداخلة ، لأنه لا يمكن تعليلها بارتفاع حرارة الصحراء .. مع مراعاة العمق الهائل للطبقة المائية التي يأتي منها الماء .. ولا يمكن أيضاً تعليلها بالحرارة التي تتولد من احتكاك قطع الصخور المتحركة لأنه لا يوجد هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن تحركاً كهذا يحدث في هذا الجزء من صحراء ليبيا .

ولكن يمكن أن يُستنتج أن ارتفاع حرارة مياه هذه الآبار إنما يُعزى الى سبب واحد وهو كثرة العمق الذي تأتي منه هذه المياه ، وأنها إنما بلغت هذا العمق في باطن الأرض أثناء مرورها فيه ابتداءً من المنطقة التي بدأت منها ، الى المكان الذي خرجت فيه بالواحات الداخلة

وذكر (أولومبيادور) أن أهالي الواحات الداخلة كانوا مشهورين بحذقهم في حفر الآبار إلا أنهم في خلال غزو العرب أهملوا أمر حفرها فانطمر أغلبها ، وبطلت زراعة مساحات كبيرة من الأرض ..

ومن أجمل العيون بالواحات الداخلة العين الموجودة باستراحة عمدة « المنداو » فانها جميلة مستطيلة صافية يجري غديرها في حديقة منظمة تظلله أشجار الموز والمنجو .. وحولها يقع منحل وزارة الزراعة الذي يغل غلة وافرة .

والماء يخرج فواراً في شكل يلذ للعين أن ترقبه ، دون أن يعتريها الملال ..

ومما يكثر ترديده على السمع في الواحات الداخلة (آبار ميهوب) وهي عبارة عن مجموعة آبار ، مكونة من إحدى عشر بئراً حفرت حوالي عام ١٨٨٥ بواسطة « الشيخ محمد ميهوب » تلميذ السنوسي الكبير ، الذي كاف من قبله بنشر الدعوة للمذهب السنوسي الذي يسيطر على صحراء ليبيا ، بين برقة وطرابلس ومصر .. وتقع هذه الآبار في أرض منخفضة المستوى ، لذا فهي تمتاز بغزارة مائها ووفرة غلة أراضيها ، وقد اشترتها الحكومة أخيراً بين ما اشترته من أملاك السنوسية في صحراء مصر الغربية ..!!

(هـ) الواحات البحرية

وتعتبر الواحات البحرية ، أقل الواحات الغربية ماءً ، ذلك بالنسبة لسعة الأراضي التي يجب أن تزرع ، والقابلة للزراعة ، لكي تفي بحاجة الأهلين الكثيري العدد ، إذ يزيد عدد السكان عن الستة آلاف نسمة ، ويرجع السبب في قلة الماء هكذا الى أن الأهلين لا يحاولون استخراج عيون جديدة إلا نادراً ، وذلك لضعف بنيتهم ، وعدم قدرتهم على الكفاح ولقلة ذات اليد . ولما يوصفون به من الكسل والتواكل في أغلب الأحيان . وهم لا يقومون

بتنظيف عيونهم الا نادراً . هـذا من ناحية الاهلين . وأما من ناحية الحكومة . فان الواحات جميعاً قد غمرت برعاية الحكومة إلاّ الواحات البحرية، فانها لم تنل غير عطف المغفور له الأمير عمر طوسون باشا فقد كان كثير الحدب عليهم ، والرأفة بهم ، فكم قام بالرحلات على نفقته الخاصة ، لكي يوزع عليهم الهدايا والصدقات . ولقد أهدى اليهم أكثر من دولاب لحفر العيون ، وأثمر استعمال هذه الآلات بشكل ظاهر . ولقد فقد أهل الواحات البحرية بفقد سموّه أكبر نصير لهم عطوف عليهم .!

والمنتظر أن تنتقل ماكينات الحفر الى الواحات البحرية بعد الانتهاء من الداخلة والخارجة.

وأغلب العيون الموجودة بالواحات البحرية تنبع من سفوح الجبال ، وينحصر ماء العين في قنوات تسير تحت الارض بانحدار قليل نحو الوديان التي تزرع عليها ، ولقد جعلت عليها — على القنوات — فتحات عمودية . على مسافات قصيرة . كمساقط لتسهيل تنظيفها في أقبيتها والمحافظة عليها والعناية بها .. وهذه الفتحات مستطيلة ، منحوتة في الصخر ، ولها درجات منقورة في كل ناحية ليسهل النزول اليها وقت اللزوم .. !!

ولقد صُنِعَت هذه الاقبية في العهد الروماني ، وحالتها الراهنة تدل على أن الذي صنعها خبير ماهر ذو دراية كبيرة ، فانها لا تزال جيدة رغم ما مرّ بها من صروف الزمان .

ويخرج الماء من أقبيته ، الى قنوات مكشوفة ، تنحدر الى المزارع الواقعة في السهول الفسيحة المنبسطة ، وتقع معظم هـذه العيون ذات الأقبية بجوار القرى ، حيث المرتفعات المجاورة للسهول فينساب الماء منها الى الأرض دون استخدام الآلات والدواليب .. !!

ويبلغ مجموع العيون بالواحات البحرية ٢٠٤ عيناً موزعة كالآتي :

٣٢ عيناً بالبويطي و ٥٩ عيناً بالقصر و ٧١ عيناً في منديشة و ٤٢ عيناً بالزبو . والماء المتصرف من هذه العيون جميعاً يستعمل في الري ولا يعرف مقدار ما تنتجه كل عين ، وذلك لأنه لم يعمل له حساب حتى الآن ، والعيون جميعها عذبة الماء باردته ، اللهمّ إلاّ عـدد قليل منها يعتبر حار المياه ، ويحتوي ماء أغلب العيون على رواسب مختلفة الالوان .. ومن أهم عيون الواحات البحرية :

١ — عين البشمو[1] : من أجمل العيون بالصحراء الغربية قاطبة ، إذ تتفجر من فجوة في باطن الصخر ، ومن أمامها يبدو واديها المخضوضر في روعته فاتناً كل الفتنة .. ويسير ماؤها في المجرى الذي شقه لنفسه على مر العصور ، تحت سطح الارض في الطبقـة الصخرية التي تغطي العين ، ثم يخرج الى سطح الأرض من فتحتين منفصلتين متجاورتين تسمى إحـداهما

(١) وقع خطأ في العبارة المكتوبة تحت صورة عين البشمو اذ كتبت عين النجر ، وفي الواحات الغربية بدلا من البحرية .

« البغمو » والأخرى « دردير » .. وإحدى الفتحتين ذات ماء حار إذ تبلغ درجة حرارتها ٣٣ْ سنتجراد . . وأما الأخرى فبارد ماؤها كثيراً عن الآخر

والمياه التي تخرج من الفتحتين تتجمع على بعد أمتار قليلة من فتحتي الخروج وتكوّن غديراً واحداً يسير مسافة ١٥ متراً ثم ينحدر في شلال صغير قوي استغله الأهالي في ادارة طاحونة لطحن الغلال . ثم يسير الماء في مجراه بعد هذا الشلال الصغير الى حيث يتفرع في قنوات أربع ، تقوم على أول كل منهـا فتحة منقورة في ساق شجرة من أشجار السـنط أو الخرّوب ، وتسمى كل فتحة (فكّـا) وذلك لأحكام توزيع المـاء ، ولـكل فك اسم يعرف به .. وهي :

١ — فك النقطة : ويأخذ خُـمس ماء العين ، ويستعمل لري الحدائق . والباقي يوزع بين الأربعة الأخرى .

٢ — فك القصراوية : ويأخذ ربع المياه الباقية بعد ما يأخذه فك النقطة ..

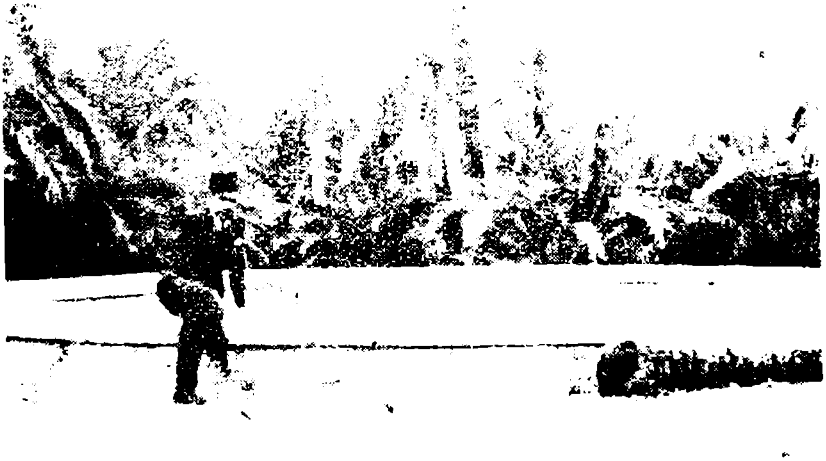
٣ — فك الغبب : ويأخذ ربع المياه أيضاً ويجري في مجرى يسمى باسمه

٤ — فك الأبوار : ويأخذ الباقي ويجري في مجرى يسمى باسمه

ويستعمل ري هذه الجداول الثلاثة الأخيرة في ري زراعات الأرز

٢ — عين الموفتلاّ : وتقع على مسيرة كيلومترين تقريباً من الشمال الغربي لآخر مساكن قرية القصر . ويمتاز المكان الذي يخرج منه ماء هذه العين بمزايا هامة جدّاً ، فالماء يخرج الى المجرى المكشوف بثلاث قنوات مختلفة ، ولـكل من هذه الفروع ، مميزات من الطرافة بمكان . فالفرع الأول يمر في قبو صخري في الجهـة الشمالية ، وفتحته وجوانبـه الصخرية مغطاة بنبات شعري ، يانع جميل المنظر .. وفي نقطة أخرى يمر ماء الفرع الثاني ، بين شقوق في الصخر ، ويصب في حوض صغير ، هو نفسه مكان نبع الفرع الثالث .. وهـذا الحوض الصغير المستدير الشكل يبلغ قطره من ٥ — ٦ أمتار تقريباً ، ويخرج المـاء منه على هيئة نافورة ويصعد منها متقطعاً ، فتصعد كمية من الماء ، وتعقبهـا كمية من الرمل ، فأخرى من الماء ورابعة من الرمل ، وهكذا على التوالي .. !!

وتتجمع مياه هذه الفروع الثلاثة في بركة صغيرة تسمى « المحبس » يخرج منها غدير متعرج يسير إلى مسافة بضع عشرات من الأمتـار ، ثم ينقسم الى قنوات تنحدر مياههـا بشلالات منفصلة في ثلاث جهات مختلفة ، وتنصرف الى أكثر من مائة حديقـة ، لا تزيد مساحة الحديقة منها عن فدان تقريباً .. ويلوح أن هاتين العينين من العيون الطبيعية التي لم تعمل في حفرها يد إنسان .. !! .



عين طموس وهي أصغر عيون سيوه وعلى حافتها جلس المؤلف وبجوار سور العين جذوع النخيل ملقاة على الارض



عين الشجر وهي أكبر عيون الواحات الغربية وتمتاز بان مياهها باردة في قناة وساخنة في قناة أخرى ، وكلا الاثنين من منبع واحد

وعداها توجد عيون أخرى كثيرة ذات منظر جميل يلذ للعين أن تستمتع بما له من روعة وجلال ..

ويوزع الماء بين الأهلين بحساب الطرف .. والطرف اثنى عشر ساعة ، ونصفه وثلثه وربعه .. ولا يعرفون حساباً للماء غير ذلك .. والبيع للملكيات على أساس الطرف المائي أو أجزائه .. !!

وأهل الزبو يحسدون أهل القرى الأخرى بالواحات البحرية على كثرة ماء عيونهم ذلك لأن العيون التي يملكها أهل الزبو قليلة الماء بسبب طمر الفرود لها .. وأكثر حقدهم على أهل الباويطي والقصر ، لأنهم ينعمون بعين البشمو العظيمة ، الكثيرة الماء ، وهذا الحسد قديم ، ولقد قام من جرائه كبير بالزبو ، وكان صاحب نفوذ وقوة ، وحفر ترعة كبيرة من الزبو ، وسار بها نحو عين البشمو لكي يحول ماءها لقريته عنوة واغتصاباً .. وكان أن قام أهل القصر والباويطي يدافعون عن مائهم ويذودون عن حوضهم ، واشتبك معهم أهل الزبو بزعامة كبيرهم في عراك قتل فيه كثيرون ومن بينهم صاحب الفكرة .. ولا تزال آثار ذلك المجرى يلم بها الساري في بعض الطريق بين الباويطي والزبو

(و) واحة الفرافرة

ليس في واحة الفرافرة ما يمكن أن يكتب عنه غير أنها قليلة السكان ولا تتعدى قرية واحدة ، وعيونها لا تزيد عن العشرين عيناً ، تجري بماء يستعمل جميعه في الزراعة ، ولا يترك منه أي مقدار لكي يذهب هباء ، وأغلب هذه العيون تقع حول « قصر الفرافرة » وهي القرية الوحيدة بالواحة ، ولا يختلف توزيع الماء فيها عما يتبع في الواحات البحرية في هذا السبيل .

وعلى بعد خمسين كيلومتراً في الشمال الغربي لقصر الفرافرة ، تقع عين « الدالة » في المنخفض المسمى باسمها وتوجد هذه العين في السهل على ارتفاع ١٢٠ متراً من سطح البحر ولكن هذا السهل المرتفع يعتبر منخفضاً بالقياس الى الجبال المحيطة به ، وتوجد العين في قمة تل من الرمال مكون من ثلاث طبقات ، يبلغ ارتفاع الطبقة الأولى منه مترا عن سطح السهل الواقع في الجهة البحرية ، وترتفع الثانية ثلاثة أمتار فوق الطبقة الأولى ، وترتفع الثالثة خمسة أمتار فوق الثانية .

والماء محاط بشجيرات الغاب. والنبع ينحدر بمترين عن قمة الجبل الذي يكون هبه قمع

حوله ويمنعه من السيلان في غير مجراه . . وهذا الماء من حيث صلاحيته للشرب يعتبر من أجود مياه صحراء ليبيا .

وتوجد عدا ذلك ينابيع كثيرة في الصحراء . ولكنها لا تستعمل للزراعة ، ولكن للشرب . ذلك لأنها تقع في بقاع غير مأهولة بالسكان . غير أنها تؤدي خدمة جليلة للقوافل لوقوعها على دروبها التي تسلكها ، فتتزود منها أثناء السفر الطويل الشاق الذي تمر به في الصحراء القاحلة .. ولما كانت هذه الينابيع ليست لها قيمة من الناحية الاقتصادية فقد رأينا ألا نطيل الحديث عنها خصوصاً وأنها لا تختلف كثيراً عما ذكر من الآبار .

وكل الماء الذي في الصحراء تقريباً يصلح للزراعة ، ولكن ليس جميعه يصلح للشرب ، ذلك لأن هناك عيون تزيد نسبة المواد الراسبة في مائها عن ١٠٠٠ جزء في المليون .. وهذه النسبة من الرواسب هي أقصى كمية يُسمح بها في ماء الشرب .. ومثل ذلك كل عيون سيوه وقارة أم الصغير . ولكن الأهلين يشربونه في غير امتعاض لتعوّدهم عليه فقد درجوا على شربه .. أما نحن أبناء وادي النيل ، فعندما يذهب الواحد منا إلى احدى هاتين الواحتين فإنه يمضي أياماً قبل أن يستسيغ الماء . وليس في الشرب فقط عدم الاستساغة بل وفي الشاي والقهوة ، وكل ما يصنع به . وما هي إلا أيام ويتعوده كما تعوده أبناء الواحة من قديم الزمان.!!

وتعتبر واحة قارة أم الصغير ، أكثر بقاع الواحات ملوحة للماء إذ يبلغ مقدار الرّواسب في الماء ٦٠٠٠ جزء في المليون ويصل في بعض العيون إلى ٩٠٠٠ جزء في المليون.. وبينما نجد أقل نسبة للرواسب في ماء عيون قارة أم الصغير ٣٧٩٠ جزء في المليون وفي سيوه ١١٩٠ جزء في المليون . نجد أن أكبر نسبة في الواحات الأخرى ، لم تتعدّ الألف جزء في كل مليون . . هذا إذا استثنينا عين غانم في الفرافرة ، وعين العصيلي والشفرة في البحرية ، وخمس عيون في الداخلة أكثرها في القلمون .. وسبعاً في الخارجة أكثرها في بولاق .. بينما عين منسية وعين الواطية لا تصلحان للشرب اطلاقاً لاحتواء مائهما على مواد حمضية وحديدية كثيرة .

١ – الى الصحراء

. ..وتركنا القاهرة والشمس الغاربة ترسل أشعة هزيلة، تنعكس على زجاج نوافذ القصور، فتحدث وهجاً أحمر كأنه اللهب المتقد، تمتـد ألسنته من أتون متأجج .. وأخذت السيارة تطوي الطريق نحو الاهرامات، والهواء البارد يتدفق على جانبيهـا، ثم التوت بنا منسابة وسط الصحراء، مندفعة كالماء ينحدر من شلال، والشمس تبتعد شيئاً فشيئاً، حتى توارت بين أسـتار الغسق، ولم تزل بقية من دمعها الدامي تخضب الأفق، وتنعكس على الرمال والأحجار الساجية على جانبي الطريق .. !!

وأقبلت بواكير الليل تسـترق الخطى كالـكتائب، وأخذت صفوف الظلام تمتد فوق ربوع الـكون. ولا زلنا نطوي الأرض، ولا بصيص لنور يضطرب وسط هذه اللانهاية، إلا ما يشع من مصباحي السيارة الأماميتين، تشقان الظلمة من أمامها، وهي تعلو وتهبط غير مبالية بوعورة الطريق، وحلوكة الليل.

وكنت جد طروب بهذا كله، إذ أرى فيه صوراً ما كنت على علم بشيء منها من قبل، وفجأة لمحنا نوراً يلوح في الأفق البعيد، ما لبث أن اختفى، وما هي إلا لحظة حتى أقبلت سيارة تدق الفضاء، وكأنها الأمل العارض، وخلفتنا — ذاهبـة الى القاهرة — كفرصة تتراءى لليائس في ظلام الحياة، ثم تفلت منه قبلما يتمكن من إدراكها .. !!

وتقدمنا في الطريق أميالاً، فلاح لنا ضوء جديد ما كدنا نتساءل عنه في أنفسنا حتى أدركناه، وكانت محطة اللاسلـكي الواقعة في الثلث الاول من الطريق الصحراوي، وما هي إلا لحظة حتى خلفناها وراءنا. وانطلقنا لا نرى شيئاً إلا ما يقع تحت مصباحي السـيارة .. ثم لاحت لنا أضواء ومصابيح كهربائية، وأعدنا الـكرة في التساؤل، فاذا بنا نقف أمام ما كنا نريد الاستفسار عنه، وكانت نقطة « هجانة » ترابط في وسط الطريق، ومقهى ونزل ومطعم، وبجانب هذا كله يمتد طريق شركة وادي النطرون

وواصلنا السير حتى اذا ما قطعنا بضعة كيلو مترات، وقفت بنـا السيارة فجأة، فقد

أصاب العطب إحدى عجلاتها الخلفية ، وفي هذا الظلام الدامس ، وهذا السكون الشامل الذي يُذكّر من زار آثار الفراعين بسكون مقابر طيبة . . أخذنا في إصلاحها . .

كان الهواء بارداً ولا شيء من حولنا يتحرك إلاّ يدي السائق تعملان في إصلاح العجلة التالفة . وفجأة ومض فوق رؤوسنا ضوء وسمعنا حركة تدنو ، فأرسلت بصري في هذه الحلكة القاتمة . مستكشفاً هذا النور الجديد . فاذا به من سيارة مقبلة من القاهرة ما لبثت أن اختفت في منخفض من المنخفضات التي ينحدر إليها الطريق . ثم رحت أحدق في الظلام ثانية علّني أعرف مبعث هذه الحركة التي تدنو . فاذا بها قافلة من الإبل تجتاز الطريق الصحراوي . مقبلة من وادي النطرون ، وبعد دقائق اقتربت منا السيارة ، وكأنها الخير المواتي ، فغمرتنا بنورها ، وكنت أقدّرُ في نفسي أن من بها سيقفون بنا فيتساءلون : هل من معونة ؟؟ إلاّ أنني رأيتها وقد ضاعفت سرعتها عند ما اقتربت منا ، ومرت كومض البرق مسرعة !!

وبعد هنيهة كان السائق قد انتهى من عمله ، وتحركت مركبتنا ، وشعرت أن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن صدري ، فقد أخذت سرعتها تتزايد ، وتتضاعف فاذا بالتي مرت بنا ساخرة ، تتخاذل في سيرها ، ثم اذا بنا نثأر لانفسنا ، فنمر بجانبها دون أن نعبأ بها ، ثم تمادينا في السير ، دون مهادنة في السرعة ، كأنما نجري بقوة سحرية الى فضاء مجهول وبغتة التوى الطريق فألقت السيارة بنورها على أرض بجواره ، فلاحت لنا خضرة كاسية وكان السائق الماهر ملمًّا بكل شيء حول الطريق الذي نجتازه ، فسألته : ما هذه الخضرة التي تكسو رمال الصحراء ؟ فأجاب : انها حقول الشعير التي يزرعها البدو على مياه الأمطار. ولقد كنا في الثامن والعشرين من شهر ديسمبر وكانت الأمطار قد هطلت بغزارة في اليوم السادس من نوفبر ، فتكونت عنها سيول غمرت الارض وقتاً ليس بالقصير . فهذا اذن منبتها .

ورحت أحدق في الظلام علني أرى جمال هذه المزارع النامية في البيداء ، ولكن عبثاً حاولت . فحلوكة الظلماء حالت دون بصري وما يريد أن يستكشف ، وبينما أرجع البصر محاولاً اختراق سجوفها ، إذ تراءى لي قنديل يضطرب وسط لانهايتها الدامسة . ولم تمض برهة حتى كنا نمر أمام مقر هذا القنديل، فاذا به في خيمة اعراب ممن يقطنون وسط مزارع الشعير ، ولم أتساءل عنه قبل بلوغه ، فقد رأيت أن من الصواب ألاّ أشغل السائق بكثرة الأسئلة ، فلا يضطرب ذهنه الذي ينحصر في عجلة القيادة . وبالصبر سأرى بنفسي وأقف على كل شيء .

وبعد ساعة تقريباً بدت لنا هالة من النور في الأفق البعيد ، كأنها جهنم تتقد بأجساد



الربيع في مريوط (شجر اللوز المزهر)



فتيات البدو في الواحات البحرية

الظالمين . فقد كانت عظيمة المساحة حتى انني نسيت بأزائها ما عاهدت نفسي عليه من الصمت فسألت السائق : ما هذه الأضواء الجمة ؟ فقال : انها العامرية . وسرعان ما استدرك عند ما مررنا بين ثكنات الجيش الانجليزي القديمة فقال : بل هي الاسكندرية .

عروس الماء ، وغادة الصحراء ، تبعث النور في عرض البحر الزاخر فيهتدي به كل فلك ماخر ، يلاطم عبابه ، ويعلو فوق قبابه . وترسل بأشعتها فوق البيداء القفر فيسترشد بها كل من ضلّ في المسلك الوعر .

وبعد برهة ، وأمام الممر المؤدي الى العامرية، تركنا الطريق الصحراوي الممهد والتوت بنا السيارة بين مزارع الشعير ، في طريق غير معبد ، الا أنه كممشاة وسط بستان أنيق تحف به المروج الخضر من الجانبين ، والقناديل متناثرة هنا وهناك ، تخفق في بيوت الاعراب ، وعلى ضوء السيارة رقصت الارانب الجبلية التي انبثت وسط المزارع ترعى الكلأ متخذة من ظلامة الليل حجاباً يسترها عن العيون والأبصار . واسترعت بصري شجيرات وسط الشعير أكبر من سويحباتها ، فأدركت أنها ليست كلها من صنف واحد ، الا أنني لا استطيع أن أميزها ، لعمق الليل وكثافة الدجى ، وسرعة السيارة ، ولكنها كفتني مؤونة التحقيق والتدقيق ، فقد ميزت نفسها بنفسها ، إذ بدت منها نباتات تحمل أعواداً وهذه الأعواد تحمل أزهاراً فأوقفنا السيارة ، واقتطف السائق حاملاً زهرياً مما على جانبي الطريق .. يا عجباً يا عجباً .

ان ما بيدي إن هو الا عود من أعواد النرجس، عليه أزهاره العاطرة ، فيالها من طبيعة قادرة ، كست نفسها بنفسها ثوباً بدت فيه رائعة الجلال ، فها هو ذا النرجس الجبلي ، يزاحم الشعير ، في منبته، وها هم أولاء الأعراب ينعمون بجهل كما الله به القفر فصار روضاً يانعاً . !!
وان الانسان ليجهد نفسه في زراعة هذه الابصال ، وتربيتها في البساتين والحدائق ، ويروح يفخر إذا ما أنبتت نباتاً له من الحسن نصيب ، ولو تجول في ربوع الصحراء الجرداء صيفاً ، الغناء العامرة شتاءً لاستمتع بالجمال الالهي الذي يفني نفسه في تقليده : فتلك هي الابصال نامية في العراء ، سقياها المطر وبستانها الطبيعة .. !!

ولم أفق من عجبي إلا على أثر انبعاث أضواء كثيرة خفاقة ، وكان السائق على علم بأنني لم أطرق هذه الطريق من قبل : فقال دون أن أسأله : وهذه بلدة « كنج مريوط » .. وبها فنادق فخمة للسواح وأصحابها أجانب وهي مصيف جميل يحبه الانجليز ..

وخلفنا « كنج مريوط » وراءنا ، ولم نبصر بأحد في طريقنا ، إلا عند ما مررنا بمحطة السكة الحديدية ، فقد وقف بجانبها ، عند ما اقتربنا منها ، بضعة رجال من الأعراب سحرهم

نور المدينة ، فجاءوا يتلصصون في الظلام ، ليقبسوا في نفوسهم شيئاً مما يعهدون .

وبعد بضعة كيلومترات رحنا نخوض في ماء يغمر الطريق هو من آثار السيول التي غمرت هـذه البقاع والساحل الشمالي في يوم ٦ نوفبر الماضي [1]. وعند الساعة التاسعة مساء دخلنا قرية « برج العرب » .. ! !

ولم يكن بها من صوت ولا حركة ، تدل على وجود الحياة فيها ، فقد كانت هادئة ساكنة كأنها من العدم بحيث لا ينم عنهـا شيء وسط سرمدي الظلام ، حتى ولا قنـديل يختلج في بيت من تلك البيوت التي يلفها الليـل بثوب أدكن .. وأخذنا نطرق باب الدار التي انتوينا قضاء الليل فيها ، ولـكن دون جدوى ، فخيل إلينا أن من بها من صحب ، قد غادروها إلى مكان آخر يقضون فيه سهراتهم الليلية ، ثم لا يلبثون أن يعودوا . ولـكن ما أدهشنا إلا ونافذة تفتح في تباطؤ ، ومن خلفهـا صوت يقول في تبلد ، ولا تزال به لـكنة النعاس : من الطارق .. ؟؟

فقلت مازحاً : أفـاق ضل الطريق في هذه الأمسية الدامسة ، فهل من مكان يقيه شر قارس البرد ، وعوادي الظلام ؟ ؟ فإذا بصاحب الصوت يقول : ما تعودنا أن نأوي الضالين في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل ، فاذهب وابحث لك عن مأوى غير هذا . .

وهنا عرفت أنه قد تعرّف عليّ من صوتي ، فقـد كان صديقي وزميلي ، وكنا أبني بلد واحد .. وأسرج المصباح وفتح الباب . . فسألته أكنت نائماً في هذه الساعة المبكرة ؟؟

فقال : وفيم أنفق الليل هنا ان لم يكن في النعاس . ؟ ؟

وظللنا في سمر حتى انقضى وقت كبير من الليل ، نمنا بعده كتوأمين يظللهما ذراع أم رؤوم . . ! !

---

(١) نوفبر سنة ١٩٣٨

٢ - أحلام الصحراء

... وأصبحنا فإذا القرية قد عمرها « الميجر براملي بك » على ربوة من حجر أحمر، وعلى طراز المغرب الإفريقي وبها عدة أبراج عالية، ولها بوابتان كبيرتان من بينهما عر الطريق القديم الممتد بين الاسكندرية ومرسى مطروح.. ولقد كانت مقرًّا لمحافظة الغرب قبل مدينة مرسى مطروح خلال العصر الحالي..

وغادرناها الى بلدة الحمام التي تبعد عنها سبعة عشر كيلومتراً غرباً، وفي طريقنا اليها مررنا « بالغربانيات » ..

وليست الغربانيات بالمدينة: أو البلدة، وإنما هي محطة للسكة الحديد يقوم بجوارها مصنع « للجبس » يمتلكه رجل يوناني، وعلى مقربة منها نحو الشرق يقوم قصر منيف على ربوة وسط الصحراء الساكنة وكأنه المعبد في جلاله ورهبته ومن حوله حديقة..

أما القصر فرائع حقـًّا يبعث في النفس الجلال وقد كساه صمت الصحراء الابدي فتنة وروعة، فإنه ليبدو كالزاهد الذي فرّ من طغيان المدنية وفجورها وانتبذ بدينه مكاناً قصيًّا ..

وأما الحديقة فما أجمل تنسيقها، وقد أنشأت صاحبة القصر الأجنبية في زاوية من زواياها حوضاً للسباحة وخميلة بديعة، وقد قيل ولست أدري أحقيقة هذا أم إنه فرية مما تعوّد أن يعرف به الأعراب.. قيل إنها أنشأت هذا كله، لكي يكون خلوة لها ولمن تحب.. !؟

وبعد ما طفنا بهذا كله، عدنا إلى الطريق مواصلين السير الى الحمام، فاذا بها بلدة عامرة لا بأس بها، فيها سوق ومقاهٍ ومحطة للسكة الحديد ومركز للبوليس وتفتيش للصحة ..

وغادرناها لنسير في طريق يعتدل ويستقيم تارةً، ويلتوي تارةً أخرى، وطوراً يعلو مرتقياً هضبة أو تلاً، وينخفض إلى قاع وادٍ فسيح طوراً آخر، حيث تغطيه مياه الامطار، وفي أماكن كثيرة حفر لها الأعراب حفراً بجوار الطريق كي تتجمع فيها فتبقى صاحية نظيفة منها يشربون ويسقون الماشية، وها هم أولاء فتيان الأعراب وفتياتهم يرعون الأغنام بين شجيرات النرجس التي تشغل مساحات واسعة من الصحراء. وإنهم ليقفون تحت الأشعة المتساقطة، توصلها الشمس على أجسادهم، فتغسلها بحرارتها المستحبة، في مثل هذا الصباح

الشّـبـم الهواء ، وكأني بهم سعداء في مثل هذه الحياة الهادئة ، التي رسمتها يد الطبيعة الحنون ، بريشة فذّة ضربت في الفن بسهم وافر من قديم الزمان ، ولِمَ لا يكونون سعداء حقّـا والغيث هطل بغزارة هذا العام ، وها هي ذي الأرض قد أنبتت الحب الذي بذروه ، ولا يزال البعض منهم يحرث بذره . على ناقة أو جمل ، ويأمل أن يصيب من ورائه اليسر والرغد . .

ولقد ذكرني مرأى الفتى البدوي والفتاة الاعرابيـة ، من وراء الأغنام المنبثة وسط المرج الأخضر ، بقول شوقي على لسان ابن الملوح :

أخذنا وأعطينـا إذ البهم ترتعي   وإذا نحن خلف البهم مستتران ... !

ألا ما أجمله من بيت يرسم حياة الحب في البادية ، وما يحوطها من مناظر خلابة جميلة إنّ الذي يتمثل هذا المنظر الطبيعي أو يراه ، يجد أن الطبيعة التي ينشأ بينها البدوي ، هي الدافع الأول للقلب ، لأن يعشق وأن يحب .. فها هي ذى الأغنام ترعى الـكلأ . وها هي ذي العيون تستجلي جمال الطبيعة الأخاذ . إذن فلابدّ للقلب من شاغل يملأ عليـه فراغه ، ويعمر حوله هذا الفضاء الواسع الشاسع . . ويجعله في حياة صاخبة وسط هذا السكون .

لابدّ للقلب من أمل يداعبه فيحيا من أجله ، ويخفق عند ذكراه ، ويطوي رمال الصحراء الصفراء بطلاء ساحر يحببها إليه ، ويقدسها عنده ، وليس أقدر من الحب على ذلك . فإنه لعالم روحي يحيل القفر جنة ، ويجعـل من الفضاء الواسع والسكون الشامل ، عالماً آخر ملؤه الأماني والأحلام .

ألا ما أمتعها من ساعة . تلك التي يجلس فيها الفتى البدوي ، يبث نجواه الى ليلاه . التي تلقي نظرته الساذجة المغرمة . ببسمة بريئة ساحرة ، هي من فيض القلب الطاهر ، الذي يخفق بين أضلاعها . وترجمان شعورها النقي ، الذي لم تشبه عوامل الخداع المادي ، والمـكر الخلقي مما أدخلته المدنية على نفوس الفتيات المتحضرات من خسةٍ وخبث . !!

إنها إن أحبته . فحخصه ليس إلاّ .. لا تجتذبها نحوه عوامل الجاه ، والأبهة الفارغة والمـال الوفير . أو منصبه الـكبير . فعملهما في الحيـاة واحد ، وهو رعي الأغنام . وطعامهما واحد وهو حليب الشـاة وخبز الشعير ، وإن أصابا شيئاً عدا ذلك فيكونا من الرفاهية بمكان.. والحب.. الحب وحده غذاء روحيهما الذي على نوره يعيشان ويستمرآن قفر الصحراء .. !

إنك لو أجلت النظر في تلك البقاع المترامية الأطراف ، اللانهائيـة المساحة ، لرأيت بيوتهم التي يصنعونها من صوف الأغنام ، وليس فيها من شيء يدل على الرفاهية ، أو نعمة



بدوية حسناء من مريوط

العيش ، إلاّ أن قناعة نفوسهم ، وسعادتهم الروحية ، تجعلها جنة قطوفها دانية ، فيها يطوف عليهم ولدان مخلدون إن رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً .. ففيها يخلدون . وتنقضي الحياة حالمة ما دام الضرع حليباً . والمطر غزيراً .. !!

فالحب في الصحراء قُدُسٌ مشاع ، إذا ما حلَّ سلطانه داراً ، وجد تسامحاً وحَدْباً ، فليس منْ أبناء الصحراء ، من يقيم في سبيله الحدود والقيود . وإنما يتركون القلوب تهيم في جناته ، مفتشة عن سعادتها ، والأرواح سابحة في سمائه ، باحثة عن غذائها ، كما تعوَّدوا أن يتركوا الشياه في الأرض ، تسعى وراء الكلأ .. !!

فالمرعى المعشوشب ، ربيع الشاة .. والحب سواء أكان صاحبه سعيداً به .. أو يائساً منه ، فهو ربيع قلبه على أي حال .. وليس هناك أية قوة تستطيع أن تمنع أحداً من أن يحيا وقتاً في الربيع .. ما وجد اليه السبيل .. !!

فالوالد يحترم أحزان فتاته ، وينزل على إرادتها ، ولا يعارض فتاه ، في هواه ، فلقد درجوا جميعاً على الحرية الموروثة في دمائهم ، والتي تناقلوها أجيالاً بعد أجيال ، فلهم في الحياة متاع الى يوم يقبضون ..

وكل بدوي من هؤلاء ، يشفق على العشاق ، ويرثي لحالهم ، فلا يذكر أحد محبّاً بسوء ، أو بخبث دنيء ، وليس بينهم من يضني نفسه ، فيكافها عناء التجسس على فتىً وفتاة اختلسا من يد الزمان برهة . فيها ينعمان بسقيا الهوى ، إلاّ إذا كان غريماً مزاحماً . أكلت الغيرة قلبه . قتله العشق ، وتيمهُ الهوى . وأضناه الجوى ، فأصبح لا يملك من نفسه زمامها . !!

والجميع من رجال ونساء . يستهمرون ما في رنة الغناء ، من نغمة الحب . ويستطيعون بما جبلوا عليه من فراسة فطرية ، أن يعرفوا المتغني ومن يعني .. !

والفتاة البدوية لا ترغب في الانفراد في مسيرها أو مجلسها . إلاّ إذا أحبت .. فإنها لتخرج الى الفلوات ، وحيدة فريدة ، فتترنم بأنشودة من صوغ فكرها ، وهتاف قلبها ، فتشكو أساها في هواها . وتردد في لوعة ما بنفسها من حزنٍ وشجن ، وتبدأ هادئة حتى إذا ما احتدم في صدرها الألم ، علا الصوت بأنغامه في ترجيع موجع ، فلعلها تُسْمِعُ من تحب .

فالغناء إذن هو الوسيلة الوحيدة للترسل ، بين العاشقين من هؤلاء البدو .. فإن الصوت ليخرج دامياً من شفاه الجريح العاني منصبّاً في نفس من يعني بشدوه فلا يلبث أن يجيب وإذا ما سمع البدوي صوتاً مشجياً ، ينحدر مع الهواء الى سمعه ، وفيه رنة آسية ،

أرهف السمع ، وأعمل الفكر . فلا يلبث طويلاً حتى يعرف صاحب الصوت ومن يعنيه في ترديده وشدوه .

وانني لأذكر أن فتاة بدوية رقيقة الحال أحبت فتىً عظيماً من فتيان العرب ، وبادلها الفتى حباً بحب ، وأقام على حبها حيناً من الدهر ، ثم مال عنها ، فخرجت ذات يوم لتحتطب ، على مقربةٍ من سوق كانت عامرة ، ورغبت إليها نفسها أن تُنَفِّسَ عنها ، فراحت تردد في أسىً وحسرة :

تعادلْ معاي زمان ومال   عزيزْ عَلَيْ طانوه العربْ (١)

وما كاد الصوت يسري مع الهواء الى من بالسوق ، حتى انتبهوا ، فقد جاءهم بحلاوة وطلاوة ، ففيه روح تسبح ، وقلب يضطرب ، وأنفاس أحرقتها لوعة الوجد . وآلام الصد والحرمان .

وقضوا برهة وكأن على رؤوسهم الطير ، فكلهم آذان تصغى ، يتعرفون الصوت فيما بينهم حتى إذا ما انتهت من أغنيتها ، عرفوا من هي ، ومن هو المعني منها ، ذو الحظوة لديها ، وكان صاحبها في السوق ، ولقد سمع مع من سمع ، فما كان منه إلاّ أن سار الى أهلها عند المساء ، في نفر من صحبه ، وخطبها لنفسه .. !!

من هذا نلمس ما في نفس رجال العرب من إكبار للحب ، وحدب على صرعاه ، ورحمة بهم ، أما النساء فإنهنّ يحترمنَ الدموع ، إذا ماذرفها رجل ، ويقدرنَ بكاء الرجال ، فيهبنهم العطف . وإن كنّ عنهم راغبات ، فليس من شيء يتملك قلب الفتاة كأن تجد فتى يبكي بين يديها لوعة وحباً . !!

ولقد أعرف صديقاً لي ، كان كثيراً ما يختلف الى مربوط ، مرتاداً أسواقها في طلب الأغنام ، للاتجار بها ، وكان يحرص دائماً على أن لا يفلت منه سوق « بهيج » لا لأنه يفضُل الأسواق الأخرى في شيء ، بل لأن فتاة تأتي إليه ، ومعها نفر من خدمها والتابعين ، لتبيع ما هم في غنى عنه ، وتبتاع ما هم في حاجة إليه ، وكانت مدللة عند أبيها ، عزيزة عليه . ..أبوها الذي يتمتع بمشيخة قبيلته ، واحترام جيرانه العرب .. وكانت ذات جمال وافر وفتنة .. !!

أحبها صاحبي دون قصد ، وأغرم بها على رغمه . ولما أن أحبها الحب كله ، تهيبها فلم

....

(١) تعادل : توازن أي وضع نفسه في مستواي ، زمان : حين من الدهر . مال : انصرف ..عزيز علي : عزيز عندي ، طانوه : حسدوه من طانه أي أصابه بالعين ..!!

يجرؤ على التحدث إليها ، ولا الاقتراب منها ، وإنما كان يطوف بمجلسها ، وقـد افترشت بساطاً من صوف ، كما يطوف الوثني بصنمه ، يتلمس منه البركات .. !!

ولـكن المدى طال به ولم يرحمه وثنه ، فلم يباركه ولم يحن عليـه ، فاستبدَّ به الشجن ، وأضناه العنى، فراح يشكو أمره وما يلقى من عنت الحب ، الى خلٍّ من أبناء العشيرة ، وثق به وبإخلاصه في صداقته ، فنصحه هـذا بأن يخلع نقاب التهيب فيكون جريئاً معها ، لأن الفتاة البدوية لا تحب من الرجال الخجل ، خصوصاً في الحب .. الحب الذي هو شرعة الصحراء التي تهب بها أبناءها السعادة والنعيم ، فيستعينون بهما على إمحالها ، وما فيها من شظف العيش ، وخشونة الحياة .. !!

وكانت « حمامة » — وهذا اسمها — تصحب معهـا كل سوق ديكها الذي ربتـه .. واعتزت به ، ولم تـكن لتفارقه يوماً أو بعض يوم .. وجاء يوم السوق ، وذهب صاحبي كعادته إلى محجته وبيت المطاف ، فرأى « حمامة » كعادتها على بساطها الذي كان ينظر إليه فلا يرى فيه غير بساط سليمان ، إذ الدنيا جميعها قد تجمعت فيه ، ما دامت « حمامة » متربعة في زاوية من زواياه ، ومن أمامها ديكها يزهو بريشه اللامع ، وبصاحبتـه الحسناء ، التي لا تمر بها عين دون أن ترنو إليها بتمنٍّ وإعجاب ، وكأنما يفاخر الرجال بأنه هو صفيها ، وليس من بينهم من له عندها أقل شأن .. !

وكان صاحبي حقيقة يضمر في نفسه الحسد لهـذا الديك السعيد ، لا لأنه صفيهـا دونه فحسب .. بل ولأنه يسعد برؤياها كل يوم ، ويطعم من يدها الحب ويظفر منها بكل حُـبٍّ .. فما كان منه إلاَّ أن تقدم من مجلسها ، واختطف الديك من أمامها ، قائلا لها :

— « بكم هذا يا صبية . ?? »

فزجرت مستنكرة جرأته ، وقالت في صوت فيه موسيقى وفيه سحر :

— « بإين عليك فلاَّح .. ما هو للبيـع ..!! »

فأجاب صاحبي ، وفي لهجته يبدو الوجد ، وفي نبرته تسري اللوعة :

— « ما أنا فلاَّح .. ولـكن بدوي مثلك يا مليحة .. ! »

وصمت لحظة وعقَّب : « تاخدي فيه ريال .. ? »

فأجابت وقد لمست في أعطافه حنوًّا عليهـا ، وحناناً وميلاً إليها : « ما يجي في تسبيح دمه »

فقال : « تاخدي فيه جنيه .. ? عشر جنيهات .. ?? »

فصمتت وقد أحست ما يرمي اليه ، فألقى اليها بالريال الذي كان في يده ، ومضى والديك

يصبح في قبضته ، فما استطاعت أن تمنعه منه ، أو ترده عنه . !

وسُرّ صاحبه البدوي بما وصل اليه من نتيجة ، وعلم أنها مالت نحوه وعطفت عليه وفهمت ما مقصده مما فعل ، وأكبرت فيه هذه الجرأة النادرة بالنسبة اليها . فما استطاع أحد قبله أن يجرؤ عليها قط فيمس الديك . لذلك تركته يذهب به وهي في شبه ذهول .

وانتهز الصديق البدوي هذه الفرصة ، وراح من ناحيته يعمل على تعزيز مكانته لديها ويطريه بأطيب الذكر . ولقد قال لها فيما قال : إنه بدوي من أصهار خيلانها ، وأنه يعرفها دون أن تعرفه ، فداعبها بهذه الدعابة ، وكان من قبل قد اتفق معه على أن يدعي العروبة وذكر له خيلانها واحداً واحداً ، مذكراً إياه أن يدّعي النسب المبهم . لأنها إن عرفت أنه فلاح ، وليس ببدوي مثلها ، فما له في رضائها نصيب .

فما كان من «حمامة» إذ عرفت عنه ما عرفت الا أن طلبت الى صاحبه البدوي الذي من أبناء جلدتها أن يدعوه ليشرب الشاي في خيمتهم . !

ولم يسع الصب الوامق إلا أن يقبل دعوة من يحب ويعشق ، وركب معها ساعات حتى وصلا الى النجع الذي فيه تقيم . فاذا دارها خيمة من شعر ، تأفف من دخولها في أول الأمر . ولكنه إذ دخلها وجد فيها الجنة والسحر . !

فن وسائد حريرية متناسقة الألوان ، الى بسط عجمية بديعة الرسوم ، الى أكواب من فضة ، وغير ذلك من مظاهر اليسر والرخاء .

وجالست الفتاة الضيف ، فقد كان أبوها غائباً عن الدار ، وليس بدعاً في تقاليدهم أن تحيي المرأة الضيف الى أن يحضر رجل البيت . وبذلك جاءت الخلوة تسعى ارتجالاً بين صاحبي وحمامة ، دون تدبير منه أو منها ، فأراد أن يبثها نجواه . فتكلم ولكن العبرات خنقته ، فأسكتته عن الكلام ، فاذا به يبكي على رغم منه .

قالت : أتبكي ؟ ومِمَّ البكاء ؟

فأجاب : لقد احتدم حبك في قلبي الذي هو صريعه من زمان بعيد ، فلم أجد ما أنفس به عن فؤادي العميد، غير الدموع لعلها تخفف عنه الموجدة ، وما يضطرم فيه من حرارة النيران

وراع الفتاة أن ترى الوجد ينفذ من عينيه دموعاً ، واللوعة تسيل في عبرات فهدهدت خاطره ، وطيبت نفسه ، ثم منحته وعداً بأنها ستكون له رغم كل الظروف . له هو دون غيره

وجاء أبوها فقدمته اليه بأنه من أصهار خيلانها بفاقوس ، تعرفت عليه في السوق فجاءت به ، فأكرم الأب وفادة ضيف فتاته ، واحتجزه عنده أياماً ثلاثة هي مدة ضيافة العرب . ولقد كان خلال هذه الأيام الثلاث موضع الملفاوة والتجلة والاكبار من حمامة

وأبيها . ولقد وصف لي حياته خلال أيامه هذه ، بأنها كانت موشاة بأحلام سحرية ، لاقدرة له على وصفها بالنسبة لما أضفته عليها حمامة من جلال .

وسافر مزوداً بأطيب الأماني والآمال ممن يحب ، وأعاد الكرة خاطباً إياها لنفسه ، ولم يمانع والد حمامة فيما أرادت هي وفتاها . وذهب صاحبي لأبيه يخبره بجلية أمره ، وليصحبه معه لإتمام الزيجة التي وضعها من أمانيه في القمة . ولكن أباه عارضه أول الأمر . ولما أن وجد منه إصراراً وافقه على مايريد ويرغب .

وقال صاحبي متمماً القصة : وضرب أبي موعداً يزيد أجله عن شهر ، فلم أحتمل الانتظار طوال هذه المدة دون أن أراها . فذهبت الى سوق بهيج لأمتع العين بالنظر الى حمامة . وما كدت أراها حتى تداركت دقات قلبي . ولكن الذي راعني هو أني وجدت من حمامة ازوراراً عني وصدوفاً وإعراضاً . !!

اضطربت نفسي . ولم أدر ما السبب ، ولكن ذهولي لم يطل به المدى . فقد أسرع اليَّ صاحبي البدوي ، وسار بي قليلاً منتحياً ناحية بعيداً عنها : وأخبرني بأن أبي قد أرسل إلى أبيها يخبره بعدم صدق روايتي . وبأني فلاح ، ولا صلة لي بفلان أو فلان ، ممن ادعيت النسب إليهم . وإنه لمن الخير لي ألاّ أعود الى الظهور أمامها ففي ذلك خطر عَلَيَّ .

وصمت صديقي الحضري لحظة ثم استطرد : وانقطع أملي منها ولم أعد أسعى الى مربوط . لا لأني خفت مغبة ذلك . بل لأن حمامة احتقرتني اذ كذبت عليها ، وتنصلت من جنسيتي واحتقرت بيئتي في سبيل الوصول إليها . وما أنا بمستطيع احتمال نظرات الاحتقار تصوّب منها إليّ .

وسكتَ عن الكلام وقد رفع يده بمنديله ليجفف عبرة تحدرت على خده .

* * *

على أن الفاقة اذا اشتدت بقوم أفقدتهم السعادة في كل شيء . فلقد مرّت بهؤلاء البدو أعوام ذاقوا خلالها الأمرين . إذ امتنع المطر عن الهطول ، واكلت الأرض الحبّ الذي بذروه ، فلم تنبته . وساءت الحال وعمّ القحط ، واضطر الكثيرون الى الرحيل الى وادي النيل أو الى جواره ، بعد ما باعوا جل أغنامهم بأبخس الأثمان ، ولو علمت يا قارئي أن خمسة خراف بيعت بخمسة عشر قرشاً لهالك الأمر ، ولكنه ليس بكثير على من لايجد ما يَطْعَمَهُ أو يُطْعِمهُ دابته التي ستهلك أمامه ، فيبيت هو وهي على الطوى أياماً ،..

ليس بكثير عليه أن يضحي في سبيل الخبز والشاي الذي لا يعدله شيء عندهم مطلقاً . ولقد كان الكثيرون منهم لا يجدون ما يتبلغون به غير فنجان من الشاي بين الحين والحين يحصلون عليها بأي ثمن ومن أي سبيل . وكانت الحكومة تمدهم بالعون بين حين وآخر وظلوا كذلك الى أن أدركتهم رحمة الله في هذا العام (١٩٣٨) فهطلت الأمطار غزيرة حتى أن السيول الناجمة عنها قطعت الطرق والخط الحديدي

* * *

... وها هو ذا البحر يتراءى لنا أثناء السير في أماكن ، ويختفي في أماكن أخرى . وإنا لنسير والخط الحديدي مسافة ثم نتركه لنسير بعيداً عنه .. ثم نجاوره ثانية ، وانه ليعلو عن مستوى طريقنا طوراً وينخفض عنه أو يساويه طوراً آخر .. وهكذا حتى سيدي عبد الرحمن .. !!

ويجدر بنا أن نقف بإزاء سيدي عبد الرحمن برهة .. فموقعه يبعث العجب في النفس .. فإن قلنا إنه حارس الماء ، فلم لا يكون حامي الصحراء .. ؟؟ فانه ليشرف على البادية ، كما يطل على اليم ، وتعزف له الصحراء أنغام التجلة والاكبار ، على أوتار قيثارة الريح ، مرسلة إليه الوفود من ذراتها التي يحملها إليه العَجَاج (١٩) لكي تقدم اليه فروض الطاعة والأمان ، أو كأنها الحجيج أتى يتلمس اليمن والبركات .

كما يزف اليه البحر آيات الاعزاز والايثار ، في أصوات الأمواج التي تتسابق اليه صاخبة مزمجرة . فكلاهما يتملقه ، وكلاهما يتزلف اليه .. !!

في هذه النقطة التي تبعد عن الاسكندرية ١٣٧ ك . م . تتقابل اللانهايتان . اليم بمائه والبادية برمالها .

وفي هذه النقطة أيضاً يلتقي الضدان . البحر بزمجرته التي لا تنتهي ، والصحراء بصمتها الأبدي الذي لا يفنى .

وفي هذه النقطة يجتمع النقيضان : السيولة والضجيج والعجيج . والصلابة والسكون والصمت .. !!

وهكذا جعلهما الله خصمين متجاورين منذ الأبد ، إلا أنهما يتفقان في بعض نواحيهما في التيه والغموض والإبهام ..

وقفت بالسيارة برهة استجلي الزرقة الداكنة التي تلوح عند الأفق البعيد ، وكأنها جبل أشم أغبر ، يخفي ما وراءه من أسرار ، وهذه الصفرة الفاقعة التي تستتر في بعض المواقع

بغلالة سندسية كأنها العروس تحجب حسنها عن أعين الناظرين لكي تزيده فتنة ورواء ، ومن وراء هذه الخضرة الكاسية يقوم جبل أعفر يستر ما خلفه من طلاسم .. !!

وكأنما لذّ لسيدي عبد الرحمن أن يقيم في هذه البقعة لكي يشهد — من فوق هضبته التي يقوم عليها — الصراع الدائم بين الضدين ، الماء واليابسة . وأن يرى حملات البحر ، وهجمات جنوده الأمواج على الشاطىء تريد أن تقتحمه فتغمر الأرض من ورائه ، إلاّ أنها سرعان ما تضعف وترتد مخذولة كسيرة ، فتنجلي عن صخور وأحجار ورمال . تبدو ساخرة منها ضاحكة عليها

ويرى البحر هذه السخرية اللاذعة ، وهـذا التهكم الصامت الصارخ — فيثور ويجمع عزمه ، ويحمل حملة أخرى ، وثالثة ورابعة . وهكذا الى أن تنقضي الحياة الدنيا ، ولن يبلغ الثرثار من الصامت شيئاً ولن ينال منه مأرباً . !!

مثل طيب لرجل العمل . ورجل الـكلام . هذا الصخر . وذلك الماء . !!

فالماء يزمجر ويهدد ، ويرغي ويزبد . « ويهوّش » ثم اذا ما حمل حملة على الصخر فلا شيء يحدثه غير أنه يتكسر على جوانبه ، ويبرز الصخر بعد ذلك نظيفاً ناصعاً . وقد رجع الماء بكل ما عليه من أتربة وغبار . !!

***

ولسيدي عبد الرحمن مكانة سامية في نفوس أهل الصحراء الغربيـة واجلال عظيم — وضريحه محجتهم التي يحجون اليهـا في كل عام حيث ينحرون النذور ويطعمون الفقراء على حبه وتيمناً به ، واذا أقسم إنسان من أهل الصحراء وكان رائده في قسمه الصدق . فبسيدي عبد الرحمن قسمه . ولقد بنى ضريحه وجامعه الخديو عباس حلمي الثاني . !!

٣ = الحياة في مريوط

١ — الطقس

الحرارة : أقصى درجة حرارة سُجلت كانت ٤٣٫٠° وذلك في يوم ٨ يونيو سنة ١٩٣٣ مع أن المعدل في هذا الشهر كان ٢٧°

أما أقل درجة للحرارة سجلت فكانت ٢٫٠° وذلك في يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٣٣ مع أن المعدل كان ٨٫٨°

الرطوبة : المتوسط اليومي يبلغ أقصاه في شهري يوليو وأغسطس حيث يبلغ ٨٠ ٪ أما حدها الأدنى ففي شهر ابريل حيث يبلغ ٧١ ٪

المطر : بلغ أقصاه في اليوم الواحد ٩٨٫٨ ملليمتراً وذلك في يوم ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٣٠

التبخر : يصل أقصاه في شهر سبتمبر حيث يصير ٧٦٫٨م. م . في اليوم الواحد . وأقله في يناير حيث يبلغ ٤٦٫٦م م في اليوم الواحد

الرياح : أغلبها شمالية وذلك في سبتمبر ، أما في يناير وفبراير فتشتد الرياح الجنوبية الغربية . والغربية الشمالية ، والشمالية الغربية ، وأما الجنوبية ففي شهري مارس وابريل ، وأما الشرقية ففي مارس وابريل ومايو ، والغربية فأغلبها في شهري ديسمبر ويناير . والشمالية الغربية في شهر يوليو .

وتهب الرياح الجنوبية الغربية : والجنوبية من قلب الصحراء وتكون في هبوبها قريبة من الأرض فتحدث عواصف رملية تبلغ أشدها في مارس وإبريل . وهذه العواصف الرملية سيئة الأثر ، تضر بالانسان والحيوان وتفتك بالزروع . إذ أنها في هبوبها قريبة من سطح الأرض تحمل معها ذرات الرمال التي تتطاير في الأفق ، وتتكاثف في الهواء . فتحدث ظلامة شديدة ، وتحجب ضوء الشمس في بعض الأحيان .

وتبدأ العاصفة إما في أول النهار أو في أول الليل ، وتستمر نصف يوم وقد تمتد هبوبها الى أيام ، ويسمي البدو هذه العواصف الرملية « بالعجاج »

وثورة العجاج في الشتاء ، أخف وطأة منها في الصيف ، ذلك لأن عواصف الشتاء لا تطول غالباً ، وهي عند البدو بشير بسقوط المطر ، إذ لا بد لتهدئتها من أن تسقط أمطار فتغسل الأفق مما يتطاير فيه من ذرات وغبار . أما في الصيف فما لتهدئتها من سبيل الا اذا سكنت العاصفة أو تغيرت اتجاهات الرياح .

زيادة على ما تقدم فان لسقوط الأمطار فائدة أخرى ، وهي جعل الذرات المتطايرة مع الرياح تكتسب قوة التماسك بعض الشيء ، فلا تثور جميعها مع أقل النسمات الهينات عند هبوبها . أما في الصيف ، فان لحرارة الشمس الدائمة الاشراق والتي لا يحجبها الغمام ، أثراً في تبخر الماء الذي بين هذه الجزيئات المتماسكة ، فيفقدها قوة تماسكها ، فتتفكك الكتل الصغيرة ، وتصير الذرات عرضة للتطاير مع أقل عاصفة،لذلك فهذه العواصف تكون عديدة داخل الصحراء وكلما اقتربت من منطقة سقوط الأمطار خفّت وطأتها الى أن تنتهي الى الشاطىء ضعيفة أو ليس لها أثر .

٢ — القبيلة

. . . ويقيم العرب في بيوت من الشعر ، على هيئة مجاميع صغيرة ، تسمى كل مجموعة منها « نجعاً » .. ومجموع « النجع » .. « نجوع » .. « والنجع » وحدة « القبيلة » .. وهو إما أن يضم عائلة واحدة .. أو عدة عائلات .. ومن هذه « النجوع » المتباعدة المتناثرة في عرض الصحراء تتكوّن تلك المملكة الصغيرة ، التي يدبر شؤونها رجل واحد ، نافذ الكلمة في الجميع ، مطاع لا يشذ عن إرادته أحد . وكل من خرج عليه نبذ نَبذَ النواة ، حتى وان كان من أخص خصائص القبيلة .. !!

وإنهم ليقيمون بيوتهم من الشعر ، على سفوح التلال ، ومنحدرات المرتفعات والكروم (٢٠) ودائماً يجعلون الباب نحو مشرق الشمس .. وهم يجعلونها على سفوح المرتفعات لكي يتفادوا عبث العواصف والأمطار .

وليس لشيخ القبيلة أن يتحكم في مجموعة أفرادها أو يستبد ، فالدكتاتورية لا أثر لها بين البدو مطلقاً ، وانما الأمر شورى بينهم ، فلهم قانون عرفي يتعاملون به ، حتى أمام دور الحكومة .. على أن يكون التعامل به قاصراً على مشاكلهم التي لا تتعلق بأحد غير العرب .

وتشكل المحكمة العرفية للفصل بين أفراد قبيلة واحدة ، من الشيخ رئيساً ، وكبار العائلات أعضاء . . وكل ما يحكمون به ، نافذ على المتخاصمين الذين غالباً ما يلقون الحكم بارتياح ورضى .

أما إذا أريد تشكيل المحكمة للفصل بين قبيلتين ، فتكون من رؤساء القبائل المجاورة ، أو في دار قسم البوليس . فإن كانت الأولى . فالرئاسة لأكبر المشايخ سناً . وإن كانت الثانية فالرئاسة لمأمور القسم أو من يحل محله ويقوم مقامه . وإذا ما أصدرت هذه المحكمة العرفية حكماً ، فليس لأحد الطرفين أن يرفض قبوله ، وإلاّ عرّض نفسه لاتحاد الجميع ضده ، واجتماعهم على مناوأته وإيذائه . وفي هذه الحالة إما أن يجبر على القبول بواسطة أحد الأعضاء أو تكون النتيجة أن يفقد حقوقه أمام هذه الهيئة التي انعقدت للتحكيم . وهنا تكون أمامه الفرصة الأخيرة وهي أن يلجأ الى المحكمة التي يرأسها المأمور . وهنا له الحق في أن يطلب المحاكمة بقانون العرب ، أو بقانون العقوبات . وعادة لا يلجأ أحد لقانون العقوبات إلاّ إذا تنسم في جانبه بعض التخفيف .

ويطلب المختصمون انعقاد محكمة العرب للفصل فيما بينهم باصطلاح درجوا عليه وهو أن يقولوا (نريد الميعاد) معناها يطلبون تحديد الموعد الذي تنعقد فيه المحكمة .

وإذا ما أراد المحتكم المحاكمة بقانون العقوبات أصبحت عضوية مشايخ العرب لا محل لها ، ويحل محلهم بعض الموظفين الموجودين ، والمكلفين رسمياً كهيئة المحكمة من المحافظة ، إذ الحكم عسكري في الصحراء . وقضاته من رجال البوليس والادارة فللمأمور حق الضبط . والتحقيق والحكم . والتنفيذ . وتجري هذه الاجراءات بسرعة مدهشة ، حتى أن الواحد منهم لا يستغرق في بعض الأحيان أكثر من ثلاث ساعات حتى يكون بفضل الله وبهمة رجال الحدود الأفاضل داخل السجن بين جدران أربعة ومن أرباب السوابق.(وأخيراً أدخل في بعض جهاتها النظام القضائي المدني)

أما قانونهم فيقوم كله على أساس الغرامات وهو متمشٍّ مع مذهب الامام مالك والسنّة اللهم إلاّ بعض نواحٍ شاذة لا تتفق لا مع السنّة ولا مع مذهب أي امام ، حتى ولا مذهب بوذا الهندي ، واليك بعض نواحيه :

١ — في قضايا القتل

اذا قتل أحدُ أفراد قبيلة ، أحدَ أفراد قبيلة أخرى ، فعلى القبيلة التي منها القاتل أن ترحل عن منازلها ، وتنزل على قبيلة أخرى ، طالبة منها الاستجارة مما لا بد منه ، كاحتمال إغارة رجال القبيلة التي منها القتيل عليها في طلب الثأر وترحل القبيلة التي منها القاتل تاركةً ماءها وزرعها ، إن كان لها زرع ، وكل ما لا يستطيعون نقله ، نهباً للآخرين ، ولا يستطيع أحد أن يتخلف عن الرحيل ولو لبضعة أيام ، إلاّ إذا اعتزموا القتال الذي فيه تراق دماء الرجال ، ومن النادر أن يحدث هذا بين قبائل أولاد علي .

والدم غالٍ عند العرب ، لا يتهاونون فيه . ولا يتركونه يذهب هباءً ، وإنما يهدرون في سبيل الدم المسفوك دماً أغلى منه عند آله وأعظم ، فلا يأخذون القاتل بدم من قتل ان كان ليس ذا شأن في القبيلة ، بل يطلبون من هو أعز مكانة منه ، حتى وان دعا الأمر لقتل الشيخ نفسه اذا استطاعوا الوصول اليه .

وقد تطول مدة الارتحال عاماً أو عامين ، وناهيك عما في ذلك من إذلال ومهانة لا يرتضيها العرب مطلقاً ، وفي خلال هذه المدة ، تبذل المساعي بين الطرفين ، من القبيلة المجيرة والقبائل المجاورة ، حتى يتفق الطرفان على الصلح ، على أساس دفع « الدية » المقررة بين العرب ، وإذا رفض أصحاب الدم قبول الدية ، وأبوا إلا الثأر ، فمعنى ذلك أن تهب القبيلة المجيرة مع التي نزلت عليها ، وتناصرها حتى تنصرها نصراً عزيزاً ، ربما تذهب في سبيله الضحايا بغير حساب .

فالبدوي لا يعرف التخلف عن الصفوف إذا ما دعى داعي الجد ، وطلب النصرة والعون فكلٌّ منهم مهما صغر شأنه أو عظم ، عليه أن يحمل على عاتقه جزءاً من الفادحة على قدر طوقه

والدية عند العرب تقدر بربعمائة جنيه عند ما يكون القتيل رجلاً . ونصف هذا المبلغ المرأة ، والرجل والمرأة عند العرب هو كل ذكر أو أنثى ، وإنهم ليتغالون في تقدير ذلك بعض الشيء . إذ يعتبرون « السقط » — أي الجنين الذي تلده المرأة قبل حينه — نتيجة اجهاض بسبب اعتداء أحد عليها ، فينظرون في أمره اذا كانت خليقته قد تفصلت ويعتبرون الذكر كالرجل . والأنثى كالمرأة . وتدفع الدية على الأساس السابق الذكر . !

واذا ما تمَّ الصلح على أساس دفع الدية ، فعلى كل فرد من أفراد القبيلة التي منها القاتل أن يؤازر ويتعاون في جمع المبلغ ، على حسب ما يمتلكه ، وعلى قدر طاقته المالية ، فمنهم من يدفع عشرة جنيهات ، ومنهم من يدفع خمسة قروش . على أن المعتاد في دفع الدية ، أن تقسط على ثلاث سنوات ، ولا تدفع كلها نقداً بل يصح أن يدفع جزء منها أغناماً وجمالاً تقوَّم بمبلغ معين . وعند دفع القسط الأول من الدية ، فللقبيلة النازحة عن منازلها أن تعود اليها ، آمنة مطمئنة ، لا يتعرض لها أحد ، ولا تخشى شيئاً من خصومها .

وتُدفع الدية أيضاً اذا ولد القاتل ولداً إذ يطلبها ، أهل القتيل ، بحجة أن المرحوم لو كان على قيد الحياة لأنجب ولداً كما أنجب القاتل أو بنتاً ان كان المولود بنتاً وهكذا .

وتُدفع الدية أيضاً في حالات غير هذه ، كأن يكون أحد البدو يملك جملاً أو كلباً عقوراً ذا شهرة في شراسة الخلق ، واعتدى هذا الجمل أو ذلك الكلب على أحد ، وتسبب عن هذا الاعتداء وفاة المعتدى عليه سواءٌ أكان في التوّ والساعة ، أو بعد حين . هنا يُلزم صاحب

الجمل أو الكلب بدفع الدية ، أما إذا نتج عن الاعتداء بتر للساق أو الذراع أو فقد لعين فتكون الدية نصفاً اذ المعتدي عليه أصبح نصف رجل أو نصف امرأة فيعوض عن النصف الآخر الذي فقده بالمال . أما اذا لم يحدث الفقد في أحد الأعضاء المزدوجة ففي هذه الحالة يجتمع مجلس العرب أيضاً ، ويأتي « النضّار » أي الطبيب الشرعي عند العرب ويقدر مبلغ الاصابة وما تستحقه من الدية وتكاليف العلاج، فلكل جرح ثمن . وللاصبع ثمن وللاسنان ثمن ، ولذا يتحدث العربي عن نفسه كانسان قائلاً : « بني آدم كله فلوس »

وفي حالات أخرى غير السابقة تدفع الدية . كأن يفتن أحد على أحد عند البوليس ويتسبب عن هذه الفتنة أن يسجن من فتِـن عليه، ويسوء الطالع ويموت داخل السجن بانتهاء الأجل قضاءً وقدراً ، هنا يطلب أهل الميت السجين الدية من أهل الذي فتَن عليه وتسبب بفتنته في سجنه أو يسلمونه لهم ليقتلوه بدلاً منه .

* * *

هذا في أحوال القتل العادية التي يعترف فيها القاتل أو يُثبت عليه الشهود جريمة القتل أما اذا كان القاتل مجهولاً ، وحامت الشبهة حول أحد ، وسُئل وأنكر، طُلب لأداء اليمين.

واليمين عند العرب ، ليس هو قسم كتاب الله الكريم . بل يقسمون على ضريح أحد المشايخ الموجودين بالصحراء ، فلأولياء الله في نفوس البدو مقام كبير ، يرهبون القسم على أضرحتهم أكثر من القسم على القرآن. ويعتقدون أن من يقسم على ضريح ولي من هؤلاء قسماً باطلاً فلا بد من أن يُنزل به وبأسرته الفناء قبل ثلاثة أعوام ، أما هذا القسم وقسم القتل خاصة . فلا بد من أن يؤديه المشتبه في أمره وخمسة وخمسون من عائلته ، هو يقسم بأنه لم يفعل ، وهم يقسمون على صحة قسمه ، ولا يكون هذا الانكار عادةً الا إذا نكث أحد العهد بعد أخذ الدية ، فقتل ممن قتلوا منهم بعد دفعهم دية قتيلهم ، في هذه الحالة ينكرون إذ أن دية القتيل الثاني مضاعفة أي ۸۰۰ جنيه مصري أي ترد الدية الأولى ويسقط دم القتيل الأول وتدفع دية القتيل الثاني . هذا فيما يختص بالقتل ومشاكله . واذا امتنع أحد أفراد عائلة القاتل الذين ينتخبون (من الخمسة والخمسين) عن اداء اليمين كان ذلك دليلاً على ثبوت الجريمة وتُدفع الدية .

٢ — في قضايا هتك العرض

أما في حالة ما إذا اعتدى أحد على عرض الآخر ، فانهم يتبعون في عرفهم طريقاً وديا، أرى أنهم ما ارتضوه فيما بينهم ، إلاّ محافظةً على دماء الشباب الذين ينزو بهم الشيطان ويدفعهم دافع لايُرد نحو ارتكاب جريمة الزنا وهتك العرض ، فانهم ليعتزّون بدم الرجل اعتزازاً غريباً ، ولا يهدرونه بأي ثمن ، وإنهم ليقدرون جميعاً أن الشيطان ظلّ للمرأة ولا ينشط للعمل على الفساد الاّ اذا وجدها مع رجل في خلوة ، لذلك قدّروا وقوع الخطيئة ، في ذلك المحيط الواسع المترامي الأطراف ، فان جعلوا دم الرجل الزاني ثمناً للعرض الذي انتهكه ، نتج عن ذلك طلب الثأر من القتلة ، وهكذا يخرجون من مصيبة ليقعوا في غيرها أشد منها وأدهى ، وتكون النتيجة فناء الرجال من جراء خطايا النساء بتكرار طلب الثأر والأخذ بالدم ، وهل يموت رجلان أو عدة رجال من أجل امرأة ؟

إن المرأة ليست من الأهمية بحيث يريقون من جراء خطيئتها الدماء .. !!

أما هذا الطريق الذي تعارفوا عليه فيتلخص في الآتي :

أولاً : فيما يتعلق بمعاملة الرجل لابنته إذا ما زنت . فإنْ قتلها، وهذا نادر بين أولاد علي ، فليس لأحد أن يحاسبه على قتلها ، أما الزوجة فليس لزوجها أن يقتلها من جراء الخطيئة مطلقاً ، وان فعل كان عليه أن يدفع ديتها لأهلها ، فإنهم ليقرون جميعاً أن المرأة مِلْكٌ لأهلها . أي أن أباها صاحب « العظم » فيها فهي له أولاً وأخيراً ، ويتطرفون في هذه الناحية ، فيجعلون كسب المرأة لزوجها ، أما إذا وجدت شيئاً (لقيته) فهذا لأبيها ، لأن « اللقيّة » هبة من الله ، وكل ما يهبها الله من خير فهو للوالدين .

ثانياً : فيما يتعلق بالرجل الزاني . فقد وضعوا لذلك حدّاً لا يتخطاه إنسان وهو :

١ — اذا كانت جريمة الزنا مع امرأة « ثيب » أي لا زوج لها ، وكان مكان ارتكاب الجريمة الفلاة ، أي بعيداً عن دارها ، وكان وقوع الأمر برضائها فهذه لا حساب لها ولا ثمن .. !!

٢ — أما اذا كانت جريمة الزنا مع امرأة ثيب ، وفي دار أبيها أو أخيها . فعلى الفاعل ان يدفع مبلغ عشرة جنيهات ، كثمن لحرمة البيت الذي انتهك حرمته ، ويرموز هذه العقوبة المالية « مَعْتَب »

٣ — اذا ارتكب رجل الجريمة السابقة اغتصاباً ، أي برغم المرأة التي زنى بها ، فعليه أن يدفع عشرين جنيهاً لابيها أو أخيها ، ويسمون هذه العقوبة المضاعفة « كَبارَة » وهي عقوبتان في آن واحد. أي عشرة جنيهات لحرمة الدار التي ارتُكِبت فيها الجريمة .. وعشرة جنيهات كحق للرجل الذي هتك عرضه .. !!

٤ — اذا ارتكب رجل جريمة الزنا مع عذراء في الخلاء برضائها كانت عقوبة الرجل لا شيء .

٥ — أما اذا ارتكب الجريمة السابقة رغم العذراء كانت عقوبته « كبارة » وذلك للاعتداء على عرض العذراء . وكذلك الأمر فيما لو كان الحادث في دار أبيها .

٦ — اذا ارتكب رجل فاحشة مع امرأة متزوجة ، في الفلاة وبرضائها ، فلا جناح عليه . أما اذا وقع الحادث في دار الزوج وبرضائها أيضاً ، فعليه أن يدفع للزوج عشرين جنيهاً « كبارة » مضافاً اليها المهر الذي دفعه الزوج فيها ، وكذلك النفقات التي أنفقها في سبيلها قبل الزواج . على شرط أن يطلق الزوج زوجه في الحال . وان أبى طلاقها فلا حق له في شيء . لا مهر ولا نفقات ولا كبارة . ومن العربان من يطلقها لينال هذه كلها ثم يردها الى عصمته ثانية . وهذا لا يقام لحادثه وزن بعد ذلك إذ تسقط حقوقه فيما بعد لو وقع له حادث كهذا .. !!

٧ — أما اذا نال رجل امرأة متزوجة في دارها اغتصاباً فعليه أن يدفع الكبارة فقط .. !!

وتتضامن القبيلة جميعها في دفع هذه الغرامات أيضاً ، كل على حسب ما يستحق كما سبق أن ذكرنا . وإنه لمن العار عند العرب أن تتخلى القبيلة عن أحد أبنائها في مثل هذه الظروف . والطريف في الأمر ان الفاعل يدفع ما يستحقه كأحد الآخرين . على أنهم جعلوا لهذه المؤازرة حداً هو في نصاب العدل تماماً . فقد جعلوا واجب المؤازرة حقاً لكل فرد في الجريمة الأولى أو الثانية بالنسبة اليه ، أما اذا كثرت جرائمه وتعددت أحداثه وتتالت أخطاؤه ، فان القبيلة تعلن بين القبائل ، انها قد تبرأت من فلان هذا ولا شأن لها به . واذا ما أعلنوا « البراوة » — كما يسمونها — بين العرب أصبحوا وهم لا يطالبون بشيء ازاء ما يرتكب هو من أخطاء . وذلك على شريطة ألاّ يؤازره أحد أفراد القبيلة سراً ويمد له يد العون في الخفاء فاذا ثبتت معاونتهم له في السر وفي طيّ الخفاء ، ألزموا بكل ما يقع على عاتقه من غرامات ، إذ « البراوة » في هذه الحال تعد باطلة .. ! !

ومع كل ما تقدم فان المغتصِب لا يُدفع كله ، ولا الكبارة كلها ، فقد جرى العرف عند العرب ان يتقدم بعض ذوي الشأن فيهم ، لأصحاب الحق ، أو لصاحب الحق ، طالبين ترك

جزء من المبلغ المقرر دفعه « لأجل الخواطر » فمثلاً يتقدم شيخ مهيب لصاحب الحق ممسكاً في يده شعرات ذقنه قائلاً « علشان هذول تسيب كام » فلا يسع صاحب الحق إلا أن يترك مبلغاً لأجل ذقن هذا الشيخ فينطق قائلاً : « سبت جنيهين » ! وهكذا إلى أن ينتهي الأمر على أن يدفع الجاني جنيهاً أو أقل . . ثمناً للعرض الذي انتهك .

على أن هذه المبالغ التي تُركت إكراماً « لاجل الخواطر » لا تضيع هباء ، وإنما هي دين على من تُركت اكراماً لهم ، وهذا الدين لا يدفعونه نقداً وعداً . بل يتركونه إكراماً لهذا الذي تركه اكراماً لهم في مثل هذه الظروف ومن الغريب أن هذا الدين يطالب به الابناء والأحفاد .. !!

٣ — الزواج

من العوائد الموروثة عند أولاد علي ، ان الفتاة لابن عمها ، ان كان لها أبناء عم .. وما دام بنو عمها لا يزال فيهم من لم يتزوج بعد ، ولم يرفضها أو يصرح لها بالزواج من غيره ، فليس لها الى الزواج من سبيل ، حتى وان تقدم لها ألف خاطب وخاطب .

ولم يجمع « أولاد علي » على هذا العرف إلا ليضعوا حداً لما عساه ان يجد ويحدث من منازعات بين العائلات اذا ما تزوجت الفتيات بغرباء عنهن ، وصدرت اهانة من الزوج لزوجه . فلا بدَّ لذويها من أن ينصروها على زوجها ، وبذا تبدأ المنازعات والمشاكل من جراء النساء . ولكن وهي عند ابن عمها ، فليس لها ان تطلب من أحد أن ينصرها عليه ، وليس في ظلمه إياها وجوره عليها أي عار على ذويها . لأنها هي منه وهو منها .

ولذلك فإن الفتاة غالباً ما تنشأ عزوفاً عن ابن عمها غير راغبة فيه ، متنافرة وإياه . لأنها تعلم حق العلم أنه هو نصيبها من الدنيا ، حتى وان كان مشوهاً زرياً . وكثيراً ما يميل بها الهوى نحو غيره ، وتكون النتيجة ان يعاقبها ابن عمها على هذا الصدود وهذا العزوف ، بأن يضيع عليها الفرصة في كل زيجة تأتيها من الخارج ، وتظل بكراً الى أن يشيب قرناها .

واذا حدث وعُقد العقد على غريب — وهذا نادر — فلابن العم أن يفسخ هذا العقد ، وليس لأحد أن يعترض عليه فيما يفعل . ولا يمكن للوالد أن يحمي فتاته من أبناء عمها اذا طلبوها ما دامت عذراء . فبكارتها لابن عمها ، لا جدال في ذلك . فان شذَّ أحد عن العرف قوطع من أهله ، وبدأت العداوات والأحقاد .. وربما سالت فيها الدماء .

على أنهم جعلوا للفتاة فرصة بعد ذلك لاسترداد حريتها السليبة وحقها المضيع . وذلك بعد أن تتزوج بأسبوع ، عندما تعود الى دار أبيها لكي تقدم لامها . « سوار البز » أي

حتى الآن . هنا لها الحق ان تعود الى زوجها إن كانت تحبه أو وجدت من نفسها ميلاً اليه . أو لا تعود اذا كانت لا تزال نافرة منه . !!

واذا لم تعد . قاطع الزوج أهلها . وبقي صامتاً لا يتكلم ، الى أن يظهر في أفق حياة الزوجة النافرة ، العريس المرقوب .. فإما ان يطلقها بعد ما يأخذ منه كل ما خسره فيها .. يضاف اليه الكبارة . وإما ان يحتفظ بها على البعد فلا يفسح لها السبيل لكي تصل الى ما تريد . ويكون ذلك بدء العداوة بينه هو وعائلته وبين العريس الجديد وأهله .

واذا ما قبل الزوج ان يسرح امرأته ، كان على العريس الجديد ان يقدم له المهر والنفقات التي خسرها في سبيلها ، وكذلك « كبارة » لأنه أفسدها عليه . ويأخذ منه مخالصة بكل هذه الحقوق . ثم يعطي لأبيها مهراً جديداً ، ويقوم بنفقات جديدة لا مندوحة عنها ، وغالباً مثل هذه الزيجات لا تفلح ، ولا يطول بها المدى ، ولا يربح صاحبها من ورائها إلاّ إيجاد عداوات جديدة ، بينه وبين قوم ما كان ليناصبهم العداء .

أما مقدمات الزواج فيسيرة جداً ، وذلك بأن يذهب العريس أو أحد أفراد بيته لوالد العروس فيقول له : « نريدْ نخالطْ فيكمْ » فان كان موافقاً رحب بهم . وبعد ذلك يرسل العريس عدداً من الخراف أو النعاج ، ومقادير من الأرز والعدس والملح ، تولم بها وليمة في موعد يحدده هو ، فيذهب هو ونفر من ذويه وصحبه فيأكلون ، ثم يقرؤون الفاتحة . وبعد ذلك تنطلق الاشاعات بين الجيران من العرب « بأن فلاناً ذبح في فلانة » أي خطبها ، وفلانة مذبوح فيها ، يعني مخطوبة . وإذا ذُبح فيها فليس لها أن تعمل بالأجر إن كانت ممن يشتغلنَ بالأجر .

وبعد يوم أو يومين يجتمع هو أو أبوه بأبيها لكي يتفقا على المهر ، وعادةً يتفقون عليه مقدماً ومؤخراً مناصفة ، فمثلاً نفرض أن الاتفاق تمّ على أن يكون المهر كله ستين جنيهاً . فيدفع مقدماً ثلاثين جنيهاً ويؤجل للمؤخر ثلاثين جنيهاً .

أما المقدّم ، فيُدفع إما نقداً وعدّاً ، وإما أن تقوّم به أغنام وبعض مواد المعيشة ، وبعض المصاغ الفضي الذي تعوّد أن يتحلى به نساء العرب ، وتنحصر في « دملج » أي سوار من الفضة عريض جداً « وخزام » وهو فردة من قرط تلبس في إحدى ناحيتي الأنف .

وكل هذه الأشياء المدفوعة ما عدا الحلي يأخذها الوالد ، فلا ينفق منها على فتاته شيئاً مطلقاً ، إذ يعتبرها من حقه كثمن لتربيته فيها . ثم على العريس بعد ذلك أن يكسو عروسه ثم يذهب فيعد له خيمة بجوار خيمة أبيه . ويفرشها حسب ما يقتضيه مقامه بين العرب . وإذا ما أعد البيت جاء فأخذ العروس وسط حفل يقام فيه الزمر والصفق والغناء . وعادةً يكون

ذلك بعد الظهر بقليل ولا يدخل العريس بعروسه وإنما ينيب عنه أحد أقربائه وتجري العملية بوحشية وقسوة فظيعتين إذ يمسكها رجلان ويفلحها رجل والخيمة مفتوحة على مصراعيها أمام الناس ، وهذه عادة موروثة من قبل الميلاد إذ كان ملك الصحراء الغربية — على ما جاء في بعض الروايات — له الليلة الأولى عند كل عروس قبل أن تزف الى زوجها

وبعد أسبوع تعود العروس لدار أبيها حاملة معها ما تستطيع حمله حسب مقدرة الزوج المالية فتقدم لأمها « سوار اللبن » أي حق اللبن الذي أرضعتها إياه وفي هذا الوقت لها الحق في أن تعود أو لا تعود

وأما المؤخر : فالى أحد أجلين، وهذان الأجلان كما يعبّر العرب ، إما على « عيب » أو « صوب » . والعيب : إذا ضربها أو طردها ، أو انتهك حرمتها فأجبرها على ما لم ترغبه مما يتعارض مع الشرف . والصوب : إذا صوّب عليها غيرها ، أي إذا تزوج عليها ، في هذه الحالة لا تطلق وإنما يجهز لها بيتاً ويقطعها بعض الغنم ، إن كان صاحب غنم ، ويتركها مستقلة ، وكل ما يفعله من أجلها في هذه الحالة من مؤخر صداقها .

ولقد اتخذ بعض البدو طريقة الزواج هذه كوسيلة للكسب من وراء بناتهم إذ يزوج الأب فتاته من رجل ، وعندما تأتي في « السبوع » لا تذهب اليه ، وتبدأ بالمناورة مع رجل آخر . وهكذا ، ما دام كل مبلغ يصل الى يد الأب ، لا ينفق منه شيئاً في سبيلها . ويقولون معبرين عن هذه الحالة « فلان بينتف من حول بنته » أي يتكسب من ورائها .

* * *

ولا يحررون العقود عند الزواج ، وإنما يعقدون العقد عرفيًّا فيما بينهم ، حتى إذا ما جاء يوم السوق ، ذهبوا الى حيث يلقون المأذون ، الذي يقوم بتحرير عقود الزيجات التي تمت جملةً واحدة ، ومنهم من لا يحرر عقداً مطلقاً.

٤ — اللغة والدين والصناعة

١ — اللغة : لغة البدو المقيمين بالصحراء الغربية أقرب الى الفصحى منها الى غيرها ولكن لهجتهم الخاصة تجعل ألفاظهم غريبة على السمع بعض الشيء ، ولهم غرام خاص بالغن في أواخر الكلمات ، وقلما يفهم الحضري عن البدوي لفظه كله أو كلامه كله لاول أو لثاني مرة ، ولم أجد أشد تبلداً من ذهن البدوي في فهم كلام الحضري إذ لا بدّ من أن تعيد على مسمعه القول مرة أو مرتين .

وللبدو اصطلاحات هي في لغتهم نذكر منها :

ازمُطها : ابتلعها	زَمَطها : ابتلعها
كنَك : مالك	هُك : هناك أو هكذا
أنا بيدي : أنا شخصيًّا	فيسا : بسرعة وهي اختصار لجملة (في ساعة)
قَدوس : انصراف	بِنَه : عطر أو رائحة
ربعية : معزة	عويل : طفل أو أطفال

الى غير ذلك من الالفاظ التي ينبو عن الذوق ذكرها وعلاوة على ما تقدم هم مغرمون بالأمثال يضربونها للمناسبات وميلهم الى التصغير في الأسماء والاختصار فيها لا حدّ له مثال ذلك ينادون عبد الرحيم : رحومة.وعبد النبي : نبيوة . وعبد الكريم : كرومة أو كريم . وعجل : عجيل . وسالم : سلومة

٢ — الدين : والدين بين البدو الاسلام . ولكنهم يكادون ألاّ يعرفوا عنه شيئاً . وكل ما يعلق بأذهانهم منه أن هذا حرام . وذاك حلال . أما الحرام فهو كل ما لا يتفق مع ميولهم . وأما الحلال فهو كل ما وافق هوى النفوس منهم والأفئدة

وقليلون منهم من يؤدون فريضة الصلاة. والبدوي لا يتوضأ مطلقاً وإنما يتيمم حتى وان كثر الماء من حوله ، فانهم ليضنون بالماء أن يذهب سدًى في غير الشرب والطهي. لذلك لا يستحم الرجال إلاّ نادراً لأن الاستحمام في عرفهم مذيب للجلد ويفقده خاصية المقاومة والاحتمال لتقلبات الطقس . والرجل الذي يستحم يصير مضرب الأمثال إذ أنهم يجردون من الأوساخ التي تعتلي الجلد وتتراكم عليه سلاحاً يقيهم قارس البرد في الشتاء

والنساء قلما يعتنينَ بنظافة غير وجوههنّ ، وقد تلد المرأة خمساً دون أن تستحمّ لذا فان لهنّ رائحة قذرة . والمرأة التي تعتني بنظافة نفسها هي العذراء التي تطلب الزواج . أو العزبة التي تبحث عن الزوج . وهذه وتلك اذا ما تزوجت أهملت النظافة وصارت كبقية النساء .

وتضع النساء رائحة خاصّة هي مزيج من القرنفل وبعض الأعشاب البرية ذات العطور ويسمون هذه الرائحة (بنه) . وهي لا تحلو إلاّ لأبن العشيرة . أما الحضري فإنه يشمئز منها ويأنف رائحتها .. ! !

والمرأة لا تلبس السروال إلاّ نادراً ، والغالبية منهنّ يستعضنَ عنه بحزام عريض جداً من الصوف وغالباً ما يكون أحمر اللون . وهو عندهنّ بمثابة الجيب الذي تضع الريفيات فيه حوائجهنّ وحقيبة اليد عند المتحضرات ، ولا بد من أن تتوشح الفتيات بالجلابيب الزاهية اللون إذ يتخذنَ منها غطاء للرأس ، والجلباب الجديد هو الأوفق لديهنّ لذلك وإذا قدم بعض الشيء لبسنه وتوشحنَ بما هو أجد وأزهى .

وللنساء غرام خاص بالألوان الزاهية كالأصفر (الكنارية) والوردي (البنبة) والأسود للعجائز والوشم الأخضر في الشفاه واليدين يعتبر زينة تتحلى بها المرأة. ولذا قلما يخلو وجه واحدة منهن منه .

ومصاغهن (الشناف) وهو فردة من قرط تلبس في إحدى ناحيتي الأنف ، والدملج، وهو سوار من فضة أو قصدير عريض للغاية .

والفضول ، والمكاعة ، والكبرياء الكاذب من أهم صفات هؤلاء البدو . فلقد نشأ البدو والفضول طبيعة في دمائهم شغوفين باستطلاع الأخبار التي تسري بينهم كسريان النار في الهشيم فلا يمضي طويل وقت حتى يعلم القاصي والداني بما يقع في أي مكان سواء أكان أمراً مهماً أو غير مهم ، والنفاق والخيانة طباع غريزية فيهم منذ القِدَم .

والبدوي درج على « المكاعة » والكبرياء الكاذب وليس أدل على ذلك من تلك الحادثة المشهورة التي وقعت بين سمو الخديو عباس حلمي الثاني ، وأحد أعراب مريوط ، إذ ذهب الخديو ذات يوم ايمر بزراعاته هناك فرأى بدوياً يرعى غنمه . فسأله الخديو : (إيش بدير يا شيخ العرب ؟) ماذا تفعل يا شيخ العرب .

فأجاب البدوي وهو متكيء برسغه على الأرض : (بارعى الدابش) أرعى الغنم .

فسأله الخديو : في أرض من ترعى الدبش ؟

فأجاب : في أرض عبّاس .

فسأله ألا تعرف عباساً هذا ؟

فأجاب : لا والله ما ريته ؟

فقال الخديو : أنا عباس .

فأجاب بكل بساطة وهو لا يزال متكئاً كما هو : أنت عموصة ؟ ازّيك يا عموصة .

وظل كما كان ضارباً (كوعه) في الأرض ينظر لمن أمامه كما لو كان ينظر لبدوي مثله .

والرجل المتزوج لا عمل له غير (ترقيم) الخيمة وحياكة الملابس للاسرة وما بقي فيلقى به على عاتق المرأة . فهي ترعى الغنم وهي التي تحتطب وتجيء بالماء وتطهي الطعام . . وتصنع الخبز كل يوم وتحلب الشاة وتغزل الصوف الى غير ذلك مما تتطلبه الحياة المنزلية البسيطة

ويصحب البدوي ولده معه في تنقلاته بين المجالس لكي يعلمه الجرأة ومقابلة الرجال ، لذا تجد الولد يتحدث اليك في جرأة وبساطة ربما لا تتوفر فيمن هو أكبر منه من أبناء الحضر

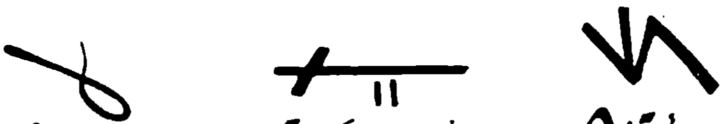
اما صناعتهم . فالزراعة في الشتاء ، ورعي الأغنام ، وصيد السمان وسنتحدث عن كل ناحية على حدة :

سيماتُ العرب

شُتُورْ = عَلامة   قُونِيسْ = عَلامة   سِمَة = عَلامة



التَّنَاجِرَة . الشَّاوِيْ . العَقَّارِي



عالُبْرَاهِيم . الهَوَّارَة . الحُسُون



العَوَاقِير . القُطْعَان . القِنِيشَات

ولـكل قبيلة من البدو سمة يسمون بها ماشيتهم وآبارهم حتى يمكن تمييزها من غيرها اذا اختلطت أو اختُلِفَ فيها والتعرف عليها اذا سُرقت وهم ينطقون « صيمة » بدلاً من « سمه » . ويقولون « صيمات » بدلاً من « سمات » .. !!

دولة السيدات

في مملكة النساء

تأليف

نقولا الحداد

مطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٩

دولة سيدات

في

مملكة نساء

أما سمعتَ أيها القارىء بالأمازونيات ؟ أو ما عرفت شيئاً عن تاريخهنَّ ؟ أو قرأت أساطيرهنَّ ؟ . فقد حدَّث هيرودوتس المؤرخ اليوناني المشهور عن أصلهنَّ وفصلهنَّ وعرفنا منه انهن قبيلة من الأناث المحاربات كانت تقطن في بنطس في آسيا الصغرى على شاطىء البحر الأسود . وكانت ذات مملكة مستقلة تحت سيادة ملكة من أصل شريف منها . وكانت عاصمتها تاميسيرا على ضفة نهر ترمودون حسب نص هيرودوتس .

وكانت الأمازونيات يزحفنَ من تلك المملكة لمحاربة أهل سيتيا وتراقيا وشواطىء آسيا الصغرى وبحر ايجه . وكنَّ أحياناً يتطرقنَ الى سوريا وبلاد العرب حتى مصر .

ويقال في أصلهنَّ أنهنَّ قدمنَ إلى مدينة ترمودون من بالوس ومايوتوس على بحر أزوف (قزبين) ويقال أنهنَّ حاربنَ مع الاسكندر الكبير

ولم يكنَّ يؤذنَّ لرجل أن يقيم في مملكتهنَّ يوماً واحداً . وإنما لكيلا ينقرضنَ كنَّ يزرنَ مدة أسبوع في السنة قبيلة الجاريجاريين في مملكة جارجاريا المجاورة لبنطس مملكتهنَّ . فالذكور الذين يلدنهم بعد هذه الزيارة يقتلنهم أو يرسلنهم إلى آبائهم إذا كنَّ يعرفنهم . وأما الإناث فيحتفظنَ بهنَّ ويربينَّ أمهاتهنَّ . ويعلمنهنَّ الزراعة والصيد وفن الحرب (بحسب قول المؤرخ سترابو) . راجع دائرة المعارف البريطانية .

ورد في الياذة هوميروس إنهنَّ غزونَ ليسيا فهزمهنَّ بيليريفون . وهاجنَ الفريجانيس الذين انتصر لهم بريام حين كان لا يزال غلاماً على الرغم من أنهنَّ أخذنَ جانبه ضد الاغريق تحت قيادة ملكتهنَّ بنتسيليا التي قتلها أخيل (أو أشيل) .

كنَّ يعبدنَ اريس إلـه الحرب وإلـه تراقيا والإلهة ارطاميس إلهة النور العذراء والإله أجكس إله القوة . وكانت أزياؤهنَّ وعاداتهنَّ وتقاليدهنَّ يونانية تقريباً .

وسترى في هذه القصة الغريبة الحوادث العجيبة التقاليد ان القوانين والشرائع التي

تناقض الطبيعة البشرية لا يمكن أن تطاع طاعة تامة بصدق واخلاص، ولا أن تنفذ إلا بالإكراه . فلا يمكن أن تقوى الآلهة على الإلـه كيوبيدون (إلـه الحب) لأن هذا الإلـه يجاري قوة الله الواحد الأحد الذي قال : «أثمروا وأكثروا وأملأوا الأرض» .

وسترى أيضاً أن البشر في العصر الميثولوجي كانوا عن غير قصد ينفذون نبوءات الكهنة أو الكاهنات اللواتي كنّ يزعمن أنهن نبيّات بوحي من الآلهة . يعني أن الناس كانوا متى سمعوا بنص نبوءة يتوجهون إلى تحقيقها من تلقاء أنفسهم، وهم يعتقدون أنهم يفعلون ذلك بدافع من الآلهة بقوة حافزة في داخلهم، كأنّ ما يفعلونه قضاء إلـهي مبرم لا بدّ من حدوثه .

وعند التحقيق في حوادث النبوءات كان المحققون يستنتجون ان تلك التكهنات النبوية كانت مكايد ينصبها الكهنة والكاهنات والأشخاص الذين يتصلون بهم وبالهيكل كهيكل دلفي الذي اشتهر بنبوءاته التي كانت تتحقق بعض التحقيق لأنها كانت مبهمة . وكان المقضي عليهم بمقتضاها يساعدون على تحقيقها منساقين بتأثيرها في أنفسهم .

وسترى في سياق هذه الرواية العجب العجاب من دهاء الكهنة أو الكاهنات ومقدرتهم في التأثير على الأشخاص والجموع فاقرأ : —

الفصل الاول

في الهيكل

كان الفصل آخر الصيف وكان الوقت عيد الحصاد تحتفل فيه الكاهنات ثم سيدات الدولة على رأسهنّ الملكة وبقية الأمة وراءهنّ، في هيكل أجكس اله القوة وأرس اله الحرب . وهو هيكل فخم رحيب ووراءه دير الراهبات متصل به . ومن الدير يدخلن من باب خلفي الى قدس أقداس الهيكل .

وفي مقدم الرحبة مذبح للمحرقات وفيه موقد . وفي جهات الهيكل الأربع أعمدة ضخمة مزخرفة بنقوش بديعة . وفي زاويتي الرحبة قاعدتان مرتفعتان لتمثالي الالهين اجكس وأرس

وما أن سمع الحشد الموسيقى الرخيمة من وراء قدس الأقداس حتى ارتفع الستار الذي يحجب قدس الأقداس عنهم وبدت رئيسة الكاهنات ووقفت في الصدر والمذبح أمامها وتوالت وراءها الكاهنات صفين الى جانبي الهيكل ثم شرعن يرقصن رقصة العيد الوقورة ثم دخلت الملكة من يمين الرحبة تتبعها بطانتها المؤلفة من أربع وصيفات . ثم دخلت

من شمال الرحبة هيئة الحكومة المؤلفة من ست وزيرات . ووقفن مقابل صف الملكة لدى المذبح والجمع قدام المذبح .

وكانت رئيسة الكاهنات تلبس جلباباً من الدمقس طويلاً الى ما فوق القدمين قدر عشر سنتيمترات بنفسجي اللون واسع الأكمام ذا منطقة حمراء . وعنقها مطوق بطوق أحمر وعلى رأسها قلنسوة بنفسجية تتدلى منها قدتان حمراوان من الأطلس الفاخر ، تتدليان على الخدين حتى العنق .

وفي أيسر منطقتها خنجر صغير ذهبي القبضة والغمد مرصع بالجواهر ، وفي يدها صولجان ذو شعبتين بحر بتين . وفي قدميها حذاء بسيور . وأما سائر الكاهنات فكن يلبسن كالرئيسة بيد أن لون الجلباب أبيض . وماهو أحمر في زي الرئيسة هو أسود في زي الكاهنات ، ولهن خناجر صغيرة أنيقة .

أما ثوب الملكة فكان قصيراً الى وسط الساق تحت الركبة بخمسة عشر سنتيمتراً ولونه أرجواني ، وعلى رأسها اكليل من ورق الغار الصناعي . وفي منطقتها الصفراء الذهبية خنجر ذهبي مرصع وفي يدها قوس وسهم جميلان .

وكانت أثواب حاشيتها كثوبها ، وانما كان لونها وردياً فاتحاً . وليس معهن خناجر ولا قسي ولا سهام . وعلى رؤوسهن عصائب مزركشة .

وكانت رئيسة الحكومة تلبس كالملكة ، وانما اللون أزرق فاتح . وفي جبهات العصابات ورقتا غار أو ورقة واحدة حسب الرتبة . وفي أقدامهن شبه صنادل .

وأما سائر سيدات الأمة فكانت أثوابهن بيضاً .

***

ولما انتظم الجمع وانتهى رقص الكاهنات رنم الجمع كله هذه الترنيمة بلحن شجوي يشعر بجلال المقام . والراجح أن النغم كان نهونداً أو عجماً .

(١) الترنيمة —

فيك يا عيد الحصاد   رمز خيرات البلاد
نجتني اللذات مما   قد زرعنا من جهاد

كم دفنا الحب ميتاً   نال في الترب الحياة
من دفين البزر جاء   حيوان ونبات

قوّة الأحيـاء فيضٌ فاض من قلب أجكس
وبه في الحرب نلنـا النصر من كف أرِس
قوّة قـد حرّرتنـا من خنوع للرجال
فتمتعنـا بخـيـر الـ زرع والضرع الحلال

وكانت رئيسـة الراهبات والملـكة تنحنيان نحو المذبح كلما انتهى دور من الترنيمة، فتحذو جميع الهيئات حذوهما .

وبعد انتهاء الترتيل . برزت رئيسة الـكاهنات من صدر قدس الأقداس نحو متر الى الرحبة وأشارت بيدها إشارة إسكات فصمت الجمع صمتاً تامًّـا لسماع نطق الهيكل من فم الـكاهنة العظمى . ثم نطقت الـكاهنـة التي إلى يمين الـكاهنة العظمى (الرئيسة) بصوت جهوري بكل تؤدة .

«سمعاً وإصغاءً لنطق الهيكل المقدس لأمة أجكس إلـه القوّة وارِس إلـه الحرب . نبوءة العام الجديد لأمّـة الأمازونيات العظيمة التي دوّخت الأقطار وخاضت البحار . أمّـة الإناث التي نفضت عن عنقها نير الذكور . أمة المحاربات التي حطمت قوس كيوبد إلـه الحب وتقلـدت خنجر أجكس إلـه القوّة وأحرزت قوس أرس إلـه الحرب ونالت إكليل الإستقلال المطلق .

« سمعاً وإصغاءً لنطق الهيكل المقدس . واستيعاباً لمعناه » .

وهنا تقدّمت رئيسة الـكاهنات خطوتين الى الأمام ونطقت بكل تأنٍ بصوت جهوري « الويل إذا تخطى جسر نهر ثرمدون قمر ساطع حين يكمد القمر اللامع » .

ثم سكتت نحو نصف دقيقة وقالت : « والويل ثم الويل إذا انتصر كيوبد إلـه الحب على أجكس وأرِس حين يقترن القمران » .

وفيما رئيسة الـكاهنات تتلو هذه النبوءة كانت الملـكة والحاشية ورئيسة الحـكومة ينتفضنَ فرقاً . ولما انتهى نطق الهيكل حدث لغط في الجمع وكنَّ يتهامسنَ : — « الويل الويل، لماذا الويل» .

وقالت أمازونيا رئيسة الحـكومة بصوت مسموع : « ما ذا ارتُـكب في مملـكة بنطس الزاهرة المجيدة من الآثام حتى تُـنـذر بالويل والثبور ؟ » .

وفي أثناء ذلك انحنت رئيسة الـكاهنات ٣ انحناءات ببطء لدى المذبح ثم عادت الى قدس الأقداس وخرجت من الباب الخلفي إلى الدير وحذت سائر الـكاهنات حذوها .

وقبل أن تتوارى الكاهنة الأخيرة أسرعت أوجستينا سيدة القضاء ، أي وزيرته ، وأمسكت بثوبها وهمست في أذنها قائلة .

« بحق الإلـهين اجكس وارس يا سيدتي الكاهنة ملفينا استوضحي الهيكل المقدس عن بواعث هذه النبوءة الرهيبة »

على أن ملفينا أفلتت من يدها مسرعة لتلحق موكب الراهبات من غير أن يبدو عليها استياء كأنها تعدها وعداً صامتاً .

أما الملكة فكانت في شديد الاضطراب وقد أمرت أن يخرج الجمع كله حالاً . فجعلت النسوة يخرجنَ . ثم قالت الملكة للحاشية والوزيرات بصوت مهدج : إن الهيكل المقدس ينذر مملكة بنطس الظافرة بويل رهيب . ويلاه أية جريمة فظيعة ارتُكبت هنا فأغضبت الإلـهين العظيمين أجكس وارس .

فقالت أوجستينا سيدة القضاء : لعلَّ في الخفاء يا مولاتي سعاية لتولية كيوبيد إلـه الحب منصب الألوهية في بنطس إلى جانب الإلهين العظيمين .

فقالت الملكة بنزق : أبداً . لا يمكن أن تعيش يدٌ تنصب تمثالاً لكيوبد إلـه الحب في هيكل اجكس وأرس ، بل تعيش اليد التي تحطم تمثالاً لكيوبد .

فقالت أمازونيا رئيسة الحكومة : ان امتزاج الزيت بالماء لأيسر جداً من وقوف كيوبد وأجكس أو أرس في هيكل واحد .

فقالت أوجستينا سيدة القضاء : ألا يخشى أن يبنى في الخفاء هيكل لكيوبد ويعبد فيه سراً ؟ .

فصاحت الملكة بنزق : الويل لمن تُدخل هذه البدعة إلى بنطس .

فقالت أوجستينا : إذن يجب أن تضاف إلى دستور الدولة مادة تقيد الحرية الدينية . والاّ فلا عقاب بلا قانون .

فقالت أمازونيا : هذا التقييد مفهوم من مضمون الدستور نفسه .

-- ماذا في الدستور يحرم عبادة كيوبد الـه الحب ؟

إن الأمة الأمازونية أخذت حريتها بالقوة لا بدلال الغرام . ولذلك شادت هيكلاً لأجكس اله القوة . لأن أجكس يمنح القوة ، وكيوبد اله الحب يبددها في ساحة العشق . ولذلك تحرَّم عبادته في بنطس

فقالت فلومينا وهي مديرة الشرطة والأمن : ويحكنَّ ! ان الدماء التي أراقتها جداتنا في سبيل تحطيم نير العبودية للرجال ثمناً للحرية والاستقلال أعاضنا عنها أجكس قوة

ونشاطاً وظفراً في الحروب . فماذا يمنحنا كيوبد إذا بذلنا قوانا على مذبح عبادته :

فقالت أمازونيا : لا يمنحنا الا عبودية للرجال وذلاً في صحبتهم وهواناً في مقارنتهم.

فقالت فلومينا سيدة الأمن ، أجل ماانتصرت أمة في حرب إلا بتأليه أجكس . وما انكسرت أمة في قتال إلا منذ ألهت كيوبد .

فقالت الملكة : أي وحق أرس ما رمى كيوبد سهماً على بطل إلا صرعه . وما رمى أجكس سهماً على صعلوك إلا جعله بطلاً . وعندنا الشاهد على ذلك انطونيوس كليوبترا واكتافيوس خصمه .

فقالت اوجستينا : لذلك أقول يجب أن يكون القانون صريحاً في تحريم عبادة كيوبد.

فاستشاطت الملكة قائلة . من هي المرأة التي تجسر أن تقيم تمثالاً لكيوبد في بيتها أو تبني له هيكلاً في بنطس .

فقالت فلومينا : هي المرأة الخائنة

فقالت أمازونيا : هل في بنطس امرأة تجرأ على ارتكاب الخيانة العظمى ؟

فقالت الملكة بصوت متهدج : كلا البتة ان سيف النقمة مصلت فوق كل عنق يشرئب الى هيكل كيوبد . ان هذا الهيكل في مملكة جارجاريا لا في بنطس جارتها. وفي جارجاريا فقط نقدس كيوبد ونعبده أسبوعاً واحداً فقط لتجديد النسل . وأما في بنطس فلن يقام معبد لكيوبد لكي لا يبنى ضريح للحرية ويُنصب ضريح للاستقلال. هذا هو دستور الدولة الأمازونية الصريح. وكل امرأة في بنطس تعرف هذا القانون بالبديهة ولا تجرأ ان تخالفه .

فقالت أمازونيا رئيسة الوزارة : لعلّ بعض سيدات الدولة لم يعلمن حتى الآن أن العداء الذي نشأ أخيراً بين حكومتنا وملك جارجاريا كان سببه أن ذلك الملك كان يحاول ادخال عبادة كيوبد الى بنطس لكي يمهد السبيل الى تبادل الصلات بين القطرين . ولا يخفى عليكن ما في ذلك من خطر على استقلالنا واحتمال وقوعنا تحت نير العبودية للرجال، كما كانت جدات جداتنا من زمان قبل التحرير. وما نطق الهيكل اليوم الا نذير بهذا الخطر . فحذار من تسهيل السبيل لعبادة كيوبد وتفشي الحب والغرام في قلوب الأمة .

فقالت الملكة : أجل ان نطق الهيكل اليوم انذار مروّع يحتاج الى درس وتفسير والى تقرير الخطة التي تتدارك ويلاته — فالى ديوان الدولة حيث ينعقد المجلس الرسمي . يجب أن تكون الجلسة سرية . وحذار أن تتسرب كلمة من نطق الهيكل ونتيجة البحث فيه الى الأمة لئلا تتضارب الأقاويل والأراجيف والتخرصات والاشاعات التي تحدث اضطراباً وقلقاً وقد تفضي الى فوضى . فالى ديوان الدولة أيتها السيدات

وفيما هنَّ يخرجنَ كانت فلومينا ضابطة الأمن تقول . ان ما تحاذرنَ قد حدث . فما خرجت الأمة من الهيكل الا ّ والنسوة يتقوّلنَ

— ٢ —

وما ان خرجت سيدات الدولة حتى ظهرت رئيسة الـكاهنات في رحبة الهيكل والى جانبها ملفينا الـكاهنة المحبوبة عند الرئيسة والتي تعتبر كأنها كاتبة سرها. وهي التي أمسكت بها آنفاً أوجستينا وطلبت منها الاستيضاح عن سبب انذار الهيكل وكانت ملفينا تقول : يظهر يا مولاتي ان بنطس المجيدة قد انغمست في حمأة الجرائم حتى كان نطق الهيكل اليوم مروّعاً

فقالت الرئيسة بصوت أجش ضخم كعادتها : أجل الويل لمملـكة بنطس من عبادة كيوبد إلـه الحب . لأن أجكس إلـه القوّة غيور لا يطيق شريكاً له في ألوهيته وأرس مستمد القوة منه في الحروب . فإذا سيطر كيوبد على بنطس غضب الإلـهان واستردّا قوّتهما منا وذلت الدولة ووقعت تحت نير العبودية للرجال من جميع القبائل. فالويل للفاجرات الويل للمنغمسات في الشهوات .

— ويحهنَّ . وهل لـكيوبد جرأة على أن يغزو مملـكة نبطس وهي في حماية الإلـهين العظيمين اجكس وإرس ؟

— ان كيوبد يسرح ويمرح الآن خلسة في بنطس فالويل للأمازونيات إذا استوى كيوبد في هيكل . فلسوف يتبوأ عرش بنطس قمر يكسف الشمس .

— واويلتاه . وا سوء المصير

— إنّ الهيكل لمنتقم شر نقمة . وستعلم اللواتي يرحبنَ بكيوبد أي منقلب ينقلبنَ عليك يا ملفينا إن تراقبي الدار والأديار والأسواق والأسوار . فإني أحسب حساباً للغزاة السريين الأشرار .

— ٣ —

... وجستينا كامنة في الهيكل تسمع الحديث ولا تراها الرئيسة ولا ملفينا . فما ان خرجت الرئيسة حتى نادت همساً : ملفينا ملفينا ملفينا .

فارتدّت ملفينا الى الوراء متخلفة عن الرئيسة وقالت: ليس غير ما سمعت من فم الرئيسة .

— أليس في وسعك تسقط الأخبار السرية عما حدث في بنطس مما أفضى الى هذا النطق الرهيب ؟

— ليس في وسعي اليوم. ولـكن المفهوم أن النطق جرى بسبب أن الحب يلعب

أدواراً سرية في بنطس مع انه محرَّم على الأمازونيات كل التحريم الاَّ في جاريجاريا في أسبوع واحد فقط كما تعلمين، حيث تذهب الأمازونيات الى هنا لعبادة كيوبد لتجديد النسل

— هذا معلوم . وقد مضى ذلك الأسبوع المقدس منذ شهر . فهل تظنين أن أحد العشاق قد تبع عشيقته سرًّا ولا يزال متخفياً في بنطس . أوَلا تعتقدين ان الحدود بين بنطس وجارجاريا فاصلة بالفعل بين ساحات الغرام وساحات الصيام .

— بحسب شريعة الدولة يجب أن تكون الحدود خالية من مسارح الغرام .

فقالت اوجستينا مازحة هـازلة : أي نعم . كما يخلو الجو من رطوبة الماء متى كانت الشمس ساطعة . حتى إذا غابت الشمس وانسدل الظلام تقاطرت[1] الرطوبة ندى على الأزاهر

ولا يخفى على القارىء من سياق هذا الحديث ان الراهبة والوزيرة هما على رأي واحد ولهذا يستأذنان هذا الحديث ، ولهذا هما صديقتان تتساران بعض الأحيان . فقالت ملفينا مزكية قول وزيرة القضاء ضاحكة . ولذلك نرى الغرام دائم التقاطر هناك على أزاهر القلوب أليست هذه طبيعة الحُباحب أي سراج الليل لا ترى عشاقها في ضياء الشمس الباهر بل في ضياء غرامها تحت جنح الظلام . .

فقالت اوجستينا مستطيبة هذا السجال الشعري :

— إذن حيث لا تقع أشعة الشمس تتلاقى قلوب العشاق تحت أشعة الغرام فلماذا تلام ؟

— فقالت ملفينا جادة : اذا ضعفت أشعة شمس الدولة عند الحدود فهل يضعف صوت الشريعة الزاجر ؟

— بل قولي صوت الطبيعة الآمر

— انما فارس الشريعة نشأ لكي يكبح جماح جواد الطبيعة . هذه حكمة الآلهة في صيانة قوى الأمة الأمازونية

فقالت أوجستينا محتجة : حاشا للآلهة أن ترتكب حكمة هوجاء كهذه ، اذ لا فائدة من القوى المحبوسة ، أيبلغ الجواد الى آخر شوطه وهو حبيس في اسطبله ، لابدَّ من اطلاق قواه لبلوغ هدفه ، والطريقة القويمة لتصريف القوى هي الحب

فقالت ملفينا مناقشة : يجب أن يكون الحب تحت سلطة القانون لأنه مسرافٌ نزقٌ متهوِّرٌ

— وتنازع الحياة يستلزم النزق والاسراف والتهور ، فلا حياة بلا حب

---

(١) سالت قطرة قطرة .

ويحك الحب عدوّ استقلالنا ، لو اعتنقنا عقيدتك هذه لوقعت بنطس فريسة للاعداء

فقالت أوجستينا هازئة مقهقهة : حبذا الأعداء ! من هم الأعداء ، أليس أقرب قبيلة لنا قبيلة جاريجاريا ؟ وفيها آباؤنا واخوتنا وبنونا ، وقد ازدحمت بالذكور الذين نلدهم ونرسلهم الى آبائهم . وقلت عندهم الأناث ، وازدحمت بنطس بالإناث اللواتي نلدهنّ ونستبقيهنّ . فاذا غزانا أهل جاريجاريا كنا نحن مفترساتهم لا هم مفترسونا

— الويل لك أتريدين أن نفترس أقرب الناس الينا

— وما قولك اذا كانوا يغتبطون كل الاغتباط بهذا الافتراس ؟

— فقالت ملفينا متباهلة : يا لك من مماحكة . أيغتبطون في ان تكون بنطس معارك أبطال تتدفق فيها دماؤهم كالانهار ؟

فثارت أوجستينا مازحة : أي نعم يغتبطون في أن تكون بنطس معارك غرام تتدفق قلوبها بدماء الحب

وقالت ملفينا متمادية بالتباله ومستلذة هذا النقاش

— أوه — أهذه المعارك تعنين

— أي نعم . معارك الاحداق والمهج .

— هذه معارك لا نستطيع نحن الانتصار فيها . ينتصر فيها الرجال ونصبح لهم فيها إماء ورقيقات .

— بل يكون النصر لنا حتماً . يدخل رجال جاريجاريا الى بنطس مغزوين لا غازين ويكونون لنسائها غنائم لا غانمين .

— إن تقاليدنا وتواريخ جدّاتنا تشهد ضد هذه الاماني التي تمنينّ النفس بها . فما اعتصبت جداتنا ضد الرجال الا لكي يسحقن نير العبودية لهم . فهل تريدين أن نعود الى ذلك النير الثقيل .

فقالت اوجستينا جادّة — أسف ان للتقليد سلطاناً على عقلك يا عزيزتي . عند الاختبار تجدين رجال هذا الزمن في معارك الغرام أسارى ونساءه آسرات .

— وقينا من شر نظريتك يا سيدة القضاء . أما كانت معارك الغرام تحتدم في أزمان جداتنا القديمات ؟ فلماذا كانت جداتنا أسيرات لا آسرات، ورقيقات لا سيدات

فقالت اوجستينا جازمة — كلاّ لم تحدث معارك الغرام في زمن جدّاتنا لأنهن كنّ أسيرات وكان الرجال يتمتعون بهنّ بغير اقتناص كما يتمتعون بأكل الغنم والفراخ والحمام بلا اصطياد . جدّاتنا قمن بنصف المهمة التي كتبت في سفر تحرير المرأة . هنّ حررننا من

العبودية للرجال . فبقي علينا أن نستعبد الرجال، ولا سلاح لاستعبادهم الا سهام كيوبد

فقالت ملفينا مضطربة : ويلكِ أخاف ان كيوبد اله الحب يعيث غراماً الآن في البلاد ويريش سهاماً إلى الأكباد إذا كانت سيدة القضاء تتمادى بهذه الفلسفة . . آخ اني أحس بوقع سهم . فمن أية ناحية ريش هذا السهم الى هنا ،(ووضعت يدها على قلبها تتحسس) .

فقالت أوجستينا : طبيعي ان يعيث كيوبد في بنطس ويريش السهام على الدوام لأن الحب جوهر الطبيعة ، فاذا عاث الجوهر في البلاد كان عيثه زهراً جميلاً وثمراً يانعاً .

— ولكن الحب في شريعتنا جريمة يا سيدة القضاء والعدل ، فكيف نتقي هذه الجريمة

— هو جريمة في شريعتنا ولكنه فضيلة في سنة الطبيعة . ولا قبل لنا على مناهضة الطبيعة فيما هو فضيلة في شريعتنا

— ولكن الشريعة نشأت لمقاومة الطبيعة .

— حقاً ما تقولين . فلنرَ أيهما تغلب وتفوز أخيراً يا عزيزتي الكاهنة التقية النقية. بالطبع لا تقصي نقاشنا هذا على رئيستك الكاهنة العظمى وإن كانت قد أوصتك أن ترقبي حوادث كيوبد في بنطس، أثق أنكِ لا تقصين عليها هذا الحديث لأنك شريكة فيه.

عند ذلك باغتهما وقع أقدام . فالتفتتا الى حيث كان الوقع فاذا رئيسة الكاهنات بادية وهي تقول بصوت جهوري :

« في الغد يكمد القمر ويُعتقل الحب . فارقبي القمر يا ملفينا » .

ثمّ توارت وملفينا أجفلت وقالت : ويحي لقد سمعت كل حديثنا . وسينزل الويل علينا

— لا تخافي . هل سجدتِ لكيوبد ، إذن لم تعصي الشريعة . فلماذا تخافين ؟

وأسرعت أوجستينا الى القصر لكي تحضر مجلس الدولة .

الفصل الثاني

في دار الدولة في قصر الملكة

تركنا الملكة في الفصل الآنف تأمر بعقد مجلس الدولة في بهوها ، وهو يحتوي على مقاعد من خشب السنط مزخرف من الطراز اليوناني القديم . وفي وسطه منضدة من خشب مزخرفة وقد جلست الملكة أمامه وجلست حوله سائر سيدات الدولة، ما عدا الوصيفات وحاشية الملكة طبعاً .

وعلى أرض البهو أبسطة جميلة أغريقية الطراز وفي الزوايا مناضد عليها تماثيل وأزاهر

أمام التماثيل . وعلى الأبسطة فراء . وقسي وسهام وخناجر وحراب ورماح معلقة في الجدران .

— ١ —

وقد افتتحت الملكة الجلسة بورع قائلةً : إن إنذار الهيكل لرهيب يا سيدات

فتلتها أمازونيا رئيسة الوزارة بالقول : لا بدَّ أن في بنطس الآن جريمة سرية مدنسة قدسية شريعتها . فيجب تطهير البلاد منها . وإلاّ نزل الويل بالبلاد . وما الويل الذي يخشى منه إلاّ ضياع استقلالها ووقوعها تحت نير العبودية لدولة جارجاريا الطامعة فيها .

فقالت الملكة : طبعاً . لا إنذار إلاّ تجاه جريمة ، فالأمر الذي يجب تحقيقه هو الجريمة نفسها .

فقالت فلومينا مديرة الشرطة : طبيعة الجريمة ظاهرة يا مولاتي في نفس انذار الهيكل وهي « الويل إذا انتصر كيوبد إلـه الحب على أجكس إلـه القوة » فالجريمة جريمة حب . وبأكثر وضوح هي جريمة اجتماع حبيبين في بنطس

فقالت أوجستينا متفلسفة . كيف يكون الحب جريمة ونحن لولاه لما وجدنا .

ففسرت أمازونيا رئيسة الوزارة : ليس الحب جريمة الا في بنطس وأما في جارتنا جاريجاريا فلا .

فقالت أوجستينا متململة — لا أفهم كيف يكون ناموس طبيعي جريمة هنا وفضيلة هناك . أليست بنطس جزءاً من الطبيعة .

— أمرك غريب . هل الطبيعة دستور بنطس ؟ وهل سنَّت الشرائع إلاّ لمقاومة الطبيعة .

— دستور بنطس لا يحرّم الحب . لا يحرِّم إلاّ دخول الذكور إلى البلاد .

— ويحرّم الحب فيها أيضاً . لأن اباحة الحب تتضمن إباحة دخول الرجال . ودخولهم خطر على الاستقلال الذي اشترته جدَّاتنا بدمائهن .

فتدخلت الملكة بين أوجستينا وأمازونيا حسماً للنزاع في سر الحب وقالت : يجب أن نفسر نطق الهيكل كلمة كلمة لكي نحدد الجريمة التي اقتضت هذا الإنذار المروّع .

فقالت فلومينا : التفسير واضح يا مولاتي . القمر الساطع رمز لشيء . فهل يمكن أن يكون رمزاً إلاّ للرجل .

فقهقهت أوجستينا متهكمة وقالت : ألا يحتمل أن يكون رمزاً لحمام أو لغزال أو لتيس سيعبر الجسر .

فقالت فلومينا ساخرةً : لا ريب أن ضياء عيني تيسك يخسف القمر .

— ومن ذا يقول أن الظباء والحمام والتيوس لا تعشق . الحب كالدم جارٍ في كل عرق من عروق الطبيعة .

فشقَّ على الملكة التمادي بالجدال في موضوع الحب كأنه يحرك فيها شجوناً وهو ما تريد تجنبه في هذا المقام . فقالت يجب أن نبحث لماذا يغضب الإله إذا مرّ ذلك القمر الساطع على الجسر حين يكمدُ القمر ، إذا كان المراد بالقمر الساطع رجلاً ، مع أن دخول أي رجل إلى بنطس في كل حال يُعد جريمة .

فقالت فلومينا مستدركةً : ولكن ليست كل جريمة تغضب الإله هذا الغضب المنذر بالويل والثبور . والظاهر من النطق الهيكلي أنَّ الإله يغضب إذا اتفق مرور ذلك الرجل الجميل على الجسر حين اكمداد القمر . فيجب أن نبحث عن المراد باكمداد القمر .

فقالت أوجستينا متفلسفة : الأمر واضح . ليس تفسير اكمداد القمر بخسوفه أبعد عن العقل من تفسير القمر الساطع بالرجل الجميل .

— ومروره على الجسر حينئذٍ نذير بدخوله إلى بنطس بجريمة الحب التي تغضب الإلهين .

فقالت الملكة متردِّدة : إذاً عليك بالقبض على الرجل الذي عناه الإنذار قبل أن يمر على الجسر ساعة اكمداد القمر، أي خسوفه . وإذا مرَّ قبل الخسوف أو بعده فلا ويل

فقالت الوزيرة أمازونيا نازقة بصوت عالٍ وهي تخبط المنضدة بيدها : يجب القبض عليه واعتقاله ومقاصته ورفيقته بالموت على كل حال . فاليوم رجل وغداً رجال وبعد غدٍ اقيال وأخيراً أمراء ، وحينئذٍ على عرش الدولة يا رحمان يا رحيم ، وللاستقلال نار الجحيم ولكنَّ للجميع العبودية

وكانت الملكة تختلج عند سماع هذا الانذار فقالت مضطربة : أجل يجب قطع دابر الذكورة من بنطس وإلاّ وقعت الأمة الأمازونيــة تحت نير العبودية للرجال . على ملفينا القيمة على الأمن أن تتخذ التدابير الكافية للبحث عن أي ذكر في بنطس .

فقالت أمازونيا بحزم : ويجب أيضاً مراقبة جسر ترمودون حول ميعاد خسوف القمر واعتقال كل امرأة تمرُّ عليه وتحرّي أمرها .

فقالت الملكة متلعثمة : وسأنزل العقاب الشديد بكل امرأة يثبت أن لها صلة برجل متخفٍّ في بنطس لتكون عبرة لمن تجرأ على تدنيس شريعة الأمازونيات . إني حريصة على استقلالهنَّ كحرصي على عرشي .

فهتفت المؤتمرات : « تعيش الملكة » ثلاثاً .

ثم قالت أوجستينا : إذن يجب أن نتحقق موعد خسوف القمر فقد يكون قريباً .

فقالت الملكة مؤمنة على كلام وزيرة العدل : على جريجوريا وزيرة الشؤون الاجتماعية استدعاء المنجمة الآن لاستفتائها .

« فخرجت جريجوريا لقضاء هذه المهمة واستمرت الملكة تقول : حذار أن تتسرب كلمة من هذا المجلس الى الخارج لئلاً تضج البلاد بالأقاويل والأراجيف التي يمكن أن تحدث شغباً . بقيت الفقرة الثانية من نطق الهيكل « الويل ثم الويل إذا انتصر كيوبد على أجكس إله القوة حين يقترن القمران » .

فقالت فلومينا سيدة المحافظة على الأمن : الظاهر من هذا النص أن المراد بالقمرين القمران المذكوران في الفقرة الأولى : القمر الساطع والقمر المكمد .

فقهقهت أوجستينا وقالت متهكمة : أي نعم : اضبطي قمر الأرض الساطع لئلاً يفر إلى قمر السماء المكمد ويقترن به .

فقالت الملكة متحققة أمراً يهمها . ألا يحتمل ياسيدات أن يكون المراد باقتران القمرين مرور الرجل على الجسر مع حدوث الخسوف في وقت واحد ؟

فقالت أوجستينا : عفو مولاتي . إذا كان هذا هو المراد فالفقرة الثانية تكرار للأولى ونطق الهيكل يجل عن التكرار الفضولي أو التوكيدي لأنه أكيد بلا توكيد .

فقالت أمازونيا رئيسة الوزارة باسمة : هذا كلام شخص حقوقي قانوني منطيقي . إذن فلا بد أن يكون المراد اقتران ذكر وأنثى في بنطس على كل حال .

فقالت فلومينا كأنها تتشفى : أجل الويل لهما . هذا تدنيس للشريعة . يجب أن يشاد هيكل حقير لكيوبد ويحرق الجرمان على مذبحه لكي يختنق كيوبد بدخان ضحيته .

فقالت أوجستينا ساخرة : وحينئذٍ يجب أن تعيني حارسات تراقبن ذلك الهيكل ليلاً وتحصين الأمازونيات اللواتي يدخلن خلسة اليه ويسجدن لإله الحب .

— واجعلي فوق باب الهيكل سيفاً يسقط على كل عنق يشرئب إلى داخله .

— حاذري أن يقع سيفك خطأً على عنقكِ ياعزيزتي .

— سيفي لا يخطىء . لا يقع إلا على كل من تمد عنقها الى هيكل الغرام .

فقالت الملكة متململة من هذا الحديث كأنها هي المقصودة فيه : — إذن فعليك يافلومينا أن تستخرجي القرينين من مخبئهما ولو كانا في أعماق الخفاء .

فعادت أوجستينا الى لباب الموضوع وقالت : إذن يجب أن نفهم ماذا عنى الهيكل

بالقمرين لكي نعلم ان كانا يصحان رمزاً للعاشقين . ليس في السماء إلاَّ قمر واحد . فما هو القمر الآخر .

فقالت فلومينا : الجواب عند المنجمة . فهلاَّ قليلاً فان جريجوريا قد خرجت لاستدعاء المنجمة .

— ٢ —

لم يمض وقت طويل حتى جاءت جريجوريا مصطحبة المنجمة وانحنتا باحترام كلي لدى جلالة الملكة وسائر الوزيرات . وكان تحت ابط المنجمة درج من رق الغزال يشتمل على علوم الأفلاك والتنجيم . فأمرتها الملكة بالجلوس على مقربةٍ منها . وسألتها : هل لكِ أيها العالمة أن تنبئينا متى يقع الخسوف القادم

فحلت المنجمة الثوب الأطلسي عن الرق ونثرت الدُرج مسافة ذراعين منه . وجعلت تحملق فيه الى أن قالت : « بحسب تقويم بطليموس سيد الفلكيين وأمير المنجمين يقع الخسوف القادم في موعد تمام البدر القادم » .

فقالت أوجستينا : — عمر القمر الآن عشر ليالٍ ...

فقالت الملكة : اذن بعد ٤ أيام يقع الخسوف

فقالت المنجمة : من غير بد

فسألت الملكة محققة : هل تعرفين في الفلك قمراً ثانياً ؟

— كلاَّ وحاشا يا مولاتي . لا تسمح الآلهة إلاَّ بقمر واحد يقرر صنفاً واحداً من الطوالع .

— صنفاً واحداً من الطوالع ؟ أي صنفٍ ؟

— صنف الطوالع الغرامية يا مولاتي .

فاختلجت الملكة واختلجت معها جميع الوزيرات مرتبكات وقالت الملكة : يا للعجب . هل للقمر تأثير في العشق

— القمر نفسه عاشق يا ذات البهاء .

— يعشق من ؟

— يعشق الشمس يا سيدتي . وهل يجد القمر في الفلك عشيقة أجمل من الشمس ؟

— أمرٌ غريب . كيف يعشق القمر الشمس ؟

— أما رأيت يا ذات الذكاء الباهر القمر يقترن بالشمس حين كسوفها . ولا يفارقها إلا بعد عناق طويل يبثها فيه غرامه .

وكانت جميع الوزيرات مبهوتات من كلام المنجمة . فقالت اوجستينا : أعزك الله يا ذات العلم الواسع . إذن يُعنى بانكساف الشمس اقترانها بالقمر . وإذا قيل اقتران القمرين فماذا يُعنى

فقالت المنجمة محلقة مشرئبة العنق : من يقول هذا القول البديع ؟ إنه لشعر ساحر

— لعلّ الهاً قاله . لا أتذكر

— المجد لهذا الاله . إنه لتعبير بديع يراد به الشمس والقمر جميعاً . لعلّ هيلاس اله الغناء والشعر قاله

— هل تعرفين في ميثولوجيا إحدى الأمم نصًّا على أن الشمس والقمر متعاشقان ؟

— في ميثولوجيا غلاطيه انهما عاشقان . وفي ميثولوجيا كبدوكيا انهما اخوان . وفي ميثولوجيا قورنثيا ان الكوكبة اندروميديا ولدتهما وتركتهما فاقترنا . نعم اخوان اقترنا

— متى يحدث الكسوف التالي .

وكانت المنجمة تحملق في درجها وتقول . « بحسب تقويم استاذ التنجيم بطليموس يقع الكسوف التالي يوم ميلاد القمر التالي .

— إذن بعد ....

— بعد ١٨ يوماً كاملة .

فقالت الملكة مضطربة تريد الخلاص من المنجمة . شكراً لك أيتها العالمة الجليلة . لك المكافئة اللائقة بعلمك جزاء افاداتك .

ونهضت المنجمة وانحنت باحترام كلي ثم خرجت .

— ٣ —

حدث اضطراب شديد على أثر خروج المنجمة . وجعلت الوزيرات ينظرن بعضهن الى بعض كأنهن يتساءلن الى أن قالت فلومينا : — يالله . اخوان يقترنان ؟ أليس هذا شر فظيع

فقالت اوجستينا : هذا فظيع هنا ولكنه جائز في قورنثيا . دعينا من تطبيق الشرائع الآن . لقد انجلى لحوى نطق الهيكل جيداً الآن وهو أن الويلين ينزلان على بنطس إذا اقترن الأخوان المتعاشقان حين كسوف الشمس . أجل ان اقتران الأخوين أعظم جريمة تزلزل بنطس

وكانت الملكة مبهوتة تفكر فيما جرى من الحديث فقالت : ويحهما أيقترنان في بنطس ؟

— ان العاشقين يا مولاتي ليسا بعيدين عن هذه العاصمة

فاستشاطت الملكة مختلجة واجفة وقالت متلعثمة : الويل ثم الويل لهما . سأجعلهما عبرة للأجيال القادمة

فقالت جريجوريا كاتبة سر الملكة : يمكن حدوث هذا القران الفظيع خطأ يا مولاتي

— وهل يغتفر الاهانا هذا الخطاء ؟ ان دستورنا تدارك حدوث اقتران الأخوين خطأ إذ حتم على كل امرأة أن لا تعرف الا قريناً واحداً لها فترسل اليه مولودها إذا كان ذكراً وتحتفظ به إذا كان أنثى . وهكذا تستطيع أن تنذر بناتها من الاقتران ببنيه . لذلك يجب تدارك حدوث هذا الخطأ لئلا تنقض الويلات على بنطس . على فلورينا أن تجمع كل دهاء السماء والأرض لكي تعتقل ذينك العشيقين قبل حدوث الخسوف تداركاً للويلات الرهيبة . وعلى كل منكن أيتها الوزيرات أن تفعل ما يجب عليها في اكتشاف هذه الجريمة الهائلة، وإلا فالدولة تتداعى والمملكة تغزى والحرية تقتل والاستقلال يدفن في اعماق البحر . لقد أعذر من أنذر، وسيكون الانتقام من اللواتي يحاولن بناء هيكل لكيوبد في بنطس انتقاماً لا تطيقه نفس بشرية . سلام عليكن .

وجعلن ينحنين أمام الملكة ويخرجن .

وفيما هي في صحن الدار همست ملفينا في إذن أوجستينا : ما قولك بعظة الملكة.

فقالت أوجستينا : هل تستطيع أن تقول غير ما قالت :

— ٤ —

أرفض المجلس والملكة دخلت الى جناح قصرها وجلست على مقعدها تفكر فيما سمعت وفيما جرى في الهيكل، وفي نبوءة الكاهنة الكبرى، وقد استوى الهم على نفسها وجثم على صدرها كابوس الغم . ثم جعلت تحلل النبوءة بنفسها .

لقد انحصر تفسير نطق الهيكل في أمرين صريحين : الأول مرور رجل على جسر ترمودون في حين خسوف القمر . وهذا أمر تداركه أسهل من السهل . والثاني اقتران الأخوين في حين كسوف الشمس . وهذا يمكن تداركه إذا نجحت فلومينا في اعتقال أحد الأخوين . حين مروره على الجسر . ولكن من هما الأخوان . لا يمكن أن يكون افريدس أحدهما . وهب إن هذا الاقتران وقع في بنطس فانا بريئة منه ،والويل لا يقع في القصر .

ثم تقدمت نحو باب حجرة السر وفتحته ثم نادت أفروديت . أفروديت . أفريدوس أفريدوس .

فجاءها من وراء الحجرة فتىً في زي فتىً روماني يتشح بوشاح عريض طويل أنيق وإلى جانبه خنجر جميل صغير . وينحني باحترام وببشاشة ويقول : لبيك يا مليكة فؤادي

وعانقته عناقاً عنيفاً ثم قالت : ما ألذَّ وأجمل أن أراك بزي الفتى الجميل والحبيب المعشوق يا أفريدس . يا لقوة الجمال في هاتين الساعدين المفتولتين .

قالت هذا وهي قابضة على ساعديه .

ويا لقوة السحر في هاتين المقلتين الوضّاءتين . ويا لقوة الشعر في هاتين الشفتين العندميتين . ويا لقوة الضياء في هذا المحيّا الساطع . أخاف أن تكون القمر الساطع . ويا لقوة البهاء في هاتين الوجنتين المتوردتين .

وكانت تلمس بأناملها جميع هذه المذكورات .

ثم أردفت : يا لقوة الشباب في هذا القد العادل .

وضمته إلى صدرها ثانيةً وقبلته قبلة النسيم للغصن .

ثم أفلتته . ولكنها لم تستطع ان تفلت من بين ذراعيه ولا شفتاها من شفتيه كأنه لا يرتوي ولا هي ارتوت.

وعادت تقول : اغتبط أيما اغتباط إذ أراك قمراً طالعاً بزي الشاب النبيل . ولكن أشفق أن ينمَّ عليك زيك في حين غفلة . فعد وتزيّا بزي الوصيفة أفروديت لئلا تباغتك إحدى الوصيفات فيفتضح الأمر .

فقال أفريدس : ولكني كما أمرتِ أتجنب الاختلاط بالوصيفات تحامياً للفضيحة .

هذا التجنب حتم على كل حال حتى في حالة تنكرك . إذ لا يمتنع ان تصادفك إحداهنَّ على حين غفلة . فعد والبس لباس أفروديت.

— أخشى حسدهنَّ لي لتمييزك إياي عليهنَّ . يعرفنني وصيفة حديثة العهد في بلاطك باسم أفروديت .

— لقد أوهمتهنَّ إنك فتاة من سلالة تتصل بالأسرة المالكة ففقأت بهذا الايهام عيون الحاسدات .

— ولكن ما الذي طرأ حتى صرتِ ترغبين في اختلاطي بهنَّ.

— أشفق عليك من مللك في وحدتك في انتظاري ، حين أكون مشغولة بمهام الدولة.

— لا أشعر بملل وحدة لأني في غيابك أنظم الشعر لأبث فيه غرامي لكِ

— أما كفى ما في هذين اللحظين من السحر حتى تضم اليها سحر الشعر . انكَ قاتلي بما في هذين الناظرين من السحر . ادخل الآن الى خدرك وتنكر بزي الوصيفة وهلمَّ اليَّ

فدخل الى مخدعه وهي بقيت تغازل نفسها ، ياللهوى يا لشعلة الغرام في الفؤاد . كلما نفخها جبروت الملك لكي يطفئها صب عنفوان الشباب زيتاً عليها ليزيدها ضراماً ... ا ... آه ... طلبت السعادة في انتصارات الحروب فوجدتها لا تزيد على نبضة واحدة ضعيفة بين نبضات الغارات المنيفة في المعارك . توسلت اليها في مطاردات الصيد فما أصبت منها إلاَّ علقة من قلب غزال تتخم معدة الجسد . وأما معدة النفس فبقيت جائعة . فتطلبت السعادة في سلطة الملك فما وجدت الاَّ سلسلة مشاكل ومشاغل لا تنتهي . عبثاً بحثت عن سعادة في أي ناحية من نواحي الحياة . . . آه . فما وجدتها الاَّ في الحب . تبَّاً لدستور بنطس الذي يجعل الحب جريمة . فكأنه يحرِّم الحياة . اذا قتل الحب فماذا يبقى من هدف للحياة ... آه ... الحب . الحب الحب . هو اله الطبيعة الذي لا يجحد . هلمَّ اليَّ يا كيوبد اله الحب . اني ملكة عبادك بل أنا خادمة هيكلك ..

عند ذاك جفَّلها قرعٌ على الباب الخارجي . ففتحته وإذا أمها الشمطاء العمياء تبدو منه فقالت مبغوتة : ماذا دعاك الى هذه المفاجأة يا أماه .

فقالت أمها : — صه . لا تدعي افريدس يأتي الى هنا قبل أن أملي عليك نصيحتي

— نصيحتك ؟ بأي شأن يا أماه ؟

— بشأن المجلس الذي ارفضَّ منذ برهة . فان أذنيَّ العمياء مرهفتان — استوعبتا كل حوار جرى بينكنَّ من وراء الباب

— كانت جلسة سرية يا أماه.

—.اتودين أن تُكتم أسرارك عن أخلص الناس لكِ ؟ عن أمكِ ؟ عن والدتك الساهرة على سلامتك وسلامة عرشكِ ؟

فقالت الملكة خافقة الفؤاد متلعثمة — أجل أنتِ أم ، بل أنت الملكة الأولى . وستبقين الأم التي لا غنى عن نصائحها .

— فاجأتك قبل أن ترسمي أية خطة بشأن افريدس . فماذا نويتِ أن تفعلي

— نويت أن أحتم عليه الاعتكاف في القصر لا يخرج منه كعادته للصيد الى أن ينقضي موعد انذار الهيكل .

— أي سبب تنتحلين لهذا التحتيم .

— لم أفكر بعد بتلفيق سبب له .

مهما لفقتِ من أسباب فلا يطمئن . وإذا اشتدَّ قلقه أفضى الى فضح سره . فما هو بالأبله لكي يطاوع طاعة عمياء . ان الاحتفاظ به هنا في القصر غير مأمون العاقبة .

— إن تنكره متقن جداً يا أماه فهو يحلق عارضيه وشاربيه كل يوم مرتين . وإلى الآن لم يكتشف أحد سره

منذ اليوم ستكون العيون محملقة جداً يا بنتي

— لا يتسنى لأحد أن يتدخل بشؤون قصري.

— لاتدرين ماذا تكون عاقبة التدقيق في التحقيق الذي قررتِه . فاذا وقعت الشبهة على افروديت تتبعت الجاسوسات افريدس الى أعماق قصرك .

فقالت الملكة مضطربة : ورأيك الحكيم يا أماه .

— رأيي أن يخرج افريدس حالاً من القصر بأية حجة من غير أن يرتاب بسبب . دعيه يسبقك الى قصر الصيد على الحدود حيث ابتدأ تعارفكما . حتى متى صار هناك توعزين إليه أن يتريث موعوداً بأن تستدعيه بعد حين اذا لم تلحقي به .

— أماه . ويلاه . لا أطيق فراقه يوماً واحداً

— أشعر بحسرتك فقد نكبت بها في شبابي أحياناً . ولكن أتطيقين ضياع عرشك إذن ؟

— ويحي كلاهما متعادلان في الميزان

— وكليهما تخسرين

— يمكن أن يسلما كلاهما إذا منحتني دهاءك .

تحتاجين إلى دهاء عظيم يا بنتي لأني أحس أن مكيدة هائلة مدبرة ضدك . فحاذري .

— ويحي . أي مكيدة تحسين ؟

عجباً . ألا تشعرين أن نطق الهيكل مبني على تسرب أسرار القصر إليه . لأن جواسيس الهيكل يجسن أعماق الزوايا والكهوف . ولعلّ رئيسة الكاهنات علمت بأمر افريدس فنطقت بنبوءة الهيكل بناء على هذا العلم

فقالت الملكة متفجعة : ويلاه . إذن . دبري تدبيراً ينقذني من هذه المكيدة الهائلة يا أماه من غير أن يفقدني التدبير أفريدس . هو قري الذي لا أحتمل غيابه يوماً واحداً .

— العروش يابنتي . لا تثبت على أساس العواطف الرملي . يجب أن تكون لك ارادة أصلب من الجلمد . يجب أن تقصي أفريدوس عنك الى آخر الشهر أي الى ما بعد حدوث الخسوف والكسوف . وثم نرى ماذا يكون بعد اخفاق نبوءة الهيكل .

فقالت الملكة متضرعة : أماه كيف يمكن السمكة أن تعيش في الوحل إذا نضب الماء . وكيف يعيش العصفور في أناء لا ينفذ اليه الهواء . وكيف يهتدي الجدي الى أمه إذا انحجب عنه الضياء ؟ وكيف يحيا الحي إذا انقطع عنه الغذاء والضياء والهواء والماء يا أماه.

أحين أبلغ الى قمة جبل الغرام أتزحلق الى وادي الفراق . لا أطيق يا أماه . يجب أن أتبعه على الأثر .

— حاذري أن تفارقي العرش في إبان هذه الأزمة الدولية الهيكلية لئلا تقعي فريسة للمكيدة .

— أف . أف . ليت هذا العرش لم يكن ولا كانت متاعبه ومصائبه ... آه .. ما أسعد الراعية في جاريجاريا وحبيبها يعزف لها على قيثارته . وما أسعد الفلاحة في قورنثية وهي تشد بحبل رفش حبيبها . وما أسعد الحاصدة في كبدوكية وحبيبها يعرقل منجلها بمنجله مداعباً . كرهت العرش يا أماه .

— أشفق عليكِ . حاذري التفريط بالعرش يابنتي . لأن حياتك مقترنة ببقائه . ولدت ذات عرش ولم تولدي فلاّحة ولا راعية . كوني حازمة لئلاّ تضيّعي الملك والعرش والحبيب والحياة جيعاً . استدعي أفريدوس وأبلغيه تعليماتك .

وخرجت الوالدة لاتلوي . وبقيت الملكة تناجي نفسها ! واويلتاه كيف أستطيع فراق ذلك البدر الساطع . هل تستطيع عيناي الغمض وهو بعيد عني . كل يوم أقضيه إلى جنبه يزيد غرامي به . كذب الشعراء الذين يقولون دوام الوصال يورث الملال . لعلهم لم يذوقوا طعم الحب . فكيف يبدعون التشبيب والغزل والنسيب . آه . ولكن لا بدّ من إبعاده ريثما يمر زمن الانذار بالويل . فيا قلب تحمل الفراق على أمل اللقاء .

ثم فتحت الباب ونادت أفريدوس .

ودخل أفريدوس فاذا هو أفروديت إلهة الجمال ، لا يمكن أن تظنه شابًّا ، لأنه أتقن زي الحسناء من كل وجهة ، فتلقته الملكة باشّة متهللة وأخذت بيده وطوّقت خصره بذراعها وتمشّيا معاً وهي تقول : الى ينبوع السرور . وهو يقول لها : لبيك يا بحر البهجة والحبور .

فقالت : أليس البحر متجمعاً من الينابيع فكيف لا يتعاظم ويتدفق على مرور الزمن كأنه لا ترويه الينابيع .

— الينبوع ياعزيزتي سلسال قطرات صغيرة تتلاشى في البحر الخضم فلا تزيده مقداراً .

فقالت بعد صمت هنيهة وتأمل وتفكير في ما هي فيه من بلبال . أفريدوس من أين تأتي مياه الينابيع .

— إنها قطرات المطر تتغلغل في الأرض ثم تتفجّر من منافذها .

— ومن أين يأتي المطر .
— من فيض الآلهة .
— أي الآلهة .
— مطر السرور من فيض كيوبد إلـه الحب. أتنكر أن الحب مصدر كل سرور وسعادة ؟
— لا أنكر .
— إذن فلماذا لا تبنين هيكلاً لكيوبد .
فأجابت بدلال وابتسام ساطع : بنيت .
— أحقيقي ! أين !
فأشارت الى قلبها وقالت : هنا . بنيت هيكلاً واحداً لمتعبد واحد .
فقال أفريدوس متدللاً أيضاً : كيوبد إلـه جميع البشر فكيف تحصرين عبادته في هيكل واحد لمتعبد واحد ؟
— أتريد هيكلاً يشترك بالعبادة فيه كل الناس .
— كذا تكون الهياكل . يجب أن تبني هيكلاً لكيوبد في بنطس يقصد اليه كل الناس .
— أنت تعلم أن لا محل له في بنطس . ولا سلطة لي في غيرها .
— حيثما تبنين هيكلاً لكيوبد تنقاد السلطة اليك صاغرة .
— تغضب أمتي .
— غضب كاذب .
— كيف يكون كاذباً وهو يزعزع عرشي .
— بل يثبت عرشك . لأني أعلم عباد كيوبد في بنطس أشد حرارة غرام من عباده في اي مكان آخر .
— لو بني هيكل هنا لهدمنه في دقيقة وحملن مكانه قاعاً صفصفاً .
فقهقه افريدوس قائلاً : ليتك تمتحنين الأمر فترينهن يترامين اليه ترامي الفراش على المصباح .
— يرمينني منه بسهام مسمومة .
— يرمينك بأغصان الورد امتناناً وشكراً .
— هذه مجازفة يا أفريدوس لا أجسر ان أقدم عليها .
— ليس في الأمر مجازفة . يبنى الهيكل في الحدود قرب قصر الصيد الذي اجتمعنا فيه لأول مرة من غير أن يعلم من بناه . وحينئذٍ ترين الأمازونيات يتهالكن في التردد اليه

خلسة وبعد حين جهاراً . وفي زمن غير طويل يتلاشى العداء الذي حدث بين دولتي بنطس وجاريجاريا بسبب الدسائس . وثمَّ يتواتر القران بين الأمازونيات والجاريجاريين . وأخيراً يتحوَّل الخصام الكاذب بين الأمتين الى ولاء صادق . وثمت يتسنى ضَمُّ العرشين في عرش واحد تتبوئينيه أنتِ .

— وي . وي . وي . لقد شططتُ كثيراً يا إفريدوس . تزين لي حلماً لا أتصوَّر تحقيقه حتى ولا في السماء السابعة. فكيف يمكن ذلك .

فقال افريدوس جادًّا : تقترن ملكة بنطس بملك جاريجاريّ ...

فقالت مبغوتة غاضبة : ويحك . أتخادعني بحبك لكي تزين لي قراناً بملك جاريجاري وقد صار ملككم عدوًّا لدوداً لأسرتي . إذن كنت تتصنع الغرام بي تصنعاً لكي يكون السبيل الى اتحاد العرشين وضمّ المملكتين بزواج ملكي أ كون فيه أمة لا سيدة . لا. لست أصبر على هذا الخداع لحظة .

فقال افريدوس بدلال وشمم . أتبلغ منك السذاجة أن تفهمي من مقالي قرانك بغيري ؟ هل ترين فيَّ العاشق النذل الذي يسخر عشقه أو يؤجره لقضاء مأرب لغيره .

فقالت مبهوتة . إذن كيف يتحد العرشان بهذا القران وأنت تقول أنك من سلالة الكهنوت لا من سلالة ملكية ؟

— هل تجهلين أن السلالات الملكية مشتقة من السلالات الكهنوتية في كل أمة . إذن فلا بدع أن يصير ابن كاهن كبير ملكاً .

— هل مُسخ ملك جاريجاريا إلى خنفسة حتى لا تحسب حساباً لمقاومته .

— أجل في جاريجاريا سلطة العرش مستمدَّة من سلطة الكهنوت . والشعب الجاريجاري ضاق ذرعاً من قانون دولتكنَّ الذي أفضى على مرور الزمن إلى تكاثر الذكور في جاريجاريا وتجمع الأناث في بنطس . لأن الأمازونية التي تقارن جاريجاريًّا في ربيع المغازلة إذا ولدت بنتاً احتفظت بها أو ذكراً أرسلته الى أبيه . فأصبحت بنطس مملكة نساء وجاريجاريا مملكة رجال قلت فيها النساء . وكثيرٌ من الشبان لا يجدون لهم زوجات . وجميع الآلهة تستنكر هذا التفريق . وكيوبيد يتضجَّر منه . فإلى متى هذا الفسق المنافي لسنة الطبيعة ؟

وكانت الملكة تفكر في منطق أفريدوس هذا وتزنه وترى الصواب فيه إلى أن قالت: تكاد تريني سعادةً لا أتصوَّر وجودها حتى في عالم الآلهة . هذا اقتراح خطير الشأن ، يجب البحث فيه مليًّا قبل تقريره والبحث في خططه قبل تنفيذه . لذلك أود أن تذهب

الليلة إلى قصر الصيد في الحدود وتنتظرني هناك الى أن أوافيك بحاشيتي للصيد . وهناك يخلو لنا الجو ونتفاوض في رسم الخطة الضامنة النجاح

فأجاب افريدوس مبتهجاً ، لماذا لا أبقى هنا ثم اذهب مع الحاشية ؟

— صرت أخشى انفضاح أمرنا . فأود أن تسبقني بدعوى أنك موفد لتهيئة أجهزة الصيد . وهناك سيرونا الوصيفة المخلصة الحارسة قصر الصيد والقيّمة عليه تكون في خدمتك .

— لا أرى موجباً لهذا التدبير العاجل . لعلك تريدين بهذا التدبير اقصائي عنك .

— كلا البتة . بالعكس . أود أن أضمن بقاءك إلى جنبي إلى الأبد . لا تسيء الظن بي وأنا أعبد كيوبيد فيك . اذهب الليلة إلى قصر الصيد وانتظرني هناك .

— كم عمر انتظارك ؟

فضحكت ملء فمها وقالت : بعض الأسبوع

— أبعد غد ؟

— أو بعده فلا تضجر .

— بدأ الضجر منذ الآن

— راع القمر فهو شعاع الحب بين قلبينا

— سأرى القمر مكمداً حيث لا تكونين موجودة تمدينه بضيائك .

فقالت مجفلة : إذن فلا تساهر القمر بل ناج الشمس في النهار فهي جمرة الحب بين قلبينا .

فقال متضرعاً — بربك لا تبطئي لئلا تحرق تلك الجمرة قلبي فلا تجدين حين اللقاء إلا رماده

فقالت ضاحكة : اذهب أعدّ جوادك . فالشمس على وشك المغيب . تبلغ إلى قصر الصيد في ضحى الغد إذا لم يخنك الجواد .

ثم تلاثما ملاثمة الوداع فخرج الى الاسطبل

الفصل الثالث

في دار القضاء

في دار القضاء بهوٌ رحيب أنيق فيه مقاعد من خشب السنط مزخرفة زخرفة أغريقية جميلة،وفي وسطه منضدة من نفس الخشب . وإلى جانبي مقدم البهو عمودان ضخمان يتوسطهما تمثالان للإلهين إجكس وارس وقد علق في الجدران ، حراب وسيوف وقسي وسهام .

(١)

وكانت أوجستينا سيدة القضاء أو وزيرة العدل جالسة لدى المنضدة وفي يدها رق القانون تنشره رويداً كلما قرأت لنفسها بعض أسطره . وما هي إلاَّ هنيهة حتى دخلت أودينا الشرطيَّـة الـكبرى أو ذات الرتبة العالية بثوب خاص يدل على رتبتها،وفي يدها رمح قصير ذو حربة. وضربت الأرض بكعب رمحها ضرباً خفيفاً . فالتفتت إليها أوجستينا وسألت : هل جدَّ شيء بشأن المعتقلات التسع على جسر ترمودون ؟

— عثرنا على عاشرة يا سيدتي مشتبه بها في فندق التاجرات،فاعتقلناها منذ ساعة

— أية شبهة ظهرت فيها

— أعدم عيناي إذ لم تكن رجلاً جاريجاريَّـا متنكراً.

— وي . وي . اذاً عثرنا على القمر الساطع

فقالت اودينا باسمة : بل على القمر القاتم يا سيدتي . وأما القمر الساطع فما هو الاَّ المعتقلة السابعة التي أصرَّت على عدم الاقرار بهويتها لأن الشبهة قويت عليها .

فاشرأبت اوجستينا مهتمة وقالت : ماذا بها من دلائل الشبهة . هل كذبت بحقيقة شخصيتها

— بل حقيقتها كذَّبت شخصيتها .

فابتسمت اوجستينا وقالت : كيف ؟ هل شرعت تتحوَّل من صنم الى انسان ؟

— لا . لم تزل صنماً لايتحول . وانما . أليس هذا هو الصباح الثاني لاعتقالها .

— بل مضت عليها ليلتان ونهار في المعتقل هنا . فماذا ظهر من كذب شخصيتها ؟

فقالت أودينا مداعبة ومشيرة الى خدها : وجنتا الصنم كذبتا كذباً صراحاً .

— هل اصفرَّ أحمرها وجلاً ؟

— بل اخضرَّا ورعاً.

فقالت اوجستينا ضاحكة : تبّا لك . أتعنين أن شيئاً أخضر نبت فيهما .

— أي وربي . نبت فيهما عذاران ... أ ... جيلان .

— ويك . أعذاران ؟ أشعرٌ نبت فيهما كما يبدو في خد الفتى .

— نعم . إذ لم يتسنَّ له أن يحلق منذ وقع أسيراً الى اليوم . فتأملي أن تري شبحاً في ثوب مرأة أنيق وعلى خديه عذاران وعلى شفته شارب

وجعلت اوجستينا تقلبُ الرق في يديها وقالت :أماهي سابعة اللواتي قبضت الشرطيات عليهن حين مرورهن على جسر ترمودون حين خسوف القمر ؟

— بلى هي . هي

— هل علمت متى عبرت المتنكرة العاشرة على الجسر .

— لا . لأن ذلك المتنكر لم يبت في الفندق إلاّ أمس . وقد جاء اليه متأخراً ولم يخرج منه الى أن اعتُقِلَ

— آتيني بهـذا المعتقل العاشر أولاً . وحافظي على السابع جيداً ريثما انتهي من التحقيق مع ذاك أولاً .

وبعد أن خرجت اودينا جعلت سيدة القضاء تخاطب نفسها :

حقّاً . لم يكن نطق الهيكل عبثاً . سنرى أي الدواهي في صدرَي هذين الرجلين المتنكرين . هل لهما غرض واحد أم انهما لا يلتقيان عند غرض واحد

وفي الحال دخلت أودينا تقود رجلاً متنكراً بثوب امرأة وفي يديه غلٌّ (سلسلة حديدية) متصل بطوق في عنقه وعلى وجهه لثام تبدو من خلاله عينان حادتان . لأن السجن في نفس الجدار .

ثم أشارت أوجستينا الى أودينا أن تخرج . ورفعت أوجستينا اللثام عن وجهه فبدا لها رجل في آخر سن الشباب دميم الوجه ذو أنف أشم . وجلست وهو بقي واقفاً أمامها وسألت كيف دخلت الى البلد من غير أن تشتبه بك امرأة أمازونية أو شرطية الحدود لكي تصدك عن الدخول .

فقال بأنفة وكبرياء : دخلت مستتراً بغلس الليل الماضي .

— أين كنت في نهار أمس .

— كنت ماراً في الحدود

— كيف جرؤت وأنت تعرف أن قانون الامازونيات يحرّم دخول الرجال الى بنطس تحت طائلة القصاص .

خاطرت مضطراً لأمر ليس فيه مساس بقانون البلاد .
فقالت بنرق : ما هو ؟

— لي حبيبة جاريجارية يأباها عليّ أهلها . وقد اضطهدوها لأجلي . فلجأت الى عاصمة بنطس وجئت أبحث عنها لكي نتفاوض بتدبير موافق لكلينا .

— وي وي . لقد أصبحت بنطس ملجأ العشاق . . . ما اسمك يا هذا وما اسم حبيبتك ؟

— مولاتي أرجو أن تعفيني من هذا السؤال . العادة عندكنّ أن الهاربات اليكنّ بسبب غير مشين يلجأنَ الى الهيكل . وكنت مزمعاً أن أقصد اليه لكي أسأل عن حبيبتي هناك، فاعتقلت قبل أن يأتي الليل . فأرجو أن تسمحي بارسالي الى الهيكل وهناك يثبت صدق دعواي

— لا أجيب طلبك الاّ إذا اعترفت بهويتك وهوية حبيبتك .

— مولاتي اعتقد أن قضاء الأمازونيات الجليل الشريف يسمح لي بكتمان هويتي وهوية حبيبتي حرصاً على كرامتنا . وأظن ان ابلاغك امري الى قداسة كاهنة الهيكل الجليلة يريحك ويريحني من عناء التحقيق .

وهنا نادت اوجستينا اودينا وقالت لها ردي هذا المعتقل الى كنـه ثم تعالي .

وخرجت اودينا بالمعتقل وشرعت أوجستينا تكتب على رقٍّ صغير :

« الى سيدتي الورعة المبجلة رئيسة الكاهنات في دار القضاء

« عندي رجل جاريجاري متنكر معتقل يزعم أن له حبيبة لاجئة الى الهيكل فراراً من اضطهاد أهلها لأجله . ويأبى أن يبوح باسميهما . فاذا كانت عندك هذه الفتاة فأرجو أن ترسليها مخفورة الى دار القضاء لأجل التحقيق في دعوى هذا المعتقل »

اوجستينا
سيدة القضاء

ثمّ لفت الرق وربطته بشريط أحمر . ولما عادت أودينا قالت : أرسلي هذه الرسالة الى الهيكل . ثمّ آتيني بذات العذار، لأنه يلوح لي أن هذا المتنكر الآخر الذي كان في الفندق ليس القمر الساطع الذي مرّ على الجسر حين اكمداد القمر .

— حتى ولا نيزك هابط يا سيدتي .

— أجل أظن أن ذات العذار هي بيت القصيد .

— نعم هي بيت القصيد الذي يصعب تفسيره .

— هل حاولت استنطاقها ؟

— لم أستنطق منهـا إلاَّ لفظة « لا » فهي مغرمة بهذين الحرفين كأن اللغة كلها مجتمعة فيهما .

فقالت أوجستينا ضاحكة : أوه . كثيراً ما تجتمع اللغة كلها في حرفين .

— أفي حرفين بلا معنى كحرفي « لا »

— لا بل كحرفي حاء وباء ففيهما كل معاني الوجود

— اي وربي . فيهما كل لاهوت كيوبيد وفلسفته . ليتك تشرحينهما يا سيدتي

— آتيني بذات العذار لعلي أتوفق إلى شرحهما .

— ٢ —

وما هي إلا دقائق حتى عادت أودينا بفتىً بثوب امرأة أمازونيـة مغلولة اليدين والسلسلة متصلة بطوق في عنقها،وعلى ظهرها جعبة سهام وعلى كتفها الأيسر قوس معلقة للدلالة على إنها كانت في الصيد . فقالت أوجستينا دعيني يا أودينا استوحي الفلســفة من التي أشرت إلى مصدرها

فخرجت أودينا . وكانت أوجستينا تتفرّس في المتنكرة المعتقلة جيداً معجبة بجمالها . ثمَّ أشارت إلى مقعد لدى المنضدة وقالت آمرةً : — جلوساً

فقعدت المتنكرة. واستأنفت أوجستينا التحقيق: أتأسف ياذات العذار إن دار الإعتقال خلو من موسى تحلق بها عارضيك. ولكنك لو أنبأتني منذ أول ساعة أنك اعتدت الحلاقة كل صباح وكل مساء لاختلقت لك موسى من أعماق الخفاء . فعذراً. اين الموسى التي كنت تحلق بها عارضيك فآتي بها إليك .

فتبرّم الفتى ولم يجب بكلمة

— عذرت اقلالك من الكلام أمس إذ كانت رئيسة الشرطة تحقق معك لأن الحياء من طبع النساء الجاريات مجاريات المتحصنات . ولكن الإقلال من الكلام الآن إنمـا هو جبن لا يليق بالرجال الجاري مجاريين الذين تربطنا بهم أوثق صلة : صلة الدم . فمعظمهم آباؤنا واخوتنا وأولادنا . هل تريد أن تنكر شهادة هذا العذار اليانع ؟ (قالته بابتسامة)

— لا أنكره

— حسناً . ولماذا كنت تحصده كل يوم وهو نصف حسن الفتى الجميل ..

- لأنه مستنكرٌ في بنطس

— ومن هي المرأة التي لم تستنكر وجودك معها بدونه

— لا أعرف امرأة أمازونية لا تستنكر وجود رجل معها في بنطس

فقالت باسمةً ابتسامة شعاعية : أما كنت تأوي إلى منزل امرأة حسناء ؟

— لا

— أين كنت تبيت ؟

— في السجن

— وقبل السجن

— كنت في الحدود

فقالت سيدة القضاء أوجستينا متدللة مبالغة في الابتسام : من هي المرأة السعيدة التي كانت تتوقع قدومك إليها ؟

— لا أدري

— إلى أين كنت تقصد إذن ؟

— إلى أي فندق في هذه العاصمة .

— لماذا قدمت ؟

— لأجل النزهة . ولمفاخرة رفاقي في مشاهدة عاصمة مملكة النساء التي لم يدخلها رجل

- هل كنت تجهل القانون الأمازوني الذي يحرّم على الرجال الدخول الى مملكة النساء وعقاب مخالفته ؟

— كنت أعلمهما ولهذا تنكرت

— أما حسبت حساب الافتضاح وهذا المصير الذي انتهيت إليه ؟

— ان طيش الشباب يخطىء الحساب يا سيدتي

وكانت تحملق في عينيه باشة الى أن قالت : لا يطل من هاتين المقلتين إلاّ سحر بابل . أمن أصل بابلي أصل سلالتك ؟

— ربما

- لا أرى في هذه النظرات الخالبات طيشاً : بل أرى ذكاءً يضارع البهاء الذي يشع من هذا المحيّا الوضّاح . فلست أقتنع أنك غبي لا تحسب حساب وقوعك تحت الشبهة . أعتقد أنك لم تقدم على هذه المجازفة إلا اعتماداً على قوّة تنقذك . فما هي ؟

فقال الفتى متبسماً : ما هي إلاّ رحمة القضاء بي

— لقد صحت فراستي. لم تطمع برحمة القضاء بك إلاّ اعتماداً على شفاعة قوية بك . فما هي ؟
— ما هي إلاّ شفاعة القضاء نفسه
— يلوح لي أنك عظيم الأمل بتسامح القضاء . ففي مقابل أية محمدة تمنّي نفسك بعطف القضاء ورحمته .
— التسامح يا مولاتي في مقابل محمدة لا يُعدُّ رحمةً بل هو جزاء للمحمدة . لأن المحمدة ثمن له . فأنا آمل برحمة القضاء لأني شاعر بأنه مفعم « رحمةً وعطفاً بلا ثمن »
فقالت أوجستينا متهللة كأنها أصابت غرضاً في نفسها ؟ ولكن قانون الامازونيات صارم (مشيرة الى رق القانون الذي في يدها وناشرة منه بعضه) .
— القانون كتابة بكماء في رقعة صماء . والقضاء ينشره ويطويه كما يشاء
حينئذٍ شعرت أوجستينا بفيض الشعر في مخيلتها وقالت متغزلة : يخيل لي أنك توكّل هذه النظرات الساحرة بأن تشل اليد التي تنشر القانون . ثم لفت الرق كما كان وردّته الى موضعه إذ كان الفتى يجيب باسماً : إذن لم يخب أملي برحمة القضاء .
— هل كانت تلك المرأة المسبية بهذه اللواحظ تطمع برحمة القضاء بك .
— عسى أن تعثري على امرأة كهذه فتسألينها
— ما خاب ظني في سحر هاتين المقلتين الفاتنين . سحر يشق الطريق الى الدهاء . سؤال آخر . هل تتفضل بالاجابة ؟
— أشكر لسيدة القضاء الموقرة لباقة تحقيقها التي فرشت طريق الاجابة بزهور العطف واللطف ، وأطلقت لساني من قيد الاعتصام بالصمت كلما أنذر السؤال بخطر الوقوع في الفخ . فتتفضلي بالسؤال :
— هل تتوقع أن الحسناء التي كانت تتوقع نعيم اللقاء بك تقبل الرحمة بك من يد القضاء ؟ (تشير بيدها)
— جواب هذا السؤال يا سيدتي في فم المستقبل.
فقالت أوجستينا متململة : ما أسعد حظ تلك المعشوقة العاشقة التي يختم حبك لها باب أسرارها بختم لا يستطيع أحد فكه . ترى هل هي جديرة بهذا الاخلاص
أشكر حسن عقيدتك بأسيرك يا مولاتي . هل عندكِ دليل على وجود عاشقة لي معشوقة؟
فتنهدت أوجستينا وقالت متحسرة : أعرف عاشقة لك : لا أدري إن كانت معشوقة لك (تعني نفسها)
فقال الفتى مختلجاً : ما أتعس المعشوق الذي يجهل السعادة التي هو فيها .

فردّت اوجستينا : وأتعس منه العاشقة التي غمضت عينا عشيقها عن ملامح غرامها .

— تبًّا لهذا العشيق . أأعمى هو ؟

فوقفت أوجستينا متئدة، فوقف هو أيضاً وقالت : سلمت عيناه . بربك أتعلم كيف يفهم فرخ الحمام شوق قرينته الحمامة له ؟

فأجاب الفتى متردداً : أظن انه متى هدر لها أحسّ قلبه ينبض نبضاً قويًّا كنبض قلبها أعني أن القلبين يتخافقان .

— اذا كنت أنت لا تحس هذا الاحساس فبربك هات يدك لعلك تحسه .

وأمسكت بيده ووضعتها على أيسر صدرها . وهو استردّها بكل لطف ففهمت هي من استردادها اباءته ثم قالت :

ما أشقى الحمامة التي لم ينبض قلب الفرخ مع نبض قلبها . آه لقد كانت حياتك في يديّ فأصبحت وحياة قلبي في يديك أيها الفاتن الفاتر . امنحني نظرة حب وبسمة غرام وفي ليل ونهار تكون مطلقاً الى الحدود .

ثم قبضت على كفه كأنها تريد ضمه الى صدرها وقالت إن القضاء مرنٌ في يدي . أصدر حكمي باطلاق سراحك بدعوى أنك فتى طائش لم تقدّر العواقب حق قدرها . ولم يثبت عليك سوء قصد . فهل تسمح الآن ....

وهمت به، ولكن اودينا باغتتها قبل أن تنال مأرباً منه وقالت : بلاغ رسمي يا مولاتي

فارتدّت اوجستينا مبغوتة وقالت : أدخلي هذه المتهمة الى الحجرة السرية وأوصدي الباب دونها . واستدعي ناقلة البلاغ

ففعلت أودينا كما أمرتها سيدة القضاء ثم أومأت لها هذه أن تخرج من حيث أتت .

— ٣ —

ما هي إلاّ دقائق معدودة حتى دخلت جورجيا رئيسة وصيفات الملكة وانحنت باحترام كلي لسيدة القضاء وقالت : السلام على سعادة وزيرة القضاء .

— سلاماً . وسمعاً وطاعة للبلاغ الملكي الشريف

فقالت جورجيا بوضوح وصراحة : بلسان جلالتها أسأل : ماذا بدا من الشبهات في أمر المعتقلات .

— ظهر بينهنّ رجل متنكر ليس في العير ولا في النفير . ما هو إلاّ جحش لا يعرف كيف « يبرطع » . ثم ظهر آخر متنكراً . وهو فتى قلبه طامور أسرار ، وأنا مجدة في استخراج أسراره .

— وي . وي . وي. فتىً متنكرٌ ؟ هذا ما كنا نتوقعه . بأي زي .

— بزي صيادة

فقالت جورجيا مازحةً : أغزالةً كان ذلك التعس يطارد ؟

فقالت اوجستينا تعقب على مزاح جورجيا بمزاح فظيع : لعله كان يطارد أفعى .

— أأحمق هو حتى يطارد أفعى الى قلب بنطس ؟ لا بدّ انه كان يطارد حمامة كانت تستدرجه الى أن وقع في الفخ

— الى الآن لم يبدو منه أن له صلة بحمامة ولا بغزالة . يزعم أنه جاء للتفرج والنزهة

— أجاء هذا الشقي لكي « يتفرَّج » على حمامته كيف يحزُّ عنقها وينتف ريشها

— ينكر أية صلة له بأنثى

— اتبلغ منك السذاجة يا سيدتي الوزيرة إلى حد أن تصدقي زعمه بعد أن قضيت عمراً في خدمة القضاء ؟ أرجو عدم المؤاخذة على هذه الجسارة مني

— خمسة عشر عاماً لم أر في خلالها أحداً طائشاً طيش هذا الفتى الأحمق .

— بلسان جلالة الملكة أقول : يجب أن تتحققي الى أن تكتشفي المرأة التي له صلة بها.

— قد يكون الفتى صادقاً فيما يقول . وليست له صلة بامرأة

— يجب أن تخلقي له صلة بامرأة لكي تتم نبوءة الهيكل بجريمة ، ولكي يتم العقاب ويرتفع ويل الهيكل عن البلاد .

— إن كان لا بد من ذلك ففي طوقي أن أجعل دار القضاء دار تمثيل جرائم ومنصة لتنفيذ الاحكام بالاعدام أيضاً لكي يرضى الهيكل .

— لماذا تكلفين نفسك كل هذا العناء . كلفيها نصفه فقط . ففي قبضة يدك الآن أحد المجرمين فاختلقي له شريكة بالجريمة وأقضي عليهما .

— حتى ولو كانا بريئين ؟

— ان كان هذا بريئاً فاعدامه لا يسوء أحداً . ولا العالم ينقص فرداً واحداً قبل ميعاد نقصه. وفي كل دقيقة يأتي للعالم بدل ما ينقص منه .

— ولكن عدل القضاء غير عدلك .

— دعي هذا العدل.ففي بلاط الأحكام يتلوّن العدل . السلام عليك .

ثم خرجت جورجيا مرحةً . وما إن خف وقع أقدامها حتى استدعت أوجستينا أودينا رئيسة الأمن .

— ٥ —

— ٤ —

ودخلت أودينا فبادرتها أوجستينا : أما سأل أحد عن المتهمة السابعة ؟

فأجابت أودينا ضاحكة : أذات العذار تعنين ؟ من تجسر أن تسأل عنها وتعرض نفسها للشبهة . ماذا اكتشفتِ من أسرار وفيها الحاء والباء المحتويان على الوجود المطلق .

فقالت أوجستينا . إني اكتشفت في صدرها أبا هول مصريًّا ، وفي عينيها سحراً بابليًّا ، وفي ثغرها شعراً هوميروسيًّا يونانيًّا . وفي قلبها حكمة سليمان العبراني . وفي نفسها شمم بلقيس بلميرا . وفي رأسها ذكاء أوقتافيوس الروماني .

— لله درها . إذن هي مجموعة أمم .

— أجل مجموعة الأمم وقعت في قبضة القضاء اليوم . آتيني بها من الحجرة السرية التي أودعتها فيها .

وفيما أودينا عائدة من الحجرة السرية بالفتى قالت : أشعر باختلاج في قلبي يا سيدة القضاء . أمن سحر بابل هذا يا ترى .

فقالت أوجستينا : لا تنسي أن تقفلي الباب وراءك . ثم أشارت للفتى أن يقعد فقعد وقالت : من العبث التساآل عن هويتك يا هذا ، لأنه لا ينتظر من متهم أن يصدق في جواب فقال : إني في إعجاب عظيم يا سيدتي بفهمك الحقائق من غير سؤال .

— أتظنني فاهمة الحقيقة منك تمام الفهم ؟

— لا أدري ما هي الحقيقة التي فهمتها عني يا مولاتي .

— أعني انك من الطبقة التي تمتطي الجياد وتحمل النجاد وتصارع الآساد وتنازل الأبطال وتبارز الأقيال .

لقد سبقتِ فقررت يا سيدتي أنك لا تنتظرين مني جواباً جازماً بهذا الشأن فأخاف أن أجيب جواباً جازماً فتنخدعين بصدقي .

— يقيناً لا يهمني من أنت ما دام القانون عندنا لا يميز بين الأشخاص . حسبي أن المتهم أمامي بشخصه جسداً وحياةً وعقلاً وروحاً . أجبني على سؤال واحد فقط بلا مراوغة ولا مواربة لأن الأمر باستنطاقك جازمٌ ، من هي المرأة التي تتصل بها ؟

— تضطرينني يا سيدتي أن أعود الى صمتي السابق بعد أن أطلقت لباقتك العنان للساني واستوفى تحقيقك حقوقه .

— أجل ، لا أرجع بوعدي لك أن أفسّر ذنبك بالطيش والتهوّر لتبرئتك . ولكن

انجاز هذا الوعد لا يمنعني من الاستقصاء عن المرأة التي لك صلة بها . فإذا لم تبح باسمها وهويتها فلا بدّ من انزال العقاب الشديد بك . وهذا ما أريد أن أتداركه ولو بتضحية مني

— شكراً لعطفك الذي لا يقدر بثمن . إذن اختصري الطريق وأحكمي بالعقاب الآن ولا مقتضى لانزعاج كلينا بالتحقيق العقيم .

ووقفت وأمسكت بإذنه وقالت : لله منك عنيداً مكابراً . حاولت انقاذك فعاونت القدر على معاكستي .

وطوّقت خصره بذراعها وهمّت أن تضمه الى صدرها ، وإذا بأودينا تفاجئها قبل أن تفعل ، فانتفضت الى الوراء بهزّة كأن تياراً كهربائيًّا نفضها، وكأن تياراً عصبيًّا كاسح وجهها وصفّره وقالت : ماذا عمى يا أودينا ؟

— ٥ —

— بلاغ رسمي يا ذات القضاء والدينونة والصفح والمغفرة .

فقالت أوجستينا وهي تبتغي أن تختلق عذراً لسبب وقوفها الى جنب الفتى . وأمسكت بيده وقالت : أدخلي ذات العذار الى حجرة السرّ هذه .

وبعد أن نفذت هذا الأمر قالت لها: أدخلي جورجيا ناقلة الأمر الملكي .

فدخلت جورجيا وحيت التحية الرسمية . فقالت أوجستينا : أمر جلالتها ؟

— هل اعترف الفتى بشيء .

— حاولت أن أجرّعه مقيّئاً عسى أن يتقيّأ اعترافه الصادق، فلم أنجح ولا أظنني أنجح

— تهديده بالحكم بالموت . وإن أصرّ على الكتمان فأصدري الحكم واسمعيه نصه . وان بقي مصرًّا فارسلي نص الحكم الى جلالتها .

— سمعاً وطاعةً .

ثم خرجت جورجيا وبقيت أوجستينا تكتب الحكم الى أن دخلت أودينا فأمرتها أن تأتي بذات العذار .

فقالت أودينا : أفٍّ من عذارها . لقد أزعجنا كثيراً يا سيدتي، ليتك تأمرين بحصده فقالت أوجستينا مازحةً . وإذا خلقنـاه فماذا يبقى من فلسفة كيوبيد التي تودين درسها يا غبيّة .

دخلت أودينا الى الحجرة السرية ثمّ عادت بالفتى قائلة ، يكاد هذا العذار يصبح مرجة زمردية اللون .

وخرجت أودينا بإشارة من ذات المعالي الوزيرة ، وهذه تلقت الفتى بابتسامة مشرقة وقالت : لم يبقَ في قوس الصبر منزع يا عزيزي المتهم . ولم يعد في وسعي احتضانك . كلما أطال القضاء الأجل قصَّره القــدر . ولا حيلة في القدر الإلــهي إلاَّ حيلة واحدة وهي أن تتقيأ اسم شريكتك في عبادة كيوبيد المحرمة في بنطس، لكي تشفى من دائك المميت . فما قولك .

— لا يموت الإنسان يا سيدتي مرتين . وأما في هذا التحقيق العقيم فقد مت ثلاثاً، ولتكن الرابعة خاتمة الموتات

فقالت أوجستينا بائسة عابسة : إذاً اسمع

وقرأت :« حكمت دار القضاء الأمازوني على المعتقلة السابعة من معتقلات الرابع عشر من هــذا الشهر التاسع اللواتي اعتقلنَ على جسر نهر ترمدون ، لأنه ظهر أنها فتىً متنكر بزي أمازونية، ولم يقرّ عن شريكته بجريمة عبادة كيوبيد المحرمة في بنطس . حكمت عليه دار القضــاء بالموت برمي السهام في قلبه إلى أن ينضب دمه . ولا يقيه من هــذا الحكم إلاّ اقراره عن شريكته قبل التنفيذ . »

ثمَّ استدعت أودينا وأمرتها أن تدخل الفتى الى كنّــه في الغرفة اليسرى . ففعلت أودينا كما أمرت . ثم لفت أوجستينا رقّ الحــكم وختمته . وقالت لأودينا : ارسلي هذه الوثيقة الى القصر حالاً . لم يبقَ لهذا المنكود الحظ إلاّ أن يستهدف قلب الملــكة لسهامه عسى أن تنفتق لها حيلة لانقاذه

— ٦ —

بعد قليل جاءت أودينا إلى سيدة القضاء تبلغها أن رئيسة الحكومة أمازونيا جاءت لمقابلة أوجستينا . فوقفت أوجستينا تقول :على الرحب والسعة بالرئيسة الموقرة :

ودخلت أمازونيا وحيت فأخلت لها أوجستينا كرسيّ الرئاسة، ولمــا استقرّت قالت : بلغ إليَّ أن الذي وقع في الفخ رشأ الى جانبي أنفه جعبتان للسهام ».

وختمت كلامها بضحكة وزارية .

فأجابت أوجستينا أيضاً بضحكة قضائية . أجل جعبتان لا تفرغان من السهام . كلما راش سهماً منها بدا آخر

— أود أن أستهدف واحداً منها

فنادت أودينا وقالت الينا بذي العذار

فقالت أودينا : أف. وغداً بذي الشاربين وبعد غدٍ باللحية

فقالت أمازونيا : يقال إنه ابن كيوبيد . وقد جاء ليثير فتنة في بنطس لقلب الحكومة الأمازونية .

فقالت أوجستينا : وفي وسعه أن يشعل بنطس بنار الجحيم

ثمّ عادت أودينا تصطحب الفتى . فرفعت أمازونيا نظرها فيه ثمّ قالت : حاشا لله ما هذا بشر ، إن هـذا إلاَّ كيوبيد بعينيه . وقالت يقولون أنك ابن كيوبيد ، أحقيقي ، أنت كيوبيد بعينه ؟

فقال مبتسماً : إن لم أكن كيوبيد أو ابنه فإني من سلالته

— ويقال أنك جئت لـكي تثير فتنةً في بنطس . أحقيقي هذا القول أم افتراء ؟

— على سيادتك التحقيق

والتفتت أمازونيا الى أوجستينا وسألت : بماذا اعترف هـذا الساحر العاثر الحظ ؟ سمعاً يا هذا . نحن هنا نجحد السحر والشعر أيضاً .

فقالت أوجستينا : عبث استخراج الدر من بحر بلا قرار

وسألت أمازونيا : من هي المفتونة الخائبة الأمل التي تشاطرك الجريمة يا هذا ؟

— أية جريمة ياسيدتي الجليلة ؟

— جريمة الحب العظمى

— الحب يا سيدتي فضيلة للانسان حتى للحيوان، فكيف تصمينه بوصمة الاجرام

— هو جريمة في بنطس . وجريمة مقدسة في غيرها . وعقابه عندنا شديد ، أعيذك منه

— لماذا الحب جريمة في بنطس دون غيرها

— لأنه خطر على استقلال المرأة . ألا تعلم هـذا من تاريخ الأمازونيات . أما علمت أنهنّ لم يتحرّرن من العبودية للرجل إلاَّ بجحدهنّ الاله كيوبيد وصد سهامه . أوَلا ترى انه حيث يبـاح الحب تكون المرأة أمةً للرجل الجائر ؟

— لا يا سيدتي حيث يباح الحب تكون المرأة محبوبة والمحبوب معزور . وأما حيث تكون المرأة أمة للرجل فلان الحب قتيل وكيوبيد دفين

— ألا ترى أننا نحن الأمازونيات مستقلات لأننا نكفر بكيوبد اله الغرام ؟ آه يا للغرام كم أشقى قلوباً .

فقال الفتى محتجّاً : أأنتنّ مستقلات ؟ لا وربي . ما أنتنّ إلاَّ « عبدات » رفيقات اسيرات لهيكلكنّ، منسحقات تحت أقدام كهنوته . استنّ ممتوقات كما تظننّ ولا حرّات

كما تعتقدنَ، ولا تفهمنَ معنى الحرية .

— ما هي الحرية التي تتبجح بها ؟

— هي تلبية نداء الطبيعة بلا كبت ولا قمع . الطبيعة تعزف ونحن نغني . نحن نحب والطبيعة تضحك لنا . نحن ننظم الشعر والطبيعة توحي لنا الخيال الجميل . نلحن والطبيعة قيثارتنا . ماذا عندكنَّ ، من هذه المطربات المعجبات يا من تدَّعين الحرية والاستقلال ؟ عندكنَّ أوتار بلا أنغام وأشعار بلا ألحان، ووقع بلا رقص، وسماء بلا شموس ولا أقمار . ما أنتنَّ حرَّات حتى ولا رقيقات بل أنتنَّ رمم أموات، وأصنام بلا حياة . أنتنَّ بنات الطبيعة وقد خرجتنَّ على الطبيعة . مهما تمردتنَّ عليها تبقينَ فيها تحت سلطانها . فاذا كنت ياسيدتي تعملين لخير الأمة الأمازونية وسعادتها ومجدها فشيدي هيكلاً فخماً لكيوبد في بنطس تحج اليه الأمازونيات مع قرابينهنَّ جهاراً، حيث تحل عليهنَّ نعمة الحب السعيد.

وكانت أمازونيا وأوجستينا مصغيتين متهللتين كأنهما تسمعان أنشودة الغرام على قيثارة هلاس ، ومحياها يطفحان بشراً . فقالت أمازونيا : وي وي . كأني لم أجيء الى هنا لكي أحقق، بل لكي أسمع كرازة بعقيدة الحب

— أجل يا سيدتي . الحب ينبوع السعادة والسرور . والقلب بلا حب كالغصن اليابس . هو أول الأغصان التي تتحوَّل الى رماد اذا لفحها اللهيب ، وأول ما تنقصف إذا كسحتها الريح . وأما القلب المفعم حبّاً كالغصن الذي تحميه رطوبته من الاحتراق وتنقذه مرونته من الانقصاف، بل هو الغصن الرطيب الذي تكسوه أزاهره في الربيع، وتثقله ثماره في الصيف .

— كفى يا هذا ما نحن في مباراة أشعار . دع هذا الهذيان .

فقاطعها قائلاً : أعلم يا سيدتي أنك لا تحسين ما أقول ، فلو كان الى جنبك زوج وفي حضنك طفل لكنت تفهمين هذا الهذيان . ما أنت إلاَّ الغصن اليابس الذي ينقصف من هبوب ريح هذياني .

— كفى كفى . إذن حقيقي انك ابن كيوبد، وقد جئت لكي تضرم نار فتنة هنا .

— إذا كانت الدعوة الى عبادة كيوبد تسمى فتنة فقد صدق القول اني جئت لكي أطلق النساء الأمازونيات من أسرهنَّ الى ساحة حريتهنَّ، وأرشدهنَّ الى كيفية استعباد الرجل بالحب والاخلاص .

— صه لقد انجلى لنا جرمك بشهادة لسانك . فلا تعفى من العقوبة إلاَّ إذا كنت تبوح باسم شريكتك فيه .

— استنكف جداً أن أشتري العفو بشهادة زور

— على من تعتمد في انقاذك من الحكم الرهيب؟

فقال الفتى باسماً : على سهم من سهام كيوبد الهي

— لا حول لكيوبد ولا طول في بنطس .

فقال — يرمي سهامه من جاريجاريا فتقع في قلب بنطس

ووقفت أمازونيا كأنها غاضبة وقالت باسمة : يا سيدة القضاء ان لهذا الفتى صلة بمكيدة هائلة . فاذا لم يعترف بها لكي يكافأ بالعفو فلا بد أن تحكمي عليه بالموت الأحمر أو الأسود . السلام عليك

فقالت أوجستينا واقفة :لقد صدر الحكم يا مولاتي

وخرجت أمازونيا ظافرة مرحاً ومترنحة أسفاً .

— ٧ —

وما أن خرجت رئيسة الحكومة أمازونيا حتى دخلت أودينا وفي يدها رق وقالت: رسالة من الهيكل يا سيدتي رد لرسالتك

ودفعت الرق لأوجستينا وخرجت توا

وفضت أوجستينا الرق . وقرأت :

« من رئيسة الكاهنات الى حضرة سيدة القضاء .

« عندي في الهيكل خمس لاجئات لأسباب مختلفة . وبعضها مجهولة .يكتمن ذواتهن وليس للهيكل أن يبتزها منهن ابتزازاً . فأرجو أن ترسلي المعتقل الى هنا عسى أن يتعرف على حبيبته ان كانت بينهن » .

وفكرت أوجستينا ملياً،ثم كتبت الرد هذا :

« سيدتي الجليلة رئيسة الكاهنات . حسب ايعازك أرسل اليك المعتقل لكي تتحققي صدق دعواه . ثم أرجو أن ترديه الى دار القضاء بحيث لا يكتشف أمره أحد »

ثم استدعت أودينا وأمرتها أن تأخذ الرسالة مختومة وذلك المعتقل الذي قبض عليه في الفندق الى الهيكل .

وما إن خرجت أودينا حتى دخلت جورجيا رئيسة وصيفات الملكة.فبغتت أوجستينا وقالت : خير ان شاء الله .

— جلالة الملكة قادمة الآن متنكرة لكي تحقق مع الفتى المجرم العنيد الذي صدر

الحكم عليه . يجب أن تخلي دار القضاء من الأنس والجن لكيلا يعلم أحدٌ بوجودها هنا . استحضري الفتى واحبسيه في هذه الحجرة الى أن تدخل جلالتها عليه من غير أن يعرف من هي التي تحقق معه . لعلها تستطيع أن تستخرج سرَّه من أعماق قلبه .

ألقت جورجيا هذه الرسالة وانثنت راجعة من غير أن تسمع كلمة من سيدة القضاء . فاضطربت أوجستينا وانهمكت واستخرجت الفتى بنفسها من الحجرة السرية وقالت : إني بريئة من دمك يا هذا، لقد حاولت انقاذك . ولكن عنادك جنى عليك . بقي لك خيط ضئيل من الرجاء ، ان شئت أن تتشبث به . إني تاركتك الى المحققة الأخيرة قبل تنفيذ الحكم . فعسى أن ترعوي وتربأ بنفسك.

وخرجت وأقفلت الباب وراءها . فجعل الفتى يخاطب نفسه قائلاً : إني أعتصم بغوث إلهي كيوبد من هؤلاء المرائيات اللواتي يعبدنه بقلوبهنَّ ويلعنَّه بشفاههنَّ ، قبل أن يرميني بسهم واحد مُدْمٍ .

— ٨ —

ما هي إلاَّ هنيهة حتى انفتح الباب بغتةً ودخلت الملكة بثوب عاميةٍ ، ثم ارتدَّت مذعورة لما وقعت عيناها على عيني أفريدوس وأجفلت إذ رأت عذاره . وترنَّحت واهية القوى . وأما أفريدوس فبهت واختبل، لأنه لم يكن البتة يظن أن الملكة تأتي الى دار القضاء للتحقيق .

وبعد لأي قالت وهي تتبينه : ويحي . أأنت المعتقل ؟

فقال أفريدوس : بلى أنا هو الذي لم تجد الملكة أفضل وسيلة لنبذه إلاَّ أن تلقمه لأنياب القضاء العاتي .

فحملقت فيه ذاهلةً : ويلي ! وأغلالٌ في يديك وعنقك ؟

وأمسكت السلسلة كأنها تتحقق .

— نعم . هذا هو جزاء اليدين اللتين كانتا تضمان هذا الهيكل الملائكي الى الصدر المتدفق غراماً لكي يرتوي من سعادة الحب الطاهر .

فقالت الملكة متفجعة : وسجن أيضاً في كنٍّ المجرمات ؟

— وهل غير كنٍّ الكلب أليف للعاشق الذي جعل صميم فؤاده سريراً للملكة تتقلب فيه على وثير الحب

فقالت وكأنها لاتفهم ماذا تقول وجالت كالمجنونة : أيمكن أن يكون هذا قضاء الهيكل

— يا للمكر . أتعزين هذه النقمة لقضاءِ الهيكل وأنا ماثل في دار قضائك أستوحي كيوبيد إلهي أن يلهمني أجوبة التمويه التي لا تستفيد منها سيدة القضاء شيئاً يقرب الظن الى الملكة

فقالت وقد لطمت خديها وتركت كفيها عليهما : واحرباه أهو الغدر الغشوم أم غضب الآلهة ؟

— لا هذا ولا ذاك . وانما اتخمت الملكة من وليمة الحب فرأمت أن تغير ألوان الطعام فقذفت بالبقية الباقية من طعام الوليمة الى دار القضاء لكي تحرقها هذه في فرن الاجرام

— صه : كفى تقريعاً لي في إبان أزمتي ويأسي

— وي ! أزمة ؟ : حبيب الملكة العزيز بالأمس أذل المجرمين اليوم . وهو يهيأ ليقدم أضحية على مذبح الانتقام من ملاك الغرام

صمتاً عن هذا العتاب المر . كيف اعتقلت وعهدي بك في قصر الصيد تنتظرني

— اذا كنت غبيًّا صابراً على وعدك لموافاتي الى قصر الصيد فقلبي ليس غبيًّا ولا يطيق صبراً . وإذا كان جسمي طينة حقيرة لا تهمر بالذل فنفسي سماوية لا تحتمل الهوان . وإن كانت سلالتك ملكية فسلالتي الكهنوتية ليست أحط منها . ماكان إقصائي عنك يكلفك سوى إعراضة واحدة فلا تعودين بعدها ترين وجهي إلى أن أقضي بداء غرامي المبرح

— ويك حسبي هذه الكارثة فلماذا تضاعف وقرها على نفسي بهذا التقريع ؟ قل أين اعتقلت ؟

— على جسر نهر ترمودون

— وكان القمر ..... ؟

— في أبان خسوفه .

فترنحت الملكة وهي تقول : ويحي . ويحي . الويل . الويل . . . ما الذي جاء بك الى الجسر وقد أمرتك أن تنتظرني في قصر الصيد

— القلق عليك والشوق إليك

— الشوق فهمته . والقلق لماذا ؟

— لأني فهمت أنك عدلت عن الصيد . نخفت أن يكون قد ألمّ بك حادث سوء

— لم أقل لأحد إني عدلت عن الصيد . فما الذي أقام الشك في ذهنك بوعدي أن أوافيك ؟

— سيدونيا حارسة القصر، وكانت أول من لمحت الى عدولك عن الصيد بدعوى طروء مشاغل سياسية .

فقاطعته الملكة : تبًّا لها . كيف تقول هذا ولم أوعز به لها ولا لأحد ؟

— طبعاً رابني قولها فبرحت مدَّعياً لها إني ماضٍ الى الصيد ومؤكداً لها أني سأعود مساء حتماً . ولكني توجّهت الى جهة العاصمة أتنسَّم أخبار الحقيقة عن قدوم حاشيتك . فما رحلت مرحلةً إلاَّ تسقطت من أنبائك خبر عدولك عن الصيد . وما زلت أتقدم وأتنسَّم هذا الخبر بعينه إلى أن وقعت في الفخ الذي نصبته لي على الجسر حيث اعتقلتني ٤ شرطيات شاهرات الخناجر البرّاقة عليَّ . وجرّدنني من سلاحي وجئن بي الى السجن . فاذا تظنين يخطر لي سبباً لاعتقالي ؟

وكانت الملكة شديدة الاضطراب والحنق وقالت : ولكني أرسلت ملداني بعدك لكي تؤكد لك أني ذاهبة الى قصر الصيد، على قصد أن أتأكّد أنك منتظرني . فعلمت ملداني من ميدونيا إنك متغيب في الصيد فتركت لك معها خبر ازماعي على الذهاب الى القصر وإيعازي بأن تبقى فيه منتظرني . فلو رجعت أدراجك لوجدت أوامري مطمئنتك . فلا أدري كيف تسرعت .

وتفجعت باضطراب شديد وهي تقول . الويل الويل الويل .

وأفريدوس لا يفهم ما معنى هذا الويل لأنه لم يعلم بخبر نبوءة الهيكل ولا رامت الملكة أن تنفره بهذا الخبر . فقال حينئذٍ : أي ويل أعظم من أن أفهم إنك أوعزتِ باعتقالي لأن وعدك الكاذب باللحاق بي لم ينجح في اقصائي .

فصاحت الملكة كالمجنونة : الويل الويل . وافجيعتاه ! لم أقل إني عدلت عن الصيد . فكيف انتشرت هذه الأشاعة الكاذبة ؟ لا ريب إنها من تدابير الإلٓه لكي تتم نبوءة الهيكل ، فواحرباه وانكبتاه .

وما زال أفريدوس لا يفهم سر هذا التفجع والويل فقال :

— ماذا كانت نبوءة الهيكل ؟ لم تخبريني بها .

— يا للهول . كانت عبور رجل على الجسر حين خسوف القمر .

ـ فقهقه أفريدوس وقال : ما هذه نبوءة ، إن هذه إلاَّ مكيدة من كاهنات الهيكل .

— اذا كانت هذه المكيدة قد أتقنت هذا الاتقان الغريب العجيب ، فالكاهنات أعظم من الآلهة . ولذلك يجب أن نخشى غضبهنَّ .

— ان تطيرك بتخريفهنَّ ساعد مكيدتهنَّ . أو ان مكيدتهنَّ أنتجت وهمك الذي

وافق تدجيلهن لو لم توعزي لي أن أسبقكِ الى القصر ما حدث عبوري على الجسر بتاتاً ولتمّ خسوف القمر وانقضى حين لا أزال في قصرك هنا عبد غرامك وأسير بهائك.

— ولكني لم آمرك أن تذهب الى قصر الصيد على الحدود إلاّ لكي أفسد نبوءة الهيكل .

فقال أفريدوس مقهقهاً : – ياله من افساد للنبوءة ! ان قصر نظرك أفسد إفسادك لها

فقالت متنهدة : ـ لا حيلة في تدابير الإله الناقم على غرامنا ، أعني التدابير التي أتمّ بها نبوءة الهيكل . ويلي لقد نفذ المقدور .

— إذا صدقت عقيدتك فقضاء الآلهة لا مردّ له . ليت سيدة القضاء أفهمتني ولو تلميحاً عن نبوءة الهيكل فكنت أرجوها أن تستنزل كل ويلات غضب الاله عليّ لكيلا يقع منها شيء لا على العرش ولا على الأمة .

— ويحك . هذا هو الويل الأعظم الذي أبذل كل شيء لكي اتداركه . آه . لاأدري ماذا أفعل . عدمت الحيلة . ونضب معين الدهاء .

— لماذا هذا التفجع يا سيدتي ، ولم تقع عليك شبهة

لأني لا أستطيع أن أهرّبك من غير أن أثير الشبهة بي .

— لا أهرب ولن أهرب .

ولا أستطيع أن اختلق مبرراً لاطلاق سراحك

— اليس عجباً أن تستطيع سيدة القضاء ما لا تستطيعه الملكة ؟

فأجابت الملكة متغيظة : ماذا تستطيع سيدة القضاء ؟

— تستطيع أن تنتحل المبرّر لإطلاق سراحي . تزعم أن التحقيق لم يسفر إلاّ عن طيش هذا الفتى ورعونته ، لأنه لم يدخل الى بنطس متنكراً إلا لكي يشاهد عاصمة الأمازونيات .

— أأوجستينا قالت هذا القول ؟ . إذن لماذا حكمت عليك ؟

— لأني لم أقبل شروطها .

فقالت الملكة مرتعشة : ماذا كانت شروط تلك الماكرة ؟

— ماذا تكون شروط المرأة التي كان في قبضتها فتىً تداعبه كما تداعب الهرّة الفأرة ؟ أو بالأحرى كما تداعب الغزالة الغزال .

— وي وي أحقيق أن تلك الماكرة كانت تنوي أن تفعل ما تقول :

— لا أدري ان كانت تستطيع التصنّع الى حد أن تحملني على تصديق وعدها .

وكانت الملكة تفكر مليًا ثم قالت : يا لمعاندة القدر. كان القدر كالسيف ذي الحدين يجرح من الجانبين . أنا أبحث بالتشديد في التحقيق لأني لم أكن أعلم أن القدر رماك في يد القضاء . وأنت تردّدتُ على قلب متلهف . فاتفق الأمران على قضاء صارم .

— هل كنت تعذرين مطاوعتي لمساومة أوجستين لو علمت إني أنا الواقع فريسة بين براثن القضاء . وان نجاتي تتوقف على قبولي شروطها ؟ .

فقالت مرتبكة : — نعم ... لا بل . لكن لا بأس . ماذا كان في الأمر لو قبلت ثمّ حنثت ؟

فقال افريدوس مستهجناً : أوه لو كان الحنث شيمتي أفما كان التحقيق الدقيق خطراً عليك ؟ إذ يحتمل أن أخون عهدك أيضاً لكي أنجو من الموت.

— أوه . ويلي . وهذا ما يجعل الموقف الآن أعقد من عقدة الاسكندر. وا نكبتاه ! من لي بسيف الإسكندر لحل العقدة ؟

— الأمر بسيط . لا تهتمي بأمري . دعيني لرحمة القدر

— ويلاه . كيف أؤمّن للقدر وقد بدرت بادرته الهائلة . الحكم بالإعدام . لا أستطيع تصوره

— اعتبري علاقتنا الماضية حلماً قصيراً وانقضى

— كيف ينقضي وهو مطبوع في مخيلتي ولا يمكن الزمان أن ينسخه ؟

احسبي حساب الموت مقدّراً لكل إنسان ! واتركيني لنقمة القضاء قبل أن تثار الظنون .

فقالت مضطربة : مستحيل أن أسلمك لنقمة القضاء

— لم يبقَ إلاّ هذا السبيل لإنقاذ حياتك وعرشك .

وما الجدوى من الحياة بلا حب . وما لذة العرش بلا حبيب . وا لوعتاه . لا أسلمك للقضاء ولا لنقمة الهيكل إلاّ وأنا معك أتلقى هذه النقمة الهائلة بصدري لكيلا أراها منقضّة عليك . آه دعني أعزي النفس في إبان يأسها .

ثمّ طوّقت عنقه بساعديها وقالت . سأستكد قريحتي لاختراع وسيلة للفرج .

ثمّ فتحت الباب واستدعت أوجستينا وقالت :ردي هذا المعتقل إلى كنه وعودي إليّ

فانحنت أوجستينا وقادت المعتقل الى الحجرة السرية حيث كان حبيسك ولما عادت قالت الملكة يلوح لي أن لهذا الفتى سرّاً عميقاً . ولا بدّ من استخراج سره من صدره لذلك يؤجّل إعدامه لئلاً يدفن سرّه معه . انتظري مني أمراً باستدعائه إلى قصري عسى

أن أوفق الى حيلة لاستقصاء سره

— الأمر أمرك يا مولاتي . توفقنا الى القبض على أسير آخر يا مولاتي .

— أسير آخر؟ ما ذا علمت من أمره ؟

— ادّعى أن حبيبته فرّت من اضطهاد أهلها لأجله ولجأت إلى الهيكل . فخاطبت رئيسة الكاهنات بشأنه عسى أن تكون دعواه صادقة . فطلبته الرئيسة الى الهيكل لكي تعرضه على اللاجئات .

فبدا على الملكة بشرٌ وقالت : من يدري ؟ ألا يحتمل أن يكون هذا هو المقصود بنبوءة الهيكل . أود أن تشدّدي النكير في التحقيق معه ولا تثقي بدعواه هذه . فما هي إلاّ للتمويه .

وخرجت الملكة . وما لبثت أن طلبت ذات العذار إلى قصرها فأرسلته أوجستينا مخفوراً وهي تقول له : جرّب سهامك حيث أنت ماضٍ

الفصل الرابع

ننتقل الآن الى الهيكل حيث نشاهد ألاعيب رئيسة الكاهنات في هذه الحوادث التي أحدثتها نبوءة الهيكل . وهناك نرى الرئيسة واقفة لدى المذبح تتمتم . وإذ دخلت عليها ملفينا كاتبة سرها . ودفعت إليها رسالة قائلة : هذه الرسالة كانت مع شرطيتين تحرسان معتقلة مغلولة .

فضت الرئيسة الرسالة التي أرسلتها إليها سيدة القضاء أوجستينا مع المعتقل الآخر كما علم القارىء . ثمّ قالت لملفينا : أدخلي المعتقلة إلى هنا .

فأدخلتها ملفينا وأمرتها الرئيسة أن تنتظر مع الشرطيتين أوامرها . ثمّ رفعت اللثام عن وجه الأسيرة . وارتدت إلى الوراء مبغوتة متجهمة . إذ رأت وجه الرجل المتنكر المعتقل وقالت . من ؟ الكاهن جيهول ؟ . ويحك ! معتقل ؟ لماذا ؟ وأين ومتى !

— في فندق التاجرات في هذا المساء .

— لماذا عدت إلى الفندق ؟

— لكي أتأكد اعتقال القمر الساطع

— أما تأكدت ارتداده قبيل الخسوف ؟

كنت أحتال لحمله على الارتداد الى أن اقترب الى الجسر

البدوي الملثم

ديك الجن الحمصي

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر
١٩٤٨

« ربنا آتنا من لدنك رحمةً ، وهيء لنا من أمرنا رشدا »

« سورة الكهف »

رشحات قلم

١ — عكفت فيما مضى على دراسة شعراء — الهيمة — ومبلغ أثرهم السياسي في الأدب العربي ، فأفضت بي تلك الدراسة إلى الاعجاب بشاعر شيعي شامي هو عبد السلام بن رغبان الملقب بـ « ديك الجن الحمصي » الذي رَفعَ عَلَمَ التشيع خفاقاً ... وانبرى يتغنى بمآثر آل البيت وأمجادهم ، ويُنشد البسيط الاسلامي من روائع شعره ما عزّز الشيعة وأنصارهم .

٢ — وكأني بالشاعر البائس المُشرد (جميل دياب) البيروتي الأصل و (التائه) اليوم في بوادي شرقي الأردن لسان من ألسنة آل البيت وسيف من سيوفهم المسلولة ، يلتقي ، رغم فارق الزمن ، مع (ديك الجن الحمصي) في صعيد واحد عند ما هتف صباح يوم في مدينة (الكرك) القائمة على سيف البادية والجاثمة في قلب الصحراء ، بقصيدة مطلعها .

قد علمتنا الحادثات بكرّها حُقُباً ولم تبرح على الأزمان

لا تُسلم العرب الأباةُ زمامها إلاّ لهذا الحيّ من عدنان

٣ — وفي هذه الفصول ستطالع صفحة أدب ذات طابع سياسي وأخرى صفحة غرام خطّها ديك الجن بالدمع الهتون عند ما استلّ خنجره من وسطه وأهوى به على غادة أحبّها إلى درجة العبادة والتقديس ، ثم ما لبث ان ماوّحت به نزغات الشر إلى التجنّي على عروس أحلامه مما ستراه جملةً وتفصيلاً في هذا البحث تناولت فيه شاعراً أقام على حب آل البيت وأنفد في نصرتهم صوراً ترتلها الأيام وتُنغّمها الليالي على كر العصور وحبّاً متناهياً أحبّ ... وقتل ... وندم ... ثم مات ... !

(بيت المقدس) « البيروني الملثم »

ديك الجن الحمصي

١٦١ — ٢٣٥ هـ و ٧٧٧ — ٨٥٠ م

تمهيد

يحسب مؤرخو الأدب العربي — القرن الثالث — من أزهى عصور العربية إذ نبغ في هذا القرن أربعة من شعراء الشام هم : (العتابي) و (أبو تمام) و (ديك الجن الحمصي) و (البحتري) الذين أتحفوا العربية فرائد شعرية وعطروها بنفحات مجنّحة ذات روعة وشذى ، تمتاز عن غيرها من المعلقات والخرائد التي هتف بها شعراء الجاهلية والاسلام ، فنزع هذا الرعيل الموهوب بالشعر العربي منزعاً بعيداً عن الوقوف على المنازل والاطلال .

« قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل　　بسقط اللوى بين الدخول فحومل »

« وعاش شعراء الشام [1] في قطر إن أعوزتهم به الفصاحةُ ، وفدتهم به الباديةَ ، وإن عانوا بهـا جفاء الاعراب أوَوْا الى حضـارة زاخر بحرها، دَعْ عنك جمال القطر واعتـدال طبيعته » . قال أبو منصور الثعالبي :

« لم يزل شعراء عرب الشام أشعر من شعراء عرب العراق ، وما يجاورها في الجاهليـة والاسلام ، والسبب في تبريز القوم قديماً وحديثاً عن سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولاسيما أهل الحجاز ، وبعـدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم » .

وأبرز طابع يمتاز به شعراء الشام تهذيب شعرهم ، وشاعرهم مهما كان مطبوعاً سريع الخاطر فانه لا يرمي الـكلام على عواهنه ولا يرسله إرسالاً ، بل ينظر في أعقاب قوافيـه

---

(١) (شعراء الشام) لخليل مردم بك صفحة ٥ و ٦

ويعود عليها بالتنقيح « وقد أشار الى ذلك عديّ بن الرقّاع أحد شعراء بني أمية وكان منزله في دمشق وهو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم وقد أنشد يوماً » :

وقصيدة قد بتُّ أجمع بينها حتى أقوّمَ ميلها وسنادها

نظرَ المثقفِ في كعوب قناته حتى يقيم ثقافُه منآدها

وكان يطعن على شعر (كثير) عزّة بقوله :

« هذا شعر حجازي مقرور إذا أصابه قرّ الشام جمدَ وهلك ! »

و « ديك الجن الحمصي » كما ذكر صاحب (الاغاني) : « يذهب مذهب الشاميين في شعره » وفي هذا يقول الثعالبي : كان الصاحب بن عباد يعجب بطريقة الشاميين المثلى التي هي طريقة (البحتري) في الجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة »

وكان أبو بكر الخوارزمي يقول :

« ما فتق قلبي وشحذ فهمي ، وصقل ذهني ، وأرهف حدّ لساني ، وبلغ بي هذا المبلغ إلاّ تلك الطرائف الشامية، واللطائف الحلبية، التي علقت بحفظي وامتزجت بأجزاء جسمي !

***

وبعد هذا الوصف يجدر بنا أن نتساءل : ما مذهب الشاميين في شعرهم ؟ »

« تبلّج فجر(١) القرن الثالث وكان الشعر العربي قد أتمّ طور انتقاله النسبي من البداوة الى الحضارة على يد بشار بن برد وأصحابه . ومن مقتضيات الحضارة التنوق في كل شيء ، فشمل ذلك التنوق الشعر ، ونشأ عنه تتبع البديع . وكان (العتابي) في أوائل القرن الثالث فسلك تلك الطريقة وزاد بها على يد بشار وتلاه « ديك الجن » فأقبلَ على الصنعة التي ظلت سائغة اصدقاه في شعره فانه لم يستجدِ به أحداً بل قصره على النسيب ونصرة آل البيت ورثاء عشيقته وبعض أصدقائه ووصف الخمر ، وفي زمن « ديك الجن » نبغ (أبو تمام) الطائي فشغف بالجزالة وغاص على المعاني البعيدة وانصرف الى الصنعة وغلا فيها حتى عرفت هذه الطريقة بـ « مذهب أبي تمام » ، فهؤلاء الاربعة الذين ظهروا من أوائل القرن الثالث الى أواخره مطبوع كلهم على قول الشعر وان كانوا متفاوتين في ذلك الطبع »

(١) (شعراء الشام) ص ٩ و ١٠

أستاذ أبي تمام

ذكر عبد الله بن محمد بن عبد الملك الزبيدي إنه كان جالساً عند « ديك الجن » فدخل عليه حدث فأنشده شعراً عمله ، فأخرج ديك الجن من تحت مصلاه درجاً كبيراً فيه كثير من شعره فسلمه إليه وقال : « يا فتى تكسب بهذا واستعن به على قولك » فلما خرج سألته عنه فقال : « هذا فتى من أهل جاسم »[1] يذكر إنه من طيء يكنى (أبا تمام) واسمه حبيب بن أوس وفيه أدب وذكاء وله قريحة وطبع » وعمر ديك الجن إلى أن مات أبو تمام ورثاه بقصيدة مطولة تحسب من بارع المراثي . ومنها قوله :

مات حبيب فمات ليث وغاض بحر وباخ نجم
سمت عيون الردى اليه وهي إلى المكرمات تسمو
ما أمك اجتاحت المنايا كل فؤاد عليك أم

ولقد ألفيتُ تعزيزاً لرواية الزبيدي ما ذكره ابن رشيق في (العمدة)[2] حيث يقول : « وقد كان أبو تمام أخذ عن ديك الجن ، شاعر الشام ، أمثلة من شعره يحتذي عليها فسرقها »

مع أبي نواس

لما اجتاز أبو نواس بحمص قاصداً مصر لامتداح الخصيب سمع ديك الجن بوصوله فاستخفى منه خوفاً ان يظهر لأبي نواس إنه قاصر بالنسبة إليه ، فقصده أبو نواس في داره وهو بها فطرق الباب واستأذن بالدخول عليه فقالت الجارية : « ليس هو ههنا ! »

غير ان (أبا نواس) عرف هدفه فقال لها : قولي له أخرج فأنت أشعر الانس والجن وفاتن أهل العراق بقولك :

موردة من كف ظبي كأنما تناولها من خده فأدارها

فلما سمع ديك الجن ذلك خرج إليه واجتمع به وأضافه ، وهذا البيت من جملة أبيات هي :

---

(١) احدى قرى حوران (٢) ج ١ ص ٨٣

بها غير معدول فداو خُمارها   وصل بحبالات الغبوق ابتكارها
ونل من عظيم الورد كل عظيمة   اذا ذكرت خاف الحفيظان نارها
وقم أنت فاحثث كأسها غير صاغر   ولا تسق إلاَّ خمرها وعقارها
فقام تكاد الكأس تحرق كفه   من الشمس أو من وجنتيه استعارها
ظللنا بأيدينا نتعتع روحها   فتأخذ من أقدامنا الراح ثارها

والساعة أود ان أستصحب القارىء النابه الى مطاف هذيّ الفوح ، معطر الجنبات ، لنلقي معاً نظرات عميقة الغور ، بعيدة المدى ، على حياة شاعر خفيف الروح ، مجنح القافية سارت روائعه شرقاً وغرباً ، وتناشد الركب المحبون ، في ادلاجهم وتأويبهم ، قصة غرام .. جمع فيها (كيوبد) بين قلبين أصاخا لهاتف الحب ، فضربا بالتقاليد المحنطة البالية عرض الأفق ، وسارا الى هيكل (كيوبد) يبوحان بحبهما ويعلنانها — حرباً — على نواميس وشرائع اصطلح الناس عليها جهلاً وتزمتاً ، واسترسل العاشقان في ترداد ما جاء على لسان الصوفي الهائم محي الدين بن العربي القائل :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي   اذا لم يكن ديني الى دينه داني
فقد صار قلبي قابلاً كل صورة   فرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لاوثان وكعبة طائف   وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت   ركائبه فالحب ديني وإيماني
لنا أسوة في بشر هند وأختها   وقيس وليلى ثم ميّ (١) وغيلان

(١) مي (مي) ابنة طلابة بن قيس بن عاصم الغساني وكان جدها (قيس) من أجلاء ملوك العرب وأفاضلهم وكانت (مي) عذبة الكلام بليغة، غزالة العينين ، زجاء الحاجبين ، مر عليها غيلان بن معدي الكناني المعروف بذي الرمة وكان غيدانياً مليحاً وشاعراً فصيحاً فأدركه الظمأ فنزل الى سرادق علا عروضه واطنابه واذا بـ (مي) تمشط رأسها وقد أسبلت شعرها وكأنه عثاكيل النخل ووجهها يشف من خلاله فقال غيلان : هل من إداوة تذي الاوام ، وتشفي من السقام ؟ فأسرعت (مي) الى ماء شيب باللبن وسقته ، ثم رحبت به وأنزلته فجلس يأكل مما هيأت وعيونها ترويه من الايام ما خبأت .
فما انصرف آخر النهار إلا وفي قلبه لاعج وأوار كأنهما مارج من نار فعطف يعاودها على طول الشقة وفرط المشقة وينشد :

وكنت اذا ما جئت مياً أزورها   أرى الارض تطوى لي ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ود جليسها   اذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

(راجع كتاب الدر المنثور في طبقات ربات الخدور (لزينب فواز العاملي)

لكنّ بلابل الحب هذه وَجمت عن شدوها وهتافها بعد طرفة عين ، وصوّح روض الغرام وأقفر من القيصوم والخزامى واستحال الى قفر يباب بعد ان كان ملهى لسمّار الليل ... ومرتعاً لرعاة الشاء والمعيز .

* * *

غلب على عبد السلام بن رغبان لقب «ديك الجن »[1] وكان شاعراً مجيداً يذهب في شعره مذهب (أبي تمام) وغيره من الشاميين وأصله من أهل سلمية [2] ومولده في مدينة حمص [3] سنة ١٦١ هـ . وتوفي في خلافة المتوكل سنة ٢٣٥ أو ٢٣٦ . هـ .

وجده الأعلى تميم أول من أسلم من أجداده على يد حبيب بن سلمة الفهري وذلك في

....

(١) زعم (الدميري) نقلا عن الامام العالم زكريا بن محمد (القزويني) في كتابه (عجايب المخلوقات وغرايب الموجودات) ان « ديك الجن » دويبة توجد في البساتين قال عنها بليناس الحكيم : اذا ألقيت في خرقة عتيقة وتركت في محارة ودفنت وسط الدار لايرى فيها شيء من الارضة »

والارضة دويبة كنصف العدسة تأكل الخشب وهي التي يقال لها السرفة .

ولعله لقب بـ « ديك الجن » لكثرة تردده على البساتين ومعاقرته الصهباء في تلك الرياض الغناء وقد اصطلح المستشرقون على تسمية المترجم له « Cook of the Demons »

(٢) (سلمية) بلدة صغيرة قديمة كان لها شأن وذكر في الاسلام ففيها جرت المعركة الحاسمة التي قضت على دولة الامويين وآمال أتباعهم ، ومنها نشأت الدعوة الاسماعيلية في الشام وانتشرت وفيها ولد أول خليفة فاطمي، وهي الآن قرية كبيرة في شرقي حماه الى الجنوب وشرق حمص الى الشمال .

(٣) (حمص) مدينة عرفها (ابن حوقل) في كتابه (المسالك والممالك) بقوله :

مدينة في مستواة خصبة ، صحيحة الهواء والتربة ، في أهلها خيال مفرط (وفي بعض النسخ جمال مفرط) وليس بها عقارب أو حيات واذا دخلت الحية أو العقرب اليها ماتت »

وقال (اليعقوبي) في كتابه (البلدان) : ان سكنى العرب في حمص ومعرفتهم بها قديمة وقد ذكرها امرؤ القيس في قوله :

لقد أنكرتني بعلبك واهلها ولابن جريج كان في حمص انكرا

وذكرها الاعشى الكبير ميمون بن قيس في قوله :

ولقد طفت للمال آفاقه عمان فحمص فاوريشلم
فنجران فالرد من حمير فأني مرام له من إرم

قرية (مؤتة)[1] المعروفة في الفتح العربي الأول وقد أخذ محارباً من المستعربة في جيش هرقل وكان « ديك الجن » من ساكني حمص ولم يبرح نواحي[2] الشام ولا رحل الى العراق منتجعاً بشعره ولا متصدياً لأحد سوى ابن عمه — أبي الطيب — وكان شديد التعصب والعصبية على العرب يقول : ما للعرب [3] علينا فضل ، جمعتنا وإياهم ولادة ابراهيم ، وأسلمنا كما أسلموا ، ومن قتل منهم رجلاً قتل به ، ولم نجد الله فضلهم علينا إذ جمعنا الدين » .

---

(١) قرية تقع الى الجنوب من مدينة الكرك (شرقي الاردن) وقديماً كانت تطبع فيها السيوف واليها تنسب المشرفية من السيوف ، قال ابن السكيت في تفسير (كثير) :

اذا الناس ساقوكم من الامر خطة لها خطة فيها السمام المثمل
أبى الله للشم الانوف كأنهم صوارم يجلوها بـ (مؤتة) صيقل

وقد بعث النبي (ص) سنة ثمان بجيش وأمر عليه (زيد بن حارثة) مولاه وقال :

« ان أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب وان أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة » فساروا حتى اذا كانوا في تخوم مؤتة لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب . ثم دنا العدو وانحاز المسلمون الى قرية يقال لها مؤتة فالتقى الناس عندها فلقيتهم الروم في جمع عظيم فقاتل زيد حتى قتل فأخذ الراية جعفر فقاتل حتى قتل فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فاجتمع المسلمون الى خالد بن الوليد فانحاز بهم حتى قدم المدينة فجعل الصبيان يحثون عليهم التراب ويقولون : « يا فرار فررتم في سبيل الله ! » فقال النبي (ص) : « ليسوا بالفرار لكنهم الكرار ان شاء الله »

وفيها قال حسان بن ثابت :

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيد وعبد الله م خير عصبة تواصوا وأسباب المنية تنظر

(ملخص عن معجم البلدان)

وفي مؤتة قبور الصحابة الثلاثة (رض)

(٢) أجمعت أمهات كتب الادب العربي على ان « ديك الجن » لم يبرح ربوع الشام طوال سني عمره الى أي قطر عربي غير انني وقفت في كتاب (مصر والشام في الغابر والحاضر) لمؤلفه الدكتور أسعد طلس (من منشورات دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٤٥) على رأي جديد فحواه : ان « ديك الجن » زار مصر واليك بالحرف الواحد كما ورد في (الصفحة ٥٦) .

« ... وروى « ديك الجن » انه قد زار مصر بعد رحلة أبي نواس عنها فوجد له اشعاراً كثيرة لا يعرفها غير المصريين » . اهـ

(٣) العمدة ج ٢ ص ١١٩

يحسب « ديك الجن » في طليعة الشعراء الذين تشيّعوا لآل البيت وتعصبوا لعلي (رض) وفي أوائلهم السيد الحميري ودعبل و « لديك الجن » طائفة من المراثي في الحسين ابن علي بن أبي طالب كان بعضها مشهوراً لدى الخاص والعام ، ينوح بها الشيعة في النجف الأشرف كلما قصدوا كربلاء وخرجوا الى قبر الحسين . ومن ذلك قوله :

يا عين لا للقضا ولا الكتب بكا الرزايا سوى بكا الطرب

وقد كان مبرزاً في الرثاء حتى فضّلوه على أبي تمام ولم يجاره في المغالاة بمدح آل البيت والاسراف في حبهم والسخاء في رثائهم سوى السيد الحميري القائل من قصيدة مطولة لما استقرّ الأمر لأبي العباس السفّاح:

دونكموها يا بني هاشم جددوا من عهدها الدارسا
دونكموها فالبسوا تاجها لا تعدموا منكم لها لابسا
لو خيّر المنبر فرسانه ما اختار إلاّ منكم فارسا
قد ساسها قبلكم ساسة لم يتركوا رطباً ولا يابسا
واستُ من أن تملكوها الى مهبط عيسى ، فيكم آيسا

قال صاحب (الأغاني) :

« كان خطيب أهل حمص يصلي على (النبي) ثلاث مرات في خطابه وكان أهل حمص كلهم من اليمن ، لم يكن فيهم من مضر إلاّ ثلاثة أبيات فتعصبوا على الامام وعزلوه فاحتدم « ديك الجن » غيظاً وأنشد .

سمعوا الصلاة على النبيّ توالى فتفرقوا شيعاً وقالوا : لا ، لا !
ثم استمرّ على الصلاة إمامهم فتحزّبوا ورمى الرجال رجالا
يا آل حمص توقعوا من عارها خزياً يحل عليكم ووبالا
شاهت وجوهكم وجوهاً طالما رغمت معاطسها وساءت حالا !

ومما يمتاز به منظوم « ديك الجن » : اشراق المطلع ورشاقة اللفظ والزهد في الحياة الدنيا والحض على مهادنة المقادير وتقبل أحداث الزمان وصروفه ببسمة المؤمن الصابر على عوادي الأيام ، يتضح ذلك في قصيدة أرسلها مراة الى جعفر بن علي الهاشمي :

نغفل والأيام لا تغفـــل   ولا لنا من زمن مَوئل
والدهر لا يسلم من صرفه   أعصمُ في القُنة مستوعِل
يتخذ الشعر شعاراً له   كأنما الأفق له منزل
كأنه بين شناظيرها (١)   بارقة تَكْمَن أو تَمثُل
ولا حُباب (٢) حلتان السُرى   أرقم لا يعرف ما تجهل
نضناض (٣) فيفاء يرى انه   بالرمل ماضٍ وهو المرمل
يطلب من ناجئة مَعْقِلا   وهو لمـــا يطلب لا يعقل
والدهر لا يسلم من صرفه   مُسَرْبَل بالسَّرْد مستبسل
ولا عَقنباة (٤) الشلاى لها   في كل أفق علق مهمل
فتخاء في الجو خُدارية (٥)   كالغيم والغيم لهـــا منقل
آمن من كان لصرف الردى   أنزلهـا من جوها منزل
والدهر لا يحجبـه مانع   يحجبه العـــامل والمنصل
يُصغي جديداه الى حكمه   ويفعل الدهر بما يفعل
كأنه من فرط عزٍّ به   أهوس إذ أقبل أو أقبلُ (٦)
في حب أوفى فله جحفل   يقدمه من رأيه جحفل
بينا على ذاك إذا عرشت   في عرشه داهية ضِئْبُل (٧)
ان يكن في العز له مِنْقَص   ماض فقد تاح له مقتل

* * *

جاد على قبرك من ميت   بالروح ربٍّ لك لا يبخل
وحنّت المُزْن على قبره   بعارض نَجْوتَه محفل
غيث ترى الأرض على وَبله   تضحك إلا أنه يهمُل

---

(١) شناظير الجبل أطرافه وحروفه (٢) الحية (٣) حية نضناض لا تستقر في مكان واذا نهشت قتلت من ساعتها (٤) عقاب عقنباة ذو مخالب حداد (٥) خدارية العقاب لسوادها والفتخاء العقاب اللينة الجناح (٦) في عينه قبل وهو دون الحور (٧) الضئبل بضم الباء الداهية

يصلي والأرض تصلي له من صـلوات معه تسأل
أنت أبا العباس عباسها اذا استطار الحدث المعضل
وأنت ينبوع أفانينها إذا همُ في سنة أمحلوا
وأنت علاّمُ غيوب الثنا ء يوماً إذا تسأل أو تسأل
نحن نجربك ومنك الهدى مستخرج والنور مستقبل
نقول بالعقل وانت الذي نأوي إليـه وبه نعقل
نحن فدًى لك من أمة والأرض والآخر والاول
إذا عفا عنك وأودى بها ذا الدهر فهو الحسن المجمل

ثم مات جعفر بن علي ذلك الامير الهاشمي الذي أغرق « ديك الجن » برفده وعطاياه وكانت تربطه به أواصر مودة وأدب فرثاه الشاعر الحمصي بقوله :

على هذه كانت تدور النوائب وفي كل جمع للذهاب مذاهب
نزلنا على حكم الزمان وأمره وهل يقبل النصف الألدُّ المشاغب ؟!
ويضحك سن المرء والقلب موجع ويرضى الفتى عن دهره وهو عاتب
ألا أيها الركبان والرد واجب قفوا حدّثونا ما تقول النوادب
الى أي فتيان الندى قصد الردّى وأيهم نابت حماه النوائب ؟
فيا لأبي العباس كم رُدّ راغب لفقدك ملهوفاً وكم جب غارب
ويا لأبي العباس ان مناكبا تنوء بما حملتها لنواكب
فيا قبره جُدْ كل قبر يجوده ففيك سماء ثرّة وسحائب
فانك لو تدري بما فيك من علاً علوت وباتت في ذراك الكواكب
أخاً كنت أبكيه دماً وهو نائم حذارا وتعمى مقلتي وهو غائب
فمات ولا صبري على الاجر واقف ولا أنا في عمر الى الله راغب
أأسعى لاحظى فيك بالأجر انه لسعي اذاً مني لدى الله خائب
وما الاثم إلاّ الصبر عنك وإنما عواقب حمد ان تُذَمّ العواقب
يقولون مقدار على المرء واجب فقلت وإعوال على المرء واجب

هو القلب لما حُمّ يوم ابن أمه   وَهَى جانب منه وأسقم جانب
رشفت أيامي وهن كوالح   عليك وغالبت الردى وهو غالب
ودافعت في صدر الزمان ونحره   وأي يدٍ لي والزمان محارب !
وقلت له : خلّ الجواد لقومه   وهل ندّ فاردُدْه فانا عصائب
فوالله اخلاصاً من القول صادقاً   وإلاّ فحبي آل احمد كاذب
لوَانَّ دمي كانت شفاؤك أو دمي   دم القلب حتى يقضب القلب قاضب
لسلمتُ تسليم الرضا وتخذتها   يداً للرّدى ما حجّ لله راكب
فتىً كان مثل السيف من حيث جئته   لنائبة نابتك فهو مضارب
فتىً همّه حمدٌ على الدهر رابحٌ   وان غاب عنه ماله فهو عازب
شمائل ان يشهد فهنّ مشاهدٌ   عظامٌ وان يرحل فهنّ كتائب
بكاك أخ لم تحوه بقرابة   بلى ان اخوان الصفاء أقارب
وأظلمت الدنيا التي كنت جارها   كأنك للدنيا أخ ومناسب
يبرّد نيران المصائب أنني   أرى زمناً لم يبق فيه مصائب

* * *

ذمّ بعضهم القناعة : « فقال هي خلق البهيمة » اذا وجدت أكلت وان لم تجد باتت على الخسف كما قيل :

ولا يقيم على ظلم يراد به   إلاّ الأذلان عير الحيّ والوتدُ
هذا على الخسف مربوط برمته   وذا يُشجُّ فلا يرثي له أحد

ولديك الجن أبيات بهذا المعنى جاءت من طراز عالٍ في مغالبة الزمان والحضّ على مصاولته :

لا تقم للزمان في منزل الضيم   ولا ترتبطك رقةُ حالِ
واذا خفت ان يراهقك العد   مُ فعذ بالمنقفات العوالي
وأهن نفسك الكريمة للمو   تِ وقحّم بها على الأهوال
فلعمري للموت أجمل بالحرّ   من العيش ضارعاً للرجال
أيّ ماءٍ يجول في وجهك الحرّ   إذا ما امتهنته بالسؤال ؟ !

ثم لاسيما وقد عصف الدهر   بأهل الندى وأهل النوال
فقليل من الورى من تراه   يُرتجى أن يصون عرضاً بمال

ومن أغرب الهجاء هجو الرجل لنفسه وهو ما ذكرته كتب الأدب للحطيئة الذي التمس ذات يوم انساناً يهجوه فلم يجد ... وضاق عليه ذلك فأنشأ يقول :

أبت شفتاي اليوم إلاّ تكلماً   بشرٍّ ... فما أدري لمن أنا قائله ؟!

وجعل يردد هذا البيت ولا يرى انساناً فال الى حوض ماء ورأى وجهه فقال :

أرى لي وجهاً شوّه الله خلقه   فقُبّح من وجهٍ وقُبّح حامله !

ثم قول ديك الجن : أيها السائل عني   لستَ بي أخبر مني
أنا انسانٌ براني الله في صورة جني !
بل أنا الأسمج في العين فدع عنك التظني !
أنا لا أسلم من نفسي فمن يسلمُ مني ؟!

وقد وصل الى القمة في هذا الباب ابن الرومي فتفنن في رسم الصور المضحكة لأعدائه وخصومه أيما تفنن كقوله في وصف رجل بارد ثقيل :

يا أيها القادم الذي ليس يدري   أرصاص كيانه أم حديد ؟
أنت عندي كماء بئرك في الصيف   ثقيلٌ يعلوه بردٌ شديد

وقوله : وجهك يا عمرو فيه طول   وفي وجوه الكلاب طول
مقابح الكلب فيك طرّاً   يزول عنها ولا تزول
وفيه أشياء صالحات   حماكها الله والرسول
فالكلب وافٍ وفيك غدرٌ   ففيك عن قدره سفول
وقد يحامي عن المواشي   وما تحامي وما تصول
وأنت من بين أهل سوء   قصتهم قصة تطول
وجوههم للورى عظات   لكن اقفاءهم طبول
مستفعلنْ فاعلٌ فعول   مستفعلنْ فاعلٌ فعول
بيتٌ كمعناك ليس فيه   معنىً سوى انه فضول

ومما اشتهر عن ديك الجن شدة التشعب (١) والعصبية على العرب للنيل منهم لا مذهباً يرجع الى عقيدة وايمان ، إذ كيف تتفق سلامة إيمانه مع قوله :

أأترك لذة الصهباء نقداً   لما وعدوه من لبن وخمر !
(حياةٌ)ثم(موتٌ) ثم(بعثٌ)   (حديث خرافة !)ياأم عمرو !

أومع قوله : خذ من زمانك ما صفا   ودع الذي فيه الكدر
فالعمر أقصر مدة   من ان يمحق بالغير

وقريب من هذا قول (الخبزارزي)

وذر الهموم نسيئة   وتعجل اللذات نقدا

أقام ديك الجن في حمص ولم يبرح ديار الشام ، كما سلف ذكر ذلك ، ولم يرحل الى العراق منتجعاً بشعره ولا متصدياً لاحد إلاّ ما كان من كرهه لابن عمه — أبي الطيب — وعشرته وولائه لاحمد وجعفر ولدي علي الهاشمي ، وهي الى الصداقة واللهو أقرب منها إلى استنداء الاكف واستجداء ذوي اليسار ، وهو في هـذا المضمار صنو للشاعر الشيعي السيد الحميري القائل يوماً :

أيها المادح العبد ليعطي   ان لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم   وارجُ نفع المنزّل العوّاد
لا تقلْ في الجواد ما ليس فيه   وتسمّي البخيل باسم الجواد

قرّر الذين عرفوا ديك الجن عن كثب انه لم يكن مشفقاً على جيبه ، بل كان متلافاً لكل ما ورث عن أبيه وجده من عقار ونشب وكأني بالشاعر القائل :

لا يألف الدرهم المضروب صرّتنا   لكن يمرّ علينا وهو منطلق !

قد عنى هذا الشاعر الكاسب الواهب الهاتف يوماً بصحبه في جلسة لهو وسمر :

تمتّع من الدنيا فإنك فاني   وإنك في أيدي الحوادث عاني
ولا تنظرنّ اليوم لهواً الى غدٍ   ومن لغدٍ من حادث بأمان !
فاني رأيت الدهر يسرع بالفتى   وينقله حالين مختلفان

---

(١) التعصب للعجم على العرب وهو مذهب الشعوبية

فأما الذي يمضي فأحلام نائم ... وأما الذي يبقى له فأماني !

وقريب من هذا قول (ابن المعتز)

وبادر بأيام السرور فانها ... سراع وأيام الهموم بطاء

وخلِّ عتاب الحادثات لوجهها ... فان عتاب الحادثات عناء

تعالوا فسقُّوا أنفساً قبل موتها ... ليالي ما يأتي وهن وراء

وما كاد الشاعر ينشد صحبه ما فيه الحضّ على اغتنام اللذات ، ومباهج الحياة ، حتى استخفهم الطرب فتناول ظريف منهم عوداً شده وداعب اخوان الصفاء بمقطوعة نظمها شاعر حمص في الحثّ على البذل ومجانبة الامساك فهزّهم الشدو ورخامة الصوت الى احتساء الكؤوس وترداد ما نظمه الشاعر الفيلسوف « ديك الجن » وهو :

قالوا : السلام عليك يا أطلال ... قلت : السلام على المحال محال

عاج الشقيّ مراده دِمَنٌ البلى ... ومراد عيني قلة وحجال

لأنادمنّ الراحَ وهي زلال ... ولأطرقنّ البيت فيه غزال

ولأتركنّ حليلها وبقلبه ... حرقٌ وهو فؤاده بلبال

ماذا الغنى والبخل مالك من غنى ... وكذاك يا ذا المال مالك مال

قد تسلم الأوكال وهي مواكل ... للترهات وتقتل الأبطال

ورجال هذي النائبات وان رأوا ... شظفاً من الأيام فهي رجال

* * *

كان لديك الجن ابن عم يكنى (أبا الطيب) دأب على نصحه طوراً وزجره آخر عن معاقرة الخمرة والعكوف على القصف والملذات ، وكان يتصدّى له هازّاً عصا التأديب ، ومجالس الشراب مكتظة بالمجان وأهل الخلاعة فيستخف بهم (أبو الطيب) ويسرف في تقريعهم والتنكيل بهم ، فلما كثر ذلك على ديك الجن تميز غيظاً ، وضاق بابن عمه ذرعاً ، فاعتلج الحقد في صدره وهجاه بأبيات مرّة . منها :

مولاتنا يا غلام مبتكره ... فباكر الناس لي بلا نظره

عدت على الهو والمجون على ... أن الفتاة الحيية الخفره

بحبها لاعجٌ منها وبي حرقٌ مطوية في الحشا ومنتشره
ما ذقت منها سوى مقبلها وفم تلك الفروع منحدره
قد ذكر الناس عن قيامهم ذكري بعقلي ما أصبحت نفره
معرفتي بالصواب معرفة غراً أما عرفتم النكره ؟؟!
يا عجباً من (أبي الخبيث) ومن مروجه في البكائر الدثره
يحمل رأساً تنبو المعاول عن صفحته والجلامد الوعره
كم طربات أفسدتهن وكم صفوة عيش غادرتها كدره
لولا البغال ارتقت سنداً فيه لمدت قوائماً خدره !
ولا المجانيق فيه معنية الف تسامي والف منكدره
أنظر الى موضع المقص من الهامة تلك الصبيحة المعجره
فلو أخذتم لها المطارف حراً نيةً صنعة اليد الخبره
إذاً لراحت أكف جلستهم كليلة والأداة منكسره
وكم اذا ما رأوك يا ملك المو ت لهم من أنامل خصره
وكم لهم دعوة عليك وكم قذفة أم شنعاء مشتهره !
كريمة لومك استخفٌ بها ونالها بالمثالب الأشره
قفوا على رحلة تروا عجباً في الجهل يحكي طرائف البصره
يأكل مني وكل طالعة نحس وكل ساعة عسره
سبحان من يمسك السماء على الأرض وفيها أخلاقك القذره

كم مرة أجمع أولئك المجان أمرهم وعزموا على الفتك بـ (أبي الطيب) هادم لذاتهم ومفرّق حلقاتهم ، الذي دأب على العبث باشراقهم الروحي وترويعهم كلما استطابوا الشراب وجلسوا يقصفون . . . غير أن ديك الجن كان يصد عن ابن عمه حملاتهم ، وينجيه من فتكاتهم ، ورغم جميله فلم يرع لديك الجن حرمة ولا اصحابه ذماماً بل سدر في غوايته وأمعن في محاربتهم حتى كانوا يرون فيه (غراب البين) كلما روّع سامرهم ، وأقبل على جمعهم لم يفتّ ذلك الازعاج في عضد العصبة بل واصلوا أنسهم غير ملتفتين الى ذلك الداج ،!

وكأني بديك الجن في عكوفه وصحبه على معاقرة الصهباء واغتنام اللذات ينشد الخصم المتزمت ما جاء على لسان الشاعر الأردني النابغ مصطفى وهبي التل الفائل يوماً من قصيدة بعنوان (بقايا ألحان وأشجان) :

يا صاحبيَّ خذا عني فديتكما سرَّ الصبابات والألحان والحان
وناشدا الشوق هل شامت مرابعه وجداً كوجدي وتحناناً كتحناني

***

ماذا على الناس من صفوي ومن كدري ماذا على الناس من ربحي وخسراني !
ماذا على الناس من سكري وعربدتي ! ماذا على الناس من شكي وإيماني !
عليَّ بالكأس أستجدي صبابتها حثالة من مواساة وسلوان !

على هذه الوتيرة سار ديك الجن ورفقته مع أبي الطيب الذي ما تورّع يوماً عن تكدير صفوهم والتجني عليهم حتى أفضى به المطاف الى مأساة دامية لم يرو التاريخ العربي لها مثيلاً وهذا ما ستقرأه في فصليْ (غرام الشاعر) و (انتقام الشاعر) الذي تعشق جارية نصرانية من أهل حمص اسمها (ورد) وأسرف في نجواها واستجار بـ (كيوبد) اله الحب . . . ففوّق هذا سهمه المغضوض الى الغزال النافر . . . فخرَّ الظبي الغرير صريعاً .. وفي ذلك أنشد الصبّ المستهام :

انظر الى شمس القصور وبدرها والى خزاماها وبهجة زهرها
لم تبك عينك أبيضاً في أسود جمع الجمال كوجهها في شعرها
وردية الوجنات يختبر اسمها من ريقها ، من لا يحيط بخبرها
تسقيك كأس مدامة من كفها مقرونة بمدامة من ثغرها

وقبل أن نفضي بك الى الحديث عن غرام الشاعر وانتقامه ، من فتاة أحلامه ، لا بد أن نلمع المامآ عابراً الى ما رواه (أبو الفرج) في (الاغاني) عن غلام من أهل حمص اسمه (بكر ابن رستم) كان ديك الجن مفتـوناً به وذات ليلة أنشد فيه وقد جلسا يتسامران الى أن غاب القمر :

دَعْ البدر فليغرب فأنت لنا بدر · اذا ما تجلى من محاسنك الفجر
إذا ما انقضى سحر الذين ببابل · فطرفك لي سحر وريقك لي خمر
ولو قيل لي : قُمْ فادع أحسن من ترى · لصحت بأعلى الصوت . يا بكر ! يا بكر ! .

ولكنّ نفراً من ماجني المدينة وأهل الخلاعة فيها احتالوا على هذا الغلام يوماً وأخرجوه الى متنزّه (الميماس) في حمص وأسكروه فلما تناهى ذلك الى ديك الجنّ تفجر ألماً وشعراً يفيض بالتصوير الفني والمعنى الرائع حيث قال :

قُل لهضيم الكشح ميّاس · انتقض العهد من الناس
يا طلعة الآس التي لم تعد · إلاّ أذلت قُضب الآس
وثقتَ بالكاس وشُرّابها · وحيف أمثالك في الكاس
وحال (ميماس) وما بعدها · بين مغيبيك وميماس
تقطيع أنفاسك في إثرهم · وملكهم قطّع أنفاسي
لا بأس مولاي على انها · نهاية المكروه والباس
هي الليالي ولها دولة ! · ووحشة من بعد إيناس !
فالهُ ودع عنك أحاديثهم · سيصبح الذاكر كالناسي

وبعد أيام بعث إليه بالأبيات التالية مداعباً ومعزياً :

يا (بكر) ما فعلت بك الأقوام · بل دار ما فعلت بك الأيام
في الدار بعد بقية تستامها · إذ ليس فيك بقية تستام
غرم الزمان على الديار برغمهم · وعليك أيضاً للزمان غرام
شغل الزمان كراك في ديوانه · فتفرقت لدواتك الأقلام

ومما أنشده في ساقٍ أغيد :

ومزرٍ بالقضيب اذا تثنى · ومزهاة على القمر التمام
سقاني ثم قبّلني وأومى · بطرف سقمه يشفي سقامي
فبت له على الندمان أُسقى · مداماً في مدام في مدام !

ومن أبلغ ما قيل في صفة الأصداغ والعذار قول ديك الجن :

فقام مختلفاً كالبــدر مطّلقاً والخشف ملتفتاً والغصن منقطفا
رقّــت غلالة خدّيه فلو رُميا باللحظ أدماها بأن يكفا
كأن (لاماً) أديرت فوق وجنته واختط كاتبها من تحتها (ألفا)

ولديك الجن قصيدة في الافتخار بقبيلة (كلب) ليس لها نظير إلاّ قصيدة (ابي تمام) التي مطلعها :

لنا جوهر لو خالط الأرض أصبحت وبُـطنانـها منــه وظهرانها تبرُ
مقاماتنا وقف على العلم والحجا وأمردنا كهل وأشيبنا حبرُ
إذا زينة الدنيا من المال أعرضتْ فأزين منها عندنا الحمد والشكر

وقصيدة ديك الجن هي :

(كلبٌ) قبيلي و(كلبٌ) خيرُ من وَلدت حواه من عَرَب عُرب ومن عجم
غلاة (موتة) والاشراك مكتهل والدين أمرد لم يبنع فيحتلم
ان تعبسي لدم منــا هُـريق بهــا فقد حقنــا دم الاسلام فابتسمي
أقعد وقم عالماً ان لو تطوقهــا بغير أحمد لم تقعــد ولم تقم
أقام حصن عليهم حصن مكرمة يرنج طوداه من نُـعمي ومن نقم
كم عرضوا أيدياً بيضاء مكرمة للعــدم من طول ما انتاشوا من العدم
أسد يرون الردى المُـفضي بأنفسهم الى الثرى عمراً يُـفضي الى الهرم

« وعلى العموم فشعر [1] ديك الجن فيما يوافق هواه جزل منسجم وصنعته اللفظيــة أخف على النفس من صنعة (أبي تمام) لأنها مع حسنها لا تجد للكلفة أثراً ظاهراً عليهــا فقد كان متقصداً فيها ، وتشبيهاته واستعاراته حسنة سائغة » والأبيات التالية خير صورة تجلو لك ما ذهبنا اليه من حيث انسجام منظوم ديك الجن ورشاقة لفظه :

لا ومكان الصليب في النحر منك ومجرى الزنار في الخصر
والخــال في الخد إذ أشبهه وردة مسك على ثرى قبر
وحاجب مدّ خطه قلم الـــحسن بحبر البهــا لا الحبر
وأقحوانٍ بفيك منتظم على شبيه من رائق الخمر

(١) شعراء الشام ص ٦٨

غرام الشاعر

— ٢ —

قل في الشعراء ، تالداً وطريفاً ، من لم يحرك الحب قلبه ، واذا لم يحركه كان شعره نابياً جافياً ، ولذا فالعشاق من الشعراء كثيرون وفي الجاهلية طائفة كبيرة منهم (فعنترة وعبلة) و (المخبل السعدي والميلاء) و (حاتم الطائي وماوية) و (المرقش الاكبر واسماء) و (النمر ابن تواب وحمزة) و (سحيم بن الحسحاس وعمرة) .

وفي صدر الاسلام اشتهر رعيل لجب من العشاق الذين انتهت مسرحياتهم بالفجيعة والأسى ، وقضوا نحبهم صرعى في حلبة الهوى الفضّاح وفي طليعتهم (جميل) وحبيبته (بثينة) :

وأولُ ما قاد المودة بيننا بوادي بغيض يا بثين سباب
وقلتَ لها قولاً فجاءت بمثله لكل كلام يا بثين جواب

وعمر بن أبي ربيعة الذي كان يشبب بكل مليحة وسيمة ... ولو لم يكن بينه وبينها مودة وهوى ... وقد تعرّض لأشهر نسوة العرب وهنّ في الطواف وفي عدادهن فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، الخليفة الاموي ، ولكنه لم يكن ليذكر اسمها خوفاً من وعيد أبيها ونقمة الحجاج ، فلما عادت من الحج قال فيها :

كدت يوم الرحيل أقضي حياتي ليتني متُّ قبل يوم الرحيل
لا أطيق الكلام من شدة الخو ف ودمعي يسيل كل مسيل
ذرفت دمعها وفاضت دموعي وكلانا يلقي بلب أصيل

و (مجنون ليلى) القائل :

أعدُّ الليالي ليلة بعد ليلة وقد عشت دهراً لا أعدّ اللياليا

أراني اذا صليتُ يمّمتُ نحوها … بوجهي وإن كان المُصلّى ورائيا
أصلي فما أدري اذا ما ذكرتها … أثنتين صليت الضحى أم ثمانيا
وما بي إشراك ولكن حبها … كعود الشجا أعيا الطبيب المداويا

* * *

أحب من الأسماء ما وافق اسمها … وأشبهه أو كان منها مدانيا
وخبرتماني ان (تيماءَ) منزل … لليلى اذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذي شهور الصيف عني قد انقضت … فما للنوى ترمي بليلى المراميا
وماذا لهم ، لا أجزل الله قسطهم … من الحظ ، في تصريم ليلى حباليا
فأنت التي إن شئت أشقيت عيشتي … وإن شئت بعد الله أنعمت باليا !

و (كثير عزة) القائل :

ألا ليتنا يا (عز) من غير ريبة … بعيران نرعى في الخلاء ونعزب
كلانا به عر(١) فمن يرنا يقل … على حسنها جرباء تعدي وأجرب
إذا ما وردنا منهلاً صاح أهله … علينا فلا ننفك نُرمى ونُضرب
نكون بعيري ذي غنىً فيضيعنا … فلا هو يرعانا ولا نحن نطلبُ

* * *

الفصل ربيع ، والهواء عليل ، والطبيعة ترفل بالمطارف الخضر ، والجداول الماء خرير ، والأشجار تموج بالبراعم والأزهار ، والنزهة في المساء تنفي عن النفس الهموم والأكدار .

وها هو الشاعر عبد السلام بن رغبان الملقب بـ « ديك الجن الحمصي » يسير وصحبه بعد العشي الى متنزه (الميماس) في حمص ، وعلى مرج أخضر ، زاهي اللون ، ينعش القلب ، ويخلب اللب ، ويموج بالورود وشقائق النعمان جلس شاعر حمص الى صحبه ، بعد أن اطمأنت نفوسهم الى أوتار اللاعبين ، وانشاد المغنين ، و « ديك الجن » في وسطهم ينادمهم بروائعه

(١) العر هو الجرب

التي فتنت أهل العراق بعد أهل الشام ... وأضحى بها (أبو نواس) مفتوناً ... مذهولاً ... كما ألمعنا الى ذلك في موضعه .

ودارت الخمرة بين الندامى مشعشعة في أقداحها ، وامتزجت أنات الطرب برنين الأوتار وحديث السمار ، وانبعث من هذا كله صوت رخيم شق أجواء المرح والغبطـة وأحدث لحناً موسيقيـاً ، عذب التقاسيم ، حلو التناغيم !

وعلى حين غرة ساد المجلس صمت لم يقطعه إلاّ همسات أفرغها شاب فارع الطول كالرمح السمهري هو بكر بن رستم في أذن صديقه ديك الجن الذي بادره على مسمع من الرفاق بقوله :

علامَ التشاؤم يا بكر ، وليس في هذا الجو الشذي إلاّ ما يبعث على البشر والتفاؤل ؟ أتنظر الى الدنيا بمنظـار شديد السواد ، وتردد طيوف الغم والـكآبة ، وأنت في ربيع الحياة ، تخب في بداية العقد الثالث من العمر ؟!

اشرب فديت[1] علانيه أمْ التستر زانيه !
اشرب فديتك واسقني حتى أنام مكانيه !
ودع التستر والرياءَ فما هما من شأنيـه !

استقرت هذه الـكلمات المنيفة في أذن نديم خفيف الظل والروح فاندفع الى وتره ينشد هذا البيت :

ولا تبكين على ناسك ! وان مات ذو طرب فابكه !

فتعالت الأصوات من هنا وهناك مرددة بيتاً من الشعر تناول فلسفة الحياة ودلّ على ما فيها من عرض وجوهر ...

وأخذ الندامى في تحريك رؤوسهم لفرط النشوة مرددين :

رحمة العود والجنوك عليه[2] وصلاة القانون والمزمار

وكان هتاف « يا ليل ... » ينبعث من حناجرهم فابتسم ديك الجن لغبطة صحبه واشراقهم والتفت اليهم مخاطباً بقوله :

---

(١) الابيات لابي نواس (٢) الجنك آلة طرب ج (جنوك)

دَلَفنا الى هذا الروض المنمنم لنطرب ونشرب لكن بكراً هذا الصاحب الطيب القلب يعيش في عالم غير عالمنا ، إذ قال ينعي إليّ نفسه وهو في ريّق الشباب ، وربيع العمر، وقد فاته إننا في فجر الحياة !

ما بالك يا بكر قد أرقت سويداءك وصفراءك على براعم أمانيك ، قبل ان تنضج وتتفتح !

فان كنت تهوى ... فلا تستصعب وصل من تهوى ... ! وان كانت أمنية صعبة المنال فلا تيأسنّ من الظفر بها .

أنظر الى النجوم في مسالكها تراها بعيدة عنا ، لكني أكاد أثب وثبة ... فأبلغها وأجني لكم قطوف الجوزاء ، وحصيد المجرة ، كل ذلك اعتداداً بهمتي واعتقاداً مني بأن « المستحيل » أسطورة خرافية لا يدين بها الشباب الوثاب !

هات الكأس ياصاح واشرب ترَ السماء تحت قدميك والنجوم في قبضة يدك !

أفرغ الندامى الكؤوس ، وعزفت الأوتار ، وانطلقت الحناجر بالشدو والهتاف ، وإذ بصوت جهوري راعد يشقّ قهقهات عصبية وضعت أيديها على قلب الحياة ... وتبسمت للنور ... !

وكان مبعث ذلك الصوت القاصف أبو الطيب الذي فتح شدقيه مهدداً معنفاً بقوله :

أيها الأشقياء السكارى !

هلاّ طويتم بساط الشراب ، وحطمتم أوتاركم وأقداحكم ، وأقلعتم عن معاقرة الصهباء والعزوف عن هذه المباذل الرخيصة والخلال المهلهلة ؟ !

* * *

هنا ارتجّ على اخوان الصفا وسادت جمعهم سحابة من السكينة ، وتمشت الرعدة في عروقهم ما عدا واحداً قال في حياء ووجل :

« مرحباً بأبي الطيب ! تفضّل أيها السيد واجبر قلوب الرفقة بجلسة معهم ! »

هنا ... ثارت ثائرة (أبي الطيب) وماجت شياطينه ، وصاح بالندامى قائلاً :

« إذا لم تتفرقوا في الحال وتكفوا عن معاقرة الصهباء أوقعت بكم جزاء صارماً ،

وها قد أتيت بكاتب القاضي ، ليشهد بأم عينه مساركم ومباذلكم ، فاذا عدتم لمثل هذه الخبائث ، صفدكم بالاغلال ، وألقى بكم في غياهب السجون ، وفي طليعتكم ابن عمي الخليع ديك الجن ! » .

كفّ الندمان عن معاقرة الخمرة خوفاً من شرور أبي الطيب ووشايته بهم لدى القاضي فتدارك ديك الجن الأمر بقوله :

« حسبنا الليلة ما حسونا من شراب ... فلنمض الى بيوتنا بسلام ، إذ هدف ابن عمي (أبو الطيب) الى أن يذكرنا بطريقته اللطيفة ان الحياة ليست كلها طرباً ولهواً ، فله الشكر على غيرته علينا وعنايته بنا !

هيا يا بكر معي وتصبحون على خير !

قال هذا وسار مع صديقه بكر خفيفين طائرين ، متوغلين في غياض المياس حتى وصلا الى الجسر قرب الطاحون الروماني القائم على نهر العاصي ، وعلى ضفة الغدير جلسا حانقين على أبي الطيب الذي درج على تأمي خطواتهم وتعكير صفوهم .

لكن سورة الغضب ما عتمت أن خمدت في نفسيهما ، وفي سكينة الليل التي يزينها البدر وتنيرها النجوم تمايلت على الضفة الأخرى أشجار أثار شذاها المعطار في ديك الجن شعوراً غريباً وقد خيل له أن في الروض الأنيق غادة أسلمت عينيها للكرى فتضوّع منها ذلك العطر العذيّ ، وأن ما يسمعه من خرير النهر ليس خرير مائه . . إنما هو قلب غادة ينبض بدقات موسيقية مريمة لها صداها البعيد في قلبه .

وبينما كان ديك الجن في نشوة المخمور دفعه بكر بكوعه مشيراً الى الجهة المقابلة فانتبه وتململ متوجماً ... كأن زهرة اقتلعتها يد اليقظة من روض أحلامه وأمانيه ، لكنّ أنغام الموسيقى التي أفاءت على الطبيعة غبطة واشراقاً هزّت الشاعر من ذهوله فأصاخ ببداهته الى تلك الألحان الملائكية واعتقد انها ليست في الواقع من عالم الرؤى والأحلام . إنما هي منبعثة من عالم علويّ ... وانبرى يمعن النظر في شجيرات الدردار والشربين ، فلاحَ له من فروجها بصيص نور حسر اللثام عن أشباح متراقصة كأنها جنيّات تدور وتثب على رؤوس العقارب ، فنشط من عقاله قائلاً لبكر :

هلمّ بنا الى ذلك الروض ، فاني أخال الجنة قد تمثلت فيه ورضوان حارسها ، وحوريات النعيم هابطات من علٍ بقدود مائسة ، وخطى متزنة !

حثّ الشاعر وبكر الخطى نحو جسر (طاحون خرخر) فقطعاه قفزاً ووثباً حتى عرضَ لها مرج كبير على ضفة العاصي فتجلت لها نار مؤججة يتراقص لهبها ، وعلى مقربة منها حوريات خود في ثياب بيض ناعمة ... جلسنَ حلقة مفرغة يعزفنَ على القيثار بأصوات رخيمة هذه الابيات :

عساك بحق عيساك مريحة قلبيَ الشاكي
فان الحُسن قد ولاّ كِ إحيائي واهلاكي !
وأولعني بصُلبانٍ ورهبانٍ ونسّاكِ
ولم آتِ الكنائس عن هوىً فيهن لولاكِ !

وفي وسط العذارى الغيد جلست حسناء لعوب تفيض قسمات وجهها اشراقاً ونوراً وترقص جوارحها على نغمات المعازف والاوتار رقصاً حرّك المشاعر وأخذ بمجامع القلوب .

* * *

نظر ديك الجن من مكانه الى الحسناء التي خفّها الطرب ، فانبرت ترقص على نغمات العود ... فالت آمال الشاعر مع طولها الفارع وقدّها الميّاس وصدرها العامر وتمّر في جلسته وراح يستجدي عطف ذلك الغزال النافر ، حتى بات يشعر بأن روحه قد فارقت جسده واستحالت الى سيّال غير منظور شقّ طريقه بين تلك القدود حتى استقرَّ في أحضان تلك الفاتنة الراقصة فعانقها عناق المدنف المشتاق ! وخمدت فورة الرقص، فنهض الغيد وألفنَ حلقة حول الحسناء اللعوب وشرعن يرقصنَ رقصاً جميلاً متساوقاً . . . وتناولت الغادة التي سحر سناؤها شاعر حمص ، مزهراً وراحت تداعبه بأناملها العاجية ، منشدة بصوت رخيم بيتين من نظم ديك الجن لحنهما مُغنٍّ عراقي فاشتهر اللحن وهما :

أنتِ حديثي في النوم واليقظهْ أنعمت مما أهذي بك الحفظهْ
كم واعظ لي فيك وواعظهْ لو كنت ممن تنهاه عنك عظهْ

فسرى صوتها الرنان في عروق ديك الجن حتى بلغ شغاف قلبه ، وهنا لم يطق الشاعر

صبراً على ما فعله فيه اكسير الهوى الفضّاح فبعث بكلمات الوجد والاستحسان الى العازفات المائسات فذعر السرب لهذه المباغتة وتراكضن على غير هدى ... سوى الحسناء صاحبة المزهر فقد سكّنت من روع العذارى ، وأخذت مصباحاً تقدمت به الى مصدر الصوت متسائلة :

من الرجل المخترق حُرمة الأدب ؟ !

وما حاجتك في سكون هذا الليل ؟ !

هنا خرج الشاعر ورفيقه من مخبئهما وراح ديك الجن ينقل نظراته في الحسناء ذات الأهداب الجانية ، سُفلاً وعلوّا ، فطفت على قلبه موجة من الجوى العنيف هزّته هزّا .

فتقدم من الحسناء الفاتنة محولاً على ساقين من عجين قائلاً :

سامحينا يا أختَ العرب ! فنحن غريبان ههنا وقد جفّ لعاب كل منا في حلقه فجئنا نرطب لهاتنا بشربة من موردك العذب الصافي !

ثكلتك أمك أيها الأفاك ! أجفاف ريق ... والماء أمامك ؟ !

هنا وَجمَ ديك الجن ، وأسقط في يده لهذا الجواب المفحم وأخذ وجيب قلبه في دقاته ... فلحظ بكر حرج موقف رفيقه فتدارك الأمر بقوله :

لا تُسرفي العنف والملامة يا ذات الدل والخال ، فهذا الشاعر ديك الجن الحمصي وأنا رفيقه بكر بن رستم كنا في طريقنا الى المدينة فسمعنا انفادك بيتين من منظومه فجذبتنا ناركم المشبوبة في هذا الروض الافيح كما يجذب النور الفراشة ! أفبعد هذا من لوم وتثريب ؟ !

فانفرجت شفتا الحسناء عن ابتسامة حلوة وأجابت :

لستما إلاّ طفيليين ، ولو كان هذا ديك الجن كما تزعم لما كان يسترق الخطى ، وينزوي بين أغصان الأشجار ، فيزعج ربات الخدور !

فقاطعها بكر على الفور بقوله :

والذي بعث محمداً نبيّا يا سليلة الأماجد إنه شاعر العاصي الذي فتن أهل العراق !

فردّت الحسناء عليه بقولها :

إذا كان هو كما تزعم فليأت بالشاهد مرتجلاً بيتين من منظومه تدليلاً على صحة دعواه !

وما كادت ورد تقول هذا وتلقي معجزة على عاتق ديك الجن ورفيقه حتى وثب العَبد من مجثمهِ فابتسم الشاعر ونظر الى أعماق عيني العذراء فهاله ما قرأ فيهما من سرور وأسرار فسح العرق عن جبينه المتحلب وأنشد مرتجلاً :

قولي لطيفـك ينثني عن مضجعي وقت الوسن
كي أستريح وتنطفي نارٌ تؤجج في البدن
دنف تقلبه الأكف على فراش من شجن
أما أنا فـكما علمتِ فهل لوصلك من ثمن ؟!

فتوردّ خدا الغادة الحسناء وقالت :

أحسنت يا هذا ولـكن ما الدليل على أن الابيات من حصيدك ؟

فأجابها ديك الجن قائلاً :

في مقدوري أن أرتجل سواها ... وسواها ... لـكني أخشى أن تنسي كل ما أهتف به في هذه المناسبة السانحة لسواي من الشعراء ، كما جردتني من الأبيات التي أنشدتكيها ، بيد اني سأغير الساعة قافيتها عندها تؤمنين بأني شاعر حمص الدائم الصيت والصوت « ديك الجن » !

— هات لنرى !

فأنشدها ديك الجن بصوت متهدج خالطه الجوى اللاعج :

قولي لطيفكِ ينثني عن مضجعي وقت المنام
كي استريح وتنطفي نار تؤجج في العظام
دنفٌ تقلّبه الأكف على فراش من سقام
أما أنا فـكما علمتِ فهل لوصلك من دوام ؟

فسُرّت الحسناء وقالت :

أحسنتَ يا هذا ، ولـكن تغيير القافية مرة واحدة لمن أيسر الامور فهل لك أن تغيرها مرة أخرى لأومن بأنك شاعر حمص والعاصي ؟!

— حبّـا وكرامة ما دمت قد منحتني لقب (شاعر حمص والعاصي) :

قولي لطيفك ينثني عن مضجعي وقت الرقاد
كي استريح وتنطفي نار تؤجج في الفؤاد
دنف تقلبه الأكف على فراش من قتاد
أما أنا فكما علمتِ فهل لوصلك من معاد ؟!

لم يقف ديك الجن عند هذا الحدّ من التلاعب بالقافية بل أنشدها الأبيات على شكل رابع قائلاً :

قولي لطيفك ينثني عن مضجعي وقت الهجوع
كي أستريح وتنطفي نار تؤجج في الضلوع
دَنِفٌ تقلّبُه الأكف على فراش من دموع
أما أنا فكما علمتِ فهل لوصلك من رجوع؟!

استخفّ الطرب غادة حمص بعد هذا الارتجال الموفق والتلاعب بالألفاظ ، فهتفت بالشاعر مستحسنةً .. ومقرعةً ... بقولها :

يا طويل العمر !

آمنت الساعة بأنك شاعر حمص والماضي ... وآمنت بأنك ديك الجن ... لكنّ هذا لا يبرّر تلصصك على الحرائر وترويعهنّ وهنّ في مسارح الطرب !

لكن ديك الجن لم يبالِ بهذا التقريع ولم يتوان عن الرد عليها بقوله :

إن رجليّ قادتاني عفواً الى هــذا الروض ، وقد حملني على الوقوف في مكان قصيّ من مسارحكنّ انشادك بيتيّ :

أنت حديثي في النوم واليقظهْ أتعبت مما أهذي بك الحفظهْ
كم واعظ لي فيك وواعظه لو كنت ممن تنهاه عنك عظهْ

— اسمع أيها الشاعر !

ان هــذا الروض وما حوله مع الدير الصغير المقابل ، وتلك القرية المتناثرة المساكن واسمها « الدوير » حمى لنا نحن النصارى ، لا يتخطى تخومه أحد إكراماً لمشاعرنا الدينية فهو منزل بلا سور ، وخدر لا تحرسه الاّ الحشمة والوقار وقد جرت العادة أن تخرج إليه

عذارى النصارى في بدء الربيع يوم الاثنين أول الصوم الكبير الذي ندعوه (اثنين الراهب) فنقضي في هذا الجوّ الشذيّ الفوح ، المعطر الأرج ، نهاراً وليلة عازفات لكنك ورفيقك بكراً أفسدتما علينا الليلة المتعة والسمر ، ولو لم تكن فرسان الشعر لأطلقتها صرخةً يخفّ لها كل بطل حلاحل من بهاليل الحيّ ، فيصيبكما من الأذى ما ليس في الحسبان فاذهبا بسلام ، وحاذرا أن تعودا لمثلها بعد !

— ومن يعتّم عينيه باشراقة وجهك يا شقيقة البدر ولا يضلّ سبيله ؟!!

هاكما السبيل واضحاً أمامكما حتى تبلغا (الدوير) ومنه تسيران على ضوء القمر الى أن تصلا مقام خالد بن الوليد ، فلن تضلاً بعده السبيل !

بارك الله فيك وعليك يا أخت المروءات ، ولكن كوني صريحة معي وقولي بلا تلعثم أو جمجمة :

أيُتاح لي أن أخترق حرمة هذا الحي اذا ما اعتنقت النصرانية ؟

استعنت بالله عليك أيها الشاعر الماجن !

« ان الذي استعنت به عليّ جميل[1] ويحب الجمال ولقد قال نبينا (ص) :

« الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف !» وأرى روحك تحوم حول روحي حتى تكاد تمازجها ، وهما مؤتلفتان رغم تفاوت الأديان ، وقد قيل كذلك « المرء على دين خليله ! »

ثم التفت الى رفيقه بكر بن رستم وقد طفح وجهه بشراً وقال على مسمع من ورد :

احفظ عني أيها الصاحب هذه الأبيات التي أوحت بها مناسبة الليلة :

لما نظرت إليّ عن حدق المها وبسمتِ عن متفتح النوّار

وعقدت بين قضيب بان أهيف وكثيب دعص عقدة الزنار

عفّرت خدي في الثرى لك خاضعاً وعزمت فيك على دخول النار !

أنشد هذا وانطلق مع رفيقه الى قلب المدينة مودعين الغانية ، ذات الأهداب الجانية ، بعد أن سألها ديك الجن قائلاً :

(١) مجموعة الرابطة القلمية ص ١١٦

هل لك يا ذات البهاء أن تنعمي عليّ بمعرفة اسمك كيما استنزل الوحي في خلواتي !

أخذ سرب الغواني في الضحك لجرأة الشاعر وقحته لكنّ الغادة أطرقت مليًّا ... وقد تورّد خدّاها وقالت بصوت يقرب من الهمس :

إسمي ورد بنت الناعمة !

ما أعذب هذا الاسم وأطيب الورد الغذي الفوح وإني منذ الساعة أصبحت أدعى « عبد ورد » وليس عبد السلام » !

دَلَف ديك الجن إلى فراشه محاولاً اغفاءة تسري عنه هموم ليلة قضاها دنفاً تقلبه الأكف على فراش من قتاد ... !

لكنه حاول المستحيل فطفق يردد من فراشه اسم ورد وطيف ذكراها ماثل له :

أحب ديك الجن ورداً حبّاً ملك عليه شغاف قلبه وكلما ذكر إنها (عيسوية) وإنه (محمدي) وتخيل ان الشرائع التي اصطلح عليها الناس ستحول دون تحقيق رغبته وتقف سدّاً منيعاً في وصوله اليها ترتجف جوارحه وتنقضّ عليه زحوف الحزن واللوعة ويطلق لعينيه عنان البكاء ، مُردداً مع الشاعر :

وأمرُّ ما لاقيت من ألم الهوى قُرب الحبيب وما اليه وصولُ !
كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمُولُ !

انبلج الصباح ولم يغمض للشاعر جفن بل أمضى ليله الطويل يسامر النجوم ، ويسائل الفلك الدوّار ، عما إذا كانت الأقدار ، ستجمع بينه وبين ورد فيقرّ بها عيناً ، ويمتّع طرفه بآيات الله وروائع حسنه !

وقبل أن ترسل ذكاء اشعاعها على البسيطة تزمل ديك الجن بعباءة وبرية وخرج هائماً على وجهه إلى أن أفضى به المطاف إلى ضفاف العاصي قريباً من (عُشّ) الغواني الذي كان ليلة البارحة مسرحاً للصبابات .. وحلى للغيد الرعابيب ... فسار حذراً إلى قلب الروض وهو يحسبه عامراً كالأمس بتلك القدود الميّاسة ، والأهداب الجانية فألفاه :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامرُ !

—٥—

فانزوى الشاعر في ركن قصي يستروح شذى ليلة كانت موارة بالمزاهر والمغاني ، مترعة بالدنوف والأغاني .

وعاودته أصوات رخيمة كانت تهتف :

عساك بحق عيساك مرحمة قلبي الشاكي
فان الحسن قد ولاّ ك إحيائي وإهلاكي
وأولعني بصلبان ورهبان ونسّاك
ولم آت الكنائس عن هوى فيهن لولاك

وبعد استراحة هجعت فيها نفسه المضطربة القلقة ، هبّ من مكمنه مذعوراً على صوت غيد سائرات في ناحية من الروض يظللها الورد والنسرين وسمع همهمات الحسان وأرهف السمع الى قول احداهن :

« اضحكن يا صبايا على ورد[1] فانها لم تنم ليلة البارحة !

— لعلها عاشقة !

— ألم ترين يا (مي) إنها بعد انصراف الشابين عنها لم ترقص البارحة ولم تغن !

— ليس العشق اثماً ولا عاراً ، لاسيما ان الشاعر ورفيقه من أجمل شبان حمص وأطيبهما محتداً لكنهما ... مسلمان ...

— كفا كنّ هزاراً يابنات الحيّ وهلمّ بنا الى النهر لنبترد قبل أن يشغل الرجال مياه العاصي

● ● ●

سارت الفتيات الى بركة يظللها الشربين والعليق ، وتسلل ديك الجن من مخبئه الى ملجأ أمين يرى الفتيات ولا يرينه وهو غير مصدق ان ورداً هي ... هي ... بقامتها الفارعة وقد نضت عن جسمها البض الناعم ثيابها وغاصت في الماء البلوري ، فحدق ديك الجن ببصره من عل فرأى محبوبته تعوم وقد طفت ذوائبها على وجه الماء فعقدت حول رأسها اكليلاً ذهبياً ، واجتلى محاسنها عن بعد وتكشفت له جنة الخلد بحورها وآرامها ..

---

(١) مجموعة الرابطة القلمية ص ١١٩

وحلقت روحه فوق الغـدير ... حتى بلغت سرب المستحمّات وامتقرت في نفس ورد وامتزجت بروحها .

وكانت الزنابق الشذية ! تعوم سابحة في الماء الضحضاح ، حذرات من التوغل في النهر الغزير الماء لجهلهنّ فن السباحة لكن ورداً استرجلت وتمت على صويحباتها هـذا الجبن وتوغلت في اليم حتى صرعتهـا موجة عنيفة عارمة أفقدتها الوعي ، فأخـذت في الصراخ والنجدة . . . ولـكن أنى للغيد الحسان أن يبلغنها وينقذنها وهنَّ يجهلنَ السباحة ، فنفر الشاعر من مكمنه ... خفيفاً طائراً وهو يقول :

« توكلت على الله ! فالميدان عجاج ... وأنا أركب فرسها ! » علماً منه بأن (ورداً) هي كبش التضحية وانطلق كالسهم يغالب الموج حتى أمسك بجسد كاد يفلت من يده وخرج به عارياً ، وأتى به على مرج معشوشب ، وسرعان ما دثره بعباءة وما هي إلاّ هنيهة حتى سجد ديك الجن أمام جسد هامد وتلا صلاة حارة من قلب ينطوي على الحب والولاء ، وانبعث من صدره نداء شقّ طريقه الى السماء التي قبلت صلاته ولبت نداءه فسرى الدفء في الجسم المقرور ، وأخذ القلب يستعيد دقاته وأخذت ورد تصحو قليلاً ... قليـلاً ... ففتحت عينيها بعد هجعة استغرقت ساعة ورأت المتيم الولهان يبكي فوقهـا فتململت كمن يتنزى في قيود وأغلال ... وأجالت بطرفها فيما حولها فلمعت في خاطرها مصارعتها الأمواج وأيقنت أن الشاعر قد طوح بنفسه في اليم وأنقذها من لجج الموت ، فتطلعت اليـه بطرف يرف بالشكر والامتنان ، غير مكترثة بما تهامس به شفاه الغيد اللائي جمد الدم في عروقهنّ لهذا الطارىء الذي لم يكن في الحسبان ، وضغطت على يد ديك الجن بيدها دلالة على الاعتراف بالجميـل ، وفي مياه العاصي تعانق الاسلام والنصرانيـة في شخصين محبين هزأا بالتقاليـد وضربا بقيودها الأجيال عرض الأفق كما تعانقت سيوف وائل وتغلب في (مؤتة) و(اليرموك) و (القادسية) !

فياليت كلّ اثنين بينهما هوى من الناس والأنعام يلتقيان !

كان هذا الحدث الغريب ، القريب من الأساطير ، حديث المجالس في حمص وبلاد الشام قاطبة وما أن أطل فجر يوم الزفاف بوروده ورياحينه حتى اشترك أحفاد تغلب ووائل في

مهرجان ضم كل ظبي غرير ، ودل على أن العرب عرب قبل عيسى ومحمد !

أخذ ديك الجن بيد حسنائه الى عشهما الوادع وأنشد والحشد يتبعهما الابيات التالية التي تناشدها الناس وخلدت ورداً وهي :

انظر الى شمس القصور وبدرها ... والى خزاماها وبهجة زهرها
لم تبك عينك أبيضاً في أسود ... جمع الجمال كوجهها في شعرها
وردية الوجنات يختبر اسمها ... من ريقها من لا يحيط بخبرها
تسقيك كأس مدامة من كفها ... مقرونة بمدامة من ثغرها

انتقامُ الشّاعر

– ٣ –

ظلّ الحبيبان عاماً كاملاً يتساقيان كؤوس الحب ، ويجنيان براعم الهوى ، مرددين مع الشاعر العربي :

وكل نعيم في الحياة وغبطة على شفتينا حين تلتقيان !

ولبث ديك الجن يشعر بأنه أسعد من مليك يزين مفرقه التاج ، ويقبض على صولجان الحكم والسلطان .

وإذا حبا الله ورداً بالجمال والجلال .. فأي تاج أعز من تاج ديك الجن ، يزين مفرقها ويُفضي بها الى أريكة السعادة والهناء .

« غفل ديك الجن عن الدنيا بأسرها [1] ولم يعد يهتم بأحد سوى زوجته الحبيبة ، وكأني به قد نسي أن في الكون سواها من الناس فلم يشغله عنها لهو ولا عمل ... ولم يحفل بالأيام والسنين ولا بمظاهر الطبيعة من ربيع وخريف أو شروق وغروب ، ولماذا ينبغي أن يحفل ؟ أليست ابتسامة ورد شروق الصباح ؟ واغفاؤها هبوط الظلمة ؟ أليس الربيع مزدهراً في محاسن وجهها ؟ والشقاء أما هو اعراضها ؟

وكان بكر يزور الشاعر وقرينته بين حين وآخر ، مغتبطاً بالسعادة التي تظلهما ومتمنياً لهما دوام الهناء ، وطالما كان يردد وصديقه ذكرى ليلة قادها فيها القدر الى عُش الغواني في (الدوير) تلك الليلة التي هجم فيها أبو الطيب على اخوان الصفا فعكر صفوهم ، وفرّق شملهم !

وكأن السعادة التي غمر بها القدر ديك الجن أنسته أذى ابن عمه أبي الطيب ولجاجته فكان اذا ذكره بكر أمامه بكلمة جارحة قال :

---

(١) مجموعة الرابطة القلمية ص ١٢٤

لا أذم من كان الباعث على اكتشاف بدر أضاء سماء حياتي . . . ولو لم يبلغ أبو الطيب في تلك الليلة شملنا ويعكّر صفونا ويفرقنا أيدي سبا لما ظفرت بهذا النعيم وهدأة البال !

أما أبو الطيب وهو ابن عم الشاعر فكانت عقارب البغضاء جاثمة على صدره رغم تودده لديك الجن بالمودة والولاء ، وتظاهره بتناسي الماضي وصفاء الطوية وهو الذي نال من الشاعر أقذع هجو سمعه قلب يتنزّى حفيظة وثأراً !

ها هو ديك الجن وعروس أحلامه ينعمان برخاء عميم وسعادة وارفة الظل ، وكانت ورد أشبه شيء بالجواهر : دائمة الاشعاع ، وبالوردة النضرة تكسف بجمالها الفاتن وعبيرها الشذيّ سائر الورود !

وكان ديك الجن يعبدها عبادة أشبه بعبادة النسّاك ... غير أن هذا النعيم الذي رفل ديك الجن وورد في مطارفه قد حزّ في نفس أبي الطيب وهو صاحب الثارات من شاعر حمص الذي خلد اسمه في البسيط العربي بقصائد طافحة بالهجو اللاذع والقول المقذع ، فكانت تلك الصور الشعرية التي خلّفها ديك الجن في اعلاق الأدب العربي سبة وعاراً . . . حتى أصبح غلمان الشوارع يهتفون بذلك القصيد .. كلما لحوا أبا الطيب في شوارع حمص وأحيائها !

إذن : لابدّ من الانتقام من الحبين والايقاع بينهما مهما كانت النتائج !

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلا !

* * *

أطلّ يوم احتاج فيه ديك الجن الى شيء من الدراهم عوناً لبعض اخوانه على عوادي الأيام وصروفها فاقترض مبلغاً من ابن عمه أبي الطيب وبعد لأي من الأشهر دلف أبو الطيب الموتور الى دار الشاعر مطالباً بالدراهم ومهدداً برفع الأمر الى القاضي

وبالرغم من أن شاعر حمص ورث عن والده ثروة كان محسوداً عليها ... وأصاب من الاميرين الهاشميين أحمد وجعفر ولديْ علي ، رفداً جزيلاً ، باعتبار أنه شاعر من شعراء آل هاشم ، يذب عن حياضهم ، ويدعو الناس الى بيعتهم ومناصرتهم ! لبث على ما كان عليه من الاسراف . . . حتى أعسر واختلت موازينه ، وعندما جاءه أبو الطيب مطالباً

برد المــال ... استمهله أياماً ريثما يعود من سـفرته الى سلمية قاصـداً أميرها الهاشمي أحمد بن علي ، فلم يُـلاق من (أبي الطيب) سوى الامعان في الطلب ، والاصرار على وفاء الدين !

أقارب كالعقارب في أذاها فلا تركن الى عمٍ وخال !

في أمسية ذلك اليوم جلس ديك الجن مفكراً في وسيلة يدفع بها هذا الازعاج المتواصل ويستمهل ابن عمه ، فلم يجد بدًّا من زيارته في داره والتوسل إليه بالتريث والامهال !

فقابل أبو الطيب مطالب الشاعر بالاصرار على وفاء الدين وإلاّ سيرفع الامر الى أولي الشأن فيلاقي ديك الجن نصيبه من المقارع والسياط !

* * *

خرج ديك الجن يجر أذيال الفشل ودخل على ورد والحزن يحزّ في نياط قلبه وبعد أن كاشفها بالأمر ودّعها بقوله :

ودعتها لفراق فاشتكت كبدي وشبكت يدها من لوعة بيدي
وحاذرت أعين الواشين وانصرفت تعض من غيظها العنـاب بالبرد
فكان أول عهد العين يوم نأت بالدمع آخر عهد القلب بالجلد

وأوصى بها صديقه بكراً خيراً وعناية ريثما يؤوب من سفرته الى سلمية معللا النفس باللقاء القريب :

ما بين طرفة عين وانتباهتها يُـغيّـر الله من حال الى حال !

ودّع الشاعر مدينة حمص وفيها أغلى أمانيـه وأشهاها وبكر سائر في وداعه ، وأمام خان معروف ، بين حمص وسلمية ، عانق (بكر) أخاه الصفيّ الوفيّ ديك الجن وقال له : « ان قلبي ليحدثني يا شقيق الروح بأننا لن نلتقي بعد اليوم ، فأنا ما زلت أشعر منـذ ليلتنا في الميماس ، والغيد سادرات في لهوهنّ ومرحهنّ بأن يد القضاء قد أخذت تشد خيوط حبـائي شدًّا عنيفاً ، وأحس بالهواجس السود تجثم على صدري وتضغط عليـه وكم أود لو أفلت منها لـكن هيهات ان يغني حذر عن قدر » !

وبدع ديك الجن لهذه المفاجأة المرتجلة ... وهدأ من روع صديقه بقوله :

« لا تكن فريسة السويداء (١) يا صاح !

فما بك من سوء سوى لوعة الفراق ، ولقد أذكرني بما جاء في أحد الكتب السماوية بلسان الله عزّ وجل إذ قال :

« إن مما عاقبت به عبادي أني ابتليتهم بفراق الاحبة ! »

وأراني منذ الآن شاعراً بوطأة هذا العقاب الصارم ، فبحبك يا صاح لا تتخلّ عن ورد بل فرّج همّها في غيابي لئلا تمسي فريسة الاحزان !

بكى الصديقان ، وودع كل منهما الآخر وهو شاعر بأنه يودع قطعة من نفسه وسار ديك الجن في أثر القافلة التي سبقته متوغلة في البرية وعاد بكر الى منزل صديقه ليسلي ورداً ويواسيها على فراق زوجها وقلبها مثخن بجراحات عميقة انفرقة بعلها ، لامعة لمعان السيوف المشرعة في حلبة الطعن والكفاح !

ما كان همّ أبي الطيب استرداد المال الذي له في ذمة ابن عمه . . . وما كانت المروءة حافزة عند اقراضه المبلغ ، إنما فعل ذلك بوحي من نزغات ابليس ليزعزع أركاز سعادة نشرت ألويتها فوق منزل ديك الجن !

أما وقد أفلح في البداية فأبعد خصمه الاول ديك الجن الى (سلمية) فلا بد له في النهاية من قضاء مأربه وشفاء غليله الملهوب ، بالانتقام لكرامة ثلمها ديك الجن في قصائد . . في الغضب ... والمتاع ... ودارت الأيام دوراتها حول الشمس ... فلم تفن تلك القصائد المقذعة ، بل ها هي صورها حيّة خالدة في أمهات كتب الأدب العربي الصفر ...

لقد أزفت ساعة الانتقام فليرسل على الشاعر ومحبوبته شواظ غضبه ، وليذقهما زقوماً وغسلينا !

أخذ أبو الطيب في التردد أولاً على دار ابن عمه متظاهراً لورد بأنه يريد خدمتها وقضاء حاجاتها في غياب بعلها ... غير أن ورداً كانت أبرع من أن تؤخذ بحبائل هذا الثعلب الماكر ، ولكم قرأت في عينيه الشر والوقيعة بها . . . فأعرضت عن رؤيته ، وكلما طرق بابها تمحلت شتى المعاذير مؤثرة ألا ترى وجهه ... فاحفظ

(١) المجموعة القلبية ص ١٢٦

ذلك أبا الطيب وزاد في سخائم قلبه لاسيما وقد أثار جمالها في نفسه الخسيسة شهوات بهيمية فوطد العزم على بلوغ مأربه مهما كان الثمن !

ترصد أبو الطيب ورداً صباح يوم وهي وحيدة في مقصورتها فولج الخدر والابتسامة تشيع في شفتيه ، متظاهراً بالاستفسار عن ديك الجن وأنباء رحلته ، وما لبث ان جنح الى مكاشفتها بغرامه وتهيامه بها ... ونثر على مسربها الذهب الوهاج ، فردته ورد على أعقابه بألفاظ الزجر والتأنيب وطردته من خدرها شر طردة ، فاستشاط غضباً وتميز غيظاً ، وانقض عليها كوحش ضار « فدافعت عن نفسها [١] دفاع اليأس حتى نفدت قواها وأوشكت ان تسقط مغشياً عليها فقيض الله لها في تلك الساعة بكراً الصديق الامين حاملاً رسالة من ديك الجن يذكر فيها تمديد اقامته في سلمية بالحاح من الامير الهاشمي .فلما سمع أبو الطيب خطوات قادمة نحوه ذعر وفر من النافذة وهو يلعن ويتوعد ... » دخل بكر المقصورة على ورد فألفاها في شبه غيبوبة وقد عزا ذلك الى حزنها على فراق ديك الجن لحنا عليها حتى زايلها ما ألم بها دون أن يبدو على الحسناء الرزينة أثر مما بدر من أبي الطيب ذلك الصباح وبعد ان تلا عليها رسالة بعلها توسلت اليه إن يسطر اليه كتاباً عاجلاً يستحثه فيه على الاياب السريع .

بعد ان أخفق أبو الطيب في مسعاه ومباذله اعتكف في داره وأصاخ الى تأنيب ضميره لفعلته المزرية الشائنة ، فراح يفكر في حيلة تنجيه من الفضيحة قبل ان تتناهى الى ديك الجن تفاصيلها ...

وبعد امعان الفكرة وتقليبها على أوجه شتى ، عول على الكتابة لابن عمه الشاعر يستحثه على العودة سراعاً إذ فاحت خيانة ورد فهي تحب بكراً وتهواه وهذا ما تتهامس به الشفاه في طول المدينة وعرضها !

والعرض عند العربي قدس أقداسه ، فمن عبث بحرمته ، وهات بحرابه فجزاؤه صمصام بتار ، يزيل الأذى ، ويمسح العار عن الشرف الرفيع !

طوى أبو الطيب الرسالة ودفع بها الى نجاب خاص حملها الى ديك الجن في السلمية

---

(١) المجموعة الفلية ص١٢٧

وأوصاه بملازمة الشاعر والعودة معه الى حمص حتى إذا أزف يوم الرحيل واقترب ديك الجن من المدينة سبقه الرسول على راحلته خبباً وذكر لأبي الطيب كل ما يهمه الوقوف عليه .

ففضّ ديك الجن الرسالة وقرأ فحواها فكتب الى أحمد بن علي الهاشمي شعراً يستأذنه في الرجوع الى حمص ويعلمه بما بلغه من خبر زوجه في قصيدة مطلعها :

ان ريب الزمان طال انتكاثه   كم رمتني بحادث أحداثه !

ويقول فيها :

ظبي أنس قلبي مقيل ضحاه   وفؤادي بريره وكباثه

الى أن يقول :

خيفة أن يخون عهدي وأن   يضحى لغيره حجوله ورعاثه

وتخلص من هذا الى مدح أحمد بن علي وهي طويلة ، فأذن له بالعودة الى حمص ولم يمض أسبوع حتى عاد الرسول الى أبي الطيب في عصر يوم الى المدينة وذكر له أن ديك الجن على قيد ذراع من حمص فهبّ أبو الطيب لملاقاته ونصب الشرك الذي أوحت إليه به نفسه الخسيسة ، وقبل أن يبارح الدار الى مشارف المدينة لملاقاة ابن عمه لقّن أبو الطيب غلامه كلاماً يقوله وأرسل يدعو بكراً على عجل فجاءه هذا مسرعاً ورأى أبا الطيب يبكي ويعول فسأل عن جلية الواقع فقصّ عليه غلام أبي الطيب ما لقّنه سيده من كلمات الزور والتضليل قائلاً :

كنت قادماً في ركاب سيدي ديك الجن من سلمية الى حمص وعلى مقربة من المدينة اعترض سبيلنا رهط من اللصوص فرجوت شاعر حمص والعاصي أن يطلق ساقيه للريح ولكنه أبى الهرب وصمد لقتالهم مع رجال القافلة فغلبناهم ، غير أن ديك الجن أمعن في مطاردة اللصوص والتنكيل بهم فتصدّى له أثيم وفوّق الى صدره رصاصة أردته قتيلاً .

فتركت الجثة مع القافلة وسبقت القوم لأخبركم بالواقع وأخالهم قادمين بالجثة بعد فترة .

روى الغلام هذه القصة المفتعلة ولحق بسيده أبي الطيب خفيفاً طائراً ولبث بكر مسمراً في موضعه وهو يقلّب الرواية على أوجه شتى بين مصدق ومكذب واستغرق

في تفكيره هذا فترة وراح يتأمل في الكلمات التي ودّع بها صاحبه ديك الجن صباح سفره الى سلمية ولعلّ القارىء يذكرها وهي :

« إن قلبي يحدثني يا صاحبي إننا لن نلتقي ، واني ما زلتُ أشعر منذ ليلتنا في الميماس . والغيد سادرات في اللهو والمرح ، بأن يد القضاء أخذت تشد خيوط حياتي شدّاً عنيفاً .. وأحس بالهواجس السود تجثم على صدري ، وتضغط عليه ، وكم أود لو أفلت منها لكن هيهات أن يغني حذر عن قدر ! »

لمعت صورة هذه الكلمات في خاطر بكر فمال الى تصديق الخبر وأجهش في البكاء على سيد شعراء حمص وزين بهاليلها ، متمنياً لو كان رفيقه في سفرته كيما يدفع عنه العدوان ويفتديه بمهجته .

وكأن الفجيعة بديك الجن نكأت في قلب بكر ندوباً وجراحات ، فمال على أبي الطيب لوماً وتقريعاً ، إذ كانت مضايقته شاعر حمص والعاصي الباعث على سفره الى سلمية استنداءً لكف أميرها الهاشمي في سبيل وفاء دين أبي الطيب ولكن الدين كان حافزه .

سمع أبو الطيب هذا التثريب العنيف والتقريع الصارم ، فاستخرط في البكاء والعويل ليوهم بكراً بموت رفيق صباه ويضاعف في قناعته بموت ديك الجن والتفت إليه قائلاً :

لم يكن الالحاح في طلب المال كرهي لعبد السلام ابن عمي — رحمات الله عليه — فهو أخي وحبيبي وريحانة قلبي ، لكني أحببت ألاّ يطيل غيابه عن الامراء الهاشميين في سلمية لتجاذبهم حبل المودة والولاء فأسرفتُ في طلب الدين وضيقتُ الخناق عليه حتى مضى إليهم وأمضى في رحابهم ردحاً من الزمن رافلاً في مطارف كرمهم ، ولو كنت أعلم أن الامر سيُفضي الى الفجيعة به لسامحته بالمال وفديته بنفسي :

لعمرك ما الرزية فقد مال ولا شاة تموت ولا بعير !
ولكنّ الرزية فقد حُرٍّ يموت لموته خلق كثير !

هلمّ بنا يا بكر نستقبل جثمانه ، فقد شارف الركب الوصول ولنعرج به على منزله ليراه المحبون وذوو القربى ، قبل أن يوسد الثرى !

لك الله يا ورد من بائسة مسكينة !

ماذا سيحل بك عندما ترين الحبيب الذي طالما تمت من أجله الأهل والدين ... وخرجت على العرف والعادة . . . ودست في سبيله التقاليد ، جثة هامدة لا حراك فيها بعد ان كان صاحبها بلبلاً شادياً يرقص على كل روح ، ويغرد على كل فنن !

استحلفك يا بكر بأعز الناس لديك ، بأمك وأبيك ، وأرجو ان تذهب من تو ك الى ورد وتصارحها بالخطب الجلل ، وتعدها لاستقبال الجثمان لئلا تنقض عليها الاحزان دفعة واحدة فتقتلها !

اذهب ربك اليها ودعني أذهب لاستقبال الجثة وحدي !

آه يا ديك الجن :

ما دام غير الله من دائم فاغضب على الاقدار أو سلم !

مسح بكر دموعه وهرول الى ورد متناسياً مصاباً قصم ظهره ، وفجيعة هزت أركانه هزاً ، لكنه تحامل على جرحه وصارح ورداً بخطب جلل أفقدها قريناً شريفاً ، وشهماً غطريفاً ، وحبيباً رئيفاً ، فوقعت المسكينة مغشياً عليها لهول المصاب الذي أودى بأملها الباسم !

أما أبو الطيب فقد خلا الى شياطينه ، وأغرب في الضحك بعد خروج بكر الى ورد لنجاح مؤامرته ، وبلوغ غايته ، وها هي الفرائس سائرة عفواً الى الشرك الذي نصبه لها الغادر الحقود ، وها قد أزفت الساعة التي ينتقم فيها أبو الطيب من شاعر سود صحائفه بالهجو المقذع ، فأكسبه الذل والعار ، ويثأر من حسناء صانت عرضها عنه ولم تترخص به ، ومن صديق ما كان ذنبه إلا الوفاء لديك الجن غائباً حاضراً ... !

خرج أبو الطيب من منزله وهو يشعر بنشوة الظفر وشهوة الانتقام وسار حتى بلغ باب تدمر فجلس خارج المدينة على الطريق منتظراً قدوم القافلة وإذ به يلمح غباراً متصاعداً ويسمع وقع حوافر الخيل ، فاستعد لمقابلة ابن عمه ولما تبينه بين القوم هرع اليه متظاهراً بالشوق واللهفة ، وعانقه ولطف من حدته وقد لمح عليه آثار الاعياء والاضطراب بعد ان كان مرحاً ذا قيثارة متواصلة الانشاد والتناغيم ، وكيف لا يكون فريسة الألم الدفين وصالة

أبي الطيب اليه تشير إلى خيانة ورد وغرامها بصديقه بكر ؟!

سار الشاعر وأبو الطيب منفردين عن القافلة ، فشرع هذا يقص على ديك الجن غرام بكر بورد واستمتاعه بتلك الزهرة النضرة فأصبحت قصتهما أشهر من قفا نبك . . .

روى أبو الطيب كل ذلك باختصار وأردف اليه قوله :

« لقد بثثت العيون والارصاد على الحبيبين عند ما علمت بقدومك ، وقد أبلغني من لا أشك في صدق روايته إنهما الآن في خلوة تامة . . . بعيدين عن كل رقيب وإذا ما سرت حثيثاً إلى منزلك رأيت عش الهوى الفضاح قد لفهما وشاهدت بعينك الحد الذي بلغته أمانة الزوجة وحرصها على عرضك . . . ! »

أثارت هذه الكلمات عن نفس ديك الجن زوبعة من الحفيظة والنقمة ، وضعضعت توازنه ، فسار وابن عمه على عجل حتى وصلا المنزل فولجاه بخطوات وئيدة الى أن بلغا مقصورة ورد فلمحا فيها نوراً وأشار أبو الطيب الى ديك الجن ان يتريث قليلاً حتى بلغ الباب قفزاً على رؤوس أصابعه ولمح من فروجه بكراً جاثياً على ورد وهي مغمى عليها لهول المصاب الفادح ، فطوراً يمسك بيدها ويهزها امامها أستفيق ، وآخر يبلل وجهها بالماء البارد علها تصحو من غيبوبتها . لكن الضربة قاصمة والرزء جلل . فعمد بكر ، بعد أن فشلت طرق اسعافه الى وضعها على سريرها وشرع في دلك جبينها وذراعيها كيما يعود اليها وعيها !

وفي تلك اللحظة أدرك ابو الطيب ان القدر ساعده بأكثر مما توقع ... على تنفيذ أحبولته فأشار على ديك الجن بالدنو من خصاص الباب مشيراً بسبابته الى الفريسة .

نظر ديك الجن الى الداخل وعيناه تقدحان شرراً ، ومعاطسه تنفث شروراً ، وحانت من بكر التفاتة الى الباب فلمح ديك الجن (الميت — الحيّ) فجمد الدم في عروقه وانتصب شعر رأسه ، وشاعت الرعدة في جسمه ، ظناً منه انه يشاهد طيف صديقه الذي راح فريسة الجناة واللصوص ، فرفع يده عن جبين ورد مذعوراً مما يرى ... وقد عقد الخوف لسانه . . . حتى لم يعد يقوى على مكاشفة ورد بوجود بعلها حياً واقفاً بالوصيد . .

هنا لم يبق للريب موضع . والصبر منزع في نفس الشاعر وقوسه . بعد أن شاهد

ورداً مستلقية على سريرها ويدى بكر تهوّمان على جبينها وصدرها العاصر مكشوف عار لعيني بكر وهو الذي كان مناط أمله ومستودع سره ، وحبة سريرته ، يخون اليوم صاحبه في أعز أمانيه، ويمعن في زوجه عبثاً ولهواً ! أفبعد هذه الصور المتدافعة المترافعة يتريث ديك الجن في امتشاق السيف غسلاً للفضيحة ودفعاً للعار ! ؟

لم تكن إلاّ لحظة حتى اخترط الشاعر سيفه وأهوى به على ورد وبكر وهو يقول :

« هذا جزاء من ينكث العهد وينقض غزل الوفاء ! فالى جهنم وبئس المصير ! » .

ليتني لم أكن لعطفك نلتُ   والى ذلك الوصال وصلتُ !
فالذي مني اشتملت عليه   بالعار ما قد عليه اشتملتُ
قال ذو الجهل قد حلُمت ولا أعلم اني حلُمت حتى جهلتُ
لائم لي بجهله ولماذا   أنا وحدي أحببت ثم قتلتُ
سوف آسى طول الحياة وأبكيك على ما فعلتِ لا ما فعلتُ

وما هي إلاّ لحظة حتى أخذ ينشد زوجه وهي مسجاة على فراش الموت قوله :

لك نفس مؤاتيه   والمنايا معاديه
أيها القلبُ لا تعد   لهوى البيض ثانيه
ليس برق يكون أخلبَ من برق غانيه !

وتفجّر الشاعر دمعاً ورثاء لفتاة أحلامه فمنق ينشدها وهي جثة هامدة أبياتاً متنوعة القافية والوزن ومن ذلك قوله :

وزنبقة عذب الثنايا وجدتها   على خطة فيها لذي الاب مألف
فأصلتُ حر السيف في حر وجهها   وقلبي عليها من جوى الوجد يرجف
تخرّت كما خرّت مهاة أصابها   أخو قنص مستعجل متعسف
سيقتلني حزناً عليها تأسفي   وهيهات ما يجدي عليّ التأسف

حدثت فصول الفاجعة المروعة على مرأى من الزنيم الخبيث أبي الطيب الذي كان يرقص فرحاً لنجاح الشرك الذي نصبه لزوجة أمينة تحمل في أحشائها ثمرة حب طاهر ولصديق وفيّ كان المثل الأعلى في المروءة والمودة ، وبعد أن شفى غليله الملهوب برشاش

الدم المطلول انسلّ في جنح الظلام الى داره جذلاً مهللاً !

« اضطربت نجوم الليل الساهية [1] وأومضت عيونها الناعسة وميض الحزن و شدّ اصفرارها لما لمحته من شقّ الباب المفتوح — باب مقصورة ورد حيث كانت السعادة بالأمس مورقة مزهرة فجاء منجل القضاء وحصدها قبل أن تينع وتثمر

وهبّ نسيم لطيف انقلب بعد قليل ريحاً عنيفة صدمت الباب فأطبقته بشدة كأنها تريد أن تمنع عيون السماء من رؤية جريمة ارتعدت لها سكينة الأفلاك فأفاق ذلك الحزين من ذهوله المسموم على صوت إغلاق الباب ونظر الى جثة بكر المتبسمة أمامه على الارض ثمّ الى جثة ورد وأمسك بيدها كأنه يريد إيقاظها من سُبات لطيف وأمعن في النظر الى تلك القامة البارزة المحاسن التي لم يستطع الموت أن يشوّه جمالها وتجلى له في تلك الدقيقة جسم ورد ممدداً على المرج الأخضر بلا حراك بعد أن انتشله من النهر فحلّت مراجل حنقه لدى تصوره أن سواه كان يضم ذلك الجسم ويداعبه فنظر الى فوق نظرة لو كانت لها قوة لهزت أركان السماء وأفلت يد ورد باشمئزاز فسقطت واهية متروكة وحوّل وجهه عنها وقد أوشكت أن تنبجس من مآقيه دموع اليأس والحنق — دموع لم يبكها آدم على جنته المفقودة ولم يذرف ابليس مثلها على سمائه الضائعة !

ثمّ تغلبت عليه عاطفة لطيفة أغرقت حنقه ويأسه في بحر من التناسي فشعر بميل واندفاع الى أن يكب على جثة حبيبته فيقبلها عضواً عضواً ، ويغسل بدموعه آثار الدم على الجرح الواسع في صدرها مستغفراً ، نادماً متوجعاً متضرعاً ناسياً ما حدث ، أفليس هو الذي كان يؤمن بأن الجمال والكمال واللذة حصرت في كيان زوجته اللطيفة كما تحصر الخمر في كاس تجمع بين اللذة والطرب والرقة ، أليس هو الذي كان يتُوق الى جرعة من تلك الكأس ؟ ولكنه أهرقها وحطمها بيده !

فوضع يده على قلبه المتفطر وقد علم أن المحور الذي كان كيانه يدور حوله انكسر وتحطّم ورأى العوالم التي كانت تسير في فلك حياته تتلاطم وتتساقط الى الهاوية ، وشاهد الحاضر القاسي يمزق بيراثينه جسم المستقبل اللطيف شذر مذر وأبصر دم الأيام المقبلة

(١) المجموعة الثالثة ص ١٣١ و ١٣٢ و ١٣٣

يتطاير في كل الجهات والشمس تنكسف وحوت الموت والظلام يبتلع ذرات الأثير المنيرة » اه

هنا فاضت نفسه ألماً آثار الشعر وفجّر الدمع وكلاهما عصارة الكآبة فقال مخاطباً ورداً :

ليتني لم أكن لعطفك نلتُ والى ذلك الوصال وصلتُ !

الى آخر الأبيات التي مرّت بنا .

وتذكّر ديك الجنّ ما ألمّ بقلبه المتوف باسم ورد والصداح بذكرها فاسترسل يخاطبه :

لِمَ اضطرابك ياقلبي وعهدي بك هادئاً في المُلمات ! صبوراً على عوادي الحياة !أراك تخفق بشدة واسمع وجيبك يدقّ في حنايا أضلعي ! أراك تلاطم أمواج نفسي وأنت تعرف ضعفي وجبلتي .

أجبني يا قلبي ! فقد أصبحت يائساً من الحياة وتراني أنظر إليها بمنظار شديد السواد !

أجب ! يا قلب فسكوتك يعذب جسمي !

ها هي نار شديدة الضرام تتغلغل في أحشائي ، ولم يبقَ في الجسم الناحل خيط أمل ورجاء ! وما من سبيل للعيش والدم يتدفق من صدر ورد !

ها هو القلب يتكلم بعد أن يئس من الحياة فاسمعوه يتمتم :

لم أتمتع بالوجود طويلاً !

وكل سعادتي كانت فيه آمالاً وأحلاماً !

وهأنذا أقضي قبل أن أحقق بعض آمالي وأحلامي !

« ثم التفت نحو (١) جثة بكر وقد نسي ما تصور من خيانته ، وتمثله بقربه خلاً وفياً يقاسمه السراء والضراء فقال يخاطب روحه الهائمة :

قلْ لمن كان وجهه كضياء الشمس في حسنه وبدر منير

كنت زين الأحياء إذ كنت فيهم ثم أصبحت زين أهل القبور

خنتني في المغيب والخون نكر وذميم في سالفات الدهور

(١) مجموعة الرابطة القلمية ص ١٣٣ و١٣٤

فغفاني سيفي وأسرعَ في جزّ التراقي قطعاً وحزّ النحور
بأبي أنت في الحيـاة وفي المو ت ويوم الثرى ويوم النشور !

وأنى الليل متعثراً بأذياله يكفكف عبراته تاركاً وراءه ديك الجن بين الجثتين ، طوراً يبكيهما وطوراً يعاتبهما ، وطوراً يهم أن يدوسهما بقدميه حنقاً وتعفياً »

انثالت هـذه الصور والأفكار على خاطر ديك الجن فبارح المكان وهو يردد الآية الكريمة : « الأخِلاَّءُ يَوْمَئذٍ بَعضُهمْ لبعضٍ عدوٌ إلاَّ المتقين [1] ! » .

(١) سورة الزخرف

صدى الجريمة

— ٤ —

استيقظت حمص من غفوتها على وشوشة فمفمغة لجهارة . فهي تتحدث ذلك الصباح عن فاجعة تسربت أنباؤها الى بعض القصور ثم ما لبثت ان غزت المدينة عرضاً وطولاً ، وتناهت الى السلطان الذي اهتز للجريمة حيث ان القتيلين من عيون الاسر الحمصية !

أما ديك الجن الذي خضب سيفه بنجيع الضحيتين فقد ركن الى الفرار حيث اختفى في دار صديق له بدمشق خشية ان تنوشه سيوف الثائرين ، ولبث في حمى صديقه الى أن شفع له لدى السلطان محبه الامير احمد بن علي الهاشمي فبعث ذلك بأمره الى والي دمشق طالباً تأمين شاعر حمص وتطمين خاطره القلق فرجع ديك الجن الى حمص دامع الطرف ، مغموم الخاطر ، جزوع النفس :

« يبكي على روض غرام (١) ذوى ما فيه من زاهر ومن ريّق ! »

وبعد ان هجعت بلابل مخاوفه ، ذكر اخوانه بموت أبي الطيب إثر داء انتاب صدره وقد صرح قبيل وفاته ، أمام رهط من الشهود ، بتفاصيل المؤامرة التي نسج خيوطها وغزل فتائلها انتقاماً من بكر وورد وما دسه عليهما من شائعات لفقها شفاء لغليله من شاعر حمص والعاصي وهو الخصم القديم !

وبكر صديق ديك الجن والضالع معه منذ الطفولة ، وكان لهما من الليالي الملاح والهوى الفضاح . ما تذكره عذارى حمص في سالفات العصور ، وورد تلك الزهرة التي صانت عرضها عن لوثة أبي الطيب الذي نصب لصيدها الحبائل .

سمع ديك الجن بهذه الاعترافات ووقف على تفاصيل المؤامرة فدارت به الدنيا دورتها حول الشمس فأنشد على الفور نادماً على قتلها :

يا طلعة طلع الحمام عليها وجنى لها ثمر الردى بيديها

....

(١) من قصيدة للشاعر النابغ المرحوم فوزي المعلوف

روّيت من دمها الثرى ولطالما ... روّى الهوى شفتيّ من شفتيها
قد بات سيفي في مجال وشاحها ... ومدامعي تجري على خديها
فوحق نعليها وما وطئ الحصى ... شيء أعز عليّ من نعليها
ما كان قتليها لأني لم أكن ... أبكي إذا سقط الذباب عليها
لكن ضننت على العيون بحسنها ... وأنفت من نظر الحسود اليها

ارتجل ديك الجن هذه المرثاة (١) التي تنضح أبياتها بالدمع الغزير وكاد يودع عقله لولا عصبة من اخوانه عقدت النية على مسامرته والترفيه عنه .

وكانت خاتمة المطاف ان وجد السلوى والعزاء في الخمر بعد أن جبل كأسين إحداهما من تراب قبر ورد والاخرى من تراب قبر بكر وعندما يجلس للغبوق كان يضع كأس ورد عن يمينه وكأس بكر عن يساره ، مترعتين خمراً ثم يقبل على شرب كأس ورد ظناً منه أنه يلثم شفتيها ويتصورها جالسة بجانبه تقاسمه على مائدتها لذاذات الهوى وتسامره بأحاديثها الذاتية ودعاباتها المستملحة فينشدها راثياً قوله الذي مرّ بنا ومنه :

يا طلعة طلع الحمام عليها ... وجنى لها ثمر الردى بيديها

ثم ينقلب الى كأس بكر ويلتفت الى يساره مكفكفاً دمع عينه السخين ومنشداً :

يا سيف ان ترم الزمان بغدره ... فلأنت أبدلت الوصال بهجره
قمر أنا استخرجته من دجنة ... لبليتي وزففته من خدره
فقتلته وله عليّ كرامة ... ملء الحشا وله الفؤاد بأسره
عهدي به ميتاً كأحسن نائم ... والحزن ينحر مقلتي في نحره
لو كان يدري الميت ماذا بعده ... بالحي حلّ بكى له في قبره
غصص تكاد تفيض منها نفسه ... وتكاد تخرج قلبه من صدره

وفي بعض الروايات ان أخت بكر كانت تتربص بديك الجن كي تفتك به وحينما سمعته يرثي أخاها متأسفاً بهذه الابيات أجابته بقولها :

(١) يعد مؤرخو الادب العربي ديك الجن زعيم الرائين وفي هذا يقول صاحب (العمدة) : «أبو تمام من المعدودين في اجادة الرثاء لكن ديك الجن أشهر منه في هذا الباب وله طريق انفرد بها »

يا ويح ديك الجن بل ابْـاله ماذا تضمن صدره من غدره !
قتل الذي يهوى وعمّـر بعده يا رب لا تمدد له في عمره !

ثم يسرف في اللوعة والبكاء حتى تختلط خمرته بدموعه فيخاطب ورداً بقوله :

أساكن حفرة وقرار لحد مفارق خلة من بعد عهد
أجبني ان قدرت على جوابي بحق الودّ كيف ظللت بعدي ؟
وأين حللت بعـد حلول قلبي وأحشائي وأضلاعي وكبدي ؟
أما والله لو عاينت وجدي إذا استعبرت في الظلمات وحدي
ومُـدّ تنفسي وعـلا زفيري وفاضت عبرتي في صحن خدّي
إذاً لعلمت أني عن قريب ستحفر حفرتي ويُـشق لحدي
ويعذلني السفيه على بكائي كأني مبتلىً بالحزن وحدي
يقول : قتلتهـا سفهاً وجهلاً وتبكيهـا بكاءً ليس يُجـدي
كصياد الطيور له انتحاب عليهـا وهو يذبحهـا بحدّ

ثم يناجي بكراً كأنه يشاطره رأيه في ذمّ الزمان ووصف ريبه وعواديه قائلاً :

ما لامرئ بيد الدهر الخؤون يد ولا على جلد الدنيـا له جلد
طوبى لأحبـاب قوم إذ أصابهم من قبل أن عشقوا موت فقد سعدوا
وحقهم انه حقٌ : أضنٌ به لا ينفـدنّ لهم دمعي كما نفـدوا
يا دهر إنك مسقيٌ بكأسهم ووارد ذلك الحوض الذي وردوا
والخلق ماضون والأيام تتبعهم تفنى ويبقى الإله الواحد الصمد

على أن الشراب لم يطرد عن الشاعر رؤى أحزانه ، وطيوف أشجانه ، فكان يصوّر نفسه ، بعـد أن تتملكه سورة الخمر ، في منفى ناءٍ ، بعيداً عن الأهل والخلاّن ، وإذا بأصوات تنبعث من جوف الصخور هاتفة به هتاف اللوم والتثريب

ما بالك اخترطت سيفك وأهويت به على زوجة ضحّـت بالعرف والعادة ، وداست التقاليد ، ولبّـت هتاف القلب ونداء الحب ،وضلمت معك في دينك الحنيف ؟!

وعلى صديق كان في ولائه وإخلاصه لك أوفى من السموأل ؟!

فعلامَ هدمت برج سعادتك يا قاسي !؟

ولِمَ خنقت بلبل شدوك أيها المأفون !؟

***

كانت هذه الأصوات تتراءى للشاعر كلما حسا شراباً وتملكته سورة الصهباء ، فتتشنج أعصابه ويجمد الدم في عروقه حتى يستفيق صحبه على نشيجه ، فيأخذوه الى فراشه حيث يستسلم للكرى ، ويمضي النهار نائماً !

وعند ما تلمّ إلسهة النهار مراسيها ، وتتوارى في الأفق يتداف إليه سُمّاره ويحلقون حول خوان الشراب ، فتتراقص أمامه تلك الصور عينها ويأخذ بالنحيب حتى مطلع الفجر !

كأن قلبي إذا تذكرها فريسة بين ساعدي أسد

هكذا كانت حيـاة ديك الجن منذ أصاب سهمه القاتل قلبين ينبضان له مودة وولاء ، وهكذا لبث ضميره معذباً ، دائم القلق والاضطراب ، حتى شعر ذات يوم بدنو أجله فأنشد :

أما والله لو عانيت وجـدي إذا استعبرت في الظلماء وحدي

ومُـدَّ تنفسي وعلا زفـيري وفاضت عبرتي في صحن خدي

إذاً لعلمتَ أني عن قريب ستحفر حفرتي ويشقّ لحدي

كرّت الأيام ومرّت الأشهر على خيمة ديك الجن المزدوجة ، وهو فريسة الدمع الهتون وأفاق ذات يوم على الربيع يكسو سهول حمص ومروجهـا فرأى الغدير والبلبل والساقية وشقائق النعمان والطبيعة كلها ضاحكة باسطة ذراعيها مرحّبة بفصل يدغدغ نسيمه الأجفان ويبعث الحيوية والنشاط في نفوس مكدودة وأطراف منطو بعضها على بعض من لفحات الشتاء القارص ، عندها أحسّ شاعر حمص أن قلبه طليق من كل قيـد وأسار ، فمدّ يده الى الحياة وابتسم للنور فأنطقه شيطان شعره قصيداً وأنشد :

نقّـل فؤادك حيث شئت فلن ترى كهوًى جديد أو كوصلٍ مقبل

ما لي أحسّ الى خراب مقفر دُرست معالمه كأن لم يؤهل

وما كاد يستقبل هذه الصورة الحلوة ، صورة السلوى والعزاء ، ويرى نفسه في أحضان الطبيعة الضاحكة حتى زايله شعوره وعادت اليه أحزانه كلما ردّد اسم ورد واستذكر أياماً

مشتهاة مرّت كنغمة الغناء العذبة أو كلحن الموسيقى الجميل ، وعاوده شيطان شعره فأنشد :

سأطوي الهوى تحت الحشا طي نازح قضى وطراً ان لم تَبُحْ عبراتي
وأعلم ان ما فات ليس براجع وان قريباً كل ما هو آت

انثالت هذه الذكريات المروّعة على مخيلة ديك الجن فآب الى وكره وأسرف في شرابه حتى اذا انتابته سورة الحميّا لبث ، في غسق الليل ، يرقب خيال ورد الذي كان يتراءى له غير ان طيفها لم يوافه تلك الأمسية عندها تفجرت عيناه بالدمع السخين وراح ينشد قلبه الكسير من شعره :

أما آن للطيف ان يأتيا وان يطرق الوطن الدانيا
واني لأحسب ريب الزمان يتركني جسداً باليا
سأشكر ذلك لا ناسياً جميل الصنعاء ولا قاليا
وقد كنت أشكره ضاحكاً فقد صرت أشكره باكيا

وما لبث ان أسرف في عويل لاعج اهتزت له جوارحه المتألمة وكانت روحه تفيض مع كل عبرة وشعره ينزف من جرح لا يدرك الناس أغواره !

وكأني بربة الشعر قد أحست ليلتئذ بقرب مصرع الهزار المنتحر فسخت بالوحي وشرع يردد أبياتاً من مرثاة قالها في مصرع ورد :

لو كان يدري الميت ماذا بعده بالحيّ حلّ بكى له في قبره
غصص تكاد تفيض منها نفسه وتكاد تخرج قلبه من صدره

وله فيها على طريق الحوار :

جاءت تزور وسادي بعدما دفنت فبتُ ألثم خداً زانه الجيد
وقلت : قرّة عيني قد بعثت لنا فكيف ذا وطريق القبر مسدود ! ؟
قالت : هناك عظامي فيه مودعة تعيث فيها بنات الارض والدودُ
وهذه الروح قد جاءتك زائرة هذي زيارة من في القبر ملحود !

وأبلغ ما قيل في شدة الحب ونهـاية التقرب الى المعشوق ما أنشده ديك الجن بعـد ان وارى (ورداً) رمسها وأضحت أثراً بعد عين :

بانوا فصار الجسمُ من بعدهم ما تصنع الشمسُ له فيّـا
بأي وجـه أتلقـاهمُ اذا رأوني بعدهم حيّـا ؟ !

ولما انبلج الصباح وأرسلت ذكاء خيوط أشعتها على الـكون وجد ديك الجن جثة هامدة وقد سالت روحه مع دموعه وزفراته .

* * *

« هذه قصة الشاعر الحمصي [١] عبد السلام بن رغبـان الملقب بديك الجن الذي أحبّ وقتل وندم ثم مات روتها لي همساً أمواج العاصي في أصيل يوم من أيام الصيف عند ما كنت أطالع بعض أشعار في كتاب قديم وأكدتها لي نسمات الوعر العاتيـة ، وتمتمت بين أنات الخرير وزفرات الهزير صوتاً خفيّـا يقول :

إن الحياة بأسرها تدور حول محور ذي قطبين هما : الحب والموت ! » إنها قصة حب وبغض ووشاية وثأر ضمن اطار من الدمع والدم !

---

(١) نسيب عريضة في (مجموعة الرابطة القلمية) ص ١٤٠.

مصادر البحث

---

١ — الاغاني — الجزء الثاني عشر — لابي الفرج علي بن الحسين الاصبهاني

٢ — ديوان المعاني — الجزء الاول والثاني لابي هلال العسكري

٣ — الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء لابي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني

٤ — كتاب عجايب المخلوقات وغرايب الموجودات للامام زكريا بن محمد بن محمود القزويني

٥ — حياة الحيوان الكبرى — الجزء الاول للشيخ كمال الدين الدميري

٦ — نهاية الأرب في فنون الأدب — الجزء الثاني والثالث والرابع — للنويري

٧ — وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان

٨ — كتاب الوزراء والكتاب لابي عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري

٩ — العمدة لابن رشيق القيرواني

١٠ — محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصبهاني

١١ — المختار من شعر بشار للخالديين

١٢ — تاريخ الآداب العربية لكارل بروكلمن

١٣ — دائرة المعارف الاسلامية

١٤ — مجموعة الرابطة القلمية طبع نيويورك

١٥ — شعراء الشام لخليل مردم بك

ابراهيم الأبياري

رسالة الشاعر

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر

١٩٤٩

رسالة الشاعر

تقدمة

الحياة أهداف ، والفلاح معقود بناصية ذوي الحزْد ، ومع الجَنَق عن الجادة وخبط العشواء ، لا إلى غاية ، الانحلالُ والهُون .

لَقِن ذلك الناهضون بأعباء الأمم ، فتبينوا مقاصدهم وعبَّدوا السبل والمنافذ إليها . فانساب الناس فيها انسياب صغار الجداول ، لا تلبث أن تلتقي عن كثب في مجرى واحد .

لم يخص الداعون ناحية دون ناحية ولا فعلاً دون قول ، ولا جدًّا دون لهو ، إلاّ جعلوا منه سبيلهم إلى منشود غايتهم .

هذا مع الوضع المرسوم ، والقصد المُرسَى . أما مع التوزع والبلبلة ، وفقدان المعالم والغايات ، فالأمور الى شتات .

وتَميز أُمةٌ عن أُمة ، أُولاهما قد استوت على قدميها ، والثانية لما تحسّ مكان القدمين من جسمها ، بقُرب المَيزة من أهدافها ، وجمعها آحادها على مُرادها .

واذا رأيت أنّا لازلنا كابين على اليدين والفم ، فرجعُ الأمر في ذلك إلى أنّا لمّا نتبين إلى اليوم أغراضنا في جلاء ووضوح ، أو لأنّا أضلّتنا السُبل الى ما نريد .

*

تحمل الألسنةُ في ذلك التوجيه الشيء الكثير ، بما يصدُر عنها من قول ، يكون نثراً ويكون شعراً ، تتلقاه الآذان ، وتَعيه القلوب ، فتنقاد له وتهتدي بهديه .

والنثر والشعر ، وإن صدرا للقول وجماله ، وغيرا لترويح النفوس ونزهة الخواطر ، أو لغير هذا وذلك من لُبانات الناثرين والشاعرين وأوطارهم ـ وأكاد أقول : لحياة الأدباء خاصة ـ فهما لذلك الغرض الاجتماعي أجدر ، وبه أولى ، وعليه أقوى .

وما أقْمَنَ الأديب أن يعرف مكانه هذا من الصفوف ، إذ الناس غيره كلٌّ الى جهد خاص معنيٍّ به ، لا يلتفت معه إلاّ في القليل لهذا المعنى الاجتماعي ، الذي به النهوض والسبق ، والذي سلاحه القول الجاذب ، واللسان الخالب .

وياكُثر ما نرى هؤلاء الذين تخلفوا عن الاتصال بالحيـاة الاجتماعية مستهلٌّ حياتهم ، سرعان ما يهبُّون ، حين يجدون لهم بين أممهم مكاناً تتهيأ لهم أسبابهُ ، فيؤدّبون ألسنتهم على القول ، وأقلامهم على الكتابة . وما بغيرهما يأخذ الناس عنهم ويصيخـون لهم .

* * *

يجهل الأديب حقَّ أمره إذا ظن أنه لغير المجتمع يعيش .

وينسى الأديبُ نفسه إذا لم يؤمن أنّ ماله في غير هذا فهو فَرجة المتضيق ، وتندُّر المتلهـي ، وإراحة المستروح .

*

نريد أن نرى للأدب سيادة ، ولا سيادة للأدب إلاّ أن يعرف الأدباء أن مكانهم مع القادة والزعماء : ولن تنتهي إليهم مقاليدُ الأمور ، إلاّ إذا كانت لهم الصرخة الأولى ، والكلمة السابقة ، وعاشوا للمجتمع من حولهم ، ثم لفكرة ينفحون عنها ، وكان لهم مع هذا إيمان وإقدام ، ثم نفوس كبيرة لا تباع ولا تشرى .

*

هذه هي رسالة الكاتب أو الشاعر في الحيـاة . ولنا في الشعر كلمة ، إلى عودة قريبة سنقول فيها عن النثر أخرى .

موازين الشعر

خضع الشعر لموازين ، هي مع الحاضر على غرارها في الماضي ، مع تلوين في الأسلوب ، وتحوير في الفكرة . ذلك عدا نظرات خاطفة جريئة جاءت على غير هذا النهج الموروث في قدر الشعر وتقويمه .

وقد رأينا قدامة بن جعفر في كتابه « نقد الشعر » ، والقيرواني أبا علي الحسن بن رشيق في كتابيه « العمدة » و « قراضة الذهب » ، وابن عبد ربه أبا عمر أحمد بن محمد في الزمردة الثانية من كتابه « العقد الفريد » ، والعسكري أبا هلال الحسن بن عبد الله في كتابه « الصناعتين » . رأينا هؤلاء جميعاً ومن لفّ لفّهم ، مع هذه الموازين لا يحورون عنها .

فهم إذا نظروا للشعر نظروا إلى عروضه ووزنه ، أو غريبه ولغته ، أو معانيه ومقاصدها ، ثم مازوا بعد هذا جيّده من رديئه .

ذلك شيء ألفناه عنهم ، وتأثرناهم فيه ، مع خروج قليل على ما رسموه ، لا يقفنا منهم ببعيد .

وفي خَلدي أن هذا الفن ، فن نقد الشعر ، قعّد قواعده الأولى الشعراء المتقدمون أولاً ، بما ثار بينهم ، ثم جاء العلماء في أعقاب الشعراء ، فجمعوا ما تناثر من ذلك وضموا إليه مآخذهم ، ومن هذا وذاك كان هذا الفن .

* * *

نقصد بما ثار بين الشعراء نحو ما كان بين امرىء القيس وعلقمة بن عبدة التميمي حين نزل علقمة بامرىء القيس ، وكان صديقاً له ، وتلاحيا أيهما أشعر ، وانتهيا إلى أن ينعت هذا فرسه وذاك فرسه ، وارتضيا أمّ جُندب ، امرأة امرىء القيس . لتفصل بينهما. فقال امرؤ القيس :

خليليَّ مُرَّا بي على أم جندب ... نقضِّيَ لبانات الفؤاد المعذَّبِ

إلى أن قال :

فللسوط ألهوبٌ وللساق دِرَّةٌ ... وللزجر منه وقعُ أخرجَ مُهْذِبِ

وقال علقمة :

ذهبتَ من الهجران في غيرمذهب ... ولم يكُ حقًّا طول هذا التجنبِ

الى أن قال :

فأدركهنَّ ثانياً من عنانه ... يمرّ كمرّ الرائح المتحلب

فقالت أم جندب لامرىء القيس : علقمة أشعر منك . قال : وكيف ؟ قالت : لأنك جهدت فرسك بسوطك وزجْرك ، ومريته فأتعبته بساقك . وأما علقمة فأدرك فرسه ثانياً من عنانه ، لم يضربه بسوطه ولم يتعبه .

*

ومثل هذا ماكان بين النابغة وحسَّان بسوق عكاظ ، حين أنشد حسان النابغة :

لنَا الجفنات الغرُّ يلمعنَ في الضحى ... وأسيافنا يقطرنَ من نجدةٍ دما

ولدنا بني العنقاء وابنيْ محرِّق ... فأكرِمْ بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال له النابغة : أقللت جفانك وسيوفك — لأنه قال : جفنات ، وهي لأدنى العدد ، والكثير جفان . وقال : وأسيافنا وأسياف جمع قلة ، والكثير سيوف — وقال له : فخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك — لأنه قال : ولدنا بني العنقاء وابني محرق . فترك الفخر بآبائه ، وفخر بمن ولد نساؤه .

*

وقريبٌ من هذا وذاك ماكان من أهل المدينة حين قدم عليهم النابغة فأسمعوه على لسان قَينة مغنية شعره الذي أقوى فيه :

سقط النصيفُ ولم تُرد إسقاطه ... فتناولتْه واتّقتنا باليدِ

بمخضّب رَخْص كأنّ بنـانه عَنَم يكاد من اللطافة يُعقدُ

ومدت الجارية في الضربين صوتها . فانتبه ولم يعد الى ما وقع فيه .

*

ويذكرون أن الذي هاج الشر بين جرير وعمر بن لجأ ، أن ابن لجأ حين أنشد أرجوزته التي يقول فيها واصفاً إبله :

تَجُرُّ بالأهون من إدنائها جرّ العجوز الثني من خفائها

قال له جرير : أخفيت مَرّها . قال : فكيف أقول ؟ قال : قل :

جرّ العروس الثني من خفائها

فقال له ابن لجأ : لقد قلتَ أسوأ من هذا . قال : وما قلت : قال : قولك :

وأوثق عند المردفات عشيّة لحاقاً إذا ما جرّد السيفَ لامعُ

فجعلتهنّ مُردفات غُدوة ، ثم تداركتهن عشية وقد نُكِحن .

* * *

ذاك شيء مما عاب به شاعرٌ شاعراً ، أو تُرك الحكم فيه لغيرهما يفصل بينهما . وقد رأيته لا يخرج عما أجملنا أولاً ، وأنّ الأمر فيه جرى على النسق المعهود .

أما من مآخذ العلماء على الشعراء ، فقد أدركوا على عمرو بن أحمر الباهليّ قولَه يصف المرأة :

لم تدر ما نسجُ اليرنْدج قبلها ودراس أعْوص دارسٍ متجدّد

فقالوا : ظن اليرندج ، وهو جلود سود ، شيئاً يُنسج .

وأدركوا على لَبيد قوله :

ومُقام ضيِّق فرّجته بمقامي ولساني وجدَلْ

لو يقوم الفيل أو فيّاله زلّ عن مثل مُقامي وزحل

وقالوا : ظن أن الفيّال أقوى الناس ، كما أن الفيل أقوى البهائم .

وأخذوا على الأخطل قوله في رجل من بني أسد يمدحه ، وكان يُعرف بالقَيْن ، ولم يكن قيْناً ، فقال فيه :

نِعم المجير سماك من بني أسد ... بالمَرْج إذ قتلت جيرانها مُضرُ
قد كنت أحسبه قيناً وأنبؤه ... فالآن طُيِّر عن أثوابه الشرر

وقالوا : هذا مدح كالهجاء .

وأخذوا على أبي نُخيلة الراجز قوله في وصف المرأة :

مُريَّة لم تلبس المَرققا ... ولم تَذق من البُقول الفستُقا

فجعل الفستق من البقول ، وإنما هو شجر .

* * *

هذا قُلٌّ من كُثر من مآخذ العلماء على الشعراء ، وفيما أوردنا غَناء ، فكله من هذا وإليه .

على هذا جرى النقد وكانت هذه مادته . ولم نرَ جديداً عليه مع امتداد الزمن وانفساح الأجل .

وهذا لاشك جميل ، في ظله ضمان لسلامة الشعر ، وأمْن من سقطات الشعراء ، ولكن مثَلنا في هذا مَثل الجندي ، يقضي الى الأمد المضروب له أيامَه ، في حركات وسكنات ، ومن ورائه مؤدِّبوه يعدُّون عليه الهفوات ويُعِيدُونه بالإرشادات ، ثم يعود إلى حيث أتى ، ولم تكتب له في صحيفته الحربية كلمة .

لقد حذق الجندي الكرَّ والفر ، وأجاد أساليب الكفاح . ولكنه لم ينزل إلى ميدان يسجل فيه بتلك اليد المدربة ، والسيف المشحوذ ، عملاً يكسبه المجد والفخر .

نعني أن الشاعر ليس عند الإجادة ينتهي أمره ، وليس مع الإفصاح يبلغ كل شيء .

هذا كله إعداد وتكوين ، وما رأيناه جاء من النقد جاء لهذه المرحلة وحدها من حياة الشاعر ، وما وجدنا بعدها لناقد نقداً .

كأنَّ كل همِّنا هو أن ننشئ قائلاً مبرَّأً من الآمة ، سليماً من العاب ، بعيداً من الذام.

ثم ماذا يراد بعد هذا من القائل؟ وأي شيء نرجوه منه؟هذا ما لم نلتفت إليه إلاّ في قليل من أمر قد يكون متصلاً بما قبله .

* * *

للشاعر الذي له ببيانه ملك العقول ، والولوج الى القلوب « رسالة » علينا أن نحاسبه عليها في نقدنا له .

وليست هذه الرسالة بأقل شأناً من النظر إلى جودة بضاعته ودقة صناعته ، بل إن شاعراً يحمل إلى ضعف بيان ، رسالةً يسعى إلى أن يجمع الناس عليها ، خير عندي من شاعر يهذي بقول معسول ، وكلام جيد الصوغ ، دون أن يهدف الى هدف .

* * *

الشاعر والكاتب من حماة البنيان ، ومثبتي الأركان ، والكاشفين الغشاوات ، والمبصرين بالهدايات ، والجامعين الى الرأي ، والداعين الى ما يدينون ، والمنفرين عمّا يستهجنون ، بما وهب الله لهم من قول شهيّ ، ولفظ طلي ، له وقْعُه في النفس ، ولفته للحس .

فإذا رأيت شعراً أو نثراً في غير رسالة يحمل لواءها الشاعرُ والكاتب ، فتلك شجرات لم تثمر ، لها الاسم وما حملت غيره .

وهذه جملة من معروفي الشعراء ، في الحديث عنهم ما يفصّل هذا الإجمال ، ويكشف عما نريد .

أمرؤ القيس

دعني من الحديث حول اسمه ، وما أضيف اليه من ألقاب ، ودعني من وقوفه على الديار، وبكائه على الأطلال ، وسبقه الشعراء في تشبيه الفرس بالعقاب ،وقلوب الطير بالعناب، والنساء بالظباء ، فذلك له مكان آخر .

وخلِّ بيني وبين أن أجمل لك نشأته ، وأوجز حياته في غير إخلال . فنحن على أن نعرف امرأ القيس صاحبَ رسالة ، أحرص منّا على أن نعرفه في صور جميلة من القول .

* * *

للمؤرخين قصة في نزوح آل امرىء القيس الكنديين عن اليمن الى نجد . يفتتحونها بتلك الفوضى التي شاعت في بكر ، ووقف الناس فيها وجهاً لوجه ، خصوماً يتقاتلون ، لا أمن لهم الى سلطان يحميهم ، ولا طمأنينة الى رئيس منهم يدفع العادية عنهم ، ويردّ كيد الأقوياء وغلبة السفهاء .

فرأى ذوو الرأي منهم أن يجعلوا الأمر الى سلطان من غيرهم ، يُعطونه الشاة والبعير ، يعيد الحياة آمنة مطمئنة ، بعد أن ملئت ذعراً واضطراباً ، ويسوس الناس بالعدل ، بعد أن فقدوه في ظل من وَلي عليهم من ذوي قُرباهم .

فأتوا « حسَّاناً » تُبَّع اليمن . فملّك عليهم « حُجراً » آكل المرار ، من أجداد امرىء القيس . وبحُجر هذا بدأت هذه الأسرة الكندية تنزل « نجد » ، وكانت لحُجر جولات مع المناذرة ملوك الحيرة ، والغساسنة ملوك الشام ، في جُند من بكر ، كُتب له معها النصر . فالتفّ البكريون حوله ، واجتمعوا على حُبه وطاعته .

ومات « حُجر » فخلفه ابنه « عمرو » يسوس أمر « كندة » . ثم مات « عمرو » فولي بعده ابنه « الحارث » فغزا الحيرة ، وأخرج منها المنذر ، مستعيناً بقُباذ ملك الفرس ،

وكان يجد على «المنذر» حين أبى أن يدين معه «بمزدك» .

عزّ الحارث وعلا شأنه ، وغدا مقصوداً في الملمات ، مطلوباً في النجدات . يُطلب رضاه ، ويُشترى جواره .

* * *

وتسوء الحال بين قبائل نزار ، كما ساءت من قبل في بكر ، فيهرع رجالهم الى الحارث يسألونه أن يولي عليهم ملكاً من أبنائه ، يضبط أمرهم ، ويقيم معوجهم ، ويجعل الأمور الى ثبات واستقرار .

فيفرق الحارث أولاده فيهم . فيصبح «حُجر» والد امرىء القيس ، على بني أسد وغطفان ؛ و «شرحبيل» على بكر بن وائل وبني حنظلة وطوائف من بني دارم ، من تميم والرباب ؛ و «معد يكرب» على بني تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بني دارم بن حنظلة ؛ و « عبد الله » على بني عبد القيس ؛ و « سلمة » على بني قيس .

وفي نحو سنة ٥٤٠ م مات « قباذ » وخلفه « أنو شروان » ، ولم يكن مزدكيـًا كأبيه ، فلجأ إليه « المنذر » يستنصره على « الحارث » الذي شايع « قباذ » على المزدكية ويطلب « أنو شروان » « الحارث » فيخرج هائماً على وجهه .

وفي بني كلب توافيه منيته . فيقضي بيد « كلب ، كما زعمت « كلب » ، أو بفلذة من كبد طي ، كما زعمت « كندة » . وفي ذلك يقول الوليدُ بن عديّ الكندي :

فشمو ّوا فكان بِشواؤهم خبطاً له   إن المَنيّة لا تُجِلُّ جليلا

وتَهِي حالُ أبناء « عمرو » وتتفرق كلمتهم . فيقتل « سلمةُ » « شرحبيل » ، ثم يهلك سلمةُ على يد المنذر .

فأخذ سراتهم ، وصيرهم الى تهامة ، وجعل يقتلهم بالعصا ، فسُمُّوا عَبيدَ العصا . وأباح الأموال ، وحبس منهم عمرو بن مسعود ، وكان سيداً ، وعَبيد بن الأبرص الشاعر .

وقام عبيد بين يدي الأبرص يستلين قلبه ويقول :

يا عينُ فابكي ما بَني أسد فهم أهلُ الندامه
أهلُ القباب الحمر والنَّـ ـعم المؤبَّل والمدامه
في كل وادٍ بين يثـ ـرب فالقصور الى اليمامه
تطريبُ عانٍ أو صيا ح محرَّق أو صوتُ هامه
أنت المليكُ عليهمُ وهم العبيدُ الى القيامه
ذلُّوا لسوطك مثل ما ذلَّ الأشيقر ذو الخزامهْ

فرقَّ لهم حجر ، وبعث في إثرهم ، فأقبلوا . فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر « حُجر » فهجموا على قُبته . وأقبل عليه « عِلباء بن الحارث الكاهلي » ، وكان « حُجر » قد قتل أباه ، فطعنه فأصاب نساه .

ونادى بنو أسد : يا معشر كنانة وقيس ، أنتم إخواننا وبنو عَمِّنا ، والرجل بعيد النسب منّا ومنكم . وقد رأيتم ما كاد يصنع بكم هو وقومه .

فشدّوا على هجائنه فمزقوها ، ولفوه في ريطة بيضاء ، وطرحوه ظهر الطريق . فلما رأته قيس وكنانة انتهبوا أسلابه ، وأخذوا جواريه ونساءه ، وملئوا أيديهم بالغنائم .

* * *

هذا حديث الآباء وهذه أحداث أيامهم . فأين امرؤ القيس ؟

كان امرؤ القيس لما قُتل أبوه غلاماً قد ترعرع ، مقيماً في بني حنظلة ، لأن ظئره كانت امرأة منهم ، كما روي الهيثمُ بن عديّ . ويروي له عند ما طير اليه النعي :

يا لهف هند إذ خَطِئن كاهلا القاتلين الملكَ الحُلاحلا
تالله لا يذهب شيخي باطلا يا خير شيخ حسباً ونائلا

وفي رواية أخرى للهيثم ، أن امرأ القيس كان بدمّون من أرض اليمن ، في قصفه ومجونه . فلما أتاه نعي أبيه ، قال :

تطاول الليلُ على دَمُّون دمون إنا معشر يمانون

وإننا لأهلنا محبّون

أما عن خروج امرىء القيس الى دَمون ، فيروي ابن الكلبي أن « حجراً » كان طرد امرأ القيس وآلى ألاّ يقيم معه ، أنفةً من قوله الشعر . فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شُذّاذ العرب ، من طيء وكلب وبكر بن وائل . فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه ، وخرج الى الصيد فتصيد . ثم عاد فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقاهم وغنته قِيانه . ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء الغدير فينتقل عنه الى غيره ، حتى انتهى الى دمون ، وفيها وافاه خبر مقتل أبيه .

ويضيف الرواة سبباً آخر لغضب «حُجر» على ابنه ، لم يكن غير فُحشه واستهتاره واتهامه بزوج من زوجاته . ويقولون : إن «حجراً » دفعه الى مولى له يُدعى ربيعة ليقتله ويأتيه بعينيه . ولكنّ المولى كان يعلم مدى غضبة الآباء . ولانَ قلبه لامرىء القيس حين سمعه يقول :

لا تتركنّي يا ربيعُ لهذه وكنتُ أراني قبلها بك واثقا

فخلاه . وعاد الى أبيه بعيني جؤذر . ولما أحسّ جزع الأب كشف له عما أخفى . فضمّ « حجر » اليه ابنه ثم عاد فطرده .

* * *

هذا هو الشطر الأول من حياة امرىء القيس ، عاش فيه للهو والمجون ، وشغل بالنساء ، فيوماً مع أم مالك يقف على أطلال ديارها فيقول :

قفا نسأل الأطلالَ عن أمّ مالكٍ وهل تخبر الأطلالُ غيرَ التهالكِ

ثم يتشوّق الى أم جندب زوجه فيخاطب خليليه :

خليليّ مرّا بي على أم جُندب لنقضي لُبانات الفؤاد المعذّبِ

وتعروه ذكريات سليمى فيشكو :

يا بؤس للقلب بعد اليوم ما آبَهْ ذكرى حبيب ببعض الأرض قد رابَهْ
قالت سليمى أراك اليوم مكتئباً والرأسُ بعدي رأيت الشيب قد عابَهْ

ثم يذكر أيامه مع « الخنساء » فيحكي عنها :

قالت الخنساء لما جئتها شابَ بعدي رأس هذا واشتهب
عهدتني ناشئاً ذا غرَّة رجل الجُمَّة ذا بطن أقبّ
وهي إذ ذاك عليها مئزرٌ ولها بيت جوار من لُعَب

ويحضره موقفٌ له مع « رقاش » فيصفه :

قامت رقاش وأصحابي على عجل تبدي لي النَّحر واللبات والجيدا

ويجلس الى نفسه يعرض لياليه مع « الرّباب » و« فَرْتَني » و« لميس » فيقول :

لمن الديارُ غشيتها بسجام فعمايتين فهضب ذي أقدام
دار لهندٍ والرّباب وفَرْتَني ولَميس قبل حوادث الأيام

ويغلبه هوى « هر » فيملي عليه :

وهرٌّ تصيد قلوبَ الرجال وأفلت منها ابنُ عمروٍ حجر
رمتني بسهم أصاب الفؤاد غداةَ الرحيل فلم أنتصر
فأسبل دمعي كفض الجُمان أو الدُّر رَقراقه المُنحدر
كأنٍّ المُدام وصوبَ الغمام وريحَ الخزامى ونشر القُطر
يُعلُّ به بردُ أنيابها إذا طرَّب الطائر المُستحر

ويذكر بفراق « هر » فراق « سلامة » و « قذور » فيقول :

عفا شَطب من أهله فعزور فربولة إن الديار تدور
فجزع محيّاة كأن لم تقُم بها سلامة حولاً كاملاً وقذور

ويعود إلى « بسباسة » يفند زعمها فيه :

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرتَ وألا يُحسن السرَّ أمثالي
كذبتِ لقد أصبى على المرء عِرسه وأمنع عِرسي أن يزنَّ بها الخالي

وتشوقه « سعاد » فيقول :

لعمري لقد بالت بحاجة ذي الهوي سعاد وراعت بالفراق مُروَّعا

ويعتب على « ليلى » جفوتها في قوله :

تنكرتْ ليلى عن الوصلِ ونأت ورَثّ معاقِد الحبلِ

وتقرأ معلقته فتجد فيها ذكراً للحويرث وأم الرَّباب في بيته :

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أمّ الرّباب بمأسلِ

ثم لعُنيزة التي يقول فيها :

ويومَ دخلتُ الخِدرخدرَعُنيزة فقالت لك الويلاتُ إنك مُرْجلي

ثم لفاطمة في بيته :

أفاطمَ مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنتِ قد أزمعت صرمي فأجملي

والى هذا العبث النسائي وصف امرؤ القيس جريه في إثر الوحش :

خرجنا نريغ الوحش حولَ ثُعالة وبين رُحيَّات الى فج أخرب

(ثعالة ورحيات وأخرب : أمكنة)

فآنست سرباً من بعيد كأنه زواهر عيد في ملاء مُهذَّب

كما وصف فرسه ومقعده منه بمثل قوله :

فقفَّى على آثارهنَّ بحاصبٍ وغيبة شؤبوب من الشد مُلهب

فللساق ألهوب وللسوط درة وللزَّجر منه وقعُ أهوج مُنعب

وكذلك وصف إقدامه في مثل قوله :

ولم أشهد الخيل المغيرة بالضحى على هيكل نهد الجُزارة جوَّال

وقوله :

وقد أغتدي والطيرُ في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

* * *

أجل ، لهذا ومثله عاش امرؤ القيس ، هذا الشطرَ الأول من حياته ، لم يبتعد في قليل ولا كثير عنهُ ، ولا التفت لغيره .

وبلغه مقتل أبيه فهبَّ يطلب بدمه ، ويستنصر على قاتليه . أو قل : يسعى لملك خلا الطريقُ أمامه اليه . فقد كَنَع إخوته ، وكانوا يكبرونه سنّا ، ورأوا الخطب فوق قوتهم ورأى هو الفرصة مواتية . وإنما هي جولة أو اثنتان يتربع بعدها على عرش أبيه ، ويستبدل بتلك الرعية من الشذّاذ رعية فيها الوجوه والسادة .

ذلك عندي ما دفع بامرىء القيس دون إخوته ، إلى ما أقدم عليه . وقد كان فيما فعله أبوه معه ما ينكّب به ويصرفه عن هذا السبيل ، إن كان الأمر الى الثأر ، وإلى الثأر وحده .

* * *

ومن هنا بدأ الشطر الثاني من حياة امرىء القيس .

أخذ امرؤ القيس يتهدّد بني أسد ويتوعدهم ويهيىء لغزوهم في شعر كثير منه :

أتاني وأصحابي على رأس صيْلعٍ حديثٌ أطار النوم عني وأنعما

فقلت لعجليٍّ بعيدٍ مآبه تبيّن وبيّن لي الحديث المُعجما

فقال أبيت اللعن عمرو وكاهلٌ أباحوا حِمى «حُجر» فأصبح مسلما

وتظن بنو أسد أنها لا طاقة لها به ، فتوفد عليه الوفود يعرضون عليه الفداء في صور شتى ، أو المُهلة حتى تضع الحوامل . فيجيبهم الى النظرة ويأبى الفداء .

وكان في الوفد قبيصة بن نُعيم فقال له متمثلاً :

لعلّك أن تستوخم الموتَ إن غدت كتائبنا في مأزق الموتِ تمطَر

وأنت ترى أن القوم لم يعرضوا على امرىء القيس عرش أبيه فيهم . فكأنهم أقرّوا الثائرين على ما فعلوا ، وسئموا زعامة الكنديين عليهم ، ونفضوا أيديهم من هذا الأمر ، وجاءوا الى امرىء القيس لارعايا مُنيبين مسلمين ، بل راضين خلاصهم ، طامعين في أن يشتروا الدم المراق ، بعُروض وأرزاق .

وعبّأ امرؤ القيس جموعاً من تغلب ، وأدرك بني أسد على بعض المياه ، فأنكى فيهم ، ففرّوا مع الظلام . وأراد امرؤ القيس السير خلفهم ، فأبى عليه ذلك رجال بكر وتغلب ، وانصرفوا عنه الى ديارهم .

ويحسب البكريون والتغلبيون الخطبَ ثأراً ، ويراه امرؤ القيس عرشاً : فيخرج إلى

مرثد الخير ، قَـيل من أقيـال حمير ، يستنصره . فيمده ، وتعاجله المنية دون أن يُـمين . ويخلفه قرْمل بن الجُـميم ، فيجيب امرأ القيس الى ما طلب على غير رضى . ثم ينفضُّ أكثر هذا الجند عنه بتأليب المنذر عليه .

*

ويقصـد امرؤ القيس العشائر يلتمس العون ، فيؤم أمّ سعد بن الضباب ، فيكرمه ، فيقول فيه :

يفاكهنا سعدٌ ويُـنعم بالنـا ويغدو علينـا بالجفان وبالجُـزُر

ويرى امرؤ القيس العون عند هذا ، فيتركه الى المعلى بن تيم . واذا ما أكرم المـَعلّى وفادتـه انطلق لسان امرىء القيس يمدحه :

كأني اذ نزلتُ على المُعلَّى نزلت على البواذخ من شمامِ

ثم يساء اليه فيخرج إلى عامر بن جوين . ولـكنه يخافه على نفسه ، فيفرّ الى بني ثعل ، ثم إلى نزار . فيدله رجل منهم على السموأل . ويكتب السموأل إلى الحارث بن أبي شمر الغساني بالشام ، لإيصال امرىء القيس إلى قيصر ، ملك الروم.

ويعد قيصر امرأ القيس بجيش . ويوغر الطّماح بن قيس الأسدي صدر قيصر ، فيكيد لامرىء القيس . ويختار الرواة حديث الحُـلة المسمومة . فيقضي امرؤ القيس فيها نحبه .

* * *

لحياة امرىء القيس كما رأيت شطران ، شطر لهذا اللهو والمُجون ، على رأس شرذمة من الصعاليك . والشطر الثاني في رحلة وتطواف ، من قبيل الى قبيل ، يحظى هنا ويخيب هنـاك .

وكان لهذين الشطرين شعره . أشبع في الأول نزواته وجرى مع طيشه ، وعاش في الثانية مدّاحاً هجّـاء ، يشكر المعينين ويذم المخيبين . عدا قليل صدر عن النفس ، في بعض ما تجد وتحس .

وجُـلّ ما قال امرؤ القيس لا شك جميل فيه قوة وفيه رصانة ، له هزة ومعه طرب .

ولـكن أهذه هي رسالة امرىء القيس ؟ أو لهذا كان شعره الذي شغل النـاس به ولا يزال يشغلهم ؟ وهل كل ما يعنينا عنه هـذا التراث الذي كان خالصاً له ، ليس للناس حوله منه نصيب ؟

لقد كان العصر قلقاً مضطرباً ، تسوده فوضى وبلبلة . فقد فيه الناسُ أساليب الحـكم المنظم ، وامحت موازين العدل ، وأضلَّ الناس الوازع ، واطرحوا الثقة جانباً بسرواتهم حين لم يجدوا منهم رُعاةً صالحين ، وقادةً مُـنصفين ، فمدُّوا اليدَ على كُـرهٍ يلتمسون عادلاً من غير قومهم ينشر عدلاً افتقدوه ، ومُـنصفاً يبسط إنصافاً حُـرموه .

وكانت هذه النفوس التي عرفت العدل والظلم ، والإنصاف والجوْر ، والحق والباطل ، والتي اشترت من تحكمه عليها اشتراءً ، حريةً أن تعُـدَّ على الحاكم خطواته ، وألاَّ تغفل ساعة عن النظر فيما يأخذ فيه من فعل أو قول .

كانت هذه النفوس التي أدَّبتها الحوادث ، ونشأتها المحن ، جديرة ألاَّ تُـخدع عن أمرها ، وألاَّ تني عن هبَّـتها ، إن أحست ضيماً ، أو سيمت خسفاً .

لذلك رأيناها لم تسكت على جنف الغريب النازح — كما لم تصبر من قبل على ظلم المُـواطن الفادح ، فتنكرت لحجر ، وكان من حديثها معه ما كان .

وليس الأمر أمر ثورة ، ولـكنه عصر فدحته أعبـاء ، وآدته نُـظُـم كان يراها لا تجري مع مطالبه وأمانيـه . ولو زادتنا المراجع لزدناك عنه بياناً ، ولـكنه مع تلك الإشارات واللمحات ، يدلنا على حقبة من تلك الحقب الصاخبة التي تمتحن فيهـا الشعوب ، فتخرج منها إمَّـا الى سؤدد ورفعة ، وإما الى ذلة وهوان . عاش الناس فيها في صراع يهدأ ليستجم ، ويتوزَّع ليتجمع ، ويخمد ليذكو .

فأين كان امرؤ القيس من هذا كله ، وأين وجدانه الشاعري ؟

أما في النصف الأول فإنا لا نشم لهـذا ريحاً ، بل يكاد القلم يكتب : ان امرأ القيس بحياته كان سبباً من أسباب الانقلاب الذي جنى أبوه شرَّه .

أنسيت كيف عدا امرؤ القيس على الحرُمات ، واقتحم الخدور على الزوجات ؟ ألم تسمع الى قوله :

فأصبحتُ معشوقاً وأصبح بعلها عليه القَتام سيءَ الظنّ والبـال
يغط غطيط البَـكر شدَّ خناقه ليقتلني والمرء ليس بقتَّـال

أو إلى قوله في معلقته :

فمثلك حُبلى قد طرقتُ ومرضعٌ فألهيتُـها عن ذي تمائم محْـولِ

* * *

أو نسيت أنه تزعَّـم شرذمة عاش معهم على ما يُنتهب ويُـبتز ؟

ثم أنسيت بعد هذا وذاك شعراً لم يُـصنع لحـكمة أو سداد ، وإنمـا قيل في التشهير بما يحرص الناس على أن يُـستر ، ويخشون أن يُـذيع .

أما عن النصف الثاني ، فأنا لا أكاد أعدُّ ما صدر عنه فيه شعرَ شاعر . وقد عوَّدنا ناظم يُـكثر من قول الشعر ولا يجيده ، أن يُرسل لنا مع أول كل شهر أبياتاً يسألنا بها شيئاً . فكنت أذكر به امرأ القيس ، مع ما فرّق الأمر بينهما فيـه ، من إجادة وإسفاف . ولـكنهما في الغرض سيّـان . فهذا يسأل قروشاً للعيش ، وذاك يسأل جنوداً للبطش . ولو سوَّى البيان بينهما لتعادل الشعران قوة . ولـكن أين الغرض ؟ وأين الدافع النفسي السامي ؟

ما كان أجدر امرىء القيس أن يضبط لسانه ويسمو بشاعريته عن السؤال والضراعة ، وما كان أحراه أن يجعل الشعر للـكرّ والفرّ كما جعله في بعض الأمر .

أفترى بعد هذا ان امرأ القيس عاش لرسالة ؟ .

أما إنه لو التفت إلى ما حوله ، واستجابت نفسه لتلك الصيحـات الآلمة ، وشارك بوجدانه الشاعري ، وكشف لنا عمّـا يجده في نفسه لهذا الذي خاض الناسُ غمراته بحاراً من دماء ، كان لهم أو عليهم ، لعددناه مع أصحاب الرسالات من الشعراء ، وخلـّد مع ألفاظه الشعرية معاني تعيش في صدور من تعمر قلوبهم بالوجدانات ، التي لا يُـعرف الشعراء إلاَّ بها ، بل إن الشعراء بها يُـعرفون قبل أن يعرفوا بالقول المعسول واللفظ المونق الجميل .

في الحق لقد عاش امرؤ القيس ذا أذن صمَّاء ، لا يحمل حِسَّ الشاعر ووجـدانه ، وإن ملك لسـانه . أو قُـلْ إنه عاش لنفسه . وليس هكذا يعيش الرسل من الشعراء . وما نظم امرأ القيس غيرَ هذا مما أجمع الناس لهعليه ، فهو فيه جُـذيلها المرجَّـب ، وحُـجيرها المؤوَّب .

النابغة الذبياني

ينتهي النابغة أبو أمامة زياد بن معاوية الى ذبيان، وذبيان الى غطفان، وغطفان الى قيس.

وغطفان قومٌ ذوو مِراس وبأس شديد. عرفت جيوشُ المسلمين لهم ذلك حين تراءى الجمعان يوم ذات الرِّقاع، فانحاز كلٌّ الى ناحية، وخاف الناس بعضهم بعضاً ولم تكن حرب. وشرع الله صلاة الخوف في تلك الغَزاة.

ورأينا غطفان مع الأحزاب يوم الخندق يلتفون بالمدينة محاصرين، ورأيناهم يوم ذي قرد عليها مُغيرين، ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم بين ظهراني المسلمين.

ورأيناهم أول بادىء بالغارة على المدينة يوم ذي القصة. وأبو بكر يلي أمر المسلمين خليفة عليهم.

وعرفنا لهم حروباً شنّها البطون، وصليتها العشائر، وأخرى ثارت بينها وبين غيرها من القبائل تُعيي الحصر، وليس من اليسير أن يُحيط بها إحصاء.

*

هؤلاء هم غطفان، أهل النائرة والثائرة، يكاد يكون لهم في كل فِنْي الى جوارهم دم. وهكذا كان العصر الذي يظلهم، ما طلعت له شمس إلاّ على حرب، ولا غربت إلاّ مع أهبة لأخرى.

وبين ذبيان خاصة وعبس كانت حرب داحس والغبراء. بقيت أربعين سنة، لم تُنتَج لهم فيها ناقة ولا فرس — كما يروي أبو الفرج.

ذكر المؤرخون لهم فيها أياماً، دارت فيها الدائرة لعبس يوماً ولذبيان يوماً، وعدُّوا منها يوم المريقب، ويوم ذي حُسا، ويوم اليعمرية، ويوم الهباءة، وأياماً أخرى غيرها. أشبعوا فيها سباع الطير من لحومهم، وسقوها قانياً من جاري دمائهم. وانطلقت فيها

ألسن الشعراء بالقول ، يذكرون بلاء قومهم وبلاءهم ، ويُنذرون على خصومهم كبواتهم، ويذكرون قتلاهم فيندبونهم، ويتوعدون بالثأر قاتليهم .

وكاد الشعر أن يكونَ لنا سجلاً مسطوراً يضم حديث الحرب وما دار فيها .

* * *

أظلت سحابةَ هذه الحروب النابغةَ ، وكان معها ، إن صحّ تقديرُ المؤرخين ، في الأربعين أو دونها بقليل [1] .

ففي العام الثامن والستين بعد الخمسمائة ، بدأت حرب داحس . ويقدر أبو الفرج الأصبهاني عمرها بأربعين سنة . ويكادون يتفقون على أن النابغة عاش الى الرابعة بعد الستمائة،وأنه مات معمراً بعد أن وخطه الشيب.ويروون له مرثية رثى بها النعمان بن الحارث الغساني.وكان قتل في غزاة له سنة ستمائة ، تشير الى شيبه ، فوق ما تشير الى حياته الى تلك الأيام ، وفيها يقول النابغة :

دعاك الهوى واستجهلتك المنازلُ وكيف تصابي المرء والشيبُ شامل

هذا جانب من الحياة التي احتوت النابغة ، عاش قومه فيها في شِكّتهم وعلى ظهور خيلهم نتركه الى حين، حتى نقفو خطوات شاعرنا من مهده الى لحده ، ونحصي عليه حركاته ثم كلماته .

* * *

نشأ النابغة في نجد ، في الذروة الحصداء والركن الأشد عند نفر ، أو في الوسط من قومه كما يذهب الى ذلك نفر .

ولا تحفظ لنا الآثار من شبابه غير حديثه مع حاتم الطائي من أجل ماوية . وبعد هذا يأتي الحديث عن النابغة بين المناذرة ملوك الحيرة ، وبين الغساسنة ملوك الشام .

فأول ملوك الحيريين ، فيما يروون ، مالك بن فهم بن دوس ، وكان سار من اليمن مع ولد جفنة بن عمرو بن عامر مزيقيا . فسار بنو جفنة نحو الشام ، وانفصل مالك نحو العراق .

(1) De Perceval, Essai sur l'histoire des Arabes.

وملك بعده ابنه جذيمة،من مشارف الشام الى الفرات . ثم بعد جذيمة ابن أخته عمرو ابن عديّ بن نصر بن ربيعة . وكان أول من نزل من الملوك الحيرة واتخذها منزلاً ومقر ملك ، وبعد جذيمة كان امرؤ القيس بن عمرو بن عدي ، ثم عمرو بن مرئ القيس ، وهو محرق العرب . ثم النعمان بن امرئ القيس .

ثم ملك المنذر بن النعمان ، وأمه ماء السماء بنت عوف ، سميت كذلك لحسنها وجمالها . وهو فارس يوم حليمة ، بين المناذرة والغساسنة (سنة ٥٥٤) . ويذهب بعض الرواة الى أن النابغة اتصل به ، وان ذلك قبيل مقتله يوم حليمة .

وبعد المنذر ابنه عمرو ، ثم قابوس بن المنذر . ثم ملك النعمان بن المنذر . وحكم ، فيما يقال ، اثنتين وعشرين سنة . وهو الذي قال فيه النابغة فأكثر .

ثم كانت نكبة الحيريين على يد كسرى أبرويز، وذلك بدسّ زيد بن عديّ عليهم عند كسرى ، وكان عديّ ينقم على النعمان قتله أباه زيداً .

* * *

أما عن الغساسنة فكان أول من ملك منهم بالشام الحارث بن عمرو بن عامر . ثم ملك بعده الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو بن عامر . وأمه مارية ذات القرطين .

ثم عمرو بن الحارث . وكان النابغة فرّ إليه هرباً من النعمان أبي قابوس ، وقال فيه بائيته المشهورة:

كليني لهم يا أميمة ناصب   وليل أقاسيه بطيء الكواكب

ومنها :   عليّ لعمرو نعمة بعد نعمة   لوالده ليست بذات عقارب

ثم كانت صلته بأخيه النعمان بن الحارث بعد وفاة عمرو سنة ٥٩٧ . فيما يحكون .

وكان النعمان هذا — ويكنى أبا كرب وأبا حجر — غزّاء ، لا يغفر للبدو أن يعيثوا في أرضه ، وكان الى هذا فارساً مرهوباً .

وفي نحو سنة ٦٠٠ لقي النعمان حتفه في خرجة من خرجاته ، والناس بين مصدق ومكذب . فرثاه النابغة بلاميته :

وقفتُ بربع الدار قد غيَّر البِلى   معارفَها ، والسارياتُ الهواطلُ

أسائل عن سُعدى وقد مرَّ بعدنا   على عَرصات الدار سَبْعٌ كواملُ

ومنها :

ورَبِّ بني البرْشاء ذهل وقَيسها   وشيبان حين استهلتها المناهل

(البرشاء : أم ذهل وقيس وشيبان ، أبناء ثعلبة . واستهلتها المناهل أي قامت بها مهملة لا حكم للغسان عليها)

لقد عالني ما سرَّها وتقطَّعَت   لروعاتها مني القُوى والوسائلُ

(عالني : حزنني . وسرها ، الضمير لبني البرشاء)

فلا يهنئ الأعداء مصرعُ ملكهم   وما عتَقت منه تميمٌ ووائل

(عتقت : نجت)

ومنها :

فإن تك قد ودَّعتَ غيرَ مذمَّم   أواسيَ مُلك ثبَّتته الأوائل

فلا تبعدنْ إنَّ المنيـة مَوعدٌ   وكُل امرئ يوماً به الحالِ زائل

فما كان بين الخير لو جاء سالماً   أبو حُجُر إلاَّ ليالٍ قلائل

واتصل النابغة بعد النعمان بن الحارث بحُجر . غير أنه لم يستطب المقام ، ورأى أن يعود أدراجه الى النعمان بن المنذر .

وهنا يختلف المحدثون . فيذكر ابن قتيبة أن ذلك كان عن دعوة من النعمان ، معها تأمين وغفران . ويعزو ابو الفرج ذلك الى إشفاق النابغة على النعمان حين انتهى إليه أنه مريض ، وكان يحبه . ويذهب أبو عبيدة إلى رأي أخير يظنه ، هو حنين النابغة إلى عطايا النعمان وعصافيره . وما كان ليخشى بطشه ومن ورائه عشيرته لا تسلمه ولا تخذله .

*

ترك النابغة الشام والغساسنة وقصد النعمان بالحيرة ، فأمنه وأدناه إليه واستنشده ووصله ولكن أيامه مع النعمان لم تطل . فقد قدمنا لك شيئاً عن نكبة النعمان على يد كسرى ، فلحق النابغة بقومه ، وعاد الى نجد مهده الأول متمثلاً بهذه الأبيات :

مَن يطلب الدهرُ تدركه مخالبُه   والدَّهر بالوتر ناجٍ غيرُ مطلوبِ

ما من أناس ذوي مَجد ومَكرُمة   إلاّ يشُد عليهم شدةَ الذيب

حتى يُبيد على عمد سراتَهُمُ   بالنافذات من النَّبل المصاييب

بقي شيء يمت الى ذوق النابغة الشعري ، وبصره بنواحي القوة والضعف من الشعر، نسوقه لا لتلك الصلة ، بل لدلالة أخرى تكشف لنا عن محل النابغة وبين الناس، ولاسيما بين أضرابه من الشعراء ، ذلك أنه كان محكماً في سوق عكاظ ، تضرب له قبة من أدم ، وينشده الشعراء ، وله فيهم كلمة القاضي وفصل المسود .

وتلك منزلة يفيد منها النابغة لو شاء كثيراً ، وفرق بين ما يصدر عن المحل الأرفع والمحل الأدنى ، وبين كلام المصدرين وكلام المجنبين ، وإنك لتدرك أثر ما تقول وأنت إمام، ثم وأنت من العوام .

هذا ما نريد أن نضمه الى حياة النابغة، فلنا منه سبب من أسباب الفصل في أمر النابغة.

* * *

هذا هو عصر النابغة : حرب داحس والغبراء التي عاشت معه من اكتماله ، ثم خلفها مشبوبة مستعرة الى رمسه ، الى حزيبات لا تعدو أن تكون عراك أيام بين قبيله والقبائل المجاورة ، منها ما كان من إغارة لقومه في أحلافهم من بني أسد على أرض الغساسنة ، بعد وقعة عين أباغ ، التي هزم فيها المنذر الغساني قابوساً ، وبقيت المناوشة بعدها بين الغساسنة والمناذرة في غير هدأة ، وغنمت القبائل المحيطة الفرصة فأغارت هنا وهناك لتغنم ما تقوى على سلبه من هاتين الدولتين المشغولتين ؛ ومنها تربع الذبيانيين قومه مع بني أسد وبني تميم المرابع المحمية من أرض النعمان الغساني وسوقهم ما تقع عليه عيونهم من نعم وماشية أمامهم ؛ وما كان يتبع ذلك من نهضة المنذر ثم النعمان لتأديبهم والنيل منهم .

والرواة لا يذكرون بيتاً واحداً للنابغة في حرب داحس والغبراء ، على حين عني بها زهير بن أبي سلمة وخصها بمعلقته .

والنابغة وان لم يفعل هذه فقد فعل غيرها ، تنطق بمشاركته واتصاله بعشيرته . من ذلك جهده في أن يحفظ لقومه حلفهم مع بني أسد وبني تميم ليشتد بذلك أزرهم ، ويقووا على حرب العبسيين وأحلافهم من بني عامر ، وأنه لهذا وصل حبله بحبل الغساسنة فشفع فيهم لدى الحارث الغساني ، وكان أسر منهم جمعاً كانوا مع حليفهم المنذر .

ثم قيامه للعبسيين والعامريين الذين حاولوا جاهدين فصم هذه العروة ، مناهضاً يهجو

أعدائه مرة ويمدح محالفي قومه أخرى . ترى شيئاً من هذا في قول النابغة يهجّن مسعى عيينة في إبعاد أسد عن ذبيان ، ويمدح بني أسد :

أَلِكْني يا عيين اليك قولاً ... سأُهديه اليك ، إليك عني
قوافي كالسِّلام إذا استمرت ... فليس يَرد مذهبها التظني

(السلام : الحجارة)

بهنَّ أدين مَن يبغي أذاتي ... مُداينةَ المُداين فَلْيَدنّي
أتخذل ناصري وتُعزُّ عبساً ... أيربوع بن غيظ لِلمعَنِّ

(يربوع بن غيظ رجل من أحلاف النابغة . والمعن : الذي يتعرض لما لا يعنيه . يريد : عيينة ، واللام فيه الاستغاثة)

كأنك من جِمال بني أقيش ... يُقعقَع خلفَ رِجليه بشَنِّ

(الشن : القربة اليابسة)

تكون نعامة طوراً وطوراً ... هويّ الريح تَنسج كُل فنٍّ

(نعامة : في الحمق والجهل . وطوراً خدعة كالريح تنسج فنوناً من الخدع)

تَمَنَّ بعادهم واستبق منهم ... فإنك سوف تُترك والتمنّي
إذا حاولت في أسد فُجُوراً ... فإني لستُ منك ولستَ مني
فهم دِرْعي التي استلأمتُ فيها ... الى يوم النِّسار وهم مِجنّي

(النسار : يوم كان لسعد بن عمرو ، من تميم ، على هوازن) .

وهم وردوا الجِفار على تميم ... وهم أصحاب يوم عُكاظ إنّي

(الجفار : ماء لبني تميم بنجد ، كانت عنده وقعة بين تميم وبكر) .

شهدتُ لهم مواطن صادقاتٍ ... أتيْنَهم بوُدِّ الصَّدر منّي
وهم ساروا لحُجْر في خَميس ... وكانوا يوم ذلك عند ظنّي

(حجر ، هو أبو امرىء القيس)

إلى أن قال :

ولو أني أطعتُك في أمور ... قرعتُ ندامةً من ذاك سنّي

*

ثم تعالَ الى قوله يُسفّه رأي زُرعة بن عمرو ، وكان لقي النابغة في عكاظ وطلب إليه

ناصحاً أن يشير على قومه أن ينفضوا يدهم من حلف بني أسد . ولما لم يستمع إليه النابغة توعده زرعة . فقال النابغة يرد عليه إيعاده ، ويذكر بالفضل حلفاءه :

نُبئت زرعة والسفاهة كاسمها يُهدي إليَّ غرائب الأشعار
حلفتُ يا زُرع بن عمرو أنني مما يشق على العدوّ ضِراري

(ضراري ، أي دنوي منهم ولحاقي بهم)

أرأيت يوم عكاظ حين لقيتَني تحت العَجاج فما شققت غُباري
إنّا اقتَسمنا خُطَّتَينا بيننا فحملتُ برَّة واحتملتَ فَجارِ
فلتأتيَنْك قصائد وليدفعن جيش إليك قوادمَ الأكوار

(يتوعده بالغارة)

رهط ابن كُوز مُحقبي أدراعهم فيهم ورهطُ ربيعة بن حُذار

(ابن كوز ، من بني مالك بن ثعلبة . محقبي أدراعهم ، أي جاعليها كالحقائب معدة، وربيعة بن حذار، من بني سعد)

ولِرَهط حرّاب وقدٍّ سورةٌ في المجد ليس غُرابها بمُطار

(حراب وقد : رجلان من أسد . ليس غرابها بمطار، أي إن فيها ما يمسك الغربان عن أن تنصرف عنها، لإثخانهم في أعدائهم فالغربان في ركابهم لا تبارحهم لوفرة ما تطعمه من جثث القتلى)

وبنو قُعين لا محالة أنهم آتوك غيرَ مقلَّمي الأظفار

(بنو قعين : من بني أسد أ)

سَهكين من صدأ الحديد كأنهم تحت السَّنَوَّر جِنةُ البقّار

(سهكين : بهم رائحة صدأ الحديد لطول لبسهم الدروع . والسنور : السلاح التام . والبقار : موضع زعمت العرب أنه كثير الجن)

والغاضريون الذين تحمَّلوا بلوائهم سيراً لدار قَرار

(الغاضريون : من بني غاضرة بن مالك ، من أسد. ولدار قرار ، أي للثبات لا للهرب)

تمشي بهم أُدْم كأنَّ رحالها عَلَقٌ هُريق على مُتُون صُوار

(الادم : الابل العتاق. والعلق: الدم . والصوار : القطيع من بقر الوحش)

جمعاً يظلّ به الفضاء معضِّلاً يدع الإكامَ كأنهنَّ صحاري

حولي بني دُودان لا يعصُونني   وبنو بغيض كلهم أنصاري

(بنو دودان : من أسد . وبنو بغيض ، يريد بني ذبيان) .

* * *

فأنت ترى في هذا القدر ما يغنيك عن غيره ، ويدلك على أن النابغة لم يبعد عن حرب داحس والغبراء ، وأنه عاش لجانب منها رأى في حفظه حفظاً لدعامة قوية وسَند شديد يكفلان لقومه الوقوف في وجوه عبس . فنصب نفسه للذود عن هـذا الحلف ، ووقف يرد على المغرضين ، ويفند مزاعم المبطلين ، وراح يشفع لأسراهم لدى الغساسنة حين وجد الفرصة لذلك مواتية .

ونريد أن نقول : إن رحلته إلى الشام لم يكن هذا مبعثها ، فقد عرفت مما سقنا إليك بواعثها . ولـكن حَسْب الرجل أنه لم ينس إلى حظه حظّـا أسمى وأشرف لآله وعشيرته ، فأدّاه على وجهه ، لم يدّخر وسعاً ولم يأل جهداً .

يُحكى أنه ركب إلى الحارث بن أبي شمر في شأن أسرى بني أسد وبني فزارة . فأجابه الحارث إلى ما طلب وخلى عنهم .

وكان حصن بن حذيفة الفزاري أصاب في غسان قبل ذلك بعام . فقال الحارث للنابغة : ما رمى بني أسد إلاّ حصن ، وقد بلغني أنه لا يزال يجمع علينا الجموع . فقال له النابغة : أبيت اللعن ! إن الذي بلغك باطل . وقال في ذلك :

إني كأني لدى النعمان خبَّره   بعضُ الأوُدّ حديثاً غير مكذوبِ

بأن حصناً وحيًّا من بني أسد   قاموا فقالوا حِمانا غير مقروب

ضلَّت حلومُهم عنهم وغرَّهمُ   سَنُّ المُعيديّ في رَعْيٍ وتعْزيبِ

(السن : حسن القيام على الدل والماشية . والمعيدي ، مصغر منسوب إلى معد . والتعزيب : أن تكون الابل في المرعى لا تراح الى أهلها)

إلى أن قال : وما بحصن نُعاس إذ تؤرّقه   أصوات حيّ على الأمرار محروبِ

(الامرار : مياه في بلاد بني أسد . والمحروب : الذي سلب ماله) .

ظلت أقاطيع أنعام مؤبَّلة   لدى صَليب على الزوراء منصوبِ

فإذ وُقيت بحمد الله شرَّهما فانجي فزارَ الى الأطواد فاللوب
ولا تلاقي كما لاقت بنو أسد فقد أصابتهمُ منها بشؤبوب
لم يبق غيرُ طريد غير مُنفلت وموثق في حبال القدِّ مسلوب
أو حرة كمهاة الرمل قد كُبلت فوق المعاصم منها والعراقيب
تدعو قُعيناً وقد عضَّ الحديد بها عضَّ الثقاف على صُم الأنابيب

(قعين : بطن من أسد)

مستبشرين قد آلنوا في ديارهمُ دُعاء سُوع ودُعميَ وأيوب

(سوع ودعمي وأيوب : من غسان)

هـذا بلاء النابغة عن قومه في هذه ، ولا يضيره أنه لم يسلك فيها مسلك زهير ، فلكل مذهبه في الحياة . فلعلَّ النابغـة كان يرى أن ينتصف قومه من أعدائه بالسيف ، فذهب يعينهم وينفخ في روح أحلافهم ، ويحيط ذلك بسياج تألفت حلقاته من : (١) رده مزاعم الخصوم (٢) وسعيه في الشفاعة عنهم لدى الملوك (٣) والإشادة بمآثرهم وتعداد مناقبهم .

على حين رأى زهير أن في الصلح حقناً للدماء وكبتاً للنزوات .

فالنابغة صاحب رأي لا يزال عليه الكثير. وان الضربة القاصمة تضمن في ظلها سلاماً ، وإن كان مصنوعاً ، دهراً طويلاً . وزهير صاحب رأي يؤمن به مَن على حكمته وفلسفته ، وأن الصلح إذا أقيم على دعائم من الرضى المتبادل ، والصفاء المشترك ، كتب للسلم البقاء الى الأبد .

ذاك عندي هو الذي جعل الرجلين كلاً الى سبيل . وما أظن النابغة على تقصير حين لم يلج مولج زهير ويذهب مذهبه . هذا وقد رأينا له في هذا الميدان كلمات ، ولكنها من لون آخر .

وقد تكون تلك الصلة التي مكنت للنابغة في بلاط الملوك ، وما ورثه عن آله من نزوع الى البطش ، هما اللذان طبعاه بهذا الطابع .

إذ مع الملوك الطمع في العون . ومن تلك الطبيعة الموروثة ما يقوِّي هذا الطامع ويزكيه

غير أنهم قالوا إن النابغة دان للبلاط الغساني بأكثر مما دان به لذويه . وحكوا أن النعمان بن الحارث حمى « ذا أقُر » فاحتماه الناس وتربعته بنو ذبيان ، فحذرهم النابغة بطش الملك . فعيروه خوفه النعمان . وقالوا رعديد مماليء . فقال النابغة :

لقد نهيت بني ذبيان عن أقر   وعن تربعهم في كل أصفار
وقلت يا قوم إن الليث منقبض   على براثنه لوثبة الضاري
إما عُصيت فإني غير منفلت   مني الِلّصاب فجنبا حرة النار

(اللصاب : جمع لصب . وهو الشعب الضيق من الجبل . وحرة النار : لبني مرة)

وعيّرتني بنو ذبيان خشيته   وهل عليّ بأن أخشاك من عار

وفي هذا الاتهام غلوّ وإسراف . فالرجل حريص على أن تجري الأمور هوناً ، وعلى ألا يُمتحن قومه بالغساسنة ، فيضموا الى أعدائهم عدواً أشد وأنكى ، والأمر ليس معه ما يضير .

ذلك رأيٌ يعضده ما كان من النابغة مع النعمان حين أراد أن يغزو بني حُنّ بن حزام من حلفاء بني ذبيان ، فنهاه النابغة وحذّره المغبة ، فأبى عليه . فأرسل النابغة يخبر قومه ويطلب إليهم أن يعينوا بني حُن ويُمدوهم . ففعلوا وهزموا غسان . وفي ذلك يقول النابغة :

لقد قلت للنعمان يوم لقيته   يُريدُ بني حُنّ ببُرقة صادر
تجنّب بني حُنٍ فإن لقاءهم   كريهٌ وإن لم تلقَ إلاّ بصابر
هم منعوا وادي القُرى من عدوّهم   بجَمْعٍ مُبير للعدو المكاثر

فالنابغة ليس عندما رموه به ، ولكنه يريد لأهله الأمن فيما لا ضير عليهم فيه ، حتى اذا ما رأى الخطب يلمّ بساحتهم كان لهم نعم الرأي والمشير .

غير أنه من الحق أن نذكر أن هذه الصلة — أي صلة النابغة بهذا البلاط وذاك — كانت لشيء غير ما تحدثنا فيه .

فالنابغة — كما يقولون — أول من كسب بالشعر ، وأنه ذاق طعم الصلات والمنح ، ورأى مقامه في البلاطين ، مشفّعاً مجاباً على حد قوله :

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم   أُشفّع في أموالهم وأُقرّب

فزاده هذا وذاك حرصاً على حرص في التمسك بأهداب هذا اللون من الحياة وقد سلك من أجل هـذا المزيد من الحرص غيرَ الجَـدَد ، فلم يأمن بعض العثرات .
فأسرف النابغة في مديحه ، لمكان هذا الإسراف في الحرص من نفسه . تحسُّ شيئاً من هذا في مثل قوله :

فتلك تُبلغني النعمان إنّ له ... فضلاً على الناس في الأدنى وفي البعدِ
ولا أرى فاعلاً في الناس يُشبهه ... ولا أُحاشي من الأقوام عن أحد .
إلاّ سليمانَ إذ قال الإلـه له ... قم في البرية فاحدُدْها عن الفَـنَد
وخيِّس الجنَّ إني قد أذنتُ لهم ... يبنون تدمُر بالصُّفّاح والعمد
فمن أطاعك فانفعه بطاعتـه ... كما أطاعك وادْلُله على الرَّشد
ومن عصاك فعاقبْـه مُـعاقبة ... تنهى الظلومَ ولا تقعد على ضَـمد

(الضمد : الذل والغيظ)

وأسرف في الاعتذار، لمكان هذا الإسراف في الحرص من نفسه ، وذلك كما في قوله:

أُنبئت أن أبا قابوس أوعدني ... ولا قرار على زأر من الأسد
مهلاً فداء لك الأقـوام كلهم ... وما أُثمّـر من مالٍ ومن ولد

وكشف عن طمعه في الأصـفاد وتحرّقه للعطايا في مثل قوله :

هذا الثناء فإن تسمع به حسناً ... فلم أُعرِّض أبيت اللعن بالصفد

لهذا انزلق النابغة ولم يمسك عليه لسانَـه فيصرّفه فيما يحفظ له ما يريد مع أنفة لا تقنع الصلة ، ورفعة لا تسد عليه باب المطلب .

ولـكنه الحرص يذلّ أعناق الرجال . هذا ما نؤمن به ولا يرجعنا عنه بما يُـعتذر به من أن الإسراف في المدح كان لإسراف المدوح في البذل ، وأن الإسراف في الاعتذار كان لإسراف النابغة في الوفاء ، وأنه لو سكت على ما رُمي به عند النعمان مما قُـذف به في شأن « المتجردة » كان هذا منه تسليماً بما قيل ، ثم إن من ورائه أعداء شامتين ، والشماتة تقضّ المضاجع ، وتحمّـل المشموت به الفوادح ؛ وان الالماع الى العطية كانت تتمة لشكر أيادي المعطي عنده .

قد يكون لهذه شيء ولكنه لا يدفع كل شيء . ولو أن شاعرنا خلّص نفسه من هذه الشوائب لاستقامت له رسالته واضحة ، وما وجد بعضُ قومه الى النّيل منه سبيلاً . ولفرّغ جهده كله للواجب الذي حمله على عاتقه . ولكنهما المال والجاه وما النفس بغالبة سلطانهما إلاّ على جهد ومعاناة . وهي إن غَلبت ملكت مقود الجاه والعزة ، ولكن من سبيل لا ضَيرَ معها عليها .

فهذا اللسان النابغي ، والحصف الذي عرفته عكاظ ، كانا يَضمنان لربهما رسالةً خالصة لا تشوبها هنات ولا يلحقها لوم . ولوجد الآذان أدنى الى الأخذ عنه ، والقلوب أدعى لما يقول .

فآفة الإصلاح أن يُظن بالناهضين به الظنون ، وتعلق بأردانهم الريب ، هنالك تلقى الآذان صمًّا ، والقلوب غُلفاً ، والجموع الى انفضاض ، والدعوة الى زوال.

زهير بن أبي سلمى

في تلك الحقبة الصاخبة ، وبين الفتن الآشبة ، والمعارك الناشبة ، عاش زهير . فقد أظله عصر النابغة ، ومرّ بك حديثه ، فصلته زهير ، ولم يكن منه ببعيد . فالنابغة قضى في نحو سنة ٦٠٤ وبعده بنحو سبع سنين ثوى زهير .

وفي غطفان ، قبيل النابغة ، نشأ زهير ، فكان منهم أخواله وأخوال أبيه . فصلته بهم قديمة . أقام بينهم أبوه من قبله ، وغزا معهم طيئاً ، وعادوا عنهم بنعم وأموال لم يخصّوه منها بشيء ، فمضى عنهم بأمّه إلى قبيلة مزينة . ثم عاد مع مُزينة حين همّوا بغطفان ، ولكنه ما لبث أن انفصل عنهم ، واستقرّ به المقام في ربوع غطفان .

وفي حِجر بَشامة بن عمرو الغطفاني شبّ زهير . فكفله هذا الخال ، بعد أن خلفه أبوه صغيراً .

وأصهر زهير إلى غطفان واتصلت أسبابه بأسبابهم ، وكاد بعضهم يعدّه في غطفان ، كما كادت عروته بأذينة تنفصم لولا باقية من نسب كانت لا تزال تذكره بآبائه .

عرف زهير لغطفان أكثر مما عرف مزينة . ففي ديارهم شبّ وترعرع ، وفي ثراء خاله بشامة تقلب ، وبلسانه تأدّب .

تلمح ذلك العرفان للجميل في قوله لبني تميم ، وبلغه عنهم أنهم يريدون غزو غطفان :

ألا أبلغ لديك بني تَميم   وقد يأتيك بالنصح الظَّنونُ

(الظنون : الذي لا يوثق بما عنده ولا يكاد يصدق في خبر)

بأن بيوتنا بمحل حَجْر   بكل قَرارة منها تكون

(حجر : في شق الحجاز . والقرارة : مستقر الماء في الوادي)

الى قَلَهي تكون الدار منّا   إلى أكناف دومة فالحَجُون

(قلهي : موضع . والحجون : موضع بمكة . ودومة : موضع)

بأودية أسافلهن روضٌ وأعلاها إذا خفنا حصون
نحل سهولها فإذا فزعنا جرى منهن بالآصال عون

(عون : أي خيل)

بكل طوالة وأقب نهد مراكلها من التعداء جون

(الأقب : الضامر البطن . والنهد : الضخم . والتعداء : العدو . والمراكل: حيث يركل الفارس برجله . وجون : سود من العرق والضرب بالرجل)

إلى أن قال :

فحلي في ديارك إن قوماً متى يدعوا ديارهم يهونوا

*

كما تتبينه في قوله لبني سليم ، وبلغه عنهم ما بلغه عن بني تميم :

رأيت بني آل امرىء القيس أصفقوا علينا وقالوا إننا نحن أكثر

(أصفقوا علينا : اجتمعوا علينا . وبنو امرىء القيس : هوازن وسليم)

سليم بن منصور وأفناء عامر وسعد بن بكر والنصور وأعصر

(النصور : بنو نصر من هوازن . وسعد بن بكر ، من هوازن . وأعصر، أبو غني وباهلة)

خذوا حظكم يا آل عكرم واذكروا أواصرنا والرحم بالغيب تذكر
وإنا وإياكم إلى ما نسومكم لمثلان أو أنتم الى الصلح أفقر
إذا ما سمعنا صارخاً معجت بنا إلى صوته ورق المراكل ضمر

(معجت : مرت مراً سهلا . وورق : جمع أورق ، وهو ما كان لونه لون الرماد)

على رسلكم إنا سنعدي وراءكم فتمنعكم أرماحنا أو ستعذر

(ستعذر . يعني الرماح ، أي سيكون منها ما تعذرون فيه)

وإلا فإنا بالشربة فاللوى نعقر أمات الرباع ونيسر

(نيسر ، من الميسر والضرب بالقداح)

* * *

ويكاد يلفتنا هذا عن أن نبصرك بالعصر ونزجي لك عنه طرفاً ، بل يكاد هذا الحديث يكون مدخلنا الى ما نريد . ففيه الدليل على تحفز موصول ، وأهبة لا تزول ،

لم يُغمد معها للقوم سيف، ولم تُعقد لهم حبوة، ولم تُلق عنهم شكة.

والى داحس والغبراء، أم الأربعين، كانت غارات هنا وهناك بين قبائل وشعوب، ومع هذه وتلك شاع ما يشيع عادة مع الحروب من تحوُّل وتحدُّر، وظهر العابثون العائثون فاستبيحت حُرمات، وامتدت الأيدي للنهب، وأكثر الناس الفساد في الأرض، حين وجدوا الفرصة مواتية، والسلطان عنهم في شغل.

* * *

ذاك عصر ينشئ أحد شاعرين: شاعر يحمل نفساً قُبست من تلك النار المستعرة، له هنا ذَحل وهناك ثأر، يرى الحُكم للسيف، والعزة في أن تُكتب الغلبة لقومه؛ فهو للحرب يذكي أوارها، وينفخ في كيرها، ويُعين عليها. وكذلك كان النابغة، وكان من قومه في الوسط والشرف، فيه مثلُ أنفتهم، وله كحميّتهم، ويودّ بجدع الأنف أن يُكتب لهم النصر، ومعه عزُّ الأبد. فعاش لذلك، على ما بسطنا لك قبلُ في حياته.

وشاعر أقذته المنافرات، وفزّعته المشاحنات، وبلبلت حسه الخصومات، وحَزنه ما آب اليه الناس وما انحطت اليه الصلات، ولم يكن له الى ذلك قصدٌ الى الثأر، ولا هو من غواة الحرب ودعاتها.

وكذلك كان زهير. بل كان فوق هذا ليس من غطفان بالمحل الذي كان به النابغة. فهذا دمٌ مُزني في وعاء غطفاني، والنابغة من غطفان دماً ووعاء.

فزهير حين تراه لا يجنح للحرب، فرجع الأمر في ذلك الى تلك النشأة التي أبعدته عن أهله فعاش في غطفان بهواه، وقلبُه مع مزينة.

وغطفان، وإن أنزلته بينها بالمحل المُكرم، فهي لم تنس مُزنيّته، ولستُ أدلك على غير ما ذكرتُ لك قبلُ مثلاً، من حرمان غطفان أبا سلمى حقّه، فيما غنمه معهم من طيء.

هذه كانت صلة زهير بغطفان، ولم تكن مزينة بالجاه المسموع والصوت البعيد. ولم يَشغلها ما شغل غطفان، ولم تعش لما عاشت له.

أتاحت تلك الحياة لعقل زُهير أن يُهيمن، وضارّه ما يضار كلّ حكيم يَشهد ما شهد

من فوضى واضطراب ، فيرجو للناس أمناً وسلاماً ، ترجع فيه الأمور إلى وازع نفسي يهديهم ، وحاكم يسوسهم وينهاهم .

أجل ، رُزق زهير هذه النفس العفة ، ومالت به الأيام هذا الميل ، وعرف أن هناك خيراً يُستحبُّ ، وشرًّا يُجتنب .

هجا مرة آل حصن بقصيدته التي يقول فيها :

وما أدري وسوف إخال أدري   أقومٌ آل حصن أم نساء
فإن تكن النساء مُخبّآت   فحُقَّ لكل مُحصنةٍ هداء

(أي إن قلوا إنهن النساء المخبآت في الخدور فينبغي أن يزوجن اذاً)

ثم عرف بعد أنه لم يكن منصفاً حين فعل . فكان يقول : ما خرجت في ليلة ظلماء ، إلاّ خشيت أن يصيبني الله بعقوبة لهجائي قوماً ظلمتهم .

*

وغاضبته زوجه فأخذ يعاتبها في أسلوب الناصح ، ويبصّرها ببواطن الأمور في رفق الفيلسوف ، وهوادة الحكيم :

فيم لَحَتْ إنَّ لومَها ذُعُرُ   أحميْتِ لوماً كأنه الإِبَرُ
حتى إذا أدخلت ملامتها   من تحت جلدي ولا يُرى أثر
قلت لها يا اربعي أقُل لك في   أشياء عندي من علمها خبر
قد يُقبل المال بعد حين على الـ   ـمرء وحيناً لهُلكه دُبُر
والمال ما خَوَّل الإله فلا   بُدَّ له أن يحوزه قَدر
والجَدّ من خير ما أعانكَ أو   صُنْت به والجدود تُنتصر
قد يقتني المرء بعد عَيْلته   تعيل بعد الغنى وتجتبر

(يقتني : يجمع : ويجتبر : يستغنى) .

والإِثمُ من شر ما يُصال به   والبرُّ كالغيث نبتُه أمِرُ

(أمر : كثير) .

قد أشهد الشارب المعذَّل لا   معروفه مُنكر ولا حَصِر
في فتية ليِّني المآزر لا   يَنْسون أحلامهم إذا سكروا

يشوون للضيف والعفاة ويو فون قضاء إذا هم نذروا

*

ويمثل هذا من ضبط النفس ولزوم جانب الحلم يقول لها :

وقالت أم كعب لا تزُرنا فلا والله ما لك من مَزار

رأيتك عبتني وصددت عني فكيف رأيت عرضي واصطباري

فلم أفسد بنيكَ ولم أقرّب إليك من الملمّات الكبار

أقيمي أمّ كعب واستقري فإنك ما نزلت بها بدار

ولا ننس أن زهيراً نزا النّزوة أو النّزوتين ، عدا فيهما طوره ، وفارق المعروف من أمره . ذلك لما لم يتبيّن نهجه ، ولم يعرُج إليه عَرجه. من ذلك قوله يهجو عوف بن شماس:

من يتجرّمْ لي المناطق ظالماً فيَجْسر إلى شأوٍ بعيدٍ ويسْبح

(يتجرم : يتجنى. والمناطق ، أي كلمات السوء) .

يكن كالحُبارى إن أُصيبت فمثلها أُصيب وإن تُفلت من الصّقر تسلح

كعوف بن شمّاس يُرشّح شعرَه إليّ أَسدّي يا مَنيْ وأسْجحي

(يرشح : يربي . وأسدي ، من السداد . وأسجحي : ارفقي)

*

وكقوله، وقد أفحش على الحارث بن ورقاء الصيداوي ، حين عدا في بني صيداء واستاقوا إبلاً لزهير ومعها غلامه يسار :

تعلّم أنّ شرّ الناس حيّ ينادي في شعارهمُ يسارُ

(الشعار : العلامة . يريد أن يساراً صار عيباً عليهم يعيرون به)

ولولا عَسْبُه لرددتموه وشر منيحة أيرٌ مُعار

(عسبه : نكاحه . والمنيحة : العارية ، ومعار ، من العارية) .

إذا جمحت نساؤكم إليه أشظّ كأنه مَسد مُغار

(جمحت : مالت . أشظ : أنعظ . والمسد : الحبل ، والمغار : المفتول) .

*

قال زهير في بني صيداء ، غير هذا ، وكان محروباً لا يملك غير لسان يخوّف به وينذر. وأودّ ألاّ تفوتني الإشارة إلى شيء سبق فيه القولُ ، وهو أن زهيراً لم يجد غطفان له ، فيما يحْزبه من أمر ، كما لم تجد غطفان زهيراً منها فتفرض له عليها ما يُفرض لغطفاني ،

وقدّمت لذلك مثلاً ماكان منها لأبي سُلمى . وأحب أن أضُم إلى سابق لاحقاً فألفتك إلى حديث زهير مع بني الصيداء ، وإغفال غطفان أمره ، وأن زهيراً أحسّ هذا فجعل المردّ إلى شعره يحمله النيل من عدوّه ، غيرَ راجع في ذلك الى عشير من خلفه يلوّح بهم ، ويخوّف بهم له .

* * *

كان لزاماً على زهير أن يهيء الناسَ للسلم ، ويمكّن للفضيلة في نفوسهم ، ويجعل للخير طريقه الى قلوبهم. فقد عرف مع القوة الغدر ، ولن تبعث الحربَ إلاّ حرباً . رأى أباه ظُلم حقه ، ولو قد شاء لكان مع غطفان في حرب ، ولما لم يملك عدّتها حمل الذلة صاغراً . ورأى نفسه مع من يُغار عليهم فتُساق إبله ويؤسر غلامه ، ولو أنّ الأمور إلى أمن لبات قريرَ عين ، ولم يذُق مرارة العدوان عليه.

ورأى الناس حوله يجر الشر شرّاً ، ولا يقوى شر على دفع شر .

وأحس عوز الناس الى رائد يرودهم ، ومبصّر بالخير يبصّرهم ، ووازع يزعهم بالنصح والقول الجميل . وكانت جفوة غطفان الى خمول مزينة أول شيء أعدّه لتلك الوجهة وهيأه لذلك السبيل . فجعل من تلك الدعوة ركنه الذي يشتد به حين يشتد الناس بالعشائر والقبائل .

وما أن رأى الحارث بن عوف وهرم بن سنان يصلحان بين عبس وذبيان ، حتى هشّت نفسه لذلك ، وانطلق لسانه بمعلقته الخالدة يرغّب في السلم ، منددّاً بالحرب وما معها من تنافر ، محبّباً في الصلح ، ذاكراً ما إليه من تواد وتعاطف ، معززاً هذا كله بألوان من الحِكم ، وفنون من القول الحكيم . وفيها يقول :

تداركتما عبساً وذبيان بعد ما تفانَوْا ودقّوا بينهم عطرَ منشَمِ

(١ منشم : امرأة عطارة . تحالف قوم وغمسوا أيديهم في عطرها . فخرجوا للحرب فقتلوا جميعا فتشاءمت بها العرب) .

وقد قلتما إن نُدرك السلم واسعاً بمال ومعروف من القول نَسلمِ

(١ واسع : ممكن) .

فأصبحتما منها على خير مَوطن بعيدَيْن فيها من عُقوق ومأثم

عظيمين في عُليا معدٍّ هُديتما ومن يستبح كنزاً من المجد يعظُم

*

وانظر الى قوله فيها ينفر الناس من الحرب ويذكرهم بسوء المغبة :

فلا تكتُمنّ الله ما في صدوركم ليخفَى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخَّر فيوضع في كتاب فيدَّخر ليوم الحساب أو يُعجَّل فينقم
وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجَّم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتَضرى إذا ضرَّيتموها فتضرَم
فتعرككُم عرْك الرحى بثفالها وتلقحْ كِشافاً ثم تنتج فتتئم

(الثفال: جلد يجعل تحت الرحى. والمحت الناقة كشافاً: اذ حمل عليها كل عام، وذلك أردأ النتاج، والمحمود عندهم أن يحمل عليها سنة وتجم سنة . وتتئم : تأتي بتوأمين)

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عادٍ ثم تُرضع فتفطم

(أحمر عاد . عاقر الناقة)

فتُغلل لكم ما لا تغل لأهلها قرًى بالعراق من قفيز ودرهم

(أي تغل لكم دما على حين تغل قرى العراق من قفيز ودرهم)

*

وأنت ترى أن نفس المصلح زهير تجري في أبياته جريان الدماء في الشرايين ، وتحس أن مقاطع البيت من خفقات القلب ، وأن إيمان الداعي قد سبق الى قلوب السامعين فدانوا له، وعرفوا أنه رسول حق وداعية صدق .

وإن كنت قد عرفت للنابغة صارفاً لفتته عن رسالته وشغله ببلاط الحيرة يوماً والمناذرة يوماً آخر، على ما شفعنا ذلك برأي ، فاعرفْ لزهير هذا الصارف الذي شغله بهرم ابن سنان . فعنىَّ نفسه بمدائح ، لم يغلُ فيها غلوّ النابغة.

ولو عاش زهير ليشهد ما دار بين بعض ولد هرم وعمر بن الخطاب حين قال له عمر: أنشدني بعض مدح زهير أباك . فأنشده . فقال عمر: إن كان ليحسن فيكم القول قال : ونحن والله إن كنا لنحسن له العطاء . فقال : قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم .

أو شهد ما جرى بين بعض ولده وعمر حين قال له عمر : ما فعلت الحُلل التي كساها هرم أباك ؟ قال : أبلاها الدهر. قال: لكن الحلل التي كساها أبوك هرما لم يُبلها الدهر .

أجل لو عاش زهير ليشهد هذا وذاك ، ورُدَّ اليه الأمر، لزاد الى حِكَمه حكمة ، تصرف

الشعراء عن أن يشغلوا إلاّ بما للرأي والعقيدة، فهو أجدى عليهم وأبقى، وأحفظ لأسمائهم من أن تذكر في معرض الاستجداء والاستمناح .

*

وقد أجد لزهير في صلته بهرم شيئاً مما وجدته للنابغة . فقد وجدت يد هرم في الصلح بين عبس وذبيان سبيلاً الى قلب زهير ، وهو الذي يقدر المصلحين ويكبر صنيعهم. فحركت بواعث الإعجاب والإعظام من نفسه ، وذاق هرم حلاوة المديح على لسان شاعر الحكمة ، فخفّ له وأكبر صاحبه ، فسخت يده . ورأى زهير يدَ هرم اليه تطول يدُه فيما كان بين عبس وذبيان ، فجرى لسانه بشكره ، والشكر توجبه النعمة .

وما ندري أكان يقوى زهير على أن يصرف هرماً عن مثل ما فعل بادىء ذي بدء ويلفته الى خير عام ، أو أنه وجد في شكر تلك اليد بمثل قوله :

قد جعل المبتغون الخير في هرم والسائلون الى أبوابه طرقا
إنْ تلقَ يوماً على علاّته هرماً تلق السماحة منه والندى خُلقا
وليس مانع ذي قُربى وذي رحم يوماً ولا مُعدماً من خابط ورقا

وبمثل قوله :

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ما يثير أريحية هرم ويبسط يده للناس عامة. فيكون زهير في هذا جارياً في رسالته، مادحاً هرماً ليضمن للقاصدين والمعتفين باباً من الرزق لا يغلق دونهم رتاجه .

وأنت عن هرم لا تقف بمذكِر ، تعرف له أياديه ، وقد كان من الأجواد المعدودين ، اختصّ زهيراً بنُضاره ، وخصّه زهير بأشعاره .

وفي الحق إن كانت حرب داحس والغبراء ، وما جرّت من بأساء وضرّاء ، أثارت غضبة زهير للدم المراق ، والنفرة والشقاق ، فقد كان كرم الكريم هرم ، وما حقن من دم، وكسا وأطعم ، مما استخفّ زهيراً فجعل منه عنوان موضوع ثانٍ ، هو السخاء ، فقال زهير يدعو الناس الى كرم وجود ، كما دعاهم الى سلم وعهود . ضارباً المثل بجود هرم في مثل قوله له:

إذا السنةُ الشَّهباء بالناس أجحفت ونال كرامَ المال في السنةِ الأكلُ
رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قَطيناً لهم حتى إذا أَنبتَ البقلُ
هنالك إن يستخوَلوا المال يخوِلوا وإن يُسألوا يُعطوا وإن يَيسروا يُغلوا
على مُكثريهم حقٌّ من يَعتريهم وعند المُقلين السماحة والبذل

فأنت ترى زهيراً لا يشكر يداً خُصص بها ، بل يشكر يداً عامة ومعروفاً جامعاً ، فهو لسان المُقلين لدى المُكثرين ، يكاد يَفرض لهم حقوقاً في أموالهم ، ويُحرّك القلوب لعَونهم في غير إذلال ولا استصغار.

*

هذا ما نظنه ، ولا نرانا مُبعدين أو مغالين ، وهكذا كان زهير علي السلم وليًّا وللسادة مُسخياً ، جعل من داحس والغبراء في الأولى سبيله ، ومن جود هرم في الثانية دليله.

*

والآن فلنودّع زهيراً لنأخذ في سيرة عنترة ، فهو رابع أربعة اخترناهم صورة للعصر.

عَنترة بن شَدّاد

في بني عبس، وعلى فراش شدّاد بن عمرو — في الراجح من الروايات — وُلد عنترة ترْأمُـهُ أَمةٌ حبشية تدعى زبَيبَـة .

ويقولون إن شدّاداً سباها في بعض خرجاته مع قومه، فأحملها عنترة. وغلبت صبغتُـها صبغةَ شداد . فاستقبل عنترةُ الحياةَ بوجه كوجه أُمه أسود .

ولما قضى شدّاد منها وطَره أرسلها، فعَلِقت من غيره ببنين عُبداناً سوداً، منهم حنبل، ولم يذكر الناقلون لهم أباً معروفاً . غير أن سعي أخيهم عنترة في إلحاقهم بعبس، كما سيأتيك نبأ هذا بعد، يكاد يقفنا على أن هذا الأب الضالَّ عربيٌ لا عبدٌ حبشي، وأن هذا اللون كسبه الإخوةَ من المَعين الذي كسب عنترةُ منه سوادَه .

فعنترة الى عبس أمرُه، وُلد فيهم عبداً، ثم استلحقوه على نجابة وبلاء . وشأن العرب استعباد أولاد الإماء، فاذا أُنسوا لهم ذِكراً ونباهة، ادّعاهم آباؤهم، ووصلوا نسبهم بنسبهم، فكانوا من القبيلة طلقاء أحراراً، لهم حقوقهم غير مقطوعة ولا ممنوعة .

وعنترة لِدَةٌ للنابغة وزهير، شهد عصرها، وأنسأه الأجل أعواماً بعدها، فعمّر الى نحو سنة ٦١٥ فيما يقولون .

وشهد كما شهدا داحس والغبراء، ورثى فيها مالك بن زهير العبسي بقوله :

فلله عينـا من رأى مثل مالك ... عقيرةَ قوم أن جَـرَى فرَسانِ
فليتهما لم يجريا نصفَ غلوة ... وليتهما لم يُـرسلا لرهان
وليتهما ماتا جميعاً ببـلدة ... وأخطاها قيس فلا يُريان
لقد جلبا حَيناً وحرباً عظيمة ... تبيد سراة القوم من غطفان
وكان فتى الهيجاءِ يحمي ذمارها ... ويضرب عند الكرّ كل بنان

غير أنه شارك فيها بسنانه بعد لسانه ، يقول ويصول . فكان الشيخان زهير والنابغة إلى جانب غطفان ، وهو الى عبس في جانب آخر . وساقته الفتوّة مساقها ، وأقحمته مقاحمها ، فعاش بين المعارك صائلاً حتى إذا ما فصل منها وسكن الى نفسه واتاه خاطر الشاعر فقال. فتراه إذا ما نفض اليد من إغارته على جهينة يقول :

سلوا عنا جُهينة كيف باتت   تهيم من المخافة في رُباها
رأت طعني فولّت واستقلت   وسُمر الخطّ يعمل في قفاها
وما أبقيت فيها بعد بِشْرٍ   سوى الغربان تحجل في فلاها

ثم تسمعه يصف لك بلاءه في يوم شعب جبلة ويذكر جلده في قوله :

أرى لي كل يوم مع زماني   عتاباً في البعاد وفي التّداني
يريد مذلتي ويدور حولي   بجيش النائبات إذا رآني
كأني قد كبرت وشاب رأسي   وقلّ تجلُّدي ووهَى جناني
ألا يادهر يومي مثل أمسي   وأعظم هيبة لمن التقاني

إلى أن يقول :

وقِرْنٌ قد تركت لدى مكرٍّ   عليه سبائباً كالأرجوان
تركت الطير عاكفة عليه   كما تردي الى العرس الغواني
وتمنعهنّ أن يأكلنَ منه   حياة يد ورجل تركضان

ويتجه الى عبلة ابنة عمه يستهويها بموقفه مع الأعجام قائلاً :

سَلي يا عبلة الجبلَيْن عنّا   وما لاقت بنو الأعجام منّا
أبدنا جمعهم لما أتونا   تموج موا كبٌ إنساً وجنّا
ورامُوا أكلنا من غيرجُوع   فأشبعناهمُ ضرباً وطعنا

ويغير على بني الحريقة فينطلق لسانه فاخراً مندّدا :

حكِّم سيوفك في رقاب العُذّلِ   وإذا نزلت بدار ذلٍّ فارْحلِ
وإذا الجبان نهاك يوم كريهة   خوفاً عليك من ازدحام الجحفل
فاعرض مقالته ولا تحفل بها   واقدم إذا حقّ اللقا في الأوّل

الى أن قال :

ولقد نكبت بني حريقة نكبة　　لما طعنتُ صميم قلب الأخيل
وقتلتُ فارسهم ربيعة عنوةً　　والهَيذبان وجابرَ بن مهلهلِ

وبمثل هذا يصف يومه مع بني ضبَّة :

عَفت الديارَ وباقيَ الأطلالِ　　ريحُ الصبَّا وتقلّبُ الأحوالِ

ويقول :

وأنا المنية حين تشتجر القنا　　والطعن مني سابق الآجال

ويقول :

وسلي عشائر ضبَّةٍ إذ أسلمت　　بكرٌ حلائلها ورهط عقال

وقريب منه قوله في وقعة كانت بينهم وبين زبيد :

لقد وجدنا زبيداً غير صابرة　　يوم التقينا وخيل الموت تستبقُ

ومنه :

ماعبَّست حومةُ الهيجاء وجهَ فتىً　　إلاّ ووجهي إليها باسمٌ طلِقُ

وله في يوم المَصانع :

اذا كشف الزمان لكَ القناعا　　ومدَّ إليك صرفُ الدهر باعا

. . . . . .

وفي يوم المَصانع قد تركنا　　لنا بفعالنا خبراً مُشاعا
أقمنا بالذوابل سُوق حرب　　وصيَّرنا النفوس لها متاعا
حصاني كان دلاّل المنايا　　نخاض غمارها وشَرَى وباعا
وسيفي كان في الهَيجا طبيباً　　يداوي رأس من يشكو الصُّداعا

وله يتوعد بني شيبان :

ويلٌ لشيبان إذا صبَّحتَها　　وأرسلت بيضُ الظُّبا شُعاعها
وخاض رمحي في حشاها وغدا　　يشُكُّ معْ دروعها أضلاعها

فأنت تجد بين شعر عنترة — الخالص له والمصنوع على لسانه — الكثيرَ من ذكر

هذه المواقف . وقد عرفت ، مما سقنا إليك قبل ، العصر واضطرابه ، وتلك الخصومات التي ملأت الأيام والأعوام عراكاً ونضالاً .

* * *

ولنا عن عنترة في هذا النضال ونصيبه منه حديث . من الرأي أن نسبقه برجعة الى الوراء قليلاً لنتم لك الحديث عن عبودية عنترة .

فقد علمت شيئاً عن عادة العرب مع أولاد الإماء ، وعلمت أنهم لا يستلحقونهم إلا لنجابة ونباهة ذكر .

وكذلك كانت الحال مع عنترة . فقد ظل عبداً يرعى إبل أبيه صدراً من شبابه لا يؤبه له ولا شأن له ملحوظ . حتى أغارت مغيرة على عبس فأصابوا منهم واستاقوا إبلا لهم ، وعرض لهم العبسيون ، وعنترة بمعزل . فسأله أبوه أن يكر . فما كان جواب عنترة إلا أن قال : العبد لا يحسن الكر ، إنما يحسن الحلاب والصر . وكان ظن الأب بالابن أنه على فتوة وقوة ، فقال له : كر وأنت حر . فكر عنترة وهو يقول :

أنا الهجين عنتره كل امرىء يحمي حره

وأبلى في يومه هذا بلاء حسناً . فادعاه أبوه واتصل بعبس نسبه .

بهذا أو مثله خلف عنترة العبودية الى الحرية ، وعرفته العرب شجاعاً جلداً ، وعرفوا مكانه بين الصفوف ، شهد له بها قيس بن زهير حين وقف عنترة لتميم يوم جرت في إثر عبس وقد ولت ، فحامى عن الناس فلم يصب مدبراً ، فساء قيساً ما صنع عنترة فقال : والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء .

* * *

طلب الشجعان عنترة وطلبهم ، وكاد الأمر يكون خصومة بينه وبين منافسيه لا حرباً تعني القبائل والعشائر .

تلمس شيئاً من هذا فيما سقنا لك من شعره في تلك المواقف ، وفيما سنعرض عليك منه ، فتراه يشيد بموقفه ، ويعدد مآثره ، ثم يذكر عبساً تتمة للحديث دون إفاضة عنهم .

فمن قوله يصف يوماً له :

أعاذلَ كم من يوم حرب شهدتُه　　له منظر بادي النواجذ كالحُ

ثم يلتفت الى قومه فيقول :

فلم أرَ حيًّا صابروا مثل صبرنا　　ولا كافحوا مثل الذين نكافح

ولكنه لا يلبث أن يعود الى نفسه فيقول :

إذا شئت لاقاني كميٌّ مدجَّجٌ　　على أعوجيٍّ بالطعان مسامح

*

ومن قوله في يوم له آخر :

ألا أبلغْ بني العُشَراء عني　　علانيةً فقد ذهب السرارُ

قتلتُ سراتكم وخسلتُ منكم　　خسيلا مثل ما خُسِل الوبار

ثم يذكر قومه فيجمع بينه وبينهم ويقول :

ولم نقتلكمُ سرًّا ولكن　　علانيةً وقد سطع الغبار

*

ومن قوله أيضاً :

وقِرن قد تركتُ لدى مكرٍّ　　عليه سبائبٌ كالأرجوانِ

تركت الطيرَ عاكفة عليه　　كما تردي الى العرس البواني

فما أوهى مراسُ الحرب ركني　　ولكن ما تقادم من زماني

ويريد أن يتم الحديث عن نفسه بإشارة الى قومه فيقول :

وقد علمت بنو عبس بأني　　أهش إذا دعيت الى الطعان

ونعمَ فوارس الهيجاء قومي　　إذا علقوا الأعنَّة بالبنان

همُ قتلوا لقيطاً وابن حُجر　　وأردوا حاجباً وابنَي أبانِ

*

ولا نريد أن نشق عليك ، ولنجعل قوله في توعد النعمان آخر ما نسوق له في هذه البابة ، فتراه يبدأ بقومه فيقول :

لله درُّ بني عبس لقد نسلوا　　من الأكارم ما قد تنسل العربُ

ثم سرعان ما يُثني بنفسه فيقول :

قد كنت فيما مضى أرعى جمالهم   واليوم أحمي حماهم كلما نكبوا
اليوم تعلم يا نعمان أي فتىً   يلقى أخاك الذي قد غرَّه العصب

وينسى قومه فلا يعود اليهم الى آخر ما يقول :

والنقع يوم طراد الخيل يشهد لي   والضرب والطعن والأقلام والكتب

* * *

هذه أمثلة من شعر عنترة في تلك المواقف . ويكاد يكون ما سقنا صورة لما لم نسُق . وانك لتقرب أن تحس ، أن الأيام أيامه ، وأن الحرب حربه ، وان الكرَّ كرُّه ، وان القوم من ورائه يجرون في إثره ويترسمون خطاه .

فعنترة لم يفعل مع هذه الأيام أكثر من أن يسجل لنا تلك الحوادث ، أو قل من أن يسجل لنا غدواته وروحاته ، وما فعلت كفُّه ، وكم سبى وكم قتل ، في إسهاب مكرر وإطالة معاودة . ويكاد يكون ما يقال هنا يقال هناك ، مع تحوير وتغيير .

وقومه في كل ذلك لا يُذكرون إلاَّ ليضيف من الفخر بهم الى الفخر بنفسه ، وإلاَّ حين يذكر عنترة أنه يصف حرباً حشدت لها جموع ، لا برازاً برز له خصمان .

*

ونحب أن نعرف أن عنترة كان له من قومه شكاية ، وفيهم عتب ، جهر بذلك في غير موضع . فهو الذي يقول :

أعاتب دهراً لا يلين لناصح   وأخفي الجوى في القلب والدمع فاضحي
وقومي مع الأيام عون على دمي   وقد طلبوني بالقنا والصفائح

وهو القائل :

إذا فاض دمعي واستهلَّ على خدي   وجاذبني شوقي الى العلم السعدي
أذكِّر قومي ظلمهم لي وبغيهم   وقلة إنصافي على القرب والبعد
بنيت لهم بالسيف مجداً مشيداً   فلما تناهى مجدهم هدموا مجدي

وهو القائل في قومه وقد خرج عنهم غضبان بماله وإخوته :

لا تقتضِ الدين إلاَّ بالقنا الذبل   ولا تحكِّم سوى الأسياف في القلل

ولا تجاور لئاماً ذل جارهم   وخلهم في عراض الدار وارتحل

وهو الذي توعدهم بقوله :

أظلماً ورمحي ناصري وحسامي   وذلاً وعزمي قائدي بزمامي

ولي بأس أ مفتول الذراعين خادر   يدافع عن شباله ويحامي

وإني عزيز الجار في كل موطن   وأكرم نفسي أن يهون مقامي

هجرت البيوت المشرفات وشاقني   بريق المواضي تحت ظل قتام

سأرحل عنكم لا أزور دياركم   وأقصدها في كل جنح ظلام

هذان شيئان جرّ أحدُهما الآخر . فقوم عنترة عرفوه عبداً ، وانتبذهم هو الى رعية الإبل لا يشارك فيما يشارك فيه الأحرار ، ووجد من الحاجة اليه وسيلته إلى إن يُعدّ من أحرارهم فكان لها نهّازاً ، واحتملوه هم على غير رغبة منهم ، فكانت لهم إليه لفتات أحسّ منها عنترة الانتقاص مما نال . وبظني أن الألسنة لم تبرأ من وخزه ، والعيون لم تنف عن غمزه . وأحسّ هو أنه لا يزال بين الناس عبداً ، وأن ما ناله كلمة لم تنزع إيماناً سكن القلوب ، وعقيدة أُشربتها النفوس . فليدعه أبوه إليه ، وليتصل النسب بالنسب . ولكن الناس على دين قديم نشّأهم على امتهان العبد وانتقاصه ، وجرّاهم على أن يعدّوا تلك صفة لا فكاك منها إلى يوم الدين .

هذا شيء وجده عنترة فوجد له ، وجرى لسانه به شاكياً فيما شكى ، ألم تسمع إلى قوله :

لئن أكُ أسوداً فالمسك لوني   وما لسواد جلدي من دواء

ولكن تبْعد الفحشاء عني   كبُعد الأرض من جوّ السماء

والى قوله :

تُعيّرني العدا بسواد جلدي   وبيضُ خصائلي تمحو السوادا

ثم اليه يخاطب قومه :

يعيبون لوني بالسواد وإنما   فعالهم بالخبث أسود من جلدي

وتعالَ الى قوله :

ان كنتُ في عدد العبيد فهمَّتي فوق الثريا والسِّماك الأعزلِ
أو أنكرت فرسان عبس نسبتي فسنان رمحي والحُسام يُقرّ لي

فأنت ترى عبساً لم تَحمَدُ فيما منحت القولَ الذي لم يؤيده فعل ، وأحس عنترة معه أنه غريب عن القوم وإن كان منهم فالتفت الى نفسه ، وكان لهذا أثره في خصّه نفسه بأكثر شعره ، والإشادة بما فعلت يداه في الكثير مما قال .

وكذلك جرّته المهانة يلقاها في نادي قومه إلى أن يكون على ما وصفنا لك ، وأن يصبغ شعره بهذه الصبغة .

وكان لهذا النزاع بين عنترة وقومه بقية ، فقد كان له إخوة ، شأنهم من شأنه ، الأب من جنس الأب والفراش هو الفراش . وكان بقاؤهم على العبودية شيئاً يقضّ عليه مضجعه ويهيج حزنه . وما لهم بلاء كبلائه يستلحقون به ، وما له هو صبر على ما يلحقه ببقائهم تحت سمعه وبصره يسامون ما تسام العبيد . وكأنه فطن الى أن حريته ينقصها أن يرى الى جانبه إخوته أحراراً ، فيقطع بذلك دابر المعرّة ، ويوصد في وجوه عائبيه الباب الى عيبه .

فاحتال لذلك بأن أوحي الى خير إخوته عنده ، وكان يدعى حنبلا ، أن يروي مهره من اللبن ، وان يمرّ به عليه عشاء في نادي قومه . فاذا ما قال له عنترة : ما بال مهركم مهزولاً ضامراً ؟ أهوى حنبل بالسيف الى بطن المهر فضربه . فيظهر اللبن .

ولمّا كان ما أراد عنترة قال :

أبني زبيبة ما لمهركمُ متخدراً وبطونكم عُجْرُ
ألكم بإيغال الوليد على إثر الشياه بشدة حبْرُ

وينقل الرواة أن الأمور لم تجر إلى ما رجا وأمّل ، فاستلاطهم نفر ونفاهم نفر .

* * *

وبعد هذا يجيء حديث عبلة ، ابنة العم التي شغف بها عنترة وأكثر من القول فيها ، وهل ترى القوم حبسوها عنه ومطلوه في أمرها إلا لهذا الذي صحب عنترة من المهد ، ولم يبرئه منه ادعاؤه عن فضل وبلاء .

واتجه عنترة الى عبلة يحدّثها عن فتوته وإثخانه في الأعداء . وقديماً استهوت الغواني شجاعة الشجعان . فقال لها :

فلو أن عينيك يوم اللقاء ترى موقفي زدت لي في المحبه
وأفرح بالسيف تحت الغبار إذا ما ضربت به ألف ضربه
وتشهد لي الخيل يوم الطعان بأني أفرقها ألف سربه

ثم يدرك أن هناك شيئاً آخر غير هذا يحسن به أن يجمله في عينها ، فيقول :

وإن كان جلدي يرى أسوداً فلي في المكارم عز ورتبه

ويعود إليها ببلائه في يوم له مع بني عامر فيقول :

سلي يا عبل عنا يوم زرنا قبائل عامر وبني كلاب
وكم من فارس خليت ملقى خضيب الراحتين بلا خضاب
يحرك رجله رعباً وفيه سنان الرمح يلمع كالشهاب

وكأن عبلة كانت على دين قومها ، فلا يستجيب قلبها لتلك الصرخات ، ويرجع بها عنه شعور بالنقيصة تلوث أردانها إن وصلت حبلها بحبله ، فتتغالظ له ، وتأخذ عنترة العزة فيقول:

سلا القلب عما كان يهوى ويطلب وأصبح لا يشكو ولا يتعتب
صحا بعد سكر وانتحى بعد ذلة وقلب الذي يهوى العلا يتقلب
الى كم أداري من تريد مذلتي وأبذل جهدي في رضاها وتغضب
عبيلة أيام الجمال قليلة لها دولة معلومة ثم تذهب
فلا تحسبي أني على البعد نادم ولا القلب في نار الغرام يعذب
وقد قلت إني قد سلوت عن الهوى ومن كان مثلي لا يقول ويكذب
هجرتك فامضي حيث شئت وجربي من الناس غيري فاللبيب يجرب

والحديث عن عبلة يطول . ومهمنا منه هو أن القوم جعلوا من هوى عنترة بها إحقاقاً لما يريدونه عليه . فأرسلوه على الأعداء غازياً ، وحملوه عبء الدفاع والذود عن حماهم ، وكانوا بعد هذا بين إقدام وإحجام في أن يزفوها اليه . فقد ولدت على فراش غير الفراش الذي ولد عليه . ولهذا قدره وشأنه عندهم . فأثقلوا عليه وعنتوه بطلب العصافير مهراً لها.

* * *

شيء واحد كان لعنترة أن يلتفت إليه ويخصه بالقول ، هو ذلك العنت الذي أرهقه به

قوم وآذوه ، وتلك الروح التي فرّقت بين الناس في المهاد فجعلتهم عبيداً وأحراراً ، وذلك الظن بأن العبد إلى عزلة لا يقرب مواطىء أقدام سادته .

لقد ذاق عنترة من صنوف الإذلال كثيراً ، ذاق ذلك في نفسه ، وذاقه في إخوته ، وذاقه في صلته بعبلة . فماذا فعل! وبأي لون من القول ذاد عن تلك الكرامة التي هدرها قومه .

لا تجد الرجل إلاّ ضعيفاً مستخذياً يرى رأي القوم فيه ، ويحاول في غير توفيق أن يجمل من شجاعته وإقدامه ما يمحو عنه ما اتصل به عن أُمه ، فتراه يقول :

إني امرؤ من خير عبس منصبا شطري وأحمي سائري بالمُنصلِ (١)
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحمت أُلفيت خيراً من مُعمٍّ مُخولِ

* * *

فأين لعنترة ـ وكان له إلى لسانه يدٌ باطشة — شعره في الدفاع عن العبودية وحمل لواء المساواة بين الأفراد ؟

ومن يحمل لواء المساواة بين الأجناس إذا لم يحمله أمثال عنترة ؟ بل عنترة به أولى .

هذه هي رسالة عنترة التي فرط فيها .

أما قوله في تلك المعارك الناشبة ، التي سيق اليها سوقاً ، والتي كان فيها حرباً مع من لا يحملون له ولاء ، ولا يكادون يقرّون له بينهم نسباً ، فما هو بشيء .

وإن عددنا له بعضاً مما كان عليه ، فأين غيره ، وقد كان مجال القول فيه فسيحاً ، والفرصة مواتية ، والخطب خطبه ، في نفسه وأُمه وإخوته ، فحمّله همّاً لم يدعه . وكأني به قد مضى حين رماه ابن جابر النبهاني فقطع مطاه ، فقال عنترة يخاطب مَنْ حسبهم قومه :

وإن ابن سلمى عنده فاعلموا دمي وهيهات لا يرجى ابن سلمى ولا دمي

*

ترى لو بعث عنترة ورأى كيف نامت عبس عن الأخذ بثأره ، وان ابن جابر عاش لا يخشى واتراً ، أما كان يرى أنّا لم نظلمه ، وأنه ظلم نفسه حين ترك ما كان له إلى غيره ؟

(١) يقول : إن أباه من اكرم عبس ، واما عن أمه ، ففي شجاعته ما يعوض عليه ما فقده فيها .

حسّان

ابن ثابت

خير ما نقدِّم به لحسان بن ثابت كلمة الأصمعي : « الشعر نَكِدٌ بابه الشرُّ . فإذا دخل في الخير ضعُف» . هذا حسّان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره » ؛ ثم كلمة له خرى من هذه وإليها: « شعر حسان في الجاهليـة من أجود الشعر ، فقُطع متنه في الإسلام » .

ما نريد بهـذا أن نعرف أين أجاد حسان وأين قصَّر ، فتلك دراسة أخرى ؛ وما بنا أن نلتفت عما بدأنا فيـه إلى رأي بيَّـنا تخلّفه عن الغاية . ولكن عَنَانا أن نعرض لمثل هذا الرأي فنذكر به كيف شُغل الناس بحسَّان . فرأيناهم يقدرونه على قوله لا على رأيه ، ويستمعون إليه استماعهم إلى الزامر ينفخ في قصبته ؛ أما أنه شاعر يحمل إلى القول الرأيَ والفكرة فما بهم إليه التفاتة .

*

وقد أتاك أنَّ « حسانًا » ضَمَّه عهدان ، عهد يسبق الإسلام ، وعهدٌ يبدأ به . وقد تحب أن نصِلك بنَسب حسَّان وعشيرته قبل أن نحدثك حديثه هنا وهناك .

فهو ابن ثابت بن المنذر بن حرام ، وحرام من النجار ، والنجار من الخزرج .

وأمه الفُريعة بنت خالد بن قيس ، خزرجية .

وفي يثرب وُلد ، وفيها نشأ وشبَّ ، يغذوه جاه أبيه وثراؤه .

واذا ذُكرت الخزرج ذُكرت أوس ، فقد شهدت لهما يثرب حقبة استشرى فيها الشر وانطوت فيها الصدور على ترات ، والنفوس على حسائك ، والقلوب على بغضاء.

وكان مع الأوس شاعرُهم قيس بن الخطيم ، وما هو بأوسيٍّ إن لم يَنل من الخزرج بلسانه ، وينبري لهم ببيانه . وما رجت الخزرج حسانًا ، إلا ليدفع عنها ويذود دونها .

فوقف حسان لقيس يهجوه ويهوّن من شأنه، علّه أن يذل ويخزى، فيكتب حسان لقومه نصراً حيث مجاله ومصاله.

نذكر له من هذا قوله:

لعمر أبيك الخير يا «شعث» ما نبا ... عليّ لساني في الخطوب ولا يدي

(شعث، يريد: شعثاء، اسم المرأة التي كان يتشبب بها)

لساني وسيفي صارمان كلاهما ... ويبلغ ما لا يبلغ السيف مِذْودي

(المذود: اللسان)

وإن أكُ ذا مالٍ كثير أجد به ... وإن يعتصر عودي على الجهد يُحمدِ

فلا المالُ ينسيني حيائي وحفظتي ... ولا وقعاتُ الدهر يَفلُلن مبردي

وإني لمعط ما وجدتُ وقائل ... لموقد ناري ليلة الريح: أوقدِ

الى أن يقول:

فلا تعْجلنْ يا قيس واربعْ فإنما ... قصاراك أن تلقى بكل مهنَّد

(اربع: قف. قصاراك: جهدك)

حسام وأرماح بأيدي أعزة ... متى ترهم يابن الخطيم تبلَّد

ليوث لها الأشبال تحمي عرينها ... مداعيس بالخطيّ في كل مشهد

(مداعيس: طاعنون)

فقد ذاقت الأوس القتال وطرّدت ... وأنت لدى الكنَّات كل مطرَّد

(الكنات: السقائف. يشير الى جبنه)

فناغِ لدى الأبواب حوراً نواعماً ... وكحِّلْ ما قيك الحسان بإثمد

نفتكم عن العلياء أمّ لئيمة ... وزندٌ متى تقدح به النار يَصلد

(يصلد: يصوت ولا يورى)

كما نذكر له قوله:

ما بال عيني دموعها تكفُ ... من ذكر خود شطت بها قذفُ

فغادروني والنفس غالبها ... ما شفَّها والهموم تعتكف

دع ذا وعدِّ القريض في نفر يدعون مجدي ومدحتي شرف
إن أدعُ في المجد ألفهم سلفاً أهل فعال يبدوا إذا وُصفوا

وفيه يقول :

أو ندعَ في الأوس دعوة هرباً وقد بدا في الكتيبة النصف
كنتم عبيداً لنا نخولكم من جاءنا والعبيد تضطعف
كيف تعاطون مجدنا سفهاً وأنتم دعوة لها وكف

(الوكف : العيب والنقص)

شانكم جدكم وأكرمنا جدٌّ لنا في الفعال ينتصف
وكم قتلنا من رائس لكم في فيلق يجتدى له التلف
ومن لئيم عبد يحالفكم ليست له دعوة ولا شرف

وبقيت المهاجاة بين الشاعرين ما بقي الخلاف بين الحيين ، فلما ضمَّ الاسلام منهما ما تفرق ، ورأب ما تصدع ، وأصبحوا الأنصار ، بعد أن كانوا أوسيين وخزرجيين حمل حسان في عنقه هذه الأمانة ، وعاش ينظر لقومه بين جمهور المسلمين ، يخاف عليهم الحيف ، ويود لهم النصفة . وكان يعلم أن القبائل العربية ، وإن جمع الاسلام بين قلوبها وألسنتها ، إلا أنها لم تخلص من بقية من هوى يتصل بأصولها وأجناسها ، والأمر سائر الى رائس ومرءوس، ومع هذا الطمع والخشية . فرأينا « حسان » يخفق قلبه بما فيه لقومه ، ويشفق أن يتحيف حقهم متحيف ، أفتراه وهو يرثي رسول الله صلى الله عليه وسلم تجيش في نفسه الخواطر فيقول :

يا ويح أنصار النبي ورهطه بعد المغيب في سواء الملحد

(سواء الملحد : وسطه)

ضاقت بالأنصار البلاد فأصبحوا سوداً وجوهُهم كلون الإثمد
ولقد ولدناه وفينا قبره وفضول نعمته بنا لم يُجْحد

* * *

هذا جانب من حياة « حسان » عرفت فيه بلاءه ، رأينا أن نصل حلقاته ، فنجمع

ما كان منه في الإسلام إلى ما قبله ، إذ الأمر أمر قوم بين انقسام وتضام ، وحياة شاعر شارك في الحالين ولبس لكل لباسه .

وهناك جانب آخر عاش له حسان منافحاً مناضلا ، بدأ بهجرة الإسلام من مكة الى يثرب ، وكان الى جنبه فيه كعب بن مالك وعبدالله بن رواحة ، فكانوا ثلاثة لثلاثة قرشيين في مكة ، هم عبدالله بن الزبعري ، وأبو سفيان بن الحارث ، وعمرو بن العاص .

القرشيون ينالون بألسنتهم من تلك الرسالة الجديدة عليهم ويعرضون لصاحبها عليه السلام . واليثربيون ، وعلى رأسهم حسان ، يدفعون ويذودون .

ولقد شبّ « حسان » على الذّياد وأبلى فيه ، فلما جاء الإسلام يثرب ودان هو به ، نصب نفسه للدفاع عنه والنّيل من خصومه ، فتتبع سادة قريش وزعماءهم ، ومشى مع الوقائع والأيام يشيد بمواقف المسلمين فيها ، ووصل لسانه بأذنيه ، فما دبّ الى سمعه قول يمس المسلمين ، إلا انطلق معه لسانه بما عالك .

فهو مرة يهجو أبا سفيان فيقول :

لقد علم الأقوام أنّ ابن هاشم   هو الغصن ذو الأفنان لا الواحد الوغد
ومالك فيهم مَحْتِد يعرفونه   فدونك فالصق مثل ما لصق القُرد

(القرد : القراد)

وأبلغ أبا سفيان عني رسالة   فمالك من إصدار عزم ولا وِرْد
وإن سنام المجد من آل هاشم   بنو بنت مخزوم ووالدك العبد
وما ولدت أبناء زُهرة منهمُ   كرامٌ ولم يقرب عجائزك المجد
ولست كعبّاسٍ ولا كابن أمه   ولكن هجين ليس يُورى له زند
وأنت زَنيم نِيط في آل هاشم   كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

(الزنيم : الدعي)

وان امرأ كانت سمية أمُّه   وسمراء ، مغلوب اذا بُلغ الجهد

(سمية : أم أبي سفيان . وسمر : أم أبيه)

*

وحيناً يهجو الوليد بن المغيرة :

إذا نسبت يوماً قريش نفتكمُ　　وإن تنتسب شجعٌ فأنت نسيبها
وإنّ التي ألقتْك من تحت رجلها　　وليداً لمهْجان الغذاء خبوبها
(مهجان : راعية . والغذاء : الخذال الصغار . وخبوبها ، أي تخب في إثرها)
وأُمك من قَسْر حباشة أُمها　　لسمراء فَهم آسنُ البول طيبها
(قسر : من بجيلة . وفهم : أبو حي)

ويعرض لصفوان بن أمية : فيفحش عليه :

من مُبلغ صفوان أن عجوزه　　أمة لجارة معمر بن حبيب
أمة يقال من البراجم أصلها　　نسبٌ من الأنساب غير قريب
سائل بحنبل إن أردت بيانها　　ماذا أراد بخربها المثقوب
(حنبل : رجل)
لولا السّفار وبعد خَرْق مهمه　　لتركتُها تحبو على العرقوب

ولا يُفلت منه الحارث بن هشام حين يقول له :

ياحار إن كنت امرأً متوسعاً　　فافدْ الأُلى ينصفن آل جناب
(ينصفن . يخدمن)
أخوات أمك قد علمت مكانها　　والحقُّ يفهمه ذوو الألباب
إن الفرافصة بن الأحوص عنده　　شجن لأُمك من بنات عُقاب
(الفرافصة ، هو أبو نائلة امرأة عثمان)
أجمعت أنك أنت ألأم من مشى　　في فُحش مومسة وزَوْك غراب
(الزوك . مشية الغراب)
وكذاك ورّثك الأوائل أنهم　　ذهبوا وصرت بخزية وعذاب
فورثت والدك الخيانة والخنا　　واللؤم عند تقايس الأحساب
وأبان لؤمك أن أمك لم تكن　　إلاّ لشرٍّ مقارف الأعراب

*

وهذه أبيات له في هجاء أمية بن خلف الجمحي :

عمرك ما أوصى أميةُ بكْره　　بوصيةٍ أوصى بها يعقوبُ
أوصاهم لما تولى مدبراً　　بخطيئة عند الإله وحُوب

أبنيَّ إن حاولتمُ أن تسرقوا ... فخذوا معاول كلها مثقوب
وأتوا بيوت الناس من أدبارها ... حتى تصير وكلّهن مُجُوب

وهكذا عرض « حسان » لسادة قريش ، سيداً بعد سيد ، وكابراً في إثر كابر ، يهدم من جاههم ، ويحطم من خطرهم ، نافذاً إلى أصولهم ، والجاً الى أحسابهم ، في حذر وتبصر ، فالوشائج بين هؤلاءِ وغير المسلمين متصلة ، وفيهم من تتصل أسبابه بأسباب الرسول صلى الله عليه وسلم — يُبصره بالمآخذ ، ويهديه الى المناقص ، النسّابة أبو بكر .

وحسّان إذ يفعل ليُسمع معاشر يستخفها القول ، ويستهويها الشعر ؛ تُعز من يعزه الشعر ، وتهون من يهونه .

* * *

تلك رسالة حسان في الجاهلية والاسلام، عاش لها مخلصاً موفقاً،ولا يضيره أن أسباب الإجادة خانته في بعض ما قال . حسبه أن الناس إذا ذكروا ذلك الجهاد الذي احتدم بين الدعوة الاسلامية ومشركي العرب ذكروه ، وإذا عدوا الأبطال المحاربين لم ينسوا أن يذكروه في أول القائلين . والكفاح يد ولسان . وقد حرم حسان اليد الباطشة وقلب الشجاع ، فملك اللسان اللاذع وقلب المؤمن . فأعان بهما جهده . وعاش بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم متصلاً برسالته ، على ما يرى ويبصر ، يعنيه أمر الأنصار فيما يعنيه من أمور المسلمين .

وأنت تعرف كيف صار الأمر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم الى فُرقة ، كان حسان فيها جانحاً الى عثمان واصلاً حبله بحبله حاملاً على خصومه، تحس هذا في تعريضه بعليّ وهو يرثي عثمان :

من سرّه الموت صرفاً لا مزاج له ... فليأت مأسدة في دار عثمانا
بل ليت شعري وليت الطير تخبرني ... ما كان شأن عليّ وابن عفانا
لتسمعن وشيكاً في دياركم ... الله أكبر يا ثارات عثمانا

إلاّ أن هذا الميل لم ينسه صلته بأقطاب المسلمين يحملون غير رأيه ، ووجد في الحرص على تلك الصلة ما يزيد الأمر قوة ، فلم يفته أن يرثي أبا بكر وعمر ، وهو وإن أقلّ ، فرثى أبا بكر بأربعة أبيات ، وعمر بثلاثة ، إلاّ أنه استطاع أن يجرد نفسه مما تجد ، والنفوس لا تراد على الكمال كله ، وأحمد ما تُلفى أقرب ما تكون إليه .

٢ ـ الحياة الاقتصادية

١ — الزراعة

اذا أخذنا بتقسيم العلامة « إنجلر » من حيث التوزيع الجغرافي للنبات فان الصحراء الغربية تنتمي لمنطقة الصحراء الكبرى التي تعد من أقحل صحاري العالم. ومع ذلك فيمكن تقسيمها من الوجهة النباتية قسمين . قسم جدب . . وقسم نباتي :

١ — «المناطق الجدباء» : توجد في الصحراء مناطق تمتد عشرات بل مئات الأميال، وليس فيها أي أثر للحياة النباتية ، ولعل أول شيء يتبادر الى الذهن ، بمجرد ذكر الجدب في مكان ما ، أن عدم وجود الماء فيه هو السبب المباشر في جدبه وإمحاله ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، فإن الجدب لا ينسب للجفاف الشديد ، اذ توجد أنواع خاصة من النباتات تلائمها تماماً مثل هذه الظروف ، ويمكنها أن تعيش وتنمو ، بل وتعطي بزوراً تتكاثر بها تحت ظروف الجفاف لمدد طويلة ، ولا تحتاج إلا لرطوبة فصل الشتاء ، وما تجود به السماء من قطرات الندى في آخر الليل كبعض أنواع الخريبة . والطرطير . والغاسول . حتى وإن تأخر الغيث أربعة أعوام لا يهطل فان هياكلها الباهتة تظل قائمة في الصحراء ، وليس عليها من آثار ما تعانيه من جفاف غير بعض الذبول الذي يرين عليها في أوقات القيظ الشديد .

ولكي تستطيع هذه النباتات ان تقاوم العوامل المنهكة للحياة ، كالحرارة والجفاف وتحتفظ بوجودها ، عليها أن تتحصن ضد هذه العوامل ، لتضمن لنفسها المناعة من عبثها حتى تغالبها وتبقى تنعم بالحياة ، وتسمى هذه النباتات « بالنباتات الجافة »

وتحتال النباتات الجافة في ذلك بوسائل عدة ، فإما أن تكون وسائل هذا التحصن مخفية على أعماق بعيدة تحت سطح الارض كأن تجعل النباتات لنفسها خزانات تكتنز فيها مدخراً من الماء والغذاء ، على هيئة درنات كالتُّمير Erodium .. وهذا نادر .. !

وإما أن تكون ظاهرة في أجزاء النبات العليا ، كتصغير المساحة الخارجية المعرضة لتلك العوامل ومظهرها الفقر في الاوراق كالزيتة Lavandula Coronapifolia أو الكثرة

العظيمة في الأهواك كالـكداد Astragalus Forskelei أو التفاف حوافي الأوراق لتظل نفسها من الشمس، ولتمنع الريح الجففة من أن تلامس سطحها عند هبوبها كما في الدينيـان Caylusea أو انطباقها على بعضها البعض كما في السنامكي Cassia acutifolia

وتقع تحورات أخرى في الأوراق التي كثـيراً ما تختلف في الشكل والحجم والأنسجة والتركيب وكذلك الأمر في السوق.

وفضلاً عن ذلك فإن لنباتات الصحاري تحوّرات أخرى تتمكن بها من تحمل معضلة الجفاف الـكبرى .. وعدم ملاءمة الجو الصحراوي أثناء موسم الجفاف الطويل، فالنباتات المعمرة تنمي جذوراً طويلة للغاية بالنسبة للنبـات الظاهر على سطح الأرض. وقـد تبلغ هذه الجذور في بعض الشجيرات بالنسبة لطول الساق الظاهر على الأرض عشرين مرة أو تزيد عن ذلك، حتى تصل الى بعض موارد مختفية من الماء .. !!

وللنباتات الحولية أو القصيرة العمر، شبكة من الجذيرات الشعرية تنتشر تحت سطح الأرض مباشرةً لتمتص الرطوبة التي خلّفها فيها المطر أو الندى، فاذا ما حُرمت منها ذبلت وماتت.

وليست قوة احتمال هـذه النباتات ترجع لقدرتها فقط على تقليل التبخر الى نهايته الصغرى، إذ يكون هذا التبخر أحياناً أكثر ارتفاعاً من المعتاد. وإنما يرجع ذلك لمقدرتها العظيمة في امتصاص الماء من الأرض وإن قلّ أو ندُر وجوده. وهذه المقدرة أعظم بكثير مما هي في النباتات الأخرى المعتادة. فقد يصل الضغط الأسموزي الذي به تسحب النباتات المياه خلال أنسجتها الى قوة تتراوح بين ٨ : ٢٠ جوّاً ولـكن هذا يتساوى مع ما في النباتات الحولية الصغرى، ويفوقـه بكثير ما في النبـاتات المعمرة والأعشاب، وقد اكتشف الهر فتنج Fitting أن الضغط في بعض النباتات يصل الى نحو مائة جو وذلك كما في زيارة أم الندى Reaumuria, L.

مما تقدم يتبين لنا أن الجدب لا يُنسب لعدم وجود الماء، وإنما يرجع لعوامل وأسباب أخرى نذكر منها :

١ — فقر التربة في المواد الغذائية التي تحتاجها النباتات.

٢ — توجد أماكن منخفضة بها مركبات ملحية تخالط التربة بكثرة غالبة. السبكراس Sebcrasa (٢٠) ولو أن في الصحراء نباتات محببة لها الملوحة. الا أنه توجد نباتات لا يمكن أن تعيش بالقرب منها. ويصادف أن النباتات التي تحتمل هذه الملوحة لا يلائمها الطقس الذي به هذا النوع من التربة.

٣ — اجتياح الفرود الرملية لبعض المناطق ذات النبت ، فلا تُبقي على أي نبات عندما تغمره ، وإنما تهلكه بأسرع ما يمكن . اللهمَّ الا اذا بقيت القمم النامية ظاهرة على سطح الارض . هذا في حين أن الرابية الصغيرة التي تتكوّن أحياناً حول جذوع النباتات التي لها قوة احتمال التغيرات الجوية لها فائدة عظمى ، إذ انها تساعد على التبرعم كما انها تحتفظ بالرطوبة الجوية المتخلفة من الأمطار شتاء والندى ليلاً ، ولهذه الرطوبة من الأهمية العظمى للنبات مالها .

٤ — جمال البدو التي تتربى في الصحراء عامل هام في جدب بعض المناطق إذ انها تطوش القمم النامية لجميع النباتات الخشبية الصلبة ، وتأكل الحوليات التي تعطي بزوراً .

٥ — البدو . وهم دائبو السعي وراء الوقود للدفء شتاء ، ولطهي الطعام وعمل الشاي طوال أيام السنة ، فالبدوي سواء المتوطن أو المتنقل ، يقتلع من الارض ما تصل اليه يده من الأحطاب خصوصاً نبات « البلبل » إذ أن بقايا جذوعه تعتبر وقوداً فائق الجودة ، لذلك نجده قد اختفى من الصحراء اللهمَّ الا من منطقة قطرها ٣٠ : ٥٠ كيلومتراً من الواحات

ومن النادر أن نجد مرعى في الصحراء لم ترعه الابل مرة في العام على الأقل ، أو لم ترعه الاغنام التي تسعى وراء الكلأ بالقرب من مضارب البدو المقيمين بالصحراء .. وعلى العموم فان الانسان والحيوان عامل متلف دأب على ذلك آلاف السنين حتى أكسب هذه المناطق صفة الجدب

٢ — ﴿ المناطق ذات النبت ﴾ : وتنقسم قسمين (١) مناطق نباتية برية (٢) مناطق نباتية زراعية .

١ — المناطق النباتية البرية

وهي التي تنمو فيها نباتات كثيرة أو قليلة دون أن يكون في وجودها دخل ليد الانسان وتتكاثر هذه النباتات غالباً بالبزور التي تنتشر بين السهول والأودية وفي جميع مناطق نموها بعوامل طبيعية كثيرة أهمها :

١ — الرياح : وهي عامل مهم في نقل البزور ذات القشر التي تتطاير في مهابها متنقلة من مكان الى آخر حتى تصادف المكان الرطب الذي تنمو فيه كالمرخ Leptadenia, R وهناك نباتات تنتقل بأكملها مع الرياح حيث تنمو من جديد في أماكن أخرى ، ونبات كف مريم Rose of Jericho مثل صريح على ذلك ، إذ عندما ينقضي فصل الأمطار يلف هذا النبات الصغير فريعاته فيصير كتلة كروية صغيرة تحتفظ داخلها بالبزور .. ثم تقتلع نفسها من جذورها ، وتستسلم للريح التي تدحرجها أمامها على أديم الصحراء فاذا ما سيقت الى مكان نديّ أو أدركها موسم الأمطار تفتحت وأرسلت بجذورها في الأرض ونمت مرة أخرى

وزهت الثمار وانفتحت تنثر البزور فيما حولها وفي خلال أربع وعشرين ساعة تكون قد نبتت وأرسلت الى الأرض بجذيراتها الدقيقة .

٢ — السيول : وعند ما تسقط الأمطار بغزارة في الصحراء تتجمع السيول وتنحدر نحو المنخفضات حاملة معها ما خلفه الموسم الماضي من بزور على الروابي ، فتوزعه على ما تمر به من أودية وسهول حيث تنمو عقب رسوّها .

٣ — الحشرات : وفي زمن الصيف تكثر في الصحراء الحشرات الصغيرة التي تسكن الجحور وهذه الحشرات تقضي ايام الصيف دائبة السعي وراء جمع مؤونتها حيث تختزنها في بيوتها تحت التربة وبين ما تجمعه بزور بعض النباتات التي تعثر عليها ، فاذا ما جاء فصل الأمطار نبتت هذه البزور ، وقد لوحظت مثل هذه الحالة في ناحية برج العرب حيث شوهدت بعض أنواع من النمل تحمل ثمرات الخبازى الى بيوتها لاستعمالها وقت الحاجة .

٤ — الطيور : وتحمل الطيور بعض الثمار ذات البزور من مكانها الى مكان آخر حيث تأكل لحم الثمار وتترك البزور التي ربما تصادف جوّاً مهيئاً للنمو . فتنمو . !!

٥ — الجمال : وتتناول الجمال بين ما تتناوله من علف بعض الثمار ذات البزور الصلبة التي لا تهضم فتخلفها في روثها في أماكن بعيدة خلال رحلاتها الطويلة في الصحراء .كالخروب مثلاً . وقد شوهدت بزوره في روث الجمال في أماكن كثيرة .

٦ — الحيوانات ذات الفراء : كالغنم مثلاً إذ تعلق بصوفها البزور أو الثمار ذات الأشواك أو البزور ذات الخطافات ..كالضُّريس Tribalus alatus

ومن أهم خواص نباتات الصحاري شدة الحساسية للرطوبة فان السيقان وأعناق الأزهار وسامات الثمار وقُنَّابات الأزهار أيضاً تنكمش بإحكام في بعضها البعض عند جفافها فاذا ما ابتلت انفرجت ، وتفتحت ، وبهذه الوسيلة لا تتبعثر البزور إلاّ في موسم الرطوبة .

وجميع هذه النباتات البرية تتبع فصائل عِدَّة من ذوات الفلقة الواحدة وذوات الفلقتين وبينها الحولي وذو الحولين والمعمر ، كما أنها تضم بينها الحشائش والأعشاب والشجيرات والأشجار .. !!

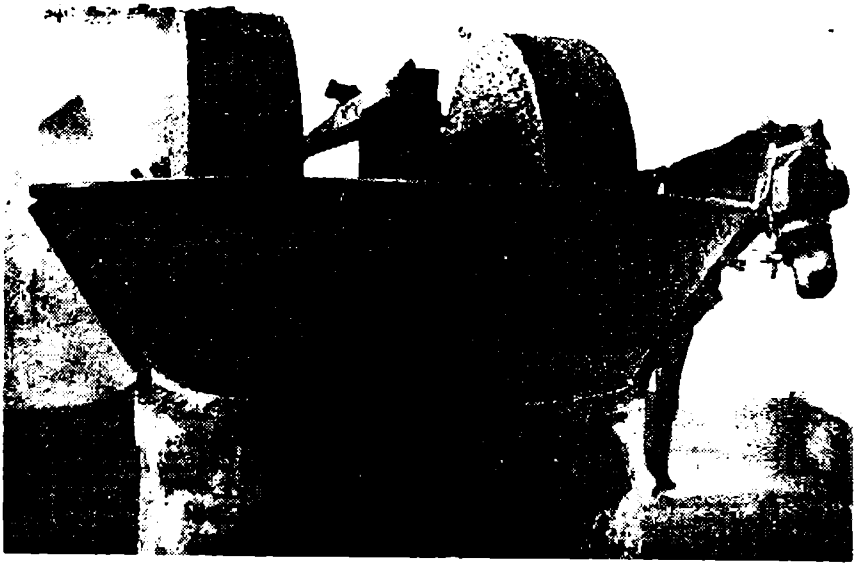
أما الحوليات فوطن أغلبها المنطقة الساحلية وكثرتها الغالبة في مريوط حيث تنمو بعد سقوط الأمطار شتاء ، وتزهر في فصل الربيع مع النباتات الأخرى ذات الحولين والمعمرة فتحيل الصحراء القاحلة صيفاً الى فردوس جميل ، يلذ للنفس أن تستمتع بما فيه من نضار ، لذا قد أخذت المنطقة الساحلية وعلى رأسها مريوط شهرة واسعة بأزهارها الجميلة في فصل الربيع من أقدم العصور ، وإن الذي يرى تنسيق الأزهار في مجاميعها وتوزيعها



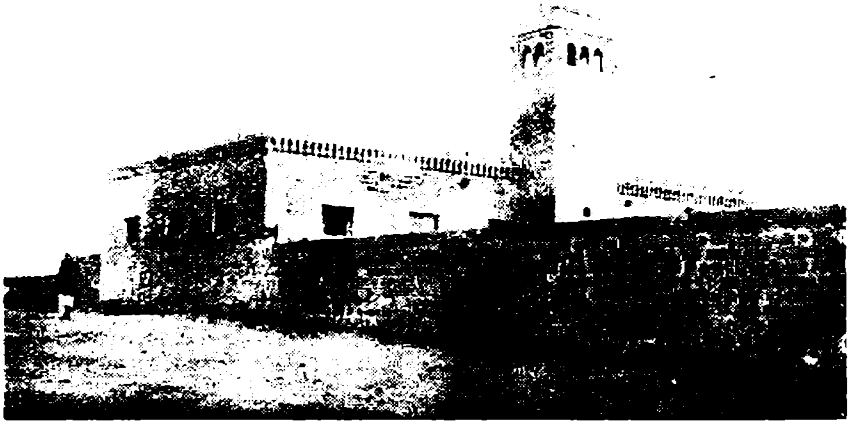
المحراث الأفرنجي يجره بغل بقسم البساتين
سنة ١٩٣٥ ببرج العرب



معصرة زيتون بلدية وتصنع من خشب النخيل
وخشب الزيتون



هراس الزيتون ببرج العرب سنة ١٩٣٥



معمل الزيت من الخارج ببرج العرب سنة ١٩٣٥

الحكم، يُدهَش كل الدهشة، إذ يجد أن الطبيعة قد تَحَدَّت بهذا التنسيق والتنميق كل فنان بارع يختال ويزهو بما وُهب من فن في هذا المضمار .

ومن الطريف أننا نجد تفتح الأزهار الجميلة الألوان متعاقباً ، ففي ديسمبر تزدحم التربة بكرونات نبات المكنه Colchicum Ritiehu الذي تتعاقب سوقه الزهرية بسرعة بعشرات الأزاهير اللعلية والحمراء اللون ، وقبل اختفاء هذا النوع تبدأ الشقائق تنشر رداءها الجميل الذي يظل منبسطاً فوق أديم الصحراء بلونه الوردي الباهت والأزرق اللعلي ، وفي وسط الزهرة عيون سوداء تكسبها جمالاً ما بعده من جمال .

وتكثر هذه النباتات الشقيقية وتزدحم حول البرك وقد تبلغ السوق الزهرية في بعض الأماكن من ٥٠ : ٨٠ ساقاً في الباردة المربعة ، وتظل أزهارها تبسم من أواخر ديسمبر إلى أواسط فبراير .

ويلي موسم الشقيق أبصال كثيرة قد تبلغ أنواعها الثلاثين نوعاً منتشرة بين الأراضي المزروعة شعيراً والأراضي البور، فتوجد أول نباتات Gagea fibrosa متجمعة كخصل بمستوى سطح الأرض ، ثم تليها الأزهار البيضاء لنباتات Ornithogalum temuiifolium التي توجد متقاربة حتى أن ما يوجد في الباردة المربعة يبلغ أحياناً المائتي نبات . بينما توجد أنواع بصل الفار (سللا) خصوصاً النوع Scilla peruviana الذي تنبعث حوامله الزهرية بأزهارها السنبلية الزرقاء مشرقة بين رمال الصحراء . وبينها تظهر أنواع الياسنت بزهراتها الزرقاء والأرجوانية والنبيذية اللون . ثم يأتي نبات Asphodelus microcarpus الذي يبلغ ارتفاعه حوالي خمسة أقدام ، وأخيراً تبدأ نباتات Alliums متناثرة بأنواعها الاثني عشر في مختلف البقاع فتكسو بألوانها القشدية والقرنفلية الصحراء جمالاً وبهجة . وفي مارس يظهر السوسن القصير Iris Sisyrin chium في البرك المكتنزة بكثرة حتى أن الباردة المربعة قد تضم أحياناً مائة نبات أزهارها مختلفة الألوان بين أزرق باهت وأرجواني . ودائماً تتفتح أزهار السوسن من الظهر الى وقت الغروب .. !!

واذا ما حلَّ مارس ، وأخذ لواء الربيع يخفق فوق الحقول والرياض تربعت .ربوط في الصدارة من الرياض النضرة بما يسبغه عليها الربيع البديع من جمال بسام إذ يزهر بها ما يقرب من مائتي نوع من النباتات ذات الأزهار الجميلة ، هذا الأنواع الأخرى التي تكون في آخريات

أيام إزهارها .. ويمكن حصر النباتات التي تزهر في هـذه الفترة بين العائلات الصليبية.. والخشخاشية .. والبقولية .. والمركبة .. !!

فبينما نجد عدداً كبيراً من أزهار الخشخاش .. بلونها الأحمر الغامق المبقع باللون الأسود عند قواعد البتلات .. ترف بين أصابع النسيم متمايلة على حواملها الزهرية صابغة الأرض من تحتها بلونها عند ما تسقط عليها أشعة الشمس نرى أن المنثور Matthila huimelis يزدحم بحال غريب إذ يغطي ربع المساحة المخضوضرة تقريباً ، وهو يقوم أحياناً بدور الأمر للبسط الزهرية . وأحياناً ينمو منفرداً في مساحات لانهائيـة الإتساع ، ويخالطه في بعض الأماكن نوع آخر من العائلة الصليبية يعرف باسم Carrichtera إذ يبدو حاملا أزهاراً كالبرد.

وأهم النباتات ذات الأزهار الصفراء هي اللوتس Lotus والأقحوان و Vetches الحلبة التي تفترش التربة وتغطيها ، ثم الجعضيض وهذه جميعاً تصنع بساطاً زهريًّـا غاية في الجمال

ويتوفر اللون الأزرق والبنفسجي في نباتات عائلة لسان الثور مثل حناء الغول وساق الحمامة Echium Sericeum وهذا النوع ممتاز جداً في هذه المنطقة إذ تبدو أزهاره كبيرة الحجم وبه أزهار كاملة ، إذ تحمل أعضاء التأنيث والتذكير معاً ، وأخرى عقيمة لا تحمل غير أزهار التأنيث ، وكلاهما مميز عن الآخر .

هذا من الناحية الزهرية أما من النواحي الأخرى فبين نباتات الصحراء أنواع كثيرة لها فوائد واستعمالات طبية وأخرى خشبية أهمها من الوجهة الطبية :

السنا أو السنامكي (١) العرقسوس (٢) العشار (٣) الحرمل (٤) الشيح البلدي أو البعثران (٥) لسان الحمـل (٦) بصل الفار (٧) الوردة الدهماء (٨) السكران (٩) الحنظل (١٠) الكبار أو اللصف (١١) الهيجليج (١٢)

ومن الناحية الخشبية :

السيال (١٣) السنط (١٤) الطلح (١٥) القـرض (١٦) السواك أو الأراك (١٧) الطرفة (١٨) الحطب الأحمر (١٩) الحاط (٢٠) الدوم (٢١) الهيجليج والعوسج (٢٢)

....

(١) Cassia acutifolia (٢) ycirrhyza G lglabra (٣) Calotropis Procera (٤) Pegarium Harmala (٥) Artemisia judaica (٦) Plentago (٧) Scilla maritima (٨) Malva Silvestris (٩) Hyoscyamus Muticus (١٠) Citrullus Colocynthis (١١) Capparis Spinosa (١٢) Balanites aegyptiaca (١٣) Acacia tortilis (١٤) Acacia arabica (١٥) Acacia Seyal (١٦) Acacia sp. (١٧) Salvadora Persica (١٨) . (١٩) Tamarix (٢٠) Ficus Pseudo-yeomarus (٢١) Hyphaene sp. (٢٢) Lycium afrum

٢ — المناطق النباتية الزراعية

وتتكوّن من شريط حافّي من التلال الهاطئيـة dunes يبلغ في سعته الميـل تقريباً ، ومكوّناته حُبيبات جيرية ، وهذه الأحجار الجيرية معرضة داءًا لأن يعلوها ماء البحر ، وينحسر عنها . في عملية المد والجزر فيغسلها . ثم تؤثر عليهـا الرياح الشمالية فتنقل بعض جزيئاتها الى داخل الصحراء حيث تكوّن من ٦٠ ٪ الى ٧٠ ٪ من الترب المجاورة الشاطىء والتي تمتاز بخصبها ، وبثروتها النباتية البرية والزراعية ..!!

ويلي هذا الشريط من الداخل حوض ضيق سعته نصف ميل تقريباً ثم يلي ذلك زوج متوازٍ من الخطوط الحجرية الجيرية على مسافة ٢ ميل تقريباً وبينهما الحوض الجاف للذراع الغربي لبحيرة مريوط

والجزء العلوي في الخطوط المرتفعـة خالٍ من التربة بفعل المطر الغزير الذي ينقلها إلى المنخفضات المجاورة حيث تترسب فوق بعضها فتـكوّن مهاداً خصبة صالحة للزراعة . . أما قم المرتفعات فغالباً ما تُـتّـخذ أماكن لقبور الموتى « قرافات » وكانت في الماضي السحيق موضعاً لإقامة القرى التي تشاهد أطلالهـا الدارسة ، أو توجد بقاياها رابضة دون سطح الأرض بقليل اذ تراكمت عليها السافيات فوارتها عن الأبصار . . !

وفي جنوب الخطّ الداخلي تنحدر الأرض تدريجيـًّا لمسافة ١½ : ٢ ميل ثم تأخذ في الارتفاع تدريجيـًا أيضاً نحو نِجَاد الصحراء الغربية التي تمتد إليها منطقة سقوط الأمطار الساحلية لمسافة ستة أميال .

ومما يؤخذ من الدراسات التاريخية لهذه المنطقة أنها كانت آهلة بالسكان ، مليئة بمزارع الكروم التي ظفرت بشهرة واسعة خصوصاً النبيذ المستخرج منها . ويقول « استرابو » في ذلك « أن النبيـذ الناتج من كروم مريوط أفضل أنواع نبيذ العالم » وقال المقريزي « إنّ بساتين العنب كانت منتشرة بكثرة في مريوط » وأجمع المؤرخون على أنّ مريوط كانت تدفع جزءًا من الخراج المقرر عليها لروما نبيذاً من المستخرج من كرومها . ولا يزال البـدو في هذه المنطقة يطلقون على كل التلال المرتفعة اسم كروم ومفردها كرم أي حقل من العنب ، وهذا دليل على ما كان منتشراً حول القرى القديمة التي تدل على آثارها هـذه التلال ، من بساتين العنب . . ! (١)

ولقد بقيت هذه المنطقة زاهرة عامرة بالسكان الى ما بعد الفتح الاسلامي بثلاثة قرون ومنذ ذلك العهد البعيد أخذت في الإضمحلال العمراني ، وليس السبب في ذلك راجع لنقص

(١) أنظر الباب الخامس

في سقوط الأمطار ، أو لأي عامل طبيعي أثر على الحياة الزراعية فيها ، وإنما يرجع لأسباب أخرى سياسية واستعمارية

وتتكون التربة في منطقة مريوط عدا جزيئات الطبقة الجيرية التي تكون فيها ٣٥٫٣٪ وتقل كلما أوغلنا في الصحراء وبعدت الشقة بيننا وبين الشاطىء تتكون من جزيئات من رماد الصحراء قطر حبيباتها أقل من ١/٢٠٠ من البوصة بنسبة ١١٪ وطين ناعم بنسبة ٢٤٫٣٪ ورمل خشن بنسبة ٢٥٫٩٪ ومواد ذائبة بنسبة ١٫٥٪

وبالجملة فان أغلب أراضي هذه المنطقة ثقيلة كثيرة الخصب ولها خاصة التصبّن إذا ما سقطت عليها الأمطار ، واذا ماجفت تماسكت وصارت صلبة ..!!

ويجري البيع والشراء لحق الانتفاع بالأراضي الزراعية — إذ لا ملكية في الصحراء — على أساس « مرمى الأردب من الشعير » الذي يعتبر المحصول الاساسي لهذه المنطقة . ومرمى الأردب هي المساحة التي تتسع لزراعة أردب من التقاوي . وحيث أن الفدان يأخذ ثلاث كيلات من التقاوي فرمى الأردب يوازي أربعة أفدنة تقريباً . ويساوي من جنيهين الى عشرين جنيهاً . وتزيد قيمة الأرض وتقل حسب وقوعها في سفح تل أو مرتفع من الأرض أو بعدها عن المرتفعات ، فكلما قربت من الهضاب والتلال كانت غالية الثمن وذلك لأنها تكون عرضة لأن يغمرها السيل المنحدر من فوق المرتفع الذي يجاورها فيزكو زرعها . واذا كانت بعيدة عن المرتفعات قل ثمنها لأن ما تصيبه من السيول يكون قليلاً .

ويجب أن يظفر المشتري بتوقيع شيخ العائلة أو القبيلة على عقد البيع ، وذلك ضماناً لعدم نقض البيع أو الرجوع فيه أو حدوث أي مشاغبات تعوق المشتري عن الانتفاع بالأرض

وأما الزراعات التي تزرع في مريوط فيمكن تقسيمها قسمين :

ا — زراعات حولية ب — زراعات معمرة

ا — الزراعات الحولية : وهي التي تزرع وتنتهي دورة حياتها خلال العام وتشمل الشعير وهو أهمها وبعض أنواع الخضروات التي تستهلك محلياً وليس لها أية قيمة تجارية

ب — الزراعات المعمرة : وهي التي تمتد دورة حياتها لأكثر من حولين ويزرع منها الزيتون والنخيل واللوز والخروب والفستق والخوخ والتين والعنب والعناب . وكذلك الأشجار الخشبية جميعها ويعتبر الزيتون في مريوط كأساس للزراعات المعمرة إذ يستخرج منه الزيت الجيد الذي يفوق في جودته جميع أنواع الزيوت المستوردة من الخارج وذلك بفضل سهر قسم البساتين على تنمية هذه الصناعة ونشرها في الصحراء . وأما اللوز فهو خير ما يمكن أن تستغل به هذه المنطقة من الزراعات لصلاحيته للإقامة تحت ظروفها الطبيعية القاسية ولأن ثمنه ونوعه غاية في الجودة .

١ — الثروة الحيوانية

ينقسم البدو المقيمون بالصحراء الغربيـة عامة ثلاثة أقسام من حيث الاشتغال بتربية الحيوانات ، وتنمية الثروة الحيوانية . ففريق منهم لا يأبه بها مطلقاً منصرفاً عنها للاشتغال بالزراعة وفريق يوزع حياته بين الزراعة وتربية الماشـية ، وفريق ثالث لا يركن للزراعة مطلقاً وإنما يشتغل بتربية الأغنام والإبل .

وهذا الفريق الثالث يقطن غالباً بعيداً عن الساحل وليس له مستقر معلوم ، وإنما يقضي حياته متنقلاً بأنعامه وراء المراعي الخصبة . ففي الشـتاء بعد ما تسقط الأمطار يأخذون في التجوال بين ربوع الصحراء سعياً وراء المرعى ، واذا ماحلّ الصيف وأجدبت البادية انتقلوا الى الصحراء المجاورة للوادي من حدود مديرية البحيرة ومركز أبي المطامير أو الى أقاصي الصعيد .

أما الحيوانات التي يشتغلون بتربيتها ، ففي مريوط تكثر الأغنام والماعز . وأما في براني والسلوم فإنهم يزيدون عليهـا الإبل بكثرة إذ يربونها على هيئة قطعان يدعونها ترعى في الصحراء .. أما المشتغلون في تربية الماعز والأغنام ففي كل عام ينفصلون عنها الذكور فيبيعونها ويبقون على الاناث للتربية مع القطيـع ، ولهم في ذلك موسم عام هو شهر مارس من كل عام .. وذلك بعكس المشتغلين بتربية الإبل إذ لا يبيعون منها إلاّ عند الحاجة فقط وإنما يستغلونها في حمل الأثقال إما بالأجر بين الواحات المختلفة أو لحسابهم ان كانوا ممن يشتغلون علاوة على ذلك بالتجارة ..

ويبلغ تعداد الإبل في الصحراء الغربيـة ٢٥١٦٦ والأغنام ٧٣٦٥٨ والماعز ٢٩٨٨١ إلاّ ان هذا التعداد عرضة للزيادة والنقصان تبعاً للظروف والطوارىء المفاجئة .

ولمربي الأغنام نظام خاص في رعايتها ، إذ أنهم جعلوا العـام بالنسبة للأغنام نصفين .. نصف تصوم فيه عن الماء فلا ترده .. ونصف تُسقى فيه كل ثلاثة أيام .

فعند ما يبـدأ الكلأ يكسو أديم الأرض بخضرته يمنعونهـا من أن ترد الماء مطلقاً ويكون ذلك عادة من أوائل نوفمبر ، ويظل هذا المنع الى أواخر ابريل أو منتصف مايو حتى تجف كل نبتة خضراء في الأرض ويقولون في ذلك « ما تشرب حتى تصـيف الحشيشة » وبعد ذلك يسقونها كل ثلاثة أيام .. !!

ويخرج الرعاة بأغنامهم الى المرعى عند الأصيل من كل يوم فلا يعودون الى « المراح » إلاّ إذا ارتفع الضحى ، اللهمّ إلاّ في الأيام الغائمة فإنهم يواصلون الرعي طوال اليوم . فإن أنسب وقت للرعي هو الليل إذ يقضونه متنقلين بأغنامهم بين المروج .

والرعي مهنة بين مكان مربوط إذ يجمع الراعي القطعان الصغيرة من ذويهـا ويضمها بعضها الى بعض ، ويرعاها متجمعة نظير أجر شهري يتقاضاه عن كل رأس وعادة لا يزيد أجر الراعي عن الرأس في الشهر عن خمسة قروش .. والراعي يستطيع أن يتعرف على كل رأس من الضأن ومـن صاحبها بما جُـبل عليه من فراسة ومران.

وهناك رعاة يرعون الأغنام بالمشاركة في النتاج ، ومنهم من يرعى أغنامه هو أو يستأجر لها راعياً ان كانت كثيرة . .

ولبيع الغنم موسم عام يبدأ من شهر مارس ، ويسمُّـونه « قطاف الحولي » ولذلك أسواق عامة تعرض فيها « الحوالة » بالألوف ويجري البيع والشراء على الصفقات بين التجار الذين يؤمُّـون هذه الأسواق والمنتجين ..

وأهم هذه الأسواق في الصحراء الغربية قاطبة « سوق الحمام » الذي يقوم من أصيل يوم الجمعة من كل أسبوع وينفض في ظهر السبت ، وترد اليه الأغنام من كل فج في الصحراء من أقصى طرابلس الغرب الى العامرية . ولا تعمر السوق ويحمى وطيسها إلا عند ما تبدأ أغنام برقة في الورود اليها . وترد الأغنام من برقة الى الحمام ، إما في القطار وذلك أخيراً فقط أي بعد الحرب الأخيرة عند ما صُـرح باستعمال الخط الحديدي الذي مدته السلطـات العسكرية بين مرسى مطروح وطبرق لأغراض حربية . عند ما صرح باستعماله مدنيـّاً . وإما أن ترد يسوقها رعاتها في عرض الصحراء متنقلة بين المراعي . الى أن تصل الحمام .

وعدا سوق الحمام سوق العامرية وبهيج ومرسى مطروح ولـكنها ليست بذات أهمية إذ العمل كله مركز في سوق الحمام .

وليس هناك أمتع من أن يرى الانسان التجار يعدون الأغنـام فلهم في عدها طريقة تحمل الرائي على الضحك وقتاً طويلاً .

والبدوي لا يسره أن تلد شاته حملين بل إنه ليفضل أن تلد شاته واحـداً في كل عام ، وسرعان ما يتخلص من التي تلد اثنين لأنه يرى فيها عترة لا تصلح للتربية إذ أنها لا يمكنها أن تظل قوية وهي ترضع توأمين .

وعدا النتاج ينتفع البدوي من وراء غنمه بالصوف وله موسم في أبريل إذ يقصُّـون الـكبار والصغار ويقولون « يُـجَـقِّـم » الغنم بدلاً من « يقص الغنم » ويتركون على كتف الحولي ابن العام الواحد خصلات من الشعر دلالة على أنه لم يمض الحول . . واذا ما قصوه في العام الثاني تركوا خصلة أخرى على مؤخرته . . وكذلك الألبان فانهم يشربونها فقط أو يصنعون منها المسلي الشيخي

٣ – التجارة

وللتجارة في الصحراء نهج خاص ، إذ لا يعرف تجار الصحراء التخصص في الاتجار بنوع واحد من البضاعة وإنما يبيع التاجر كل شيء يلزم للحيـاة المعيشية وكل ما يمكن ان يتجر به ، فبينما تجده يبيع البقالة تجده يتجر بالأقمشة والحبوب والخضروات والفاكهـة والحيوانات . . ولا تجد في الصحراء أبنية مقامة ملكاً للبدو إلاّ الحوانيت وهي مجمع الفتيان والرجال إذ تتـخذ كمنتديات يجتمعون فيها أيضاً ويقضون بجوارها الأصائل وجزءاً من الليل وأويقات الفراغ ..

والتجارة إما يجري فيها البيع والشراء بالنقد أو على أجل . وفي حالة الأجل يتبعون طريقة خطرة ، هي طريقـة (العقد) وتتلخص في ان البدوي يأخـذ ما يحتاجه من بضاعة ونقود ويكتب عقـداً للتاجر أو الدائن بأن يسلمه وقت السداد قدراً من الحاصلات التي تكـون موجودة عند انتهاء أجل العقد ، وفي مقابل ذلك يتغالى التجـار في ثمن البضاعة .. والدائنون ـ إن كان الدين قرضاً ـ في امتصاص دم المحتاجين من البدو .. وللمحتاج أن يأخذ أو يرفض وهو بطبيعة الحال أمام حاجته الملحة لا يسعه إلاّ القبول .

ولابد من أن يضمن شيخ القبيلة المدين ويكفل للدائن السداد ان كان الدائن هذا من غير البدو ، حتى اذا ما حضر الموعد ولم يف المدين بدينه رجع الدائن بعقده الذي في يده على شيخ القبيلة الذي يجبر الممتنع على الدفع والسداد أو طلب التأجيل . . !

وعندطلب التأجيل يعقد عقداً جديداً ، وفيه مضاعفة للفائدة .. وهكذا من موعد الى موعد حتى يصبح الفأر جملاً .. ولقـد حدثني أحد البدو ان اعرابيـاً فقد ناقة له على هذه الطريقة ، مقابل خمسة قروش .. إذ اقترض هذا المبلغ الضئيل على موعد ولم يف به ، وطلب التأجيل ، فعقد للدائن بريال .. ثم طلب التأجيل عند الموعد الثاني . . فكان العقد بخمسين قرشاً تسلم للدائن إما شعيراً أو نقداً وهكذا الى ان جاء ذات يوم وأخـذ الدائن ناقة للرجل وفاءً لدينه إذكان الدين الذي على المدين يفي بثمن الناقة .

ويعقد البدو على ثلاثة مواسم هي :

الموسم الأول : « ويسمونه عقـد الحولي » وموعده شهر مارس من كل عام ، وذلك عند عزل الذكور من أبناء الغنم بعد رضاعها من خمسين الى ستين يوماً إذ تلد الاغنام غالباً في شهر يناير ويظل الحمل الصغير يرضع أمه ستين يوماً يعزل بعدها ان كان ذكراً ..

الموسم الثاني : « عقد الصير » ويعتبر ثاني المواعيد وأهمها ويحل بعد الحصاد اي في مايو ويونيو .

الموسم الثالث : عقد السمان : وهذا قاصر على طائفة قليلة من البدو وهم صائدو السمان من سكان الساحل ويحل الموسم في شهر سبتمبر وذلك عندما تبدأ الطيور هجرتها من شمال البحر الابيض المتوسط الى جنوبه ، أي من الشاطىء الاوروبي الى الشاطىء الافريقي . وتبدأ الهجرة بتحرك أفواج الطيور في الثلث الأخير من أغسطس إذ تظهر على الساحل الافريقي في أوائل سبتمبر وذلك هرباً من شتاء أوربا القارس البرودة وطلباً للدفء في أفريقيا ذات الشتاء الدافىء .. وبما أنه يقطع مسافات طويلة عبر البحر لا يأكل ولا يستريح فانه يصل الساحل الافريقي منهوك القوى متعباً قد أضناه الجوع فلا يكاد يرى الشاطىء حتى يلقي بنفسه على الأرض . هنا يكون الصيادون قد أعدوا له شباكاً صغيرة مخفية خلف الأعشاب والشجيرات خصوصاً « المثنان » وعند ما يهبط السمان يسرع الى الاختباء خلف أي شجيرة فلا يجد غير هذه المخابىء المهيأة تهيئاً مغرياً فيدخل فيها . وبعضهم يضع له بعض الحب لكي يغريه بالدخول . وعادة يجعلون الفتحة التي يدخل فيها نحو الجنوب لأنه دائماً يتجه وهو على الأرض نحو البحر ويمر الصيادون كل ساعتين لجمع ما يمكن أن يكون قد دخل في المصايد وعندما يحس الطير بقدم تدب نحوه يحاول الهرب نحو البحر فتحجزه الشبكة التي تقوم كحاجز يمنعه من الفرار . ويجمعونه فيقدمونه للتجار الذين يحضرون لشرائه خاصة لكي يصدّروه الى بلاد القطر . وعلى هذا الموسم يعقد هؤلاء الصيادون ويسددون العقود

وهنالك موسم رابع ضئيل لا يعقد عليه الجميع بل فئة قليلة من البدو وهو اذا كان للرجل إبنة على أبواب الزواج يستدين على مهرها وهذا نادر

٥ ـ لمحة تاريخية

يطلق اسم « مريوط » على الأقليم المتاخم لحدود مدينـة الاسكندرية الغربية من الدخيلة الى مدينة الضبعة لمسـيرة ١٦٥ كيلو متراً نحو الغرب على الساحل الأفريقي للبحر الأبيض المتوسط . . وهذا الأقليم الصحراوي مأهول بالسكان من العرب الرُّحَّـل الذين يُـعرفون الآن بقبائل « أولاد علي » ولقد كان قدماء المصريين يعرفونهم باسم « قبائل ليبو أو ريبو Rebu أو الليبيين » وكان الإغريق القدماء يطلقون إسم « الليبيين » على قوم يقطنون إقليماً عرفوه إذ ذاك باسم « إقليم التِّحنُـو أو التِّمُحُّـو » وكان متاخماً لحدود مصر الغربية على مسيرة عشرة أيام من حدود الوجه البحري ، وكانوا يعيشون كما يعيشون اليوم قبائل متناثرة في عرض الصحراء في ذلك الشريط الساحلي الذي تنفحه السماء كل عام بصيِّـب الغيث فينتج أطيب الثمرات

وكثيراً ما كانوا يتجمعون تحت إمرة واحد منهم ويغيرون على مصر مقتحمين حدود الوجه البحري ، وليست إغارات الليبيين هذه بالأمر الذي يُـعرف له تاريخ بالضبط ، وانما هي شيء قد انطوى في ثنايا المجهول ككل ما حدث قبل التاريخ ، إلاَّ أنَّ الأمر الذي نستطيع أن نجلوه على ضوء البحث والتحقيق أن هـذه الإغارات معروفة منـذ عام ٤٠٠٠ ق . م . إذ تشير أقدم أخبـار الوجه البحري الى منازعات ومشاحنات مستمرة وقعت بين أهليه والليبيين ، لذلك لا يبعد أن تكون « المملـكة البحرية (٢١) تحت حكم « ملوك ليبيا » ومما يرجح ذلك أنّ الجهة الغربيـة منها قد انصبغت بصبغة هؤلاء القوم ، تلك الصبغة التي بقيت ظواهرها حتى زمن « هيرودوت » المؤرخ اليوناني الشهير . وثمّ دليل آخر ، ذلك أن معبد « صالحجر » (سايس) الواقعة غربي الدلتا والمعتبرة مركز النفوذ الليبي ، سُمي قديماً « بقصر ملك الوجه البحري » ثم أن رمز المعبودة المسيطرة على ذلك المعبد وهي « نيت » استعمل في الوشم كثيراً على أذرع الليبيين ، ولا يبعد أن « صالحجر » كانت وطناً لملك ليبي قديم ، ووُجدت رسوم بارزة على جُـدُر معبد هرم « ساحورع » ببوصير ، تمثل أربعة أمراء ليبيين واضعين على جباههم أصلال الفراعنـة ، يغلب أنها وصلت إليهم لصلة دموية بينهم وبين ملوك ليبيا الذين حكموا الوجه البحري سابقاً .

هذا قبلٌ حكم الأسر الفرعونية ولما أن قبض على زمام أمور الدولتين البحرية والقبلية ،

ملك واحد ، وتطلع الى الاصـلاح ، ورأى ملوك الفراعين الأول أن يضمنوا عدم مهاجمة هؤلاء القوم لهم فتطلعوا الى الصحراء الغربيـة ، ولـكن شيئاً لم يحدث خلال حكم الأسر الأولى والثانية والثالثة الا في عهد الملك « سنفرو » آخر ملوك الأسرة الثالثة . إذ تجسمت فـكرة التحصن الحربي من جميع الجهات الشرقية والغربية فخرج إلى الصحراء و بسط نفوذه على إحدى الواحات الشمالية إذ اعتبرها معقلاً حربيـاً هامـاً يقيه شر هجمات الليبيين ، وكان ذلك في المدة قبل سنة ٢٩٠٠ قبل الميلاد .

ويعتبر هذا الغزو أقدم ما قام به ملوك مصر في الخروج الى تلك الجهات . إلا أننا نجدهم لا يعيدون الـكرة ، ولا يقفون في وجه الليبيين الا مدافعين صادين لهجماتهم المستمرة ويبدو ذلك جليـاً في عام ١٩٧٠ ق . م . حينما أغارت القبائل الليبية على الوجه البحري — كعادتها من قديم الزمان — فخرج اليهم «سيزوستريس» (٢٢) لـكي يؤدبهم ، ولـكن التاريخ يقف بنا عند خروجه على رأس الحملة ولا يروي لنا من أخباره معهم شيئاً غير (وبينما كان منهمكاً في قيادة الحمـلة التي خرج بها اليهم إذ وصله نعي أبيـه فعاد مسرعاً دون أن يخبر أحداً من رجاله بوفاة الملك حيث تربع على العرش) ، وحيث أن أخبار هذه الحملة قد وقفت عندهذا ، فمن الراجح جداً أن الغزاة تلقوا درساً قاسياً على هجومهم هذا الذي لم يعاودوه ردحاً طويلاً من الزمان، فلو لم يكن ذلك لما رجعوا عن غزو مصر . ولما جلس الملك على عرشه مطمئنـاً ، ولا نرجح وقوع تعاهد بين الطرفين للاختلاف الكبير بين الدولة المصرية المنظمة . والقوم المهاجين الذين لا يعرفون غير النظام الصوري الذي لا أساس له ولا دوام

وظل الليبيون ردحاً طويلاً من الزمان لا يقومون باغاراتهم حتى كان عام ١٥٤٧ ق.م. بينما كان الملك « أمنحتب الاول » يتابع سيره فاتحاً في بلاد النوبة إذ بلغه وهو عند الشلال الاول نبأ إغاراتهم على الحدود المصرية الغربية فعاد اليهم مسرعاً (٢٣) ولـكننا لا نعلم أيضاً من أمر المعارك التي دارت وقتئذ إلا ما جاء على لسان « احمس بن نخبت » من أنه قتل ثلاثة من الأعداء ، وقطع أيدي كثيرين من الأسرى ، وأن جلالة الملك كافأه على ذلك كثيراً » .

يلوح لنا مما تقدم أن الملك « أمنحتب الاول » أنزل بهم من الفناء الشيء الـكثير حتى أننا نرى أنهم لم يعاودوا الهجوم الا عند ما وجدوا لهم حلفاً يناصرهم . وذلك أنه لما توفي « رمسيس الثاني » أخذ سكان البحر الأبيض المتوسط (٢٤) يزحفون على شواطىء مصر للنهب والسلب والاستيطان ثم اتحدوا مع الليبيين ، وأهالي آسيـا ، فضغطوا باستمرار كالموج الزاخـر على حدود الامبراطورية المصرية . وكانت خطتهم محكمـة إذ ثبت

الثورة على الملك « منفتاح » في المستعمرات الأسيوية ، فاضطر لاخضاعها ، وشغله هذا الأمر عن تلافي الخطر المحدق بالبلاد من الحدود الغربية إذ أخذت الحال غربي الدلتا تتغير من سيء الى أسوأ ، ذلك لأن الليبيين أخذوا يزحفون على مصر بطريق مستعمراتهم على شاطىء البحر الابيض المتوسط التي أخذوا يستوطنون فيها متقدمين شيئاً فشيئاً ، نحو الدلتا ويحتمل أن تكون طلائعهم قد وصلت وقتئذٍ الى قناة عين شمس ، ومما هو جدير بالملاحظة أن جهات غربي الدلتا قد امتزجت بالدم الليبي امتزاجاً تامـّـا وكثرت فيها الأسر الليبية . !!

تقدم الليبيون بمستعمراتهم الاستيطانية غربي مصر ، حتى بلغوا الشاطىء الغربي لفرع النيل الكنوبي Canopic المعروف وقتئذٍ بالنهر الكبير ثم استوطن ليبيون آخرون بالواحتين اللتين جنوبي وغربي الفيوم (٢٥) ووصف منفتاح هؤلاء القوم « بأنهم يمضون أوقاتهم محاربين ليملؤوا بطونهم كل يوم ، وقد أتوا الى مصر ليحصلوا على ما تحتاج اليه أفواههم »

ولما زاد عدد الليبيين بالدلتا ، تجاسروا وتطاولوا على فرعون مصر فجمعوا شملهم وكوّنوا قوة نظامية للاستيلاء على أرض مصر ، وكانوا وقتئذٍ تحت قيادة ملكهم المدعو « مريي Meryey » وهذا أجبر بدو التحنو أي القبائل الليبية التي لا تزال منتشرة في عرض الصحراء الشمالية الغربيـة أن ينضموا اليـه ، ثم استعان بقرصان البحر الابيض المتوسط ، وأحضر زوجه وأولاده ، كما فعل ذلك حلفاؤه (٢٦) وأخذوا يزحفون على مصر للاستيلاء عليها والاستيطان بها .

وعلم « منفتاح » بالخطر الذي يهدد كيان مملكته ، فحصن قلاع عين شمس ومنف ، وفي آخر مارس من السنة الخامسة بلغـه خبر زحف الليبيين على مصر فاستدعى رجاله بسرعة وأمرهم بحشد جيوشه وتجهيزها للقتال في مدى أربعة عشر يوماً ، ورأى في المنام « المعبود بتاح » في هيئة شيخ عظيم أهدى اليه سيفاً ، وطلب منه أن يُبدل الخوف والوجل ، فلما حلّ منتصف أبريل كانت الجيوش المصرية معسكرة غربي الدلتا ، وبالغة صفوف الأعداء .. وذلك وقت المغيب بالقرب من « بريرع Perire » وهي مدينـة مجهولة الموقع بالضبط ، لكنها تبعد عن القلاع التي على رأس الطريق الموصل الدلتا بصحراء ليبيا بعدة أميال .

وكان « لمنفتـاح » بالقرب من « بريرع » قصر عظيم وسط كروم كثيرة ، وشرقي ذلك تمتـد حقول الدلتا الجميلة الجزيلة الخيرات ، والتي كان مزارعوها في ذلك الوقت ، يحصدونها في همة ونشاط .. فلما وقع نظر الليبيين على هـذه الخيرات العظيمة ، ازدادت همتهم ، واشرأبت أعناقهم إليها ، فاخترقوا صفوف القلاع الغربية ، وهناك التحموا بجيش منفتاح بالقرب من قصره في صباح الخامس عشر من ابريل ، واستمرت المعركة دائرة الرحى

بشدة مدة ست ساعات ، انتهت بطرد الليبيين بعدما تكبدوا خسائر فادحة ، فتتبعهم « منفتاح » بخيله كما تفعل الجيوش الحديثة ، ومزقهم شر ممزق ، واستمر في اقتفاء أثرهم حتى بلغ « جبل قرون الأرض » وهو آخر حدود الدلتا الغربية ، ومنه هرب الليبيون . أما « مريي Meryey » فقد فرّ الى بلده يائساً من النصر ، تاركاً جميع أسرته وأثاث منزله في أيدي المصريين الذين استولوا على أسرى عديدين من الأعداء كما قتلوا منهم عدداً كبيراً ، وتقدر خسائر الليبيين وأحلافهم بتسعة آلاف قتيل ، ثلثهم تقريباً من سكان البحر الأبيض المتوسط ، أما الأسرى فيبلغ عددهم هـذا المقدار أيضاً ، وقد وقع بين القتلى أنجال ملك الليبيين الستة . . وغنم المصريون من هذه المعركة أشياء كثيرة . . منها تسعة آلاف سيف نحاس ، وعدد غير قليل من أدوات الحرب المختلفة ، وأسلحة جميلة أخرى ، وأثاث بديع وُجد في خيام ملك الليبيين ورؤساء بلاده ينيف على ثلاثة آلاف قطعة . . ولما نهب المصريون خيام الأعداء أضرموا فيها النار ، فالتهمتها وصارت رماداً تذروه الرياح .. !!

ورجع الجيش المصري الى قصر « منفتاح » شرقي الدلتا ، يسوق إليه الحمير المثقلة بأيدي الأسرى (٢٧) وأمتعتهم ، ثم أحضرت الغنائم تحت شرفة القصر الملكي ، فتفقدها الملك . واستقبل جمهور رعيته الجذل ، وبعد ذلك جمع أمراء مملكته في القاعة الكبرى من قصره . وألقى عليهم خطاباً عظيماً .. وبينما جلالته يوجه كلامه نحو أمرائه وصل اليه نبأ من قائد قلاع غربي الدلتا يفيده أن ملك الليبيين هرب مخترقاً خط الدفاع المصري ليلاً ، وأن قومه يئسوا منه فخلعوه ، وملكوا عليهم غيره من خصومه . . وهكذا سقط الحزب الحربي في ليبيا ، ووقف كل هجوم من تلك الجهة على مصر في عهد منفتاح ..

ويُستدل من الفرح العظيم الذي عمّ أهالي القطر ، أثر هذا النصر الحربي أنّ هذا الجذل لم يكن لمجرد الفوز العسكري ، بل كان أيضاً لخلاص مصر من الوقوع في أيدي هؤلاء الأدعياء ، فقد وقف بذلك سلب غربي الدلتا الذي استمر جيلاً تقريباً . بواسطة الليبيين ، لذلك لم يكن هـذا النصر درءاً لخطر داهم هدّد الإمبراطورية المصرية فقط .. بل كان فرجاً وخلاصاً من « كابوس » أثقل كاهل الأهلين ، وأذاقهم مرارة الحياة حيناً من الدهر .

وتوفي منفتاح عام ١٢١٥ ق . م . وعقبه ثلاثة ملوك آخرين سادت البلاد في ظلهم فترة خمول أدّت بها الى الضعف ثم الى الفوضى ، وكان الليبيون يترصدون حركات البلاد وسكناتها ويجدون في تدهورها وانحدارها نحو الضعف من حين الى حين ما يبعث في نفوسهم الأماني العذاب . .

وتولى رمسيس الثالث ثاني ملوك الاسرة العشرين في عام ١١٩٧ ق . م . أي بعد منفتاح بسبعة عشر عاماً ، فوجد نظام القطر الداخلي في حاجة الى العناية والاهتمام من أثر ما نالت منه يد الفوضى ، فاشتغل في اصلاح ما فسد ، الأمر الذي شغل كل وقته فلم يتمكن من علاج الخطر الليبي إلاّ مكرهاً ، كما حدث أيام منفتاح — ومما زاد الطين بلة أنّ سكان شواطىء البحر الأبيض المتوسط أخذوا يفدون بكثرة على مصر ، وقد سلكوا في هجومهم طريقين ، أحدهما طريق سوريا ، فأهالي الأرناءوط ومملكة آمور — وكان الهجوم من هذا الطريق على هيئة هجرة ، والثاني طريق أساطيلهم التي سيرها رجال جسورون منهم عن طريق شاطىء الدلتا ، وقد اتبع هؤلاء الأخيرون أساليب النهب والقرصنة أينما حلوا .. ولما وصل الفريق الثاني الى شاطىء أفريقيـة حيث وجد فيه الليبيين الذين أظهروا تمام استعدادهم للاتحاد معهم على نهب الدلتـا واحتلالها . زحفوا جميعاً على مصر تحت قيادة ملك الليبيين « تيمر Themer » وكان الهجوم على مصر من غربي الدلتا بطريق البر والبحر .. والتقت الأعداء بجنود « رمسيس الثالث » بجوار مدينة « رمسيس الثالث معاقب أهل التمحو » أي « ليبيا » وهنـاك هزمهم رمسيس وحطم جانباً من سفنهم وأسر الجانب الآخر ، فرجع الأعداء بعد ما خسروا كثيراً ، لأنّ قتلاهم بلغوا إثنى عشر ألفاً وخمسمائة نسمة ، وأسراهم ألف نسمة على أقل تقدير .. وكان أغلب القتلى من القرصان .. !!

واحتفل « رمسيس الثالث » بهذا النصر احتفالاً كبيراً كما كان متبعاً عند ملوك الفراعنة ، فقابل في شرفة قصره أعيان بلاده الفرحين ، واستعرض الغنيمة الحربيـة ، ووهب كثيراً من الأسرى « لآمون » كالعادة الجارية ، وعمّ البلاد وقتئذٍ الأمن والسلام . وإليك ترجمة ما قاله الملك :

« لقد أمكن كل امرأةٍ الآن أن تسير خارج دارها كما تريد رافعة قناعها بلا خوف ولا وجل لأنه لم يعد أحد يتعرّض لها »

وحصن حدود مملكته الغربية ضد الليبيين ، فشيد قلعة ومدينة على رأس الطريق الممتد من غربي الدلتـا الى الصحراء ، وذلك في مكان مرتفع « يعرف بجبل قرون الأرض » الوارد ذكره في أخبار منفتاح .

وكأنما كان « رمسيس الثالث » يخشى إغارة الليبيين ثانية فجعل يستعد للطوارىء رغم ما كان يسود البـلاد من هدوء ، ورغم أنّ بوادر الإضطراب لم تبدُ في أفق الامبراطورية المصرية ، فقد وقع فعلاً ما كان يحتاط له جلالته ، وخلاصة ذلك أن سكان الغرب الأقصى بدأوا بهجرة عظيمة ثانية الى غرب الدلتـا ، ويرجع السبب في ذلك الى قوم يقال لهم

« المشواش Meshwesh » قطنوا الصحراء المجهولة الحد وقتئذ غربي بلاد الليبيين ، وقد ذكر « هيرودوت » هؤلاء القوم تحت إسم « ماكسيز Mexyes » وهم بلا جدل أصل البربر الذين استعمروا شمالي أفريقيا ، والمشواش قوم متمدينون نوعاً ، ماهرون في الفنون الحربية ، مسلحون جيداً ، قادرون على القيام بحركات هجومية ضد فرعون مصر ، وقد أخذت قبائلهم في هذا الوقت تتحد تحت سلطة أمير منهم ، فكونوا مملكة قوية طمحت نحو الاستعمار وكانت هذه المملكة المشواشية تبعد عن موطن فرعون بمسيرة عشرة أيام غربي الدلتا ،

ولما كان الليبيون قد عوقبوا بقسوة في السنة الخامسة من حكم « رمسيس الثالث » لم تعد لهم رغبة في غزو الدلتا ، ولكن المشواشيين غزوا بلادهم وأتلفوها ثم اضطروهم للاتحاد معهم في محاربة مصر ، بعد ذلك انضمّ الى هؤلاء الأعداء قوم آخرون ثم تولى قيادة الحملة المدعو « مششر Meshecher بن ملك المشواش « كپر Keper » وقد كان غرضهم الأول الهجرة والاستيطان بالدلتا ، وقد صمموا على العيش في مصر والاستيلاء على تلالها وسهولها ، فصاحوا بصوتٍ واحد « لنستوطن مصر » ثم عبروا الحدود المصرية في الشهر الثاني عشر من السنة الحادية عشرة من حكم « رمسيس الثالث » .

أخذ القوم يغزون مصر من الطريق الغربي كما حدث أيام منفتاح ، فحاصروا قلعة « هاتشو Hatsho » التي تبعد عن حدود الدلتا بنحو أحد عشر ميلاً وتقع بقرب ترعة « مياه رع » . وفي تلك الجهة وتحت أسوار « قلعة « هاتشو » هجم « رمسيس الثالث » مع جيشه على أعدائه هجوماً عنيفاً ، وأخذت حامية القلعة المذكورة تمطر الأعداء في نفس الوقت بنار حامية ، حتى دخل رعب فرعون في قلوبهم ، وعجزوا عن المقاومة ، ودبّ الذعر بينهم فولوا هاربين لكن قلعة ثانية أصلتهم ناراً حامية ، وقت هربهم ، فقضت عليهم بقسوة .

وبعد ذلك تعقبهم « رمسيس الثالث » بجيوشه لمسافة أحد عشر ميلاً من حدود الدلتا حتى تأكد من هروبهم تماماً من أرض مصر ، ثم استراح هنالك في حصن يعرف بحصن « مدينة رمسيس الثالث » على « قمة جبل قرون السماء » .

وانتهت هذه المعركة بقتل « مششر Meshesher » قائد المشواشيين وأسر والده « كپر Keper » وقتل ما يبلغ ألفين ومائة وخمساً وسبعين نسمة . وأسر ما يبلغ ألفين واثنين وخمسين نسمة . بينهم نساء يزيد عددهم على ربع هذا المقدار ، واليك ما قاله رمسيس عن معاملته لهؤلاء الاسرى :

« لقد اعتقلت رؤساءهم في قلاعي باسمي ، ووسمت قوادهم ورؤساءهم الذين وهبتهم لتلك القلاع كعبيد باسمي ، وعاملت نساءهم وعيالهم نفس المعاملة » .

وبلغ عدد الأسرى المشواهيين الذين سُخروا عبيداً لخدمة قطيع المعبد المسمى « رمسيس الثالث المنتصر على المشواهيين بجوار مياه رع » الف نسمة تقريباً ، وقد اعتبر جلالته هذا النصر العظيم عيداً احتفل به سنوياً ، وسماه « عيد قتل المشواش » ولقد نعت جلالته نفسه بالألقاب الآتية « حامي مصر ، والمدافع عن الأقطار ، وفازي المشواهيين ، ومُتلف أرض التمحو » .

وهذه هي المرة الثالثة التي صُدّت فيها القبائل الغربية عن الدلتا . ولم يعد عند « رمسيس الثالث » مجال بعد ذلك للخوف من تلك الجهة .. إنما يلاحظ أن فكرة الاستعمار عند الليبيين لم تنعدم بالمرة ، والمعروف أنّ هؤلاء القوم لم تتحد لهم كلمة بعد ذلك ، ولكنهم أخذوا يهاجرون مسالمين الى القطر المصري ، كما فعلوا قبل حكم الأسر ، وقد قاموا بذلك تدريجيًا ، وبنفر قليل لم يقلق فرعون مصر ، لذا لم يقاومهم ، ولم يلق بالاً اليهم لما يعلمه عنهم من ضعف لا يقوون معه على القيام بأية حركة حربية ضده . .

واستمرّت هجرة هؤلاء القوم المستضعفين حوالي مائتي عام تقريباً استطاعوا في خلال المدة الأخيرة منها ان يبسطوا نفوذهم على الوجه البحري . . وقد ساعدهم على ذلك زيادة الجنود الليبية المأجورة بالجيش المصري زيادة مطردة ، ولما كان جزء الجيش المعسكر بالدلتا لحفظ النظام هنالك تحت ادارة رئيس كهنة آمون ، وتحت قيادة ضباط مشواهيين قابضين على قلاع تلك الجهة فقد قوي نفوذ المشواهيين هناك .

وحدث في عهد الأسرة الحادية والعشرين أن أحد الليبيين « التمحو » المدعو « بيواوا Buyuwawa » استوطن مدينة « إهناس Heracleoplis » فرزق ولداً يدعى « موسن Mosen » عُيّن بعد ذلك في وظيفتي معبد إهناس وقائد حرس تلك المدينة . بعد ذلك صارت هاتان الوظيفتان وراثيتين مقصورتين على أفراد هذه الأسرة ، ثم رزق « موسن » بنجل يدعى « شيشنق Sheshonk » لُقب فيما بعد « برئيس المشواش الأعظم » وكان قويًا ثريًا حتى أنه لما توفي إبنه المدعو « ناملوت Namlot » دفنه بالعرابة باحتفال عظيم ، ووقف عليه خيرات كثيرة من أرض وحدائق وعبيد وخدم وقرابين يومية . بعد ذلك اتضح له حدوث تلاعب من الموكول اليهم الاشراف على إجراء هذه الخيرات ، فتوسط لدى ملك لا يزال مجهول الاسم من ملوك الأسرة الحادية والعشرين ليعاقب المهملين وليصدر بذلك أمراً من « آمون » بطيبة (٢٨) ويرجح كثيراً أن القواد الليبيين بالدلتا جروا على هذا المنوال حتى أصبح لهم نفوذ كنفوذ شيشنق المذكور أو بعبارة أوضح حتى

استأثروا بالسلطة في أيديهم تدريجيًا ، وقد استمرّت الأسرة الحادية والعشرين في الضعف المطرد مدة حكمها البالغة مائة وخمسين عاماً تقريباً ، كانت خلالها ذرية « بيواوا » بمدينة « إهناس » تظهر وتعظم حتى تمكن أحد قوادها وهو « شيشنق » حفيد شيشنق سالف الذكر ، من قيادة أسرته الليبية ونشر نفوذها — على الأرجح — على الأراضي المجاورة الى قسم « منف » شمالاً ، وقسم « أسيوط » جنوباً .. وفي عام ٩٤٥ ق . م تمكن رئيس هذه الأسرة من الاستيلاء على عرش مصر ، والتربع فيه بمدينة « تل بسطا » (٢٩) شرقي الدلتا .. ؟

واعتبر « مانيثون Manethon » (٣٠) «شيشنق» هذا مؤسساً للاسرة الثانية والعشرين وهكذا تربع الليبيون على عرش مصر في غير حاجة لامتشاق الحسام ..

وبمجرد جلوس « شيشنق » على عرش مصر ، حصر هذا الشرف الرفيع في أفراد أسرته وذراريه ، وقد توصل الى ذلك بأن زوّج ابنه بابنة « بسيب خنو الثاني » آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين ، وبذلك منح إبنه حقاً شرعيًا في تولي العرش بعد وفاته ، وذلك عن طريق زوجته الفرعونية والمعروف عن « شيشنق » هذا أنه كان حاكماً قويًا شجاعاً ، نهض بمصر وعزم على استرجاع عزها القديم ومجدها الأول ، فبسط نفوذها على « فلسطين » وجعل سيادتها هنالك فعلية بعد ما كانت إسمية فقط فقد غزاها في عام ٩٣٦ ق . م . وانضوت كلها تحت لوائه ..

وعاد شيشنق بعد الغزوة بغنائم ، فجدد بذلك عهد فراعنة مصر الأقدمين ، ونقش جلالته على جُدُر « الكرنك » بطيبة الجزية التي تقاضاها من « فلسطين والنوبة » — الخاضعتين له وقتئذ — بالقرب من نقوش ملوك مصر العظام ، ثم عين حاكماً ليبيًا على الواحة الكبرى (٣١) وعهد الى أحد الرؤساء الليبيين في الاشراف على غربي الوجه البحري وطرق مواصلاته البرية الى الواحات ، ويعتبر هذا بدء ضم الواحات الى مصر بصفة دائمة .. وهكذا رجع لمصر لأمد قصير بعض مجدها الذي عرفته زمن الامبراطورية في عهد الأسرة التاسعة عشرة لما أخذت ترد على خزائنها جزية الأقاليم الواسعة الممتدة من شمال فلسطين الى أعالي النيل جنوباً ومن الصحاري الغربية غرباً الى البحر الأحمر شرقاً ..

ولما تضخمت الميزانية شيد شيشنق العمارات الشامخة ، كما فعل فراعنة مصر الأقدمون منذ مائتي سنة تقريباً ، فاختط « تل بسطة » واتخذه قاعدة لملكه ، وأوسع الكرنك بطيبة ، وكان له ابن يدعي « يويت Yewepet » عينه رئيساً لكهنة آمون بطيبة .

وفي عام ٩٢٠ ق . م . توفى « شيشنق الأول » وتولى بعده ابنه « أوسركن الأول »

Osorkon » زوج ابنة الملك « بسيب خنو » وكان اعتلاء هذا الملك للعرش مطابقاً للقوانين والعادات المتبعة ، وقد حكم « أوسركن الأول » حتى عام ٨٩٥ ق . م . وتوفى فخلفه عدة ملوك آخرين ، ولا جدال في أن هؤلاء الحكام الليبيين قد تطبعوا تماما بالطباع المصرية ، فجد « شيشنق الأول » دفن ابنه في « العرابة » واتبع العادات المصرية نحو الموتى ، فوقف على قبر ولده الخيرات على وفق ما تقتضيه طقوس الديانة المصرية .

وبالرغم من احتفاظ الضباط الليبيين بأسمائهم الأصلية ، فإنهم حافظوا على الأسماء والعادات الفرعونية التي ألفها المصريون لمدة تقرب من ألف وخمسمائة عام كما أنهم عبدوا المعبودات المصرية ، وقدموا لها القرابين كالمصريين ؛ وذلك رغم أنهم من البربر ، وأنهم هدبدو الخالفة للمصريين .. !!

ولقد وردت عبارات مختصرة مدونة بين ما نقشه رئيس كهنة آمون ، على جُدُر معبد الكرنك ، تشير الى ان حكم الملوك الليبيين الثلاثة الأخيرين في « تل بسطة » كان مشحوناً بالانقلابات والاضطرابات مدة مائة سنة تقريباً .. وقد هشم هؤلاء الملوك آثار مصر العظيمة بقسوة عديدة ، فحطم شيشنق الثالث تمثال « رمسيس الثاني » الضخم الذي كان « بتنيس » واستعمل أجزاءه لتشييد صرحه العظيم « بتنيس » أيضاً .. !!

وانتهت مدة حكم الليبيين حوالي عام ٧١٢ ق . م . بخضوع مصر لملوك أثيوبيا الذين ابتدأوا باستلام الحكم من أيدي الليبيين خلال الأسرة الثالثة والعشرين عام ٧١٨ ق . م . ولكنه لم يُنتزع تماماً إلا في عام ٧١٢ ق . م بزوال الأسرة الرابعة والعشرين التي دامت مدتها حوالي ست سنوات ، وبذلك تكون سلطتهم ظلت مبسوطة على مصر مدة ٢٣٣ سنة تقريباً .. !!

ومنذ هذا العهد . . — عهد الليبيين — صارت صحراء مريوط والصحراء الغربية الشمالية والجنوبية تابعة لمصر يرثها من يرث عرش النيل على مر العصور .. !!

***

وفي عام ٣٣١ ق . م . شقت جحافل الاسكندر المقدوني منطقة مريوط في طريقها الى « فرطنيوم » (٣٢) حيث بدأت رحلتها عبر الصحراء .. وعلى رأسها الملك العظيم قاصداً معبد الاله الأقدس آمون الرابض تحت ظلال النخيل في واحة سيوة (٣٣)

على أن الصحراء في ذلك الحين لم تكن آهلة بالسكان إلا الى حدٍّ محدود فمنذ أبيح لهم الغدُوّ والرواح بين وادي النيل والصحراء ، فضلوا الاقامة بالوادي أو على مقربة منه حتى يتمكنوا من الحصول على عيشة أرغد مما يجدون في ربوع الصحراء التي تأقلموا بجديها

صيفاً . ولكن يد الزمان جُبلت على التغيير والتبديل ، ولقد كان من جراء هذه الخلة الأزلية أن تبدل حال الصحراء فعمرها الناس وا كتظت بالسكان ، وذلك عندما لوّح قياصرة الروم للمصريين بحمل الهداية المسيحية . . اذ ما كادوا يفعلون ذلك حتى هبّ القوم مستنكرين ما جاء السادة يحملونه إليهم ، واستبشعوا أن يتركوا وثنيتهم التي يتمسكون بها بشدة ، ولهم فيها عقيدة صلبة لا تلين معها قناتهم . . فانهم ليتشبثون بعبادة أوثانهم ، وينفون كل عقيدة سواها . وانهم ليرون في كل ما عدا دينهم بدعة وضلالاً . فليس من السهل إذن أن يتركوا عقيدتهم إجابة لرغبة الفئة الحاكمة ، وإذعاناً لإرادة قيصر . لذا فقد شبَّ صراع عنيف بين الوثنيـة المصرية ، والمسيحية الرومية كان من جرائه أن فرّ المصريون بدينهم الى الصحراء ، ولاذوا بها هروباً من تعسف الرومان الذين نسوا أن العقيدة لا تحارب ..

ولقد استوطنوا المنطقة الساحليـة حيث الأمطار تهطل بغزارة والأرض وافرة الخصوبة ، فابتنوا المدائن وحفروا الآبار التي ينتفعون بها صيفاً . وغرسوا البساتين ويحتمل أن يكون التجاؤهم الى الساحل هو أول ما دار بخلد من ركنوا الى الهجرة منهم . اذ أقاموا بين البدو القاطنين فيـه . على أن التعسف قـد اشتد بهم فرحل كثيرون منهم الى الواحات ليعتصموا بها من يد طالبيهم . .

وسواء أ كان هذا أم ذاك ، فقـد اكتظت المنطقة الساحلية بالسكان مما جعلهـا تعمر وتزدهر طيلة القرن الأول الميـلادي ، حتى أن الأقاليم العـامرة الآهلة بالسكان والزراعة ، كانت تنتهي حيث يبدأ إقليم « قورينا » (٣٤) ولم يكن ليفصل بين الإقليمين مفـازة من أرض كما هو الآن . ولقـد تردد في كتب « بطلميوس » (٣٥) و « استرابو » (٣٦) أسماء مدن كثيرة كانت منتشرة في لوبيا ، وجاء في كتاب « المسعودي » (٣٧) أن إقليم ليبيـا كان يحتوي على أربع وعشرين مدينة ، ما عدا القرى الصغيرة .. ويقول « المقريزي » : ان ساحل البحر من مدينة الاسكندرية حتى حدود « برقة » (٣٨) غرباً كان مليئاً بالحدائق التي تنتج أطيب الثمر .. !!

وظل المهاجرون اللاجئون بوثنيتهم الى الصحراء يقيمون في تلك المدائن (٣٩) الى أن ابتدأ القرن الميلادي الثاني ، وأخذ الناس يدخلون في دين المسيح طواعية واختياراً ، وزال الاضطهاد ، فنزح من بالصحراء الى الوادي ، اللهمَّ إلاّ من رغب في حياة القداسة والرهبانية ، والذين لم يصل دين المسيح الى قلوبهم .

وفي أواخر القرن الثالث الميلادي عاود القوم الهجرة الى الصحراء ثانية فراراً من وجه « دقلديانوس » امبراطور الروم الذي ثار على المسيحية وأبنائها ، وأمر بذبح كل من يعتنق

ديانة المسيح لارتداده الى الوثنيـة ، فكانت النتيجة لهـذا الاضطهاد أن فر مسيحيون مصريون ورومانيون الى الصحراء والواحات حيث أقاموا المعابد والكنائس التي لا تزال آثارها باقية في بقاع كثيرة حتى الآن . .

ولم يكد الحال يستقر بعد ذلك بين الحاكم والمحكوم حتى شبت نار الاضطهاد ثانية أشد مما كانت عليه في عهد الصراع بين الوثنية المصرية والمسيحية الرومية في القرن الأول الميلادي . . إذ كانت علة العلل في ذلك هي تلك العـداوة القائمة بين « الملكانية » و « المنوفيسية » وكانت الطائفة الأولى كما يدل عليه اسمها ، حزب مذهب الدولة والامبراطورية وحزب الملك والبلاط وكانت تعتقد العقيـدة السنية ، وهي ازدواج طبيعة المسيح ، في حين أن الطائفة الأخرى وهي حزب « القبط المنوفيسيين أو اليعاقبة » أهل مصر كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها ، وتحاربها حرباً عنيفة في حماسة هوجاء .

واشتد الخلاف بين الطائفتين حين تولى الامبراطور « فوكاس » الذي سار على سُـنة القضاء على مذهب « اليعاقبـة » في مصر قضاءً مبرماً ، لا هوادة فيـه ولا رحمة ، إذ بلغ الاضطهاد والتعسف أقصى ما يمكن أن يصلا إليه ، وكان اليعاقبة لا يرضون إلا أن يمحوا كل أثر من آثار مذهب « الملكانية » ولكن أنى للمحكوم أن يقف في وجه حاكمه منابذاً مقاوماً ؟؟ لذا اضطر القبط أمام ما كان ينزله بهم الروم من تعسف أن يعاودوا الهجرة الى الصحراء فيقيموا بها بمنجاة من الظلم والاستبداد ، وقد اتخذوا منها معقلاً يقيهم ظلم « فوكاس » الذي لم يكف عن إيذائهم حتى ثار « هرقل » من « قورينا » وسار الى « القسطنطينية » حيث اسقط « فوكاس » عن العرش وتبوأ مكانه .. ثم جاء الفرس وانتزعوا مصر من يد هرقل ، وسار الجيش الفارسي في الصحراء لأول مرة ، وكانت وجهته بنطابوليس (٤٠) التي كانت ذات مكانة عظيمة وقتذاك ، وبقي الفرس سادة البـلاد عشر أو إثنى عشرة سنة . . ولعلهم قضوا ثلاث سنوات يمهدون لسلطانهم في طول البلاد وعرضها بين « مصر وبُـنطابوليس » ، ثم قويت عزيمة « هرقل » بعد هـذه السنوات العشر ، فطرد الفرس عن كل أملاك الامبراطورية ، وبينها مصر .. ثم لاح له بعد أن وضعت الحرب أوزارها أن يوحد المبادىء المسيحية ، بعدما رأى ما كان من نتائج الخلاف المذهبي من إضعاف الامبراطورية وتفكك كتلتها ، ذلك الخلاف الذي قام أبد الدهر بين أبناء الدين الواحد ، لذلك رأى هرقل أن ينشيء مبدءاً جديداً ، ثم أراد حمل الناس على اعتناقه واتباعه والعمل به ، ولـكن قبط مصر كانوا يرون فيه بدعة لا نهاية لها إلا الضلال ورأوا في اتباعه كفراً وخروجاً على ديانة المسيح لذلك لم يرضوا به بل رغبوا عنه في مبدئهم الأول .

وأصرّ الإمبراطور على إرغامهم إلاّ أنهم لم يحفلوا بإرادته ، بل ثبتوا عند رأيهم ، فخيرهم « ولاة هرقل » بين اتباع المذهب الجديد وبين الجلد فالموت .. !! فكانوا يفضلون الاستشهاد في سبيل ما يرونه حقاً على العيش في ظل الباطل . . وعلى هذه الحال من الاضطهاد عاشت البلاد عشر سنين طوال عاود معها الأهلون الهجرة الى الصحراء .

ولقد كانت « مريوط » طيلة الحكم الروماني أزهر وأعمر من عمق الصحراء الغربي وليس أدل على ذلك من أن تحمل الحكومة التي كانت قائمة وقتذاك منطقة « مريوط » وحدها جملة ربط الخراج الذي كان مفروضاً على الصحراء كلها وكانت الجزية تدفع نصفها مالا والنصف الآخر نبيذاً مما يستخرج من كروم العنب التي كانت قائمة بسهول مريوط ...!!

* * *

ولم يكد نور الاسلام يشرق على الشمال الأفريقي بفتح « عمرو بن العاص » لمصر . ولم يكد القائد العربي ينتهي من بسط نفوذه على الوادي ونشر لواء الاسلام تحت سمائه حتى أرسل « ابن عبدالله المكي » لفتح مدائن مريوط فتم له ذلك على أيسر وجه . .

وفي نهاية القرن الثالث الهجري بدأ الاضمحلال يدب في طول الصحراء وعرضها . وقد شمل مريوط أيضاً فأهملت مدائنها حتى اندثرت ، وآبارها حتى غاض الكثير منها ، ورحل عنها من كان قد هاجر اليها ، ولم يبق بها الا بقية من البدو الرحّل الذين لا يرتضون بالصحراء وعيشها بديلاً ، وهم الذين يعرفون الآن باسم قبائل « أولاد علي » .

أما ما هو السبب في إطلاق اسم « أولاد علي » على سكان الصحراء الغربية ؟ فهذا ما نريد أن نجلوه في هذه السطور مما استقيناه من روايات مشايخ العربان المقيمين الآن بالصحراء ، إذ ما زال الجميع يرددون « انه عندما مرت قبيلة بني هلال بالصحراء الغربية حوالي القرن الخامس الهجري في طريقها الى بلاد المغرب « لفتح القيروان » ممثل « الزناتي خليفة » تركت في عرض الصحراء . إحدى بناتها لأنها حملت سفاحاً ، وتركت معها بعض المال والعبيد ، وكانت تدعى « سُعدَى الهلالية » فوضعت ولداً ذكراً أسمته « حرباً » ثم قذف البحر بأحد اليونانيين من صائدي الاسفنج ، غرق مركبه ، وهلك من معه من رفاق ، وما أن رأته « سُعدى » حتى اضطرته على اعتناق الاسلام ، ثم تزوجت منه ، وقد أنجبا ثلاثة أولادهم « علي » و « هنداوي » و « برغوث » .

من هذا يتبين لنا أن « سعدى » قد تركها أهلها في ضواحي مرسى مطروح إذ الاسفنج يكثر في منطقتها البحرية ، واليونانيون يجدّون في طلبه من هذه المنطقة

ومات الأبوان ، وتركا الأخوة الأربعة ذوي ثروة ، ولكنهم كانوا صغاراً .

وكان البدو المقيمون حولهم يعلمون أن أجدادهم « بنو هلال » ولما كان « ابني هلال » مكانة ملحوظة في نفوس الأعراب ، فقد تقدمت أربع قبائل ، وتبنت كل قبيلة واحداً من الأخوة الأربعة مقطعة إياه كل عام جزءً من نتاج أغنامها وجمالها وأراضيها مضيفين هذا كله لثروته التي ورثها من وراء أمه . وهكذا ظل الخراج يضاف لثروة كل واحد منهم حتى إذا ما شبوا في ثروة طائلة نصّبت كل قبيلة فتاها زعيماً عليها .

ولكن « حربا » لم يرض بهذه الزعامة الصغيرة ، ولم يقنع بهذا العدد القليل من الاتباع ، بل طمع في الزعامة المطلقة ، فكاد أخوته الآخرون يطلعون على عزمه ، حتى أخذوا — متحدين — في مطاردته هو وأتباعه ، وأجبروهم على الرحيل ، فساروا الى « الجبل الأخضر » في « برقة » فأقام فيه « حرب » بمن معه من أتباع . ولا يزال « بنو حرب » الى الآن في موطنهم الذي نزح اليه جدهم الكبير .

ومرت سنون كان « علي » خلالها قد ضمّ إليه أخاه « هنداوي » واتحد الاثنان وطاردا أخاهما « برغوثا » حتى رحل هو أيضاً الى « طرابلس » ثم قوي « علي » وأراد أن يبسط نفوذه على « هنداوي » وقبيلته .. وكان أن نشبت الحرب فيما بينهما ، إلا أن « عليّا » استطاع أن يجلي « هنداوي » وقبيلته عن الصحراء فألزمهم حدود وادي النيل في صحراء الصعيد . وهم العرب « المنادي » .

ومرت سنون أخريات فإذا أولاد « علي » ينشقون على أنفسهم فانقسموا قسمين :

١ — علي الأحمر : وهؤلاء اتخذوا موطنهم في الصحراء بالمنطقة الواقعة بين الضبعة والسلوم .. ويقولون « علي الحَمَر » بفتح الحاء والميم ، وقد عُرفوا بالأحمر لحافتهم .

٢ — علي الأبيض : وهؤلاء استقروا في مريوط وغربي مديرية البحيرة ورمل الاسكندرية ، على أن تطورات الزمن جعلت بعض هؤلاء يرحلون الى جوار أولئك وبالعكس

وينقسم البدو عامة قسمين من حيث كيانهم الاجتماعي :

١ — مرابطون ٢ — سعاوى ..

١ — أما المرابطون : فهم أولو الفضل والبركة المسالمون أو ذراريهم ولهؤلاء مكان ملحوظ في نفوس الناس لا يتعلق على غنى أو فقر الواحد منهم وإنما يُجلون أينما حلوا ولا يُهان واحد منهم وإن بدأ هو بالاساءة ، وكثيراً ما يقوم المرابطون هؤلاء بحل المشكلات والصلح بين العرب ، وحكمهم نافذ على كل بدوي وليس لأحد أن يخالف إرادتهم مطلقاً ولو على رغمه ، وعدتهم في ذلك أن يُخيّر المرابُط من احتكموا إليه : هل يريدون فاتحة

خير أو فاتحة شر ! فإن قبلوا حكمه قرأ لهم الفاتحة ودعى لهم بالخير وإلا عكس الآية وفي ذلك ما يخشاه العرب .

وإلى رحاب هؤلاء المرابطين يلجأ كل ذى حاجة . فمن طالب زواج ممن لا يرتضونه فيستعين بأحد المرابطين عليهم .. الى هاربة من زيجة يرغمها عليها آلها . . وغير ذلك من حاجات البدو التي لا تنتهي .

٢ — أما السعادى : فهم مشاكسو العرب الذين لا ينتمون لأحد من المرابطين وليس في أجدادهم أحد من أصحاب الفضل والبركة وهؤلاء لا يعمل حساب الواحد منهم إلا إذا كان قوي الشكيمة ذا بطش وقوة ، إذ لا يخاف أحد البدو عاقبة الإساءة اليه .

قبائل مريوط

أما القبائل التي تعيش في مريوط فأهمها :

(١) السناجرة : وتعتبر أقوى قبائل مريوط شوكة وأكثرها عدداً وأصعبها مراساً وتمتد مضاربها من مرسى مطروح الى كفر الدوار وحوش عيسى (٢) العقاري : وتلي قبيلة « السناجرة » في الشوكة وهما دائماً في تنازع لا يحد من تفاقمه إلا قسوة عقوبات قانون العرب العرفي وكثرة الغرامات التي تنصب على كاهل الطرفين المختصمين . . وهي من برج العرب الى « العلمين » (٣) الهوارة : وهؤلاء من المرابطين ، ولهم مكان ملحوظ في نفوس جيرانهم ، وهم من « سيدي كرير » الى « برج العرب » (٤) المواقير (٥) القطعان (٦) القنيشات (٧) الشناوير (٨) الحسون (٩) عائلة ابراهيم .

وليس كل المقيمين « بمريوط » من البدو الأصيلين ، كلا فإن نظام « النزالة » معترف به عند العرب فكل غريب ينزل بجوار قبيلة له أن يكتب نفسه وعائلته ضمن أفرادها ، ويكون محسوباً عليها .. له ما لهم وعليه ما عليهم . يفزعون لنصرته ، ويذود معهم عن حقوقهم التي تعتبر حقوقه هو أيضاً .. يدافعون عنه إذا ما اعتدى عليه معتد .. واذا ما أساء هو لأحد أفراد العائلة التي هو نزيل عليها ، فما أكرم أخلاق العرب وأسمحها عندما يعفون عن خطئه فلا يأخذونه به لأنه غريب لا شوكة له إلا بهم .. !!

٦ ـ نظرة عامة

فيما تتطلبه الصحراء والواحات من إصلاح

أرى أن نجمل في هذه السطور التالية ما الصحراء عامة والواحات في حاجة إليه من إصلاح حتى يمكن استغلالها على الوجه الأكمل لتأتي بما هيئت له من خير فتعود على أهليها وبلاد القطر بالنفع الكبير خصوصاً وأن مجال الاستغلال الزراعي آخذ في الضيق بالنسبة لقلة الأراضي التي تضاف للمساحة التي تزرع في الوادي من عهد بعيد مع إطراد زيادة عدد السكان فإن لم نبادر بالقيام بعمل حاسم فإن العقبى لن تحمد وليس لنا من مجال نتنفس فيه غير الصحراء بأراضيها الخصبة المهملة التي يمكن اذا ظفرت بقليل من العناية .. أن تضيف الى مساحة الأراضي الزراعية بالوادي مثلها والى الانتاج الزراعي والحيواني أضعافه وتعود الى البلاد حالة الرخاء واليسر الآخذة في الزوال شيئاً فشيئاً . .

أما هذه الاصلاحات فيمكن تلخيصها في النقط الآتية :

أولاً — ﴿ الماء والزراعة ﴾

ا — المنطقة الساحلية

١ — ﴿ تحسين وسائل الري والزراعة ﴾ سبق أن علمنا أن الري يعتمد في المنطقة الساحلية على موردين من الماء هما :

أولاً : السيول : ولا أقول الأمطار .. وإن كان زيد هو ابن عمرو .. وعمرو ذو أبا زيد .. ولا يمكن لزيد أن يجيء الى الدنيا إلا عن طريق عمرو .. !!

فالسبب في تواجد السيول بطبيعة الحال هي الأمطار .. ولكن .. ليست كل سقطة مطر تحدث سيلاً .. بل لا بدّ لذلك من سقوط أمطار غزيرة :

والأمطار تسقط عادة فيما تسقط على حزون الصحاري ، وسهولها .. بنسبة واحدة ولا يمكنها أن تحدث ريًّا إلا إذا تحدرت من فوق الهضاب ، والتلال ، واتخذت طريقها في أخاديدها التي تحفرها لنفسها بنفسها ، أو يحفرها لها الأهلون في سفوح الجبال

ومنحدرات التلال .. نحو السهل المنخفض .. متجمعة هيئاً فهيئاً حتى يتكون عنها ما يمكن أن يحدث الري .. ألا وهو السيل .. !!

وكما خلق الله الوديان العظيمة الواسعة الأرجاء .. وأجرى فيها الأنهار .. بسط الصحاري بسهولها الصغيرة ، وأوجد لها الهضاب والتلال ، لكي تقوم منها مقام النهر في الوادي الكبير ..

فالتل .. أو الهضبة .. أو المرتفع أيًّا كان قدره .. مقامه من السهل الذي يجاوره مقام المروى من الحقل ، إذ أنه هو الذي يمده بالسيل الذي يروي زرعه وينبت فيه الكلأ ..

لذا فإن لكل جبل أو تل حوضاً يرويه كما لكل نهر أو مروى حوضه الذي يرويه ، ويفيض عليه من مائه ، وكل مالك أو منتفع بالسهل المجاور للجبل له الحق كل الحق في الانتفاع بالمنحدرات المجاورة لأرضه وفي اتجاهها ..

وذرى التلال .. وقمم الجبال هي الحدود الفواصل بين حق انتفاع المنتفعين بها عن يمين وعن شمال ، ولا يمكن لأحد أن يتحايل على سلب الآخر حقه من الماء إن أمكن التحايل ..

مما تقدم يتضح لنا انه لا بدَّ لكل مساحة مزروعة في المنطقة الساحلية .لا بد لها من مسطح واسع يظل غير مزروع لكي يمدها بالسيول المتجمعة،مما يسقط عليه من أمطار . أما تقدير هاتين المساحتين بالنسبة لبعضهما ، فقد أرى أنه سيكون ضرباً من التخمين إلاّ إذا أجريت تجربة دقيقة تستغرق زمناً طويلاً حتى يمكن الجزم بما يحتاج الفدان المزروع من مسطحات التلال المجاورة لكي يُروى ريًّا جيداً في موسم الأمطار .

وإنني لأرى ضرورة قيام بعض ذوي الخبرة بإجراء هذه التجربة .. كما أرى الانتفاع بالوديان الكبيرة « كوادي القمر » الذي يقع على مسيرة خمسة عشر كيلومتراً غربي مدينة مرسى مطروح في مد الأراضي المحيطة بالمدينة .. بالماء العذب صيفاً لإمكان زراعة بعض الخضروات والحدائق وذلك بقيام سد في شمال الوادي ليحول دون ذهاب مياه السيول الكثيرة في البحر هباءً وبغير ما فائدة تجتنى من ورائها كما أجرى في صحراء سيناء .. إذ أقيم سد الروافعة في الأيام الأخيرة .. !! وبذا لا تعتمد المدينة على ما يرد اليها من الاسكندرية أو يقتصر استهلاكها على ما ينجح بالطريقة البعلية دون غيره ..

(ثانياً) — آبار الثواني أو آبار تحت التربة : يجب حفر الآبار القديمة الموجودة بالصحراء لإمكان الري صيفاً اذا اضطر الأمر إليه ..

ففي المنطقة الساحلية آبار كثيرة منها المستعمل حتى الآن ومنها الذي جرت عليه يد الزمان بالدمار فطمر وبقيت بعض آثاره تدل عليه.. ومن أهم هذه الآثار التي تتخذ دليلاً

على وجود بئر قديم :

١ — الكروم : وهي التلال الصغيرة . . خصوصاً اذا جاورت أرضاً مستوية عليها أو حولها ما يشبه بقايا الأسوار من أحجار منظومة في أطوال معتدلة بعض الشيء محاطة بسياج من نباتات العنصل الذي يظهر بشكل واضح أثناء موسم الأمطار .. فالاعتقاد السائد أن القدماء كانوا يستعملون العنصل في حفظ حدود أراضيهم الزراعية . ووجود الكرم بجوار السهل الصغير المنبسط المسوّر دليل على أن هذا ركام بيت — اذا وُجدت به الأحجار المربوعة المسماة (فنتارى)ـ وإذا كان التل خالياً من الأحجار فهو مخلفات حفر البئر . وفي مثل هذه الأماكن يبحثون عن الآبار القديمة

٢ — العوسج : فشجيراته المعمرة إذا ظلت مخضوضرة خلال الصيف غير بادية التأثر بالجفاف الذي أمحل المنطقة جميعها استدلوا بها على وجود بئر تحتها خصوصاً اذا كان حولها بعض من الأحجار ، إذ أن جذورها تذهب في جوف البئر المطمورة لأنهـا تكون أكثر رطوبة من غيرها مما جاورها من الارض . .

فالقديم من هـذه الآبار روافد ممتدة في باطن الطبقة الصخرية التي تلي الطبقة العليا ، منحوتة في جوفها ، وقد تذهب هذه الروافد الى مسافات بعيدة كما هو الحال في آبار العامرية ومرمى مطروح - وهذه(الجيوب)الجانبية هي التي تمد البئر بالماء العذب طوال العام .

ولكي يظل البئر عذب الماء صالحاً للشرب ولري الزراعة يجب ألاّ يزيد الحفر عن ذراع ونصف ذراع بعد ظهور الماء حتى تظل موارده قاصرة على الطبقة التي تحتوي مياه الرشح ثم يُبدأ في حفر الروافدالجانبية ، أو الجيوب ـكما يسمونهاـعلى نفس المستوى

ويمكن للبئر ذات الجيب الواحد أن تمد ساقية تدار بصفة مستديمة دون أن ينضب منها الماء أو تتغير عذوبته .

ولرفع ماء هذه الآبار بالماكينات يجب الاّ تركب عليها الماكينات الثابتة بل تستعمل في رفع مائها الماكينات المتنقلة الصغيرة حتى اذا ما نضب ماء بئر انتقلت الى غيرها على أنه يجب ألاّ تُبذلُ أية محاولة في جهر البئر واختراق الطبقة الصخرية التي تلي الأسفنجية المشتملة على ماء الرشح حتى لا نصل الى مستوى البحر فيصير الماء مالحاً غير صالح ..

وتختلف أعماق هذه الآبار بين ٩ أمتار وسبعة وعشرين متراً..فكلما قربنا من الساحل قلّ العمق وكلما بعدنا عنه موغلين في الصحراء زاد العمق . . ويتبع ذلك بطبيعة الحال قلة التكاليف حال الانشاء وكثرتها . .

على أني استطعت حفر بئر جديدة عمقها إثنى عشر متراً ومسطح فوهتها العليا ١٥٠ سم٢.

بخمسة رجال في خمسة وأربعين يوماً . وكان أجر الرجل عشرين قرشاً في اليوم فتكون جملة التكاليف لاخراج البئر ٤٥ جنيهاً عدا مصاريف بناء الجزء الاعلى منه . . ولكن الاهالي يحفرون بتكاليف أقل بالنسبة لقلة الأجور التي يدفعونها فيما بينهم

ويجب عدم الاعتماد على الأمطار والسيول كمصدر لمياه الري ، بل يجب مد ترعة النوبارية الى أكبر مسافة ممكنة في جوف الصحراء ، ليمكن استغلال الاراضي الزراعية الخصبة بزراعة الفواكه والمحاصيل ذات النفع القيم ، ولعل أكبر دليل نقيمه على صلاحية هذه المناطق لأي استغلال زراعي ما صادفته شركة جناكليس من نجاح لما توافر لها ماء الري بالترعة المذكورة وكيف أن الفدان الواحد من زراعات العنب يغل ما يزيد عن المائة جنيه في العام .. ولعل أكبر فرية افتراها أجنبي في مصر هي تلك الدعاية الواسعة النطاق التي تقوم بها شركة جناكليس رغم ما تلاقيه من نجاح ورعاية رجال وزارة الزراعة لها . . هذه الفرية التي أملاها عليهم شعورهم بتنبه الأذهان المصرية لاستغلال أراضي الصحراء بزراعات العنب والزيتون لما لمس المواطنون ما يعود على الشركة من ربح وما ينعمون فيه من عيش رغيد لم يحلم به أبناء النيل في أرض النيل .. هذه الفرية التي تتلخص في أن أرض الصحراء لا تصلح لزراعة العنب إذ أن الأشجار تشل ولا تنجح إلا الى أجل قصير لذا فانهم سيقتلعون ما زرعوه بالأمس .. ومن الغريب أن هذه الدعاية التي لا أعتبرها إلا تعمية لأبصار المصريين الذين فكروا في السير على نهجهم حتى لا يجد لهم مزاحمون في الأسواق الداخلية والخارجية قد وجدت من يصدقها .. وبالرغم من أنهم جادون في نشر فريتهم هذه فانهم ما زالوا يزرعون ولم يقتلعوا شجرة واحدة من شجيرات العنب .. العنب الذي ظل قرونا يعطي أحسن نتاج ويكفي أن علمنا فيما تقدم ذكره أن روما كانت تظفر بأجود أنواع النبيذ من كروم مريوط .. أبان حكم الرومان لمصر ..

ولرب قائل أن مد الترعة الى جوف الصحراء ستصادفه صعوبات كثيرة ، أهمها أن مستوى سطح الارض ليس متساوياً في كل المناطق . . ولكن ذلك لا يقف أمامنا كعقبة في سبيل تنفيذ هذا المشروع فيمكن التحايل على رفع الماء الى المناطق المرتفعة المنسوب بواسطة الطلمبات التي تقام عند نهاية الترعة في أول كل منسوب ، فكلما صادف سير الترعة مرتفع يتعذر التغلب عليه ذللناه بطلمبة رافعة . ومن مرتفع الى مرتفع حتى نبلغ الغاية ، ونشرف على القصد الذي أهدفنا اليه .. !!

الري . . !!

أما وقد عرفنا الموارد المائية التي بالصحراء والتي يجب أن تتوفر في المنطقة الساحلية :

فيمكننا والحالة هذه أن نتحدث عن طرق الري فيها. في المناطق التي ستظل معتمدة على مياه الامطار. ولكي نتمكن من الوصول الى حقيقة مقنعـة سنتخذ ما قمت به من ابحاث في منطقة برج العرب كأساس لدراسة الري الواجب اتباعه في هذه البقاع الساحلية.

أولاً: الري شتاء

وخليق بنا بعد أن تبين لنا أن السيول هي المورد الاهم لمياه الري في الصحراء الشمالية أن نعتبر فصل الزراعة فيها هو فصل الشتاء، وأن نعني بدراسة الري فيه. إذ أن حاصلاته هي ما يعوّل عليه الاهلون.

١ — ري الزراعات الحولية

وأهم هذه الحاصلات هو الشعير إذ هو عماد الثروة الزراعية في أغلب هـذه المنطقة خصوصاً في ناحية سيدي براني والسلوم، فالجميع يزاولون زراعته لانه قوام حياتهم المعيشية، فمن أتاه ربه محصولاً وفيراً منه فهو في اطمئنان ويسر. ومن لم يعطه فله الشقاء طوال العام.

والشعير لا يكلف جهداً في ريه. إذ بعد سقوط الامطار أول مرة في أواخر أكتوبر أو أوائل نوفمبر، ينثرون الحب، ويحرثون الارض، ثم يتركون الزراعة بعد ذلك لما تفيض به السماء من صيب غيثها حتى يحين الحصاد.

على أن أغلب البدو وزراع الشعير خاصة لا يأمنون للزراعـة عقب المطرة الاولى إذا جاءت مبكرة في أواخر أكتوبر إذ يخشون أن يطول المدى بينها وبين المطرة الثانيـة فتصادف عوامل الجفاف البوادر الصغيرة فتموت.

ويستطيع البدوي أن يتنبأ عما سوف يكون عليه موسم الامطار من قلة أو غزارة. وهل سيكون مبكراً أو متأخراً. وأهم العلامات التي يستندون اليها في تنبؤاتهم هي هجـرة الطير من الشمال الى الجنـوب ففي أواخر الصيف تبدأ الطيور بالهجرة من الساحل الاوربي الى الساحل الافريقي. فان بكرت بتوافدها على الساحل المصري كان موسم الامطـار مبكراً. وإن جاءت بكثرة كانت أمطار الموسم غزيرة، والعكس بالعكس.

وإنهم ليستبشرون خيراً إذا سقطت الامطار موزعة بحساب كل شهر من أشهر الموسم مطرة غزيرة. أي في نوفمبر مطرة ومثلها في ديسمبر، وأخرى في يناير، ورابعة في فبراير، وخامسة في مارس.

وإنهم ليحسبون حساب المطرة الاخيرة التي يرجونها في مارس ويعلقون عليهـا أهمية كبرى بالنسبة للمحصول، إذ هي التي تقدم وتؤخر.. لذا فهم يقولون في أمثالهم المأثورة « إن

كان زرعك عطيب وراه مارس ، وان كان زرعك صابا وراه مارس »

أي أن أمطار مارس هي القول الفصل في شأن المحصول فان جاءت غـزيرة أفادت الزروع المتأخرة الضعيفة وألحقتها بالمبكرة القوية ، وان لم تأت فلا خير يُـرجى من وراء زرع مبكر أو زرع متأخر .

ومن هذا نجد أن الشعير في حاجة لخمس أو ست ريات طوال حياته .

على أن غزارة الأمطار في شهر ديسمبر بالنسبة للزراعات المبكرة وفي شهر يناير بالنسبة للزراعات المتأخرة كفلتها في شهر مارس بالضبط بالنسـبة للمحصول ، إن كانت الزراعة في البقاع المنخفضة المستوى ، فاذا تراكمت المياه في هتين الفترتين فوق النباتات الصغيرة الغضة وأدركتها برودة الليل .. فانها تودي بالزراعة ، وربما قضت عليها قضاءً مبرماً .

وتخف هذه الكارثة بعض الشيء إذا ما أدركتهم في شهر ديسمبر إذ يتمكنون من إعادة زراعة الأرض ، ولـكنهم على أي حال لا يفيدون من ورائها شيئاً يذكر . .

وما يسري على الشعير يمكن أن يسري على بقية المحصولات الحولية الأخرى التي تزرع في الشتاء .. !! ولذا أرى ضرورة استغلال المناطق المنخفضة بزراعة الحدائق إذ أنها أكثر احتمالاً ..

ب — ري الحدائق

ولعل الزائر لمنطقة برج العرب يلمس اختـلافاً بيناً ، وفارقاً كبيراً بين حدائق الأهالي ومزرعة البساتين .

فحدائق الأهالي ذات أشجار قوية نامية نماءً حسناً ، بالرغم من أنها لا تجد من الخدمة والعنـاية ما تجده الأشجار التي في مزرعة البساتين .. ولو ان المسألة كانت عكسية لما كان هنالك ما يستلفت النظر ، أو يوجب الاستغراب والدهشة . . إذ المفروض أن مزرعة البساتين مزرعة نموذجيـة تجد كفايتها من العنـاية التي لا يستطيع ذلك البدوي .. الذي لا يملك دابة تجر له محراثه ولا جلد له على العمل — بذلها نحو أشجار حديقته ..

ولـكننا لو دققنا في الأمر قليلا لوجدنا أن عدم مقدرة ذلك الاعرابي وعجزه ، قد أفاداه من حيث لا يدري. وكما أفاد الاعرابي الـكسول من خموله وعجزه جني قسم البساتين من وراء مقدرته واعتماده على القوى الآلية الضر والخسران .

أما كيف أفاد العجز البدو ، وخذلت القوة والمقدرة (قسم البساتين) فهذا ما أحب أن أعرضه — كما أرى — لعل لأحد فيه رأياً .

فما لوحظ أن قسم البساتين أول ما قصد الى هذه المناطق للزراعة فيها عام ١٩١٨ لم يكن قد وضع سياسة مرسومة للسير عليها وإنما جاء كل شيء اجتهاداً ، لذا فلم يبن أهمية كبرى على أهم مصادر الري في هذه البقاع الصعبة المراس ، معتمداً — إلى حد كبير — على القوة الآلية وما يمكن أن ينتزعه بواسطتها من باطن الارض من المياه الارتوازية . وكانت النتيجة أن غرس الأشجار في كل ما استطاع الاستيلاء عليه من الأراضي ، سواء أكانت مرتفعة أو منخفضة ، فأوجد مزرعة ذات مساحة واسعة دون أن يحسب رجاله الذين ابتدأوا بالعمل هنالك ، حساب ما تحتاجه هذه المساحات المترامية الأطراف من مسطحات أخرى خالية لكي تمدها بماء الري . وهل سيمكن للتلال المحيطة بالمزرعة أن توفر لها ما يلزمها من ماء الري خلال موسم الأمطار ، وهل سيمكن الحصول على السيول التي تغمر كل الارتفاعات من مسافات بعيدة أم أن بعض الأشجار سيجد كفايته والبعض الآخر مقضي عليه بالحرمان .. مطمئنين كل الاطمئنان على ما سوف يخرجونه من المياه الارتوازية . . إذ جندوا لذلك عدداً من الماكينات الثابتة .. !!

ولرب قائل إنها كانت تجربة ، وكل تجربة عرضة لأن تنجح وأن يصيبها الفشل . ولكنني أقول إن التجربة لا تكون في هذه الرقعة الواسعة من الأرض وكان يمكن إجراؤها في مساحة صغيرة كما انتهج القسم أخيراً في محطة تجارب (الذراع البحري) ومحطة تجارب (مريوط ماروت) ثم اتسعت في ري الأشجار طريقة أرى أنها كانت بدائية ، وكانت محاولة يقصد من ورائها علاج الخطأ الذي وقعوا فيه . . ولا أقول ذلك ناقداً إياهم بل بالعكس فان لهم فخر الخطوة الأولى ، فكل خطوة أولى نحو أمر من الامور يعوزها الكثير من الجرأة والشجاعة . ولولا خطؤهم الذي وقعوا فيه لما استطاع أحد بعدهم أن يهتدي.. ففي ظلام الخطأ يستطيع الإنسان ذو البصيرة أن يرى نور الصواب ..

فلقد كان المتبع أن تدار الماكينات للري حال سقوط الأمطار لكي يمكن توفير ماء كثير للري لا يحتوي على كثير من الأملاح فيستطاع الحصول على أكبر نسبة من الرطوبة الأرضية مع تجنب الأضرار التي تنجم عن الري بالماء المالح وحده .. وليتهم استمروا على ذلك في خلال الشتاء فقط ، فقد كانت الاضرار يمكن أن تحتمل في البقاع الواطئة والقليلة الارتفاع التي تحصل من مياه السيول على قدر كافٍ .. بل كان الري يستمر خلال الصيف أيضاً كلما احتاجت الأرض الى الرطوبة التي تتطلبها حياة الاشجار

وعلى هذا الأساس كانت الأشجار التي في المناطق المرتفعة المنسوب تنقص بدلاً من أن تزيد وتنمو .. لأنها لا تأخذ كفايتها من مياه الأمطار ؛ فيحاول التاجوز بالأمر إذ ذاك

تعويضها بالماء المالح الذي لا أرى فيه إلا سموماً تنفثها الماكينات لتقتل بها الاشجار ..
ولقد كانت النتيجة المحتومة لمثل هذه الحالة أن تلاشت الاحواض القبلية التي بجوار محطة السكة الحديد . وكان ذلك بطبيعة الحال من تأثير الاملاح الموجودة في مياه الماكينات خصوصاً في الاماكن التي تروى بكثرة في فصل الصيف . فقد يتخلف عن مياه الماكينات في تربة الاراضي التي يغمرها السيل ١٤٠٠ وحدة ملحية في المليون . . وفي الاراضي التي لا تظفر بشيء يذكر من مياه السيل ١٣٠٦٠ وحدة .. وهذا القدر الاخير كاف جداً لأن يوقف النمو اذا لم يقتل الاشجار ، إذ أنه يفسد طبيعة التربة ويجعلها غير صالحة للزراعة ..

هذا ما جناه قسم البساتين من وراء قوته واستعداده الآلي أما ما أفاده البدوي من وراء عجزه . فقد اضطره العجز لأن يقتصر على زراعة الاراضي الواطئة (مواطىء السيل) حتى يستطيع خدمتها ولم يلق بالاً لري حديقته بعد السنوات الثلاث الاولى أثناء الصيف

وهنا كان لا بد من علاج لما أخطأ فيه السابقون . فالاشجار قائمة في الارض ، والاصلاح يتطلب تمهيد الارض وتسويتها ، حتى يمكن للاشجار أن تتساوى في نصيبها الذي تناله من السيول التي تغمر الارض وتركد فيها إذا كانت منخفضة المستوى ، وتمر على الارض المرتفعة المستوى مر الكرام دون أن تحدث فيها أثراً من رطوبة حتى أخذت أشجارها في التدهور والانتقال من سيء الى أسوأ . بينما الشجرات التي تنال حظاً وفيراً من الماء في أحسن حال .

وفي غمار هذه الحالة تراءى لي (وكنت قائماً بالامر في هذه البقاع في السنوات الأخيرة) أن أبدأ بالمغامرة فمنعت الري صيفاً عن الاشجار القوية الواقعة في مواطىء السيول .. وجعلت أراقبها بدقة فاذا بها بدلاً من أن تتصوح خلال فصل الجفاف ظلت ذات خضرة وقوة حتى أدركها فصل الامطار .

. وفي العام الثاني أخذت في تقسيم الارض المنزرعة الى أحواض صغيرة مراعياً (تبتين) كل مساحة ذات ارتفاع واحد على حدة ، بيتون قوية يزيد ارتفاعها عن النصف متر .. وجعلت لكل منسوب قناة خاصة به وعلى مستواه لكي توافيه بالماء الذي تجيء به « النابات الخارجية » ، ليمكن غمر الارض جميعها بالسيل وحبسه عليها بواسطة السدود القوية فلا ينحدر كما كان قبلاً الى الاماكن المنخفضة متراكماً فيها دون غيرها .

ولم أدر الماكينات للري مع سقوط الامطار كما كان متبعاً ، بل عقدت النية على عدم الادارة قبل شهر فبراير رامياً من وراء ذلك الى غرضين .

الغرض الاول : ترك الفرصة للارض أن تغتسل من الاملاح المتخلفة عن الري في الصيف

الماضي قبل أن نضيف اليها أملاحاً جديدة ..

والغرض الثاني : ترك الفرصة لمياه الأمطار كي تتسرب بواسطة الرشح ، خلال الطبقات الارضية حتى تختلط بمياه الآبار ، وثلاثة أشهر أرى أنها مدة كافية لذلك ليمكن الحصول على مياه إرتوازية عذبة الى حدٍّ كبير ..

وحل فبراير وأدرنا الماكينـات فإذا الغرض الذي أهدفتُ اليـه يتحقق ، واذا المـاء يتدفق عذباً لا ملوحة فيه ، فروينا ريتين متعاقبتين حصلنا من ورائهما على الرطوبة الكافية الى وقت طويل ، إذ اتصلت رطوبة مياه الماكينات برطوبة مياه الأمطار التي سقطت خلال الموسم .. وكانت الأشجار في طور الإزهار فلم تدركهـا بواكير الجفاف حتى بلغت الثمار مبلغاً أصبحت معه لا يخشى عليها .

على أننا كنا في منتصف إبريل قد انتهينا من ري المزرعة جميعها ريتين وهذا كل ما استطعنا ان نحصل عليـه قبل أن تزداد ملوحة المياه .. وأقفلنا الماكينات بعـد ذلك الى أجل غايته فبراير الثاني .

وليس أدل على صلاحية هذا النظام في الري من أن الانتاج قد طفر من ١١٥٠٠ ك . ج . من الزيتون الى ٥٠٦٩٠ ك . ج . مع أن عدد أشجار المزرعة عند ما أعطت ١١٥٠٠ ك . ج . كان ١٨٠٠٠ شجرة وعددها عند ما أنتجت ٥٠٦٩٠ ك . ج . كان ١١٤٠٠ شجرة . . إذ كنا قد تخلصنا قبل ذلك من الأشجار الرديئة ..

مما تقدم وعلى ضوء هذه التجربة أرى أن الري بالماكينات خلال الصيف وبعد منتصف أبريل غير جائز مطلقاً وان لم تسقط أمطار كافية خلال الموسم .. وأمامنا دليل آخر يمكننا أن نقيمه على أن ذلك لن يؤثر في الأشجار تأثيراً سيئاً البتّـة . وهذا الدليل يسطع بوضوح في أشجار الأهالي التي لا تظفر بقطرة من الماء خلال الصيف .. ومع ذلك فهي اذا قورنت بأشجار « مزرعة البساتين » نالت الاستحسان ..

وفضلاً عن هذا فان الري بالماكينات يتعارض تعارضاً تامـاً مع الغرض الذي نسعى جاهدين من أجله ، وهو نشر الزراعة الجافة بين البدو بالطرق التي يستطيعون ممارستها والحصول على أسبابها المتفقة مع مقدرتهم المالية فلا تكلفهم جهداً ولا نصباً . ! !

٢ — يجب الاستيلاء والمحافظة على أنابيب المياه التي قام بمدها الجيش الانجليزي خلال الحرب الاخيرة بين أبي المطامير في نهاية الترعة النوبارية المذكورة وطبرق حتى تصل مياه النيل الى أبعد مسافة ممكنة من الصحراء التي يضني بنيها الظمأ في السنوات القليلة الأمطار فاذا ما توفرت المياه العذبة أمكن لمن يرغب الاقامة في الصحراء وبلدانها أن يقيم ودوماً ، واذا

ما عمرت البقاع الصحراوية لا بد وأن يفكر الوافدون عليها في الاستغلال بعدما يدرسونها دراسة وافية بأناة وهدوء . فتنشط فيها الحياة الاقتصادية ولا تكون حركتها قاصرة على طائفة خاصة لا منافس لها وليس لها هدف الا امتصاص دم بنيها وإحباط مساعيهم نحو التقدم وشل حركتهم . كلما حاولوا القيام بعمل نافع يعود عليهم بالخير .

٣ — مشروع منخفض القطارة : ولعل القارىء كثيراً ما سمع بهذا المشروع الجليل ، ولعل الكثيرين لا يذكرون ماهو هذا المشروع ولا ما ينطوي عليه من نفع كبير وخير للبلاد . لذا سنذكر موجزاً عنه فيما يلي :

« يقع منخفض القطارة في الجزء الشمالي من الصحراء ، وفي منتصف المسافة بين وادي النيل والحدود الغربية وتبلغ مساحته ١٩٥٠٠ ك . م . م أو ما يقارب مساحة الوجه البحري والبحيرات ، ويبلغ متوسط عمقه ٦٠ متراً ويقع فيه جزء ينخفض الى ١٣٤ متراً ، وهو يعد أعمق بقعة من الأرض عرفت حتى الآن في أفريقيا ولقد تكوّن من تأثير الرياح التي حملت من طبقاته الرخوة مكوناتها الرملية الى الجنوب الشرقي ورصبتها على شكل تلال رملية هائلة يشاهدها رواد الصحراء على خطوط مستقيمة يربو طول بعضها على المائة ك . م . وتكتنفه من الشمال والغرب شواطىء صخرية تعلو عن قاعه في بعض الأجزاء حوالي ٣٠٠ متر . أما في الجنوب والشرق فيعلو قاع المنخفض تدريجيًّا الى متوسط منسوب الصحراء .

ويرجع الفضل في معرفة منخفض القطارة الى العالم الكبير « الدكتور جون بول » الذي كان مديراً لمساحة الصحاري المصرية فقد كان يقوم في أوائل سنة ١٩٢٧ بأبحاث في الصحراء فتنبه الى مزايا المنخفض ، ثم اشترك مع دولة حسين سري باشا ، في بحث مشروع الانتفاع بهذه المزايا في توليد القوى المحركة .

أما وسائل الاستغلال ، فيؤخذ من المذكرة التي وضعها « سري باشا » عن المشروع انها تنحصر في توصيل المياه من البحر الأبيض الى المنخفض بوساطة ترعتين يمر الماء في أغلب أطوالها بنفقين من البناء ويسقط منهما في القطارة .

ويبلغ طول الخط من البحر الى المنخفض خمسة وستين كيلو متراً تقام محطة توليد الكهرباء في نهايته . وتتكون الأرض التي يمر فيها النفقان في أغلب طولها من أحجار جيرية وطفلية يسهل إنشاء النفقين فيها بواسطة حفارات دائرية مركزية جريًا على ما هو متبع في انشاء أنفاق السكك الحديدية .

وقد قُدرت النفقات التي يتطلبها توليد قوة كهربائية مقدارها ٥٥ ألف كيلووات بمبلغ ١٧٫٥ مليون من الجنيهات وهي نفقات ليست بالباهظة اذا قورنت بما يتطلبه مشروع

مادي لتوليد مثل هـذه القوة الـكهربائية من محطة تربينات بخارية تقام على النيل وتدار بالفحم . لأن إنشاءها يحتاج الى مليونين ونصف المليون ، وتستلزم إدارتها ٧٦٠ ألف جنيه في السنة والصيانة ٦٠٠ ألف جنيه . . فاذا روعي أن الفرق بين صيانة المحطتين هو ٩١٠ ألف جنيه وحُـوِّل هذا الرقم الى رأس المال بفائدة قدرها ٥ر٣٪ لمدة ثلاثين سنة لكانت النفقة ٩٠٠ر٧٧٤ر١٦ جنيه

ولقد كانت النية متجهة لاستغلال القوى الـكهربائية المولدة من هذا المشروع لإدارة طلمبات الصرف في شمال الدلتـا ، وتسيير قطارات السكك الحديدية في الوجه البحري ، وإضاءة البلاد الواقعـة بين مديرية بني سويف والبحر الأبيض .. هـذا الى جانب إدارة المصانع الأهلية بقوة كهربائية زهيدة الثمن .. !!

ومما انطوى عليه المشروع من المزايا أن وجود بحيرة في القطارة يدعو الى التنبؤ بزيادة كميـة الأمطار التي تهطل في الصحراء من تأثير تبخر ماء البحيرة . يضاف الى ذلك رفع منسوب الميـاه الجوفية في الصحراء الغربيـة مما يؤدي الى زيادة المساحات التي تزرع في الواحات .. !!

وإذا نُـفِّـذ هذا المشروع يمكن إدارة الطلمبات التي تقام لرفع مياه ترعة النوبارية إذا مُدت فيستطاع توصيل الماء إلى أبعد نقطة داخل الحدود المصرية وبثمن زهيد وتـكاليف لا تذكر بجانب ما سيعود على البلاد من خيرات . . ويمكن الإكثار من العنب والزيتون . والغابات فتسد حاجة البلاد من الأخشاب ونتفادى الوقوع في مثل ما وقعت فيه البلاد من ورطة غلاء الأخشاب وانعدام بعض أنواعها عندما نشبت الحرب الأخيرة . . ولا ريب أن في تنفيذ هذا المشروع قيام صناعات كثيرة تعود بالخير على أبناء القطر جميعاً .

٤ — تتبع وزارة الزراعة سياسة مفيدة في الصحراء تتضمن توزيع أشجار الزيتون واللوز والفواكه بعد التثبت من نجاحها في هذه المناطق بتجربتها سنوات عدة.. على الأهالي بغير مقابل وذلك لمساعدتهم أولاً في إيجاد سبل للارتزاق يستعينون بها على العيش.. وثانياً تهدف الحـكومة من وراء ذلك لتثبيت البدو في أماكنهم فيخلعون صفة النزوع الى الرحيل كلما أجدبت الأرض من الشعير أو تراءى لهم ذلك ، إذ أن البدوي عندما يجد أن له أشجاراً تعطيه محصولاً يستطيع الانتفاع به فلا ريب أنه سيرابط بجوار أشجاره ويتعذر عليه الرحيل.. زد على ذلك ما في المشروع من سد للعجز فيما تحتاجه البـلاد من زيت الزيتون والزيتون المخلل فتستورده من الخارج بأثمان باهظة . ولـكن هذا المشروع على ما فيه من فائدة كبيرة فقد أرى فيـه نقصاً إذ أنه ينفذ بديمقراطية واسعة النطاق بين البدو والحـكومة

فللبدو حرية أخذ الأشجار أو الرفض اذا ما عرضت عليهم وفي هذه الطريقة تضييع للوقت بلا مبرر ، إذ يمكن تنفيذها بقوّة القانون والإدارة فيجبر كل بدوي يضع يده على أرض تصلح لزراعة الأشجار متوفرة فيهـا الشروط المطلوبة على استلام العدد الذي يقدره رجال الزراعة لأرضه من الأشجار .. ويكلف بالمحافظة عليها ويعاقب إذا أهمل حتى إذا ما كبرت الأشجار وأثمرت تُـركـتْ له فانه سيحافظ عليها رغم أنفه حبًّـا في النفع الذي سيجنيه من ورائها وبذلك نختصر الزمان الطويل الذي سوف نقطعه في اتباع سياسة عدم الارغام فهذه ثروة قومية قبل كل شيء وإن كان ظاهرها مصلحة الأفراد .

ب — منطقة الواحات

أما منطقة الواحات فهي في حاجة للاستمرار في إخراج العيون حتى يمكن استغلال جميع الأراضي القابلة للزراعة فيها ، وأحق الواحات بالعطف والرعاية هي الواحات البحرية إذ أن ماءها قليل جدًّا لا يكفي لإنتاج المحاصيل التي تقوم بأود سكانهـا ، ولذا فانهم يستوردون ما يلزمهم من قمح ودقيق من وادي النيل بفادح الثمن . ومنهم من يهاجمهم الجوع في فترات من العام أهمها قبل نضج البلح بقليل ولذا يضربون مثـلاً في ذلك إذ يقولون « الجوعة الغبرة في طقة الصفرا » أي عنـدما يبدأ البلح في التلون باللون الأصفر ، في هذه الفترة لا يجدون من يقرضهم ولا من يبيعهم على أجل اذ استنفدوا محصول العام المقبل قرضاً وعقداً .. فلو ان عندهم من الأراضي الزراعية التي تجد من الماء ما يكفي إنتاجه لسد حاجتهم لما كانوا على هذه الحالة التي أوردت .

ثانياً — « اليد العاملة »

المنطقة الساحلية غنية برجالها على الوضع الذي هي عليه الآن من الاعتماد على الأمطار وعدم وجود وسائل أخرى للري . أما منطقة الواحات بجميعها في حاجة لأيد عاملة لتنتج إنتاجاً صحيحاً إذ أن السكان المقيمين علاوة على قلتهم فانهم كسالى لـكثرة ما انتابهم من الأمراض ولعدم دخول دم جديد فيهم لذلك فهم في إضمحلال دائم وضعف مستمرّ ، وسوف لا تكون العاقبة محمودة إذا لم يلقحوا بدم جديد غريب عنهم .. وهذه الحال يمكن إصلاحها بثلاثة أمور :

١ — ترحيل عائلات من الريف المصري للإقامة بهـذه البلاد واستغلال أراضيهـا وخصوصاً من المديريات المزدحمـة بالسكان كالقليوبية والمنوفية وجنوب الغربية ، فإن هذه البلاد المزدحمة بلغ فيها الضيق أشد مرحلة ، إذ أن أربعـة رجال وخمسـة يتنافسون على تأجير

فدان من الأرض لكي يكسبوا من وراء إفلاحه رزقهم . . الأمر الذي من جرائه ارتفعت قيمة الايجارات الزراعية وتغالى الملاك تغالياً بلغ حد الفحش ، وكثيراً ما يؤدي التنافس على استئجار الاراضي الى وقوع جرائم قتل بين الافراد .

إذن فا الداعي لاضطراب الأمن وتنافس السكان على أمر يمكن أن يُحل بأيسر السبل . . وما الداعي أيضاً لإقامة هؤلاء الناس الذين ضاقت بهم الارض في قراهم وهم لا يملكون فيها شيئاً ، ولم لا يرحلون إلى حيث السعة والعيش الرغد بما ستغدقه عليهم تلك السهول الخصبة المترامية الأطراف من خير عميم . تلك السهول التي لا تجد من يستغلها في الوجه الذي ما خلقت إلا من أجله . . ولقد كانت هذه الاراضي تستغل من زمان بعيد إبان أن كانت الواحات تعج بالسكان . . فما أيسر أن تنتقل بعض عائلات الفلاحين لاستئناف استغلالها من جديد .

ولن نكون أول الفاعلين لمثل ذلك ، فلقد خطت ايطاليا الفاشية مثل هـذه الخطوة في جرأة وحزم وعزم . . عند ما أرادت استعمار طرابلس استعماراً فعلياً وذلك بأن نقلت قرى إيطالية بأسرها من بلادها الأوروبية الى سهول طرابلس الافريقية للاستيطان بها ، وبدأت في تنفيذ المشروع قبل الحرب الأخيرة بقليل فهيأت بضع قرى حديثة في ليبيا وأعدت الأرض للزراعة ثم نقلت اليها عشرين الف إيطالي وإيطالية .

واندفع « المريشال بالبو » حاكم ليبيا إذ ذاك يحدثنا عن ذلك عند ما سأله أحد الصحفيين عن تطورات المشروع حتى دخل في طور التنفيذ . .

قال « المريشال بالبو » :

« خطرت لي هذه الفكرة منذ عام فقط ، وكنت إذ ذاك أقلب وجوه الرأي في السبل التي تمكننا من استعمار ليبيا والاستفادة منها على أحسن وجه ، فبدا لي أننا إذا نقلنا قرى إيطالية بأسرها من بلادها الى سهول ليبيا لخففنا بذلك عنهم ألم الهجرة والفراق ، لأن المهاجر منهم لن يخلف وراءه في وطنه أهله ومن يحبهم من صحب ، بل سينتقل الجميع معاً ، فيحسون أنهم في وطنهم ما يزالون . ورأيت أن أنقل معهم كذلك مدرستهم القروية ، وكنيستهم الصغيرة ، وكاهنها الخاص حتى يكتمل لهم « الجو » الذي ألفوه قبلاً . . في وطنهم الجديد . . !!

وقد رأيت أن ذلك العمل يمكننا كذلك من محاربة الملكيات الكبيرة ، والوقوف في وجه الحركة التي نشطت منذ حين في ليبيا ، وهي إقدام المموّلين الايطاليين على شراء مساحات شاسعة من الأراضي الليبية وتركيزها في يد الملاك الكبار ، فهذا المشروع يجعل الأرض ملكاً للمهاجرين . . وكلٌ له نصيبه . . !!

ولقد قدّرنا لكل فرد خمسة وعشرين فداناً لا يؤدي عنها مالاً ، واستطعنا أن ننشيء

في المواقع الجديدة أنظمة كاملة للري حتى توافرت المياه وسالت بها تلك الفيافي الساشعة ، ولم نغادر موضع بئر رومانية قديمة ، أو مكاناً يصلح لحفر بئر إرتوازية إلا والماء يسيل فيه .. وأقنا المساكن في القرى ، كل منزل ثلاث غرف وحمام ومأوى للنعم .. وزودنا القرية بمدرسة وكنيسة وطبيب ومكتب للبريد ، وبحرس للشرطة ، ولم يستغرق هذا أكثر من شهور عشرة ، كان لدينا بعدها مأوى صالح لعشرين ألف إيطالي .. »

فياحبذا لو أتبعت الحكومة المصرية مثل هذا النهج في بلاد الواحات والساحل الشمالي.. إذن لتوفر لدينا ميدان واسع للانتاج ومصدر رزق عظيم..

٢ — وثم أمر آخر يمكن استغلاله وما هو بعسير التنفيذ .. وهو أن لدينا آلافاً من الرجال خلف جدران السجون .. فماذا هناك من الضير على المجتمع إذا صُرح لهؤلاء السجناء باصطحاب عائلاتهم والرحيل بهم الى هـذه البقاع والاقامة فيها طوال المدد المحكوم بهـا عليهم تحت الحراسة ، فيفلحون الأرض هم وذووهم مقابل أجور معتدلة تقدر لهم تقديراً ويعطون ما يقوم بحاجتهم المعيشية ويحفظ الباقي لهم حتى إذا ما أوفوا مدة سجنهم خُـيروا بين أخـذ المتجمد لهم مالاً لـكي يبدأوا به عملاً شريفاً بدلاً من الخروج من السجن الى التشرد وبين إقطاعهم أرضاً من التي أفلحوها أعواماً لـكي تستقيم لهم سبل العيش والارتزاق مع إعفائهم من الضريبة حيناً ، أرى أن أغلبهم سيفضـل الاقامة ما دامت سبل العيش والكرامة مكفولة لهم .. وهل يرتكب الجرم جرائمه غالباً إلا تحت تأثير ضنك الفقر وصلصلة أغلال الفاقة .. ؟؟ ان السجن تأديب وتهذيب وإصلاح وإن هـذا لخير طريق للتأديب والتهذيب والاصلاح من جميع الوجوه ..

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يمكن إدخال الدم الجديد في عنصر الواحيين بهـذه الطريقة وذلك بترك حرية التزاوج بين المهاجرين السجناء والأهلين المقيمين .. !!

٣ — منع الهجرة الى وادي النيل :

فلقد أغرم أهل الواحات الجنوبية — الداخلة والخارجة — بالهجرة الى وادي النيل جرياً وراء الـكسب ، ومن الغريب أن لـكل أهل بلدة ناحية يهاجرون إليها ، وصناعة يشتغلون فيها في مهجرهم دون تغيير ولا تبديل حتى أن المهاجر منهم اذا لم يجد مهنـة كالتي يمتهنها أبناء قريته ظل عاطلاً الى أن يجدوا له عملاً كالذي يشتغلون فيه وإليك بيان البلدان التي يهاجر أهلوها والجهات التي يهاجرون اليها ، والاعمال التي يزاولونها .

(١) أسمنت : ويهاجر أهلوها غالباً الى الزقازيق ويعملون حمالين وحوذية
(٢) بُـدْخـلو : « « الى القاهرة « بحي الخضيري » ويعملون حمالين وحوذية

(٣) بلاط : ويهاجر أهلوها الى طنطا والمنصورة وحلوان « ويعملون في « مستوقدات الفول المدمس »

(٤) تنيده : ويهاجر أهلوها الى مصر الجديدة ويعملون « بوابين »

(٥) القلمون : « « الى القاهرة باحياء « القللي والسيدة زينب وباب الشعرية وشبرا ويعملون طهاة وخبازين ومنهم الآن أصحاب مخابز كبيرة في القاهرة « كمحجوب القلموني » وأصحاب مطاعم فاخرة كعبد النبي سليمان بالسيدة زينب :

(٦) الجديدة : ويهاجر أهلوها الى حول جامع الكخية وباب البحر بالقاهرة ويعملون زبالين وطهاة .

(٧) الراشدة : كالجديدة

(٨) القصر : ويهاجر أهلوها الى الحسينية بالقاهرة ويعملون في مهن كثيرة

(٩) المعصرة : « « الى قسم الجمالية ويعملون في المطاعم والمحال التجارية

(١٠) الموشية : « « الى ناحية الجامع الأحمر بكاوت بك ويشتغلون في الحانات وغيرها .

(١١) موط : ويهاجر أهلوها الى باب البحر والسويس ويعملون « جرسونات »

(١٢) الهنداو : « « الى الجامع الأحمر كالموشية

(١٣) عين القضا وعين الرخا : ويهاجر أهلوها الى بولاق ويشتغلون في صناعة الفول المدمس .

ومما يلفت النظر حقاً وجدير بالذكر أن لكل بيت تقريباً في بلاد الواحات الداخلة على الأخص مهاجراً في القاهرة خاصة وفي الجهات الأخرى عامة . وهذا المهاجر يشتغل ويرسل من كسبه الى أهله مايلزمهم من حاجيات المعيشة التي يصعب الحصول عليها في الواحات كالشاي والسكر والقماش . وهم يرسلون إليه البلح الزائد عن حاجتهم لتصريفه . ولكل مهاجر أن يقيم في مهجره عامين يعود بعدهما الى موطنه على أن يحل محله في عمله ومهجره آخر من ذويه مدة عامين أخريين ثم يتبادلا .. ومن الغريب حقاً أن يفي كل منهما لصاحبه فيترك المهاجر أنوار المدينة ويعود الى الصحراء لكي يصلى بلهيبها في الصيف . ويقطف عيدها ويردها القارس في الشتاء .

وأهل الواحات المقيمون في مهاجرهم ذوو وطنية فذة حقاً وكرم حاتمي إذ لا يكاد يهبط الأرض التي يقيمون عليها قادم من بلادهم حتى يتبارى الجميع في اكرامه فلا يتركون له الفرصة لانفاق درهم واحد في أية ناحية من النواحي . فإن كان من طلاب الأعمال بحثوا

له عن عمل وإن كان زائراً ظلوا معه كرماء الى أن يودعوه على رصيف محطة القاهرة ..

وثمّ ظاهرة أخرى تبعث على العجب حقاً إذ أنهم يتناسون أحقادهم وما هو قائم فيما بينهم من عداوات في بلادهم اذا ما جمعهم مهجر واحد . فاذا عادوا الى بلادهم عادت أحقادهم وعداواتهم تظهر من جديد فلا تشفع لها تلك الأيام التي قضوها في المهجر كشقيقين .

ولقد أفادوا من الهجرة كثيراً وخسروا كثيراً .. أما ما أفادوه فظاهر في بعض متاجرهم التي تقوم الآن في القاهرة وغيرها وأما ما خسروه فانني أورده في ثلاثة أمور :

١ – (من الوجهة الاقتصادية) :

كثرت الهجرة فقلت اليد العاملة فلم تجد الحدائق والزراعات من يتعهدها بالعمل والرعاية وكذا العيون .. فماتت أغلب الحدائق وفاضت معظم العيون .

٢ – (من الوجهة الأخلاقية) :

تعوّد الواحي أن يتزوج ولا يبالي بزوجه إذا ما حل موعد هجرته فيتركها شابة بلا رجل مدة عامين أو أكثر .. ولهذه الزوجة الشابة أحاسيسها ورغباتها التي لا تجد من زوجها الغائب ملبياً فتضطر الى العبث مما أدى الى هدم الأخلاق هدماً لا قومة لها من بعده إلا بمعجزة .

٣ – (من الوجهة الصحية) :

. المهاجر في مهجره حريص على الدرهم فكثيراً ما يصاب بأمراض خبيثة ويضن على نفسه بثمن العلاج حتى اذا ما عاد الى بلده محملاً بالأمراض الفتاكة راح يوزعها بسخاء على الزوجات اللاتي هاجر أزواجهن .. لذا فقد انتشر فقد الابصار بين الأطفال .

ولهذا جميعه ..

أرى منع الهجرة منعاً باتاً حتى يمكن التخلص من هذه النكبات الثلاث التي منيت بها الواحات الداخلة وبعض بلاد الواحات الخارجة كقرية جناح .

ثالثاً ﴿المواصلات﴾ :

وتلعب وعورة الطرق الموصلة للواحات جميعاً دوراً خطيراً في عدم تقدمها وسيرها نحو الرقي سواء أكان اقتصادياً أو اجتماعياً . ولقد لمس ولاة الأمور هذا الأمر في الفرق الشاسع بين مدينة الخارجة التي يصلها ببلاد القطر خط حديدي وبين بقية البلاد الأخرى البعيدة عنها بالواحات الداخلة بل والقريبة منها بالواحات الخارجة أيضاً فانك لتلمس فيها النقيضين في كل شيء .

فأهل الخارجة « المدينة » يبيعون محصولاتهم أغلا من البلدان الأخرى لقربهم من محطة السكة الحديد وكل القرى سواء أكانت بالواحات الداخلة أو الواحات الخارجة تبيع

بسعر الخارجة المدينة (ناقص) تكاليف النقل . وتكاليف النقل ألعوبة في يد المتعهدين وأصحاب السيارات لولا تدخل المحافظة في الأمر بين الحين والحين للحد من تغالي هؤلاء المتعهدين ومن على شاكلتهم من أصحاب السيارات .

غير ذلك فان أهل الخارجة « المدينة » يحصلون على حاجياتهم بأثمان أقل من البلدان الأخرى فمثلا « قمح السكر » وصل ثمنه في « باريس » و « بنبتستين » من الشعير أي أربع كيلات بينما ثمنه في الخارجة لم يتعد وقتذاك الثمانية قروش ، فاذا كان الشعير هو الرخيص فان ثمنه لن ينحط حتى يبلغ القرشين للكيلة وإن كان السكر هو الغالي فانه لن يتكافأ بأية حال مع ثمن أربع كيلات من الشعير ، وأما السر في ذلك فهو أن القرية بعيدة عن المواصلات ، والمستهلك في أمس الحاجة والتاجر يتحكم لأنه هو سيد الموقف .

هذا مثل نسوقه على ما فيه سكان القرى البعيدة من غبن ولو ان الطريق الحديدي امتد بين هذه القرى اذن لارتفع عن كاهل أهليها ما يلاقونه من غبن شنيع .

وثم أمر آخر سيكون نتيجة لتيسير المواصلات وهو جعل الموظفين المنقولين لهذه البلاد لا يشعرون بأنهم من المغضوب عليهم أو الضالين . لذلك فقد نقلتهم الحكومة الى هذه البلدان التي لا تصلها بالعالم غير آلة التلفون المنزوية في ركن من أركان حجرة العمدة ويقوم عليها خفير ببندقيته كأنما ليحرسها أو ليحول دون وصول الفضوليين اليها . والقد سمعت بنفسي طبيباً بيطريـاً ينطق بالشهادتين بخشوع وتجلى عند ما سمع صفارة القطار في مرسى مطروح وكان هو قادماً معي من سيوه .

قلت له : ما السبب في هـذا التجلي وهذا الخشوع . ؟؟ فأجاب إنما أشكر لربي فضله إذ أعادني الى العمران من جديد وأشعرني أني قربت من البـلاد التي تنبض بالحياة .. !! قلت : وفيم أشعرك . ؟؟ قال : إذ سمعت صفارة القطار شعرت أنني لست من الدنيا ببعيد !!

وعلاوة على مد الخط الحديدي بين الواحتين الداخلة والخارجة يجب تكملة رصف الطريق الممتد بين مرسى مطروح وسيوه ، فانه لطريق وعر لا يمكن اجتيازه بسلام واطمئنان : فكل سيارة تمر فيه مقضي عليهـا بالعطب حتى تنتهي منه وما هو بالطريق القصير إذ يبلغ طوله ٢٩٢ ك . م . رصف منها ٤٥ . ك . م

أما الواحات البحرية فهي الواحات الوحيدة التي لم تظفر برعاية كاملة ، وإني لأعتقد أن آلها لم يظفروا من الحكومة بأية خدمة غير أذى رجال الحدود لهم وتسلطهم عليهم بحق وبغير حق ، ولـكم استصرخوا فلم يجدوا مغيثاً ولا مجيباً . فليرحمهم الله هم وسكان الفرافرة لأنهم ليسوا محسوبين من سكان القطر مطلقاً إذ أن هذا ما يبدو على مظاهرهم وحالة بلدانهم .. !!

وواحة الفرافرة هي الواحة الوحيدة في الصحراء التي كفاها الله شر تسلط رجال الحدود على آلها.. فانهم لوعورة الطريق الموصل لواحتهم لا يستقبلون موظفي الحكومة إلا كل خمسة أعوام مرة إذا عن لأحد أن يذهب إليهم في عزلتهم . . ولقد ذهب أحد الضباط من مصلحة الحدود يوماً لكي يرى ما هي هذه الواحة .. ولما أن استقر في دار العمدة سأله : ما هي آخر مرة رأيت فيها موظفاً من قبل الحكومة .. ؟؟ فقال العمدة منذ ثلاثة أعوام .. !

رابعاً ﴿ الجمعيات التعاونية تؤدي خدمات جليلة لأهل الصحراء ﴾ :

كان المفروض أن ينجح التعاون في الصحراء والواحات وتمشياً مع هذا الفرض بدأت بإنشاء جمعية تعاونية في برج العرب في عام ١٩٤٥ وقد بدأت الجمعية عملها بستمائة جنيه وما وافى آخر العام حتى كانت الاكتتابات الجديدة والأرباح قد أبلغت رأس المال الى الآلاف جنيه تقريباً وساعد معالي احمد عبد الغفار باشا الجمعية لدى وزارة الشؤون الاجتماعية فنفحتها بهبة مالية مقدارها سبعمائة جنيه.وسارت الجمعية في تحسن مطرد الأمر الذي أغرى سعادة محافظ الصحراء بإنشاء جمعية أخرى في مرسى مطروح وفعلاً نفذ المشروع .ولكن الجمعية وقفت عن التقدم ولم تصادف نجاحاً .. وحار الجميع في أمر هتين الجمعيتين فكيف أن إحداها ناجحة والأخرى لم تصادف توفيقاً . . ولكن الأمر الذي لم يخف عليّ بإزاء ذلك هو أن الجمعيــة التي أسستها نجحت لأسباب أهمها . . أنها وجدت هيئة كفلت لها مورداً لا ينضب من العملاء ذوي المرتبات وقبضت على الأمر بشدة إذ كانت تقوم على عاتق طائفة من العمال قوامها ربعمائة عامل أجورهم حوالي الألف جنيــه شهريـًا وهؤلاء يتعاملون مع الجمعية بالأجل ولـكن الجمعيــة الأخرى وجدت منافسة التجار المحليين في البيع على الأجل وليست هناك الهيئة التي تضمن دوام الحركة وتداول رأس المال..والبدوي مغرم بالشراء بالأجل وإن كان المال ملء جيوبه لأنه يأمل أن يماطل في الدفع ومن هـذه خلتهم لا يستقيم بينهم حال مطلقاً . . هذا في المنطقة الساحلية . أما في الواحات فانني أرى غير ذلك — إذ لا ريب أن الجمعيات التعاونيــة في الواحات أمر لا بدّ منـه لانقاذ صغار الزراع من تحكم التجار الجشعين الذين لا يقف جشعهم عنـد حد . إذ يأخذون محصولاتهم منهم بأبخس الأثمان ويبيعون لهم حاجياتهم بأسـعار جاوزت حد الإرهاق وهم تحت ضغط الحاجة الملحة لا يستطيعون الرفض

وإن الجمعية التعاونية لتستطيع تصريف محصولاتهم بأمانة وبأثمان عالية ، وفي نفس الوقت تستحضر لهم حاجياتهم بأسعار لا تقبل المزاحمة . فتصبح فاذا هي بمثابة ميزان للتجار الجشعين الذين لا يحيدون عن استغلال الظروف القاسية التي يقع تحتها المستهلكون . وفي نفس الوقت تنقذ الأهـالي من براثن المرابين الذين يفتكون بصغـار الزراع ويمتصون دماءهم حتى

يقعوا في أغلال الافلاس والفقر والفاقة إذ أن الجمعيات التعاونية ستقرض المحتاجين بفوائد زهيدة القيمة . وعلى هذا يمكن أن يستقيم الحال .

خامساً : ﴿ إنشاء واحات جديدة ﴾ :

ولربما كان غريباً أن أتقدم بمثل هذا الاقتراح . ولكن إذا اتضح أن هنالك مساحات واسعة النطاق تقع فيما بين الواحات الخارجة والواحات الداخلة تقدر بمئات الالوف من الأفدنة الجيدة التربة . خصوصاً عند النقطة المعروفة « بأبي منقار » التي تتوسط سهولها المستوية المسافة بين الواحتين .. إذاً لما كنت مغرباً فيما أقدمه من اقتراح ولا انضمّ إلى رأيي كثيرون خصوصاً وأن كل الوسائل مهيأة . فالماء يسهل الحصول عليه . والسهل منبسط عظيم . أما الايدي العاملة ، فأرى أن تخصص لاستعمار هذه السهول طائفة من العائلات الفقيرة التي سيجري ترحيلها أو السجناء الذين سينقلون لهذه النواحي .

وفي المسافة بين واحة باريس .. وواحة بولاق بالواحات الخارجة سهل آخر لا يقل عن سابقه خصباً وانبساطاً . فلو أنشئت القرى في هذه السهول وأخرجت العيون بماء الري لعم النفع وازدادت ثروة البلاد

سادساً : ﴿ تحسين وسائل الزراعة ﴾ :

ان في الطرق المتبعة في الزراعة في هذه المناطق لعقماً وإجهاداً لا يأتي بما يستحق من نتائج فالفلاح يقلب الارض لزراعة المحاصيل بساعديه بواسطة فأس ثقيل مجهد في العمل يسمى « الطورية » أما المحراث فانهم لا يعرفونه ولربما عرفوه ولكنهم لم يستسيغوا العمل به لانهم تعودوا ذلك من قديم الزمان . فالفدان الذي يكلف الفلاح المصري يومين لحرثه وإعداده للزراعة يستغرق من الفلاح الواحي عدة أيام ولهذا السبب نراهم لا يتوسعون في الزراعة . فان قوى سواعدهم وحدها لا تكفي الا لفلاحة هذا القدر اليسير من الأرض ولو أدخلت آلات الحرث البلدية والافرنجية واستغلت القوى الحيوانية والبخارية ودُرِّبوا عليها لاستطاع هذا العدد من الرجال انتاج أضعاف ما ينتجه الآن بقوة ساعده .

ولو علم القارىء أن الفلاح السيوي يضطر لملوحة أرضه أن يقلب التربة الى عمق كبير لكي يهيء مهاداً أقل ملوحة للبزور التي سيزرعها — وان هذا العمق يزيد عن المتر . إذن لعلم إلى أي حد يجهد هذا المسكين نفسه في سبيل الحصول على لقمة الخبز ليس إلا .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فان قمحهم وأرزهم وشعيرهم يدرس بحوافر الماشية فينتج عنه حب ملوث وتبن لا يصلح لغذاء الحيوانات وبذلك يضيع المجهود بين أرض لا تعطي، ومحصول رديء النوع والسبب كله راجع للطرق البدائية التي يعملون بها .

ويجب أن يراعى تغيير الأنواع الموجودة لديهم الآن من الحبوب إذ أنها خليط من أنواع منحطة الصفات فلو أبدلناها بغيرها من الأنواع الجيدة الصفات الحديثة لجاءت بغلة وافرة.

وكذلك يجب إدخال زراعات أخرى جيدة مما ثبت نجاحه بالتجارب في وادي النيل

سابعاً : ﴿زراعة الغابات﴾ :

ليس من الضروري أن تشغل جميع هذه المساحات بزراعة المحاصيل الحقلية المعتادة ففي زراعة أشجار الفاكهة مجال كبير وفي زراعة الأشجار الخشبية مجال أوسع ، ولا شك أن الجميع قد لمسوا حاجتنا الى الأخشاب عندما حالت الحرب الأخيرة بيننا وبين ما يرد منها من الخارج فلو ان هذه المساحة استغل جانب منها في زراعة الأشجار الخشبية لأمكن أن تسد حاجة القطر بعد سنوات قليلة ، وليس ذلك فحسب بل ويمكن تصدير الفائض منها للبلاد الشرقية الأخرى . وزيادة على ما تقدم فإن وجود مساحات من الأشجار العالية الوارفة الظلال أمر لا ريب يعمل على تلطيف حرارة الجو الى حدّ كبير في فصل الصيف فيمكن الاقامة في ربوعها دون عناء .. ولا جدال في أن صناعات كثيرة ستنشأ بجوار زراعة الغابات .. وكذا يمكن استغلال الغابات في صيد الطيور إذ أنها ستلجأ اليها في تلك الربوع الفاحلة التي ستأوى اليها أيام الشتاء خاصة وسيكون فيها مجال لا بأس به لتسلية الهواة وارتزاق المحتاجين ..

ثامناً : ﴿الثروة الحيوانية﴾ :

ان أكثر الحيوانات عدداً في بلاد الواحات هي الأبقار والماعز .. ثم الأغنام وهي التي يرغب فيها الأهالي . على أن الموجود منها من سلالات غير جيدة قديمة لم يطرأ عليها أي تحسين في النوع .. فالأبقار قصيرة القامة رديئة التركيب علاوة على ما بها من الضعف والهزال ولقد اكتسبت هذه الصفات المنحطة بالتوارث على مر الزمن .. ويرجع عدم تحسين صفاتها لأسباب كثيرة منها :

١ — بُعد البلاد عن العمران ، وصعوبة المواصلات التي يندر معها استيراد المواشي الجيدة من بلاد وادي النيل لتحسين السلالات المحلية بالواحات فكثيراً ما تنفق الماشية في الطريق وليس هناك من يجرؤ على تكبد نفقات يرى ألا جدوى من ورائها ولا نفع ..

٢ — عدم تغذيتها التغذية الكافية لقلة المراعي والحاصلات الزراعية والحبوب الفائضة عما يتطلبه الانسان لغذائه هو .. وإن ما يزرع من البرسيم لقليل بالنسبة لعدد المواشي والحيوانات الأخرى التي تتغذى عليه ، كما أن المواشي لا تجد ما يكفيها من المؤونة خلال

الصيف غير تبن الشعير والقمح مع قلة ماينتج منه علاوة على عدم اعطائها أي نوع من الحبوب المركزة مثل الفول الذي لا يزرع في هذه البقاع إلا خضاراً فقط .

وأما الماعز فانه ليكثر في الواحات لرخص ثمنه ، وقلة تكاليفه وهو من النوع الأسواني البهاري الصغير الحجم ولبنه قليل لا يكفي أكثر من نتاجه .

والأغنام لا يربى منها إلا النوع الصعيدي القصير القامة الرفيع الذنب القصير الشعر وترجع قلة الأغنام بالواحات لقلة المراعي أيضاً .

ولكي نحسن مستوى هذه الأنواع يجب تطعيمها بدم جديد من سلالات جيدة من الأبقار البلدية والدمياطية والأغنام الأوسيمي والماعز البلدي وتوزع الأنواع الجيدة على القادرين على تحمل نفقات تغذيتها أولا ثم على الآخرين . . وإن ذلك ليتعلق تعلقاً ملموساً بتحسن الزراعة لايجاد المراعي والعلف اللازم لهذه الحيوانات .. !!

تاسعاً : ﴿ منح الأهالي حق التملك ﴾ :

لم يمنح القانون أهل الصحراء جميعاً حق تملك الأرض وإنما جعل لهم الانتفاع حقاً موروثاً على أن الحكومة اذا شاءت أن تأخذ قطعة أرض من أحد الأهالي انتزعتها منه بغير مقابل من الثمن إلا لما يقوم عليها من أشجار وبناء ..

وهذا أمر يضعف الرغبة في التوسع في الزراعة والإصلاح ، فكيف يصلح اليوم ما هو غير واثق من بقائه في قبضة يده، والإصلاح يكلف نفقات باهظة .. لذا فانني أرى منح الأهالي حق التملك للاراضي الواقعة في حيازتهم كما هو الحال في وادي النيل على ألا يجوز البيع إلا لمصري وطني وليس للأجانب حق امتلاك أرض في الصحراء، وكل بيع يقع بين وطني وأجنبي في الصحراء باطل ويخول للحكومة الاستيلاء على الأرض مع حرمان البائع والمشتري من جميع الحقوق فيها .. وبهذا نصل الى القصد من عدم إعطاء حق التملك للبدو وهو الحد من شهوة الشراء عند الأجانب في أراضي الصحراء وفي نفس الوقت ندفع الملاك على الاصلاح والتوسع في الزراعة .

عاشراً : ﴿ ماء الفيضان ﴾ :

ان المتجول في ربوع الواحات الخارجة بين بولاق وباريس يرى تلالاً طميية هي من نفس التربة التي تتكون منها الجزر النيلية . وأكبر الظن أن هذه التلال آثار ترسب غرين النيل في العصور القديمة فلا ريب أنها كانت تظفر بالكثير منه فاذا علينا إذا حققنا في جوف الصحراء ترعة كبيرة من عند نجع حمادي لكي تنقل الماء الذي يذهب سدى في البحر الى هذه المنخفضات للانتفاع به في مرافق الزراعة والانتاج .. ولعل في ذلك منافع

أخرى كإمكان توليد القوى الكهربائية عند مساقط الترعة وهي منحدرة الى منخفض الواحات كما هو الحال في واحة الفيوم وبحر يوسف .. !

وأخيراً أرجو ألا يستكثر قارىء هذه البنود العشرة على أهالي الواحات والصحراء شيئاً مع ما نقشه الرومان على صخور آثارهم بالواحات من قولهم « أهل الصحراء كثيرو الشكوى ناكرو الجميل » فإن تنفيذ هذه المشروعات سيعود على البلاد جميعها بالخير العميم وسينتفع أهل الصحراء ضمن المنتفعين .. فهذه ثروة قومية وكفى .. !!

معلومات عامة

١ — المكاييل المستعملة في الواحات :

ا — في سيوه : الصاع = ٣/٢ الكيلة

ويزن صاع الزيتون الطازج : ٢ ٢/٣ ك . ج .

« « البلح الصعيدي : ٢ ١/٢ ك . ج .

« « « الفريحي : ٢ ٣/٤ ك . ج . في بدء الموسم

و ٢ ١/٢ ك . ج . في نهاية الموسم أي بعد الجفاف . .

ويزن صاع البلح الغزالي : ٣ ك . ج في بدء الموسم و ٢ ١/٢ ك . ج . بعد الجفاف

والميشة = ٤ صيعان

والغدارة : (مكيال للسوائل) = ٤ ترب .. والتربة زنتها ١/٢ أقة .

ب في الواحات البحرية : الصاع = ١/٢ كيلة

ج — في الواحات الداخلة : الويبة = ١ ١/٢ كيلة أي ثلاثة أرباع مصري .

والويبة = ١٠ ميشات

والميشة = ٤ أرطال .

د — في الواحات الخارجة : الويبة = ٢ كيلة وذلك في مدينة الخارجة والمحاريق. أما في بولاق وجناح وباريس فالويبة كالداخلة

٢ — الموازين المستعملة :

ا — في سيوه : الأقة .. أما الواحات الأخرى فالرطل . . ! !

٣ — الاصطلاحات النقدية :

في سيوه : فرينو : ٢ ١/٢ قرش

بحليقة : ١/٢ قرش وهذه اصطلاحات أخذت عن البدو الذين يختلفون

اليها كثيراً .. أما الواحات الاخرى فهي كبلاد القطر ..

٤ — التعامل : الاساس في التعامل بجميع الواحات في البيع والشراء أن يحدد السعر على أساس الكمية فالمقدار ثابت ولكن الثمن هو الذي يتغير .. إلا سيوه فإن الثمن هو الثابت القيمة والمقادير هي التي تتغير ، والوحدة في التعامل هو الريال ومثال ذلك إذا أراد أحد الاهلين شراء شيء سأل البائع « كم بريال » . ؟؟

٥ — أسعار اللحوم قبل الحرب :

النوع	سيوه	البحرية	الداخلة	الخارجة
الضأن :	١٠ : ١٢ الاقة	٥ر٣ الرطل	٥ر٣ الرطل	٥ر٣ الرطل
عجالي :	٨ : ٩ «	٥ر٢ «	٠ر٢ «	٠ر٢ «

البيض . كان يباع في سيوه من ٤ : ٦ بقرش وفي الواحات الاخر من ٨ : ١٠ بقرش

٦ — الطيور :

	الحمام بالزوج	الدجاج البلدي	الرومي الذكر	الرومي الانثى	الاوز
سيوه	٥ : ٦	٥ر٦ : ٥ر٧ الواحدة	—	—	لا يباع
البحرية	٤ : ٥	٤ : ٦ «	٢٠ : ٣٥ الواحد	١٢ : ١٥ «	«
الداخلة والخارجة	٣	٥ : ٦ «	١٥ : ٢٥ «	٨ : ١٢ «	«

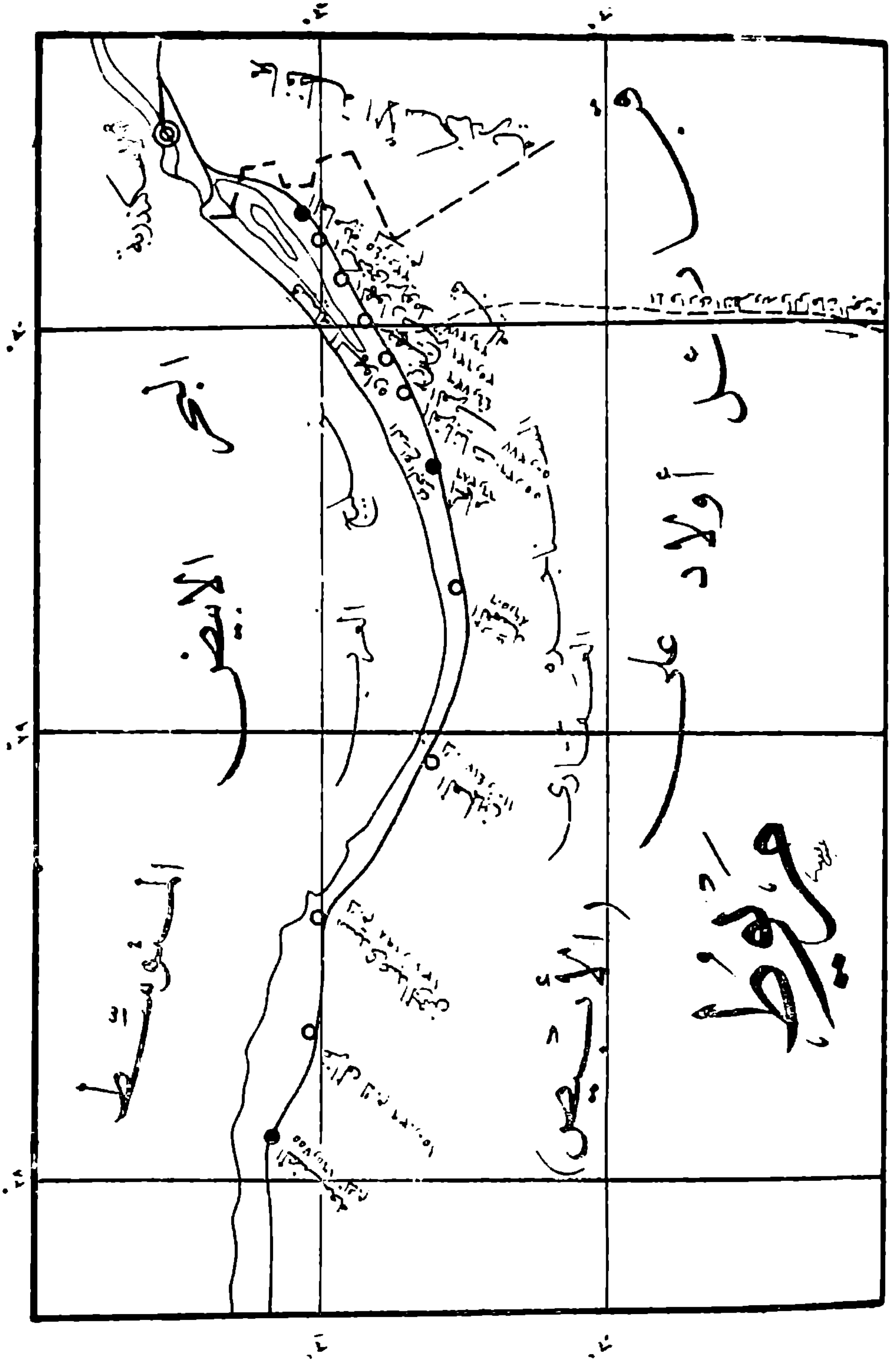
تعداد السكان

حسب ما جاء بالاحصاء الرسمي الذي أجري سنة ١٩٣٧

اسم البلد	جملة	إناث	ذكور
مرغيب وعبد القادر والمكاوارية	١٤٢١	٧١٣	٧٠٨
العامرية	١٢٩٦	٦٥١	٦٤٥
أم زغيو وسيدي كرير والهوارية	١١٧٠	٥٧٧	٥٩٣
إيكنجي مريوط والدريسة	٧٤٦	٣٠٩	٤٣٧
بهيج	١٣٥٦	٦٧٥	٦٨١
برج العرب	١١٩٠	٥٥١	٦٣٩
الحمام والغربانيات والمغترة	٢٠٣١	٩٤٢	١٠٨٩
سيدي عبد الرحمن وغزال	٦٨٥	٣٠١	٣٨٤
العجمي والدراع البحري والدير	٧٠٤	٣٢٦	٣٧٨
العميد والعلمين	٢٣١	١١٥	١١٦
جملة مريوط في تعداد ١٩٣٧	١٠٨٣٠	٥١٦٠	٥٦٧٠
« « « ١٩٢٧	١٦٥٦٣	٨٧٥٢	٧٨١١

يلاحظ أن تعداد السكان قد نقص في الفترة بين ١٩٢٧ — ١٩٣٧ ، حوالي الثلث وذلك لهجرة البدو من الصحراء الى الوادي في السبع سنوات القحط التي تنحصر بين ١٩٣٠ و١٩٣٨ وعدم وقوع زيجات بين من ظل منهم في الصحراء لضيق ذات اليد وعدم الحصول

ومن طريف اصطلاحاتهم أن يقولوا على من يموت بغير القتل فلان ضاع بدلاً من فلان مات وذلك لموته ميتة طبيعية ولم يحصلوا من ورائه على دية. و(الولية) اي الزوجة ضاعت والحق في رقبتها .. أي أنها ماتت ولم يأخذ ديتها لأنها لم تقتل ولم تطلق فلم يأخذ المهر الذي دفعه فيها .



تعليقات وشروح

(١) أنظر باب الحياة الاقتصادية قسم الزراعة (المناطق الجدباء)

(٢) الغرود : وتعرف بسافيات الرمال . وهي عبارة عن تلال رملية تنتقل مع الرياح من مكان الى مكان ، وتُغير على الدروب فتمحوها وعلى الأرض الزراعية فتحجبها وعلى العيون ومنابع المياه فتطمرها وقد اتُبِعت في ايقافها سبل شتى منهـا زراعتها بالعبل أو الزراعة في شمالها وغربها ومن النباتات التي تصلح لايقافها (١) Acacia Seligna (٢) Acacia Cyanseplylla (٣) Tamarix (٤) Jpamea (٥) نخيل الباشا Lporsbalus ويتكاثر بالعقل (٦)التين الشوكي Opantia وغير ذلك من النباتات التي تصنع جذورها شبكة سطحية تعوق تحرك هذه الرمال .

ولقد أضرت الغرود بقرى كثيرة في الواحات أهمهـا قرية الزبو بالواحات البحـرية والموهبية بالداخلة وتعتبر آفة الأراضي الزراعية بتلك المناطق .

(٣) منخفض القطارة : يقع منخفض القطارة في الجزء الشمالي من صحراء ليبيا المصرية في منتصف المسافة بين وادي النيل والحدود المصرية الغربية ، وتبلغ مساحته (١٩٥٠٠) كيلو متراً مربعاً ، وهذه المساحة تقارب مساحة الوجه البحري والبحيرات التي تقع في شمالي الدلتا ، ويبلغ متوسط عمقه ستين متراً ، ويأخذ انحداره نحو الانخفاض الى أن يبلغ أعمق أجزائه ١٣٤ متراً ، وهو يعد أعمق بقعة عرفت حتى الآن في أفريقيا .

(٤) أولاد علي : هم سكان الصحراء الليبية المصرية وينقسمون قسمين : أولاد علي الأبيض وهم القاطنون في المنطقة التي بين الاسكندرية والضبعـة ، وأولاد علي الأحمر: وهم القاطنون بين الضبعة والسلوم . (انظر اللمحة التاريخية)

(٥) أغورمي: بلد أثري في سيوه وبه معبد آمون ، وهي أقدم من مدينة الاسكندرية فقد زارها الاسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق. م. وكانت في ذروة مجدها يؤمهـا كل قاصد من البلاد الأجنبية لزيارة المعبد والاسكندرية لم يتم تخطيطها بعد . ولقد تهدمت الآن وقامت على أنقاضها أغورمي الجديدة وظلت الأولى عامرة بالسكان الى ما بعد الفتح الاسلامي .

(٦) الزيتون: عزبة صغيرة تبعد عن سيوه ثلاثين كيلومتراً لجهة الشرق وكانت مملوكة لجماعة السادة السنوسية ولكن الحكومة اشترتها منهم عام ١٩٣٧ م .

وأما المراقي : فهي اقليم يقع غربي سيوه على مسيرة خمسة وعشرين كيلومتراً .. وتدعى

المراغي أو مراقيا . وكانت ذات شهرة تاريخيـة فائقة . وقد قال المقريزي في ذلك «مدينة مراقيا كورة من كور مصر .. وهي آخر حـدود أراضي مصر وفي آخر أراضي مراقية تلقى أرض انطابلس (برقة) وبـعدها عن مدينة سنترية (سيوه) نحواً من بريدين (وقدر ذلك أربعة وعشرون ميلاً)وكانت قطراً كبيراً به نخل كثير ومزارع ، وبه عيون جارية وبها الى اليوم بقية وثمرها جيـد للغاية ، وزرعها إذا بذر نبت من الحبـة الواحدة مائة سنبلة ، وأقل ما ينبت تسعون سنبلة وكذلك الارز بها فإنه جيد زاكٍ ، وبهـا الى اليوم بساتين متعدّدة ، وكانت مراقيا في القـديم من الزمان يسكنها البربر الذين تقام داود عليه السلام من أرض فلسطين فنزل بها منهم خلائق ومنها تفرقت البربر فنزلت زناته ومقيلة وسربسة الجبـال ونزلت لواتة أرض برقة . . الخ . . فلما كان في شوال عام أربعة وثلثمائة من سني الهجرة المحمدية سنة ٩١٦ ميلادية جلا أهل لوبية ومراقيـة الى الاسكندرية خوفاً من صاحب برقة ، ولم تزل في اختلال إلى أن تلاشت في زمننا »

وأما خميسة فهي مزارع خصبة تقع بين مراقيـا وسيوه وتعتبر أكبر مزرعة للزيتون في سيوه .

(٧) الأراضي البور في الصحراء : مقسمة بين العائلات تقسيماً عرفيًّا فلـكل عائلة أو قبيلة القطعة الفلانية تنتفع بها فاذا ما جاء فيها مشروع عام كان أبناء هذه العائلة أو القبيلة هم الأسبق للانتفاع به قبل سواهم . هذا مع العلم بأن أراضي الصحراء جميعها مملوكة للحكومة وليس للأهالي في تملكها من فائدة غير حق الانتفاع بهـا فقط واذا أرادت الحـكومة أخذها منهم لاتعوّضهم إلاّ عن القائم فوقها من زرع أو شجر إن كانت ذات زرع أو شجر . أما الأرض ذاتها فلا حق لهم في المطالبة عنها بشيء مطلقاً . . اا

(٨) الصاع : مكيال يساوي ثلاثة أعشار الـكيلة في سيوه ونصفها في الواحات البحرية

(٩) العاقول : عشب شوكي معمر ، تتساقط على أوراقه نقط عسليـة تعرف باسم (من الاسرائيليـين) أو (المن الناري) وتستعمل أوراقه مدرّة للبول ، كما تستعمل أزهاره الحمراء مدرّة للبول وملينة..وهو ينمو جيداً بالاراضي السبخة ، ويستعمل في سيوه لتسميد الأشجار خصوصاً الزيتون اذ يدفن في خنادق حول الجذع فيتحلل ويصير دوبالاً ، وكانت مساحاته الواسعة التي لا يملكها أحد ، تباع بالمزاد العلني بين الأهلين ، بواسطة بيت المال وذلك قبل فتح محمدعلي باشا لسيوه،وكانت تـدفع من المتجمع من ثمنها أجور الرقاب ومؤذني المسجد العتيق والسقي العـمومي وغير ذلك.أما الآن فلـكل عائلة أن تنتفع بما ينمو حول زراعاتها منه أو تؤجر من يستحضره من الاراضي البعيدة التي لا يملـكها أحد .

(١٠) تقدر المساحات في صبوه بحساب الحوض الذي يساوي $\frac{1}{٢٤}$ من الفدان .
(١١) الحطايا : جمع حطية .. ومعناها العزبة .
(١٢) أنظر (٦)
(١٣) باريس : قرية صغيرة تقع جنوبي الخارجة المدينة على مسيرة ٩٠ ك م. منها وهي أقدم من باريس العاصمة الفرنسية ، وبها آثار كثيرة .
(١٤) الحاريق : قرية صغيرة خربة شمالي مدينة الخارجة على مسيرة خمسة عشر كيلو متراً منها وكانت منفى للمجرمين من المصريين قبل عام ١٩٢٠ م .
(١٥) القيراط : من الماء : هو المقدار الذي يكفي لري خمسة أفدنة شتاء وأربعة أفدنة صيفاً وعلى أساس القيراط يدفع الأهالي الضرائب للحكومة بحساب القيراط خمسين قرشاً .
(١٥م) ريس الدواليب : رجل من أهل الواحات يعين في هذه الوظيفة التي غالباً ما تتوارثها عائلة واحدة في الواحات الداخلة والخارجة معاً .
(١٦) الساعة الرملية : تعتبر الساعة الرملية من أقدم ما استعمل لقياس الوقت . وهي عبارة عن قارورتين من الزجاج متصل رأس الواحدة منهما بالأخرى ، وفي إحداها رمل وبينهما ثقب رفيع ينسرب الرمل منه ، إذ تجعل ذات الرمل في أعلا ، فينهال الرمل منها الى السفلى ، بحيث متى فرغ الرمل من العليا يكون قد مضى ساعة من الوقت ، فيعكس وضعها ويرجع الرمل ينسرب الى الأخرى . وهلم جرا .
ولا يعرف أصل منشأ هذه الساعة ، غير أن المؤرخ بيروس الكلداني ذكرها عام ٥٤٠ ق . م . وبذلك تكون قد عرفت في زمانه ، على أن هذه الساعة لا تفي بالغرض المطلوب تماماً وذلك لشدة تأثر الرمل بالرطوبة .
(١٧) موط قاعدة مركز الواحات الداخلة .
(١٨) الساعة المائية : تعتبر أول ساعة استعملت فيها قوة الصناعة ، ويقال إنها استعملت في الصين وبلاد آشور ومصر ، قبل استعمال الساعة الشمسية — المزولة — على أن حقيقة نشأتها مجهولة أيضاً ، وكانت في أول الأمر تجعل على طريقة سهلة المنال ، وذلك بأن يوضع مقدار من الماء في إناء شفاف ، منقوب من أسفله وعلى جدار الإناء علامات تفيد القياس ، فإذا ما أخذ الماء في التناقص ، قدر الوقت على حسب العلامة التي وصل اليها، وكان هذا النوع من الساعات مستعملاً في مصر في عهد البطالسة ، فأدخل عليه كتيسبيوس أحد علماء الاسكندرية عام ٢٣٥ ق . م . اصلاحاً جليلاً إذ جعل الماء ينصب على دواليب تدور به ، ومنها تنتقل الحركة الى قاعدة صغيرة تطفو بتكاثر الماء من تحتها ،

وتأخذ في الارتفاع تدريجيًّا مع ارتفاع سطح الماء ، مشيرة الى العلامات التي تقدر الوقت – ومخططة بشكل مضبوط — بعصى صغيرة ممدودة خارجة منها كالنتوء .

وبعد انحطاط الدولة الرومانيـة انتقل استعمالها الى أوربا وقد افتن الأقدمون في هـذا النوع من الساعات .. والساعة المائية المستعملة ، بالداخلة تشبه الساعة الرملية المتقدمة الذكر غير ان جدار القارورتين مقسم الى ستة أقسام في كل منهما أي انها تقدر الوقت لست ساعات ثم ينعكس الوضع فتعد لست ساعات أخر ، وبذلك يجري انعكاس وضعهـا أربع مرات في اليوم والليلة .

(١٩) العجاج : عواصف رملية تقوم بالصحراء يسميها البدو كذلك

(٢٠) السبكراس : انخفاضات مغلقة بالصحراء مليئة بالملح والتربة الخفيفة .

(٢١) المملـكة البحرية : هي مملـكة الوجه البحري إحدى المملـكتين اللتين كانتا تقومان بأرض مصر ، التي كانت تدعى في ذلك الحين « أرض القطرين » البحري والقبلي وكان ذلك قبل حكم الأسر الفرعونية ، وقبل أن يعتلي « مينا » الملك الاول في العالم العرش .

(٢٢) سيزوستريس : ثاني ملوك الأسرة الثانية عشرة الذي حـكم البـلاد حتى عام ١٩٣٥ ق . م .

(٢٣) عودة امنحتب الأول من الشلال : ويقول أحمس بن إبانا بحار جـلالته والفخار يملأ نفسه أنه بمهارته وذكائه تمكن من توصيل جلالة الملك امنحتب الأول من الشلال الى مصر في مدة يومين .

(٢٤) سكان البحر الأبيض المتوسط : هم القرصان والمقيمون بالجزر الواقعة فيه .

(٢٥) هما واحة سيوه والواحات البحرية .

(٢٦) حلفاء ملك الليبيين : كان هؤلاء الحلفاء مكونين من « سردينيين Sharden » و « هكالاشيين Sheklesh » و « صقليّين وآشيين » أو « الايسين » المعروفين باسم « Ekwesh » وهم الذين سطوا على مصر في عهـد امنحتب الثالث . . و « أترسكيين « Etruscans » أو « Tyrsenians » المعروفين على الآثار باسم « ترش Teresh » وهؤلاء الأقوام أقدم من أتوا الى مصر من أوربا ، وكانوا ينهبون البلاد بالسطو وقد ورد ذكرهم في نصوص عهد المملـكة الوسطى .. ولـكنهم ليسوا أول الاوروبيين الذين آتوا الى مصر لأن المعروف عنهم أنهم عبروا البحر الأبيض المتوسط كثـيراً فيما مضى ، وإليهم يعزى أصل الليبيين البيض البشرة ، ويظهر من عدد الأسرى والقتلى الذين أصيبوا من جيش الليبيين في معركته مع منفتاح أن عدد المحاربين كان لا يقل عن عشرين ألف مقاتل ..

(٢٧) الأسرى عند قدماء المصريين : كان لهم مصائر ثلاثة : فإما أن يقتلوا وإما أن تقطع أيديهم ويتركوا . وإما ان يوسموا كعبيد في المعابد .

(٢٨) مكانة آمون في الحكومة المصرية : لقد تدخل آمون في شؤون الامبراطورية أيام « حتشبسوت » و « تحوتمس الثالث » فلك الاخير عرش مصر كما كاف « حتشبسوت » إقامة المسلات وإرسال البعثات الى الصومال لاحضار الخيرات له ، لكن هذا التدخل حصل بصفة استثنائية ، فلم يكن مطرداً ولا كثيراً ، فلما تولى « حريحور » الحكم تدخل هنا المعبود في شؤون الدولة بشدة لدرجة تحتم مشورته في كل أمر من أمور المملكة ، فالأمر الذي يوافق عليه آمون ، كان يحرك له رأس تمثاله إلى الأمام بقوة ، ويشفع ذلك بالنطق الألهي ، وزاد تدخل آمون فصارت وصايا ومواريث أفراد الأسر لرؤساء كهنة آمون تسجل بناء على طلب هذا المعبود ، وبهذه الكيفية انصبغت الأمور الأهلية بالصبغة الدينية . .

(٢٩) تل بسطا : عاصمة البلاد المصرية في عهد الأسرة الثانية والعشرين الليبية وقد اختطها « شيشنق الأول » مؤسس الأسرة الليبية ، وموقعها شرقي الدلتا في الجنوب الشرقي لمدينة الزقازيق حاضرة مديرية الشرقية ولا تزال بقية من أطلالها الى الآن وهي معمورة من الطين : .

(٣٠) مانيتون Manethon أو مانيتيوس : كاهن عين شمس ، وكان مصري الجنس ، عاش في حكم بطلميوس الاول ، وهو أول مصري وضع باليونانية كتاباً عن ديانة قومه ، ثم وضع كتاباً آخر عن تاريخ الفراعين .

(٣١) الواحة الكبرى : هي الواحات الخارجة ..

(٣٢) فرطنيوم : Paretonium أو أمونيا Ammonia : ودعيت أمونيا إشارة لعلاقتها بمعبد آمون المقدس ، وكانت مدينة عظيمة تابعة لمصر سياسيًّا وموقعها على شاطىء أفريقيا الشمالي . وكانت هذه المدينة في الغرب ، و « فلوسيوم » في الشرق تسميا « قرنتا مصر » وقد صاغ الشعراء من اسم المدينة « نعتاً Parietonius » لاستعماله في معنى عام للدلالة على كل ما هو مصري ، وتعتبر ميناء (واحة سيوه) حيث كان الذاهب الى المعبد يبحر إليها ثم يبدأ رحلاته على الإبل عبر الصحراء الى سيوه ، وكثيراً ما كان القورونيون والأغارقة يسلكون هذا الطريق الذي سلكه الاسكندر المقدوني ، وقد اتخذتها « كليوبترا » عُشًّا لغرامها هي و« أنطونيو » وكانت تدير دفة القتال ضد « أغسطس » فيها ، وهنالك لا تزال بقية من حمام « كليوباترا » الذي أنشأته لكي تقف بين أمواجه بزورقها حيث يحلو الغزل بين زرقة مائه الغريبة اللون وزرقة السماء الصافية الأديم . . وقد اتخذها الرومان حاضرة للصحراء

الغربية أبان حكمهم لمصر ، وكان أقليمها متاخماً لاقليم مريوط وما لبث أن انضم إليه لفقر الأول.. وفي عهد الامبراطور «جستنيان» تم تحصينها حيث تقرر جعلها نقطة أمامية في خط الدفاع عن مصر إذا حدث هجوم من الغرب — كما كانت إبان الحرب الأخيرة — إذ هي مرمى مطروح .. !!

(٣٣) معبد آمون بسيوه : في عام ٥٨٨ ق . م . تولى « أبريس الاول » رابع ملوك الأسرة السادسة والعشرين . . فعين على الجزء الشمالي من الصحراء الغربية حاكماً يدعى « وح إب رع نوفر ... Wahibranofar » وهذا الحاكم أسس معبداً في الجزء الشمالي من مقاطعته يرجح أنه «معبد آمون» الموجود في « سيوه » ولو أنه لم يرد نص صريح على ذلك .. إلاّ أن الروايات التاريخية تشير إلى أنه قد شُيد في المقاطعة الشمالية من الصحراء الغربية معبدان أحدهما عُين موقعه بالضبط ، وهو الذي شاده «أمازيس» خلف «ابريس» في الواحات البحرية ، والثاني لم يعين موقعه .. وحيث أن معبد آمون في سيوه ، أحد المعبدين اللذين أقيما في القسم الشمالي من الصحراء الليبية ، فلا بد أن يكون هو الذي أقامه عامل « إبريس » وثمة دليل آخر نقيمه على صحة ما نقول « وهو مطابقة طراز المعبد القائم بين خرائب « أغورمى » لطراز أبنية ذلك العصر »

(٣٤) قورينا : Cyrena إحدى مدائن خمس شادها الإغريق في ولاية برقة الافريقية وبرقة هو الاسم الذي أطلقه العرب على ولاية في شمال أفريقية اسمها «قورنيقة Cyronaica » نسبة الى « قوريناCyrena » وكان الجزء الشمالي منها يعرف عند العرب باسم « بنطابوليس » أو « إنطابلس » Pentapolis » أي المدن الخمس . . إذ اللفظ اليوناني Penta معناها خمسة و Polis معناها مدينة ..

أما هذه المدن الخمس فهي : (١) هسبريس Hesperis (٢) بَرْقَة Barca (٣) قورينا Cyrena (٤) أفولونيا Apollonia (٥) طوخيرا Teuchira أو أرصنوي Arsinoe وكانت « قورينة » أقدمها وأكبرها وأزهاها وأعمرها وقد أنجبت كثيرين من الفلاسفة والشعراء والقواد العظام ولها تاريخ طويل أخصه علاقتها بمصر في عصر البطالمة . . وكان مكانها على الجبل الاخضر ولا تزال آثارها باقية الى اليوم .

(٣٥) بطلميوس : هو بطلميوس بن لاجوس . . وهو قائد اغريقي رافق الاسكندر في سفرته الى سيوه وكان أحد قواده وهو بطليوس الاول الذي كانت مصر من نصيبه .

(٣٦) استرابو : Strabo : جغرافي إغريقي ولد في عام ٦٣ ق . م . وقد كتب عن كثير من البلدان في الممالك القديمة .

(٣٧) المسعودي: مؤرخ عربي توفي في سنة ٣٤٦ هـ. ٩٥٧ م. وهو صاحب كتاب مروج الذهب، وقد كتب في وصف آثار الاسكندرية ما اعتبره مؤرخو الافرنج مصدراً وثيقاً.

(٣٨) برقة: يطلق اسم برقة الآن على الاقليم الشرقي الشمالي من طرابلس وهو المتاخم لحدود مصر الغربية وقديماً كانت إحدى مدن قورنيقة..

(٣٩) كانت أول مدينة من جهة برقة هي «بانورموس» ويليها «قطابثموس» و«صيلنوس» و«فرطنيوم» أو «أمونيا» وكانت هذه قصبة الاقليم ومقر الحكم، ويليها شرقاً «هرميا» و«لوكاسبيس»

(٤٠) بونطابولس: أنظر (٣٤) تعليقات

المصادر

ديانة قدماء المصريين	للعلاّمة إستندورف الألماني
تاريخ مصر من أقدم العصور الى الفتح الفارسي	لبرستد
فتح العرب لمصر	لبتلر
مصر في قيصرية الاسكندر المقدوني	للاستاذ اسماعيل مظهر
بداءة عهد البطالمة	» » »
تاريخ مصر الى الفتح العثماني	
» » من عهد المماليك الى نهاية حكم اسماعيل	
خريدة العجائب	لابن الوردي
تاريخ مصر	لابن إياس
الانتصار بواسطة عقد الأمصار	لابن دقماق
الخطط	للمقريزي
مروج الذهب	للمسعودي
سيوه	لبلجريف
واحة سيوه	للدكتور حسين علي الرفاعي
الأشجار الخشبية	للمرحوم الأستاذ ابراهيم عثمان
النباتات الطبية والعطرية « تحت الطبع »	للاستاذ عز الدين رشاد
دائرة المعارف الاسلامية	للبستاني
» » البريطانية	
» » الفرنسية	
تقارير عن مياه الشرب المصرية	للدكتور أريديان
مجلة فلاحة البساتين	
» الفلاحة	
المجلة الزراعية المصرية	

نشرات المجمع المصري للثقافة العلمية

« قسم البساتين

مذكرات وابحاث المؤلف الخاصة خلال إقامته بالصحراء

رواية الشيخ الطيب مسلم فقيه سيوه

مخطوط تاريخ سيوه للمرحوم الشيخ عمر مسلم ..

بعض مقالات متفرقة في الصحف

ازهار مريوط } للپروفسير أوليڤر

صافيات الرمال }

فهرس

صفحة

فهرس التعليقات

ملحوظة : جاء في صفحة ٦٥ (١ – الثروة الحيوانية) وفي الحقيقة هي رقم (٢) من الاقتصاديات الثلاث بالصحراء — الزراعة — والثروة الحيوانية — والتجارة

رحلة الى مصر
في عهد محمد علي باشا الكبير

تأليف

الدكتور ورنر هوفيستر

نقلها من الانجليزية الى العربية

محمد رضا

رئيس قسم الفهارس بمكتبة جامعة فؤاد الاول

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٧

مقدمة

رحل الدكتور ورنر هوفيستر الألماني إلى سيلان والهند في معية برنس أوف بروسيا . وقد أبحر مع الأمير من مدينة تريسته في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٤٤ . ومرّ في طريقه بالاسكندرية ثم سافر الى القاهرة فوصف ما شاهده وصف أجنبي مار بالبلاد . إلاّ أن عين الأجنبي ترى أكثر . وكان ذلك في عهد المغفور له محمد علي باشا الكبير .

وقد حثني أحد الأصدقاء الأعزاء على ترجمة هذا الجزء من الرحلة لما فيه من وصف لذلك العهد الذي مضى عليه أكثر من مئة عام . وأغلبنا لا يعلم الحالة الاجتماعية وقتئذٍ في مصر . فلبيت طلبه على ضيق وقتي . وقد وجدت أن وصف المؤلف ، هو عبارة عن نظرة سطحية إجماليـة لكنها مع ذلك تبين حالة مصر في ذلك الزمن وما حدث بها من رقي وتطور عظيم في أكثر النواحي وما لا يزال على حاله إلى الآن بالرغم من انقضاء قرن من الزمان .

أول يونيو سنة ١٩٤٧ — محمد رضا

لما دنت السفينة من شاطىء الاسكندرية ، شاهدنا عدّة بروج أو ما يماثلها . وظهرت مسلة كليوباترة وعمود السواري . وكان الشاطىء ، لسوء الحظ ، منخفضاً ، فلم يكن لجميع هذه المناظر غير أثر طفيف في نفوسنا . ثم أبصرنا منظراً خلفناه وراءنا ، منظر الأسطول المصري الراسي هنا . وقد بلغنا أنه أسطول عجيب ، لكني ألتمس العذر إذا قلت إن منظره كان كئيباً جداً حسب ما بدا لناظري . فكل سفينة كانت تبدو قديمة ، غير معتنى بها ، قذرة الشكل . وأغلب السفن باهت اللون وقليل منها عليه مسحة الحياة . وقد رأينا صبياناً سمر الوجوه ، على رءوسهم طواقي حمر ويرتدون سراويل بيض . وهم يتسلقون الحبال ويثبون بمهارة فائقة .

رأينا بين القوارب التي اندفعت نحو سفينتنا ، قارب قنصلنا وقد كان مبطناً بنسيج قرمزي اللون ، يُسيِّره بالمجاديف اثنا عشر بحاراً سمراً ، حسان الوجوه . في مقدمتهم زنجيّ ، لامع الوجه ، معتدل القوام . فاسترعى نظرنا بنوع خاص . وعلى رأسه عمامة بيضاء . وكان رداؤه العلوي أبيض وكذا سراويله . أما ملابسه الداخلية ، فكانت قرمزية لامعة . وقد بلغنا أن القنصل مريض ، طريح الفراش في القاهرة ، ولذا أناب عنه مندوبين لاستقبالنا ، أحدهما كاتب شاب ، كان دائم الارتجاف من فرط ما اعتراه من الحيرة والارتباك ، وكان الآخر رجلاً عادي المنظر .

وقد حُملت أمتعتنا بلا نظام ثم غادرنا السفينة واجتزنا الزوارق الصغيرة التي يملكها البحارة الذين يحتشدون نحو السفينة . وما أشد ما سمعناه من الصياح والجلبة بين جمهور من الناس ، سمر الوجوه ، فطس الأنوف ، غلاظ الشفاه ، يلبسون عمائم ويلتفون بثياب حول وسطهم . وليس عليهم ملابس أخرى غير هذه . ووقف على الشاطىء جيوش من الجمال والحمير في انتظار المسافرين . وهنا حدث شجار بسببنا ، غير أنه ما لبث أن هدأ بفضل ما بذله مرشدونا من جهد . وبدلاً من أن نمتطي الحمير التي تكاد تبلغ مبلغ البغال

في الحجم والقوة ، وجدنا لحسن الحظ مركبة خفيفة ظريفة ، مبطّنة بحرير أبيض فركبناها ميممين المدينة . فكان أول منظر غريب ابتدر عيوننا الأوروبية ، جيش من الهجن ثم الأهالي على اختلاف أشكالهم وهم بدو مصر ونوبيون وأحباش سود وعبيد من ساحل أفريقيا الغربي ، ذوو أنوف مسطحة ، عريضة وغبيئة . فكان منظرهم مما يدعو الى الاستغراب .

ومما لفت أنظارنا ، نساء الفلاحين المبرقعات . وهنّ يرتدينَ قمصاناً زرقاً وسراويل وبراقع من الحرير الاسود ذات ثلاثة أركان . وحول عيونهنّ دوائر سوداء ، مصبوغة . واستلفت نظرنا أيضاً ، شرفات المنازل الشعرية ، الدقيقة الصنع . وبعد أن اجتزنا كثيراً من الشوارع المتسعة والضيقة وسط زحام من الناس على اختلاف أشكالهم ، وصلنا ميداناً عاطاً بكثير من المنازل الأوروبية النمط تماماً وقد بناها محمد علي وهو يطالب لإيجارها ثمناً غالياً (١) :

وقفنا أمام منزل من هذه المنازل — هوتيل أورينتال — وهو مبنى كبير من الحجر مرتفع القامات ، وجميع نوافذه مغلقة : وخلف كل شقة منه ، حجرة بها سريران . وتزين الغرف أريكة جميلة وبيانو وعدة صور باريسية محفورة . ومطبخ فاخر . فكان الفندق بالاختصار حاملاً جميع المزايا المتوفرة في فندق فرنسي أو ألماني حسن . غير أن عيبه الوحيد ، تهافت البعوض الذي يسبب الانزعاج والأرق ليلاً في هذه البلاد لسوء الحظ .

لقد قضينا زمناً طويلاً في أول قدومنا مضطجعين على مقاعد النوافذ نتسلى بمراقبة منظر سير الهجن وهي محملة بالاحجار وتسير دائماً سيراً هادئاً حزيناً بخطوات متئدة على وتيرة واحدة . والأهالي المسلمون يرتدون ملابس شرقية زاهية ، ذات ألوان عديدة . والسياح الانجليز والفرنسيون بل والسيدات أيضاً يمتطون الخيل والحمير وهم يُرون بمجرد أن يلقي الإنسان نظرة حول هذا الميدان الفسيح . ويحمل باعة الفطائر والحلوى والليمون والشربات بضائعهم برشاقة على قمة رؤوسهم . أما السقّاءون فيحملون قربهم المصنوعة من جلود المعز ، وذلك بأن تدبغ بطريقة بديعة ثم يخاط العنق والأرجل . وبعضهم يسير على

---

(١) لا نعلم أن محمد علي باشا بنى في الاسكندرية منازل لايجارها . ولعل المؤلف بلغه ذلك ولم يتحقق من صحته (المترجم)

الأقدام والبعض الآخر يمتطون الجمال ويشقون طريقهم وسط الزحام .

وقد قضينا يومين في مشاهدة مناظر المدينة . ومنذ أول يوم قدمنا فيه، ركبنا الحمير وتجوّلنا في طريق لم نشاهد فيه شيئاً يستحق الذكر . وقد أعجبنا جداً بمنظر القصر الواقع على شاطىء البحر وبمنظر الجزء المخصص لحريم الباشا . فدخلنا القصر وأخذنا نفاوض الحارس وبعض كبار الاتراك الذين اجتمعوا بعد الغروب لتأدية أعمالهم في ليالي رمضان . وبذلك مهدنا السبيل للحصول على إذن يخوّل لنا مشاهدة القصر .

أرخى الليل سدوله عندما ركبنا الحمير عائدين الى المدينـة التي كان يسودها الظلام ولم يكن هناك ما يفرج عنا هذه الوحشة الاّ ما كان يبدو من النور الضعيف المنبعث من القناديل . وكان شكل البلح الذي يأكله الناس هنا غير ناضج بديهاً . وكذا كان منظر البرتقال والليمون الأصفر يغري المارة على أكله ، إلاّ أن الأوربي قلما يستسيغها لشدة حموضتها ، فوقفنا وترجلنا أمام جامع سمعنا منه ترنيماً عالياً . وهو يحتوي على باحة فسيحة بها عمد عديدة بيض ، بينها قضبان مدلى منها قناديل . وقد وقف المؤمنون يصلون في صفوف مستقيمة ، كل صفٍّ منها خلف الآخر . ويقابل المدخل مباشرة ، المعبد أو أقدس مكان وهو المحراب الذي يقف أمامه الامام . وكلما قال « الله أكبر » سجد جميع المصلين ولمست وجوههم الأرض . فكان لسجود هؤلاء المعممين[1] سجوداً متعاقباً وقيامهم ثانياً ، تأثير عجيب يهيج في نفوسنا حتى اننا لم نستطع مقاومة رغبتنا طويلاً في مشاهدة هذا المنظر الطريف . فشاهدناه من خلال النوافذ ذات القضبان الحديدية ومن الباب المفتوح . وفي الحال ألقي علينا حجر فسقط في وسطنا بالضبط غير أنه لحسن الحظ أصابني فقط في جنبي بشدة . ولما فوجئنا بذلك ، كان سرورنا عظيماً عند ما أسرعنا وقفزنا فوق سروجنا وسرنا حتى بلغنا مقهى . هنـاك قدمت الينا « شيشات » صغيرة — نرجيلات — وأخذنا ندخن . فلم يكلفني ذلك أي مجهود . ولم يكن طعم القهوة السوداء رديئاً . وقد جلسنا على أريكة خشبية عالية « دكة » فتدلت أرجلنا في الهواء . وعبثاً حاولنا الجلوس كما يجلس الأتراك، فتخلينا عن هـذه المحاولة يائسين . وقد شاهدنا في هذا المقهى أنواعاً رديئة من خيال الظل

(١) قد تغير الحال الآن فان أكثر المصلين ترام في الجوامع مطربشين وأقلهم معممين (المترجم)

مصحوبة بغناء بالدف حسب اللعب عوضاً عن التمثيل المسرحي بين الطبقة الراقية من أهالي الإسكندرية الشرقيين [1].

وفي صباح اليوم التالي (٣ اكتوبر) ، أيقظتني وخزات البعوض الملهبة الذي كان قد نفذ من ستائري الرقيقة . إن هذه الحشرات تنزلق من غير أن يراها أحد داخل الستائر اذا كانت هناك فتحة مهما كانت صغيرة أو ثقب لا يلاحظ حتى بالفحص الدقيق كما تفحص الستائر يوميًا . فاذا ما استقرت في مكان ضيق ، لسعت لسعاً مؤلماً جداً .

ثم بدأنا سيرنا في أجمل أنحاء المدينة بصحبة ترجماننا الروسي . وهو رجل متصف بأقل صفات حسن السلوك وأشد الغباوة !.

زرنا في اليوم التالي مسلة كليوباترا ، وهي عبارة عن نصب تذكاري ، موحش المنظر مطمورة في الرمل الى نصفها ومحاطة بجدران كبيرة الحجم متهدمة . وتشتمل تربة هـذه الجهة من المدينة الى عمق بعيد على بقايا أحجار جيرية من آثار الاسكندرية القديمة . وتبدو هذه الانقاض كأنها محجر ، فتؤخذ مواد البناء من هذا المخزن الأرضي الذي لا ينضب والذي ينهب باستمرار .

لم أجد في زيارتي لمسلة كليوباترا إلا شيئاً قليلاً ذا أهمية ، عدا عظاية طولها ١٨ بوصة وعند ما حاولت إمساكها ، أخذت تتسلق المسلة . والعظايات كثيرة الوجود هنا بنوع خاص. وقد طالما ذكرتني بقصة فيلون الأبله عندما كنت أراها تزحف بين أكوام الحجارة في خرائب القصور القديمة .

وقد دهشت من جهة أخرى ، إذ سرتني رؤية الحدائق الشرقية الحديثة جداً ، فيها مظلات مرتفعة ونوافير من المرمر. وقد قصدنا زيارتها راكبين المطايا في ٤ اكتوبر واجتزنا في طريقنا الضاحية ، وهي بالقرب من المرفأ الجديد . ويحف بالجانبين أشجار النخل التي رفعت قامتها على الجدران المتهدمة . وكل شجرة من هذه الأشجار ، تتألق بالثمار الغزيرة .

---

(١) انقرض خيال الظل تقريباً بعد أن انتشرت المسارح ودور السينما . أما الارائك الخشبية العالية فلا توجد الآن إلا في قليل من المقاهي البلدية كأنها أثر من آثار الماضي البعيد، وقد استبدلت بالكراسي العادية (المترجم) .

وكنا نسمع من آن لآخر صرير الساقية الحزين التي غالباً ما يكون مركزها في أعلى قمة تحت ظل الأشجار الكثيفة . ومنها تسقى الحديقة باستمرار . والماء النقي العذب أثمن شيء ولا يجلب الى المدينة إلاّ بواسطة مجرى . أما هذه الآبار العميقة ، فلا ينبع منها غير ماء مشوب بالملوحة لا يستعمل إلاّ للري اذ لا يصلح للشرب أبداً .

ثم ولجنا بيتاً مرتفعاً ، نظيفاً ، يكاد يكون منظره أوربيًّا . ومدخله بهو طويل ، مرصوف بنوع من الفسيفساء بحصوات بحرية سود وبيض ، يؤدي الى أول ساحة داخلية يكتنفها نوع من النباتات المائية القصيرة . وجدرانها مكسوة بكثير من أشجار الياسمين والورد الثمين الجميل وبأنواع أخرى من النباتات المعرشة الظريفة ، وهناك ممر طويل مرصوف بقطع من الرخام ومسوّر كذلك بالنباتات المائية وينتهي بكشك أو فسطاط . وهو بناء واسع ، طلق الهواء ، مشيد بخشب مخروط ، شرقي الطراز تماماً بوسطه عدّة نوافير ينبثق منها الماء في أحواض من المرمر الجميل . وكل شجرة من هذه النباتات التي تحيط بهذا السياج ممتلئة أزهاراً . وان أزكاها رائحة، الياسمين العربي . وعند هذا المكان ،مدخل الحديقة نفسها ، يفصل كل ممر من ممراتها ، أسوار مرتفعة من نبات إكليل الجبل — حصالبان — على الأخص . وأعلاها مؤلف من أشجار الدفل والبرتقال والموز . أما النخل فانه يكوّن قسماً خاصًّا . وهنا قسم آخر للخضروات ، زُرع فيه أنواع عديدة من الليمون والقرع الاستمبولي والخيار .

وبما أن ترجماننا قد أصيب بنوبة قشعريرة شديدة ، فقد اضطررنا أن نستأنف سيرنا بلا تابع . فتجولنا في منحدر عال على قمة حصن وصعدناه . ومع أن حارس الحصن الذي كان سيء العدة ، قد أشار الينا من أعلى اشارات إنذار واضحة بأن لا نقترب ، فاننا بلغنا القمة في الحال ومتعنا الطرف برؤية المنظر الساحر لكثير من الجوامع بالأسفل . وهي مشتتة بين حدائق النخل ويحيطها من جهة ، بحيرة مريوط ، الشبيهة بالبحر ، ومن جهة أخرى البحر المتوسط . ثم اننا لم نكد نجلس عند نهاية القنطرة المتداعية ، حتى قدم الينا الجند بحالة غضب لاختراقنا حصنهم . وحاولوا طردنا . وقد اجترأ أحدهم فقط أن يمد يده ، لكنه لم يلمسنا بالفعل بل لمس سائقي الحمير . وبعد أن صاح الحارس صياحاً عالياً وصرخ صراخاً

عنيفاً باللسان العربي الذي يرن في أي وقت كأنه لغة شجار دائم ، انتهى الأمر بهم إلى تركنا حيث كنا (١)

وعند عودتنا ، اتخذنا طريقنا الى الأثر المسمى عمود بمباي مارين بسقاة تصب في حوض قذر تغسل فيه الملابس . وهنا رأينا جمعاً من نساء وصبية قذرات يصحن ويتشاجرن وهن يرتدين ثياباً زرقاً وغاية في الدمامة . واللاتي بلا براقع سوداء منهن ، يمسكن دائماً بأفواههن أطراف أرديتهن ويغطين بها نصف وجوههن . وأغلبهن يحملن أطفالهن على جانبي أكتافهن . وكان أهم عمل يؤديه الرجال الواقفون في الحوض هو حك ملابسهم بقهوة .

يؤدي الطريق إلى عمود بمباي ، الى سهل مجدب ، محرق ، مغطى بالأحجار والرمال . وهناك كثير من المقابر في جهات شتى تتميز بحجارة قليلة غير مصقولة ، مبنية بالملاط وبلا نحت غالباً . أما العمود فقائم بمفرده . والظاهر انه كان تابعاً لمعبد عظيم . لكن ليس لتاجه ولا لأقسامه أي جمال بل انه يدل بالعكس على ذوق فاسد جمع بين النمط الحديث والقديم (٢)

من هنا قفلنا راجعين إلى قصر الباشا . وان الانسان لا يمكن أن يتصور مكاناً أجمل منه . انه قائم بالقرب من البحر عند المرفأ القديم يشرف على منظر الأسطول بأكمله . وقد بنيت سلالم القصر وقاعة التشريفات من رخام أبيض جميل . وأرض القاعات المستديرة المتسعة مرصعة ترصيعاً بديعاً بالأخشاب الثمينة ، وعلى حوائط قاعات الاحتفالات الرسمية ، قماش فاخر مزركش بالصور وهناك زهريات جميلة ، احداها مهداة من البابا . وكثير من الصور الملونة والأثاثات والخزانات الباريسية المملوءة بالطيور البرازيلية المحنطة وهذه كلها محفوظة بعناية ونظافة بالغة وهي ترى داخل جدران مسكن محمد علي النفيس . هذا والذوق الفرنسي هنا له شأن في تنظيم الترف الشرقي . ثم غادرنا القصر ونحن في غاية السرور . وهو كمكل المباني الشرقية النمط لا يتجاوز ارتفاعه دورين .

بعد تناول الغذاء ، انطلقنا مرة أخرى سائرين على الأقدام في غسق الليل في المدينة

---

(١) ان عدم تعرض حراس الحصن للسياح وتعرضهم لسائقي الحمير لم يكن جبناً منهم بل لانهم كانوا يعلمون أن السياح أجانب وان السائقين هم الذين دلوهم على هذا المكان (المترجم)

(٢) هو عمود بومبيوس الذي بناه تخليداً لذكرى حصار دقليديانوس للاسكندرية ، وهو قطعة من الجرانيت الوردي ، بني على النمط الكورنثي ويبلغ طوله ٢٨ متراً (المترجم)

التي أنعشها الآن الحرية بعد الغروب في رمضان . وأخذنا نمر آناً بشوارع مظلمة وآناً بمحال السمك أو الأسواق المضاءة بمصابيح من ورق ، والمكتظة بجميع أنواع المأكولات . وتجوّلنا إلى أن وصلنا مقهًى فخماً تمتعنا فيه بالمناظر الشرقية . فهنا ترى المسلم في أحسن أوقات راحته ، يدخن غليونه ، والوجوه السمراء مختلطة بالسوداء ، والسوداء بالنحاسية اللون . والأسمال البالية بجانب الملابس الغالية ، والعمائم والطرابيش . وهؤلاء جميعاً في زحام من مختلف الألوان . وفي وسط المقهى ، نافورة ينبثق منها الماء [1] وكانت القهوة والتبغ في غاية الحسن والنادل المرح بسترته وسراويله البيضاء ، يقدم لنا المصطكي لنمضغه فيخرجه من جيبه الذي في أعلى قميصه . ثم جاء بعض الموسيقيين واحتلوا مراكزهم في المقهى زيادة في التسلية . وهم مؤلفون من فتىً أعمى مغنٍّ ، ورجل مسنٍّ يعزف بآلة ذات أوتار ممتدة على لوح كالقيثارة (عود) وكان الدّف متمماً للآلات العزف ، وحل مغنٍّ آخر محل الأول لأن غناءهم يستدعي بذل جهدٍ عظيم بسبب عادة هز الرأس باستمرار وادارة العينين وتقطيب الوجه بشكل لا يتصور . وأعظم جزء من اللحن بالمفتاح الصغير ، فيستعيده أو يطلبه بالاسم صاحب المقهى قبل الغناء ثم يبدي سروره بالتصفيق بيديه . وقد آلم آذاننا عزف الآلات معاً ولاسيما لأنها كانت شديدة القرب منا . فتأهبنا للذهاب الى فندقنا لاعداد العدة للرحيل في اليوم التالي .

في صبيحة ٥ أكتوبر ، ذهبنا الى سطح السفينة التي كانت ستقلنا الى قناة المحمودية بعد آن تزوّدنا بكثير من المؤن وتبعنا ترجماننا ، وهو رجل أسود ، ذو عينين جميلتين واستقلّ قارباً يجره حبل

كان الريف حولنا قفراً لا أثر للحياة أو الخضرة فيه مما ينقبض له نفس السائح ولم يستلفت أنظارنا غير الأكواخ الطينية والساقية والصقور المصرية الكثيرة وبعض الرجال البائسين ، أنصاف المتوحشين . وتقع القناة بأكملها في طبقة من الرمل والطين . وليس في معظم أنحاء الرابية التي تكتنفها ، عشب بالكلية .

---

(١) لم أر الا مقهى واحداً بوسطه نافورة في القاهرة . الا أن هذه النوافير قد اختفت من المقاهي وقد كانت تكسبها منظراً شرقياً بديعاً وترطب الجو (المترجم)

وقد وصلنا متأخرين في المساء الى المكان الذي تتلاقى فيه القناة بالنيل . وبالقرب منه قرية العطف الحقيرة التي يقطن أهلوها مع دواجنهم في دور كأعشاش الخطاطيف ! وملتقى القناة بمياه المجرى محجوز بأبواب خزان . فوجدنا هناك باخرة فخمة مضاءة بأنوار بديعة راسية أمام منزل مؤلف من دورين . وهناك قدمت الينا القهوة . وعند ما صعدنا سطح السفينة ، حيتنا الموسيقى بصوت عال . فوجدنا كل شيء منظماً أحسن نظام . وكانت مؤخرة السفينة محاطة بالارائك المخملية الارجوانية اللون والحجرة المعدة لنا رطبة ، طلقة الهواء فتمتعنا بنوم منعش جداً لا يعدله شيء وذلك إما لتأثير خيالنا أو من جراء هواء النيل المعتدل المفيد . وفي هذه الاثناء كان جميع خدام السفينة يتجددون كل ثلاث أو أربع ساعات هذا والموسيقى تصدح بقوة والطبول تدق على نغمات أدوار بلليني ودونيزتي . لكن لم يفكر أحد في أن آذاننا تتمزق قطعاً في سبيل تسليتنا . وأخيراً أفهمناهم جلياً أننا لسنا من هواة الموسيقى . وفي صبيحة يوم ٦ أكتوبر ، تناولنا فطوراً خفيفاً جداً . اذ كان زادنا قد نفد سريعاً ولذلك استولت علينا الدهشة عند ما حان وقت الغذاء ورأينا طاهي الباخرة يضع أمامنا صحوناً عديدة من المآكل العربية الشهية وأغلبها مؤلف من أرز أو دقيق ، لذيذ الطعم جداً . وكثير منها لا يلائم ذوقنا لكثرة دهنها ولانها مصنوعة من دقيق الحنطة والحقيقة إنه لا الطعام ولا الموسيقى المصرية الصاخبة والطبل تعوض ما قد أصابنا من السآمة من مشاهدة منظر شواطىء النيل .

إن اتساع الماء ولونه المضطرب والاحمر والاصفر ، يملأ السهل المنخفض الاجدب الذي ليس فيه أثر للخضرة التي يتوقع أن يراها الانسان بعد الفيضان مباشرة . ولا يوجد على حافة النهر الخارجية ، غير قليل من الاعشاب الجافة التي تتسابق النوق لرعي كل ذرة منها بغاية السرعة وكذا ترعاها قطعان الجاموس العديدة التي تقف بخراطيمها في الماء العكر .

هناك ترى في جهات متعددة من خمسين إلى مئة نخلة . يبلغ ارتفاع بعضها ثمانين أو تسعين قدماً وشكلها بديع وهي مزينة بمحصول وافر من عناقيد جميلة محملة بالبلح الاحمر والاصفر . وعند مرورنا تحت تلك الاشجار النامية بالقرب من جانب الماء ، شاهدنا في الظلام تحت قمة الاوراق الكثيرة على ارتفاع عظيم رجلاً منهمكاً في جمع البلح داخل حصيرة ثم أخذ

بإلفها ويحملها إلى ذلك المكان المرتفع . وكان الأهالي المجتمعون في ذلك الوقت يرقبون عمله .

والعادة أن يكون لكل مجموعة من أشجار النخل ، قرية صغيرة على مقربة منها . إلاّ أنه في الغالب يصعب على الانسان اكتشافها لأن ذلك يحتاج إلى عين اعتادت رؤية هذه المواقع .

ان المادة التي تبنى بها الأكواخ، هي من التربة التي تحت الأقدام . فيأخذ القرويون قطعاً منها ويجففونها في الشمس على شكل قوالب طوب خشن أو على شكل طين جامد غالباً . وبهذه القطع يشيدون مباني مستديرة أو مربعة أو مخروطية كما يريدون ، لا يتجاوز ارتفاعها غالباً أربعة أقدام . وتقوم الطاقة في البناء مقام البـاب والنافذة معاً . وتشبه القرية ، إذا شاهدها الانسان من أي مكان قريب ، بمجموعة من أعشاش الخطاطيف ، بنيت بالقرب من بعضها . وإن شناعة داخل هذه التلال الصغيرة ، لتتضح من القذارة الدائمة العالقة بهذه المخلوقات البائسة الحقيرة الداكنة . وان كانوا في الظاهر يسهلون ترقية نظافتهم بالاقلال ما أمكن من خزانة ملابسهم ! وما أتعس وأفظع رؤية الرجال البائسين والحبال الخشنة المربوطة بانحراف حول صـدورهم وهم يجرون القوارب عكس تيار النهر . وأجسامهم مسلوخة سلخاً مريعاً ومغطاة بالقروح كأفظع خيول مركبات النقل عندنا . أما النساء فتتدثرات بثياب طويلة زرقاء قاتمة وهنَّ يتخذنَ أحد أطرافها لتغطية الرأس . ولا حاجة الى نصف النقاب الأسود حتى في أحوال الدمامة الشديدة

ان النقاب (البرقع) عبارة عن قطعة طويلة من الحرير الأسود ، ذات ثلاثة أركان توثق بأزرار نحاسية إلى قمة غطاء الرأس بحيث يعلق تحت العينين . ومنظر الثوب بأسره ، غاية في الشناعة .

وترى هنا وهناك بحيرة كبيرة من مخلفات الفيضـان بجانبها مجموعة من أشجار السنط والجميز . وتحت ظلالها جاموس يجر الساقيـة لري حقول القمح والذرة الشاميـة . في حين يسقي الفيضان المرتفع أشجار النخل .

السـاقيـة آلة بسيطة تتركب من عجلة كبيرة ، معلق على محيطهـا الخارجي قواديس من فخار تحمل الماء الى الخارج من أخدود صغير بالقرب من العجلة وتصبه في حوض من خشب

أو في قناة . ويسمع صرير هذه العجلات في جميع أنحاء مصر ويصاحبه غناء سائقي الثيران وهو أشد منه حزناً لأن العربي لا يؤدي أي عمل من غير أن يقرنه بالغناء . ولهذا الفن شأن وسيع جداً في الزراعة . إنهم يغنون كل شيء من الأنف أو بالحري يضغطون النغمات ثم يخرجونها بكيفية غريبة جداً . لأن معظم توقيعاتهم بالمفاتيح الموسيقية الصغيرة ، ليس لها إلاّ نغمات قليلة . وأخص فنهم ، هو إخراج نغمات بدوية متتابعة لا يستطيع تقليدها الموسيقيون في أوربا حتى بعد جهد جهيد . وانّ لهم صوتاً غريباً . وهو في الغالب غير سار . غير أنه يثير الاستغراب والدهشة .

وقد كنت أشاهد من آن لآخر ، وان كان ذلك في النادر ، على طول شواطىء النهر ، حقلا مسطحاً . مغطىً بعشب طويل كالحلفاء . إلاّ أن الخضرة ليست عامة على السطح المستوي .

كان فرع النيل يتلألأ هنا وهناك على بعد أو كان مجراه موسوماً بشراع أبيض صغير بشكل رباعي عادة ، ومربوطاً بسارية مائلة من القمة .

وقد وعدنا ربان السفينة أن يصل الى القاهرة قبل الساعة الثالثة ، غير أن التيار كان قوياً جداً بسبب هبوط الفيضان . فحال ذلك دون تقدمنا سريعاً . وعلى ذلك مرت الساعة تلو الساعة وفي حوالي الغروب ، ظهرت الاهرامات أخيراً ، وهي قائمة كأشباح هائلة في الأفق الأحمر . فاسترعت كل نظرة من نظراتنا إلى أن توارت في الغسق المعتم . ثم غشينا الظلام الحالك ، فلم نرَ أي ضوء ولا سفينة ولا أي شيء نستدل به على اقترابنا من العاصمة التي يبلغ عدد سكانها نحو مائتي ألف نسمة .

وقد عيل صبرنا ولم يكن من السهل تهدئة ثائرة ما اعترانا من القلق بالرغم من أن الموسيقيين السمر بسترهم وسراويلهم البيضاء كانوا يبذلون كل جهد لتحطيم آذاننا وحصر التفاتنا . وبعد انتهاء العزف ، التجأنا الى مأوانا الليلي . فكان صدى صوت الموسيقى وخرير الماء ، لا يزالان يرددان نغماتنا الوطنية . ثم ساد سكون عميق في جميع أنحاء سطح السفينة . وانسلّ الفلاحون السمر من كل فج إذ فتنهم سحر الموسيقى الطريفة عندهم .

ظهرت أخيراً القاهرة أمامنا ، وعلى الأقل كانت الأنوار تتلألأ على الشاطىء . وقد

حدث أن دارت سفينتنا دورة خطيرة ثم اصطدمت بمركب شراعي ، محمل بالحجارة . فسقط كثير من الرجال في النهر وارتفعت أصوات الشجار المخيفة وصيحات الموت . ولم يقتصر الأمر على تبادل الألفاظ ، بل تبادلوا اللكم . وظهر على الشاطىء قوم يحملون أوعية من الحديد كالبراميل ، مربوطة الى هواخص وممتلئة خشباً مشتعلاً وقداً أو نشارة لتكون بمثابة مصابيح متأججة . ولم نر شيئاً من المركبات الموعودة . وكانت الحمير مع ذلك واقفة على أهبة الاستعداد والرجال السمر ، الهمج كقطاع الطرق يلوحون بعصيهم و يصيحون بجلبة مزعجة . وكل واحد منهم يتحرك على دابته . فركبنا بعد أن أعددنا المعدات الضرورية الخاصة بأمتعتنا ثم خلفنا خدمنا وترجماننا للبقاء معها وحراستها . وكانت هذه الحيطة ضرورية نظراً الى حالة البلدة . المختلة النظام والشوارع الضيقة والسرقات المتعددة في منتصف الليل . ثم اننا أسرعنا وامتطينا حميرنا وحملنا معنا من الأمتعة ما تمس إليه الحاجة فقط وأطلقنا العنان للحمير . وهكذا اندفع موكبنا نحو المدينة . وكان في المقدمة دليلان ، بيد كل منهما مشعل ككلاب الصيد التي تقتفي الأثر . هذا وقد أخذنا نمر بأزقة ضيقة مظلمة وطرق مسدودة غالباً بالقاذورات المختلفة الأنواع والأحجام .

وقد حدثت كارثة صغيرة ، وهي أن أحد الراكبين كان معه صندوق ثقيل ، داخله نقود فوقع على الأرض غير أنه لحسن الحظ نجا من الأذى . هذا هو الحادث الوحيد الذي وقع بنا . وأن السرور الذي سرى في نفوسنا من منظر دخولنا ليلاً ، استغرق نحو نصف ساعة من بدء ركوبنا . وأخيراً وجدنا أنفسنا أمام باب كبير ، هو باب هوتيل أورينتال . وهذا الفندق ، مسكن جميل الموقع جداً ، كثير الشبه بالمنازل الانجليزية . فلما فتح الباب بحثنا في ذلك المبنى المتسع كله عن ندول أو خدم فلم نجد أحداً . إلا أن وقاحة سائقي الحمير لم تقف عند حد حتى بمعونة عصينا . وأخيراً بعد أن بذلنا جهوداً كثيرة ، أفلحنا في إيقاظ رجل زنجي كان غارقاً في النوم . فاذا به يعرف قليلاً من اللغة الايطالية . وفي الحال حل مشا كلنا بسوطه الطويل من جلد فرس النهر (كرباج) فانهال به ضرباً ذات اليمين وذات الشمال على النائمين المتمددين على الأرض في كل جانب بلا أي غطاء . أما من جهة غرفنا ، فقد اعترضتنا في بادىء الأمر صعوبة عظيمة في اقناع الناس بما يلائمنا . ثم استولينا

على الفنق اللازمة . ومع ذلك كانت السرر التي استلقينا عليها متعبين ، حسنة جداً . وكانت الستار سميكة وبلا ثقوب بحيث حالت دون تطرق البعوض الى داخلها . هذا ولم ندرك مزايا الحجرات الا أخيراً في اليوم التالي. وكان صاحب الفندق رجلاً فرنسياً صاحب أملاك في الاسكندرية . فقدم لنا اعتذارات كثيرة وأدخلنا بهواً فاخراً وحجرة أكل مؤثثة بالأرائك التركية . وكانت الحوائط مزينة بالنقوش الانجليزية والفرنسية الجميلة ويوجد في البهو بيانو لا أهمية له .

في اليوم التالي، أشرقت الشمس ففتحت الدرف الفينيقية . ما أبهج هذا المنظر الساحر! على يسارنا صفاً طويلاً من المنازل الشرقية ، ذات الشرفات المصنوعة من الخشب المخروط الثمين (المشربية) بدلاً من النوافذ ويتخلل المنازل أشجار الميموزا والنخل قد جاوز ارتفاعها جدران الحدائق . وينتهي صف المنازل الطويل والقصور بمنارة طويلة رفيعة . وتوجد في الصدر عدة مبان كهذه مدهونة بالدهان الأحمر والأبيض البهيج. وبالوسط أشجار النخل المختلطة تخايطاً طريفاً في الأفق الأزرق ويجاورها الى يميننا هرما الجيزة اللذان وهما يزيدان جلال التلال التي يعوزها جمال المنظر . وتقع الصحراء الى يميننا على أفق حيث يسهل تمييزها بجوها إذ يطفو عليها بخار كثيف ذو لون رمادي ضارب الى الصفرة . والأرض التي أمامنا جميلة لأنها تشتمل على أشجار الابخ المكسوة بخضرة الربيع الدائمة ، تتخللها حقول الذرة المترعرعة . وفي وسط الصورة بركة صغيرة محاطة بأشجار الابخ . وبالقرب من هذه البركة أعظم الطرق المؤدية الى المدينة ، وهو طريق يخترق ميداناً واسعاً يسمى « الأزبكية » تطل عليه نوافذ فندقنا . هنالك شاهدت حميراً محملة بالفواكه على أثرها ، صغار السائقين السمر الوجوه ، يسيرون نحو المدينة ، تتبعها سلسلة من الهجن ذوات بطيئة . وكل هجين مربوط بحبل الى الذي أمامه . والنساء يسرن بملابسهن وسراويلهن الزرقاء ، على رءوسهن أوعية كبيرة وأخرى أصغر منها على أكفهن المرتفعة على أكتافهن من الجانبين أطفال عرايا غالباً ، ويمشي الأقباط البيض بعمائمهم السود والنوبيون السود بشمائلهم البيضاء الطويلة . والأعراب النحفاء الجسم ، الذابلون القذرون والأتراك والأرمن السمان ، الشباع ، النظاف ، جميع هؤلاء يسيرون نحو المدينة . ان

الانسان لينعش نظره بالقرب من أمام نوافذنا بأوراق أشجار اللبخ والجميز الوافرة. ومن المحال وصف السرور الذي نشعر به مرة أخرى لرؤية الأشجار الخضراء التي أضنانا لحرماننا منها منذ غادرنا النمسا. فهنا الظل وهنا الماء. هنا الفرش النظيفة والفطور الشهي. وبعد أن تناولنا الفطور، لم يقف بنا حب الاستطلاع عند حد، فوثبنا على ظهور الحمير التي كانت واقفة على أهبة الاستعداد تحت نوافذنا. وفي الحال انطلقنا من غير أن نضيع وقتاً، ميممين شطر مدينة الخلفاء. حيث يجد السائح عالماً جديداً بالمرة مما يدهش له نظره فلا يدري أين يلقي عينيه أولاً. هل يبصر المساكن البهيجة المتعددة الألوان، المزينة بالنقوش المنحوتة؟ أو الجوامع البديعة المتخربة أو الحوانيت لتجار الأغنياء أو حتى الجماهير المحتشدة من جميع أمم الشرق؟ لقد كان من المتعذر علينا اجتياز الزحام الشديد بالقرب منا، لأن عرض الشارع في العادة من أربع خطوات الى ست لا غير. وقد استطاع ترجماننا المسلح بسوطه الهائل، المصنوع من جلد فرس النهر، أن يفسح لنا الطريق بلا مراعاة أي كلفة، فأخذ يضرب جميع السائرين المتلكئين ضرباً قوياً. وفي الحال أزال كل عقبة تعترض سبيلنا، حتى أن الجمال المثقلة بالأحمال اضطرت أن تذعن لهذه المعاملة[1]. وعلى ذلك تقدمنا تقدماً سريعاً ما أمكن. وفي العادة كان يرافقنا انكشاري أو اثنان (يسمون قواسين) وهؤلاء غالباً ما تكون مرافقتهم مصدراً للمضايقة. وهم وان كان منظرهم جميلاً إلا أنه ليس لوجودهم أقل فائدة. إذ لا يحلم أحد أن اللصوص يسطون عليه وان ما يرويه السائحون من البيانات بهذا الشأن، مبالغ فيه كثيراً.

ومنذ اللحظة الأولى التي يخترق فيها الأوربي شوارع القاهرة، لا يستطيع أن يكف عن التفكير في انه متى دخل نطاق القاهرة سيهان ويفتقر ويصاب بالوهن من جراء المجاعة والطاعون. فلا يستميله غير بقايا المجد الغابر. غير أن هذا المجد كان عظيماً ومحاطاً بالبنيان بأكمله وبكيان المدينة نفسها بدرجة أن المحنة الطويلة العهد لم يكن في مقدورها القضاء عليه

---

(١) لا يستطيع ترجمان أو أي انسان الآن أن يضرب المارة أو يتعدى عليهم ليفسح الطريق مهما كان مسلحاً ومهما كان الطريق مزدحماً. لان الجمهور الآن ليس هو الجمهور في ذلك الزمان. هذا وقد نمت الشوارع اتساعاً عظيماً حتى بلغ عرض بعضها ٤٠ متراً أو أكثر (المترجم)

أينما وجه الانسان نظره ، كان الخشب المخروط المتقن الذي صنعت منه المشربيات ، الطلقة الهواء وأبواب القصور المتداعية المتخذة من البرنز الجميل والزخارف المنحوتة المنبثة داخل الجوامع القديمة ، كان كل ذلك شاهداً على الذوق السليم والمهارة الفنية في عصر الخلفاء

ومن حسن الحظ أنه قلما تسقط قطرة من المطر بين هذه الخرائب . اذ لولا ذلك ، لكان من المحال أن تبقى تلك الآثار الكثيرة من الفنون الجميلة ، محفوظة من القرن الحادي عشر بل من القرن العاشر ، لأنه منذ ذلك العهد البعيد لم يصلح شيء منها بل بالعكس كان كل شيء عاملاً على الحط من جمال الآثار القديمة حتى أصبحت أكواماً من قطع محطمة اتخذت مواد لتشييد كثير من المباني الحديثة[1] :

أتذكر أننا في أول يوم قدمنا فيه القاهرة (٨ اكتوبر) توجهنا إلى القلعة للتمتع بمشاهدة منظر المدينة العام . فهناك تمتد العاصمة الى السهل المتسع السفلي الذي يكسوه اللون الرمادي القاتم . وان منظر الضواحي التي بنيت منازلها من الطين وحده في غاية الكآبة . ويليها أيضاً أكوام القمامة والانقاض المنتثرة . وقد دعت الضرورة إلى شق الطرق خلالها . وترى في هذه الضواحي بعض الجوامع والمآذن المتبقية ، ظاهرة بشكل محزن ، شبيه بالموت . وهي أمتن من كل ما حولها . والآن ويا للاسف ! لا يقيم تحتها غير الكلاب ولا يعلوها غير اليمام والغربان .

لما أجلنا النظر حول محيط هذه الانقاض الكثيرة ، استطعنا أن نكوّن فكرة عن اتساع حجم المدينة القديمة . التي كان عدد سكانها فيما مضى ٨٠٠ر٠٠٠ نسمة . فأصبحوا لا يتجاوزون ٢٠٠ر٠٠٠ [2]

يوجد أسفل القلعة مباشرة ، وهي التي ترتكز على أساس صلب من حجر الجير ، عدد من المباني الطويلة والوضيعة ، الرمادية اللون ، ذات سطوح مستوية ، مغطاة بروث الجمال بدلاً من الاسفلت وليس لحيطانها نوافذ . ومنظرها كعلب الورق المقوّى. وارتفاعها

(١) أنشئت بعد ذلك العهد دار الآثار العربية وتألفت لجنة حفظ الآثار التي قامت باصلاح وترميم المباني الاثرية وعملت على المحافظة على بهائها وسالف مجدها (المترجم)

(٢) يبلغ عدد سكان القاهرة الآن نحو ٠٠٠ر١٠٠ر٢ (المترجم)

من ثمانية أقدام الى عشرة . يشغل كل منهـا سطحاً مساحته عشرون قدماً مربعاً . وهذه المباني هي ثكنات مؤقتة يقطنها الجنود مع زوجاتهم وأطفالهم في زحام شديد !

ان اللون الرمادي هو اللون السائد في المدينة بأجمعها . وترى هنا وهناك مآذن آية من آيات الفن المعماري ملونة باللون الأحمر والأبيض تسر الناظرين . أو ترى قبة جامع قديم تضفي على طول الصخر الزخرفي المنحوت . ثم ألقينا نظرة طويلة ، بكل سرور على الاهرامات البادية الاشراق في ضوء الشمس بين السديم الذهبي المشرق على الصحراء . ويوجد بينها وبين المدينة خط بهيج من الخضرة ، تلك أشجار يانعة ، وافرة الأوراق . وحقول متناثرة من القمح أو الذرة . ثم شاهدنا عن بعد مصدر جميع هذه البركات — النيل الذي يتألق كبحيرة عظيمة ، وسط الأشجار . وإلى يسارنا ، أجمة صغيرة من أشجار النخل ، تكون حافتها تخوم الصحراء . وإلى يميننا تمتد جبال المقطم الـكلسية كالجدار الأبيض المستقيم .

ان محيط القاهرة الجديدة ، لا يزال عظيماً جداً بالنسبة الى عدد السكان . فهي تبلغ ضعفي أو ثلاثة أضعاف مساحة برلين تقريباً . ويدخل في نطاق هذه المساحة طبعاً أكوام الخرائب الـكبيرة . وكذا الطرق في بعض الانحاء التي تـكاد تـكون خالية من السكان والتي يشمل أعظم جزء منها منازل متهدمة .

بعد أن نزلنا من أعلى قمة في القلعة ، بدأنا بزيارة الجامع الذي أمر بتشييده الباشا (محمد علي باشا) ولم يتم بناؤه . وهو بناء فخم ، فسيح جداً إلا أنه مزيج من النمط المغربي والنمط الحديث[1] ويرجع جماله بنوع خاص الى عمده المتخذة من الرخام الشرقي النفيس وقد أقيم منها خمسون عموداً . وان محاريب الجامع وأفاريزه الصفراء ومماشيه التي من الفسيفساء هي من أغلى أنواع الحجارة في مصر . ومن الغريب أن الباشا الذي يعنى بعدأن كثير من المباني ، لم يفـكر في إصلاح أحد الجوامع القديمة ذات الجمال المنقطع النظير[2]

(١) بنى جامع محمد علي باشا على نمط جوامع القسطنطينية (المترجم)

(٢) كان لمحمد علي باشا عذر في ترك تلك الجوامع الاثرية المتهدمة على حالها لان موارد مصر في عهده لم تكن تخول له الانفاق على اصلاحها . وقد أصلح ورمم عدد عظيم منها فيما بعد بفضل توفر المال وجهود لجنة حفظ الآثار (المترجم)

ثم إننا حاولنا ان نحصل على إذن لمشاهدة جزء من داخل قصر الباشا على الأقل . فحصل سايف قديم على ترخيص لنا بالدخول مع ان الترخيص كان قد رفض من قبل . وقد استولت علينا الدهشة وشعرنا بالخيبة عندما دخلنا حجرات الحاشية التي تحيط بالحديقة ، إذ وجدنا أنفسنا في حجرة الانتظار فاذا هي مفروشة بحصير وجدرانهـا مطلية بالجير الرمادي الخشن والخطوط الحمراء . ثم إن غرف الاستقبال نفسها . لا تفضلها ، فهي مؤثثة بالأرائك المتسخة والممزقة وتستند الى حوائط ينم شكلها عن انها كانت بيضاء فيما مضى . وبالساحة الأمامية ، فصيلة من جنود الرديف المصريين . ففتش فريقنـا الأجنبي المحب للاستطلاع ، أسلحتهم ومعداتهم تفتيشاً دقيقاً . والجنـدي المصري ليس قبيح المنظر . وقد يتبـادر للذهن عند رؤيته انه يعامل معاملة حسنة إذا لم نكن نعلم أن الآباء هنا غالباً ما يفقأون عين أحد أبنائهم أو يقطعون الأصبع السبابة لليد اليسرى لئلا يكون فريسة لقسوة معاملة الباشا للذين يعملون في الخدمة العسكرية (١)

يرتدي الجنود المشاة سترا فضفاضـة زرقاء وصديريات بيضاء ومناطق حمراء وأحذية بيضاء تبلغ الكعب وأخفافاً حمراً على أقدامهم العـارية . وغطاء الرأس طاقيـة حمراء تشبه غطاء الرأس عند اليونان . ويسمى في مصر بالطربوش .

يوجد بأسفل القلعـة ، بئر غريبة جداً ، هي البئر الوحيـدة في جميع أنحاء مصر لأن الأهالي على العموم يشربون ماء النيل . ويقال إنها بئر عميقة ، تعرف ببئر يوسف . لا يتجاوز عمقها عن ٣٠٠ قدم . محفـورة في صخـرة من حجر الجير . ويوجد حول البئر نفسهـا سلالم ملتفة مبنيـة بناء بديعاً . وللجدار الداخلي ، نوافذ تمد ذلك العمق الساحق ببصيص من النور .

وبالقرب من منفح القلعـة ، بناء جانبي صغير لاصق بهـا ، هو معرض الوحوش الذي أنشأه محمد علي باشا وبه بعض الأسد والضبـاع ، مربوطة إلى الحوائط : بسلاسل قوية هائلة بالقرب من أوكارها القذرة . غير ان الحيوان الذي يستحق الذكر ، هو النمر .

(١) لا يرجع السبب في ذلك الى سوء المعاملة كما تصور المؤلف بل الى قلة المرتب وحرمان أسرة الجندي من الانتفاع بعمله مدة طويلة (المترجم)

وقد زرنا عند عودتنا سوقاً . وان جميع طرق الأسواق متشابهة من حيث أن اتساعها لا يزيد عن أربع أو خمس خطوات . وهي غير مرصوفة ومغطاة بسقيفة تمتد من جانبي أدوار المنازل العليا . ويبدو منظرها مظلماً .

والتجار يبيعون البضائع الحريرية . وقليل منها مصنوع في مصر . فأغلبها يرد من القسطنطينية . وهناك بعض الخياطين يبيعون ملابس جاهزة . وترى كثيراً من الدلالين يحملون بأيديهم أسلحة فضية مموّهة بالذهب ، والشيلان والغلايين والشبك . انهم يجلسون القرفصاء وسط الزحام وأولادهم القذرون الصغار يمصون البرتقال الحلو و الرمان . وان ملابس هؤلاء الأطفال في العادة عبارة عن قمصان من القطن الأزرق ، ذات أكمام واسعة ، مربوطة بحبل أحمر من الصوف ، ملقى الى العنق ومتقاطع من الخلف . وقلما يلبس الاولاد العمائم . فهم يكتفون غالباً بالطرابيش . أما التجار الذين يبيعون أنواع الحرير والأقفام (وتسمى المدامس) فهم أتراك في الغالب نظاف ، يرتدون ملابس تركية جميلة . ويرتدي العربي الغني (يريد المصري) قميصاً أبيض وسراويل بيضاء ويتمنطق بحزام عريض من الحرير . أما سائر ملابسه فمؤلفة من سترة من نسيج الحرير أو القطن ، ذات كمين مفتوحين أو جلباب واسع يصل الى الكعبين ، وخفين أصفرين يليين جلده ، وعليهما خفان أحمران .

ترى نساء الفلاحين هنا في جموع من أطفالهن العرايا الذين يعلوهم الهوام يبعن نوعاً من الكعك المفرطح أو العجين ، نصف المخبوز أو العيش الأبيض والخيار والبرتقال الحلو . وملابسهن نوع من الرداء الأزرق الطويل ، ينتهي بغطاء يستر الرأس . والبرقع الأسود ممدود الى قصبة الأنف ومربوط بعصبك من نحاس مؤلف من ثلاثة أزرار صغيرة منظومة في سلك في طرف هذا الرداء الطويل المتدلي على الجبهة . ومع ذلك فكثيرات منهن حتى الفتيات قد أبطلن استعمال هذا البرقع المتعب الكريه . لذلك يستبدلنه بامساك طرف الرداء الطويل بين أسنانهن ويرمقن الأجنبي خلسةً . وقد انتشرت بينهن عادة تزجيج العيون بالكحل الأزرق القاتم وصبغ الأظافر بالحناء الحمراء حتى بين أحط الطبقات . وقد أكسبتهن عادة حمل الأثقال على رؤوسهن باستمرار ، رشاقة وتموجاً في المشي . فهن بهذا يمنعن أكمامهن الواسعة الطويلة من التدلي على أيديهن بما ألفنه من رفعها على رؤوسهن حتى صارت هيئتهن غريبة وجميع

حركاتهنَّ متوازنة ولا يلبسنَ أحزمة أبداً . لهذا تجد أخفهنَّ ذات هيكل سمين ومظهر ممتلىء وهنَّ مع حرصهنَّ على اخفاء وجوههنَّ لا يرتبنَ في التكشف ، لأننا نرى إتساعاً في فتحة الرداء من العنق . والسراويل جزء ضروري ، لكنهنَّ حفاة لا يستعملنَ الأحذية اذ أنها خاصة بنساء الطبقة الراقية اللاتي يظهرنَ في الشوارع عادةً ممتطيات الحمير ووراءهنَّ الخدم . وملابسهنَّ بيضاً ، غالباً بدلاً من الملابس الزرقاء ، وعلى رؤوسهنَّ برانس صغيرة من حرير أسود تتدلى على الاكتاف والظهور ، تباين بقية الملابس مباينة شديدة . ويجلسنَ على سروج الرجال من الجانبين بحيث يكون الركاب عالياً جدّاً فيعتلينه بغاية الصعوبة . ومن مظاهر الترف العظيم ، الخيول المطهمة ، وغطاء سروجها مصنوعة من قطيفة أرجوانية اللون مطرّزة بالذهب تطريزاً ثميناً ومثبت عليها رقائق من ذهب يتدلى منها كثير من الأهداب المزركشة . انَّ جميع الذين لهم أي اعتبار ، هم الأتراك وأغلبهم ينتمون الى الجيش ويرتدون ملابس تركية النمط ، عدا العمائم فانها قلما ترى بشكلها الأصلي الغالي . وهم يلبسون سراويل تستر الركبة ونوعاً من النكلزا أو غطاء الساق وسترة مزركشة ذات لون أزرق أو أحمر في الغالب ومنطقة حريرية عريضة فيها عدّة غدّارات وسيف قصير داخل غمد فضي . هذا ولبس الطربوش عام الشيوع . ومن المناظر المألوفة بين الجمهور المرح المختلط ، المختلف الأزياء ، القبطي بوجهه الأصفر وملامحه الدالة على الملق . أما ملابسه وعمامته ، فسوداء . والمحامون يلبسون عمائم سوداء أكبر (ا) وكذا مفسرو القرآن ، أما الأشراف ، فيلبسون عمائم خضراء كبيرة ، غير أني لم أرهم بالفعل إلاّ في المساجد .

في ثاني يوم من قدومنا القاهرة (٩ اكتوبر) ، ذهبنا نتنزه إلى ما يسمى مقابر الخلفاء ، فسرنا الى أقرب باب لتلال المقطم لزيارة أول مكان ، جامع قايتباي ، المشيد في القرن الخامس عشر (١) وهو بناء كبير ، نصفه متهدم ، يشبه المعبد ، وتعلوه قبة ومنارة لطيفة ، مستدقة الرأس . وقد سقط طلاء سقف الجامع ومحي الطلاء الجميل . أما الرسوم العربية التي تغطي جانب الحوائط وتحيط بالنوافذ ، فغير ظاهرة إلاّ في بعض الجهات مصادفة . وأما قضبان النوافذ الشعرية المصنوعة من البرنز الصب ، فلا تزال باقية بحالة

(١) بني جامع قايتباي سنة ١٤٧٠ م (المترجم)

جيدة ، وكذا زخارف الأبواب البرنزية . وليس هذا مما يدعو الى الدهشة بالنسبة الى جفاف الجو . ومع ذلك فقد طرأ تغيير عظيم على حجارة الأرض . فلم يبق منها غير آثار قليلة من الفسيفساء في الأفاريز وهي من رخام أصفر وأبيض . أما مقبرة قايتباي نفسها فهي تحت القبة فيها قطعة قديمة من حجر الصوان تمثل آثار قدم محمد (صلى الله عليه وسلم) وضريح السلطان ، داخل شبكة من الخشب المخروط . وقد كان فيما مضى مموهاً بالذهب ، وثقوبها ضيقة جداً بحيث لا يسهل رؤية المصحف الموضوع على القبر . ولا تتجلى عظمه نقوش القبة المنحوتة إلا بأجزاء منعزلة في جهات مختلفة . ومع هذا يمكن أن يقال أن البناء بوجه عام يستطاع إصلاحه بغاية السهولة.

ثم أننا ركبنا واجتزنا ساحة قفراء من الخرائب ، وهي عبارة عن تلال يبلغ ارتفاعها من ثلاثين الى خمسين قدماً مكونة من قطع من جرار وأنقاض مبان قديمة العهد ، منثورة أمامنا ، يتضح منها إتساع مدينة الخلفاء . وقد وصلنا سريعاً الى المدافن وبعضها محاط بالجدران . وتدل الجوامع القديمة والقباب على مقابر الخلفاء الموجودة في كل مكان . وكثير منها مغطى بالرسوم الجميلة المنحوتة في حجر الكلس نحتاً بديعاً كأن نسيجاً مطرّزاً تطريزاً دقيقاً قد ألقي عليها . فدخلنا أفخم هذه الجوامع الأثرية أعني جامع البرقوق الذي يرجع عهد انشائه الى القرن الرابع عشر [1] وهناك يخيم السكون بدرجة عظيمة لبعد الجامع عن المدينة . فلا تسمع الأصوات الحية إلا من الأطفال الصغار عند الأسوار وهم من الأسر الفقيرة الذين يقطنون في الفجوات الجانبية المجاورة .

في الجامع ساحة مكشوفة في منتصفها نافورة تظلها الأشجار وحولها أروقة مقنطرة ، تحملها عمد رفيعة مزينة برسوم عربية متنوعة . وقد صارت الشبابيك الخشبية رمادية اللون لطول عهدها . غير أن آثارها تدل على أنها كانت فيما مضى مموّهة بالذهب ، مما أثار إعجابنا بجمالها . وهذا الجامع لا قبة له . وإننا اذا أدرجنا الجوامع المتهدمة في الاحصاء ، بلغ عددها مائتين على الأقل . وسقيفة المدخل تعلوها قبة مرتفعة ، هي في العادة أنفس جزء فيه وتشمل قبر بانيه . ويشمل الجامع الأصلي ، ساحات فسيحة مكشوفة ، محاطة بعمد فاخرة .

(١) تم انشاء جامع السلطان برقوق سنة ١٤١٠ م (المترجم)

وفي الوسط ، فضاء واسع مربع الشكل مرصوف بالرخام ، يحيط به جدران أو عمد عالية مزينة . والمعقد العالي الوحيد ، هو قبة السماء المطلقة . وتقام الصلاة في هذه الساحة الداخلية وتحت العمد . ما أجمل هذه البقعة لعبادة الله ! إنها في الحقيقة لأشد مهابة وجلالاً من كثير من الكنائس القوطية حيث تؤدى العبادة في ظلام حالك . فهنا تبدو قبة السماء الرائعة نفسها بزرقتها الدائمة الطاهرة كأنها قبة هائلة مستقرة على تلك الجدران المرتفعة المبنية من الحجر المنحوت وفي وسط ذلك المربع المكشوف السالف الذكر ، نافورة مشيدة من رخام ويحاط بالحوض بعض أشجار النخل . هذا الحوض يشرب منه المصلون ويتوضأون . والحصر المصنوعة من سعف النخل مفروشة تحت صف الأعمدة . وهي في الغالب ستة صفوف أو سبعة صفوف من الرخام النفيس . وعلى هذا الجانب من البناء المتجه نحو مكة ، يوجد المحراب داخل الحائط وهو بناء نفيس كقدس الأقداس . وكل مسلم يخلع نعليه عند دخول المسجد . ولما كنا لا نستطيع خلع نعالنا بالرغم من رغبتنا في اتباع هذه العادة ، فقد كان ذلك مثاراً للاستغراب ، لا سيما في المساجد التي يكثر التردد اليها . وقد نجونا غير مرة من التعدي علينا بفضل همة القوّاس .

كان جامع المؤيد أقرب جامع لفندقنا على الجهة المقابلة للشارع المغطى (١) . إن مدخله عظيم يشبه كهفاً هائلاً مطعماً ذات مئات من الكوات الصغيرة في السقيفة الفخمة التي يبلغ ارتفاعها ستين قدماً .

وهناك ثريا ضخمة من برنز على شكل سفينة معلقة من القبة العظيمة بسلسلتين . أما السلسلة الثالثة فمكسورة والبيام معشش فيها . والقبة مغطاة في الأصل بخشب مخروط دقيق لا تزال بعض قطعه باقية . وتدل آثارها على أنها كانت مموّهة بالذهب . أما الساحة المكشوفة ونافورتها التي في الوسط ، فانهما في غاية الجمال . وقد رصفت الأرض بالرخام . ولم تطؤها أقدام الناس بأحذيتهم الخشنة فبقيت حافظة لمعانها حتى لقد اضطررنا الى لبس الاخفاف على أحذيتنا الاوربية .

إن جامع طولون متهدم الآن . وهو بناء كبير وقد خلف في نفوسنا أثراً عظيماً .

(١) شارع الخيمية والسروجية وهو مسقوف الى (الآن المترجم)

وأعمدته التي تحيط بالساحة الفسيحة المكشوفة بالوسط يبلغ ارتفاعها أربعين قدماً. ترتكز على عقود مدببة جميلة التناسب. وقد تهدمت الأجزاء الحديثة البناء في عدة جهات، فظهر البناء الأصلي الفاخر بجلاء ولا تزال بعض الأجزاء الخشبية المموهة بالذهب التي تكسو الجدران حافظة لشكلها مع أن الجامع مبني في القرن التاسع. ويوجد قليل من الألواح محفورة في الجدران، ذات نقوش كوفية بالقرب من المدخل الأصلي.

ثم اننا ألفينا في طريقنا جامعاً ثالثاً، هو الجامع المعروف بالأزهر الذي يفخر بقدميته وداخل سياجه، ساحة من الأرض في غاية السعة، بها أبنية منفصلة: بيت الفقراء ومأوى الحجاج ومكتبة وكلية شهيرة لتلقي العلم والقاء المحاضرات بواسطة الأساتذة، وحجر للاستحمام، وفيها يؤدي الحلاّق عمله. كل هذه الأقسام متصلة بذلك البناء العظيم ذي الأعمدة الكثيرة. وكان بالداخل جمهور من المؤمنين، بعضهم جالس بانحناء على الأرض يتلو القرآن وقد أخذ يهز الجزء العلوي من جسمه الى أعلى وإلى أسفل وهو يقرأ والبعض الآخر يشيعنا بالهمهمة والطقطقة ويشير الى أقدامنا كي نخلع أحذيتنا الكريهة. وفي هذه الأثناء، دافع عنا قواسنا من الاعتداء باستعمال السوط في كل جهة. وكان خدام الجامع بملابسهم السوداء الطويلة وقمصانهم الصفراء الداخلية يصوّبون بعض الضربات لحمايتنا.

في اليوم الرابع (١١ أكتوبر) زرنا أعظم جامع وهو جامع السلطان حسن القائم في مكان فسيح. وكان في ذلك الوقت أحد الحواة يقوم بألعاب مدهشة تخلب عقول المتفرجين الكثيرين من مختلف الأعمار والطبقات، الملتفين حوله. وكان أهم عمل شاهدناه من أعمال الشعوذة وخفة اليد، هو ضرب أحد النظارة بسوط مخيف ضرباً شديداً حول رأسه العاري. وكان هـذا الرجل المهرّج، طويل القامة، هزيل الجسم، أسمر اللون، وهذه لعبة خطرة. وكان هذا الرجل العاري الرأس يلوي نفسه بمهارة ليفادي كل ضربة ايَّا ملائماً بحيث أن السوط لم يمسه. هذا والمتفرجون يبدون سرورهم وإعجابهم بالاهتزاز ذات اليمين وذات الشمال ويجلسون في المقاهي أو على الأقل في أماكن بيع القهوة التي تشمل صناديق صغيرة كبيوت الدجاج، مصنوعة من سعف النخل المجدول حيث يجلس فيها الزوّار لشرب القهوة من فناجين صغيرة ويدخنون الغلايين. ثم يوجد هناك أيضاً

« الشربات »[1] موضوعاً على إحدى هذه المنصات ، أي الشراب من أي نوع ، كشراب الليمون أو المشمش أو البرقوق ، ممزوجاً بالماء . ولا شيء يضارع عندهم شراب البنفسج من بين هذه الأشربة . أما أنا فلا أميل الى الشراب الجنزاري اللون لأني أرتاب فيه .

يشغل الجامع العظيم حائزاً كاملاً من الساحة . وهو كأغلب الجوامع ، ملون بخطوط حمراء وبيضاء (لا أثر لهذه الخطوط الآن) غير ان لون الجدران هذا لايناسب مطلقاً جمال زخارف النوافذ . فلا بد أن ذلك قد نشأ في عهد انحطاط الفنون الجميلة في هذه الأيام الأخيرة لذلك صارت الجدران عديمة الصلة بالبناء الأصلي . وبروج البناء من البرنز الصب منتشر على النتوآت والزخارف الصغيرة التي لا تحصى للشكل الملتف غير المنتظم الذي يسهل تتبعه .

والسقيفة الداخليـة أيضاً بأقواسها المرتفعة والأبواب عند المدخل ، مزينة بكثير من الفجوات الصغيرة الدقيقة . الصنع ، المشابهة لرواشح المغاور الرائعة (ستالـكتيت) التي لا يمل الانسان فحصها أبداً . ان ارتفاع الجدران سبعون قدماً الى السقف . وهي كذلك مملوءة من هذه الرواشح المدلاة من هذه الفجوات مع أن صفاً منها يؤلف كرنيشاً تحتها ويؤدي المدخل الأصلي الى ضريح السلطان حسن وهو قبة عظيمة شاهقة . وأعلاها مزين بتلك النقوش المنحوتة الغريبة التي لا يسعني إلا أن أسميها بالفجوات المغطاة بالرواشح ، وعليهـا آثار كثيرة من التذهيب . والنوافذ نصف المكسورة هي من أبدع أنواع النقوش العربية ومملوءة بأنواع الزجاج اللامع ، المختلف الالوان غير أنها مرتفعة جداً فلا ينفذ منها إلا أشعة ضئيلة إلى الأسفل . والأرض مرصوفة بالموزيكو البديع الملون من البرفيرى وحجر الدم والرخام . وفي الوسط ، مقابل شرق الجدار الجانبي للبناء ، حجر الضريح . وهو حجر كبير بسيط مختف وراء شباك حديدي مزين بأنواع النقوش ، بعضها من حديد وبعضها من خشب تبدو عليه آثار التذهيب القديم . وعلى حجر الضريح ، القرآن العظيم مخطوط بحروف حمراء وحروف ذهبيـة ، قيل أنه مكتوب بخط ابن الحسن . وجميع ذلك موضوع في نفس البقعة عند أول بناء الجامع منذ خمسمائة عام تقريباً . وقد انقضى جيل بعد جيل على تهديد ذلك الجامع العجيب الذي أنفقت عليه مبالغ طائلة إلا انه لم يأت أحد

(١) كلمة تركية بمعنى شراب شائعة الاستعمال في مصر من العهد التركي (المترجم)

يتقن الفن ويملك من المال ما يستطيع به اصلاح ذلك البناء من التلف على مرّ الأيام. غير أن المهابة الدينية حفظته من أن يصاب بضرر أو أن تمس يد الانتقام هذه المزارات الأثرية ثم ان اعتدال المناخ كان من العوامل التي حفظت النقوش على الحجر والحديد، ولو كان هذ الجامع في جوٍ أقل لطفاً كما هو الحال عندنا، لحوّلته التقلبات الجوية الى ركام من الأنقاض والخرائب.

وكم من مرة كنت أتخيّل « ألف ليلة وليلة » عند ما كنت أخطو في هذه القاعات المرتفعة العجيبة، المهيبة ببساطتها، الساكنة والهادئة في عظمتها التي مع مضي الأجيال العديدة لم تطأها قدم. وكثيراً ما كنت أتذكر قسراً « أبا الحسن، صانع الحبال وعلي بابا الكفيف البصر ». وكنت أرى عند ما أسير في الشوارع، الصناع المجدين جالسين في حوانيتهم الصغيرة وهي عبارة عن مصاطب مجوّفة داخل الجدران، تتجه فتحاتها نحو الشوارع فتؤلف باباً ونافذة في آن واحد. والجزء الأمامي من كل جانب، مصنوع من الخشب، يجلس عليه المار لينجز عملاً أو ليتفكه بما يحب من الأحاديث. ثم ترى في الغالب المالك قاعداً القرفصاء. مستريحاً بسترته الحريرية النظيفة، وعمامته البيضاء. أو تراه بمطرقته فتسمع صوتها في الهواء أو يدخن بنرجيلته كدأب كل تاجر في السوق.

في نفس اليوم الذي ألقينا فيه نظرة عامة على جميع المساجد المعظمة تقريباً، تشرفنا بالمثول بين يدي الباشا. ففي الساعة السابعة مساء، قدمت مركبة فخمة تتلألأ بالذهب لتقلنا الى القصر. وجرى أمامنا عبدان وأحاط بالمركبة فرسان بملابس عسكرية وسارت سريعاً مجتازة شوارع المدينة الملتوية الضيقة.

لما وصلنا القصر، بادرنا بالنزول في الحال ورافقنا رئيس التشريفات الى الدرج. فدخلنا بهواً كبيراً إلاّ انه ليس فخماً إذ لا يحتوي إلاّ على أرائك حمراء. وفي احدى أنحاء الحجرة شمعدانان ارتفاعهما ستة أقدام وبينهما شمعة، أضيئت عند دخول الامير. وكان مترجم الباشا الذي يدعى خسرو بك رجلاً قصيراً، بديناً، ذا عينين مستديرتين نافذتين. فقدمنا إلى الباشا، فوثبنا بلا صعوبة على مقاعد عالية وكانت مهامزنا عائقاً مكدراً. وقدّم قائد القوات للأمير أولاً، غليوناً طويلاً مرصعاً بالأحجار الكريمة الثمينة. ثم قدّم لكل

مناغليونا مثله (وصواني) فضية عليها طاس الشبك . فدخنت بكل وقار وكنت في الوقت نفسه أجهد كل أعصابي كي أتابع ترجمة الحديث فلم يكن ذلك أمراً هيناً إذ كان مركزي في الجلوس بعيداً . ثم قُدمت الينا القهوة في فناجين صغيرة . والقهوة كانت حالكة السواد وساخنة جداً والعادة تقضي بضرورة شرب الفنجان دفعة واحدة (١) فلم أستطع ذلك بل أعطيت الفنجان للضابط الذي كان في الانتظار بعد أن تناولت جرعة واحدة فقط . تناول الفنجان وغطاه بيديه كما لو كان يحاول أن يمسك حشرة فيها (٢)

في يوم ١٣ اكتوبر ، تسلقنا أهرامات الجيزة . وبهذه المناسبة أقول ان جهة وضيعة كهذه ، واقعة على مسافة بعيدة من الاهرامات ، لا ينبغي أن تسمى باسمها . وقد زودنا الباشا بالخيول القوية الكريمة ، فعدونا الى أن وصلنا النيل ثم تقدمنا الى الجيزة حيث بدأنا بزيارة أفران التفريخ . هنالك غرفتان منخفضتان مبنيتان بالطين ، ترتفعان إلى جدران المساكن والفتحات على ارتفاع قدم واحد من الأرض ويبلغ ارتفاع قطرها قدمين وهناك ست منها على كل جانب من السكن ، ممتلئة تراباً ورماداً على ارتفاع نصف قدم تقريباً وبأسفلها أفران لتسخين البيض من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ بيضة مصرورة ويزحف رجل يومياً ليقلبها بكل عناية . ودرجة حرارة الغرفة العادية ٥ — ٣١ ترمومتراً (١٠٣ فهرنهيت) . وبعد مضي أحد عشر يوماً يفقس البيض لكن لا يفرخ إلا ثلث البيض أو أقل من الثلث . وتجري عملية التفريخ في خلال ثلاثة أشهر أو أربعة على الأكثر من السنة ابتداء من شهر مارس إلى ابريل . وهذا راجع على الأرجح إلى صعوبة الحصول على غذاء للفراريج (٣)

كان طريقنا من الجيزة بين أشجار النخل البهيجة وكان محصولها قد جني تواً . ثم ان مساكن الفلاحين العادية تحت أشجار النخل وهم لا يتخذون لانفسهم الأكواخ المبنية بالطين إلا عند الضرورة والشدة ويتجول أطفالهم حول المستنقعات وبقايا الفيضان طول النهار وهم يحرثون الأرض التي تحت النخل بمحراث في غاية البساطة ، ومع ذلك فان الحقول حسنة

---

(١) لا نعلم عادة كهذه في شرب القهوة في مصر (المترجم)

(٢) لم يصف المؤلف محمد علي باشا في هذه المقابلة ولا ما دار بينه وبين الامير في حديث وانا نشعر بهذا الفراغ (المترجم)

(٣) لا وجود لهذه الافران في الجيزة الآن (المترجم)

الزراعة كما يبدو لنا . لقد كان الجزء الأعظم من السهل لا يزال مغموراً بالماء ولذلك لم نستطع الاقتراب من الاهرامات إلاّ بعد أن درنا دورة عظيمة على طول جسر ضيق . وأخيراً بلغنا الصحراء ، حيث اجتزنا السهل على ظهور الخيول التي أرسلها لنا الباشا . فعدونا بأقصى سرعة نحو الاهرامات . وأغلب سكان القرى المجاورة من البدو ، فاندفعوا لاستقبالنا وهم يصيحون صيحات عالية . ورأيت من بينهم زنجيًّا من أهالي غربي أفريقيا ، غليظ الشفتين أفطس الأنف . فاختار كل منا رجالاً أدلاء منهم أو هم الذين اختاروهم . وعلى ذلك تقدمنا نحو الاهرامات

وشاهدنا أولاً أبا الهول الفخم الظريف . ومما يؤسف له ، ان رمل الصحراء الجيري يهدد على الدوام بدفنه . وان الصخرة الكلسية التي نُحت منها ، رقيقة وسهلة التفتت حتى أن أنفه قد تلاشى وتآكل صدره وكثرت فيه الثقوب .

ان الهرم الذي بدأنا بزيارته هو الهرم الأكبر لخوفو ، وعلى جداره الداخلي بالقرب من أعلى مدخل حجرة الملك ، الكتابة الهيروغليفية التي حفرها الأستاذ ليبسس . ونزلنا الممر الأول الذي يبلغ طول مدخله عُشر ارتفاع الهرم . وهنا ينتهي انتظام الدرج الخارجي الحجري . أما الحجارة فوق الفتحة ، فهي ضخمة أو هي كتل على شكل إسفين ، كل واحدة منها تقابل الأخرى . وقد نزلنا ومعنا عشرون شمعة ويساعد كل منا رجل . وتجشمنا مشقة في طرد بقية الجماعة . لم يتم ذلك الاّ بعد جلبة وضجيج ومع هذا حاول رجل أسود زائد عن الحاجة أن يندس وسطنا . وكان نزولنا الممر المنحدر بالانزلاق لا بالمشي ولذا اضطررنا أن نحني أنفسنا . وقد ساعدنا الأدلاء بقدر طاقتهم وحرصوا كل الحرص على منعنا من السقوط حتى وصلنا الى حجرة الملك ، وهي حجرة فسيحة مظلمة لا ينفذ منها أي شعاع من النور ومكونة من كتل من حجر الجرانيت وليس فيها غير تابوت من الجرانيت بلا صقل . ثم توجد حجرة أخرى تسمى حجرة الملكة ، بلغناها بالمشقة نفسها . وليس بها الاّ الوطاويط . فزحف أحد خدامنا الى أحد الممرات الهوائية التي لا تتجاوز أكثر من قدم مربع ، لكي يمسك بعضها . فساعده الحظ إذ أمسك قليلاً منها . الوطواط ذو ذنب طويل وأذنين تلتقيان فوق الأنف . وقد كان ارتقاؤنا عند عودتنا وتسلقنا الممر الخارجي

الضيق ، أشد صعوبة من نزولنا . وقد سررنا كثيراً لما تم لنا ذلك حيث لاح لنا ضوء النهار مرة أخرى . وبعد أن استرحنا هنيهة ، صعدنا سريعاً على جزء متهدم في الهرم الى القمة وهي ساحة متسعة ، مساحتها ثلاثون قدماً مربعاً . غير أننا وجدنا الحرارة بالغة أشدها . فاكتفينا ونحن على القمة بافراغ قارورة من الشمبانيا وشربناها في صحة مليكنا.

وقد تطوع أحد مرشدينا بالقيام بعمل باهر لا بنزول الهرم الأكبر الذي تسلقناه في أكثر من ربع ساعة ، بل بتسلق الهرم الثاني الذي لا يزال مغطّى من قرب قمته بغلاف بحيث لا يستطيع أي أوربي أن يصعده . وقبل انقضاء خمس دقائق ، سمعنا صوته وهو ينادينا من قمة الهرم الثاني . ثم بعد عدة دقائق ، كان معنا على قمة الهرم الاول من غير أن يلهث . يبلغ ارتفاع هذين الهرمين نحو ٤٥٠ قدماً تقريباً . أما ارتفاع الهرم الثالث الذي يقع على مسافة قليلة منهما ، فهو أقل بكثير . وبعد أن مكثنا مدة على القمة ، نزلنا الى السهل مجتازين وجه ذلك العمل العظيم . هذا الأثر الذي بقي طول هذه القرون الماضية سرًّا غامضاً . وكانت خيولنا واقفة في انتظارنا . فعزمنا أن نسلك طريقاً آخر . وما لبثنا أن وقفنا أمام أخدود حفر للري من النيل الذي يعبر الطريق . فخطونا ووصلنا لحسن الحظ سالمين الى الجهة المقابلة . مع أن الماء بلغ حتى سروجنا . وكانت الخيل تجفل من الكلاب التي كانت تسبح بالقرب منا . ثم واصلنا سيرنا مبتلين تماماً . وقد شاهدنا كثيراً من أسراب الطيور وأنواعاً شتى من طيور الصيد ، عدا زُمج الماء وأبي قردان والحداء ، مما حفزنا على الاقبال على مسرات الرياضة . ومع هذا لم نصد الا بومة بيضاء . ثم عبرنا خرائب قنطرة جميلة من عهد ملوك العرب القدماء . وعند المساء ألفينا أنفسنا عند الجيزة بعد أن اجتزنا حقول الذرة الناضرة الخضراء ، وبعدئذٍ وصلنا القاهرة

في يوم ١٥ اكتوبر ، في أشد حرارة الشمس الخانقة ، رحلنا الى سقارة ، فعبرنا النيل عند مصر القديمة . ومن ثمّ سرنا على الشاطىء الغربي للنهر لمسافة خمسة فراسخ ، مارين بأشجار النخيل . وشاهدنا في كل مكان الأهالي المسرورين الشباع وان كانوا في غاية القذارة . وكان بعضهم يشتغل باعداد النيلة وهم يغنون أثناء الغَسْلِ في أوعية من الفخار وأخيراً وصلنا « ميت رهينة » بجوار منفيس القديمة التي تمتاز عن سائر السهل بكثرة أكوام

الخرائب . وهي أشبه بالجبل في تكوينها من أجزاء المباني القديمة . هنالك لا ترى عموداً ولا قطعة من الرخام إلاّ أشجار النخيل . وقد نصب بعض البدو المتجولين خيامهم قريباً من تلك الجهـة المقدسة . فدعونا للدخول ومشاركتهم في شرب القهوة . وبعـد أن لبثنا معهم برهة ، سرنا على طول الجسر كما كنا إلى أن وصلنا الى خاتمة المطاف في مدة ساعتين ، وغطسنا في آخر بركة من الفيضان ، فانتعشنا وشحذنا شهوتنا للافطار الذي تناولناه على قاعدة أكبر الاهرامات ، وهو سهل الصعود ومبني على نسق هرم خوفو ، غير أنه أقل ارتفاعاً منه (وان كان يبلغ نحو ثلاثمائة قدم) وأشد نخراً .

وبعد أن اجتزنا روابي الانقاض العالية المتجمعة من الاهرامات العديدة والتي لا يزال جزء منها محاطاً بالجدران التي يسهل تتبعها بحيث انها ترى كأنها ساحات كنائس بالضبط نزلنا الى الحجرات الأرضية للمقابر القديمة . وكان مدخل واحدة من التي زرناها بين كتل الصخر مسدوداً برمل يعوقه . وبعد أن هبطنا عشرين قدماً ، دخلنا كهفاً مظلماً ، في ساحته الخلفية بهو جميل متسع ، مقام على أعمدة . وجميع حوائطه مزينة بلوحات هير وغليفية بديعة محفورة في الحجر الجيري الصلب . وعلى السقوف آثار نقوش ملونة لا تزال حافظة لروعتها وبهائها . إلاّ أن محبي الفن دمروها وسطوا عليهـا . وفي إحدى الفجوات العميقة بئر ، فتدلى إليها الـكونت (- ( ) بحبل . لـكنه بعد أن بلغ ٤٠ قدماً ، عند نهاية الحبل ، لم يستطع أن يبصر القاع .

تقع مقـابر موميات الحيوانات (عجول ابيس والثيران والخراف والأفاعي الخ) في الجهة المجاورة، بالقرب من قرية أبي صير ، لكننا لم نهتدِ اليها إلاّ بعد بحث شاق. ثم كان لا بدّ لنا من حبل طويل للنزول به الى الدهليز الممتلىء إلى النصف . فتدليت،ولما صحبت الى أعلى ولم أكن قد رأيت غير شيء قليل أو لم أرَ شيئاً ، زلقت يداي وانفلت الحبل الذي كنت أحاول الصعود به ، فسقطت الى القاع العميق بعد أن أشرفت على بلوغ القمة . وأخيراً حاولت الصعود بيديّ المسلوختين سلخاً فظيعاً . ثم ركبت حماراً بكل مشقة حتى وصلت النيل. ومن حسن الحظ أن وصلنا الى المنزل بطريقه ولولا ذلك لما استطعت إمساك اللجام أبداً.

وفي منتصف الليل ، وجدنا أنفسنا واقفين أمام أبواب القاهرة . وقد حدث حادث

معبد ، ولولاه لما تمكنا من دخول المدينة مع أننا كنا نجهل كلمة السر .

بعد ذلك ، رحلنا الى عين شمس ، التي هي أون القديمة ، مدينة الفلاسفة . بالقرب من المطرية الحديثة ، فلم نجد فيها شيئاً يستحق الذكر ، غير سطح مرتفع ، به مسلة منعزلة وخرائب كثيرة . وقد كانت عودتنا سارّة حيث سرنا تحت ظلال أشجار اللبخ بجانب أخدود من الماء ، متفرع من النيل . كانت الحقول ملأى بأشجار البامية والنيلة . وعند حدود قرية صغيرة محاطة بحقول شجر الخروع ، دخلنا حديقة بوسطها « مشتل » يبرز منها فوق الأرض رأس مسلة هائلة ، عششت على كتاباتها الهير وغليفية الزنابير . هذا وتحيط بكتلة الجرانيت ، أشجار المشمش والخوخ . ومن ذا الذي يعلم منظر المسلة داخل عمق يتراوح بين خمسين أوستين قدماً تحت سطح الأرض الحالي وما هي الحروف المكتوبة عليها ؟

قد تعرفت إثناء إقامتي في القاهرة بعدة شخصيات ، من أعظمهم ، طبيب الباشا وهو (كلوت بك) قد تعرّفت به منذ أن زرناه لأول مرة . وليس في منزله شيء ممتاز غير النعام والغزلان التي تجري في ساحته التي شاهدنا فيها أيضاً أسداً صغيراً أرسله إليه الاستاذ لبسيوس [١] من برلين تشتمل مجموعة الآثار المصرية التي عند كلوت بك على كثير من النفائس . إنه رجل حر الفكر وله آراء كثيرة مستقلة بصفته طبيباً وهو يجيد التعبير عن نفسه ويشرف كرسي التدريس لو أنه كان متعمقاً في العلم كطلاقة لسانه في الكلام [٢] وقد نال شرفاً عظيماً بسبب العمليات التي أجراها في قرح الجذام المنتشرة في الوجه القبلي وهي ليست نادرة في القاهرة . ثم انه صنف رسالة في طريقة اجراء العملية ، كتب مقدمتها الدكتور برنر وهو طبيب له تجارب عظيمة . وكان من بين مرضاه الذين عهد إليه بمعالجته الدكتور هليدهوس وقد شاهدته يجري عمليات ناجحة في اعوجاج القدم في نفس اليوم

(١) هو كارل ريتشارد لبسيوس (١٨١٠ — ١٨٨٤) عالم ألماني متضلع في علم الآثار المصرية وفقه اللغة . كان رئيساً لبعثة فردريك غليوم الرابع الى مصر (١٨٤٢ — ١٨٤٥) واكتشف وادي النيل و السودان (المترجم)

(٢) هو أنطون بارتلمي كلوت ويعرف بكلوت بك ولد بمدينة جرينوبل بفرنسا في ٧ نوفمبر سنة ١٧٩٣ ومات بمدينة مرسيليا في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٦٨ بالغاً من العمر ٧٥ عاما وكان طبيباً للمرحوم محمد علي باشا الكبير . وهو الذي أسس مستشفى ومدرسة للطب بأبي زعبل (المترجم)

الذي تحدد لتناولنا الطعام عند الباشا . أسرعت وعدت الى الفندق في حوالي الساعة الثانية والنصف لكني شاهدت ما أذهلني إذ وجدت مركبة الباشا التي أرسلت لنا قد غادرت المدخل . فيا للأسف لكم كنت أريد أن أحظى برؤية الباشا في الوليمة اذ كان من المحال أن تتاح لي فرصة أخرى لأن رحيلنا من مصر كان قد أزف .

في ١٧ اكتوبر سافر الكونت ج — الى السويس لاعداد الترتيبات اللازمة مع قبطان الباخرة « هندوستان » لرحلتنا . فرافقناه عند ما سار الى باب القاهرة في ساعة متأخرة من الليل ثم فارقناه عند مضرب خيام فرسان الحرس في الصحراء وتجولنا جولة سريعة في ضواحي العاصمة بقصد تكوين فكرة عامة عنها ولزيارة حديقة الباشا بشبرا وقد استغرقت هذه الجولة الأيام الباقية لنا في القاهرة

في مساء ١٩ اكتوبر بعد أن عدنا من رحلتنا اليومية عند ما كنا نتناول الشاي في شرفة الفندق ، سمعنا عويلاً مؤلماً ، ممزوجاً بالاهنات والسباب باللغة الفرنسية تحت نوافذنا مباشرة وشاهدنا رجلاً بملابس بيض وبلا حذاء ، يجري هنا وهناك أمام الساقية مشيراً اشارات عنيفة وهو في حالة قنوط مخيف ، فاذا به صاحب الفندق ، مسيو كولومب وقد التف الناس حوله يسألونه الخبر فحضر بعض الجير ان العقلاء بأيديهم المصابيح لانارة أعماق الحفر المخيفة وعجلات الساقية القديمة . وكان عمق سطح الماء عشرة أقدام تحت مستوى الأرض . وتحت ذلك أيضاً طين وماء لزج على عمق ١٥ قدماً بحيث اذا دنا أي انسان من حافة الحفرة ، سقط فيها ومات ثم لا يقدر أحد ان ينقذه

كان نزول هذه الحفرة في غاية الخطورة إذ لا بد من انقضاء زمن طويل حتى يجرؤ أي انسان على النزول . وبعد مضي نصف ساعة في محاولات كثيرة فاشلة ، تمكن بعض الحاضرين من النزول لاستخراج جثة شاب ، هو الأخ الأصغر لمسيو كولومب ، صاحب الفندق . وحالما عثروا عليه وأخرجوه ، وضعوه على الفراش . فخلعنا ثيابه فاذا به شيء من الحرارة . وكان الدكتور شليدهوس موجوداً معنا لحسن الحظ فساعدنا في محاولة إعادة حرارته . ثم حضر أيضاً كلوت بك بعد ان أرسلنا من يستدعيه مرتين . وأخذنا نعالج الشاب طول الليل وجلسنا الى جانب سرير الميت إلى الساعة الثانية صباحاً دون أن ننقطع عن تدليكه وتدفئته

وأخيراً أيقنا أن كل مجهود إنساني لاعادة حياته كان محالاً وأن معاونتنا كانت متأخرة . فأنشبت المنية فيه أظفارها . فما أشد هول تلك الليلة ! وفي الليلة التالية نفسها، شيعت الجنازة ببساطة أمام باب اخوان كولومب

فدكانت أمتعتنا أرسلت قبلنا إلى السويس في يوم ١٨ اكتوبر . وكنا قد تمكنا بفضل بعض الموظفين من الحصول على أماكن لرحلتنا في السفينة بالرغم من أن القبطان قد رفض في بادىء الأمر أن يقبل ركاباً يزيدون عن العدد المطلوب وقد بلغنا ونحن في الاسكندرية أن كل سرير قد حجز قبل ابحار السفينة من لندن فتوقعنا الانتظار في بمباي شهراً الى أن نبحر إلى جزيرة سيلان في يوم ٢٠ اكتوبر

ولما أسدل الظلام أستاره حول الأزبكية ، شاهدنا هجن الباشا واقفة أمام الفندق فكان أحدها مسرجاً بسرج بديع ويمتاز برشاقته وهو الذي أعد لركوب الأمير . أما سائر الهجن فكانت ضخمة، فأسرعنا وركبنا ميممين الصحراء . إلا أن بطء سير الهجن كان غير محتمل ومملاً . حتى إننا تعبنا في آخر الربع الساعة الأولى من استمرار الاهتزاز الى الامام والخلف على سروج مربوطة بقيود أو سيور وكانت الركائب عالية جداً وأقدامنا مرتفعة الى الوراء حتى تمنى كل واحد منا أن تنتهي الرحلة بأسرع ما يمكن . وقد كان التعب في الحقيقة شديداً لانني لم أكن قد نمت من الليلة الماضية المرعبة ولم أذق للراحة طعماً . فكنت أنام رغماً عن الاهتزاز العنيف الذي أشبهه بلعبة قذف النعاب في الحرام . فكان نوماً متعباً وكنت مع ذلك ، لشدة أسفي ، أستيقظ في كل مرة عند صياح السائق الذي كان يخشى سقوطي من هذا الارتفاع . بهذه الطريقة سرنا اثنتي عشرة ساعة . وأخيراً لحقنا عند أول بزوغ النهار بيتاً حسن البناء وسط الصحراء ، وكان رقم ٤ وهي احدى المحطات أو الفنادق التي بنتها شركة النقل لاستراحة المسافرين الذين يعبرون برزخ السويس بمركباتهم وقد أعدت لكل مسافر على شرط أن يدفع جنيهاً انجليزياً . أما سائر النفقات فكانت غالية نسبياً . وبما إننا كنا في غاية التعب فقد بادرنا الى هذه الاستراحة وتناولنا فطوراً عظيماً واسترحنا في أسرّة جميلة عدة ساعات

وحالما فترت حرارة النهار ، ركبنا مرة أخرى دوابنا الثقيلة لمواصلة سيرنا ولم نلبث أن غشينا الليل . ثم لما لاح القمر من بين السحاب ، خضعنا لسلطان النوم وخشينا أن نتفرق . وكانت الصحراء يابسة وقاحلة . وتوجد مرتفعات بعد رقم ٤ تجري من الغرب الى الشرق . ويقال أن بها أشجاراً كثيرة معدة للصيد . إلاّ أن النباتات الوحيدة التي شاهدتها هي الشيح الشديد الرائحة وأنواعاً شتى من الفاصول ورأيت أشكالاً غريبة طافية أمامي وأنا جالس على سرجي ، لكني لم أر ابن آوى أو الضبع أو اليربوع حتى على مسافة بعيدة في ضوء القمر .

أخيراً وصلنا ونحن في غاية التعب الى المحطة رقم ٦ في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم ٢٢ اكتوبر . وهنا طُلب منا جنيه ونصف ثمناً للقهوة والبيض .

وبعد أن قضينا عدة ساعات مؤلمة على ظهور الهجن ، طلع علينا النهار ولاح لنا نحو الشمال في ضوء الشمس القرمزي ، شكل سلسلة جبال وظهر البحر الأحمر أمام عيوننا . ثم حيتنا الطيور المألوفة في ألمانيا فشاهدنا الكروان وأبا فصادة في أغلب أنحاء الصحراء وكنا قبل ذلك تمتعنا بمشاهدة صديقنا القديم العزيز ، البجع في أسراب كبيرة بين أشجار النخل بسقارة .

وقد استجمعنا ما بقي لنا من قوة الاّ أن همتنا كانت قد خمدت سريعاً من شدة حرارة الشمس الساطعة التي جعلت اهتزازنا على الهجن في غاية المشقة وآلمتنا أقدامنا المتوترة حتى شعرنا بأن كل مفصل قد تصلب . وفي حوالي الساعة السابعة والنصف بعد الظهر شاهدنا السويس وهي بلدة صغيرة قذرة ، خرائب تملوها خرائب ، تلاقي العين في كل جهة . هذا والسائح يبحث فيها عن محل يناسبه ليقيم فيه ولكن بلا جدوى .

أما ما يسمى بالفنادق هناك ، فهي أسماء بلا مسميات لأنها لا تصلح الاّ أن تكون أعشاشاً للدجاج . مع ذلك لما جاءت الساعة التي طالما انتظرناها كان سرورنا بالغاً عندما بركت جمالنا وهي تئن أمام أحد هذه الفنادق الحقيرة !

ثم ما كدنا نجتمع حول مائدة الفطور حتى دخل علينا قبطان الباخرة هندوستان ليقدم لنا حجراً في الباخرة كلكتا وأحسن وسائل الراحة . لقد كانت هذه أخباراً سارة لأنا كنا قد يئسنا من الحصول على جواز لجزيرة سيلان مباشرةً بعد ما بذلنا من جهود

المدينة . وقد أنجزنا كل شيء في الحال وأرسلت أمتعتنا الى الباخرة بعباي ووضعت توا على ظهر الباخرة هندوستان .

وتحدد يوم ٢٥ اكتوبر لرحيلنا . وفي فترة الانتظار تجولنا في الجبال المجاورة، جبال عتاقة وهي تقع غربي السويس على بعد ثلاث مراحل من السهل وترتفع قليلاً عن سطح البحر وهي مغطاة بأحجار الكلس ولونها أسمر قاتم .

الى هنا تنتهي رحلة الدكتور هوفميستر في مصر وتبدأ رحلته هو وأمير بروسيا الى سيلان فالهند .



https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها ادارة المطبعة العصرية بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

صندوق بوستة ٩٥٤ مصر تليفون ٢٠ــ٥٦ مدينة

ص
٣٥ القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠ القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثالثة)
٣٥ القاموس العصري عربي انكليزي (طبعة اولى)
٧٠ القاموس العصري عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ القاموس المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ قاموس الجيب عربي انكليزي فقط
١٥ قاموس الجيب انكليزي عربي فقط
٧٠ قاموس سقراط عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠ قاموس سقراط انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠ قاموس سقراط انكليزي عربي وبالعكس
١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٥ في اوقات الفراغ
١٠ عشرة ايام في السودان
١٢ مراجعات في الادب والفنون
٢٠ روح الاشتراكية
١٥ روح السياسة
١٠ الآراء والمعتقدات
٢٠ اصول الحقوق الدستورية
١٠ الحضارة المصرية
٨ مقدمة الحضارات الاولى
١٠ الحركة الاشتراكية
٢٠ ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
١٠ اليوم والغد
١٠ مختارات سلامه موسى
١٠ نظرية التطور وأصل الانسان
٢٠ اناتول فرانس في مباذله
١٥ الدنيا في اميركا
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها
١٠ حصاد الهشيم
١٠ قبض الريح
١٠ نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديدة
١٠ الغربال في الادب العصري

ص
١٠ التربية الاجتماعية
٥ خواطر حمار
٨ التعليم والصحة
١٥ الحب والزواج
١٥ ذكراً وانثى خلقهم
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران)
١٥ اسرار الحياة الزوجية
٢٥ المرأة وفلسفة التناسليات
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها
١٥ الزنبقة الحمراء
١٠ تاييس
٠ مكايد الحب في قصور الملوك
١٠ القصص العصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد ، مصورة.
١٠ رواية فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨ رواية الانتقام المذب
٨ فقر وعفاف
١٢ رواية باريزيت ، مصورة
١٢ غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ رواية روكامبول ، ١٧ جزء
٢٥ رواية ام روكامبول ، ٥ اجزاء
٢٠ رواية باردليان ، ٣ اجزاء
٢٠ رواية الملكة ايزابو ٤ اجزاء
٢٠ رواية الاميرة فوستا ، جزآن
٢٠ رواية عشاق فنيسيا ، جزآن
١٦ رواية كابيتان ، جزآن
١٦ رواية الوصية الحمراء ، جزآن
١٥ رواية فلمبرج ، جزآن
١٠ رواية فارس الملك
١٠ رواية ضحايا الانتقام
٥ رواية المتنكرة الحسناء
٥ رواية مروضة الاسود
٥ رواية شهداء الاخلاص
١٢ رواية المرأة المفترسة

هذه الاثمان بالقرش المصري ويضاف اليها اجرة البريد

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق

في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩

في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حمصي

في دمشق — شملان — الشهداء الاستاذ السيد حمدي القواص

في شرقي الاردن — عمان الاستاذ يعقوب عودات

في فلسطين الأستاذ مصطفى الطاهر

مدير مكتبة الطاهر اخوان — يافا — شارع الملك جورج

في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد

في حلب شارع السويقة السيد عبدالودود الكيالي وأولاده أصحاب المكتبة المصرية

في صيدا نقولا افندي حربصي داغر — صيدلية الهلال

في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في الارجنتين
Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا
Mr. Naguib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدما

ثمن سنة
ـــ

١٢٠ في القطر المصري والسودان

١٤٠ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»

٧ دولارات لاميركا الشمالية

٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين

وفي سائر الجهات ٣٠ شلناً

ملاحظة: { يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم }

مطبوعات المقتطف

في ادارة المقتطف طائفة من أفيد الكتب العصرية والعلمية والروايات الأدبية الفائقة

م		م	
٥٠	معجم الحيوان : للفريق الدكتور امين باشا المعلوف	٢٠	رجال المال والاعمال : للمقتطف
٣٥	بسائط علم الفلك : للمقتطف	٢٠	رسائل الارواح : للمقتطف
٣٥	فصول في التاريخ الطبيعي : للمقتطف	١٥	رواية فتاة مصر : للدكتور يعقوب صروف
٤٠	آفاق العلم الحديث : للاستاذ فؤاد صروف	١٥	رواية اميرة انكلترا : للدكتور يعقوب صروف
٣٥	مختارات المقتطف : جمعها الاستاذ حنا خباز	٣٠	نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية
٤٠	الرواد : للمقتطف	٢٠	صقر قريش : للاستاذ علي أدهم
٣٠	مصر الاسلامية : لجماعة من الاساتذة	١٥	معجم الاحلام : جزء اول للاستاذ اسبيرو جسري
٢٥	هندسة الكون : للاستاذ نقولا الحداد	٢٥	القضايا الاجتماعية : للدكتور هبندو
٢٥	تراث مصر القديمة : لجماعة من الاساتذة المصريين	٣٠	موكب الحياة .

هذه الاسعار يضاف اليها ٢٠ ٪ اجرة البريد في داخل القطر المصري وخارجه

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق

في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩

في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حصني

في دمشق — شملان — الشهداء الاستاذ السيد حمدي القواص

في شرقي الاردن — عمان الاستاذ يعقوب عودات

في فلسطين الأستاذ مصطفى الطاهر

مدير مكتبة الطاهر اخوان — يافا — شارع الملك جورج

في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد

في حلب شارع السويقة السيد عبدالودود الكيالي وأولاده أصحاب المكتبة المصرية

في صيدا نقولا افندي حربص داغر — صيدلية الهلال

في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في الارجنتين Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا Mr. Naguib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدما

عن سنة

ش

١٢٠ في القطر المصري والسودان

١٤٠ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»

٧ دولارات لاميركا الشمالية

٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين

وفي سائر الجهات ٣٠ شلناً

ملاحظة { يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم }

مطبوعات المقتطف

في ادارة المقتطف طائفة من أنفس الكتب العصرية والعلمية والروايات الأدبية الفائقة

م		م	
٥٠	معجم الحيوان : للفريق الدكتور امين باشا المعلوف	٢٠	رجال المال والاعمال : للمقتطف
٣٥	بسائط علم الفلك : للمقتطف	٢٠	وسائل الارواح : للمقتطف
٣٥	فصول في التاريخ الطبيعي : للمقتطف	١٥	رواية فتاة مصر : للدكتور يعقوب صروف
٤٠	آفاق العلم الحديث : للاستاذ فؤاد صروف	١٥	رواية اميرة انكلترا : للدكتور يعقوب صروف
٣٥	مختارات المقتطف : جمعها الاستاذ حنا خباز	٣٠	نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية
٤٠	الرواد : للمقتطف	٢٠	صقر قريش : للاستاذ علي أدهم
٣٠	مصر الاسلامية : لجماعة من الاساتذة	١٥	معجم الاحلام : جزء اول للاستاذ اسبيرو جسري
٢٥	هندسة الكون : للاستاذ نقولا الحداد	٢٥	القضايا الاجتماعية : للدكتور هيندو
٢٥	تراث مصر القديمة : لجماعة من الاساتذة المصريين	٣٠	موكب الحياة .

هذه الاسعار يضاف اليها ٢٠ ٪ لاجرة البريد في داخل القطر المصري وخارجه

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق

في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩

في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حصني

في دمشق — شعلان — الشهداء الاستاذ السيد حمدي القواص

في شرقي الاردن — عمان الاستاذ يعقوب عودات

في فلسطين الأستاذ مصطفى الطاهر

مدير مكتبة الطاهر اخوان — يافا — شارع الملك جورج

في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد

في حلب شارع السويقة السيد عبد الودود الكيالي وأولاده أصحاب المكتبة العصرية

في صيدا نقولا افندي حريصي داغر — صيدلية الهلال

في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في الارجنتين Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا Mr. Naguib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدماً

عن سنة

١٢٠ في القطر المصري والسودان

١٤٠ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»

٧ دولارات لاميركا الشمالية

٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين

وفي سائر الجهات ٣٠ شلناً

ملاحظة { [يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم]

سلسلة كتب شهرية للجيب يشترك فى وضعها
أشهر الأدباء فى مصر وسائر البلاد العربية.

- « مشروع جليل القدر كبير الفائدة عظيم الأثر فى تغذية الأدب والثقافة » ...
- « زاد فكرى فى مختلف أبواب العلم والأدب يستسيغه الجمهور وترضى عنه الخاصة » ...
- « هذه السلسلة جهد فى سبيل نشر الثقافة وترقية الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات » ...

المقتطف

يوزعه

في فلسطين : شركة فرج الله

في لبنان والشام : شركة فرج الله وحتي اخوان

في العراق : محمود حلمي

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق

في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩

في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حصني

في دمشق — شعلان — الشهداء الاستاذ السيد حمدي القواص

في شرقي الاردن — عمان الاستاذ يعقوب عودات

في فلسطين الأستاذ مصطفى الطاهر

مدير مكتبة الطاهر اخوان — يافا — شارع الملك جورج

في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد

في حلب شارع السويقة السيد عبدالودود الكيالي وأولاده أصحاب المكتبة العصرية

في صيدا نقولا افندي حريصي داغر — صيدلية الهلال

في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في الارجنتين Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا Mr. Naguib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y.—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدما

عن سنة

١٢٠ في القطر المصري والسودان

١٤٠ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»

٧ دولارات لاميركا الشمالية

٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين

وفي سائر الجهات ٣٠ شلناً

ملاحظة { [يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم]

المقتطف

يوزعه

في فلسطين : شركة فرج الله

في لبنان والشام : شركة فرج الله وحتي اخوان

في العراق : محمود حلمي

مؤتمر

حلقة الدراسات الاجتماعية

الدورة الثانية

المنعقد بسراي الجمعية الزراعية الملكية بالجزيرة

بدعوة من الحكومة الملكية المصرية

من ٢٢ نوفبر – ١٨ ديسمبر ١٩٥٠

بحث

في المشكلات الريفية في العالم العربي

مطبعة المقتطف والمقطم

١٩٥٠

تصدير

احتفل في الساعة العاشرة من صباح الأربعاء ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٥٠ في دار الأوبرا الملكية بالقاهرة بافتتاح الدورة الثانية لحلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية برعاية حضرة صاحب الجلالة الملك الذي أوفد سعادة الدكتور حسين حسني باشا السكرتير الخاص لجلالته مندوباً عنه لافتتاح الحلقة .

وقد شهد الاحتفال أعضاء الوفود العربية المشتركة في الدورة وهي الممثلة للجامعة العربية ، ومندوبو الدول الذين حضروا كمستمعين ويمثلون تونس ، والجزائر ، ومراكش ، وليبيا ، وإيران ، والأرجنتين ، وبريطانيا ، وأمريكا ، وفرنسا ، ومندوبو الجامعة العربية ومؤسسة التغذية والزراعة ، والهيئة الصحية العالمية ، واليونسكو ، وهيئة العمل الدولية ، والسير رفائيل سلنتو مدير الحلقة المنتدب من هيئة الأمم المتحدة .

كما شهد الاحتفال أصحاب المعالي الأستاذ مصطفى نصرت بك وزير الحربية والبحرية ، والأستاذ ابراهيم فرج بك وزير الشئون البلدية والقروية ، وإسماعيل رمزي باشا وزير الأوقاف ، وسعادة علي زكي العرابي باشا رئيس مجلس الشيوخ ، وسفراء ووزراء انجلترا، وأمريكا ، والهند ، واليونان ، ويوغوسلافيا ، وأندونيسيا ، وأستراليا ، وروسيا .

وبدأت الحفلة بكلمة ألقاها معالي الأستاذ محمد الوكيل بك وزير الشئون الاجتماعية بالنيابة بدأها بقوله : — إنه لشرف عظيم لي أن أتقدم باسم أعضاء الحلقة راجياً أن ترفعوا الى مقام جلالة الملك أخلص آيات الشكر وأعمق شعائر الولاء على تفضل جلالته بوضع الحلقة تحت رعايته السامية . ورحب معاليه باسم الحكومة المصرية بحضرات مندوبي الدول المشتركة في الدورة الثانية للحلقة التي تعد مظهراً لنمو الوعي الاجتماعي بين ربوع الشرق العربي ودليلاً على الرغبة الأكيدة في توفير أكبر قسط من العدالة الاجتماعية لشعوبه.

ثم قال إن الحكومة رأت أن يقتصر البحث في الحلقة على دراسة المشكلات الريفية في العالم العربي ، إذ أن أهل الريف يمثلون نحو ثلاثة أرباع سكانه وهم في حاجة إلى كثير من الجهود المتصلة لاصلاح أحوالهم ورفع مستوى معيشتهم ، ومن حقهم أن تتضافر الجهود في سبيل إدراك هذه الغاية ، ثم قال « ولا شك إن هذا التخصص في البحث والدراسة كفيل بتقرير برنامج عملي مفصل للنهوض بالريف وأهله يراعى فيه إمكان تطبيقه بما يلائم ظروف كل دولة وأوضاعها المحلية .

« وهكذا تصبح هذه الحلقة مظهراً جديداً للتعاون الوثيق بين الدول العربية

الشقيقة التي تماثل ظروفها فتمضي في بذل الجهود المشتركة للوصول إلى إصلاح أقليمي ينظم هذه المنطقة التي كانت مهداً لأعرق حضارة أضاءت أنوارها ظلمات العالم من قديم الزمان».

وأعقبه سعادة محمد حسن العشماوي باشا فألقى خطاب سعادة عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية . وقد استهله بالترحيب بوفود المؤتمر باسم الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ثم قال : إن الحلقة تعالج المشكلات الاجتماعية وهي تعدُّ دليلا قاطعاً على اطراد التعاون وتطوره بين الأمم المتحدة وبين جامعة الدول العربية بوصفها منظمة أقليمية تمثل وحدة من أعظم الكتل الدولية . ثم عرض سعادته لمشكلات الريف والعامل والإنتاج القومي، والاقتصاد الوطني، والاستقرار الداخلي، ورجا انتهاج أسرع الوسائل التي تؤدي إلى التغلب على جميع هذه المشكلات .

ثم توالى رؤساء الوفود العربية إلقاء كلمات بهذا المعنى نفسه .

واختتم الحفلة السير رفائيل سلنتو بكلمة أشار في مستهلها إلى تقديره لاستجابة الدول العربية لدعوة الحكومة المصرية في هذه الحلقة ونوّه بما قامت به مصر مع شقيقاتها الدول الأخرى في سبيل نجاح الحلقة . وقد أختير موضوع الخدمة الريفية لأن ٨٠ ٪ أو ٩٠ ٪ من سكان بلدان العالم العربي ريفيون يستمدون معاشهم الأساسي من الأرض . ويجب تحسين الظروف المعيشية لهذه الغالبية الساحقة من سكانها . وقد حققت مصر الشيء الكثير في هذا الميدان وما زال الشيء الكثير ينتظر التحقيق في مصر وغيرها من البلاد العربية ، ثم قال : والآن إذ تتجه الأبصار إلى مندوب جلالة الملك وهو يعطي إشارة الابتداء لجهودنا ، نشعر أننا قد وصلنا إلى نقطة تاريخية في موكب تقدمنا على أسس علمية حديثة في الشرق الأوسط . وعلى أثر ذلك نهض سعادة الدكتور حسين حسني باشا مندوب صاحب الجلالة الملك فأعلن افتتاح الدورة . وعزفت الموسيقى النشيد الوطني .

وافتتح معالي الدكتور أحمد حسين بك رئيس المؤتمر اجتماعه الأول بالقاء كلمة ترحيب بأعضاء الوفود وقد أعرب فيها عن رجائه بأن تكون لهذا المؤتمر الكبير ثمراته المرجوّة في النهوض بالقرية والفلاح في جميع البلدان العربية ، كما شكر معاليه الجمعية الزراعية الملكية على تقديم سرايها لاجتماعات المؤتمر .

ويرحب المقتطف برؤساء الوفود العربية ، ويسره أن ينشر خطبهم في ملحق خاص مساهمةً منه في تزكية الجهود التي تبذل في حل المشكلات الريفية في العالم العربي عامة والقطر المصري خاصة ، وتقديراً للاتجاه العلمي الذي سلكه أعضاء هذا المؤتمر ، وتحية كريمة لهم .

دار المقتطف في ١٨ ديسمبر ١٩٥٠

الدكتور
اسبيرو جبري
رئيس تحرير المقتطف

أهم العوامل التاريخية والاقتصادية والاجتماعية

المسببة للوضع الراهن لسكان المناطق الريفية في البلدان العربية

تعقيب للاستاذ سعيد حميده (لبنان)

لا نرى مسوغاً للتبسط في وصف حالة المناطق الريفية في البلدان العربية ، ليقيننا بأن هذا الحفل الكريم يلمّ بها الماماً شاملاً . حسبنا أن نذكر أن الفقر المدقع ، وسوء التغذية، وانعدام وسائل الصحة ، ورداءة المسكن ، والقذارة ، والمرض ، جميع هذه خصائص ملازمة لحياة الجماهير في المناطق الريفية ، وانه لا شبيه لها في الغرب ، سواء أكان ذلك من جهة انتشارها وشيوعها أم من جهة عنفها واستمرارها .

ومن نكد الطالع أن الناس ينظرون الى هذه الحالة الزرية على أنها أمر لا مرد له ، أو على حد قول الذين هم أحسن تفاؤلاً من أولئك ، انها حالة عارضة وستزول حسب مبدأ التطور والتغير . وكان من نتائج هاتين النظريتين للحالة الريفية أن الناس أصبحوا ينظرون اليها نظرتهم الى أمور عادية طبيعية ، وعندما كانت تتخذ بعض الاجراءات لاصلاح ما أفسده الدهر كانت تتسم هذه الاجراءات بميسم المخدرات الوقتية . وأنتم ترون أن كلتا النظريتين خاطئتان ، فالنظرية الأولى غير علمية ، بل ترتكز على الايمان بالقضاء والقدر المحتوم ، والثانية لا يدعمها شاهد من شواهد تاريخ العرب الحديث .

وليس من المبالغة بشيء إذا قلنا أن مستقبل البلدان العربية ومقدراتها تتوقف الى حدّ بعيد على حل المشاكل الريفية ، إذ لا يرجى اصلاح ما في الحياة الاجتماعية ولا في الحياة الاقتصادية بينما ما يقرب من ثلاثة أرباع السكان يعيشون على هذا المستوى المنخفض. وإذا قلنا إن هذه حالة حتمية ، أو أن هذه حالة يمكن أن تزول من تلقاء نفسها ، نكون كمن يساعد على بقاء العالم العربي في مؤخرة القافلة الانسانية ، وفضلاً عن هذا فاننا سنجد أن الشقة بين الغرب وبين هذه المناطق من حيث التقدم والعمران ستزداد بعداً على مرّ الزمن . فمن جهة نجد أن القوى الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية في الغرب موجهة ومدى توجهها في ازدياد . ومن جهة ثانية نجد أن القوى والعلاقات الطوعية هناك هي أكثر فاعلية في احداث التطور المرغوب فيه، وذلك بسبب اتساع المجال للنشاط الفردي والاعتماد على النفس

ألقيت بتاريخ ٢٣ نوفمبر ١٩٥٠

وعليه إذا كانت الحكومات العربية ترغب في انهاض شعوبها الى مستوى الغرب في الاجتماع والسياسة ، فان واجبها الأول هو تنمية المناطق الريفية باتخاذها اجراءات أساسية . وعليها أن تدرس العوامل التي أدت الى تأخر المناطق الريفية وأن تحللها تحليلاً دقيقاً ، وأن ترسم الخطط لاستئصالها وأن تضعها موضع التنفيذ ، مستمدة عونها من العلم والتجارب . أما أن تتكل على النشاط الفردي ، والحالة على ما هي عليه الآن ، أو أن تلجأ الى الاجراءات المخدرة فتلك أساليب لا يمكن أن تؤدي الى تغيير جوهري . وإذا لم يشرع في الحال في اتباع خطة انشائية فعالة فقد يسبق السيف العذل ، لأن أهل الريف في حالة تيقظ ، وقد بدأوا يدركون أسباب شقائهم ، ويشهد على ذلك التذمر الذي أخذ يبدو ويزداد تقريباً في كل مكان ، فاذا لم تحل مشاكلهم بطرق مشروعة فالمتوقع أن يحلوها هم أنفسهم عن طريق العنف والثورة .

وفي ما لدي من الوقت سأحاول أن ألخص لحضراتكم بايجاز العوامل التاريخية والاقتصادية والاجتماعية التي تركت أثراً في الحياة الريفية في الاقطار العربية لعل في عرضنا لها ما يلقي بعض النور على امكانيات حلها وعلى الاجراءات التي يجب أن تطبق .

ربما كان أبعد العوامل التاريخية أثراً في نشوء هذه الحالة المؤسفة في الحياة الريفية النظام الاقطاعي ، وفساد الادارة العثمانية ، والنقص في القوانين العثمانية المتعلقة بالأرض. ولكن بمجرد أن نأتي على ذكر عاملين تاريخيين أقدم من العهد التركي :

أولاً - الحروب التي وقعت في هذه البقعة من الأرض بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر .

ثانياً — احتقار البدو المزمن للفلاحة والفلاحين .

هذه الحروب — ولا سيما الغزو المغولي جعلت الفلاحين يفقدون الطمأنينة والاستقرار ، وفرضت عليهم ضرائب مجحفة جائرة ، وعرضتهم لمختلف أنواع الاستغلال. وفضلاً عن هذا نجد أن قسماً كبيراً من نظام الري قد دمر أو خرب ، وعاد الفلاح يعتمد على الزراعة المطرية التي تعود عليه بريع أقل من الزراعة التي تعتمد على الري المنظم، ولم تقتصر القبائل البدوية على احتقار الزراعة والزراع فحسب ، بل كثيراً ما كانوا يغزون القرى الزراعية وينهبون الزرع والضرع ، ولذا كان البدو عاملاً في دفع المزارعين من المناطق المحاذية للصحراء الى المناطق الآهلة اتقاء لشرهم . وقد انتقلت عدوى الاحتقار إلى أهل المدن أيضاً ، بما فيهم أصحاب الاقطاع - الذين كثير منهم كانوا من قبل رؤساء قبائل — فان هؤلاء كانوا يزدرون الفلاحة ويحتقرون الفلاحين . وظلت هذه النظرة ، نظرة الاحتقار

للزراعة ، على أشدها تقريباً حتى آخر الحرب العالمية الأولى ، عندما أخذ احتقارهم لها يقل. ولكننا نستطيع أن نقول إن أكثرية أهل المدن لا يزالون يحتقرون الأعمال الزراعية فلا عجب إذا رأينا الفلاح خاملاً ، تنقصه الحوافز الداخلية لتحسين عمله ، لا يحترم نفسه ولا يحترم عمله.

إن اقطاعية الشرق الأوسط ، كشبيهتها الاقطاعية الأوربية ، جعلت من الفلاح عبداً يعتمد في حياته على مشيئة صاحب الأرض ، ولكن تختلف عنها في أن اقطاعية الشرق الأوسط لم تتميز بميزات الأرستقراطية التي كانت تتميز بها طبقة الملاك في أوربا ، ونخص بالذكر انعدام الصلة الشخصية بين الاقطاعي والفلاح ، فان الاقطاعي في الشرق الأوسط — في غالب الأحيان — لم يكن يقيم في مزرعته أو اقطاعيته ، ولذلك لم تنشأ صلات اجتماعية بينه وبين فلاحيه ، فلم يكن هنالك جو من الشعور المتبادل يستطيع فيه المالك ان يتفهم بروح العطف حالة البؤس التي وجدت هذه الطبقة الكادحة نفسها فيها : ولم يكن ليعير أقل اهتمام لتحسين الأرض ، بل كان همه حصته من الغلال (ايجار الأرض) والضرائب والخدمات التي كان يفرضها على الفلاحين . ويعود بعض هذا إلى نظرة الازدراء للفلاحة التي جئنا على ذكرها ، لكنه يعود بالأكثر الى نظام الاقطاع زمن المماليك والأتراك الذي بموجبه لم يكن يحق لصاحب الأقطاع التصرف المطلق بملكية الأرض ، بل كان له ريعها وحسب نظام تضمين الضرائب كان له قسم من الضرائب فقط . ويجب أن نذكر أن حق التصرف بالأرض في العهد التركي كان يعطي للفلاحين بشرط أن لا يحدثوا فيها ما يغير شكلها بغرس الأشجار أو بناء البيوت مثلاً حتى لا يؤدي ذلك إلى خلق حق لهم في الأرض ولم يأت الغاء الاقطاع سنة ١٨٣٩ ، ولا الاصلاحات الرامية إلى جعل الفلاح مالكاً الأرض التي يحرثها بنتائج فعالة مرضية . فان طبقة من الجشعين (المتنفذين) حلوا محل الاقطاعيين القدماء ، مع فارق واحد هو انه لم تكن لهم الامتيازات الشرعية التي كانت تعطى للاقطاعيين ، وسبب قيام هذه الطبقة التي حلت محل الاقطاعيين جهل الفلاح وغباوته ، وفساد الحكم المتجسد في الموظف ونقص فاضح في التدابير التي اتبعت في احداث الاصلاح . وكانت النتيجة أن ظل الفلاح أجيراً يعمل على أرض تخص مالكاً يسكن مدينة بعيداً عن أرضه ، وظل عرضة لمعاملة فيها قسوة وعنف كتلك التي كان يتعرض لها الفلاحون زمن الاقطاع . وقد ندر أن تمكن الفلاحون من تحرير أنفسهم عن طريق الثورة وحصلوا على ملكية الأرض التي كانوا يحرثونها .

وفي زمن الانتداب وبعده ، أخذ المالك يفقد بعض سلطته ونفوذه بين الفلاحين .

أما مدى هذا التحرر فقد كان يختلف بين قطر وآخر، وأحياناً بين مقاطعة وأخرى في نفس البلاد. ففي كثير من الأماكن لا يزال الفلاح كالعبد يطيع أوامر سيده المالك حتى وان كانت هذه الأوامر تخالف الشرع والقانون. وهذا يصدق كثيراً عندما لا يكون لسلطة الحكومة أثر بيّن في أوساط الفلاحين، أو عندما يكون صاحب الأرض ذا نفوذ كبير في دوائر الحكم. وفلاحو شيوخ القبائل لا يزالون شبه عبيد عند الشيخ بكل ما في الكلمة من معنى، ولا سيما إذا كان شيخ القبيلة زعيمهم الديني في الوقت نفسه. وفي كثير من الأحيان يكون للشيخ تمام السلطة والسيطرة على أتباعه من القبيلة. فانه فضلاً عن جمعه الضرائب المفروضة للحكومة، يفرض ويجبي ضرائب خاصة له، ويقيم نفسه حكماً أو قاضياً في المنازعات التي تنشأ بين أفراد القبيلة.

وكان من نتائج عهد الاقطاع افقار جزء كبير من أهل الريف ووضعهم في حالة نفسية مزرية، ونشوء (تمركز) شديد في ملكية الأرض الذي أدى إلى انتشار نظام الايجار (بالحصة) الذي سأعود إلى الكلام عنه قريباً.

وربما كان فساد نظام الحكم التركي أهم عامل من عوامل التاريخ الذي نجم عنه شقاء أهل الريف وبؤسهم. فانه كان نظاماً يتميز بالظلم، والجمع بين السلطة المدنية والدينية، وبعدم المبالاة بالاقتصاد الوطني. فأبقى جماهير الشعب في حالة استعباد سياسي، يؤمنون بالقدر المحتوم، وعلى جانب كبير من الجهل والخمول. فلم تعر الحكومة التركية التعليم العام أهمية تذكر (وهذا مما يفسر لنا نشوء الأوقاف وتأسيس المدارس الطائفية). ولم تهتم كثيراً بالري حتى ولا بترميم السدود والقنوات التي خربتها الحروب التي وقعت بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر. وكانت وسائل النقل والمواصلات غير مرضية الى حدّ كبير. والامن العام الضروري جداً لازدهار الزراعة وخلافها من الأعمال لم يكن متوفراً خصوصاً في المناطق الريفية. وكان هم الأتراك الأوحد الابقاء على (امبراطوريتهم) والمحافظة عليها من الخطر الخارجي، وان كانوا يبدون اهتماماً بالقضايا الاقتصادية فقد كان الدافع مالياً الى حدّ بعيد. وكانت الضرائب المفروضة على الأعمال الزراعية أشد وقعاً من أية ضرائب أخرى، يفرضونها على غيرها من الأعمال فان ضريبة العشر وحدها كانت غالباً تنتزع أكثر من ٣٠ بالمئة من دخل الفلاح الصافي.

أما القوانين التركية المتعلقة بالأرض فقد كانت ناقصة ومعقدة، بحيث تركت الحقوق في الأرض في حالة فوضى، وقانون الأراضي الذي صدر سنة ١٨٥٨ الذي يرمي الى إصلاح الحالة لم ينجح حتى في إقرار حقوق ملكية الأرض، فان تسجيل الحقوق الذي نص عليه

هذا القانون لم ينفذ إلاّ جزئيًا ، ذلك — أولاً — لمعارضة الناس له خوفاً من أن يؤول تسجيل الأرض الى زيادة في الضرائب ، و — ثانياً — بسبب سوء الادارة .

وكذلك مسح الأرض مسحاً فنيًّا — الذي هو شرط أساسي من شروط تسجيل الأرض — كان معدوماً أيضاً . فكانت النتيجة — حتى في حالة تسجيل الارض — أن وصف الارض ، ومساحتها ، وحدودها بقيت غير دقيقة ولا يصح الاعتماد عليها . وفضلاً عن ذلك فقد كان سجل الاراضي سجلاً للمعاملات تقيدُ فيه بالتسلسل التاريخي . وكان يحق للموظفين في قلم سجلات الأرض أن يقوموا بعملية نقل الملكية دون محرّ لملكيتها في السجلات ، ولهذه الاسباب لم يكن حق ملكية الأرض المسجلة مضموناً ، مما جعل الكثير من الفلاحين المالكين يلجأ الى زعيم المنطقة (المتنفذ) لحمايته . وفي كثير من الأحيان كان فلاحو القرية بجملتهم يسجلون طوعاً أراضيهم باسم زعيمهم الذي كثيراً ما كان يسيء استعمال هذه الأمانة فيدعي بملكية الأرض المسجلة باسمه وفضلاً عن هذا كان عدم ضمان ملكية الأرض عائقاً لانتقال الأرض من مالك الى آخر . وكان عاملاً في ارتفاع تكاليف التسليف الرهني ، ومن الغريب أن (نظام المشاع) الذي لم يقره قانون الأراضي العثماني ظلّ معمولاً به رغم ما له من أثر سيء في تحسين الارض

ونستطيع بصورة عامة أن نقول : إن القوانين التركية المتعلقة بالأراضي لم تهتم بتقدم الزراعة ولم يكن فيها ما يضمن حماية الفلاح وحقوقه ، بل كانت الغاية من هذه القوانين مالية بالدرجة الأولى .

أما في مصر فان إصلاح القوانين المتعلقة بالأرض ، الذي ارتكز على القوانين العثمانية والذي تمّ في عهد محمد علي باشا ، فقد وفق الى ضمان حق الملكية ولكنه عجز عن توزيع الأراضي توزيعاً عادلاً .

وعند ما وقعت البلدان العربية المنسلخة عن الامبراطورية العثمانية بعد الحرب الاولى تحت حكم الانتداب أدركت حكومات الانتداب حالاً عيوب القوانين التركية المتعلقة بالأراضي ، ووجوب ضمان حقوق الملكية . وأهم اصلاح قامت به حكومات الانتداب هو ايجاد نظام لتسجيل الحقوق في الأراضي مبني على مسح فني وتسوية الحقوق ، وتقسيم الأراضي المشاع ، وضم القطع الصغيرة التي تخص المالك الواحد عن طريق المبادلة وغيرها من الاجراءات المؤاتية للتقدم الزراعي .

غير أن حكومات الانتداب تغاضت عن مشكلة الملكيات الكبيرة ، وعن مسألة خلق حالة من الاستقرار والاطمئنان لطبقة الفلاحين . ولم يقف الأمر عند حد التغاضي . بل في

كثير من الأحيان كانت حكومة الانتداب تقوي مركز المالكين الكبار ونفوذهم باعترافها بحقهم غير الثابت بالأراضي التي يدعون ملكيتها. وأدهى من هذا مسألة تسوية الأراضي في العراق. فانها أسفرت عن انتقال ملكية الأراضي التي كانت تتصرف بها القبيلة الواحدة بطريقة شبه تعاونية الى ملكية فردية لشيخ تلك القبيلة، مما زاد في سوء توزيع الأراضي وكانت هذه الزيادة على حساب أفراد القبيلة. أما مسألة حماية الفلاح فلا نجد لها قانوناً خاصاً إلا في (فلسطين)، ولكنه كان عرضة للتهرب من أحكامه. وكذلك أخفقت حكومات الانتداب في وضع برنامج لتنمية الزراعة، وخصوصاً الري، الذي عليه يتوقف نمو الزراعة الى حد كبير.

ولننتقل بحضراتكم الى بحث العوامل الاقتصادية والاجتماعية الحاضرة إن أهم العوامل الاقتصادية المسببة للحالة السيئة في المناطق الريفية هي: قلة الأراضي المحروثة بالنسبة الى عدد سكان الأرياف — سوء التوزيع الشديد لملكيات الأراضي ـ نظام الايجار بالجملة ـ انعدام الوسائل (التكنية) في حقل الزراعة — البطالة — الربا الفاحش

ان الأراضي المحروثة في البلدان العربية، بالنسبة إلى عدد سكان الأرياف قليلة المساحة. ففي مصر مثلاً نجد أن معدل ما يصيب الشخص الواحد من سكان الأرياف ١ ⅓ (الدونم) أو أقل من نصف فدان إلا أنه بالنظر إلى الزراعة الكثيفة فان معدل ما يصيبه من مساحة الزراعة السنوية crop area هو نحو ٣ (دونمات). أما في (لبنان) فان معدل المساحة التي تصيب الفلاح اللبناني من الأراضي المحروثة ٥ (دونمات) تقريباً، والمساحة الزراعية نحو ٤ ½ (دونمات). ويبلغ معدل ما يصيب الشخص الواحد من سكان الأرياف من الاراضي المحروثة في سوريا ٩ (دونمات) وفي العراق ١٤ دونماً وفي الأردن ٩ دونمات ولكن نسبة لضرورة زرع المواسم بطريقة دورية crop rotation في هذه البلدان، ونسبة لانتقال الزراعة من قطعة الى أخرى بسبب تملح التربة في ما خص العراق، فان معدل المساحة الزراعية السنوية التي تصيب الشخص الواحد من سكان الأرياف هو ٦ (دونمات) في سوريا و ٧ (دونمات) في العراق و ٦ (دونمات) في الاردن. أما فيما يتعلق بالمملكة العربية السعودية وبغيرها من مناطق الجزيرة العربية فعلى الرغم من عدم وجود احصاءات، فالمعروف ان معدل مساحة الاراضي المحروثة التي تصيب الفرد من الحضر ونصف الحضر قليل جداً.

ومما يزيد في خطورة الحالة الناتجة عن كثافة السكان في الأراضي المحروثة عدم التساوي في الملكيات. ففي مصر أكثر من ٣ ملايين، من أصل الـ ٤ ملايين الذين يعملون في الزراعة

لا يملكون أرضاً، أو لا تتعدى ملكية الواحد منهم الـ ٤ (دونمات)، بينما نجد أن الملكيات الكبيرة التي تزيد مساحة الواحدة منها على ٢٠٠ (دونم) تشكل نحو ٤٠ ٪ من الأراضي المحروثة، وفي سوريا ما يقرب من نصف الأرض الممسوحة والآهلة بالسكان يشمل ملكيات كبيرة تزيد مساحة الواحدة منها على ١٠٠٠ (دونم). وفي لبنان — خلافاً لتقديرات سابقة خاطئة — نجد ان نصف الأرض الممسوحة يملكها أقل من ٢٠٠ شخص. وعدم التساوي في الملكيات في شمالي العراق لا يختلف عما هو عليه في سوريا، ولكن في جنوبي العراق نجد شيوخ القبائل وأثرياء المدن يملكون الأرض كلها تقريباً على أساس (الحصة). وفيما خلا مصر نجد أن الملكيات الكبيرة في البلدان العربية تؤجر جميعها تقريباً على أساس (الحصة) وفي أكثر الحالات لا يبدي المالك أي اهتمام في تحسين الأراضي أو زيادة مقدرة الفلاح الذي يحرثها وهو مع ذلك يتقاضى بين ثلث ونصف الغلة.

إن لنظام الايجار بالحصة أثراً سيئاً للغاية في المناطق الريفية العربية، سواء من الجهة الاقتصادية أو من الجهة الاجتماعية. ذلك لأن عدم اطمئنان الفلاح الى بقائه على الأرض، التي يحرثها وكون الايجار حصة معينة من الغلة، عاملان لا يشجعان الفلاح على تسميد الأرض أو اجراء تحسينات طويلة الأمد فيها، بل يجعلان من الفلاح رجلاً أقرب الى المعدن منه الى الحارث المستثمر. وفي الوقت ذاته نجد ان هذا النظام لا يشجع صاحب الأرض أيضاً على تحسين أرضه لأن الفلاح يشاطره ثمرة التحسين. أما من الجهة الاجتماعية، فان نظام الحصة يجعل من الفلاح عبداً لسيده. فيحرمه كثيراً من حريته. ويقضي على نشاطه وطموحه، ويجعله اتكالياً لا غنى له عن سيده.

ومن نتائج نظام الايجار بالحصة وكذلك الامية والرجعية المتفشية في الارياف، إن أساليب الزراعة متأخرة جداً. ففي أكثرية المناطق الريفية لا يزال الفلاح يستخدم الآلات البدائية، ويجهل أبسط المبادىء (التكنية) في عملية الحراثة والبذر والري والتسميد ومكافحة الحشرات والأمراض النباتية والحيوانية.

إن قلة الأراضي المزروعة بالنسبة الى عدد سكان الريف، ونظام الايجار بالحصة، والأساليب القديمة المتبعة في الزراعة، هي العوامل الرئيسية التي تعزى اليها ضآلة معدل الانتاج الزراعي لسكان المناطق الريفية. وتقدر الدكتورة وريتر Warriner إن معدل الانتاج الزراعي للفرد الواحد من سكان الارياف في الاقطار العربية لا يختلف كثيراً بين قطر وآخر، دون استثناء مصر حيث ان زيادة انتاج الفدان الواحد تقابلها الزيادة في كثافة السكان. وتقدر المعدل العام لجميع البلدان العربية ما عدا الجزيرة العربية، بحوالي

سدس ما هو في غرب أوروبا وثلث ما هو في شرقها .

ويتضاعف أثر ضآلة معدل الانتاج الزراعي للفرد الواحد في الارياف العربية من جراء سوء التوزيع الشديد في ملكية الاراضي الذي جئنا على ذكره ، ومن جراء البطالة وفداحة كلفة القروض . وبما ان أكثر من نصف الاراضي يملكها كبار المالكين الذين كما قلنا سابقاً — يتقاضون عادةً بين الثلث والنصف من الغلة فانهم يتناولون بواقع الحال نحو ربع الانتاج الزراعي الضئيل .

إن البطالة في المناطق الريفية مزمنة وعلى نطاق واسع . ذلك لأن الفلاح في الأحوال العادية يعمل ما يعادل الثلث إلى النصف من السنة . ويصدق هذا بصورة خاصة في المناطق التي تعتمد على الزراعة المطرية في (سوريا ، والعراق ، وشرق الأردن) . حيث عمل الفلاح الرئيسي هو بذر الحبوب وحصاد الزرع ، ويصدق هنا أيضاً في المناطق المروية المكتظة في مصر ، إذ أن مساحة ما يحرثه الفلاح تشغله حوالي نصف السنة فقط . والفلاحون العرب قل أن يتعاطوا أعمالاً إضافية أخرى كتربية الماشية أو الصناعات الريفية — كما هي الحال عند فلاحي أوروبا — ولذلك نجد أن الفلاح العربي لا يحصل على دخل إضافي عدا الدخل الزهيد الذي تدره عليه الماشية التي يستخدمها للحراثة ، وتربية الدجاج .

أما كلفة القروض الباهظة فانها تعود بالأكثر إلى أن المرابي يكاد يكون في أغلب المناطق الريفية المصدر الوحيد الذي يستطيع سكان الريف الرجوع إليه . فان أكثر صغار الفلاحين الملاك والفلاحين غير الملاك عندما يرغبون في الحصول على قروض مالية يذهبون إلى المرابين المحترفين أو شبه المحترفين أو إلى جماعة التجار المرابين أو إلى أسيادهم الملاك ، وجميع هؤلاء يفرضون فوائد فاحشة . وحيثما يقل النقد يرتفع معدل الفائدة إلى ٥٠ ٪ أو أكثر . وفي حالة امحال المواسم قد ترتفع الفائدة إلى ١٠٠ ٪ أو أكثر . ونقدره ، بطريقة تقريبية ، إن الفائدة التي يدفعها الفلاح تعادل على العموم نحو ربع غلة الأرض ، وكثيراً ما يؤدي عجز الفلاح المالك عن تسديد دينه إلى انتقال ملكية أرضه إلى المرابي فيقل بذلك عدد الفلاحين الملاك ويزيد في سوء توزيع ملكيات الأراضي . بينما يؤدي عجز الفلاحين غير الملاك عن دفع ديونهم إلى أسيادهم الملاك ، وهذا كثيراً ما يؤدي إلى زيادة سلطة المالك وسيطرته عليهم ويجعل منهم آلة طيعة خانعة .

إن حالات الفقر والخمول والشلل التي أسفرت عن العوامل الاقتصادية الآنفة الذكر قد زادت بفعل عوامل اجتماعية مضرة ، وأهم هذه العوامل : التمسك الشديد بالتقاليد . والايمان بالقضاء والقدر ، والأمية .

إن الفلاح العربي مشهور بحفاظه الشديد على التقاليد والعرف ، فقد كان ولا يزال أسير آراء وعادات تحدرت إليه من عصور خوالٍ . وقلّ أن يقف قليلاً ليفكر في هذه العادات ، لا بل نجده يأبى أن يصغي إلى الأفكار الجديدة ، خوفاً من تسرب الشك إلى نفسه في أمر ما توارثه عن الأجداد . وهذا الحفاظ على القديم كان عائقاً يحول دون التقدم في الأساليب الزراعية الحديثة ، وفي تحسين وسائل الصحة ، ولكن حدّة التمسك بالقديم والحفاظ على ما توارثه الفلاح من جيل إلى جيل قد بدأ يقل رويداً ، ولا سيما في المقاطعات التي أنشئت فيها المدارس أو التي أسست فيها مراكز التدريب الزراعي .

والفلاح العربي على العموم قدري أي أنه يؤمن بأن الحالة التي يجد نفسه فيها أو التي يعرض لها ، وخلافها من الاختبارات التي يمر بها والحوادث التي تقع في حياته جميعها مقدرة له ، ولا يمكن تلافيها . فيشعر أن ليس باستطاعته إحداث أي تغيير في أحواله الاجتماعية أو درء ضرر ، أو تلافي محل ، أو إتقاء مرض ولذا نجده مشلول الإرادة واهن القوى ، تسيطر على عقله الخرافات والأساطير ، ولكن الاعتقاد بالقضاء والقدر ابتدأ يقل أيضاً بفضل ازدياد التعليم الريفي ، وبفضل تغلغل الأفكار الجديدة في المناطق الريفية عن طريق الصحافة و (الراديو) .

أما الأمية فمعدلها المئوي في المناطق الريفية العربية عالٍ جداً ، ويتراوح في أكثر المناطق بين ٩٠ ٪ و ١٠٠ ٪ وهذا المعدل العالي من الأمية أبقى سكان الأرياف في حالة جهل تامة تقريباً بما يحدث في العالم . والأمية سبب رئيسي أيضاً من أسباب التمسك بالتقاليد والاعتقاد بالقضاء المحتوم ، وإليها تعزى إلى درجة كبيرة قلة المقدرة الانتاجية والضيق في التفكير ، ورغم أن عدد المدارس في القرى آخذ في الازدياد ، فان هذه الزيادة لا تتناسب والحاجة الملحة الى تعميم التعليم الابتدائي في كل صقع زراعي .

أما مهمة القضاء على هذه العوائق الاقتصادية والاجتماعية فهي حقاً شاقة وعسيرة ، ولكنها في حيز الممكن إذا اقتنع أولو الأمر بيننا بضرورتها الملحة وكانت عندهم الارادة والشجاعة للقيام بها . إن إصلاح الحالة الريفية يحتاج إلى تقدير أتم لمعنى الدولة وغايتها ، وشعور أعمق بالمسئولية الاجتماعية ويحتاج أيضاً إلى وضع تصميم عام شامل يقوم على دراسات اقتصادية واجتماعية علمية وفنية ، وإدارة فعالة وأمينة لتنفيذ برامج التصميم ، وفضلاً عن ذلك فانه يتطلب إصلاحاً جوهرياً في نظام الضرائب مصحوباً بإزالة النفقات غير المجدية ، لتأمين معظم المال الضروري للقيام بالمشاريع التي تتضمنها البرامج ، وبالوقت نفسه لتقليل عدم التساوي الفاحش في الملكيات وفي الدخل .

مكانة الصناعات القروية والحرف اليدوية

في حياتنا الاجتماعية

للدكتور محمد صالح مكية (العراق)

القرية في العالم كانت ولم تزل وستبقى النواة الأولى والأساسية لتكوين المجتمع، وان التطور المدني والثقافي مهما وصل من أوج النهضة ماديًا ومعنويًا يستمد قواه من كيان القرية كمؤسسة إجتماعية صالحة، وان هذا ما تعمل عليه الدول الأوربية في السنين الأخيرة وبالأخص بعد الحرب العالمية الثانية في يقظتها نحو تحرير مكانة القرية ومساعدة الفلاحين في حسن استثمار الأرض، ان المجالس وهيئات الأعمار الريفية تصرح وتؤكد في تقاريرها عن أهمية الريف اقتصاديًا ومعنويًا لتكوين الخلق الاجتماعي، وبخصوص نهضتنا الحاضرة الحديثة فان القرية في الشرق العربي لها مكانتها الحيوية في اليقظة الاقتصادية وتكوين الحضارة الحديثة في هذه البلدان على الأسس الصالحة القويمة. إذ بلاد الشرق العربي تحوي مواطن زراعية ذات قابليات خاصة ومناخ ملائم، فقد اعترف ماضيًا وحاضرًا بأنها من أخصب بقاع العالم، بفضل مواهب أنهرها والمرافق الطبيعية الأخرى وليس هنالك من جديد الرأي سوى التكرار المستمر لهذه الحقيقة. ان الثروة الاقتصادية في بلادنا تعتمد على كيان الفلاح وانتاجه وهذا الانتاج بدوره يعتمد في الاستفادة منه على حسن التصرف بالمنتوج لما هو خير للمجتمع هذا من الناحية الاقتصادية، وأما من الناحية المعنوية فأراني مؤيدًا وملحًا بأن مواهب الريف الخلقية وتأثيرها في نمو الهيئة الانسانية، والتقرب الى الطبيعة من شأنها أن تعزز مكانة المجتمع وقوامه الروحي، وفي نطاق المساعي التي بوساطتها يمكننا أن نؤمن للقرية هذه المكانة كمؤسسة اقتصادية — اجتماعية - انسانية — هو البحث في مكانة الصناعات القروية والحرف المهنية في صيانة القرية وفي تكوين القرى الحديثة.

ان مثل هذا المشروع لا تكفيه التقارير والاطناب فيها، أو حديث القاعة والمحاضرات بل انه ينسجم في ضمن منظمة لمؤسسات الأعمار الريفية في كل قطر من الأقطار العربية للبحث والدرس العلمي الدقيق وعلى ضوء المسح والاستطلاعات الفنية، وكل ما بامكاننا في نطاق

• ألقيت في ٢٣ نوفمبر ١٩٥٠

هذا الحديث ضمان القناعة الخاصة لايجاد الخطط التشريعية والاجرائية أن نتطرق في بحثنا الى بعض الاتجاهات والملاحظات العامة في أهمية هذا الموضوع .

وأهم ما نشاهده اليوم في الشرق العربي هو ظاهرة الهجرة من الريف الى المدن ، بصورة واسعة وخاصة الى العواصم ، وما نتمناه في هذا القبيل هو الايضاح التفصيلي بصورة محسوسة وبالأرقام عن مدى هذه الهجرة . لكن مع الأسف قد لا يسهل علينا في الوقت الحالي مثل هذا الايضاح ، ولكن من أهم أسباب الهجرة . الفقر الشنيع ، عدم وجود العمل المستمر ، فقدان الراحة ، عدم وجود المرافق العامة للاستيطان ، والمثال على ذلك أن الطبقة المتعلمة في أرجاء البلد لم تعد تطيق العيش في القرية ، والموظف أو الطبيب الذي يرسل الى خارج العاصمة كمن حكم عليه بالنفي ، وأن الحرب العالمية الثانية ووجود الاشغال للطبقة العاملة قد أدت بالفلاح أن يصبح عاملاً فأتيحت له فرصة التخلص من عبودية وجور الاقطاع ، وان تكتل الصناعات في العواصم والتضخم الفجائي قد أثر في طابع المدينة فنشاهد التضخم غير المنسجم وفقدان بعض الخواص الأساسية في التشكيلات المعمارية والتنظيمية للمدينة ، ومن النتائج الأخرى التي اختلقت في هذه الظروف البطالة وما لعواقبها من التأثيرات الاجتماعية والسرقة والاجرام والميل للمشاغبة ، وما لتأثير ذلك في خلق الفرص الانتهازية لبعض الطبقات وعراقيل للأحوال الادارية والنزعات السياسية غير المرغوب فيها ، وعلاج هذه المشاكل قد يتجلى في الوقاية لصيانة القرية وتهذيب الاستيطان الزراعي بوجود التشكيلات المرافقة والمتممة لأحوال الزراعة كالصناعات القروية التي من شأنها أن تدعو الى الاستقرار والاستمرار ووجود الموارد الثابتة .

ان الصناعات الزراعية بطبيعتها لا تحتاج الى رؤوس أموال ضخمة فاعتمادها على المواد الأولية التي تكون بطبيعة الحال متيسرة بنتيجة التهذيب الزراعي والأيادي الصانعة ونفقات الانتاج لحد ما تعتمد على حسن التوزيع والتنظيم وسياسة التشجيع في تنظيم الميزان التجاري للحاصلات الزراعية وخدمة المنتج ، ويقتضي العمل في هذا المنوال أن يتجه نحو خطة لمناهج الأعمار القروي ، واعتبار مؤسسة القرية جزءاً من خطة تنظيمية عامة شاملة للمنطقة ما هو معروف بـ Reginal Planning وتنطبق عليه تسمية (تخطيط المناطق) وفي نطاق هذه المشاريع يقتضي توزيع الصناعات على ضوء تهذيب وتطور القابليات المستوطنة واستخدام الطرق العلمية للغايات الاجتماعية المقصودة في تقرير مكانة مؤسسة القرية . إن سيطرة ووحي الطرق العلمية الحديثة وإنتاج الجملة قد تدعونا للانحراف لها وفي هذا — بالطبع — مخاطر اجتماعية قد لا ترضاها الحكمة الانسانية ولعله — أيها السادة — سينظر

البعض الى هذا الاتجاه بأنه تراجع وخذلان لبلداننا التي هي بأشد الحاجة الى الطرق العلمية مهما كان نوعها ، لكن الذي أعتقده في هذه الاحوال وجوب حسن التصرف وبعد النظر والتحري للمقاصد الحيوية في الثورة الصناعية الحاضرة .

ان مكانة مؤسسات « الأعمار القروي » لها المجال أن تعمل على تشجيع احياء الصناعات الريفية بوساطة إيجاد المصارف الصناعية ، والتي تدعو الى التشجيع بالتسليف للمشاريع الصناعية المحلية في القرى والمدن الصغيرة ورفض التسليف في المدن للمشاريع المركزية ، ومما يلاحظ أنه قد اتجه المصرف الصناعي العراقي في السنة الأخيرة لمثل هذه الغاية لتسليف المصانع الصغيرة التي بإمكانها أن تكون في مراكز الأقضية والنواحي ، ولهذا تأثير هام في تقليل الهجرة الى العاصمة والحواضر من المدن .

إن القرية بوضعها الحالي في الشرق العربي اليوم بحاجة ماسة الى كل عوامل الترفيه الاجتماعي والراحة الانسانية ، ووجهة نظر لجان أعمار القرى يجب أن تتجه نحو التفكير الى مكانة القرية المعنوية وأثرها في تكوين الخلق الاجتماعي والتراث القومي . إن وجهة النظر في توزيع الصناعات يجب أن تكون من أجل تعزيز مكانة القرية ، وإن صيانة القرى وتأمين صناعاتها هي صيانة الأرياف بلا شك .

ولمثل هذه الغاية يقتضي إيجاد الخطط الكفيلة باسعاد القرية كما قال « هنري موريس » الى هيئة لواء كمبردج في سنة ١٩٢٥ « إن المشكلة الريفية يجب التطرق لها ليس بما كانت عليه في الماضي ولكن على ضوء ما يمكن اتخاذه لانعاش الريف الانكليزي لمائة أو مائتي سنة للمستقبل » .

انعزال القرية كمؤسسة اجتماعية شيء تاريخي ، ومكانتها كمكملة للحياة المدنية واقتصادياتها جزء من اقتصاديات الموقع الجغرافي ، ولذا فمشكلتها هي مشكلة اعمار مناطق قروية أو ما يمكننا ان نصطلح عليها بوحدات ريفية Rural Region من الناحيتين الاقتصادية والثقافية ، في نطاق أعمال مجالس الأعمار أن تعمل على ضوء هذه الاعتبارات في توزيع الصناعات على ضوء القابليات المستوطنة والعوامل الجغرافية والمؤهلات المحلية والتطرق الى تفاصيل مثل هذه الدراسات والمعلومات الجغرافية في مثل مواطن صناعات الحرير مثلاً أو الأصواف الممتازة بالنسبة للمراعي المختصة ، وتربية الحيوانات والدواجن وصناعات الجلود والمستحضرات الأخرى والزراعات المختصة وعلاقة التربة والمناخ . . . الخ . . .

وكذلك الدراسات المختصة التي يؤمل بكافة الطرق في نطاق أعمال التعليم ومهمة وزارة المعارف بهذا الخصوص . وما أرجو تأكيده في هذا الاجتماع حاجتنا الملحة

للأجيال الناشئة والقادمة والتعرف الى الطبيعة المحلية ما يدعو للالحاح والتحري في الدراسات الجغرافية المحلية بنطاق أوسع ،وتشجيع (الأطروحات) العلمية في الدراسات الجغرافية لمناطق مختصة ، وذلك بغية العلم والمعرفة بمحتويات البقاع التي تضمنا ونعيش فيها والتي سكنها أجدادنا إذ أن لها علينا حقـا قبل حق غيرها علينا .

هذه التحريات من شأنها أن تؤهل وجود الصناعات المحلية والاستيطان الزراعي وتقليل فعالية الهجرة المستعجلة اليوم إلى العواصم والمدن الكبيرة الآهلة بالسكان .

ومن مشاكلنا الحاضرة أيضاً والتي تهم موضوع الاستقرار الاجتماعي هي مكانة الصناعات الريفية وتأثيرها في استيطان القبائل المترحلة وهجرتها الى الريف وإن لتأمين مثل هذا الاستقرار لهذه الطبقة التي أصبحت بنتيجة الظروف المدنية الحاضرة ووسائط النقل الحديثة ، وسفينة الصحراء لم تعد لتكون الاعتماد الاقتصادي الكامل للبدوي ، وخير ما يؤمل لمثل هذا المشروع هو تأسيس القرى الحديثة لاستيطان البدوي ، وخاصة بعد أن أصبح تأمينه نوعاً ما أقل خطورة من المشاكل العامة التي كانت تهدد كيانه كأخطار الجراد ، والآفات الزراعية ، ومشاكل الجفاف ، وآلام المجاعة والقحط ، ولكن الزراعة وحدها وملل انتظار العاطل لايكفي لضمان روحية الاستمرار والكفاءة الاقتصادية طول السنة لطبيعة البدوي ، وان المرأة البدوية بطبيعة الحال عاملة وفعاليتها في مضمار الحرف والصناعات القروية لها المكانة الاقتصادية في الدخل العائلي ، خاصة حينما تتاح الفرصة لاستلام النقد وصرف البضاعة بعد الانتاج وهذا طبعاً يتكون بنتيجة التشريع والخطط الصالحة من قبل الهيئـات المختصة في مناهج تكوين الريف الحديث وأعمار الصحراء والتطرق إلى وضع التقارير التفصيلية والمناهج للمناطق الخاصة وان التعاون المشترك بين الأقطار العربية في مهمة مشاريع الواحات واسكان البدو وتهيئة مجال الصناعات الريفية بخصوص هذا الاستقرار سيكون له تأثير فعّـال في حل مثل هذه الأزمات والمشاكل وضمان الترفيه الاجتماعي لهذه الطبقة وتعرفها الكافي بالمدنية الحاضرة على أن يراعى عدم الانحراف السريع والاحتفاظ بما هو خير وصالح من التقاليد القومية والتراث الصحراوي والمكتسب . إن الفنان المتضلع في شتى المواضيع التي تهمها حسن وبراعة الانتاج ان أتيحت له فرص العلم والتكرس في البلاد الغربية لاشك سيعود الى مواطنه بمواهب ما اكتسبه من علم وعبقرية لا لتقليد ما رآه واختبره ،بل بروحية المبدع الذي يتصف انتاجه بخصائص وسمة أصيلة Original Approach مستمد وحيها مما تيسر حواليه وتقاليد صالحة من شأنها أن نعتز بهـا كتراث فني للعالم الانساني أجمع ، ومن ضمن الخطط العملية بهذا الخصوص مساعدات الحكومة التوجيهية

وبث هـذا الغرس الصالح في التربة الأصيلة لتساعدها في حسن النمو والتطور ، فهنالك مجال المعرض السنوي والجوائز في المدن الرئيسية والعاصمة لعرض ما هناك من المواهب الذي بامكان الحكومات أو الجمعيات التي رائدها خدمة الفن والصناعة أن تعينه وتشجعه . وما نتمناه في مستقبل قريب . وبعد مثل هـذا الجمع هو أن نتجول بين معروضات الريف العربي ونطلع على استمرار القديم فيهـا والحديث المكتسب ، إذ أن مثل هذه المعارض لها أسواق عامرة ومناحف للصناعات الحديثة بصورة مباشرة أو غير مباشرة لصرف الانتاج ، وان قيادة وتوجيه مثل هذا الانتاج لا تأتي إلاّ ممن أتيحت لهم الفرص الطويلة للاختصاص والدرس والتحري لكسب المواهب والتضلع العلمي الخاص وأن تهيأ الفرص والمناسبات من قبل المؤسسات العالمية التي تهمها مثل هذه الناحية ، وتشجيع ذلك في مناهج عمالها .ويسرنا أن نعلم ما نشر أخيراً حول ما تقوم به مؤسسة العمل الدولية لتقديم المعونة والمساعدات الفنية إلى المناطق المختلفة اقتصادياً حيث قد شملت الميادين التي تقدم فيها مؤسسة العمل الدولية المساعدة الفنية على التوجيه والتدريب الحرفيين وتنظيم مصالح الاستخدام والصناعات اليدوية والدعاية الصناعية وتفتيش العمل والتشريعات العمالية ، والعمل الزراعي وأحوال المعيشة والضمان الاجتماعي وسلامة العمال وصحتهم . كما تتضمن المساعدة أيضاً في سبيل حل مشاكل معينة تتعلق بصناعات خاصة وتهيئة البعثات المؤلفة من الخبراء وقد نشر بعض الدول التي طلبت المساعدة ضمن نطاق اختصاص مؤسسة العمل الدولية بمقتضى المنهج الجديد ، لبنان ، وتركيا ، وإيران ، والهنـد والباكستان ، واندونيسيا ، وسيام .

· بامكان مؤسسات (أكاديمية) الفن والآداب العربية لأقطارنا أن تتولى تشجيع وصيانة المنتوج الفني ورعايته .

إن ما خلده شكسبير ووردسورث مثلاً وغيرهما في تمجيد الريف له والتأثير الحسن في الحضارة الانكليزية والحضارات العالمية أيضاً وان الأديب أو الشاعر بظروف حساسيته ومكونات خلقه الفني يتجه الى الاعتزاز بمواهب الفن الملموسة المجسمة بأربعة أبعاد رابعها لنمثله بمدى الحساسية للعاطفة الروحانية الكامنة في المخلوق المنتج .

إنماء الصناعات الفنية من الفنون الجميلة المتممة لمكونات وتشكيلات الفن المعماري طبيعة الوضع اليوم وما أنتجته المدنية الحاضرة وأظهرته من المعالم الجديدة جعل الانسان المدني معوزاً للريف ومواهبه لما له من تأثير في الترفيه الاجتماعي . كما أن الريف معوز في تمجيده وحسن تطوره الى المدن وان مدنيتنا الحاضرة وبراعة ما اكتسبناه

بسرعة فائقة في مضمار التقدم العلمي والصناعات الكبرى تتجه الى حفظ التوازن بين حضارتي الريف والمدن لأجل حفظ كياننا الانساني على وجه ما نتمناه . وإن هذا ليس خوفاً من جسامة الآلات التي صنعناها ، بل حبًّا للغايات الانسانية والترفيه الاجتماعي الكامن في الخلق وحيوية المبادىء الانسانية .

بوساطة النوادي القروية والمراكز الاجتماعية يمكننا بصورة تدريجية تنظيم المناهج التعليمية وتغلغل التدريس والارشاد العلمي والنظري في تحسين ونشوء الصناعات القروية ، وان هذه الصناعات لا شك في أغلب الأحوال مكملة للزراعة المختصة أو الحقول الحيوانية والتجريبية الخ . . . وهنا أيضاً مجال اظهار النتائج للبحوث العلمية في الأوساط المركزية من مختبرات ، وفي نشراتها التي توزع بوساطة هذه المراكز في أعمال الوقاية :

في تحسين الزراعة من أجل الصناعة المختصة .

في تحسين تربية الأغنام وتنظيم المراعي لتحسين انتاج الأصواف .

في تحسين التعليب البيتي وما يفيض عن الحاجة المحلية .

في تنظيم مخازن التبريد لحفظ المواد من التلف .

صناعات الحرير وتربية دودة القز في الأماكن الخاصة وما لهذه الصناعة من ماض مجيد في الشرق العربي وذكر تاريخي في التطريز والحياكة .

صناعة السجاد واستخدام الألوان الثابتة . والطرق الميكانيكية واليدوية في تحسين الأصواف ، صناعات الخيزران وملحقاتها في احتياجات الأبنية الحديثة كمواد عازلة وكذلك في الأثاث الحديثي والبيتي وملاءمة مثل هذه المواد لطبيعة المناخ .

الأعمال التجارية واختصاص بعض القرى في المناطق الملائمة لزراعة الأشجار من أجل تحسين الخشب المحلي وطرق التجفيف الحديثة .

المواد الانشائية المختصة من مرمر وصخور ، وتهذيب النحت والحفر والقص لتدريب الحرف المختصة .

الأعمال الفخارية من الفنون الشرقية القديمة في صناعات الكاشي الملون وملحقات ذلك في الصناعات الخزفية والأواني الشرقية التي كانت لها مكانة فنية عالمية قبل تدهورها إلى الحضيض اليوم بنتيجة الانتاج الأجنبي ، وضرورة الصيانة بهذا الخصوص .

تحسين صناعات الألبان وطرق تنظيم تعليبها .

- تربية النحل ، تجفيف الفواكه والتعليب . فمثلاً عربات التعليب السيارة للمنطقة القروية المختصة بامكانها القيام بهذا العمل الاقتصادي .

المدارس المهنية الريفية إذ كانت في نطاق الصناعات الزراعية أو المهن الفنية للبنين والبنات هي الطريقة الأساسية والخطوة الأولى في سبيل الاصلاح الصناعي القروي المستقبل ، وإن مشاركة المركز الاجتماعي لهذه المدارس عن طريق الحقول التجريبية والمصانع الصغيرة والأدوات اليدوية في نطاق مؤسسة الحقول التجريبية ومرافقها الصناعية المكملة لمؤسسة القرية الخاصة بتأمين الخطط العملية المرتجاة في الانعاش القروي وإصلاح الوضع الاجتماعي . هذا يمكننا أن نسعف الجيل المتعلم من خريجي الثانويات والكليات من أن يصبح عالة للبطالة متحفزاً للوظائف الادارية خالياً من المؤهلات والحيوية العملية في الانتاج الصناعي والمهني معتقدين أن حضارة القرن العشرين وازدهارها هي حضارة المدن والعواصم الكبرى ، وأن الفقر في الشرق العربي قد رافق المواطن الزراعية ، ولكن لنا في مثل (الدانمارك) مثالاً للنهضة الصناعية الزراعية ، فقد ازدهرت اقتصادياً بعد الحرب العالمية الأولى نتيجة لانتاجها سياسة زراعية ورفعت من مستواها الاجتماعي في العالم نتيجة التعرف إلى مواهبها الخاصة .

إن الصفة المثالية في رائد المجتمع الانساني ورفاهته الاجتماعية مادياً ومعنوياً لتكمن القوام الأساسي لا في السيطرة الاقتصادية بل في الانتعاش الاقتصادي العام ولصالح المجتمع في مختلف بقاع هذه الأرض ، والتقرب إلى الطبيعة ووحيها في كل الأزمان من المقومات الأساسية في نمو الخلق الاجتماعي .



مكان الزراعة

في اقتصاديات البلاد العربية

للاستاذ أحمد القاسم (سوريا)

كانت ولا تزال الزراعة بقسميها الأساسيين — تربية الحيوان ، وزراعة النبات — المصدر الأول لحياة الناس والركن الرئيسي الذي قامت وتقوم عليه المدنيات .

إنه لمن الصعب على المرء أن يتصور انه كان من المستطاع أن تبرز الى حيز الوجود تلك المدنيات التي لعبت الأدوار الهامة في التاريخ لو لم تكن مدعومة بالحراث ، وإنه لمن الصعب على المرء أن يتصور قيام مدنيات مصر وما بين النهرين لو لم يكن هنالك ، نيل ودجلة وفرات ، كما إنه لمن الصعب أيضاً أن يتصور المرء امكان ازدهار الفينيقيين على ساحل بلاد الشام لو لم تكن تلك المدن معتمدة في معظم تجارتها الرئيسية على ما كان يرد اليها من ربوع الشام من منتوجات زراعية وافرة ، وعلى أخشاب احراج لبنان وثمارها .

إذا رجعنا إلى التاريخ واستنطقنا العاديات والآثار الجمة التي خلفتها الأمم التي استوطنت هذا الجزء من العالم لحدثتنا عن ازدهار في الزراعة وعمران في المدن والقرى ووفرة السكان وقوة في السلطان ، حينما كانت أجزاء العالم الأخرى تغط في نوم عميق وتتخبط في ظلمات الجهل . ومما لاشك فيه أن الهلال الخصيب كان في أكثر من زمن من الأزمان الغابرة يضم ويعول عدداً من السكان يفوق العدد الذي يضمه ويعوله في الوقت الحاضر

فمصر — وهي على ما نعلم من ازدحام في السكان — يقال إنها كانت تزخر بعدد أكبر من عدد السكان الحاليين . وكانت ترفل في بحبوحة من العيش والرفاهية لا تزال آثارها بارزة مشهودة ويروى أن المقوقس جنى من خراج مصر مبلغاً يقدر بعشرين مليوناً من الجنيهات ، وإنه قد مر على الرقعة الساحلية الممتدة بين مصر وبنغازي زمن أن كانت فيه مكسوة بالأشجار آهلة بالسكان ، وإن كثيراً من قمم الجبال الجرداء حالياً في بلاد الشام كانت مغطاة بأشجار الحراج ، وكانت سهولها ووهادها تنتج من الثمار ألذها ومن المحاصيل أوفرها ، مما جعلها جنة زمانها ومضرب الأمثال في زكاء منابتها . وكان ما في جزيرة العرب من القرى والمزارع والمياه يفوق كثيراً ما هو موجود فيها الآن . فكان في وادي القرى مثلاً منطقة تكفي لرعي أربعين ألفاً من الخيل المسبلة . وكانت الحال كذلك

ألقيت بتاريخ ٢٥ نوفمبر ١٩٥٠

في اليمن السعيدة التي كثيراً ما تغنّى الأقدمون بخيراتها وأطنبوا في وصف عمرانها. ولا مراء في ان البلاد العربية كانت تنعم بخيرات أوفى بكثير منها في عصرنا الحاضر، وان الحكومات المتعاقبة عليها لم تكن تتوانى في تنشيط الزراعة وتوسيعها. ففي الحديث الشريف: «من أحيا أرضاً مواتاً فهي له» وما أحوجنا لهذا النظام اليوم. وفي عهد هرون الرشيد كانت تحفر الأنهار وتبنى القنوات الرئيسية على نفقة بيت المال. والأدلة التي تثبت مدى انتشار الزراعة كثيرة، لكن هذا الانتشار وتلك النهضة لم تتأثرا وتتأخرا إلا بعد أن غزا البلاد الفاتحون وطمع فيها الطامعون وتولى حكمها الظالمون. فما كانت تفلت من يد هذا حتى تقع في قبضة ذاك. والحروب في تلك الأزمنة من النوع الذي لا يسمح لزرع أن ينبت في مواطىء سنابك خيول فرسانها وكان الغزاة يعيثون في الأرض فساداً يقتلون العباد ويحرقون القرى ويقتلون السكان الآمنين فذابح المغول وظلم بعض حكام الأتراك لا تزال ذكراها ماثلة في ذهن كل عربي. إذ لم يبق هؤلاء على أخضر أو يابس ولم يتركوا سبيلاً للأذى إلا سلكوه فخربت البلاد بعد عمارها وساعدت الطبيعة في بعض الحالات على توسيع الخراب، فبليت البلاد بالنقص في السكان والخيرات. يذكر خليل الظاهري من أهل المئة التاسعة للهجرة انه كان على عهده في اقليم غوطة دمشق نيف وثلاثمائة قرية وبه مدن صغار وبلدان تشبه المدن. وكان في حوران — احدى أقاليم الشام — عدد من المدن الصغيرة وأكثر من ألف قرية. فأصبحت هذه الآن لا تزيد على الخمسين في غوطة دمشق وعلى الاربعمائة في حوران. وهكذا نرى إنه عندما قلّ انتاج الأرض وأهمل شأن الزراعة انحط مستوى الحياة وانهمرت في البلاد الأعداء الرئيسية الثلاثة، التي نشأ عنها نقص في عدد الانفس. والزراعة الآن كما لا يخفى هي العماد الأول بل هي صاحبة المكانة المرموقة في تأمين سبل الحياة، وفي تنشيط الاقتصاديات في كل بلد.

يا حضرات السيدات والسادة: —

قد تتأثر فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة تأثيراً كبيراً وتصاب بهزات اقتصادية عنيفة، فيما لو جردت من احدى منتوجاتها الزراعية الهامة ولكن هل يقاس ذلك بما يمكن أن يحدث لو جرّدت مصر من قطنها، وبلاد الشام من حبوبها، والعراق من تمورها، ولبنان من فواكهها، والمملكة العربية السعودية من أنعامها، واليمن من بنها؟.

وباستطاعتنا تصوّر ما يحدث إذا رجعنا إلى الميزان الاقتصادي في بعض هذه البلاد واطلعنا على نصيب الزراعة من صادراتها. فمصر وهي أرقى وأغنى البلاد العربية يبلغ مجموع صادراتها على وجه التقريب نحواً من ٦٩ مليوناً من الجنيهات، نصيب الزراعة

منها — بشكلها الخام أو المصنع — نحو ٥٨ مليوناً من الجنيهات أي نحو ٨٤ ./. وتصدر العراق تقريباً ما قيمته ثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات ، منها نحو اثنى عشر مليوناً ونصف المليون منتجات زراعية أي نحو ٩٦ ./. والصادرات من سوريا ولبنان تقدر بما يقرب من عشرة ملايين من الجنيهات نصفها منتجات زراعية .

هذه الأرقام تهدينا بوضوح إلى أن الزراعة لها المكان الاول في اقتصادياتنا ، وإنه باتساع الزراعة واتقانها وازدهارها تزداد الصادرات وينتظم الميزان التجاري ويرتفع المدخول القومي ، فتستطيع الحكومات المعنية الانفاق بسعة على مشاريع الاصلاح التي تتطلبها الأمة العربية . لكن الزراعة لا تزال في بداية نهضتها ولا يزال في البلاد العربية مجال واسع جداً لتعميم انتشارها واتقانها . فالمساحات غير المستغلة تفوق بكثير ما هو مستغل في معظم الدول العربية . ففي مصر تبلغ مساحة القطر الاجمالية مليون كيلو متر مربع أي نحو ٢٣٠ مليوناً من الأفدنة ، تقدر الأراضي الزراعية منها بما يقرب من ثمانية ملايين ونصف من الأفدنة ، منها نحو خمسة ملايين وثلاثة أرباع المليون من الأفدنة تزرع وتستغل والباقي متروك بلا زراعة .

وفي العراق تبلغ مساحة البلاد العمومية نيفاً وأربعمائة وخمسة وثلاثين ألفاً من الكيلومترات المربعة أي نحو مئة مليون من الأفدنة ، منها ثلاثين مليوناً أراض صالحة للزراعة يستغل منها حالياً خمسة ملايين يروى من هذه أربعة ملايين وربع مليون من الأفدنة وما تبقى يزرع عذياً اعتماداً على ما يسقط من مياه الأمطار .

وفي سوريا تبلغ المساحة العامة نحو ١٨١ ألف كيلومتر مربع أي نحو ٤٢ مليوناً ونصف مليون من الأفدنة بينها من الأراضي القابلة للزراعة ما يقرب من أربعة عشر مليوناً ونصف من الأفدنة يزرع منها خمسة ملايين وسبعمائة ألف ومن هذه المساحة ثمانيه وثمانون بالمائة تزرع عذياً على مياه الأمطار واثنا عشر بالمائة فقط تروى .

هذا ويهمنا أن نفصل ما تقدم بالأرقام فنقول :

إن نسبة المساحة القابلة للزراعة لمجموع المساحة في القطر المصرى هي ٤ ./. ونسبة الأراضي المزروعة الى الأراضي القابلة للزراعة نحو ٦٨ ./.

أما في العراق فنسبة المساحة القابلة للزراعة الى مجموع المساحة العامة هي ٣٠ ./. بينما نسبة الأراضي المزروعة الى الاراضي القابلة للزراعة تبلغ نحو ١٧ ./.

وفي سوريا تبلغ نسبة الأراضي القابلة للزراعة إلى المساحة العامة ٣٤ ./. تقريباً ونسبة الأراضي المزروعة الى الأراضي القابلة للزراعة نحو ٤٠ ./.

هذه الأرقام لا يستطيع المطلع عليها إلا أن يأسف لتقصيرنا في استغلال الخيرات الكامنة والكنوز الدفينة التي منحتها الطبيعة لبلادنا ولم تمنحها لبلد آخر . ومع ذلك فهذه البلاد تعتمد في تأمين جزء لا يستهان به من أغذيتها على الممالك الأخرى ، لنتصور مثلاً أن المساحة القابلة للزراعة في العراق استغلت جميعها وانه نشأت جنباً إلى جنب مع اتساع هذا الاستغلال صناعات زراعية ملائمة فما هو الرقم (بالجنيهات) الذي يمكن أن تبلغه صادرات العراق ؟ وكيف تكون حالة السكان ؟ وماذا يكون مقدار الدخل القومي ؟ لا مراء في أن الحال يتغير ، وإن مقدار الدخل القومي يصل أرقاماً عالية ، ولكن هل نستطيع - ونحن على ما نحن عليه - استغلال جميع أراضينا العامة القابلة للزراعة في مصر والعراق وبلاد الشام والجزيرة العربية ؟ وهل من الممكن أن نصل الى هذه الأهداف مع وضعنا الحاضر ؟ إنها أمنيات صعبة ولكنها غير مستحيلة لو تضافرت الجهود وصفت النيات وانعدمت النزعات الفردية الانانية ونما الشعور الاجتماعي والمسئولية المشتركة .

لنتصور أن البلاد العربية ألفت وحدة اقتصادية لا جمارك ولا حواجز بينها . ولنتصور أنه تكون لها مجلس اقتصادي أعلى يرسم لها الخطط الاقتصادية في شتى وجوهها وانه وجه كل اقليم من أقاليم البلاد العربية في وجهة انتاج ما يصلح له من المزروعات وانشاء ما يلائمه من الصناعات أفلا تنقلب الحال ؟ وتتبدل الأوضاع وتزدهر البلاد وتحتل الأمة العربية المكان اللائق بها بين أمم العالم ؟ . . أقول : إن هذه أمنيات صعبة التحقيق ولكنها ليست مستحيلة إذا بدأنا بالسير ولو ببطء على أسس قويمة وطرق معقولة .

إن ما نراه من تنبه الدول العربية وما تقوم به من الجهود المحمودة في هذا السبيل يجعلنا نتفاءل بامكانية الوصول الى تحقيق تلك الأمنيات وما دمنا نذكر الجهود التي تبذل لنشر الاتساع الزراعي وتعميم الاتقان الزراعي ، أرى من الواجب أن ألمح ولو بشكل موجز إلى الوسائل التي أعتقد أنها ضرورية لتحقيق أمانينا ، وتسهيلاً للبحث نقسمها الى ثلاثة أقسام رئيسية هي : -

(ا) الوسائل الفنية (ب) الوسائل الادارية (حـ) الوسائل الاجتماعية

١ — أما الوسائل الفنية فتشمل المسائل التالية :

١ — الماء : تعتبر مشكلة الماء في جميع البلاد العربية من أهم الأمور التي تحتاج الى عناية وتدبير فالمياه المتوفرة لا يستفاد منها الفائدة الكاملة ولا تزال هناك ثغرات كبيرة فيما يمكن أن يقوم فيها من مشروعات الري المستمدة من الأنهر الجارية فيها والبحيرات

وغيرها . ففي سوريا مثلاً يبلغ مجموع طول الأنهر أكثر من ألفين وثلاثمائة كيلومتر. وقد كان مقدار ما يروى من هذه الأنهر في عهد الانتداب نحو ٤٥٣ ألف فدان فارتفع هذا الرقم في عهد الاستقلال إلى أن بلغ سنة ١٩٤٩ الى ما يقرب من ثمانمائة ألف فدان . ومن المنتظر أن تبلغ مساحة الأراضي المروية نتيجة للمشاريع المقررة في موازنة عام ١٩٥٠ ثلاثة وعشرين ألف فدان .

وهناك ناحية أخرى فيما يتعلق باستعمال المياه وهي الحاجة لدراسات فنية لمعرفة أقل مقدار من الماء يحتاج اليه كل محصول ليعطي أجود غلة ، كما أن مياه الامطار تسيل في الوديان الى البحر فلا ينتفع بها . ومياه باطن الأرض سواء في السهول أو في الصحارى لم تبذل أي جهود جدية لسبر غورها واستخراجها والاستفادة منها إذا كان الأسبقون بوسائلهم المحدودة استطاعوا ايصال الماء إلى المناطق الصحراوية أفلا يعد تقصيراً أن يعجز علم القرن العشرين وأدوات القرن العشرين عن استخراج ما في باطن الأرض من مياه .ولو بمقادير تكفي لري المروج والمراعي ؟ ! أعتقد انه قد آن الأوان للنظر في هذا الأمر باهتمام

٢ - التربة : إذا استثنينا وادي النيل الذي نال من العناية مقداراً كبيراً فان بقية البلدان العربية لم تقم بأي عمل جدي لتصنيف الأتربة ومعرفة صفات أنواعها المختلفة حتى يتمنى للمسئولين عن التعليم والارشاد نصح الزراع عما يلائم أتربتهم من المزروعات وما تحتاجه من التعهد الصحيح لتعطي أحسن نتاج وتحتفظ — في ذات الوقت — بخصبها ، فمن الواجب إذن أن يبدأ بحملة منظمة لتحليل أتربة مختلف الأقاليم وتصنيفها ورسم خرائط دقيقة لها ، وإلاّ فسيبقى الارتجال هو الطريق الذي يسلكه المرشدون الزراعيون .

٣ — الأدوات الزراعية : لا تزال الأدوات الزراعية التي ورثناها من العصور الخالية هي المستعملة والشائعة عند الزراع . ولا ندري فيما إذا كان يصح الابقاء عليها أو استبدال الأدوات الحديثة بها ، كلياً أو جزئياً ومهما كان الأمر فبالنظر الى قلة الأيدي العاملة لا بد من الاستعانة بالأدوات الآلية (الميكانيكية) للاستفادة من مساحات الأراضي الشاسعة التي تزيد ثروة البلاد ، فمثلاً كانت المساحة التي تزرع في محافظة الجزيرة بسوريا تبلغ حوالي نحو خمسمائة الف فدان فلما انتشر استعمال الجرارات ارتفع هذا الرقم الى نحو ثمانمائة ألف فدان سنة ١٩٤٩ ، وقد بلغ عدد الجرارات في سوريا هذا العام ما يقرب من السمائة ، ولكني أميل الى الاعتقاد بأنه لا يجوز أن يترك الحبل على الغارب في استعمال هذه الأدوات ، لان جو البلاد العربية وأقاليمها تختلف عن جو وأقاليم أوربا وأميركا حيث انتشر استعمال الجرارات وملحقاتها ولذا يستحسن اجراء تجارب دقيقة لتحري نتائج

هذه الأدوات على رطوبة التربة ونسيجها ومقدار تأثيرها على انجراف الأتربة الذي يعزى اليه فقر التربة وفقدان خصوبتها .

٤ — البذور : من المعقول ان يكون ازدهار الزراعة في الأزمنة الغابرة قد خلف أصنافاً من البذور تلائم مختلف الاقاليم والأتربة ، لكن هذه البذور تدنت وانحطت بسبب اهمال اصطفائها والعناية بها ولا غنى لتقدم الزراعة عن أبحاث علمية لتحسين أصناف البذور المحلية التي لها ميزاتها الخاصة ولادخال أصناف جديدة من البذور التي بدأت تنتشر في المزارع معتمدة في أغلب الحالات على اختبارات فردية غير دقيقة . وهنا أيضاً نرى أن الحكومات المختلفة بدأت تولي هذه الناحية ما تستحقه من عناية ، ففي سوريا — مثلاً — أجرت وزارة الزراعة تجارب على أصناف من القمح الايطالي فثبت لها أن الصنف المسمى (سيناتور كابيللي) هو أفضل أصناف القمح ملاءمة للأراضي الرطبة وكانت غلته تزيد نحو ١٠ ٪ على أي صنف آخر فأوصت ببذره وبدأ يحتل مساحات غير قليلة من مزارع القمح .

٥ — الأمراض والحشرات : لقد عم انتشار الحشرات والأمراض مع انتشار وسائل النقل السريعة لكن الاجراءات المتبعة للوقاية منها ومكافحتها لا تزال في معظم الحالات ضعيفة لا تفي بالغاية ، فمن اللازم الاهتمام الكبير بهذه الناحية الخطيرة التي عليها معول كبير في صيانة المواسم والغلات وحفظ ثروة البلاد ووقايتها من الكوارث حيث يجب أن تقوم مختبرات واسعة فنية في كل بلد من البلاد العربية لتسد هذه الثغرة الواسعة .

٦ — الاكثار من الاشجار : من الثابت ان ضياع الاشجار التي كانت تغطي قمم الجبال وسفوحها وتكسر حدة الرياح الهوج في السهول هو العامل الرئيسي لانجراف التربة الذي يشاهد في كل ناحية من أنحاء البلاد العربية وان هذا الخطر أي انجراف التربة يزداد اتساعاً ما دامت البلاد عارية من الاشجار الحرجية والمثمرة ، فلا مندوحة — إذن — من اتباع سياسة خاصة لاحياء الاحراج ، وذلك بالزام كل مالك غرس مساحة معينة من أراضيه بالاشجار والمحافظة عليها ، ليعود للبلاد خصبها وبهاؤها وتزداد ينابيعها وليستفاد من هذه الأشجار في وجوه أخرى .

٧ — تربية الماشية : ان مجال تربية الماشية لا يزال بكراً . ولا يحتاج الأمر إلا لمجهود قليل لتتمكن البلاد من انتاج حيوانات تفي بحاجتها وتستطيع تصدير بعضها أو بعض منتجاتها الى الأسواق الخارجية فالسهول المهملة والصحاري التي يسقط فيها بعض المطر وكثير من الوهاد تصلح لرعي الماشية إذا حولتها جهود العلماء الى مراع وتعهدتها بالعناية

اللازمة ، وكذلك الأمر في تربية الدواجن والنحل ودودة الحرير وغيرها مما لا يسمح الوقت بالتبسط في بحثها .

ب – الوسائل الادارية وأهم ما نبحثه منها .

١ – أنظمة الملكية : وهذه على ثلاثة أنواع : الملكية الكبيرة ، والملكية المجزأة ، والمشاع .

فالملكيات الكبيرة هي الأكثر شيوعاً وهي العامل الأول في قلة انتاج الأرض لأن نوع ملكية الارض له أثر عميق في استغلالها وفي نفسية الزارع الذي يعمل فيها ، فهو لا يشعر بنوع من الطمأنينة والاستقرار ولا يهتم بتقديم الخدمة الصالحة للارض ، وكل ما يهمه هو الحصول على أكبر منتوج بأسهل الطرق . ولا فرق عنده فيما إذا انتشرت الأعشاب الضارة في الأرض أو انجرفت تربتها أو فقدت خصبها . هذا علاوة مما يتولد في نفسية هؤلاء الزراع من الحقد والحسد والاتكال وهذه تقتل النشاط والطموح .

أما مالك الأرض فالذي يعنيه من أملاكه الواسعة هو الحصول على المال لينفقه ليس فيما يعود على الأرض والزراعة بالنفع والفائدة بل على حاجاته الخاصة التي فرضها عليه المجتمع الذي يعيش فيه . وليست كل الملكيات الكبيرة مرتبطة بأفراد معينين بل ان بعض الدول تشترك في هذا الأمر أيضاً فتحتفظ الدولة بمساحات شاسعة من الأراضي كأملاك للدولة وفي الغالب يستأجر معظم هذه الأراضي المتنفذون ويؤجرونها بدورهم إلى الفلاحين ، فتكون النتيجة أسوأ من الملكيات الكبيرة الفردية ومعنى هذا بلغة صريحة هو أن الثروة الزراعية تبقى ضائعة ويبقى معها المجتمع الريفي متأخراً فيتضاءل الدخل القومي وتتدهور البلاد ، وتتطور الحال من سيء إلى أسوأ . وعليه فلا بدّ من خلق نظام يكفل ملكية الأرض للاشخاص الذين يعملون فيها بطريق مباشر أو غير مباشر .

أما الملكيات المجزأة : فهذا النوع منها ينتشر في معظم القرى العربية عند الذين يعملون في الأراضي بأيديهم ، وهو سبب عدم نجاح هؤلاء في زراعتهم لأنهم يصرفون معظم أوقاتهم متنقلين بين قطع الأراضي الصغيرة المبعثرة هنا وهناك ، فلا يبقى متسع لتجهيزها كما يلزم . ولا يستفيدون منها الفائدة المرجوة ، ناهيك عن اضطرارهم في أكثر الأحيان إلى مجاراة جيرانهم في الدورة الزراعية خشية التعدي على مزروعاتهم فيما لو اختلفت عنهم .

هذا النظام – ولا ريب – آفة كبرى فيجب وضع حد لاستمراره ، ويجب اتخاذ الاجراءات المناسبة للقضاء عليه بالسرعة الممكنة .

وأما المشاع : فهو النظام الذي بموجبه تقسم أرض القرية إلى حصص أو أسهم ، يملك أفراد القرية عدداً منها يتناسب مع كفاءاتهم المالية . وفي كل سنتين أو ثلاث سنوات توزع الأرض على المالكين بنسبة حصصهم فلا يستقر زارع في الأرض أكثر من المدة المذكورة. ولذا لا يهتم باصلاح الأرض ولا يقدم على تسميدها أو تشجيرها أو ازالة الأعشاب منها . ومن دواعي الغبطة أن أذكر هنا أن هذا النظام يسير في أكثر البلاد العربية نحو النهاية وان وقت الخلاص منه ليس ببعيد .

٢ — ثاني الوسائل الادارية هو الأمن : لقد أوجبت عوامل الدفاع ضد غارات البدو وغيرهم تكوين الريف العربي على شكل قرى أكثرها في مواقع حصينة . يتجمع فيها عدد من السكان يتعاونون فيما بينهم لصد غارات الأعداء الخارجية ، وكنتيجة لهذا التجمع في مكان واحد ولانتشار الجهل وضعف انتاج الأرض نشأت في القرى بعض العادات الضارة ، مثل السطو على البيوت ، وسرقتها ، وسرقة المواشي ، والتعدي على المزروعات من أشجار وخضراوات ومحاصيل بالقطع أو بالقلع أو الحرق ، فنفرت هذه العادات السيئة أصحاب رؤوس الأموال من استثمار أموالهم في الشئون الزراعية ، وأبعدت ذوي النشاط والطموح عن الأرض ، وفي بعض الحالات عن حياة الريف . وبهذا فقدت القرى المال والنشاط فتأخرت وساءت حالها ولا يزال هذا الخطر قائماً في كثير من البلاد العربية فاذا لم تؤمن الحكومات المعينة الناس على مزروعاتهم ومواشيهم وأملاكهم فلا ينتظر للنهضة الزراعية أي انتعاش أو تقدم ، لأن انتشار الطمأنينة والأمن في النفوس يشجع العاملين على اقامة المباني في مزارعهم فتسهل عليهم خدمة الأرض وتعهد المزروعات ويربحون من أعمالهم ، أما أن تبعد أرض الفلاح عن القرية بضعة كيلومترات وان يحتاج يومياً إلى ساعات يصرفها في الطريق ذهاباً واياباً وان تبقى تحت رحمة الأشقياء واللصوص فهذا يعني اهمال الأرض وبالتالي هجرها كما حدث فعلاً في جهات كثيرة .

٣ — الديون : من الطبيعي أن يحتاج المرء في أي عمل يقوم به إلى مقدار من المال يستعين به لتجهيز ما يلزمه من أدوات ومواد وعمال ، وحالة الفلاح العربي معروفة لا تحتاج الى براهين لاثبات سوئها . فرأس المال اللازم لانتاج ثروة أخرى مفقود عنده ، فيضطر الى الاستدانة من المرابين بفوائد فاحشة كثيراً ما تبلغ مائة في المائة وأدناها ٣٠ ٪ من الخريف الى موعد ظهور المحصول في أوائل الصيف ، وعندئذ يكون المرابي مرابطاً لاسترداد أمواله فيأخذ المحصول بثمن بخس ، وفي الغالب يستمر الدين من سنة الى أخرى ويتراكم حتى يبلغ أرقاماً عالية فيضطر المنتج المسكين إلى بيع أرضه ويصبح عالة على غيره وعلى

المجتمع . فاذا لم تنتشر البنوك الزراعية وتعجم الجمعيات التعاونية على مختلف أنواعها فستبقى مشكلة الديون عقدة صعبة الحل ، تحول دون تقدم الزراعة وانتعاشها .

بالاضافة إلى ما تقدم من الوسائل الادارية نذكر وسائل النقل والمواصلات الحديثة المعدومة بين القرى والمدن ، التي تباع فيها المنتجات الزراعية والتي جعلت سكان الريف في معزل عن العالم ، محصورين في نطاق دائرة ضيقة لا يتخطونها لا تسهل لهم السبل لتخطيها محرومين من وسائل التسلية والترفيه لا يعرفون من الحياة الاجتماعية الحديثة شيئاً إلا بالسمع .

ج — الوسائل الاجتماعية : يمثل سكان الريف نحو ثلاثة أرباع مجموع الأمة العربية ، وهم الطبقة العاملة المنتجة ، وهم الذين تعتمد عليهم الأمة في بناء ثروتها وفي الدفاع عن كيانها والذود عن حياضها والمحافظة على كرامتها . لكنهم في نفس الوقت أشقى أبنائها وأقلهم نصيباً من عناية الحكام واهتمام المصلحين فهم يتمرغون في الفقر والجهل والمرض، مع أنهم يدرّون الخير علينا ، وننعم من أيديهم الخشنة ، ونشبع من جوعهم ، وهم أقل سكان الارض فائدة من أتعابهم وإنتاجهم ، رغم كدهم وجدهم بمقدار ما يعرفون ، فمعدل دخل الفرد منهم ضئيل الى درجة لا يستطيع معها تأمين ضروريات حياته فماذا تستطيع عمله الثمانية جنيهات التي تعتبر دخل الفلاح العراقي في السنة ، وماذا تعمل الأثنا عشر جنيهاً لعائلة الفلاح المصري ؟! والثلاثة عشر جنيهاً لعائلة الفلاح السوري ؟ ! هل تمكنه من توفير الغذاء والكساء لأولاده ؟ ! هل يساعده هذا الدخل البخس على تعليم أبنائه وتعهد صحتهم ؟ !

إن معدل دخل الفلاح الانكليزي في أيام السلم كان نحو ٢٣٢ جنيهاً ومعدل دخل الفلاح الالماني كان ٢٥٧ جنيهاً ومع ذلك لم يكن هؤلاء مكتفين بما يحصلون عليه بل كانوا لا يدعون طريقة مشروعة لزيادة مدخولهم إلا سلكوها، فأين العدالة الاجتماعية ؟ وأين حقوق الانسان ؟ وأين عدالة توزيع الدخل الوطني بين أفراد الأمة العربية ، وليت الأمر مقصور على الفقر والجهل والأهمال فقط ، بل انه يتعدى ذلك الى المعنويات وعزة النفس والكرامة، فنظرة الناس اجمالاً الى الزراعة والزراع هي نظرة احتقار وازدراء وامتهان ، إذا أراد شخص تحقير آخر نعته بكلمة فلاح ، وإذا أتى امرؤ أمراً نابياً قيل عنه : إنه فلاح ، وإذا أراد موظف اظهار سلطته وسلطانه تمرن على ذلك بالفلاح ، ومع ذلك فالفلاح يكوّن ثلاثة أرباع الأمة العربية ، فكيف نرجو نهوض أمة هذه حال فلاحها ؟ ! !

بأحضرات الأعضاء : كل برنامج للاصلاح سواء أكان زراعياً أم صحياً أم اجتماعياً لا يمكن أن يأتي بالفائدة المرجوة إذا لم يسبقه إصلاح حال الفلاح الفرد ، فالفرد هو أهم

من كل شيء آخر وإصلاحه يجب أن ينال الدرجة الأولى من العناية والانتباه وبقاء الفرد مريضاً فقيراً جاهلاً معناه تعريض كيان الأمة لمختلف التيارات الخطرة التي قد تودي بها وتقضي عليها فلا بد من المباشرة بالاصلاح الذي أوله رفع معنويات الفلاح، واشعاره بأهمية مكانه ثم تحسين صلاته بالحكومة وافهامه بأن الحكومة هي منه وإليه وان واجبها المحافظة عليه ورفع مستوى معيشته وتقوية جسمه وعقله وواجبها التعاون معه لزيادة انتاجه واستثمار ثروات البلاد الطبيعية وارشاده الى خير طرق الاستثمار وأوفرها ربحاً . وهذا الاصلاح يتطلب أولاً – تغييراً في نظرة الموظفين وسكان المدن الى الفلاح، وتحويراً في تفكيرهم، وثانياً – اشراك الفلاح في ادارة شئونه وتدبير أموره، فالموظف ليس بالآمر الناهي ولا بالحاكم المطلق، بل هو المرشد والمصلح وواجبه الأول خدمة مصالح الشعب والحرص على منفعة أبناء الشعب . هو كما يقول الانكليز خادم الأمة، وعليه أن يعمل بهذا المعنى وأن يسلك مع الناس بهذا المعنى وان يعتنق هذا المعنى في تصرفاته وحركاته، ولا يجوز أن تستمر عجرفة الموظفين وسلطتهم المطلقة على الفلاحين، كما يجب أن تتحول نظرة أبناء المدن الى الفلاح تحولاً ملؤه التقدير والاحترام .

أما اشتراك الفلاح في ادارة شئونه وتدبير أموره فالأنظمة المرعية لا تحول دون انمائها وتقويتها فحسب، بل تعمل على قتل استعداده لها، إذ أن المتبع حالياً هو أن يعين لكل قرية عمدة أو مختار تتصل عن طريقه الحكومة بالقرويين وهو بنظري أسوأ نظام لانه يضع مقدرات العباد بيد فرد واحد، كما أنه المثال الحي للحكم الديكتاتوري، والناس يظلمون الفلاح بوصفه قاصراً عن إدارة نفسه وتدبير شئونه، ففي القرى ذكاء فطري إذا وجه توجيهاً صحيحاً أتى بالعجائب، لكن هذا الذكاء مكبوت وواقع تحت ضغط حكومي يحول دون تحركه واستغلاله لان الحكومة كما ذكرت لا تعرف إلا العمدة ولا تثق في الاغلب إلاّ بما يقول، والعمدة حرصاً على نفوذه وخوفاً من بروز من ينافسه على هذا النفوذ يبذل ما يستطيع من جهد لاخماد أنفاس كل من تسوّل له نفسه تكوين رأي عام يطالب بحقوقه ويدافع عن مصالحه . هذا بالاضافة الى ما يخلقه نظام العمدة من تحزبات ممقوتة ومنافسات ضارة بين مختلف العائلات، لقد آن الأوان للتخلص من هذا النظام واستبدال مجالس قروية به (تعين تعييناً في أول الأمر ثم تنتخب انتخاباً حرّاً فيما بعد) هذه المجالس تتمتع بصلاحيات وفقاً لقانون يسن لهذا القصد، وتحت اشراف مرشدين يعينون لهذه الغاية بعد تدريبهم تدريباً خاصاً .

لقد جربت هذه الطريقة في عدد من القرى العربية في فلسطين فكان النجاح الذي

وصلت اليه مثاراً للدهشة والاعجاب ، إذ لم تقتصر أعمال المجالس على فض المخالفات والمنازعات التي كانت تنشب بين الأهلين ، بل تعدتها إلى أمور اصلاحية مهمة مثل : تعبيد الطرق ، وبناء المدارس ، وتشييد العيادات الصحية ، وتوفير مياه الشرب النظيفة ، كما أنها قللت من تردد القرويين على المدينة لأوهى الأسباب وساعدت كثيراً على اكتشاف معظم الجرائم وتقديم مرتكبيها الى المحاكم المختصة فاستراح الناس واستراحت الحكومة وقل الفساد ، وخفت المشاكل وانشغل الفلاح بعمله . ولا يخامرني شك بعد ما خبرت عمل هذه المجالس عدداً من السنين في أنها خير مساعد على اصلاح حال الفلاح وأحسن عون لتنفيذ البرامج الاصلاحية التي تضعها الهيئات الاختصاصية .

فاذا تحقق هذا الاصلاح الاجتماعي مع الاصلاحات الادارية والفنية التي سبق ذكرها فلا يستغرب أن يأتي اليوم الذي نرى فيه صحارى مصر وبادية الشام عامرة بالمزارع والغيطان ، وجبال نجد والحجاز واليمن والعراق وسوريا مكسوة بالاشجار ، ونرى الانعام السمينة رائعة في المراعي المحسنة الخصبة في جزيرة العرب ، ونرى سهول العراق وسهول سوريا تقطعها قنوات الري وشبكات المياه . وعندئذ يصبح في الامكان تحقيق ما نصبو اليه من الأهداف السامية والغايات النبيلة التي تتلاءم مع ما ورثناه من مجد وعز وسؤدد ، وما ذلك على همة المجدين المخلصين من أبناء يعرب بعزيز . والسلام .



الاتجاهات في التعليم الزراعى

تعقيب

للأستاذ أحمد بك القاسم (سوريا)

الغاية المهمة في التعليم الزراعي هي إعداد فئات صالحة من أبناء البلاد لإنماء ثروتها الزراعية ورفع مستواها الاقتصادي بزيادة دخلها العام سواء عن طريق الزراعة أو عن طريق إنشاء الصناعات الزراعية الملائمة ، وكل تعليم زراعي لا يوصل إلى الغاية المذكورة يعتبر تعليماً ناقصاً غير منتج ، ولذلك سأحاول في هذه الكلمة التي أعدت على عجل خلال انعقاد حلقتنا هذه وضمن الوقت المحدد أن أبحث في الاتجاهات التي يجدر بنا السير عليها لنصل إلى الغاية المنشودة وفي الاجراءات التي يلزم أن نتخذها لضمان السير بموجب الاتجاهات .

المعروف في مختلف أنحاء العالم أن نشر التعليم الزراعي عن طريق المعاهد الزراعية التي ينتسب إليها طلاب المدارس العامة سواء الذين أكملوا الدراسة الابتدائية أو الدراسة الثانوية هو السبيل الطبيعي الذي يجدر بنا الأخذ به وقد يكون ذلك هو أفضل السبل لو كان التعليم العام في البلاد العربية منتشراً بدرجة انتشاره في البلاد الأخرى . بيد أن الواقع هو أن الأكثرية الساحقة من أبناء الريف العربي هم أميون أو في درجة الأميين لأن المدارس غير متيسرة في كل القرى وان تيسرت في البعض فهي إما أن تكون في مستوى أولي لا تشمل أكثر من صفين (فصلين) أو ثلاثة صفوف لا تكاد تساعد على محو الأمية وقد تكون ابتدائيـة تنتهج في خطة تعليمها وفقاً لما هو متبع في مدارس المدن . ولذا تبعد أبنـاء الريف عن الوسط الذي يعيشون فيه وتشجع هجرتهم الى المدينة وحتى في هذه المدارس نجد أن قسماً كبيراً من أبناء القرى لا يكملون الدراسة الابتدائيه إما لحاجة أوليائهم الى مجهودهم العملي ، ومشاركتهم إياهم في كسب العيش أو لأن استعداد المدارس غير كاف لتسهيل اكمال التعليم الابتدائي لجميع الطلاب ، وبناء على ذلك أرى أن اتجاهنا في التعليم الزراعي يجب أن يختلف عن الاتجاه المتبع في مدارس الغرب ، ويجب أن يتلاءم مع ظروفنا الواقعية وامكانياتنا ومع حاجياتنا الرئيسـية المهمة وباعتقادي أنه

القيت في يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٥٠

من الممكن ضمان هذه الحاجات إذا جعلنا التعليم الزراعي وفقاً للدرجات الآتية :

ا — التعليم الزراعي الذي يعرف أبناء الريف على ما يحيط بهم من حياة الحيوان والنبات ويحبب إليهم الحياة في الوسط الذي يعيشون فيه ويغرس في نفوسهم حب العمل اليدوي ويزودهم ببعض المعلومات الزراعية التي قد يستفيدون منها في المستقبل والتي قد تجعلهم يقبلون بعد كبرهم نصائح وإرشادات موظفي الزراعة . وبإيجاز نستطيع القول إنه التعليم الذي يعد أبناء الريف للحياة الريفية .

ب — التعليم الزراعي الذي يسهل الوسائل لأبناء صغار الزراع والعمال الزراعيين لينالوا نصيباً كافياً من التدريب الزراعي الحديث الذي يمكنهم من القيام بأعمال زراعية وفقاً لطرق الزراعة الحديثة ، أي أنه التعليم الذي يهدف الى إنتاج عمال زراعيين فنيين .

حـ — التعليم الزراعي الذي يقصد منه تنشئة الموظفين الزراعيين أو معلمي الزراعة في المدارس الريفية ، أو مديرين للمزارع غير الحكومية .

د — التعليم الزراعي الجامعي .

فالنوع الأول من التعليم الزراعي ، وهو ما نطلق عليه في سوريا (التعليم الريفي) ويمكن تيسيره في مدارس القرى الابتدائية والأولية في تعديل مناهجها تعديلاً يتلاءم مع مطالب الحياة الريفية وبذات الوقت يمكن لنابهي طلاب القرية من متابعة تحصيلهم في مدارس أرقى، وليست هذه اللجنة هي المعنية بهذا النوع من التعليم ولذا ندع التبسط في بحثه إلى لجنة التعليم الاساسي .

أما النوع الثاني من التعليم الزراعي الذي يقصد إلى إعداد عمال زراعيين فاعتقادي هو أن البلاد العربية بأمس الحاجة إليه ، بل أستطيع القول إنه حجر الزاوية في النهضة الزراعية ويجب أن ينال الدرجة الأولى من العناية والاهتمام وأن يعم انشاؤه بقدر المستطاع ، ويمكننا إيجاد هذا النوع من التعليم وتعميمه إذا أنشأنا في كل من الوحدات الادارية الصغرى كالناحية أو القضاء مدرسة وراعينا في إنشائها الشروط التالية :

١ — أن يراعى في الابنية قرب شبهها بمباني القرية حتى لا يتغير المسكن على الطلاب إلاّ من حيث توافر الشروط الصحية فيه .

٢ — أن يكون التعليم فيها محلياً بالدرجة الأولى ومن النوع الذي يحتاجه الفلاح وألاّ تقل نسبة العمل اليدوي فيه عن ٧٥٪ أو ٨٥٪ من أوقات الدوام وأن تكون الخطة التي يسير التعليم بموجبها هي خطة المشاريع التي تسمى باللغة الانجليزية Project Method

٣ — أن تكون هذه المدارس داخلية .

٤ – أن لا تزيد مدة الدراسة فيها على سنتين ولا بأس إذا قلت عن ذلك .

٥ – أن تجهز فقط بالأدوات الزراعية التي يقدر المزارع الصغير على اقتنائها .

٦ – أن لا يقبل فيها إلا أبناء الزراع الذين يتراوح عمرهم بين سن الخامسة عشر والعشرين . على شرط أن يكونوا غير أميين بل باستطاعتهم القراءة والكتابة وليس من الضروري أن يكونوا من حملة الشهادة الابتدائية .

٧ – أن يعامل هؤلاء الطلاب كعمال بكل ما في هذه الكلمة من معان بحيث تدفع لهم أجور يومية ويطلب إليهم مقابل ذلك دفع ثمن أغذيتهم من هذه الأجور — ولتسهيل هذا الأمر تكون منهم جمعية تعاونية تتولى شراء ما يحتاجونه من الأغذية وبذات الوقت تعودهم معنى التعاون وتنمي فيهم الروح التعاونية ، ومن واجب المدرسة أن تتولى اعداد الطعام وتقديمه بتعيين طباخ على نفقتها وتجهيز أدوات الطهي والأكل الضروري . ومن المنتظر إذا اتبعت هذه الطريقة أن يتخرج الطالب من المدرسة ليس مزوداً بالمعلومات الزراعية العملية والروح التعاونية فحسب ، بل وبقليل من المال الذي يتوافر من أجره اليومي ليساعده في شراء ما يحتاج إليه من أدوات وبذور وأسمدة وغير ذلك .

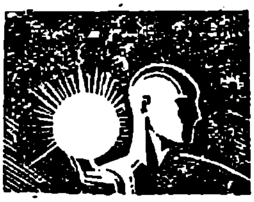
أعتقد أن تعميم هذا النوع من المدارس وفقاً لما ذكر سابقاً يساعد كثيراً في النهضة الزراعية لأن طلاب هذه المدارس يعتبرون أنفسهم كعمال فلا يحاولون السعي وراء وظائف الحكومة عندما يقومون بتطبيق ما تعلموه في مزارعهم بنجاح لابد أن ينقل لجيرانهم ما يقومون به من أعمال فلا يمضي وقت طويل إلا والطرق التي يتبعونها منتشرة في القرى التي يعملون فيها .

ومن المهم جداً أن ينتخب للتعليم في هذه المدارس معلمون من ذوي الكفاءات العملية والعلمية وأن يعدوا اعداداً خاصاً إما عن طريق دورات تدريبية قصيرة الأمد تعقد لهذا القصد واما أن يلحقوا باحدى المعاهد الزراعية ويدربوا مدة كافية من الزمن تحت إشراف أساتذة أكفاء كما إنه من الضروري أن تتخذ الترتيبات اللازمة في المدارس الصناعية العملية التي نبحث عنها لضمان تزويد الطلاب في الأمسيات ببعض المعلومات المدنية والاخلاقية على شكل أحاديث بغية توسيع أفق ادراكهم وزيادة ثقافتهم العامة ليصبحوا مواطنين صالحين

النوع الثالث من التعليم الزراعي هو ما يطلق عليه في بعض البلدان العربية باسم التعليم الزراعي المتوسط أو الثانوي — وهدفه إعداد الطلاب ليكونوا مرشدين زراعيين أو مأموري وقاية أو معلمين زراعيين ، ولذا من الضروري أن ينال طلاب هذه المدارس

قسطاً من الثقافة العامة يؤهلهم لتفهم عقليــة الزراع ويمكنهم من السير في طرق الارشاد سيراً مقبولاً عند الفلاحين ويساعدهم على ادارة المدارس الريفيــة ادارة معقولة . وبناء عليه فهم في حاجة إلى دراسة ابتدائية كاملة على أقل تقدير . والأفضل أن تكون المدارس التي يدخلونها مدارس ريفية وبعد نجاحهم في الحصول على شهادة المدارس الريفية يقبلون كطلاب في المدارس الزراعية التي يجب أن لا تقل مدّة الدراسة فيهــا عن أربع سنوات بشرط أن تعتبر هــذه الدراسة مسلكية ذات طابع خاص لا يؤهل حملة شهاداتها من الالتحاق بمدارس أعلى ويتطلب ذلك اعداد منهاج هذه المدارس بشكل يضمن الوصول إلى الغايات المذكورة بجعله منهاجاً يشمل بعض المباحث الثقافية العامة بالاضافة الى المواد الزراعية الأساسية . وسنعود إلى بحث هذا النوع من المدارس في فرصة أخرى .

والسلام عليكم .



الخدمات الاجتماعية في الريف

ومدى تأثيرها في حركة السكان في العالم العربي

للأستاذ محمد زكي عبد القادر (مصر)

كما يقال إن التعليم يصنع الشخص والأشخاص يصنعون الأمة، يمكن القول بأن الحالة الاجتماعية تصور حالة الأمة كلها، وترسم قواعد مستقبلها، بل ان التعليم ذاته ليس إلاَّ عنصراً من العناصر التي تكوّن الحالة الاجتماعية لأية أمة من الأمم. فهذه الحالة، مأخوذة على عمومها، تشمل كل العناصر التي تتألف منها حياة الفرد ومن ثمَّ حياة الأمة. وكل مظهر من مظاهر التطور والحركة في السكان لا بدَّ أن نلتمس علته في الحالة الاجتماعية التي يعيش فيها الفرد وتعيش الأمة.

والمساواة المطلقة بين الأفراد غير ممكنة. والطبيعة ذاتها — كما يقول الدوس هكسلي تأباها، والمقصود بالمساواة هنا المساواة في الملكات والهبات الطبيعية. فانك قد تستطيع أن تقرر المساواة في الحقوق السياسية أو في الحقوق المدنية. وقد تستطيع أن تهيء فرصاً متساوية أمام كل الناس، ولكنك لن تستطيع أن تفرض المساواة في القدرة الطبيعية والملكات الممنوحة بالوراثة أو الولادة، لأنها هبات طبيعية، والطبيعة قد تجود في ناحية وتبخل في أخرى. قد تسخو على فرد وتقتر على آخر، فلا بد من التسليم بأن الأفراد الذين يتألف منهم مجتمع من المجتمعات يختلفون في الملكات وأنواع القدرة، ومن ثمَّ يختلفون في الحظوظ والأقدار.

وقد سادت في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر النظرية الفردية القائلة بأن الفرد في سعيه لخير نفسه إنما يسعى ضمناً ومن غير شعور منه، لمصلحة المجموع. ومن ثمَّ رفض القائلون بها، وعلى رأسهم آدم سميث، وريكاردو ومالتس، كل تدخل من جانب الدولة في نشاط الأفراد، وقصروا وظائفها على اقامة العدل في الداخل ورد العدوان من الخارج

ولئن كانت هذه النظرية صحيحة مقبولة ومتسقة مع الفلسفة التي كان ينادي بها الكتاب والباحثون في هذا العصر، إلاَّ انها انتجت مجتمعاً وان بدا مندفعاً الى الأمام إلاَّ انه كان

ألقيت في ٢٩ نوفمبر ١٩٥٠

مثقلاً بمظالم اجتماعية لا حد لها فامتناع الدولة عن التدخل أدى الى انقسام المجتمع فريقين فريقاً وهبته الطبيعة القدرة الفائقة والملكات والقوى التي لا تبارى فازداد ثراء، ونفوذاً وسلطاناً. وفريقاً آخر قترت عليه الطبيعة في القدرة والملكات، فازداد ضعفاً وفقراً وانحطاطاً

وقد لفتت هذه الظاهرة أنظار الكتاب الانسانيين، وخاصة بعد الانقلاب الصناعي، فأخذوا ينددون بالنظرية الفردية، ويقولون إن ترك المجتمع خاضعاً للعوامل الطبيعية والاقتصادية المحض قد أدى الى أن يتضخم فريق من الناس بالآلاف والملايين. بينما لا يجد الآخرون ما يقتاتون به وأهابوا بالدولة أن تتدخل لايجاد التوازن بين الطبقات العاملة وغيرها وقال جان تشارلس دي سسموندي — وهو من الرواد الذين هاجموا النظرية الفردية — : « ان كل فرد بينما يسعى لجلب المنفعة لنفسه يزيد من سرعة الاداة الاقتصادية فعلى الحكومة أن تعمل لتهدئة هذه السرعة. وان تمارس بالنسبة لانتاج الثروة نوعاً من العمل التنظيمي. وبذلك تؤخر من اندفاع المركبة الاجتماعية التي يبدو انها على وشك أن تتردى فيما يعترضها من حفر ».

وقد كانت نظرية آدم سميث في السكان متفقة مع القواعد العامة التي وضعها في علم الاقتصاد. وكانت قائمة على قانون العرض والطلب فاذا قلت كمية العمل وكثر عدد السكان امتنعوا عن التزوج والتناسل حتى يعود التوازن. وإذا كثر العمل وقل عدد السكان، ازدادت أجورهم وتحسنت حالتهم الاجتماعية فأقدموا على الزواج والتناسل الى أن يعود التوازن المفقود. وقد رد على هذه النظرية سسموندي ناقداً اياها مفنداً أساسها فقال « إن حركة السكان لا يحكمها إلا الدخل المنظم المضمون فمتى وجد العمل والايراد الثابت تزوج الناس وتناسلوا، فالرذيلة التي تفسد نظرية آدم سميث انها تجعل حياة العامل غير مستقرة، وهكذا يولد أطفال يواجههم مستقبل عابس، مثل الذي واجه آباءهم، وبذلك نعود الى نقطة البداية. السكان الفائضون هم نتيجة عدم الاستقرار وعدم الاستقرار نتيجة الانتاج الزائد ».

والذي يعنينا من هذا كله في الموضوع الذي نحن بصدده ان الدولة اضطلعت في العصر الحديث بمهمة التدخل لايقاف المساوىء الاجتماعية التي انتهجتها النظرية الفردية القديمة. وبعد أن كان السكان في أي بلد من البلاد وفي العالم أجمع خاضعين لنظرية العرض والطلب التي اعتنقها آدم سميث أو لنظرية الطعام، والمعادلة الهندسية والحسابية التي اعتنقها مالتس أصبحوا من حيث حركتهم وحالتهم الاجتماعية نمواً ونقصاً، رخاء وفقراً، اقداماً على

الزواج أو امتناعاً عنه خاضعين أيضاً الى نوع الخدمات الاجتماعية ومدى حركة الاصلاح الاجتماعي الذي تقوم به الدولة .

... وليس معنى ذلك ان خضوع حركة السكان لمدى الخدمات الاجتماعية التي تقدمها الدولة مطلق ، فان نظرية آدم سميث ونظرية مالتس لا تزالان تعملان عملهما وان كان تدخل الدولة قد لطف من هذا العمل ومن أثره .

والبلاد العربية ، شأن سائر البلاد ، تخضع من حيث حركة السكان للعوامل التي سبقت الاشارة اليها والكثرة الغالبة من أهلها يشتغلون بالزراعة وان اختلفت نسبة اشتغالهم بها من بلد الى بلد ، ولا يزال أهل الريف عصب الثروة في هذه البلاد جميعاً فهم الذين ينتجون الجزء الاكبر من الثروة ، ومع ذلك فان حالتهم الاجتماعية لا تزال – بصفة عامة – دون المستوى الواجب . فالمدارس التي تنشأ لتعليمهم قليلة نسبياً والكثرة منهم يعملون في أرض ليست ملكاً لهم وقلما يجدون العناية الطبية الكافية ومقدرتهم الشرائية ضعيفة .

على انه قد بذلت في السنوات الأخيرة مجهودات كبيرة للتخفيف من اثر هذه الحالة ، وأحست الحكومات القائمة في البلاد العربية وخاصة في أعقاب الحرب العالمية الأولى وما صحبها من حركات سياسية وتيقظ في الوعي العام ، بضرورة الاتجاه الى الاصلاح الاجتماعي ، ولأهل الريف ، خاصة فان البناء الاقتصادي والسياسي القائم في أكثر هذه البلاد كان منصرفاً الى ما قبيل الفترة التي أشرنا اليها ، نحو العناية بالمدينة واهمال القرية . وكان التناسب بينهما لا وجود له تقريباً بحيث يبدو الفرق بين ساكن المدينة وساكن القرية شاسعاً إلى حد أن كلاً منهما يظهر وكأنه تابع لدولة غير التي يتبعها الآخر . ولم يكن في الاستطاعة الاستمرار على هذه الحالة فانها كانت تؤدي حتماً الى انحلال الأمة الواحدة وتفككها وانقسامها فريقين أحدهما يحظى بالرعاية التامة وليس للآخر من نصيب الا الاهمال التام .

وكانت نسبة الوفيات بين سكان الريف تبلغ في هذه البلاد درجة لا مثيل لها في أي بلد آخر ، إذ كانت تتراوح بين ٣٠٪ و ٤٠٪ وتبلغ في بعض الأحيان أكثر من ٥٠٪ وليس أبشع من هذا اهداراً لقوة الانتاج في الأمة واضعافاً لحيويتها فضلاً عما ينطوي عليه من قسوة واهمال .

ولم تكن هذه الحالة ناشئة عن قلة في الثروة العامة بقدر ما كانت ناشئة عن سوء فهم لواجب الدولة نحو أهل البلاد . فالواقع أن ما تحويه البلاد العربية من موارد الثروة وما تختزنه به أرضها من مصادر الرزق كلاهما كان كفيلاً بأن يوفر لكل السكان مستوى مناسباً من الحياة المتحضرة . ومن ثم اتجهت أنظار المصلحين والكتاب والمفكرين الى

الدعوة لاصلاح هـذه الحال واعطاء أهل الريف حقهم في الحياة والتنبيه الى نصيبهم في انتاج الثروة العامة .

وكان أهم ما لفت النظر في النظام الاقتصادي والاجتماعي في البلاد العربية هو أنه ، في أكثرها ، قائم على الفكرة الاقطاعية حيث تتركز ملكية الأرض في طائفة قليلة من السكان ، بينما تعيش الكثرة أجراء أو شبه أجراء . وكانت نظرية آدم سميث في السكان أوضح ما تكون عملاً وتطبيقاً في البلاد العربية، بل ان الواقع كان أسوأ مما تصوره بسبب الاعتقاد الديني السائد الذي يحض على الزواج والتناسل ويدع تدبير الرزق للخالق سبحانه وتعالى . وقد كان هذا فهماً خاطئاً للدين ولكنه كان أمراً واقعاً ، فكثرت اليد العاملة في الريف ، وفعل قانون العرض والطلب فعله دون تدخل من الدولة ، فانحطت أجور العمال انحطاطاً كبيراً وعاشوا في مستوى غير انساني ، جعلهم مباءة للامراض والخرافات والجهل .

فلما كانت الفترة التي أشرنا اليها ، والتي أعقبت الحرب العالمية الأولى وتيقظ الوعي السياسي تبعه التفكير في اصلاح هذه الحالة واتجهت الحكومات الى الريف فأخذت تنشر التعليم بين أهله،تنشىء المدارس والمعاهد في القرى والمدن الريفية . وتنشىء المستشفيات والوحدات الصحية والعلاجية وتستصلح من الأراضي البور وتوزعها على صغار المزارعين رغبةً في نشر الملكيات الصغيرة وتخفيفاً من المظهر الاقطاعي الذي كان واضحاً للعيان .

وفي الوقت نفسه ، استخدم نظام الضرائب وسيلة من وسائل الاصلاح الاجتماعي ، فأدخلت بعض البلاد العربية نظام الاعفاء من الضريبة بالنسبة لصغار الملاك وأخذت بنظام التصاعد فيها بالنسبة لكبارهم ، وشجعت الاستكثار من الملكيات الصغيرة وأدخلت نظام الجمعيات التعاونية حمايةً لصغار المزارعين وأقرضتهم الأموال وأمدتهم بالبذور والأسمدة ، فحالت بينهم وبين من كانوا يستغلونهم من التجار والمرابين . وهكذا أخذت الحياة تدب في أوصال القرية وتتصل بالمدينة اتصالاً سريعاً منظماً .

ولا بدَّ من الإشارة إلى ماكان للنظام النيابي الذي أدخل في أكثر البلاد العربية من أثر في هـذا التطوُّر ، فان كثرة أصوات الناخبين من الريف ، فكان ممثلوهم أو الراغبون في الحصول على أصواتهم لا يجدون وسيلة لجذبهم غير التحدث إليهم وإلى الحكومات عن إصلاح حالهم والعناية بشئونهم والمطالبة بانفاذ المشروعات التي تساعد على التخفيف من قسوة الحياة بالنسبة لهم . وقد ساعد هذا العامل مساعدة فعالة على توجيه الحكومات إلى الخدمات الاجتماعية في الريف .

وإن ما تنادي به اليوم أكثر البلاد العربية ، بل كلها ، من مكافحة الجهل والفقر والمرض ليس إلا بداية لما ينتظر أن تبلغه حركة الإصلاح الاجتماعي في هذه البلاد من نتائج . وقد أخذت بوادر هذه الحركة وآثارها تظهر في ازدياد نسبة المواليد وانخفاض نسبة الوفيات فان انتشار المراكز الصحية والاجتماعية في القرى والتوسع في الخدمات الاجتماعية، كل ذلك أدى إلى تبصير السكان بقواعد الصحة ولفتهم إلى العناية الطبية بأنفسهم وأولادهم ثم ان المجهودات الكبيرة التي بذلتها بعض البلاد العربية في سبيل نشر التعليم في الريف وتخفيف نفقاته بل وإلغائها إلغاءً تامًّا في بعض الحالات أضاء القرية بنور العلم وساعد على رفع المستوى الصحي والاجتماعي لأهلها . وفي الوقت نفسه كان لتقدم أسباب المواصلات وإنشاء الطرق الزراعية الممهدة أثر ظاهر في تقريب القرية الى المدينة وتردد أهل الأولى على الثانية ، واختلاطهم بنوع من الحياة أرقى مما ألفوه ، وفتح عيونهم على آفاق جديدة من النظر والمشاهدة . وبفضل التوسع في التعليم وانتشار استعمال أجهزة الراديو أضيف الى العوامل المتقدمة عامل عظيم الأهمية في تثقيف أهل الريف وتمكينهم من الاتصال بكل أسباب الحضارة والرقي .

وكانت نسبة الوفيات في المواليد تبلغ حدًّا مزعجاً بسبب الجهل والفقر فقد كان يموت من الأطفال في مصر مثلاً ٣٥ في المائة إلى ما قبل عشرين سنة فانخفضت هذه النسبة في سنة ١٩٤٢ الى ٢٨ في المائة واستمرت في الانخفاض سنة بعد أخرى حتى أصبحت تبلغ الآن ٢٥ المائة ، ولا تزال هذه النسبة لافتة للنظر وداعية إلى مضاعفة الجهد والإكثار من الخدمات الاجتماعية والتنويع فيها ، ولكن اتجاهها الى الانخفاض أمارة طيبة ودليل على أن الخدمات الاجتماعية التي تقوم بها الدولة في الريف قد أخذت تؤتي ثمارها .

وقد كان يولد من المصريين أمواتاً في سنة ١٩٣٠ نسبة بلغت ١٠ في المائة وكان ارتفاعها راجعاً الى السبب نفسه الذي دعا الى ارتفاع نسبة الوفيات في المواليد ، ونعني به الجهل والفقر . وقد انخفضت هذه النسبة في سنة ١٩٤٦ الى ٧ في المائة .

بل إن حركة السكان في مصر ونمو عددهم تابع حركة الإصلاح في البلاد وسار معها خطوة خطوة . وإن نظرة عاجلة على أرقام السكان في مصر في الخمسين سنة الماضية وتضاعف عددهم ليدل دلالة لا تقبل الشك على مدى ما حققته مصر في ميدان التنظيم الداخلي والخدمة الاجتماعية ، فقد كان عدد السكان في سنة ١٨٩٧ أقل من عشرة ملايين فبلغ في سنة ١٩٤٧ ما يقرب من تسعة عشر مليوناً وها هو اليوم يبلغ نحو عشرين مليوناً .

ولا نستطيع ونحن نتحدث عن الحالة الاجتماعية في البلاد العربية جملة أن نغفل أثر

التقدم الاقتصادي في حالة السكان فالفصل بين الاجتماع والاقتصاد أمر يكاد يكون مستحيلاً فيثما يزداد الرخاء ، وتسخو مصادر الثروة ، ويزداد حظ الفرد من العمل والأجر ، يرتفع مستوى المعيشة وتقل نسبة الوفيات وتزداد نسبة المواليد .

وثمة مشكلة تعانيها بعض البلاد العربية ونعني بها سوء توزيع السكان فإنهم يكتظون حيث توجد الأراضي المستصلحة ، ويخفون حيث تكون الأرض محتاجة الى بذل الجهد وانفاق المال واكتظاظهم في بقعة واحدة يؤدي حتماً الى انخفاض أجورهم ومن ثمّ إلى سوء حالتهم . ولا بدّ لعلاج هذه الظاهرة من العمل على تفريد السكان ونشرهم بنسب متساوية على قدر الامكان في طول البلاد وعرضها ، غير أن هذا يتطلب جهداً مستمراً وبذلاً سخياً في المال والعمل بالسعي لاستصلاح الأراضي القابلة للزراعة ، وإغراء أهل المناطق المكتظة بالسكان على الهجرة الى المناطق الجديدة . ومن المسلم به أن البيئة الزراعية توحي للقاطنين بها حب الأرض والتمسك بها ، وتصرفهم عن الرغبة في الهجرة أو التنقل أو المجازفة بمصير مجهول ، فلا بدّ من إغرائهم على التحرك من مناطق لا يجدون فيها العيش الرخي إلى مناطق وإن كانت جديدة إلا أنها ، مع مضي الوقت ، ستصبح موطناً محبوباً يدر الخير والرزق الوفير . ونظرة عاجلة على نسبة توزيع السكان في بلاد كمصر تؤكد ضرورة السعي الجدي لتفريدهم وتحسين حظوظهم وتعمير مناطق تبدو اليوم مهجورة على الرغم من وفرة العمل فيها . فبينما لا يخص الكيلومتر المربع في مديرية البحيرة سوى ٢٣١ شخصاً نجد الكيلومتر المربع في المنوفية يسكنه ٧٢٨ شخصاً وبينما يسكن الكيلومتر المربع في الغربية ٢٨٠ شخصاً نجد الكيلومتر في الجيزة يخصه ٦٧٥ شخصاً .
وبينما نجد الكيلومتر المربع في الشرقية يسكنه ٢٢٢ شخصاً إذا به في القليوبية يسكنه ٦٥٠ شخصاً . ولا نستطرد في ذكر بقية النسب فان هذه الظاهرة واضحة في مصر وقد ترتب عليها أن عشرات الالوف من الأفدنة في بعض المديريات لا تجد أياد عاملة كافية بينما تتنافس هذه الأيدي على الأرض في جهات أخرى مما يزيد في قيمة الأرض الاقتصادية ويضعف من المستوى الاجتماعي للمشتغلين بزراعتها .

وقد طرأ عامل أخير في مصر أحدث اضطراباً جديداً في توزيع السكان ، ونعني به نشوء بعض الصناعات وازدهارها ، فإن الصناعات الجديدة جذبت ألوف العمال من الفلاحين وأغرتهم بالهجرة من مناطق بعيدة والسكنى حيث توجد المصانع . ولئن كانت هذه الهجرة قد أدت الى رفع المستوى الإقتصادي والاجتماعي للمهاجرين ، إلا أنها قللت من الأيدي العاملة في الريف . وقد ساعد هذا العامل على رفع مستوى الأجور

بين العمال الزراعيين غير أن التوسع في إدخال الآلات في الزراعة أضعف من هـذه الميزة في كثير من المناطق .

ولئن كانت هذه الملاحظات خاصة بمصر إلا أنها صحيحة أيضاً بنسب مختلفة في سائر البلاد العربية فان خطوط التطور والتقدم الرئيسية متشابهة في هـذه المنطقة ، غير أنه في بلاد كالمملكة العربيـة السعودية يتألف جزء كبير من السكان من القبائل الرحل الذين يقضون العام متنقلين من مكان إلى آخر سعياً وراء الرزق ، يصعب الحصول على إحصائيات دقيقة عن حالة المواليد والوفيات والزيادة والنقص في عدد السكان .

وقد أدى استغلال آبار البترول في الضهران إلى جذب عدد كبير من أفراد القبائل الرحل واغرائهم على الاستقرار والتوطن قريباً من هذه الآبار . على أن الجزء الأكبر من سكان المملكة العربية السعودية لا يزالون يعيشون على الزراعة وتربية الجمال والماشية والافادة من مواسم الحج . وان الرقعة المنفسحة لهذه المملكة ٩٢٧,٠٠٠ ميل مربع وعدد سكانها الضئيل نسبياً (ستة ملايين ونصف مليون) يجعل احتمال زيادتهم مرجحاً . كما ان انفاذ المشروعات الجديدة وادخال نظام الري الذي بدأ في الـكرج سيؤدي — حتماً — ومع مرور الوقت الى استقرار القبائل الرحل وتحولهم من حياة البداوة الى حياة الحضر . وإذا كان الكيلومتر المربع في مصر يسكنه في بعض الأحيان أكثر من سبعمائة شخص فانه في المملكة العربية السعودية يسكنه أقل من خمسة أشخاص .

وتبدو كثافة السكان في العراق بهذه الضآلة فان مساحته تبلغ ٤٥٣,٠٠٠ كيلومتر وعدد سكانه أربعة ملايين فيخص الكيلومتر الواحد ٨,٨ من السكان .

وإذا قدرنا عدد السكان بالنسبة إلى مساحة الأراضي القابلة للزراعـة فقط وتبلغ مساحتها ٩٢,٢٠٠ كيلومتر مربع كانت كثافة السكان ٤٣,٤ لكل كيلومتر مربع بينما هي نحو ٥٣ في الجمهورية السورية ونحو ٤٥٠ في مصر .

ويمكن تقسيم أهل العراق بالنظر الى أحوالهم الاجتماعية الى أربع فئات :

١ — القبائل الرحل .

٢ — سكان القرى والأرياف من العشائر .

٣ — سكان القرى والأرياف المستقرون .

٤ — سكان المدن .

ويؤخذ من الاحصائيات المعتمدة أن القبائل الرحل يؤلفون ٨ ٪ من مجموع السكان

وإن سكان القرى والأرياف من العشائر يؤلفون ٤٨ ./. وسكان القرى والأرياف المستقرون ٢٢ ./. وسكان المدن ٢٢ ./.

ولا يتسع المجال للافاضة في الكلام عن حالة كل فئة من هذه الفئات ولكن يمكن القول في ايجاز أن عيشة القبائل الرحل في الشمال والجنوب تعتمد على ألبان مواشيهم ولحومها وما يستطيعون الحصول عليه من الحواضر بالمقايضة على مواشيهم .

أما سكان القرى والارياف من العشائر فهم أحسن حالاً وهم منتشرون في المناطق الصالحة للزراعة ، وبعضهم يعيشون عيشة هي بين البداوة والحضارة ، وبعضهم يسكنون في القرى المملوكة للاغوات أو كبار الزعماء ، ويعملون في فلاحة أراضيهم وفي رعاية ماشيتهم ويسكنون بيوتاً من الطين أو اللبن المجفف . ويتوقف معاشهم على ما يتقاضونه من الملاك كحصة من الغلات الزراعية ، وما يكسبونه من مواشيهم الخاصة أو من بعض الأعمال التي يمارسونها خارج نطاق الزراعة كبيع المحصولات والخضر والحطب في القرى الكبيرة أو المدن . ومنهم من يعمل في الزراعة جزءاً من السنة ، وأحياناً لا يستقرون في منطقة واحدة مدة طويلة ، بل ينتقلون من منقطة الى أخرى إذا دعت الى ذلك ضرورة كبوار الأرض ونحو ذلك .

اما سكان القرى والأرياف المستقرون فيسكنون في قراهم بيوتاً مبنية بالطين ولا تختلف طريقة معيشتهم عن الفريق السابق في شيء سوى انهم مستقرون في قرى معينة لا يبرحونها

أما سكان المدن فقد اقتبسوا طرق المعيشة الاوروبية الى حد بعيد ، في ملابسهم ، ومساكنهم ، وأعمالهم ، وحياتهم الاجتماعية ، وهم يزاولون مختلف الأعمال في صناعة ، وتجارة ، ووظائف حكومية . وانتشار التعليم بين أهل المدن أكثر مما هو بين باقي السكان .

ولا توجد احصائيات دقيقة تبين عدد المشتغلين بالزراعة من أهل العراق بالنسبة الى بقية السكان ، ولكن البيانات الواردة في بعض التقارير الحكومية وغيرها تدل على ان نسبة المشتغلين بالزراعة تقرب من أربعة أخماس السكان .

والظاهرة القائمة في العراق والمملكة العربية السعودية وهي انقسام السكان الى مستقرين ورحل ، قائمة أيضاً في شرقي الأردن فأكثر البلاد صحراوي فيما عدا الجزء الغربي منها فهو صالح للزراعة . ويبلغ عدد السكان ٤٠٠,٠٠٠ نسمة منهم ٢٣٠,٠٠٠ مستقرين و ١٢٠,٠٠٠ نصف رحل ، والباقون رحل .

وتبلغ مساحة سوريا ٥٥٠٠٠ ميل مربع ، وعدد سكانها مليون ، ومساحة لبنان ٤٣٠٠ ميل مربع ، وسكانها مليون و ٢٥٠ الف .

وتبلغ مساحة اليمن ٧٤ر٠٠٠ ميل مربع ، وعدد سكانها ٣ ملايين ونصف . وتعد المرتفعات الوسطى في اليمن ، والجهات المرتفعة في السلسلة البحرية من أخصب البقاع في شبه الجزيرة العربية .

ومن الجلي — بحكم ظروف هذه البلاد ، وعلى الرغم مما تبذله الحكومات من جهود أن تظل الخدمات الاجتماعية التي تؤديها للمشتغلين بالزراعة محصورة في نطاق ضيق تقوم في وجهها مصاعب عديدة ترجع الى طبيعة السكان والارض والتقاليد الموروثة . على ان السكان الرحل في هذه البلاد جميعاً آخذون في التناقص تدريجياً بفضل ما تؤديه الحكومات من خدمات وما تقوم به من تشجيع الرحل على الاستقرار .

ولا بد ، ونحن ننظر الى المستقبل في هذه البلاد ، أن نضع نصب أعيننا ما هو متوقع ، بل وما بدت بوادره بالفعل من السعي الجدي لزيادة استغلال موارد الثروة وعلى الأخص البترول ، والعمل على استصلاح الأراضي للزراعة بادخال مشروعات الري الحديثة ، وما يقوم في بعض هذه البلاد من التفكير في تصنيع الزراعة ، وتحويل جانب من نشاط الأيدي العاملة الى الناحية الصناعية سواء ما يتعلق منها بالزراعة أو بغيرها .

ولا شك في أن هذه التطورات المتوقعة ستدخل تغييراً كبيراً على حالة المشتغلين بالزراعة ، فيستقر الرحل منهم وترتفع أجورهم ، ويزداد حظهم من عناية الحكومات ، وتتقارب الفروق الشاسعة القائمة اليوم بين سكان الريف وسكان الحضر :

وإن الاحساس المتزايد بين المسئولين في هذه البلاد بضرورة القيام باصلاحات اجتماعية واسعة المدى خير ضمان المستقبل ، وخير عزاء عما نقرره آسفين من أن المستوى الاجتماعي للمشتغلين بالزراعة في البلاد العربية لا يزال دون المستوى الواجب .

الانتعاش الاجتماعي في البادية

لمعالي الأمير مصطفى الشهابي (سورية)

١ — توطئة :

قبائل البدو في الأمة العربية طبقة (اجتماعية) ألفت عيشة البادية منذ آلاف مؤلفة من السنين ، فصارت لها عقلية وأخلاق وعادات وشرائع خاصة بها ، وكلها نتيجة لهذا النظام من الحياة الفطرية الذي كان منتشراً في فجر حياة الإنسان ، وما برح له أتباع في أنحاء مختلفة من الأرض .

وللنظام المذكور محاسن ومساوىء ، شأنه شأن سائر أنظمة المجتمعات البشرية . فمن محاسنه أنه يقوي في أفراده رابطة الأسرة والقبيلة ، وعاطفة التضامن وشعور العدالة والحرية والشجاعة والشرف والكرم والتضحية والقناعة بالقليل . وهذه القناعة تكون سعادة عندما لا يكون هناك مجال للطموح .

ومن مساوئه ابتعاد أفراده عن المدنية وعن الثقافة العامة ، واضطرارهم إلى العيش عيش الفقر والكفاف من دخل صغير يحصلون عليه من تربية الخيل والأنعام والأغنام في مراعي البادية ، وتفشي الجهل والخرافات والأمراض وبعض العادات السيئة فيهم ولهذا انحط المستوى الاجتماعي والاقتصادي لدى قبائلنا البدوية ، وصار من الضروري التفكير جدياً في الوسائل التي تنهض بهم الى مستوى أعلى في هذه الحياة .

وكثيراً ما تساءل الناس قائلين : لماذا تتحمل هذه القبائل شظف العيش في الصحراء ؟ ولماذا لا تنزح منها وتستقر في الحاضرة ؟ وهل البداوة ضرورة ؟ وهلا يكون من المفيد تحضير القبائل جميعاً ، والقضاء على هذا النظام الابتدائي الذي يجعلنا في أعين العالم المتمدن أمة فيها طبقة لا تزال واقفة على درجة وطيئة من درجات سلم الحضارة ؟ وسأحاول الاجابة على هذه الأسئلة بكلمتين موجزتين :

فتحضير البدوي أمر يمكن تحقيقه . وهو تبديل معيشته بنقله من حياة الراعي المتنقل الى حياة المزارع المستقر . والتحضير كلمة جميلة طالما أشاد بذكرها الأدباء ورجال الدولة ، وطالما عنوا بتحقيق مضمونها ، أو سعوا الى تحقيقه . ولكنهم لم يستطيعوا أن

القيت بتاريخ ٢ ديسمبر ١٩٥٠

يحضّروا سوى جزء من سكان البادية . وفي الحقيقة لا يمكن بل لا يجوز تحضيرهم جميعاً وذلك للأسباب الآتية : —

إذا أنعمنا النظر في جغرافية معظم البلاد العربية ، سواء في المشرق أو في المغرب ، نجد أنها تشتمل اجمالاً على ثلاثة أقاليم : الأول اقليم السواحل والجبال الساحلية، والثاني اقليم السهول والنجود الداخلية ، والثالث اقليم الصحراء أي الأراضي الواسعة التي تنحدر من السهول الداخلية الى قلب البادية . فالاقليم الأول أمطاره غزيرة تكفي لزراعة عديد من النباتات الزراعية المختلفة . والاقليم الثاني أمطاره أقل من أمطار الاقليم الأول ولكنها تكفي لزراعة الحبوب خاصة . أما الأقليم الثالث وهو الذي يهمنا أمره ، فتربته ليست مؤلفة من رمال غليظة مفككة على ما يظن بل هي تربة زراعية صالحة لحياة النبات ولكن هذه الصحراء خالية من الأنهار والقنوات والينابيع ، وأمطارها قليلة يتراوح ارتفاعها بين ٧٠ و١٥٠ مليمتراً في السنة . وهذا المقدار القليل من المطر لا يكفي لزراعة الأراضي اقتصاديّا ، ولكنه كافٍ لانبات أعشاب طبيعية في الشتاء والربيع . وهذه الأعشاب تنتسب الى أجناس وأنواع نباتية شتى ، وتؤلف مراعي واسعة لا يستهان بها ولا سيما في السنين المطيرة .

وليس من المعقول ترك هذه الأعشاب تنبت وتزدهي بخضرتها ثم تصوّح وتذروها الرياح . ولذلك استفادت منها قبائلنا العربية ، فربّت الخيل والابل والضأن وقليلاً من المعز وسرّحتها في تلك المنتجعات ، فكان لها من ذلك دخل صغير قوامه اللبن ومصنوعاته واللحم والصوف والوبر والمطايا ، مما تحتاج إليه البادية والحاضرة على السواء ولو كان الغيث الذي يُنمت النبات في تلك المراعي يهطل بمقادير كافية ومحدودة في الزمان والمكان لاستقرّت كل قبيلة في أرضها ، ولما احتاجت الى التنقل ، ولكن المطر في أراضينا الصحراوية لا ضابط له ، فهو يهطل أينما شاء ومتى شاء . فقد يخص برحمته بقعة من بقاع البادية في سنة من السنين ، ويخصها بنقمته أي يتحاشاها في السنة التالية

ومن المعروف في علم الجَوّيّات أن الانسان لم يستطع حتى الآن السيطرة على الحادثات الجوية ، ولذلك اضطرّت القبائل الى التنقل في صحارى بلادنا انتجاعاً للكلأ حيثما يكون الغيث قد أنبته ، وهكذا صار هذا الطراز من المعيشة نظاماً للقبائل البدوية لا معدى عنه إلا إذا رضينا بهجر البادية وتقديم أرضها ومراعيها هدية منا الى حيواناتها البرية وهذا شيء لا يقبله العقل على ما ذكرته ، فحيثما يَنبت المرعى في البادية لا بدّ من وجود الراعي البدوي وجواده وبعيره وضائنه .

هذا هو الجواب لمن يسأل قائلاً : هل البداوة ضرورة من ضرورات الحياة أم لا ؟ أما الذين يستنكرون تحمّل القبائل لشظف العيش في البادية ، وعدم تطلعهم الى عيش أرغد من عيشهم فيها فأجيبهم بما يلي : —

فلما تجدب البادية سنين متتالية . وكثيراً ما تنعم بأمطار كافية تدوم بضع سنين وتدعمها حرارة جوية مؤاتية لتناسل الماشية ، فيعم عندئذ الخصب ، ويكون سبباً لانتعاش سكان الصحراء اقتصادياً . وهذا الانتعاش يدعو ، أول ما يدعو ، إلى التفتيش عن المرأة ، لا لما أحدثت من شرور ، (كما يقول الحضر في أيامنا هـذه !) بل للزواج ، شأن البدوي في ذلك شأن معظم المكتفين أو الموسرين على الأرض ، أيّا كانت طبقتهم الاجتماعية ، وطبيعة العيش في الصحراء تجعل البدوي مزواجاً وتجعل امرأته نشُورا ، ولذلك سرعان ما يزداد عدد سكان البادية ، وسرعان ما تضيق مراعيها بماشيتهم المتكاثرة ، حتى إذا حلت سنون عجاف بانحباس الغيث ، اضطرت بعض القبائل إلى الهجرة . ولهذا شُبّهت عربة أي جزيرة العرب بالكأس كلما امتلأت فاض منها إلى الأطراف رجال .

وكلنا يعلم إن هجرة العرب الأقدمين من جزيرة العرب إلى البلاد المجاورة لها قد بدأت منذ أزمان طاعنة في القدم ، أي منذ فجر التاريخ ، وان الهجرة ما برحت تحدث حتى في أيام الناس هذه . وما المصريون القدماء والبربر في شمال أفريقية والأكديون والآرَميون والعمُوريون والفنيقيون وغيرهم من الأقوام العربية الأرومة سوى طلائع متتابعة لتلك الهجرات . وقد تلتها هجرة قبائل عديدة ، قبل الميلاد وبعده ، إلى مختلف أقطار بلادنا العربية ، كقبائل الإسماعيليين وقضاعة وتَنُوخ وربيعة وبكر وإياد وغسّان ولَخم وغيرها كثير مما يطول شرحه .

ولعلّ أهم هجرة عرفها تاريخ الجزيرة العربية تلك التي حملت القبائل فيها ديننا الإسلامي فنشرته ، أو انتشرت بهديه ، حتى بلغت الصين شرقاً ، وبحر الظلمات غرباً .

أما أحدث هجرة عرفناها فهي نزوح قبيلتي شمّر وعنزه من نجد الى الشام والعراق خلال القرنين الأخيرين .

ولا يجهل كل من له اطلاع على التاريخ كيف تحضرت تلك القبائل في البلاد التي هاجرت إليها وكيف أوجدت فيها مدنيات عظيمة ما برحت آثار كثير منها بادية للعيان . ومن الجهل المطبق الحكم على عدم قابلية القبائل العربية للأخذ بوسائل الحضارة ، لمجرد كونها مضطرة الى العيش في البادية أو في سيف البادية . وهل نحن الذين نجتمع في هذه الحلقة سوى أبناء لتلك القبائل ؟ وهل نحن — يا ترى — منحطون عن مستوى الرجل العادي

المتمدن ؟ لجزيرة العرب إذن هي مهدنا نحن العرب جميعاً . وقبائلها هي ينبوع عنصرنا الصافي . وهجراتها إلى البلاد العربية السائرة في القديم والحديث هي التي حفظت الطابع العربي في تلك البلاد ، على الرغم من مختلف الأقوام الأجنبية التي غزتها على كرّ السنين .

فالقبائل التي لها هذا الشأن الخطير في تاريخنا وفي كياننا القومي لايجوز أن نتركها تغالب وحدها قساوة الطبيعة في الصحراء . ولذلك أرى من واجبي أن أشكر للرئيس المحترم السير رفائيل سلنتو تفضله بدعوتي إلى إلقاء هذه المحاضرة ، وإدخاله مسألة إنعاش القبائل البدوية في برنامج هذه الدورة من حلقة الدراسات الاجتماعية .

٢ — قضايا البادية :

وبعد فما هي قضايا القبائل البدوية في أيامنا هذه ؟

الذي يبدو لي أن القضية الاقتصادية هي علة العلل في البادية ، وأن الفقر هو العامل الرئيسي في انحطاط مستوى قبائلها عن مستوى سائر طبقات الأمة العربية . وسبب الفقر ناشىء عن كون البادية لا تصلح للزراعة ، كما ألمعت إليه ، وهي أيضاً لا تصلح للصناعات الآلية لأنها خالية من المواد الأولية . ومعادنها التي يمكن الاستفادة منها اقتصادياً تكاد تكون مفقودة . وإذا وُجد منها مقدار محدود فان العمل في استخراج فلزاته لا يعول عدداً كبيراً من البشر . وعلى هذا فالمرفق الوحيد الذي يبقى للقبائل في الصحراء إنما هو الكلأ . ولكن الكلأ يقل في السنين القليلة الأمطار فتهزل الماشية من جراء ذلك ، حتى إذا تعرضت لبرد الشتاء نفقت منها قطعان عديدة ، فاذا بالبدوي قد بات فاقداً للكثير من دخله القليل ، حتى أمسى غير قادر على تدارك ما يكفيه من غذاء وكساء . ومن حسن حظه أنه لا يفقد المأوى ، ما دام مأواه خيمة ينصبها حيث يشاء من أرض الصحراء الواسعة . ومع هذا فمن الممكن أن تهب على خيمته المهلهلة رياح هوج تمزقها حتى ليشق عليه رتقها أحياناً .

ومعظم القضايا الاجتماعية في البادية هي وليدة هذه القضية الاقتصادية : فالفقر هو الذي جعل البدوي يعيش في جهل مطبق ، وهو الذي جعل الأمراض تتفشى فيه وفي ماشيته ، وهو الذي حمله على الغزو اي على قتال أبناء قومه ، وهو الذي كان وما برح يدفعه الى الهجرة

ولقد قلت على عجلة أن قبائلنا كانت في الأيام السالفة تعمد الى الهجرة كلما تكاثر أفرادها وأمضها شظف العيش ، وتاقت نفوسها إلى عيش أرغد وقد كان السلاح في تلك الأيام السحيقة واحداً ، ولذلك كثيراً ما كانت تتغلب على الأقوام الأجنبية ، وتقيم مقامها ، وتجد في أرضها مرتزقاً ومجالاً لنشاط حيوي كبير . أما اليوم فالذين يعيشون حواليها في

الحواضر هم أبناء جلدتها من عرب ومستعربين . وهم يعيشون في دول عربية مستقلة . فاذا ما مست الحاجة إلى هجرة بعض القبائل اليها فانما يكون ذلك شبيهاً بانتقال الرجل من دار أبيه وأمه إلى دار أخيه وابن عمه .

٣ — طريقة تبديل المعيشة : ولقد حداني على الاشارة الى الهجرة كونه توجد أمامنا وسيلتان لمعالجة قضايا سكان البادية : أولاهما تبديل معيشة قسم منهم بنقلهم إلى خارج الصحراء، أي إلى بيئة تكون فيها سبل العيش ميسورة . والثانية تقديم الخدمات الاقتصادية والاجتماعية لمن يمكثون على مألوف عيشهم في البادية نفسها .

وأول ما يتبادر الى لذهن ، عندما يراد الأخذ بالوسيلة الأولى ، هو اسكان القبائل في أراض زراعية تكون غلاتها كافية لمعاشهم . ومهما قيل عن أنفة الأعراب الخالص من العمل في الفلاحة فما لا ريب فيه أن الحاجة قد ألجأتهم في الماضي الى امتهان هذه المهنة ، وانها تلجئهم اليوم أيضاً إلى ممارستها . والدليل على ذلك أن مئات من قرى الشام والعراق مثلاً يستغلها اليوم أفراد كانوا ينتسبون الى قبائل بدوية. وكثير منهم ما برحوا يحتفظون بأصولهم القبلية ، على الرغم من انهم قد استقروا في الأرض منذ زمن طويل ، وانهم قد قطعوا كل علاقاتهم بقبائلهم القديمة . وعندنا في الشام قبائل نصف حضرية ، تعيش بسيف البادية ، وقد ألفت الجمع بين البداوة والفلاحة فتراها تحرث التربة وتبذر البذار في الخريف ، ثم ترحل الى البادية في الشتاء ، متتبعة فيها مساقط الغيث ومنابت الكلأ ، ثم تعود في أواخر الخريف الى زرعها المستحصد فتحصده . ولا أغالي كثيراً إذا ما قلت إن القبائل البدوية هي اليوم كما كانت في الماضي ، أهم معين تستطيع زراعة البلاد العربية أن تستمد منه ما تحتاج اليه من الأيدي الكادحة في الأرض، باستثناء مصر وبعض الجبال التي ضاقت بمستغليها من الفلاحين كجبل العلويين في سورية وكجبل لبنان مثلاً .

ونقل القبائل من الحياة البدوية الى الحياة القروية المستقرة ليس من الأمور السهلة . فهو يحتاج الى توفر شروط كثيرة منها .

١ — وجود حكومات تشعر بمسئوليتها في تبني هذه المشاريع ، وتكون جادة في تسهيل دراستها وتنفيذها .

٢ — انتداب علماء زراعيين اختصاصيين يدرسون قابليات الكُوَر الزراعية ، ويفحصون نباتاتها الطبيعية ، وجَوّياتها ، وتركيب تربتها طبيعياً وكيماوياً وجيولوجياً ، ومياهها الأرضية ، ووسائل اسقائها سيحاً اذا لم تكن من الأعداء .

٣ — وجود رأس مال كبير للقيام بأعمال التأسيس والاستغلال جميعاً . وتفصيلات

كل مشروع من مشاريع الاسكان يمكن أن تستوعب كتاباً برأسه .

ومن المعلوم أن الغاية المتوخاة من مشاريع اقرار البدو في الأرض انما هي ايجاد أسر من الفلاحين تملك كل أسرة منها وحدة زراعية كافية ومستقلة وثابتة . ومن خطل الرأي اقطاع رؤساء القبائل الأرضين الواسعة ، وجعل أفراد القبيلة عمالاً أو مزارعين عندهم . ومن خطل الرأي أيضاً تمليك الارض بطريقة الشيوع ، أو تجزئتها سهاماً مستطيلة ضيقة (على ما يشاهد في ديار الشام خاصةً) برغم أن كل فلاح يجب أن يكون له نصيب من كل أقسام الأرض . فهذه الأمور يجب تجنبها لأنها من أكبر الأسباب لانحطاط الزراعة في البلاد العربية .

أما الأرض الزراعية الحالية فكل دولة من الدول العربية أدرى بما عندها منها . وجميعنا نعرف مثلاً أن في العراق مجالاً لاستقاء أرضين واسعة ، ولاسكان عدد كبير من رجال القبائل . ونعرف أيضاً أن أرض الجزيرة بالشام صالحة لأن تتخذ فيها أحدث الأساليب العلمية الزراعية ، سواء في الأعذاء على المطر ، أم في الأراضي التي يمكن استغلالها بمشاريع الاسقاء . وتعداد القابليات الأخرى طويل جداً . والذي يهم ذكره في هذه الكلمة الموجزة هو أنه من الضروري أن يكون للدول العربية سياسة حكيمة في تحضير الذين يجب تحضيرهم من رجال القبائل ، فكما انه لا يجوز أن تظل أراضينا القابلة للزراعة خالية مهملة ، كذلك لا يجوز أن يستأثر بمعظمها الوجوه والرؤساء . لأننا نرى أن قصارى ما يفعلونه في أيامنا هذه انما هو العيش في المدن ، واهمال مزارعهم وقراهم الواسعة ، واستغلال الارض والفلاح دون انفاق شيء في تحسين تلك الأرض أو في رفع مستوى ذلك الفلاح

٤ — الانعاش في الصحراء : ولننظر الآن في الوسائل التي يمكن اتخاذها لرفع مستوى القبائل البدوية المقيمة في الصحراء . فالبدوي يحتاج قبل كل شيء الى ما يكفيه من الماء والغذاء والكساء ؛ ثم يحتاج بعد ذلك الى وقايته ومداواته من الأمراض ؛ ثم الى رفع غشاوة الجهل عن عينيه . ولا تخرج هذه الحاجات في جملتها عما هو ضروري لكل طبقة متأخرة من طبقات المجتمعات البشرية . ولكن البادية أشد حاجة اليها من الحاضرة وذلك لأسباب شتى .

وقد ذكرت أن الخيل والأنعام هي رأس مال البدوي الوحيد في باديته ولذلك علينا أن نبحث في الطرائق التي تؤدي الى ازدياد رأس المال هذا .

فالخيل العراب مثلاً يجب أن تؤسس لها مراكز للسفاد بغية تجويد أنسالها . والضأن يجب محاولة تجويد صوفها ولحمها في مراكز تحدث لهذه الغاية .

وهناك قضية قلة الماء في مراعي الصحراء . فهي تدعونا الى الاكثار من حفر الآبار في الأماكن المؤاتية ، لكي تزداد مساحات المراعي التي تستطيع القبائل ارتيادها . وقد قامت الدول العربية بحفر الآبار في بعض مواقع الصحراء ، ولكنه لا يزال أمامها مجال واسع للعمل في هذه الناحية .

وهناك أيضاً قضية برد الشتاء القارس في بعض السنين ، فهي تحملنا على التفكير في تأسيس حظائر أي ملاجيء لماشية في الصحراء .

وقلة المطر في السنين المجدبة تدعونا أيضاً الى البحث في بناء سقائف تخزن فيها الأعشابُ الميبسة لكي تعلفها الماشية في تلك السنين .

ولكي ندرك شدة الحاجة الى الماء والكلأ في السنين التي يقل فيها المطر ، أذكر لكم مثالاً صادفته في حلب . وهو انني كنت أرى تجار الغنم في سنة كهذه ينقلون العلف والماء بسيارات الشحن من حلب الى البادية . وهو على ما ترون عمل شاق كثير النفقات ، كانوا في غنى عنه لو كانت في البادية آبار كافية وسقائف فيها أعلاف مخزونة .

ولا أعتقد أن الحكومات العربية عملت شيئاً يذكر يتعلق بقضيتي حظائر البادية وسقائفها .

أما أمراض الخيل والماشية في البادية فما برحت تتقى وتداوى بالوسائل التي ألفتها القبائل منذ قرون . ومن حسن حظ البدوي أن جو الصحراء نقي وقتال لكثير من الميكروبات ، وان التوغل في الصحراء هو في حكم محجر طبيعي للأمراض المعدية . ولكن ذلك لم يكن حائلاً دون اصابة الخيل بالرعام والخلق ، واصابة الابل بالجرب ، والضأن بالجدري ودودة الكبد والحمى الجمرية وغيرها من الأمراض المكروبية والطفيلية .

ولا يوجد اليوم في البادية أثر لمصلحة الطب البيطري على ما أعلم ، ولهذا أرى أنه من المفيد تأليف وحدات بيطرية تتفقد ماشية القبائل في منازلها ، وتداوي أمراضها وترشد الى وسائل حفظ صحتها ، وأعتقد أن اتيان هذه الأعمال في البادية لا يقل شأناً عن اتيان أمثالها في الحاضرة .

وثمة ناحية اقتصادية غير تربية الماشية يمكن أن تعين القبائل قليلاً على العيش وهي محاولة تعليم أفرادها بعض الصناعات اليدوية ، وتجويد ما يمارسونه منها . فهم اليوم ينسجون مضاربهم من شعر المعز ، ويفتلون الحبال ، ويستخرجون القشدة والسمن من اللبن ، ويغزلون الصوف ، فلماذا لا يضيفون اليها نسج البساط والعباءة و (الكليم)

وصنع الحصيرة والسلة وما أشبه ذلك، مادام معظم أوقاتهم يذهب ضياعاً في التحدث بأشياء تافهة معادة؟

هذا في الناحية الاقتصادية. أما الناحية الاجتماعية فقصارى القول فيها أن سكان الصحراء هم من أحوج الناس الى العناية بهم فالجذام والجرب والزهري والبرداء وأشكال الرمد وأمراض الأطفال كلها تفتك بهم دون أن يجدوا على مقربة منهم طبيباً مداوياً، ودون أن يكونوا على المام بمبادىء حفظ الصحة. ولذلك أرى من الضروري أن تهيء الحكومات العربية جماعات من المرشدين الصحيين ومن القوابل يوزعون على القبائل لارشادهم. ولا بد من دعمهم بأطباء اختصاصيين بأمراض البادية يقيمون حيث يقيم رؤساء القبائل ومعظم أفرادها.

ولنعمد بعد هذا الى ذكر الوسائل التي ترفع قليلاً مستوى التفكير والأخلاق في البادية ويفيد في هذه الناحية أن أقول بأن البدوي رجل ذكي حساس عزيز النفس، صادق القول، توّاق إلى المعرفة، يؤمن بالله ويخشى عقابه في الدنيا وفي الآخرة، حتى انه إذا خاصم رجلاً، واحتكم إلى القاضي، فمن المستحيل أن يحلف بالله كذباً. فالرجل الذي له مثل هذه الصفات لا يستحيل على المرشد ارشاده الى مبادىء العلوم، وأسس الدين الحنيف، والأخلاق الفاضلة، والوطنية الصحيحة.

وليس لدينا اليوم منظمات شعبية للارشاد في البادية. ومن العسير ايجاد متطوعين ينتظمون في منظمات كهذه. ولذلك يقع حمل الارشاد كله على عاتق الحكومات العربية ولكن الحكومات المشار اليها ليس فيها، على ما أعلم، الجهاز الذي يستطيع القيام بهذا العمل. فديريات القبائل في بلادنا قد اعتادت قصر عملها على ضبط الأمن في البادية، دون أن تتعداه الى الانعاش الاجتماعي، ولهذا لا تجد اليوم في البادية الا نفراً قليلاً يستخدمهم رؤساء القبائل كتاباً لأنفسهم ومعلمين لأولادهم، والا عدداً صغيراً من المعلمين ترسلهم وزارة المعارف، دون أن يكونوا مهيئين لهذا العمل الدقيق الشاق، فيكاد يقتصر عملهم على تعليم أولاد الرؤساء وذويهم مبادىء القراءة.

ويتضح من ذلك انه من الضروري أن يكون لدى كل حكومة عربية مصلحة تابعة لمديرية القبائل، مهمتها معالجة الشؤون الاجتماعية والاقتصادية في البادية، واقتراح ما تراه لازماً من وسائل الانعاش ومتابعة إقرارها في مجلس الوزراء، وتنفيذها من قبل مختلف الوزارات.

وسترى هذه المصلحة أن الحاجة ماسة الى فتح مدرسة أو أكثر لتهيئة الذين

سيكونون معلمين ومرشدين في البادية ، على غرار دور المعلمين الريفية التي تنشىء معلمين للقرى الزراعية . ويجب أن تكون هذه المدارس في البادية أو بسيف البادية ، وان يكون تلاميذها من أبناء القبائل النبهاء ، ومن أبناء القرى المتطوعين للعيش مع القبائل . ومن المفيد أن تكون دروسها عملية تتناول مبادىء العلوم العامة ، ومعرفة الصحراء وجغرافيتها الطبيعية ، ومعرفة القبائل ومنازلها وأخلاقها وعاداتها وشرائعها المتبعة ، وتربية الخيل والماشية ، وحفظ صحة الانسان والحيوان ، وأهم المعلومات المدنية ، وتاريخ الأمة العربية ومبادىء الزراعة .

ويعرف كثير منا أن السلطان عبد الحميد العثماني كان فتح مدرسة في (استنبول) سميت « مدرسة العشائر » . وكان بعض خريجيها يوظفون في الحكومة ، وبعضهم يدخلون المدرسة الحربية . فيخرجون منها ضباطاً ، أو يدخلون المدرسة « الملكية » فيخرجون منها موظفين اداريين فمدرسة العشائر هذه (وهدفها كان سياسيًّا على الأخص) قد علمت عدداً من أبناء الرؤساء والوجوه في القبائل ، ولكنها أخرجتهم عن بيئة البادية ، فلم يعد منهم اليها إلاّ الأقل ، ولهذا قد يكون بعضهم أفاد الحاضرة بعلمه ولكنهم جميعاً لم يفيدوا البادية إلاّ قليلاً . والذي أراه أن التعليم المتوسط أو العالي يجب أن يقتصر على أولاد الرؤساء الذين سيخلفون آباءهم على رئاسة القبيلة أو العمارة أو البطن ، لكي يكونوا في البادية خلفاً أعلى ثقافة من السلف . وفي استطاعة الحكومات العربية تسهيل قبولهم داخلين في مدارسها ، على أن يتعلموا مجاناً .

وكلنا يعلم أن في مشاكل البادية عادة الغزو القديمة التي تعد في عرفهم حرباً شريفة ، ثم ذلك القضاء الخاص بهم . أما الغزو فقد حرمته الدول العربية فزال أو كاد يزول . وأما القضاء البدوي فقد حُصر بالقبائل عندما تكون خارج المعمورة ولهذا القضاء محاسن ومساوىء : فأهم محاسنه سرعة الحكم ، وأهم مساوئه كونه يحمل أقارب الجاني تبعة عمله خلافاً للتنزيل العزيز : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » أي لا يؤخذ أحد بذنب غيره . ومن المفيد دراسة مشكلة القضاء البدوي ، بغية رده الى القضاء المتبع في الحاضرة . وليس ذلك من الأمور السهلة .

٥ — الخلاصة : هذه لمحة بسيطة في قضايا القبائل البدوية ، وفي وسائل معالجتها ، سواء في الصحراء نفسها ، أم بتبديل معيشة بعض البدو وذلك بنقلهم الى حياة الزراعة المستقرة .

ويمكننا أن نستنتج من هذه اللمحة ما يلي : —

(١) البدوي عنصر مهم في الأمة العربية . وهو مهمل كل الاهمال ، على حين انه في حاجة قصوى الى الانعاش الاجتماعي والاقتصادي .

(٢) الحكومة هي الاداة الوحيدة التي تستطيع اليوم انعاشه .

(٣) لا يجوز ان يقل الاهتمام بانعاش البدوي عن الاهتمام بانعاش الحضري والفلاح خاصة

وأنا موقن بأن الزملاء الأفاضل في هذه الحلقة سيدرسون قضايا القبائل خير دراسة ، وأنهم سينتهون الى اسداء نصائح غزيرة الفائدة . ولكن اسمحوا لي بأن أبدي ملاحظة كثيراً ما وردت على خاطري وهي : هلا تذهب جهودكم في هذه الناحية ضياعاً ، إذا ما قام في ذهن المسئولين في دولنا العربية ، أن القبائل طبقة يستحيل أو يصعب رفع مستواها ، وأن ميزانيات تلك الدول قلما تسمح بانعاش الحاضرة فضلاً عن انعاش البادية ؟ فأفكار كهذه ، إذا صحّ وجودها ، تكون حائلة دون القيام بأي عمل اصلاحي في بيئة الصحراء .

ولهذا أرى من المفيد تذكير المسئولين بأنه من الصحيح أن البادية قلما تسمعنا شكواها لجهل سوادها وفرط بؤسهم لكنه من الصحيح أيضاً أن كل فرد فينا يتحلى بالشعور القومي والانساني أمسى لا يطيق رؤية الفقير المدقع بجانب الغني الواسع الثراء . هذا يتمتع بمختلف ملذات الحياة ، وذلك لا يجد رغيفاً يأكله ، ولا ماء نظيفاً يشربه ، ولا معلماً يعلمه ، ولا طبيباً يداويه . إن الله الذي أنزل القرآن هدى للناس لم يضمنه قواعد الاشتراكية المعتدلة عبثاً ، وهو بعد أحكم الحاكمين .

خدمات الجمعية الزراعية الملكية

للزارع المصري

لحضرة صاحب السعادة فؤاد اباظة باشا (مصر)

منذ تأسست الجمعية الزراعية الملكية في الثاني والعشرين من شهر ابريل سنة ١٨٩٨ وهي تعمل جاهدة لخدمة الزارع المصري في نواحي النشاط الزراعي والفني والاجتماعي .

ولم تدخر الجمعية مالاً أو جهداً في سبيل تحقيق هذه الغاية ، بل سارت في الطريق الذي رسمته لنفسها بخطوات كللت في معظم الأحوال بنجاح عاد على الزارع المصري والبلاد بنتائج طيبة وخير وفير .

وغني عن البيان انه يصعب عليّ في محاضرة كهذه — أن أعدد الأعمال التي قامت بها الجمعية في مدة لا تزيد على الاثنين والخمسين عاماً ، ولكني سأحاول ما أمكن أن أعطي فكرة واضحة عن هذه الأعمال فيما يلي من كلمات : —

فقد تناولت الجمعية في بدء حياتها موضوع الأسمدة الكيمائية بالبحث والتجربة ، واستوردت في سنة ١٨٩٩ طناً واحداً من سماد نترات الصودا لهذا الغرض ، وكانت البلاد في ذلك الوقت لا تستعمل الأسمدة الكيمائية ولا تعرف شيئاً عن نتيجة التسميد بها. ثم قامت بتجاربها في هذا السبيل ، فحصلت على نتائج شجعتها على موالاة هذه التجارب. فلما أن ظهرت النتائج الطيبة لهذه الأسمدة نصحت المزارعين باستعمالها ، فعملوا بالنصيحة وأخذ استعمالها في البلاد يزيد شيئاً فشيئاً ، حتى بلغ المستهلك منها سنوياً الآن نحو ٦٠٠ ألف طن مقابل ثلاثمائة طن فقط في سنة ١٩٠٠ — ١٩٠١ .

ولقد شملت تجارب الجمعية كذلك تأثير هذه الأسمدة على التربة ، وطرق استعمالها ، والكميات التي يسمد بها الفدان من مختلف الحاصلات ، ونوع السماد الملائم لكل محصول وأنشأت في سنة ١٩١٢ تجارب مستديمة في تفتيش (بهتيم) لا تزال مستمرة الى الآن لدراسة العلاقة بين العناصر الغذائية في التربة والحاصلات المختلفة التي تزرع في نطاق الدورات الآحادية والثنائية والثلاثية مع مقارنة أنواع الأسمدة والدورات الزراعية بعضها بالبعض . ووصلت الجمعية من تجارب أخرى أجرتها على الأسمدة الفوسفاتية إلى قواعد ثابتة

....

القيت بتاريخ ٦ ديسمبر سنة ١٩٥٠

في استعمالها ، أوضحت للزارع فوائدها ومتى تكون الأرض والحاصلات في حاجة إليها ، وأثرها الذي يمتد الى الحاصلات التالية لتلك التي سمدت بها . وكذلك قضت الجمعية على العقيدة التي كانت شائعة قبل سنة ١٩١٨ وهي عدم احتياج الارز إلى الاسمدة ، إذ أثبتت تجاربها مجاوبة محصوله للأسمدة النشادرية ، ومن ثمّ أخذ الزارع في استعمال هذا النوع من السماد وزادت المساحات المنزرعة من الارز بتوالي السنين ، حتى أصبحت صادراته الآن تلي صادرات القطن في الأهمية .

وتناولت الجمعية الاسمدة العضوية ومخلفات المحاصيل كذلك بالتحربة وأرشدت كثيراً من الزراع إلى ما يمكن استعماله والكمية اللازمة منها للفدان . وحينما عزّ ورود الاسمدة الكيميائية خلال الحرب العالمية الأخيرة درست الجمعية صلاحية كسب بذرة القطن المقشور وغير المقشور كسماد أزوتي ، ونشرت نتائج دراستها ، وحثت المزارعين على استعماله ، وأبانت لهم الكمية الملائمة منه لتسميد كل محصول .

وذلك فضلاً عن تجارب عديدة أجرتها على مواعيد الزراعة وطرقها وعدد ريات الحاصلات المختلفة ومواعيدها .

وعنيت الجمعية بدراسة محتويات التربة من الأملاح الضارة وطرق علاجها ، وكانت بحوثها بشأن الأرض القلوية الجدبة ووسائل إصلاحها وما وفقت إليه من تطبيق طرق العلاج التي توصلت إليها في آلاف الأفدنة بمختلف أنحاء المملكة المصرية أثر كبير فيما تمّ من إصلاح ذلك النوع من الأرض . كما يقوم قسم الكيمياء بمعاينة أراضي الزراع الذين يطلبون منه ذلك وأخذ عينات منها وتحليلها بمعمله وارشادهم الى طرق علاجها واستغلالها .

والجمعية الزراعية الملكية هي الهيئة التي عنيت منذ تأسيسها باقامة المعارض الأقليمية والعامة ، زراعية كانت أم صناعية ، ونظمتها بصفة دورية ، وكان آخرها المعرض الزراعي الصناعي السادس عشر الذي أقيم في سنة ١٩٤٩ ، وكان مرآة صادقة لتقدم البلاد في الزراعة والصناعة . ولا ريب أن الفوائد الزراعية التي تعود على جمهور الزراع من إقامة هذه المعارض لا يمكن حصرها ، فقد كانت أداة لتعريفهم ما وصلت إليه الأساليب الحديثة التي نتجت من خلاصة تجارب الهيئات الزراعية في زراعة الحاصلات وخدمتها ومقاومة آفاتها ، وما يمكن استغلاله في الصناعات الريفية والزراعية ، وما يصح ادخال زراعته في مصر من مختلف أنواع الحاصلات والخضر والفاكهة ، وما يمكن الاستعانة به من الآلات الحديثة في مختلف شئون الزراعة وغير ذلك من فوائد أخرى .

والجمعيــة هي التي استوردت القمح الهندي في الســنوات الأولى لانشائها وأدخلت زراعته في مصر فصار الآن من الأنواع الرئيسية التي توزع في البلاد ، كما أنتج قسم تربية النباتات الذي أنشأته الجمعية في مستهل هـذا القرن عدة أصناف من الحاصلات الرئيسية بوسائل التربية والانتخاب مثل : قطن المعرض ، وبرسيم أبيض ، والقمح الهندي معرض والطوسون ، والبلدي البوهي ، والشعير الـكمالي ، والأرز الياباني أساهي . وإنه وإن كانت بعض هـذه الأصناف قد انقرضت الآن لظهور أخرى أكثر امتيازاً منها إلا أنها احتلت مكانة طيبة في زمن وجودها ، فضلا عن ان بعضها قد أورث بعض صفاته للاصناف الحديثة مثل القطن المعرض الذي يمثل أحد أبوي القطن الـكرنك . ولا تزال توالي أبحاثها وجهودها في سـبيل انتاج أنواع وأصناف جديدة من الحاصلات أكثر جودة من الموجودة حالياً .

ولم تغفل الجمعية أمر العناية بانتاج تقاوي الحاصلات لمـا يترتب على ذلك من أثر في زيادة الغلة وتوافر الصفات الطيبة في المحصول ، فـكانت تراقب حقول الإكثار منذ إنشائها حتى الآن وتتعهدها بالمراقبة والإشراف . ثم خطت فيما بعد خطوة أخرى في هذا الصدد فأنشأت معمل تنظيف البذور الذي يعـد أول معمل من نوعه في مصر ، والذي ينتج أجود أنواع التقاوي التي توزع على الزراع لتغل لهم محاصيل ممتازة

وعملت الجمعية منذ عشرات السنين على دراسة طبائع الحشرات الضارة وأدوار حياتها وطرق مقاومتها ووقاية الحاصلات شرها ، فأنشأت قسم الحشرات في سـنة ١٩٠٣ ، فـكان من باكورة النتائج العمليــة لابحاثه أن أصدرت الحـكومة تشريعاً لمـكافحة دودة القطن في سنة ١٩٠٥ ، كما اقترحت الجمعية على الحكومة ما يجب اتباعه في مقاومة الدودة القارضة والنـدوة العسلية ، وحماية الطيور النافعة للزراعة ، ومراقبــة المحاصيل والنباتات المستوردة من الخارج وقاية للبلاد من الآفات التي تنتقل معها .

وتناولت البحوث التي قام بها القسم مكافحة الحشرات التي تصيب الحبوب المخزونة ونشرت نتائج ذلك في سنة ١٩٠٩ .

وما كادت دودة اللوز القرنفلية تظهر في مصر حوالي سنة ١٩١٢ حتى سارع القسم الى دراستها وأصدر كتاباً شاملاً في سنة ١٩١٦ عن نتائج هذه الدراسة ، ولا يزال حتى اليوم مرجعاً شاملاً لـكل ما يختص بهذه الآفة .

ولم تقتصر بحوث القسم على ما تقدم بل انه بحث أيضاً الحشرات التي تصيب النباتات الأخرى من محاصيل الحقل ، والخضر ، وأشجار الفاكهة ، ونباتات الزينــة ، والأشجار

الخشبية والحشرات التي تتطفل على الانسان والحيوان وأصدر بذلك كتاباً عنوانه «الحشرات الاقتصادية التي تصيب المحاصيل المصرية» في سنة ١٩٢٢ .

وكتاباً آخر من الحشرات الاقتصادية التي تصيب المحاصيل النخيلية في سنة ١٩٢٥ . كما أصدر كتاباً عن آفات القطن في سنة ١٩٣٧ . وتعد هذه الكتب من المراجع العالمية

ونظم قسم الحشرات مجموعة حشرية اقتصادية فريدة مرتبة بحسب المحاصيل التي تصيبها هذه الحشرات تسهيلاً لسبل البحث والدراسة .

ولقد توجت أعمال الجمعية في هذا العام بالوصول إلى دواء ناجع لأكبر الحشرات ضرراً بالثروة الزراعية للبلاد على الاطلاق ، وهي دودة ورق القطن التي لم يصبح ضررها قاصراً على القطن — وهو المحصول الرئيسي للبلاد — بل تعداه إلى عدد كبير من الحاصلات الأخرى . وقد جرب هذا الدواء في آلاف من الأفدنة بمعرفة الجمعية ووزارة الزراعة وبعض الهيئات الأخرى فأتى بنتائج حاسمة وقضى قضاء مبرماً على الدودة في مختلف أعمارها في بضع ساعات . وقد آن للزارع المصري الآن أن يطمئن الى أن في امكانه التغلب على هذه الآفة الخطيرة بهذا الدواء بعد أن كانت تسبب للبلاد خسائر فادحة قدرت في بعض السنين ببضع ملايين من الجنيهات .

وبذلت الجمعية جهوداً كبيرة في العناية بتربية الحيوان وتغذيته ، فأنشأت قسم تربية الحيوان في سنة ١٩٠٨ ليكون وسيلتها في تحقيق هذه الأغراض ، وعمل القسم على تحسين نسل الخيول في مصر بادخال الدم العربي فيها ، وبقتني لهذا الغرض مجموعة نادرة من الخيول العربية الأصيلة التي يرجع أصلها الى الخيول التي جلبها الى مصر عباس باشا الاول . ويوزع بعض هذه الطلائق على المديريات والمراكز لتكون في أماكن قريبة من مربي الخيول . كما أقامت الجمعية محطة لتربية هذه الخيول في منطقة صحراوية قريبة من مصر الجديدة لتوفر البيئة الطبيعية لنتاجها الذي يباع كثير من أفراده سنوياً للراغبين في ذلك.

ويهتم القسم أيضاً بتحسين نسل الجاموس ورفع مستوى ادراره ، وانتاج ثيران قوية للعمل ، وتربية الأغنام ، وادخال الصفات التي تمتاز بها الأبقار الأجنبية في الأبقار المصرية

واستوردت الجمعية الماعز الأنجورا الذي يمتاز بجودة صوفه لتجربة تربيته واقلمته في مصر . كما استوردت طلائق من الحمير القبرصي لتحسين نسل الحمير وانتاج البغال القوية .

وتوصلت الى انتاج سلالتين من الدجاج الممتاز بالتهجين بين الأصناف المصرية والأجنبية . وتمتاز هاتان السلالتان بكبر الحجم وزيادة وزن البيض وكميته عن الأصناف المصرية .

ومما عنيت به الجمعية دراسة موضوع استغلال نفايات الحقل ومخلفات المحاصيل ، وقد وفقت هذا العام الى نتيجة تبشر بالخير من استعمال قش الآرز في تغذية الحيوانات بدلاً من التبن . وهاتان المادتان لا تختلفان كثيراً في النسب التي تحتويها من العناصر الغذائية ، وانما الفرق الكبير في ارتفاع ثمن التبن بما يوازي نحو عشرين ضعفاً بالنسبة الى ثمن قش الارز .

والجمعية الزراعية الملكية هي أول من دعا الى قيام الحركة التعاونية بمصر ، بل انها نفسها مظهر من مظاهر هذا التعاون بين كبراء المصريين الذين قاموا بالدعوة الى تأسيسها وانشائها . ولا بد لي من أن أذكر في هذا الصدد مؤسسها ساكن الجنان المغفور له السلطان حسين كامل الملقب بأبي الفلاح ، فهو أول من فكر في إدخال النظم التعاونية في البلاد ، اذ جمع في سنة ١٩٠٨ نخبة من كبار المزارعين لدرس مشروع التعاون وتقرير وسائل تنفيذه وأوفد البعثات الى أوربا لدراسة نظم التعاون فيها ، واستدعى أحد كبراء الخبراء في فرنسا لدراسة نظم التعاون في مصر فوضع بنتائج دراسته تقريراً ضافياً . وقررت الجمعية تعيين لجنة لدرس الموضوع وتقرير ما تراه فوضعت مشروع قانون التعاون الزراعي الذي أرسل الى الحكومة في سنة ١٩٠٩ . وقد صدر أول قانون للتعاون في سنة ١٩٢٣ ثم عدل فيما بعد بتشريعات أخرى . وهكذا قامت الحركة التعاونية في البلاد ، ثم نمت وترعرعت حتى وصلت الى ما هي عليه الآن مؤدية للزراع والبلاد أجل الخدمات .

وفي سنة ١٩٢٠ اقترح المغفور له الأمير كمال الدين حسين رئيس الجمعية في ذلك الوقت انشاء متحف زراعي في السراي التي أنشئت في عام ١٨٩٩ لاقامة المعارض بالجزيرة ، ثم تحورت الفكرة بعد ذلك إلى إنشاء متحف خاص بالقطن ، فأنشيء هذا المتحف وافتتح للجمهور في سنة ١٩٢٦ . ويعد هذا المتحف متحفاً عالمياً نادر المثال يحوي كل ما يتعلق بزراعة القطن في مصر وتجارته وصناعته ، كما يحوي كثيراً من البيانات والمعروضات التي تتعلق بانتاج القطن في العالم ، فضلاً عن كثير من الاحصاءات والنبذ التاريخية التي تجعل منه مدرسة شاملة تمد زائره بكل الشئون والمعلومات الخاصة بهذا المحصول الرئيسي للبلاد

* * *

ورغبة من الجمعية في تهيئة المسكن الصالح للزارع والفلاح ، والبيئة المناسبة لحياتهما بدأت منذ سنة ١٩٢٤ في ترتيب مباريات بين أصحاب المزارع والعزب لحثهم على العناية بأمر مزارعهم ومزارعيهم .

وتنقسم هذه المباريات الى قسمين أحدهما خاص بالمزارع بما تحتويه من نشاط زراعي

واجتماعي ، والثاني خاص بمباني العزب ومسكن الفلاح .

وقد أنشأت الجمعية في تفتيش (بهتيم) عزبتين نموذجيتين : احداهما العزبة الحمراء التي أنشئت سنة ١٩٣٤ من الطوب الأحمر وعملت سقوفها من الأسمنت المسلح والأرضية أعلى من سطح الأرض بمقدار ٣٠ سنتيمتراً . وقد روعي في وضعها أن تكون على خمسة صفوف تتجه من الشمال الى الجنوب ، وكل صف ينقسم الى كتلتين يفصل بين الواحدة والأخرى منهما طريق يفصل كذلك طريق يمتد من الشمال الى الجنوب كل صف عن الآخر وعرض كل طريق من طرق العزبة ستة أمتار .

والعزبة الحمراء تشغل ثلاثة أفدنة وخمسة قراريط بين مبان وطرق . وتتألف مبانيها من ثلاثين منزلاً للعمال وثلاثة منازل لموظفي المزرعة ثم الجامع والمدرسة والحمامات والمضيفة ودكانين ، وكذلك دوار العزبة بما فيه من مخازن ومرافق أخرى .

وقد جعلت المنازل مختلفة السعة ، فمنها عشرون منزلاً مساحة الواحد ٨٠ متراً مربعاً ويتألف من غرفتين وفناء (حوش) غير مسقوف وحظيرة للماشية ، وبكل منزل مرحاض مبني على أصول صحية تناسب البيئة . وعشرة منازل أكبر حجماً من الأولى مساحة الواحد منها ١٣٠ متراً مربعاً ويتألف من ثلاث غرف وصالة وبها الملحقات الأخرى ، أي حظيرة للماشية والحوش والمرحاض وزودت الغرف بالنوافذ الكافية . وترتفع سقوف المنازل جميعها عن الأرض بمقدار أربعة أمتار . وقد بلغت تكاليف المنزل الصغير ١٢٥ جنيهاً والمنزل الكبير ١٩٦ من الجنيهات .

ومن ذلك يتضح أن سعة هذه المنازل كافية وافية ، يجد عاملنا فيها الراحة إذا آوى إليها ، ويجد الشمس والهواء — وهما طبيبه الطبيعي — سبيلهما الى داخلها .

ولم تبن أفران داخل الغرف بهذه المنازل إذ افترض أن الغرف المنشأة تكون بفضل احكام سقفها ونوافذها واقية من البرد أكثر من الغرف القديمة ، وانما أنشئت الأفران في فناء المنزل . علاوة على ستة أفران في مكان خاص خارج العزبة بحيث يتيسر لجميع العائلات القاطنة فيها الانتفاع بها بالتناوب .

أما الماء فمصدره بئر ارتوازية ترفعه آلة الى خزانين : أكبرهما يسع ٤٨ متراً مكعباً لتغذية مرافق ساكني العزبة والجامع والحمامات والدوار والاسطبلات ومنازل موظفي المزرعة والخزان الثاني يسع ١٦ متراً مكعباً ويغذي الأمكنة العالية والمخصصة لسكنى الموظفين الفنيين فيشرب الجميع ماء نقياً غير ملوث .

وأنشأت ستة حمامات يستمد الماء منها بالدش والحنفية ، وخصصت أربعة منها للرجال واثنين للنساء منعزلين عنها تماماً ، ويمكن استعمال هذه الحمامات لغسل ملابسهم .

ولم تغفل الحالة الاجتماعية لسكان العزبة فخصصت لهم مضيفة فسيحة تطل على ميدان صغير يتوسط العزبة وتتسع لنحو ٧٠ شخصاً فيتخذونها منتدى للمسامرة ، كما أنها تكون مكاناً فسيحاً لليالي التي تقام فيها أفراحهم أو أتراحهم .

أما الناحية الدينية فقد أوليت قسطها من العناية ، فأنشيء الجامع وجعلت مساحة صحنه ٦٠ متراً مربعاً ، وأعدت به دورة للمياه ومكان الوضوء حسب المواصفات الصحية ، وتقام فيه الشعائر الدينية .

كذلك لم تهمل الناحية الخلقية السليمة ، ناحية التهذيب المعقول في حدود البيئة ، ذلك التهذيب الذي يرقق من مشاعر الشخص ويعلو بتفكيره ، ولكن لا يخرج به عن بيئته أو يبث فيه روح التمرد عليها ، فأنشأت مدرسة كانت تسير على نظام التعليم الالزامي يربى فيها الأحداث بنين وبنات من أبناء العمال ثم سلمتها لوزارة المعارف العمومية في سنة ١٩٤٨ حيث حولتها الى مدرسة ريفية نموذجية تعلمهم مبادىء الزراعة الى جانب العلوم الأخرى .

وساعدت الجمعية فلاحيها في انشاء جمعية للتعاون المنزلي في سنة ١٩٤١ تمدهم بما يحتاجون اليه من الغذاء والكساء وأعطتها دكاكين بلا مقابل لهذا الغرض فضلاً عن مدها بالحبوب والمنتجات الزراعية بالأسعار المناسبة والجبرية .

وقد خصصت قطعة من الأرض مساحتها نحو ٢٠ قيراطاً ينتفع بها قاطنو العزبة في ايداع أحطابهم والسماد الذي تخلفه ماشيتهم ، الى غير ذلك من المنافع ، استكمالا لأسباب النظافة ومنعاً لانتشار الحرائق .

وقد بلغت تكاليف انشاء العزبة مبلغ ١٠٣٥٨ جنيهاً وهو مبلغ لا طاقة للأفراد بانفاقه . ولذلك رأت الجمعية انشاء عزبة نموذجية أخرى في بهتيم أيضاً تفي بالغرضين فتراعى فيها الشروط الصحية مع الاقتصاد في النفقات ليكون في مقدور الملاك اقامة مثلها ، حيث شيدت من الطوب الأخضر ، ولذلك سميت بالعزبة الخضراء ، وتبعد عن العزبة الحمراء بنحو ٦٠٠ متر وافتتحت في سنة ١٩٣٦ .

وقد روعي في وضع العزبة الخضراء أن تكون على أربعة صفوف تتجه من الشرق الى الغرب ورتبت الصفوف بحيث انقسم الصف الأول الى كتلتين يفصل بينهما شارع عرضه ستة أمتار وجعلت كل كتلة من الكتلتين مكوّنة من أربعة منازل متلاصقة زيادة في

الاقتصاد ووجهة كل منزلين مضادة للمنزلين الآخرين. والصف الثاني مكوّن من كتلتين أيضاً تؤلف كل كتلة منهما منزلين في اتجاه واحد، وكذلك قسم الصف الثالث — أما الرابع فتكوّن كل من كتلتيه من ثلاثة منازل صغيرة.

وقد جعل بين كل صف وآخر شارع عرضه ستة أمتار. ومن هذا الوصف يظهر بوضوح أن الشمس تلقي أشعتها على جميع المنازل طول النهار وقد شيدت المباني من الطوب (اللبن) الأخضر ومونة الطين والرمل وعملت أسقفها من عروق الخشب واللوح. والبريقة من ترصيصة من الطوب، والأرضية أعلى من سطح الأرض بمقدار ٣٠ سم، وارتفاع الأسقف عن الأرض ثلاثة أمتار.

وجعلت المنازل مختلفة السعة فمنها ثمانية منازل سعة الواحد منها ١٢٥ متراً مربعاً، وثمانية أخرى مساحة كل منها ١١٢ متراً مربعاً، وستة مساحة الواحد منها ٧٥ متراً مربعاً.

ويتألف كل منزل من غرفتين سعة كل منهما في أغلب المنازل ٣ر٥ في ٤ر٥ من الأمتار المربعة، وبكل منزل فرن في الحوش للحياة المعيشية كالخبز وغيره، وفرن ثان يمتد في احدى الغرفتين للتدفئة شتاءً، ولبعضها نافذة في الحوش لمنع الأقذار الناجمة من استعماله.

ولبعض المنازل بالجهة القبلية غرفة علويا لاستعمالها صيفاً، ولكل منزل حوش سماوي مساحته ٣٥ متراً مربعاً يعلو حظيرة مسقوفة يحتفظ بها الساكن بماشيته ومساحتها ٣ر٥ في ٤ر٥ من الأمتار المربعة، ومرحاض ذو خزان عمل بطريقة تجعل نزحه نادراً.

وقد رأت الجمعية أن هناك عائلات قليلة عدد الأفراد لا حاجة لها بسعة البيوت الكبيرة فأقامت لهم ستة بيوت أصغر مساحة من الاولى ولكنها بنفس نظامها وترتيبها فأصبحت مساحة البيت منها ٧٥ متراً مربعاً بدلاً من ١١٢ متراً مربعاً وزودت الغرف بالنوافذ الكافية.

وقد بلغت تكاليف للمنزل الواحد في هذه العزبة ٢٥ جنيهاً.

وكان من ثمرات سعي الجمعية وجهودها تأليف رابطة اصلاح العزب في سنة ١٩٤١ التي تحولت هذا العام إلى جمعية تعاونية تهدف إلى اصلاح مباني العزب الخاصة على نفقة أصحابها وانهاض حالة سكانها مادياً ومعنوياً. ويتبعها مكتب فني مزوّد بمكتبة شاملة لجميع البيانات والبحوث والرسومات والمراجع الخاصة بهذا الشأن. ويقوم بوضع الأسس والرسومات النموذجية والتكاليف التي تتناسب مع كل ما تحتاج اليه العزب المصرية من المباني والمنشئات.

وكانت الجمعية الزراعية الملكية من أسبق الهيئات التي ساهمت في ترقية المستوى

الصحي في الريف . وذلك بانشاء مجموعة قروية في تفتيش بهتيم على نفقتها الخاصة . ثم سلمتها لوزارة الصحة العمومية لادارة شئونها ونقوم هذه المجموعة التي كانت من أولى المجموعات التي بدأت أعمالها إذ افتتحت في سنة ١٩٤٣ بنصيب وافر من الخدمات الصحية لخمسة عشر ألف نفس من أهالي منطقة (بهتيم) .

ولا بد لي قبل أن اختتم هذه المحاضرة أن أشير إلى ما تقوم به الجمعية من تحسين حال فلاحيها بتفتيش (بهتيم) فهي تساعدهم على أن يحيوا حياة لائقة وتيسر لهم سبل المعيشة الراضية ، فقد تقدم القول في أن الجمعية أنشأت لهم عزباً نموذجية وساعدتهم في انشاء جمعية تعاونية وأنشأت لهم مدرسة ريفية تديرها وزارة المعارف لتثقيف أبنائهم ، ومجموعة صحية ترعى شئون صحتهم .

وتقوم الجمعية — رغبة منها في زيادة دخلهم والتيسير عليهم — بتوزيع عجلات من الجاموس تحصل ثمنها منهم بطريقة لا ترهقهم . كما تقوم برعايتهم مادياً وأدبياً في حالات الزواج ، والمرض ، والوفاة بصرف منح لمساعدتهم ، وترفه عنهم في المواسم والأعياد الدينية بتوزيع الحلوى والكساوي واللحوم عليهم .

كما تقوم بالاحتفال بالاعياد الزراعية في الوقت الحالي وهي تأمل أن يجيء اليوم الذي تعم فيه هذه الاحتفالات مختلف أنحاء البلاد .

هذه — أيها السادة — لمحة عن خدمات الجمعية للزارع المصري . وهي كما ترون سجل حافل بجلائل الأعمال . وقد كان للتعاون الوثيق بينها وبين الهيئات الحكومية عامة ووزارة الزراعة خاصة أكبر الأثر في الوصول الى أحسن النتائج مما ترتب على ترقية مستوى الزراعة في مصر وزيادة دخل الزراع بما يقدر في مجموعه بملايين الجنيهات .

وفقنا الله الى العمل الصالح في ظل الملك المصلح فاروق الأول ورعايته .

المقتطف : لم تثبت محاضرة الأستاذ فؤاد جلال « تجربة عملية في تدريب مدرسي الريف » ، ومحاضرة الدكتور احسان جوخدار « الأهمية الاجتماعية للصناعات اليدوية في القرى » لعدم ورودهما للمجلة للآن ، وسنوافي القراء بهما عند وصولهما .

فلسفة الفن

في التصوير الإيطالي في عهد النهضة

تأليف

هيبوليت تين (١٨٢٨ – ١٨٩٣)

ترجمة

الياس يعقوب

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر
١٩٤٧

الفصل الاول

طابع التصوير الايطالي

« النهضة » هي تلك الحقبة المجيدة التي يتفق الناس على اعتبارها أروع ما بلغه الابداع الايطالي . وهي تشمل ، علاوة على الربع الأخير من القرن الخامس عشر ، الثلاثين أو الاربعين سنة الأولى من القرن السادس عشر . في هذا النطاق الضيق ازدهر الفنانون الكاملون أمثال ليونارد دفنشي (Léonard de Vinci) ، ورافائيل (Raphaël) ، وميكلانج (Michel-Ange) واندريا دل سارتو (Andrea del Sarto) وفرا بارتولومو (Fra Bartolomeo) وجيورجيون (Giorgione) وتيسيان (Titien) وسيباستيان دل بيومبو (Sébastien del Piombo) وكوريج (le Corrège) . وهذه الفسحة واضحة الحدود ، ان تقدمتها وجدت فنـًا ناقصاً ، خالياً من الاتقـان يتصف بالجفاف والتهدد ، يتجلى في آثار محاولين أمثـال أنطونيو بولايولو (Antonio Pollaiolo) وفرا فيليبو ليبي (Fra Filippo Lippi) ودومينيكو غيرلانداجو (Domenico Ghirlandajo) ، وجان بلين (Jean Bellin) وان تجاوزتها وجدت فنـًا مبتذلاً وتلاميذ يعمدون الى المبالغة أو مجددين بدون كفاءة أمثال يوليوس رومان (Jules Romain) ، وروسو(le Rosso) ، وبريماتيس (Primatice) ومدرسة كاراش (Carrache) . فقبلاً نبت الفن وأخيراً ذبل . أما الازدهار فهو بين البداية والنهاية ، ودام نحو خمسين سنة . فاذا صادفنا في الزمن المتقدم مصوراً قارب فنه التمام كمازاكسيو ، يجوز لنا أن نعتبره مفكراً على فنه سيما العبقرية ، أو مبتكراً منفرداً ينفذ بصره بغتة الى ما وراء عصره ، أو سباقاً مغموراً ليس له لاحق ، حتى أن قبره خلا من كل كتابة ، وعاش فقيراً مؤثراً العزلة ، ولم تدرك عظمته المبكرة الا بعد مرور نصف قرن . وفي الزمن التالي لا نعثر على مدرسة مزدهرة وقوية الا في البندقية ، المدينة الوحيدة التي لم تمن بالانحطاط الا بعد المدن الأخرى . والتي ظلت طويلاً مستقلة ، متسمحة ، مجيدة

بعد أن انحطت النفوس وزاغت العقول بتأثير الفتح والضغط والفساد التام .

يمكننا أن نشبه هذا العصر الذي اتصف بالابداع الرائع ، وبلغ غاية الاتقان ، بالمنطقة الـكائنة في سفح جبل حيث تغرس الـكرمة : ففي القسم العلوي منها لا يجود العنب لأن الهواء شديد البرودة ، وفي القسم السفلي لا يجود أيضاً لأن التربة كثيرة الرطوبة . هذه هي العلة وهذه هي السنة . فاذا وجد شذوذ ، وهذا نادر ، يمكننا تعليله . قد يجوز أن نصادف في الحقل السفلي غرسة منفردة ، تسري فيها ماوية ممتازة ، تنتج رغم البيئة ، بعض العناقيد اللذيذة . لـكن هذه الغرسة تنفرد في شذوذها ولن تتكاثر وتحسب في عداد الخوارق التي تلقيها فوضى القوى الفاعلة المتراكمة في مجرى القوانين الثابتة . وليس ببعيد أن نجد في الحقل العلوي زاوية نما فيها الـكرم نموًّا باهراً بسبب توفر ظرف خاص وطبيعة التربة وملجأ في السفح ، والنشوء على مقربة من ينبوع . فكل هذه الأسباب مجتمعة تمنح الغرسة أغذية أو حماية قد لا تجدها في مكان آخر . إن القانون العـام يظل سليماً ويمكننا أن نستنتج أنه يوجد نوع من التربة ودرجة من الحرارة يتوقف عليهما نجاح الـكرمة . وكذلك ، فان القانون الذي يهيمن على نتاج التصوير الـكامل يبقى صحيحاً . وفي إمكاننا أن نبحث عن الحالة الذهنية والعادات التي انبثق عنها هذا التصوير .

في البدء . يجب أن نعرف هـذا التصوير ذاته . لأننا إذا نعتناه بالـكامل أو التقليدي (الـكلاسيكي) . درجاً على اللفظ المألوف ، لا نشير إلى طابعه ، بل إننا نسلكه في فئته . وإذا كان له فئته ، فله أيضاً طابعه ، وأعني بذلك بيئته الخاصة التي لا يتعدّى نطاقها ، ان هذا التصوير يزدري ويهمل المناظر ، ألا نجد أن للاشياء الجامدة مصورين يعتنون بها إلا في الفلاندر . أما المصور الايطالي فلا يتخذ الا ّ الانسـان موضوعاً لفنه ، وليست الأشجار والبرية والمعامل في نظره إلا ّ لواحق . ويزعم ڤازاري (Vasari) أن ميكلانج ، سيد المدرسة قاطبة بدون منازع ، يصرح قائلاً أنه يجب أن تترك هذه المواضيع لذوي المواهب الدنيا ليتسلوا بها ولتكون لهم عوضاً . لأن الجسم الانساني هو غرض الفن الحقيقي . ولما انحط التصوير العظيم في زمن المتأخرين من البنادقة وخاصـة في عهد مدرسـة « كارّاش » ، طفق المصورون يلتفتون الى الطبيعة . ومع ذلك فانهم لا يتخذونها إلا ّ زخرفاً ، فيصورون (ڤيلا) وفق طراز هندسي ، وحديقة أرميد ، ومسرحاً تتمثل فيه خصائص الريف والأبهة والجم بأسلوب رفيع ومنسق ، بين التخنث الأسطوري ومجون الأعياد . ففي هذه المناظر تظهر الأشجار غير واضحة ولا تنتسب الى جنس معين : وتنتظم الجبـال لتسر الأنظار ، وتتجمع الهياكل والخرائب والقصور في صفوف أبدعها الخيال : وتفقد الطبيعة استقلالها

الخلق وملائقها الخاصة لتتقيد بالإنسان وتزيد أفراحه وتزيد في سعة مساكنه .

ومن جهة أخرى نرى مصوري عصر النهضة يتركون للفلمنكيين تقليد الحياة الواقعية والشخص المصري في ثوبه العادي يمارس شؤون حياته اليومية بين أثاثه الحقيقي ، وفي النزهة والشارع ، وجالساً الى المائدة ، وفي دار البلدية والحانة . وبالجملة فان الصورة تبرزه لنا كما اعتدنا أن نراه بأعيننا ، شريفاً كان أم نصفاً (بورجوازياً) أو فلاحاً مع كافة الخصائص العديدة والبارزة التي تتصل بطبعه وحرفته وحالته . إنهم يقصون هذه التفاصيل لانها تحسب مبتذلة . وكلما سما الفن ، نراهم يهجرون شيئاً فشيئاً المطابقة الحرفية والمماثلة الواقعية . وعند انبلاج العصر العظيم بدؤوا يتخلون عن إقحام صور حقيقية في اللوحات . ومن يتدبر النقش على الجدران الذي ينسب الى المصورين المتقدمين ، من فيليبو ليبي إلى بولا يولو ، وأندريا ده كاستانيو ، وجان بلين، حتى مازاكسيو نفسه، ير انهم كانوا يحشرون فيه كثيراً من الصور المعاصرة ، وأن الخطوة الكبرى التي تفصل بين الفن المكتمل والفن المبتدىء ، تتجلى في ابتكار الاشكال التامة التي تتبينها عين الروح وتعجز عن إدراكها عينا الرأس . وينبغي أيضاً أن نزيد في تحديد فن التصوير الكلاسيكي . اذا استطعنا أن نميز بين الروح والجسم في الشخص الخيالي الذي يستهدفه هذا الفن ، تيسر لنا أن نلاحظ أنه لم يول الروح المقام الأول . ذلك أنه ليس صوفياً ولا روحانياً ولا لجوعاً (دراماتيك) ، ولا ينتوي أن يمثل لفظ العالم النفسي والرفيع ، والنفوس المفتونة والبريئة ، والمعتقدات اللاهوتية أو الكنسية وغيرها ، من الموضوعات التي ظلت أعذولة الفن الناشىء في العهد المتقدم منذ جيوتو (Giotto) وسيموني ممي (S. Memmi) حتى انجليكو (B. Angelico) ثم ما لبث أن هجر العصر المسيحي والرهباني كي يلجأ الى العصر العلماني والوثني . ولا ينتوي أبداً أن يقتطع ويثبت على النقش مشهداً عنيفاً أو أليماً من شأنه أن يغري بالشفقة أو يبعث الرهبة كما صنع دلاكروا (Delacroix) في « ميتة أسقف لياج » ، وديكان (Decamps) في « الميتة » أو في « معركة سينبر » ، وآري شيفر (Ary Scheffer) في « الباكي » ، ولا يرمي أبداً الى التعبير عن المشاعر العميقة المتطرفة المعقدة كما فعل دلاكروا في « هملت » أو في « تاس » . وسوف لا يتوخى إحداث التأثرات المتنوعة أو القوية إلا في العصر التالي عندما يصبح الانحطاط ظاهراً ، كما يبدو في الجدليات الماتنات الحالمات ، والمريعات المفكرات الحماسات ، والاستشهاد الفاجع الصاخب ، إن الفن المؤثر الذي يهدف إلى التأثير وتشويش الشعور المتهيج المريض ، يناقض توازنه . على إن الحياة الخلقية لا تصرفه عن التفكير في الحياة

الطبيعية . وعلة ذلك أنه لا يتمثل الإنسان كائناً سامياً خانته أعضاؤه ولعل ليوناردو دا فنشي هو المصور الوحيد السباق في إبداع كافة الأفكار والطرف الحديثة . هو ذو عبقرية جامعة ومصفاة ، وباحث متوحد ونهم ، تتخطى تكهناته حدود عصره حتى تكاد تبلغ أحياناً عصرنا الحاضر . ويرى الفنانون الآخرون ، وكثيراً ما يشاركهم دافنشي في هذا الرأي ، أن الشكل غاية لا وسيلة ، وليس منوطاً بالسيماء والملامح والحركات والحالة والعمل . فجاء إنتاجهم فنياً ، وليس أدبياً أو شعرياً . ويقول سلّيني (Cellini) : « إن الغرض الهام من فن الرسم هو أن يحسن رسم رجل وامرأة عاريين » . وفي الحقيقة ، إنهم يبدؤون جميعهم تقريباً بالصياغة والنحت » . وأن أيديهم لمست بروز العضلات ، وسايرت انحناء الخطوط . وشعرت بتداخل العظام إنهم يتوخون قبل كل شيء أن يبرزوا للعيان الجسم الانساني الطبيعي ، أعني بذلك الجسم السليم ، النشيط القوي ، الحائز على جميع خصائص المصارعين والحيوانية وعدا ذلك ، فإنهم يهدفون الى الجسم البشري البالغ الكمال ، الذي يقترب من النموذج الاغريقي ، المتزن والمنسجم في كافة أجزائه ، فقد اختير وأثبت في وضعية موفقة جداً ، وزُين وأحيط بأجسام أخرى أحسن جمعها وتمّ انسجامها فأضحى الأثر الفني كله يوحي الى الذهن فكرة عالم جسماني شبيه بالاولمب القديم ، أعني عالماً عليه مسحة الالوهية أو البطولة وبلغ التفوق والكمال . هذا هو الابداع الخاص الذي امتاز به هؤلاء الفنانون . وهناك آخرون تفوّقوا في التعبير تارةً عن حياة الطبيعة ، وطوراً عن حقيقة الحياة الواقعية ، ومرة عن المآسي وأعماق النفس ، وأخرى عن عظة أخلاقية أو اكتشاف تاريخي أو نظرة فلسفية . ويوجد في آثار انجليكو والبرت دورير (Albert Dürer) ، ورمبراند (Rembrand) ودلا كروا ، وديكان ، كثير من النماذج الصالحة أو أصول فن التربية والتعليم ، أو علم النفس ، وكثير من الوداعة الذاتية والمنزلية ، والأحلام الحادة والمعذبة المتصفة بالعظمة أو الأهواء الداخلية . ويعتبرون أنفسهم إنهم خلقوا عرقاً فريداً يمتاز بأجسامه الكبيرة النبيلة التي تحيا عزيزة شريفة ، وتنبيء عن جيل بشري أشهم وأقوى ، وأهدأ وأنشط ، حالفه التوفيق أكثر مما حالفنا . ومن هذه السلالة وسابقتها ، ولدة التماثيل الاغريقية . انبثقت في البلدان الأخرى كاسبانيا وفرنسا والفلاندر ، الصور المثالية التي شاء فيها الانسان أن يعلم الطبيعة : كيف كان ينبغي عليها أن تصنعه ، وكيف لم تصنعه على غرارها

الفصل الثاني

الشرط الأولي

لقد عرفنا النتاج ، وبقي علينا ، عملاً بأسلوبنا ، أن نعرف البيئة التي نشأ فيها .

لندرس أولاً العرق البشري الذي أنتج هذا الفن ان هؤلاء الناس نهجوا هذا النهج في فنون الرسم بسبب غرائز قومية ثابتة . فالخيال الايطالي تقليدي (كلاسيكي) ، أعني بذلك أنه لاتيني ، يماثل خيال الاغريق والرومان القدماء . وشاهدنا على ذلك ، ليست الآثار التي ظهرت في عصر النهضة فقط ، من نحت وبنيان وتصوير ، بل هندسة بنائه في القرون الوسطى وموسيقاه العصرية . ففي القرون الوسطى انتشرت الهندسة القوطية في سائر أنحاء أوربا ، لكنها تأخرت في دخول ايطاليا ، ولم ينفذ منها إلا مقتبسات ناقصة . وإذا قدر لنا أن نصادف فيها كنيستين مبنيتين تماماً على الطراز القوطي ، إحداهما في ميلانو والأخرى في دير اسيز (Assise) ، فلأنهما من نتاج مهندسين غرباء عنها . حتى ان الايطاليين ظلوا يبنون وفق الطراز القديم في زمن الغزاة الجرمان ، وعندما بلغ الحماس المسيحي أشده ، وعندما لقحوا الطراز القديم بعناصر التجدد ، ظلوا يتذوقون الأشكال المتينة والجدران الضخمة والاعتدال في الزخرف والنور الطبيعي الصافي ، وان أبنيتهم وما امتازت به من قوة ومرح وهدوء وأناقة ، تناقض التعقد الأهيب ، والصياغة المنتفخة ، والسمو الكئيب ، والنور الباهت أو المشوه ، تلك التي تتجلى في الكاتدرائيات الكائنة عبر الجبال . هكذا كانت موسيقاهم الغنائية ، ولما تزل واضحة النسق ، يلذ وقعها في الأذن حتى في التعبير عن المشاعر الحزينة ، فتعارض بتناسبها ووضوحها وإيقاعها وعبقريتها المسرحية البليغة الوضاءة الصافية ، الموسيقى الألمانية الآلية ، الجزيلة المعتمة ، المطلقة العنان ، الشديدة الغموض أحياناً . والتي تصلح كثيراً للتعبير عن أدق الخواطر وأعمق العواطف ، وغير ذلك مما يعتري النفس الرصينة التي تستهدف اللانهاية وما وراء المحسوس في أثناء استثمارها المجهول وقلقها في نزواتها . ولو كنا تفحصنا نهج الايطاليين خاصة والشعوب اللاتينية عامة في الأدب والمنازع والدين ، ولو كنا تبصرنا في

آدابهم وعاداتهم ورأيهم في الحياة ، لرأينا خيالاً مماثلاً لهذا الخيال ينبثق من سائر هذه الحالات . والعلاقة التي تميزه هي القريحة والذوق في التنسيق ، وبالتالي حسن الترتيب والشكل المنسجم الصحيح . هو أقل دماثة ونفاذاً من الخيال الجرماني ، ويتعلق بالظاهر أكثر مما يتعلق بالباطن ، ويؤثر الزخرفة الخارجية على الحياة الداخلية ، هو أكثر وثنية وأقل تديناً ، وأكثر فناً وأقل فلسفة ، وأوضح حدوداً وأجمل . يفهم الانسان أكثر مما يفهم الطبيعة ، ويدرك كنه الانسان باعتباره كائناً اجتماعياً أكثر مما لو كان في طور الهمجية. ويشق عليه أن يحذو حذو الخيال الجرماني فيسف ليقلد ويمثل الهمجية والفظاظة والغرابة والمفاجأة والفوضى وفوران القوى الغريزية ، وخصائص الفرد العديدة المنكمشة ، والمخلوقات الدنيا أو التي لا شكل لها ، والحياة الصماء والغامضة الحالمة في كل مراتب الكائن الحي ، وليس مرآة شاملة جامعة لأن تعاطفه محدود . لكنه يتفوق في الحقل الذي اختص به ، أعني الشكل . وبالمقارنة يظهر ذهن الشعوب الأخرى فظا وجافا . وقد انفرد وحده بالاهتداء والابانة عن الاتساق الطبيعي الكائن بين الأفكار والصور . ولقد تجلى هذا الخيال ، على أتم وجه ، فيما أنتجه شعبان عظيمان : أحدهما الشعب الفرنسي ، وهو أوفر حظا من صفات الشعوب الشمالية ، وأقل خيالاً ، وأكثر إيناساً ، وينسب إليه تنسيق الأفكار الصريحة أعني أسلوب التفكير وفن المحادثة . والآخر الشعب الايطالي ، وهو أوفر نصيباً من صفات أهل الجنوب ، وأكثر فنا وأقدر على التصور وأبرع في تنسيق الأشكال الحسية ، أعني الموسيقى وفنون الرسم . ان هذه القريحة الفطرية ، التي ظهرت بوادرها فيه منذ نشأته ، وصاحبته في كل أدوار تاريخه ، واتسمت بها أفكاره وعمله ، قد أنتجت آثاراً في غاية الكمال لما صادفت ظروفاً ملائمة في أواخر القرن الخامس عشر . وفي الحقيقة ، ان ايطاليا أنجبت ونشئذ دفعة واحدة ، أو أوشكت ، ليس خمسة أوستة من كبار المصورين ذوي العبقرية النادرة ، المتفوقين على كل من تقدمهم ، أمثال ليونار دفنشي وميكلانج ، ورافائيل ، وجيورجيون ، وتيسيان ، وفيرونيز ، وكوريج ، بل أنجبت طائفة أخرى من المصورين الذين سما فنهم واكتمل ، أمثال اندريا دل سارتو ، وبونتورمو ، والبرتينلي ، وروسو ، وجول رومان ، وبونيفازيو ، ولوينيان ... ومائة آخرين أقل شهرة تساموا في الذوق السليم . وتمكنوا من ناصية أسلوب أولئك ، يؤلفون جيشاً ليس هؤلاء الا القادة فيه . وثمت عدد مساو تقريباً من النحاتين والمهندسين البارزين . بعضهم جاء متقدماً ، والكثرة الساحقة معاصرة . ومن حول هذه الجماعات من الفنانين ، التي بلغت شأواً بعيداً في التنوع والخصب ، تألب الكثيرون من العارفين ، والظهراء والسراة ، وجمهور عظيم يسير في الموكب ، ليس مقتصراً على الشرفاء

والمتأدبين ، بل يتكوّن من الطبقة البورجوازية والصناع وبسطاء الرهبان وأفراد الشعب . فأضحى الذوق الرفيع في هـذا العصر ظاهرة طبيعية ، سليقية وعامة ، حتى باتت المدينة بأسرها ، بما تحلت به من تعاطف وذكاء ، تساعد في الآثار الفنية التي كان يمهرها الفنانون بتوقيعهم . ولا يجب أن يتبادر الى الذهن ، أن الفن في عصر النهضـة هو وليد المصادفة العمياء ، لأننا لسنا في صدد قوة سحرية قذفت على مسرح الوجود . بعض العقول التي أتقن صنعها ، وفوجاً غريباً من ذوي العبقريات الفنية . ولا يمكننا إلاّ أن نقر أن سبب هذا الازدهار الفني هو استعداد عام في النفوس وقابلية مدهشة منبثة في كافة طبقات الأمة وقد دام الفن ما دامت هـذه القابلية . ويلاحظ أنها تفتحت ثم زالت في أزمنة محدودة ، وكذلك الفن فأنه ازدهر ثم انتهى في نفس الأزمنـة . إن اتجهت في نموها صوب هذا الاتجاه. نحا الفن نحوها في نمائه. إنها بمثابة الجسم وهو بمثابة الظل : يولد بولادتها ، وينمو بنموها ، وينحط بانحطاطها ويقصد قصدها . هي تأتي به وتجتذبه وتنوعه تبعاً لتنوعها ، فهو يترسم خطاها في كافة أجزائه وفي جميع صيرورته هي العـلة الضرورية لوجوده . إذاً يتحتم علينا أن ندرسها مفصلاً كي نقف على حقيقتها ونفسره .

الفصل الثالث

الشروط الثانوية

إنّ هناك شروطاً ثلاثة يجب توفرها كي يستطيع الانسان أن يتذوّق وينتج التصوير الرفيع . يجب عليه أولاً أن يكون متقفاً . إذ أن الفلاحين البؤساء الجهلة ، الذين يقضون معانة يومهم مكبين على العـمل في حقولهم ، والقادة في الحروب الذين ولعوا بالصيد واشتهروا بالنهم والشرب ، لا عمل لهم إلاّ السير في المواكب والتفكير بالحروب ، لا يستطيعون أن يدركوا أناقة الأشكال وتناسق الألوان لانغماسهم العظيم في الحيـاة الحيوانية . فالصورة زينة،سواء كانت في كنيسة أو قصر ، ولـكي ننظر إليها نظرة الفاهمين المغتبطين،ينبغي أن نتعفف قليلاً من المشاغل الفظة ، وأن لا يكون كل تفكيرنا منحصراً في الأكل والشرب ، وأن نكون قد جزنا عهد البربرية البدائيـة وما يصاحبها من طغيان وجفوة ، وأن نتوق الى الاستمتاع بالملذات الشريفة الدقيقة ، بعد رياضة عضلاتنا ، وإطلاق العنان لغرائزنا الحربية، وإشباع حاجاتنا الجسدية . كان الفرد فيما مضى فظّـاً،فأصبح يهوى

التأمل . كان يستهلك ويخرب فأضحى يجمّل ويتذوق . كان يعيش ، فصار يزخرف حياته .
هذا هو الانقلاب الخطير الذي حصل في إيطاليا في القرن الخامس عشر . ففيه جاز الانسان العادات الاقطاعية وبلغ الفكر الحديث . وقد حصل هذا الجواز في إيطاليا قبل غيرها من البلدان قاطبة . ويعزى هـذا الأمر الى أسباب كثيرة . منها أن الناس في هذه البلاد ذوو ذكاء مفرط وسرعة خاطر عظيمة . فكأن المدنية ، بالنسبة إليهم ، ظاهرة فطرية ، إذ أنهم يكادون يبلغونها بدون عون . حتى أننـا نقع في صفوف الفلاحين الذين عدموا كل أسباب التثـقف ، على ذكاء حاد طليق . لنقارن بينهم وبين الأشخاص الذين يمتون إلى ذات الطبقة في شمالي فرنسا وفي المانيـا وانجلترا . اذا جرت المقارنة يصبح التحايز تبايناً صريحاً . فنـُدُل الفندق في إيطاليـا والقروي يجيدون الحديث والفهم والتفـكير ، فيدلون بآرائهم ويعرفون الناس ويبحثون في السياسة ويقلبون الأفـكار على وجوهها بيسر ، كما يتهمرفوز في الـكلام . فأحياناً يعبرون بوضوح ، ودائماً بسهولة ، وغالباً ما يجيدون التعبير . لا سيما وقد حُبـُوا شعوراً طبيعيـّا مرهفاً لتذوق الجمال . وما من بلاد يشاهد فيها أفراد الشعب يقفون أمام كنيسة أو صورة ويصرخون متعجبين : « يا ألله ! ما أجمله » ! "... io, com' è bello" وللغة الايطاليـة ، في محاولتها التعبير عن هذا الحماس الذي يهجم على القلب ويسطو على الحواس ، نبرة ورنين وتفخيم يدعو الى الاعجاب ، بينما نرى أمثال هـذه الـكلمات في اللغة الفرنسية جافة عاجزة عن احداث الأثر نفسه .

ان هذا الشعب الذي يتوقد ذكاء ، كانت الغلبة بجانبه لأنه سلم من الجرمنة ، فلم يسحق ويستحيل كما جرى للبلدان الأوربية الأخرى من جراء الغزوات التي قامت بها الشعوب الشمالية . فالبرابرة لم يستقروا في بلاده إلا زمناً يسيراً ولم يَعْـدُ تأثيرهم القشور . فنرى القوط الغربيـون والفرنجة والقوط الشرقيّـون يغادرون البلاد أو سرعان ما طردوا منها . واذا كان قدر للومبارديين أن يمكثوا فيهـا فلأن الثقافة اللاتينيـة ما عتمت أن طبعتهم بطابعها .
ويقول أحد الرواة القدماء : في القرن الثاني عشر استولت الدهشة على الجماعات الألمانية التابعة لفريدريك بربروس لما رأوا أن هؤلاء اللومبارديين قد استحالوا لاتيناً وكانوا يأملون أن يجدوهم لا يزالون محافظين على خصـائص عرقهم . « فتخلوا عن خشونة الوحشية» «البربرية واكتسبوا من تأثير الهواء والتربة شيئاً من الرقة واللطف الرومانيين ، واتقنوا» «التأنق في الـكلام والآداب الاجتماعية التي تؤثر عن العادات القديمة ونهجوا نهج» «الرومان القدماء في تأسيس مدنهم وإدارة شؤونهم العامة » .

وظلّ الناس في ايطاليا يتكلمون اللاتينية حتى القرن الثالث عشر . فالقديس أنطونيوس من پادوا يعظ باللاتينية ، والشعب الذي بدأ يرطن باللغة الايطالية الوليدة ، كان يفهم دائماً اللغة الأدبية . لأن القشرة الجرمانية التي امتدت حتى عمت الأمة ، كانت رقيقة ، وما عتمت ان ثقبت فوراً بسبب بعث الحضارة اللاتينية . ولم تتعرف ايطاليا الى الملاحم والقصائد التي أصبحت منتشرة في كل أوربا في عصر الفرسان والاقطاعيين ، إلاّ عن طريق التراجم . وقد قلت فيما مضى إن فن البناء القوطي قد تأخر دخوله إلى ايطاليا وبشكل غير تام . ولما استأنف الايطاليون البنـاء في القرن الحادي عشر عمدوا الى اقتباس أشكال الهندسة اللاتينيـة أو امتلهامها . وبتأثير المؤسسات والعادات واللغة والفنون ، وفي أحلك وأشد ليالي القرون الوسطى ، نشهد انعتاق أو انبعاث الحضارة القديمة على تلك الأرض التي وطئها البرابرة ، ثم ما لبثوا ان ذابوا كما يذوب الثلج . لذلك ، إذا شئتم أن تقارنوا بين ايطاليا في القرن الخامس عشر وبين غيرها من الأمم الأوربيـة ، فستجدونها أكثر غنىً وعلماً وتهذيباً ، وأكثر أهليـة لتجميل حياتها ، أعني إنها أكثر استعداداً لتتذوق وتنتج الآثار الفنية .

لم تكد انجلترا ، في هذه الفترة ، تخرج من حرب المائة سنة ، حتى خاضت تلك الحرب الفظيعة المسماة « بحرب الوردتين » . فكان النـاس يقتتلون برباطة جأش ، وبعـد المعركة يبحثون عن الأطفال العزل ويذبحونهم ، ولم تكن حتى عام ١٥٠٠ إلاّ بلاداً يقطنها المزارعون والصيادون والفلاحون والجنود . وكان عدد المداخن في مدينة داخليـة من مدن المملكة لا يتجاوز الاثنتين أو الثـلاث . وكانت بيوت الاشراف الذين يقيمون في الريف أكواخاً مغطاةً بالقش ومطينة بأغلظ أنواع التراب ولا ينيرها إلاّ الضوء النافذ من خلال الأغصان المتشابكة . وكانت الطبقات المتوسطة تفترش حصراً من قش وتتوسد حطبة كبيرة مستديرة . فكأن الوسائد الوثيرة كانت وقفاً على النفساء . ولم تكن آنيتهم نحدرية بل خشبية .

أما في المانيا فقد نشبت حرب شديدة مجتاحة قام بها « الهوسيّون Hussites » ، وانتزعت السلطة من يد الامبراطور ، وكان الاشراف جهلة سفهاء ، وقد اعتاد الناس اللجوء إلى القوة كلما دعا داع ليقتصوا بأنفسهم . ومن مطالعة المذكرات التي خلفها « هانس ده شوفينيخن » Hans de Schweinichen وأحاديث لوثيروس نستطيع أن نتبين المدى الذي بلغه الأشراف والمتأدبون في العربدة والفظاظة .

وكانت فرنسا يومذاك في أسوأ عهد من عهود تاريخها ، فالبلاد محتلة يعبث فيها الانجليز وكانت الذئاب على عهـد شارل السابع (١٤٢٢ — ١٤٦١) تتسلل في ضواحي باريس . وبعد أن طرد الانجليز ، هبت العصابات المسلحة والجنود الهاربون يقتاتون من خيرات الفلاح

ويبتزون أمواله وينهبون كلما عنّ لهم ، وان خرافة « اللحية الزرقاء » تتواتر عن أحد السادة السفاحين « جيل ده رتز » — Gilles de Retz — ١٤٠٤ — ١٤٤٠ .

وظلت النخبة المختارة من أبناء الأمة والاشراف في حالة بداوة وتوحش حتى آخر ذلك العصر ، مما حدا بالسفراء البنادقة الى القول ان سيقان السادة الفرنسيين مقوسة ومموجة لأنهم يقضون معظم أيام حياتهم على ظهور الخيل . ويصف رابليه Rabelais في منتصف القرن السادس عشر القذارة القذرة والبهيمية الملازمة للأخلاق القوطية . وكتب الكونت « بالدازار كاستيليون » Baldasare Castilione حوالي عام ١٥٢٥ يقول : « ان الفرنسيين يرون ان لا فضيلة إلاّ في السلاح ، ولا يقيمون وزناً لما تبقّى ، ولا يقتصرون على عدم تقدير الآداب ، بل انهم يمقتونها ، ويرون ان المتأدبين هم أحقر الناس ويعتقدون انه ما من عار يعادل العار الذي يصيب الانسان أيّاً كان ، إذا ما قيل له انك كاتب » .

وبالجملة نرى ان النظام الاقطاعي يسود كل اوربا ، وان الناس كالحيوانات الضارية والقوية ، لا يحلمون إلاّ بالأكل والشرب والحرب . أما ايطاليا فقد كانت على نقيض ذلك إذ توشك أن تكون بلاداً عصرية . ان السلام قد توطدت دعائمه بفضل زعامة آل مديتشي ، وان أفراداً من الطبقة البورجوازية كانت تمارس الحكم بأساليب تبعث الاطمئنان . وكان هؤلاء يحذون حذو سادتهم من آل مديتشي ، فيزاولون الصناعة والتجارة وينشئون المصارف ويكسبون أموالاً طائلة ، يتصرفون فيها تصرف القوم المفكرين . ولم تكن هموم الحرب لتنغص عليهم عيشهم ، كما كانت الحال سابقاً وينوء بهم حملها العنيف المقوّم . وعلة ذلك انهم كانوا يعوّلون في الحرب على سواعد جماعة من المرتزقة تأصلت فيهم النزعة التجارية وامتازوا بالفهم ، فسرعان ما تتحول الحرب على يدهم إلى ما يشبه المواكب ، ولا يتقاتلون إلاّ سهواً . وتذكر أسماء معارك كثيرة لم يقتل فيها الا ثلاثة جنود وأحياناً جندي واحد ، لأن الدبلوماسية تغني عن القوة وتنوب عنها . يقول ماكيافيلّي : « يعتقد الملوك الايطاليون « ان على الأمير أن يحسن تدبيج رسالة أنيقة ، ويتمكن في المراسلات من انشاء جواب « فارس ، ويظهر في أحاديثه سرعة الخاطر والرقة ويجعلها خديعة ، ويتزين بالحجارة الكريمة « والذهب ، ويكتنف الرونق طعامه ومنامه ، ويحيط نفسه بكل أنواع الملاذ » . فلابدع اذا أصبح القوم متأدبين ، كثيري الاطلاع ، ومن هواة الأحاديث العلمية ولأول مرة منذ سقوط الحضارة القديمة ، نرى جماعة من الناس يولون الملاذ الروحية المقام الاول . وقد اشتهر في هذا العصر جماعة النشوريين humanists العاملين بشغف على إحياء روائع الآداب القديمة من أغريقية ولاتينية . فطفقوا ينقبون في مكتبات أوربا عن المخطوطات ليكتشفوا

وينشروها . ولم يكتفوا بادراك معانيها ومدارستها ، بل أخذوا يستوحونهـا . وأصبحوا ندماء روحاً وقلباً يعبرون عن أفـكارهم بلغة لاتينية فصيحة لا تقل فصاحة عن لغة معاصري فيشرون وفرجيل . فما لبث الانشاء أن أصبح طليـّا والفـكر ناضجاً وعند ما ينتقل القارىء من قراءة الأبيات المتعبة ورسائل بترارك المفعمة غروراً وادعاءً ، الى قراءة المثاني الأنيقة التي نظمها بوليسيان Politien أو قراءة نثر فالا Valla الفصيح ، يشعر بلذة توهمك أن تكون لذة جسدية . وتشرع الاصابع والأذن ، من غير وعي ، تقطع الصياغة السهلة التي امتازت بها المقاطع الشعرية ، والبسط الرحيب الذي تتصف به العبارات الخطابية . وفي آن واحـد سمت لغة الـكتابة وفصحت ، وانتقل العلم من أروقة الأديرة الى القصور فتحوّل من أداة للجدل الى وسيلة للسرور .

ولا يتبادر الى الذهن أن هؤلاء العلماء كانوا يكوّنون فئة صغيرة مجهولة ، منزوية في المكتبات ، بعيدة عن عطف الناس ومراعاتهم . بل كان الأمر على نقيض ذلك : فان لفظة نفوري humanist يلقب بها أحدهم ، كانت كافية في ذلك العصر لتدعو الأمراء كي يشملوه بعطفهم ويغدقوا عليه الهبات . فنرى الدوق لودوفيك سفورزا Ludovic Sfarz من ميلان ينتدب الى جامعـة ميرولا Mérula وديمتريوس شالـكونديل Démétrius Chalcondyle ويستوزر العالم « سيكـو سيمونتا » Ecco Simonetta . وأصبح كل من ليوناردآرتيان ، وبوغجيو ، وماكيافيلّـي ، نواميس (سكرتير) الجمهورية الفلورنسية ، واتخذ ملك نابولي انطونيو بيكادلي Becadelli ناموساً له . ويعد البابا نيقولا الخامس أكبر نصير عرفه المتأدبون الايطاليون . وقد أرسل أحد هؤلاء المتأدبين مخطوطة للملك نابولي ، فشكره الملك على هديته وعدها منة عظيمة . وأنشأ كوزيمو دي مديسي Cosimo de Médicis مجمعاً فلسفيًّا ، وأحيا لوران الموائد الأفلاطونية . أما صديقه لانديتو Landino فقد ألف محاورات تدور بين أشخاص انفردوا مرة في دير الـكامالدول Camaldules ليتبردوا ، فقضوا عدة نهارات يتجادلون ليعلموا أي الحياتين أسمى : الحياة العملية أم الحياة التأملية . وأقام ابن لوران مناظرة تدور حول الصداقة الحقيقية وعين للفائز اكليلاً مصنوعاً من الفضة . وأصبح كبار التجار وعظماء الدولة يجمعون حولهم الفلاسفة والفنانين والعلماء ليتباحثوا معهم في غرفة مزدانة بالتماثيل النصفية الثمينة ، تحوي المخطوطات التي عثر عليها المنقبون والتي تضم بين دفتيها الروائع القديمة .

وتجري الأحاديث بألفاظ مختارة وعبارات مزخرفة دون أن يحسب حساباً للمصطلح الاجتماعي أو الطبقة . وبسائق من هذه الرغبة السمحة الشريفة التي وصمت من أفق العلم

وجلته ، تحوّلت الخصومات المحدودة المطبوعة بطابع القرون الوسطى الى فرح تنعم به العقول المفكرة .

وليس بمستغرب أن تستيقظ اللغة العامية التي هجرت منذ أيام بترارك Pétrarque وتساهم في نتاج لون أدبي جديد . فلورانزى مديتشي ، الصراف الرئيسي والقاضي الأول في المدينة يعد في طليعة الشعراء الايطاليين الجدد . ونشأ الى جانبه بولسي Pulci وبواردو Boiardo وبرني Berni وظهر فيما بعد بمبو Bembo وماكيافيلّي Machiavel وأريوست l'Arioste وهؤلاء جميعاً نماذج قاطعة للاسلوب المتمم والشعر الرصين والعبث المضحك والغبطة الرقيقة والهجو الماضي والتفكير العميق . والى جانبهم ، ودونهم منزلة،ظهر عدد من القصاص والرواة المتهكمين والخلعاء استطاعوا أن يكسبوا عطف الأمراء ويفوزوا بالحظوة لدى الرأي العام ، ومرد ذلك الى خفة روحهم وتفننهم ونكاتهم . فأصبحت القطعة الشعرية أداة للمديح أو الهجو تتلقفها جميع الأيدي ، ويحرص الفنانون على اقتنائها مقايضة . وروى ساليني نفسه أن عشرين إعلاناً علقت في اليوم الذي ظهر فيه تمثاله « برسه » Persée . ولم تكن تخلو مأدبة أنيقة ولا حفلة عظيمة من الشعر ، وفي أحد الأيام أجاز البابا ليون العاشر شاعراً يسمى « تيبالديو » Tebaldeo بمبلغ ٥٠٠ دوقة لأبيات راقت له لما تنطوي عليه من سخرية . وفي روما أولع الناس أيما ولع بشاعر آخر « برناردو أكولتي Bernardo Accolti فكان التجار يغلقون حوانيتهم ويتوافدون ليسمعوه يقرأ على الجماهير في قاعة تنيرها المشاعل ، ويشاهد الأساقفة يحيط بهم الحرس السويسري . فكانت أبياته البارعة تلتمع بالأفكار الممحصة وملحه الأدبية المماثلة للنوافل التي يوشي بها المغنون الايطاليون أنغامهم المجموعة ، تستسيغها الجماهير فينفجر التصفيق من كل صوب .

إنني قد تكلمت عن ثقافة فكرية جديدة اتصفت باللطافة والرقة ، ظهرت في إيطاليا في الزمن الذي ظهر فيه الفن الجديد . وكنت أود أن أزيدكم علماً بهذه الثقافة ولا يتأتى لنا ذلك بواسطة عبارات مقتضبة . بل برسم صورة تامة في مناسبة غير هذه المناسبة .

بين يدينا كتاب يعود الى ذلك العصر ، نجد فيه وصفاً للسيد والسيدة الكاملين ، أعني الشخصين اللذين كان المعاصرون وقتئذٍ يعتبرونهما أفضل النماذج . وحول هذه الصور الخيالية تزدحم الصور الحقيقية . أمام عينينا بهو ، يرجع الى العام ١٥٠٠ ، بضيفانه ومحادثاته وزخرفه وحفلاته الراقصة وموسيقاه ومناقشاته وألفاظه المليحة . وبالحقيقة أنه أكثر حشمة وروحانية وأغنى بمظاهر البطولة من أبهاء روما أو فلورنسا ، ويمتاز بالطابع

أنبل وأنقى فئة من الأشخاص المثقفين المتفوقين ، وقد اتخذوا أوضاعاً تتجلى فيها العظمة . ومن يشأ الاطلاع عليه فليتصفح Il Cartegiano المنسوب الى الكونت كاستيليون (١٤٧٨ — ١٥٢٩) .

كان الكونت كاستيليون يعمل في خدمة دوق أوربان ، وقد عمل أيضاً في خدمة خلفه. وكتب هذا الكتاب اذكاراً للأحاديث التي وعاها في بيت سيده الاول . أما الثاني فقد كان معلولاً وكسيحاً من جراء الرثية « داء المفاصل » ، فكانت البطانة القليلة تجتمع مساء كل يوم عند زوجته ، الدوقة اليزابث ؟ وهي امرأة تؤثر منها الفضيلة والذكاء . فيلتف حولها وحول صديقتها مدام إميليا بيا Emilia Pia كل أصناف الرجال المبرزين الذين كانوا يفدون من جميع انحاء ايطاليا . وقد عرج عليها البابا يوليوس الثاني في احدى سفراته وقضى عندها بعض الوقت . وكان المكان الذي تعقد فيه الاجتماعات والظروف المناسبة للحديث تليق بأمثال هؤلاء الرجال . كانوا يجتمعون في قصر فخم بناه والد الدوق ، ويقول الكثيرون إنه أجمل ما في إيطاليا من القصور . فالغرف كانت مزدانة بالأواني الفضية ، والطنافس الموشاة بالذهب المزخرفة بالحرير ، والتماثيل والجذوع القديمة المصنوعة من الرخام والهبة . ورسوم « بيرو دِلا فرانسسكا . Piero della Francesca وجيوفاني سانتي Gioovannj Santi والد رفائيل . ويرى الناظر طائفة من الكتب اللاتينية والاغريقية والعبرية . جمعت من سائر انحاء أوربا ، ومغشاة . تقديراً لقيمتها، بالذهب والفضة . أما الحاشية فقد بلغت مبلغاً عظيماً من الظرف حتى عز أن يوجد لها نظير في إيطاليا . فكانت الأيام تنقضي في الحفلات والرقص والمبارزة والأحاديث . يقول كاستيليون : « ان المحادثات الحلوة واللذات الشريفة . جعلت من هذا البيت الموطن الحقيقي للسرور » . وقد جرت العادة أن يلهوا بعد العشاء والرقص بحل جميع أنواع الأحاجي . وتعقب هذه السلوى محادثات ودية كثيراً وبالوقت نفسه رصينة ولذيذة تساهم فيها الدوقة . وقد انعدمت في هذه الاجتماعات قوانين الطقوس فيجلس أحدهم حيثما يشاء وكيفما يشاء ، الى جانب سيدة ، ولم تكن المحادثة على شيء من التنظيم أو الضبط ، مما يفسح المجال للاستنباط والابداع . وفي مساء أحد الايام ، بناء على طلب احدى السيدات ، ارتجل « برناردو أكولتي » قصيدة بديعة يمدح بها الدوقة . ولما فرغ من إلقائه ، أمرت الدوقة كلاً من مدام مرغاريتا ومدام فريجوزا أن ترقصا . فتناولت الواحدة يد الاخرى وأعد الموسيقي المغرب « بارلتا » Barletta آلته ثم بدأتا الرقص على نغم الموسيقى . بدأ الرقص وئيداً ثم ما عتم أن أصبح حيّاً نشيطاً . وحوالي نهاية اليوم

الرابع لاحظوا أن الشمس أوشكت أن تشرق ، ذلك لأنهم قضوا الليل كله في محادثات طلية :
« فتحت نوافذ القصر المطلة على قمة جبـل « كاتاري » Catari الشاهقة ورأوا فجراً جميلاً وورديـا بدأ يبزغ من جهة المشرق . اختفت النجوم كلها من السماء ولم يعد يرى فيها إلا رسولة الزهرة ، الوديعة « التي تقيم على تخم » الليل والنهار . ويخيل أن نسيماً حلواً ينبثق عنها وينعم الفضاء بطراوته المؤثرة وبدأ يوقظ أجواق الطيور المحبوبة في الغابات التزارة التي تكسو التلال المجاورة » .

ونستطيـع الآن ، استناداً الى هـذه القطعة ، أن نحكم على نصيب الانشاء من الذوق والاناقة والزخرفة . ويعد بمبو ، وهو أحد المتحادثين ، أغزر الناثرين الايطاليين مادة ، وأكثرهم تهذيباً للأسلوب وتفخيماً . وتتنوع في هـذه الاجتماعات ألوان الأنس واللطافة فتزف للسيدات ألفاظ التقريظ ثناء على جمالهن وكياستهن وفضيلتهن ، ويثنى على السادة لشجاعتهم وتفكيرهم وعلمهم . ومن مزيتهم أنهم يتبادلون الاحترام ويحرصون على ملاطفة بعضهم بعضاً . وهذه الظاهرة هي سنـة السلوك الحسن مع الناس والجاذب اللذيذ الذي يسود جوّ المجلس الظريف . ولا يفهم من ذلك أن ناموس الأدب ينافي السرور : فكثيراً ما كانت تتخلل المحادثات مناوشات ناشئة عن الألفة ، ونوادر ، وحكايات قصيرة وقارصة وطيبة ، ومداعبات وعبارات ظريفة وحرد لا يلبث أن يزول . وجرت في أحد الأيام محاولة لتعريف الظرف الصحيح ، فانبرت سيدة وروت القصة التاليـة حسب المثل القائل : والضد يظهر حسنه الضد : « زارها مؤخراً سيد ينهج في حياته على الطراز القديم ، وعدا ذلك فهو جندي ، وقد أصدأت الحياة الريفية الفظة طباعه . فأخذ يحصي لها ما قتل من الأعداء ويظهر ان الحماس بلغ به أشده ، فانتقل من الكلام والرواية الى الحركة ، وأراد أن يشرح لهـا كيف كانوا يستعملون السيف في حالتي الطعن والضرب . وقد اعترفت ، والابتسامة تعلو ثغرها ، إن القلق بدأ يساورها ، واتجهت ببصرها صوب البـاب ، وهي لا تنفك تتساءل في كل برهة إذا كان ينتهي الأمر بقتلها . قس على ذلك طائفة مماثلة من التعبيرات التي تظهر في كل آونة أهمية المحاورة ورصانتها . ويلاحظ ان الفرسان كانوا مطلعين على الأدبين الاغريقي واللاتيني ، ويعرفون التاريخ ، ويلمون بشؤون الفلسفة والفلسفة المدرسية . فاذا ما تناول الحديث غير هذه الأمور تتوسط السيدات ، فيمنعنهم قليلاً ويدعونهم للعودة الى البحث في مسائل أكثر مساساً بحياة الناس ، ولا يرغبن كثيراً أن يسمعن أثناء المحادثة ذكر أرسطو وأفلاطون وشراحهما العبوصين ، ويمقتن بحث النظريات المتعلقة بالحار والبارد . والعرض والجوهر . وسرعان ما يعود المتحدثون إلى سياق الكلام الجميـل المتعلق بالشؤون الدنيوية ويكفرون عن حديثهم

في العلم وما وراء الطبيعة، بخطاب ظريفة ولذيذة . ومهما كان الموضوع صعباً والنقاش حامياً . فإنهم يحرصون دائماً على التعبير بأسلوب أنيق متقن . إنهم يدققون كثيراً في دلالة العبارات ، ويفرطون في تدقيق معاني مفردات اللغة ، كما سوف يصبح المحدثون المتأنقون الذين يضمهم قصر « رامبويه » أولئك الذين عاصروا ڤوجلا Vaugelas ووضعوا أسس أدبنا الكلاسيكي . لكن أسلوب الايطاليين الفكري أكثر شاعرية ولغتهم أكثر موسيقية. وبسبب وفرة الايقاع فيها ورنين أواخرها ، يستطيع الايطالي أن يخلع على الأشياء المألوفة الجمال والانسجام ، ويحيط بعض الأشياء الجميلة بإطار من الزخرفة الرقيقة التي تغري باللذات. وإليك قطعة يصوّر فيها الكاتب آثار الشيخوخة السيئة . فالأسلوب ، لا يختلف عن السماء الايطالية ، يسكب نوراً مذهباً حتى على الخرائب ، ويحوّل مشهداً محزناً إلى صورة فنية رائعة :

« في هذا العهد تذبل وتسقط في قلبنا أزهار الفرح النضة ، كما تسقط أوراق الأشجار »
« في الخريف . وعوضاً من الخواطر الرائقة والصافية ، يتوارد علينا الحزن ، بلون السحابة »
« الدكناء ، مصحوباً بألف بلية . ولا ينحط الجسم فقط ، بل ان الفكر يعتل أيضاً ، ولا »
« يستبقي من ملاذه الغابرة سوى ذكرى لازبة، وخيال ذلك العهد الحبيب النضر. فاذا عدنا »
« الى ذلك الماضي بالفكر ، يخيل إلينا أن السماء والأرض وكل الأشياء تحتفي بنا وتضحك »
« حولنا . ويزهر في أعماق نفسنا ربيع السرور اللطيف، كما يزهر في بستان جميل وبهيج »
« ولهذا السبب ، عندما تجنح شمسنا إلى المغيب ، في الفصل البارد من عمرنا ، وتحرمنا »
« الاستمتاع بلذاتنا ، يجمل بنا أن نفقد الأذكار بفقدها ، وأن نلوذ بحيلة تعلمنا السلوان »

وأيّما كان موضوع الحديث ، فانه لا يجرد الحديث من روائه . فبناء لرغبة الدوقة ، ينهض كل فرد لشرح بعض المزايا التي تتضافر على جعل الفارس تامّاً والسيدة مكتملة ، ويُبحث نوع التربية التي تعمل على تهذيب النفس وتقوية الجسم لا المساهمة في أعمال المجتمع المدنية فقط ، بل للظرف الذي تتطلبه الحياة الاجتماعية . لاحظوا كل ما كان يجب توفره وقتئذٍ في الرجل الذي تمَّ تهذيبه ، من رقة وذوق صائب وتنوع في المعارف . ويخيل إلينا أننا بلغنا درجة عظيمة في التمدن ، ومع ان ثلاثمائة عام قد تقضت على ذلك العصر ، انصرفنا خلالها لاقتباس أساليب التهذيب وفنون الثقافة ، لا نزال نجد في تلك الحضارة أمثالاً يقتدى بها ودروساً ينتفع منها .

« وينبغي أن يكون رجل البلاط عندنا متثقفاً في الآداب ثقافة تتجاوز الحد الوسط »

« وعلى الأقل فيما يسمى علم البيان ، وأن يعرف الى جانب اللغة اللاتينية ، الاغريقية أيضاً »
« وذلك لوفرة التنوع في التآليف القيمة التي كتبت بهذه اللغة ... ، وأن يكون مطلعاً »
« على ما أنتجه الشعراء والخطباء والمؤرخون ، وأن يروض نفسه على الكتابة شعراً ونثراً »
« وخصوصاً بلغتنا العامية . فضلاً عن السرور الذي يشعر به في أعماق نفسه ، فلا يستبعد »
« أن تجمعه المصادفات السعيدة بالسيدات اللواتي يحببن عادة هذه الألوان الطريفة . ولا »
« يسرني الفارس إذا لم يكن موسيقياً ويحسن استعمال عدة آلات . لأن الموسيقى لا »
« تقتصر مهمتها على الانشراح وتسكين الهموم ، بل كثيراً ما تتخذ وسيلة لتسر السيدات »
« لأن قلوبهن الرقيقة والحنونة سرعان ما تتأثر وتنتشي من الايقاع وعذوبته » .

لا يقصد بذلك أن يصبح المرء موسيقياً مغلقاً وأن يصطنع الظهور للتدليل على قريحة فريدة في نوعها . فالقرائح لا شأن لها إذا لم يفد منها الجمهور ، ولا يجب أن يكون رائدنا الغرور في تحصيلها ، بل لكي تدنينا من قلوب الناس ولا يجب أن نروض القرائح لننال الثناء من أفواه الناس بل لنبعث السرور في نفوسهم . لذلك يتحتم علينا أن لا نظل غرباء عن فن من الفنون اللذيذة .

« وهناك شيء أقدر أهميته العظمى وينبغي على الفارس أن لا ينبذه ظهرياً : هو موهبة الرسم والعلم بأسرار فن التصوير » . وهذه البراعة زينة الحياة المثلى المهذبة التي ينبغي أن يعيرها الذهن التفاتاً ويتعلق بها كما يتعلق بكل ما هو أنيق دون أن يبلغ حد الافراط . لأن الموهبة الفنية الحقيقية التي تناط بها جميع الفنون هي الذوق الصائب « وشيء من إصالة »
« الرأي والفطنة ، والاختيار الرصين ، ومعرفة القليل والكثير عن الأمور وما إذا كان »
« انجازها قد تم في الوقت الملائم أو في غير أوانه . فمثلاً ، عندما يكال المديح لهذا الفارس »
« ينبغي أن لا يوافق علانية عليه وأن كان المديح في موضعه ، بل ان يدفعه بحشمة ، »
« مظهراً دائماً ومتمسكاً حقيقة بحرفته الرئيسة ، ألا وهي تقلد السلاح وأن لا يرغب في »
« المواهب الأخرى إلا اذا زانت تلك الحرفة . واذا شاء أن يرقص على مرأى من أشخاص »
« كثيرين ، وفي مكان يغص بالناس ، أعتقد أنه يتحتم عليه أن يحتفظ بشيء من العظمة »
« تلطف حدتهما الحركات التي تنم عن لطف وكياسة . ومتى دعي الى ضرب المعازف ، »
« فليتظاهر أنه لا يروم غير اللهو وأنه مضطر الى تلبية الرغبة ، وهب كأنه ينهض للأمر »
« على الوجه الأتم ، ويملك زمامه فأرغب اليه أن يكتم ما اقتبس من علم وما كابد من نصب »
« حتى بلغ هذه الدرجة من المعرفة . وليتظاهر أنه لا يعلق أهمية عظمى على هذا الضرب »
« من الأعمال ، مع انه يجيدها ، كي يجعل الآخرين يكنون له تقديراً عظيماً » .

ولا يجدر به أن ينفعل من حذق لا يتأتى إلا لأبناء بجدتها ، وينبغي أن يحمل الناس على احترامه ، وان لا يتمادى في ارسال النفس على سجيتها وان يظهر تحفظاً في سلوكه وتحكماً في زمام أموره ، وان يبدو ساكن الطائر كأنه إسباني الأصل . ولتكن ثيابه نظيفة ومتأنقاً في ارتدائها ، وليكن ذوقه في ذلك دليلاً على الرجولة لا على التخنث ، وليختر اللون الأسود، لأنه يعد عنوان الخلق الوقور الرصين . وكذلك ينبغي أن لا يستخفه الطرب أو تبطره حدة ذكائه ، وان لا يهيج هائجه أو يصاب بالأثرة . ليتحاش الفظاظة والكلمات النابية التي تندى لها الجباه وتحمر لها خدود السيدات خفراً . وليكن مهذباً ، حسن الطواعية ، لين العريكة مع الناس ، ويحسن الحديث الفكه ورواية الأقاصيص السارة بأسلوب لا ينافي الحشمة . وان أفضل وصية يمكن تزويده بها هي أن يسوس أموره بحكمة بغية أن يقع من نفس السيدة موقعاً حسناً . ومن هذا الالتفات الحاذق ، نرى أن صورة الرجل تمت بصلة إلى صورة السيدة وان الألوان الدقيقة التي عول عليها في رسم الصورة الأولى ، تصبح ألطف وأنعم متى ساهمت في رسم الصورة الثانية .

«كما انه يندر وجود بلاط في الدنيا ، مهما كان عظيماً ، يتوفر فيه الجمال والسناء »
« والبهجة دون أن تغشاه النساء ، كذلك لا يوجد فارس على الاطلاق يتحلى باللطف والظرف »
« والجراءة وينهض لأمر جلل اذا لم يستمتع بمعاشرة النساء وحبهن وعطفهن . وتظل الصورة »
« التي تتخيلها للفارس ناقصة جداً اذا خلت من عنصر النساء اللاتي يستطعن أن يمنحنها شيئاً »
« من الظرف الذي يضفينه على الحياة في البلاط فيجعلها جميلة مكتملة ».

«وعلى السيدة التي تحيا في البلاط ، أن تكون على شيء من البشاشة المستحبة كي »
« تستطيع أن تتحدث بلطافة ، إلى أي كان من الناس ، أحاديث لذيذة وشريفة ومناسبة »
« المكان والزمان وتلائم سامعها ، وان تكون على نصيب من المجون الموسوم بالهدوء »
« والحياء والحشمة التي تصبغ كل أعمالها بصبغة الرزانة والحكمة . وفيما عدا ذلك ينبغي »
« أن تكون على شيء من حدة الذهن تجعلها تظهر انها بعيدة عن كل غباوة وفظاظة ، »
« وأن تجمع الى ذكائها لوناً من ألوان الدماثة لا تجعلها في نظر الناس عفيفة ورصينة »
« ووديعة فقط ، بل مستحبة وأريبة ونبيهة وناعمة . لذلك ينبغي أن تختلف الى الأوساط »
« العديدة التي تتوفر فيها المتناقضات، وتسترسل الى مدى معين على شريطة أن لا تتجاوزه » .

« واذا كانت هذه السيدة ترغب في كسب الصيت الحسن ، كأن يقال عنها انها شريفة »
« وفاضلة، فلا يجب أن تتطرف في الظهور بمظهر التقية الورعة، وأن تبدي الاشمئزاز والوهل »
« من المعاشرات والمحادثات التي تسترخي فيها قليلاً قيود الآداب ، بل من الأفضل أن »

« تميزها كي يتبادر الى أذهان الناس عند ذلك انها تتحدد في اخفاء سر مصون يتعلق »
« بها وتخشى أن يتصل علمه بأحد . لأن الاساليب التي تتصف بالفظاظة والجفوة ممقوتة »
« دائماً . ولا ينبغي عليها ، اذا ما شاءت أن تكون محبوبة وحرة ، أن تتفوّه بألفاظ »
« بذيئة قبيحة ، وتظهر دالة تعدو حدود الاعتدال والوقار وتنم عن فساد سيرة ، فتحمل »
« الناس على القيل والقال واتهامها بما قد تكون بريئة منه . ولكن إذا قدر لها أن توجد »
« في مكان تدور فيه أحاديث عليها طابع القحة والفساد ، فيجب أن تتظاهر »
« بشيء من الحياء والخجل » . ويمكنها ، إذا كانت ذات حيلة ومهارة أن تغير وجهة الحديث كأن تجعله يدور من حول مواضيع أكثر أدباً ونبلاً . وان الأمر ليس فوق طاقتها ، لأن تربيتها لا تهبط كثيراً عن مستوى تربية الرجل ، إذ عليها أن تطلع على الآداب والموسيقى والرسم وتتقن الرقص والحديث الممتع ...

* * *

وتجمع السيدات اللواتي يحضرن المحادثة بين القدوة والمبدأ ، ويسطع ذوقهن وعقلهن إلى مدى محدود ، ويصفقن عند ما يشهدن حماس « بمبو » ويصغين إلى نظرياته الأفلاطونية النبيلة في الحب الشامل الصافي . وكثير من النساء الايطاليات قد جمعن في ذلك العصر بين المواهب الرفيعة والثقافة العالية . ومن بين الصور التي ظهرت في ذلك العصر ، والموجودة حالياً في متحف اللوفر ، والتي تمثل البنادقة الشاحبين المفكرين يرتدون الثياب السود ، وصورة « الشاب » من ريشة فرنشيا Francia (١٤٥٠ — ١٥١٨) ، يتعانق فيه الاحتدام والسكون ، وصورة جان ده نابل « Jean de Naples » الناعمة ، ذات العنق الطويل الذي كعنق الأوزة ، و « الشاب في التمثيل » لبرونزينو Bronzino ، من بين كل هذه الوجوه الذكية الهادئة ، وكل هذه الأزياء التي تجمع بين الأبهة والفخامة والجفوة ، يمكنه أن يكوّن فكرة عن النعومة الفاتنة ، والمواهب الغزيرة ، والثقافة المكتملة التي تركزت في هذا المجتمع الذي سبق عصرنا بثلاثة قرون ، وكان يعنى بشؤون الفكر ، ويتذوق الاناقة ويمارس اللطافة ، على نحو ما نفعل نحن اليوم ، بل ربما تفوّق علينا في هذا المضمار .

الفصل الرابع

الشروط الثانوية

يقودنا هذا الكلام لنميز طابعاً آخر لهذه الحضارة وشرطاً آخر لنشوء التصوير الرفيع. كانت الثقافة الفكرية فيما خلا من الأزمنة تتصف بالنباهة دون أن يحظى التصوير ببهاء مماثل. ففي عصرنا ، مثلاً ، قد كدس الناس ، فيما عدا المعارف التي خلفها القرن السادس عشر محصول ثلاثمائة عام من الاختبارات والاكتشافات جعلتهم أكثر علماً وأغزر أفكاراً من كل زمان مضى . ومع ذلك ، فاننا لا نستطيع القول أن فنون الرسم في أوربا الحديثة تنتج روائع فنية تضارع الطرق الفنية التي ظهرت في ايطاليا في عصر النهضة . ولكي ندرس الآثار الفنية العظيمة في عام ١٥٠٠ ، لا يجب أن نقف عند حد ملاحظة الذكاء الحاد والثقافة المكتملة التي كان يملكها معاصرو رفائيل . بلى ينبغي أن نشرح ونعرّف هذا النوع من الذكاء وهذا اللون الثقافي ، وأن نقارن بين ايطاليا والقارة الأوربية أولاً ، وبينها وبين أوربا الحالية التي نعيش فيها اليوم .

لنتوجه بادىء ذي بدء الى المانيا التي تعد حقيقة في طليعة البلدان الأوربية علماً . فهناك وعلى الأخص في ألمانيا الشمالية ، يحسن الجميع القراءة . وزيادة على ذلك ، يقضي الشبان في الجامعات من خمس الى ست سنوات . وليس هذا التعليم مقتصراً على الشبان الأغنياء أو الميسورين ، بل متاحاً للجميع على وجه التقريب من الطبقة المتوسطة ، ولأفراد قلائل من الطبقة الدنيا ، يقاسون في سبيل ذلك مشقات كثيرة وشظفاً عظيماً . وينظر الى العلم في تلك البلاد بعين الاكبار والاجلال ، فيولد أحياناً التكلف والغرور وغالباً الغطرسة . وأضحى كثير من الشبان يستعملون النظارات لا لتساعدهم على النظر، لأن عيونهم سليمة ، بل لكي يضفوا على أنفسهم مظاهر العلماء . وان ما يشغل رأساً ألمانيًّا وهو في سن العشرين ، ليست الرغبة في الظهور في نادٍ أو مقهى ، كما هي الحال في فرنسا ، بل الارادة التي تدفعه لتحصيل نظرات شاملة عن الانسانية والعالم والفوق‌طبيعة والطبيعة وعن أشياء أخرى كثيرة . وبكلمة

موجزة ، انه يهتم بتحصيل فلسفة كاملة . وما من بلاد كألمانيا يتوفر فيها ذوق عظيم جداً، واهتمام مألوف ، وذكاء طبيعي لتفهم النظريات المجردة العالية . هذه البلاد هي وطن البعد لطبيعة المذاهب الفلسفية . لكن هذا الفيض في التأملات الرفيعة ألحقت أذى بفنون الرسم . فالمصورون الالمان يبذلون قصارى جهدهم ليعبروا على خاماتهم أو في نقشهم على الجدران عن خواطر إنسانية أو دينية ، وان الشكل واللون يناطان بالفكرة السائدة . ولهذا جاء فنهم رمزيّاً . وتشاهد على الجدران دروس في الفلسفة والتاريخ . ومن يذهب الى ميونخ يشاهد ان كبار الفنانين فلاسفة ضلوا السبيل في تيه التصوير ، يحسنون مخاطبة العقل لا النظر ، وكان الأولى بهم أن يستعيضوا عن الريشة بالقلم :

لننتقل الآن إلى انجلترا . فنرى الرجل في الطبقة الوسطى يعمل وهو فتى في مخزن أو مكتب حيث يقضي عشر ساعات يوميّاً ، ولا ينقطع عن العمل حتى بعد عودته إلى بيته ، انه يبذل كل قواه العقلية والجسدية ليكسب ما يستطيع من المال . ثم يتزوج وينسل أولاداً كثيرين فيضاعف عندئذٍ جهده ويزداد نصبه . والمنافسة في تلك البلاد عنيفة والأقليم قاسٍ والحاجات كثيرة . ولا يتبادر الى الذهن ان الغني أو النبيل أو السيد الجليل ينعم في مجبوحة من الفراغ وخلو البال لا يتاحان للأول ، وعلة ذلك أن الطبقة الرفيعة مشغولة ومثقلة بواجبات عظيمة . فالسياسة تسترعي انتباه جميع الناس ، والذهن يقتات بما تولده اجتماعات الجماهير ، واللجان ، والنوادي ، والصحف كالتايمس Times التي تقدم لقارئها صباح كل يوم كتاباً تامّاً ، وأرقاماً ، واحصائيات ، وكتلة ثقيلة من أنباء الحوادث تبعث التخمة ، فلا تؤكل ولا تهضم ، وفوق كل ذلك ، قضايا دينية خطيرة وتشييد مؤسسات ، والقيام ببعض المشاريع ، وشغل البال الذي لا يني ينقب عن الوسائل التي تؤدي الى تحسين الحالة العامة والخاصة ، وهناك أمور تتعلق بالمال والنفوذ والجاه والوجدان ، وتفكير يتعلق بشؤون مادّية أو خلقية . ولذلك نرى التصوير والفنون الأخرى الحسية تنزوي في مكان قصي أو تسقط من تلقاء نفسها الى مكانة أدنى : اذ ليس لدى القوم فضلة من الوقت للإهتمام والاستمتاع بها . ولا يلتفت الذهن إلاّ الى شؤون تفوقها أهمية وضرورة ، وهم لا يبدون اهتماماً بها إلاّ بسائق من المجاملة والذوق العصري الطاغي ، وليست في اعتبارهم الا طرفة بسيطة ، وموضوع دراسة في رأي بعض الهواة . ومع كل ما ذكرنا ، فانه لا يندر وجود أشخاص أخذوا على عاتقهم حماية الفنون : فيتبرعون بالمال لتأسيس متاحف وشراء رسوم مبتكرة وإنشاء مدارس ، كما انهم على استعداد لبذل أموالهم في أي أمر آخر : كأن يبذلوا الأموال لنشر الانجيل ووقاية اللقطاء وشفاء المصابين بالسوداء . ولا يعزب عن بال هؤلاء

ما ينجم عن تبديد هـذه الأموال من فوائد عمومية واجتماعية : فيعتقدون أن الموسيقى تلطف وتلين الجمهور ، وتقلل السكر يوم الأحد ، وأن فنون الرسم تنشىء فوجاً من العمال الذين لا يستغنى عنهم في صنع الأقمشـة والحلي ، ولهذا ينعدم الذوق في كل ما نرى ، لأن الاحساس بالأشكال الجميلة والألوان الجميلة وهو ثمرة التربية ، يكون بمثابة برتقالة نبتت في تربة حارة وكانت مبالغ باهظة ، فطعمها على الغالب زنخ أو حامض . وليس المصورون المعاصرون سوى عمال ذوي موهبة ، مدققة ، متقنة ، ضيقة . ويتجلى التنطع وعدم الطلاوة فيما يرسمون من حزمة قش أو ثنيـة ثوب أو نبتة مرخص . فالجهد الدائم والانتباه المتصل الذي صخر جسم الانسـان وتفكيره قد أحدث تشويهاً في مشاعرهم ، وتصوراتهم ، وأصبحوا لا يأبهون لانسجام الألوان ، فيصبون على القماش آنية مملوءة بالأخضر الببغاوي . ويصنعون أشجاراً من التوتيـا ، أو الحديد المصفح ، ويصورون الأجسام باللون الأحمر القاني ، وباستثناء مدارسة السحـن والبراعة في معرفة الطابع الخلقي ، فان تصويرهم منغص ، وتمثل معارضهم القومية للأجانب مجموعة من الألوان المغيظة ، المتنافرة ، العنيفة .

وانا لن نعـدم من يقول أن هؤلاء وأولئك ألمان وانجليز ، تؤثر عنهم الرصانة ، وينتسبون الى الطائفة البروتستانتية ، تعمقوا في دراساتهم أو انغمسوا في هؤوسهم المادية ، وان الناس في باريس ذوو ذوق وينشدون اللذة . وبالحقيقة أن مدينة باريس في الوقت الحاضر هي المدينة الأولى بين مدن العالم التي اشتهر أهلها بحب الحديث ، والقراءة ، ونقد الفنون ، وتمييز خفايا الجمال الدقيقة ، حيث يتاح للغرباء الذين يؤمونها أن يتذوقوا الحياة المستحبة المتنوعة البهجة . ومع ذلك فإن فن التصوير الفرنسي ، ان كان يفوق سواه في البـلاد الأجنبية ، فهو لا يعادل التصوير الايطالي في عهد النهضة ، وذلك باعتراف الفرنسيين أنفسهم . وعلى كل حال ، فانه يختلف عنـه ، والآثار الفنية تنبىء عن ذهنية أخرى ، وتنم عن عقول مختلفة كل الاختلاف . في التصوير الفرنسي يتوفر عنصر الشعر أو التاريخ أو الفاجعة أكثر مما يتوفر عنصر الفن ، وهو دون التصوير الايطالي في درجة الاحساس بجمال الجسم العاري وروعة الحياة البسيطة المجردة ، فقد كدَّ وسعى كي يمثل المشاهد الحقيقية ، والزي الحقيقي للناس ببلدان بعيدة وأزمنة سالفة ، وانفعالات النفس المفجوعة ، ومظاهر الطبيعة المؤثرة . وهكذا أصبح التصوير ندًّا للأدب : فانه نقب واستغلَّ نفس الحقل ، واستجاب للرغبة الجمعة في المعرفة ، والروح الآثارية ، والحاجة للانفعالات القوية ، والحس المرهف المريض واستعمال ليلائم أذواق أهل الحضارة ، الذين أنهكهم العمل ، وحدَّت الحياة الخاملة من نشاطهم ، وأفعمت رؤوسهم أفكاراً معقدة ، واشتدت هبوبهم الى الترف ، والاحساسات الخاملة ،

وهدوء الحقول . وقد حـدث تحوّل عظيم في خلال القرنين الخامس عشر والتاسع عشر: فإن حشو الرأس بالمعلومات ، والبلبلة التي اعترت ذهن الانسان ، أحدثا ارتباكاً تجاوز الحد . ففي باريس وفرنسا نلحظ جهداً عظيماً يعود إلى سببين : أولاً أصبحت المعيشة باهظة الثمن اذ أن طائفـة من ألوان الرفاهية باتت ضرورية . فالشخص ، وإن كان قنوعاً وعزباً ، يحتاج الى سجاجيد وسجف وكراسٍ ، ومتى يتزوّج يصبح في حاجة الى رفوف مزينة ، ومسكن جميل مؤثث بأثاث غالٍ ، ومجموعة لا تحد من الأشياء التافهة ، ولا سبيل للحصول عليها إلاّ بالمال الذي لا يكسب إلاّ بعد الـكد والعناء ، إذ لا يمكن أن تسرق من قارعة الطرق ، أو تصادر على نحو ما كان يجري في القرن الخامس عشر . وهكذا ينفق الانسـان معظم أيام حياته في جهود شاقة . وعدا ذلك ، فان كل فرد يبغي الوصول الى هدفه . وبمـا أننا نعيش في بلاد تخضع للنظم الديموقراطية ، حيث تحرز المناصب بالمسابقـة ، وتنال بالثبات ، وتكتسب بالمهارة ، فيأمل كل فرد منا أن يصبح يوماً ما وزيراً أو صاحب ملايين . وهـذه المنافسة تجعلنا نضاعف أعمالنا وهمومنا وتزيد في ارتباكنا .

ومن جهة ثانية ، إننا نعيش في مدينة يبلغ عدد سكانها ١٫٦٠٠٫٠٠٠ نسمة وهو عدد كبير وزائد عن الحد . وقد رسخ في أذهان الناس أن الأمل بالنجاح عظيم في باريس، فأخذ يؤمها الناس يحدوهم الفكر والطمع والنشاط . فأصبحت عاصمة البلاد ملتقى عامّا لجميع الرجال المتفوقين وذوي الاختصاص ، فتشيع بينهم اختراعاتهم وبحوثهم ، ويغري بعضهم بعضاً ، وتتتابع حمى تتولد من المطالعات والمسرح والحادثات المتنوعة . والدماغ في باريس بعيد عن السلامة والانتظام : هو ملتهب ومعنًى ومهتاج ، وثمراته من تصوير وأدب ، تتأثر من هذه الحال. فحيناً تصيب خيراً وغالباً ما تمنى بشر .

أما في ايطاليا فلم تكن الحالة كما ذكرنا . فلا تقع العين على مليون من الناس يعيشون متكتلين في بقعة ضرب نطاق حولها . بل كانوا يعيشون في مدن عديدة يتراوح عدد سكانها بين الخمسين والمائة أو المائتي ألف نسمة . ولم يكن لهم عهد بهذه المطامع المتزاحمة ، والرغبات الجمة الفائرة ، وحشد الجهود ، والافراط في النشاط البشري . وكانت المدينة تضم صنوفاً من الناس ، لا جمهوراً من السوقة كما هي الحال عندنا . وعدا ذلك ، فقد كانت الرغبة في الرفاهية متوسطة ، والاجسام تتحمل الخشونة والشظف ، فـكان الناس يسافرون على ظهور الدواب ويعيشون بسرور في الهواء الطلق . وتعد القصور الـكبيرة التي بنيت في ذلك العصر فخمة ، لـكنني لا أدري اذا كان أحد أفراد الطبقة المتوسطة في العصر الحاضر يرضاها مسكناً له ، لأن الحياة فيها عسيرة ، ويتعذر على قاطنها أن يقي نفسه البرد . وتعد المقاعد

المنحوتة المزدانة برؤوس أسود أو آلهة ترقص ، روائع فنية ، لـكننا نجدها اليوم صلبة وخشنة ، لأن داراً حقيرة في عصرنا هذا ، أو غرفة بواب يقوم على حراسة بيت أحد الأغنياء ، مجهزة بوسائل التدفئة ، هي أكثر رغداً من قصر ليون العاشر وبولبوس الثاني . وعلة ذلك انهم لم يكونوا بحاجة الى كل هذه الضروب التافهة من الرفاهية التي لا ندري كيف يمكننا التخلص منها اليوم . كان جل همهم ينحصر في حيازة الجميل لا العيش الرغد ، ويحلمون بإحكام بناء العواميد وإتقان الصور ، لا في الحصول على دواوين وأوان صنعت على النسق المبني . وبما ان الطبقات كانت موصدة في وجه الشعب ولا يلجها الا من يحرز مجداً عسكريّاً أو يفوز بعطف الأمير ، وبعض قطاع الطرق الذين طارت شهرتهم في الآفاق ، وخمسة أو ستة سفاحين متفوقين ، وبعض الندامى الطفيليين ، فلم يكن يشاهد في المجتمع يومذاك هذا التنافس الحاد العنيف ، وهذا الاضطراب في الحياة الذي يماثل حركة النمل في قريته ، وهذا العناد الدائم المتواصل الذي يتصف به كل منا بغية أن يتجاوز الآخرين .

يستنتج من كل ما ذكر أن العقل الانساني كان وقتئذٍ أكثر اتزاناً مما هو الآن في اوربا المعاصرة ، ومدينة باريس الحالية التي نقطنها ، وعلى الأقل كان أكثر ملاءمة للتصوير . ذلك لأن فنون الرسم تتطلب، كي تزدهر، تربة موافقة ، ليست بوراً ولا تعددت حراثتها . كانت التربة الأوروبية في العهد الاقطاعي متكتلة وصلبة . أما اليوم فانها قد أضحت متفتتة . فقبلاً لم تجل فيها المدنية محراثها كثيراً ، أما اليوم فانها قد أكثرت الأتلام حتى أصبحت لا تحصى . ولـكي يستطيع مصور كرافائيل أو تيسيان أن يثبت بيده على الخامة الأشكال الرفيعة البسيطة ، يجب أن تتجلى هذه الاشكال طبيعيّاً في ذهن من يحيط بهم من الناس ، ولكي تتجلى طبيعيّاً في أذهان الناس ، ينبغي أن لا تعدو الأفكار على التصورات فتخفيها وتشوهها .

دعوني أقف هنيهة عند هـذه الـكلمة لأنها رئيسة . من خواص الثقافة المتطرفة أن تستهدف القضاء رويداً رويداً على الصور لصالح الأفكار . فبتأثير التربية المستمر ، والحادثة والتفكير والعلم ، يتشوه الوحي البدائي ويتفكك ويتلاشى لتحل محله أفكار مجردة ، وكلمات صنفت تصنيفاً جيداً ، وضربٌ من الجبر . وأصبح مألوفاً لدى الفكر من الآن فصاعداً ، أن ينتهج طريقة التعقل البحت . واذا حاول العودة الى التصور ، فلا يتسنى ذلك له إلاّ بمشقة وعناء ، وفورة عنيفة محمومة ، ولون من ألوان الهَلْس hallucination المشوّش الخطر ، تلك هي بعينها حال فكرنا في الوقت الحاضر فلا يستدل منها اننا مصورون جبلّـة . وقد أفعمونا وحشونا بأفـكار مختلطة ، متلونة ، متعـددة ، متشابكة ، وصبت فيه مدنية بلادنا

والمدنيات الأجنبية والقديمة والحديثة فيضها وفضلاتها . ألفظ مثلاً كلمة « هجرة » على مسمع من رجل عصري ، فيتبادر الى ذهنه أن المقصود ليس كلباً ولا خروفاً ولا أثاثاً ، ويختزن هذه الاشارة في رأسه في مكان مرسوم واضح . وقد تواطأنا في العصر الحاضر أن ندعو هذه الظاهرة فهماً . ثم أن مطالعاتنا وعلومنا قد حصرت ذهننا بالإشارات المجردة ، وعاداتنا في التنسيق تقودنا منطقيًّا وقياساً من إشارة الى أخرى . وليس لنا الا أن نستشف الأشكال الملونة جزءًا فجزءًا وهي التي لا تمكث في داخلنا ، بل ترتسم بغموض على الخانة الداخلية ثم لا تلبث أن تتلاشى . واذا توصلنا الى حفظ هذه الأشكال ومعرفتها بدقة ، فالفضل يعود الى الارادة ، وبعد مرانة طويلة وتربية مضادة أخضعتنا تربيتنا العادية . وهذا الجهد الجبار يودي الى العذاب والحمى . فكبار الملونين في أيامنا ، من أدباء ومصورين ، ليسوا إلاّ أصحاب خيالات وأوهام ، أصابهم الاعياء ، واعترتهم البلبلة والتشوش . أمثال : هيني ، وهوغو ، وشلي ، وكيتس ، والبزابث ، وبراوننغ ، وادغاربو ، وسونبرن ، وبالزارة ، ولا كروا وغيرهم . ولم يخل عصرنا من الكثيرين الذين مهروا بجبلة فنية ، لكنهم جميعاً على وجه التقريب قاسوا كثيراً من بيئتهم ونمط تربيتهم . ويعد جيته الشخص الوحيد الذي احتفظ بتوازنه ، ومرد ذلك الى حكمته ، وحياته المنظمة ، وسيطرته الدائمة على ميوله . اما فنانو عصر النهضة فكانوا ذوي بصيرة . فكلمة هجرة ذاتها ، التي ذكرناها آنفاً ، لا تكاد تمسها أذهان سليمة ومجردة حتى تتمثلها فوراً بكاملها تتمثل هذه المجموعة المستديرة المتحركة التي تكونها الأوراق النضرة ، والزوايا السود التي ترسمها أغصانها على القبة الزرقاء ، وساقها الخشنة المخددة بعروق غليظة ، وأصولها المتوطدة ، في التربة ، رغم أنف الرياح والعواصف ، وهكذا فان ذهنهم بدلاً من أن يتضاءل حتى يستحيل رقماً وإشارة ، يقدم لهم مشهداً حيًّا ومكتملاً ، لا يقاسون عناء في تصوره ، ولا يبذلون أي جهد للعودة إليه فيختارون الجوهري منه ولن يعنوا بالأجزاء عناية تبلغ حد السفساف المؤلم . فيستمتعون بصورهم الجميلة كأنها فلذة نابضة من صميم حياتهم وبدون أن ينتزعوها انتزاعاً ويقذفوها في الهواء باضطراب وتشنج . هم يباشرون التصوير بسائق من الفطرة والاختيار ، مثلهم مثل الحصان الذي يركض أو الطير الذي يطير ، فتصبح الأشكال الملونة لسان الذهن الطبيعي . وعندما يتأمل النظارة هذه الأشكال على خامة أو على جدار ، لا يلبثون أن يتعرفوا إليها ، ذلك لأنهم رأوها في نفوسهم ، ولا ينظرون إليها ، كما اعتادوا أن ينظروا شيئاً غريباً ، أبرزه على المسرح بأساليب مصطنعة ، تضافر التدريب وجهد الارادة ونهج فني انبثق عن احدى الهيئات الفنية . إنها مألوفة لديهم ، حتى انهم كثيراً ما يدخلونها في حياتهم

العامة وحفلاتهم العامة ، ويحتاطون بها ، وينشئون منها صوراً حية إلى جانب الصور المنقوشة .

ولنراقب الآن الثوب : ما أعظم الفرق بين ثيابنا ، من سراويل وردنجوت وكسائنا الأسود الحزن ، وأقبيتهم الفضفاضية المزخرفة ودراريعهم المدبجة ، وأطواقهم ذات التخاريم وخناجرهم ، وسيوفهم الفولاذية المرصعة والموشاة بالنقوش ، وثيابهم المطرزة المحلاة بالذهب وبجواهرهم ، وقلانسهم التي يزينها الريش . ان الأبهة في جميع هذه المظاهر ، كانت تتألق على ثياب الأشراف ، بينما لا يستعملها أحد اليوم إلا النساء . ولنلاحظ أيضاً الحفلات الفاتنة الجديرة بالتصوير التي كانت تقام في كافة المدن والمساخر ومواكب الفرسان ، التي كان يسر بها الشعب والأمراء . ففي عام ١٤٧١ جاء دوق ميلانو لزيارة فلورنسا ، يصحبه خمسمائة فارس مدججين بالسلاح ، وخمسمائة من الرجالة ، وخمسين وصيفاً جاؤوا على أقدامهم يرتدون الحرير والمخمل ، وألفين من الاشراف والخدم ، وخمسمائة زوج من الكلاب وعدد لا يحصى من البزاة . وقد بلغت نفقات هذه الرحلة نحواً من مائتي ألف دوقة ذهباً (نحو ٢٠٠٠٠٠٠ فرنك) . وقد أقام أحد الكرادلة حفلة تكريماً لدوقة « فيرارا » بلغت نفقاتها ٢٠٠٠٠ دوقة . وعلى أثرها قام برحلة في ايطاليا بموكب عظيم فخم ، فظنه الناس البابا أخاه ، وتخيل لوران ومديتشي مهرجاناً يمثل انتصار كاميل . فتوافد عدد كبير من الكرادلة كي يشهدوها وطلب لوران من البابا فيلاً ، فأرسل اليه عوضاً عن الفيل نمرين وفهداً وبعث يقول انه يأسف لأن مقامه السامي يحول دون مجيئه لحضور هذا الاحتفال العظيم . — ودخلت الدوقة « لوكريس بورجيا » مدينة روما تصحبها مئتى سيدة ، ارتدين أفخم الملبوس ، وامتطين الخيول ، ويصحب كل سيدة شريف . ان جلالة المنظر والثياب وظهور السادة والأمراء كل هذه الأمور توحي الى الناظرين فكرة عرض رائع لممثلين حقيقيين . ومنذ أن نقرأ الروايات التاريخية والمذكرات نستنتج أن الطليان يريدون أن يجعلوا الحياة عيداً جميلاً وكل ما عدا ذلك من الشؤون غرور في عرفهم . إنهم لا يتوخون إلا اللذة ، اللذة النبيلة العظيمة ، سواء أتت عن طريق الفكر أو الحواس أو النظر . ومن المؤكد انه ليس لديهم عمل ما يمارسونه : أنهم يجهلون مشاكلنا السياسية والانسانية ، ولا توجد المجالس النيابية في بلادهم ولا الأحزاب ولا الصحف الكبيرة . فالرجال البارزون أو الأقوياء لا يحيط بهم جمهور يهوى الجدل والاحتجاج ، ولا رأي عام يجب استشارته ، ولا مناقشات جافة عقيمة يضطرون لدعمها ، ولا احصاءات ليقوموا بها ، ولا مباحثات خلقية أو اجتماعية ليتأهبوا لها . فايطاليا يحكمها عدد من الطغاة اغتصبوا الحكم بالقوة ويحافظون عليه بالقوة . وفي أوقات فراغهم يستقدمون البناة للعمارة والرسامين للتصوير . ويتهافت الأغنياء والأشراف على

منازلهم ، فيحلمون بالماء ويتسررون الجريلات ، ويقتنون التماثيل والصور ، والثياب الجميلة ، ويلحقون أمناء بالأمير لكي يتسقطوا الأخبار ويحذروا وشايات الناس والفتك .

ولا تظنن ان الأفكار الدينية تقلقهم أو تنقل عليهم أو يهمهم أمرها .

فان أصدقاء لوران دمديتشي أو اسكندر السادس لا يحلمون مطلقاً بتكوين البعثات ، ووضع الخطط لهداية الوثنيين ، ولا يفكرون في التبرعات التي تنفق في سبيل تعليم وتهذيب الشعب . لأن الناس في ايطاليا لم يكونوا على شيء من الحمية ، ولم يكن أضعف من الحمية في نفوسهم . ولما جاء « لوثيروس Luther الى روما ، وهو مفعم الروح بالتردد والايمان ، ازداد تشككه وصرّح فور عودته : « بأن الايطاليين أكفر الخلق ، يسخرون من الديانة الحقيقية ، ويهزؤون بنا ، نحن المسيحيين ، لأننا نؤمن بكل ما جاء في الكتاب المقدس . . وكلما عنّ لهم أن يذهبوا الى الكنيسة ، يرددون هذه العبارة : « لنذهب متمثلين للضلال العمومي » — ويقولون أيضاً : « لو اضطررنا إلى الاعتقاد التام بكلمة الله ، لأصبحنا أشقى الناس ولم يعد في استطاعتنا أن نجد برهة ننفقها في الاستمتاع . ينبغي أن يكون الانسان طلق المحيا ، وان لا يعتقد بكل ما قيل » . حقيقة أن الشعب وثني بجبلته ، والأشخاص الذين أحسنت تربيتهم أصبحوا كفرة بتأثير التربية . ويقول لوثيروس متمعضاً : « ان الايطاليين بين أمرين : أما انهم ابيقوريون ، أو ذوو اعتقادات باطلة . فالشعب يخشى القديسين « أنطونيوس وسباستيان أكثر مما يخشى المسيح ، خوفاً من الجراح التي يسببانها له . » « ولهذا السبب ، إذا أريد ردع الايطاليين عن التبويل في مكان ما ، ترسم هناك صورة » « القديس انطونيوس ممتقلا رمحه الناري . انهم يحبون حياة مشحونة بالخرافات دون » « أن يعرفوا كلمة الله ، ولا يعتقدون بقيام الموتى ولا بالحياة الخالدة ولا يأبهون الا للجراح » الزمينة » وان عدداً كبيراً من الفلاسفة ينكرون سراً وجهراً ، أو ما يقرب من الجهر ، الالهام وخلود النفس ، وينفرون جميعاً من التصوف المسيحي ومبدأ اذلال الجسد . ومن الشعراء هجوماً عنيفاً على الرهبان لا عهد لهم به ، وصوبوا الى العقائد تلميحات لا يزعها وازع . ونظم « بولسي » قصيدة ساخرة مضحكة توّج كل مقطع منها بنشيد أحد الشعانين وعبارة من نصوص القداس . ولكي يبرهن عن حلولية الروح في الجسم ، لم يجد بداً من مقارنتها بالمربيات التي يحشى بها الخبز الابيض . وما عسى أن يكون مصيرها في العالم الآخر ؟ « يعتقد بعض العوام انهم سيجدون هناك عصافير وطيوراً أخرى ، وأمرءة فاخرة ، ولهذا السبب نراهم يقتفون أعقاب الرهبان . لكن يا صديقي العزيز ، عندما نهبط وادي الظلام ، سوف لا نسمع من « ينشد هللويا » .

إزاء هذه البهيمية وهذا الالحاد، طفق وعاظ ذلك العصر مثل «برونو وسافونارولا» Bruno-Savonarola يرعدون بكل قواهم. وكان سافوناورلا نفسه يقول لأهالي فلورنسا الذين ذهب ليهديهم هداية تدوم ثلاث أو أربع سنوات: إن حياتكم مماثلة لحياة الخنازير إذ تنقضي كلها في الفراش والمتنزهات واللهو والموبقات والفجور» لنحذف من هذا القول ما يجب أن يطرح، لأن الواعظ أو المهذب كثيراً ما يلجأ الى المبالغة والتهويل لكي يحدث تأثيراً. على أننا مهما حذفنا، سوف يبقى دائماً شيء يستحق الذكر. ويستنتج من قراءة سيرة الأشراف في ذلك العصر، ومن الملاهي الماجنة الختارة التي انغمس فيها حكام ميلانو وفيرارا والبهيمية الرقيقة والاباحية الصريحة عند آل مديتشي في فلورنسا، أن الناس لم يألوا جهداً في البحث عن مختلف اللذات. فآل مديتشي كانوا صيارفة، ثم ما عتموا أن أصبحوا، بفضل قليل من القوة وكثير من الدهاء، قضاة المدينة وسادتها الحقيقيين، وجمعوا حولهم عصبة من الشعراء والمصورين والنحاتين والعلماء فزينت قصورهم برسوم تمثل الصيد والحب في العهود الوثنية، وكانوا يؤثرون الصور العارية من ريشة دلـّو De Io وبولايولو Pollaiuolo ويرهنون محاسن ومزايا الوثنية بشيء من الشهوة البهيمية. ولهذا السبب كانوا يتجاوزون عن سيئات مصوريهم ويغضون الطرف عن شذوذهم. ولما اختطف فرا فيليبو ليبي راهبة جعل أهلها يشكون، أمـّا آل مديتشي فقد أخذوا يضحكون. ويروي فليبو، الذي كان يعمل عندهم، إنه كان شديد الولع بعشيقاته وكان يتخذ من شراشف سريره حبلاً ويتدلى من النافذة كلما أغلقوا عليه لينجز عملاً. وأخيراً قال أحدهم: «ليترك له الباب مفتوحاً. إن الرجال الموهوبين جوهر سماوي وليسوا دواباً. لا يجب أن يسجنوا ولا أن يضيق عليهم.

وكانت الحالة في روما أسوأ، وسوف لا أقول شيئاً عن ملاهي اسكندر السادس (بورجيا). ومن شاء الاطلاع عليها فليقرأها في مذكرة كاهن معبده الخاص، لأنه ما من لغة تستطيع أن تصف الرقص الصاخب المتهتك. أما ليون العاشر فكان رجلاً حسن الذوق يستهويه جمال اللغة اللاتينية ويطرب للهجاء المبتكر. لكنه كان لا يتعفف مطلقاً عن اللذة المخالفة للحشمة والمتعة الجسدية الصريحة. وكان يلتف حوله زمرة من الشعراء والمغنين والطفيليين يحيون حياة حظها من الفضيلة قليل، وأشعارهم على جانب عظيم من الصراحة. وطلب الكردينال «بيبينا» Bibiena أن تمثل أمامه كوميديا بعنوان «كالاندرا» لا يجرؤ أحد أن يمثلها في الوقت الحاضر على مسرح من المسارح. وخطر له يوماً أن يعبث فقدم الى ندمانه طعاماً صنع على شكل قرود وغربان، واتخذ مهرجاً له راهباً صعلوكاً شرهاً يدعى

« ماريانو » يزدرد دفعة واحدة حمامة مسلوقة أو مشوية ، ويقال انه يستطيع أن يبتلع عشرين فروجاً وأربعين بيضة » . وكان يفرح باللذات الفظة الجافية والتصورات الجامحة المضحكة ، وككل إنسان كان غزير المادية الحيوانية شديد الحيا . وكان من هواة الصيد يخرج لاصطياد الوعل والخنزير في الغابات ، محتذياً جزمة يزينها مهماز . ولا تمت الحفلات التي يقيمها الى الدين بنسب أكثر مما تمت إليه عاداته . وقد وصف شاهد عيان، هو ناموس دوق فيرارا ، أحد أيامه . ومن التباين بين ملاذه وملاذنا ، يتبين لنا أن سلطان اللياقة والمجاملة قد عظم ، وأن الخيال المرهف قد أخضع للعقل الصرف ، وان مسافة شاسعة تفصل بيننا وبين تلك الأزمان التي كانت تتجاذبها المسيحية والوثنية ، ووسمتها الشهوة بطابعها ، لكنها رغم ذلك كله جديرة بالتصوير ، لأن الغلبة لم تتم للروح على الجسد .

« ذهبت الى الكوميديا مساء الأحد ، فأدخلني صاحب السيادة الكردينال رانجوني »
« الغرفة التي يوجد فيها الحبر الأعظم وكرادلته الفتيان الجزيلو الاحترام . وكان قداسته »
« يسير ذهاباً واياباً ، يأذن بالدخول لفلان وفلان من الناس الذين تروق له صفاتهم . ولما »
« بلغ الحضور العدد الذي عينه ، انتقلوا الى المكان الخاص بالكوميديا . وقف الأب »
« الأقدس قرب الباب يسمح بالدخول لمن يقع منه موقعاً حسناً ويهب البركة دون أن يحدث »
« ضوضاء أبداً . ويشاهد الداخل المسرح وقد جعل في جهة ، وفي الجهة المقابلة رحبة »
« يرقى اليها درجة درجة ، أقيم فوقها مقعد للحبر الأعظم . وبعد أن دخل عامة الناس ، جلس »
« على كرسيه الذي يعلو خمس درجات عن الأرض يحيط به الكرادلة والسفراء حسب رتبهم »
« وبعد أن استقبل الجمهور بالمزامير ، وكان عدده لا يقل عن ألفي نسمة ، أنزل الستار وقد »
« رسم على جانبيه صورة « ماريانو » مع كثير من الشياطين الذين يمرحون معه . وظهر في »
« وسط الستار منظور بابوي كتب عليه : « اليكم مباذل الأخ ماريانو » ثم صدحت الموسيقى »
« فتناول البابا نظارتيه وبدأ يتأمل المسرح ، وهو من صنع رافائيل ، الذي كان يبدو جميلاً »
« جداً . وكان قداسته ينظر معجباً إلى صورة السماء التي مثلت بمنتهى الجودة . وكانت »
« الشمعدانات مكونة من أحرف ، وعلى كل حرف ترتكز خمسة مشاعل تعني ليون العاشر »
« الحبر الأعظم » . ثم ظهر على المسرح سفير البابا وألقى بياناً قوياً انتقد فيه عنوان »
« الكوميديا ، وما زال كذلك حتى أخذ البابا يضحك ويشاركه في ذلك النظارة . وقد »
« اتصل بي أن الفرنسيين اغتاظوا من موضوع الرواية . ثم مثلت الكوميديا فأجاد الممثلون »
« وتخللت الفصول أنغام المزامير والصور والمزاهر والعيدان والأرغن الصغير بأصواته »
« المتنوعة ، وهو تذكار سعيد قدمه للبابا صاحب السيادة الطائر الصيت . وفي الوقت نفسه »

« كان يتصاعد غناء وصوت ناي أحدث سروراً عظيماً . وفي رأيي ان فرقة الغناء لم تصب »
« نجاحاً أعظم مما أصابت المعازف . وفي فترة الاستراحة الاخيرة مثلت « المغربية »
« La Mauresque التي ترمز الى أسطورة جورجون ، وقد كان النجاح حليفها ، لكن هناك »
« بين هذا التمثيل والتمثيل المكتمل الذي جرى في قصر سيادتك . وعند انتهاء « الحفلة » »
« التي ختمت كما وصفت ، بدأ الحاضرون ينصرفون ، فاشتد زحام « الجمهور » وحاولت »
« الخروج على عجل ، فدفعتني المقادير في هوة مقعد صغير وكسرت ساقي . وقد أصابت أحدهم »
« صدمة عنيفة من اسباني ، ولما كان الاول يسدد السكات للثاني ، أتيحت لي فرصة للنجاة »
« حقيقة أن ساقي أصيبت بأذى عظيم ، لكنني وجدت عزاء بالبركة العظيمة التي منحنيها »
« الاب الاقدس . وبالبشاشة التي تفضل وتلقاني بها » .

« وفي اليوم السابق لهذه الحفلة الساهرة جرى سباق خيول ، فشوهدت قطعة من الخيول اسبانية الاصل يرأسها صاحب السيادة كورنر ، ويرتدي الفرسان الزي المغربي المتنوع ، وتتبعها زمرة أخرى بالزي الاسباني ، يلبس أفرادها الاطلس الاسكندراني ، المبطن بالحرير الملون ، والبرنس . وقد منح البابا كل فارس ٤٥ دوقة مكافأة لهم . وحقيقة كانت الحاشية موضع اعجاب الجميع ، فكان أفرادها يتقلدون الاسلحة وينفخون في الابواق التي لا يختلف لونها عن لون الحرير . وعندما بلغوا الساحة جرت الخيول بهم نحو القصر مثنى مثنى حيث كان البابا يرقبهم من الكوى . وفي ختام العدو يممت الاولى شطر القديس بطرس والثانية وقفت في الجهة المقابلة . وكم كان المنظر جميلاً عندما انقض الفريقان على بعضهما يتماصيان . وقد شوهد في الميدان أحصنة جميلة وأفراس لا تزال مهرات . وفي اليوم التالي شهدت صراع الثيران . وفي المساء مثلت كوميديا من وضع أحد الرهبان . وقد بلغني أنها لم تحرز اعجاباً عظيماً ، لذلك عدل البابا عن مشاهدة الرقصة المغربية وأمر أن يلف الراهب بشرشف ويرمى في الفضاء ثم يبطح بعنف على أرض المسرح . وبعدئذٍ أمر بقطع خدمتيه (رباط الساق) واخراج عقبيه . لكن الراهب طفق يعضض سبابته . ثم اركب حصاناً ونال مالا يحصى من اللطمات على عجزه . وأخبرت أنه لا يزال ملازماً الفرش ، وصحته لا تبعث على الطمأنينة رغم المحاجم الكثيرة التي ألصقت على مؤخره . ويقال ان البابا يبغي أن يلقن الرهبان الآخرين درساً كي لا يفكروا أن يعرضوا برهبانياتهم . وحان اليوم دور السباق بالخاتم أمام باب القصر حيث كان البابا يتفرج من النوافذ . أما الجوائز فقد كانت مسجلة على كؤوس . ثم بدأ بعدئذٍ سباق الجواميس ، كان منظر هذه الحيوانات القبيحة ،

وهي تركض ركضاً ، فكانت تارةً تتقدم وطوراً تتأخر ، ولم تستطع الوصول الى المدن أو الاقتراب منه الا بعد مرور وقت طويل ، لأنها كانت تخطو خطوة الى الأمام وترجع أربعاً ، وأقسم أن هذا السباق كان فكاهة عظيمة ثم غادرت المكان قاصداً بعبو ، وقت بزيارة قداسته فألفيت عنده أحد الأساقفة . وكانت المساخر والشؤون السارة محور الحديث » .

« عن روما » ٨ مارس ١٥١٨ الساعة الرابعة ليلا.
خادم سيادتك المظيمة الشهرة : الفونسو پولوزو .

هذه هي أفراح الكارنافال تجري في بلاط يجب أن يكون موئل الوقار والحشمة في ايطاليا . وعدا ذلك ، فانه يجري سباق للرجال المراة على غرار الألعاب الاغريقية القديمة.

ان شعباً توفر له خيال توجّه بكليته صوب الاشكال الجسدية ، ومدنية تعتبر السرور هدفاً للحياة الانسانية ، وانعتاق تام في المشاكل السياسية ، وجلبة المصانع والاهتمام بالشؤون الخلقية التي تربط المعقول بالمنافع المادية والأفكار المجردة : ان شعباً وهب الفطرة الفنية ونال نصيباً عظيماً من الثقافة ، ليس بمستغرب أن يتذوّق ، ويبتكر ويبلغ الكمال بالفن الذي يمثل الأشكال الحسية . ويعتبر عصر النهضة فذّة فريدة تصل القرون الوسطى بالعصر الحاضر ، ووسيطاً بين الثقافة الناقصة والثقافة العظمى ، وسيادة الغرائز المجردة والأفكار الناضجة . في هذا العصر لم يعد الانسان حيواناً وحشيًّا مفترساً لا يحسن إلا ترويض أعضائه ، ولم يصبح عقلاً صرفاً يعيش في مكتب أو بهو ، ولا يحسن الا ترويض عقله ولسانه . إنه يجمع بين الطبيعتين : في رأسه أحلام عديدة عنيفة متصلة كالهمجي ، وفي صدره رغبات حادة وناعمة كالرجل المتحضر . إنه يشبه الاول في تفكيره القائم على التصورات ويشبه الثاني في حب التنسيق ، هو كالأول في نشدانه اللذة الحسية ، وكالثاني ، إذ ينشد ما وراء اللذة الفجة في نفسه تتعانق الشهوات والصفاء ، إنه يهتم بظواهر الأشياء ، لكنه يرغب أن تكون هذه الظواهر كاملة ، وليس للاشكال الجميلة التي يتأملها في آثار كبار فنانيه إلا أن تخلي سبيل الصور المبهمة التي تعمر رأسه ، وتسد الغرائز الصم التي جبل عليها قلبه.

الفصل الخامس

الشروط الثانوية

لماذا اتخذت هذه القريحة الفنية العظيمة الجسم الانساني موضوعاً رئيسيّاً لها ؟ وما هي الاختبارات والعادات والميول التي هيأت الناس وأعدتهم للاهتمام بالعضلات ؟ لماذا طرفت أعينهم في ميدان الفن الفسيح فلم تقع الا على الوجوه السليمة المتعافية النشيطة التي لم تهتد اليها الأجيال التالية ، أو انها لم ترسمها إلا متعمدة تحدوها السنّة ؟

هذا ما بقي علينا أن نعرفه ، ولذلك فانني بعد أن فرغت من شرح الحالة الفكرية ، سأحاول أن أعرف نوع الطباع .

تنطوي هذه العبارة « الحالة الفكرية » على لون الأفكار التي توجد في رأس بشري واتجاهها وخصائصها . وهي بمثابة الأثاث في الرأس . لكن أثاث الرأس ، كأثاث القصر يتبدل ببذل قليل من العناء . فيمكننا ، دون أن نمس بناء القصر ، أن نستبدل طنافسه وأصونته وتماثيله النحاسية وسجاجيده . وكذلك يمكننا أن نلقح النفس بأفكار جديدة دون أن نمس الهيكل النفسي ، كأن نبدل في صيرورة الانسان أو نلقنه ضرباً من التربية . وثمة اختلاف بين كونه جاهلاً أو عالماً ، سوقة أو نبيلاً . إذاً يوجد في الانسان عنصر يفوق الأفكار أهمية هو هيكله الذاتي ، أعني بذلك طابعه ، وبعبارات أخرى جماع غرائزه الطبيعية ، وميوله البدائية ، وعظمة حسه ومبلغ حماسته ، وبالجملة قوة دوافعه الباطنية والتحكم بها . ولكي أتمكن من اجتلاء هذه البنية العميقة الخاصة بالنفوس الايطالية ، سأتحدث عن الظروف والعادات والحاجات التي كوّنت هذه البنية . ويقيني انها تصبح أدنى الى الفهم إذا أرخت مما لو عُرِّفت .

أول ما يلاحظ في ايطاليا في ذلك العصر ، هو فقدان السلام الموطد الدائم ، والعدل الدقيق ، والشرطة الحارسة التي نعهدها عندنا . ويتعذر علينا أن نتمثل هذا الافراط في القلق والفوضى والأعمال العنيفة ، لأننا انتقلنا منذ زمن طويل جدّاً الى حالة تناقضها

تماماً . فعندنا عدد من الدرك والشرط نرى انهم يزعجوننا أكثر مما ينفعوننا . في أيامنا هذه عندما يتجمهر خمسة عشر شخصاً في الشارع حول كلب هيضت ساقه ، يتقدم منهم شخص طويل القامة عريض المنكبين ويخاطبهم قائلاً : « أيها السادة : تفرقوا ، لأن التجمهر ممنوع » فيبدو لنا أن السلطة تجاوزت الحد ، فنغتاظ ، ولا يخطر لنا ببال أن نميز أن هؤلاء الرجال ذوو الشاربين يتيحون للفقير والغني أن يغادر بيته عند منتصف الليل، وهو أعزل ليتنزه في الشوارع الخاوية منفرداً . لنزل الشرط ، فكراً ، ولنتصور عالماً أصبحت فيه هذه القوة (البوليس) عاجزة أو مستهترة ، كما هي الحال في اوستراليا وأمريكا ، في المناطق التي تكثر فيها مناجم الذهب ، حيث يسارع اليها المنقبون عن الذهب جماعات ويحيون بالمصادفة قبل أن ينشئوا دولة منظمة . هنالك اذا ما أحس أحدهم خطراً ، أو أصابته لطمة ، أو وجهت اليه مسبة فسرعان ما يتناول مسدسه ويطلق النار على المنافس أو الخصم الذي لا يقف مكتوفاً بل يتسرع الى الاجابة بالمثل ، وكثيراً ما يساهم الجيران في النزاع . وينبغي أن يظل الانسان حذراً في كل لحظة كي يحمي ملكه أو يصون حياته ، لأن الخطر قريب ، يحدق بالانسان من كل صوب ويبرز بغتة وبصورة وحشية .

هكذا كانت الحال في ايطاليا ، على وجه التقريب ، حوالي عام ١٥٠٠ . ولم يكن لدى الايطاليين ما يماثل هذه الحكومة العظيمة التي اكتملت عندنا منذ أربعة قرون ، وترى أن من أبسط واجباتها المحافظة ، ليس فقط على حياة الانسان ومتاعه ، بل على راحته وطمأنينته . ولم يكن الأمراء الايطاليون سوى طغاة صغار اغتصبوا السلطة كما هو مألوف بالفتك ، والسم ، أو بالقسوة ، والغدر . فمن الطبيعي أن يكون ديدنهم المحافظة على هذا السلطان لا السهر على طمأنينة المواطنين . فكان على هؤلاء أن يحافظوا على أرواحهم ، وعدا ذلك ، أن يتقاضوا فيما بينهم . ولم يأت بشيء آد من يعمد الى التخلص بسرعة من دائن معاند ، أو وقح يصادف في الشارع ، أو شخص نتوسم فيه الخطر والضغينة . والشواهد على ذلك كثيرة : فليس على من يود أن يعرف مبلغ تأصل عادة النزاع العائلي والاعتماد على النفس إلاّ أن يطالع المذكرات التي تعني بشؤون ذلك العصر .

يقول ستيفانو إنفسورا Stefano d'Infessura : « في العشرين من شهر سبتمبر حصل شغب عظيم في مدينة روما وأغلق جميع التجار مخازنهم . وعاد أولئك الذين كانوا يعملون في حقولهم أو كرومهم بسرعة عظيمة ، وتقلد الجميع السلاح ، المواطنون منهم والغرباء وسبب ذلك ، ان خبراً ، يكاد يكون يقيناً ، انتشر في المدينة ، مؤداه أن البابا « إنوسان الثالث Innocent III قد مات » .

ان رباط الجمعية الواهي قد انبتّ ، وعاد الناس الى طور الهمجية . أخذ كل فرد ينتهز الفرصة الملائمة ليفتك بأعدائه ويتخلص منهم . وفي الزمن العادي ، لم تكن المسالك الى ونوع الحوادث أقل عنفاً واصطباغاً بالدم. فالحروب العائلية بين أسرتي كولونّا وأورسين كانت تجري حول روما . وكان لدى هؤلاء السادة رجال مسلحون وفلاحون يدعونهم المسالمة . فتشرع كل عصابة بنهب أراضي العدو . ولا تكاد تعقد هدنة . حتى يبادر أحد الطرفين الى نقضها ، ويبعث كل زعيم ، وهو على قدم الاستعداد ، يخبر البابا على أن خصمه كان المعتدي .

« وتعددت حوادث الاغتيال في قلب المدينة ، منها ما يقع ليلاً ومنها ما يحدث في النهار ، حتى أنه كان يندر أن يمر يوم دون أن يقتل فيه أحد ... ففي اليوم الثالث من شهر سبتمبر هاجم أحدهم ، وكان يدعى سالفادور ، عدوه ، رغم أنهما كانا متهادنين لقاء كفالة تبلغ ٥٠٠ دوقاً ». ومعنى ذلك أن الاثنين وضعا بالاتفاق ٥٠٠ دوقاً رهينة،ومن تحدثه نفسه بنقض العهد يخسر المبلغ . وكانت ضمانة الايمان المثبت بقسم أمراً مألوفاً ، ولم تكن هنا وسيلة أجدى لحفظ السلام زمناً ما . وعثر في سجل النفقات الخاص بسانبي النبذة التالية مكتوبة بخط يده . «أعلن أني في هذا اليوم الواقع في ٢٦ من اكتوبر سنة ١٥٥٦ قد خرجت من السجن وعقدت مع عدوي هدنة لمدة سنة ودفع كل منا كفالة مقدارها ٣٠٠ دوقا » لكن الضمانة المالية تظل ضعيفة واهية ازاء شراسة المزاج ووحشية العادات ، ولهذا لم يقو سالفادور أن يحجم عن مهاجمة عدوه . « ضربه مرتين بالسيف فجرحه ، ولم يلبث أن مات متأثراً بجراحه » .

لا مناص هنا من تدخل القضاة ، لأنه بولغ في ازدرائهم . ولا يقف الشعب متفرجاً ، بل ينغمس في الامر ، كما يحدث على وجه التقريب اليوم في ولاية كاليفورنيا عند تطبيق شرعة لينش lynch . فلما تتكاثر حوادث القتل في الاماكن التي أهملت حديثاً بالابناء، يتنادى التجار والأشخاص المحترمون وذوو المكانة في المدينة ، ويلحق بهم كل ذي ارادة حسنة ، ويقصدون السجن ويخرجون من فيه من المجرمين ويقررون شنقهم على أثر جلسة واحدة . وهكذا ، فان البابا أرسل في اليوم الرابع وكيل حاجبه مع حزب المحافظين وكل أفراد الشعب كي يهدموا بيت سلفادور ، فهدموه . وفي اليوم الرابع من ذات الشهر ، شنق جيروم أخو سالفادور الآنف الذكر . وسبق ذلك على ما يرجح أنهم لم يتمكنوا من القبض على سلفادور نفسه . ففي وسط هذه الفوضى الدامية الصاخبة الشعبية ، أصبح كل فرد مسؤولاً عن ذويه . وهناك خمسون حادثة مماثلة ، ذلك لأن الناس في ذلك الزمن قد ألفوا أعمال

العنف ، ولا أعني أفراد الشعب فقط ، بل إن شخصيات من الطبقة العالية أو من ذوي الثقافة العظيمة كان لا بدّ لهم ، على ما يظهر ، أن يتحكموا في أهوائهم ويملكوا أنفسهم عندما تلح الشهوة . ويروي جيشا ردان أن حاكم ميلان نائباً عن ملك فرنسا ذبح بيده يوماً بعض « الجزارين في وسط السوق لأنهم اعترضوا بوقاحة استأثرت بها هذه الفئة من الناس « على جباية الخراج الذي لم يعفوا منه » .

وقد اعتدنا في عصرنا الحاضر أن نرى في الفنانين مواطنين هادئين يغشون المجتمعات ويحسنون لبس الرداء الأسود والربطة البيضاء في الحفلات الساهرة . أما في المذكرات التي خلفها لنا « سليني » فانهم رجال فتك ، يسرعون الى القتل كالجنود الآفاقين . ففي أحد الأيام عزم تلاميذ رافائيل على قتل روسو لأنه كان رجلاً سليطاً وطعن في رافائيل بالقول . ولما أنبئ روسو بذلك قرّ رأيه على مغادرة روما ، ولم يكن له عن السفر معدى بعد ما بلغه أنهم يتوعدونه بالقتل لأن العلة التافهة تودي بحياة إنسان . ويقول سليني عن « ڤازاري » أنه اعتاد أن يترك أظافره تنمو . وبينما كان يرقد يوماً إلى جانب تلميذه « مانو » سحج له تخذه بأظافره ظناً منه أنه يحك جسمه . فهبّ « مانو » مذعوراً وصمم على قتل « ڤازاري » . ان السبب كان طفيفاً ، لكن الانسان كان ذلك العصر شديد الحمية ، اعتاد الضرب ، فسرعان ما تحمرّ عيناه ويهجم . وكما أن الثور ينطح أولاً بقرنيه ، كذلك الرجل يطعن أولاً بخنجره وتتصف الحوادث التي تقع يومياً في روما أو في الضواحي بالقسوة . ولا يختلف أسلوب العقوبات عن الأساليب التي كانت تستعملها دول المشرق المطلقة . ولا يحصى عدد الذين قتلهم سيزار بورجيا ، هذا الشاب الجميل اللطيف ، ابن البابا ، وقد اشتهر بالظرف والدهاء في السياسة ، وهو من هواة الحفلات والمحادثات الرقيقة ذو قامة دقيقة يتدثر بدراعة من المخمل الأسود له يدان بلغتا الكمال ، وهو ذو نظر هادئ يعهد في السيد العظيم . لكنه يعرف كيف يحمل الناس على احترامه ، إذ إنه يلوز بسيفه أو بمديته كلما حزبته الأمور .

وروى حاجب البابا فقال : « في الأحد الثاني ، عيّب دوق ڤالنتينوا (ابن البابا) رجل « مقنع في بورغو (كورسكا) . ولما علم الدوق بالأمر قبض على الرجل ، وأمر فقطعت يده ، « ومقدمة لسانه ، ثم علقت بخنصر اليد المقطوعة » . وهو ينوى ولا شك أن يجعله مثلاً للآخرين وفي أحد الأيام « علّق خدامه شيخين وثماني عجائز بأذرعهم وأهملوا النار تحت أقدامهم كي يرشدوهم الى الكنز ، لكن هؤلاء استنكروا الألم أو تجاهلوه ، فماتوا هذه الميتة الشنيعة » .

وفي يوم آخر استحضر الى دار القصر أشخاصاً حكم عليهم ، ثم ظهر في الناس ، يرتدي

أجمل ما عنده من الثياب ورماهم بالنشاب على مرأى من جمهور مختـار من الناس . » وقتل رجلاً لاذ برداء البابا . وكان أسيراً عنده ، فتطاير الدم رذاذاً وأصاب وجه البابا ». وكثيراً ما تذابح أفراد هذه العائلة . ففي أحد الأيام جرد سيفه وهاجم صهره وجرحه . عندئذ أسرع البابا لنجدة الجريح . لـكن الدوق التفت وقال : سينجز وقت العشاء ما لم ينجز عند الغداء » وفي السـابع عشر من شهر أغسطس دخل غرفة الشاب أبان نهوضه من النوم وأخرج زوجته وأخته ، ثم نادى ثلاثة سفاكين « وأمرهم أن يخنقوا الشاب المذكور » . وعلاوة على ذلك ، فانه قتل أخاه وطرح جسمه في التيبر . وبعد أن بحثوا عنه كثيراً دون أن يقفوا على أثر ، تبين لهم أن صياداً كان قرب الشاطىء أثناء ارتكاب الجريمة . ولمـا سئل : لماذا لم يخبر حاكم المدينة بالأمر ، أجاب : انه لم يظن ان هناك ما يوجب ذلك ، لأنه شاهد خلال حياته أكثر من مائة جثة تطرح في نفس المـكان وفي ليالٍ مختلفـة دون أن يهتم بها أحد » .

مما لا شك فيه أن أسرة « بورجيـا » تمتاز ، على ما يظهر ، بميل وموهبـة فريدين يتجليان في السم والسفك . على أننا لا نعدم في الدويلات الايطالية عدداً من الشخصيات ، أمراء وأميرات ، هم من أشباه آل بورجيا . فأمير « فانزا » Faenza أوغر صدر زوجته بسبب سلوكه ، فأكمنت أربعة سفاكين تحت سريره ، ولما عاد في إحدى الليالي هجموا عليه فدافع عن نفسه بعزم . عندئذ هبت زوجه من فراشها وتناولت مدية مربوطة بأحد قوائم السرير ودنت من بعلهـا وطعنتـه في ظهره . أزاء هذا الحادث حرمتهـا الـكنيسة فجـاء أبوها الى لوران دمديتشي ، وله عند البابا أواخ وأسبـاب ترعى ، وطلب وساطتـه لديه كي تحل من التأديب الـكنائسي متعللاً بأسباب من جملتها انه ينوي أن « يتدارك لها زوجاً آخر » . وذبح في ميلانو الدوق جاليزو بيد ثلاثة شبان اعتادوا قراءة فلوطرخس Plutarque فقتل أحدهم اثناء الفعلة وطرحت جثته للخنانيص ، وصرح الآخران ، قبل أن يعزنا ، انهما ركبا الذنب بحجة « أن الدوق لم يكن فاسقاً فقط . أفسد النساء ، بل كان يفضحهن . ولم يكن يذبح الرجال فقط ، بل كان « يقسّط عليهم العذاب الى أن يموتوا » . وفي روما نجا البابا من الذبح بيد كرادلتـه . لـكنهم عادوا ورشوا جراحـه فسممه وهو يعالج ناسوره . فقـتل الـكردينال بتروكسي أكبر المحرضين على ذلك . واذا تدبرنا أحوال عائلة « مالا تستا » في « ريميني » ، أو أسرة « إسطه » في « فيرار » وجدنا فيهما عادات مماثلة ومتوارثة في السم وسفك الدماء . واذا نظرنا أخيراً الى مدينـة ، كفلورنسا ، تفضل غيرها بحسن السيرة ، ويحكمها أحد أفراد أسرة مديتشي ، يؤثر عنه الذكاء والـكرم والشرف ، لتبين لنا انها كانت

مسرحاً لحوادث أشد وحشية من كل ما ذكرت . فقد اغتاظ آل بازّي لأنهم رأوا آل مديتشي يقبضون على زمام السلطة ، فتواطؤوا مع أسقف البيزا على قتل يوليانوس ولوران دِمديتشي ولم يكن البابا سيكست الرابع غريباً عن هـذه المؤامرة واختاروا لهذا الحادث اليوم الذي يقام فيه القداس في « سانتا ريباراتا » Santa Reparata على أن يشرع بالاغتيال حين تقديم الذبيحة . فطعن أحد المتآمرين يوليانوس دمديتشي . فجثم فرانسيسكو ده بازي على الجثة وتطعم بلحمه ودمه وجرح بفخذه لشدة غضبه . ثم قتل شخص آخر تربطه الصداقة بآل مديتشي . أما لوران فقد جرح ، لكنه كان شجاعاً : وقد تسنى له أن يستل سيفه ويلف جبته حول ذراعه ويجعل منها مجنّاً ، وأحدق به أصدقاؤه فصانوه بسيوفهم وأجسامهم الى أن دخل مخزن الالبسة المقدسة واتخذه ملجاً . أما بقية المتآمرين ، ويبلغ عددهم الثلاثين ، وعلى رأسهم الأسقف ، فقد داهموا قصر الحكومة ليتسلموا زمام السلطة . لكن الحاكم ، عند تسلمه مهام الوظيفة قد عني بتركيب الأبواب تركيباً غريباً ، فاذا أغلقت لا تفتح من الداخل فرأى المتآمرون . إنهم وقعوا في مصيد . أما الشعب فقد تقلد السلاح وجاء من كل صوب وقبض على الأسقف وشنق بثيابه الكهنوتية الى جانب فرانسيسكو ده بازي أعظم المحرضين على المؤامرة . أما الأسقف فقد اعترته نوبة غضب شديدة وهو يلفظ أنفاسه في المشنقة ، فتعلق بجسم شريكه وأخذ ينهش لحمه . ثم جيء بما يقارب العشرين شخصاً من أسرة بازي ، ومنهم من أسرة الأسقف وقطعوا اربا اربا ، وشنق ستون شخصاً بنوافذ القصر . وكلف اندريا دل كاستانيو Andrea del Castagno (١٣٩٠ — ١٤٥٧) أن يصوّر هذه المشنقة العظيمة التي أورثته فيما بعد لقب اندريا المشنوقين . ويروى عن اندريا نفسه أنه هناك ، قتل صديقه ليختلس سرّ التصوير الزيتي .

وسوف لا أنتهي إذا رمت أن أتحدث عن كل أخبار ذلك العصر التي تتسم جميعها بطابع مماثل إلاّ أنني اخترت الحديث التالي، لأن بطل الحادث سيعود قريباً للظهور على المسرح، ولأن الحدث ما كيافيلي : « كان أوليفرتو Oliverto « من فرنو » صغيراً ويتيماً ، فكفله خال له « يدعى » جيوفاني فوغلياني . ولما كان الفتى على نصيب من الذكاء الفطري ، وكان نشيطاً، قوي الجسم ، شجاعاً ، لم يلبث أن بزّ في من قصير جدّاً أقرانه في فرقته ورأى أن من الهوان عليه أن يظل مختلطاً ، ضائعاً بين الآخرين ، فعزم على احتلال المدينة معتمداً في ذلك على بعض المواطنين في « فرمو » فكتب الى خاله يقول انه نزح عن وطنه منذ سنوات عديدة، وفي نفسه شوق لرؤيته وزيارة المدينة ، ولكي يلقي نظرة سريعة على ميراثه من والده . وأضاف يقول أنه لم يتكبد المشاق العظيمة الاّ للحصول على الشرف ، ولكي يرى أبناء

وطنه وأنه لم يضع وقته سدًى، وأنه ينوي أن يأتي مصحوباً بمائة فارس، بين أصدقاء وخدم ويرجوه أن يتلطف ويدعو اهالي «فرمو» ليحسنوا استقباله، وهذا الشرف لا ينحصر في شخصه، بل يشمل جيوڤاني أيضاً، الذي تعهد أوليڤرتو طفلاً. لم يهمل جيوڤاني شيئاً من الواجبات المطلوبة منه. فاستقبل بحفاوة من قبل سكان «فرمو» وأسكنه جيوڤاني بيته... قضى أوليڤرتو بضعة أيام يعد كل ما يراه لازماً لجرمه، ثم أقام مأدبة عظيمة دعا إليها خاله وكل عيون فرمو. وقبيل الخاتمة، انتقل بالحديث عمداً إلى شؤون هامة تتعلق بعظمة البابا اسكندر وابنه ودسائسهما. عندئذٍ نهض أوليڤرتو فجأة وقال: ان بحث قضايا مماثلة يتطلب خلوة تامة، ثم دخل غرفة فتبعه خاله والآخرون. ولم يكد يطمئن بهم المجلس، حتى برز من أمكنة خفية في هذه الغرفة، جنود ذبحوا جيوڤاني ومن معه. وبعد هذه المقتلة امتطى أوليڤرتو جواده وطاف المدينة وحاصر الحاكم الأعظم في دار البلدية، ودسَّ الرعب في قلوب السكان، فتطوعوا وأقاموا حكومة جعلوه رئيسها فحكم بالموت على كل حنق عضَّ على ناجذيه. ولم تكد تنقضي سنة حتى أصبح مرهوباً من جميع جيرانه».

وتتواتر الدسائس على هذا الضرب، فتملأ منها حياة سيزار بورجيا، وليس إذعان ولاية الرومان للكرمي الرسولي الا خيانات متتابعة وسفك دماء. تلك هي الحالة الاقطاعية على حقيقتها، حملت كل شخص أن يتفرَّد عن الناس ويعتمد على نفسه، فيخرج على الغير أو يدافع عن نفسه، ويسترسل في طمعه وفجوره وذحله، دون أن يخشى توسط الحكومة ولا زجر الشريعة.

لكن الفارق العظيم بين ايطاليا في القرن الخامس عشر وأوربا في القرون الوسطى كائن في الثقافة العظيمة التي كان يتحلى بها الايطاليون، وقد رأينا فيما مضى من البحث الدلائل الكثيرة على وجود هذه الثقافة اللذيذة. ومن غريب التناقض أن تصبح الأساليب أنيقة، والأذواق مهذبة، مرهفة، وتظل الطباع والقلوب، وحشية، قتلة. فهؤلاء الأقوام أدباء، عارفون، ظرفاء، مهذبون يغشون المجامع، وفي الوقت نفسه ذوو سلاح، سيافة، قتلة، يأتون أموراً لا تصدر إلا عن متوحشين، ويظهرون تفهماً تتصف به الأقوام المتمدنة: إنهم ذئاب نجيبة !!

ولنفرض الآن أن ذئباً طفق يفكر في أبناء جنسه، فمن المحتمل أنه سوف يسن شرعة القاتل. وهذا ما جرى في إيطاليا: فالفلاسفة صاغوا «قانوناً» الحوادث التي شاهدوها وانتهوا الى الاعتقاد أو القول بأن على الانسان، لكي يعيش أو ينجح في هذه الدنيا، أن

يكون فاتكاً . ويعد ما كيافيلّي أحمق هؤلاء النظريين . وهو رجل عظيم ، شريف ، وطني ، ذو عبقرية متفوقة ، ألف كتاب « الأمير » لكي يبرر ، أو على الأقل ، لكي يجيز الغدر وسفك الدماء . أو بالأحرى ، إنه لا يجيز ولا يبرر . فقد تجاوز السخط وترك الوجدان جانباً . هو يحلل ويشرح على نمط العالم ، العارف بأحوال الناس . ويدلي بحجج ويفندها ، ويرسل الى قضاة فلورنسا مذكرات مفيدة وواقعية ، مكتوبة بأسلوب هادىء رصين ، كما يكتب محضر في عملية جراحية موفقة ، ويعنون بيانه هكذا :

« وصف الطريقة التي سار عليها دوق ڤالنتينوا ليقتل ڤيتلّي ، أو ليڤرتو ، السنيور باغولو والدوق جراڤينا أورسيني » :

« أيها السادة الشرفاء : بما أن سياداتكم لم تتلق كل رسائلي التي تشتمل على قسم عظيم خاص بقضية « سينفاليا » ، فاستحسنت أن أكتبها مفصلاً . وأعتقد أن ذلك يسركم نظراً لأهمية الأمر ، وعظيم صيته ، وندرته من كل وجه » .

حزب هؤلاء السادة الدوق ، فوجد نفسه عاجزاً عن مخاصمتهم . فعقد الصلح ووعدهم كثيراً ، ووفاهم شيئاً مما وعد به ، وأجزل العطاء في الكلمات المنمقة ، وأصبح حليفهم ثم اقترح بإيعاز منهم ، عقد مؤتمر لحل قضية عامة . كانت المخاوف تملأ قلوبهم فترددوا كثيراً لكن وعوده كانت مغرية جداً ، وكان يحسن دغدغة آمالهم وأطماعهم ، وبالغ في اظهار اللطف والولاء ، مما حملهم على المجيء ، تصحبهم حقيقة فرق عسكرية ، فأعطوه مقاديرهم بحجة التأنق في الضيافة وقادوه إلى قصر في « سينفاليا » كان يقطنه ، فدخلوه راكبين فكان الدوق يستقبلهم ببشاشة . ثم استنزلهم عن خيولهم ونزّلهم غرفة سرية ثم ما عتم ان جعلهم سجناء

« امتطى الدوق فوراً حصانه وأمر بنهب أتباع « أوليڤرتو واورسيني » . ولكن جنوده أسفوا لأنهم نهبوا أتباع أوليڤرتو ، فبدؤوا يعيثون في « سينيفاليا » ، ولو لم يقمع الدوق تطاولهم ويذبح الكثيرين منهم لنهبوها بأسرها »

أصبحت السيادة الشاملة للقوة ، وتلصص الصغار والكبار .

« ولما أقبل الليل وهدأ الهرج ، خطر للدوق أن يأمر بقتل « ڤيتلي و « اوليڤرتو » ، فساقهما الى مكان وأوعز بخنقهما . كان « ڤيتلّي » يتوسل الى قاتليه كي يتضرعوا الى البابا ليمنحه غفراناً تاماً عن خطاياه . أما « أوليڤرتو » فكان يبكي ، ويحمل ڤيتلي مسؤولية الاضرار التي نزلت بالدوق . لكنهم أبقوا على « باغولو » ودوق جراڤينا إلى أن بلغ الدوق ان البابا أدخل في حمايته كلاً من الكردينال أورسيني وأسقف فلورنسا وصاحب السيادة جاكوپو ، عندئذٍ أمر بخنقهم ، وكان ذلك في الثامن عشر من يناير » .

ليست هذه إلا رواية . لكن ماكيافيلّي في مناسبة أخرى لا يقف عند سرد الحوادث بل يستخرج العبر . وقد ألف كتاباً نصفه حقيقي والنصف الآخر خيالي ، حاذياً في ذلك حذو كزينوفون في كتابه « سيروس » . وهذا الكتاب هو « سيرة » المحارب «كاستروكسيوكاستراكاني (١٢٨٠ — ١٣٢٨) . وقد شاء ماكيافيلي أن يظهره للايطاليين نموذجاً للأمير الكامل الأوصاف.ويروي عن هذا المحارب انه من اللقطاء ، لكنه ما عتم ان أصبح سيد لوك وبيزا ، وبلغ درجة من القوة حسبت لها فلورنسا أكبر حساب .» وقد أتى أعمالاً كثيرة تصلح أن تتخذ عبراً عظيمة لما فيها من الفضيلة والفلاح . وخلد لنفسه ذكراً حسناً مما جعل أصدقاءه يأسفون عليه أكثر مما أسفوا على أي أمير كان في عصر من العصور » . وسنقتصر الكلام على إحدى الأعمال الجيدة التي قام بها هذا البطل المحبوب الجدير بالثناء الخالد .

«ثارت عليه أسرة بوججيو فأوقف العصاة ستيفانو بوججيو، وهو رجل شيخ وقور، ووعدهم بوساطته . فاستحمقوا وألقوا السلاح كما شرعوه حمقاً . ولما عاد كاستروكسيو ، ذهب ستيفانو لمقابلته ، ولم يشأ أن يتنصل إليه من الجناية ، ظنّاً منه ان كاستروكسيو مدين له بقمع الفتنة ، بل سعى لانقاذ الباقين من أهل عشيرته . ورجاه أن يغفر لشبيبة نزقها وأن يتحمل ما ولدت صداقة عتيقة ، وتمنن عليه بما فعلته له هذه العائلة من الصنائع . فأجابه كاستروكسيو بكياسة عظيمة ، قائلاً له إنه يأمل خيراً ، ولا يسعه إلا أن يقر أن فرحه بوقف الشغب أعظم من حنقه عندما أنبىء بايقاظه. وحث ستيفانو على أن يأتي بهم جميعاً ، قائلاً له ، إنه يقدم الشكر لله للفرصة التي أتيحت له كي يظهر عفوه وكرمه . فأتوا جميعاً ثقةً منهم بوفاء كاستروكسيو وستيفانو ، فسجن الجميع ، حتى ستيفانو نفسه ، وحكم عليهم بالموت » .

والبطل الآخر الذي يتعشقه ما كيافيلّي هو سيزار بورجيا،أعظم سفاح وأعظم خوّار ظهر في عصره . هو رجل فريد في نوعه ، ينظر الى السلام مثلما كان الهورون والاتروكسيون ينظرون الى الحرب ، أي انها فترة تعتبر فيها المداهنة والتلفيق والخداع والكيد حقاً واجباً ومفخرة.وكان يستوحي هذه المبادىء في سيرته مع كل الناس ، وأهل بيته وأخلص الناس إليه . وأراد يوماً أن يضع حدّاً للاخبار التي يتناقلها الناس عن قساوته . فألقى القبض على عامله « رومان » ، الذي أدى له خدمات عظيمة ، وأخضع له البلاد بأسرها ونشر الطمأنينة . وفي صباح اليوم التالي ، شاهد الناس، يخامرهم السرور والرعب، جثمانه في الساحة العامة وقد قطع قطعتين والى جانبه سكين دامية . وأشاع الدوق انه قتله عقاباً له على قساوته

العظيمة ، مما حمل الناس على نعته بالسيد الصالح ، العادل ، حامي الشعب . وخلص ما كيافيلي الى هذا القول .

« يعلم كل امرىء ما ينال الأمير من المديح اذا عهدَ الحرمة وعاش عدلاً لا ماكراً . غير أن التجارب في عصرنا برهنت لنا على أن الأمراء الذين أتوا أموراً عظيمة، إنما هم أولئك الذين لم يصونوا العهد إلاّ نادراً ، واستطاعوا بدهائهم ان يتلاعبوا بعقول الناس ، وأخيراً هدموا أولئك الذين يعتمدون على صدقهم . فالسيد الحكيم لا يستطيع أولا يجب عليه أن ينجز وعده اذا أدى ذلك الى ضرره ، او اذا كانت الأسباب التي جرت الى هذا الوعد قد انتفت . ومع ذلك ، فلم يعدم أمير يوماً حجة يتعلل بها كي يزخرف حنثه . ولكن من الضروري أن يلون الأعذار التي يتعلل بها، وان يكون ختالاً عظيماً ومداهناً . والناس بلهاء سرعان ما يستجيبون للضرورة العارضة ، وان الخَدّاع لا يتعذر عليه أن يجد خُدْعة » . (من يخدعه الناس) :

وواضح ان أمثال هذه العادات وهذه الحكم لها تبعات عظيمة تؤثر في الطباع . فهذا العُدْم المطلق في العدل والأمن ، واستباحة الدماء والأرزاق ، وهذه الفريضة التي امتنها المرء في الانتقام الصارم ، وانه لا يعيش إلاّ اذا كان مرهوب الجانب ، وهذا اللجوء الدائم الى القوة يصلب النفس ، جميع هذه الأسباب تجعل الانسان يعتاد التطرف والسرعة في الحكم ، ويفرض عليه أن يحسن القتل أو يستقتل في الحال وبما انه يحيا في خطر متواصل وتهديد ، فتمتلأ حياته بالهموم العظيمة والميول الحزينة ، ولا ينصرف ليميز بدقة تنوع عواطفه ، وليس خاصاً ، من سجاياه التدبير والنظر والاطمئنان. فالاضطرابات التي تعممه عظيمة وساذجة . وليست القضية انتقاصاً في تقديره ، أو جزءاً من ثروته مهدد بالضياع ، بل حياته كلها وحياة خاصته . فيجوز أن يسقط من علٍ الى الحضيض ، ويستيقظ على طعنة سكين او مرتبقاً في حبالة جلاد . ان الحياة عاصفة والارادة متحفزة ، والنفوس قوية يتوافر لديها كل ما تحتاجه من عبث .

وكان بودي أن أجمع كل هذه الحوادث وأبرز للوجود شخصاً يضطرب لا وهماً مجرداً . ولدينا مذكرات خلفها أحدهم ، مكتوبة بيده بأسلوب في غاية البساطة ، وهي تفضل مؤلفاً من حيث الفائدة . فانها تظهر للقارىء أساليب المعاصرين في الشعور والتفكير والحياة . ويمكن اعتبار « سلّيني » (١٥٠٠ — ١٥٧١) مثالاً جليّاً للعواطف العنيفة ، والحياة المقحامة والعبقريات الغريزية القوية ، والمواهب الخصيبة الخطرة التي أحدثت النهضة في ايطاليا وأنتجت الفنون في الوقت الذي كانت تعمل فيه على هدم المجتمع . وأول من يطالعنا منه نوع

النشاط الباطني ، والطبع الشديد الشجاع ، والبديهة الحازمة ، وعادة الفصل السريع والمواقف المتطرفة الحاسمة ، والقدرة العظيمة على العمل وتحمل العذاب . وبالايجاز قوة المزاج البكر الصعبة المراس . ذلك هو الحيوان البهي المحارب الصلب ، التي غذته آداب القرون الوسطى الشرسة ، وزيفه في عصرنا انتشار السلام واستتباب الامن .

* * *

كان « بنفنيتو سليني » في السادسة عشرة من عمره ، وأخوه « جيوفاني » في الرابعة عشرة . وفي أحد الايام سبّ جيوفاني أحد الفتيان فطلب مبارزته . فخرجا الى ظاهر المدينة ونازلها ، فجرد جيوفاني خصمه من السلاح وجرحه . وفي تلك الاثناء وصل أهل الجريح فناوءوه ورموه بالحجارة الى أن جرح الفتى المسكين وسقط وصل « سليني » ساعتئذ فالتقط السيف وانقضّ على المهاجمين وتحاشى الحجارة ما أمكنه ، ولم يبعد عن أخيه قيد أنملة وكان على وشك أن يقتل لو لم ينحز اليه بعض الجنود الذين مروا مصادفة ، فساهموا في انقاذه اعجاباً بشجاعته . عندئذٍ تناول أخاه وحمله على كتفه ونقله الى البيت، واننا لواجدون مائة حادث مماثل تشهد جميعها بقوته وبأسه وانها معجزة أن ينجو من الموت المحقق أكثر من عشرين مرة . ولا يسير إلاّ متقلداً سيفاً أو بندقية أو حاملاً بيده خنجراً ، سواء كان في الشوارع أو الطرق ، ليتقي شر أعدائه أو جنوداً أفاقين ، أو قطاع الطرق أو منافسين متنوعين . انه يتسلح بغية الدفاع عن نفسه لكنه غالباً ما يهاجم . وبعد هربه من قصر « سانت — أنج » الذي سجن فيه على أثر ارتكاب جريمة قتل ، أكثر هذه الحوادث اثارة للدهشة . اذ انه هبط من علو شاهق متدلياً بحبال اتخذها من شراشف سريره، وفي طريقه الى الارض ، صادف خفيراً بهره ذلك العزم الرهيب فتظاهر بأنه لم يره ، فعبر السور الثاني فوق خشبة ، ثم ربط حبله الاخير وتدلى . لكن هذا الحبل كان قصيراً ، فسقط وكسرت ساقه دون الركبة . عندئذٍ عصب ساقه وبدأ يزحف ، والدم يقطر منه ، الى أن بلغ باب المدينة ، فوجده مغلقاً ، فتناول سكينه وبدأ يحفر الارض الى ان تمكن من الانزلاق . ولما أصبح خارج السور هاجمته كلاب فبقر بطن أحدها . ثم صادف عتالاً ذهب به الى دار صديق . لم يبقَ ثمَّ مجال للشك في النجاة ، ويغذي هذا الامل عهد البابا . لكنه لم يلبث ان فوجىء وقبض عليه وزجّ في سجن مظلم نتن ، لا يدخله نور الشمس الاّ ساعتين في اليوم . وجاء الجلاد يوماً فأخذته الشفقة عليه ، فاستبقاه ذلك اليوم . ومنذ ذلك الوقت اقتصر على سجنه . فكانت المياه تنضح من محبسه وهرأه القش الذي اتخذه فراشاً ، ولم تندمل جراحه . وظلّ على هذه

الحال بضعة أشهر الى أن أفرج عنه دون أن تهن قواه ، فكأنما نفسه وجسمه قدا من الرخام والصوان : أما خلقتنا العادية فكأنها من الطباشير والجص .

ولا يقل خصب سليقته عن قوة بنيته ، وما أبين العريكة وأجزل الخير في هذه النفوس البكر السليمة . وقد توفرت له القدوة والمثال في عائلته ، كان أبوه مهندساً في البناء ورساماً ماهراً ، وموسيقياً هاوياً ، كثيراً ما يتناول الرباب ويغني منفرداً كي يسر . وكان يصنع أراغن خشبية ممتازة ، ومزاهر وربابات وقوانين ، وكان يتقن نحت العاج ، وماهراً جداً في صناعة الآلات ، وينفخ بالناي في وسط مزامر السادة ، ويعرف جزءاً يسيراً من اللاتينية ويقرض الشعر بين الفينة والفينة . ويتصف رجال هذا العصر بالشمول ، فاذا ضربنا صفحاً عن «ليونار دڤنشي» و «لوران دمديتشي» و «ليو باتيستا» و «ألبرتي» والعبقريات الرفيعة ، وجدنا بين رجال المال والأعمال والرهبان والعمال فئة سمت بذوقها وعاداتها الى مستوى يجعلها جديرة أن تعالج الأمور وتتذوق الملذات التي نحسبها في العصر الحاضر وقفاً خاصاً على الأشخاص الذين أحرزوا ثقافة عظيمة وفطروا على أدق ما عرف من السجايا . وكان سلّيني في عداد هؤلاء . فقد أصبح قاصباً ونافخاً في صور ، ممتازاً ، رغماً عنه ، لأنه كان يمقت هذه الآلات ولا يعكف عليها إلا ابتغاء مرضاة والده . وفيما عدا ذلك فانه أضحى منذ نعومة أظفاره رساماً ممتازاً وصائغاً ونقاشاً على الزجاج والمعادن بالمينا ونحاتاً وسباكاً وفي نفس الوقت ألفى نفسه مهندساً وصانع أسلحة وآلات ، وبنّاء حصون ، ويبز أرباب المهنة في حشو وتقليب وتسديد الأسلحة . وكان يتولى صنع أسلحته وبارودة ، ويروى عنه أن قذيفته كانت تصيب طائراً يبعد مائتي خطوة . وقد وهب عبقرية اتصفت بالتفوق في الإختراع والإبداع ، فلم يزاول فناً أو صناعة إلا وتكشفت له أساليب خاصة يكتم سرها فتثير إعجاب الناس . هذا هو عصر الابداع : كل ما فيه غريزي ، ولا شيء يكتسب بالممارسة والعقول خصيبة جداً ما عالجت أمراً إلا أحيته وثمرته .

عندما تبلغ السليقة هذه الدرجة من القوة ، وتمهر بكثير من الصفات ، وتزخر بالنتاج ، ولما تتفاعل على الكفايات بنشاط وإتقان ، ويظل النشاط مستمراً ومتماظماً ، يصبح لحن النفس العادي فيضاً من الفرح والحميا والغبطة القوية . فنرى «سليني» مثلاً ، بعد نجاته من مجازفات فاجعة رهيبة يخرج للسفر . ويقول عن نفسه : «انني ما انقطعت عن الغناء والضحك» طول مدة السير . وهذا الانتعاش السريع الذي يتطرق الى الروح مألوف في إيطاليا ، وخاصة في مثل هذه السن حيث لا تزال النفوس ساذجة . ويقول أيضاً : «بعد أن شاركتني أختي قليلاً في البكاء على والدها وامها وأختها وزوجها وطفلها الصغير الذين

امتأثر الله بهم ، فكّرت في إعداد العشاء . ولم نتحدث عن الموت طوال الأمسية ، بل تحدّثنا عن ألف أمر فرح . وليس هناك ما يعدل وجبتنا « بهجة وعظم لذة » فانه كان يعيش في روما حيث تتواتر المهاجمات في كل لحظة ، وحصار المخازن ، والمخاوف من القتل ، والسم ، والأعشبة ، والمساخر والمهازل المبتكرة ، وألوان الحب الصريح ، الاباحي ، المجرد من كل نعومة ، لا يصونه سر ، وهو يجانس العري الشهير الذي يؤثر عن الفنون الفلورنسية والبندقية كما يتجلى في الرسوم المعاصرة . ولا سبيل الى ذكر شيء عن هذا الحب أو إظهار شيء يتعلق به على مسمع ومرأى من الجمهور لأنه يمعن في العري والتجرد . ومع ذلك ، فإن المجون المنحط أو الفحش المصفى المحض لا يشين أو يفسد هذا الحب . فالانسان يغرق في الضحك حتى القهقهة ، ويتمادى في السرور المخالف للحشمة ، مثله في ذلك مثل الماء الذي يجري من منحدر . وتتجلى سلامة النفس والحواس البكر الفتية ، والفورة البهيمية الطائفة ، في شهوته ، كما تتجلى في نتاجه وعمله . ومن الطبيعي أن تفضي هذه البنية الخلقية والفيزيائية الى الخبال الحاد الذي أتيت على وصفه فيما مرّ . ولما يكون الانسان مكوّناً على هذه الشاكلة ، لا يلمح الأشياء مجزأة وبواسطة الكلام كما نفعل نحن ، بل إنه يبصرها كتلة وبواسطة التصورات . وأفكاره ليست مبوّبة ومصنفة ومحصورة في معادلات مجرّدة كأفكارنا ، بل تتطاير مكتملة وملونة وحية . نحن نفكر وهو يتصوّر . ولهذا السبب تكثر خيالاته . وهذه الأذهان المفعمة والآهلة بالصور الفنية تظل أبداً في عصوف وغليان . « فسلبني » لا يسمو في معتقداته عن الطفل ، وهو متطير كالرعاع . وكان هناك شخص لا ينفك يطعن في سلبني وفي عائلته بالقول . وفي أحد الأيام صرخ وهو في ثورة غضبه « اذا كان ما أقول غير صحيح ، فليسقط « بيتي عليّ » وكان أن انهار البيت بعد زمن ، وكسرت ساقه . فلم يتردد « سلبني » أن يعتبر هذا الحادث تدبيراً من العناية الإلهية التي شاءت أن تعاقب الشخص على كذبه . ويروي ، برصانة لا تشوبها شائبة ، أنه كان مرة في روما تعرّف الى ساحر ذهب به في احدى الليالي الى مدرج « كوليزه » Colisée فأخذ يذر مسحوقاً غريباً على فحم متقد ويتمتم بكلمات سحرية ، وبغتة تراءى له أن السور قد عمرته الشياطين . ومن الطبيعي أن يصاب بالهلس في يومه ذاك . وفي السجن تهيج أفكاره ، واذا كان لم يغلب على أمره من تأثير الجراح ونتن الهواء ، فلأنه التفت صوب الله . وجرت محادثات طويلة بينه وبين ملاكه الحارس . وكان يتمنى رؤية الشمس ، سواء في الحلم أو في الحقيقة ، فرأى نفسه يوماً محمولاً أمام شمس بهية ، خرج منها يسوع المسيح فالعذراء وأشار إليه إشارات تحنن ، وشاهد السماء وبلاط الله بأسره .

هذه التصورات مألوفة في ايطاليا . فالإنسان يستحيل بغتـة شيئاً آخر بعد ان يتهذب حيـاة فاجرة عنيفة ، وغالباً عندما يكون لا يزال منغمساً في حمأة الرذائل . « أصيب دوق « فيرارا » بمرض عضال حبس بوله مدة ثمانياً وأربعين ساعة . فاستعاذ بالله وطلب أن تدفع جميـع الرواتب المستحقة الاداء » . وكان « هرقل إست » يذهب ينشد القداس مع فرقته المؤلفـة من موسيقيين فرنسيين ، على اثر انصرافه عن منكر . ومثل عيوناً او قطع أيدياً لمسجونين يبلغ عددهم مائتان وثمانون قبل ان يبيعهم ، ثم ذهب يوم خميس الاسرار يغسل أقدام الفقراء . وكذلك لما علم البابا الـكسندر بقتل إبنه ، أخذ يقرع صدره واعترف بذنوبه أمام كرادلته ، فالخيـال بدلاً من ان يغرق في اللذة ، يتحول شطر المخافة ، وعقلهم ، بطريقة مماثلة ، يتأثر بصور دينية لا تقل خبرة عن التصورات البهيمية التي كانوا يعيشون منغمسين بها . وهذا الهيجان وهذه الحمى التي تنتاب الفكر ، ومن هذا الرعاش الباطني الذي يتسع للتصورات الشاغلة ، المُسمِّمة ، ان ترج النفس بأسرها والهيكل الجثماني بأسره ، فيتولد أسلوب من العمل ، خاص برجال هذا العصر ، شديد الحمية ، لا يقهر ولا يحيل عن قصده ، يستهدف كل ما هو متطرف ، حاسم ، كالصراع والقتل والدم . وحياة « سلّيني » مليئة بهذه الزوابع والصواعق . في أحد الايام اشتبك في قتال مع ضائفين ينافسانه وبدءا يثلبانه . « وبما أنني لا أعرف لوناً للخوف ، فلم أعر تهديدها اهتماماً . ولما كنت منصرفاً للكلام ، اغتنم أحد أبناء أعمامهم ، بايعاز منهم على ما أظن فرصة مرور حمار ، بالقرب منا ، يحمل قرميداً ، ودفعه نحوي دفعـة قوية آلمتني كثيراً ، فالتفت إليه من فوري ، فأبصرته يضحك فلكمته لكمة على صدغه ، أفقدته وعيه وسقط مغمياً عليه . وناديتهم قائلاً : انظروا كيف يعامل الاخساء الجبناء الذين هم على شاكلتكم ثم تبين لي أنهم يتحفزون ليثبوا عليّ ، لأنهم كانوا كثيري العدد ، فاستفزّني الغضب وانتضيت سكيناً صغيرة وخاطبتهم قائلاً : ان أراد أحدكم أن يبرح الدكان فليذهب الآخر مسرعاً يبحث عن معرّف لأن الطبيب لن يعود يفيد شيئاً . ألقت هذه الكلمات الرعب في قلوبهم . فلم يجرؤ أحد منهم على الخروج كي يغيث ابن عمه . » . وعلى أثر ذلك دعي للمثول أمام محكمة الثمانية ، وهم قضاة مكلفون بأعبـاء العدل في فلورنسا ، وحكم عليه بغرامة قدرها أربعـة مكاييل من الدقيق . وتحدّث فقال : « سخطت وبدأت أرتعش غضباً حتى أصبحت كالأفعوان واختطت خطة يائسة ... انتظرت الى ان انصرف الثمانية ليتغدوا ، ولما ألفيت نفسي وحيداً ، وتبين لي ان ليس ثمة شرطي يراقبني خرجت من القصر مسرعاً قاصداً حانوتي . فتسلحت بسكين وطرت ميمماً بيت أعدائي . فوجدتهم جالسين الى المائدة ، فلما وقع بصر « غيرادو » الفتى عليّ وهو أس المشاجرة ، هجم عليّ ، فسددت الى صدره طعنة سكين مرقت من دراعتـه وطوقه

وتيصه دون أن تمس جلده ودون أن تحدث له أذىً ما . خيل إليَّ انني جرحت عدوي جرحاً نظيفاً نظراً للسهولة التي مرق بها سلاحي وأصوات التمزيق التي نشأت من تهلهل الثياب. وكأنه ظن ما ظننت فسقط على الأرض من فرط الذعر. فصرخت قائلاً: أيها الخونة ! سأقتلكم اليوم جميعاً » . ظن الأب والام والأخوات ان ساعة الدينونة قد دقت ، فسجدوا على ركبهم يبتهلون . فلما ظهر لي أنهم لا يجرؤون على الدفاع عن أنفسهم وان « غير اردو » صريع جثة هامدة ، رأيت أن العار لاحق بي اذا مسستهم بسوء فقفزت الى أسفل السلم وأنا لا أزال في سورة الغضب . وفي الشارع صادفت بقية أفراد العائلة الذين لا يقل عددهم عن الاثني عشر شخصاً . كان أحدهم يحمل رفشاً حديديّاً ، والآخر قسطلاً غليظاً من ذات المعدن ، وبعضهم يحملون مطارق أو سنادين ، والآخرون عصياً . فانقضضت عليهم كثور ، وبتأثير الصدمة قلبت أربعة أو خمسة منهم ، وسقطت معهم لكنني ما انفككت أضرب بالسكين ذات اليمين وذات الشمال » .

وكما تتوالى الشرارة والانفجار ، هكذا تتعاقب عنده دائماً الفكرة فالحركة فالضربة . لأن الاضطراب الباطني الذي يبلغ الذروة من العنف ، يتنافى مع التفكير والخوف والشعور بالعدل ، وكل ما من شأنه أن يجعل المرء يلجأ الى التقدير والتعقل اللذين يخلقان عند الرجل المتمدن أو عند ذي المزاج البارد فسحة ، أو ما يشابه الكتلة المترهلة ، بين ابتداء الغضب والفصل النهائي . وكان يوماً في فندق فشام القلق في صاحبه ، وقد يكون على حق في ذلك ، لأنه كان يرغب أن يقبض الثمن قبل أن يقدم الأشياء الضرورية . وفي ذلك يقول سليني : «لم تغمض عيني برهة واحدة ، بل قضيت الليل كله أبحث عن خطة للانتقام. فخطر لي أولاً أن أشعل النار في البيت ، ثم أذبح الخيول الأصيلة التي ربطها صاحب الفندق في اصطبله.. وكان كل أمر يبدو لي سهلاً اتيانه ، لكنني لم استسهل الهرب مع رفيقي » فقنع بتمزيق ونتف أربع فرش بسكينه . وهبط مرة مدينة فلورنسا ليصب تمثال « برصه » فانتابته الحمى وارتفعت درجة الحرارة ، فكان يخيل لمن يراه أنه يعاني سكرة الموت لكثرة ما قاسى من وطأة الحمى وما قضى من الليالي الطويلة يرقب السبك . وفي هذه الأثناء أتى صانع مسرعاً يصرخ قائلاً ان السبك قد فشل . « أرسلت صيحة رهيبة بلغت السماء السابعة ونهضت من الفراش وشرعت ارتدي ثيابي وأنا لا أنفك أمطر خادماتي وغلماني ، الذين أقبلوا لمساعدتي ، وابلاً من الركلات واللطمات » . وحدث له مرة أخرى أن كان مريضاً ، وحرم عليه الطبيب الشرب ، فتمنت الخادمة عليه وناولته قدح ماء . « وقيل لي فيما بعد أن الطبيب المسكين سقط مغمياً عليه لما بلغه النبأ . فتناول عصاً وطفق يضربها بشدة ويقول

«آه ! يا خائنة ! قتلته » . ولم يكن الخدم أقل سرعة من السادة الى الضرب ، وليس الضرب فقط بالعصا ، بل بالسيوف أيضاً . ولما كان «سليني» سجيناً في قصر «سانت — أنج » صادف أحد تلاميذه شخصاً أخذ يسخر منه ويقول ان «سليني» قد مات بدون شك . «هو حي» ! أجاب التلميذ فوراً . «أما أنت فستموت » . وفي الحال صفقه ضربتين بالسيف على رأسه : صرعته الأولى وقطعت الثانية ثلاثة أصابع من يده اليمنى» . وهنالك ما لا يحصى من الحوادث المماثلة التي جرت له في فرنسا وايطاليا وكل مكان . وفي كل مرة كان يقتل أو يجرح خصمه . وقد يكون هذا الخصم تلميذاً له ، أو محظية ، أو عدوًّا ، أو صاحب فندق ، أو صيداً ، أو قاطع طريق . لنتناول إحدى هذه الأقاصيص ولنتدبر بعناية الظروف البسيطة في الرواية التي تصوِّر العواطف . شاع الخبر أن أحد تلاميذه قد قتل . « أطلق أخي المسكين صيحة غضب عظيمة يمكن سماعهـا لمسافة عشرة أميـال . ثم التفت الى « جيوفاني » وسأله قائلاً هل يمكنك ، على الأقل ، أن ترشدني الى الشخص الذي قتـله ؟ فأجاب «جيوفاني » بنعم وان القاتل من الذين يحملون سيفاً يقبض باليدين وزين قلنسوته ريشة زرقاء . فتقدم أخي المسكين من القاتل ، وقد ساعدته هذه العلامة على معرفته ، ووثب في وسط العسس بسرعة وجرأة غريبتين عهدتا فيه دون أن يستطيـع أحد وقفـه وركل خصمـه ركلة بقرت بطنه ومرقت رجله منـه ثم دفعه الى الأرض مع قبضة سيفـه وهاجم الباقي من العسس بجسارة عظيمـة . وكان في قدرته أن يجعلهم يولون الادبار لو لم يطلق عليـه قواس عياراً ناريًّا ، دفاعاً عن نفسه ، أصابه فوق ركبته اليمنى ، فسقط وانكفأ العسس انكفاءً سريعاً خوفاً من ظهور بطل آخر رهيب » .

جيء بالشاب المسكين الى بيت سليني وأجريت له عملية فلم تنجح . ويعود سبب فشلها الى جهـل الجراحين في ذاك العصر ، فمات متأثراً من جراحه . عنـدئذٍ اغتاظ «سليني» وثارت أفكاره في رأسه .

« لم يعـد لي هم إلاَّ أن أرقب ذاك الذي قتل أخي كما ترقب حظيـة . وقد بدا لي أن الرغبة الملحة في رؤيته حرمتني النوم والطعام وأفضت بي الى مسلك سيء . فتأهبت للخروج من هذا المأزق مهما كلفني الأمر من الدم . فاقتربت منه بلباقة وبيدي سكين كبيرة شبيهة بسكين الصياد . وكنت آمل أن أباغته من القفا وأطيح برأسه لـكنه التفت بسرعة عظيمة فلم أصب إلاَّ كتفه اليسرى وكسر العظم . ثم نهض وطرح سيفه وبدأ يركض لما أصابه من الألم . فتبعته وأدركته بعد أربع خطوات وأصات السكين فوق رأسه المطأطأ وشككته بها فغار النصل بين القمحدوة والنقرة وبذلت كل جهدي فلم أقو على إخراجها » .

وعلى أثر ذلك شكوه الى البابا . لكنه قبل أن يؤم القصر فطن الى صنع بعض الحلي . «لما ظهرت أمام الباب لحظني متوعداً فرعشني . وحالما وقع نظره على المصاغ انبسطت أسارير وجهه » . وارتكب مرة أخرى جرماً لا يقل فظاعة عن سواه ، فأجاب البابا اصدقاء القتيل « اعلموا ان اشخاصاً تفردوا بفنهم كسليني لا يجب ان يرضخوا للقوانين ، وخصوصاً هو ، لانني أعلم أنه حق له ان يفعل ما فعل » .

كل هذا ينبئنا عن مدى تأصل عادة القتل في ايطاليا يومذاك . فزعيم الدولة ، ونائب الله ، يرى من الطبيعي ان يحتقّ الناس ، ويسدل على القاتل ستاراً من اللامبالاة او الغفران او المحاباة ، او العفو .

من الحالة التي تسود فيها هذه العادات وهذه الأفكار تتولد تبعات كثيرة لها أثرها في التصوير . فالناس في ذلك العصر مضطرون قبل كل شيء ان يهتموا بأمر نجهله نحن جهلاً تامًّا لأنه لا يقع تحت نظرنا و لا يسترعي انتباهنا انتباهاً مطلقاً : وأعني بذلك الجسم والعضلات والأوضاع المتنوعة التي يتخذها الانسان أثناء القيام بحركة ما . لأن الرجل يومذاك مهما سمت منزلته ، عليه أن يكون جنديًّا يتصرف بالسيف والخنجر تصرفاً متقناً بغية الدفاع عن نفسه . ومن ثمَّ يطبع في ذهنه ، وبدون أن يعي ، كل الاشكال وكافة أوضاع الجسم المتحرك او المحارب . و يرى الكونت « بالتازار » ، وهو يصف المجتمع المهذب ، يعدد المرانات التي يجب ان يمهر بها الشخص المربّب . وسنرى من المقاطع التالية ان الغاية التي كانت تهدف اليها تربية الاشراف في ذلك الزمان ، وبالتالي الأفكار التي كانت تبث ، لا ترمي الى تنشئة المرء عالماً بأفانين السلاح فقط ، بل ان يشب على غرار مصارع الثيران والرياضي والفارس المغوار : « أريد أن يكون رجل البلاط عندنا حاذقاً في ركوب الخيل مهما تنوّعت السروج . ولما كان من مزية الايطاليين الخاصة أن يسوسوا الحصان جيداً بواسطة العنان ، ويروّضوا الخيول الشامسة وفق مبادىء خاصة ، ويطاعنوا ، فانني أرغب أن يكون مبرزاً في هذه الامور بين المتفوقين من الايطاليين أنفسهم . وان يكون من المجلين بين قرنائه الفرنسيين في النزال والسباق بين الحواجز . وأن يكون ممتازاً بين الأسبانيين في مصارعة الثيران ورمي السهام وطعن الرماح . . . ويحسن به أن يتمرن على القفز والركض ، ويحذق رياضة اخرى نبيلة هي لعب الكرة . ولا يضيره ابداً ان يتقن الجولان ممتطياً صهوة جواده » .

وليست هذه الأقوال مجرد تعاليم يتذاكر بها الناس او أشياء ازوت في بطون الكتب ، بل كان القوم يعملون بموجبها وقد اتسمت بها عادات الأعيان من المجتمع . « فبوايان

دو مديتشي » الذي فتك به آل بازي ، لم يمدحه مترجمه لموهبته الشعرية وصواب معرفته بالأمور فقط ، بل لمهارته أيضاً في الفروسية والمصارعة ورمي الرمح. وكانت يدا قيصر بورجيا هذا السفاح العظيم والسياسي المحنك ، قويتين كذكائه وارادته . فمن يتأمل صورته يره شخصاً ظريفاً ، ومن يقرأ تاريخه يتحقق لديه انه داهية . لكن ترجمته الصحيحة تظهره لنا فتاكاً ، لا ينفك يفخر ببأسه وفتكه بالعرب ، كأكثر الاسبانيين . وهو ليس بالغريب منهم لأن عائلته قدمت من اسبانيا . وقد قال أحد معاصريه : « هو في السابعة والعشرين من عمره ، له جسم بارع « الجمال ، وان أباه البابا يخافه كثيراً . فقد صرع ستة ثيران صارعة « وهو يجول على جواده وبيده حربة ، وفلق رأس أحدها بضربة واحدة » .

لنتأمل أناساً ربوا على هذا النمط وقد مارسوا وتذوقوا جميع أنواع الرياضات البدنية. انهم على استعداد تام لكي يتفهموا تمثيل الجسم ، أي أن يتقنوا التصوير والنحت . فالجذع المنعطف ، والفخذ المنثني ، والذراع التي ترتفع ، والوتر الناتئ ، وبالجملة كل الحركات وجميع أشكال الجسم البشري توقظ فيهم تصورات باطنية سبق لهم ان رأوها .

* * *

ومن جهة أخرى ، فان فقدان العدل والنظام ، والحياة التي تكثر فيها الفكاهة ، وتتوفر فيها دائماً أفظع انواع المهالك ، كل هذه الأسباب تفعم النفس بالأهواء العنيفة الساذجة العظيمة ، وتجعلها متأهبة لتتذوق الحماسة والسذاجة والعظمة في مختلف الاوضاع والأشكال.

ذلك لأن ينبوع الذوق هو التعاطف sympathie ، ولكي يسرنا شيء بليغ يقتضي ان يكون تأثيره مطابقاً لحالاتنا الخلقية وللأسباب نفسها نلاحظ ان الاحساس أصبح نارياً لأنه كبت في الباطن بسبب الضغط المرعب الناتج عن كل ألوان الوعيد التي تكتنف حياة الانسان . وكلما تألم المرء وخاف وكدّ ازدادت رغبته في التوصّل وكلما انقذف على نفسه وطأة الهموم العنيفة او التأملات القاتمة ، يتعاظم شعوره بالسرور في حضرة الجمال المنسجم الرفيع . وكلما اشتد او كبح جماح اهوائه ابتغاء أن يجهد نفسه او يصانع ، يحلو له ان يتمتع عندما يصبح بمنجاة من الأذى أو عندما يوصل نفسه على سجيتها . وان صورة موضوعة في مخدعه تمثل السيدة العذراء في هدوئها ونضرتها ، او تمثال فتىً ذي بأس موضوع فوق صوانه ، تستوقفان نظره وتزيدان في لذته لذن انعتاقه من هموم مقؤومة وأحلام مجنونة وان الحديث السهل المتنوع ، الخالي من القيود ، الذي لا ينفك يتجدد وتكثر أفانينه لا يقوى على استهوائه . ففي المكون الذي يهرب إليه ، ينشد العزلة ويناجي سراً الالوان والأشكال . وان للظروف الحقيقية التي تكتنف حياته المألوفة ، وكثرة الأخطار

التي يتعرض لها ، وصعوبة الاباحة بأسرار القلب ، لا عمل لها إلا أنها تزيد في إضرام وتصفية الثائرات التي يستنزلها من الفنون .

لنجرب الآن أن نحشد كل هـذه الفعال التي تتعلق بالطبع ، ولنتطلع ، من جهة ، الى رجل من معاصرينا ، غني ، أحسنت تربيته ، ومن جهة ثانية الى سيد عظيم عاش حوالي عام ١٥٠٠ . وكلا الرجلين منتخبان من الطبقة التي نبحث فيها عن قضاة يحسنون الحكم . إن معاصرنا يستيقظ الساعة الثامنة صباحاً ، ثم يرتدي قباءه ويتناول شيئاً من الهوكولاتة، بعدئذ يقصد مكتبته فيقلب أوراقاً لاطائل تحتها اذا كان أحد رجال الاعمال . أو يتصفح بعض الكتب الجديدة ، اذا كان رجلاً اعتاد أن يغشى المجتمعات . وبعد أن يسير قليلاً على سجادة وثيرة ، يفطر في غرفة يدفئها السعار ثم يخرج يتنزه في الشارع هادىء الفكر ، لايساوره قلق ، ويدخن سيجاره . وقد يحلو له أن يدخل نادياً ليقرأ الصحف أو يتحدث عن الأدب أو أنباء البورصة أو السياسة أو القطر الحديدية . ولما يعود الى بيته ، وأن يكن على قدميه وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، يعلم جيداً أنّ الشارع مجهز بزمرة من رجال الشرطة وصوف لاينالـه أذى . فيأوي الى فراشه مطمئن البال ، عازماً على أن يستأنف سيرته عندما يصبح الصباح . هذه هي الحياة الحاضرة بجميع أوصافها . ماذا أبصر هذا الرجل مما يختص بالجسم ؟ انه ذهب الى الحمامات الباردة وتأمل هذا المستنقع الذي يستثير السخرية حيث تخوضه كل أنواع الشناعة البشرية . وقد يحدث له ، اذا كان طلعة ، أن يشاهد مصارعين في المعارض ثلاث أو اربع مرات طيلة حياته . اما فيما يختص بالعري فلم يتح له ان يشاهد اوضح مما شاهد من اجسام حلزون الاوبرا . وما هي التجارب التي مرّ بها كي تتولد في نفسه آلام عظيمة ؟ من الجائز انه لا يعرف الاّ الفتن التي يولدها الغرور ، او القلق الذي ينشأ عن المال : كأن يكون اساء التخمين في البورصة ، او لم يحرز مركزاً يصبو إليه ، اغتصبه اصدقاؤه وقالوا عنه انه مغفل ، أو أن زوجته تبذر مالاً كثيراً وابنه ارتكب حماقة . انه يجهل الأهواء الشديدة التي تعرض للخطر حياته وحياة من يمت اليه بصلة ، أو تودي برأسه الى الجلاد أو تفأس عنقه على خشبة ، او تقذف به في غياهب السجن ، او تقتاده الى العذاب والموت قتلاً . إنه يحيا حياة هادئة جداً ، تحميه الأنظمة والقوانين ، وتتجاذب شخصه إحساسات عديدة لطيفة لذيذة . ويجهل الحالة الباطنية التي تخامر إنساناً يضطر لقتل غيره كي ينجو بنفسه إلاّ اذا استثنينا المصادفة التي تتيح له مبارزة مصحوبة بالإكرام والتلطف .

لنتفحص حيـاة أولئك السادة الذين سبق الكلام عنهم أمثال « اوليفرنو » ،

و« ألفونس دست » وقيصر بورجيا و« لوران دو مديتشي» ورجال حاشيتهم ، وكل اولئك الذين تلقى في يدهم مقاليد الامور . فالمهمة الرئيسية التي يفرضها على نفسه الشريف أو الفارس في عصر النهضة هي ان ينهض من فراشه ويتجرد من ثيابه ، ويحذو حذوه أستاذه في شؤون السلاح ويتنـاول باحدى يديه خنجراً وبالأخرى سيفاً كما تمثله النقوش المثبتة على الجدران . ما هي الأعمال التي تستغرق أوقاته وما هو الفرح العظيم الذي ينشده ؟ انه ينعشق مواكب الفرسان ، والمساخر ، ودخول المدن ، والأبهة الوثنيـة والنزال والترحاب بالملوك حيث يظهر على صهوة جواده مرتدياً أجمـل ما عنده ، ناشراً طوقه الخرم المدبج الموشى بالذهب ودراعته المخملية ، وهو فخور بجمال هيبته وهيئته الحازمة التي يعول عليها ومن أصحابه في اعلاء شأن ملـكه . وكثيراً ما يرتدي درعاً تحت صدرته عند ما يغادر بيته نهاراً . ويتحتم عليه أن يظل بمنجاة من طعنات خنجر او سيف قد تسدد اليه في زاوية شارع ما . ويظل بعيداً عن الطمأنينة حتى ولو كان بين جدران قصره . وان الأركان الحجرية والنوافذ المشتبكة بالقضبان الغليظة والمتانة الحربية التي يتسم بها البنيان تشير لنا ان البيت كالدرع ينبغي ان يحمي صاحبه كل هجوم وان الرجل لما يصبـح في بيته ، وقد ارتج بابه وجلس تجاه صورة وصيفة جميلة أو عذراء او بحضرة « هرقل » ما او ابخالدزاده تدثره مهابة وبرزت عضلاته نامة عن قوة وحزم ، ان هذا الضرب من الرجال أقدر على تفهم جمال هذه الصور وكمالها الجسماني من رجل عصري . ويستشعر ، دون أن يختلف الى أماكن الفنانين ، بل بواسطة تعاطف لا دخل للارادة فيه ، جمـال العري الذي يوحي البطولة ، وروعة العضلات المفزعة في فن «ميكلانجو » ، والصحة والوداعة والنظر الساحي في إحدى عذارى «رافائيل» ، والحيوية الجريئة الطبيعية في أحد تماثيل «دوناتلـو » ، والجلسة الهوجاء الفتانة في أحد صور « ليونارد دفنشي » واللذة البهيمية الأنيقة والحركة الفائرة والقوة والفرح والجبار التي تتصف بها أشخاص « تنتوره » و «تيسيان» .

الفصل السادس

ان تلك الحالة الذهنية ، الجديرة بالتصوير، الكائنة بين التفكر البحت والتصور الصرف والسجايا ذوات العزم والشيم العنيفة، جديرة بأن توحي معرفة الأشكال الجسدية الجميلة وتذوقها. تلك هي الظروف الزمنية التي انتجت في ايطاليا ، بالاشتراك مع الاستعداد الفطري السلالي ، العظمة والكمال في تصوير الجسم البشري . ولم يبق لنا إلا أن نجوس خلال الشوارع أو نغشى الأماكن التي يعمل فيها الفنانون ، فنتحقق ان التصوير يولد من تلقاء نفسه وليس كما هي الحال عندنا، نتاج مدرسة، وأغفولة النقاد ، وعبث الفضوليين ، وحماقة الغواة وغرساً اصطناعياً اقتضى نفقات باهظة ، ثم ما لبث أن أصابه الذبول رغم الدبال الذي يحيط به . وعلة ذلك ان الغرس غريب ويتعذر الاحتفاظ به حياً في أرض وهواء كونا لينتجا علوماً وآداباً وصناعات وشرطاً وساسة . فالمدن التي تغشى دورها الرسمية وكنائسها بالصور المنقوشة تنثر حول فن التصوير مئات اللوحات الحية التي تفوق هاتيك الصور بالأبهة وإن كانت سريعة الزوال . وليس عليه إلا أن يلخص تلك المشاهد العابرة . والناس في ذلك العصر من هواة التصوير، ولا يتبادر الى الذهن ان هذا الهوى لا يستغرق إلا مدة وجيزة من حياتهم ، بل يدوم طيلة عمرهم ، ويتجلى في احتفالاتهم الدينية وأعيادهم القومية واستقبالاتهم العامة ، وفي شؤونهم وأفراحهم .

لنراقبهم عن كثب أثناء العمل : فالنقابات ، والمدن ، والأمراء والأساقفة ، ينشدون الجد واللهو في المواكب الأنيقة الفاتنة ، وعرض الجند . وانني سأتكلم عن إحدى هذه التظاهرات ، وأدع القارىء يتخيل هيئة الشوارع ، والساحات التي كانت تزخر بهذه الأبهة مراراً كثيرة خلال العام الواحد : « كان لوران دمديتشي » رئيساً لجمعية « برونكون » . فشاء أن تبز جمعيته بالأبهة جمعية « دياماني » . فعهد بالمهمة الى « جاكوبو ناردي » Jacopo Nardi أحد شرفاء وعلماء فلورنسا الذي أعد له ست عجلات .

« ان العجلة الاولى ، التي يجرها ثوران تغشيهما أوراق الأعشاب ، كانت تمثل عصر زحل ويانوس . وعلى قمة المركبة قد استوى زحل ، وبيده منجله ، ويانوس قابض على مفاتيح معبد السلام . وقد أثبت المصور « بونتورمو » Le Pontormo (١٤٩٣ — ١٥٥٨)

تحت أقدام هـذه الآلهة صورة الجنون المقيد وكثيراً من الأتباع المنوطة بزحل ويواكب المركبة اثنا عشر راعياً ارتدوا جلود القاقم والنمس ، واحتـذوا خفافاً قديمة الزي وحملوا مزاود وتوجوا بأكاليل من الاوراق . ووضع على ظهور الخيول التي امتطاها هؤلاء الرعاة بدلاً من السروج ، جلود سباع ونمور وذئاب ذهّبت براثنها . وأحاط بردافها أثقال مصنوعة من حبـال مذهبة ، وكانت الرُكـب شبيهة برؤوس الـكباش أو الـكلاب أو حيوانات أخرى ، وكانت اللجم ضفائر من فضة وأوراق أشجار . ويسير في إثر كل راع أربعـة من الغنّـامة يرتدون أكسية دون كسائه جمالاً ، ويحملون بأيديهم مشاعل تماثل أغصان الصنوبر .

«ويجر المركبة الثانية أربعة ثيران تغشيها أقمشة زاهية باهظة الثمن . « ومن قرونها المذهبة تتـدلى أكاليل من الأزهار وسبحات ، وركب في المركبة « نوما بومبيليوس » Numa Pompilius ثاني ملوك الرومان (يقول الـكتاب اللاتيني إنه حكم من عام ٧١٤ الى ٦٧١ ق . م) ، محاطاً بكتب الديانة وبكل الحلل الـكهنوتيـة والادوات الضرورية للضحايا . يليه ستة من الـكهنة وقد امتطوا بغلات جميلات جدًّا وتستر رؤوسهم أغطية مزدانة بأوراق اللبلاب موشاة بالذهب والفضـة . ويرتدون أقمية قديمة الزي يزين الذهب أهدابها . يحمل بعضهم حُـقّـاً ملئت طيباً ، والآخرون إناء ذهبيّـاً أو شيئاً آخر من نفس النوع ، ويسايرهم وزراء ثانويون يحملون شمعدانات قديمة .

«وعلى العجلة الثالثة التي تجرها خيول بارعة الجمال ، والتي تفنن بونتورمو بزخرفتها بالرسوم المختلفة قد جلس « مانليوس توركواتوس Manlius Torquatus الذي أصبح قنصلاً بعد الحرب القرطاجية الأولى ، ويعود الفضل في ازدهار مدينة روما الى سياسته الرشيدة . وكان يتقدم هذه العربة إثنا عشر شيخاً راكبين خيولاً مغطاة بلبد مموّه بالذهب ، يحيط بهم لفيف من القضاة يحملون حزماً وفؤوساً والرموز الأخرى الخاصة بالعدل » .

« وتجر المركبة الرابعة التي استوى فيهـا يوليوس قيصر ، أربع جواميس تزينت بزي الفيلة . وقد صور « بونتورمو » على المركبة أروع مآثر الفاتح . وكان يتبعها إثنا عشر فارساً يحملون أسلحة لمّـاعة جلهـا الذهب . وكل منهم يقبض على رمح يرتكز على الفخذ . وكان الأتباع يحملون مشاعل ترمز الى انتصارات » .

« وعلى العربة الخامسة التي تجرها خيول مجنحة على هيكل عقبان ، قد استوى قيصر أغسطس . ويصحب الامبراطور إثنى عشر شاعراً امتطوا الخيول وتوجوا بالغار وساهمت آثارهم في تخليد ذكراه . ويحمل كل شاعر وشاحاً نقش عليه اسمه .

«وجلس الامبراطور ترايانوس (٩٨—١١٧) في العربة السادسة وقد كلف «بونتورمو» زخرفتها وكانت تجرها ثماني عجال (أنثي العجل) انفق كثيراً على تربيتها . ويتقدم الامبراطور إثنا عشر مشرعاً على ظهور الخيل وقد ارتدوا حللاً طويلة . ثم يليهم نساخ ومسجلون يحملون في يد مشعلاً وفي الاخرى كتباً . وتسير في إثر هـذه العربات الست المركبة التي ترمز الى العصر الذهبي وقد صورها «بونتورمو» وزخرفها «باندينلي» بصور عديدة بارزة . وفي وسطها وضعت كرة ذهبية ضخمة تمددت فوقها جثة مغطاة بسلاح حديدي علاه الصدأ . ومن كشحها برز طفل عار ومذهب ليمثل بعث العصر الذهبي وخاتمة العصر الحديدي . ويعود الفضل في هذا الحدث الخطير الى ارتقاء لاون العاشر سدة البابوية . ويثير غصن الغار اليابس الذي بدات أوراقه تخضوضر الى ذات الفكرة مع أن أشخاصاً كثيرين تكهنوا عنـه أنه يلمح الى لوران دمديتشي . أما الصبي الذي موه جسـمه بالذهب وتحمل كثيراً من المشاق لقاء مبلغ زهيد من المال لم يلبث أن فارق الحياة » .

مهما كان التعداد جافـاً فهو يظهر لنـا الذوق الفني الذي كان يتحلى به أبنـاء ذلك العصر . ولم يكن ذلك الذوق وقفاً على الاشراف والاغنياء فقط ، بل كان من خصائص جميع الطبقات . وكان لوران يقصد من إقامة هذه المهرجانات الاحتفاظ بنفوذه . وإلى جانب هذه الحفلات كانت توجد المساخر وما يصحبها من الاناشيد التي أضاف إليها لوران زيادات كثيرة وتفنن فيها أيما تفنن . ولم يكن يحجم عن المساهمة في هذه الافراح ، وكثيراً ما كان ينشد الأبيات التي نظمها ويظهر في طليعة المحتفلين بالمهرجان الفخم . ولا يجب أن ننسى أن « لوران دو مديتشي » كان في ذلك العصر أعظم صيرفي ، وأكرم من تعهد حماية الفنون الجميلة ، والصانع الأول في المدينة ، وفي ذات الوقت كان جميع القضـاة يقرون له بالزعامة . فكان يجمع في شخصه المزايا التي نجـدها اليوم موزعة بين « الدوق دلوين » (١٨٠٢ — ١٨٦٧) le duc de Luynes وروتشيلد ، ومحافظ منطقة السين ، ومديري أكاديمية الفنون الجميلة ، وأكاديمية المخترعات ، وأكاديمية العلوم الخلقية والسياسية ، والمجمع العلمي الفرنسي . ذلك هو الرجل الذي كان يتزعم حفـلات المساخر في الشوارع ، ولم يكن يدور بخلده ان اتيان هذه الاعمال يمس كرامته . وقد أكسبته هذه الحمية شرفاً ، عوضاً من أن تجعله مسخرة ، ذلك لأن الذوق في ذلك العصر كان مرهفاً ، حاراً . وقبيل المغرب كان يخرج من قصره ثلاثمائة فارس وثلاثمائة راجل يحملون المشـاعل ويطوفون في شوارع فرنسا حتى الساعة الثالثـة أو الرابعة بعد منتصف الليل ، ترافقهم أجواق موسيقيـة مكونة من عشرة أو اثني عشر أو خمسة عشر مغنياً . وقد طبعت المقطوعات التي تنشد في هذه المساخر في مجلدين ضخمين .

وسوف لا أسرد إلاّ أغنية واحدة نظمها « لوران » ذاته ، وعنوانها « باخوس وآريان » هي وثنية في جمالها ومغزاها . ذلك لأن ذلك العصر شهد انبعاث الوثنية القديمة بفنونها وتفكيرها .

« ما أجمل الشباب ! إلاّ أنه زائل » .

« من يشأ أن يكون سعيداً ، فليتمتع فوراً ولا يثق بالغد » .

« هو ذا باخوس وآريان — ما أجملهما ، انهما يتأججان شوقاً الى بعضهما . هما »
« سعيدان دائماً ويعيشان سوية ، لأن الزمن زائل وخداع » .

« هؤلاء الصبايا والأخريات يسرهنّ الانتظار . من يشأ أن يكون سعيداً فليتمتع »
« ولا يثق بالغد » .

« هؤلاء الفتيان الخلعاء الجذلان — عشاق الصبايا قد نصبوا لهن مائة شرك — في »
« المغاور والغابات — وفي فترة الانتظار طفقوا يرقصون ويقفزون لأن باخوس دائم — »
« من يشأ أن يكون سعيداً فليتمتع ولا يثق بالغد » .

« يا أيتها العاشقات والعشاق — ليحيي باخوس وليحيي الحب — ليتناول كل منكم »
« آلات الطرب ويرقص ويغنّي — وليتأجج القلب بحلاوة الغرام — وليهادن الشقاء والألم »
« من يشأ أن يكون سعيداً فليتمتع ولا يثق بالغد » .

« ما أجمل الشباب ! إلاّ أنه زائل » .

وكان هناك أناشيد كثيرة غير هذا النشيد : يغني بعضها غزالات الخيوط الذهبية ، وأخرى ينشدها جماعة من الفقراء ، وغيرها خاص بالنساك والنساء والأساكفة والمكارين والباعة وصانعي الحلوى والزيت . وكان مختلف الهيئات النقابية تنفد لتساهم في المهرجانات وبامكاننا أن نبعث نفس المشهد فيما لو فرضنا ان كل ما عندنا من مسارح قد اشترك في مظاهرة تطوف في الشوارع عدة أيام متتالية . ومع ذلك فانه يظل هناك فارق . وهؤلاء الذين كانوا يقومون بمهرجانات فلورنسا لم يكونوا أشخاصاً دفعت لهم الاجور كي يلبسوا ثوباً مستعاراً ، بل كان الموكب يتألف من السكان أنفسهم . فكانت المدينة بأسرها تهبط الشارع وهي سعيدة أن تتأمل ذاتها وتعجب بأفراحها . فمثلها مثل الفتاة الجميلة التي تبرز للناس بعد أن بذلت قصارى جهدها كي تستكمل أسباب الزينة .

وليس أقوى على انهاض الخصائص الانسانية من اتحاد كهذا الاتحاد في الأفكار والعواطف والأذواق . وقد لوحظ ان ثمة شرطين ضروريين لنتاج الآثار العظيمة : الأول فوران عاطفة غريزية خاصة وشخصية ، يعبر عنها بصدق دون أن يحسب حساباً لرقيب

ودون ان توجه أي توجيه . أما الشرط الثاني فهو توفر النفوس المتعاطفة ، وهي بمثابة المدد الخارجي غير المنقطع الذي ينضج من الافكار الحية التي تحتضن الافكار الغامضة المبهمة وتغذيها وتنميها وتنوعها وتشجعها . وتصدق هذه الحقيقة في كل مكان على المؤسسات الدينية والمشاريع العسكرية في الآثار الادبية والمسرات الدنيوية . ان النفس تشبه الجمر المتقد . فلكي يؤثر هذا الجمر يجب أن يشتعل أولاً ومن ثم أن يجد حوله جذوات أخرى مشتعلة . لان التماس الدائم يضرم هذه الجذوات وتتضاعف حرارتها مئات المرات فتمتد ألسنة اللهيب من كل صوب . تأملوا هذه الشيع القليلة الشديدة البأس من البروتستان الذين هجروا انجلترا ويمموا شطر المغرب لينشئوا الولايات المتحدة الاميركية . كانت تلك الشيع مؤلفة من رجال تجاسروا على الاعتقاد والاحساس والتفكير العميق على نمط مبتكر يتصف بالشغف . ولكل منهم عقيدته الراسخة الخاصة . ولما قدر لهم أن يجتمعوا وقلوبهم مفعمة بعواطف مماثلة يحدوهم نفس الحماس أصبحوا جديرين على أن يستعمروا مساحات مقفرة ويؤسسوا ولايات متمدنة .

ويصدق القول كذلك على الجند ففي اواخر القرن الماضي كانت الجيوش الفرنسية بعيدة من النظام حديثة العهد بالفن الحربي يقودها ضباط لا يقلون جهلاً عن الجند الذين يأتمرون بأمرهم واضطرت ان تجابه جيوشاً أوربية أخرى تدربت على النظام ، وان ما دعم هذه الجيوش ودفعها الى الامام وجعلها تحرز النصر هي العزة قبل كل شيء وقوة العقيدة الباطنية التي جعلت كل جندي يعتبر نفسه متفوقاً على اولئك الذين يذهب لمحاربتهم ، ومكلفاً أن يحمل الحقيقة والعقل والعدل الى قلوب جميع الشعوب مهما كثرت المصاعب . ولا ننسى الاخاء الشريف والثقة المتبادلة واتحاد الميول والاهداف المتوفرة في الجميع ، الجندي البسيط والرئيس والقائد والتي جعلتهم يشعرون انهم مكلفون بأداء نفس الرسالة ، فتقدم كل منهم متطوعاً ، فاهماً الحالة ، مقدراً الخطر والضرورات ، على استعداد أن يصلح الهفوات ، فلم يتألف من مجموعهم إلاّ إرادة واحدة ونفساً واحدة ، ففاقوا بالحمية الناشئة والوئام اللاإرادي الآلات المتقنة التي تضافرت على صنعها ، عبر السنين ، التقاليد والعرض العسكري والنظام البروسي المتسلسل .

وتصدق هذه الاقوال على الفن والفرح ، كما أنها تصدق على المصالح والاشغال . فرجال الفكر لا يشحذ فكرهم إلاّ عندما يتم احتكاكهم ببعضهم ولكي نحصل على آثار فنية ينبغي أن تنجب الامة فنانين وتنشىء أماكن يعملون فيها . فأماكن العمل كانت متوفرة ، وألفاً الفنانون نقابات تؤلف منهم جماعات صغيرة في وسط المجتمع الكبير ، وتوثق بينهم

عرى الاتحاد . وقد عملت المؤالفة على تقريب القلوب والمنافسة على شحذ القرائح . ولم يكن مكان العمل قاعة منسقة للتباهي توحي التكلف ، بل كان دكاناً بسيطاً . وكان التلاميذ صناعاً يقاسمون أساتذتهم أمجادهم ويمايشونهم ، وليسوا غواة يشعرون بزوال الكابوس عنهم حالما يؤدون ما يترتب عليهم من المال . وكان الطفل يتعلم في المدرسة القراءة والكتابة وقليلاً من الاملاء . وفي السنة الثانية عشرة أو الثالثة عشرة يختلف الى المصور أو الصائغ أو المهندس أو النحات وكثيراً ما كان الاستاذ يحذق جميع هذه الفنون ، فيدرس التلميذ الفن بكامله لا جزءاً من الفن . وكان يشاطره عمله ، فيصنع الأشياء السهلة وصفلة اللوحات والزخارف البسيطة والأشخاص اللاحقين ، ويساهم في الأثر الفني ويهتم به كما لو كان من صنع يديه . وكان يعتبر بمنزلة الولد ، ويقوم بمهمة الخادم في البيت وينعت بخليفة المعلم ويؤاكله ، ويقضي حاجاته وينام فوقه على سقيفة ، ويتلقى سبابه ولكزاته وصفعات زوجته . وبهذا الصدد يروي « رافائلو دي مونتليبو » Rafaello di Montelupo الحادثة التالية :

« قضيت عند « ميشيل باندينلي » من الثانية عشرة حتى الرابعة عشرة ، أعني سنتين ، وكان معظم وقتي ينقضي في تحريك المنفاخ كي يتمكن المعلم من إنجاز أعماله ، وأحياناً كنت أنصرف للرسم . وقد حدث في أحد الايام أن كلفني المعلم أن أحمي ثانية بعض القطع الذهبية التي كانت تصنع للدوق « لورنزو دمديتشي » . فكان يطرق القطع على السندان ، وعندما يكون منصرفاً لطرق إحداها ، أكون معنيًّا بإحماء الاخرى . وقد توقف مرة عن العمل ، وبدأ يتحدث مع أحد أصدقائه دون أن يلاحظ انني انتزعت الباردة من أمامه ووضعت القطعة الحامية . ثم انصرف عن الكلام وتناول القطعة فأحسّ بلذع لفح أصبعيه اللتين تناولها بهما . عندئذٍ بدأ يصرخ ويقفز في الدكان ، وشاء أن يصفعني فأخذت أذيالي وعجز أخيراً أن يقبض عليّ . ولما حانت ساعة تناول الطعام ، مررت قريباً من كوة المحل الذي يوجد فيه ، فأمسكني بشعري وصفق وجهي عدة مرات » .

هذه عادات مألوفة بين العشراء ، سواء كانوا قتالين أم بنائين ، وهي جافة وصريحة ومبهجة وودية . وكان التلاميذ يصحبون المعلم في أسفاره ، ويقاتلون الى جنبه باليد والسيف اذا ما اعترضه أحد في الطريق ويدافعون عنه ضد كل هجوم وفي المناسبات السيئة ، وقد رأينا كيف ان تلاميذ « رفائيل » و « سليني » ينتضون الخنجر أو يستلون السيف حفاظاً لشرف البيت .

وكانت هذه المؤالفة والصحبة الخالصة تسودان علاقات المعلمين ببعضهم . وأطلق على احدى جمعياتهم التي أنشئت في فلورنسا اسم جمعية المرجل ، ولم تكن تضم سوى اثني عشر

عضواً ويحق لكل واحد أن يأتي الى مكان الاجتماع بثلاثة أو أربعة أشخاص . فيجلب كل واحد منهم وعاء من صنعه ، وأيهم يشاهد برفقة غيره يكلف دفع الغرامة . ما أعظم الحيا والمادية في هذه الأذهان التي تنعش بعضها بعضاً ، ولنلاحظ كيف أن فنون الرسم كانت تجد مجالاً للظهور حتى في مناسبات الطعام . ففي مساء أحد الأيام اختار أحدهم خابية عظيمة بدلاً من طاولة . وأدخل اليها المدعوين ، عندئذٍ برز من مركز الخابية شجرة ذات أغصان تحمل صحوناً وفق عددهم ، بينما كانت جوقة من المغنين ترسل أنغامها من تحت . ويتكوّن الطعام الذي قدم للضيوف من فطيرة عظيمة يظهر فيها « أوليس Ulysse يغلي أباه ليفتيه » والصورتان هما ديوك مسمنة مسلوقة نظمت تنظيماً خاصاً فأنتجت أشكالاً بشرية وزينت بأشياء كثيرة لذيذة المآكل . أما « اندريادل سارتو » فقد جاء بمعبد ذي ثماني واجهات ، مركز فوق أعمدة ، وأرضه مكونة من جفنة هلامية كبيرة مقسمة أقساماً كثيرة تشابه الفسيفساء ، أما الأعمدة التي تتراءى للناظر أنها صنعت من رخام سماقي فقد كوّنت من نقانق ضخمة ، وعملت القواعد ورؤوس العواميد من جبن معصفر يصنع في بالرمو ، والأطناف من معجنات محلاّة ، والمنبر من فطيرة محشوّة لوزاً وسكراً . ويظهر في الوسط مقرأ كوّن من لحم بارد ، وعليه الكتاب الخاص بالقداس وقد صنع من الشعيرية ، أما الأحرف ورموز الموسيقى فقد تكوّنت من حبوب الفلفل ، وتحيط به دجاجات برية مفتوح منقارها ، ترمز الى جوقة المرتلين ، ووراء الدجاجات حمامتان كبيرتان وستة حساسين تمثل مرتلين تنوّعت أصواتهم . وقدّم آخر خنوصاً يمثل قروية تغزل وتحرس أنقاقها ، وصنع غيره فقالاً من أرزة كبيرة . ولكم أن تتخيلوا القهقهة الصادرة من ينبوع الطبع المرح الغريب .

والى جانب هذه الجمعية نشأت جمعية « المسجة » ملعقة البناء — وكان من تقاليدها أن تتبع الأعشية بفصول تثير الضحك . فيخطر للندماء إن يمثلوا تارةً بروزربين Proserpine ملكة جهنم وكيف توصل « بلوتون » Pluton إلى اختطافها ، وطوراً حب الزهرة والمريخ ، وأحياناً فصولاً لماكيافيلي أو أريوست ... ولما كانت المسجة رمزاً للجمعية ، فقد أمر الرئيس يوماً سائر الأعضاء أن يحضروا وقد ارتدوا ثياب البنائين ويجيئوا بكل الأدوات التي يعوّل عليها البنّاء في عمله ، وطلب إليهم أن يبنوا بناء ، ليس من حجر وطين ، بل من لحم وخبز وأقراص وسكر . ان الخيال اذا ما خصب يفيض ويتجلى في هذه القصوف الفاتنة . ويظل الانسان طفلاً بخياله ما دامت روحه نقية ، ويحشر في كل مكان الأشكال الجسدية التي يؤثرها ، وينهض بدور الممثل والمقلد ، ولا ينفك يلهو بغتةً ما دام متشبعاً منه .

وفيما عدا هذه الجمعيات التي تحددت أهدافها ، كانت توجد جمعيات كبيرة تضم جميع الفنانين قصد أن توحد جهودهم . وقد رأينا كيف أن أعشيتهم تتخللها البشاشة ، وإظهار السريرة ، والألفة ، والبساطة ، والطبع الحسن المضحك ، ويتبادر الى الذهن ان هذه الخصال من خصائص الطبقة العاملة ، ويتحلون بالنزعة الوطنية المدينية (نسبة الى المدينة) التي تؤثر في العمال . فيتحدثون بكبرياء عن « مدرستهم الشهيرة في فلورنسا » . ويظنون أن ما من مدرسة غيرها تجعل الطالب يتقن فن الرسم . يقول « فازاري » هناك يولد الناس مكتملين في كافة الفنون وخاصة التصوير . إذ أن المرء تستحثه ثلاثة عوامل في هذه المدينة: أما الاول فهو النقد الشديد المدار لأن جو البلاد أنشأ عقولاً تتميز بحريتها ولا تكتفي بالنتاج المتوسط ، ولا يأبهون إلا للحق والجمال دون أن يميزوا صاحب الأثر اهتماماً. والدافع الثاني هو الحاجة الماسة للعمل بغية « كسب القوة » وهذا يعني أن على الفنان أن يصنع دائماً أثراً عليه طابع الابتكار ، وأن يكون ذكياً ونشيطاً في أعماله . وبالاختصار عليه أن يعرف جيداً كيف يكسب قوته لأن البلاد ليست غنية ولا خصبة كغيرها ، فلا تستطيع أن تكفي سكانها بمبالغ زهيدة . والعامل الثالث ، الذي لا يقل أهمية عن الاثنين السالفي الذكر ، هو شيء من التعطش للمجد والشرف ، ويبدو أن جو البلاد يولد هذا التعطش عظيماً فنجد له أثراً في قلب كل عامل ، ويجعلهم يتمردون على فكرة المساواة بأولئك الذين يعتبرونهم متفوقين وليسوا إلا أناساً مثلهم . ولو لم يكونوا صلحاء وحكماء من طبيعتهم ، لأدى هذا التنافس الحاد والطموح العظيم الى الاغتياب والجدب . ويتفقون على إتقان العمل عندما يعلمون أن ذلك يكسب مدينتهم شرفاً . وأن المنافسة التي تدفع كلاً منهم ليبز خصمه ، محمودة العاقبة . فلما جاء البابا لاون العاشر عام ١٥١٥ كي يزور مسقط رأسه فلورنسا دعت المدينة كل الفنانين كي يستقبلوه بأبهة فبنى في المدينة اثنا عشر قوساً من أقواس النصر إزدانت بالتماثيل والصور . وخلال الأقواس هيدت أبنية فخمة ونصبت مسلات وعواميد وصفت مجموعات فنية مماثلة لتلك التي توجد في روما . « وشاد» « انطونيو سان جالو » على أرض ساحة السيد معبداً ذا ثماني واجهات ، وصنع « باندينلي» عملاقاً ، وبين « باديا » وقصر قاضي القضاة أقيم قوس نصر ، وأقام « روسو » قوساً آخر تزينه صور عديدة بارعة التنسيق . لكن الشيء الذي أحرز الاعجاب هو واجهة « سانتا ماريا » المصنوعة من الخشب ، وزينها « أندريا ولاسارتو » بالصور التاريخية الجميلة . وزخرف حواشيها المهندس « سانسو فينو » بحوادث تاريخية كثيرة حسب التصميم الذي وضعه « لوران دمديتشي » والد البابا . وصنع سانسو فينو نفسه حصاناً على غرار الحصان الموجود

في روما وأقامه في ساحة « سانتاماريا الجديدة » وقد بدا جميلاً للغاية . وزينت « البناية التي حل فيها البابا بزخارف لا يوصف تنوعها ، وقد ازدان ذلك الشارع بصور » تاريخية جميلة جداً اشترك فيها فنانون كثيرون ، لكن « يا نديني » استقل برسم معظمها » .

نرى مما تقدم أن هذه المجموعة من القرائح قد تكاملت وبلغت مستوى رفيعاً بفضل المشاركة . فالمدينة تعمل لتتجمل . فتراها اليوم بكاملها منهمكة لكي تحتفل بالكارنافال أو لترحب بأمير ، وغداً ، وطيلة أيام السنة ، نرى الاحياء والنقابات والجمعيات والاديرة ، يحدوها الحماس « غنية بالقلب فقيرة بالمال » ، تبذل جهدها لتزخرف كنيستها وديرها وروانها ومكان اجتماعها وثيابها وأعلامها وعرباتها . يستحيل أن يبلغ الحماس هذا المدى من القوة والشمول ، ويستحيل أن يوجد جو يصلح لنشوء فنون الرسم كهذا الجو ، ويستحيل أن يتوفر لها زمان ومكان كهذا الزمان والمكان ، إذ أن تضافر الظروف أمر فذ : ذلك لأن عرقاً ممهوراً بالخيال المنسق والمصوّر يبلغ الثقافة العصرية وهو لا يزال محافظاً على عادات عصر الاقطاع ، فيوفق بين الغرائز القوية والافكار الدقيقة ، ويعبر عن أفكاره بأشكال حسية . ويثب وثباً غريزياً عاطفياً حتى يبلغ المدى الأخير من عبقريته . وهذا الانطلاق الناشيء عن احتكاك الفئات الصغيرة الحرة التي يتكون منها الشعب ، يبتكر النموذج الأسمى ، ولا يستطيع غير الكمال الجسماني أن يعبر عن الوثنية الرفيعة التي بعثت فترة من الزمن .

كل فن يمثل الجسم الانساني يخضع لهذه المجموعة من العوامل التي تمد الشرط الأساسي لنشوء أسمى آيات التصوير . فان انعدم وجود هذه العوامل أو فسدت ، انعدم التصوير أو فسد . ويستحيل الظهور على هذا الفن ما لم تتوفر له تلك الشروط . فقد هزل حالما بدأت تضعف وتهجر . فالتصوير ساير هذه العوامل منذ نشأتها وفي ابان نمائها وانحلالها وتلاشيها وظل رمزياً وصوفياً حتى خاتمة القرن الرابع عشر ، ما دام خاضعاً لسيطرة الافكار اللاهوتية والمسيحية . ومدّ عمر المدرسة الرمزية والصوفية حتى أواسط القرن الخامس عشر خلال الفترة التي نشب فيها الصراع بين الذهن المسيحي والذهن الوثني . لكنه عثر في أواسط القرن الخامس عشر على ترجمانه السامي في نفس نقية حالت عزلة الدير بينها وبين أدران الوثنية الجديدة : ووجه التصوير اهتمامه الى الجسم الحقيقي القوي منذ السنوات الاولى في القرن الخامس عشر حاذياً في ذلك حذو النحت ، مستفيداً من دراسة التشريح ، واستكمال المثال مطابقة الشبه واستعمال الزيت ، أضف الى ذلك انقطاع الحروب في تلك الفترة من الزمن ، واستلام الحكم على المدن ، ونشوء الصناعات ونمو الثروة ، وازدياد الرفاهية

وبعث الآداب والأفكار القديمة ، ألوت بالأنظار المتجهة صوب المستقبل الى الحياة الراهنة او اقتلعت جذور الايمان بالنعيم السماوي وطفق الانسان يبحث عن السعادة الأرضية . ثم ما لبث الفن أن اجتاز مرحلة التقليد الصحيح وبلغ الابتكار الجميل على عهد « ليوناردڤنشي » و « مكيلانجو » و « لوران دمديتشي » لما استكملت الثقافة وأخذت توسع أفق الذهن وتنضج الأفكار ، فأنتجت الأدب القومي الى جانب البعث التقليدي وخلفت الوثنية المكتملة الهلينية التي لم يعرف منها إلاً النذر اليسير . وقد استمر في البندقية مدة نصف قرن بعد أن خبا ضياؤه في غيرها ، فكأنه في واحة تقيها شر البرابرة ، وفي مدينة مستقلة احتفظت بالتسمح على مرأى من البابا ، واتصفت بالوطنية في وجه اسبانيا ، وتمسكت بالعادات العسكرية تجاه الترك . ثم ما لبث أن تراخى في عهد « كوريج » Correggio ، ومني بالبرودة على يد خلفاء ميكلانجو ، وذلك بسبب الغارات والجاعات المتراكمة التي خضدت شوكة الارادة الشخصية . ولما طفقت السلطة العلمانية ومجالس التفتيش الديني ، وغرور رجال الجامع العلمية تعمل على ضبط وإضعاف مادية الابتكار الطبيعي ، ولماء أخذت العادات تبحث عن مظاهر الحشمة ، والأذهان اتجهت صوب النزعة العاطفية ، ولما أصبح المصور فارساً مهذباً بعد أن كان صانعاً ساذجاً ، ولما حلت الأكاديمية محل الدكان والصناع ، ولما أصبح الفنان سياسيــاً داهية ، نخوراً بمركزه ، متقيداً بالعرف ، مدافعاً عن التقاليد ، يكيل المديح للأحبار والعظام بعد أن كان حرّاً جريئاً ، يلهو وينحت مزحاته في أعمدة « المسجة » .

من هذه المطابقة الصادقة والمستمرة يلاحظ أن الفن العظيم والبيئة صنوان ، ولا يظن أنهما اجتمعا عرضاً بل أن البيئة هي التي توجد وتنمي وتنضج وتفسد وتلاشي معها الفن خلال الحوادث التي تنتج عن رجّات اجتماعية قوية وعن خوارق شخصية لم تكن في الحسبان أن البيئة تأتي بالفن أو تذهب به ، فهي كالبرودة التي تأتي بالندى أو تمنع سقوطه حسب شدّتها أو اعتدالها، وكالنور الذي يغذي أو يهزل أجزاء النبات الخضر تبعاً لسطوعه أو خبوّه .

نختتم هذا المبحث ويقيننا أننا اذا شئنا أن نعيد من جديد على مسرح الوجود فناً مماثلاً ، ينبغي أن يعمل تيار القرون على خلق بيئة مماثلة لذلك .

أواخر المقتطف الشهرية

ابريل ١٩٤٦

الأزهر
بين الماضي والحاضر

تأليف

منصور علي رجب

مدرس الأخلاق بكلية أصول الدين

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٦

تصدير

خير ما يقدم به كتاب عن الأزهر الشريف ، أقدم جامعة في العالم ، ومناط الدين الحنيف ، ونبع الشريعة الفيّاض ، قصيدة شاعرنا الأكبر المرحوم شوقي بك ، فهي أجدر ما يحيّا به معهد ، يطل على هذا الوجود من سماء ألف عام .

***

قم في فم الدنيا وحيّ الأزهرا ... وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واجعل مكان الدرّ إن فصّلته ... في مدحه خرزَ السّماء النَّيِّرا
واذكره بعد المسجدَين[1] معظماً ... لمساجد الله الثلاثة[2] مكبرا
واخشع مليًّا ، واقض حقّ أئمةٍ ... طلعوا به زُهراً وماجوا أبحرا
كانوا أجلَّ من الملوك جلالةً ... وأعزّ سلطاناً وأفخمَ مظهرا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم ... حرمَ الأمان وكان ظلُّهمُ الذُّرا[3]
من كل بحر في الشريعة زاخرٍ ... ويريكه الخُلقُ العظيم غضنفرا
لا تحذُ حذوَ عصابة مفتونةٍ ... يجدون كل قديم شيء مُنكرا
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا ... من مات من آبائهم أو عُمِّرا
من كل ماضٍ في القديم وهدْمه ... وإذا تقدَّم للبناية قصَّرا
وأتى الحضارة بالصناعة رثَّةً ... والعلم نزراً[4] والبيان مثرثرا[5]

***

يا معهداً أفنى القرونَ جدارهُ ... وطوى الليالي ركنه والأعصرا
ومشى على يبس المشارق نورُه ... وأضاء أبيض لجِّها والأحمرا

---

(١) الحرام والاقصى (٢) الحرام والاقصى والازهر (٣) الملجأ (٤) القليل (٥) مخلط .

وأبى الزمان عليه يحمي سنّة ... ويذود عن نسك ويمنع مشعرا [١]
في الفاطميين انتمى ينبوعه ... عذب الأصول كجدّهم متفجرا [٢]
عينٌ من الفرقان [٣] فاض نميرها ... وحياً من الفصحى جرى وتحدّرا [٤]
ما ضرّني أن ليس أفقك مطلعي ... وعلى كواكبه تعلّمت السُّرى
لا والذي وكلَ البيان إليك لم ... أكُ دون غايات البيان مقصّرا
لمّا جرى الإصلاح قمت مهنّئاً ... باسم الحنيفة بالمزيد مبشّرا [٥]
نبأٌ سرى فكسا المنارة حبرةً ... وزها المصلّى واستخفّ المنبرا [٦]
ومما بأروقة الهدى فأحلّها ... فرع الثريّا وهي في أصل الثرى
ومشى إلى الحلقات فانفرجت له ... حلقاً كهالات السماء منوّرا
حتى ظننّا الشافعيَّ ومالكاً ... وأبا حنيفة وابن حنبل حُضَّرا
إن الذي جعل العتيق مثابةً ... جعل الكنانيَّ المبارك كوثرا [٧]
العلم فيه مناهلاً ومجانياً ... يأتي له النزّاع يبغون القرى [٨]

***

اللهُ أكبرُ يا ابن اسماعيل [٩] لم ... تترك لصنّاع المآثر مفخرا
بالأمس تنهضُ مصر في دستورها ... واليومَ تنهض للسماك الأزهرا
منٌ على الوادي السعيد، تقلّبت ... أعطافه في وهيهنّ منشرا
حرّكنَ فيه النّيل قبل وفائه ... فوفى، وهيّجنَ الربيع مبكرا
الأزهر المعمور قُلّد حُرة ... لك في الهبات حرية أن تُشكرا
أرعيته عين العناية مصلحاً ... وأجلتَ فيه يدَ البناء معمرا
وعدٌ وعدت له، بوادر صدقه ... كالبرقِ لم يفترَّ حتى أمطرا

(١) النسك العبادة والمشعر موضع مناسك الحج (٢) علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (٣) القرآن (٤) الحيا المطر والفصحى اللغة العربية (٥) الحنيفة الشريعة الاسلامية (٦) المنارة المئذنة والحبرة السرور (٧) العتيق المسجد الحرام والمثابة مجمع الزمر (٨) النزاع القصاد والقرى الضيافة .

(٩) المغفور له الملك فؤاد الاول عليه رحمة الله .

وبلغتَ بالمعروف غاية صفوه   أيكون معروف الملوك مكدرا ؟
لم تبغِ بالضعفاء عدواناً ولم   تقذف على حرَم الشريعة عسكرا

***

نظراً واحساناً الى عُميانه   وكُن المسيح مداوياً ومجبرا
والله ما تدري : لعلَّ كفيفهم   يوماً يكون أبا العلاء المبصرا
لو تشتريه بنصف مُلكك لم تجد   غبناً ، وجلَّ المشتري والمشترى
إن فاتهم من نورَ وجهك فائتٌ   لم يعدموا لوجوه برّك منظرا
لمسوا نداك كمن يشاهد مزنةً   ويد الضرير وراءها عينٌ ترى[1]
زدهم أبا الفاروق انك خيّر   من خيّر ولد الكريم الخيّرا

***

يا فتية المعمور[2] سار حديثكم   ندًّا بأفواه الرّكاب وعنبرا
المعهد القدسيُّ كان نديُّه   قطباً لدائرة البلاد ومحورا
ولدت قضيّتها على محرابه   وحبت به طفلاً وشبَّت معصرا[3]
وتقدمت تزجي الصفوف كأنها   (جاندرك)[4] في يدها اللواء مظفّرا

***

هُزّوا القرى من كهفها ورقيمها   أنتم لعمرُ الله أعصاب القرى
الغافل الأميُّ ينطق عنكمو   كالببّغاء مردّداً ومكرّرا
يمسي ويصبح في أوامر دينه   وأمور دنياه بكم مستبصرا
لو قلتمو اختر للنيابة[5] جاهلاً   أو للخطابة باقلاً[6] لتخيّرا
ذُكر الرجال له فألّه عصبةً   منهم، وفسّق آخرين، وكفّرا[7]

---

(١) المزنة السحابة (٢) الازهر (٣) طفلا أي طفلة والمعصر الفتاة المدركة والقضية هي القضية السياسية في ثورة سنة ١٩١٩ (٤) فتاة فرنسية بتول قادت الجيوش الفرنسية في حرب مع الانجليز ثم أسرت وقتلت حرقاً (٥) في مجلسي البرلمان (٦) باقل عربي ضرب به المثل في الفهاهة .
(٧) فسقه رماه بالفسق ، وكفره رماه بالكفر

آباؤكم قرأوا عليه ورتلوا بالأمس تاريخ الرجال مزوّرا

***

كونوا سياج العرش والتمسوا له نصراً من الملك العزيز مؤزّرا
وتفيأوا الدستور تحت ظلاله كنفاً أهشّ من الرياض وأنضرا
لا تجعلوه هوًى وخلفاً بينكم ومجرّ دنيا للنفوس ومتجرا
اليوم صرّحت الأمور فأظهرت ما كان من خدع السياسة مضمرا

***

حظّ رجونا الخير من إقباله عاث المفرّق فيه حتى أدبرا
دار النيابة هيئت درجاتها فليرق في الدرج الذوائب والذرا(١)
الصّارخون إذا أسيء إلى الحمى والذّائدون إذا أغير على الشّرى
لا الجاهلون العاجزون ولا الألى يمشون في ذهب القيود تبخترا

لقد أرسل شوقي هذه الدّرة العصماء في سنة ١٩٢٤ عندما بدىء باصلاح الأزهر ، وكانت الأمة قد انفكت وحدتها ، وانفصمت عروتها ، ولا نزال نعاني ذلك الانقسام حتى اليوم ، فظهر انقسامنا كأنه تقليد سياسي تجري عليه أحزاب هذه الأمة . فنحن اليوم من حيث الاجماع على غايات مصر الوطنية حيث تركنا شوقي سنة ١٩٢٤ . وما أثبتنا هذه القصيدة هنا وقدّمنا بها لهذا البحث إلاّ للذكرى ، وإن الذكرى لتنفع المؤمنين .

اسماعيل مظهر

---

(١) المراد بالذوائب والذرا الطبقة المنتقاة من الامة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

دار حوار كثير في الأيام الأخيرة بين رجال الصحافة والقانون ثم البرلمان حول الازهر بمناسبة تعيين شيخ له خلفاً للمرحوم الاستاذ المراغي ، وشغل هذا الحوار جميع الطبقات تقريباً . ولفت نظري أن كثيراً من الناس لايعلمون شيئاً عن الازهر ، لدرجة أني سئلت عنه غير مرة أسئلة من رجال أعتقد انه لا يصح الجهل بها منهم ، ففكرت في أن أنشر صورة عن الازهر تعطي القارىء فكرة عنه وفي الوقت نفسه أرجو أن تكون باعثاً على العناية بأمر الازهر أقدم جامعة على ظهر الارض ومن أعظم مفاخر مصر في تاريخها الاسلامي .

ومن حسن الحظ أن أعطيت دفة سفينة الازهر الى رجل مصلح بطبعه جامعي بفطرته خبر النظام الجامعي في أوربا وفي غيرها ومثقف في الناحيتين الشرقية والغربية فهو قدير على السير به مع قافلة الزمن بما يناسب روح العصر ويتمشى مع ما ورثنا من عرف صحيح، ذلك هو فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق . وفضيلته علم من أعلام الفكر ومؤمن من كبار المؤمنين المخلصين للأزهر الغيورين عليه المهتمين بشئونه فأملنا كبير فيه .

ولقد رجعت لهذا البحث الى : —

١ — كتاب دعائم الاسلام للقاضي أبي حنيفة النعمان — غير أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب بل ذلك رجل كان مالكي المذهب ثم اعتنق مذهب الروافض وأصبح من كبار المؤلفين فيه — وهو مخطوط بالمكتبة الملكية تحت رقم ١٩٦٦٥ ب

٢ — شرح الاخبار لأبي حنيفة أيضاً وهو كسابقه تحت رقم ٢٠٦٢ ٧

٣ — مجموعة للسيوطي يقال انها بخط يده وهي بالمكتبة الازهرية تحت رقم ٢٠٤

٤ — البحر المحيط للزركشي وهو مخطوط أيضاً بمكتبة فضيلة الاستاذ عميد كلية أصول الدين الشيخ عيسى منون

٥ — خطط المقريزي « طبع مطبعة النيل »

٦ — حسن المحاضرة للسيوطي « مطبعة الموسوعات »

٧ — شذرات الذهب لابن العماد « نشر مكتبة القدسي »

٨ — الضوء اللامع للسخاوي « نشر مكتبة القدسي »

٩ — خلاصة الأثر للمحبي « نشر محمد باشا عارف »

١٠ — طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي طبع المطبعة الحسينية .

١١ — معجم المطبوعات العربية والمعربة لاليان يوسف سركيس بمكتبة مجمع فؤاد الأول للغة العربية تحت رقم ١٥٨٦

١٢ — الملل والنحل للشهرستاني على هامش الفصل لابن حزم « المطبعة الادبية »

١٣ — تهذيب الاسماء واللغات للنووي « المطبعة المنيرية »

١٤ — مقدمة المجموع للنووي أيضاً « المطبعة المنيرية »

١٥ — مقدمة عمدة القاري للعيني « المطبعة المنيرية »

١٦ — المنتخبات لمعالي احمد لطفي السيد باشا

١٧ — تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده للسيد محمد رشيد رضا

١٨ — الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك « المطبعة الاميرية »

١٩ — شرح ديوان ابن الفارض « المطبعة الازهرية »

٢٠ — عجائب الآثار للجبرتي « المطبعة الأزهرية »

٢١ — دائرة المعارف الاسلامية

٢٢ — فوات الوفيات لابن شاكر

وقد سلكت في هذا البحث أولاً كلمة موجزة عن تاريخ الأزهر المادي ولم أشأ أن

أسترسل في هذه الناحية فقد تكلم فيها كثيرون . وقدمت لتاريخه العلمي بكلمة موجزة أيضاً عن الحركة العلمية الاسلامية بمصر قبل أن يكون الأزهر . وفي تاريخه العلمي أعطيت فكرة عن مذهب الروافض هؤلاء الذين أنشأوا الأزهر لخدمة مذهبهم كما أعطيته فكرة عن رأيهم في تفسير القرآن الكريم . ومثلاً عن فقههم الذي ابتدأ الأزهر حياته العلمية الرسمية به ونهجت هذا المنهج لأن هذا المذهب وما يتعلق به هو الذي كان يدرّس في الأزهر في أول حياته العلمية . بل لأجله أنشىء الازهر .

بعد ذلك تكلمت عن إنتاج الأزهر في بعض رجاله، وساقني هذا الى ذكر أشهر الكتب التي تدرّس فيه . وتكلمت عن ظاهرتين اثنتين أضرّتا بسير الدراسات الاسلامية وهي ظاهرة تحريم المنطق والفلسفة ، وظاهرة النهي عن التأليف وأن هذه الأخيرة وجهت انتاج الأزهر الى الشروح والحواشي والتقارير . وتكلمت عن مجهود الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده في اصلاح الأزهر مبيناً الخطوات التي خطاها الأزهر في سبيل هذا الاصلاح إلى أن وصل إلى هذه الحال التي نراها الآن . وذكرت رؤساء الأزهر من أول شيخ تولى أمره إلى الآن مبيناً كيف كان يدار قبل أن تنشأ وظيفة المشيخة مترجماً لبعض شيوخه تراجم مختصرة صدرتها بكلمة عن فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخه الحالي . مبيناً بعض الحوادث التي وقعت فيه بسبب المشيخة . وأخيراً أتيت باحصاء عن طلابه وعدد المتخرجين فيه في السنة الماضية وعن ميزانيته ومكتبته . ثم أدليت برأيي في توجيه الأزهر في هذا العصر الذري .

وعند الكلام على السيوطي في انتاج الأزهر نشرت تصديره عن أول سورة الفتح بتعليق فضيلة الأستاذ الأكبر عليه . فانه يعطينا مثلاً عن البحث والدرس والاشراف العلمي في ذلك الوقت وهذا التصدير كان موضوع الدرس الذي ألقاه فضيلته أمام جلالتي ملك مصر فاروق الاول ، وملك الجزيرة عبد العزيز آل سعود في الجامع الأزهر في ثاني يوم للزيارة الملكية في يناير ١٩٤٦ . كل هذا قدمته خالصاً لوجه الله والعلم ، والله ولي السداد والرشاد .

مصر الجديدة : ربيع الثاني سنة ١٣٦٥
مارس سنة ١٩٤٦

منصور علي رجب

كلمة

عن تاريخه المادي

بين حي الديلم في شمال القاهرة وحي الأتراك في الجنوب وبعد عام من فتح من يسمون أنفسهم الفاطميين مصر بنى جوهر الصقلي قائد جند المعز لدين الله الجامع الأزهر فكان أول مسجد أسس بالقاهرة وثالث مسجد بالديار المصرية . الأول جامع عمرو بالفسطاط . والثاني جامع احمد بن طولون بالقطائع . والثالث الأزهر بالقاهرة .

شرع جوهر في بنائه في جمادى الأولى سنة ٣٥٩ ، وكمل في رمضان سنة ٣٦١ هـ ، وفتح للصلاة في هـذا الشهر الذي كمل فيه البناء .

وكتب جوهر بدائرة القبة التي في الرواق الأول كلمة تاريخها سنة ٣٦٠ هـ وهي على يمين المحراب والمنبر نصها بعد البسملة : « مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين على يد عبـده جوهر الكاتب الصقلي وذلك في سنة ٣٦٠ هـ » وليس لهذه الكلمة الآن وجود .

ظلّ الأزهر في عناية دولة الروافض ، ولما دالت تغير الحال في عهد الأيوبيين إذ كانوا سنيين فحاولوا محو كل أثر للدولة البائدة وحملوا كافة الناس على التزام مذهب ابي الحسن الأشعري .

وفي سنة ٧٠٩ هـ بنى الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار نقيب الجيوش المدرسة الطيبرسية وجعلها مسجداً لله تعالى زيادة في الجامع الأزهر وجاء أقبغا عبد الواحد فبنى المدرسة الاقبغاوية سنة ٧٤٠ هـ وألحقها بالجامع الأزهر .

وفي سنة ٧٦١ هـ أحبَّ الأمير الطواشي سعد الدين بشير الجامدار الناصري عندما سكن بجوار الأزهر أن يؤثر فيـه أثراً صالحاً . فاستأذن السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون في عمارة الجامع فأذن له في ذلك . وكان قد استجدَّ بالجامع عدة مقاصير . ووضعت فيه

مناديق وخزائن حتى ضيقته فأخرج الصناديق والخزائن ونزع تلك المقاصير وتتبع جدرانه وسقوفه بالاصلاح حتى عادت كأنها جديدة وبيض الجامع كله وبلطه ومنع النـاس من المرور فيه .

وفي سنة ٨٤٤ هـ شيد الطواشي جوهر القنقبائي المدرسة الجوهرية بالقرب منه عند بابه الصغير تجاه زاوية العميان — توفي جوهر في سنة انشائها فدفن بها — وهي مدرسة صغيرة ليس بها عمد وتشتمل على لوانين متقابلين وبها قبلة صغيرة .

وجاء الملك الأشرف ابو النصر قايتباي — توفي سنة ٩٠١ هـ — فأنشأ به ميضأة وفسقية وسبيلاً ومكتباً على باب الجامع . والملك الظاهر أبو سعيد قانصوه جاء فرتب به الخبز في شهر رمضان . ولما جاء الملك الأشرف قانصوه الغوري — آخر المماليك (٩٠٦ — ٩٢٢ هـ) — ضاعف ذلك في أيامه أضعافاً كثيرة وبنى المئذنة ذات البرجين .

وجاء عثمان كتخدا القزدوغلي فبنى زاوية العميان في سنة ١١٤٨ هـ .

وبعد ذلك جاء عبد الرحمن كتخدا — المتوفى سنة ١١٩٠ هـ — فكان من أكثر الناس إحساناً الى الازهر فهو الذى أنشـأ المقصورة المعروفة الآن بين الازهريين « بالزيدة » أو بالليوان وهي أصغر من المقصورة القديمة وينفصلها عنها ايوان ممتد بطولها ارتفاعه أكثر من نصف ذراع وبنى بها محراباً للصلاة وأقام بها منبراً للخطابة .

وأنشأ لهذه المقصورة باباً عظيماً تجـاه حارة الباطلية [1] وبنى بأعلاه مكتباً لتحفيظ أيتام المسلمين القرآن .

وإذا كانت الحمـلة الفرنسية قد أنزلت بالازهر خسائر فادحة فان عطف الأسرة العلوية على الازهر يكتب لها بمداد الفخر . فالازهر يحتفظ لهذه الاسرة وبخاصة لمنشيء الازهر الحديث المغفور له الملك فؤاد الاول، يحتفظ له بآثار ستبقى خالدة خلود الدهر وقبل أن نرى هذا الاثر الخالد نجمل القول في تاريخ الازهر العلمي ونظامه الداخلي في عصوره القديمة مقدمين لذلك بكلمة موجزة عن الحركة العلمية الاسلامية بمصر قبل أن يكون الازهر .

---

(١) عرفت بطائفة يقال لهم الباطلية . وسبب هذه التسمية أن المعز لما قسم العطاء في الناس جاءت طائفة نسألت العطاء فقيل لها فرغ ما كان حاضراً فقالوا رحنا نحن في الباطل فسموا الباطلية وعرفت هذه الحارة بهم والآن غير اسمها بشارع « المقريزي »

كلمة

عن الحركة العلمية الاسلامية بمصر
قبل أن يكون الازهر

ابتدأت الحركة العلمية بمصر بعد الفتح بتحفيظ القرآن الكريم وأول من أقرأ القرآن بها رجل من الصحابة شهد فتح مصر هو عُبيْد بن مخمر المغافري ويكنى أبا أمية [1] وكان يفتي المسلمين في أمور دينهم عبد الله بن عمرو بن العاص. وفي سنة ٣٦ هـ عرف المصريون نوعاً من الدرس لم يكن من قبل، ذلك هو التحدث في الترغيب والترهيب والفتن، وأول من أوجد بمصر هـذا الدرس هو سليم بن عتر النجيبي [2] وهو أول من أوجد بمصر سجلاً في المواريث.

أخذت هـذه الحركة تنمو وتزداد شيئاً فشيئاً حتى جاء يزيد بن حبيب في عهد عمر بن عبـد العزيز فزاد فيهـا كذلك شيئاً لم يكن، ذلك انه كان أول من نشر العلم بمصر في الحلال والحرام [3].

وإذا كان عمر ابن عبد العزيز قد جعل الفتيا بمصر الى ثلاثة رجال منهم يزيد بن حبيب هذا الذي وضع لبنة في أساس الحركة العلمية بمصر. فلقد جاء عبد الرحمن بن ميسرة مولى الملامس الحضرمي فزاد في درس القرآن الـكريم بمصر شيئاً لم يكن، ذلك انه كان أول الناس اقراء بمصر بحرف نافع. وعرفت مصر منه هذا الدرس قبل الخمسين ومائة [4].

(١) خطط المقريزي جـ ٤ ص ١٤٣

(٢) من الطبقة الاولى من التابعين ولاه معاوية القضاء بمصر فمكث بها قاضياً عشرين سنة وتوفي بدمياط سنة ٧٥ (حسن المحاضرة للسيوطي جـ ١ ص ١٣٢هـ)

(٣) يزيد بن حبيب هذا هو أستاذ الليث بن سعد وكان الليث يقول عنه هو سيدنا وعالمنا توفي ١٢٨ هـ

(٤) توفي ابن ميسرة سنة ١٨٨هـ وكان فقيهاً عفيفاً شريفاً.

ولقد عرفت مصر في هذه الناحية طائفة جليلة من أئمة القراءات منهم : عثمان بن سعيد الملقب بورش ولقد أخذ القراءة عن نافع وهو الذي لقبه بورش لشدة بياضه (١) .

على هذا النحو كان بمصر درس القراءات وتحفيظ القرآن الكريم بجواره درس القصص. ودرس أحكام الشريعة وجد في هذا الدرس الأخير يزيد بن حبيب فتلميذه الليث بن سعد . وفي أيام الليث بن سعد هذا دخل مصر بعلم مالك عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيي مولى جمح — توفى بالاسكندرية سنة ١٦٣ هـ — فروى عنه الليث بن سعد واشتهر مذهب مالك بمصر ولم يزل بها مشتهراً حتى قدم الى مصر محمد بن ادريس الشافعي في سنة ١٩٨ فصحبه جماعة من أهل مصر منهم الربيع بن سليمان . والمزني والبويطي وكتبوا عنه ما ألفه وحملوا به فاشتهر بمصر مذهب الشافعي كما اشتهر بها مذهب مالك من قبل .

أما مذهب أبي حنيفة فلم يكن أهل مصر يعرفونه كما يعرفون مذهب مالك والشافعي في ذلك الوقت . ويعلل المقريزي سبب رغبتهم عنه أن اسماعيل بن اليسع الكوفي الذي تولى القضاء بمصر بعد ابن لهيعة كان يذهب الى قول أبي حنيفة وكان مذهبه ابطال الاحباس ولم يكن هذا المذهب معروفاً بمصر لذلك ثقل عليهم أمره وسئموه (٢)

ولهذه المناسبة نقول أن فقهاء الحنابلة لم يسمع عنهم بمصر إلاّ في القرن السابع وما بعده وذلك أن الامام احمد كان في القرن الثالث ولم يبرز مذهبه خارج العراق إلاّ في القرن الرابع . وفي هذا القرن ملك الروافض مصر واضطهدوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة وأقاموا مذهبهم كما عرفنا . ويقول السيوطي « إن أول امام علمت حلوله بمصر الحافظ بن عبد الغني المقدسي صاحب العمدة (٣) »

اتسعت الحركة العلمية الاسلامية بمصر بعد أن دخلها مذهب مالك والشافعي وبعد أن وفد عليها من وفد وظهر فيها من العلماء من ظهر ، وإذا أردت أن تتخيلها أكثر فتخيل الشافعي

(١) أصله مصري قبطي . انتهت اليه رياسة الاقراء بالديار المصرية في زمانه توفى سنة ١٩٧ (راجع حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٢٣٠)

(٢) خطط المقريزي ج ٤ ص ١٤٥ (٣) راجع حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٢٢٨ ، والمقدسي هذا توفى بالقاهرة سنة ٦١١ هـ .

يلقي درس الفقه بمسجد عمرو أو الربيع بن سليمان[١] يلقي درس الحديث بجامع احمد بن طولون، وتخيل الشافعي وابن هشام قد اجتمعا ليتناشدا شعر العرب.

تخيلها في هؤلاء الأئمة قبل أن يكون الأزهر. تخيلها في أئمة الحديث والنحو واللغة والشعر والأدب بجوار ما تقدم من أئمة الفقه والقراءات.

تخيل بمصر قبل أن يكون الأزهر. النسائي[٢] من أئمة الحديث وعبد الرحمن بن عمر ابن أبي الفهم[٣] وسليمان بن داود بن حماد[٤] من فقهاء المالكية والمزني[٥] والبويطي[٦] من فقهاء الشافعية. والقاضي بكار بن قتيبة[٧] وابن أبي عمران موسى بن عيسى البغدادي[٨] من فقهاء الحنفية وابن هشام[٩] وابن ولاد[١٠] من أئمة النحو واللغة وهذا ابن الحكم[١١] وسعيد بن يونس[١٢] وأبو عمر الكندي[١٣] من أئمة التاريخ وكثير عزة[١٤] وأبو تمام[١٥] والمتنبي[١٦] من الشعراء.

(١) صاحب الامام الشافعي وراوي كتبه والمؤذن بجامع الفسطاط. روى عنه أصحاب السنن الاربعة والطحاوي وأبو زرعه. توفي سنة ٢٧٠ هـ.

(٢) كان يسكن بزقاق القناديل بجوار مسجد عمرو بالفسطاط. قال الذهبي هو أحفظ من مسلم. وقال أبو علي النيسابوري رافقت من ائمة الحديث أربعة منهم النسائي بمصر. وقال الحاكم كان النسائي أفقه مشايخ مصر في عصره وأعرفهم بالصحيح والسقيم من الآثار وأعرفهم بالرجال. له من المصنفات السنن الكبرى والصغرى وهي احدى الكتب الستة خرج من مصر سنة ٣٠٣ ومات بمكة (حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ١٦٣) (٣) روى عنه البخاري وأبو زرعه توفي سنة ٢٣٤ (٤) قرأ على ورش وروى عنه أبو داود والنسائي توفي سنة ٢٥٣

(٥) قال عنه الشافعي لو ناظر الشيطان لغلبه وقال عنه الرافعي: المزني صاحب مذهب مستقل وله كتب كثيرة منها المبسوط والمختصر توفي سنة ١٦٤ ودفن قريباً من الشافعي (٦) خليفة الشافعي في حلقته بعده حسده قاضي مصر فسعى به الى الواثق بالله أيام المحنة بخلق القرآن فحمل الى بغداد مغلولا مقيداً فحبس بها الى أن مات في القيد والسجن سنة ٢٣١ هـ (٧) قاضي الديار المصرية وممن روى عنه ابن خزيمة وله تصانيف في الشروط والوثائق والرد على الشافعي فيما نقضه على أبي حنيفة توفي سنة ٢٧٠ (٨) تلميذ محمد بن سماعة وحدث عن عاصم بن علي وهو شيخ الطحاوي توفي سنة ٢٧٥ هـ

(٩) هذب سيرة ابن اسحق فصارت تنسب اليه توفي سنة ٢١٨ هـ (١٠) مصنف كتاب الانتصار لسيبويه وشيخ الديار المصرية في العربية توفي سنة ٣٣٢ هـ (١١) مصنف فتوح مصر وروى عنه النسائي وأبو حاتم (١٢) صاحب تاريخ مصر (١٣) صنف فضائل مصر وكتاب قضاة مصر وكان في زمن كافور (١٤) أقام بمصر مدة في كنف عبد العزيز بن مروان قال له قائل ما بال شعرك قد قصرت فيه فقال ماتت عزة فكيف أطرب، وذهب الشباب فلا أعجب، ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب وانما الشعر عن هذه الخلال. (١٥) كان في مصر يسقي الماء في مسجد عمرو توفي بالموصل سنة ٢٢٨ هـ (١٦) أقام بمصر مدة أربع سنين عند كافور الاخشيد يمدحه. قتل سنة ٣٥٤ هـ.

هذه الحركة العلمية القوية في ظل هؤلاء العلماء الذين كانوا في مصر مابين زائر ومقيم ، لو قدّر لها أن تستمر كما كانت وقتئذ في اخلاص الشافعي لفقهه ، والنسائي لحديثه ، وابن هشام للغته ، وأبي تمام لشعره ، لو قدّر لها أن تستمر على هذا النحو بمصر في كل عصورها لتغير وجه التاريخ فيها ، ليس في ذلك من شك .

ظلّ جامع عمر مهد الحركة العلمية في الفسطاط يسنده في ذلك جامع احمد بن طولون في القطائع حتى ملك الروافض مصر فبنوا القاهرة وبنوّا فيها الأزهر .



تاريخه العلمي

اتفقت كلمة المؤرخين على أن أول تاريخ علمي للأزهر يبتدىء في صفر من سنة ٣٦٥ هـ ففي هذا التاريخ ابتدأ علي بن النعمان القاضي أحد فقهاء مذهب الروافض يجلس في الأزهر ويملي مختصر أبيه في فقه المذهب، وكانوا يسمونه فقه آل البيت. وعلى هذا يكون هذا الكتاب المسمى « بالاختصار » أول كتاب درس في الأزهر في تاريخ حياته العلمية. ولقد هداني بحثي إلى أن هذا الكتاب غير موجود بمصر. ويا حبذا لو أمر فضيلة مولانا الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ مصطفى عبد الرازق بالبحث عن هذا الكتاب في مظان وجوده ليكون في مكتبة الأزهر تحفة تاريخية باعتباره أول كتاب درّس فيه.

وافتتاح الأزهر داراً للعلم في ذلك التاريخ، كان في آخر عهد المعز لدين الله، أول خلفاء هذه الدولة بمصر. وفي عهد العزيز بالله بن المعز لدين الله سنة ٣٧٨ هـ. رُتب في الأزهر أول درس بمعلوم جار من قبل السلطان. وابتدأ الأزهر حياته العلمية بدرس الفقه بالمجان، وليس هذا فحسب، بل فوق هذا كان ينفق على طلبته ما يكفيهم، وبنيت لهم دار بجوار الأزهر ليقطنوا فيها. وكان هذا التشجيع بالانفاق والسكنى في أيام وزارة يعقوب بن كلس الذي لم يكتف بهذا بل كان يعطيهم هو أيضاً من ماله الخاص في كل سنة.

ابتدأ الأزهر حياته العلمية المنظمة بخمسة وثلاثين طالباً. ولم يشجع هؤلاء بما رأينا فحسب، بل كان هناك لون آخر من ألوان التشجيع. فيحدثنا المقريزي أن العزيز بالله « خلع عليهم في يوم عيد فطر وحملهم على بغلات ». ولم يكن الأزهر في ذلك العهد مقصوراً على الرجال فحسب، بل كان للمرأة فيه نصيب فكنَّ يفردنَ فيه بمجلس خاص [1].

---

(١) خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٢٦

وقد يكون من الحسن بهذه المناسبة أن أقول إنَّ المرأة المسلمة بمصر وغير مصر كانت تصل الى درجة من الثقافة بحيث يجاز لهـا بالتدريس والافتاء . ومدلول الأجازات من الأساتذة في ذلك العصر كان يساوي الشهادات عندنا الآن . فمثـلاً يحدّثنا ابن العماد صاحب شذرات الذهب أن ضياء الدين بن منصور السعدي المقدسي الحنبلي محدِّث عصره سمع بدمشق من ابي المجد البانياني وابن الموازيني وغيرهما . وبمصر سمع من البوصيري وفاطمة بنت سعد الخير .

وسمعت فاطمة بنت مؤرخ الشام ابن عساكر من ابن طبرزد وأجاز لهـا الصيدلاني . وكانت كريمة بنت عبـد الوهاب المعروفة ببنت الحبقبق راوية وأجاز لها مسعود الثقفي . وروت هدية بنت عبد الحميد المقدسية الصحيح عن الزبيدي . وما أريد أن استطرد في ضرب الأمثال فأمر هذا مشهور . وإذا كان من الحسن أن استطردنا بهـذه الكلمة عن المرأة . فقد يكون من الواجب أن نعرف شيئاً عن فقه الروافض الذي ابتدأ الأزهر حياته العلمية به .

حكم أصحاب هذا المذهب مصر أكثر من قرنين اثنين من سنة ٣٥٨ هـ الى سنة ٥٦٧ هـ نشروا فيها مذهبهم بكل الوسائل . ومذهبهم هذا هو مذهب الاسماعيلية الباطنية . وظل هذا المذهب هو المذهب الرسمي لمصر يعمل به القضاء والفتيا اذا استثنينا فترة وجيزة جلس فيها للقضاء بمصر أربعة قضاة يحكم كل منهم بمذهبه ويورّث على مقتضاه . أحدهم اسماعيلي، وثانيهم امامي ، وثالثهم مالـكي، والرابع شافعي . وكانت هذه الفترة في سنة ٥٢٥ هـ بعد أن استولى على الوزارة بطريق الثورة احمد بن الأفضل شاهنشاه ابن امير الجيوش . ولـكن هذا النظام لم يدم بل عاد الى ما كان عليه لمذهب الاسماعيلية بعد أن قتل الوزير في سنة ٥٢٦ هـ . واستمرّ العمل به وأنكر ما عداه الى أنجاء صلاح الدين الأيوبي فصرف قضاة هذا المذهب وفوّض القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي فلم ينب عنه في اقاليم مصر الاَّ من كان شافعي المذهب فتظاهر الناس بغيره واختفى مذهب الاسماعيلية من أرض مصر وكانت منهم بقية في الصعيد في زمن علي بن وهب القشيري الشهير بابن دقيق العيد - توفي بقوص ٦٦٧ هـ - فأجرى مذهب أهل السنَّـة وأزال مذهب الروافض .

كان مذهب الروافض هذا يقوم على أسس منها نظرية الوصية وليس هذا مكان الـكلام

على هذه النظرية ومن أين نبتت بل يكفي أن نقول : إن أول من دعا اليها في الاسلام هو عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء «أسلم سنة ٢٩ هـ . في خلافة عثمان» وأخذ يطوف بهذه النظرية البلدان الاسلامية ومنها مصر وانتهى به المطاف الى المدينة حيث قامت الثورة على عثمان .

***

ونظرية الوصية هذه ترمي الى أن النبي صلوات الله عليه قد وصى لعلي بالخلافة من بعده. وعليٌّ عند سائر فرق الروافض إمام معصوم مفروضة طاعته فيجمعهم القول بامامته نصًّا ووصاية ، وبأن الامامة لا تخرج عن أولاده ، وان خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية « حذر » من عنده . فليست الامامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة . ويقام الامام بتنصيبهم بل هي قضية أصولية وهي ركن من أركان الدين لا يجوز للرسول إهماله وإغفاله ولا تفويضه الى العامة وإرساله .

وعندهم أن الاسلام بني على سبع دعائم روى في كتاب« دعائم الاسلام» عن جعفر بن محمد أنه قال : بني الاسلام على سبع دعائم . الولاية وهي أفضلها وبها وبالوالي يوصل إلى معرفتها . والطهارة . والصلاة . والزكاة . والصوم . والحج . والجهاد . وكتاب دعائم الإسلام هذا الذي وردت فيه هذه الرواية هو للقاضي أبي حنيفة النعمان . وكتابه هذا من أمهات كتبهم حتى ان الظاهر جعل جائزة مالية لمن يحفظه وهذا الكتاب موجود منه الجزء الاول بالمكتبة الملكية وهو بالتصوير الشمسي مأخوذ عن نسخة خطية بمتحف ليدن .

ويستدلون على أن النبي صلوات الله عليه قد وصى لعلي بالخلافة من بعده بحديث غدير خم — غدير خُم على بعد ثلاثة أميال من الجحفة بسرة الطريق — وهذا الحديث موجود في كتاب شرح الأخبار وهو أيضاً للقاضي أبي حنيفة النعمان . ورواه احمد في مسنده ونقله عنه المقريزي بعبارة تختلف عن عبارة شرح الأخبار والحديث موجود بالمسند ج ٢ ص٣٣٢، جـ٣ ص ١٢٠ ، ١٤٥ ، جـ ٤ ص ١٠٢

ولهذا كانوا يعتقدون أن أبا بكر وعمر قد خرجا على هذا النص . وأنقل هنا بيتين جاءا في كتاب شرح الأخبار بالصفحة ١٧٧ تحت عنوان « لله درّ الناظم » وكتاب شرح

الأخبار هذا هو الذي تقدّم ذكره للقاضي أبي حنيفة النعمان . وقد اطلع عليه المعز لدين الله بعد أن ألف فأثبت منه ما أثبته وأسقط منه ما أنكره . وها هي ذي الأبيات :

صدّيقهم بعد النبي تزندقا وكذاك فاروق الصحابة فرّقا

بين النبي وآله ووصيه والمسلمين درا بذا من حققا

وكانوا يذهبون الى تأويل آي القرآن الكريم تأويلاً يتمشى مع عقيدتهم في الامامة . فمثلاً يرون في قول الله تعالى « أمْ يحسدُون الناس على ما آتاهم الله من فضله » يرون أنهم هم الناس المحسودون على ما آتاهم الله من الامامة دون خلق الله جميعاً .

وفي قول الله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدُّوا الأمانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » يقولون إيانا عني بهذا أن يؤدي كل إمام لمن يكون بعده الكتب والعلم والسلاح .

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » يقولون نحن الصادقون . وهذا الرأي في تفسير هذه الآيات نقلته عن كتاب دعائم الاسلام من صفحة ١٥

والى هنا أظنني قد صوّرت الى حدٍّ ما بعض ما كان يدرس في الأزهر في فجر حياته العلمية وأعطيت القارىء فكرة عن المذهب من ناحية العقيدة كما أعطيته فكرة عن رأيهم في بعض تفسير آي القرآن المجيد .

بقي أن نعرف شيئاً عن درس الفقه .

خالفوا في كثير منه ما اتفقت عليه المذاهب الأخرى . فمثلاً أمروا بألاَّ يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ولا ابن أخ ولا ابن عم . ولا يرث مع الولد الذكر أو الأنثى إلاَّ الزوج أو الزوجة والأبوان والجدَّة ، ولا يرث مع الام إلاَّ من يرث مع الولد (١) .

واكتفينا في هذا بالنقل عن المقريزي ، وكان يحسن أن أنقل عن كتب القوم أنفسهم في الفقه

وبهذا حكموا من فجر حكمهم بمصر وكانوا يعتبرون الخروج على هذه الاحكام عداوة لفاطمة .

(١) خطط المقريزي جـ ٤ ص ١٥٦

جاءوا للصوم فأمروا بأن يبدأ من اليوم الذي يرى في عشيته الهلال ، وأوّلوا لذلك الحديث القائل : « صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته » فقالوا معناها صوموا اليوم الذي يرى في عشيته الهلال كما يقال تهيئوا لاستقباله فيقدم التهيؤ على الاستقبال .

واضطرهم الى ذلك كله مذهبهم في أوائل الشهور فكانوا يرون أن ستة أشهر من السنة تامة وستة أشهر ناقصة وأن كل ناقص منها فهو تال لتامٍّ . فلما قصدوا استخراج الصوم والفطر على هذا الحساب خرج قبل الواجب بيوم في أغلب الاحيان فأوّلوا الحديث وصاموا على مذهبهم هذا الذي ينسبونه الى جعفر بن محمد الصادق وزعموا أنه سرٌ من أسرار النبوّة (١) .

هذا وقد أمر القوم بأن يؤذن لصلاة الظهر في أول الساعة السابعة ، ولصلاة العصر في أول الساعة التاسعة « بالعربي » وكانوا يمنعون صلاة الضحى وصلاة التراويح .

***

كان مذهب الروافض هو المذهب السائد في دولته ، وتزعّم الأزهر تدريسه وما يتصل به ، يسنده في ذلك جامع عمرو ، ومجلس الفقهاء في دار الوزير يعقوب ابن كلس ، سارت هذه الحركة العلمية التي يحمل لواءها الأزهر على هذا النحو واشتدت لما أن فتحت دار الحكمة في عهد الحاكم بأمر الله ثالث خلفاء هذه الدولة بمصر . وبعد أن افتتح الازهر حياته بدرس الفقه أصبحت الدائرة تتسع لغيره من العلوم وأصبح بجوار الأزهر من يشد أزره في الحركة العلمية فأصبح الأطباء ، والمنجمون ، بجوار الفقهاء والنحاة وأهل اللغة .

وكان الأزهر بجوار ذلك محلاً لتقاليد الروافض في الموالد والمواسم . فكان بيتاً من بيوت الله ، ومدرسة للعلم . ومكاناً لهذه التقاليد .

على هذه الصورة سار الأزهر مدة حكم الروافض .

(١) ج ٢ ص ٣٨٨ خطط المقريزي نقلا عن أبي الريحان البيروني في كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية .

وفي عهد الأيوبيين تغير الحال إذ كانوا سنيين فحاولوا محو كل أثر للدولة البائدة ، وحملوا كافة الناس على التزام مذهب أبي الحسن الأشعري [1] .

فمنع صلاح الدين الأيوبي الخطبة من الجامع — بحجة امتناع اقامة خطبتين في بلد واحد كما هو مذهب الشافعي — [2] وأقرها بالجامع الحاكمي لأنه أوسع . وقطع عن الأزهر كثيراً مما أوقفه عليه الحاكم ، ومكثت الخطبة معطلة من الجامع الأزهر نحو قرن من الزمان . وأخذ صلاح الدين الأيوبي في عمل شيء لم تعرفه مصر في تاريخها الاسلامي ذلك أنه شرع في بناء المدارس فبنى مدرسة للشافعية بجوار قبر الامام الشافعي من القرافة سماها المدرسة الناصرية فكانت أول مدرسة أنشئت بالديار المصرية وكان ذلك في سنة ٥٦٦ هـ ولما كملت وقف عليها الصاغة . وبعد أيام شرع في بناء مدرسة أخرى للمالكية بجوار جامع عمرو أيضاً سماها المدرسة القمحية ، ووقف عليها قيسارية بمصر وضيعة بالفيوم تعرف بالخيوشية . وكانت تدر القمح على الطلاب فنسبت اليه . وبذلك عرفت مصر نوعاً جديداً من دور العلم ليست لها به عهد من قبل وعلى هذا يعتبر صلاح الدين الأيوبي أول من أحدث إنشاء المدارس بالديار المصرية .

وفي سنة ٥٧٢ هـ أنشئت مدرسة للحنفية في القاهرة اسمها السيوفية ، وهي أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر . ثم أخذت تكثر بعد ذلك المدارس حتى أن المقريزي في خططه ترجم لخمس وسبعين مدرسة . وبهذه المناسبة أقول إن البلدان الاسلامية لم تنشأ فيها مدرسة إلا بعد الأربعمائة من سني الهجرة . وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في

....

(١) توفي سنة ٣٢٤ هـ وقيل بضع وثلاثين وثلمائة . اقتدى برأي زوج أمه — محمد بن عبد الوهاب الجبائي — في الاعتزال عدة سنين حتى صار من أئمة المعتزلة ثم رجع فسلك طريقاً بين النفي الذي هو مذهب الاعتزال وبين الاثبات الذي هو مذهب أهل التجسيم . صعد بجامع البصرة يوم الجمعة كرسياً ونادى بأعلى صوته من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فانا أعرفه بنفسي . أنا فلان بن فلان ، كنت أقول : بخلق القرآن ، وأن الله لا يرى بالابصار ، وأن أفعال الشر أنا أفعلها وأنا تائب مقلع فمال اليه جماعة وعولوا على رأيه منهم : أبو اسحق الاسفرايني وأبو اسحق الشيرازي . فانتشر المذهب في العراق أولا وانتقل منه الى الشام ، ومن الشام دخل مصر على يد صلاح الدين الايوبي .

(٢) كان صلاح الدين قد قلد وظيفة القضاء لقاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس فعمل بمقتضى مذهبه ومنع صلاة الجمعة في الازهر

الاسلام أهل نيسابور فبنيت بها المدرسة البيهقية . وبعد أن ذهبت هذه الدولة وجاء عهد المماليك اعتنى الملك الظاهر بيبرس بأمر الأزهر فأعاد اليه خطبة الجمعة في الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ وشجع العلم فيه وحذا حذوه كثير من الأمراء فزاد الأمير بيبك الخازندار مقصورة كبيرة رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الشافعي . ورتب فيها محدثاً ، وسبعة لقراءة القرآن ، ووقف على ذلك الأوقاف الدارة .

وفي سنة ٧٦١ هـ أحبَّ الأمير الطواشي سعد الدين بشير الجامدار الناصري عند ما سكن بجوار الأزهر أن يؤثر فيه أثراً صالحاً فأنشأ فيه مما أسداه إليه درساً لفقه الحنفية يلقى في المحراب الكبير ، ووقف على هذا الدرس أوقافاً محلية .

على هذا النحو سار الأزهر في عناية المماليك ، غير أننا نلاحظ أن الجامع الحاكمي أخذ ينافس الأزهر بعد أن أصلح من زلزال سنة ٧٠٢ هـ فلقد جاء الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فأنشأ بالجامع الحاكمي دروساً أربعة لاقراء الفقه على مذاهب الأئمة الأربعة ، ودرساً لاقراء الحديث النبوي ، وجعل لكل درس مدرساً وعدَّة كثيرة من الطلبة ، فرتب في تدريس الشافعية قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي ، وفي تدريس الحنفية قاضي القضاة شمس الدين احمد السروجي الحنفي ، وفي تدريس المالكية قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي ، وفي تدريس الحنابلة قاضي القضاة شرف الدين الجواني ، وفي درس الحديث الشيخ سعد الدين مسعود الحارثي ، وفي درس النحو الشيخ أثير الدين أبا حيان ، وفي درس القراءات السبع الشيخ نور الدين الشطنوفي ، وفي التصدير لافادة العلوم علاء الدين علي بن اسماعيل القونوي ، وفي مشيخة الميعاد والمسجد عيسى بن الخشاب ، وأنشئت به مكتبة جليلة ، وجعل فيه عدّة متصدرين لتلقين القرآن الكريم وعدّة قراء يتناولون قراءته ، ومعلماً يقري أيتام المسلمين كتاب الله عزّ وجل وأوقفت على ذلك الأوقاف الدارة بناحية الجيزة ، والصعيد ، والاسكندرية [1]

وأكبر الظن عندي أن المرسوم الملكي الذي أصدره الملك الظاهر برقوق والذي كان يقضي

(١) خطط المقريزي ج ٤ ص ٥٧

« بأن من مات من مجاوري الأزهر من غير وارث شرعي وترك موجوداً فانه يأخذه المجاورون بالجامع » .

أكبر الظن عندي أن هذا المرسوم كان لتقوية الأزهر بعد أن طغت عليه المدارس والجامع الحاكمي . ولم يكتف الظاهر برقوق باصدار المرسوم بل أمر بنقشه على حجر عند الباب الكبير البحري ليكون بمثابة اعلان دائم .

وهذا المرسوم ظاهرة فذّة في تاريخ الأزهر فلقد جعل الطلبة أسرة واحدة وربط بينهم برباط كرباط النسب .

ونستطيع أن نعرف شيئاً عن نظامه والعلوم التي كانت تدرس فيه وبخاصة أيام المماليك الذين أنقذوه من اضطهاد الايوبيين السنيين ؟ بما يقدمه المقريزي . فلقد قدم لنا صورة لا بأس بها نرى فيها شيئاً عن علومه ونظامه وعدد طلبته وما كان يجري فيه قال :

« وفي سنة ٨١٨ هـ ولي نظر هذا الجامع مع الأمير سودوب القاضي حاجب الحجاب فجرت في أيام نظره عدّة حوادث لم يتفق مثلها وذلك أنه لم يزل في هذا الجامع منذ بني عدّة من الفقراء يلازمون الاقامة فيه وبلغت عدّتهم في هذه الأيام ٧٥٠ رجلاً ما بين عجم وزيالعة ومغاربة ومن أهل ريف مصر ولكل طائفة رواق يعرف بهم فلا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم . الفقه والتفسير والحديث والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة اعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى وكل قليل تحمل اليهم أنواع الاطعمة والخبز والحلاوات لاسيما في المواسم . فأمر هذا الناظر في جمادى الاولى من هذه السنة باخراج المجاورين من الجامع ومنعهم من الاقامة فيه واخراج ما كان لهم فيه من صناديق وخزائن .

في هذه الصورة نرى أن الازهر كان في ذلك الوقت فوق كونه مدرسة لطلب العلم تدرس فيها العلوم المختلفة ومسجداً للعبادة ومكاناً للوعظ كان بجوار ذلك داراً للتصوف .

وتروي دائرة المعارف الاسلامية عن ابن أياس أن ابن الفارض الصوفي كان مقيماً بالازهر .

ويروي رشيد بن غالب صاحب شرح ديوان ابن الفارض أن والد عمر بن الفارض حين

امتنع أن يقبل وظيفة قاضي القضاة ونزل عن حكم القاهرة ومصر بالنيابة عن الخليفة اعتزل الناس وانقطع الى الله تعالى بقاعة الخطابة بالجامع الازهر . ولعلّ ابنه كان يقيم معه بعد ان كان يعود من سياحته في جبل المقطم.وعلى كلٍ فقد كانت المساجد والمدارس في ذلك الوقت مفتوحة للرياضة الروحية بجوار درس العلم.وكانت المدارس والمساجد تقبل طلاّب التصوف كما كانت تقبل طلاّب العلم ، وتفتح صدرها لهؤلاء كما تفتح صدرها لأولئك . فمثلاً البدر العيني صاحب عمدة القاري شرح صحيح البخاري حينما حضر الى القاهرة مع شيخه العلامة السيرامي سنة ٧٨٨ هـ جعله الظاهر برقوق في عداد صوفية البرقوقية .

وترى الأمير الكبير سيف الدين شيخو الناصري لما أنشأ مسجده جعل فيه عشرين صوفيًّا وأقام الشيخ أكمل الدين محمد بن محمود الرومي الحنفي شيخاً لهم .ثم لما عمر الخانقاه تجاه الجامع نقل الأكمل والصوفية اليها وزاد عدّتهم .

ويحدثنا صاحب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: أن الشيخ احمد بن عيسى ابن غلاّب المنعوت بشهاب الدين الكلبي المالكي شيخ المحيَّا النبوي بالأزهر أخذ التصوف عن الشيخ الشعراني وجلس بالمحيَّا الشريف بعد والده ، ووالده جلس بعد الشيخ البلقيني وهو جلس بعد الشيخ صالح،وهو جلس بعد الشيخ نور الدين الشوقي المدفون بزاوية الشيخ عبد الوهاب الشعراني .

بناءً على كل هذا نستطيع أن نقول إن دور العلم ومنها الازهر في ذلك الوقت كانت تعرف لوناً من التعليم لايتصل بقاعدة منطقية أو نكتة بلاغية ، وإنما يتصل بمسألة روحية الغرض منها تطهير النفس وتصفيتها مما علق بها من أوزار الجسد حتى صار الأزهر بعلومه ورياضته الروحية قبلة المسلمين في جميع بقاع الارض حتى فاق المساجد والمدارس الأخرى في مصر وغير مصر ،بقي أن نتساءل :

لِمَ تسابق أهل الخير في حبس الأموال على الأزهر والاحسان إليه وفي مصر مساجد كثيرة منها ما هو أقدم من الأزهر،ومنها ما هو أوسع منه ؟ ولِمَ تزعم الأزهر هذه المدارس وهذه المساجد ؟ . إن الأزهر بحكم الظروف التي أحاطت به من يوم أن أنشىء أخذ صبغة دينية لم تكن لغيره من المساجد والمدارس فلقد أوجد لمذهب ديني هو مذهب الرافضة واضطهده

بعد ذلك رجال مذهب ديني هم الأيوبيون السنيون. ثم جاء المماليك فرفعوا عنه ما حلّ به من ظلم الايوبيين لخرج من هذا الصراع العنيف بشهرة يضاف إليها أن كان محلاً لاهل الطرق الصوفية يحيون به مجالس الذكر بجوار دروسه العلمية وإيوائه الفقراء والمعوزين. لكن هذا أخذ صبغة دينية قوية تقرّب اليها المتقرّبون لمحض الخير أو السياسة. فلخيرات الأزهر ولشهرة مصر في العلوم والفنون وبخاصة بعد أن سقطت بغداد على يد التتار وهاجر إليها كثير من علماء بغداد بقى الأزهر في شهرة عالمية ومكانة خاصة في العالم الاسلامي. ونظرة عامة لمن يؤمه من مختلف البلدان تعطينا فكرة عن مقدار هذه المكانة ومبلغ الاقبال عليه، ولننظر إليهم فيما كان لهم من أروقة يقيمون فيها، في الأزهر ستة وعشرون رواقاً وهم :

١ — رواق الصعايدة : وهو أشهر أروقة الأزهر من إنشاء الأمير عبد الرحمن كتخدا .

٢ — رواق الحرمين : مكة والمدينة: وهو رواق صغير بداخل باب المقصورة الجديدة .

٣ — الدكارنة : خاص بأهل التكرور وسنار ودارفور وغيرها .

٤ — الشوام : عن يمين الداخل من باب الشوام . يقال إنه من إنشاء السلطان قايتباي، ثم زاد فيه الأمير عثمان كتخدا، ثم الأمير عبد الرحمن كتخدا .

٥ — الجاوة : بين رواق السليمانية ورواق الشوام وهو لاهل جاوة وغيرهم من أهل جزر الهند الشرقية .

٦ — السليمانية : بين باب الشوام ورواق الجاوة وهو لأهل أفغانستان وخراسان .

٧ — المغاربة : بالجانب الغربي من صحن الجامع على يمين الداخل من باب المغاربة مكتوب على بابه « أمر بتجديده مولانا وسيدنا السلطان الملك الاشرف قايتباي على يد الخواجا مصطفى بن الخواجا محمود غفر الله لهما » . وهو رواق كبير هام .

٨ — السنارية : عن يمين الداخل من باب المغاربة . أنشأه المغفور له محمد علي باشا .

٩ — الأتراك : عن يسرة الداخل من باب المغاربة .

١٠ — البرنية : لاهل برنيو وما جاورها ، بين رواق الاتراك ورواق اليمنية .

١١ — الجبرتية : لأهل شاطىء الصومال . في داخل رواق البرنية .

١٢ — اليمن : لاهل جنوبي بلاد العرب . بجوار رواق البرنية .

—٤—

١٣ — الأكراد : عن يمين الداخل من باب المزينين.
١٤ — الهنود : عن يمين الداخل من باب المزينين .
١٥ — البغدادية : بأعلى رواق الهنود وهو للبغداديين من أهل العراق .
١٦ — البحاروة : عن شمال الداخل من باب المزينين بابه الى الصحن
١٧ — الفيومية : بين رواق البحاروة ورواق الشنوانية في الزاوية الشرقية من الصحن
١٨ — الاقبغاوية : بمدرسة الاقبغاوية وله باب على رواق الفيومية .
١٩ — الشنوانية : يعرف أيضاً برواق الاجاهرة ورواق الواطية وهو بجوار رواق الفيومية . لاهل الاجاهرة الواطية من جنوب الدلتا .
٢٠ — الحنفية : خلف رواق الفشنية والشنوانية والفيومية بين مرافق الميضأة الكبرى وبابه الى الصحن . هذا الرواق أراد عباس باشا الاول أن يبنيه لأهل بلدة الشيخ الباجوري ثم مات ولم يتمه فأكمله راتب باشا الكبير .
٢١ — الفشنية : بين باب رواق الحنفية وباب الميضأة وبابه الى الصحن .
٢٢ — ابن معمر : عن يمين الداخل الى الميضأة وهو رواق عام لجميع الاجناس .
٢٣ — البرابرة : عن شمال الداخل من باب المقصورة الشرقي وهو عبارة عن خزن ودواليب.
٢٤ — دكارنة صليح : لأهل اقليم بحيرة شاد وهو بجوار رواق الشراقوة وهو أيضاً مجرد خزن ودواليب .
٢٥ — الشراقوة : في النهاية البحرية من المقصورة القديمة ويسكنه فقراء الشرقية أنشأه الأمير ابراهيم بك الوالي تخليداً لذكرى الشيخ عبد الله الشرقاوي .
٢٦ — الحنابلة : بجوار زاوية العميان أنشأه عثمان كتخدا منشيء زاوية العميان [1]

وإذا كان في هذا ما يدلنا على شهرة الأزهر ومكانته في العالم الاسلامي فما يدلنا أيضاً على قدامته في هذا العالم أن كان يطلب إلى شيوخه من السلاطين أن يقرأوا لهم صحيح البخاري ويدعوا لهم بالنصر .

قال علي مبارك باشا في خططه وفي رجب سنة ١٢٠٢ هـ حضر إلى مينا بولاق أغا أسود وعلى يده مقرر لعبدي باشا وخلعة لشريف مكة وصحبته ألف قرش رومي أرسلها حضرة السلطان تفرق على طلبة العلم بالأزهر ويقرأون له صحيح البخاري ويدعون له بالنصر .

(١) خطط مصر الجديدة لعلي مبارك باشا ج ٤ ص ٣٠ وما بعدها ودائرة المعارف الاسلامية العدد الاول من المجلد الثاني ص ٥٦

انتاج الازهر

الأزهر فكرة نبتت في الأصل لخدمة مذهب معين ، ولذلك كان مع الزمن ميداناً لصراع مذهبي عنيف بين المؤيدين والمعارضين من ناحية ، وبين دولة تبيد وأخرى تنهض من ناحية أخرى . ومن حسن حظ الأزهر أن كان هذا الصراع فانه قد خدمه ووطد أركانه ورب ضارة نافعة . خدمه حتى أضحى يحمل علم الدراسات الاسلامية وما يتصل بها من قرب أو من بعد ، وبخاصة بعد أن سقطت بغداد على أيدي التتار . سار الأزهر في هذا التاريخ الطويل العريض ككل كائن حي ينهض آناً ويتغير آناً آخر . ولكن الذي لا ينكر والذي هو واضح وضوح الشمس في رابعة النهار أن الأزهر في هذا التاريخ الطويل قد خدم الاسلام والمسلمين في دينهم ولغتهم خدمات جليلة ، بل لقد خدم العالم أجمع بضرب الأمثال في الاخلاص للحق ، وكانت الرياضة الروحية من خصائصه المميزة له .

عرفت مصر في ظل الأزهر نخبة ممتازة من أعلام الفكر ، وأئمة الدين ، وكبار المصلحين . فكنت ترى فيهم الأصولي الثبت ، والفقيه الورع ، والمحدّث الحافظ ، والمفسّر البارع ، والأديب الظريف ، والعابد الزاهد ، والمرشد المخلص ، والكريم الجوّاد . بل كثيراً ما كنت ترى كل هذه الصفات مجتمعة في واحد من أولئك العلماء الأعلام الذين تفخر بهم مصر . ويفخر بهم الازهر .

وإن الانسان ليملكه العجب حقّاً ، وتأخذه الدهشة حين يرى إنتاج هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين أثروا في الأزهر وتأثروا به . خذ لذلك مثلاً : هذا تقي الدين القشيري القوصي الشهير بابن دقيق العيد «توفي سنة ٧٠٢ هـ» قاضي قضاة الشافعية ، اتفق ابن السبكي في طبقات الشافعية ، والسيوطي في حسن المحاضرة ، وابن العماد في شذرات الذهب اتفقوا على هذه الكلمة في شأنه : لم نر أحداً من أشياخنا يختلف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس المائة السابعة . وكان القشيري هذا عالماً في المذهبين . مذهب مالك والشافعي ،

وله فيهما تآليف . فله شرح مختصر ابن الحاجب في فقه المالكية . وله شرح على مختصر التبريزي في فقه الشافعية . وله في الحديث : كتاب الالمام في أحاديث الأحكام . ولقد شرح هذا الكتاب غير أن الشرح لم يكمل . ويقول ابن العماد في كتابه شذرات الذهب إن شرح كتاب الألمام هذا سماه القشيري « الامام » . أما ابن السبكي في طبقات الشافعية فيعد كتاب « الامام » كتاباً آخر غير شرح الألمام . ومما يستوقف النظر أن كل المصادر التي رأيتها تتفق على ان كتاب الألمام هذا في الحديث . وينفرد الزركشي في كتابه البحر المحيط بأن كتاب الالمام هذا في أصول الفقه . ولقد بحثت عن هذا الكتاب فلم أعثر عليه .

وله في الحديث أيضاً شرح على كتاب العمدة لعبد الغني المقدسي . ويقول السيوطي : إن أول إمام حنبلي عامت حلوله بمصر هو عبد الغني المقدسي هذا صاحب العمدة . وله شرح على العنوان في أصول الفقه .

وله في أصول الدين وعلوم الحديث كتاب « الاقتراح » ، وابن ثعلب الأدفوي صاحب كتاب الطالع السعيد يعد له أيضاً كتاب « اقتناص السوانح » ويصفه بأنه أتى فيه بأشياء غريبة ، ومباحث عجيبة ، وفوائد كثيرة . وله ديوان خطب . وكان مع كل هذا شاعراً مفلقاً ، وناثراً مجيداً . وهو القائل :

قد جرحتنا يد أيامنا وليس غير الله من آسي
فلا ترجو الناس في حاجةٍ ليسوا بأهل لسوى الياس
ولا تقس بالعقل أفعالهم ما مذهب القوم بمنقاس
فاهرب من الخلق الى ربهم لا خير في الخلطة بالناس

وكان ابن دقيق العيد هذا معاصراً لأبي العباس المرسي الصوفي المشهور بالاسكندرية وله معه مواقف جميلة . قال له مرّة — أي لأبي العباس وكان رأساً في الصوفيـة — « أنتم إذا رقيتم على أحد تزندقتم [1] . ونحن إذا لم نرق على الناس تزندقنا »

وكان يعطف على الطلاّب ويساعدهم حتى ماديًّا . ويقول : « ضابط ما يطلب مني أن يجوز شرعاً ثم لا أبخل »

---

(١) أي أتيتم بأعمال تخالف ظاهر الشرع

ومن أساتذته عز الدين بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء وتلميذه القشيري هذا هو الذي لقبه بهذا اللقب . وعز الدين هـذا كما كان مثلاً في العلم كان مثلاً في الشجاعة وهو أصدق مرآة نرى فيها أخلاق العلماء .

يقول ابن السبكي في طبقاته « إنه وقف في وجه القائم بأمر مصر وقتئذٍ لما أراد أن يفرض ضريبة على التجار قائلاً : « إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك من الحلي وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلي الحرام وضربته سكة ونقداً وفرقته ولم يقم بالكفاية لك أن تطلب القرض ، وأما قبل ذلك فلا »

ويقول عنه أيضاً انه لما توفى عز الدين بن عبد السلام سنة ٦٦٠هـ ومرّت جنازته تحت القلعة ، وشاهد الظاهر بيبرس كثرة الخلق الذين معها قال لبعض خواصه : « اليوم استقرّ أمري في الملك لأن هذا الشيخ لو كان أمر الناس فيّ بما أراد لبادروا الى امتثال أمره » .

وكان عز الدين هذا خطيباً لجامع عمرو ولهذه المناسبة أقول : إن المقريزي هذا المؤرخ العظيم كان هو الآخر خطيباً لجامع الحاكم فانظر كيف انقلبت القيم .

ومن علماء مصر الأفاضل الذين أثروا في الأزهر وتأثروا به ذلك العالم البارع الطويل الباع في أصول الفقه وفروعه وفي العربية وغيرها الفقيه المالكي ابن الحاجب — كان أبوه حاجباً عند الأمير عز الدين موسك الصلاحي — صنف في الأصول المختصرة والمنتهى . وفي فقه المالكية المختصر . وله في النحو الكافية ، والوافية ، وفي التصريف الشافية وشرح الكل . وله شرح المفصل ، والأمالي النحوية ، وقصيدة في العروض . ومن أساتذته في القراءات الشاطبي وتوفي بالاسكندرية «سنة ٦٤٦»هـ . وأذكر أنه مدفون بجوار أبي العباس المرسي . ومنهم إمام النحو واللغة ابن هشام الذي قال عنه ابن خلدون « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه » . ومن أكابر أساتذة العلم المنتجين الذين عرفتهم مصر ذلك الثبت الثقة ، الصدوق النبيل ، الحافظ للحديث ، الحجة فيه ، أستاذ الحديث في المؤيد ، البدر العيني صاحب عمدة القاري شرح صحيح البخاري . ويقولون إنه داوم على إقراء الحديث فيه وحده ما يقرب من أربعين سنة خلا ما له من الدروس في بقية مدارس القاهرة ، وتناوب وظيفة حسبة القاهرة هو والمقريزي مدة ،

وولاه الملك المؤيد « نظر الأحباس » وهـذه توازي وزارة الأوقاف في عصرنا . وكان معاصراً للحافظ بن حجر صاحب كتاب فتح الباري شرح صحيح البخـاري » وكان ابن حجر هذا أصغر من العيني باثني عشرة سنة . ويروي المقريزي أنه كان بينهما من المنافسة ما يكون بين المتعاصرين. فلما فوض إلى العيني تدريس الحديث بالمؤيدية صادف أن مالت مئذنة الجامع المؤيدي على البرج الشمالي وكادت تسقط فهدمت وبنيت من جديد . فقال الحافظ بن حجر في ذلك .

لجامع مولانا المؤيد رونق ... منارته بالحسن تزهو وبالزين
تقول وقد مالت عليهم تمهلوا ... فليس على حسني أضر من العيني

فتحدَّث الناس أنه قصد التورية بالعيني .

ويروي المقريزي أن العيني ردّ عليـه بهذين البيتين وهما من نظمه وغيره يقول إنهما لبدر الدين العنتابي .

منارة كعروس الحسن إذ جليت ... وهدمها بقضاء الله والقدر
قالوا أصيبت بعين قلت ذا غلط ... ما آفة الهدم إلاَّ خسَّة الحجر

وللعيني مؤلفات كثيرة أجلها عمدة القاري هذا الذي تقدم ذكره . ويقولون إنه ابتدأ فيه سنة ٨٢١ وأتمه سنة ٨٤٧ هـ بعد فراغ ابن حجر من شرحه فتح الباري بخمس سنوات. وله أيضاً « نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار » في شرح معاني الآثار للامام أبي جعفر الطحاوي في عشر مجلدات . وله «مغاني الأخيار في رجال معاني الآثار » في مجلدين . ومنها « البناية في شرح الهداية » للامام المرغيناني في عشر مجلدات . ومنها « الدرر الزاهرة في شرح البحار الزاخرة » لشيخه الرهاوي في المذاهب الأربعة في مجلدين . ومنها عقد الجمان في تاريخ الزمان» في خمس وعشرين مجلداً . وعد مؤلفاته أمر يطول. فليرجع اليها في مقدمة كتابه عمدة القارىء .

وممن رجالات مصر أعيان العلمـاء جلال الدين السيوطي وقد ترجم لنفسه في كتابه حسن المحاضرة. وأذكر باختصار هذه الترجمة فسنرى فيها شيئاً كثيراً عن نظام البحث والدرس

والاشراف العلمي على الطلبة وأنواع العلوم التي كانت تدرس في ذلك الوقت، ورأيهم في بعض العلوم . وأخيراً تلك الصلة الروحية القوية بين الطالب والاستاذ.

قال : كان مولدي بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة ٨٤٩هـ وحملت في حياة أبي الى الشيخ محمد المجذوب رجل كان من كبار الاولياء بجوار المشهد النفيسي . ونشأت يتيماً فحفظت القرآن ولي دون ثمان سنين . ثم حفظت العمدة . ومنهاج الفقه ، والاصول وألفية ابن مالك . وشرعت في الاشتغال بالعلم في مستهل سنة ٦٤ هـ . وأجزت بتدريس العربية في مستهل سنة ٦٦ هـ وقد ألفت في هذه السنة فكان أول شيء ألفته شرح الاستعاذة والبسملة. وأوقفت عليه شيخنا شيخ الاسلام علم الدين البلقيني فكتب عليه تقريظاً ولازمته في الفقه إلى أن مات . فلازمت والده فقرأت عليه وأجازني بالتدريس والافتاء من سنة ٧٦ هـ . وحضر تصديري فلما توفى سنة ٧٨ هـ لزمت شيخ الاسلام شرف الدين المناوي فقرأت عليه قطعة من المنهاج .

ولزمت في الحديث والعربية شيخنا الامام العلامة تقي الدين الشبلي الحنفي فواظبته أربع سنين، وكتب لي تقريظاً على شرح ألفية ابن مالك ، وعلى جمع الجوامع في العربية تأليفي . وشهد لي غير مرة بالتقدم في العلوم بلسانه وبنانه ولم أنفك عن الشيخ الى أن مات . ولزمت شيخنا العلامة محي الدين الكافيجي أربع عشرة سنة فأخذت عليه الفنون من التفسير والاصول والعربية والمعاني وغير ذلك وكتب لي إجازة عظيمة . . .

وشرعت في التأليف سنة ٨٦٦ هـ . وبلغت مؤلفاتي الى الآن ٣٠٠ كتاب سوى ما رجعت عنه . وهنا يخبرنا أنه لما حج شرب من ماء زمزم لأمور منها : أن يصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني ، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ بن حجر . ويقول أفتيت من مستهل سنة ٧١ هـ . . .

ورزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع ... ودون هذه السبعة في المعرفة أصول الفقه ، والجدل ، والتصريف . ودونها الانشاء والتوسل ، والفرائض . ودونها القراءات ولم آخذها عن شيخ ودونها الطب . وأما علم الحساب فهو أعسر شيء علي وأبعده من ذهني وإذا نظرت في مسألة تتعلق

به فكأنما أحاول جبلاً أحمله . . . وقد كنت في بداية الطلب قرأت شيئاً في علم المنطق ثم ألقى الله كراهته في قلبي .

وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك . وأما مشايخي في الرواية سماعاً وإجازة فكثير أوردتهم في المعجم الذي جمعتهم فيه وعدتهم نحو ١٥٠ شيخاً. ولم أكثر من سماع الرواية لاشتغالي بما هو أهم وهو قراءة الدراية . وهنا ذكر أسماء مصنفاته فعدّ في « التفسير وتعلقاته ، والقراءة » ٢٢ كتاباً منها : الاتقان في علوم القرآن ، والدر المنثور في التفسير بالمأثور، ولباب المنقول في أسباب النزول ، ومفحمات الاقران في مبهمات القرآن ، والمهذب فيما وقع في القرآن من المعرب . والكلام على أول الفتح وهو تصدير ألقاه لما باشر التدريس بجامع شيخون بحضرة شيخه البلقيني .

وهذا التصدير قد عثر عليه مخطوطاً فضيلة مولانا الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر الشيخ مصطفى عبد الرازق في دار الكتب الازهرية تحت رقم ٢٠٤ وورد في هذه المجموعة التي تحتوي على هذا التصدير أنها بخط المؤلف . وكان هذا التصدير موضوع الدرس الذي ألقاه فضيلته أمام حضرتي صاحبي الجلالة مولانا الملك فاروق الأول وجلالة الملك عبد العزيز آل سعود قبل صلاة الجمعة بالأزهر الشريف يوم ١١ يناير سنة ١٩٤٦ .

●وهنا ننشر هذا التصدير فانه على صغر حجمه كما قال عنه فضيلة مولانا الأستاذ الأكبر « يفيد الباحثين في تطور الدراسات الاسلامية وأساليبها . وفي الطرق التي كانت تعتمد عليها مدارس المسلمين في إجازة طلابها وتخريجهم .

تصدير السيوطي (*)

وهذا هو نص التصدير الذي ألقاه الجلال السيوطي مذيلاً بتعليقات حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الاكبر :

تصدير مبارك ألقيته يوم أجلست للتدريس بجامع شيخو رحمه الله ، بحضرة شيخنا قاضي القضاة شيخ الاسلام علم الدين البُلقيني (١) وجماعة من القضاة والأفاضل وذلك يوم الثلاثاء تاسع ذي القعدة سنة ٨٦٧هـ ، (٢) وقد مضى من عمري ثمان عشرة سنة وأربعة أشهر وثمانية أيام (٣) .

الحمد لله طالعت على هذا التصدير الكشاف (٤) وتفسير الامام الرازي (٥) وتفسير الامام ابن العربي (٦) والبحر لأبي حيان (٧) وأسباب النزول للواحدي (٨) وتفسير

(*) عن المخطوط رقم ٢٠٤ فن المجاميع بدار الكتب الازهرية ، والتصدير يقع في ثمانية وعشرين سطراً من ظهر الورقة السابقة للاخيرة ، وأربعة وعشرين سطراً في وجه الورقة الاخيرة ، وهذا المخطوط يحتوي على مؤلفات أخرى للسيوطي ، وقد كتب عليه أنه بخط الجلال السيوطي نفسه .

(١) هو الامام علم الدين صالح بن شيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقيني ، ولد سنة ٧٩١ هـ . تولى مشيخة الخشابية بجامع عمرو بن العاص ، وهي المشهورة بزاوية الامام الشافعي ، وتولى القضاء الاكبر في سنة ٨٢٦ هـ ألف تفسير القرآن ، قرأ السيوطي عليه الفقه وأجازه بالتدريس ، توفي في الخامس من رجب سنة ٨٦٨ هـ . (٢) يوافق ٢٧ يوليه سنة ١٤٦٣ .

(٣) لان السيوطي ولد بالقاهرة ليلة مستهل رجب سنة ٨٤٩هـ الموافق ١٣ اكتوبر سنة ١٤٤٥ .

(٤) هو التفسير القيم الذي ألفه الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد المتوفى بجرجانية خوارزم سنة ٥٣٨ .

(٥) المقصود هو التفسير الكبير المسمى « مفاتيح الغيب » . والامام الرازي هو فخر الدين أبو عبدالله محمد بن عمر الرازي المتكلم الاشعري المشهور ، ويعرف أيضاً بابن الخطيب ، وهو شافعي في الفقه ، ولد سنة ٥٤٤ وقيل سنة ٥٤٣ وتوفي يوم عيد الفطر سنة ٦٠٦ هـ ولم يتم تفسيره فأتمه غيره بعد وفاته .

(٦) هو الشيخ محيي الدين محمد بن علي الطائي الاندلسي الصوفي المعروف بالشيخ الاكبر المتوفي سنة ٦٣٨ وله تفسير كبير على طريقة أهل التصوف اختصره في ثمانية أسفار .

(٧) البحر المحيط في تفسير القرآن لابي حيان محمد بن يوسف الغرناطي الجياني أثير الدين . ولد في آخر شوال سنة ٦٥٤ هـ وسمع بالاندلس وأفريقية والاسكندرية ومصر والحجاز ، وهو شافعي يميل الى الظاهر ، توفي في ٢٨ صفر سنة ٧٤٥ هـ .

(٨) هو أسباب نزول القرآن لابي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري المتوفي سنة ٤٦٨ هـ في جمادى الآخرة وكان استاذ عصره في النحو والتفسير .

السجاوندي [١] وينبوع الحياة لابن ظفر [٢] وصحاح الجوهري [٣] .

والخطبة الى آخر الصلاة من كلام الامام الشافعي رضي الله عنه [٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، والحمد لله الذي لا يؤدَّى شكرُ نعمة من نعمه إلاَّ بنعمة منه توجب على مؤدَّى ماضي نعمه بأدائها نعمةً حادثة يجب عليه شكره بها ، ولا يبلغ الواصفون كنه عظمته ، الذي هو كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به خلقه . أحمده حمداً كما ينبغي لكرم وجهه وعزّ جلاله ، وأستعينه استعانة من لا حول له ولا قوة إلاَّ به . وأستهديه بهداه الذي لا يضل من أنعم به عليه . وأستغفره لما أزلفتُ وأخرت استغفار من يقرّ بعبوديته ويعلم أنه لا يغفر ذنبه ولا ينجيه منه إلاَّ هو . وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله [٥] . صلى الله عليه وعلى آله كما صلى على ابراهيم وآل ابراهيم إنه حميد مجيد ، ورضي الله عن السادة الصحابة أجمعين ، وعن إمامنا الامام الشافعي المطلبي وسائر الأئمة ، وعن سيدنا ومولانا شيخ الاسلام ووالده شيخ الاسلام وسائر مشايخنا والسادة الحاضرين وجميع المسلمين [٦] .

أما بعد — فقد قال الله تعالى « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفرَ لك الله ما تقدَّم من ذنبكَ وما تأخر ، ويتمَّ نعمته عليك ، ويهديَك صراطاً مستقيماً ، وينصرَكَ الله نصراً عزيزاً » [٧] .

الكلام على هذه الآية من جهات : الأولى سبب النزول ومكانه وزمنه . الثانية علم اللغة . الثالثة علم الإعراب . الرابعة علم المعاني . الخامسة علم التفسير [٨] .

---

(١) هو محمد بن طيفور أبو عبد الله السجاوندي الغزنوي ، توفي في حدود سنة ٥٦٠ هـ

(٢) هو حجة الدين محمد بن عبد الله بن محمد بن ظفر المكي ، توفي بحماه سنة ٥٦٥ هـ .

(٣) « الصحاح في اللغة » للجوهري وهو أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي من أئمة اللغة توفي بنيسابور في حدود سنة ٤٠٠ هـ .

(٤) خطبة « الرسالة » للامام الشافعي ، ص ٧ — ٨ من تحرير الشيخ احمد محمد شاكر

(٥) الى هنا ينتهي كلام الشافعي في خطبة « الرسالة »

(٦) هنا جاء في الأصل : قوله سيدنا ومولانا ، أقول هو شيخنا علم الدين البلقيني ابن الشيخ سراج الدين

(٧) سورة ٤٨ مدنية نزلت في الطريق عند الانصراف من الحديبية ، الآيات ١ — ٣

(٨) هنا جاء في الاصل « الكلام على هذه الآية من جهات : الاولى سبب النزول الثانية الى آخره »

أقول: قدّمت أولاً الكلام على النزول وما يتعلق به، ومناسبة تقديمه ظاهرة، وثنّيت باللغة وقدّمتها على الاعراب، لأنها تبين المعنى، والاعراب فرعه ومتوقف على معرفته، وثلثت بالاعراب وقدمته على المعاني الذي هو ثمرة الاعراب، ثم تلاه المعاني، ولما انتهيت من الأدوات ذكرت المقصود بالذات من الآية وهو التفسير وبيان المراد، ثم ختمت بالنهاية وهو علم التصوف. وهذا ترتيب حسن لطيف.

***

أما سبب النزول وما يتعلق به فقال الامام أبو الحسن الواحدي رحمه الله: روي عن ابن عباس انه لما نزل قوله تعالى: « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم »(١)، قال المشركون: كيف ندخل في دينك وأنت لا تدري ما يُفعل بك وبمن اتبعك؟ فنزل قوله تعالى: إنا فتحنا لك إلى آخره. قوله روي عن ابن عباس الخ أقول قوله ابن عباس هذا حكمه حكم المرفوع. وروي أنه لما نزل: ليغفر لك الله، قال له أصحابه: هنيئاً لك يا رسول الله الجنة لك! فما لنا؟ فنزل: ليُدخل المؤمنين والمؤمنات جنات الى آخره (٢)، ولما نزل: ويتم نعمته عليك، قالوا كذلك فنزل: « اليوم أكملت لكم دينكم » (٣)، ولما نزل: وينصرك الله نصراً عزيزاً، قالوا كذلك فنزل: « وكان حقّا علينا نصرُ المؤمنين » (٤).

وروي أن قوله تعالى: إنا فتحنا لك إلى آخره نزل بين مكة والمدينة في شأن الحديبية. قال أنس (٥)، رضي الله تعالى عنه: لما رجعنا من الحديبية وقد حيل بيننا وبين نُسُكنا ونحن بالحزن والبكاء، أنزل الله تعالى: إنا فتحنا لك إلى آخره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد أنزل عليَّ آية هي أحب إليَّ من الدنيا وما فيها. وفي رواية: مما طلعت

---

(١) سورة ٤٦ آية ٩ (مكية).

(٢) سورة ٤٨ آية ٥ (مدنية).

(٣) سورة ٥ آية ٣ (نزلت بعرفات في حجة الوداع).

(٤) سورة ٣٠ آية ٤٧ (مكية).

(٥) الامام أبو حمزة أنس بن مالك بن النضر الانصاري المدني. لازم رسول الله منذ هاجر الى أن مات وكان آخر الصحابة موتاً. واختلف في سنة وفاته، فقيل: سنة ٩٠هـ، وقيل: سنة ٩١هـ، وقيل: سنة ٩٢هـ، وقيل: سنة ٩٣هـ.

عليه الشمس . وفي الصحيح انه نزل ليلاً [١] .

وأما ما يتعلق بالآية من جهة اللغة، فقال الامام أبو النصر الجوهري في صحاحه : الفتح يطلق على النصر وعلى الحكم ، ومنه : « افتح بيننا وبين قومنا بالحق [٢] » ، وعلى الماء يجري من عين أو غيرها . والمبين من أبان الشيء إذا أوضحه ، ومنه بان أي اتضح ، واستبان أي ظهر، واستبنته أي عرفته ، والتبيين الايضاح والوضوح أيضاً . والبيان الفصاحة وما به يتبين الشيء من دلالة وغيرها . ومبين أيضاً اسم ماء، قال الشاعر يا ريَّها اليوم على مبين ، أي ياريّ ناقتي على هذا الماء . والمغفرة من الغفر وهو الستر والتغطية ، ومنه غفرت المتاع جعلته في الوعاء . والمِغفَر زَرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة ، ويقال من هذه المادة : استغفر الله لذنبه ومن ذنبه وذنبَه ، والفعل غفر يغفر، وجاء في لغة غفِر يغفر ، والمصدر مغفرة وغفراناً وغفراً ، وجاء في لغة غفَراً . والذّنب الجرم ، والفعل منه أذنب . والنعمة اليد والصنيعة ، وكذلك النعمى والنعماء والنعيم . ويقال : فلان واسع النعمة أي واسع المال . والهدى يطلق على أمور : أحدها خلق الاهتداء، ومنه : « انك لا تهدي من أحببت » [٣] : الثاني الدلالة بلطف ، ومنه : « وإنك لتهدي الى صراط مستقيم » [٤] : الثالث التقدم ، ومنه هوادي الخيل لتقدمها . الرابع التبيين ، ومنه : وأما ثمود فهديناهم » ، كذا قيل ، ويظهر لي أن هذا متحد مع الثاني . الخامس الالهام ، ومنه : « أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَه ثم هَدى » [٥] أي ألهم لمصالحه . السادس الدعاء ، ومنه : « ولكل قومٍ هاد [٦] » ، أي داعٍ . والصراط هو الطريق الواضح ، والصاد لغة قريش ، وعامة العرب يجعلونها سيناً ، وكعب يجعلونها زاياً ، وأهل الحجاز يؤنثونه كالطريق والسبيل والزقاق والسوق، وبنو تميم يذكّرون هذا كله . وجمعه صُرُط ككتاب وكتب ، والمستقيم

---

(١) الحديث على هذا النحو أقرب الى رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ونصه كما جاء في صحيح البخاري : « لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس » . وفي غيره من كتب الحديث: « نزل علي البارحة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها » . وأما على نحو ما رواه أنس فالاغلب هو : « لقد أنزلت علي الليلة آية أحب إلي مما على الارض » .

(٢) سورة ٧ آية ٨٩ (مكية) .

(٣) سورة ٢٨ آية ٥٦ (مكية) .

(٤) سورة ٤٢ آية ٥٢ (مكية) .

(٥) سورة ٢٠ آية ٥٠ (مكية) .

(٦) سورة ١٣ آية ٧ (مدنية) .

ضد المعوج . والنصر مصدر نصره على عدوه ينصره والاسم منه النُّصْـرة . ويقال نصر الغيث الأرض أي غاثها . ونصرت الأرض أي مطرت . والعزيز هو الغالب ، ويطلق على المحتاج إليه القليل الوجود .

وأما ما يتعلق بها من جهة الإعراب فقوله : ليغفر الله لك . اختلف في اللام هنا ، فقال صاحب « الكشاف » رحمه الله : للتعليل . قال : فان قلت : كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ قلت : لم يجعل علة للمغفرة ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز . وأجاب بجواب آخر وهو أنه يجوز أن يكون فتح مكة ، من حيث إنه جهاد للعدو ، سبباً للغفران والثواب ، قوله : وأجاب الخ ، أقول: هذا الجواب على تسليم أنه جعل مكة[1] للمغفرة . وأجاب الامام فخر الدين [2] بجوابين غير هذين . وقيل اللام هنا للعاقبة ، والمراد أن الله فتح لك لكي يجعل لك علامة لغفرانه لك ، وقيل هي لام القسم وكسرت لحذف النون من الفعل لشبهها بلام كي ، ورد هذا الوجه بأن لام القسم لا تكسر وينصب بها ، ولو جاز هذا لجاز لِيقومَ زيد في معنى ليقومنّ زيد . قال أبو حيان في « البحر » مجيباً عن هذا الرد : أما الكسر فقد علل بأنه لشبهه بلام كي ، وأما النصب فله أن يقول ليس هذا نصباً لكنها الحركة التي تكون مع وجود النون بقيت بعد حذفها دلالة على الحذف . قال : وبعد ، فهذا القول ليس بشيء ، إذ لا يحفظ من كلامهم والله لِنقوم ولا بالله ليخرج زيد بكسر اللام وحذف النون وبقاء الفعل مفتوحاً .

وأما ما يتعلق بها من جهة المعاني ، ففي قوله : « إنّا فتحنا » ، وقوله : « ليغفر لك الله » التفات من التكلم الى الغيبة ، ونكتته أنه لما كان الغفران وإتمام النعمة والهداية والنصر يشترك في اطلاقها الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وغيره بقوله : « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء [3] » ، وقوله : « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم [4] » ، وقوله :

---

(١) هكذا في الاصل ولعل الصواب « جعل فتح مكة » .

(٢) المقصود فخر الدين محمد بن عمر الرازي صاحب التفسير الكبير المسمى « مفاتيح الغيب » .

(٣) سورة ٤ آية ٤٨ (مدنية) (٤) سورة ٢ آية ٤٠ و ٤٧ و ١٢٢ (وهي جميعاً مدنية)

« يهدي من يشاء [١] » ، وقوله : « إنهم لهم المنصورون [٢] » ، ولم يكن الفتح لأحد إلا للرسول ، أسنده تعالى الى نون العظمة تفخيماً لشأنه ، وأسند تلك الأشياء الأربعة الى الظاهر واشتركت الخمسة في الخطاب له ، صلى الله عليه وسلم ، تأنيساً له وتعظيماً لشأنه ، ولم يؤت بالاسم الظاهر ، لأن في الإقبال على المخاطب ما لا يكون في الاسم الظاهر . وفي قوله : « نصراً عزيزاً » ، إسناد العزة الى النصر وهو مجاز ، فالعزيز حقيقة هو المنصور ، صلى الله عليه وسلم ، وقيل فيه مجاز الحذف ، والتقدير « عزيزاً صاحبه » . وأعيد لفظ الله في : « وينصرك الله » لما بعد عما عطف عليه وليكون المبدأ مسنداً الى الاسم الظاهر والمنتهي كذلك . قوله : التفات الخ ، أقول : لم يذكر ذلك في « الكشاف » وأشار اليه أبو حيان في « البحر » تلويحاً لا تصريحاً ، قوله : وقيل فيه مجاز الحذف ، أقول : هذا من تعبيري وتصريفي .

وأما ما يتعلق بها من جهة التفسير ، قوله « إنَّا فتحنا » في المراد بالفتح هنا أقوال : أحدها فتح مكة واختاره الفخر [٣] الرازي من الجميع وأبو حيان ، والثاني عام الحديبية عند انفكاكه منها . والثالث قاله مجاهد [٤] فتح خيبر وفي بعض الآي ما يدل عليه . والرابع قال الضحاك [٥] المراد فتح الله له بالاسلام والنبوّة والدعوة والحجة [٦] والسيف ، والفتح [٧] أبين منه وأعظم وهو رأس الفتوح كلها ، إذ لا فتح من فتوح الاسلام الا وهو عنه ومشتق منه . الخامس قال غيره : المراد نصر الله تعالى على أهل مكة أنك تدخلها أنت وأصحابك من قابل لتطوفوا بالبيت. قوله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال ابن عباس : ما تقدم قبل النبوة وما

---

(١) مكرر في أكثر من آية . مثلا ٢ : ١٤٢ ، ٢١٣ ، ٢٧٢ (وهي جميعاً مدنية)

(٢) سورة ٣٧ آية ١٧٢ (مكية)

(٣) في الاصل « أبو بكر » وهو لا شك سهو ، وكنية الرازي المفسر صاحب مفاتيح الغيب هي أبو عبد الله أو أبو الفضل وهو بلقبه أعرف .

(٤) مجاهد بن جبر المكي الامام المفسر الحافظ ، مات سنة ١٠٣ هـ بمكة عن ثلاث وثمانين سنة .

(٥) الضحاك بن مخلد الشيباني البصري الحافظ ، مات بالبصرة في الرابع عشر من ذي الحجة سنة ٢١٢ هـ عن تسعين سنة وأشهر . (٦) لعله « الدعوة بالحجة » كما ورد في تفسير أبي السعود المطبوع بهامش تفسير الرازي . (٧) لعله « ولا فتح » كما جاء في تفسير أبي السعود المذكور .

تأخر بعدها . وقال غيره : ما وقع وما لم يقع على طريق الوعد بأنه مغفور له . وقال سفيان: ما تأخر : هو ما لم يعمله . وقال آخر : المتقدم المتأخر معاً ما كان قبل النبوة . وقال آخر : تأكيد للمبالغة كما تقول : أحبَّك من عرفك ومن لم يعرفك . وقال آخر : ما تقدم من ذنبك يعني من ذنب أبيك آدم وحواء وما تأخر ذنوب أمتك . وقال آخر : المعنى لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه . قوله « ويتم نعمته عليك » قيل بالنبوة والحكمة ، وقيل بفتح مكة والطائف وخيبر ، وقيل بخضوع من استكبر ، والصحيح بدخول الجنة . قوله « ويهديك » المراد يثبتك على الهدى كما في قوله « يأيها النبي اتق الله » (١) « يأيها الذين آمنوا آمنوا » وأمثال ذلك . قوله « صراطاً مستقيماً » المراد به هنا الاسلام . »

وأما من جهة علم التصوف فلم يرد الينا ما كتبه السيوطي في تصديره عنه .

***

وهذا التصدير يعطينا صورة واضحة عن طرق البحث والدرس وما كان يعتمد عليه في اجازة الطلاب وتخريجهم في ذلك العصر . وبعد أن عدَّ السيوطي كتبه في فن التفسير أخذ بعدها في « فن الحديث وتعلقاته » وفي « فن الفقه وتعلقاته » . وفي « فن العربية وتعلقاته » وفي فن الاصول ، والبيان ، والتصوف ، وأخيراً في التاريخ والأدب .

وعد هذه المؤلفات هنا أمر يطول شرحه فليرجع اليها في كتابه حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١ .

وكما عرفت مصر هؤلاء في ظل الأزهر القديم عرفت كثيرين غيرهم في مختلف الفنون والعلوم فعرفت مثلاً من أئمة القراءات أبا القاسم الشاطبي صاحب الشاطبية ذلك المقرىء الضرير أستاذ القراءات في المدرسة الفاضلية الذي كان رأساً في فنه منقطع القرين توفي سنة ٥٩٠ هـ وعرفت في فقه الحنفية «السروجي» صاحب شرح الهداية توفي سنة ٧٠١ هـ وعرفت في هذه الناحية أيضاً ابن التركماني وقد شرح الهداية كما شرح الجامع الصغير وألقاه دروساً بالمنصورية توفي سنة ٧٤٤ هـ .

كما عرفت في التاريخ المقريزي صاحب الخطط وغيرها وشمس الدين السخاوي صاحب كتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع في ست مجلدات وهو من أوسع المصادر التي عرفها

(١) سورة ٣٣ آية ١ (مدنية)

الباحثون في تاريخ القرون الوسطى ، استدرك فيه على شيخه ابن حجر العسقلاني ما فاته من أعيان المائة الثامنة وبسط تاريخ أهل القرن من رجال ونساء ممن توفوا في العصر المذكور أو تأخر الى القرن العاشر . وله أيضاً الجواهر والدرر في ترجمة الشيخ ابن حجر . وفتح المغيث في شرح ألفية الحديث . والمقاصد الحسنة في الأحاديث الجارية على الألسنة . ويقول ابن العماد في كتابه شذرات الذهب إنه أجمع وأتقن من كتاب السيوطي المسمى بالجواهر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة . وله غير ذلك توفي سنة ٩٠٢ هـ ويكفي ذلك عرضاً وتمثيلاً لبيان انتاج من عاشوا بعصر في ظل الأزهر في ذلك الزمن السحيق وهو انتاج قيم عظيم في بابه ليس في ذلك من شك .

نظام التعليم فى الازهر القديم

وكان النظام التعليمي للازهر في ذلك الوقت يتلخص فيما يلي : ـ

١ — كان هناك أستاذ أكبر للمادة يشرف على من دونه . وهؤلاء كانوا يحرصون على ملازمة أستاذهم حتى الممات وكل أمنيتهم أن يصلوا الى مثل مرتبته في الفن . فالسيوطي مثلاً يحدثنا عن نفسه يقول : « لما حججت شربت من ماء زمزم لأمور منها : أن أصل في الفقه الى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني . وفي الحديث الى رتبة الحافظ بن حجر » .

ويقول : كان أول شيء ألفته « شرح الاستعاذة والبسملة » وأوقفت عليه شيخنا شيخ الاسلام علم الدين البلقيني فكتب عليه تقريظاً ولازمته في الفقه إلى أن مات .

٢ - كان الطالب يصح أن يجاز في مادة ويرجأ في الأخرى . فهو في مادة أستاذ معلم وفي أخرى طالب تحت الاجازة .

٣ — كانت الشهادات تعطى من الأساتذة وتسمى إجازة . وكان الطالب إذا آنس من نفسه القوّة في العلم والقدرة على التدريس والافتاء طلب من شيخه أن يجيزه . وسننشر بعد قليل صورة إجازة من هذه الاجازات .

٤ — كان للطالب منتهى الحرية في اختيار المادة ، والأستاذ ، وله الحرية أيضاً في الغياب والحضور .

٥ — كان لكل كتاب قارىء غالباً . فمثلاً نرى البدر العيني صاحب عمدة القاري شرح صحيح البخاري يسمع صحيح البخاري على أستاذه العراقي بقراءة الشهاب احمد بن منصور الأشموني . ويسمع الالمام في أحاديث الأحكام لابن دقيق العيد بقراءة غيره . ويسمع محاسن الاصطلاح وتضمين مقدمة ابن الصلاح على أستاذه سراج الدين البلقيني بقراءة السراج قاري الهداية وهكذا .

وكان الأستاذ قبل أن يلقي درسه يتوجه الى الله يستلهمه العون مفتتحاً درسه بسم الله الرحمن الرحيم ثم يحمد الله ويصلي على نبيه . ويرشد الى المصادر التي رجع اليها في درسه ويسند كل رأي . أو اعتراض أو جواب لقائله . وكان تلقين الطالب المعلومات يأتي إما عن طريق الرواية أو عن طريق الدراية .

وكانت هناك صلة روحية قوية بين الأستاذ والطالب ، مربوطة برباط العلم الخالص لوجه الله . بل قل كانت هناك بنوّة في العلم . فالاستاذ والد والطلاب أبناء والكل يكوّنون أسرة علمية كأسرة النسب بل هي أقرب ، لأن أساسها المودة التي لا تعرف العقوق . ومظاهر هذه الصلة الروحية كانت تتجلى من ناحية الاستاذ في عطفه على الطالب ، فهو للطالب في العلم أستاذ ، وفي الخير موجه ، وفي النافع مرشد ، وفي البحوث مشرف مخلص . كنت ترى الاستاذ يسأل عن ابنه في العلم إذا غاب ، ويعوده إذا مرض ، ويعنى به في جميع شؤونه حتى ماديًّا .

روى ابن ثعلب الادفوي الشافعي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ في كتابه الطالع السعيد « أن ابن دقيق العيد كان يصحب قاضي القضاة السروجي الحنفي . فكان إذا سافر الى القاهرة يذكر له كل سفرة جماعة من الطلبة المعروفين بالخير ويحضر مجلات لهم من غير أن يعرفوا . وكما كان هناك العطف الخالص من ناحية الاستاذ ، كان هناك الاحترام والتوقير والاكبار والاجلال من ناحية الطالب ، ويجمع الكل التعاون في طلب الحقيقة ونشر العلم .

قلنا فيما تقدّم إن الشهادة كانت تعطى للطالب من الاستاذ وتسمى اجازة . وها هي ذي صورة اجازة من ابن دقيق العيد الى تلميذه شمس الدين بن المفضل بالفتوى والتدريس .

ابتدأها بعد سؤال شمس الدين له بالاجازة قال :

«استخير الله تعالى في الايراد والاصدار، واعتصم به من آفتي التقصير والاكثار، واستغفر الله فيما فرط في الجهر والاسرار، وأقول: إني ذاكرت فلاناً زينه الله بالتقوى وحرسه في السر والنجوى، في فنون من العلوم الشرعية، العقلية، والنقلية، فألفيته يرجع إلى معقول صحيح، ومنقول صريح، وإطلاع على المشكلات، وإضطلاع بحل المعضلات، لاسيما في فقه المذهب، فانه أصبح فيه كالعلم المذهب. وقام بعلم العربية، والتفسير، فصار فيها الفاضل النحرير، وقد أجبته إلى ما التمس، وإن كان غنيًّا بما حصل واقتبس، فليدرس مذهب الامام الشافعي رضى الله عنه لطالبيه. وليجب المستفتي بقلمه وفيه، ثقة بفضله الباهر، وورعه الوافر، وفطرته الوقادة، وألمعيته المنقادة، والله تعالى ينفعنا وإياه بما علمناه، ويرفعنا بذلك لديه فما المقصود سواه».

وكان الطالب يعني بأمر آبائه في العلم فنرى مثلاً. العيني شارح البخاري المتقدم ذكره يؤلف كتاباً يستوفى فيه تراجم شيوخه يسميه «معجم الشيوخ»، ونرى الامام السيوطي يترجم لمائة وخمسين من شيوخه في معجم كبير يسميه «حاطب ليل وجارف سيل». ونرى الامام النووي في كتابه «تهذيب الأسماء واللغات» يرسم سلسلة لمن تفقه عليهم مبتدئاً بأستاذه حتى الامام الشافعي. ثم يمضي إلى رسول الله صلوات الله عليه فيقول: «فأما أنا فأخذت الفقه قراءة وتصحيحاً وسماعاً وشرحاً وتعليقاً عن جماعات أولهم ... ثم يمضي في السلسلة إلى أن يصل الى رسول الله.

ونراه في مقدمة هذه السلسلة يقول: «وهذا — أي العناية بأمر سلسلة التفقه — من المطلوبات المهمات، والنفائس الجليلات، التي ينبغي للمتفقه والفقيه معرفتها وتقبح به جهالتها، فإن شيوخه في العلم آباء في الدين، وصلة بينه وبين رب العالمين. وكيف لا يقبح جهل الانسان بهم، وهم الوصلة بينه وبين ربه الكريم الوهاب، مع أنه مأمور بالدعاء لهم، وبرهم، وذكر مآثرهم، والثناء عليهم، وشكرهم».

ونرى النووي هذا أيضاً في مقدمة كتابه «المجموع» يعقد فصلاً في النهي الأكيد والوعيد الشديد لمن يؤذي أو ينتقص الفقهاء والمتفقهين والحث على إكرامهم وتعظيم حرماتهم ثم يعقد بعد ذلك فصلاً آخر في آداب المعلم والمتعلم.

وهو من أحسن ما خطت يد إنسان في بابه ، وهو فيه دستور عظيم، أحيل القارىء عليه ولولا خوف التطويل لنقلته إليه .

سارت الدراسات الاسلامية بمصر في ظل الأزهر فأنبتت نباتاً حسناً الى أن غشيته غاشية من سلطان ظاهرتين اثنتين كانتا فأوحتا الى أذهان الكثيرين معنى أضر بهذه الدراسات ضرراً بليغاً .

تحريم الاشتغال بالمنطق

والنهي عن التأليف

أما الظاهرة الاولى : وهي تحريم الاشتغال بالمنطق فلقد تأثرت بها مصر بعد أن أفتى أبو عمرو بن الصلاح في الشام بتحريم الاشتغال بالمنطق تعلماً وتعليماً — توفى ابن الصلاح هذا « سنة ٦٤٣هـ » — أما أن مصر تأثرت بها فالسيوطي في كتابه حسن المحاضرة — ج ١ ص ١٥٧ — يقول : « وقد كنت في مبادىء الطلب قرأت شيئاً في علم المنطق ثم ألقى الله كراهته في قلبي وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك »

ولم يكتف السيوطي بعد أن سمع هذه الفتوى بترك الاشتغال بالمنطق ، بل ألف كتاباً في تحريم الاشتغال به سماه « القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق» . وهذا الكتاب عده السيوطي مع كتبه التي ذكر عدتها في كتابه حسن المحاضرة .

ثم بعد ذلك ألف السيوطي نفسه كتاباً آخر نهى فيه عن علم الكلام بجوار النهي عن المنطق سماه « صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام » وهذا الكتاب مخطوط موجود بمكتبة الازهر تحت رقم ٢٠٤ ضمن مجموعة يقال إنها بخط السيوطي نفسه . وهذه المجموعة عثر عليها فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق وفيها التصدير المتقدم له عن سورة الفتح ومقدمة هذا الكتاب ـ « صون المنطق والكلام عن فن المنطق» ـ تعطينا صورة واضحة عما كان يجري في ذلك الوقت من نقاش وجدل بين المؤيدين لدراسة المنطق والمانعين لها . لذلك أنشر منها قطعة . قال تحت هذا العنوان :

صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام

« وبعد» فقد كنت قديماً في سنة سبع أو ثمان وثمانمئة ألفت كتاباً في تحريم الاشتغال بفن المنطق سميته« القول المشرق »ضمنته نقول أئمة الاسلام في ذمه وتحريمه وذكرت فيه أن شيخ الاسلام أحد المجتهدين تقي الدين بن تيمية ألف كتاباً في نقض قواعده ولم أكن إذ ذاك وقفت عليه ومضى على ذلك عشرون سنة فلما كان في هذا العام وتحدثت بما أنعم الله به عليّ من الوصول الى رتبة الاجتهاد . ذكر ذاكر أن من شروط الاجتهادمعرفة فن المنطق. وقد فقد هذا الشرط عندي بزعمه، وما شعر المسكين أني أحسنه أكثر ممن يدّعيه ويناضل عليه ، وأعرف أصول قواعده وما بنيت عليه وما يتولد منها معرفةً ما وصل اليها شيوخ المناطقة الآن إلا شيخنا « الكافيجي » فقط . فتطلبت كتاب ابن تيمية حتى وقفت عليه فرأيته سماه « نصيحة أهل الايمان في الرد على منطق اليونان»

وأحسن فيه القول ما شاء من نقض قواعده قاعدة قاعدة وبيان فساد أصولها فلخصته في تأليف لطيف سميته « جهد القريحة في تجريد النصيحة » .

ثم إن كثيراً من المخبطين الذين هم عن تحقيق العلم بمعزل لهجوا بأن يقولوا ما الدليل على تحريمه . وما مستند ابن الصلاح في افتائه بذلك ؟ ونحو ذلك من العبارات. والعجب أنهم يناضلون عن المنطق ولا يتقنونه . ويدأبون فيه وفي أبحاثهم لا يستعملونه فيخبطون فيه خبط عشواء ، ولا يهتدون عند المناظرة والاستدلال إلا إلى عمياء .

ولقد اجتمع بي بعض من قطع عمره في المنطق فرأى قول ابن الصلاح في فتاويه : «وليس الاشتغال بتعلمه وتعليمه مما أباحه الشارع ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالحين»فقال : هذه شهادة على نفي فلا تقبل . فقلت : يا سبحان الله . لا طريق أهل الشرع سلكتم ولا طريق أهل المنطق اعتمدتم ! أما أهل الشرع فيقولون : إن النفي إذا كان من أهل الاستقراء التام فانه يقبل ويعتمد . وقد جرى على ذلك أهل الحديث ، وأهل الفقه ، وأهل العربية لغة ونحواً وتعريفاً .

وقد رأيت أن أصنف كتاباً مبسوطاً على طريقة أهل الاجتهاد والاستدلال جامعاً مانعاً

وبالحق صادعاً أبين فيه صحة ما ادعاه ابن الصلاح من نسبة نفي الاباحة الى المذكورين . ولما شرعت ولزم منه الانجرار الى نقل نصوص الأئمة في منع النظر في علم الكلام لما بينهما من التلازم سميت الكتاب « صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام » ... الخ . انتهى كلام السيوطي .

لا يعنينا هنا تتبع تاريخ هذه الظاهرة وهل أول من شنها بعصر السيوطي أم سبقه بها غيره كابن تيمية مثلاً وقد أقام بمصر مدة سبع سنين كان طبعاً يبث فيها أفكاره، لايعنينا هذا بل الذي نقصده هو أن علماء مصر لم يسلموا من التأثر بالقول بتحريم الاشتغال بالمنطق وظهر هذا الأثر في جدلهم ونقاشهم ومؤلفاتهم فضرَّ ذلك بسير الحياة العلمية في مصر أو بعبارة أخرى في الازهر فقد كانت عائقاً عاق التقدم العلمي وكانت حرباً على علم غايته ترقية فكرة الحق .

ولي أو للقارىء أن يسأل اذا كان من شروط الاجتهاد معرفة المنطق كما يعترف بذلك السيوطي نفسه فكيف يحرّم الاشتغال به تعلماً وتعليماً ابن الصلاح وابن تيمية والسيوطي ؟

وإذا كانت الظاهرة الأولى أفتى بها في الشام وأخذت تسعى حتى دخلت مصر فتأثرت بها الحركة العلمية في الأزهر فلقد ظهرت الثانية وهي النهي عن التأليف في مصر فنادى بها عالم من علمائها هو شمس الدين البابلي الشافعي القاهري الأزهري المتوفى سنة ١٠٧٧ هـ.

نهى البابلي هذا عن التأليف واعتبره مضيعة للوقت فلقد فرغ في زعمه التأليف في سائر الفنون قال « في خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ج ٤ ص ٤١ » :

« التأليف في هذه الأزمان من ضياعة الوقت فان الانسان إذا فهم كلام المتقدمين الآن واشتغل بتفهيمه فذاك من أجل النعم وأبقى لذكر العلم ونشره ، والتأليف في سائر الفنون مفروغ منه وإذا بلغه أن أحداً من علماء عصره ألف كتاباً يقول : لا يؤلف أحد كتاباً إلاَّ في أحد أقسام سبعة ولا يمكن التأليف في غيرها وهي إما أن يؤلف في شيء لم يسبق إليه يخترعه ، أو شيء ناقص يتممه ، أو شيء مستغلق يشرحه ، أو طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه ، أو شيء مختلط يرتبه أو شيء أخطأ فيه مصنفه يبينه ، أو شيء مفرّق يجمعه» . انتهى كلام البابلي .

وإذا كانت الظاهرة الأولى قد غلت العقل عن النظر في علم المنطق ومن باب أولى الفلسفة التي هي كل لهذا الجزء غلته عن العلم الذي يرينا كيف نفكر بل كيف ينبغي أن نفكر . فهي من ناحية أخرى قد أضرّت بالحياة الاجتماعية ، فأوقعت بعض الأفراد في نزاع جرّ إلى خصومة فعداوة .

اذا كانت الظاهرة الأولى قد فعلت فعلهـا هذا فوق ما ضيعت من وقت في نقاش فارع فان الظاهرة الثانية — ظاهرة النهي عن التأليف — قد خلفت لنا هذه الحواشي والتقارير وتقارير التقارير . وما الى ذلك من الغلو في الصناعات اللفظية.

***

والآن أعرض أشهر الكتب الازهرية التي تدرس في الازهر لنرى العصور التي ألفت فيها ، وأثر الأزهر في هذه الكتب ، وفي أي العلوم كان أكثر أثراً .

....

أشهر الكتب التي تدرس في الازهر

النحو

١ — اجرومية محمد بن داود الصنهاجي توفى عام ٧٣٣ هـ

شروحها

١ — شرح الشيخ حسن الكفراوي المتوفي عام ١٢٠٢ هـ

٢ — « « خالد الأزهري « « ٩٠٥ هـ مع حاشيتي أبي النجا والعطار

٢ — كتب ابن هشام المتوفي عام ٧٦١ هـ

١ — قطر الندى ٢ — شذور الذهب ٣ — مغني اللبيب

٣— ألفية ابن مالك المتوفي عام ٦٧٢ هـ

شروحها

١ — ابن عقيل المتوفي ٧٦٩ هـ

٢ — الاشموني « ٩٠٠ هـ مع حاشية الصبان المتوفي ١٢٠٦ هـ

علوم البلاغة

١ — رسالة أبي القاسم السمرقندي المتوفي سنة ٨٠٩ هـ مع شروحها وحواشيها

٢ — رسالة الدردير « « ١٢٠١ هـ

٣ — تلخيص المفتاح للقزويني « « ٧٣٩ هـ وأهم شروحه

١ — مطول سعد الدين التفتازاني المتوفي ٧٩١ هـ

المنطق

١ — سلم الأخضري المتوفي عام ٩٤١ هـ

٢ — ايساغوجي وضعه فرفريوس وشرحه الأبهري المتوفي عام ٦٦٣ هـ

٣ — الشمسية لعلي بن عمر القزويني المتوفي عام ٦٧٥هـ

٤ — موجز لمحمد بن يوسف السنوسي المتوفي عام ٨٩٢ هـ

التوحيد

١ — الجوهرة لابراهيم بن ابراهيم اللقاني ١٠٤١ هـ

٢ — الخريدة للدردير (سبق ذكره)

٣ — كتب السنوسي (ذكر سابقاً)

٤ — عقائد النسفي : لنجم الدين أبو حافظ عمر بن محمد توفى سنة ٥٣٧ هـ

التفسير

١ — الجلالين للامامين الجليلين جلال الدين المحلي المتوفى ٨٦٤هـ وجلال الدين السيوطي المتوفى ٩١١ هـ

٢ — فخر الدين الرازي المتوفي ٦٠٦ هـ

٣ — السراج المنير للخطيب القزويني « ٩٧٧ هـ

٤ — ارشاد العقل السليم لأبي مسعود العمادي التركي « ٩٨٢ هـ

٥ — البيضاوي المتوفي ٧١٦ هـ

٦ — السيوطي « ٩١١ هـ

٧ — الطبري « ٣١٠ هـ

٨ — مدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات المعروف بالنسفي توفي سنة ٧٠١ هـ أو ٧١٠ هـ .

الحديث والسيرة والمصطلح

١ — المواهب اللدنيّة للقسطلاني المتوفي سنة ٩٢٣ هـ

٢ — الشمائل للترمذي « ٢٧٩ هـ

٣ — الجامع الصغير للسيوطي « ٩١١ هـ

٤ — الشفا للقاضي عياض « ٥٤٤ هـ

٥ — البيقونية ألفه أحد علماء القرن الحادي عشر للهجرة

الاصول

١ — جمع الجوامع لعبد الوهاب السبكي المتوفي سنة ٧٧١ هـ

٢ — ابن الحاجب « « ٦٤٦ هـ

الفقه

١ — فقه الحنفية

١ — الهداية لعلي الميرغناني المتوفي ٥٩٣ هـ

٢ — كنز الدقائق لعبد الله بن احمد النسفي المتوفي ٧١٠ هـ ، مع شروح العيني المتوفي ٨٥٧ هـ ، وملاً مسكين المتوفي ٩٥٠ هـ ، وابن نجم المتوفي ٩٧٠ هـ ، ومصطفى الطائي المتوفي ١١٩٢ هـ .

٣ — نور الايضاح لحسن الشرنبلالي المتوفي ١٠٦٩ هـ

٤ — مراقي الفلاح مع حاشية الطهطاوي المتوفي ١٢٣١ هـ .

٥ — شرح الحصكفي المتوفي عام ١٠٨٨ ه المسمى الدر المختار مع حاشية ابن عابدين المتوفي ١٢٥٣ ه على تنوير الأبصار لمحمد بن عبد الله التمرتاشي المتوفي سنة ١٠٠٤ه .

٦ — كتاب غرر الأحكام وشرحه المسمى درر الأحكام لملا خسرو المتوفي عام ٨٨٥ ه.

٢ — فقه الشافعية

١ — منهاج الطالبين للنووي المتوفي عام ٦٧٦ ه ، وهو مقتبس من كتاب المحرر للرافعي المتوفي عام ٦٢٣ ه . وأشهر الشروح التي كتبت على المنهاج هي :

٢ — النهاية للرملي المتوفي سنة ١٠٤٤ .

٣ — تحفة المحتاج لابن حجر الهيتمي المتوفي عام ٩٧٣ أو ٩٧٤ ه .

٤ — التحرير لزكريا الانصاري المتوفي عام ٩٢٦ ه .

٥ — منهج الطلاب لزكريا الانصاري أيضاً .

٦ — شرح ابن القاسم الغزي المتوفي عام ٩١٨ه المسمى القول المختار .

٧ — مختصر أبي شجاع الأصفهاني المتوفي حوالي عام ٥٠٠ ه .

٣ — فقه المالكية

١ — الرسالة لعبدالله بن أبي زيد القيرواني المتوفي عام ٣٨٨ ه . وقد شرح هذه الرسالة كثيرون منهم: أبو الحسن الشاذلي المتوفي ٩٣٩ه ، والتتائي المتوفي عام ٩٤٢ه ، والأجهوري المتوفي ١٠٦٦ ه.

٢ — مختصر خليل بن اسحق المتوفي ٧٦٧ه ولهذا المختصر الذي كتبه مكانة سامية بين المالكية أشبه بمكانة كتاب النووي بين الشافعية. وقد شرحه كثيرون نذكر من بينهم الحطاب والمازني والتتائي ، والأجهوري ، وعبد الباقي بن يوسف الزرقاني المتوفي ١٠٩٩ه ، والخرشي المتوفي عام ١١٠١ ه ، والدردير المتوفي ١٢١٠ه ومحمد عليش المتوفي سنة ١٢٩٩ ه .

٣ — متن العشماوية لعبد الباري العشماوي مع شرح احمد بن التركي المتوفي حوالي عام ٩٩٢ ه .

٤ — العزية وقد شرحها كل من ابن التركي والفيشي والزرقاني .

—٧—

٤ — فقه الحنابلة

١ — دليل الطالب لمرعي بن يوسف المتوفي ١٠٣٣ هـ ومنتهى الايرادات لمحمد بن أحمد الفتوحي .

***

هذه هي أشهر الكتب الأزهرية والعصور التي ألفت فيها .

واذا نظرنا الى أثر الأزهر في هذه العلوم ونسبنا العالم المصري الى الأزهر نجد أن الأزهر له أكبر الأثر في أصول الفقه وفي النحو والحديث والتفسير والفقه فابن السبكي [١] وابن الحاجب [٢] مصريان . وكذلك النحو فابن هشام مصري وهو الذي قال عنه ابن خلدون « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية أنحى من سيبويه » . إلى آخر ما تراه بعد أن ترجع إلى جنسية مؤلف الكتاب .

هذه صورة مصغرة عرضناها للأزهر القديم والآن نرى الأدوار التي مرت به حتى وصل الى ما هو عليه الآن .

---

(١) عبد الوهاب السبكي ولد بالقاهرة ولازم الاشتغال بالفنون على أبيه وغيره حتى مهر وهو شاب ويخبرنا صاحب كتاب معجم المطبوعات العربية والمعربة يقول « ومما قرأته في كتاب مخطوط ما يأتي أجاز له ابن الشحنة ويونس الدبوسي وسمع الصابوني وابن سيد الناس ثم قدم مع والده الى دمشق فسمع بها على زينب بنت الكمال وقرأ بنفسه على المزني ولازم الذهبي وقال الشيخ عبد الوهاب الشعراني في كتابه الاجوبة المرضية أن أهل زمانه رموه بالكفر وتحزبوا عليه وأتوا به مقيداً مغلولا من الشام الى مصر وجاء معه خلائق من الشام ليشهدوا عليه ثم تداركه اللطف على يد الشيخ جمال الدين الاسنوي . وكتابه جمع الجوامع هذا جمعه من زهاء مائة مصنف مشتمل على زبدة ما في شرحه على مختصر ابن الحاجب والمنهاج مع زيادات وبلاغة في اختصار (معجم المطبوعات العربية والمعربة بمجمع فؤاد الاول للغة العربية تحت نمرة ١٥٨٦ ج ٢ عمود ١٠٢ ، ١٠٣)

(٢) ابن الحاجب ولد باسنا في الصعيد وقرأ على الشاطبي بعض القراءات وسمع الحديث عليه وأخذ الفقه عن أبي منصور الابياري وانتقل الى دمشق ودرس بجامعها في زاوية مالكية وأكب الفضلاء على الاخذ عنه ثم عاد الى مصر وتوفي بالاسكندرية وقبره خارج باب البحر بتربة الشيخ الصالح ابن أبي شامة

جاء السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر فغرس في نفوس أبنائها حكمته الخالدة «لا يجتمع الذل والاسلام في قلب واحد» وجدت هذه الكلمة في نفوس تلاميذ الشيخ مكاناً خصباً فنمت وترعرعت، حتى أثمرت تلك النهضة الجديدة التي حمل لواءها بعده تلميذه المخلص الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده.

حمل الأستاذ الامام لواء النهضة منادياً بكلمته المشهورة الخالدة « الايمان الذي يجتمع معه أدنى خوف من المخلوقات ليس بإيمان. ومن كان عنده من الثقة بالله ما لا يخشى معه أحداً فهو المؤمن. وهذا الإيمان هو الذي يضع رجل صاحبه في عتبة الجنة».

وماذا يصنع؟ وجه همتـه فيما وجه إلى إصلاح الأزهر، فهو معقل الدين، وحصن اللغة، ومنه ينبغي أن تخرج المثل العليا للناس. أما أن يبقى على ما هو عليه فذلك مما يضر ولا ينفع

نظر إلى الأزهر وقتئـذٍ فوجده لا نظام له، والطلبة مهملين، والعلمـاء الذين هم قدوة الناس وأئمتهم، أقرب إلى التأثر بالأوهام والانقياد إلى الوساوس من العامة وأسرع إلى مشايعتها منهم وعلة ذلك فساد طرق التعليم والتربية في الأزهر.

كان الأزهر وقتئذٍ يرغب عن بعض العلوم ولا يرى في الاشتغال بها فائدة، بل يحرّمها: مثلاً كانوا يرغبون عن التاريخ، فصرخ فيهم صرخة قائلاً: « إذا بقيتم على جهلكم بالتاريخ إلى هذا الحد فلا يمكنكم أن تعرفوا دينكم ولا نجاح لكم في دنياكم، إن قراءة التاريخ واجب من الواجبات الدينية، وركن من أركان اليقين فلا بد من تحصيله ».

رآهم يعرضون عن دراسة الأدب فقـال لهم: « ترك الاشتغال بدقائق الفصـاحة، والبلاغة، والبراعة موت للحياة العقلية ».

رآه في طبه عزلة عن الأمة فقال : « من أكبر التقوى علو الهمة ، والسعي في مصلحة الأمة ، ونفع الناس » .

رأى أسلوب التعليم في الأزهر إنما يعني أكثر ما يعني بالصناعية اللفظية، ويطبق ذلك حتى على القرآن الكريم فقال : « لا يمكن لهذه الامة أن تقوم ما دامت هذه الكتب فيها — يعني كتب التعليم التي تدرس في الازهر وأمثالها — ولن تقوم إلا بالروح التي كانت في القرن الاول وهي القرآن، وكل ما عداه فهو حجاب قائم بينه وبين العمل والعلم ..ثم قال: إنما يصعّب القرآن توهم أنه صعب . وكلما أدخل الانسان على نفسه الصعوبة صعب عليه . وكلما مكن نفسه من الفهم مكنه الله منه . إن لكلام الله أسلوباً خاصّاً يعرفه أهله ومن امتزج بلحمه ودمه . وأما الذين لا يعرفون منه إلاّ مفردات الالفاظ وصور الجمل فأولئك عنها مبعدون . يجب على كل شخص له إيمان صحيح ، أن يعقل عقائده على الوجه الذي في كتاب الله وسنة رسوله » الى آخر ما قال .

***

هذا هو حال الازهر في القرن الماضي ، وكان رأي الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده في اصلاح الازهر يوضحه هذه الكلمات التي سقناها له .

ولأجل أن نتصور أكثر ما كان عليه الأزهر يومئذٍ ننشر له مقالا كتبه هو نفسه تحت عنوان « الجامع الازهر » ، ثم ننشر له بعد ذلك بعض اقتراحات اقترحها لاصلاح دار العلوم ورأى أنها لازمة ليمكن أن ينتهي أمرها الى أن تحل محل الازهر وعند ذلك يتم توحيد التربية في مصر .

قال : « الجامع الازهر مدرسة دينية عامة يأتي اليها الناس إما رغبة في تعليم علوم الدين رجاء ثواب الآخرة، وإما طمعاً في بعض الامتيازات لطلاب العلم فيه، ولا يزال بعضها إلى اليوم . ولكن مما يؤسف عليه أنه لا نظام لها في دروسها . ولا يسأل فيها التلميذ أيام الطلب عن شيء من أعماله . ولا يبالي أستاذه حضر عنده في الدرس أم غاب ، فهم أم لم يفهم . صلحت أخلاقه أم فسدت . ويمر عليه الزمان الطويل ، لا يسمع فيه نصيحة من أستاذه تعود عليه بالاصلاح في دنياه أو دينه، وإنما يسمع منها ما يملأ القلب بغضاً لكل من

لم يكن على شاكلته في الاعتقاد حتى من بني ملته ، ويطبق على الذهن غفلته ، ويستفزه الطيش لتصديق كل ما يسمع ، إذا كان موافقاً لمبدأ التعصب الجاهلي ، فأغلب الاوقات تمر على أهل الجد منهم في فهم مباحث لبعض المتأخرين لا فائدة فيها ، ولا يتعلمون من الدين إلاّ بعض المسائل الفقهية . وطرفاً من العقائد على نهج يبعده عن حقيقته أكثر مما يقرب منها . وجلّ معلوماتهم تلك الزوائد التي عرضت على الدين . ويخشى ضررها ولا يرجى نفعها .

ثم ان المعروفين بالعلماء وهم الذين يتممون دروسهم في هذه المدرسة ، ويؤذن لهم بالتدريس فيها ، هم قدوة الناس وأئمتهم ، مع أنهم أقرب الى التأثر بالأوهام ، والانقياد إلى الوساوس من العامة ، وأسرع الى مشايعتها منهم . وذلك بما ينشأون عليه من التعليم الرديء والتربية المختلفة التي لا ترجع إلى أصل صحيح فبقاؤهم فيما هم عليه اليوم مما يؤخر الرعية عن تقدير السلطة الصالحة قدرها .

إصلاح الأزهر لا بد أن يكون بالتدريج في تغيير نظام الدرس وجعلها في الابتداء تحت قواعد ساذجة قريبة من الحال الحاضرة فيها ، بحيث يقرر فيها أن كل من أدرج اسمه في جدول الطلبة يلزم بالحضور في الدروس وإلاَّ حرم الامتياز ، وكل أستاذ يسأل عن طلبته ثم يجعل ما ينالونه من المنافع الطفيفة منوطاً بافهم لا بالكتب ، وتغيير بروجرام الدروس ويزاد عليه أصناف من الكتب بحيث يدخل فيه تدريس الآداب الدينية المفقودة الآن بالكلية ، ويكلف الاستاذ بتعهد أخلاق تلميذه ، لتكون منطبقة على تلك الآداب بقدر الامكان ، ويجعل شيخ الجامع رقيباً على الأساتذة والتلامذة في ذلك ، ثم يعدّل نظام الامتحان النهائي وشروطه . وكل ذلك يكون على طرق بسيطة لا توجه الأذهان إلى شيء خلاف المصلحة وتفصيلها يكون في لائحة مخصوصة .... وقد يظن بعض من لم يتفكر في حال البلاد ومرتبتها الأدبية والدينية أنّ إصلاح الأزهر لا يمكن ، لأنه يترتب على مجرد الشروع فيه تشويش أذهان العلماء ، والعامة على إثرهم ، فهذا ظن فاسد لا يؤيده دليل ، ولم تقض به تجربة ، إلاَّ ما كان من بعض الرؤساء من مدة عشرين سنة ، عند ما أراد ادخال بعض العلوم الصناعية فيه ، نقاومه بعض من كان موجوداً من العلماء فيئس من الاصلاح وترك الأمر الى اليوم ، فقد كان ذلك قبل أن تتقلب الحوادث على مصر ، ولم يكن بالتدريج اللائق ، أما الآن فقد تغيرت

الأحوال وأصبح الاصلاح فيه أهون منه في جميع المصالح » . انتهى المقال
وها هي ذي بعض الاقتراحات أنشرها وهي من غير شك تلقي ضوءاً امام المفكرين في أمر التعليم . ولما كانت هذه الاقتراحات خاصة بدار العلوم كما قلنا حذفت منها ما يشير إلى المدرسة وليس في ذكره هنا فائدة ما دمنا بصدد الكلام على الأزهر .

١ — زيادة بعض علوم منها علوم الآداب الدينية ، وفن أصول النظام مع تعلقه بالدين .
٢ — تغيير طريقة تدريس تفسير القرآن وتعلم الأحاديث النبوية .
٣ — اختيار معلمين صالحين للقيام بالعمل الموصل الى الغاية المطلوبة .
٤ — وهو أهم ما يجب ، أن يكون تحت نظام شديد في التهذيب وملازمة العمل بما يعلمون .
٥ — أن تكون درجتهم في الوظائف على حسب أدبهم واقتدارهم على التأديب .
٦ — ان يكون للموظف سلطة تامة على تهذيب التلامذة ، وتربية نفوسهم وتقويم أخلاقهم وطباعهم وأرقاهم وظيفة يكون رئيساً لمن دونه
٧ — أن يبقوا بلباسهم الذي هو لباس أهل الدين مهما ترقوا في الوظائف

ثم قال : يلزم لهذا المشروع كتب تؤلف جديداً ولوائح تنظم للعمل على مقتضاها وذلك كله يمكن بعد العزم على الاجراء » .

ذلك المقال يصوّر لنا إلى حدٍّ كبير حال الأزهر في القرن الماضي كما يصوّر حال الطلاب ويصوّر ما كان عليه الأساتذة وكيف كان يطعن هؤلاء الأساتذة كل من لم يكن على شاكلتهم في الاعتقاد حتى من بني ملته ، ويصوّر رغبة المجدين من الطلاب عن هذا اللون من التعليم وانصرافهم الى الاشتغال بمباحث لبعض المتأخرين لا فائدة فيها ، كما يصوّر مقدار ما كان يدرس في الأزهر متعلقاً بالدين. ويصوّر جل معلومات الأزهريين في ذلك الوقت وأنها كانت تلك الزوائد والأوشاب التي علقت بالدين وليست منه، والتي يخشى ضررها ولا يرجى نفعها . وأخيراً يبين حال أساتذة الازهر وأنهم كانوا أقرب الى التأثر بالاوهام والانقياد الى الوساوس من العامة وأسرع الى مشايعتها منهم . ثم يرجع سبب كل هذا الى فساد طرق التعليم والتربية المختلفة التي لا ترجع الى أصل صحيح . وفي النهاية ينادي بأن ترك الازهر على هذه الحال — التي كانت في القرن الماضي — مما يضر بالامة .

رأى هذه الحال الاستاذ الامام في الازهر رؤية طالب مكث فيه السنين الطويلة وخبرها خبرة رجل مارس التعليم فيه، واحتك برجاله والقائمين على أمره فشغل أمر الازهر باله وأقض جمود من فيه مضجعه ، رأى ذلك غيوراً على الاسلام والمسلمين ، مكتئباً لما وصلت اليه الدراسات الاسلامية في الازهر، فأخذ يحتال لارضاء الازهريين ليتمكن من إدخال بعض العلوم فيه حتى يؤدي رسالته على الوجه الذي ينبغي أن يكون . نعم أخذ يحتال .

يقول أستاذنا الجليل معالي أحمد لطفي السيد باشا في كتابه المنتخبات (ج ٢ : ص ٥٢) كان استاذي الامام محمد عبده يحتال لارضاء الازهر بأن يسمي علم الطبيعة « علم خواص الاشياء التي أودعها الله في الاجسام ، كذلك كان، وكذلك صدر قانون مدرسة القضاء الشرعي »

هذه صورة الازهر في القرن الماضي صورها الأستاذ الامام نفسه وفيها نرى المجهود الذي بذله الأستاذ الامام في سبيل الاسلام والمسلمين بمحاولته إصلاح الأزهر .

* * *

بعد ذلك نعرض الادوار التي مرت بالأزهر حتى وصل الى ما هو عليه الآن من نمو بفضل البذرة التي بذرها السيد جمال الدين الافغاني ، وتعهدها من بعده تلميذه الاستاذ الامام محمد عبده، ويقوم الآن على حراستها وانمائها تلميذه المخلص الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق .

لما ولى الخديو عباس الثانى الحكم تقدّم اليه الشيخ محمد عبده بخطة لاصلاح الأزهر فوفق الى استصدار قانون تمهيدي في رجب سنة ١٣١٢ هـ — ١٥ يناير سنة ١٨٩٥م وتألف مجلس لادارة الأزهر من أكابر شيوخه الذين يمثلون المذاهب الأربعة. وعنى المجلس بحركة الاصلاح فجعل للشيوخ مرتبات، واستصدر قانوناً لكساوي التشريف، واهتم بمساكن الطلبة وعمل على توزيع الجراية، وحدد العطلات . وقصر أجلها وأدخل بعض العلوم الحديثة، وعني بمكتبة الأزهر، وأنشأ مكتبات في المعاهد الملحقة به. وانتقل الأزهر بالقانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ الى مرحلة أخرى من النظام إذ زيدت فيه مواد الدراسة وبين اختصاص شيخ الجامع الأزهر . وأنشىء له مجلس تحت رئاسة شيخه يسمى «مجلس الأزهر الأعلى» ووُضع فيه نظام لهيئة كبار العلماء، وجعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخ ، ولكل معهد من المعاهد مجلس ادارة .

استمرّ الأزهر خاضعاً لهذا القانون مع ما لحقه من التعديل الى أن صدر القانون رقم

٣٣ لسنة ١٩٢٣ بانشاء قسم التخصص . وفي ٢٤ جمادى الآخرة لسنة ١٣٤٩ هـ (١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٠) صدر مرسوم بقانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ باعادة تنظيم الجامع الأزهر والمعاهد الدينية العلمية الاسلامية ، وبدىء العمل به من سنة ١٩٣١ وهو القانون الذي وضع أساسه الأستاذ الامام المراغي . وقد جعل هذا القانون التعليم في الأزهر أربع مراحل :

مراحل التعليم في الازهر

والعلوم التي تدرس فيه

١ — ابتدائي : ومدته أربع سنوات ويدرس فيه من المواد ما يلي :—

الفقه . الأخلاق الدينية . التجويد . استذكار القرآن الكريم . التوحيد . السيرة النبوية . المطالعة . المحفوظات . الانشاء . النحو . الصرف . الاملاء . الخط . التاريخ . الجغرافية . الحساب . الهندسة العملية . مبادىء العلوم . تدبير الصحة . الرسم .

* * *

٢ — ثانوي : ومدته خمس سنوات ، ويدرس فيه من المواد ما يلي : ـ

الفقه . التفسير . الحديث . التوحيد . استذكار القرآن الكريم . النحو . الصرف . البلاغة (معاني . بيان . بديع) العروض والقافية . المطالعة المحفوظات . الانشاء . أدب اللغة . حساب . هندسة . جبر . طبيعة . كيمياء . تاريخ طبيعي . المنطق . التاريخ . الجغرافية الأخلاق . التربية الوطنية .

* * *

٣ — عال : ومدته أربع سنوات ، وينقسم الى ثلاث كليات :

(ا) كلية اللغة العربية : ويدرس فيها من المواد ما يلي :

النحو . الوضع . الصرف . المنطق . علوم البلاغة . الآداب العربية وتاريخها . تاريخ العرب قبل الاسلام . تاريخ الامم الاسلامية . التفسير الحديث . الأصول . الانشاء . فقه اللغة .

* * *

(ب) كلية الشريعة : ويدرس فيها من المواد ما يلي :

التفسير . الحديث متناً ورجالاً ومصطلحاً . أصول الفقه . تاريخ التشريع الاسلامي .

الفقه مع مقارنة المذاهب في المسائل الكلية حكمة التشريع ، آداب اللغة العربية . علوم . البلاغة . المنطق .

* * *

(ج) كلية أصول الدين : ويدرس فيها من المواد ما يلي :

التوحيد مع ايراد الحجج ودفع الشبه خصوصاً الذائع في العصر منها : المنطق . والمناظرة . الفلسفة مع الرد على ما يكون منافياً للدين منها . الأخلاق . التفسير . الحديث آداب اللغة العربية وتاريخها . تاريخ الاسلام . علم النفس . علوم البلاغة .

* * *

٤ — التخصص وهو على نوعين : تخصص في المهنة وتخصص في المادة والغرض من التخصص في المهنة إعداد علماء يقومون بمهمة الوعظ والارشاد أو الوظائف القضائية بالمحاكم الشرعية والافتاء والمحاماة أو التدريس في المعاهد الدينية ومدارس الحكومة .

والغرض من التخصص في المادة إعداد علماء متفوقين في العلوم الاساسية لكل كلية من الكليات الثلاث ويعين حاملو شهادة هذا القسم في وظائف التدريس بالكليات وبأقسام التخصص .

وهناك علاوة على ذلك أقسام غير نظامية يسمح فيها بدخول الطلبة الذين لم تتوافر فيهم شروط القبول بالاقسام النظامية ، وكذلك أفراد الجمهور للتوسع في دراسة اللغة العربية والعلوم الدينية . ويطلق عليها اسم القسم العام وهو أشبه شيء بالجامعة الشعبية التي أنشئت أخيراً ومركز هذا القسم الآن الجامع الأزهر نفسه وله فرع في طنطا .

الشهادات

والشهادات التي تعطى للناجحين في الامتحانات هي :

١ — الشهادة الابتدائية :

تمنح لمن أتموا دراسة القسم الابتدائي وتخول صاحبها الاندماج في القسم الثانوي .

٢ — الشهادة الثانوية :

تمنح لمن أتموا دراسة القسم الثانوي وتخول صاحبها الاندماج في الكليات .

٣ — الشهادة العالية :

تمنح لمن أتموا دراسة كلية من كليات القسم العالي . والحائزون لهـا يكونون أهلاً للوظائف الـكتابية بالجامع الأزهر والمعاهد الدينيـة والمحاكم الشرعيـة والمجالس الحسبية والاوقاف والتدريس في المساجد ولوظائف الخطابة والامامة والمأذونية .

٤ — الشهادة العالمية :

تمنح لمن أتموا دراسة التخصص في مهنة التدريس أو القضاء الشرعي أو الوعظ والارشاد والحائزون لها من قسم التخصص في مهنة التدريس يكونون أهلاً للتدريس في المعاهد الدينية وفي مدارس الحكومة. والحائزون لها من قسم التخصص في القضاء يكونون أهلاً للوظائف القضائية بالمحاكم الشرعية والافتاء والمحاماة أمام المحاكم الشرعية والمجالس الحسبية. والحائزون لها من قسم التخصص في الوعظ والارشاد يكونون أهلاً لوظائف الوعظ والارشاد .

٥ — شهادة العالمية مع لقب أستاذ :

تمنح لمن تخصص في مادة من المواد . والحائزون لها يكونون أهلاً للتدريس في الكليات وفي أقسام التخصص .

مجلس الازهر الاعلى

وقضى القانون الجديد بتأليف هيئة تشريعية لهـا حق النظر في اللوائح والقوانين التي تلزم لسير الدراسة والادارة وغيرها في الازهر والمعاهد الدينية وتسمى تلك الهيئة (مجلس الأزهر الأعلى) .

وهو مؤلف من : —

١ — شيخ الجامع الأزهر رئيساً

٢ — وكيل الجامع الأزهر والمعاهد الدينيـة . وله رياسة المجلس عنـد غياب شيخ الجامع الازهر

٣ — مدير الجامع الأزهر

٤ — مفتي الديار المصرية

٥ — مشايخ الـكليات الثلاث

٦ — وكيل وزارة الحقانية

٧ — وكيل وزارة الأوقاف

٨ — وكيل وزارة المعارف العمومية

٩ — وكيل وزارة المالية

١٠ اثنين من هيئة كبار العلماء ويعينان بأمر ملكي لمدة سنتين

١١ — اثنين ممن يكون في وجودهم بالمجلس مصلحة للتعليم في الأزهر والمعاهد الدينية ويعينان بمرسوم لمدة سنتين

المعاهد الدينية التابعة للازهر

أطلق اسم الجامع الأزهر في القانون الجديد على كليات التعليم العالي وعلى أقسام التخصص.

ويطلق اسم المعاهد الدينية على معاهد تعليم الدين الاسلامي التي يكون التعليم فيها بقصد تفقه الطلاب في دينهم وفي اللغة العربية واعدادهم لدخول الجامع الأزهر .

والتعليم في هذه المعاهد ابتدائي . أو ابتدائي وثانوي . والمعاهد الدينية الآن هي : —

المعاهد الابتدائية والثانوية

(١) معهد القاهرة (٢) معهد الاسكندرية (٣) معهد طنطا (٤) معهد الزقازيق (٥) معهد عين الكوم (٦) معهد أسيوط (٧) معهد قنا .

المعاهد الابتدائية

(٨) معهد دسوق (٩) معهد دمياط (١٠) صدرت الارادة السنية بمعهد في سوهاج. ولما يفتح بعد .

هذه صورة هذا الصرح الذي وضع أساسه الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده وجاء على هذه الصورة بفضل الأسرة العلوية . وبخاصة المغفور له الملك فؤاد الأول ، وإذا كان الملك فؤاد قد عني بالأزهر هذه العناية فان شبله جلالة مليكنا المحبوب فاروق الأول يحبوه بعطف كبير . ويخصه بعناية فائقة .

تراجم

عن رؤساء الازهر وشيوخه

أصدّر الكلام على رؤساء الأزهر وشيوخه بكلمة عن فضيلة شيخه الحالي حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ مصطفى عبد الرازق

الشيخ مصطفى عبد الرازق

لو أن الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق أعطى في الأصل أن يختار نفسه بنفسه لما تمنى أكثر مما منّ الله عليه به ، فهو أصيل الجدود ، عريق النسب ، من أسرة مشهورة بالعلم والفضل ، فوق ما حباها الله به من نعمة الثراء ، وليس بعد ذلك من زيادة لمستزيد . وفضيلته رجل والرجال قليل، خصه الله بصفات واضحة فيه وضوح الشمس ، فهو متواضع أشد التواضع ، ندي الكف في غير إعلان عن نفسه ، حتى لا تعلم شماله ما قدمت يمينه ، مؤمن قوي الايمان ، يمتثل عقائده على الوجه الذي في كتاب الله وسنة رسوله ، حيي يمنعه حياؤه عما لا يليق بالرجل الكامل ، مخلص يبذل من نفسه في سبيل عمله ، عالم غزير المادة، نفذ شعاع العلم إلى قلبه ، فنوّره بنوره ، جمع بين الثقافتين الشرقية والغربية فكان عالماً تعلّمً من الكتب والأساتذة ، وتعلّمً من سياحاته في أوربا وتجاربه الشخصية في البيئات المختلفة ، وهذه هي أعظم مراتب العلم . شبّ فضيلة الأستاذ من حداثته يشعر بما لم يشعر به الكبار من قومه، وليس أدل على ذلك من شهادة الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده نفسه في خطاب له أرسله اليه قال :

دعاء مجاب وفراسة تحقق

ولدنا الأديب : خير الكلام ما وافق حالاً ، وحوى من النفس مناًلا ، تلك أبياتك العشرة رأيتني والحمد لله متربعاً في سبعة منها كأنها الكواكب تسكنها الملائكة ، وما بقي كأنه الشهب نور للأحياء ، رجوم للأشقياء ، ما سررت بشيء سروري بأنك شعرت من عام حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك ، فلله أنت ولله أبوك ، ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت إليك من الثناء ما يملأ

عليك القضاء ، ولكني أكتفي بالاخلاص في الدعاء أن يمتعني الله من نهايتك بما تفرّسته في بدايتك ، وأن يخلص للحق سرك ، ويقدرك على الهداية اليه وينهض بنفسك لجمع قومك عليه والسلام »

***

آمنت بالله : دعاء يجاب وفراسة تتحقق ، فانعمي ياروح الأستاذ الامام وتمتعي بأثر إخلاصك في الدعاء ، فمن ابتهلت الى الله من أجله هو امام المسلمين اليوم .

وأسرة آل عبد الرازق تعرف حتى الساعة في صعيد مصر بأسرة القضاه ، ذلك أن مؤسسها كان قاضي خط البهنسا . ولهذه الأسرة أثر كبير في العلم والأدب في تاريخ مصر الحديث فليس من رجالات مصر وعلمائها من يجهل سراي آل عبد الرازق التي كانت بجوار قصر عابدين أمام باب باريس . كانت هذه الدار ملتقى أهل العلم والفضل والأدب تضيئهم كل ليلة بنور العلم والتقى .

وليس في مصر من ذوي الرأي والحجى من لم يأنس بها وصبا الى ناديها . وعرف لها في كل نواحي الخير فضلاً مشكوراً . وهل في مصر أو الشرق من لم يعرف حسن باشا عبد الرازق الكبير — لقب بهذا اللقب للتمييز بينه وبين ابنه حسن باشا عبد الرازق الصغير شقيق فضيلة الأستاذ الأكبر — كان رضوان الله عليه عالماً من أفاضل علماء الأزهر ونبهائهم ،وكان فقيهاً أديباً نظم الشعر ولكن لم ينشره كعادة بعض العلماء وقتئذٍ ،وظهر علمه بالفقه في مجلس شورى القوانين فلقد أعانه فقهه على فهم القوانين ودقة النظر في انتقادها حتى كان من رجالات المجلس يشار اليه بالبنان .

وجّه حسن باشا أبناءه توجيهاً حسناً يشهد له بالعلم ، والفضل ،فوجّه حسناً وحسيناً الى مدرسة الحقوق .

فكان الأول محامياً أهليًا ومدرساً بمدرسة البوليس ، وألزم الثاني بعد أن قبل محامياً في المحكمة المختلطة بأن يكون عمدة في بلده « أبو جرج » ووجه « محمود باشا » الى الادارة وابراهيم واسماعيل الى مدرسة الزراعة . ووجه أستاذنا الأكبر والشيخ المحترم علي بك عبد الرازق إلى التعليم الديني . فحفظ الأستاذ الأكبر القرآن الكريم وتعلم التعليم

الأولي في احدى المكاتب، ثم التحق بالازهر، وتلمذ للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فكان طالباً مجداً نجيباً . وأخذ فضيلته شهادة العالمية سنة ١٩٠٩ فكان أول فرقته ترتيباً وأصغر زملائه سناً، وسافر الى فرنسا فالتحق « بالسوربون » في باريس لدراسة الفلسفة وعنى من فروعها بالأخلاق وعلم الاجتماع . ثم استدعاه الاستاذ «لمبرت» Lambert الذي كان من قبل ناظراً لمدرسة الحقوق المصرية الى ليون ليساعده في درس القانون المقارن ، وعهد اليه بتدريس الشريعة الاسلامية في كلية ليون كما عهد اليه أيضاً بتدريس اللغة العربية في ليون نفسها وعمل في فرنسا رسالة عن الامام الشافعي بالفرنسية بالاشتراك مع أحد المستشرقين ، وله أيضاً بالفرنسية دراسة عن الوحي وأخرى عن الاسلام . وله عدة محاضرات ألقاها فضيلته في جامعة بيروت عن الدين . وهذه الأبحاث « الدين والوحي والاسلام » نشرتها الجمعية الفلسفية المصرية في مؤلف خاص في سنة ١٩٤٥ . ولفضيلته أيضاً كتاب عن فيلسوف العرب والمعلم الثاني نشرته الجمعية .

وله دراسات عن البها زهير . والتمهيد في تاريخ الفلسفة . وكتاب عن الشافعي نشر في مجموعة أعلام الاسلام . وكتاب عن الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده . ولفضيلته زيادة على ذلك مؤلفات لم تنشر في المنطق ، والتصوف ، والأدب العربي .

ولما عاد من فرنسا اشتغل سكرتيراً عاماً للأزهر والمعاهد الدينية ، ثم نقل الى وزارة الحقانية مفتشاً للمحاكم الشرعية . ثم عين سنة ١٩٢٧ أستاذاً للفلسفة الاسلامية والمنطق بكلية الآداب بجامعة فؤاد الاول، وفي سنة ١٩٣٨ أختير وزيراً للاوقاف في وزارة رفعة محمد باشا محمود، ولم يقطع صلته بالجامعة في البحث والدرس طيلة السنين التي تولى فيها الوزارة بل كان يلقي المحاضرات ويشترك في مناقشة الرسائل .

وتقلد الوزارة غير مرة تقلدها مرتين في وزارة رفعة محمد محمود باشا ، ومرة في وزارة حسن صبري باشا ، وحسين سري باشا ، واحمد ماهر باشا ، والنقراشي باشا الى أن عين شيخاً للازهر في ديسمبر سنة ١٩٤٥

ولما صدر الأمر الملكي بتعيينه شيخاً للأزهر طلب من مولانا جلالة الملك فاروق الأول إعفاءه من لقب « باشا » فتفضل باعفائه .

هذا هو فضيلة الأستاذ الامام الشيخ مصطفى عبد الرازق في تاريخه الأبيض الناصع سدّد الله خطاه ومدّ في عمره الغالي ليسير بسفينة الأزهر بما عهد فيه من إخلاص ونبل حتى يؤدي الأزهر رسالته على الوجه الأكمل، ولفضيلته من عطف حضرة صاحب الجلالة مليكنا المحبوب فاروق الأول ما يمكنه من توجيه الأزهر وجهةصالحة في هذا العصر الذري. وان « ٤٠٠ مليون مسلم » في جميع بقاع الارض أصبحت يا فضيلة الأستاذ إمامهم جميعاً، وما يقرب من « ١٥ » ألف شاب من شباب الازهر الكل قد عقدوا أملهم عليك يا فضيلة الاستاذ في تنقية الدين مما علق به من أوشاب، وفي أن يساهم الازهر بنصيب موفور في نشر العلم وخدمة الانسانية والسلام. وأني على ثقة وقد أخلص الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في الدعاء اليك ومتع روحه الطاهرة بفراسته فيك في بدايتك، على ثقة من أنك ستجمع قومك على الهداية للحق بفضل إخلاصك اليه.

* * *

كان الأزهر في أول عهده يتولى شئونه رجل يسمى مشرفاً ومعه أربعة قومة. وفي عهد المماليك كان يتولى أمره رجل من كبار الموظفين يسمى ناظراً منهم: الأمير، الطواشي بهادر المقدم على المماليك السلطانية ولي نظره في سنة ٧٨٤ هـ. وهو الذي نجز مرسوم السلطان الملك الظاهر برقوق الخاص بجعل أبناء الأزهر أسرة واحدة يرث بعضهم بعضاً إذا مات أحدهم ولم يكن له وارث شرعي.

ومنهم الأمير سودوب القاضي حاجب الحجاب ولي نظره سنة ٨١٨ هـ. وهو الذي طرق الجامع بعد العشاء في ليلة صيف. وكانت العادة قد جرت بمبيت كثير من الناس فيه ما بين تاجر وفقيه وجندي وغيرهم، منهم من يقصد بمبيته البركة، ومنهم من لا يجد مكاناً يأويه، ومنهم من يستروح بمبيته هناك خصوصاً في ليالي الصيف وليالي شهر رمضان حتى يمتلىء صحنه وأكثر رواقاته، فقبض على جماعة منهم وضربهم. وكان قد جاء معه من الأعوان والغلمان وغوغاء العامة ومن يريد النهب جماعة فحلّ بمن كان فيه أنواع البلاء ووقع فيهم النهب، فأخذت فرشهم وعمائمهم، وفتشت أوساطهم، وسلبوا ما كان مربوطاً عليها من ذهب وفضة. فعل هذا لما بلغه أن أناساً يبيتون به لأغراض غير شريفة[1]

(١) خطط المقريزي ج ٤ ص ٥٤ وما بعدها

استمر النظام على هذه الحال في الازهر يتولى شئونه ناظر ينتخب من كبار الموظفين . ولم يكن له رئيس علمي من أبنائه إلاّ في العهد التركي ابتداء من عام ١١٠٠ هـ. ويسمى شيخ الازهر وهم : —

شيوخ الازهر

١ — الشيخ محمد عبد الله الخرشي المالكي . توفى سنة ١١٠١ هـ . نسبة الى بلدة يقال لها أبو خراش من البحيرة . وكان كريم النفس ، ورعاً ، زاهداً ، وله شرح على متن خليل .

٢ — الشيخ محمد النشرتي ، مالكي ، توفى سنة ١١٢٠ وبعد موت الشيخ النشرتي هذا وقعت فتنة بالأزهر بسبب المشيخة والتدريس بالاقبغاوية ، افترق فيها الطلبة فرقتين: فرقة تريد الشيخ احمد النفراوي . وأخرى تريد الشيخ عبد الباقي القليني ، ولم يكن حاضراً بمصر . فتصدر الشيخ النفراوي للتدريس بالأقبغاوية فمنعه القاطنون بها ، وحضر القليني فتعصب له جماعة النشرتي . وحضر أنصار النفراوي الى الجامع ليلاً مسلحين وأخرجوا جماعة القليني ، وكسروا باب الاقبغاوية وأجلسوا النفراوي مكان النشرتي ، فكبس جماعة القليني الجامع وقفلوا أبوابه وتضاربوا مع جماعة النفراوي فقتلوا منهم نحو العشرة وانفصلوا عن جرحى ، وانتهبت الخزائن وتكسرت القناديل وانتهت هذه الحادثة بأن أمر الوالي بأن يلزم الشيخ النفراوي بيته ، ونفي الشيخ هنن الى بلده واستقر القليني في المشيخة .

٣ — الشيخ عبد الباقي القليني . مالكي . توفى سنة ١١٢٣هـ

٤ — الشيخ محمد هنن . مالكي توفى سنة ١١٣٣ هـ وكان الشيخ هنن هذا أغنى أهل زمانه بين أقرانه

٥ — الشيخ ابراهيم موسى الفيومي . مالكي توفي سنة ١١٣٧ هـ وله شرح على العزية في الفقه في مجلدين .

وبعد الشيخ الفيومي انتقلت المشيخة الى الشافعية فتولاها .

٦ — الشيخ عبد الله الشبراوي . شافعي « توفى سنة ١١٧١هـ » وكان محدثاً عالماً في أصول الفقه . متكلماً شاعراً أديباً . وكان طلبة العلم في أيامه في غاية الادب والاحترام

وصار لأهل العلم في مدته رفعة ومقام ومهابة عند الخاص والعام ، ولم يزل يملي ، ويدرس ، ويفيد حتى صــار إماماً عظيماً . وكان مقبول الشفاعة ، وهاداه الأمراء ، وعمر داراً عظيمة على بركة الازبكيــة بالقرب من الرويعي . ومن آثاره « شرح الصدر في غزوة بدر » و « مفائح الالطاف في مدائح الاشراف ».

وهو ديوان يحتوي على غزليات وأشعار ومقاطيع وقد ذهب الجبرتي وغيره الى أن مفائح الألطاف هذا كتاب غير الديوان وليس كذلك فانه يقول نفسه في مقدمة الديوان « وسميته مفائح الألطاف .... » وهو القائل [1] لهذه القصيدة العذبة التي تسيل عذوبة ورقة المشهورة على ألسنة بعض المغنين :

بحقك أنت المنى والطلب وأنت المراد وأنت الأرب
ولي فيك يا هاجري صبوة تحير في وصفها كل صب
أبيت أسامر نجــم السما إذا لاح لي في الدجى أو غرب
وأعرض عن عاذلي في هواك إذا نم يا منيتي أو عتب
أمولاي بالله رفقاً عن إليك بذل الغرام انتسب
فاني حسيبك من ذا الجفا ويا سيدي أنت أهل الحسب
ويا هاجري بعد ذاك الرضا بحقك قل لي لهذا سبب
فاني محب كما قد عهدت ولــكن حبك شيء عجب
متى يا جميل المحيــا أرى رضاك ويذهب هذا الغضب
أشاع العذول بأني سلوت وحقك يا سيدي قد كذب
ومثلك ما ينبغي أن يصد ويهجر صبًّا له قد أحب
أشاهد فيك الجمال البديع فيأخذني عند ذاك الطرب
ويعجبني منك حسن القوام ولين الـكلام وفرط الأدب
وحسبك أنك أنت المليح الكريم الجدود العريق النسب
أما والذي زان منك الجبين وأودع في اللحظ بنت العنب
وأنبت في الخد روض الجمال ولــكن سقاه بماء اللهب
لئن جدت أو جرت أنت المراد وما لي سواك مليح يحب

(١) « ديوان الشبراوي » ص ٨ ، ٩

٧ — الشيخ محمد بن سالم الحفني الخلوتي شافعي توفي سنة ١١٨١هـ كان عابداً

٨ — الشيخ عبدالرؤوف السجيني نسبة الى سجين قرية من مديرية الغربية توفي سنة ١١٨٢ هـ

٩ — الشيخ احمد بن عبد المنعم الدمنهوري نسبة إلى دمنهور توفي سنة ١١٩٠ هـ

١٠ — الشيخ احمد العروسي شافعي « « ١٢٠٨هـ

كان قد حصل خلاف شديد بين العروسي والعريشي . واضطرابات بين الطلاب .

يروى أن الشافعية اجتمعوا وعلى رأسهم الشيخ العروسي والشيخ السمنودي والشيخ حسن الكفراوي بعد تولية الشيخ العريشي وكتبوا عريضة للأمراء مضمونها أن تكون المشيخة لشافعي واتفقوا على تعيين الشيخ العروسي. ولما لم يقبل هذا الطلب ركبوا بأجمعهم ومعهم الشيخ الجوهري الى الامام الشافعي وباتوا بالجامع ليلة الجمعة وأخيراً طلبوا من مراد بك طلبات قائلين له ان البلد بلد الامام الشافعي وقد ذهبنا اليه وهو يأمرك بتنفيذ هذه الطلبات فان خالفت يخشى عليك[1] فأحضروا فروة وألبسوها للعروسي فأصبح شيخاً للازهر. وهو من منية عروس قرية من مركز اشمون جريس

١١ — الشيخ عبد الله الشرقاوي شافعي توفي عام ١٢٣٧هـ

وكان عهده من أكثر العهود اضطراباً وفيه كانت الحملة الفرنسية ويعتبر من أعظم الشيوخ الذين أخذوا هذا المنصب ، وهو من الطويلة قرية صغيرة جهة العرين من مديرية الشرقية ، وبعده انقسم الشيوخ ، فبعضهم اختار الشيخ المهدي الكبير وكان شيخاً بالاسم لأنه لم يصدق على مشيخته وسرعان ما خلفه

١٢ — الشيخ محمد الشنواني من شنوان قرية بالمنوفية: كان شافعي المذهب وكان درسه بالجامع المعروف بالفاكهاني بجوار سكناه بخشقدم ، وكان مهذب النفس مع التواضع والانكسار والبشاشة لكل أحد من الناس . وكان يشمر ثيابه ويخدم نفسه ويكنس الجامع ويسرج القناديل . ولما اختاروه للمشيخة هرب الى مصر العتيقة فأحضروه قهراً عنه وقلدوه

(١) هذه الطلبات كانت عبارة عن فروة للشيخ العروسي ويكون شيخاً على الشافعية ويكون الشيخ العريشي شيخاً على الحنفية والشيخ الدردير شيخاً للمالكية « الخطط الجديدة لعلي مبارك باشا ص ٣٢ ج ٤ »

المشيخة ولم يترك ملازمة الجامع الفاكهاني كعادته ، وأقبلت عليه الدنيا فلم يحفل بها . وكان يتعلل بالمرض أشهراً ثم انقطع في داره الى أن توفى رحمة الله عليه وصلي عليه في الجامع الازهر في مشهد رهيب، ودفن بتربة المجاورين.وكان يجيد حفظ القرآن ويقرأ مع نقهاء « الجوقة » في الليالي،وله حاشية مشهورة على شرح الشيخ عبد السلام على الجوهرية

١٣ — الشيخ احمد العروسي توفي عام ١٢٤٥ هـ

١٤ — الشيخ احمد بن علي الدمهوجي توفي عام ١٢٤٦ هـ نسبة الى دمهوج قرية قرب بنها

١٥ — الشيخ حسن بن محمد العطار توفي عام ١٢٥٠ هـ

كان أبوه فقيراً عطاراً له إلمام بالعلم وكان يستخدم ابنه هذا في صغار شئون الدكان ويعلمه البيع والشراء فاختلف الى الجامع الأزهر خفية عن أبيه حتى قرأ القرآن وجدَّ في التحصيل على كبار المشايخ كالشيخ الصبان والشيخ الأمير . ولما دخل الفرنسيون مصر فرَّ الى الصعيد كجماعة من العلماء . ولما رجع اتصل بهم فكان يستفيد منهم ويفيدهم اللغة العربية وكان يقول : ان بلادنا لا بدَّ أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها ويتعجب مما وصلت اليه تلك الأمة من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة ثم ارتحل الى الشام وكان يقول الشعر دون اهتمام به كما هو عادة كثير من العلماء .

ومن شعره :

اني لأكره في الزمان ثلاثة ما إن لها في عدّها من زائد
قرب البخيل وجاهلاً متفاضلاً لا يستحي وتودداً من حاسد
ومن البلية والرزية أن ترى هذي الثلاثة جمّعت في واحد

وارتحل الى بلاد الروم وأقام بها مدة وتأهل بها ثم عاد الى مصر وعقد مجلساً لقراءة تفسير البيضاوي كان يحضره أكابر المشايخ .

وكان عزيز مصر المغفور له محمد علي باشا يجله ويعظمه ويعرف فضله وله تآليف عديدة منها :

١ — حاشية على جمع الجوامع نحو مجلدين .

٢ — حاشية على الأزهرية في النحو .

٣ — حاشية على مقولات السجاعي .

٤ — حاشية على السمرقندية .

وله رسائل في الطب ، والتشريح ، والرمل ، والزايرجة وكان يرسم بيده المزاول النهارية والليلية .

١٦ — الشيخ حسن القويسني نسبة الى قويسنا توفي سنة ١٢٥٤ هـ
كان مع انكفاف بصره مهيباً جداً عند الأمراء وغيرهم .

١٧ — الشيخ احمد الصائم السفطي نسبة الى سفط العرفاء قرية جهة الفشن بمديرية المنيا توفي سنة ١٢٦٣هـ

١٨ — الشيخ ابراهيم الباجوري من الباجور بمديرية المنوفية توفي سنة ١٢٧٧هـ
كان قويّـا في علمه ضعيفاً في ادارته وكان المرحوم عباس باشا الاول يزوره في درسه وبعد موته بقى الازهر مدة بلا شيخ بل بمجلس مؤلف من أربعة وكلاء تحت رياسة الشيخ مصطفى العروسي. وهم : الشيخ العدوي المالكي، والشيخ الحلبي الحنفي، والشيخ خليفة الفاشني، والشيخ مصطفى الصاوي الشافعيان . وكان هذا المجلس قد ألف لمباشرة أمور الأزهر بعد أن ضعف الشيخ الباجوري وكثرت حوادث الأزهر ولما كانت سنة ١٢٨١ هـ تقلد المشيخة

١٩ — الشيخ مصطفى العروسي كأبيه وجده الى عام ١٢٨٧ هـ . ولقد أبطل الشيخ العروسي كثيراً من البدع كالشحاذة بالقرآن وعزم على ادخال الامتحانات بالأزهر ففاجأه العزل عن المنصب فنفذها خلفه .

٢٠ — الشيخ محمد العباسي المهدي الحنفي . وهذا أول انتقالها للحنفية فسار فيها سيراً حسناً ودان له الخاص والعام من أهل الأزهر وقلت على يده الشرور فيه وكثرت في عهده المرتبات. وكان الخديوي اسماعيل يؤيده تأييداً قويّـا وتقهقر وقتاً ما أمام الشيخ الانبابي في فتنة سنة ١٢٩٩ هـ ولكن سرعان ما عاد الى منصبه وظلّ فيهـا الى ٣ ربيع الأول سنة ١٣٠٤ هـ . فخلفه .

٢١ - الشيخ محمد الانبـابي وكان خصماً قويّـا لكل تجديد . وفي عام ١٣١٣هـ ترك منصبه فخلفه .

٢٢ — الشيخ حسونة النواوي الحنفي المتوفي سنة ١٩٢٥ ثم خلفه

٢٣ — الشيخ عبد الرحمن النواوي الحنفي في عام ١٣١٧هـ فتوفى بعد وقت قصير فخلفه

٢٤ — الشيخ سليم البشري المالكي وفي عام ١٣٢٣هـ خلفه

٢٥ — الشيخ عبد الرحمن الشربيني، واستقال سنة ١٣٢٧هـ فعاد الى المشيخة

٢٦ — الشيخ حسونة النواوي للمرة الثانية ، واستقال في السنة نفسها فتولاها مرة ثانية

٢٧ — الشيخ سليم البشري، ولما توفى سنة ١٣٣٥هـ تولاها

٢٨ — الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي الى سنة ١٣٤٦هـ ، ثم خلفه

٢٩ — الشيخ محمد مصطفى المراغي ، الى أن استقال في سنة ١٣٤٨هـ ، فالشيخ

٣٠ — محمد الاحمدي الظواهري . « توفى في ١٣ مايو سنة ١٩٤٤ » وعاد اليها

٣١ — الشيخ محمد مصطفى المراغي للمرة الثانية

نلاحظ أن الحنابلة لم يتعين أحد منهم شيخاً للازهر في تاريخه. وذلك راجع لقلتهم وأن النزاع قام على أشده غير مرة بسببها .

الشيخ محمد مصطفى المراغي

ولد الشيخ محمد مصطفى المراغي في اليوم التاسع من شهر مارس سنة ١٨٨١ في المراغة من أعمال مديرية جرجا بمصر العليا وحفظ القرآن الكريم بمكتب القرية وتلقى على أبيه بعض العلوم ثم التحق بالازهر ، واتصل بالأستاذ الامام الشيخ محمد عبده فثقف نفسه عليه في دروس التفسير التي كان يلقيها بالرواق العباسي ، وأخذ العالمية من الدرجة الثانية في سنة ١٩٠٤ وفي اغسطس من هذه السنة جلس للتدريس بالأزهر ولم يطل به الدرس بل عين في نوفمبر من السنة نفسها قاضياً لمديرية دنقلا بحكومة السودان ، ثم قاضياً لمدينة الخرطوم. وفي سنة ١٩٠٧ استقال عائداً الى مصر لخلاف بينه وبين أولي الأمر فيها ، فعين مفتشاً للدروس الدينية بديوان عموم الأوقاف ، وفي الوقت نفسه عاد للتدريس في الجامع الأزهر . وفي سنة ١٩٠٨ عاد الى السودان قاضياً لقضاتها بأمر صدر من خديوي مصر. وفي سنة ١٩١٩ عين رئيساً للتفتيش بالمحاكم الشرعية، ثم رئيساً لمحكمة مصر الكلية، ثم عضواً في المحكمة العليا، ثم رئيساً لها في ١١ من ديسمبر ١٩٢٣ وهو الذي وضع أساس القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ ووصل الثقافة الاسلامية بالثقافات الغربية بوساطة بعوث أرسلها من أبناء الأزهر الى بعض جامعات أوربا . وأبرز ميزة كانت في الاستاذ المراغي عليه رحمة الله هي اعتزازه بكرامته وكان مهاباً محترماً في جميع الأوساط . وأصدق وصف له سمعته من حضرة صاحب المعالي أستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد باشا يوم شيعنا جنازة الشيخ قال : كان عليه رحمة الله منسجماً في كل شيء « عقله يوازي علمه حتى جسمه وهندامه » .

طلبة الازهر

ابتدأ الأزهر حياته العلمية في عهد العزيز بالله ابن المعز لدين الله بـ ٣٥ طالباً ، ويقدم لنا المقريزي إحصاء يرينا أنهم بلغوا في عهد ناظره الأمير سودوب سنة ٨١٨ هـ (٧٥٠) طالباً ما بين مصريين وعجم وزيالعة . ويقدّم لنا علي مبارك باشا إحصاء عن عدد الطلبة والمدرسين في سنة ١٢٩٣ هـ . بيانه كالآتي : —

٢٣٥ شيخاً ، منهم ١٤٧ شافعيًّا ، و١٩ مالكيًّا ، و ٧٦ حنفيًّا و ٣ حنابلة .
و١٠٧٨٠ طالباً، منهم ٣٦٥١ شافعيًّا ، و٣٨٢٦ مالكيًّا ، و١٢٧٨ حنفيًّا، و٢٥حنبليًّا.
وتقدم لنا دائرة المعارف الاسلامية إحصاء عن سنة ١٩٠١ ، ١٩٠٦ كالآتي : —

سنة	شيوخ	طلبة
١٩٠١	٢٥١	١٠٤٠٣
١٩٠٦	٣١٢	٩٠٦٩

ويبلغ عدد الطلبة الآن في سنة ١٩٤٥ — سنة ١٩٤٦ (١٤٧١٤) بيانهم كالآتي : —

كلية اللغة العربية ١١٦٢ : في القسم العالي ٦٠١، وفي إجازة التدريس ٥٣٢، وفي تخصص المادة ٤٠

كلية الشريعة ٨٧٣ : في القسم العالي ٧١١ ، وفي إجازة القضاء الشرعي ١٢٢، وفي تخصص المادة ٤٠

كلية أصول الدين ٥٣٨: في القسم العالي ٤٢٥، وفي أجازة الوعظ ٦٧، وفي تخصص المادة ٤٦
طلبة المعاهد الدينية الملحقة بالأزهر ١٠٤٠٧ بيانهم كالآتي :
٢٤٨٣ القاهرة، ١٨٥٧ الزقازيق ، ١٨٥١ طنطا ، ١٢٤٦ فؤاد الاول بأسيوط ، ٨٥٩ شبين الكوم ، ٧٩٦ اسكندرية ، ٥٢٠ قنا ، ٤١٤ دسوق ، ٤٠٨ دمياط
منهم في الابتدائي ٥٧٢٩ ، والثانوي ٤٦٧٨
٨١٤ عدد طلبة الأقطار الشقيقة وغيرهم من مختلف البلدان الاخرى وأكثرهم في الكليات الثلاث وفي معهد القاهرة وفي القسم العام
٨٨٥ الطلبة المصريون في القسم العام بالقاهرة
٣٥ عدد طلبة القسم العام في معهد طنطا

١٤٧١٤ الجملة — ولو قسمنا ميزانية الازهر على عدد الطلاب لكانت النتيجة أن كل طالب يتكلف مبلغ ٤٧٫٢ ج تقريباً

خريجو الازهر في سنة ١٩٤٥ - ١٩٤٦

عدد	
٣٨	عالمية من درجة أستاذ
٢٢٢	عالمية مع اجازة التدريس
١٠٦	عالمية مع اجازة القضاء الشرعي
٣٥	عالمية مع اجازة الدعوة والارشاد
٤٠١	الجملة

ميزانية الازهر

أول مقدار مالي ثابت يمكن الابتداء منه في ميزانية الأزهر وقفية الحاكم بأمر الله التي وقفها في سنة ٤٠٠ هـ.عليه وعلى جامع المقس والجامع الحاكمي ودار العلم وكان صافي هذه الوقفية المشتركة يقسم على ستين سهماً للازهر فيها ـ على حد تعبير الوقفية ـ الخمس والثمن ونصف السدس ونصف التسع .

وهذه الوقفية تعطينا فكرة عن حياة الأزهر في ذلك العصر . لذلك ننشرها :

دينار	
٨٤	للخطيب
١٠٨	ثمن ١٣٠٠٠ ذراع حصر مضفورة لفرش هذا الجامع في كل سنة عند الحاجة ولثمن ١٠٠٠ ذراع حصر عيدانية تكون عدة عند الحاجة .
١٢ ٣/٤	لما ينقطع من حصره
١٢ ٣/٤	ثمن ثلاثة قناطير زجاج وفراخها
١٥	ثمن عود هندي للبخور في شهر رمضان وأيام الجمع مع ثمن الكافور والمسك وأجرة الصانع
٧	ثمن نصف قنطار شمع

دينار

٥ لكنس الجامع ونقل التراب وخياطة الحصر وثمن الخيط وأجرة الخياطة

١ ثمن مشاقة لسرج القناديل

½ ثمن فحم للبخور عن قنطار واحد .

¼ ثمن ملح للقناديل .

½ ثمن سلب ليف وأربعة أحبل وست دلاء

½ ثمن خرق لمسح القناديل

١ ¼ ثمن ١٠ قفاف للخدمة و ١٠ أرطال قنب لتعليق القناديل وثمن ٢٠٠ مكنسة لكنس هذا الجامع .

٣ ثمن أزيار فخار مع أجرة حمل الماء .

٣٧ ½ ثمن زيت وقود هذا الجامع راتب السنة ١٢٠٠ رطل مع أجرة الحمل .

٥٥٦ ½ لأرزاق المصلين يعني الأئمة وهم ثلاثة . وأربعة قومة و ١٥ مؤذناً منها لكل امام ديناران وثلثا دينار وثمن دينار في كل شهر من شهور السنة . والمؤذنون والقومة لكل رجل منهم ديناران في كل شهر .

٢٤ للمشرف على هذا الجامع في كل سنة .

١ لكنس المصنع بهذا الجامع ونقل ما يخرج منه من الطين والوسخ .

٦٠ لمرمة ما يحتاج اليه هذا الجامع .

٨ ⅚ ثمن ½١٨٠ حمل تبن جارية لعلف رأسي بقر المصنع الذي لهذا الجامع .

٤ . لمخزن يوضع فيه التبن بالقاهرة .

٧ ثمن فدانين قرط لرأسي البقر المذكورين في السنة .

½١٥ لأجرة متولي العلف وأجرة السقاء والحبال والقواديس وما يجري مجرى ذلك .

١١ لأجرة قيم الميضأة « ان عملت بهذا الجامع » .

٢٤ لمؤنة الناس والسلاسل والتنانير والقباب التي فوق سطح الجامع .

وفي عام ١٨٧٥ م بلغ الايراد السنوي ٦١٤ ٥٦٤ ٢٧ غرشاً تركياً . وبلغ المنصرف ٤٢٨ ٠٨٤ ٣٩ غرشاً . وورد في تقرير رسمي أن جملة ايراد عام ١٨٩٢ كان ٤٣٨٢ جنيهاً انجليزياً وأن الجراية اليومية كانت ١٠٠٠٠ رغيفاً .

وايراد عام ١٩٠١ ـ ١٩٠٢ م.كان ١٤٠٠١ جنيهاً انجليزياً . بيانه كالآتي :

٦٦١١ جنيهاً قيمة الاعانة التي تدفعها وزارة المالية و٥٧٥٧ جنيهاً من ديوان الأوقاف و ١٦٣٢ جنيهاً ايراد الأروقة المختلفة .

وكانت الجراية التي تصرف يومياً ١٣٥١٠ رغيفاً

وميزانيته لسنة ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ م بلغت ٦٠٠ ٣٤٢ جنيهاً مفردة كالآتي :

جنيه		جنيه	
٦٠٠ ٣٤٢	الايرادات	٢٦ ٢٠٦	أوقاف الأزهر والمعاهد
		٢١ ٢٠٨	اعانة وزارة الأوقاف
		٢٧٣ ٦٠٤	من المالية
		٢١ ٤٩٢	ايرادات أخرى

وبلغت الميزانية في سنة ١٩٤٤ — ١٩٤٥ مبلغ ٦٩٥٧٨٠ جنيه مفردة كالآتي : ـ

٣٨٤٠٠٠	ماهيات ومرتبات
١٧١٦٧٣	مصروفات عمومية
٩١٠٠	أعمال جديدة
٦٠٠٧	نشر الثقافة الاسلامية في البلاد النائية والعناية بالبعثات الوافدة الى الأزهر
١٢٥٠٠٠	اعانة غلاء المعيشة

—١٠—

مكتبة الازهر

أنشئت سنة ١٨٩٧ وابتدأت بـ٧٧٠٣ كتاباً منها ٦٦١٧ بطريق الاهداء و١٠٨٦ بطريق الشراء وعدد فنونها يومئذ ٢٧ فنّاً وهي : المصاحف . القراءات . التفسير . الحديث . الأصول . النحو . الصرف . البلاغة . الفقه على المذاهب الأربعة . المجاميع . التوحيد . المنطق . التاريخ . التصوف . الأدب . المديح . الآداب والمواعظ والفضائل . الاحزاب والأوراد والأدعية . الوضع . آداب البحث . العروض . الفلك . الميقات . مصطلح الحديث . الفنون المنوعة . الحساب والهندسة . اللغة . الطب . وبلغت فنونها في سنة ١٩٤٣ ـ ٥٨ فنّاً وبلغ عدد مجلداتها ٩٠٠٧٥ مجلداً موزعة كالآتي : ـ

الفن	العدد	الفن	العدد	الفن	العدد
المصاحف	٣٩٤٤	الأدب	٥٩٨٤	اللغات التركية	٢٣٠
علوم القرآن	١٠٠	اللغة	١١٨٢	املاء وخط	١٠٠
القراءات	١٣٧٧	التصوف	١١٨٨	صور ورسوم	١٣٤
التفسير	٥٢٧٧	التاريخ	٥٠٨٦	كيمياء وطبيعة	١٢٢
الحديث	٨٦٢٤	المنطق	١٤٩٩	التجارة	١٩
المصطلح	١٠٣	فنون منوعة	٣١٢٢	الهندسة	٦٧
الأصول	٣٤٩٤	الأدعية والأوراد	١١٢٧	الجبر	٣٤
الفقه العام	٩٦٤	الحكمة والفلسفة	٤٦٦	الزراعة	٦٦
فقه حنفي	٦٩٤٨	الفلك	٤٢٨	حكمة التشريع	٢٥
فقه شافعي	٤٨٧٩	تقويم البلدان	٣٠٣	اقتصاد سياسي	٦٧
فقه مالكي	٤١٣٠	القوانين واللوائح	٦٤١	هيئة	٢٠
فقه ابن حنبل	١٦٩٨	الحساب	٥٠٥	فراسة وكف	١٧
فقه الشيعة	٢٧	الطب	٦٣٢	تعبير الرؤيا	٥٤
المجاميع	١٥٩٣	الميراث	٦٣٣	شرائع غير اسلامية	٤٢
التوحيد	٣٨٣٨	أخلاق وتربية واجتماع	٦٤٦	طبوغرافيا	٣
البلاغة	٢٥٥٤	أدب البحث	٢٣٧	مخطوطات	٦٣٩٥
النحو	٤٥٣١	العروض	٢٥١	موسيقى	٧
الصرف	٩٨١	الوضع	١٤١	مسك دفاتر	٣
الآداب والفضائل	١٨٢٩	اللغات الاجنبية	٢٧٢	حرف ورمل	٥٠

وفي المكتبة نوادر قل أن توجد في مثلها ففي المصاحف قطعتان من مصحف مخطوطتان سنة ٤٦٥ هـ.

وفي القراءات «الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة كتب في سنة ٥٥٧ هـ.

وفي التفسير: تفسير غريب القرآن للسجستاني كتب سنة ٥١٤ هـ.

وفي الحديث: غريب الحديث لأبي عبد القاسم بن سلام المتوفي سنة ٣١١ هـ.

وفي فقه أبي حنيفة: عمدة الطالبين لعبد الباسط الشهير بابن الوزير بخط المؤلف سنة ٦٠٣ هـ.

وفي التاريخ: رسوم دار الخلافة لأبي الحسن بن الحسن الصابي كتب ٤٥٥ هـ.

وأنفس المكتبات الخاصة بالمكتبة الأزهرية مكتبة سليمان باشا أباظه وقد أهداها ورثته الى الأزهر في سنة ١٨٩٨ م عملاً بمشورة الأستاذ الامام محمد عبده. ويستأثر فنا التاريخ والأدب بغالب كتبها وتمتاز بكثرة المخطوطات وعدد مجلداتها ١٤٨٤ مجلداً وبها جملة طيبة من مطبوعات أوربا. والمكتبة الازهرية العامة من أشهر المكاتب في العالم وهي ثانية دور الكتب في مصر من حيث عدد ما فيها من الكتب وخاصة من الكتب النادرة [1]

الاتجاه الحديث للازهر
وكيف ينبغي أن يكون

إن رسالة الأزهر بوصف كونه جامعة دينية رسالة روحية تهدف أولاً وقبل كل شيء الى إحياء القيم الروحية ، وتوليد الميول النافعة في الانسان وقمع الميول الفاسدة فيه ، فغايته من التعليم غاية خلقية ، ومقياسه الذي ينبغي أن يكون هو الخلق لا العلم، فقيمة المرء خلقه لا علمه ، وعدته التي تلزمه للنجاح في الحياة في خلقه لا في علمه ، ولا يختلف اثنان في أن الرجل ذا الهمة ، والاخلاص ، والثبات ، والاعتماد على النفس ، أنفع للجمعية الانسانية من ألف رجل ورجل جردت نفوسهم من هذه الصفات ، وإن ملئت عقولهم بشتى المسائل والنظريات ولست أقصد من ذلك أن يوجه الأزهر كل جهوده إلى تربية النفوس فحسب ، وترك العقول فارغة من العلم ، كلاً فلا بد للأزهر من الطريقين طريق الدين وطريق العلم ، وإنما أقصد أن طريق الدين هو الأصل ، وينبغي أن يكون دائماً هو الأصل ، والثاني تابع أو خادم للطريق الأول . فان المعتقدات الدينية إذا كانت تقود الأفكار والمشاعر وتهدي المرء في حركته إلى الخير ،وتمنع الأمم من الوقوع في الهمجية،وتربط بين أفرادها برباط الانسانية،فان العلم يقرر الحقائق ولا غنى للرجل الكامل عن الطريقين كليهما .

وإذا كان الأزهر في الماضي قد أدى رسالته على نحو يتلاءم مع ذلك العصر فهل هو يؤديها الآن على النحو الذي ينبغي أن يكون ؟

ننظر إلى واقع الأمر فيه . فهل هو أولاً أرضى أبناءه فاطمأنوا اليه وركنوا إلى وضعه الحالي فبشروا بجيل له ميول ناهضة ، ينكر ذاته ولا يخدع نفسه ، ويتخذ الصبر ، والتعاون والاستقلال سبيلاً للنجاح في هذه الحياة . أم هم غير راضين عن حياتهم التي يحيونها فيه الآن على هذا النحو ؟

قمت بشبه استفتاء بين الطلاب في هذه المسألة، فكان إجماع منهم على أنهم غير راضين عن هذه الحياة . ولماذا ؟ لأنهم أولاً : يشكون في المقابل لهذه الحياة، أو هم يشعرون بأنهم

أقل من غيرهم قيمة في سوق هذه الحياة ، ومن الشك في المقابل لهذه الحياة نبتت فكرة المطالب التي يتقدمون بها بين آونة وأخرى الى ولاة الأمور في الأزهر وفي غير الأزهر يقصدون من ورائها فتح وظائف جديدة يهجرون من أجلها الدراسة بين آن وآخر . ويؤلمني أن أصرح أن هذه المطالب كلها مادية حتى المطلب الخاص منها بتعليم الدين في المدارس يشفعونه بأن تقوم فرقة معينة بتدريسه . وهنا أحب أن أقول للطلاب ان مهمة الأستاذ والطالب التعاون في سبيل الحقيقة وهذه حقيقة . وليس الذنب ذنب الطلاب في هذا الاتجاه المادي لأن واقع الأمر أن سياسة التعليم من جهة ، والظروف المحيطة بالفرد من جهة أخرى جعلت طلب العلم للعلم أصبح الآن غير موجود اللهم إلاّ لشخص اطمأن على الظروف المحيطة به في هذه الحياة أو لشخص موهوب وليس الكل هذا أو ذاك .

من الناس من يقول : إن طلبة الأزهر في سنة ١٩٠١ كانوا «١٠٤٠٣» وميزانيته في هذه السنة نفسها كانت ١٤٠٠١ جنيهاً انجليزيًا . وطلبته الآن حسب احصاء نوفمبر سنة ١٩٤٥ ١٤٧١٤ وميزانيته في هذه السنة ١٩٤٥—١٩٤٦ بلغت ٦٩٥٧٨٠ جنيهاً مصريًا . فكيف لا يرضى الأزهريون عن هذه الحياة مع هذا التقدم المادي . أليس طلبة الازهر فيما مضى كانوا أكثر رضا منهم اليوم ؟ يقولون هذا ويشفعونه بأن الازهر سوف لا تنقضي له مطالب ما دام يقبل من الطلاب أكثر من العدد المطلوب للوظائف التي يغذيها . مثلاً . خرّج الازهر في (سنة ١٩٤٤ — ١٩٤٥) ٤٠١ يحملون عالمية مع درجة أستاذ . وعالمية مع إجازة التدريس . وعالمية مع اجازة القضاء الشرعي . وعالمية مع اجازة الدعوة والارشاد . فهل الوظائف التي يغذيها الأزهر تحتاج لمثل هذا العدد سنويًا ؟ الواقع لا . ومعنى هذا إنا في جيل واحد نخرج جيشاً من المتعطلين يكون مصدر قلق لأولي الأمر في الأزهر وفي غير الأزهر ، بل مصدر قلق لهم ولغيرهم جميعاً ، يقولون هذا ونسوا ان هذه المقارنة أولاً لا تصح لأن الظروف التي تحيط بالفرد الآن ليست هي الظروف التي كانت تحيط بزميله فيما مضى .

على أن هذا النمو في ميزانية الأزهر ليس مقصوراً عليها وحدها بل مع هذا النمو لا يزال الأستاذ في كليات الأزهر في الدرجة الخامسة وما دونها ومنهم القليل في الدرجة الرابعة بينما الأستاذ المصري زميله في غير الأزهر في الدرجة الأولى أو درجة مدير عام .

ثانياً : وأما أن الأزهر يأخذ أكثر من العدد اللازم للوظائف التي يغذيها فمن هنا تأتي أكبر فائدة له. ذلك أنه يؤمه كثير ممن لم يستطيعوا الانفاق على أنفسهم في المدارس التي قدمت ميزة المال . أما هو ففتح لمن حرمها صدره فتعليمه لهم حسنة من حسناته التقليدية فهو بذلك دائب العمل على التقريب بين الغني والفقير لأنه يرتفع بطبقة الى طبقة أخرى تليها ولو لم يكن للأزهر إلا أنه يخدم الأمة بهذه الحركة لكفاه بها فخراً فهو دولاب عمل متحرك للتقريب بين الطبقات .

ويعلل الطلاب أيضاً عدم رضاهم عن هذه الحياة التي يحيونها الآن في الازهر على هذا الوضع بأن أساليب بعض الكتب الازهرية التي يقرر عليهم دراستها والتي هي مصادرهم فيما يدرسون ويقرأون أصبحت لاتلائم روح هذا العصر ، ذلك أنها تعني أول ما تعني وتقصد أول ما تقصد صناعة لفظية الغرض منها حل تراكيب الجمل وما تعطيه هذه الجمل وفهم الالفاظ وما تعطيه هذه الالفاظ . والبعد في التأويل ، والتعليل ، والاعتراض ، والجواب الى حد بعيد ولم يعد هناك وقت يحتمل أن يضيع في هذا الاخذ والرد ، وهذا الجدل والنقاش الذي لاطائل تحته ولا فائدة منه . ولست معهم في هذا التعليل على إطلاقه . فهذه الصناعة اللفظية هي ميزة الازهر ، وينبغي أن تظل ميزة الازهر على شرط أن تكون وسيلة لا غاية . فان هذه التي يسمونها الصناعة اللفظية تخرج رجلاً دقيقاً بكل معنى الدقة عند تخير الالفاظ ، قوياً بكل معنى القوة على استنباط المعاني ، قادراً على النقاش والجدل ، فهي من هذه الناحية أعتقد أنها تكون ملكة إذا مستها العلوم الحديثة كانت ملكة جبارة نادرة المثال ، إنما الذي ينبغي أن يعلل به شكوى الطلاب من هذه الكتب هو أن بعض مؤلفيها رضوان الله عليهم قد غلوا في هذه الناحية التي يسمونها الصناعة اللفظية ، وتأثروا في كتبهم بأشياء أصبح لا يقرها هذا العصر ، وان عرض ما فيها من معلومات هو بأسلوب فيه روح العصور الماضية ولكل عصر روح . ولعلّ ذلك كان هو الباعث للأستاذ الامام الشيخ محمد عبده على كلمته المشهورة في وصف هذه الكتب فقد قال :

« لا يمكن لهذه الامة أن تقوم ما دامت هذه الكتب فيها . ولن تقوم إلا بالروح التي كانت في القرن الأول ، وهي القرآن . وكل ما عداه فهو حجاب قائم بينه وبين العمل

والعلم [1] » والأمثلة كثيرة وكثيرة على هذا الذي ذهبنا اليه . خذ لذلك مثلاً .

كتاب السلم في المنطق للأخضري المتوفي سنة ٩٤١ هـ وهو كتاب يدرس لطلاب السنتين الأولى والثانيـة من القسم الثانوي نراه يأتي فيعقد فصـلاً في جواز الاشتغال بالمنطق يقول فيه :

والخلف في جواز الاشتغال به على ثلاثة أقوال
فابن الصلاح والنواوي حرّما وقال قوم ينبغي أن يعلما
والقولة المشهورة الصحيحة جوازه لكامل القريحة

ثم يأتي الملوي في شرحه على السلم فيقول في توجيـه تحريم الاشتغال بالمنطق يقول في شرحه الصغير ما نصه : « ووجه تحريم هؤلاء — يشير إلى ابن الصلاح والنواوي — إياه انه حيث كان مخلوطاً بكفريات الفلاسفة يخشى على الشخص إذا خاض فيه أن يتمكن من قلبه بعض العقائد الزائغة كما وقع ذلك للمعتزلة » إذاً هو يعطي الطلاب فكرة سيئة عن المعتزلة ولماذا ؟ لأنهم خاضوا في الفلسفة ولمن وأين يكون هذا الكلام في معهد أصبح يعطي أجازات عليا في الفلسفة وأصبح يرسل أبناءه الى أوربا للتخصص في الفلسفة . هذا كلام إن صحّ أن يقال في عصر المؤلف لا يصح أن يضيّع الطلاب فيه وقتهم الآن .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن هذه الكتب قد ألفت وشرحت من زمن بعيد ونقل مؤلفوها عن بعضهم أشياء أثبت البحث الحديث أو التأليف الحديث خطأها . مثلاً الشيخ عمر النسفي في كتابه العقائد النسفية وهو كتاب في التوحيد يدرس لطلبـة كلية أصول الدين يقولَ في أول الكتاب « حقائق الأشياء ثابتة والعلم بهـا متحقق خلافاً للسوفسطائية »، فيأتي سعد الدين التفتازاني شارح كتاب العقائد هذا فيقسم السوفسطائية إلى فرق ثلاث عندية ، وعنادية ، ولاأدرية ، ثم يأتي الخيـالي ، وعبد الحكيم ، والعصام فيوافقونه على هذا التقسيم .

مع أن فرقة الشكيين المعبر عنها هنا باللاأدرية لم تكن من فرق السوفسطائية، ذلك أن الشك لم يكن كمذهب إلا من عهد بيرون أو فُرْغُن كما ينطق في اليونانيـة وكان يدعى

(١) تاريخ الاستاذ الامام للسيد رشيد رضا ج ٢ ص ٦٤٤

وسرغن الأليسي نسبة إلى بلده — ولد سنة ٣٦٠ وتوفي سنة ٢٧٠ ق م — نعم قال السوفسطائيون بالشك كما قال به الكابيون أيضاً ولكنه عرف عندهم كطريقة من طرق البحث لا كمذهب فلسفي فيبدأ الشك كمذهب بيرون. ولا أريد أن أستطرد في ضرب الأمثال فهي كثيرة وكثيرة في مختلف الكتب الأزهرية وبخاصة في كتب التفسير والفقه.

وفيما عدا هذا وذاك من الغلو فيما يسمونه الصناعة اللفظية. ومن التأثر في هذه الكتب بروح غير روح هذا العصر سواء في طريقة عرض المعلومات أو في غيرها، فيما عدا هذا وذاك، فهذه الكتب ثروة لا تعادلها ثروة وكنز غني عرض ما فيه غيرنا بأسلوب جديد وروح جديد فنفعوا وانتفعوا وأفادوا واستفادوا وليس علينا في هذه الناحية إلا أن نجاري روح العصر فنعرض بضاعتنا بروح عصرنا نحن، لا بروح عصورهم رضوان الله عليهم وجزاهم خير الجزاء

إن كتب الدين فيها كثير من الأوشاب التي علقت به وليست منه في شيء، وعلينا تنقية هذه الأوشاب ليعيد الأزهر للدين جدته ويسره، ويرفع عنه ذلك الحرج الذي نفر الناس منه أو كاد. إن القرآن الكريم الذي هو الأصل وهو الدوحة طغت عليه هذه الصناعة اللفظية، وطغى عليه ذلك البعد في التأويل والتخريج. وهذه الناحية ناحية تنقية الدين مما علق به وليس منه، وعرض بضاعتنا بأسلوب جديد وروح جديد يتمشى مع العصر ولا يتعارض مع ما ورثنا من عرف، هذه الناحية هي ما ينبغي المبادرة بها والعمل على تنفيذها ليخرج الطالب وفيه روح عصره الذي يعيش فيه.

وهناك ناحية أخرى أضرت بالتعليم ضرراً بليغاً لا في الأزهر فحسب، بل في الأزهر وفي غيره، تلك هي الظروف السياسية التي أحاطت بالطلاب في السنين الأخيرة ولا تزال تحيط بهم حتى الساعة.

إن اشتغال الطلاب بالسياسة ألهاهم عن علومهم الأمر الذي صبح يشكو منه الكل. لا الأزهر فحسب. وهنا لا أقصد أن يحرّم على الطلاب الاشتغال بالسياسة فهذا حق من حقوقهم ما دام لهم وطن يعيشون فيه. وانما أقصد أن أقول: إن تقاتل الاحزاب في ربع القرن الأخير جرّ الطلاب الى اقتحام ميدان الصراع الحزبي هذا الذي جرّ الى استخدامهم، وبالآمهم، وارضائهم حتى على حساب العلم، فكانت النتيجة ما نسمع ونرى مما لا يحتاج الى اظهار، اللهمّ الا اظهار الأسى والأسف.

هذا ونبتت في الأزهر أخيراً ظاهرة أضرت بسير الدراسة فيه كل الضرر، ونزلت بالمستوى العلمي الى حيث أصبح يشكو منه كل من يهمه أمر هذا المعهد، تلك هي بدعة الامتحان في المقروء لا في المقرر،هذه الظاهرة أفسدت العلاقة بين الأستاذ والطالب،وعودت الطلاب الخروج على النظام بهجرهم الدروس قبل أن ينتهي العام الدراسي حتى لا يطول عليهم هذا المقروء . وبلغ من أمر هذه الظاهرة أن الطلاب أصبحوا يتضامنون على الأستاذ الذي لا ينزل على رغبتهم فيقف في مادته عند حد يعينونه له حتى أوشك الأمر أن ينقلب فوضى طاغية وأن يصير أمر الأزهر في غير أيدي أولي الأمر .

إن هذه الظاهرة يعترف الطلاب أنفسهم أنها نبتت في جو السياسة وهي من غير شك لم تكن لتعيش لولا هذا الجو . وهذه الظاهرة ليست في صالح الطلاب وإن بدا لهم في ظاهرها الرحمة،وهي طبعاً ليست بعد ذلك في صالح شيء ما . فمن مصلحة الطلاب ومن مصلحة العلم،ومن مصلحة الأخلاق أن يقضى قضاءً مبرماً على هذه الظاهرة الخطيرة مهما كان الأمر. ولقد أحسن صنعاً حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق فلقد أعلن عقب توليه رئاسة الأزهر في منشور دوري أن الامتحان سوف يكون في المقرر لا في المقروء،وهذه خطوة طيبة نرجو أن تتبعها خطوات حاسمة .

هذه العوامل مجتمعة التي هي شك الطلاب في المقابل لهذه الحياة ، وعدم رضاهم عن أساليب بعض الكتب الأزهرية ، مضافاً الى ذلك هذه الظروف السياسية التي تحيط بالطلاب وتكتنف الطلاب من كل جانب ، هذه العوامل مجتمعة أنتجت ما نرى الآن في الأزهر من تضامن ضد الرؤساء ، ومن تضامن ضد الأساتذة إن لم ينزلوا على رغبتهم فيما يقررون وفيما يشاءون . واصلاح حال الأزهر ، أو توجيه الأزهر وجهة طيبة في هذا العصر الذري بمعالجة هذه العوامل من جهة إرضاء شعورهم بمساواتهم بغيرهم ، وبفتح وظائف جديدة لهم،وتهذيب أساليب بعض الكتب الأزهرية،وغل يد السياسة عن التدخل في أمر الأزهر . وحث الأساتذة على مضاعفة جهودهم مع الطلاب . ان أفاد كل ذلك الآن وهو مفيد قطعاً فلن يرضي أطماع الأزهر في المستقبل . ذلك أن الفكر الأزهري قد تحرر من قيود غلّ بها من قبل،فتقدم تقدماً كبيراً أصبح لا يشبعه هذا النظام التعليمي الموجود الآن في الأزهر ، وهذه الناحية ناحية

تحرر الفكر الأزهري وتقدمه في الأزهر، مضافاً اليها ما وصل اليه العالم من تقدم، هذا التقدم الذي يقرأ عنه الأزهريون كل يوم، ويشعرون ويحسون به في كل وقت، ويرون بأعينهم بعض مظاهره دائماً. هذا وذاك هو ما ينبغي أن يوجه الأزهر على ضوئه فأساس توجيه الأزهر أو أساس إصلاح الأزهر هو مسايرة التقدم الفكري وربطه بالأمة، بل ربطه بالعالم. إن ربط الأزهر بالأمة بل ربطه بالعالم هو الأساس الذي ينبغي أن يبنى عليه توجيه الأزهر، وكل ما عدا ذلك فهو علاج وقتي لا ينفع. فليست المسألة مسألة وظائف تفتح، أو وظائف تقلد، بل هي وراء ذلك وفوق كل ذلك. وأحب أن أتعجل هنا القول بأن الدين الاسلامي يجب أن يدرس كما هو، وأن يفهم كما هو، وأن كل ما سمع عن الرسول صلوات الله عليه وصحَّ نسبته اليه ينبغي الوقوف عنده بلا زيادة ولا نقصان، ومن لم يقف فقد تعدى على الشرع وخرج عن الحق.

أما أن الفكر الأزهري قد تقدَّم، وقد تحرَّر من قيود غلَّ بها من قبل فليس أدل على ذلك من شهادة رجلين اثنين من أعلام الفكر وكبار المشتغلين بأمر التربية والتعليم في هذا البلد وهما حضرة صاحب المعالي أستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد باشا. وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر.

كان معالي احمد لطفي السيد باشا في العام الماضي رئيساً للجنة امتحان الفلسفة لطلبة تخصص المادة في كلية أصول الدين بالأزهر. وقد عينت لجنة الامتحان لكل طالب موضوعاً يحاضر فيه لمدة ساعة تقريباً وكانت الموضوعات التي حاضر فيها الطلاب هي: —

١ — أصول المعتزلة وأثرها في تطور علم الكلام.

٢ — فلاسفة الاسكندرية وأثرهم في توجيه التفكير الاسلامي.

٣ — الغزالي بين الفلسفة والتصوف.

٤ — وحدة الوجود بين الفلسفة والتصوف.

٥ — القياس بين المناطقة والفقهاء.

٦ — الآلــه عند أرسطو وتأثر فلاسفة الاسلام بذلك.

وبعد أن انتهى الامتحان قام معاليه فقال:

« أنا أحمد هذه الفرصة التي هيأها لي صديقي الأستاذ الامام الشيخ المراغي لأغتبط بلقياكم، وأرى عن كثب تقدم الازهر هذا التقدم الباهر الذي لمسته في هذه الجلسات الست

وأسارع الى تهنئتكم وأساتذتكم وتهنئة صديقي الامام بهذا التقدم الكبير .... الى أن قال :
أما اليوم فإنا نتكلم عن آله «أرسطو» وهو كما كان يرى فكرة لم يخلق شيئاً ولا يعلم شيئاً أصلاً إلاّ ذاته ... الخ فما معنى هذا: معناه أن الأزهر انتقل من حال الى حال كبقية كائنات العالم ولكم أن تسموا هذا استحالة أو نمواً كما تريدون ، ولكنه ليس فساداً طبعاً. الى أن قال : لقد أكثرت فأكرر تهنئتي لكم بإمامكم ومحاضريكم وأساتذكم وبتقدمكم الذي جعلنا نتكلم اليوم في إله « أرسطو » .

وقال فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق وهو يقدم كتاباً لصديقي وزميلي فضيلة الشيخ محمد يوسف موسى تحت عنوان : «تطور الجوّ العلمي في الازهر » قال :

« منذ أكثر من عشرين عاماً كنت سكرتير مجلس الأزهر الأعلى والسكرتير العام للمعاهد الدينية ،وكنت بحكم منصبي متصلاً بمناهج التعليم في الأزهر وما يقرر تدريسه من الكتب وأذكر أنه في ذلك العهد كان قرر تدريس كتاب « تهذيب الأخلاق » لابن مسكويه في بعض السنين الدراسية،وسرني ذلك لأني كنت أحب أن تجد كتب الفلاسفة الاسلاميين منفذاً الى المعهد الاسلامي الأكبر . ولم يمض زمن طويل حتى علمت أن المدرسين والطلاب شكوا من تدريس رسالة ابن مسكويه بحجة أنها تتضمن من الآراء والمذاهب ما يعتبر فلسفة ينبغي أن ينزّه عنها الأزهر الشريف ، وحلّ محل كتاب «تهذيب الأخلاق » رسالة صنعها بعض مدرسي الأزهر تتضمن آثاراً وحكماً ومواعظ تحث على مكارم الأخلاق وتنهى عن مساويها،وحاولت جهدي أن أدافع عن ابن مسكويه وعن كتابه فلم يجد مسعاي شيئاً.وكادت تثار حول معاهدي الدينية شبهات كان لها حينذاك خطرها .. وقد اطلعت أخيراً على كتاب الاستاذ الفاضل الشيخ محمد يوسف موسى اسمه:« تاريخ الأخلاق » . . . والكتاب عرض طيب لتاريخ الأخلاق في الشرق القديم ، وعند الاغريق في العصور المختلفة ، وفي القرون الوسطى ، وفي الفلسفة الحديثة،وفي الاسلام عند الفلاسفة وغير الفلاسفة .

عادت بي الذاكرة حين راجعت فصول هذا الكتاب الذي يؤلفه مدرس الأخلاق بكلية أصول الدين — الى ما كان من حديث ابن مسكويه فأدركت مبلغ ما حدث من التغيير في الجوّ العلمي الازهري في أقل من ربع قرن من الزمان ، ورجوت أن يكون ذلك آية من آيات

الحربة الفكرية في البحث العلمي التي التمس المصلحون عبثاً منها للازهر الشريف منذ زمان، ووجدوا في سبيل مسعاهم أذًى كثيراً » انتهى كلام فضيلة الأستاذ .

وهذا التقدم الفكري جاء نتيجة لنظام الازهر الجديد الذي بذر بذرته السيد جمال الدين الافغاني وتعهده من بعده الاستاذ الامام محمد عبـده والمرحوم الشيخ المراغي ويتعهده الآن فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق الذي نرجو له من قلوبنا كل توفيق في السير بالأزهر الى الامام حتى يسير مع قافلة الزمن

وهذا التقدم الفكري اتجاه طيب يبشر بمستقبل حسن وجاء بفضل ربط ثقافته القديمة بالثقافات الحديثة،فأخذ ينتج ويستقل بنفسه شيئاً فشيئاً في تدريس العلوم التي أدخلها فيه النظام الأخير ،فأصبحنا نرى الـكتب والرسائل توضع في بعض العلوم التي تدرس فيه بلغة جديدة ، وأسلوب جديد في تاريخ الأخلاق وفي تاريخ التشريع وفي الفلسفة ، والتاريخ وعلوم البلاغة الى غير ذلك . وأصبح فيه من يجيد الانجليزية والألمانية والفرنسية وأصبح فيه من يضع الرسائل عن الشخصيات الأجنبية،فمثلاً صديقي الدكتور محمود حب الله وضع رسالته Spinoza's Conception of Human Individuality عن « سبينوزا وهي رسالة تبين أن للانسان حقيقة واستقلالاً في نظر هذا الفيلسوف على الرغم مما قاله العلماء السابقون جميعاً من أن فلسفة سبينوزا تنفي تلك الحقيقة وهـذا الاستقلال وهذا أول عمل من نوعه في تاريخ الأزهر.وأصبحنا نسمع صوت أبنائه في المجلات والصـحف في أبحاث قيمة . وكل ذلك بفضـل هذا التوجيـه الطيب الذي وجهـه إليه المغفور له الامام المراغي شيخه السابق .

وهذه باكورة طيبة غير أني لا أرى فيـه الآن من يشتغل بتأليف الـكتب المطولة في الشريعة مثلاً مأخوذة من منابعها الأصلية،وفي اللغة وعلوم البلاغة،وغيرها بأسلوب جديد وروح جديد يناسب روح العصر ويسد حاجتنا اليه .

***

الأزهر ذو نواحٍ ثلاث : خلقية ، وإدارية ، وعلمية . أما الادارية فليس فيهـا سوى أن تسير سياسته على أساس الحق والعدل.وأن تغل يدالسياسة ـ السياسة بمعناها الشائع المعروف وإلا فهي من حيث هي فن من أرفع الفنون قدراً — عن التدخل في الازهر باحباط سياسة أولي

الأمر فيه فهو جامعة دينية علمية ينبغي أن تتفرغ لرسالتها على ضوء ما تقتضيه طبيعة وجوده

وأما الناحية الخلقية فليس ينفعها سوى ضرب الأمثال . لأجل أن نخرج جيلاً جديداً لا بدَّ من مثل عليا ، نعم مثل عليا في كل ناحية من مناحي الحياة وما أحوجنا نحن الى رجال كسعيد بن المسيب ، أو احمد بن حنبل ، وأخيراً كعز الدين بن عبد السلام .

ان سعيد بن المسيب دعى للبيعة للوليد ، ولسليمان ، بعد عبد الملك بن مروان . فقال : لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار ، فقيل له : ادخل من الباب واخرج من الباب الآخر . قال : والله لا يقتدى بي أحد من الناس . فجلد مائة سوط فلم ينزله هذا الجلد عن رأيه .

وأما الناحية العلمية فأحب أولاً أن أقدم لها بكلمة .

من الناس من يخاف على الأزهر كلما رأوا يداً تريد أن تمتد اليه بتغيير بعض ما ألف فيه من نظم ، ونسوا أن تغيير الأشياء أو تحولها شرط أساسي في رقيها ، وأن الأزهر شيء من هذه الأشياء وهو خاضع لقانون التغير أثبت نواميس الكون ، وأن جمود شيء ما على صفات واحدة والعالم من حوله يتغير معناه فناء ذلك الشيء . وفي وسع أولئك الذين يخافون على الأزهر من كل تغيير يراد له في وسعهم أن يلعنوا هذا التغيير ، ولكن ليس في وسعهم أن يتحاشوه . وهل ينكر أحد أن الأزهر الآن غير ما كان في الماضي ؟ وسيكون في المستقبل حتماً غير ما هو عليه الآن رضي الخائفون أم لم يرضوا . عرفنا فيما سبق أن الأزهر حرَّم دراسة المنطق حتى أن السيوطي وهو عالم جليل من علماء مصر ألف في ذلك كتاباً سماه « القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق » والأزهر الآن يدرس الفلسفة بما فيها المنطق بل ويتخصص بعض أبنائه فيها . ولو قال الآن فيه أحد بما قال به السيوطي من قبل لسخروا منه .

قال الأزهر في الماضي بقفل باب الاجتهاد وعرف في وقت ما التعصب المذهبي وأشد الناس حماسة للقديم فيه الآن يعتبر القول بذلك قصوراً في العقل وشذوذاً في الرأي حتى أن الأستاذ الامام المراغي رحمة الله عليه قال في العام الماضي في حديث له في جريدة الاهرام افتتح به أحاديث شهر الصوم المبارك قال بالغاء المذاهب في الفقه الاسلامي والرجوع الى القرآن الكريم مصدر هذه المذاهب ولم نسمع في الأزهر صوتاً ارتفع بانكار ذلك عليه

ومعنى ذلك أن الأزهر الآن غير ما كان في الماضي ·

الأزهر فيما مضى كان يعتبر الالعاب الرياضية حدثاً لا يتفق وكرامة طالب العلم حتى أني أذكر وأنا طالب في السنة الأولى من القسم الثانوي أنا اتفقنا بصفة أصدقاء على إنشاء ناد رياضي نمارس فيه ألعاب الرياضة ، فلما علم بذلك شيخ القسم يومئذٍ رحمة الله عليه أحضرنا وأخذ علينا تعهداً بالاقلاع عن هـذه الفكرة وإلا نزل بنا ما لا يحمد عقباه . والتدريب العسكري الآن في الأزهر حصة رسمية يشرف عليها أولو الأمر فيه .

وأذكر حتى وأنا في التخصص وأظن ذلك كان في سنة ١٩٢٧ أو ١٩٢٨ لا أذكر جاس أستاذ لنا يلقي درسه ونحن أمامه نستمع وأخذ يشرح لنا حديثاً نبويّـاً شريفاً في باب عنوانه « باب احترام العلماء » وأخذ رضوان الله عليه يخرج الألف واللام في العلماء وهل هي للجنس فيكون مدخولها الحقيقة من حيث هي أو للعهد الخارجي ومدخولها فرد معين من أفراد الحقيقة ، أو للعهد الذهني ومدخولها فرد مبهم من أفراد الحقيقـة . أو للاستغراق ومدخولها كل أفراد الحقيقة . وانتهى به المطاف إلى أن الألف واللام ها هنـا للعهد والمعهود هم ....

فسألته ويذكر ذلك جيداً بعض إخواني وهم الآن من مدرّسي المعاهد الدينيـة سألته يامولانا ألا يحترم فلان .... العالم القانوني الضليـع . وفلان .... المهندس الكبير ؟

وخشيت أن أذكر له « غليليو » أو « اديسون » مثلاً ممن لهم فضل على الانسانية لا ينكر فثارت ثائرته عليّ رضوان الله عليه وأسكنه فسيح جناته .

وعلى الجملة فالفكر الأزهري الآن أخذ يتحرّر من سلطان ما حسبه بعض الناس ديناً وهو عند الله ليس بدين . وأخذ يتجه اتجاهاً طيباً بالقياس الى ما كان عليه من قبل، فطلبة الأزهر الآن فيهم حيوية فتية ، وفيهم استعداد وثاب للتمشي مع روح العصر بما لا يتعارض مع ما ورثنا من عرف صحيح ، ولـكن كل ذلك مقفل عليه في صندوق فما هو إلاّ أن يفتح وأخشى أن يكسر . لذلك أرى أولا .

١ — القضاء على تلك الظاهرة الخطيرة ظاهرة الامتحان في المقروء لا في المقرر . والسير بالطلاب في جو ملائم الى الغاية التي لأجلها كان الأزهر

٢ — وضع أصل للغرض والغاية من التعليم في الأزهر يسير على هداه الأساتذة والطلاب وتنفيذه بكل دقة وعناية .

٣ — النظر في أمر الكتب التي تدرس في الأزهر « على ضوء ما تقدم » .

٤ — إعطاء الأساتذة حق الاشراف على الطلاب في تقويم الأخلاق ، والطباع والنفوس فلا يصح اعطاؤهم حق تقويم العقول واهمال هذه النواحي التي تتصل برسالة الأزهر أولاً وقبل كل شيء . ومن وسائل ذلك :

ا — الاكثار من الاجتماعات التي يشترك فيها الأساتذة والطلاب اشتراك صداقة واخوة . ب — وفتح أندية رياضية للطلاب وأخرى للطلاب والأساتذة ولا يشترك في الأخيرة الا من اجتمعت فيه شروط خاصة كالتفوق في الألعاب الرياضية ، أو التفوق في العلم وأنا على ثقة من أن الأندية الرياضية اذا فتحت ابوابها للازهريين سيرون منهم فرقاً رياضية ممتازة تفخر بها مصر

٥ — جعل الرياضة البدنية مادة من مواد الدراسة في المعاهد .

٦ — أن يجعل في الكليات نظام المحاضرات العامة يقوم بها الأساتذة ويدعى اليها الاخصائيون في النواحي المختلفة من رجالات الأمة والجامعات . وبهذه المناسبة أقول إن هذه المحاضرات أشبه شيء بالأزهر القديم فلنعده فيها على أن تسجل هذه المحاضرات

٧ — تكوين جماعات لما يأتي : —

ا — للترجمة وبخاصة فيما يرى أن المكتبة الأزهرية فقيرة فيه . ب — لنشر الكتب على نحو يسهل للباحث مهمته . وما أحوجنا في هذه الناحية الى مجهود كمجهود المستشرقين في نشر بعض كتبنا . جـ — لعمل قواميس في المصطلحات المختلفة التي تمس حياة الأزهر

٨ — تشجيع المؤلفين وقصر من يبرع فيه عليه فحسب .

٩ — ربط الأزهر بالبيئات العلمية المختلفة وذلك يكون بمواصلة البعوث للتخصص في العلوم والفنون المختلفة التي تمس رسالتنا وبخاصة في تاريخ الأديان والمقارنة بينها وفي

القانون وفي اللغتين الفارسية ، والعبرية . ويعمل على أن تدرس كلية أصول الدين تاريخ الأديان والمقارنة بينها . ويدرس القانون في كلية الشريعة نواة لايجاد متخصصين في الفقه الاسلامي مقارناً بغيره من الشرائع وتدرس اللغتين السابقتين في كلية اللغة . نواة لمتخصصين أيضاً في هاتين اللغتين .

١٠ — القيام برحلات ثقافية الى الأقطار الشقيقة وغيرها وبخاصة الى منزل الوحي ومهد العربية .

١١ — العمل على أن تكون الجامعة الأزهرية هي المصدر الأول في التخصص في التاريخ الاسلامي وأدب اللغة العربية. نعم نحن نتخصص عند غيرنا في طرق البحث ، ولكن هل هناك ما يمنع من أن نكون نحن المصدر الأول .

١٢ — تدريس لغة أجنبية في الأزهر ابتداءً من السنة الأولى بالقسم الثانوي .

١٣ — حيث انه ليس في الامكان قصر الزي الأزهري على أبنائه فحسب فليجعل زي جامعي خاص للازهر يختلف باختلاف الدرجات العلمية .

١٤ — العناية بالمكتبات في المعاهد والكليات عناية تحقق الغرض منها .

١٥ — حيث إن الحرب قد أوقفت مشروع بناء المدينة الجامعية الأزهرية فلا أقل من الاسراع الآن ببناء القاعة العامة للمحاضرات وأملنا كبير في إحياء المشروع حتى تضاعف خطوات الأزهر الى الأمام .

وفيما يختص بخدمة الأزهر للمجتمع أرى أن توجه خطبة الجمعة في جميع مساجد القرى والمدن توجيهاً جديداً أساسه إيجاد الخطيب أولاً، ثم توجيه الشعب فيها الى القيم الروحية والى الزراعة والصحة على أن يكون هذا الخطيب متصلاً برجال الزراعة والصحة ليستطيع أن يبين للمجتمعين المجد فيثني عليه ، والمقصر فيستنهضه ، وذلك يستدعي وضع برنامج عام شامل لاصلاح القرية ، على أن يعنى عناية تامة بمسألتين اثنتين : وهما النظافة ، والنظام . واست في حاجة الى القول بأن هذه الخطبة لو وجهت لتؤدي غرض الشارع منها لنقلت قرى الريف ومدنه نقلات عظيمة في وقت قصير .

هذا بحث قدمته خالصاً لوجه الله والعلم ولم يبعثني عليه سوى حبي للخير وغيرتي على الأزهر وما أريد إلاّ الاصلاح . ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما .

فهرس الكتاب

تقدمة

لا بدّ لمن يدرس أدب السريان أن يلمّ إلمامة قصيرة بهذه اللغة التي صدر عنها ذلك الأدب ، وإلى أي أسرة من اللغات تنتمي ، ومن أي مجموعة نبتت هذه الأسرة . فاذا بلغ من ذلك ما يريد ، كان عليه أن يدرس شيئاً عن هذه الأسرة ، وما تفرّع عنها من فروع غير سريانية .

واللغة السريانيـة التي نتناول آدابها بالبحث في هذا الـكتاب هي إحـدى اللهجات الآرامية . والآراميـة لغة من مجموعة اللغات التي اتفق العلماء على أن يطلقوا عليهـا اسم اللغات السامية .

أما موقع اللغة الآرامية من اللغات السامية الأخرى فنستطيع استجلاءه باستعراض التقسيم الذي اصطُلح عليه للغات السامية . فاللغات السامية قسمان : شمالي وجنوبي . أما الشمالي فينقسم الى شعبتين : شرقية ـ وتشتمل على اللغة الأكّدية بقسميها البابلية والأشورية . وغربية ـ وتشتمل على اللغة الأُجَريتية (وهي لغة نقوش راس شمرا)، والفينيقية والعبرية والآرامية . وأما القسم الجنوبي فيضمّ اللغة العربية ، ولغة نقوش بلاد العرب الجنوبية ، واللغات السامية الموجودة في بلاد الحبشة .

والآراميون هم ثالث فرع نبت في شجرة الأمم السامية. وكان أول ذكر لهم في نصوص أسفينية ترجع الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وهم يُذكرون فيها على أنهم منتشرون في الصحراء الواقعة غربي ما بين النهرين ، وأنهم كانوا في أول أمرهم قبائل رُحّلاً ينتقلون في البادية — كالعبريين وبقية الأمم السامية — بين نجْد في الجنوب ، وحدود الشام في الشمال ، ونهر الفرات في الشرق ، وخليج العقبة في الغرب ، وأن ظروف الصحراء كانت تضطرهم الى الالتجاء الى الحضر في بعض الأحيان فيدخلونه مغيرين، وقد استطاعوا في

إحدى إغاراتهم أن يكوّنوا إمارة بين بابل والخليج الفارسي عرفت باسم كَلْد، ومنها اشتق اسم الكلدانيين. وبعد سقوط دولة الميتنـي حوالي سنة ١٣٠٠ ق . م دخل الآراميون ما بين النهرين، وعُرفوا باسم آرام النهرين، وكان تغلغلهم في هذه الأرجاء قد سبق سقوط دولة الميتَني. وترجع هجرة قبيلة ابراهيم الخليل — من أُور في بلاد الكلدانيين الى حرّان — الى واحدة من هذه الهجرات .

وكذلك أغار الآراميون على الشام وتوغلوا فيها في الوقت الذي كان الصراع فيه قائماً بين الدويلات الكنعانية، وتمكنوا من الوصول الى شمال الشام وكوّنوا دويلات عدة آرامية صغيرة بين حلب وجبال طوروس، ومنها إمارة سمأل بين أنطاكية ومرعش، ومكانها الآن بلدة زنجرلي . وفي أواخر القرن العاشر قبل الميلاد استولى الآراميون على دمشق وأسسوا فيها مملكة كان لها دورٌ مهمٌ في تاريخ ذلك الحين، وبخاصّة في محاربة الفينيقيين والاسرائيليين والتغلب عليهم، وكذلك لعبت دوراً مهمّاً في شئون التجارة . فقد كان البدو من أهلها ينقلون التجارة بين المراكز المختلفة مثل دمشق وحماة وحلب الى بلاد نهر الفرات، وكانت تدمُر مركزاً من هذه المراكز. وقد وصل هؤلاء البدو الى واحات بلاد العرب الشمالية وتركوا بعض النقوش في تيماء .

ولما استولى البابليون على مملكة دمشق في القرن الثامن قبل الميلاد نقلوا الى بلادهم عدداً كبيراً من مهرة الآراميين للاستعانة بهم، وقد عبّر القدماء عن ذلك بعبارة « السبي البابلي » . وقد استقرّ الآراميون في مملكة بابل ونشروا لغتهم حتى غلبت على اللغة البابلية والآشورية، وتخلّد النقوش الأسفينية من عهد سرجون (فيما بين سنتي ٧٢٢، ٧٠٥ ق . م) عدداً من الأسماء الآرامية كان أصحابها يحترفون التجارة في مملكة أشور . وبعد سقوط نينوى سنة ٦١٢ ق . م . أصبحت بلاد أشور آرامية . وكان من الشائع في بابل أن تكتب العقود باللغتين البابلية والآرامية .

وفي نهاية القرن السادس قبل الميلاد تمّ للفرس الاستيلاء على الشرق وسقطت في أيديهم مدينة بابل سنة ٥٣٨ ق . م . في عهد الأسرة الأكمينية التي يطلق عليها العرب اسم أسرة الكيانيين، وكانت اللغة الآرامية شائعة في الشرق كله حتى بين طبقة الحاكمين من

الفرس ، فاستعملوها لغة للتفاهم بين أجزاء الامبراطورية ، فأصبحت بذلك لغة المكاتبات الرسمية .

وقد وقعت مدينة البتراء تحت تأثير الآراميين ، وكانت عاصمة بلاد النبط . والنبط عرب اتخذوا الآرامية لغة للكتابة وربما كانوا قد تكلموا بها أيضاً .

ويقوم النزاع بين الفرس والروم ، وتكون بلاد الآراميين مسرحاً له ، فهي حيناً في أيدي الفرس ، وحيناً في أيدي الروم ، وتخرب الحرب بلادهم ، ويتأثرون بحضارة الفرس والروم وثقافتهم ، ويصبحون بذلك ورثة الحضارات الأشورية والبابلية والفينيقية والفارسية واليونانية ، وكانوا يتأثرون خطا هذه الحضارات ويضفون عليها نوعاً من التطور ؛ أما لغتهم فإنها كانت تفرض نفسها على سائر اللغات فأبادت اللهجات الأكدية والكنعانية . وكانت قوتها كامنة في بساطة أبجديتها ، وسهولة نحوها وصرفها ، ولذلك فقد كانت الآرامية لغة الأقوام العمليين النشيطين الرحل الذين اشتغلوا بالتجارة والذين كانوا موظفين أكفاء أعانوا الفرس على إدارة امبراطوريتهم .

ولم تكن الآرمية لغة الامبراطورية الفارسية الرسمية فحسب ، وإنما كانت لغة دولية — إن صح هذا التعبير — نعلم ذلك من الكتاب المقدس . فقد جاء في سفر الملوك الثاني (١٨ : ٢٦) وأشعيا (٣٦ : ١١) أنه في سنة ٧٠١ ق . م . لما حاصر سنحاريب بيت المقدس في عهد حزقيا كان الشعب يتكلم الآرامية وكانت أرستقراطية اليهود تعرف الآرامية ، وكان موظفو سنحاريب يعرفونها أيضاً .

وقد تبع انتشار الآرامية واتصال أصحابها بغيرهم من الأقوام أن تولدت منها لهجات عدة يمكن أن نميز بينها تبعاً لاختلاف الزمان والمكان والدين . والحضارة وقد اختلفت الآراء في تقسيم اللهجات الآرامية ، فيقسمها «نولدكه» الى شرقية وغربية ، واللهجات الشرقية عندة هي لهجات التلمود البابلي والسريانية والمندعية ، وما عداها فهو غربي . ومع ذلك فالواقع أن الخلاف بين اللهجات الآرامية لم يتخذ شكلاً واضحاً إلا في عصر متأخر وهو العصر الذي يبدأ تقريباً بظهور المسيحية ، وعلى ذلك وجب استبعاد اللهجات الآرامية القديمة لتقاربها ، وهي لهجة زنجيرلي ، والآرامية التي استعملها الفرس في دواوينهم والتي

يسميها العلماء الآن بالآرامية الدولية ، وآرامية أوراق البردي التي وُجدت في جزيرة الفنتين بأسوان ، وآرامية الكتاب المقدس . ونستطيع بعد ذلك أن نقسم اللهجات الآرامية الى شرقية وغربية. أما الشعبة الشرقية فتضم لهجة الرُّها الآرامية وكان موطنها ما بين النهرين وسميت بعد ظهور المسيحية بالسريانية ، ولهجه آرامية يهودية بابلية هي لهجة التلمود البابلي كان موطنها شمالي العراق ، ولهجة الصابئين الآرامية وهي اللهجة المندعية وموطنها جنوبي العراق .

أما الشعبة الغربية فتضم دويلتين لسانهما آرامي وهما تدمر والنبط . وقد وصلت إلينا لغتهما عن طريق النقوش فقط . وثلاث لهجات أدبيــة وهي اليهودية الغربية المقدسية والجليلية ، والسامرية ، والملكية أو الآرامية الفلسطينية المسيحية .

وأقدم ما وصل الينا من الكتابات الآرامية مستخرج من حفائر زنجيرلي وهي عاصمة مملكة سمأل ، وهي الآن قرية في سوريا الشمالية قريبة من عنتاب شمالي حلب . وترجع هذه الكتابات الى حوالي القرن التاسع قبل الميلاد وهي للملك بنمّو ملك سمأل وابنه بركوب . وكانت مملكتهما خاضعة للآشوريين في القرن الثامن قبل الميلاد .

وهناك كتابات وجدت في نيراب من أعمال حلب ، وهي من كتابات القبور كتبت في القرن السابع قبل الميلاد لكاهنيْ القمر شهزربن وأجبر.

وقد وُجدت في تيماء بنجد في شمالي جزيرة العرب صورة لكاهن مع نقشين أحدهما كبير والآخر صغير . وثلث النقش الكبير معدوم . وقد جاء فيما بقي سالماً أن آلهة تيماء أعطوا كاهن « صُلْم » مكاناً ومالاً في بيت صلم للأبد ، وأن الصورة صورة الكاهن . وترجع هاتان الكتابتان الى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد .

أما الكتابات الآرامية الدولية فقد وصلت الينا من العصر الفارسي نصوص آرامية كثيرة من جهات مختلفة من الامبراطورية الفارسية ومنها ترجمة آرامية لكتابة « بهستون » المشهورة التي أمر بكتابتها دارا الأول سنة ٥١٠ ق . م . على جبل عالٍ في جانب الدرب الذي بين بابل وهمذان في موضع اسمه « بهستون » وهي كتابة بالخط الأسفيني في ثلاث لغات : الفارسية القديمة ، والبابلية المتأخرة ، والعيلامية . وقد أرّخ دارا في هذه الكتابة

حروبه وأعماله وتأسيس مملكته ، ثمّ أراد نشرها في جميع أرجاء الامبراطورية فأمر بترجمتها الى الآرامية وإرسالها الى جميع الجهات ، واكتشفت واحدة منها في أسوان .

أما آرامية الفنتين فقد وصل الينا منها عدد من الكتابات على اوراق البردي اكتشفت في الفنتين بأسوان ويرجع تاريخها الى القرن الخامس قبل الميلاد ؛ وأغلب هذه الكتابات لليهود والآراميين ، وكان اليهود يكتبون بالآرامية ؛ وقد وُجدت أكثر من ثمانين قطعة من هذه الأوراق تشتمل على مكاتبات وعقود زواج وبيع وقوائم وتواريخ وقصص من بينها قصة أحيقار .

أما آرامية الكتاب المقدس فقد كتب بها بعض أجزاء من أسفار عزرا ودانيال ، وهي تدلّ على مدى انتشار الآرامية بين اليهود في عصر الفرس حتى أصبحت عندهم لغة دينية مقدسة . وقد أُطلق على آرامية الكتاب المقدس اسم الكلدانية .

هذه أمثلة من أقدم الكتابات الآرمية ، وبانتهاء العصر الذي نُقشت فيه ينتهي الطور الأول للغة الآرمية ، وهي الآرامية القديمة ؛ وقد انتهى هذا الطور باستيلاء الاسكندر الأكبر على بلاد الشرق ، وانتشار نفوذ اليونان ولغتهم فيه ، ولذلك لم نعثر للغة الآرامية على كتابات في هذه الفترة لأنها كانت لغة العوام فقط .

وبعد انحلال الدولة اليونانية كانت اللهجات الآرامية قد أخذت تتميز بعضها عن بعض ، ويأخذ كلٌّ منها شكلاً خاصًّا . وفي هذا الطور يمكن تقسيم اللغة الآرامية الى شعبتين : غربية وشرقية ، وكل شعبة منهما تضمّ عدداً من اللهجات كما قدمنا .

فالشعبة الغربية تشتمل على :

* اللهجة التدمرية * : كانت تدمر — وهي واحة في صحراء الشام بين دمشق ونهر الفرات — محطًّا كبيراً للقوافل ، فاكتسبت لذلك مركزاً تجاريًّا ممتازاً وبخاصة فيما بين القرن الأول قبل الميلاد وسنة ٢٧٣ م . حين خرّبها أوريليوس ؛ وقد عثرنا على عدد من النقوش التدمرية تصور لنا حضارة الأقوام الذين استوطنوا هذه الجهة . وقد وُجدت أكثر هذه النقوش في تدمر ووجد الباقي في الطّيب — بالقرب من تدمر — وفي افريقية وروما والمجر ورومانيا وانجلترا . وكان أهالي تدمر بدواً من أشراف الآراميين . والغالب أن

النقوش التي وُجدت في إفريقية وفي البلاد الأوربية هي من كتابة التجار والجنود التدمريين وأكثرها من كتابات القبور والتشريف وهي مكتوبة بلغتين : إما اللاتينية والتدمرية . وهي الأكثر ؛ وإما اليونانية والتدمرية . ولم تكن الكتابة اللاتينية في أغلب الأحيان ترجمة للكتابة التدمرية ، ولكنها كانت تشتمل في أكثر الأحيان على اسم الصانع الذي قام بعمل النقش

ونستدلُّ من عدد من هذه النقوش أنه شُيِّد في مدينة تدمر في القرن الأول للميلاد معبدٌ عظيم لبعل السماء ، يكفي للتدليل على مقدار اتساعه أن نعلم انه لما خُرِّبت تدمُر ونقص عدد سكانها بعد انكسار جيش الملكة الزَّبَّاء ترك أفاضل الناس بيوتهم وسكنوا المعبد نفسه واتخذوا لأنفسهم فيه بيوتاً وجعلوا بينها أزقة ، وسدُّوا جميع مداخله إلاَّ واحداً اتقاء لغارات البدو . ونعرف من هذه الكتابات أيضاً أن أهل تدمر كانت لهم قلاع بعيدة عن المدينة نفسها في جانب نهر الفرات لحماية التجارة والقوافل .

﴿ اللهجة النبطية ﴾ : والنبط قبائل من العرب وكان ملوكهم من بني الحارث وأكثر أسماء الأعلام الواردة في نقوشهم عربية مثل حارثة ومالك ومليكة وجذيمة وكليبة ووائل ووائلة ومغير وقصي وعدي وعميرة ويعمر وكعب ومعن وسعد ومسعود ووهب الله وتيم الله ، الخ . . وقد عُرفت مملكة النبط منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، وازدهرت فيما بين القرنين الأول قبل الميلاد والأول بعد الميلاد ؛ وكانت عاصمة دولتهم في وادي موسى بالقرب من معان ، ولكننا لا نعرف بالضبط الاسم الذي كان يطلقه النبط عليها لأنه لم يرد في كتاباتهم ، وكان اليونان والرومان يطلقون عليها اسم (Petra) أي الصخر أو السَّلع ؛ والراجح أنهم أخذوه عن التوراة فقد جاء فيها ذكر مكان اسمه السلع أو السلاع في بلاد إدوم (ادونيم) جنوب القدس . وقد جاء في القاموس : وَسَلْع جبل في المدينة وجبل لهذيل وحصن بوادي موسى من عمل الشوبك . والسَّلْع والسِّلْع في الجبل الشق . وربما سميت عاصمتهم كذلك لقيامها على جبل شُقَّ الى نصفين . وكانت قصبتهم الجنوبية الحِجْر وتعرف الآن باسم مدائن صالح ، وهي على سكة حديد الحجاز بين معان والمدينة .

وكان نبط البتراء وبُصرى (أي حوران) هم الصلة بين بلاد العرب والغرب وكان منهم أحـد أباطرة الرومان وهو فيليب العربي (٢٤٤ — ٢٤٩ م.) وكانت للنبط مملـكة قوية يخشاها اليهود وبقية أمم الشام حتى أهل روما ، وكان ملك النبط يملك على دمشق فترة من الزمن ، ولـكنه لم يتخذها قصبة له لبعدها عن محور المملـكة ولما كان أهل روما يخشون أن يزداد فيها نفوذ أحد غيرهم ، وخافوا أن يبسط النبط سلطانهم على المشرق كله أرسل أمبراطور روما جيشاً لمحاربتهم أمّـر عليه كورنيليوس بَلْـما فخرّب مملـكة النبط سنة ١٠٦ م . وصارت بلاد حوران التي كانت جزءاً من مملـكة النبط تابعـة لروما ، ومع ذلك فقد استمر العرب في البادية والحضر يكتبون بالخط النبطي ، وبقي مستعملاً في كتابة اللغة العربية وقد أخذ النبط الحروف الآرامية المفردة واستعملوها متشابكة وعنهم أخذ العرب الأبجدية في الخط الـكوفي .

وقد وُجدت نقوش نبطية كثيرة في البتراء وبُصرَى وتيماء والحِجر، وفي شرق الأردن ودمشق وصيدا وبعض جهات من جبل الدروز مثل سيع وهي الآن اسم خربة عظيمة قريبة من مدينة القنوات ومركز السويدات ، وكذلك وُجدت نقوش في ايطاليا . وقد وجدت أغلب هذه النقوش في المقابر ، ومنها ما نقش بالدقة فوق أبواب المقابر المبنية ، ومنها ما خربش على الرجام . أما المنقوشة فقـد وجد أكثرها في مدائن صالح وبعضها في وادي موسى وفي بلاد حوران . وأما الـكتابات المخربشة فقد وُجدت كلهـا في بلاد حوران وخطها قبيح .

ونلحق بالـكتابات النبطية الـكتابات التي وُجدت في أودية طورسـينا وبخاصة في وادي المُـكتّـب ، وهي آخر كتابات نقشت بخط نبطي ولغة نبطية .

وتضم الشعبة الغربية كذلك ثلاث لغات أدبية كما ذكرنا من قبل وهي :

﴿ اليهودية الغربية المقدسية والجليلية ﴾ : كانت العامة في فلسطين قد نسيت العبرية في زمان المسيح واتخذت لها لهجة آرامية غربية ، وكان المسيح يحدّث تلاميذه ويخاطب العامة بهذه اللهجة مع أننا نعرف من الأناجيل أنه كان يعرف العبرية. ولم يكن الـكتاب المقدس قد ترجم الى هذه اللهجة في أول الأمر فـكان الأحبار يقرأون التوراة في الصلاة بالعبرية

فإذا أتموا قراءة فصل قاموا بترجمته الى الآرامية على السامعين حتى أصبحت هذه الترجمة قسماً من الصلاة عند اليهود ثمّ قاموا بكتابة هـذه التراجم مع بعض الشروح ، وانتهوا من جمعها وتصحيحها في القرن الرابع الميلادي وتعرف عندهم باسم ترجوم . وكذلك كتب بها المدراشيم والتلمود الفلسطيني أو المقدسي ، وتحتوي هذه الكتب على شرائع اليهود ، ونبذ عن أخبارهم المشهورين .

﴿ اللهجة السامرية ﴾ : وقد استعمل السامريون ـ وهم طائفة قديمة من اليهود ـ لهجة آرامية غربية ترجموا إليها التوراة وألفوا فيها طقوساً وأشعاراً وأدعية خاصة بالصلاة وقد تنازع السامريون مع اليهود وباهى كلٌّ منهم صاحبه بأنه على دين بني اسرائيل الصحيح، ولم يقبل السامريون من الكتاب المقدس إلاّ أسفار موسى الخمسة وكانت عندهم بالخط العبري القديم ، ولم يقبلوا الخط المربع الذي استحدثه اليهود بعد الجلاء ، فلما دخلت الآرامية فلسطين ترجم السامريون إليها أسفار موسى الخمسة .

وكانوا يسمون لهجتهم بالسامرية وهي قريبة من اللهجة اليهودية الفلسطينية ولكنها مضطربة وليس لها نحو كامل ، وقد ضاعت بعد الفتح العربي وتعلمت العامة اللغة العربية ولكنهم استمروا في كتابة كتبهم الدينية بلهجتهم هذه بعد أن أصبحت لهجة صناعية مختلطة بكلمات شتى من السريانية والعبرية. ومنذ ذلك الحين ضعف السامريون وتناقص عددهم تدريجيًا وهم اليوم قليلون جدًا في فلسطين : في نابلس ونواحيها.

﴿ اللهجة الآرامية الفلسطينية المسيحية أو الملكية ﴾: قلنا إن السيد المسيح كان يخاطب تلاميذه باللهجة الآرامية الغربيـة . وقد أثبت البحث كذلك أن بعض الأناجيل قد كتب أولاً باللهجة الآرامية الغربية ، ثمّ نقل بعد ذلك الى اللغة اليونانية ولكن الترجمة كانت — مع ذلك — تشتمل على كلمات آرامية بحروف يونانية ، ولكن هـذه النسخ من الأناجيل لم تصل إلينا ، ولم يصل الينا غير النسخة اليونانية وعنها ترجم ثانية الى الآرامية والسريانية . وأما كتابات بولس الرسول فقد كتبت باليونانية مباشرة . وقد أخذ نصارى فلسطين وسوريا هذه الترجمة السريانية للعهد الجديد فاستعملوها في كنائسهم مع بُعدها عن لغة العامة . ثمّ حدث بعد ذلك أن انقسم النصارى الى نساطرة ويعاقبة وملكية ، وكان

الملكية يخالفون أكثر النصارى الآراميين ، ولهذا السبب عدلوا عن كتابة لهجتهم بالخط السرياني واستبدلوا به خطًا هو الى حدٍّ ما مزيج من الخطوط السريانية جميعها . وكان من أهل فلسطين ملكية فترجموا الكتاب المقدس الى لهجتهم وكانت ترجمتهم حرفية دقيقة لم يُراعوا فيها المعاني ولا ترتيب الكلمات في الجملة على قواعد اللغة الآرامية . ولم يبقَ لنا من كتبهم إلاّ القليل ، وكان إملاؤهم غير واضح وغير مُشكّل بحيث يمكن الاختلاف في نطق كلماته ، وهذا هو السبب في أن هذه اللهجة لم تلقَ عناية كافية . وقد ظلّ أصحابها يتكلمون بها في فلسطين حتى انقرضت أيام الفتح العربي .

وتختلف لهجات الشعبة الشرقية عن الغربية اختلافاً واضحاً إذ أنها تستعمل النون في صيغة المضارع الغائب بدل الياء في اللهجات الغربية . كما نلاحظ أيضاً أن النصوص التي وصلت الينا من اللهجات الآرامية الغربية قليلة نسبيًّا وموضوعاتها متقاربة ، وهي في الواقع ظروف لا تسمح بتحقيق قيمة هذه اللهجات بالدقة في الوقت الذي احتفظت فيه اللهجات الشرقية بمادة أوسع ، فالسريانية مثلاً لها أدب غزير متشعب . وتضم هذه الشعبة :

﴿ اللهجة الآرامية اليهودية البابلية ﴾ : وكان يستعملها يهود العراق الساكنون في بابل وما حولها في كتب الدين بين القرنين الثاني والسابع الميلادي أي الى أيام الفتح الاسلامي . وقد بقي لنا منها التلمود البابلي ، وشرح الكتاب المقدّس الذي أُلّف في مدارس اليهود في بابل فيما بين القرنين الرابع والسادس الميلادي ويعرف باسم الجمارا . وقد تأثرت كغيرها من اللهجات الآرامية اليهودية باللغة العبرية .

﴿ اللهجة المندعية ﴾ : وإسمها مشتق من الكلمة الآرامية (م دّ ع ا) ومعناها المعرفة ، ويسمى أصحابها بالصابئين أو المندعيين ، وهم طائفة من القبائل الآرامية كانت تسكن منطقة نهر الأردن ، ثمّ هاجرت منها الى العراق ، وكان أهل حرّان منهم يسمون أنفسهم ناصوريين ، وهم فرقة دينية من العارفين بالله ، خلطوا في تعاليمهم بين مذاهب اليهود والنصارى ووثنية البابليين واثنينية الفرس ، وأدخلوا عليها أخيراً بعض تعاليم الاسلام . وهم يدعون أنهم على مذهب يحيى بن زكريا « يوحنا المعمدان » ، ولذلك كانوا يغتسلون في الأردن كما كان يحيى يغتسل في الأردن ، فلما هاجروا الى العراق أخذوا يسمون كل نهر وكل ماء نهر الأردن .

وقد ذكر القاموس في مادة صبأ : « والصابئون يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام ، وقبلتهم من مهب الشمال عند منتصف النهار» . وقال شارح القاموس في الحاشية : « وفي التهذيب هم قوم يشبه دينهم دين النصارى إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب يزعمون أنهم على دين نوح وهم كاذبون، وقيل هم عبدة الملائكة ، وقيل هم عبدة الكواكب كما في البيضاوي» .

وهم يزعمون أيضاً أنهم أهل المعرفة من النصارى ، وأن عندهم معرفة خاصة عن الأشياء الدينية والروحانية ، ولكنهم في الواقع لم يكونوا نصارى بل كانوا يعترضون على النصارى واليهود ، فحاربتهم الكنيسة ، كما حاربهم اليهود . والعماد أو الغطاس مهم جداً في دينهم ، وهم يعظمون يوحنا ويدّعون أنه المسيح الحقيقي ، وأن عيسى ادّعى النبوّة ، وعندهم كتاب يوحنا .

وكتبهم الباقية كلها دينية وعددها قليل وأهمها كتاب الكنز الكبير . وفيه أجزاء أخذت من اليهودية والنصرانية والاسلام ، ومن قول أهل المعرفة ؛ ويظهر من هذا أنهم بدأوا بجمع رواياتهم وطقوسهم الدينية بعد فتح المسلمين للعراق لكي يعدّوا أنفسهم من أهل الكتاب . وقد ضاعت كل كتبهم التي ترجع الى ما قبل الاسلام . أما العصر الذي ألّف فيه ما تبقى من كتبهم فغير معروف على التحديد .

وللغة المندعية منزلة خاصة بين اللغات الآرامية فهي اللهجة الوحيدة التي لم تتأثر بأي مؤثر خارجي ، ولذلك فإنها تعد آرامية خالصة بينما تأثرت اللهجات الأخرى بمؤثرات خارجية شتى .

ولا يزال للمندعيين بقية باقية حتى اليوم ويُعرفون باسم الصُّبَّا ويسكنون بطائح البصرة ، ويقيم بعضهم في بغداد ويعمل أكثرهم في نقش الفضة بالصور والرسوم ، وهم متمسكون بدينهم ويتكلمون العربية والفارسية .

﴿ لهجة الرها (السريانية) ﴾ : وهي اللهجة الآرامية التي كان موطنها ما بين النهرين في الإقليم الذي كانت عاصمته مدينة الرُّها أو أُرْفه كما كان العرب يسمونها، وهي التي يعرفها الفرنجة بإسم Edessa (إدسّا) وكانت تحكمها في العهد السابق لظهور المسيحية أسرة عربية ، يدل على ذلك أسماء ملوكها : أبجر ومعن ووائل ، فلما ظهرت المسيحية وانتشرت في

هذا الإقليم، واتخذت لغته لغة أدبيـة لها ، كره أصحابه أن يطلق عليهم اسم الآراميين ، وأن يُطلق على لغتهم إسم اللغة الآراميـة ، ورأوا في هذه التسمية مرادفاً للوثنيـة والإلحاد ، فعدلوا عنـه الى الاسم الذي أطلقه عليهم اليونان وهو « السريان » وسموا لغتهم « السريانية » .

وليس من شك في أن السريانية قد اسـتفادت كثيراً من اتخاذ المسيحية لها لغة أدبية فانتشرت فيما بين النهرين ، ثمّ اتجهت في طريقها ناحيـة الشرق ، وكان تسربها الى الغرب ضئيلاً جدّاً : ذلك أن اللغة اليونانية كانت منتشرة في الغرب ، وكانت انطاكية (في شمال سوريا) معقلاً لها . ولم تتمكن اللغة السريانيـة من دخول فلسطين لأن النزاعات الدينية والسياسية التي كانت قائمة بين سكانها وبلاد ما بين النهرين قد حفزت الفلسطينيين المسيحيين الى النهوض بلهجتهم وجعلها لغة أدبيـة ودخلت السريانية مصر ولـكن في الأديرة وبين رجال الدين وبخاصـة في الاسكندرية . وكانت هناك صلات بين كنيسة الرُّها والـكنيسة المسيحية في جنوب فرنسا ، وهاجر الى فرنسا كثير من السريان في عهـد القيصرية الاولى حوالي سنة ٨٠٠ للميلاد .

أما في الشرق فلم يكن هناك ما يمنع من انتشار اللغة السريانية فقد كانت لغة الـكنيسة المسيحية في الشرق تتبعها أينما حلّـت ؛ كانت لغة المسيحية في فارس وحملها المبشرون من النساطرة معهم الى بلاد التركستان والهنـد حتى بلاد الصين . وكانت اللغة السريانية لغة المسيحيين في المملـكة الساسانية كما ذكرنا ، وبها دُرس الطب والعلوم الطبيعية في مدرسة جنديسابور وغيرها من مدارس السريان في البلاد الفارسية .

وقد دوّن السريان كتبهم بعـدة أنواع من الخطوط ، وكان أقدمها مدوّناً بالخط الاسطرنجيلي ، ويفسر بعضهم معناه بخط الانجيل ، ويفسره الآخرون بالخط المستدير ؛ فلما انقسم السريان الى نساطرة ويعاقبة وملـكية ابتدع كلّ فريق منهم لنفسه خطاً ، ومع ذلك فقـد ظلّ الخط القديم مستعملاً وصـارت المؤلفات تكتب بالخطوط الأربعة : الأسطرنجيلي ، واليعقوبي وكان يطلق عليه اسم السرطا (أي الذي يكتب بسرعة) والنسطوري والملـكي ، والخط الأخير مستخرج من الخطوط الثلاثة السابقة .

وقد ألّف السريان في لغتهم هذه في جميع فنون الأدب التي كانت معروفة في أيامهم ولكنهم لم يكونوا منشئين أو مبتدعين ، لم ينبغوا في العلوم ولا في الفنون بل ولم ينبغوا في الحرب ، وكان ينقصهم فطنة العرب وذكاؤهم ، فلم تنجب صوامع الرّها وقنّسرين ونصيبين وغيرها أحداً كالفارابي أو ابن سينا أو ابن رشد ، ولكنهم مع ذلك أجادوا التلمذة لليونان فهضموا ما تلقنوه عنهم ، ثمّ نشروه في لغتهم كما هو أو مع زيادة طفيفة ، وإليهم يعود الفضل في نقل تراث اليونان الى العرب ، فالعلم مدينٌ لهم بهذه التراجم الدقيقة لعدد عظيم من أمهات المؤلفات اليونانية القيمة ، والتي لولاها لضاعت هذه المؤلفات ؛ يضاف الى ذلك عدد من السجلات التاريخية المتواضعة التي خلفها يوحنا الأفيزوسي وديونسيوس التّلمَحْري ويوشع العمودي وميخائيل السرياني وابن العبري ، وهي سجلات تستحق كثيراً من الثناء إذ بدونها ما استطعنا أن نصل الى كل ما وصلنا إليه من معلومات عن تاريخ الكنيسة وعن كثير من الحوادث السياسية التي وقعت أثناء حياة المؤلفين .

والمعروف أن الأدب السرياني قد أثّر تأثيراً كبيراً في الأدب العربي ، وذلك أن العرب حينما ابتدأوا يهتمون بالعلوم والفلسفة اليونانية وحاولوا نقلها الى لغتهم كانت الترجمات السريانية هي الواسطة في هذا النقل ، وأكثر المترجمين المشهورين مثل حنين بن اسحاق ، وابنه اسحاق بن حنين ، وحبيش بن الأعصم ، ويحيى بن البطريق ، ويحيى بن عدي ، وابن زرعه كانوا ينقلون عن السريانية .

ومع ذلك فقد يكون من عدم الانصاف أن نصف السريان عامة بأنهم لم يكونوا منشئين أو مبتدعين ، فنحن نعلم أن أهل حرّان ومنبج قد نبغوا في الفلك وغيره من العلوم الطبيعية وألفوا فيها ، فقد وصل الى أيدينا من هذه الفنون كتاب قوانين البلدان لابن ديصان ، والراجح أن غيره من السريان قد ألّف في فنون أخرى ، ولكن الجهل الذي كان يسيطر على الجيل الأول من المسيحية دفعه الى بغض هذه الفنون الأدبية وزهّده فيها ، وحبّب اليه أن يقنع بالكتب الدينية ؛ ولذلك فقد عمد هذا الجيل إلى إتلاف الكتب غير الدينية ، ومن هنا لم يصل الينا إلاّ الكتب الدينية والكتب التي لا تتعارض مع المسيحية .

أما عن أسلوب الكتابة السريانية فقد كان المؤلفون متأثرين بأسلوب الكتاب المقدس وكثرت في كتاباتهم الاصطلاحات والاستعارات المستقاة من الكتاب المقدس ، وطبعت بالطابع الديني للسبب الذي أشرنا اليه من قبل من جهة، ولأن الكثرة المطلقة من الكتّاب كانت من رجال الدين من جهة أخرى .

وقد اختلط اليونان بالسريان اختلاطاً كبيراً ولذلك فإن من المؤكد أن الأساليب اليونانية كانت — تبعاً لذلك — ذات أثر فيما وصلت اليه اللغة . فقد حاكى السريانُ الأبنيةَ اليونانية في بعض كتاباتهم وقلدوهم في طريقة استعمال الكلمات بل إنهم نقلوا الى لغتهم كثيراً من الكلمات اليونانية ، كما أسسوا علم النحو في لغتهم على غرار النحو اليوناني واتخذوا من الصوائت اليونانية حركات يستعملونها في كتاباتهم .

وظلت السريانية مزدهرة حتى فتح العرب بلاد السريان ، ومنذ ذلك الحين أخذت اللغة السريانية تضمحل وتحلّ محلها اللغة العربية، واختلفت لغة العامة من السريان عن لغة الكتابة فظهرت الحاجة الى وضع علم النحو وابتداع طرائق لضبط الكلمات ، وتأليف معاجم للسريانية والعربية ، وبدأ الشعر العربي يؤثر في الشعر السرياني فظهرت فيه القوافي ، ولم تكن معروفة فيه قبل ذلك . ولكن سرعان ما اضمحلّ الشعر السرياني وأصبح أشبه بكلمات تستخرج من قاموس لتصفّ الى جوار بعضها. وأخيراً دالت اللغة السريانية كلغة للتخاطب، وبعد أن كان أكثر الأطباء المسيحيين الذين جاءوا من جنديسابور في مطلع العصر العباسي لايحسنون العربية، أصبح الأطباء وكلٌّ من له عناية بالتراث اليوناني أو له رغبة في معرفة علوم الأوائل محتاجاً الى تراجم عربية ، ولم يبق للسريانية أثر إلاّ عند بعض المثقفين الذين ثابروا على استعمال هذه اللغة في تآليفهم وخاصة في الكنيسة .

ثم صحَت اللغة صحوة الموت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد على يد عدد من الكتاب المشهورين كابن الصليبي وميخائيل الكبير وابن العبري ، وتبدلت الحالة في هذه الفترة ، فبعد أن كانت الكتب تترجم من السريانية الى العربية في صدر الاسلام ، أصبحت الكتب تترجم من العربية الى السريانية في هذه الفترة ،وإذا بابن العبري ومعاصريه يترجمون كتب ابن سينا والفخر الرازي وأضرابهما من فلاسفة المسلمين من العربية الى السريانية .

وبنهاية القرن الثالث عشر انقرض استعمال اللغة السريانية تقريباً ولم يبق منهـا اليوم إلاّ بعض بقايا في بعض نواحي العراق الشمالية ، في عدد من البلدان فيما بين بحيرة أورميا وبحيرة ڤان حيث يقيم بعض النصـارى من النساطرة ويسمونهم بالأشوريين . وفي شمال الموصل حيث يوجد بعض آلاف من اليهود يعيشون على فلاحة الأرض . وفي طور عابدين وهي نواحٍ جبلية في البلاد الفارسية حيث يقيم بعض اليعاقبة . وفي ثلاث من مدن سوريا منعزلة بعضهـا عن بعض : الأولى مسيحية وهي معلولة . والثانيتان سكانهما من المسلمين وهما جُبّـعدين وبخعة . ولـكن لهجات هذه البـلاد تختلف كثيراً عن اللهجات القديمة إذ أنهـا جاورت جهات تأثرت بلهجات تركيـة وعربية وفارسية وأُردية ، ومن أهم هـذه اللهجات لهجة « الفلليخي » وهي لهجة يُتـكلم بها قرب الموصل، ولهجة طورعابدين ولهجة بحيرة أورميا وكلهـا لغات يتـكلمها غير المثقفين وليست لغات تأليف غـير أن المبشرين الأمريكيين قد اجتهدوا في القرن الماضي في استخدام هذه اللهجة في الـكتابة فترجموا اليها بعض الـكتب وخاصة الانجيل وألفوا فيها بعض الـكتب — كما يفعلون منذ قرن في اللهجات الحامية الموجودة في جنوب السودان — ولـكن هذه الحركة قد فشلت .

وقد يكون من الأمور الطبيعية أن نتساءل بعد ذلك : متى بدأت العنـاية بدراسة الادب السرياني ؟

الأمر الذي لا شكّ فيه أن الأدب السرياني لم يُـدرس دراسة منتظمة إلاّ منذ القرن الثامن عشر حين بدأ يوسف سمعان السمعاني الماروني المتوفي سنة ١٧٦٨ يكشف عن أهمية هذا الأدب بما نشره في كتابه « المـكتبة الشرقية » (طبع في روما فيما بين سنتي ١٧١٩ و ١٧٢٨) من تراث الأدب السرياني عن مخطوطات نقلها من دير السريان بوادي النطرون

ومع ذلك فإننا نستطيع أن نقول إن الشرقيين بدأوا في دراسة الأدب السرياني منذ النصف الأخير من القرن السادس عشر الميـلادي ، نلمح ذلك في كتابات موسى المارديني اليعقوبي ، وفي الجهود التي بُـذلت في إحيـاء النحو السرياني بعد ذلك بقليل في القرن السابع عشر .

وقد قامت هذه النهضة بوجهٍ عام على أكتاف الموارنة من السريان،وكان على رأسهم

مائلة السمعاني التي كان لها شرف تخريج علماء أوربا الذين أغنوا الآدب بما أخرجوه من المخطوطات السريانية ، ولما تكن هذه المخطوطات قد كثرت بعد ، وقد أوقف السمعاني على مكتبة الفاتيكان مجموعة نفيسة من المخطوطات السريانية التي نقلها على عدة دفعات من دير السريان بوادي النطرون . وقد قام علماء الغرب بعد ذلك بنشر نفائس الكتب في هذه اللغة .

ولم يكن قد طبع في ذلك الحين من فهارس المخطوطات الشرقية المحفوظة بالمكتبات العامة سوى فهرس مخطوطات الفاتيكان الذي أعدّه يوسف سمعان السمعاني واصطفان عوّاد السمعاني وفهرس مكتبة لورانتين في فلورنسا الذي وضعه اصطفان عواد السمعاني . ولم تكن هذه المكتبات تشتمل — في ذلك الحين — إلاَّ على عدد قليل جداً من المخطوطات السريانية ، ولكن هذه المكتبات أخذت — في القرنين الأخيرين — تبذل جهوداً متواصلة لاقتناء المخطوطات السريانية حتى تجمّع لدى كل منها مئات من هذه المخطوطات . وكان حظ المتحف البريطاني منها عظيماً جدًّا ، فقد استطاع أن يحصل على مجموعة ضخمة من هذه المخطوطات كانت نواتها مجموعة من مخطوطات دير السريان بوادي النطرون كما عملت هذه المكتبات على أن تضع في متناول الباحثين فهارس وصفية تحليلية كاملة قام بإعدادها ونشرها عدد من أعلام المستشرقين . وقد وُضعت عدة مؤلفات في تاريخ الأدب السرياني .

﴿ أوّلها ﴾ : كتاب جوستاف بيكل (طبع في مونستر سنة ١٨٧١) ولكنه مختصر جدًّا

﴿ وثانيها ﴾ : مقالة كتبها وليم رايت في الجزء الثاني والعشرين من دائرة المعارف البريطانية تحت مادة « الأدب السرياني » ص ٨٢٤ — ٨٥٦ . وقد أُعيد طبع هذه المقالة بعد وفاة المؤلف في كتاب مستقل تحت عنوان « مختصر لتاريخ الأدب السرياني »(نشرت في لندن سنة ١٨٩٤) بعد أن أُدخل عليها بعض الزيادات لكي تستوعب المطبوعات التي ظهرت بعد نشر المقالة ، والملاحظات التي سجلها المؤلف على نسخته الخاصة .

والكتاب كما قصد مؤلفه مختصر الى حد كبير ، ولكن المؤلف راعى الدقة في كل

ما فيه ، وهو غير مقسّم الى فصول لأنه وُضع أولاً ليكون مقالة في دائرة معارف ، وقد تكلم فيه باختصار عن سِير المؤلفين من السريان مرتبين ترتيباً زمنيّاً وسجل لكل واحد منهم أسماء المؤلفات التي عرفها له . وقدّم لذلك كله بكلمة عن التراجم السريانية المختلفة للكتاب المقدس .

﴿ وثالثها ﴾ : كتاب روبنز دو ڤال «الأدب السرياني» ضمن سلسلة عنوانها «الآداب المسيحية القديمة» طبع في باريس في يناير سنة ١٨٩٩ ثم طبع طبعة ثانية سنة ١٩٠١ وثالثة سنة ١٩٠٧ . وقد وجه المؤلف عناية خاصة عند دراسته للادب السرياني — الى أثر هذا الأدب بالنسبة للآداب المسيحية عامة فتحدّث بإسهاب عن تراجم الكتاب المقدّس وسِير الشهداء الى غير ذلك .

والكتاب مقسم الى قسمين : يشتمل القسم الأول على أعمال السريان الادبية ، ويتكوّن ، من سبعة عشر فصلاً تحدّث فيها عن كل ما تناوله السريان في كتاباتهم من الفنون الأدبية . ويشتمل القسم الثاني على نبذ مختصرة عن سِير المؤلفين من السريان مرتبةً ترتيباً زمنيّاً اتبع فيه منهج رايت ، ويتكوّن من ثلاثة فصول : تكلم في الفصل الأول عن المؤلفين حتى مطلع القرن الخامس ، وتكلم في الفصل الثاني عن كتّاب القرنين الخامس والسادس ومطلع القرن السابع حتى الفتح العربي . وتكلم في الفصل الأخير عن الكتّاب الذين ظهروا إبان الحكم العربي حتى القرن الثالث عشر واختتمه بالحديث عن ابن العبري .

﴿ ورابعها ﴾ : كتاب بوركيت : وهو محاضرات عن كنيسة المتكلمين بالسريانية (لندن ١٩٠٤) ويشتمل على ملخص لناحية من نواحي الأدب السرياني .

﴿ وخامسها ﴾ : كتاب نولدكه عن «الأدب الآرامي» . والقسم الأول منه عن الأدب السرياني (ص ١٠٣ — ١٢٣) نشر في برلين وليبزج سنة ١٩٠٦ وطبع ثانية سنة ١٩٢٥ وهو قسم مختصر ضمّنه تاريخ الأدب السرياني في عصوره المختلفة . ولم ينهج بوركيت ولا نولدكه فيما كتباه منهجاً خاصّاً .

﴿ وسادسها ﴾ : بحث لبروكلمان عن « الأدب السرياني» ضمن كتاب عنوانه « الآداب الشرقية المسيحية » نشر في ليبزج سنة ١٩٠٧ (ص ١ — ٧٤) ثم طبع ثانية سنة ١٩١٩ .

وقد جاء البحث مختصراً لأنه جزء من كتاب يتناول الآداب المسيحية الشرقية باختصار، وقد راعى فيه المؤلف الترتيب الزمني أيضاً .

﴿ وسابعها ﴾ : مقالة شابو عن اللغة السريانية وآدابها في الجزء الرابع عشر من دائرة المعارف الكاثوليكية (ص ٤٠٨ — ٤١٣) وقد حذا فيه حذو مَن سبقه من تلخيص الأدب السرياني .

﴿ وثامنها ﴾: كتاب بومشتارك عن «تاريخ الأدب السرياني» نشر في بون سنة ١٩٢٢ وهو عبارة عن سجل حرص مؤلفه على أن يجمع فيه كلّ ما استطاع أن يصل اليه علمه من الكتب المطبوعة والمخطوطة . ولكنه مركّز الى حد يصعب معه على غير المتخصصين الاستعانة به . وقد راعى المؤلف في تقسيمه الترتيب الزمني كما فرّق بين كتاب اليعاقبة والنساطرة في عرضه لتاريخ الأدب .

وقد نهج المؤلفون في تاريخ الأدب السرياني على عرضه من الناحية التاريخية البحتة مفترضين أن الذين يهتمون بتاريخ الأدب على علم بالأدب السرياني . ولما كان من شأن دراسة تاريخ الأدب السرياني أن تكشف للباحث عن النواحي البارزة من هذا الأدب ، فقد رأينا أن نضمّن كتابنا هذا ترجمة أو عرضاً أو تلخيصاً لما نؤرخ له حتى نعين القارئ على تفهّم تاريخ هذا الأدب . ولما كان الفتح الاسلامي للبلاد التي تكلم أهلها السريانية وما تبع ذلك من تغلغل اللغة العربية بين أهلها ، قد فرّق بين فترتين متميزتين في الأدب السرياني ، فقد رأينا أن نراعي ذلك في دراستنا هذه . فنتناول في الفترة الأولى تاريخ الأدب السرياني من نشأته الى الفتح الاسلامي وهو موضوع هذا الكتاب . ونتناول في الفترة الثانية تاريخ الأدب السرياني من الفتح الاسلامي الى العصر الحاضر ، وسنخصه بكتاب آخر .

الباب الاول

تمهيد

كانت مملكة الرُّها واقعة في الجزء الشمالي الغربي من إقليم ما بين النهرين وكانت لغتها هي اللهجة الآرامية الشرقيــة التي أطلق عليها اليونان اسم « السريانية » . وكانت الرُّها مملكة مستقلة في القرون الأخيرة قبيل الميلاد والقرون الأولى بعد الميلاد . والراجح أن أصل ملوكها من العرب كما تدلُّ عليهم أسماؤهم : معن ووائل وأبجر ، إذ يظَــنُّ أن بعض رؤساء العرب دخلوا مدينة الرُّها — كما دخل غيرهم حمص وتدمُــر — وصاروا ملوكاً على الشعب الآرامي فنسوا لغتهم على مرور الزمن وتعلموا لغة الشعب الآرامية ، فلما دخلت المسيحية الرُّها في أوائل القرن الثاني للمسيح ، وتبع ذلك بناء الكنائس فيها ، واتخاذ المسيحيين لغتها لغة لهم ، وترجموا إليها الكتاب المقدس ، أصبح للغة السريانية مركز ممتاز ، وصارت الرُّها منذ ذلك الحين مركز الحياة الثقافية المسيحية باللغة السريانية .

وإذاً فنحن نستطيع أن نميز في هذا القسم بين طورين مختلفين من الأدب .

﴿ الطور الأول ﴾ : ويتضمن الأدب السرياني الذي وُضع قبل أن تصبح الرُّها مركز الحياة الثقافية المسيحية .

و ﴿ الطور الثاني ﴾ : ويتضمن الأدب السرياني الذي أُثِر عن العصر المسيحي الذي سبق ظهور الإسلام .

الأدب السرياني قبل انتشار المسيحية

ليس ثمَّة شكٌّ في أن بعض الأقوام من اليهود والوثنيين كانوا يُقيمون في المناطق التي كانت — فيما بعد — موطن المسيحيةَ السريانية . وليس من شك أيضاً أنه كانت لهؤلاء الأقوام كتابات باللهجة المحلية .فقد حلَّت اللغة السريانية محلَّ العبرية عند اليهود الساكنين في تلك المناطق ؛ كما كانت لغة الدين والأدب والعلم في حرَّان معقل الوثنية فيما بين النهرين ؛

ومهما يكن من أمر هـذه الـكتابات فقد عزلتها المسيحية عن العالم وحالت بينهـا وبين الخروج من معقلها لأنها لم تكن تساير العقيدةَ المسيحية ، وبقيت كذلك في عزلتها حتى العصور الاسلامية المتأخرة حين قضى المغول عليها نهائيًّـا سنة ١٢٣١ م . وبذلك حُـرِم العالم من ثمار حضارة هؤلاءِ الأقوام .

وقد بقيت لنا آثار متفرقة قليلة من هـذه الـكتابات هي : كتابات قبور ، وبعض كتابات مطوّلةاشتملت عليها دار المحفوظات الملـكيةفي الرُّها،وخطاب «مارا بن سرابيون» الى ابنه سرابيوم وقصة أُحيقار وزير سنحاريب ، وبعض مقطوعات منسوبة الى متنبيء وثني يُـدعى بابا الحرّاني . وسنتناول هذه الآثار في شيء من الإيجاز .

﴿ كتابات القبور ﴾ : أقدم الـكتابات السريانية التي بقيت لنا هي كتابات قبور نقشت على أحجار ، ولم نعثر حتى الآن إلاَّ على عدد قليل منها ، ومع أنها جميعاً غير مؤرخة إلاَّ أن جمهرة المشتغلين بالدراسات السامية قد اتفقت على أنها ترجع الى القرنين الأول والثـاني بعد الميلاد .

ويرجع الباحثون أقدم هذه النقوش الى النصف الأول من القرن الأول . وقد كتب عليه (ص د ن م ل ك ث ا) أي الملـكة صدّان . ومع أنه لا يبدأ بكلمة « هذا قبر ... » كما هو مألوف في نقوش المقابر المـكتوبة باللغات السامية إلاَّ أن الراجح أنه نقش مقابر . وقد عثر عليه سنة ١٨٦٣ وهو محفوظ الآن بمتحف اللوفر بباريس.

والنقش الثاني غير مؤرخ أيضاً كالنقش السابق ، إلاَّ أن الباحثين يرجمونه الى القرن الثاني ، وهو أطول من النقش السابق ، وقد كتب عليه (ا م ش م ش ا ت ـ ت ه د ش ر د و ب ر م ع ن و) وهو كالنقش السابق لا يبدأ بعبارة « هذا قبر . . . » إلاَّ أن الراجح أنه نقش مقابر أيضاً . وهو منقوش على برج مربع قائم في خربة بجهة سُـمُـيت فيما بعد بدير يعقوب واقعة في الناحية الجنوبية الشرقية من الرُّها . وكان Von Helmuth Moltke هو أول من لفت الأنظار الى وجود هذا النقش سنة ١٨٣٩ .

الغالب أن الآثار التي تقوم في هذه الخربة وثنية الأصل ولـكن لا يعرف الغرض الذي أقيمت من أجله ، ولعلهـا كانت مقابر لعائلة كبيرة ، ولعلّ البناء الذي كُـتب عليه النقش

برج مقبرة . والذي حملنا على ترجيح أن هذه الآثار وثنية اسم « أمَة شمس » فهو اسم وثني، وعلى الرغم من أننا نعلم أن المسيحيين قد سمّوا أبناءهم ببعض الأسماء الوثنية . إلاَّ أن البناء ليست به معالم تدل على أن المسيحية قد ظهرت في الرُّها عند بنائه . ومع أن انتشار المسيحية في الرُّها في النصف الأخير من القرن الثاني أمرٌ مرجح إلاَّ أن الأدلة المادِّية على وجودها متأخرة نوعاً ما . فقد وُجد على نقود أبجر المعاصر للامبراطور كومودوس (١٨٠ — ١٩٢ م) وهو أبجر سويروس صليب عوضاً عن الشارة القديمة وهي الهلال والنجمة .

وأول إشارة إلى وجود كنيسة في الرُّها كان سنة ٢٠١ م . عندما ذكر أن مياه نهر ديصان طغت على كنيسة المدينة ؛ وأول مرة ذكر فيها اسم أسقف لمدينة الرُّها كان في سنة ٣١٣ م . ولا تشتمل هذه الخربة على دليل يمكننا من تأريخ هذا النقش . ولكن القرائن التاريخية توحي بأنه نُقش في النصف الأخير من القرن الثاني ، وليس في معالم الخربة ما يتعارض مع هذا الرأي .

والنقش الثالث غير مؤرخ أيضاً وهو أطول من نقش دير يعقوب السابق . وتدل المقارنة بين خطوط النقشين على أن هذا النقش أحدث من نقش دير يعقوب ، وكان G. Badger أول من أشار اليه ، وهو موجود في قلعة الرُّها الواقعة في الناحية الجنوبية الغربية من المدينة وفيها تقوم جدران شاهقة ، وقد نقشت في أعلى الجدران الخارجية نقوش متفرقة يتعذر الوصول اليها ، ولا يستطيع الانسان بواسطة المنظار المكبر إلاَّ أن يحكم أنها كتابات عربية ولكنه لا يستطيع أن يقرأ منها شيئاً ؛ وفي داخل القلعة كتابة كوفية يتعذر الوصول اليها أيضاً ، ويقوم بالقرب من الطرف الغربي على بعد قليل من الجدار عمودان يُعرفان عند العامة بكرسي نمرود ، وقد كُتب هذا النقش على العمود الجنوبي منهما عند منتصفه ، ويستطيع الانسان أن يقرأه بالعين المجردة وفيه كلمات وحروف ناقصة في عدد من المواضع ، وبخاصة اسم صانع النقش أو الذي أمر بإقامته . وفيما يلي اقتراح لما يتضمنه النص : « أنا فلان ابن فلان صنعت (أو أقمت أو أمرت بإقامة) هذا العمود والصورة القائمة أعلاه لشلمث الملكة ابنة معن »

ويدلّ هذا النقش على أن هذا العمود قد خصص لأميرة ، أو لعله أُقيم للملكة هي ابنة رجل يدعى معن ، ونستنتج من ذلك أن هذا العمود والنقش المكتوب عليه يرجعان الى عصر استقلال إقليم الرُّها في عهد أسرة أبجر ومعن المالكة ، لأننا لا نعتقد أن أحداً لم يجد ما يدعوه الى إقامة نصب لأميرة من البيت الحاكم بعد ضم الرُّها الى أملاك الدولة الرومانية . ونستطيع أن نحدد العصر الذي أقيم فيه هذا النقش اذا رجعنا الى ما ورد في تاريخ الرُّها عن سنة ٢٠٦ م « أن أبجر بنى قلعة بمدينته » والراجح أن المقصود بهذه القلعة قلعة الرُّها . أما أبجر المذكور فهو أبجر الثامن ابن معن الذي حكم فيما بين سنتي ١٧٦ و٢١٣ وربما كانت إقامة العمودين بعد بناء القلعة أي بعد سنة ٢٠٦ م . إما في عصر أبجر وإما في عصر ابنه معن التاسع آخر أمراء الرُّها أي بين سنتي ٢٠٦ و ٢١٦ م . وتكون شلمث هي ابنة معن التاسع . ولكن خلوّ النقش — من جهة أخرى — من وصف معن بصفة «ملك» ربما دلّ على أن مَعْناً هذا شخص آخر غير معن التاسع الملك ، ويكون العمودان قد أقيما قبل بناء القلعة بزمن طويل وبخاصّة إذا لاحظنا أن النقش والعمودين ليس بهما أي أثر للمسيحية .

ومهما يكن من أمر هذه النقوش التي تحدّثنا عنها وأمثالها من نقوش المقابر ، فإنها لا تشتمل عادةً إلاّ على نصوص قصيرة لا تضيف كثيراً الى تاريخ الأدب ، ولكنها في الواقع دليل على أن اللغة السريانية كانت تكتب بحروف سريانية في إقليم الرُّها قبل دخول المسيحية اليه بزمن غير قليل .

﴿ كتابات ملوك الرُّها ﴾ ولن تعوزنا الأدلة على أن هذه اللغة المحلية التي كانت مستعملة في الرُّها وما جاورها من البلدان قبل ظهور النصرانية هي اللغة السريانية ، فإن كل ما بقي لنا من كتابات عن هذه الفترة — على قلّتها — مكتوب باللغة السريانية . وكانت الرُّها عاصمة الجزء الشمالي من بلاد ما بين النهرين ، وكان يحكم هذا الاقليم — بين سنتي ١٣٢ قبل الميلاد ، ٢١٦ ميلادية — أسرة من أصل عربي ولكنها اصطبغت الى حدّ بعيد بالحضارة الآرامية التي تحيط بها ، وخضعت لما يسير عليه الآراميون من عادات ، وكانت العادة قد جرت في دول آسيا الصغرى على تسجيل أهم الحوادث التي تقع وحفظها في دار

للمحفوظات ، ولم يشذّ ملوك الرُّها عن هذه العادة ، فقد كانوا يدوّنون ما يقع أثناء حكمهم من حوادث ويحفظونه في سجلات بدار المحفوظات بالديوان الملكي .

وكان من بين ما سُجِّل وحفظ في دار المحفوظات خبر فيضان نهر ديصان الذي اجتاح مدينة الرُّها في شهر تشرين الثاني سنة ٢٠١ م . في عهد أبجر التاسع (١٧٩ — ٢١٦ م .) ، والذي كان من جرائه أن تصدّعت كثير من مباني الرُّها الجميلة ومن بينها « كنيسة المسيحيين » ، وقد اضطرّ الملك الى ترميم كثير من المباني وتشييد مبان جديدة ، فلما تمت أعمال الاصلاح ، أمر الملك كاتبيه « ماريب برشمش » و « قيّوما برَجَّرطَط » بتسجيل هذه الكارثة فسجلت سنة ٢٠٦ م . وحفظت بدار المحفوظات في مجموع الأوراق الرسمية التي نقلت فيما بعد الى سجلات أساقفة مدينة الرُّها التي أُنشئت حوالي سنة ٣١٣ م . فلما كان منتصف القرن السادس الميلادي كان هذا النصُّ أحد المواد التي جمعت لتكوّن مختصر تاريخ مدينة الرُّها .

ولهذا النصِّ أهمية خاصة عند المؤرخين المتأخرين لأنه يدل على أن المسيحية قد دخلت الى الرُّها في عهد أبجر التاسع ؛ وله كذلك أهميته في تاريخ الأدب . فهو أقدم النصوص المؤرخة ، وهو الى جانب ذلك نصٌّ لغويٌّ مطولٌ باللغة السريانية في شمال ما بين النهرين .

وقد نشر السمعاني كتاب مختصر تاريخ الرُّها بالسريانية في كتابه المكتبة الشرقية (ج ١ ص ٣٩٠) وفيها قصة الفيضان . أما بروكلمان فقد نشر قصة هذا الفيضان بالسريانية في كتابه قواعد اللغة السريانية (طبع في برلين سنة ١٩٠٥ ص ٢١ من المختارات) . واليك ترجمة هذا النص :

«في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة أيام ملك سويرس وفي عهد أبجر الملك ابن معن الملك في شهر تشرين الثاني (أي نوفمبر) اشتدّ نبع المياه المتدفق من القصر الكبير الذي يملكه أبجر الملك الكبير ، اشتدّ وارتفع كعادته الأولى وملأ كل الجوانب وفاض عليها ، وأخذت الحدائق والأروقة والقصور الملكية تمتلىء بالمياه . فلما رأى ذلك مولانا أبجر الملك صعد الى الهضبة التي تعلو عن قصره حيث يقيم عمال المملكة ويسكنون . وبينما

كان الحكماء يفكرون : ماذا يصنعون بهذه المياه الغزيرة التي تراكمت ، حدث أن هطل مطر غزير قوي بالليل ، وفاض ديصان في غير موعده ، وجاءت المياه الغريبة فوجدت القناطر مقفلة بحديد كبير مصفح وبمصاريع حديدية مثبتة ، فلما لم تجد المياه لها مدخلاً تكوّن بحر كبير خارج أسوار المدينة . وابتدأت المياه تتسرّب من بين حوائط سور المدينة . وبينما كان أبجر الملك قائماً بالبرج الكبير المسمى برج الفرس رأى المياه على ضوء مشاعل النار ، وأمر فرُفعت الأبواب والقناطر الثمانية للسور الغربي للمدينة من حيث ينبع النهر . وفي تلك اللحظة اندفعت المياه الى سور المدينة الغربي ودخلت الى المدينة وهدمت القصر الكبير الجميل (قصر) مولانا الملك واجتاحت كلّ ما وجدته أمامها من مباني المدينة الرقيقة الجميلة وكل ما كان قريباً للنهر من شماله وجنوبه . وأتلفت كذلك هيكل كنيسة المسيحيين . وهلك في هذا الحادث أكثر من الفين من الناس كان كثير منهم نائمين بالليل فطغت عليهم المياه فجأة وماتوا خنقاً، وعندئذٍ امتلأت المدينة بأصوات العويل . فلما رأى أبجر الملك تلك الخسارة التي وقعت ، أمر أن يبعد جميع عمال المدينة أكواخهم من عند النهر ، وأن لا يبني أحد له كوخاً عند النهر . ووضعت الأكواخ بحكمة المهندسين والعلماء كما يسمح عرض النهر ، وزادوا على مساحته القديمة ، ومع أن المياه كانت كثيرة وقوية إلاّ أن عرض النهر كان صغيراً فانه يتلقى مياه خمسة وعشرين فرعاً بجملتها من جميع النواحي .

وأمر أبجر الملك أن جميع الذين يقيمون في الأروقة ويعملون أمام النهر لا يبيتون في أكواخهم من شهر تشرين الأول (اكتوبر) حتى نيسان (ابريل) إلاّ رجال الشرطة الذين يحرسون المدينة فان خمسة منهم يبيتون بالسور فوق المكان الذي دخلت منه المياه الى المدينة طيلة وقت الشتاء لكي يحسوا ويسمعوا في الليل صوت المياه الغريبة التي قد تأخذ في الدخول الى المدينة . . وكل من يسمع الصوت ويهمل في الخروج ، فإنّ المياه تنتقم منه لأنه أهمل أمر الملك . ووضع هذا الأمر هكذا من ذلك الوقت الذي صدر فيه الى أبد الآبدين. وعندئذٍ أمر أبجر الملك فبني له بناء لمقر ملكه في الشتاء هو «بيت تبارا» وكان يسكن هناك طوال فصل الشتاء ، وكان ينزل في الصيف الى القصر الجديد الذي

بُني له على رأس النبع . وكذلك بنى أشرافه مباني لاقامتهم الى جوار قصر الملك في السوق الكبير المسمى « بيت سحرايا » ، ولكي يستقر السلام الأول في المدينة أمر أبجر الملك فرُفعت أعباء الضرائب عن الذين في داخل المدينة ، وعن الذين يسكنون القرى والدساكر ورفعت الضرائب عنهم خمس سنوات حتى تَغنَى المدينة بالرجال وتزدان بمبانيها » .

﴿ خطاب مارا بن سرابيون ﴾ : أثرت ثقافة اليونان على السريان تأثيراً ظاهراً في سوريا الداخلة وهي سوريا الغربية ، ولكنها لم تكن لغة التخاطب وإنما كان تعليمها قاصراً على طبقة المثقفين من الأغنياء ويؤيد ذلك ما رواه صاحب سيرة رَبّولا أسقف الرُّها (٤١٢ — ٤٣٥ م .) « أنه (أي ربولا) تعلم اليونانية كسائر أبناء الأغنياء في مدينتهم قنّسرين » — وقد ظلت اللغة اليونانيـة الى جانب السريانية لغة أدبية في تلك الجهات عدّة قرون بعد المسيح . وكان بعض الكتّاب من السريان يؤلفون باللغة اليونانية ثمّ تنقل كتبهم الى اللغة السريانيـة لكي يفهمها سائر الناس . ومن الذين كتبوا باليونانية لوقيان الشمشاطي (نسبة الى مدينة سميصات) في القرن الثاني . وأوسابيوس القيصري (من مدينة قيصرية) المتوفى سنة ٣٤٠ م . وطيطوس البُصري المتوفى سنة ٣٧١ . م وسويرس الأنطاكي .

وكان من تأثير اليونانيـة على السريانية أن استعمل السريان في كتاباتهم المصطلحات اليونانية ، نجد ذلك واضحاً في الخطاب الذي أرسله مارا بن سرابيون الى إبنه سرابيون .

ولم تكشف لنا النصوص السريانية التي بين أيدينا عن مؤلف هذا الخطاب ، وكل ما نعرفه عنه مستقى من خطابه الذي لا يمكّننا تأريخه بالضبط ،فهو خطاب خاص من جهة،وليست لدينا معلومات عن الحوادث التأريخية التي ورد ذكرها في الخطاب من جهة أخرى ، ومع ذلك فقد ذهب المستشرق الانجليزي كيوريتون ناشر الرسالة الى أنه ليس من الحقائق الواردة في هذا الخطاب ما يحول دون القول بأنه كتب فيما بين نهاية القرن الأول ونهاية القرن الثاني . وإليك ترجمة الخطاب :

«سلام مارا بن سرابيون الى سرابيون ابني. عند ما كتب اليّ أستاذك ومُربّيك، وأطلعني أنك على صغر سنك مثابر على الدرس ، حمدت الله أنك وأنت حدَثٌ صغير بغير

مرشد خارجي قد بدأت بداية طيبة، فكان ذلك عندي مطيباً لخاطري أن أعلم عنك أيها الغلام الصغير هذا العقل الكبير، والنجابة العظيمة ، التي يصعب أن تبقى عند الكثيرين ، لهذا كتبت اليك هذه الرقعة عما استفدتُه من العالم ؛ فقد تتبعت حياة الناس، وقطعت في العلم شوطاً فوجدت أن التعاليم اليونانية كلها قد تحطمت عند ميلاد الحياة . فاحترس إذاً يا بنيّ مما يصلح للأشراف ، وفكّر في الكتاب ، وابحث عن الحكمة ، فكّر كذلك في تثبيت ما بدأتَ به ، وتذكّر أوامري بانتباه ، وكن كالرجل الهادىء الذي يحب النظام ، فالنظام وإن بدا لك شديد المرارة يصبح عندك عذباً حينما تتبعه زمناً قصيراً ، وهذا هو نفس ما حدث لي .

أما الإنسان فانه عند ما يرتحل عن أهله ، ويتمكن من الاحتفاظ بعادته ، ويعمل كل ما يجب عليه بدقة ، فإنه بذلك يكون الرجل المختار الذي تحلّ عليه بركة الله ، ولن يوجد من يشبهه في نبله . فإن أمثال هؤلاء الناس الذين يدعون الى النظام يريدون أن يتخلصوا من نضال الزمن . والذين يتمسكون بالحكمة يتعلقون بالأمل في العدل ، والذين يقومون على الحق يظهرون مستوى فضائلهم ، والذين يهتمون بالفلسفة يفكرون في الهرب من بؤس هذا العالم . أما أنت يا بنيّ فتدبّر هذا كله بحكمة ، كرجل كريم يريد أن يحيا حياة نقية ، وإياك أن تغريك الثروة التي يتعطش إليها الكثيرون . واجعل همّك اشتياق الثروة غير الحقيقية . فإن الناس لا يتوقفون عند ما يحصلون على أمانيهم ، حتى ولو ثبتوا على صلاحهم . وجميع هذه الأشياء التي تظهر لك في العالم كأنها حلم يتلاشى بعد فترة ، فإنها مدّ الزمن وجزره .

وأنت لا تفكر في الخيلاء — التي تملأ حياة الناس على أنها شيء من الأشياء التي تفرحنا ، فإنها تُعجّل لنا الألم وبخاصة ولادة الأبناء المحبوبين . وواضح في كلا الحالين أن في ذلك إذلالاً لنا . وحبّ الخير كريه إلينا ، ولكنا مدفوعون إليه بالعادة . ونحن نتعب في إصلاح المذنب ونحزن من جراء رذائله .

وقد سمعت عن أصدقائنا ، أنهم لما غادروا « سمُيْصات » حزنوا ، وقالوا كأنهم يلومون الزمن : « لقد أبعدنا من بين قومنا ، ولا سبيل الى العودة الى مدينتنا لرؤية أهلنا

واستقبال آلهتنا بالتسبيح . كان الأجدر بذلك اليوم أن نسميه يوم الحسرة ، فقد استولى عليهم جميعاً على السواء همٌّ واحد ثقيل ، كانوا يبكون وهم يتذكرون آباءهم ، ويتأوهون حنيناً الى أمهاتهم ، لقد حزنوا على إخوانهم ، وتألموا لفراق خطيباتهم .

ولما سمعنا بنبأ أصحابهم الأولين الذين ذهبوا الى سلوقيا ، استرقنا إليهم الطريق ، وأضفنا الى همومهم همومنا ، فاشتدَّ همنا معاً عندئذٍ . وازداد بكاؤنا حقاً على ضياعنا ، وجثمت الظلمة الحالكة حسرتنا ، ومنذ حين ونحن نضيق بالهموم ، حتى لم يستطع أحدٌ منا أن يدفع همومه التي تراكمت عليه . وأخذ يتدافع فينا حبُّ الحياة وألم الموت . وأخذ سوء الحظ يقودنا على غير هدى ، فرأينا إخواننا وأبناءنا أسرى ، وتذكَّرنا رفقاءنا الذين ماتوا ودفنوا في غير أرضهم . كما اهتمَّ كل امرىء منا بنفسه ، حتى لا تتراكم عليه كارثة فوق أخرى ، أو تدرك فيه المصيبة سابقتها .

ولكن ماذا يجني قوم محبوسون اعتادوا على ما هم فيه ! ؟

أما أنت أيها الحبيب ، فلا يحزنك أن تدفع بك وحدتك من مكان الى مكان . فلهذا وُلد الناس لكي يتقبلوا صروف الزمن ، ولتعلمْ أن كل أرض عند الحكماء سواء ، وأن الصالحين يجدون بكل مدينة كثيراً من الآباء والأمهات . فلتأخذ لك من نفسك موعظة : فما أكثر الناس الذين لا يعرفونك ولكنهم يحبونك كأبنائهم ، وما أكثر النساء اللائي يستقبلنك كأنك حبيبهنَّ ، فما نجحت إلاَّ لأنك غريب ، ولا اشتدت محبة كثير من الناس لك إلاَّ لأنك صغير .

ماذا نقول الآن عن الخطيئة التي حلَّت بالأرض وبالعالم الزكي الذي تؤدي اليه ، ونحن نرتجف من حركاته كما يهتزُّ الغاب على أيدي الريح . وإني لأتعجب من كثيرين ممن يطّرحون أبناءهم ، ودهشت لغيرهم ممن يربون غير أولادهم . وفي العالم قوم يقتنون الثروة ، وآخرون أدهشني أن ليس لهم من يرثهم . هكذا . فتدبرْ وانظرْ إن الضالين يسيرون في طريق الخيبة هذا .

قال لنا حكيم الناس : على أي المقتنيات يعتمد الانسان ، أو عن أي الأشياء يتحدث ، على أنها هي الأكثر تحملاً ؟ على كثرة الثروة ؟ فانها عرضة للنهب . أو على الحصون ؟ فإنها

مستباحة . أو على المدن ؟ فانها عرضة للتخريب . أو على العظمة ؟ فانها عرضة للإذلال . أو على الكبرياء ؟ فإنها محطمة . أو على الجمال ؟ فإنه ذابل . أو على القوانين ؟ فإنها زائلة . أو على الفقر ؟ فإنه محتقر . أو على البنين ؟ فإنهم يموتون . أو على الأصدقاء ؟ فإنهم كاذبون . أو على الشرف ؟ فإن الضغينة تسبقه . ومن هنا فليفرح بملكه رجل كدارا ، وبثرائه رجل كبلوقراطس ، وبشجاعته رجل كأخيل ، وبامرأته رجل كأجا ممنون ، أو بنسله رجل كبريانوس ، أو بمهارته رجل كأرخميدس ، أو بحكمته رجل كسقراط ، أو بعلمه رجل كفيثاغورس ، أو بذكائه رجل كبولوميدس ؛ لحياة الناس يا بني زائلة عن العالم ؛ أما مجدهم وفضائلهم فباقية الى الأبد .

أما أنت أيها الابن الصغير فاختر لك شيئاً لا يبلى ، فإن الذين يتخلقون بتلك الصفات متواضعون ومحبوبون ، وهم جديرون بلقب « الطيب » . وإن لقيك شر فلا تلم الناس ، ولا تغضب على الله ، ولا تأسف على زمانك . فإنك إن أقمت على هذا التعقل فلن يكون جزاؤك الذي تلقاه من الله قليلاً ، ذلك الجزاء الذي لا يعتمد على ثروة ولا هو قريب من الفقر . فدبر حياتك بغير خوف لكي تفرح حينما تريد ، فإن الخوف والاعتذار الطبيعي ليس من شيمة الحكماء ، وإنما هما شأن الذين يسيرون بغير قانون . فإن الانسان لا يجرد من حكمته أبداً كما يجرد من أملاكه ، لجد وراء المعرفة أكثر من سعيك الى الثراء . فكلما ازدادت الثروة كذلك تكثر الرذيلة ، فلقد رأيت أنه أينما تكثر الحسنات ، كذلك تقابلها السيئات ، وحيث تتزاحم المسرات فثم أيضاً تتجمع المساءات ؛ وحيث تكثر الثروة فهناك أيضاً مرارة السنوات الكثيرة . فاذا فهمت ذلك ووعيته بدقة ما تخلى الله عن عونك ، ولا انفك الناس عن محبتك . يكفيك ما استطعت اقتناءه ، فان أمكنك أن تعمل بغير مقتنيات فانك حينئذ تلقب «بالطيب» ، لأن أحداً لن يحقد عليك . وتذكر أيضاً : انه لن ينقص حياتك شيء الا ما تقتنيه ، فلن يسمى أحد بعد موته « رب أملاك » . وان القوم الضعفاء يذلون من أجل الشغف بهذه الأملاك ، وهم لا يعلمون أن الانسان انما يقيم في أملاكه كعابر سبيل وهم ـ خوفاً من عدم بقاء هذه الأملاك — يتركون ما لهم ويطلبون ما ليس لهم .

وأي شيء آخر يجب أن نقول عند ما يساق الحكماء بالقوة على أيدي الظالمين ، ويحبس

حكمتهم بتهمة باطلة ، ويُظلم ذكاؤهم بغير دفاع . فماذا جنى الأثينيون من قتل سقراط ؟ لقد أصابهم الموت والوباء عقاباً لهم . أو ماذا جنى أهل ساموس من إحراق فيثاغورس ؟ لقد غطت الرمال ديارهم كلها في ساعة واحدة . أو ماذا جنى اليهود من قتل ملكهم الحكيم ؟ لقد ضاع ملكهم منذ ذلك الزمن نفسه . لقد عوّض الله حكمة هؤلاء الثلاثة : فان الاثينيين ماتوا حينما جاعوا ، وغطى البحر أهل ساموس فلم يستطيعوا له دفعاً ، وحلّ الخراب باليهود وطُردوا من مملكتهم ، وتشتتوا في كل مكان . لم يمت سقراط ، بل بقي في شخص أفلاطون ، ولمْ يمت فيثاغورس أيضاً من أجل تمثال هارا . وكذلك لم يمت الملك الحكيم من أجل الشرائع الجديدة التي وضعها .

أما أنا يا بنيّ فقد جرّبت على أي بؤس فظيع يقوم الناس ، وتعجبت من أن الشرور التي تحيط بهم لم تتغلب عليهم ، بل ولم تكفهم الحروب ولا الأمراض ، ولا الموت ، ولا الفقر ؛ ولكنهم كالحيوانات الشرسة يفتك بعضهم ببعض في عداوة ،ويتسابق كل منهم في إلحاق أكبر قسط من الشر بصاحبه ، لقد جاوزوا حدود الحق ، وتخطوا جميع النواميس الجميلة لأنهم يتعلقون بشهوة أنفسهم . طالما كان الانسان راغباً فيما يروقه ، فكيف يستطيع أن يفعل بحق ما يجب عليه ؟ والناس لا يعرفون الاعتدال ، وقلما يمدّون أيديهم الى الحق والفضيلة ، ولكنهم يعيشون عيشة الصم العمي . أما الحمقى فيفرحون ، وأما الصالحون فيجزعون . والذي عنده منكر ، والذي ليس له يبذل جهده ليملك ، فالمساكين يسألون ، والأغنياء يخفون ؛ وكل واحد يضحك من صاحبه . فالمخمورون مخبولون ، والذين أفاقوا نادمون. فنهم من يبكي ، ومنهم من يغني ، وآخرون يضحكون،وغير هؤلاء قد اضطربت عقولهم يفرحون بالسيئات ، ويهجرون الرجل الذي يقول الحق ، إن الانسان ليتعجب من ذلك ،فحينما يتحطم العالم باحتقار لا يكون للناس وسيلة واحدة للحياة،ومع ذلك فانهم بهذا يعتنون . يتطلع المرء منهم متى سيتلقى تهنئة النصر في المعركة ، ولا ينظر الشجعان من أجل كم من الرغبات الحقيرة يذلّ المرء في هذا العالم . ولكني أرجو أن يصيب الندم قليلا هؤلاء الذين ينتصرون بقوتهم ، ويخورون أمام شرهم . لقد جربتُ الناس ، وهكذا جربتهم ! انهم يتطلعون الى شيء واحد هو كثرة الثراء ، ومن أجل هذا لا يستقرّ لهم رأي ،

ولـكنه يختلف باختلاف عقولهم . فان الناس يتحطمون بسرعة عند ما يلتهمهم الألم ولا يتطلعون الى ما في العالم من ثراء واسع ، فان اختلاف الرأي ينتهي بنا جميعاً ـ على السواء ـ الى كل تعب ، لأن همّ الناس تكبير بطونهم ، وهي الرذيلة التي بها يتم الفساد .

ولقد كتبت لك هذا الذي جال بخاطري ، ولا يكفي أن تقرأه ، ولـكن يجب أن يتقدم العمل عليه . وإني أعلم أيضاً أنك عند ما تتعوّد طريقة الحياة هـذه فانها ستسرك كثيراً ، وتكون منزهاً عن الاحتقار الدنيء ؛ فاننا من أجل الأبناء نتحمل الغنى . فتخلّص اذاً من الحزن الذي يحبه النـاس فانه أمرٌ لا يفيد شيئاً، وادفع عنك الخبل الذي لا ينتج فائدة ، لأنه لا حيلة لنا ولا سبيل الى تلافي السيئات وتحمل الأحزان التي يلقانا بها الزمن دائماً بيديه . والأفضل أن ننظر الى هذه الأشياء ، وليس الى تلك المليئـة بالفرح وحسن الأحدوثة . فادفع نفسك الى الحـكمة معين كل الخيرات ، والـكنز الذي لا ينفد، وعندها فاسند رأسك واسترح ، لأنها ستكون لك حقّـا ، الأب ، والأم ، والرفيق الطيب في حياتك . ولتألف المثابرة والصبر ، فانها هي التي تستطيع أن تواجه يأس الضعفاء من الناس ، فتشد من أزرهم لـكي يتحملوا الجوع ، ويصبروا على العطش ويرفهوا كل حزن ، ويتحدثوا عن التعب والموت . فتدبّـر ذلك كله لتقضي حياة هادئة ، وتكون قرّة عين لي ، وتدعى زينة والديه فإنه في الزمان الأول ، حينما كانت مدينتنا في أوج عظمتها تستطيع أن تعلم أن قوماً كثيرين قد وُصموا بألفاظ جارحة . أما نحن فقد جعلنا الزمن نعتقد أننا قد تقبّـلنا من عظمته على التساوي حبّـا مناسباً وجمالاً ، ولـكن الزمن قد رفض أن يتم هـذه الأشياء المنقوشة في عقولنا .

ونحن هنا أيضاً في الأسْر نحمد الله أننـا تقبلنا حب الـكثيرين فقد رُضنا أنفسنا على أن تقوم على الحـكمة والسرور . فإذا ساقنا أحـد بالقوّة فهو إنما يقدم الشهادة على نفسه أنه بعيدٌ عن كل الطيبات ، وليتقبل الخزي والعار من هدف نجس للعار . أما نحن فقد أظهرنا صدقنا أننا لا نقصد شرًّا بمملـكة . فإذا سمح الروم لنا بالعودة الى ديارنا بالعدل والصدق فليفعلوا ذلك كقوم رحماء ، وسننعتهم بالطيبين الصالحين ، وسيكون الأقليم الذي يقيمون فيـه في أمن . فليظهروا عظمتهم بتركنا أحراراً . فلنُستطيع المملـكة التي منحتنا

الزمن إيَّاها على أن لا نساق كما يسوق الظالمون العبيد ، فإن قُــدِّر أن يقع شيء ، فلن يصيبنا ما هو أكثر من الموت الهادىء المقدَّر لنا .

أما أنت يا بنيَّ ، فإذا أردتَ أن تعلم هذه الأشياء بعناية فاحكُـم الشهوة أولاً ، وقدِّر جرمُ ما أنت قائمٌ به ، واحذر أن تغضب ، واستمع للخير بدلاً من الغضب . فإني الآن أفكـر في ذلك ، لعلي حينما أعود الى نفسي أن أترك لها كتاباً ، وأنجز بعقل حكيم ذلك الطريق الذي أساق إليه ، فأنجو بغير حزن من خراب الدنيا الفظيع ، فإني أصلي لـكي أفنى ، ولا يُهمَّـني أي موت . فاذا حزن أحد عليَّ ، أو حمَّـل نفسه أية مشقة ، فإني أنصح له ألاَّ يفعل ، فانه سيجدنا أمامه هناك في طريق العالم » .

وقد اشـتمل المخطوط على عبارة أثرت عن مارا يظهر أن أحد نسَّـاخ هذه الرسالة قد أعجب بها فدوَّنها في نهاية الرسالة وهي :

« وقد سأله أحد أصـدقائه حينما كان أسيراً معه : بحياتك إلاَّ قلت لي . ما الذي يضحكك ؟ فقـال له مارا : إني أضحك على الزمن الذي يَرُدّ إليَّ سوءاً لم يستعره مني من قبل » .

وأسلوب هذه الرسالة متين وعباراتها مقتضبة بحيث يحمل اللفظ القليل المعنى الـكثير. ويظهر منها أن مارا كان من مدينة سميصات، وأنه كان وثنيـًا من أصحاب الفلسفة الرواقية ومن أتباع زينون ، ويبدو أن الرومان قد اتهموه بالاشتراك في حركة سياسية لا نعلم من أمرها إلاَّ أن الروم قد أخمدوها ، ونفوا عدداً من زعماء القائمين بهـا الى سلوقيا . ويشير المؤلف فيها الى ما لقيته سميصات من تخريب، والى أنه هو نفسه قد زُجَّ به في السجن مع غيره مكبَّـلاً بالأغلال . وأن الفاتحين عاملوهم معاملة جائرة لعـدم وفائهم للحكومة الرومانية ، ثم يصف بؤس أصدقائه ورفقائه من أبناء مدينته ، وما شعروا به من يأس عندما التقوا معاً في الطريق الى سلوقيا ، ثم يشير الى تخريب بيت المقدس .

والى جانب ذكر سقراط ، واحراق فيثاغورس ، يذكر المؤلف تشتت اليهود نتيجة لانتقام إلـهي منهم لأنهم قتلوا « الملك الحـكيم » على حد تعبـيره ، وقد أضـفت هذه الفقرة على الرسالة مسحة مسيحية ، وأكسبتها أهمية خاصة ، إذ يظهر أنه خُـيِّـل للأجيال

المسيحية الأولى من جراء ذكر اسم « الملك الحكيم » (أي المسيح) ، ومن تمشي روح الرسالة مع الروح المسيحية أن المؤلف مسيحي ومن أجل هذا قدر للرسالة البقاء .

وقد وجه مارا من سجنه هذا الخطاب الجميل الى ابنه الذي كان يدرس بعيداً عنه في بلد آخر رداً على خطاب تلقاه من أستاذه يذكر له فيه أن ابنه مثابر على الدرس . وقد نصح الأب ابنه أن يضبط عواطفه ، وحبب اليه البحث عن الحكمة وزرعها ، وقد نظر المؤلف الى العالم في هذا الخطاب نظرة أصحاب الفلسفة الرواقية من أتباع زينون (٣٩٢ — ٢٦٠ ق . م .) .

﴿ قصة أحيقار ﴾ هي قطعة من التراث الأدبي للأجيال الغابرة ، لقيت رواجاً قلما ظفرت به قصة أخرى ، فقد عُرفت في كثير من الآداب القديمة ، كما ترجمت الى عدد كبير من اللغات القديمة والحديثة ، وهي إحدى القصص التي كانت شهرزاد ترويها للملك شهريار والتي عرفناها في كتاب « الف ليلة وليلة » .

وأقدم ما عثر عليه من نصوص هذه القصة ترجمة آرامية قديمة ، كتبت على إحدى عشرة ورقة من أوراق البردي كشف عنها في جزيرة الفنتين بالقرب من أسوان ، مع غيرها من الوثائق التي خلفتها جالية يهودية كانت تسكن هذه الجزيرة ، وترجع الى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد . أما تاريخ تأليفها فلا يزال موضع بحث ، وكل ما نستطيع أن نقوله إنها ألفت قبل نهاية القرن الخامس قبل الميلاد .

ويقال إنها عُرفت عند اليونان بعد ذلك بقليل فيروي كليمانس الاسكندري وهو من كتاب القرن الثاني بعد الميلاد أن ديمقريطس (في القرن الخامس قبل الميلاد) قد ألف كتاباً في المواعظ الأخلاقية البابلية تناول فيه ما في قصة أحيقار من حكمة ؛ وكذلك أشار اليها سترابون . (فصل ١٦) وتيوفراستوس (فيما بين سنتي ٣٧٤ ، ٢٨٩ ق . م .) .

والذي يبدو محققاً أن هناك تداخلاً بين قصة أحيقار وبين بعض أسفار العهد القديم ، وهي كتب الحكمة بوجه عام ، فقد لاحظ الباحثون المتقدمون الشبه العام بين أخلاقيات أحيقار وبين اسفار الأمثال والجامعة وابن سيراخ ، فليس من شك أن هناك مادة مشتركة بين ابن سيراخ وأحيقار ، نضرب لذلك مثلاً التشبيهات الخاصة بثقل الأحمق عن الرصاص ، وثقل

الغضب عن الحجز والرمل ، وثقل الدَّيْن عن الرمل والملح ، ومرارة الفقر عن العلقم ؛ يرجح الباحثون أن قصة أحيقار هي الأصل وأنها أقدم من سفر ابن سيراخ .

وهناك تداخل مشابه في التفكير والتعبير بين أحيقار وسفر الأمثال في أمثال أحيقار الأخلاقية ، وهذا التشابه واضح جداً في الكلمات الختامية لتعاليم أحيقار حيث يشتمل النص على جمل على شكل نبوءة أجور في الاصحاح الثلاثين من سفر الأمثال ، حيث رُتبت الحوادث والأشخاص والأشياء في مجموعات عددية . والملاحظ في هذه المجموعات أنها في الصورة الأرمينية لقصة أحيقار مأخوذة — فيما يقال — من مجموعة مستقلة عنوانها « أسئلة أبناء الملك وإجابات أحيقار » وفيها يُذكر اسما ابني الملك وهما هودَيْ وبَلْيان ، ومن هنا نستطيع أن نفهم اسمي ايثيئيل وأُكال الغامضين في هذا الاصحاح واللذين يُوجه اليهما أجور وحيه . وليس أجور نفسه إلاَّ صورة مزدوجة من أحيقار .

ونستطيع أن نقول إن عدداً من المزامير ذات صيغة خاصَّة تتناسب مع حالة أحيقار في مخبئه ، وهناك مزمور أو اثنان متداخلان في اللغة التي كتبت بها القصة التي وصلت الينا بشكل عجيب ، وهو المزمور الحادي والأربعين بعد المائة . وهناك كذلك تعابير كثيرة متشابهة تصف الحياة الاشورية في كل من أحيقار وسفر دانيال ، وفيهما كذلك تشابه لغوي .

وكذلك أشار الى القسم الأول من هذه القصة مؤلف سفر طوبيا ، وهو من الأسفار المحذوفة (أُلّف حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد) ومن المؤكد أيضاً أنها كانت شائعة في الشرق في فجر المسيحية ، فقد أشار اليها كليمانس الاسكندري أو المصدر الذي أخذ عنه ـ كما ذكرنا ـ وكذلك كشف في مدينة ترير Trier الواقعة على الرين عن قطعة من الفسيفساء عليها صورة أحيقار واسمه صنعت بناء على طلب تاجر سوري اسمه Monnus (أي معن) .

وهناك أيضاً تشابه كبير بين قصة أحيقار وبين بعض أجزاء العهد الجديد ، وأول ما لوحظ منها المثل الذي ضربه المسيح عن العبد الشرّير الذي أخذ يأكل ويشرب مع السكارى ، ويضرب الجواري والغلمان ، فاذا عاد سيده فجأة قطعه وجعل نصيبه مع المرائين

يقابله شخصيـة نادان تماماً في قصة أحيقار وكذلك قصة نهاية يهوذا الاسخريوطي : أنه خنق نفسه كما في انجيل متى أو أنه سقط على وجهه وانشقّ من الوسط وانسكبت أحشاؤه كلها . فإن خلف يهوذا يظهر شبح نادان الشرير الذي كانت نهايته أنه انتفخ حتى انفجر . وكذلك مثل الشجرة غير المثمرة المغروسة على الماء تقابل المثل الذي قاله المسيح عن شجرة التين غير المثمرة التي كان سيدها مُصِرّاً على قطعها ، وهناك أيضاً مثل من أمثال أحيقار منقول في رسالة بطرس الثانيـة ، وهو مثل أحيقار في توبيخ نادان: « يا بنيّ ، لقد فعلت كالخنزير الذي دخل الحمام مع الأكابر ، فلما خرج من الحمام نظر جورة حماً فنزل تمرّغ فيها » فاننا نجد تفسيره في مثل بطرس « قد أصابهم ما في المثل الصادق كلب قد عاد الى قيئه ، وخنزيرة مغتسلة الى مراغة الحمأة » وربما كانت هناك نظائر أخرى لقصة أحيقار في كتاب العهد الجديد ، ولكننا نكتفي بهذا القدر من الأمثلة .

وقد عرف السريان هذه القصة وترجموها الى لغتهم في عصر متقدم ، يدل على قدمها تلك المسحة الوثنية الظاهرة فيها ، والتي لا أثر لها في النص الآرامي . وهذا النص السرياني هو أصل جميع التراجم التي ظهرت للقصة بعد ذلك .

وقد عرفها العرب كذلك قبل الاسلام وبعده ، أشار اليها الشاعر المسيحي الجاهلي عديّ بن زيد في قصيدة له ذكرها البحتري في حماسته في الباب التاسع والأربعين فيما قيل في غلبة الزمان وإفنائه الأمم :

فبتّ أعدي كم أسافت وغيرت   وقوع المنون من مسود وسائد
صرعنَ قباذا ربّ فارس كلها   وحشّت بأيديها بوارق آمد
عصفن على الحيقار وسط جنوده   وبيّتنَ في لذاته رب مارد

وقد ذكر الجواليقي نفس البيت مع شيء من التحريف في كتابه المعرب (طبعة ليبزج سنة ١٨٦٧ ص ٥٤) فقال : والحيقار ملك من ملوك فارس ، قال عديّ بن زيد يذكر من باد

وغُصن على الحيقار وسط جنوده   وبيّتنَ في خاداشه ربّ مارد

كما أورده صاحب لسان العرب (ج ٥ ص ٣٢٥) .

ويذهب المستشرق الانجليزي رندل هريس في كتابه قصة أحيقار (طبع لندن سنة

١٨٩٨ ص ٧٥ من المقدمة) الى أن القرآن قد أشار الى أحيقار في سورة لقمان ، ويرى أن لقمان هو نفس أحيقار ، وحجته على ذلك أن القرآن يتحدث عن كثير من القصص اليهودية والمسيحية ، فليس من المستغرب أن يشير الى قصة أحيقار ، وان كلاً من أحيقار ولقمان يوصف بالحكمة ، وأن كلاً منهما كان يلقن ابنه حكماً يبدؤها بقوله « يا بنيّ » ، وأن بعض حكم أحيقار تشبه بعض الحكم التي جاءت في القرآن على لسان لقمان ، فنجد في القرآن مثلاً قوله تعالى: «واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» : (سورة لقمان آية ١٩) بينما نجد في قصة أحيقار «يا بنيّ احن رأسك ورقق من صوتك وكن بشوشاً ، وامش في الطريق المستقيم ولا تكُ أحمق ، ولا ترفع صوتك بالضحك ، فانه لو كان البيت يبنى بالصوت المرتفع لبنى الحمار بيتين في يوم واحد» . ثم يقول : وقد بحث المفسرون والنقاد عن شخصية لقمان ، أهو نبي قد هبط عليه الوحي أم هو مجرد حكيم ؟ وانتهى المسعودي وغيره من علماء المسلمين الى انه لم يهبط عليه الوحي ، وانما بلغ من الحكمة والبلاغة مبلغاً عظيماً .

وقد عرف العرب قصة أحيقار بعد الاسلام في مجموعة قصص « الف ليلة وليلة » كما أسلفنا .

والقصة كما وصلت الينا عن السريانية تنقسم الى قسمين أساسيين : فيقص المؤلف علينا في القسم الأول أن أحيقار كان وزيراً حكيماً لملك أشور ونينوى سنحاريب بن سرحدون ، وكان ذا مال كثير ومعرفة ورأي وتدبير ، وانه كان وثنيًّا يعتقد بتعدد الآلهة ، وكان همه الأكبر وشغله الشاغل أن يرزق بغلام يخلفه من بعده فيرث ثروته وحكمته فتزوج ستين امرأة ، ولكنه لم ينجب ، ولهذا كان كثير الحزن والهم ، فاستشار السحرة والمنجمين ، فأشاروا عليه بأن يذبح للآلهة حتى يرزقوه ولداً ، ولكن ذلك لم يفده شيئاً ، فهجر الوثنية الى عبادة إله واحد ، ولكن ايمانه الجديد لم يساعده على تحقيق أمنيته ، فلم يرزق وريثاً يخلفه ، ويلقنه درر الحكمة عقاباً له على عقيدته الأولى . ثم إنه تضرّع الى الله تائباً ، فسمع صوتاً يقول له : خذ نادان ابن اختك واجعله لك ولداً ، وعلمه علمك وأدبك . عند ذلك أخذ نادان وكان بعد رضيعاً ، فاعتنى به وسلمه الى ثماني مرضعات ، فلما كبر وشبّ كالأرز

العالي علمه الأدب والكتابة والعلم والفلسفة . ويمر الزمن ويرى سنحاريب الملك أن أحيقار قد كبر فيطلب اليه أن يعين من يخلفه من بعده ، فيجيبه بأنه قد اتخذ من ابن اخته نادان ولداً ، فيأمره الملك باحضاره ، فاذا حضر أعجب به وسُرّ منه ووافق على أن يجعل منه خلفاً لأحيقار . وعند ذلك يأخذ أحيقار في بذل النصح لنادان وإطلاعه على نتيجة التجارب التي اكتسبها من الحياة ، وكان مما قاله له :

يا بنيّ : اذا سمعت كلمة فدعها تمُت في قلبك ، ولا تكشفها لغيرك لئلاّ تصبح جمرة تحرق لسانك ، وتترك الألم في جسدك ، وتُكسبك الخزي والعار عند الله والناس .

يا بُنيّ : لا ترفع عينيك الى امرأة متزينة ولا تشتهيها بقلبك ، فانك إن أعطيتها كل ما في يديك ، فلن تجد عندها ما يفيد ، وتأثم بالخطيئة .

يا بنيّ : نقل الحجارة مع رجل حكيم خير من شرب الخمر مع رجل لئيم.

يا بنيّ : اذا أكل الغني الحية ، قالوا أكلها تطبُّباً ، وإذا أكلها الفقير قالوا أكلها جوعاً

يا بنيّ : لا تحُل بين ابنك وضرب السياط ، لأن الضرب للصبي كالزبل للبستان .

يا بنيّ : اذا أرسلت الحكيم في حاجة فلا توصه كثيراً ، لأنه يقضي حاجتك كما تريد ولا ترسل الأحمق بل امض أنت واقض حاجتك .

يا بنيّ : كرعة في يدك خير من وزة في قدر غيرك . ونعجة قريبك خير من ثور بعيد. وعصفور حقير في يدك خير من ألف في الهواء .

ثم إن أحيقار تنازل لابن اخته عن وظيفته وثروته وكل ما له من العبيد والجواري ولم يحتفظ لنفسه إلاّ بجزء صغير منها . ولكن نادان خيب آمال مربيه ، فأضاع الثروة وجعل عرضه هدفاً للأقاويل السيئة ، فعاقبه أحيقار على ذلك بأن استردّ الميراث منه ومنحه الى أخيه الأصغر «نبوزار ادّان». فحقد نادان على خاله ،وأخذ يُفكر في الايقاع به.

ويختتم القسم الأول بمحاولة نادان الانتقام من أحيقار ، فيسلك الى ذلك طريقاً دنيئاً : فيدس على خاله خطابين ، وُجّه أحدهما الى ملك الفرس ، ووُجّه الثاني الى فرعون مصر ، وصوّر أحيقار في كليهما بصورة الخائن لوطنه وملكه ، فقد طلب الى الملكين الحضور لكي يُسلم إليهما المملكة بغير حرب . ويقع الخطابان في يد الملك وفق الخطة المرسومة. ثم زوّر في نفس الوقت خطاباً ثالثاً موجهاً الى أحيقار على لسان الملك ، يطالب

إليه فيه أن يجمع كل العسكر الذي عنده ويحضر معهم يوم الخميس في بقعة نسرين ، وأن يجعل الجند تظهر مهاجمته أمام رسل فرعون مصر لكي يعلموا مبلغ قوته . وهنا يقع الحكيم في الحبائل التي نصبت له ، فيطيع ما توهم أنه أمر الملك . وتقوى الريبة في نفس الملك ، فاذا هو يلمس خيانة أحيقار فيصدر أمره بالقبض عليه وقطع رأسه .

ويشاء القدر أن يكون أحيقار — في مناسبة سابقة — قد أنقذ ذلك الرجل نفسه — الذي وُكل اليه أن يقطع رأس أحيقار ويقذف بها مائة ذراع بعيداً عن جسده — فيدبر هو وامرأة أحيقار أمر خلاصه ، ويقتل مكانه أحد المحكوم عليهم بالاعدام ، ويختبيء أحيقار في سرداب في حديقة بيته لا يعلم به أحد .

فاذا كان القسم الثاني تغيّر اتجاه القصة ، وظهر فيها طابع القصص الهندي حيث توصف شخصيات الوزراء بالحكمة وسرعة الخاطر والقدرة على حل العقد والألغاز . فنحن نرى نادان يخلف أحيقار ، ولكنه ضعيف بادي الضعف ، فينتهز فرعون مصر فرصة ضعفه لاحراج ملك أشور فيبعث اليه يخيّره بين اثنتين : أن يُرسل من يبني له قصراً في الهواء ويرد على أسئلته ، فتدفع مصر له الجزية ثلاث سنوات ، أو أن يعجز عن ذلك فيدفع الجزية لمصر . ويجمع ملك أشور العلماء والحكماء والفلاسفة والعرّافين والمنجمين فيعرض عليهم الأمر فيقرّون بعجزهم ، ثم يعرضه على نادان فاذا هو أشد منهم عجزاً . وعندئذ يحزن الملك على أحيقار ، ويأسف على قتله إياه ، ويطول حزنه عليه ، فاذا رأى السيّاف ذلك تقدّم بين يدي الملك وأخبره أن أحيقار على قيد الحياة ، فيُسَرّ الملك لذلك أيّما سرور ، ويخرج أحيقار من مخبئه فيمثل بين يدي الملك ، فيعرض عليه الملك رسالة ملك مصر ، وكان المتوقع هنا أن تتقدم العدالة لكي تنتقم من نادان على مؤامرته ، ولكن الحلم والقيام بالواجب يؤخرانها حيناً حتى يذهب أحيقار الى مصر ليجيب على أسئلة فرعون ، فيُعدّ أحيقار نسرين وغلامين وشريطين طويلين من القطن طول كل منهما ألفا ذراع ، ويربط النسرين بالشريطين ، ويدرّب الغلامين على الركوب على ظهر النسرين ثم يطلقهما فيطيران في الجو على طول الشريط فاذا وصلا الى الجو صاح الغلامان قدموا لنا الحجر والملاط . ويلتقي أحيقار ملك مصر فيسأله الملك أن يشبّهه هو وأكابر

مملكته . ويدوم الحال على ذلك أياماً ، حتى اذا كان ذات يوم طلب إليه الملك أن يبني له بيتاً بين السماء والأرض فيطلب إليه أحيقار أن يُعد الحجر والملاط ، ثم يطلق أحيقار النسرين وعليهما الغلامان ، فاذا استقرا بين السماء والأرض صرخ الغلامان : أرسلوا الحجارة أرسلوا الملاط فنحن على استعداد للعمل ، وأخذ أحيقار وأتباعه يصرخون في الفعلة وجند الملك لكي يُقدموا للبناءين ما يريدان ، ويرى الملك استحالة نقل شيء إليهما ويعترف لأحيقار بالنصر .

وفي اليوم التالي يقول فرعون لأحيقار إن حصان سيدك اذا صهل في نينوى سمعته خيلنا هنا فطرحت . فلما سمع أحيقار ذلك أحضر سنوراً وأخذ يجلده جلداً شديداً ، فأخبر الناس الملك . فأحضره وقال له لِمَ تضرب هذا الحيوان الأخرس ؟ فقال له إن سيدي الملك كان قد أهداني ديكاً يعرف ساعات النهار والليل وقد تركته في نينوى فقام عليه هذا السنور في هذه الليلة فقطع رأسه ، ولذلك فاني أجلده . فقال له فرعون إن بين مصر ونينوى ثمانية وستين فرسخاً فكيف يستطيع السنور الذهاب الى نينوى والعودة منها ، فقال له أحيقار إذا كان بين مصر ونينوى هذا المقدار فكيف تسمع خيلك صوت حصان سيدي ! ؟

وتستمر هذه الألغاز فيطلب منه أن يفتل له حبلاً من رمل البحر ، وأن يخيط له حجر رحى قد انكسرت ، ويجيب أحيقار على أسئلته جواباً مقنعاً ، فيعجب به فرعون ويكافئه . فاذا عاد أحيقار الى وطنه غنياً بالهدايا بعد أن طبقت شهرته الآفاق، ومثل بين يدي سنحريب على أنه منقذ بلاده . عندئذٍ يجيء دور الانتقام فيلتمس أحيقار من الملك أن يسلم اليه نادان فاذا دُفع إليه ربط يديه في سلسلة من حديد وألقاه في مكانٍ مظلم في بيته وجعل غذاءه الخبز والماء ، وأخذ يؤنبه بحكمه ، وكان مما قاله له :

يا بنيّ : قيل بالأمثال من لا يسمع من أذنيه أسمعوه من قفاه .

يا بنيّ : اعلم أنه لو طال ذنب الكلب والخنزير عشرة أذرع لم يقم مقام الفرس ولو كان مثل الحرير .

يا بنيّ : أنت صرت لي مثل قملة الحنطة، لا تصلح لشيء وإنما تُفسد الحنطة وتنخرها .

يا بنيّ : قد ثبت قولهم ، إذا ولدت ولداً فادعه ابنك ، وإذا ربيت ولداً فادعه عبدك .

فلما سمع نادان هذا الكلام من خاله وكان يشعر أنه سيعاقبه بأقسى أنواع العقاب ، أراد أن يريح نفسه ويريح خاله ، فيعمل على تبسيط الحوادث ، فإذا هو ينتفخ ثم ينفجر ميتاً . وبذلك تنتهي القصة .

﴿ بابا الحراني ﴾ : ليس لدينا شيء موثوق به عن بابا هذا ، وكل ما نعرفه عنه مستمدٌ مما ذكره مؤلفو كتب الجدل من المسيحيين ، وكان أكثرهم يطلق عليه اسم نبي حرّان وصاحب كتابات في عصر ما قبل المسيحية ، وسماه ابن الصليبي في كتابه في الرد على العرب « الفيلسوف الحراني » ، وكل ما نقل عنه مستمدٌ من كتابين منسوبين اليه يشتملان على وحي وتنبؤات تحت عنوان « الكتاب الأول » و « الكتاب الثاني » وقد نشر اغناطيوس افرايم الرحماني سنة ١٩٠٤ مقتطفات منهما في كتابه « دراسات سريانية » Studia Syriaca نقلاً عن مخطوطة في دير الشرفة ننشر هنا ترجمتها العربية :

« لم أكن أحب أن أقول هذه الأشياء . ولكني مضطرٌ — رغم أنني — الى كتابة ما سوف يقع ، وإني لحزين وباك لوقوعه : تجيء النار — التي هي أقدم من العالم — الى هذه الأرض ، وترى في جسم الأرض والناس وهم لا يشعرون ، ثم تعود فتصعد الى مكانها المرتفع عند ذلك المجد المختفي عن الجميع . وعندما تكون هناك في مكانها يجيء مشبهوها من أبناء حرّان ، فيقول أبناء مدينة سين (أي القمر) تبّاً لبابا تلك هي الحكمة من أبناء السماء . فلما انتثر عزيز الكل تطيّروا به وخرج منها سكانها » .

ومن نفس الكتاب : « يُرى على الأرض إدراك النار الذي لا يموت ، والقرابين الأبدية والنور الذي لا ينطفيء ، وهو ساكن بالسماء ، ويحكم بالسماء وبالأرض وهي به حية ، والكل به مستعين . وكان أبناء حرّان مخادعين . كل ما كان ، فهو كائن . وهو أقدم الكل وبه حلّت الحكمة وفيه أقامت . وخارج النور لا يقوم شيء . أيتها الأرض لا تنغمسي في الخطيئة . ولكن اعلمي أن النار التي رأيتُ قائمة الى الأبد عند ما تطلب القمة ، وتفعل السنون بالأرض في وقت قليل وتافه . تجيء السيئة على ظلمهم ، ولا تقوم رجلهم حتى يروْن النار التي رأيتُ ويسجدون لها بحق » .

ومن نفس الكتاب أيضاً : « يقولون كلمة بكنز . تعالوا نقع على الأرض ، ونسجد لله خالقها ، ويكون بالأرض معبد كبير وقدس ، ويُقرّب كل الشعب قرباناً لله بمحبة خالصة »

ومن الكتاب الثاني : « ينظرون الى الشعاع الذي ظهر من حيث لايظنون ، ويظهر في مكانهم ، ويظهر مع كل معادل له بنور عظيم لا يُدرَك . ويشعر كل سكان المعمورة بجلال الشعاع الذي اختفى وظهر . ورأيت كأن الروح تخاطبني أن ولداً من نور ونار وُلد من الأرض للفائدة والضرر ، وللقيام والسقوط . واحسرتاه ! بعد زمن سيتصدّع بيت الآلهة الذي كان ممجّداً وعالياً كما كان كابيتول روما ، ولن يتركوا به حجراً على حجر لا ترتعدي إن علمت أن نور الشعاع مُبطل أشياء كثيرة . ينزل شعاع الرب واضحاً على الأرض . ويبقون بغير آيات حتى يظهر الضياء . ويأتي أبناء فارس يقدمون الهدايا للشعاع : ما أقدس تدبير الألوهية ، وما أعجب المعجزة التي تظهر بالأرض ، إنها أعلى من الكلمة ، وهي فوق إدراك العقل ، ولا تُدرَك ولا تُحصى أبداً . ثم تقيم الأرض في السلام قليلاً ، وينهض ملكوت الشرق ، وتزول وتُخرّب مدينة اليهود . ويقع عابور (أي العبريون) في السبي وتخدم بابل من أجل ولد المعجزة الذي ذكرتُ قصته . ثم ينهض ملوك الغرب ويأتون حتى إقليمنا ، ويذبحون داخل عزوز ، ويقرّبون القرابين في داخله . ويريدون إبطال الدين ولكنهم لا يستطيعون أن يقولوا هكذا لأن الآخرين الذين بعدهم يملكون وهم يُشرفون »

ثم قال : « بعد زمن طويل سيجيء اسم كبير من الشمال ويقيم داخل عزوز ويبجل زملاءه ، وكل من لا يتبع كلامه يتحكم فيه الخراب » .

ثم قال : « محتقر رسله أعني جماعته » وقال : « من الكل وحلّ بالكل تلك هي المعجزة التي حدثت » .

وقد نقل ابن الصليبي بعض فقرات من الكتاب الثاني في الفصل التاسع عشر من كتابه في الرد على العرب (وتقع في نهاية العمود الثاني من صفحة ٥٤ من مخطوط المتحف السامي بجامعة هارفارد رقم ٤٠١٩ وفي الجزء الأخير من صفحة ١٧٣ من مخطوط الفاتيكان رقم ٩٦) وقد وردت هذه الفقرات ضمن القسم الذي أوردناه

ويلاحظ أنه ينحو في كتابته نحو أسلوب وحي الكهّان بجمله القصيرة التي يشير

كل منها الى معنى مستقل ، والثالثة تحمل بين ثنـاياها أكثر من تأويل واحد . ومما يسترعي النظر أن المسيحية قد أبقت على هذا الكتاب ، ولعلّ الذي دفعها الى الإبقاء عليه اشتماله على تنبؤات عن المسيح لـكي تُستغل به وثني حرّان بالدخول في المسيحيـة ، على اعتباره كلام نبي لهم . إلاّ أن أسلوب هذين الكتابين وما اشتملا عليه من عبارات ومعاني مسيحية يدفعنـا الى الشك في صحة نسبة هذا الكتاب ، ويجعلنا نرجح أن المسيحيـة قد دستهما على المؤلف وعلى العصر الذي وضعا فيه . ومع أن النشاط الأدبي لأصحاب وثنية حرّان المعروفين بالصابئة كان عظيماً وظلّ مستمرّاً حتى أواخر القرن العاشر الميـلادي وبخاصة في النزاع الذي كان قائماً بينهم وبين السريان المسيحيين في التوسط بين الحضـارة القديمة والحضارة الاسلامية ، فان المسيحية قد جنت على هذا التراث الأدبي فحرمت العالم منه . ولو أنه وصل الينا لاستطعنا أن نوازن بينه وبين الكتاب المنسوب الى بابا لنتبيـن مقدار صحته .



الباب الثاني

الأدب السرياني المسيحي

قبل الاسلام

﴿ انتشار المسيحية ﴾ : تؤكد جميع المصادر التي بين أيدينا أن الأدب المسيحي السرياني قام على ضفتي الدجلة في منطقة حذيّب (Adiabene) الواقعة بين نهري الزاب الكبير والصغير شرقي الدجلة ، وفي منطقة الرُّها الواقعة في الشمال الغربي لأقاليم ما بين النهرين ، وهو الأقليم الذي يحيط بنهير ديصان أحد فروع نهر البالخ . وهما المنطقتان اللتان كانت تسيطر عليهما الدولة الرومانية ، وكانتا بمثابة دول الحدود وأقاليم الهجرات اليهودية ، التي كان للارساليات المسيحية نشاط ملحوظ فيها .

ومع أن السريانية كانت لغة هذه البلاد ، ومع أن أهمية الأدب السرياني لم تظهر إلاّ منذ دخلت المسيحية في أرضها واتخذت السريانية لغة أدبية ، فإن معرفتنا بتاريخ انتشار المسيحية فيها قاصرة جدًّا .

أما القَصَص السرياني فيزعم أنّ المسيحية حينما اتجهت شرقاً ظهرت أولاً في الرُّها أيام المسيح ، وأن أبجر الخامس كتب الى المسيح وآمن به ، ومع ذلك فنرى أن ملوك المدينة ظلوا على وثنيتهم حتى آخر حكمهم وأن مقرّ الكنيسة السريانية لم يبدأ في الرُّها وإنما بدأ في حذيّب حيث وُضعت أقدم التراجم السريانية للعهدين القديم والجديد .

يخبرنا يوسيفوس المؤرخ في الباب العشرين من كتاب « الآثار » أن « مونوباز » ملك حذيّب كان وثنيًّا ، وكان يخشى ابنه « يزْد » ، فأقصاه بعيداً عن مملكته عند صديقه « عبد نِرْجَل » الذي كان يملك على الاقليم الواقع حول مصب الدجلة حيث تقع مدينة البصرة الآن ، وهناك زوّجه « عبد نِرْجَل » من ابنته « سوم‍كا » ، كما اعتنق اليهودية على يد تاجر يهودي اسمه « حنانيا » . وتمضي الأيام ويطلب « مونوباز » عودة ابنه ، فيعود « يزْد » الى مملكة أبيه ، مستصحباً معه « حنانيا » التاجر اليهودي ، فاذا

هو يحد أمه الملكة هيلانة قد اعتنقت اليهودية أيضاً على يد يهودي آخر . ثم يدور الفلك دورة أخرى ويموت « مونوباز» ويخلفه « يَزْد » على العرش سنة ٣٦ م . وتصبح اليهودية دين الدولة . وترى « هيلانة » أن الدين الجديد لم يظهر له أي تأثير في الدولة ، فتحج الى بيت المقدس ، وتقيم به ، وتطول إقامتها فيه ، وينتهز الملك « يَزْد » هذه الفرصة فيرسل خمسة من أولاده الى بيت المقدس لتلقي العلم هناك ، ويصبح لهذه العائلة عدد من القصور في بيت المقدس كما يُذكر في كتاب المشنه ، وتبني « هيلانة » مقبرة بديعة في بيت المقدس يطلق عليها اسم مقبرة الملوك ويسميها يوسيفوس المؤرخ (الاهرام) ، دفنت فيها « هيلانة » وابنها « يَزْد » ولا تزال آثارها قائمة في بيت المقدس حتى اليوم. ومن هنا نتبين الصلة التي كانت قائمة بين فلسطين ومملكة حذَيَّب .

* * *

ويذكر يوسيفوس أيضاً أن « مونوباز الثاني » و « كَنْداي» ملكي حذَيَّب قد اشتركا مع اليهود في محاربة الرومان ، وأن « مَبرساف » وهو آخر من نسمع عنه من ملوكهم كان من ألد أعداء الامبراطور تراجان إبان حروبه في الشرق ولكنه هُزم سنة ١١٦ م ,واصبحت حذَيَّب جزءا من الأقليم الأشوري التابع للامبراطورية الرومانية .

هذه الصلة التي توطدت بين مملكة حذَيَّب وبين فلسطين كانت سبباً في انتقال المسيحية الى هذا الاقليم في النصف الثاني من القرن الأول . فان « مشيحا زخا » صاحب تاريخ أربل يخبرنا أن « أدَّى » كان مرسلاً الى قرى حذَيَّب الجبلية ليبشر بالمسيحية هناك وأنه كان من بين الذين عمَّدهم « أدَّى » رجل اسمه « فقيذا » وأنه أرسله الى أربل عاصمة حذَيَّب فصار أول أسقف للمسيحيين هناك . وكثر في مملكة حذَيَّب المعتنقون للمسيحية ، وكانت كثرة الأساقفة في اربل من اليهود المتنصرين أو من مسيحيين من أصل يهودي فقد كانت أسماؤهم مستمدة من كتاب العهد القديم مثل شمشون واسحاق وابراهام ونوح وهابيل .

ويحدد صاحب تاريخ أربل بداية بعثة « أدَّى » لسنوات الأخيرة من القرن الأول .

ويذكر أن « أدّى » و « ماري » كانا أول مبعوثين الى كرخا (كركوك) وهي مدينة في شمال العراق وعدد من الاماكن الأخرى .

والراجح أن المسيحية قد تخطت بعد ذلك حدود هذا الاقليم ناحية الشرق ، فنحن نعلم من النصوص المانوية المكتشفة حديثاً في مصر أن ماني ذهب الى الهند حوالي سنة ٢٤٠ م . قبل أن يبشر بمذهبه في وطنه ، وليس ثمة شك في أنه ذهب الى هناك في إثر القديس توما رسول الهند، وقد توقع ماني أن يجد في الهند جالية مسيحية ، وصحّ ما توقعه فعلاً ، فنحن نسمع أنه «كوّن هناك نخبة طيبة » أي انه أنشأ هناك طائفة من أتباعه .

وإذاً فقد دخلت المسيحية حدْيَّب في النصف الثاني من القرن الأول ومنها انتقلت الى الهند فيما بعد ؛ وبذلك يسقط الرأي القائل أن المسيحية قد دخلت الى الرُّها قبل دخولها الى أي اقليم آخر من أقاليم المشرق . ولكننا مع ذلك نحب أن نناقش هذا الرأي .

* * *

يعتمد الذين يذهبون هذا المذهب على عدد من الوثائق لا تعدو أن تكون كلها من الأساطير . وأقدم هذه الأساطير « قصة أبجر » ، وملخص هذه القصة ، أن أبجر الخامس ملك الرُّها الملقب بالأسود (المتوفى حوالي سنة ٥٠ م) لما سمع بخبر العجائب التي يفعلها المسيح ، أرسل اليه رسالة يرجوه فيها أن يشخص اليه ليبرئه من علته ، ويعرض عليه في تلك الرسالة أن يقيم معه في مملكته بعيداً عن اليهود الذين يريدون به السوء . وتقول الأسطورة أنه أرسل مع الرسول رساماً لينقل اليه صورة المسيح اذا اعتذر عن القدوم اليه . فلما وصلت الرسالة الى المسيح اعتذر عن الذهاب الى الرُّها ، وكتب الى أبجر : « طوبى لمن آمن بي قبلما يراني ، فقد كُتب عني ان الذين يرونني لا يؤمنون بي ، والذين لا يرونني يؤمنون ويخلصون . أما طلبك أن أجيء اليك ، فيجب أن أتمم هنا كل ما أرسلت لأجله، وبعد انتهاء عملي ، وصعودي الى من أرسلني ، أبعث اليك واحداً من تلاميذي ليبرئك ويمنحك ومن معك الحياة الأبدية » .

تقول الأسطورة إنه بعد قيام المسيح أرسل أحد تلاميذه الى الرُّها وفاءً بالوعد الذي

قطعه المسيح على نفسه في هذه الرسالة . وقد قبل أوسابيوس المؤرخ هذه القصة في تاريخه الذي وضعه في بداية القرن الرابع على انها مأخوذة من أصل سرياني محفوظ في دار المحفوظات الرُّهاوية . وتذكر هذه الأسطورة أن الرسول هو «تدّاي» أحد الاثني عشر ، ويستعاض عنه في اسطورة أخرى هي «قصة أدّى» بأدّى نفسه ، ويقال إن الذي أرسله هو توما رسول الشرق ، الذي نقلت رفاته بعد وفاته الى الرُّها ودفنت هناك في تابوت من الفضة سنة ٢٣٢ م . وقد اشتملت قصة أدّى على عدد كبير من الأسماء ، كما أظهر المؤلف أنه مولع باخراج صورة لأحوال البلاط الملكي في الرُّها في ذلك الحين . ولكن البحث أظهر أن أكثر أصحاب الأسماء المذكورة في هذه القصة لم يعملوا في بلاط أبجر ملك الرُّها ، وإنما عملوا — فيما تنطق به الوثائق التاريخية — في بلاط ملوك البرتيين في ذلك الحين ، وهم ارتبان الثالث (١٢—٣٨ م) وجوتارس الثاني (٣٨ — ٥٠ م) . وفاردان (٣٩ — ٤٧ م) وبذلك تكون القصة قد أُلّفت في الأصل في بلاد يحكمها ملوك البرتيين وهذه البلاد هي حذيَب .

* * *

والظاهر أن تلك المنطقة لما أصبحت إقليماً مسيحيًّا الى حدٍّ كبير ، حوّل الناس الحقائق التاريخية التي كانت معروفة عن اعتناق الملك «يَزْد» لليهودية والتي ذكرناها من قبل الى قصة مسيحية . ولا يزال عندنا بقايا من قصة حذيَب المسيحية هذه ، وفيها يستبدل اسم الملك «يَزْد» باسم «نرسي» ، وهو يُسمّى في رسالة أدّى الرُّهاوية «نرسي ملك الأشوريين» .

أما في الرُّها فقد استبدل الملك يَزْد (أو نرسي) بمعاصره الملك «أبجر الخامس اوكاما» ملك الرُّها . واستبدل اسم «حنان» التاجر اليهودي الذي لعب دوراً هامًّا في اعتناق «يَزْد» لليهودية بحنان (طبولارا) أمين المحفوظات الملكية الذي كان أبجر قد أرسله الى فلسطين والذي لعب دوراً هامًّا في تحوّل الملك أبجر الى النصرانية فيما تقول القصة . أما «هيلانة» أم يَزْد فقد جُعلت زوجة أبجر في النص الأرمني للقصة .

وتذكر القصة في ناحية أخرى أن «أدّى» كان معلم «فالوط» الذي كان أسقفاً على

الرُّها في النصف الأخير من القرن الثاني . وإذاً فإن « أدّي » رسول حذَيَّب والأراضي المجاورة للدجلة — الذي حدَّد صاحب تاريخ أربل بعثته بأواخر القرن الأول — كان عليه أن يتقدم على تاريخه أكثر من ستين سنة لكي يُجعَل منه تلميذاً للمسيح في عهد الملك أبجر الخامس . كما كان عليه أيضاً أن يتأخر عن تاريخه بنحو من ستين عاماً لكي يصبح معلم الأسقف فالوط . وبذلك يكون « أدّي » قد اتصل بالرُّها مرتين : واحدة في الربع الثاني من القرن الأول والثانية في النصف الأخير من القرن الثاني . والعجيب بعد ذلك أن اسمه لم يرد في تاريخ الرُّها ، ولم يُعرف شيء عن نشاطه في الرُّها على الاطلاق .

وهناك من يقول إن المسيحية دخلت الرُّها في الربع الثالث من القرن الثاني ويربط اصحاب هذا الرأي بين « أدّي » وبين دخول الانجيل المختلط (الدياطَسَّرون) الى الرُّها ، و« أدّي » عند أصحاب هذا الرأي معاصر لطاطيان مؤلف (الدياطَسَّرون)، بل إنهم يُغالون فيقولون إن الرجل الذي كان يسمى « طاطيان » في الغرب، ربما كان هو بعينه الذي سُمّي « أدّي » في الشرق . والغريب أيضاً أن تاريخ الرُّها لم يذكر اسم واحد من الرجلين ؛ ومعنى هذا أن الرُّها لم تعرفهما .

وإذاً فلا يمكن اعتبار قصة أبجر ، أو قصة أدّي وثيقة تاريخية لدخول المسيحية في الرُّها فالقصتان وإن اشتملتا على بعض الحقائق التاريخية ، فإن هـذه الحقائق قد وقعت في زمن متأخر عن العصر الذي يراد نسبة القصتين اليه ، ولكنهما حملتا على الرُّها لتصوير نظرة متأخرة لما كان يطمع الرُّهاويون أن تكون عليه نشأة المسيحية في مدينتهم.

* * *

وتريد الأساطير أيضاً أن تجعل المسيحية الديانة الرسمية في الرُّها باعتناق الملك أبجر التاسع (١٧٩ — ٢١٤ م) لهذا الدين. ويقولون في ذلك إنه كانت لابن ديصان معه اتصالات حملته على اعتناق المسيحية . ومع ذلك فإن أبجر التاسع قد ذكر عدة مرات في القصة المشهورة عن الفيضان الكبير الذي أصاب الرُّها سنة ٢٠١ م . كما يذكر عنه تفصيلات أخرى في تاريخ الرُّها في حوادث سنتي ٢٠٥ و ٢٠٦ م . ولكن لم يرد في ذلك التاريخ أية إشارة ولو ضمنية لاعتناق هذا الملك للمسيحية .

ونستطيع بعد ذلك أن نقرر ما لدينا من الحقائق عن هذا الموضوع على النحو التالي :

١ — تروي المصادر أن ابن ديصان (الذي وُلد في الرُّها سنة ١٥٤ م . والذي سنتحدث عنه فيما بعد) قد اعتنق المسيحية في الرُّها في النصف الأخير من القرن الثاني ، ومعنى هذا أنه كانت في الرُّها طائفة مسيحية في ذلك الحين .

٢ — ترجع أقدم إشارة الى بناء كنيسة في الرُّها الى ما جاء في تاريخ الرُّها من أن الفيضان الكبير الذي أصاب المدينة سنة ٢٠١ م قد خرَّب هيكل كنيسة المسيحيين .

وتكون المسيحية إذاً قد دخلت الرُّها حوالي منتصف القرن الثاني أي بعد دخولها في حَدْيَب بنحو قرن من الزمان .

تاريخ الأدب السرياني

من نشأته الى الفتح الإسلامي

بقلم

دكتور مراد كامل

الأستاذ المساعد للغات السامية

معهد اللغات الشرقية

جامعة فؤاد الاول

دكتور محمد حمدي البكري

مدرس اللغات السامية

معهد اللغات الشرقية

جامعة فؤاد الاول

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر

١٩٤٩

﴿ ترجمة الكتاب المقدس ﴾

الترجمة البسيطة

﴿ ترجمة العهد القديم ﴾ : ليست لدينا معلومات وثيقة عن الترجمة السريانية للعهد القديم ، ولا عن أصلها ، بل إن تيودور المفزوستي نفسه (المتوفى سنة ٤٢٨ م .) لم يكن يعرف مَن ترجمها ولا أين تُرجمت . ولكننا نستطيع أن نتبين معالم هذا الموضوع من ثنايا ما ورد في كتب التاريخ ، فقد رأينا كيف دخلت الديانة اليهودية الى مملكة حذيَّب وأنها كانت ذات أثر كبير فيها بعد اعتناق ملوكها لهذا الدين . هذا الأثر يكفي لكي نفترض أن هؤلاء اليهود وبخاصة أعضاء الأسرة المالكة وأشراف الدولة كانوا في حاجة الى نسخة من الكتاب المقدس في لغة يستطيعون فهمها ، وكانت اللغة المستعملة في حذيَّب هي السريانية . والأمر الذي لا شك فيه أن يهود بيت المقدس كانت عندهم ترجمة باللهجة الآرامية لأسفار موسى الخمسة على الأقل ، والراجح أيضاً أن نسخة من هذه الترجمة قد وجدت طريقها الى حذيَّب أيام هؤلاء الملوك اليهود ، وأنها تُرجمت الى لهجة حذيَّب وكتبت بالأبجدية السريانية . فالمعروف أنه كان في حذيَّب جماعة من اليهود الذين هاجروا اليها من فلسطين واستقرّوا فيها سنوات ، وكانوا من غير شك قادرين على القيام بمهمة الترجمة في غير مشقة .

ومهما يكن من أمر هذه الترجمة، فقد وصلَنا — الى جانب النص الذي تمثله أغلب المخطوطات التي يرجع تاريخ كتابة بعضها الى القرن السادس — نصٌّ آخر يشتمل على سفري التكوين والخروج في مخطوط محفوظ بالمتحف البريطاني يرجع تاريخه الى سنة ٤٦٤ م . وهو أقدم مخطوط مؤرخ للكتاب المقدس عرف حتى اليوم ، وهو يتفق مع النص العبري بوجه عام . والراجح أن « فرهاذ » و « أفريم » وهما من كتّاب القرن الرابع قد استخدما فيما كتباه عن الكتاب المقدس نصّاً مقارباً لهذا النص .

هذه الترجمة اليهودية لبعض أسفار العهد القديم هي التي أخذتها الكنيسة المسيحية . فأتمّتها وهذّبت أسلوبها ، واتخذت من هذا النص المُوسّع نموذجاً مثالياً نُقلت عنه

أكثر مخطوطات العهد القديم وهي المعروفة بالترجمة البسيطة (پشيطتا) .

﴿ ترجمة العهد الجديد ﴾ : رأينا أن المبشرين المسيحيين قد استقرّوا في بلاد أشور قبيل نهاية القرن الاول ، وأن المسيحية قد انتشرت في حدَيَب ومنها الى جانبي نهر الدجلة حتى نيّفت الأبرشيات التي كانت هناك على العشرين في وقت قصير . فأي نصوص العهد الجديد كانت تستعملها هذه الجاليات المسيحية ؟

هناك نظريتان : أما أصحاب النظرية الأولى فيرون أن طاطيان لما عاد من روما رأى أن المسيحيين محتاجون الى نص سرياني للكتاب المقدس فوضع كتابه الدياطَسَّرون أي مضمون الاناجيل الأربعة . ولكن هذا الكتاب لم يعجب رجال الكنيسة فيما بعد ، فترجموا الأناجيل من اليونانية الى السريانية ترجمة كاملة .

وأما أصحاب الرأي الثاني فيرون أن المسيحيين في حدَيَب كانت لديهم ترجمة سريانية كاملة للأناجيل الى جانب الترجمة السريانية التي كانت عندهم للعهد القديم والتي ورثوها عن العصر اليهودي الذي أظلّ بلادهم حيناً . ويرى أصحاب هذا الرأي أن طاطيان نفسه قد استخدم هذه الترجمة السريانية القديمة للأناجيل في تصنيف كتابه « الدياطَسَّرون »

أما أصحاب النظرية الأولى فيرون أن كنيسة روما لم تكن تنظر الى الدياطَسَّرون بعين الرضا لأنه من عمل مهرطق ، ولهذا فإنه من المحتمل أن يكون ذلك قد شجع الأسقف « ڤالوط » على وضع ترجمة سريانية كاملة للأناجيل عن النص اليوناني كما كان يُقرأ في أنطاكية سنة ٢٠٠ م . مستعيناً بالدياطَسَّرون الذي تعوّد عليه السريان . ومن هنا دخلت بعض القراءات الغربية في الترجمة ، وأن هذه الترجمة لا يمكن أن ترجع الى ما قبل النصف الأول من القرن الثالث . ولكن على الرغم من مجهود هذا الأسقف فان الترجمة الجديدة لم يكن لها أي تأثير لأن الدياطَسَّرون بقي كما هو إنجيل الكنيسة السريانية في القرون التالية .

وأما أصحاب النظرية الثانية فيرون أن جميع الأناجيل تشتمل حقيقةً على قراءات من القراءات الغربية ، وبخاصة في أجزاء من الأناجيل وأعمال الرسل مكتوبة على ورق البردي ، كشف عنها منذ عهد قريب في مصر ، ويُرجع الباحثون تاريخها الى النصف الأول من القرن الثالث . ولكن اتضح لهم أن هذه القراءات التي سُميت خطأً « قراءات غربية »

لا تمت بصلة الى النص اللاتيني في كنيسة روما ولا الى النص السرياني. وافترضوا أنه كانت هناك نصوص قديمة مشابهة للنص البردي ـ الذي يشتمل على الكثير مما يسمى بالقراءات الغربية ـ في الشرق بوجهٍ عام لا في مصر وحدها، ولم يبق إلا النص المصري حيث ساعدت الظروف على المحافظة عليه. وأثبتوا أن هذه القراءات كلها راجعة لاختلافات في قراءة نص آرامي أساسي أو في ترجمته، ولا يمكن أن يكون أساسها الدياطسرون ولكنه النص اليوناني الذي كان أساس الترجمة السريانية. ويرى أصحاب هذا الرأي أن الترجمة السريانية للعهد الجديد التي اشتملت عليها محوّة[1] مشهورة في دير طورسينا (سنتحدث عنها فيما بعد) تمثل نصًّا يونانيًّا هو الأثر الوحيد الباقي له لأنه يحتفظ بقراءات أولية لا يمكن أن تتفق والعقيدة المسيحية الناشئة، وقد أصلح النص بعد ذلك ليساير العقيدة المسيحية. وانتهى أصحاب هذا الرأي الى أن أقدم التراجم السريانية يجب أن يؤرخ بمطلع القرن الثاني. لأنه ليس من المعقول مطلقاً أن كنيسة انطاكية كانت تستعمل سنة ٢٠٠ م. نصًّا يونانيًّا فيه مثل هذه القراءات، وأن النص السينائي هو ترجمة عدد من الأيدي المختلفة لأن كلمة يونانية بعينها مثلاً تترجم الى السريانية في الأناجيل المختلفة بكلمات سريانية مختلفة.

ونستطيع إذاً أن نقول إن أقدم ترجمة سريانية كاملة للأناجيل قد وضعت قبل تأليف الدياطسرون، ولكن لم تصل الينا ترجمة مؤرخة ترجع الى ذلك العهد، وأقدم ما وصل الينا من نصوص الترجمة السريانية للأناجيل مخطوطتان: إحداهما المخطوطة الكيوريتانية (نسبة الى وليم كيوريتون المستشرق الانجليزي) ويُرجَّح أنها كتبت في القرن الخامس. والثانية محوّة دير طورسينا التي أشرنا اليه، وتشتمل الكتابة الظاهرة فيها على قصص للقديسين كتبها الراهب يوحنا في دير «مَعَرَّة مصرين» بين انطاكيا وحلب، وفرغ من كتابتها سنة ١٠٩٠ يونانية (أي ٧٧٨ م.) وربما كانت الكتابة المحوّة قد كتبت حوالي القرن الرابع.

وتختلف كل من هاتين المخطوطتين عن الأخرى الى حدٍّ يُظَنّ معه أنهما ترجمتان

---

(١) تسمية نقترحها لكلمة Palimpsest وهي كتابة دونت على الجلد أو الرق ثم محيت وكتب مكانها كتابة أخرى، ولكن الكتابة المحوة غير ممحوة تماماً ولذا تمكن العلماء حديثاً من إظهارها وقراءتها بطريقة خاصة

مختلفتان ، والواقع أن أصلهما ترجمة قديمة للعهد الجديد وكان هذا الأصل القديم معرّضاً للتغيير والتصحيح على أيدي النسّاخ الذين كانوا يبذلون جهدهم في تصحيح نصّه ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً . وربما كانوا قد أصلحوا الترجمة على نصوص يونانية كانت تحت أيديهم . وكل ما في المخطوطتين يدل على أن المترجم كان يستعمل اللغة السريانية في سهولة تدلّ على مران أدبي طويل ، ومع ذلك فإن المخطوطة السينائية تشتمل على آثار من نطق الآرامية الفلسطينية وإملائها ، مما يدل على أن مترجمي أناجيل هذه النسخة كانوا من يهود فلسطين مولداً وتعليماً ، ولكنهم اعتنقوا المسيحية ، وأقاموا في أرض سريانية حتى خضعت لهم اللغة السريانية ، ولكن ألسنتهم مع ذلك لم تخلُ من لُكنة آرامية فلسطينية تكفي لإظهار نفسها بطريقةٍ ما في كتاباتهم . والراجح أن النص الكيوريتاني إنما هو مراجعة للنص السينائي مع إصلاح الأسلوب السرياني وإزالة ما فيه من العنصر الفلسطيني .

هذا الوصف للإقليم الذي تمّت فيه الترجمة ، والأفراد الذين قاموا بها ينطبق على الحالة التي كانت في حدَيَّب في ذلك الحين كما رأينا ، يؤكد ذلك أن الجالية المسيحية في حدَيَّب كان عندها ترجمة سريانية للعهد القديم ورثتها عن العصر اليهودي الذي مرّ بها . وترجمة العهد القديم هذه ضرورية للأداء الصحيح لأسماء الأعلام العبرية في العهد الجديد ، وهذا الأداء لا يمكن استيفاؤه من النص اليوناني وحده ، ولكنه شيء يسير على اليهود الذين اعتنقوا المسيحية وأقاموا فترة في حدَيَّب .

ولذلك فالراجح أن تكون هذه الترجمة القديمة للعهد الجديد قد تمت في حدَيَّب بعَيْد بعثة «أدّى» الى هناك .

﴿ الدياطَسَّرون ﴾ الدياطَسَّرون هو الاسم اليوناني لكتاب مضمون الأناجيل الأربعة الذي وضعه طاطيان بالسريانية ، ومعناه «على الأربعة» ، وكان السريان يسمونه أيضاً «الانجيل المختلط» تمييزاً له عن الأناجيل المتفرقة ، وسمي في الترجمة العربية « الرباعي » . وقد جمع طاطيان فيه سيرة المسيح وأعماله من الأناجيل المتفرقة فأخذ من المكرَّر في الأناجيل صورة واحدة ، وقيَّد فيه ما انفرد به كل انجيل من الأناجيل الأربعة مراعياً النصّ الأصلي ما استطاع الى ذلك سبيلاً .

أما مؤلفه طاطيان فهو أشوري كما كان يطلق على نفسه، أي إنه جاء من بلاد أشور وهي البلاد الواقعة بين الدجلة وبين ميديا من الجبال الأرمنية حتى المدائن وقد عرفنا مما سبق أن حدَيَّب الواقعة شرقي الدجلة قد أصبحت جزءاً من الإقليم الروماني لبلاد أشور بعد حرب تراجان سنة ١١٦ م . ولهذا فنحن نرجح أنه وُلد في حدَيَّب سنة ١١٠ م . ولكننا لا نعرف ذلك على التحقيق .

وُلد طاطيان في أحضان أسرة نبيلة غنية تدين بالوثنية ، وكانت لغة أمه السريانية وهي اللغة التي كان يتكلمها أهل أشور في ذلك الحين ، وتلقى دراسة عالية في الآداب والفلسفة ، وأغرم منذ صباه بالمسائل الدينية ، وكان رجلاً موهوباً ، فأراد التبحر في العلم ، ورحل في سبيل ذلك الى بلاد الغرب ، ودرس حضارة اليونان وفلسفتهم ولكنه لم يُعجَب باليونان وكان يتبرأ منهم ويسمي نفسه « بربريّاً » (أي غير يوناني) ويبدو من كتابه Graecos جريكوس الذي ألَّفه باليونانية ، أنه فخور بأنه غير يوناني .

أقام طاطيان مدة في بلاد اليونان ، ثم انتقل منها إلى روما ، وكان يتردَّد على المراكز الثقافية الكبيرة فيها ، واتصل بجوستين ودرس عليه ، والراجح أنه اعتنق المسيحية بتأثير جوستين وتسمى باسم طاطيان. ولما مات جوستين خلفه طاطيان في تعاليمه وتخرَّج على يديه عدد من التلاميذ منهم رودون من آسيا الصغرى، وكليمانس الأسكندري ، ونرسيس المقدسي . ولكنه — فيما تقول بعض الروايات — أعلن بعض الآراء الخارجة على تعاليم الكنيسة ، فأثار اضطراباً في روما ، اضطرَّ من أجله — فيما يقول ابيفانيوس — الى الرحيل الى الشرق حوالي سنة ١٧٢ م . وليس لدينا شيء يقيني عن حياته بعد ذلك . ولكن الراجح أنه عاد الى وطنه في بلاد أشور واستقرَّ هنـاك . أما إنه جاء الى الرُّها فهذا مجرَّد حدس من الباحثين المحدَثين لأنهم يعتقدون أن الرُّها هي المركز الأدبي للسريانية، ولكن المحقق أن اسمه لم يرد مطلقاً في تاريخ الرُّها كما ذكرنا ، ولم نسمع قط أنه اتصل برجل مثل ابن ديصان، وأنه بدأ عقب عودته الى الشرق في وضع كتابه «مضمون الأناجيل الأربعة» عن الترجمة السريانية القديمة للأناجيل الأربعة كما أثبتنا ذلك .

أما الاختلافات الموجودة بين الدياطسَّرون والترجمة السريانية القديمة للأناجيل

الأربعة فلا يمكن تفسيرها بأن طاطيان ربما كان قد اعتمد على مخطوطات يونانية الى جانب الأناجيل السريانية التي كانت تحت يديه ، وإنما تدل على أن النص السرياني الذي استخدمه طاطيان يختلف من بعض النواحي عن نص المخطوط السينائي .

ولا يمكن تعليل عدم وجود أي أثر للدياطَسَّرون في الغرب إلاّ بأنه وُضِع على أساس ترجمة سريانية قديمة للأناجيل ، إذ من المدهش حقّاً أن عالماً مثل أوريجانس (المتوفى سنة ٢٥٤ م .) كَمُهِمّه نقد النصوص ، لا يذكره مرة واحدة ، بل ولا يُحتمل أنه عرف عنوانه ، مع أننا على يقين أنه مطلع على كتابات طاطيان ، وكذلك نعرف أن كليمانس الاسكندري (المتوفى حوالي سنة ٢٢٥ م .) كان تلميذاً لطاطيان في روما ويعرف عدداً من الكتب التي ألفها أستاذه وهو ينتقد عقيدته كثيراً ، ولكنه لا يعرف شيئاً عن الدياطَسَّرون ، بل إن إرنيوس Irenaeus (المتوفى حوالي سنة ٢٠٢ م .) وهو أول مؤلف يصف طاطيان بأنه مهرطق لم يذكر شيئاً عن الدياطَسَّرون .

ومع أن أوسابيوس (المتوفى حوالي سنة ٣٤٠ م .) كان أول من أشار الى الدياطَسَّرون في الجزء الرابع من كتابه تاريخ الكنيسة إلاّ أننا نستطيع أن نستنتج من الاختلاف بين النص اليوناني والترجمة السريانية لهذا التاريخ أن أوسابيوس لم يرَ من الدياطَسَّرون شيئاً . ففي النص اليوناني : « وقد أحضر طاطيان أولُ رئيس للهراطقة مزيجاً ومجموعاً للأناجيل وسمّاه الدياطَسَّرون ، ويقال إنه لا يزال في أيدي بعض الناس» وأما الترجمة السريانية فقد جاء فيها « هذا الطاطيان أول رئيس للهراطقة جمع ومزج وعمل إنجيلاً سمّاه دياطَسَّرون ، أي المختلط وهو الذي لا يزال في أيدي كثير من الناس إلى اليوم » .

وكذلك ابيفانيوس (المتوفى سنة ٤٠٣ م .) فقد ذكر أنه « يقال إن طاطيان هو الذي ألّف الإنجيل الذي يسميه بعض الناس الدياطَسَّرون » ويورد «جيروم» (المتوفى سنة ٤٢٠ م .) قائمة طويلة للكتب التي ألّفها طاطيان ولكنه لا يذكر الدياطَسَّرون .

وقبل ست عشرة سنة مضت لم يكن يعرف عن الدياطَسَّرون باليونانية شيء حتى كُشف في دورا أوروپوس Dura-Europos على نهر الفرات ، عن ورقة من الرق تشتمل على أربعة

عشر سطراً من الانجيل المختلط باللغة اليونانية يُرجع الباحثون تاريخها الى القرن الثالث لأن الكنيسة التي اكتشفت بجوارها ترجع الى سنة ٢٢٢ م . وهـذه القطعة تُظهر بوضوح أن إنجيلاً مختلطاً باليونانية كان مستعملاً في عصر مسيحي مبكر . وتشتمل هذه القطعة على بعض قراءات لا توجد في أي مخطوطة أخرى للأناجيل عرفت حتى الآن .

ومع ذلك فانه لا يمكن أن يقوم أيُّ شك في أن هـذا النص اليوناني مترجم عن أصل سرياني . والدليل على ذلك أن المترجم قرأ اسم المكان الذي جاء منه يوسف في إنجيل متى (٢٧ : ٥٧) وهو الرامة (ا ر ن م ت ي ا) خطأ وصوابه (ا ر ي م ت ي ا)وهـذا لا يمكن إلا اذا كان يترجم عن أصل سرياني لأن الياء والنون متقاربتان في الخط السرياني بحيث يسهل الخلط بينهما . وفي بلدة دورا هذه كانت تلتقي الثقافتان السريانية واليونانية . وكان المسيحيون فيهـا يقرأون الدياطَسَّرون السرياني في كنائسهم وتُرجم النص الى اليونانية من غير شك من أجل المسيحيين الذين كانوا يتكلمون اليونانية هناك .

وقد لقي الدياطَسَّرون نجاحاً عظيماً . فقد تغلب عند السريان على الترجمة السريانية القديمة للأناجيل ، وأصبح هو الانجيل المستعمل في الكنيسة في الطقوس ، وبقي مستعملاً رغم قيام تراجم سريانيـة كاملة أخرى للأناجيل . وتدل الوثائق المانوية القبطية التي اكتشفت حديثاً في مصر على أن الانجيل الذي اقتبس منه ماني وتلاميذه هو الدياطَسَّرون وكانت اللغة التي يستعملها ماني هي السريانية .

ومع أن رَبولا أسقف الرُّها فيما بين سنتي ٤١٢و٤٣٥م . قد قام بترجمة الأناجيل ترجمة بسيطة جديدة من اليونانية . ثم أصدر أمره الى القسس والشمامسة بوجوب وجود كتاب يشتمل على الأناجيل المتفرقة في كل كنيسة وأن تكون القراءة في الصلاة من هذا الانجيل وحده ، ومع أنه نجح في الحد من استعمال الدياطسرون في الرُّها ، وحذا حذوه بعض الاساقفة فأعدم أسقفٌ آخر نحواً من مائتي نسخة منه في أبرشيته ، فقد بقي الدياطسرون عدة قرون دون أن تستطيع التراجم السريانية الكاملة للأناجيل التي عملت بعد ذلك أن تحلّ محله ، وربما كان قيام رجل حجـة مثل افريم بوضع شرح له هو الذي ساعد على حفظه . وهذا الشرح موجود حتى اليوم في ترجمة أرمنية .

وقد بقي الدياطسَّرون السرياني مستعملاً حتى القرن التاسع ولكنه ضاع بعد ذلك ولم يبق لنا منه الا ترجمة عربية وضعت فيما يظهر في القرن الحادي عشر وتنسب الى أبي الفرج عبد الله بن الطيب المتوفى سنة ١٠٤٨ م . ويقال إن هذه الترجمة قد نقلت عن نسخة سريانية عملت في القرن التاسع ، وقد ظلّ كثير من كتّاب السريان يشيرون الى الدياطسرون حتى القرن الرابع عشر نذكر منهم :

يشوع دَدْ المروزي النسطوري أسقف حديثة (منتصف القرن التاسع) وموسى بركيفا الأسقف اليعقوبي (المتوفى ٩٠٣ م .) . ويشوع بَرعلي (المتوفى ٨٧٣ م.) وبربهلول (منتصف القرن العاشر) في قاموسيهما ؛ وابن الصليبي أسقف آمد اليعقوبي (المتوفى ١١٧١م) وابن العبري (المتوفى ١٢٨٦م .) وأوْديشوع مطران نصيبين (المتوفى ١٣١٨ م .) . ونكتفي هنا بإيراد ما ذكره ابن الصليبي في مقدمة شرحه لإنجيل مرقس عن الدياطسرون

« وقد اختار طاطيان تلميذ جوستين الشهيد الفيلسوف من الأناجيل الأربعة وجمع وكوَّن إنجيلاً سماه الدياطسرون أي المختلط، وهذا هو نفس الكتاب الذي شرحه مار أفريم» .

والأمثلة القليلة التي نوردها تصوّر لنا كيفية تصنيف هذا الكتاب : فمن الاصحاح الخامس من الدياطسرون : ولما تمّ المغتاب جميع تجاربه انفصل منه الى وقت (لوقا ٤ : ١٣)، وإذا الملائكة قد دنت وكانت تخدمه : (متى ٤ : ١١)، وفي اليوم الآخر كان يوحنا قائماً واثنان من تلاميذه وبصر بإيسوع وهو يمشي فقال: ها حمل الله:(يوحنا ١ : ٣٥—٣٦) .

ومن الاصحاح السابع من الدياطسَّرون : وسبحوا الله الذي منح مثل هذا السلطان للناس : (متى ٩ : ٨) ، وقالوا لقد أبصرنا يومنا العجائب : (لوقا ٥ : ٢٦) ، التي ما أبصرنا مثلها منذ قط : (مرقس ٢ : ١٢)

ومن الاصحاح الحادي عشر من الدياطسرون : وقال لهم في ذلك اليوم عند العشية : (مرقس ٤ : ٣٥) ، لنعبر الى عبر البحيرة : (لوقا ٨ : ٢٢) ، وترك الجموع : (مرقس ٤:٣٦) وصعد إيسوع وجلس في السفينة هو وتلاميذه : (لوقا ٨ : ٢٢) ، وكانت معهم سفن أخر: (مرقس ٤ : ٣٦) ، وحدث في البحر حركة عظيمة : (متى ٨ : ٢٤) ، من زوبعة وريح : (مرقس ٤ : ٣٧) ، وكادت السفينة أن تغرق : (لوقا ٨ : ٢٣) .

كُتّاب السريان
في القرن الثاني

كانت ترجمة الكتاب المقدّس الى السريانيــة هي أول عمل أدبي بقي لنا من آثار المسيحية السريانيــة ، وكان من الطبيعي أن يقوم الى جانب هذا العمل نشاط أدبي آخر ، كان بعضــه مسايراً لتعاليم الكنيسة فكــتب له البقاء ، وكان البعض الآخر من نوع لا ينسجم مع تلك التعاليم ولذلك حالت الكنيسة بينه وبين البقاء ، فلم يصل إلينا منه شيء .

﴿ مليطون السرديسي ﴾

ومن كُتّــاب القرن الثاني مليطون ويُلقّــب في الرسالة التي بقيت لنــا من كتاباته بالفيلسوف ، وكان من أبرع الكتّــاب القدماء الذين ينتمون الى كنيسة آسيا الصغرى . وليست لدينا معلومات تاريخية عن حياته إلاّ ما جاء عرَضاً في رسالة بوليكراط الأفيزوسي الى البابا فيكتور (١٨٩ — ١٩٩ م .) من أن مليطون قد توفي .

ومن كتاباته رسالة في الدفاع عن الدين الصحيح ضد تعدّد الآلهــة وعبادة الأصنام والآراء غير الصحيحة المنسوبة الى المجوس ، وقد نشرها المستشرق الانجليزي كيوريتون في كتابه Spicilegium Syriacum واقتطف أوسابيوس في تاريخه قطعة من رسالة بعث بها مليطون الى مارك انطونينوس في الدفاع عن المسيحيين المضطهدين ، وكان المظنون أولاً أن هذه الرسالة هي نفس الرسالة الأولى التي بقيت لنا من كتابات مليطون ، ولــكن هذه الرسالة لا تشتمل على القطعة التي اقتطفها أوسابيوس . وربما كان هذا راجعاً الى أن الرسالة ناقصة في بعض نواحيها ، أو أن أوسابيوس نقل عن رسالة أخرى غير الرسالة الأولى ولم يرَ غيرها، وهو يخبرنا صراحةً أنه لم يورد تفصيلاً لكتابات كلٍّ من مليطون وأبولليناريس ولــكنه يذكر عنهما كل ما أحاط به علماً فقط . وعلى ذلك فالراجح أن مليطون قد كتب رسالتين نشرت إحداهما كاملة ، واقتبس أوسابيوس مقتطفات من الثانية .

﴿ ابن ديصان ﴾

رأينا أن الرُّها لم تلعب أي دور رئيسي في تاريخ الأدب السرياني حتى أواخر القرن الثاني ، وأن حدْيَــب هي التي قامت بالعبء كله في هذه الفترة ، فلما ظهر ابن ديصان بدأت

الرُّها تأخذ مكانها في الأدب السرياني وتضاءل شأن حذَيَّب شيئاً فشيئاً ، فقد كان ابن ديصان ذا أهمية كبيرة للرُّها وأصبحت بفضله مركز المسيحية الشرقية ، فقد كان الكاتب السرياني الفذ والشاعر الموهوب الذي تغنى السريان بشعره .

أما أبوه فهو نوحاما ، وأما أمه فهي نحسيرام ، تركا إربل عاصمة حذَيَّب حوالي سنة ١٤٤ م ، فوصلا الرُّها في عهد الملك معن الثامن (١٣٩ — ١٦٣ م .) وفي الرُّها وبالقرب من نهير ديصان الذي يروي هذه المدينة رزقا ولداً سنة ١٥٤ م . فسمياه « ابن ديصان » نسبةً الى النهر . وتعلّم في البلاط الملكي مع أبجر ابن الملك معن تعليماً راقياً باللغتين السريانية واليونانية، وقضيا معاً عهد الصِّبا . وبقي ابن ديصان بالرُّها حتى سنة ١٦٣ م . حين خُلع الملك معن الثامن وارتقى العرش مكانه الملك وائل، فخرج مع أبويه من الرُّها — وكانا على دين الوثنية — الى منبج ، وكانت الى ذلك الحين مركزاً لعبادة الكواكب ، وأقاموا هناك عند رجل اسمه كودوز ، وتتلمذ ابن ديصان على الكاهن الأكبر لمعبد منبج ، ومنه تعلّم العلوم الوثنية المتصلة بعبادة الكواكب والنجوم، ويقال إنه علمه نظم الشعر الذي ينشد في الطقوس الوثنية . والظاهر أن أبويه ماتا في منبج فتبنَّاه كودوز ، وشجعه على دراسة الفلك والتنجيم ، فنبغ فيهما في وقت قصير، ويقال أيضاً إنه كان — الى جانب نبوغه العلمي — من أمهر الرُّماة .

ولما تولى أبجر التاسع رفيقه في الصِّبا عرش الرُّها سنة ١٧٩ م . عاد الى الرُّها ، وفيها لقي بعض من اعتنقوا المسيحية ، فشرحوا له أسرار الدين الجديد ، ويقال إنه اعتنق المسيحية على أيدي « هسبس » الذي كان أسقف الرُّها في ذلك الحين ، ولكنه لم ير في اعتناقه للدين الجديد سبباً يصرفه عن العناية بدراسة الفلك والعلوم الدنيوية ، وأراد أن يطبق على المسيحية كل ما استفاده من علم ومعرفة ، ولكن رجال الكنيسة السريانية شوّهوا جمال العمل الذي قام به هذا الرجل بعد وفاته .

وفي الرُّها أصبح ابن ديصان علمها الخفّاق : فقد استعاد مكانه في البلاط الملكي ، وكان رئيساً لمدرسة الرُّها ، ويذكر بعض اليونانيين أنهم زاروا هذه المدرسة ورأوا هذا الشاب الذي كان يمثل الثقافة المسيحية خير تمثيل .

وترك ابن ديصان ثلاثة أولاد اشتهر منهم هرمونيوس لأنه كان يقرض الشعر كأبيه . والآخران أبجر وحسادو . ويقال إنه رحل في أواخر أيامه الى جبال أرمينية واستقر بها حتى وافته منيته . ويذكر ابن العبري أنه مات وعمره ٦٨ سنة أي إنه مات سنة ٢٢٢ م .

وليس فيما وصل الينا من أقواله ما يجعل إخلاصه لعقيدته المسيحية موضع شك: فنحن نجد في كتاباته أنه يعتقد بالله واحد ، قوي لأن كل كائن محتاج اليه ، خلق العالم ، وهو عون كل موجود ، خلق العناصر الأساسية أولاً : وهي النار والهواء والماء والنور والظلمة، وجعل لكل واحد من هؤلاء قسطاً معيناً من الحرية ؛ وهو يشغل حيزاً محدوداً وله طبيعة خاصة به ؛ فالظلمة مضرة وهي تخيم على الأرض حيث كانت لتختلط بالعناصر الطاهرة التي تدعو الله الى إغاثتها فيشفيها المسيح . وقد ترك الله الشر يعمل لأنه حليم ، ولكنه سيكون فيما بعد عالماً جديداً لا شر فيه. وأن الله خلق الملائكة وخصهم بإرادة مطلقة ، وخلق الانسان معادلاً للملائكة في الحرية ، وكونه من عقل ونفس وجسد ، وأن الجسد يعتمد على الكواكب في الحياة أو الموت ، وفي السعادة والشقاء ، وفي الصحة والمرض . وأن الانسان حر يستطيع أن يفعل الخير وأن يتجنب الشر ، وهو فان ، وسوف يثاب أو يعاقب تبعاً لأعماله . وسوف يكون هناك حساب في الآخرة وهو يعلن مثلاً أن معظم عقائد فالنتين (والنطينوس) ليست إلا سخافات ، وكان معارضاً عنيداً لمرقيون وغيره من الهراطقة ، وكتب كثيراً في الدفاع عن المسيحيين الذين وقع عليهم اضطهاد في بعض النواحي . هذا الى جانب البراهين المادية : فقد أراد أبوللونيوس أحد أصدقاء الامبراطور كركلا أن يغري ابن ديصان على إنكار مسيحيته ، ولكنه رفض بإباء ، وكان يقول إنه لا يخشى الموت لأنه يتوقع أن يجرع كأسه دائماً . ونحن نقرأ له في كتاب قانون البلدان « كيف نقول عن هذا الشعب الجديد من المسيحيين ، إن المسيح أنتجه في جميع البلاد ، وفي جميع الأماكن بواسطة مجيئه ، فهؤلاء نحن جميعاً مسيحيون على جزء من الأرض ونعرف بالاسم الوحيد للمسيح ».

ولكن رجال الكنيسة لم يقبلوا كتابات ابن ديصان ووصفوها بأنها نوع من الهرطقة وعملوا على صد المسيحيين عنها ، ولكننا لا نعلم من تفصيل هذا الصراع إلا القليل فنحن

نرى أيّ جهد قام به رجل مثل إفريم لكي يَرُدّ عليه وعلى غيره من الهراطقة . ومع ذلك فهو لم يتناول آراء ابن ديصان ليرد عليها رأياً رأياً ، ولكنه كان يكتفي بانتزاع تعبير واحد من سياق كتابات ابن ديصان ، ثم يتناول الكاتب بسيل من الكلمات المقذعة والعبارات الأخلاقية الحساسة ونستطيع أن نرى بوضوح في رد أفريم الى أي حالة وصلت الكنيسة في عصره ، فقد عجزت الكنيسة في ذلك الحين عن أن تحتمل روحاً كروح ابن ديصان ولا نقول أن تسايره وتجتذبه اليها . فقد كان كل ما عند ابن ديصان من الوضوح الذهني وقوة إدراك الحقائق ، كان بالنسبة له سجناً ضيقاً بين جدران لاهوت ضخم ناشىء وبدلاً من أن ينير رجال هذا الدين أمامه سبيل الحقيقة عملوا جاهدين على تشويهها .

ولما كان ابن ديصان قد اثّر على المسيحيين بشعره الذي كانت العامة تحبه وتتغنى به ، فقد رأى افريم نفسه مضطرًّا الى معارضته بالشعر ، فبذل مجهوداً كبيراً في تأليف أناشيد يقضي بها على أناشيد ابن ديصان الشعبية . كما عمل على إعدام ما تصل إليه يديه من كتبه ، وفي ذلك يروي صاحب « تاريخ النساطرة » أنه حكي في بعض الأخبار أن ابن ديصان قد وضع إنجيلاً مخالفاً واستغوى به من في عقيدته استرخاء ، وفي قلبه زيغ ، فلما توفى ابن ديصان وأراح الله البيعة منه ومن شره ، احتال مار افريم على أخته ، وسألها أن تدفع اليه ذلك الكتاب لينظر فيه ويردّه عليها . فدفعت الكتاب اليه، فلما أخذه منها دعا بغراء مغلي فلطخه به ورقة ورقة ، وأطبقه وشدّه شدًّا جيداً حتى التصق ودفعه اليها .

ولكن لم يكن إفريم — مع ذلك — هو الذي حدّ من انتشار هرطقة ابن ديصان ، بل إن الذي نجح في ذلك كان رَبُّولا بعد عصر افريم بنصف قرن على الأقل. ففي سيرة رَبُّولا — الذي كان أسقف الرُّها في أوائل القرن الخامس — نجد وصفاً يوضح لنا نهاية هذا النزاع: « لقد أينعت تعاليم ابن ديصان الشريرة في الرُّها حتى أعدمها ربولا وهزمها ، لأنه قبل هذا الوقت كان ذلك البرديصان الملعون قد اجتذب اليه جميع الرجال البارزين في المدينة بلباقته وعذوبة أناشيده لكي يحمي نفسه بهم ، كما يحتمي في الجدران القوية ، لأن الأحمق قد أمّل أنه بالخلط وقيادة الذين اتبعوه الى الضلال ، يستطيع أن يؤسس أخطاءه قوية بما يلقاه من أعوانه من المساعدة الضعيفة . وقد أحزن ذلك رَبُّولا الرجل

الحكيم ، فلم ينصب نفسه لكي يجتث الأعشاب الطفيلية من ذلك الحقل ، وأن يخلف وراءه سنابل القمح الكثيرة فقط — فان ذلك يكون سهلاً — ولكنه بحكمته نصب نفسه ليحوّل هذه الأعشاب الى قمح ، فان ذلك كان ضرورياً . فبدلاً من نفخ بوشع المزعج في البوق هو وأتباعه الذين نفخوا على أسوار أريحا حتى سقطوا ، وبدلاً من إفناء الرجال والاستيلاء على متاعهم للرب ، فان هذا القائد الحكيم من قوّاد المسيح — بقوة ربه وباكتساب المحبة والصوت الرقيق ، استطاع بسكون أن يحطّم كنيستهم ، وأن يحمل كنوزها وينقلها الى كنيسته ، حتى لقد استطاع أن يستخدم أحجارها أيضاً » .

وحاول رجال الكنيسة كذلك أن يشوّهوا اسمه ، وأن يتركوا ذكراه غامضة ، وأن يزجّوا به في طيّ النسيان ، فزعموا أنه كان يخلط بين المسيحية وبين ما كان الكاهن المنبجي يلقنه ، وانه أبدع بدعة لم يتقدمه أحد فيها ، وأنه قال : إن الأنواع سبعة ، ثلاثة منها عظام شريفة ، وهي العقل والقوة والفكر ، والأربعة الأخرى دون ذلك ، وهي النار والماء والنور والريح . فتألفت هذه السبعة بعضها من بعضٍ وكان منها ستون وثلاثمائة عالم ، وان الانسان مخلوق من هـذه الأصول السبعة أيضاً ؛ نفسه من الثلاثة الشريفة وجسده من الأركان الأربعة الدنيئة . وقال إن دماغ الانسان من الشمس ، وعظامه من زحل ، وعروقه من عطارد ، ودمه من المريخ ، ولحمه من المشتري ، وشعره من الزهرة ، وجلده من القمر . كما زعموا أنه أنكر قيامة الأجساد .

وكان ابن ديصان آخر الغنوسطيين من السريان (أي العارفين بالله) ألّف فرقة عرفت بالديصانية نسبةً اليه ، ويحدّثنا يعقوب الرّهاوي أنه كان لهذه الفرقة أتباع حتى القرن الثامن ، كما يحدثنا ابن النديم أن أتباع هذه الفرقة كانوا بالبطائح بين واسط والبصرة في القرن العاشر ، وكان لها أتباع قبل ذلك في خراسان والصين وتركستان ذكرها ابن النديم في الفهرست ، والمسعودي في التنبيه والاشراف ، والشهرستاني في الملل والنحل . وقد زعموا أن أتباعه كانوا يقولون بإلهين : إله نور ، وإله ظلمة ، وانهم انقسموا الى فرقتين ، كانت إحداها تزعم أن النور خالط الظلمة باختيار منه ليصلحها ، فلما حصل فيها ورام الخروج منها امتنع ذلك عليه . وزعمت الثانية أن النور أراد أن يرفع الظلمة عنه لما أحسّ بخشونتها

ونتنها، شابكها بغير اختياره. ولعلّ هذه الآراء — إن صحت نسبتها اليهم — أن تكون قد دخلت اليهم من المانوية.

والأجزاء الباقية من كتابة ابن ديصان تدل على انه قرأ كثيراً، وفكّر كثيراً، وأنه تعلم ليفكر بنفسه، ولم يقنع في النهاية بأن يكرر عقيدةَ مدرسةٍ ما. لقد كانت الفلسفة اليونانية والثقافة اليونانية في عنفوانهما عند ابن ديصان، وكانت أبرز نواحيهما عنده ميلهما التكويني مع التفسير المسيحي للحياة والقوة الخلقية. لقد كان يفكر في مشكلة الحياة، مشكلة إنسانية المسيح، ولكنه كان في حريته الروحية، وقدرته على الابتكار في مركز من يعمل بغير أمل في الرّها إبان بداية الكنيسة الشرقية. أما في كنيسة المتكلمين باليونانية، فقد أخذ جماعةٌ أسعد منه حظاً هذا العمل الذي بدأه حول مسألةِ إنسانية المسيح فأتمّوه.

ويخبرنا ابن النديم في الفهرست أن ابن ديصان له من الكتب: كتاب النور والظلمة، وكتاب روحانية الحق، وكتاب المتحرّك والجماد، وله كتب كثيرة، ولرؤساء المذهب في ذلك كتب لم تقع الينا، ولعلّ هذه الكتب لجماعة من أتباعه.

ويذكر المؤلفون من اليونان والسريان أنه ألّف كتباً كثيرة، أكثرها في نصرة الدين المسيحي بطريقة فلسفية. فقد وضع رسائل في الرد على الهراطقة، من غلاة الفلاسفة والبابليين، والقائلين بتعدّد الآلهة، والثنوية والمرقونية القائلين بالسّهين. ويذكرون أيضاً انه كتب تاريخاً لأرمينية، وأنه جمع البيانات التي اعتمد عليها في وضعه من معلومات شفوية استقاها من مسافر هندي مرّ بالرها في طريقه الى البلاط الروماني. ويستدل من هذه أنه وضع كتبه بالسريانية. ويستدل من بعض هذه المصادر أيضاً انه ترجمها بعد ذلك الى اليونانية ترجمة متقنة. ولكن يغلب على الظن أن هذه التراجم اليونانية ليست من عمله. ولم يبق لنا من هذه المؤلفات مقتطفات إلاّ قليلة في ثنايا مؤلفات بعض الكتاب، وقصيدة تحت عنوان «أنشودة الروح» أو «ابن الملك». ورسالة صغيرة عن القدَر على شكل محاورة بين ابن ديصان وأحد تلاميذه عنوانها «كتاب قوانين البلدان»

والراجح أن الذي دوّن كتاب قوانين البلدان هو أحد تلاميذ ابن ديصان وهو يبحث

من علة الشر الطبيعي ، ومخاصمة الشر الخلقي في هذا العالم ، ودفاع عن حرية الاختيار أو حرية الارادة المطلقة ، فالانسان قد خلق حرًّا ، والنجوم التي لها قوة على الأجسام لا تستطيع شيئاً حيال النفس . وقد نبَّه ابن ديصان — تطبيقاً للبراهين المستمدة من العقل والتجربة — الى أن الناس الذين ينتمون الى بلدٍ بعينه يخضعون لقوانينه المختلفة ، عادلةً كانت أم جائرة ، دون أن يكونَ للكواكب مقدرة على تغييرها . وهذا القسم هو الذي استمدَّ الكتاب منه عنوانه . وفي هذا الكتاب يشترك ابن ديصان كعادته مع تلاميذه في الحوار . فيسألونه : أليس الله علة الفساد الأخلاقي . لأن عويذا — الذي يقوم بدور المعارض — قال إن الله قد خلق الانسان لكي لا يستطيع أن يخطئ .

وبعد أن قدَّم ابن ديصان بحثاً عن طريقة السؤال والإجابة ، وعن نظام العقيدة والإدراك ، قال : إن الله لا يستطيعُ أن يخلق الانسان في هذه الحالة دون أن يجعله آلة خالصة ، مجردة عن الحرية وعن اللباقة .

واعترض عويذا على أن الأوامر المفروضة على الناس صعبة ، وأن الانسان لا يستطيع تنفيذها ، فيجيب ابن ديصان : إن الأوامر المفروضة علينا كلها أوامر أخلاقية ، مثل : لا تسرق ، لا تكذب . وعلى ذلك فان تنفيذها ممكن لأنها مستقلة عن قوَّة الجسم .

فيقرّ عويذا أن الانسان لا يمكنه تجنب الشرّ ، ولكنه يعتقد أن الإنسان لا قدرة له على فعل الخير . فيذكر ابن ديصان أن فعل الخير أسهل من تجنب الشرّ لأن الخير من خواص الإنسان، إذا استثنينا بضع حماقات ، وأن المرء يكون سعيداً اذا فعل الخير . وأن الانسان لا يستطيع أن يقول أكثر من أن الشرّ يأتي من طبيعتنا ، لأنه إذا جاء من الطبيعة الانسانية بوجهٍ عام فان الناس جميعاً يعملون بطريقةٍ واحدةٍ ما داموا جميعاً من طبيعةٍ واحدةٍ . فاذا جاز هذا بالنسبة للجسد ، كما نشاهد في الحيوانات، فانه لا يجوز بالنسبة للنفس، فقد ثبت أن الناس كائنات حرَّة يعملون بأنفسهم كل ما أرادوا من الأشياء ، وعلى ذلك فإن الشرّ لا يأتي من الطبيعة الخاصة بكل إنسان ما دمنا نرى أن النفس تنتقل من الخير الى الشرّ أو العكس حسب الظروف ، وإذاً فانه من العبث أن يُحمِّل الناس — الذين تودهم عواطفهم — خالقَهم بالخطايا التي ارتكبوها .

وبعد هـذا القسم الأول من الـكتاب — وهو فلسفي بعامّـة — يأتي قسم ثالث موجّـه ضدّ الفلـكيّـين وأشياعهم الذين يُـخضعون الناس لحـكم القضاء والقدَر ، حيناً ناحية الشر ، وأحياناً ناحيـة الخير . وقد استعرض ابن ديصان الحالتين المختلفتين اللتين عكن أن يُـفهم منهما تأثير النجوم ، ثم اتّـبع طريقاً وسطاً . وهو يُـقرّ تأثير النجوم على الجسـد . ثم يُـتـبع ذلك بأن القضاءَ والقـدَر أيضاً له بعض التأثير على الطبيعة ، وعلى الحرية،ولـكن بطريقة غير مباشرة ، وبشكل فاتر جدّاً ، لأنه يجب أن تصون هذه الأشياء الثلاثة — : الطبيعة ، والقضاء والقدر ، والحرية — وجودَها الخاص الى نهاية العالم.

وفي هذه القطعة جميعها يظهر تأثير الـكواكب مبالغاً فيه، ولـكننا اذا نظرنا الى دراسة الفلك ، كما كانت ، وكما استمرّت حتى القرن السابع عشر ، فسنجد أن رسالة ابن ديصان معقولة جدّاً بالنسبة لعصره .

وبعد ذلك يقع الجزء الأساسي من المحاورة ، فيسأل عويذا : اذا استطعتَ أن ترينا أن ذلك الذي يخطىء بسبب القدَر (أي النجوم) يخطىء مضطرّاً ، فيجب أن نعتقد إذاً أن الأنسان له إرادته الحرّة ، وأنه بطبيعتـه مُـوجّـهٌ ناحية الخير ، ومبعدٌ عن الشر ، ومن أجل هذا فانه من العدل أن يحاسب في الآخرة . وقد دعا هذا السؤال ابن ديصان الى أن يُوضّـح أن الناس يُـطيعون قوانين بلادهم ولا يطيعون القدَر ، وانتقل الى بحث قوانين الصين والبراهمة والهند والفرس والبرتيين والرُّهاويين واليونان والجرمان والامازونيين والـكلدانيين والميديين ، ولا يسع الانسان الاّ أن يقول إن تلك القوانين التي يطيعها الناس ليست الاّ شكلاً للقدَر .

***

ثم لنعرض ملخصاً للقصيدة التي بقيت لنا من شعر ابن ديصان والتي تعرف باسم «أنشودة الروح» أو «ابن الملك» :

ابن الملك يقصّ عن نفسه : لما كنتُ غلاماً ، كنت أعيش مترفاً في منزل والدي ، وأراد والدي أن أسافر من بلدي في الشرق الى مصر فحمّـلوني بأنواع الهدايا والملابس المختلفة فضلاً عن الذهب والفضة ، ولـكنهم أخذوا مني الحلة الثمينة والمعطف الثمين. وقد عاهدتهم ألاّ أنسى اذا ذهبت الى مصر لاستحضار اللؤلؤة من الحية السامة التي

نوجد في البحر ، أن ألبس الحلة والمعطف عند عودتي لأرث — مع أخي — مُلك أبي
تركت بلاد الشرق متحملاً متاعب الطريق صوب مصر، فوصلت اليها وحدي وتوجهت الى مكان الحية أنتظرها حتى تنام لأستولي على اللؤلؤة ، وكنت وحيداً غريباً ، ولكني رأيت أحد مواطنيّ من النبلاء فصاحبته وحذّرته من المصريين ، ثم لبست لباس أهل مصر حتى لا يداخلهم الشك فيما أريده من الاستيلاء على اللؤلؤة ؛ ولكنهم لاحظوا من أشياء كثيرة أني غريب عنهم ، فنصبوا لي الشراك ، ولكني أكلت من أكلهم ، ونسيت أصلي الشريف ؛ وقابلت ملكهم ، ونسيت اللؤلؤة التي جئت من أجلها . وما كدت آكل من طعامهم حتى ذهبت في سبات عميق .

وقد شعر والدي بما أصابني فجمع الملوك ورؤساء القبائل وأصحاب المراتب ، وقرروا أن ينقذوني من مصر ؛ وكتبوا اليّ خطاباً موقعاً عليه من الجميع يطلبون اليّ فيه أن أستيقظ ، وان أتذكر أنني ابن ملك ، وأن أتذكر ما يلحقني من العار في العبودية ، وأن أذكر اللؤلؤة التي حضرت من أجلها ؛ وألاّ أنسى أن ألبس معطفي وحلّتي حتى يكتب اسمي في سجل الأبطال ، وأحكم البلاد مع أخي . وقد وصلتني الرسالة في شكل نسر ، فأيقظني صوتها ، وعرفتها وقبّلتها ، وتذكرت اللؤلؤة التي جئت مصر من أجلها ، فذهبت الى الحية وسحرتها حتى نامت ، وسرقت اللؤلؤة . وتهيأت للسفر الى منزل والدي ، وتوجهت نحو الشرق فوجدت الرسالة التي أيقظتني أمامي في طريقي ، وكما أيقظني صوتها أضاء لي تقاطيع جسمها . وقد فُرش طريقي بالمغرة (خيوط الذهب) على حرير الصين . وقادتني بسرعة الى بلادي . فأرسل إليّ والدي الحُلة والمعطف فلبستهما ، وكنت قد نسيت شكلهما ، وقابلت والدي مطأطىء الرأس في حلّةٍ مرصّعةٍ مطرّزة ، عليها صورة الملك ، شاعراً بأني كبرت بأعمالي ، وصعدت الى باب السلام ، باب التضرع .

❊﴿ مدرسة ابن ديصان ﴾❊ : ومع أن ابن ديصان كان عالماً فذّاً ، ورئيساً لمدرسة الرُّها فإننا لا نعرف إلاّ القليل عمّن تخرّجوا عليه ، وعن الأعمال التي خلّفتها هذه المدرسة مثل أعمال توما ، وهو من الكتب غير القانونية .

❊﴿ أعمال توما ﴾❊ : وصل إلينا من أعمال توما نصّان : الأول سرياني ، والثاني يوناني ،

أمّا أيهما هو الأصل فلم يُعرَف بعدُ على وجه التحقيق ، ولكن المرجح أن الأصل هو النص السرياني . أما فكرة أنه من نتاج مدرسة ابن ديصان فترجع الى أنه من المتوقع جداً أن تقوم هذه المدرسة بتأليف أعمال رسول من كتب الأپوكريفا (أي الأسفار المحذوفة). وإن كان هذا الرأي لا يقوم على أساس . ونحن نتبين فيه أثر المانوية التي كان لها في ذلك الوقت قصص مستقل مستمد من الرحلات والعجائب التي يفعلها الرسل . وربما كانت هذه الرحلة الى القسم الشمالي الغربي من الهند ، وهي إما من طريق صبغ القصص البوذي بالصبغة المسيحية ، أو عن حقيقة متواترة عن رحلة توما الرسول الى الهند . ويظهر فيها إشارة واضحة الى أنشودة الروح : ابن الملك واللؤلؤة ، وأنشودة الزواج .

وقد حُمِل هذا الكتاب على ابن ديصان أو على مدرسته . وإذا كان لدينا في أنشودة الزواج أثر غنوسطي مسيحيّ ، فإننا نجد في أنشودة الروح أثر وثني .

تلاميذ ابن ديصان

﴿ هرمونيوس ﴾ — بعد وفاة ابن ديصان استمرّ ابنه هرمونيوس يقرض الشعر وكان قد تعلمَ في بلاد اليونان — وبزَّ أباه في هذه الناحية ، وكان كل همه أن يُثبت تعاليم أبيه في أفئدة العامة . وكانت أناشيده وأناشيد أبيه من قبل موضع الإعجاب والتقليد . ومع أن افريم كان يبغضهما أشد البغض ، إلاّ انه على الرغم من ذلك لم يستطع إنكار مواهبهما الشعرية . وليس لدينا شيء عن سيرته .

﴿ عويذا ﴾ — كان رئيس الشمامسة في كنيسة الرُّها أيام مجمع نيقية ، ثم فُصل وكوّن له جماعة . وقد أسند اليه تأليف عدد من الرؤى اعترف بها أتباعه الى جانب العهدين القديم والجديد ، وهي رؤيا لابراهيم ، ورؤيا ليوحنا ، وكتاب الأجانب .

والاشارة الى هذه الكتب تدل على روح غنوسطية فلكية ترجع الى تعاليم ابن ديصان .

وقد ذكرت بعض المصادر أن عويذا كان يمثل مذهباً من المذاهب الغنوسطية . في حين يشير مصدر آخر الى انه كان يقول في تعاليمه بالنور والظلمة وتجسُّد الله .

ولم يصل الينا شيء من أعمال تلاميذه والراجح أن رجال الكنيسة قد أعدموا كل آثارهم

كتّاب السريان

في القرنين الثالث والرابع

لم يصل الينا عن القرن الثالث آثار أدبية تذكر ، فقد تحوّلت ، الجهود للدفاع عن الاضطهادات التي كان يتعرّض لها المبشّرون بالمسيحية في كلّ من المملكتين الرومانية والفارسية .

فلما كان القرن الرابع شعر السريان بحاجتهم الشديدة الى الكتابات الأدبية ، وكان السّبق في هذه المرة أيضاً للقسم الشرقي من البلاد التي تتكلم السريانية ، فعملوا على تسجيل سير شهداء مدينة الرّها ، فظهرت مجموعتان : ترجع الأولى الى عصر تراجان عن استشهاد كاهن الأوثان شربيل والأسقف بَرْسَمْيا ، الذي كان معاصراً للبابا فلافيانوس (٢٣٦ — ٢٥٠) . وترجع الثانية الى عصر دقلديانوس ، وتشتمل على سِيَر جوريا وشيمونا والشماس حبيب . والمجموعتان من كتابة تيوفيلوس عن بعض شهود العيان الذين حضروا استشهاد هؤلاء الرجال .

أسْوَنا

ومن كتّاب القرن الرابع أسْوَنا : عاش راهباً في الرّها ، والظاهر أن شعره كان محبباً الى قلوب العامة لأن الناس كانت تنشده حتى أوائل القرن السادس . وكان معروفاً في ذلك الوقت أنه مات من جرّاء سقوطه من فوق الجبل عندما أراد ركوب المركبة التي تعرج به الى السماء ، وكان به مسّ جعله يفكر في تقليد أليشع . ويقال إنه كان أستاذاً لأفريم . وينسب اليه شعر ذو مقاطع ستة فيه كثير من الحوار ويبدأ كله بالألف .

فافا بن عَجّى

كان أسقفا على سلوقيا والمدائن ، وهو أول من لُقّب بالجاثليق ، عمل في الثلث الأول من القرن الرابع على توحيد صفوف المسيحيين المقيمين في الدولة الساسانية وجعلهم تابعين لكرسي عاصمته السياسية ، ولكنه لقي معارضة شديدة من كثير من الأساقفة الذين حاولوا في مجمع مقدّس خلعه . فرأى من جانبه — في ذلك الوقت العصيب —

أن يستعين بعدد من أساقفة الكنيسة الغربية ، الذين يعملون في الأقاليم الشرقية المتطرفة لمملكة الروم على حدود الدولة الساسانية ، فكتب اليهم يطلب منهم الاعتراف برياسته على جميع المسيحيين في المملكة الفارسية . وكان من بين الأساقفة الذين وقفوا يعارضونه ويناصرون أندريا أسقف دير ماري ، الأساقفة داود البصري الذي تنازل عن كرسيه ليذهب الى الهند للتبشير ، وعبد يشوع الكشكري ، وابراهام التستري ، وجَدْيَب أسقف بيت لَفَط ، ويوحنا أسقف ميشَن ، ورئيس الشمامسة سمعان بن الصباغين ، وقد استشهدوا جميعاً في عصر اضطهاد الساسانيين للمسيحية الذي قام به شابور الثاني فيما بين سنتي ٣٣٩ و ٣٤١ .

سمعان بن الصبّاغين

سمّي بابن الصباغين لأن أهله كانوا يصبغون ثياب الملك ، كان رئيس شمامسة فافا الجاثليق ، ثم عُيّن أسقفا على سلوقيا والمدائن والسوس . وقد استشهد في ١٧ ابريل سنة ٣٤١ أو ١٣ ابريل سنة ٣٤٤ في رواية أخرى لأنه لم يقبل الرجوع عن المسيحية الى المجوسية .

ويقول عبد يشوع أسقف نصيبين في فهرسه أن سمعان كتب عدّة رسائل ، ولكن يظهر أنها ضاعت ، وينسب إليه كذلك عدّة أناشيد ، ومؤلف تحت عنوان « كتاب الآباء » أهداه الى تلميذه « أجّور » .

شاهد وست الجاثليق

كانت العادة أن يتخذ الجثالقة لهم أسماء مسيحية عند رسمهم في وظائفهم الدينية ، ولكن يلاحظ أن هذا الجاثليق قد احتفظ باسمه الفارسي « شاهد وست » ومعناه صديق الملك . كان رئيس شمامسة ابن الصباغين الجاثليق ، فلما قتل ابن الصباغين بقيت البيعة فترة بغير رئيس ، فاجتمع الآباء سرّاً وانتخبوا « شاهد وست » خلفاً له ، ولكن أمره ظهر فقبض عليه الفرس مع مائة وثمانية وعشرين أسقفا وقسّا وشمّاساً وراهباً وحبسوهم خمسة أشهر لاقوا خلالها أصناف العذاب . فلما لم يرجعوا عن دينهم قتل مرزبان المدائن

منهم مائة وعشرين نفساً . وأنفذ الى شابور بـ « شاهد وست » ومن بقي معه . فلاطفه شابور في الخطاب ليدخل في المجوسية ، فلما لم يقبل قُتل هو وأصحابه في اليوم العشرين من فبراير سنة ٣٤٢ .

أفرهاط

عُرف بالحكيم الفارسي، وهو لقب خلعه عليه السريان من أصحاب الطبيعة الواحدة، وبه اشتهر في الأوساط العلمية ، ويعرف أيضاً باسم «فِرهاذ» وقد اتخذ له اسم « يعقوب » عند ما رُسم أسقفا ، وهو فارسي اعتنق المسيحية وخصص حياته لخدمة دينه الجديد ، ونعرف من كتاباته أنه نشأ في محيط الرهبنة ، وأنه كان أسقفا ، وأن مقر أسقفيته كان في دير مار متى بالقرب من الموصل . وكان معاصراً لافريم الكاتب وقد مثّل مدينته نصيبين في مؤتمر نيقية ، وعاش حتى شهد نشوب الحرب بين الرومان والفرس . ويقال إنه أنقذ مدينة نصيبين من الفرس بصلاته .

ويُعد أفرهاط أول عَلمَ من كتّاب النثر في العصر المسيحي، وقد بقي لنا من تآليفه كتاب في المواعظ يشتمل على ٢٢ رسالة تبتدىء كل واحدة منها بحرف من حروف الأبجدية السريانية ، وقد رُتّبت هذه الرسائل وفق ترتيب الأبجدية ، وساعد ترتيبه في هذا النحو على احتفاظ الكتاب بوحدته ونظامه . وقد تناول في هذه الرسائل : القول عن الايمان ، والصدقة ، والصوم ، والصلاة ، ومجاهدة النفس ، وشريعة الرهبان ، والتوبة ، وقيامة الأموات ، والتواضع ، وشريعة الأساقفة ، والختان ، وتحقيق عيد الفصح ، والسبت ، والاسترحام ـ وهي رسالة مجمعية كتبها المؤلف في وقت كانت الكنيسة الفارسية فيه في موقف عصيب وكلف بإرسالها الى مجمع سلوقيا . وتتضمن معارضة الأساقفة لفافا ـ واختلاف الطعام ، وأن المسيح ابن الله ، والرد على اليهود ، والعذراء ، وحساب خلق العالم ونهايته ، وإطعام المساكين ، والاضطهاد ، والموت والآخرة . وقد أضاف المؤلف في نهاية كتابه فصلاً سماه بالسريانية (ط و ط ي ث ا) ومعناها آخر عنقود يبقى في الكرم ، أوضح فيه الصورة التي جاءت في العهد القديم في أشعيا ٤٥ : ٨

وقد انتهى من كتابة الرسائل العشرة الأولى من كتابه سنة ٣٣٧ وانتهى من الكتاب

كله سنة ٣٤٤ أيام الاضطهاد الذي صبّه شابور الثاني على المسيحيين . والظاهر أنه ألّف هذا الكتاب ردّاً على خطاب أرسله إليه شخص اسمه جريجور سأله فيه عن بعض المسائل الدينية . وقد أكّد المؤلفون القدماء صحة نسبة هذا الكتاب الى افرهاط : فقد ذكر جرجس أسقف القبائل العربية في خطاب الى صديق له سنة ٧١٤ أنه علم أن مؤلف هذه المواعظ حكيم فارسي ، ولكن لم يدرْ بخلده أنه أفرهاط . وكان الكتّاب المتأخرون أدق بياناً : فابن العبري يعرف أن المؤلف هو فرهاذ . ويذكر عبد يشوع النصيبيني الصيغة القديمة للاسم أفرهاط ، وكذلك أورده الياس النصيبيني مؤرخ القرن الحادي عشر في تاريخه .

وتعدُّ هذه الرسائل صورة للعقائد المسيحية والنظام الكنسي في الدولة الساسانية في عصره ، كما توضح لنا اختلاف الآراء في علم ما وراء الطبيعة في أوائل القرن الرابع الميلادي . أما أسلوبها فلم يكن على درجة كبيرة من البلاغة إذ كثرت فيها الجمل الاعتراضية التي تتضمن استشهادات من الكتاب المقدس ، وجملها طويلة متعبة والفكرة فيها غير واضحة في بعض الأحيان . ولهذا الكتاب أهمية كبرى فمواعظه هي أقدم ما عرفناه من هذا النوع في الأدب السرياني ، ولغته ليست متأثرة باليونانية — التي أخذ يتزايد تأثر السريانية بها في القرون التالية — وهو الى جانب ذلك مصدر يعتمد عليه في دراسة اللغة والتفكير في الكنيسة السريانية القديمة .

وقد «نسب جنّاديوس» كل آثار أفرهاط الأدبية خطأً الى يعقوب النصيبيني المتوفى سنة ٤٣٨ . ولهذا ظهرت الرسائل التسع عشرة باسم يعقوب النصيبيني في ترجمة أرمنية .

إفريم

كان يطلق عليه عادةً اسم افريم السرياني ، ونبي السريان ، والمِلْفان أي المعلم ، وقيثارة روح القدس . وهو أكثر آباء الكنيسة السريانية ذيوع صيت ، وكان بحق أحد مشاهير كتّاب السريان في النظم والنثر ، ولقي من إقبال القراء ما لم يظفر به كاتب غيره .

أما عن سيرته فان المصادر التي بين أيدينا لا تروي غلة في كثير من الأحيان ، وكل ما نستطيع استخلاصه عن سيرة هذا الكاتب الفذّ الذي غذّى الأدب السرياني بكتاباته ،

انه وُلد في نصيبين في السنوات الأولى من حكم القيصر قسطنطين الأكبر سنة ٣٠٦ على الأرجح . وكان أبوه كاهن صنم يسمى أبنيل أو أبيزل فيما تقول بعض الروايات ، وكانت أمه مسيحية ، وقد جاء في مصادر أخرى انه وُلد من أبوين مسيحيين ، وانه تتلمذ على يعقوب أسقف نصيبين . وتقول بعض المصادر إن أباه لما رأى اتصال ابنه بالمسيحيين طرده فمضى الى الكنيسة واعتمد في سن الثامنة عشرة أو الثامنة والعشرين ، والأرجح أنه عُمِّد في الثامنة والعشرين ، وانتظم بعد ذلك في سلك الرهبنة ولكنا لا نعرف متى كان ذلك على التحديد . ولا نظن انه رافق الأسقف يعقوب عند سفره الى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ . وقد طُعِّمت سيرته بالشيء الكثير من الأساطير ، منها أنه أنقذ مدينته نصيبين بصَلاته من الحصار الذي ضربه الفرس عليها سنة ٣٣٨ .

وفي أيامه حارب القيصر يوليانوس أهل فارس فغلبهم على أمرهم ، ولكنه أصيب بجرح قضى عليه أثناء عودته الى بلاده فمات سنة ٣٦٣ . ثم عاد الفرس فوقعوا على الرومان وألزموا جوفيان خليفة يوليانوس بالصلح على أن تكون لهم نصيبين وما جاورها فهاجر إفريم من نصيبين الى المنطقة الرومانية ونزل في مدينة بيت جَرْمي ، ثم انتقل منها الى آمد (ديار بَكر) فأقام فيها بعض الوقت عند خؤولته ولكنه لم تطل اقامته بها فنزح عنها ، وأخيراً استقرَّ به المقام في الرُّها منذ سنة ٣٦٥ وعمل استاذاً في مدرستها التي عرفت فيما بعد باسم مدرسة الفرس ، وتقول بعض المصادر إنه هو الذي انشأها وإنه كان ينفق عليها هو ومن خرج معه من الجماعة من نصيبين .

وتقول بعض المصادر إن إفريم غادر الرُّها الى مصر ، وقضى في أديرتها ثماني سنوات ظلَّ طوالها يناصب الأريوسية العداء . وقد نشأت عند رُهبان دير السريان بوادي النطرون في مصر قصة يروونها عن شجرة لا تزال قائمة هناك الى اليوم ، يقولون إن أصلها عصاً كانت في يد القديس إفريم . وقد بنيت هذه القصة على أساس فكرة أن القديس إفريم جاء الى مصر وأقام في أديرتها ، ولكن ذلك لم يثبت تاريخيًّا

وتقول نفس المصادر السابقة إن باسيليوس (المتوفى سنة ٣٧٩) عندما أصبح أسقف قيسارية، وجَّه بقوم من حكماء أصحابه وسألهم أن يحتالوا في إحضار القديس إفريم ليجعله

أسقفا على بعض كُورَه . وقال لهم إن ظفرتم برجل قصير القامة ، كبير الهامة ، أصلع ، صغير اللحية ، لباسه خرق مُرقعة من خلقان ملفقة ، فاحتالوا لإحضاره ، وإياكم أن يفوتكم ويحتال عليكم . ولكنهم مع ذلك لم يفلحوا في إحضاره . ويقال إنه لما طالت إقامته بمصر عاوده الحنين الى الرُّها فرّ في طريق عودته بقيسارية ، ولقي باسيليوس أسقفها، ثم استأنف السير الى الرُّها حيث مات ودفن بها في التاسع من شهر يونيو سنة ٣٧٣ م . بعد أن اشتهر اسمه في جميع العالم المسيحي .

وقد قدر العالم المسيحي فضل هذا الكاتب بعد وفاته فزادت عنايته بآثاره حتى أصبح لبعض كتاباته مركز خاص في الطقوس والصلوات فلا يخلو كتاب من كتب الصلوات أو كتاب الأجبية (وهي الصلوات السبع الليلية والنهارية) من صلوات أو طلبات أو توسلات مما أُثر عن القديس إفريم .

وتقول المصادر إن إفريم بدأ يقرض الشعر في نصيبين في سن مبكرة ، والراجح أن الذي دفعه الى قرض الشعر قراءته لشعر ابن ديصان وابنه هرمونيوس الذي كان شائعاً في ذلك العصر. ولشعره في نصيبين قيمة تاريخية فهو يدلنا على مقدار ما عانته المدينة من آلام أيام حروب الفرس ، كما نعرف منه الكثير من أعمال الأساقفة يعقوب ، وبابو ، وولْجَش ، وابراهام . وكذلك نقف منه على مصير الجماعة المسيحية في نصيبين وما جاورها . وقد بلغ عدد القصائد التي كتبها في نصيبين إحدى وعشرين قصيدة ، زادها في الرُّها الى ست وخمسين ثم زادها حتى بلغت سبعاً وسبعين كانت كلها عن نصيبين ، وأطلق عليها جميعاً اسم « نصيبينيات » وهي تتناول موضوعات مختلفة منها قصائد عن تاريخ نصيبين في عصره : فالقصائد الثلاث الأولى نظمت بعد حصار الفرس لنصيبين لثالث مرة منذ وفاة القيصر قسطنطين الأكبر سنة ٣٥٠ . والقصائد من ٤ الى ٧ ومن ٩ الى ١٢ نظمها تحت تأثير نكبات الحرب في ربيع سنة ٣٥٩ . والقصائد من ١٣ الى ٢١ في مدح أساقفة نصيبين الأربعة وهم يعقوب ، وبابو ، وولْجَش ، وابراهام في السنوات ٣٥٩ حتى ٣٦٣ . وهناك مجموعتان أخريان لتاريخ عصره منها القصائد من ٢٥ الى ٣٠ نظمت حوالي سنة ٣٧٠ والقصائد من ٣١ الى ٣٤ نظمت بعد هجرته الى الرُّها مباشرة

وفيها ذكر محاربة الأسقف فيتوس الحراني للوثنية في الرها . والى هنا تنتهي المجموعة الاولى من نصيبينيات افريم .

أما المجموعة الثانية فكانت ذات مركز ممتاز من الناحية الشكلية لأنها أخذت طريقها الى الرها واعتبرت من النتاج الشعري الرائع لافريم وسُمِّيت فيما بعد باسم « سوغيثا » ومنها القصائد من ٥٢ الى ٦٨ وهي محاورة بين الموت والشيطان ،والقصائد من ٣٥ الى ٤٢ من بدء آلام المسيح .

أما القصائد من ٤٣ الى ٥١ ومن ٦٦ حتى ٧٧ فتشتمل في الأكثر على جدل ضد ابن ديصان وماني ومرقيون ثم قصائد عن قيامة الأموات وأزمة الموت .

وكانت كتاباته في الرها كثيرة جداً . ويعد ما تركه أفريم من الكتابات بوجه عام مما لا يقل عن ثلاثة ملايين من الأسطر .

وتنقسم آثار افريم الأدبية الى قسمين : كتابات منثورة — اذ المعروف أن افريم قد استعمل النثر في شرح الكتاب المقدس ، وفي الجدل الديني ، وفي مقالاته ورسائله — وكتابات منظومة : وهي القسم الأكبر من آثاره الادبية ، وأهمها نوعان :

الأول « المدراش » : وهو المنظومة التي تنشد . ومنه خرج السوغيث وكان له فيه أثر ظاهر .

والثاني « الميمر » : وهو المنظومة التي تقرأ ولا تنشد . وكتاباته المنظومة نموذج حاول المؤلفون الذين جاءوا بعده أن يحاكوه فيها .

أما قصصه الشعرية فكانت طويلة معها شيء من الملل لما فيها من شرح للحياة والتعاليم الكنسية . وقد خلت تآليفه تقريباً من الاشارة الى المعتقدات الخرافية التي كانت شائعة في عصره ،وإن كنا نلحظ قليلاً منها بين السطور في صلاته التي وضعها تضرعاً لنزول المطر

وكل الكتابات التي وصلت الينا عنه شخصياً صحيحة النسبة اليه ، كما أننا نستطيع أن نحكم بأن الكتابات التي يرجع تاريخها الى ما قبل الاسلام هي من وضعه أيضاً ، وكذلك النصوص التي ذكرها الكتّاب الأقدمون مثل فيلوكسينوس المنبجي في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس . وكذلك تبين لنا الفقرات التي استشهد بها من الانجيل

ناحية من كتاباته الصحيحة ، فان إفريم — فيما يظهر — كان لا يستعمل الا الدياطسرون . وكذلك نستطيع أن نحكم بأن الكتابات التي تتناول حوادث وقعت بعد وفاته بمدد تصل أحياناً الى أكثر من عشرين سنة لا يمكن أن تصح نسبتها اليه .

أما افريم الناثر فله شروح على عدد من أسفار الكتاب المقدس والدياطسرون ، لم تصلنا عنه مباشرةً بل عن أيدٍ متأخرة . وقد وصل الينا منه في لغته السريانيـة الأصلية شرح لسفر التكوين وجزء كبير من سفر الخروج محفوظ في مخطوطة في مكتبة الفاتيكان ، ومختصر لشرحه للعهد القديم صنفه سويرس الراهب الرهاوي سنة ٨٦١ م . وقد بقي لنا منه مخطوطان أحدهما في مكتبة الفاتيكان ، والثاني بالمتحف البريطاني . وكذلك وصلت الينا ترجمة أرمينية لشرحه على الدياطسرون . وفي عهده اعترفت الكنيسة السريانية برسائل بولس الرسول على أنها من كتابات العهد الجديد . ولهذا شرح افريم هذه الرسائل مع الأناجيل . كما بقي لنا من آثاره كتابات كثيرة عن محاربتـه لتعاليم ماني ومرقيون وابن ديصان بعنوان « الرد على المارقين ، إلى هيباتيوس » وكتابات أخرى مثلها « الى دومنوس » والكتب الخمسة الأولى يبتدىء كل واحـد منها بحرف من حروف اسمه (ا ف ر ي م) وكذلك بقي لنا منه ـ فيما يقول فيلوكسينوس ـ ميمر نثري عنوانه « عن سيدنا » مجّد فيه الألوهية وأعمال الخلاص على يد المسيح . وكذلك بقيت لنا خمس مقطوعات « عن الرحيم العلي » وسيرة لابراهام قيذونايا تظهر فيها بوضوح قوة إفريم الأدبية .

وقد بقي لنا من رسائله رسالة الى رهبان جبـال الرُّها ، وجزء من رسالة كتبت الى بوبليوس .

وقد عُـزي إلى إفريم كثير من النثر . منه تورجامات ، أي شروح على موضوعات من سفري التكوين والخروج . وعن ابتداء الصوم ، ونزول روح القدس ، ولكنها في الواقع ليست سريانية الأصل بل يونانية كما يتضح ذلك من دراسة النص . ومنه شروح عن التوبة ترجع غالباً الى العصر الاسلامي . وشروح عن بعض كتب العهد القديم معروفة عند اليعاقبة وترجع الى القرن التاسع . وشرح على أسفار موسى الخمسة باللغة العربية ، يمكن بسهولة معرفة أنه ليس من تأليفـه اذا وازناه بشروحه على سفري التكوين والخروج .

ومقتطفات من كتاب من كتب الرهبنة « كتاب الأحكام » وهو أحاديث بينه وبين تلميذ له لا تتفق في معانيها مع ما وصل الينا من كتاباته في الرهبنة في ترجمتها اليونانية . وسيرة الرسل الاثني عشر وهي موجودة عند اليعاقبة والنساطرة .

وشخصية إفريم الشاعر أشهر وأقوى بكثير من شخصية افريم الناثر ، وكتاباته المنظومة أكثر جداً من كتاباته النثرية ، وقد أخضع لفنه جميع الأوزان السريانية التي كانت معروفة في عصره ، فنظم على المقاطع الخمسة والستة والسبعة والثمانية والتسعة والعشرة بينما نظم الشعراء المتأخرون قصائدهم على وزن أو اثنين . كذلك يظهر لنا فنه في استعمال الأقسام الشعرية الى حدٍّ لم يصل إليه أحد من السريان فقد فرّق افريم بين نوعين من الشعر : المدراش والميمر .

أما المدراش فمعناه الأول جدَل في ثوب شعري ثم استُعمِل للشعر الذي يُنشَد بوجهٍ عام . ويتكوّن المدراش من عدّة أبيات تتساوى في عدد مقاطعها أحياناً ، وتختلف في عدد المقاطع في أحيان أخرى ، هذه الأبيات يرتلها فرد ، وترد عليه فرقة (كورس) بعد كل بيت بردود العونيثا عونايا ، وكل بيت من أبيات المدراش قائم بنفسه وليس من الضروري أن تكون له صلة بالبيت السابق أو اللاحق ، وللمداريش أوزان وأنغام شتى ، ويُعدّ إفريم من خيرة ناظمي المداريش ، وقد حذا فيها حذو داود في مزاميره فنظم أبياتها تارةً على ترتيب الحروف الأبجدية وطوراً على ترتيب حروف اسم يسوع أو حروف اسمه (ا ف ر ي م) أو « إفريعيون » مصغّراً . ويقولون إن إفريم كان يتولى بنفسه تعليم المرتلين (الفرقة) طريقة غناء شعره بالنغم الصحيح .

وقد نظم افريم نوعاً آخر من القصائد سماه « السوغيثا » وزنها بسيط ، وتصلح في صياغة المآسي للمسرح الديني ؛ وهو يبدأ عادةً بمقدمة مكونة من فقرةٍ أو أكثر يدخل الشاعر بعدها الى لب الموضوع في أبياتٍ يلقيها فرد ، وقد تكون حواراً بين اثنين ، وترد الفرقة بالإنشاد على طريقة الصلْمودية بالتبادل بين نصفي الفرقة ، والفقرات الأساسية ينشدها اثنان من المجموعة يتقدمان للإنشاد.

ويشتمل الجزء الأكبر من مخطوطات افريم التي كتبت قبل الاسلام على مداريشه،

وعلى رأسها مجموعتان في الجدل مكونتان من ٥٦ مدراشاً . وفيهما جدله مع ابن ديصان ومرقيون وماني ، وعنوانها « الرد على المارقين » ، ومعارضات ضد الأريوسية ، وسبعة مداريش عن « اللؤلؤة » أي عن المسيح وسر خلق الانسان ، وخمسة مداريش في الرد على يوليانوس امبراطور الروم الذي ارتدّ عن المسيحية الى الوثنية ، ومداريش جدلية أخرى كتبها في نصيبين في النصف الأخير من سنة ٣٦٣ بعد وفاة القيصر يوليانوس . ومنها مدراش عن الفردوس فيه كثير من الخيال ويتألف من ١٥ أنشودة .

وهناك بعض مداريش لم تصل الينا كاملة : عن عيد ميلاد المسيح ، والصوم وعيد الفطير والصلب وشهر نيسان بمناسبة عيد الفصح ، والتائب ، وكلها مداريش دينية تستعمل لإحياء أعياد الكنيسة . ومدراشان لإحياء ذكرى رجلين من رجال الكنيسة : الأول عن ابراهام قيذونايا ويشتمل على ١٥ أنشودة ، والثاني عن يوليان سبا ويشتمل على ٢٤ أنشودة . ومدراش عن الإخوان المكابيين ومداريش عن موضوعات دينية مثل التبتل وسر سيدنا ، والكنيسة ، وقد بقي لنا المدراش الأخير في مخطوطين يرجعان الى القرن السادس .

وقد اقتطفت الكنيسة السريانية من مداريشه أبياتاً أُلِّفت منها المداريش التي ترتل في صلاة الليل أيام الأحد والأعياد والصوم الى غير ذلك ، واليك ترجمة أحد هذه المداريش عن عيد القيامة :

جد علينا أيها الرب المبارك بقليل من فيضك .
في هذا الشهر الذي أغنت هباته جميع البرايا .
لقد انبسطت آلاؤك عليهم قاطبة .
فازدانت الجبال بأعشابها ، والحقول بزروعها .
وزخر البحر بأصدافه ، والبر بحيوانه .
وازدانت السماء بنيّريها ، والبسيطة بزهورها .
فنيسان زينة الأرض . وعيده جمال البيعة المقدسة .

هذا هو شهر نيسان الذي يمنح الشبع .
ينتهي بالصائمين الى حيث الأشياء الشهية .
ويلقي نير الصيام عن رقاب المجاهدين الساهرين .
ويقود الناس والحيوان الى النجعة .
لحذار إخواني أن نحاكي الحيوان حين نأكل
فنجعل من الفطر سبيلاً الى الشره ، فقد صمنا للحق فلنفطر مغتبطين .

*

إن نيسان يَحيك للأرض لباساً موشّى بشتى الألوان
فتظهر الخليقة متشحة بحلة من الزهور ، وطيلسان من الورود
إن أم آدم (أي الأرض) ترفل في عيد نيسان وعليها ثوب لم تنسجه الأيدي
وهي تبتهج لأن مولاها قد هبط اليها فيه . وفيه رُفع ابنها
فالأرض في حفلين : حفل سيدها وحفل ابنها .

*

وفي نيسان هبط الرب من علٍ ، فتلقفته مريم
وفي نيسان قام الرب ، وصعد ، وأبصرته مريم
وأحست به مريم عند نزوله ، وقد أبصرته في قيامته
إن اسم مريم مقرون بالصعود والنزول
فهنيئاً لك نيسان فقد شهدت حمل الرب وموته وقيامته .

*

وفي نيسان انتعش الصليب ومنحنا جميعاً ثمرة الحياة
وفي نيسان شاع طير السلام يشدو لنا .
وفي نيسان عيد الفصح الذي فيه تهبط روح المجد .
فتحل في المعمدين ، فيصبحون قيثارات ناطقة .
تنشد أناشيد الحمد ، للحي الذي نزل وحلّ بين الأموات .

*

اللهمّ امنن علينا برحمتك بشهور بهجة وسني ايناس.
فليأتنا نيسان بزهره يا رب بالسلام ، وإيار بزنبقه .
وحزيران بحزمه ، وتموز بحنطته ، وآب وايلول بالمناقيد في سلالها .
وتشرين وسَميِّه تشرين بالمعاصر، وكانون وكانون بالراحة.
وشباط وآذار بالصوم . لك الحمد يا إلهي .

*

وينظر نيسان الى تشرين حبيبه المطبوع على شاكلته .
فهذا مطلع العام في ترتيب شهوره . ونيسان رأس شهورها وأعيادها .
لنيسان اللبن ،ولتشرين النبيذ ، لهذا الزهور ، ولذاك الفواكه.
لنيسان العطور الزكيّة ، ولتشرين الأطعمة اللذيذة.
وهما يشبهان الرب ، فإنهما بَرّدا الجسم بظلهما من الحُمّى .
وترد بمجموعة المرتلين على أبيات هذا المدراش بالرد التالي :
لك الحمد أيها المسيح في بداية صيامنا ، والآن في منتهاه .

* * *

وأما الميامر فهي شعر يقرأ ولا ينشد ، وقد يدخل فيها بعض فقرات تنشد ، وهي تعليمية أو قصصية للكتابات الآرامية الشرقية . ويمكن أن تكون هذه الميامر طويلة بحيث تبلغ آلاف الأبيات . وأبياتها متساوية المقاطع غالباً . وهي من ذات المقاطع السبعة ، وهي عادةً ذات دعامتين تتكوّن الأولى من ثلاثة مقاطع . والثانية من أربعة. وهذا هو النوع الذي كتبت به مدرسة ابن ديصان ، وقد نظم به افريم واستعمله سلاحاً ماضياً في جدله ، وكتب به مراثيه ، وعلّم به سامعيه المسائل الدينية المختلفة،واستخدمه كذلك في كتابة الطقوس الدينية ، ومنها ميامر في الرد على ابن ديصان ، وميامر عن الكنيسة — حافظ على وحدتها أنها موضوعة على ترتيب حروف الأبجدية — وميامر عن الصلوات لحاجة الكنيسة ، ومنها صلاة الرجاء لسقوط الأمطار ، وقد عرف منها فيلوكسينوس المَنْبِجي في أوائل القرن السادس الميلادي بمجموعةٍ لا تقل عن احدى عشرة قصيدة

وتستطيع أن ترى في هذا الميمر الذي كتبه إفريم في الرد على ابن ديصان — والذي نحيل لك ترجمته العربية هنا — رأي الكنيسة السريانية القائل بأن الله يحُل في جميع مخلوقاته ويلازمها وهو في هذا الميمر يعارض رأي ابن ديصان في القدر :

واحد هو الأبديّ الذي نعرفه ونراه
وهو كائن بذاته ، وبغيرذاته ، تبارك اسمه .
أبديٌّ إرادته بكل مكان
الظاهر الباطن ، المشرق الخفي ، وهو فوق وتحت .
وهو تحت مخلوط مع من تحت تفضلاً منه
وهو سامٍ ومرتفع ارتفاع مجده في العلويين .
وهو قبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، ومع كل شيء
يشبه البحر عند ما تسبح فيه الأسماك .
فكما تلازم المياه الأسماك طيلة حياتها .
كذا يلازم الله جميع خلقه .
وكما تغطي المياه الأسماك دائماً
كذا يضفي الخالق على كل ما أبدع كبيراً وصغيراً .
وكما أن الأسماك مغمورة بالمياه ، فان الله يغمر
المرتفع والمنخفض ، والبعيد والقريب ، وكل من عليها .
وكما تقاوم المياه السمك حيثما ذهب
هكذا الله مع من يسير .
وكما تصاحب المياه السمك في كل رَوَحاته
كذلك يصاحب الله كل امرء ويراه في جميع أفعاله .
لا يكره الناس الأرضَ لأنها هي معبرهم
ولا ينأى المرء عن الصالح ، لأنه هو مُرشده .
وهو يربط كل الأشياء في جميع النواحي

كما ترتبط النفس بالجسد والنور بالعيون .
لا يستطيع المرء أن يهرب من نفسه لأنها معه
ولا يستطيع المرء أن يهرب من الله لأنه ملازم له .
وكما تحيط المياه بالسمك وتلامسه
هكذا تتصل الطبائع كلها بالله .
هو مختلط بالهواء ، مع أنفاسك التي تدخل صدرك
ممزوج بالنور كاتصال الرؤية في العيون .
إنه يختلط بروحك ، وهو فيك ، يسايرك حيثما ذهبت
يقيم فيك ، ولا يخفى عليه كل ما يدور في خاطرك .
وكما أن العقل يسبق الجسد ويتعقبه
هكذا الله سابق لنفسك متعقب لها .
وكما أن الرأي متقدم على العمل
هكذا تتقدم فكرتُه فكرةَ من يفكّر .
بعيدٌ عن كل شيء ، مختلطٌ بكل شيء ، ومشرقٌ على كل شيء
الاسم العليّ ، والعجب المستور الذي لا نعرف كنهه .
هكذا الأبدي الذي لا يجادل الناس في كنهه
تلك القوة التي لا تكشف عن غورها .
ليس في المرئيات ، ولا في المغيبات معارض له .
ذلك الذي خلق الكل من العدم وأبدعه .
قال الله : فليكن نور . فكان
ولتكن ظلمة . فكانت .
لقد أورى الله النار من الحجارة وأنبع الماء من الصخر
هو واحد قوي أوجد هذا كله من العدم .
هذا هو الموجود الذي جوهره منه

بارادته تتلظى النار وبارادته تخمد
يحرق الخشب في الغابة الكثيفة فتشتعل النار
فيهيج فيها اللهب ويأكل بعضها بعضاً ، وأخيراً تخمد
خاسر حياته الذي يفتح فمه ليقول شيئاً عن الله .
كاره لنفسه الذي يوردها موارد الحتف وليس الله
اذا عرف المرء الكثير بعقل الدنيا فإنه يُجرم كثيراً
وكذا اذا بهرته الوثنية بزخرف القول
يا بن ديصان ، أيها السافك ، يا من عقله كاسمه

ولم يكن عند إفريم ولا عند غيره من الكتّاب القدماء قافيـة مقصودة ، ولم تظهر القافية إلاّ في وقت متأخر بعد فتح العرب لبلاد السريان، نتيجة لتأثر أدباء السريان بالشعر العربي المقفى . كذلك لم يعرف السريان الوزن الشعري المعروف عند العرب واليونان .

ومن الملاحم التي صحت نسبتها اليه ملحمة عن موعظة يونا في نينوى ، وموعظة التوبة وكان لها ثلاثة ميامر ، الأول : عن زلزال وقع سنة ٣٥٨ ، والثاني : كتبه سنة ٣٦٣ م عن ضم نصيبين الى الفرس ، والثالث : عن هدم نيقوميديا . وله ١٣ ميمراً عن الحصارين الثالث والرابع لمدينة نصيبين .

وقد نسب إلى إفريم عدد كبير جدًّا من الأشعار، وإنه ليصعب علينا أن نجزم بصحة كل ما نسب اليه مما وضعه إبان إقامته في الرُّها ، وهل كلها من تأليفه ، أو أن بعضها من نظم بعض تلاميذه ثم نسبت اليـه . وليس من اليسير أن يُظهر النقـد كل المنحول من كتاباته . ولـكن النقّـاد توصلوا الى إثبات أن بعض القصائد لا يمكن أن تكون من شعر إفريم ولـكنها حملت عليه ، كقصيدة في غزوة التتار التي حدثت في يوليو سنة ٣٩٦ على حين أن إفريم مات في يونيو سنة ٣٧٣ ، ويرجح نولدكه في رسالة له عن سيرة الاسكندر ان هذه القصيدة أُلـفت بعد الفتح العربي ؛ وكذلك القصيدة التي فيها نفي برسيس أسقف الرُّها نتيجة لاضطهاد واليس للمسيحيـة فمعلوم أن برسيس قد نفي في سبتمبر سنة ٣٧٣

أي بعد موت إفريم بثلاثة أشهر ؛ وغيرها عن رثائه لباسيليوس أسقف قيصرية مع أن باسيليوس قد مات بعده .

هذه القصائد التي قام الدليل على انها ليست لافريم حفزت الباحثين الى الشك في بعض ما نسب اليه ، فقد شك الباحثون مثلاً في صحة نسبة قصيدة اشتهرت في تاريخ الأدب السرياني عن سيرة يوسف الصديق ، وتعد هذه القصيدة من أبدع ما خلفه الأدب السرياني وهي مقسمة الى اثنتي عشرة أنشودة ، اشتملت على الكثير من قوة الشاعرية في الشعر السرياني ، ولذلك فقد لقيت كثيراً من المعجبين بها والمقلدين لها ، ولكن المصادر لم تتفق على أن مؤلفها إفريم ، فقد نسب سليمان الباسوري هذه القصيدة الى إفريم ، على حين تنسب هذه القصيدة نفسها الى « بالي » في مخطوطة ترجع الى القرن السادس محفوظة في المتحف البريطاني ، ولكننا لا نستطيع أن نجزم بصحة نسبتها الى واحد منهما .

وقد اشتهرت كتابات إفريم في جميع العالم المسيحي ، ولهذا نقلت بعض مؤلفاته في حياته الى اليونانية ، ومنها ميامر شعرية من ذات المقاطع السبعة ومجموعة تبلغ ٤٩ ميمرا عن الرهبنة قرأها فوتيوس . وكانت معروفة عند الرهبان اليونان فحفزتهم الى الاهتمام بالسريان .

وقد ترجم الكثير من كتب إفريم الى اليونانية والأرمنية في عصور متقدمة ، كما نسج كثير من الكتاب على منوال كتابات إفريم وحملوها اسمه ، منها ما يرجع الى القرن العاشر ، ومنها ما يرجع الى ما قبل ذلك . وهناك كثير من كتاباته تحمل اسم « يوحنا فم الذهب » و « مكاريوس » ، كما تحمل بعض كتابات « فم الذهب » اسم إفريم .

* * *

والراجح أن التراجم القديمة قد دخل عليها كثير من الزيادة والنقص على مر السنين تبعاً للتطورات التي تدخل على حياة الأقوام الذين يستعملونها . والترجمة الأرمنية لإفريم ترجع الى القرن الخامس ، وتراجمه في هذه اللغة أحسن بكثير من تراجمه الى اللغة اليونانية وقد نسبت اليه في الأرمنية بعض مقطوعات ، منها محاورة بينه وبين اسحاق عن تاريخ عيد الميلاد ، وكتابة عن تأسيس أول كنيسة في القدس .

ونقلت الى القبطية بعض كتابات إفريم ، والظاهر أنها تُرجمت عن اليونانية . وكذلك نُقلت بعض كتاباته الى اللغة السلافية ، وهي مترجمة بدورها عن اللغة اليونانية .

وهناك عدد من مؤلفات إفريم منقولة الى اللغة العربية، ففي سنة ٩٨٠ م ترجم الملكي ابراهام بن يوحنا الانطاكي حوالي خمسين مقالة من كتابات إفريم عن الرهبنة .

وهنـاك بعض كتابات بالخط القرشوني عن العقائد السريانية اليعقوبية يبدو أنها ترجمت عن السريانية .

وكذلك ٥٢ ميمراً في الوعظ ذكرها أبو البركات بن كبر في قائمته، منها نسخة في مكتبة الفاتيكان تاريخها سنة ١٣٢٩ م . وفي مكتبة الآباء اليسوعيين ببيروت نسخة أخرى أقدم منها تاريخها سنة ١٢١٦ م . وفي آخرها مديح القديس جريجوريوس نيسس للقديس إفريم، وقد نشرت بمجلة المشرق . وله كذلك ٦٨ ميمراً أخرى في احدى مخطوطات الفاتيكان تاريخها سنة ١٣٢٥ ، وله ميامر أخرى معرّبة في مكتبة ديار بكر للكلدان ومكتبة دير البلمند للروم وفيها سيرته .

وفي مكتبـة دير الشرفة للسريان الكاثوليك ١٦ ميمراً في آلام المسيح ، وميامر متفرقة في الدينونة ، وفي القديس الياس النبي . وهناك أيضاً ترجمة عربية لتفسيره على سفر التكوين بالخط القرشوني في مكتبة الموارنة بحلب . وكتاب مغارة الكنوز المنسوب اليه ، وهو عبارة عن قصة آدم وحوّاء بعد أن طردا من الجنة ، وقد نشر بتسولد Bezold هذا الكتاب في اللغتين السريانية والعربية مع وصف النسخ التي وقف عليها . ويتناول هذا الكتاب أخبار آدم وذرّيته الى عهد المسيح مع تفاصيل عن أحوال آدم وحوّاء بعد خروجهما من الجنة ودخولهما في مغارة تدعى مغارة الكنوز .

وكذلك نُقلت الى الحبشية القديمة بعض كتابات افريم عن طريق العربية، وفي الغرب نقل الى اللاتينية كثير من كتاباته عن اليونانية ، ولا يمكننا غالباً أن نحكم من التراجم عن صحة نسبة أصلها السرياني الى افريم ما دام الأصل السرياني غير موجود ، فقد يكون توسّط بين هذه الترجمة وبين الأصل تراجم أخرى .

مدرسة إفريم

نشأت في الرُّها مدرسة لافريم امتدت الى آخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس، والظاهر أن افريم على شهرته الواسعة وذيوع صيته ككاتب ديني لم يكن له تلاميذ جديرون بأن يخلفوه. وقد جاء ذكر هؤلاء التلاميذ في عهدٍ خلفه افريم. ذكر فيه منهم أرْوَط وباولونا مُنحياً عليهما باللائمة لأنهما انحرفا الى الهرطقة، وترجع شهرة باولونا الأدبية الى ما أُثر عنه من المداريش والميامر في الرد على الهراطقة، والجدل مع مارقيون، ورسالة عن المؤمنين، وأخرى عن العقيدة، ومنهم جماعة ذكرها افريم بالمدح والثناء، ومنهم سمعان الذي تنسب اليه سيرة افريم، وابراهام، ومارا الاجّيلي، وأبا. ويذكر الكتّاب المتأخرون أن له شرحاً على الاناجيل أي الدياطسرون، وموعظة عن أيوب، وشرحاً للمزامير ومنظومة على المقاطع الخمسة بقي منها قطع قليلة

ومنهم « زنوبيوس الجزيرّي » الذي كان شماساً في كنيسة الرُّها ؛ وله عدد من الرسائل في الرد على مرقيون وعلى شخص اسمه پامفيلوس، وله عدد من الرسائل إلى « إيزودور » ولوكيلوس، وابراهام، وأيوب. ومنهم يعقوب وقد بقي لنا منه بعض شروح لكلام أستاذه افريم.

وقد اشتملت سيرة افريم على اسم تلميذ آخر من تلاميذه وهو اسحاق، وقد فهم خطأً أنه اسحاق الانطاكي. ومن الكتّاب الذين ينتمون الى إفريم في نهاية القرن الرابع وأوائل القرن الخامس، « أرّا » الذي عارض السحرة، وله كذلك كتاب اسمه « الجمارين » في الرد على ابن ديصان، وكذلك « پقّور أو برقوسين » ويخلط الناس بينه وبين مؤسس دير نسطوري في أواخر القرن السادس اسمه « برقوسرا ». كتب مجلدين في الرد على الفلك عند الكلدانيين، وله كتاب عن المارق « پارافرون »

ومع تطور الحياة الأدبية في القسم الروماني لاقليم ما بين النهرين الذي تميز بظهور إفريم، كانت المسيحية في المملكة الساسانية قد حاقت عاصفة الاضطهاد التي بدأها

« شابور الثاني » (٣٠٩ — ٣٧٩) ضد المسيحيين ، وكان بطلها في ذلك الحين « يزدجرد الأول » (٣٩٩ — ٤٢٠) وكان من ضحاياها ماروثا الذي لعب دور الوسيط في إقامة السلام الديني ، وكذلك « آحي » الجاثليق ، وكان نشاطهما الأدبي يعدُّ فاتحة عصر جديد في الأدب تمثل فيه حياة الكنيسة الداخلية ، وتسجيل أعمال المجامع التي أقيمت في ذلك الحين لتسوية الخلافات الدينية ، وجمع سير الشهداء وتدوينها ، ويرجع بداية هذا العصر الى السنوات العشرة السابقة على عصر الاضطهاد ، واستمرّ النشاط الأدبي في هذا الاتجاه في السنوات الأخيرة لحكم « يزدجرد الأول » وأيام « بهرام الخامس » (٤٢٠ — ٤٣٨) و« يزدجرد الثاني » (٤٣٨ — ٤٥٧) . وكان جريجوريوس الراهب يمثل أدب الرهبنة في المملكة الساسانية .

ماروثا أسقف ميفارقاط

كان أسقفاً على مدينة ميافارقين — كما يسميها العرب — ويسميها السريان أيضاً مدينة الشهداء ، ويطلق عليها اليونان اسم Martyropolis وتنحصر فترة نشاطه بين أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس . وتوفى سنة ٤٢٠م . وكان أديباً مثقفاً ، وكان الى جانب ذلك حجة ثقة في علوم الطب . ظهر سنة ٣٩٥ في القسطنطينية ليدفع القيصر « أركاديوس » الى الاهتمام بحالة المسيحيين الذين كانوا في المملكة الفارسية . فأرسله أركاديوس الى يزدجرد الأول ، فنجح في سفارته هذه بفضل نبوغه في علم الطب . واستطاع أن يعقد سنة ٣٩٩ م مجمعاً للكنيسة الفارسية في سلوقيا رأسه الجاثليق اسحاق (٣٩٩ — ٤١٠)

وفي سنة ٤١٠ م أرسله تيودوسيوس الثاني سفيراً الى المملكة الساسانية ليتوسط في رفع الاضطهاد عن المسيحيين الذين يقيمون في بلاد فارس فاستطاع أن يجدد العلاقات الكنسية وأن يعيد السلام الى الكنيسة الفارسية . وتقول المصادر الشرقية إنه حضر مجمع القسطنطينية ، ولكن اسمه لم يرد في جدول أسماء الآباء الذين حضروا هذا المجمع . وتقول نفس المصادر إنه مهد للجاثليق « يب الله » في سنة ٤٢٠ أن يرأس مجمع طيسفون (المدائن أو مدائن كسرى وهي على الشاطىء الأيسر من نهر دجلة وأطلالها على بعد ٢٦

كيلو متراً جنوبي بغداد ويقابلها على الشاطىء الأيمن أطلال مدينة سلوقيا) .

أما كتاباته فأكبرها مجموعة عن أعمال الشهداء الذين اضطهدهم الفرس وتشتمل على بيانات عن الذين اضطهدوا في سبيل العقيدة المسيحية أيام شابور الثاني ، ويزدجرد الأول وبهرام الخامس ، وأضاف إليه خطبتين عن الشهداء وتعذيبهم . ويذكر أن ما سجله هو من رواية شاهد عيان هو « أشعيا بن حدبو » من مدينة أرزان وهو أحد فرسان ملوك الفرس ، وتعطينا هذه المجموعة فكرة عن الحالة الاجتماعية في بلاد الفرس ، وبعض المعلومات الجغرافية ، وبيانات عن نظام الادارة في المملكة الساسانية لم ترد في مصادر أخرى . وقد بقي لنا أجزاء من هذا المؤلف في بعض مخطوطات المتحف البريطاني ترجع الى القرنين الخامس والسادس .

وله كذلك أناشيد وتراتيل شعرية عن الشهداء . وترجمة للقوانين التي صدرت عن مجمع نيقية . أما رسالته الى الجاثليق اسحاق عن مجمع نيقية فانه لا يمكن أن تكون كلها صحيحة النسبة إليه لأنها تختلف كثيراً عن القوانين الصحيحة للمجمع . وهي تتعارض — من الناحية التاريخية — مع الحقيقة التي نعرفها عن علاقة « ماروثا » بالبلاط البيزنطي كما أنها تختلف في ترتيبها عن النصين العربي والحبشي لهذه القوانين ، اذ عدد القوانين ٨٤ قانوناً في النص العربي بينما هي ٧٣ قانوناً في النص السرياني ، فالقوانين الأولى في النص العربي وعددها ٣٢ قانوناً لا يقابلها شيء في النص السرياني لأنها تتضمن نظام تسقيف الأساقفة ومسائل تتعلق بالقسس والرهبان من أتباع فول الشمشاطي . وقد دخلت هذه القوانين في الكنيسة الملكية بنصها العربي ولا نعرف الطريق الذي وصلت إليهم منه ولا التاريخ الذي تم فيه ذلك ، وقد أخذها الأقباط عن الملكية . وعلى أي حال فان هناك أجزاء منها — كبعض الشروح اللغوية عن الاستعمالات اليونانية في الكنيسة — لا يوجد ما يمنع من التسليم بأنه كتبها الى الجاثليق اسحاق مع قرارات مجمع نيقية الأصلية .

٭٭٭

أما الميمر الذي ينسب إليه ، وشرح الدياطسرون فانها تنسب الى « ماروثا » مفريان « تكريت » على الأرجح .

آحيْ الجاثليق

درس على « عَبْدا » مؤسس مدرسة دير عَبْدا . وبعد وفاة اسحاق سنة ٤١٠ بقي مكانه شاغراً عاماً كاملاً ، ثم اختير آحيْ خلفاً له ، وبقي في كرسي الجثلقة أربع سنوات وسبعة أشهر ، وتوفى سنة ٤١٦ . وكان يزدجرد الأول يقدره قدره فأرسله الى أخيه لتسوية خلاف بينهما، وقد زار في رحلته هذه مقابر الذين استشهدوا في الاضطهاد وجمع ما نُقل من سِيَرهم ودوّنه في كتاب ؛ وكتب الى جانب ذلك سيرة معلمه عَبْدا .

سير شهداء الفرس

تعرّضت الكنيسة المسيحية في القرون الأولى لقيامها لكثير من الاضطهادات ، وكان الرهبان ورجال الدين هم أكثر الناس تعرّضاً لها عقاباً لهم على ما قاموا به من أعمال في سبيل نشر دينهم ، وكانت هذه الأعمال في الأدب السرياني — كما كانت في غيره من الآداب المسيحية — موضوعاً لعدد من الكتابات خلال فترة طويلة من الزمن . ففي الشرق استشهد بريخ يشوع ويونان مع سبعة آخرين سنة ٣٢٨ م فكتب سيرهم شاهدُ عيان هو أشعيا بر حدبو الذي عرفناه من قبل، وفي سنة ٣٤٠ م استشهد عدد من أساقفة الفرس فسجل سيرتهم الأسقفان ماروثا وآحيْ

وفي العام الرابع للاضطهاد استشهد الأسقف نرسى من شهارقَذْ في بيت جَرْمي. وشهداء مدينة بيت سلوك (كركوك الآن) . وما لقيته جماعة من منطقة جيلان من عسكر الفرس سنة ٣٥٠ م . وقد ظهر في الاضطهاد الذي وقع في عصر يزدجرد الأول سيرة عبدا وأقرانه ، ونرسى من بيت رازيقايا وشهداء بيت جرمي . وفي السنوات الأولى لحكم بهرام الخامس استشهد ميهرشابور وفيروز، والكاتب يعقوب . وقد دوّنت سير هؤلاء جميعاً وما لاقوه من تعذيب في سبيل عقيدتهم .

جريجوريوس الراهب

تذكر المصادر النسطورية المتأخرة أن جريجوريوس كان من رهبان الطبقة الأولى للسريان الشرقيين وهو فارسي من نستير من أعمال مدينة سوسة . ويقال إنه ذهب الى

نصيبين على أثر رؤيا رآها ، وانتقل منها الى الرُّها ليدرس في مدرسة الفرس هناك ، ودخل دير طور عابدين في جبال الأزل ، ثم ارسل الى جزيرة قبرص ليرأس رهبانها السريان هناك . يقول صاحب تاريخ النساطرة : ولكنه كان لا يحسن اليونانية فجعله الرهبان بستانيًا وأقام على ذلك عامين تعلّم خلالهما اليونانية ، ثم صار رئيسا على الرهبان وبقي على ذلك حيناً . ثم ترك الجزيرة وعاد الى صومعة في جبل الأزل وينسب اليه كتاب في تدبير الرهبنة جعله ثلاثة أجزاء : الأول مواعظ للاساقفة . والثاني في الرؤيا التي رآها . وضمن الثالث رسائله وهي موجهة الى صديقيه تيودوروس وابيفانيوس ويظهر أن أبيفانيوس هو أسقف سلاميس في جزيرة قبرص ، وله رسائل أخرى في الرد على أسئلة مختلفة للرهبان . وله مختارات في الصلاة جمعت من كتاباته يظهر فيها أثر الاعتقاد بالشياطين

***

الى جانب الكتابات التي ظهرت في الاقليم الشرقي واقليم ما بين النهرين الفارسي ، ظهر في السنوات العشر الأخيرة من القرن الرابع مسرح ثالث للكتابات السريانية من وضع السريان الذين كانوا تابعين للدولة الرومانية . وكان يمتد الى جميع مناطق الحدود التي كانت خاضعة للثقافة الهلينستية ، وكان منها كتابات رجال اللاهوت اليونان وجيرانهم من أهل فلسطين . مثل أوسابيوس القيصري وطيطوس البُصري وأوسابيوس الحمصي . وقد ترجمت أعمال هؤلاء في عصر متقدم الى اللغة السريانية . وينتهي كتاب القرن الرابع بشاعر ظهر في سوريا الغربية وبقيت لنا بعض أعماله وهو قوريللونا وكانت كتاباته باللغة السريانية .

أوسابيوس القيصري

بقي لنا من كتاباته ثلاثة كتب مترجمة ترجع الى القرن الرابع ولكن أصلها مفقود . الأول عن شهداء فلسطين والثاني موعظة للشهداء والثالث عن عدم سقوط المطر .

وقد عرفنا كتابه عن تاريخ الكنيسة من ترجمة ارمينية . ولما يصلنا شيء من كتابه عن سيرة قسطنطين ، أما خطابه الى اسطفانوس ومارينوس فقد عرفناه مما كتب عنه في الكتب الأخرى .

وقد أضيف الى أوسابيوس كتاب عن النجوم ، وأشياء عن التقاويم وشرح

لقاطيغورياس أرسطو . وقد وجدت له — الى جانب كتـابه عن شهداء فلسطين ترجمة لشهداء من الآريوسيين في نيقوميديا .

الاسقف طيطوس البُصري

توفى أيام القيصر واليس (٣٦٤ — ٣٧٨) ألّـف كتبه الأربعـة ضد المانوية بعد سنة ٣٦٣ م وترجمت الى السريانية بعد كتابتها بعشر سنوات تقريباً . وقد بقيت لنا تحت اسمه مقطوعة من موعظة عن عيد الميلاد يظهر أنها مترجمة عن اليونانية .

الاسقف أوسابيوس الحمصي

ولد في الرُّها ، وقد نصّـبه مجمع انطاكيه الذي اجتمع عام ٣٤٠ م بطرقاً على الاسكندرية بدلاً من اثناسيوس . كتب ميمراً عن الصوم بالسريانية وصلت الينا منه مقطوعة ، ويظهر أن كثيراً من كتاباته قد ترجمت الى السريانية ولـكنها ضاعت . وله ميمر عن الشهيد اسطفانوس ، وكثير من المواعظ .

قوريللونا

ويسمى أيضاً كيريلينوس ، وهو شاعر لا نعرف عن حيـاته شيئاً ، وقد وصلتنا منه بعض قصـائد ومقطوعات ومقدمة لمدراش ، وميمر على وزن المقاطع الأربعـة عن هجوم الجراد ، وآخر عن غارة التتار التي وقعت في يوليه سنة ٣٩٦ م ، وقـد كتبت هذه القصيدة بعد الغارة بعام أي سنة ٣٩٧ إذ يقول فيها « لمـّا تمرّ سنة بعدُ منذ خرّب التتار سوريا» وله ميمر عن العشاء الربّـاني وصلب المسيح ، وسوغيثا عن عيد الفصح وقصيدة عن عيد الميلاد ، وتنسب اليه مقطوعةعن زكّـى العشّـار ، وميمر عن القمح على وزن المقاطع السبعة ، ولـكن عبارتهما تدل على أنهما ليسا لشاعر ممتـاز ، وهما فيما يظهر لشاعر آخر ظهر في النصف الأول من القرن الخامس يسمى « قورى » .

وقد خلط بيكـّل بين قوريللونا وعبسـّميا الذي كان قسيساً في الرُّها،وهوابن أخت إفريم وتلميذ زنوبيوس ، وزعم أنهما شخص واحد، وحجته في ذلك أنه يُروى أن كليهما قال شعراً عن غارة التتار وأن كليهما كتب مداريش وميامر على وزن المقاطع السبعة وهي

حجة واهية . وقد ورد في تاريخ الرها أن عبسميا نظم أشعاراً عن غارة التتار سنة ٤٠٤م وتكلم عنه ديونسيوس التلمحري في سنة ٣٩٧ . ولا نستطيع أن نعتمدعلى ما ذكره ابن العبري في تاريخ الكنيسة ، إذ أنه بعد أن تحدّث عن وفاة «يوحنا فم الذهب» سنة ٤٠٧ ذكر أن تيودور المفزوستيمات حوالي ذلك الوقت سنة ٤٢٩ وقال إن عبسميا كان مشهوراً في ذلك الحين ،وأنه وضع كثيراً من القصائدعن غارة التتار على وزن القديس إفريم ذي المقاطع السبعة ، ولما كان ازدهار برصميا يرجع الى حوالي سنة ٣٩٦ أو سنة ٤٠٣ فقد قيل تبعاً لذلك إنه كان حاضراً مجمع نيقيا كما قال ابن عبد السلام . ولكن يظهر ان ابن العبري أخطأ عند ذكر عدد المقاطع التي نظم بها قوريللونا .

واليك مقطوعة من إحدى قصائد قوريللونا عن غارة التتار :

إن الشمال يائس بنوء تحت أثقال الحرب ، فإن أهملت يا رب فسيهلكوني ثانية. فاذا غزاني التتار يا رب ، فلِمَ احتمي مع الشهداء ؟ فاذا كانت سيوفهم ستهلكني ، فلماذا أمسك صليبك العظيم ؟ وإن أنت سلمت مُدُني اليهم ، فأين عظمة كنيستك المقدسة؟ لما ينقض عام منذ وقعوا علينا ، وأهلكونا وأخذوا أطفالي في الأسر؛ وهم وا حسرتاه يهددون أرضنا بإخضاعها مرة ثانية .

كتابات لا يُعرف مؤلفوها

ونختتم حديثنا عن القرن الرابع بعدد منَ المؤلفات لا نعرف شيئاً عن كتّابها مثل السِيَر المسيحية القديمة للرسل ، التي نقلت من اليونانية الى السريانية في القرن الرابع ، ومنها سيرة يوحنا بن زَبَدَيّ ، وأعمال متى وأندراوس ، ووعظ فيلبوس في قرطاجنة ، وتعاليم سمعان كيفا (بطرس) في مدينة روما ، وسيرة لوقا الانجيلي .

وكذلك الأسفار المحذوفة من أدب الانجيل وأهمها بالسريانية أعمال بيلاطس ، والمراسلة التي كانت بين بيلاطس وهيرودس ، وخطاب الأسقف يعقوب المقدسي الى قوّا دراتوس عن تقرير بيلاطس الى طيباريوس في محاكمة المسيح ، وكتاب طفولة المسيح والراجح أنه يرجع الى أصل سرياني . وهناك ترجمة لهذا الكتاب نقلها السريان النساطرة الى أرمينيا حوالي سنة ٥٩٠ ، وتاريخ ولادة العذراء وتنشئتها ، والغالب أيضاً

أن انجيل توما قد كتب أصله بالسريانيــة ، وإنجيل يعقوب ، وكتاب عودة العذراء ، ورؤيا تيوفيل الاسكندري عن إقامة العائلة المقدسة في مصر .

وكذلك ظهرت مؤلفات من أدب الرؤيا ، منها انجيل الرسل الاثنى عشر ، والراجح أن أصله موضوع بالسريانية . أما القول بأن أصله موضوع في اللغة العبرية ، وعنها ترجم الى اليونانية ، ثم نقل من اليونانية الى السريانية فلا أساس له . ومنها رؤيا بولس والغالب أنها ترجمت الى السريانية عن اليونانية ، ثم ترجم النص السرياني الى الأرمنية في القرن السادس . أما كتاب عزرا الرابع المعروف برؤيا عزرا — والذي علّمه لتلميــذه كاربوس في الصحراء عن حكم الاسماعيليين فالمؤكد أنه يرجع الى العصر الاسلامي .

تاريخ انقسام الكنيسة

ظهرت المسيحية في وقت كانت الثقافة اليونانية مزدهرة فيه ، وكانت مدرسة الإسكندرية هي المقرُّ الرئيسُ لهذه الثقافة في العالم ، فلما انتشرت المسيحية في مصر كانت الأفلاطونية الحديثة هي مذهب اليوم — إن صحَّ هذا التعبير — عندما بدأ المسيحيون في الاسكندرية في الاتصال بالفلسفة اليونانية . وكان كليمانس الأسكندري أول عالم حاول التوفيق بين الفلسفة واللاهوت المسيحي ، ولكن اجتهاده العلمي كان سبباً في تجريده من منصبه.

وحاول أوريجين تلميذ أفلوطين نفسه إخضاع فلسفة عصره حتى تساير النظرية المسيحية ولكنه لقي في سبيل ذلك بعض الصعاب ، مع أن العالم المسيحي كان ينظر الى هذا التنقيح بعين ملؤها الاطمئنان والرضى ، فلما قام كليمانس وأوريجين بتكوين مدرسة مسيحية ذات لاهوت فلسفي لهذا الغرض ، أوجست كنائس العهد القديم خيفةً من هذه المدرسة ونظر اليها الفلاسفة نظرة ريبة . بل لقد كان فريق من المسيحيين في الاسكندرية يرمقون هذه المدرسة شزراً . ولكن المدرسة — على الرغم من ذلك — بلغت شأواً بعيداً وأحرزت شهرةً واسعة ، حتى أخذت تغطي على النظام الأسقفي القديم . ولكن ذلك لم يدم طويلاً فان الشراك قد نصبت لاوريجين ، وحيكت حوله المكائد حتى اضطرُّ أخيراً الى ترك الاسكندرية والرحيل عنها الى فلسطين ؛ وهناك أسس مدرسة في قيصرية على نمط مدرسة الاسكندرية ، ولكنها لم تبلغ ما بلغته تلك . ومهما يكن من شيء ، فقد لعبت هذه المدرسة دوراً هامًّا في تاريخ الكنيسة السورية ، ففيها كان يتركز النشاط اللاهوتي ، وشجعت على قيام مدارس أخرى من هذا النوع ، وكانت أولى هذه المدارس تلك التي أسسها مليطون في انطاكية حوالي سنة ٢٧٠ م .

نشأت مدرسة انطاكية في جوٍّ كان يسوده تفكير بولس الشمشاطي أسقف انطاكية حوالي سنة ٢٦٠ م . الذي كان يقول إن المسيح مجرد إنسان وإن كان قد هُيِّئَ ليرقى تدريجيًّا الى مرتبة اللاهوت . ومع انه قد عُقدت بانطاكية ثلاثة مجامع فيما بين سنتي ٢٦٤ و٢٦٩ للبحث في آراء بولس هذا ، وأن هذه المجامع قد انتهت الى إدانته ، فإن حكم

الحرمان لم ينفذ الا سنة ٢٧٢ عندما كفت زنوبيا التدمرية (الزباء) عن حمايته . وهذا يدل على عدم التحمس لمناهضة هذه الآراء التي أعلنها بولس الشمشاطي ، يؤكد ذلك ان هذه الآراء لم تندثر وإنما ظهرت ثانية في أوائل القرن الرابع على يدي أريوس الاسكندري المتوفى سنة ٣٣٦ وكان قد تلقنها عن أستاذه لوقيان الراهب الانطاكي .

ظهر آريوس في وقت كانت كثرة المسيحيين فيه تعتقد أن المسيح ابن الله ، وانه انبثق عن الآب بطريق الفيض ، وليس بطريق الأبوة الانسانية ؛ وأن المسيح إله ، لأن الفيض لابد أن تكون له نفس طبيعة المصدر الذي فاض منه ، وان الابن نتج عن الآب في الأزل وقبل أن تخلق العالمين ، وان الابن أو الكلمة هو الواسطة في الخلق . فلم يقبل آريوس هذه الآراء . وقال إن الله خلق المسيح من لا شيء ، وأن المسيح إنسان ، وأنكر أن يكون إلهاً أو شخصاً إلهياً ، وقال إنه لا يجوز لذلك أن تسمى أمه « والدة الله » وتبعه جماعة من المسيحيين كانوا يسمون بالأريوسية .

وخاف رجال الدين أن يستفحل أمر آريوس وينتشر مذهبه فاجتمع الأساقفة في مجمع ديني عقد بمدينة نيقية سنة ٣٢٥ م . في أيام الملك قسطنطين واجتمع به ٣١٨ من آباء الكنيسة . وقد أسفر هذا المجمع عن دحض مذهب آريوس ، وانتهى الأساقفة فيه الى وضع الأمانة البهية ضد مذهب آريوس أثبتوا فيها عقيدة المماثلة المطلقة بين الابن والآب : أي أنه لا فرق بين المسيح وبين الله من جهة الألوهية : وكانت نتيجة المعركة أن أصبحت الكنيسة الشرقية تفسر مذهبها طبقاً لفلسفة الاسكندرية ، وتبعها الجزء الأعظم من أنصار الكنيسة الغربية ، ومع ذلك فقد بقي القوط في ايطاليا وجنوب فرنسا وأسبانيا على صلتهم بالآراء الأريوسية ، حتى ظهر « أبولسيناريوس » في النصف الثاني من القرن الرابع ، فعاود إعلان هذه الآراء ، ونسب الى المسيح جسماً إنسانيًا ، وكان ينكر عليه النفس العاقلة وإن كان قد نسب اليه الاتصاف بالكلمة الإلهية والعقل الإلهي ، وجعل المسيح يتوسط بين الانسانية والإلهية بأن ركبه من جزء إلهي وجزئين إنسانيين .

وكانت مدرسة إنطاكية قد استطاعت خلال هذه الفترة أن تخرج جماعة من

المفكرين المسيحيين ، الذين كانوا قد اقتنعوا بآرائها . وكانت هذه المدرسة لا تميل الى الصوفية المسيحية ، وتُغلّب العنصر الانساني في المسيح على العنصر الإلهي ، وتكلم علماؤها عن الابن الذي تولّد عن الآب كأنه قد سبق الابن كما تسبق العلةُ المعلول ، وأن الابنَ لهذا يكون أقلّ خلوداً من الآب ، وليس في الخلود درجات لأن ذلك يجعل الله قابلاً للتغيُّر : لأنه كان بمفرده في فترة من فترات الخلود ثم أصبح أباً ، والعلة الأولى أو الإله الحقُّ عند الفلاسفة غير قابل لأدنى تغيير ، واهتموا بالمسيح من الناحية التاريخية ، فلما شرحوا الانجيل لم يُحمّلوا كلماته أكثر مما تحتمله ، ورأوا في صلب المسيح النهايةَ المقدورة لرجل ، ولم يروا فيها أنها وسيلة للخلاص من الخطيئة .

وقد ظهرت آراء مدرسة إنطاكية مرّة أخرى بشكل عملي في النصف الأوّل من القرن الخامس ، أي بعد قيام آريوس بقرن تقريباً ، حينما عُيِّن يوحنا أسقفاً على إنطاكية سنة ٤٢٩ م . وعُيِّن نسطوريوس أحد أصحاب يوحنا أسقفاً على القسطنطينية في نفس العام . فقد خطب نسطوريوس عقب توليته خطبة قال فيها: إن يسوع إنسان ، وإن تجسُّم المسيح عبارة عن مصاحبة بين الكلمة الأبدية والمسيح الإنساني ، وإن مريم أم المسيح ولا يصح لذلك أن تُسمّى « والدة الله » . فأغضبت هذه التعاليم عدداً كبيراً من الأساقفة والقسس لاسيما في أوروبا ومصر . وكان أشد الأساقفة سخطاً عليه كيرلّس أسقفُ الاسكندرية الذي نشر اثنا عشر فصلاً سماها لعنات ، لعن فيها مذهبَ نسطوريوس ، وحمل فيها على نسطوريوس نفسه وعلى كل المدرسة الانطاكية ، ووقف يوحنا أسقفُ أنطاكية يناصر نسطوريوس فردَّ على اللعناتِ الاثنتي عشرة التي نشرها كيرلّس وحقّرها أشد تحقير

واشتدت المناقشة بين يوحنا الانطاكي وبين كيرلّس الاسكندري حتى دعى تيودوسيوس قيصر القسطنطينية في آخر عام ٤٣٠ م . أساقفة مملكته من كلا الحزبين الى مجمع عقد في افيزوس بالأناضول في عيد فصح سنة ٤٣١ وبكّر كيرلّس وأصحابه في الحضور الى المجمع قبل خصمه يوحنا ، وقد أفاده هذا التبكير فاستطاع أن يحمل المجمع على رفض مذهب نسطوريوس قبل أن يصل صاحبه يوحنا . فلما وصل يوحنا مع أصحابه غضب عند ما علم بما حدث ، وعقد هو وأصحابه مجمعاً مستقلاً في افيزوس جرّدوا فيه كيرلّس وأصحابه من رتبهم الكنسية .

وقع كل ذلك ولمـّا يصل مندوبو البابا وأسقف روما ، الذين كانت لهم رئاسة المجمع ، فلما وصلوا شايعوا كيرلس وأقرّوه على رأيه ورفضوا مذهب يوحنا وأصحابه .

ولمـا انتهى خبر ما وقع في افيزوس الى القيصر تيودوسيوس غضب ، وبعث مندوباً بمرسوم يعـزل به كيرلس ونسطوريوس . ثم أقيم على القسطنطينيـة أسقفٌ اسمه مكسيميانوس خلفاً لنسطوريوس ، فظهر أنه من أصحاب كيرلّـس . وحاول القيصر أن يصلح بين يوحنـا وبين كيرلّس فلم ينجح لأن كيرلّـس اشترط لذلك عزل نسطوريوس ، والاعتراف بمكسيميانوس أسقفـًا على القسطنطينية . ولم يتمّ الصلح بينهما إلاّ في سنة ٤٣٣ على يد الأسقف أقاقيوس أسقف مدينة بيرا إحدى مدن سوريا . وكان بولس أسقف حمص — وهو أكبر أساقفة سوريا سنـًا — هو رسول يوحنا الى كيرلس للاتفاق معه على مسائل الخلاف ، وأرسل معه رسالة تشتمل على نصوص الاتفاق .

وفي نفس ذلك الوقت كان النساطرة قد ازدادوا اعتقاداً بأن معارضيهم قد حادوا عن المنطق : إذ فرضوا أن النفس العاقلة والـكلمة قد اندمجتا في المسيح أو اتحدتا معاً . فنبذوا الكنيسة الرسمية وكوّنوا كنيسة لا تتعارض مع هراطقة افزوس . ولـكن الدولة كانت تؤيد الـكنيسة الرسمية . فأخذ النساطرة يلقون مختلف أنواع الاضطهاد ، وبخاصـة في أنطاكية والأقليم الذي كان يميل الى الثقافة اليونانيـة في سوريا ، واعتُـبر النساطرة فرقة آبقة ، ولم تجد النسطورية لها مجالاً إلاّ بين المسيحيين الذين يميلون الى الثقافة السريانية .

وبعـد ما يقرب من نصف قرن من إنشاء مدرسة أنطاكية أي حوالي سنة ٣٢٠ أسّست مدرسة نصيبين الحديثة في وسط لغتُـه السريانية ، ولهذا كانت الدراسة فيها باللغة السريانية فوُضعت تراجم سريانية للـكتب اللاهوتية التي كانت تدرس في أنطاكية . وكانت تُـدرس فيهـا اللغة اليونانية أيضاً ، وبذلك أصبح المسيحيون الذين يتكلمون السريانية على اتصال بالحياة الـكنسية العامة .

ولـكن مدرسة نصيبين لم تَـعَـمّـر طويلاً ، وإنما اضطرت الى الانتقال الى الرّها سنة ٣٦٣ حينما سُلِّـمت مدينة نصيبين للفرس تنفيذاً لشرط الهدنة بعد الحرب الطائفة التي بدأها يوليانوس ، وكذلك نزح رجال كنيسـة نصيبين الى الرّها ، وافتتحوا بها

مدرسة سنة ٣٧٣ . وبهذا أصبحت الرُّها مركز الكنيسة غير الرسمية للمتكلمين بالسريانية داخل حدود الامبراطورية البيزنطية . وجمعت الرُّها شمل أولئك الذين لم يوافقوا على قرارات مجمع افزوس ، ولهذا أغلقها الامبراطور زينون سنة ٤٣٩ بحجة أنها ذات صبغة نسطورية قوية . فهاجر النساطرة وعلى رأسهم برصوما أحد تلاميذ إياس وأكبر أعلام الرُّها ، وارتحلوا عبر الحدود الفارسية . وتمكن برصوما من إقناع « فيروز » امبراطور الفرس بأن الكنيسة الأرثوذكسية الرسمية كنيسةٌ يونانية ، وأن النساطرة قد هجروا الامبراطورية البيزنطية لسوء المعاملة التي لاقوها . ولهذا الاعتبار قوبل النساطرة بالترحاب في بلاد الفرس ، وبقوا مخلصين للعرش الفارسي في الحروب التي قامت بعد ذلك مع الامبراطورية الرومانية . وأعاد النساطرة فتح مدرسة نصيبين ، فأصبحت مركز الحركة النسطورية وخلعت على المسيحية مسحةً شرقية ، وانتشرت البعثات النسطورية تدريجيًا في كل وسط آسيا وجنوبها ناحية البلاد العربية . والراجح أن المسيحيين الذين كانوا في الجزيرة العربية عند ظهور الاسلام كانوا من النساطرة .

أما اضطهاد الدولة البيزنطية للنساطرة فلعلنا نلحظه في قصة أوطيخي (اوتيخيوس) ، الذي كان من أصحاب الطبيعة الواحدة ، والذي أعلن سنة ٤٤٤ م . أن الابن الأزلي لم يأخذ من مريم شيئًا ، ولكنه استحال وتغيَّر وصار لحمًا ودمًا وجازَ في مريم من غير أن يأخذ منها شيئًا . فلما بلغت مقالته الى رئيسه « فلافيانوس » أسقف القسطنطينية عزله ؛ فالتجأ أوطيخي الى ديوسقوروس الذي خَلَفَ كيرلُس على كرسي الاسكندرية ، فأعانه وحرَّض الامبراطور تيودوسيوس الثاني على عقد مجمع يُفرَض عليه محو النسطورية محوًا

واجتمع المجمع في افيزوس مرةً ثانية في أغسطس سنة ٤٤٩ وأفلح ديوسقوروس في أن تكون الكثرة في هذا المجمع الى جانبه . وانتهى المجمع الى إعلان براءة أوطيخي من تهمة الهرطقة وإعادته الى مركزه وعُزل فلافيانوس وعدد غيره من الأساقفة وأُهين المندوبون الرومان وغيرهم ممن قاموا بالمعارضة في المجمع . وسُمي هذا المجمع « بالمجمع الطمث » .

ورفض الامبراطور ليو الأول أن يعترف بالمجمع وأوقف ديوسقوروس وطاب عقد

مجمع كبير . ونرى من ذلك أن ديوسقوروس فقد بوفاة تيودوسيوس الثاني أكبر معين له .

ومع أن نسطوريوس قد عُزِل ، فإن الكنيسة السريانية قد وجدت نفسها أمام مشكلة ، فقد كان الاعتراض حقاً : فإنه اذا كانت الكلمة والنفس العاقلة في المسيح قد اندمجتا معاً لدرجة أن النفس العاقلة أو الروح قد تلاشت في مصدرها ، فإن الكلمة قد سكنت جسداً حيوانياً فتلاشت إنسانيةُ المسيح كلها . ولهذا شعرت الكنيسة في قرارة نفسها بأن مقالة الدين لا تتفق والمنهج العلمي الصحيح ، أو على الأقل لا تتفق مع العلم الذي كان معروفاً في ذلك الحين . وكان أعداء الكنيسة هم المتحمسين للعلم الذين يطبّقون مناهجه .

وظهرت معارضة أخرى أيّد أصحابها فكرة الاتحاد بين الكلمة والنفس العاقلة في المسيح . وقالوا إنه بهذا الاتحاد بينهما يحفظ ناسوت المسيح كاملاً كما يحفظ لاهوته كاملاً ، ويكون الاتحاد بمثابة شيء لا ينفصل . وبهذا تحرزوا من الفكرة النسطورية .

كانت هذه الفكرة ، وهرطقة أوطيخي وبعض ما دار في مجمع افزوس الثاني الذي عقد سنة ٤٤٩ م . سبباً في ازدياد الرغبة الى عقد مجمع مسكوني جديد ، وهي الرغبة التي كان يتجاهل وجودها تيودوسيوس الثاني الأوطيخي النزعة ، والتي عجل خلفه مرقيان بتحقيقها . فاجتمع في كلقدونية في الثامن من أكتوبر سنة ٤٥١ م تحقيقاً للرغبة الأمبراطورية ما بين خمسمائة وستمائة كلهم من الأساقفة الشرقيين ، عدا مندوبين من الرومان واثنين من أساقفة افريقية . وطلب أسقف روما أن تكون رئاسة المجمع لمندوبيه ، وأصر على وجوب بطلان كل ما لا يوافقون عليه . وكانت الجلسة الأولى صاخبة عنيفة ، وكانت العبارات البذيئة تقذف خلالها هنا وهناك . وعرضت نتائج مجمع افزوس الثاني على بساط البحث فاستبعدت جميعها ، وانتهى الأمر الى عزل بطلها ديوسقوروس في الجلسة الثالثة .

وقد طلب الأمبراطور الى المجمع أن يرسم حدود العقيدة الصحيحة . ولكن المجمع لم يشأ أن يصدر تحديداً جديداً ، وإنما اكتفى بتأكيد ما صدر عن مجمع نيقية والقسطنطينية خاصًّا بالعقيدة ، والتحديد الذي وضعه مجمع أفزوس الأول الذي عقد سنة ٤٣١ ، مع قبول الوضع الذي جاء في كتاب ليو الأول الى فلافيانوس خاصًّا بطبيعة المسيح ، كما رفض

كلاً من عقيدتي النسطورية والاوطيخية . وانتهى الى الاعتقاد بأن للمسيح طبيعتين : كل منهما كاملة في ذاتها متميزة عن صاحبتها ، وهما مع ذلك متحدتان في شخص واحد هو في وقت واحد إلـه وإنسان .

وقد تبعت الكنيسة المصرية عقيدة أصحاب الاتحاد أو أصحاب الطبيعة الواحدة ، الذين أطلق عليهم فيما بعد اسم اليعاقبة ، نسبة الى يعقوب البردعي ، وكان لهم في سوريا أتباع كثيرون . وكانوا كالنساطرة موضع اضطهاد الامبراطور وكنيسة الدولة ، ولكنهم لم يهجروا الامبراطورية البيزنطية ، بل بقوا داخل حدودها كتلة هامة ولكنها ساخطة أشد السخط . وكانوا كالنساطرة يميلون الى ترك لغة مضطهديهم ، فاستعملوا اللغتين القبطية في مصر والسريانية في سوريا.

والى جانب هذه المدارس الثلاث كانت هناك مدارس أخرى أثرت الى حد ما في هذا النزاع تأثيراً كان غير مباشر في بعض الأحوال ، منها :

١ — المدرسة التي أنشأها القديس أبـا في سلوقيا سنة ٥٥٠ وهو من المتحولين عن الزرادشتية الى المسيحية النسطورية ، وقد أنشأ هذه المدرسة حين كان جاثليقاً على النساطرة وجعلها على نمط مدرسة نصيبين .

٢ — المدرسة الزرادشتيـة التي أنشأها كسرى أنو شروان امبراطـور فارس في جنديسابور بخوزستان ، وكان يعمل فيها عدد من فلاسفة اليونان الذين هاجروا الى فارس حينما أغلق يوستنيان مدارس أثينا ، وكذلك عدد من أطباء النساطرة ، ومن بين من نشأوا في هذه المدرسة الحارث بن كلدة وابنه النضر الذي أورد ابن سينا اسمه في القانون الخامس

٣ — مدرسة حرّان الوثنية ، ونحن لا نكاد نعرف عن تاريخ تأسيسها شيئاً وكل ما نعرفه أن حرّان كانت مركزاً للتأثير اليوناني منذ عصر الاسكندر . ثم أصبحت مأوى للديانة اليونانيـة القديمة عند ما أصبح العالم اليوناني كله مسيحيـاً . ومع أنه يظهر أن حرّان قد ورثت شيئاً عن الديانة البابلية القديمة التي بعثت أخيراً في القرون الأولى للمسيحية فقد طغى على ذلك تقدم الوثنية بعد أن نقحتها الإفلاطونية الحديثة .

كتّاب السريان

في القرن الخامس

كانت المنازعات التي قامت بين المسيحيين حول طبيعة المسيح ومشيئته سبباً في ازدهار الأدب السرياني في هذا العصر، وظهور أجود ما عرفه السريان من آدابهم، ونستطيع أن نقول إن العصر الذهبي للأدب السرياني يبدأ منذ انقسم المسيحيون الى جماعتين، تنسب إحداهما للمسيح طبيعتين، وتنسب له الأخرى طبيعة واحدة. وعاد أصحاب الطبيعة الواحدة فانقسموا الى قسمين: أصحاب الطبيعة الواحدة والملكية. والملكية هم أصحاب الكنيسة الرسمية. ويلاحظ مع ذلك أن هناك حدًّا فاصلاً في السريانية بين أصحاب الطبيعة الواحدة في الغرب وأصحاب الطبيعتين في الشرق: فقد اتخذ كل جماعة منهم لهجة تختلف من لهجة الجماعة الأخرى، ومن المحتمل أن يكون ذلك نتيجة الموقع الجغرافي؛ ولكن الأرجح أن ما كان بينهما من نزاع على العقيدة قد زهّد كل واحد منهما فيما كان عند الآخر، فاستعمل كل منهما حروفاً مختلفة في الكتابة، ونظاماً متبايناً للحركات.

ومنذ بداية القرن الخامس يبدأ انقسام كتّاب السريان الى جماعتين تناصر كل جماعة منهما مذهباً من المذهبين المسيحيين الرئيسيين، ولذلك فإننا سنفرد للحديث عن الكتّاب في كل قرن من القرون التالية قسماً خاصاً، فنبدأ عادةً بالحديث عن كتّاب أصحاب الطبيعة الواحدة ثم ننتقل الى الحديث عن كُتّاب أصحاب الطبيعتين أو النساطرة.

ربّولا

كان ربولا هو أول من ظهر من كُتّاب أصحاب الطبيعة الواحدة في هذا القرن. وُلد في قنسرين (١)، وكان أبوه كاهن الأصنام فيها؛ ويقولون إن يوليانوس قد ارتدّ عن المسيحية الى الوثنية على يديه، حينما مَرّ بقنّسرين عند خروجه لحرب الفرس. وكانت أمه مسيحية، فأخذت تحبّب إليه دينها، ثم زوّجته من مسيحية.

(١) قنسرين اسم سرياني مركب من كلمتين (قن + نسرين) ومعناه عش النسور. ومكانها الآن خراب تقوم عليه قرية بسيطة تدعى بالعيص. وقد زعموا أنها سميت كذلك لأن قبر نبي عليه السلام يقع في جانبها.

درس العلوم اليونانية ، ودخل سلك الوظائف حتى وصل الى وظيفة رئيسية ؛ وكانت أمه وزوجه مثابرتين على إغرائه باعتناق المسيحية ، يعاونهما في ذلك أبراهام راهب دير مرقيانوس القريب من قنسرين . وأخيراً تعمّد على يدي أوسابيوس أسقف قنسرين، وأقاقيوس أسقف حلب ، وصلى في قداس استشهاد القديسين كوسماس ودميانوس في حلب. ثمّ أراد أن يؤكد ايمانه فسافر الى فلسطين حاجًّا ليتعمد في نهر الأردن . فلما عاد أراد أن يأخذ نفسه بتعاليم الدين الجديد ، فعمل بقول الانجيل « اترك مالك واتبعني » فترك زوجته وأولاده ، وأعطى أمواله للفقراء ، ودخل دير أبراهام بالقرب من قنسرين ، وبقي به حتى مات ديوجين أسقف الرّها في أوائل سنة ٤١١ فاختير خلفاً له سنة ٤١٢ فبدأ حياته كأسقف بمحاربة الهراطقة القدماء الذين حاربهم افريم قبله ؛ والذين كان لا يزال لهم مشايعون في الرّها .

وقد اشترك ربولا في النزاع الديني الذي كان قائماً في أيامه ، فحضر مجمع افزوس الأول سنة ٤٣١ وكان في أول أمره الى جانب يوحنا الانطاكي مشايعاً لنسطوريوس ضد كيرلس . ولكنه عاد فانضمّ الى الجانب الآخر ، وأصبح من أشد المتحمسين لعقيدة كيرلس وأصبح من أقرب أصدقائه ، ولذلك اعتبره أتباع نسطوريوس منذ ذلك الحين معارضاً قويـاً . فقد هاجم نسطوريوس في القسطنطينية في خطاب مطوّل ألقاه أمام تيودوسيوس الثاني . وقد بلغت به الخصومة حدًّا دفعه الى احراق كتابات تيودور المفزوستي ، وقد لقبه إياس في خطابه الى ماري بـ «طاغية الرّها» . وكان أندرو الشمشاطي يشكو من اضطهاد ربولا للنساطرة مرّ الشكوى في خطاب بعث به الى الاسكندر أسقف هيرابوليس ومات في أغسطس سنة ٤٣٥ .

وكان يجيد اللغتين اليونانية والسريانية فترجم عن اليونانية عدداً من الكتابات، أهمها ترجمة العهد الجديد وهي الترجمة المعروفة باسم « پشيطتا » وكذلك ترجم الى السريانية رسالة كيرلس التي وجهها الى القيصر تيودوسيوس عن نسخة أرسلها اليه كيرلس نفسه، وترجم لعنات كيرلس الاثنتي عشرة وأضاف اليها شرحاً ومقدمة دفاعاً عنها .والخطبة التي ألقاها هو في القسطنطينية يهاجم فيها نسطوريوس ويعدد فيها أخطاءه .

وقد بقي لنا من كتاباته السريانية : ثلاث مجموعات من الرسائل والقوانين والأوامر الموجهة الى الرهبان ، عنوان الأولى « قوانين »، وعنوان الثانية« تنبيهات خاصة بالرهبان » وعنوان الثالثة « أوامر وتنبيهات الى رجال الدين » . وموعظة عن إخراج الصدقات على أرواح الموتى ، ووقف الاحتفال بالأعياد في مناسبات ذكراهم ، وعدد من التراتيل الطقسية اليعقوبية مقسمة على نظام الأنغام الكنسية الثمانية .

ويذكر كاتب سيرة ربولا أن ربولا كتب باللغة اليونانية عدداً من الميامر و٤٦ رسالة موجهة الى القسس والأباطرة والأشراف والرهبان ، وانه يعتزم ترجمتها الى اللغة السريانية . ومن هذه الرسائل رسالته الى أندرو الشمشاطي يهدم فيها رسالتـه في الطعن على لعنات كيرلس الاثنتي عشرة . ورسالته الى كيرلس بشأن تيودور المفزوستي . وكتابه الى جليانوس أسقف قارين من الرهبان والجماعـة الذين يسيئون استعمال الأسرار المقدسة فيتناولون القربان كأنه طعـام عادي . وقد نشرت هذه الرسالة الأخيرة في الفصل الرابع من الكتاب العاشر من تاريخ زكريا . وفي تاريخ ديونسيوس التلمحري .وله كذلك كتاب باليونانية عنوانه « أنت أيها المسيح » .

سيرة ربولا

وبعد وفاة ربولا بوقت قصير قام مؤلف رهاوي مجهول يرجح أنه أحد شمامسة اسقفيته بتسجيل سيرة ربولا في رسالة تعد من روائع الأدب السرياني أبرز فيها صورة واضحة تمثل شخصية ربولا وما عرف عنه من عطف على المساكين وانكار للذات وحياة كلها حرمان وتقشف .

سيرة الانسان التقي

وفي ذلك العصر أيضاً ظهرت سيرة سريانية لمؤلف مجهول بعنوان « رجل الله » أو « الانسان التقي » . وقد لقيت هذه السيرة من الذيوع والانتشار ما لم تلقه سيرة قديس آخر . فقد نقلت هذه السيرة عن السريانية — وهي اللغة الأصلية التي أُلِّفت فيها - الى اليونانية واللاتينية ، ثم انتقلت بعد ذلك الى جميع الآداب في أوروبا المسيحية ، ومن المرجح أيضاً أنها نقلت الى الأرمنية والعربية والحبشية .

وملخص هذه السيرة : أنه كان في روما شاب من أبناء العظماء اسمه « الكسيوس » وأراد أبوه أن يُزَوّجه ، فلما كان يوم العرس هرب الشاب من عروسه ومن بيت أبيه وسافر الى مدينة الرُّها ، وبقي فيها زاهداً يصلي ويعيش على ما يجود به عليه الخيرون ، يتبلّغ منه بكسرة خبز وقليل من البقل ، ثم ينفق ما يتبقى منه بعد ذلك على غيره من المعوزين .

وكان ذلك الرجل يصرف وقته كله في الكنيسة لا يكاد يبرحها ، فعرف فيه خادم الكنيسة رجلاً زاهداً صالحاً تقياً لم يشهد في حياته رجلاً في مثل سيرته ، فأنِس اليه ، وحُبِّب الى نفسه مراقبته ومتابعة حركاته . ثم إن الرجل مات ذات يوم ودُفن ، فأسرع خادم الكنيسة وأخبر أسقف المدينة — وكان ذلك الأسقف هو ربّولا — وقصّ عليه كل ما عرفه من أمره ، وكان صيته قد سبقه الى ربولا ، وأراد ربولا أن يحتفل بتشييع جثمانه بما يليق برجل تقي ورع ، فتوجه الى المقابر لاستخراجها للاحتفال بتشييعها . فلما فتح قبره ، لم يجد فيه إلاّ الخِرَق التي كانت تكسو ذلك الانسان التقي .

هذا هو ملخص السيرة في صيغتها السريانية ، ومع أن الحقائق التاريخية تصطبغ عادة ، بالصبغة القصصية متى بلغت أفواه العامّة فتُطعّم بالكثير من الأشياء العجيبة — وبخاصة اذا كانت هذه الحقائق سرداً لحياة قديس — فإن هذه السيرة لم تخضع لهذه القاعدة ، وكل ما فيها من الأشياء العجيبة هو الجزء الخاص بزيارة القبر واختفاء الجثة وبقاء الخرق التي كانت تكسو ذلك الانسان التقي ، وأغلب الظن أن هذه الفقرة قد زيدت بعد وضع السيرة نتيجة لانتقالها الى الآداب الأوروبية .

وكان من أثر انتشار السيرة هذا الانتشار الكبير أن الزيادة لم تقف عند هذا الحد ، فإن العامّة تحب أن تسمع العجائب والمعجزات ، وكان لا بدّ من إشباع نَهَمِهم ، وإطلاعهم على ما كان من أمر ذلك القديس الذي اختفت جثته من قبره ، فكان لا بدّ إذاً من إعادة سبك السيرة ليضاف اليها قسم آخر مجمله : أن ذلك الإنسان التقي قد بُعث بعد ذلك ، فلما قام من قبره عاد الى مدينة روما ثانية ، وعمل مع العبيد في دار أبيه ، ولكن أباه لم يعرفه إلاّ بعد موته ثانية .

ومعروف ان السيرة بقسميها تمّ نَسْخها في القرن السادس على الأرجح، أي في عصر قريب من عصر أبطالها .

ولعلّ أوضح دليل على أن القسم الأول منها هو الأصل أن المخطوطات القديمة الباقية تخلو من القسم الأخير وتنتهي بوفاة الكسيوس في الرّها .

ثم ان القسم الأول سرياني أصلي في فكرته ، كاملٌ تامٌّ بذاته بينما القسم الثاني من أصل أجنبي ، وظاهر انه لم يلحق بالسيرة إلاّ في وقت متأخر ، ولعلّ ذلك نتيجة للخلط بين هذه السيرة وسيرة قديس آخر .

وأقدم مخطوطات هذه السيرة ثلاث ، واذا عرفنا ان تاريخ نسخها يرجع الى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس وعلمنا أن ربولا يوصف فيها بالطيّب مرة والقديس أخرى ، لرجحنا أن هذه السيرة قد كتبت بعد وفاة ربولا سنة ٤٣٥ وأنها ترجع على الارجح الى الربع الثالث من القرن الخامس . أما القسم الثاني فيغلب على الظن أنه كتب في وقت متأخر جدّاً ، يدل على ذلك أن نسخ المخطوطات التي تشتمل عليه يرجع أقدمها الى القرن التاسع ، والأمر الذي لا شك فيه أن هـذا القسم لم يكتب إلاّ بعد وفاة جميع من شاهدوا وقائع هذه السيرة بزمن طويل أي حوالي أواخر القرن الثامن .

بالَيْ

اسم لشاعر لا نكاد نعرف شيئاً عن شخصيته أو تاريخ حياته ولكنه كان يمثل الشعر الكنسي السرياني القديم بعد إفريم ، وكل ما نعرفه عنه مستمد مما جاء في أحد مداريشه ومما رواه ابن العبري في قطعة ذكرها السمعاني في كتاب المكتبة الشرقية انه رسم أسقفا (خور أنسقفوس) على منطقة في أبرشية حلب بعد زمان إفريم وقبل مجمع أفزوس الأول سنة ٤٣١ م .

أما عن أعماله الأدبية فقد بقى لنا من القصائد الثابتة النسبة اليه من كتابات القرن السادس ، خمسة مداريش في ذكرى وفاة أقاقيوس أسقف حلب الذي يقال إنه كان صاحب الفضل الأكبر في تحويل ربولا عن الوثنية الى المسيحية . ويقال إنه عُمّر مائة سنة وعشر وتوفى سنة ٤٣٢ م

ومدراش سادس في تدشين كنيسة جديدة بمدينة قنسرين . ونستطيع أن نستنتج من مداريشه أنها كتبت في القرن الخامس ، وكان مسرحها في الشمال الغربي من سوريا بين الفرات وشاطىء البحر المتوسط . وله ميامر على المقاطع الخمسة ، منها قصيدة عن القديسين قاوستينوس ومترودورا ، وأخرى عن القديس جرجس ، ومرثية في مقتل أورياس ، وقصيدة في رثاء هارون أخي موسى على وزن المقاطع الأربعة .

أما من الناحية الطقسية فاسمه يقترن بالسلالم والبواعيث في الشعر ذي المقاطع الخمسة ، وينسب إليه نشيد ينشده اليعاقبة والموارنة في صلاة الليل عنوانه « راحم الخطاة » ، ويضاف هذا النشيد الى افريم أيضاً . ويلاحظ في الأشعار التي تنسب أحياناً الى بالي وأحياناً إلى افريم ، أن المخطوطات المتأخرة تنسبها الى بالي ، ومنها قصيدة كبيرة في تاريخ يوسف الصديق مكونة من ١٢ ميمرا تعدُّ من أروع ما كتب في الشعر السرياني .

سمعان العمودي

كان سمعان هذا أول رهبان الأعمدة ولهذا لُقِّب بالعمودي ، وقد ذاعت شهرته عند أصحاب الطبيعة الواحدة من المسيحيين في المشرق. ولد سنة ٣٩٠ م . بقرية الصيص بالقرب من مدينة نيقوبوليس على حدود سوريا الشمالية (١)

وكان أبوه — فيما يقولون — من سراة القرويين المسيحيين . كان في صغره يرعى غنم أبيه فاعتاد الوحدة والصمت منذ الصغر ، وترعرع قوياً جميل الطلعة ولكنه كان قصيراً. وكان أثناء رعيه يجمع أنواع البخور ويحرقها قرباناً ، ولكنه كان لا يدري لمن يقربها . وربما كان يفعل ذلك منقاداً الى عادة وثنية قديمة دون أن يشعر . لأنه الى أن تعمد لم يكن ذا ثقافة دينية . ويقولون إن ذهنه انصرف الى الناحية الدينية لأول مرة عند ما ذهب مع أبويه مرة الى كنيسة قريته فسمع مَثَلَ الانجيل الذي يتحدث عن سعادة الفقراء والمحرومين فتأثر به كثيراً . ويقولون إنه ظهرت له بعد ذلك رؤى دفعته الى ترك العالم والسير حثيثاً في طريق التنسك . وتسجل له السيرة السريانية بعض العجائب في هذه المرحلة الأولى من حياته نورد هنا واحدة منها لنصوّر للقارىء هذا النوع من العجائب ؛ فيروي

(١) اسمها الآن اصلاحية وهي بين سوريا وقليقية وهي غير الصيص المعروفة الآن في اقليم للبقية

صاحب السيرة أن سمعان اشتهى السمك بعد صيام دام عشرين يوماً ، فذهب الى ابنة سماك كان يصيد في بحيرة قريبة وطلب اليها أن تبيعه خمسة ارطال من السمك . تقول السيرة إن ابنة السماك أقسمت له كذباً أن ليس عندهم سمك فانصرف سمعان ، ولكن قوة خفية استولت على السمك وكذلك على الفتاة ، فأخذ السمك يتقلب زاحفاً خلف سمعان في الطريق والبنت تعدو من خلفه ، فلما رأى سمعان ذلك صرف تلك القوة التي استولت على السمك ، وهدّأ من روع الفتاة ووعظها مؤنباً ، ثم تابع سيره فوجد في طريقه سمكة كبيرة بارك الله فيها فأخذها وبقي يأكل منها ثلاثة أيام هو وبعض الرعاة واثنان من الجند.

ودخل سمعان صغيراً دير يوزيبونا في «تل عدا» في منطقة أنطاكية وأهدى ماله ونصيبه من تركة عمة له الى هذا الدير وغيره من الاديرة ، ومكث سمعان في هذا الدير نحواً من عشر سنوات فلما بلغ الثلاثين من عمره طرده رهبان هذا الدير لمبالغته في التقشف في معيشته فلم يشأ أن يدخل ديراً آخر ورحل الى قرية تل نيشي[1] فربط رجله اليمنى بسلسلة طويلة الى حجر كبير، وكان لا غطاء له وأقام فوق هذا الحجر منذ سنة ٤١٢ الى أن رجاه مليطيوس الانطاكي فك هذا القيد . فعاش بعد ذلك على عمود في معبد الآلهة في منبج . وهو عمود مرتفع كان يتسلقه رجل مرتين في العام ويمكث مع الآلهة سبعة أيام . ولكن هذه العادة كانت قد اندثرت تماماً قبل عهد سمعان . والراجح أن سمعان كان يجهل كل شيء عن هذه العادة ، بل إن جميع المثقفين في عصره كانوا ينظرون الى فكرة الأعمدة على أنها فكرة جديدة ، وقد حاول بعض المستشرقين أن يدللوا أن فكرة عمود منبج كانت مثلا احتذاه قديسو الأعمدة وعلى رأسهم سمعان . ولكننا لا نستطيع أن نجد أي رابط تاريخي بينهما .

أقام سمعان بعد ذلك ثلاثة أشهر على أحجار باب سور المعبد ثم بنى له عموداً ليقيم فوقه ارتفاعه ست أذرع لكي يمكنه أن يخاطب الناس بسهولة . وكان يتحمل في الإقامة فوقه حرارة الشمس وبرودة الجو ، ومع أنه كان في ذلك نوع من أنواع التعذيب الجثماني إلا أنه كان في نفس الوقت يرفعه عن سكان الارض . وقد تساءل الناس قديماً عما يقصده سمعان من الإقامة فوق عموده ، وكان بعضهم يهزأ من هذه الحماقة ، ولم

(١) وتقع بين انطاكية وحلب وتبعد مسيرة يوم عن أنطاكية

يتمكن المدافعون عنه إلاّ أن يقولوا إنه فعل ذلك لأن الله أراده . ولكن الراجح أن هذا الوضع الشاذ لسمعان قد أثر في نفوس الكثيرين ، فإنه لو أقام على الأرض كغيره من الناس لما بلغ هذه الشهرة التي بلغها. وقد بنى سمعان بعد ذلك ثلاثة أعمدة خلال سبعة أعوام كان كل واحد منها أكثر ارتفاعاً من سابقه ، حتى كان ارتفاع آخر عمود بناه ٢٠ متراً . وقد عاش فوق عموده الأخير ثلاثين عاماً دون أن يهبط الى الأرض ، والظاهر أن تلاميذه كانوا يحملون إليه جميع حاجياته من مأكل ومشرب وملبس إما بواسطة سُلّم، أو بواسطة قفة يدليها القديس يضع له فيها تلاميذه ما يحتاج إليه . وفوق هذا العمود كان القديس ينام ، ويصلي ، ويقوم بالتبشير لرد الكثيرين عن الوثنية الى النصرانية ، كما كان يشترك في السياسة الكنسيَة . وكان يستقبل الناس بعد الظهر فيخطب من يحضر منهم مُعلّماً ومعزّياً ومحذّراً ، ويفض ما يقوم بينهم من منازعات . ويكفي لكي نتصوّر قوّة احتمال سمعان أن نعلم أنه كان يسمع الناس كلامه من فوق هذا الارتفاع الشاهق ، وهذا يدل على أن صحته كانت قوية .

ويذكرون أنه كان لا يخاف السلطان . ويروي صاحب سيرته للتدليل على ذلك أن « اسكليبيودوتوس » عامل للقيصر تيودوسيوس الثاني كان يحمل أمراً من القيصر بأن يُرَدّ الى اليهود الكنيس الذي أخذه المسيحيون منهم عنوةً وأقاموا فيه شعائرهم . وقد أثار ذلك المسيحيين ، ولم يتخيلوا أن يعطوا للذين صلبوا المسيح أماكن تقام فيها الطقوس المسيحية ، والتجأ الأساقفة الى سمعان فكتب خطاباً شديد اللهجة الى القيصر واضطرّ القيصر تيودوسيوس الى إلغاء الأمر ، وأرسل الى سمعان يعتذر له كتابةً ، وعزل اسكليبيودتوس صديق الوثنيين واليهود . ولكننا لا نذهب في أمر هذه القصة مذهب صاحب السيرة فقد كان أمر القيصر ينص على أن يُعوّض اليهود عن الكنيس الذي أخذه المسيحيون من اليهود وأقاموا فيه طقوسهم الدينية . وقد صدر هذا الأمر سنة ٤٢٣م في الوقت الذي لم يكن سمعان قد عُرف فيه بعدُ ، ولعله لم يلعب هذا الدور الذي تحكيه السيرة ، وهذا يدلنا على أن السيرة تريد أن تصوّر سمعان في صورة صاحب السلطان الكبير والقدرة الفائقة على حل المشاكل .

وكان سمعان يكاتب العظماء ، وينسب إليه في هذه الناحية أنه أرسل في أواخر حياته (سنة ٤٥٧ — ٤٥٨ م) موافقة كتابية الى القيصر ليو يوافق فيها على ما انتهى إليه مجمع كلقدونية الذي قرّر أن للمسيح طبيعتين ، وأنه كتب في ذلك المعنى أيضاً الى باسيليوس بطرق أنطاكية ؛ ولكن الراجح أن السريان من أصحاب الطبيعة الواحدة — الذين يعدُّون سمعان أحد قديسيهم — يجهلون تماماً مشاركته في مشايعة أصحاب مجمع كلقدونية . وينسب إليه أيضاً أنه كان يعارض تعاليم مجمع افزوس الذي عقد سنة ٤٣١ م. وأنه كتب خطاباً في ذلك الى يوحنا الأول بطرق أنطاكية ولذلك يعده النساطرة أحد قديسيهم . ومع أن هذه الرسائل قد وصلتنا في مخطوط يرجع الى حوالي القرن الثامن إلاَّ أننا نظن أنها من وضع النساطرة فاننا نشك كثيراً أن سمعان قد فهم مسائل النزاع حول طبيعة المسيح التي عرضت على بساط البحث سواء في مجمع كلقدونية أو في مجمع أفزوس.

وكان لسمعان تأثير كبير على الأميّين الذين يسمعون عن أعماله ، وبخاصة على البدو من العرب الذين اعتنقوا المسيحية على يديه ، ولكن العدد الذي يروونه مبالغ فيه .

وبعد أن عاش سمعان ٦٥ عاماً في حياة الرهبنة ، قضى منها ٣٧ سنة فوق الأعمدة ، توفى في السبعين من عمره في يوم الأربعاء ٢ سبتمبر سنة ٤٥٩ م ونقلت جثته الى انطاكية ودفن في كنيسة قسطنطين . ويروون أن القيصر ليو أراد أن تُحمل جثته الى القسطنطينية لتدفن هناك ولكن أهل انطاكية لم يقبلوا ذلك ، وعملوا على بقائها في مدينتهم لكي تدفع عنهم شر الزلازل .

ويُعرف الموضع الذي بنى سمعان أعمدته فيه الآن باسم قلعة سمعان ، وبجانبها دير سمعان وهما بين انطاكية وحلب ، ولا يزال عموده الأخير قائماً حتى اليوم ، وقد أُقيمت حوله خمس كنائس ، كما أُقيمت كنيسة في المكان الذي عاش فيه سمعان على تل نيشى وصفها إفاجريوس في تاريخه ، ولا تزال أنقاضها باقية الى اليوم . وقد نسج كثير من الرهبان على منوال سمعان فعاشوا مثله فوق اعمدة ، ولم تبطل هذه العادة إلاَّ منذ القرن السادس عشر .

وكانت لسمعان كتابات منتشرة ، كما كان يتلقى كثيراً من الرسائل وقد بقيت لنا نماذج منها بالسريانية لعلها صحيحة النسبة اليه ، منها نُظُم وتحذيرات كنسية موجهة الى رجال

الدين بمناسبة الزلزال الذي وقع في انطاكية سنة ٤٥٩م وقد بقيت لنا في مخطوط يرجع الى القرن السادس . ورسالة الى الأب يعقوب من كفر رحيما ، الى جانب الرسائل التي مرّ ذكرها من قبل . ولكن هل هذه الكتابات صحيحة النسبة الى سمعان ؟

ليس لدينا ما يدل على أن سمعان كان يعرف القراءة والكتابة ، ويرجح أنه كان أمّيًّا وأنه كان يملي خطاباته على أحد تلاميذه ، وأن هذا التلميذ كان يقف على أعلى السُّلم حيث يقف الاخصاء ؛ ولهذا فإن ما نشر من رسائل سريانية لسمعان يحتاج الى التريث في الحكم عليها فهي إما محولة عليه ، وإما أدخل فيها كثير من الاضافات على النص الأصلي . وتشتمل المكتبة العربية على عدد من الكتب تحمل اسم سمعان : فقد ذكر له أبو البركات بن كبر في قائمته كتاب المقالات الجامعة ويشتمل على ٣٦ ميمراً من أقوال القديس سمعان ؛ وكتاب أجوبة عن مسائل عدتها ٤١ مسألة و ١٥ قولاً . وفي مكتبة الفاتيكان كتاب أعمال القديس سمعان وترجمة حياته في ٢٨٩ صفحة .

ولسمعان سيرة بالسريانية كتبها مجهول إذ يظهر أن العادة كانت أن يتقرب التلاميذ الى الله بكتابة سِيَر أساتذتهم من القديسين تخليداً لاعمالهم ، والغالب أنهم كانوا يعتقدون أن عدم ذكر اسم الكاتب فيه شيء من إنكار الذات وذلك يزيد من ثوابه . أو لعلّ كتّاب هذه السير رأوا أن في نسبتها الى أنفسهم — وهم من غير الكتّاب المبرزين — حطًّا لقيمة السيرة ، ومضيعة للفائدة التي يرمون إليها من كتابتها وهي تمجيد المترجَم لهم وتعظيمهم . وتنسب هذه السيرة الى تيودوريت الكاتب والمؤرخ الكنسي أسقف قورا في شمال سوريا وهو معاصر لسمعان . وقد عرفه في حياته ومات قبل سمعان . وكلها تقريظ لهذا القديس ، وسرد لمعجزات وقصص تنسب اليه لا يكاد يقبلها العقل من ذلك قوله إنه إذا ذكر اسم سمعان توقف الغزال والجدي السريع عن الجري بقوته السحرية حتى يمكن صيدها . وهناك سيرة أخرى أطول من السابقة ، كتبت بعد موت سمعان بمدة قصيرة حوالي سنة ٤٧٢م وهي تكمل السيرة السابقة ، وتقوم على المبالغات أيضاً ، ولكنها على أي حال تصور لنا محيط التفكير في البيئة التي نشأت فيها . وفي نهاية هذه السيرة خطاب وجهه كوسماس قسيس قرية بانير الى سمعان العمودي كتبه على لسان رعاياه يعدونه فيه

بإطاعة أوامره واتباع نظمه ، وقد استنتج السمعاني من وجود هذا الخطاب في آخر السيرة أن كوسماس هذا هو مؤلف هـذه السيرة ، مع عدم وجود شيء يشير الى ذلك بل على العكس هناك ما يمكن أن يشكـك في هذا الزعم فقد جاء في خاتمة الـكتاب أن هذا المخطوط قد نسخ لسمعان بن ابولون، و.بَرْ حاطر بن أُذان في ١٧ ابريل سنة ٥٢٧ م لبناء انطاكية أي سنة (٤٧٢ م) . أي بعد وفاة سمعان بسنوات قلائل ، ولهذا فقد ذكر إفاجريوس في الجزء الأول من كتابه تاريخ الـكنيسة أن هنـاك سيرة سريانيـة في دير تل نيشى لرجل العجائب يظهر أنها من عمل سمعان بن أبولون ، وبر حاطر بن أذان . وقد أخطأ السمعاني في فهم هذه النبذة الختامية أيضاً فافترض أن هـذه السيرة قد أُلـفت بناء على طلب هذين الرجلين . وقد لقيت هذه السيرة رواجاً ، وتدل النصوص على أنه في مثل هذه الـكتب الشعبية تظهر اختلافات وزيادات . وقد استعان إفاجريوس بهذه السيرة .

ويوجد لسمعان — الى جانب هاتين السيرتين — سيرة أخرى باليونانية يقال إن كاتبها هو أنطونيوس تلميذ سمعان ، وفيها مخاطرات تنم على أن هذه ليست بالقديمة كما أرادَ لها كاتبها — أما أخبار سمعان المتأخرة فليست لها أية قيمة خاصة .

وقد نظم يعقوب السروجي قصيدة طويلة عدّد فيها مناقب سمعان العمودي .

اسحاق الانطاكي

كان اسحـاق من نجوم الأدب السرياني ، وكان يعرف عادةً باسم عظيم أنطاكيـة واسحاق الـكبير ، والسوري ، والناسك . وليس لدينا عن مطلع حياته إلا القليل ، ومع ذلك فان هذا القليل مضطرب : فهو من ضواحي آمد (ديار بكر) ذهب الى الرُّها في حداثتـه حيث تلقى العلم على زنوبيوس تلميذ افريم فيما يقول برشوشان الذي جمع شعره في القرن الحادي عشر . أو على افريم نفسه فيما يقول يعقوب الرُّهاوي الذي كان يشير اليه عادةً باسم اسحاق تلميذ افريم وتبعه على هذه التسمية كثير من الـكتّـاب . فقد ذكر يعقوب الرُّهاوي في ملاحظة نقلها عنه الأب مارتين أنه يجب التمييز بين ثلاثة يتسمى كل منهم باسم اسحاق ، وقد خلط الناس بينهم جميعاً .

الأول : اسحاق الأنطاكي تلميذ افريم الذي ذهب الى روما لـكي يرى الـكابيتول .

والثاني : اسحاق الرُّهاوي الذي ظهر في أيام زينون (في أواخر القرن الخامس) والذي استوطن انطاكية .

والثالث : اسحاق الرُّهاوي أيضاً الذي ظهر في أوائل القرن السادس

والأمر الذي لا شك فيه أن يعقوب الرُّهاوي لم يدقق كثيراً عندما وصف اسحاق الانطاكي بأنه تلميذ افريم ، فان افريم قد توفي في يونيو سنة ٣٧٣ م ، ويجب لكي يتلقى اسحاق عليه العلم أن يكون قد وُلد في أواخر الربع الثاني أو أوائل الربع الثالث من القرن الرابع على الأكثر . فاذا علمنا بعد ذلك أن أكثر الذين بحثوا في أدب السريان يكادون يتفقون على ما رواه جنّاديوس من أن القصيدة التي قيلت عن تخريب الزلازل لأنطاكية سنة ٤٥٩م هي من نظم اسحاق الانطاكي ، وجب أن يكون اسحاق قد عاش حتى نيّف على قرن من الزمان بما يقرب من عشر سنوات ، وهي سن لا يعقل أن يخصب في نهايتها خيال شاعر بقصيدة كالتي نظمها اسحاق عن تخريب أنطاكية . وعلى ذلك فانه لا يعقل أن يكون اسحاق الأنطاكي هو تلميذ افريم الذي يتردد اسمه في سيرة افريم . بل إنه من المشكوك فيه كثيراً أن يكون اسحاق الانطاكي قد وُلد قبل وفاة افريم .

انتقل اسحاق من الرُّها الى انطاكية . والظاهر أنه قد طوَّف في حداثته الى أبعد مما ذهب إليه كثير من مواطنيه إذ يروي زكريا البليغ في تاريخه أنه زار روما ومدناً أخرى . ويؤكد ذلك ما رواه ديونسيوس التلمّحري في التاريخ المنسوب اليه أنه نظم قصيدة عن الألعاب التي أقيمت في روما سنة ٤٠٤م احتفالاً بالعيد المئوي ، وقصيدة أخرى عن استيلاء ألاَريك ملك الغوط على روما وتخريبها سنة ٤١٠ م

ولعلَّ اسحاق قد وجد في روما من المتعة ما حبَّب إليه أن يُطيل الوقوف بها ، إذ أنه لابدَّ أن يكون قد أمضى في روما هذا الوقت فيما بين سنتي ٤٠٤م — تاريخ العيد المئوي — و٤١٠ م تاريخ استيلاء ألاريك على روما . أما العيد المئوي فالظاهر أنهم كانوا يحتفلون به عند بداية جيل جديد على اعتبار أن بداية الجيل هو نهاية جيل سابق بما مرَّ فيه من شرور وكوارث ، وكان الاعتقاد السائد حينئذٍ أن الشرور واللعنات لا تتخطى عتبة قرن جديد ، ولهذا كان الناس يفرحون بابتداء كل قرن ، بل لقد كانوا إذا نزلت بهم محنة نادوا أحياناً ببدء جيل جديد اعتقاداً منهم بأن في طيِّ صفحات الجيل القديم طيًّا لهذه المحنة التي نزلت بهم . وكان الاحتفال بهذا العيد احتفالاً دينيًّا له طقوسه وشعائره .

وقد احتفل في عصر الجمهورية الرومانية بمثل هذا النوع من أعياد التكفير سنة ٢٤٩ ق . م . ، ١٤٦ ق . م . وكان المعنى الذي يرمز له هذا العيد هو أن القيصر أعطى

روما عهداً جديداً ثمّ تعطّل الاحتفال بهذه الأعياد في عصر الثورة الى أن أعاد أغسطس قيصر الاحتفال به من وجهة نظر يونانية شرقيـة ، هي الاحتفال بتجديد العالم بعد أن حطمته الثورة . وقد احتفل به بعده دومتيان سنة ٨٩ م . وسبطيميوس سويروس سنة ٢٠٤ م . وهناك أعياد مئوية أخرى ترجع الى تأسيس روما . وقد أدخل البابا بونيفاز الثامن هذه الأعياد في الكنيسة سنة ١٣٠٠ م . ولا تزال قائمة الى اليوم في أعياد اليوبيل .

وقد عاد إسحاق من روما عن طريق القسطنطينية ، وفيها قبض عليه ولكنا لا نعرف سبب ذلك . ويقول يعقوب إنه عمل قسًّا في مدينته آمد ، وقال جناديوس إنه رآه قسيساً لكنيسة أنطاكية . ولا يُعرف تاريخ وفاته على وجه التحقيق ، غير أن آخر ما يُعرف من كتاباته هو قصيدته في وصف ما أحدثه الزلزال الذي وقع في أنطاكية في ٤٥٩ م . والراجح أنه توفى قبل سنة ٤٦١م . ولهذا يرجح الباحثون أنه توفى سنة ٤٦٠ م .

وكان اسحاق شاعراً منتجاً أخصب أيام تيودسيوس الثاني (٤٠٨ — ٤٥٠) وكتاباته كثيرة متعددة النواحي وكانت كلها على وزن المقاطع السبعة ، جمع أكثرها البطرق اليعقوبي « يوحنا بن شوشان » في سفر واحد وعلق عليها ، بدأ بذلك في شيخوخته ، ومات سنة ١٠٧٣ قبل أن يتم جمعها . وقد أورد السمعاني في المكتبة الشرقية قائمة تشتمل على أكثر من مائة قصيدة من شعر اسحاق مبثوثة في المخطوطات المحفوظة بمكتبة الفاتيكان. وقد نشر « بيكلّ » ٣٧ منظومة من شعره ، ونشر « بدچان » ٢٤ قصيدة ، ونشر شابو والقرداحي واغناطيوس افرام الرحماني وغيرهم قسماً من الجزء الباقي من منظوماته ؛ ومن هذه القصائد واحدة عن « حب الدرس » ، ١٠٠ ميمر عن الصلب ، والسامرية على بئر يعقوب ، واضطهاد الصديقين ، ومقطوعات من ميامر الصلوات ، وفي الرد على اليهود ، وعن الأموات وقد أدخلها أصحاب الطبيعة الواحدة في طقوسهم الجنائزية . وله عدد من القصائد الطويلة المسرفة في الطول منها قصيدة عن الندم تشتمل على ١٩٢٩ بيتاً، وثانية عن ببغاء صاحت في شوارع انطاكيـة « قدوس الله » وعدد أبياتها ٢١٣٧ بيتاً ولكن طولها يدعو الى السأم.

ولاسحاق بعض قصائد وُضعت خطأً تحت اسم إفريم نشرها المستشرق « لامي » في كتابه عن إفريم منها قصيـدة في « معارضة السحرة » وأخرى عن « الدينونة » وعلى العكس تنسب اليه قصيدة نشرها أوفربك . (Overbeck) عن صلب المسيح وهي من القطع التي وردت في قائمة السمعاني ولكن بيكلّ يميل الى نسبتها الى بَالَـيْ أو قوريللونا .

وبعض شعر اسحاق ممتع الى حدٍّ ما لأنه يكشف عن عقيدة المؤلف الدينيـة ، فهو

يُعرِّض فيه بأخطاء نسطوريوس وأوطيخي . ولكن هذا النوع قليل في شعره ، فإنه لم يوجه اليه عناية كبيرة ، ولكنه وجّه همّه الى الحضّ على التأدب ، وعيشة الصلاح ، ولوم المفسدين ، وتعنيف من لا خلاق لهم ، فقد كان يشعر في نفسه بأنه واعظ أخلاقي ، وأن مُهمَّته أن يُطالع الناس بوجهٍ عام ورجال الدين بوجهٍ خاص على حقيقتهم ، فوصف لهم حركاتهم ، وصوّر لهم طباعهم فجاءت صوره لاذعة أحياناً .

وقد سما اسحاق بالشعر السرياني ، فمع أن أوزان الشعر قد استعصت عليه ، فلم يسلس له إلاّ قياد وزن المقاطع السبعة — على عكس ما كان عليه إفريم ، فقد لعب إفريم بالأوزان الشعرية جميعها — إلاّ أن إسحاق قد فاق إفريم في سيطرته على اللغة ، ومحاكاته لأسلوب الكتاب المقدس وطرافة تعبيراته طرافة لم يسبق اليها .

ولبعض قصائد اسحاق شيء من القيمة التاريخية كقصيدته عن الصيام التي يحتمل أن تكون قد نظمت بعد سنة ٤٢٠ مباشرة . والقصيدتين اللتين كتبتا عن هدم العرب لمدينة بيت حور حوالي سنة ٤٥٧ ، وقصيدتيه في التنديد بمن يلجأون الى العرّافين .

والشعر الذي ينسب الى اسحاق الانطاكي كثير ولا يمكن أن يكون كله صحيح النسبة اليه ، ولكننا نستطيع أن نقول إن اسحاق قد نظم الجزء الأكبر من المداريش التي تنسب اليه ، وان شهرته هي التي كانت سبباً في أن يضاف اليه أعمال جميع من تسموا باسمه . ونستطيع أن نتخذ من أسلوب الشعر في القصائد الصحيحة النسب اليه مقياساً نتبين منه القصائد التي ليست له .

ومع أن نَظْم اسحاق كان كثيراً إلاّ أن نثره — فيما يظهر — كان قليلاً وتنسب اليه مجموعة من الحِكَم ، كما ينسب اليه خطأً بعض كتابات عن النُسك ، ومرجع هذا الخطأ ما قام من لبس بين اسحاق الأنطاكي واسحاق النينوي إذ يجب أن تنسب جميع كتابات التنسك الى اسحق النينوي .

وتشتمل المكتبة العربية على عدد من الكتب تحمل إسم اسحاق الانطاكي فقد ترجم الشماس عبد الله بن الفضل الأنطاكي ٤٠ ميمراً و ١٥ نصاً في كتاب عنوانه « الميامر والمواعظ في السيرة النسكية » ذكره أبو البركات في قائمته وميمر لعيد بشارة العذراء نشر في مجلة المشرق سنة ١٩١٤ . ومسائل سأل فيها القديس سمعان العمودي أحد الحبساء القدماء في مبدأ أمره القديس المعلم النفيس اسحاق الأنطاكي وهي خمسة أسئلة في الأمور الروحية .

لواحق المقتطف الشهرية

الحق والقوة

دراسة اجتماعية

بقلم

ادمان اهناف

ترجمة : سليم سعده

«اذن يجب ادماج العدل بالقوة . . . إذ أنهم لما لم يستطيعوا»
«أن يجعلوا مما هو عادل قويًّا فانهم جعلوا مما هو قوي عادلاً»
«بسكال»

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٦

الفصل الاول

مقدمة

لم يتحدثوا في عصر من العصور عن الحق بأكثر مما تحدثوا عنه في وقتنا . فن ذا الذي لا يزعم ان الحق في جانبه ؟ وليس الأمر قاصراً على المحامين أو الخطباء فحسب ، ولكنه يتعداهم الى المنازعات الاجتماعية كما يتجاوزهم الى الخلافات الدولية . فجميع الخصوم يصيحون بأنهم يرفعون لواء الحق ، ويستضيئون بنور الحقيقة . فمنهم من ينادون بأن قضيتهم عادلة وأتباع النظريات المعارضة يتذرعون بالحق لتعزيز مطالبهم ويعتمدون في ذلك على قوة السلاح أو غيرها من وسائل الارهاب .

ولكن . كم عدد الذين حللوا الفكرة التي يتمسكون بها من بين هؤلاء جميعاً ؟ ان الألفاظ المجردة أشبه بالأعلام الفضفاضة يعبث بها الهواء وتديرها الريح المتقلبة تباعاً حيث تسود الأهواء والغايات ..

***

لقد عبر الفلاسفة عن الحق بشتى المعاني وفسروه بمختلف العبارات ، فحددوه تارة على القوة وتارة على المنفعة والمصلحة وتارة أخرى على المساواة والحرية .

أما التفسير الأخير فهو الذي نادى به « كانت » بقوله : « كل عمل يكون عادلاً ما دام يجمع بين حرية الفرد وحرية الجماعات في ظل شريعة عامة » . وقال سبنسر مثل ذلك : « اننا نعمل عملاً عادلاً ما دامت حريتنا العملية لا تعتدي على حرية أي انسان آخر ولا تتعارض معها » . وهذا المبدأ في مساواة الحرية يرتكز بدوره على : « كرامة الكائن البشري ومكانتها السامية » ... إن كل رجل يحمل غايته في ذاته . فلا يجب أن يستغل كالآلة أو يتخذ وسيلة . فكل فرد — اذا وقف على نسبية مداركه الشخصية وكيان أمثاله — يستطيع أن يضع حداً لانانيته وتماديها الى ما لا نهاية له . « إن الشعور بأن كل كائن يحمل في نفسه شيئاً لا يمكن التعبير عنه الا لذاته ولا علاقة له الا بنفسه ، ذلك الشعور هو مصدر الحق

وكيانه (هدربنهربر) » . اننا نقف برغمنا حيال كائن مثلنا كما نقف حيال أية نظرية يتعذر على علمنا ادراكها كما يتعذر علينا قياسها بتحليلنا على أننا نشعر في أعماق ضمائرنا بأن هذا الكائن مقدس لأنه ينعم بضمير مثلنا ... وهكذا فان مبدأ الكرامة الاخلاقية يقوم على القناعة والتعقل وصيانة ما للغير .

ان العيب الظاهر على هذا التفسير هو انه يرتكز على نظرية قياسية لم يرد ما يؤيد صحتها ، وقاعدة جدلية لم يدرك كنهها العالم الذي لا يرتكن الا على الملاحظة والاختبار. وكذلك المشرع ورجل الدولة لأنهما لا يهتمان الا بحكم الرجال . إن تحديد مدى الأنانية في ذاتها لا تسهل ملاحظته الا في المجتمعات ، والعدالة الانسانية التي تدون في الشرائع ليست رمزاً لمذهب مثالي نبيل يستطيع الأفراد أن يعيشوا في كنفه فيخلعون على أمثالهم ما تملكه أيمانهم بمحض ارادتهم . ففي أي مكان قدر لنا أن نكون لا نسمع الا كلمة الحق ولا تقع أنظارنا الا على الحق . وقد أعد وهيىء على قياس عقلي واعتبر وسيلة كفيلة بضمان المساواة للجميع في استعمال حريتهم .

فمن ذا الذي يعبأ أو يهتم « بكرامة الكائن البشري ومكانتها السامية » ، ومن ذا الذي يفكر في احترامها ؟ لا أحد الا بعض القائلين بضرورة تهذيب الأخلاق وتقويمها ممن لا تصفو فكرتهم ولا تسمو الا داخل قلعتهم العاجية ،وتلك القلعة نائية عن معترك الحياة وميدان القتال . انهم يقولون لنا : « ان العدل فضيلة قبل كل شيء ، ولا بد أن يكون متأصلاً في الارادة ليمكن تنفيذه بواسطة الشرائع . ان الواجب الاجتماعي يرجع بنا الى الواجب الشخصي » . ان الحق فكرة موجهة نحو المستقبل » . فالحق في نظر هؤلاء العلماء قائم على احترام المساواة في الحرية عند جميع الرجال وبذلك لا يكون الا فكرة كمالية خاضعة قبل كل شيء للاصلاح الداخلي بواسطة نخبة مختارة من الرجال لا يأنفون الاستمتاع بلذة التأملات الفلسفية .

***

ولكن الحق في وقتنا هذا ؟ ذلك الحق المنصوص عنه في قوانيننا ، وفي معاهداتنا ، ذلك الحق الذي يعيش له السواد الأعظم العامل ، ويفرض على المفكرين المتأملين عند

ما يجرفهم دولاب العلاقات الاجتماعية ، ذلك الحق ماذا عساه أن يكون ؟ يقول المتشرعون والفلاسفة الذين يفاخرون بالمذهب الوجودي وينادون بأن مواجهة الحقائق الصارمة خير من الاستسلام الى لذة الأحلام وان كانت في بعض الأحيان حقيقة راهنة ، ان ذلك الحق ليس الا شريعة من النحاس مصهورة في بودقة القوة . وانه ليس وليد تفكير عميق حر للارادة البشرية . أما الشرائع فهي نتيجة التطور التاريخي لأعمال السلف وبلوغها الغاية وانها تعبر عن مصلحة الجماعات المنظمة التي تؤلف منها الدولة وتنعدم حيالها مصلحة الأفراد . يقول هجل : ان الأعمال العادلة هي التي يمتزج فيها روح الفرد مع روح الدولة ، وتعزز القوة الوطنية فيتحطم كل ما يعترضها أو يقف في سبيلها . فاذا ما تناولتها حركة التطور حوّلتها الى قوة ظافرة وحق مؤكد . ففي النزاع الذي يقع بين الدول ، يتولى الوطن المختار تنفيذ الحظ الذي قسم له ، ويتحكم بخصومه ويملي شريعته الانسانية السامية تحت الهام الروح الالهي الذي قاد خطواته في ذلك النزاع حتى ظفر وانتصر .

ان الحق لا يستند الى أفكار ولكنه يستند الى وقائع . كما انه لا يتجه نحو المستقبل ولكنه يعتمد على الماضي ليسيطر على الحاضر . فهو القوة الكامنة في العنصر السامي المسيطر ، واختيار هذا العنصر كان نتيجة اختبارات طبيعية دقيقة لاقصاء جميع العناصر الناقصة العاجزة عن القيام بمهمتها على الوجه الأكمل ، وهذا ما يحمله على تنظيم شؤونه للاحتفاظ بقوته وتنميتها . يقول ايهرنج : « ان معرفة الحق مسألة عملية بحتة . . . وان غاية الحق وغرضه هو السلم ، والوسيلة التي يتبعها الحق لضمان السلم هي القتال والحرب والقوة . وسيظل القتال ما بقيت الدنيا . وهكذا ليس القتال غريباً عن الحق ولكنه مقيد بأوثق الروابط وأحكمها بتنفيذ هذا الحق وتطبيقه . فكل حق في الحياة لم يكتسب إلاّ عن طريق القتال ، لأن تفهم الحق ليس إدراكاً منطقيًّا ولكنه مجرد إدراك للقوة . ويقول هجل : « تقول بأن السبب القويم العادل يطهر الحرب ؟ وأنا أقول بأن الحرب القويمة العادلة هي التي تطهر جميع الأشياء . ان انتصار شعب هو الدليل القاطع على حقه » .

* * *

ها هما ذا التعليلان وكيفية ادراكهما وجهاً لوجه . على انه اذا تبين لنا ان إحداهما بعيدة

المرمى عزيزة المنال لأنها سريعة الزوال ذاتية ، واذا كانت الأخرى تثير فينا مكامن النفس بقدر ما تثير الفؤاد ، فهلاً نستطيع — حيال ذلك — ان نجد في غيرهما حلاً يلائم الشعور ويرضي العقل معاً ؟

ستكون دراستنا قاصرة على الحق الواقعي ،ذلك الحق الذي يجد رمزه في الشرائع المدونة أو في العادات الشفوية المنقولة مع ما تتطلبه من التعليل والتدليل .

ولسوف تقودنا دراستنا الى فحص العلاقات الخارجية والداخلية التي تصون المجتمعات الانسانية وتحافظ عليها سواء أكانت مع مثيلاتها أو مع أعضائها .

الفصل الثاني

الحق الآلي للعلاقات الخارجية

ليست مواضيع الحقوق من المواضيع المجردة البسيطة المسخرة لذاتيتها كالتي يقنع بها المشرعون عندما يرغبون في تحلية مؤلفاتهم في القانون الخاص وتنميق صفحاتها بعبارتي : « أولاً » و« ثانياً » . فتلك المواضيع تعبر اما عن أشخاص حساسين شهوانيين عاملين، واما عن أشخاص أخلاقيين لا خياليين . وهؤلاء الأشخاص يُظهرون — بفضل استمرار أغراضهم وأعمالهم المتواصلة — كياناً ، كثيراً ما يكون متزمناً ، يختلف تمام الاختلاف عن أعضائهم ويدللون به على فرديتهم الذاتية كذلك الفيلسوف الذي كان يدلل بالسير على وجود الحركة . ان العالم الاجتماعي يتناولهم ببحثه وهم أحياء ولا يقنع بدراستهم كما تدرس النباتات المجففة بين صفحات الكتاب .

ولكن ، أليست الحياة مظهراً خاصاً من مظاهر النشاط ، أم هي تختلف عنه . ان الكائن الحي يعرف مدى نفسه ويقدّرها بوسائل عمله وعقله .

إن الظاهرة المميزة للحياة هي الجذب، والامتصاص ، والتحويل . فكل كائن حي يمكنه أن يحوّل جوهره الخاص الى عدة جواهر مختلفة تمتزج به . فتلك الامتزاجات الطبيعية والكيميائية تصون الحياة وتنميها وهي بمثابة الشرط الأساسي للحياة . وما دام الجسم حياً فإنه يكبر وينمو بفضل الغازات والسوائل والأشياء اليابسة المحيطة به ، والتي يخضعها لطبيعته وشكله . وعندما يدرك سن المراهقة فانه يتولد ويتناسل وهكذا يمتد في الفضاء وفي الزمن . فالاحتفاظ بالحياة والتعمير هما إذن نتيجة التغلب على الطبيعة المقهورة . يقول نيتشه : إن النمو يُعد جزءاً من تصور الشيء الحي . فكل شيء حي يجب أن يزيد نفوذاً وسلطة ، وهكذا فانه يبتلع القوات الغريبة » .

فقد يحدث — خلال بحثه عن العناصر اللازمة لكيانه — انه يلتقي بمنافسين . وان هؤلاء المنافسين يصبحون أعداء : كائنات أخرى من نفس الجنس أو من أجناس مختلفة .

فيجتذب كل واحد منهم الى نفسه المواد الضرورية له ويلقي النفاوة . وكثيراً ما تكون تلك النفاوة ضارة بمن حوله . فإذا كان عدد الجواهر الضرورية لا يعد ولا يحصى فإن الجيران يعيشون في وفاق تام مع بعضهم . اما اذا انتفى هـذا الشرط فان النزاع يبـدأ في الحال بين الخصوم ، خصوصاً من اشتهروا بصلابة الرأي والعناد ، سواء أكانت خصومتهم قائمة بسبب الحصول على الأغذية البسيطة التي توجـد بوفرة لسد حاجيات الجميع ، أو للتغلب على جار خطر وسحقه . ان الحيـاة ليست سوى عمل أناني . وميل الـكائن في المحافظة على كيانه هو خير تفسير — بواسطة الأنانية — لما يسمى الـكائن الحي .

لم يكن للرجل الأول عدوٌّ شرٌّ من الرجل مثله ، وهو أقرب جار اليه . ففي العصور الأولى كان الرجل مرتبطاً بشريكة حياته وأبنائه بعاطفة طبيعية تعززها المصلحة . فـكان يحذر الغريب ويكرهه بقـدر ما كان يحذر منافسيه من الحيوانات ان لم يكن أكثر . وعنـد ما تعددت العائلات وازدادت عـدداً وانتشاراً ، وعند ما استوطنت هـذه العائلات الأرض زرعوها بأنفسهم ، بدلاً من السعي الحثيث وراء الفريسة والقنص ، وعند ما ازداد احتكاك الأفراد ببعضهم بزيادة السكان ، بدأت المنازعات بينهم ثم كثرت واشتدت بسبب المصـالح ونشبت الحروب وأصبحت سجالاً . واضطرت الجماعات الطبيعية الناشئة عن العائلة — سواء أكانت على هيئة عصابات أو قبائل — أن تتخذ لنفسها شكلاً حربيًّـا أو تحافظ على وجوده ، وان تضع نظاماً أوحت به الحاجة الى القتال الذي كانت ترقبـه عن كثب وفي كل لحظة . وكانت تلك الجماعات مؤلفة داخل نطاق ضيق ، ومعادية لجميع من حولهـا بحيث لا يوجد بينها وبين جيرانها علاقة مطلقاً . والآثارات التي خلفتها لنا عهود المدنيات القديمة منذ نشأتها قد حملت الينا آثاراً واضحة لتلك المعاهد الأسقفية. ولقد كانوا في روما يجهلون معنى الحدود الفاصلة — على ان وضع مثل تلك الحدود كان متعذراً ومستحيلاً ، فكانوا يفصلون بين حصتين في ميراث واحد بقطعة من الأرض يطلقون عليها اسم المنطقة المحرمة . اما في المدن فكانت المساكن متباعدة فلا يجوز أن تلتصق ببعضها . وأبواب المنازل الرومانية لا يمكن أن تفتح إلاّ من الداخل كالأطم المحصنة .

ولم يكن مبدأ الأسرة القديمة قائماً على الذرية ولا على العطف بل ولا على الدين وإنما كان

قائماً على ضرورة الاتحاد والتحالف ضد الغريب . وهكذا كان يستحيل على الفرد أن ينتمي الى أسرتين في وقت واحد فالابن الراشد ، والفتاة المتزوجة يهجران الاسرة ويقطعان كل صلة لهما بها . ولم تكن لصلة الرحم أو أواصر الدم قيمة ما دامت لا ترمي الى تعزيز المجتمع العائلي . ففي البدء كانت القرابة لا تكتسب إلاّ عن طريق الرجال فقط . وكان التمييز والتفضيل سائدين بين الفتيان الذين يناط بهم الدفاع عن المدينة ، وبين الفتيات المذيلات العاجزات عن حمل السلاح ، بل وبين الأبناء اذ أن البكر وحده كان يرث السلطة الابوية .

واننا نجد نفس هذا النظام الحربي في القبيلة أو العشيرة التي تؤلف الأسرة نواتها ، بل وفي المدينة نفسها . فمجلس الشيوخ مؤلف من جميع رؤساء الأسر والرماة المتقفين ، إما في القتال بين صفوف الجيش أو في منتديات الفوروم ، أو في الحفلات الدينية ، فان المجتمع العائلي يلتف حول زعيمه محاطاً بأفراد العشيرة فتتألف من فردية ذاتية بارزة قوية . فلا يجد الغريب مكاناً له بين تلك الجماعات المتأهبة للحرب بلا هوادة ولا انقطاع ، ولا يشترك في تشريع المدينة ، ولا يستطيع أن يلجأ الى الحاكم . ففي آثينا لا يخضع الغريب لتشريع القاضي ولكن لأحكام الزعيم الذي يقود الجيش . ويرجع ذلك الى أنهم كانوا ينظرون الى الغريب نظرتهم الى عدو يخشى جانبه . اما في روما فقد انتدبوا لذلك قاضياً خصيصاً للفصل في الدعاوى . وكان هذا القاضي لا يستمد وحيه من القانون المدني المشرب بالروح الدينية الذي يعمل به في المدينة ويطبق على سكانها ، ولكن من العادات الشائعة في جميع الشعوب ويطلقون عليها اسم قانون الناس .

وبعد سقوط الامبراطورية الرومانية — عندما سادت القوة من جديد على أوربا الوسطى وأوربا الغربية — جاء عهد الاقطاعيات نذيراً بالعودة الى عصر البربرية الاول . واختفى عهد السلم الروماني وخلفه عهد الفوضى . فاضطرّ السكان والفلاحون الى الالتفاف حول زعيم . فكان هذا الزعيم يكفل لهم نوعاً من الهدوء والطمأنينة يتناسب مع طاعتهم له واستعباده لهم وما يفرضه عليهم من الأتاوة والضرائب . فمن كان منهم لا يرغب في الخدمة أو يعجز عن اعداد عدته الحربية ، كان في الواقع بمثابة العبد لا يتمتع بأي قسط من الحرية . وهكذا لم تكن هناك مكانة لغير الجنود . وكان التابع الذي يرافق سيده الى

الحرب يمنح مقاطعة على سبيل المكافأة عن خدماته . فهؤلاء المحاربون كانوا يتملكون جميع الأراضي . وقدساعد ضعف النفوذ الملكي على استبدادهم وجعل من هؤلاء الأسياد المُلاّك ملوكاً صغاراً . فامتزج التملك بالامارة . . . ان جوهر المجتمع الاقطاعي مشيد على أساس الروح الحربي .

ولا فائدة من ذكر الأسباب التي جعلت من الملوك أسياداً على الأراضي التي امتدت اليها سلطتهم تدريجيّـا وكيف سلبوا الأشراف سلطتهم تباعاً وأسندوا اليهم مناصب شرف بحتة ، وكيف فرقوا من جديد بين ملكية الأرض وبين ملكية الحكم ، وكيف جمعوا في شخصهم سلطة الدولة بأكملها . . . هكذا نشأت دول قوية واسعة منظمة مركزة : وهذه الدول في الواقع تمثل أشخاصاً معنويين يمتاز كل واحد منهم بمظهر جلي واضح ونفس جامعة . فجميع الدول — كبيرة أو صغيرة — مستقلة بذاتها ، وهي — إذ تضع خاتمها على وثيقة ما بمحض ارادتها واختيارها — تنعت نفسها باسم « الدولة العظمى المتعاقدة » . انها تشعر تمام الشعور بمكانتها وقيمتها ، كما تشعر بحقها في التصرف بمحض ارادتها ومطلق حريتها ، وتفتخر بعمل ما يميزها عن جاراتها في الأوضاع السياسية والعملية والفنية والاقتصادية . . . إنها لشخصيات قوية ، ودافع الجنسية يحملها أحياناً على التمسك برأيها وعدم التسليم بما يطلب منها ، ولهب الوطنية لا ينطفىء فيها إلاّ بانطفاء نار الحياة . ولو قدر لتلك الجنسيات أن تستعبد يوماً فان ثقتها في استعادة حريتها التي لا تنسخ بمرور الزمن لا تنعدم من صدور أفرادها ما دامت تلك الأمة تحافظ على شعورها بفرديتها الذاتية التي تميزها .

***

ان الرجل في العصور الأولى ، والقبيلة القديمة ، والأمراء الاقطاعيين ، والدولة الحديثة تخضع كلها لنفس القواعد في علاقاتها الخارجية . جميعهم يمثلون أشخاصاً طبيعيين أو معنويين لا يقبلون عليهم سيداً وينادون ، على رؤوس الملاً ، باستقلالهم ويفصلون في جميع المنازعات الخطيرة التي تنشأ بينهم ، بالقوة . فرجل المغاور والكهوف — عند ما يؤوب من صيد مجدود — كان عرضة لأن يلتقي في طريقه بندّ أو غريم متربص لسلبه الفريسة قسراً وقهراً . وان كلاً منهما ، عند اقتسام الغنيمة ، كان يقدر ما يتمتع به غريمه من القوة والبطش ... ان

قانون الاقطاعيات قد أحلّ الحروب الشخصية مكانة كبيرة ، وأقرّ المبارزات القضائية . أما الدول الحديثة فإنها لا تعرف — لفض منازعاتها — الا الالتجاء الى السلاح وفي ظروف لا تقل في وحشيتها عن الفظائع الخرافية التي نسب ارتكابها الى العصور البائدة . ان الحرب كما يقول المشرعون — هو العقاب الذي يفرضه قانون الناس وهو الحجة السامية التي يتذرع بها الملوك .

ان نير ان الحروب في الماضي — كما هي في أيامنا — كانت تندلع في كل مكان في وضح النهار أو تحت طي الخفاء . فكان كل فرد يحاول أن يطغى على حرية جاره ، ويعمل على إخضاعه لارادته ويتخذ منه آلة لادراك مآربه ووسيلة لبلوغ مطامعه وثروته . كان الرجل الاول ذئباً يفترس الرجل مثله . وعند ما تمدينت الانسانية ظلّ النزاع قائماً تحت ستر من الهدوء والسكينة ولكنه أشد وقعاً وأفظع أثراً . فهو يتجلى في المنافسات الاقتصادية ، والمطامع المتبادلة ، ونزاع الطبقات ، واضطهاد الأقليات والخصومات الدولية .

« أفٍّ للطبيعة ، وأفٍّ للتاريخ !... المنافسة . المنافسة دائماً وفي كل مكان ، والحرب وانتصار القوة ، وقانون الجريمة والقتل . (صبايس) » ولقد دال جوزيف دي مستر (ليالي بطرسبرج) على ذلك كله بعبارات مؤثرة تنطبق على الطبيعة بأسرها : « كم من فسيلة نباتية تموت ، وكم تطأ الأقدام غيرها في عالم النبات ؟ ثم انك لا تكاد تقرب مملكة الحيوان حتى تدرك أن الشريعة قد استعارت شكلاً مريعاً واضحاً . ففي كل قسم من أقسامها الكبيرة ميزت الشريعة عدداً من الحيوانات وأناطت بها افتراس الآخرين : وهكذا توجد حشرات مفترسة ، وزواحف مفترسة ، وطيور مفترسة ، ودواب مفترسة . فلا تمر لحظة من الزمن دون أن يفترس كائن حي كائناً آخر . وعلى رأس تلك الأجناس الحيوانية المتعددة المنوعة يوجد الرجل الذي لا تترك يده المهدمة شيئاً من ذلك دون أن تحطمه وتبيده : انه يقتل ليتغذى ، ويقتل ليدافع عن نفسه ، ويقتل ليتعلم ، ويقتل ليلهو ، ويقتل لذةً في القتل . فأي كائن سيسحق ذلك الذي يبيد الجميع ؟ هو ... ان الرجل هو المكلف بقتل الرجل » .

لقد اكتشفوا مع هيكل رجل من عصر قبل التاريخ إحدى الآلات النادرة التي كان يستعملها ، وهي بلطة من الصوان . كان قابضاً عليها بيده حتى في ساعته الأخيرة . ثم ان

الآثار الأدبية التي آلت الينا عن العصور القديمة كانت منقوشة . بحروف هيروغليفية أو اسفينية على جدران المعابد الآشورية أو الكلدانية أو المصرية ، وهي في مجملها وصف للحملات العسكرية والمواقع الحربية وأسماء الشعوب المقهورة . فلنصغ الى قول أشور نازيرابال في وصف وقائعه الحربية : « وشيدت منصة عند باب المدينة ثم سلخت جلد جميع عظمائها وفرشته على المنصة ، وعلقت جثثهم فوقها وخوزقت غيرهم فوق قمتها وخوزقت الباقين حولها . ثم جمعت رؤوسهم على شكل تيجان وشككت جثثهم بالدبابيس ونظمتها على شكل أكاليل من الأزهار » . وليس ما تغنى به سنا شريب تبجحاً أو وصفاً خياليّـا عند ما قال : « لقد مررت كالأعصار المدمر » . ثم إن رعمسيس الثاني كان يطلب أن يمثل وهو يجز أعناق اثنى عشر من الاسرى بضربة سيف واحدة .

ان سلسلة الفظائع الوحشية والحروب الآثمة الدامية تملأ صفحات التاريخ منذ القدم حتى أيامنا هذه . فالحروب الخارجية أو الداخلية ، والثورات ، والانشقاقات الدينية قد أسالت أنهاراً من الدم . أما العلاقات الدولية فانها قائمة على سوء الظن وعدم الثقة ولا تنفذ الاّ عن طريق الأساليب الدنيئة والوسائل المثيرة كما أنها لا ترمي الاّ الى مصلحة كل ملك أو كل بلد . فرشوة الموظفين ، وافشاء الاسرار الدولية ، واغتيال الرسل ، والاعتداءات الفجائية والحنث بالعهود ، وإخلاف الوعود ، والإخلال بالمعاهدات المبرمة بطريقة رسمية ، ليست في مجموعها إلاّ من الأساليب التي كانت تتبعها حكومات الأمس . ومن يدري ؟ فقد تكون كذلك من أساليب حكومات هذا العهد أيضاً . فقد كتب أحد السفراء الى مليكه : إن السياسة لا تعرف اللين ولا الاعتراف بالجميل ولا المعاهدات ، فالقوة أو المصلحة تحطم كل ذلك وتفصم عراه » . ثمّ ان بيتلفلد يشرح في مؤلف يدرسه رجال السلك السياسي نظرية شبيهة بهذه حيث يقول : « في الأحوال السياسية يجب على المرء ألاّ يسلم بالأفكار النظرية التي يعبر بها الدهماء عن معنى العدل والانصاف واعتدال الدول فمآل كل شيء الى الشوكة والقوة . »

والحقيقة ان أغلب القوانين تقوم على أساس القوة ، وانه في سبيل تحويل ملكية الجماعات الى ملكية فردية كان لا بد من تدخل القوة لارغام المالكين على الشيوع على التخلي

عن ملكيتهم المشتركة لقطعة الأرض . فكان يخلفهم في الملكية تارةً أحد الغازين من الخارج وتارةً زعيم عشيرة أخرى تمتاز على عشيرتهم بقوة البطش والسلاح وعدد الأفراد أو مساعدة حلفاء وينهجون نفس الغاية فتخضعهم لارادتها وتملي عليهم مطالبها . هكذا نشأ حق المالك الأول بعد اذ عرف هذا المالك كيف يقف في وجه الاغتصاب ، وهكذا نشأ أيضاً حق الفتح اذ ينجح الغازي في اغتصاب الأملاك التي يطمع فيها . ان القانون العام يعترف بتلك الحقوق وان كان يتردد في تسميتها بصحة أسمائها .

ثمَّ ان هذه الحقوق تتجلى خلال أوضاع القانون الخاص ، فاجراءات تأييد الملكية ووضع اليد والرهن العقاري تقوم كلها على أساس الملكية الفعلية . وتلك الملكية تستلزم — في بعض الظروف الخاصَّة — نقل اختصاص الملكية بأكملها . ان نقل ملكية العين من مالك لآخر ظلت وقتاً طويلاً موضع طقوس دينية رمزية ، وتسليم الجزء من العين وقطعة طوب أو مَدَرة من الأرض ليست إلاّ من مخلفات عصر كان التمليك فيه يتم بنقل الملكية بطريقة مادية فعلية لا معنوية .

ففي فجر جميع المدنيات كانت الطبقة الحربية تندمج بطبقة الملاك . وكان عهد الاقطاعية يظهر في جميع العصور التي تتقدم أو تعقب تأسيس المجتمعات المنظمة . وانا نجده في ملكية الكلدانيين حيث كانت أرض الدولة مقسمة بين الكهنة الذين كانوا في أول عهدهم أحراراً ثم أخضعوا لنظام الضرائب . ونجده في مصر حيث كانت الولايات عبارة عن اقطاعيات قبل أن تتحول الى مقاطعات ادارية . ونجده كذلك في آسيا الصغرى مع سقوط الامبراطورية البيزانطية ، وفي أوربا الغربية بعد سقوط روما . ان نظام الاقطاعية يعد من أكبر دعائم المدنية الاسلامية ولا زال قائماً بين أمراء الأطلس المراكشي . وقد عرفت اليابان هذا النظام وظلت تعمل به الى عصر قريب . فهو نظام اجتماعي وسياسي يقوم بذاته عند انعدام سلطة مركزة حول رجال أشداء تؤلف منهم القوة الجذابة للعناصر المنحلة .

وكذلك المجالس الاستشارية ، فقد استمدت كيانها من سلطة أعضائها وسطوتهم . ففي أول نشأتها كانت بمثابة مجالس عسكرية مؤلفة من جماعة من الرجال العسكريين يتداولون في الشؤون الحربية . ثم تناولت مداولاتهم الاختصاصات المدنية . لقد كانوا يحبون الوطنيين

الرومانيين عند اجتماعهم باسم « حاملي الرمح » إحياء لذكرى العهد القديم وتخليده . واستمر اجتماع الأسباط عهداً طويلاً تحت السلاح اذا ما اجتمعوا للمداولة واقرار القوانين والموافقة على اجراءات ادارية ومدنية كالوصية أو التبني .

والنظام القضائي يشتق أصوله من هذا المصدر . فالقانون الأول كان قائماً على أساس أن كل فرد يقتص لنفسه من خصمه . وهذا النظام لا زال واضحاً في القانون الروماني القديم وفي الشرائع البربرية . ان قانون المرافعات الروماني كان عبارة عن مظهر من مظاهر القتال فكان الخصوم يقذفون بالقاضي ويتظاهرون بالاشتباك ببعضهم . ثم جاء قانون الاقطاعية فنظم حق استعمال الحروب الشخصية في شكل مبارزة قضائيـة . فكان الشرفاء — سليلو الأسر الحربية — يأنفون الى عهد غير بعيد ، فض نزاعاتهم الا عن طريق المبارزة . وقد استمرت تلك الطريقة متبعة حتى في عهدنا ، وما هي الا إحدى مظاهر تلك العقلية القديمة .

يقول سبنسر : « في سنة ١٧٦٨ عرض في انجلترا مشروع قانون يرمي الى تحريم القتال القانوني . فلقي معارضة شديدة وأوقف تنفيذ المشروع . ولم يصادف نجاحاً وتم الموافقة عليه والغاء هذا النظام الا عام ١٨١٩ » . ولم تحل الدعوى القضائية محل القتال المسلح الا تدريجيـا . فكلاهما من مصدر واحد وطبيعة واحدة وكلاهما يؤدي الى استعمال القوة تارة ضد العدو الخارجي وتارة أخرى ضد العدو الداخلي . ولم تكن الدعوى الأولى قائمة على تحقيق الحادث بواسطة أحد القضاة ولـكنها كانت عبارة عن جدل وحوار ومشادة بين الخصوم وكان لا بد لهؤلاء الخصوم من الحضور بالذات اذ لم يكن نظام الدفاع بالنيـابة معروفاً في ذلك العهد .

انه لمن أعجب العجب إن نلاحظ ، حتى في أيامنا ، ان اجراءات المحاكم تستعير بعض أدوارها من أدوار القتال بعد اذ حل الـكلام محل السيف . فالدفاع والمرافعات ليست إلا ضرب من ضروب القتال تشتبك فيها سيوف الألفاظ البارعة وتتراشق فيها سهام العبـارات القاذعة وتستعمل فيهـا جميـع أساليب اللباقة والبراعة الخطابية . فكان لا يكفي لصاحب حق أن يكون على حق في دعواه ليربح الدعوى ، فلا بدّ من الدفاع عن هـذا الحق ودعمه بالعبارات الخلابة والاستعارات المنمقة والأساليب المقنعة . ولذلك فان القاضي كان لا يصدر

حكمه في غيبة أحد الخصوم أو في حالة صمته .

وليس قتال الرجل دفاعاً عن حقه والانتصار له قاصراً على تلك المبارزة بين متعادلين أمام القاضي . ولكنه يضطر ، بصفته عضواً في طبقة اجتماعية أو مهنة أو حرفة ، الى المناضلة ليُدخل في التشريع الاعتراف بمصالحه الفردية أو التعاونية ، فالصغير ضد الكبير والضعيف ضد القوي ، لم يستطيعا التمتع بالعدل إلاّ بمداركة ضعفهما بالاتحاد لأنه دعامة القوة . ان قانون نابليون متحيز الى أبعد مدى لصالح صاحب العمل فأقواله صادقة في كل نزاع خاص بالأجور أو الأضرار بحقوق العامل . كما انه يعامل اتحادهم المؤقت ونقاباتهم معاملته للجرائم الاجتماعية . ولم تتمكن أكثر الطبقات عدداً — وهي طبقة العمل — من تحويل اتجاه القانون إلاّ بالحصول على حق الانتخاب المباشر العام . وتساوت الحقوق أمام القانون بعد إذ تساوت في القانون . وهكذا يصح اعتبار حق العامل ثمرة لانتصاره في نضال دام جيلاً بأكمله وقد أضحت بعض الجرائم التي كان يعاقب عليها القانون من الحريات التي تقدسها الشرائع وتحميها . وهكذا ثابر الموظفون على مطالبهم طويلاً حتى تمكنوا — بعد نضال جبار — من الاعتراف لهم بحقوقهم النقابية والتعاونية .

* * *

ومع ذلك ، فهل معنى ذلك ان الحق ليس إلاّ القوة في علاقات الأفراد المستقلين بين بعضهم . كلاّ ثمّ كلاّ . فان اعتداء فرد على حياة عدوه ، أو سلبه ما يملكه بأكمه ، لا علاقة له مطلقاً بالحق والقانون . أما اذا هو رأى من مصلحته ان يحافظ على حياة خصمه ويحتفظ له بجزء من ممتلكاته ويعقد معه اتفاقاً يتعهد فيه المغلوب بأن يخلي المكان الى نده المجدود أو يشاطره إمتلاكه ، فإن معاهدة الصلح هذه تحمل بين طياتها طابع الحق الذي سينبثق نوره يوماً ، إن الاتفاق في مصلحة الطرفين : فأحدهما يضمن السلامة في النصر الذي أحرزه ويوافق على التنازل عن حصته في الأرباح ليطمئن على التمتع بالحصة الباقية ، أما الآخر فانه ، بدلاً من ضياع الكل ، يحتفظ — في سبيل استسلامه وخضوعه ، بجزء مما كان يملك وذلك يرجع الى أن الخصمين قاسا بين قوتيهما وتبينا انعدام الفائدة في متابعة نضال نتيجته محصورة واضحة ، ووجدا أن مصالحهما تقضي بالتفاهم والاتفاق مع بعضهما .

وهذا الاتفاق يمكن أن يتم سواء بعد نشوب القتال، إذا كانت حرارة القتال ونشوة النصر لم تعميا بصيرة الظافر ولم تزعزعا ثباته، وأما قبل أن يشتبكا، إذا ما قدّر كل منهما مقدرة خصمه وقوة ثباته. وإذ ذاك يفضلان التفاهم والاقتسام على عاقبة قتال مستمر مشكوك في نتائجه.

وفي بعض الأحيان يتدانى الرجال وتتقارب الشعوب بدلاً من تمزيق بعضهم، ويتحالفون ويقاتلون جنباً إلى جنب يجمعهم خطر مشترك: إنه تحالف مؤقت هجومي أو دفاعي. إن المعاهدة التي تعقب الحرب تقدر اتحاد الجهود باقتسام ثمار النصر على أساس قوات الحلفاء. وإنهم ليسرون لأن زوال العدو المقهور من طريقهم لم يجعل منهم أعداء بسبب قسمة المصلحة المشتركة بينهم فتؤدي الى حرب جديدة كثيراً ما يسقط فيها الذي أراق دماء أكثر خلال الحرب الأولى في سبيل المصلحة المشتركة.

وهكذا عند ما تتقابل قوتان متعارضتان فإنهما تصلان الى التحكيم. وهذا التحكيم يوفق بين المطالب المتناقضة بنسبة القوات التي تؤيدها. وعند ما تتعاون قوتان من جانب واحد نحو غاية واحدة، فان النتيجة التي تحصلان عليها تقسم بنسبة بأسهما وبطشهما. فهذا النوع من القانون الهمجي يخضع للشرائع الآلية، وليس إلاّ نتيجة مجموع القوات. وهو مثلها قابل للتغيير وبالتالي خاضع لاعادة النظر فيه وتعديله. فإذا اختلفت علاقة القوات فإن نقطة التوازن تنتقل وتتحول. وما دام لا يوجد إلاّ فردان أو جماعتان ازاء بعضهما فإن هذا الاحتمال قد يطرأ مراراً لأن كل يوم يمر يحول الظروف الداخلية والخارجية التي تكتنف الفرد ويتطور بداخلها. وإنه من غير المنظور — نظراً للقوتين المتناظرتين — ان يزيد فعل الزمن من شدتهما أو يضعف منها بنسبة متساوية. فالعمر يزيد في قوة البعض ويضعف من قوة الآخرين: والذكاء الذي ينمو نوعاً ما يضاعف الموارد بنسبة متساوية، والخلف يزيد عدد جنود الدولة الخصبة وعمالها في حين أنه ينقص من عدد جيوش الدولة القاحلة.

وربما لم يجد ذلك الفرض الذي أوردناه لتعليل نظريتنا، مجالاً لتطبيقه إلاّ في جزيرة صحراوية نائية قد التقى فيها يوماً ما اثنان أو ثلاثة امثال روبنسون في عصور قبل التاريخ. فالعادة هي أن يعيش الرجال أو الدول في وسط أمثالهم يتبادلون العلاقات مع بعضهم

ويتنافسون . ان ظروف احتكاكهم ببعضهم كثيرة منوعة والجهود التي تبذل في ذلك السبيل متباينة متعددة المصادر وكثيراً ما تكون محايدة مستقلة . على ان نتائجها تظهر مع الوقت شيئاً فشيئاً في ازدياد مطرد غير محسوس. إن علاقات الأفراد أو الدول ببعضها مباشرة تتأثر بطريقة غير مباشرة بفعل العوامل الجذابة أو المنفرة التي يخضع لها كل منهم . وتلك العوامل التي تؤثر على ما يوجد تحت نطاقهـا وتحافظ على التنافس بين الجميع ، تنقاد بحركة جذابة تحدد لـكل مكانه في نظام التوازن بتأثير الأعمال المتبادلة . . . لا يمكن أن يثار شيء بينهم إلاّ ويكون له تأثيره العكسي على الجميع وبذلك يثير تدخلهم . ويحافظ التوازن على كيانه على الرغم من بعض الهزات الخفيفة أو انه ينتقل طبقاً لحركة غير محسوسة تخفف من نتائجه : على ان تلك الهزات ليست عنيفة وتلك الانقلابات غير فجائية في الأوضاع الراهنـة المقررة كالتي يثيرها اغتيال منظم ومدبر في صمت وسكون ولـكنها تتجلى فجأة في معركة مسلحة بين ندين منعزلين . وحينئذٍ يجتهد الخير ان الذين يهتمون لنتائج هذا النزاع في حصر الافراط والتخفيف من ويلات معاهدة الصلح . خصوصاً وانهم سينظرون بغير ارتياح الى انتصـار أحد الفريقين المتحاربين انتصاراً تامـّا يعزز قوته ويعلي مكانته على الآخرين . ولذلك فعلى الرغم من عظمة النصر الذي يحرزه الغالب وعلى الرغم من الصداقة القائمة على الخوف التي يشعر بها الضعفاء نحو الأقوياء ، فان المقهور سيجد دائماً من مظاهر العطف ما يخفف عنـه ويلات الهزيمة وشر الانكسار .

إن الأفراد أو الدول لا يجدون وسيلة يتقون بها طغيان أحدهم خـيراً من المحافظة على نوع من التوازن بالتضامن والتحالف . وقد نشأ مبـدأ التوازن الاوربي على أساس ذلك التضامن والتحالف . فقد رأت الدول الاوربية أن مصالحها المشتركة تقضي بألاّ تقوى إحداها بحيث يدفعها الطمع الى الرغبة في السيطرة على غيرها . فاذا حاولت إحدى الدول القوية ان تتوسع فان بقية الدول تشعر بأنها مهددة فتتحالف ضدها ، إلاّ إذا وافقت تلك الدولة القوية على ان تحالف بعضها لتشترك معها في قسمة الغنيمة وتنال بدورها تعويضاً كافياً لضمان المحافظة على توازن القوات . ان تشبث الملـكية الفرنسية في خصومتهـا للأسرة الملـكية النمساوية ، وتحالف الدول ضد لويس الرابع عشر ونابليون ، وسياسة بريطانيا العظمى التي

اتبعتها منذ أجيال عدة وحافظت بموجبهـا على وجود جماعات متنافسة على الساحل الاوربي تؤيد بعضها كلما سنحت لها الفرصة، ليست إلاّ تطبيقاً لنظام التوازن الاوربي في الحالة الاولى. اما تجزئة بولونيا بين روسيا والنمسا وبروسيا فانه مثال واضح على فهم هذا التوازن وتطبيقه في الحالة الثانية. كما ان اتفاقية واشنجتون للمحافظة على الحالة الراهنـة في المحيط الهادي وتحديد التسلح البحري بنسبة قوة الدول العظمى، تقدم لنا بشـكل أوضح مثلاً بيّـناً جليّـا على تطبيق تلك الفكرة لأنها مدونة في وثائق رسمية.

وقد صادف مبدأ المحافظة على التوازن عهداً من التضاؤل والاضمحلال ساد إبانه مبدأ ثورة الجنسيات الذي نادى بحق كل جنس في تقرير مصيره وتنظيم شؤونه كما يريد. وقد استعملت المانيا وايطاليا هـذا المبدأ في القرن التاسع عشر وحققتا وحدتهما عقب سلسلة حروب متعاقبة قوّضت دعائم التوازن القديم وبدّلت كيان أوربا الغربية. وبفضل الانقلاب العظيم الذي حدث عام ١٩١٨ في القارة الأوربية وانهارت له امبراطوريات الدول الوسطى، تمكنت بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا من ارضاء مطامعها الوطنية ورغباتها الأهليـة. على ان أغلب رجال السياسة يفضلون دائماً حسابات الموازنة ومقاومة الضغط ويقولون بأنها تحافظ على النظام الموجود وتستبعد خطر الانقلاب على الأساليب التي تؤثر على شعور الشعوب وتستفزها وتحول دون انفجـار الشهوة الفكرية. إن برودون يسلم بذلك حيث يقول: « منذ ذلك العهد — عهد معاهدات وستفاليا — أضيف مبدأ التوازن على القانون العام بحيث يمكن القول — بما يتفق مع المنطق والحقيقة — إنه إذا كان حق النصر أو سبب القوة هو المادة الأولى في القانون العام، فان تحالف الدول وفيما بعد التوازن الدولي، تعتبر المادة الثانية فيه ». قال القيصر اسكندر لتاليران ذات يوم. إن ما يلائم أماني الدول ويرضي رغباتها هو الحق واعتـدال الدول بتأثير بعضهـا على بعض الآخر خير ضمان لحمايتها والمحافظة على حريتها. ومجمل القول أن الحق إذا فهم على هـذا الأساس كان مقياساً للقوات وضابطاً لتوازنهـا. وهكذا يمكن القول بأن السلم لا ينال بواسطة الحق وان الحق هو الذي ينال عن طريق السلم.

***

ومع ذلك فان الحق لم يسمو ولم يبلغ القمة إلاّ بفعل الزمن . ان تأثير الزمن على تكوين الحق لم يوضح كما يجب وان كان قد شغل المفكرين ولا يزال يشغلهم فقد طالما فكروا في شرعية النظام الموضوع . فالكاردينال دي رتز في مذكراته ، ومونتيني في محاولاته ، وباسكال في أفكاره ، وبوسويه في مكاتباته السياسية ، قد اهتموا جميعاً اهتماماً عجيباً بفكرة سقوط الحق . على ان ذلك لا يمنع من أن تكون تلك الفكرة في أساس القانون الخاص . ويمكن القول بأننا إذا رجعنا الى الأصل فاننا نجد سقوط الحق في أساس أغلب القوانين ، وإننا إذا عدنا الى الماضي البعيد فانه يتضح لنا أن التمتع بالملكية واجراءات التمليك مرتبطة بسقوط الحق واجراءاته . فاستعمال بعض الحقوق وقتاً طويلاً يتحوّل إلى حق التمتع الفعلي وإن سلالات الملوك لم توطد دعائم حكمها وتنادي بشرعيته إلاّ على هذا الأساس . واذا كان هوج كابت ملك فرنسا قد احتمل تحقير الأشراف الذين كانوا لا يفتأون عن تذكيره بأنه مدين لهم بعرشه فان خلفه البعيد لويس الرابع عشر كان لا يحتمل أن ينازعه أعظم أمراء الدولة حقه وادعاءه بأن الملك آل اليه بأمر الله لا بفعل الاتباع . ثم ان القانون الدستوري أسس دعائمه على سلسلة اصطلاحات وعادات فلما تكرر تنفيذها أضحت مبادئاً شرعية. وهكذا الملكية الدستورية والحكومة البرلمانية في انجلترا . فقد كانتا نتيجة حتميّة لارغام الملك — بعد نضال ونزاع — على اختيار مستشاريه ووزرائه من بين الأحزاب القوية. وأكثرها أعضاء في برلمان يتمتع بحقوق شرعية كما يتمتع بحق الموافقة على فرض الضرائب ورفضها . وهكذا تتحوّل الوسائل الى حقوق مكتسبة غير قابلة لأي نزاع أو اعتراض .

فبماذا نعلل فعل الزمن ؟ إن بعضهم يعلله بسهولة التطبيق وملاءمة الاختبار وتعذر الوسائل أمام المترافعين للرجوع الى ماض بعيد للبحث عن الأدلة لتأدية حججهم إذ تكون تلك الأدلة قد اندرست أو تلاشت بمرور الزمن . على أن هذا التعليل ، إذا كان مرضيّاً من وجهة القانون الخاص ، فانه عديم الفائدة من ناحية القانون العام ، فهو لا يعرف سقوط الحق بالمعنى الصحيح ، ويطلب من الزمن الدليل بالوثائق الشرعية . فمن أين إذن نشأت قوة الحالات المكتسبة والأوضاع المقررة ؟ لقد نشأت أولاً عن العرف والتطبيق . فكل كائن حي ، إذا وضع في حالة مخصوصة ، لا يلبث أن يتعوّدها ويرتاح اليها والاّ كان مصيره

الزوال عند ظهور الوضع الجديد للاعداء . فهو لذلك يحصر كل قواه ليوازن بين نشاطه العملي وبين القوة التي تؤثر عليه . ان النشاط الذي يتعذر عليه أن يبذله في ناحية تكون مغلقة في وجهه يتحوّل بأكمله الى المنافذ التي ظلت مفتوحة امامه . ان مرانه لأعضائه يزيدها قوة وصلابة ، وفي بعض الظروف يغير من أوضاعها وتركيبها . وعلى كل حال فان الكائن الحي يتطور وفي أغلب الأحيان يرتاح الى النظام الجديد ارتياحه الى النظام القديم ، ولا يحاول شيئاً للعودة اليه .

على أن الحالة الراهنة المستمرة تحمل على الظن بأنها أسمى من الحالة التي خلفتها ، لأن في المحافظة عليها ما يحمل على الفرض بأنها ممتزجة بالأشياء المحيطة بها ، وانها تظفر عليها بفضل الروابط المتينة المرنة التي تربطها بها . انه يتعوّدها ، أو قل ما يكون يرتاح اليها . ان الضغط من جانب قوتين ، أو بالأحرى من جانب دعائمها المادية التي تطبق على بعضها ، توازن بين مسطحاتها وتهيئها للالتحام فتلتصق ببعضها تماماً . فاذا كانت الاجسام المضغوطة ناعمة مصقولة فانها تنفصل عن بعضها بغير ما صعوبة إذا تلاشت قوة الضغط التي تجمعها . على انها في بعض الأحيان تشتبك ببعضها بواسطة خطوط متعرجة وتتعشق بروزها مع الوقت بحيث تقاوم كل ضغط ولا تكون عرضة للانزلاق . وقد يحدث أيضاً — تحت تأثير أدنى ضغط — ان البروز الخشنة تدخل في الفوجات المقابلة لها وتملأ فراغها ، وإذ ذاك يتعذر التفريق بين هاتين القطعتين أو الجسمين الملتصقين مهما كانت الجهود المبذولة في سبيل ذلك قوية . فالقوات التي كانت فيما مضى متعادية تتحوّل الآن الى كتلة واحدة منسجمة ثم لا تلبث أن ترتبط ببعضها روابط تزداد متانة وقوة يوماً إثر يوم . ان فعل الزمن قد جمع بين الندين وختم اتفاقهما بازالة أسباب الخصومة بينهما والتوفيق بين مطالبهما .

وهكذا الحال في مسألة الحدود الفاصلة بين دولتين . ان تلك الحدود ليست ، كما يتوهم البعض ، خطّاً هندسيّاً مرسوماً على الأرض كما يرسم على خريطة جغرافية . فان تصور نطاق مستدير ثابت . تعيش الأمم بداخله وتنطوي فيه أو تنعزل بداخله ، ليس إلاّ نتيجة التصور المطلق والتجرد . والحقيقة ان الحدود منطقة حيّة متحركة قابلة للتعديل والتحوير في كل وقت يصطدم عندها نشاط شعبين وقواهما المتعارضة . انها حدود متحركة وعلى الرغم من

ثباتها الظاهر فانها تتقدم أو تتقهقر باختلاف درجة انتشار الأمم أو قوة مقاومتها ، لأن التأثير المتبادل في هذين الشعبين يعمل ويتقلب في فسحة من الأرض واقعة فيما وراء الخط العرفي المتفق عليه بين السياسيين والقائم تحت تأثير ضغطين متنافسين من جانبين متباينين . ان ذلك التجاوز أو التوسع وراء محيط الدائرة يرجع الى ميل الشعوب التي تعيش بداخلها الى الاندماج ببعضها . فالحدود ، كالبشرة التي تكسو الجسد الحي ، تؤدي مهمة خاصّة بها فتارةً تكون مهمتها قاصرة على صيانة ما بداخلها وتارةً تكون مهمتها البدل والمقايضة . فهي نقطة فاصلة يقف عندها الطرفان ولكنها أيضاً نقطة مرور يتجلى أمامها نشاط خاص . ففي الأصل كانت تلك الحدود عبارة عن منطقة محايدة لا يمتلكها أحد ، ولكنها كانت دائماً موضع نزاع ، وتمتد الى مدى يوازي المسافة التي تفصل بين جيشين . على ان المصالح والعادات قد قرّبت بين الخصوم الى حد الالتصاق ببعضهم وحولت نظرية تلك المنطقة المحايدة إلى اعتبارها المجرد والنظر اليها كخط هندسي رضي به الفريقان مؤقتاً . فهذا الخط إذن يجمع بينهما بقدر ما يفرق بينهما .

على أن سقوط الحق يتجلى في النزاع بين الخصوم المتباعدين بتوطيد الأوضاع المكتسبة، كما أن عدم شرعية التمسك بالقوانين السابقة يحظر قلبها أو تعديلها . إن الحياة لا تقف وحركتها لا تهدأ ومع ذلك فان الأشخاص الذين يعاملون أناساً يرفضون التسليم بالأمر الواقع لا يستطيعون التعامل إلاّ إذا سلموا بصحة الأمور كما كانت عليه وقت التعامل. ان الاجراءات القانونية أو السياسية سواء أكانت خاصة بملكية العين أو بحالة الأفراد أو بمصلحة الشعوب قد وضعت مع مراعاة وجود نظام الاشياء . وكل شخص ينفذ تلك الاجراءات تحت مسئوليته ويعرض نفسه للخديعة والغش إذا هو لم يفاوض صاحب الحق بالذات . على أنه من المستحيل الرجوع بالحوادث إلى ما وراء عهد محدود لامكان تقدير صحة الوقائع بأكملها ، إذ أن كثيراً من المعاهدات والعقود المبرمة ترتكز الى العقد المتنازع فيه وقد مرت — بعد التصديق عليه شتى الحوادث حتى لقد صار من المتعذر الغاؤه دون المساس بدعائم الحياة الاجتماعية وتحطيم صرح كبير من بنيانه . ففي انتزاع حجر واحد من الأساس ما يعرض جداراً عظيماً من جدرانه للانهيار . وكم يكون الانقلاب عظيماً وفظيعاً

لو أمكن الطعن في جميع الحقوق المكتسبة ونقضها دون اعتبار شرط الزمن الذي انقضى عليها ! ولكن الأعمال التي تستند اليها تحميها ، لحسن الحظ ، ضد مطالبات الاسترداد المطردة بلا انقطاع .

وهكذا يتحوّل الأمر الواقع الى حق . وهذا الحق يندفع الى الأمام مع حركة الزمن بغير رجعة . وارتباط تلك الحركة بأعمال أخرى يتعذر فصلها عن دورة الأيام ولا يمكن التغاضي عنها واستنكارها . ان تأليف القوات المتزنة يصبح ، بفعل الزمن ، عملية أساسية بل تكاد تكون ساحرة لشدة تأثيرها فتولد قانون العلاقات الخارجية بين الأفراد المستقلين .

الفصل الثالث

التعاقد والعرف

ان العقد هو الآلة التي يُسجل فيها مادة توازن القوات البشرية كمعاهدات الصلح والتحالف بين الدول والشعوب والاتفاقات التجارية بين الأفراد .

في البدء كانت العقود استثنائية وكان البدل بين فردين قليلاً جدًّا . وكانت ملكية الفرد للأرض مجهولة حتى ظهرت الزراعة فوضعت حدًّا لعصر البداوة . أما في داخل الأسرة والعشيرة الخاضعة لنظام تأديبي ، فالشيوعية الأصلية كانت لا تترك للملكية الخاصّة إلاّ بعض المنقولات كالأسلحة والحلي أو الاواني المنزلية الصغيرة ، إلاّ أنه يخال أن طريقة نقل العين — عن طريق البدل — قد تقدمتها الهبة . فكان الضعيف يسعى إلى استمالة القوي واكتساب رضاه فيقدم له العطايا والهدايا . وتلك الهدايا كانت — في الأصل — قاصرة على جانب واحد ، ثم أصبحت بعد ذلك متبادلة للدلالة على الشعور القائم على الخوف والاحترام من الجانبين . فالوعد بالطاعة والخضوع من جانب واحد كان يتطلب من الجانب الآخر عاطفة مماثلة ورغبة ظاهرة في تبادل المصلحة، خصوصاً إذا كانت صادرة عن شخص تحسن مداراته لاكتساب مساعدته أو على الأقل حياده . ويقول سبنسر : « ليس من المستحيل أن تكون الميول المتبادلة أساس التعاقد الذي نشأ عنه البدل . لقد تعودوا — عند تقديم هبة ما — أن يرقبوا ورود هبة متساوية لها في الثمن او القيمة. وهكذا يجب أن يتم البدل بين الطرفين قبل أن تخمد جذوة العاطفة التي أوحت به . على ان العواطف سريعة التطور ، ولذلك يجب أن يتم التعاقد الذي تجلت فيه تلك العواطف ويُمهر في الحال أو في مدى قصير . وهكذا تكون الحال إذا كان البدل وليد المصلحة . فالصفقة تتم نقداً وعيناً إذ من أصعب الأمور ابرام عقد لأجل . وفي الواقع ، هل يمكن — بغير تدخل سلطة قوية — الاعتماد على حسن نية الأفراد لتنفيذ عهد أرجىء على الرغم من حصول كلا الطرفين على ما يقابل تعهداته

ووعوده ؟ ولقد كانت التجارة بين السياح وبرابرة أفريقيا الوسطى تحاط بمثل تلك الأساليب، وكذلك بين العصابات والقبائل المسلحة . فقد كان أفراد الفريقين يقفون بكامل سلاحهم خلال المفاوضات وهم صامتون . وهكذا يصح القول بأن أول أوضاع البدل يقوم على التصور بأن الفريقين المتفاوضين قد عقدا هدنة فيما بينهما وإن تلك الهدنة واجبة الاحترام خلال المفاوضات . وأننا نجد في عقود بعض القبائل الهندية عبارات تحدٍّ وخصومة عنيفة تعبر عمّا يضمره المتعاقدون نحو بعضهم من شعور الحقد والضغينة .

ففي الأصل إذن كان عقد البدل ينطوي كذلك على معاهدة صلح لا تتميز عنه، إن لقوة الفريقين المتعاملين تأثيراً كبيراً على تحديد شروط المعاملة اقتصاديًّا، واتفاق الآراء والرغبات كثيراً ما يكون خاضعاً لعوامل الرهبة والخوف . ولا تتم الموافقة بين الطرفين إلاّ إذا فضلا الحالة الجديدة التي تنشأ عن اتفاقهما على الحالة التي كانا عليها مهما كانت أسبابها . وكل فريق يقدر ان ما يجب أن يناله لنفسه لا بد أن يمتاز كثيراً على ما يتنازل عنه لخصمه . ومن الأسباب التي تحمل على الاتفاق يوجد الضغط الذي يبديه الجانب القوي إلى جانب الاكراه وتأثيرات الظروف الخارجية التي لا تعمل على ارادة الفريقين بنسبة واحدة . ففي كل اتفاق تمتزج الحرية والاكراه بكميات غير متساوية ولكنها مع ذلك غير مهملة . فالحرية التامّة ليست من هذا العالم الذي يتحرك فيه الرجل في نطاق النسبية . ومع ذلك فان القوة وحدها ليست بمفردها كفيلة للوصول الى عقد اتفاق . والموافقة بين المتعاقدين أمرٌ لا بدَّ منه فهي بمثابة نزع السلاح والاستسلام الذاتي من الوجهة الأخلاقية حيال الضرورة المعترف بها . ثم إنَّ المفاوضة لا تخرج عن كونها ضربٌ من ضروب القتال اذا هي لم تسفر عن مثل نتائجه . إن الغرض بل الغاية التي يسعى اليها كل فريق هيَ التغلب على خصمه — سواءٌ بالقوة أو بالحجة — لاخضاعه لارادته وحمله على الاعتراف بضعف مقاومته وعدم الفائدة منها . فاذا أقنعه تمَّ له النصر لأن المرء يعد نفسه مقهوراً اذا ساوره الشك في نفسه وتملكه اليقين بقوة خصمه ثم ان المفاوضة لا تتم إلاّ إذا أيقن فريق بعجزه عن دحض مزاعم الفريق المعادي وتذليلها فكلا الفريقين يتأثر بسلطة منافسه وسطوته ويسلم له بشروط على أنه يفرض عليه — إرضاءً لنفسه وانتقاماً لها — شيئاً من رغباته وارادته ، إذ أنه يندر أن يتم اتفاق بين

متعاقدين دون أن يفرض كل منهما على الآخر شروطه وامتيازاته إذ لا يمكن التسليم بأن أحد الطرفين المتعاقدين يتحمل بمفرده جميع التضحيات، خصوصاً وان الاتفاق ليس إلا تسوية للمطالب سواءً أكانت في المعاملات التجارية والمعاهدات السياسية. فمهما كانت مزايا الموقف الاقتصادي أو الانتصار الحربي — ان لم يصحبه سحق العدو تماماً — فانه لا يؤدي الى الاتفاق أو إلى الصلح ما لم يتنازل الطرف الأقوى عن جزء من الحالة المكتسبة ليحمل الخصم على تفضيل الاتفاق على القتال والبدل على التمنع والتوقف. إما اذا اصطدمت المطامع فليس مايحول دون وقوع التوقف والقطيعة. إن النشاط اذا لم يكن محصوراً وكان موزّعاً صعب جمعه بعض الوقت وضعف شره. والارادة مهما كانت قوية، إذا هي لانت بعض الشيء، رضيت بالتحكيم وخففت من غلوائها ومزاعمها. ان القبول والرضى هو الرضوخ وذلك الرضوخ اليائس في غيبته عقوبة أشد وأعظم — هو الذي يضمن الانتفاع بالتعاقد وقتاً من الزمن.

ولنذكر — على سبيل المثل بين رئيس ومرؤوس — التعاقد في عهد الاقطاعية. فذلك التعاقد كان يفرض على التابع والمتبوع واجبات متبادلة ولكنها غير متساوية. ان التفاوت في المساوات بين المتعاقدين يظل قائماً وانه ليزداد ـ في بعض الظروف ـ خطورة في أيامنا وان كان في أوقات أقل اضطراباً من تلك. فتساوي الشروط في المجتمع من الشواذ لا من القواعد المقررة. ويكفي أن تقارن بين حالة صاحب صناعة كبيرة وحالة العامل الذي يستخدمه وبين شركة سكك حديدية والمسافر الذي يريد ركوب القطار، لنتبين الفرق بين الحالتين! فهل يمكن أن يتبادلوا المعاملة على قدم المساواة؟ ان البائع والمشتري ـ في أية عملية تجارية تقريباً لا يتمتعان بمطلق حرية قبول التعاقد أو رفضه فتأثير العرض أو الطلب يرجح كفة أحد الطرفين على الآخر. فقد توجد لدى أحدهما أسباب شخصية وظروف قهرية تجعله في قبضة الآخر: كحاجته الى نقود، أو عدم استطاعته التخلص من قيود احتكار، أو غير ذلك من الأسباب التي يختلف تأثيرها ومفعولها بحيث يمكن القول بأن جميع العقود خاضعة للمؤثرات وان فائدتها ترجع الى أحد الطرفين دون الطرف الآخر.

أن للمعاهدات الدولية صفة كهذه. إذ أنها كثيراً ما تصل بين دول متباينة في القوة

تبايناً عظيماً أكثر مما تحصل بين الأفراد . فهل يمكن أن تقاوم الدول الامبراطورية العظمى نزعة الكبر والأنانية التي تمتاز بها وتنزل عنها لتفاوض امارات ضئيلة أو جمهوريات صغيرة مفاوضة الند للند ؟ يقيناً لا . . على أن الدول - أو قلما يكون في عهدنا - مرتبطة بالأرض التي تمثلها وهي لا تستطيع أن تقصر علاقاتها على أمور ثانوية ومنازعات مستمرة ، أو على عمليات تبادل أو مقايضة تنفذ في وقتها على ألا تتجدد الا نادراً أو لا تتجدد مطلقاً . أما البلاد المتلاصقة أو المجاورة لبعضها فتنشأ بينها علاقات وطيدة مضطردة ، لآجال طويلة ، وترمي الى ايجاد حالة مستديمة : كتحديد الحدود ، ودفع الجزية ، ومعاهدات تجارية . أما عقوبة الارتباطات المتبادلة والالتزامات فموقوفة على احتمال العودة الى القتال العلني أو المستتر الذي تلافيا وقوعه ووضعا حداً له . وإذن ما الفائدة من تجديد اختبار نتائجه معروفة ؟ وما دامت قوات الأمم المتقابلة لا تختلف فان مآل النزاع لا يمكن أن يكون موضع شك .

إن شروط الاتفاق تنبيء بتلك الحالة . على أن الحالة المتبادلة التي يوجد عليها الطرفان يمكن — مع ذلك أن تتغير بين النتيجة وبين تنفيذ الاتفاق ، وآنئذٍ تظهر الحالة جد دقيقة . إن التعاقد لم يبرم ليكون خالداً . وعبثاً يحاول أن يجمع بين حلقات المستقبل في سلسلة واحدة . تلك عمليات واجراءات وقتية قائمة على الخيال ووضعت لمجرد الانتقال من حال الى حال . ويتجلى ضعف العقد عند ما يحاول أن يضم عهداً طويلاً اذ أنه يتعدى الادراك البشري . إن التنفيذ الذي يتطلب سنيناً طوالا يتأثر بحوادث غريبة عن صلب التعاقد . فالمشرع أو القاضي وكذلك الطرفان المتعاقدان ، يستندون جميعاً — لتعديل شروط الاتفاق — الى الظروف التي يتعذر فرضها أو وقوعها عند ابرام التعاقد . وحينئذٍ لا يبقى من الاتفاق إلا شكل العقد ان لم يلغ بأكمله ، ويتخذ شكل شركة لم تقم إلا تحت ضغط الحوادث . وهذا هو سر ضعف المعاهدات الدولية . « إن المعاهدات — كما يقول سوريل — هي رمز للعلاقات القائمة — وقت ابرامها — بين القوة المادية والقوة الأخلاقية التي تتمتع بها الدول المتعاقدة . وتظل تلك المعاهدات قائمة بنسبة تقدير تلك القوات ، أياً كان ذلك التقدير . إن الحقوق التي تفرضها لا تتجاوز مطلقاً الشروط التي تقررت فيها تلك الحقوق » .

إن التعاقد الصحيح لا يربط الأفراد أو الدول إلاّ بنقطة واحدة ولأمد قصير. ولذلك فهؤلاء الأفراد أو الدول يظلون في عزلة عن بعضهم في كل ما ليس له مساس مباشر بمصلحتهم. ويقول دوركهيم: « إذا نحن نظرنا الى الأشياء في أعماقها فاننا نجد أن انسجام المصالح يخفي نزاعاً مستتراً أو قلّ ما يكون مؤجلاً. والواقع أن المصلحة في هذا العالم أقل الأشياء ثباتاً. فأنا اليوم أرى أن مصلحتي في أن أتفق معك ثم يصبح نفس السبب غداً وسيلة لأن أقف في وجهك وأكون لك نداً. فهذا السبب لا يمكن أن يوجد إلاّ علاقات وقتية أو بمعنى أصح اشتراكاً لا يتجاوز يوماً واحداً. »

* * *

إن الحق الأصلي الناشيء عن المنازعات والاتفاقات المتعاقبة، مليء بالمراسيم والتشريع. وليس أسهل من تفسير ذلك، فالمراسيم تدل في ظاهرها على حالة كل شخص من الأشخاص الذين يجتمعون. وما الانحناء والتحيّات والاحترامات التي يبدونها لبعضهم إلاّ أوضاعاً مخففة ورمزية لحركة الرجل — في العصور الأولى — إذا أراد أن يقدم خضوعه التام فانه ينبطح على الأرض بغير سلاح بحيث لا يستطيع أن يبدي أي حراك أو مقاومة، أو إنه يحني رأسه للدلالة على أنه يقدمها الى خصمه الظافر. أما في عهدنا، فان الرجل المتمدين، عند ما يتقدم بالتحية، ينزع قبعته ويعيد حركة الرجل الهمجي الذي ينزع عنه كل شيء رجاء أن يحظى من خصمه بالحلم والرأفة. وكذلك المراسيم السياسية فانها تمثل العادات القديمة في شكلها الحديث الذي اكتسبته بعد أن تطورت تدريجيّاً مع الزمن تطوراً مستتراً غير محسوس فإجراءات الحرص التي كان يتبعها المتعاقدون في تلك العصور النائية وسوء الظن الذي كان يساور نفوسهم قد تحولت الى علامات الاحترام التي يتبادلها الأشخاص الرسميون عند ما تبدأ العلاقات بعضهم. وتلك المراسيم تدل على المساواة بين الخصوم — مع بعض التفاوت — إذا كانوا متقاربين في المكانة والتمثيل أو عدم المساواة بينهم بتاتاً.

إن موضوع الشكل يشغل المكانة الأولى. ولقد زعموا كذلك ان الحرب ضرب من الاجراءات القضائية. وان الأصح أن يقال ان تلك الاجراءات هي الحرب بالذات، لأن وجود المحكمة يسبق القاعدة التي ستنشأ عن القرارات التي تصدر عنها. واذن يكون من أهم

الأمور او وقوف على الطريقة التي سيلتقي معها الخصوم ، وفي أي ظروف يستطيعون الانتفاع بالوسائل التي لديهم . ان نتيجة المرافعات أمام المحاكم رهينة بالاتفاقات المقررة لطلب التحكيم في الخلافات الناشئة عنها أكثر مما هي رهينة بصحة دعوى أحد الطرفين وقوة حجته . ان حق السلم أو قانونه شبيه بحق الحرب وقانونه ، لأنه يحل محله مع الاحتفاظ بنية الرجوع اليه اذا ما خيبت النتيجة الأمل المعقود عليها .

على أنه لن يتخلص عنه الا ببطء متناهي إذ أن محكمة العدل في العصور القديمة كانت مؤلفة من رجال السيف . كان أحد أتباع شارل الأصلع إذا ما دعا الخصوم الى المثول أمام المحكمة طلب اليهم أن يأتوا بكامل سلاحهم وينبئهم بأنهم قد يقاتلون بعضهم تأييداً لصحة دعواهم . أما في انجلترا فالمحكمة التي تتولى تنفيذ الاجراءات القانونية لتسليم الأرض لمالكها كانت في ذلك العهد مؤلفة من رجال السيف والحرب . وكان من حق كل فرد يتمتع بالحرية أن يطلب محاكمته أمام محكمة مؤلفة من الأمراء التابع لولايتهم . وكانت المنازعات تفض بتطبيق قواعد القانون أكثر من استعمال وسائل التوفيق بين المزاعم المتناقضة . فكان القضاة يحاولون تبسيط تلك القواعد لوضع حد لحالة الحرب لأنها أساءت إليهم أكثر مما أساءت الى المتقاضين أنفسهم . ولا شك في أن نظام الصلح في نظير دفع غرامة مالية ، قد وضع لحقن الدماء ووضع حد للانتقامات الشخصية وقد تعددت تلك الغرامة — مع مرور الزمن — بتحديد مبلغ اجمالي ثمناً للدم الذي أهريق . وإننا نجد في المرسوم الملكي الذي صدر عام ١٢٩٦ بمنع المبارزات القضائية والحروب الشخصية ابان وجود الملك في حرب خارجية دليلاً على الأسباب القهرية الدافعة الى الاحتفاظ بالسلم الداخلي . وكذلك القانون الجرماني القديم فانه كان يفرض على الضعيف تقديم الدليل لأن مصلحته تقضي بأن يتلافى غضب المعتدي . ولهذا السبب يقولون أن الدفاع مكاف بإيراد البرهان . إلا أن تلك القاعدة تنقلب الى العكس اذا كانت الحالة الاجتماعية متزنة مركزة وكانت تستند الى صلح أضمن وأنسب ، فان القرائن تتجه لصالح المدعى عليه الذي يتمتع بالحيازة الفعلية وتعضيد الاتباع . وهكذا يكون واجب المدعي إثبات حقه بالبينة والبرهان .

ويسوّى النزاع القائم بين فريقين بطريق الضغط المتوالي من جانب جميع من يهمهم أمر

المحافظة على السلم أو إماتته وبتأثير الحكم بعلاقة القوات المائلة المتنازعة . ولا يمكن اعتبار هذا الحكم حكماً صحيحاً ولكنه يُعدُّ وساطة مسلحة .

تلك أيضاً أبرز صفات القانون الدولي الذي بقي على ما كان عليه منذ عهده الأول . فانه يشمل قواعد المرافعات أكثر مما فيه من قواعد أساسية تطبيقية . وليس التحكيم وسيلة لفض المنازعات ولكنه يُعد وسيلة للتوفيق بين خصوم يفضلون وساطة فريق ثالث للمعادلة بينهم بدلاً من الالتجاء الى السلاح لفض نزاعهم . إن دعوى التحكيم التي تحيل تسوية النزاع على قرار تحكيم تهتم باختيار المحكمين أكثر من اهتمامها بالمبادىء التي يهتدون بها . والحاكم أو المشرع أو المحكمة المناط بهم أمر الفصل في النزاع قلّ أن يهملوا الخصوم دون إرضائهم ببعض الشيء ، وعصبة الأمم التي أنشئت حديثاً ليست إلاّ مجتمع من الرجال السياسيين . وتأليف محكمة العدل الملحقة بها قد سبقها اجراءات تشريعية وإنشاء شرطة دولية . وهذا التناقض في الاجراءات يعتبره التاريخ منطقاً سليماً .

إن القانون العام كان في وقت ما وفي جميع أنحاء العالم ، مجموعة معاهدات مرتبطة ببعضها ومعبرة عن علاقة القوات وأداة للمصالح في العصر الذي عقدت فيه وهي تقوم عادة على أساس عقد دولي له صبغة عامة وأبرم لوضع حد لعهد قتال وحروب . فمعاهدات وستفاليا ثم معاهدات فيينا وفي عهدنا مجموعة معاهدات فرساي وسان جرمان ونويي وتريانون قد ألفت تباعاً قانون أوروبا العام وضمنت السلم في الجزء الغربي من العالم عدة سنوات .

وفي الختام نرى أن نأتي على صورة أخيرة للتشريع في العصور الأولى وتلك الصورة تمثل صفة العقوبة التي تتخذ مظهر الانتقام أكثر مما هي عقوبة للردع أو الارهاب . وهي ترمي إلى إيضاح أوضاع الجريمة المرتبطة بها . فجسامة العقوبة لا تقاس فقط بفظاعة الجريمة ولكن الضرر الذي يحاق بالمجرم يكاد يشبه في ظروفه ونتائجه الضرر الذي لحق بالضحية .. عين بعين وسن بسن . . . إن شريعة الاقتصاص من المجرم بنفس جرمه لأعظم دليل على ذلك . ثم أن اجراءات قمع الفتنة تتخذ شكل الفتنة بالذات ، فالمخالفات التي تدل على شعور مسف تكون موضع عقوبات مخجلة كالسوط والتشهير والنصيبة والسخرية ، والمخالفات الناشئة عن الطمع والجشع يعاقب عليها بالغرامات المالية ، إذ شعور الانتقام يرتاح ويهدأ

لتلك العقوبات التي توجد صلة بين العقوبة ونوع الجريمة ، وليس بين العقوبة واستعداد المجرم . إن القانون القديم كان لا يهتم باصلاح حال المجرم أو ارهاب من يدفعهم الغرور والمثل السيء الى التمثل به فهو يهذهب الى أبعد من ذلك إذ هو لا يبحث عن سبق الاصرار أو التعمد . ولذلك فان من يحدث أو يسبب في ضرر ولو بغير عمد أو قصد ناله نفس العقاب الذي ينال مرتكب الجرم مع سبق الاصرار .

فهل يفهم من ذلك شيء غير أن الفكرة الأساسية في هذا التطبيق هي إيجاد نوع من المعادلة والتوازن ؟ وأن الضرر الذي كان يحدث لا يتم إصلاحه عن طريق التعويض المادّي ولكن عن طريق هدم ما يتناسب معه ويوازيه ، وأن كل عذاب يجب أن يعوّض عنه بعذاب يماثله ويتساوى معه . ان التكفير عن الجرم يعتبر نوعاً من أنواع المقاصة . ولا زالت المنازعات بين القبائل الهمجية حتى في أيامنا تصطبغ بتلك الصبغة . فهناك قبائل تقوم بغزواتها لمجرد الاضرار بحقوق الغير بما يوازي الضرر الذي لحق بها، فاذا تساوى الضرر الذي أحدثوه بالاهانة التي لحقت بهم كفوا عن عملهم وارتدوا من تلقاء أنفسهم .

وستظل تلك الحروب الخاصة قائمة ما دام المجتمع لم يصل الى درجة من النظام كفيلة بالمحافظة عليه وما دام ضمير الجماعة لا يؤثر على شعور الأفراد ويكبح جماح الحقد ونزعة الانتقام التي تتملك نفوسهم بتهدئة الخواطر وتخفيف بعض العقوبات الوحشية وكذلك بتشديد بعض العقوبات البسيطة التافهة التي تطبق على بعض الجرائم التي ينظر اليها الخصوم فيما بينهم بشفقة متبادلة وإن كانت عواقبها تعود بأضرار جسيمة على المجتمع . وقبل أن يصل التطور إلى تلك المرحلة الأخيرة التي تعتبر فيها الدولة الجرائم الخاصّة جرائم عامة فانه ينقلب في ثلاث مراحل : مرحلة الانتقام الشخصي، وهذا الانتقام لا يخرج عن كونه حالة حرب قائمة بين عائلات أو جماعات مستقلة ، ومرحلة الصلح بواسطة المال وهو لا يعدو عن كونه نوع من معاهدات الصلح المتفق عليها طوعاً برضاء الطرفين بعد إذ سئما القتال وبعد إذ شعرا بتعادل قوتهما تعادلاً محسوساً وآنئذٍ يعدل المعتدى عليه عن انتقامه ، كما يعدل المعتدي — الذي يخشى ذلك الانتقام — عن متابعة جرمه (ذلك هو القانون الجرماني وقانون الاثنى عشر لوحة) . ثمّ المرحلة الثالثة والأخيرة وهى مرحلة الصلح المشروع الذي تفرضه

الدولة وتحدد شروطه . إن جميع الشعوب المتمدينة قد مرّت بتلك المراحل . وفي عهدنا هذا نرى في قانون العقوبات في الحبشة ، إن الجرائم الموجهة إلى أفراد ، وجرائم القتل والسرقة ، ليست خاضعة لاجراءات قانونيـة إلا بناءً على طلب أولي الشأن الذين لهم الحق في التنازل عن طلب العقوبة أو المفاوضـة وحسم النزاع بمعاهدة صلح . ان الشعب الحبشي لا يشعر بشدة الضرر الذي يلحق بالمجتمع من جراء تلك الاعتداءات الشخصية .

على أنه قد ظهر أن الضمانات التي يمكن الحصول عليها من جراء تدخل الدولة في المنازعات التي تقع بين الجماعات — إذا كانوا مستقلين — أفعل وأبعد أثراً من الضمانات التي يتمتع بها أعضاء الأسرة الخاضعين لتأديب الأب في الجرائم التي تتأثر منها الأسرة وحدها . إن حق توقيع الجزاء بين الجماعات في عهد النظام الأسقفي كان ينفذ بغير ما رقيب، إلا الرأي السائد في دائرة الأسرة المتحدة بشعور واحـد . إن حق الموت أو الحيـاة الذي يتمتع به رب الأسرة نحو زوجه وأعقابه وعبيده لم يكن منظماً أكثر من حق الوالدين في تأديب أولادهم المعترف به في التشريع العصري . فهذا التخفيف المضطرد من جهة ، والامتداد العكسي في سلطة الدولة في قمع جرائم ومخالفات الخدم تبين نموّ العهد القانوني الذي تحقق بالتوازن على العهد الذي يتولد من نظام الأسرة القديم حيث كانت السلطة تسيطر دون وجود سلطة أخرى تعادلها .

***

وإنه نظراً للتكرار فان بعض الأعمال والتعاقدات قد اكتسبت قوة الحق الثابت المفروض — لا بطريقة مكرهة وفي اطار محدود — ولكن في شكل ظاهري عام وتحت تأثير السوابق المتعددة . وهكذا تقبل تلك الأعمال والتعاقدات بغير اعتراض أو مقاومة لأنها فُرضت باعتبار أنها نتائج لضروريات الحياة العامة . فهي ايضاح وتفسير لنوع من التوازن أو بعبارة أصح هي نوع من التعهد والتعاقد .

والعمل الأساسي لا يقل شرعية عن الأعمال التي تعقبه وتضرب على منواله . ان العرف المصطلح عليه لا يخلق حقّـاً : انه يكشف عن هـذا الحق ويظهره وهو لذلك يزيده قوة . فالتدليل بالأمثال المتكررة على كيفية التوفيق بين المصالح المختلفة المتعارضة في حالة محدودة

ويحمل المترددين على الاذعان إلى حل قد يكون مفروضاً بالقوة ، فيترتب على ذلك تفضيل هذا الحل وقبوله لتلافي الضرر الذي ينجم عن مقاومة غير مجدية . وعلى كل حال فان العلاقات التي تقوم على أساس واضح وعبارات جلية ظاهرة تتجلى عن حالة مستترة . وتلك الحالة قل أن تتغير بظهور الأحوال المتعاقبة أو انتقالها .

وهكذا نرى ان أنسب الطرق للعمل وأكثرها ملاءمة لنظام الأشياء المقرّر ، تتكرّر وتزداد باطراد مستمر فتخلق عادات تتخذ مع الوقت صفة القواعد الثابتة . ان الأمر الواقع يرمي إلى التداول والتكرار إذ هو ينطبع في مجموعة الأعضاء والوجدان وينساب شيئاً فشيئاً من الشعور المفكر إلى أعماق اللاشعور.. فتطبيقه المتبادل يعزز ما تقدمه من العلاقات الأولية غير المرتكزة .

ان الاستعمال يتطوّر رويداً رويداً بفضل التعديلات التي تدخل على نظام الأشياء الطبيعي فيساعد ذلك — وبدون أي خطر يذكر — على ايجاد تطبيق جديد . أما إذا تحوّلت الحالات بسرعة فان الثقة في الاستعمال تصطدم بحدوث انقلابات ومفاجئات قد تكون سبباً في وقوع نكبات حقيقية . وهكذا تسود — خصوصاً في النظام الدولي — حالة عدم استقرار تحول دون تنفيذ كثير من الآمال العظيمة والأفكار السامية التي ترقبها الانسانية وتعلق عليها مستقبلها .

ان الحق الذي يستخلص عفواً من العلاقات الخارجية يتجلى عن صفات تميزه بكل سهولة فوحشية أصوله وصلابته تجعل منه آلة يصعب استعمالها وعلى جانب عظيم من الخطورة . انه سلاح لا يخلو من الشر والايذاء حتى مع من يستعملونه بحذر واحتراس . وهذا السلاح يحمله الأقوياء الأشداء بقدر ما يحمله الضعفاء المستكينين . ولا شك في أنهم جميعاً يشعرون بأنه حمل ثقيل إذا هم لم يستعينوا بكل قواهم على حمله .

وعلى الرغم من ذلك فان هذا الحق يُعد انتصاراً على القوة الغاشمة ويخفف من غلوائها وافراطها . ولكنه يمتاز بعيب ظاهر وهو عدم الاستقرار خصوصاً اذا كان صادراً عن توازن عدد قليل من العناصر . ولما كانت هذه العناصر لا تتبع نظام الأشياء الجامدة ولكنها تتبع كائنات حية خاضعة للتحول ، فأي تحول في نشاط إحدى هذه العناصر يكفي

لتحطيم التوازن والاخلال بجميع أجزاء الجهاز اخلالاً كبيراً . وهـذا الجهاز في ذاته غير مغلق . فهو مؤلف من عناصر مختلفة العدد منوعة ، ويظل مفتوحاً ومعرضاً لتدخل عوامل جديدة تستطيع — هي أيضاً — تحويل استعداد الأطراف تحويلاً كليّاً .

وفي النهاية يعمل كل واحد من تلك العوامل بطريقة كلية في اتجـاه واحد وبقوة شاملة ناشئة عن الاتجاهات المختلفة أو المعارضات . وهذه الظروف مجتمعة تساعد على ايجاد التوازن المعرض للانهيار تحت تأثير الاهتزازات الوحشية والاختلاجات غير المنتظمة . وان الخلل ليكونَنَّ أشد خطراً وأعظم بقدر ما تكون القطيعة فجائية . ثم ان تلك الاهتزازات تقطع الروابط التي تتكوّن بين الأطراف المتعاملين وتقوّض دعائم المحور وتغير الاتجاه الذي كان بارزاً للآن على كل عنصر من العناصر التي تؤلفه .

ان هذا الحق ناشيء من امتزاج القوات الخاضعة للاعمال والتأثيرات المحلية والعرضية. وينقصه في الداخل دعامة مبدأ رئيسي يسيطر عليه نفوذ سلطة كفيلة بحسم النزاع وفضه . ان مثل هذا الحق ناقص إذ انه يفتقر الى القاعدة الصريحة التي تعد بمثابة تشريع ثابت منتظم. انه مجموعة من القوات المتعارضة التي ترتكز الى بعضها وترتفع ببطء كالقبة المتداعية لا يحول دون انهيارها الا القواعد والعقود التي تسندها . ومع ذلك فالمرء يرتاح الى الالتجاء تحتها عسى أن يجد فيها مجنباً أو ترساً .

فاذا كانت القوة والحق يختلفان تماماً في الجنس والطابع . واذا كانا ـ للاسباب المتعارضة التي ينشئان عنها — يقصي أحدهما الآخر ، فان تعاقبهما يصبح أمراً محتوماً ، وانه لمن العبث أن يرجى للانسانية مستقبل أحسن . ولـكن شيئاً من ذلك لم يحدث . فالسلم يعتبر حالة خاصة من الحرب كما يعتبر توازن القوات حالة من التحور الاجتماعي . والسلم — وهو أسمى معاني الخير — هو الحق كما ان الحرب ليس الا مظهر من ثورة القوات على بعضها .

الفصل الرابع

الحق العضوي للعلاقات الداخلية

في الطبقات السفلية من العالم الحيواني تتألف جماعات ذات صبغة مبهمة نتيجة تكدس الخلايا وعلى الرغم من أن تلك الخلايا ميالة الى العيش عيشاً مستقلاً حرًّا . وتلك الجماعات الحيوانية — أو كما يسمونها المستعمرات — مؤلفة من عناصر ، وإن ظلّت في بدء تكوينها منفصلة متباينة ، إلاّ أنها باتحادها مع بعضها تؤلف فردية ، وتلك الفردية تمتص تدريجيًّا فردية الأعضاء التي تكونها : « لأن اتصال الأنسجة التي تتألف منها أعضاء المجموع لا بدّ أن تؤلف في الواقع فرداً » . وما دامت جميع الخلايا متلاصقة فان المجموع لا يستطيع أن يتنقل إلاّ بحركات اجمالية؛ ولذلك فهو يشرك جميع موارده الحيوية بفضل انسجام أنسجته وقابليتها الى الترشيح . ثم ان تلك الخلايا — بفضل انسجامها وتشابهها — تتخصص في وظيفة لا تلبث مع الوقت أن تميزها عن بعضها بتطبيقها على العمل الذي يلائمها : إن الوظيفة تخلق العضو . والأعضاء بدورها تخلع على الجماعة تركيباً محدوداً بفضل وضع الأعضاء ونموها . ويذهب كثير من العلماء الى القول بأن ذلك هو السبب المباشر ونقطة البدء في التطور حتى في طبقة الحيوانات الفقرية التي تمتاز بعقليتها السامية الى حدٍّ يتعذر العثور فيها على آثار التكوين الاستعماري .

ومهما يكن من أمر ذلك القياس التطوري فإن حركة التطور التي لخصناها تضع نصب أعيننا صورة من ظاهرة الاشتراك التي أعقبت — بطريقتين مختلفتين — أرقى اوضاع المجتمعات . فتكوينها يتجلى أحياناً من تناسل الوحدات المتفرعة عن أصل واحد ، وأحياناً ينشأ عن اتحاد الجماعات التي كانت مؤلفة من قبل . فالأولى تعتبر مجتمعات بسيطة والثانية تعد

مجتمعات مركبـة قد تشابه أعضاؤها في كثير من النقط، وترمي الى الاندماج ببعضها اندماجاً كليـًّا .

وكما أن تلاصق الخلايا في الجماعات الحيوانية قد أدّى الى تكوين وحدة فردية هي من جهة أسمى من وحدة أعضائها ، ومن جهة أخرى تعمل — بفضل الأعضاء المتباينة — على ارضاء حاجاتها المشـتركة ، كذلك المجتمعات البشرية ، سواء أكانت بسيطة أو مركبة ، والأسرة ، والمدن ، والدول ، فانها تتقارب عرضاً بروابط واهية ومتقطعة ، ثم تشترك باتفاقات أقل انفصاماً وأكثر استقراراً تحت تأثير القوات المتوازنة الثابتة مما جعلها تندفع في حركات اجماليـة أدت الى اكتشاف فوائد التعاون والتعامل وتبادل المصالح المشتركة . ولقد كانت الحرب — في كثير من الأحوال — بما تجره خلفها من ويلات وأهوال وتأثير الحاجة ، السبب المبـاشر في ازالة الشكوك وابادة سوء النيـة وتحطيم العراقيل وإلانة المعارضات وجمع الـكلمة وضم الحلفاء في شكل اتحاد دائم . ولقـد كانت الحرب السبب أيضاً في الجمع بين هيئتـين إحداها الظافرة التي امتصت المقهورة وضمتها في وحـدة سامية وفرضت عليهـا في بادىء الأمر ارادتها ثم انتهى بها الحال الى قبول الامتيـازات المشتركة بين الطرفين . ان العلاقات الثابتـة القوية تضم بين جميع الأجزاء المتناثرة طبقاً لنظام ثابت دائم . ومنذ تلك اللحظة تتحدد جميع التعديلات والتغييرات في هذه الأجزاء . والحرب أيضاً هي التي تخلق المجتمع الدائم وتحافظ على كيانه ووجوده في حالتـه الضيقة المحدودة المنـكمشة بأقصى ما فيهـا من عوامل الضغط والقوة . ان اشتراك عاملين في مناوأة عامل آخر يعد مبدأ للاتحاد وعنصراً رئيسيـًّا فعالاً من عناصر الوحدة .

ان المجتمعات الصغيرة في العصور القديمة ، تلك المجتمعات التي كانت تعيش في حروب مستمرة وغزوات مطردة بغير هوادة ولا شفقة وفي أوقات كان الأسير لا ينجو من شر الموت الا ليقع بين براثن الرق والعبودية ، تلك المجتمعات كانت غريبة عن بعضها تتراشق شذراً وتتحين الفرص للبطش والفتك .

كانت المدينة في تلك العصور عبارة عن معسكر قائم. وكان دستور الأسر والمدن القديمة كما أسلفنا — شاقًّا وحشيًّا بفعل الضرورات الخارجية . على أنها قد تدانت من بعضها

وامتزجت في هيئة ثابتة . وأصبح السياج المسلح المحيط بها عديم الفائدة الا فيما يتعلق بمحيط الجماعة . أما في الداخل فان المساحات الملتصقة ببعضها فانها تفقد من صلابتها وخشونتها ، وتصبح قابلة للرشح كما هي الحال في المستعمرات الحيوانية الملتصقة الأعضاء ، وتسقط الحواجز ويمتزج ما بداخلها : لن تكون كالخلايا الجوفاء المتلاصقة ولكنها تصبح بمثابة قطعة واحدة من نسيج متواصل تسري في جميع أجزائه حياة واحدة .

وتتحول قوة المقاومة نحو ما يحيط بالجماعة الجديدة من الخارج . ويجتمع المقاتلون عند الحدود تحت امرة القائد المختار . ويعين في الداخل مجلس للتشاور والتقنين وقضاة لتفسير الشرائع وتطبيقها . وتفقد العلاقات بين القبائل أو الأسر صفتها الدولية وتتحول الى علاقات قانون خاص . ويوضع نظام الأمن في الداخل كما يوضع نظام للدفاع في الخارج . وهكذا ـ بفضل السلم الذي ينظم ويحتفظ به ـ يطمئن الأفراد الى المستقبل ويرتاحون الى شرف المعاملات فيتقاسمون الأعمال في المدينة ويستسلمون لأذواقهم أو لكفاءاتهم .فيقدم الرعاة والمزارعون لحوم الأغنام وحنطة الأرض ،ويغزل العمال الصوف أو يصنعون الآلات اللازمة للزراعة وأسلحة القتال . ويضع التجار بضائعهم في متناول المستهلكين .

على ان هـذا التخصيص في الواقع لا يعد تحقيقاً لخطة مرسومة ، أو لارادة مدروسة . فالرجال مدفوعون ، ضد رغبتهم وبغير علمهم ،نحو اختيار العمل الذي تتوطد فيه مع الوقت كفاءة كل منهم ويميزه عن غيره . ان التخصص شرط المحافظة على التوازن والسلم . فهو يحول الأعداء من الخصومة إلى التعامل مع بعضهم بتحويل تيار نشاطهم . وفي سبيل نجاح أعضاء المجتمع وازدهار أعمالهم وتخفيف حدة المنافسات بين أرباب المهن يحصر أعضاء المجتمع نشاطهم في دائرة محدودة ويوجهوا هذا النشاط في تحسين الانتاج ، إن الظروف الخارجية والميول الطبيعية تحدد معنى ذلك التخصص . وقد لاحظ الرجال — مع توالي الأيام — عظم الشقة التي قطعوها على الرغم منهم ، وتحققوا انهم يستطيعون — بطريق البدل — ابلاغ غاياتهم وارضاء كل رغباتهم فسايروا ميولهم ووقفوا جهودهم على الصناعات أو الفنون فبرعوا فيها وازدادت قوة الجماعات بتقسيم العمل الذي يقرر لخير الأفراد المكان اللائق ويسمح له أيضاً بتحسين حالته بموالاة مهنته ومباشرتها . وهكذا يبدو التضامن الذي يجمع بين

أعضاء الجماعة وبتجلى أمام أنظار الجميع. فيشعرون باستطاعة البعض التخلي عن البعض الآخر ، ويتمتعون بملء حريتهم واستقلالهم ويضطرون إلى الانضواء تحت لواء المجتمع الذي يعيشون في كنفه ولا يستطيعون تجنبه دون أن يهلكوا .

ثم ان هذا التقسيم للعمل لا يكونُ ميسوراً إلاّ بين أعضاء مجتمع واحد، على أن يكون هذا المجتمع مؤسساً على عقائد مشتركة وقائماً على مشاعر متحدة متضامنة ليستطيع أن يقاوم الضغط الخارجي . « إن المنافسة وحدها لا تستطيع إلاّ أن تزيد الشقة وتباعد بين الأفراد المستقلين إذا اتسع المجال لهؤلاء الأفراد ليتجنبوا بعضهم ويتباعدوا » . ان النزاع لا يمكن أن يُحل بغير عامل فعّال يؤدي إلى التعاون ، فهو يقيم العراقيل ويزيد في عُنت المتنازعين ويضاعف في اختلافاتهم ويحفر بينهم هوة سحيقة من الحقد يتعذر سدها . فاذا كان تقسيم العمل يجمع في نفس الوقت الذى يعرف فيه ، واذا كان يقرب في نفس الوقت الذي يميز فيه ، فليس ذلك إلاّ لأن الاحتكاك يجب أن يظل قائماً بضروريات الحياة المشتركة كما يجب أن يظل الرابط الاجتماعي الذي كان موجوداً من قبل .

وهذا التضامن الذي يزداد يوماً بعد يوم بتقسيم العمل تقسيماً مطرداً والذي يميز دائماً بين القائمين بالأعمال بتمييز تلك الأعمال بالذات ، هـذا التضامن هو القانون الأساسي للمجتمعات القائمة . وهو الذي يحول الحق الخاص والحق العام ، أي حق الفرد وحق الجماعة . ان نظام الأسرة يقل عتواً بزوال الحروب الداخلية : ان سلطة الأب المطلقة محدودة بالعرف والقانون ، ومصالح البنات والنساء معترف بها ومصانة . أما حق الإبن البكر فانها تتضاءل ثم تتلاشى حتى تزول . ففي روما أستعيض عن منتديات القبائل بمنتديات الجماعة . وفي نهاية العصر المتوسط تلاشت مقاطعات الاقطاعيات وفتحت أبوابهـا لمن يشاء أن يلجأ إليها أو يقصدها . وسهلت المواصلات بينها وبين بعضهـا وزالت الحواجز السياسية ، وضعفت موانع الضرائب ، واختلط السكان ببعضهم ونمت المدن وامتازت على القرى والمزارع بازدياد الحركة فيها وتبادل الأفكار والآراء : وتخصصت تلك المدن فأضت مدناً تجارية أو جامعية أو حصوناً لحماية الحـدود وصيانتها أو أوساطاً صناعيـة أو مواني ملاحية ونهرية تبعاً للظروف الطبيعية أو التاريخيـة ، حتى القرى فقد تقاسمت الأعمال الشائعـة في جميع انحاء

المدن تبعاً لملائمة أجوائهـا أو مكانة مواقعها أو سواحلهـا أو أنهارها أو أخلاق سكانها . واستعدادهم الشخصي ، وفي ذات الوقت يتطور الضمير الوطني والشعور والرغبة في إنشـاء وحدة أخلاقية بارزة ثابتة ، وتأبى العناصر المتجانسة المتساوية أن تعيش في عزلتها بعد أن كانت راضية بذلك العيش قانعـة بتبادل المعونة . ولا تلبث أن تجاري التيار المحيط بها فتمتزج وتتعاون .

ولا يلبث التجانس والفوارق التكميلية التي كانت تربطها أن يجعل منهـا وحدة قوية متماسكة يتعذر فصم عراها . وهنا يتجلى الشعور بالذات الى أعظم درجة من التناسق والنظام . ويتمالك المجموع البشري نفسه بعد إذ كان متبايناً متفرقاً . ويدرك ماهيته ومكانته على الرغم من تجديد أعضائه وأفراده . وفي نفس الوقت تصبح الدولة كما قال رينان : روحاً ومبدءًا نفسانيـًا بقدر ما هي مجتمع من الرجال ووحدة جغرافية .

فتقسيم العمل إذن ، يُعد من أهم وأقوى عوامل تكوين الشخصيات . وتبادل التناسب والتطبيق بين الأعضاء لا يترك مجالاً للأوهام المزعجة . فكل جهاز عضوي يعتبر جهازاً مغلقاً فلا يقبل بغـير مقاومة تسرب العناصر الغريبة إليه . والتوازن في علاقات الخـلايا أو الأفراد يختل بدخول عامل خارجي ويؤدي الى انهيار مجموعة النظم الدفاعية التي ترمي ، بمساعدة القوات المتحدة المتحالفة ، الى إقصاء هذا الدخيل وإعادة النظام السابق الى ما كان عليه . فاذا تكلل هـذا العمل بالنجاح — وهذا ما يغلب في كثير من الأحوال لأن قوة الجهاز العضوي التي ازدادت بالتعاون والتحالف تتغلب على أعدائها المنشقين على أنفسهم — فان التوازن يحافظ على كيانه ووجوده . ولو فرض أن العنصر الغريب قد يتمكن من التسرب والاستقرار في مكان من الجسم الحي ، فإنه لا يُسمح ببقائه إلاّ بحدوث تغيير يلائم الوسط الجديد الذي دخل فيه . وهـذا الوسط يتأثر بدوره ويعتريه تغيير مناسب للوضع الجديد ولـكن في مدى محدود إذا كان وجود الدخيل غير متنافر مع حياة مجموع العناصر المتلاصقة وغير عامل على إزالتها . فاذا تمكن من الاحتفاظ بحياته في وسطها فان الاستقرار يكاد يكون مضموناً في داخل الجهاز العضوي المحصّن الممتاز.

وما دامت لـكل مجموعة عنصرية حياتها الخاصة ، فانها تستعين بجميع أعضائها التي تظل

واضحة جليَّة لأن نشاطها ضروري لـكيانها . ولـكن اذا اشتركت عناصر جديدة فإن الأعضاء المركزية تنمو على حساب الأعضاء المحلية التي يضعف نشاطها . وتلتقي جميع هذه الأعضاء ببعضها وتندمج خلال الفتحات الخالية التي تضعف مقاومتها . وهكذا لا تؤثر كل وحدة على جاراتها ولا تحدث فيها تأثيراً اجماليًّا ناتجاً عن اتحاد تلك القوات مجتمعة ولـكنها تحدث فيها تأثيراً متقطعاً موزَّعاً يتجلى بفضل العلاقات المباشرة التي تقوم بين هذه الأعضاء وبين أعضاء الوحدات التابعة لنفس القياس . إن العناصر — اذا كانت من طبيعة واحدة — تتقارب وتتجانس مدفوعة بمصالح مشتركة متشابهة تتعارض مع مصالح الأعضاء الغريبة عن مجموعتها الأصلية . إن وحدة المجموعة الأصلية تتفكك ، ونشاطها الموزَّع المقسم يندمج في مجموعة أمتن تركيباً وأكثر مرونة وغير مركبة من أجزاء صلبة تكاد تكون مرتبطة ببعضها . وهكذا يكون الفرد بالنسبة لاحتكاك الانفعالات التابعة لسلسلة من المشاعر مختلفة الحلقات . فهو يوجد عند نقطة التقاء الحركات التي تخترق العناصر المتجانسة في طبيعتها والتي تنتشر بين العناصر التي تؤلف عضواً وحداً وتغشي منطقة واحدة . وهكذا فان خلية واحدة في جهاز عضوي حيواني يمكن أن تكون تابعة للجهاز العصبي والجهاز الهضمي والجزء المتوسط من الجسم في وقت واحد .

وإذن فالفعل الخارجي أو الداخلي لا ينتقل بشكل حركات محتكة ويتناسخ بانتظام خلال المادة : فهناك خطوط انتقال تحفر على شكل شرايين دموية ومائية أو على هيئة ألياف عصبية تملأ جميع الأجزاء وتنقل الفعل الكيميائي أو الموجة المثيرة الى العوامل المؤثرة المشتركة بسرعة وانتظام . وهكذا يتم التنسيق والتنظيم بأقل ما يمكن من التكاليف وبدون أي خلل أو اضطراب .

***

إن تقسيم العمل يعد مبدأ لتطور الفرد كما هو مبدأ لانسجام المجتمع . إن تكوين الشخصية البطيء — مع ما فيه من آثار رجعية — يتجلى منذ أقدم عصور التاريخ . إن الرجال ينفصلون تدريجيًّا عن الجماعة التي كانوا مندمجين بها في الأصل سواء أكانت هذه الجماعة عائلية أو سياسية . والمدنية ليست سوى حلقة من الجهود الشاقة نحو استقلال

الكائن البشري . ففي البدء كان الفرد مستعبداً من الجماعة التي يتبعها ويشاطرها مواردها المادية وأفكارها وشعورها : تلك الجماعة التي يشعر بضغطها عليه وتأثيرها الخارجي والداخلي على كيانه وعقليته . كان لا يملك شيئاً لذاته بل كان لا يملك نفسه . وكان تملك الأشياء على الشيوع ، واختيار المهنة وممارستها معدوماً ثم تحدد شيئاً فشيئاً بالاستعمال . ولم تك للرجل حتى حرية اختيار شريكة حياته ومعاشرتها طبقاً لميولها وذوقهما وبيئة أولادها . فقد كانت السلطة تتدخل في صميم الأسرة وتفرض الزوجة وتحدد تربية الولد وأحياناً كانت تنزعه من أبويه . ولم تكن السلطة تنفذ بواسطة زعيم يختاره الجمهور فقد كانت جمعية الشعب صاحبة الرأي الأعلى والأخير .

كانت المسئولية المشتركة تثقل على العشيرة بغير تمييز حتى لقد كان يمكن معاقبة أي عضو فيها على أعمال يكون قد ارتكبها غيره من أفراد العشيرة . ولم تكن الاهانة تعتبر من الأمور الشخصية لأن العشيرة بأكملها كانت تعاني نتائجها وجميع أفرادها يساوون منها في شعورهم كما يساوون في أموالهم المشتركة بين الجميع . وكانت الاساءة المادية الناجمة عن السرقة أو النهب ، والضرر الخلقي المترتب على الجريمة التي — لو لم تعاقب وتكررت — تعتبر تهديداً لكل فرد يتناول الجميع على حد سواء . وعكس ذلك فان المهين لا يعمل على انفراد : فاما انه يرتكب الفعلة التي تعزى اليه خلال غزوة حربية أو انه يرتكبها في مصلحة عشيرته وإذن فجميع رجال العشيرة يعدون شركاءه أو أنصاره . ويظل مرتكب الضرر مجهولاً من خصومه ! . على أنه بعيد عن سلطة تشريع الجماعة التي أسيء اليها ولا تستطيع هذه الجماعة أن ترجع الا على العشيرة المعادية لها فتنتقم منها . ان تناسق الجماعات الأولى متين الى حد يخال انها ممتزجة ببعضها تعيش من موارد واحدة وتحيا لغرض واحد وتدب فيها روح واحدة تهب عند أول احتكاك بالمؤثرات الخارجية وتتأثر بأجمعها من الحوادث الداخلية .

على أن نمو المجتمع رويداً رويداً واتساع نطاقه اتساعاً طبيعيًّا مطرداً بزيادة عدد أعضائه واشتداد حركاتهم وتنقلاتهم لا بد أن يضاعف الاحتكاكات مع تخفيض مداها وتأثيرها . لأن العلاقات ، إذا طال مداها ، ضعف مفعولها وقلت ميزتها وامتيازاتها . ان تقسيم العمل

يحدث تفاوتاً ، وهذا التفاوت يزداد باختلاف الأوساط التي يخضع الرجال لتأثيراتها . ففي عشيرة كبيرة تملأ السهل والجبل وشاطىء البحر يوجد فيها صيادو السمك ، والمزارعون والصيادون . وجميع هؤلاء لا يلبثون أن يمتازوا بعادات وأخلاق خاصة. عندئذ تنشأ طبقات أخرى في وسط العشيرة أو المدينة. ثم تتألف بين الرجال جمعيات بدافع من ميولهم وطبائعهم . وهكذا يمكن أن ينتمي رجل واحد الى جمعيات مختلفة فتنتفع كل واحدة منها بشطر من نشاطه . فاذا ما وقف عند مفترق الطرق فانه يصبح عند ملتقى نواحي التأثير المتشعبة الأغراض فتكون له شخصية غريبة بينة عن شخصية الوحدات المجاورة ، متباينة عن استعدادها . ان الميل النظري الى تصوير الوجهة والتفنن في خلق تقاطيعه البارزة المميزة ، والرغبة في اثبات « ما لن تقع عليه العين مرتين » ليس في الواقع الا ثمرة من ثمار المدنية وان تأخر نضوجها . فما أبعد البون بين الجمال المؤثر في تمثال من صنع فيدياس وبين الشذوذ المؤثر الذي يحاول أن يدركه مصورو العصور الحديثة ويسعون اليه .

وهكذا يتجلى الرجل بتأثير الاضطراب الاجتماعي في صدر ذلك المجتمع المتباين . فاستقلاله يدفعه إلى السعي وراء الظهور والتعرف على الجميع والحصول على ضمان الحريات اللازمة لكيانه بضمان المسئوليات . وإذ ذاك تتلاشى المبادىء الشيوعية وتعاليمها من الأسرة ويعترف التشريع بحق الوصاية بموافقة الجماعة وتحت تأثير الارادة ثم يقرر حرية التعاقد وحمايتها .

وعند ما يتمكن الرجل من إلقاء الأحمال التي تثقل كاهله ويرزح تحتها ، في وسط القبيلة ، يتسنى له أن يستمتع بقسط وافر من الحرية . ولا بد أن تسري العدوى إلى أمثاله وتؤثر فيهم ، فينشأ عن تصرف الرجل بملء حريته نوعان من النتائج : أحدهما لا يعود مفعوله إلا عليه ويتوقف نجاحه أو فشله على جهوده فهو وحده يتحمل مسؤولية تدخله وأعماله ، والجهود التي بذلها إما أن تخدمه أو تسيء اليه . فالنتائج سواء أكانت حسنة أم سيئة تحد من نشاطه بعقوبة أوتوماتيكية لا تقبل نقضاً ولا ابراماً . ولكن قد يكون لأعماله أيضاً تأثير رجعي على بقية الأفراد . فمن ذا الذي يتحمل الأضرار المسببة عنها في هذه الحالة ؟ لا شك في أن العاقبة تقع على عاتق من تجاوز حدود القواعد المقررة بتوليته تنظيم العلاقات

بين الرجال وادارتها . وهكذا فإن معرفة المسؤولية وتحديدها — وهي إحدى نتائج الحرية ومن أهم عواملها — ترتكز على فكرة الخطأ والعمل الذي يرتكب بمحض الارادة والحرية وليس على العمل الوحشي .

كانت المسؤولية الجنائية ممتزجة بالمسؤولية المدنية في العصور الأولى ولا تتميز إحداها عن الأخرى إلاّ بعد أن حلّ القصاص الشخصي أو الفردي محل القمع العام . وفي العصور المتوسطة فرضت العادات النظام النقدي الاجمالي الذي يضمن إرجاء المجتمع الانساني بالاقتصاص من المجرم وتعويض الضرر العائد على الفرد في وقت واحد . ثمّ تطورت كل حالة على انفراد مع الوقت ، فأصبح في الإمكان تقرير التعويض المالي مستقلاً عن أية مخالفة للقانون وتقديره بالنسبة للضرر الواقع . منذ ذلك الحين ازدادت عوامل الفصل بين نوعي المسؤولية وتحددت الجريمة وشرحت شرحاً وافياً ، فكان موضوع القصد والاصرار مثيراً للشكوك في مدى الجرم مما أدى إلى نقض عدد الأحكام . والى جانب ذلك فإن وطأة القمع خفت وتلطفت . وعلى نقيض ذلك فإن تطبيق التعويض المدني ، بالنظر الى تعدد العلاقات الاجتماعية وتقدم الصناعات ورقيها ، قد ازداد ، وإن تعقد تحديده وصعب ادراكه . ولذلك فإن التشريع والفقه يكتفيان — في حالة الجرم المدني — بالخطأ المحسوس والدليل الملموس . وفي النهاية تخطى القانون مرحلة جديدة وتغاضى عن الاستعداد بأي خطأ واكتفى بالتمسك بفكرة المجازفة وأعتبر كل مالك أو صانع مسؤولاً عن نتائج الأشياء إذا كان هذا المالك أو ذلك الصانع سينتفع — عند الحاجة — بالميزات والفوائد التي تترتب على الحالة أو الحادث الذي تسبب عنه الضرر . ان فكرة الخطأ وفكرة المجازفة — اذ تساعدان على ايجاد فردية العقوبة وفردية التعويض — تعضدان على ايجاد استقلال الإنسان مع المحافظة على التضامن الاجتماعي .

* * *

هناك اتجاهان متعارضان يتنازعان العناصر البسيطة في الكائنات كثيرة الخلايا أو الأفراد الذين يؤلفون المجتمعات البشرية : أحدهما يحملها على الحرية وتنمية نشاطها في الاتجاه الملائم لمصالحها الشخصية كل الملاءمة ، والآخر يرجع بها الى البحث عن المصلحة العامة وهي

الشرط الأساسي لإرضاء حاجاتها الخاصة . الأول قوة دافعـة إذا هي عملت بمفردها ترتب عنها تشتيت الذرات الاجتماعية . والثاني قوة جاذبة إذا هي وجدت ما يوازنها فإنها تنتزع ـ بقوة جاذبيتها ـ كل حرية وكل فردية في العنـاصر التي يتألف منهـا الجسم الاجتماعي . والنتيجة في الحالتين هي الموت سواء بالانحلال أو بالضغط . ويمكن ايجاد التوازن بين هذين الاتجاهين ، ذلك التوازن الذي يسمح بالعيش والبقـاء ، بعمل اتفاق بينهما . تلك هي مسألة حقوق الرجل .

وإننا لا نظن بأنه يمكن حلّ هـذه المسألة باشتقاق الحقوق الفردية من حقوق المجتمع أو بالعكس، ولا بإسناد قيمة مجردة لهذه الحقوق. إن خط ذلك الزمام الذي يفصل بينها لا يعتبر حدًّا ثابتاً محدوداً . فهو مجرد امتداد مؤقت للعقار الذي ترك لها ، عملاً بمقتضيات الزمن والمكان ونوع النظام . فاذا كانت الشعوب التي تقدمتنا قد شعرت باحترام كرامة الفرد بمثل ما نشعر بها نحن اليوم فلا شك في أنه كان من المتعذر عليها أن تعيش وتحيا .

كيف يحدث هذا التحديد ؟ وما هو الخط الذي يلاحظ عنده التقاء الاتجاهات المتعارضة واتفاقها ؟ إنه لـكي يسهل فهم ذلك، يجب أن نذكر الطريقة التي تم بها اتحاد الاجزاء المتجانسة التي تحولت ـ إثر تخصصها ـ إلى أعضاء منفصلة مميزة . ان كل جزء من هذه الأجزاء يحمل إلى الجماعة قوة تندمج في التوازن مع قوة بقيـة الأعضاء ، ولـكنها بدلاً من أن تستقل بذاتها فإنها تتجة اتجاهاً واحداً وتتعاون مع بعضها . على ان هذا لا يمنع من أنها قد تسيء إلى بعضها ولو عن طريق رفضها القيام بمهمتها . إن الأعضاء ، سواء بتقاربها أو بطبيعة الوظائف التي تؤديهـا ، تؤلف جماعات جزئية تمتاز بتضامنها لأنه أمتن من التضامن الذي يجمع بين مجموع الخلايا . فهذه الأعضاء ، أو مجموعة الأعضاء ، تطالب ـ عند توزيع الأرباح والأعمال ـ بجزء يتناسب مع الحيز الذي تشغله أو مع أهميتهـا . ولما كانت مضطرة إلى الاشتراك في المعيشة فإنهـا تصل إلى نوع من التوازن خشية الفناء في المستقبل العاجل .

وهكذا يلاحظ ، عند البحث في نظام الـكائنات ، وجود توازن بين مختلف أجزاء الجسم . إن أغلب الـكائنات الحيّـة تتمتع ببنية متجانسة والتي تتمتع منها بنعمة الحركة فإنهـا تتنقل بغير ما جهد كبير ، بفضل توازنها ، الذي يكفي أن يناله تعديل بسيط في كيانه ، ليدفع الجسم

بأكمله إلى الحركة .

وهكذا الحال في النظام الاجتماعي . إن تمييز الوظائف وانفصالها يعقبه مباشرة فصل السلطات ليساعد على ضمان سير المعاهد بطريقة أنسب وأجدى أكثر من مساعدته على تخفيض نسبة التنافس باختيار أساليب مختلفة من النشاط . ان الميكانيكا علمتنا أنه اذا استقلت قوتان وتوازنتا فانهما لا تفنيان بعضهما ولكنهما تحدثان تأثيراً آخر : التشويه والضغط ... في المجتمعات القديمة ، وفي القبائل الأسترالية مثلاً ، نلاحظ تقسيماً، في أولى المجموعات، إلى جزأين يقوم بينهما نوع من النزاع المنظم ينتهي بالتعاون . فهذان المعسكران اللذان يتنازعهما الاتحاد والتنافس ليسا إلا مثلاً خشناً لتوازن القوات الذي يسبق تخصيص الوظائف . إن النزاع بين بعض التشريعات الرومانية ، كالقنصلية ، ونظام مجلسي التشريع وممارسته ليست إلا تطبيقاً لنفس المبدأ .

إن الفصل بين السلطات الضامنة للحرية وتوازنها ، قد تألف في المجتمعات المتمدينة ووجد بطبيعته قبل أن يورد مونتسكيو نظرية تلك السلطات بعد اكتشافها في نظام الملكية الدستورية الانجليزية . والحقيقة أنها كانت موجودة دائماً . فاما أن الرئيس كان يستمد سلطته من موافقة أتباعه بعد أن تم تنظيمهم الى مجتمع حافل بالمعاهد القديمة التي يمكن الاعتماد عليها لمقاومة الاضطهاد ، واما عند تنفيذ أحكام السيادة والسلطة المطلقة ، إذا هو أصبح مستبداً ، أي انه اذا — وهذا ما يتبع في الغالب — تجاهل قوات اتباعه وأنكرها فإنه لا ينظمها ويوازن بينها بلباقة ودهاء فيستطيع أن يحكم مستعيناً بقوة البعض لمقاومة البعض الآخر ، فيحدث إذ ذاك حركة ثورية تحتم وضع حد للسلطات الملكية بمنح الضمانات المستديمة التي تكفل بقاءها وخير تلك الضمانات وأضمنها هو تجزئة السلطة . وفي كلتا الحالتين تنضم المقاومة وتلتف حول المراكز الثانوية المحلية أو حول الأعضاء الذين يتقاسمون السلطات بتوزيع الوظائف وتقسيمها على أنفسهم . وهي تقاوم نفوذ الملكية المطلق وتحدد، بشكل دستور، نصيب الحريات المحلية والنقابية والفردية والوسائل التي تضمن احترامها .

إنه لمن الصواب أن يطلق اسم « فصل السلطات » على تقسيم الوظائف التشريعية والتنفيذية والقضائية التي كانت في بادىء العصور محصورة في يد واحدة . عند ما تمكن

الزعيم من جمع السلطة التي كانت قبل ذلك موزعة بفضل الاقطاعيين أو الرعايا الثائرين ، وتوحيدها وتركيزها بين يديه ، لم يعد لسلطته حد تقف عنده وأضحى من الصعب أن يقاوم الاغراء الذي يدفع به إلى الظلم والاستبداد : خصوصاً وان حاشيته كانت تدفعه الى ارتكاب هذا الشطط لأنه يعود بالخير العميم عليها وعلى البلاط . عندئذ يثور ممثلو الجموع المحكومة ويطالبون — سواء بالشدة أو برفض تقديم الأموال — بالاشتراك المباشر في الادارة الحكومية وأداة السلطة . ومع ذلك فإن المجلس المؤلف من المندوبين لا يستطيع ـ بالنسبة لعدد أعضائه ـ التدخل في تفاصيل الأعمال التي تتطلب خبرة فنية لدراسة المسائل المشتركة وتوحيد القرارات واستمرار تنفيذ الأغراض التي وضعت لها تلك المسائل . وهكذا فالمجالس لا تستطيع إلاّ وضع القواعد العامة ، وعلى الحكومة المؤلفة من عدد قليل من الرجال الاخصائيين تحت سلطة واحدة ، أن تتولى اعداد المداولات وتنفيذ المبادىء التي تتخذ وتقرر . وبذلك يتم تقسيم الوظائف التي تجعل من المجلس الاستشاري المؤلف من عناصر الشعب ، عضواً تشريعيًّا ، ويجعل من الحكومة ، وهي أقدم منه ، عضواً تنفيذيًّا ليس إلاّ . ولكن لكي تنزع من الحكومة سلطة التدخل في تطبيق جميع القوانين ووسيلة معارضة الوقائع ، فان المجلس التشريعي يجتهد في توزيع القضاء التنفيذي بايجاد القضاء المستقل الذي تتألف منه السلطة القضائية .

ومما يدل على أن تقسيم الوظائف لا يمثل الفكرة الرئيسية في توزيع الاختصاصات هو ـ قبل كل شيء ـ ان وجود التطبيق قد سبق وجود النظرية كما أن الفصل بينهما لم يتم تماماً وكلية . ان المجالس التشريعية تراقب السلطة التنفيذية وتلك السلطة في العهود البرلمانية ليست سوى إحدى مشتقاتها . فهذه المجالس ـ في الحالات الهامّة ـ تشترك في الادارة التنفيذية باتخاذ قرارات ليست لها من القوانين إلاّ شكلها : كنقل الملكية العامّة ، والموافقة على المعاهدات وغير ذلك . كما أنها تقوم مقام محكمة العدل العليا . والسلطة التنفيذية تشترك من جانبها في الأداة التشريعية أولاً بما لها من حق الاطلاع على الاسرار والتصديق ثم بالاشتراك المتواصل في المداولات ـ وفي النهاية وهو أهم الاسباب ـ بما لها من حق مباشرة السلطة القانونية التي تؤلف — على الرغم من تمييز المشرعين — سلطة تشريعية هي ، وان كانت

تابعة لغيرها ، إلاّ أنها سلطة واسعة بين أيدي رئيس الدولة أو المحافظ أو العمدة .

ان النظام التنفيذي يحتل في النهاية مكانته في النظام القضائي بما له من حق اتخاذ اجراءات التنفيذ التي يكاد يحتفظ بأكملها بمفرده ، باشتراك ممثلي النيابة العمومية في مداولات المحاكم وتنفيذ أحكامها . وإلى جانب ذلك فانه يحتفظ لنفسه بحق رفع الدعاوي أمام المحاكم الادارية والحكم في منازعات تتعلق به مباشرة .

أما السلطة القضائية فعلى الرغم من الاحتياطات الدقيقة التي تتخذ ، فإن تأثيرها يبدو خارج دائرته باشادة تشريع يتألف منه نوع من التقنين المصطلح عليه .

وليس هذا النفوذ نتيجة مباشرة حتمية لتناسق الوظائف وتنظيمها ، فهو أيضاً دليل على ان فصل السلطات ليس فقط من ايحاء تخصيص الأعضاء في الأعمال التي تتفق مع مؤهلاتهم وكفاءاتهم الخاصة وهو يفسر كيف أن الحكومات السياسية ، مع عدم أخذها عمداً بشعار اللامسئولية ، تفضل مع ذلك مثل هذا النفوذ على سلطة الحكم المطلقة . وذلك لأن الحكومات تريد ، قبل كل شيء ،وبفضل التوازن في الحرية والمصلحة ، أن تنال قسطها من القوات المنافسة ، ولكن متحدة ، في سبيل الحياة المشتركة والفوائد التي تترتب عنها .

لقد أدى نكران تلك الحقيقة العميقة الى عجز النقد الموجه ضد نظام الدول ممن حاولوا أن يقارنوا بها نظام الادارة في المشروعات الخاصة . ان المدرسة الحديثة التي تمسكت بشرح المذهب الاداري قد ضلت عند ما أرادت أن تمد استنتاجاتها التي استخلصتها من المعاهد الصناعية الى المصالح العامة . فهناك فرق أساسي يميز بينهما . فالمعاهد الصناعية مؤسسات سورية نظمها مؤسسوها ، وهم الرأسماليون ، طبقاً لرغبتهم وطوعاً لمصلحتهم الخاصة . فالمديرون وأعضاء مجالس الادارة والمهندسون والعمال الذين يتعاونون على نجاح المشروع ليسوا مشتركين ولكنهم موظفون وافق المساهمون على أن يشتركوا في الربح ولكن بنسبة ما يرى هؤلاء المساهمون أن ذلك لا يتنافى ولا يتعارض مع مصالحهم الشخصية . كذلك ليست لهم أية سلطة خاصة ذاتية ولكنها سلطة منتدبة تفرض عليهم من الخارج فيعملون بها.

أما مسألة نظم الدولة فغير ذلك فالسلطة ليست خارجية ولكن داخلية . فهي مخولة من جميع أعضاء المجتمع الذين يمكنهم أيضاً أن يطمعوا ويطمحوا الى الاشتراك في الادارة

والمصالح . وهم يحاولون التوفيق بين مصالح سلطة مركزية قوية تعمل - بتهذيب الجهود - على زيادة الانتاج والحصول على الضمانات اللازمة ضد عبث السلطة . وتلك لا يسهل الحصول عليها الا بتذليل العقبات التي تعترض حسن سير الادارة . فاذا خيروا بين المصالح المادية والحرية فانهم يختارون الحرية ولو لم تضمن لهم الا النذر القليل من الراحة . اذ لو أن المشروعات الصناعية لا تنال من الرجل الا عمله ولمدة محدودة ، فان المجتمع يستولي على الرجل بأكمله وكليته من أول يوم الى آخر يوم من حياته . وهذا يدلل لنا على مبلغ سعيه وراء ما يضمن تحريره من ربقة الاستبداد والظلم .

غير ان تلك الضمانات التي تتحقق بتوازن القوات المتنافسة ، تؤدي الى وقف حركة الجهاز بأكمله وشل جميع الأعضاء لو أن هذه القوات لم تستعمل في أعمال ومهام مختلفة تدرك بواسطتها وبفضل استمرار مزاولتها وكفاءة خاصة مميزة يستفيد منها باقي الجماعة . وتلك الحركة تحدد مكانة الكائن الاجتماعي . فالكتلة المتنافسة التي كان يتألف منها تتميز عن بعضها بالنسبة لوظائف الأجزاء التي تتخذ الشكل الذي يليق بدورها الخاص ويتناسب مع توازن المجموع ، وتتحد العلاقات بين الأعضاء والخلايا لتضمن توجيه وتوزيع الجهود والنتائج .

وهكذا فان المجتمعات البشرية تذوب بالنظر الى الشيء في ذاته. ونعني بهذا التعبير أنها لا تنتظم بذاتها بفعل ارادة داخلية أو ظاهرة باطنية . وانما هي أشكال وأوضاع للمادة الحية التي صاغتها الحوادث التاريخية والتأثيرات المحلية . ان النظام — كما في جميع الكائنات الحية — يستقيم في تخصيص الوظائف وتنسيقها ، وفي توازن القوات ، القوات الفردية بين بعضها أولاً ، ثم القوات الفردية بمعارضتها للقوات الاجتماعية .

* * *

السلطة العمومية والفرد . ها هما ذا قطبا المجتمع والعاملان العظيمان اللذان لا يمكن بأي حال اهمالها أو إغفال أحدهما عند دراسة ميكانيكا الدولة . أعني أن مذهب الفردية غير كامل اذا أقام دعامة « الحق » على المزايا التي يحملها الرجل معه منذ مجيئه الى هذه الدنيا ، والتي تتعلق بطبيعة رجولته وتدعو الى احترام الجميع له . وتلك النظرية — التي تعتبر المساواة

بين جميع الرجال وكيان القواعد المطلقة متممة لها وهي هي في جميع العصور وجميع البلاد ـ عرضة للنزاع باعتبار أن الرجل يولد من الجماعة وإنه لا يستطيع أن يعيش الاّ في مجتمع. إن الرجل الطبيعي الذي يأتي الى العالم حرّاً مستقلاّ، هو ثمرة فرية أدبية. فهو في الحقيقة تابع لمن تقدموه ومن يحيطون به. ان العقل وليد المدنية. والرجل الذي يولد باعتبار انه يحمل عبقرية بني جنسه وعلومهم يُعدّ من النتائج لا من المسببات. ومن ناحية أخرى فان الوقائع تكذب نظرية المساواة تكذيباً قاطعاً كما أنها تثير جدلاً عنيفاً ساخراً حول وحدة التشريع.

والى جانب ذلك فان مذهب الحق الاجتماعي، الذي لا يرتكز إلا على التضامن، يهمل النظرية الأخرى التي تقدمها الملاحظة. حقّاً أن المجتمع حدث أولي والرجل لا يفهم إلاّ بواسطة علاقات التضامن. ولكن الفرد من جانبه حدث أولي أيضاً ولولا الفرد لما وجد المجتمع. فالقول بأنه ليس للرجل حقوق الا بمقدار ماله من الواجبات وبمقدار ما يكفيه لتأديتها لا يقصد منه سوى ازالة معالم الحق: ففي المجتمع الذي يعمل جميع أعضائه متضامنين تضامناً تامّاً يكون الحق لغواً زائداً ما دام لا يعتبر سوى وسيلة للدفاع ضد الغير ويفقد الرجل كل شخصية ويصبح بمثابة الآلة. إن هذا المذهب لا يجهل مصلحة الفرد فحسب ولكنه يجهل كيانه أيضاً لأن هذا الكيان يتلاشى في نظرة أمام كيان الجسم الاجتماعي. ان مثل هذا الزعم يخالف ما ينطق به البيان. وعلى الرغم من أن الأفراد — في بدء تكوين المجتمعات — يحملون كثيراً من عناصر الشبه الدقيق، فاذا كانت حصة الروح الاجتماعية في الكائن البشري الأولى تتجاوز الروح الفردية وتتغلب عليها، فإن هذا لا يمنع من أن للرجل فرديته المميزة: فإن نعومة مشاعره أو خشونتها وحدة ذكائه أو كساده، واين أخلاقه وحدتها لا بدّ أن تميزه عن أبناء جنسه. إن استعداده الذي يتقلب طبقاً للظروف لهو أعظم من استعداد الخلايا التي تؤلف الكائن الحي. وهذا السبب هو أحد الأسباب القوية التي تجعل نظام المجتمع يختلف عن النظم الأخرى، وتجعل علم الاجتماع يختلف عن علم تركيب الأعضاء. إن الوحدات الحية التي تؤلف الحيوان شديدة الاحتكاك ببعضها بقدر ما هي متينة الارتباط ماديّاً، بينما الوحدات التي تؤلف الجسم الاجتماعي تتمتع بحرية تامة

وهي متحركة وقابلة لأن تتبع عدة جماعات في وقت واحد . وانه لمن المغالاة ان ندعي أن الحق يرتكز على هذه القاعدة : عدم فعل شيء يؤثر في التضامن الاجتماعي وعمل كل ما يؤدي إلى تحقيق هذا التضامن وتنميته .

إذ أن حق المجتمع لا يشمل فقط عملية تنظيم المجموعة عن طريق أعضائها ولكنه يشمل كذلك فعل النشاط الخاص الذي يبديه الأفراد في تعاونهم ، طوعاً أو كرهاً ، في سبيل المجتمعات . وهذا النشاط هو الأساس الذي تدور حوله حركات المجموع . وهو خاضع لنظام مقبول ومفروض في وقت واحد . اما انه مقبول فلأن الافراد يعترفون بالضرورة العامة للخضوع – إلى حد ما – لارادة المجموع ، وإلا لا يبقى أمامهم غير الهلاك في الانزواء والقطيعة . واما انه مفروض فلأنه عند تطبيق القاعدة المشتركة يحاول أعضاء الجماعة أن يتحرروا من كل ما يحد من حريتهم . إن القانون يحد من الحريات باسم المصلحة العامة ، ولكنه على الرغم من عجزه عن خنقها يقاص القيود التي يفرضها بحماية المواهب التي يتركها لكل منهم لتنفيذ أغراضه الخاصة . وعلى نقيض القانون الخارجي الذي يضع القوات المستقلة تجاه بعضها ، فان النظام الداخلي يطبق على تمرد الأفراد وضغطهم سلطة القمع التي تتغلب عليها . أي – بعبارة أوضح – ان التوازن بين القوات الفردية والقوات الاجتماعيه يحدث لمصلحة الأخيرة على الأول لغاية اليوم الذي يتجزأ فيه الجسم الاجتماعي أو يتلاشى .

إن للأفراد حقوقاً يتفاوت مداها تبعاً لنوع المجتمع الذي ينتمون اليه أو تبعاً لتركيز السلطة واتساعها وتبعاً لعلاقات الأعضاء ببعضهم : ان نصيب الحريات الشخصية ونصيب سلطة الاكراه والقمع خاضعان للتبديل والتغيير . كما إن عمل السلطة العمومية والمقاومات الفردية يرسم حدود القانون ويحدد تركيب الدولة ، ذلك التركيب الذي تنظمه القوانين الدستورية .

ان الدستور هو وضع حالة الأشياء في شكل يتضح من التوازن الحقيقي للقوات السياسية . وهو فوق ذلك مقبول لانه أكثر مراناً وليونة منها ، ولأنه يمثل بشكل أوضح علاقة القوات الدائمة في الدولة . إن القانون الدستوري ، كالقانون الأساسي لاخلاق الأشخاص ،

لا يفلت من شروط القانون الخارجي الخاضع لشريعة التوازن بين القوات العنصرية . إن أحسن الدساتير — غير التي تقوم على العادات — هي التي تقتصر في أوضاعها على وصف التجارب السابقة وتطبيقها أو التي تقتصر على ذكر الشروط التي اتبعت في التحكيم بين اتجاهات طبقات الشعب المختلفة مع تقدير التطور الذي يحتمل أن يطرأ على هذا النظام .

***

إن من نتائج التوازن الكامل الثبات المطلق . ولكن الكائنات والمجتمعات لا تستطيع أن تستقر في حالة جمود وركود . فهناك عوامل داخلية تحركها . ثم إن التوازن الداخلي يتغير في كل لحظة تحت تأثير الأسباب الخارجية وضغطها . فالكائن الحي يتأثر بالوسط ، وتبادل المنتجات والأفكار ، والمنافسة الاقتصادية والسياسية ، والمنازعات المسلحة تحدث تقلبات وتغييرات في علاقات القوات الداخلية . إن تسيير العلاقات مع الخارج يحتم وجود ادارة خارجية ونظرة بعيدة ثاقبة .

فلا بد إذن — ما دام المجتمع يجب أن يعمل ليعيش — أن تتغلب إحدى السلطات أو إحدى الميول على غيرها . ففي فجر كل حركة يحدث تصدع في التوازن . وقد طالما تفوقت السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية . أما في عهدنا ، وفي كثير من البلاد ، فان الدور قد انعكس وصار العضو الاستشاري هو صاحب السيادة بتأثيره ونفوذه .

ومن جهة أخرى . فان أفراد الأمة يجتهدون من جانبهم في الانتصار لأفكارهم ومصالحهم في تصريف الشئون العامة ولذلك فانهم يتولون إدارتها ، إن الانقسامات الطبيعية أو التاريخية أو المحالفات المؤقتة التي تقوم على المصلحة تؤلف في داخل البلد معارضة القوات التي تقف في وجه بعضها لجميع الطبقات الاجتماعية أو بعض عناصر الأمة ، كالاشراف والقضاة والعسكريين ورجال الدين والملاك والعمال وسكان المدن والقرى ، يريدون الحصول على جزء من السلطة . ان أضمن الأساليب التي اكتشفت لتنسيق الجهود المتعارضة جعل الكلمة الأخيرة للانتخابات العامة التي تستخلص ارادة الأغلبية لتفرضها على المجموع . تلك هي الوسيلة لتعداد القوات قبل بدء المعركة . إن في تحديد النتيجة المحتملة للنزاع خير ضمان اتلافي هذا النزاع بالذات ، ومعاهدة الصلح تسبق الحرب بدلاً من أن تعقبها . على انه يظل

دائماً للحزب المغلوب وسيلة أخرى وهي أن يرفض ذلك الخضوع والخنوع ويلجأ الى الثورة التي تسمح بقياس القوات بدلاً من عدّها . ولكن في بلد متضامنة ومنتظمة تنظيماً طبيعيّاً ، تستطيع الاغلبية - التي ترغب على الرغم من كل شيء في المحافظة على الوحدة القومية - أن تحافظ على الحالة في انتصارها وتأخذ برأي الأقلية . وتلك الأقلية من جانبها تسالم وتستسلم للقرار الصادر وتفضله على الانشقاق والقطيعة . ويحتفظ بالاتفاق بتبادل الامتيازات بين الفريقين وتكون الأقلية قد أشعرت غيرها بتأثيرها على تقرير المصير المتبع . هكذا يتفق الميل نحو الحرية الذي يجعل من أعضاء المجموعة معارضين إن لم يجعل منهم اعداء والميل نحو التقريب واتحاد الجهود تحت تأثير التضامن الذي يجذبهما ويجمع بينهما كلما افترقا بتأثير العواقب السيئة التي لا تلبث أن تحدث . ثم أن حاجة الاستقرار التي تطمئن بالتوازن ، وضرورة العمل التي تتطلب نفوذ أحد العناصر ، تهدأ حدتهما بتأثير احداهما على الأخرى وتعتدلان في حركة هادئة مطمئنة .

لقد طالما تساءلوا اذا كان الانتخاب حق فردي أو وظيفة اجتماعية . انه في الواقع يشمل الاثنين معاً . فهو حق باعتبار أن الفرد ، عند ما يضع قوته في خدمة المصلحة العامة ، يمكنه أن يلح في المطالبة بعدم اهمال صوته وأن يحترم رأيه . وهو أيضاً وظيفة ، بل هو أبسط الوظائف ، بمعنى أنه يحرر الميل العام وتوجيه الأفكار والأغراض . وغاية تلك الوظيفة هي تحديد التنسيق وبث روح الثقة بين الأجزاء والكل ، والتعبير عن الموافقة على السياسة المتبعة أو رفض البرامج المقترحة . بل أن حقيقة الغرض من تلك الوظيفة هو في تمثيل دور المحقق المدقق وأداء مهمة المراقب اكثر منه في كفاءة التنفيذ .

وإذن فالسلطة العامة ليست فقط من خصائص الأقوياء الذين يستولون عليها لحكم الضعفاء والفصل بين الحكام والمحكومين . فهي بالعكس اجتماع القوات الاجتماعية ، يشترك فيها الضعفاء حتى عند ما يتخذ عملهم شكل الجمود أو المقاومة العمياء لأن جميع أجزاء الجسم الاجتماعي تحدد بعضها بعضاً . ان في اسناد مظهر السيادة الوطنية الى تلك السلطة ليس إلاّ تعبيراً أجوف ليس في معناه السلبي إلا الاحتجاج على مبدأ السيادة الملكية للحق الالهي . فاذا وجهت السيادة الوطنية نحو الخارج فهي الحرية الدولية واذا وجهت نحو

الداخل فهي حربة الوطنيين . فلا ملك بغير رعية وليس في القول « ملك على نفسه » إلاّ نوع من أنواع التعبير والبيان اللغوي .

هنا يظهر التناقض الذي أشرنا إليه بين القوات التشريعية والقوات السياسية. إن القوات التشريعية هي قوات الحق الثابت والقواعد المقررة والمعمول بها منذ عهد بعيد والمتبعة بالغريزة . أما القوات السياسية فهي قوات الحق التي مازالت في طور التأسيس وما زالت متأثرة بالنزاع الذي تولد عنه ذلك الحق وتظل متخلقة — بعض الوقت — بصبغة اجراءات القمع وتأثير الظروف التي فرضتها أغلبيـة الأقلية . وتلك الأقلية — مع تسليمها بهـذه القوات — لا تفقد الأمل في تحسينها اذا ما توّلت الحـكم يوماً . إن القوانين — حتى بعد اصدارها وإقرارها — تظل عهداً طويلاً تحت الاختبار والمداولة قبل موافقة الشعب عليها أو قبل الغائها سواء بانتساخها أو نسيانها واهمالها ، اذا كانت لا تلائم النظام القائم للأشياء . وبعد تقلبات وتعديلات تنزع عنها صبغتها السياسية وتندمج بالـكتلة التشريعية المحترمة . فاذا نظرنا الى أعماق الأشياء فان ذلك التناقض يميز صفة الاجراءات التشريعية بالنسبة الى درجة استمرارها . إن الأعمال التي تتكرر بسبب الظروف المستمرة تخلق عادة وتوجد نوعاً من الحاجة يؤدي ، مع طول الوقت ، إلى تعديل في النظام بتنمّية وظيفة جديدة . فالأعمال التي يقل وقوعها ، لا تترك ، تحت تأثير الظروف المؤقتـة العابرة ، أثراً وتضيع ذكراها . وهكذا الحال في الأعمال التشريعية : فالأولى تتحلى بصبغة قانونية والأخرى تحتفظ بمظهر سياسي .

* * *

ان مثل هذا التمييز يسمح لنا بتفسير الادارة والحـكومة . ان عمل الحـكومة يبدو دائماً مستحيل الحل في المذهب القانوني . فبعد إشادة جميع أركان نظرية القضاء في التشريع الكلي ، ونظرية القضاء في الحذف والالغاء اللذين يخولان حق اتهام أعمال السلطة ، الاول في موضوع تلك الأعمال ونتائجها ، والثاني في شكلها وصحتها ، يعترف القانون الاداري الفرنسوي بوجود أعمال تسمى أعمالاً حكومية . مستترة عن التشريعات الادارية بقدر ما هي مستترة عن المحاكم الاعتيادية . لقد أرادوا أن يحددوا صفاتها ولـكن تعذر بتاتاً

إيجاد علامة تميز كافية للتمييز بين عمل الحكومة والعمل الاداري البحت. فكفوا عن البحث عن تلك العلامة في عنصر الشكل إذ أن كليهما صادر عن سلطة واحدة. وقد تعددت السلطات في أيامنا حتى لقد رأوا الاكتفاء باصدار قائمة عددية بأعمال الحكومة أعدها المشرعون، وتفسير تلك الأعمال باعتبارها نتائج لاتفاق عرفي بين الحكومة ومجلس الدولة وتنازل هذا المجلس عن تناول تلك الأعمال بسلطته واختصاصه ووضعها خارج حيز التشريع على أن ينال في مقابل ذلك حق الوقوف على بقية المنازعات والالمام بها.

وهكذا توجد الآن في فرنسا قرارات من السلطة الحكومية لا يتناولها أي اجراء ويضطر الشعب الى الخضوع لها دون أن يستطيع الالتجاء الى القضاء ليقيه ظلمها وتعسفها. ومن باب أولى في الدول التي تقل حكوماتها ديموقراطية عن فرنسا. أما في انجلترا فاذا كانت مسئولية الموظفين منظمة تنظيما دقيقاً فانه لا يمكن الطعن في مسؤولية الدولة أو المساس بها إذ « أن الملك لا يمكن أن يخطىء ».

والحقيقة أننا لنشعر أنه يوجد بين الحكومة والادارة فرق في طبيعة كل منهما. ففي نظر المسيو إسمين: « الحكومة هي المحرك وموظفو الإدارة هم أعضاء الانتقال ودواليب الآلة ». وفي نظر المسيو هوريو: « الوظيفة الادارية ترتكز خاصة على أعداد ما تحتاج اليه الجماهير بتنظيم فروع خدمته ووظيفة الحكومة تقوم على تركيز سياسة الدولة ». وفي نظر المسيو لدانتك: « ان دواليب النظام الاجتماعي التي تقوم بالوظائف البارزة تؤلف ما يسمونه الحكومة، أما الدواليب الأخرى التي دونها أهمية وأكثر منها تخصصاً فتؤلف الادارة والخدمات العامة ».

ولكن كل هذه ليست صوراً أو مراسيم عامة. فالعمل الاداري والعمل الحكومي — كما قلنا — هما من عمل أعضاء واحدة، وهذه الأعضاء تارة تكون المحرك وتارة أخرى تكون دواليب التحويل: إن التفسير يظل غامضاً غموضاً عجيباً. أما العمل السياسي أو عمل التركيز السياسي فبأية إجراءات واضحة يمكن تنفيذه؟

إن التمييز بين الفكرتين المعبر عنهما بهاتين الكلمتين يظل غامضاً على الرغم من تباينه في الوقائع وفي تشريع المحاكم الادارية ومع ذلك فانه يخيل الينا أنه من الميسور ايراد تفسير

أوضح اذا شرعنا في تحليل العملين اللذين يشتركان في تأليف الدولة : توازن القوات الفردية أو الجزئية التي تؤلفه والتضامن الذي يتولد بين مختلف عناصر النظام الأهلي بتقسيم العمل. إن توازن القوات لا يخلو من التأثير على تقسيم العمل الاجتماعي إن السبب في اتجاه القوات اتجاهاً متناقضاً يرجع على الأخص إلى تعارضها تلافياً لاطراد اصدامها . انها تشق طريقها في الناحية التي تقل فيها المقاومة وهكذا تساق إلى أداء أعمال مختلفة .

ولكن قد يحدث أيضاً — بصفة استثنائية — إن تقسيم العمل لا يتم باحترام توازن القوات — وإذ ذاك لا تجد بعض هذه القوات دائماً ما يشغلها بفائدة . على ان هذا لا يمنعها من المطالبة بحصتها في الفوائد التي عادت على المجموع . وهكذا الحال عندما تؤثر بعض الظروف غير المنظورة على وظائف كانت إلى عهد ما هامة ضرورية فتصبح هذه الوظائف غير مجدية وزائدة عن الحاجة ويحرم الذين كانوا يؤدونها من وسائل معيشتهم ويجتازون أزمة مؤلمة . هذا ما حدث مثلاً عندما احتلت الآلة محل اليد العاملة وسدت سبل العيش في وجه العمال والقت بهم على قارعة الطريق أو في نهاية حرب مؤلمة عندما تسلخ ولاية من ولايات إحدى الدول أو تحرم من مصادرها التجارية إذ ذاك يتجلى اختلال التوازن في البلد عند توزيع الأعمال على القوات الحية التي تتطلبها ، وهكذا الحال أيضاً عندما تتعقد الحال السياسية أو الديبلوماسية وتستدعي الموارد الوطنية . وفي بعض الأحيان يقرب التقدم المادي والحركة الفكرية بين العناصر التي ظلت متباعدة متفرقة عاجزة وتوجد بينها ، فتكتسب قوة مضاعفة : ان تأسيس نقابات العمال وانشاء اتحاد الصناعات الكبرى لخير مثال وأحدثه على ذلك . وفي النهاية قد شوهد أيضاً — وتلك إحدى نتائج الحرب الكبرى الأخيرة — اضطراب كبير أوقف المستأجرون والملاك وجهاً لوجه .

هنا تثار مسألة تتطلب تدخل الحكومة . الواقع انه ما دامت العلاقات المتولدة عن تقسيم العمل تحدد من تلقاء نفسها بين الرجال فان تنظيم القوات يبدو ضرورياً لأول وهلة . ان توزيع الارباح يتم بين الشركاء بوساطة البدل والعقد وفائدة المحاصيل التي تبودلت أو الخدمات المشتركة محدودة برغبة كل فرد في الحصول عليها وبصعوبة الوصول اليها بسبب المنافسات التي تبدو . ان مهمة الادارة تقوم على ضمان حرية العلاقات الطبيعية بحمايتها

وتكملتها بإيجاد ادارات عامة للعناية بمصالح الجمهور وخدمته . فمهمة أداة العدل قائمة على حسم النزاع وتسويته ، وخطوط المواصلات تقرب بين المدن والسكان ، والنقد المشروع يعضد البدل ، والاسعاف يوجد عنصر التضامن البشري ، والنظام العسكري يعمل المجهود الدفاعي في جميع انحاء البلاد ، ومصلحة الضرائب والأموال تستعين بموارد الملاك لتسد حاجة ما تتطلبه المنافع العامة من المصروفات ، والنفقات . جميع تلك الخدمات العامة تلجأ الى تعاون الأهالي الذين يدركون — ولو في شيء من الصعوبة — فائدة الخدمات التي تؤدى لكل فرد وللمجموع . إن مهمة الادارة تقوم على ضمان حسن سير هذه المعاهد طبقاً للقوانين التي تديرها .

ولكن عند ما يتجلى اختلال النظام فإن المهمة تكون أصعب : إن مبدأ التضامن بين أعضاء المجتمع الوطني لا يكون كافياً لهداية عمل السلطة والقاعدة التي اتبعت في ظروف أقل اضطراباً لا تصلح لأن تطبق على الظروف الجديدة . فينشأ عن ذلك مقاومات حادة من جانب الأفراد الذين ضحي بهم . وتهدد الفوضى بالتدخل في النظام القائم . وإزاء تلك الحالة الفجائية لا بد — لتهدئة الخواطر ودرء الخطر — من اتخاذ قرار بعيد عن القاعدة أو ضد القاعدة يعمل به ما دام النظام القديم لم يستتب ، أو على الأقل حتى يتبدد الخطر من إقامة نظام جديد بصفة دائمة . فيصدر قانون للاعفاء من تنفيذ الاتفاقات المتعاقد عليها ، وتتولى السلطة الادارية مصادرة النشرات المحرضة والكتب الثورية ، أو في حالة الاعتصاب ، تتخذ إجراءات تأديبية ضد موظفين بدون تبادل سابق لملفاتهم كما يحتم القانون ويستلزمه . إن هذا القرار الظالم ، وإن كان وليد التفكير في حماية المصلحة العامة ، يحسب حساب القوات التي يواجهها ، والحل الذي يتبع يحدد نقطة التوازن ، وتلك النقطة ، مع عدم استقرارها وعلى الرغم من تقلباتها ، لا تلبث أن تصبح مع الوقت المضطرد من مستلزمات مصالح المجموع المتضامنة .

فالعمل الحكومي يتجلى اذن في حالات فجائية وعرضية بواسطة أعمال تعسفية ظالمة وتلك الأعمال هي أسمى ما يتاح للرجل عمله اذ انها تعبر الى أقصى حد عن مدى العبقرية وقوة الارادة . ولذلك فإن أغلبها منوط بالسلطة التشريعية التي تنفذ بما لها من الأولوية وبما

لها من النفوذ على السلطات الأخرى . فاليها يرجع حق تعديل القوانين القائمة ولا يمكن الاعتراض على القرارات التي تتخذها أو الطعن فيها . وهكذا الحال في ادارة الدستور وعلاقات السلطات العامة فيما بينها : كدعوة البرلمان أو تأجيله، وتأليف الوزارة أو استقالتها. فليست هناك أية هيئة قضائية للنظر في منازعات من هذا القبيل .

على أن الأعمال التي تتطلب السرعة أو التي ليست لها أية صبغة عامة تعد من طبقة الاجراءات التنفيذية وتدخل ضمن اختصاص الحكومة ، فبعضها له علاقة بالأمن الخارجي والبعض الآخر خاص بصيانة الأمن في داخل الدولة . أما الأولى فتتجلى من النشاط الديبلوماسي والحربي والثانية هي عبارة عن اجراءات شاذة للمحافظة على النظام : كالمراسيم الخاصة باعلان الحرب والقرارات التي تخول البوليس بعض السلطات في الحالات الصحية الى غير ذلك . في هذه الظروف تترك الحكومة حرية تامة وسلطة واسعة لتنفيذها بما يكفل صيانة الدولة أي كيانها . على أن المجلس الدولي يرفض الاعتراف بها .

وبمعنى آخر ، يتحقق التضامن في بعض حالات التوازن ، بوساطة القواعد السابق تقريرها والتي يتألف من ادارتها المنتظمة وحسن تطبيقها العمل الاداري الصحيح . ان العمل الحكومي قائم على المحافظة على توازن القوات وتنظيمه كلما اختل ، وهو الشرط الأساسي لصحة الجسم الاجتماعي . فهذا العمل الحكومي يضيف ، أو عند الحاجة ، يستبدل القوة التي تجمع بين العناصر الوطنية التي يضمنها النظام الاختياري الناشيء عن العمل الاداري قوة وقتية مكتسبة من تحرير القاعدة العادية من الضغط . وإنه لا يوجد أي تشريع يستطيع أن يتذرع بالمنازعات التي يثيرها هذا الفعل أو يستند إليها . ولا يوجد قانون كما لا يوجد مبدأ تشريعي يمكن تطبيقه على هذه الأقيسة ، فأية محكمة ، غير متشيعة أو متحيزة اذا كانت مطلقة الحرية تستطيع أن تفصل في هذا الموضوع . ان الحكام غير مسئولين سوى امام الرأي العام والتاريخ . فإذا قدر ألاّ يكون النجاح دائماً دليلاً على نزاهة حكمهم فان المستقبل كفيل بالحكم عليهم بغير ما تحيز أو تعسف . لقد حدث أن عزي الى أحد رؤساء الوزارات انه اتخذ اجراءات غير مشروعة لاخماد ثورة هبت في أحد المصانع الوطنية الكبرى فأجاب بأنه لن يتردد في خرق القانون لو دعت الحال الى ذلك لانقاذ الوطن . وقد

استاء البرلمان من عباراته ودهش لها وصفق له قليلاً ولكنه خلعه بعد مضي يومين لا لما فعله ولكن للعبارات التي تفوّه بها فكانت محبذة للتهور وقلة التبصر التي أشار اليها الكاردينال دي ريتز بقوله : « لقد نزع النقاب الذي يجب أن يظل مسدولاً ليخفي كل ما يمكن أن يقال وكل ما يمكن أن يفهم من حقوق الشعب وحقوق الملوك (اقرأ كتاب الحكومات) التي لا تتفق ولا تتآلف إلاّ في الصمت» .

* * *

والحقيقة أن الاعتراف بصحة تصرفات الحكومات واقرار أعمالها لا يمكن أن يتم إلاّ بمرور الوقت وفي جوٍّ مشبع بروح السكينة والصمت . ان المجتمع ، وهو من مؤسسات الطبيعة ، لا يهتم — بما له من حقوق ثابتة مسلمٌ بها — بالقانون والأخلاق . ولكنه مع ذلك ينشيء عهداً قانونيًّا يحقق شكلاً من العدالة . ان أكبر الحكومات في التاريخ كانت وليدة حركة ثورية أو عمل جريء : (١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢ — ١٨ برومير من العام الثامن — ٢٤ فبراير سنة ١٨٤٨ — ٢ ديسمبر سنة ١٨٥١ — ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠ ولا ننسى الأيام المظلمة التي تخللت عام ١٨١٤ وشاهدت عودة الملك داخل مركبات سكة حديد غريبة عن الأمة وكذلك أيام يوليه سنة ١٨٣٠ المشمسة) . ان هذه التواريخ التي اشتهرت في فرنسا خلال جيل بأكمله وفي عهود متقاربة لتثير في النفس ذكريات العنف والقوة التي تتولد عنها الحكومات . وانه لمن الصعب أن نرى فيها حقًّا ، حتى المشرعين الذين ، في حالات اغتصاب السلطة — جعلوا من الثورة أقدس الحقوق وأقدس الواجبات — فانهم قد أهملوا تحديد الاستعمال .

* * *

والواقع أن كل ثورة ليست سوى قيام القوات التي تحاول أن توجد توازناً جديداً . فالحالة بين النظام القديم والنظام الذي يناضل ليحل محله لا تعدو مسألة قوة . وما دامت نتيجة النزاع مشكوكاً فيها فان حظ الحق مشكوك فيه الى أن يأتي اليوم فيقرر الحزب الظافر

—٨—

صحة الاجراءات التي سبق أن اتخذها خلال مدة الانتقال من حكومة الى أخرى . ولذلك فان الاعتداء على سلامة الدولة وعلى نظام الحكم يحالان على محكمة عليـا تؤلف في الغالب ، أو بالأخص ، من العناصر السياسية . وفي أغلب الأحيان — كما هي الحال في فرنسا — يتولى أرفع المجلسين مكانة ، مهمة القيام بهذا الدور القضائي . وزيادة على ذلك فان هـذه المحكمة تستثنى من المبـادىء العمومية التي يتضمنها القانون الجنائي . فيصبح هذا المجلس مطلق التصرف والحرية في الاتهام وتقرير العقوبة ويفسر الجريمة كما يحدد العقوبة دون أن يتقيد بقواعد القانون ، فليس الأمر في مثل هذه الظروف أن ينصب القاضي نفسه منصب الحكم ليسيطر على المزاعم المتعارضة أو يقمع بكل هدوء الجرائم التي لا تعود على الجسم الاجتماعي إلا بالاضطراب المحلي ، إنما الغرض هو اتخاذ اجراءات الدفاع العاجلة ضد عدو يهدد الهيئات بالذات ، ضد عدو ملح وكثيراً ما يكون ذا سلطة ونفوذ ، لا ينفع معه تطبيق النصوص بحذافيرها ولا بطء الاجراءات القانونية ، ولا عطف قضاء متغاض أو قضاة يندفعون مع احساسهم ومشاعرهم وشهواتهم .

ان القاعدة الوحشية لتوازن القوات تتغلب على مبدأ التضامن الرقيق . هذا هو تطبيق حق الدفاع المشروع .

* * *

وعلى عكس ذلك فان للتشريع الجنائي العادي صفات جديدة بالنسبة للقانون الجنائي الأصلي . فليس هذا التشريع وليد رغبة في الانتقام ، أو توقيع عقوبات أو غرض دفاعي . إن مبدأ التضامن يتخلله ويخفف من شدته كما أن العقوبة لا تقاس فقط بجسامة الجرم وماديته . فهي تراعي حالة المجرم ومكانته وأغراضه ومزاجه . إن المجتمع لا يفكر فقط في الانتقام فهو يرمي الى تهذيب المذنب بتنفيذ العقوبة ويجتهد في تخويف وارهاب من يمكن أن يتشبهوا به وردعهم بتطبيق العقوبة عليهم . وينتج عن ذلك أن المجتمع يعمل متشبعاً بفكرة أن الجاني كالمجني عليه متساويان في تبعيتهما له وخضوعهما لأحكامه وانه لا يجب أن ينبذه من وسطه ، ويقصيه أبداً ولأجلٍ ما ، بل على عكس ذلك يجب عليـه أن يحتفظ به ويصلح

المعوج منه بتلقينه شروط الحيـاة الاجتماعية ونظمها . ان من مصلحة المجتمع أيضاً أن يتدارك مساوىء من تتناولهم العدوى وتردهم رؤية العقوبة الى سواء السبيل . وفي نفس الوقت تساعد العقوبة على تقوية الشعور الخلقي حتى في نفوس الاشراف الذين لا يحتاجون الى تهديد أوتخويف . وهكذا يتلافى المجتمع وقوع الاضطراب الذي يعقب كل جرم وخسارة الوحدات النافعة للمجتمع بأكمله .

* * *

وهكذا ، الى جانب الميل الطبيعي في الاحتفـاظ بالموازنة بين العقوبة والجريمة الناشئة عن منازعات القوات العنصرية ، يتجلى الميل الى وضع نسـبة بين الجزاء ومسئولية المعتدي الشخصية . ان تخفيف النظام الجنائي لا يتم إذن بنفس الوسيلة المتبعة في الجرائم السياسية الكبرى وجرائم الحق المشترك . فالجرائم الأولى خاضعة لتشريع ذي صبغة قديمة . ان المجرمين السياسيين الذين يقدمون للمحاكم العليا لا يتمتعون بالضمانات المكفولة لأي مذنب آخر يحاكم أمام المحاكم المستقلة العادلة بموجب عريضة اتهام ونظام عقوبات مقررة . ولكن في نظير ذلك فان العقوبات التي تطبق في حالات الجرائم الثانية تخفف عند تطبيقها ـ بدافع من الشعور الطبيعي الذي يتملك الخصوم الظافرين الذين يعلمون بأنهم معرضون بدورهم لمثل تلك العقوبات في حالة هزيمتهم ـ بحذف عقوبة الاعدام وانشاء العهد السياسي . وبعكس ذلك فان التشريع الجنائي العادي يتطور بتخفيف صفة العقوبات بمراعاة شخصية المجرم ووضع تشريع نزيه ليس للمتنازعين أي تأثير عليه ، واهمال وجهة نظر الحرب الخاصة لاتباع وجهة نظر القمع العام .

***

إن الحق الذي يشيد على هذا الأساس ليس واحداً ولا متشابهاً في جميع العصور وجميع الأماكن . فعلاقات الأفراد ببعضهم ثم بالدولة تختلف بعض الاختلاف طبقاً للنظام الاجتماعي في مجتمع واحد ، وتحت تأثير الظروف الداخلية والخارجية ، يخضع الحق للتطور سواء بسرعة أو ببطء . فقد رؤي في العصور الوسطى في فرنسا ، ان طبقة الأشراف على الرغم

من ثرائها ، كانت تعفى من جميع أنواع الضرائب حتى إذا جاءت الثورة فأدخلت مبدأ دفع الضرائب بنسبة الدخل والأرباح. وها نحن أولاء الآن نعرف نظام الضرائب التدريجي . ان هذه الطرق الثلاث ظهرت تباعاً كأنها من مستلزمات العدالة وتطبيقها القاسي . أوليس هذا مثلاً صارخاً على نسبية العدالة البشرية ؟ حقاً بأن العدالة لم تكن موجودة ولكنها قد أصبحت .

لواحق المقتطف الشهرية

الحق والقوة

— ٢ —

دراسة اجتماعية

بقلم

ارمان لهناف

ترجمة : سليم سعده

«اذن يجب ادماج العدل بالقوة . . . إذ أنهم لما لم يستطيعوا
«أن يجعلوا مما هو عادل قويًا فانهم جعلوا مما هو قوي عادلاً»

« بسكال »

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

الفصل الخامس

العادة والقانون

لقد رأينا كيف أن قانون العلاقات الخارجية يؤدّي إلى وجود عادات يتبعها — ولو بعض الوقت — أغلب الأفراد والجماعات . ولكن نظراً لأن تلك العادات وليدة عقوداً ومعاهدات عرفية أو خاصة ، متفق عليها أو مفروضة ، فإنها لا تعمر طويلاً وتزول سريعاً وقلّ أن تنال إجماع الآراء والموافقة التامة إذ ينشأ عن تطبيقها اختلافات تجعل من الصعب إدراك ما ترمي إليه واستعمالها . وإلى جانب هذا العيب في الوحدة والموضوع توجد موانع عدم الاستقرار . فاذا تغيرت الحال وشاء أحد الأطراف مخالفة العادات المقبولة فليس هناك ما يحول دون تعديلها أو تغيير طريقة الاستعمال إن لم يحل دون ذلك اتحاد أنصار القديم والمحافظين على العادات إذا كانت لهم القوة والسلطة الكافية في الدفاع عن مصالحهم والمحافظة عليها .

ولكن عند ما تندمج الفرديات — التي كانت فيما مضى مستقلة — في نظام قوي فإنها تضحي باستقلالها في سبيل الانتفاع بفوائد الاتحاد . وهنا يتخذ من الاستعمال سلطة العادة . إن الأساس واحد وطرق التصرف تتكرر كثيراً فهي إتفاقات بين الأطراف المتعاقدة وهؤلاء يفضلون عادةً توفيق مصالحهم على أساس ما يتمتع به كل منهم من السلطة والنفوذ بدلاً من إستنفادها في حروب يتلافون مشقتها وخسائرها . هذه القواعد تستخلص من تقارب الأعداء وتداني الأفراد واتحاد المعاهد القائمة بأعمال مختلفة أو متشابهة . إن علاقاتهم الضرورية لا تتوطد بدون مشادة . فقبل أن يوحّدوا جهودهم ونشاطهم يحاول كل منهم أن يحظى من مكانته بأكبر قسط وافر ، وأن ينال أقصى ما يمكن نيله ويعطي أدنى ما تسمح به نفسه . على أن هذه الخلافات لا يمكن أن تمتد وتتمادى لأن ضرورة التعاون تحتم إتفاقاً يحول دون معاملتهم لبعضهم معاملة الأنداد وتنظيم جهودهم . وهذه العلاقات

تتخذ — بعد ردح من الزمن — صفة الدوام في ظروف ثابتة في الحياة الاجتماعية . إن حركة الأعضاء وتفاعلها تولد سلسلة أعمال تتكرر وتتجلى بسلسلة علاقات تحددها قواعد لا تلبث أن تصبح إلزامية . ولما كانت الحالة باقية بدون تغيير أو أنها تتطور تطوراً بطيئاً ، فان المستقبل يحتفظ في ثنايا مشروعاته الكبرى بصورة الماضي وهكذا تكون قاعدة العلاقات المستقبلة في التقاليد القائمة على السوابق المتجمدة .

وهكذا فليست القاعدة هي التي تحدد الوظائف ، ولكن الوظائف المتجمعة من تلقاء نفسها هي التي تعبر عن نفسها عن طريق القاعدة حيث تجد فيها كل واحدة منها ماهيتها وصورتها . ويتملك الحركات ، في أدنى تقلباتها ، شعور قوي وينظمها بمجموعة من الإجراءات الدقيقة المبنى . فتهب على المتعاملين ريح جذابة وتستميلهم وتستهويهم إلى التعامل والبدل . وتتحد دائرة علاقاتهم وتتخلل ثناياها وتملأ خصاصها وتحاول أن تنفذ منها إلى مجال أوسع في التعامل ولن تجد أنسب من البدل .

تلك العملية المنظمة المشتركة التي تمت باتفاق الجميع غير خاضعة لطريقة محدودة ولكنها تلاحظ عند الاستعمال إن السلطة المركزية لا تصدر هذا النوع من القواعد ولكنها تحترمها وتقدسها بأن تضع القوة في خدمتها لتنفيذ أحكام المحاكم التي تطبقها ، إذ أنه من الضروري أن توجد سلطة فوق الخصوم المتعنتين لتفصل في النزاع القائم بينهم وتملي أمرها عليهم وتنفذ قرارها باستعمال القوة التي تتمتع بها . تلك السلطة التي تسود على الأفراد والجماعات لا تقتصر على قياس القوات المتنازعة ووزنها فهي أيضاً تستلهم وحي تصرفها من مجموع المصالح المشتركة في المجتمع لأنها تتولد عنه وتشتق منه . وأولى هذه المصالح هي المحافظة على السلم . وتلك السلطة تعطي لكل نزاع الحل الذي ترى أنه أنجع لمصلحة المجموع . وتستخلص من كل حالة نوعية المصلحة العامة وتفضلها على غيرها بقدر ما تستطيع ضمان احترام قرارها . وهكذا فان السلطة العليا ذات الشكل القضائي تؤدى عملاً تشريعيًّا . ومن أحكامها النوعية تتألف مجموعة من القواعد التي تتجلى ضمناً ويعطيها الشراح شكلاً قياسيًّا . وبطريق الاستدلال تبين العلاقات الضرورية الثابتة التي تشتق من طبيعة الأشياء والأسباب الطبيعية المستترة . إذ القاضي يغتصب دور المشرع لأن الحركة هي التي تكتشف الحق وتؤيده .

وما يُبرز دور الحاكم في تطبيق العادة هو التشابه المدهش الذي يوجد بين الاختصاصات القضائية والمناطق الخاضعة لنفس العادات.

* * *

وهكذا ليس قدم العادة ، كما يزعمون ، هو الذي يعطيها صفتها الإجبارية . فاذا سلمنا بهذا التفسير فيجب الإستنتاج بأن العادة المقررة لا يمكن أن تتغير . ولكننا نلاحظ أنها تتطور ، ومع ذلك كيف نفسر ذلك القدم ؟ إذا نحن استبعدنا الصعوبة فاننا لا نحلها . فعند نشأتها كانت العادة ، بلا شك ، حديثة العهد وكان لا يمكنها أن تتذرع بقدم العهد لتحمل الناس على احترامها . هناك من يقول أنه يكفي وجود سابقة لإيجاد القاعدة ؟ ولكن في هذه الحالة يكون أول عمل للرجل الأول قد وضع قانوناً حاسماً لخلفه من بعده !

إن التقليد ، مهما كان قديماً ، لا يمكن أن يحول إلى حق ما لم يكن فيما مضى حقاً . ولذلك فان الأساس يوجد في الاتفاق المعقود بين المطالب المتناقضة التي يبديها المتعاقدون المتضامنون الذين يضطرون إلى التفاهم والاتفاق بدافع ضروريات الحياة المشتركة . فاذا كانت العادة ، عند نشأتها ، غير ثابتة ، وإذا كان وقت تكوينها لا يمكن تحديده بالضبط ، فذلك يرجع الى وجود عهد غامض لمنازعات تمّ حلها بأساليب منوعة مختلفة ، قبل وجود عهد التعاون الوثيق الذي يتقرر بمرور الوقت عند ما ظهرت بالخبرة نتيجة الوسيلة المثلى للتوفيق بين المصالح المتعارضة مع كونها متضامنة في حدود القوات التي تسندها وتحت الضغط العام الذي يدفعها الى الاتفاق بل وعند الحاجة يضطرها إليه بتحكيم النزاع . إن تقليداً بعيد المدى يخولها سلطة ، ليست جوهرية ولكنها زائدة . فهي ، قبل كل شيء ، تبرز القاعدة وتحددها بقرارات متكررة . ثم تحمل على قبولها والعقود عليها بفعل الوقت الذي يوفق بين مطالب جميع المتعاقدين والمتعاونين . ثم توجد الرغبة في السلم . فإن لتلك الرغبة مكانة خاصة . فقد دلّ الاختبار على أنها خير الوسائل لاحلال الهدنة محل الحرب . في العصور الوسطى كانت كلمتا السلم والعدالة مترادفتين . ومع ذلك عندما تتغير الظروف يشعر أعداء الأمس وشركاء اليوم ، بثورة حفيظتهم القديمة فيختبرون من جديد قوة خصومهم ومقاومة الوسط قبل الخضوع للقاعدة أو تعديلها . ولكن استقرار الحالات

من جهة ، والعادة الطويلة من جهة أخرى ، ثم الحاجة الى الثبات ، كل هذه العوامل لا تساعد على احداث انقلابات فجائية أو تعديلات كلية في الاتجاهات . وهكذا فان تطور العادة يكون غير محسوس ويتم بوسائل رقيقة .

إن أفضلية العادة على الاستعمال يرجع إلى استقرارها النسبي ، ووحدتها في مكان واحد من الدولة ، وإمكان التدليل على وجودها ان لم يكن تسهيل ذلك ، وموافقة سلطة اجتماعية عليها ، وفي النهاية معنى المصلحة العامة الذي يتجلى ولو بصفة غامضة ، ولكنها لا تخلو من المعائب : فهي متقلبة تبعاً للأماكن ، وكثيراً ما ينقصها الوضوح ، والتضامن الاجتماعي لا يجد فيها إلا معنىً مضطرباً ذلك لأن العادة من عمل النشاط المحلي الذي تعترف به وتقدسه سلطة قضائية غير مركزة .

* * *

عندما يتطور الجسم الاجتماعي يزداد تنسيق الأحزاب وتنظيمها ، وتجد المصلحة العامة معناها في عضو يقوم على المعلومات والبيانات فيؤدي وظيفته الرئيسية ويشرف على جميع الحركات . ويدرك بحدة ثاقبة ما يتطلبه تضامن جميع الأجزاء وينظم نشاطها . إن الدماغ لا يؤلف وحدة الجسم ولكنه يعبر عنها . والسلطة المركزية تعبر كذلك عن الارادة العامة وتعطي شكل القانون للقواعد التي تمليها .

فليست السلطة عملاً مجهولاً مؤلفاً من سوابق جمعت ببطء ويتجه من المحسوس الى المجرد المعنوي ثم يتجلى بطبيعته لأنه نتيجة لعدة ارادات متجمعة إذ القانون يتبع نظاماً عكسياً . فهو يظهر في شكل قواعد معنوية وضعت لادارة الوقائع المحسوسة الكامنة في معناها . انه مجموع اجراءات ثابتة متشابهة ونصوص واضحة جعل اصدارها في ميعاد محدد واقرارها واعتمادها من خصائص الهيئة المنظمة في الدولة . فنشأه واقراره كامن في السلطة العمومية ومدته غير محدودة مبدئياً . ان القانون هو المعنى الواضح لارادة الدولة الموحدة والمركزة . فهو يمتاز إذن عن العادة بوضوحه ، وصفة الفردية ، وتعميم عباراته ، وفي النهاية لأنه قائم على أساس تفكير طويل واختبارات ماضية ويحاول أن يتناول المستقبل . فهذه الصفات الثلاث المميزة للقانون تبين عمل السلطة المركزية التي تسيطر على أعضاء المجموع .

إن مقاومة القواعد الناشئة عن العادات لبعض التجديدات التشريعية هي — بالعكس — الدليل على قوة معارضة الأفراد أو الهيئات المحلية . إن ميدان الحق المترتب عن العادة فسيح قبل أن يستقيم المجموع وينظم . إلا أنه يلاحظ ، أولاً بأول ، عند تنظيم المجموع إن حصة التشريع تزداد وتطغى على الحق الناشىء عن العادة . فعندما يؤلف مجتمع فانه يختار رئيساً مهما كان هذا المجتمع خشناً . ثم انه يضع نظاماً . وقد ظلت القواعد القائمة على العادات عهداً طويلاً نافذة المفعول بفضل كثرتها وأهميتها وطغت على النظم الصادرة عن السلطة العليا . ولكن حتى في عصور الاقطاعية — وهي العصور التي ازدهرت فيها العادة — كان الملك يصدر القوانين الرهبانية والمراسيم والقرارات . وقد رؤي في عصور الانحطاط والتخاذل مجموعة من التشريعات بذت بكثرتها وعدم اتباعها في حين أن العادة والاستعمال قد تولدتا في أشكال خلابة خادعة تحت ستار نظام هيئة متلاشية .

إذ أنه لا محل للخطأ : فالقانون يتسلط أو يمتص العرف والعادة ولكنه لا يمحوها : فاذا ضعف بانحلال المجموع الاجتماعي ، أو سقط تحت ضغط المطامع القوية فان العادة والعرف يستعيدان حريتهما ويسيطران على الانسانية وهي انسانية في حالة تقهقر ورجعية . وبالعكس عندما يمد القانون نفوذه ، فاذا هو لم يطرد العادة باحتلال محلها ، فانه لا يتوانى في اخضاعها لنفوذه سواء باعطاء الشكل التشريعي لعادات قائمة نافذة أو بضمها للآلة التشريعية بالاعتراف بها رسمياً .

ذلك أن القانون ليس في الواقع إلا شكلاً راقياً من العادة أو العرف المصطلح عليه ويقتبس من العادات مبدأ توازن القوات ويستعمله في تأييد سلطته . ومن العرف المصطلح عليه أصول التضامن يبرزها في وضع أوضح وأمتن لتوحيد النشاط الفردي وتوجيهه . ان المشرع لا يوجد القانون ولكنه يشرحه . فالقانون أيضاً ليس إلا احد أشكال الاعمال الفردية . ولكن بينما تنشأ العادة والعرف المصطلح طوعاً ، فان القانون ينفذ عن طريق هيئة منظمة : جمعية وطنية ، أو مجلس نواب أو سلطة ملك مطلقة . وهو يطاع لتلك الصفات الاساسية وليس للنصوص الحتمية التي صيغ بها . وان سلطته تفرض مؤقتاً لان المفروض أن تلك السلطة تضم في ذاتها جميع السلطات . إلا أن القانون لا يستطيع أن يقاوم الاخطاء

المتكررة . فهو يفقد مزية هذه القرينة الملائمة . ولذلك فانه يعمل بحرص بضم هذا الشكل في النظام الاختياري الذي لا يخرج عن كونه عادة مقبولة طوعاً وبغير ما اكراه .

وخيرٌ من ذلك . فان القانون لا يكتفي بضم العادة اليه بل كان يستتر ظاهراً بطبقة من العادات بما تقدمه الشريعة التي تكمل غالباً وأحياناً تعدل نص القانون مع احترام عباراته . ولكن النص الأصلي يحتفظ بمظهره واعتباره الخاص . فقبل إصداره كان موضع مناقشات ومداولاتٍ ، كثيراً ما تكون طويلة ، وأحياناً موضع مفاوضات جدية مضطردة ، وامتيازات لم يمكن التوفيق بينها ، والتوازن بين أجزائها ، إلاّ بعد جهد وعناء . بحيث أصبح كل تعديل فيها يتطلب تطبيقاً جديداً دقيقاً للمطالب المتناقضة التي يحسن إرجاء النظر فيها لأن الاعتراف بعدم كفايتها يثير أزمة لا يمكن معرفة مداها وأمدها ولا تقدير تأثيرها سلفاً . وقد استطاعت تلك العادات ، بفضل المثابرة الدقيقة ، إحتلال مكانة في القانون والتطبيق .

على أن حوادث الحياة ، التي لا ينضب معينها ، تحول ببطء وضع هذه المسألة . فالتفسير القديم كان يعمد الى تطبيق الوصف الخشن المجرد ذي المعاني المستترة الملتبسة لما هو حقيقي حتى ليعد من السذاجة ، محاولة التغلب عليها بواسطة القرارات البشرية . إن تطوّر الوقائع يؤدي حتماً إلى تطبيق جديد يحيد عن إرادة المشرع الأصلية . كما أن القانون لا يمكن أن يتبع هذه الحركة المستمرة إلاّ بتدخله تدخلاً متقطعاً وأحياناً مع كثير من التردد والرهبة . ويستحسن كثيراً تفادي تغيير صيغة القانون التي يقوم عليها تشريع بأ كمله ، إذ أن ذلك يؤدي الى زوالها معه بايجاد الشك في التفسير الجديد وهكذا يحتفظ الحرف بفضيلته المتزايدة مع الزمن . إن الزي التشريعي الذي استند في البدء هي الدعامة الشرعية ، ينصرها بدوره ويحميها . وسوف نلاحظ مع ذلك أن الشريعة تخصص ، مع إيضاحها وتنقيحها ، عادة تقدمته وقامت تحت ضغط ضرورة التطبيق الملحة . وليس في ذلك ما يدهشنا لأن النزاع يتقدم الحكم . وفي النظام التاريخي يتقدم الحكمُ القانونَ . إن القانون يكون دائماً متأخراً على الحياة التي تأبى أن تكون سجينة الصيغ ، بعكس الرأي العامي الدارج الذي يدهش من أن تطبيق الحق يمكن أن يؤدي إلى مثل تلك المناقشات الطويلة . لقد طالما أخطأ كثيرون من العباقرة، بل ونابليون نفسه الذي أدهشه أن قانونه المدني لم يحل

دون نمو الشريعة وانتشارها ، فحكم على عمله بالنقص .

لقد أخطأ : أن للقانون مكانة أسمى من جميع اشكال الحق فهي تتمتع بفضيلة قانونية . إن الإرادة الوجدانيـة التي تشيده تكتشف بالدراسة والتفكير ، الروابط التي تربط الأصلة ببعضها . أنها تشعر بتبعيته ، وبعـد أن تجمع في عملها الوحدة والوضوح اللذين ميزتهما في الوقائع، تجمع بين الاستعمال والعادات ، بل والقوانين الجزئية القائمة داخل إطار منظم الأجزاء والتقاطيع وتوفق بينها .

* * *

ولكن على الرغم من المظاهر فانه لا توجد معارضة كلية بين العـادة والقانون . لأن القانون مجرد ومطابق للعقل بغـير شك ، ولـكنه يتولد في وسط الظروف التاريخية . وسقوط الحق الشرعي يتولد من الوقائع المحسوسة والاختيارية التي تنفذ أطرافها من ثنايا الصيغة العامة التي تغطيها . ان جميع القوانين وليدة الظروف .

إن العادة تلخص الوقائع الكاملة ، ولكن إذا أراد القانون أن يسيطر على المستقبل ، فانه لايستطيع الوصول إلى غايته إلا بالاستعانة بالماضي الذي يضمه .

إن القانون عامل مسـاواة . ولـكنه لا يستطيع ، بدون إنكار الحقيقة ومعارضته الواقع ، إهمال الاختلافات وعدم المساواة الطبيعية . فهو يشتمل على شواذ ونصوص خاصة .

إن مدة القانون غير محدودة مبدئيـًا ولا يبطل إلا بإجراء خاص ومعارض ، ولكن هل يوجد في قانون مرت عليه السنين وأهمل، من التأثير أكثر مما في عادة نسخت وتلاشت ؟

إن العادة تتكون ببطء وتسير بخطى متثاقلة مترددة ، أما القانون الذي يسير مباشرة نحو غايته فانه يخضع لتطورات التقهقر والتقدم التي تتلافاها العادة .

إن القانون غير مستقر إلا في الظاهر : وهو كالعادة يتطور تحت تأثير الأخلاق المحيطة به .

إن العادة لا تصبح ضرورية إلا بموافقة وتسليم الذين يخضعون لها . ولـكن القانون لا يستطيع ، بدون أن يكون موضع إزدراء واحتقار ، أن يحتك بالشعور العـام ورأي الأغلبية ، والاكراه لا يمكن أن يقع إلا بصفة استثنائية .

إن العادة عبارة عن صك تحكيم عملي وعرفي للأنانيات المتعارضة ، والقانون صك تحكيم مقصود للمصالح المتعارضة ولكنها مشتركة .

إن الحق من عمل السلطة في شكل الاستعمال أو العرف أو القانون . والسلطات المنقسمة والمتعارضة هي التي تولد الاستعمال : إن العادة تنشأ عن سلطة غير مركزة ، والسلطة الوجدانية المركزة هي التي تضع القانون وتنشره .

ولكن الحق لا يستمد فضيلته بأكلها من القوة ، فهو يستمدها أيضاً من العقل . إن السلطة لاتستطيع أن تقرّر قواعد هوائية أو جنونيـة دون أن تعرض نفسها للتحطيم . فكيف يتعاون العقل والسلطة على ذلك ؟ ذلك أن نقطة ارتكاز القوات هي كذلك نقطة التقاء جميع البيانات . ففي المكان الذي تلتحم فيه جميع القوات وتتضافر تتجلى حتماً جميع التغييرات التي تلحق بها ، وبالتالي جميع الحوادث التي تؤثر عليها . وهكذا تقيد الوقائع بالتعديلات التي تدخل على التوازن الذي يعبر عن علاقة القوات والمقاومات التي يثيرها تدخلها . عند ما تكف القوات — التي يتولد الحق من التقائها — من الاصطدام ببعضها وتوافق على تحقيق اتفاق دائم بينها ، وعند ما يوجد إحتكاكها السلمي ببعضها ويجعل من إشتراك مصالحها اشتراكاً في الشعور والتفكير فلا يقتصر تأثيرها على تعميم الحوادث الداخلية والخارجية بين المجموع ، ولكنه يتجلى بتركيز جميع المدارك والمقارنات التي تستخلص ، والاختبارات التي تتجمع ، والفكرة التي تضيء وترشد الارادة التي تخلصت من الغريزة . ان جميع الوقائع المتعددة غير المنتظمة الغامضة ، وجميع المقاومات المحلية التي يتألف منها الإستعمال والعادة تصبح واضحة جلية وتستولي عليها السلطة وتنظمها . فلولا الذكاء لأمكن تقييد القوة الغاشمة المختلطة بسرعة وشل حركتها . إن النفوذ والمعرفة والارادة تكون السلطة وليس أحد هذه العناصر أقل منفعة من الاثنين الآخرين .

ان الكفاءة والاستعداد في استخلاص القانون وفي نفس الوقت القوة في حمل الناس على احترامه لم تكن في المجتمعات القديمة، معلومة لرجال منعزلين أو مجتمعين بهيئة مدرسة، بل ولا لجمعية الشعب الوطنية . ولكنها كانت من اختصاص الألوهية وحدها إذ أن الحق كان ، في المجتمعات الأولى ، من أصل ومن طبيعة دينيـة . فهي منقولة عن الخطة الدينيـة الملائمة

لمقتضيات الحياة في كل مجتمع بشري ومستلزماته التي نشأت عفواً عن الاختبار . إن للعادة أو القانون صفة مقدسة ومن يخرقهما يكون عرضة للغضب الالهي . ثم ظهرت المالكية المطلقة التي اندمجت فيها جميع السلطات . ولكن الملك ليس ، كما يقولونه ، عدو الشعب الذي يحكمه بالارهاب . إذا كان قد ارتضى به فلأن وجوده وعمله يعودان بالخير على المجموع ، ولأن ادارة زعيم تبدو أفضل وأنسب من الفوضى التي تلقي الضعيف بين أحضان القوي . والزعيم اذ يتبوأ مكانه على رأسهم ، يمتاز عن جموع أتباعه بسلسلة من النظم متعددة الحلقات ولكنه يجمع أطرافها بين يديه ولذلك فانه أول من يتبين العقبات التي تعترض سيرهم كما إنه يشعر بضغطهم عليه وجذبهم له نحو الاتجاه الذي يندفعون اليه . فهو المحور الذي تلتقي عنده جميع البيانات التي ترد من جميع الجهات . ولذلك فهو خير من يستطيع أن يهدي القطيع الذي يحرسه إلى السبيل القويم ، وأفضل من يوقع العقاب على من يخرجون عليه . على أن تلك الطريقة التي تتبع في جمع الاستعلامات لا تخلو من العيب لأن جميع هذه الاستعلامات ترد عليه من موظفيه وأتباعه الذين يستمدون سلطتهم من الزعيم . وهذا ما يحمل الاتباع أحياناً على الحذر منهم وخشيتهم ، وأحياناً لا يحمل هؤلاء الموظفين العظام إلا الحقائق المنمقة والرياء والأخبار السارة إذا كانوا مسالمين إما إذا كانوا متمردين فانهم يندفعون مع تيار شعورهم ويرتكزون على مرؤوسيهم لمقاومة السلطة الرئيسية ويعاملونها معاملة الند للند في كثير من الاستقلال .

وانه لا يمكن تقدير حاجات الأهالي وميولهم وإرضائها إلا إذا انتخب نوابهم منهم وتولى هؤلاء مهمة القيام بالوظائف التشريعية . فانهم يعملون بمساعدة الشعب وقوته التي لا تقوم الحكومات ولا تدوم إلا بفضلها مع تعضيد جميع المندوبين المنتمين إلى مختلف فئات المجتمع . وهكذا يستنير الرأي العام بأكمله ويقف على ما هو عليه من وحدة الرأي وما ينتابه من منازعات حزبية وما يعتز به من قوة يستمدها من تضافر عناصره واعتداله الذي يعاون على اتحاد المصالح المختلفة .

ان القانون لا يجد في سبيله العادة والعرف فقط ، ولكنه يصطدم كذلك بالتعاقد .

فالارادات المتفرقة الخاصّة تواجه الارادات المشتركة . فكيف يحل هذا المشكل ؟ فهل ينبغي أن يتنازل الأفراد عن حقهم في عقد اتفاقات خاصّة اذا ما اندمجوا ضمن المجتمع ؟ ان مثل هذا التنازل غير مفروض في المجتمعات المرنة الفردية التي لا تتطلب إلاّ ناحية واحدة من جهود الرجل : كالمجتمعات الأدبية والعلمية والرياضية والتجارية . أما المجتمعات الكلية الثابتة كالقبيلة والمدينة أو الدولة فهل تترك للأشخاص حق التعاقد باتفاقات خاصّة ؟

إن المجتمعات الأولى التي يمكننا الرجوع اليها هي — كما أسلفنا — شديدة الضغط والغيرة . وهي تعيش أبداً على أهبة الحرب . وهي أشبه بمعسكرات منظمة تنظيماً تامّاً والحرية الفردية تكاد تكون معدومة فيها . فالأفراد متسلسلون من أرومة واحدة ومرتبطون برابطة الدم بقدر ارتباطهم بروابط المصلحة ، وامتزاجهم ببعضهم قد بلغ أقصى حدّ حتى لكأنهم لا يتمتعون بحياة فردية ذاتية . لأن الرابطة الطبيعية التي تجمع بين أعضاء المجموع تتخذ صبغة عائلية : وهي في نفس الوقت سياسية واقتصادية . فبين أفراد الأسرة القديمة كان تبادل الأشياء والأسلحة أو جلود الماشية لا يتخذ صبغة أكثر من صبغة التعاقد الذي يتجلى في عهدنا عند تبادل اللعب بين أطفال أسرة واحدة . والمنازعات التي تنشأ عن ذلك كانت تسوى ، لا على أساس اعتبار الحقوق الفردية لكل واحد ، ولكن بروح المودة والتضامن العائلي .

على ان نظام الحكم المستقر الدائم لا بدّ أن يطغى على نظام الأسرة فيزيله رويداً رويداً ويحدث تفككاً في نظام الأحزاب والمدينة فيضعف من شوكته . أما الأخطار الخارجية فانها أقل تهديداً . والقيود التي تربط الفرد بوطنه والملكية الفردية التي أصبحت من ضروريات الحياة بفضل تطور أساليب الزراعة وتقدمها ، لا بدّ أيضاً أن تخلق مصالح متباينة . وروابط قانون الأحوال الشخصية الذي يحدد المكان الذي يشغله الفرد في دائرة قبيلته ، لا بدّ أن تلين تحت تأثير نمو الحياة الاجتماعية المركبة وتخصيص الوظائف . وهكذا يمكن أن تنشأ العلاقات في المعاملات . ولما كانت شخصية أعضاء الاتحاد تختلف عن شخصية الجماعة فانها تسمح بالتعاقد والارتباط فيما بينهم الى حدٍ ما . ويخلق نظام التعاقد نظام الأحوال الشخصية .

• لحركة عتق الانسان البشري وتحريره من ربق العبودية الذي ينيله حق الارتباط والتعاقد لا تتم إلاّ رويداً رويداً . فالعقد عند ظهوره في مجتمع لا يحمل إلاّ أثراً ضئيلاً من استقلال المتعاقدين . وهو لا يسمح بادىء ذي بدء إلاّ بتنفيذ أعمال مركبة تجر خلفها سلسلة لا تتجزأ من التعهدات التي لا يمكن التفضيل بينها ويجب قبولها أو رفضها كتلة واحدة : فالاتحاد بالدم حفلة رمزية توجد نوعاً من التبني في الأسرة أو التجنس في القبيلة . والزواج الذي ينقل المرأة من أسرة الى أخرى ، هي أولى أنواع العقود . وهي عقود كثيرة التكلف خلاقة لتعهدات عامة محدودة بواسطة قانون العادات ، ولا يتعين على الأطراف المتعاقدين أن يعدوها أو يضيقوها وهي توجد تغييراً كليـّاً للحالة . والمنتمي ينزع عنه كل قديم ويقطع جميع الروابط السابقة ليرضى بغيرها تختلف عنها اختلافاً بيناً . هذا هيكل خشن للاتفاقات التي يمكن بفضلها إجراء تعاقدات بين القبائل أو اجراء مبادلات . عند ما يعطي رئيس القبيلة إبنه زوجاً لابنة خصمه الذي قتل له إبنه فانه يصلح الضرر الذي أحدثه . وفي نفس الوقت يوقع معاهدة صلح وتحالف . وفي أيامنا أيضاً نرى أن الاتحاد بين الأمراء والأميرات من الأسر المالكة لا يقوم في الغالب إلاّ على أسباب دولية . وتدخل المجتمع في مثل هذا النوع من التعاقد قد يكون أجدى له وأنفع من تدخل المشتركين المباشرين . وهذا التدخل — بادخاله العقد الحر في شعبة الروابط العائلية والتابعية — هو الذي يحلّيه بتأثيره وفاعليته .

ومع ذلك فان العقد لا يلبث أن يتفرد ويتخصص ويتحرر . والأشخاص المرتبطون بهذا العقد وحدهم هم الذين يتعاقدون ، والتزاماتهم تنحصر في الأغراض التي أبدوا رغبتهم في أن يتضمنها اتفاقهم . ثم أن المتعاقدين يتحررون رويداً رويداً من النظام الاضطهادي الذي كان يقيد إرادتهم ويحول بينهم وبين كل تصرف ذاتي وكل حرية في تقرير رغباتهم وتنفيذ إرادتهم .

ومع ذلك فتلك العقود ظلت حافظة لمظهر العقود الاجتماعية عهداً طويلاً . فهي قطع منتزعة من كتلة المعاملات القانونيـة . والإرادة الفردية تنساب إليها خلسة لتنتفع من الصفة الإجبارية المعترف بهـا فقط في القواعد الاجتماعية . إن العقود المادية والعقود

الفعلية تستمد قوتها من الصفة الدينية أو الحالة الراهنة أكثر منها من إرادة المتعاقدين . *
إن التشريع الرمزي والتكاليف القاسي اللذين يعقبان العقود الأصلية لهما من مخلفات أو من آثار تدخل المجتمع في وضع صيغة العقد . إن القوة الإجبارية كامنة ، لا في إرادة المتعاقدين ، ولكن في فضيلة الصيغة الحرفية أو المظهر الرمزي للأصل الاجتماعي والديني الذي يتحتم عدم تحريف أية كلمة أو استبدال أية إشارة لئلاّ يعتبر العقد لاغياً . إنّ اتفاق الارادة ظل لعهد بعيد في القانون الروماني غير كاف لإيجاد التزام . وقد اكتشفوا في المعاهد القديمة ، للقبائل المقيمة في شمال غرب أمريكا ، أطوار انحلال قانون العادات وتكوين حالة التعاقد الشرطي الذي إذا قيد ضمن الاحتفالات الدينية ، يستسلم للمستقبل ويضع الرابطة التي عقدت بحرية تحت رعاية السلطة الدينية والاجتماعية . وإنا لنجد في تلك الحفلات الدينية آثار معارضة وخصومة سابقة يخال أنها تكشف عن أصل منشأ التعاقد .

إذ لو أن التعاقد ، في المجتمعات البسيطة العادية ، لم يمكن أن ينشأ إلاّ عن انحلال الرابطة القانونية انحلالاً تدريجيّاً ، فان تعاقد الارادات قد اندمج بحركة عكسية بقانون المجتمعات المركبة الداخلي ، وربما أيضاً في أشد المجتمعات خشونة في عهد وجودها . يقول سبنسر : كان يوجد في البدء مجتمع رجال ونساء بغير أوضاع محدودة . ولما كانت أوضاع هذا المجتمع تقررت وقامت على القوة فانها كذلك كانت تتغير بمشيئة الأقوى ورغبته . كان التعاقد في البدء حرّاً ولكنه خالٍ من كل عقوبة رادعة . ففي تلك المجتمعات كان يتم ، متى شاء الفريقان ، ولكنه لا ينفذ عادةً الاّ في الحال . ففي حالة التعاقد الخاص يكون التنفيذ بطريق البدل ، وفي حالة التعاقد العام فان المعاهدة هي التي تسوّي أوجه الخصومة بين الأعداء سواء بتوجيه اليمين أو بتعاقد طويل الأمد يراعى فيه التغييرات السابقة لعلاقة القوات المتخاصمة . وهذه التعاقدات ، التي لا ترتكز الاّ على المصالح الحالية المحدودة لمن يعقدونها ، شفافة خيالية . وضعفها هو نتيجة استقلال المتعاقدين ولا يمكن مداواته الاّ بضمها الى نظام واحد تهيمن السلطة الرئيسية فيه على جميع المنتمين اليه ، وتفض مشاكلهم ومنازعاتهم وتحافظ على اتفاقاتهم معاونة المجتمع وما له من سلطة التنفيذ والاكراه . فاذا كان للتعاقد سلطة ربط المتعاقدين فان المجتمع هو الذي يمده بتلك السلطة . فاذا فرضنا أن المجتمع

لا يقرر عقوبة على الالتزامات المتعاقد عليها فتلك الالتزامات تظل مجرد وعود بسيطة عادية .

* * *

ان الحرية الفردية ، سواء نشأت من تراخي الرباط الاجتماعي أو تخلفت عن حركة تحالف الوحدات التي كانت عند نشأتها مستقلة ، تتجلى أولاً وخصوصاً في النظام الاقتصادي . وتتجلى المادة فيها بالاعتراف بالملكية الفردية . اذ أنه يستحيل في الواقع ، مع انتشار المجتمع المطرد ، الجمع بين الانتاج وتوزيع الثروات . والاستغلال الاجتماعي يصبح عقيماً عندما يتناول مساحة كبيرة من الأرض ومجموعة من الموارد المختلفة . ان تنظيم الجهود يتطلب كثيراً من بعد النظر والاحتراس ومعرفة تامة للضروريات والوسائل وفناً دقيقاً في تطبيق كل منها على الأخرى ، وبالاجمال يستدعي ذكاء وقاداً في خدمة ارادة حديدية لا تتزعزع وجميع الفضائل التي يندر توافرها عند المتمدينين ، فكيف بها عند من هم على الفطرة . ان الحاجة اذن تستلزم من كل جماعة تتكون وتنمو أن تترك لكل فرد منها عناية السعي وراء ما يتطلبه كيانه وكيان ذويه . وزيادة على ذلك فان انتشار المجتمع يضعف روابط المودة والمحبة التي قلَّ أن تكون بعيدة المدى أو تتجاوز دائرة القرابة . فاذا كان أولاد أسرة واحدة لا يثيرون الصعاب في وقف عنايتهم وجهودهم على المجموع المشترك ويسمحون لجميع الأفراد في الانتفاع بها بمقدار حاجتهم فان الأمر يتغير عندما تنتشر الأسرة وتندمج في العشيرة ، وسبب أقوى عندما يتألف المجموع من اندماج أسر من دم غريب ببعضها لأن الانتاج يصير فسيحاً ومركباً ليكون اجتماعياً ويصبح فردياً . ويصير هاماً جداً ليمكن توزيعه بالأخاء بين عدد كبير من المشتركين الذين يتنافرون ولا يهتم بعضهم ببعض لأن الكتلة المشتركة لا يمكن المحافظة عليها بالقسمة والتوزيع .

وفي النهاية فان تقسيم العمل يسمح بتمييز حصة كل واحد في العمل الذي تمَّ وفصل انتاج الجهود المختلفة ، وتحديد ربح العمل لكل من قام به . وبالعكس فان الملكية الفردية تساعد على تخصيص الوظائف عندما يثق الرجل بأنه سينال ثمرة عمله بأكمله وانه سيتصرف فيها بملء حريته فانه لا يقاوم التيار الذي يدفعه نحو تقسيم العمل لأن البدل يسمح له بالحصول

على الترضيات التي يطمح اليها . وأكثر من ذلك فان التناسب يمتد الى ما وراء الأشياء المادية والارشادات التي تدل عليها . إنه يوجد تقارب وثيق بين تقسيم العمل والملكية إلى حدّ أن الوظيفة تصبح ملكية فردية . ويصبح المعلم مالكاً للكرسي الذي يدرس فيه ، والضابط مالكاً لرتبته ، والكاتب مالكاً لمؤلفه والمخترع مالكاً لاكتشافه . إن حماية المجتمع تسمح للرجل بأن يجني ثمار نشاطه بأكمله . وهي بذلك تخلق - مع استثناء المنفعة الاقتصادية للعمل الفني والاداري - ممتلكات من نوع جديد لا توجد إلا في مجتمع منظم .

فالملكية تصبح نوعاً من امتداد الشخصية وسيطرة الفرد على الأشياء . وبذلك يصبح تنفيذ التعاقد أكثر ضماناً إذ يضاف إلى الاكراه البدني ، الذي يمكن التأثير به على الشخص ، العمل المادي ، وهو أنسب وأنجع ، على الأشياء المملوكة . ان المال الموروث يكفل تنفيذ التعهدات المتعاقد عليها . وهكذا فان العقوبات المفروضة في حالات الاغتصاب لرد الأشياء المغتصبة تحل محل العقوبات المفروضة في حالات القمع ، وفي حالات الاضرار المادي تُوجد تعويضاً أكثر ملاءمة وأنسب عن الضرر الواقع .

أما في النظام السياسي فان الأمر على نقيض ذلك فان الحرية تظل مقيدة نوعاً ما . ان حالة الأشخاص ونظام الأسرة ، والمدنية ، والدولة تظل محدودة بدقة متناهية وادارة المصالح العامة خاضعة للقانون الذي لا يمكن التجاوز عنه أو التخلص منه . فاذا تجاوزت الدولة عن حقها في ملكية الأشياء فانها لن تتنازل عن سلطتها وسلطانها على الأشخاص . إن التركيز — وان كان ضرورياً لمقاومة العدو الخارجي أو لضمان حفظ النظام الداخلي — فانه يتطلب الطاعة لقواعد معينة متشابهة . لقد أبدى هربرت سبنسر — في مقارنة مشهورة له بين الشركات القديمة من النوع العسكري والشركات الحديثة من الطراز الصناعي — إن العقد سوف يحل تدريجيًّا محل القانون لتحقيق نظام ذاتي في المجتمعات البشرية لان الاولى تمتاز بالرابطة القانونية أو الشرعية ، والثانية تمتاز برباط التعاقد . على أنه يُخشى ألاّ يستمر التطور في سيره المنتظم في هذا الاتجاه ، إذ أنه اذا أمكن لاي امرىء أن يتصور امكان وجود حالة سلم عامة مستديمة تضع حدًّا للمنازعات الحربية فانه لا يستطيع أن يتصور عدم وجود سلطة مركزية ولو لمجرد المحافظة على احترام العقود .

وزيادة على ذلك فانه لا يوجد تفريق مطلق بين النظام السياسي والنظام الاقتصادي . فإذا كانت الحرية الفردية – على الأساس الاقتصادي – تجد مجالاً أفسح ، فليس أصح من أنه يوجد نوع من تبادل المصالح المادية في كل مجتمع، ونظام جباية الضرائب خير دليل على ذلك . ولا بدَّ لنا من الاعتراف – بغير ما حاجة إلى الوقوع في مغالات المذهب الماركسي أو مذهب الماديين التاريخي – بشدة تأثير الشروط المادية للوجود على اختصاصات السياسة : إن تبعيتها تلاحظ بوضوح وجلاء في النظام الاقطاعي الذي يمتاز باندماج الملكية والسلطة وتقسيمهما في وقت واحد، في حين أن هذه الملكية وتلك السلطة منفصلتان وان كانتا كاملتين في الدولة الرومانيــة وفي الدولة الحديثة . على أنه يتبين من ذلك المثل ان كتلة العــلاقات السياسية والعلاقات الاقتصادية يمكن تقسيمها بحسب خطوط القسمة ، وان اتخذت تلك الخطوط اتجاهات متباينة . ولا يجب أن نتغاضى عن أن الدولة – بالحالة التي نفهمهــا اليوم – ليست سوى مظهراً خاصّــا من مختلف الأوضاع السياسية .

إن الحرية الاقتصــادية ليست غير محدودة حتى في أيامنا . فانها – بادىء ذي بدء – تصاب بصدمات عند ما تدعو حالة الحرب ضد الغريب الى الاستيلاء ، لا على الاشخاص فحسب ، بل على الموارد بجميع أنواعها . وعند ما تندمج جميع الهيئــات المدنية فلا تؤلف إلاّ مصلحة واحدة قصرت مهمتها ومواردها على تغذية القتال . على أن حرية العقود خاضعة بوجه خاص لقيود وتحفظات عديدة حتى في الأوقات العادية . فاذا كان الرجل في الواقع حرّاً في اختيار هذا النوع من العقود أو ذلك ، فانه ليس حرّاً في عدم التعاقد . إذ أنه لا يوجد في أيامنا من يستطيع أن يستغني عن غيره ويقوم بأود نفسه ويجب عليه أن يتشبه بالنائم الذي يستيقظ خلال حلم مزعج وأن يتغنى بقول الشاعر سولي بريدوم :

« لقــد عرفت سعــادتي وفي الحيــاة التي نحن فيهــا »

« لا يوجد من يفخر بأنه يستطيع أن يتجاوز عن الرجال »

ان علاقاتنا بأمثالنا تكاد تكون عقوداً بوجه الاجمال ، وأقل حركة من حركاتنا تتمم عقداً قانونيّــا غير منظور . فشراء صحيفة يعتبر عقد شراء ، وتذكرة الترام تدل على تنفيذ عقد نقل ، وماسح الأحذية ينفذ صفقته على طريقته . فهل يمكن أن يسبق المعاهدات المتعددة

— التي يُصادَق عليها في أغلب الأحيان بغير تفكير — محادثات وافية تفصيلية للاشتراطات التي تطبق في جميع الفروض ؟ وهل لا يخضع المسافر الذي يتبوأ مقعده في الترام لعدة التزامات متمشية مع الالتزامات التي تتحملها الشركة نحوه ؟ ففي حالة وقوع حادث يلجأ الخصوم الى التشريع المدني لتحديد المسؤوليات وليس الى الاتفاق العام الذي عقد فيما بينهم . فهناك مجموعة من القواعد المدونة في القوانين ـ وان كانت تفسيرية ـ إلا أنه لا يمكن تعديلها أو اقصاؤها في عقد دعت الظروف أن يكون موجزاً أو أن يتم في أغلب الأحيان بوجه السرعة . ان مواد القانون — عند تفسيرها رغبة المتعاقدين — تستمد وحي هذا التفسير من المبادىء الملائمة للمصلحة العامة . ان العقد محدود وتحت سيطرة القانون وهناك نظم عامة تحرمه — في بعض الحالات — باعتبار أنه مخل بالأخلاق أو محرّم . ولذلك تتخذ الاحتياطات اللازمة لمنع كل اسراف وحماية الضعفاء والعجزة .

ان التدخل الاجتماعي يظهر من الاهتمام في إيجاد المساواة بين العهود المتبادلة ، والتوازن بين قيمتها . فالمجتمع هو الذي يعطي لكل ما له قيمة صفة موضوعية ونوعاً من التحديد . ان تعادل شيئين بالنسبة للرجل الأعزل أمرٌ وقتي غير مستقر . لأن تغيير رغبته وتبدل الظروف تجعل هذا التعادل يتحول بسرعة ، فنقطة الماء التي لا تقدر بثمن في الصحراء لا قيمة لها اطلاقاً اذا هي امتزجت بأمواج نهر عظيم . أما في المجتمع فان قيمة الشيء تتخذ معنىً خارجيّاً وتتعلق بالأشياء : فعدد المستهلكين الكبير وانتظام الانتاج يسمحان بوضع نظام يحدد سعر البضائع . تلك الملاحظة لا تنطبق فقط على المحاصيل الزراعية أو المنتجات الصناعية . إذ قلّ أن توجد ممتلكات عينية أو غير عينية لا يحدد لها المتنافسون درجة في ميزان الأثمان . إن جاذبية الرغبة وصعوبة ارضائها لا يعتبران العاملين الوحيدين المميزين لقيمة الشيء ، فوجود بني جنسنا يخلع على تلك القيمة نوعاً من الوجود مستقلاً عن مشاعرنا الشخصية ، ويجعل منها مبدءاً مشتركاً يتجاوز الوقت والمكان ويمتد بسرعة ويطغى على المستقبل وهكذا تصبح القيمة قابلة للقسمة والتشبيه ، والمعادلة في المبادلات ان تعتبر تقديراً تعسفيّاً وشخصيّاً . ان مجرد الانتماء الى جماعة من الرجال تحدد فيما بينهم قيمة الأشياء بالمساواة بين الجميع ، ويسمح للضعفاء أو من هم من أمرهم على عجل أن يقاوموا أشد الناس

قوة وبطشاً ، وأوسعهم ثراءً وينتفعوا بالسعر المفروض .

ولكن اذا أعطي جماعة من الرجال ، يسود بينهم التنافس ، صفة الاستقرار القيمة ، فان نظام هذه الشركة يغير المبدأ الاساسي . وفي هذه الحالة لا يكون تسابق المتنافسين أو معارضة مصالح المتبادلين هو الذي يحدد وحده سعر الأشياء ، فالفائدة الاجتماعية التي تنجم عن أداء الواجب تشترك أيضاً في هذا العمل . وانه ليجدر بنا ألاَّ ننسى في الواقع أن المنافسة تؤدي الى نوع من توزيع العمل لا يخفف من حدة النزاع فقط ولكنه يخلق تبعية مشتركة لمختلف الطبقات الاجتماعية أو لمختلف طبقات المهن . إن قيمة الأشياء الناتجة أو الخدمات المؤداة تقاس بما يحتاج إليه المجموع من كل فرد من أعضائه . وأهمية دور هؤلاء الأعضاء هو الذي يحدد قيمة نشاطهم وبفضل التضامن الذي يقرر بين المتعاملين ، فيشترك هؤلاء جميعاً ، وبدرجات مختلفة ، في القيمة القصوى التي ينسبها المجموع الى كيانه الذاتي ونموه . وبناءً على ذلك بماذا تقاس قيمة الخدمات التي يؤديها الموظفون — وهي تكاد تكون بعيدة كل البعد عن المنافسة بقدر ما هي بعيدة عن قانون العرض والطلب — إن لم يكن بفائدة الدور الذي يمثلونه في المجتمع ؟ وزيادة على ذلك كيف يتسنى للاخصائيين من أرباب المهن — الذين يقدرون أنهم مغبونون — أن يُشعروا غيرهم بقيمة نشاطهم ان لم يكن عن طريق الاعتصاب ، فهو الوسيلة التي يتخذونها للدلالة — بطريق الامتناع — على فائدة عملهم أو ضرورته ؟ ان الاعتصاب شكل خاص من الحرب الأهلية وهو لا يمتاز بتجنيد قوة للتخريب ولكنه يمتاز بتعطيل قوة تستطيع أن تؤدي خدمات معينة . فهو الدليل اذن على التضامن .

فهذان المظهران لمبدأ القيمة يطابقان مبدأ التمييز البين الذي وضع في العصور الاولى بين « السعر للأخ والسعر للغريب » . فالأول حددته العادات والثاني وضعته المنافسة .

ان المجتمع لا يقتصر بفضل وجوده على اقامة المساواة بين المتعاقدين . فانه يتدخل مباشرةً في الاتفاقات ليضمن تنفيذها بالعدل . اذ أنه من مصلحته ألاَّ يختل نظام ادارة أعضائه مما يتطلب تدخل الوسطاء تدخلاً يتعارض ولا يتفق مع توزيع المنتجات والخدمات

توزيعاً طبيعياً . فاذا استعانت شخصيات بارزة بقوتها الطبيعية أو العملية أو الاقتصادية وسلبت من بعض الطبقات جزءاً من ربح عملها ، فان نشاط هـذه الطبقات يتحول عن الاستمرار في ذلك العمل ويضحون به ، في حين أن سلامة مجموع الأعضاء يستلزم وجود العدد الكافي من الكفاءات للقيام بذلك العمل وتنفيذه . ان تلك المساعدة توجد في العادة من تلقاء نفسها ولـكن عند ما يتعقد المجتمع ويتخصص فانه يسهر باحتراس على كل نوع من أنواع العمل ويبعد عنه كل سبب من أسباب الاضطراب والقلق . ان كثرة العلاقات والتعاقدات ، وضيق الشبكة التي تحيكها حول الافراد تدل على أنها احدى الاوضاع المفضلة للتعاون على العمل . وازدياد أهميتها لا يسمح بالتخلي عنها ، فاذا كانت المجتمعات الأولى — كتلك التي جاءها موسى بشريعته — لا تملك أي تحديد مشروع للتعاقد فان المجتمعات المتمدينة لا تألو جهداً في اصلاح ما فيها من اسراف وافراط .

ان العنف والتدليس والغش والتزوير تفسد الاتفاق بأن تضع أحد المتعاقدين في شركة في مكانة محتقرة فيؤثر ذلك على مجموع الأعضاء وادارته ادارة منتظمة ولا يلبث أن يتجلى الاضطراب في توزيع الموارد والأعمال . فاذا قلت قيمة الأشياء عن قيمة الخدمات التي أنتجتها فان التعاون يفقد تآلفـه وتتعرض صحة الجسم الاجتماعي بسرعة لعناصر الداء . ولذلك يصبح تدخل المجتمع أمراً ضرورياً حتى لا يكون هناك غير اعتبار واحد وهو القيمة الاجتماعية للخدمات المتبادلة . واذن لا يجب أن تؤثر صفة المتعاقدين ومكانتهم على عقد الاتفاق كما لا يجب أي يتدخل أي عامل خارجي ويضغط على الارادات . ان التشريع يحول دون استعمال القوة استعمالاً سيئاً كما يحول دون استعمال الغش والتدليس . وهو يعاقب عليها على الأقل في العهود الأخيرة من المدنية . لاشك في أن الأساليب التي كانت تستعمل في العصور القديمة كانت تشمل في ذاتها فضيلة اجبارية مستقلة عن الرغبات التي تعبر عنها . بل أن القانون الروماني القـديم كان يعترف بصحة العـقود القضائية المعقودة تحت ضغط الاكراه والتهديد . ولم يحكم التشريع الروماني ببطلان العقود التي يشوبها العنف أو التحايل الا بعد ذلك العهد بزمن طويل .

ان مجرد عدم المساواة في الوضع يزيل أحياناً كل حرية في التقرير . فحامل الامتياز بما

لديه من الاشتراطات التي يتحتم الخضوع لها ، والمنقذ الذي يستغل ظرفاً لم يُسبب في وجوده ويفرض أتعاباً باهظة ثمناً لخدماته ، وعامل المنجم الذي لا يحسن الدفاع على مصالحه بالنسبة لسنه ، جميع أولئك يحتلون مكانة لا تتساوى فيها الاشتراطات وتدخل تحت اشراف القانون الذي يتدخل لإصلاح الغبن وتقويم ما في العقد من قسوة وظلم . بل ان مجرد الإيذاء البسيط قد يتطور في بعض الظروف ويصبح سبباً لالغاء العقد . وعدم تساوي النتائج يساعد على الأخذ بعدم تساوي المتعاقدين : وموافقة أحدهم تعتبر باطلة .

فالمجتمع — كلما تقدم — يرمي إلى أن يزيل من العقد كل عامل غير ملائم للمصلحة المشتركة المنصوص عنها في الاشتراطات المتبادلة . وكل قوة تستطيع أن تؤثر على موافقة الطرف الآخر — غير القوات التي تعطي للشيء الذي يتفق عليه قيمة جديدة — تقمع وتستبعد . فتلك الحركة تنفذ ضد مصلحة الاستقلال الذاتي الفردي إن البحث عن الغاية المشتركة لم يعد يصلح لأن يكون مبدءًا وحيداً لتفسير العقد . فالتعاقد — بمجرد الموافقة عليه — يخرج من حيز الضمير الفردي ويدخل ضمن سلسلة العقود الاجتماعية التي تحيط به وتؤثر عليه . ان الحق الموضوعي الواقعي من أصل اجتماعي يضغط على حق الفرد الظاهري .

لقد طالما تغنوا بأن العقد أشبه بالآلة التي استعملها الرجل للحصول على حريته . على أن هذا التأكيد لا يخلو من بعض التحفظات . فإذا كان العقد يعرض على الرجل الاختيار بين مختلف الحلول ، فالقانون هو الذي يحمي تلك الحرية ضد تعسف الأقوى وتطرفه . وإذا كان القانون — في شكله الأصلي القديم لا يعرف غير الاكراه والعسف ، فإن العقد عند منشأه لم يكن يعترف للحرية إلاّ بقسط ضئيل . ولكن عند ما حدد أحدهما الأمر وهذّبه أصبح اتحاد العقد باعتباره — عملاً فردياً — والقانون باعتباره عملاً اجتماعياً — خير ضمان للحرية . فإن هذا الاتحاد يوفق بين الحق الداخلي الذي يرتكز على سلسلة المراتب والوظائف وبين الحق الخارجي القائم على التوازن .

وإذن فالعقد هو عبارة عن نقطة التقاء حركتين متضادتين إحداهما ناتجة عن انحلال قانون الأحوال الشخصية ، والأخرى ناتجة عن اشتراك وحدات مستقلة . فالأولى تولد الحرية والثانية تحدّها . وهكذا فان العقد يلعب دور المفصل الذي يصل بين الاجزاء الصلبة في

المعاملات القانونية . لاشك في أن العقد الخاضع لشروط حُرٍّ ، ولكنه يخضع أيضاً لقواعد دقيقة معينة ، انه يقرب بين المجموعات الكثيفة التي لا يُفرض تطبيقها والتي تحتفظ الروابط التي تجمع بينها ، بمرونتها . فمهمته كعامل على إيجاد العلاقات الاختيارية البحتة أقل بكثير من مهمته كعامل على إيجاد نوع من القنوع في تطبيق القواعد العمومية تطبيقاً خاصاً .

ان الالتزام الشرطي يُعد حجراً في أساس قانون الدول المستقلة : فالالتزام الشرعي من مميزات الحق العضوي . وليس معنى ذلك أن مجال العقد يضيق في مجتمع منظم ، بل الأمر على نقيض ذلك . ولكن القانون الذي يحبذه ويحميه هو الذي يكتنفه ويستكشف خفاياه ، إنه يخضع له كما خضع للحق الناشيء عن العادات . فينتفع هو بالوحدة التي يحققها وينشر على المجموع فضائله : صفته المنطقية ، وثباته ومرونته في الاندماج بالظروف الجديدة بفضل النشاط المستمر الذي يمتاز به العضو المشرع حيث تلتقي جميع القوات وتحتك ببعضها .

* * *

ان الحق العضوي يمتاز امتيازاً بيّناً على الحق الآلي . إذ أنه ليس وليد احتكاك القوات المهملة المتروكة للصدفة التي لا تكفل بحيادها إلا طمأنينة غير مستقرة كما أنه ليس وليد فعل التضامن وتأثيره ولكنه نتيجة لازمة للمحافظة على النظام بالشكل الذي وضع عليه في المجتمع بفعل توازن القوات الفردية والقوات الاجتماعية وكذلك بتوازن القوات الداخلية والقوات الخارجية . إنه يضع مصلحة المجموع العامة التي تباشرها سلطة مركزية تسعى وراء الغاية المرجوة ويختار الوسائل ويفرض قراراته فوق مصالح المجتمعات الغريبة وفوق اشتباك المصالح الفردية وامتزاجها . إن القانوني العضوي هو عبارة عن جسم مؤلف من قواعد منظمة حول مبدأ نظامي يحركه عقل يتمتع بذكاء وارادة .

فهو إذن لا يتعرض للاهتزازات العنيفة الوحشية لأنه يحكم بداخل جهاز تراكمت عناصره ولكنها ترتبط ببعضها بعدة وظائف تخصيصية وتقسيم دقيق للعمل . فبقاء الشركة مضمون أولاً بعدم مقدرة الاعضاء على العيش منفردين ثم بظهور ارادة مفكرة تسهر على تماسك المجموع وتحوله عن الاخطار التي يمكن أن تؤثر على كيانه. وزيادة على ذلك فان التوازن بين مختلف الأجزاء يستقيم أو يستقر بسهولة بفضل تركيز السلطة التي تتدخل في أية لحظة

وبين جميع أجزاء الجسم الاجتماعي لتوفق بين الجهود وتمنع مخالفات البعض وتساعد الآخرين وتنظم الاصطفافات وتوجهها نحو الجهات المهددة . إنه ينجو من الاختلاجات الثورية التي تلقي الاضطراب وتخلق الفتنة . ان التطور التدريجي يوجد ذلك الاستقرار النسبي وهو أشد ما تحتاج اليه المجتمعات البشرية . إن النظام يحول دون اضمحلال القوات التي تتلاشى أو تستقل لولا وجود هـذا النظام . وبعكس ذلك فان النظام إذا وفق بين القوات وجمعها فانه يستطيع أن يستخدمها كلها . ومجمل القول فان الحق العضوي يتجلى في قواعد واضحة جلية وفي نصوص تصدرها سلطة عليا تستطيع أن تقيدها بعقوبة رادعة يستند احترامها إلى الاكراه الذي ينفذ باسم جميع أعضاء المجموع وبالوسائل التي يقررها .

إن هذا العهد — عهد النظام والأمن — يرمي الى استخلاص أحسن ما يمكن الحصول عليه من الكفاءات الفردية بتوجيهها نحو أنسب الغايات لمصلحة الجميع . يقيناً أن الأفراد يمكن أن يقفوا أزاء بعضهم في منازعات مختلفة إلا أن السلطة الاجتماعية لا بدّ أن تتدخل إما من تلقاء نفسها أو بناءً على طلب أحـد الخصوم أو على الأقل في الحالات الهامّـة لفض النزاع بما فيه المصلحة العامة ، وتمنع الضرر عن بقية أعضاء الهيأة . وإذ ذاك لا يبقى أمام كل فرد أية وسيلة غـير استعمال نشاطه لفائدة أمثاله لينـال منهم — في مقابل ذلك — خدمات تعادلها .

ان حق العلاقات الخارجيـة نشأ عن المكافاة في إيقاع الضرر ، إن القانون الداخلي للمجتمعات المنظمة يقوم على أساس الكفاءة في التعاون والمنفعة . وهو يرمي الى التوفيق بين العدالة القائمة على البدل والتي تحتم وجود المساواة في عمليات البدل ، وبين العدالة القائمة على التوزيع التي تضمن في حالات القسمة توزيعاً متناسباً مع الخدمات المؤداة والحقوق المكتسبة . إذ أنه في الواقع اذا ضمت قواعد العقد الى التشريع فإنه يخلع عليه ثوباً قشيباً من الأفكار الاجتماعية . إنه يلاحظ مكانة المتعاقدين ويشرف عليهـا مترقباً من وراءها مصالح عامة ، ويضع مكيال نفوذه في كفة الميزان لترجيح من تكون نتائج عمله في مصلحة الأغلبية . إن المهن الصناعية أو التجارية ،وأخص أنواع النشاط هي ، على حد قول ايهرنج « مراكز خدمة للمجتمع » بقدر ما هي عليه الوظائف العمومية بمعنى الكلمة . إن مثل

هذا الالمام بمبدأ العدالة القائمة على التوزيع يزيد من مبدأ العدالة القائمة على البدل قيمة ولباقة .

* * *

ولنلاحظ أيضاً أن الحق العضوي يحمي الحرية الفردية المضطهدة سواء من الأقوياء في عهد الحق القديم المستبد أو من المجتمع نفسه عندما يكون هذا المجتمع مؤلفاً من وحدات كلها متشابهة ومعادية للشخصيات البارزة . ان قوة المشاعر الاجتماعية — في المجموعات المتناسقة المنسجمة — تبلغ حدّاً لا تقبل معه وجود أي اختلاف أو تباين ولكن تخصيص الوظائف الذي يزداد باطراد يولد أفراداً مختلفين يكون شذوذهم ضرورياً لحياة مجموع الأعضاء . إن البحث عن اصلاح الفرد اصلاحاً تاماً بواسطة استعمال الفضائل الشخصية يعد عاملاً للرقي الاجتماعي . كما ان سلطة المجموع المركزية تزيل العقبات التي تحول دون نمو النشاط الخاص وتساعد على الحرية الفردية بشرط عدم تحويل تلك الحرية الفردية وتوجيهها ضد المجموع .

وهكذا الحال فيما يتعلق بالمساواة . لقد لاحظوا أن التركيز والمساواة ينموان على خطين متوازيين . وعدم المساواة الاجتماعي يكون دائماً بنسبة معكوسة لقوة السلطة . فالسلطة المركزية اذا كانت شديدة القوة فانها تكون عادةً ممهدة متساوية ، فهي تستند على الصغار والضعفاء — وهم يؤلفون الأغلبية — للايقاع بأرفع الرؤوس الذين يضايقونها . إن المساواة أمام القانون تكاد تكون دائماً الشرط الأساسي الذي ينص عليه القانون . ولكنها لا تكاد تحكم بغير نزاع حتى تتلاشى القواعد الخاصّة وتزول أمامها . إن التعميم وعدم التخصيص الذي يضمن للجميع معاملة متساوية لمن الصفات الجوهرية للقانون . كما أن تعميم القانون هو الذي كان يميز ادراك القدماء لمعنى القانون . ان المدن اليونانية والرومانية لم تدرك أبداً أنه يمكن وجود حقوق فردية محترمة بقدر حقوق الدولة . فالمدينة — في نظرها — تتمتع بالحرية اذا كانت الدولة لا تحكم إلاّ باصدار نصوص عامة منصوص عنها سلفاً ، وتطبق على الجميع . ان القدماء كانوا يمارضون في القانون المجرد الذي يحكم بالأساليب الشخصية ويميز الظلم والاستبداد .

الفصل السادس

الحق الكمالي للضمير الاجماعي

الحقيقة ان مجرد توازن القوات بين الخصوم ، وفي أي عهد كان ، لا يمكن أن يكفي لتقويم الحق ، ولا بد — للوصول الى ذلك — أن يتمتع هؤلاء الخصوم ببعض الآراء المشتركة . فلا يعقل مثلاً أن تستطيع طغمة من الرجال المستوحشين الاتفاق مع قطيع من النمرة على تقسيم حق الصيد فيما بينهم في ناحية من نواحي الغابات الآبدة . ففي العالم قد يكون « توازن تلك القوات العديدة الكامنة في الأفراد والجماعات والشعوب والتي تعمل من جنس الى جنس ومن عهد الى عهد » هو ما كانت عليه حال العالم في وقت ما . على أن تلك الحال ليست قانونية . وإنه لمن الضروري أن يشترك الخصوم مع بعضهم في مفاوضات ويتفاهمون بكل دقة ، كما انه يجب أن يتمتعوا ببعض الأفكار المشتركة ، وأن تكون لهم طريقة واحدة في ربط آرائهم ببعضها والادلاء بها . ومما لاشك فيه إنه كلما ازداد التشابه بين الرجال واستطاعوا في بعض الظروف الانقياد لبعضهم ، سهل إيجاد اتفاقات ومعاهدات يمكن المحافظة عليها فيما بينهم . وانه ليسهل عقد اتفاقات دقيقة مشتركة لأجل بعيد بين رجلين من مدينة واحدة على عقد اتفاق بين رجل غير متمدين من وسط أفريقا ، وممثل دولة من دول أوروبا الغربية . ان وجود نوع من التجانس الطبيعي يعد شرطاً أساسيًّا لإيجاد الحق ، والدليل على ذلك ما نراه من السهولة التي يمتاز بها البعض في التخلص من التزاماتهم نحو أشخاص من جنس آخر .

ولا بد للقوات المتباينة — لكي تتحد وتنسجم — أن تتجمع على الأقل في رؤوس متشابهة .

***

ولا ينتج عن ذلك أن الأفراد وحدهم هم الذين يمكن أن يتمتعوا بالقانون ويكونوا .

من أتباعه، إذ أن في مكنة الهيئات أن تؤلف شخصيات معنوية تتقيد بالالتزامات القانونية وتخضع لها . يالها من ظاهرة عجيبة ! يخال أن شخصية الجماعات تنقص أحياناً عند ما تنمو الشخصية البشرية الى حد أنه لا يرى وراء المجموع الكلي المؤلف من الدولة إلا أشباح الأفراد . بل يذهب البعض الى حد إنكار حقيقة الأشخاص المعنويين ومنازعة حق الجماعات . ولكن عبثاً تحاول التشريعات القائمة على الفردية أن تمتنع عن الاعتراف بجماعة الهيئات. فالهيئة تبدو أرفع من الأعضاء الذين يؤلفونها . والكل لا يساوي مجموع أجزائها ، ومن تقاربهما يتولد شخص جديد أهل لأن يكون تابعاً للقانون . ويكفي ، ليصبح الأمر كذلك ، أن يتمتع هذا الشخص بالصفات التي يحتاج اليها الانسان ليفرض نفسه على أمثاله . ولذلك يجب أن يمثل مركزاً لمصالح مختلفة وأن يتمتع بارادة تخدمها قوة عاملة فعّالة تستطيع أن تنفذ تلك الإرادة . إن هذه العناصر الثلاثة ضرورية أيضاً . فالمصلحة ، أو المصالح ، التي تقوم حولها الهيأة يمكن أن تكون من طبيعة مادية أو أدبية ، فتارةً تتجلى في السعي وراء المصلحة المادية وتارةً تسعى وراء عمل يتطلب الفطنة والذكاء أو كلاهما معاً . وفي سبيل الوصول الى تلك الغاية وجب على المجتمعين المقيدين بفكرة واحدة أو شعور واحد ، أن ينظموا أنفسهم ، أي أن يعطوا لشركتهم شكلاً تستطيع به أن تريد وتعمل .

إن الإرادة توجد عند ما تلتقي المشاعر الخارجية والاختلاجات الداخلية — بفعل ظاهرة التركيز — عند نقطة واحدة حيث تتخذ القرارات الخاضعة للإرادة الخاصة بالغاية المشتركة وتنفذ بمعرفة جميع المشتركين . « الاحساس ، والادراك الأولي ، والفكرة ، والرغبة ، والارادة ، والعمل الادراكي ثم المنعكس ، تلك هي الدورة لهذه الظاهرة النفسانية » . ان الهيئة تعمل وتتصرف كشخص — إذ تتمتع بالذاكرة بفضل التقاليد ، والحرص بفضل التفكير — عند ما تشعر بوحدتها ومدتها ، وعند ما تكون ارادتها متسلطة على الاختلاجات المحلية والاقتراحات الوقتية ، فتستعين بمصالح المجموع العامة المستديمة ، ان حياة الحرية ، بما تتضمنه من مجازفات وما يتخللها من اختبارات وتجارب هي التي تساعد بوجه خاص على تكوين الفردية لجميع أعمالها منظمة متناسقة وتظل متشابهة حتى ليمكن ، في بعض الحالات ، تقدير الاتجاه الذي ستتخذه في أغلب الظروف .

ومع ذلك فتلك الارادة لا تستطيع أن تعبر عما يخالجها فحسب ، بل يجب عليها أن تتحقق وتنجز ، وان تتمتع بقوة في خدمتها الوصول الى الغاية التي وضعتها نصب عينيها لتزيل العقبات التي تحول بينها وبين تلك الغاية . وفي النهاية ، لكي تقاوم القوات الارغامية ، أو الداعية الى الانحلال والتفكك التي تهددها ، تارةً بفعل مجموعة أعضائها الذين تجمعوا وألفوا كتلة كثيفة ، وطوراً بعمل محكم ومنظم يقوم به أعضاء اخصائيون وقفوا أنفسهم على بذل جهودهم في اتجاه واحد . ان الهيئة — وهي بمثابة جيش الهجوم والدفاع — تتجلى كحقيقة لا يمكن اهمالها . أما قواتها فبعضها مادية وتعمل في الكيان البشري . والأخرى أدبية وتعمل في عالم الأفكار والمشاعر . وليس أثمن لهـا من قوتها الاجتماعيـة وارتباط المنتسبين اليها وقدرتهم على احتمال الألم بل وعلى التضحية في سبيل المجتمع الذي ينتمون إليه .

عند ما تجتمع كل هذه المزايا في مجموعة اجتماعية ، وتمتاز هكذا على أقرانها ، وتتدخل بين الرجال بجميع قواتها التي تحركها إرادة ثابتة ، فانها لا تكون فقط — كما زعموا — مرشحة للشخصية القانونية ، بل هي في الواقع شخصية أدبية ومعنوية . إن الاعتراف بدولة كعضو في المجتمع الدولي من ناحية النظام السياسي ، والتصريح أو الاعتراف بما لهيئة خاصة من منفعة عمومية في التشريع الداخلي ، لايعتبر امتيازاً وديًّا ممنوحاً بحرية اذ أنه مجرد تقرير واقعة . ان الاعتراف بحق الاشراف ، لحكومة أو لدولة جديدة ، يتحوّل سريعاً الى الاعتراف لها بحق التقنين عند ما تتجلى حيويتهما واستعدادها للقيـام بعلاقات ثابتة مع جيرانهما .

* * *

وهكذا فاننا نستطيع أن نحاول التوفيق بين الحق العرضي والحق الموضوعي اللذين انشقّ بسببهما حديثاً أتباع المدرستين . فهل الحقوق العرضيـة للأفراد تشتق من الحق الموضوعي، أي من مجموع القواعد الواقعية : أم هلاّ يكون الفرد — وهو الأصل — هو مبدأ الحق وأساسه ؟ ان الرسالة التي وضعها ديجوي بعد أوجست كونت معروفة . فحق الفرد ، في نظره ، يشتق بوجه خاص ، من الوظيفة الاجتماعية التي يؤديها ، ومن واجباته نحو المجتمع ، ومن التضامن الذي يتجلى في قاعدة الحق . ليست للرجل حقوق بنفسه — كما

يقول — ولكن جميع أعماله التي ترمي الى غاية مطابقة للتضامن الاجتماعي — وإذن مطابقة للحق الموضوعي — معترف بها ومصانة قانوناً. وقد خاص المسيو هوريو هذا المذهب بعبارات غريبة شيقة: « هذا المذهب القانوني يتجلى في شكل توزيع اجماعي للنشاط. إن النشاط القانوني يسيل في شرايين قاعدة الحق ثم يستمد الأفراد التيار كما يريدون بواسطة المفاتيح وهي الأعمال الشرطية ». ان هذه النظرية تقصي احدى العناصر التي تشترك في إيجاد الحق، لأن الحق يبدأ أولاً من التحديد المتبادل للقوات الفردية، ثم يتوطد بتعاون تلك القوات. أما كيف تتعارض عند توازنها وكيف تتجمع وهي تتنوّع، فهذا هو الحق كله في مظهريه. وعندما تتحدد معنى الحق الواقعي ووضح، بعد أن تأسس وتوطد، بقيت الحقوق الفردية المنتظمة تحت حماية فعّالة — إننا لا نقول مع ايهرنج ان الحق مصلحة يحميها القانون لأن المصلحة جماد والحق لا يتولد إلاّ عن العمل، وانما نذهب الى أبعد من هذا ونقول خيراً منه. إن الحق سلطة يعترف بها القانون هو عمل قوة فردية أو اجماعية ينفذ بحرية في الاتجاه وفي الحدود التي تلائم مجموع القوات المتعارضة. وان كانت متضامنة، والتي يتم اندماجها ببعضها في الحق الواقعي.

* * *

لا يوجد اختلاف جوهري في الطبيعة بين السلطة والحرية. فالحرية ليست الا سلطة للعمل والمقاومة. ولكنهم يطلقون اسم السلطة على الحريات القوية التي — سواءً أكانت منفردة أو منعزلة — تسيطر على الحريات الأخرى، ويُحتفظ باسم الحرية للسلطات التي، وان كانت لا تستطيع الفوز لشدة ضعفها، إلاّ أنها تستطيع الحصول على ما يكفي لتحترم فعلاً. اما في المجتمع المنظم، فان كل فرد يشترك، بفضل حركة التضامن التي تُقرب اوتستعمل الاكراه، في السلطة التي تصدر الحق الواقعي، كما انه — بفضل لعبة الحرية التي تُقسّم وتعارض — يحافظ على حريته ويدافع عن حقوقه العرضية. وهكذا فان الأفراد — باعتبارهم تارة من واضعي القانون وطوراً من أتباعه، بل بهاتين الصفتين معاً — يخضعون للقواعد التي وضعوها ويتم فيها تآلف الحق الواقعي الذي ينشأ عن الوظيفة والحق العرضي الذي يرتكز على القوة. أن الوظيفة تُنفذ بفضل القوة والقوة تجد ما يشغلها في

الوظيفة ولـكن ليس إلى حد أنهـا تتلاشى فيها . وهكذا نفسر كيف يربط الفرد الجماعة بأكملها عند ما يعمل كعضو في تأدية وظيفة تعود بالفائدة على الجميع وكيف أيضاً يتصدى للجماعة بحقوقه الخاصـة عند ما يطالب بفوائد عمله . لقـد دفعوا أحياناً بأن النظرية التي تجعل من الممثلين والموظفين أعضاء في الدولة تفضل النظرية التي ترى فيهم وكلاء عنهـا اذا روعيت العلاقات التي تقوم بين المجموع والخارج ، ولـكنها تخطىء من حيث أنها لا تفسر العلاقات بين الموظفين والمجموع الذي ينتمون اليـه إذ أنهم لا يقولون أن مجموع الأعضاء لا يمتاز عن أعضائه ، ولا يوجد بين هؤلاء الأعضاء وذلك المجموع علاقات قانونية ، إن هذا النقد لا يقوم على أساس صحيح . فالأعضاء متضامنون مع المجموع عنـد ما يؤدون وظائفهم : أنهم يتميزن عنـه عند ما يتذرعون بقوتهم الخاصة ليطالبوا بحصتهم في النشاط المشترك .

وهكذا تتجلى الميزتان ــ مع تعارضهما في الظاهر ــ للحق الذي يعتبر مجموع العلاقات الاجبارية بين رجال أحرار أو مجتمعات مستقلة : ان غايته ترمي إلى تنظيم صلاتهم على أساس الاستقلال الذاتي . عنـد ما يفقد فرد أو مجموع أفراد حريته ، سواء باندماج مصالحه بمصـالح الغير أو بزوال ارادته ، أو بانعدام قواته وتلاشيهـا ، فانه يفقد تبعيته للقانون ، ان الشركة التجارية التي تندمج مع شركة أخرى منافسة لها ، والهيئـة المنقسمة إلى شطرين متساويين متعارضين ، والرجل المستعبد أو البلد الذي يغزى ، جميع أولاء يفقدون شخصيتهم القانونية في نفس الوقت الذي يفقدون فيه صفتهم كأشخاص بشرية أو أشخاص معنوية ، ويصبحون في مصاف الأشياء التي يمكن اعتبارها من الماديات أو الجماد لا من أتباع القـانون . إن الصلة التي تربطهم بالعالم تصبح صلة مادية لا صلة أدبية أو أخلاقيـة . ولـكن إذا كان استعباد رجل أو جماعة لرجل آخر أو جماعة أخرى تقصيه عن القانون ، فان الأمر يكون على نقيض ذلك فيما يتعلق بتبعية الأفراد أو الشركات الأولية في وسط هيئة أكثر مجالاً واتساعاً ، وخضوعهم لنظام عام غير شخصي يوفق فيما بينهم ولـكنه لا يقيد جهودهم وأعمالهم .

ان اتحاد الاستقلال والاكراه هو عقدة موضوع الحق . فهذان اللفظان المتناقضان

والتقيان عند القاعدة الالزامية المفروضة على الجميع والتي يسمى الجميع الى تأليفها كما أنها تحمي حرية كل فرد بفضل تعميمها .

إن الفرد مستقل أيضاً بمعنى انه حر ماديًّا في ارتكاب الأعمال المحرمة وعدم تنفيذ الأعمال المفروضة شرعاً . ان الاكراه لا يطبق عليه بصفة احتياطية الا في ظروف استثنائية في سبيل المحافظة على النظام في الطريق العام . ان المَسَرَّحَ والحظر يتجه الى ذكائه ، ويشرك مسئوليته ، والعقوبة التي يستحقها تتبين لعقله وانه ليتقبل طوعاً عواقب أعماله الخاضعة لقواعد يشترك في وضعها .

***

ان توازن القوات الآلي ، والتضامن الذي يربط أجزاء مجموعة الأعضاء ، لا يؤدي في المجتمعات البشرية عملاً ماديًّا كما هي الحال في المولد المعنوي أو المولد الحيواني . وتأثيرها يدرك الرجال عن طريق الأفكار . ان العقل يدرك الوقائع بشكل أعراض تحدد سيرها ، واكراه القوي يظهر على جسم من هو أضعف منه أقل مما يتجلى على ارادته . ان التضامن لا يختبر كما تختبر الملهاة التي يتجمع أمامها الأفراد ولكنه يقابل باعتبار انه شرط أساسي للحياة المشتركة التي تفضل على الوحدة . فالعلاقات التي تنشأ بين الرجال تقوم على أفكار وآراء وعقائد متبادلة .

لا شك في أن حالة العقل لا بد أن تلائم — مع مرور الزمن — حالة الأشياء . فالتوازن يؤدي الى التسامح والتساهل . ولما كانت القوات المتعارضة لا تستطيع أن تقرر بعضها فانها حتماً ستحترم بعضها لأنها تعودت أن تستقل بنفسها . ان التضامن الموضوعي — الذي لا يخرج عن حد كونه تعاوناً متبادلاً ناشئاً عن تقسيم الوظائف — يؤدي الى التضامن العرضي الذي يؤثر على الضمائر . فليست المصالح وحدها هي التي تتقارب وتتدانى ، بل هي المشاعر التي تتجاذب ، واندماج المصالح الذي اعتاد التقريب بين النفوس . ان العيش المشترك جنباً الى جنب ، وتبادل الخدمات ، وتعاون الجهود والاتفاق القائم على تبادل الآراء ، هو الذي يحمل الرجال على الشعور — في كل آونة — بأنهم يكملون بعضهم ، وانهم جزء من كل لا يتجزأ ، وان سعادة كل منهم رهينة برفاهية المجموع . ان الرجال لا يدركون

الخدمات المشتركة التي يؤدونها لبعضهم بمناسبة كل عمل من أعمالهم ، فتكرار هذه الأعمال يولد شعوراً عميقاً مستديماً بنسبة حاجتهم الى بعضهم ، وينتهي بهم الحال الى أن يتمثلوا دائماً شخص غيرهم ماثلاً أمامهم . إن الميل الطبيعي يتولد عن الاحتكاك المتكرر وعن الانفعالات المتبادلة . وتبادل الخدمات يحدث امتزاجاً في العواطف وانسجاماً في المشاعر ، والانتماء الى نفس المجموع يوجد ـ ما يسمونه ـ عقل الجسم .

ولكن الأفكار التي تلهمها الاشياء والأشخاص الى عقل الرجل لا تظل سجينة في دماغه . فالكلام ، والكتابة عند اختراعها ، والتربية العائلية ، والتعليم عند انشائه ، والخطابة العامة ، والصحافة عند انتشارها ، كل هذه العوامل قد ساعدت الأفراد على انشاء العلاقات المستترة فيما بينهم وأخذت آراؤهم وعقائدهم تتناقل وتنادي بعضها أو تتضارب وتتأثر ببعضها . انها تتأثر بالاندماج وتصاب بنوع من التحريف يجعلها مختلفة عن الأفكار الفردية . انها تكتسب صفات جديدة . وكما ان التركيب الكيمائي يولد مشتقات تختلف صفاتها اختلافاً كلياً عن صفات الأصول التي اشتقت منها، كالماء مثلاً فانه يتميز ـ بصفات جديدة عن الهيدروجين والأوكسجين اللذين يشتق من امتزاجهما، كذلك الأفكار فان عملها المتبادل يحول من طبيعتها . لم تعد تلك الأفكار من صنع الأفراد مباشرةً ولكنها تنشأ عن تعاونهم . والأفكار الاجماعية ليست كلاً ولا حاصلاً ، ومن ذلك تتبين غرابتها بل ، ويمكن القول ، يتبين كيانها المستقل ذاتياً . لا شك في أن مركز هذه الأفكار هي الضمائر الفردية على انها مع ذلك تتجاوزها ، فبصفتها الاجماعية تعتبر غريبة عنها نوعاً ما : فهي في بعضها تأتي من الخارج ما دامت قد تأثرت بما يحيط بها . فاذا قسمت المجتمع الى أجزاء فانك لن تجد ، بضم أفكار الجميع ، نفس الأفكار التي كانت تشغل الأدمغة مجتمعة . واذا غيرت تركيب ذلك المجتمع ومداه أو كثافته فانك تغير في نفس الوقت أفكار أعضائه . وعلى ذلك يكون تكوين الأفكار الاجماعية من عمل المجموع الاجتماعي . وهذه الأفكار ـ بمجرد ظهورها ـ تحيا حياة خاصة مستقلة عن شرائع النفسية الفردية . إن التأثير الذي يحدثه بعضها على البعض الآخر ، اذا تكرر وتضاعف بعدد الأفراد الكبير ، يحدد عملاً هو في عنفه وشدته ، أشبه بكثير من عمل الوحدات الأولية اذا تجمع .

ما هو فحوى ذلك الضمير الاجماعي ؟ انه مؤلف من نوعي مبادىء : الاقتضاءات العملية والاعتقادات النظرية . ان الرجال يلاحظون أن الاحتفاظ بكيانهم مشتركاً يستلزم جمع بعض الاشتراطات . إنهم يدركون - على الأقل في شيء من الارتباك وبواسطة الاختبار - أن توازن القوات يجب احترامه وان التضامن يجب المحافظة عليه في المجموع تلك القواعد لا تهمل بغير عقاب : فكل مخالفة تجد رادعها في عواقبها .

على أن عقل الرجل يضطرب، لا من علاقاته بأمثاله فحسب ، ولكن أيضاً من صلاته بالعالم المحيط به : كالأمور الطبيعية التي يلاحظ وجودها ، والأمور الخارقة للطبيعة التي يتوقع حدوثها غير المنظور . انه يحاول أن يدرك عمل القوات الطبيعية باعتباره منتفعاً بها أو باعتباره ضحية لها ، إنه يرتبك من سر كيانه الأصلي ومسألة نهايته . ففي العصور الأولية كان الرجل لا يميز بين هذين العالمين ، بين المنظور وغير المنظور ، بين الروحاني والزماني . ان العقليـة القديمة كانت تقوم على « الكل يشترك في الكل » . وهكذا ليس هنـاك ما يدهش ، في أن سلسلتي المبادىء العملية . والمبادىء النظرية لم تؤلفا ، منذ البدء ، إلا قياساً واحداً لأفكار متضافرة لا يمكن التفريق بينهـا . وكما أن الأفكار تتأثر من دماغ الى آخر ، فانها كذلك تتحد وترتبط في عقل واحد . فهي غير مرتبة على انفصال ولكنها متجمعة في بناء أدبي تجمعاً دقيقاً . وكل فكرة جديدة لا تستطيع أن تجد لها مكاناً في هذا البناء الا اذا أزاحت قليلاً ، وأحياناً اذا اصطدمت بمجموع العقائد والمعارف المكتسبة مع احتمال الضغط عليها أيضاً . ان العقائد ، وخصوصاً من كانت ذات صبغة دينية في البدء ، قد ربطت بين مجموعة المعارف الاختيارية والنتائج العملية قد هذبت من جانبها الاعوجاجات التي كانت تؤدي اليها نتائج الاعتقادات وعواقبها . ان معنى الحياة - حسب تفسير المذاهب والفلسفة - وضروريات الحياة المستخلصة من الاحتكاك اليومي بالحقائق ، قد اندمجت بجسم من الأفكار التي تلهم الأعمال البشرية . ان سقوط الحق طبقاً للطقوس الدينيـة أو الحظر ، تتخذ أسساً للقواعد التي يستلزم وجودها كل تعاون وكل حيـاة مشتركة . أولم يفسروا الأوهية بأنها ليست سوى المجتمع الذي تجلى وبلغ حد الكمال ، والكائن الاجتماعي الذي سما على الكائن الفردي ، والحقيقة السامية التي لا تأمر بالاحترام فحسب بل تتطلب الحب

والعبادة . إن نفوذ مبادىء هذين النظامين كان عامًّا . فالعقائد الدينية والحقائق العلمية ، وسقوط الحق قضائيًّا أو أدبيًّا ، والطرائق الفنية أو الاصطلاحية كانت كلها خاضعة لقياس فكري واحد .

هكذا يتضح لنا ما كان عليه — في الأصل — المظهر الديني لقواعد الحق ، والصفة المقدسة للاجراءات التعسفية والاضطهادات التي كانت تتخذها السلطة الاجتماعية التي تمثل الارادة السماوية . فاذا كانت طقوس المراسيم الدينية قد ساعدت على منح القوة الاجبارية للارادات الخاصة ، فذلك يرجع الى أنه — عند اندماج المبادىء الأولية — كان كل شيء متماسكاً ، وكان الدين يسيطر على ما هو غير ديني ويساعده .

على أن مدى العلم قد اتسع . وقد وقف جهوده على تنويع وجهات النظر ، لا على التفريق بين الأفكار وتفكيكها ، بل على النظر إليها من جميع نواحيها وتمييز مظاهرها . فالعلم قد ساعد إذن على فصل المبادىء التي كانت في البدء مبهمة . ثم وجه عنايته الخاصة نحو المعارف الاختيارية ونجح في استخلاص الحقائق غير الذاتية والموضوعية .

يقيناً أن حصة جميع هـذه العوامل تختلف مع الزمن والتطور . فقد فقدَ الدين ، في كثير من البلاد ، صفته الرسمية ولجأ الى أعماق الضمائر ، وسقوط الحق شرعاً قد انفصل عن القواعد الدينية ، وأضحت الشريعة علمانية ، وتحررت الأخلاق من العقائد . وكذلك نشاط المهنة فانه قد تحرر عن نظام القواعد الضيقة . وفقـد حمل المجتمع على الفرد صفته الالزامية بتشعب العلاقات وامتزاجها المضطرد . وقد شادت الفلسفة بهذا التطور فاعترفت للافراد بالمكانة السامية بعد أن انتزعت تلك الصفة من نوع المجتمع الذي يطلق عليه اسم الدولة . ان الدور الذي يمثله الفرد ، بعد أن وضح بتمييز الوظائف وتنويعها ، يرفع من شأنه ويزيده استقلالاً في رأيه . فهو لم يعد ذلك الرجل المتواضع النحيل المرهق بسطوة المجتمع الذي يُعد فيه عضواً ضئيلاً مشابهاً لجميع الأعضاء الآخرين ، بل أصبح ذلك الرجل المطلق ذلك الرجل الذاتي الذي تحمي حقوقه اعترافات علنية صريحة تقرر بأن هذه الحقوق محترمة مقدسة لا تباح ولا تنتهك لها حرمة .

ومع ذلك فالمجتمع ، على الرغم من وصوله الى تلك الدرجة من التطور ، لا يزال يحتفظ

بتأثير عظيم على أعضائه . فاذا كان الاكراه المادي الذي يثقل عليهم قد قلّ وضعف ، فان تأثير العقول على بعضها يظل راجحاً : الافكار تتبادل وترتبط وتمتزج ، وأعمال الأفراد ومقاومتهم المستمرة للمجموع وأعمال المجموع ومقاومته للأفراد — أو العلة والمعلول للموافقة الاجتماعية — لا تترك الا مجالاً محدوداً للتدخل الفردي . فما هو نصيب المخترع ونصيب المجتمع من كل اختراع ؟ ليس أصعب من تحديد ذلك ، على أنه لا شك في أن نصيب المجتمع هو الأوفر .

على أن المعاصرين لا يتأثرون وحدهم من بعضهم فهناك أيضاً السلالات المتعاقبة فانها تؤثر على بعضها بأن تخلف لها الكنوز التي انتزعت من الطبيعة وتراكمت شيئاً فشيئاً . لقد ارتفع الرجل وسما على الحيوان بفضل التقاليد التي حافظ عليها ، ثم أضافه اليها وأورثها خلفه ، إن حصة كل سلالة في تكوين العلم البشري ضئيلة بالنسبة للعلم الذي خلفته السلالات السابقة . فاذا كان مجموع المعارف التي يحصل عليها كل فرد بمجرد اختياره الذاتي يفنى معه ، فلا شك في أن الرجل يظل راكداً يتخبط في أشد دياجير الظلمة والشقاء . ولكن اللغة التي ينطق بها واللغة التي يكتب بها ونمو الذاكرة الفردية بالمران ، وتكوين الذاكرة الاجتماعية بالتقليد ، وايجاد محفوظات علمية بفضل المخطوطات ثم بفضل الطباعة ، كل ذلك قد ساعد على نشر المبادىء المكتسبة بين الرجال في جميع العصور ونقلها من الماضي الى المستقبل . ان العمل المشترك قد تعاقب بغير توقف خلال الزمن والفضاء بفضل التعاون . إنهم يلاحظون أحياناً الاختلاف البيّن في الآراء عند كثير من الاتباع . ولكن اجماع العقائد على أغلب النقط يظل مستتراً لأن المسائل التي تحدث الانقسام تثير المناقضات الحادة المتشعبة : إن الاجماع على الموافقة لا يحتاج — بالعكس — إلا للصمت . من لا يقول كلمة يوافق . ان المعلومات العلمية الثابتة ثبوتاً تامّاً ، والاختبار العملي المتراكم ، يؤلفان مجموعة مبادىء واسعة تمتد الى ما لا نهاية له . فتتألف هكذا طائفة من المشاعر والأفكار لا تعتبر أطوارها المتعاقبة إلا لحظات من حياة اجتماعية مستمرة ، « إن الانسانية تتألف من أصوات أكثر من الاحياء » ، وأفكارهم وعقائدهم تخلد في عقول خلفهم ، إن إرادتهم الميتة تتسلط على الارادات الحية وتتحكم فيها .

وهكذا يدرك المجتمع حالته والحالة الخارجية كما يدرك تركيبه الذاتي والوسط الذي يتطور فيه . ويلاحظ بواسطة تقلبات أعضائه ومعاملاتهم لبعضهم ، مقدار توازنهم وتضامنهم . كما أنه يشعر بواسطة تقلبات مجموعة الأعضاء ، بتأثير العوامل الخارجية إلى أي حد يخضع للوسط . ان أعضاءه يتآلفون مع بعضهم والمجموع يتآلف مع الجو المحيط به وهكذا يتحقق التوازن بشروط وجوده أي بين القوات الداخلية والقوات الخارجية التي تعمل فيه وتؤثر عليه . إن النظام الخارجي مرتبط بالنظام الداخلي برباط متين هو إدراك المجتمع لحالته وحالة العالم إدراكاً يزداد تحسناً آناً بعد آن . إن شروط وجوده التي تتخذ صفة التضامن تؤدي الى وضع القواعد الثابتة المستديمة ، أما القواعد العرضية الطارئة فانها تكون عرضة للظلم والاستبداد ولكن مع تقرير النتائج . أما المنشقون الذين يرغبون في التجاوز عن العقد والخروج على سيطرة المعاهد المؤسسة على العقائد الاجتماعية فانهم يعودون الى حظيرتهم بتأثير الاستنكار الذي تثيره محاولاتهم وعند الحاجة بفعل القوة المادية التي تتمتع بها الجماعة .

ولكن جميع هذه الأفكار . المحصورة في العقول ، تقارم بعضها بعضاً وتحدث في الرجال تأثيراً قاطعاً بواسطة الشغب الذي يثيره الرأي العام أو بواسطة نداء النفوس الصامت ، وتتخذ صفة إجبارية . إن هذه العقائد خارجة عن الفرد لأنها إجماعية . وهي سابقة له لأنها كانت موجودة قبله في عقول الرجال . وهي لاحقة له لأنها ستظل بعد موته وتخلفه في المجتمع الذي يدوم أكثر منه . وإذن فتلك العقائد ، وتلك القواعد هي أسمى من الفرد الذي تُفرض عليه . ولما كان هذا الفرد لا يستطيع أن يغيرها أو يبدلها فانه مكره على إطاعتها . والى جانب ذلك فانها تتمتع بسلطة مزدوجة : سلطة القوة وسلطة الكمال ، لأنها ترغم الفرد وتخضعه وتتجاوزه ولأن لها صفة إجبارية كما أن لها قيمة لا يمكن قياسها بغيرها .

لقد طالما لاحظوا أن عدداً من الأفراد اذا اجتمعوا عفواً فان اجتماعهم يمتاز بالهياج والحماس . انهم يمقتون الشك ويرتابون بروح النقد وقل أن يشعروا بالمصلحة أو يستسلموا للعقل . إن البخيل يصبح مبذراً بتحريض جيرانه وتعضيدهم له ، والمتشكك يتأثر بجاذبية

الايمان ، والجبان يشعر بالشجاعة . إن الفرد في وسط المجموع يتنازل عن مصالحه بأبخس ثمن بل ويقبل أن يضحي بحياته مسروراً في سبيل المثل الأعلى الذي كانت فرائصه ترتعد فرقاً أمامه لو قدر له أن يكون وحيداً . وزيادة على ذلك فانه يسمو بنفسه إلى أعلا مكانة تحت تأثير الحمية والحماس .

وهكذا يمكن ادراك تأثير الجماعة على الأفكار البشرية بفضل مقاومة الأفراد لبعضهم وبفضل تأثير الجماعة على الفردية . فمن تجمع الرجال تتولد قوة خاصة . فاذا كان كل واحد يشعر بأنه تحت سلطة المثل الأعلى « فذلك لأنه لا يوجد شخص واحد يستطيع أن يخلقه بمفرده . فلا بد لذلك من مولـد الحرارة الذي يتألف من تقريب الضمائر » .

هنا يتضح تأثير الإحساس على الفكرة . فالفكرة قبل أن تنتشر في أنحاء العقل تكون قد مرت بالشعور الوجداني واحتفظت باختلاجاته التي تنمو وتتكاثر باحتكاك الرجال ببعضهم .

فاذا كانت مجموعة مضطربة غير منتظمة قد التقت عفواً وتبددت سريعاً تشعر نحو مؤلفيها بتلك الفضيلة السامية فلا شك في أن الجماعات الثابتة المنظمة تؤثر تأثيراً عظيماً على أعضائها الذين يستطيعون بدورهم العمل والتأثير على بعضهم طويلاً وتعديل حالتهم مدفوعين بنفس العوامل النفسية . إن الشرف والمجد هما ثمن أعمال البطولة السامية عن الأغراض التي ينتفع بها المجتمع بأسره . إنهما يشيدان بشعور حب الغير ويزجران الأنانية الطبيعية ، ويبدلان الطاعة المعقولة المنتظمة بالزهد والتضحية التامة في سبيل المجتمعات . وتتجاوز تلك المشاعر كل ذلك الى حد النشوة بالتضحية والظمأ الى الاستشهاد . ويتلاشى كل اعتبار المصلحة والمجد . ويكفي الشعور بالواجب وحده لإثارة أنبل العواطف وأسمى الأعمال وكذلك لاحترام الاوامر الثابتة التي تدعو الجماعة الى المحافظة عليها والعمل بها : تمالك النفس ، وحب النظام ، والنشاط في العمل والشجاعة العسكرية .

ليست الغاية التي يحددها المثل الأعلى الاجتماعي قاصرة على المصلحة المادية وبنوع ما اقتصادية . ان الحياة المشتركة تخلف آثاراً نفسية تعتبر إرثاً مشاعاً بين جميع المشتركين فيها : اللغة والآداب والفنون والفتوحات العلمية وقياس الأفكار ، وجميع أوضاع الفكرة

والاحساس وكلها تعتبر من وسائل مواصلات العقول والأرواح في الفضاء وفي الزمن، وكذلك كل ما يربطنا بالسلالات السالفة التي ندين لها بها، وكل ما يقيدنا بأمثالنا الذين نقتسمها معهم، وكل ما يسمح لنا بالاتصال بأعقابنا الذين نورثها لهم. وهذا الميراث الأدبي يضاف الى الميراث الذي وضعت حراسته في ذمة الوطنية فكانت أول مهمة عهد بها إليها. كانت الوطنية في بادىء الأمر قاصرة على الدفاع عن الزراعة والأغنام، ثم انتقلت مهمتها الى الدفاع عن الأرض المشاعة بين أعضاء العشيرة والأشخاص وآلهة القبيلة أو المدينة، فهي إذن عبادة الذكريات المشتركة والآمال المشتركة، والأفكار التي تشترك فيها الأمة بأسرها. هذه الكفاءات التي لا تتجزأ لا يمكن أن تحتفظ بنفسها وتنمو إلا في المجتمع. فوضعت لنفسها نظام المناصب والدرجات. فهذا النظام الذي يمنحه المجتمع — بمداه ومدته — صفة غير شخصية يتجاوز الأفراد ويُعد أساساً للنظام الاجتماعي وأساساً للنظام الخلاق للسلم.

بل خيرٌ من ذلك. ان تلك الكفاءات الروحية ترمي الى تجاوز الحدود. فكما أن المبادلات المادية تتكاثر بواسطة الوسائل التجارية الخارجية التي تزداد نمواً، هكذا تفعل الأفكار، فانها تنتشر وتمر من الحواجز الجمركية بغير رسوم وتجتاز المراكز العسكرية بغير جواز مرور، ثم بفضل التجرد الكلي والتخلي عن الصفات الذاتية لا تقف المدارك إلاّ عند ما هو إنساني وقابل للانتشار والتعميم، وبطريق التشبه تبدي استعدادها الى نشر الوسائل الخاصة بالعلاقات الداخلية والى وضع قانون دولي تبدأ فكرته المبهمة بالتغلغل في الضمير الاجتماعي للشعوب المتمدينة ولا تزال تؤثر فيه بواسطة الرأي العالمي.

قد يكون هذا « السبق » هو ما كان يتوقعه فلاسفة العصور السالفة عندما شادوا الحق على أساس العقل. كان سقراط يدلل بالشرائع غير المكتوبة الأزلية العامة التي تمتاز على الشرائع المتقلبة في المدن والدول. أما أفلاطون وقيقرون فان القانون لم يكن في نظرهما إلاّ الأمر الآدمي الذي لا ينتهك الصادر عن العقل وليس عمل الرجال التعسفي المستبد. وهذا هو أيضاً رأي مونتسكيو عندما وضع القاعدة المشهورة: إن الشرائع هي العلاقات اللازمة الناتجة عن طبيعة الأشياء. أما في نظر جروسيوس فالحق هو كل ما يلائم الطبيعة

المعقولة. وفي نظر « كانت » كل عمل يكون عادلاً إذا أمكن تعميم المبدأ وجعله قاعدة عامة .

أما في نظر « أوجست كونت » فان ضغط النظام الخارجي المستمر الذي يدركه الفهم ويفسره ، يولد النظام في عقولنا ثم في مشاعرنا وفي النهاية في أعمالنا . إنه يفرض ، لضروريات الحياة ، نظاماً عرضياً لا يلبث أن يصبح واقعياً بالاندماج المعقول والاتفاق الضروري بين مداركنا وملاحظاتنا . ان القواعد التي تنشأ عن حاجات العمل لا تحتمل فقط ولكنها تشتهى وتطلب ، فتنال موافقة المدارك والارادات . إن الشرائع الطبيعية عندما تتغلغل في الضمير الاجماعي فانها تتدخل في الشرائع البشرية .

***

كيف تدخل هذه الأفكار الاجماعية في الحق ؟ إنها في بادىء الأمر ترشد القبائل والدول في قيادة الحروب وتوقيع المعاهدات ، إن السعي وراء الحصول على مساعدة القوات المظلمة التي تؤثر على مصير الأشياء البشرية ليس غريباً على الطريقة التي يعامل بها المقاتلون أعداءهم . إننا نقرأ في التوراة ان الشعب اليهودي قد عقد اتفاقاً مع يهوا ، إله الجيوش الذي ضمن له الغلبة على أعدائه مقابل عبادته بأمانة وإخلاص . إن المحارب الاسرائيلي الذي يحمل السلاح يخضع لمراسيم حفلات طائفية خاصة بتلك المهمة الدينية التي تنتهي بحفلة مشابهة في نهاية الحرب . أما معاهدات الصلح فان احترامها مكفول بيمين يضعهم تحت الحماية الالهية التي كانت لا تُستعدى عبثاً . ان تدخل الكهنة في العصور الأولى لروما يُدخل ، في استعمال الحروب ، أولى مبادىء القانون الدولي .

على أن تأثير الأفكار الاجماعية ضعيف في العلاقات الخارجية لأن العدو غريب عن القياس الاخلاقي والأدبي الذى يستوحيه من يحاربه أو من يفاوضه . وإذن فالتأثير يظل من ناحية واحدة . على أن الأمر على نقيض ذلك في جماعة منظمة ، إن اندماج الأفكار والمشاعر يوجد انسجاماً معيناً . فأصحاب العلاقات على استعداد سابق للتوفيق بين أغراضهم المتناقضة وتحديد حقوقهم طبقاً لمبادىء معروفة من الطرفين . وهكذا تقرر العادة بسهوله وتقل المعارضة. إن فض النزاع يقبل عن طيبة خاطر من الطرفين المتنازعين عندما يشعران حولها أن فضّ النزاع ينال موافقة الشعور العام الذي يشتركان فيه أيضاً . ان الضغط الذي يقع

من الرأي المنتشر يحدث عند الأفراد تأثيراً كتأثير الاكراه الذي يصعب عليهم التحرر منه . إن تكرار القرارات المتشابهة ، وهو من عمل الضمير الاجماعي ، يعززه بدوره مع ايضاحه كما أنه يؤيده . من ذلك نشأت سلطة العادة ونفوذها وما هي إلا تجلي الضمير الاجماعي الذي تعبر عنه الكتلة الاجتماعية بجميع أجزائها ومن أعماقها .

إن تخصيص الأعمال من نتائج النظام الاجتماعي . ثم لاتلبث الوظيفة القضائية أن تباشر عملها بواسطة قضاة منتخبين أو معينين ، وقتيين محترفين أو وارثين . فالقاضي عند نظر القضية ينطق بالقانون وهكذا يضعه. فهو العنصر العامل للعادة وما العادة الا القاعدة التي تطبقها الأحكام . ولكن تلك القاعدة غير المدونة توجد في مخيلة القاضي : ان مقارنة أحكامه ببعضها تبرزها وتوضحها . فالعادة هي التشريع قبل القانون . ولكن أين يجد القاضي القاعدة التي يطبقها ؟ انه يجدها في الضمير الاجماعي وفي الجو الذي يستنشقه . انه يعبر عن أفكار ومشاعر الوسط الذي يعيش بين ظهرانيه وناحيته وبلده . فهو ككل معاصريه ومواطنيه يشعر بها بشدة وعنف فما ان أختير لأداء المهمة القضائية حتى أبداها بكل وضوح وحدد دائرتها وقرر قوتها واتجاهها . إنه أكثر استعداداً وخبرة من غيره ، ولذلك فهو أجدر من المتقاضين على النص — من فوق منصته — عن الحق المستتر والحق الذي يقرر في كل يوم ويوطد بازدياد العلاقات البشرية ونموها .

والى جانب القاضي ، ثم فوقه ، تعمل سلطة أخرى على إيجاد القانون . فهناك رئيس الدولة . ثم — فيما بعد — الجمعيات البرلمانية ، فهم يضعون القواعد العامة المعدة لادارة نشاط الأفراد واستغلاله . فاذا كان القضاة مكلفين بضمان التطبيقات الفردية فليست لهم السلطة لتغيير النص . وهنا تظهر المهمة التشريعية : يجلس القانون الى جانب العادة ثم لا يلبث أن يطالب بالحلول محلها قطعاً . ان المشرعين الذين أجلستهم وظائفهم على رأس الدولة يقفون في وسط البحث وعند نقطة التقاء جميع الأفكار الاجماعية . فلا يوجد خير منهم من يستطيع في وقت واحد أن يرى ضروريات الحكومة العملية ويميز الصوت الذي يصدر من اعماق الضمير الاجماعي . ان مهمتهم هي في التوفيق بين ميولهم ، وأحياناً تكون تلك الميول متشعبة ، وحصر القاعدة في صيغة واضحة أكيدة . وحيث أن مصدر القانون

واحد فانه ـ بفضل صفاء مادته وجرأتها ـ يتعارض مع جدل الشريعة ، واعوجاج العادة واتجاه التطبيق المتردد . إن القضاة يعطون للحق أسمى مظاهره إذ انهم أنسب وأفضل الأعضاء وأكثرهم خبرة وتخصصاً وأقدرهم على ملء وظائفهم .

ولكن هل يمكنهم أن يفرضوا عليه وضعه النهائي أو يدعوا ذلك ؟ وهل نيتهم ـ التي تتجلى في القانون ـ تأمر باحترام هذا القانون ما دام لم ينسخ تماماً حتى اذا كانت الظروف قد تغيرت منذ نشره ؟ شيء من ذلك لن يكون . إن القاعدة التي يقررها المشرعون تفقد تبعيتها لهم بمجرد صدورها وتدخل في دائرة القياس القانوني الفسيحة وهي في حد ذاتها إحدى أصوله . إنها تندمج بالقوانين القديمة التي تقوم مع التشريع الذي يفسرها . عند احتكاك هذه الوقائع يتطور كل هذا المجموع ليتناسب مع الظروف الجديدة ، فيتحول المجتمع ، وتتعدل الهيئات ، وتجدد طرق الانتاج والبدل ، ويقرر التعاون بين رأس المال والعمل بشكل لم يسبق له مثيل . فكيف يظل القانون ثابتاً لا يتغير ؟ بل كيف يستطيع أن يتبع هذه الحركة المستديمة ؟

* * *

إن مسألة العلاقات بين الرجال تتخذ في كل لحظة مظاهر غير منتظرة . فجهاز القانون العظيم وبطء تكوينه ، يحتمان عليه البقاء في حالة جمود نسبية في وسط يتغير كل ما فيه بلا انقطاع . ومن حسن الحظ أن الضمير الاجتماعي يحافظ على وسائل تعبيره الأولى : العادات التجارية أو المتعلقة بالحرف ، وتشريع المحاكم ، تساعد عند الحاجة على مواجهة الحاجات الجديدة الناشئة عن الممارسة والمدارك الجديدة التي تسيطر في المجتمع . فهي تتمم القانون أو تكسبه ليونة إذ تتظاهر بتفسيره ، متخفية بقدر المستطاع وراء نية المشرع وغرضه ثم تنفذ أغراضها التجديدية بجرأة عند ما يحتك القانون المتلاشي بالشعور العام مباشرة . ولا يستطيع القانون إلاّ أن يؤيد تلك الرواسب القضائية بضمها الى حظيرته .

فهنالك إذن وحدة في الأصل ونوع من التآلف الطبيعي بين التطبيق والعادة والتشريع والقانون وتلك هي الوسائل المنوعة التي يتجلى فيها الضمير الاجتماعي ، وهي لا تتميز إلاّ

بطرق انشائها . فالأولى من وضع مجموعة الأعضاء التي حافظت على كفاءتهـا التامة في أداء جميع نواحي نشاط المجموع . والآخر من وضع الأعضاء المتخصصين .

* * *

وهكذا فاننا نشاهد حركة تدعيم داخلي للقانون . ففي البدء كان لا يتألف إلا من حركة القوات الخارجيـة ضد بعضها فقد كانت هـذه القوات — في تنافسها المستمر السريع — تلتقي ببعضها وجهـاً لوجه وتتطاحن وبذلك تحدد بعضها بعضاً وتعترف ببعضهـا ما دامت لا تستطيع القضاء عليها .

ولـكن تلك القوات التي توازنت هكذا وألفت مقاييس ثابتة ، لا تلبث أن تستجمع قواها بفعل المناوشات المحيطة التي تقع في ظروف خاصـة للحد من المنافسة بفضل تقسيم العمل ، وتصبح مع الوقت متضامنة وتعترف لبعضها بمصالح متشابهة وتدمج شخصيتها في وحدة عضوية تنظم نشاطها وتديره قواعد داخلية . مثل هذه الظاهرة تتجلى في المجموعات البشرية التي تبدأ بأن تكون منسجمة كثيفة ثم تتفرق وإذ ذاك تضطر بواسطة مجموعة من الاجراءات إلى تحديد اتفاق الحركات الفردية ثم انسجامها .

وفي النهاية ينتهي الأمر بتلك القاعدة ـ الخارجية بالنظر إلى القـانون الآلي والداخلية بالنظر إلى القانون العضوي ـ إلى التغلغل في اعماق الضمائر الفردية التي تتوق الى التحسن والكمال وتقبل بأنفة وشمم ان تحافظ على القانون الأخـلاقي والكمالي محافظة تامة . ليست العدالة فكرة أولية بل هي نهاية تطور وهي تهذيب القوات المستوحشة تهذيباً مضطرداً .

فالقوات التي تتوازن ، والمصلحة المشتركة التي تربطها ، والعقل الذي ينيرها ، والمثل الأعلى الذي يسيطر عليهـا ، تلك هي العناصر التي يتألف منها الحق ولن يكون هذا الحق كاملاً إذا جمعها كلهـا . ومع ذلك فالمثـل الأعلى الزائل يترك وراءه نوعاً من الحق الخشن في وسط جو رطب صقيع . والعـقل المحجوب ينزع عن الحق دقتـه وليونته ولـكنه لا ينزع عنه قوته وصولته ، وزوال كل مصلحة مشتركة يخلف قوات متوازنة تقف وجهاً لوجه فتصلح من شئون بعضها وتستقل . وفيما عدا ذلك كله تتحكم القوة الغاشمة الهوائية .

لـكل بحسب قواته ، تلك هي صيحة الحرب التي تصدر عن الحق الخارجي ، ولـكل

بحسب أعماله، تلك هي كلمة النظام التي ينادي بها الحق العضوي، ولكل بحسب حاجاته، ذلك هو المثل الأعلى للحق الذي يستمد وحيه من الادراك العقلي للرجل. إن التشريع الواقعي، وإن لم يقتصر على التسليم باحدى هذه المدارك فانه لا يقصي أي واحد منها ويفسح لكل واحد منها مجالاً: فأقوى هذه المدارك وأصلحها وأفضلها يمكنه أن يطمع في مساعدته وتعضيده. ولكن عند ما يزداد المجتمع مساحة وكثافة واندماجاً، فانه يزداد سيطرة على الأفراد وهكذا تتلاشى قوة الرجال المنعزلين أو الجماعات الجزئية، أمام قوة الحق الاجتماعية التي تحمي حرية الجميع وتحافظ عليها متساوية. إن تطور الحق في نظام اجتماعي راق يرمي الى هذه النتيجة. وإذا نحن لاحظنا أن مثل هذا الأمر بعيد الحدوث في العلاقات الدولية فذلك لأن دول جميع القارات لم تدخل في شكل نظام محدود، ولا يكفي حضها على الاتحاد والاتفاق لاهدائها الى هذا السبيل القويم. فلا بدَّ لها أيضاً أن تدرك قيمة روابط التضامن التي تربطها. إن التاريخ عبارة عن نظام اندماج يحشد في دائرته، وبحركة واسعة النطاق، أكبر عدد ممكن من الأفراد. فالحاجة الملحة تدفع الدائرة الاجتماعية، أيًّا كانت، إلى التوسع حتماً وجمعية الأمم تعتبر شيئاً أسمى من الأمل.

ولكن لا فائدة في تعجيل هذا التطور في غير أوانه. فتلك مهمة دقيقة للغاية تتطلب من رجال الحكومة ادراكاً دقيقاً لأساليب السياسة أكثر من قيادة الشعوب نحو هذا المثل الأعلى بدون تعريض توازن القوات إذ لو اختلَّ هذا التوازن فإنه قد يؤدي الى كارثة يحسن حتماً تلافي وقوعها. إن في المطالبة بالسلام قبل كل شيء دعوة الى الحرب في أغلب الأحيان. فأيدي دعاة السلم كثيراً ما تكون مخضبة بالدم اكثر من قبضة المحاربين.

ففي القانون يمتزج التضامن الاجتماعي والقوات الفردية بكميات مختلفة. ولكي يترك للأول مكان يزداد اتساعاً مع مضي الزمن فانه يجدر بنا ألاَّ نسند مهمة حل القوات وجمعها إلاَّ إلى أيدٍ حريصة تعرف كيف تدرأ عنا النتائج الفتاكة.

الديموقراطية
مسيرها ومصيرها

Democracy, Its Course and Tendency

بحث اجتماعي سياسي اقتصادي أخلاقي

تأليف

نقولا الحداد

مطبعة المقتطف والمقطم

١٩٥٠

تمهيد

مبادىء أولية

١ — دائرة الحرية مولد الديموقراطية

لا يفطن ذو العقل الى الشيء إلاّ اذا شعر بحاجته إليه . وقد يجهل وجوده اذا لم يكن إليه محتاجاً .

الوحش الضاري لا يدري أنه مطلق الحرية لأنه لا يجد ما يصده عن فرائسه . ولكن الثعلب يشعر بأن له حرية محدودة ، لأن هناك أسداً ينازعه فريسته . يشعر هذا الشعور بدليل حذره . فالأسد إذن يحد حريته .

كذلك الهمجي العائش وحده في الوعر أو في الغابة لا يفطن الى الحرية ولا يفهم معناها ، لأنه لا يصادف أفراداً من نوعه يعترضونه في سبيله ، أو يمنعونه من الارتزاق من محلته ، أو يسابقونه الى صيده ، أو يغتصبون منه صيده

فهذا ، كالأسد مطلق الحرية ، أو لا حدود لحريته ، اللهمّ إلاّ الطبيعة، كالجبل والنهر والبحر ، والصحراء ، والقيظ ، والجدب ، والحر ، والقرّ الخ . ولكن متى اجتمع أكثر من شخص واحد في بيئةٍ واحدةٍ وتوخّوا أن يعيشوا معاً بسلام، طفقت الحرية تتحدد بحدود . وإلاّ نفى الأقوى فيهم الآخرين ، وعاد أعزل يعيش وحده مطلق الحرية بلا قيد.

الغالب أن الأقوى لا يستطيع أن ينفي الآخرين من بيئته لأسباب ترجع الى اثنين رئيسيين : اما لأنهم يتألبون بعضهم على بعض فيحدث شجارٌ بينهم يحرمهم هناءة العيش . أو لأنهم لا يستغنون عن تعاونهم بعضهم لبعض . ولذلك يضطرون أن يذعنوا لتحديد حرياتهم بحكم طبيعة الحال من غير تفاهم صريح فيما بينهم

للتبسط في هذا البحث نفرض أن الجماعة الأولى التي تصوّرناها في التمثيل الآنف

تقاسمت الناحية فيما بينها، فاقتصرت حرية كل واحد على الجولان والعمل في بقعة أرضه . فحدود بقعته اذن هي حدود حريته .

ولنفرض أن واحداً منهم طغى على بقعة غيره يبتغي جنًى منها أو استغلالاً . فهو إذن معتدٍ على حرية غيره . وإذا لم يستطع هذا الغير أن يكفّه ، بل اضطرّ أن يذعن أو يخضع ويسلم له بما اغتصبه من حريته ، أو أن الاثنين تراضيا على هذا ، عُدّ الأوّل الطاغي أوسع حرية من الآخر .

يمكننا أن نعد هذا التفاوت في سعة الحرية حقّاً ما دام الإثنان متراضيين على هذا التعاون ، إما لأنه أصبح مفهوماً ضمناً فيما بينهما أن الحق جزاء للقوة ، ولهذا يعادلها ، أو لأنهما لا يعتبران مصدراً للحق إلاّ القوة .

ولنفرض أن الأقوى في الجماعة تزعّم الجماعة وسيطر عليها وتولّى العدالة والأمن والسلم فيها . ولقاء هذا النظام السياسي الذي استأثر به وسّع حدود حريته ، فحينئذٍ لا بدّ أن تضيق حرية الجماعة بقدر توسع حريته حتماً ، إذ لا يمكن أن تمتد حدود حريته الى غير حدود حرية الجماعة ، فتتسع حريته جداً على حساب سعة حرية الجماعة .

بطبيعة الحال إذن ، كلما اتسعت دائرة حريته ضاقت حرية الجماعة وشعرت الجماعة بوطأة ضغطه عليها .

هذه الحال، انضغاط حيوية الجماعة باتساع حرية المسيطر، هي ما يسمونه استبداداً . ووطأة الضغط هي المسماة ظلماً وجوراً . وكلما كان الحاكم مطلق الحرية كان المحكومون قليلي الحرية وكان وقع الظلم عليهم أشد .

قد يلوح لك أن تحجنا بهذا القول : — « اذا كان لا بدّ من نظام لحفظ الأمن والعدالة والسلام للجماعة فلا بدّ من منظم ، أو من حافظ للنظام ،وهو المسيطر بعينه (أي الحاكم) ولا يمكن الحاكم أن يسيطر إلاّ اذا كانت له حرية ليست لكل فرد من الجماعة . أي يجب أن يكون أوسع حرية من الجماعة لكي يستطيع السيطرة وحفظ النظام . فإذن النظام يلد استبداداً بلا محالة . وإذا لم يكن بدّ من الاستبداد لحفظ النظام فلماذا نحسبه آفة المجتمع ؟ فأين مصدر هذه الآفة وكيف يمكن تلافيها ؟ »

والجواب :

لا مشاحة في أن النظام يقرّر حدود أفراد الجماعة . والنظام العادل يجعل هذه الحدود متساوية أو مكافئة للاهليات النافعة للجماعة . ولكن النظام لا يختلس شيئاً من حرية الأفراد المحدّدة البتة ، ولا يجعلها أضيق مما يجب أن تكون . فإذا شعر فرد من الأفراد ، حاكماً كان أو محكوماً ، في هذه الحالة ، إن حريته ضيقة أو انه مقيدُ الحرية بلا مبرّر فلأن طمعه يخدعه . يريد أن يوسع حريته على حساب حرية سواه ، فيمنعه النظام العام ، فيظن أن حريتـه مقيدة . فاذا كان حظه من نعمة الحرية تحت راية النظام العادل كحظ غيره فشكواه من قيود حريته كفرٌ بالنعمة . فاذا أصرّ على التمتع بحرية أوسع فليخرج من دائرة الجماعة وليعتزل في الجبل أو في الصحراء أو في القفر

وحاصل القول أن النظام يحافظ على حدود حريات الأفراد كما تحدّدت بالتساوي والتكافؤ بين الأهليات النافعة . ولكنه لا يلد استبداداً .

وإنما الاستبداد الذي لحظه المحتج آنفاً ليس استبداد النظام ، بل هو استبداد القائم بالنظام — استبداد المسيطر باسم النظام ، أو بصولجان النظام ، أو بسيف النظام . ذلك المسيطر هو الذي اختلس من حرية الأفراد ما استطاع لكي يوسع من حريته ويستغلها لنفسه . ذلك منشأ الاستبداد . وهذا هو المستبد . وهنا آفة الظلم التي يشكو منها المحكومون .

٢ — تصادم الاستبداد بالجماعة

إذا استفحل الاستبداد بحث المنكوبون به عن مصدره أولاً . ثم عن حقانيته ثانياً . ثم عن وسيلة لقطع دابره ثالثاً .

فأولاً : في بحثهم عن مصدره لم يجدوا له مصدراً الاّ استحكام المسيطر (الحاكم) وتمكن قبضته بأعناق الجماعة ، ولكن بأية واسطة ؟ بواسطة قوة الجماعة نفسها ، وبواسطة النظام الذي تواطأ عليه أفراد الجماعة ضمناً ، أي تواطؤ غير صريح . فهو بوثاق هذا النظام يوثق الجماعة ويقيدها . وبقوّة الجماعة المودعة في هذا النظام يستبد بها . فصدر الاستبداد طمع المسيطر ، لا ضعفُ النظام ، واستئثاره بزمام قوة الجماعة لكي يستخدمها لمصلحته .

وثانياً : في بحثهم عن حقانية الاستبداد لم يجدوا له مبرّراً عمليّـا إلاّ القوّة . أي انه يعادل القوة التي أصدرته . ولـكن مهما تفلسفوا نظريّـا في تبرير « الحق للقوة » لا يمكن أن يجدوا أنه جزاء مستحق للقوّة . القوّة تسـتحق السيطرة ، تستحق الحرص على تولي النظام . ولـكنها لا تستحق أن تبرّر لنفسها ظلم الجماعة . لو كانت هذه القوّة ذاتية بحتة كقوة الأسد أو النسر لاستحقت الفريسة . ولـكنها بالحقيقـة قوّة الجماعة نفسها مدمجة في وحدة النظام . والنظام مودع في يد المسيطر . والقصد من وضعهما هناك استخدامهما لمصلحة الجماعة . فإذن لا يمكن أن يكون اسـتعمالهما للاستبداد والظلم كجزاء لها . وإذن استبداد المسيطر ليس حقـاً له لا عمليّـا ولا نظريّـا .

وثالثاً : في بحثهم عن الوسيلة لقطع دابر هـذا الاستبداد لم يجدوا إلاّ قلب ذلك المسيطر المستبد عن كرسي السيطرة،ورد زمام النظام والقوّة المودعة فيه الى الجماعة نفسها ، لـكي تختار من تشاء أن توليه هـذا الزمام ، ومتى تشاء . لأنه اذا كان زمام السيطرة في يد الجماعة نفسها فلا يبقى ثمت خوف من استبداد السيطرة ، لأن الجماعة لا تستبد بنفسها .

هذا هو منشأ النظرية الديموقراطية . وعلى هذا المبدأ قامت الجماعات منذ القرن الثامن عشر تسترد زمام السيطرة من الحكام الذين أساؤوا استعمالها

وبناءً على هـذا المبدإ : — حيث يوجد استبداد وظلم كان وجودهما دليلاً على أن هناك يداً أو أيادي مستأثرة بزمام السيطرة ومستحكمة برقاب العباد ، مهما كان الحـكم في ظاهره ديموقراطيّـا

يفهم مما تقدم :

أولاً : أن الديموقراطية هي أن تكون ادارة احكام الجماعة ملـكاً للجماعة وزمامها في أيديهم يؤمـنون عليه شخصاً (أو أشخاصاً) الى أجل ، أو الى أن يسيء استعمال هذه الادارة ،فينزعون زمامها من يده،ويؤمـنون عليها شخصاً آخر أميناً

ثانياً : ان امتلاك الجماعة لادارة أحكامهم بحيث يتسنى لهم أن يؤمـنوا عليهـا من يشاؤون ، يستلزم أن تكون لهم حريتهم التامّـة كما حدّدناها آنفاً . وإلاّ فديموقراطيتهم مزيفة ،أو أنهم فاقدوها فقداً تامّـا .

فالحرية اذن هي روح الديموقراطية .

وقد أشرنا آنفاً الى أن للحرية حدوداً . ولكننا لم نتبسط بهذه الحدود لكي نعلم ما هي . فنبحث فيها فيما يلي : —

حرية الجماعة انما هي مجموعة حريات الأفراد مندمجة . وهناك اعتبارات أخرى لوجود حرية للجماعة كوحدة قائمة بذاتها ليست لكل فرد ، كحرية الرأي العام، وستبدو في خلال الفصول التالية .

للفرد ٣ حريات رئيسية نتبسط فيها فيما يلي . وهي :

١ — حرية الفكر ٢ — حرية القول ٣ — حرية العمل .

١ — حرية الفكر

قد يستهجن القارىء العادي جعلنا « حرية الفكر » موضوعاً للبحث ، لأنه يرى بديهيًّا أن الانسان مطلق الحرية فيما يفتكر فيه . حقيقي أن الانسان حرٌّ في أن يفكر فيما يشاء . ولكننا سنرى في سياق هذا البحث أن الانسان ليس حرًّا في مشيئته هذه ! بل سنرى حدود مشيئته ضيقة جدًّا ، فما شاء التفكير في شيء إلاّ لأن هذا الشيء طبع في ذهنه — فهناك عوامل مختلفة طبعت في ذهنه منذ حداثته حتى آخر ساعة من حياته مواد خاصة لتفكيره . وهذه العوامل فاعلة فيه وفي بيئته الطبيعية والاجتماعية . ولذلك هو يفكر ضمن الحدود التي تحصرها تانك البيئتان .

ولجلاء هذه النظرية نضرب أمثالاً لها : — الشرقي لا يفكر كالغربي، ولا هذا كذاك حتى الانكليزي لا يفكر كالأميركي وهما من طينة واحدة ولغة واحدة . وحتى الجار لا يفكر كالجار . وكذلك البوذي لايفكر كالمسلم ، والمسيحي . ولا هذا كذاك . والروسي الحالي لا يفكر كما كان يفكر أبوه وجده بتاتاً . حتى أولادنا نحن يستهجنون تفكيرنا كما نحن نستهجن تفكير آبائنا — الى غير ذلك مما يجلو لك ان الانسان مقيد الحرية ليس فيما يفكر به فقط ، بل فيما يشاء أن يفكر فيه ، لأنه منذ حداثته يتلقى معلوماته من البيئة التي تدرّب عقليته بمقتضاها وتصوغ عواملها نفسه في اتجاهاتها .

لذلك إذا اصطدم تفكير فرد بتفكير فرد آخر من غير جنسه استهجن كل منهما فكرة الآخر ، وقد ينفر منها أو يصدها بغضب . ويحتمل أن يثير تخالف المفكرين العداء بين الاثنين . لأن كلاً منهما يرى فكرته حقاً وفكرة الآخر خطأ . وقد يتمادى الواحد في الاستئثار بأن ينكر على خصمه حرية التفكير بما يفكر .

العقيدة هي زبدة تفكيرات صادرة ضمن بيئة واحدة ، وذووها متطبعون بها فلا يفكرون بما يخالفها . وإذا تراءى لك أنهم يشاؤون ان يتمسكوا بها ولا يشاؤون أن فكروا بما يخالفها فاعلم أنهم غير أحرار بهذه المشيئة . ان حريتهم في المشيئة محدودة بتلك العقيدة .

يستفاد مما تقدم ان الانسان مقيد حرية الفكر قبل أن يولد .

١ — سيطرة الثقافة على الفكر

ذلك هو شأن الفكر فيما تطبّع به الانسان بحكم بيئته الطبيعية والاجتماعية . فما بالك بتفكيره فيما طبّعته فيه التربية والثقافة عمداً ؟ ان ما يتعلمه الغلام اللين الدماغ في المدرسة والكلية يندغم في عقليته حتى يصبح جزءاً منها أو مادة لها . لأن التعليم يعطى له مادةً بالبيان المنطقي، والسفسطي أحياناً ، وإلاّ فلا يقتنع به التعقل . ومتى دخلت النظرية الى منطقة العقل، من باب البرهان، أوصد المنطق عليها الباب فلا تعود تستطيع الخروج منه بسهولة، إلاّ إذا فتح المنطق باباً آخر لنظرية أخرى أقوى، فقد تطرد هذه تلك وتخرجها من الباب الذي دخلت منه .

وزبدة هذا القول هو أن النظريات التي تُدخل الى العقل في دور الثقافة ولا سيما في دور الحداثة تكون أمكن من النظريات التي يكتسبها الانسان من البيئة بلا تعمد . ولذلك يكاد يستحيل أو يتعذر جداً نزعها . فاذاً تفكير الانسان محدود بحدود ثقافته ، وبعبارة أخرى ان حرية تفكيره محدودة بهذه الحدود من غير أن يشعر هو، وقد لا يشعر بمحدودية حريته في التفكير الاّ حين يصطدم بتفكير آخر مخالف لتفكيره ومقنع له ، فيعتنقه بدل تفكيره بعد حوار عنيف بين التفكيرين .

فاذا كانت البيئة من جهة والثقافة من جهة أخرى تصوغان عقلية الفرد وتنشئان اتجاه

تفكيره فالقوة التي تسيطر على هذين العاملين — البيئة والثقافة — توجه تفكير الفرد وتضع حدوداً لحرية التفكير .

منذ بدء الاجتماع أو على الأقل منذ بدء الحضارة الى اليوم كان الفرد تحت سيطرة قوة كهذه توجه تفكيره كما تشاء هي لا كما يشاء هو بتاتاً اللهم بفعل الاقناع و بقوة البرهان — أيّ برهان منطقيًّا كان أو سفسطيًّا ، سديداً كان أو تُرّهة — يكفي ان ينصاع له عقل الفرد ويذعن راضياً . وبتأثير هذا التوجيه استطاع فرد (أو أفراد معدودون أو فئة) أن يتحكم بجماعة وأن ترضى الجماعة بتحكمه لاقتناعها ان تحكّمه نعمة لها . وكان من وسائل هذا التوجيه الذي نحن بصدده ان نشأت العرافة والكهانة والامارة والحكومة الخ . واستوت السيادة مطلقة أو مقيدة قليلاً أو كثيراً — سيادة الفرد أو الأفراد — على الجماعة .

وما دام السيد يستطيع التصرف بعاملي البيئة والثقافة اللذين شرحناهما آنفاً فالسيطرة مستتبة له ، لذلك تقتضي حنكتُه ان يضيق حدود حرية الفكر لقومه ما استطاع لكي يبقى ظافراً بسلطة الحكم . ولكن اذا تسنى لبعض العقول ان تفلت من دائرة تلك الحدود وتستخرج النظريات السديدة من احتكاك النظريات المتناقضة التي تتشاجر فيها وتهاجم بهذه النظريات السديدة عقائد القوم المُذلِّة لها ، شرعت سلطة السيد تتداعى للسقوط .

ليس في هذا التمهيد متسع لتعداد التفكيرات والعقائد التي استغلّها أسياد الأقوام وأمراؤهم وحكامهم في التاريخ الطويل للحرص على سؤددهم ، وحفظ كيان سلطانهم . وإنما نشرح أساسها جميعاً ، ونلم بالرئيسي منها الماماً موجزاً .

٢ — زمام العواطف

لا يخفى أن السيد الأعلى في الذاتية الانسانية هو العقل . ولكن هذه السيادة إنما هي لضلع واحد فيه من ورائه ، وهو العاطفة أو الشهوة . مهما تحذلق العقل في الحكم لكي يبرزه سديداً مستقيماً فلا يستطيع أن يبرزه مجرداً من تأثير العاطفة فيه ، حتى الفيلسوف الذي يتجرد من كل هوى نفساني في تفكيره لا يسلم أحياناً من سيطرة الهوى على تفكيره . فالعاطفة تعمل من وراء العقل المنطقي . وهي مصدر الارادة . ولهذا مهما حكّم

الأفراد عقولهم أو تعقـلهم يبقَ لأهوائهم نفوذ في تفكيرهم وفي أحكامهم العقلية. وهم معذورون لأن الحرص على البقاء يقتضي الاسترشاد بميل العاطفة.

فالأسياد أو الحكام من قديم الزمان اكتشفوا أن المِقوَد المتين الذي يستطيعون أن يقودوا به القوم هو مِقوَد العاطفـة. أي انهم اذا قبضوا على زمام شهوات القوم استطاعوا أن يقودوهم حيث يشاؤون. وما هي أهم شهوات الإنسان؟ —

١ — النجاة من الجوع. أو بعبارة إيجابية عامة سد حاجات الجسد جميعاً

٢ — النجاة من الخوف من أخطار الطبيعة ومن خطر العدو. وبدرء هذه الأخطار، بهاتين الشهوتين يحرص الانسان على بقائه. وجميع أمانيه ووسائل هنائه مشتقة منها.

فإذا تسنّى للسـيد المسيطر أن يمني جماعته بالحصول على هاتين الأمنيتين الرئيسيتين بالوسائل التي يهيئها لهم بقي قابضاً على زمام عواطفهم وحصل على طاعتهم له

٣ — زمام العاطفة الدينية

فمنذ بدء التاريخ الى الدور الأخير منه، كان الحكام يستخدمون العقائد الدينيـة في تطويع الجماعات، بدعوى أن تلك الأماني التي تشـبع شهواتهم إنما هي نِعَمٌ تنزل عليهم من السماء. ترى هذا الأسلوب بكل جلاء في تاريخ الإسرائيليين، ولا سيما وهم تحت قيادة موسى ويشوع. لذلك بقيت المعارك البشرية تصلي نارها تحت رايات الأديان بضعة ألوف السنين. أي أن العقيدة الدينيـة كانت المقود الذي به يقود السيد قومه، والمنخاس الذي ينخس به شعبه للجهاد في مضمار التنازع مع الأقوام الأخرى، والسوط الذي يقرع به ناسه للنشاط في العمل لـكي يستطيع أن يقدم القرابين والضحايا والمـكوس الخ للسلطة. ولذلك أيضاً بقيت التربيـة في كل تلك السنين محصورة ضمن الحدود التي توجّـه العقول المفكرة الى العقائد المذكورة، أو تحصرها فيها لـكي يبقى الزمام في أيدي الحـكام.

في مدى هذه السنين الطويلة كان التفكير العلمي بطيئاً جداً لأن حرية التفكير كانت ضيقة جداً. وكانت هـذه ضيقة بضغط السادة الحكام لأن النور العلمي يكشف الترهات عن الحقائق، ويجلو للناس أن مصادر الخيرات والنعم التي تشبع شهواتهم وتدرأ الأخطار عنهم ليست محصورة في أيدي بعض حكامهم، كما كان هؤلاء يوهمونهم، بل هي في منال أيديهم كما

يرشدهم إليها العلم . ولهذا كان ذوو السلطات يعتبرون كل نظرية علمية زندقة أو فسقاً في العقيدة . وبهذا الاعتبار كانوا يقاومونها كأنها الخصم العنيد والعدو اللدود . وفي التاريخ شواهد لا تحصى على تحريم تعليم النظريات المخالفة للعقائد السائدة ، كما أن التاريخ نفسه يسرد لك من ضحايا الاضطهاد لأجل العلم أو طلب العلم من عهد سقراط الى ما بعد عهد غاليليو عدداً لا يكاد يحصى .

ولكن النور لا تطفئه الظلمة . والأشعة لا تصدها الأكف . والعلم نور . والعقل بصير للنور . فمهما تكاثفت التقاليد القديمة وترهاتها وخرافاتها فلا تستطيع أن تحجب ذلك النور . لذلك نشط العلم في العصور الأخيرة ، وكشف تلك الترهات عن الحقائق . ولم يعد في الامكان أن يضبط الحكام العقول المتمردة ضمن دائرة المدنية الضيقة . ولذلك تزعزع سلطانهم وتداعى بنيانهم .

٤ — زمام العاطفة الوطنية

لم تعد العقائد الدينية تصلح مقاود لقيادة الجماعات . ولكن الطامعين بالسلطة لم يعدموا الوسائل للقبض على أزمة عواطف الجماعات ، فتطلعوا الى حيث تتجه عواطفها وشهواتها وميولها وأمانيها في الحرص على حياتها وبقائها . فاذا بها تتنازع الأرزاق جماعات كما كانت تتنازعها أفراداً . فاختلقوا لها من صميم اجتماعيتها عقيدة جديدة وهي « العقيدة الوطنية ». هذه عقيدة جديدة حلت في القرن الماضي محل العقيدة الدينية ، لظنهم أن العلم لا يستطيع أن يزعزعها كما زعزع التقاليد والعقائد الخرافية القديمة . ثم صاغوا لهم من الوطن صنماً لكي يعبدوه . وجعلوا يقودونهم بمقود « العاطفة الوطنية » ، ويستفزون فيهم الحماسة في الجهاد الوطني بتحريض هذه العاطفة . فعلوا ذلك بزعم أن سعادة الجماعة وهناءها يأتيان عن يد « إله الوطن »

ولكن هذه الخزعبلة الجديدة لم تجز على العلم الحديث الذي اكتشف نواميس الاجتماع والنفس وآدابها ، وجلا للمفكر أن هناءة العالم وسعادته يتوقفان على سلامه واطمئنانه . وان سلامه واطمئنانه يتوقفان على تعاون جماعاته كتعاون أفراده : وان هذا يتوقف على تفاهم الجماعات واتفاقها . وهذان يتوقفان على حريتها في التفكير والرأي والعمل . ومآل

هذه الحرية قيام الديموقراطية الصرفة وقلب السلطة الاستبدادية مهما اختلفت أشكالها وصيغها . والديموقراطية كما لا يخفى عدوّة أصحاب السلطة . إذن ليس من مصلحتهم أن تطلق حرية التفكير ، بل يجب أن يكون التفكير مقيداً ، أي ان تكون دائرة هذه الحرية ضيقة ما أمكن .

٥ — زمام الثقافة

لذلك لعبت أيدي السلطات المستبدة ببرامج التعليم ، بل لعبت بنصوص الكتب المدرسية ، على قاعدة تحريض النعرة الوطنية وتأليه السلطة [١] وتقديس الحرب وجعل عداء الوطن الواحد للأوطان الأخرى عبادة، الى غير ذلك مما تراه جليّاً في الدكتاتوريات الحديثة في روسيا وألمانيا وايطاليا والنمسا وغيرها قبل أن تدول .

أغرب من ذلك ان هذا التدخل الفظيع في شؤون الثقافة امتدّ الى البرامج العلمية البحتة ، فأمر هتلر الأساتذة الكبار أن يعاسموا هذه النظرية وأن يمتنعوا عن تعليم تلك والاّ عوقبوا عقاباً صارماً . ومن أمثلة ذلك . أنه ورد الى الأستاذ الاثنولوجي (علم السلالات البشرية) في إحدى الجامعات الألمانية (وهو أستاذ كبير عالي الشأن) أن يدرّس طلبته أن اليابانيين من أصل آري (لأن هتلر يريد أن يتقرّب من اليابان) فلم يعبأ الأستاذ بهذا الأمر السخيف . ولكن الأمر تكرر له بشدة ثانية وثالثة . وبعد إصراره على رفض هذه السخافة أوعز اليه أحد أصدقائه انه أصبح تحت خطر الاعتقال في السجن . فاضطرّ أن يفر الى سويسرا [٢] .

ومن غرائب ما يرغم به العلماء على تفسيق العلم ما ورد في كتاب عن درس السلالات

---

(١) تردد الكتاب على اختلاف جنسياتهم في أن يذكروا هذا الواقع الناصع . فمن أقوال الدكتور فرنك ما ورد في كتاب الجمهورية الجديدة لجون جنثر . «هتلر جعل الآلهة حساده ، » . وبالقياس المنطقي «هتلر وحيد في نوعه . هكذا الله وحيد . فهتلر مثل الله»

وموسوليني لم يتورع عن أن يظهر بهذا المظهر . فقد رنت أقواله في الراديو واللاسلكي قبيل حرب الحبشة بمثل هذا التبجح السمج : «يجب على الامة أن تسمع كلام الدوتشي وأن تلبي دعوته وأن تأتمر بأمره وأن تطيعه الطاعة العمياء . الدوتشي كل شيء لايطاليا» . مثل هذه النغمة سمع كثيراً في خطبه التي كان يطلقها في ذلك الحين على شعبه وعلى العالم.

(٢) نقلا عن حاشية صفحة ١١٥ من كتاب «الحرية اليوم» للعلامة الدكتور جود Liberty to day, by Dr. C. E. M. Goad

للعلامة الدكتور جوش Neuse Grandlegen der Rassen forschung وهو بفحواه المطابق لأصله : —

« هكذا نستطيع نحن أن نقرر المبدأ التالي : لا توجد خاصة طبيعية ولا عقلية تبرر لنا التفريق بين النوع الانساني والعالم الحيواني . وجل ما هنالك من الفروق انما هو ما بين الانسان النوردي Nordic man (الجرماني . الألماني) من الجهة الواحدة والحيوانات على العموم من الجهة الأخرى ، ومن جملتها النـاس غير النورديين ، أو من هم من طبقة الانسان السفلي Subman (أي الذين هم حلقة الاتصال أو الانتقال بين النوعين » (صفحة ٧٩ من الـكتاب المذكور (١) —

(ولا يخفى على القارىء انه يعني أن الألمان وحدهم يختلفون عن الحيوانات ، وأما سائر البشر فلا فرق بينهم وبين الحيوانات إلا حلقة الانتقال من الحيوانية الى النوردية) .

ويقول في مكان آخر : « ان السلالة النوردية وحدها تستطيع أن تصدر أصواتاً واضحة كل الوضوح ، في حين أن السلالات غير النوردية تلفظ ألفاظها أقل وضوحاً ، بحيث ان أصوات الشخص الواحـد تلتبس أو تختلط بعضها ببعض كالنباح والشخير والعطاس والشهيق الخ . . . . وأما أن العصافير تستطيع أن تتكلم بأحسن من سائر الحيوانات فلأن أفواهها نوردية البنية ، أي أنهـا مرتفعة مستدقة وألسنتها قصيرة . وشكل لثة النوردي تؤذن بفصاحة اللفظ ووضوح الغناء (٢) (صفحة ١٦٥ من كتاب جوش) .

وفي مكان آخر يتمادى في اعلاء شأن النوردي بمنطق غريب عجيب : — « اذا كان غير النورديين أقرب الى سلالة السعادين وأشباه الانسان منهم الى السلالة النوردية فلماذا يمكنهم أن يتزاوجوا مع النورديين ولا يمكنهم مع أشباه الانسان ؟ » هذا سؤال سبق الدكتور جوش القارىء اليه لـكي يجاوب هذا الجواب السخيف : « لم يقم برهان على أن النورديين لا يستطيعون أن يزاوجوا أشباه الانسان » (٣)

(١) حاشية في صفحة ١١٥ من الكتاب هذا

(٢) و (٣) نقلا عن حاشية كتاب الحرية اليوم صفحة ١١٥

هذا نزر يسير من تعسف كثير في الاعتداء على حرمة العلم لأجل تبرير الاستبداد الدكتاتوري . وفي ايطاليا وغيرها من الدكتاتوريات كثير من أمثاله بحيث لا يبقى عندك شك بأن حرية التعليم والتفكير مفقودة بتاتاً من المانيا وسائر الدكتاتوريات الآن لأن، الدكتاتور (الحاكم بأمره) يريد أن يغرس في عقول الناشئة ان المانيا فوق جميع الأمم ، وان حكومتها هي الاله الذي يحرس المانيا ، وان الحرية الفكرية وحرية الرأي إنما هي كفر بهذا الإله ، وان الفرد الألماني يجب أن يضع نفسه تحت أمر السلطة (سلطة هتلر) كأداة صماء عمياء بكماء لأن هذه السلطة كفيلة بهنائه وسعادته .

ليت المكان يتسع لسرد كثير من هذه الشواهد على مثل هذه الخطة جرى كل حاكم بأمره (دكتاتور) في بلاده . ولكن لأنه ليس غرضنا في هذا الكتاب البحث في أحوال الدكتاتوريات فنقتصر على ما تقدم من الاشارة فقط .

وحاصل ما نرمي اليه من هذا البحث هو ان حرية الفكر التي هي حق طبيعي لكل انسان بلا معارضة كانت ولا تزال معدومة أو ضيقة جداً . أي ان الشعوب تفكر كما يريد أسيادهم وكما يفرض لها حكامها مواد التفكير . لا تجد حرية الفكر أوسع نطاقاً إلا حيث الديموقراطية مقاربة النضوج . ولا تستوفي حقها من الاتساع إلا حيث تستتب الديموقراطية الناضجة البحتة .

ب — حرية القول

قد يكون فكر العقل النيّر حرّاً، ولكن لا يستطاع الجهر به لأن حرية القول مفقودة أو ضيقة . فما بالك اذا كان الفكر غير حرّ ؟ فهل ينتظر أن يكون الجهر به حرّاً ؟

لم يحجر على حرية الفكر لمجرد طمس الحقيقة في الفكر، بل لكيلا يبرز الفكر بالحقيقة الناصعة . فكان الغرض من تدريب الفكر في مجرى معين تدريب القول في المجرى نفسه . وبعبارة أخرى الحجر على حرية القول . والمراد بالقول هنا الرأي الخاص بالمفكر القائل .

فاذا كان أفراد الجماعة لا يستطيعون أن يجهروا بآرائهم فلا جدال في أنهم لا يستطيعون أن يتولوا ادارة شؤونهم بأنفسهم، ولا أن يولوها لمن يريدون، أو ان يؤمّنوا عليها من يشاؤون . بل يتولاها رغم أنوفهم آخرون يضغطون على « حرية قولهم » . فحكمهم إذن

ليس ديموقراطيًّا حتى ولو كان بالثوب الديموقراطي الأنيق .

في هذا الموضوع نبحث في أمرين رئيسيين : —

الأول — هل حرية الرأي من مصلحة المجتمع ؟

الثاني — ما هي الوسائل التي تخنق بها حرية الرأي ؟

حرية الرأي لمصلحة المجتمع

الحكام المطلقون (ملوك ودكتاتورة) يزعمون أن حرية الرأي تؤذي مصلحة المجتمع ولذلك يعارضون الديموقراطية بما يأتي : —

أولاً : لأن أفراد الجماعة متضاربو الآراء فلا يستطاع التوفيق بينهم واستخراج رأي عام منها .

ثانياً : ان الفرد غير الخبير بالشؤون السياسية لا يحسن اصدار رأي صالح للجماعة . ومعظم أفراد الشعب غير خبيرين بما هو صالح للجماعة . فالاعتماد على الغالب من آرائهم خطر على مصالح الأمة .

ثالثاً : ان في الجماعة أفراداً يبتغون أن يتنازعوا السلطة ، لا لأجل الخير العام ، بل حبًّا بالسيادة واستخدامها لمنفعتهم . فحرية القول تفسح السبيل لتحريض الجمهور الساذج للمشاغبة وايقاظ الفتنة .

رابعاً : ان هذا العصر عصر انتقال من نظام متقادم الى نظام مستجد — من حكم فردي مطلق الى حكم ذاتي ديموقراطي . فلا يحسن الهدم قبل الاستعداد التام للبناء العاجل ، واطلاق الحرية للقول والعمل خطر على الأمن لأنه يغلب ان يؤدّي الى الفوضى

١ — احتكاك الآراء المتضاربة

على الأول نجيب : ان الرأي الأصوب لا يصدر إلاّ من احتكاك الأفكار أو الآراء المتضاربة . مهما كان العبقري سديد الرأي ، والفيلسوف ثاقب الفكر ، والعلاّمة واسع العلم ، تفُتْهُ ملاحظات كثيرة لا يفطن لها . وإنما يفطن لها العامي لأنها تمس مصلحته ، وأحياناً يتوقف عليها خيره وخير الجماعة . الحقيقة بنت البحث . لذلك يجب لمصلحة المجتمع أن تكون حرية القول مطلقة تمام الاطلاق . وبالتالي حرية المناقشة أيضاً لكي يهتدى الى

الحقيقة الصائبة من خلال تصادم الآراء واحتكاك الأفكار. وبغير هذا الأسلوب لا يمكن أن يُهتَدَى الى الحقيقـة الجيدة . تخنق السلطة الحاكمة لحرية الرأي والمناقشة إنما هو اعتداء على حق الجماعة وتهرُّب من نور الحقيقة ، لأنه اعتراف ضمني بأن السلطة تتعدّى حقوقها وتتجاوز دائرة العدالة . فلذلك تحجب هذا النور لـكيلا تنفضح سوءَتها . وإلاّ فاذا كان ضمير السلطة نقيًّا فلا تخشى حرية التناقش وحرية ابداء الرأي . لأنه ان كان الرأي سديداً وكتمته فتكون قد حرمت الجماعة نفعه. وان كان غير سديد أو خطأ لا يثبت أمام المناقشة ، فضلاً عن انه بالمضاهاة يبين سدادُ رأي كان خفيًّـا . فلا خطر من حرية الرأي والمناقشة فيه إلاّ على مساوىء السلطة ان تنفضح . فهـذا الاعتراض الذي يعترضه أنصار الحجر على حرية الرأي إنما هو عليهم لا لهم .

٢ — رأي الخبير السياسي

والسبب الثاني الذي يزعمه خصوم الديموقراطيـة لتضييق نطاق الحرية هو ان العامي قليل المعرفة أو عديمها ، لا يدري من مصلحة الجماعة شيئاً حتى مصلحته الشخصيـة قد يجهلها . فاطلاق الحرية له في ابداء رأي أو اختيار رأي دون آخر يعرض مصـلحة الجمهور للخطر . على ان هذا العامي الجاهل لا يناقش ولا يتكلم بل يسمع وقد لا يسمع .

في هذا الاحتجاج على حرية الرأي شيء من الحقيقـة والحق ، اذا كانت الأمة مؤلفة من طبقتين أو ثلاث أو أربع متفاوتة في المعرفة والجهل تفاوتاً عظيماً . فحينئـذٍ تكون مصالح الجماعة أو مصالح فئة منها معرضة للخطر اذا تغلـب رأي الفئة الجاهلـة على رأي العاقلة بسبب اطلاق حرية الرأي . ولـكن اذا كانت طبقات الأمة متقاربة في المعرفة فآراؤها تتقارب في معرفة النافع والضار لها . وبالتالي يقل أو يتلاشى هـذا الخطر المخوف منه

ثم ان ذوي المعرفة السياسية الذين نسميهم خبراء ليسوا بالحقيقة خبراء بكل حاجة من حاجات الأمة . فكل من الزارع والصانع والعامل والتاجر وذوي الفن طبيب أو صيدلي أو محام أو ممثل أو موسيقي الخ أعرف منهم بما يفيده وما يضرُّه مهما كان قليـل العلم والخبرة بالأمور العامة . فان نحرمه ابداء رأيه نحرمه حق الحرص على مصلحته ما دام هو

الأعرف بها . وكونه لا يفهم شيئاً من شؤون المصلحة العامة كما يفهمها الخبير السياسي فلا يبرر حرمانه حق ابداء رأيه

والحقيقة ان كل فئة من الناس خبيرة بشؤونها بل هي أخبر من سواها بها . فاذا كانت ، الديموقراطيـة لا تقوم الا على عواتق الخبراء فالاختصاصيون بالأعمال والأشغال والفنون الخ هم الخبراء الحقيقيون . ومن آراء هؤلاء تستخرج الآراء الصالحة للمجتمع . ولذلك يجب أن تكون الحرية مطلقة لهم في إبداء آرائهم بواسطة النظام الديموقراطي . ولهؤلاء الحق بأن يختاروا عنهم نواباً يبسطون آراءهم أو بالأحرى أمانيهم ويناقشون فيها ويقررون الراجح منها .

نعم . الأمة تحتاج الى خبراء يصوغون لها آراءها لا الى خبراء يفرضون عليها آراءهم. تحتاج الى اختصاصيين يضعون لها اقتراحاتها ويعرضونها للمناقشة ، لا الى خبراء يوجبون عليها تنفيذ اقتراحاتهم . تحتاج الى خبراء تولبهم تنفيذ الاقتراحات التي هي تقررها

مهما كانت الأمة على سذاجة وبساطة وقليلة المعرفة فلها من خبرة أفرادها واختباراتهم ما يرشدها الى مصلحتها النافعة . في هذا العصر لا تجد أمة ديموقراطية النظام سقيمة المعرفة بالأحكام .

٣ — تنازع السلطة

في هذا العصر الذي نشأت فيه الدكتاتورية لكي تستتم عمر الحكم الفردي المطلق الذي شاخ ، يزعم الدكتاتورة (الحاكمون بأمرهم) أن في الأمة أفراداً يطمحون الى كراسي الحكم والظفر بالسلطة لكي يستغلوها لأنفسهم . ولذلك يستخدمون حرية الكلام في استثارة العوام لقلب النظام وقلقلة الأمن العام وهدم أركان السلام . لذلك يفضل جداً أن يضيق نطاق الرأي لكيلا يبقى لهؤلاء المشاغبين سبيل للشغب .

والرد على هذا الزعم هو ان ما يطمح إليه هؤلاء المشاغبون المزعومون طمح إليه قبلهم الحكام الزاعمون . فكراسي الحكم المطموح إليها إنما هي « اللحاف » الذي يتنازعه هؤلاء وأولئك .ففريق القائمين بالحكم وفريق خصومهم الطامعين به سيَّان الى جانبي هذا المطمع . والفريق الأولى به هو الذي يثبت بلا سفسطة انه يعمل لمصلحة الأمة . والوسيلة

الأمينة الناجحة لهـذا الإثبات هي اعتراف الأمة نفسها بفضل الفريق الصالح . ولـكي تستطيع الأمة أن تصـدر اعترافاتها الصادقة يجب أن تكون حرّة في أن تقول ما تريد أن تقول .

إذن حرية الـكلام انما هي في مصلحة السلطة الحاكمة اذا كانت هـذه حسنة القصد محسنة الخدمة نافعـة العمل . وهي ضد مصلحة الفريق الذي يزعم الدكتاتور أنه فريق مشاغب يريد قلب الحـكم لـكي يغتصبه ويستغله لنفسه . وحاصل القول ان فصل الخطاب في هذا النزاع إنمـا هو في فم الأمة . ولذلك يجب أن يكون فم الأمة حرّاً لـكي ينطق بالحـكم لأحد الفريقين وعلى الآخر

لعمري أن كمّ السلطة المسيطرة الأفواه والأقلامَ تلافياً للشغب ، إنما هو شهادة على السلطة نفسها بأنها تفعل نفس ما تمنع المشاغبين أن يفعلوه ، وإلاّ لما اضطرت الى كمّ فمها .

ان من كان الحق بيده كانت البلاغة في قلمه والأمر والنهي في فمه .

٤ — دور الانتقال

بقي زعمُ « الحاكمين بأمرهم » ان دور الانتقال من نظام استبدادي متقادم رثّ الى نظام ديموقراطي طريف أنيق ، يستلزم حزم السلطة المتولية واستقلالها في الحـكم لـكي تتم النقل بأمان وسلام ، وإلاّ تعرّضت البلاد للفوضى .

هذا زعم صادق نقرّهم عليـه . ولا مشاحة فيه اللهمّ اذا أثبتوا صدق دعواهم بأنهم يتولون عملية الانتقال بكل عناية وكل حذر تلافياً للفوضى . أو اذا لم يبد على الأقل أنهم يتولون عملية الانتقال من يد الحـكم المطلق المستبد الى يد حكم أبعد اطلاقاً وأشد استبداداً يتولونه هم أنفسهم

قد يكون هذا العذر مقبولاً من شاه العجم السابق أو الغازي أتاتورك أو أمثالهما ممن لم يمارسْ الحـكم الديموقراطي في بلادهم بعد ، ولا تعوّدهُ أهاليها ولا فهموه بعد . ولـكن ما هو عذر موسوليني وهتلر وأمثالهما ممن تمرست أممهم على الحـكم النيابي زمناً ؟ ان أمثال هؤلاء لا يقبل منهم عذر كهذا .

حاصل ما تقدّم من المناقشة أن حرية الرأي : أولاً حق لكل فرد من أفراد المجتمع

ثانياً : هي الأقنية التي تتسرّب فيهـا منافع الأمة من منابعها الى الحوض العام الذي توزّع منه .

ثالثاً : ان الحجر على هذه الحرية دليل قاطع على ان السلطة التي حجرت عليه تعمل لأذى الأمة لا لمصلحتها .

رابعاً : اذن ، ان الخطر على الأمة انما هو في حبس هذه الحرية لا في اطلاقها .

ج — الوسائل لخنق حرية الرأي

بعض الوسائل التي تخنق بهـا السلطة الحاكمة حرية الرأي هي نفس الوسائل التي ذكرناها آنفاً لخنق حرية الفكر . ويزاد عليها على نفس الأساس الذي بسطناه آنفاً ، وهو قيادة العواطف أو الشهوات وكبت التعقل ، الدعاية الايجابيـة من ناحية والدعاية السلبية من ناحية أخرى . أما الدعاية الإيجابية فهي في السيطرة على العقل . والدعاية السلبية في السيطرة على العواطف ، كما سنتبسط به فيما يلي

١ — الدعاية الايجابية

العقل يسمن ويقوى بغذاء المعرفة ، والتعقل الصحيح يتوقف على حرية العـقل في تلقن العلم ، وفي التفكير بالمعلومات التي تبلغ اليه . والعلم الحديث الذي تفجرت منه ينابيع الاختراعات جعل جميع تأثيرات العالم الخارجي (الخارج عن العقل) تصـل الى العقل بسهولة كلية . وبعبارة معكوسة وضع العقل تحت هـذه التأثيرات وجعله يتطبع بطبعها ويتخلق بخلقها . فانسان اليوم إنما هو مصنوع من صنع عوامل عديدة . فمن كان في يده زمام هذه العوامل يطبع أناس اليوم نسخات متعددة من أصل واحد كما تطبع ملايين نسخ الجريدة بطابع واحد .

أهم العوامل الرئيسية في مصنع إنسان اليوم .

١ — الثقافة على العموم من بدايتها الى نهايتها .

٢ — الطباعة على العموم .

٣ — الصحافة على الخصوص .

٤ — السنما .

٥ — الراديو الناطق واللاسلكي على العموم .

وكان الفونوغراف قبل الراديو عاملاً أيضاً ، ولكن لما ظهر الراديو اندغم ذلك فيه .

هذه الخمسة هي المصادر الرئيسية للمدركات المختلفة . ومن كل مصدر منها يتفرّع عدد لا يحصى من الأقنية تتسرّب فيها المدركات الى العقول المفكرة . تتسرّب الى العقول بسهولة من غير أن تعاني شيئاً في استقدامها . وبسبب وحدة المصدر وتعدد الأقنية تنطبع العقول طبعات متماثلة كما لا يخفى . وبيانه : —

المعرفة التي يتلقنها الحدث والغلام والطالب في الروضة والمدرسة والكلية والجامعة يتلقنها نفسها مئات ألوف النشء في الأمة الواحدة . وليس لهم اختيار في تلقنها ، لأن برامج التعليم والتثقيف موضوعة بمراسيم قانونية على الغالب . فلا المدرس حر في أن يدرس ما يشاء . ولا الطالب حر في أن يقبل أو يرفض ما يشاء من فروع درسه .

والمعرفة التي يقتبسها المطالع من كتاب صادر من معامل الطبع والنشر يقتبسها نفسها ألوف غيره من القراء . ومصدر التفكير فيها واحد وهو تفكير المؤلف. وبقدر ما يكون المؤلف حرًّا في تفكيره وتأليفه يستقي المطالع المعرفة حرة سليمة من التمويه والتضليل الى حد . ولأن المؤلفين جميعاً خارجون من بوتقة ثقافية واحدة فلا يندر التماثل والتشابه في روح مؤلفاتهم مهما تنوّعت وتنوّعوا . وبقدر تنوع المؤلفات والمؤلفين تتنوّع معارف المطالعين .

لا تظهر هذه النظرية الاّ بالمقابلة بين ثقافة أمة وثقافة أخرى. ففي عهد الحكم الغليومي مثلاً كانت روح الثقافة الألمانية نظرية «السوبرمان» التي اخترعها نيتشه . وفي أواخر القرن الثامن عشر كانت روح الثقافة الافرنسية في القرن التاسع عشر مستمدة من كتابات جان جاك روسو وأمثاله .

وشأن عامل الصحافة كشأن عامل الطباعة تقريباً . أو هو أقرب لعامل الثقافة لأن ملايين قراء الصحف يقتبسون تفكيرات بضع مئات أو بضعة ألوف المحررين. وهؤلاء المحررون قلما يختلفون في روح تفكيرهم وتحريرهم العام بقطع النظر عن اتجاهاتهم الحزبية وهي اتجاهات ضيقة الحدود . فملايين قراء الصحف على الاجمال ملزمون أن يقرأو ما تقدمه

الصحف لهم ولا خيار لهم فيه . ولذلك هم يتأثرون تأثرات متشابهة كل التشابه تقريباً .

وأما شأن العامل السينمائي فأشد حصراً للحرية في تلقي المعلومات والمدركات من العوامل الثلاثة السابقة وأوسع شمولاً للعقول التي تتلقى المدركات والمعلومات . فأفلام هوليوود مثلاً تستهوي ملايين الناس على سطح الكرة الأرضية . وتطبع في عقولهم جميعاً في وقت واحد طابعاً واحداً لا خيار لهم فيه . فهم في كثير من التأثرات العقلية والنفسية خاضعون، من غير أن يشعروا بالخضوع، لسلطان تفكير مؤلف السيناريو ومخرجه . فما بالك بحرية انفعالهم اذا كان هذان غير حرين .

بقي عامل الراديو وهو لا يقل عن عامل السينما تأثيراً ونفوذاً ، سوى أنه أقل منه شمولاً ، أو أنه أوسع حرية من حيث الشمول . أعني أنك حرٌّ في أن تسمع اذاعة وطنك أو إذاعة وطن آخر . ولكنك لا تستطيع أن تعترض على ما يذاع لك ولا رأي لك فيه . لست حراً إلاّ في أن تمتنع عن السمع بتاتاً . كما أنك حرٌّ في أن تمتنع عن حضور السينما. بيد أن هذه الحرية يقابلها استهواء العاملين واغراؤهما بحيث لا تكاد تكون حراً في الامتناع .

٢ — علم الانسان صنع قيداً للانسان

يستفاد مما تقدم ان العلم الذي هو زينة العقل تاج الانسان — هذا العلم الذي ابتدعه العقل الانساني هو نفسه اصطنع قيوداً وسلاسل لحرية العقل كما رأيت . فهل تعتبر العلم هذا عدواً لمبتدعه ، اذا كانت الحرية نعمة للانسان وهو يقيدها ؟

ان هذا العلم المخترع الذي يتباهى به العقل ليس ثمرة العقل الفردي ، بل هو ثمرة العقل الاجتماعي . هو ثمر العقول الفردية المحتكة . فهو يكافىء الاجتماع الذي أنتجه بهذه السلاسل التي يقيد بها حرية الأفراد لكي يرتبطوا في المجتمع . فتلك الأقنية التي تتسرب فيها المعلومات والمدركات الى العقول على أنماط متماثلة تتراءى لنا قيوداً لحريات الأفراد، وإنما هي طوابع تطبع تصورات الأفراد وأفكارهم وأخلاقهم بطابع واحد عام لكي يتسنى اتحادهم ويكونوا مجتمعاً متيناً منهم غير متقلقل . فمنتجات العلم الاختراعية التي حسبناها قيوداً للحرية ليست ذات أذى للمجتمع البشري بل هي منحة له لا تقدر بثمن. هي العامل الأعظم في انشاء المجتمع .

ولكن اذا كان المجتمع يسيء استعمالها فما ذنب العلم ؟

العلم ليس عدواً للحرية، وانما الذين يسيئون استعمال منتجات العلم هم أعداء الحرية . هم المسيطرون المستبدون الذين نحن نبحث في كيفية قتلهم للحرية التي هي أثمن ما يتمتع به الإنسان .

أولئك الحاكمون بأمرهم يسيطرون على المصادر الخمسة لأقنية المعلومات والمدركات التي بسطناها آنفاً . وبالتالي يسيطرون على حريات الأفراد وحريات الجماعات ، فكيف يسيطرون ؟

٣ — السيطرة على قيود الحرية الفردية

فيما سبق أشرنا الى بعض شواهد وأمثلة لكيفية سيطرة « الحكام بأمرهم » على برامج التعليم والثقافة . فلا لزوم للعودة الى هذا الموضوع . وأما سيطرتهم على الطباعة والصحافة فهي سيطرة علنية في جميع البلاد الدكتاتورية . وفي المانيا على الخصوص بلغت الحد الذي بلغته لعهد الحكم الحميدي في تركيا تقريباً. فالصحيفة الالمانية كانت لا تستطيع أن تنشر إلاّ ما يُوعَز به إليها . والبريد لا يؤذن بدخول صحف أجنبية مغضوب عليها . هذه القيود الصحافية يعرفها كل إنسان فلا مقتضى لذكر شواهد عليها .

كذلك شأن السينما فهو تحت السيطرة أيضاً بحيث لا يؤذن إلاّ بإظهار ما تؤذن به السيطرة . ودور السينما مضطرة أن تظهر على شاشتها ما تقدمه لها السلطة .

هذه سيطرة على الحرية لا يجهلها أحدٌ الآن .

وأما السيطرة على الراديو فمن الشواهد الغريبة عليها أن الحجز على عدّة الراديو لأجل دَيْن لا يجوز في المانيا بتاتاً ، ولو استحال تحصيل الدين بغيره . وقد تقرَّر هذا المنع بدعوى أنه يجب أن يكون لكل إنسان عدّة راديو لكي يتسنى له استماع البلاغات الرسمية وبلاغات الزعيم . وينتفي كل عذر له في عدم معرفته بها .

هذا من حيث وجوب استعمال كل فرد للراديو . وأما من حيث وجوب امتناعه عن سماع ما تعلنه السلطة، فان محكمة وستفاليا حكمت على أب وابنه بالسجن ١٥ شهراً لأنهما دعوا بعض أصدقائهما من حزبهما الى منزلهما لسماع اذاعة محطة موسكو (١) .

(١) الخبران منقولان عن حاشية صفحة ١٥ من كتاب « الحرية اليوم » المذكور سابقاً

هكذا تُخنَق الحرية الفردية بحكم الدعاية الايجابية عن طريق السيطرة على موارد المعلومات وأقنيتها الى العقول . فان الحاكمين بأمرهم يستخدمون منحة العلم العظيمة التي سهّلت ورود المعارف الى العقول لبث دعايتهم ، يرسلون في أقنية المعلومات ما يريدون ارساله ويمنعون ما يريدون منعه ، لكي يتسنى لهم أن يصوغوا العقول لقبول دعاويهم ومزاعمهم في صلاحيتهم لتولي الحكم

٤ — الدعاية السلبية

أما الدعاية السلبية فهي على الغالب :

أولاً : في منع ورود الحقائق والمعلومات الصحيحة في تلك الأقنية أو حجبها عن الجمهور من ناحية .

وثانياً : في منعه من اعلان فكره أو رأيه من ناحية أخرى .

أما الأول فقد ورد الكلام فيه في عرض البحث الآنف من الدعاية الايجابية . فالغرض الأول من الرقابة على الصحافة والطباعة والسينما والراديو إنما هو منع إذاعة حقائق ومعلومات عديدة عن الجمهور ، بدعوى انها تسمم أخلاق الجمهور وعقولهم . والحقيقة انها تنبه الجمهور لعسف « الحكام بأمرهم » أو تثيره عليهم ، أو تثير شغبه فتعرقل أعمالهم .

وأما الثاني فالغرض منه ألاّ يكون للوطني رأي البتة . ولسان الحال فيه : « انك أيها العامي لا تصلح لصياغة الرأي . فلا تعنت ذهنك في صياغته . أرح بالك . فالحاكمون يصوغون لك الرأي الأصوب لمصلحة الجماعة التي تشمل مصلحتك » .

وهذا الشكل من الدعاية السلبية يقتضي أن تسد السبل لمناقشة الأفراد كلما أمكن سدها ، فما يريد أن يبلغه « الحاكم بأمره » للشعب يبلغه بواسطة الراديو بحجة أن هذا الأسلوب أفضل أساليب الاذاعة لاتساع انتشاره وسرعته . فالوطني يستطيع أن يسمع البلاغ بسهولة وفي الحال . ولكنه لا يستطيع الرد على قائله ولا مناقشته فيه . كذلك الاذاعة في الصحف مباحة للحاكم ولكن المناقشة محظورة على المحكوم .

وهناك وسائل أخرى عديدة لمنع الوطني من ابداء رأيه أو ملاحظاته لوضعه في موضع الآلة الصماء البكماء العمياء :

١ – الجندي في معظم البلاد محظور عليه تحت طائلة العقاب الصارم التكلم أو الاشتغال بالسياسة، وبالتالي لا يجوز له أن يخالف رأي الحكومة برأي آخر، أو أن يناقش ضد جانبها. فكأن الثوب العسكري يحرمه أهم حقوق الوطني الا الاستهداف للهلاك في سبيل الوطن.

٢ – كذلك الموظف في مصالح الحكومة الدكتاتورية لا يجوز أن يكون له رأي غير رأي الحكومة، ولا يجوز له أن يناقش الا في جانب رأي الحكومة، وإلا تعرض للعزل فضلاً عن العقاب إذا كان قد سفه رأي الحكومة بشدة.

٣ – العمال المستخدمون في المصالح الأهلية وفي المعامل، وكل من هم على شاكلتهم انما هم مسلوبو الحرية من نواحٍ مختلفة: أولاً: من ناحية انهم محصورون ضمن نطاق عملهم فلا متسع من الوقت عندهم لبحث المسائل السياسية والاجتماعية. هيهات أن يبقى عندهم وقت لقضاء مصالحهم الخاصة الشخصية والعائلية.

ثانياً: ان انحصارهم ضمن نطاق العمل في عمل واحد على وتيرة واحدة يجعل عقولهم بليدة قلما تحسن التفكير. ناهيك عن ان هذا الانحصار يسلبهم فرص الاختبار واحتكاك الأفكار بالأحوال الخارجية والعمومية. فلا يحسنون تكوين آراء.

ثالثاً: انهم وهم مضطرون الى المحافظة على مراكز خدمتهم ملزمون أن يراعوا خواطر أسيادهم أصحاب أعمالهم. فآراؤهم، إن جاز لهم ابداؤها، إنما هي آراء أسيادهم.

رابعاً: في ظل الحكم الدكتاتوري يكون جيش العمال «بلا حرية رأي» البتة، بل قل «بلا ارادة» ما دام هؤلاء العمال لا يستطيعون التفوه إلا بارادة أسيادهم الرأسماليين. والغالب أن أسيادهم أداة في يد الحكومة الدكتاتورية، والأغلب بالعكس، أي أن الحكومة الدكتاتورية آلة في أيدي أولئك الرأسماليين، وفي أي الحالين الحكومة والرأسمالية يجريان مجرى واحداً. لذلك يكون ذلك الجيش من العمال آلة بلا ارادة في يد السلطة. فمن يبقى إذن حر الرأي؟

٤ – المشتغلون بعملهم. وهؤلاء أقلية لا يعتد بها وهيهات أن تستطيع الافلات من قبضة الدكتاتورية.

د — حرية العمل

بقيت حرية العمل وهي بعد ما تقدم من البحث لم تبق موضوعاً للبحث لأن مسلوب حرية الفكر وحرية القول لا يستطيع أن يملك حرية العمل فيما لا يفكر فيه وفيما لا يستطيع أن يتفوه به . يستطيع أن يعمل ما يجوز له أن يقوله فقط ، لأنه لا يضاد ارادة السلطة الحاكمة بأمرها

٥ — صلاحية الرأى

بقي أمر جوهري لا بد منه لختم هذا التمهيد وهو : ما هو الرأي الذي يعتبر صالحاً لحياة المجتمع أو الأمة ؟

بحسب المبدإ الديموقراطي البحت الرأي الأصلح لحياة الجماعة هو الرأي الذي تقره أكثرية الجماعة لأنه ليس أولى من الجماعة نفسها لتقرير ما يصلح لها مهما كانت راقية أو منحطة ، مثقفة أو ساذجة . لأنها هي التي تتحمل تبعة رأيها صالحاً كان أو طالحاً ،وهي الجديرة باصلاحه أو تنقيحه أو العدول عنه ان كان غير صالح أو قليل الصلاحية . ولا وظيفة للسلطة الحاكمة الا تنفيذ ذلك الرأي الذي تقره الجماعة .

الرأي الأصلح لحياة الجماعة ليس من مواضيع هذا الكتاب والبحث فيه لا يسعه هذا المجلد الصغير ، فلانتعرض له . وإنما نذكر المبدأ العام الذي تبنى مصلحة الجماعة عليه وهو : إن كل رأي يكون فيه نفع الجماعة موزعاً على الأفراد بأكثر ما يستطاع ، وضرره العائد على الأفراد أقل ما يمكن ، هو الرأي الأصلح للجماعة .

وهنا نسأل : هل يطابق هذا المبدأ العام سياسة الحاكمين بأمرهم وادارتهم ؟ وفي الجواب نشير الى بعض مبادئهم للدلالة على مبلغ غرور هؤلاء الحكام بعبقريتهم . وعنجهيتهم التي يتخلقون بها في فرض مبادىء اجتماعية على عقول أممهم لا تستطيع أن تقبلها الأقوام الساذجة ، فكيف تتحملها الشعوب الراقية بغير الرضوخ للسؤدد القاهر

اليك أمثلة على ذلك ما أورده مؤلف « الحرية اليوم » في حاشية صفحة ١١٤ : —

« الحقيقة لا ينبغي أن تكون دائماً مرغوبة . هذا في رأي الهر هتلر الذي صرح به

في محاضرة إذ قال بالنص : « ان الواجب على الألماني ان لا يطلب الحقيقة لذاتها Objective truth اذا كانت نافعة للآخرين . بل يجب أن يطلب بلا انقطاع الحقيقة التي تهمه نفسه »

وقد ورد في مرسوم للحكومة البروسية في مارس ١٩٣٤ « الاشتراكية الوطنية التي يدعيها حزب النازي، ويزعمها الهرهتلر،ولا أحد يدري أي اشتراكية هي، تهجر بعلم تعقلها نظام الثقافة الذي يجعل المعرفة غايته القصوى »

وصرح الدكتور فريك وزير الداخلية بهذا القول: « ان جهد الثقافة يجب أن يوجه الى انتاج الرجل السياسي الذي بأفكاره وأفعاله جميعاً متأصل في أمته ومندمج بتاريخها وإيمانها بلا انفصال . وأما الحقيقة لذاتها فشيء ثانوي وغير مرغوبة دائماً »

وصرح الهر روست وزير المعارف . « أنتظر من المدرسين أن يقدموا لتلاميذهم المبادىء الأساسية للفلسفة وفكرة « الاشتراكية الوطنية » .... لا ان يبقوا محايدين ومكبين على درس الحقائق لذاتها في المدرسة . ولا ان يجعلوا الغلام ملاحظاً بليداً ، بل يجب أن يوقظوا فيه الحماسة والعاطفة : ان هذه المسألة ذات قيمة إلهية وأبدية . وليست ذات حقيقة فاترة » . (١)

ومن ذلك قوله أيضاً : « ان من واجب « اتحاد « المعلمين » أن ينشئوا فكرة الوطنية والاشتراكية الوطنية .... يجب أن يدرب الطلبة على الطاعة العمياء للمعلمين » ...

ومن غرائب ثمار التعصب الألماني الجنسي ان الذائع في مجالس النازي ان نظرية النسبية التي أذاعها اينشطين العلامة الشهير قبل الحرب الكبرى اختلسها اينشطين من دفتر مذكرات كان في جيب ضابط بروسي (الماني) . فتأمل

بمثل هذه المبادىء يصوغ « الحاكم بأمره » الألماني الآراء الصالحة لأمته ، وهي آراء كلفت المانيا في كل من سنتي ١٩٣٥ و١٩٣٦ نحو ٨٥٠ مليون جنيه في الاستعدادات الحربية تجاه الدول التي يثير ايجاسها من شر بلاده بمثل هذه المبادىء العدائية

وعلى هذا النمط يصوغ موسوليني وأمثاله من « الحكام بأمرهم » الحقائق التي يسندون

---

(١) كتاب الحرية اليوم صفحة ١١٥

اليها تعاليمهم السياسية والوطنية . فمن أقوال هذا « العبقري الالهي » بهذا الصدد في كتابه « تعليم الفاشيزم السياسي والاجتماعي » : « الحكومة تمثل روح الأمة . فالحكومة هي التي تثقف الرعايا الوطنيين على قاعدة الفضيلة المدنيـة وتمنحهم وجدان Conciessness وسالتهم وتجبلهم في جبلة وجدانيتهم . وهي التي تقود الناس من حياة الفطرة الأولى الى عبادة القوة البشرية العليا التي هي الامبراطورية » [١]

وفي حين أنه يصرّح : « بأن الفرد في الحكم الفاشيستي مجرد من الحرية التي لا فائدة منها [٢] والتي قد تكون ضارّة وله ان يحتفظ بالجوهري منها فقط . يناقض هذا التصريح بقوله : ان الفرد في الحكم الفاشيستي لا يلغى من الوجود بل يضاعف وجوده [٣] .

ترى هل الآراء التي تصاغ من هذه المبادىء وتلك تصلح للنفع الأكثر والضرر الأقل للجماعة ؟ . للقارىء ان يزنها بميزان العقل المجرد من الغرض وثمّ يحكم .

(١) كتاب الحرية اليوم صفحة ١٧٨
(٢) من يحكم بأن لا فائدة منها ، الدوتشي أم الامة ؟
(٣) كتاب الحرية اليوم صفحة ١٨٢

الفصل الاول

نشوء الديموقراطية وتطورها

١ — نشوء الحكم

يفهم سواد المفكرين بالشؤون السياسية والمطالعين فيها ان الديموقراطية نظام سياسي اداري يتساوى الناس فيه بحرية التفكير والقول ، وبالحقوق الانسانية العامة ، كما هم متساوون بالواجبات الاجتماعية . وبحكم هذا التساوي يكون زمام حكمهم في أيديهم يسلمونه لنواب عنهم ينتخبونهم من خاصتهم ، المتازين فيهم برجاحة العقل والفطانة والحصافة ونقاء الضمير وسعة المعرفة والاختبار .

ذلك هو المعنى الشائع الآن للفظ الديموقراطية . ولكنه لم يكن المعنى اللازم له في كل زمان ومكان . بل اعتورته معانٍ مختلفة بعض الاختلاف بحسب الزمان والمكان ، كما سيتضح من سياق البحث .

وليس المقصود هنا بالحكم التحكّم ، بل المقصود به ادارة المصالح الداخلية وسياسة الشؤون الخارجية . فذلك النظام وهذا الحكم الذي يقتضيه مستندان الى القوة الصادرة من مجموع الأمة . ولهذا يجب أن نخص النبذات التالية بصدد القوّة التي يستند إليها الحكم

١ — نشوء التعاون الاجتماعي

الديموقراطية نزعة من نزعات الحياة ، فردية واجتماعية . هي عنصر من عناصر الحيوية كامنة في الهيولي نفسها . وقبل أن يبرز هذا العنصر الى الوجود الحيوي لابدّ من بروز الاجتماعية التي تنزع هذه النزعة — لا بدّ من تكوّن المجتمع . والاجتماعية نفسها سجية من سجايا الحياة ، تراها منذ نشوء الخليات Cells الحيّة . فما توالدت خليّة بروتوبلاسمية حتى صارت مواليدها جماعة متواطنة . ففي كل مستعمرة جرثومية بروتوبلاسمية ترى

ضرباً خاصاً من الجرائيم تتألف منه المستعمرة وتطرد سواه أو تلتهمه

ترى الاجتماعية الحيوانية ، كلما تصاعدت في دراسة سلم الحياة من الحيوانات الدنيا حتى الإنسان . وكلما تصاعدت فيها ترى هذه الاجتماعية أعقد حيوية، ووظائفها التعاونية أكثر تنوعاً . أجل ترى من ضروب تعاونها وتكافلها ما يكاد يقنعك أن هناك عقلاً يسوس ويدبر ، ويجمع ويفرق . ولا ريب أن العقلية الداخلية (الغريزية) تبتدىء مع بداية الحياة الأولى .

ترى الجماعة التعاونية في أسراب الحياة الدنيا حتى الحشرات كالنمل والنحل . وتراها في الوحوش كالإبل والأبقار البرية ، وفي الطيور الخ . واذا دققت في الدرس تراها في كل نوع من أنواع الأحياء بلا استثناء .

جمع كروبتكن [1] أمثلة عديدة عجيبة لتعاون الحيوانات . فمن ذلك أن نوعاً من الطيور المائية يدعي بجعاً (جمل الماء) Pelican يذهب جماعات لصيد الأسماك . فتختار الجماعة أولاً جوناً [2] من الأجوان . ثم تصطف تجاه شط الجون بشكل نصف دائرة واسعة مواجهة الشاطىء ، ثم تتقدم نحوه مضيّقة المساحة بينها وبينه سائقة الأسماك أمامها الى أن تحصرها . ثم تقبض على معظم الأسماك التي انحصرت في الدائرة الضيقة . وأما في الأنهار والجداول فتنقسم الى صفين متقابلين عن بعد، وكل منهما بشكل نصف دائرة . ثم يتقاربان الى أن يتصل طرفا نصف الدائرة الواحدة بطرفي نصف الأخرى . ولا يزالان يحصران الأسماك بينهما حتى يتسنى لهما الظفر بالجانب الوافر منها . حتى إذا جن الظلام عادت تلك الجماعات من مصائدها الى مراقدها . وما من أحد من الناس رآها تعترك متنازعة ما اصطادته .

الكركي أو الرهو ، وهو نوع من الطيور المائية ، تعيش جماعات بسلام تام فيما بينها، مسالمة لسائر الطيور المائية الأخرى . ولها نظام كشافة عجيب . فتقيم عسساً حول الجماعة في اثناء راحتها وغذائها ورعاية صغارها . فإذا باغتها صياد بشري في اثناء ذلك افرنقعت

---

(١) انظر Democratic Process حاشية صفحة ١٥

(٢) الجون خليج صغير في البحر ، الشط فيه شبه نصف دائرة

ولا تعود ثانية الى ذلك المكان لأنه أصبح في يقينها خطراً . وانما ترسل في أول الأمر كشافاً يستكشف الناحية . ثم ترسل ثانية زمرة من الكشافة ، حتى متى عادت الكشافة بخبر زوال الخطر تبعث بزمرة أخرى أوفر عدداً لكي تتأكد صحة الخبر . وأخيراً تعود الجماعة كلها مطمئنة .

ومن غريب ما يروى ان كلاب البرية في أميركا تخرج من أوجارها عائلات ، وتتداعب مرحة وتتزاور ، ثم تعود الى أوجارها .

وفي سيبيريا الشرقية تتوافد الأيائل من نواحٍ مختلفة الى نقطة معينة لكي تهاجر الى صقع آخر سرباً واحداً (١) .

وهناك أمثلة عديدة على اجتماعية الحيوانات تثبت لك ان الحيوانات الضعيفة تدفعها الغريزة الى الاجتماع والتعاون حرصاً على بقائها . والأنواع القليلة الاجتماعية الضعيفتها أو العديمتها معرّضة للانقراض مهما كانت قوتها الفردية شديدة . والعقلية غريزية كانت أو اكتسابية تستقوي بالتفاعل الاجتماعي كما لا يخفى عليك . ولذلك ترى الحيوانات الأمتن اجتماعية أقوى غريزة في درء الأخطار واكتساب المنافع .

فلا تستغرب إذن انه بقوة العوامل الاجتماعية ساد الانسان العوالم الحيوانية والطبيعية جميعاً .

٢ — الاجتماعية نظام وقوة

الخيط المثلث لا ينقطع سريعاً . كذا قال الحكيم . وقوة الجماعة متحدة أقوى من قوى أفرادها غير متحدة . هذه حقيقة فلسفية لا مشاحة فيها . السفينة في متلاطم اللجج أثبت من حطامها المفككة التي تبعثرها الأمواج هنا وهناك . الريح لا تفتت السنبلة القائمة ، ولكن إذا فتتها الدارس ذرّت الريح عصافتها في كل ناحية . إذن الاجتماعية قوة عظمى .

كذلك الاجتماعية نظام . هذا النظام مفقود في الفردية أو في الأفراد متفرقة . أعواد الكرسي متفرقة لا تصلح للجلوس عليها ، حتى ولو كانت متجمعة بعضها على بعض .

(١) أنظر صفحة ١٥ The Democratic Process

لا تصلح للجلوس عليها إلا بعد أن يجمعها النجار بشكل كرسي ، ويربطها بعضها ببعض ربطاً متيناً .

ترى أن أعواد الكرسي ومساميره وغراه الخ لا تساوي كرسياً البتة . وبعبارة معكوسة ، الكرسي لا يساوي الأعواد والمسامير الخ فقط ، بل يساويها ومعها شيء آخر . فما هو هذا الشيء ؟ ليس اجتماعها فقط ، بل انتظامها معه أيضاً . فالكرسي = الحطام + فن النجار . والبيت يساوي = الحجارة + فن المعمار . وهكذا كل مصنوع = الحطام + النظام .

كذلك الجماعة هي مجموعة أفراد ونظام اجتماعي معاً — هي أفراد منتظمون في نظام ذي قوة ، وما هي أفراد مبعثرون أو مجتمعون بغير نظام .

فكيف تنتظم الجماعة ؟

ينتظم مجتمع الجماعة إذا شعر كل فرد فيه انه لا يستطيع أن يدرأ خطراً عنه ، أو يكتسب منفعة ، الا بالتعاون مع رفقائه . والأخطار التي هو عرضة لها ترجع الى ناحيتين :—

أولاً — ناحية الطبيعة التي تجود عليه بالرزق جزاء عمله فيها . فهي عرضة للنضوب أو الشح أو المحل .

ثانياً — ناحية الاجتماع ، وهي غزو جماعة أخرى لجماعة ، بغية استعبادها ونهب قسطها من خير الطبيعة .

لذلك هو مضطر أن يتفاهم مع رفاقه على التعاون لدرء هذين الخطرين ، لأن الغريزة والعقل الاستدلالي الاستنتاجي أرشداه الى أن هذا التعاون الاجتماعي ينقذه من الخطرين . فكيف يحصل على هذا التعاون ؟

يدرك أن هذا التعاون نظام يستلزم تنظيماً .

والتنظيم يستلزم منظماً .

يدرك ذلك بالغريزة وان لم يفهمه فهماً فلسفياً بالعقل . لذلك ترضخ الجماعة لتنظيم منظم .

ومن هو المنظم ؟

هو المسيطر الذي يذعن له الأفراد ويأتمرون بأمره .

هذا يدركه الأفراد بالسليقة أيضاً من غير اعنات فكر . وتؤيده الوقائع والتجارب فكيف ينشأ المسيطر ؟

٣ — نشوء المسيطر

السيطرة، سواء كانت سلطة حاكم مطلق أو سلطة ادارة ، لا يمكن أن تستتب الا إذا كانت مسندة الى قوة كافية لقيامها . ولا نعرف مصدراً للقوة العظمى إلا قوة الجماعة كما تقدم القول . لا يستطيع فرد أن يتحكم بجماعة بقوته الشخصية ، ما دام « ضعيفان يغلبان قوياً » ، إذن فمهما كان الفرد ذا شخصية قوية فلا بد له من استخدام قوة الجماعة نفسها — فكيف يستطيع أن يستخدمها ؟

لهذا الأمر وسيلتان : ١ — التزعم . ٢ — التنظيم .

١ — التزعم : هذا الموضوع يحدو بنا الى البحث في نشوء « الحكم » أو بعبارة أوسع نشوء « السيطرة » . لذلك نتصور جماعة أولية أو قبيلة في بدء اجتماعيتها وجدت نفسها تواجه في معيشتها مشكلتين : الأولى خلافات تنازعية بين أفرادها لا تكاد تحسم إلا بالخصام والمشاجرة، وبالمقاتلة أخيراً، بحيث يؤول الحق للغالب، ولكنه يثير حنق المغلوب وحفيظته . والثانية احتكاكها بقبيلة أخرى مجاورة لها . ولا يكاد يسلم هذا الاحتكاك من الأيلولة الى حرب بين القبيلتين . وفي كلتا الحالتين يدرك أفراد القبيلة أنهم خاسرون وغير مطمئنين لمعيشتهم ، فلا يلبثون أن يكتشفوا أن الوسيلة الفضلى لتلافي هذا القلق هي أن ينضووا تحت كنف زعيم يتولى أمرين مقابلين لتينك المشكلتين . الأول: أن يقضي بينهم ويفض خلافاتهم . والثاني : أن يقودهم لمقاتلة القبيلة الغازية لهم كعصبة واحدة . وفي مقابل حسنات هذه الزعامة يتعهدون ضمناً أو بصراحة بالطاعة والاذعان لأوامره .

ولما كانت القبيلة عادةً من سلالة واحدة ودم واحد، كان كبيرها سناً أو حنكة واختباراً ودهاء هو المتزعم . بواسطة هذا التزعم يصبح زمام قوة الجماعة في يد الزعيم القائد القاضي والحاكم . وبموجب حق الزعامة ينفذ قضاءه فيهم وأوامره الادارية والحربية باستخدام هذه القوة أو باستخدام جزء منها حسب الاقتضاء . ومن هنا ينشأ التنظيم .

٢ — التنظيم — ومتى استتب الأمر للزعيم برضى الجماعة، شرع ينظم القوة التي ينفذ بها قضاءه وأوامره. فيعين شرطته ويرتب جنديته ويوظف عمال ادارته.

بهذا التنظيم يستتب له الأمر والنهي، ويصبح زمام القوة في يده، حتى اذا تمرد أحد الأفراد على سلطته أخضعه بهذه القوة رغم أنفه. فإذا استطاع أن يقمع بنظام قوته هذا ثورة متمردين أصبح صاحب السلطة المطلقة، بحيث لايستطيع أناسه ان يستردوها منه، أصبح أميراً فملكاً.

بعد بلوغه الى هذه الدرجة من الاعتصام بزمام القوة يصبح النزاع بينه وبين قومه فاتراً أو حاداً، بقدر ما يحسنه من رعاية، وما يحكمه من نظام:

بحسن النظام يظفر بقوة القوم. وبه يتحكم بالقوم بواسطة قوة القوم. وبه يجعل القوم يخلدون الى حسن رعايته.

فما هو سر أن فرداً واحداً يستطيع أن يتحكم بجماعة ويستبد بهم، وقد يكون عامي واحد منهم أقوى منه عضلاً وعقلاً؟ السر هو ان الحاكم يمتاز باحراز أمرين: قوات الأفراد متجمعة، وتنظيم هذه القوات. وأما الأفراد فلا يحرزون إلا قواتهم متفرقة — كل يحرز قوة نفسه. وقد لا يحرزها إذا زجه الحاكم في نظام جنديته أو شرطته، أو إذا اعتقله أو اذا أبعده.

فترى ان اتحاد الجماعة تحت رعاية نظام الزعيم — هذا الاتحاد الذي اخترعه الانسان لأجل ضمانة سلامته وسلامه، وضمانة الأمن لاسترزاقه — كان العامل الرئيسي في استعباد الزعيم له واستغلاله. وندر أن الزعيم الظافر بالسلطة لم يستأثر بها، ويجعلها اداة لنفعه الخاص، وذريعة للاستعلاء على قومه. وهذا الاستعلاء نفسه يصبح مع الزمن وسيلة نفسية لتعزيز سلطته.

فمنذ نشوء الزعامة في كبير القبيلة وشيخها وبطلها نشأت الكهانة. وهما صنوان متماشيان. وعلى تقادم العهد يصبح البطل الزعيم الميت إلهاً، وحفداؤه أولاد الإله. وبالتالي أنصاف آلهة. فروعة الالوهية تعزز سلطة الزعيم في نفسية القوم. ولذلك كانت الكهانة التي هي وظيفة سلالة الإله مقترنة بالزعامة. وفي كثير من سلطات التاريخ كانت الزعامتان الدينية

والسياسية تجتمعان في الملك ذي السلطان الأعلى .

بقي هذا التقليد العظيم الشأن دهراً طويلاً حتى جيلنا الحاضر . فابن السماء الصيني، والقيصر الروسي وغيرهما لم يخلعا عن عرش الالوهية أو عرش النيابة عنها إلا في أوائل هذا القرن . وبابا روما كان زمناً طويلاً يجمع السلطتين في يده .

وفي سنة ١٩٠٦ سنّت المادة الرابعة من قوانين الدولة الروسية بهذا النص :

« انّ لإمبراطور الروسيين القوة الاوتوقراطية العليا . فطاعة سلطانه ، لا عن رهبة بل عن ضمير حيّ ، إنما هي أمر من الله نفسه »

والملك جايمس الأول الانكليزي الذي حكم من سنة ١٦٠٣ ١٦٢٥ حاول ان يثبت في « قانون الممالك الحرّة » من نصوص الكتاب المقدس ومن الشرائع الطبيعية والانسانية، أن الملوك يحكمون بحق إلهي ، الى أن قال : — « انه لالحادٌ وكفرٌ شنيعٌ وتجديفٌ فظيعٌ أن يناقش أحد فيما يستطيع الله أن يفعله . وهكذا يُعَدُّ تجديفاً ووقاحة ان يجادل أحدٌ فيما اذا كان ملك لا يستطيع أن يفعل هذا الأمر أو ذاك »

بهذه العقيدة — عقيدة أن للملك حقّاً إلهيّاً ببسط سلطانه على قومه — كان الملوك يؤيدون شوكتهم ويعزّزون سلطانهم . وفي كثير من الأحيان كانت هذه العقيدة وحدها كافية لتأييد الملك في عرشه،لأن اغراق الجمهور بها كان يردعهم عن الافتئات على سلطانه ، بل كان يدفعهم الى التضحية في الذود عن عرشه وحمايته من الغاصبين .

لهذا كان أفعل سياسة يسوس الملوك بها رعاياهم، هي تعظيم الروح الدينية، واعظام نفوذ الإله وتأثيره في حياتهم الزمنية، فضلاً عن الأبدية . فلا بدع ان تكون النعرات الدينية معظم أسباب الحروب في القديم، حتى في العصور الأخيرة .

٤ — غريزة الحرية

وبالرغم من أن عقيدة السلطة الإلهيّة والوراثية كانت أيضاً ميراثاً اجتماعيّاً للعباد يتلقنها الأولاد عن الوالدين والأحداث عن البالغين ، عن الكهول والشيوخ ، كانت البديهة تحفز بعض العقول النيّرة لاستنكار هذه العقيدة، وتحرّض النفوس المتمرّدة على المجاهرة باستنكارها واستفزاز الجماعة لطرح نيرها عن رقابهم .

الحرية بديهية في الفكر . ولماذا يكون الانسان محروماً الحرية، وهو يرى الطيور والوحوش والحشرات حرّة ؟ ففي الطبيعة كل يوم محرّض له على استرداد حريته . فلا بدع ان يتحين كل فرصة لاسترداد حقه الطبيعي في ادارة حكم نفسه بنفسه . ومهما أنست التقاليد الانسان بأن السلطة التي يتمتع بها الحاكم ويستخدمها في استعباد قومه هي مستمدة من قوى قومه متجمعة ، فان تلك البديهة تفكره بأن هذه السلطة انما هي ملك القوم لا ملك الزعيم ، لأن ينبوع قوتها في القوم ، لذلك يحرّض نابغة القوم قومه على انتزاع تلك السلطة من الزعيم المستبد .

فما فتىء النزاع أو التنازع بين عباقرة القوم على السلطة متعاقباً متتابعاً جيلاً بعد جيل . العبقري الزعيم يجاهد في الاحتفاظ بالسلطة له . والعبقري الغيور يجاهد في سلخ السلطة من الزعيم وردها للقوم ، كما كانت منذ منشإ الاجتماع الانساني يوم انتخب رجال القبيلة زعيمهم أو شيخهم انتخاباً .

كذا كانت الديموقراطية منازعة الأمارة سلطة الحكم — منذ القديم الى اليوم . وكانت المعارك مترددة بين الجانبين . وإنما كان الفوز أغلب لناحية الحكم الفردي المطلق لصعوبة اتفاق الأفراد ضدها .

٥ — نظام الحكم المطلق

رأينا فيما تقدم ان الاجتماعية التي هي سجية طبيعية من سجايا الحياة العامة، اقتضت أن تكون نظاماً لكي تصدر منها قوة ، وان تنظيمها اقتضى ان يكون للجماعة مُنظِّم . ولا مُنظِّم لها إلاّ العبقرية المكنونة فيها، التي تبرز في شخص نابغ . فهذا الشخص النابغ هو الذي يجمع قوة الأفراد بيده ، وينظم الجماعة بهذه القوة الى أن يصبح مسيطراً .

لم ينصع الأفراد لهذا العبقري المنظِّم إلاّ برضاهم واختيارهم لتوسمهم الانتفاع عن يد تنظيمه . فسواء انتخبوه أو هو تولى الزعامة بالارث أو بالبطولة ، فاستيلاؤه على الزعامة جاء عن طريق الديموقراطية ، حتى لو اغتصبه اغتصاباً لبقيت روح الديموقراطية جرثومة في النظام ، لأنه يكون عرضة لخلع الجماعة له عند سنوح أول فرصة

من أمراض اجتماعية الانسان ان ديموقراطيتها التي هي سرّ نظامها بقيت ضعيفة دهراً

طويلاً . هو مرض عقام لا نجده في اجتماعيات الحيوانات الدنيا ولا العليا . أعني أنه ما قبض عبقري من الناس على زمام الزعامة إلاّ داس ديموقراطية الجماعة تحت قدميه، واستقلّ بالسيطرة ، واستبدّ بالقوم . وندر أن رأيت زعيماً أميراً أو ملكاً يحسن سياسة الحكم ، ويعمل لخير رعيته إلاّ اضطراراً . بل تراه يستأثر بالخير كله أو بمعظمه لنفسه ، ولا يبقي لجماعته إلاّ فضلات هذا الخير . كذا كان شأن الحكام منذ بدء التاريخ الى العصر الأخير تقريباً . فما سبب هـذا الداء الذي بلي به المجتمع الانساني ، وقد سلمت منـه المجتمعات الحيوانية ؟

السبب هو في نفس السبب الذي نشط بالنوع الانساني ودفعه دفعة قوية في سلم الارتقاء ، وجعله أعلى جدًّا في هذه السلم من سائر الأحياء . هو العقل نواة العواطف والشهوات . فالجماعة البشرية مشتركة بالعقل الاجتماعي الذي لا يزال ضعيفاً جدًّا وقاصراً بالنسبة الى العقل الفردي . ولكنها متنازعة الشهوات والعواطف . فلا بدع ان يسخر ذلك العبقري الذي ثبّت زمام السيطرة في يده قوة الجماعة لخدمة شهواته .

هكذا نشأ الزعيم ديموقراطيًّا . ولكنه ما لبث ان صار ملكاً مطلق الحكم . على انه مهما حرص على الاستقلال بالسيطرة فلا يستطيع ان يظفر به كله اذا اتسعت دائرة سلطانه، وتضخمت كتلة جماعته . لا تستطيع سطوته ان تنبسط على الملايين من النفوس والألوف من الأميال المربعة . لا بدّ ان يستعين بأعوان يشركهم بالسيطرة وبنعمائها ونعمها . وفي هذه الحالة ينثلم استقلاله وتضعف سيطرته ويصبح عرضة لخطر الانقلاب .

اما كيف تتسع دائرة سلطانه، فعلى حساب الجماعة نفسها . بقوة الجماعة تحدث ثلاثة أحداث:

أولاً — يتسنى للجماعة ان تنشط في العمل والاستغلال، وبالتالي في التوالد . فتنمو سريعاً .

ثانياً — يتسنى للزعيم (أو الحاكم) بقوة جندية الجماعة أن يفتح بلاداً أخرى فيضمها الى بلاده، ويوفر لقومه أسباب الرزق . وهذه تنشط فيهم قوة التوليد أيضاً .

ثالثاً — يضم الى قومه أسرى عبيداً أرقاء، ويستخدم قواهم في الاستغلال والتجنيد الخ .

كل ذلك يأول الى سعة ملكه وبسط سلطانه . وبالتالي يضطره الى استخدام الأعوان من عباقرة قومه ودهاتهم .

٦ — حكم الاعيان

متى احتاج الزعيم المسيطر الحاكم المطلق الى أعوان في الحكم ، نشأ النظام الحكومي بطبيعة الحال . لأن الحاكم يرى أن الوسيلة الفضلى للتنظيم هي أن ينوع أساليب ادارته الحكمية، ويوزعها على أعوانه ولاةً وحكاماً وقضاةً وقواداً وجباةً الخ . هم رجال الدولة .

حينئذٍ تظهر الديموقراطية ثانية من وراء غيوم الحكم المطلق الاستبدادي . تظهر فيما يأتي من الأحوال .

١ — يشترك أولئك الأعوان الحكام مع الحاكم الأعلى بالرأي والتنفيذ،وبقدر ما لهم من الاستشارة العقلية ، يحدون من سلطته،ويضطرونه الى اشراكهم معه بالسلطة.

٢ — تصبح نفمية الجمهور حجة لتدخل أولئك الأعيان ، وان كانت أحياناً حجة مزعومة موهومة .

٣ — يصبح في طاقة أولئك الأعيان أن يتآمروا على خلع الحاكم وتعيين غيره .

في مقابل هذه المزايا التي للأعوان،والتي تخيف الحاكم الأعلى من خطرهم عليه يضطر هذا الحاكم أن يفتت كتلة تآمرهم بأن يشتري ولاء فريق منهم بالهبات من الأملاك ، ويقطع دابر الفريق الآخر الذي يخاف طموح مطامعه .

من هنا صدر نظام الاقطاع . وهو تولية أفراد ممتازين ببطولتهم في الحروب ، أو بدهائهم ، مقاطعات يحكمونها ويستغلون مكوسها . وفي مقابل ذلك يقدمون للملك ولاء واتاوات وجنوداً . وفي الوقت نفسه يطرح عن عاتقه الاهتمام بادارتها وسياستها وحفظ الأمن فيها . هذه الولايات الاقطاعية متوارثة .

هذا بيان اجمالي جداً لنظام الاقطاع . ولكن تفصيله يكاد يكون مستحيلاً لأنه مختلف الاشكال في الزمان والمكان . والمهم فيه أن لهؤلاء الولاة الاقطاعيين حق المشورة في مهمات الدولة السياسية والحربية . فهم شركاء الملك في الرأي والتنفيذ . ومجلسهم يعد ذا لون ديموقراطي .

الحكم الذي يشترك فيه الأعيان مع الملك كثيراً أو قليلاً يعد حكم الأعيان Oligarchy هذا الحكم الملكي المقيد بالأعيان قديم العهد ، تجد آثاره منذ بدء التاريخ . على أنه

لا يختلف عن الحكم الملكي المطلق من حيث تأثيره في الشعب . فهو مثله استبدادي . وكثيراً ما يكون أكثر منه ظلماً للرعية ، لأن المتمتعين فيه ، والمترفين على حساب الشعب عديدون . كل منهم يريد أن يكون مترفاً ترف الملك .

وندر أن ظهر في تاريخ الحكم الملكي ملوك عملوا لخير الشعب، قامعين شهواتهم وكابحين جماح عنفوانهم، كبعض ملوك اسرائيل القدماء، وبعض سلاطين صدر الاسلام ـ دولة الراشدين

وقد علمت في مطلع هذا الفصل ان الغرض الأساسي من نشوء الحكم هو ضمانة السلامة والسلم والأمن لتوفير الرزق للقوم . ولكن هذا الغرض ينعكس في ظلّ الحكم الملكي، أو الأعياني المطلق انعكاساً فظيعاً، في ظل هذا الحكم الاستبدادي يحدث ما يأتي :

١ — تنسحق الحرية الفردية حتى ضمن دائرة القانون . يصبح القانون بأزائها حبراً على ورق . تُحبَس حرية الفكر وحرية القول وحرية العمل .

٢ — يتعرض كل نابغ وعبقري لخطر الهلاك . لأن عبقريته ونبوغه خطران على السلطة، فالسلطة الحاكمة تغتاله بأية الوسائل لكي تتخلص منه .

٣ — تحرم حرية الاجتماعات بقدر الامكان، مهما كان نوعها تفادياً لتفاهم القوم وتواطؤهم على المؤتمرات .

٤ — لا يسمح بإنشاء جمعيات أو أندية ونحوها للسبب السابق عينه .

٥ — تمنع الثقافة ما استطاعت لكيلا يتنبه الشعب للمطالبة بحقوقه الطبيعية .

لا تكتفي السلطة بما تقدم تحامياً لتآمر الجمهور ضدها ، بل تختلق أسباباً للفت أنظارهم عنها : —

١ — تختلق فتناً سرّية بين الشعب لكي يشاجر بعضه بعضاً ويقتتلوا ويتعادوا .

٢ — تثير فيهم حسد الفقير للغني والوضيع للرفيع .

٣ — تعمل كل ما يمكن عمله لافقار الشعب لكيلا يستطيع التحفز للثورات .

٤ — تثقل عملية الضرائب لكي تغدق المكافآت لحرسها ولأعوانها . وبذلك تختلق أيضاً ضغينة بين الحرس والشعب [1]

---

(١) يقال انه في عهد حكم الامبراطور غليوم الالماني كان الجيش معززاً جداً، بل جعل أغلى قيمة في الامة، حتى اذا أساء جندي لمدني ـ ومع الجندي، وربما عوقب المدني وهو بريء .

٥ — تفتعل الحرب أحياناً لكي تشغل الشعب بها عن الثورة ضدها .

إذن السلطة المستبدة ما كانت في زمن من الأزمان إلاّ عقبة في سبيل تقدم الهيئة الاجتماعية .

ان دور الملكية الطويل جدير بأن يسمى دور « الحضارة الاستعبادية » . وبقدر ما كانت الملكية تتقيد بفئة من الأعيان ، أو بشيء من ارادة الشعب كانت الروح الاستعبادية تضمر وتضعف . ولكن ما دام ثمت ملكٌ له ارادة مطلقة ولو في بعض الأمور ، فهناك عبودية محدودة بتلك الارادة . هذا الاعتبار ينطبق على الدكتاتور (الحاكم بأمره) كما ينطبق على الملك المطلق . ورُبَّ دكتاتور اليوم أعظم سلطاناً ، وارادته أثقل وطأةً من ملك كان مطلق الحكم .

٧ — حقوق الانسان الطبيعية

بالرغم من مظالم الحكام المستبدين لم يمكن صدّ التقدم الاجتماعي صدًّا تامًّا . لأنه مهما اشتد الاستبداد فلا يمكن أن يخانق المعرفة والفنّ جميعاً ، ولأن المستبد نفسه يحتاج اليهما حاجة شديدة ، وإلاّ فلا يتمتع بثمرة استبداده .

المستبد يحتاج الى أهل العلم والمعرفة والفن ، لأنه في حالة السلم يود أن يتمتع بالأبهة وهناء المعيشة . وكلاهما يحتاجان الى ذوي الفن لكي يبنوا القصور وينقشوها ، وينسجوا الأطالس وينمقوها ، ويوشوها ، ويصوغوا الحلى ويزخرفوها ، ويطهوا ألوان الطعام ، الى غير ذلك من بهجة الحياة وأطايبها . وفي حالة الحرب يحتاج الى أهل الفن للتفنن في صنع السلاح ، وفي رسم الخطط ، الى غير ذلك من لوازم الحرب . وكل هذا وذاك يحتاج الى فن . والفن ابن العلم والمعرفة ، وهما سلم الارتقاء الحقيقي ، وفيهما يتنبه الجمهور الى حقوقه الطبيعية والمطالبة بها . فترى ان الاستبداد نفسه يبحث عن حتفه بظلفه . يختلق القوة القاضية عليه

لذلك في مقابل ادعاء السلطة الالهية التي كان الملوك بها يضعون نيرهم على رقاب الشعب تنبهت في الشعوب روح حقوق الانسان . وبهذه الروح نشأ النزاع الحاد بين الشعوب والسلطات لاسترداد الديموقراطية الى مقامها الاجتماعي .

ب — سير الديموقراطية

في احناء الملكية المطلقة

بالرغم من طغيان استبداد الحكم الملكي المطلق كانت روح الديموقراطيـة متغلغلة في أنظمة الحكم منذ نشأ ذلك الحكم. كانت تلوح أحياناً ثم تختفي حيناً، وتلمع تارةً ثم تغيب أخرى. ترى هذه الروح واضحة في تاريخ الامة الاسرائيليـة كله، فندر ان استبدّ ملكٌ من ملوكها. لأن يهوه رب الجنود المقيم في أدمغة الشعب كان يقف للملك أو القائد بالمرصاد، حتى اذا جنح عن الصراط الذي رسمه الوحي له ضربه بقوة الشعب نفسه، أو سلط عليه الأمم الأخرى المعادية. وكان النظام الديموقراطي الاسرائيلي ممثَّلاً بجميع القضـاة الذين كانوا ينوبون عن أسباطهم. ولم يكن لوارث الملك حق الارث إلاّ بموافقة الشعب أو نوّابه. في ذلك النظام كانت العبودية ظلاً خفيّـا، اللهمّ إلاّ طائفة الأرقّـاء الأجانب عن « شعب الله المختار »

ولا ريب ان هذا النظام الديموقراطي كان العامل الأكبر في بقاء هـذه الأمة الصغيرة بين الدول الـكبرى المحيطة بها: مصر وبابل وفارس. ولو كان نظامها ملكيّـا مطلقاً لانقرضت سبياً واستعباداً، واندغمت بقاياها في الأمم السابيتها. لم يكن في الممالك المعاصرة للمملـكة الاسرائيلية مثل هذا النظام. وإنما كان مثل ظله عند بعضها أحياناً.

١ — استعانة الملك بالنواب لجباية الاموال

قلنا فيما سبق أن المُـلكَ متى اتسع جدّاً، وتعذّرت على الملك الاحاطة به، اضطرّ الملك أن يشرك معه أعواناً في ادارته واستغلاله. وفي هذا الاشراك شيءٌ من الديموقراطية، ولـكنها « ديموقراطية استعبادية »، لأن سواد الشعب لا رأي له فيها ولا نفوذ، وإنما عليه نير العبودية أثقل. فما كفاه أن يبتزه ملكٌ، حتى صار يبتزه حواشي ملكٍ أيضاً.

وكان الملك (أو الوالي) اذا رام أن يجبي مزيداً من مال الشعب، وهو يخشى أن يتمرّد الشعب مضرباً عن الدفع، لئلا ينوء تحت ثقل الضرائب، يتذرّع (الملك) بالشيوخ الى هذه الغاية. فيشرّفهم بانتدابهم أعضاء في مجلس يزعم أنه مجلس الشورى. ويستشيرهم في حاجة الدولة الى المال للانفاق على اصلاحات أو على الحرب. وهو لا يبتغي الاستشارة، بل

يبتغي فرض ارادته عليهم، وحملهم على اقناع اتباعهم بدفع الضريبة الجديدة . فبهذه العضوية الشوروية يضمن الملك معونة كل واحد منهم له في قصده

كان مجلس الشيوخ هـذا في جميع دول العهد القديم ، ودول التاريخ المتوسط حتى الحديث، ذريعة لمثل هـذا الغرض أو ما يشابهه . والنظام الديموقراطي الحديث ابتدأ على هذا النمط في الدولة الانـكليزية الباقية ، المعتبرة أقدم ديموقراطيات هذا العصر منذ ثمانية قرون . فـكان مجلس الاستشارة للمكوس نواة البارلمنت الانكليزي . وكانت أمم أوروبا تحذو حذو انكلترا في اقتباس هذا النظام .

حتى في مصر لعهد الاحتلال الانكليزي ،كانت الجمعية التشريعية مختصة بسن القوانين المالية فقط . ولم يكن لها شأن في الأمور الأخرى . وأما مجلس شورى القوانين فلم يكن له إلا الرأي الاستشاري فقط . ومرجع حق التنفيذ للسلطة الحاكمة وحدها

٢ — مجلس الشورى

وهو أمر طبيعي أن يبتدىء النظام الديموقراطي بالشورى في جباية الأموال فقط ، لأن الملك يحتاج الى الأخذ من كل فرد مباشرة . فأسهل عليـه أن يفوّض الى زعماء الأسرات أو القبائل أمر هذه الجباية ، ويشركهم بعمولة منها. وهم لعلمهم بدخائل ناسهم وبواطنهم أقدر من رسله ومندوبيه على قضاء هذه المهمة . وحسبهم مكافأة على هذا الصنيع أن تعفى أملاكهم من الضريبة ، وهي كثيرة لأنهم عادة أغنى الأفراد في قومهم .

نرى أن طبيعة الحال اقتضت أن تؤلف مجالس الشورى (الحاليـة) التي هي نوى البارلمانات من أغنياء الشعب . ولذلك كانت البارلمانات الأولى في جميع انحاء أوروبا مؤلفة من طبقة الأغنياء . ولا ينتخب الا الأغنياء لعضويتها . ولذلك كانت الحـكومات حكومات الأغنياء الأعيان Plutocracy

ابتدأ الانتخاب لعضوية البارلمان على نفس الأساس الذي ابتدأ به تعيين أعضاء الشورى. فلكي يحصل الملك على المال الذي يبتغيه من الشعب يُغريه بأن يمنحه الحرية في اختيـار شيخه أو زعيمه القروي ، ولا سيما اذا كان ثمت أكثر من شخص واحد يجاهد للحصول على الزعامة أو الشيخية . ولذلك يرجح الباحثون الاجتماعيون أن نظام الانتخاب ابتدأ في

القرى أولاً ، أي في الادارة القروية (البلدية) . فلشيخ القرية وظيفة أخرى مع وظيفته في مجلس الشورى ، وهي ولاية بعض الشؤون القروية التي لا محيص للادارة الحكومية من طرح عبئها عن عاتقها . وقد لا تحتاج الدولة لعضويته في مجلس شوراها بتاتاً أو يندر أن تحتاج إليها

وقد يحتاج الملك الى معونة الشيوخ والأعيان في أحوال الدفاع عن الدولة أكثر جداً مما يحتاج الى مال الأمة لأجل ترفه وقصفه وبذخه . وقد لا يستطيع أن يقوم بأعباء الدفاع اذا دوّى صوت النفير ، إلاّ برضى أولئك الأعيان . فهو مضطرٌ ان يجمعهم في مجلس استشاري لكي يبسط لهم الخطر المقبل على المملكة من غزو دولة أخرى ، ويقنعهم أن ويل هذا يقع عليهم كما يقع عليه . فيقتنعون بوجوب جمع المال والجنود والعتاد .

ناهيك عن أمور كثيرة لا يستطيع الملك الواسع الملك ان يفعلها إلاّ برضى الأعوان والزعماء . فهو في كثير من الاحوال مضطرٌ أن يجعل تحت يده مجلس أعوان يستقضيه أغراضه . فمجلس الشورى اذاً هو جنين البرلمان ، تتمخض به الدولة حين تلجأ الى نظام الانتخاب القروي .

مهما كان البارلمان في أول أمره استشارياً أو تنفيذياً ، شكلياً لا فعلياً ، فهو في الطريق الى نظام السيطرة البرلمانية الفعلية على الدولة ، ولو بعد أمد طويل .

واذا تكوّن البارلمان انفتح باب حرية الكلام والنقاش ، وانشقت طرق السعي الى « حقوق الانسان » ، وانعقد المجلس للتآمر على السلطة ، وارغامها على التسليم بحقوق الانسان الطبيعية .

الملك ، في اضطراره ، لاتساع ملكه ، أن يستعين بشيوخ قومه على قضاء ما ربه النفسانية الخاصّة ، جمع بنفسه الهيئة المضيقة على حريته ، والموسعة لحرية أمته ، ووحّد القوى التي تقضي على مطلق سلطانه ، وتقطع شأفة استبداده .

هنا نرى مرّة أخرى الاستبداد نفسه مضطر ان يسعى الى حتفه بظلفه .

لماذا ؟

لأن النظام الديموقراطي نظام طبيعي ، ونظام الحكم الفردي افتئات على النظام الطبيعي .

هذه القضية الطبيعية حجة قاطعة على ان المجتمع البشري لا يزال ضعيف الأدبية جداً . لأن الحاكم الفرد ليس له من أخلاقه ما يكفي لردعه عن تضحية المجتمع على مذبح شهواته. وإلا فلو كان الحاكم قديساً عفيفاً حقيقة ومنزهاً عن ارتكاب الآثام لكان أصلح للاستقلال بإدارة شؤون الجماعة ، حتى ولو كان وسطاً في الذكاء والنبوغ . لأن حصر سلطة الحكم في فرد كامل ينقذ الأمة من مشاكل داخلية خطيرة بسبب تضارب الآراء لتباين الأهواء . وإنما تناظر أفراد الأمة تحت راية الديموقراطية أخفُّ شراً من معاناة الأمة برمتها تحت نير الحكم المستبد الظالم .

فالنظام الديموقراطي يُعَد طبيعياً في الوسط الاجتماعي الضعيف الأدبية ، والركيك الأخلاق . ومتى ضارع الناس الآلهة في أخلاقهم ، فلا يبقى من حاجة لحكم ملكي ولا ديموقراطي .

ليس معنى هذا الكلام ان المجتمع الانساني لن يترقى أدبياً بتاتاً . لا . بل سيترقى تدريجياً وإنما لن يبلغ الكمال المطلق . لهذا تبقى للمجتمع حاجة الى نظام حكومي ولو خفيف الوطأة .

٣ — بارلمان الاعيان والملاك

ابتدأ البارلمان استشارياً مؤلفاً من اصحاب الاملاك ، ثم صار انتخابياً ينتخبه أصحاب الأملاك أنفسهم، لأنهم هم الذين يدفعون المكوس، فكان لهؤلاء ونوابهم شيء من العتق من العبودية للسلطة بقدر ما لهم من حرية الرأي . وبقي عامة الشعب أرقاء للملك وأعوانه وأعضاء شوراه .

أما وقد اجتمع نخبة رجال الأمة في مجمع يخدمون به الملك في استنزاف عرق جبين الشعب، فصار لهم حق مساومته . يعطونه كثيراً من ذلك العرق، ويأخذون منه قليلاً من « حقوق الانسان »، وهي حقوق الشعب في الأمن والعدالة والحرية الشخصية والصحة العمومية والتعليم والثقافة ورواج الأعمال، الى غير ذلك من الشؤون الاجتماعية العامة والاقتصادية (فضلاً عن الدينية أيضاً) .

في سلسلة هذه المساومات بين الملك وبارلمانه التي توالت عليها الليالي والسنون

والأجيال،كانت القوانين تصاغ ، ودوائر الحكم على اختلاف أنواعها تنظم ، وعلى التوالي كانت الأمة تظفر بواسطة نوابها بحقوق سيطرتها الديموقراطية على هذه الأنظمة ، فضلاً عن نظام التشريع الذي هو نواة الديموقراطية .

ظفر البرلمان بقوة التشريع قبل أن ظفر بالسيطرة على القوة المنفذة . كانت الوزارات مسؤولة للملوك رأساً،حتى بعد أن صارت قوة التشريع في أيدي البارلمانات . وما صارت الوزارة مسؤولة للبرلمان إلاّ في القرن التاسع عشر في بعض الدول الأوربية .

في القرن الماضي شرعت الحضارة العالمية تتحرر من العبودية التي كانت تطمسها في القديم، وتشوهها في التاريخ الحديث .

حتى أواخر القرن الثامن عشر كان الحكم في كل بلاد ملكياً مطلقاً حتى في انكلترا أعرق الأمم بالديموقراطية . أعني كانت الكلمة النافذة الأخيرة للملك ، وليس لوزرائه وشواره الا الرأي فقط. حتى ذلك الحين كان البارلمانت الانكليزي يقتصر على الشورى وعلى الانتقاد فقط . وكانت ارادة الملك مصدر السلطة . وندر أن حاول البارلمان أن يظفر بحق السيطرة الفعلية على ناحية من نواحي الحكم .

على هذا النظام أُنشئت حكومة الولايات المتحدة الأميركية القديمة أيضاً تحت سيطرة نائب الملك . ولكن ما لبثت صرخة « حقوق الإنسان » أن دوّت في أميركا ثم في فرنسا ، وتمخضت ثورتاها عن جمهوريتين طرحتا نير الحكم الفردي منهما بتاتاً . وكان هذا الحادث العظيم في تاريخ المجتمع الانساني زلزالاً زعزع العروش . فمن ثمت صار البارلمانت الانكليزي يقتنص السيطرة شيئاً فشيئاً من القصر ، الى أن ظفر بها كلها تقريباً . وحذت بارلمانات سائر أوروبا وأميركا الجنوبية حذوه،حتى تمّ استتباب أمر الديموقراطية في القارتين تقريباً في هذا القرن .

في القرن الماضي صار حق الرأي (الانتخاب) لكل ذكر بالغ بقطع النظر عن مقامه الاجتماعي أو الاقتصادي ، بعد ان كان هذا مقصوراً على أصحاب الأملاك أمداً طويلاً . وكان المراد بكلمة « الشعب » الذكور البالغين . وأما الذكور الأطفال فبطبيعة الحال لا يحسب حسابهم ، إلاّ متى أدركوا سنّ البلوغ . وأما الاناث فكنّ لم يزلنَ في صف

الأرقاء، لأنهنّ محرومات « حقوق الانسان » . وما زلن كذلك في فرنسا وفي بعض ممالك أوروبا، مع ان بعض ممالك الشرق ردّت للمرأة هذه الحقوق أو بعضها

المرأة الأميركية تمتعت بحق الرأي في نظام التعليم والثقافة والدين منذ منتصف القرن الماضي .

٤ — عقيدة حقوق الانسان

الديموقراطية الحديثة وليدة القرن الثامن عشر، وصبية القرن التاسع عشر . انما هي ثمرة لقاح التفكير الانكليزي والحماسة الأفرنسية والتحرر الأميركي . الأميركان والأفرنسيس طمحوا الى الحرية والاستقلال بتأثير الكتّاب الانكليز . وأخصهم جون لوك [1] . وفيما كان الانكليز لا يزالون محافظين على التقاليد، وحكومتهم تحت سيطرة أصحاب الأملاك الذين كانوا محتكري التصويت والنيابة، كان الأميركان يصوغون بنود « حقوق الانسان الطبيعية » التي كانت دستور ثورتهم لأجل الاستقلال، وطرح النير الانكليزي . ولأجلها انتصر لهم الافرنسيس وساعدوهم في حرب استقلالهم الذي أعلنوه سنة ١٧٧٦ وأعلنوا دستوره سنة ١٧٨٧ . ذهب المتطوعون الأفرنسيس الى أميركا لكي يتلقوا درساً في الحرية والحقوق الانسانية . وعادوا وفي صدورهم الحماسة التي دكت سجن البستيل بعدئذٍ

وقد حذا الكتّاب الأفرنسيس حذو الكتّاب الانكليز في بيان « حقوق الانسان المدنية » وتحريض الشعب الأفرنسي للحرص عليها حتى استفزوه للثورة سنة ١٧٨٩ الى أن أعلنوا حكومتهم الجمهورية سنة ١٧٩٣، بعد أن حاكموا ملكهم وقاصّوه .

وكان الأميركان أول من نادى « بحقوق الانسان » و « بسلطة الشعب » The soverlin People وأخذها الأفرنسيس عنهم . ونشروا لائحة « حقوق الانسان » في « المجتمع الوطني » في باريس سنة ١٨٧٩ . وفيه نصٌّ بليغ على أن الجهل وازدراء حقوق الانسان هي السبب الجوهري في بؤس الشعب وفساد الحكم .

وأول بند من بنود هذه العقيدة السياسية الجديدة — عقيدة « حقوق الانسان » :

(١) انظر صفحة ٢٧ من "Democracy" by Delisle Borns

« ان النـاس يولدون متساوين ويبقون أحراراً . فهم متساوون في « الحقوق » . والبند الثاني ينص : على « ان الغاية من أي مجتمع سـياسي انما هي الاحتفاظ بحقوق الانسان الطبيعية والمكتسبة بالقدمية Prescriptive . والثالثة تنص : على « ان المبدا الأصلي في الحـكم أو السلطة موجود في الأمة » . (كما سبق تبيانه في مطلع الفصل) . وفي البند السابع عشر : « ان الملـكية حق مقدّس للفرد لا يجوز سلبه »(١)

هـذه مبادىء مستخرجة من أقوال فلاسفة الاجتماع في ذلك العهـد وقبله . فأصبحت قوة عظمى في نظام الحـكومة .

وأما ألفاظ « الحقوق » و « الحـكم أو السلطة » و « الأمة » و « الملكية » الخ فلم تكن واضحة المعنى ، أو لم يكن مفهومها واحداً عند كل فرد وجماعة . وإنمـا هي التي أصبحت محاور مباحث العلماء الاجتماعيين والسياسيين .

على انه مهما تعدّلت المعاني أو تنقحت ، فالانقلاب كان محتوماً من حقوق الملك الالهية ، الى حقوق الانسان الطبيعية ، ومن الحـكم الملـكي الاستبدادي الى الحـكم الشعبي الحرّ ، ومن الاستعباد الى الحرية ، ومن الاستسلام والاذعان الى المناقشة والانتقاد ، ومن الجهل المطبق الى نشر المعرفة والعلم والثقافة ، ، وبالاجمال انقلاب من عصور بؤس للعامـّة الى عصر يسر وهناءة لهم بالنسبة الى ماضي أجدادهم .

الحق يقال ان القرن التاسع عشر يُـعَـدُّ طفرةً الى الأمام في الحضـارة . فهو جدير بأن يسمى عصر العلم والاختراع ، والفن واليسر الاقتصادي ، لأن استتباب أمر الديموقراطية فيه أطلق حرية الأفراد من عقالها .

في القرن التاسع عشر تضعضعت سلطة الملك الإلهيـة وأصبحت سلطته مستمدة من رضى الشعب ، وحكومتهُ تحت سيطرة نواب الشعب . أصبح البارلمان وفي وسعه أن يسقط الوزارة ويقيمها ، وان يؤيد الملك ويخلعه . وأصبح الملك مقيداً بالدستور ، وعليه أن يحلف أنه يخلص له ، حتى إذا انتقض عليـه أو نقض شيئاً فيه ، كان عرضة لتهمة « الخيـانة العظمى » . وأصبح الدستور سنة يسنها البارلمان ، لا شريعة يشترعها القصر . ولم تعد ارادة

(١) صفحة ٢٦ من كتاب Democracy الآنف ذكره في حاشية الصفحة السابقة

الملك قانوناً ، بل ارادة مجلس الأمة قانون الأمة . أصبح الملك تقليداً قديماً، ليس له الا حرمة التقليد وقداسته . أصبحت قوة الأمة مصدر قوة الحكم علناً وجهاراً . أصبحت السلطة الملكية تعترف بهذه الحقيقة، لأنها لم تعد تثبت بمجرد الاستناد على « الحق الالهي » . أصبح « صوت الشعب من صوت الرب » .

٥ — مساوىء الطفرة

لطفرة الديموقراطية في القرن التاسع عشر على النحو الذي بسطناه آنفاً مساوىء لم يكن بد منها كما هي طبيعة كل طفرة

في حين كانت الشعوب الديموقراطية تنادي بالحرية والمساواة وحقوق الانسان وحكومة الشعب ، كانت حكوماتها جادة بالفتح والاستعمار والتوسع وانشاء الامبراطوريات . قد لا يكون بأس في هذا ، لو كان هذا التوسع أو الاستعمار على المبدإ الديموقراطي ، أي أن تحفظ فيه للأمم المستعمرة « حقوق الانسان الطبيعية » وحق « حكم الشعب » الداخلي Autonomy وما إلى ذلك من خواص الديموقراطية ومزاياها . ولكن الأمر كان بالعكس فان تلك الحكومات المصبوغة حديثاً بالصبغة الديموقراطية حملت معها في فتوحاتها الى مستعمراتها جميع مظالم الحكم القديم البائد وعسفه واستبداده وجوره .

ففيما تسمع مثلاً في البارلمان الفرنساوي المناقشات الحادة في كل مشروع يتساوى الافرنسيس بالتمتع فيه ، وفي كل قانون يحفظ المساواة وميزان العدالة بين أفراد الشعب الى غير ذلك — تسمع أيضاً في نفس ذلك البارلمان الصوت العالي بأن « دعوا حاكم مراكش أو تونس أو غيرهما يفعل ما يستحسنه في الضغط على حرية ذلك الشعب لكي يستطاع استعباده » . ومثل ذلك تسمع في البارلمانت الانكليزي . تسمع لورداً من اللوردات كجورج لويد مثلاً يصيح ملء شدقيه « ان الشعب الفلاني لا يرضخ إلا تحت قرع السوط »

ديموقراطية في الوطن واستبداد في المستعمرة . هذه سيئة الطفرة . الأمة التي ظفرت بحقوق الانسان الطبيعية تحرّم هذه الحقوق على غير الوطني ، على ابن المستعمرة ، كأن « حقوق الانسان الطبيعية » منهبة تتناهبها الأمم الفاتحة ، وما هي حقوق طبيعية . أو ان الأمم المنكوبة بالاستعمار ليست من صنف الانسان الذي له تلك الحقوق الطبيعية .

هذا هو الأرجح في نظر أمم أوربا التي ما ظفرت بالديموقراطية حتى شرعت تتناهب

بلاد الشرق استعماراً . — ذلك هو الأرجح في نظرها لأنها جعلت فارقاً بين الأمم البيضاء والأمم الملوَّنة . وجرَّمت على هذه حق الاسترزاق إلاَّ في الدائرة التي تحدها لها . لا تسمح مثلاً للاسيوي أو الافريقي ان يطلب الرزق في أوستراليا أو نيوزيلاندا أو جنوبي أفريقيا كأن الله قسم الأرض للعباد بحسب ألوانهم .

ان استفحال الديموقراطية الأوربية في الاستعمار كلَّف أوربا من النفقات أكثر جداً مما جنته من الاستعمار — كلفها التسليح لأجل المحافظة على المستعمرات ، ولأجل التنازع الاستعماري ، ولأجل الحروب التي أوقدتها جنَّة التنافس الاستعماري أضعاف ما جنت من مستعمراتها ، بالرغم من أنها أرهقت المستعمرات بالضرائب الثقيلة، لكي تستعين بها على تلك النفقات . كان ذلك الاستعمار انتحاراً . والذنب فيه ذنب الهوَج الديموقراطي . إنها هي ديموقراطية عنجهية غرَّ ناسها احرازهم حق الرأي في الحكم ، كأنَّ الحكم هو الغاية القصوى من الحياة . ولعلهم جهلوا ان الحكم ليس إلاَّ وسيلة للحصول على مطالب الحياة . كان الغرض من الحكم في الأصل، ولم يزل الى اليوم ، ان يكفل الأمن والعدالة وأسباب المعايش للجمهور . فهل أفضى الحكم الديموقراطي الأوربي الى هذه الغاية ؟

وقد يبادر القارىء الى القول : — أليس الاستعمار مؤدياً الى تلك الغاية ؟ وهل أسخى من المستعمرة بالخير على المستعمرين ؟

— أجل . ومن هم المستعمرون ؟ أهم عامَّة الشعب الذي يفرحون ويتهللون بنغمة « حقوق الانسان » ؟

لا . بل هم الرأسماليون . هؤلاء هم المستعمرون الذين يجتنون خير المستعمرة . وأما عامَّة الشعب فهم عمَّال ، سواء أكانوا في الوطن أو في المستعمرة . وهم الجنود المحاربون لأجل فتح المستعمرة ، كما هم الجنود المدافعون عن الوطن . وهم العمال الذين يشتغلون لأجل كسب الرأسماليين . ها الجندي الايطالي ، خاض غمار الموت لفتح الحبشة ، وسيخوض غمار الموت في العمل في الأرض السوداء لأجل كسب الرأسمالي . وأخيراً نفاية الثمرة تبقى له

ثم مَن هم المستعمَرون (بفتح الميم الثانية) ؟ أليسوا أصحاب البلاد . أو ليسوا بشراً ذوي حقوق انسانية كحقوق مستعمريهم .

فعيب الديموقراطية الطافرة في القرن الماضي هو أنها ديموقراطية سياسية فقط . فضلاً عن انها هوجاء . ولا شأن فيها البتة للنظام الاقتصادي الذي هو الغاية القصوى من روح الديموقراطية . فلا تتم الديموقراطية النقية إلاَّ اذا شملت النظام الاقتصادي كما سنشرحه في فصله الخاص .

الديموقراطية
سيرها ومصيرها

Democracy, Its Course and Tendency

بحث اجتماعي سياسي اقتصادي أخلاقي

تأليف

نقولا الحداد

رئيس تحرير المقتطف

مطبعة المقتطف والمقطم

١٩٥٠

الفصل الثاني

النظام الديموقراطي

لا نوجه النظر في هذا الفصل الى النظام الديموقراطي في مملكة معينة . وانما نجمل هذا النظام ماضياً وحاضراً ، كما هو جار على العموم من غير تخصيص إلا حيث يمكن الاستشهاد فقط

النظام الديموقراطي مجموعة وظائف واجراآت دستورية يشترك الشعب في بعضها مباشرة وفي البعض الآخر بالواسطة . فهو نظام يحل محل الملك المطلق غير المقيد . واذا كان الملك مندمجاً فيه، فانما هو فيه تقليد موروث ، وتكون وظيفته فيه بقدر ما في ذلك التقليد الملكي من الرسوخ في عقائد الشعب . في النظام الديموقراطي تذوب الملكية تدريجيًا الى أن تفنى أو لا يبقى منها الا أثرها التقليدي أو التاريخي .

أساس هذا النظام كما طرأ على ذهن القارىء في المباحث السابقة هو في حرية الفرد المحدودة بالقانون . وحقوق الانسان الطبيعية على قدم المساواة

١ — الحرية والحقوق والمساواة

وقبل الاسترسال في شرح عناصر هذا النظام لا بدَّ من بيان المراد من « الحرية » و « الحقوق » و « المساواة » .

الحرية

الإنسان في بنيان هذا النظام حرٌّ أن يفعل ما يحق له أن يفعله لا أكثر ، ويقدر أن يفعله ، وأن يتمتع بما يحق له أن يتمتع به لا أكثر اذا كانت المتعة حاصلة .

قد يتراءى للقارىء ان هذا التعريف تحصيل حاصل ،لأن الحريَّة المقيَّدة بهذه القيود لم تكن محظورة على الانسان في عهد الملكية المطلقة . أي أن الانسان كان يفعل ما يحق

له أن يفعله ،ويتمتع بما يمكنه الحصول عليه من التمتع . وهنا ينتصب أمام أعيننا شبح الحق سائلاً : من يعين ما يحق للانسان أن يفعله . فنحن اذن في الموضوع الثاني .

ا — حقوق الانسان

من يعين حقوق الانسان ؟ الملك عيّـن للسيد من رعاياه حقوقاً ليست للعبد ، وللمالك حقوقاً ليست للعامل. للعبد حقان: يأكل ويشرب ويلبس ويتزوّج أمَـةً . الى هنا هو حر. ولـكن لا يحق له أن يتزوّج سيدة ، كأنّ طينته ليست طينة انسانية . وللمالك حق بأن يستعفى من الجندية بأن يقدّم عبـداً أو أي انسان فقير بديلاً عنه بأجر ، ولـكن ليس للفلاح أو العامل أن يستعفي منها ، لأنه لا يملك أجرة ذلك البديل (أو البدل العسكري كما هو نظام الجندية في مصر الى امس) . فذاك حرٌ أن يستعفى من الجندية، وهذا ليس حرًّا . وهناك أمثلة عديدة على اختلاف حقوق الأفراد بحسب فئاتهم أو طبقاتهم لا محل لسردها . فمن يعين إذن « الحقوق »

ب — طبيعة الاجتماع

طبيعة الاجتماع تعينها . لا يمكن أن تكون حقوق الأفراد منحة من فرد غير ممتاز على سواه بالانسانية ، حتى يحق للملك أن يتصرف فيمنح هذا ويحرم ذاك . وانما هي حقوق طبيعية بيولوجية شذبتها الطبيعة الاجتماعية فحذفت منها ما يتعارض به الأفراد : وأبقت ما لا يتعارضون فيه . مثلاً الطبيعة الحيوانية الفطرية أذنت للفرد أن يقاتل غيره لـكي يأكل طعامه . ولـكن طبيعة الاجتماع تحظر على الفرد ألاّ يأكل إلاّ ما جنت يداه، تحظر عليه أن يأكل من جني غيره مجاناً . فطبيعة الاجتماع ، لا السلطة الحاكمة ، تعيّن « حقوق الانسان » و « حقوق الانسان » طبيعية اجتماعية ، لا طبيعية بيولوجية .

اذن النظام الاجتماعي العام هو مصدر الحقوق .

ج — المساواة

فالمراد بالمساواة اذن هو تساوي جميع الأفراد مهما تباينت مزاياهم الخلقيـة والعقلية والجسدية بهذه الحقوق .

د — الدستور

يبقى السؤال : من يفسر لنا هذه الحقوق ؟ من يرشدنا الى هذه الحقوق ؟ هل يعرف هذه الحقوق كل انسان ؟ ألا يختلف الناس في فهم هذه الحقوق ؟

لو كان ممكناً أن يفهم جميع الناس هذه الحقوق فهماً واحداً ما بقي لزوم لقانون نظامي لأن النظام قائم في ضمائرهم .

هل يستحيل أن يبلغ البشر الى هذه الدرجة من فهم الحقوق ؟ — نرجىء البحث في هذه النقطة الى الفصل الأخير . ونعود الآن الى سؤالنا : من يقرر هذه الحقوق ؟

مجلس الأمة هو الذي يسن الدستور الذي تُحدَّد به حقوق الأفراد المتساوية التي تحد حريتهم . وفيما يلي البحث الوافي في هذا الموضوع

٢ — ادارة الدولة

النظام الديموقراطي هو كنظام شركة عملية بجميع وجوه التشبيه . هو هيئة ادارية تتولى ادارة جميع شؤون الأمة (بلا استثناء اذا كان النظام ديموقراطياً بحتاً كما هي النظرية الفلسفية . أو باستثناء الشؤون المعيشية اذا كان النظام الديموقراطي كما وصل الينا الى اليوم). وهيئة نيابية تعين هذه الهيئة الادارية، وترسم لها خطط الادارة، وتشرف على تنفيذ اراداتها

الأولى : هي الحكومة

والثانية : هي مجلس الأمة

ولأن نظام الحكومة ليس من مباحث هذا الكتاب، بل هو ثانوي فيها ، فنقتصر في البحث فيه على ما لا بدَّ منه في عرض البحث في الموضوع الأصيل وهو مجلس الأمة

البحث في مجلس الأمة يتناول المواضيع التالية : —

١ — الانتخاب وحقوق التصويت . والأحزاب والمنتخبون .

٢ — الهيئة النيابية ودرجاتها : الشيوخ والنواب .

٣ — وظيفة مجلس الأمة : وسيطرته على الحكومة واشرافه على أعمالها . والتشريع بأنواعه .

١ – الانتخاب

كل أمة ديموقراطية تُواجَه دائماً بهذين السؤالين : ما الذي يجب أن تفعله ؟ وكيف يجب أن تفعله . أو بعبارة أخرى ما الذي تريده أو تحتاج اليه ؟ وكيف يمكنها الحصول عليه ؟

هذا هو الحافز لكل فرد من أفراد الأمة في انتخاب من ينوب عنه لقضاء هاتين المهمتين . فهو قد يجهل الأمرين معاً . فلا يدري ماذا يريد أو ماذا يحتاج اليه . فالمفروض انه يكل أمره الى من ينوب عنه في اكتشاف حاجته وكيفية الحصول عليها . ولهذا يختار بطبيعة الحال الشخص الأذكى والأعرف والأوسع اختباراً . وإنما هو يعلم أمراً واحداً، ويبتغي الحرص عليه دائماً، وهو انيكون أفراد مجتمعه أو هيئته الاجتماعية متساوين في الحقوق والحرية : وان يكون الحصول على هذه الحقوق والتمتع بها ليس بالقوة الفردية ولا القوة الحزبية بل بالتراضي . ولا يدري سبيلاً لهذا الغرض سوى التناقش للتفاهم . فاذاً لا بدَّ من مجلس للتناقش . وبحكم الطبع هو ملزم ان ينتخب نائباً ينوب عنه في هذا المجلس ليقضي له هذا الوطر .

هذه نظرية الفرد الديموقراطي . فاذا لم تكن هذه النظرية واضحة إلاَّ لأفراد بعض الأمم الراقية ، فهي نظرية كامنة في أذهان الأمم الساذجة، تنتبه عند أقل احتكاك أو تحريض بحيث يشعر الفرد ان له حقّ الانتخاب بحكم الطبع الاجتماعي . من هنا جاء اكتشاف الانسان لفكرة الانتخاب .

١ — حق الانتخاب

هل الانتخاب حقٌّ لكل فرد ؟ — بناءً على نظرية « حقوق الانسان الطبيعية » هو حق لكل فرد بلا استثناء (إلاَّ الاحداث) ولكن لأن النظام الديموقراطي الآن متحول من نظام الحكم الفردي ، فلم يزل لهذا النظام العتيق تأثير في ذاك الجديد ، والى الآن لم يتخلَّ عنه بتاتاً . فقد ورث النظام الجديد من القديم كثيراً من التقاليد والأنظمة والعادات التي ليست بيئة صالحةً للديموقراطية : — ورث الجديد من القديم : —

أولاً : ضعف الثقافة ، وعدم تساوي الأفراد فيها ولو الى الحد الكافي .

ثانياً : ثانوية مقام المرأة :

ثالثاً : التفاوت الاقتصادي العظيم الذي يجب أن يسمى بحق « الاستقطاب المالي » ، غنى هائل من ناحية وفقر مدقع من ناحية أخرى .

رابعاً: تفاوت (عدم مساواة) في الأخلاق والآداب ، الى غير ذلك .

فلهذا لم يمكن أن يحدث التحول من مطلق الحكم الى الديموقراطية بغتةً وتاماً ، بل لم يكن بد من امتياز أناس على أناس بحق الانتخاب .

ولهذا أيضاً كان هذا الحق في أوائل عهد التحول لأصحاب الأملاك . ثم منح أيضاً لأصحاب الأعمال (البورجوازي) . ثم منح لكل ذي ثقافة عند حد معين سواء أكان ذا مال أو لم يكن . وأخيراً أعطي لكل شخص بالغ بلا استثناء حين أصبح كل بالغ على شيء من الثقافة ولو زهيد . ولم يعط للنساء إلاّ في هذا القرن .

من أمثلة ذلك : أن حق انتخاب مجلس العموم الانكليزي بقي عدة قرون محدوداً بشروط مالية على الغالب . ففي الأقاليم كان المنتخِب يجب أن يملك عقاراً ايراده ٤٠ شلناً على الأقل (وهو ايراد غير قليل في الأزمنة الماضية) . وأما في المدن فكان حق الانتخاب محدوداً بحدود واسعة في بعض الأحوال، وضيقة في غيرها . فقبل سنة ١٨٣٢ كان مجلس العموم يمثل هيئة ذوات رأسماليين Plutocratic (١) . . . وقبل سنة ١٨٣٢ كان الحصول على صوت في البارلمنت الانكليزي حادثاً غير اعتيادي ، لأن نفراً من الذوات كانوا مسيطرين على عضوية البارلمنت (٢) ...

« وبعد ذلك صدر قرار بتوسيع دائرة حق الانتخاب . وما زال هذا الحق يتسع الى سنة ١٨٦٧ حتى شمل جميع أفراد الطبقة الوسطى . ومن سنة ١٨٦٧ الى ١٩٢٨ كان جميع البالغين في سائر البلاد أصحاب الحق بالانتخاب . ومع ذلك لم يستتم ديموقراطيته لأن هناك أشخاصاً قليلين كانوا ذوي حق بصوتين وهم الجامعيون : صوت الواحد عن جامعته وصوته عن دائرته الاقليمية . وكذلك من كان ايراد ملكه السنوي لا يقل عن عشرة جنيهات فله

(١) صفحة ٢٥ من كتاب Democratic Governments in Europe

(٢) صفحة ١٥ من نفس هذا الكتاب

حق صوت في دائرة سكنه، وحق صوت آخر في دائرة ملكه . فان اتفقت الدائرتان في مكان واحد كان له صوت واحد فقط . ومنذ سنة ١٩٢٨ صار للنساء البالغات حق الانتخاب أيضاً [١]. وبالاجمال يقال أن التمثيل في البارلمنت الانكليزي بقي خاصّاً بالطبقتين العليا والوسطى حتى سنة ١٩١٩ إذ صار عامّاً لكل طبقة بالفعل [٢]

ترى مما تقدم أن حقوق الانسان في الانتخاب مختلفة باختلاف الأمم بناء على اختلاف الدرجات في الأهلية العامة ولا سيما في الثقافة .

أما حق الانتخاب في فرنسا فمحدود بخمسة شروط . فمنذ سنة ١٩١٧ صار :

١ — للافرنسي وحده حق الانتخاب . وأما المتجنس فيكتسب هذا الحق بعد ١٠ سنين

٢ — للذكور فقط حق الانتخاب . وأما النساء فلا يزلنَ محرومات هذا الحق بدعوى ان معظمهنّ كاثوليكيات مؤمنات . فاذا أجيز لهنّ هذا الحق خيف أن يقوى ضلع الكنيسة في البارلمان فيتسنى للاكليروس أن يمد أصبعه الى سياسة الدولة . وبالرغم من الجهاد في مناقشة لائحتهنّ في سني ١٩٢٧ الى ١٩٣٢ لم ينجحنَ .

٣ — الحق للبالغ . وسن البلوغ ٢١ سنة . وفي المدة العسكرية لا يحق للبالغ أن يعطي صوته .

٤ — يجب أن يكون المنتخِب سليم العقل .

٥ — وان يكونَ بلا سوابق أحكام عليه [٣]

هذه الشروط ما عدا ثانيها مقتبسة تقريباً في جميع الممالك الديموقراطية المستجدة باختلافات قليلة لا متسع لتفصيلها .

٢ — من هم ناخبو المنخوبين

ربما كانت كيفية الانتخاب أعقد اجراآت النظام الديموقراطي . ففيها مسألتان : — للناخب « من تنتخب ؟ » وللمنخوب « من ينتخبه » ؟

هل ينتخب أي ناخب من يشاء ؟ وهل يتوقف فوز المنخوب على عدد من ينتخبونه من أي ناحية ؟ هذه أول مشكلة واجهت منظمي النظام الديموقراطي، وأقرب حل اكتشفوه

(١) صفحة ٢٥ من كتاب Democratic Governments in Europe

(٢) صفحة ١٥ من الكتاب نفسه

(٣) هذه الشروط ملخصة من كتاب Democratic government of Europe

هو ان يقسموا البلاد تقسيماً جغرافيًّا عدديًّا الى أقسام بعدد النواب المقرر لعضوية مجلس الأمة، بحيث تكون اعداد سكان الدوائر متساوية تقريباً .

قد يكون هذا الحل جيداً لو اتفقت أو تقاربت جميع أماني الأفراد ورغائبهم. ولكن مصالحهم مختلفة ، وبالتالي رغائبهم تختلف أيضاً . وهذا هو سرّ نشوء الاحزاب . فإذن انتخاب الفرد لممثله يتوقف على أمنيته من مجلس أمته . يتوقف على الشخص الذي يعد بأن يجتهد في تقرير تلك الأمنية . ولما كانت الأماني مختلفة ، ولا يندر أن تكون متباينة أيضاً ، فلا تتقرر الا الأمنية التي يفوق عدد طلابها على عدد طلاب غيرها

فاذا كان هذا هو الغرض من اختيار الفرد شخصاً معيناً يمثله في مجلس الأمة لكي يحرص على تقرير أمنية له ، فهل تقسيم عملية الانتخاب الى دوائر جغرافية أقليمية بعدد الأعضاء يؤدي الى تقرير أمانيّ الأكثرية ؟ فلنمتحن العملية امتحاناً رياضيًّا . ولتسهيل العملية نفرضها أبسط ما يمكن : —

لنفرض أن المجلس يؤلف من خمسة نواب فقط . فالبلاد إذاً تقسم الى خمس دوائر جغرافية متساوية عدد السكان بالتقريب . ولنفرض أن لدى المجلس المنتظر انتخابه قضية عظيمة الشأن يختلف فيها السكان اختلافاً متبايناً بين « نعم » و « لا » . ولنفرض أن جميع سكان دائرتين (لا بعضهم) يريدون « نعم » و ٣ أخماس (فقط) كل من الدوائر الثلاث الأخرى يريدون « لا » (والخمسان الباقيان يريدون « نعم » أيضاً) إذاً بطبيعة الحال يكون لحزب « لا » ثلاثة نواب ولحزب « نعم » نائبان فقط ، مع أن جميع أفراد حزب « نعم » في المملكة كلها أكثر عدداً من أفراد حزب « لا » : للأول $\frac{١٩}{٥}$ وللثاني $\frac{٩}{٥}$ (على اعتبار كل دائرة خمسة أخماس . وأخماس الدوائر الخمس ٢٥ خمساً)

هذا عيب كبير في تنظيم الانتخاب على نظرية تقسيم الدوائر تقع في سوء نتائجه كل بلاد انتخابية . لا يندر أن يفوز حاكم أو رئيس في الولايات المتحدة مثلاً وهو لا يملك أكثرية الأصوات بسبب عيب هذا النظام .

والغريب أن يشيع هذا النظام على عيبه مع أنه يناقض نظرية الانتخاب الدستورية القائلة ان النائب لا يمثل أهل دائرته فقط بل يمثل كل أهل بلاده بلا استثناء . فكيف

يمثلهم جميعاً وهو لم ينتخبه الا فريق قليل منهم ؟

هـذا العيب بحكم المنطق يتطرق الى طريقة الانتخاب على درجتين أيضاً . وربما كان عيبه هنا أكثر . ولم يخفَ هذا العيب على المفكرين . فقد ذكره مؤلف كتاب حكومات أوروبا الديموقراطية من جملة نقدات الناقدين بهـذا المعنى : « الانتخاب على القاعدة الجغرافية لم يعُد اليوم صالحاً . هو نظام قديم لأمم كانت قليلة المَيَسان أي قليلة الحركة والاختلاط . وكان نظامها الاقتصادي بسيطاً جامداً . لذلك يجب أن ينبني على قاعدة التمثيل الوظيفي "Functional" (١) .

هناك طريقة أفضل جداً من طريقـة الدوائر الانتخابية . وهي طريقـة الانتخاب العنصري . فلا يخفى أن الأمة مؤلفة من عناصر اجتماعية متعددة مختلفة بحسب وظائفها في المجتمع ، مؤلفة من الفلاح ، والتاجر ، والصانع ، والمحترف ، والفنان ، والعالم ، والخ . ولجميع هذه العناصر نقابات ، أو يجب أن يكون لكل منها نقابة . فاذا كانت كل نقابة تنتخب ممثلها لمجلس الأمة انتفى هذا العيب . وان بقي أثر له كانت نتائجه أقل سوءاً

ولكن هذه الطريقة ينفر منها جميع الذين لا يزالون تحت تأثير التقاليد القديمة . ولا سيما اذا كانت البلاد لا تزال ضعيفة الثقافة جداً ، لأن الثقافة شرط جوهري جداً لصلاحية النظام الديموقراطي كما سنشرحه فيما بعد .

٣ — الاحزاب

أشرنا فيما تقدم الى أن سبب التحزب الاختلاف في الأماني والرغائب تبعاً لاختلاف المصالح والبيئات . فما دام الناس يختلفون في بيئاتهم وأخلاقهم فاختلافهم في مآربهم لا يعد نقيصة في المجتمع . ووظيفـة المجلس النيابي أن يوفق ما أمكن بين المآرب المختلفة . ووظيفة النائب الحازب أن يقنع زملاءه بصلاحية رغيبة حزبه للمجتمع جملة ، أو أن مآل هذه الرغيبة للخير العام .

(١) صفحة ٤٠ من كتاب Democratic Gouvernments of Europe.

على أن زعماء الأحزاب أنفسهم ، لا منتخبيهم ، يرشحون أنفسهم للنيابة . وندر أن تنتدب جماعة شخصاً لزعامتها ولا ترشحه للنيابة عنها . لأن الغالب أن العوام لا يعرفون ماذا يحتاجون إليه ، ولا كيف يحصلون عليه كما تقدَّم القول ، ولا من يحسن ارشادهم الى حاجاتهم . لذلك ينبري من بينهم أشخاص ينبهونهم الى ما يحتاجون ويحرضونهم على اقتراحه، ويدعونهم الى اتباعهم في المطالبة به . وهكذا يتزعم الزعماء ويؤيد العوام زعامتهم .

فكأنَّ هؤلاء الزعماء هم محامون يوكلون أنفسهم عن فريق من الشعب . أو هم سماسرة يسمسرون بمصلحة فريق من الناس . يفعلون ذلك غالباً اما طمعاً بالأجر المعين للنائب ، أو ابتغاءً للشهرة والنفوذ ، أو توسلاً الى الانتظام بسلك سياسة الحكومة العليا ، أو ابتغاء لهذه الثلاثة جميعاً . وندر أن انبرى أحد عن غيرة على النفع العام . لا ينبري بحافز هذه الغيرة الوطنية ، الا الرجل القدير الأهل والصحاب الذي يناضل لغاية وطنية عظيمة الشأن ، وهو على استعداد للتضحية في سبيلها كرئيسي الوفد المصري المتعاقبين مثلاً . ومثل هذا قليل

الزعيم الحزبي القدير هو الذي يستطيع أن يتصدَّى لقضية وطنية كبرى ويستطيع أن يجمع حوله عدداً كبيراً من مواطنيه ، ويستطيع أن ينظم ادارة لحزبه مستوفية الموظفين، قادرة على احراز المال للنفقة على الدعاية للحزب ، وأن يستهوي الناس ببرنامج غرَّار تتجلى فيه منافع عظمى للأمة . والحزب الذي لا يستوفي هذه الاستعدادات يكون ضعيفاً ، وهيهات أن تقوم له ولزعيمه قائمة .

وقد تتعدَّد الأحزاب في بعض البلاد كثيراً كما هي في فرنسا وأميركا . على ان الخلاف بين بعضها والبعض الآخر زهيد جدًّا ، حتى اذا درست براجها جميعاً وجدتها كلها تنحصر في قضيتين رئيسيتين فقط، وإنما تعدَّدت الأحزاب لتعدد الزعماء المتنافسين في مضمار السياسة لمآرب نفعية كما تقدم القول :

وقد يكون وراء بعض الزعماء أو أحدهم عوامل مستترة غير ديموقراطية تدفعه لقيادة حزب بغية ان يخدم نفوذ ذلك العامل المستتر، ويغلب ان يكون ذلك العامل تقليداً دينيًّا أو تقليداً سياسيًّا أو ملكيًّا أو نفوذاً رأسماليًّا أو نحو ذلك .

فترى مما تقدم من وصف زعماء الأحزاب إنه كثير ما يُضَحّى ببعض مصالح الأمة على مذبح الأنانية أو بعض أغراض شخصية .

زد على ذلك انه بسبب نضال الأحزاب وتنافس الأغراض كثيراً ما يصل الى كرسي النيابة أفراد أغبياء أو هوائيون أو نفعيون ، فيعرضون مصالح البلاد الى الخطر اذا كان ترجيح الكفة يتوقف عليهم .

وقد تكون مصلحة حزب من الأحزاب مناقضة للمصلحة العامة على خط مستقيم ، أو بالعكس . ويمكن أن يكون هذا التناقض واضحاً كل الوضوح . فلا يتورّع زعيم هذا الحزب مثلاً ان يسعى ولو بالوسائل المستنكرة لتأييد قضية واجازة المجلس لها . مثال ذلك: كان في مجلس احدى الولايات المتحدة مناقشة حادة لأجل الايذان بالمراهنة في سباق الخيل. وقد بذل النائب المأجور لشركة السباق كل جهده في استمالة العدد الكافي من النواب لاجازة الاذن . ولما حان موعد الاقتراع كان ينقصه صوت نائب مريض . فما تردّد في ان أتى به الى المجلس من سرير المرض على نقالة Ambulance لكي يلقي قرعته .

ففي الديموقراطية النقية يجب أن تكون المصلحة العامة فوق مصلحة كل فرد وكل حزب . ووظيفة المجلس النيابي ان يحكم فيما اذا كان هذا أو ذاك أصلح للمجتمع . ولا بأس ان يُضحّى بمصلحة فريق لأجل مصلحة الجمهور إذا لم يمكن تجنب التضحية بها .

والمفروض ان كل اقتراح يعرض على المجلس إنما هو لمصلحة الجمهور ، وإنما النواب يختلفون في صحة هذا الفرض . مثال ذلك: الخلاف بين الرأسماليين والاشتراكيين في قضيتين اجتماعيتين مشهورتين . وهو خلاف بعيد الشقة بين الجانبين . ولكل جانب أحزاب مختلفة في البرنامج بعضها أقل غلواً من بعض . ولا يندر أن يكون وراء كل برنامج مآرب لفئة من الناس أو منافع محسوسة لأشخاص . فلكي يظفر جانب بالسلطة التنفيذية (الوزارة) تتساوم أحزابه فيما بينها على ما يُنفّذ من برنامج كل منها . وتتفق على الاقتراح لناحية واحدة لكي تضمن الفوز . وقد يمكن الاتفاق على ان تكون الحكومة مؤلفة من هذه الأحزاب المتساومة .

وعلى الرغم من جهاد بعض النواب في التضحية بالمصلحة العامة لأجل مصلحة خاصّة

وعلى الرغم من أكثرية النواب لهذه الناحية ، قد يبرز من الأقلية فرد مخلص لسن قوي الحجة ، فيثير الرأي العام بمناقشته أو ببيانه ، بحيث يتعذر على أولئك المنقادين للنفعيين ان يستمرّوا بانقيادهم ، ويخجلون أو يخافون نقمة منتخبيهم ، فيعدلون عن الاقتراع للمشروع المناقض لمصلحة الأمة

٤ — من هم المنتَخبون

بقيت كلمة فيمن هو الجدير بالنيابة . بالطبع أذكى الناس وأكثرهم حنكةً ، وأوسعهم اختباراً ، وأوفرهم علماً هو الأجدر بالنيابة . ولكن ما دام الانتخاب حرّاً فلا ضمانة للحصول على مجلس نواب يجمع خيار الأمة الممتازين بالمزايا الآنف ذكرها . لأن هناك أشخاصاً تكسبهم التقاليد والقوى المالية ونحوها نفوذاً يفوق نفوذ أولئك الأذكياء المحنّكين الخبيرين . ولذلك اشتُرط أن يكون للمرشحين للنيابة مؤهلات غير متيسرة لكل إنسان ، وتكفل بقدر الامكان أهلية المجلس لتولّي بحث مصالح الأمة . تختلف هذه المؤهلات باختلاف البلاد، وإنما هي في البلاد الراقية مقصورة على درجة معينة من الثقافة . وأظن أنه لا شرط بتاتاً للنيابة في الولايات المتحدة اللهمّ إلاّ شرط عدم الأميّة .

ب — الهيئة النيابية

١ — التمثيل المزدوج

بمقتضى النظرية الديموقراطية البحتة ، لا لزوم لأكثر من مجلس واحد . ولكن لأن النظام الديموقراطي يتسلم من نظام الملكية المطلق، نظام ادارة المجتمع رويداً ، فهو لا يزال يصطحب الى اليوم بعض تقاليد ذلك النظام البائد . لقد علمت أن الملك لما احتاج الى أعوان اضطرّ أن يشركهم بالرأي . فكان مجلس الأعيان الى جنبه يمنحه الرأي، ويساعده على التنفيذ ، ويتحمّل معه المسؤولية [1] وفي مقابل هذه الخدم جعل المجلس المذكور يستقل

(١) مع أن مجلس العموم الانكليزي كان في القرن التاسع عشر يمثل أكثر الشعب بقي سنداً لطبقة الاغنياء ، كما يرى فيها بلي ، الى أن تحولت انكلترا الاولغارشية الى انكلترا الديموقراطية . (كتاب حكومات أوروبا الديموقراطية ، صفحة ١٤) .

منه السلطة شيئاً فشيئاً . ولما ظفر الشعب بحق الرأي والعمل في ادارة الدولة بقي مجلس الأعيان الى جنب السلطة العليا يعضدها حينما تتطاول ارادة الأمة إليها ، وبردع تلك السلطة اذا عادت الى الضغط تحامياً لانفجار ثورة الأمة . كان مجلس الأعيان يعينه الملك. ولما استتبت الديموقراطية ، صار الشعب ينتخبه كما ينتخب النواب .

فمجلس الشيوخ أو الأعيان انما هو أثر تقليدي أصله مجلس أعوان الملك . « ونظام التمثيل المزدوج قديم كقدمية النظام البارلماني . والمجلس الأعلى (مجلس الشيوخ أو اللوردات) يمثل تقليديًا ، لا حرفيًا ، ولا على الاطلاق ، القوى الاجتماعية القديمة ، (كالأعيان بالارث أو بالغنى) ، المقاومة للديموقراطية الناهضة . ومع أن انتصار الديموقراطية نظريًا يتضمن زوال هذا المجلس الأعلى، فلا يزال النظام المزدوج التقليدي هذا شائعاً حتى في الجمهوريات المستجدة كسربيا واليونان وجميع جمهوريات أميركا ، وفي مصر أيضاً . وما استغني عنه الا في اسبانيا وتركيا وأستونيا ولتوانيا ولاتفيا وفنلاندا[1] *

٢ — وظيفة الهيئة النيابية

بحسب النظام الديموقراطي البحت يتولى البارلمان أربع وظائف :

١ — سن الدستور [2] وتنقيحه . ٢ — التشريع . ٣ — تقرير التشاريع

٤ — مراقبة السلطة التنفيذية (الحكومة) ومحاسبتها على ما تفعله . ربما كان الدستور الانكليزي منفرداً بالنظام التالي : —

١ — مجلس اللوردات : يعتبر محكمة عليا

٢ — مجلس العموم : يسيطر على المالية

٣ — كلا المجلسين : يسنان قوانين ويسيطران على الحكومة وينتخبان الولاة [3]

منذ ٦٠ سنة حاول مجلس الأعيان الانكليزي تحديد اختصاص مجلس اللوردات

(١) صفحة ١٠٤ من كتاب حكومات أوروبا الديموقراطية

* لما تذمرت الولايات الصغرى في أميركا من أن لهن عدداً قليلا من النواب استنبطوا مجلس الشيوخ، لكل ولاية شيخ ان، كبيرة كانت أو صغيرة .

(٢) في بعض الاحوال تنتخب جمعية عمومية لسن الدستور كما هو جار الآن في سوريا

(٣) صفحة ٣٥ من كتاب حكومات أوروبا الديموقراطية

وتضييق سلطته . وفي أوائل هـذا القرن حاول إلغاءه بتاتاً ولـكنه لم ينجح . وما دام مجلس اللوردات جزءاً من الحـكومة فسيبـقى في شكله الحالي لمزايا حميدة فيـه . وبحسب لائحة سنة ١٩١١ استبـقى البارلمنت مجلس اللوردات وأبقى له السلطة في اقتراح التشريع والمناقشة فيـه والبتّ فيما تأخر من اللوائح . ولـكنه على كل حال يخنع لإرادة مجلس العموم أخيراً . على أن بعض الديموقراطيين يرون أن مجلس اللوردات يكون أحياناً وسيطاً نافعاً بين الديموقراطية والأوتوقراطية (سلطة السراة) التي لا محيص منها في مملكة ملـكية [1]

٣ — سن الدستور

في أوائل اقتحام النظام الديموقراطي كان صاحب السلطان الأعلى يسن الدسـتور . وبالطبع يراعي فيـه نفوذه وسلطانه ما أمكن ، ويضعف نفوذه فيه بقدر ما للأمة من نهوض امامه . وأقل ما يحتفظ به الملك الديموقراطي من السلطة الدستورية هو أن يجيز لنفسه حلّ البارلمان مرة واحدة في مسألة واحدة بدعوى استفتاء الأمة ثانيـة في الأمر الذي حدث الخلاف عليه بينـه وبينها . ويترتب عليه أن يدعو الأمة للانتخاب ثانية . وبقدر ما للأمة من تأثير في إرادة الملك تقل جرأته على حل البرلمان غير مرة .

وكان الملك يحتفظ بحق تعيين عدد كبير أو قليل من أعضاء مجلس الأعيان أو الشيوخ . وكان يسـتطيع أن يشدّ أزر الحـكومة تجاه البرلمان . ولـكن كان انه لمّـا توطدت الديموقراطية ضعفت سلطة الملك من هذا القبيل ، وأخذ الدستور يخرج من مصنع مجلس الأمة مقوياً نفوذها .

فمعظم بارلمانات العالم الآن تنقح دستورها وتفرض على الحاكم الأعلى حلف يمين الامانة له الدستور المصري حاصل على هذه القوة . فلا ينقحه الا البرلمان باقتراع ثلثي الأصوات ولا يستطيع الملك أن يحل البارلمان غير مرة واحدة الا إذا فاجأ البلاد أمر عظيم الشأن لا بد من استفتاء الأمة فيه . حينئذ يجوز له أن يحل البرلمان حلاً فوق العادة

(١) كتاب حكومات أوروبا الديموقراطية صفحة ٤٣ — ٤٤

٤ — التشريع

يتولى البارلمان اشتراع القوانين المدنية والجنائية والادارية جميعاً . فاما أن يصدر مشروع القانون من دائرة الحكومة (الوزارة) ، أو أن يقدمه أحد النواب أو الشيوخ أو جماعة مؤلفة من عدد معين بالدستور . فيتناقش فيه البرلمان الى أن تفرغ كل حجة فيه . وأخيراً يقترع النواب عليه . فان قررته الأكثرية رفع الى مجلس الشيوخ حيث يحتمل من المناقشة والاقتراع ما احتمل هناك . فان اجازه رفع الى الحاكم الأعلى ملكاً كان أو رئيس جمهورية . فان أجازه هذا صار قانوناً [1] .

يجوز للملك كما يجوز لمجلس الشيوخ أن ينقح المشروع ويرده الى مجلس النواب . فان جاز المجلس ثانية الى الملك أو الرئيس اضطر أن يقبله . وإلا فله أن يحل البرلمان مرة واحدة لكي تستفتي الأمة فيه بانتخاب جديد . ولكن هذا الأمر يندر أن يحدث الا إذا كانت مشادة شديدة بين الحاكم الأعلى والبرلمان . وهذا نادر لأنه في العصر الديموقراطي لا يجسر غير الدكتاتور الشديد البأس أن يعاند الأمة .

هذا هو نظام التشريع في معظم البلاد النيابية الأحكام . الا في الولايات المتحدة، فليس للرئيس شأن فيما يقرره الكونجرس (البرلمان الأميركي) ولذلك لا يستطيع حل الكونجرس لأنه ليس الا مدير ادارة الدولة حسبما تخوله القوانين التي وضعها الكونجرس والحقوق التي خوله الدستور إياها . ولهذا أعطي من حرية التصرف أكثر من كل رئيس جمهورية تقريباً .

ولا يخفى أن مهمة التشريع دائمة في البرلمان لاضطرار الأمة الى تنقيح قوانينها كل فينة بعد أخرى بسبب تغير الظروف والأحوال كل يوم . فما كان صالحاً أمس لم يعد صالحاً اليوم . وقد جدّ اليوم من عوامل الحياة الاجتماعية ما لم يكن بالأمس . مثلاً جدّ على المجتمع السنما والراديو والطيارة الخ فاقتضى ان تسن قوانين لاستعمالها .

وهو معلوم أن التناقش في المجلس يقتضي جواً صافياً من الحرية . حرية الكلام

(١) أي لائحة يقررها مجلس العموم الانكليزي ٣ مرات في مدة سنتين من غير أن يتغير أعضاؤه تعتبر قانوناً سواء رضي مجلس اللوردات أو لم يرض — أنظر كتاب حكومات أوربا الديموقراطية صفحة ٣٦

والنقد والتنفيذ الخ . ولذلك يجب أن يكون المجلس خالياً من كل نفوذ أجنبي عنه . ولهذا أعطي النواب حصانة من ناحية الحكومة بحيث لا تستطيع أن تتعرض لحرية نائب أو شيخ فيما يفعله في مصلحة نيابته ، أو في كل سياسة قومية غير محرمة في الدستور .

فاذا كان المجلس محرزاً هذه الحرية الغالية كان بركة للامة لأنه بما يحدثه فيه من مناقشات وانتقادات يتلافى كثيراً من تضحية مصالح الأمة . بل يضمن كثيراً من النفع لها مهما حاول بعض النفعيين أن يقتنصوا المنافع لهم ولأعوانهم . وأما إذا كان النواب تحت تأثير سلطة أجنبية كسلطة ملك أو دكتاتور فذلك البرلمان اسمي لا نفع منه ، ولا تأثير له ، إلا التطبيل والتزمير لذي النفوذ .

٥ — تقرير المشاريع

ربما كان أهم وظائف البرلمان وأعظمها وأفيدها مباشرة للامة هو تقرير المشاريع العمرانية التي تحتاج البلاد اليها ، كالمشروعات القضائية والصحية والاقتصادية والثقافية والدفاعية الى غير ذلك وهو كثير . فهو يقرر مشروعات المحاكم ومشروعات الزراعة والري والمشروعات الصناعية والمدارس والكليات والمستشفيات والمصحات وتنظيم المدن الخ . مما يشترك الجمهور بمنافعه . فالبرلمان اذن هو الذي يرتب ميزانية الدولة وهو الذي يقرر الضرائب والمكوس . وبعبارة مجملة هو المكلف بتغذية حياة المجتمع من كل ناحية على الاطلاق،والمسؤول عن هناءة الأمة ورخائها وأمنها وسلامها . فيقرر ما يقرره من هذه المشروعات . ويكل الى الدوائر الحكومية المختصة بالمشروع أن تنفذه تحت مراقبتها .

اذا توسع البرلمان في تقرير المشاريع الاقتصادية التي تنتفع بها الحكومة كمشروعات السكك الحديدية والتليفون والمياه والري و والخ . كان يخطو خطوات عاجلة نحو النظام الاشتراكي الذي هو الديموقراطية الاقتصادية بعينها . ولها فصل خاص في هذا الكتاب

٦ — مراقبة السلطة التنفيذية

يراقب البرلمان الحكومة بقدر ما له من السيطرة عليها . وما عليها من المسؤولية له .

ففي النظام الديموقراطي البحت له كل السيطرة عليها وهي مسؤولة لديه فيما تفعله لأنه هو الذي ولاها جميع وظائفها . ولكن البلاد التي لم تستتب فيها الديموقراطية البحتة تبقى الحكومة تحت سيطرة الحاكم الأعلى ومسؤولة له في كثير أو قليل من الأمور .

جميع الحكومات الديموقراطية الغربية تجاوزت هذه الدرجة التي تتردد فيها مسؤولية الحكومة بين الحاكم الأعلى والبرلمان وأصبحت ديموقراطية مقاربة للتمام . نقول مقاربة لأنه لا يزال للسلطة التنفيذية أصبع فيها في بعض البلاد . فالوزراء وهم أعضاء في البرلمان منتدبون منه ، والحاكم الأعلى يحل البرلمان في بعض الظروف الحرجة،لذلك لايعد هذا النظام ديموقراطيًا بحتاً

هذا النظام الناقص غالب حتى في الجمهوريات،الا جمهورية الولايات المتحدة والجمهورية السويسرية .

ففي الولايات المتحدة السلطة التنفيذية (الحكومة) خارجة خروجاً مطلقاً عن الكونجرس (البارلمان) . فلا الرئيس ولا سكرتيروه (وزراؤه) ذوو كراسي في أحد المجلسين . وليس له أية سلطة عليهما البتة . وهو وحده دون وزرائه مسؤول لدى الكونجرس . ووزراؤه الذين ليسوا إلا سكرتيرين له مسؤولون لديه وحده . فما الرئيس إلا مدير شركة الأمة أو مدير أعمالها . وقد ولته الأمة هذه الادارة رأساً من غير تدخل الكونغرس ، والدستور أطلق يده فيها أكثر ما أطلق البرلمان الفرنساوي يد رئيس الجمهورية ، وأكثر مما أطلق البرلمان الانكليزي يد ملكه مثلاً . فالنظام الديموقراطي في الولايات المتحدة هو نموذج الديموقراطية الناضجة،لأن السيادة العليا فيه للكونجرس فقط، وأنضج منه النظام السويسري كما سنلخصه فيما بعد .

لا يستطيع رئيس الولايات المتحدة ان يحل الكونغرس بتاتاً ، كما ان الكونغرس لا يستطيع أن يخلعه لانه لم يعينه بل الأمة انتخبته رأساً . يستطيع الكونجرس ان يحاكمه لجريمة كبرى ، فان ثبتت عليه جاز له ان يخلعه .

لا يحل الكونجرس الاميركي حلاً لاي سبب ، وإنما ينتخب النواب وثلث الشيوخ كل سنتين . فالنائب يبقى سنتين، والشيخ ٦ سنين، فكأن الكونجرس يتجدد كل سنتين من

تلقاء نفسه. وهذا التجديد كافٍ لصلاحية الاقتراع على أي المسائل مهما عظم شأنها . ومما امتاز به الدستور الأميركي انه يخوّل الرئيس حق اعلان الحرب من غير إذن الكونجرس اذا داهمه الداعي اليها، لئلاّ تسبقه ضربة العدو فيما لو انتظر مناقشات النواب والشيوخ

وما كادت الوزارة الانكليزية تصبح مسؤولة لمجلس العموم الذي ينتخبه كل البالغين والبالغات من الشعب حتى صارت ميالة الى أن تكون مسؤولة للشعب نفسه بواسطة الاستفتاء العام، وصارت تجرأ على أن تقلب ظهر المجن لمجلس العموم . فبعد ان كانت تهابه صار هو يهابها . وقد اغتنم فضل هـذه المزية الدستورية داقد لويد جورج ورمزي مكدونلد، وأصبحت الوزارة بسببها تشعر أنها دكتاتورية، لأن اسقاطها أصبح منوطاً باستفتاء الشعب، أكثر منـه باقتراع مجلس العموم . وحاصل القول ان النظام الانكليزي الآن أقل ديموقراطية منه في القرن الماضي (١)

دكتاتوريات هتلر، وموسوليني، وكمال (اتاتورك)، قامت على هذه المزية . ولكن ليس من السهل اسقاطها بهذه المزية ما دام الشعب لا يملك اصدار المرسوم بالاستفتاء

بحسب دستور ١٨٧٥ الفرنساوي يحق لرئيس الجمهورية الفرنساوية ان يحل مجلس النواب بموافقـة مجلس الشيوخ أو بارادته المطلقة اذا شاء . وثم يجب أن ينتخب مجلس جديد في مدة ثلاثة أشهر . وحينئـذٍ تتوقف بعض حقوق الحكومة كاعلان الحكم العسكري مثلاً . ولكن ندر أن استعمل هـذا الحق أحد من الرؤساء في مدة الجمهورية الثالثة . لم يستعمله سوى مكماهون على أمل ان يحصل على أكثرية محافظين (ملكيين) فخاب أملاً . ولكنه بقي في الرئاسة خاضعاً للدستور ولم يستعفِ حتى سنة ١٨٧٩ . ومع انه كان ملكيّـاً في عقيدته فما خالف الدستور (٢)

٧ — لمن السلطة العليا

بقيت مسألة السلطة العليا غامضة في بعض دساتير البلاد الديموقراطية فيما لو تحرّج الأمر

(١) كتاب حكومات اوربا الديموقراطية صفحة ١٥ — ١٦

(٢) كتاب حكومات أوربا الديموقراطية صفحة ٢٣٢

بين الحاكم الأعلى، ملكاً أو رئيس جمهورية، وبين المجلس التمثيلي نواباً وشيوخاً، فلمن تكون السلطة العليا حينئذٍ ؟

بحسب النظام الديموقراطي البحت يجب أن تعطى السيطرة العليا للبرلمان. والأمر كذلك في كثير من الدساتير الديموقراطية الحديثة. نعم أن للرئيس أو الحاكم في أكثر دساتير الأمم أن يحل البرلمان ويعزل الوزارة، ولكن عليه أيضاً أن يدعو الأمة لانتخاب بارلمان جديد في مدة قصيرة. ولهذا البرلمان الجديد أن ينقض ارادته أو ان يخلعه إذا تمرّد. تبقى المسألة حينئذ مسألة « قوة حرمة الدستور » المؤيدة بصولة الشعب واتحاده. فان كان الشعب واهي القوة في تأييد دستوره تجاوز الحاكم حرمة الدستور، والاّ خنع لها صاغراً.

إنما الذي دعانا الى البحث في هذه النقطة ما وقع على أثر وفاة المغفور له الملك فؤاد الأول. وهو أمرٌ غريب لم يحسب حسابه في دستور من دساتير البلاد الملكية الديموقراطية على ما أظن.

كانت البلاد حينئذٍ بلا بارلمان، والملك الوارث كان قاصراً. والدستور يقضي بأن يجتمع البرلمان في عشرة أيام بعد وفاة الملك لكي يقرر ما يجب أن يقرره بشأن الملك الجديد. والمدة الدستورية لدعوة الأمة للانتخاب فاتت من زمن طويل خلافاً لنص الدستور. وتعيين مجلس الوصاية منوط بالبرلمان، وليست ثمت هيئة نيابية دستورية لتعيين مجلس الوصاية وتسلمه زمام الحكم. وكانت الوزارة منحلة بحكم الأمر الواقع لوفاة ملكها. فكأنّ البلاد انقطعت عن الحياة السياسية الديموقراطية السابقة بتاتاً. فأية هيئة تتصدى لاستئناف حياة سياسية جديدة ؟ لم توجد هيئة البتة لهذا التصدي. والماضي لم يورث الحاضر هيئة رسمية.

وقد تضاربت أبحاث القانونيين حينئذٍ في حل هذه القضية، بين ان يستدعى البرلمان المفضوض سابقاً منذ أمد طويل. أو ان ينتخب بارلمان جديد. ولكن من يستدعي ذاك أو يدعو الامة لانتخاب هذا ؟

لم يوجد في الدستور حلٌ لهـذه المشكلة في ذلك الوقت الحرج. كان الدستور قاصراً

رعيـا فيها . ولاسيما لأنه نُقض قبلاً نقضاً أفضى اليها .

ومن حسن الحظ حينئذٍ ان هيئة البلاد السياسية كانت مؤلفة من جميع الأحزاب . وكانت جبهة وطنية واحدة . وأقوى حزب فيها حزب الوفد . وكان الزعماء من الحكمة والاخلاص والحنكة بحيث لا يدعون البلاد تقع في ورطة قد تؤدي الى عاقبة وخيمة . فاتفق الوفد وسائر الأحزاب مع وزارة دولة علي ماهر باشا على ان تبقى الوزارة في دستها ، وان تحل محل الملك في استلام زمام السلطة العليا ، وان تصدر المراسيم اللازمة . فأصدرت مرسوماً بدعوة الأمة للانتخاب في أيام ، لكي ينعقد البرلمان قبل نهاية العشرة أيام المعينة في الدستور بسبب وفاة الملك . فجرى الانتخاب . ثم أصدرت مرسوماً آخر بتعيين الشيوخ الذين ينص الدستور على تعيينهم (بلا انتخاب) . وانعقد البرلمان ، وعين مجلس الوصاية وقدمت الوزارة استعفاءها لمجلس الوصاية . والمجلس انتدب رئيس الوزارة الجديدة ، فشكل وزارته وقدمها لمجلس الوصاية ، فأصدر هذا مرسوماً بتوليتها .

فوجه الغرابة في كل ذلك هو في معنوية « أنت تعينني في الوقت الذي أنا أعينك » لأن الدستور عاجز عن أن يعين ذا السلطة الاولى العليا .

لا توجد مشكلة كهذه اذا كان النظام ديموقراطيـاً بحتاً لأن السلطة العليا تكون حينئذٍ للبرلمان القائم . ولا يمكن أن يكون البرلمان غير قائم اذ لا سلطة تستطيع حله . فهو بعد ان يولد لا يموت إلا بثورة تقلب كل نظام .

٨ — اشراف البرلمان على الحكومة

في أوائل عهد الديموقراطية الحديثة كان الغرض الأول من مجلس الأمة ان يحدّ سلطة الحكومة ، ويحول دون استفحالها ، لأن الشعب كان في ذلك العهد ينظر الى الحكومة كعدو أو خصم له . وبالفعل لم تكن الحكومات لذلك العهد مهتمة بمصالح الشعب كما يجب ان تهتم بها ، بل كان جل اهتمامها موجهاً لمصالح أصحاب السلطات العليا فيها ، ومصالح ذوي النفوذ . وحتى اليوم لا يزال الجمهور ينظر الى الحكومة كسلطة ثقيلة العبء على عاتقه . ينظر الى فئة موظفي الحكومة كأشخاص ممتازين . ولهم بالفعل امتيازات ليست للجمهور (كما هو الحال عندنا في مصر)

ولكن التحزبات الديموقراطية التي توالت في القرن التاسع عشر نسخت هذه العقيدة الممقوتة من أذهان الشعوب ، إذ بدا لهم ان الهيئات النيابيـة تستطيع ان تكبح جماح الحكام المستبدين وتحاسبهم على أعمالهم . ومع ذلك لا تزال هيبة الحـكام مستعلية في بعض البرلمانات . ففي انكلترا مثلاً نرى النائب يسأل الوزير بكل حذر ، والوزير يجاوب بكل اقتصار أو بمواربة أو بإبهام، أو يجاوب جواباً لا فائدة منه، أولا يجاوب بتاتاً . وكذلك في البارلمان الفرنساوي لا يزال النواب يقفون موقف الاشتباه بالحكومة كأنها غير مخلصة .

وإنما يقال بالاجمال ان ديموقراطيـة القرن العشرين قد جرّأت الهيئـات النيابية على مناقشة الوزراء ونقدهم المرّ ، ومحاسبتهم على كل عمل يعملونه ، وعلى تهديدهم باسقاط الوزارة اذا ثبت انأعمالهم ضارّة بمصالح البلاد أو مناقضة لها ، أو انها لخدمة مصلحة شخصية الى غير ذلك . تناقش الهيئة النيابية الوزارة بلا تورّع ولا هوادة ، حتى إذا أحرجتها قدمت هذه استعفاءها . فديموقراطية القرن العشرين دانت حدّ النضوج من الوجهـة السياسية الداخلية ، وسائر ديموقراطيات الأمم الشرقية حاذية حذوها بسرعة .

٩ — تفسير الدستور

يمكن جدّاً أن يقع خلاف بين شخصين أو هيئتين في تفسير مادة أو جملة في الدستور ، فليس لقاضٍ أن يفسـّرها كما يفسـّر القانون ويطبقه . ذلك فوق اختصاص القضاء . وإنما في الولايات المتحدة الأميركية توجد المحـكمة العليا التي هي فوق كل سلطة هنـاك : فوق سلطة الـكونجرس والسلطة التنفيذية . فهي مختصة بتفسير الدستور وتطبيقه . وبهـذه المحـكمة يمتاز النظام الأميركاني عن الأنظمة الأوربية الديموقراطية . أما الدستور الألماني فمنذ سنة ١٩١٩ صارت محكمة خاصـّة تفسـّره . وتفسير الدستور الانكليزي يشبه عملية تنقيـح بواسطة الملك والبارلمنت . الدستور السويسري ينص على ان المجلس الوطني نفسه يفسره [١]

(١) كتاب حكومات أوربا الديموقراطية صفحة ١٦

١٠ — أقرب ديموقراطية الى الكمال الآن

تعتبر الجمهورية السويسرية أفضل نموذج للديموقراطية حتى الآن ، لأن الشعب السويسري يشترك في ادارة الحكومة اشتراكاً فعلياً [١] ونظامها مرض لجميع عناصرها المختلفة لغة وديناً . في سويسرا ٧١ بالمئة يتكلمون الألمانية و ٢١ ٪ الافرنسية و ٦ في ٪ الطليانية . من الجميع ٥٧ ٪ بروتستانت . و ٤٢ ٪ كاثوليك تقريباً و ½ ٪ يهود ومع ذلك ليس من اعتبار هناك لسوى الوطنية .

خطة الحكومة السويسرية دائماً الحياد الدولي البحت

النظام اقليمي لا مركزي Fedral . ولكنه أوسع من نظام الولايات المتحدة الأميركية الاقليمي ، أي ان كل اقليم أو ولاية Canton مستقل بتشريعه الداخلي . ولكل اقليم مجلسه النيابي التشريعي الخاص . ولجميع الأقاليم مجلس عام (بارلمان) ذو هيئتين ، الأولى تسمى مجلس الدولة (يقابل مجلس الاعيان أو الشيوخ في الدول الأخرى) ويشتمل على ٤٠ نائباً . من كل اقليم Canton نائبان . ولكل اقليم حق التصرف في كيفية انتخاب شيخيه ، ومجلس الاقليم يدفع راتبهما . والهيئة الثانية المجلس الوطني أو الاهلي (يقابل النواب) يشتمل على ١٨٧ نائباً باعتبار نائب عن كل ٢٢ الف ناخب ، ومدة المجلس ٤ سنين . والنفوذ الأكبر لهذا المجلس . وكلا المجلسين يسميان المجلس الاقليمي العام (بارلمان)

أما السلطة التنفيذية فنفذة الشكل . فهي ليست في يد ملك ، ولا في يد رئيس جمهورية ، ولا في يد وزارة ، بل هي في يد لجنة من ٧ أشخاص تسمى مجلس الأقاليم ، أو المجمع الاقليمي Federal Cauncel مركزه في العاصمة (برن) ينتخب أعضاءه المجلس الاقليمي العام (النواب والشيوخ) كل أربع سنين ، وينتخب منهم رئيساً لهم ونائب رئيس كل عام .

يتولى كل واحد من هؤلاء السبعة ادارة دائرة من دوائر الحكومة السبعة . للرئيس (١) الادارة الخارجية . وللآخرين (٢) الداخلية (٣) العدلية والبوليس (٤) الحربية (٥) المالية والضرائب (٦) الزراعة والتجارة والصناعة (٧) البوسطة والسكك الحديدية .

---

(١) كتاب حكومات اوربا الديموقراطية صفحة ٥٨٠

وفي حين أن رئيس الجمهورية الفرنساوية يشد أزر الوزارة ، والملكية الانكليزية تشد أزر رئيس الوزارة ، فهذا المجلس الوزاري السويسري يقف على قدميه معتمداً على نفسه فقط ، إذ لا سلطة وراءه تشد أزره . وإنما الدستور السويسري يمنحه سلطة واسعة لمراقبة الحكومات الاقليمية والاشراف عليها وتنفيذ التشريع الاقليمي. ولكنه لا يعتمد على أكثرية أي حزب . ولا يحاول أن يحل المجلس النيابي التشريعي إذا كان المجلس الاقليمي العام ضده(١) .

[حاشية] لخصنا هنا وفيما سبق بعض أشكال النظام الديموقراطي في أوربا وأميركا لكي يكون في علم القارىء الى أية درجة من التطور الراقي بلغ النظام الديموقراطي في هذا العصر

١١ — الديموقراطية في الاسلام

« كانت الرئاسة أو الامارة عند العرب لأهل العصبة والجاه . وإذا تساوت العصبية في الجماعة قدّموا أكبرهم سنًّا . ولذلك كان لفظ الشيخ عندهم يدل على الشيخوخة والرئاسة معاً . وإذا أشكل عليهم الانتخاب لأي سبب عمدوا الى الاقتراع . وكذلك إذا اجتمعت عدة قبائل في محالفة على حرب،واحتاجوا الى من يرأسهم جميعاً يقترعون بين أهل الرئاسة. فمن خرجت عليه القرعة رأسوه . ذلك هو شأن بدو العرب والبدو معظمهم . وأما حضرهم في مكة، فالرئاسة فيهم لسادن الكعبة الذي مفتاحها في يده . ولما أفضت السدانة الى قريش صارت السيادة لهم في كل شيء » (٢)

« وكان في كل قبيلة بالجاهلية بيوتات تشتهر بالرئاسة والشرف، فتمتاز على سائر القبيلة، وتكون الرئاسة فيها ... وقد امتازت هذه البيوتات على قبائلها بالشرف لتوالي ثلاثة آباء منها بالرئاسة على الأقل . ولأهل البيوتات نفوذ على سائر القبيلة (٣) »

« وكانت الخلافة لعهد الخلفاء الراشدين شورى — وما هي شورى — كان للخليفة أن يسمي من يخلفه ممن يرى فيهم الكفاءة ، كما فعل أبو بكر في تسمية عمر . ولكنه لم

(١) كتاب دول اوربا الديموقراطية ٥٧١ — ٥٧٥

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي للمرحوم جورجي بك زيدان جزء أول صفحة ٢٣

(٣) « « « صفحة ٢٧

يسمه إلاّ بعد أن شاور أصحابه فيه . وإذ خاف أن يدعو ذلك الى القيل والقال ، عين جماعة يختارون من بينهم خليفة كما فعل عمر . حتى أن عمر لما سمى الشورى لانتخاب من يخلفه منهم سمى ابنه عبد الله في جملتهم ، ولكنه نهى عن انتخابه . فاختاروا عثمان ابن عفان (الى آخر الرواية ...) . فلما قتل علي أرادت شيعته حصر الخلافة في نسله باعتبار انهم بضعة النبي . فسألوه وهو على فراش الموت : « أنبايع الحسن » فقال : « لا آمركم ولا أنهاكم . أنتم أبصر » . أما هم فبايعوا الحسن .

« فطريقة الخلفاء الراشدين في انتخاب الخلفاء من أفضل ما بلغ اليه جهد المتمدنين حتى الآن . وهي جامعة بين الجمهورية والملكية والشورى . أما الجمهورية فلأن الخليفة كان ينتخب من جمهور القرشيين بلا حصر ولا تعيين . وهي شوروية، لأن الانتخاب يكون بالشورى . وهي مطلقة لأن الخليفة إذا قبض على أزمة الملك كان مطلق التصرف . فاذا أضفت الى ذلك شروطها الأربعة التي ذكرناها كانت أفضل أنواع الحكومات على الاطلاق »[1]

ج - البيئة الديموقراطية

لماذا لم تنمُ النبتة الديموقراطية في عشرات القرون الماضية نموها المنتظر ، ولم تترعرع إلاّ في هذا العصر ؟

لأن البيئة الاجتماعية لم تكن صالحة لها . كانت أشواك السلطة الفردية تخنقها، والتقاليد المتحجرة لا تدع منافذ لجذورها .

كيف يمكن أن تنمو وقد كان في يقين الجمهور أن سلطة الزعيم مستمدة من الاله ، وان الالـه نفسهُ جدُ الزعيم ، وان سعادة ذلك الجمهور مستمدة من رضى الالـه ، وان شقاءه ناجم عن حلول غضب الإلـه عليه ، وان استرضاء الإلـه لا يمكن الاّ عن يد حفيده الزعيم : — الملك ، الكاهن . فلا بدَّ إذن من استرضاء هـذا الكاهن ، الملك ، بالخضوع له والطاعة لأوامره وتقديم القرابين والتقدمات له .

هـذه العقيدة الطبيعية للعقول الجاهلة أسرار الطبيعة ونواميسها ، شاملة كل قبيل من الناس ، وراسخة في أذهانهم ، كأنها فلذة من ألبابهم . فلا بدع أن تتوالى القرون

(١) تاريخ التمدن الاسلامي جزء أول صفحة ١٠٩ و ١١٠

عليهم وهي مستحكمة في عقولهم وطالما هي مستحكمة هي حائلة دون استقصاء أسرار الطبيعـة واكتشاف نواميسها واستخراج خيراتها . لذلك بقي الجنس البشري هائماً في مهامه الجهل كل هـذه القرون المنصرمة . فلا بدع أن يخنق هشيم الحكم الفردي المطلق نبتة الديموقراطية .

بقيت جرثومة الديموقراطية كامنة في بطن البيئة الاجتماعية، الى أن جعلت الطبيعة تعلن أسرارها للعقل الإنساني ولو على الرغم منـه . فلمـّا شقّ فجر المعرفة ظلماء الجهل شرعت تلك البزرة تفرخ . وكان أنه كلما تعالت شمس المعرفة جعل ذلك الفرخ ينمو .

كان القرن التاسع عشر ضحى الحضارة العرفانية . اندثر فيـه معظم هشيم الخرافات والتقاليد العمياء . فأصبح بيئة جيدة للديموقراطية .

أهم ما يذكر من ملاءمات البيئة لنموها : —

أولاً : سعة الانتشار الفكري طولاً في الزمن ثم عرضاً في المكان .

أما طولاً فكان بواسطة فن التدوين — الكتابة ، حتى منذ أول عهدها الفخاري والحجري في بابل ومصر ، كان التدوين وسـيلة لنقل أخبار السالفين الى الخالفين . وبه وبما تخلـف من الآثار حُفظت معلومات أولئك لهؤلاء . وهؤلاء ضمـّوا إليها ما جدّ من معلوماتهم وخلفوها لخلفائهم . وهكذا كانت المعارف تتجمع من جيـل الى جيل . وتتمحـّص وتنتقي الى أن بلغت إلينا اليوم أكداساً وأكواماً لا تستطيع أن تستوعبها ذاكرتنا كلها جميعاً ، فنتناسخها متنوعي الاختصاص بها . فبواسطة فنّ الكتابة انتشرت الأفكار طولاً ببطء في تيار الزمن الطويل .

وأما عرضاً فكان انتشار الأفكار بواسطة الطباعة بحيث تغمر صقعاً واسعاً أو اصقاعاً في وقت واحد تقريباً . تنتشر الأفكار بهذه الطريقة من غير أن يشوّهها التداول والنقل والنسخ . وفي الوقت نفسه تؤثر في صياغة عقول المطالعين تأثيراً واحداً يقصر شقة سوء التفاهم بينهم وتباين تصوراتهم .

وقد عظمت سعة الانتشار العرضي باختراع فنّ الصحافة الذي لم يبق حدّ لتأثيره في عقول الجماهير . وكانت الصحافة وسيلة أخرى للانتشار الطولي .

ثانياً : سرعة الانتشار الفكري عرضاً وطولاً في وقتٍ واحد . فالكهرباء التي تضارع سرعتها سرعة النور مكنتنا من نشر الأفكار حول الكرة الأرضية في الفينة التي تصدر فيها الفكرة . فجميع سكان الأرض يتبادلون أخبارهم وأفكارهم وتصوراتهم ومعلوماتهم في وقت واحد مهما تباعدت المسافات بينهم ولم يبق للزمن حساب الا في التسجيل للخلفاء .

ناهيك من أن الفونوغراف والسينما الناطق ألغيا الزمن إلغاءً باتـًا . فبعد مئات من السنين يستطيع أناس المستقبل أن يشاهدوا حوادث هذا الحاضر ويسمعونها كأنهم عادوا الى زمنها الماضي . ناهيك عن الراديو والرادار

ثالثاً : سرعة النقل — فهذه ضيّقت مساحة سطح الأرض بالنسبة الى تحرك الانسان عليها . فبعد أن كان سائق الظعن يقطع صحراء سينا في بضعة أيام أصبح الطيار يقطعها في ساعتين تقريباً . وبعد أن كانت القوافل تنقل الأرطال أصبحت السفن والقطارات البخارية تحمل الأطنان .

كل هذا سهّل اتصال الأفراد بعضهم ببعض وتقارب الأمم . وسهّل جميع أنواع التبادل والتقايض والتعامل والتفاهم بينها .

رابعاً : اتساع دائرة العلم والاختراع — في القرن التاسع عشر نشط العلم العملي نشاطاً عظيماً جدًّا ، وطفر الى الأمام طفرة لا تضارعها طفرة في ماضيه . وكان من ثماره اختراع مخترعاتٍ لا تحصى، قامت مقام الأيدي العاملة في جميع أعمال المعايش كما هو معلوم .

وكان من نتائج هذه الطفرة العلمية العملية الاختراعية، طفرة إنتاجية هائلة أيضاً تراكمت بها الثروات تراكماً مدهشاً . ولأن النظام الاجتماعي لم يكن ديموقراطيـًا بحتاً، بل كان النظام الافرادي لا يزال منساباً فيه ، صارت الحالة الاقتصادية استقطابية . تجمع الغنى الضخم في قطب، والفقر المدقع في قطب آخر . الغني في قمة الهرم الاجتماعي ، والفقر في قاعدته . أفراد ذاك قليلون ، وأفراد هذه جماهير عديدة .

فانتشار المعارف من ناحية حصد هشيم الترهات والتقاليد الخرافية من حقل المجتمع العام . وذلك الاستقطاب المالي أثار حسد الطبقات المستنيرة لطبقة المتموّلين ، وحنق الفقراء المعانين شظف العيش على طبقة المترفين المترفهين . وتنبه العامة جميعاً الى حقوق

الانسان الطبيعية الضائعة تحت أقدام الحكام المستبدين .

كل هذه الانقلابات الاجتماعية المتسارعة هيّأت الطريق ومهّدته لقدوم الديموقراطية الحديثة . ولو بقي العالم في سذاجته القديمة وغباوته المتقادمة منغمساً في تقاليده الخرافية وأوهامه، لما وجدت الديموقراطية الى مجتمعه سبيلاً ، بل لبقي أسياداً معدودين يتحكمون بقطعان من العبيد لا يحصى عددها .

إذاً يستخلص ممّا تقدّم ان البيئة التي لا يزال الجهل والخرافات غيوماً متلبّدة في جوّها، لا تصلح للنظام الديموقراطي . وادخال هذا النظام إليها خطر على حياتها الاجتماعية يشق السبيل فيها الى الفوضى والثورات الجهنمية . فالحكم الفردي يبقى صالحاً لها الى أن يفيض نور الحضارة الحديثة عليها ، ويكسبها ما يستطاع من مزايا المدنية ومن ثقافاتها وأخلاقها .

والدول المستعمرة تجد عذراً لا غبار عليه في حكم المستعمرات بالنظام الحكومي المباشر المطلق . ولكنها لا تجد عذراً في حرمان أهل تلك المستعمرات من التعليم والثقافة المهيئين لها لاعتناق العقيدة الديموقراطية . لأن هذا الحرمان يثبت أنها تقصد بالاستعمار الاستمرار على استعباد الأهالي لاستغلال قواهم وبلادهم جميعاً كما تستغل البهائم السائمة .

على أن الروح الديموقراطية نفسها ، تمهد الطريق لنفسها ، وتعد البيئة بنفسها ، لكي تصلح لحياتها المترعرعة . البيئة الصالحة لها هي انتشار المعرفة . والديموقراطية نفسها تنشر المعرفة . والبيئة الصالحة لها أيضاً هي تدميث الأخلاق . وهي تدمث الأخلاق . وانتشار الحرية الشخصية يسهل السبيل لها . وهي أهم عامل في انتشار الحرية .

اذن الديموقراطية تشق طريقها لنفسها بنفسها، رغم العوامل التي كانت في الماضي تخنقها في مهدها .

الفصل الثالث

تيار الرأي العام(١)

أ ـ هل هناك رأي عام حقيقي ؟

١ — تيار الرأي العام

الانسان كالقرد يقلد ، والتقليد ناموس طبيعي شامل الأحياء حتى الجماد ، وله سبب طبيعي أيضاً قد يلذ للقارىء شرحه ، فنشرحه ليكون القارىء على بصيرة في تفهم شرحنا للرأي العام .

قف أمام بركة من الماء وألق في طرف منها قطعة من الخشب الهش بقدر الكف فتعوم طبعاً . ثم ضع في الطرف الآخر قطعة أخرى مثلها وأضغطها في الماء واتركها تعوم، فتحدث موجة تنتشر في سطح البركة . افعل ذلك كل هنيهة . هنيهات متساوية المدة، قل كل ثانية، ترتفع الخشبة وتهبط فتحدث في الماء تموجات متواليات في مرّات متساوية ، أي ثوان . حينئذٍ ترى الخشبة الأخرى تعلو وتسفل تبعاً للموجات التي تتوالى عندها صادرة من الخشبة الأولى . ترى ان الخشبتين تعلوان وتهبطان معاً . فكأن الثانية تقلد الأولى بتأثير هذه عليها .

هذا مثل للتقليد في الجماد ، وهو يماثل جدًّا التقليد بين الأحياء ولا سيما العليا منها كالقرد وأشباه الانسان : الغورلا والشمبانزي والأوران أوتان والجابون — ثم الانسان. والمبدأ الأساسي واحد في التقليدين ، لسبب طبيعي واحد نبسطه فيما يلي :

بين انسان وانسان كما بين قرد وقرد (كما بين الخشبتين في المثل المذكور آنفاً) اتصال

(١) — هذا الفصل نشر في مجلة الهلال في يونيو ويوليو سنة ١٩٣٦ .

بصري واتصال سمعي . وكلا الاتصالين تموّج كتموّج الماء . الاتصال البصري تموّج أثيري (إلاّ اذا ثبت أن النور وكل تشعع كهرطيسي إنما هو ذرات مادية منتشرة ، فيكون التموّج كهرطيسيًّا ماديًّا) . والاتصال السمعي تموّج هوائي . فاذا أتى الانسان (أو القرد) حركة تموّجَ النور أمواجاً عدة بفعل هـذه الحركة مطابقة لها . وهذه الأمواج تصـدم مقلة شخص آخر فترج عصبه البصري رجّـة تماثل موجة النور من حيث الحدة . فتنقل الرجّـة الى مركز في الدماغ مماثلة تلك الموجة أيضـاً . فيرتد فعل تلك الموجة الى العصب المحرك ، فتتحرك عضلات الجسم حركة تشابه حركة الشخص الأول . هذا اذا لم تكن قوة الارادة مسيطرة تمنع أو تتبع حسب رغبتها

هذه العملية تشابه عملية الراديو بجميع تفاصيلها تقريباً . كذلك اذا أصدر الشخص الأول صوتاً أو نطقاً ينتقل الصوت أمواجاً هوائيـة فتصدم طبلة أذن الشخص الآخر ويحدث كما حدث في حكاية انتقال الحركة بواسطة النور .

ويمكن أن تعلل مسـألة « توارد الأفـكار » Telepathy على هـذا النحو بانتقال الفكر بواسطة الجوّ الكهرطيسي الذي يصدره الدماغ المفكر ، فيصدم دماغ شخص آخر ، ويحدث فيه مثل ذلك الفكر . وهذا موضوع قائم بذاته يستوجب بحثاً مفصلاً .

على هذا النحو يكون التقليد في الأحياء . فاذا صفق مصفق لخطيب ، صفق الآخرون معه من غير حكم الارادة . واذا غنى شخص غنى معه الآخرون . واذا رقص راقص تمايل الآخرون معه . وقد يهبون جميعاً للرقص اذا لم يكن ذلك مستهجناً في آدابهم . واذا بكى باكٍ بكى معه الآخرون . وإذا تثاءب تثاءبوا الى غير ذلك . يحدث هذا التقليد في كثير من الأحوال حين تـكون الارادة على الحياد . وكثيراً ما تـكون على الحياد إذا كان العقل مرتاباً أو مفاجئاً بظاهرة وليس له وقت للتعقل ، أو إذا كان الصواب خفيًّـا .

٢ — ضعف سلطان العقل والارادة

لدى تيار الرأي العام

في قليل من ظواهر الحياة يكون للعقل حكم والارادة سلطان . وفي كثير منها لا يكون لهما حكم ولا سلطان . لا حكم للعقل ولا سلطان للارادة إلاّ إذا كان ثمة وقت للتفكير

والتأني والتعليل والاستنتاج بحيث يصدر العقل حكمه وتصدر الارادة أمرها. وأما في الأحوال المفاجئة وفي أوقات الحماسة أو الانفعال مهما كان سببه فيغلب التقليد على التعقل، أي يغلب الانقياد للمؤثرات الخارجية. وحيث لا تعقل فلا ارادة. وإذا كان الجهل سائداً فالتقليد يتمادى.

إذا تجمهر جمهور من الناس لأمر كمظاهرة مثلاً اشترك فيها كل من صادفها في طريقه من غير نظر الى العواقب، محمودة كانت أم غير محمودة. وإذا تألب بضعة أفراد على فرد يتهمونه بجريمة، تجمع الجمهور حوله يشتركون معهم في اتهامه، من غير أن يتحققوا ان كانت التهمة صحيحة أو زورية. وقد ينكلون به وهو بريء، والذين اتهموه مجرمون. كذلك اذا اجتمع فريق حول مستعطف وهم يرثون له ويتعطفون عليه تألب الجم حوله يشتركون في العطف عليه من غير أن يتحققوا أمره، وقد يكون هو والقليلون المحيطون به يمثلون دور احتيال.

وإذا رأى فرد جماعة تنهزم أو تعدو نحو غرض عام يبتغيه أي إنسان، جرى معهم لاعتقاده بصواب عملهم، من غير أن يتحقق إن كان عملهم صواباً أو ضلالاً. مثلاً إذا رأى جماعة يصيحون: «لص. لص» وهم يركضون في جهة ركض معهم ليقينه أن اللص في تلك الجهة. وقد يكون اللص قد زاغ في جهة أخرى. فالفرد في حالة جهله يستمد علمه من الجماعة، وقد تكون الجماعة أجهل منه. يكفي أن يزعم فرد أن العدو في تلك الناحية فيتبعه آخر وآخر الى أن يجتمع جمهور من الناس وراءه. وكلما كثر الجمهور اشتد اليقين بصحة الزعم.

في الثورة المصرية الأولى بعد الحرب العظمى أطلق طلق ناري بين المتظاهرين. فصاح أحدهم: «أرمني أطلقه». وجرى يتبع شخصاً هارباً، فجرى وراءه الجميع الى أن دخلوا في حارة. فقال قائل: إن الخائن دخل هذا المنزل، فحوصر المنزل، والجمهور يعتقدون أن الأرمني الذي أطلق المسدس محتمٍ فيه. وكادوا يحرقون المنزل لولا أن أتى عدد من الجنود وشتتوا الجمهور. ثم فحص المحقق جميع من في المنزل فلم يجد أرمنياً. ولم يجد من سكانه إلاّ وطنيين وبينهم وطني غريب الدار، وكان سبب فراره أولاً خوفه من الطلق الناري،

ولم يعد في امكانه أن يفسر لمطارديه سبب هربه فلجأ الى تلك الدار. ولكن من كان يستطيع أن يقنع الجمهور أن مطاردته ليست في طريقها السديد؟

ففي حالة الجهل يكون السلطان للتقليد. ومتى تسلط التقليد انهزم التعقل والذوق السليم والحكمة والعلم الأساسي. على هذا النحو ينتشر الزي حسناً كان أو رديئاً. ولا يفطن المقلدون لرداءته إلاّ بعد أن ينكبوا بعواقبها الوخيمة. هكذا انتشر زي حلق الشوارب وتعرية سواعد السيدات، وقص شعر النساء، وتقصير الفساتين، وتعرية رؤوس الشبان، حتى في أيام الحر المحرق، الى غير ذلك من الأزياء المتعاقبة في كل رده من الزمان. تنتشر الأزياء بفعل التقليد، لا بحكم العقل وسلطان الارادة. لا يأتي حكم العقل إلاّ متأخراً، ولا يأتي سلطان الارادة إلاّ بعده متأخراً أيضاً. وقد تعجز عن كبح جماح التقليد إذا كان الزي أو العادة قد عمّ انتشارهما، لأن حكم الرأي العام أقوى من حكم العقل لسببين:

الأول: أنه يبدر للذهن أن الأمر لو لم يكن صواباً أو حقيقياً لما أجمع عليه جمهور الناس. وقد يقول المرء في نفسه ما أنا أكثر فهماً أو علماً أو اختباراً من هؤلاء الناس جميعاً، فيغلب عليه الشك في حكمته أو علمه أو اختباره. وإذا تألب الجمهور أو أجمعوا على أمر لذيوع سبب لهذا الأمر قبل السبب الذائع، كعقيدة يقينية من غير أن يبحث ان كان ذلك السبب صحيحاً، لاعتقاده بصحة شهادة التواتر. ولا يفطن أنه قد يكون منشأ ذاك التواتر كلمة قالها فرد خطأً، أو اختلقها اختلاقاً أو توهم معناها توهماً، فذاعت بين الجمهور، مؤكدة.

والثاني: لأنه يرى أن صوابه شذوذ لدى خطأ الجمهور فيحجم عن هذا الشذوذ مكرهاً. وعلى هذا النحو جرى القول المأثور: «العاقل بين المجانين مجنون وهم العاقلون». وكان إذا شذت سيدة بأن وضعت قبعتها على جنب رأسها من قمته الى أسفل خدها وتركت الجنب الآخر عارياً عدّ عملها هذا شذوذاً. والآن ترى كثيراً من السيدات يفعلنَ هذا الشذوذ فأصبح زي اليوم «وموضته».

لم تنتشر الضلالات بين العوام إلاّ بسبب تأثير عقلية الجمهور على عقل الفرد. وهو تأثير عظيم جداً لا يتصوره القارىء. فالفرد يستمد معظم أفكاره وآرائه وأحكام عقله من عقلية

الجمهور وقليلون هم المفكرون الذين يستقلون بأفكارهم وأحكامهم ويعتمدون على تعقلهم. والحكاية التالية تمثل لك هذه الحقيقة الاجتماعية خير تمثيل : كان معلم مدرسة أولية في قرية على شيء من العلم والمعرفة والأخلاق النبيلة . فكان الأهالي يجلونه جداً . ففي ذات يوم جاءه أحدهم وسأله باهتمام : أرجو منك يا سيدي أن تشرح لي فوائد الترمس . فاستغرب المعلم سؤاله وسأله : لماذا يهمك هذا الأمر ؟ فأجاب : لأني عكفت على تجارة الترمس ، وأود أن أروجها بالتبشير بفوائده .

فضحك المعلم وقال : فكرة حسنة . ولكني بكل أسف لا أعلم عن الترمس علماً ذا قيمة ، ربما كان النباتيون أو الأطباء أو الكيمياويون يفيدونك شيئاً ، أما أنا فلا !

— عجباً يا سيدي المعلم ! ما راجت تجارة الترمس في هذه البلدة إلا لأن أهلها رأوك تكثر من أكله فوثقوا أنه مفيد للصحة فجعلوا يتسابقون في أكله . وكل يوم لهم حديث جديد عن فوائده للمعدة وللكبد وللقلب وللحمى وللأسنان حتى العيون حتى الدماغ حتى العقل حتى الذكاء — كل هذه تتغذى من الترمس — كل ذلك لأنهم رأوا المعلم يأكله دائماً . وقد انتشرت هذه العقيدة الى سائر القرى المجاورة وراجت تجارة الترمس . وهي الآن فرصة سانحة للتكسب منها . ولذلك جئتك أسألك عن فوائده الحقيقية .

فقهقه المعلم وقال : حقاً إنني لا أدري !

— إذاً لماذا تأكله ؟ .

— لأني كنت أدخن كثيراً والآن أنا تائب عن التدخين، فاستعضت عنه بأكل الترمس

وما انقضت بضعة أيام على هذا الحديث حتى سمع المعلم في أحد مجالس أهل القرية أحاديث عجيبة غريبة عن فوائد الترمس . سمع أنه خير علاج لإبطال عادة التدخين . ثم سمع أنه يقوم مقام التبغ في السجاير ، فيشوى ويطحن ويضاف الى التبغ ، ويستعمل كالقهوة لعلاج السعال ، ويستعمل علاجاً لتقوية القلب ومرض السكر . ويستعمل دقيقه مغلياً كمادات للأورام حتى للعيون الملتهبة الرمداء ، الى غير ذلك من الترهات التي لا تخطر على بال . وعبثاً حاول المعلم أن يمحق هذه الضلالات من أذهان الجمهور لأنهم صاروا يسندونها الى أساطين الطب القدماء والمحدثين ويروون الحوادث الغريبة العجيبة

عن تأثير الترمس في شفاء الأمراض ، حتى كاد المعلم نفسه يصدق أخيراً تلك المزاعم . وربما اضطر أن يسلم ببعضها لئلا يرميه الجمهور بالجهل .

فانظر كم كان تأثير عقلية الجمهور على عقل الفرد الجاهل . لا يستطيع الفرد أن يقاوم تيار رأي الجمهور ، بل هو بالاحرى يرتاح الى الجري مع التيار لأن فيه سلامته من خطر الجمود أو المقاومة . ان تيار العقلية الاجتماعية أقوى تيار ينساق فيه الفرد . وهو أقرب مصادر معلوماته وأسهل مورداً . فمعظم علم الفرد ومعارفه مستمدة من عقلية الجمهور ، أي الرأي العام .

لو كانت عقلية الجمهور هي السلطة الوحيدة المسيطرة على المجتمع لكان مصير المجتمع التقهقر والانحطاط والفناء أخيراً . ولكن بين الجمهور أفراداً غير قليلين يتروون ويتعقلون ويكتشفون أغلاط الرأي العام ، وما تؤدي إليه من الأخطار . على أن قليلين منهم يجرؤون أن يجاهروا بآرائهم الصائبة المخالفة لرأي الجمهور . وهم المصلحون الذين تدفعهم لذة حكمتهم الى المخاطرة ، لمقاومة الرأي العام التي تعرضهم لنقمته . وندر أن سلم أحد منهم من هذه النقمة ، ومعظمهم فدوا المجتمع بحياتهم ، لأن المبدأ النبيل أو الفكر السديد ، الذي ضحوا بأنفسهم لأجله ، ساد بعدهم ومجد المجتمع ذكراهم لأجله .

٣ — ضعف الرأي العام

يكفي ما تقدم بياناً لمنشأ الرأي العام وتفسيراً لمعناه . فنجملهما فيما يلي : منشأ الرأي العام « التقليد » . وكلما اتسعت دائرة التقليد قويت سلطة الرأي العام ، وخضع الفرد لهذه السلطة ، اذن لا يكون الرأي العام دائماً صائباً ، بل يغلب أن يكون خاطئاً لأن قوامه التقليد لا التعقل ، والتقليد تيار عنيف يجرف في سبيله كل تعقل وارادة

إذن ، هنا يحضر الى ذهنك هذا السؤال : اذا كان الرأي العام خاطئاً في غالب الأحوال فالديموقراطية التي هي أساس الحكم الذاتي غير صالحة للاجتماع . واذا كان رأي الفرد المتعقل أصوب وأصح ، فالحكم الفردي المطلق ، بل الاستبدادي أصوب وأصح ، أليس الأمر هكذا كنتيجة للشرح الآنف ؟

والجواب : أنه لكذلك . فلو كانت الديموقراطية قائمة على الرأي العام لكانت مصيبة

على المجتمع . ولو كان مضموناً ان الحاكم الفرد صائب التعقل حسن النية لكان الحكم الفردي المطلق أصوب الأحكام . ولكن لا الديموقراطية قائمة على الرأي العام ، ولا الحاكم المطلق يكون سديد الرأي صالح الارادة حسن القصد إلاّ نادراً

الحكم الذاتي ديموقراطي بالاسم . والرأي السائد فيه رأي الخاصة لا رأي الجمهور . فلا رأي عام في الحكم الذاتي، بل فيه رأي خاص بفئة أو فرد . حسبك أن تفطن لوجود الاضطراب في الحكم الذاتي لكي تذعن حالاً أنه خلوٌ من الرأي العام . الحكم الذاتي الديموقراطي يترنح على عواتق آراء عدة متنوعة ، ولكنه يستتب على أكتاف أعلاها التي تجمع عدداً غالباً من الجمهور . مع ذلك لا يعد رأي الأغلبية مثلاً أعلى في الرأي ، بل يحتمل جداً أن يكون خاطئاً . ويحتمل جداً أن يكون رأي فرد واحد من ملايين الأمة أصوب الآراء ، ولكنه يغرق في آراء الأكثرية، لأن ذلك الفرد لا يستطيع أن يذيع براهين صحته على الجمهور ، مادامت هناك أغراضٌ شخصية تقتله.

ثم هناك اعتبار آخر عظيم الشأن جداً وهو أن الرأي العام، أو بالأحرى عقلية الجمهور تضعف لدى نزاع الأحزاب، بل يضمحل الرأي العام (بالمعنى الذي شرحناه سابقاً) في حلبة هذا النزاع . وإنما يقوم رأي فرد، أو على الغالب رأي بعض أفراد ذوي مصالح شخصية تتفق مع مصالح جانب من الجمهور ، أو تتراءى أنها تتفق معها فيكون أهل هذا الجانب معذورين في الدعاية الى رأيهم . وأما سائر الجمهور أو معظمه ، فينقاد الى هذا الجانب بحكم التقليد الأعمى انقياداً للتيار . فزعيم الحزب الأقدر والأقوى هو الذي يجعل تياره أقوى وأعنف باستهوائه العدد الأوفر من الشعب . وكلما قوي التيار استقوى بما يجرفه معه .

مع كل ذلك لا يكون الرأي الخاص الغالب أصح الآراء وأوفقها لمصلحة الجمهور، لأن المصالح الشخصية متغلبة فيه . ولو كان الجمهور يهتدي الى أصوب الآراء وأنفعها ويفهمها لكان ثمة رأي عام حقيقي لا تقف عند تياره سمايات أصحاب المصالح الخاصة . ولو تسنى للجمهور هذا الفهم وذاك الاقتناع لصلحت حال مجتمعه سريعاً، ولكان رقي ذلك المجتمع أعجل وأقرب الى المثل الأعلى . ولكن بكل أسف ليس الأمر كذلك ، بل بالعكس لا يسود إلاّ رأي ذوي المصالح الشخصية . وهذا المرض الاجتماعي عضال في الأمم الغبية أو القليلة العلم والتمدن ، وأخف وطأة في الأمم الراقية .

وحاصل القول أنه ليس في الحكم الديموقراطى رأي عام ، بل هناك رأي خاص وهو الذي يسيّر التيار ويقويه بما يجرفه معه . وان الرأي العام بكل معنى الكلمة أشد خطراً من هذا الرأي الخاص، لأن الدافع إليه التقليد لا التعقل

ب — قوة رأى الاقلية

١ — الرأى العام عقيدة عامة

لا يخفى أن شؤون الأمة مختلفة . وكثير منها يعارض بعضها بعضاً . ولهذا تختلف وجوه الصواب فيها . وبالتالي تختلف الآراء في تقرير الأصوب منها . والسائد هو رأي فريق دون فريق آخر . ومن هذه الحقيقة الناصعة يتضح لك وهم القول « بالرأي العام ». ولا يبقى عندك شك بأن الرأي العام لا وجود له بتاتاً . بل الموجود فعلاً هو « رأي الأكثرية » كما شرحناه آنفاً . ولعلّ هذا ما يعنيه القائلون بالرأي العام . (وقد لا يكون رأي الأكثرية سائداً كما سنشرحه فيما يلي) :

ربما صحّ القول « بالرأي العام » في التقاليد المتوارثة من عهود قديمة كالطقوس الدينية والعادات الرسمية ، كبطالة أول الأسبوع أو سادسه مثلاً ، وبطالة الأعياد ، وكسنة الزواج والطلاق ، وتقليد الجنائز ، الى غيرذلك من النظم التي شبّ كل فرد وهو شاعر بأنها أجزاء من نظام حياته . فاجماع الجمهور على تقلد هذه التقاليد يعتبر « عقيدة عامة » وهذه العبارة ترادف « الرأي العام» . فاذا ظهرمن يريد نقض أي تقليد منها أو تعديله عدّ شاذّاً أو خارجاً على حكم الرأي العام ، اللهمّ إلاّ اذا صادف النقض أو التعديل هوًى في نفوس جانب من الجمهور ، فحينئذٍ يخرج ذلك التقليد من حكم الرأي العام ، ويصبح قضية للمناقشة والاستفتاء والتقرير بحسب رأي الأكثرية .

ويحتمل كثيراً أن تنشيء تقلبات الأحوال قضية عامة يجمع عليها الجمهور بلا استثناء كقضية « الاستقلال التام » في مصر مثلاً . فهي قضية كل فرد من أفراد الأمة . ولهذا ينضوي جمهور الأمة تحت راية الوفد المصري الذي يجاهد لأجل الاستقلال . ومثلها قضية « البلاد للبلديين » كقولك مصر للمصريين ، وسوريا للسوريين ، وفلسطين للفلسطينيين، وأميركا للاميركيين الخ. فهي اليوم قضية كل فرد في كل أمة على الاطلاق .

في مثل هذه الأحوال يكون الرأي عامّـاً لأنه عقيدة عامّـة تشتمل على أمنية واحدة لكل فرد. على أن الرأي العـام بهذا المعنى لا يعنينا ولا نعنيه، لأنه ليس سنداً للحكم الديموقراطي وحده، بل هو سند كل نوع من أنواع الحـكم حتى الحـكم الفردي المطلق، والحـكم الديكتاتوري الاسـتبدادي. وإنما الذي يعنينا في النظام الديموقراطي هو الرأي الذي يقره الجانب الأكبر من الشعب في القضايا، أو المسائل التي تختلف وجوه الصواب فيها باختلاف نظر الأفراد إليهـا، ثمّ يقر « رأي الأكثرية » فيها. فما هو رأي الأكثرية، وهل الرأي المُـقَـرّ هو « رأي الأكثرية » حقيقة؟

٢ — رأي الأكثرية

إذا لم يمكن الحصول على « رأي عام » في القضايا الاجتماعية الناشئة أي غير التقليدية فهل يمكن الحصول على رأي أكثرية؟ وبعبارة أخرى: هل ما تقره الهيئات النيابيـة هو رأي أكثرية الشعب فعلاً؟

١ — لو كان جميع أفراد الشعب مثقفين ثقافة عالية، أو لو كانوا في درجةٍ واحدة من الثقافة عالية أو متوسطة، لأمكن أن يكون استفتاء الشعب في المسائل العامة مؤدياً الى رأي الأكثرية فعلاً. ولـكن هذا الفرض بعيد الاحتمال حتى في الأمم الراقية، لأنه يتعذر أو يستحيل تثقيف جميـع أفراد الأمة تثقيفاً عالياً أو متوسطـاً على مستوى واحد، بحيث يؤهل كل فرد للحكم الصائب في المسائل العامة، كما أن دستور الديموقراطية يخولهم الحق بهذا الحـكم سواء كان صائباً أو خاطئاً. ففي كل أمة راقية، كثيراً أو قليلاً، يتفاوت الأفراد في المعـارف والأهليات والتفـكير. وأوسعهم علماً واختباراً وأسماهم تفكيراً، يكونون أقوى نفوذاً واسـتهواءً لعامة الشعب. ولذلك ينقاد معظم العامة أو كلهم الى هؤلاء الممتازين بالمعرفة والتفكير وقوّة الاستهواء مهما كانوا قلالاً. فاذا كان ثمة خلاف في احدى القضايا أو المسائل فانما يكون هذا الخلاف مقصوراً على طبقة أولئك الممتازين فقط. والفريق الذي يكون منهم أقدر على الاستهواء، أو على استهواء الجانب الأكبر من العامة، هو الذي يفوز بتقرير رأيه. فاذن، ما يبدو لنا في هذه الحال « رأي أكثرية » هو بالحقيقة « رأي أقلية »

٢ — بحسب النظام النيابي الشائع الآن يكون على الغالب الرأي رأي أكثرية ممثلي الامة نواباً وشيوخاً (اذا كان كل فرد يستعمل حقه بابداء الرأي). ولـكنه ليس أكثرية الامة بتاتاً لأن معظم القضايا التي وضعت لدى المجلس النيابي لم تكن قضايا مبسوطة لدى

الأمة حين انتخبت ممثليها.فالأمة تنتخب ممثليها لأجل البت في قضايا رئيسية كبيرة حسب رغبة أكثريتها (ان كانت الأكثرية مستقلة الرأي والتفكير لا منقادة) وتترك لممثليها الحرية في البت بالقضايا الصغرى التي تنشأ بعد ذلك . ففي هذه القضايا لا يعتبر قرار البارلمان رأي أكثرية الأمة فعلاً . فقد يكون رأي أقلية ضئيلة ، أو لا يكون رأي أحد منها . بل هو رأي فرد أو أفراد أخصاء . زد على ذلك أن قرار البرلمان في هـذه القضايا الصغرى قد لا يكون رأي أكثرية للاعتبارات التي وردت في (١) ولاعتبارات سترد فيما يلي :

٣ — ذلك من حيث تفاوت الأفراد في المعرفة وسداد الرأي واستقامة التفكير . ولكن هنـاك اعتبارات أخرى تضعضع رأي الأكثرية . ومنها تفاوت مساس المصالح بالأفراد ، فقد تكون القضية المعروضة على بساط المناقشة والاقتراع في الهيئة النيابية أو للاستفتاء العـام لا تهم إلا فريقاً صغيراً من الناس ، ولا مصلحة فيها البتة لفريق آخر . ففي هذه الحالة يتنازع وجهيها أو يتجاذب جانبيها حزبان من الأقلية التي يهمها الأمر، وينقاد البقية لها انقياداً . ويحتمل جداً أن يفشل الجانب الذي يهمه الأمر وله مصلحة فيه بالرغم من أن مصلحته لا تضر بالمجموع وان كانت لا تهم المجموع

قد يكون المعارض في القضية شخصاً واحداً أو أشخاصاً معـدودين . وقد تكون معارضتهم لغرض نفساني أو استبدادي أو للمماكسة بنية الانتفاع بها من وجه آخر ، أو للمساومة على قضية بقضية . فاذا كان هذا الشخص نافذ الكلمة قوي الشكيمة بارع المنطق، استطاع أن يستميل الأكثرية إليه ، فتقترع معـه وله من غير أن تهتم فيما اذا كان الرأي سديداً أو غير سديد . فترى هنـا « أن رأي أقلية الأقلية ، قائم بالفعل مقام « رأي الأكثرية » المفروض .

٤ — ومن الاعتبارات التي ترجح الحكم لرأي الأقليـة قلة النزاهة في سواد الأمة بحيث يساوم على الأصوات مساومة تنبذ بها مصالح الجمهور ظهريـاً، وتبرز الى الأمام مصالح الأفراد والنفعيين . وحينئذٍ يكون قرار الأقلية النفعية قائماً مقام رأي الأكثرية الشرعي

يحدث هذا كثيراً وبشكل فاضح في البلاد التي تستفحل فيها الرأسمالية كالولايات المتحدة الاميركية مثلاً ، حيث تلعب الفلوس أدواراً عظيمة الشأن ، ليس في الانتخابات فقط بل على الأكثر في الاقتراعات البرلمانية (الكونجرسية) أيضاً . أذكر أنه لما كنت في الولايات المتحدة قرر الكونجرس في مقاطعة كولومبيا جواز المراهنة في سباق الخيل بالرغم من رغبة الشعب في تحريمها ، وذلك لأن فلوس شركة السباق لعبت دورها الى أن رجحت الكفة نحوها. فترى أنه في مثل هذه الأحوال أقل الأقلية تقوم مقام الأكثرية ، وأن هذه الأقلية لم تكن

ممثلة رأي الشعب الأغلب كما هو مفروض في الحكم النيابي الديموقراطي .

٥ — من الاعتبارات الأخرى التي يغلب فيها قرار الأقلية هو أن يكون في يد حزب أو فرد أو بعض أفراد سلطة تنفيذية كسلطة البوليس أو سلطة الجيش مثلاً . هذه السلطة التنفيذية مهما كانت بيد أفراد قليلين أو ضعفاء الميول ، فهي قوة نظامية تسيطر بقوة النظام على الجمهور الذي لا يجمعه نظام . النظام في الحياة الاجتماعية هو مجتمع قوى الأفراد . فالقابض على زمامه قابض على زمام القوة الفعلية ، وبها يسير الأفراد كما يشاء .

الأقلية القابضة على هذه السلطة النظامية تعمد الى الارهاب أو الارغام في كسب أكثرية الأصوات . أو انها تقبض على زمام الحكم بالقوة ويصبح زعيمها دكتاتوراً . ترى مثل هذا في البلاد الصغيرة الضعيفة الثقافة والأخلاق ، حيث يتنازع السلطة أفراد ، أو يستقل بها فرد واحد والجمهور ينقاد انقياد الغنم .

في جميع الجمهوريات اللاتينية في أميركا الجنوبية يندر أن يتم انتخاب قانوني . وندر أن قامت حكومة شرعية على أساس انتخاب قانوني . وانما تقوم هناك الثورة مقام الانتخاب ، والسلاح مقام الأصوات . فالحزب الغالب في القتال يقبض على زمام الحكم . وبمثل هذه الطريقة قبض الدوتشي الفاشستي على أعنة السلطة في ايطاليا .

في بلاد كهذه لا يعد الحكم ديموقراطياً (ملكياً كان أو جمهورياً) بالمعنى الصحيح ، وانما هو حكم أقلية أتاحت لها ظروف خاصة أن تحكم عنوةً باسم أكثرية زائفة .

٣ — الديموقراطية الزائفة

يستفاد من كل ما تقدم أن الديموقراطية لا تزال حتى اليوم أقرب الى النظرية منها الى العملية الفعلية . لانه مهما كانت السلطة فيها مستمدة من قوة الشعب ، فانما هي « حكم أكثرية » قانوناً ، وحكم أقلية تلك الأكثرية فعلاً . ومجمل أسباب هذا العيب في الديموقراطية هو أن العقل الاجتماعي لم ينضج بعد النضج الكافي للحصول على رأي الاكثرية بلا تشويه ولا شائبة ناضجة .

وأهم شوائبه الآن :

أولاً — أن الثقافة القوية الصحيحة غير شاملة شمولاً مطلقاً لجميع أفراد الشعب بحيث تترقى مداركهم وتصح أحكامهم وآراؤهم .

ثانياً — بسبب ضعف الثقافة بقيت الاخلاق ضعيفة لأن الأخلاق القويمة وليدة العلم الصحيح .

لهذين السببين نرى في الأمم ، حتى في أرقاها ، درجات في الثقافة وفي الأخلاق. وبين طرفي الدرجات فرق كبير في الأمم المنحطة وأقله في الأمم الراقية . وإنما في كلا الأمرين تكون الفئة العليا ثقافة وأخلاقاً قليلة جداً ، هيهات أن تستطيع التأثير في الرأي العام . وحينما تكون الثقافة أعم والأخلاق أقوى تكن نتيجة الانتخاب وصول أكثر الأفراد جدارة الى كرسي النيابة لتمثيل الأمة ، والقرار الذي تصدره الهيئة النيابية أقرب الى رأي الأكثرية ، ولكنه لا يكون رأيها تماماً . لأن رأي الأكثرية هو المثل الأعلى الذي قلما ينال .

وعلى الرغم من تقدم العقل الاجتماعي في النضج نرى في المجتمع قوة هائلة تقاوم سؤدد الرأي العام ، أو بالأحرى رأي الأكثرية الحقيقي وهي قوة الرأسمالية . فهذه القوة لا تزال الى الآن مستفحلة في كل مكان حتى في أقوى البلاد ديموقراطية . وهي التي تقاوم نضج العقل الاجتماعي نفسه . فهي تقتل العرفان بإرهاق سواد العوام في الكدح والعمل ، وحرمانهم تثقيف أولادهم . وتقاوم الرقي الأخلاقي بزج الطبقة العاملة في حمأة الرذائل وفي بحر الجهل المطبق بسبب الفقر المدقع . فهذه القوة المبتلى بها المجتمع هي العامل الأقوى في السيطرة على الرأي العام ، وإذن هي منشأ فساد الديموقراطيـة وانحطاطها الى اليوم بسبب ما تتشوه به من الشوائب ، وهي السبب في بطء نضج العقل الاجتماعي نفسه ، لما بينها وبينه من التنازع .

كلا العقل الاجتماعي والرأسمالية يتنازعان البقاء أو التفوق أو النفوذ . واليوم هما في أشد تنازعهما . والظاهر لنا حتى الآن أن الغلبة ستكون عاجلاً أو آجلاً للعقل الاجتماعي. نرى العقل الاجتماعي ينشط بالثقافة نشاطاً شديداً . ولسوف يدك حصون الرأسمالية، ويستقل وحده في تدبير شؤون المجتمع حسب النظام الاجتماعي الطبيعي . هذا النظام يقضي بأن يكون أفراد الشعب خليات (Cells) متلاحمة متضامنة متعاونة في جسم الأمة الحي . وأن تكون الأمم بنوبتها خليات متلاحمة متكافلة متعاونة في جسم الانسانية العـام . متى نضج العقل الاجتماعي الى حد الشعور بهذا النظام الوثيق والايمـان به ، استتب حكم الأكثرية الفعلي أو الراجح، وحينئذ يبضع دمل الرأسمالية الذي هو منشأ فساد الديموقراطية وينزف صديده ، ويطهر جسم المجتمع من سمومه .

٤ — قواعد تربية روح الديموقراطية

فاذاً الحصول على القرار الأقرب لرأي الأكثرية يستلزم تربيـة الأمة وتأهيلهـا للحصول على المبادىء الآتية ، التي تستقر فيها روح الديموقراطية :

١ — نشر أعظم ما يستطاع من التعليم والثقافة العلمية والفنية الحديثة على جميع أنواعها ، ومتى كثر عدد المثقفين قوي نضج العقل الاجتماعي . وكلما نضج هذا استطاع التغلب على العوامل المفسدة لروح الديموقراطية والمسممة لجسمها . وبالتالي تضعف مقدرة المتزعمين السيئي القصد على استهواء الجمهور ، ويبطل استغلالهم لجهل الأمة ، ويقل الخطر من تلاعب الأفراد بمصالح الجماعة .

٢ — العناية الشديدة بالتربية الاخلاقية لتقوية الادب النفسي في جميع الافراد ، وبها يقوى نضج العقل الاجتماعي ، حتى اذا سمت الأخلاق ، واستقوت النزاهة في النفوس ، انحلت تلقاءها قوة النفعيين الذين يحاولون أن يستغلوا ضعف أخلاق الجمهور لمصالحهم الشخصية .

٣ — طبع العقيدة الوطنية في نفوس الناشئة ، أو بعبارة أخرى غرس الوطنية الصادقة في القلوب ، حتى اذا تمكنت هذه الوطنية في نفوس أفراد الأمة ، كانت كنظام غير منظور ، كامن في الصدور ، يقابل النظام الحكومي الذي يقبض زمامه فرد أو أفراد رسميون . وحينئذٍ يستحيل أو يتعذر على كل ذي سلطة رسمية تنفيذية أن يستخدمها لسحق قوة الشعب ، لان الشعب ينهض حينذاك من تلقاء نفسه نهضة واحدة بقوة تلك الوطنية الصادقة ذات النظام المستتر في نفوس الأمة — ينهض من غير تدريب أو تواطؤ لحماية نفسه . لأن الوطنية الصادقة نفسها تدربه لمقاومة افتئات ذلك المتسلط بقوة النظام الرسمي

لا نعني بالوطنية الصادقة ما طبعه الساسة مطايا الرأسماليين في أذهان جماهير الأمم من انها التعصب الأعمى للجنسية ضد كل جنسية أخرى كالفاشستية ، والنازية ، ونحوها . بل نعني بالوطنية الصادقة استيقان أفراد الأمة جميعاً أن القوانين الصادرة من لدن الهيئة النيابية ، مهما كانت الهيئة التي أصدرتها أقلية فعلاً أو أكثرية وهماً ، يجب أن تكون محترمة حرصاً على الأمن العام ، وعلى سلامة الأمة ، من مصيبة الفوضى . وانه لا سبيل لتنقيح القوانين التي تتراءى غير عادلة إلا عن طريق النظام الديموقراطي نفسه ، أي بواسطة الهيئة النيابية فقط هذا ما يجب أن تتربى عليه الناشئة من معنى الوطنية

٤ — لكي تكون الديموقراطية بركة ونعمة للجنس البشري كله ، وتكون الأمة في مأمن من غوائل فسادها ، يجب أن تتربى ناشئة كل أمة على « عقيدة الشعوبية » أي أن جميع الأمم أخوات متسلسلة من جدة أم واحدة ، وانها كلها متساوية في حقوق الحياة الاجتماعية ومقومات الحياة الاقتصادية المستخرجة من الطبيعة ، وأن السلام لا يقوم إلا على الاعتقاد العام بهذه العقيدة

هذه هي المبادىء الأولية التي يجب أن تربى عليهـا ناشئة كل أمة ، حتى اذا جعلت برنامجاً عامـاً للتربية تعتمد عليه كل أمة ، استقرت فيها الديموقراطية الشعبية والديموقراطية الشعوبية أيضاً فتظهر آثارها في الأمور التالية :

أولاً — يتقارب أفراد الامة كل التقارب في تصوراتهم وتفكيرهم ومبادئهم وأخلاقهم حتى يصبحوا كأنهم جميعاً نسخ متعددة لنموذج واحد، وبذلك يستقوى العقل الاجتماعي

ثانياً — ان هذا التقارب يسهل جداً التآم الأفراد في كتلة واحدة متماسكة الأجزاء، بحيث يتعذر على الصدمات تفكيكها .

ثالثاً — ان هذا التكتل الاجتماعي يجمع قوى الأمة في وحدة قوى عظيمة تستطيع مقاومة الصدمات الداخلية أو الخارجية والاجتماعية أو الطبيعية — المحاولة تفتيتها

رابعاً — ان هذه الآثار تظهر أيضاً في علائق الأمم بعضها ببعض، اذا كان ذلك البرنامج الديموقراطي برنامج جميع الأمم على السواء ، فبـه تتقارب تصورات الأمم وتفكيراتهـا ومبادئها وأخلاقها وتعاضدها على السلم العام

وبعد ، فلا بدَّ أن يلوح لقارىء هـذا المقال أن يسأل : اذا كان الحكم الديموقراطي لا يزال الى الآن مشوباً بالعيوب والفساد ، فهو بالظاهر ديموقراطي زائف ، وبالحقيقة هو حكم فرد أو أفراد ، أفلا يكون الحكم الملكي المطلق أفضل من الحكم النيابي ومن الحكم الجمهوري أيضاً ؟

والجواب في نفس المقال : في المقال تشريح للحكم مهما كان نوعه : ملـكيّـاً كان أو جمهوريّـاً ، مطلقاً أو مقيداً ، فالحكم الملكي المطلق لا يختلف عن الحكم الدكتاتوري الذي أشرنا اليه في صلب المقال ، وعيوبهما هي هي في الحالين .

والحكم الدستوري النيابي لا يختلف عن الحكم الجمهوري . وعيوبه كعيوبه ، فصلاحية الحكم لا تتوقف على نوعه ، بل علي رقي الأمة في الثقافة والأخلاق ، ولا سيما في مراكز هذا الحكم ومصادر قوته ، سواء أكانت هذه القوة ديكتاتورية، أو نيابية بالفعل . ومتى كانت الأخـلاق قويمة والثقافة عاليـة سقط كل حكم استبدادي، سواء كان ملـكيّـاً أو جمهوريّـاً .

الفصل الرابع

منتقدات الديموقراطية ومحاسنها

١ – الانتقادات

نقض الحرية

الحرية أول ما يلوح لأضداد الديموقراطية . فهم يحجون أنصارها الذين اتخذوا الحرية والمساواة شعارهم ، بأنها مناقضة للحرية التي يتوخونها عن يدها . فهي تضيق دائرة الحرية بما تسنه من القوانين المتنوعة التي تقف في سبيل مساعي الأفراد وتنافسهم وتسابقهم في مضمار الأعمال ، في حين ان الغرض منها اطلاق الحرية . مثلاً بإيذانها للعمال إنشاء النقابات سهلت لهم التواطؤ على الاعتصاب والاضراب ، فعرضت مرافق الأعمال لأخطار الفوضى والتعرقل ، وقيدت حرية أصحاب المشروعات في ترويج حركة العمل . فبينما كان الغرض من الديموقراطية توسيع دائرة الحرية ، فاذا به يضيق دائرتها في ساحة العمل الذي هو نشاط الحياة الاجتماعية .

ولكن أنصار الديموقراطية يقولون : ان « الحرية » المقصودة في النظام الديموقراطي هي الكبح لجماح شهوات الحكام والأعيان والملاك وسائر الأغنياء الذين يضحون على مذبحها بحقوق العامة في الحياة ، ويعرضون هناءة الجمهور لأخطار البؤس والفاقة والشقاء . كان لأولئك الحكام وأعوانهم وأذنابهم حرية لا حدود لها تقريباً . وقد طغت على حرية العوام حتى خنقتها خنقاً . ولذلك قضت الديموقراطية بأن تتوزع الحرية على الطبقتين بحيث تتعادل بينهما . وذلك بسن قوانين تصد تلك الشهوات الاريستوقراطية وتردع طغيانها على حقوق العامة . فهي لم تنقض حرية تلك الطبقة بل جعلت لها حدوداً كحدود حرية الجمهور . وجعلت الحرية لكل طبقة في مستوى واحد . واذا كانت الى الآن لم تتم هذه التسوية فلأنها لم تنضج بعد ، ولهذا لا تزال قصيرة اليد

٢ — اطلاق الحرية للطبقة السفلى خطر على العليا

وهناك مفكرون يحجون أنصار الديموقراطية ، بأن هذا النظام الذي يحل الحرية من قيودها هو نفسه يضع حدوداً لها تضيق عليها . فكأن الديموقراطية نفسها تقاوم نفسها .

وتفصيل حجتهم أن الطبقة الوسطى التي كانت قبلاً تصخب في وجه الحكام والأعيان والملاك وتناضل لأجل حرية العمل والمعاملة قد حصلت بفضل الديموقراطية على هذه الحرية ، الى أن أصبح كبار أصحاب الأعمال "الذين نبغوا من وسط العامة يفخرون على الأعيان بما أحرزوه من غنى وجاه . ولكنهم لا يعدون من الأعيان التقليديين ذوي الأنساب والأحساب ، والرتب والألقاب — هذه الطبقة نفسها التي شمخت على الأعيان ، أصبحت تشكو الآن من صخب طبقة العامة نفس الشكوى التي كانت طبقة الاعيان تشكوها منها . أفليس أن الديموقراطية التي أطلقت الحرية لهذه الطبقة الوسطى ، أصبحت الآن تحاول أن تحد حريتها وتضيق عليها ؟ فاذا كانت هذه طبيعة الديموقراطية ، فهي طبيعتها الآن وغداً وبعد غدٍ ، لا تحرر طبقة الا وتعود تسلبها حريتها .

والرد — هذا صحيح . والحجة دامغة . وإنما لهذا الداء العضال في الديموقراطية علاج نافع يشفيها منه حالاً . وهو الغاء « النظام الطبقي » وتعميم المساواة حتى لا تبقى ثمت طبقات . وهذا النظام يلغى بقيام الديموقراطية الاقتصادية كما سنشرحه في محله ان شاء الله . فالعيب ليس في النظام الديموقراطي ، بل في النظام الطبقي الذي هو ارث من النظام الاريستوقراطي ، نظام الحكم الفردي المطلق .

وهناك حجة وجيهة لفريق من الناس يتضررون من مساوىء تنفيذ النظام الديموقراطي . وهي ان اطلاق الحرية لعوامل الدعاية تطمس الحقوق، وتزعزع المساواة، وتقلقل النظام نفسه برمته . حسبك مثلاً شاهداً على ذلك بوق الصحافة وهو بوق ضخم الصوت قوي جداً يتردد صداه في جميع انحاء المعمور . فمن يظفر بهذا البوق يستطع أن يموه الحق بطلاء الباطل ، ويحصل على رأي عام مزيف يستشهد فيه الصواب والحق والعدل . فاطلاق الحرية لعامل الدعاية بواسطة الصحافة أو بأية واسطة ، هو بنفسه قاتل للحرية، ومقلقل لبنيان المساواة . فالديموقراطية التي ترفع علم الحرية تجني على الحرية . والديموقراطية التي تبني صرح المساواة تدك صرح المساواة .

حقاً هذه حجة وجيهة . وانما ليس الذنب ذنب النظرية الديموقراطية ، بل هو ذنب منفذي هذه النظرية ، أو القائمين بها . النظرية ليست إلـهاً يفعل ، وانما هي إلـه يوحي . فاذا كان الناس لا يعملون بالوحي فما ذنب الإلـه ؟

٣ — تضييق دائرة الحرية الشخصية

ويقول المنتقدون : لا مشاحة في أن الديموقراطية مهما كان لها من محامد تضيق دائرة الحرية الشخصية . لا تسمح لك مثلاً أن تمارس عملك إلا في أوقات معينة . لا تستطيع أن

تسافر متى تشاء لأن مواعيد القطار والباخرة مقررة ، إذا تأخرت لحظة مضطراً فاتك القطار أو الباخرة . لا تقدر أن تشغل الراديو في حانتك أو دكانك . لا تقدر أن تنشيء محلاً للقمار . لا تصدر أوراق نصيب . لا تفتح محلاً للمراهنة في السباق (في بعض البلاد) . لا تسكر أو تتاجر بالمسكرات . لا تستعمل المخدرات ولا تتاجر بها . لا تراب أو لا تتجاوز حداً معيناً من الربى (مع أن جميع أنواع المضاربات في البورصة جامعة لجميع أنواع النصيب والرهان والربى بشكل فظيع غير مباشر) لا تستخدم أحداثاً ولو كانوا فقراء محتاجين للارتزاق من الخدمة أو العمل — الى غير ذلك من عديد الأمور التي حجزت فيها الحرية تحت سيطرة الديموقراطية وكانت مطلقة قبلها

ان هؤلاء الناقدين يفسرون معنى الحرية، كما كان يفهم أناس النظام الفردي القديم، وهو أن الانسان عنصر فرد (Atom) أو ذرة . والمجتمع هو مجموع ذرات انسانية أي مجموعة أفراد . وأما علماء اليوم الذين درسوا الاجتماع الانساني رأوا أن المجتمع ليس مجموعة أفراد مجتمعين من غير رباط ، بل هو جزيئات Molcules تربطها ألفة كالألفة الكيمية Affinity . فالفرد ليس عنصراً فرداً أو ذرة فقط ، بل هو ذرة ذات ألفة تربطه بأفراد آخرين، لتجعل منهم هيئة لها خواص ومزايا ليست للفرد على انفراد . والفرد نفسه يتمتع بما لهذه المزايا من منافع ، لا يمكنه أن يحصل عليها لو بقي فرداً أعزل لا رابطة بينه وبين الآخرين . فهذه الألفة التي تغدق عليه المنافع هي رباط يجتزيء من حريته . وفي مقابل تلك المنافع يجب أن يتنازل عن جزء من حريته .

إذن ، متى قلنا « حرية » في هذا العصر فلا نعني خلو المجتمع من العلائق والأربطة التي بين أفراده ، ولا نقصد بها حصانة الفرد ضد الأفراد الآخرين ولا مناعته ضد مقتنص حرياتهم . لأن هذا المعنى لا يقوم إلاّ باعتبار توسيع حرية الفرد أو بتضييق حرية أفراد آخرين . فاذن طبيعي أن نحدد دائرة الحرية في دائرة الاجتماع ، لأن معنى الحرية الاجتماعية أن يستطاع العمل بالاشتراك مع الآخرين، أو أن يعمل ما يجوز أن يعمله كل واحد ولا عذر فيه لمعارضة أحد البتة . فبهذا المعنى يجوز لك أن تسافر متى تشاء على قدميك أو دابتك، إذ لا عذر لأحد أن يعارضك . وإنما لا يجوز أن تستمهل القطار أو الباخرة بحجة أنك مضطر الى التأخر، في حين أن غيرك يستعجلها بحجة أنه مضطر للاستعجال . فهنا تقييد موعد القطار والباخرة إنصاف للجميع . وعلى كلٍّ ان يرتب مشاغله بحيث تتفق مع مواعيد القطرات والسفن . لابد هنا من تحديد نطاق الحرية .

ولا تشغل الراديو في حانتك ولا تطلق العنان له قرب شباك منزلك لكيلا تزعج

جيرانك. ولا تشغل مصنعك في غير الأوقات المعينة لئلا تضطر العمال المحكوم عليهم بحكم حاجتهم اليك أن يشتغلوا في أوقات راحتهم. لا يؤذن لك بالنصيب والمراهنة ونحوها لأن فيهما اغراء لانهالك فريق من الناس في الحرص على الكسب من عمل غير منتج، وفيه خطر على أموالهم أن تضيع سدى. وهكذا تجد لكل محظور مبرراً لئلا تتعرض الجماعة لخطر ينجم عن الاباحة واطلاق الحرية.

فاطلاق الحرية أو عدم تحديدها بحدود، إنما هو الاباحة لفريق من الناس ممتازين بنفوذهم أو بذكائهم وبراعتهم في الاحتيال أن يوسعوا دائرة حريتهم على حساب التضييق لحرية غيرهم. والديموقراطية ترمي الى تحديد الحرية بأوسع ما يستطاع بحيث تشمل الجميع ويتساوى فيها الجميع. وما دام المجتمع نظاماً كافلاً لأمن الجماعة وسلامتها وهنائتها، فلا محيص من تحديد الحرية، والا فما هو مجتمع منتظم بل هو جمع في فوضى. وإذ كان لا بد من تحديد الحرية، فلماذا تحدد لأناس وتطلق لأناس ؟

ولسوف ترى في فصل مستقبل الديموقراطية أن حدود الحرية تضيق برهة بعد برهة من الزمن حتى يكاد الانسان يصبح كالجندي تحت السلاح. ولكنه لا يشعر حينئذ بسعادة أقل مما يشعر الآن حيث الحرية أوسع حدوداً كما يظن الناقدون.

٤ — حط عقلية الجماعة

ويحج أضداد الديموقراطية أنصارها بأن سن القوانين الذي كان ويجب أن يكون، من حق الحكمة السامية الهية أو أرضية، أصبح يصدر من طبقة الغوغاء الذين لم يحرزوا شيئاً من الحكمة والذكاء والحنكة. فهم بما لهم من حقوق الانتخاب يتولون سن القوانين للجميع، ويسيئون للعدالة أو المساواة المبتغاة من الديموقراطيـة. يسيئونها أولاً لجهلهم ميزان العدالة. وثانياً لأنهم ما خرجوا عن دائرة الطبيعة الانسانية بما فيها من اهواء وشهوات. ثم ردف أضداد الديموقراطية هـذه الحجة بحجة أخـرى وهي: ان علماء الاجتماع على الاطلاق أثبتوا أن العقليـة الاجتماعية أحط جداً من العقليـة الفردية. ولذلك لا يمكن ان تصدر القوانين من عقليـة الجماعة خالصة من شوائب الهوج والطيش والحيف والغبن والعسف الى غير ذلك.

والرد على هذا النقد: انه حقيقي ان عقليـة المجتمع أحط من عقلية الفرد. ولكن أدبية المجتمع ليست أحط من المعدل الأوسط لأدبية الأفراد. بل بالأحرى ان أدبية الجماعة أرقى من الأدبية الوسطى للافراد لسبب نفسي (سيكولوجي) بحت: وهو ان عقليـة

الجماعة نقية من الغايات النفسانية، ومن شوائب الشهوات الفردية ، خلافاً لعقليـة الفرد التي لا يمكن ان تتطهر من الاهواء والشهوات المسيطرة على أدبيته . وان رأيت فرداً يشبه الملاك بنقاوة نفسه تجد ألوفاً يشبهون الشياطين في دنس أنفسهم . إذن أدبية الجماعة أرقى جداً من أدبية الأفراد الوسطى . ولما كانت العاطفة ، وهي عامل أدبي ، تسيطر على الحكمة أو العقل، كان رأي الجماعة في سن القوانين أضمن لسلامتها من شوائب حيف الفرد وغبنه وتحيّزه . ولو كانت حكمة الحكام والأعيان وحـدها تستقل بسن القوانين، ولا تتدخل شهواتهم بحكمتهم، لكان الحكم الفردي المطلق أضمن للعدل جـداً من الحكم الشعبي ، ولكانت الديموقراطيـة عيباً في المجتمع اذا كانت السيطرة فيها للغوغاء فقط . ولـكن وأسفاه ا الأمر بالعكس . الشهوات ، لا الحكمة ، تسن القوانين للحكم الاريستوقراطي . فساوىء قانون الجهالة الديموقراطية ، ولا محاسن قانون الشهوات الاريستوقراطية .

على انه كان لحجة أضداد الديموقراطية بعض الوجاهة أو معظمها يوم كانت طبقة العامـّة دفينة في غابات الجهل والسخف ، وقلة الخبرة الاجتماعية. في ذلك الحين كان يستهجن حقيقةً أن يتولى سن القوانين مجلس مؤلف من جهلاء العامـّة . ولـكن مجلساً كهذا من الجهلاء لم يؤلف ولن يؤلف قط في عمر الديموقراطية ، لا في ماضيها ولا في حاضرها ، ولا في مستقبلها . وفي عصرنا هـذا الذي طغت فيه أكثرية العامـّة الساحقة على أقلية الخاصـّة الضئيلة ، لا ينتدب الى مجلس النواب إلاّ الأفراد الممتازون بعلمهم وذكائهم وحنكتهم . والأمر العجيب الذي ذهل عنه أضداد الديموقراطية ، هو ان أهل الحـكمة والذكاء في كل جيل لم يظهروا إلاّ من طبقة العوام . فالأعيـان والسراة الأخصـاء ليسوا صالحين لسن القوانين ، لا من ناحية الحكمة، ولا من ناحية العاطفة. فحجة الاضداد هذه إذن ساقطة لا محالة

٥ — تضعضع حقوق الملكية

بقيت لذوي الأملاك حجة ضد الديموقراطيـة وهي ان الديموقراطيين يدّعون ان نظامهم حامٍ للحقوق وحارس لهـا ، ومن جملتها حقوق الملـكية . ولـكن ظهر ان نظامهم يعرض حق المـُلـكية لخطر الضياع . فهو قد حفز طبقة العامة لتجريد أصحاب الأملاك من املاكهم ، ولتجريد أصحاب المشروعات الاقتصادية من مشروعاتهم . وخوّل للمجلس سن قوانين للضرائب تأول الى هذه الغاية كقانون ضريبة الايراد ، وقانون ضريبة المواريث ، وكلاهما ثقيـلان على المـُلـكية ، وكقانون نزع الملكية لأجل المصلحة العامـّة في مقابل تعويض ، الى غير ذلك . وهناك قوانين أخرى تحد من حقوق أصحاب الأعمال ، كاستخدام

العمال ساعات معينة بأجور معينة الحد الأدنى . وتفرض واجبات على أصحاب العمل تتحملها ملكيتهم ، كالانفاق على رفاهة العمال وصحتهم وسلامتهم من الاخطار ، وضمانة المستقبل لهم ولأسراتهم . فاذاً الديموقراطيــة التي شعارها « حقوق الانسان » تعرّض هــذه الحقوق للخطر . ففيها اذن تناقض ذاتي . الجواب — حقّــا ويقيناً ان هذا التناقض الذاتي كان عيباً كبيراً في النظرية الديموقراطيــة يوم كانت « المُلْــكية » حقّــا من حقوق الانسان . كان عيباً حقيقةً يوم كانت الديموقراطيــة ضعيفة مثلوبة تسلم « بحق ملكية » . ولكن الديموقراطية البحتة لا تسلم « بحق ملكية » بتاتاً . ما دام حق الملكية ينقض « حق المساواة » . نواة الديموقراطية ، « المساواة » في كل شيء حتى في العقلية والمعرفة . فاذا كان الناس الآن يتفاوتون في عقليتهم ومعرفتهم ، وبحكم هذا التفاوت يجب أن يتفاوتوا في تمتعهم ، فمن واجب النظام الديموقراطي ان يبذل كل جهد لمساواتهم في العقلية والمعرفة والأهليــة أو لتقاربهم فيها ما أمكن الى حدّ المساواة . لكي يتساووا في تمتعهم ، ومستقبل العالم الانساني هو هذه المساواة كما سنشرحه في فصل خاص .

وسيرى القارىء في فصل الديموقراطية الاقتصــادية ان حق الملكية نفسه سوس ينخر في جسم الديموقراطية ، ورثه من النظام الاريستوقراطي وسيطهر منــه . وحينئذٍ يرى المحتجون بحق الملكية ان حجتهم هباء .

٦ — ضلال رأي الاكثرية

بقيت حجة للاضداد في صميم النظام الديموقراطي . وهي انه بالرغم من أن رأي الأكثرية هو النافذ ، فليس رأي الاكثرية هو الصائب دائماً ، اما لجهالة الأكثرية أو لفساد الأخلاق ، أو لتلاعب الغايات النفسانية ، أو لتدخل النفوذ من الخارج . وقد تبسطنا بهذا الموضوع في فصل الرأي العام . ويكفي هنــا أن نقول ان الصواب الذي يزعمه الاضداد المحتجون هو صواب في نظر أناس ، وليس صواباً في نظر آخرين . فمن يحكم في ما هو الصواب ؟ هل هنــاك محكمة سماوية تفصل بين الفريقين ؟ أم ان المرجع على كل حال للاكثرية . فما تقرره الأكثرية هو الصواب قانوناً ولمحكمة الاختبــار في المستقبل حق

الحكم فيما اذا كان القرار صائباً أو لا . إذا رأت الأمة في المستقبل أن القرار كان خطأ تتوب عنه وتقرر أصوب منه . الحكم النهائي على كل حال للأكثرية . الأكثرية المستقبلة تحكم في قرار الأكثرية الماضية . ولا محكمة أعلى منها إلا الأكثرية التي بعدها . وهكذا دواليك .

ويؤيد هؤلاء الناقدون نقدهم هذا بأن الناخبين لا ينتخبون الأكفاء دائماً ، بل كثيراً ما ينتخبون غير الأكفاء . وهذا هو السبب في أن الصواب يخذل في كثير من القضايا التي يتناقش فيها النواب .

والجواب على هذه النقطة هو أن الكفاءة للنيابة نقطة مبهمة غير محدودة،فقد يكون هذا الفائز في الانتخاب غير أهل في نظر الفلاسفة أو العلماء لأنه لا يقدر أن يقنعهم أو يؤثر في أنفسهم . ولكنه يكون أقدر من الفيلسوف والعالم في اقناع الجماعة التي انتخبته وأمهر في التأثير في نفسيتها . فهو إذن على شيء كاف من الأهلية للنيابة عن جماعته،وجدير بأن يناضل عن حقوقها،ويخدم مصالحها،ويطالب برغائبها .

٧ — تغلب رأي الاقلية

ويقول المنتقدون أيضاً أنه كثيراً ما يثير فرد أو أفراداً قليلون جداً قضية أمام مجلس الأمة لكي يقررها ، ويستعرضون جمهوراً من المواطنين لكي يؤيدهم في حين أن هؤلاء غير مكترثين بتلك القضية لأنها لا تهمهم،أو أنهم لا يفهمونها ولا شأن لهم فيها . فكيف يكون تقرير القضية ديموقراطيّاً وهو نتيجة سعي بضعة أنفار ذوي مصلحة خاصة.وكثير من مقررات البرلمان تجري على هذا النحو . وكثير فيها يجري بلا مناقشة ولا جدال ،لأنه لا يبدو فيها موانع لتقريرها . ثم كيف يعد صوت المقترع أو المنتخب ديموقراطيّاً أو دستوريّاً إذا كان يعطي صوته (ولصوته شأن في تكوين الرأي البارلماني وتقريره) وهو غير متعقل سداد الرأي في القضية ، أو غير فاهم لها ، أو لم يجتهد أن يصوغ لنفسه رأياً فيها ؟

والجواب على الشطر الأول من هذا الانتقاد أن القضية التي يثيرها أفراد وتقررها أكثرية بلا تفكير لا تكون في الظاهر مؤذية لمصلحة الجمهور،فلماذا يخذل المجلس مصلحة

أقلية فيها ؟ وإذا ظهر في المستقبل أن فيها غبناً للجماعة فليس ما يمنع أن يتدارك المجلس قراره بعرض قضية أخرى ضد تلك ، أو تتلافى أضرارها . فالمجلس ليس الهاً غير معصوم حتى يكفل للأمة سلامتها من غرامة بعض أخطائه . وله أن يعدل قراراته بقرارات جديدة كل يوم .

والرد على الشطر الثاني ان النظام الديموقراطي يخوّل لكل فرد أن يستعمل حقه بالتصويت . ولكنه لا يستطيع أن يشترط على هذا الفرد أن يستعمل عقله في استعمال حقه هذا . لأن هذا الشرط فوق مقدرة كل نظام ، وإلاّ لأمكن اتهام كل فرد أنه غير جدير بأن يستخدم عقله في استعمال حقه بالتصويت . الديموقراطية لا تضمن أن يكون جميع الناس متساوين في العقلية والذكاء والمواهب كل التساوي، وانما تضمن أن يكونوا متقاربين أكثر فأكثر

لهذا السبب لا بدّ من الاعتماد على أفراد معدودين في استنباط رغائب الأمة أو رغائب فريق منها ، وصوغ الاقتراحات فيها واثارتها ، واستصراخ الجمهور لتأييدها . وأخيراً المناقشات ترجح ميل الأكثرية الى الصواب .

واذا كانت الأمة في درجةٍ حسنة من الرقي فلا يخشى كثيراً من ارتكاب المجلس الأخطاء بزعم أن مثيري القضايا البارلمانية أفراد معدودون،والجمهور وراءهم ساذجون ، وما هم في الأمة الراقية بساذجين .

ثم ان سبب هذا الذي ينتقده الناقدون فيما تقدَّم هو أن الثقافة لم تكن في القرن الماضي عامة، بل كانت محصورة في طبقة أولاد الأعيان والأغنياء. ولهذا كان جانب كبير من الأمة جاهلاً لا يستطيع وزن الأمور . ولكن الديموقراطية ضامنة إزالة هذا التفاوت بالثقافة وتقرير المساواة فيها . وقد نجحت نجاحاً كبيراً في هذا القرن كما لا يخفى . ولو كانت الديموقراطية تجيز حذف غير الأكفاء في الرأي من قائمة التصويت أو الانتخاب لما كان ثمت أمل بأن يحدث هذا التساوي في الثقافة،لأن مجلس الأكفاء يحاول أن يحصر الكفاءة بأهل طبقته .

الديموقراطية

سيرها ومصيرها

Democracy, Its Course and Tendency

بحث اجتماعي سياسي اقتصادي أخلاقي

تأليف

نقولا الحداد

رئيس تحرير المقتطف

ب – محامد الديموقراطية

١ — حرية الشكاية والنقد

الديموقراطية في القرن الماضي الى اليوم فرّجت غمة الملوَّع من آلام الاضطهاد والاستبداد – ذلك الملوع الذي كان مرغماً على كظم غمته وكتم آلامه صار يستطيع أن يصرخ باكياً لكي يسمع الحكام صراخه عسى أن ينصفوه. صار له صوت ورأي في مجلس وطني مرهف الآذان لسماع شكاويه ، مجلس يسوّل لكل فرد أن يناقش مباشرة أو عن يد نائبه في كل شكوى من شكاويه المؤلمة وفي كل رغبة من رغائبه المسعدة . أما كفى أن أباحت الديموقراطية للجمهور بلا استثناء حرية المناقشة والشكاية والمطالبة برغائب وأماني وحرية الانتقاد وتدارك كل غبن ينجم عن خطأ في الرأي ? قبل أن تفرخ الديموقراطية وتترعرع أغصانها النضرة من كان يستطيع أن يرفع صوتاً بكلمة ، أو ينطق بكلمة تخالف ارادة الحكام أو يتوسل الى أمنية يأبونها ? ألا تكفي حرية القول والعمل والنقد والمناقشة نعمة من لدن الديموقراطية ، وهي حرية تكفل الحصول على منتهى ما يستطاع توزيعه على الجمهور من الحقوق المشتركة والحقوق الخاصة التي فيها اقصى ما يمكن من السعادة للجنس البشري .

٢ — استقلال القضاء واستمراره

ربما كان أهم مفاخر الديموقراطية في التاريخ الحديث عزل القضاء من تحت سيطرة السلطة التنفيذية في جميع الممالك الراقية . وجعل السلطة التنفيذية تحت سيطرته في معظم هذه الممالك . وبهذا الامتياز للقضاء أمكن نصب قسطاس العدل . فمنذ صدور اللائحة الانكليزية المسماة «هابياس كوربوس» مثلاً — Habeas Corpus لم يعد يجوز في انكلترا اعتقال شخص الا باعلان تهمة صريحة ضده . ويجب أن يعجل بمحاكمته . فاما أن يبرأ أو يجرم ويعاقب . قام هذا المبدأ بضغط العامة على سلطة الحكومة التي كانت تجيز لنفسها أن تقبض على أفراد أبرياء تخشى مشاغبتهم أو مكايدتهم أو نفوذهم وتزجهم في السجون من

غير محاكمة تخلصاً منهم أو كفاً لمشاغبتهم . فمنذ ذلك الحين شرع هذا المبدأ يعم أوربا وتطرّق الى أميركا مع المهاجرين . ومنذ حينئذٍ شرع القضاء يخرج من تحت ابط السلطة الحكومية الى ساحة الاستقلال . ومنذ ذلك العهد لم يعد يجسر حاكم أن يقول قول الملك لويس الرابع عشر « أنا الحكومة » بل صارت قوانين القضاء تصدر من مجالس تشريعية أشباه بارلمانات الى أن صارت تصدر من بارلمانات ديموقراطية الآن .

والآن أصبح جميع من في المملكة من أفراد وما في الدولة من حكام تحت سلطة القضاء . والمحكمة تفصل بين الجميع بميزان العدل والحق ، وان ضاع حق في هذه المحاكم أحياناً فلافتقارها الى أشخاص نزهاء . وأما القضاء الحالي فلا عيب فيه الا ما كان من خطأ في النظام من غير عمد .

ربما عُدَّ الشرع الاسلامي مقداماً في اعلاء سيطرة القضاء على سيطرة الحكم . فلدى القضاء الاسلامي منذ صدر الاسلام الى اليوم يقف أكبر كبير كأصغر صغير منحني الهامة لحكم المحكمة المقدسة .

يقال ان جلالة الملك عبد العزيز ابن السعود اذا استدعي الى المحكمة لسماع أي شكوى ضده لبى الدعوة ووقف لدى منصة القضاء الى جنب خصمه الى أن يسمع الحكم له أو عليه بكل احترام واجلال لحرمة القضاء .

فلا غرو أنه لولا ترعرع الديموقراطية في القرن الماضي لبقي كثيرون من الناس المغضوب عليهم يقادون الى أمثال البستيل حيث يدفنون أحياء الى أن يحين دفنهم أمواتاً من غير أن يسمح لهم أن يسمعوا تهمتهم ويدافعوا عن أنفسهم . وهل يمكن أن تخنق الحرية بارداً من هذا الخنق . واذا كانت الحرية مخنوقة فكيف يُرجى أن يصعد العمران في سلم ارتقائه بالسرعة التي صعد بها في القرن الماضي الى الآن .

فارتفاع رأس القضاء تحت ظل الديموقراطية هو أعظم نعمة من نعم هذا النظام .

٣ — ترعرع الثقافة

وتليها نعمة الثقافة التي هي اليد اليمنى لهذا النظام نفسه . فلا بدع أن تقوى يمناه التي بها يهدم جميع الحجب الحاجبة ضوء الحرية ، ويدك العقبات القائمة في سبيل تقدم الحضارة ،

فقبل عصرنا الحاضر لم يكن التعليم في منال أحد من العوام. كان أولاد الأعيان والأغنياء مستأثرين به. وأما سائر الشعب فبقي غائصاً في بحر الجهل المطبق لـكيلا يأبق من عبوديته للسراة. وأما في هـذا العصر فقد أصبح التعليم الأولي محتوماً مجاناً لجميع الأحداث بلا استثناء في معظم الممالك. وقلت العقبات أمام التعليم العالي فبرز النوابغ والعباقرة من طبقـة العامة وتنافسوا خاصة وعامة في حلبة النجاح والارتقاء الى مناصب الحـكم والى كراسي النيابة بجدارة وأهليـة. وبذلك تأيد النظام الديموقراطي واستتب أمره وساد سلطانه. ولا يزال يستعلي ويسود الى أن سحق كل سلطة غاشمة تعرقل العمران في تقدمه وتخنق حرية شخص لاحياء حرية شخص آخر.

ولا يخفى أن تعميم التعليم ونشر الثقافة نشطا بالعلم ودفعاه دفعـة بعيدة المدى الى الأمام. فالحقائق العلمية التي اكتشفت في هذا العصر منذ القرن الماضي الى اليوم تساوي ألف ضعف الحقائق العلمية التي اكتشفتها العقول السامية منذ بدء التاريخ الى مطلع هذا القرن. ولا محل ولا داعي لتعدادها أو التنويه بها هنـا لأن القارىء يعرفها ويسلم بكثير منها. وانما الغرض من الاشارة إليهـا هو لفت نظره الى أن جميع الاختراعات الصناعية الحديثة. ونحوها — الاختراعات التي لا تعد ولا تحصى ولم تدع ليـد العامل عملاً بل قامت مقامها في كل عمل — ان هذه الاختراعات كانت بنت العلم الحديث، والعلم الحديث ابن الديموقراطية الحديثة.

٤ — الخدمة الصحية

تلي هـذه المحمدة من محامد الديموقراطية محمدة لا تقل عن المحمدتين السابقتين قيمة وهي الخدمة الصحية التي خدم العـلم بها الانسان بفضل النظام الديموقراطي أيضاً. فهذا النظام رأى أن سلامة الأفراد الصحية أعياناً أو خاصةً أو أغنياء أو عامة أو فقراء تتوقف على تأمين صحة المجموع. فمنذ اكتشف باستور الميكروب والمصل واللقاح اتضح أن سلامة الحاكم والسري والذات والغني مرتبطة بسلامة العامي أيّـا كان موسراً أو فقيراً أو معدماً. ولذلك وجب أن تتخذ كل وسائل الوقاية والعلاج لجميع أفراد الأمة بلا استثناء. فـكان من مقتضيات الصحة العموميـة أن تُضمَن نقاوة مياه الشرب والمواد الغذائيـة من

جراثيم الأمراض . فجعلت مجاري المياه ومصادرها تحت المراقبة الصحية . وجعلت الألبان والخضرة واللحوم والفاكهة تحت مراقبة التفتيش الصحي اليومي الى آخر ما هنالك من هذا القبيل .

ولأجل الوقاية من الأمراض الوبائية أيضاً أنشئت المجاري العمومية التي تعزل فيها النفايات الى الخارج البعيد وردمت المستنقعات التي ظهر أنها بؤرات جراثيم خبيثة الخ .

ثم أنشئت المستشفيات والمصحات العمومية لمكافحة الأمراض التي لا تتدارك بالاحتياطات السابقة وأمثالها .

ولا محل هنا لتعديد جميع أنواع الوسائل الصحية . وكلها تنشأ على حساب الدولة لصيانة الصحة العمومية . هكذا تقضي الديموقراطية ولم يكن ليقضي مثله النظام الفردي المطلق قبلاً . بل كان الملك يقول « وبعدي الطوفان » . وقد يقوله وهو يتأهب للرحيل الى الأبدية بحمة حمى عفنة بسبب عدوى من أحد العبيد الذين لا يكترث بمصيرهم بعده .

وأما نتائج هذه العناية العامة بالصحة العمومية فتثبتها الاحصاءات المفصلة . ومضاهاة حاضرها بماضيها حيث يبدو بوضوح أن الصحة العمومية أصبحت أحسن حالاً والأعمار أطول ووفيات الأحداث على الخصوص أقل والبنية الجسدية أمتن . والبؤس والشقاء الآتيان من ناحية الصحة قلا كثيراً . فعصرنا يُعَدّ من هذا القبيل عصر الصحة والعافية ولولا ما انتابه من هموم الحياة وغمومها الفاشية التي أوهت الأجهزة العصبية لكان جديراً بأن يدعى عصر العافية الهنيئة .

٥ — ارتفاع مستوى المعيشة

والنعمة الأخرى التي تعد من أهم نعم الديموقراطية الى الآن هي ارتفاع مستوى المعيشة ووفرة وسائل التمتع على العموم . فان عدداً كبيراً جداً من الأفراد يعيشون الآن ببذخ وترف لم يتمتع بمثله ملك من ملوك التاريخ القدماء . والطبيعة الوسطى من الناس متمتعة تمتعاً أعظم جداً من تمتع مثيلاتها في الأعصر الماضية . كذلك تمتع طبقة العامة . وقد تيسر هذا بفضل تقدم العلم والصناعة ثم بتنظيم عوامل الانتاج والتوزيع . والفضل الأول انما هو للنظام الديموقراطي كما لا يخفى . وليس هنا متسع لاستيفاء البحث بهذا الشأن فنتممه في فصل الديموقراطية الاقتصادية

٦ — زوال الرق اسرسمي

وهناك حسنة من حسنات الديموقراطية جديرة بالذكر لا يجوز أن نغفلها في هذا

الفصل . وهي زوال النخاسة والرق الرسمي الا في بعض البلاد المنحطة . فأميركا اشتعلت بحرب أهلية مدة ست سنين لأجل تحرير العبيد الذي كانوا يجاء بهم من سواحل افريقيا الغربية ويباعون في أميركا . والمؤتمرات الدولية قررت أخيراً الغاء الرق والنخاسة رسمياً وأخذت عهوداً على جميع الدول أن تقاوم هذه التجارة المشينة .

وأما الرق غير الرسمي، ونعني به استعباد أصحاب الأعمال فئات من العمال لاستحكام أولئك بأعناق هؤلاء عن طريق الفقر والحاجة المحرجة ، فقد ضعف بفضل مساعي نقابات العمال التي استصدرت في كثير من الممالك قوانين رسمية للعمل . وهذه النقابات نشأت تحت راية الديموقراطية كما لا يخفى . وسنستوفي البحث في هذا الموضوع في فصل الديموقراطية الاقتصادية .

ولا ننسى أيضاً الرق الأبيض ونعني به البغاء الرسمي والتسري والاحتظاء الى غير ذلك مما يستعبد فيه عِرض المرأة . فقد حورب ونوهض في كل بلاد تقريباً مناهضة خففت كثيراً من دعارته ونتائجه الشريرة .

٧ — تحرير المرأة

بقيت كبرى حسنات الديموقراطية التي نختم بها هذا الفصل ، ونترك للقارىء الكريم أن يستنتج عدداً عديداً من الحسنات الأخرى الثانوية . ونعني بهذه الحسنة الكبرى تحرير المرأة .

فقد انقضت بضعة آلاف من السنين ونصف المجتمع الانساني إماء للنصف الآخر ، في حين أن وظيفة هذا النصف المستعبَد ، أي المرأة ، في المجتمع أهم وأعظم شأناً للحياة الانسانية فضلاً عن الحياة الاجتماعية . فاذا كانت المرأة لم تقم في التاريخ الماضي بكل واجبات هذه الوظيفة فبسبب هذا الاستعباد . واذا كانت الحضارة لم تبلغ مبلغها الحالي منذ زمان طويل فلأن هذا الاستعباد كان يعرقل سبيل تقدمها .

ولما شرعت الديموقراطية تفرخ وتترعرع كان أول ثمارها تحرير المرأة ، وتسارع الحضارة في رقيها كان الفضل الاكبر فيه لتحرير المرأة إذ أتيح للزوجين أن يتعاونا معاً في تربية الناشئة وتثقيفها . وكانت العاقبة الحسنى هذه المدنية الزاهرة الحديثة التي نتمتع بها الآن .

فمنذ أواسط القرن الماضي شرعت المرأة على العموم تتبوأ مقامها الأدبي في المجتمع ومنذ طالع هذا القرن شرعت تستتم حقوقها القانونية . حقوق الحرية والمساواة .

الفصل الخامس

سطوة الدكتاتورية

١ — الديموقراطية الحالية غير ناضجة

ربما لاح لناقدي النظام الديموقراطي ان يحتجوا بقولهم : ان الديمقراطيـة لو كانت معقولة لما تركت سبيلاً للدكتاتورية ان تسطو عليها في هذا العصر حتى في أقوى معاقلها كألمانيا وايطاليا مثلاً

ونحن يلوح لنا ان الذين يجول هذا الخـاطر في بالهم يعنون النظرية الديموقراطية لا الديموقراطية العملية ، الديموقراطية العملية لم تبلغ حد الكمال اذا كان بلوغه ممكناً، وانما هي سائرة في الطريق سيراً حثيثاً . ولم تزل بعيدة عن ذلك الهدف الأمثل . انهـا لسائرة بجد ونشاط ، ولـكن أمامها عقبات من العواطف البشرية ومثيرات من الشهوات ونحو ذلك ، مما يرتد أمامه التعقل مخبولاً او مشلولاً . فلذلك لا يستغرب ان تتعثر الديموقراطيـة في طريقها ويقوم في وجهها حكم «فردي» مطلق كالدكتاتورية . وربما كان هذا النظام الجديد من الحـكم نجدةً في حينها للديموقراطية اذ قد يقيلها من عثرتهـا ، ويتدارك الفوضى التي يتعرض لها المجتمع اذا تقلقل النظام.

الدكتاتورية كما نعرفها الآن ، لا كما عرفناها في تاريخ الرومان وغيرهم ، انما هي نوع من الفكر الفردي القليل التقيد او العديمه ، ويختلف عن الحـكم الملـكي المطلق بأن الدكتاتور (وقد ترجمناه « بالحاكم بأمره ») لا يرث السلطة عن سلف ، ولا يبايعه بها قومه ، وانمـا يظفر بها عن طريق الديموقراطية نفسها التي يشل هو حركتها الى حين . فالأمر المهم الذي يود ان يفهمه القارىء هو كيف يستطيع الدكتاتور أن يظفر بالسلطـة المطلقـة عن يد الديموقراطية

٢ — الديمقراطية تلد دكتاتورية

لا يخفى عليك: أولاً ان رجال السلطة التنفيذية (الوزارة) مختارون من الطبقة الممتازة بالذكاء وبالقدرة السياسية

وثانياً: ان الثقة بإخلاصهم وأمانتهم عظيمة بدليل القاء مسؤوليات عظمى على عواتقهم. ولهذا يخوّلون سلطة فعلية تنفيذية واسعة

فاذا توسّم الزعيم الرئيس انه قابض على زمام الحكم قبضاً محكماً، وان زملاءه أعوان مخلصون له ومتفقون معه في ارادته، وان هناك أحزاباً تشاغبه، وتحاول أن تقلب له ظهر المجن، شلّ الحركة الديموقراطية بنفس قوة السلطة التي خوّلته اياها الديموقراطية نفسها. فكأنه يوثقها بنفس الوثاق الذي يوثق به السلطة التنفيذية نفسها، يشل الحركة الديموقراطية ما استطاع لكي يقطع شأفة المشاغبة ويصمت ألسنة المشاغبين فيصفو له الجو ويفعل مايشاء مدّعياً انه يفعل لمصلحة البلد، وانه انما يغل أيدي خصومه بمخالفة النظام في بعض الاحوال لكيلا يعرقلوه في مهمته

وبقدر ما يثبت هذا الزعيم الحاكم بأمره (الدكتاتور) للجمهور انه مخلص في خدمة مصالحهم يقل خصومه فيقل نقضه للمبادىء الديموقراطية. وبقدر ما يشتبه الجمهور باخلاصه تشتد مخالفته لتلك المبادىء. كذلك بقدر ما يخصونه من النفوذ والتأثير يكون ضغطه عليهم مخالفاً لأحكام النظام. فحيث ترى الأفراد يُعتقلون ويحبسون بلا محاكمة، والمراقبة شديدة على حرية الصحافة والمنابر والنشر فاعلم اما ان خصومه أقوياء، او ان الشعب غير راضٍ الرضاء التام عن تصرفاته، كما كان في المانيا الهتلرية. والغالب ان يتفق كلا الأمرين معاً لأن خصومه لا يقوون عليه اذا كان الشعب راضياً

٣ — الدكتاتوريات البارزة

أبرز الدكتاتوريات في البلاد الديموقراطية الراقية الآن أربع. الدكتاتورية البلشفية الروسية. والفاشستية الايطالية. والنازية الألمانية. وتليها بالأهمية الدكتاتورية التركية وفي الثلاث الأولى على الخصوص يدعي الدكتاتور: —

أولاً — تحطيم بقايا النظام الاستبدادي القديم وتنظيف الحقل السياسي الاداري من هشيمه .

ثانياً — خلع الديموقراطيـة السابقة الضعيفـة التي كانت تتسكع في طريقها ، واقامة ديموقراطية قوية جديدة مقامها .

فالدكتاتورية الحديثة إنما هي عملية التسنين الثانية أي تخلع أسنان اللبن التي نبتت لعهد الطفولة ، وبروز طاقم الأسنان الجديد القوي الدائم .

وتزيد الدكتاتورية البلشفية على ذلك انها تبتغي تحطيم النظام الرأسمالي برمته واقامة نظام اشتراكي بحت على أنقاضه ، وانشاء هيئة اجتماعية لا طبقات فيها . بل هي ذات طبقة واحدة ، وان تلوّنت بألوان المواهب والمزايا الشخصية . تفعل ذلك بحسب انجيل كارل ماركس . ولهذا اتبع القائمون بالأمر من أوله وصاياه في أن يكون الانقلاب فجائيـًا بالقوة الثورية كما حدث في ايطاليا وألمانيا وتركيا لا عن طريق النظام النيابي

فالدكتاتورية البلشفية الروسية إذاً مرتجلة ارتجالاً ، وما هي حلقة من سلسلة حوادث وتقلبات متتابعة في مجرى القرن التاسع عشر وما قبله ، كما هي دكتاتورية كل من ايطاليا وألمانيا فانهما نبتتا من احشاء النظام الديموقراطي المستمر .

أما الدكتاتورية الايطالية فنشأت مشبعة بالروح الدكتاتورية الرومانية القديمة التي كانت جندية بحتة ، ومقصورة على الحـركة العسكرية بغية قمع ثورة أو فوز في حرب . (والتركية تشبهها) . ولهذا نظر الى الدوتشي الايطـالي منذ قام بحركته كأنه الرجل المنقذ البلاد من فوضى شيوعية كادت تقضي على البلاد قضاءً مبرماً . ذلك لأن الحزب الاشتراكي الايطالي الذي تولى الأمر على أثر الحرب العظمى ورام أن يقلب النظـام ويجعله اشتراكيـا بحتاً على حد ما جرى في روسيا أساء التصرف جدًّا ولم يتزعمه أفراد أهل للزعامة والادارة . فبدل أن يقوم نظام قويم على أنقاض نظام بائد هدم النظام السابق وقامت على أنقاضه فوضى جنونية . فقيض الله للطبقة البرجوازية زعيماً مجازفاً ، وجرى أنصار النظام وراءه مسرعين لئلاّ يجرفهم تيار الفوضى . فـكان الخوف من استفحال الفوضى مشدداً العزائم لمناصرة الزعيم في القضاء عليها . هكذا نجحت دكتاتورية موسوليني .

لم يكن الحقل السياسي الاداري الايطالي كثير الهشيم من بقايا النظـام الاستبدادي القديم بل كانت الديموقراطية هناك مستتبة وان تكن غير تامة النضوج . وانما كان النظـام الرأسمالي هو هشيم الحقل . والى الآن لا نستطيع أن نعطي كلاماً صائباً الى أي حد طهر الدوتشي الحقل من هذا الهشيم الشائك . لم تنطق محكمة الاختبار بالحكم النهائي عليه بعد .

أما الدكتاتورية النازية الالمانية فهي التي قامت على أكتاف الديموقراطية فعلاً . لأن الزعيم هتلر ارتقى الى دست الوزارة ثم الى كرسي الرئاسة العليـا عن طريق الانتخاب . وقد ساعده على الفوز سأم الشعب من الضغط الدولي على ألمانيا بواسطة معاهدة فارساي كما ساعد الخوف من الفوضى موسوليني على سحق الفوضى . ففيما كان الشعب الألماني يتململ ويتضجر من الضغط الدولي قام هتلر مجازفاً ينادي ذلك الشعب الى الانضواء تحت رايته لكي يرفع عنه ضغط الحلفاء. وكان الشعب الألماني على استعداد أن يلبي أي زعيم يناديه هذا النداء كما كان البرجوازي الطليان مستعدين أن يلبوا أي زعيم يناديهم للانقاذ من فوضى الشـيوعيين . والاتحاد قوة . وبهذه القوة استطاع هتلر أن يجازف وان يخرق معاهدة فارساي في وادي السار ثم في الرين . وعلى الرغم من ذلك اضطرت دكتاتورية هتلر أن تشل كل عضلة من عضلات النظام الديموقراطي لـكي تبقى قائمـة . فلم يكن في المانيا حرية كلام ولا حرية صحافة ولا حرية منبر حتى ولا حرية علم وأدب . بل كان هناك نظام أشبه بالنظام العسكري منه بالنظام الديموقراطي ، يندمج فيه كل فرد متحرك عامل . فلا ندري كم يستطيع ذلك الشعب الألماني النابغ أن يحتمل هذا التقييد . ولا ندري كم في الدكتاتورية الهتلرية من الأماني والآمال المستقبلة للشعب الألماني لقاء ذلك الاحتمال وجزاء له — لم يكن الا الخذلان ثم الخراب . لم يكن لقاء دكتاتورية هتلر هشيم غريب عنه لـكي يزيله من حقل النظام الديموقراطي . بل هي دخلت على نظام ديموقراطي لم يكن قد تطهر بعد من دكتاتورية سابقة قبل الحرب السابقة وفي اثنائها .

٤ — التمخض بالدكتاتورية

بقيت نقطة جوهرية هنـا لا بدّ من لفت نظر القارىء اليها وهي ان الدكتاتورية لا يمكن (أو يندر) أن تقوم أو تنشأ في الأحوال العادية بتاتاً . لا تنشأ الا في حالة خوف

الشعب ويأسه من مصيره لطارىء طرأ عليه فقلقل أمنه وسلامه . فالدكتاتوريات الأخيرة كلها قامت في اثناء انهزام قوى الدفاع في بلادها بحيث أصبحت شعوبها في اضطراب وقلق. ولم يبقَ لدى نوابها أو كبارها وقت للتفاوض في الأزمة الحرجة المداهمة ، فجعلت تنظر الى السماء متوسلة ومتضرعة أن يهبط إليها من السماء منقذ . وأي من يبرز للقوم حينذاك ويقول « هيّا » يمشي القوم وراءه .

ففي روسيا حدث الانقلاب البلشفي العظيم على أثر توالي الانكسارات وتضعضع الجيش وانحلال قواته وخسران روحه المعنوية . وفي ايطاليا حدث الانقلاب الفاشستي حين انهزمت القوة المحافظة على الأمن والنظام أمام الفوضى الأهلية . وفي المانيا حدث الانقلاب النازي حين كادت السلطة الحاكمة تخنع امام الضغط الخارجي وتستسلم . وفي تركيا قامت الدكتاتورية الكمالية التجددية حين انكسر الجيش العثماني في الحرب الكبرى. ولم تبق الا شرذمة أو فلول في الاناضول. وقد أرسل الغازي كمال أتاتورك لحلها وتسريحها وتسليم البلاد للاحتلال الأجنبي ، وترك الأهالي في يأس تحت رحمة الأقدار . فما كان من هذا النابغة الا أن جعل تلك الشرذمة نواةً لجيش عبّأه بعدئذٍ وصدَّ به الاحتلال الأجنبي وضرب به الجيش اليوناني الذي كان مخدوعاً بتحريض أوروبا له على فتح الاناضول. وهكذا كانت دكتاتورية الغازي أتاتورك انقاذاً لتركيا الجديدة .

فالانهزام في الحالات الأربع كان ألم المخاض

٥ — الدكتاتورية ردّة وفتنة

قد يلوح للقارىء أننا بهذا الفصل نمجّد الدكتاتورية لأنه الى هنا لم يرَ الا محاسنها، أو يرى انها نعمة للمجتمع لأنَّ فيها انقاذه في أحرج الأوقات . نعم أنها على الغالب تنقذه اذا تولّى الأمر الرجل الحاذق الحازم المخلص . وهي في الأزمة وحين الشدّة خيرٌ من الفوضى بل خيرٌ من التخبط في ظل الديموقراطية العرجاء . ولكنها لا تصلح للقيام مقام هذه على الدوام ، بعد أن تقضي مهمتها تصبح والحكم الملكي المطلق سيين، بل قد تكون اكثر استبداداً وكأنها ردّة لهُ Atavism وقد تكون مساوئها اكثر من مساوئه مهما فرضنا ان « الحاكم بأمره » واعوانه جديرون بالحكم وأهلٌ لهُ ذكاءً وحنكة وحسن

قصد . لأنهم لا يحرزون فضائل النظام الديموقراطي الذي يتضمن اشتراك الجميع بالرأي في دائرة الحرية .

الحكم الدكتاتوري كالحكم الفردي المطلق يكم الأفواه ويكسر الأقلام ويقطع الألسنة فيحرم المجتمع ثمرة المناقشة واحتكاك الأفكار . وهما أهم أركان الحكم النيابي الذي يكفل أقصى ما يستطاع من خدمة مصالح الجمهور . وانما الناس التمسوا منذ القديم الحكم النيابي وجاهدوا لأجله لأنه ثبت لهم عقلاً ومنطقياً واختباراً انه الذريعة الأمينة لحصولهم على أقصى ما يستطاع من أمانيهم . فلا يمكن أن ينيلهم الحكم الديكتاتوري هذه الأماني وهم لا يستطيعون أن يتوخوها . والقائمون بالأمر لا يمكن أن يُلهَموها أو أن توحى إليهم . والمجلس النيابي أبكم أصمّ أعمى لأن الدكتاتورية عصبت رأسه كله بعصابة أعمته وأصمّته وأبكمته . فأصبح مجلساً نيابيًّا بالاسم للتمويه والذّر في العيون والانتخاب تحت تأثير الدكتاتورية يصطنع اصطناعاً لأن الناخبين فاقدو الحرية غالباً .

لحسنة الدكتاتورية تنتهي بانتهاء مهمتها ، أي الانقاذ في حين الشدة . وبعد ذلك يجب أن تفسح السبيل للديموقراطية لكي تعود الى مقامها . تفعل كذلك اذا أطلق « الحاكم بأمره » الحرية للانتخاب القانوني وتألف مجلس الأمة حرًّا . فإن أقرّه المجلس في كرسي الحكم أصبح حاكماً ، لا بأمره بل بأمر المجلس ، وحينئذٍ تسقط دكتاتوريته وتثبت ديموقراطيته الجديدة

٦ — خطر الدكتاتورية على السلم العام

ولكن مهما كان الحاكم بأمره مخلصاً ونزيهاً ووطنيًّا متوخياً مصلحة البلاد تبقَ سوسة شهوة الحكم تنخر في نفسيته . لذلك يجتهد أن يحافظ على منصة الحكم لنفسه . ولخوفه من أن يفقدها اذا أطلق الحرية الانتخابية والكلامية والصحافية ، يكم الأفواه والأقلام ويضرب على أيدي المشاغبين ، ويعتقل الخصوم النافذين ، فتصبح الديكتاتورية نكبة بعد أن كانت في حينها بركة .

ولكي يستهوي « الحاكم بأمره » الشعب يحاول أن يختلق بعض المنافع له حتى ولو كانت في الميزان الاقتصادي غير معادلة للخسائر . وقد ينخدع العوام بهذه المنافع

ويطبلون للزعيم « الحاكم بأمره » ويزمرون ويهللون بتمجيده ويسبحون باسمه . واذا قام الفاهمون يبسطون لهم حساب الدخل والخرج لكي يظهروا لهم الخسائر ضرب الحاكم بأمره على أيديهم .

أوضح شاهد على هذا ديكتاتوريتا إيطاليا والمانيا . (وأضف اليهما دكتاتورية اسبانيا) . فكلتاهما أنفقتا في التسليح مالاً طائلاً بدعوى الفتح والتوسع تأميلاً للشعبين بمكاسب الاستعمار الوافرة . فاضطرت الدول الأخرى أن تحذو حذوهما . وبذلك ارتفع التسليح الدولي ارتفاعاً عظيماً جداً ، على أنه بقي بنسبة توازنه السابقة . فما تفوّقت دولة على أخرى . وبقي المحتمل من جني ثمرة التسليح الى الآن كما كان قبله لا يساوي نفقته . فالزعيمان علّلا الشعبين بآل الآمال على حساب الجنود والعمال من غير منال . فديكتاتورية هاتين الدولتين قلقلتا السلم العالمي وعرّضتاه لخطر يفوق جداً على ما نفعتا الأمتين به . (كتب هذا الكتاب قبل الحرب العالمية الأخيرة) .

على أي حال النظام الدكتاتوري لا يثبت طويلاً أمام تيار تذمر الشعب المتنور مهما أحسن صنعاً وأخلص خدمة وأنتج ثمراً ، لأن الحرية الشخصية التي يخنقها أثمن وأغلى من كل شيء . الشعب يجاهد لأجل حريته أولاً وآخراً .

الفصل السادس

الديموقراطية الاقتصادية

١ – الديموقراطية الاقتصادية الهدف الاعلى

١ — الديموقراطية العرجاء

يستفاد من روح مباحثنا في الفصول السابقة أن الهدف الذي ترمي الديموقراطية اليه هو بناء نظام اجتماعي جديد على أنقاض نظام الحكم الفردي المطلق بحيث يتساوى الأفراد في الحرية واحراز ما لكل منهم من الحقوق . وعلى الرغم من نضوج الديموقراطية في عصرنا هذا لا يزال هذا الهدف بعيداً :

أولاً : لأن طبقة العمال وهي الطبقة العظمى في كل أمة لا تحرز حتى الآن ما لها من الحق في ثمرة عملها — العامل لا ينال جزاء عمله . لا ينال الا أقل ما يمكن أن يقوم بأود حياته والباقي بعد يستحقه عمله ، وهو القسم الأوفر ، يغتصبه صاحب العمل .

وثانياً : لأن الناخبين من هذه الطبقة ، وهم القسم الأعظم ممن يحق لهم القاء أصواتهم في عملية الانتخاب ، غير أحرار في اعطاء أصواتهم ، لأن سيف مستخدميهم الرأسماليين مصلت فوق رقابهم ما دام رزقهم الذي هو جزء من جزاء عملهم يقسم لهم عن يد هؤلاء الرأسماليين . فالحقيقة الراهنة في ادارة الحكم هي أن الرأسماليين مسيطرون من وراء الستار على البرلمان المسيطر على الحكم .

فاذن الديموقراطية التي وصلنا اليها الآن لم تنتج نهائياً الحرية الفردية فيما يختص بالنظام الديموقراطي نفسه لعدم حرية الناخبين ، ولم يوزع الحقوق على أصحابها ، على كل بقدر استحقاقه أو على قدر جزاء عمله . إذن هي ديمقراطية عرجاء أو جوفاء . لا تعد ديمقراطية الا ظاهراً في النظام السياسي فقط . وفيما سواه من أنظمة الاجتماع كالنظام

الاقتصادي لا يد لها فيه حتى الآن . في الظاهر عندنا بارلمانات ، وحكومات تأتمر بأوامر البرلمانات، ولكن النواب ليسوا أحراراً ، ولا منتخبوهم أحراراً أيضاً . فاذاً البارلمانات لا تزال خيالاً أو ظلالاً لحقيقة بعيدة . ولا يمكن أن تصير البارلمانات وانتخاباتها حرة ما لم يرتفع الكابوس الرأسمالي الضاغط على صدر النظم الاجتماعية جميعاً .

لا يمكن أن تستقيم حركة النظام السياسي الديموقراطي ما لم يلغ حق الملكية الفردية التي هي العقبة في سبيل تلك الحركة . يعني يجب أن يحل النظام الاشتراكي محل النظام الرأسمالي كما حل النظام النيابي محل النظام الفردي لأن كلا الفريقين الضدين من طبيعة واحدة ومن ينبوع واحد . ينبوع النظام الفردي والنظام الرأسمالي واحد وهو الاستبداد وينبوع النظام النيابي والنظام الاشتراكي واحد وهو الحرية — الحرية التي هي تاج أماني النفس الانسانية .

٢ — حق الملكية الفردية

وقبل التمادي في البحث يجب أن نعرف حق الملكية لئلا يفهم القارىء الساذج أنه ليس له حق بأن يملك ثوبه وحذاءه ورياش منزله الى غير ذلك مما هو لاستعماله الخاص . لا ليس هذا هو المراد هنا بالملكية الفردية بتاتاً بل يراد بها ملكية وسائل الانتاج الخارجة عن شخصية الانسان، لأنها وسائل شائعة للجميع . ليس للانسان أن يملك من وسائل الانتاج سوى عضله وعقله وأما الأرض فملك لله والله أجاز لكل انسان ، ببذل قواه العقلية والعضلية في استخراج ما يستطيع استخراجه منها ، رزقاً له . وأما الآلات التي يستعملها للانتاج فيجب أن تكون ملك الأمة بعد أن يستوفي مخترعها جزاءه منها . ولا يجوز لأي واحد أن يحتكرها لنفسه. كذلك نتاج الانسان العضلي والعقلي هو ملك حق له . فلا يجوز لغيره أن يغتصبه منه ، أو يشاركه فيه بأية حيلة ، كما انه لا يجوز له هو أيضاً أن يستخدم نتاجه كمصيدة أو أحبولة لاقتناص نتاج غيره .

مثال ذلك : لا يجوز له أن يملك أرضاً ثم يستخدم من لم يستطع أن يملك أرضاً مثله بأجر زهيد لكي يعمل في أرضه ، وهو يستغل الأرض وعمل العامل جميعاً . ولا يجوز له أن يستأجر بماله المدخر عمالاً ليس عندهم مال مدخر لكي يبنوا في أرضه بناء شامخاً ثم

يتقاضى هو كراء هـذا البناء كذلك . لا يجوز له أن ينشيء بماله أو بمال شركاه له مرفقاً عظيماً كالترام الـكهربائي مثلاً ويشـغل العمال فيه بأجر زهيـد ثم يتقاسم هو وشركاؤه الارباح الوافرة في حين أنهم لم يعملوا فيه عملاً البتة . كل ذلك من حق الأمة كلها . لأنها هي سبب وجوده ورواجه، حتى اختراع المخترع من حق الأمة برمتها لأنها هي التي أنجبت المخترع ، وكانت البيئة المناسبة لظهور عبقريته . يكفي المخترع أن يكافأ مكافأة ممتازة .

— قد تقول، أليس الانسان حراً أن يتصرّف بماله كما يشاء فيشتري به أرضاً ويستأجر عمالاً للبناء ويشتري مواد للترام ويستخدم عمالاً لصنع الترام وتسييره ، ثم يستغل ما يبقى بعد النفقات ؟ فأقول أنـى له هذا المال ؟ من أين جاءه ؟ — تقول ورثه . وأقول من أين جاء لمورّثه . فنعود بالسلسلة الى الوراء الى أن تقول أن هناك شخصاً ادّخر المال وحرم نفسه التمتع به . ادّخره من نتاج عقله وعضله لأنه شحيـح على نفسه . أليس له حق بأن يتصرّف بماله الذي حرم نفسه من التمتع به ؟

بلى . له أن ينفقه على نفسه كما يشاء ، فقط . ولـكن ليس له أن يجعله أحبولة لقنص نتاج غيره .

أجل كان أصل الثروة نتاجاً مدّخراً . ولـكن نمو ثروة الفرد ليست نتاجاً مدّخراً بل هو قوّة جاذبية في شره الانسان ومكره جذبت نتاج الضعيف الى نتاج القوي . فاجتمعت نتاجات الصغار الى نتاج الـكبير . فأصبح هـذا غنيـّا سعيداً . وأولئك فقراء عبيداً له مضطرين بحكم النظام الرأسمالي أن يقاسموه نتاجهم لـكي يسمح لهم ان يشـتغلوا في أرضه أو في مرفقه .

فلأن النظام الاجتماعي المعقـّد يقضي باشـتراك الأفراد وبتعاونهم وبتعاملهم رغم أنوفهم رأى المدّخر أن ماله يمكن أن يكون مصيدة لقنص نتاج غيره . فنشأ بهذه الوسيلة (المصيدة) النظام الرأسمالي الهائل الذي سبب شقاء المجتمع برمته . ولأن الحرية الفردية تنتهي عند حدّ حرية الآخرين ، أو انها كما تقدم القول ، هي ما تؤذن للإنسان أن يحرز ما يحق له أن يحرزه ، أي نتاج عمله فقط . وجب أن تردع حرية الرأسمالي النهمة التي طغت على نتاج غيره والتهمته . فلمنع هذا الاعتداء على الحقوق الفردية وجب أن تحدد الملـكية

الفردية بحيث تقتصر على ما يملكه الانسان في شخصيته ، وهو نتاج عضله وعقله فقط . له أن يتمتع بهذا النتاج ، ولكن ليس له أن يتذرَّع به لقنص نتاج غيره . ولذلك تحرُم ملكية العقارات والمرافق والمصانع والمعامل الخ . وتبطل قوّة المال العملية . المال لا يعمل ولا ينتج . فلا قيمة له الاّ بانفاقه على التمتع فقط بحسب النظام الاشتراكي الذي لا محل لتفصيله هنا .

تلك هي الملكية الفردية التي نوهنا آنفاً بالغائها لكي يستتب النظام الديموقراطي . لأن اقتصار الديموقراطية على الدائرة السياسية فقط لا يؤدي الى الهدف الذي ترمي إليه . المراد منها توفير الهناء والسعادة للجمهور على الاطلاق ولو لكلٍّ بقدر استحقاقه الشخصي . ولكنها باقتصارها على الادارة السياسية فقط ، ضلت عن تلك الغاية المبتغاة واندفعت الى الناحية المضادة ، اذ نقلت الحكم من يد الملك أو جماعة الأعيان الى أيدي الرأسماليين . فجاء هؤلاءِ أشر من أولئك وأقدر على الاستبداد والنهم والنهش بنتاج العامة. فكأنها فعلت كمن أغمض عيناً واحدة ثم حاول أن يدخل الخيط في ثقب الابرة بنظر العين الأخرى وحدها وهي ضعيفة فاستحال الأمر عليه .

لا يتمتع الجمهور في الأمة الواحدة بنعمة النظام الديموقراطي إلاّ باطلاقه على الادارة الاقتصادية فضلاً عن الادارة السياسية (وسنرى في الفصل التالي أنه لا يكون تامّاً إلاّ باطلاقه على السياسة الدولية أيضاً) يجب أن يشترك الجمهور في السيطرة على الانتاج وتقاسمه كما يشتركون في السيطرة على الحكم .

٣ — تطبيق فلسفة هيجل

ولعلَّ القليل الالمام بالأنظمة الاجتماعية يستهجن هذا القول لمخالفته المألوف ، أو يظنه مخالفاً للنظام الاجتماعي الطبيعي . وقد يقول معترضاً : لو كان هذا النظام الاشتراكي طبيعيّاً لما سبقه النظام الرأسمالي ، ولما قامت له قائمة ، بل لبرز ذلك النظام الاشتراكي للوجود منذ القديم وقطع السبيل على النظام الرأسمالي . فاستفحال الرأسمالية انما هو دليل على انها أمر طبيعي في الاجتماع ، والاشتراكية غير طبيعية، بل هي دخيلة . ويمكن أن تكون مفسدة له. والجواب أن العلم الاجتماعي لم ينشأ طفرة كما هو الآن بل نشأ كنشوء الحياة خليات ضعيفة

الارتباط بعضها ببعض . نشأ قليل العلائق ، قليل العناصر ، بسيط الأنظمة ، ثم جعل يتقدم متعدد العناصر ، متنوع الأنظمة، مشتد الروابط، الى أن استلمناه نحن معقداً تعقده الحالي . ففي أزمنة التطورات الاجتماعية القديمة نشط شيطان الجشع البهمي الذي ورثه الانسان من الحيوانية السابقة وتدرّج في سلم الرأسمالية الى ان بلغ الى قمتها التي نراها اليوم ، كما تدرّج في سلم الادارة السياسية (الحكم) الى أن بلغ مبلغه الاستبدادي الذي رأيناه في عصور الحكم المطلق .

ولكنّ كلاً من النظامين السياسي والاقتصادي يحمل الديموقراطية في عروقه . وبحسب فلسفة هيجل Dialectic كل من هذين النظامين مؤلف من ضدين حتى اذا انحلّ سقط منه ضد وبقي ضد آخر وظهر النظام به

فالنظام الحكومي (السياسي) كان يشتمل على الضدين الاستبدادية والديموقراطية على أن الظاهر فيه هو نظام الحكم المطلق الاستبدادي . ولكنه فيما كان يستفحل ويتشامخ كان مضطراً أن يستخدم أدوات النظام الديموقراطي . فكان يقوّي الفن ويوسّع دائرة المعرفة ، الى أن ارتوت عقول العامة من المعرفة ورأت تحت ضوئها الفكرة الديموقراطية . فثارت في وجه الحكم الفردي وصرعته . سقط الحكم الفردي المطلق وبقي الحكم الديموقراطي .

على هذا النمط علل كارل ماركس بروز الاشتراكية من غلاف الرأسمالية مطبقاً فلسفة هيجل في العالم الاقتصادي . والأفضل أن ننقل عن « الدليل الى الفلسفة » Guide to Phylosophy للعلامة جواد Goad ملخصه لتعليلات ماركس . في أوائل الفصل السابع عشر صفحة ٤٦٨ و ٤٦٩ : « تحدث الحوادث كنتيجة لتصادم النزعات المتضادة (التي تحيطها) .. والتعليل الصحيح لحوادث التاريخ يتوقف على فهم هذه النزعات المتضادة ونتيجة تضادها . فكما اننا بتتبعنا النزعة في عالم الفكر إلى أن نصل إلى نتيجتها نظهر النزعة المضادة لها . هكذا في عالم الحقيقة نرى ان تقدم أية حركة يستدعي وجود ضدها .

« بناء على هذه الفلسفة نرى ان نظام الاقطاع أنشأ الرأسمالية بانشاء طبقة البورجوازأي طبقة أصحاب الأعمال . وهذه بسبب توسيع دائرة الصناعة والتجارة قضت على نظام الاقطاع

نفسه . والرأسمالية نفسها بسبب انشائها طبقـة العمال كانت تصطنع الآلة التي تقضي عليها. ولـكن حين تنظر الى هذه « العملية الاجتماعية » من خارجها كما هي — أي حين نرى النزعة تمتد من الجـانب الواحد الذي يتراءى انه يستدعي ضده الى الوجود لـكي يتم به الجنب الآخر — نرى أن النزعة نفسها مؤلفة من ضدين ، هكذا كل نظام اجتماعي يشتمل على ضديه في داخله . والتضاد الذي بينه و بين الضد الذي هو يحتويه يفضي الى تفكك ذلك النظام ومحقه بنظام آخر .

« من هذه النظرية المنطقية استخرج ماركس تصريحه البديع عن تناقضات الرأسمالية التي بمقتضاها تنبأ عن كيفية سحقها بقوة الشيوعية . فالرأسمالية لأسباب مختلفة لا يسعنا هنا تفصيلها مفضية إلى تأليف الشركات الاحتـكارية واستفحالها . وهذه تفضي إلى تناقص عدد الرأسماليين ، ولـكن بازدياد تضخمهم (بموجب قانون «السمكة الـكبيرة تأكل السمكة الصغيرة » بحيث أن الرأسمال يتجمع في أيدي الـكبار القلائل وتفرغ منه أيدي الصغار الـكثار) وأولئك الذين انعصروا في عملية التنازع حتى قطروا آخر قطرة من رأسمالهم يغرقون الى طبقة العمال . وهكذا الرأسمالية باستفحالها تقلل بنفسها عدد الرأسماليين جداً وتزيد عدد العمال جداً الى أن يصبح هؤلاء قوة هائلة ضدها ، فيدمرونها تدميراً .

« ثم ، أيضاً ، إن الرأسمالية بازدياد اختراعات وسائل الانتاج تزيد المنتجات كثيراً . وهي بطبيعتها تحرز كل ما يزيد عن الاستهلاك وتدخره ولا يبقى منه أجر للعمال إلا النزر اليسير الذي لا يكاد يقوم بأودهم . ولذلك لا يكوّن العمال الأهليون سوقاً رائجة تستنفد مدخرات انتاج الرأسماليـة المستفحـلة لضعف قوة الشراء عنـدهم . وهكذا لا يجد الرأسماليون منفذاً لمنتجات وسائل الانتاج الفياضة في حدود بلادهم فيضطرون أن يبحثوا عن أسواق لها خارج البلاد . فيصبح اكتشاف هذه الأسواق واستغلالهـا الموضوع الرئيسي لسياسة الدولة، ويكون للرأسماليين بما لهم من القوة الاقتصادية السيطرة على هذه السياسة . وبناء عليه تندفع الدولة الرأسمالية بسبب السعي الى أسواق تجارية لتصريف بضائعها فيها في سياسة التوسع الاستعماري الأمبراطوري Imperialism . وهذا التوسع يحدو بهـا الى الاحتـكاك بالدول الأخرى التي تحذو حذوها في مثل تلك السياسة

ولنفس الأسباب . وتناظر السياسات الاستعمارية يفضي الى الحرب حتماً . والحرب تستنفد مال الرأسماليين عن طريق المعدات الحربية . وهكذا نرى الرأسمالية ثانيـة مسوقة حتماً بالمتناقضات التي في طبيعتها الى السياسات القاضية حتماً بتدميرها » . — انتهى

إن التناقض أو التضاد في هذا المثل إنما هو بين حاجتها إلى أسواق لمنتجاتها المتزايدة من جهة، وتناقص كفاءة أسواقها بسبب ادخارها الـكثير الفاضل عن أجور العمال الزهيدة من جهة أخرى .

هذا التعليل الماركسي إنما هو مثل مطابق كل المطابقة لفلسفة هيجل التي فحواها أن كل نظام يقضي بنفسه على نفسه بانشاء نزعات متضادة في داخله تقلب كيانه

والمستفاد مما تقدم ان الديموقراطية السياسـية عنصر جوهري في طبيعة الاجتماع مخلوق في صميمه ، وأما الاسـتبداد الفردي فدخيل على الاجتماع الانساني ارثاً له من التنازع الحيواني . وكـذلك الديموقراطيـة الاقتصادية هي جوهر النظام الاقتصادي . وأما الرأسمالية فداخلة عليـه ارثاً من نفس ذلك التنازع الحيواني . وكلما اشتد ارتباط الاجتماع ضعف ذلك التنازع واستتب التوازن بين القوى الاجتماعية سياسية واقتصادية .

فإذاً ، لـكي يكون النظام الاجتماعي العام سليماً صحيحاً طبيعيـاً لا بدّ من قلب النظام الرأسمالي حتماً . ولا بدّ أن ينقلب ويقوم مقامه النظام الاشتراكي لـكي تزول العقبات الباقية من اشـتراك الأفراد في عمليـة الحـكم الذاتي ويتسنّى لهم أن يستعملوا أهليتهم وجدارتهم في منافعهم المشتركة . الى الآن لا يستطيع السواد الأعظم من العمال أن يستعملوا هذا الحق الديموقراطي لأن النظام الرأسمالي ، أولاً مضيق على حريتهم ، وثانياً مضيق على فهمهم ومعرفتهم ، وثالثاً مضيق وقتهم، فلا يدع لهم منه شيئاً للتفهم والتفكير والتناقش.

٤ — فوضى الحركة الاقتصادية

ولكي ينجلي موقف الرأسمالية الحالي المزعزع المتداعي والذي يقاسي العالم الآن الجزع بسبب تداعيه نبسطه فيما يلي :

لا نظام الانتاج ، ولا نظام الاستهلاك متطابقان ، ولا هما متوازنان ، ولا هما متوزعان توزعاً متعادلاً أو متناسباً بين الأمم ولا بين الجماعات ، حتى ولا بين الأفراد . أعني أن

الزراع في بلد يزرعون (القطن مثلاً) من غير حساب لما يزرعه زرّاع آخرون في بلاد أخرى ، ومن غير حساب لاحتمال الأسواق أو حاجتها لنتاجهم ، لا في الحاضر ولا في المستقبل . يفعلون ذلك على غير هدى ولا يستطيعون أن يفعلوا غير ذلك لأنهم مضطرون أن يكدحوا لكي يرتزقوا . فلا يلبثون أن يخيبوا سعياً إذ يرون الأسواق مكتظة بالنتاج من كل ناحية . والمستهلكون لا يستطيعون أن يستهلكوا كل ذلك النتاج . فيكسد نتاج المنتجين وتحبط آمالهم وتبتئس أحوالهم . ولا يستطيعون أن يحسبوا حساب «العرض والطلب» لأنه ليس ثمت جامعة تجمعهم ولا هناك احصاءات تبنى عليها جامعتهم (إن وجدت) حساباً لجميعهم، وتفرض قدر الزرع لكل فريق وكل فرد منهم بحيث يعادل مجموع النتاج مجموع الطلبات في جميع الأسواق . فالرأسمالية بالحقيقة فوضى لا نظام . فلا بدّ اذن أن تسلم نظامي الانتاج والاستهلاك للنظام الديموقراطي الاقتصادي لكي ينقذ العالم من أزمته الحاضرة، التي لم تعد تطاق والتي لا علاج لها إلاّ بالغاء الملكية الفردية واقامة الملكية الشعبية مقامها . فاذا لم يتم هذا التسليم اليوم فلا بدّ أن يتم في الغد ، وان لم يتم طوعاً واستسلاماً فلا بدّ أن يتم رغم الأنف .

وحال الانتاج الصناعي كحال الانتاج الزراعي تماماً . يدير صاحب المعمل أو المصنع أو المشغل معمله على قدر رأس ماله ، وينتج مصنوعاته من غير حساب لما تحتمله السوق منها . فلا يلبث أن يرى السوق مكتظة بمثل مصنوعاته وليس في وسع المستهلكين أن يستهلكوها كلها . فيوقف حركة معمله ريثما تتسرّب مصنوعاته الى المستهلكين . ينتج صاحب المعمل القدر الوافر من المصنوعات في وقت قصير جدّاً بفضل الاختراعات الحديثة ثم يوقف ادارة معمله مدّة أو انه يقلل عماله جدّاً . فيقع حيف هذه الفوضى في الانتاج الصناعي على قلب العامل المسكين الذي يشارك الرأسمالي في العمل، ولكن ذاك لا يشاركه في بؤس البطالة .

فالانتاج الصناعي أيضاً يحتاج الى نظام يحل محل الفوضى التي هو فيها . ولا سد لهذه الحاجة الا الديموقراطية الاقتصادية كما تقدّم القول بالغاء الرأسمالية واستلام الادارة الشعبيّة (الحكومة) زمام جميع المرافق الصناعية كما هي مستلمة الآن بعضها

كالسكة الحديدية والتلغراف والبوسطة والتلفون وغيرها في كثير من الممالك .

فاذا استتب النظام الاقتصادي على قاعدة الديموقراطية تتعادل الحقوق والاستحقاقات ويتقلص جداً التباين بين الطبقات . فلا يبقى تحت اناس يبذخون ويترفون ويبطرون على حساب أناس ينضنون تحت عبء العمل ، ولا يتمتعون بشذرة من ملذة ولا بفلذة من متعة . وتنطلق حرية الفرد من عقال الاستبداد ويتسنى لكل واحد أن يستعمل حقه في الانتخاب والاقتراع بالتفكير والتناقش الواجبين .

ب — في طريق الديموقراطية الاقتصادية

والآن ننظر فيما حدث من حوادث الديموقراطية الاقتصادية الى اليوم :

ا — نقابات العمال

كانت سنة الرأسمالية أن يؤخذ من نتاج العمل جميع النفقات وفائدة رأس المال والربح المطموع فيه . والباقي يحسب أجراً للعمال . فان لم يسد رمقهم سوّى الرأسمالي بين أجرة العامل وساعات عمله وثمن البضاعة لكيلا ينقص شيئاً من أرباحه ولا ينقص منها شيئاً الاّ مضطراً فيحسبه خسارة . فسنة الرأسمالية كانت إذن أن القطرة الأخيرة من الانتاج هي أجرة العامل . فان لم يرضَ هذا بها فليمت جوعاً إذ يحل محله من يرضى بها .

هذا كان موقف العامل في أوائل القرن التاسع عشر ، وكان موقفه هذا يشتد تحرجاً كلما نزلت الى دائرة العمل آلات جديدة تغني عن يده ، وحتى عن عقله أيضاً .

لم يجد العامل منقذاً له من هذا الضيم حتى ولا في المجلس النيابي للأسباب التي تقدم شرحها ، وأهمها سيطرة الرأسمالية على الحكم الديموقراطي أو حلولها محل الحاكم الفرد المطلق . ولكن المصائب تجمع القلوب . فبرز المنقذ من المصيبة نفسها (على قاعدة فلسفة هيجل . المصيبة مؤلفة من ضدين أحدهما يهدمها ويقوم مقامها) . مصيبة العمال المشتركة ألفت بينهم وأنشأت « نقابات العمال » على قاعدة الديموقراطية البحتة . فكأن العمال أنشأوا بارلماناً خاصاً لانفسهم وظيفته التفاوض والتقرير في أمر النجاة من نكبتهم بالرأسمالية . وكان أمضى سلاح عندهم في محاربتها « المقاومة السلبية » : الاعتصاب والاضراب

ناهيك عن التعاضد والتعاون . فكلما رام العمال تحسيناً لحالهم تهددوا أصحاب الأعمال الرأسماليين باضراب عام يشل الحركة ويقطع مورد حاجات الجمهور حتى يكاد يهدد الحكومة بثورة الجمهور ضدها . فيضطر أصحاب الأعمال أو تضطرهم الحكومة أن يخففوا من غلوائهم وان يمنحوا العمال شيئاً من مطالبهم . والقارىء يعلم بلا بد ما أصبح لنقابات العمال من صولة في هذه الأيام .

وكان من نتائج ضغط هذه النقابات :

أولاً ، تقليل ساعات العمل وزيادة الأجور الى حد لا يفضي إلى خسارة المرفق واضطراره للاغلاق .

وثانياً ، كفالة العمل لكل عضو في النقابة تقريباً .

وثالثاً ، اضطرار أصحاب الأعمال الرأسماليين أن ينفقوا على لوازم العمال الصحية في معاملهم ومساكنهم المتجمعة حول معاملهم ، بنظام اقتصادي يكلفهم ويكلف العمال أنفسهم القدر القليل جداً من النفقة .

ورابعاً ، التأمين على حياة العمال وعلى عطلتهم وعلى معاشاتهم في أمراضهم وشيخوختهم يشترك في رواتبه الرأسماليون والعمال معاً . (كمشروع . بڤردج) .

تختلف هذه النتائج قيمة وتوسعاً باختلاف البلاد . فما هي شائعة بشكل واحد في جميع البلاد الصناعية .

وكان من مواليد النقابات هذه مشروعات التعاون التجارية ، أي إنشاء مخازن برأس مال من النقابات والمساهمين من العمال لكي يبتاع العمال منها سلعهم بأرخص ما يستطاع ويعود ربحها لهم جميعاً .

٢ — احزاب العمال في البرلمانات

تمَّ كل ذلك في القرن التاسع عشر خارجاً عن دائرة الديموقراطية الادارية السياسية لأن البارلمانات كانت تحت تأثير الرأسمالية وهذه لا تتنازل عن حق للعمال . ولكن لما نشطت النقابات وأصبحت قوة استطاعت أن تنتخب لها نواباً في البارلمانات . فنشأت أحزاب العمال الاشتراكية والديموقراطية الاشتراكية وأخيراً الشيوعية الخ في النظام السياسي

وهذه الاحزاب تجاهد الآن في قلب النظام الرأسمالي واحلال الاشتراكية محله . والقارىء يعلم الى أي حد وصلت في هذا الجهاد .

وقد يلوح للقارىء أن يسأل إذا كان السواد الأعظم من المنتخبين عمالاً فلماذا لا يكون أكثر النواب منهم فيغيرون شكل النظام الاقتصادي من رأسمالي الى اشتراكي بطريقة دستورية .

٣ — سخافة صغار الماليين

والجواب : لذلك سببان : الأول أن العمال ليسوا السواد الأعظم من المنتخبين . وإنما هناك طبقة من أصحاب الأعمال الصغار إذا انضموا الى العمال صاروا أكثرية تستطيع أن تغير النظام الاقتصادي . ولكن أهل هذه الطبقة لا يشعرون أنهم في ضنك من استنزاف الشركات وأصحاب الأعمال الكبرى لدمائهم ، ولا يعتقدون أن كابوس الرأسمالية يسحق أضلاع صدورهم رويداً ، ويجردهم من أموالهم الى أن يغرقوا أخيراً في بحر طبقة العمال . بل لا يزالون يعتقدون أن « لكل مجتهد نصيب » فيجاهدون متعلقين بأهداب الآمال وما هي الا أوهام الآمال (السراب) . ولذلك ينفرون من النظام الاشتركي ويفزعون منه لظنهم أنه آفة لآمالهم ونكبة لجهادهم . ويحبذون الرأسمالية لأنها تدع المضمار حراً لسباقهم في أشواط المكاسب والأرباح وأحلام الغنى الوافر ، ولاسيما لأنهم يرون من حين الى آخر أن واحداً منهم كان على الحضيض في متجره أو مرفقه فاذا بالحظ يرتفع به الى قمة الثروة . وغفلوا عن أن هذا الحظ صدفة عمياء ، وجهلوا أن الجهاد في التنازع مع كبار الرأسماليين لا ينيلهم إلاّ الخذلان كما ينيل الفارة جهادها مع الهرة . ولكي تنجلي للقارىء هذه القضية جيداً نمثلها بالمثل التالي :

تصوّر شخصاً مجتهداً أنشأ دكان سجاير واستنبط نوعاً من السجاير جيداً اجتذب له زبائن عديدين . ولكنه ما لبث أن رأى نوعاً من السجاير أجود من سجايره ويباع أرخص منها استنبطته شركة أو صاحب مصنع أقوى منه مالياً ، فكان يزاحم سجايره . وثمّ جعل زبائنه يقلّون لاقبالهم على الصنف الآخر . استطاعت تلك الشركة أن تنافسه أو تنازعه الرواج لأن رأسمالها قوّة عظمى . فكانت تشتري التبغ مقادير كبيرة

بثمن أرخص وتنفق على شحنه أقل مما يمكن . واقتنت آلة للف السجاير تقوم مقام عشرات من « اللفافين » بنفقة أقل من عشر معشار أجورهم . فاستطاعت أن تبيع سجايرها بأرخص من ثمن سجايره . ومع ذلك كانت تكسب أكثر منه جداً . وأخيراً كسدت سجائره لأنه لم يستطيع أن يخفض ثمنها من غير خسارة لكي يستميل إليها الزبائن . فكف عن صنع السجاير في مصنعه الصغير واقتصر على اقتناء السجاير من المصانع الأخرى منتظراً للقناعة بالربح القليل . ولكنه ما لبث ايضاً أن رأى تلك الشركة تشجع آخرين أن ينشئوا دكاكين لبيع السجاير ، بتسهيلات عظيمة . أو انها هي أنشأت لحسابها عدة دكاكين . وكانت تبيع السجاير فيها للزبائن بالثمن الذي تبيعه لصاحبنا (الذي جعلناه مثلاً) ولأمثاله من صغار المسترزقين . فلم يبق أمام صاحبنا هذا إلا أحد أمرين : اما أن يقنع بالربح الزهيد جداً متعرضاً للخسارة فيما اذا كسدت تجارته ولم يخف عبء نفقاته في دكانه ، أو أن يقفل دكانه وينزل الى ساحة العمل كسائر العمال ويقتنع أنه يوم كان تاجراً صغيراً لم يكن من صف الرأسماليين كما كان يظن بل كان من طبقة مغرورة تهوي الى طبقة العمال .

مثل هذا في طبقة المستقلين المرتزقين من التجارة والصناعة برأسمالهم كثيرون يجاهدون آملين أن يرتقوا من طبقة البرجواز (كما يسميها كتاب العصر) الى طبقة الرأسماليين العظماء . ولكن لا يرتقي واحد منهم الى تلك الطبقة الا وقد هبط ٩٩ من زملائه الى طبقة العمال ، لأنه ما دامت ساحة الأعمال ميداناً للسباق أو المصارعة ، أي لتنازع الثروة ، فلا بد أن يفوز الأقوى ، أي الأوفر عدة وعتاداً وذخيرة ومؤونة ، وينصرع الضعيف تحت قدميه . وان نشط ضعيف واستقوى الى أن صارع القوى فللمصادفة « نصيب » أعمى في مضاربة أو نحوها ليس للجهاد فيها نصيب

٤ — فظائع حرب الرأسماليين

ولطبقة الرأسماليين العليا أساليب في هذه الحرب الاقتصادية أشنع وأفظع من الحرب الدموية التي يستفظع فيها الغدر ونقض العهود ورصاص موزر والغازات السامة الى غير ذلك من اختراعات التدمير الجهنمية . أجل أن أساليب الرأسماليين في الحرب الاقتصادية أفظع . ليس لها قوانين كقوانين الحرب لتلافي الفظائع ولذلك ترى صرعى

هذه الحرب يتساقطون من جوّ الأبّهة ، والترف ، والبذخ ، والنعماء الى درك البؤس والشقاء . ومنهم من ينتحرون يأساً كأنهم يتورعون أن يلوثوا أكفّ خصومهم بدمائهم .

فمن هذه الأساليب إن الشركة العظيمة تحاول أن تشتري المتاجر أو المصانع أو المرافق التي تزاحمها في صنف نتاجها في السوق — تحاول أن تشتريها بأي ثمن لكي تبقى هي صاحبة الصنف وحدها في السوق فتتحكم بالأسعار كما تشاء . لا تكتفي بأنها أزالت من ميدانها خصماً أو خصوماً وخلا لها الجوّ لكي يتسنى لها أن تضرب كل مزاحم جديد قبل أن يرفع رأسه ، بل تتحكم بالمستهلكين أيضاً إذ ترفع الأسعار وتبتز فلوسهم المعدّة لنفقاتهم الضرورية فتستنزف منها ما تستطيع استنزافه ثمناً لسلعتها الغالية . فلا هي شفوقة على المستهلكين المحتاجين لسلعتها ، ولا هي رحيمة بأولئك المنتجين المرتزقين الذين أزالتهم من طريقها .

واذا لم تنجح في ابتياع مزاحم لها نصبت له شركاً دنيئاً لكي تصرعه . فإما أن تخفض الأسعار مدة من الزمن مضحية بالربح إلى حين لمقدرتها على هذه التضحية إلى أن يقع الخصم تحت عبء النفقات لكساد سلعته في أثناء تلك المزاحمة ويهلك مالياً فيزول من الميدان غير مأسوف عليه . وأما أن تنصب له شركاً أدنأ من هذا كالشرك الذي روي عنه أن شركة التبغ الأميركية نصبته لمصنع سجاير شهير في مصر منذ سنين . ذلك لأن سجاير هذا المصنع راجت جدًا في أميركا إلى أن أصبح تدخين «السجاير المصرية» فخراً للمدخنين . فلما أبى صاحب هذا المصنع أن يبيع مصنعه للشركة الأميركية بالثمن الذي عرضته عليه اشترت الشركة منه بطريقة غير مباشرة ملايين من علب سجايره . ثم خزنتها في أقبية رطبة حتى تعفنت وأصبحت رديئة، ثم عرضتها في السوق فما لبث المدخنون أن نفروا منها وجافوا السكاير المصرية . فاضطر أخيراً صاحب المصنع أن يعرض مصنعه للشركة بأي ثمن .

ومن دناءات هذه الشركة الكبيرة أنها إذا لم تستطع أن تكسب معارك في مضمار تنازعها تتصالح وتنضم وتتحد في شركة واحدة لكي تبتز مال الجمهور بالتحكم بالأسعار كما تشاء ، وهي ما يسمونه Trusts .

هذه الأساليب الجهنمية ونحوها كانت خطط الشركات الأميركية المستفحلة . فكان

الحزب الديموقراطي الذي هو حزب «البورجواز» هناك يقاوم هذه الشركات المسماة ترست Trusts مقاومة دستورية . فكان الكونجرس من حين إلى آخر يسن قوانين للضرب على أيديها لكي يكبح جماح استفحالها ما أمكن .

ومع كل ما هو ظاهر من هذه الأخطار الرأسمالية على الماليين الصغار لا يزال هؤلاء مخدوعين بمراكزهم الحقيرة بأنهم من صف أرقى من صف العمال ، وان الاشتراكية البحتة هي خطر عظيم عليهم ، فيأبونها .

٥ — عذر صغار الماليين

ولا نجردهم من كل عذر في عقيدتهم هذه لأن تغيير النظام الرأسمالي بنظام اشتراكي فجأة يوقعهم ولا شك في محنة معائشية ، لأنهم قلما يصلحون في النظام الجديد لعمل أجره يساوي ما كانوا يطمعون فيه من كسب في جهادهم الرأسمالي . وليس في طوقهم أن ينزلوا الى جنب العمال كتفاً الى كتف . وهذا من جملة الدواعي لنظرية ابدال النظام رويداً لا فجأة

ذلك هو السبب في أن المرتزقين المتوسطين لا ينضمون إلى العمال لكي يكثر حزب العمال ويقاوي حزب الرأسماليين في البارلمانات ويناهضهم كما نوّهنا آنفاً .

٦ — نفوذ الرأسمالية في البرلمانات

السبب الثاني لتفوق حزب الرأسمالية في البارلمانات حتى اليوم هو أن الرأسمالية لا تزال صاحبة النفوذ القوي في الدائرة السياسية العامة . فهي تسيطر إلى حد ما على الانتخابات بواسطة الضغط على العمال حتى البرجواز . وهي التي تسيطر على الصحافة وسائر وسائل النشر فتجعل كل دعاية من مصلحتها . تستطيع أن تنشىء حزباً أو أحزاباً تتراءى في الظاهر أحزاباً مناضلة عن العمال ومجاهدة في سبيل الاشتراكية ، ولكنها بالحقيقة أنشئت لكي تخفف من غلواء مطالب العمال ولكي تقنعهم بأن السعي الى مطالبهم بالعنف أو بالقوة ضار بمصلحتهم ومؤذٍ لقضيتهم . فنفوذ الرأسمالية هو من أهم الأسباب في أن ضلعها في المجالس النيابية لا يزال قويّـا جدّا . ولهذا لا يزال السير في سبيل الديموقراطية الاقتصادية بطيئاً . وفي نظر هذا العاجز السير ببطء أضمن للسلامة من السير العاجل المعرّض للسقوط الهائل .

٧ — ديموقراطية العمال تكافح الرأسمالية

مجمل القول بشأن نقابات العمال أن هذه النقابات نشأت فيما كانت الرأسمالية الهوجاء الرعناء التي لا تدري انها تبحث عن حتفها بظلفها تهدد العمال بخطر البؤس والشقاء المتناهيين . فجمعتهم المخاوف جماعات سموها نقابات وسنّوا لها قوانين وغرضها مكافحة الرأسماليين بكل وسيلة ممكنة . فنقاباتهم إنما هي نظام ديموقراطي بحت ، ولكنه مستقل عن النظام الديموقراطي الحكومي . بل بالأحرى هو مناهض له في سبيل الديموقراطية الاقتصادية . فلما قامت قائمة هذه النقابات شرعت تضع أرجلها في النظام الديموقراطي السياسي وتجاهد في انتخاب نواب العمال .

وأما ما فعلته النقابات نفسها من المصالح المشتركة كشركات التعاون، وما فعلته الشركات الرأسمالية الكبرى من تحسين أحوال العمال وما فعلته الحكومة أيضاً من التحسين لها، فليس من الاشتراكية (الديموقراطية الاقتصادية) بشيء . ما هو بالحقيقة إلا ترضية مخدرة لأعصاب العمال موقتاً . ليس من الديموقراطية الاقتصادية بشيء لأن الرأسمالية لا تزال قائمة مستفحلة . والطبقة البرجوازية الوسطى تتساقط كالنيازك الى طبقة العمال . حتى المنهزمون في التنازع الرأسمالي يتساقطون أيضاً . والتفاوت بين الطبقتين الرأسمالية والعاملة عظيم جداً : تلك تتمتع بالراحة والرخاء والحرية من غير أن تخدم المجتمع بشيء . وهذه القائمة بخدمة المجتمع محرومة الحرية والراحة وأقل التمتع .

ستبقى وظيفة نقابات العمال مكافحة الرأسمالية خارج البرلمانات على نحو ما وصفناه إلى أن تتهدم الطبقة البرجوازية كلها أو معظمها وتندك الى الحضيض بألغام الشركات الرأسمالية المستفحلة . وحينئذٍ يحين الوقت الملائم لنيل العمال الأكثرية الساحقة في البرلمانات ، وتقوم الديموقراطية الاقتصادية على أساس الديموقراطية السياسية ويكون بنيانها راسخاً .

وكان في رأي بعض دعاة الاشتراكية تأييد الرأسماليين في استفحالهم واستبدادهم وضغطهم إلى أن يضيق العمال ذرعاً بهم ، ولا يعودوا يستطيعون احتمالهم، فيثوروا في وجوههم . ولكن الحوادث الاجتماعية أثبتت فساد هذه النظرية . أثبتت أن الفاقة أو الفقر المدقع يفقد الانسان شجاعته ويضعف قوّة ارادته وقوّة عقله فضلاً عن قوّة

عضله وقلبه . فلا يعود يحسن التفكير، ولا تبقى له ثقة بنفسه ، ولا إيمان بحقه ، ولا يقين بفوزه في معترك الحياة، فيستسلم لقضاء الطبيعة خانعاً . وبالتالي لا يعود يؤمل خيراً من التآلف مع رفاقه والاعتصاب معهم . بل قد يخشى أن يعاقب أو أن ينتقم منه بسبب هذا التآلف، ويحرم الرمق الأخير من الحياة . فيكف نهائياً عن المناهضة والمكافحة .

وقد شاهدنا حادثين مؤيدين لهذه النظرية : الأولى في الحرب العظمى حين جمل جمال السفاح يجوّع سوريا ، ولبنان على الأخص ، لكي لا يثوروا . وقد نجح في قصده . فلما جاع الناس هناك لم يعودوا يثورون ولا هاجوا، بل كانوا يتوسلون الى الرحمة والشفقة بذل وخنوع متسفلين . وكانوا وهم يموتون جوعاً ينحازون بعضهم الى بعض وهم يرددون الدعاء « الله ينصر السلطان » وهم عالمون ان السلطان (الدولة أو ممثل السلطان) يقصد إماتتهم جوعاً .

الحادث الثاني : ان العمال العاطلين بعد الحرب العظمى التي كانوا فيها يجاهدون على نية أن يقضوا على الحروب تكاثروا جداً حتى أصبحوا جيشاً عرمرماً في كل مملكة وكانوا يتقوّتون بصدقات من الحكومة ، فلو ثاروا في ذلك الحين لقلبوا كل حكومة وسحقوا كل دولة . ولكن لله العجب انهم لم يفعلوا شيئاً، بل كان كلٌّ منهم يتمنى أن يحصل على رغيف يسد به رمقه . لم يفعلوا شيئاً لأنهم قد جاعوا وافتقروا وخارت قواهم العقلية والجسدية وفقدوا القوّة الأدبية على الخصوص .

فنقابات العمال التي كفلت الأوَد للعمال بالوسائل المعقولة غير العنيفة أبقت للعمال قواهم المعنوية جميعاً ، فأمكنهم أن يناهضوا الرأسمالية مناهضة زعزعت حصونها .

ج — كيف تقوم الديموقراطية الاقتصادية

بقي أن نبحث في كيف يمكن أن يتم اصلاح النظام الاقتصادي الذي نحن بصدده . أي كيف يمكن الغاء الرأسمالية واحلال الاشتراكية محلها ؟

١ — الانقلاب العاجل

الاشتراكيون من هذا القبيل فريقان : الأول فريق الماركسيين وهو القائل بقلب نظام

الحكم برمته بالعنف وبالقوة القاهرة المفاجئة عند سنوح أول فرصة يشعر فيها العمال أن وحدتهم أصبحت قوة عظيمة ، وان الحكومة مزعزعة بأي سبب من الأسباب كما حدث في روسيا .

والفريق الآخر يبتغي أن يحدث التحول من نظام رأسمالي الى نظام اشتراكي بالوسائل الدستورية ، أي بواسطة تكاثر نواب العمال في البارلمانات وبكل تؤدة ومن غير عنف وبالتدريج . لأن هذه الطريقة أفضل لسببين : الأول أن الفوز فيها مضمون من غير خطر الاخفاق . والثاني انها تتم من غير تعريض الأمة لخطر الفوضى ولحين الهدم قبل التعمير. وقد يحدث الهدم ولا يتسنى التعمير فتقع البلاد في فوضى قد لا تنقذها منها الا دكتاتورية جبارة جائرة . كما حدث في إيطاليا .

٢ — التحول التدريجي

وأما كيف يمكن أن يتم هذا التحول التدريجي فللباحثين في هذا الموضوع نظريات مختلفة وربما كان أصحها رأي العالم الاقتصادي هنري جورج الأميركي مؤلف كتاب « Progress and Poverty النجاح والفقر » .

لا بد أولاً من تفوق عدد نواب العمال في البارلمان لكي يستطيعوا أن يسنوا القانون الذي لمصلحتهم . وثمت يجب أن يتجنبوا الاندفاع في سن القوانين لئلا يربكوا الأحوال الاقتصادية ربكاً يثير الجمهور فيسحب ثقته منهم ، أو تحدث فوضى كالفوضى الايطالية التي سبقت دكتاتورية موسوليني .

فأول ما يفعل من هذا القبيل أن يضرب البارلمان ضرائب جديدة على الدخل أو على المرافق مباشرة من معامل ومصانع ومشاغل، وان يزيد ضرائب العقارات القائمة كالأبنية التي لا يقع فيها عبء الضريبة على العاملين .

ثانياً: أن تشرع الحكومة أن تستخدم المال المجموع من تلك الضرائب لانشاء مرافق تزاحم تلك المرافق حتى ولو كانت تتعرض للخسارة فيها ، في بادىء الأمر ، وحينئذ يضطر أصحاب تلك المرافق أن يبيعوها للحكومة بالثمن الرخيص . وهكذا يخرج فريق الرأسماليين من الميدان رويداً من غير أذى . كذلك تشرع الحكومة أن تبني الأبنية

الموافقة لراحة العمال وتؤجرها لهم بالأجر الزهيد. فيضطر أصحاب المباني أن يعرضوا أبنيتهم بالثمن الرخيص. وبالتدريج البطيء تأول جميع الأبنية إلى أيدي الحكومة. مثل ذلك تفعل الحكومة في انتزاع ملكية الأراضي الزراعية من غير أن تجرد أصحابها منها بالعنف، وتتركهم في بؤس.

لهذه الطريقة البطيئة فضيلتان. الأولى: أن اصحاب الأعمال ورأس المال من مرافق ومعامل ومتاجر ومزارع وملاك الخ لا يتجردون دفعة واحدة من أملاكهم. بل يبقى لهم ما يقوم بأودهم ريثما يصلح حالهم في النظام الجديد.

الثانية: أن يكون لأصحاب الأملاك والأعمال الوقت الكافي لاعداد أولادهم وأنفسهم إذا اقتضت الحال، لتولي الأعمال التي يستطيعونها ويتعيشون منها في عهد الحكم الاشتراكي الذي لا يؤذن لأحد أن يعيش عالة على غيره، بل على قدر قيمة عمله يتمتع. ولا يؤذن لغير العاجز أن يعيش من نتاج المجتمع من غير أن يؤدي عملاً نافعاً للمجتمع.

ولا يخفى على القارىء انه يجب على الحكومة أن تقف في هذا البرنامج موقف المزاحم للرأسماليين دائماً ولو تعرضت للخسارة، لأن الضرائب التي تتقاضاها تعوض الخسارة، وإذا أحسنت الادارة فلا تقع عليها خسائر لأنها وهي كبيرة الرأسماليين حينئذٍ تكون أقدر منهم على المزاحمة. ولا يحق للرأسماليين أن يتشكوا من مزاحمتها لهم لأنهم م قاموا واستفحلوا بسنة المزاحمة، سنة التنازع. فهي تناهضهم بسنتهم. ولا حرج عليها ولا مؤاخذة لأنها ليست كالرأسماليين تمتص دماء العمال وتدخر جني تعبهم، بل هي تنفق أرباحها في زيادة أجور العمال وتقليل ساعات العمل وترخيص الأثمان.

هكذا جرت حكومة لنين بعد اخفاق تجربة العنف.

٣ — هل الحكومة تاجرة؟

وقد يعترض الكثيرون بأن الحكومة ليست تاجرة. وما من عمل تجاري تولته الحكومة فأحسنته، الى غير ذلك من هذا النغم.

والجواب ان الذين يتولون ادارة أعمال الشركات بشر كمتولي اعمال الحكومة. فاذا كانت الحكومة تجري بالتوظيف على قاعدة الأهلية، لا على قاعدة الشهادة المدرسية،

ولا على قاعدة القدمية ، واذا كانت تنتدب من موظفي الشركات الأشخاص الأكفاء لتولي الأعمال في مصالحها ، فلا يخفق العمل الاقتصادي تحت سيطرتها مهما كان نوعه . فلنفرض أن الحكومة ابتاعت مصلحة التلفونات من الشركة التي كانت تملكها وأبقت جميع الموظفين من كبيرهم الى صغيرهم في خدمة المصلحة، ولم يحدث في هذا النقل من الشركة الى الحكومة سوى ان الحكومة حلت محل المساهمين، ووزير المواصلات حل محل مجلس ادارة الشركة. وبدل أن توزع الارباح على المساهمين توزع الحكومة قسماً على العمال بزيادة أجورهم ، وقسماً على زيادة عمال لكي يتسنى لها أن تقلل ساعات العمل، وقسماً تستغرقه بانزال الأسعار للجمهور . فلماذا يخفق العمل ؟ ولماذا لا تنجح المصلحة ؟ ان أخفقت على الرغم من انتداب الأشخاص الأكفاء فتكون العلة في اخلاق الادارة العليا لا في النظام . فتجب معالجة الاخلاق أولاً .

نحن نعرف ان من مصالح الحكومة المصرية ما هو تجاري بحت كالسكك الحديدية ، والتلفون ، والتلغراف الخ وهي موفقة أفضل مما لو كانت في أيدي شركات .

ولكن بكل أسف نقول ان مصلحة التلفون ساءت ادارتها منذ صارت في يد الحكومة .

نقف عند هذا الحد في موضوع الديموقراطية الاقتصادية لانه ليس من شأن هذا الكتاب التمادي في المباحث الاقتصادية والاشتراكية، بل لهذه مباحث خاصة قائمة بذاتها

الفصل السابع

الديموقراطية الدولية

١ — النظام أربح من الفوضى

ما اتفق الأفراد منذ القديم على الطاعة لسيطرة حاكم أو حكومة وأذعنوا لها عن طيب خاطر إلا لأنهم اقتنعوا بأن النظام الحكومي أربح لهم من الخصام والقتال، وخير الوسائل للأمن والسلام فيما بينهم . وثبات الحكومات المتعاقبة ألوف الأجيال حتى اليوم برهان قاطع على أن تجربة الناس للنظام الحكومي كل تلك المدد أقنعتهم بأنه أفضل من الفوضى، وان من يحترم السلطة ويحافظ على القانون انما هو يحترم ويحافظ على الشيء الذي يصون له عنقه ورزقه . لهذا ترى الناس في المملكة الراقية يعملون بأمر القانون من تلقاء أنفسهم ويتجنبون ما استطاعوا النزاع والخصام فيما بينهم ، وان شجر خلاف بينهم لجأوا الى المحكمة لا لكي تردع المعتدي ، بل لكي تفسر له ماغمض عليه من وجوه الحق والباطل . فما الحكم الذي يصدره القاضي الا تفسير لما خفي من الحق والصواب على الخصمين . وللسلطة المنفذة أن تنفذ الحكم اذا تمرّد المحكوم عليه .

مرّت ألوف السنين على النظام الحكومي الذي تصلح به أحوال الأفراد في الجماعات الى أن نضج بنضوج العقل البشري كما نعلم الآن . ولكن يظهر أن العقل الاجتماعي لم ينضج بعد . بل لم يزل طفلاً لأن الأمم على الرغم من ارتقاء البشرية لا تزال فيما بينها في فوضى جهنمية . فكأن التقدم البشري العمراني الذي نتمتع به اليوم لم يكن إلا وقيداً لجحيم هذه الفوضى الأممية . الأمم في خلاف دائم فيما بينها ، وحروب متوالية لاحقها أشر من سابقها، لا لأن الحق مجهول أو خفي على العقول، بل لأن المطامع القوية أو القوى الطامعة (لا الضمائر النقية) تعين الحقوق . فالشهوات العمياء متغلبة على العقول البصيرة .

٢ — توثق علائق الامم

ربما كانت الحروب رابحة للغالب على حساب المغلوب يوم كانت الأمم في العصور القديمة منفصلة بعضها عن بعض بفواصل جغرافية واجتماعية ونحوها . أو يوم كانت قليلة العلائق فيما بينها بحيث لا تتضرر الواحدة كثيراً من سوء علائقها مع الأخرى ، أو ان ما تجنيه من غنائم الانتصار يربو كثيراً على الخسارة من سوء العلائق . في تلك الاحوال يمكن أن تحسب الحرب تجارة « رابحة » بغض النظر عن فكرة العدالة . ولكن في الأعصر الأخيرة أصبحت علائق الأمم بعضها ببعض شديدة جداً . ولعلها صارت أشد من علائق الأفراد في القبيلة الواحدة في أزمنة الهمجية ، أو في طلائع الحضارة يوم شرعت القبائل تدرك أن الطاعة لنظام الحكم أفضل وأربح لأفرادها من النزاع فيما بينهم. نعم أصبحت علائق الأمم الآن شديدة بحيث صار قطع هذه العلائق عن أية أمة نكبة لها ، وعقوبة لها تهدد هاته الدول إذا أجمعن على معاقبتها لسبب ما ، لأن عاقبة هذا القطع إضعاف لها قد لا تستطيع احتماله . فلذلك إذا اختصمت أمتان الآن لأي سبب ونزلتا إلى ميدان الحرب لعدم توفقهما الى فض الخلاف ودياً ،كانت خسائرهما من جراء القتال أضعاف أضعاف مطمع الواحدة بالأخرى سواء كانت الطامعة منتصرة أو منكسرة . زد على ذلك أن وقوع الحرب بين دولتين الآن يهدد العالم بحرب عامة تشتبك فيها معظم الدول لتوثق العلائق بين الأمم جمعاء .

فاذا كانت الأمم في مثل هذا الارتباط المحكم من العلائق التجارية والصناعية والاجتماعية فضلاً عن السياسة، وبمثل هذا الرقي الذي نتمتع به الآن عقلاً وعلماً واختراعات — أفليس عجيباً غريباً أن تبقى هذه العلائق مستندة إلى فوضى دولية أو غير مستندة الى سلطة تقيم النظام الدولي وتحفظ الأمن وتؤيد العدالة بين الامم ؟ أليس عجيباً غريباً أن يبقى هذا المجتمع الانساني طفلاً لا يفهم كيف يحفظ الأمن بين الجماعات ، مع أن الفرد صار حكيماً، وقد اهتدى الى أحكم الوسائل لحفظ الأمن وتأييد العدالة بين الأفراد ؟ أوليس أعجب وأغرب أن تتغلب العواطف على الجماعات حتى اليوم بحيث لا تردها عقولها الى صوابها

وتكفها عن حروب هي أشبه بانتحار منها باقتتال . ولا سيما أن جميع ناسها يفهمون أن خسائر الحرب أضعاف أضعاف أرباحها .

٣ — السوبرمان الاستعماري

لا عجب أن يتأخر المجتمع البشري الى اليوم في فهم أن النظام أضمن للسلام بين جماعاته (أممه) وأنقذ لها من الحروب ، لأن النظام الذي كان سائداً حتى القرن الاخير كانت أنظمة الحكم الفردي وروح الاريستوقراطية ، ووراءها الرأسمالية لا تزال سائدة الى اليوم. فلا ينتظر أن يقوم نظام دولي ديموقراطي على كاهل أنظمة أهلية غير ديموقراطية وغير مستتبة الديموقراطية فيها . ولم يقيض الله لمخترعي نظرية السوبرمان (الانسان الأعلى) أن يتوفقوا الى أمة « الانسان الأعلى » التي تسيطر على جميع الأمم وتجعلها منضوية تحت رايتها بنظام دولي فردي غير ديموقراطي (كما كان لعهد السيطرة البابوية على أوربا) .

في عصور الملكية والأريستوقراطية المستبدة لم يكن الباعث الأول الى الحروب الفتح لتوسع الأمة وشق طرق الاسترزاق لها لأجل رفاهتها وسعة الخير لها (كما يزعم الاستعماريون الآن) . وإنما كانت على الغالب لأجل الفخفخة والافتخار بضخامة الملك . كان الجندي يسابق الى ساحات الوغى لأجل احراز المجد لمليكه . فكانت نهاية الحرب في نظر الجندي اكليل غار لمليكه ، وقوس نصر لقائده . والآن وقد مضى الملك المطلق ، وتوارى الرأسمالي المستعمر ، وراء القائد ، فصار الاكليل من نصيب قبر الملك المجهول ، تمجيداً للجندي الشهيد في سبيل التبشير بإنجيل الاستعمار .

فالحرب اليوم خاسرة للأمتين الغالبة والمغلوبة ، ولكنها ليست خاسرة للرأسمالي . الرأسمالي يقدم العتاد، ويأخذ ثمنه، والأمة تقدم العباد مجاناً وتدفع ثمن العتاد والدماء معاً . فإن ربحت الدولة الحرب جنى الرأسمالي تثمير ماله . والجندي الذي سلّمه الله يعود الى العمل في خدمة الرأسمالي . فلماذا يقوم نظام دولي لأبطال الحروب وتوطيد السلام بين الأمم اذا كان في الحرب كسب للرأسمالي على كل حال . ولماذا يسمح الرأسمالي بإقامة ذلك النظام وهو من وراء حكومته يأمر وينهي بألسنة ساسة دولته ؟ لأنه هو السوبرمان الذي اخترعه الألمان وسبقهم إليه الانجلوسكسون .

أجل ، الرأسمالي موجود في كل مكان ، فهو إذا خسر شيئاً في البلاد المنكسرة في الحرب ربح شيئاً أو أشياء في البلاد المنتصرة . يقال ان المتمولين اليهود الذين غضب عليهم في المانيا كانوا مهربي بعض أموالهم الى دول أخرى لأجل هذا الغرض، على قصد انه اذا فاتهم الربح اليوم من هنا أتاهم من هناك . وإن فاتهم غداً من هناك أتاهم من هنا .

وإذا كانت المانيا قد أنفقت في العام الماضي ٥٨٠ مليون جنيه (قبل الحرب) في الاستعدادات الحربية ومثلها في العام الأسبق فهل تتوقع أن تجني من وراء أي حرب ربحاً بعد هذه النفقة ؟ أو هل يمكن أن ترد هذه النفقات على الأقل من غنائم الحرب ؟ وليست المانيا بمحتكرة هذه «الشطارة» فان جميع الدول يفهمن فهمها، وجميعهن مضطرات أن يحذونَ حذوها في الاستعداد الحربي، وجميعهن مقتدرات كقدرتها . فاذن هذا التنافس في التسليح مهما تغالت الدول فيه ، لا يغير الوضع الحربي ، أو التناسب الحربي بين الدول شيئاً ، بل تبقى هنا قوة للدولة ذات القوة، وضعف للدولة ذات الضعف ، وتهديد لذات التهديد — يبقى التخوف الذي يشكين منه جميعهن والذي به يعتذرن من تهالكهن بالتسليح ، فزيادة التسليح الدولية لو استغرقت كل قوى الأمم لا تنفي الحرب كما يزعمون ولا تطمئن كما يدعون ، بل تزيد الروع والقلق وتنفي اطمئنان الناس بتاتاً كما هو الواقع الآن .

أترى أن كبار رجال السياسة، لايفهمون هذه الحقيقة البسيطة كما نفهمها نحن ؟ يفهمونها أكثر منا . وهي جلية لهم جيداً، ولايضيعون فرصة للتصريح بها . إذاً لماذا لا يعودون الى حكمة النظام الاجتماعي الطبيعي، وهي أن يقيموا نظام الحكم الدولي كما يقيم أفراد الأمة نظام الحكم الشعبي الذي يتلافى الفوضى ؟ لماذا لا ؟

لأن السوبرمان الذي بحث عنه الألمان بعد أن سموه وجد جهنمياً (سوبرمان الحرب)

أما الجواب القاطع . فلسببين ظاهرين اليوم ، فضلاً عن أسباب أخرى خفية تقتضي دراسة : —

أولها : أن شيطان السوبرمان الرأسمالي لا يهدأ . فهو يحرك ويثير من وراء رجال

السياسة ومن وراء الدعاية بجميع أنواع النشر ، ومن وراء مرافق الأرزاق التي لا يزال العمال فيها عبيداً .

وثانيهما : ان حب الشهرة والمجد والفخفخة انتقل من الملوك والأعيان والسراة الى النابتين من وضائع الطبقات والمتصاعدين الى منصّات الدكتاتوريات ونحوها . فهؤلاء حلّوا محل الحكام المطلقين تحت راية الديموقراطية المرجاه . ولكنهم لا يدعون هذه الراية تخفق لأنهم يشدّون أطرافها الأربعة الى خصورهم .

٥ - الدكتاتورية عدوة السلم

هؤلاء « الحاكمون بأمرهم » الذين نشأوا بعد الحرب الكبرى نسفوا كل ما مهّدته الديموقراطية من الطرق الى « الشعوبية ». وأعني بالشعوبية Internationalism انضمام جميع الأمم في نظام دولي واحد . هؤلاء أقاموا مقام النعرة الدينيـة التي كانت تحفز الأمم الى الحرب في العصور الماضية — أقاموا مقامها النعرة الوطنية — أقاموا إله الوطن مقام إله الدين . ونظموا جنود الحماسة المجـاهدين لهذا الإله من الأحداث الذين كانوا يرون أبطال الثوب العسكري البهيج، فيتوقون إليه وهم لا يدرون ما أمامه من هلاك، ومن شرّ للمجتمع . نظموا جنود الإله الجديد من هؤلاء الأحـداث المغرورين بالقمصان الملونة — فاشستية ونازية ونحوها ، ولسان حالهم « إن حياتكم في مجد الحرب » .

وفيما نحن نكتب هـذا الفصل كان الزعيم موسوليني يذيع على الملأ الأرضي « أن إيطاليا لا تؤمن « بسخافة السلم الدائم » . وصرّح « ان حساباتها في افريقيا قد سُوّيت ، ولكن لا تزال لها حسابات أخرى » . فاذا كانت هـذه التعاليم التي يسمم بها الدوتشي الايطالي نفوس الناشئة الإيطالية ، وبمثلها تتسمم شعوب أخرى ، فكيف يمكن أن تقوم للسلم العام قائمة ؟ وإذا كان موسوليني كلّـما ترنّـح زهواً يهدّد العالم بأنه ينسحب من جمعية الأمم . واذا كان غيره يفعل فعـله أيضاً ، فكيف يرجى أن يقام نظام دولي ديموقراطي يحفظ الأمن والسلام ويقيم العدالة بين الأمم ؟ فالذين قاموا في سبيل الديموقراطية الدولية في الماضي وحتى اليوم هم شياطين الرأسمالية وأبالسة الزهو بأمجاد السلطة التي فاجأتهم قبل أن يحلموا بها .

٦ — الحرب الكبرى الماضية قطعت علائق الأمم

الى أن شبت الحرب العالمية الكبرى كانت جميع الأمم سائرة في طريق الاختلاط والامتزاج والائتلاف ولا سيما الأمم الغربية . فكانت المهاجرة مطلقة بلا قيد ولا شرط ولا سيما إلى العالم الجديد (أميركا) . وكانت انكلترا تبشر بانجيل « الباب المفتوح » . أي انها لم تكن تتقاضى رسوماً جمركية على معظم البضائع التي تدخل اليها. وكانت تدعو سائر الدول الى اعتناق « الباب المفتوح » أي أن تحذو حذوها . وكان التجنس أي اعتناق المهاجر جنسية البلاد التي هجر وطنه اليها سهلاً لا عقبات في سبيله . يكفي أن يقيم مدة معينة غير طويلة فيصبح ابن البلاد . كانت المعاملات ثابتة على قواعد عامة راسخة — إلى غير ذلك من وسائل الاختلاط الأممي الذي كان يبشر بحسن التفاهم بين الأمم وباستعدادها للائتلاف .

والآن ماذا نرى ؟

— خطوط المهاجرة انقطعت حتى الى أميركا التي كانت مفتوحة الباب على مصراعيه لكل مهاجر من أية جنسية . فلم تعد الآن تقبل مهاجرين إلاّ عدداً ضئيلاً كل عام . لم يعد السفر مستطاعاً ، مهما كان الغرض منه ، إلاّ « بجواز سفر » الحصول عليه معقد الوسائل ومكلف نفقات كثيرة . أصبح هذا السفر عسيراً حتى بين بلد وبلد، كان في الأصل بلداً واحداً كسوريا وفلسطين والعراق مثلاً . الرسوم الجمركية الثقيلة شلت الحركة الاقتصادية والحركة الصناعية أيضاً شلاً حتى حسبها الرجال المشتغلون بالمال في رأس القائمة لأسباب البطالة (مع انها سبب ثانوي لها) . وهناك أسباب أخرى أهم جداً لا محل لتفصيلها هنا . أصبح التجنس « عنباً حامضاً » . أصبح الغريب ضيفاً غير مرغوب فيه وغير مقبول الاّ لزمن قصير « وأصبح التوازن النقدي بين الأمم دائم الاضطراب والتقلقل لتعمد الدول ، لغايات رأسمالية دنيئة ، تخفيض قيمة نقدها عن قيمة الذهب . فكان هذا سبباً كبيراً ودائماً في تعقد المعاملات التجارية بين الأمم . وتعقدها كان من جملة أسباب انشلال حركة العمل واستفحال البطالة .

إذا أضفت الى هذه العلائق المتقطعة وغيرها كثير ومنها تسميم عقول النشء بأن

« وطنه فوق الجميع » علمت كيف طاش رجال السياسة في هذا العصر ، وأي جريمة عظمى اجترموها ضد الانسانية في تقطيع تلك العلائق بين الأمم بعد أن كانت جادة في سبيل التفاهم والوئام . وإذا كان هؤلاء الساسة يغرسون في عقول أحداثهم أن فخر الفتى هو «أن يموت فدى لوطنه » فكيف ينتظر أن يأتلف هذا الفتى مع فتى آخر من وطن آخر ؟. لأنه لماذا يجب أن يموت فدى وطنه إذا لم يكن ثمت وطن آخر عدواً لوطنه ؟ وإذا كانت آية موسوليني الذهبية « الحرب تبرز أشرف ما في الانسان » فكيف يحب فتيانه السلم ؟

فالتعليم الاجتماعي الذي يدسه أشرار الحكام والساسة الذين هم مطايا الرأسمالية يضرم نار الحقد والضغينة بين الأمم . فكيف يرجى أن تأتلف الأمم لانشاء نظام دولي ديموقراطي يضمن السلام بينها، وهناك أناس فاسدو الأخلاق لئام الطباع لايستطيعون أن يعيشوا في جو صفاء أو لدى ماء زلال . لذلك يعكرون الماء لكي يتسنى لهم الصيد فيه .

٧ — السلم في طي الديموقراطية الحقة

وكأني بالقارىء يقول: إذن لا أمل بقيام هذا النظام الديموقراطي الدولي. أجل لا أمل بقيام هذا النظام ما دامت الحالة الاجتماعية كما هي اليوم — دكتاتوريات علنية ودكتاتوريات مستترة، وجمهوريات بالاسم وبيروقراطيات بالفعل (والبروقراطية هي استقلال أفراد معدودين بالحكم ، والبرلمان الى جنبهم صوري أشل)، ورأسمالية من وراء هذه كلها تؤيدها . أجل لا أمل بقيام نظام ديموقراطي يضمن سلام العالم وأمنه والقضاء على الحروب ، إلاّ إذا استتب النظام الديموقراطي تمام الاستتباب في جميع حكومات العالم ، أو على الأقل في حكومات الدول الكبرى التي تدّعي لنفسها حق قيادة العالم . لأن النظام الاستبدادي ملكيًّا أو دكتاتوريًّا ، أو بيروقراطيًّا لا ينطوي على روح السلم بتاتاً . ليس فيه الاّ روح الحرب لأن أساسه التنازع — تنازع السلطة وتنازع الشهرة وتنازع الشهوات . ولهذا يستبد لكي يستعبد العامة ويستخدمهم أدوات لذلك التنازع . ولكن الديموقراطية الصحيحة السليمة تتضمن روح السلم الخالص لأن الارادة المدبّرة فيها والمسيطرة هي إرادة الشعب. وأفراد الشعب لا يحصلون على رزقهم براحة وبضمان إلاّ في الجوّ الصافي والماء الرائق، جوّ السلم . فهم يكرهون الحرب ويتوقون إلى السلم بطبيعة حالهم .

٨ — جمعية الأمم

لو استفتيت جميع عامة الناس على سطح الكرة الأرضية في « هل الحرب أمرٌ يستحيل تجنبه في بعض الأحوال ؟ » لكانت لأجوبتهم روح واحدة . أو كان لها معنى واحد يلخص هكذا : — « لماذا الحرب ؟ ألأنَّ بين المتحاربتين خلاف على أمر ، كما هو بين شخصين ؟ فلا بدَّ أن يكون لإحداهما حقٌّ دون الآخر . أو لا بد من تمكين التسوية بين حقيهما من غير أن يتعارضا ، فلماذا لا يعرضان قضيتهما على محكمة محكمين عادلة كما يعرض كل خصمين قضيتهما ؟ وما تحكم به المحكمة فهو الذي يحسم الخلاف ويتلافى الحرب ؟ إذن تجنب الحرب غير مستحيل . بل هو ممكن جداً » .

ولكن يبقى لمعترض أن يقول : — من ينفذ حكم هذه المحكمة الدولية اذا لم تذعن له احدى الدولتين ؟

أجل . هنا هي النقطة الجوهرية . هنا لباب الموضوع . من ينفذ ؟

على أساس أن الحق يظهر في المحكمة مهما كان ضعيفاً أو عويصاً أنشئت جمعية الأمم (أو كما ترجمها كتابنا «عصبة الأمم») إجابة لاقتراح الدكتور ويلسن الذي اشترط انشاءها في ما اشترطه من بنوده الأربعة عشر لكي يحسم الحرب بترجيح كفة الحلفاء : وأنشئت محكمة العدل قبلها بزمن تلبية لاقتراح القيصر نقولا الثاني . ولكن لم يكن إلى جنب العصبة ولا الى جنب محكمة العدل قوة شرطة دولية لكي تنفذ أحكام الهيئتين المذكورتين، لم يكن إلى جنبيهما إلا « شرف الكلمة » (بارول) الذي تبرعت به الدول المشتركة في « العصبة» . ولكن بكل أسف ظهر أن كلمة أي واحد من العوام الوضعاء الذين يترفع عن مجالستهم السراة والأعيان ولا يعتدون بشرف كلمتهم — ظهر أن كلمتهم أشرف جداً من كلمات تلك الدول .

رأينا هذه العصبة في مدة عمرها التي تناهز ١٨ سنة مهزلة سياسية دولية تضحك فيها الدول — ولكن على من تضحك ؟

الحقيقة أن الدول لا تضحك . بل تهزل ونحن العامة في جميع ممالك الارض نضحك من هزلهنَّ آسفين .

أجل . إن حالة المجتمع البشري في هذا القرن مأساة الضحكُ فيها كالبكاء أو أكثر تفجعاً من البكاء . وربما كان أحرج فصل في هذه المهزلة — عفواً ، بل المأساة ، هو الفصل الحالي الذي تزعم فيه عصبة الدول أنها تسعى الى السلم في حين أن الدول نفسها تتسابق الى التسليح .

ما فائدة عصبة الأمم إذا لم تكن مسلحة والأمم غير مجرّدة من سلاحها ؟ وما فائدة هذه العصبة وهي غير مسلحة اذا كان الساسة المتولون زمام الدول والمتصدرون لتسوية مشاكل الأمم لم يصيروا حتى اليوم آلهة ، حتى ولا ملائكة، حتى ولا بشراً أتقياء الله ؟

إذن جمعية الأمم . لم تقض وطر السلم بل بالعكس كانت أداة لقضاء وطر الأقوياء من الضعفاء كما شاهدناها في اختراع طريقة « الانتداب » التي هي أبدع اختراع شيطاني سياسي في عصر الاختراعات . واذا كانت هذه الجمعية غير قاضية هذا الوطر — وطر السلم الموموق، فعلى مَ تبقى وقد انسدل الستار على خيبتها في روايتها الأخيرة، ولم يعد لرواتي هزلي أن يقدم لها أبدع مما مثلت من رواياتها ؟ لقد أنف الناس مشاهدة مهازل متشابهة وجفت دموعهم من مآسيها .

عبث انشاء نظام دولي ديموقراطي يضمن سلام العالم وأمن الأمم قبل أن يستتب النظام الديموقراطي الصحيح في عالمي السياسة والاقتصاد حيث تقوم فيه ارادة الشعوب الحرّة وتكون الكلمة فيه كلمة مجلس الأمة .

حينئذٍ يرى عامة الأمم جمعاء أن لا فارق انساني يفرق بينهم مهما تباعدت مواطنهم أو تقاربت . حينئذٍ يفنى الوطن الخاص بالوطن العام . حينئذٍ تفنى كل أمة في أمة الأمم . حينئذٍ تندك الحجب الفاصلة بين الأمم . حينئذٍ تروج المعاملات بين الأمم على قواعد النظام الاقتصادي المشترك (الديموقراطي) . حينئذٍ لا تعود الأمم تجد بينها دواعي للحرب وإن وجد داعٍ للخوف منها لخلاف بين أمتين ، فهناك محكمة العدل، وهناك مجلس الدول ، أو هناك بارلمان البرلمانات يفصل ويقرر ويحكم، وهناك البوليس الدولي ينفذ. ويطوّع المتمرد ويخمد أنفاس الثائر

إن نفوس عامة الأمم مختمرة بهذه الفكرة . وهي تكره الحروب لأن الاختبارات الماضية والقريبة العهد علمتها أن غرم الحرب لها وغنمها للرأسمالية . بل علمتها أكثر من ذلك، علمتها أن هناءة العيش وبحبوحة الرزق لا تكونان إلاّ في صفاء جو السلم. لذلك إذا أبرقت بروق السياسة، وأرعدت رعودها في حرب كبرى، فالراجح أنها تكون حرب طبقات لا حرب دول . وحينئذٍ يقبض شمشون الديموقراطية على عمادي سقف الرأسمالية ويشدها الى صدره قائلاً : « عليّ وعلى أعدائك يا رب » .

متى يكون ذلك ؟

لسوف يكون .

ولكن الناظر الى الأمام — الى المستقبل — لا يستطيع أن يقدر الأبعاد القصية مهما بعد نظره .

الديموقراطية
سيرها ومصيرها

Democracy, Its Course and Tendency

بحث اجتماعي سياسي اقتصادي أخلاقي

تأليف

نقولا الحداد
رئيس تحرير المقتطف

مطبعة المقتطف والمقطم
١٩٥٠

٩ — في طريق الديموقراطية الدولية

بقي الأمر الأخير الذي لا بد منه لتتمة البحث في هذا الموضوع وهو ماذا ظهر الى الآن من بوادر هذه الديموقراطية الدولية الضامنة سلام العالم وأمنه ؟

منذ شرعت علائق الأمم بعضها ببعض تتوثق، وروابطها تشتد ، أخذت بوادر هذه الديموقراطية تظهر متتالية . ذلك لأن المصالح الأممية المشتركة أو المتبادلة اضطرت الدول أن تتفق على أنظمة دولية شاملة تقيد كل دولة بالواجب المفروض عليها لقاء النفع الذي تتمتع به . واتفاقها يتم بمفاوضات ومناقشات في مؤتمرات دولية تنعقد من مندوبي الدول

مثال ذلك: اتفاق البريد الدولي العام في معظم وظائف هذه المصلحة العامة فقد مهد هذا الاتفاق السبيل لتبادل الأمم الرسائل على اختلاف أنواعها بكل سهولة وسرعة بين أطراف المعمور المترامية . وكان من أهم عوامل النجاح الاقتصادي والاجتماعي العام في العالم كله . ومثله الاتفاق التلغرافي ، والاتفاقات الدولية الصحية المتنوعة كالحجر الصحي ضد الأوبئة الوافدة ، ومقاومة انتشار المخدرات الى غير ذلك مما لا داعي لتعداده .

وهنالك اتفاقات دولية رسمية لا تكاد تحصى .

دع عنك اتفاقات أممية غير رسمية كاتفاقات المصارف على تبادل الرسائل المالية ، واتفاق كثير من الشركات من جميع الممالك على معاملات متنوعة تتعاون بها على قضاء كثير من مصالح الأمم .

أضف إلى ذلك كثيراً من المؤتمرات الأممية التي تتفاهم بها الأمم وتتبادل المعلومات ووسائل الترقية الفنية ونحوها، كالمؤتمرات الطبية والمؤتمرات الموسيقية والرياضية والثقافية إلى غير ذلك مما لا يمكن إحصاؤه . كل ذلك إنما هو خطى في طريق الديموقراطية إلى توطيد قدمي الديموقراطية الدولية . وهي خطى كل يوم أوسع من يوم وأسرع وأعظم تأثيراً في تقوية هذه الروح . وقد لا يطول تمني الناس هذه النعمة المنشودة حتى يروا أنفسهم قد صاروا في شركة دولية أو أممية كلهم شركاء فيها فعلاً ، ولا يلبثون أن يروا أن جمعية الأمم التي تحملت دور الامتحان بكل عناء وبالخيبة ، قد نشطت من فشلها ووقفت وقفة الشخص الأهل للقيام بوظيفته الجدير بالاعتبار والاحترام

الفصل الثامن

الديموقراطية الاجتماعية

١ — امتصاص الطبقة الوسطى ما فوقها وما تحتها

علمنا فيما سلف ان الديموقراطية الدولية لا تنجح اذا لم تستتب الديموقراطية السياسية والديموقراطية الاقتصادية أولاً . وهذه جميعاً تستتب حين يتأهب لها جميع الناس تأهباً اجتماعيًا ، لأن النظام الديموقراطي اجتماعي بحت، وقد ولد من بطن الاجتماعيـة . فتقوم قائمته حين يصبح جميع الناس على السواء اجتماعيين ديموقراطيين طبعاً واخلاقاً وعادات ، أعني حين يصبحون متماثلين في اخلاقهم وعاداتهم وأزيائهم، ومتقاربين في تفكيراتهم وثقافاتهم ومتشابهين في أمانيهم ومطامحهم ، بحيث اذا وجد أي فرد في أي مكان لا يشعر أنه غريب عن الناس كما يشعر الآن العربي في الصين والصيني في أوروبا الخ — لا يشعر بغرابة سوى غرابة اللغة . وفارق اللغـة لا بد أن يزول أيضاً بانتشار لغة عامة يتكلمها كل فرد مع لغته الوطنية ، بحيث يستطيع التفاهم مع أي قبيل من الناس أينما كانوا . (كالاسبيرنتو)

هـذا الاستعداد الاجتماعي الذي لا بدَّ منه لتوطيد الديموقراطيـة العامة يهدم أهم الحواجز القائمة في سبيل « المساواة » التي هي الهدف الأقصى لهـا . يهدم برج الطبقات، ويجعل أفراد الناس وجماعات الأمم في مسـتوى واحد تقريباً . تضمحل الارستوقراطية اضمحلالاً تامـًا . وتبيد الطبقة التي تعيش كالحَـلَـم على حساب غيرها . ولا يبقى منها إلاّ آثارها في المتحف الاجتماعي . كما انه لم يبق من آثار الحيوانات المنقرضة إلاّ بقية محفوظة في حدائق الحيوانات . لا يبقى من آثارها إلاّ ألقاب الشرف ورتبها ونحو ذلك . وأخيراً لا تبقى هذه إلاّ في مدوّنات التاريخ لأنها ستتلاشى كتلاشي الظلّ أمام نور الصباح

وإذا كانت الديموقراطيات السياسية والاقتصادية متمشيتين جنباً الى جنب كما نلاحظ الآن ، ومتقدمتين في طريق النجاح فلا نلبث أن نرى أيضاً الطبقة السـفلى . طبقة العمال

البائسة ، تتلاشى رويداً في الطبقة الوسطى ، كما ان الطبقة العليا الاريستوقراطية تتهابط قبلها الى هذه وتتلاشى فيها . وأخيراً لا تبقى الا هذه الطبقة المسماة طبقة « البرجوازي » . وإنما تكون طبقة كثيفة سميكة ، ولا سيما في أوائل أمر هذا التذبذب الطبقي ، بحيث لا يكون المستوى مسطحاً تماماً ، بل يكون متموجاً كالبحر في ساعات حلمه ، أو كمستوى الصحراء ذات الهضاب . وكلما فازت الديموقراطية الاقتصادية وانتصرت على الرأسمالية قلّ هذا التذبذب الطبقي ، وقارب تسطح المستوى التام .

على أي الذرائع تعتمد هذه الطبقة الوسطى في امتصاص الطبقة الاريستوقراطية من فوق وامتصاص الطبقة العاملة من تحت ، بحيث تتوازى جميعاً في مستوى واحد ؟

٢ — وسائل الامتصاص

بعض هذه الذرائع واردة إليها من طبيعة الاجتماع نفسه أو بالأحرى من ثمرات ارتقائه ، أعني اختراعات وسائل المواصلات المتنوعة التي قلصت سطح الكرة الأرضية وجعلته رقعة صغيرة أمام بصر الانسان وسمعه ، وأبادت الزمن ابادة تامة بحيث تحضر الحوادث أمام جميع الناس في وقت واحد مهما تباعدت مواطنهم وأوقاتهم فانتظام وسائل المواصلات على هذا النحو جعل جميع الناس على اختلاف جنسياتهم يتأثرون في وقتٍ واحدٍ تأثراً واحداً من حوادث المجتمع ومن عوامله السياسية والأخلاقية : هذه هي الذريعة التي يتذرّع بها المجتمع الانساني لتهدئة لجج التفاوت والتفاضل بين طبقات الناس ، وجعل السطح الاجتماعي في مستوى واحد هذه الذريعة انما هي عامل داخلي في طبيعة الاجتماع نفسه .

وهناك ذريعة أخرى واردة من طبيعة العقل البشري نفسه ، وهي شهوته الغريزية للمعرفة . هذه الشهوة هي التي كانت ولن تزال تحضّ الثقافة العامة على السير الى الأمام . لكل أمة ثقافة وعلم ومجموعة معارف كما أن لها مدنية . على أن وسائل المواصلات التي تقدم ذكرها جاءت اداةً لمزج هذه الثقافات وغربلتها والحرص على الجيد منها . فأصبحت وسائل النشر المتنوعة الآن تبثّ في جميع الأمم ثقافة واحدة تقريباً هي خلاصة جميع الثقافات وأجودها ولما كانت أخلاق الناس وعاداتهم واقعة دائماً تحت تأثير معارفهم

وثقافاتهم ، فلا بدّ أن توحّد الثقافات يصوغ في الأمم أخلاقاً متشابهة وعادات متماثلة وتصورات متجانسة وميولاً متفاكلة .

كل هذا وذاك يجعل الناس في كل وطن يصبون الى شكل واحد من الأمانيّ ، ويطمحون الى نوع واحد من المطامح . وبالتالي يسعون جميعاً في اتجاه واحد من غير تعارض أو تقاطع . ولأنّ المساواة هي نواة الديموقراطية التي هي انشودة الاجتماع ، فبطبيعة الحال يسعون جميعاً الى المساواة . وهو السعي في الطريق الى الديموقراطية العامة .

ومتى كان الناس ساعين في طريق واحد غير متضادّين ولا متعارضين كانوا جريئين كل الجرأة في ازالة كل عقبة من سبيل حريتهم وإزالة كل هشيم من حقل رأيهم العام . فبكل صراحة وبكل حرية يتحدثون في الأحوال السياسية ، ويتناقشون فيها من غير أن تضلل مناقشاتهم تأثيرات النفعيين . وحينئذٍ يتيسر لارادة الجمهور أن تنفذ في ادارة شؤونه . كما انه يتيسر لها الهدى الى السداد في ضوء المناقشات الحرّة

٣ — الثقافة طريق الحرية والمساواة

وهنا لابد أن يسأل القارىء : أين صارت الهيئة الاجتماعية الانسانية في هذا الطريق الى « المساواة والحرية » ؟ والجواب على هذا السؤال هو في مبلغ الثقافة الذي بلغت اليه الهيئة المذكورة ، ومنه يفهم انها قطعت شوطاً بعيداً في هذا الطريق

في معظم الممالك الحالية التعليم منتشر ، وفي كثير منها التعليم الأولي اجباري مجّاني . وفي الولايات المتحدة الاميركية يندر ان تجد رجلاً أو امرأة ليس معه او معها الشهادة الابتدائية . وأندر منه أن تجد شخصاً لا يحسن القراءة والكتابة . لا تجد أميّاً واحداً بالمئة ألف . أوروبا هي الثانية من هذا القبيل ماعدا بعض بلاد البلقان فالأمية فيها ليست بالقدر القليل . وأميركا الجنوبية كذلك أيضاً . واما بلاد الشرق الاقصى فلا تزال الأمية فيها راجحة جدّاً . ولكن التعليم فيها سائر سيراً حثيثاً . فالعالم بالاجمال مُجِدٌّ في تثقيف نفسه

كانت الثقافة سابقاً من نصيب الأعيان والأغنياء والنصيب الأخير منها للطبقة الوسطى . وأما الطبقة السفلى الكثيرة العدد فكانت محرومة منها . على انه في هذا العصر أضطُرَّ الرأسماليون أن يعاونوا نقابات العمال في تعليم أحداثهم حيث لا تتكفل الحكومة بمدارس أولية مجانية .

وأما الحكومات الديموقراطية فلم تدخر وسعاً في تعميم التعليم الأولي لكل طبقة

ولا يخفى أن انتشار التعليم على هذا النحو بسرعة فائقة يبشر بأن العالم سائر في الطريق الى الديمقراطية العامة سيراً عاجلاً . ولا ريب أن تعوُّد العامة المطالعة يصرفهم عن الثرثرة بالاحاديث الخرافية والترّهات والاباطيل ويقوي عقولهم تقوية منطقية في نقد الاشخاص المسيطرين عليهم ، وتجرئهم على ردعهم عن سياساتهم المنتقدة

٤ — هل تفاوت الناس عقبة في سبيل المساواة

وهنا لا بد أن يعترض كثيرون من القراء على نظرية المساواة هذه في الثقافة وبالتالي في الأهلية والجدارة . فليس من يسلم بأن الناس يمكن أن يتساووا في الذكاء وفي الشهوة الى المعرفة وفي المواهب الممتازة . لذلك يعتقدون انه يَستحيل أن يبلغ الناس الى المستوى الواحد المسطح ، أي العديم الارتفاع والانخفاض أو القليله . وإذا كان الأمر كذلك فهذا التفاوت الطبيعي بين البشر عقبة كؤود في سبيل المساواة التي هي نواة الديموقراطية . وبالتالي هو عثرة في طريق الحرية الفكرية وحرية الرأي فعبثاً ننشد الديموقراطية العامة التامة

هذا هو اعتراض كل فرد يتمسك بظواهر الأمر ويحتج بها ولا يتعمّق في صميمها . حقيقيٌّ ان الناس لا يتساوون في الذكاء والمعرفة والمواهب . ولا ينتظر أن يتساووا ، حتى ولا يحسن أن يتساووا لأن المجتمع يحتاج الى مواهب متنوعة كتنوع الوظائف وتوزعها على ذوي الاهليات في ادارته . فليس المقصود ان يتساوى الناس من هذا القبيل ، بل أن يتساووا في التشبع بروح الديموقراطية ، وبفهم الحقوق والواجبات وبفهم حدود الحرية واصالة الرأي ، بحيث يشعر كل فرد أن له ضلعاً مع جماعته في ادارة شؤونها ، وان له حق ابداء الرأي وحق المناقشة وحق الاقتراح ، وبحيث يستطيع المناقشة ويحسنها بقدر الامكان . فالناس ، وزيرهم ومديرهم وعاملهم وعالمهم وساذجهم الخ يمكنهم أن يتساووا في هذه الروح الديموقراطية وفهم حقوقهم وواجباتهم فيها : مهما اختلفت معارفهم وتفاوتت مداركهم

ثم أن ما نراه الآن من تفاوت الناس العظيم في الذكاء والمعرفة ليس كله من جرّاء العوامل الطبيعية ، بل معظمه عن تأثير العوامل الاجتماعية . لأنه حتى اليوم لا تزال وسائل التربية والتعليم الاولي والثقافة العليا مقيّدة بالطبقات . فهي ميسورة للطبقات الثرية أكثر جداً

منها للطبقات العامة ، فلا بدع أن يلمع الذكاء وتسطع العبقرية في افراد تلك ويخبو النبوغ في هذه. ولكن متى أعدّت وسائل التربية والتعليم للجميع على السواء بفضل تقدم الديموقراطية، التي تشق طريقها بين الهشيم والانقاض والحطام التقليدية البائدة يقل ذلك التفاوت الذي أشير اليه آنفاً . ولا يبرز فوق المستوى حينئذٍ الا كل نبوغ نادر وكل عبقرية ممتازة . يبرزان محفوفين بأشعة الفضيلة، فيكونان مرشدين للمجتمع بعد أن كانا في بعض الأحوال الماضية مضللين له مفسدين لحياته . في ذلك الحين الذي تعمّ فيه الثقافة تنتفع الأمة بخدم كل عبقري من عباقرها وبمواهب كل ذي موهبة خاصة فيها، ولا تخسر فطن علمائها وتأثير عواطفهم الطيبة . اذن لا خوف من أنّ تفاوُتَ الناس في الذكاء والمعرفة يقلقل موقف المساواة والحرية اللتين ينشدهما المجتمع في ديموقراطيته

٥ — الثقافة الرسمية

بقي الآن ان نبحث في شكل التربية والتعليم الذي يجب أن ينتشر في جميع الأمم، والذي لا بد أن ينتشر لكي يعدهنّ جميعاً للديموقراطية العامة العليا .

الى الآن تختلف أنماط التربية وبرامج التعليم والثقافة باختلاف الأمم واختلاف تقاليدها. ويندر جدًّا ان تجد فيها تربية الروح الديموقراطية . بل بالعكس تجد فيها روح التمرد عليها ، أو روح خذلها . خذ مثلاً جميع الأمم اللاتينية ليس في أوربا فقط ، بل في أميركا الجنوبية أيضاً . فان التعليم هناك لا يزال قائماً على قاعدة الثقافة الاكليريكية ، وهي ثقافة تؤيد مبدأ الخضوع والطاعة العمياء للسلطات العليا ، وتؤيد أيضاً استقلال هذه السلطات في ادارتها من غير أن يكون للجمهور رأي أو ارادة فيها . هكذا ينشأ النشء اللاتيني وهذه الروح متأصلة فيه ، وبطبيعتها ينفر من الروح الديموقراطية حتى في حين صراخه بالاحتجاج على الرأسمالية. واستفزازه القوم للاشتراكية يبقى نافراً ، من الروح الديموقراطية، وهو لا يشعر أنه يطلب ماء من غير معينه وثمراً من غير غصنه — يطلب اشتراكية من ادارة مستقلة استبدادية . وإذا تعمقت في البحث عن سر أن الجمهوريات الاسبانية والبرتغالية في أوروبا وأميركا قائمة على غلبة السلاح، لا على غلبة الرأي العام، ولا على غلبة أصوات

الانتخاب ، وصلت في البحث الى تلك التربية وذلك التعليم اللذين يقتلان روح الديموقراطية في النشء .

خذ مثلاً آخر مختلفاً : التربية الانجلوسكسونية في كلتا القارتين وسائر المستعمرات البريطانية . فاذا أنعمت النظر في دخائلها وفي آثارها تجد فيها ألوان التقاليد « قاقمة » أو باهتة حسب الظروف المحتوية . فهي وإن تكن أقرب الى روح الديموقراطية السليمة من التربية اللاتينية لا تزال تضيق على هذه الروح ولو بعض التضييق . ففي انكلترا مجلس اللوردات يشد الحبل ما استطاع الى ناحية الرجعية . وسلطة رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأميركية (وهي انجلوسكسونية) أوسع جداً من سلطة كل حاكم ديموقراطي . فهي ليست بعيدة جداً عن سلطة الدكتاتور . ولكن بالرغم من هذا تعد الولايات المتحدة أسرع الأمم في طريق الديموقراطية العامة الشاملة .

خذ أيضاً العناصر الجرمانية ، وألمانيا أنموذجها جميعاً ، فهي معروفة منذ اتحاد ممالكها بخنق روح الديموقراطية — خنق روح الحرية في كل ناحية وتضحية كل حرية على مذبح تمجيد السلطة العسكرية المعدة عرشاً لسلطان السوبرمان الانسان الألماني الأسمى .

وإذا تحولت عن أوربا وأميركا الى الشرقين تجد الرجعية لا تزال هشيماً كثيفاً جداً تحاول الديموقراطية بجهد جهيد أن تنفضه عن صدرها وأنفاسها . بيد انها ناشطة هناك ونشاطها يبشر بالفوز

أما روسيا فكانت الحركة الاجتماعية العامة فيها شاذة جداً . فقد اتفق أن هجمت الديموقراطية عليها هجوماً مباغتاً سريعاً في ابان وقوعها في الفوضى على أثر هزيمتها في الحرب العظمى السابقة فحدث صدام عنيف بين الجديد والقديم ، فدك القديم دكاً هائلاً وأهلك وأباد وأزعج ونكب قبل أن يتم البناء الجديد . ولما يتم .

وحاصل القول أن جميع صنوف التربية التي كانت قائمة حتى هذا القرن لم تكن لتربية الروح الديموقراطية ، بل بقيت على قاعدة التربية الاريستوقراطية والتقليدية .

وليس ذلك فقط بل كانت تربية مشبعة بروح الوطنية الخاصة Nationalism المناقضة لروح الاممية أو الشعوبية العامة Internationalism . كانت تلك تربية التعبد للحرب والتمجيد

لها والافتخار بانتصاراتها . كانت كل أمة تغرس في عقول أبنائها ما كان يغرسه موسى في عقول قومه : « إن بني اسرائيل هم شعب الله المختار ، وان جميع الأمم والأقوام هم أبناء البعل ، وأنه يحق لابن اسرائيل أن يسفك دماءهم ويغزو بلادهم ويغنم أملاكهم وأشياءهم » واليوم صارت تربية كل أمة لناشئتها : « الدين لله والوطن للجميع أصحاب الأديان المختلفة » والضحية يجب أن تُقدَّم على مذبح الوطن . والراية هي رمز ألوهية الوطن — الى غير ذلك مما كان يذبح الديموقراطية الدولية ذبحاً ويسفك دمها سفكاً . على مذبح النقض للديانة الخاصة

٦ — برنامج الثقافة الاصلح

إذن جميع أساليب التربية وبرامج التعليم القديمة يجب أن يضرب بها عرض الحائط — ولا بد أن يضرب بها — وان ينشأ برنامج جديد على هذا النحو : —

أولاً : ينشأ أسلوب للتربية على قاعدة الروح الديموقراطية النقية ، وعلى أساس الأدب النفسي الطاهر الشريف الذي يغرس في عقول النشء المبدأ السامي ، وهو أن جميع البشر أخوة : أبناء آدم وحواء ، وان معنى الانسانية شمولهم تحت جناحي هذه الأخوة . وان سنة الحياة إنما هي تعاونهم جميعاً وتعاضدهم تحت راية الوطن الأرضي العام الذي يشمل جميع المعمور المسكون بلا استثناء .

• ثانياً : أن ينشأ برنامج للتعليم أولي واحد يسهل فيه تلقين بسائط العلوم الأولى لجميع الناشئة ، بحيث تكون التصورات الرئيسية متماثلة والعقول معدة لتفكيرات عمومية متشاكلة

ثالثاً : أن ينشأ برنامج للثقافات العليا سخي بالفروع العلمية والفنية ، يجد فيه كل ذي موهبة وميل الفرع الذي يلذ له ويؤمل أن يرتزق منه ، تلغى الخرافات بتاتاً .

يجب أن تكون هذه البرامج الثلاثة عامة لجميع الأمم على السواء بلا استثناء ، وان تتضامن جميع الأمم في التربية والتعليم بموجبها بكل دقة وعناية . فلا ينقضي جيل واحد أو جيلان حتى تكون للألفي مليون نسمة سكان الأرض نزعة واحدة لاقامة هيكل الديموقراطية العامة الذي يُعبد فيه اله السلام على الأرض .

هذا ما يجب أن يكون . ولا بد أن يكون في المستقبل القريب والبعيد لأن ظواهر

العالم البشري تدل على أنه سائر في هذا الاتجاه، وإن كان جمهور العامة لا يشعرون به أو لا يعتقدون . فهو عمل العقل الاجتماعي الباطن The Social sub - Consciousness

٧ — شرف العمل

بقي لمعترض اعتراض يظنه وجيهاً . وهو أن تعميم التعليم والثقافة يقلقل كيان المجتمع الاقتصادي والصناعي ويدك بناءه رأساً على عقب بحيث يتعذر بنيان بناء جديد له . لأن تعميم التعليم لجميع افراد الأمة على أسلوب واحد بحيث يتساوون في المعارف الأولى العمومية ينفر سواد أبناء الطبقة الدنيا من العمل الحقير كالحرث والتنقيب في الأرض والعمل في الصناعات الحقيرة والحرف القذرة ونحو ذلك . ولا يلام ابن العامل الزريء اذا نفر من احتراف حرفة أبيه حين يرى ابن الطبقة الوسطى الذي كان هو يبزه في الدرس والفهم يرزق من حرفة رفيعة أو عمل غير شاق أو أي عمل مكرم . فاذا تساوى الناس في التربية والثقافة الأولى على الأقل فكيف يمكن أن يتساووا في الارتزاق ، ووسائله متفاوتة جداً من حيث العناء والسهولة ، ومن حيث الرفعة والضعة . (بسبب اختراع الآلات قلت الأعمال القذرة) .

ان روح الترفع والاستعلاء من قبل الموسرين على طبقة العمال ذوي الحرف الوضيعة أو الشاقة هي جرثومة مرضية خبيثة تسمم الحياة الاجتماعية . ولكنها بفضل استقواء روح الديموقراطية أخذت تضعف رويداً . وقد تكسرت شوكة الاريستوقراطيين الذين كانوا يترفعون على الطبقات الأخرى بدعوى شرف المحتد ونبل الأسرة ونحو ذلك . وأصبحت القيمة اليوم للشخصية نفسها لا بعرق السلالة . والمرء يعتبر ويحترم اليوم لأجل شرف نفسه وقيمة شخصيته لا لأجل شرف أسرته وسلالته حتى غناه وثروته .

والتعليم العام الذي توخيناه آنفاً لجميع الأمم انما هو التعليم الذي يقتل روح الصلف والكبرياء والعجرفة والعنجهية والاستعلاء وازدراء الحرف الوضيعة والمهن الشاقة ونحو ذلك ، وينشط روح حب العمل مهما كان نوعه لاعتبار ان كل ضرب من ضروب العمل انما هو لازم بل هو شديد اللزوم لحياة المجتمع . فلا تعتبر كناسة الشوارع ونقل الزبالة منها أحقر المهن ، بل هي شريفة كسائر الأعمال لأنها ألزم للصحة العمومية وأفيد لها من

تجارة الورد وزراعة الزهر مثلاً . لا تستطيع العين أن ترتفع على القدم، لأنها بلا القدم لا تستطيع أن ترى الا دائرة ضيقة من المكان الواسع

رأينا هذه الروح الديموقراطية في الولايات المتحدة الأميركية حيث التعليم عام . وقد حصل كل فرد على قسط منه . رأينا الفلاح الذي يعمل في الأرض والفاعل والعامل في المنجم والصانع في المصنع الخ كلهم على شيء من المعرفة والثقافة والنظافة، وما رأينا واحد منهم يخجل بصناعته أو حرفته ، ولا رأينا واحداً يجسر أن يزدري أحداً منهم ، أو يترفع عليه لأنه أكثر منه معرفة وأوفر ثروة

واذا كانوا جميعاً على اختلاف أصنافهم أو طبقاتهم إذا شئت في أي محل عمومي فلا تستطيع أن تميز بين غنيهم وفقيرهم ، ولا بين موظفهم وزبائنهم ، ولا بين مدير معمل وعامل ، لأنهم جميعاً في زي واحد وهندام واحد ونظافة واحدة وسلوك محمود ورقة واحدة . ذلك لأن التعليم المنتشر هناك ساوى بينهم

٨ — الديموقراطية الادبية

إلى هنا نحن في جانب التفاؤل ، ولا غرو أن يحسب بعض القراء هذه الأماني التي نتوقعها للمجتمع الانساني انما هي خيالات أو أحلام جميلة ولكنها من الوجهة العملية تدعو للتشاؤم . لماذا ؟ — لأننا في جميع هذه المباحث كنا نفرض ان لجميع الناس ارادة حسنة ونيات صالحة وغايات حميدة ، وبعبارة أخرى ان قصد الخير العام عندهم غالب على قصد الشر ، وان الفضيلة في يقينهم راجحة على الرذيلة . ولكن بكل أسف ان المشاهد من تصرفات الناس على العموم يدل على الضد . ومجمل القول ان اتجاه المجتمع الى هذه الحياة المشتركة (الديموقراطية) يستلزم أن تكون الاخلاق على العموم راقية نبيلة متينة . والظاهر لنا أن العالم على الرغم من رقيه العقلي والعرفاني وما اليهما لم يزل منحطاً من الجهة الأخلاقية

هذا التشاؤم في محله بكل أسف . وضعف الأخلاق يقوم عقبة كؤوداً في طريق الديموقراطية العامة الاجتماعية . ولكن تذليل هذه العقبة غير مستحيل . والعقل البشري

الذي بلغ الى هذا الحد العجيب في الرقي لا يعجز عن ان يؤثر في العقل الاجتماعي ويقنعهُ بأن تقويم الأخلاق العامة ضروري لسلامتهِ وصحته ومتانة بنيتهِ . ففي الطبيعة عاملان يدفعان المجتمع في طريق الرقي الأخلاقي هذا : —

الأول ، ان المصلحة المشتركة والمنافع المتبادلة تقضي على الأفراد وعلى الجماعات أن يحسنوا السلوك والمعاملة على قاعدة العدل والحق والانصاف ، والا فالعواقب وخيمة على الجميع بلا استثناء . الاختبار والحكمة يعلمانهم أن هذا السلوك القويم أفضل لهم وأربح وأضمن لسلامتهم ونفعهم . فهذا العامل الاجتماعي البحت يدفع الأفراد والجماعات في هذا السبيل

الثاني ، ان هذا العامل الذي قدمناه انشأ ، ولا يزال ينشيء ، على توالي الزمن ، نزعة غريزية في الانسان أو في النوع الانساني على الاطلاق الى « العمل الانساني » — الى « حب الانسانية » . وما نسميه فضيلة انما هو « روح الانسانية » هذه

بناء على هذين العاملين نرى بمضاهاة أخلاق الأجيال الأخيرة بالأجيال القديمة أن روح الانسانية أصبحت أرقى ، والعطف الانساني صار أرق . القضاء يميل مع المتهم كأنه يريد له البراءة . والحكم القضائي لم يعد للانتقام بل للتأديب والعظة ، وجمعيات المؤاساة والمستشفيات والملاجيء وما اليها -- كل هذه أعمال انسانية لم يكن منها شيء في القديم . وهي تبشر بأن روح الفضيلة أصبحت أرقى من قبل

واذا صحّ هذا الحساب فلا بد أن يكون عدد فضلاء المجتمع أكثر جداً مما كان في قديم الزمان . فهؤلاء هم الخير في كل جيل لتخمير المجتمع بخميرة الفضيلة . وعلى هؤلاء واجب التخمير

فاذا كنا نعتد بهذه الاعتبارات الآنفة فلا نتشاءم ، بل بالأحرى نتفاءل بأن مستقبل الديموقراطية سيكون مجيداً

وقد تسأل : متى ؟

الجواب : هذا سرٌّ في صدر الزمان ، وفي علم الله عالم الغيب

الفصل التاسع

مستقبل الديموقراطية

---

١ - التطورات المنتظرة

١ — سن الديموقراطية العامة — سن المراهقة

لابدّ أن لاحظ القارىء أن روح الديموقراطية واحد لاثاني له، وأن المجتمع الانساني جسمٌ حيٌّ واحد أيضاً . فتلك الروح تسري في هذا الجسم فتنشط حركة الحياة في اجزائه واعضائه جميعاً . فلا تنضج الديموقراطية في نظام واحد من أنظمة المجتمع ثم تنشأ فتنضج في نظام آخر في حين آخر . بل هي ناشئة في جميع أنظمته . ويتم نضجها في جميعها معاً . وان سابق بعضها بعضاً في الطريق . نعم اننا رأيناها نامية ناجحة في النظام السياسي قبل أن تظهر في النظام الاقتصادي، ولكنها لاتنضج هناك قبل أن تنضج هنا . وكذلك لايتم نضجها في النظامين السياسي والاقتصادي قبل أن يتم في النظام الدولي أيضاً . أجل انها متقدمة في السياسة ،ومتحفزة في الاقتصاد ومتهيئة في الدولية . ولكنها لا تستتب في كل ناحية من نواحي المجتمع على حدة ، بل تستتب في جميع نواحيه في عهدٍ واحد

لا ندري متى تنضج النضج التام . وانما نعتقد انها الآن في بدء سن المراهقة أو اليفع، لأن جميع عناصر المجتمع البشري اصبحت مدركة هذه الروح ، أي ان العقلية الاجتماعية صارت فاهمة نفسها . فقد لا يمضي القرن هذا حتى تكون الأمم قد استوت في رحبة النظام الديموقراطي العام . وهنا يقوم في وجهنا هذا السؤال ؟ كيف يكون ذلك ؟ وكيف يمكن أن يكون المجتمع حينئذٍ ؟

٢ — الديموقراطية البحتة لامركزية

نفرض أن الهيئة الاجتماعية الانسانية تخلقت في بعض الأجيال القادمة بالخلق الديموقراطي حتى أصبح طبيعة فيها . يعني أن معظم ناسها أصبحوا متجانسين في جميع

الخواص الانسانية : في العقلية والمعرفة والعادات والعقائد الخ بحيث لم يبق سبب للتنافر بينهم . وصاروا يفهمون أن سنة التعاون إنما هي سنة الاجتماع، كما أن الجاذبية سنة الهيولى، وأن هذه السنة توفقهم جميعاً في نظام واحد شامل .

حينئذٍ ترى أن الحكم النيابي الصرف عمّ جميع الأمم المتحضرة بلا استثناء، وتوزع في جميع اداراتها على مبدأ اللامركزية، فيكون للبلد مجلس بلدي ينظر في شؤونه الخاصة . ويكون فوقه مجلس اقليمي نيابي ينظر في شؤون الاقليم الخاصة به . وللمديرية مجلس آخر أعلى ينظر في شؤون الأقاليم العامة . وفوق الجميع مجلس نواب الأمة كما نعرفه الآن بوظائفه .

يسمى هذا النظام لامركزياً لأن الادارات المحلية لا تتصل رأساً بادارة الحكومة العليا ، بل تتصل كل ادارة بالمجلس النيابي الذي يسيطر عليها . وللادارة العليا الاشراف العام وهي المرجع النهائي ، فيما لا يمكن اقراره في الادارات التي دونها .

من أمثلة هذا النظام اللامركزي الآن نظام الولايات المتحدة الأميركية . ولا يخفى مافيه من المزايا أهمها اثنتان : —

الأولى : التوسع في الحرية . فقد تسن ولاية قانوناً أو تدبر تدبيراً لا يوافق ولايات أخرى . فلماذا تتقيد الولايات الأخرى به ؟ لهذا ترى في الولايات المتحدة قوانين كلية وقوانين جزئية . وقوانين أولية عامة وقوانين ثانوية خاصة ، مختلفة باختلاف الولايات .

الثانية : في هذا النظام اللامركزي يقل جداً تعقد الأشغال والأعمال . ويتم نجازها بأسرع ما يمكن ، إذ لا يجب تداخل الهيئات العليا العامة فيها . ولا يقتضي استصدار الأمر بها من تلك الهيئات . ولا يخفى أيضاً أن هذا النظام اللامركزي الذي يعتمد به على الهيئات المباشرة يستلزم متانة اخلاق ونزاهة نفوس ومقدرة عقلية في تصريف الأمور وتحليل العقد، ونحن فرضنا أن المجتمع نضج أخلاقاً وآداباً .

وحينئذٍ لا يبقى للسلطة الفردية المطلقة لا أثر ولا عين . بالأولى لا يبقى ظل للدكتاتورية بتاتاً . يخيل لنا الحكم حينئذٍ نيابياً محضاً لا تشوبه شائبة .

في هذه الحالة لا يمكن أن يبقى للرأسمالية شأن البتة . بل تبيد أو تضمحل اضمحلالاً

تامًّا لأن المجالس النيابية في جميع الأمم تجهل بطبيعة أمانيها ورغائبها الديموقراطية البحتة أساساً للنظام الاقتصادي ، أي انها تقرر النظام الاشتراكي الأول،أي النظام الموجب أن توزع المكافئات على قدر الاستحقاقات كما يبتغي الاشتراكيون المعتدلون ، وليس بالتساوي كما يبتغي المتطرفون .

٣ — نوعي الاشتراكية

ولعلَّ القارىء لا يعلم الفرق بين هذين النوعين من الاشتراكية فنفسرها فيما يلي بقدر ما يسع المقام .

الاشتراكية على العموم توجب أن تكون جميع أسباب الرزق بيد حكومة الأمة التي يسيطر عليها مجلس نوابها . وهذه الحكومة تعتبر مديرة جميع مصادر الانتاج على الاطلاق من زراعية وصناعيــة وادارية الخ ، وأن يكون جميع رجال الأمة موظفين أو عمالاً عند الحكومة في هذه الادارات ، بحيث يشغل كل فرد منهم الوظيفة التي هو أهلٌ لها ومُجيد العمل فيها ، بحيث تكون جميــع المنتجات مكافئة لحاجات الأمة الخاصة والعامة. فلا تكون أزيد لـكيلا يُـرهق العاملون بالعمل ، ولا أقل لكيلا يكون أحد في حاجةٍ الى شيء ، ولا يكون مستوى المعيشة منحطًّا .

فالفريق المعتدل من الاشتراكيين يريد أن توزّع الأجور على قدر الأهليات ، وبعبارة أصح على قدر حاجة المجتمع الى نوع عمل العامل أو الموظف . فلا يستوي الوزير والمدير والزارع والصــانع الخ في الأجر أو المكافأة بل يتفاوتون كتفاوتهم في الكفاءة وقيمة العمل الذي يعمله كلٌّ منهم والذي تحتاج إليه الأمة .

والفريق المتطرف يريد أن توزّع المكافآت أو الأجور على جميع الأفراد بالتساوي بلا فرق بين وزير ومدير ، صانع وزارع وعامل وأجير الخ بدعوى أن عمل كل عامل مهما كان نوعه أو مهما تراءى حقيراً أو شريفاً انما هو لازم لحياة المجتمع ، فعمل الزبّال مهم لحياة الأمة وصحتها كعمل المدير والوزير . ولذلك يجب أن يتمتع مثلهما .

ولـكن هذا الرأي لا يصادف في أول الأمر قبولاً عامًّا لاعتبارات عديدة ، بعضها

تكون سديدة الى حين ، وبعضها غير سديدة بتاتاً ، وربما كان بعضها سديداً دائماً . فلا نتطرف في هذا الحديث هنا لأنه من خصائص البحث في الاشتراكية . وما هي موضوع كتابنا الخاص .

وحاصل القول ان رأي الفريق الأول هو الذي يكون أرجح لأنه لا يبعد جدًّا عن المألوف في النظام الحالي ؛ وهو الخطوة التي لا بدّ منها الى الرأي الآخر

٤ — التمتع العام

إذا استتبَّ هذا النظام الاقتصادي تماماً طبقاً للنظرية الاشتراكية التي أوجزنا بيانها آنفاً فبالطبع توفي الادارة الحكومية الخدم العامة حقها من الاهتمام والعناية . فالتربية والثقافة تأخذان القسط الأوفر منها بحيث لا يفوت الناشئة منها شيء . ولا بدّ أن تكون طبقاً للبرنامج الدولي العام الذي تتفق عليه المؤتمرات الأممية جمعاء .

وكذلك لا تقصر الادارة الحكومية في توفير جميع وسائل الراحة والصحة للجمهور في السكن والسفر ودوائر العمل . ولا تتوانى أيضاً في توفير وسائل اللهو والمسرات على اختلاف أنواعها .

إذن حينئذٍ يمكن أن يعيش جميع الناس بلا استثناء في طبقة واحدة ليست حقيرة ولا وضيعة ولا فقيرة ، بل طبقة موسرة تعيش كما تعيش الطبقة الوسطى الآن أو أفضل . ويمكن أن تعيش عيشة الطبقة الغنية أيضاً إذ لا مانع يمنع ذلك ما دامت هناك عقول وعضلات تعمل ، وما دامت الآلات العملية المخففة معظم المشقة عن عاتق العضل مسرعة في الانجاز ومتدفقة في الانتاج .

نعم ذلك ممكن جدًّا لأن المتموّل الذي كان يتمتع على حساب العامل ويحول دون تمتعه بنتاج عمله، ويخزن نتاج العمال في خزانته بلا شبع ولا قناعة، يزول من ذلك المجتمع الجديد بتاتاً ولا يبقى إلاّ ذكره البغيض في أوراق التاريخ . ويحل محله جميع الناس في رحبة التمتع .

في ذلك العصر الزاهر الذي تطلق فيه النفوس الحرّة من عقالها ، وتسرح فيه العقول الثاقبة في مسارح تفكيرها ، وتنطلق طيور النبوغ من اقفاصها، يبرز الى مضمار المناقشة في

التفكير العلمي والفلسفي، والى الابداع الفني كل عبقري كان لولا هذا النظام الديموقراطي الحر يبقى مخمد الأنفاس تحت وطأة النظام الرأسمالي الجائر الى أن ينطفىء مصباح عبقريته من غير أن يشع ضوؤه

٥ — تحرر النبوغ

وبعض قصار النظر يعترضون بأن هذا النظام الديموقراطي العام يقتل النبوغ والعبقرية، لأن ذا الموهبة متى علم أن مرتزقه أصبح مضموناً له فلا يستكد قريحته ولا يعنت ذهنه لا في تفكير عملي ولا فني ولا اختراعي .

وقد سها هؤلاء عن حقيقة ناصعة عكس النظرية السخيفة التي يزعمونها . وهي أن جميع الاكتشافات العلمية والبدائع الفنية والاختراعات العجيبة لم تصدر من الأفراد ذوي المطامع الجشعة . وانما صدرت فيما مضى من أفراد نبغوا من الطبقة الدنيا واندفعوا في تيار تفكيراتهم وتجاربهم العلمية والفنية غير متوخين من ورائها سوى اللذة النفسية . فهذه اللذة لا المطمع المالي ، كانت حافزة لهم على التفكير والابداع والاختراع . ولو لم تكن هذه اللذة هي الحافزة لكان اديسون أجدر من كل واحد من النـاس بالغنى الطائل الذي يحرزه الآن أفراد يستثمرون اختراعاته،وهم ليسوا على شيء من عبقريته ولا عبقرية أخرى سوى عبقرية عبادة المال .

والغريب أن أولئك الرأسماليين الذين استثمروا عبقريات العباقرة هم أقسى الناس على هؤلاء العباقرة . مثلاً لما مات مخترع السنما منذ بضع سنين نعته التلغرافات بسطر واحد مفاده : « مات فلان مخترع السنما كأفقر فقير على الأرض » . وبالطبع لم يعلم بخبر فقره ملوك السنما والإخراج السنمائي الذين كانوا يستغلون اختراعه . وهـذه الغرابة التي نحن بصددها تدلك على أن الرأسمالية التي نعبر عنها بعبارة إلـه المـال انما هي تفكير تاريخي متحجر Fossil لاروح فيه ولا عاطفـة انسانية . لذلك خلا الرأسماليون من الاحساس الاجتماعي الذي يشعر بفضل ذي الفضل على المجتمع عموماً وعلى مستغلي فضله خصوصاً .لذلك متى بادت الرأسمالية من الوجود يبرز النابغ والعبقري الى الوجود الحق ، ويعرفه قومه وتكافئه امته في مقابل استغلالها نتـاج عبقريته . حينئذٍ لا يموت مخترع السنما فقيراً بل سعيداً شبعاناً

من التمتع بثمرة عمله . ولا يعيش الفنان والأديب والعالم متقشفاً رغم أنفه . حينئذ ينبري كل ذي مزية عقلية أو موهبة للعمل بمقتضى موهبته لأنه يرى المجال أمامه رحيباً للعمل بلا معارضة ولا مضايقة ، ولأنه يعلم انه سينال جزاء نجاحه وافراً

٦ — شأن الحرية والمساواة

وهنا نسأل ماذا يكون شأن « الحرية والمساواة » حينئذ اذا كان الناس متساوين في الحرية بمقتضى هذا النظام الذي يتراءى لنا سعيداً . أيمكن أن تكون الحرية واسعة اذا كان الناس جميعاً متساوين فيها وهم بالوقت نفسه مقيدون قيوداً عديدة جدًّا بهذه الشركة الاجتماعية، وكل منهم محصور في دائرة حرفته الضيقة، وتمتعهُ متوقف على عمل غيره أكثر منه على عمله نفسه، لأنه ينتج صنفاً واحداً من الانتاج ، ولكنه يتمتع بجميع أصناف منتجات غيره ؟

أجل أن الحرية لاتكون مطلقة بل لابد أن تكون ضيقة الدوائر للسبب الذي أوجزناه هنا . ولكن مهما كانت ضيقة فهي أوسع منها للعامي وهو تحت ظل هذا النظام الحاضر . الحرية الآن واسعة لطبقة رقيقة من الناس — طبقة الأعيان والموسرين . فهم يتمتعون كثيراً بحريتهم حتى انهم يتمتعون بالتمرُّد على القانون أو بالتخلص منه . ولكن العامة هم المضغوط عليهم في دائرة الحرية الضيقة ضغطاً شديداً . فلا مساواة الآن في الحرية لأنها واسعة للأعيان ضيقة جدًّا للعامة . ولكي تظهر هذه الحقيقة جيداً نضرب لها أمثالاً

السري أو المثري — ونعبر عنها بالقوي كما نعبر عن العامي الفقير بالضعيف — القوي يقاضي الضعيف ويفوز عليه لأنه ذو مال يستأجر به محامياً قديراً . والضعيف معدم فلا يدافع عنه الا المحامي المسخَّر . والحكم غالباً لدفاع الاقوى

قد تقتل سيارة القوي مصادفة شخصاً قضاء وقدراً أو لسوء تصرف من قبل سائقها أو من قبل الشخص القتيل أو كليهما معاً، فيحكم القضاء على السائق الضعيف بعقاب ويحكم على صاحب السيارة بتعويض. ولكن صاحب السيارة نفسه ينجو بنفسه وبسيارته لأن شركة الضمانات تدفع التعويض، والسائق يسجن .

يتمتع القوي بأبهة صرحهِ . ولا يتسنى للعامل الذي حمل حجارته على عاتقيه أن يقف في بابهِ لحظة . وقد يطرد منه مخزيًا

يتمتع القوي بالملاهي المتنوعة والضعيف لا يتمتع بسوى سماع الحديث عنها مع أنها قامت بعملهِ وعمل زملائه

معاهد الثقافة الراقية مفتوحة الأبواب لابن القوي وموصدة في وجه ابن الضعيف، لأن هذا لا يستطيع أن يدفع النفقات وذاك يستطيع

الامتيازات العديدة ممنوحة بسخاء لذوي المراتب والمعالي الخ ومحرّمة على العوام

وأنكى من كل ذلك ، الفضل والمجد والفخر للقوي في حين يمرح في مقاصف اللهو والدعارة . ولكن الخزي والحقارة للعامي على الرغم من مبالغتهِ في الحرص على سمعتهِ

أظن في هذا القدر من الأمثلة كفاية

فمهما كانت دائرة الحرية في العصر الديموقراطي السعيد ضيقة فهي للعامي أوسع منها الآن . ومهما ضاقت بسبب تعقد النظام فهي محتملة ما دام الجميع يستوون فيها

واذا كان تضيّق دائرة الحرية ييسر للجميع الرزق بحيث لا يقلق احدٌ على نفسهِ وعلى رزق أسرته في غدهِ ، فلا يكون ضيق الحرية هذا مزعجاً له . بل لا يشعر هو بضيق دائرة حريته . واذا ولد فيها تعوّدها من غير أن يشعر بضغطها ، بل يتهيأ لها . ومهما كانت الحرية ضيقة فهي أوسع جدًّا من حرية العبد والرقيق والأسير والمحظية في الأجيال الماضية.

ومع ضيق هذه كان العبد يحزن حين يعتق لأنه كان يجد في الحرية حيرة له في ارتزاقه

لا غرو أن تتضيق الحرية الشخصية كثيراً بسبب تعقد النظام ، ولا سيما في المستقبل حين تزداد جدًّا عوامل الحياة ومشتهياتها وتتنوع فيها الأعمال والتمتعات . فالتنظيم يقتضي حتماً تقييد الحرية. فقد يمكن أن يكون الناس في المستقبل البعيد كالجنود في نظام الجندية. ولكنهم مع ذلك يشعرون أنهم سعداء، لأنهم يكونون كجنود مدللين جدًّا موفورة لهم جميع المسرات والملذات.

وحاصل القول أن ما يخسره الناس من سعة الحرية في المستقبل يعوضونه مساواة . فما أسعد وأهنأ المساواة في الحرية مهما كانت ضيقة ؟

ب - الاشتراكية الدولية

١ — اضطرار الامم للتقايض

في ظني أن الاشتراكية الأهلية ، في الوطن الواحد ، لا تستتب تمام الاستتباب ما لم تصبح الاشتراكية دولية أيضاً. أي ان جميع الممالك ، وقد صارت كلها اشتراكية ، تؤلف اشتراكية دولية على نفس المبدأ الاشتراكي الأهلي ، تكون فيها جميع الأمم متعاونة (متكافلة)، كما أن الأفراد في الأمة الواحدة متعاونون متكافلون .

ورب قارىء يستغرب أمر هذه الاشتراكية الدولية ، ويستغرب بالأحرى أن تكون لازمة ضرورية ، والا فلا تقوم قائمة للنظام الاشتراكي الأهلي . فنبسط له شكل المعاملة الدولية الذي يستوجب ذلك .

الى الآن لا يمكن أن تستغني دولة عن معظم منتجات الدول الأخرى ، كما انها تحتاج الى أسواق الدول الأخرى لترويج منتجاتها ، لأنه معلوم جيداً أن كل أمة مختصة بأصناف معينة من الانتاجات الزراعية والصناعية والخامية Raw Material وبقية الأصناف ليست من نتاجها وهي أضعاف أضعاف أصنافها . فهي مضطرة أن تنتج أكثر من حاجة استهلاكها كثيراً ، لكي تقايض بالمعاملة غير المباشرة بمنتجات غيرها التي ليست عندها . ومهما حاولت بعض الدول « بمشروع الخمس سنين أو العشر سنين » ، كما كانت تفعل روسيا وألمانيا أن تنتج جميع الأصناف لكي تستغني عن معاملة سواها فلا تنجح الآ الى حد . وستبقى في حاجة الى منتجات غيرها وأسواق غيرها ولو لأجل المواد « الخام » . ولا نرى موجباً لهذا الجهاد في الاستغناء عن المعاملة الدولية ، بل نراه عنتاً وحماقة وتحريضاً على تجافي الأمم . فمن كل ناحية وبكل معنى نرى أنه يجب أن تكون أنواع الانتاج موزعة على الأمم بحسب اختصاص كل منهما . وهذا الاختصاص متوقف على الأهلية والكفاءة بحيث يكون الانتاج أقل كلفة وأجود . ففي هذه الحالة يكون الانتاج العالمي العام أوفر مقداراً وأسرع تناولاً وأجود صنعة وأقل كلفة . وبالتالي أقل ثمناً . فلماذا لا يقايض سكر

مصر مثلاً بزيت زيتون سوريا . ولماذا تستغني سوريا نفسها باستغلال السكر من أرضها وهو يكلفها أكثر جداً مما يكلف مصر نفقته مثلاً ؟ وكذلك لماذا تكلف مصر نفسها باستغلال الزيتون من أرضها وهي لا تغله أو تغله غير جيد وبكلفة عظيمة ؟ ألكي تستغني كل منها عن الأخرى تتحمل هذا العنت التعسفي ؟ ولماذا هذا الاستغناء المجاني إذا كانت المعاملة الودية أفضل منه للاسباب الآنفة ؟

ذكرنا مصر وسوريا في هذا الموضوع كمثل صغير بين ينطبق على علائق الأمم بلا استثناء ، لكي نثبت أن الأمم لا تستغني عن علائق بعضها مع بعض ، لأنه ليس من الحكمة الاقتصادية أن تحاول كل أمة أن تنتج لنفسها كل شيء بغية الاستغناء عن مقايضة غيرها ، ولاسيما لأنه يستحيل على أية أمة هذا الاستغناء على اطلاقه مهما حاولته

٢ — توزيع موارد الانتاج على الامم بقدر الاستهلاك

بناء على استحالة هذا الاستغناء لا بدّ من إقامة العلائق الأممية الاقتصادية على قاعدة الاشتراكية الدولية لكي يتوازن الانتاج والاستهلاك في جميع الأمم ، ولا تتعرض العلائق المذكورة للاضطراب والتقلقل والتذبذب المزعج ، لأنه باضطرابها يتقلقل التوازن الاقتصادي الأهلي أيضاً ويحدث أزمات مالية في كل بلد ، ويخيب آمال العامة المستبشرين بالخير واليسر في عهد النظام الديموقراطي .

بحكم الاشتراكية الدولية يجب أن تؤلف لجنة اقتصادية خاصة في مجلس نواب الدول (جمعية الأمم الجديدة) وظيفتها الدرس الدقيق التفصيلي لجميع أصناف منتجات الأمم ، ولمقادير ما تستهلكه منها كل أمة كل عام . ثم يجعل الانتاج مساوياً لمقدار الاستهلاك أو يزيد عنه قليلاً ، ويفرض على كل أمة انتاج القدر المناسب لها ، ويحظر عليها أن تزيد عليه لئلا تتخم السوق به . وينفذ هذا الحظر بمنعها من تصدير أكثر مما يطلب منها . وبالطبع يراعى في فرض الانتاج على الأمم على هذا النحو أن تكون جميع منتجاتها الصادرة معادلة لجميع استهلاكاتها الواردة لكيلا تكون في حاجة الى شيء من ناحية ولا تكون منتجاتها كاسدة من ناحية أخرى .

على هذا النحو يتعادل جهاد الأمم في تحصيل الأرزاق كما يتعادل تمتعهم بثمار جهادهم

أيضاً . على هـذا النحو يتلافى الاضطراب الاقتصادي الذي تشكو منـه الأمم الآن ولا نعرف كيف تتلافاه. لا يعود يجوز لأميركا مثلاً أن تنتج من القطن ملايين القناطير فتغرق السوق بها ويكسدالقطن المصري كساداً مفقراً، لأن سعره يهبط حينئذٍ فلا يعود يساوي أكلافه . ولا تضطر أميركا أن تحرق مقادير كبيرة من القطن لكي ترفع السعر . ولا تضطر الحكومة المصرية أن تشتري قسماً من قطن فلاحيها لكي ترفع السعر . أعني لا يضطر مخرّفو الاقتصاديات أن يستنبطوا مثل هذه العلاجات السخيفة لكي يتلافوا الأزمة الحرجة وهي من قبيل « وداوني بالتي كانت هي الداء » . ولا يذهب جهاد الزرّاع والعمال عبثاً . ولا يستغل الرأسماليون هذا الجهاد حين يعمى المنتجون في انتاجهم من غير حساب ومن غير امكان الحساب، لأنه ليست ثمت هيئة مكلفة بعمل الحساب . يتلافى كل هـذا الحمق في الانتاج بلا حساب بأن يفرض على مصر مثلاً أن تنتج في العام كذا من القطن ، ويفرض على أميركا انتاج كذا وعلى الهند كذا الخ . على كل بنسبة سعة أرضها لزراعة القطن وبقدر استعداد زرّاعها . تفرض زراعته هكذا بحيث يكون مجموع حاصلات القطن معادلاً لمجموع مستهلكات الأمم منه .

يفعل كذلك في كل صنف من أصناف الانتاج بحيث يتيسر لكل أمة أن تصرّف منتجاتها وتستوفي جميع مستهلكاتها . وبهذا التدبير لا تصاب أمة من الأمم بأزمة ولا بمجاعة لشيء من حاجيات الحياة ، ولا ينقص شيء من هناءتها وسعادتها .

٣ — التوادّ الأممي

تتوسع هـذه اللجنة الاقتصادية في عملها لأن وظيفتها أعظم وأهم وظائف المجلس النيابي الدولي . تتخذ في عهدتها تدبير الأساليب السهلة لتبادل المنتجات وتعيين الأسعار ومنع الغبن واستدراك كساد أي نوع من السلع من أية جهة يرد ، وتدارك اصداره من أية بلاد تحتاج إليـه الى غير ذلك من الشؤون التي لا يمكن التفكير السديد بهـا قبل الوصول إليها .

واذا توصلت الأمم الى درجة من التوادّ والاخاء تشـابه توادّ الأفراد اليوم في جماعة واحدة راقيـة ، وكان العمل الانساني بين الأمم موموقاً كما هو مومق الآن بين أفراد

أسرة واحدة أو قوم واحد ، فلا تعود أمة من الأمم تعاني آلام نكبة كجدب أو محل أو زلزال أو وباء ، أو أي طارىء غير محسوب حسابه ، لأن جميع الأمم تنبري حينئذ لاعانة الأمة المنكوبة عن طيب خاطر .

هذا أهم مظهر من مظاهر الاشتراكية الدولية المبتغاة والتي كانت تحلم بها العقول المفكرة البعيدة النظر . فاذا لم تستتب هذه الاشتراكية العامة فالاشتراكية الخاصة لكل أمة على حدة لا تحقق آمال أهلها ، لأنه ليس في مقدور أية أمة وحدها أن تتلافى ضرر الاضطراب الاقتصادي الذي تبسطنا به آنفاً مهما مهرت في اقتصادياتها . وأما مشروع الخمس سنين المزدوج (أعني ٥ وبعدها ٥ أخرى) الذي توخته روسيا البلشفية لاستيفاء جميع الصناعات بغية أن تستغني عن معاملة جميع الأمم ، ومشروع الخمس سنين الذي قرره هتلر وحذا به حذو روسيا اخيراً — كل مشروع كهذا ، فلا يقضي وطراً كما سبقنا شرحه . فما هو الا سخافة ليس وراءها الا توسيع شقة الجفاء بين الأمم

ج - التنازع الاممي

١ — تمجيد الحرب

وماذا يكون من أمر الحرب حينئذ ؟

يالله ! أبعد أن تبلغ الأمم الى هذه الدرجة من الاخاء والمساواة يبقى عقل للتفكير بالحرب ؟ قد تقول : لا مندوحة من تذمر بعض الأمم من سوء معاملة الأمم الأخرى لها ، أو سوء معاملة بعضها ، أو من محاباة جمعية الأمم ، أو مجلس الأمن ، أو لا مندحة من طموح أمة أكثر من أخرى ، أو من طمع هذه بتلك كما يحدث الآن بين الأفراد . أو قد لا يمكن أن تعتقد جميع الأمم أنها واقفة بعضها بازاء بعض على قدم المساواة . وحينئذ يحتمل أن تتمرد القوية أو تثور أو تغتصب حق غيرها بالقوة . وكل هذه الأحوال يمكن أن تفضي الى شبوب حرب أو حروب

نقول أننا اذا فرضنا أن الديموقراطية نضجت نضوجها التام في السياسة والاقتصاد وفي النظام الدولي العام ، لأن السلطة العليا أصبحت مستمدة من الأفراد وأصبح لكل فرد

حق الرأي مباشرةً أو بواسطة النائب ، وحق الارادة ، وحق التنفيذ ، وليس لفرد وسيلة للاستبداد، وليس لنفعي سبيل الى التهييج واثارة العوام ،وهو معلوم أن كل فرد على حدة يكره الحرب ويفضل السلم فاذا كان جميع الأفراد في كل العالم قد تشبعوا بهذه الروح فلك أن تقول اذاً أن الأمم تصبح حينئذٍ خاضعة بكل طيب خاطر لسلطة دولية عليا مسلحة ، وكل دولة مجردة من أسلحتها. فحكم كل أمة على حدة حينئذٍ لدى دولة الأمم العليا كحكم كل فرد الآن لدى حكومته ، ترغمه وتعاقبه وتقتص منه اذا تمرّد وخالف القانون أو عصى سلطة الدولة . وهكذا دولة الأمم ترغم كل أمة متمردة وتعاقبها وتقتص منها

قد يمكن أن تحدث ثورة دولية كما تحدث الآن ثورة أهلية. وانما هذا الامكان يكون أضعف جدًّا حينئذٍ منه الآن ، لأن عوامل الحرب الحالية تبيد في ذلك الزمن. تلك العوامل الرأسمالية التي هي علة جميع شرور الزمن الحاضر تنقرض انقراضاً مطلقاً وتترك العالم الاجتماعي المتضامن في أمنه وسلمه الطبيعيين . لأن أهم أسباب نزاع الأمم الرئيسية تزول بزوال تلك الرأسمالية الطاغية . فالخوف من الثورات الدولية حينئذٍ يكون أقل جدًّا من خوف الثورات الأهلية الحالية التي يثيرها شيطان المال

٢ — يستقيم الاستعمار

بقي أمر لا يمكن اغفاله في هذا الفصل وهو من جوهريات الحياة الديموقراطية العامة، يتعذر جدًّا تصوُّر جميع الآدميين على الاطلاق في درجة واحدة من الرقي العقلي والخلقي والاجتماعي مهما وفرت وسائل الترقية . لأن بين القبائل المنحطة كزنوج افريقيا مثلاً والأمم الراقية بوناً شاسعاً في العقلية وفي الاستعداد الفكري لقبول المعرفة وللتجرد من العقائد الخرافية . فلا ينتظر قط أن يبلغ الزنجي أو الأفريقي أو الاسكيمو مثلاً الى درجة الأبيض السامي أو الآري في قرن أو بضعة قرون مهما وفرت له وسائل التربيــة والتعليم . فلا بد من مرور زمن طويل جدًّا الى أن تتحسن عقليته . وقد لا تتحسن الا بالامتزاج النسلي من الأمم الراقية . وعلى الرغم من ذلك تبقى هذه الأمم سابقة له ، لأنها لا تقف عند حدها الحالي من الرقي صابرة الى أن يلحقها ذلك المتقهقر . بل تستمر في رقيها السريع وفي تطورها العقلي العاجل فيبقى البون بين الفريقين عظيماً . وقد يصبح أعظم ، كما هو متعاظم

بين الانسان وأشباه الانسان مثلاً ، لأن الرقي مسارع كتسارع الأجسام الهابطة

فماذا يكون شأن هذه الأقوام المنحطة حينئذٍ ، وهل يحاول المجلس الدولي استعمارها؟ أو يترك لها بلادها وهي تنازع الطبيعة فيها تحت حماية البخت أو القدر ؟

الجواب . ان هذه القبائل بالرغم من تأخرها وانحطاطها العقلي والخلقي والاجتماعي معدودة من بني آدم . فهنّ أخوات جميع الأمم بلا مشاحة . هم آدميون كسائر بني آدم . فلا سبيل لانكار آدميتهم عليهم . وبالتالي لاضمير يستطيع إنكار حقوقهم بالحياة كسائر الأمم . هذا هو أمرهم من حيث أنفسهم، وأما من حيث البلاد التي يسكنون فما هي ملكهم الخاص ، بل هي كسائر بلاد الأرض ملك جميع الأمم الراقية والمنحطة

ولذلك للمجلس الدولي أن يتولى ادارة بلادهم سياسيّاً واقتصاديّاً لكي يستغلها لنفعهم ولنفع جميع الأمم وهم يشتركون مع الأمم في الانتفاع بغلتها كما يشتركون معها في العمل . تديرها « جمعية الدول » رأساً لأنهم هم غير صالحين لادارتها ، وتدربهم على العمل فيها لكي يحصلوا على رزقهم منها وافراً . وحينئذٍ يكونون أسعد حالاً جداً . مما هم الآن تحت السلطات المستعمرة التي لا تعاملهم الآن إلاّ كما يعامل الفلاح ماشيته . وياليت !

وبالطبع تعتبر دولة الدول وصية على هذه القبائل والأقوام باعتبار أنها قاصرة ، وتعاملها بكل عطف وحنان ورفق وتبذل جهدها في ترقيتها وتعليمها وتثقيفها . ومع الوقت تترقى الى أن تليق للاندغام في سائر الأمم وتغرق فيها . وأما الجماعات التي لا تقبل الرقي تنقرض مع الزمان بطبيعة الحال .

يمكن القارىء أن يدرس كيفية معاملة الولايات المتحدة للهنود الأميركان الأصليين. فحكومة واشنطون تعاملهم بكل رفق وعطف . وعلى الرغم من هذا فانهم غير قابلين للترقي، ولذلك هم ينقرضون تدريجيّاً ، ويندغمون قليلاً بالبيض عن طريق الاناث، لأنه يقال ان الحكومة الأميركية تمنح كل أبيض يتزوج هندية مزرعة ذات ١٦٠ فداناً (اكراً) كبائنة له . وبهذه الوسيلة يقل تناسل الذكور منهم ويتحوّل تناسل اناثهم الى خلاسيين ، وتتمحص سلالتهم على تمادي الزمن ، وتذوب في السلائل البيضاء . (١)

في المستقبل البعيد الذي نتخيله ستغرق بعض الأمم المنحطة في الأمم الراقية،

---

(١) يقال ان سكان اوستراليا الاصليين أكثر انحطاطاً من هنود اميركا . ولكن حكومة استراليا تعاملهم بكل عطف ورأفة .

وبعضها ينقرض من أمامها كما تنقرض أشباه الانسان أمام الانسان ، وكما انقرضت حيوانات أمام حيوانات أخرى ظهرت أحيل منها في تنازع البقاء ، والحيلة ضرب من الذكاء كما لا يخفى

اذن في المستقبل البعيد اذا صحت هذه الأحلام ستكون جميع الأمم أمة واحدة تشترك جميعاً في استغلال الأرض وتتقاسم غلالها بالتساوي وتتعادل كلها في المجتمع

٣ – ازدحام السكان

وهنا تلوح للقارىء قضية لا بدّ أن تعترض العالم في مسيره : وهي تزاحم السكان في دائرة العمران ، لأنه لا بدّ أن يتيسر لأهل الأرض أن يستعمروا كل ما يمكن استعماره من الأرض . وسطح الكرة الأرضية محدود كما هو معلوم . وبالتالي جميع نتاج الأرض الممكن محدود أيضاً . ولكن لا حدّ للتوالد . فعلى أقل تقدير يتضاعف عدد السكان كل جيل مرة ، هذا على افتراض أن هناك أوبئة وحروباً تفتك وتبيد جزءاً من المجموع ، وإلا لكانت الزيادة في النسل أكثر . وفي العصر السعيد الذي نحلم به الآن تقل عوامل الفتك والابادة . وبالتالي يكون خصب الجنس البشري أعظم جداً . فاذن لا بدّ أن يكثر الناس على الأرض الى أن يستغرقوا جميع غلاتها مهما مهروا في كيفية الاستغلال . وسيأتي يوم لا تعود الغلات والمنتجات كافية للجنس البشري الخصيب . يمكنك أن تتصوّر جميع المواد الكربوهيدراتية التي على سطح الأرض قد تحوّلت الى أجسام بشرية . فمن أين يأتي البشر حينئذٍ بالغذاء اللازم لهم وهم يتزايدون ؟

منطقيًّا يقف تزايدهم متى لم يبق على سطح الكرة الأرضية مواد كربوهيدراتية تتمثل في أجسام . على أن هذا تمادٍ في التخيل وان كان معقولاً بيد أنه غير مفعول . يجب أن لا يخفى علينا أن سعادة الجنس البشري ليست متوقفة على تكاثر النسل . بل ان تكاثره نتيجة تلك السعادة . هي سبب له لا نتيجة منه . يمكن أن يكون الانسان سعيداً من غير أن يكون خصيباً . لذلك يحدد الانسان النسل بقدر ما تسمح الطبيعة . وتحديد النسل لا ينقص هناءته . وتحديده أصبح بفضل التقدم العلمي ميسوراً

إذن متى امتلأت الأرض بشراً بحيث يستهلكون جميع غلتها فلا يعودون يتكاثرون

سطح الكرة الأرضية يمكن الآن أن يغذي عشرة أضعاف سكانها ، أي ٢٠ الف مليون نسمة ، لو كانوا يحسنون تدبير عمليتي الاستغلال والاستهلاك

بفضل الديموقراطية الصحيحة يستطيعون

٤ — زوال التنازع

اذا تمادينا في تصور ارتقاء الانسان في سلم الديموقراطية تصورنا أدبيته، أو ان أدبه النفسي Ethics يرتقي معه أيضاً . فماذا يكون شأنه اذا دنا جداً الى حد الكمال من هذا القبيل

فلنتصور أن جميع النكبات الناجمة عن الرأسمالية زالت من الوجود ، ولم يبقَ الا عقل الانسان وعضله والطبيعة مغمورات بنور الحرية والمساواة ، وأصبح كل فرد مطمئناً على رزقه وعلى تمتعه بكل متمات الحياة التي توصل اليها العقل العلمي ، وكذلك على رزق ذويه وتمتعهم ، وعنده من النشاط الصحي ما يحفزه للعمل بلا عناء بل برغبته . فتصور الانسان أصبح في هذه الحالة المعيشية . فهل يبقى ثمت داعٍ للصدام بينه وبين رفاقه ؟ انه كغيره حاصل على كل ما يرغب . فهل يبقى سبب للحسد ؟ أو هل يبقى موجب لأن يسرق أو يغتصب أو يكذب أو يقتل ؟

لعمري في هذه الحالة تقل الحاجة الى وصايا الله العشر أو لا يبقى لها لزوم. لأننا نتصوّر حينذاك أخلاق الناس دمثة ، ونفوسهم رضيّة ، وقلوبهم نقية ونياتهم طيبة ، نتصورهم مقاربين للملائكة والقديسين . حينئذٍ تقل الحاجة الى الشرطة والقضاء حتى الى القانون . ولا تبقى حاجة الا الى الادارة العامة ، ادارة الأعمال التي يشترك فيها الجمهور بكل رضى ويخضعون لها عن طيب خاطر

حينئذٍ يتلاشى التنازع تدريجاً ، ويزول كل خصام تقريباً . حينئذٍ تقترب الأرض من السماء . وحينئذٍ يصبح الحكم كما يتمناه المتطرفون الخياليون الآن Anarchism أي بلا حكم وبلا قانون ، لا فوضى كما ترجمنا هذه اللفظة

هذه نظرية يستلزمها النهج الذي ينهجه الرقي الانساني بحكم الطبع كما يراه القارىء في سياق هذا الكتاب

أجل انها نظرية خيالية بعيدة جداً . وتحقيقها أبعد ولكن المجتمع الانساني سائر اليها . ولا بد أن يصل الى حقيقتها كما وصل في الماضي الى حقائق كثيرة كانت نظريات خيالية أيضاً .

متى ؟

أبعد الوف الأجيال أو القرون ؟

متى شاء الله

والله على كل شيء قدير

الفهرست

الديمقراطية والعالم

سلسلة نفيسة من الفصول تعنى بالاصول

[نبدأ في هذا الجزء من المقتطف في نشر المحاضرة الاولى من سلسلة من المحاضرات النفيسة القيت في الردهة الشرقية بجامعة القاهرة الاميركية وبيانها فيما يلي بحسب ترتيب القائها . وسنوالي نشرها في الاجزاء التالية من المقتطف ثم تجمع وتصدر في كتاب على حدة . والمقتطف يشكر لقسم الخدمة العامة بالجامعة الاميركية تفضله باتاحة هذه الفصول النفيسة للنشر فيه]

بيان المحاضرات

(١) « معنى الديموقراطية »
للدكتور محمد عبد الله العربي بك

(٢) « سيكولوجية الديموقراطية »
للدكتور أمير بقطر

(٣) « الديموقراطية ونظام الحكم
للدكتور محمود عزمي بك

(٤) اثر الديموقراطية في الحياة الاقتصادية
للاستاذ عزيز ميرهم

(٥) « الديموقراطية وتكوين الاخلاق »
للدكتور منصور فهمي بك

(٦) « الديموقراطية والحياة الاجتماعية »
للدكتور طه حسين بك

(٧) «العلم بين الدكتاتورية والدمقراطية »
للاستاذ فؤاد صروف

(٨) « تطور الديموقراطية »
للدكتور ابراهيم بيومي مدكور

(٩) « الحكم على الديموقراطية ومستقبلها »
للدكتور احمد ماهر باشا

معنى الديمقراطية

محاضرة الدكتور محمد عبد الله العربي بك
مدير كلية البوليس الملكية

لا يخفى عليكم ما لسلسلة المحاضرات التي أتشرف بافتتاحها اليوم من عظم الشأن ، وهي سلسلة تفضلت الجامعة الاميركية — رغبة منها في رفع شعلة الثقافة في مصر — بتجنيد بعض أساطين الثقافة في هذه البلاد ليحاضروكم فيها وخصني من ذلك نصيب متواضع وهو تحديد معنى الديمقراطية

تعلمون ان الحرب الحاضرة صراع بين الديمقراطية بكل معانيها وبين نظم أخرى معارضة لها . لأيهما تكون الغلبة ؟ ذلك في غيب القدر . ولكن حتى اذا قدّر للديمقراطية ان تتلاشى من هذه الارض وتسحقها النظم الاخرى فهلاّ على الاقل وقفنا وقفة متئدة نستعرض فيها مدلول هذه الديمقراطية التي أصبحت مهددة بالزوال

الديمقراطية كلمة يونانية مركبة تركيباً مزجيًّا من لفظين معناهما حكم الامة أي سلطة الحكم المستمدة من الامة ، تمييزاً لها عن حكم الفرد او حكم فئة قليلة . وقد تسرّبت هذه الكلمة اليونانية الى جميع اللغات حديثها وقديمها

فاليونان اول من استنبط الفكرة الديمقراطية . لان فلاسفتهم رأوا ان الانسان يفتقر الى المجتمع لانهُ حيوان اجتماعي بطبيعته، ولا يستطيع أن يحيا الحياة الطيبة الاَّ اذا داخل الجماعة وهذه الجماعات البشرية أخذت في الماضي اشكالاً مختلفة من الاسرة الى الرهط او القبيلة الى المدينة الى الامة . الاّ انها مهما تختلف في الماضي ومهما تختلف في المستقبل بحسب العصور والبلدان فان أواصر التضامن الاجتماعي التي تربط جماعة واحدة لا يمكن ان تتعدى مظهراً من مظهرين . فأعضاء كل جماعة يتضامنون ويتساندون اما لان لهم حاجات مشتركة لا يمكنهم سدادها الاَّ بحياة مجتمعة وهذا هو التضامن لمشابهة الحاجات ، وإما لأن لهم حاجات مختلفة وملكات مختلفة ولا سبيل الى سداد تلك الحاجات الاّ بأن يتبادلوا فيما بينهم الخدمات التي يُحسن القيام بها كل منهم بما أوتي من مواهب وقوى تختلف عن مواهب غيره وقواه . ذلك هو التضامن بتقسيم العمل

هذا التضامن بمظهريه دعامة المجتمع . وكلما قويت أواصره ازداد المجتمع قوة وكلما ارتقى المجتمع نما فيه على الأخص التضامن بتقسيم العمل ، وذلك لان بارتقائه يزداد الاختلاف بين اعضائه في حاجاتهم ورغائبهم وملكاتهم فيصبح تبادل الخدمات بينهم أغزر وأجزل ويزداد اشتباكهم بعضهم ببعض فتزداد روابط التضامن قوة وتوثقاً

غير ان الحياة الاجتماعية لا يمكن أن تتحقق على هذا النحو الا بتدبير شرائط وأوضاع يلتزمها الكافة لتمكنهم من بلوغ مأربهم من هذا التضامن الاجتماعي، وبتدبير وسائل الحماية وما تتطلبهُ من قوة الزامية تقهر الكافة على احترام هذه الشرائط والاوضاع الضرورية لصيانة التضامن الاجتماعي من التفكك والانهيار.

على هذا النحو فسر فلاسفة اليونان نشأة الدولة، وحددوا وظيفة الدولة، وسوغوا قيام السلطات الحاكمة في الدولة. أي جعلوا الفرد هو الغاية والدولة هي الوسيلة. ولما كان مرد الأمر الى الفرد جعلوا مناط الحكم بمجموع الافراد الذين يتألف منهم المجتمع. فالجماعة او الأمة هي مصدر السلطات في الدولة. والجماعة اذا كانت محدودة العدد كان لأفرادها ان يجتمعوا في صعيد واحد ويضعوا الاحكام المنظمة لحياتهم الاجتماعية، فاذا استحال ذلك لاتساع نطاق الجماعة، اختارت الجماعة بعض افرادها لأداء هذه المهمة وعهدت اليهم في مقاليد الحكم. وهذا الاختيار يقوم على اعتبارات مختلفة باختلاف العصور والجماعات. فطوراً يكون الاختيار لفضيلة خاصة كالبأس في القتال، أو المزيد من العلم، والتفقه في الدين، وطوراً يكون لمزية معينة كالثروة (مثلاً النصاب المالي في الناخبين والمنتخبين) أو لحيازتهم ثقة الكثرة العددية وهلمَّ جرًّا. وعلى أي حال فالجماعة تنوض مقاليدها الى هؤلاء الأفراد المختارين وتنيبهم عنها واذن يجب على هؤلاء الحكام المختارين ان يحكموا لمصلحة الجماعة لا لمصلحة أنفسهم ولا يستطيعون ان يفرضوا ارادتهم على المحكومين الاّ بقدر ما يحكمون على هذا النحو ولا يستطيعون البقاء في مناصب الحكم الاّ اذا أسدوا الخدمات التي تتطلبها منهم الرعية بحسب مبلغ ادراكها. هذا ملخص سريع للفكرة الديمقراطية كما استنبطها فلاسفة اليونان

وهذه الفكرة الديمقراطية تتعارض معها فكرة تيوقراطية. وهي التي تجعل مصدر السيادة في الجماعة قوة الهية أو قوة فوق الطبيعة. وأصحابها ينقسمون الى فريقين: فريق يقول ان السيادة مصدرها القدرة الالهية تَهَبُ السيادة لفرد بالذات بالتعيين وبطريق مباشر. والفريق الثاني يقول ان السيادة مصدرها القدرة الالهية غير انهم أكثر من الفريق الأول حيطة وبصراً. فيقولون ان السيادة تأتي من الرب كما يقع كل شيء في هذا الوجود بأمره تعالى. غير ان الذي يأتي من الرب هو السيادة في ذاتها وجوهرها — السيادة المجردة — أما السيادة في مداها وفي الاشكال التي تتخذها بحسب الاقطار وبحسب الأزمان فتأتي من البشر. فهي من صنعهم ولذلك تعتورها جميع وجوه النقص التي تلازم أعمال البشر وتلازمها بالمثل سنة التطور

ومن الواضح ان هذه الفكرة — بشقيها — بحكم بدايتها المخالفة للعلم لا تحتمل المناقشة وان كان أصحاب الرأي الثاني قد أفسحوا المجال في مذهبهم للاصلاح والتطور. الا ان مآل

الرأيين على السواء هو ان الله اصطفى أفراداً للحكم بين الناس ، وعصمهم من الزلل ، وخصهم بالسيادة وأيدهم بروح من عنده ، فهم خلفاؤه في أرضه ، الموكلون بالقيام على مصالح البشر وليس للبشر قبلهم حقوق وانما عليهم السمع والطاعة . وقد أخذت هذه الفكرة حظها من البقاء في عصور الظلمة والجهالة ، ولكنها للاسف انبعثت من جديد في عصرنا الحاضر في صورة الدكتاتوريات النازية والفاشية

والآن بعد ان حددنا معنى الديموقراطية في ذاتها وفيما يقابلها نرى ان نلم الماماً سريعاً بتطورها التاريخي ونموها المتدرج في خلال العصور

تطورها التاريخي

أصبح نظام الحكم الديموقراطي فيما يدعو اليه من سيادة الشعب في منزلة أصل من الأصول الاولى في التنظيمات الدستورية الحديثة . أما الملكية المطلقة (حكم الفرد) والاوليجاركية (حكم الاقلية) فقد أصبحتا على السواء من ذكريات الماضي القديم . حتى الدول الملكية عدلت عن المبدأ التيوقراطي الذي يقرر ان الملك هو مصدر السيادة وينبوع كل سلطة الى المبدأ الديموقراطي الذي يعتبر الملك أداة دستورية — عضواً من أعضاء الدولة — تلك الاعضاء التي تنوب جميعاً عن الشعب الذي استقرت فيه كل سيادة وسلطان «فجميع السلطات» كما قرر الدستور المصري في الماده ٢٣ — « مصدرها الامة »

ففي العصر الحاضر — او على الأصح الى قبيل قيام الحرب الحاضرة ببضع سنين — انتشرت الديموقراطية في أكثر الشعوب المتحضرة . ذلك لان العلم قد نشر جناحيه في كل أقطارها ومتى تعلم سواد الشعب وبلغ سن النضوج والرشد آلت القوة القاهرة الى الكثرة العددية وسادت الديموقراطية . ولقد تم هذا الحدث الخطير في جميع الشعوب الحديثة بأساليب مختلفة فطوراً بالثورة وطوراً بالاتفاق السلمي مع ملوكهم ، ولكنهُ تمَّ على أي حال ولم يكن من تمامه بدٌّ . قال أحد العلماء في وصف هذه الظاهرة .«إن جاذبية عميقة خفية لامردَّ لها، جاذبية لها من القوة ما للطبيعة نفسها ، تجذب الشعوب الحديثة نحو الديموقراطية . لك ان توجه اليها ما شئت من النقد ولكن نقدك لا يجدي الاَّ كما يجدي نقدك لتعاقب الفصول او لجاذبية الكواكب »

ولقد شهدت بداية القرن العشرين من آثار جذب هذا التيار الديموقراطي ما لم تشهده جميع القرون التي سبقته . ففي العشرين السنة الاولى منه شهدنا انهيار أقدم الأوتوقراطيات، في الصين وتركيا والروسيا والمانيا والنمسا والمجر .كما شهدنا في الديموقراطيات العريقة في الحكم

الديمقراطي — انكلترا وفرنسا واميركا وبلجيكا الخ — حركة تجديد واسعة النطاق اقتضت جهوداً تنظيمية واصلاحية بعيدة المدى كما استحدثت ابتكارات في اجراءات الديمراطية لم تكن معروفة من قبل . غير ان حداثة هذا التيار الديمقراطي الجارف لا تنفي انهُ كانت له موارد وروافد تمتُّ إلى أبعد العصور في تاريخ الانسانية بسببٍ ، ولاسيما الى صدر الاسلام

اليونان والرومان

فقد رأينا كيف استنبط فلاسفة اليونان نواة الفكرة الديمقراطية . وقد طبقتها المدن اليونانية القديمة فكانوا لا يعترفون بالسيادة الا للقانون ، والقانون عندهم هو رأي مجموع أهل المدينة . وروما القديمة في عهدها الملكي وعهدها الجمهوري عرفت في لجانها الشعبية مبدأ الحكم الديمقراطي الى ان جاء القياصرة فاستأثروا بالسلطان

غير ان هذه الديمقراطيات القديمة كانت ذات طابع خاص يبعد ما بينها وبين الديمقراطية الحقة ويدنيها كلَّ الدنو من النظام الارستقراطي . لأن الذين كانوا يساهمون في حكم المدينة وحياتها السياسية هم فقط أقلية ضئيلة من أهل المدينة وهم الذين يتمتعون بحق « المواطن » أما جميع الأرقاء الذين ينهضون بأعباء الحياة الاقتصادية وجميع الرجال الاحرار الذين لم يصلوا الى مرتبة « المواطن » فليس لهم نصيب ما في حكم المدينة . فاذن لم تكن مقاليد الحكم بيد الكثرة العددية كما تقضي الديموقراطية الحقة بل كانت لأقلية محدودة من أهل المدينة . وكانت الفكرة التي تسود الأقدمين عن الديمقراطية — كما قال أحد العلماء — هي ان الانسانية يجب ان تعيش لهذه الأقلية المختارة . وهكذا لم تنهض الحرية في الأمم القديمة — كما قال « روسو » — الاَّ على أكتاف العبودية

الديانات والفكرة الديمقراطية

كان للكتب السماوية نصيب كبير — ونصيب متدرج — في الدعوة الى الديموقراطية وأخص بالذكر الديانة المسيحية والديانة الاسلامية

الرأي الشائع هو ان الكتب السماوية لم تعرض لنظم الحكم بل تركت ذلك لجهود البشر يستحدثون فيه مايرونهُ أصلح وأنسب لاحوالهم الدنيوية ، وأنها اكتفت بالدعوة الى الفضائل الخلقية اللازمة لاسعاد المجتمع البشري في هذه الدنيا وفي الآخرة ، ثم تركت ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر

غير أني أخالف هذا الرأي الشائع وأرى أن للديمقراطية أصولاً يجب أن تراعى حتى لا تخرج الديمقراطية عن مدلولها ، وأن هناك دعائم خلقية هي وحدها التي يقوم عليها الحكم

الديمقراطي الصحيح . هذه الاصول والدعائم دعت اليها الديانة المسيحية دعوة صريحة في دعوتها الى اقامة العدل والرحمة ، والبر والاحسان ، والمساواة بين البشر رفيعهم ووضيعهم قويهم وضعيفهم ، وفي تقرير أن الانسان في إنسانيته البحتة جديرٌ بالاحترام لأن الله خلقهُ وسواه ، والهمهُ فجوره وتقواه ، فهو في ذاته جديرٌ بالاحترام ولأنهُ حتى اذا كان مذنباً أو مجرماً فقد يظفر بالتوبة وينعم بالغفران ويبلغ بروحه المطهرة أعلى مراتب الانسانية . وفي تقريرها — أسوة بسائر الأديان السماوية — أن الانسان له حياة خالدة بعد هذه الحياة الفانية وأن الله المسيطر وحده على هذا الكون قد فرض على الانسان في هذه الحياة الدنيا اقامة العدل ونشر الاحسان وأخذ عشيرتهِ وجيرته والناس جميعاً بالرحمة والبر . هذه قوانينه العليا التي يجب أن تخضع لها قوانين الدولة وتسترشد بها كافة الاحكام الوضعية . وللمسيحي — بل مفروض عليه — أن يقول للدولة « لا » اذا أمرتهُ بما يخالف هذه الاحكام السماوية واذا ناله عذاب في هذا السبيل فسيناله ثواب أكبر في حياة أخرى لانهاية لها . فهو مواطن في الدولة مدينٌ لها بالطاعة والامتثال ، ولكنهُ أيضاً مواطن في عالم آخر عالم خالد

فالمسيحية اذن مهدت للبشر الأخذ بالديمقراطية بما ندبتهم اليهِ من أحكام خلقية وفضائل نفسية ، وبما رسمته من حدود لسلطان الدولة على الفرد ، ومدى طاعة الفرد لاحكام الدولة ، وبما رفعت من شأن الفرد بافساح أفق تفكيره ، ونطاق غاياتهِ من هذه الحياة ، وبذلك امتازت عن فلسفة اليونان المادية التي كانت تعنى بصلاح أمر الانسان في هذه الحياة فقط وكانت لذلك ضيقة النطاق تبعاً لهذا الهدف المحدود

ذلك نصيب المسيحية في تغذية الديمقراطية وتدعيمها في النفوس . ثم جاء الاسلام ونزل القرآن فسجل تلك الفضائل والاحكام الخلقية التي دعت اليها المسيحية ثم تقدم بالانسانية الى الامام فدعا — على خلاف المألوف في الكتب السماوية التي سبقته — دعوة صريحة الى نظام حكومي يجب التقيد به . نظام حكومي هو الديمقراطية في أسمى أوضاعها . أصول هذا النظام هي أولاً اختيار رئيس الدولة أو الخليفة بالمبايعة أو الانتخاب العام . ثم تقييد هذا الخليفة في تصريف شئون الدولة بالشورى — وهي النظام البرلماني الحديث — ثم قرر في عديد الآيات ومتواتر الاحاديث تلك المبادىء الاساسية التي في سبيلها انفجر بركان الثورة الفرنسية وثورات أخرى سابقة ولاحقة . مبادىء الحرية والاخاء والمساواة . ثم قرر الى جانب ذلك تلك الاصول الدستورية التي بدونها يكون النظام البرلماني اسماً على غير مسمى ، حرية القول والرأي والنقد — نقد الاحكام في سبيل المصلحة العامة ، بل قرر حق النقد الى حد لمَّا تذهب اليهِ الشرائع الاوربية في هذا القرن العشرين الى حد تسويغ المقاومة الثائرة

للمصلحة العامة كما يدل عليه الحديث الشريف . « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده (أي بالقوة) فان لم يستطع فبلسانه (أي بابلاغ السلطات العامة وتنبيه الرأي العام) فان لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الايمان . وكما يدل عليه حديث «لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق» وكما يدل عليه أخيراً جواب ذلك الأعرابي للخليفة عمر : «لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد السيف »

ثم نسج من جميع هذه الاصول والمبادىء ثوباً طهوراً من الاخلاق ليكون وقاية منيعة لهذا البنيان الديمقراطي الرفيع . الاخلاق التي يجب ان يتمسك بها الافراد والجماعات ويرفعوها فوق كل زخارف هذه الحياة ومناعمها ، الأخلاق التي هي علة العلل في الديمقراطيات الحديثة ومصدر أزماتها الخانقة ، بل الداء الوبيل الذي ينخر في هيكلها حتى ليوشك أن ينهار ، بل انهارت فعلاً الديموقراطية الفرنسية في أمس القريب

هذه المبادىء والاصول الديموقراطية سادت بالفعل عهداً قصيراً في صدر الاسلام . وقِصَر هذه المدّة لم يكن ليسمح بترجمة هذه المبادىء العامة الى اوضاع ماثلة للعيان لها اجراءات مفصلة ومراسيم مرتبة وشعائر مجسمة وتقاليد راسخة بل بقيت على حالتها الاولى من التعميم والاجمال

هذا التعميم في المبادىء والاجمال فيها كانت له ميزة مقصودة كما نتج عنهُ ضرر غير مقصود. اما الميزة المقصودة فهي ان التعميم الذي لا ينزل الى التفصيلات الجزئية لا يقيد الاجيال المقبلة بهذه التفصيلات والتطبيقات ، بل يتركها حرة تقتبس الوضع الحكوميّ الذي تتوافر فيه الملاءمة العملية لحاجات كل زمان ومكان ما دامت تسوده الفكرة الديمقراطية بوجه عام . وهذه هي المرونة اللازمة في المبادىء التي يراد لها الخلود لتكون ملائمة لتطور احتياجات البشر

اما الضرر غير المقصود الذي نتج عن هذا التعميم فهو ان المبادىء العامة المجردة التي لم تترجم بعد الى اشكال بارزة وأوضاع ماثلة للعيان ومعالم قائمة مرتبطة بهذه المبادىء ارتباطاً ذهنيًّا — ارتباطاً لا انفصام له بحيث ان احدها يذكر ابداً بالآخر — مثل هذه المبادىء المجردة لا يكون لها سلطان كبير على عقلية الشعب بحيث يكون أسهل على بعض الخاصة ان يصرفوهم بالخداع او بالقوة عن التمسك بها وهذا ما حصل بالفعل في الديمقراطية الاسلامية

فان الاجيال التي اعقبت الصدر الاول من الاسلام غفلت او تغافلت عن خطر هذه الاصول الديمقراطية ، وعن ضرورة استنباط القواعد التنفيذية والاجراءات العملية التي

تكفل نفاذ هذه الاصول العامة في جميع نواحي سياسة الدولة . وتوالت هذه الاجيال المتعاقبة وهي ذاهلة عن واجبها في استخراج الاوضاع والاساليب العملية التي تكفل التوفيق بين هذه الاصول العامة واحتياجات كل عصر، فلم تلبث هذه الاصول الديموقراطية لطول الترك ان اندثر خطرها في وجدان الشعب ، ولحقها من تشويه المعنى وعبث التفسير ما جعلها مطية ذلولاً لبغي الطغاة وسحق الحريات

والمطلع على تاريخ الشرع الاسلامي لا يسعهُ الاّ ان يقرر أن وزر هذا البلاء واقع اولاً على نفر من الخاصة استهانوا بالاصول الديمقراطية التي دعا الاسلام الى اقامتها وقلبوا الخلافة الى اوتقراطية مطلقة ، وهدموا مبدأ الشورى ومستلزماته ، واستعانوا على ذلك تارة بتغرير الخداع وتارة ببطش القوة . وواقع ثانياً على كثير من رجال الفقه الاسلامي الذين سايروا هذه النزعة الاوتقراطية وتركوها تسير في طريقها المخرب . فتراهم لا يخصون هذه الاصول الديمقراطية وما يجب تفريعه عليها من نظم حكومية مفصلة ببعض العناية التي يغدقونها على احكام العبادات واحكام المعاملات ، وإن المرء ليقلّب بصره في كتبهم الحافلة بكل صغيرة وكبيرة وشئون هذه الحياة والحياة الاخرى فلا يجد فيها تدويناً متجانساً مجتمع الشمل للدستور الاسلامي بل يجد فيها نبذاً متفرقة عارضة، وصفحات متباعدة مبعثرة هنا وهناك، منبثة في غير موضعها بحيث لا تبرز وهي على هذا الشتات ، صورة قوية متماسكة كاملة للدستور الاسلامي

الديمقراطية قبل الثورة الفرنسية

ولكن صدى هذه الأصول الديمقراطية التي انبثقت في رمال الجزيرة العربية لم يذهب سدى ، بل تجاوبت به أجواء أخرى بعد اتصالها بالثقافة العربية . فبعد بضعة قرون من مجاورة اوربا للامم العربية صاح أول صوت في فرنسا في منتصف القرن الخامس عشر ينادي بالديموقراطية ويقرر ان الشعب هو مانح السلطة للملوك ، ثم كان القرن السادس عشر والنزاع الديني بين البروتستانت والكاثوليك ، وكان انحياز الملوك الى أحد المذهبين سبباً لاثارة الفكرة الديمقراطية فاستغلها الفريق المضطهد في الجانبين لمقاومة اضطهاد ملوكهم . فأخذ كل من الفريقين على السواء ينادي بأن الشعب هو مصدر كل السلطات . غير أنهم ذهبوا بعد ذلك الى القول بأن الشعب عقد عقداً مع الملك نزل له فيه عن استعمال هذه السلطات بشروط معينة هي في جملتها تقييدات للسلطة الملكية ، فاذا أخلَّ الملك بهذه الشروط بطل العقد، وأصبح مسند الملكية بغير أساس شرعي ، وانتفى واجب الطاعة بل حقَّ العصيان

هذا ما دعا اليهِ يومئذٍ رجال الدين المسيحي من المذهبين على السواء [1] ولا ننس أنهم كانوا وحدهم الفئة المثقفة في الأمم المسيحية في تلك العصور وكان كبراؤهم يجيدون اللغة العربية ويطلعون على كتب علمائها وفقهائها

وفي نهاية القرن السابع عشر برز في فرنسا بطل آخر من حماة الديمقراطية (جوريو) قام يناضل عنها امام مزاعم الملك لويس الرابع عشر ونظريته في استمداد حق الملك من القدرة الالهية ودعواه انه غير مسئول امام شعبه بل مسئول فقط أمام ربه . أما (جوريو) هذا فهو قسيس بروستانتي وقف حياته على بثّ الفكرة الديموقراطية والنضال في سبيلها حتى اضطرّ الى المهاجرة من فرنسا فراراً من بغي لويس الرابع عشر ووضع ثلاث رسائل في شرح نظريته في الحكم الديمقراطي عنوانها (سلطان الملوك ومصدره وحدوده)

وهكذا نتبين من هذه الأسانيد التاريخية ان الدين الاسلامي كان اول داعية صريح للحكم الديمقراطي . ثم تلقف تعاليمه العامة في هذا الشأن بعضُ رجال الدين المسيحي ونادوا بالفكرة الديمقراطية سعياً الى كبح جماح السلطة الزمنية التي يصول بها الملوك . وهذا في العصور التي لم تكن فيها الفلسفة السياسية قد نهضت بعد بعبء النضال عن الديمقراطية

وصلنا الى نهاية القرن السابع عشر ونريد ان نتبين نهاية ما ذهب اليهِ التفكير الأوربي في الحكم الديمقراطي الى ذلك العهد . . . يتلخص هذا التفكير في ثلاثة أمور : أولاً ان الشعب هو مستقر السيادة ومستودعها ووليّها ، ثانياً انهُ فوض الى الملك استعمال هذه السيادة تفويضاً تعاقديًّا ، ثالثاً ان الشعب يستطيع ان يسترد هذه السيادة من الملك في أحوال معينة في عقد التفويض

الفلسفة السياسية التي مهدت للثورة الفرنسية

ذلك نهاية ما ذهبوا اليه ، ولا ننس أنها كانت مجرد حركة فكرية لم تبرز بروزاً عمليًّا في النظم الحكومية القائمة . فالحكم المطلق الذي تمسك به لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر لم يتأثر البتة بهذا التيار الفكري الذي بقي تياراً نظريًّا الى ان جاء القرن الثامن عشر فاكتسبت فيه الفكرة الديمقراطية قوة لا مرد لها ولا غالب — وتسربت الى النظم القانونية الوضعية فأصبحت دعامة القانون العام الحديث

فأولاً الفلسفة السياسية التي بثّها فلاسفة القرن الثامن عشر كان لها الأثر الأكبر في

(١) نذكر من البروتستانت (دوبلسي موريني) في كتابه (الثورة على المستبدين) و (هوتمان)، ومن الكاثوليك نجد كثيراً من الدعاة المتحمسين للديمقراطية كان أكثرهم حماسة الراهب الاسباني (ماريانا) من شيعة الجزويت « ١٥٣٧ — ١٦٢٤ » وأشهر كتبه (نظام الملكية والحكم) وهو بيان متزن للفكرة الديمقراطية يمتاز بالروية والكياسة والمنطق المتين

تكوين رجال الثورة الفرنسية . وهؤلاء الثائرون الذين تتلمذوا على فلاسفة القرن الثامن عشر هم الذين أدخلوا المبدأ الديمقراطي في الدساتير الثورية التي وضعوها وسموه مبدأ « السيادة الشعبية » وثانياً الفكرة الديمقراطية بين يدي رجال الثورة لم تلبث حتى اشتدّ عودها واتسع نطاقها الى شمول نتائج لم يذهب اليها الفلاسفة السابقون . ومن أهم هذه النتائج نفيهم فكرة وجود عقد بين الملك والشعب — عقد لازم لا فاصم له الاّ في احوال معينة محصورة — وقالوا على الضد ان السيادة بطبيعتها لا تقبل التنازل عنها وانما تصح الانابة في استعمالها إنابة موقوتة يجوز للشعب ان يستردها متى شاء . واول حركة في هذا الاتجاه قام بها رجال مدرسة « شريعة الطبيعة والامم » التي كان زعماؤها (جروسيوس — بوفندورف — فاتل) ثم أعقبهم (روسو) الملهم المباشر للثورة الفرنسية

الديمقراطية والثورة الفرنسية

ثم انفجرت الثورة الفرنسية . فكانت الخدمة التي أسدتها الى الإنسانية ان اخذت هذا المبدأ النظري الذي دعا اليه فلاسفة القرن الثامن عشر ومن تقدمهم من حماة الديمقراطية وأدمجته ادماجاً عمليًّا في القانون الدستوري الوضعي وأطلقت عليهِ مبدأ « السيادة الشعبية » وأعلنتهُ فرنسا للعالمين في « إعلانها لحقوق الانسان » الذي اصدرته الجمعية الوطنية في ٢٦ اغسطس سنة ١٧٨٩ وجاء في المادة الثالثة من هذا الاعلان « ان عناصر كل سيادة مستمدة من الشعب وحده فليس لهيئة او فرد ان يستعمل هذه السيادة الاّ بتفويض صريح صادر من الشعب » . وجاءَ في المادة الرابعة . « القانون هو التعبير الرسمي الحر للارادة العامة » . وجاءَ في المادة الخامسة والعشرين « السيادة مستقرة في الشعب . وهي واحدة لا تتعدد ولا تتجزأ ولا يصح النزول عنها ولا تسقط بمضي المدة » . ثم تعاقبت الدساتير الفرنسية وكلها تكرر وتسجل هذا المبدأ الديمقراطي الذي ارتقى الى مرتبة العقائد الخالدة

خصائص الفكرة الديمقراطية

والآن نبين ما هي خصائص الفكرة الديمقراطية بعد ان صهرتها الثورة الفرنسية وتغلغلت في دساتير فرنسا المتعاقبة الى أن وصلت الى دستورها الحاضر (قبل النظام الذي انشىءَ في سنة ١٩٤٠ على أثر انهيارها العسكري) ودساتير الدول الديمقراطية جميعاً

هذه الخصائص اربع :—

اولاً — الفكرة الديمقراطية في جوهرها فكرة سياسية . فهي ليست برنامجاً لاصلاح المجتمع في مادياته واقتصادياته . ليست كما زعم بعض دعاة الديمقراطية الاشتراكية في نظم المانيا

نظاماً يرمي الى توفير «الخبز والقوت» لعامة الشعب . فقد يقوم أي نظام أوتقراطي بحث بتوفير هذه الخيرات المادية كما فعل بسماوك بحكومته الاوتقراطية التي اخرجت للشعب الالماني من الاصلاحات الاجتماعية ما رمت به الى توفير رخائه المادي وفي الوقت نفسه الى اخماد نزعته الى الحرية السياسية . بل الفكرة الديمقراطية فكرة ترمي قبل كل شيء — من طريق رقابة الشعب على حكامه — الى تحقيق الحرية السياسية

ثانياً — الفكرة الديمقراطية فكرة روحية : وهذه الخاصة الثانية مستمدة من الخاصة الأولى . فاذا لم تكن الديمقراطية مسألة غذاء للبدن فهي غذاء للقلب والعقل، مسألة أخلاق : قلق يجيش بالنفس على ان يسود العدل في اجراءات الحكم ، كرامة روحية لا ينزل المرء عنها بأي عوض من متاع هذه الحياة

ثالثاً — الفكرة الديمقراطية فكرة فردية : بمعنى ان الفرد يساهم في السيادة بصفته مواطناً لا بأي صفة أخرى كأن يكون عضواً في نقابة من النقابات (نظام الفاشست) او في طبقة معينة من طبقات الامة كطبقة العمال في النظام البلشفي

رابعاً وأخيراً — الفكرة الديمقراطية فكرة قائمة على المساواة تقضي بأن يكون لأفراد المجتمع كافة حقوق سياسية متساوية . ومن هذه الخاصة يتفرع مبدأ الانتخاب العام الذي أصبح اليوم حدثاً شائعاً في أكثر النظم السياسية

الديمقراطية في انكلترا

والآن بعد ان عرضنا عرضاً سريعاً لتاريخ تطور الحكم الديمقراطي من نشأته الى عصرنا الحاضر أقرر أني أغفلت عمداً جانباً هامّـاً من هذه الحركة التاريخية : ذلك هو تطور الفكرة الديمقراطية في انكلترا

انكلترا جزيرة منعزلة عن القارة الاوربية لها طابعها الخاص في جوها وفي تشريعها وفي سجاياها الفطرية . لم تتأثر تأثراً مباشراً بالأعاصير والانقلابات والثورات التي هزت أوروبا هزّاً عنيفاً . ولكنها سارت خلال القرون المتعاقبة في طريقها البطيء منجهة نحو الحكم الديمقراطي ، اتجاهاً متئداً ، ولكنهُ ثابت مستمر ، اتجاهاً عمليّـاً أكثر من ان يكون نظريّـاً . صحيح ان مفكريها وفلاسفتها وكتابها تغذوا بالفلسفة السياسية التي هبت رياحها على أوروبا في عصور مختلفة من اليونان الى الرومان الى الديانتين المسيحية والاسلامية ، ولكنها هنا صادفت في هذا الشعب تربة خصبة ومنبتاً مهيئاً لقبولها ، وكرامة فردية تعتز بالاحتفاظ بالروح الديمقراطية أكبر اعتزاز وتحرص على الاوضاع الشكلية والاجراءات العملية التي تصون الأصول من العبث وتستبقي جذوتها متقدة في وجدان الشعب

فمنذ بداية القرن الثالث عشر — في سنة ١٢١٥ — انتزع الاشراف من الملك جون (King John) الوثيقة الأولى المسماة « الوثيقة العظمى » (Magna Carta) المعلنة للحريات الانكليزية بتقريرها على الأخص ثلاثة مبادىء : — ١ — ان لا تجبى ضرائب او رسوم الاّ بعد موافقة المجلس الكبير (Great Council) نواة البرلمان الحاضر ٢ — ان لا يحرم أحد من تحقيق العدالة في شأن من شئونه او يحال بينه وبين العدالة بأي عائق ٣— ان لا يسجن الاّ بحكم من أنداده طبقاً لشريعة البلاد

وفي بداية القرن السابع عشر الى قرب نهايته قام الصراع مرة أخرى بين القوى الأوتقراطية والقوى الديمقراطيـة وانتهى بانتصـار نهائي للحكم الديمقراطي بمـا سمي « وثيقـة الحقوق » (Bill of Rights). ثم توالت التقاليد الدستورية وخطت الاوضاع الحكومية خطوات متعاقبة ، وان كانت متباعدة ، الى أن انتهت بالوضع البرلماني الحاضر بجميع أساليبه وسننه وأحكامه ، وانتقلت مقاليد الحكم شيئاً فشيئاً وجيلاً بعد جيل الى أيدي نواب الشعب ، وامتدّ سلطانهم من وجوب الاذن بالضريبة ، الى وجوب الاشراف على النفقات العامة ، وتحديد وجوهها ومداها الى الهيمنة على الاداة الحكومية برمتها

حتى اذا خرجت الثورة الفرنسية على العـالم بتلك الاصول النظرية المدونة للحكم الديمقراطي وجد العالم في نظام الحكم القائم في تلك الجزيرة المنعزلة أداة عملية حية تتمثل فيها جميع المبادىء الديمقراطية التي دعت اليها الثورة الفرنسية . اداة عملية لا تكتنفها نظريات مسهبة ولا تدوينات منمقة ، وانما تستند فقط الى تقاليد استقرت ، وعرف تأثل ، وسابقات توالت ، ودرجت عليها السلطات جيلاً بعد جيل ، وأحكام نتجت عن تطور طويل الامد . فاقتبست دساتير الثورة الفرنسية تلك الاوضاع القائمة في انكلترا والتي وجدت فيها ترجمة عملية للاصول الديموقراطية التي نادت بها ، ونقلتها عنها دول اوروبا دولة بعد دولة. اقتبست الأوضاع وان كانت في رأيي لم تقتبس جميع عناصر تلك الروح الديمقراطيـة المتغلغلة في وجدان الشعب المتوارث منذ أجيال بعيدة المدى

ولا أستطيع أيها السادة أن أمضي بكم في تفاصيل هـذا التطور لا سيما انها تخرجنا عن هدفنـا في تحديد معنى الديمقراطية الى موضوع آخر : « نشأة الدستور البريطاني وتطوره». ولكنني اجتزىء ببعض فقرات من كتابات شعراء الانكليز وفلاسفتهم ومفكريهم لتتبينوا مبلغ تغلغل هذه الروح في وجدان الشعب البريطاني قبل انفجار الثورة الفرنسية

استمعوا الى ما ينادي به الشاعر الكبير (جون ميلتون John Milton) في بداية القرن السابع عشر :

« اعطني فوق كل الحريات حرية البحث وحرية القول وحرية المناقشة طبقاً لوحي ضميري » ثم يأتي في أواسط هذا القرن الفيلسوف (جون لوك John Locke) فيفسر نداء الشاعر ميلتون هذا التفسير: « ولد أفراد المجتمع أحراراً بحكم الطبيعة، ولهم حقوق طبيعية في حياتهم وحريتهم وأبدانهم وأموالهم، فالله تعالى وهبهم هذه الحقوق لانهم خدامه وخلائقه واذن لا يجوز للدولة أن تسلبهم هذه الحقوق الطبيعية أو تطغى عليها، فقانون الطبيعة هو الوقاية الخالدة لكافة البشر» . ثم يأتي الكاتب الاجتماعي (توماس باين Thomas Pain) في القرن الثامن عشر فيسجل هذه المبادىء مرة اخرى فيقول « ان الناس يولدون احراراً متساوين وان هدف جميع المجتمعات السياسية انما هو صيانة حقوق الانسان الطبيعية وهي الحرية والملكية والأمن وحق مقاومة الظلم »

فاذا انتقلت الى القرن التاسع عشر سمعت الفيلسوف (جيرمي بنتام Jeremy Bentham) يقرر « أن الغرض من كل حكومة ليس الا السعي الى ترقية رخاء المحكومين وتنمية سعادتهم» ثم يمضي في شرح نظريته المشهورة في المنفعة فيقول «ان الحكم على أي عمل بأنه خير او شر انما يكون بنسبة ما يزيد أو ينقص من سعادة ذوي الشأن سواء كان هذا العمل عملاً فرديًّا او عملاً حكوميًّا » ثم يتلوه (جون ستيوارت ميل John Stuart Mill) فيدافع أمجد دفاع عن قضية الحكومة النيابية وما تستلزمه من اطلاق حرية الرأي واني أقتبس منه فقرة واحدة يقول فيها « اذا كان كافة البشر الا فرداً واحداً من رأي وهذا الفرد وحده من رأي معارض فلا أرى ان من حق كافة البشر اسكات هذا الفرد الواحد الا اذا كان يجوز لهذا الفرد الواحد ان يسكت كافة البشر وهو ما لا يقبله العقل »

الديمقراطية في أميركا

ثم انتقلت هذه المبادىء وما تستند اليه من غرائز ديمقراطية متوارثة، مع المهاجرين الأوائل الى الولايات المتحدة الاميركية . استمع الى الفقرة الآتية من اعلان الاستقلال الاميركي في ٤ يوليو ١٧٧٦ : «نحن نؤمن بهذه الحقائق البديهية وهي ان جميع الناس خلقوا متساوين وان خالقهم وهبهم جميعاً حقوقاً لا يملكون النزول عنها - ومن هذه الحقوق الحياة والحرية وابتغاء السعادة وان الحكومات انما تقوم بين الناس لتحفظ عليهم حقوقهم هذه، وان الحكومات انما تستمد سلطانها المشروع من رضاء المحكومين . فاذا اتجهت أي حكومة مهما يكن شكلها الى محو هذه الحقوق فان للشعب ان يغيّرها او ان يمحوها ويقيم مكانها حكومة تستند الى هذه المبادىء وتنظم سلطتها على نحو يكفل للشعب سلامته وسعادته»

كان هذا قبل انفجار الثورة الفرنسية واعلانها الرنان لحقوق الانسان . ثم استمع الى ما

يقوله الرئيس لنكن (Abraham Lincoln) عشية إعلان الحرب الأهلية في منتصف القرن التاسع عشر « هذا نزاع شعبي محض ونحن من جانبنا نجاهد لكي نحتفظ في هذا العالم بنظام حكم يكون هدفه الأوحد ترقية حال الناس جميعاً ولنرفع عن كواهلهم جميع الأوزار والأثقال المصطنعة ، ونمهد أمام الكافة طريق القيام بعمل محمود ، مهيئين جميعاً ببداية لا تعرقلها قيود وأغلال ، ومزودين جميعاً بفرصة عادلة للنجاح في مضمار الحياة »

ثم استمع الى خطاب تنصيبه (سنة ١٨٦١) يقول فيه : «هذه البلاد ملك للشعب الذي يقطنها ، وكلما ضاق هذا الشعب ذرعاً بأخطاء الحكومة القائمة أو مساويها ، فله أن يستعمل حقه الدستوري في تعديلها أو حقه الثوري في هدمها »

فالديمقراطية الأميركية تتلخص في كلة واحدة « أنشئت الحكومات لخدمة الانسان ولم يخلق الانسان من أجل الحكومات »

أوضاع الحكم الديمقراطي

أحسب في هذا القدر الكفاية لبيان نشأة الحكم الديمقراطي وتطوره في خلال العصور والامم ، وقد حاولت فيه ان أبرز صورة سريعة لتلك الروافد والموارد التي تعاونت معاً على استكمال الحكم الديمقراطي وموالاة نموه حتى بلغ كيانه الحاضر . وانتقل بعد ذلك الى بيان الاوضاع المختلفة التي قد يتكيفها الحكم الديمقراطي

قلنا ان الحكم الديمقراطي يتجه في غايته الى اشتراك أكبر عدد من الافراد ، وبأقرب الطرق وأهداها ، الى الاضطلاع بأعباء الحكم . غير ان هذا المبدأ لا يستطاع في العمل توجيهه الى أقصى نتائجه المنطقية ، فلابد من تيسير الوصول الى المثل الأعلى فيه ببعض اعتبارات تتصل بحالة القوى الاجتماعية في الشعب ودرجة تربيته السياسية ومزاجه القومي وهلمّ جرًّا . ونستطيع اذن ان نتصور ان المبدأ الديمقراطي قد تعترضه في التطبيق العملي ملابسات تتجه طوراً الى الحدّ منهُ ، والهوادة فيه وطوراً الى التشدد والامعان فيه بحسب احتياجات كل بلد وكل عصر . ومن هنا تكيف المبدأ الديمقراطي في اوضاع مختلفة تحتفظ كلها بجوهر المبدأ ولكن تتفاوت في القرب او البعد من المثل الأعلى فيه

والمثل الأعلى في الحكم الديمقراطي هو أن يحكم الشعب نفسه بنفسه . بمعنى ان الشعب عن بكرة ابيه يجتمع في صعيد واحد ويسنّ القوانين التي تحكمه ويصرّف شئونه الادارية الكبرى ويقضي فيما يراد القضاء فيه . وهنا يكون الحكم الديمقراطي حكماً ديمقراطياً مباشراً . وظاهر ان هذا لا يتأتى الاّ اذا كان الشعب يسير العدد يحتل رقعة أرضية محدودة الجوانب كبعض الولايات السويسرية . أما اذا كان يحتل رقعة أرضية مترامية الاطراف وكان

عدده بحيث لا تؤويه ندوة واحدة فلا سبيل الى اقامة هذا الحكم الديمقراطي المباشر. واذن لا مناص من الالتجاء الى الانابة، فينيب الشعب نواباً ينهضون عنهُ بأعباء الحكم وهنا تكون الديمقراطية غير مباشرة. وهذا وضع الحكومة النيابية الذائع في أكثر الدول. وأخيراً وضع ثالث يجمع بين ميزات الوضعين السابقين. فهو ديقمراطية غير مباشرة أي حكم نيابي ولكنه يحصن نفسه من احتمال طغيان النواب وفسادهم في خلال مدة النيابة او سعيهم في غير مصلحة الأمة، يحصن نفسه من هذه الاحتمالات باقتباس بعض ميزات الحكم المباشر يبتغي بها تقيد سلطان الهيئات النيابية بأن يقرر مثلاً أن القوانين التي تسنها في بعض الشئون لا تكون نافذة حتى يقرها الشعب باستفتاء عام. وهذا الوضع الثالث يسمى نظام الحكم الديمقراطي نصف المباشر

هذه هي الأوضاع الثلاثة للحكم الديمقراطي: مباشر، غير مباشر، نصف مباشر. ولكل وضع من هذه الأوضاع صور متباينة واجراءات خاصة سنلم بها الماماً سريعاً

[اولا] — الحكم الديمقراطي المباشر: هو حكم الشعب نفسه بنفسه بطريق مباشر وهو صورة نادرة للحكم الديمقراطي لا توجد في الوقت الحاضر الاّ في أربع أو خمس ولايات سويسرية سكانها لا يزيدون عن بضعة آلاف ويستطيعون ان يجتمعوا معاً في صعيد واحد (في حقل اذا كان الجو صحواً أو في كنيسة اذا كان الجو ممطراً) مرة واحدة في العام فينتخبون رئيس ولايتهم للعام المقبل، ثم يقترعون على ميزانية الولاية وعلى القوانين اللازم سنّها، ثم ينتخبون الموظفين الذين يتولون الشئون الادارية والقضائية خلال العام

لماذا هذه الندرة في النظام الديمقراطي المباشر في حين انه من الوجهة المنطقية أكثر النظم انطباقاً على الفكرة الديمقراطية؟

(١) — لأنهُ لا يلائم الاّ المدن القليلة السكان كأثينا واسبارطة في التاريخ القديم (وان كان نظام الحكم فيها ارستقراطيًّا أكثر من ان يكون ديمقراطيًّا كما قدمنا) أو كبعض الولايات السويسرية التي لا يتجاوز تعداد سكان الولاية منها بضعة آلاف. أما اذا تجاوز سكان الدولة هذا الرقم المتواضع فان الحكم المباشر يكون مستحيلاً من الوجهة العملية

(٢) — لأن تشعب وظائف الدولة الحديثة لا يلائمها الحكم الديمقراطي المباشر، «فالجمعية الشعبية» لا تستطيع ان تعالج المشكلات الفنية المعقدة التي تعترض الادارة الحكومية اليومية، وحتى في الولايات السويسرية فان حكوماتها المباشرة لا تتصدى الاّ للشئون المحلية البسيطة. اما الشؤون القومية فتنهض بها حكومة الاتحاد

[ثانياً] — الحكم الديمقراطي غير المباشر: الديمقراطية غير المباشرة قد تتكيف بصورتين مختلفتين: الحكومة القيصرية والحكومة النيابية

(١) — الحكومة القيصرية: الحكومة القيصرية هي صورة نادرة للحكم الديمقراطي وتتلخص في ان الشعب وهو مقر السيادة ووليها ينيب في استعمالها أحد رجاله، ويضع بين يديه مقاليد الحكم وكل اختصاصات السلطان وهي تفرض لنشوئها بيئة خاصة وظروفاً خاصة كأن تكون الدولة قد انحدرت الى الفوضى وسئمت الأمة أساليب الحكم النيابي لما استفحل من علله فهي في فترة قنوط ويأس تسلم قيادها الى منقذ من بنيها، تتوسم نجاتها على يديه لما عرفت فيه من شخصية عظيمة ومواهب فذة جعلتهُ محل ثقتها وصفيها المختار

وعلى سبيل التمثيل لهذا الوضع القيصري للحكم الديمقراطي نذكر أن في تاريخ فرنسا الدستوري دستورين على الاقل قاما على أساس الديمقراطية القيصرية

الأول — دستور السنة الثامنة للثورة الفرنسية، أنشأ ديمقراطية قيصرية مدينة في ظهورها الى مكانة القائد المنتصر نابليون بونابرت، والى نفور الشعب من حرية مسرفة جامحة قادتهُ الى أسوإ ضروب الفوضى السياسية والادارية والمالية، وهدمت دعائم الأمن والسكينة في البلاد، فآثرت الامة أن تسلم مقاليد حكمها الى فرد بارع قدير، على ان تسلمها الى هيئات نيابية عاجزة، ثم جاءت انتصارات نابليون الباهرة وفتوحاته المتوالية مؤيدة ثقة الشعب بهِ ومؤيدة لحكومته القيصرية حتى أدنتها كل الدنو من النظام الملكي المحض. حتى اذا بدأ خذلان نابليون في ميدان القتال، وانتعش شغف الشعب بالحرية السياسية مرة أخرى، نبذ الامبراطور جانباً وعاد أدراجه الى الديمقراطية النيابية.

الثاني—دستور سنة ١٨٥٢ الذي أقام من رئيس الجمهورية يومئذ (البرنس لويس نابليون) قيصراً مدى الحياة وكانت هذه القيصرية أيضاً مدينة في ظهورها الى ظروف خاصة. فأولاً مكانة الامير لويس نابليون الذي أنتخب رئيساً للجمهورية باجماع المواطنين، وثانياً الى براعته في الوقوف موقف المدافع عن حق الانتخاب، وأخيراً الى تأثير الوراثة لذكرى نابليون العظيم. هذه الظروف مجتمعة، الى خيبة آمال الشعب في الثورة التي اصطلى نارها من ثلاث سنوات —ثورة عام ١٨٤٨ — ثم تمخضت عن برلمان رجعي يريد ان يسلب حريته السياسية بتقييد حقه الانتخابي — جعلت الشعب الفرنسي يؤثر هذا الوضع القيصري للحكم الديمقراطي. والآن نريد ان نبين خصائص هذا الوضع القيصري الديمقراطي

أولاً — الخاصة الأولى. إن الدستور المقرر لهذا الوضع القيصري وكل تعديل لاحق له لا يتم الاَّ باستفتاء الشعب، وهذا وجه الديمقراطية فيه، فدستور نابليون الاول اعترف اعترافاً صريحاً بالمبدإ الديمقراطي إذ نص في احدى مواده على ان الدستور الحاضر لا ينفذ الاّ بعد اقتراع الشعب عليه ولما حصل الاقتراع أيده جميع المواطنين الاّ آلافاً معدودة.

كذلك دستور ١٨٥٢ لجأ واضعوه الى استفتاء الشعب قبل اصداره ونصوا على وجوب استفتاء الشعب في كل تعديل لاحق . وهـذا الاستفتاء يوفق بين الفكرة الديمقراطية والوضع القيصري ، غير انهُ يجب ان لا نغفل عن ان هذا التوفيق هو توفيق صوري لا حقيقي: فأولاً اجراءات الاستفتاء لم تراع فيها سرية الاقتراع او على الأقل لم تنظم هذه السرية تنظيماً جديـاً . وثانياً لان الشعب كان يخير في هذا الاستفتاء بين أمرين لا ثالث لهما : إما نظام الحكم المقترح او الفوضى . وثالثاً لان الشعب كان يوضع امام الأمر الواقع كما حصل في دستور نابليون الاول الذي بدأ في تنفيذه قبل ان يحصل الاقتراع عليه

الخاصة الثانية في هذه الديمقراطية القيصرية انها تجمع كل مقاليد الحكم وكل سلطات الدولة بين يدي القيصر بصفته مختار الشعب . فلا محل في هذا النظام لمبدأ فصل السلطات ولا محل لمبدأ الانتخاب . هذا منطق هذا الوضع ولـكنهُ قلما يجرؤ على الظهور بهذه الصورة العارية ، بل هو طمعاً في استدامة عهده ، يتستر ويتحصن ببعض المظاهر الديمقراطية ، بل قد يستكثر منها فيسمح للشعب باجراء الانتخاب لهيئات نيابية ولكنه في الوقت نفسه يحرص على ان يجعلها هيئات مسلوبة السلطان ، محتفظاً بالكلمة العليا والنفوذ الشامل للقيصر وحده . ذلك بيان موجز للديمقراطية القيصرية وليس فيها كما أوضحنا الا قبس ضئيل من الديمقراطية الحقة ، ولذلك لا يظهر هذا الوضع ولا يستنيم الشعب اليه الا على أثر كارثات داهمة تخمد في الشعب عاطفة الحرية ، او تثير فيهِ الجزع والرعب من كارثات أشد . على انهُ مما يؤسف له ان هذا الوضع السقيم الذي يحمل في طياته جراثيم فنائه قد انبعث في أيامنا هذه بعثاً جديداً في صورة «فاشية موسوليني» و «نازية هتلر» وغيرهما من الدكتاتوريات الديمقراطية التي قامت في أوربا على أثر الحرب الكبرى ومستندة الى تأييد وقتي من شعوبها الحائرة ، فهذه الاوضاع الشاذة ان صح تسميتها ديمقراطيات قيصرية لأنها تحمل في ظاهرها أشكال الديمقراطية ، الاّ أنها تخفي في الباطن استبداداً خانقاً لجميع الحريات

(ب) الحكومة النيابية : والآن ننتقل الى الوضع الشائع للديمقراطية غير المباشرة ، وضع الحكومة النيابية . في هذا الوضع يختار مجموع المواطنين فرداً او أفراداً او هيئة او هيئات لتتولى باسم الشعب جميع سلطات الدولة ، هؤلاء المختارون يسمون نواباً ، وما يبرزونهُ من ارادة يعتبر ارادة الشعب برمته . فالحكومة النيابية اذن أساسها انتخاب النواب بواسطة الامة . والديمقراطية والحريات السياسية انما نمت وترعرعت في ظل الحكم النيابي

والكلام على الحكومة النيابية يقتضي البحث في مسائل كثيرة كالتوفيق من الوجهة القانونية بين الحكم النيابي والمبدأ الديمقراطي وبعبارة أخرى التوفيق بين الحكم النيابي

ومبدأ السيادة الشعبية. والتصوير القانوني للعلاقة القائمة بين النائب وناخبيه وبحث الاساليب الانتخابية وأكثرها ضماناً لانشاء التوازن بين البرلمان والرأي العام، وكيفية تحقيق التعاون بين البرلمان والوزارة، الى غيرها من المسائل التي لا نستطيع الخوض فيها في هذه المحاضرة

[ثالثاً] — الحكم الديمقراطي نصف المباشر: هذا وضع للديمقراطية حديث النشأة ولكنهُ يؤذن بمستقبل عظيم فهو مزيج من الوضعين السابقين: الديمقراطي المباشر والديمقراطي غير المباشر — ففيه تقترع الجمعيات النيابية على القوانين ولكن هذا الاقتراع لا يكون نهائيًّا حتى يقرها عليه الشعب في استفتاء عام. وظاهر ان اجراء الاستفتاء الشعبي هو جوهر الديمقراطية بل عنصر من عناصر مثلها الأعلى ولذلك نرى في كثير من الدول ذات الديمقراطية غير المباشرة حركة ترمي الى استكمال النظام النيابي بهذا العنصر الديمقراطي المباشر واقتبستهُ بالفعل بعض الديمقراطيات العريقة كأميركا وسويسرا. كما ان الدساتير الحديثة التي وضعت بعد الحرب قد سجلتهُ في متونها تسجيلاً. ولنبين مبدئيًّا اجراءات هذا النظام وهذه الاجراءات ثلاثة: الاستفتاء الشعبي والاعتراض الشعبي والاقتراع الشعبي

فأولاً — الاستفتاء ويتلخص في ان البرلمان بعد ان يسن القانون لا يصير القانون نافذاً حتى يعرض على الشعب لابداء رأيه فيهِ بنعم او لا، فاذا أقرتهُ أكثرية الناخبين نفذ واذا رفضتهُ لم يصدر ولهذا الاجراء صور مختلفة. اولاً بحسب المرحلة التشريعية التي يعرض فيها القانون للاستفتاء فقد يعرض بعد انتهاء البرلمان من اعتماد القانون وقد يعرض قبل عرض القانون على البرلمان فيطلب الى الشعب ابداء رأيه في أساس القانون لا في تفصيلاته. وثانياً بحسب الشؤون التي تعرض على الشعب لاستفتائه، فقد تكون جميع الشؤون التشريعية أو بعضها أو تكون الشؤون الدستورية فقط. وثالثاً بحسب الأثر الذي يترتب على الاستفتاء فقد يكون استفتاءً الزاميًّا فيقيد البرلمان بحكم الفتوى. وقد يكون استفتاءً استشاريًّا له من القوة ما لسائر الرغبات الشعبية. وأخيراً بحسب السلطة التي تعرض الأمر على الشعب لاستفتائه فقد يكون هذا العرض الزاميًّا عليها اذا كان الدستور يفرض هذا العرض، وقد يكون اختياريًّا اذا كان الدستور أعطاها هذا الخيار

ثانياً — الاجراء الثاني: الاعتراض الشعبي. وهنا يعتمد البرلمان القانون نهائيًّا ويصدره فاذا حصل في فترة محدودة بعد صدور القانون ان اعترض عليهِ عدد معين من المواطنين وطلبوا استفتاء الشعب فيه فيوقف نفاذ القانون انتظاراً لنتيجة الاستفتاء والفرق بينه وبين الأجراء الاول ظاهر

ثالثاً — الاجراء الثالث: الاقتراح الشعبي. وهنا يعطى الشعب اختصاصاً أكبر من

الاستفتاء ففي حالة وجوب الاستفتاء لا يستطيع البرلمان ان يسن قوانينه الاّ بمعاونة الشعب ولكن لا الزام عليه في ان يسن قانوناً في امر معين . اما هنا فالشعب يساهم مساهمة فعلية في التشريع فيكفي ان يوقع عدد معينٌ من المواطنين مشروعَ قانون ويرفعه الى البرلمان لينحتم على البرلمان ان يناقش المشروع ويتداول فيه. وله بعد ذلك الحرية في ان يقره او لا يقره . وللاقتراح الشعبي صورتان . صورة كاملة شكلاً وهي ان يكون مشروع القانون المقدم من الشعب للبرلمان تام الوضع ومحرراً مادة مادة ، وصورة ناقصة شكلاً وفيها يقتصر الشعب على أن يطلب الى البرلمان ان يضع تشريعاً في شأن من الشؤون

هذا عن اجراءات الحكم الديمقراطي نصف المباشر . أما مجال تجاربه الخصيب فكان أولاً في الولايات السويسرية ، ثم انتقل الى كثير من ولايات الاتحاد الامريكي التي اعتل فيها النظام البرلماني اعتلالاً بيّناً ، ثم الى الولايات الانجليزية المستقلة — كندا واستراليا وجنوب افريقيا، ثم الى بعض الدول الاوربية التي أقامت دساتيرها بعد الحرب : المانيا في دستور سنة ١٩١٩ والنمسا في دستور ١٩٢٠ وتشيكوسلوفاكيا في دستور سنة ١٩٢٠ وبولونيا في دستور ١٩٢١ ويوجوسلافيا في دستور ١٩٢١ . والآن نتبين مزايا هذه المساهمة الشعبية في التشريع كما تبدو من خلال التجارب العملية التي تمت في خلال السنوات الأخيرة

ثبت أولا ان الشعب يهتم اهتماماً جديًّا بالمساهمة في التشريع على هذا النحو ولكن بشرط أن تُختار المشروعات التي تعرض عليه للاستفتاء اختياراً حكيماً فيجب أن تكون بحيث تثير اهتمام جمهور الشعب لا فئة محدودة منه ، وان تكون قابلة للاجابة عليها بنعم أو لا ، وان تكون سهلة الفهم من الجمهور لا يلابسها تعقيد فني عميق . وثبت أيضاً ان الاستفتاء الشعبي عدو التجديدات السريعة الجامحة اذا لم يمهد لها القبول عند الشعب من قبل بحملة اقناع ودعاية واسعة النطاق . وثبت ثالثاً ان الاستفتاء الشعبي عدو للاسراف والتبذير الحكومي وان كان لا يضن على المرافق الضرورية بالانفاق السخي، وثبت أخيراً ان الاستفتاء الشعبي له اتجاه حر لا رجعية فيه

وبعد فهذا بيان موجز لمعنى الديمقراطية وتطورها التاريخي وأوضاعها المختلفة . ولما كانت الاشياء تتميز بأضدادها فلابدّ لاستكمال صور الديمقراطية من مقارنة سريعة بين مبادئها والمبادىء المقابلة في النازية والفاشية

كيف تتعارض مبادىء النازية والفاشية مع مبادىء الديمقراطية

روي عن أحد الصحافيين النازيين في جنيف انه جلس يتحدث الى بعض زملائه في تنظيم اوربا فقال :

«أتعلمون ما هي علة اوربا. علتها وداؤها الدفين هو الثورة الفرنسية التي سممت قرناً ونصف قرن من شعوب اوربا بمبادىء الحرية والمساواة والاخاء فمن هذه المبادىء نبع كل الشر الذي تئن منه اوربا اليوم »

ذلك حكمهم العام على بعض مبادىء الديمقراطية التي اعلنتها الثورة الفرنسية. فلننظر الى مبادىء الديمقراطية مبدأً مبدأً ولننظر الى مايقابله في دينهم

اولاً — احترام الانسان : الديمقراطية ترى ان الانسان جدير بالاحترام لانسانيته المجردة فهو غاية في ذاته لا وسيلة الى غايات أخرى ، اما الفاشية او النازية فلا ترى في الانسان الا قطرة في بحر القومية، خلية في الجسم السياسي، ولا غاية من وجودها الا مصلحة هذا الجسم. فهتلر في كتابه يقرر ان « الفرد ليس له اي حق الا ما تسمح به وظيفته كجزء من الدولة» مامعنى ذلك ؟ معناه ان الدولة لها كيان مستقل ولها ارادة تغاير ارادات الافراد المكونين لها، ارادة أعلى من تلك الارادات جميعاً ، وان للدولة غايات ومآرب يجب ان تخضع لها غايات ومآرب الافراد المكونين لها . ليس لهذه الاعضاء وجود ما حي خارج هذا الجسد. هذه تعبيرات بعض فقهاء القانون العام عندهم ويمضون في هذا التمثيل الى أقصى مداه . فيقولون ان الجسد الحي شيء أكثر من مجموعة من اللحم والعظم والدم والعصب . واذن لا يصح ان يقال ان للرئتين حقوقاً خاصة بهما قبل الجسد المندمجتين فيه . ولا يقال ان للقلب في ذاته غايات أخرى غير مايؤدي الى خير الجسد برمته. كذلك الدولة. ليست مجرد مجموعة من المواطنين الساكنين في أراضيها بل لها شخصية مستقلة تعلو وتهيمن على جميع الافراد المكونين لها الذين ليس لهم اذن شخصية ما خارج الدولة ، كما ان القلب ليس له وجود ما حي خارج الجسم . فالفرد ملك للدولة وجزء مندمج بكليته فيها ، ولا يصح ان تكون له غايات مستقلة عن الغايات التي تبتغيها الدولة ولا أي حق ولا أي تفكير ولا أي وجود الا بالقدر الذي ترتضيه الدولة ، او كما يقول موسوليني « الدولة الفاشية كُلٌّ مطلق لاحد له ولانهاية وليس كل الافراد والجماعات ازاء الدولة الا مجرد أشياء نسبية »

وما ينطبق على الفرد ينطبق على أي مجموعة من الافراد رأت ان تشترك جهودها لخدمة غرض يعود بالخير على هؤلاء الافراد ، فمثلاً نقابات العمال هيئات تسعى لخدمة مصالح أعضائها العمال باعتبارهم عمالاً فيجب ان لا يكون لهذه النقابات وجود لان « الدولة الفاشية — كما يقول موسوليني — قد استوعبت كل الجهود الاقتصادية للامة ، والدولة وحدها بما تنشئه هي من مؤسسات نقابية ، لا بما ينشئه الافراد أحراراً ، تنظم كل أوضاع الحياة الاقتصادية للامة » . وكذلك الحكم في كل أوضاع الحياة العلمية والفكرية والدينية . فالعلم والبحث

العلمي الحر يجب ان يتجها الى كشف الحقائق واستنباطها لمعرفة الحق في ذاته ، ولذاته ، لا كما تصوره الدولة او تمليه . وإذن لا مناص من ان تعلن عليهما الدولة النازية والفاشية حرباً شعواء

صدر مرسوم من الحكومة الروسية في مارس سنة ١٩٣٤ يقرر ان «الوطنية الاشتراكية لاتجنح الى التعليم الذي يكون العلم المجرد هدفه الوحيد» ويقول العالم الامريكي Mr. Ashton المستر اشتون في كتابه « العقلية الفاشستية» The Fascist and His State of Mind « العالم في الدولة الفاشية ليس حرًّا في البحث عن الحق الاَّ كما تراه الدولة » . والفن قوامه حرية الفنان في اتباع الهام فنه، ووحي شعوره ، ولكن الدكتور جوبلز يقرر أنه « طالما بقي في المانيا فن محايد أو فن غير سياسي فان مهمتنا لم تنته بعد » والكنيسة الكاثوليكية هيئة مستقلة لا تشعر بتبعية في هذه الأرض الاَّ للبابا ولله ، والكنيسة البروتستانتية تقرر ان صوت الضمير هو صوت الله ، وتقرر أن لها الحق في أن تقول « لا » للدولة فلا حيلة للنازية اذن في مطاردتهما ووضع قسسهما ورعاتهما في معسكرات الاعتقال

هذه صورة سريعة لموقف النازية والفاشية من كل نشاط مستقل للعقل والروح . وهو موقف منطقي ما دامت كل منهما تنكر المبدأ الديمقراطي الذي يقرر احترام الانسان لذاته ، وأنه غاية في ذاته . فالفكر الحر والنقد الحر والبحث الحر والعبادة الحرة وغيرها من صور النشاط الفكري والروحي لا تحتاج الى تبرير في نظر الشعوب الديمقراطية التي تؤمن بأن الانسان غاية في ذاته والدولة انما هي الوسيلة لخدمة الانسان . أما حيث يكون الانسان مجرد أداة في قبضة الدولة ، كالآلة في يد الميكانيكي يحركها كيف يشاء أو يُسكتها عندما يشاء ، فلا محل اذن لأي نشاط مستقل للعقل الآدمي والروح الآدمية

ثانياً — الحرية : رأي النازية والفاشية في الحرية معروف فلا أطيل الكلام فيه، وانما أكتفي بفقرتين في هذا الموضوع لموسوليني وهتلر هما من جوامع الكلم

يقول موسوليني في كتابه « النظرية السياسية والاجتماعية للفاشية » « الفرد بمقتضى مذهبنا يُنزع من حريته كل ما كان منها غير نافع له ، أو ضارًّا به ، ويستبقى بعد ذلك القدر الضروري . والحكم في هذا الأمر ليس الفرد نفسه ، وانما الدولة وحدها » ومعنى ذلك بعبارة اخرى أن الدولة الفاشية مستعدة لأن تمنح مواطنيها من الحرية القدر الذي يكون صالحاً لهم . أما ما هو هذا القدر وما مداه فذلك متروك لمشيئة الدكتاتور وحده . وأما هتلر فيخبرنا في كتابه « كفاحي » « ان تلك النظرية التي بمقتضاها يكون للانسان حق في حريته وفي كرامته نظرية مخربة لا تفضي الاّ الى الدمار » . ثم يمضي في سفسطة

احتيالية فيقول « ان الفرد عند ما يخدم أغراض الدولة — بعبارة اخرى — عند ما يخدم أغراض الدكتاتور — انما يحقق حريته الصحيحة لأن الفرد لا يكون حرًّا الاّ في المجموع، والمجموع لا يكون دولة ذات سيادة الاّ اذا كان لا يُجيز أي مناقشة أو رقابة أو حساب »

هـذا جوهر النظرية النازية . ولـكنها في هذا الوضع العاري تبدو سخيفة لا يجيزها عقـل ، ولـكنها في الواقع تستند الى أصل محترم من الاصول الديمقراطية ، شوّهه فقهاء النازي وصرفوه الى غير مرماه . هذا الأصل هو ما أشرنا اليه في بداية هذا البحث من أن الانسان لا يستطيع أن يحيا حياته الطيبة ، ولا أن يستكمل متاعها الاّ في المجموع ، وانه لذلك يكون الغرض من المجتمع هو تدبير تلك الشروط والنظم التي تمهد للفرد سبيل الحياة الطيبة وسبيل الحرية الحقة ، وان على الفرد أن يخدم المجتمع لتـكمل قدرة المجتمع على خدمة الفرد غير ان فقهاء النازية (من Fichte الى Hegel الى Bernhardi) استخلصوا من هذا الاصل المحترم نتيجة معكوسة المدلول . فقالوا ان الفرد انما خُـلق لأجل المجموع فهو الوسيلة التي يستخدمها لبلوغ الغايات التي يبتغيها المجموع كما رسمها أولو الامر فيه ، ولما كان أولو الأمر في البلاد النازية والفـاشية هم الجند والموظفون فلهؤلاء إذن أن يسخروا الأفراد لبلوغ كل ما يبتغون لأن الأفراد بذلك — وبذلك فقط — يحققون حريتهم الصحيحة في خدمة المجموع. وقد ترجم أولو الأمر هذا المبدأ عمليًّا بأن الألماني لكي يحقق حريته في خدمة المجموع يجب أن يقتُـل او يُـقتل وان الالمانية لكي تحقق حريتها في خدمة المجموع يجب ان تلد من سيقتلون او يُـقتلون . ويقول هتلر في ذلك . « ليست هناك ميزة أعظم أو أرفع من أن تبعث المرأة بأبنائها الى حومة القتال »

ونهاية هذا المبدأ هي ان الالماني او الالمانية يجب عليه ان ينفذ كلَّ ما يؤمر بهِ ، وكما أُمر بهِ ، وألاّ يكف الاّ عما كان منهيًّـا عنه ، بعبارة أخرى كل ما عدا المنهيات الزامي عليه

ويقول الكاتب الاميركي روبرت بريدي (Robert Brady) في كتابه بنيان الفاشية الالمانية (The Spirit and Structure of German Fascism) في شرح مدى ما ذهب اليه هذا المبدأ . « معنى ذلك بلغة صريحة ان الزعيم في اقليم ريفي مثلاً يقول لمندوبيه ما يجب ان يعملوه ، وان هؤلاء يقولون بالمثل لمرؤوسيهم ما يجب ان يعملوه ، وان على هؤلاء ان يقولوا للفلاح ما يجوز له ان يمتلـكه ، وما يجوز له ان يبيعه ، ولما كانت الفلسفة النازية تدعو الى الانسجام التام في الروح والفكر فان طريقة الأمر هذه تسري على هذا التسلسل الى كل مظاهر الحياة الاجتماعية ، والى تنظيم اوقات الفراغ والى كل ما يجوز للزارع وأسرته وجميع عمال الريف ان يتناوله تفكيرهم ، وعلى أي نحو يصاغ هذا التفكير في كل ما يمس

الشؤون الالمانية ، وهذا ما يسميه الكتاب النازي «بالحرية الالمانية الجديدة »

ثالثاً — العدالة: ترى الديمقراطية أن القوانين يجب ان يسنها الشعب بواسطة نوابه المختارين ، وان القضاة الذين يوكل اليهم تطبيق هذه القوانين يجب ان يُصان استقلالهم وان يكفل في أحكامهم البعد عن التأثر بمؤثرات سياسية او حزبية او بأهواء أولي الأمر . أما النازية فترى كما قدمت سخافة البحث عن الحق في ذاته ولذاته ، والحق والعدل صنوان ، وترى على لسان « جورنج » « ان العدل وارادة هتلر اسمان لشيء واحد » وترى على لسان فاجنر أحد وزراء بروسيا السابقين ان « العدل ومصلحة الدولة شيء واحد فحيث تكون مصلحة الدولة الالمانية يكون العدل،ولاعدل حيث يلحق أي ضرر بمصلحة الدولة الالمانية»

ترتب على ذلك ان الفرد لا يجد أي حماية من أي حركة استبدادية من جانب السلطات ولايستطيع ان ينطق بما يريد ، او يقرأ ما يريد ، او يستمع الى ما يريد

لايستطيع ان ينطق بما يريد لان كلمة عارضة قد ينقلها الى الجستابو أصدقاؤه او خدمه او أولاده وفلذات كبده ، فيجد نفسه في الصباح بعد محاكمة صورية أمام محكمة حزبية سجيناً في معسكرات الاعتقال . ولايستطيع ان يستمع الى مايريد لان الاستماع الى الاذاعات الاجنبية من أشنع الجرائم في الريخ الالماني . ولايستطيع ان يقرأ ما يريد لان الكتب التي لا يتفق تفكير كاتبيها مع المبادىء النازية قد أحرقت في الميادين العامة وما نجا منها من الاحراق قد أصبح منهيًّا عن قراءته او حيازته . واذا كان من دعاة السلم او الاشتراكية الحرة او الديمقراطية ، فالويل له اذا جاهر بما يعتقد بل عليهِ ان يكبت مشاعره ، ويسكت دقات قلبه الخفّاق بما يشعر ، وعليهِ ان يتوجس خيفة من كل خطوة في الشارع وكل دقة على الباب ، وهو يعلم ان أولاده قد علموا في المدرسة ان يتجسسوا على آبائهم ، وان الزوجة قد أمرت بالتجسس على زوجها،وانها لمجرد خصام عائلي عارض قد تلقي به في معسكرات الاعتقال

كل هذه النتائج ترتبت على انكار النازية والفاشية للعدالة الديمقراطية التي تقضي بان القوانين التي تنظم حياة الشعب ، ويسنها ممثلون للشعب ، يجب ان يطبقها قضاة عدول ، قادرون على حماية الشعب من عبث السلطات وجور الحكام ، العدالة الديمقراطية التي ترى ان كل صاحب سلطة ليس على استعمالها ضابط او رقيب يجنح بالرغم منهُ وبحكم الطبيعة البشرية الى أساءة استعمالها والعدوان فيها ، وان هذا الرقيب يجب ان يمكّن من عزلحا كه اذا اساء استعمال الامانة الموقوتة المودعة بين يديه

رابعاً : المساواة : تؤمن الديمقراطية بالمساواة . لا بمعنى ان الناس متساوين في الملكات والمواهب والقوى ، فذلك ما لا يسيغه العقل ، ولكن بمعنى ان الناس جميعاً متساوون في

جواز التمتع بما لديهم من ملكات ومواهب وقوى ، متساوون في حرياتهم ، متساوون في حرمة اشخاصهم على السواء . ذلك ما تقرره الديمقراطية وتؤمن به ، وتصوغ شرائعها على غراره. اما النازية فتنكر كل هذا تنكرها على اساس اعتبارات قومية وسياسية . فهي ترى على العكس ان بعض الشعوب — كالشعب الالماني أرفع مكانة من الشعوب الاخرى ، وان بعض افراد الشعب الالماني كأعضاء الحزب النازي — ارفع مكانة من سائر الافراد

تلك هي العقيدة النازية. وهي ليست من ابتكار هتلر وشيعته ، وانما يمتد أصولها الى فلاسفة الالمان منذ بداية القرن التاسع عشر . فمثلاً فيشت (Fichte) يبتكر للبشر تمييزاً بين ما يسميه الرجل «الشريف» والرجل الحقير مع درجات متفاوتة في الشرف والحقارة ، ويميز في الشعب الالماني نفسه بين « الرجل الشريف » الذي يرى نفسه رمزاً لامته ، ويقبل ان يفديها بحياته ، وبين الرجل « الحقير » الذي لم يوجد الاّ لخدمة الرجل الشريف ، ويقول ان الخدمة العسكرية ومع انها الزامية للاثنين على السواء ، الاّ أن الرجل الشريف يضحي بنفسه ابداً على مذبح الوطنية العليا ، بينما الرجل الحقير الذي لم يوجد الاّ لخدمة الشريف يجب ان يضحي بنفسه كذلك في سبيل خدمته ، والشريف يُربَّى على ان يحارب ويحكم . اما تعليم الحقير «فيجب ان يقتصر مداه على ما يؤدي الى محق حرية الارادة فيهِ». هذا عن الالمان انفسهم فاذا نزلنا في سلم الانسانية درجات اخرى وصلنا الى التمييز بين أحقر فرد في الشعب الالماني من جانب وأشرف الشعوب الاخرى من جانب آخر فالالماني الحقير يفضلها جميعاً لان قوة الخلق لا توجد الاّ في الجنس الالماني « فالجنسية الالمانية والقوة الخلقية مترادفان لا يفترقان »

ذلك ما يقوله فيشت في بداية القرن التاسع عشر. ثم يعقبهُ نيتشه Nietsche فيسجل انعدام المساواة بين المخلوقات البشرية ، ويمضي في تمجيد السادة الاشراف وهم « القادرون على البطش والامر » ويعرف «الشرف» بانهُ « الاستعمال الناجح للقوة » ويرى في الحرب «الملهب لجذوة العلو في الانسان الرفيع وفي الشعوب الرفيعة . أما الشعوب الحقيرة الضعيفة فلا علاج لها الا الاستئصال بالحرب أو الفناء فيه ، فالسل كما يصيب الافراد قد يصيب الشعوب ، ولا بد له من علاج وحشي قاطع . أما الرغبة الدائمة في الحياة والجزع من الموت فهما نذير الانحلال في الافراد والشعوب »

كان لتعاليم (فيشت) و (نيتشه) أكبر الاثر في المذهب النازي الحديث فكلاهما على الارادة القاهرة وعلى تمجيد القوة وتقسيم البشر الى قسمين : قسم يملك من قوة الارادة ما تمكنهُ من الاستيلاء على السلطة ، ثم يصول بها كيف يشاء ويحكم في النهاية البشر جميعاً وقسم

تعوزه الارادة والقوة ولا يصلح الاّ أن يكون محكوماً ومسيطراً عليهِ والاستهزاء بفضيلة الحنان والرحمة وجميع الفضائل التي دعت اليها الديانة المسيحية. كل هذه التعاليم تسمع صداها وتلمس أثرها في أقوال حكام المانيا الحاضرة وأفعالهم. ففي داخل الدولة النازية ترى معالم عدم المساواة حيثما مددت بصرك. ففي داخل الحزب النازي ترى عدم المساواة بين فريق (S. S.) وفريق (S. A.)، وبين الفريق الأخير وسائر أعضاء الحزب، وبين أعضاء الحزب جميعاً وسائر الشعب الالماني. ثم ترى عدم المساواة بين الشعب الالماني برمته وسائر الشعوب الأخرى. ثم بين هذه الشعوب الاخرى تراهم يفرضون عدم المساواة فأمم كالهولنديين والنروجيين والدنمركيين لها عند الألمان بعض المكانة، وشعوب أخرى كالتشيك والبولونيين لا يراهم الالمان أهلاً لأن يكونوا الاّ فلاحين وأُجراء في خدمة الشعب الالماني السائد. وأخيراً يقررون عدم المساواة بين الشعوب الأوروبية جميعاً والشعوب الافريقية التي يرى الالمان انها من طينة لا تداني طينة البشر وإذن ليسوا أهلاً لان يتمتعوا بأي حق من حقوق الانسان

الى هذا المدى ذهبت تفريعاتهم في تسجيل مبدأ عدم المساواة. ومعيار الامر في هذه الترتيبات المتفاضلة كلها معيار واحد: مبلغ البراعة ومبلغ القسوة في استعمال القوة. فالطبقة السيدة هي الطبقة التي نجحت بأي وسيلة في الاستيلاء على مقاليد السلطان واستبقاؤها لهذه السيادة انما مناطه قدرتها على الاحتفاظ بهذه المقاليد

هذه عقيدة النازية والفاشية على السواء في فرض عدم المساواة بين البشر. وهي تناقض عقيدة الديمقراطية في المساواة بالمعنى الذي سبق بيانه. ولا غرابة إذن ان نسمع موسوليني يقول «الفاشية تنكر من الديمقراطية تلك الأكذوبة السخيفة المألوفة. أكذوبة المساواة السياسية»

خامساً — الحكومة النيابية: الديمقراطية تدعو الى انتخاب نواب عن الامة يعمدون الى تنفيذ آراء ناخبيهم في الحكم، والديمقراطية لا تصدر في ذلك عن عقيدة بلهاء بأن هؤلاء النواب المختارين سوف يكونون أكثر ذكاءً او أصدق أمانة او أعلى كفاية من متوسط ناخبيهم، او انهم سوف يسعون أبداً الى انجاز برنامجهم الانتخابي، او الى تحقيق خير ناخبيهم، وانما الديمقراطية تأخذ بالحكم النيابي لانهُ أقل الاساليب خطراً وأهونها شرًّا في اختيار الحكام. فالحكم النيابي بالرغم من كل مساوئه وآثامه ما زال خير ما ابتدع الانسان في فن الحكم، ذلك لانهُ في جوهره يمكن الناخبين في دورات متعاقبة من الخلاص

من حكامهم المختارين . وفي ذلك رقابة دائمة متجددة على حسن استعمال أداة الحكم

والحكم النيابي يقتضي سيادة الكثرة العددية . وهنا أيضاً لم تكن الديمقراطية من البلاهة — كما يحسب خصومها — بحيث تتصور ان الكثرة تكون دائماً مجبولة على الأخذ بأسباب الحكمة وانتهاج نهج الحق ، وان سواد الشعب يكون أقرب الى العصمة من الزلل من أقليته . كلاَّ . ولا هي تنكر ان بعض الخبراء الفنيين يكون أحكم وأقدر على حل كثير من المشكلات من الرجل العادي ، وانما هي تأخذ بحكم الكثرة العددية لسبب بسيط : وهو ان ما يراد انجازه في المجتمع هو ما يطلبه غالبيته،وعلى النحو الذي يرتضيه غالبيته ، ولا يمكن الحكم على ما يطلبه المجتمع الاّ باستفتاء هذه الغالبية نفسها

كذلك في سن القوانين . لاشك أنك اذا عهدت بوضعها الى خبراء غير منتخبين حصلت على قوانين أحكم مما تسنه غالبية منتخبة لم تكتسب فقه هؤلاء الخبراء . ولكن سياسة الدولة لا تكون رشيدة لمجرد ان قوانينها محكمة كاملة ، بل يجب ان تكون هذه القوانين — قبل كل اعتبار — ملائمة لسعادة الشعب — ملائمة لمزاجه القومي ، كفيلة بطاعة الشعب لها طاعة مختارة ميسورة بحكم هذه الملائمة ، وخير للبشر ونقائصهم الفطرية كما تعلم — أن يعيشوا في ظل قوانين ناقصة ولكنها ملائمة لهم تطابق رغائبهم وتسد حاجاتهم على الوجه الذي يبتغون ، من أن يعيشوا في ظل قوانين كاملة لا تلائمهم . فالقدم المشوهة اذا وضعتها في حذاءٍ كامل شعر صاحبها بتنغيص مستمر، كذلك أي مجتمع بشري شامل لخلائق بشرية ناقصة لا يمكن أن تحشره في رداء من القوانين الكاملة . وينبغي اذن أن نفصّل رداءنا التشريعي على ما يكون بين أيدينا من قماش الطبيعة البشرية لان صاحب الرداء او الحذاء هو وحده الذي يشعر بمكان الألم من الرداء أو الحذاء فيجب ان يكون له وحده حق اختيار الرداء أو الحذاء الذي يلائمه. ذلك تفسير الديمقراطية في ايثارها لحكم الكثرة العددية والحكم النيابي

غير أن هذه المبادىء — مبدأ الحكم النيابي ومبدأ أن الكثرة العددية هي التي ترسم السياسة العامة للدولة وأن الكثرة هي التي يعهد لنوابها في وضع قوانين الدولة — تنكرها النازية والفاشية على السواء فكلاهما لا ترى أن يكون لرأي السواد الأعظم من الشعب وزن ما ولا تفقه أن الأفراد وان تفاضلوا في الملكات والمواهب وفي مبلغ نفعهم للمجتمع الاّ أنهم جميعاً متساوون — بحكم الطبيعة البشرية — في مبلغ حرص كل شخص على ما يعنيه ، ومبلغ اعتداده بذاته وان كان أضأل الناس شأناً في المجتمع، وتصر على أن مقاليد الحكم يجب أن يتولاها فقط « أشراف » القوم وعليتهم بالمعنى الذي سبق لنا بيانه . وفي ذلك يقول موسوليني «ان من أسخف الأكاذيب أن الكثرة العددية — لمجرد أنها كثرة — تملك أن تدير شؤون

المجتمع وتتولى مقاليد الحكم فيه عن طريق انتخابات دورية، أما الحقيقة الخالدة النافعة الثمرة فهي انعدام المساواة بين البشر ذلك الانعدام الذي لاسبيل الى علاجه بتلك الأداة المصطنعة. أداة الانتخاب العام

فالنازية والفاشية تريان أن سبيل قيام الحكومات لا يكون بالانتخاب من أدنى بل بالتعيين من أعلى. فعلى رأس البنيان الحكومي يكون الزعيم (duce, fuerher) غير مسئول أمام أحد من الرعية، ولا يدين بحساب لسلطة أعلى الا ما قد يحلو له من وقت لآخر عند بعض المناسبات من ترديد صلته بالله ومسئوليته أمام الله. أما كيف يكون اختيار هذا الزعيم فذلك من مجاهل الفاشية التي لا يجوز الولوج فيها. فهو لا ينتخب انتخاباً، وانما يظهر في الكون ظهوراً، ومتى ظهر تقمص في شخصية الارادة العامة للشعب، فما ينطق به، وما يأمر به، فكأنما نطق به الشعب جميعاً وأمر به الشعب جميعاً، لانه الأمة في فرد، وفي خلال ذلك يتخير لوظائف الدولة ومناصب السلطان فيها صفوة أتباعه جزاء لهم عن ولائهم السابق ثم تمضي أعجوبة الزعامة في طريقها المرسوم من أعلى الى أدنى: فيعين أتباع الزعيم حكاماً دونهم يأتمرون بأمرهم وهلمَّ جرًّا. وعلى هذا النحو يقوم صرح النازية او الفاشية مشمخرًّا شاملاً للمجتمع برمته، من حكومة الى صناعة الى تعليم الى زراعة الى تجارة الى قوة مسلحة الخ. فقر السلطان متربع في رأس هذا السلم، ثم تهبط منهُ ذرات متتابعة الى كل شاغل درجةٍ أدنى فيه، الى ان تصل الى الطبقة الدنيا في النهاية، حيث يكون سواد الشعب أولئك الذين قالوا عنهم «انما خلقوا لخدمة آخرين» والذين «قد نزعت منهم حرية الارادة وسحقت سحقاً»

وإذن لا توجد في الدولة النازية او الفاشية ضمانة ما من سوء الحكم او وقاية ما من الظلم، لأنهُ لا توجد أي وسيلة دستورية تلجأ اليها الرعية للخلاص من بغي حكامها وسوء عملهم الاَّ اذا سلكت سبيل الثورة، والثورة تتطلب قوة مادية أعظم من قوة الحكام. وما دام هؤلاء قادرين على الاحتفاظ بالمناصب التي اقتسموها بينهم هذا الاقتسام المتدرج — بفضل ما لديهم من قوى أحسن تنظيماً وتدريباً — فلا تزال دولتهم قائمة ولا تزال المعارضة مكبوتة الى الأبد

سادساً — التعليم: الديمقراطية تؤمن بوجوب اتاحة فرص متساوية للكافة في استثمار ما لديهم من ملكات ومواهب عن طريق التعليم. وتؤمن بأن كل طفل مهما يكن وضيع المنبت لا يجب ان يحرم هذا الحق، كما لا يجوز لانسان مهما يكن رفيع المولد أو عظيم الثروة ان يدعي لنفسه حقًّا أكبر في التعليم من حق مواطن آخر دونهُ ثروة ومولداً. أما النازية فتنكر كل هذا إنكارها للمساواة بين البشر وهي تعترض على التعليم من ناحيتين: الاولى ان

التعليم يفضي الى تكوين « عبيد غير صالحين » (bad slaves) في حين ان الفلسفة النازية كما رأيتم تحبذ وجود طبقة مستعبدة وأمم مستعبدة . وقد روى راوشننج (Rauschning) عن هتلر في كتابه (Hitler Speaks) انه قال . «التعليم العام يهدد بقاء الطبقة المستعبدة» ثم يفضي اليه بعزمه على القضاء على التعليم العام « لأنه من أسوأ السموم التي اخترعتها الديمقراطية لدمارها »

والثانية ان التعليم يوقظ العقل ويشحذ الفكر ، ومتى استيقظت العقول اتجهت الى التفكير المستقل والنقد الحر . وليس أخطر على مذهب يرى ان الانسان مجرد وسيلة ومطية لأغراض الدولة وحكامها من التفكير المستقل والنقد الحر . فيجب انَّ يمحى كل تعليم هذه غايته وهذا مرماه ، ويجب ان يقتصر التعليم في دنيا النازية والفاشية على نقل ألوان من المعرفة الى ذهن الفرد تزيد في قدرته على انجاز ما يأمره بهِ حكامه على الوجه الأكمل ، ولكن لا يحيي فيه ملكة النقد ، ولا يدرب التفكير الذاتي المستقل ، بحيث يقرأ ولا يفقه ان ينقد ما يقرأ ، ويسمع ولا يملك ان يناقش ما يسمع : تعليم يخلق خرافاً آدمية طيعة ذلولاً

سابعاً — الدين : كان بودي ان أمضي في هذه المقارنة بين مبادىء الديمقراطيه ومبادىء النازية والفاشية وعلى الاخص لاحدثكم حديثاً طريفاً عن النازية والدين وكيف قدسوا هتلر ورفعوه الى مرتبة الآلهة حتى قال فيهِ وزير العدل الالماني دكتور فرنك (Dr. Frank) «الله وحيد وهتلر وحيد فهتلر شبيه الله وند الله»

***

كان بودي ان أمضي في استكمال هذه المقارنة الى كل ما يتفرع عن الديمقراطية من قواعد وأحكام وما يقابلها في دنيا النازية والفاشية من مساوىء وآثام ولكني تجاوزت الوقت المقرر وأراكم قد تبينتم مما قدمت في تحليل معنى الديمقراطية وتطورها التاريخي وأوضاعها المختلفة ومقارنة بعض مبادئها بمبادىء النازية والفاشية ، تبينتم في وضوح لا ريبة فيهِ ان الديمقراطية مازالت أصلح أساليب الحكم لاسعاد الانسان ، وما زالت أقلها خطراً على حريات الانسان . صحيح أن عللاً انتابتها ، وآثاماً لوثتها ، ولكنها جديرة منكم ببذل أغلى الجهود لابرائها من هذه العلل وتطهيرها من تلك الآثام

أما كيف تبرأ الديمقراطية من هذه العلل وكيف تطهر من هذه الآثام فذلك بحث آخر أعدكم بعلاجه قريباً في حديث مقبل أرجو أن يقترن بيوم انتصار الديمقراطية القريب

الديمقراطية والعالم

سلسلة نفيسة من الفصول تعنى بالاصول

بيان المحاضرات

(١) « معنى الديمقراطية »
للدكتور محمد عبد الله العربي بك
[نشرت في مقتطف فبراير ١٩٤٢]

(٢) « الديمقراطية والعوامل السيكولوجية »
للدكتور أمير بقطر

(٣) « الديمقراطية ونظام الحكم
للدكتور محمود عزمي بك

(٤) اثر الديمقراطية في الحياة الاقتصادية
للاستاذ عزيز ميرهم

(٥) « الديمقراطية وتكوين الاخلاق »
للدكتور منصور فهمي بك

(٦) « الديمقراطية والحياة الاجتماعية »
للدكتور طه حسين بك

(٧) «العلم بين الدكتاتورية والديمقراطية »
للاستاذ فؤاد صرّوف

(٨) « تطور الديمقراطية »
للدكتور ابراهيم بيومي مدكور

الديمقراطية

والعوامل السيكولوجية

محاضرة الدكتور امير بقطر

قرأت منذ سنوات لبنيامين كريميو (M. Benjamin Cremieux) وهو من اكبر النقّاد الفرنسيين ، ان المسألة التي كانت تشغل الاذهان في العالم المتمدين منذ نهاية الحرب العظمى (أي من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٣٠) هي علاقة الفرد بالمجتمع . اما بعد ذلك التاريخ فقد أصبحت المسألة الشاغلة للأذهان ، هي علاقة الفرد بالدولة . قبل ذلك الحين ، كان معظم الساسة وأتباعهم مجمعين ، على ان الهدف الاسمى في السياسة القومية ، هي اسعاد الفرد ، وان الدولة ما هي الاّ خادمة الفرد . اما بعد ذلك التاريخ ، فأخذ البعض يشكون في هذا الزعم ، ويرتابون في فلسفته ، وأخذ هذا الشك تنمو اصوله ، وتمتد فروعه ، بقيام الدكتاتوريات في شتى صورها ، في تركيا ، وروسيا ، وايطاليا ، والمانيا ، وبعض بلدان اميركا الوسطى والجنوبية ، فانقلب الوضع وأخذ البعض ينادون بأن الفرد لاوجود له ، لانهُ يذوب في المجتمع ويختفي ، وانما هو وسيلة لغاية ، وما الغاية او الهدف الأسمى في السياسة القومية الاّ تخليد الدولة ، وتعزيز كيانها والفرد ما هو الاّ خادم الدولة

وينتج من هذا التقسيم ان انصار الدكتاتورية يعتنقون مبدأين أساسيين ، يكاد يكون كلّ منهما اصلاً من أصول الايمان وهما (اولاً) : ان الطبيعة فاسدة ، شريرة منحطة ، وحشية ، وان صقلتها يد التربية بعض الشيء وهذبتها الثقافة بعض الشيء ، ولا سبيل لحكم الافراد والجماعات الاّ بأخذهم بالعنف والشدة والحزم . (وثانياً) ان الاعتصام بالمبادىء الاخلاقية والانسانية ، في حكم الافراد ، ومعاملة الجماعات ، وتقرير العلاقات الدولية ، انما هو من مخلفات العصور البائدة ، ومن بقايا التقاليد العتيقة ، من خرافات الوثنية واليهودية والمسيحية ، التي لا تصلح للقرن العشرين

لنعالج اولاً المبدأ الاول ، لنرى الى أي حد يتفق والعوامل السيكولوجية كما فهمها العلماء قديماً وحديثاً . اذا رجعنا الى علماء الاغريق ، وهم بلا منازع سادة العالم في علم النفس السياسي ، ألفيناهم قليلي الثقة بالطبيعة الانسانية . فقد كان ارسطو يعتقد ان معظم الشرور والكوارث أساسها الطبيعة البشرية ، وان الانسان في المتوسط ، اقرب الى الوحش منهُ الى الانسان

تقولون ، وما لنا بأرسطو . لقد مضى على قوله هذا اكثر من اثنين وعشرين قرناً . ألم تتهذب في أثناء هذه الحقبة الطويلة الطبيعة الانسانية ؟ لا بأس . لنرجع بحضراتكم الى احد علماء القرن العشرين ، ومن أكبر علمائه الاحياء في علم النفس ، وهو ادوارد ثورنديك. يقول ثورنديك انهُ في خلال الخمسة والعشرين الف سنة الماضية ، اي منذ ان كفَّ اجدادنا عن تسلّق الاشجار، وكفَّ أسلافنا عن ان يكونوا من ذوات الاربع، وثب العقل البشري وثبات واسعة ، وخطا في سبيل التقدم خطوات كبيرة ، ولكن عاطفته وميوله ونزعاته وشهواته لا تزال خشنة، جامحة، منحطة ، بهيمية ، وحشية ، متأخرة ، وكأنها لم تتقدم ابداً . ولا يخالف ثورنديك في هذا القول عالم من علماء النفس

وقد نادى سقراط بسقوط الديمقراطية لأنها تفرض في العدد والكثرة واغلبية الأصوات، الحكمة، رغم الحقيقة الواقعة وهي ان الناس يكونون عادة حكماءً افراداً، ورعاعاً حمقى، جماعات. يتساءل سقراط : أليس من العجب ان تخضع امة باسرها لتهريج الخطباء ، وان يرضخ شعب برمته متأثراً برنين اصوات برلمانية، هي في الواقع جعجعة اوانٍ فارغة ؟

ولم تنج الديمقراطية من تهكم افلاطون ، اذ يقول ان الغرض من الديمقراطية المساواة في الفرص ،خصوصاً في تربية الاكفاء وتقليدهم زمام الحكم . ثم يتساءل : ولكن هل تتبع الديمقراطيات هذا المبدأ ؟ ألا تتدخل السلطة التشريعية (اعضاء البرلمان) في اعمال السلطة التنفيذية بالضغط والارهاب ، افراداً وجماعات فتكسح البلاد موجة من «المحسوبية» (favouritism) و « القريبية » اذا صح هذا التعبير (nepotism)

ويقول افلاطون: اننا في الاشياء العادية ، كصنع الاحذية مثلاً ، نفكر في رجل مدرب، حذق صناعة الأحذية ، كلما أوصينا بعمل حذاء . ولكننا في السياسة نظن ان كل من نال عدداً اكبر من الاصوات يستطيع ان يدير دفة دولة بأسرها . وعند ما يعتري المرض فرداً من الأفراد ، فانهُ يستدعي طبيباً متمرناً حاذقاً في مهنتهِ ، ولا يبحث عن أفصح الأطباء ، واكثرهم بلاغة وتهريجاً ، ولكن عندما تكون الدولة هي المريضة ، فاننا لا نبحث عن رجل تتوافر فيهِ الحكمة السياسية والصلاحية المهنية

ولا يخرج كلام ارسطو عن اقوال استاذه افلاطون واستاذ استاذه سقراط فيقول : ان نظام الحكم مسألة شائكة ، هيهات ان تتولى حلها هيئة قوامها العدد والبلاغة الكلامية . وهل يستطيع غير الاطباء ، الحكم على صلاحية طبيب ، أليس الواقع ان المساواة ، وان كان لها وجود امام القانون ، فان تصورها بين الناس حلم من الاحلام ؟

يضاف الى هذا كله مبدإ سيكولوجي هام ، يطعن المبادىء الديمقراطية في الصميم .

ويستند هذا المبدإ الى التجارب التي جرّبها علماء النفس في الذكاء ، فقد أظهرت اختباراته ان متوسط ذكاء الأمــة بين البالغين هو ذكاء طفل متوسط في الرابعة عشرة من عمره . وقد توصل ثورنديك وأعوانه في خلال الحرب العالمية الماضية الى هذه النتيجة ، بعد اختبار مليوني جندي أميركي . وتوصل غيره الى مثل هذه النتيجة في انكلترا ، فهل في وسع أمة متوسط سنها العقلي اربعة عشر عاماً ان تدير دفة أمورها بالطريقة الديمقراطية المعروفة ؟

ونجد دليلاً قاطعاً على هذه الظـاهرة في الصحف والمجـلات والكتب . فان أحسنها لا يقرؤها الا أقلية ضئيلة ، حتى في أعظم البلدان مدنية ، وأكثرها عراقة في التربيـة . فمعظم الناس في انكلترا وأميركا يقرؤون ما يسمونهُ بالاوراق الصفر

أذكر ان طالباً لا أعرفه جاء اليَّ في أثنـاء احدى رحلاتي في أميركا ، وقال لي أراك مستغرقاً في قراءة « نيويورك تيمس » على مائدة الافطار يوميًّـا . فقلت وماذا اذاً ؟ قال : اذا أردت الوقوف على العقلية الاميركية الصحيحة فاقرأ الصحف والمجـلات الوضيعة . اقرأ Daily Mirror, Chicago Times, Bally Hoo, Daily News وغيرها من الصحف الرخيصة ، الواسعة الانتشار . وكنت مرة في حي للملاهي في باريس من نوع Luna Park وكنت جالساً في قهوة وطلبت من بائع الجرائد صحيفة الأكسيون فرنسيز L'Action Française أو الطان Le Temps فنظر اليّ نظرة السخرية وقال هل أنت مغفل ؟ او أنت ذاهب العقل ؟ أتنتظر من هؤلاء الأغنام ان يقرأوا جريدة كهذه في هذا الحي ؟ أتظن انك في الأوبرا او المادلين او الشانزليزيه ؟ هذا ما يقال عن أميركا وانكلترا وفرنسا وأترك لكم ما يمكن ان نقوله عن مصر .

لهذه الاسباب وغيرها ، كان نابليون لا يؤمن بالمثل الانسانية العليا ولا يثق بالطبيعة البشرية لأنها « كالمنطاد مملوءة بغاز الغرور » ولا سبيل الى كسر شوكتها الاَّ بالحكم المطلق والقبض على العابثين به بيد من حديد ، واذا كان لا بدَّ من الانحناء (كما يقول المثل الصيني) فلننحن كثيراً وطويلاً

ويقول اعداء الديمقراطية ، ان الديمقراطية تتذبذب بين الفوضى والحرية ، بدليل ما نراه في انكلترا وأميركا من المغالاة في كل من الطرفين . ففي انكلترا مثلاً تطلق الحرية للخطباء الى حد الجنون والمهاترة في هايدبارك ، ولـكن يصادر كتاب لأتفه الاسباب . وفي أميركا يطلق العنان في بعض الولايات للافراد فيلوذون بالجري كالخيول الجامحة ولا يلوون على شيء في حين نرى ولاية Tennessee تحرم تدريس نظرية داروين ، ونرى اعضاء الكنغرس يحرمون على معلمي واشنطن العاصمة أن يتلفظوا بكلمة « شيوعية » ونرى محكمة الاستئناف العليا تمنع

استاذاً في جامعة ييل من التجنس من الجنسية الاميركية لأنه أبى أن يتعهد بالتطوع في الحرب فيما اذا اعتدي على أميركا . من هذا نعلم أن الحرية الكاملة (يتوبيا) لا وجود لها الاّ في عالم الخيال ، ولكنها رغم ذلك تتمسك بها الديمقراطيات اذا شاءَ لها الهوى، وتنبذها نبذ النواة اذا شاء لها الهوى

ويعيّر الدكتاتوريون الديمقراطية بان زعماءَها والقابضين على زمامها من العجزة والشيوخ gerontocracy الذين يسيرون وعيونهم فوق ظهورهم ، ويباهون بمحافظتهم على العادات والتقاليد، ومثلهم في ذلك مثل الشيخ الانكليزي الذي أراد أن يبرهن لاصدقائهِ على ان مبادئهُ كالطود الراسخ لا تزعزعها السنون ، فقال لهم انهُ لم يغير غليون التبغ ولا « ماركة الوسكي » منذ ستين عاماً مضت

***

قرأت اخيراً في مجلة من المجلات الاميركية الراقية في التربية لاحد علماء النفس بحثاً ضافياً خرج منهُ بان الاطفال لا يميلون بطبيعتهم الى الحرية ، فاذا ما قاوم الطفل والديهِ ، فإنما يفعل ذلك مدفوعاً بدافع المقاومة لذاتها والحرب لذاتها لغريزة فيهِ ، لا لانهُ يحب الحرية . كذلك الكبار يشكون جورَ الحرية ، فيقولون ان المساواة في الظلم عدل . وربما قرأتم أخيراً ان أول حكم صدر في استراليا على تاجر خالف التسعيرة هو غرامة ٥٠٠ جنيه فكانت النتيجة على النقيض مما نراه في مصر اليوم. ويمكن مجاراة هذه الآراء لاقامة الدليل على ان شدة العقوبة بالطريقة الدكتاتورية ، لا الديمقراطية ، تؤدي في النهاية الى التحلي بثوب الفضيلة ، إذ أن الفضيلة تتأصل بالمرانة والعادة ، والعادة كما قال ارسطو ، وتبعهُ في ذلك جميع العلماء مدى العصور الى يومنا هذا ، طبيعة ثانية . والأمثلة على ذلك كثيرة . فالطليان منذ أن قبض موسوليني على ناصية الحكم بيد من حديد ، أشد أمانة في معاملاتهم ، خصوصاً مع السياح ، منهم قبل موسوليني بمراحل. وفي اميركا كادت تختفي عادة البصق في الطرقات والاماكن العامة، بعد ان جعلت عقوبتها الحبس ستة أشهر ، أو غرامة قدرها ٢٥ جنيهاً مصريًّا أو العقوبتين معاً . وكان الناس في انكلترا يتزاحمون امام شبابيك التذاكر في السكك الحديدية واماكن اللهو ودور الأموال والتجارة ، ويتدافعون بالمناكب بدلاً من أن ينتظر كل دوره حتى فرضت الحكومة منذ خمسة وخمسين عاماً عقوبة صارمة فأصبحت عادة التزاحم في عنق التاريخ . وقد رأيت بعيني خطوطاً (يبلغ طولها مئات الامتار) من رواد السينما ينتظرون ادوارهم في زمهرير البرد والمطر يتساقط بغزارة . ولا حاجة بي إلى أن أذكر حضراتكم بما يقوله الذين يسافرون الى

الحجاز عن ان السرقة هناك لا يكاد يكون وجود لها البتة لان عقوبتها قطع يد السارق وان كان هذا القانون يتعارض مع « الرحمة فوق العدل » . ومن أفكه ما قرأت منذ سنوات قليلة ان الزراع الاميركيين قرروا اعدام حقول القمح لرفع اسعاره فحشدوا الخيول لدوسها بالاقدام. ولمّا كانت الخيول الاميركية قد روضت على غير ذلك (بطرق غير ديمقراطية بالطبع) فانها ابت إن تخالف ضمائرها وتأبى عملاً كهذا يتنافى واول مبادىء الفضيلة

***

بهذا المنظار الاسود ينظر اعداء الديمقراطية الى الطبيعة الانسانية الشريرة وبهذا المنظار يرون الانسان غير جدير بالحرية بعد، وبهذا المنظار يؤثرون اليد الفولاذية على الرفق والتساهل والثقة بطبيعة البشر . على ان هناك وجهاً آخر للمسألة فقد جاء مونتين Montaigne بالمذهب الانساني المعروف humanism الذي رفع الانسان الى أعلى المراتب ، ونادى باحترام الفردية واعتزاز الانسان بشخصيته واطلاق حريته في معارضة السلطة وذويها والتفكير بنفسه لنفسه. وبرهن لنا لامارك ، وهيجل ، وداروين على ان الانسان عضو حيّ organism ، وهو كسائر الأحياء يحمل في بذرته مبدأ التطور والنمو والسمو بالنوع، وكل تقييد للحرية في غير حدود المعقول ، يعرقل هذا النموّ ، ويصدّ هذا التطور . وعلى أساس هذا المبدإ أنشئت نظريات التربية الحديثة ، ومن أهم أغراضها نمو الفرد ، إذ ان التربية هي نموّ . أما في نظر الدكتاتورية فليس الغرض منها تربية الفرد ، أو تهيئة الفرصة لنموّه ، ولكن جُلّ أغراضها تدريبه حتى يكون حلقة قوية في سلسلة الوطن ، التي يمسك الزعيم بها

***

الدكتاتورية تبني نظام الحكم على أساس هام ، وهو إطفاء شعلة الذكاء، وقتل التفكير وإيقاظ الغرائز السفلى في الانسان . وهي اذاً الطريق الى الافلاس ، وهي اليأس من طبيعة الانسان . ولذا يقول أعداء الدكتاتورية انهُ مهما تكن عيوب الديمقراطية ، فان جميع النظم المعروفة سواها ، لا تتفق والقانون الادبي الاخلاقي . روت الصحف والمجلات خبراً فحواه القضاء على مائة الف من ضعاف العقول (البله والمعتوهين والمجانين) في المانيا بدعوى انهم عالة على الانسانية. أما فيما يتعلق بالصدق والبروباجندا ، فقد رجع العالم وخصوصاً في البلاد الدكتاتورية القهقرى ، الى العصر الاغريقي الذي قال فيه أفلاطون ، ان للحاكم وحده حق الكذب (اذا كان في هذا الكذب صالح الدولة) وهكذا تفعل الدكتاتورية اليوم . تنادي جهاراً ان حفظ العهود وقول الصدق من مخلفات العصور البائدة وان الحقيقة ككل امرأة محترمة تغير ملابسها مراراً ، وتكراراً ، ولكنها تحت فستانها تبقى كما هي ، لا تتغير . يعتقد

هتلر وموسوليني ان الحرب مثلاً هي الحياة العادية للشعوب ، وان السلام هو فترة بين حربين وان السياسة الدولية لا ترمي الى تجنب الحروب ، بل الى التأهب لها ، وان السلام هدنة لا غير ، وان الحرب لا توجب غضب الله ، لأنها نعمة منه ، وان في عالم الجهاد هذا ، القوة الغاشمة الميكانيكية ، هي الحكم بين الانسان وأخيه الانسان (دوليًّا بالطبع) ، ولهذا يعتقدان بصفة قاطعة ، ان المسيحية لم تخلق الا للعبيد والأغبياء ، لانها تنادي بالإخاء والحب ومراعاة الغير ، وبهذا يرددان صدى فلسفة نيتشه

***

ويعول هتلر على الوجه الاسود من فلسفة أخرى ، أحياها من قبله شوبنهور ، ووضع أسسها Antithenes الفيلسوف اليوناني ثم زينو الفينيقي ، وأعني بها فلسفة الجبرية determinism والاستسلام للقضاء والقدر ، والهرب من الحقيقة ، واليأس من الحياة والسخرية من الموت ، ولذلك يقول هتلر ، إنهُ يدرب وحوشاً مفترسة ، تخر أمامها الانسانية صرعى ، واذا شئت أنا بعثت من أبناء الوطن بعشرة ملايين من زهرة الشباب ، ليلاقوا حتفهم طائعين مختارين . ويقول موسوليني . ان مجلات التاريخ يجب أن « تزينها » دماء الشجعان ، وأن العدالة الدولية قوامها القوة ، ومبدؤها القضاء على مبادىء الثورة الفرنسية والرجوع الى الاستبداد والظلم . ويباهي النازي بهذه الفلسفة فيقولون على لسان أحد زعمائهم « نحن برابرة أوثان ، طهرت نفوسنا من تلك الثقافة السخيفة الضعيفة ، ثقافة اليهودية والمسيحية »

ولعل النزاع القائم بين الفلسفتين أصلهُ التطرف ، التطرف في الحرية والديمقراطية والتطرف في الاستبداد والدكتاتورية . جاءت النازية (أقول هذا نقلاً عن كتاب « في داخل أوربا » لجنتر) ، وقد بلغ الفساد في المانيا ، أقصى حدوده . فقد كان الأدب والفن والصحافة والمسرح ، على أشد ما يكون من الخلاعة والتهتك . وكانت الميول الجنسية تعبر عن ذاتها بغير رادع ، وكانت الشوارع الكبيرة في برلين غاصة بالعاهرات الباديات النحور ، العاريات الصدور . وكان هناك منازل تدار علناً للواطيين وليس من يتعرض لأصحابها . وكان الالدرادو El Dorado بالقرب من Nallendorf Platz يضم جيشاً من الغلمان يبدون في خدود مدهونة بالصبغ الاحمر وشفاه مصبوغة بالالوان وثياب الجنس اللطيف ، وكانت المراقص والقهوات لا تضن على مرتاديها بغرف خاصة ترتكب فيها أفضح الموبقات

ولكن هنا يمكن ان يتساءل أعداء الدكتاتورية ، وهل قضت المانيا على هذه المفاسد التي كانت ترتكب ضد القانون ؟ أو لم تقم على أنقاضها سواها بحكم القانون ؟ ان العالم اليوم

يتبع ، وهو لا يدري نظريات فلسفية متناقضة ، ويتأثر بمبادىء سيكولوجية ، ونظم اجتماعية متنافرة. وهو نتيجة لهذا التناقض والتنافر كبيت منقسم على ذاته . فمن الناحية السيكولوجية يقول لنا سيجموند فرويد ان الرغبات التي تنسل الى أفكارنا وتندس في وجداننا فنحاول كبتها هي التي يرجح ان تهبط الى الاعماق في العقل الباطن لتبقى هناك ، فتسبب لنا أشد الآلام والمتاعب . وكلما بذلنا الجهد في كبتها اشتد تعلقنا بها ، واشتدت العاطفة التي تتصل بها ، واشتد الأثر الذي تتركه في نفوسنا ، ولما كانت الدكتاتورية بطبيعتها تجعل الحياة سلسلة من الرغبات المكبوتة ، فانها أقل صلاحية للافراد من الديمقراطية . أما الفرد ادلر Alfred Adler فيمجد صفة الاعتزاز بالنفس والتعبير بحرية عما يحس به الفرد ، وكل ما يُشعر الفردَ بالضعة والذلة والانقياد الأعمى ، قتل للشخصية واطفاء لجذوة النشاط والعمل. ولما كانت الدكتاتورية بطبيعتها لا تعتد بكرامة الفرد ، ولا بعزة نفسه ، فانها أقل صلاحية له من الديمقراطية . وقلنا ان طبيعة الانسان ووحشية عاطفته تكاد تكون في صالح الدكتاتورية ، كما ان هبوط نسبة الذكاء في مجموع الأمة وعدم مساواتهم في الكفاية والاستعداد ، من المبادىء التي يعترف بها علم النفس ، وهي تكاد تكون كذلك في صالح الدكتاتورية

هذا من الناحية السيكولوجية . أما من الناحية الفلسفية فالعالم متأثر اليوم بفلسفتين متنافرتين ، فالبوذية والمسيحية والاسلام تنادي فلسفاتها بمساواة جميع البشر وتمجد المبادىء الديمقراطية في مجموعها بوجه عام ، وان كانت المسيحية تميل الى مجازاة الشر بالخير ، وتكره الحروب ، وتجعل الفضيلة مرادفة لحب الغير ، والاسلام ينادي بالحرب عند الحاجة ويوصي بأن انصر اخاك ظالماً او مظلوماً . وهناك فلسفة مكيافيلي ونيتشه التي تنكر المساواة بين أفراد الأمة ، وتؤثر القوي على الضعيف ، والحرب على السلام ، والارستقراطية على الديمقراطية ، وتنادي باستعمال العنف والشدة في الحكم ، وتجعل الفضيلة مرادفة للقوة

***

هذه هي العوامل السيكولوجية والفلسفية التي تتأثر بها الديمقراطية ومنافستها الدكتاتورية. وهناك بالطبع عوامل اخرى ، اقتصادية واجتماعية وسياسية تخرج عن نطاق هذا البحث فلا شأن لنا بها هنا. وليس الغرض المفاضلة بين نظام ونظام ، اذ من المتعذر ان نفعل ذلك ونحن لا ننظر الى الموضوع الا من الناحية التي اتخذناها عنواناً للبحث . وعسى ان يتسع في ميدان المناقشة المجال لتلمس الحقيقة أو ظل الحقيقة على ضوء ما يبدو من الملاحظات

الشعر المعاصر

على ضوء النقد الحديث

بقلم

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٨

البحث الاول

النقد الأدبي ومذاهبه

توطئة

— ١ —

سار النقد الأدبي في البلاد العربية في النصف الأول من القرن العشرين على المذهب الاتباعي الجامد ، الذي سار عليه بعض القدامى من قرون وقرون ، اذا استثنينا ومضات نبيّة قليلة شعّت إشعاعاً خاطفاً في الظلام الأدبي الكثيف

فما كان الأدباء ينقدون على منهج قويم ، وإنما كان يهدم بعضهم بعضاً ، ويتخاصمون حول أدبهم ، وحول أنفسهم ، وكانوا في خصوماتهم ، كما يقول الدكتور طه حسين أطفالاً كباراً [(١)] ، لا يراعون للنقد حرمة ، ولا يقدرون للمسئولية الأدبية قدراً .

كان أكثر النقد — ولا يزال — زوراً وعبثاً ، هو في أغلب الأمر ، رأي يصدر عن مجاملة أو جهالة ، ثم ينتقل من فم الى فم [(٢)]

ولو اقتصر النقد على المجاملة أو الجهالة لخفّت البلوى ، وهان خطب الأدب ، ولكنه تردّى بالقدح والبذاء ، وصدر عن حقد وتحامل وعداء . وهذي علة العلل ، ومصدر البلاء .

ولقد حان الوقت لإنصاف الأدباء وتقدير أعمالهم تقديراً سليماً نزيهاً ، وإبراز روائعهم وعيون أشعارهم ، وبهذا ينهض الأدب ، ويُقدر الأدباء .

وإنا ، لنحاول ، في هذا البحث أن نضع لبنة من لبنات النقد السليم ، وأن نعرض عرضاً سريعاً لبعض الروائع الفنية التي وقعت لنا مقتصرين في التطبيق النقدي على أحد

(١) محاضرة للدكتور طه حسين بك في نادي خريجي اللغة الانجليزية « أثر الثقافات الحديثة في التفكير المصري »

(٢) دفاع عن البلاغة — الزيات ص ٥١

فنون الأدب الرفيعة — هو الشعر ، وفي عصرنا العربي المعاصر، لآلئ أدبية ثمينة يعتز بها الشرق ويفخر ، إذا ما جُردت عنها أصدافهـا ، وبذلت الجهود الحقة للغوص إليها ، وقد وقع بعض المستشرقين عليها وأخرجها من كنوزها ومن بينهم نذكر كارل بروكلن وكمبفاير الالمانيين ، وجب الإنجليزي ، وغيرهم كثيرون ، اهتموا بأدبنا الشرقي المعاصر ، ونحن عنه صادفون .

وأولئكم الذين يهتمون بدراسة هـذا الشعر سوف يجدون كنزاً أدبيًّـا فريداً وما تصويرات البارودي، وأخيلة مطران، وبدائع شوقي التاريخية، وتأملات الزهاوي ، ووطنيات حافظ ، وطبيعيات أبي شادي ، واجتماعيات محرّم ، وخطرات أبي ماضي الفلسفية ، وتأثرات شكري ، وخواطر العقاد ، وواقعيات الجواهري ، ووجدانيات ناجي ، ووصفيات علي طه ، وغزليات عمر أبو ريشة ، وغنائيات رشـيد أيوب ، ورامي ، وصالح جودت ، ورباعيات الصيرفي ، وهمسات نسيب عريضـة والياس فرحات ، وغراميات الشوباشي ، وتوسلات عثمان حلمي ، ووطنيات الخوري « الشاعر القروي » وسليمان احمد « بدوي الجبل » وما إليهـا ، إلا جواهر فنية مشعَّـة في جيد العربية ، يقضي علينا الواجب الأدبي ، أن نقدرها قدرها ، وننزلها منازلها الأدبية الـكريمة الجديرة بها ، بعد أن غطَّـى على الـكثير منها سعار النقد الاسود . وغام على جمالها ضباب العَـدَاء الـكثيف .

ولا يستطيع نقدَ أعمال الشعراء ، إلاّ الممتازون ، المتزنون ، المجرَّدون عن الاهواء ، الدارسون دراسة عميقة ، المطلعون على أحدث أصول النقد ومذاهبه ، ولا يكفي الذكاء وحده للنقد ، ولا رهافة الإحساس وحدها ، ولا البراءة من الهوى ، بل لابدَّ مع هـذه السمات من الوقوف على مقاييس النقد الفنية والعلمية .

وكم ذا رأينا أدباء كباراً عجزوا عن أن يكونوا مثالاً للناقد الحصيف، ووجهت الى نقداتهم النقدات ، فلقد عيب مثلاً على الأديب الانجليزي الـكبير « كولريدج » اقتصاره في نقده الأدبي على ذوقه الخـاص ، دون التقيد بضابط ولا مقيـاس [1] . وعيب على الأديب الانجليزي « ماثيو أرنولد » طريقتـه في النقد التي كانت تجري دون ضوابط ، ولا قواعد

(1) Principles of Literary Criticism By Richards.

البيئة ، وإنما كانت تسير تبعاً لأقوال استعارها من هنا وهناك لبعض كبار الأدباء (١)

وابيت عيب نقادنا اقتصر على الاعتماد على الذوق الخاص ، ولكن عيبهم مركب هنبع قوامه الغرور والتعالم آناً ، والغيرة والموجدة آناً آخر ، والتهجم والسباب الجارح آناً ثالثاً ، ولم يسلم من هذا العيب إلاّ عدد قليل لا يُعدُّ على أصابع يد واحدة ، وبمثل هـذا النقد المثبف ، شاعت الفوضى في دولة الأدب،وضاعت أقدار الموهوبين وجحد فضلهم ، وأُنكر نبوغهم ، وخُلعت أردية الألمعية والعبقرية على النظّامين الحفريين .

— ٢ —

وإذا كان النقد الأدبي من أعسر الأمور وأشقها (٢) لأنه يتطلب ثقافة واسعة وموهبة فنية عالية ، وتنبهاً وجدانيًّا مرهفاً وروحاً سمحاً متجرداً عن آثار الميل والهوى ، فإنه في البيئة الأدبية المبلبلة ، يتطلب شجاعة أدبية نادرة ، وروحاً قوية لمجاهدة ما رسب في بعض الأذهان من أحكام طائشة ، وآراء منحرفة ، وشهرة طنانة كاذبة .

والنقد الأدبي اليوم قضيةٌ مركبة عويصة تحتاج الى قضاة عدول صارمين في الحق ، — ولا يُستساغ النقدُ ، بدفعةٍ من دفعات العاطفة ، أو نزوة من نزوات النفس ، أو خطرة من خطرات الهوى ، ولا بلمحة من لمحات الذكاء . بل لا بدَّ من ضمير حي ، وبراءة من الميل وتجاوب مع روح المنقود ، واقتران بآثاره اقتران مودّة ، والرجوع الى جوّه وبيئته ، وشخصيته ، ودرايةٍ ذكية بالأصول النقدية ، وأحدث مذاهب النقد المعاصرة ، فاذا تعذَّر التجرد النفسيُّ ، وعسرت الزمالة بالمنقود ، واستحال التكيُّف بالجوّ الذي شبَّ فيه الأثر الأدبي ، وترعرع ، وتجوهلت شخصية المنقود ، وقلَّت الزكانة بالقواعد النقدية ، فلن يصح نقد ، ولن ينصف منقود .

أذكر أني جلست الى أحد شعراء الشباب في مصر ، ومال بنا الحديث في الشعر العربي القديم والحديث ، وجاء المتنبي في السياق ، ففاجأني الشاعر بل شدهني بقوله « إن المتنبي ليس شاعراً » ! فسألته السبب ، فأجاب ، بأنه لا يحسُّ في تلاوة شعره بتجاوب نفسي ،

(1) A Premier of Literary Criticism By Hollingworth.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٩

وأن في شعره رنيناً وقعقعة ، وأسلوبه خطابي ! وهنا خطرت بذهني مقطوعة المتنبي الهازة النابضة المعبرة عن نفسيته المعتزة المتعالية التي جاء فيها .

أمثلي تأخذ النكبات منه ويجزع من ملاقاة الحِمام
ولو برز الزمان إليّ شخصاً لخضّب شعر مفرقه حُسامي
وما بلغت مشيئتهـا الليالي ولا سارت وفي يدها زمامي
إذا امتلأت عيون الخيل مني فويلٌ في التيقظ والمنام !

وهنا ابتسم صاحبي نصف ابتسامة قائلاً ، وأي فنٍ فيها ! وهي كما ترى مسرفة في الخيال ، بعيدة عن الصدق ! وفي موسيقاها صخب وقعقعة !

وعلى مثل هذا النقد الهوائي يجري كثيرٌ من النقاد ، فتغيض الرائعة الفنية ، في الدون هوهاء ، والقصيدة الصادقة في تعبيرها عن شخصية قائلها في الفم مريرة ، وتتحول الموسيقى القوية الهازة قعقعة ! والاسلوب الفني وبخاصة في البيت الأخير أسلوباً خطابياً .

وهكذا تبرم الأحكام الأدبية دون تجاوب عاطفي ، ودون دراية بأصول النقد وعناصر العمل الأدبي

ولهذا نعتقد أننا في ولوج هذا البحث نكاد نشفق على أنفسنا ، لما يتطلب من جهد فكري عظيم ، وجهاد نفسي أعظم، ولولا محبتنا في إنهاض الأدب العربي المعاصر ، وإنصاف الموهوبين من رجال الشرق ، لنفضنا يدنا من هـذا البحث ، مؤثرين السلامة ، والبعد عن المماحكات ،

وإذا كان مجال التطبيق قد اضطرنا الى نقد بعض أعمال الأدباء الكبار ، فليس القصد منه انتقاصهم،وإنما القصد به هو شرح أصل من أصول النقد أوقاعدة من قواعده الحديثة.

ولا يفوتنا أن نسجل أن الأمثلة التي أتينا بها ، ليست هي صفوة الشعر ونُخبه . وأن الشعراء الذين احتفينـا بهم ليسوا صفوة الشعراء وخيارهم ، فهنـاك بلا ريب في الأدب المعاصر روائع لم نقع عليها ، قد تكون خيراً مما تناولناها ، وشعراء لا نعرفهم قد يكونون أعلى فنًّا ممن ذكرنا . وفي البيئات العربيـة عبقريات مدفونة ، لا تبغي الظهور ، أو لا تجد في جوّها روحاً تعاونيًّا يساعدها على الخروج من تحت الأنقاض .

مذاهب النقد

وها نحن أولاء نخطو الى بيان المذاهب النقدية الحاضرة ، والتي على ضوئها يمكن الوصول الى إصدار حكم نقدي سليم ، ويمكن تقسيم مذاهب النقد ثلاثة أقسام كبيرة ، أولها المذهب الفني ، وثانيها المذهب الاجتماعي أو الواقعي ، وثالثها المذهب الفقهي ، وهذه المذاهب سايرت التيارات الأدبية الكبيرة : التيار الأدبي الابداعي ، والتيار الأدبي الواقعي ، والتيار الأدبي الإتباعي ،

ونقتصر في بيان المذاهب الثلاثة على ذكر زبدتها ، تاركين التفصيل للبحوث القابلة .

١ — المذهب الفني

والمذهب الفني ، هو المذهب الذي ينظر في العمل الفني الى روحه ، وصدقه ، وأصالته وأسلوبه ، دون اعتبار يذكر لموضوعه أو لنحوه وصرفه .

فني القصيد يلقي اهتمامه الى تجربته الشعرية وانفعاله ، وخياله ،ومعانيه وموسيقاه ، وأسلوبه وصياغته . والذي استقر عليه رأي النقاد الانجليز ، أن القيمة الفنية لكل قصيد ، ينحصر في تواؤم تجربته الشعرية مع صياغة هذه التجربة (١).

والمقصود بالتجربة الشعرية Poetic axperience الحالة التي تتشبع فيها نفس الشاعر بموضوع من الموضوعات . أو مشاهدة من المشاهدات ، أو فكرة من الفكرات، أو مرأى من المرائي، يمتلىء بها وجدانه ، متحفزة الى التأمل والتفكير ، والاستغراق بل الاندماج فيها ، ثم يتهيأ بعدها للاعراب عن مشاهدته أو رؤيته . وهنا يأتي دور الصياغة ، فاذا كانت الصياغة صادقة موفقة ، مؤتلفة مع التجربة ، فقد بلغ الشاعر غايته ، وأبدع القصيد الفني وهذا القصيد يتفاوت في منزلته بتفاوت طاقة الشاعر ، وإصالته موضوعية كانت أو أسلوبية

(١) تراجع محاضرة الاستاذ الجامعي أوليفر أيلتون عن « طبيعة النقد الادبي »
The Nature of Literary Criticism By Oliver Elton.

ونوضح هذه الفكرات ببعض أمثلة من شعرنا الحديث، فنمثل بقطوعة « الآمال الضائعة» في ديوان « أغاني الدرويش » [1] للمرحوم رشيد أيوب من شعراء المهجر، وهي مقطوعة موسيقية تمثل يأس الشاعر من حبيب هجره، وفيها تحس بلمسات الشاعر الشعرية وتتبين تجربته. وصياغته الموفقة لهذه التجربة حيث يقول :

جلست بقرب شباكي ... أردّد طيب ذكراكِ
وأطوي بيد أحلامٍ ... كتبت فيها مطاياكِ
وفيها النفس حائمة ... ترفرف فوق مغناك
تفجّر في الدجى برق ... تلاه مدمعي الباكي
أتاركتي أخا سهر ... متى عهدي بلقياكِ
إذا خطرت على بالي ... أويقاتي وإياكِ
ورحت أعاتب الدنيا ... جلست بقرب شباكي !

* * *

فهذه المقطوعة الساذجة تصوّر حالة من حالات الشاعر النفسية، وقد عبّر عنها في سهولة وخفة، وموسيقى رقيقة. فجمع بين التجربة الشعرية، والصياغة الفنية وبخاصة في البيت الأخير الذي يصور للمخيلة صورة حية للشاعر المترقب ويهتف بأصداء خفية للذهن. ويُمثل التجربة الشعرية النفسية خير تمثيل.

وثمت تجربة ثانية لشاعر مصري شاب هو «صالح جودت» وهو من الشعراء الغنائيين الممتازين. وقد انتابه مرض عضال منذ سنين أتى به في مصحة العباسية، وكان فيها نهباً لليأس والعناء وكاد اليأس يتغلب عليه فاندفع يهرب يوماً عن حالته، ويصوّر المرضى الذين حوله، وأوحى إليه الجو الخانق حوله بتجربة شعرية بديعة أسماها « نحو الآخرة » وهي تجربة جامعة بين تصوير الوجدان، والتصوير الواقعي، ونقتطف منها الفقرتين التاليتين التي يقول فيهما :

فليرحم الله آمالي وأهوائي ... إني فتنت بهذا المخدع النائي

---

(١) ديوان أغاني الدرويش ص ٢٢ صدر عام ١٩٢٨

بقيةُ العمر أيام تدبُّ على صدرٍ تهدَّم إلاّ بعض أهلاء
أعيشها ناسكاً في ركن صومعة قامت على صخرة كالموت صمّاء
يبدو خيال الأماني لي فأطرده حتى كأن الأماني بعضُ أعدائي

* * *

أوّاه من عزلة كالسجن مغلقة على جراح وآلام وأرزاء
ما هذه الجثث الملقاة في سررٍ أنصاف موتى على أنصاف أحياء
صفر الوجوه كأن السقم عفّرهم بحفنةٍ من تراب القبر صفراء
للآه فيهم تراتيل مُنغمة تنساب في قصبات نصف خرساء
وما لهم من نهارٍ فيه مرحمةٌ ولا لهم ليلة ليست بليلاء

وهذه القصيدة تمثل بوضوح ، تجربة من تجاريب الشاعر وقد صاغها في أسلوب صاف وموسيقى حنون ، فتوامت التجربة مع الصياغة المشرقة ، فكانت رائعة من روائعه ولعلها تكون الى اليوم ، القطعة الارجوانية في شعره .

* * *

ونسجل الى ماسبق ، تجربة شعرية ثالثة للشاعر العراقي الكبير جميل صدقي الزهاوي تعبر عن خاطرة نفسية غريبة طرأت عليه ، هو خوفه من الموت ، وهذه الخاطرة طافت برأسه عند ما بلغ ذؤابة العمر ، فعبّر عنها تعبيراً جميلاً صادقاً ، ولا ريب أن مثل هذه الخاطرة قد طافت برؤوس الكثيرين ، ولكن أحداً لم يعبّر عنها كما عبّر الزهاوي[1]، ومثل هذه التجربة لا نجدها إلاّ قليلاً في شعر الزهاوي . فاسمع الى رجفة قلبه ، وإحساسه بالعدم في هذه المقطوعة التي أسماها « ياويلتا » حيث يقول :

ياويلتا سأموت بعد قليلِ وأفارق الدنيا وكلَّ جميلِ
سأجدُّ مرتحلاً إلى دار البلى بعد المقام ولا يطول رحيلي
سأحث في ظلمات ليل حالك سيري الى عدم بغير دليل

(١) ديوان الزهاوي ص ١٠٣

سأهبط عن وطني الحبيب مخلفاً   صحبي هناك وأسرتي وقبيلي
سأنام ثم أنام في ملحودة   ضاقت وفي ليل علي طويل
ستضيء بعدي الشمس في ضحواتها   وتعود تطلع غب كل أفول
ولسوف ينساني الألى أحببتهم   ويصد عني صاحبي وخليلي

* * *

فهذه الأمثلة الثلاثة تعطينا فكرة واضحة عن التجربة الشعرية وتناولها الفني - وتعرف التجربة الشعرية في الشعر ، هو الأس الاول للحكم على أعمال الشعراء ، ولو أننا غربلنا ديواناً لشاعر ، وأخرجنا تجاربه الشعرية ، لأمكننا الحكم من كمها على قدرة الشاعر ، وتنبهه الشعري ، فقد نجد شاعراً نظم المئات من القصائد ، ولا نجد في واحدة منها تجربة من التجارب ، فنحكم في الحال ، بأن قصائده خاوية لا قيامة لها ولا بقاء .

خذ مثلاً الجزء الأول من ديوان الجارم [1] الذي يحتوي على واحد وعشرين قصيدة ، فانك تجد فيه اثنتي عشرة قصيدة في شعر المناسبات ، وباقي القصائد منظومات لا تعثر في منظومة منها على تجربة شعرية حقيقية ، إلا واحدة هي ضحك القدر [2]

ولا يقف المذهب الفني عند تعرف التجربة ، بل إنه يتناول ، بعد ذلك ، انفعالات القصيد أو عواطفه ، وفكراته أو معانيه ، والخيال الذي يطوف عليه ، والموسيقى التي تنبض به - وفي تقدير هذه العناصر ، قد يختلف النقاد في مرتبة القصيد ، وقيمته ، ولكن اختلافهم لن يكون بعيداً ، كما يحدث في النقد الفردي الذاتي القائم على التقدير الذوقي الشائع في أغلب نقدنا العربي الحديث .

وإذا كنا تناولنا التجربة الشعرية في شيء من البسط ، دون تناول باقي عناصر القصيد من انفعال ، وفكر وخيال وموسيقى ، فذلك لأهمية التجربة الشعرية في المذهب الفني . أما باقي العناصر فقد خصصنا لها بحثاً مفصلاً مستقلاً ، مكتفين في هذا البحث بالتعريف المجمل على المذهب الفني.

---

(١) ديوان الاستاذ علي الجارم بك الجزء الاول

(٢) ص ١٢٧ من الديوان آنف الذكر .

٢ — ﴿ المذهب الواقعي ﴾

والمذهب الواقعي في النقد، لا يختلف مع المذهب الفني إلاّ في شيء واحد، هو موضوع القصيد، فهو لا ينظر كما ينظر المذهب الفني إلى التجربة الشعرية والصياغة والانفعال والفكر والخيال فقط، وانّما يدخل في اعتباره الموضوع، فان كان الموضوع لا يهتم بالحياة وأحداثها، وآلام الناس وأشواقهم وآمالهم، فهو فنٌ رديء، فن مخلخل للمواهب، مخدّر للناس[1]، فن لا غاية من ورائه إلاّ تسلية جماعة ضئيلة مترفة — والفن الجيد هو المعبّر عن أشواق الناس وآمالهم ودنياهم[2]

يقول الناقد الانجليزي Clay إن الشعر في قرارته، نقد للحياة — وعظمة الشاعر في تطبيق آرائه على الحياة تطبيقاً قويّاً جميلاً[3]

ورجال المذهب الواقعي يضعون للفن منازل، فالفن الذي يعبّر عن الوقائع العابرة أقل منزلة من الفن الذي يضم الحقائق المعمرة الباقية، وهذا الفن الأخير يعد في رأيهم فنّاً عظيماً إذا صيغ بأسلوب قوي مقنع.

وهناك رأي أقرب الى هذا الرأي، بل يتصل إليه بنسب متين، هو رأي للناقد الانجليزي والتر باتر — محوره أن الفن الجيدهو الذي يتوخى الجمال وحده، فاذا ما اتجه الى السعادة الانسانية، ورمى الى انماء العطف بين الناس، أو عبّر عن حقيقة جديدة أو عريقة في القدم، تتصل بنفوسنا، وصلاتنا بالعالم، فهو فن عظيم[4]

وحتى هذا الرأي ينكره أصحاب المذهب الواقعي، قائلين إن الجمال المثالي تعوزه القدرة على تعزية الناس من أحداث الحياة، والجمال هو الحياة، والحياة بوجه عام أكثر غنى، وتنوعاً، وأكثر أهمية من أي قطعة من الخيال، أو تهويمة من تهاويم الاحلام، أو همهمة غامضة من الهمهمات.

فالعمل الفني الذي يعبّر عن الأوهام والأحلام، والمهمات والشطحات الصوفية، أقل

(١) Marxism & Art By. F. D. Klingender.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٤ (٣) The English Critic ص ٣١١ Clay

(٤) كتاب نقد الشعر في الادب العربي لنسيب عازار ص ٢١

أهمية من العمل الفني الذي يحوي الحقائق المعمرة الباقية التي لا تنقضي بمرور الأجيال .

ويرى بعض الأدباء أن من الخير الجمع بين المذهبين في الانتاج الأدبي ، بمعنى أن يترك الأدباء والشعراء أن يتجهوا تبعاً لاستعدادهم ، وطاقتهم الشعرية وتجاريبهم في الحياة ما دام قوامهم الصدق والاخلاص والاصالة [1] ولكنا مع هذا نؤثر في الشعر موضوعه ، اذا اكتملت صياغته الفنية ، فليس الذي يتناول موضوعاً رومانتيًّا (ابداعيًّا) مع احسان الأداء ، كالذي يتناول موضوعاً واقعيًّا أو انسانيًّا ، مع تماثل الاحسان في الأداء .

والحق ، أننا اذا أدخلنا العنصر الواقعي في الفن ، فاننا نضع لبنة بل لبنات في بناء نهضتنا ، بل نثبت شخصيتنا ، التي كادت تغطي عليها حياة الانكماش ويظلها الانحباس في الابراج العاجية ، بل حياة التطفل على تراث الآباء الأثري .

وأبادر فأقرر بأن الأدب الخيالي ، وأدب الوهم والهمهمة ، هو خطوة لا مفر منها في مرحلة من مراحل المجتمع ، ولكن مثل هذا الأدب ، إذا اقتصر عليه أدباؤنا شيوخاً وشباناً في هذا العهد المتوقل الى التحرر يكون أدباً متخلفاً ، منزوياً ، ذليلاً .

لقد تصفحت بعض إنتاجنا الشعري في السنوات الأخيرة . فامتلأت نفسي حسرة ، وثارت نفوراً ، عند ما وجدت ، جل إنتاجنا ، مطبوعاً بطابع التدهور ، والانحلال ، فهذا أديب من أدبائنا ، يخرج لنا ديواناً ، يثبت فيه ، أن قلبه لا يزال ملتهباً بالحب ، بعد أن علا الشيبُ رأسه متشبهاً بالأديب الانجليزي هاردي الذي كان يتغزل في سن السبعين . ولست أدري أي شيطان جذبه الى هـذا النوع من الأدب الذي لا يوائم طبيعته الجادة العابسة ! وهذا شاعر مصري آخر بعد أن أمضى سن الشباب يحدثنا عن لهفاته العارمة فيحدثنا عن « الضمة » [2] . وهذا آخر يحدثنا في مجلة الراديو عن « القبلة » [3] ويقابل بين قبلته ، وقبلة شاعر آخر . وهذه لمة من شعراء الشرق تتبارى في التعبير الفني عن الشهوة الحسية الصارخة ، كما تسمع في هذه المقطوعة « غفوة » [4]

(١) الدكتور أحمد زكي أبو شادي

(٢) ديوان « أفاريد » لمحمد فهمي قصيدة ضمة الحنا ص ٦٦

(٣) مجلة الراديو مارس ١٩٤٦ لصالح جودت ونزار قباني

(٤) ديوان « سمر » للشاعر غنطوس الرامي . ص ٢

نم على الأرض معي
وتوسد أضلعي
غفوة ملء جفون الليل حتى لا نعي
وحدنا في مطرح حلو خفي الموقع
فوق جسمينا يمر الفجر مخضوب الشفاه
وعلى الثغرين تطفو عربدات وصلاه
ومن الصدرين لا يسمع إلا همس آه !!

* * *

ومثل هذا ، كثير في شعر عمر أبو ريشة ، والياس أبو شبكة، وكان كثيراً في شعر شاعر العراق الجهير « محمد مهدي الجواهري » .أوليس مثل هذا الشعر وشبهه وجنسه في الشرق أمارة على الانتكاس ، ولا أدري متى يدرك هؤلاء الشعراء وأمثالهم أن حياة المجتمع مليئة بالتجارب الشعرية الجديرة بالتفنن في التعبير عنها ، والاحتفال بها بدل إضاعة الطاقة في مثل هذه المهازل الشرود .

ومن حسن الحظ أن الشرق العربي ، لم يعدم شعراء متقدمين ، تجاوبت نفوسهم مع واقعات الحياة ودنيا الناس ، وعلى رأس هؤلاء الشعراء شاعر مصر الكبير ، حافظ ابراهيم. لحافظ مرآة صادقة لأحداث الحياة المصرية في زمنه تبلورت في شعره آمال أمته ، وهو شاعر الوطنية والاجتماع في مصر غير منازع ، وهو في هذه الناحية يُفَضَّل على شعراء الخيال وشعراء الغزل ، ومن إليهم .

وربما كان حافظ أول رائد للشعر الاجتماعي في الشرق ، ومن المنادين بمسايرة روح العصر ، والتخلص من أغراض الشعر القديم ،كالمديح والنسيب والهجاء والرثاء وما اليها. وقد عَبَّر عن هذه الحقيقة أجمل تعبير في قصيدته الموسومة بالشعر اذ قال : يخاطب الشعر[1]

ضعتَ بين النهى وبين الخيالِ يا حكيم النفوس يابن المعالي
ضِعت في الشرق بين قوم هجود لم يُفيقوا وأمةٍ مكسالِ

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم — الجزء الاول صحيفة ٧٣٧

قد أذالوك (١) بين أُنسٍ وكأْسٍ ... وغرامٍ بظبيــةٍ أو غزال
ونسيب ومدحة وهجاء ... ورثاء وفتنــةٍ وضلال
عشت ما بينهم مُــذَالاً مضاعاً ... وكذا كنت في العصور الخوالي
حمّلوك العناءَ من حب « ليلى » ... وسليمى ووقفة الأطلال
وبكاء على عزيز تولى ... ورسومٍ راحت بهنّ الليالي
وإذا ما سَموا بقدرك يوماً ... أسكنوك الرِّحال فوق الجمال
آن يا شعر أن نفكّ قيوداً ... قيّدتنا بها دُعاةُ المُحالِ
فارفعوا هذه الكمائم عنا ... ودعونا نشمُّ ريحَ الشمالِ

* * *

وأدب حافظ هو أدب الوطنية الذي ننشق منه عبيرها ، أدب يصف واقع المجتمع ، الذي نُطِلُّ منه على حوادثه الجسام ، ونراها رأيَ العين ، ولا يسعفنا المجال بذكر أكثر من نموذجين له أحدهما وطني ، والآخر اجتماعي وهما من شعره الممتاز الدائع . يقول حافظ من قصيدة له موجهة الى « الأمير » حسين كامل باشا في ذياك الحين :

أيجملُ بالأديب أديب مصرٍ ... بكاءُ الطفلِ أرهقه الفطام (٢)
ويصرفه الهوى عن ذكر مصرٍ ... ومصرٌ في يد الباغي تُضام
عَدِمت يراعتي إن كان مابي ... هوًى بين الضلوعِ له ضرامُ
وما أنا والغرام ، وشاب رأسي ... وغال شبابي الخطب الجُسام
وربّاني الذي ربّى « لبيدا » ... فعلمني الذي جَهِلَ الأنامُ
لعمرُك ما أرِقت لغير مصرٍ ... ومالي دونها أملٌ يرامُ
ذكرت جلالها أيام كانت ... تصول بها الفراعنة العظامُ
وأيام الرجالُ بها رجالٌ ... وأيام الزمان لها غلام

(١) أزال أهان
(٢) ديوان حافظ ابراهيم — الجزء الثاني ص ٥٤

والنموذج الثاني (١) اجتماعي يُقرِّعُ به بعض طوائف المتعلمين المنحرفين ، وينعي أخلاقهم في قسوةٍ يقول :

لا تحسبنّ العلم ينفعُ وحده ما لم يتوّج ربه بخلاق
كم عالم مدَّ العلوم حبائلاً لوقيعة وقطيعة وفراق
وفقيه قوم ظل يَرصُدُ فقهه لمكيدة أو مستحل طلاق
يمشي وقد نصبت عليه عمامةٌ كالبرج لكن فوق تلّ نفاق
يدعونه عند الشقاق وما دروا أن الذي يدعون خدن شقاق
وطبيب قوم قد أحلّ لطبه ما لا تحل شريعة الخلاّق
قتل الأجنة في البطون وتارةً جمع الدوانق من دم مُهراق
أغلى وأثمن من تجارب علمه يوم الفخار تجارب الحلاّق !
ومهندس للنيل بات بكفه مفتاح رزق العامل المطراق
لا شيء يلوي من هواه فحدُّه في السلب حدُّ الخائن السرّاق

فلو طبقنا المقياس الواقعي الاجتماعي على هذين النموذجين السالفين لحافظ لأمكننا القول بأن النموذج الاول ، نموذج ممتاز لاحتوائه على كثير من الحقائق المعمرة الباقية ، ولصياغته المحكمة القوية ، وموسيقاه الحلوة ، وربما لا يُقدَر هذا النموذج في المذهب الفني مثل هذا التقدير ، فلا يبلغ رتبة الامتياز عند الفنيين ، ولكن ربما عدّ من النماذج الجيدة . وأما النموذج الثاني ، فقد وعى حقائق هي بنت وقتها ، وهو يعد في اعتبار المذهب الواقعي جيداً ، وفي المذهب الفني لا يبلغ منزلة الجودة .

وربما وجد أصحاب المذهب الاجتماعي ضالتهم في طائفة من شعرائنا المعاصرين ، من أمثال الشابي التونسي ، وأبو شادي المصري ، وخير الدين الزركلي السوري ، والجواهري العراقي ، بل في شعر بعض شعراء الشباب الاحرار ولا يسعنا في هذا المجال إلاّ أن نأتي بقليل من الأمثلة للدلالة على هذا الاتجاه ، تاركين البسط والتفصيل لمجال آخر .

يقول الشابي ، شاعر الخضراء ، وله شعر وطني تقدمي غير قليل في قصيدة « ارادة الحياة »

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم الجزء الاول ص ٢٨٠

إذا الشعب يوماً أراد الحيـاة فلا بدَّ أن يستجيب القـدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

***

إذا ما طمحت الى غاية ركبت المنى ونسيتَ الحذر
ولم تتجنب وعور الشعاب ولا تبعة اللهب المستعر
ومن لم يحب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

***

ويقول أبو شادي في ديوانه الأخير «عودة الراعي» (١) من قصيدة له عنوانها «الأحداث» مهداة إلى رجل الفكر الأستاذ سلامه موسى :

هذه الفوضى لها ما بعدها لا تدعها ثمرة تفني الديارا
إنما الأحرار من خاضوا الأذى في سبيل الحق أو ماتوا كبارا
ما تحاشوا مرة إعزازه بل تحاشوا أن يرى الظلم شعارا
لم يعد للهو فينا مسرح والمآسي تبتغي ثاراً وثارا
ان تنم أنت فهذي وصمةٌ وشبيه الميت من يرضى الاسارا
ليس من مات حقيراً بائساً مثل من مات شهيداً لا يجارى

***

وإليكم مثالاً آخر ، لأحد طلاب شباب الأدباء الأحرار نشر بمجلة الكاتب المصري بعنوان «إصرار» ، (٢) وهي بداية طيبة للشعر الواقعي المتحرر ، وان كانت صياغتها كما يبدو لي ليست أصيلة ، بل منظور فيهـا إلى قصيدة «أخي» لميخـائيل نعيمة ، يقول هذا الشاب في ثورة قلب ، وهدوء موسيقى :

أخي ، هل نحن تحت الأرض أعشاب وديدان
أخي يا أيها الانسان ، هل في مصر إنسان

---

(١) ديوان «عودة الراعي» طبع في يناير سنة ١٩٤٢ ص ١٤٣

(٢) مجلة الكاتب المصري . فبراير سنة ١٩٤٦ ص ١٧٧ للشاعر كمال المنوفي

أراها مسرح الأشباح قد وارته ألوان
هي الفـلاح ، والفلاح أسمال وأكفان
هي العمال ، والعمال إجهـــاد وحرمان
أرانا مجمع الأشواك ، هل للشوك ريحان
أخي ، ما الصبر ؟ إن الصبر كفران وخذلان
أخي ما نحن بالأحرار ، لـكن نحن عبدان
لقـد ضاقت بنا الأوطان ما للعبـد أوطان
أخي ، ما السجن ، هل في السجن آلام وحرمان
وهل يُجدي مع الأحرار قضبان وسجان
سوانا يرهب القضبان أو تثنيه جدران
إذا كنا شرارات فنحن اليوم بركان

* * *

مثل هذا الشعر لا يسعنا إلا تهنئة قائله لأنه خرج به الى أفق جديد ، وأعرب من مجتمعه الذليل بفكرات باقية ، ولولا التهـافت في تأدية بعض الأبيات ، وصعوبة التنقل في أبيات أخرى ، وتأثره أنغام المهجريين الناعمة الحنون ، التي لا تنسجم في هـذا الموقف الثائر ، لكان للقصيد خطر أيما خطر .

ويستحيل علينا في هذه العجالة أن نأتي بنماذج أخَـر ، أو أن ندرس ما أخرجه شعراء الشرق في هـذه الناحية ، من القصـائد المنشورة بديوان « مصريات » لابي شادي ، أو « الأعاصير » لرشيد الخوري ، أو ديوان الزركلي ، أو بدوي الجبل ، أو الياس قنصل ، فأغلب قصائد هؤلاء حافلة بواقعات الحياة ، وأناشيد الحرية والديمقراطية ، ويجمل بنا أن نسجل مثالاً واحـداً من شعر الأعاصير ، وهو من أحسن شعر الديوان ، بل الدرّة اليتيمة فيه وهي بعنوان « قحط الرجال » نقتطف الفقرة الأولى ، والرابعة منها :

سل الساحبـين ذيول النعم
بما صلخوا من جلود الغنم

ألم تبق ، فيكم بقيــة دم
ألا تشعرون بجمر الندم
ألا تبصرون شقاء الوطن ؟

* * *

ألا زأرة مثل قصف الرعود
يضج بها الأرز مهد الأسود
وتهتز منهــا عظام الجدود
مرددة من وراء اللحـــود
ليحيَ ! ليحيَ ! ليحيَ الوطن !!

* * *

ونختم هذا الفصل بمقال آخر من الشعر الوطني الواقعي عثرنا عليه في ديوان « الشاطىء الصخري » للشاعر السوداني حسين منصور وقد جاء في آخر قصيدة له : (١)

عجبتُ لأمةٍ ظلت
مجرّدة وما ملت
ولا طلبت لها حقّـا

وواأسفي على الموتى
فما سمعوا لي الصوتا
ولا فتحوا لهم عينا

ولا كسروا لهم قيدا
ولا أخذوا من الأعدا
حقوقهم ولا همّـوا

فأين حماسة الشعب
فأين حرارة القلب
وأين شعورنا الحي !

---

(١) الشاطىء الصخري ص ٢٩

ويمثل هذا المنحى الواقعي ، يعود الشعر الى منزلته في المجتمع ، ويجد أفقاً واسعاً للتقدم والغنى الفني ، ويعود الشاعر الى مكانه ، ويثبت قدمه بين الأحياء .

٣ — « المذهب الفقهي »

ولا مفرّ لنا من الالماع الى مذهب ثالث من النقد ، وهو النقد الفقهي ، أو المدرسي ، أو الجامعي ان صحت التسمية ، وهو النقد الذي سار عليه أغلب النقاد القدامى ، وهو ينظر في الشعر الى نحوه ، وصرفه ، وعروضه ، وبيانه ، وبديعه ، وفي بعض الأحيان الى معانيه ، هو النقد الذي سار عليه جلّ نقّـاد العرب ، من قرون وقرون . ولا يزال محوراً لنقدات كثير من نقاد اليوم .

ونحن لا ننكر أن هذا النوع من النقد لازم، على أن يكون تابعاً للنقد الفني أو الواقعي لا أن يكون مفرداً ، إذ لا يجوز بحال أن يوضع الفنّ تحت مشرحة اللغوي والنحوي والعروضي ، ولا يجوز أن يكون نقادُ اليوم أبواقاً لنقاد الأمس الغابر ، فيقتصروا في نقداتهم على النقدات الشكلية ، كما فعل الرافعي مثلاً في نقد العقاد ، أو كما فعل احمد محرّم في نقد اسماعيل صبري وحافظ ابراهيم .

ولا مناص من ذكر لمعات عن هذا النقد ، وآراء نقاد هذا المذهب ، بكل ايجاز — فابن سلام الجُمحي من نقاد آخر القرن الثاني الهجري ، كان يضع الشعراء ، منازل وطبقات بحسب كثرة إنتاجهم أو قلّته ، غير ناظر للخصائص الفنية في أعمالهم الادبية ، وإنما قوام نقده التذوّق الذاتي ، ووفرة الانتاج(1) ، وليست العبرة بداهةً بالوفرة أو القلة في تقدير الأدباء .

وكان قدامة بن جعفر ، وابن قتيبة من نقاد القرن الثالث الهجري ، يهتمان كل الاهتمام بالصياغة الشكلية : ويصدران في حكمهما عن ذوق شخصي دون تعليل ولا تدليل ، مجارين الفقهاء ، والنحاة في التشبث بالأصول القديمة ، فكان نقدهما كما يقول الأستاذ طه احمد ابراهيم « أعجفَ هزيلاً مملاً ، عليه مسحة من الصفرة والشحوب »(2)

(١ و ٢) تاريخ النقد الادبي عند العرب للمرحوم الاستاذ طه احمد ابراهيم

وكان هذان الناقدان لا يُعدّان من الفحول ، أي شاعر لا يتناول المديح والهجاء والنسيب ، والمراثي ، ولهذا نرى ابن قتيبة مثلاً يخرج شاعراً ممتازاً مثل « ذي الرُّمة » من طبقة الفحول ، لعدم إحسانه المديح والهجاء !

وممن أقحموا أنفسهم في فن الشعر ، جماعة من كبار اللغويين ، أمثال ابن الاعرابي ، وحماد ، وأغلب نقدهم كان يدور حول فقه اللغة ، فابن الاعرابي لم يرضَ عن شعر أبي تمام ، ووجّه إليه حملات ضريرة ، وقد شُهر عنه قوله في شعر هذا الشاعر العظيم « إن كان هذا شعراً ، فكلام العرب باطل »(١) — ومن عيوب أبي تمام عند هذا اللغوي وأمثاله ، أنه كان يجري على غير مذهب الجاهليين والاسلاميين في الصياغة والمعاني ، أي أنه كان ينكر بروحه المتزمتة أية نازعة تجديدية .

ومن كبار نقاد العرب ، الآمدي ، ونقده ذاتيٌّ في جملته ، ولهذا نراه في كتابه « الموازنة » بين البحتري وأبي تمّام ، يفضل الأول على الثاني ، ناظراً الى ألفاظ البحتري المتخيرة واستعاراته الموفقة ، ناعياً على أبي تمّام ، إدخاله المعاني الفلسفية في شعره . وكذلك كان عبد العزيز الجرجاني ، يهتم كل الاهتمام بالناحية البيانية من تشبيه أو استعارة ، أو مجاز ، أو كناية ، كما كان يعني بتتبع سرقات الشعراء ، ما كان منسوخاً أو مسلوخاً ، أو ممسوخاً .

ومثل هذا النقد في أغلبه ، نقدٌ شكليٌّ سلبي لا يهتم كما يقول الاستاذ طه احمد ابراهيم إلاّ بالعرض ، دون الجوهر ، والقشر دون اللباب — وإن كان الدكتور مندور « في ميزانه الجديد » يرى عكس هذا الرأي ، فيزعم أن الآمدي من أكبر نقاد العرب ، وأصدقهم ذوقاً ، وأنه هو وعبد القاهر الجرجاني من ذوي الحذاقة والدربة في النقد ، ويتغالى فيقول إن أمثال هؤلاء النقاد وصلوا إلى ما وصل إليه « لانسون » Lanson عميد النقد في فرنسا المعاصرة ، من أن الذوق المدرّب هو خير حكم على الأعمال الادبية (٢) كما يرى الأستاذ خلف الله في كتابه (٣) — أن عبد القاهر الجرجاني يستحق مكاناً بين الخالدين من علماء الدراسات النقدية ، لا لسعة أفقه ووفرة معارفه ودقة تحليله فحسب ، ولكن لنجاحه

....

(١) تاريخ النقد الادبي عند العرب ص ١٢١ للاستاذ طه احمد ابراهيم (٢) في الميزان الجديد للدكتور محمد مندور (٣) كتاب : من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده ص ٩٢ عام ١٩٤٧

في التوفيق بين ما يتطلبه الذوق الأدبي ومناهج التفكير الموضوعي المنظم » .

وإلى جانب هؤلاء النقاد ، نجد كوكبةً أخرى من النقاد ، كانوا ينظرون إلى الموسيقى والرنين ، والأوزان ، والمطالع ، وما إلى ذلك ، ونذكر من بينهم ابن العميد ، والصاحب ابن عبّاد ، وقد وجّها إلى المتنبي ، نقداتٍ عجيبة في هذه النواحي .

ونقف في النهاية عند ناقد آخر ، كان يحصر كل اهتمامه في الألفاظ وأسرار تركيبها ، وهو ابن الأثير ، في كتابه « المثل السائر » وقد يطرب له المتفقهون في اللغة ولكننا لا نجدُ في أمثال نظرات ابن الأثير ما يستأهل التفاتاً يُذْكر .

ولئن كنا وقفنا وقفة عابرة عجلى على بعض نظرات نقّاد العرب ، فانما انرفع النقاب عن النقد الفقهي ، وهو نقدٌ كما يبدو لنا من خلال هذه الومضات ، لا يقوم على ضابط ثابت ، بل كان ذاتيّاً جله ، أو لغويّاً ، أو بلاغيّاً ، أو مقتصراً على اللفظ ، أو الوزن ، زارياً بالمعاني الفلسفية في بعض الأحيان ، غافلاً عن التجربة الشعرية ، والصياغة الفنية . وأمر الصياغة كما يقول الدكتور مندور ، ليس أمراً شكليّاً ، كما ظنّ بعض نقّاد العرب ، فهو ليس أمر مجازات أو تشبيهات ، تتعلق بظواهر الأشياء ، وتستخدم لتوضيح المعنى أو تقويته ، بل أمر الخلق الفني في صميم حقيقته النفسية (١)

ولهذا رأينا نقاد العرب يختلفون اختلافاً كبيراً فيما بينهم في الصنيع الأدبي الواحد ، فلقد وقف ابن قتيبة أمام الأبيات التالية ولم يجد فيها شيئاً ، لم يجد فيها فكرة ، ولا لمسة شعرية ، والأبيات :

ولما قضينا من منى كل حاجةٍ ومسّح بالأركان من هو ماسح
وشدّت على حدب المهاري رحالنا ولا ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

ونظر اليها عبد القادر الجرجاني — فأعجب بها كل الاعجاب ، وبأسلوبها الفني ، والأبيات في رأينا جيدة ، والتصوير قوي ، والاسلوب صافٍ فني ، وبخاصة البيت الأخير وفيه رجع ذهني بديع .

(١) في الميزان الجديد ص ٩٦ للدكتور محمد مندور

وإذا كانت القرون الأولى ، ارتضت هذا النقد الذاتي اللغوي معياراً للحكم على فن الشعر ، فان النقد الحديث لا يرتضيه ، أصلاً ، إذا كان هو الهدف الأخير ، لأن مثل هذا النقد لا يصل بنا الى حكم موفق سليم ولا يدل على قوة أدبية[1] ولا يصح في ذمة الانصاف التعويل على مقياس أبتر ، ولا يحق للناقد العصري أن يقتل الروح الشعرية ، لمثل هذه الشكليات ، التي لم تؤثر توجيهها بتاتاً في شعراء العرب أنفسهم .

والمطلعون على الأدب العربي ، يذكرون ما وجه النقاد إلى كبار شعراء العرب من سقطات نحوية وبيانية وعروضية ، ولكنها لم تؤثر مثقال ذرة في أقدار قصائدهم ، فلقد نُعي مثلاً على طرفة ، زلته النحوية في قوله :

خلا لك الجوُّ فبيضي واصفري ونقري ما شئتِ أن تنقري

قد رفع القيد فماذا تحذري

وصوابها تحذرين [١]

وعاب النقاد الخلل العروضي الذي كان يقع لكبار الشعراء ، وما قلل ذلك من امتيازهم وفحولتهم ، ومما يضربونه مثالاً على ذلك قول عـدي بن زيد وهو من فحول العرب ، قوله :

وخبَّـرت العصا الأنباء عنه ولم أرَ مثل فارسهـا هجينا

وقددت الهشيم لراهشيه وألفى قولها كذباً ومـيْـنا

فالجرس الصوتي في « هجينا » ، لا ينسجم مع مـيْـنـا ، ولو قال مبينا ، لاستقام الجرس[٢]

وعاب النقاد على أبي تمام بعض ألفاظه ، كقوله في هجاء الدهر مشبهاً اياه بالحمار :

فلو ذهبت سنان الدهر عنه وألقى عن مناكبـه الدثار

لعدَّل قسمة الأرزاق فينا ولـكن دهرنا هذا حمار

ومثل هذه الهنات اللغوية أو العروضية أو اللفظية ، جديرة بالالتفات ، ومن الخطل ، إهمالها ، لأن الأديب أو الشاعر الذي ينشد الكمال لصنيعـه الأدبي ، مفروض عليه احترام أصول اللغة ، وتراثها ، والعناية بها ، فإن اللغة الصحيحة ، ولا ريب ، وسيلة

(١) Literary criticism By Winchester

(٢) زعامة الشعر الجاهلي بين امرىء القيس وعدي بن زيد ، للاستاذ عبد المتعال الصعيدي

ناجعة للاعراب عن أفكارنا وعواطفنا ومشاعرنا وانفعالاتنا ، ورمز لها ، واذا حسن الرمز ، زاد المرموز اليه حسناً ورواء

وإنا لنجد بعض القصائد ذات الطاقة الشعرية القوية ، يند عنها بعض جمالها لاحتوائها على ألفاظ غير شعرية ، لا تتوائم مع لطافة الشعر ، ورونقه ، ومائيته ، وشفافة معدنه .

وقف أحد نقادنا أمام لفظة لشاعر مصري كبير فنفر إحساسه عند ما وجده يستعمل لفظة « الجيف » في بيت وصفي لمشهد من مشاهد الجمال

حيّ الجمال كما بدا أو لا فدونك والجيف

ولستُ — علم الله — من رجال هذا الميدان ، ولا من الذين يميلون الى التوسع في هذا النقد المدرسي ، لأنه لم يكُ له أية سلطة على الأدباء والشعراء القدامى ، ولن يكون له من باب أولى ، إثارة من سلطان على أدباء العصر الممتازين .

ولكنا مع الأسف ، نجده سائداً ذائعاً لدى كثير من نقّاد الأدب المصري ، يظهرون به أستاذيتهم ولوذعيتهم ، ولا ننسى أبداً حملات الدكتور طه حسين المدرسية على بعض الشعراء والأدباء الممتازين . ونذكر أنه نقد الدكتور محمد حسين هيكل لاستعماله كلمة « مهوب » وصوابها « مهيب » ، واتضح له بعد ذلك أن الكلمتين صحيحتان ، الأولى سماعية ، والثانية قياسية !

وأما حملات الرافعي الفقهية على العقاد فهي بلقاء مشهورة

ولا نعرف من نقادنا من كان ينقد نقداً فنيـًّا ، غير خليل مطران والدكتور أبي شادي فانهما يتبعان المذهب الفني ، في دقة وفهم عميق .

فالنقد الأدبي اليوم ، تتجاذبه ثلاثة مذاهب مختلفة ، المذهب المدرسي الرجعي ، وله أنصار عتاة . والمذهب الفني ، وأنصاره قلال . والمذهب الواقعي وأنصاره نوادر من الشباب . ولهذا نجد النقد الأدبي الحديث في الشرق بين شدٍّ وجذب ، وبلبلة وتلدد ، كحال الأدب تماماً . ولقد آن في ذمة العاملين المخلصين للأدب أن يوجهوا النقد إلى الطريق الأمثل ، وخير سبيل ، هو التوحيد بين المذاهب الثلاثة ، وذلك بمسايرة المذهب الفقهي في سلامة اللغة واحترام قواعدها ، ومتابعة المذهب الفني في النظر إلى فنية العمل الأدبي ، ومجاراة المذهب الواقعي في موضوعه وغاياته المجدية .

البحث الثاني

﴿ مقاييس النقد الفني ﴾

ألممنا في البحث الأول إلى المذهب الفني في النقد ، وذكرنا أنه لا يهتم إلا بالأثر الفني في ذاته ، دون اهتمام بموضوعه ، وأوضحنا في إيجاز معنى « التجربة الشعرية » وهي أُسّ الحكم على الصنيع الفني .

وها نحن أولاء نتناول عناصر الصنيع الشعري ، والتجربة الشعرية في تفصيل . ويجمل بنا قبل الدخول في البحث ، أن نذكر أنه لا يكفي في الحكم على الصنيع الشعري، النظر إلى التجربة الشعرية ، وصياغتها ، بل لا بدّ من فحص ما تحويه هذه التجربة من انفعالات أو عواطف ، وما يكمن فيها من معانٍ ، وما ترمي إليه من هدف (١)

والحكم على هذه العناصر التي يتكوّن منها الصنيع الشعري ، لن يكون سليماً ومنصفاً إلا بالاستناد إلى مقاييس فنية دقيقة .

ونحاول في هذا البحث ، تطبيق أحدث مقاييس الفن على الشعر المعاصر .

١ — ﴿ التجربة الشعرية ﴾

وأول مقياس لتعرّف درجة القصيد هو — كما ذكرنا آنفاً — ، تعرّف التجربة الشعرية في العمل الشعري ، أو بمعنى آخر ، معرفة التوفيق الذي بلغه الشاعر في التعبير عن تجربته تعبيراً حيّاً صادقاً قويّاً .

ويحسن أن نعود لتوضيح ، معنى التجربة الشعرية ، والتجربة الشعرية هي الحالة التي تلابس الشاعر ، وتوجّه باصرته أو ذهنه أو بصيرته إلى موضوع من موضوعات ، أو واقعة من واقعات الدنيا ، أو مرأى من مرائي الوجود ، وتؤثر فيه تأثيراً قويّاً ، تدفعه

---

(١) حركة الادب لستار The Dynamics of Literature By Star.

في وعي أو غير وعي ، الى الاعراب عما يرى أو يشهد أو يتأمل [١] ومن آيات ذلك ، وقفة الشاعر اللبناني إلياس أبو شبكة [٢] في وقت المغيب ، وقد سكنت نفسه ، فاتجهت تجاه مشاهد الطبيعة ومرائيها ، وتوجه التفاته في هذه الوقفة الساجية إلى الفلاح وهو عائد من حقله إلى بيته في تعب ولغوب ، فعبر عن هذه التجربة المركبة في نغم هادىء شجي في قصيدته « أغنية المغيب » بديوان الألحان ، إذ قال :

إسجدي لله يا نفسي فقد وافى المغيب
واستريحي من عناء الفكر فالفكر رهيب
واستري الآلام حيناً بابتسامات الحبيب
فغداً ترجع آلامك والآتي قريب

* * *

هو ذا الفلاح قد عاد من الحقل الجميل
في يديه المنجل الحاصد والرَّفش [٣] الطويل
وعلى أكتافه حمل من القمح الثقيل
فهو تعبان وفي عينيه آثار اللهيب
إسجدي لله يا نفسي فقد وافى المغيب

فهذه التجربة الفنية ، تعبر عن حالة الشاعر في وقت من الأوقات ، وتكشف عن سكينة نفسه أمام جلال المغيب . وقد يقع شاعر آخر في مثل هذه التجربة ، فتهتز نفسه ويثور انفعاله وهو يرى الفلاح المنهوك القوى ، فلا يتلفت للمغيب ، بقدر ما يتلفت لهذا المسكين ، ويعرب عن انفعاله وألمه ، إعراباً أدبياً ثائراً ، فعلى الناقد في هذا الموقف ، أن يضع نفسه موضع الشاعر ، ويتجاوب مع شعوره ، ليتعرف تجربته ، وتوفيقه في صياغتها ، فقد ذكرنا من قبل أن القيمة الفنية للقصيد ، تنحصر في درجة التوائم بين التجربة والصياغة ، أو

---

(١) يراجع في هذا الصدد كتاب قواعد النقد الادبي للاديب الانجليزي لاسل أبركرومبي
Principles of Literary Criticism By Prof. Lascelles Abercrombie

(٢) ديوان الالحان — لالياس أبو شبكة ص ٥٦

(٣) الرفش = المعول

بمعنى ، آخر اتساق الثوب الشعري مع التجربة ، وتفصيله على قدّها ، فلا يكون طويلاً فضفاضاً ولا قصيراً مُمزّقاً

* * *

فإذا كان الثوب فضفاضاً لا يأتلف مع التجربة ، قلّل هذا من قيمتها الفنية ، وهذا العيب يمثُل لنا في كثير من قصائد شعراء الشرق شيوخاً وشباناً ، حيث يكثر فيها الاستطراد والحشو ، اللذان يفقدانها التماسك ، ويذهبان بجمال الوحدة .

ومن شواهد ذلك ، نذكر ، بدون اختيار ، بعض قصائد « معروف الرصافي » التي يطيل فيها إطالة مملة ، ونلاحظ ذلك في مثل قصيدته « أم اليتيم » [1] وهي قصيدة قصصية وصفية ، لو حذفنا طائفة من أبياتها لما اختلّ القصيد ، وربما ازداد جمالاً ، وكذلك نلمح هذه الإطالة في قصيدته « اليتيم في العيد » [2] و « السجن في بغداد » [3] وفيهما حشو كثير قلّل من تعبيرها القوي .

على حين نجده في قصائد أخرى يُفصّل الثوب الأدبي على قدّ التجربة الشعرية . ومن أمثلة ذلك قصيدته « وقفة في الروض » [4] ، وقصيدته « إيقاظ الرقود » [5] وقصيدته البديعة « الساعة » [6] وهي من تجاربه الشعرية المتفوقة .

ولم يسلم من هذا العيب ، الشعراء المجددون ، فإننا نراهم في بعض أعمالهم الشعرية يقلدون القدامى في الاستطراد والإطالة ، حتى لا تتضارب آراؤهم في القصيد الواحد ، ولا سبيل هنا لضرب الأمثال ، ولكننا نكتفي بمثال واحد من ديوان « آفاق » للشاعر اللبناني سليم حيدر فقد قرأنا له قصيدة « اليتيم » وهي قصيدة فنية ، بلا ريب ، ولكنها طالت وطالت ، حتى تضاربت بعض خواطرها ، فقد رأيناه في ناحية من القصيد يدعو الى العطف على اليتيم والإحسان إليه والشفقة به . وفي ناحية أخرى ، نراه يلقي في فم اليتيم نار الثورة ، وحقه في المعيشة

(١) ديوان الرصافي ص ٥٢ (٢) الديوان نفسه ص ٧٤

(٣) ديوان الرصافي ص ٥٦ (٤) ص ٢٣٦ (٥) ص ١٣٦ . (٦) ص ٢٤٠ وقد استهلها بقوله :

وخرساء لم ينطق بحرف لسانها سوى صوت عرق نابض بحشاها

الرائحة الطيبة ، وفي هذا من التناقض ما فيه ، واسمع إليه يقول في فقرته الثائرة اللاهبة (١)

نحن اليتامى والبعوض يحزّ عين الضيغم
دعة الخراف البيض فينا وامتعاض الأرقم
قسماً برب الناصري وبالحطيم وزمزم
إن لم تقر لنا الحياة بحقنا في المغنم
لنمزّقنّ حجابها الجافي ويا نظم ارتمي !

وهذه الإطالة في هذه القصيدة خدشت جمالها خدشاً خفيفاً

ومع هذا فإن من الإنصاف القول بأن ديوان هذا الشاعر وعى كثيراً من التجارب الشعرية المعتبرة ، وأبرز هذه التجارب ، مقطوعته الموسومة « دعوة » (٢) التي يروي فيها قصة بائسة تغامر في جوٍ عاصف ، وله فيها إيحاءات فنية مجيرة وأنه ليقول في طلاقة وتحرر

رياحٌ وبردْ
وبرقٌ ورعدْ
إلى أين ؟ دعدْ
ترى تذهبين ؟!
على وجنتيك الدموع السحاح
ودمع السحاب يروّي البطاح
وثوبك تعبث فيه الرياح
وتكشف ما تسترين !

* * *

وقد يقصر الثوب على التجربة الشعرية ، فيؤثر قليلاً أو كثيراً في بهائها وتبدو غير كاملة ، ومن شواهد ذلك نذكر للشاعر المصري الشاب المرحوم محمد عبد المعطي الهمشري ، قصيدته في « مناجاة الفراش » وقد جمع فيها معاني لطيفة متفرقة دون اكتمال ، ومما جاء فيها قوله :

يا طائراً لا يكف هل أنت نجم يرف

(١) ديوان آفاق ص ١١٨ — ١١٩ عام ١٩٤٦ (٢) ديوان آفاق ص ٣٧

أم أنت خطفة نور أم أنت قلب يخفُّ
تطير ندباً طروباً فوق الزهور تدفُّ(1)

مع أن كثيراً من تجاريبه الشعرية مكتملة مشبعة ، مثل تجربته الشعرية « النارنجة الذابلة » وهي من أكمل قصائده ، ذات المطلع الموسيقي الحنون :

كانت لنا عند السياج شجيرة ألف الغناء بظلها الزرزور
طفق الربيع يزورها متخفياً فيفيض منها في الحديقة نور
حتى إذا حل الصباح تنفست فيها الزهور وزقزق العصفور
وسرى الى أرض الحديقة كلها نبأ الربيع وركبه المسحور

وقد عثرنا ونحن نقلب ديوان الشاعر السوري خير الدين الزركلي(2) على مقطوعة عذبة ، هي مقطوعة « هو..! » يكني بها عن قلب الأم ، وهذه المقطوعة رائعة حقاً ، ولو كان الشاعر زاد قليلاً في ثوبها لبلغت حد الامتاع والاشباع . فاستمع اليه يقول :

حولي وفي قلبي وفي سمعي وفي بصري ، وبين يديَّ في جذلي وغمي
نجمٌ يضيء شعاعه سبلي إذا غفت العيون وغاب عني كل نجم
هو مأمني إما جزعت وقبلتي أنى اتجهت وروعتي وجلاء همي
هو مؤنسي، فيوحدتي،هو موئلي في كربتي، هو منيتي،هو قلب أمي

قصر الشاعر ثوب التجربة على هذه الأبيات الأربعة المركزة ، وكان يمكنه أن يطيل الثوب في مثل هذه التجربة الوجدانية العذبة ، كما فعل مثلاً الأديب أديسون Addison وهو يتحدث في قطعته الشهيرة « حب الأم » ذلك الحب الذي لا ينفد ولا يبلى ، في تجربة أدبية نثرية مشبعة ، منوعة الخواطر .

* * *

ونحن اذا فصلنا هذه الناحية من التجربة الشعرية ، فذلك راجع الى أن الشعر الحقيقي بل الشعر ذا المرتبة العالية ، ما هو إلا نقل للتجربة كما يقول لاسل أبر كرومبي(3) The communication of experience نقلاً حيّاً الى الأذهان ، والشاعر الشاعر هو الذي

(1) كتابنا « أدب الطبيعة » ص ١٠٨
(2) ديوان — خير الدين الزركلي . الجزء الاول ص ٩٣ المطبعة العربية بمصر ١٩٢٥
(3) كتاب « الشعر : موسيقاه ومعناه » للاسل ابر كرومبي ص ٤٨

بخالق موضوعه أو تجربته ، في عقولنا ، حتى لنرى ما رآه ، وليس هو الواصف فقط للرائي والمشاهد ، أو المخبر عنها [١]

وجمهرة النقاد على هذا الرأي ، فالناقد الانجليزي دونالد آدمز ، في كتابه الحديث « مسئولية الكاتب »[٢] يرى هذا الرأي ، ويزيد عليه ، أن الشاعر الحق هو من ينقل القارىء الى جوّه ، وفي شعرنا المعاصر ، تجارب شعرية ممتعة مشبعة ، في الشعر الوجداني ، والتفكيري ، أو التصويري . أو القصصي ، أو الغنائي . ونرى لأهمية هذا الموضوع ، أن نسجل مثالاً لهذه المناحي الشعرية المهمة ، فمن التجارب الوجدانية نذكر للدكتور ابراهيم ناجي قصيدة مرهفة الأعصاب ، يقص فيها قصة حب تهدّم ، وقد عبّر عن هذه التجربة الوجدانية تعبيراً مرهفاً حساساً في قصيدته « رسائل محترقة » إذ قال :

ذوت الصبابة وانطوت　　وفرغت من آلامها
لكنني ألقى المنا　　يا من بقايا حامها
عادت لقلبي الذكريا　　ت بحشدها وزحامها
في ليلة نكراء أر　　قني طويل ظلامها
نامت رسائل حبها　　كالطفل في أحلامها
زرقاء صيرها البلى　　كسحابة بغمامها
خلفت لا رقدت ولا　　ذاقت هي منامها
أهملت فيها النار تر　　عى في عزيز حطامها
تغتال قصة حبنا　　من بدئها لختامها
أحرقتها ورميت قلـ　　ـبي في صميم ضرامها
وبكى الرماد الآدمي　　على رماد غرامها

فهذه القصيدة الوجدانية الرائعة تتوهج في ثوب قصصي جذّاب ، وانفعال وثّاب حسّاس ، ووحدة قوية ، وموسيقى ارتكازية ، وهي ولا ريب من مفاخر شعرنا العصري .

(١) كتاب « الشعر : موسيقاه ومعناه » للاسيل ابركرومبي ص ٤٧

(٢) مسئولية الكاتب — دونالد آدمز The Writer's Responsiblity By Donald Adams 1946

ومن التجارب الفكرية الخالدة المشبعة نذكر مطوّلة « الطلاسم » للشاعر المهجري إيليا أبو ماضي، فهي مثال فذّ على التجربة التي تشبع أذهاننا إشباعاً ، وتجعلنا ، على رغم منا ، نشاركه في توزعه الروحي ، وحيرته في فكرة البعث، وتشككه في كل شيء ، حتى في إنكار ذاته . وهذه المطوّلة بلغت أكثر من مائتين وثمانين بيتاً . ولا نستطيع في هذا المجال إلاّ تسجيل ثلاث فقرات ، منها مطلعها الذي يعبر فيه عن لغز حياته ووجوده فيقول :[1]

جئت ، لا أعلمُ من أين ، ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيتُ
وسأبقى سائراً ان شئت هذا أم أبيتُ
كيف جئت ، كيف أبصرت طريقي . . ؟
لست أدري

واستمع إليه في فقرة ثانية يشكك في فكرة البعث والخلود يقول :[2]

أوَراءَ القبر بعد الموت بعثٌ ونشور
فحياةٌ فخلودٌ ، أم فناء فدثور
أكلام الناس صدقٌ . أم كلام الناس زور
أصحيحٌ أنّ بعض الناس يدري
لست أدري

وينتهي إيليا ، بعد الاستطراد في تجربته الفكرية ، الى حيرته العمياء التي كادت تصل به الى الإلحاد ، فيقول في آخر فقرة من هذه الملحمة :[3]

إنني جئت ، وأمضي ، وأنا لا أعلمُ
أنا لغزٌ ، وذهابي كمجيئي طلسمُ
والذي أوجد هذا اللغز لغزٌ مبهمُ
لا تجادل . . ذو الحجا من قال إني
لست أدري

---

(١) ديوان الجداول ص ١٠٨ مطبعة الراعي في النجف ببغداد
(٢) الديوان نفسه ص ١١٨ (٣) المصدر السابق ص ١٣١

ومن التجارب التصويرية البالغة حد الدقة ، تصوير الدكتور أبو شادي لمولد السيدة زينب [1] وقد تهيأت له هذه التجربة ، والامتلاء بها عند ما كان قريباً من هذا المولد ، في ركن من أركان حيّ السيدة ، بمحرر مجلات أبولو ، والإمام ومملكة النحل ، فرسم لوحة مركبة ، صوّر فيها حالته النفسية ، وحالة المتفرج في المولد ، وتفنن في تصوير ألوان الطعام المعروض ، والتقط مناظر المواكب الصاخبة المهللة ، ولم يفته تزيين لوحته بالمشاهد المغرية مثل مشهد « الولي » المشعوذ ، والبهلوان الطفل ، والقرد الهازل ، والحسناء اللاهية ، والبائع الجوّال ، ويخرج القارئ من هذه التجربة ، وكأنه رأى هذا المولد رؤية فاحصة نافذة ، واستمتع بلذات جمالية ومعنوية ، تثيرها التجربة بما جمعت من معانٍ وأخيلة أصيلة بارعة ، ولما كانت القصيدة طويلة إذ تبلغ الأربعين بيتاً ، ولا سبيل لإيرادها كلها ، فقد حاولنا أن نقتطع منها بعض أبياتها ، ونبدأ بمطلعها وهو يصف حالته يقول :

ضحكنـا للهموم وقلتُ هيا نضلُّ همومنـا بين الزحام !
فسرنا في مواكبَ حاشداتٍ تدفّقُ كالظلام على الظلام
ونحن نسير إعجازاً كأنا خُلقنا للزحام بلا عظامِ
نسيرُ ويدفعُ التيار دفعاً جسوماً في مواثجه الجسام

ثم ينتقل الشاعر الى تصوير شخوص المولد اللافتين للنظر ، فيذكر من بينهم الولي ويرسم له صورة ماديّة ونفسية سافرة فيقول :

وكم منهم وليٌّ في ثياب مضمّخةٍ بألوان الحرام
يشقُّ الجمع مزهوّاً قريراً وليس سواه من أهل المقام
يباركُ كلُّ مكلومٍ عليل ومن أمثاله عِلَل الكلام
وتُلْثَمُ راحتاه وليس أولى بلثمهما سوى حدّ الحسام

ويعقّب بعد ذلك على وصف المواكب الصاخبة فيقول :

مواكبُ مالها عقلٌ وإلاّ فأحلامٌ تنوء بالاصطدام

(١) مجلة أبولو — نوفمبر ١٩٣٤ قصيدة « في مولد السيدة زينب » وهي من ديوان « فوق العباب » ص ١٢٢

كأنَّ البعثَ أخرجها مَرايا لأنواع الخصومة والوئام

ثم يلتقط أخيراً بعض المشاهد الفردية المضحكة فيقول :

وهذا القرد يلعب في سرورٍ كأن سروره سكر المدام
وهذا البهلوان الطفل يمشي على رأس تدحرج في الزحامِ
وهذي الطفلة الحسناء تلهو برقص للأنوثة في اضطرامِ

ولم يفته تصوير مرأى الذاهبين الى زيارة ضريح السيدة زينب ، والخارجين منه وهم معرضون للصوص ، فقال :

وأمواجُ الجموع تُصَبُّ صبًّا إلى حرم الزيارة في عُرامِ
وأخرى في تدفقها حَيارى وقد أودى بها عبث الحرامي !

فهذه القصيدة الوصفية التصويرية ، تنقل لك جوَّ المكان ، ودنيا الواقع والناس ، في خيال رائع ، وفكر حصيف ناضج ، ولوحة شعرية وضاءة الألوان .

* * *

ومن التجارب الشعرية التي يمكن أن نسميها بالقصصية من باب التجاوز ، بعض قصائد عمر أبو ريشة وهو يقصُّ صبواته قصًّا حيًّا ، ونذكر من تجاربه « مصباح وسرير »(1) وفيها يقصُّ حكاية حبيبة هجرته طويلاً ، وفي عودته وجدها في داره ، نائمة على سريره ، فبُهت لهذا المشهد الغريب . وقارىء هـذا القصيد ينتقل الى جوّ الشاعر في الحال ويعيش معه ، ويتأثر بانفعاله وأشواقه ، ولو لم يتفق معه في مجونه ، ولـكنه لا يستطيع إلا أن يمجّد فيها الفن ، ويعفو عن مغامراته ، ويبتسم ابتسامة الفن لهفاته العارمة ، ولا يمكننا في مثل هذه التجربة أن نقتطف منها بعض أبياتها ، كما فعلنا في قصيدة أبي شادي ، لتماسك أبياتها تماسكاً يكاد يكون عضويًّا ، وإنه ليقول فيها :

سعيتُ لحجرتي قلقاً وجُنح الليلِ معتكر
وأوهامي مخبّلة أحرّكها فتستعرُ
وأحلامي أشاهدها على قدميَّ تحتضرُ

(1) ديوان عمر أبو ريشة

فلا حبي له أثرٌ ولا هندٌ لها أثر
إذا ذكرت تطاير من جهنم مقلتي شرر
وخلت بردتي أفعى على جنبيَّ تنحدر !
بلغتُ الباب .. والضوءُ الضعيف بثقبه يبدو
وما أطبقته حتى اقشعرَّ الشعر والجلد
رأيت وليس بي سكرٌ ولا في مقلتي سهد
رأيت . على سريري قد غفت هندٌ .. أجل هند
فذلك قدُّها العاري وذلك شعرها الجعد
أعادت ؟ بعد ما فصمت عرانا واَمحّى الود !

* * *

وقفتُ . وخافقي يشتدُّ بين جوانحي وثبا
وهندٌ لم تزل تغفو وتنهب صبوتي نهبا
أما نفضت يديها من غرامي وانثنت غضبى ؟
ألم تعطف على غيري ألم تخلص له الحبَّا ؟
عَلامَ أتت ، أتحسب أن سيمحو قربها الذنبا ؟!

* * *

رجفتُ ومقلتي جمدت على فيّاضة الأنس
وبي منها ذهول قد طغى من هوله همسي
فثارت بي عواطف بل عواصف حبي المنسي
فسرتُ .. للذة اللقيا وللتقبيل واللمس
وما لامست كفيَّ السرير ضحكت من نفسي
وسالت دمعة أودعت فيها منتهى حسي

* * *

وهذه القصيدة ، تنقل إلينا تجربة الشاعر نقلاً قويًّا ، وهي في ذاتها قصيدة فنية

بصرف النظر، عن انفعالاتها الحسية العارمة، وهذا رأيُ نقاد الفن الخالص مثل بنديتو كروتشه في كتابه « فلسفة الفن »[1] ولكنّ هناك نقاداً آخرين، يرون أن تصوير الانفعالات الجنسية والالهفات العارمة يضيع من جمال الفن، ويعتبرون مثل هذه الانفعالات غير جمالية، ومن بين هؤلاء نذكر شارلس جايلي في كتابه « وسائل ومواد الناقد الأدبي »[2]

ونحن نرى أن أبا ريشة عبر عن تجربته في براعة منقطعة النظير، ونقلها إلينا نقلاً حيّا، إلاّ أننا لا نستطيع مقاومة شعورنا بالخسارة الكبيرة، في تضييع هذه المقدرة التعبيرية، والطاقة الشعرية في ولوج هذه الناحية، والافاضة فيها.

* * *

ونعود بعد هذه الوقفة الطويلة في تجارب عمر أبو ريشة، الى تسجيل نموذج من نماذج التجربة الغنائية. ومثل هذه التجارب تقتصر على التعبير عن لفتة حادّة من لفتات النفس، أو الوجدان، وفي هذا الصدد يقول لاسل أبر كرومبي في كتابه « الشعر: موسيقاه ومعناه»

إن الشاعر الغنائي، يعبر لنا في تجربته عن لحظة حادّة من اللحظات، يعبر لنا عن شيء مرئي، في غير تفصيل ولا تعليق[3] انه يمسك باللحظة الهاربة، ويثبتها في كلماته، أو يعرب لنا عن لمحات عجبه، ودهشة نفسه، في موسيقية سابغة. وقد أتينا في البحث الأول بنموذج من نماذج التجربة الشعرية الغنائية، اذ سجلنا قصيدة « الآمال الضائعة » لرشيد أيوب وها نحن أولاء، زيادة في التوضيح، نذكر قصيدة « سلام يا معذبتي»[4] للشاعر المهجري « مسعود سماحة » وهى من أعذب قصائده، ومن التجارب الشعرية الغنائية وهي تمثل لحظة من لحظات الشاعر الأليمة، أثارها هجران الحبيبة، فدار حول هذا المعنى دوراناً لطيفاً، وفاض في التعبير عنه، دون أن يذكر شيئاً عن أسباب هذا الهجران، ولا عن هذه الحبيبة وفي موسيقى إيقاعية عذبة يقول:

---

(١) كتاب فلسفة الفن، لكروتشه

(٢) Methods & Materials of Literary critic By Charles Gayley.

(٣) ص ٥١ Poetry, Its music & Meaning By Lascelles Abercrombie

(٤) ديوان مسعود سماحة ١٩٣٨. المطبوع بمطبعة « جريدة السمير » اليومية ببروكلن ص ٢٠٥

سلام يا معذبتي على أيامنا الأوَلِ
وأوقات بنا درجت كما درجت على مَهَلِ
بلا همٌ ولا كدرٍ ولا نصب ولا ملل
معذبتي لقد أمسيـت بعدك مضرب المثلِ
ثقيل الرأس مضطرباً شبيه الشارب الثمِلِ
يدبُّ السقمُ في جسدي دبيبَ النوم في المُقَلِ
هي الأيام سائرة بنا في السهل والجبل
فلا عسلٌ بلا صابٍ ولا صابٌ بلا عسل
معذبتي ، معذبتي يطيب الموت بعدك لي

* * *

وهذه التجارب الخمس آنفة الذكر ، هي تجارب فنية منوّعة ، موفقة الصياغة ، ولكنها تتفاوت في مراتبها وقيمها ، إذا نظرنا اليها من زاوية جديدة ، وهذه الزاوية ، هي تقدير عمومية التجربة وذاتيتها ، فالتجربة الشعرية الخليقة بالبقاء والتقدير العالي ، هي التي تتناول موضوعاً عامّاً universal أو موضوعاً إنسانيّاً أو كونيّاً ، مع جمال الاداء وجودة الصياغة. وبمعنى آخر ، أن الشعر العظيم الباقي هو الذي يتناول حقيقة من حقائق النفس الدائمة ، أو حقيقة من حقائق الوجود الخالدة ، في تأدية بارعة محكمة . ومن شواهد ذلك ملحمة «الطلاسم» التي أتينا على ذكرها ، فهي أبدع روائعه ، لتجربتها الخارجية الانسانية الواسعة الأفق ، ولا يمكن أن تقابل ألبتة بقصيدة أخرى ذاتية في ديوان الجداول ، ولو فاقتها في الصياغة ، فقصيدته « في القفر » ذات التجربة الباطنية لا تقابل بها أبداً ، وقصيدته الموسيقية البديعة «تعالي» ذات التجربة الذاتية لن تخلد في الأذهان وتبقى على الأيام بقاء « الطلاسم » وإن سمت عليها صياغة ، والتي يقول في مطلعها :

تعالي نتعاطاها كلون التبر أو أسطع
ونسقي النرجس الواشي بقايا الراح في الكاسِ
فلا يعرف من نحن ولا يبصر ما نصنع

ولا ينقل عند الصبح نجوانا الى الناس [١]

ولا ريب، أن موضوعية الشعر، جوهرٌ يمدُّه بعنصر القوة والثبات والبقاء، ويقوم دليلاً مبصراً، على نضج الشاعر واتساع أفقه — ونرى أن نقدم سلسلة من النماذج تعزيزاً لهذا الرأي، فلو رحنا لشعر أبي شادي مثلاً، وقابلنا بين تجاربه الباطنية، وتجاربه الخارجية وتجاربه الكونية، لوجدنا الأخيرة هي الباقية المعمرة، فقصيدة أبو شادي الفنان [٢] ذات التجربة الباطنية، التي جاء فيها:

أماناً أيها الحب سلاماً أيها الآسي
أتيت، اليك مشتفياً فراراً من أذى الناس
حنانك أيها الداعي فأنت مليك أنفاسي
فررت وحولي الدنيا تحارب كل احساسي

هذه القصيدة العذبة، أو غيرها من القصائد ذات التجربة الخارجية المحدودة مثل قصيدته «البيت» [٣] التي يقول فيها:

بيتي، وهل بيتي سوى جنّتي فكل ما فيه عزيزٌ حبيبْ
يحنو، وكم يحنو على مهجتي وكل ما فيه عطوفٌ رقيب
من زهره الباسم من عشبه من مائه العاثر فوق الحصى
من طيره العابث في وثبه من كلبه اللاعب مثلُ القطا
من كل نور أو ظلالٍ به وكل صوت أو سكوت عميق
أستقبل الترحيب من حبه وألمح الحب يشقُّ الطريق

فهاتان القصيدتان، وما ماثلهما، لا تقابلان ألبتَّة، بقصائده الانسانية أو الكونية، من مثل قصيدته «أقصى الظنون» [٤] وقصيدته «في الواحة» [٥] وقصيدته الطمأنينة [٦]

ونقتطف من القصيدة الأولى قوله:

أقصى الظنون وجودي أصله العَدَمُ ومن عجيبٍ وجودي ليس ينعدمُ

---

(١) ديوان الجداول ص ٣٥ (٢) ديوان «أطياف الربيع» ص ٢٩ (٣) ديوان «أطياف الربيع» ص ٦٨ (٤) ديوان الشفق الباكي ص ٣٠٠ (٥) ديوان الشعلة ص ٣٤
(٦) ديوان أشعة وظلال — ص ١١٢

في ذمة الصامت الماضي البعيد وما تخفي العصور هدًى هيهات يقتحم
مرّت ملايينها لحناً كثانيةٍ وخلفت حيرة كبرى لمن فهموا
ما الخلقُ ؟ ما هذه الدنيا ؟ ومنشؤها ؟ ما الفكر ، ما الجوهر الباقي وما العدمُ ؟
مسائلُ ، هي للاحقاب باقية كما سيبقى الردى والشك والألم ،
أحس أني قرين للوجود وهل يُفني الوجود قريناً ليس ينفصم
وما حياتي ؟ أليست بعضها وبها من رسمه صور شتى لمن رسموا
من الشعاع ومن هذا الهواء ومن موج الأثير جرى فيها هوًى ودم
اذا تأملت فالأمواج تسمعني وإن تغنيت فالأمواج لي نغم
كلي شموس من الذرات تربطها بالعالم الأكبر الأسباب والنظم
فهل حياتي شعاع من جلالتها وفي الممات مصيرٌ سره عظمُ
الله أعلم ، هل روحي سوى قبس من الكواكب لا تودي به الظلمُ
عوامل الكون تزجيها وتجذبها وأصلها بينما ينحلُّ يلتئم

فهذه القصيدة من أرقى شعره على الاطلاق ، لعمومية التجربة فيها ، وتحليق الشاعر فيها في أفق الموضوعية ، ولو أخذنا في استعراض شعر الشعراء المعاصرين في هذه الناحية لما اتسع البحث ، ولكننا نكتفي هنا بذكر أحدث التجاريب الشعرية العامة ، لبعض الشعراء الموهوبين ، ونذكر من بينهم المرحوم التيجاني يوسف بشير وهو من شعراء السودان المتفوقين ، وقد ظهرت في ديوانه « إشراقة » (1) براعم التجارب العامة ، ونذكر من بينها قصيدة « الصوفي المعذب » التي جاء فيها :

هـذه الذرّة كم تحمل في العـالم سرّا
قف لديها وامتزج في ذاتها عمقاً وغورا
وانطلق في جوها المسـحور إيمـاناً وبرّا
وتنقّل بين كبرى في الدراري وصغـرى
ترَ ، كل الـكون لا ينفـك تسبيحاً وذكرا

وأنك لترى الشاعر ينفذ الى أعماق الـكون محاولاً معرفة ما في الذرّة من الأسرار ،

بصيرته النافذة معبراً عن إيمان قلبه الراسخ بالله حتى ليتمثل له ، في الذرات الضئيلة دنيا مؤمنة تسبح بذكر الخالق .

وأنك لتجد أيضاً براعم من هذه التجارب في شعر الشاعر المهجري المرحوم « فوزي المعلوف ». ومن شواهد ذلك ما جاء في قصيدته « لحن الخلود » (١) التي جاء فيها :

برعم الزهر ما وُجدت لتبقى بل ليمضي بك الخريفُ
هذه حالنا ، خلقنا لنشقى ولتقضي بنا الحتوفُ

كيف جئنـا الدنيا ؟ ومن أين جئنا
وإلى أي عالم سوف نُـفضى ؟
هل حيينا قبل الوجود وهل نبعثُ
بعـد الردى وفي أي أرض ؟

وهذه تجربة عامة ، تمثل حيرة الانسان المفكر في كُنه هذا الوجود ، وتلقى صداها في كثير من الأذهان .

وثمة تجربة ثالثة للشاعر الشاب المرحوم فؤاد بليبل في ديوانه « أفاريد ربيع » أسماها « أنا » تمثل غاية البشرية ، ونهاية الانسان ، وهي فلتة من فلتات الشاعر صاغها في أسلوب وثاب بديع ، وإنه ليقول فيها : (٢)

أنا ! مَنْ أنا يا للتعا سة ، من أنا شبح الشقاء
بل زهرة فواحة عبقت بها أيدي القضاء
عند الصباح تفتحت وذوت، ولم يأتِ المساء
وطغى الفناء على الشبا بِ فغاله ، قبل الفناء

* * *

بالأمس كانت ملعب العصفو ر في ذاك العـراء
يشفي العليل أريجهـا وبهاؤها يحيي الرجاء
بسامة لم تدر ما معنى السآمة والفناء

(١) مجموعة « ذكرى فوزي المعلوف » ص ١٥ (٢) ديوان «أفاريد ربيع» ص ٢٢

والیوم ، یاأیّها النا ... س نصیبها هدف البلاء
قد حوّلوا عنهـا الغد ... یر فلا خریر ولا رواء
فذوت على أكمامهـا ... عطشاً وبعثرها الهواء !

ومثل هذه التجربة سبقت الى نفس الشاعر العبقري الشاب ، المرحوم أبو القاسم الشابي ، شاعر تونس الخضراء فعبر عنها تعبيراً طليقاً رائعاً حنوناً ، فكاد يحس بأثر إحساسه بالعدم ، والحيرة من الوجود وقد تجلّى هذه التجربة في قصيدته « في ظل وادي الموت » . . التي جاء فيها :

نحن نمشي . . وحولنا هاته الأكوان ... تمشي . . لكن لأية غايه ؟
نحن نشدو مع العصافير للشمس ... وهـذا الربيع ينفخ نايه
نحن نتلو رواية الكون للموت ، ... لكن . . ماذا ختام الروايه ؟
هكذا قلت للرياح . فقالت : ... سل ضمير الوجود : كيف البدايه
وتغشّى الضباب نفسي . . فصاحت ... في ملال مر : الى أين أمشي ؟
قلت « سيري مع الحياة فقالت ... « ما جنينا ، تـرى من السير أمسي
فتهافت . كالهشيم على الأرض ... وناديت « أين يا قلب رفشي !
هاته ، علـّني أخطّ ضريحي ... في سكون الدجى ، وأدفن نفسي . .

* * *

وثمت نموذجان أخيران للتجربة العامة ، نجدها في شعر شاعرين من شعراء مصر الممتازين أحدهما للأستاذ سيد قطب في قصيدته « في الصحراء » وثانيهما للأستاذ حسن كامل الصيرفي في ديوانه « الألحان الضائعة » .

في تجربة الاول نظرة تأملية الى كنه الوجود ، وحيرة الانسان من أيامه المكرورة ، وثورته على هذا الوضع الذي لا حيلة له فيه ، ويجري هذه التأملات على لسان نخلتين يرمز بهمساتهما ونجواهما الى همسات الانسان ونجواه ، وهـذه القصيدة هي أجل ما في ديوانه

« الشاطىء المجهول » ولو صيغت صياغة موحّدة متماسكة مع ، ما فيها من طلاقة تعبيرية ، لكان لها شأنها الخطير في التجارب الشعرية العامة الباقية ، ولكن الشاعر خلخل بناءها بهذا الحديث المتبادل ، الذي يجمل في القطع التمثيلية الطويلة ولا يجمل في التجربة الشعرية القصيرة ، ولكنها على أي حال ، محاولة موفقة لشاعر مصري في سن باكرة ، فاستمع إليه يقول في بعض فقرها

ما لنا في ذلك القفر هنا [1] ما برحنا منذ حين شاخصات
كل شيء صامت من حولنا وأرانا نحن أيضاً صامتات !

تطلع الشمس علينا وتغيب
ويطل الليل كالشيخ الكئيب
والنجوم الزهر تغدو وتؤوب

فهجير وأصيل ، وطلوع وأفول ، ثم تبقى في ذهول
ساهمات

ربما كنا أسيرات القدر تسخر الأيام منا والليالي !
تضرب الأمثال فينا والعبر وإذا نشكو أذاها لا تبالي

ربما كنا مساجين الزمن !
قد مسخنا هكذا بين القنن
في ارتقاب الساهر الحي الفطن

فاذا كان يعود ، فك هاتيك القيود ، فرجعنا للوجود
ظافرات

ثم ساد الصمت كالطيف الحزين
وتسمعت لأقدام السنين
وهي تخطو خطوة الشيخ الرزين

هامسات في الرمال ، منشدات في جلال ، كل شيء للزوال
والفتات

(١) ديوان الشاطىء المجهول ص ٢٧

ومن تجارب الصيرفي قلة مبثوثة في دواوينه « قطرات الندى » و« الألحان الضائعة »، و « الشروق » ، و « رجع الصدى » وبعض قصائده الأخيرة .

ولكن هذه التجارب العامة في شعر هذا الشاعر ليست مستقلة ، بل كثير منها مختلط مع تجارب باطنية أخرى ، ومن قصائده المستقلة نذكر قصيدته « التضحية » [1] في ديوانه « الألحان الضائعة » التي يبشر فيها بالاشتراكية الروحية ، حيث يقول :

هنـا في هيكل الحبّ أحقّـرُ مبـدأ الفرْدِ
وأحرق عنده قلبي بخوراً طيّب النّـدّ
ولست بنادمٍ يوماً على قرباني الضـائعْ
أجلُّ الناس مَنْ يظمأ ليرضي الظامئَ الجائع

ومن قصائده المختلطة نذكر قصيدته الدامعة « غروب شمس » [2] التي يرثي فيها أخته العزيزة ،وصبّ فيها ألمه الكارب ، وفي الفقرة الثانية منها بذرة من بذرات التجربة العامة. فاسمع إليه يقول في رصانة :

رؤى الدنيا كواذب خادعاتٌ وقد صبغت بألوان كذابِ
نساق الى مفاتنها ونمضي مضيّ المصحرين الى السرابِ
ونمشو كالفراش على شعاعٍ جحيميّ الحرارة والالتهابِ
نؤمّـل ما نؤمل ثم تُـطوى معْ الانفاس آمالٌ خوابي
تعللنا بمعسول الأماني وتمزج بالتعلة كلّ صابِ
ونأخذ من يد الأيام كأساً تداولُ بالقديم من الشرابِ
نجرّعه ، وليس لنـا سبيلٌ الى الشكوى من الألم المذابِ
وتسلبنا الأعزّ، وليس حرصٌ بمانع كفها عن الاستلاب
مضت بالاولين وسوف تمضي بنا وبغـــيرنا من كل بابِ

(١) «ديوان الالحان الضائعة» . لحسن كامل الصيرفي ص ٨٧ سنة ١٩٣٤

(٢) مجلة «الرسالة» العدد ٧١٤ في ١٠ مارس سنة ١٩٤٧ السنة الخامسة عشرة و « المقتطف» ابريل ١٩٤٧ الجزء الرابع من المجلد العاشر بعد المائة

نعيش وحولنا أهلٌ وصحبٌ ونحن من الحياة على اغتراب
وما حمل المرارة غيرُ حيٍّ زواه الموت عن هذا الركاب
يشيّع نفسه في كل حين وراء الراحلين من الصحاب

* * *

فهذه التجارب العامة التي أسلفنا ، مع تفاوتهـا في دقة التجربة ، وفي التناول ، وفي الشاعرية ، تمثل مرحلة جديدة في الشعر العربي المعاصر ، هي الخروج قليلاً من نطاق الرومانتيكية الفردية الغالبة في الشعر العربي

* * *

وليس ريبٌ في أن التجارب العامة ، اذا أُحكمت صياغتهـا ، وتماسك بناؤها تكون أخلد وأبقى من التجارب الباطنيـة ، أو التجارب الذاتية الغنائية ، أما التجارب الفردية الشخصية ، فلن تبلغ درجة عالية ، مهما تفنن الشاعر في صياغتها ، وفي شعرنا المعاصر ، تجارب جمّة من هذا اللون ، واعتقادي أن أغلبها لن يعيش طويلاً ، وبعضها ولد ميتاً

وأحسب أن ديوان « التيار » للشاعر العراقي احمد الصافي النجفي ، يمدُّنا بأمثلة وفيرة للتجربة الذاتية .

ففي قصيدة « صبّاغ الاحذية »[1] نراه يروي لنا ساخراً كيف أنه قبل أن يطلي حذاؤه مرة ، مع أنه لم يتعود ذلك ! وقد جاء فيها

جاء يوماً إليَّ صبّاغ نعل وبنعلي صبغ من الايام
مرَّ دهرٌ عليه لم يرَ صبغاً غير صبغ الغبار والاقدام

وتبرز هذه الذاتية المحدودة في مثل قصائده « صيد جديد »[2] و « اللذة الخالدة »[3] و « خير وشر »[4] ويصف في هذه القصيدة الاخيرة ركوب سيارة لفقير زحمها بالركاب ، وقد جاء فيها :

فكدتُ أموتُ فيه من ازدحام وأسكن فيـه قبل القبر قبرا
ولـكن وجهُ سائقه بدا لي يموج بشاشة ويفيض بشرا !

(١) ديوان التيار ص ٢٠ (٢) و (٣) و (٤) ديوان التيار ص ٢٣ وص ٣٦ و ص ٣٢

فألقى نظرةً ملئت حناناً إليَّ وأكثر النظرات هكرا
وقال : لنا قدومك كان خيرا فقلت له : أجل ! وعليَّ شرَّا .

فمثل هـذه القصائد الذاتية المحض لا قيمة لها ولا بقاء . ومن المؤلم حقـًا أن يُضيّع مثل هذا الشاعر طاقتـه الشعرية في مثل هـذه التجارب التافهة التي تُعدُّ من التسليات الطائرة

ولا يفوتنا في هـذا المجال ، أن نستدرك أن هناك قصائد ذاتية أو فردية مقدورة لاندغام عنصر من عناصر الحقيقة ، أو سمة من سمات النفس، أو عاطفة من عواطف القلب فيها ، ويحضرنا شاهداً على ذلك قصيدة للصيرفي في ديوانه « رجع الصدى » (١) أسماها « ضرغام » ، وهو قطٌّ ، أثيرٌ لديه ، مات فأخذ يبكيه ويبكي الوفاء فيـه ، وربما كانت الوحدة الموسيقية الشاملة، وجمال الصياغة من عوامل تقديرها ، إسمع إليـه يقول في بعض فِقَـرها :

ضرغام موتك هزَّ وجداني
وأثار فيَّ دفين أشجاني

* * *

وأنا الأبيُّ الدمع في المحنِ تطغي عليَّ نوائب الزمنِ
فأصدُّها بالعزم لم يهِـنِ وأري الحوادث قدْرَ إيماني

* * *

حرمتنيَ الأقدار من ولدِ فوجدت فيك عزاءَ مفتقَـدِ
وفقدت بعدك سلوة الأبدِ لولا خيالك ملء وجداني

* * *

كنت السمير لشاعر يحيا حُـرِمَ الوفاءَ العذب في الدنيا
آنستني والأُنس كالرؤيا وانـى وراءك أيها الفاني

* * *

وأراك فُـقتَ عواطف البشرِ بفؤادك المتفتح النضرِ

---

(١) ديوان « رجع الصدى » لم يطبع بعد

وقلوب بعض الناس من حجر　　ويقال هذا قلب إنسانٍ !

إلى أن يقول :

يتعجبون لأدمعٍ تجري　　ونشيج محزون على هرّ

يا لائمي في الحزن لا تدري　　أيّ الوفاء المحض خلاّني ...!

فمثل هذه التجارب الذاتية تقدّر قدرها كما أسلفنا لامتداد ظلال تجربتها الى الخارج ولما فيها من حقيقة نفسية عامة ، وموسيقى عذبة . والحق ، أن كثيراً من التجارب الذاتية تظفر بمرتبة فنية عالية ، لموسيقاها السابغة الحنون . ويحضرنا في هذه الآونة ، قصيدة « فراق » للشاعر اللبناني « يوسف الخال » في ديوانه « الحرية » (١) وقد جاء فيها :

حبيبي متى نلتقي ؟ فأني صباح مساء

أسير وكلي رجاء إلى المفترقِ .

فيا عين لا تدمعي رويداً ، فعمّا قريب

يعود اليّ الحبيب ويبقى معي

* * *

فلي مأملٌ في الغدِ أهز به الكائنات

وأجني ثمار الحياة بملء يدي .

* * *

وفضلاً عما تقدم ، فهناك تجارب ذاتية تحتل ذروة الفن لاصطباغها بصبغة عامة ، وإعرابها عن حقائق نفسية حقيقية ، واتسامها بأنغام فريدة . ومن أظهر شواهد ذلك قصيدة ناجي « قلب راقصة » في ديوان وراء الغمام (٢) ومع ذاتية التجربة ، فانها تعبر في دقة عن نفوس مرتادي المراقص ، وما يثور فيها من متنوع الانفعالات . إسمع اليه يقول :

فقدوا حجاهم حينما طربوا　　ودووا دويّ البحر صخّابا

---

(١) ديوان « الحرية » ليوسف الخال ص ٤٣ — ٤٥ — سنة ١٩٤٧

(٢) ديوان « وراء الغمام » ص ٣٦ سنة ١٩٣٤

فاذا استقرُّوا لحظة صخبوا — لا يملكون النفس إعجابا
لِمَ لا أثور كمثل ثورتهم — لِمَ لا أجرب ما يحبونا
لِمَ لا أصيحُ كمثل صيحتهم — لِمَ لا أضجُّ كما يضجونا !
لِمَ لا تذوق كؤوسهم شفتي — إن الحجى محنى وتدميري
في ذمة الشيطان فلسفتي — ورزانتي ووقار تفكيري
يا قلب ضقت وها هنا سعةٌ — ومجال مصفود بأغلال
أتقول أعمارٌ مضيعةٌ ! — ماذا صنعت بعمرك الغالي ؟
أنظر ترَ السيقان عاريةً — وترَ الخصور ضوامراً تغري
وترى عيون اللهو جارية — فهنا الحياة وأنت لا تدري !

وهذه قصيدة عجيبة تمثل تجربتها أمام القارىء حية ناطقة ، فهي تبرز حال المتفرج في المرقص، وتكشف عن الراقص ، وتنبثق منها موسيقى مختلفة النغمات متحدة القرار . وقد يرى بعض النقاد أن بين القدّات وقفات تضيع الوحدة والتماسك العضوي في القصيد ، ولكن هذه الوقفات ، في اعتقادنا ، لا تضير القصيد . وان كنا نفضل الوحدة الموسيقية المتكاملة .

❋ الصياغة الشعرية ❋

والمقياس الثاني للحكم على القصيد ، هو النظر الى تناول التجربة ، أي الى أسلوبها أو صياغتها . والصياغة هي بمثابة الجسم، والتجربة بمثابة الروح . فاذا كان الجسم قويًّا، أضفى على الروح قوة وجمالاً

وأهمّ عنصر من عناصر الصياغة هو كما يقول ، هولنجورث[1] ، مواءمة الصياغة لموضوع القصيد . ومن أمثلة ذلك نذكر قصيدة « القرية النائمة[2] » للشاعر محمد عبد الغني حسن

(1) Hollingworth — A Premier of Literary Criticism

(٢) المقتطف ، ديسمبر ١٩٣٩ ونشرت في ديوانه «من وراء الافق» بعنوان «إلا أنا» ص ٧٠

وهي فلتة من فلتاته يصف فيها قرية ردنج الانجليزية ، وقد استقبل فيها لمحات الفجر وهو يضوىء على شاطىء نهر التيمز ، وما يلابس بزوغ النهار من أحداث صاخبة ، وفيها نلمح أسلوباً مترسلاً ، وموسيقى حلوة ، وصياغة مواءمة للتجربة ، وإنه ليقول :

مال السكون على البطاح وهيمنا　　والكون في أحلامه إلا أنا

والنهر وصنان الخرير كأنه　　غرقان في الأحلام غافٍ في المنى

وكأن تمتمة النسيم بشطه　　سُوَرٌ يرتلها المسبّح موهنا

وفي الفقرة الاخيرة يقول :

النهر عاد الى الحياة وجرجرت　　فيه السفائن من هناك ومن هنا

ومشت بشطيه الجموع نشيطة　　من بعد ما مالت مساءً للونى

وسمعت ثرثرة الحياة بمائه　　ورأيت فيه العالم المتمدينا

ومشى بسمعي الضجيج كأنه　　صوت النذير على هدوئي أعلنا

وأفاق من رؤياه كل مهوّم　　وصحا على أحلامه ، إلا أنا

* * *

وهناك عناصر أخرى للصياغة ، هي الخيال والموسيقى والوحدة ، والتوازن والتناسب وتخير الألفاظ تخيراً فنياً ، وشخصية الشاعر غير المرئية المنسابة بين بعض هذه العناصر.

فأما الخيال فتبدو صوره في التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية وما اليها . وهذه الصور الخيالية ، تخلق الاتزان اللطيف في ثنايا العمل الشعري ، وتضفي عليه وشاحاً من الجمال والرونق ، اذا استخدمت استخداماً طبيعياً ، لا أثر للتكلف فيه ، واذا ابتعدت عن الإغراق في التخيل والتيه فيما وراء الطبيعة . ومن أجمل النماذج لهذه الصور الخيالية قصيدة الشابي التي أسماها « صلوات في هيكل الحب »[1] وهي قصيدة طويلة قاربت السبعين بيتاً ، وفيها تجد صوراً خيالية بارعة لنافثة الحب في قلبه وفيها يقول :

عذبة أنت ، كالطفولة، كالاحلام　　كاللحن ، كالصباح الجديدِ

كالسماء الضحوك ، كالليلة القمراء　　كالورد ، كابتسام الوليـــد

* * *

كلما أبصرتكِ عيناي تمشين　　بخطوٍ موقَّعٍ كالنشـــيد

---

(١) مجلة « ابولو » ص ٨٤٨ من المجلد الاول (العدد الثامن ، ابريل ١٩٣٣)

خفق القلب للحياة ورفّ الزّهـ ... ـر في حقـل عمريَ المجرودِ
وانتشت روحي الـكئيبة بالحب ... وغنت كالبلبـل الغرّيد

ثم يصف مشيتها فيقول :

خطـواتٌ سكرانةٌ بالأناشيد ... وصوتٌ كرجع ناي ٍ بعيـد ِ
وقوامٌ يكاد ينطق بالألحان ... في كل وقفــة ٍ وقعود ِ
كل شيء موقّـعٌ فيك حتى ... لفتة الجيـد واهتزاز النهود !

وتجري القصيدة على هـذه الوتيرة ، مشعشعة بالصور الخيالية الوضّـاءة ، مسهبة في استطراداتها الوجدانيـة ، ولا يحس القارئ مللاً من هذا الإسهاب ، ويعدّه ميزة لهذا الشاعر لانسجام القصيد وتناسبه .

* * *

ولقد برعت في استخدام الصور الخيالية طائفـة من شعرائنا الموهوبين المعاصرين ، ولوّنوا أشعارهم بهذه الصور تلويناً لم يعرفه القدامى إلا قليلا . ونذكر من بين هؤلاء الشعراء خليل مطران في مثل قصيدته « بدري وبدر السماء » (١) التي يخلع فيها على أحداث الطبيعة سمات البشرية . وفي هذا القصيد يقول :

لم أنس حين التقينا ... والروض زاه ٍ نضيرُ
إذ العيون نيامٌ ... والليل راء حسير
نشكو الغـرام دعاباً ... وربّ شاك ٍ شكور
وفي الهـواء حنينٌ ... من الهوى وزفـير
وللميـاه أنين ... تذوب منه الصخور
وللنسيم حديث ... على المروج يدورُ
وللازاهر فكر ... يرويه منها العبير

وقد حذا بعض شعراء الشباب حذو مطرانً ، فرأينا محمود حسن اسماعيل ، يغالي في خلع السمات البشرية على الجماد والنبات ، ورأينا سيد قطب يسير على هذا المنوال ، مسرفاً

(١) ديوان الخليل ص ١٥

في تجسيم الأحداث إسرافاً بعيداً قد يجهل روح الشعر ضرباً من المغالطة ويفسد ما فيه من فكرة أو عاطفة ، إستمع مثلاً الى قطب في قصيدة «يوم خريف »[1] التي جاء فيها :

وقف الكون ساهماً ليس يدري أين يمضي ، وأين لو شاء يمضي
طالما دار بالأنام وداروا بين رفع من الحياة وخفض
ثم ماذا ؟ تساءل الكون : ماذا ؟ أحياة ما بين غزل ونقض
أيما غاية تؤم إليها أي قصد قضيته أو سأقضي

* * *

وسرى اليأس والخمول إليه فتراخى في سيره كالبليد
وتمشى الهمود في كل شيء مشية الداء بالأسى والكنود
فاذا الدوح في وجوم كئيب وإذا الطير في ذهول شريد
وإذا الزهر في الرياض أسيف كصغار الأيتام في يوم عيد
وإذا بالزمان يمطو كسيحاً كأسير يقاد نضو القيود

وليس على هذا القصيد في مجموعه غبار ، انما المأخذ على بعض أبياته ، التي وصف فيها الكون أوصافاً هي من صميم سمات الانسان ، كوصفه له بالبلادة ، وسريان اليأس والخمول اليه ، وما إلى هذه الصفات ، وقد كان يمكن أن ينبل القصيد ، إذا تخفف من هذه الأوصاف

وقد أغرم بهذا الضرب من التصوير الدكتور ابراهيم ناجي ولكنه لم يسرف هذا الاسراف ، فضلاً عن أنه تمكن من قيادة زمام فكرته بأسلوبه الموسيقي الموحي فاستمع اليه مثلاً في قصيدته « العودة »[2] وهو يصف داراً منعمة استحالت أطلالاً

والبلى ! أبصرته رأي العيان ويداه تنسجان العنكبوت
صحت : يا ويحك تبدو في مكان كل شيء فيه حيٌّ لا يموت
كل شيء من سرور وحَزَن والليالي من بهيج وشجي

---

(١) ديوان الشاطىء المجهول ص ١١٠
(٢) ديوان « وراء الغمام » للدكتور ابراهيم ناجي ص ١٧

وأنا أسمع أقدام الزمن وخطى الوحدة فوق الدَّرجِ!

* * *

ومثل هذه الصور المجسمة لا تقبل إلاّ اذا جاءت فيها نفاذ صناعي، ومع هذا فإن هناك بعض نقاد مثل هولنجورث[1] يرون أن المعنويات مثل النفاق والطموح والذاكرة وأمثالها من الصعب تجسيمها، ويعد رسكين Ruskin أن مثل هذا التجسيم يفسد العاطفة أو ما يسميه المغالطة العاطفية Pathetic fallacy [2]

ويجري هذا الحكم على التشابيه والمجازات الغيبية التي لا تتصل بهذا العالم، بل تحملنا على أجنحتها إلى عالم صوفي خفي

وقد كثرت هذه التشبيهات في شعرنا الحديث، وأسرف كثير من اللبنانيين فيها إسرافاً بعيداً، فسمعنا ورأينا مثالها في بعض شعر محمود حسن اسماعيل كقوله أضاع القمر! وفي شعر الأديب اللبناني أديب مظهر سمعنا قوله «النسيم الأسود» وفي شعر قبلان مكرزل اللبناني «دم السحب»! وفي شعر قطب سمعناه يقول في قصيدة «الظامئة» [3]

أحس بأنك ملهوفة لأن تنهلي كل معنى الغرام

وأن تنهبي النور من فجره وأن تسلبي زفرات الظلام!

وفي شعر أحمد مخيمر قرأنا في قصيدته «فاكهة النور»! قوله: [4]

ياحسن هذا النور فوق الغصون فاكهة تلمع لمع الظنون!

وثمة أخيلة غريبة مماثلة مثل أصابع الفجر الوردية! والاستحمام بالعطر والنور، وارتعاش المنى، والزورق الهائم [5] والزورق الحالم، وغيرها وغيرها مما لا تتسع له هذه الصفحات، وهذه الأخيلة مقطوفة من شعراء التصوف السامي أو من شعراء الفرنجة المبهمين أمثال مالارميه، وفرلين، وفاليرى ومن إليهم، وخالطت أساليبهم في محاكاة ظاهرة.

(١) A premier of Literary Criticism By Hollingworth P. 22

(٢) Walter Raleigh Style

(٣) الشاطىء المجهول ص ١٢٤

(٤) ديوان ظلال القمر ص ٣ مطبعة الاعتماد ١٩٣٤

(٥) كتاب «روابط الفكر والروح» لالياس أبو شبكة سنة ١٩٤٣

ويرى بعض النقاد أن هذه الأخيلة محاولات مضحكة لإحداث المفاجأة[1] والبعض يراها نوعاً من المخادعة ،[2] وآخرون يرونها عارضاً من العوارض الغريبة على الاسلوب الشعري وأثر من آثار الشرود الذهني ، وهناك من يخالفهم في هذا كله ويرى أن هذه الأخيلة سائغة وبخاصة في الشعر الرمزي وشعر ما وراء الواقع ، وأن هذين النوعين من الشعر جديد على البيئة الشرقية ، وجدير بنا التلفت اليه وسنفصل ذلك في بحث قابل

والعنصر الثاني للأسلوب الشعري هو الموسيقى ، وهي لا تقل أهمية عن الخيال[3] ان لم تبزه أثراً ، ولا قيامة لعمل شعري بدونها ، وقد يقوم العمل الشعري عليها وحدها ، ونمثل هنا بمقطوعة عذبة لرياض المعلوف في ديوانه « خيالات »[4] وهي مقطوعة جديرة بالغناء وليس بها صور خيالية ، وعنوانها « الدنيا لنا » وفيها يقول :

هـذه الدنيا لنـا لحبيـبي لي أنا
فتمتع يا حبيبي فالمنى تلوَ المنى
أي شيء تبتغيه لم تنـله يدُنا
طالما أنت بقربي كل شيء ها هنـا
نقسم القبلات هذي قسمة ما بيننـا
واصلين الثغر بالثغر إلى يوم الفنـا
هكذا نحن سنمضي وسيبقى ذكرنا !

ويتفاوت الشعراء في أنغامهم الموسيقية ، ويتفاوت أسلوبهم بحسب هـذا التفاوت ، فمنهم من ينضح شعره بالحلاوة الموسيقية ، كشوقي وصالح جودت ورشيد أيوب وابراهيم العريض ، ومنهم من تتميز أنغامهم بالإثارة والانفعال مثل ناجي ، ومنهم من يعلو السحاب بموسيقاه كالصيرفي ، ومنهم من تتسم موسيقاه بالقعقعة والرنين . ومنهم من لا تشعر في شعره بأية هزة ، وإن صاغ شعره ونظمه نظماً صحيحاً مثل كثير من الشعراء الاتباعيين .

ومن نماذج الموسيقي الحلوة قول صالح جودت في قصيدته « الى ناصية »[5]

---

(١) مبادىء النقد الادبي « لمولنجورث »

(٢ و ٣) Walter Raleigh "Style"

(٤) ديوان خيالات لرياض المعلوف ١٩٤٥ (٥) نشرت بمجلة الراديو ١٩٤٧

سوف أنساك ، ولكن كيف أنسى وأنا أطيب من نفسك نفسا
وأنا أضعف من غدرك بأسا ليتني أنسى ، ولكن كيف أنسى !
سوف أنسى قصة في خلدي حدثت إحدى ليالي الأحد
في المعادي ، والهوى في المولد حين ضمتك على الشوق يدي
فالتقت ظمأى على النيل صدي ووقفنا في ظلال المسجد
وحلفنا بجلال الموعد أن سيبقى حبنا للأبد
آه منها ليلة لم تخلد ضيعت أمسي ويومي وغدي !

ومن الموسيقى المنفعلة المؤثرة ما تنضح به موسيقى ناجي وموسيقى بعض الشعراء المعاصرين ، ومن نماذجها قصيدة للشاعر العراقي، أكرم الوتري ، عنوانها « ضحكة »[1] وقد تميزت بالانفعال والسرعة ويقول فيها :

سأضحك من قلبي الثائر وأسخر من دهري الساخر
وأدعو جراثيم هذا الوجود لتنخر في جرحي الغائر
وأهزأ بالبؤس والبائسين وبالطاهرين وبالعاهر
وبالعاشقين وبالتائبين وبالمؤمنين وبالكافر
هراء هراء ودنيا فناء وأقصوصة في فم داعر
رياء رياء وداء عياء وصفعة بغي الى فاجر
همومٌ هموم، ورجسٌ يعوم على لجة من لظى فائر
سأطلقها ضحكة فذّة تجلجل في الأبد الغامر
وتبرق في ظلمات الكهوف وترعد في الأفق الزاهر
تردّدها جنبات السماء فيبقى صداها على الغابر !

وما جاء في بعض فقرات قصيدة « العودة » لناجي :

رفرف القلب بجنبي كالذبيح وأنا أهتف يا قلب اتئد
فيجيب الدمع والماضي الجريح لمَ عدنا ؟ ليت أنّا لم نعد

(١) جريدة الاخبار العراقية — ١٩٤٦

لِمَ عدنا أَوَلَمْ نطوِ الغرام   وفرغنا من حنين وألمْ
ورضينا بسكون وسلام   وانتهينا لفراغ كالعدمْ

والملحوظ في هذه القصيدة اختلاف فقراتها في موسيقاها النوعية ، فالأبيات الأربعة التي أوردناها تختلف في موسيقاها مع هذه الأبيات التي جاءت مطلعاً للقصيد وهي :

هذه الكعبة كنا طائفيها   والمصلِّين صباحاً ومساءْ
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها   كيف بالله رجعنا غرباءَ
دار أحلامي وحبي لقيتنا   في جمود مثلما تلقى الجديد
أنكرتنا وهي كانت إن رأتنا   يضحك النور إلينا من بعيد

فالأبيات الأولى منفعلة ذات نغم ارتكازي ، والأبيات الثانية ، هادئة ناعمة منغومة .
ولناجي غرام في الخروج عن الوحدة الكلية الموسيقية في القصيد ، وربما كان توحيد النغم في القصيد كله خيراً من تجزئته ، وإن كان هذا التنويع لا غبار عليه

وقد جارى ناجي في هذه الموسيقى المنفعلة ، الشاعر الحجازي احمد عبد الغفور عطار في قصيدته « بل ربيع العمر في هذا المكان » [١] وقد جاءَ فيها :

كنز أحلامي وحبي ها هنا   وهُنا السحر وخيرات الزمان
وهنا الماضي وأطياف المنى   بل ربيع العمر في هذا المكان

ولكنه لا يثبت على هذا النغم ، في القصيد ، بل يلوّن قصيده بأنغام مختلفة فأنه ليأتي في المطلع بالبيتين التاليين ، وهما يختلفان في النبض والسرعة ، والانفعال مع البيتين السالفين والبيتان وهما :

أيها الفردوس قد كنتَ لنا   منبع الفرحة في غض السنين
كلما جئناك رحبت بنا   وتلقيت هوانا بالحنين ،

وهكذا كلما درجنا مع القصيد ، وجدنا اختلافاً كبيراً في الموسيقى ، وضياعاً لوحدتها الموسيقية الكلية . وليس من الصعب على هذا الشاعر الكلاسيكي ، وله طاقته الشعرية القوية ، وموسيقاه الحلوة ، وطواعية اللغة له ، ان يوحد موسيقاه ، وان يقيم التناسب

(١) ديوان « الهوى والشباب » لاحمد عبد الغفور عطار ١٩٤٦ ص ١٣٢

الموسيقي بين جميع فقرات القصيد ، وأن يتخلى عن رواسب محفوظاته المستقرة في عقله الباطن تلك التي تؤثر كثيراً أو قليلاً في اصالته الشعرية .

ونود أن ننبه الى أن ما ننصح به من اتباع الوحدة الموسيقية الكلية ، انما هو مقصور على القصائد الغنائيـة أو الوجدانية ، وعلى القصائد القصيرة . أما المطولة فقد يحلو التنوّع الموسيقي فيها لأنه يبعد عنا الملل والسأم .

* * *

ولئن كنا قد أطلنا الوقفة عند الموسيقى المنفعلة ، فذلك لأن الشعر بدونها لا يكون شعراً والموسيقى تثير القلق كما يقول كولريدج أو تثير الانفعال كما يقول « كيلر كوتش » في كتابه « فن الـكتابة »[1] والشعر ان لم يهز ويُـثِرْ بموسيقاه ، يفقد أهم عناصره ولا يعد شعراً ، بل قد يعد نظماً أو نثراً موزوناً ، وكثيرٌ من الشعر المعاصر يفقد أهميته لفقدان عنصر الاثارة الموسيقية فيه ، ومن آيات ذلك ما نجده كثيراً في شعر العقاد، ونذكر مثلاً مقطوعة « الحب » بديوان « أعاصير مغرب »[2] التي يقول فيها :

ما الحب روحٌ واحدٌ في جسدي معتنقين !
الحب روحان معاً كلاهما في الجسدين
ما انتهيا من فرقةٍ أو رجعةٍ طرفة عين !

واسمع الى مقطوعة « إعفاء » في الديوان ذاته[3] (ص ٤١) فلا تجد فيها شعراً ، بل نثراً موزوناً وإنه ليقول فيها :

أعفيك من حليـة الوفاء أنك أحلى من الوفاء !
خوني ! فما أسهل التقصي عندي وما أسهل الجزاء
وليس بالسـهل في حسابي فقدك يا زينـــة النساء ،

ومثل هذا الأسلوب الجاف الخالي من الموسيقى نجده كثيراً في شعر احمد الصافي النجفي

(1) On the art of writing. By Arthur quiller- Couch P . 49.

(٢) و (٣) ديوان أعاصير مغرب — العقاد ١٩٤٢

فاسمع إليه يقول في قصيدته : « الحب والبغض » (١)

أحب فأهوى كل شخص أحبه ... واني متى أبغضت شيئاً سحقته

إذن أنا أحببت الفنا لكليهما ... فأقصيت ذا عني ، وذا بي أذبته

صديقي وخصمي في شقاء فانني ... عذابٌ لمن أحببته أو كرهته

فهل سرٌ موتي حب هذا الوجود لي ... لأفنى به ، أو بغضه لي ومقته

وهل هو يقصيني غداً أو يضمني ... له ، ذاك سرٌ مبهمٌ ما فهمته

ونكتفي بهذه الأبيات المملة الجامدة الهواء مؤكدين أن مثل هذا النظم قد يحوي فكراً أو خاطرة عميقة ، ولكن خلوه من النغم الموسيقي ، يجعل قارىء القصيد يأبى أن يدخل محراب الشاعر

ونود أن نستدرك في هذا المجال ، أن شعر العقاد والنجفي ، لم يخلُ كلاهما من النغم في بعض الأحيان ، ففي الديوانين اللذين أسلفنا ذكرهما ، نقع على بعض قصائد حلوة منغومة شيئاً ما . ففي الديوان الأول نقع مثلاً على « آه من التراب ! » ص ١١٢ « وأغنى » ص ١٥٦ و « بعد سنة » ص ٥٢ (٢) وقد جاء في هذه القصيدة الأخيرة :

سنة مرت ولا كل السنين ... بين صيفٍ من هوانا وشتاء

وربيع كلما غام أضاء ... والضحى والليل حيناً بعد حين

وفي الديوان الثاني (٣) نقع للنجفي على قصائد لا تخلو من موسيقى ، مثل « أغنية السكوت » ص ٧٥ و « العكس » ص ٣٣ وغيرها وغيرها ، وفي هذه الأخيرة يقول :

كم في السكون حراكٌ ... وفي الحراك سكون

وفي العيون عماءٌ ... وفي العماء عيون

وفي الجفون عقولٌ ... وفي العقول جنون

والدين كم فيه كفرٌ ... والكفر كم فيه دين !

وفي الوجود شؤون ... معكوسة وشجون

(١) « ديوان « الاغوار » للصافي النجفي ص ٨٦

(٢) ديوان « أعاصير مغرب » للعقاد

(٣) ديوان « الاغوار »

حقيقة الشيء تخفى والوهم منه يبين
القشر للعين يبدو واللب عنها مصون

وهي فكرات للشاعر فيها شيء من العمق ، وتوجيه الى النظر في أغوار الأشياء ، وقد تناولها تناولاً لطيفاً منغوماً ، ولا ريب أن مثل هذا القصيد قد رفرف عليه وحيه وهو في أحسن حالاته ، ولست أدري لماذا ينقم هذا الشاعر من النقاد نقدهم إياه ، ويحمل عليهم في قصيدته « نقاد القريض » [1] ولو أنصف لنقم على نفسه توزعها ، ولجاهد في السمو على آلامه وأحزانه ، ولعمل على تخليص نفسه من أكدارها حينما يدخل محراب « أبولو » ! وإنه ليعز على نقاد العربية أن تجد شاعراً من شعرائها ، له فكراته وخواطره وله طاقته الشعرية تطمر في رماد الصياغة الجافة .

وكم ذا وقفنا على فكرات عميقة تلبس الثوب الجميل ، وتحدوها الأنغام العذبة ، ونذكر لذلك مثالين ، أحدهما في ديوان « نداء القلب » [2] لإلياس أبو شبكة ، وهو فكرة الاندماج الروحي في الحبيبة ، أو تقمص روحها ، وهذه الفكرة قد جلاّها الشاعر في قصيدته « أنت أم أنا ؟ » تجلية بارعة ، زاوج فيها بين الفكرة العميقة ، والتناول الموسيقي الموائم ، فاسمع إليه يقول :

جمالك هذا أم جمالي ؟ فإنني أرى فيك إنساناً جميل الهوى مثلي
وهذا الذي أحيا به أنتِ أم أنا ؟ وهذا الذي أهواه ، شكلك أم شكلي ؟
وحين أرى في الحُلم للحب صورةً أظلكِ يجري في ضميري أم ظلي
ترنّع كلُّ الحب في كل ما أرى أمن روحك الكلّيّ هذا السنا الكلي ؟
خلقتك في دنيا الرؤى أم خلقتني وقبلكِ جئتُ الكون أم جئتهِ قبلي
وعني قلتِ الشعر أم عنكِ قلته ومن في الهوى يُملَى عليه ومن يملي ؟
أحسُّ خيالي في خيالكِ جارياً وروحك في روحي وعقلك في عقلي
إذا ما تراءى مبهَمٌ في تصوري رأيت لهُ ضوءاً بعينيك يستجلي
كأنك شطرٌ من كياني أضعتُه ولما تلاقينا اهتديت الى أصلي .

وإنما سجلنا هذا القصيد كله ، لأنه توجه جديد في شعر « إلياس أبو شبكة » لم نعهده في ديوانه « أفاعي الفردوس » ولم نأتِ به لنَدلل على جمال الصياغة لدى هذا الشاعر في

(١) ديوان « الأغوار » ص ١٧٧ و ١٧٨
(٢) ديوان « نداء القلب » — ١٩٤٤ الطبعة الأولى دار المكشوف

ديوان « نداء القلب » الذي ذكرنا أن ليس في صياغة كثير من قصائد هـذا الديوان ما يبهر الفؤاد ». ولـكنه في هـذه القصيدة المركبة سما على أسلوبه وساوق بين فكرته وصياغته مساوقة رائعة

ونقطف مثالاً ثانياً من الشاعر العراقي « بلنـد الحيدري » في قصيدته « همس الطريق » [1] ، وهي قصيدة متصوفة ، جمعت فكرات وضاءة جمّلتها موسيقى سلسة ، وفيها يقول :

في كل ذرة صمت تنمو وتخفق فكره
وألف شيء وشيء هنـا يقدس سره
حتى الطريق المسجّى في ناظريّ رخامه
قد استحال لحوناً عميقـة فابتسامه
ولدت ألمح دنيا وراء رعشة صوتي
قد صحت بالليل إني أخاف ظلمة صمتي
حتى التراب الحقـير أراه ليس حقيرا
فالخوف أودع فيـه روحاً تفيض شعورا
ترى أبينَ ضلالي وجدت هوة نفسي
يا درب سر بي فاني آنست شيئاً جديدا
وخلف هـذا الوجود لقـد خلقت وجودا
فنل سرك قلبي ملفح بالظلام

ثم يقول في روعة

ولستُ إلاَّ ظلالاً لرقصـــة تتقـادم
ولستُ إلاَّ تراباً قد نتنته السنون
فاذورة من أمان أغفت عليهـا الدجون
يا درب سر بي فاني في الأرض صرخة ذاتك
بل دمعـة سرقتهـا حواء من مسجاتك !

ونكتفي بما ذكرنا خاصًّا بالموسيقى كعنصر مهم في الصياغة ، مرجئين التفصيل في الحديث عنها في فصل مستقل .

---

(١) مجلة « الاديب » يوايو سنة ١٩٤٧

الشعر المعاصر

على ضوء النقد الحديث

بقلم

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٨

الالفاظ الشعرية

ننتقل إلى عنصر آخر من عناصر الصياغة وهو الألفاظ وتراكيبها، وهو عنصر على جانب كبير من الأهمية، وقد يقوم به القصيد دون حاجة الى صورة خيالية أو موسيقى جياشة، فان الألفاظ وصوتها ودلالتها وجوها وتآلفها، كافية لابداع القصيد البديع، ونذكر من نماذج ذلك قصيدة « فراق » للشاعر اللبناني يوسف الخال في ديوانه « الحرية » وقد أتينا آنفاً ببعض فقراتها [1] وفيها يتجلى للقارىء أثر الألفاظ في جمال القصيد، وصوت الالفاظ في إبداع موسيقاه، وإحداث الأثر الفني المنشود.

ومن آيات ذلك أيضاً قصيدة « الغـد » للشاعر المهجري « ندرة حـداد » التي يقوم كيانهـا على تخير الألفاظ ودلالتها، وانها لتسير في عذوبة كمياه البحيرة الصافية دون حاجة الى أضواء وألوان. ويبدو لي أن هـذا الشاعر تميـز بالتعابير المباشرة الآمرة دون استعانة بتوشية ولا ترصيـع، ويشهد بذلك بعض قصائده مثل قصيدة « امام الجبل » و« الديمونة ». ولما كان هذا الشاعر لم يخرج ـ على ما نعلم ـ ديوانا، فقد رأينا أن نسجل هنا قصيدة « الغد » التي ألمعنا إليها لنعطي فكرة قريبة عن صياغة هذا الشاعر الذي يعتمد في الغالب على الألفاظ المؤنسة ذات النغمات الهادئة، فاسمع إليه يقول:

حملت على الـكفين هامتهـا ... وحنـت على الضّبـاك تفتكرُ
حسناء قد ظنت سعادتها ... وافت إليها وانقضى الـكدرُ

....

(١) راجع صفحة ٤٤ من دراستنا هذه

نظرت الى الماضي فما ذكرت　　إلاّ زمان اللهو والـكتبِ
ورنت الى غدها وإذ لمحت　　أنواره هاجت من الطربِ

أخذت تحدّث وحدها النفـسا　　والقلب يقظان ومرتجفُ
مسرورة تستقبل العُرسا　　وبهـا الى استقباله هففُ

* * *

أغداً تودعنا عواذلنا　　ونودع الواشين والرُّقبا
فتطيبُ في اللقيا مناهلنا　　ورداً فنسقي ماءَها العـذبا

أغداً نسـير بموكب بهج　　ملـكين والابصـار ترعانا
نحو الـكنيسـة موئل المهج　　لولا الحيا ما كان أغنانا

ونسير من روض الى روض　　قرب الغدير بظل أغصانِ
نطأ المروج أخف من غمض　　في جفن منهوك وسهرانِ

فاذا وقفت هنيهـة وقفا　　وإذا مشيت مشى على أثري
وإذا قطفت أزاهراً قطفا　　وإذا شدوت شدا بلا ضجر

وأضمه . ويضمني شغفاً　　حتى يكاد الصـدر ينفجرُ
من ذا يعيب الصدر إن تلفا　　وبه لهيب الحب يستعر

نقضي الليالي إذ تمير لنا　　أنساً وقد كانت لنا شبحا
لا نشتكي أرقاً ولا شجناً　　فيها ويغـدو همّنا فرحا

ونجومها في الأفق ترقبنا　　سهرانة تبـدو كحرّاسِ
يا ليتها تبقى ويتركنا　　وجه الصباح وأوجهُ الناس !

فجمال أسلوب هذا القصيد يقوم على تجربته الواضحة ، وألفاظه المختارة ، ومدلولات هذه الألفاظ . وليس فيه من الصور الخيالية أو المجازية إلاّ القليـل مثل أنوار الغد ، والنجوم الساهرة المراقبة كالحراس ، والعروسين كالملـكين ، ووجه الصباح وما الى هذه

الصور، وكلها أخيلة ومجازات طبيعية تدخل في مادّة القصيد وبنيتها. وليست هي بالحلية الكمالية، ولا بالقلادة المجلوّة.

والحق أنّ القصيد قد يمتاز بقوّة الكلمة أو شعريتها أو حلاوتها أو نعومتها أو إيحائها، وغايات الشعر السامية كما يقول — والتر رالي — لا تخدم بالكلمات الوعرة الجافة التي تشبه الأشخاص المتعبين (١)

والألفاظ الموحية لها أثرها المؤنس في القلب أو الذهن وقد عدّها الناقد هولنجورث أبلغ تأثيراً من الكلمات الواصفة، ولها رجعٌ بعيد. ومن نماذج هذه الكلمات نذكر بدون اختيار، ما جاء في قصيدة « الجمال العربيد » (٢) للدكتور أبو شادي، وما ضمّت من ألفاظ قوية الايحاء، وفيها يقول:

هـذا النعيمُ أراه رأ - يَ العين لكني أخاف!
خذ يا فؤادي لا تخف ما شئت من هـذي الحياه
عمرٌ جـديدٌ يا فؤا دي ما تجود به الشفاه
قبّلتهـا فلثمت أحـ ـلامي وأطياف الربيع
وضممتها فضممت أغـ ـلى النور من رب وديع
لا الروح تشبع لا ولا قلـبي بخفقٍ يتّئـدْ
نهمٌ على نهم وجو دٌ لا يُمَلُّ ولا يُحَدّ
حتى إذا سقط الردا ء وقد يُراد سقوطهُ
هرع الهوى للحسن يحـ ـمي ملكه ويحوطه!

* * *

وهذا شعر إيحائي رائع لا عهد للعربية به وتصوير بديع للهفة العارمة، وفي كثير من ألفاظها وتعابيرها إيحاءات تطيف بالذهن والحس صوراً منوّعة كقوله « ولكني أخاف! » أو قوله « لا الروح تشبع » وقوله « نهمٌ على نهم » فهذه التعابير تنشر في الحس دنيا من الرغبات والأشواق. وأما البيت الأخير، فهو صورة بارعة من الصور الموحية الدالة على

---

(1) "Style" By Walter Raleigh P 21

(٢) ديوان أطياف الربيع ص ٢٣

وقفة الشاعر في وجه لذته المضطرمة ، وعصمة نفسه من التردي في حمأة الشهوة

وفي الشعر الشرقي المعاصر ، تحفٌ فريدة من مثل هذه العبارات والألفاظ الموحية ، ونذكر مثالاً لذلك ، ما جاء مثلاً في قصيدة « الآمال » ليوسف غصوب في ديوانه « القفص المهجور » [1] حيث يقول في أسلوب سلس .

ولي بيتٌ من الآمال واهٍ تطير به النسيمة إذ تمرُّ
فأبني غيره بيتاً فيهوى وأتبعه بآخر لا يقرُّ
فأقضي العمر بنياناً وهدماً وأثبتُ ما بنى الانسان قبرُ

ففي هذه الشطرة الأخيرة إيحاء معنوي يتردد صداه في العقل ، وتنبثق منه حقيقة ضياع الآمال في هذه الدنيا انبثاقاً بارزاً .

وعلى هذا الطراز نجد في شعر شكرالله الجر وبخاصة في ديوانه « الغمائم » مثل هذه الكلمات الموحية ، ونقتطف من قصيدته « هذيان وهواجس » الفقرة الأخيرة منها التي يقول فيها :

أبصر الوردة تزهو في حمى ظلٍّ وريف
وأرى روضة قلبي صوّحت قبل الخريف
ومضى العمـــر كما أغمض جفنيه الأقاح

ففي الشطرة الأخيرة صورة بديعة لانقضاء العمر ، في سهولة ويُسْر وسكون كإغماض الأقاح جفونه !

وتكثر في شعر ناجي هذه اللمحات الموحية ، والكلمات التي يكمن وراءها عالم من الخواطر ، ودنيا من الصور . وقد أتينا على أمثلة من هذا الشعر الحافل باللمحات ، ونضيف إليه مثالاً آخر نقتطفه من قصيدته « عاصفة » في قوله :

لا أخ دانٍ ولا قلب حبيب إذ تدوّي الريح حول المركبِ
ما يهمُّ الريح في اليوم العصيبَ تغضب المركب أو لم تغضبِ
تطعن الأقدار منها جنبها وأرى شيطانها قد قهقها

(١) ديوان « القفص المهجور » للشاعر اللبناني يوسف غصوب — بيروت ١٩٢٧ ص ٥٢

كم أرى سخرية الدنيـــا بها   وأرى العمر تلاشى وانتهى !
غرب الحظ كما مال الشراع   هكذا الأعمار في الدنيا تميل
وسَرَت في الجو أشباح الوداع   وتنـادى كل شيء للرحيل
آه من يدري وراء الظـلم   علَّ في الظلمة نوراً من بعيد
علَّـهُ بعـد اشـتداد الألم   فرجٌ يلمح في يوم سعيد !

فإن غضبة المركب ، وانتهاء العمر ، والنور البعيد في الظلمة ، والفرج الملموح في اليوم السعيد ، هي من الصور البارعة المثيرة للخيال والفكر والوجدان .

* * *

ومن التعسف القول بأن الكلمات الموحية هي التي يرقد فيها الفنُّ الشعري ، لأن هـذا القول يخرج أجمل قصائد المتنبي والمعرّي والبحتري وشوقي من دائرة الفن الشعري . والحقُّ الذي لا مرية فيه ، أن الكلمات القوية النافذة ، والكلمات الحلوة العذبة ، تماثل تماماً الكلمات الموحية في كثير من الأحيان .

ونكتفي هنا بتسجيل مثالين من الصياغة القوية أحـدهما للشاعر السوداني يوسف بشير التيجاني ، وثانيهما للشاعر السوري عمر أبو ريشـة . ونذكر بدون اختيـار الاول قصيدته « فجر في صحراء » بديوانه « إشراقة »[1] والتي يقول فيها :

إمـلأ الروح من سنـا قدسي   مبهم كالرؤى وربع رضيِّ
قرويٍّ كأنما سكب البدر   عليه من فيضه القمريِّ
واغمر القلب في مفاضٍ من الفجر   وضيءٍ جمِّ النـدى عبقريِّ
يثب الحـلم حول مشرعه الساجي   ويجـري مع الضحى في أتيِّ
كم تظـل الرؤى به سارمات   في ينـابيع من جـلال نديِّ
يتلففن في جـوانح بيضـاء   ويسحبن من رداء وضيِّ
ساحبات على الكَنَهْوَر[2] أصبا   غاً زقاقاً من واضـح وخفيِّ

(١) ديوان «إشراقة» ليوسف بشير التيجاني ص ٨٤ ، ٨٥

(٢) الكنهور : من السحاب قطع كالجبال أو المتراكم منه

ناسجات شفائف الأفق الزّا هي بروداً على الصباح السنيّ

* * *

عجباً للجلال والحسن ماجا في إطارين ، فاتر وقويّ
ينسجان الهوى من الفجر برداً علويّاً لشاعر علويّ
صاح من روحه وكبّر في أعماق دنياه صارخاً كالصبيّ
أو هذا الجمال يارب هذا السحر من أجل ذلك الآدميّ ؟!

فهذا القصيد يمثل شعر التيجاني ، وأسلوبه القوي المتماسك ، وألفاظه الحية ، وهو يصف أثر الفجر في الصحراء ، وشعوره بجلال الليل وجمال الفجر ، وما يبعثان من أحلام ورؤى . وقد يبدو لنا أنه بالرغم من هذه الألفاظ الحية الوثابة ، فان التجربة غير واضحة ولكن هيمنة الألفاظ وانسجامها تتحدى التحليل ، وتقف في وجه الناقد فلا يملك إلاّ التأثر بسحرها النافذ .

وأما المثال الثاني ، فهو قصيدة « سكون » لعمر أبو ريشة . وصياغة هذا الشاعر جامعة الى القوة والوحدة والحركة والخيال والموسيقى ووضوح التجربة — وكان يحلق أن يسميها « عاصفة » — ونكتفي بذكر الفقرة الثانية والثالثة منها وفيهما يقول :

أوقدي النار فالعواصف تزدا د جنوناً في هذه الظلماء
وثغور المياه تزبد غيظاً فوق وجه الطبيعة الخرساء
أمرتها بأن تموج فماجت تحت تلك الملاءة البيضاء

* * *

أوقدي النار .. فالنوافذ تصطك كأنياب لبوة رعناء
أنظري خلفها الحدائق تهتز مع الثلج هزة الإعياء
كبنات القبور ترقص في الليل وتذري الأكفان في خيلاء
ما لعطفيك يرجفان ؟ أتخشين جنون العواصف الهوجاء ؟!

* * *

وللكلمات اللطيفة المؤنسة سحر وملاحة لا يقلان عن سحر الكلمات الموحية والقوية .

ونجد في الشعر العربي المعاصر كثيراً من الشواهد في مثل شعر رشيد أيوب وصالح جودت والشابي وغيرهم ، وقد أتينا بنماذج رقيقة لهم . وها نحن أولاء نسجل بعض النماذج المؤنسة لشعراء آخرين، ومن ذلك إحدى قصائد شكر الله الجر بديوانه «الغمائم»[١] وفيها يقول :

قد طالما شهدتك نفسي في النضير المونق
في الوردة البيضاء في الأفق الضحوك المشرق
إذ كنت من أحلامها حلم الجمال المطلق
فغدوت من أنغامها نغم الوجود الشيق
فاذا الحياة وما بها من لذة وتأنق
جمعت بمبسمك الشهي ولحظك المتأنق

* * *

وهاك مثالاً ثانياً من شعر الشاعر اللبناني ميشال سليم عقل وهو من الشعراء الممتازين فاسمع إليه يقول في قصيدته « غفوة »[٢]

غفت على الخضرة غفو الندى على خدود الوردة الحالمه
مرسلة في وشوشات الدجى أنفاسها شاحبة واجمه
كدمعة صفراء منهلة على جفون الليلة القاتمه
ترفرف الأنجم رفراقة الحلم على أهدابها النائمه
ويهمس الجدول في أذنها أغنية ضاحكة ناعمه
ودمعة الليل على خدها تغمر روح الشاعر الهائمه

وثمة مثال أخير للشاعر السوري عبد الله يوركي حلاق في ديوانه « خيوط الغمام »[٣] وهو من شعراء الرقة والموسيقى العذبة ، فاسمع إليه يقول في قصيدته «يا جدول الوادي»

يا جدول الوادي يا ساقيَ الريحانْ

(١) مجلة «الاندلس الجديدة» يوليو ١٩٣٤

(٢) مجلة الجمهور اللبنانية العدد ١٠٧ السنة الثالثة ١٩٣٩ ص ٢١

(٣) ديوان « خيوط الغمام » عبد الله يوركي حلاق ص ٣٧. طبعة ثانية — آيار ١٩٤٣

سلسالك الشادي قد هيّج الأشجان
سر في حمى الهادي بين السنا والبان
يا مورد الأطيار ردّد أناشيدك
واعطف على الأزهار إن قبّلت جيدك
واستقبل السمّار وانشر أغاريدك
خفف لظى الرمضاء والثم ثغور الآس
وانثر لجين الماء كالدّر أو كالماس
على غصون البان والحور والصفصاف
والنرجس الفينان والورد والقطّاف
أمثولة الاحسان والعدل والإنصاف

* * *

ولا يعزب عنا أنّ عذوبة الكلمات وحدها ، لا تخلق أسلوباً بديعاً ، وإن كانت تضفي عليه رونقاً ورواء ، ففي المثال الأخير الذي ذكرناه آنفاً نجد أسلوباً بسيطاً لا ميزة فيه إلاّ الموسيقى ولطف الألفاظ ، وفرقٌ كبير بين بساطة وبساطة ، فبساطة سطحية يخمل بها الشعر ، وبساطة عميقة ينبل بها . وكثيرٌ من شعرنا المعاصر يلوذ بالبساطة السطحية التقليدية . ومثال ذلك قول « محمد السيد شحاته » المصري في قصيدته « الندى » [١]

أدموع العشاق في الأسحار يهتكين الأزهار للأزهار !
أم دموع الآفاق يضرعنَ للفجـــر لئلاّ يخفي ابتسام الدّراري !
يا ندى أنت والزهور حباب وكؤوس ، جلّ البديع الباري !
يا ندى إنّ ظلمة الليل حولي كذنوبي وأنت كاستغفار

أو ما قال « الحجوي » من شعراء المغرب الأقصى ، في قصيدته « جنة فاس » [٢] وقد جاء فيها :

---

(١) ديوان « بين أحضان الطبيعة » ص ٥ و ٦ سنة ١٩٤٢

(٢) كتاب « الادب العربي في المغرب الاقصى » لمحمد بن العباس القباج الجزء الاول ص ٢٣

أغصون البان ميلي واشربي من سلسبيل
بين جنات ونهر في حمى ظلٍّ ظليل
هـذه جنـة فاس حفّـها كل جميـل
هـذه جنّـة قومي كيف أُدعى لرحيـل

أو ما قال محمد السليماني المغربي في « الربيع »(١) :

بزغ الصباح فقم بنـا نقضي أويقات السرور
وبدت دواعي الأنس في أر جاء باهرة السفور
وأتى الربيع مبشراً وهو المقدَّم في الشهور
فالروض باكره الحيـا والغصن منظره نضير

وأينَ هذه البساطة الجافية من تلـكم البساطة العميقة التي تغوص في الدقائق ، والتي ينبـل بها الشعر في مثل قول الشاعر السكندري عبد الحميد السنوسي في قصيدته الغدير (٢) :

جرت عليك دهور من بعدهنَّ دهور
وأنت للصبِّ ملهًى وللحزين سمـير
كم قبلتـك شموس وقبلتـك بـدور
وكم عليـك تغنت بشعرهنَّ الطيور

أو هـذه البساطة الأسلوبية العميقة في قصيدة مطران « بدري وبدر السماء » (٣) أو تلك البساطة الموسيقية الماهرة في قصيدة « الكرمة الأولى » (٤) للشاعر المصري الجهير علي محمود طه إذ يقول :

الـكأس والقيثار يا ربة الحسنِ
يا ربة الأشعار غني بها غني

---

(١) كتاب الادب العربي في المغرب الاقصى الجزء الاول ص ٤٥
(٢) ديوان الاسكندرية — ص ١٠١ — اخراج علي محمد البحراوي ١٩٣٥
(٣) تراجع مقتطفات منها في صفحة ٤٧ من دراستنا هذه
(٤) ديوان « زهر وخمر » — ص ٥٤ — ١٩٤٣

غني بها روحاً علوية الومض
لو أدركت نوحاً عشنا بلا أرض
عشنا كأحلام في خاطر الأكوان
في عالم سام لا يعرف الأحزان
هاتِ اسقني هاتِ من دنّها المختوم
أنسى بها الآن من عمريَ المحتوم

أو تلكم البساطة التي ترقد فيها روح صافية في رباعيات «علي الشرقي»[1] الشاعر العراقي التي جاء في إحداها :

في يدٍ مصحفٌ وخمرٌ بأخرى
بين هذا أو ذاك طوراً وطورا
أكثر الناس هل تأملت في الناس
فهم يمزجون ديناً وكفرا !

* * *

والملحوظ في الأساليب الشعرية المعاصرة ، في أغلب البلاد الشرقية ، أنها تنزع إلى محاكاة الأساليب القديمة ، وتميل الى التعميم والاطلاق والمبالغة . ومن أمثلة ذلك ما قرأنا من قصائد في كتاب « أدب العروبة » الذي أخرج في مصر عام ١٩٤٧ فقصائد هذا الكتاب ، إلا النادر ، لا جدّة أسلوبية فيها ، ولا طرافة ولا إصالة .

ونذكر من شواهد ذلك قصيدة « هلال المحرّم » لطاهر أبو فاشا ، حيث نجده يصف الزمان بالقديم ، والزمان بالعجوز والعنيد[2] ولا يهضم المثقفون العصريون مثل هذه الأوصاف ، أو مثل قصيدة « جنة الحب » لاحمد مخيمر ،[3] وهي تضم معاني عائمة غير محددة ، أو قصيدة محمد عبد المنعم ابراهيم المحامي[4] التي وعت معاني غارقة في المبالغة

(١) تفضل علينا بهذه الرباعيات الاستاذ روفائيل بطي ، وهي مخطوطة ، وعنوانها « الشرقيات »
(٢) كتاب أدب العروبة ص ٦٩ (٣) المرجع آنف الذكر ص ١٥٦ (٤) المرجع ذاته ص ٨٩

مجردة عن الحق ، ونقتطف الفقرتين الأولى والثانية منها ، حيث يقول :

خلياني في نشوتي خليـاني واسقياني الرحيق هيا اسقياني
واملئا بي الأجواء زهراً وشعراً بشرابي المنى وعذب الأماني
وانقبا لي الأعواد للناس طرًّا ليعبوا الإلهام من ألحاني
وساعطيـه في زماني أضعـا ف الذي أعطاه مدى الأزمان
شكسبير كان مني وهوجو رجع فني وجينه من بياني !
جاء شوقي وقيس والمتنبي وجميل ، من خاطري وبياني !
معبد في غنـائه وكاروزو رجعا آية الهوى بلساني
قد تغنت بلابل الدوح لحني وبنـات الهديل بعض قياني
وطني ! كل من به عبقري لست إلاّ الصدى من الأوطان !

فهذا كلام ينقض بعضه بعضاً ، فقائله يدعو الناس طرًّا ليعبوا الالهام من ألحانه ، وقائله يزعم زعماً عريضاً بأن كبار الشعراء ، بل عباقرتهم وكبار المغنين كانوا رجعاً لفنه ! وقائله بعد هذه الدعوى يقـول أن كل من بوطنه عبقري ! وأنه صدًى من الأصـداء ، ونسي أنه قال إن العباقرة كانوا صدًى من أصـداء عبقريته ! ، ومثل هـذا الـكلام المتهافت العجيب ، إن سُمِح به في حفـلات التسلي ، فلا يجوز بحالٍ أن يسجل في كتاب يصدر في عام ١٩٤٧ .

ويقول الانصاف إن بعض الشعر اللبناني المعاصر اختطَّ طريقاً غير هـذا الطريق ، ومال الى التجديد في التعبـير . وقد حشدنا أمثلة جمة في هـذا البحث ، ونضيف إليهـا نموذجاً آخر للاديب اللبناني « توفيق اليازجي » في كتابه « رحلة وأجواء » [(١)] حيث يعبر عن « الغيرة » تعبيراً نفسيًّـا دقيقاً قويًّـا في قصيدته « غيرة عاتية » [(٢)] ونكتفي بالفقرة الأولى منها وفيها يقول :

غير ان كل جوارحي غيرى رسمت شفاهي بسمة حيرى

(١) « رحلة وأجواء » لتوفيق اليازجي — دار المكشوف ببيروت ١٩٤٦
(٢) القصيدة ص ١٣ من الديوان سالف الذكر

غيران تلهبني جوامح غيرتي وتثير فيّ نوازعي تترى
غيران تلتهم الظنون دواخلي فتبينها عيني لها جهرا
فأردها في داخلي هوجاء لا أقوى على كتمانها سرّا
وفؤادي الولهان ان آلمته كبت العناء يجالد الصبرا
أنا إن نفثت عواطفي الحمــراء ماجت في شفاهي تلتظي جمرا
صوني جمالك أن يميث بمهجتي ويعيث فيّ عواطفي قهرا
هذا الجمال لخافقي أوهبته لاتشركي غيري به كفرا
هذي العيون ودلها ما أوجدت إلاّ لتغمر مهجتي سحرا
هذي الشفاه دمي عليها ، مجرمٌ من ذاقها غيري وبي أزرى

* * *

وهناك عنصر آخر يؤثر في الأسلوب ، هو شخصيــة الشاعر . وهو عنصر إن كان خفيّــا ، فهو بالغ الأهمية ، هو بمثابة الروح الخفي في الكائن الحي . وهــذا العنصر الروحي ــ لو صحت التسمية ــ يطبع الأسلوب بطابعه ، ويكشف عن صورة صاحبه . فكياسة الشاعر تطبع أسلوبه الشعري ، كما نجد ذلك في مثل أسلوب اسماعيل صبري . وحيوية الشاعر وهي من جواهر الشخصية ، تلد أسلوباً شعريّــا قويّــا مليئاً بالحركة والحيــاة كما نلحظ ذلك في مثل أسلوب عمر أبو ريشة أو سليمان الأحمد « بدوي الجبل » أو محمد مهدي الجواهري. وعصبية الشاعر وعمق عواطفــه تسريان في أسلوبه المتحرك الهاز الوثاب ، وآيتــه ، أسلوب ناجي . ورقة الشاعر وعذوبته تلقي على أسلوبه ظلالها ، وشاهد ذلك جليٌ في مثل أسلوب صالح جودت ، ورشيد أيوب ، وابراهيم العريض وغــيرهم . وجهامة الشاعر وصرامتــه تنعكسان على أسلوبه كما نجد ذلك في أسلوب العقــاد الجافي الرصين . وجمال النفس وصفاء الروح ، يطبعان غالباً بالأسلوب الأثيري الشفــاف ، ومن أمثلة ذلك أسلوب الصيرفي ، وأسلوب ميخائيل نعيمة ونسيب عريضة ونازك الملائــكة في بعض قصائدهم .

وتظهر قوة الفكر وتركبه في الأساليب المركبة كما يظهر ذلك في بعض قصــائد مطران وأبي شادي . وإيليا أبو ماضي

وقد يبدو الانحراف والاضطراب النفسي لدى الشاعر في أسلوبه المضطرب الهوائي ، كما نجد ذلك في بعض قصائد العوضي الوكيل والنشار . وتطبع البوهيمية وشاحها على الأسلوب كما نجد ذلك في اسلوب صلاح الأسير وميشال سليم عقل ، حيث يذهبان في خيالاتهما مذهباً بعيداً غارقاً في الوهم ، وتتجلى صراحة قبلان مكرزل في أسلوبه الواضح المشرق في كثير من الأحايين

وبما أسلفنا يتضح بجلاء أن الشخصية تخلع بعض سماتها القلبية أو العقلية أو الخلقية على الأسلوب ، ليس فيها فحسب ، بل إن نوازع النفس ، وغرائزها وانفعالاتها تندمج في مادة الشعر . فالشاعر الشهوي يضرب دائماً على أوتار الحب والعاطفة والوجدان ، وينتقي لشعره أجمل الألحان كما نجد ذلك في شعر نزار قباني وصالح جودت وفؤاد سليمان وابراهيم العريض

والشاعر الانفعالي ينتقي لشعره أسلوباً عصبيّاً قلقاً ، زائد الحساسية ، كما نجد ذلك في شعر ناجي والياس خليل زخريا . والشاعر ذو النزعة الانطوائية يختار أسلوباً هادئاً خافت النغم في كثير من الأحيان ، ويتخذ موضوعات شعره من نفسه ، أو من الطبيعة ، كما نجد ذلك مثلاً في شعر الصيرفي أو صلاح لبكي . والشاعر ذو النزعة المنبسطة يختار أسلوباً عالي النغم ، قوي الألفاظ ، ويتجه الى الموضوعات الخارجية ، كما نجد ذلك واضحاً في شعر حافظ ابراهيم وبدوي الجبل والياس قنصل . والشاعر الجامع بين الانطوائية والانبساطية يتنوّع شعره بين هاتين النـازعتين ، كما نجد ذلك واضحاً في شعر مطران وأبو شادي وإيليا أبو ماضي وبشاره الخوري وغيرهم .

وربما أمكننا تعرُّف دقائق الأسلوب من دقائق النفس وخصائصهـا ، فالغرائز المنحرفة تتفتح عن شعر جنسي والغ في الجنسيـة والانفعالات الجامحة ينبض بهـا الشعر الانفعالي الزائد الحساسيـة . والعقد النفسية تطل علينا من المعاني الشعرية ، فعقدة الأب مثلاً نجد عواملها في معاني القسوة والادعاء والتعالي النفسي البعيد . وعقدة الأم مثلاً نجدها في معاني التدلل والضـلال الخلقي ، والصدمات العاطفية الظالمة ، قد تتحوّل في شاعر من الشعراء تحوُّلاً إيجابيّـاً ، وتشرق في شعره حرباً على الظلم وانتصاراً للحق وصبابة للخير

وحسبنا في هـذا البحث ، أن نضرب أمثلة قلائل ، لبعض الشعراء وأثر شخصيتهم في شعرهم وظهور سمات هذه الشخصية في أسلوبهم

فاذا تصفحنا ديوان بدوي الجبل[1] الشاعر السوري ، نجد أسلوباً حيثاً يمثل حيويته وأفكاراً ترمز إلى نزعته المنبسطة . ومن دلائل ذلك نذكر قصيدته « دموع ودموع » التي يقول فيها :

قد رأوا ليلاي تذري دمعها   كرّم الله الدموع الطاهره

حرسَ الله جفوناً أمطرت   بالندى تلك الخدود الناضره

كفكفي دمعـك لا يشعر به   ناظرٌ حتى النجوم الزاهره

إنَّ لي يا ابنـة ودّي همّة   تخضد الخطب ونفساً ثائره

وأراني سوف أمشي للردى   مستظلاً بالسيوف الباتره

ملقياً نفسي في غمراتهـا   كيفما دارت هناك الدائره

فإذا مِتُّ غريباً نائياً   وأنا في التسع بعد العاشره

اذكريني واحفظي عهد الهوى   واندبي شؤم الجدود العاثره

فهذه القصيدة تفصح بجلاء عن سمات الشاعر وتتحدث عن رجحان عقله وقوة عزيمته في سنه الباكرة حيث يترك حبيبته ، ويحمل سيفه ذياداً عن وطنه . وأسلوبهـا القوي المباشر ينبيء عن حيوية واعتداد وميل الى الواقعية .

وعلى عكس هذا الشاعر في نزوعه وأسلوبه ، نجد الشاعر اللبناني صلاح لبكي ، فهو بأسلوبه الهادىء الخافت النغم ، واتجاهاته الشعرية الى وصف خوالجه النفسية وحبه لأبناء الطبيعة وبناتهـا ، يمثل الطابع الانطوائي المنكمش المحب للعزلة ، والنافث أبخرة انفعالاته وآلامه في أثير الطبيعة ، ومن نماذج شعره في ديوانه « مواعيد » نذكر قصيدته « ميلاد الشاعر »[2] التي جاء فيها :

وحدي أنا يا رب وحدي نشوان من سأم وزهدِ

وحدي كأن الشمس لم تطلع على الدنيا بوعد

وحدي ولو أن الربيع مصفق والنور يهدي

(١) ديوان بدوي الجبل — مطبعة العرفان صيدا ١٩٢٥

(٢) ديوان «مواعيد» لصلاح لبكي ص ٥٩

ومطـارح الآفاق أنغـام تلوّح لي برغدِ
والورد من حولي مدى الآفاق يخفـق فوق ورد
أنا والشتـاء أصومـه ويسومني برداً بـبرد

* * *

وحدي ، فما الانسان لي بأخٍ ولا هو لي بجدِّ
أنا لست من هذا التراب ولست من حسد وحقد
فلقد تركت وعشت في ملإٍ من الاحلام فرد
وقطعت ما بيني وبين الأرض من صلة وودّ

وتتمثل هذه الروح المنعزلة في مخاطبته لأحياء الطبيعة الصامتة ، وقد حفل ديوانه «أرجوحة القمر» (١) بطائفة من شعر الطبيعة مثل «ليل» ص ١٢ و «الربيع» ص ٢٠ و«العاصفة» ص ٢٣ و «الليل» ص ٢٥ و «النجوم» ص ٨٣ و «الديمة» ص ٣٥ وفي هذه القصيدة يخاطب الديمة في انفعال وشوق وفرحة يقول :

هـلي فداك الدفء هلي يا ديمـة الأمل المطلّ
غدك الربيع بما به من صبمة ونعيم ظل
غدك الفـراش ترف بالأطياب من حقل لحقل
غدك الهوى الممراح في الأوراق في الغصن المدل

* * *

هلي فاتك من سخاء الغيب في العمر المقلّ
بك من لهاث الغيب أعراف وتذكارات وصل
وبجانبيَّ إليك شوق الأرض فانهمري وهلي !

وبين الطراز المنطوي والطراز المنبسط ، طراز وسط ، أو بين بين يطلق عليه علماء النفس Ambivert وربما كان الشاعر الكبير خليل مطران ، مثالا واضحاً على هذا الطابع . وأسلوبه الشعري قد تأثر أيما تأثر بهذا الطراز ، فأسلوبه معتدل بين الخفوت والجهارة .

(١) ديوان «أرجوحة القمر» لصلاح لبكي دار المكشوف بيروت ١٩٣٨

ويصد انفعاله الشعري الجارف صمام الفكر. وأخيلته — وان علت — فلن تذهب الى حد الإغراب والابهام. وموضوعاته الشعرية تتراوح بين الذاتية والموضوعية، وربما كانت قصيدته «فنجان قهوة» مثالا قائماً على أثر هذه الشخصية المتعادلة في هذه القصيدة، وهي تجربة ذاتية تروي نظرة الشاعر هو وصديقته إلى فنجان قهوة، ولكن هذه التجربة الذاتية البسيطة، وهي من التجارب التي يميل إلى وصفها الانطوائيون، قد جمعت بين الذاتية والموضوعية، فصور فيها الشاعر حباب البن في سيرها بالأفلاك في دورانها، وصوّر تلاقي الحباب واندماجه بتلاقي المحبين وتوحدهما واقترانهما، وهذه الصور الموضوعية يلازم بينها وبين جلسته مع هذه الصديقة، ولفت نظرها إلى هذه الأسرار الكونية! اسمع إليه يقول:

أرأيت صوغ الدرّ في العقيان — هذا حباب البن في الفنجان
فلك تمثّل شمسه ونجومه — أفلاكنا في السير والدوران
ليلى أجيلي الطرف فيه تنظري — سرّ الكيان وآية الأزمان
تجدي سماوات وصمنَ عوالماً — فتّانة الابداع والاتقان
منثورة أفرادها منظومة — جمعاً بما لا تدرك العينان
سيّارة خلل الجهات حوائراً — مرتادة في البحث كلّ مكان
كلٌّ يصير الى حبيب مرتجى — حتى يدانيه فيلتصقان
فيذوب كل منهما في صنوه — وكذاك يحيا بالهوى الصنوان
جسمان يغتديان جسماً واحداً — كتوحد الحبّين يقترنان

فاذا ألقينا نظرة تأملية إلى هذه القصيدة وجدنا طابع الشخصية المتزن بارزاً في نغماتها المتوسطة، وفي تقاطيع النغم الذي لا نبوّ فيه ولا قلق، وفي أخيلتها التي لا إبهام فيها ولا غموض، وفي تجربتها الموحّدة والتنقلات السلسة بين الأبيات.

وفضلاً عما تقدم، فان صور القصيد جمع إلى الصور الحسية صوراً نفسية، والأولى تدل على الفطرة، والثانية تدل على العمق وهذه آية دالة على الشخصية المتعادلة المتزنة.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن ننبه الى أن الدكتور اسماعيل احمد أدهم في بحثه عن مطران [1] أتى بحقائق نفسية عن صلة شخصية مطران بشعره، ولكنه خرج من هذه

---

(١) كتاب «خليل مطران: الشاعر الابداعي» ص ١١٢ وهو رسالة «أدهم» عن مطران — ملحق المقتطف سنة ١٩٣٩

الحقائق بأن شخصية مطران كانت انطوائية Introvert وهذه النتيجة التي وصل إليها الدكتور أدهم، يبدو لنا أنها غير موفقة ولا منطقية، بالرجوع إلى المقدمات التحليلية القيمة التي أتى بها في بحثه النفيس — ومن ذلك قوله ص ١٠٩ :

« إن مطران مزيج من الطابع الفعال Active والطابع المنفعل Passive » — وقوله « أن له من الطابع الأول القدرة على مراجعة النفس، وطلب الجاه، وحب المغامرة وهذا ما يظهر في الجانب العملي من حياته » — « وأن له من الطابع الثاني، الاحساس الدقيق وزخور الشعور والتعلق بالمثل العليا ! ». وقوله في مكان آخر من بحثه « أن أخيلة مطران وإن أطلق لها العنان فهي خاضعة لنظام ordre » . وقوله في مكان ثان، « أن ميل مطران للوصف والتصوير راجع لميله لمراجعة نفسه وضبطها، وأن الصور الموغلة في الخيال والشطح قليلة عنده . ! »

ومن هذه المقدمات لا نخرج إلاّ بنتيجة واحدة، هي التي أبديناها في صدر هذا البحث وهي أن مطران، ليس بالانطوائي المنكمش ولا بالانبساطي المحض، ولكنه بين بين وهو ما يطلق عليه السيكولوجيون Ambivert كما أسلفنا وأن شعره في أسلوبه وفي معانيه وفي اتجاهه تأثر بهذا الطابع .

ويخلص لنا مما تقدم، أن للشخصية أثرها القوي الخفي في الأسلوب، وبين الاثنين تفاعل مكين، ويمكن للمتعمق أن يتقدر بعض سمات الشعراء من أسلوبهم وتعبيرهم، والقول الشائع بأن الأسلوب هو الرجل، هو قول صحيح إلى حد، وهو صحيح إذا لم يكن صاحبه مقلداً تقليداً أعمى، أو متقمصاً شخصية أخرى يحاكيها في أسلوبها .

والأسلوب، كما يقول « كيلر كوتش Quiler Couch » في كتابه الذي أسلفنا على ذكره يدل على سلوك الرجل وكياسته، وكما يقول Bennett في كتابه « الذوق الأدبي » هو عنوان الشخصية، ومن التعبير الشعري يمكن تقدير درجة معرفة الشاعر [1] وتنوع

(١) كتاب الفن والشعر للفيلسوف الفرنسي جاك ماريتان Art & Poetry By Jacques Maritain

النغم يوحي بمرونة الشعور [١] والأسلوب المليء بالغموض والابهام ينم على الحيرة والشرود والوقوع في الغيبوبة . والأسلوب المندفع المليء بالصفات الصاخبة أمارة القلق والذهن غير المنظم [٢] . والأسلوب المتحرك الحسّاس يشف عن البديهة والانقانة . والأسلوب الموسيقي الرائع يدل كما يقول الفيلسوف الفرنسي جاك ماريتان على قوّة الذاكرة [٣] :

والملحوظ أيضاً أن الأسلوب المتراوح بين الجودة والرداءة في الصنيع الشعري ، يكشف عن نفس تجمع بين نفاسة المعدن وخساسته . والأسلوب المفتعل يدل على الادعاء والغرور ، والميل الى الظهور . والأسلوب التقليدي قد يدل على الجمود أو الزيف النفسي أو الوهن الذهني . والأسلوب المتقطع الذي لا وحدة فيه ، قد يدل في بعض الحالات على الشذوذ ، أو على النضال الباطني بين العقل الواعي والغافي . ويستحيل علينا وضع قواعد مفصّلة في هذا المجال لانه يتطلب بحثاً سيكولوجياً عميقاً، تختلف فيه الآراء بحسب التذوّق الادبي ، والدراسة السيكولوجية ، ونكتفي في هذا الصدد بضرب بضعة أمثلة تطبيقية لبيان ملامح الشخصية في الأسلوب .

ونمثل بلا اختيار ، بقصيدة للشاعر اللبناني « بشارة الخوري » قالها وهو في طريقه الى بغداد ، وعنوانها « الصحراء » [٤] وقد جرت كالآتي :

بغداد ما حمل السُّرى   مني سوى شبح مريب
جفلت له الصحراء والتفت   الكثيب الى الكثيب
وتنصتت زمر الجنادب من   فوهات النقوب
يتساءلون وقد رأوا   قيس الملوّح في شحوبي
والتمتمات على الشفاه   مخضبات بالنسيب
تبكي لها قُبَل الهوى   ويذوب فيها كل طيب

(١) كتاب الشعر المباشر وغير المباشر لتليارد ص ٦٠
Poetry Direct & Ablique, By Tillyard P. 60

(٢) كتاب The Sacred Wood By T. S. Eliot

(٣) كتاب « الفن والشعر » لجاك ماريتان آنف الذكر ص ٨٢

(٤) مجلة الجمهور اللبنانية العدد ١٠٧ ص ٨ السنة الثالثة ١٩٣٩

يتساءلون مَن الفتى العربي في الزي الغريب

صحراء ! يا بنت السماء البكر والوحي الخصيب

أنا لو ذكرت ذكرت أحلا - مي وأنغامي وكوبي

إحدى الشموع الذائبات أمام هيكلك الرهيب !

فهذه قصيدة غنائية حلوة الرونق قصّ فيها الشاعر وجده وهواه ، هذا الوجد الذي براه وهذا الهوى الذي أذبل جسمه ذبولاً أساره شبحاً جفلت له الصحراء . وتلفتت الكثبان ونطلمت الجنادب ! ولم يقف عند قص هذه التجربة ، ولكنه أضاف إليها أحلامه الخيالية وذكرياته الشهب ، وشطحاته وبدواته الشهية في أحضان الصحراء ، وقد شبهها بالشموع الذائبة في الهيكل الرهيب ! وقد عبَّر عن خواطره الوجدانية التأثرية تعبيراً صافياً ، مضوءاً بالصور المتحركة الحيَّة ، نابضاً بنغم حلوٍ مهيب متنوّع ، ذي ارتكاز واحد وأصوات موحية . وربما كان هذا القصيد من أصفى وأجمل قصائده ، وهو يحمل في ثناياه ، طوايا نفسه وينم إجمالاً على أنّ طابعه انطوائي أكثر منه انبساطي ، وذلك لأنه في حضن الصحراء ، أخذ يتحدث عن نفسه ووجده وذكرياته ، ولم يتحدّث عن الصحراء إلاّ حديثاً عابراً فهو بهذا يدلل على نازعته الذاتية المتغلبة على الموضوعية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن أسلوبه في هذه القصيدة ، يجمع بين الكلاسية الجديدة ، والنزوع الرومانتي فهو بهذا يجمع بين التعلق بالماضي والميل الى التحرز والانطلاق . وإذا ألقينا نظرة فاحصة الى جزئيات القصيد ، أمكننا القول بأن صاحب هذا الأسلوب السلس الرقيق ، يتسم باللطف والرقة والكياسة ، وتصويره المتحرك ، ونغمه النابض ينمان عن حساسيته الزائدة إن لم نقل عصبيته .

وأما طريقته المباشرة الآسرة في الأداء ، فتدل دلالة واضحة على أنه رجل بديهة وشعور أكثر منه رجل تفكير ، وكأنما هذه الأبيات جرت من فمه جرياناً تلقائيّاً ، دون أن تترسب أبياتها في بؤرة الفكر ، وتترشح في تلافيفه ، وهذا لا ينفي أن الصور المتحركة الدقيقة التي أهمت في القصيد ، هي من وحي الذكاء الفطري ، وبخاصة البيت الأخير ، الذي يصوّر

فيه ذكرياته وأحلامه الماضية في الصحراء بالشموع الذائبة في هيكلها . فهذه الصورة تتنفس الدقة والذكاء والفطنة الفطرية .

ودليلنا على تحكم الشعور والبديهة في نفس الشاعر دون القوى التفكيرية ، البيت السابع من القصيد آنف الذكر الذي يقول فيه بلسان أحياء الصحراء :

يتساءلون من الفتى العربي في الزي الغريب !

فهذا التساؤل الحسي العامي ، لا يتساوق مع التساؤل النفسي الرفيع ، عن وجده وهواه . وتمتمات شفتيه التي تبكي لها قبل الهوى .

ويعزز تحكم قوى مشاعر هذا الرجل على عقله ، ميله الى المبالغة في وصف حالته ، والصور التي عبر بها عن نحوله وذبوله ، في جفول الصحراء وتلفت الكثبان ، وانصات الجنادب لشبحه وهو يجتاز الصحراء ، مما يدل دلالة أكيدة ، على الملاحظة العابرة وعلى أن الرجل ابن شعوره وبصيرته ، لا ابن ذهنيته ، وأنه فضلاً عما تقدم يستوحي فنه من رواسب عقله الباطن ، فهو في الصحراء تشرق على خياله صورة الشموع الذائبة التي تبلورت في نفسه ، من تأثره برؤيتها في المعبد ، وجو القصيد الذي يدف به طيف من الاسرار ، يشف شيئاً ما عن تأثر الرجل ، بأضواء الاحلام ، ولمعات العقل الباطن ، كما أن بعض الاخيلة الحسية وهي قليلة في القصيد ، تنم كما ذكرنا آنفاً على الفطرة ، وعلى رواسب التجارب الاولى المبلورة بالعقل الباطن .

وربما لا نعدو الصواب ، إذا أضفنا هذه الحقيقة ، وهي أن موسيقى القصيد في علو نغمها آناً ، وفي خفوت النغم آناً آخر ، وتوسطه آناً ثالثاً ، يحمل في طواياه ، شاهداً من شواهد القلق النفسي والميل الى إثارة المفاجآت ، وأما بحر القصيد وهو من البحور متوسطة الطول ، فهو آية على مزاج الشاعر المتراوح بين الاسى الباطني والفرحة المكتومة بمرأى الصحراء .

كما أن تذبذب معاني القصيد بين الرفعة آناً وبين النزول آناً آخر قد يحمل الى الحكم على صاحب القصيد بالتخاذل الذهني وعدم الثبات والاستقرار .

وقد يكون مثل هذه الاحكام على شاعر من قصيدة واحدة ، ضرب من التعسف

والانصاف يقضي بتصفح جميع أعمال الشاعر ، وهذا صحيح . ولكننا مع هذا نرى أن القصيد الواحد الصادق الذي يسكب فيه الشاعر روحه قد يكشف عن كثير من سمات الشاعر الجوهرية ، وأننا ما أتينا بهذا النموذج إلا لبيان انطباعات الشخصية على الأسلوب في القصيد المرهف .

ولكي نعطي نموذجاً كاملاً لأثر الشخصية في الأسلوب ، نذكر « ديوان ألحان الخلود »[1] للدكتور زكي مبارك ، وهذا الديوان يمثل سماته البارزة أجلى تمثيل ، وطابعه الاخلاص والصدق والصراحة ، وهي من أبرز صفات هذا الأديب ، كما أن اتجاهاته الموضوعية ، تمثل شخصيته المنطوية تمثيلاً صادقاً ، وجل ما حوى الديوان ، خواطر الحب المدلّه ، الذي لا يفصل بين الحب والجنسية ، وقد ماجت مع خواطره الشعرية تموجات نفسه القوية المضطربة ، وبدواته وأهوائه .

وفضلاً عن ذلك ، فالديوان يحمل دقائق نفسه ، وما يكمن في عقله الباطن من عقد نفسية تدفعه الى التغالي في مدح نفسه والى الاعتزاز الغالي بذاتيته ، والى الاضطراب العاطفي في بعض الأحيان . ويبرز لنا هذا الاضطراب في الصراع العنيف بين رواسب عقله الباطن ، وذكرياته الماضية ، وبين الأجواء الجديدة التي عاش فيها ، أجواء الطلاقة والحرية . والصراع بين هذه العوامل المتباينة ، جعل نفسه في شدّ وجذب ، وأثر في تعبيره الشعري ، فجعله كلاسيًّا في صياغته ، رومانتيًّا في روحه في كثير من الأحيان ، وبهذا الصراع تأثر شعره فعجز عن إخراج فن مستقل طليق ، لأن رواسب الماضي الكثيفة تنعكس ظلالها على موجات الطلاقة التي يتمم بها فن الفنان.

ولبيان هذه الحقائق نمثل ببعض قصائده ، لنرى كيف تماوجت ذاتية هذا الأديب في أسلوبه الشعري واتجاهاته ، ومن هذه القصائد نذكر مثلا بعض ما جاء في قصيدته « مصر الجديدة » فنجد أسلوباً رصيناً يمثل فحولته ، أسلوباً قوي البنية ، لا أثر للخلخلة فيه ، ولا الوهن ، أسلوباً موسيقيًّا ، تلوّن بصفاء روحه ، واقترن هذا الأسلوب ، بتجربة مضطربة في القصيد ، فهو فيها يتغزل مرّة ، ويتفلسف مرّة ، ويضم بلاده الى صدره مرة وهذا يدل

---

(١) ديوان «ألحان الخلود» للدكتور زكي مبارك صدر عام ١٩٤٧

على عدم التوحد في الفكرة ، والغالب على القصيد ، الحديث عن نفسه ، وهذا ينم على الطابع الانطوائي الذي يسيطر عليه ، اسمع إليه يقول ، في جزالة وقوة (١)

توحدتُ ، لا خِلٌّ أبث شكايتي إليه ، ولا حبٌّ يؤرقه سهدي
إذا آذنى الدهرُ اللئيم بجفوةٍ تحوّل أهلوه الى عصبةٍ لُدِّ
ليصنع زماني ما أراد فلن يرى سوى ساعدٍ يلقاه بالبأس مستدّ
بناني الذي يبني الجبال هواهقاً وليس لحصنٍ شاده اللهُ من هدّ
فما بال أقوامٍ تهاوت حلومهم يعادون بنّاء الجبال بلا عِنـد (٢)
يُعدون أجناداً لحربي بواسلاً وقد جهلوا أني سأُلقاهم وحدي
إذا اعتزّ بالله القدير مجاهدٌ أذلّ ألوف الظالمين من الجند

ويؤيد هذا الطابع الانطوائي ، ما جاء في قصيدته « فيضان دجلة » حيث نراه يترك وصف هذا الفيضان ، ويتحدث عن نفسه ، وعن شجونها ، ولكنه لا يذعن لهذه الشجون ، بل يعلو عليها ، ويتحول عنها تحولاً نفسياً إيجابياً ، فيقول : (٣)

شجوني وأحزاني كثار فما الذي يطيب لهذا الدهر من ذلك الحزنِ
لقد أغرقتْ قلبي الهموم فما الذي تروم الليالي من عذابي ومن بيني
تغربت في الدنيا فلا مصر داري ولا أنا آوٍ في الحياة الى ركنِ
همومٌ كأثقال الجبال حملتها وما لهموم الدهر عندي من وزنِ
فتىً عبقريٌّ الروح لا الناس أهله وليس له عند الكريهة من خدن
إذا صحّ رأي الناس يوماً فهللوا هوى رأيهم في القاع ثم علا ظني

وانطوائية هذا الأديب يسودها المزاج الانفعالي إذ تتناوبه انفعالات : الحب والحزن والألم والغضب . وهذه الانفعالات عبّر عنها تعبيراً بطيئاً كلاسيّاً رزيناً حيناً ، وتعبيراً فنيّاً سريعاً نابضاً حيناً آخر . ومن شواهد ذلك نذكر مثالين بديعين يكشفان عن نفسه الموزّعة وانفعالاته الهادئة حيناً والجياشة حيناً آخر والمثال الأول نقطفه من قصيدته

(١) ديوان ألحان الخلود — ص ٦٣ (٢) العند : الرأي (٣) ديوان ألحان الخلود — ص١٨٥

« الماضي » (١) حيث نراه يُعبر عن انفعال الحب تعبيراً هادئاً مطمئناً أصيلاً يقول :

رجعتُ الى رؤى الماضي رجعت أسائل رسمها عما فقدتُ
رجعتُ أطوف يسبقني فؤادي الى ما قد عرفتُ وما جهلتُ
رجعتُ إليكِ بعد العتب أبكي قواضب فسوتي فيما بكيتُ
إذا الدنيا تراءت في صباها ورنّ لحليها في الكون صوتُ
فأنتِ غناؤها في صمت قلبي وأنت وفاؤها فيما جحدتُ
جمالك في طهارته فتول وعرفُ الزهر أزهارٌ وموتُ !

* * *

والمثال الثاني نقطفه من إحدى قصائده ص ١٩٠ ، وقد عبّـر عن حالته الوجدانيـة في قوّة وموسيقية ارتكازية بديعـة ، ويتجلى في هـذا المثال ، التغير الانفعالي العارض ، حيث يسلو حبه ، ويزهد عنه وانه ليقول :

إني أفقتُ أفقتُ من كربتيـن نجوتُ
من ليـلة الحب عشتُ ومن لظاها سلمتُ
ومن تصاريف ليـلٍ بالداء يدجو نجوتُ
ما علتي ؟ ما جواها ما السر في أن مرضتُ
لا تسألوا بعـد عني إنـي عن العشق صمتُ

والملحوظ ، أن انفعالية هذا الأديب ، انفعالية سامية في كثير من الأحيان ، فهو إذا همه الحزن ، أو آده الألم ، ارتفع عليهما ، وهو إذا مسته البأساء ، أو برحت به النكباء ، صبر عليها ، وعلا بروحه المتصوفة وقلبه الكبير . ومن دلائل ذلك ما جاء في قصيدته « الناس والزمان » وهي من أحسن قصائده ، وفيهـا نطالع أبرز مماته ، وقد مسحهـا بصوفيته الايجابية يقول :

إذا اعتكرت دياجي الظلم حيناً نظرت ظلامهـا ثم ابتسمتُ

(١) ديوان ألحان الخلود — ص ٢٤٢

وإن طالت مزاولة الليـالي هرمتُ صبالهـا فيها هرمتُ
زمانٌ لم أجد فيـه صديقـاً اشاطره سروري إن فرحتُ
عرفت الناس من شرق وغربٍ فوا أسفي على من قد عرفتُ
لقـد ماتوا وماتوا ثم ماتوا ونقض العهـد والميثاق موتُ
عليهم قـد بكيت فلست أبكي على زمنٍ لصحبتهم أضعتُ
خطوب الدهر لم تخفض جناحاً بعزمتـه القوية قـد سموتُ
قضيت العمر ما أحـد رآني على بابٍ لمخلوق وقفتُ
ولا علمي أهنت ولا بياني ولا بمدارج الأطماع سرتُ
ستمضي محنةٌ وتجيء أخرى وليس لمحنـة الاحرار وقتُ
ويبقى خاطري شهماً شجاعاً أصول به وأفتـكُ ما أردتُ
فعودي يا صروف الدهر عودي مولولة الزئير كما عهـدتُ
فما لكِ غير قلبي من قرار وقلبُ الحر للأخطار بيتُ !

وأثـان قلبنا صفحات ديوانه ، وجدنا سماته البارزة وهو يعبر عنها في إضمارٍ أو جهر ، وفي موسيقية عذبة كما نجد ذلك واضحاً في قصيدته « غناء ليلة الميلاد » أو في آخر قصيدته « أدب البحر » ، أو في أبيات متفرقة هنا وهناك ، ومما جاء في قصيدته « غناء ليلة الميلاد » قوله (١) :

لحظ عينيك رحيق في رحيق أنا فيـه بعذاباتي غريق
كل أيامي صَبـُوح وغَبـُوق كيف أصحو من غرامي وأفيق

وقوله في « أدب البحر » ، مفاخراً بنفسه (٢) .

عاب قوم عليَّ أني فخورٌ أجد الناس في الفضائل دوني
فليجيدوا كما أجيد ليسمو إن أطاق الذي يطيق وتبني
إنني فاخر بنفسي لأني في زمان ما لي به من قرين

(١) ديوان « ألحان الخلود » ص ٩٤ . (٢) ص ٢٣٦ من المصدر السابق .

وحسبنا هذه الأمثلة القلال شواهد على أثر الشخصية في الشعر ، ومثولها بخاصة في شعر هذا الأديب الجهير ، وإنك لتجد في هذا الشعر أشباح أبي نواس والشريف الرضي ، وابن الفارض والنواسي ، تمازجها أطياف طفولته ، وجرأته وكبريائه وتهوره ، وانفعالاته المضطربة ، وهـذا الشعر قد يعلو علو الطير في الهواء ، وقـد يهبط هبوط السمكة في الماء ، حسب توزع نفسه ، وتباين حالاته . والجيـد منه في مستوى كلاسيكي عال ، ولو كانت آراؤه الصريحة الغريبـة على الشرقيين ارتدت ثوباً جـديداً لكان لشعره شأنٌ خطير ، ولعُـدّ من خير المجددين ، ولكنه بهذا الثوب الكلاسيكي أضاع اصالته ، وقد ينظر بعض الناس إلى صراحته الوحشية وتجريد الناس من أثوابهم الشفافة وتجريحهم في غير رأفة ولا هوادة ، نظرة شزراء . ولـكن الناقد الفني يرى في التعبير عن هذه السمات ترجمة صادقة ، مخلصة ، تذكرنا بترجمة «روسو» لنفسه في أعترافاته ، ولكأني به يقول مع هذا الفيلسوف الفرنسي وهو يخاطب الذات الالهية :

« اجمع من حولي ، الجم الغفير من النـاس ، ودعهم يسمعون اعترافاتي ، ويذرفون الدمع على سوءاتي ، ويخجلون لدى بأسائي ، ودع كلاً منهم يفتح قلبـه على عتبة عرشك ويتحدث بمثل صراحتي ، ودع أي إنسان إذا تجاسر أن يقول : اني خير من هـذ الرجل » (١)

(١) Autobiography—Its Genesis & Phases-By Arthur Melville Clark P. 41—1935

الوحدة الشعرية

ولا يسعنا بعد هذه الجولات الطويلة في عناصر الصياغة إلا أن ننهيها بكلمة موجزة عن وحدة القصيد ، وهي الرباط الذي يضم التجربة ، والصور ، والانفعالات ، والموسيقى ، والألفاظ في وشاح خفي أثيري ، وبهذه الوحدة يتكامل القصيد وتدب فيه الحياة .

وتلمح هذه الوحدة ، ابتداءً ، من دوران أبيات القصيد دوراناً منطقياً شعرياً ، وتنقل هذه الأبيات تنقلاً فكرياً ،ويتأتى هذا الدوران المنطقي من توفر التجربة الشعرية وعرضها عرضاً جميلاً ، وصياغتها صياغة محكمة — صياغة لا هي بالطويلة المجرجرة ، ولا بالقصيرة الكاشفة ، كما أسلفنا في البحث الأول ، فاذا اختلطت التجربة ، أو رف عليها اللبس ، اضطربت الوحدة ، وتخلع بنيانها .

وتقوم الوحدة كذلك على اتجاه الصور الخيالية بالقصيد اتجاهاً موحداً ، فاذا تضاربت الصور وتضارب اتجاهها تذبذبت الوحدة ، وهذا ما نلمسه في شعر بعض الرمزيين ، الذين تتعارض صورهم الخاصة أو رموزهم في القصيد الواحد [1] في بعض الأحيان ، فينتاب الوحدةَ الوهنُ ، كما يبدو للعقل الواعي . ومن أمثلة الوحدة المذبذبة ، قصيدة « الحلم المجنح » [2] للشاعر اللبناني « ميشال بشير » بديوانه « غروب » ونقتطف منها قوله :

أي طيف ينزو على ثغره همسُ طائرِ
ممعن في جو الخيال عاهسيه خاطري
أحس بوقع خطاه يعصف في أضلعي
وبوح على فمه يتمتم في مسمعي

(١) The Poetic Image By. C. Day Lewis — 1947

(٢) ديوان « غروب » ص ٢٤ — دار المكشوف ١٩٤٧

ورفيف في غمرة الليل يجلوه ناظري
يتهاوى من الدرا ري على كل فائر

* * *

كجناح الصبا موشى بريش مذهَّب
إن يحوِّمْ على جديـــب من الأرض يخصب
وإن ينهمرْ فيئهُ على أيـكة تورق
كأن الفراش بها من الزهر في زورق
ترتمي في عبـابه كوكب إثر كوكب
من غريق وعائم ومبـــين ومختبي

فهذه الصور المبهمة الغائمة، أطافت سحابة دكناء على وحدة القصيد على حين أن الصور في الشعر الصريح تضفي على الوحدة قوة، وتزيدها حركة، لوضوحها وحيويتها، واثارتها (١) وشتان بين صور غامضة غموض تعمية، تتعثر فيها الوحدة الشعرية، وبين صور مشرقة تلقي على تجربة القصيد بنَسقات النور، كما نجد ذلك ماثلا في قصيدة «حلم في سجن» للشاعر الموهوب «قبلان مكرزل» بديوانه «الخلود» (٢) ومما جاء فيها قوله:

أبنيَّ أسمع من كوى سجني أغاريد الصباح
فيرف للوادي فؤادي والروابي والأقاح
يهوى اقتاك هنـاك تمـــرح والأزاهر والطيورا
في ملعب أنواره كانت تقبلني صغيرا

* * *

ابنيَّ هذا الليـل فاجأني بحـلم مزعج
فيـه جماهير تروح مدى الشوارع أو تجي
والبحر والأمواج تقـــفز كالذئاب الخاطفه
والأرض كالغرزال (٣) تر قص في جنون العاصفه

(١) The Poetic Image By. C. Day Lewis.

(٢) ديوان «الخلود» لقبلان مكرزل ص ٤٢ دار المكشوف ١٩٤٦

(٣) الغرزال: غصن الشجرة

فنظرت حولي كي أرا ك فما وجدتك قريبه
فشردت بين الشاردين .. ووراءك ابني قلبيه

ففي هذا القصيد، تتصل الصور بالتجربة اتصالاً، وينبثق من خلالها على المعاني نوراً، فتزيد وحدة القصيد جمالاً ووثباً.

ومما يزيد الوحدة حركة وتماسكاً، حدة الانفعال الشعري وجمال الموسيقى وهذا ماثل فيما سجلنا من نماذج في البحوث السالفة، وربما كان من الخير ذكر نموذجين جديدين أحدهما للشاعرة العراقية الموهوبة « نازك الملائكة » يتجلى فيه أثر انفعال الشاعرة في جمال الوحدة، والثاني للشاعر العراقي الغنائي « عبد الحميد الساوي » تقول الشاعرة في بعض قصيدتها « ثورة على الشمس » (١)

وقفت أمام الشمس صارخة بها يا شمس ! مثلك قلبي المتمرد
قلبي الذي جرف الحياة شبابه وسقى النجوم ضياؤه المتجدد
مهلاً ! ولا يخدعك حزن حائر في مقلتي .. ودمعة تتنهد !
فالحزن صورة ثورتي وتمردي تحت الليالي .. والألوهة تشهد !

ثم تقول في إبداع :

شفتاي .. مطبقتان فوق أساها ! عيناي .. ظامئتان للأنداء !
ترك المساء على جبيني ظله ونفى الصباح على جديد رجائي
فأتيت أسكب في الطبيعة حيرتي بين الشذى والورد والأفياء
فسخرت من حزني العميق وأدمعي وضحكت فوق مرارتي وشقائي !

* * *

ويقول « الساوي » في قصيدته « يابن الأراكة » (٢)

يا بلبل القفص المطلّ وشاعر الروض الأغن

(١) ديوان « عاشقة الليل » للشاعرة نازك الملائكة — ص ٢٠ و ٢١ مطبعة الزمان ببغداد ١٩٤٧
(٢) مجلة الهاتف — بالنجف ٦ يونيو ١٩٤٧ وقد تفضل بهذا النموذج علينا الاديب النيور منكور الاسدي مع نماذج عراقية أخرى

ما كان ظني أن أراكِ منفرداً ما كان ظني
فالحزن أعمق نغمةً من نغمة الوتر المرنّ
لحن النفوس الشاعرات إذا تجيش بغير لحن
وإذا علا صوت النعي بمحفل سكت المغني

* * *

يابن الأراكة قد قتلت مسرتي وأثرت حزني
أنا لست من حمم الجحيم ولست من جنات عدن
أولم نكن أبناء لحنٍ واحـد ولدات فن
نصغي الى وحي الجمال ونشرئب لكل حسن
أنت الأسير بلا فدى وأنا الطليق بغير منّ
تشدو وأنت بمحبس وأنا أنوح بمطمأنّ

* * *

ولا يقف هيكل الوحدة الأثيري عند التسلسل المنطقي ، ولا الصور الحية ولا الموسيقى المتوائمة مع معانى القصيـد ، بل أن للالفاظ وتموجاتها وتوافقهـا وحرية نظامها دخـلاً كبيراً في تكوين هـذا الهيكل . ونقصد بنظام الألفاظ ، الحر عـدم التقيد بالأسلوب النحوي الجامد في تركيب العبارة ، بمعنى أن يباح في الشعر ما لا يباح في النثر ، كأن يأتى الفعل بعد الفاعل أو المفعول ، كما هو الحال في اللغـة اللاتينية ، أو يأتى الفاعل قبل الفعل كما هو الحال في اللغـة الفرنسية أو الانجليزية أو يأتى الضمير قبل الاسم إذا دلّ عليـه ، وهكذا ، تدور الألفاظ دوراناً حرًّا غير مقيد ، لتحدث أثرها الآسر في النفس (١) وتضفي اللدونة على هيكل القصيد العام .

ويقول الأستاذ « جلبرت موراي » في كتابه « السنة الكلاسيكيـة في الشعر » أن الشاعر العظيم « هوراس » يقرأ من قرنين ، ولم يزعم زاعمٌ أن ما دبجه لم يقله أحد ، ولكنما جمال أسلوبه جعله خالداً ، ونصف هذا الجمال يعتمد نظام الكلمات الحر .

(١) راجع في هذا الصدد كتاب « السنة الكلاسيكية في الشعر »
The classical Tradition in Poetry — By Gilbert Murray p. 170 .

ومن حسن الحظ ، أن كثيراً من شعراء الشرق الموهوبين تحرروا من قيود تركيب العبارة ، وأنهضوا شعرهم على نظام الكلمات الحر الطليق ، وليس هذا بدعاً فقد سار على ذلك كثير من شعراء العرب ، والأمثلة على هذه الحقيقة متعددة . ويحضرنا ، بدون اختيار ، من الشعر الحديث مقطوعة وجدانية للشاعر العراقي « رشيد ياسين » عنوانها « في الليل »[1] وفيها يقول :

وجه تراءى فوق مصـــباحي المكال بالشجون
في صمته تتعثر الأحـــلام ، والنجوى ترين
نجوى يناغمها في فيرفرف القلب الحزين
ويبعثر الشوق المرير أنينه فوق السكون
يا حلم قلبي ! يا صـــدى أمل يعذبه الحنين
يا لحن أيامي التي اخـــتلجت على موج الانين
دنياي آمال يظللها أسىً ماضٍ دفين
ونداي صوت حائر الـــحسرات، مفجوع اللحون
ذبلت قواه فأي صوت ـ غير صوتي ـ تسمعين ؟
وبأي وادٍ تحلمين ؟ ولأي فجر تبسمين ؟

وواضح من هذه المقطوعة تأخر الأفعال عن الفواعل ، وهذا فضلاً عن جمال الصور واندماجها في المعاني اندماجاً قويًّا ، كأنما هي لبنة من لبنات المقطوعة .

وليس شك أن وضع الكلمات في مكانها الواجب ، ونقاء الألفاظ ودقة اختيارها لما يوصل الوحدة ، ويضفي عليها رونقاً ، وقد تتقوّى الوحدة ، وتزداد حيوية بالألفاظ الطريفة الحيّة التي لم تبتذلها كثرة الاستعمال وإن شعراء لبنان لينفحون الأدب الشرقي بفيض من هذه الألفاظ . ونقتطف مثالاً لذلك، في غير اختيار ، ما جاء في قصيدة « عودة » ليوسف الخال بديوان ـ الحرية ـ [1] حيث يستعمل ألفاظاً تبدو للسمع كأنها جديدة على العربية ، وبعضها ليس جديداً ، والبعض الآخر منحوت فاسمع إليه يقول:

(١) جريدة الاخبار العراقية ١٩٤٦ (٢) ديوان الحرية — ص ٣٩

وكان أنْ عاد لي حبيبي يجود بالصفح عن ذنوبي
مجنّح الهفّ بالأماني كموعد المرتجى القريب
يذرُ في هشّه شروقاً فيهزأ الكون بالغروب
نـماه أُحدوثة روتها دغدغة الوصل للحبيب
قد عاد فالقبلة استفاقت تُـبرعم الحبَّ في القلوب
وتفرش المرتمى وروداً فيغرق الجوُّ بالطيوب
هناك « لا تأمل انتهاء » يوشوش الصبح للمغيب

فألفاظ الهف والهش ، والدغدغة ، ويوشوش ألفاظ عربيـة تبدو لندرة استعمالها ، أجنبيةً على العربية ، وكلمة « تبرعم » هي كلمة نحتها الشاعر من « البرعم » على ما أظن ، ولا ضير عليه في هـذا النحت الجديد ، وبمثل هـذه الألفاظ الشعرية ، تتألق الوحدة في ثوبها الأثيري .

* * *

وأكبر الظن ، أن للشخصية أثرها الخفي في بناء الوحدة ، فالشاعر المفكر المركّـز تجري وحدته منطقية جادة في أغلب الأحوال ، بعكس الشاعر المبلبل الذهن ، فإن وحدته تتخلع وتتذبذب ، وأما الشاعر العاطفي الرقيّق فتسير وحدته في لطافة وليونة وتتجلى هذه الحقائق إذا ما تلونا قصيدة تفكيرية للشاعر السوري « علي محمد شلق » مثل قصيدته « نحو الذات »(١) فنجد الوحدة تسير في جدٍّ ووقار ، على حين إذا تلونا قصيـدة لشاعر البحرين « ابراهيم العريض » ، مثل قصيدته « ورقة تين »(٢) نجد الوحدة تسير خفيفة رشيقة ، وكذلك اذا تلونا قصيـدة « رجاء »(٣) للشاعر اللبناني صلاح الأسير ، نجد الوحـدة رائعـة الرونق والليونة

(١) قصيدة « نحو الذات » لعلي محمد شلق — مجلة الاديب سنة ١٩٤٧
(٢) قصيدة « ورقة تين » بديوان العرائس — لابراهيم العريض
(٣) قصيدة « رجاء » لصلاح الاسير بديوانه « الواحة »

ونقتطف من قصيدة « نحو الذات » هذه الأبيات

أنا باق هنا ، فلا ترهبي المـــوت ، ولا تجفلي من الرقباء
كل قلب فاني ، وحسنك مني غمر الكون بالبهـا الوضاء
تتجلين لي كما أنا أهوى صوراً في تعددي وانتمائي
فإذا نحن قبل كل من الذات اندياح في أفقنا للبقـاء
من وجودي يا سر نفسي ما تدرين أو ما جهلت من أسماء
عالمي وحدة المحبـة ، لا شيء سوانا يعد في الأحياء

وعلى هذا الغرار تجري باقي الأبيات ، وهي قصيدة تأملية تصوفية ، طال بحرها ليساير الميل التأملي وسارت وحدتها تبعاً لطول البحر في شيء من البطء

وأما قصيدة ورقة تين لابراهيم العُرَيِّض فهي قصيدة غزلية غنائيـة ، ولا مفر من أن تكون الوحدة في هذا النوع من الشعر نشيطة رشيقة ومما جاء فيها قوله :

أريني ناظريـك فـا صحا قلبي بإدمانه
لأسبر فيهما عمق المحيط وراء شطآنه
وخلـي خدك الور دي يفتني بألوانه
لأنثر فوقه قُبلي وأطفئ بعض نيرانه
وضمي ثغرك الحـــلو بالدر ومرجانه
لأختم في ثناياه رحيقاً راق من جانه
ودنـي صدرك المصـ قول مزهواً برمـانه
أجـل شـفتي بينهما وآنس روح ريحانه
ولفي شعرك الضافي على ما ماس من بانه
أمر أناملي فيـه فيعديني بطغيـــانه
فلا يبقى بقلبي ما يعج وما بشريانه
على إحساسه إلا وقد بالغت من شانه !

وعلى هذه الوتيرة يجري شعر ابراهيم العريّض ، نقي اللفظ ، حيوي التصوير ، عذب

الموسيقى ، حيّ الميل ، ناهط الوحدة. وقد أعجبنا بقَصَصه الشعري كل الاعجاب ، وحبذا لو اتجه هذا الشاعر الى تأليف المسرحيات الغنائية .

ويطالعنا « صلاح الأسير » في ديوانه « الواحة » بقصيدته « رجاء » وهي من أحسن قصائده وفيها يقول :

أعيدي النداء على مسمعي يذوب غراماً على المضجعِ
وخلّي فؤادي في غمرةٍ مفوّهة الحلم والمرتع
تعالي اقطفي ثمرات الهوى تعالي فديتك لا تهجعي
ونامي على ساعدي فترة أرى الكون يضحك من برقع
أدغدغ حلماً حواه السرير على خفقة للهوى الطيّع
أعيدي النداء بصوت أبح فأغفو ويغفو الوجود معي !

وهذا القصيد كما يبدو لنا ، قصيد آسرُ النغم ، طريف اللفظ ، شرود الفكر ، فاتن الوحدة وشعر هذا الشاعر يماثل في موسيقاه ، موسيقى الرمزيين . ولو كانت موضوعاته الشعرية رمزية مثل إدائه ، لكان من خير شعراء الرمز في لبنان .

ومن هذه النماذج الثلاثة ، يتضح بجلاء كيف تؤثر الشخصية في وحدة القصيد ، وكيف تؤثر القريحة في اتئاد الوحدة ، ويعمل الحسّ في انشاطها وكيف تُصَيِّرُها النفس الغافية لنا شفافة رقراقة ، ولو أخذنا نطابق سمات الشخصية على ألوان الوحدة الشعرية لما انتهينا ونكتفي بما أسلفنا من أمثلة . .

ويمكن القول بعامة ، أن تجربة القصيد إذا تواءمت مع الصياغة ، أثمرتا لنا وحدة موفّقة ، أي ان العبرة في نقل التجربة الشعرية ، فإذا ، غمضت التجربة الشعرية أو قُنِّعت بقناع كثيف ، تداعت الوحدة وهذا ما نجده كثيراً في الشعر الغامض والشعر المطلق ، وشعر الرمز في كثير من الاحوال .

ومن الظواهر الجديدة في شعر بعض شعراء الغرب المحدثين ، عدم اهتمامهم بالوحدة الشعرية ، فهم يرون أن الوحدة لا ضرورة لها ، وأنها نوعٌ من العبودية للتقاليد الكلاسيكية

وأن الفن كالحياة لا نظام ولا انسجام فيه [1] وما دامت الحيـاة الحقيقية مزيجٌ مضطرب من الاشياء ، فالفن ، بالمثل ، يكون مزيجاً مضطرباً من الاشياء ، وهذه مغالطة ظاهرة ، لأن عمل الفَنَّـان تجميع مشاهد الحيـاة المضطربة في صورة موحدة مؤتلفة ، وإذا انعدمت الوحدة ، فقَـدَ الصنيع الفني أثره وسحره .

ونرى من المفيد ، أن نسجل نموذجاً من شعر أحد شعراء الانجليز المتمردين على الوحدة وهو جيمس جويس James Joyce ، وهذا الشاعر يرى أن الشعر دفعة من الدفعات المفاجئة وهو في صياغته ، لا يهتم بالتسلسل المنطقي ، ولا بالتماسك ، ونذكر مثالا لذلك قصيـدته « وحيد « Alone ، [2] وفيها يقول :

« إن خيوط القمر الذهبية السنجابية تنسج طول الليل قناعاً — ومصابيح الشاطىء في البحيرة النائمة تجذب إليهـا أفنان نبات « اللاَّبيرْنَـم » الرقيقة ، والقصبـات الماكرة تهمس لليل .

اسمـا — اسمهـــا

وكل روحي في نشوة

وصدمة من الخجل !

The moon's grey golden meshes make all night a veil.

The Shorelamps in the Sleeping Laburnum tendrils trail

The Sly woods whisper to the night

A name — her name And all my Soul is delight A Swoon of Shame!

فهذا القصيـد يشف عن استهتار هذا الشاعر بالوحدة الأسلوبيـة ، وبخاصة في البيت الأخير ، عند ما يصدم الأذن بقوله : « وصدمة أو إغماءة من الخجل » فهو بعد أن يقول أن روحه كانت في نشوة يعقب على ذلك « بصدمة الخجل » دون أن يكشف للقارىء شيئاً عن مرماه ولـكنه يعبرِّ عن نفسه الخافية دون اهتمام بالمنطق الأسلوبي ويدع القارىء يذهب في تأويل معنى بيته الأخير ، كما يهوي !

(١) كتاب جلبرت موراي — السنة الكلاسيكية في الشعر ص ١٥٦

(٢) مجلة نوتين Fontaine الفرنسية عدد خاص « بمظاهر الادب الانجليزي » من ١٩١٨ — ١٩٤٠ العدد ٣٧ — ٤٠ ، صدر عام ١٩٤٤ ص ٥٢٥

والملحوظ أن بثقات من هـذا الاتجاه لمت كالحبَـابَ في شعر بعض شعراء الشباب وبعض الـكهول ، وسنتناول ذلك في شيء من البسط عنـد تناول شعر الرمز موضوعاً وأسلوباً .

ونكتفي في هذا البحث عن الصياغة لأنه طال وطال ، في بعض عناصره ، وقبل ختامه نريد لنقول ، أن ضوابط الصياغة التي ألممنا إليها ، أن صحَّـت للحكم على الصنيع الشعري ، فالحـكم على مقتضاها تقريبيٌّ يعوزه الذوق المرهف ، والثقافة العالية كما أجملنـا في التوطئة التي قدَّمناها على هذا البحث ، وننتقل بعد ذلك إلى تناول الانفعال باعتباره موضوعاً من الموضوعات الشعرية ، لا عنصراً من عناصر الصياغة ، ونعقبه بكلمة عن الفـكر في الشعر ، ثم بحديث مستفيض عن الموسيقى، وكلمة عن الشعر الرمزي الذي يخرج شيئاً ما عن الضوابط التي شرحناها في البحثين السالفين . وكلـة موجزة عن السريالية الشعرية المتمردة على كل ضابط وكل مقياس .

البحث الثالث

﴿ الانفعالات الشعرية ﴾

تحدثنا في فصل سابق، عن الانفعالات وأثرها في الصياغة، وبخاصة في الموسيقى. وفي هذا الفصل نتحدث عن الانفعالات من الوجهة الموضوعية وأثرها كمادة من مواد الشعر، وذلك لأنه لزامٌ على الناقد في وزن العمل الأدبي، أن يقدر ما يتوهج في نسيجه من انفعال، شكلي أو موضوعي، يسري في كيان الشعر، وينفث فيه الحرارة والحياة، فاذا لم يستشعر الناقد هذا الانفعال الهاز، حكم بخمول الشعر وتفاهته، ولو رحنا نتلمس الانفعال في شعر النظّامين لاعيانا البحث، ولوجدنا اليأس يدب في نفوسنا لدى قراءة أكثر من بيت واحد لاحدهم.

ويؤسفنا حقًّا، أن نجد بعض شعرائنا المصريين في عام ١٩٤٧، لا يزالون يقلدون القدامى، ويخرجون من شعرهم طبعات مكرورة، لا روح فيها ولا انفعال، وأقرب مثال على ذلك ما قرأناه في كتاب « أدب العروبة » [1] من شعر، لا جدّة فيه ولا اصالة، ولا حيوية، اللهمّ الاّ القليل من مثل ناجي، وعبد الله شمس الدين، ومن حسن الحظ، أن ما جاء في كتاب أدب العروبة، لا يمثل الشعر المصري الحديث، بل هو صورة ناصلة للشعر العربي في عصور آبدة، وإلاّ فليقل لنا، المنصفون أية هزّة انفعالية نجدها عند ما نقرأ لاحمد عبد المجيد الغزالي في « الربيع » قوله :

يا طيور الروض غنينا النشيدا   وانثري فوق الربى زهر الربيع

---

(١) كتاب أدب العروبة . لجامعة أدباء العروبة ١٩٤٧

واهتني بالاحن ريّان جديدا　　واسبحي في ذلك الأفق الوسيع

أو عند ما نقرأ لخالد الجرنوسي مطلع قصيدته « الربيع في عرس الطبيعة »

للكون في عرس الربيع الغالي　　متع يصوّرها الهوى في بالي

أو عند ما نقرأ لمحمود غنيم في قصيدته « لاح الهلال » قوله :

لاح الهلال لنا بومض شعاع　　يحكي بريق الثغر خلف قناع

أحسست خفق القلب حين لمحته　　يزداد بين جوانب الاضلاع

وهكذا لو تقصينا جل من سجلوا نظمهم في هذا الكتاب ، لما وجدنا فيه النبض الشعري الذي لا شعر بدونه وإن كنا قد لمحنا إثارة من هذا النبض في شعر عبد الله شمس الدين في قصيدته « في موكب الجمال » (١) التي يقول في فقرتها الأولى :

في مغاني الهوى نسيت وجودي　　وتلاشت مشاعري في شرودي

إيه يا عمر ، كيف تمضي هباءً　　أين ذاتي ، وأين رجع نشيدي

هذه الأرض ، كلها صبوات　　وظلال تكاثفت في صعيدي

وحفيف الأوهام يزعج وعيي　　نافذ الصوت في فؤادي الوئيد

وعزيزٌ عليَّ أحسب حيًّا　　وأنا الميت في حنايا لحودي

* * *

وليس ريب أن من عناصر تقدير القصيد ، النظر في انفعاله سواء كان انفعالاً شكليًّا ، أي يجري في أسلوب القصيد ، أو انفعالاً موضوعيًّا ، يكون من لبنات القصيد ، وهذا الانفعال الأخير ، هو موضوع هذه الدراسة ، فالانفعال إذا كان رفيعاً راقياً ، رفع قيمة القصيد درجات ، وإذا كان سيئاً نازلاً ، وضعها درجات ، فليس الذي يُضمَّن قصيدة انفعالات الحب الطهور ، والأمل ، والفرح ، والهدوء ، والطمأنينة والجمال ، وهي انفعالات راقية رفيعة ، مثل الذي يثير في قصيده ، انفعالات الخوف ، والفزع والشجن واليأس ، والملل وهي انفعالات نازلة ، لأن الانفعالات الراقية الأولى يعدها النقَّاد من الانفعالات الأدبية ، والثانية لا يعدونها منها (٢)

---

(١) كتاب أدب العروبة ص ١٧٨

(٢) Some principles of Literary criticism By Winchester.

ومن أمثلة الانفعالات الرفيعة ما جاء في شعر بعض أدبائنا المعاصرين ، من أمثال الشابي التونسي ، وميخائيل نعيمة المهجري والياس خليل زخاريا اللبناني وغيرهم ، فالشابي في قصيدته « الصباح الجديد » يعبر عن انفعال الرضا ، ويهتز قلبه بالفرحة ، وسط آلامه ولوعاته يقول :

اسكتي يا جراح واسكني يا شجون
مات عهد النواح وزمان الجنون
وأطلَّ الصباح من وراء القرون

ثم يقول : في فؤادي الرحيبْ معبدٌ للجمال
شيدته الحياة بالرؤى والخيال
فتلوتُ الصلاة في خشوع الظلالْ
وحرقت البخور وأضأت الشموع !

وميخائيل نعيمة في ديوانه « همس الجفون » يطالعنا بنفحة من نفحات الانفعال الهادىء في مثل قصيدته الطمأنينة التي يقول فيها :

سقف بيتي حديد ركن بيتي حجر
فاعصفي يا رياح وانتحب يا شجر
واسبحي يا غيوم وانتحب يا شجر
واقصفي يا رعود واهطلي بالمطر
سقف بيتي حديد ركن بيتي حجر

* * *

باب قلبي حصينٌ من صنوف الكدر
فاهجمي يا هموم في المسا والسحر
وازحفي يا نحوسَ بالشقا والضجر
وانزلي بالألوف يا خطوب البشر
باب قلبي حصين من صنوف الكدر(1)

(١) ديوان « همس الجفون » ص ٦٧ طبع ١٩٢٢

وزخاريا ، يعبر عن انفعال الجمال في قصيدته الضبابة [١] ومما جاء فيها قوله :

رفي مع النسم البكور وارمي جناحك في الصخور
وتناثري قطعاً مدماة على الوادي الوعير
وروًى مبعثرة على الاحراج والجبل العسير
وتغلغلي في الصخر في الآفاق في الشفق الوثير
في هودج الأضواء والمطروف من زرق البدور
يقظى كأنك من دمي حيرى كأنك من ضميري
رمداء من لهث الثرى وتنهد الليل الضرير

* * *

أما الانفعالات السيئة أو النازلة ، والتي ترمي إلى الاثارة فقط فهي مادة غير صالحة للأدب ، والشعر ، ولا عبرة بإجادة التعبير عنها ، لأن الفن مهما انفصل عن الأخلاق ، نهو لن يسمو بإثارة الخواطر العابثة ، والعواطف المنحرفة الشاذة ، وإلاً فليقل لنا حضنة الفن أية لذة فنية ، في الدعوة إلى الانفعالات الجنسية التي نجدها في مثل هذه القصيدة للشاعر السوري « نزار قباني » ، الموسومة بـ « نهداك » التي يفتتحها بقوله :

سمراء ، صُبِّي نهدك الأسمَر ، في دنيا في
نهداكِ كاسا شهوة حمراء تشعل لي دمي
مترجرجان ، تراقصاً في الصدر ، رقص مرنم

ثم يقول

فكي الغلالة . واحسري عن نهدكِ المتضرم
لا تكبتي المتع الجموحة وارتعاش الأعظم
نار الشباب بحلمتيك أكولة كجهنم

ثم يشير الى الشهوة الصارخة فيعقب بقوله :

قومي لليل أحمر الأضواء ، عار مجرم

---

(١) مجلة الجمهور ص ١٤ العدد ١٠٧ السنة الثالثة ١٩٣٩ .

قومي احللي هذي الحرائر للعنيف الحلم
ودعيه في دنيا نهودك ، يستريح ويرتمي
إغفاءة سكرى على نهديك تفني ألمي
فأغيب في تهويم عربيد وهزة ملهم (١)

أو في مثل بعض قصائد « الياس أبو شبكة » في ديوانه « أفاعي الفردوس » التي تنضح بالشهوة الحسية الصارخة ، ومن نماذج هذا الديوان قصيدته « شهوة الموت » التي يقول فيها :

ناقم على السماء حاقد على البشر
ساخط على القضاء ثائر على القدر
غير قطرة المساء لا أحب في السحر
صرت أمقت الصفاء صرت أعشق الكدر
غير مشهد الدماء لا أحب في الصور
ناقم على السماء والبشر

جمّلي لي الجسد واسكبي لي الرحيق
لا تفكري بغد قد يجي ولا نفيق
ما لنا والأبد إن سره عميق
الهوى إذا اتقد كان للبلى طريق
فلنمت يداً بيد وليغيب البريق
بين شهوة الجسد والرحيق (٢)

ومن الملحوظ أن هذه النازعة الجنسية المنحرفة تخطر كثيراً في شعر شعراء الشام المعاصرين أمثال عمر أبو ريشة ، والياس أبو شبكة ، ونزار قباني وأمثالهم ، وإلهامها من إلهام بودلير ، وفرليز ، وأمثالهما ، وقد تأثرها شعراء الشرق حيناً — في العراق ،

(١) ديوان « قالت لي السمراء » لنزار قباني ١٩٤٥
(٢) ديوان « أفاعي الفردوس » لالياس أبو شبكة « ص ٦٧ » طبع ١٩٣٨

رأينا الشاعر «محمد مهدي الجواهري» يتأثر هذا الاتجاه المنحرف في مثل قصيدته « عريانة » وقد تحوّل عنه في هذه السنين تحولاً يثير الاعجاب ولم تتأثر مصر هذا الاتجاه إلاّ نادراً ولا أذكر شاعراً مصريّاً أوغل في هذا الدّرب الأدبي المنحرف ، إلاّ الشاعر «محمد رشاد راضي» في ديوانه « مقابر الفجر » [1] ومن الأليم ، حقاً ، أن تضيع هذه الطاقات الشعرية القوية في هذه التجارب الضيقة ، ولو انتفع بها في موضوعات أخرى ، بمثل هذا التناول القوي ، لبلغ أصحابها ذروة الفن السامي وإليكم مثالاً من شعر محمد راضي من قصيدة « الشاعر والمرأة » [2] ينحو هذا النحو الماجن المنحرف ، نقطف منه قوله :

رقّصي نهديكِ هيّا ‏ ‏ لِأرَى ما يفعلانْ
صدركِ البحر ونهدا ‏ ‏ كِ عليه زورقانْ
آه ما رفَّ سوى رفٍّ ‏ ‏ ورفٍّ الخافقانْ
زلزلا الكون فلما ‏ ‏ ضَجَّ راحا يرقصانْ

* * *

آه من ثغرها الأحـمر ‏ ‏ لو يلمس ثغري
خلتُ أن النار والخمـر ‏ ‏ في ريقي تجري !
حلمٍ مثـل شليكٍ ‏ ‏ نابتٍ في دنّ خمر
لاعبٌ بين شفاهي ‏ ‏ كاد أن يدخل صدري !

ومثل هذه الانفعالات الأدبية النازلة المثيرة ، لن تصل أبداً الى مرتبة فنية معتبرة مهما سمت في براعة الأداء ، وكذلك حظ العواطف الأدبية المنحرفة ، التي تثير الحقد أو الكراهية أو الرذيلة .

ومن أمثلة ذلك في القدم ، قول مهيار الديلمي ، وهو ينادي بخيانة الأمانة واستحلال الوسيلة لبلوغ الغاية :

لا تخدعنك قولةٌ عذبت ‏ ‏ فالماء بين حجارة صمّ
وخُنِ الأمانة وانجُ مغتبطاً ‏ ‏ إن الوفاء مطية الهم

(١ و ٢) ديوان « مقابر الفجر » لمحمد رشاد راضي ١٩٣٧ — ١٩٣٨

وعلى هذا الغرار يجري العقاد في مثل قصائده « مصائب النخوة » و« هو وضميره » و « الغضب» و « عن ثقة » . وفي هذه القصيدة الأخيرة ، يذم فيها الفضيلة ويمتدح الرذيلة على لسان غيره فيقول .

ثق بالرذيلة تلقها في كل حيّ حاضره
إن الفضيلة قلما تلقاك إلا عابره

ثم يمتدح اللف والدوران ، والانتهازية الممقوتة على لسان غيره فيقول :

من لم يدر في دهره دارت عليه الدائره

ويمدنا الشاعر العراقي « أحمد الصافي النجفي » ببعض أمثلة ناطقة في هذه الناحية ، في ديوانه « الأغوار » [1] وقد تفادى في هذا الديوان التجارب الذاتية التي امتلأ بها ديوانه « التيار » — وأتى بتجارب عامة Universal فانتقل بهذا الاتجاه نقلة جديدة ، وذهب الى أفق أوسع ، ولكنه مع الأسف ، انساق مع نفسه المضطربة المضطرمة في الاعراب عن بعض عواطفه الجارفة ، وهذا ما نأخذه عليه ولو خلت قصائده من هذا الشذوذ ، لكان لها شأن خطير .

ومن شواهد هذا الانحراف العاطفي الذي يخفض من قيمة قصائده ، نذكر قصيدته « المسالمة » وفيها يجهر بحبه المخاصمة وغرامه بالانتقام ، ونفوره من المسالمة ، وكان حقاً أن تعنون « بالمقاتلة » لا بالمسالمة التي يقول فيها : [2]

سالمتني الأعداء فاستأت لما سالموني ، لرغبتي في الخصام
إن لي ثورة فقل لي فيمن ان أسالم عداي ، أطفي ضرامي
إنّ لي نقمة على الكون تحتاج لخصم أصب فيه إنتقامي !
لي شوق إلى الحروب فإن يهدأ حسامي أثرت حرب كلامي
وإذا لم أجد أمامي خصماً خلت نفسي خصماً عنيداً أمامي
وإذا ما قتلت نفسي يوماً أعلنت لي حربٌ على الأيام !
فتراني مدى الحياة بحرب فحياتي حرب ، وصلحي حمامي !

(١) « الاغوار » دار المكشوف ببيروت للشاعر احمد الصافي النجفي الطبعة الاولى ١٩٤٤
(٢) المصدر السابق ص ٣٤ ، ٣٥

وعلى مثل هذا الشذوذ العاطفي، جرى بعض الشعراء المصريين مثل الشاعر المطبوع محمود أبو الوفا في قصيدته « رثاء نفسي »[1] التي يثور فيها على والديه ثورة دفعه إليها ضيق نفسه وألمه من الحياة، وعبد اللطيف النشار في مثل قصيدته « الدموع الرخيصة »[2] التي تسري مسرى العظات المائعة الفاسدة، فاسمع إليه يقول:

أخيّ إذا سمعت عويل باك فلا تحزن عليه وامتهنه
لتنفعه إذا ما كنت براً به، فاعنف عليه ولا تُعِنه
أخيّ إذا سمعت أنين شاك فلا تعطف عليه وانأ عنه
فإنك إن صنعت به جميلاً تلاقي الشر كل الشر منه
أخيّ إذا رأيت فتى بشوشاً تبينت الأسى فيه فصنه
أحق الناس بالأعوان من لم تدنه الدموع ولم تشنه

فمثل هذه الخواطر الشاذة لا ينبل بها شعر ولن يرقى بها درجة الى الكمال.

ومع هذا، فالانفعالات السيئة، قد تصل بالأثر الأدبي منزلة رفيعة، إذا كانت ترمي آخر الأمر الى بث انفعال كريم، أو عاطفة نبيلة، وقد فصّل هذا الرأي الناقد الانجليزي ونشستر في كتابه « بعض مبادىء النقد الأدبي »[3] فالشاعر الذي يصوّر الألم وهو انفعال نازل، قاصداً الى إثارة انفعال العطف والاشفاق مثلاً، إنما يسجل انفعالاً له قدره وقيمته، والشاعر الذي يصوّر انفعال الحزن، لينشر روح الطمأنينة والسكينة، إنما يصدر عن انفعال أدبي صحيح

ومن شواهد ذلك ما قرأناه للدكتور أبو شادي في قصيدته « صحبة الآلام » التي يغمر حزنه وبؤسه بشعاع من الاشراق الروحي إذ يقول:

وأضحك في بؤسي فأحسب هانئاً وهيهات أن يفشى لمرتقب سرّي
وما زلت أجزي بالتعاسة بينما أضحي بلا حدّ من الجهد والفكر

إلى أن يقول:

وصرت اذا عانيت بؤساً وشقوة تأملت خلف الشوك ما غاب من زهر

(١) ديوان أبو الوفا — أنفاس محترقة ص٢٣ — مطبعة الهلال ١٩٣٣

(٢) ديوان « نار موسى » وقصائد أخرى يونيو ١٩٣٣

(٣) Some Principles of Literary Criticism By Winchester

وربما كانت قصيدة «أمس مشرق» خير مثال لتبيان هذه الفكرة ، وعنوانها « دموع الأمل » التي يصوّر فيها ألمه لموت حبيبته ، ويتعزّى بلقياها ، حيث يراوده أمل الخلود وقد جاء فيها :

صغيرين كنا كفرخي حمام   نعيش بظل الصبا الناضر
فنلعب آناً وآناً ننام   وزندي على صدرها الطاهر
يلاعب شعراتها إصبعي   وقلبي من سكره لا يعي

* * *

ويا ليلة بئس من ليلة   يقطع قلبي تذكارُها
أهدت عليها يدُ العلة   وغابت من العين أنوارها
حنوت على جسمها الموجعِ   وناديت ربي فلم يسمعِ

* * *

وماتت وقد همست مثلما   يُسر النسيم بأذن الأراك
وقالت وقد نظرت للسما   هناك بعيد التنائي أراك
فلا تبكِ يأساً ولا تجزعِ   فما مات حبي ولم يهجعِ

ومنها قوله :

يرى الناس صمتي ولا يعرفون   فيحتقرون فؤادي الودود
فأمشي وأتركهم يهزأون   لأني غريبٌ بهذا الوجود
أخيء نفسي ولا أدَّعي   فليس بهذي الدُّنى مطمعي

* * *

أطارد همي بلحن الوتر   ألوذ بأنّاته الواهيه
وأنظم شعري كنظم الدُّرر   فلا اللحن يجدي ولا القافيه
ولا كل هذا الورى مشبعي   وأنتِ ذهبتِ فلا ترجعي

* * *

وحقكِ لولا الرجا بالخلود   لذبتُ على يأسي المحرقِ
ولكنَّ لي أملا أن يعود   صفاء الحياة وأن نلتقي
سأحمل حزني الى مضجعي   وأجرع من كوبه المترعِ

ففي هذا التصعيد يتبدّى انفعال الحزن لا مثيراً الى الحزن ، كما يفعل كثير من شعراء الشرق ، ولكنه يثير الاشفاق ، ويهب السلوان ، وتظلله هالة الأمل البعيد --

وليس انفعال الحزن بغيضاً في الأدب إلاّ إذا أثار الى الحزن ، إما اذا أطاف في النهاية انفعالات محببة للنفس فإنه يتحول الى انفعالات أدبية راقية

ولعلّ أول من كشف عن هذه الفكرة الفيلسوف اليوناني « أرسطو » في بحثه القيّم عن الشعر والفن الجميل (١) إذ يرى أنّ المأساة ، تثير انفعال الاشفاق والخوف وهما يجلبان مدداً من المسرة (٢) وإذا كانت المأساة محزنة ، إلاّ أنها تعمل على تطهير الانفعات المحزنة ، وطرد كدَرِها، وتُنسي المرء متاعبه وآلامه لانه يرى فيها آلاماً أكبر من آلامه ، فيشعر بجذل نفسي Sympathetic ecstasy ولا يتحقق هذا إلاّ في المأساة ذات الموضوع العام . لأن المأساة الذاتية ، لا يكون لها أي أثر في تطهير الانفعالات ، ولا تعد عملاً جليلاً (٣)

ومن الغريب ، أن هذه الفكرة مثل كثير من فكرات أرسطو في الشعر ، مازالت هي الفكرة المهيمنة على كثير من نقاد الأدب الحدثين من أمثال رسكين ، وونشستر ، وريتشاردس، وغيرهم .

وتقتضينا الأمانة النقدية أن نسجل هنا أن هناك بعض النقاد الفنيين ، يخالفون عن هذه النظرة التي أفضنا الحديث فيها ، ويرون أن التجربة الجمالية Æsthetic experience لا تتقيد بانفعال سارّ أو غير سار ، ولا يجوز أن يحصر نشاطها في باحات الإنفعال النبيل لأن الشعر لا يتقيد بالمثل الخلقية ولا الدينية ولا الاجتماعية ، بل له ميدانه المستقل، والفنان أو الشاعر يجد الجمال في الطيب وفي الخبيث ، وله أن ينطلق حيثما شاء ، ويطرق أي موضوع هوى ، أو تجربة تدعو الى التأمل Contemplative Experience (٤) وليس على

(١) يراجع كتاب Butcher– Aristotle—Theory of Poetry & fine art.

(٢) ص ٢٤٥ من كتاب Butcher آنف الذكر

(٣) ص ٢٧٠ من المرجع السابق

(٤) يراجع في هذه الناحية كتاب O. Rostrevor Hamilton—Poetry & Contemplation

وكتاب Michael Roberts—Critique of Poetry.

الفنان أن يعمل على جلب المسرة أو الرضا أو الاتزان المزاجي . وعلى الذين يبحثون عن مثل هذه الانفعالات أن يذهبوا الى المثل الخلقية أو الدينية (١) فان هذه المُثل لا قيمة شعرية لها ، ولكن القيمة في التجربة الجمالية ذاتها ، أو كما يقول موررون في كتابه « علم الجمال والسيكولوجية »(٢)

إن الجمال يرقد في التجربة سواء أكانت آتية من الداخل أم من الخارج . وإن الشعر كما يقول Hamilton ، يُقدر بالتجربة الخيالية ولا يقدر بالطيبة الخلقية Moral Goodness وعلى هذا الرأي جرى لامبورن في كتابه « أصول النقد » (٣) وتبعاً لهذه النظرات وجدنا ميشيل روبرتس ينقد Eliot في قصيدته الأرض الخربة Waste land لأنها تُعني عناية مباشرة بالسلوك .

ومع أن هذه النظرات الأخيرة ، لها اعتبارها في المذهب الفني الخالص ، إلاّ أننا نرى كما يري كثير من النقاد المحدثين ، أنها ترمي إلى عزلة الشاعر أو الفنّان ، وإلى بينونة الفن الشعري عن الحياة ، وهذا يؤدي أكيداً إلى وجود برزخ بين الفن والفنون الأخرى ، ويجعل الفنان أو الشاعر خارجاً عن المجتمع ، أو طفلاً كبيراً غير مسؤول . وسنفرد لهذه الناحية بحثاً آخر .

(1) Hamilton. Page—152 (2) Aesthetics & Psychology By M. Mauron.

(3) The Rudiments of Criticism By E. A. Greening Lamborn 1931

البحث الرابع

« الفكر في الشعر »

ولا يجوز للناقد العصري ، أن ينسى في تقدير الشعر ، الفكرة أو المعنى ، لأن الشعر لن يحيا بالنغمات ولا الكلمات الجوفاء ، كما يقول « جيبو » في كتابه « مشكلات علم الجمال »(1) ولكن لابدَّ من تمازج الفكرة بالعاطفة . والشعر الذي تعوزه الفكرة ، أو الذي يضم فكرة عادية ، شعر مزعج ، صادم للنفس ، والشعر الموسيقي ذات الانفعال ، والخالي من الفكرة ، لا يغني للقلب شيئاً ، وأن غنيَّ للأذن ، ومثله كما يقول « جيبو » مثل البلبل في القفص ، يكون خافت الصوت ، كسير الجناح ، لانعمر تجاهه إلاَّ بالشجى والاشفاق ، فاذا فُكَّ جناحه ، وهوَّم في الهواء الطلق استوحى عاطفته (2)

ويَعيبُ كثيرون على الشعر الشرقي ، خلوّه من وضوح الفكر ، وقوته ، وتنوعه وتجدده فنجد الشاعر الغزلي مثلاً يترنم بكلمات الحب ، ويردِّدها ، في القصيد مرّات ، دون تنوُّع في المعاني ولا الخواطر ، مكتفياً بالجرس الصوتي الجميل ، وقد سَلِم شعر بعض الشعراء الشرقيين ، من الفكرة العادية المكرورة المملة ، ونذكر من بينهم رائداً من روّاد الشعر الشرقي ، هو الأستاذ خليل مطران ، إذ نجده في بعض شعره الوجداني يأتي بصور فكرية مركبة قوية ، فاستمع إليه مثلاً في قصيدته « المساء » يناجي الحبيبة بخواطر منوّعة متراكبة وصور مشعّة قوية ممزوجة بألوان الطبيعة يقول :

داءٌ ألمَّ حسبت فيه شفائي من صبوتي فتضاعفت برحائي

(1) Les problèmes de L'Esthetique par I. M. Guyau 1925. p. 246.
(2) Guyau—Les problèmes de L'Esthetique p. 250

يا للضعيفين استبدّا بي وما   في الظلم مثل تحكّم الضعفاء
قلبٌ أذابته الصبابة والجوى   وغلالة رقت من الأدواء
والروح بينهما نسيم تنهد   في حالي التصويب والصعداء
والعقل كالمصباح يغشى نوره   كدري ويضعفه نضوب دمائي

* * *

ولقد ذكرتك والنهار مودّع   والقلب بين مهابةٍ ورجاء
وخواطري تبدو تجاه نواظري   كلمى كدامية السحاب إزائي
والدمع من جفني يسيل مشعشعاً   بسنى الشعاع الغارب المترائي
والشمس في شفق يسيل نضارة   فوق العقيق على ذرى سوداء
مرّت خلال غمامتين تحدّرا   وتقطرت كالدمعة الحمراء
فكأن آخر دمعة للكون قد   مزجت بآخر أدمعي لرثائي
وكأنني آنست يومي زائلاً   فرأيت في المرآة كيف مسائي

* * *

ولم يخلُ الشعر المعاصر من دفقات ذهنية حتى في الموضوعات الوجدانية ، وقد عثرنا في ديوان الشرتوني (١) على قصيدة يودّع بها والده مليئة بالخواطر والمعاني الطريفة ، وتكاد تكون فلتة من فلتاته ، وتعلو مستوى شعره علوّاً ظاهراً . وهي من قصيدته « الوداع » التي نقتطف منها قوله :

لم أدرِ مصرعَ والدي أم مصرعي   هو لا يعي ، وأنا كذلك لا أعي
لو أنصفوا سفحوا عليّ دموعهم   ونعيت ، لو عدل النعاة ، كما نعي
أوليس موتي والشعور ملازمٌ   بأمرّ من موتِ الحبيب وأفجع
أنا مت فيه ولم أزل متوجعاً   هو مات لكن ليس بالمتوجع (٢)

وعلى هذا الطراز ، قصيدة اسماعيل صبري في رثاء ابن الشيخ « علي يوسف » وهي فياضة بالمعاني الشعرية ، مع بعض الاهتزازات الانفعالية ، وفيها يقول :

---

(١) ديوان الشرتوني

(٢) ديوان الشرتوني ص ٣١

يا مالىء العين نوراً والفؤاد هوًى   والبيت أنساً ، تمهل أيها القمرُ
لا تخل أفقك يخلفك الظلام به   والزم مكانك لا تحلل به الكدرُ
في الحيّ قلبان باتا يا نعيمهما   وفيهما إذ قضيت النار تستعرُ
وأعين أربع تبكي عليك أسىً   ومن بكاء الثكالى السيل والمطرُ
قد كنت ريحانةً في البيت واحدة   يروح فيها ويغدو نفحها العَطِرُ
ما كان عيشك في الأحياء مختصراً   إلاَّ كما شاء في أكمامه الزهر
فارحل تشيعك الأرواح جازعةً   في ذمة الله ، بعد القبر يا عمرُ !

ونجدُ في الشعر الغزلي الحديث ، ظلال الفكر ، تنسابُ مع الانفعال . ونمثل لذلك بمقطوعة الاستاذ « مفيد الشوباشي » — « هوى الشباب » التي يقول فيها :

أهواك رغم سنيني   ورغم طبعي الرزين
أهواك بعد تولي   عهد الهوى والفتون
صبوت بعد وقار   وثرت بعد سكون
وطاش فيك صوابي   وجنّ فيك جنوني
يهوى شبابك شيبي   تعلةَ للغبين
يهوى ابتهاجك شجوي   يا فرحة المحزون
هويت ما بددته   تجاربي وسنوني
هويت فيك شبابي   وعهد خفضٍ ولين
أشعة في دمائي   صوَّرته في عيوني

ومن المعاني الشعرية البديعة في التغزل ، ما قرأناه لأبي شادي ، ونسجل هنا بعض ما جاء في قصيدته « الفنان » ، وهي من أروع الشعر

وقد أدري ولا أدري   سناها في ذراعيَّ
سناها نعمة الدنيا   هواها يبدع الحيَّا
أشمّ عبيرها الفتَّان   في سكر يحيرني
وأشرب هذه الالوان   من نور يداعبني

أظلي يا حياة الروح في عينيّ تحييني
شرابي منك أضواء وقوتي أن تناجيني !

وهذه المقطوعة ، في اعتقادي من المقطوعات الشعرية الرائعة التي يفخر بها الغزل الشرقي ويقدّرها الأدب العالمي.

ونحن إذا كنا وقفنا وقفة غير قصيرة في تسجيل بعض القصائد الوجدانية والغزلية ، المفعّمة بالمعاني المنوّعة الجميلة ، فذلك لتأكيد أن القصيد الذي لا فكر فيه ولا معنى ، يفتقر إلى المادة ، بل يرتد الى العدم [١]

وإن وظيفة الشعر لا تقتصر على جذب السمع وإنعاش القلب باللذة ، إنما وظيفته كما يقول « روبرت ليند » [٢] أن يجعل الحياة مليئة ، وحقيقية ، وأن يهب الانسان بعض حقائق العالم والوجود .

وليس معنى هذا أن يطغى الفكر على عناصر القصيد الأخرى ، بل أن تهفو أضواء الحقيقة في ظلاله دون تفصيل في الوقائع ، أو استطراد في المنطق ، ولقد عيب على بعض الشعراء الكبار اقحام المبادىء الفكرية في شعرهم والبلوغ بقصائدهم درجة فكرية بعيدة ، ووجه الناقد الانجليزي الكبير هذا النقد الى بعض أشعار كولريدج ، وفلسفته للشعر فلسفة عالية .

وتغالى الشاعر الناقد « هوسمان » في هذه الناحية مغالاة ، لا نوافق عليها كلية ، في محاضرة ألقاها بجامعة كمبردج عنوانها « اسم الشعر وطبيعته » [٣]

فذكر أن الشعر لا ينبع من الفكر ، والقريحة ، وهو في الحقيقة مادة أكثر منه فكراً وأنه عملية غير اختيارية ، وانه افراز طبيعي مثل زيت التربنتينا في شجرة التربين أو افراز عليل مثل اللؤلؤة في الصدفة ! وأن الشعر الحقيقي هو الذي يأتي فجأة ، واللجوء الى الفكر في صوغه ، قد يفسده [٤]

(١) دفاع عن البلاغة للدكتور محمد مندور ص ١٢٩

(٢) Robert Lynd : Modern Poetry

(٣) The Name & Nature of Poetry — Housman.

(٤) ص ٤٧ من المحاضرة آنفة الذكر

وعَدَّ الشاعر الانجليزي بليك Blake من أعظم الشعراء، بل أعظم شاعر، وزعم أن شعره الغنائي أكثر شعرية من شعر شكسبير لأنه كما يقول، لم يحصر شعره في قيود المعاني. ولم يقع فريسة للقريحة. ومعانيه في الغالب لا وجود لها ولا أهمية، ولكنه كان يسمعنا نغماً سماوياً»!

ولو جرّدنا آراء هذا الناقد من المغالاة، لمزاجه العاطفي الموغل في العاطفية، لأمكننا القول استناداً الى آراء أئمة النقاد، أن أضواء الفكر لا بد أن تشع في ظلال القصيد، على أن لا تطغى الأنوار على الظلال فتبيدها، وبمعنى آخر، أن لا تطغى الفكرة على العاطفة، والا كان القصيد نظم عقل لا شعر قلب، مثل كثير جداً من نظم العقاد [1] والزهاوي والنجفي، وقليل من نظم أبي شادي وعبد الرحمن شكري. وغيرهم ولقد أوضح هذه النقطة الأستاذ «لامبورن» في كتابه «أصول النقد»[2] حيث قال «نريد من الشعر أن يجعلنا نشعر لا أن نفكر».

ولقد صدق الأديب «مارون عبود» في كتابه «المحك» وهو يصف شعر الأول ممن ذكرنا من الشعراء فيقول «ان العقاد ينظم بعقله، وليس لقلبه عمل»[3].

وقد سبق أن تناولنا تناولاً رفيقاً شعر العقاد في كتابنا أدب الطبيعة[4] وأتينا بمثال على نثرية نظمه، في مقطوعة عن النور بديوان وحي الأربعين» التي جاء فيها:

النُّورُ سِرُّ الحياة النُّورُ سِرُّ النجاه
النُّورُ وحي النهى النُّورُ وحي الصلاه
النُّورُ شوق الفتى النُّور شوق الفتاه

وهي خاطرات فكر لاعلو فيها، ولا عمق، ولم يستطع العقاد التخلص من هذا المنحى التفكيري، ولم يقدر على مخاطبة القلوب إلاّ في النّادر، وآية ذلك واضح في كثير من

(١) المحك — مارون عبود صدر في عام ١٩٤٧
Ruchiments of Literary Criticism (٢)
(٣) المحك: «مارون عبود» ص ١٢٥ وما بعدها
(٤) كتاب «أدب الطبيعة» للمؤلف ص ١٠٥، ١٠٦

قصائد ديوانه الأخير « أعاصير مغرب » ونذكر مثلاً مقطوعة « بعض الزراية » ، التي يعبر فيها عن فكرة منحرفة ، هي إلقاء بعض الزراية على المرأة ! والتي يقول فيها :

بعض الزراية نافع في حبهن فلا تغال
لولا الزراية لم تطق منهن مشنوء الخصال
ما حبهن من المهانة في قرارته بخال

* * *

وليس في هذه المقطوعة شعر ، وليس فيها لو اعتبرناها نثراً ، أي جمال ، ولا في فكرتها سلامة ولا اتزان .

وعجب أي عجب أن نجد اديباً ذكياً مثل « سيد قطب » يعذب فكره ، ويحمل ضميره إصراً ، بغية الاشادة بمثل هذا الشعر ، ولا يجد من شعراء العربية من يستاهل شعره التقدير إلا شعر العقاد ، وفي كتابه « كتب وشخصيات » بعض نماذج دالة على نقده الجامل المنحرف وآرائه الملتوية ، فبينا نراه ينقد الشعر العربي عامة [1] لأن أغلبه شعر أفكار ، لا أحاسيس ، وبينا نراه يهتف بشعر « هو سمان الماطلي » إذ بنا نراه عند تطبيق آرائه على شعر العقاد ، يتناسى هذه الآراء وإذا حكمنا على العقاد برأيه ، وجدنا شعره لا يستاهل هذا التقدير المسرف . وكم كان تأميلنا قوياً ، في أن يتنزه هذا الناقد عن مثل هذه الاحكام ، وبخاصة في بيئتنا الأدبية المفتقرة الى النقد السليم الموجه .

---

(١) « كتب وشخصيات » لسيد قطب ص ٥١ وما بعدها

الشعر المعاصر
على ضوء النقد الحديث

بقلم
مصطفى عبد اللطيف السحرتي

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم
١٩٤٨

البحث الخامس

الموسيقى الشعرية

ونعود ثانية الى عنصر مهم من عناصر الشعر ، وهو الموسيقى . والموسيقى تضفي جمالاً على الشعر كما ذكرنا ، ولكنها ليست كما اعتقد الكلاسيون كل شيء ، وليست نظرة المنفلوطي مثلاً بالنظرة السليمة عندما قال إن الشعر الباقي هو الشعر الرنّان الذي إن لم تغنه، اغنى وحده

إنما الموسيقى ، جندي من جنود التعبير الشعري ، والموسيقى ليست الوزن السليم ، إنما الموسيقى الحقة هي موسيقى العواطف والخواطر ، تلك تتوائم مع موضوع الشعر ، وتتكيف معه ، يقول الناقد الانجليزي «جريننج لامبورن» في كتابه أصول النقد[1] «ان الموسيقى خارجية وداخلية ، والعروض يحكم الأولى ، أما الموسيقى الداخلية ، فتحكمها قيم صوتية باطنية ، وهي أرحب من الوزن والنظم المجردين » وكثير من شعرنا الكلامي الحاضر ، يترصع بموسيقى الرنين ، مثل غالبية موسيقى حافظ والهراوي وعبد الله عفيفي والجارم والأسمر وغنيم وغيرهم من شعراء الشرق ، ولم يستطع بعض شعراء الشباب التخلص من هذه الموسيقى ، كما تجد ذلك في موسيقى « أغنية الجندول » مثلاً لعلي محمود طه ، أو موسيقى احمد فتحي ، أو موسيقى محمود حسن اسماعيل ، أو موسيقى بعض شعراء المهجر ، مع أنهم كانوا سباقين الى بث الموسيقى في أعماق الشعر . ومن أمثلة الشعر الرنان قول شاعر المهجر المرحوم مسعود سماحة في قصيدته عن « الله » [2]

الملك ملكك والبهاء بهاكا   والأرض أرضك والسماء سماكا

فهذه موسيقى لا تتحدث الى النفس ، إنما تتحدث الى الأذن برنانها وترادفها

(1) Greening Lamborn—Rudiments of criticism.

(٢) ديوان مسعود سماحة ص ٧٦

وتقاطيعها الصوتية ، أو بمعنى آخر أنها موسيقى تتصاعد من السطح ، ولا مقابلة ألبتة ، بين هذه الموسيقى وموسيقى المرحوم نسيب عريضة في مثل ترنيمة السرير التي يقول فيها :

ظلام الويل قد جنّا وبوق الهم قد رنّا
فنم يا طفل لا يهنا غنيٌّ بات عمانا
قتام اليأس غطانا فنم لا عين ترعانا
إذا ما صبحنا حانا حسبنا الصبح أكفانا
ألا يا همّ يكفينا لقد جفّت مآقينا
لو انّ الدمع يغذونا أكلنا بعضنا بعضا

أو في مثل قصيدة « أفاق القلب » لميخائيل نعيمة التي جاء فيها :

دموع العين قد جمدت وريح الفكر قد همدت
فلِمْ يا قلب ، لِمْ يا قلبُ فيك النار في لهب
وكنت أظنها خمدت

ربيع العمر قد ذهبا وريق الحب مذ نضبا
أفقت وكنت يا قلبي بلا سمع ولا بصر
كصخر في الحشا رسبا

فكم من مرّة هجما عليك الحب فانهزما
وكم كم قد جثا قلب أمامك حاملاً أملا
فراح مزوداً ألما

وكم عين لديك بكت وكم روح إليك شكت
فسالت مهجة الشاكي وجفت دمعة الباكي
ورمماً فيك ما تركت

إلى أن دار في خلدي بأنك لست من جسدي
وأنك طينــة لمّا براني الله لم ينفخ
بها من روحه الأبدي

وليست هذه الموسيقى الهادئة الهازة ، العذبة ، هي طلبة الشعر دائماً ، لأن الموسيقى لابدَّ أن تساير موضوع الشعر وتزيده غنىً ووفرة (١)

وهناك موضوعات تأبى هذه الموسيقى المسكرة المنوِّمة، فموضوعات الغزل تتطلب نوعاً من الموسيقى ، يختلف عن موسيقى الوطنيـة ، أو موسيقى الجهاد مثلاً . وقد امتاز بهذه الموسيقى بعض شعراء مصر والعراق وسوريا ، ولـكنها تتفاوت بتفاوت رهافة أعصابهم .

وتتفاوت الأصوات في قوتها ونغمتها وصفاتها أو ألوانها وانخفاضاتها وارتفاعاتهـا وكيتها ، فمن الموسيقى ما تمتاز بقوتها وجمال تقطيعاتها الصوتية وإن كانت موسيقى ظاهرية كموسيقى شوقي في مثل قصيدته التي يرثي بها فوزي الغزي التي استهلها بقوله :

جرحٌ على جرحٍ حنانك جلّقُ　　حُمِّلتِ ما يوهي الجبال ويزهق

أو قصيدته « نكبة دمشق » التي يقول فيها :

سلامٌ من صبا بردَى أرقُّ　　ودمعٌ لا يكفكف يا دمشقُ

ومعذرة اليراعة والقوافي　　خلال الرّزء عن وصف يدقُّ

وذكرى عن خواطرها لقلبي　　اليكِ تلفتٌ أبداً وخفق

ولي ممـا رمتك به الليـالي　　جراحاتٌ لها في القلب عمقُ !

فالتقطيع الصوتي في هاتين القصيدتين وفي غيرها بارز في الألفاظ وفي القوافي أيضاً في البيت الأول .

جرح على جرح حنانك جلّـقُ　　حملت ما يوهي الجبال ويزهق

في رويِّ القاف في الشطر الأول والثاني — ومثل هذه التقاطيع الصوتية تجدها في شعر صالح جودت في مثل قصيدته « ميعاد ليلة الأحد » ولكنه استبدل القوة الصوتية بالحلاوة أو الرخامة ، نظراً لغزلية القصيدة فإن موسيقاها تأسر الأذن أسراً ولا تغوص الى الأعماق.
وما جاء فيها قوله :

والضحى والغدائر الذهب　　والعيون الشهباء كالسحب

وبخديك كأسَيِ العنب　　وبنهديك حُلـوي اللعب

(1) Poetry for you — By C. Day Lewis P. 104

قسمٌ صنته عن الـكذب

ذكريات اللقـاء لم تنم   يقظات في مهجتي ودمي
غَردات في نظرتي وفمي   فبحقي وحق ذا القسم
هل تعيدين ليلة الهرم

ليـلة كابتسامـة القدر   كنت فيها أحلى من القمر
جمعتنا بجـانب حذر   من أبي الهول ساخر النظر
ليت لي مثل قلبه الحجري !

قد رآنا بطرف مقلتـه   ننقش العهد فوق رملته
يا لجهل الصبـا وضلتـه   وغرور الهوى وغفلتـه
ذهب العهد منذ ليلتـه

أين ميعاد ليـلة الأحد   أين ميثاقنا إلى الأبد ؟

ومن الموسيقى ما تمتاز بالسرعة والسلاسة دون الحلاوة الايقاعية كما نجد ذلك في قصيدة الزهاوي « إلاَّ أنا وحدي » التي يقول فيها :

وردٌ وبستـانُ   وردٌ وريحـانُ
بلابل تشـجو   منهنَّ ألحـان
تمشي زرافات   حورٌ وولدان
الـكل مرتاحٌ   الـكل جذلان
الناس في رغد
إلاَّ أنا وحدي

تزداد آلامي   عاماً على عام
أهكذا أشقى   في كل أيامي
فأين آمـالي   وأين أحـلامي
إذا دنا حتفي   تزول أسقامي
فليس لي شيء
سوى الردى يجدي

للقوم أحقـاد علي تزداد
كم كال لي سبـا في الصحف أضداد
كأن قومي عن نهج الهدى حادوا
إني وإن جارت علي بغـداد
أهدي لهـا حبي
هذا الذي عندي !

ومن طراز هذه الموسيقى السلسة السريعة. ما قرأناه في ديوان الشاعر الحجازي ابراهيم الفلالي [1] ونقطف بدون اختيار هذه الرباعية :

تخذت الـكأس نبراسي فبدد ظلمتي كاسي
إذا ما الدهر ناوأني بقذف الصارد[2] القاسي
رشفت القطرة البيضا ء في سر من الناس
فنعم الليـل يخفيني ونعم الكأس من آس !

* * *

وهناك نوع آخر من الموسيـقى ، يمتاز بأصوات ارتكازية ، فتجمع بين النغمات العالية والمنخفضة ، وهذه الموسيقى الايقاعيـة قد تناولناها بإيجـاز ، وهي قليلة في الشعر الشرقي الحديث ، ونادرة في الشعر العربي القـديم ، بل تكاد تكون معـدومة فيه ، لأن الطابع البادي على الموسيقى الشعرية عند العرب ، هو الدور الخفيف La mode Mineur [3]

وموسيقى العرب الأولين لم تعرف الأصوات البالغة في علوها ، ولا الهبطات الخاطفة ، وقد سايرهم كثير من شعراء العصر في هذه الأنماط الموسيقية الرتيبة .

ولكننا مع هذا نجد قليلاً من شعراء الشرق المحدثين ، من لون موسيقاه الشعرية بهذه الالوان ، وقد أتينا على بعض الأمثلة من شعر ناجي لهذا النوع من الموسيـقى ، مثل قصيدته

(١) ديوان « صبابة الـكأس » لابراهيم هاشم الفلالي ١٩٤٥ — مطبعة النيل
(٢) الصارد : السهم النافذ
(٣) سيكولوجية الموسيقى للدكتور أمير بقطر

« رسائل محترقة »(١) وهي قصيدة كما قلنا مرهفة الأعصاب ، روى فيها الشاعر قصة حب محطَّم استهلـها بقوله :

ذوت الصبابة وانطوت　　وفرغت من آلامهـا

وعلى طراز موسيقى هذا القصيد جرى علي محمود طه في قليل من قصائده ، ونذكر من بينها قصيدته « تاييس الجديدة » بديوانه ليالي « الملاَّح التائه »(٢) وفيها يقول :

روحي المقيم لديك أم شبحي　　لعبت برأسي نشوة الفرح
يا حانة الأرواح ما صنعت　　بالروح فيك صبابة القدح

ثم يقول : أأنا الغريب هنا وملء يدي　　أعطاف هذا الأغيد المَـرِح
خفقت على وجهي غدائرها　　لجذبتهـا بذراع مجترح
لم أدر وهي تدير لي قدحي　　من أين مغتبقي ومصطبحي
وشدا المغني فاحتشدت لها　　كم للغناء لديَّ من منح
عرضت بفاكهـة محرَّمة　　وعرضت لم أنطق ولم أُبح
يا رب صنعك كله منَنٌ　　أين الفرار وأين مطرحي !

وقد بدت بوادر هـذه الموسيقى الارتكازية في شعر بعض شعراء الشباب . وقد وقفنا على نماذج منها . ونكتفي بتسجيل بعض ما جاء في قصيدة « أقداح وأحلام »(٣) للشاعر العراقي ، « بدر شاكر السيّـاب » حيث قال :

أنا لا أزال وفي يدي قدحي　　يا ليل ، أين تفرق الشرب ؟
ما زلت أشربها وأشربها　　حتى ترنح أفقك الرحب
الشرق عفـر بالضباب فـما　　يبدو ، فأين سناك يا غرب ؟
ما للنجوم غرقنَ ، من سأمٍ　　في ضوئهنَّ وكادت الشهب

* * *

الحان بالشهوات مصطخبٌ　　حتى يكاد بهنَّ ينهـار

---

(١) تراجع ص ٢٩ في هذا الكتاب　(٢) ديوان ليالي الملاح التائه ص ٨٨ — ٩١
(٣) من ديوان « أزهار ذابلة » ص ٥٣ و ٥٤ — صدر عام ١٩٤٧

وكأن مصباحيه من ضرج كفان مدهما لي العار
كفان ! بل ثغران قد صبغا بدم تدفق منه تيار
كأسان ماؤهما طلى عصرت من مهجتين رماهما الحب
أو مخلبان عليهما مزق حمراء تزعم أنها قلب .

* * *

أنا حائر ، متوجف ، قلق كالظل بين جوانب البحر
المد قربني الى شبحي والآن تبعدني يد الجزر

ونسجل أيضاً فقرة من قصيدة « أين الصديق » للشاعر الحجازي الشاب « طاهر زمخشري » في ديوانه « أحلام الربيع » (١) وهي تماثل قصائد ناجي في أصواتها الارتكازية ونبراتها العاطفية ، اسمع اليه يقول :

جذوة اليأس التي أشعلتها يا زماني ، قعدت بي في الطريق
لاهث الأنفاس مكدود الخطى متعب يطفو بجنبي حريق
جاحظ العينين أشكو غربتي وأسى الوحدة في الوادي السحيق
فر من جنبي قلب خافق بعد أن أسلمه اليأس الخفوق
كم تخطى الشوك حتى اغتاله حلك لا صبح فيه أو شروق
يرصل الآهات من أعماقه رجعها الخافت لا يعدو الشهيق
ينفث الشكوى أنيناً صامتاً يتنزى في ذهول لا يفيق
بعد أن كان سنا من قبس ينشر النور مناراً في الطريق

* * *

والموسيقى الشعرية الحقة هي التي تساير موضوع القصيد كما قلنا ، أو تتواءم مع التجربة الشعرية ، يقول سبنسر « ان خير الموسيقى ما تتمشى مع الأفكار وتتساوق مع المعاني » وتتجاوب ألوان نغماتها ونبراتها مع حالات النفس ، فالشاعر في اهتياجه وغضبه وغيظه

(١) ديوان أحلام الربيع للشاعر « طاهر زمخشري » ص ٤٦ — طبع بمطبعة إحياء الكتب العربية عام ١٩٤٦ .

يكون تعبيره الموسيقي عالي النغمة وفي حزنه يكون منخفضها ، وفي تعجبه وفرحه وهدوئه واطمئنانه تكون المسافات الصوتية قصيرة ، وأما في بثه وألمه فتكون مسافات الصوت طويلة، وهكذا تساير النغمات حالات النفس ، كما تساير موضوع القصيد وفكرته .

ومن أمثلة الموسيقى المتوائمة مع موضوعها نذكر قصيدة «تعالَ ورائي !» للأستاذ حسن كامل الصيرفي من ديوانه الأول « قطرات الندى » التي جاء فيها :

أشير إليك بطرف ردائي
تعالَ ورائي تعال ورائي

* * *

هنالك بين الجزيرة نقضي
سُويعات أنس بأجمل روضِ
حديقة «مورو» إليها سأمضي
فهيا اصطحبني لتقطف مني ،
أزاهير حسني
وطلع روائي !
أشير اليك بطرف ردائي
تعال ورائي ! تعالَ ورائي !

وتمثلُ هذه الموسيقى المنخفضة الانغام ، في مثل قول المرحوم « الهمشري » في بعض تأملاته الحزينة التي طالت مسافاتها الصوتية لما خالطها من تأمل ، وقد جاء فيها :

جلست على الصخر الوحيد وحيدا   وأرسلتُ طرفي في الفضاء شريدا
وكفكفت دمعاً ، لايكفكف غربه   وواسيت قلباً في الضلوع عميدا
أرى صفحة الآمال قد ضاق أفقها   ولاح على اليأس البعيد مديدا
لقد عشت في دنيا الخيال معذباً   فياليت شعري هل أموت سعيدا ؟

ومن أعذب النغم الحزين المنخفض الصوت ذي المسافات الصوتية المتوسطة قول الشرتوني المهجري في قصيدته « الحمامة الضائعة » وقد جاء فيها :

أنابك خطبٌ فلم ترجعي ... أم الطير تنبو عن المرتع
أسًى يا حمامة في جانحي ... وحزنٌ تغلغل في الأضلع
ولو لم تعذّب جفوني السقام ... لحلّت ذكرك بالأدمع
غداة تركت فراش الضنى ... طلبتك في ذلك الموضع
وساءلت عنك جهات الفضاء ... فضاع السؤال ولم ينفع
هو الفجر عوّدني أن أراك ... هناك على الحائط الأرفع
فكم طلع الفجر ثم انقضى ... وعاد وعدتُ فلم تطلعي
لقد كنت ذاك الأنيس الأحب ... إذا ما طفرت من المخدع
أمتع طرفي بنور الضحى ... وبالورد والحبق الأضوع

إلى أن قال:

إذا كنت في قيد هذي الحياة ... تعالي إليّ وعيشي معي ! (١)

* * *

ومن النغم ذي المسافة القصيرة، نذكر قصيداً للدكتور أبو شادي يمثل فرحته الروحية بقرب حبيبته، وقد وسمها «بالحلم الصادق» (٢) ونقتطف منها قوله:

هات لي العود وغني ... واسمعي شجوي وأنّي
تطرحي الأحزان عني ... فأؤدي صلواتي !

* * *

قالت الحسناء سمعاً ... يا حياتي هاك طوعا
من سلاف الحب نوعاً ... يا حياتي ! يا حياتي !

* * *

ثم قال: ايه يا يوم تقضى ... في نعيم كيف ترضى
لفؤادي العودَ أرضا ... كيف ترضى لي مماتي

ثم ختمها بقوله: ايه يا (زين) شبابي ... يا منى قلبي المُذابِ
يا مدامي يا شرابي ... هات من كأسك هاتِ !

---

(١) ديوان محبوب الخوري الشرتوني: ص ١٤٢، ١٤٣ صدر عام ١٩٣٨
(٢) ديوان زينب، للدكتور احمد زكي أبو شادي — ص ١٩ المطبعة السلفية ١٩٢٤

والملحوظ في مثل هـذا الشعر الغنائي أنه يموج بالانغـام ، ولا يتخلى أبداً عن الوزن والقافية ، ويكون في كل أجزائه إيقاعيًّـا .

ولا تلزم هذه القيود في الشعر القصصي أو الفلسفي أو التفكيري ، بل يكفي أن يتوافر فيه الايقاع Rythme

وهذه الفكرة جلاّها « لاسل أبركرومبي » في كتابه « الشعر : موسيقاه ومعناه » إذ قال : « يلزم أن تصبغ الموسيقى كل القصيد في الشعر الغنائي [١] وبخاصة في الأغاني ولا تلزم الكلية الموسيقية في الشعر التفكيري » ، والموسيقى في مثل هـذا الشعر لا يلزم أن تكون مقفاة ، فإن الشاعر الأمريكي « والت هوتمان » وهو من أعظم الشعراء المحدثين قد هجر الأوزان في معظم شعره [٢] وكثير من الشـعراء احتذوا حذوه ، ولـكنه وإن لم يأبه للوزن ولا القافية ، إلاّ أنه اهتمّ بالايقاع وقد بلغ شعره درجة إيقاعية عالية .

والحق أننا في الشرق . لا زلنا مأسورين بالموسيقى المقفاة ذات البحر الواحد ، لأنها أليفة لدينا ، متغلغلة في عقلنا الباطن ، واذا كانت هذه الموسيقى لازمة في الشعر الغنائي ، فلا محل لهذا اللزوم في أنواع الشعر الأخرى ، والاّ وقعنا في عبودية فنيـة ولهذا رأينا طائفة من الشعراء المحدثين المتحررين يثورون على هذا القيد ، ويلوذون إلى القافية شبه الطليقة . كما هو الحال في الشعر المرسل ، أو في الشعر الحر الذي لا يتقيد بقافية ، وقد كان من رواد هذه الطريقة خليل مطران وعبد الرحمن شكري وأبو شادي ، وجماعة متحررة في لبنان وسوريا والعراق ، وغيرها . ولسنا في هذا القول نأتي ببدع ، ولـكن سبقنا الى هذا الرأي فحول من الأدباء ، ونذكر من بينهم شاعر العراق الـكبير « جميل صدقي الزهاوي » الذي ارتأى في مقال له [٣] أن الرويّ لا لزوم له ، لأنه عضو أثري وأنه سوف يزول في المستقبل ، ويكتفي بتوافق أوزان الـكلمات الأخيرة في القصيد من غير اعادة الحرف الأخير ،

ولا ريب ، أننا اذا أبدعنا من نماذج الشـعر المرسل ، والحر ، في غير تكلف فإننا

---

(١) كتاب « الشعر : موسيقاه ومعناه » Poetry, Its music & Meaning By Lascelles Abercrombie ص ٥٦ (٢) نفس المرجع ص ٤٨ (٣) « تولد الغناء والشعر » لجميل صدقي الزهاوي

تخدم الشعر الشرقي الحديث خدمة صحيحة من طريق الزيادة في ثروته » [1]

ونمثل هنا بقليل من النماذج للشعر المزدوج القافية والشعر المرسل ، والشعر الحر

يقول مطران في قصيدة « تذكارات الطفولة » المزدوجة القافية

هل تذكرين ونحن طفلان عهداً بزحلة [2] كله غنمُ
إذ يلتقي في الكرم طلان يتضاحكان وتأنس الكرمُ
هل تذكرين بلاءنا الحسنا حين اقتطاف أطايب العنب
نعطي ابتسامات بها ثمنا وبنا كنشوتها من الطرب
والنهر [3] هل هو لا يزال كما كنا لذاك العهد نألفه
يسقي الغياض زلاله الشبما ويزيد بهجته تعطفه
ينصب مصطخباً على الصخر ويسير معتدلا ومنعرجا
يطغى حيال السد أو يجري متضايقاً آناً ومنفرجا
متخللاً خضر البساتين متهللا لتحية الفجر
متضاحكاً ضحك المجانين لملاعب النسمات والزهر

الى أن قال :

ما أنسَ لا أنسَ العقيق وقد جزناه بعد السيل نفترج
كان الربيع وكان يوم أحد ومسيرنا متمهج زلجُ
و « نبيهة » الكبرى ترافقنا مجهودة ضجت من التعب
ولها صويحبة ترافقنا حسناء كل الحسن في أدب
ضحاكة كالنور في الزهر رقاصة كالغصن في الوادي
كرارة كنسيمة السحر ثرثارة كالطائر الهادي

فمثل هذا القصيد الذي تحرر من عبودية القافية الواحدة ، نجد في تلاوته موسيقى عذبة وراحة ذهنية . وهذا النوع من الشعر المزدوج القافيــة تناوله الشعراء المعاصرون في

(١) مجلة « أبولو » اكتوبر ١٩٣٣ — كلمة للدكتور احمد زكي أبو شادي

(٢) مدينة في لبنان (٣) نهر البردوني بزحلة

جميع البلاد العربية ، ووفقوا فيه كل التوفيق وذلك مع التزام البحر الواحد ، ومنهم من سار على القافية المزدوجة التي تتخللها قافية مزدوجة مغايرة فأبدع في الموسيقى غاية الابداع ، ويحضرنا في هذا الصدد قصيدة « إيليـا أبو ماضي في قصيدته العذبة « تعالي » (١) ومطلعها :

تعـالي نتعاطاهـا كلـون التبر أو أسطع
ونسقي النرجس الواشي بقايا الراح في الكاس
فلا يعـرف من نحن ولا يبصر ما نصنع
ولا ينقل عند الصبح نجوانا الى الناس

* * *

ومن الشعراء المعاصرين من سار على هذه القافية المزدوجة مع تنويع البحر ، ونقتطف مثالاً لذلك ، رباعيتين من قصيدة « القبلة » للشاعر المصري « حسن كامل الصيرفي » في ديوانه الثالث « الشروق » (٢) مع التحرر في البيوت الأخيرة من كل رباعية وإيجاد الموازنة الموسيقية بينها ، اسمع إليه يقول :

خمر شبابٍ رطيبْ معصورةٌ من قلوبْ
على الشفاهِ تذوبْ
في القبلتين وآهْ
من طعمها ! أسكريني

* * *

أنشودةٌ في السكونْ يطوي بريقَ العيونْ
فيها ، فتورُ الجفونْ
لو رددتهـا الشفاهْ
في لثمهـا ، بادليني

ومن الشعراء من لم يلتزم القافية الواحدة في القصيدة مع التزام البحر الواحد ، وتذييل

(١) ديوان الجداول ص ٣٥ و ٣٧ تراجع في هذا الكتاب ص ٣٥
(٢) ديوان « الشروق » دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٨

كل بيت بتفعيلة ، ليضيف لحناً إلى ألحانهـا العذبة . ويحضرنا مثالا لهذا النوع قصيـدة الشاعر الحجازي « عمر عرب » ، أسماها « عصر الشباب » وقد جاء فيها :

حدّثيني عن الصبا والشباب   عن زمان الهناء بين الصحاب
حدّثيني
حدثيني عن الهوى يا مهاتي   أن هذا الحديث يحيي رفاتي
حدّثيني .

إلى أن قال في آخر القصيد :

وا حنيني الى ارتشاف لماك   وا حنيني الى اجتلاء سـناك
وا حنيني
وا حنيني لقطف ورد الخدود   واحنيني لهصر بان القدود
وا حنيني
آه إن تنظري بعين العليم   ما أقاسي من العذاب الأليم
ترحميني

* * *

ومن الشعراء المجددين من تحرّروا من عبودية القافية في شعرهم المرسل Blank Verse وشعرهم الحر Free Verse . والنوع الأول من الشعر هو الذي لا يتقيد بقافيـة واحدة ، وإن تقيـد ببحر واحد . ومن روّاد هـذا الشعر مطران ، وشكري وأبو شادي ، ونذكر نموذجاً لهذا الشعر بعض ما جاء في قصيدة عبد الرحمن شكري « نابليون والساحر المصري » التي يقول فيها :

سَدِكتْ[١] بنابليون صائبة الكرى   والنومُ لا يعنو لكل عظيمِ
في ليـلةٍ قلبُ اللئيم كقلبها   زنجيةٍ قد عُرِّيت من حليها
خرج العظيم يخط في ترب العرا   خطّ المدلّس في تراب الطالعِ
يمشي وحيداً في الخلاء وحوله   جيشٌ من الآراء والعزمات

....

(١) سدك به : لزمه ولم يفارقه

يرمي بعين النسر أرجاء العرا　　كالقانص الرامي بسهمٍ صائبِ
فرأى على بعض التلال بقربه　　شبحاً كما نظر المريض الهالكُ
متعمماً بعمامةٍ مهدولةٍ　　متلفعاً بعباءةٍ سوداء
النارُ من ألحاظه مقدوحةٌ　　حتى تكاد تشب فيما ينظرُ
في كفه عودٌ ضئيلٌ صوته　　كشكوى المريض الى الصديق العائد
يستخرج الألحان من أضلاعه　　والعودُ في تحنانه يتألمُ
لما رأى الجبّار يمشي قربه　　والليلُ يسجد في غلالةِ راهب
رفع الغناءَ وصرَّ في إنشاده　　مرَّ النسيم على الربوع الخاليه
يا أيها البطلُ العظيمُ الغالبُ　　أرح الخطا واسمع نبوّةَ ساحر
درس النجومَ فلم يغادر غامضاً　　حتى أتيح له الجليلُ الغامض
ولهُ من الجنّ الكرام معاشرٌ　　يأتونه بنفائس الأخبار
كم قد سقيتَ من الدماء طماعة　　لك خيرُها وعلى سواك خراجُها
في كل جرح مقولٌ ذو سطوةٍ　　يدلي عليك بحجة بيضاء
واسوف تبلغ بالسيوف مبالغاً　　تدعُ الممالك في يديك بيادقا
لكن سيعقبك الزمانُ وصرفه　　زمناً يكون به الطليقُ أسيرا
في صخرة صماءَ فوق جزيرةٍ　　في البحر يضربها العبابُ الأعظم
فاستلَّ نابليون سيفاً ماضياً　　لما رأى العواد ساء مقاله
لكنه ضرب الهواء بسيفه　　حيث اختفى المتنبيء السحار
فأعاد في الغمد الحسام تخوفاً　　ومضى الى أصحابه يتعجب

فهذا القصيد نموذج كاف مقنع على جمال الموسيقى المتحرّرة من القافية ، فضلاً عما احتشد فيه من معانٍ شعرية رائعة يصعب على القافية الموحدة أن تضمها في هذه الأبيات القلال ، ولا غرو أن مثل هذه الموسيقى تحلو في الملاحم والقصص .

وأما النوع الثاني من الشعر المتحرّر ، فهو الشعر الحرّ الذي لا يتقيد بقافية ولا بحر . وفي هذا الشعر يتنوّع النغم ، وتتجدّد التفعيلات ، وتسجل المعاني التي ترد على الخاطر في

رقة وسهولة ويسر ، وقد تابع هذا اللون من الموسيقى الحرّة ، بعض شعراء الشرق ، وعلى رأسهم مطران وأبو شادي ومن تبعهما من شعراء مدرسة « أبولو » وبعض السوريين ، واللبنانيين ، وجماعة من طلاب الجامعة المصرية .

وليس في وسعنا الاحاطة بهذه النفحات الموسيقية المتحرّرة ، ولكننا نكتفي بتسجيل بعض النماذج التي وقفنا عليها . ومن هذه النماذج ما جاء في ديوان « الظمأ » للدكتور السوري علي الناصر مثل قصيدته « إلى أم كلثوم »(١)

رأيتك سمراء معشوقة وذوقك في اللبس ذوق سليم
لبست السواد وما من حداد يداك بما فيهما من نشاط
ظريف الاشارة في رقة كقمريتين
وفي شفق الثغر معنى خفيّ يكاد يصرّح بالشهوة
وفي مقلتيك ظلال البكاء وأي بكاء ؟ البكا الباسم !

ولقد أتحف موسيقى الشعر الحر أحد شباب جامعة فاروق الأول الشاعر « محمد منير رمزي » بشعرٍ صاف رومانتيكي غارق في الرومانتيكية وهذا الشاعر له مجموعة ثمينة اهداها الى أحد أصدقائه (٢) قبل أن يودع الحياة وهو على عتبتها ، وقد بخع نفسه ، وفرّ عن هذه الدنيا ، وقد فقدنا بموته شاعراً رومانتيكيًّا من الطراز الأول ، فاسمع اليه في قصيدته « نحو الغروب » يقول :

إن الليل عميق يا معبودتي ، لكن أعماقه ضاقت بآلامي ...احكي لهُ في دمعة أشجاني، وأرسل في آذان الصمت أغنيتي ... لكن أصداءها ترتد في ذلٍّ الى قلبي ، فيطويها !

ثم ينهي القصيد بقوله :

إنني أتوق الى الغروب يا معبودتي ... أتوق إليه منعشاً على حطام أجنحتي ، فدعيني — دعيني يا معبودتي ، فلن تمسح كفاك عن جناحيّ الدماء ، ولن تنزع أناملك الاشواك من صدري ... دعيني يا معبودتي وهذا الغروب ، أواري الجرح في أعماق صمته !

وفي قصيدته « غريب » يناجي حبيبته نجاء شعريًّا موسيقيًّا بديعاً طلقاً يقول :

أود لو استعدتُ ضحكاتي يا معبودتي ، ولثمت في سعادة طائشة ، تلك النسمات التي تتهافت في مرح ، لامسة جبينك . . . أود لو استعدت ابتساماتي ، فأنثرها على زهرات

(١) ديوان « الظمأ » للدكتور علي الناصر طبع مطبعة المعارف بحلب ١٩٣١
(٢) الاستاذ الاديب « وديع بطرس »

البنفسج ، ثم ألقي بها لتذوى تحت قدميك — أود لو ملأتُ الآفاق من أجلك ضحكاً ، وأغرقت الكون بابتساماتي — آه ! كم أود . . . لكني غريب ! (١)

أذرع الأيام على موسيقى ، حزينة ضائعة — حزينة كليالي الشتاء — ضائعة كأنغام قلبي — آه ، كم أود . . . لكني غريب يا معبودتي ، فابكي لي ساعة ، واصفحي عن ألمي !

وقد رافقتنا هذه الموسيقى الطليقة المتنوعة النغم ، ولم يسعفنا الشعر المعاصر بنماذج كثيرة منها ، لأن أغلب الشعراء المجددين لا يزالون محافظين على نغم القافية الواحدة المملولة ، الرتيبة رتابة صوت الصرصور . وقد سجلنا في ديواننا « أزهار الذكرى » طائفة من الأمثلة لموسيقى الشعر الحر ، ونكتفي بذكر مثال واحد ، وهو قصيدة « الفراشة » وقد جرت كالآتي :

شهدتها في الفضاء تعيس في أحلام
كأنها أقحوان ملت حياة المقام !

* * *

تطوف بالورد تهدي له السرا
وتشرب القبلات من خده الغض
وترشف الألوان من قطرة الأنداء
في صحوة الفجر

* * *

تموج في الذرات راقص الأضواء
تهفو مع الأمواج في نضرة العصر

* * *

يا طيبها زهرة عافت حياة السكون
تحولت في جنون تقبل الألوان
في سكرة الحب !

ونرى أخيراً أنه لا مفر للمجددين في هذا العصر من تطعيم موسيقى الشعر بالأنغام المنوعة والتفعيلات الجديدة ولا يكون هذا إلا بهجر القافية الواحدة وبخاصة في القصائد المطولة وفي الشعر التمثيلي . ولقد آن لشباب الشعراء في الشرق أن يتذرعوا بالشجاعة الأدبية ويشقوا طريقهم الجديد ، غير حافلين بالموسيقى التقليدية الرتيبة ، ولا حافلين نقدات المحافظين والحفريين الذين يعيشون على تراث الموتى ويستقبلون كل جديد بصيحات الغربان

(١) ديوان « ازهار الذكرى » للمؤلف ص ٣٥ و٣٦ مطبعة التعاون بالاسكندرية ١٩٤٣

البحث السادس

الشعر الرمزي

ونرى لزاماً علينا أن نلمّ إلمامةً عابرة بنوع جديد من الشعر، يخالف سنّة الشعر المألوف في موضوعه وفي صياغته، هو « الشعر الرمزي » وهذا الشعرُ جديدٌ على العربية وقد ابتدعه الشاعر الفرنسي موريا Moréas وكذا « رمبو » ونحا نحو هـذا الأخير، شعراء السريالية (ما وراء الواقع) (١) وقد عاصر هـذا الشعر أواخر القرن التاسع عشر، وازدهر في القرن العشرين في كثير من البلاد الغربية وبعض بلاد الشرق ومن روّاده الأوائل مالارميه، وبول ڤاليري في فرنسا، وتبعهما « جورج استيفان » في المانيـا، وبلوك Blok في روسـيا، وريلك Rilke في تشيكوسلوفاكيا، وييتس Yeats في انجلترة مع تفاوت في الاتجاه والمبدأ (٢) وحذا حذوهما طائفة من شعراء الغرب المحدثين وتأثر بعض شعراء الشرق هذا الاتجاه الجديد تأثراً جزئيّـا، فمنهم من قصر رمزيته على الترنيم الموسيقي الأمر، مثل الصيرفي في مصر، ونزار قباني في سوريا، وصلاح الأسير في لبنان، وغيرهم. ومنهم من وقف رمزيتـه على التعبير أو الصورة مثل الشاعر اللبنـاني « أمين نخلة » والشاعر السوري « سعيد عقل » والشاعر اللبناني ميشال بشير وغيرهم، ومنهم من بث الرمزية في موضوعه أو تجربته مع الابقاء على الصياغة المألوفة، مثل الشاعر اللبناني « سليم حيدر » و «إيليا أبو ماضي» في المهجر، و«أبو شادي» في مصر وغيرهم، وإنتاج

(١) كلمة « الشاعر » للدكتور بشر فارس — المقتطف : ابريل ١٩٤٥ ص ٣٦٢

(٢) راجع كتاب « تراث الرمزية تأليف « بورا »
The Legacy of Symbolism By. C. M. Bowra

هؤلاء في هذه الناحية يُعدُّ من الفلتات ، وهناك نوادر من أدباء الشرق ، اتبعوا الطريقة الرمزية ، أسلوباً وموضوعاً ، ومن بينهم نذكر الأديب الضليع « بشر فارس » .

وهذا الاتجاه الشعري الجديد يدين بعبادة الجمال ، ويهيم بالتصوّف ، ويحفل بتجارب العقل الباطن ، ويصبو الى الغموض والإبهام ، وتجاريبه الموضوعية موزعة بين الحلم واليقظة ، والنوم والوعي ، والارض والسماء [1] — وأغلب تجاريب شعراء الرمزية ذاتيةٌ ، لا تدخل السياسة ولا حقائق المجتمع في نطاقها إلاّ نادراً كما نجد في شعر بلوك لرومي ، وييتس الايرلندي ، وقليل غيرهما . ومعظم هذه التجارب يلفها الغموض ، ويغطي عليها ستار كثيف لا يخترقه الذكاء ولا البصيرة إلاّ بصعوبة ، وفضلاً عن ذلك ، فوحدتها مقطوعة ، وصورها خاصة ، لا يرى القارىء من خلالها الفكرة ، وموسيقاها شفافة رفّافة في أغلب الاحيان ، لأنّ هذا النوع من الشعر يجعل الموسيقى هدفاً من أهدافه ، لا وسيلة من وسائله ، كما هو الحال في الشعر المألوف [2]

ويتفاوت الرمزيون في أساليبهم ، فمنهم من يعوّل على السحر اللفظي مثل رمبو ، ومنهم من يعوّل على الترنم مثل فرلين ، ومنهم من يلوذ الى الإبهام مثل مالارميه [3] ومنهم من يجمع بين جمال الاسلوب و حلاوة الموسيقى مثل « ييتس » وأغلبهم يعبر عن تأثراته بالصور لا بالآراء ، وبالكلمات لا بالجمل ، لأن الجملة لها تكوين منطقي ، والكلمات المثيرة يمكن أن تستغني عن هذا التكوين المنطقي [4] وهم يقتصدون كل الاقتصاد في الإعراب عن هذه التأثرات ، فتراهم يكتفون بالنقط الجوهرية ، ولا يحفلون بالتفسير أو المقابلة أو المقارنة ، ومردّ هذا إلى أن شعرهم عفوي لا يطيق المنطق ، ولا يحب العقل المحلّل . وهم يزعمون أن اتجاههم الشعري هذا يقود البشرية إلى ناحية لم تعرفها ، وأنهم يوسعون حدود التجربة الانسانية والتعبير البشري [5] .

The Milk of Paradise — By Forrest Reid. P 65. (1)

(٢) تراث الرمزية — لبورا — آنف الذكر

(٣) مجلة «الرسالة» مقال للدكتور بشر فارس ٢٥ ابريل سنة ١٩٣٨

(٤) كتاب « الشعراء والنساك » تأليف لانسون فوسيت

Poets & Pundits — Hugh L'anson Fausset — p. 83 — 1947

(٥) المصدر السابق — ص ٨٦

وهؤلاء الشعراء لا يكتفون بالكلمة المتغيّرة الجريئة ، ولا الصورة الرامزة ، بل إن موضوعات قصائدهم خفية المقصد ، غامضة المعنى ، حتى لتستعصي على أشد الناس ذكاء وفطنة وحساسية ، ولا يقدر على فهمها إلاّ أصدقاء الشعراء ، ونوادر من المرهفة أعصابهم وأولئكم الذين عرفوا أسّ طريقتهم ، ومن شواهد ذلك قصيدة « الخطوات Le Pas » « لپول ڤاليري » وفيها يخاطب سيدة ، ويتحدث عنها ، وينتظرها ، وهو يعني بالسيدة « الدفعة الشعرية » أو إلـهة الشعر [1] وهو إذ يتحدث عن « الحية » إنما يعني الشهوة أو الرغبة العارمة .

وكذلك نرى الشاعر الألماني « جورج استيفان » يتحدث عن قصيدة « الفأل » Augury عن مجموعة من طيور السماء ، وعن مواثباتهـا في الجو ، ويعني بها مظاهر حياته. وهو في هـذا القصيد يجاري — ڤاليري — في قصيدته « الخطوات » آنفة الذكر . وفي قصيـدة أخرى نراه يتحدث إلى شخص مثالي ، وهو يعني به « وحيـه الشعري » — والملحوظ أن هـذا الشاعر وان كان من تلاميذ — مالارميه — إلاّ أن قصائده اعتمدت الحساسية والقريحة معاً ، وكانت أكثر تدبراً وتهذيباً وجهـداً ، وإنه ليقول متحدثاً إلى رفيقه المثالي ، الذي يعني به وحيه الشعري :

رفيقي في المراعي المشمسة ، ينتفض من حولي إذا جنّ المساء ، يضيء طريقي بين الظلال

* * *

أنت موطن شوقي وفكري ، أشمك في كل هواء موجود ، وأمتصك إذا دارت عنـد الشرب شفتاي ، وفي كل عطر متضوع ، ألقى قبلتك

* * *

أنت كالفجر سجواً ووداعة ، وكالربيع خفاء وبساطة . [2]

* * *

واذا انتقلنا الى قصـائد الشاعر الروسي — بلوك — وجدناه في قصيـدته الشهيرة « الاثنى عشر » — وقد ترجمت الى عدة لغات — يقتحم ميدان المجتمع فيصف فيها الليل وهو يعني به النظام الروسي القديم ، ويصف أعمال اثنى عشر جنديّـا ، ويعني بهم شعب روسيا ، ويذكر فيهـا كلباً يسير وراء هؤلاء الجنود ، ويقصد به المجتمع البرجوازي ،

(١) تراث الرمزية ص ٣٠ (٢) تراث الرمزية ص ١٣٩ .

ويصف فيها الربح ، ويعني بها القوة العاملة المحطمة للأرثارين الذين لا عمل لهم في المجتمع .

وكذلك فعل الشاعر الايرلندي «ييتس» في قصيدته «الوردة الخفية The Secret Rose» التي تحدث فيها عن الوردة ، قائلاً — « اني لانتظر ، ساعة هبوب الريح ، ريح الحب أو الكراهية عند ما تنتثر النجوم في السماء ! »وهو يعني بالوردة،وطنه «ايرلندة» ! والملحوظ أن هذا الشاعر خالف كثيراً من الاصول الرمزية التي كان ينتهجها مالارميه ، فكان يرى أن الرمز قد يحل مكان الفكرة ، وأن الرمزية يمكن أن تعبر عن الانفعالات ، وان الرمزية لا تقتصر على المعنى الذاتي ، بل أن لها معنىً عامّا Universal (١) بعكس مالارميه الذي كان صنيعه الشعري يعتمد التجربة الجمالية فقط ، وأداؤه يقوم على الغموض والابهام . وعلى الموضوعات الذاتية .

وقد تأثر بهذه النزعة الرمزية كثير من الشعراء المعاصرين ، حتى الكلاسيكيين منهم والغنائيين ، فقد رأينا مثلاً ، الشاعر الانجليزي « روبرت بردجز » وهو شاعر غنائي في الصف الاول ، يضمن شعره الرمز الموضوعي ، فهو في إحدى قصائده يتحدث عن « امرأة » وقارىء القصيد لا يشك في ذلك ، والحال أنه يتحدث عن « قط » ! وقيل أنه شبح امرأة ميتة ! (٢)

هذه إلمامة عابرة عن الرمزية الموضوعية في الشعر ، وأما الصور والكلمات التي يتخيرها الرمزيون فهي من العجب والطرافة بمكان . هي صور وكلمات أريد بها التجديد والتغيير.(٣) والرموز الصادقة آية الملاحة الباطنة والجمال الروحي ، ومن شواهدها قول مالارميه : الصمت البخيل ! . وتصوير « ريلك» النفس القلقة : بالغابة الداوية يصرخ بها الطير (٤) والفتاة الصغيرة بالزهرة.وتصوير «فاليري» رواسب الفكر بالأحجار ، والافكار باليمام ! — ووصف « بلوك » الموت : بالنسور الصغيرة ، والحبيبة : بالنجم الهاوي من السماء ! والوطن بالعروس . ومن تعبيرات « ييتس » : الروح في رداء أزرق ! والقلب في رداء أحمر راعش! ومن رموز « ت . س . اليوت » الظلام في الظهيرة ، ويعني به تدخل الموت في الحياة ،

(١) An Introductin to English Litterature By John Mulgan & D. M. Davin p. 141.
(٢) The Milk of Paradise (Some Thoughts on Poetry) By Farrest Feid. p. 45.
(٣) Poets & Pundits By Fassett P. 94

(٤) في قصيدته القلق Anxiety

أو الانحلال والخراب — ومثل هذه الرموز والصور الخاصة والكلمات الطريفة تفيض في أدب الرمزيين .

وقد وجدت هذه الرمزية ظلالها وأصداءها في شعر طائفة من أدباء الشرق ، كما أسلفنا، سواء من ناحية الموضوع وهو نادر ، أو من ناحية الصور والكلمات وهو كثير ، أو من ناحية اللدونة الموسيقية .

ومن أجمل ما قرأنا في هذا النوع من الشعر قصيدة « دعوة » للشاعر « سليم حيدر » وقد سجلناها في هذا الكتاب ص ٢٧ — وهي قصيدة رمزية في موضوعها وفي جمال موسيقاها .

وقصيدة « ضجر » للشاعر ميشال بشير في ديوانه « غروب » [١] وقد رمز الى طيف الحبيبة وأوحى إليها ، دون ذكر لها إذ قال:

جاء : فمن يخبر الشذا   والطلّ والفيء والزَّهَر
كاللون في دمعة الندى   تذرفها مقلة السحر
والضوء في مخدع الدجى   يعبُّ من وجه النظر
واللحن في أرغنٍ على   توقيعه يرقص الوتر
في كل درب مشى بها   يعلق من طيبه أثر

* * *

راقب حتى غفا الدجى   وغطَّ في نومه القمر
وانسلّ أشهى من الأمانيّ   وأشجى من الذكر
يوقظ قلباً مهوّماً   على وساد من الضجر !

* * *

وإن مسرحية « قدموس » للأديب اللبناني « سعيد عقل » ، لتمدنا برموز موضوعية وموسيقى نابضة وصور رمزية متناثرة في طيات الرواية ، فضلاً عن أنها توحي بمعانٍ نبيلة كريمة ، وعلى رأسها إيثار الوطن والوطنية على الحبيب والحبة ، ومحصلها

(١) ديوان « غروب » ص ٦٩

في كلمات ، أن كبير الآلهة « زوش » اختطف « أورب » بنت ملك صيدون ، التي هامت به غراماً ، فذهب أخوها « قدموس » لإعادتها الى وطنها وذويها . وانتصر « قدموس » على الإلـه « زوش » ولـكنه لم يسعد بالعودة بأخته فقد طمرتها العاصفة ! فالرواية تُوحي بحب المغامرة والمناضلة ، وترمز الى غلبة القدَر على الانسان مهما بلغت قوته وشجاعته ، ومما ضمّت من الصور الرمزية ما جاء على لسان «أورب » وهي تصف حبها بالدمية الأثيرة الغالية تقول :

دميةٌ صنعتها من الحُلم الفرد ورصعتها بأطباق شهب
فانقتها أمنيتي قبل أن همّت بكون ، وأينعت في خيال
كانت التوق من ذراعي ، اذا امدّت وكانت إذا هجمتُ ببالي [1]

وقولها أيضاً ، وقد لذعتها ذكريات الأهل والوطن ، وراودتها صُبابة أمل في حب أبيها لها ، وقلبه كبير ممنوح ، فهي تصف نفسها « بالعصفورة » وتصف — على ما فطنا — أباها أو أخاها « بالغصن » فتقول مخاطبة الريح

شرّق ، أيها الصبا ، علّ غصناً عند حصباء ، ما يزال وفيا
هجرته عصفورة كان مغناها وكانت غرامه العبقريا
ما شكا مرةً سقاماً ولا تمّ في مسمع الليالي بعتب
وُجدت فاكتني وما همّه للغصن كانت أم للحضيض الجدب
آية الهال ، حبّه ، راح يعطي لا ارتضى قبضة ولا هو آثر
يسأل الخير أن يكون سواءٌ ناله الجنديه أو نال آخر [2]

وتقول « أورب » في مكان آخر متحدثة عن نفسها ، وعما أثارت هجرتها من شئون وشجون :

زهرة لم تفق على الصبح إلاّ هبّت الريح واستحرّ الهجيرُ
أتلعت جيدها فطيب على طيب وألوت فكل غصن كسيرُ

---

(١) مسرحية « قدموس » ص ٥٨ الطبعة الثانية
(٢) قدموس ص ٦٠

وهكذا لو تتبعنا هذه المسرحية ، لهمت انا رمزيات « سعيد عقل » ، وأشرقت على الصفحات نفحاته ، وقد اضطررنا ، الى تناول بعض ما جاء في هذه المسرحية . وليست المسرحيات داخلة في نطاق بحثنا لأننا لم نسعد بقصائد هذا الشاعر المفردة ، ولا مرية أنه أغنى الأدب الشرقي بهذه الرواية التي تختلف كثيراً عما وُضع في الشرق من مسرحيات

* * *

ويمكن أن نعتد تجاوزاً بعض قصائد إيليا أبو ماضي من القصائد الرمزية الفلسفية ، فقصيدته « الطين » [١] مثلاً يدير فيها محاورة بين الغني المتكبر ، والفقير الوديع ، وقصيدته « التينة الحمقاء » [٢] التي تواصي نفسها على أن لا تثمر كي لا يطرقها طير ولا بشر ، انما يرمز بها الى الرجل الحريص الباخل . وآخرة مثل هذه التينة الاجتثاث ، ومآلُ مثل هذا الرجل الانتحار !

وقصيدته « العليقة » [٣] وهي الشوكة التي تربض في الغاب لتقطع على العاملين طريقهم ، قد يقصد منها المرأة المنحرفة التي تقف في طريق الشباب الوثاب .

وهذه القصائد وغيرها في ديوان « الجداول » رمزية في موضوعها ، لا في أسلوبها وصورها وألفاظها ، وعلى هذا النحو الموضوعي الرمزي جرى « أبوشادي » في قصيدته « النماج »[٤] ويقصد بهم بعض النواب الطيّعين الخانعين ، — و « الصيرفي » في قصيدته « السحابة المغترة » [٥] ويرمز بها إلى أحد الحكام المتجبرين — و « الصافي النجفي » في ترجمته لقصيدة « أيتها الفرخة »[٦] للشاعرة الفارسية « پروين » التي ترمز بها إلى تربية الفتاة

وأما الصور والكلمات الرمزية في الشعر الشرقي فقد حفل بها الشعر اللبناني والسوري ، ويستحيل علينا في هذا البحث أن نلم بها لأنها تتطلب بحثاً مطولاً ، ولكننا نكتفي هنا بنماذج قلال منها ، نقطفها من الشاعر السوري المطبوع « نزار قباني » بديوانه الجديد [٧] وهو في هذا الديوان ينحو نحواً جديداً يخالف كثيراً نحوه في ديوانه « قالت لي السمراء »

(١) ديوان الجداول طبعة نيويورك ط ١٩٢٧ ص ٢٣   (٢) الديوان ذاته ص ٢٨
(٣) الديوان ذاته ص ٧٢ (٤) ديوان الينبوع لابي شادي ص ٤٦ (٥) ديوان « الالحان الضائعة » للصيرفي ص ٤٣   (٦) ديوان « ألحان اللهيب » للصافي النجفي ص ٩٢ عام ١٩٤٧
(٧) ديوان « طفولة نهد » مارس ١٩٤٨

وقصيدته « وشوشة » تمدنا بطائفة من الصور والكلمات الرمزية ، فإنا لنراه يفاجئنا بمثل هـذه التعبيرات : « الانعتاق الأزرق » ويقصد به الانطلاق تحت القبـة الزرقاء وقت الغروب ! و « الوشوشة السخية الظلال » ويقصد بهـا الهمسات الحنون التي تتفيأ نفسه ظلالها . ويذكر لنا « الأرجوحة الغريقة الجبال » ولعله يقصد بها ألوان الضيـاء المنوعة في الفضـاء الفسيح ! . وأما قوله « مخدتي طافية على دم الزوال » فقول مبهم ، ولعله يقصد به أن مكانه فوق الجبل حيث تطفو أصباغ الشفق وهي « دم الزوال » وقوله « قميص أخضر يوزع الظلال » فهو تعبير رمزي بديع حقـا يقصد به ، أن قميص فتاته الأخضر ، اذا سارت به نثر الظلال ، فكأنه يوزع الآمال الخضراء في النفوس الجدبة .

وهذه الصور والكلمات الجريئة تفرّ من التحليل وهي انعكاسات نفسية هفت بخاطره ، وهي من الشعر الخالص ما من ذلك ريب ، لأنها رموز صادقة لا محاكاة فيها ، وليس شعره في ديوانه الجديد على هذا الغرار ، بل فيه الواضح المبين . ويحسن بنا أن نقتطف من قصيدة «وشوشة» بعض فقرها ، تاركين فهمها للقارىء ، وقد يختلف معنا في تفسير ما ذكرناه من الرموز ، فاسمع إليه يقول :

في ثغرها ابتهـال يهمسُ لي : تعالْ
الى انعتاق أزرقٍ . حدوده المحـال

* * *

لا تستحي فالورد في طريقنـا تلال
ما دمت لي ، مالي وما قيل . . وما يقال

* * *

وشوشة كريمـة سخيـة الظـلال
ورغبـة مبحوحة أرى لهـا خيال
على فم . . يجوع في عروقـه السؤال !

* * *

أنا كما وشوشتني ملقى على الجبال
مخـدّتي طافيـةٌ على دم الزوال
زرعت ألف وردة فدى انفلات شال

فدى قميص أخضر يوزع الغــلال !

* * *

قومي إلى أرجوحة غريقــة الحبــال
نلوّن المدى ندى ونصبغ الجـال
نأكل في كرومنـا ونطعم الســلال !

* * *

وفي قصيدته « الضفائر السود » صور وكلمات رمزية أقل ممـا في القصيدة الفائتة ، وموسيقاها العذبة تحكي الموسيقى الرمزية الأثيرية ، وتدور صور هذه القصيدة حول الضفيرة ، فهي هلال ضوء أسود ، وشعراتها سنابل لم تحصد ، وهي أرجوحة سوداء حيرى المقصد ومن هذه الضفيرة انفلتت خصلة على الصـدر الأهوج ، وتدانت الخصلة من الفم تستقطر نبيذه ، وترضع الضياء من النهد الصغير ، وبعد هذه الألوان المبتكرة من الصور يـقفـي الشاعر بقوله لهذه الحبيبة العذراء الصغيرة ، « قد نلتقي في نجمة زرقاء » وهي عبارة رمزية بديعة ، قد يختلف في تفسيرها القارئون ، والمقصود منها أن الالتقاء معها في عالم سام تسبح فيه النجوم الزُرْق ، وهذه القصيدة من أجمل قصائده وقد جرت كالآتي :

يا شعرها على يدي شلال ضوء أسودِ
ألمّـــه سنـابلاً سنـابلاً لم تحصدِ
لا تربطيـــه واجعلي على المساء مقعدي
من شعرنا .. على مخدّات الشذا .. لم نرقُـدِ

* * *

وحرّرته من شريطٍ أصـفرٍ .. مزغردِ
واستغرقت أصـابعي في ملعبٍ حُـرٍّ ندي
وفرَّ نهر عـتْـمَـةٍ على الرخام الأجْـعَـد
تقلني أرجوحة .. سوداء حيرى المقصدِ
توزّع الليلَ .. على صباحِ جيدٍ .. أجْـيدِ

* * *

هنـاك طاشت خُـصلةٌ كـثـيرة التمرُّدِ

تسير لي . . أشواقَ صدرٍ أهوج التنهُّدِ
ونبضةُ النهد الصغير الصاعد . . المفرَّد
تستقطر النبيذَ مِنْ لون فم لم يُعْقَدِ
وترضعُ الضياءَ من نهدٍ صبيٍّ المولدِ
قد نلتقي في نجمةٍ زرقاء . . لا تستبعدي
تصوري . . ماذا يكونُ العمرُ لو لم توجدي

ويمدنا « صلاح الدين الأسير » في ديوانه « الواحة » بقليل من مثل هذه التعابير الرمزية الجريئة كما نجد ذلكَ في قصيدته « الخاطر الأزرق » (١) التي استهلها بقوله :

تقول ترى نلتقي على خاطر أزرق
عطاياه غور القرار من النغم المهرقِ

وهي قصيدة مبهمة المعاني ، وقد امتازت بموسيقى عذبة أثيرية ، وهذه الموسيقى لمحناها لدى « نزار قباني » في ديوانيه اللذين أسلفنا على ذكرهما ، وفي ديوان « الألحان الضائعة » للشاعر المصري «حسن كامل الصيرفي» ، وان كانت ملامح الرمزية الأخرى غير موجودة ، فاذا قلّبت هذا الديوان الاخير أخذتك موسيقاه إلى عالم أثيري شفاف . ومن شواهد هذه الموسيقى ما جاء في قصيدته « حياتي(٢) » وقد استهلها بقوله :

إذا الفجر حرَّر مني الجفون وأيقظ فيَّ القوى الخائره
وهبَّ نسيم الصباح العليل يوزّع أنفاسه العاطره
ورنّت على راقصات الغصون سواجع كالأنفس الشاعره
ولاح على قسمات الوجود تبسُّم جنّاته الزّاهره
صحوت أناجي خيالاً جميلاً وفي ناظريَّ رؤًى ساحره
أحاول أن أستميل الوجود إليَّ وآملُ أن آسرَه
فآخذ قيثارتي في هدوء أوقّعُ ألحانيَ العابره

وليس فيما سجلنا من نماذج ، ما يجوز عدّه شعراً رمزيّاً خالصاً ، بل فيه ملمح من ملامحه.

---

(١) « ديوان الواحة » ص ١١٩ (٢) ديوان (الألحان الضائعة) - للصيرفي - ص ١٦ سنة ١٩٣٤

وربما عُدَّ الدكتور « بشر فارس » من أول طلائع هذا المذهب ، وقد أنشأ فيه أكثر من ثلاثين قصيدة . نشر طائفة منها في مجلة المقتطف ومجلة الكاتب المصري ، ورمزيته في هذه القصائد متفاوتة في الغموض ، من ناحية الموضوع . أو الأداء ، فقصيدته « الذكرى[1] » مثلاً التي نشرها في عام ١٩٣٤ تتباين في رمزيتها مع قصيدته « وحي » التي نشرها بمجلة الكاتب المصري عام ١٩٤٦ ، فالأولى غموضها واضح ، والثانية عصية على الفهم ، الأولى فيها كثير من الحياة والموسيقى الطائرة ، والثانية تبدو لنا كتمثال الرخام ، لا روح فيها ولا حياة . والقصيدة الأولى يرمز بهـا إلى ذكرى الحب بأنها ورقة جفّت ، وأن العصفور نزع منها وانزوى ، وعبث بها الطل ، وذرّتها الرياح ، وكمثل هذه الورقة الذابلة ، حبه الذي ذوى وانطوى ، ومال عنه القلب ، وشمت به الذهن فآض ذليلاً ، وولى محترقاً وفيها يقول :

ورقة جفّت على غصن ذوى　　نزع العصفورُ منها فانزوى

عبث الطل بها ثم ارعوى　　نبذتها الريح في عُرض الفضا

* * *

هاخ حبي فضوى ثم انطوى　　مال عنه القلب طلاّب جوى

شمت الرشد به حتى ارتوى　　عضّه الذل ، فولى مرمضا

وربما كانت قصيدته « رحلة خابت[2] » خير مثال للرمزية الحقيقية ، موضوعاً وأداء ، وهو فيها يروي قصة حب أورق في أثناء سفرة له ، ثم ذبل وشيكاً ، وقد عبّر عنه تعبيراً رمزيًّا فيه انتفاضة انفعالية فأخذ يتساءل ألم تسمعوا صوتاً صريع النغم ، هو صوت قلبه ، صوتاً نفثته أضلعه المتضعضعة ، تلك الأضلع التي هفت إلى البرء من ندمها ، في مكان ما ، حيث كفنت الماضي ، وانتهت قصة الحب ، ولم تخلف جراحاً ، فلقد طوى الجراحَ العدمُ ، ومع أن هذا الحب لم يورث صدمة في النفس ولا جُرحاً في الفؤاد ، فلا تزال ذكراه عالقة به ، وقلبه الذي رَمَزَ إليه « بالعَلَم » يهفو إليه ، وأضلعه تنفث الأحلام — ولا يقف الشاعر عند هذا الاعراب الساجي في وصف حبه ، ولكنه ينتفض انتفاضات قوية ، معرباً

(١) قصيدة الذكرى — المقتطف يناير ١٩٣٤

(٢) لندن يوليو ١٩٣٦ — ونشرت بالمقتطف عدد نوفبر ١٩٤٤

عن هذه القصة مرة ثانية ، فيذكر ما يثور بجوانحه من مطمع يضج وشوق يفطمه اليأس ، وصوت قلب(رمز به إلى الشراع) يضعف ويهوى بل يتحطم — وفي هذا القصيد يقول :

أما سمعتم معي صوتاً صريع النغمْ
تلفظه أضـــلعي منخلعات الهمم ؟
أضلع صدرٍ هفا — وما علمْ —
إلى خليج الفنـا من النـــدم

* * *

هنـالك حيث انفصم ماضي العُمُـرْ
فلا . . . . . أثُـرْ (١) طوى الجراح العدم

* * *

في صدري المُقلعِ هفَّ العَـلَـمْ
فانتشرت أضـــلعي تُجرى الحُـلُـم

* * *

أما سمعتم معي صوتاً صريع النغم
واضجَّـة المطمـع من يأس شوق فُـطِـم !
صوت شراع ولى ثم انحطم يا للعلَـمْ
أعيـاه هولُ الفنـا !

فهذا القصيد تَـكـشَّـف جماله عند ما فُـهمت رموزه وهو قصيد وجداني ناشط سريع الحركة ، متنوّع النغم ، لم يصوّر فيه قائله قصة حبه ، ولـكنه صوَّر أثرها في نفسه ، وهذا ما كان يجري عليه — مالارميه — في كثـير من شعره ، وأنه ليقول في هـذا الصدد « لا تُـصور الشيء ، بل الأثر الذي يحدثه » (٢)

وإذا ما انتقلنا الى قصيدته « إلى زائرة » (٣) وجدنا نوعاً آخر من الشعر الرمزي ، هو الشعر الوصفي ، وهو يقوم على ابتداع الصور والـكلمات الفخمة ، والاواذ إلى معانيها

(١) الاثر والاثر = أثر الجرح يبقى بعد البرء
(٢) "Peindre non la chose mais l'effet quelle produit."
(٣) المقتطف ـ مايو ١٩٤٤

الأصيلة . وهـذا ما يزيد الغموض غموضاً . وهـذه القصيدة أثارت خُـلْـفاً بعيداً بين بعض الـكتّـاب ، فنعتها « الزيات » في كتابه « دفاع عن البلاغة » بالمخلوق المشكل الأعجم الذي لا تتبناه العربيـة بنت الشمس المشرقة والأفق الصحو والصحراء العارية والبداوة الصريحة [١] . ولم يكتف الزيات بذلك ، بل أنه أباح في مجلته لقلم متهافت أن يزري عليهـا بل يرمي قائلها بالهرّف واللوثة [٢] وقد ردّ الأديب اللبناني « عبد الله العلايلي » [٣] عليهما ورأى في القصيدة سالفة الذكر ، عمقاً وفنّـاً معجباً ، وأنها أفضل ما قيل في المقلة ، وشرحها شرحاً رائعاً ، كما أشاد بروعتها ، أديب المسرح الـكبير الأستاذ زكي طليمات — وعدّها قصيداً عربيّـاً في لفظه وصوغه ، انسانيّـاً في معانيه ومراميه [٤] وأزاء هـذا الخُـلْـفُ المبين ، والتفاوت المزاجي الخيف ، نثبت القصيد بنصه :

لو كنتِ ناصعـةَ الجبـين ... هيهـات تنفضني الزياره
ما روعـةُ اللفـظ المبين ... السـحر من وحي العبـاره

* * *

ظلٌّ على وهج الحنـين ... رسمته معجزة الاشـاره
خطٌ تساقط كالحـزين ... أرخى على العزم انكساره
ماذا بوجد المحصنـين ! ... صوتٌ شجٍ خلف الستاره

* * *

غيّـبت في الحجب الدفين ... معنىً براعتـه البكاره
درّاً يفوت الناظمـين ... ونهضت تهـديني بحاره
خطواتُ وسواس رزين ... وهـبٌ تُـعمّـيه الطهـاره

فالقصيد ، كما يرى القارىء ، أول وهلة غير مفهوم ، ولـكنه اذا قرأه مرات ، في صبر وفطنة ومحايلة ـ أمكنه معرفة المعنى العـام له ، وهو أنّ الشاعر يتحدث الى زائرة ذات جبين لا يدل على نفس صاحبته ، ولو كان يدل على نفسها ، لما انتفض لزيارتها — ثم ينتقل الى وصف مقلتها فيرمز لها « بوهج الحنين » وإلى جفونها فيرمز إليها « بالخط المتساقط الحزين »

(١) دفاع عن البلاغة ـ ص ١٥٩ للاستاذ احمد حسن الزيات
(٢) مجلة الرسالة ـ يناير ١٩٤٧ (٣) مجلة الاديب ١٩٤٤ (٤) المقتطف — ديسمبر ١٩٤٤

ثم ينتقل الى معنى آخر في أبياته الثلاثة الأخيرة ، يدور فيها حول هالة طلعتها ، فيصوّر مكنونها بـ « العجب الدفين » وأنه درّ يعجز الناظمين عن جمعه ، ولكنه ماجَ على الهالة ، فكأن هذا التماوج خطوات همس متئدٍ وهذه المعاني التي انثالت علينا من قراءة هـذا القصيد مرات ومرات ، تختلف في جزئياتها مع المعاني التي انسابت بخاطر الأستاذ عبد الله العلايلي ، وربما كان لهذه الصور والكلمات ، مفهوماً آخر في ذهن قائلهـا ، والشيء الذي لا ريب فيه أنها سارت سيراً موفقاً مع طريقة — مالارميه — في ايراد صور متتابعة ، ومشابهات عارضة لتجربة مرئية ، أو فكرة من الفكرات [1]

والملحوظ في هذه القصيدة ، أن موسيقاها ، مع جمالها ، قد تأثرت بقافيتها الموحّدة وكان حقّـا على قائلها أن يتحرّر من عبودية القافية ، لتتحرّر موسيقاها وتنطلق .

كما إنه في هذه القصيدة ، وفي غيرها ينظر عند أداء تجاريبه الشعرية بعين الماضي ، ويربط نفسه بالمعاني اللغوية الأصيلة للكلمات ، فنراه يستعمل مثلاً عبارة « ناصعة الجبين » بمعناها الأصيل وهو « الوضوح » لا المعنى العصري المألوف ، ونراه يستعمل كلمات تعتاص على الفهم مثل كلمة « الأثُـر » أو « الوهب » وما ماثلهما ، وهذا المنحى ، وان قصد به اغناء اللغة أو إحياءها ، إلاّ أنه في ـ رأينا ـ يزيد القارىء المثقف جهداً آخر ، يضاف إلى الجهد الذي ينفقه في تعرف رموز الصور ، أو رموز الموضوعات .

وفي هذا إعنات للذهن والأعصاب والحواس ، جميعاً فضلاً عن أنه يجعل نقل التجربة الشعرية أكثر عسراً وصعوبة ، بل في حكم المستحيل .

وعلى أي حال ، فإن الدكتور « بشر فارس » يعد من روّاد الشعر الرمزي ، وأن أهدافه في تجديد الشعر وتطعيمه إياه بالأدب الغربي ، وان اقتصر على محتويات الشعر ، دون أدائه ، فهي أهداف نبيلة يحمد عليها ، وهذه الأهداف أهم عندي من أعماله الادبية ، وان كانت له أعمال شعرية قيمة ، ذكرنا بعضها ، ولا يتسع المجال لذكر البعض الآخر ، مثل قصيدته « الخريف في باريس » [2] و « الى فتاة » [3] وقد يكون من المفيد تسجيل الفقرة الثانية من القصيدة

---

(1) The Disciple of Letters By George Gordon p. 191 — 1946.

(٢) المقتطف ديسمبر سنة ١٩٢٨ (٣) مجلة الكاتب المصري — مارس ١٩٤٧ ص ٢٤٧

الأخيرة ، وهي موجهة الى فتاة ضلّ في تأويل أهواء عيونها ، ورفّات جفونها ، فهو يطالبها بأن تجود عليه بما تخفي خائنة عيونها ، يقول :

بصرّيني يا « وضوح » ! ثروة القطب الخطير
أنا في وهج الفتوح يقظ لكن حسير
خفّ بي كشف طموح وكبا فهمٌ كسير
فسّرت فوحات روح في غيابات الضمير
لحاتٌ قد تبوح بخفيات الأثير
وبه جودي بالشروح يُسْري أنس الغرير

ولو سار الدكتور بشر فارس على نحو هذه الفقرة ، في خفة الأسلوب ، وشفافة الموسيقى ، ويسر المعاني شيئاً ما ، لكان لشعره الرمزي ، شأن خطير .

* * *

والحق ، أن هذا النوع من الشعر ، ينفث في الجو الأدبي ، أنساماً عذبة جديدة ، ويزجي الى النفس والذهن غذاء لا عهد لها به ، وهذا اذا رفعت عنه بعض أحاجي الخفاء والابهام ، وتخفف قليلاً ما من رموزه المتعاقبة ، وصوره المركزة المتكاثفة ، وحبذا لو انطلق من نطاقه الذاتي ، فعبّر عن تجارب خارجية ، وحدّث عن أحوال المجتمع ، وكم فيه من أحداث يجمل في تصويرها الرمز ، ولا يحسن فيها الوضوح والجهر .

وقد أتينا في صدر هذا البحث ببعض الروّاد اللامعين من شعراء هذه الطريقة أمثال بلوك وييتس واستيفان جورج ، ممن كانوا يتناولون برموزهم حياة المجتمع

واذا رحبنا بهذا النوع من الشعر ، فذلك لأنه شق لنا طريقاً غير الذي ألفنا ، أشبه ما يكون بالطريق الجبلي الوعر الملبد بالضباب ، ولكن لا يخلو عبوره من لذة لدى الشجعان المجازفين .

وقد ذاق مثله لبعض عباقرة المشرق من أمثال ابن عربي والخيّام وابن الفارض ، ولاجناح على أدباء الشرق اليوم لو نفذوا الى مثل هذا الطريق ، اذا وهبوا القابلية والشجاعة والرفعة عن الكثافة الدنيوية . وصدروا في تعبيراتهم عن صدقٍ وأمانة وأصالة ، غير

خالطين في صنيعهم الأدبي صوراً يقظة بصور حالمة موحية، ولا كلمات أبلاها الاستعمال، بكلمات جديدة طريفة، كما يفعل اليوم بعض شعراء الشرق الذين يقلدون هذه الطريقة، ويحاكونها محاكاة جريئة عمياء، ولا يمنع هذا من التأثر بأدباء الغرب، على أن يكون هذا التأثر توجيهيّاً، لا يؤثر في استقلالهم، ولا عار على الذين يتطلعون بأبصارهم الى الآفاق الجديدة والعوالم المتغيرة والمذاهب الأدبية المنوّعة، إنما العار كل العار، البقاء على الجمود، والقناعة بينبوع واحد قديم، قد لا تحلو أمواهه لأفواه ناشئة اليوم الظامئة لمختلف الينابيع.

وإذا كان الأدباء الغربيون لا يجدون غضاضة في أن يتأثر بعضهم أدب البعض الآخر، حتى لتكون هذه المؤثرات الأجنبية ضئيلة حيناً، وأساسية حيناً آخر [١] فلا غضاضة علينا اذا جاريناهم في تطعيم أدبنا الشرقي بلطائف آثارهم الجديدة، كما جاريناهم في لطائفهم الرومانتية، على شرط أن لا ننساق في تقليدهم الى حد النقل أو النسخ. ولزامٌ علينا إذن، أن نقف كل نعرة أدبية متعصبة، أو نقدية جائرة، بل علينا أن نفتح صدورنا لدراسة كل مذهبٍ جديد، وإذا خيفت البلبلة من مسايرة مذهب أدبي جريء، فهذه البلبلة إن حدثت فلن تطول، وهي عندي خير من الاخلاد الى الجمود، والقناعة بما ورّثه السلف من قرون وقرون.

﴿ السريالية الشعرية ﴾

وقد يكون من المفيد، أن نلمع الى نزعة أخرى، غير النزعة الرمزية، وهي النزعة السريالية Surrealistic وهي نزعة فنية وأدبية متطرفة الى أبعد حدود التطرف، تدين بالحرية المطلقة والمجازفة المخيفة، والخروج على كل عرف وتقليد، فهي في الأدب تنفر من موضوعات الفكر الجارية، وتحقر الأساليب السائدة في أشكالها وصورها ومجازاتها وكلماتها [٢] وتسخر من العقل ومنطقه، وجلّ إلهاماتها من الأحلام والرؤى ودفعات

(١) الادب المقارن — لفان تيجم — دار الفكر العربي
(٢) What is surrealism? By André Bréton

اللاشعور والتأثرات الماضية . وطريقتها توحيد دوافع اللاوعي بالوعي، والحلم بالحياة ، والرعد بالتهوس !

وهي نزعة فرنسية المولد أوحى بها لوتريامو Lautréamont ورمبو Rimbau وتأثرت ، أول الأمر ، بفلسفة هيجل وسيكولوجية فرويد ، وعن هيجل أخذت نظرته في الديالكتيكية ، وطبقتها ـ كما يقول هربرت ريد الانجليزي ـ على الفن[1]

والمقصود بالديالكتيكية هو التفسير المنطقي لحدوث تغير أو تقدم ما عند سبق وجود تعارض أو تناقض بين مذهبين ، بمعنى أنه عند حدوث تناقض بين مذهبين أو تدافع بينهما تنهض جماعة من الجماعات للخروج من هذا التدافع بحل جديد ، أو مذهب جديد . وهذه الفكرة أخذ بها هيجل وطبقها في المثاليات واحتذاه ماركس وطبقها في الماديات ، وتأثر بها السرياليون وطبقوها على دنيا الفن ، وعند ما اشتد النزاع بين الحلم والواقع في دنيا الفن والأدب ، وطغى الفكر كما طغت المظاهر الواقعية على عالم النفس ، وجد السرياليون الحل في اللواذ إلى اللاشعور ، وفرضوا خيالاتهم على ظواهر الأشياء ، واستعانوا في ذلك بأبحاث العالم السيكولوجي العظيم ـ فرويد ـ وترجموا عن أنفسهم ، لا عن الدنيا التي حولهم وسبحوا ـ كما يقول « أندريه بريتون » ـ في آفاق جديدة لا عهد للاجيال بها ، وكأنما أضاءوا ثقاباً في ظلمات عالم مجهول مليء بالروائع الذهنية . فالحكمة الجارية عندهم خبز متعفن ، والقناعة بغية رخيصة ! والكمال المألوف كسل ! ولا انتاج حقيقي بغير حرية مطلقة بل هوس وجنون !

ففي الحقل الشعري ، تستلهم التجارب الأدبية من الحلم ومن اللاشعور ، وتأدية هذه التجارب لا ضابط لها ولا مقياس ، وإنما تقوم على العفوية أو التلقائية Automatism ، سواء جرى الشعر حراً أو مرسلاً ، أو مقفى ، أو مزيجاً من هذه الانواع . وتسير المعاني والأخيلة سيراً حلزونياً مضطرباً ، تمثل تماماً نفسية الشاعر المضطربة ، وحالته البارانووية Paranoic التي تحمل من التوافه ، دنيا ضخمة معقدة التركيب ، فالناقوس

(1) Surrealism — Introduction By Herbert Reade.

موجود بدار الكتب المصرية تحت رقم ر ٢٠١٩

الكبير في البرج العالي هو امرأة ترقص ! وذراع الرجل الممتدة تمسك السحابة المستديرة ! والسحابة المستديرة هي ثدي امرأة ! والأرض زرقاء كالبرتقالة ! [(١)] والى غير هذه من الصور المثيرة للغرابة ، والدالة على الاضطراب والشرود البعيد بل الهلوسة . وهذه الهلوسة — في اعتقادهم — تخلق الفن الشعري ، وأما الاتزان العقلي فلا يخلق عملاً فنياً [(٢)]

وفضلاً عما تقدم ، فالسرياليون لا يهتمون بالايقاع الموسيقي ولا نظام الكلمات ولا التقفية ، بل همهم منحصر كما قلنا في أن يأتي القصيد عفوياً محضاً ، وكل قصيد غير عفوي وفيه تفكير لا يعيش . ويقول هربرت ريد[(٣)] « إن الشعر الخالد لشكسبير أو بليك أو هوبكنز أو إليوت هو الشعر العفوي الذي نبع من الالهام »

وأولئكم الذين يسخرون من السرياليين — كما يقول الفنان الفرنسي ألوار Eluar — ويرمونهم بالوضاعة المتعجرفة ، إنما يعوزهم الفهم أو تدفعهم الكراهية ، وموقفهم منهم كموقف أولئكم الذين عذبوا جاليلو وأحرقوا كتب روسو وأزروا بوليام بليك ، وقابلوا واجنر بالصفير ، وحقروا بودلير [(٤)]

والذي نراه أن هذه النزعة الجديدة تمد الأدب برؤى جديدة وتجارب طريفة وأخيلة جريئة ، وتحفز الأديب والشاعر الى الجرأة والتحرر ، والطرافة والخلق الجديد ، وهي أنفع ما تكون للادباء الشرقيين الذين أخلدوا إلى التقليد والى المحافظة والى القناعة بالموروث .

ولكن ثمراتها وأنتجتها الشعرية المعتمدة كلية على اللاشعور تبدو لنا كأنها ثمرات طفلة غير قابلة للفهم ولا للهضم ، ومن المحال نقل تجاربها الى الذهن أو الشعور . والناقد الأدبي لا يستطيع أن يرضى عن كثير من موضوعات هذه الطريقة ، ولا عن أسلوبها ، وذلك لخروجها الكلي على الخلق ، وعلى الجمال الأسلوبي .

ولكي نعطي فكرة تقريبية عن أعمال السريالية الشعرية ، نمثل بقصيدتين لاثنين من رجالها ، احداهما للشاعر الانجليزي السريالي « داڤيد جاسكوين David Gascoyne عنوانها

---

(1) Surrealism — By Paul Eluard. p. 221

(2) Surrealism. p. 90 (3) Surrealism. p. 31

(4) Surrealism p. 166 & 167

« دفاع عن الإنسانية » (١)، والثانيـة للفنان الايطالي اليوناني الأصل « جيورجيو دي كيريكو » عنوانها « الليلة » (٢)

وداڤيد جاسكوين سريالي متفرد في انجلترا، وقد كتب في سن السابعة عشرة كتاباً عن السريالية يُعد حجة في هذه الناحية، وله مجموعة شعرية تضعه — كما يقول « استيفن سبندر » — في صف الشعراء الحقيقيين، ونقطف من قصيدته التي تقدم ذكرها قوله :

إن وجه الهوّة مسود بالمحبين ! والشمس من فوقهم حقيبة مسامير ! وعند الربيع، الأنهار الأولى تختفي بين شعورهم ! وجوليات (٣) يغمس يده في البئر المسممة، ويحني رأسه، ويُحس قدمي تحترق عنه . والأطفـال، وهم يصيدون الفراشات، يتلفتون حولهم ويرونه هنـاك، يده في البئر، وجسمي خارج من رأسه، فيخافون، ويلقون شباكهم ويختفون في الحائط كالدُّخان ؟ ! !

* * *

وأما « كيريكو » فهو مصور وشاعر وقد عبَّـر باستلهام نفسـه، والزراية بالمدنية الحاضرة، وفي قصيدته « ليلة » التي أسلفنا على ذكرها نراه يقول :

في الليلة الماضية، هبَّت رياح قوية، اعتقدت أنهـا أتت لتعبث بالأكمام الضيقـة لرجل الدين، وفي وقت الاظلام، الأنوار الـكهربائية، كانت تحترق مثل القلوب . وفي الهزيع الثالث من الليل، استيقظت قريباً من بحـيرة، حيث تنتهي ميـاه نهرين . وحول المائدة، كان النسوة يطالعنَ، والراهب صامتٌ في الظلام، وفي بطء مررت على القنطرة . وفي أعماق المياه الداكنة، آنست سمكاً كبيراً أسود يسبح في أناة . وفي الحال، وجدت نفسي في مدينة عظيمة مربعة، كل نوافذها مغلقة، وفي كل جهاتها صمتٌ عميق، وتأمـل في كل مكان . وعاد الراهب، فرَّ الى جانبي، ومن خـلال ثوبه الـكهنوتي رأيت جمال جسمه الشاحب الأبيض كتمثال للحب . وعند اليقظة، رقدت السعادة بجانبي !

* * *

فهذا القصيد، أن نفذنا بصعوبة الى معنى بعض أجزائه، فانه يستحيل علينا الوصول

(1) Fontaine (Revue Mensuelle) 37—40 p. 444 (2) Surrealism. p 225

(٣) جوليات : المارد الجبار الذي قتله داود

الى هدفه الـكلي ، وربما أمكن المحلل النفسي اكتناه هذا الهدف ، أما قصيد جاسكوين سالفة الذكر فلم نخرج منـه بمعنى جزئي ولا كلي ، وقد ينظر الى القصيدين قارىء آخر فيعدها عبثاً وسخفاً ، وذلك لاستحالة نقل المعنى الكلي الى ذهنـه ، ولـكنَّ القصيدين ، في الحق أثارا عجبنا ودهشتنا البالغـة . واذا كان السرياليون لا يهمهم نُـقلت تجاربهم الشعرية أم لم تنقل ، إنما المهم عندهم إثارة العجب ، فانَّ هذا العجب الذي يريدون ، لن ينهض وحده برسالتهم المتحررة التي يزعمونها ، إذ لا بدَّ من مشاركة الفكر فيها ، ونحن لا ننكر نفع اللجوء الى العقل الباطن واستيحائه ، ولـكننا نرى أن ثمار هذا العقل الباطن ، لا بدَّ أن تمرَّ بميدان العقل الواعي ليهذبها ، ويطهرها من أوشابها ، وصبيانياتها ، ونعتقد أن رقابة الوعي لن تؤثر كثيراً في التلقائيـة التي يهيمون بها ، بل هي خيرٌ لأداء الرسالة التي يتغنون بها .

* * *

وليست النزعة السريالية بدعة غربية ، ولـكن جرثومتها تنبت حيثما توجد النفوس المتناقضة المضطربة ، والشخصيات المصابة بجنون العظمة أو هذيانات الاضطهاد ، أو نحو الحالات . أي أنها توجد في كل مصر وقطر ، وإن اختلفت في الملامح الظاهرية .

ويمكن للناقد المتعمق أن يجد في الآثار الأدبية الشرقية ، شواهد من جوهر السريالية في لباس مغاير ، للسريالية الغربية التي ألمعنا اليها ، وتكاد وجوه أصحـاب هذه الآثار تتكشف لنا من بعض موضوعاتهم المنحرفة ، وإن ارتدت رداء الـكلاسكية أو الرومانتية أو الرمزية . ولا نستطيع أن نتعقب هذه الآثار في الأدب الشرقي ، ولـكننا نكتفي بلمحات من ديوان الشاعر الشـاب « كامل أمين » (١) وهو شخصية سريالية في روحه وفوضاه وإن كان أسلوبه كلاسيكيـًا ، ففي هذا الديوان نراه يعطف على البغيّ ويهبها قلبه ، ويحمل حملة شعواء على بعض الأسمـاء الشهيرة في المجتمع المصري ، ويعبر عن حالته البـارانوية ، واستعلائه الجنوني في مواضع كثيرة من ديوانه ، ومن ذلك قوله في آخر قصيدته « كفاح الى الأبد » (٢) :

(١) ديوان « نشيد الخلود » يوليو ١٩٤٧ (٢) ص ٣٠ من الديوان آنف الذكر

الى الذين سماني فوق عالمهم — وفوق كل عظيم فوقهم قدمي
العائشين مع الموتى مناصفة — كالحلم في العين بل كالدود في الرمم
لئن حييت ومدَّ الله في أجلي — لأسفكنَّ دم الكتاب في قلمي
وأجدعنَّ أنوفاً لو صنعت لها — أنفاً من العاج بعد اليوم لم تقم
ممن أخاف وسيف الله في قلمي — ومن أهاب وصوت الحق ملء فمي؟!

وتمدنا قصيدته « ذكريات ليالي الشتاء » (١) بشواهد حية على هذه الشخصية السريالية حيث يقص قصة حياته مع امرأة لفظها المجتمع ، ويبدي آراءه المناقضة لما اصطلح عليه الناس ، ويزري بما يجري في الدنيا من نفاق ، وقد بلغت هذه القصة ثمانين بيتاً بعد المائتين ونكتفي هنا ببداية القصة ونهايتها ، وأنه ليقول في ديباجة كلاسيكية قوية مشرقة :

لقد كان ذلك في ليلة — مسهدة من ليالي الشتاء
يجيء يقولون عن مدلجيه — صعاليك فساق حي البغاء
تعوّذ من أرضه الصالحون — وينفر من أهله الأتقياء
خرجت من الحان أبغي الطريق — إلى حيث يلقى بطاوشي القضاء
وقد كنت أسمع خلف البيوت — رنين الكؤوس وضحك النساء
وصوت السكارى خلال الدروب — يضجون بين الشجى والغناء
ومن عادة الفوضوي الحياة — طليقاً كما شاء أنى يشاء !

وبعد ان التقى بصاحبته أخذ يقص عليها قصة حياته وشروده عن أبيه ، وأخذت هي تروي له قصة حياتها الاليمة ، وانتهت قصتهما بموتها بين يديه ، وانه ليروي وداعها الأخير يقول :

وفي عصر يوم كئيب السماء — سخي البكاء بدمع المطر
مشى موكب في رذاذ الشتاء — تحاشى الورى واتقى من سخر
أنا والرفات وحمالها — وحفار مرقدها والذِكَر

(١) ديوان نشيد الخلود المتقدم ذكره ص ٩٧ — ١١٥

أنا والرفات وحمالها فكنا الهوى والردى والقدر !
قطعنا الطريق وكان الطـــريق نهاية كل سباق البشر

وهكذا يجري « كامل أمين » على غير وعي منه نحو آراء السرياليين ومبادئهم ، تلك الآراء العجيبة التي لا تحفل بنظام قائم ، ولا ترضى بمدنية كاذبة ولا تذعن لمجتمع يفرق تفريقاً واسعاً بين الغنى والفقر ، ولا تحترم مجتمعاً تقوم منشآته وخلقياته على أسس الظلم والخداع والنفاق، أو على دعوى التقوى المكبوحة أو الطهر المرائي . بل تقوم مبادئهم على تحطيم هذا المجتمع المزيف وإقامة مجتمع جديد يدين بالحب الحقيقي والحرية الطليقة .

وقد ساير هذه الطريقة ، موضوعاً وأسلوباً ، طائفة من مصوّري الشرق وشعرائهم ونذكر من بينهم في مصر الأساتذة رمسيس يونان وله شهرة ذائعة في التصوير ، وجورج حنين وله عدة قصائد سريالية ، وكذا الشبان : كامل زهيري ، وفؤاد كامل ، وعادل أمين ، وكامل التلمساني ، ولهم في هذه الطريقة شعر ونثر عجيبان .

ونكتفي هنا بتسجيل قصيد واحد لجورج حنين عنوانه « انتحار مؤقت » وقد كتبه الشاعر أول الأمر بالفرنسية ، وقد جاء فيه :

« في أعماق الأدراج الزرقاء ، التي رحلت مفاتيحها إلى الاقفال المتوحشة ! . وتاهت خطاباتها في سوق الاعترافات

في أعماق الأدراج الملونة بلون التلمذة ، بين سيجارة ذابلة وصفحتين ، يرجع تاريخهما الى الفضيحة الأخيرة ، يحدث أحياناً أن تلتقط ، شفاه مريرة ، تتلو كلمات قريبة ، تهبط كالحصى ، منحدر الصوت !! »

وعلى مثل هذه الهلوسة جرت بقية الفقرات ، ونحن كما قلنا ، لا نحب هذه الفوضى الأدبية ، وإن كنا نرى أنه من الخير للأدب الشرقي أن يستوحي الوعي والعقل الباطن والفكر والدنيا الخارجية ، ويجمع الى الفكر والعاطفة ، الحيوية والفجاءة ، ويشق الشعر الحديث طريقاً جديداً ، دون تقيد أعمى بمذهب أو نزعة غربية ، كالنزعة السريالية الضيقة التي أوجزنا الحديث عنها وسنتولى نقد هذه الطريقة في بحث قابل

البحث السابع

﴿ نقد الشعر في مصر ﴾

ويقتضينا الانصاف أن نضم الى هذه الأبحاث بحثاً عن النقد الأدبي في مصر في هذا القرن ، وبيان المذاهب التي سار عليها الناقدون المصريون . وذلك تصحيحاً للمعايير الأدبية وإنصافاً للشعراء المنقودين

ويمكننا القول عامةً ، أن أغلب النقد في مصر في هذا القرنساير المذهب الفقهي بمعنى أنه دار كله حول تشريح الأبيات تشريحاً لغويًّا أو عروضيًّا ، دون كشف سحر القصيد جملة ، ولا ما يكمن فيه من انفعال أو عاطفة أو فكر أصيل وما ينبض فيه من موسيقى . وهذا النقد ، ولا ريب يقضي كما أسلفنا في فصل سابق على جوهر الشعر وروحه

ومن مثال هذا النقد نقد الشاعر الكبير أحمد محرم لكلٍّ من حافظ ابراهيم واسماعيل صبري[1] وقد دار كله حول أخطاء صبري وحافظ النحوية واللغوية . وعلى هذا الطراز أيضاً نقد الأستاذ مصطفى الرافعي للعقاد[2] وكذا نقد العقاد للدكتور ناجي

ولم يكن للمذهب الفني الذي ينظر الى التجربة الشعرية والصياغة الفنية . الاّ قليل من الأنصار ، نذكر من بينهم مطران وأبا شادي وناجي ، وقليلاً من أدباء الشباب الممتازين وتراوح نقاد آخرون بين المذهبين الفقهي والفني ، ونذكر من بينهم الدكتور طه حسين والأستاذ احمد الشايب والدكتور محمد مندور .

---

(١) مجلة « أبولو » يوليه ١٩٣٣ واكتوبر ١٩٣٤ (٢) كتاب « على السفود » للرافعي

ولم يوجد بعد في مصر من ساير المذهب الواقعي في النقد ، ذلك المذهب الذي يلقي أكثر اهتمامه الى الموضوع مع تقدير الصياغة ؛ وربما جرى هـذا الاهتمام عرضاً ، على أقلام بعض الناقدين ، كما شعَّ بصيص من هذا النقد في السنين الأخيرة على أقلام بعض الشباب الصاعد

ويحسن بنا قبل تقدير هذا النقد ، أن نذكر ما وصل إلينـا من التآليف النقدية في مصر ، في هذا القرن ، ومنها كتاب « الديوان » لمازني والعقاد ، وكتاب « على السفود » لمصطفى الرافعي ، وكتاب « رسائل النقد » لرمزى مفتاح ، وكتاب « حافظ وشوقي » للدكتور طه حسين وكذا كتابيه « فصول في النقد » و « حديث الاربعاء » ، ثم كتاب « الميزان الجديد » للدكتور مندور ، وكتاب « أصول النقد الادبي » لأحمد الشايب ، وبحث الدكتور اسماعيل أدهم عن مطران . وهذه أشهر كتب النقد في مصر . وهناك كتبٌ غيرها ، ومنها كُتيّب لسيد قطب « مهمة الشاعر في الحياة » وكتيب لمختار الوكيل « روّاد الشعر الحديث » وكتاب آخر « أدباء معاصرون » للرحلاوي ، وكتاب « كتب وشخصيات » لقطب . ويضاف إليها مجلات أدبية فاضت بالبحوث النقدية ، ونذكر منها مجلة السياسة الأسبوعية ومجلة « الامام » ، و « أپولو » ، ومجلة « أدبي » و « الرسالة » و « الثقافة » ومجلتي « الكاتب المصري » ، و « الكتاب » .

وأبادر فأقول ، ان كثيراً من النقدات في هذه التآليف لم تكن مرآة لأدب هذا القرن ، بل كانت مرآة لنفوس الناقدين وانفعالاتهم العنيفة وصورة لخصوماتهم وعدوانهم على القيَم الادبية ، وعبثهم بكرامة المنقودين .

* * *

وأول هذه التآليف كتاب « الديوان » الذي أخرجه المازني والعقاد ، في نقد شعراء الطليعة في هذا القرن وهم شوقي وحافظ وعبد الرحمن شكري . وعند تصفح هذا الكتاب ، نلمس مبلغ آثار التحامل ومدى ظلم هذين الناقدين اللذين جردا الشعراء الثلاثة من كل حسنة !

ومما يؤسف عليه ان نجد الشاعر الممتاز « ميخائيل نعيمه » يحمله التعصب للتجديد ، على امتداح نقدات « الديوان » في كتابه النقدي « الغربال » إذ جاء فيه قوله (١)

(١) — كتاب « الغربال » ص ١٨٩ .

فني العقاد والمازني قد وجد الأدب العربي إجمالاً ، والمصري خاصة ، ناقدين في أيديهما موازين ومقاييس هي من أدق ما عرف في الأجيال الأخيرة من الموازين والمقاييس الأدبية عندنا »(١) ويعزز هذا القول في موضع ثان إذ يقول : « إذا كان العقاد قد فضح شوقي شر فضيحة فشريكه المازني قد أماط اللثام عن اثنين آخرين ، هما شكري والمنفلوطي ، فأرانا الأول شاعراً يتصنع الجنون في نظمه ونثره ، ظنّاً منه بأن الخروج عن الموضوعات الشعرية المطروقة الى الغريبة الآبدة ، تؤهله لأن يدعي مبتكراً ومجدداً ، غير أنه في نظر المازني ما أفلح إلاّ في إثبات جنونه الحقيقي لا المجازي ! »

وتلقاءَ هـذه الآراء المتحيفة ، نرى لِزاماً علينا أن نلقي قليلاً من الضوء على كتاب الديوان دفعاً لما خلّـف من بعض الآثار في الأذهان ، وإنصافاً للشعراء المنقودين

وهؤلاء الشعراء مهما اختلفنا في الحـكم على منزلة كل منهم الفنيـة ، فلن ينكر منصف أنهم ردّوا الى الشـعر العربي نشاطه ونضرته ورواءه ، ومهّدوا أحسن تمهيـد للنهضة الشعرية الحديثة في مصر (٢)

ولن ينكر منصف ما لهؤلاء الشعراء من الدرر الشعرية التي لمعت في دواوينهم قبل صدور كتاب العقاد والمازني وبعـد صدوره ، وما لهم من ديباجة مشرقة وموسيـقى عذبة ومعاني رائعـة ، وقد يكون لهم هفوات وعيوب كما لكل شاعر ، ولكنّ مؤلفيْ « الديوان » لم يجدا للشعراء المنقودين حسنة من الحسنات ، وإنما كل نقداتهم دارت حول السيئات . ومن أمثلة ما جاء في هذا « الديوان » نقد العقّـاد لمرثية مصطفى كامل الشهيرة التي استهلها شوقي بقوله

المشرقان عليك ينتحبان   قاصيهما في مأتم والداني

تلك المرثية الوجدانية الحية الرائعـة الممزوجة بالحـكمة والموسيـقى المدوية آضت في نظر العقاد آية الشعوذة والتفـكك وانعدام الشعور ، واستحالت جميع أبياتهـا في عين الناقد أصدافاً معتلة !

---

(١) كتاب الغربال ص ١٨٩

(٢) كتاب « حافظ وشوقي » للدكتور طه حسين ص ٢٢٢ الطبعة الاولى

والناقد المنصف إذا نظر الى هذه القصيدة من الوجهة السيكولوجية لا يجد فيها مأخذاً اذا تعمق شخصية شوقي . ذلك لأن شوقيًّا كان ينظر الى أحداث الحياة نظرة فلسفية ، فهو لا يبكي على أحداثها ، ولكنه يرتفع عليها ، ويصور عِبرها ، وعلى هذا سار في مراثيه فهو لا يبكي ولكن يتفلسف [١] وهو يصوّر صورة عامة لموضوعه ، ويمزجه ببعض الحكم كقوله في القصيدة آنفة الذكر :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوانِ

فوجود هذا البيت في قصيدة الرثاء هو آية من آيات هذه الشخصية التي تنعكس على الخارج ، وهو ليس مبتذلاً لا حكمة فيه ، كما يقول الناقد ، الذي أبى أن يتجاوب مع منقوده ويتعرّف إلى نفسه .

وإذا نظرنا إلى القصيدة السالفة من الوجهة الفنية ، فقد يرى الناقد المتسرع أنها خالية من الوحدة الأسلوبية ، كما ذكر العقاد في نقده وأطال فيه ، ونحن نرى أن هذه القصيدة من القصائد الوجدانية وأبياتها نبعت من وحي الأسى ، فعدم وجود النقلة المنطقية في مثل هذه القصائد لا يعيبها ، وهذا ما يراه بعض نقاد الشعر الحديث [٢] .

ولسنا ندافع عن هذا القصيد ، أو نؤيد تخلخل الوحدة ، ولكنا ننكر على الناقد وصفه لأبياتها بأنها أصدافٌ معتلة ، وأنها آية الشعوذة بل أننا لنلمس حيويتها ، ونعجب بجوها وموسيقاها ، ونقدّر ما فيها من الحكم العامة ، وإن كنا نعتقد أنها لم تخل من مآخذ ، ومنها ازدهاء الشاعر بنفسه في هذا البيت وأمثاله :

وأنا الذي أرثي النجوم إذا هوت فتعود سيرتها من الدوران

ولكن مثل هذه المآخذ لا تقلل ألبتة من قيمة القصيد الممتاز في جملته ، ويعزز رأينا في جودة هذا القصيد ما قرأناه مؤخراً في كتيب الأستاذ حسن كامل الصير في [٣] خاصًّا بهذا القصيد إذ قال :

---

(١) مقال للاستاذ محمد خلف الله بعنوان « اضواء » بمجلة « الكتاب » ص ١٥٤٠ اكتوبر ١٩٤٧

(٢) يراجع كتاب تاريخ الادب الفرنسي لجرانج Hist. de la Litt. francaise By Granges

(٣) كتاب « حافظ وشوقي » للصيرفي طبع بالمقتطف في مارس ١٩٤٨

« أنها من عيون شعر الرثاء عند شوقي وقد صوّر فيها في دقة تامة ، إحساسه المتفجع في فقد صديق الصبا والشباب »[١].

ومن الغريب حقـاً أن نجد العقاد يستمرىء التعصب لرأيه في شعر شوقي ، فيذكر في مقال أخير له بمجلة الـكتاب[٢] أن رأيه في شعر شوقي لم يتغير كثيراً منذ نيف وثلاثين سنة ، وأنه يرجع فيه الى مقاييس أعم وأوسع من مقاييسه الأولى ، وأنه على مقتضى بعض هـذه المقاييس يرى أن ديوان شوقي مثل « كسوة التشريفة » التي يظهر بهـا الرجل أمام الانظار ، وليس هو من حقيقة حياته في كثير ولا قليل » !

وبمثل هذه الآراء ، يزداد الميزان النقدي اختلالاً ، ولا نقع على رأي منصف للشاعر المنقود ، بعد أن ترك آثاره كلها وديعة لهذا الجيل ، والأجيال القابلة .

ولسنا نستطيع في هذا المجال ، أن نبدي آراء مفصلة في شعر شوقي ، ولـكن يمكن القول إجمالاً ، أن هذا الشاعر الجهير يعد بعد البارودي من روّاد الشعر الشرقي المعاصر ، وهو أبرز شعرائنا المعاصرين ، وأعذبهم لفظاً وأحلاهم موسيقى وأجرأهم تعبيراً ووثبة في قصائده الطليقة ، وله طائفة من المعاني المبتكرة الطريفـة والأخيلة الرائعـة ، وقد برّز في قصائده التاريخية ، ومن بينها قصيدته الهمزية الشهيرة « كبار الحوادث في وادي النيل »[٣] وأما قصائده في الآثار المصرية ، فبعضهـا يعد تحفاً فنية ، ومن بينهـا نذكر قصيدته « أنس الوجود » وقصيـدته توت عنخ آمون ، واليك بعض ما جاء في الأولى وصفاً حيـاً وتصويراً دقيقاً لهذا القصر :

أيها المنتحي بأسـوان داراً كالثريا تريد أن تنقضّـا
اخلع النعل واخفض الطرف واخشع لا تحاول من آية الدهر غضّـا
قف بتلك القصور في اليمّ غرقى ممسكاً بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفينَ في الماء بضّـا سابحات به ، وأبدين بضّـا
مشرفات على الزوال وكانت مشرفات على الكواكب نهضا

(١) كتاب « حافظ وشوقي » لحسن كامل الصيرفي — ص ٢٥
(٢) مجلة « الـكتاب » ص ١٥٠٦ عدد اكتوبر ١٩٤٧ (٣) «الشوقيات» الجزء الاول ص ١

شاب من حولها الزمان وشابت وشباب الفنون ما زال غضّا
ربّ نقش كأنما نفض الصا نع منه اليدين بالأمس نفضا

إلى أن قال :

صنعةٌ تدهش العقول وفنٌّ كان إتقانه على القوم فرضا (١)

فهذه الأبيات ، تمتاز بوحدتها الأسلوبية التي أنكرها العقاد عليه ، وتمتاز بتصويرها الدقيق الذي يكشف عن عقل متعمق ، وهذه الدقة تبين الى حدّ كبير عن ذهنيــة الرجل وهي عنصر من عناصر الشخصية التي أنكر وجودها العقاد ، أما انتقاء ألفاظه ، وتآلفها وتماسكها وحلاوتها ، فهي آية أخرى من آيات كياسة الرجل ، وهي مظهر من مظاهر الشخصية المهذبة كما ذكرنا في بحث سابق

وهذه الميزات تتجلى في قصيدته الثانية توت عنخ آمون التي سبق ذكرها قريباً وقد جاء فيها قوله :

صــورٌ تريك تحــركاً والأصل في الصور السكون
ويمر رائع صمتها بالحس كالنطق المبين
صحب الزمان دهانهــا حيناً عهيداً بعد حين
غضٌّ على طول البلى حيٌّ على طول المنون
خدع العيون ولم يزل حتى تحدّى اللامسين (٢)

وفي رأينا أن شعره الوطني والاجتماعي أقل مرتبة فنية من شعره الوصفي للآثار ، وعلى أي حال فشعره الوطني في مجموعه يتلو شعر حافظ أهمية وقيمة ، ونذكر من قصائده الوطنية القوية « وداع كرومر » وفيها يبدي انفعال السخط والغضب والنقمة منه ، وهــذه القصيدة خلت من الوحدة الأسلوبية ، وشملت كثيراً من الوافدات المحلية ومن أبياتها قوله:

أنذرتنا رقّاً يدوم وذلةً تبقى وحالاً لا ترى تحويلا
أحسبتَ أن الله دونك قدرةً لا يملك التغيير والتبديلا

(١) « الشوقيات » الجزء الثاني ص ٦٨ ، ٦٩ (٢) « الشوقيات » الجزء الثاني ص ١١٨

فرعون قبلك كان أعظم سطوة وأعز بين العالمين قبيلا
فارحل بحفظ الله جل صنيعه مستعفياً إن شئت أو معزولا !

وقصيدته الوطنية في ذكرى دنشواي [١] من روائع الشعر الوطني المحلي وبخاصة الفقرة الثانية منها والتي جرت كالآتي في سلاسة وانفعال موسيقي

نوحي حمائم دنشواي وروّعي شعباً بوادي النيل ليس ينامُ
إن نامت الأحياء حالت بينه سَحَراً وبين فراشه الأحلامُ
متوجعٌ يتمثل اليوم الذي ضجت لشدة هوله الأقدام
السوط يعمل والمشانق أربعٌ متوحداتٌ والجنود قيام
والمستشار الى الفظائع ناظرٌ تدمى جلودٌ حوله وعظام
في كل ناحية وكل محلةٍ جزعاً من الملإ الأسيف زحام
وعلى وجوه الثاكلين كآبةٌ وعلى وجوه الثاكلات رَغامُ

وأغلب هذه القصائد الوطنية مطبوعٌ بالطابع المحلي ، وليس فيها من الحقائق الباقية ، إلاّ القليل ، وهو الذي تتناقله الأجيال ، ويخلد به الشعر وهذه الحقائق نجدها كالجواهر اليتيمة في ثنايا القصائد ، ومن نماذج ذلك قوله في قصيدة « نكبة دمشق » [٢]

وللأوطان في دم كل حرٍّ يدٌ سلفتْ ودَيْنٌ مستحقُّ
ومن يسقى ويشرب بالمنايا إذا الأحرار لم يُسقوا ويَسقوا
ولا يبني الممالك كالضحايا ولا يُدني الحقوق ولا يُحقُّ
ففي القتلى لأجيال حياةٌ وفي الأسرى فدًى لهم وعتقُ
وللحرية الحمراء بابٌ بكل يدٍ مضرجةٍ يُدَقُّ

وعلى هذا الطراز تلوّن شعر شوقي الاجتماعي باللون المحلي . ومن نماذج ذلك قصيدته « عبث المشيب » [٣] وهي حملة على كبار الأسنان الذين يتزوّجون بالفتيات الأبكار ، ومما جاء فيها قوله .

---

(١) الشوقيات الجزء الثاني ص ٣٠١ و٣٠٢ (٢) الشوقيات الجزء الثاني ص ٩١
(٣) الشوقيات الجزء الاول ص ١٥١ .

المال حلل كلّ غير محالٍ حتى زواج الشيب بالأبكار
سَحَر القلوبَ، فربّ أمٍّ قلبها من سحره حجرٌ من الأحجار
دفعت بنيّتها لأشأم مضجعٍ ورمت بها في غربة وإسار
وتعللت بالشرع . قلت كذبتهِ ما كان شرع الله بالجزار
ما زُوِّجت تلك الفتاة وإنما بيع الصبا والحسنُ بالدينار

وليس في شعر شوقي من الحقائق الاجتماعية الباقية إلاّ النادر . ومن ذلك قصيدته « مصاير الأيام » [1] وهي تضم حقائق عامة باقية عن مراحل حياة الانسان من الطفولة ، فالشباب ، فالمشيب ، ومن ذلك وصفه للطفولة .

عصافير عند تهجّي الدرو س مهار عرابيد في الملعب
خليون من تبعات الحيا ة على الأم يلقونها والأب
جنون الحداثة من حولهم تضيق به سعَة المذهبِ

ثم ينتقل الى وصف الطفولة الغريرة ودور الايفاع والشباب فيقول في ابداع :

فياويحَهم هل أحسوا الحيا ة قد لعبوا وهي لم تلعب
تجرّب فيهم وما يعلمو ن كتجربة الطب في الأرنب
سقتهم بسُمٍّ جرى في الأصو ل وروّى الفروع ولم ينضبِ
ودار الزمان فدال الصّبا وشبّ الصغار عن المكتبِ
وجدّ الطّلابُ وكدَّ الشبا ب وأوغل في الصعب فالأصعب

ثم ينتقل الى الرحلة الأخيرة فيقول :

وخدّش ظفر الزمان الوجو ه وغيّض من بشرها المعجب
وغال الحداثة شَرْخُ الشبا بِ ولوشيت المُرْدُ في الشُيَّب
سرى الشيب متئداً في الرءو س سُرَى النار في الموضع المعشب
حريقٌ أحاطَ بخيط الحيا ة تعجبت كيف عليهم غبي
حياة يُغامر فيها امرؤ تسلّح بالناب والمخلب

---

(١) الشوقيات الجزء الثاني ص ١٨٢ — ١٨٦

وقد أعجب بهذه القصيدة الأستاذ « محمد روحي فيصل » ونظر اليها نظرة فنية ، مطبقاً عليها نظرية « مولنييه » Moulnier [1] النقدية ، فقال ان هذه القصيدة أروع مثال على صناعة الابداع في الشعر العربي الحديث ، وان شوقي عرف كيف يبلغ بالشعر في هذه القصيدة الى أعلى ذروة التوفيق ، وأكاد أقول الكمال ! [2]

ونحن لا نستطيع أن نجاري هذا الكاتب الاديب في بلوغ هذا القصيد مرتبة الكمال، ولعلّ هذا التقدير هو تفسير لنفسه النبيلة ، لأن القصيدة ليست من التجارب الانسانية العظيمة ، وليست صياغتها كلها بالرائعة .

وإنا اذا كنا أطلنا في ذكر حسنات شوقي ، فذلك حبًّا في إنصافه، وفي دحض النقدات الكليلة لشعره . ولا يمنعنا هذا من تسجيل بعض النقدات لشعر هذا الرائد الكبير ، ومنها ما يتصل باتجاهاته ومنها ما يتصل بصياغته . فمن اتجاهاته التي لا ترتضيها ولا يرتضيها النقد الفني الحديث ، امتلاء دواوينه بشعر الامداح ، وتمجيد ذوي النفوذ والسلطان ، والثورة على من ينالهم بأي سوء ، وهو بهذا يذكرنا بشعراء الاقطاع الذين استهدفوا دائماً تمجيد الأشخاص [3] وكذلك امتلاء شعره بشعر المناسبات ، المناسبات الضيقة التي لا تدفعه الى وصفها عاطفة حقيقية .

أما عن تعبيره الفني ، فكثير من شعره كان خالياً من التجربة الشعرية، أو كان مشوش التجربة ، أو مضطربها ، ومن شواهد ذلك نذكر مثلاً قصيدته في ذكرى الرسول التي وسمها بذكرى المولد [4] ففيها يقدّم لهذه الذكرى بأكثر من أربعين بيتاً ، مشحونة بالغزل والحكم والمواعظ ! ثم يعقب بلمعات عن الذكرى في أقل من خمسة وعشرين بيتاً ! وفي هذا ما فيه من الاخلال بالتجربة الشعرية — وكذلك سار الشاعر في قصيدته « مشروع ملنر » [5] فقد بدأها بالغزل ! ثم تحدث بعد ذلك في السياسة . ويتجلى توزعه الشعري

(١) هو تييري مولنيه Thierry Moulnier صاحب كتاب « المدخل الى الشعر الفرنسي » Introduction à la Poésie Francaise

(٢) مجلة الكتاب ص١٦٢٣ – اكتوبر ١٩٤٧ مقال بعنوان « صوت من الغرب » للاستاذ محمد روحي فيصل من حمص (٣) Litt. & Society By David Daiches.

(٤) الشوقيات الجزء الاول ص ٦١ (٥) الشوقيات الجزء الاول ص ٦٤ – ٦٧

في قصيدته « رمضان ولى »(١) التي احتفى في نصفها الاول بالكأس ووصفها أجمل وصف ، ثم تولى في نصفها الثاني يمتدح الخديو عباس الثاني ! وليس هذا من التوفيق في شيء .

وقد يروح في الوهم أن شعر شوقي كان يجري على هذا النسق دائماً ، ولكن الحقيقة أن لشوقي بعض التجارب الشعرية الموفقة ، وأحسن تجاربه هو قصيدته « غاب بولونيا »(٢) وهذه القصيدة لو أضيف إليها خواطر أكثر مما جاء بها لبلغت القمة ، ومما جاء فيها قوله :

يا غابَ بولونٍ ولي ذممٌ عليك ولي عهودُ
زمنٌ تقضى للهوى ولنا بظلك هل يعود ؟
حلمٌ أريد رجوعه ورجوع أحلامي بعيد
وهبُ الزمان أعادها هل للشبيبة من يعيد
يا غابَ بولون وبي وجدٌ مع الذكرى يزيد
خفقت لرؤيتك الضلوع وزلزل القلب العميد
هلاَّ ذكرتَ زمانَ كنا والزمانُ كما نريد
نطوي إليك دُجى الليالي والدجى عنا يذود
فنقولُ عندك ما نقول وليس غيرُك من يعيد
نطفي هوًى وصَبابةً وحديثُها وترٌ وعود
نسري ونسرح في فضائك والرياح به هجود
والطير أقعدها الكرى والناس نامت والوجودُ

فهذه القصيدة تكاد تكون منقطعة النظير في شعر شوقي ، وقد أعجب الأستاذ شفيق جبري (٣) بها ونظر إليها من زاوية غير التي نظرنا إليها ، فهو يرى فيها ، شاهداً فريداً من شواهد اتصال شوقي الروحي بالطبيعة ، وانضمامه الى الغاب بما يختلج به قلبه ،

(١) الشوقيات ـ الجزء الاول ص٩٢ (٢) الشوقيات ـ الجزء الثاني ص٣٠ و ٣١

(٣) مقال للاستاذ شفيق جبري بمجلة الكتاب عنوانه « في محراب الطبيعة » ص ١٥٢٨ ـ ١٥٣٩ ـ اكتوبر سنة ١٩٤٧

وهذا الاتجاه الروحي قليل جداً في شعر شوقي في الطبيعة لأن أغلب شعره فيها اقتصر على مجرد وصف مظاهرها وهذه نظرة نقدية صائبة .

وفضلاً عما تقدم ، فان صياغة شوقي لم تكن مستقلة في الغالب ، بل هي محاكاة للصياغة الكلاسيكية التي ألقت ظلالاً على شخصيته وصيرتها شخصية مصبوبة في شخصيات القدامى كما يقول الأستاذ محمد صبري

ولا نستطيع بعد هذه الوقفة الطويلة أن نتحدث عن عناصر صياغة شوقي من خيال وانفعال وألفاظ وموسيقى ، وجملة القول فيها أن خيالاته مستوحاة من أدب القدامى وقليل منها من الأدب الغربي ، أما انفعالاته الشعرية فقليلة جداً ، لأنه ما كان ليثور إلا لأمر بالغ الخطر . وموسيقاه متراوحة بين العذوبة والقوة ويأخذ الأذن منها دويها وضخامتها وحسن اختيار الرنين . وموسيقاه الطروب التي ينظمها في بحور راقصة ، سريعة الوحدات ، موسيقى آسرة كما نجد ذلك في مثل قصيدته « نجاة سعد » التي استهلها بقوله :

نجا وتماثل ربانها ودقَّ البشائر رُكبانها
وهلَّل في الجوّ قَيْدومها وكبَّر في الماء سكّانها

أما موسيقاه في بعض شعر الرثاء التي صاغها في بحور قصيرة فغير موفقة ، لأن الأبحر القصيرة لا تنسجم كما يقول الأستاذ « عبد الوهاب حمودة » ، مع موقف الرثاء (١)

وشعره مزاج من الكلاسيكية العميقة والرومانتية الخفيفة والواقعية الحلية ، وكله من شعر الوعي واليقظة ، ولا نعرف له من القصائد التي تخاطب النفس الباطنة ، أو القصائد الهامسة شيئاً . وليست العبرة باليقظة أو الغفوة ، أو الهمس إنما العبرة ، بإجادة التعبير عن التجربة الشعرية كما أسلفنا .

ونعود ، بعد هذه الجولة الطويلة ، إلى ما كنا بصدده ، لنطالع نقد المازني في كتاب « الديوان » الذي اختصَّ به الأستاذ الشاعر عبد الرحمن شكري ، فلقد كان المازني في هذا النقد ، على غير المعهد به ، يلبس جلد النمر ويتجهم تجهماته النادرة ،

(١) مجلة الكتاب ـ عدد اكتوبر سنة ١٩٤٧ ص ١٥٢٧

وبيان ذلك أن شكري وهو من أعلام الشعر في مصر، وممن أتحف الأدب العربي بطائفة من الروائع، وجدّد في الصياغة، قد أصبح لدى المازني « صنماً ولا كالأصنام » ألقت به يد القدر العابثة في ركن خرب على ساحل اليم ! لا، بل قد أصبح مجنوناً ! وفكره يتجه دائماً إلى خواطر الجنون ! لا، بل هو « هزأة السخفاء » وما إلى هـذه من نعوت نازلة ممجوجة، يأباها أدب القلم، وأدب النفس.

ولقد حاولنا أن نقع في هذا النقد على أثارة فنية، فاذا بنا نصطدم بعريضة فياضة من مثل ما ذكرنا من العبارات، وعلى نصيحة منكودة من النـاقد النصوح للشاعر المنقود بهجر الشعر !، إيثاراً لنفسه، كما قال الناقد، وفوزاً بالراحة، ونصُّ هذه النصيحة كما جاء على قلم المازني، هو :

« ولقد سبق لنا أن نبهنا شكري إلى ما في شعره من دلائل الاضطراب في جهـازه العصبي، وأشرنا عليه بالانصراف عن كل تأليف أو نظم، ليفوز بالراحة اللازمة له أولاً ولأن جهوده عقيمة، وتعبه ضائع ثانياً » [١]

ومثل هذه الأقوال لن تؤثر فتيلاً في الشاعر الفنّـان، وشكري في رأينا هو من روّاد الشعر الحديث في مصر، بعد مطران. وشعره هو الحد الفاصل بين الكلاسيكية والرومانتيكية، فله موضوعاته المستقلة، وأفكاره الجريئة وله صياغته المتحررة نوعاً، وقد سبق أن سجلنا في هذه الرسالة نموذجاً من صياغته المرسلة في قصيدته « نابليون والساحر المصري » [٢] وقد تأثر باتجاهاته أسلوبيـّـا وموضوعيّـا بعض شعرائنا المصريين ومن بينهم العقاد، كما سنبين فيما بعد.

ولا نستطيع في هذا البحث دراسـة شعـره ولكننا نكتفي هنا بذكر بعض نماذجه، ونذكر من بينها قصيدته « حلم البعث » [٣] التي يسخر فيها من رذائل الناس التي لا تفارقهم حتى عند ما يبعثون ويهبون من القبور، وفيها نلحظ جرأة فـكرية غير معهودة في جيله وقد جاء فيها :

---

(١) « الديوان » للمازني والعقاد ص ٦٢ (٢) تراجع صفحة ١٢١ من هذه الدراسـة.
(٣) ديوان عبدالرحمن شكري — الجزء الثالث ص ٣١ و ٣٢

مرّت عليّ قرون لست أحفظها عدًّا كأن مرّ بي الآباد والقدمُ
حتى بعثت على نفخ الملائك في أبواقهم وتنادت تلكم الرمم
وقام حولي من الاموات زعنفة[١] هوجاء كالسيل جمٌّ لجه عرم
فذاك يبحث من عين له فقدت وتلك تعوزها الأصداغ واللمم[٢]
وذاك يمشي على رجل بلا قدم وذاك غضبان لا ساق ولا قدم
وربّ غاصب رأس ليس صاحبه وصاحب الرأس يبكيه ويختصم
جاءت ملائكة باللحم تعرضه ليلبس اللحم من أضلاعنا الوضم[٣]
رقدت مستشعراً نوماً لأوهمهم أني عن البعث بي نوم وبي صمم
فأعجلوني ! وقالوا قم فلا كسل ينجي من البعث إن الله محتكم
استغفر الله من لغو ومن عبث ومن جناية ما يأتي به الكلم

فهذه القصيدة هي من روائع شكري ، وهي متحررة في فكرتها ، جزلة في صياغتها ، وهي عندي من أبدع تجارب شكري الشعرية ، وموسيقاها الطويلة الوحدات موسيقى موفقة متوائمة مع الفكرات الفلسفية والتأملية التي تنسجم مع البحور الطويلة ، ولا نجد هذه الصياغة ولا هذه الموسيقى في كثير من شعره التفكيري الذي لا يتنفس الرقة والعذوبة .

ولما كان في شعر شكري ثورة على الكلاسيكية وعلى الشعراء الحفريين . فقد انبرت له جماعة من الشانئين والحاقدين توجه اليه النقدات السوداء ، فضاق بهم شكري ووصف أحدهم « بالصرصور » [٤] ووصف نقدهم « بالنقد القذر » ولا ندري من عنى الشاعر بالصرصور ولا الى من وجه مقطوعته الثانية . وفي الاولى يقول :

يأيها الشانىء [٥] المغرور يشتمني أرفق بنفسك ليس الشتم يؤذيني
أبعد شدويَ بالآيات يا عجباً وبعد مسعاي[٦] في الغر الميامين

(١) زعنفة : مفرد زعانف ، وليست في المعاجم
(٢) اللمة بكسر اللام . الشعر الذي يجاوز شحمة الاذن
(٣) الوضم : كل شيء يوضع عليه اللحم .
(٤) ديوان شكري ، الجزء الخامس ص ٧٨
(٥) الشانىء المبغض
(٦) سعي في = هرول

يتاح لي منك صرصور يناوئني   بالرجس والنتن يا صرصور ترميني

وفي المقطوعة الثانية يقول :

نقدك هذا وضر[1] الزيت   لوّثْ به ما شئت من بيتِ

يغسله الدهر بأمواجه   إذ أنت فيه طعمة الموت

شعري مثل الدهر في صبوته   وأنت غرٌ خافت الصوت

وليس غريباً أن يثور المحافظون على مثل هذا الشاعر المجدد حتى ليوصف بالجنون ! ولمَ لا ، وهو يتقدم الصفوف في الاعراب عن آراء جريئة في بيئة جامدة متزمتة ؟ وشاهد ذلك « حلم البعث » التي سبقت قريباً وقصائد أخرى من طرازها ، مثل قصيدة « الملك الثائر »[2] وهو يصف فيها مَلَكاً ثار على ربه وعصاه لانه يخلق الرزايا ، ويرضى بالخير والشر في دنيا الناس فهبط الأرض ليمحو الشقاء ويمسح الدموع ، ويضمد الجراح ، فما يكاد يعلن في الناس رسالته ، حتى يهب في وجهه الأشرار كالغيلان ، ويرموه بكل عاب ، وهو مندفع في رسالته غير آبه – وانه لكذلك إذ بالأبرار يصدمونه ، ويقفون في وجهه ويطلبونه وهنا يبكي الملك ، ويأسى على فعلته وعلى عصيان الاله — وحينئذٍ يناديه ابليس فيصب في رأسه حديثاً فلسفياً عن الشر والخير وبعده يصبو الملك الى العودة الى الملأ الأعلى فيرد عنه ويلبث في حيرة وحسرة وانكسار ! فمثل هذا القصيد قد يثير ثائرة السطحيين الذين لا يدركون أن الشاعر يرمز بهذا القصيد الى اقتران الشر بالخير ، وان الباحث في سر الحياة مثله مثل الطفل الذي يهوي الامساك بأفلاك السماء .

ويستحيل علينا أن نورد هذا القصيد كله وقد زاد على الخمسين بيتاً ، ولكنا نقطف منه بلا ترتيب هذه الأبيات :

نبئت أن ملاكاً ثار من حزنٍ   يسائل الله في خلق الرزيئاتِ

تكلم الشر[3] فابعث منك هاتفة   من الجوامع ترضى في المناجاة

الأرض منبره وهو الخطيب بها   يدعو النفوس الى هوج المطيات

(١) الوضر : الوسخ (٢) الديوان السابع « أزهار الخريف » من ص ٣٧ — ٤٠

(٣) يقصد بالشر : الشيطان

فارحم مسامع لم تسمع نجيّك أو نفساً اضوئك ترنو في الخصاصات
وارحم عيوناً الى مرآك طامئة آبت من النحس في غلك كايلات

* * *

حتى أرى الناس لا دمع ولا حزن ولا شقاء بأجرام وغمات
سأبلغ الأرض آسي مثلما حزنوا وأبرىء الناس من جرح البليات

* * *

ثارت به الناس كالأغوال يقدمهم اليه كل عريق في الجهالات
ومزقوه بأظفار كما خضبت فواتك الوحش من دامي الفريسات

* * *

ما راعه أن رأى الأشرار ترجمه وإن توجع من وقع النكايات
حتى إذا ما رأى الأبرار تظلمه غرارةً ، وانصياعاً للسعايات
بكى أ لبغض ذوي خير وما منيت نفس بأوجع منه في العداوات

* * *

ناداه في النار إبليس فقال له هوّن عليك ولا تولع بإعنات
قد شاء ربك أنّ الشر عدّته في صنعه الخير في قدر وميقات
أنا الشقي بما لم أجنه أبداً من خلق نفسي ومن آثام زلاّتي

* * *

خلقت روحه كالطير سابحة في الجوّ تنشد مخضر النباتات
طارت الى الملأ الأعلى فما لقيت لها قراراً ولم تظفر بمهواة

ويقول الانصاف ، أن شكري بما وُهِبَ من شعور متقد ، قد أتحف الأدب العربي بشعر وجداني وفير ، والمتصفح لدواوينه السبعة يجد عشرات من القصائد الغزلية والوجدانية ، ومن ذلك مثلاً قصيدته « حمّام الكازينو باسكندرية »(١) أو قصيدته « يا وضيء البسمات »(٢) ففي الأولى يمزج بين الوجدان ومرائي الطبيعة فيقول .

ماذا دهى القلب من الـ أشجان يوم الأحدِ
حيث الغواني فتنة آخذة بالجلد
حالية كأنها آتية عن موعد

خاطرة في مهل كمشية المقيّدِ
تهتز في مشيتها كهزة المسوّد
باسمة ضاحكة كالبلبل المغرّد
ثيابها خافقة كالنَّفَس المردّدِ

* * *

والبحر لا تحدّه إلّا بطول الأبد
كأنه ذو دولة مُكلَّل بالزبد
مياهه ممتدّة مثل امتداد الأمد
منبسط منقبض كالعاذل المفنّد

* * *

ظلالها واقعة في مائه المرتعد
كأنها أطرافها دوام المنتقد
عابثة بمائه مائلة على اليد
كأنما أعضاؤها مخلوقة من غَيَد (١)
فقدّها معتدل مقوّم من أود
وخصرها مختبىء في قدّها المنعقد
وشعرها منتثر كالذهب المبدّد

وفي القصيدة الثانية نسمع شعراً وجدانيّاً لا ندري هل هو من وحي إنسان بعينه، أو من تصوير البصيرة المتعمقة في أغوار النفوس، وفي كلا الحالين، فالقصيدة بلغت ذروة الابداع، ومما جاء فيها :

يا وضيء البسمات وحي الوجناتِ
ليت لي منك ائتلافاً كائتلاف النغمات
أنت في الدّهر ابتسام كابتسام الزهرات

(١) الغيد بفتحتين : النعومة ـ وامرأة غيداء : ناعمة .

كل كون كان أو لم يك من ماضٍ وآتي
فيك لي منه أماني النفوس الساميات
أنتشي منك بلفظ مثل طيب النفحات
هو موصول بقلبي في وجيب الخفقات
خلت أن قد كنت أحببتك من قبل الحياة

* * *

وفضلا عما تقدّم ، فلشكري شعر متجاوب مع روح الطبيعة ، وقد سبق به جيله الذي كان لا يعرف إلاّ التصوير الحسي لها ، ومن نماذج ذلك نذكر على سبيل المثال قصيدته « حديقة » في ديوانه الأول. وقصيدته « الروض بالليل » (١) بالديوان ذاته ، وقصيدته « الظلال » بديوانه السابع (٢) وفي القصيدة الثانية نجد طلاقة بيانية متجاوبة مع أحياء الطبيعة. وإنه ليقول :

نزلنا ليلة بالروض نسعى ... كسعي العامدين الى يسار
إذا لاحت أوائله ابتهجنا ... كأنا قد نجونا من إسار
أمنّا صولة الأيام لما ... رأينا الروض محمود الجوار
إذا ظمىء الفؤاد الى بهاء ... فانّ الروض يذهب بالأوار
شربنا باللواحظ ما رأينا ... من الحسنات والطرف الكثار
بهاء آخذ بالنفس يسطو ... بمثل الخمر مأمون الخمار
يميل الغصن من طرب الينا ... كأن الغصن مخلوع العذار
ومرأى النجم من خلل الغصون ... كمرأى الحسن من خلل الستار !

ولم يخلُ شعر شكري من الوطنيات ، ومن الحض على التمرد على الظلم ، ولكنه لم يكن في هذه الناحية صريحاً ، بل كان رامزاً ، وقد وقعنا له على درّة من شعره في آخر الديوان السابع ، وهي قصيدته « هزّ الأنوف » ، وهي قصة تجمع بين الجدّ والهزل ، قصة طاغية ، أمرته نفسه الهوائية على أن يفرض على الناس أمراً مضحكاً ، هو أنهم يهزّون أنوفهم في

(١) الديوان الاول ص ٥٧ (٢) الديوان السابع ص ١٤

الصباح وفي الليل ! فأطاع الناس أمره خشية جبروته وبطشه ، ولكن رجلاً أنوفاً أبى إطاعة الأمر ، وقام منتقضاً على الطاغية هازّاً أنفه له ، وصائحاً في الجمع المشدوه ، لو أطعناه في مثل هذه الصغيرة ، جنح الى الكبيرة ! وقد جرت القصيدة على هذا النحو :

لقد جاء في الأخبار أن مملكاً حمته العوالي والسيوف البواتر
رأى في يسير الظلم خيراً لخابر فكان قضاءً أن تهز المناخر
صباحاً إذا ما الشمس ذرّ شعاعها وليلاً وفي وكر الكرى منه طائر
ومن لم يرد في يومه هزّ أنفه مطيعاً تولته السيوف البواتر
فقال جبان القوم في الحزم عصمة ومن ذمّ شرّاً أزعجته المقادر
وماذا على من هزّ يا قوم أنفه مطيعاً إذا لم يعص ما سنّ آمر
فقام اليه نافمٌ هزّ أنفه وقال وقد مدّت اليه النواظر
اذا نحن طامنّا لكل صغيرة فلا بدّ يوماً أن تساغ الكبائر !

ومن هذه النماذج القلال ، يتضح للناقد المنصف أن شكري لم يتحف الأدب العربي بالموضوعات الوجدانية حسب ، ولكنه أتحفه بأدب الطبيعة والأدب الواقعي من أربعين سنة تقريباً ، وانه طعّمه بالموضوعات الجديدة التي استوحاها من شعراء الغرب وبخاصة الشعراء الرومانتيكيين أمثال شيلي وبيرون .

واذا كنا قد حاولنا تقدير شعر شكري في هذه الالمامة فلن يمنعنا هذا من القول بأن هذا الشعر لم يخل من محاكاة القدامى واحتذائهم في الفكر أو الوزن والروي ، وان صياغته في بعض الأحيان اكتنفها الجفاف وندّت عنها الموسيقى العذبة . وأظهر مثال لما وقفنا عليه في هذه المحاكاة قصيدته « الهوى » بديوانه الأول [1] التي جاء فيها :

راحة الهوى تعب واحتماله عجب
لم يدع بنا رمقاً انّ صدقه كذب
وأعزّ مطلبه أن جده لعب

وهي مجاراة مكشوفة لقصيدة الحسن بن هانىء التي استهلها بقوله :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب

(١) الديوان الاول لشكري ص ٦٣

ومما يؤخذ عليه أيضاً في هذا الصدد ، تقليده القدامى في كثير من شعر الغزل ، ذلك الشعر المطلق الذي يسير على منواله بعض النظّامين الحديثين في مصر ، ومن شواهده نذكر ما جاء في قصيدة شكري « في الغزل » (١) حيث يقول :

جعلت فيك على العلاّت آمالي   لما انتزعت حديث اليأس من بالي
ورحت أدأب والآمال تسعدني   حتى سئمت على الآمال أحوالي
وفاتني الحظ منبوذاً بمنزلة   ينم فيها الهوى عن راحة السالي
حسبت دمعي قرى والشوق منتجعاً   وخلت قلبي طبيباً والجوى صالي

فمثل هذا الشعر المطلق ان جمل منذ أربعين سنة ، فهو لا يجمل اليوم ، وإذا عُذر قائله في زمن نظمه ، فلن يُعذر من يسير اليوم على نهجه

وعلى أي حال ، فان مثل هذه المآخذ ، لن تقلل ألبتة من حسنات هذا الشاعر الرائد ، الذي لم يجد من ينقد شعره نقداً بريئاً ، وإذا كان المازني أساء متعمداً الى هـذا الشاعر في كتابه « الديوان » لدوافع نفسية لا نعرفها ، فقد أدرك اسرافه في التهجم ، وخفته الى التحرش ، فعاد بعد سنين ، وكتب ، يستنكر غضباته ، مُقراً ألمعية شكري وفضله وتفوقه (٢)

ونميل الى الاعتقاد أن نقد المازني في الديوان لن يؤثر ذرة في شعر شكري ، لأنه صدر من المازني وهو في سن باكرة ، لم يتوفر له فيها القدرة على الحكم ، ولأنه من جهة أخرى صدر عن انفعال نفسي أهوج ، ويؤيد هذه الحقيقة ، تقدير المازني نفسه لشكري في ديوانه الذي ينعت فيه شكري بالشاعر الجليل (٣) وينعته العقاد في ديوانه بالشاعر العبقري (٤)

وإذا كانت لنا أمنية ، فهي أن نجد من أدباء هـذا الجيل ، من يدرس شعر شكري دراسة وافية عميقة ، بعد أن غُمط من جيله ، وحتى لا نعود نسمع من شكري تلك الحسرة

(١) الديوان الاول ص ٣٩
(٢) جريدة البلاغ أواخر عام ١٩٣٤   (٣) ديوان المازني (ص ٣٠) الجزء الاول مطبعة البسفور
(٤) ديوان العقاد (ص ٣٤٨) أربعة أجزاء في مجلد واحد المطبوع بمطبعة المقتطف والمقطم ـ ١٩٢٨

المشجية على ضياع شعره، وازورار الأدباء عنه في قصيدته « الشعر البابلي المجهول » (١) والتي يقول فيها : —

يا غريبَ الدار عن وطني ناظراً في غابر الزمن
هل سمعت اسمي وما نقل الـ ـركب عن شعري وعن فطني
أنسكتُ الأطلال علَّ بها أثراً قد خطَّ في الدمن
قد وصفتُ الحسن أجمعه لم أدع في الكون من حسن
وبحثتُ النفس قاطبةً لم يفتني أيما شجن
ولكم ألحتُ مضطغناً عائباً قولي من اللحن
سهر الأقوام واختصموا فيَّ من راض ومضطغن
كل ما قد صاغه عرب أو من الأفرنج ذو لسن
صغته من قبلهم فعفا وكأن الأمر لم يكن

* *

لم أدع معنى لذي أدب عالقٌ بالشعر مرتهن
فاستباح الدهر من أدبي ما استباح الدهر من وطني
بابل الأملاك ما عمرت مثلها في سائر المدن
درست من بعد ما لبثت حقباً مشهورة السنن
بعد ما كانت خمائلها فتنة تربو على الفتن
بعد ما دان الزمان لها فكأن الدهر لم يدن
واستوى في الترب ذو لسن وذوو الأعياء واللكن
يا غريب الدار عن وطني باحثاً في دارس المدن
هل سمعت اسمي وما نقل الـ ـركب عن شعري وعن فطني

(١) ديوان الاسكندرية (ص ١١١ و ١١٢) ـ لجاعة نشر الثقافة ـ اخراج علي محمد البحراوي سنة ١٩٣٥ .

الشعر المعاصر
على ضوء النقد الحديث

بقلم

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٨

وأعقب كتاب الديوان ، كتاب مصطفى صادق الرافعي « على السفود »[1] ويخيل الي أن من بواعث اخراج هذا الكتاب النقدي ، مقالاً كتبه العقاد عن الرافعي في الديوان بعنوان « ماهذا يا أبا عمرو » نعته فيه بالببغاء ! وادّعى فيه أن الرافعي قد انتهب من مقال له بعض معانيه ، فجاء على « السفود » نقداً عنيفاً لشعر العقاد ، نقداً يأباه أدب القلم . وهكذا تفعل المهاترات !

وأغلب نقد الرافعي فقهي إذ اقتصر على الصياغة ودار حول الألفاظ وتضمن تشريح الأبيات بيتاً بيتاً . ومن أمثلة هـذا النقد ، نقد الرافعي البيت التالي من قصيدة العقاد « الخمر الالهية »[2]

ولو مزجوا بالخمر طينة آدم لعاش ، ولم يدر القطوب محياه !

فقد ارتأى الرافعي أن عبارة « ولو مزجوا » غير موفقة ، لأنها تعني أن آدم خلقه ، أكثر من واحد ، وبناء الفعل للمجهول أوفق[3] ليتجرّد البيت من وثنيته !

وفي « السفود » نقدات لغوية تستأهل الالتفات ولكنها صيغت في تعابير قاسية مؤذية

وقد جرى « السفود » على غرار « الديوان » فكما أن العقاد والمازني في كتاب الديوان لم يذكرا حسنة واحدة للمنقودين ، كذلك لم يذكر الرافعي حسنة واحدة للعقاد ، ولم ينشر له ميزة .

ومهما يقال في شعر العقاد ، وفي صياغته الجافة وموسيقاه غير الآسرة ، وقلة تلون شعره بحرارة العاطفة ، وذاتية فكراته وغموضها . فلن ينكر منصف أنه أحدث شيئاً من التجديد في الشعر العربي الحديث ، وأن له طائفة من القصائد الفنية الممتازة ، وبخاصة في الفلسفة العامة ، وعالم الفكر ، وفي الطبيعة ، فضلاً عما له من اللمسات الواقعية العابرة ، كما في ديوانه « عابر سبيل »[4] ولن يجحد أديب عربي أن للعقاد صياغته المستقلة التي ابتعدت عن الصياغة التقليدية ، وتجردت من الأصباغ والمحسنات البديعية .

(١) « على السفود » صدر عام ١٩٢٩

(٢) «ديوان العقاد» ص ٧٤ (٣) على السفود ص ٧٥ ، ٧٦

(٤) ديوان « عابر سبيل » صدر عام ١٩٣٧

والملحوظ أن أغلب شعر العقاد عميق التفكير مألوف وتأملي ذاتي ، وفلسفي خفيف ، وقلّ أن تجد فيه شعوراً أو انفعالاً دفاقاً ، وقد يعمق تفكيره في أحيان نادرة ، كما نجد ذلك مثلاً في قصيدته « القمراء » بديوانه وحي الأربعين [1] التي يقول فيها :

كلما أشرق في الليل القمر وسها الناس ولاذوا بالحُجَر
خلت أرواحاً تداعت للسمر زمراً تهمس من حول زمر
إن هذا الحسن لا يمضي هدر حيثما أسفر نور وانتشر
وخلا في جلوة الليل السهر فهنا لا ريب حسٌّ وبصر
هيمة المسحور يقفو من سحر

وقد يشتد انفعاله ويلتهب شعوره في النادر أيضاً .ومن أمثلة ذلك مقطوعته « حسرة متلفة » بديوانه سالف الذكر [2] وهو أحفل دواوينه بالقطع الممتازة ، وفي هذه المقطوعة النابضة ، الصافية الديباجة ، يقول :

يا له من فمٍ يا لها من شفه
يا لشهدٍ بها كدت أن أرشفه
يا لزهرٍ بها كدت أن أقطفه
حلوةٌ وبها غضةٌ مرهفه
حسرتي بعدها حسرةٌ متلفه !

ويتلو شعره الفلسفي في الأهمية شعره في الطبيعة وله فيها قصائد ممتازة ، تدل على اتصاله الروحي بها ، ومن نماذج ذلك قصائده النهر النائم [3] وروضة ساكنة [4] وحديقة البرتقال [5] وهذه القصيدة الأخيرة من قصائده الوصفية البليغة في وصف أحياء الطبيعة وفيها يقول :

أحبب به من منظرٍ مريٍّ ومن نباتٍ طيب زكيٍّ

(١) ديوان «وحي الاربعين» ١٩٣٣ ص ٩٧ (٢) ديوان وحي الاربعين ص ١١٣
(٣) ص ١٠٥ من ديوان العقاد في أربعة أجزاء ١٩٢٨ (٤) ص ٢٠٩ من الديوان سالف الذكر
(٥) ص ١٠٣ من الديوان سالف الذكر

متصل الخضرة فردوسيّ نُزِّه عن تصوُّح وعُرْيِ
جناته تثني على الوسمي بالبرتقال الواضح الرويّ
كالسُرج المزكاة بالعشي تستقبل المقبل إذ تحيّ
منها بألف كوكب دريّ كالهمس في جلبابها الفجري
غصناً على غصن زمردي من بارز وضامر خفي
وساجد في الأرض كالقصيّ مكلل بطلعه محني
كأنه جلاجل الحلي يأخذ عين المبصر الذكي
أخذ الحليّ مقلة الغوي على نحور البيض والثديّ
أغلى لدى الشاعر والصبي من كنز قارون وكل شي
فاعجب لهذا الصانع الغني صانع هذا الثمر الجني
من نفس حام ومن طميّ وصانع الطالع بألف زي
ومخرج الحي بغير الحي

ولا يبدو في شعره الغزلي والوجداني ، وحي المرأة القوي ، بل أكثر شعره في هذه الناحية ، إما من تصوير الاحاسيس ، أو من الاتصال العابر بالمرأة أو من وحي الحرمان

ومن نماذج ذلك قصيدته « كأس على ذكرى »[1] ويخيل إلينا أنها تصوير لاحاسيس قلبه المتلهفة الى الجمال، وقصيدته « النوب الازرق[2] وهي أثر من آثار الاتصال العابر بالمرأة وكذلك قصيدته « الصدار الذي نسجته »[3] وقصيدته في « ليلة البدر »[4] قد تبدو حقيقية في وحيها المباشر اللون وهذا قليل جداً في شعر العقاد . أما قصيدته « كأس على ذكرى » فقد استهلها بقوله :

يا نديم الصبوات أقبل الليل . فهات !
واقتل الهمّ بكأس سُميت كأس الحياة
خرب القلب فعمّره بخير الساكنات

---

(١) ص ١٤٤ من ديوان العقاد أربعة أجزاء ١٩٢٨ (٢) ديوان « هدية الكروان » ص ٥٢
(٣) ديوان « أعاصير مغرب » ص ٣٥ (٤) وحي الاربعين ص ١٢٢

خمرة علأ قلبي بقديم الذكريات

ثم يقول : هاتها وأذكر حبيب النفس يا خير ثقاتي
ودع التلميح واجهر باسمه دون تقاة
أترى نحرم حتى ذكره في الخلوات
صفه لي صفه وما كان مجهول الصفات

وقصيدته « الثوب الأزرق » هي قصيدة بديعة لعلها أحسن ما في ديوانه « وحي الاربعين » ، وهي وجدانية وصفية أصيلة شبّه فيها الثوب الأزرق بأنه تجربة أخذها الانسان عن الله من لون البحر والسماء ، واستعاض فيها عن الأنجم في السماء والزبد الوضاء في الماء ، بطلعة المرأة الغراء ، ولمعة عينيها ، ونضرة خديها ، وإن أعوز الشاعر ، تقبيل اللون الأزرق في الماء أو في القبة الزرقاء ، فما يعوزه أن يقبله في الفم الباسم المتخطر في الثوب الأزرق . وفي هذه القصيدة يقول :

الأزرق الساحر بالصفاء تجربة في البحر والسماء
جربها «مفصل» الأشياء لتلبسيه بعد في الأزياء
مجوّد الاتقان والرواء

ما ازدان بالأنجم والضياء ولا بمحض الزبد الوضاء
زينته بالطلعة الغراء ونضرة الخدين والسماء
ولمعة العينين في استحياء

إن فاتني تقبيله في الماء وفي جمال القبة الزرقاء
فلي من الأزرق ذي البهاء تخطر فيه زينة الأحياء
مقبّلٌ مبتسم الأضواء مردّد الأنغام والأصداء
وقبلةٌ منه على رضاء غنىٌ عن الأجواء والأرجاء

ويخيل إلينا أن قصيدته «ليلة البدر» وهي قصيدة موسيقية طليقة ، تجربة حقيقية. ومما جاء فيها قوله مازجاً بين الوجدان والبدر :

يا سمير الليل يا نعم السمير ما لنا والصبح ما دمت أراك
أنا في نور وروض وعبير حينما ألقاك لا ألقى سواك
رشفة من ثغرك العذب النضير أو من الكأس احتوتها شفتاك
وسلامٌ أيها الكون المنير

وللعقاد لمسات واقعية، لا تمس الحياة في صميمها ولكنها تمس بعض مظاهرها، وأظهر الشواهد على ذلك ما وعاه ديوانه « عابر سبيل »، ولعله تأثر فيه ببعض شعراء الغرب تأثراً توجيهياً. ومن أمثلة ذلك قصائده: كوّاء الثياب[1] وسلع الدكاكين[2] وبابل الساعة الثامنة[3] و « ساعي البريد » وهي تجربة طيبة، وإن لم يحلُ فيها الأداء.

وأما شعره الوطني والسياسي، فقد بدأ متحرراً إذ ساير الروح الشعبي زمناً، وابتعد فيه عن الأمداح، ثمّ تحوّل عن هذا النهج القويم، وتلوّن شعره بتناقض جيله، فرقة مع هؤلاء، وأخرى مع هؤلاء، وبهذا التأرجح بين المبادىء وبين ممثليها، ألقى الراية التي حملها في بداية حياته الأدبية، تحت ضغط الأهواء، وظروف العيش القاسية، ومن أمثلة شعره الشعبي قوله في قصيدته « يوم المعاد »[4]

ما يبتغي الشعب لا يدفعه مقتدر من الطغاة ولا يمنعه مغتصبُ
فاطلب نصيبك شعب النيل واسمُ له وانظر بعينيك ماذا يفعل الدأب
ما بين أن تطلبوا المجد المعدّ لكم وأن تنالوه، إلاَّ العزم والطلب

وقوله في المؤتمر الوفدي عام ١٩٣٥ وهو يحمل على الطغاة ويناصر ممثلي القوة الشعبية:[5]

سيهدم الطود من يبغيه معتدياً وليس يهدم من أركانكم حجَرُ
بناكمُ الله في أرض إذا رفعتْ صرحاً من المجد لم تعبث به الغِيَر
الدهر في غيرها هدّام أبنية والدهر في شاطئيها حارس حذِرُ
كنانة الله كم أوفت على خطر ثم استقرّتْ وزال الخوف والخطرُ
وكم توالت على أبوابها أممٌ ومصر باقيةٌ والشمس والقمر!

---

(١) ديوان عابر سبيل ص٣٩ (٢) الديوان السالف ص ٤٦ (٣) الديوان السالف ص٤٢
(٤) ديوان العقاد في أربعة أجزاء سنة ١٩٢٨ ص ٢٧٨ (٥) ديوان عابر سبيل ص ٩٠ و ٩١

وسنكشف من تأرجح هذا الشاعر بين المبادىء والأشخاص وعجزه عن شق طريقه النقدي في فصل قادم

ويستحيل علينا في هـذه الرسالة الموجزة ، أن نلم بنواحي شعره ، وفي هـذه النماذج القليلة التي أوردنا ، ما يقطع بأن كتاب الرافعي « على السفود » جانب النقد الحصيف ، عند ما اقتصر على الكشف عن السيئات دون الحسنات ، واستعمل عبارات جارحة لا يقرها أدب النفس ولا أدب النقد .

* * *

وثمة كتاب نقدي ثالث ، هو « رسائل النقد » ألفه الدكتور « رمزي مفتاح » يحلل فيه شخصية العقاد ، ويكشف عن سرقاته من شكري ، وينتصر لهذا الأخير ، وإذا كان قد وفق في نقده بعض التوفيق إلاّ أن هذا النقد لم يخل من قسوة وتعنت وحيرة ، فضلاً عن أنه لم يتوخّ طريقة التحقيق العلمي في موضوع السرقات التي دارت رسائله عليها .

فبحث رمزي ، وهو يدور حول ما أخذه العقاد من شكري ، كان يجدر به أن يعني كل العناية بالتواريخ ، ويُنقب عنها في مظانها ، ولا يدع ثلمة ينفذ منها الشك ، وليس مما يرتاح له البحث العلمي ، ما ورد في رسائل رمزي من مزاعم مطلقة مخطئة كقوله في صفحة ١٤٧ « إن كل دواوين شكري طبعت ونفدت قبل صدور دواوين العقاد » لأن الحقيقة التاريخية تنكر هذا الزعم ، ذلك لأن ديوان العقاد الأول صدر في عام ١٩١٦ والديوان الثاني في عام ١٩١٧ على حين أن ديوان شكري الخامس صدر في عام ١٩١٦ ، وديوانه السادس في عام ١٩١٨ وديوانه السابع لم نهتد الى عام صدوره وهو قطعاً بعد عام ١٩١٨ أو في عام ١٩١٨ ، فيكون ديوان العقاد الأول والثاني صدرا قبل بعض دواوين شكري ، ويكون زعم رمزي في صدور جميع دواوين شكري قبل دواوين العقاد ، زعماً غير صحيح .

وإذا اتخذنا الدواوين حجة قاطعة على سرقة شاعر من شاعر ، لعدونا النصفة ، لأن بعض الشعراء قد يحبسون قصائدهم ، ولا يخرجونها إلاّ بعد زمن يطول أو يقصر ، أو قد ينشرونها في المجلات الأدبية قبل إبرازها في ديوان ، وعلى هذا الاعتبار ، تكون تهمة

السرقة في حاجة الى تحقيق واسع دقيق ، لا نجده مع كمال الأسف في « رسائل النقد » آنفه الذكر ، ولنضرب مثالاً محدداً على ما نقول قصيدة « كأس على ذكرى » للعقاد التي زعم رمزي أنها مسلوبة من قصيدة « يا وضيء البسمات » لشكري في وزنها وقافيتها ، ونظامها ومعناها وأن قصيدة شكري كتبت قبل قصيدة العقاد بأزمان طويلة ، وجذب عليها الدهر ذيل النسيان ، فسخها العقاد قليلاً وادعاها لنفسه (١)

وهذا زعم يحتاج الى تحقيق وينكره الدليل الايجابي الظاهر ، وذلك لأن قصيدة العقاد « كأس على ذكرى » ظهرت في ديوانه الثاني الذي صدر عام ١٩١٧ على حين أن قصيدة شكري « يا وضيء البسمات » ظهرت في ديوانه السابع المسمى « أزهار الخريف » وهذا الديوان وإن لم نجد تاريخاً لصدوره ، إلا أننا يمكننا تحديده تحديداً صحيحاً وهو عام ١٩١٨ أو بعد ذلك ، لأن ديوان شكري السادس المسمى « بالأفنان » صدر في عام ١٩١٨ ومعنى هذا أن قصيدة العقاد ظهرت قبل قصيدة شكري ، إذا أخذنا بهذا السند التاريخي لظهور الدواوين . فكان واجباً على الناقد في هذه الحالة أن يحقق هذه القضية ، ويرجع إلى المجلات الأدبية كمجلتي « البيان » أو « عكاظ » أو غيرها ، فقد تكون مثل هذه المجلات مصدراً من مصادر التحقيق ، ولكن الناقد المتعجل ، اكتفى بما قدمه من قرائن وملابسات واستنتاجات ، وهي لا تغني عن الحق شيئاً .

حقاً ان طائفة من قصائد العقاد التي ذكر رمزي أنها منهوبة من قصائد شكري ، صدرت بعد صدور قصائد شكري ، إذا رجعنا الى الدواوين ، والى بعد العهد بين بعضها ، فمثلاً قصيدة « زورة على غير موعد » للعقاد ، التي ظهرت في الجزء الثالث من ديوان « العقاد » عام ١٩٢١ مأخوذة من قصيدة شكري « زورة الملائكة » بديوان شكري السادس الذي ظهر عام ١٩١٨ . وقصيدة « القريب البعيد » ظهرت بديوان العقاد الجزء الثاني عام ١٩١٧ وهي مأخوذة من قصيدة « شكري » « قريب بعيد » التي ظهرت بالجزء الرابع ، وهذا الجزء قد ظهر قطعاً في عام ١٩١٥ أو ١٩١٦ (حيث لم نهتد لتاريخه) وشاهد ذلك أن الجزء الخامس من دواوين شكري ظهر في عام ١٩١٦ ، وقصيدة « نحن وزماننا » للعقاد بالديوان

(١) رسائل النقد لرمزي مفتاح ص ٩٠

الثالث الذي صدر في عام ١٩٢١ ، مأخوذة من قصيدة شكري « جنون الأماني » بالجزء السابع ص٢٣ . وقد صدر قبل عام ١٩٢١ كما أسلفنا ، ونكتفي في هذا المجال بذكر هذه القصائد التي يتجلى فيها تأثر العقاد بشكري تأثراً قويّاً ، في معانيه واتجاهاته ، ولكننا مع هذا نرى أن رمزي ارتكب خطأ فادحاً في اتهام العقاد باللصوصية في بعض ما أورد من قصائد من مثل قصيدة « نصيب النظر » التي ظهرت بديوان العقاد الجزء الثالث عام ١٩٢١ والتي زعم أنها مسروقة من قصيدة شكري « الجمال المنشود » بالجزء الرابع الذي ظهر قبل ديوان العقاد آنف الذكر ، وبالرجوع إلى القصيدتين ، نجد اختلافاً ظاهراً في الصياغة والفكرة .

والحق أن القصيدة الوحيدة التي تتجلى فيها المحاكاة في المبنى والمعنى ، هي قصيدة « كأس على ذكرى » للعقاد وقد جاء فيها :

صفه لي صفه وما كا ن بمجهول الصفات
أترى ألبق منه باصطياد المهجات
أترى أصبح من خديه بين الوجنات
صفه غضبان وصفه لاعباً بين اللدات
ضاحكاً كالصبح يمحو بالضياء الظلمات
صفه في كل مساء صفه في كل الجهات

وهذه الأبيات من تلك القصيدة تحاكي أبيات شكري التالية في قصيدته « يا وضيء البسمات » التي أتينا بمختارات منها ، وفيها يقول :

سألوا في أي حال هو أعلى في الصفات
قلت أحلى ما تراه في حديث اللحظات
فإذا أرخى لحاظاً كان أحلى في السبات
وهو أحلى منه إن فاه وأحلى في الصُمات[1]
وإذا صدّ فما أحلاه جهمَ النظرات
فإذا لان فما أحلاه طلق اللمحات

(١) الصمات = الصمت

ولا زلنا في حيرة تجاه هاتين القصيدتين ، ومن سبق الآخر في النظم ، ولما كانت هذه الزاوية من البحث تروق للناقد المؤرخ ، ولهـذا فلا يشوقنا استقصاء هـذا البحث وإنما نتركه مفتوحاً للذين قد يلذهم ، والذين يهمهم تصحيح التاريخ الأدبي والنقدي في مصر وهذا ما يخرج عن نطاق هذه الرسالة لأن تعقب الفكرة ، في القصيد وتعرّف مظانها ، يتطلب بحثاً مطولاً ، ويجول بخاطرنا أن الفكرة التي دارت حولها بعض معاني القصيدتين آنفتي الذكر ، من وحي شكسبير في روايته تاجر البندقية حيث تقول شخصية في الرواية « أحبك يا باسانيو راضياً وغاضباً » . وربما كان شكري أو العقاد استولدها ، وتوسع فيها ، فالفكرة مسبوقة ، أما الصياغة وتماثل القصيدتين في البحر والقافية ، فهذا ما يدعو الى التأمل والعجب .

* * *

ولا يجوز لنا أن نغفل من باب التأريخ الأدبي العابر ، شواهد من النقد الفجّ الذي أفسد الجوّ في مصر منذ عشر سنوات ، وأساء الى كرامة الأدب والأدباء . ونذكر منها كتاب « أدباء معاصرون » للرحلاوي ، فقد أثار هذا الكتاب ، الغبار حول بعض شعرائنا وكتابنا الممتازين شباناً وشيوخاً ، وعلى رأس ، من عدَا عليهم ، الشاعر الرائد ، الدكتور أبو شادي ، وكل ذنب الرجل ، أنه كتب مقدمات لبعض دواوين شعراء الشباب وتغالى في الثناء على انتاجهم ، وما قصد الرجل ، شهد الحق ، إلاّ إنصاف هؤلاء الشعراء ، والتعاون معهم ، والسير بهم في طريق السموّ الأدبي ، — فكان الجزاء من هذا الكاتب ، أن يسبه ويصمه بالتشاعر : وأن ينعت شعره بالابهام وأنه لا يصح — في نظره — أن يوضع مع العقاد العبقري ، كما قال ، أو مع شكري ومطران !

ولقد جرَّح هـذا الكاتب أدب أبي شـادي وجاراه في ذلك بعض الذين لم يتمرَّسوا بأدب القلم ، ودقائق الفن الشعري ، ومن لم يقدروا على التجاوب معه ، لأن هذا التجاوب عسير إلاّ على من تفتح قلبه لنفحات الفن ، أو بذل الجهد لتعرُّف معاني هذا الشاعر ، وتقدير إنتاجه الوفير

ولسنا في مجال الدفاع عن هذا الشاعر المغموط في وطنه ، فأدبه سوف يدافع عنه

ولكننا نذكر من باب الانصاف ، أن هذا الرجل قام بخدمات جليلة للأدب الحديث ، ووجه الشعر وجهات جديدة ، وطعمه بالخواطر الطريفة والتجاريب الأصيلة والتعابير الطليقة . ولا نعدو الحق اذا قلنا إن نفائسه المبثوثة في دواوينه التي تربو على الاثني عشر ديوانا هي مفخرة من مفاخر الأدب المصري ، واذا كان هذا الرجل لم يلق التقدير الواجب لأدبه إلا من عدد من الأدباء المعدودين ، فذلك راجع الى غزارة إنتاجه من جهة ، وقلة الصبر على الدراسة المستفيضة من جهة أخرى ، ولهذا رأينا بعض أدبائنا الكبار يهربون من نقده لأن أدبه لا يمكن تقديره دون إجهاد وعناء . وأولئكم الذين اتصلوا بالرجل أو بذلوا الجهد في التعرف على دقائقه الفنية ، أمكنهم أن يقدروه ، ومن بين هؤلاء نذكر مطران وناجي والشايب وابراهيم المصري والجداوي والصيرفي واسماعيل احمد أدهم وصالح جودت وعتيق وآخرين من أدباء الجيل الممتازين ،والى جانب هؤلاء أعلام من أدباء الشرق والغرب أمثال الزهاوي والكرملي والمستشرق الألماني بروكلمان الذي قال عن أدبه في كتابه « لحق تاريخ الآداب العربية »

« يقيناً ، أن هذا الأدب ، مهما اختلف عليه ، فهو ثروة للغة العربية ، ولا يجوز لمنصف أن يجحد أثره في توجيه تيار الأدب العربي الحديث » (١)

ويستحيل علينا في هذا المجال أن نضع صورة واضحة عن شعر أبي شادي ، ولكن هذا لا يمنعنا من أن نضع خطوطاً بيانية لنوع شعره واتجاهاته لتكون معلماً للدارسين .

وأول ما يلحظ في شعر أبي شادي أنه جمع تيارات الأدب المختلفة ، فثمة كلاسيكية جديدة ، ورومانتيكية مثالية ، وواقعية مثالية ، وهذه الكلاسيكية نجدها في كل ديوان له . فاذا قلبنا ديوان صباه « أنداء الفجر » (٢) أشرقت علينا قصيدته « الحب والأمل » (٣) بزيها الكلاسيكي ، وإذا ما تصفحنا آخر ديوان له « عودة الراعي » (٤) طالعتنا قصيدته « ظمأ الروح » (٥) في صياغتها الكلاسيكية ، غير أنها كلاسيكية جديدة ، أشبه بالشراب الجديد في الزجاجة القديمة

(١) رسالة الدكتور اسماعيل أدهم عن مطران — تكملة تاريخ الآداب العربية ج ٣ فقرة ١٦ ص ٩٦ س ١٢ لبروكلمان (٢) من نظم أبي شادي سنة ١٩١٤ والطبعة الثانية صدرت في يوليو ١٩٣٤
(٣) ص ١٤ من ديوان « أنداء الفجر » (٤) ديوان « عودة الراعي » يناير ١٩٤٢
(٥) ص ٨ من الديوان آنف الذكر

والى جانب هـذه الكلاسيكية ، نجد الاتجاه الغالب في شعر أبي شادي ، هو الاتجاه الرومانتيكي ، وهو يُعد بحق رائد الرومانتيكية الحديثة في مصر ، وقد ظهرت ثمار الواقعية عنده ، غير أن واقعيته هي من النوع المثالي

والذي يلحظ أيضاً على صياغته ، أنها مزاج من الصياغة الكلاسيكية ، والصياغة المتحررة. واذا كان مطران ناصر الصياغات المتحررة ولم يطبقهـا ، كما أن شكري استخدمها نادراً ، فان أبا شادي أتى بنماذج ليست بالقليـلة من الشعر المرسـل والشعر الحر في دواوينـه ، ففي ديوان الصبا « أنداء الفجر » نقع على مقطوعة « وطني ! وطني »[١] وهي من الشعر المرسـل وفي ديوانه « أنين ورنين »[٢] نقع على قصيـدة « ليـلة الأمس » من الشعر المرسل[٣] وفي ديوانه الشـعلة[٤] نقع على قصيدة « الشريد »[٥] وفي ديوانه « عودة الراعي » تطالعنا قصيدته « الى المرسم »[٦] وهي أيضاً من الشعر المرسل . ونكتفي بقصيدة « الشريد » نموذجاً لهـذه الصياغة المتحررة ، وهي مثال جيد وكافٍ على هـذا النوع من الصياغة . ومما جاء فيها قوله :

جُنَّ قلبي في التياع المضطربْ وبكت نفسي بصمت المنتحبْ
وتولتني من الحيرة ما لا تعرف الايمان صلحاً أو قتالا
فاذا بي كدت لا أعرف نفسي وكأن الرزءَ تكويني وحسي
واذا الايمان عبءٌ لي جديد حينما الايمـان ملكٌ للسعيد
آه من ضيق تعالى فوق صدري دافناً روحي فصدري مثل قبري
وكأني والأسى يغلب حسي وظلام الهجر في مرأى ولمسِ
كشريد والرعود القاصفـة أسلمتـه لجنون العاصفة

ولم يترك أبو شادي باباً من أبواب الشعر الحديث الا طرقه، وأجاد فيه وأبدع إبداعاً. ونحسب انه في شعر الطبيعة لم يسبقه شاعر شرقي في وفرة الانتاج ، وفي قوة تجاوبه مع

(١) ص ٥٩ (٢) ديوان « أنين ورنين » ١٩٢٥ الطبعة الاولى (٣) ص ٢٠ ديوان « أنين ورنين »
(٤) ديوان « الشعلة » ١٩٣٣ مطبعة التعاون (٥) ديوان « الشعلة » ص ١٨
(٦) ص ٩٩ بديوان « عودة الراعي » .

الطبيعة ، ولو تصفحنا دواوينه لألفينا ثروة نفيسة من هذا الشعر ، ونذكر من قصائده في ديوانه « أنداء الفجر » قصيدة « أنفاس الخزامى »[١] وفيها تطلع الى المعنويات في سنه الباكرة، وقصيدته « الخريف في حلوان »وهي تربو على المائة بيت في وصف اليوم في تعاقبه من الفجر والضحى والأصيل الى الليل وصفاً تحليلياً حسياً [٢] وقصيدته « في حضن الريف » بديوانه « الشفق الباكي» ص ٩٢٦ — وهي من الشعر الصافي كما يقول شكري ، وفيها يصف مرائي الطبيعة وصفاً بديعاً ، ويفسر معاني تلك المرائي تفسيراً روحياً في صياغة مفعمة بالحنان [٣]

وإذا انتقلنا الى ديوانه «أطياف الربيع» وجدنا قصائد بديعة في الطبيعة زاوج فيها بين مشاهدها وخواطره الوجدانية ، ومن نماذج ذلك قصيدته « في بورسعيد » ص ١١١ . وقد جرت الفقرة الثالثة والخامسة بهذه النغمات :

يا ساعة عند الغروب كأنها خطفت من الأحلام والأجيال
ما بال هذي الشمس ترسل وجدها فوق اللهيب على المياه حيالي
ما بال هذا الموج يخفق هكذا خفق الحياة توثبت لزوال
ما بال هذا الحسن يبعث شوقه فوق الرمال الى نهى ورمال
ما بال هذا الجوّ أشبع روحه بالخوف والآلام والآمال

* * *

هذا المساء يظلنا بولائه والجوّ فيه من الولاء صلاةُ
للفيلسوف به مجالُ روائع فلكل شيء حكمةٌ وحياةُ
والناحت الرسام يقبس فنهُ ما تضمر الخطرات والنظرات
والشاعر الموهوب يسأل غامضاً فتجيبه الأسرارُ والآيات
والناحت الواعي بروح مُلَحّنٍ يرنو فيوحي النورُ والأصوات

ومن أعجب قصائده التي زاوج فيها بين مرأى البحر وخواطره القلبية ، ما جاءَ في قصيدته

(١) « أنداء الفجر » ص ٩ ، الطبعة الثانية (٢) ديوان « أنين ورنين » ص ٢٧
(٣) راجع كتابنا « أدب الطبيعة » من ص ١٠٠ الى ١٠٤

« بعد الصيف » في ديوانه «أشعة وظلال» ص ٨٧ . وقد صاغها في أسلوب سهل متحرر عن الصياغة الاتباعية ، فاسمع إليه في توزع قلبه بين مشاهد البحر ، ومشاهد الجمال الانساني الهاربة ، يقول :

أضحكي يا رمال   من هدير المياه
غاب ملك الخيال   وتجلى سواه
ذاك بحر الدموع   من بكاء الزمان
فهو دوماً مروع   من مآل الهوان
كل حسن بناه   بيديه يزول
ومراراً رثاه   وأطال العويل
اضحكي يا رمال   من فتوني العظيم
أنا عبد الجمال   الضرير الحكيم
جئت أرجو إليك   فتنة اللاعبات
فنوي إليك   هو للغانيات
أين أعشاشهن   الغوالي الحسان ؟
أين لهو لهن   حوى الافتتان ؟
سامحيني إذا ما   عدت عود اليتيم
أتنزى سقاماً   بعد موت النسيم
سامحي طول مكثي   والتفاتي إليك
تلك روحي ببحث   عن نعيم لديك
فتشت فيك عما   تعرف الذكريات
حينما البحر ضما   دولة الفاتنات !

وتواجهنا نماذج بديعة أخرى من شعر الطبيعة في دواوينه الأخرى مثل « فوق

العباب » و « عودة الراعي » ونكتفي منها بنموذجين في ديوانه « فوق العباب » أحدهما يمثل أسلوبه السامي، والثاني يمثل أسلوبه المركب . أما الاول فهو قصيدة « أهلاً أبو قردان ! » ص ١٦ ، والثاني قصيدة « في الطريق الحزين » ص ٢٨٣ . ويقول في الاول مخاطباً أبا قردان :

أهلاً « أبو قردانْ » يا منقذ الفلاحْ
كلاكما قد هانْ واستمرأ الأتراحْ
إن قدَّروك الآنْ لم يعرفوا قدره
لم يفهموا الانسانْ إنْ يفهموا غيرَه
تعيش بين الحقولْ مستأصلاً للضررْ
بناقرٍ لا يَحولْ وناظرٍ من شررْ
وقد لبست البياض في صورة الناسكْ
وتارةً مثل قاضْ يقضي على الهالكِ
تُتابع الحَرْثا وتلقط الديدانْ
تلوح كالوسنانْ والحالم العابدْ
لكنك اليقظانْ والباحثُ الساجدْ
في صُفرة البرتقالْ رجلاك والمنقارْ
كلاهما في الجمالْ نراهُ أبهى شعار
شعارنا للنضارْ شعارنا للغنى

ومما جاء في القصيد الثاني مازجاً بين مرائي الطبيعة وفكراته التصوفية ، في أسلوب مركب :

يا طريقي الحزين ! عَرِّج على الغر س وسرْ بينه بروحي وحسي
في صميم الحقول سرْ بي وخُذْني من وجود وهبتُه كلَّ يأسي
في جوارِ المياهِ تجري فتروي قبل ريِّ الغراس قلبي ونفسي

في جوار النبات يخفق من خفــــق ويقضي بهمسه مثلُ همسي

في جوارِ الأنيس من طيرها الأبيـــض[1] جسُ الثرى حريصاً كجسّي

في جوارِ الأعشاب يلمسها المـا ء برفق والنورُ في شبه لمس

في جوار النـوّار قبّـله النخــلُ بشوقِ المدلّهِ المتحسّي

في جوار الأحلام في خضرة الار ض وقد أينعتْ[2] بغرس وغرسِ

* * *

يا طريقي الحزين ! ما عالم النـا س لمثلي ، فليس مثلي بإنسي

أنا بعضٌ من الوجود الذي يأ بى وجوداً على فسادٍ ورجسِ

من أغاني الضياء ، من طهره السا حر من خمره كيـاني وأنسي

من نجوم السماء والأرض أحلا مي ومن روحها المشعشع كأسي

مِنْ معانٍ خفيةٍ نشوتي الكبـــرى ومن مُقتبلي البعيدِ وأمسي

وأما شعر أبي شادي الغزلي فهو شعر فياض صادر عن عاطفة صادقة ، ولم يخل أحـد دواوينه منه . وهذا الشعر مرآة حقة للحب اللاهب وعبادة الجمال في المرأة ، وهو يتراوح بين التصوف والرغبة المتلهفة ، ومن شعر شبابه ما جاء في ديوانه « أنداء الفجر » في مثل قصيدته « عباداتٍ » ص ٦٣ وفيها تتمثل حيرة المحب في حبه ، إذ يقول :

ما لعيني كلما ألقاك بالفرحة تدمعْ

أهي لي الفرحة أم خفيةُ حلم يتصدّعْ

بي رجاء ليس يخبو ، ورجاء ليس يلمعْ

وأنا كالتائه العاني إلى الأوهام أفزعْ

هاكِ قلبي يا حياتي ! نبئيه كيف يصنعْ

هو في القرب بعيد عنك يهفو ثم يجزعْ

آه ، كم يجني حياتي ، آه من شوق مضيّع !

فاذا انتقلنا نقلة طويلة الى آخر ديوان أصدره الى اليوم وهو « عودة الراعي » وقفنا

(١) يشير الى أبي قردان (٢) أي الاحلام

على قصائد غزلية تتضوأ بشعلة الحب الأولى، ولكنها تتردّى ثوب الوقار، وتتحلى بالفلسفة.
ومن شواهد ذلك قصيدته « المتمرد » ص ٣ التي جاء فيها :

داعبتُ حبَّك في رذاذ الماءِ ورقصتُ بين مسارح الأضواءِ
وضحكت للمتمرّدات ، فانني أنا وحدي المتمرّد المتنائي
أبتْ القناعة صحبتي وأنا الذي لم يَغنَ من حسن سواك ، إزائي
صديانُ ، لا رِيٌّ أنار عواطفي ولو ان حُبَّك جنتي وسمائي

وقد يعجب المرء من توقد شعلة الحبّ في ربيع عمره وخريفه على السواء ، فاسمع إليه يخاطب حبيبته بعد ربع قرن [١]

ربع قرنٍ مضى وهيهات تمضي شعلة الحب عن وثوبٍ وومضِ
لم أزل ذلك الفتى في جنوني وفؤادي بنبضه أيَّ نبضِ
ذكريات الهوى وأشباحه النشـوى أمامي في كل صحوٍ وغمضِ
نُشرت في السطور بعد احتجاب كنثير الحيا على زهر روضِ
فإذا بي أعود طفلاً صغيراً باكياً لاهياً بأمي وركْضي
كم شقينا تفرقاً وحياءً وخضعنا لحكم دهرٍ مُمِضِّ
ورجعنا ننوح نوح يتيمين على ذلك الصبا المنقضِّ

ولكن لا عجب لوقدة الحب الباقية في قلب هذا الرجل، لأنها استقرت في بؤرة شعوره يغذوها وفاء طُبع عليه وحنين لا يريم . وأي ديوان تتصفح تجد هذه اللوعة مستعرة مشبوبة، ففي ديوانه « أشعة وظلال » تجد قصيدته المتحركة الوثابة « هبيني قبلة » ص ٥٠ ، وفي ديوانه « فوق العباب » عودة « الى زينب » ص ٢٣ يقول في الفقرة الثالثة منها :

ناري وريحاني ! وأنس شبيبتي وكهولتي من لي سواكِ رجاءَ
مضت السنونُ الجانياتُ كأنها لمحات أخيلةٍ تطيب جلاءَ
لم أشكها إلاَّ وقلبي عبدُها يستعذب الحرمان والإشقاءَ .

---

(١) قصيدته « الى زينب » بالطبعة الثانية بديوانه « أنداء الفجر » وقد أهداه لها

عيناكِ لم أذق السلاف سواهما خيمتْ في سكري صباحَ مساءَ
كم مرّة ألقاكِ فيها لم أبُح بالوجـد وهو يحزُّ قلبي داءَ
ألقاك والحبُّ الدفينُ معذّبي رغمَ اللقـاءَ فلا أراه لقـاءَ
فاذا رحلت الآن جدَّ بخيـلة فلتحشـدْ الدنيـا ليَ الأعداءَ
لا شيء بعـد الهجر نار جهنم فالهجر أقصى شعلةً وقضاء

ويخيَّـل إلينا أن من أروع قصائده الغزلية ثلاث : قصيدة « الفنان » ص ٢٩ و« الجمال العربيد» ص ٢٣ و« ليلة في المعبد» ص ٤١ وهي جميعاً بديوان أطياف الربيع، وهذه القصائد لا عهد للعربية بـهـا ، ونحسب أنها من وحي لقاء الحبيبة ووحي جمالها الآسر ، أما قصيدة « الفنان » فقـد صاغها في أكثر من ثمانين بيتاً ، وهي نفحات عبقة من نفحات الجمال والحب ، وبالرغم من أن القطف منها يضيـع نكهتها ، إلاَّ أنه يطيب لنا أن نستشهد ببعض ما جاء فيها دون رعاية لتسلسلها ، وقد بدأها بقوله :

أمانًا أيهـا الحب سلامًا أيها الآسي
أتيت إليك مشتفيًا فرارًا من أذى الناس
حنانك أيهـا الداعي فأنت مليك أنفاسي
فررت وحولي الدنيا تحارب كل إحساسي

ثم قال بعد أن أبدع في الإعراب عن حيرته :

دلفتُ إلى سماء الحب فهي بمعبدي الضّـاحي
وقد صـار الهجيرُ به نسيم الرّوح والراحِ
دلفتُ الى مفاتنهـا وكم عُـدّت محرّمةً
وهل يعصى أسيرُ الفن لحظًا باح أو شـفةً
ولما أقبلت وثبت معاني الحب من نفسي
بأي لغى أحييها من الأحلام والحس
رأت حزني وأحلامي وهذا الصفو يشملني
فردّت كل آلامي ببسمة روحها الفني

ونمنا نومة الحبّ وعطر الحب فيّاح
بجسم كله عبق وروح دونها الراح
أشم عبيرها الفنا ن في سكر يحيرني
وأشرب هذه الألوا ن من نور يداعبني
وأصفح عن أسى الماضي وان ضحى مسراتي
فهذي نعمة الماضي أتت في نعمة الآتي
أطلي يا حياة الروح في عيـفيّ تحييني
شرابي منك أضواء وقوتي أن تناجيني !

* * *

ولا يقل شعر أبي شادي الوطني والاجتماعي عن شعره الطبيعي والغزلي ، ولا يخلو ديوان من دواوينه من النفحات الوطنية والاجتماعية التي تناولها تناولاً شعرياً ، والملحوظ في هذا الشعر أنه مجرد من التحزب للاشخاص ووجهته الوطن والشعب ، وفي سبيلهما قرّع كبار الرجال دون خشية ، ومن أمثلة قصائده الوطنية المثالية قصيدته « الحزبية » ص ٦٧ و « الضاحك الباكي » ص ١٠٩ في ديوانه الشعلة ، وقصيدته « سباق الأموات » ص ٨٧ في ديوانه أطياف الربيع ، والذي يبهر الفؤاد ، هو حب أبو شادي للشعب وايمانه به ، وله في هذه الناحيـة قصائد تعد بذرة من بذور التقدمية ، ونذكر من بينها قصيدته « بأس الشعب » ص ٧٤ من ديوانه « فوق العباب » ، يتحدث فيها عن قوة الشعب رغم وداعته ، وظفره بمن يستبدون به ، ومن أروع شعره في هذه الناحية ، الفقرة الثانية من قصيدته « حداد القطن » من ديوانه « عودة الراعي » (١) وفيه يلوم الشعب على تهاونه في حقوقه المقدسة ، وسكوته على الفوضى والفساد ، فاسمع اليه يقول :

يا شعب قم وانشد حقوقك فالخنـوع هو الممات
تشكو الغريب وعلة الشكوى الزعامات الموات
قد عمت الفوضى وقد دبّ الفساد بكل شيّ
فاذا سكنت فلن تُعَدَّ ولن يبقى لك أيُّ حي

---

(١) صدر في يناير ١٩٤٢

ما دمت تقبل أن تكون من الضحايا كالعبيد
سيسومك القوّام والأسياد ألوان القيود
ولئن رثى لك أجنبيٌّ فهو يرثي عن شعور
ولئن رثى لك حاكموك فذاك من بدع الفجور
يا شعبُ ! كيف تطالبُ الغرباءَ بالبر السخي
وتطيق مُلككَ في محاباةٍ وفي نَهْبٍ وغيّ
هيهات يُعطى الحقَّ من ألِفَ التهاون في الحقوقْ
هذا هو العدل الصحيح وغيرهُ عين المروقْ
انهض وحاكم بأسيكَ إلى الهوى وإلى الفساد
أو مُتْ ذليلاً لا يُقاس بذلّهِ حتى الجماد !

* * *

وأما شعر أبو شادي النفسي ، فهو منقطع النظير في الشعر الشرقي المعاصر ، انه ترجمان صادق لشخصيته ، وهو بهذا الشعر يقدم لحكم الزمن تاريخ حياته الحقيقي ، وينعكس من هـذا الشعر صورة الرجل المنكمش ، حيناً المنبسط حيناً آخر ، ومن ظواهر انكماشه ، ميله للعزلة ، وأنسه بالتفكير ، وإخلاده إلى الهموم والآلام ، ونماذج هذه الظواهر ماثلة في مثل قصيدته « العزلة » ص ٦٨ من ديوان « الشعلة » ، وفي مثل قصيدته « نور الجحيم » في ديوانه « مختارات وحي العام » وفي القصيدة الأولى يقول :

لي فيكِ خيرُ مؤانسٍ وحبيبِ ... فالدهرُ لجَّ وزاد في تعذيبي
أمٌّ حنونٌ أنتِ ، أنتِ صفيتي ... هيهات تخدعني خداعَ جنيب
عوضتُها حُبي فما عبثت به ... في حين قد عانيتُ لهو حبيبي
غاب الشعاعُ وأظلم الأفقُ الذي ... كم كان مبعثَ شعلةٍ لأديبِ
وأتى المساءُ فليس لي غير الرضى ... بالليل معتكفاً على تأديبي
جاوزت حد الاربعين ولم أزل ... كالطفل محتاجاً إلى التهذيبْ
فلجأتَ الام التي هي موئلي ... أوَ اسمتِ أنت طبيبَ كل طبيبِ

وفي القصيدة الثانية يرى في العذاب نعيماً ، وقد كرّر هـذا المعنى في قصائد أخرى ، وهذه من ظواهر الانكماش البارزة ، فاسمع إليه يقول :

إذا كنتُ أبكي لعسفِ الحياةْ فهيهات أبكي لقلبي الحزينْ
لقد ذقت صرفاً ضروب الألم فصارت لنفسي كبعض النعيمْ
فإن كان بثي حليفُ النّغم فيا ربما النور بعض الجحيمْ

ولـكن هذا الشاعر لا يكاد يتداخل في نفسه ، حتى يخرج منهـا ، ولا يكاد يخلد إلى انفعالات الألم والحزن والقلق والحيرة ، حتى يرتفع عليهـا ، وتشرق على نفسه شعاعات الفرحة ، والهدوء ، والطمأنينـة ، ولا يكاد يعبر عن نفسه ، حتى يخرج عنهـا ، ويعبر عن نفوس الناس ، وينقد البشرية والحياة ، وهو بهـذا يُعادل بين مزاجه المنطوي ومزاجه المنبسط ، وينتقل من النطاق الفردي ، الى النطاق الموضوعي ، وشواهد ذلك بارزة في كثير من القصائد ، ونكتفي هنا بذكر قصائده « نسيم الصباح » بديوانه « أطياف الربيع » ص ٥١ و « الناس » بديوانه « الشعلة » ص ٢٢ و « حلم الغد » بديوانه « عودة الراعي » ص ١٣٣ ونقتطف الفقرة الثانية من القصيدة الأولى ، وهي تمثل تحوُّل انفعاله وتساميه ، وفيها يقول :

هـذي حياتي كلها تعبٌ على تعبٍ ، وأتراحٌ على أتراحِ
أبكي وأضحك غير أني لا أرى إلاَّ الضحوكَ بنشوة الملاَّح
وكأنني جاوزت خلجان الردى بسفينتيَ فنعمتُ بالأقداح
والدهر يعلمُ أنني في نشوتي في قبضة الجرّاح والسفّاح
لم أدر إن كان الشقاء أو الرّدى بيديْه أو أن المنيةَ راحي
ألهو وأدأب مازحاً ومجاهـداً في ثورة السبّاق والسبّاح
واليمُّ يُطبق هاطليه عليَّ في مرَحي ، وتلك نهـاية المراح ،

وفي قصيدته الثانية « الناس » يخرج من قوقعته ، وينقد حياة البشرية حوله ، ويقول في نزعة موضوعية :

خبرتُ طباع الناس عمراً فلم أجد أحطَّ ولا أغبى من اللؤم في الناس
وما الحيوانُ الماكرُ الواثبُ الذي يُـردّيك ما بينَ الخيانة والباس

بأبشعَ في غدرٍ من اللؤم في امرىءٍ   تنامى أخاه في المرارة واليأسِ
علام اقتتالُ الناس والدهرُ ضاحكٌ   عليهم وكلٌّ كالجريح بلا آسي !

وأما القصيدة الثالثة «حلم الغد» فهي قصيدة جامعة تمثّل نزعته الموضوعية، وتكشف عن ذكائه في نقد البشرية ، وتطلعه الى إنسانية سامية مثالية في قرون قابلة ، ونقتصر منها على أبياتها العشرة الأولى ، التي جرت في سلاسة وموسيقية :

بُوركت يا حُلمَ الغدِ   وبقيت كنزاً في يدي
وملاذَ تفكيري ومنقـذَ ما أعزُّ ومُسْعدي
لم يبقَ في الدنيا أما   مي غيرُ فخرُ المعتدي
والناس من مستعبدٍ   يهوي إلى مستعبدِ
صار المُدافع كالمها   جم في المُنى والمقصدِ
كلٌّ يريدُ لنفسهِ   متفرداً بالسؤددِ
يشكو سواه ودأبُه   ما يشتكيه فيعتدي
ومركب النقص الأثـيم أبى له أن يهتدي
وكأنما الأحقادُ حو   لي بعثرت من موقدِ
هيهات نطفأ والجها   لةُ كالزعيم السيّدِ

وفي دواوين أبي شادي ذخيرة لمن يريد تعرف سماته الجوهرية ، مثل نزعته التصوفية وثباته على الحق ، وتفانيه في مجاهدة الظلم الفردي أو الاجتماعي ، وربما صدق عليه قول ستيفن سبندر Stephen Spender « أننا قد نعرف الرجل من شعره أكثر من معرفتنا له من تراجم حياته »(1)

ويمكن أيضاً تعرف نزعته الانطوائية من شعر الأسرة الذي نبغ فيه ، ومن شعر الطبيعة . وأما شعر العلم الذي توفر عليه ، وشعر التصوير وشعره الفني ، فيمكن تعرف رحابة تفكيره منه .

ومن شعره الوطني والاجتماعي يمكن التحقق من تبلور مبادئه ، ونزعته الموضوعية ،

(1) Stephen Spender — Life & The Poet p. 47

ومن شعره الكوني ، والانساني يمكن الحكم على رحابة موضوعيته وعلوّ مثاليته

وقد أثبتنا طائفة من النماذج لشعره الوجداني والوطني والطبيعي والشعبي ، نرى من الواجب أن نسجل نماذج قليلة لبيان مدى نضوجه الفكري ، وكيف أنه كان يبتدع الخوارق من الأشياء العادية ، وهذه القدرة نعتها «استيفن سبندر» في كتابه « الحياة والشاعر » بالعبقرية .

ومن قصائده الخارقة قصيدة « المجنونة الشريدة » أو الاشاعة — بديوانه عودة الراعي ص ١٢٨ — وهي قصيدة غير مسبوقة — على ما نظن — في فكرتها ، وموسيقاها تمثل موضوعها تمام التمثيل ، ومما جاء فيها :

تجري هناك وهاهنا تجري وتلهث في ونى
وإذا استراحت برهةً عادت لتطرد أمننا
والجن أنجبها وربتهـا الطفولة بيننا
خلقت من الضوضاء فهي تروع أفئدة لنا
ومن الخرافة والذكاء ومن ضياع المنى
وبرغم فطرتها تجيد الهمس فنّاً متقنا
قابلتها مجنونة تجري هناك وهاهنا
ولربما لبست مسوح الزهد تخدع من رنا (١)
حتى تراود عقله فيرى الضلالَ ممكّنا
ويظل يمدحها ويمنحها الكرامة والسنا (٢)
فهل الجنون جنونها أم في البرية حولنا ؟

ومن دلائل تفكيره العميق ، قصيدته « حلم الفراش » : ص ٧٧ من ديوان « الينبوع » ، ولا عهد للعربية بأخيلتها ، وإن كانت بعض أخيلتها غريبة إلاّ أنه صاغها صياغة فريدة ، وهي تتطلب جهداً للاستمتاع بها ، وفيها يقول :

تطيرُ إلى الزهر في خفةٍ لتمتص منه الرحيق الشهيْ

---

(١) رنا الى = أدام النظر (٢) السنا = الرفعة

وما تتمنى سوى زهرةٍ ... تبادلها لونها القرمزي
تحوم عليها وتنشق منها ... جميل الشذى فالشذى نفسُها
وتأبى التحول في النور عنها ... فإحساسُ زهرتها حسها
كأنا بزهرتنا أصبحت ... فراشتنا الحلوة العاثره
وتلك الفراشة حين انتشت ... على النور زهرتها الطائره

٭ ٭ ٭

كذلك تحلم في لهوها ... فراشتنا الحرةُ الباسمهْ
فدعها تغازل في وهمها ... خيالات ساعاتها الحالمهْ

فهذه القصيدة وأمثالها كثير في دواوينه وهي آية على فكره المتعمق ، وقارئها أول وهلة ، قد لا يرضى عنها ، ويراها ذات ألغاز ، وربما كان هذا سراً من أسرار هجران شعر أبي شادي لأن القارىء العربي ، يهيم بالمعنى المألوف والموسيقى الآسرة للأذن ، وقد جاراه في هذا التقليد بعض النقّاد وبهذا يضيعون المتعة بالشعر الفني الحديث ، وهؤلاء النقاد يخالفون سنة النقد الصحيح ، وتأييداً لهذا ، يقول الاستاذ « جارود » أستاذ الأدب في جامعة أكسفورد ، ما خلاصته ، ان الشعر الذي يستحق المطالعة ربما لا يطالعه معظمنا بالعناية الواجبة ، ونحن اذ نطالب الشعر بالمتعة ، فالشعر يطالبنا ببذل الجهد في تفهمه حتى نستمتع به [(١)]

ويقول الناقد ستار Star في كتابه « حركية الأدب » أنه لا مفرَّ من بذل جهد كبير لمعرفة مرمى الأديب ولا بُدَّ من فحص صنيعه الأدبي في بطء واضناء نفس ، وإلا كان نقد الناقد ضرباً من التحامل أو السطحية [(٢)]

ونحن اذا كنا أطلنا الوقفة عند شعر أبي شادي ، فذلك لأنه الشاعر الذي غُمِطت عبقريته في بيئته ، إمّا تحاملاً أو تكاسلاً عن بذل الجهد لتفهمه ، أو عجزاً عن التجاوب معه ، ولا يظنن أحدٌ أن تقديرنا له هو تقدير شاملٌ لكل شعره ، بل إن له ، كما لكل

---

(١) تذييل للدكتور أبو شادي في ديوانه « أنداء الفجر » ص ١١٨
(٢) كتاب حركية الادب — لمؤلفه ستار ص ٣

أديب ، عيوباً فقد لا تروق صياغته في بعض الأحيان ، وقد تتفاوت أنفاسه في القصيد الواحد . وقد لا يحلو التنقل بين أبيات بعض قصائده ، وقد تخور قوافيه أحياناً أخرى ، ولكن ، مهما يقال في مآخذه فانها لن تقلل من قيمة روائعه المبثوثة في دواوينه الكثيرة. ولو اختير ديوان مفرد من هذه الدواوين ، لكان الديوان الأول الذي تمتز به العربية في العصر الحديث . ولا يستطيع القيام بهذه الخدمة الادبية إلا أديب مثقف ، مجرد عن الهوى مقدر المسئولية النقدية في هذا العصر ، محب للتآخي مع أعمال هذا الأديب ، الذي يعد تآخي الناقد والمنقود أهم مقياس من مقاييس النقد ، وقد عبّر عن ذلك في أبياته البديعة الشهيرة (١)

كن أنت نفسي واقترن بعواطفي | تجد « المعيب » لديّ غير معيب
شعري ـ الذي تأباه ـ أنفس مهجتي | وكفاه أن يحيا بنفس أديب
عبثاً تحاول فهمه بتحامل | ان العداء يرد كل حبيب
لو طرت في دنيا خيالي لم تكن | إلا رفيق مسرتي ووجيبي
ماكان هذا الشعر من لغة الورى | لكنه قلبي وروح حبيبي !

وبعد هذه الجولة في شعر أبي شادي يتضح بجلاء أن ناقديه أغفلوا روائعه، ولم يتحدثوا إلا عن مساوئه ، وأحاديثهم صدرت عن جهالة أو تحامل ، ولبست رداء البذاء والتجريح ، كما جرت نقدات الرعيل الأول من النقاد الذين أسلفنا على ذكر كتبهم النقدية .

* * *

ثم نبُل النقد في مصر ، وخلا من الطعن والتجريح والبذاء ، في مقالات الدكتور طه حسين التي زخرت بها مجلة السياسة الأسبوعية ، وجريدة الوادي اليومية ، وأغلب هذه المقالات ضمّها كتابه «حديث الأربعاء» كما ضمّ نقدات جديدة . ولقد امتاز هذا الكتاب النقدي بلمحات ذكية ، ونظرات ذوقية مقدرة ، وطُبعت إلى حد ما ، بطابع الإنصاف ، وإن لم تخلُ في بعض الأحيان من الهوى .

فلقد نقد الدكتور طه ، شوقيًّا وحافظاً نقداً يكاد يكون عادلاً — وإن كان مُرًّا قاسياً — فذكر حسناتهما ومساوئهما ، واتخذ له مقياساً ذاتيًّا حيناً ، وموضوعيًّا حيناً

---

(١) قصيدة بعنوان « كن أنت نفسي » بديوان الشعلة ص ٣٣

آخر ، ومقياسه بعامة ، كما شرحه في « حديث الأربعاء » البحث عن صحة المعنى واستقامته وطرافته ، وجودة اللفظ ونقائه ، وارتفاعه عن الركاكة والإسفاف »[١] وهو مقياس لم يعتمد جوهر الجمال الأدبي ، ولا النظرات الحديثة في النقد . وفي هذا الصدد يقول الأستاذ محمد خلف الله في كتابه « من الوجهة النفسية »[٢] إن « طه حسين ليست له نظرية واضحة المعالم في فلسفة الفن الجميل » — « وهو في نقده يصدر عن ذوق ومعرفة » وأنه « لا يقيس الأدب بمقياس جمالي أو سيكولوجي أو لغوي معين » .

وآية هذه الحقائق إنصافه لكبار الشعراء مثل شوقي وحافظ ، وتأرجحه وتعاوجه في نقد شعراء الشباب أو الكهول مثل نقده لناجي ، وعلي طه ، ومحمود أبو الوفا — أما عن شوقي ، فقد تحدثنا عنه بما فيه الكفاية [٢] ، وأما عن حافظ ، فقد امتدح بعض قصائده ، وأنحى على البعض الآخر ، ونعى عليه هو وشوقي ، قلة قراءتهما ، وكسلهما العقلي ، ونعت حافظاً بالتقليد ، وشوقياً بالتجديد الملتوي ! وأخذ يشرح أبيات حافظ تشريحاً ، فينقد لفظة أو قافية ، ولم ينظر الى قصائد حافظ نظرة كلية إلا نادراً .

ونستطيع أن نقول إجمالاً ، إن حافظ ابراهيم في جملته ثمرة ناضجة من ثمرات الثقافة الكلاسيكية ، وأنه تميز بشعره الوطني والاجتماعي والوصفي ، وأسلوبه مباشر ، وفي كثير من شعره جزالة وحيوية . وجل شعره ، إن لم يكن كله ، من عمل الوعي ، وليس للعقل الباطن ولا للوحي الكامن أثر فيه ، وذلك لأن حافظاً كان من الشخوص الخارجية أو ما يسمونهم Extrovert ، وتبعاً لهذا نجد جل صوره حسية مادية ، حتى في قصائده الوجدانية المعتبرة في مثل هذا البيت [٣] من قصيدته الى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده :

كأن فؤادي ابرة قد تمغطست بحبك أني حُرِّفتُ عنك تعطف !

وأما أسلوبه المباشر فيتجلى في سيطرته وأسره في مثل تهنئته إلى السلطان حسين كامل التي استهلها بقوله : [٤]

(١) « حديث الاربعاء » الجزء الثالث ص ٢٢٢ (٢) كتاب الاستاذ خلف الله صفحات ١٣٨ و١٤٠ و١٤١ (٢) تراجع ص١٤٩ الى ص ١٥٧ من هذه الدراسة

(٣) ديوان حافظ — الجزء الاول ص ٢١ (٤) الديوان سالف الذكر ص٦٧ ، ٦٨

هنيئاً أيها الملك الأجلُّ لك العرش الجديد وما يُظِلُّ
تسنم عرش اسماعيل رَحْباً فأنت لصولجان الملك أهلُ
وحصّنه بإحسانٍ وعدلٍ فحصنُ المُلك إحسانٌ وعدلُ
وجدّد سيرة العُمرين فينا فإنك بيننا لله ظلُّ

ثم يقول في إبداع :

لك العرشان : هذا عرش مصرٍ وهذا في القلوب له محلُّ
فألّف ذاتَ بينهما برأيٍ وعزم لا يكلُّ ولا يَملُّ
فعرشٌ لا تحفُّ به قلوبٌ تحُفُّ به الخطوب ويضمحلُّ

وقد تكون عُمَرِيَّةُ حافظ التي روى فيها تاريخ عمر بن الخطاب رضوان الله عليه من الشعر المباشر الآمر ، وهذه العمرية بلغت أكثر من ثمانين ومئة بيت ، ونقتطف منها ، موقفاً لعمر بن الخطاب مع نصر بن حجاج ، الذي كان يسبي النساء بجماله ، فأخرجه عمر من المدينة الى البصرة، وفي هذه الواقعة يقول حافظ : (١)

كانت له لمةٌ فينانة عجب على جبين خليق أن يحلّيها
وكان أنى مشى مالت عقائلها شوقاً اليه وكاد الحسن يسبيها
هتفنَ تحت الليالي باسمه شغفاً وللحسان تمنٍّ في لياليها
جزرت لمته لما أتيت به ففاق عاطلها في الحسن حاليها
فصحتَ فيه تحوّل عن مدينتهم فانها فتنة أخشى تماديها
وفتنة الحسن إن هبت نوافحها كفتنة الحرب إن هبت سوافيها

وأسلوبه المباشر لا يجري على هذا الغرار في كثير من الأحايين يجمد ، ولا يثير أي هزّة ، كما نجد ذلك مثلاً في مثل قصيدته «مصر»(٢) وأسلوبه فيها جامد الهواء ، راكد الماء ومما جاء فيها قوله على لسان مصر :

فترابي تبرٌ ونهري فراتٌ وسمائي مصقولة كالفرندِ

(١) ديوان « حافظ » الجزء الاول ص ٨٩ و ٩٠ ـ
٢) ديوان حافظ ـ الجزء الثاني ص ٩٠

أينما مرت جدول عند كرم عند زهر مدنسٍ عند رندِ
ورجالي لو أنصفوهم اسادوا من كهول ملء العيون ومردِ

وهذا الأسلوب المباشر الواضح ، قلَّ أن تجد فيه انفعالاً وثاباً ، وكثيراً ما تقع فيه على صور خارقة في المبالغة ، وهذا ينم على البعد عن الدقة وضعف المعرفة ، ومن شواهد هذه الصور المسرفة قوله في مدح « البارودي » : (١)

سَلبتَ بحار الارض درّ كنوزها فأمست بحار الشعر للدرّ موردا
وصيرت منثور الكواكب في الدجى نظيماً بأسلاك المعاني منضدا

وإذا كان أسلوب حافظ كله مباشراً ، مع تفاوت في القوة أو الجزالة ، فان كثيراً من تجاربه الشعرية كانت مضطربة غير موحدة الهدف ، فنراه مثلاً في مدحه للخديو (١) أو لسلطان تركيا ، يتغزل ، وكذا في تهنئته للسلطان عبد الحميد بعيد الجلوس (٢) يشرّق ويغرّب ، فيتحدث عن مصر ، ويطلب لها الدستور ، ويتحدث عن شريف مكة ، ويحمل عليه لخروجه على السلطان . وعلى هذا الغرار نرى كثيراً من قصائده مزيجاً من الحقائق والأفكار التي لا يصل بينها وبين بعضها سبب مباشر ، وهو في هذا يحاكي القدامى في تجاربهم المختلطة .

* * *

وقد تميز حافظ بشعره الوطني والاجتماعي ، ما في ذلك ريب ، فهو شاعر المجتمع في جيله وله ميول ديمقراطية خليقة بالاعتزاز ، وقد كان يلوذ في شعره السياسي الى المهادنة ، تحت تأثير البيئة المتناقضة ، وضغط الظروف العاتية المنوّعة ، ويتجلى تهادنه في مثل قصائده « وداع كروم » ، والى « معتمد بريطانيا » وتهنئته للسلطان عبد الحميد ، ومع تهادنه هذا ، فانه لم ينس بلاده والمطالبة بدستورها في أوقات حرجة ففي تهنئته للسلطان عبد الحميد بعيد الجلوس واحتفائه بشهر تموز (يوليو) الذي عاد فيه الدستور الى تركيا ، يعرب عن أمله في نيل مصر مثل هذا الدستور ، وفي هذا يقول :

تموز ، أنت أبو الشهور جلالة تموز ، أنت منى الاسير العاني

---

(١) ديوان حافظ ـ الجزء الاول ص ١٠
(٢) الديوان سالف الذكر ـ الجزء الاول ص ٤٤

هلاَّ جعلت لنا نصيباً علَّنا ... نجري مع الأحياء في ميدان
أيعود منك الآملون بما رجوا ... ونعود نحن بذلك الحرمان
عوز إن بنا اليك لحاجةً ... فتى الأوان وأنت خير أوان [(١)]

وكذلك نراه في تهنئته للخديو ، بقدومه من الحج ، لا ينسى ذكر مصر ، والاعراب عن تمنياته الطيبات لها فيقول :

أمانيُّك الكبرى وهمك أن ترى ... بأرجاء وادي النيل شعباً منعما
وأن تبني المجد الذي مال ركنُه ... وأن ترهف السيف الذي قد تثلما
دعوت لمصر أن تسود وكم دعتْ ... لك الله مصر أن تعيش وتسلما [(٢)]

وقد نعى عليه ، بعض أدباء اليوم هذا التهادن ، فرأينا الأديب محمود محمد شاكر ، يحمل عليه في مجلة الكتاب [(٣)] حملة شعواء ، ويُندد بتقريعه للشعب ، ورأينا الصيرفي في بحثه « حافظ وشوقي » [(٤)] ينقم عليه مثلاً قصيدته التي وجهها « الى السلطان حسين كامل » داعياً إيَّاه فيها الى التعاون مع الانجليز ، والصيرفي يقول في هذا الصدد « كان جديراً بحافظ أن يكون أكثر وطنية وشعوراً بالإباء ، أو يسكت إن لم يجد مجالاً للقول » وهذه نقدات فيها كثير من الظلم ، لأنها تنظر نظرة هذا الجيل لجيل مضى وعصر رهيب أسود كان يجثم فيه الاحتلال بمخالبه على صدر البلاد وقلبها . ويكفي حافظاً فخراً أنه استطاع في هذا الظلام أن يتحدَّث بذكر مصر ، وأن ينطق بأمانيها ولست أجد أقوى في تبيان حالة البلاد وما كان يحيق بها من إرهاب من مثل قوله [(٥)]

فقد غدت مصر في حال إذا ذكرت ... جادت جفوني لها باللؤلؤ الرطب
كأنني عند ذكرى ما ألمَّ بها ... قرمٌ [(٦)] تردَّد بين الموت والهرب
إذا نطقت فقاع السجن متكأً ... وإن سكتُّ فان النفس لم تطب

وأما نقد محمود محمد شاكر بأن حافظاً كان يحمل على الشعب ويندّد به ، فهذا نقدٌ ضرير لأن حملة حافظ على الشعب ، هي حملة توجيه ، وتقويم واصلاح ، لا حملة تنديد وازراء ،

(١) ديوان حافظ الجزء الاول ص ٤٨ (٢) ديوان حافظ الجزء الاول ص ٥٣
(٣) مجلة الكتاب العدد الممتاز اكتوبر ١٩٤٧ (٤) كتاب « حافظ وشوقي » — للصيرفي مارس ١٩٤٨ ص ٨ (٥) ديوان حافظ ـ الجزء الثاني ص ١٨ (٦) القرم : السيد

وتحقير ، ومثل هذه الحملات تدل على شدّة وطنيته ، ومحبته لبلاده — فهو عندما يُقرّع بني وطنه في القصيدة التالية :[١]

حطمتُ اليراع فلا تعجبي ... وعفتُ البيان فلا تعتبي
فما أنتِ يا مصرَ دار الأديب ... ولا أنتِ بالبلد الطيب
وكم فيكِ يا مصرُ من كاتبٍ ... أقالَ اليراع ولم يكتبِ
فلا تعذليني لهذا السكوت ... فقد ضاق بي منك ما ضاق بي
أيُعجبني منك يومَ الوفاق ... سكوتُ الجماد ولعبُ الصبي[٢]
وكم غضب الناس من قبلنا ... لسلب الحقوق ولم نغضبِ

إلى أن قال :

وكم ذا بمصر من المضحكات ... كما قال فيها أبو الطيّب
أمورٌ تمرُّ وعيش يُمرّ ... ونحن من اللهو في ملعبِ
وصُحْفٌ تطنُّ طنين الذباب ... وأخرى تشُنُّ على الأقرب
وهذا يلوذ بقصر الأمير ... ويدعو إلى ظله الأرحبِ
وهذا يلوذ بقصر السفير ... ويُطنب في ورده الأعذَبِ
وهذا يصيحُ مع الصائحين ... على غير قصدٍ ولا مأربِ

لا يقصد بمثل هذا التقريع ، إلى التهكم والسُخر من الشعب ، كما وَهمَ الناقدُ الذي أسلفنا على ذكره إنما يقصد إلى إثارة قومه إلى التحرر وإلى التحلي بالمبادىء الخلقية والوطنية القوية — وقد أدرك هذا القصد الأديب الشاب « روفائيل مسيحة » في كتابه « حافظ السياسي » وعلّل الدوافع التي اضطرت حافظاً إلى التهادن ، وحب المسالمة تعليلاً واقعيّاً

وعلى أي حال ، فان حافظاً في جيله ،كان خيراً من أي شاعر مصري عصري في ميوله الوطنية والديمقراطية . وتاريخ شعرائنا الراهن المنحرف شهيد على ما نقول :

ومع هذا ، فاذا كان الشباب الوطني المثالي ، في هذه الأيام ، ينفر من التهادن ، ومن تخوّف حافظ من الايذاء ، في عهد الاحتلال والحكم العرفي ، وفي قيام قانون المطبوعات ،

---

(١) قصيدة « زواج الشيخ علي يوسف » صاحب المؤيد ص ٢٥٦

(٢) يشير الى الاتفاق الذي تم بين انجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ وبه أطلقت يد انجلترة في مصر ، مقابل بعض الامتيازات لفرنسا في مراكش

فإنه سوف يطرب لقصائده التي دبجها ، بعد ما تحلل من أغلال الوظيفة في عام ١٩٣٢ والذي لم يعمر بعدها ، وهذه القصائد تؤيد محبته العميقة لوطنه ، وللديمقراطية الغالية ، وهذا ما تشهد به مثل قصيدته : « في شؤون مصر السياسي » ص ١٠٥ ـ الجزء الثاني ، التي حمل فيها على المستعمر ، وعلى حاكم من حكامنا المتجبرين ، في عام ١٩٣٢ وقد استهلها بقوله:

قد مرَّ عام يا سعاد وعام ... وابن الكنانة في حماه يضام
صبوا البلاء على العباد فنصفهم ... يجبي البلاد ونصفهم حكام

ومنها قوله مخاطباً ذلكم الحاكم :

ودعا عليك الله في محرابه ... الشيخُ والقسيسُ والحاخامُ
لاهُمَّ[1] أحي ضميره ليذوقها ... غضصاً وتنسف نفسه الآلام!

وعلى مثل هذه الوتيرة جرت قصائده : « الى المندوب السامي» ص ١٠٦ ، « والاخلاق والحياد » ص ١٠٧ و « الى الانجليز » ص ١٠٨ — ومما جاء في القصيدة الاولى قوله منددا بسياسة الاستعمار :

كشفنا عن نواياكم فلستم ... وقد برح الخفاء محايدينا
سنجمع أمرنا وترون منا ... لدى الجُلَّى كراماً صابرينا
ونأخذ حقنا رغم العوادي ... تُطيفُ بنا ورغم القاسطينا[2]
على رغم المروءة قد ظفرتم ... ولكن بالأسود مصفدينا

وأما شعره الاجتماعي ، فيعد مفخرة من مفاخره ، كما قلنا في صدر هذا البحث [3] وهذا الضرب من الشعر منه ، ما هو محلي بحت لن يعمر إلاّ كحدث تاريخي ، ومنه ما هو باق على الزمن ببقاء ما فيه من حقائق . ومن قصائده الاجتماعية المحلية، نذكر « حريق ميت غمر » ص ٢٥٠ و « اللغة العربية تنعي حظها » ص ٢٥٣. و « مدرسة مصطفى كامل » ص ٢٦١، والحث على تعضيد مشروع الجامعة ص ٢٦٥ ، ومدرسة البنات ببور سعيد ص ٢٧٩ ، وكلها بالجزء الاول — ومن قصائده المعمرة نذكر قصيدته « رعاية الاطفال » ص ٢٧٥ بالجزء الاول ، التي استهلها بقوله :

....

(١) لاهمّ = اللهم (٢) القاسطين = الظالمين (٣) تراجع ص ١٤ ، ١٥

هبحاً أرى أم ذاك طيفُ خيالِ   لا ، بل فتــاةٌ بالعَــراء حِيالي
أمست بمَدْرَجة الخطوب فما لها   راعٍ هناك ، وما لها من والي

أو قصيدته التي يصف فيها الغلام المشرّد [١] والتي جاء فيها قوله :

هــذا صبيٌّ هائمٌ   تحتَ الظلام هُيــام حائرْ
أبلى الشــقاء جــديده   وتقلمت منــــه الأظافر
كم مثــله تحت الدجى   أسوان بادي الضُّــرِّ عاثر
خربانَ ، يخرُجُ في الظّـلا   مِ خُـروج خُـفَّاش المغاور
متلفعاً جلبــــابه   مترقباً معروف عابر
يقــذى برؤيتــه فــلا   تــلْــوي عليــهِ عينُ ناظِر

ومن أجمل قصائده الاجتماعية الدافعة إلى العمل والتقدم ، ما جاء في قصيدته « الامتيازات الأجنبيــة » [٢] وفيها مزيج من الحقائق المحلية ، والحقائق الباقية ، استمع إليه يقول :

سكتُّ فأصغروا أدبي   وقُــلتُ فأكبروا أربي
وما أرجوه من بلدٍ   به ضــاق الرجاء وبي
وهل في مصر مفخرةٌ   سوى الألقــاب والرتب
وذي إرثٍ يكاثرنا   بمالٍ غــير مكتسب
فقل للفاخرين : أما   لهــذا الفخر من سبب

* * *

أروني بينكم رجلاً   ركيناً واضحَ الحسبِ
أروني نصف مخترعٍ   أروني ربع محتسبِ
أروني نادياً حفَلاً   بأهل الفضــل والأدب
وماذا في مدارسكم   من التعليم والكُتُب
وماذا في مساجدكم   من التبيان والخُطَب

(١) محاورة في حفل أقامته جمعية رعاية الطفل الجزء الاول ص ٢٩٢
(٢) ديوان حافظ ـ الجزء الثاني ص ١١٠

وماذا في صحائفكم سوى التمويه والكذب
فهبوا من مراقدكم فإن الوقت من ذهب !

ومن الغريب ، أنَّ بعض قصائده الوصفية كان ، يضمنها ذكر الحالات الاجتماعية السيئة في بلاده ، ومن تلك القصائد قصيدته المتنوفة المبدعة ، « رحلته الى إيطاليا » (١) فقد وصف فيها البحر وإطبانه على الفُلْك ، وصفاً رائعاً ، وأعقب ذلك بوصف مشاهد إيطاليا ، ومجالي الجمال فيها ، وأقام بعد ذلك مقابلة بين بعض حالات ايطاليا الطبيعية والاجتماعية ، ومظاهر حياة أهلها ، وحالات مصر وبعض مظاهر حياة المصريين . وفي ذلك يقول :

جوّهم في تقلب واختلاف غير أن الثبات فيهم وفيرُ
جوّنا أثبتُ الجواء ولكنْ ليس فينا على الثبات صبورُ
ولديهم من الفنون لُبابٌ ولدينا من الفُنُون قشور
أنكر الوقف شرعُهم فلهذا كل ربع بأرضهم معمورُ
ليس فيها مستنقعٌ أو جدارٌ قد تداعى أو مسكنٌ مهجورُ
قسموا الوقت بين لهوٍ وجدٍّ في مدى اليوم قسمة لا تجورُ
كلُّهم كادحٌ الى الرز ق ولاهٍ اذا دعاه السرورُ
لا ترى في الصباح لاعبَ نَرْدٍ حوله للرهان جمٌّ غفيرُ
لا ولا باهلاً (٢) مليم النواحي للقهاوي رواحُهُ والبكُورُ
نضروا الصخر في رءوس الرواسي ولدينا في موطن الخصب بورُ
ولع القوم بالنظافة حتى جُنّ فيها غنيهم والفقيرُ

وعلى هذه الوتيرة تجري مقابلته التي يبغي بها انهاض المصريين وحضهم على العادات الحميدة ، وقد أربى هذا القصيد على الستين بيتاً ، وهو يُعد من أروع قصائده ، وبخاصة القسم الأول من القصيد الذي يصف فيه البحر والعاصفة والفُلْك ، وهو بهذا الوصف

(١) ديوان حافظ ـ الجزء الاول ص ٢٢٧
(٢) الباهل للتردد بلا عمل

يثبت اتصاله بالطبيعة ، ولعله – كما يقول الأستاذ شفيق جبري [1] لم يتصل بالطبيعة إلا في هذا القصيد فاستمع إليه يقول :

عاصفٌ يرتمي وبحرٌ يغيرُ أنا بالله منهما مستجيرُ
وكأنَّ الأمواجَ ، وهي توالى محنقاتٍ ، أشجانُ نفس تثور
أزبدت ، ثم جرجرت ، ثم ثارت ثم فارت كما تفور القدور
ثم أوفتْ مثلَ الجبال على الفُلْكِ وللفُلك عزمة لا تخُور
تترامى بجوجؤٍ لا يُبالي أمياهٌ تحوطُه أم صُخورُ

وبعد وصف حال ركابها النفسية ، يُخاطب البحر في قوة إذ يقول :

أيها البحرُ لا يغرنْكَ حولٌ واتساعٌ وأنت خلقٌ كبيرُ
إنما أنت ذرةٌ قد حوتها ذرةٌ في فضاء ربي تدُورُ
إنما أنت قطرةٌ في إناءٍ ليس يدري مداهُ إلاَّ القديرُ

ولا يتسع المجال لتناول باقي نواحي حافظ الشعرية ، وجملة القول في هذا الشعر إنه شعر الشخصية الخارجية — Extrovert — كما قلنا آنفاً — ولهذا نرى شعره الوجداني سواء أكان غزلاً أم رثاءً بارد العاطفة أو مفتعلاً ، ومتراوحاً بين الجودة والرداءة في الأداء وأما معانيه فقد تنبل كثيراً ، وتخمل قليلاً ، وموسيقاه قد تحلو وقد تجمد ، وأما شعره الوطني والاجتماعي والوصفي ، فهو كما قلنا غرة شعره ، ووليد شخصيته وهوى نفسه ولهذا قد علا في أغلبه علواً كبيراً .

* * *

ونعود بعد هذه الجولة السريعة في شعر حافظ ، إلى نقد الدكتور طه حسين لثلاثة من شعراء اليوم من المصريين وهم علي محمود طه ، والدكتور ابراهيم ناجي ، ومحمود أبو الوفا لنرى هل وُفق في نقده لهؤلاء ، كما وفق في نقده لحافظ وشوقي .

أما عن — علي محمود طه — فقد ذكر الدكتور طه، حسناته ومساوئه ، فرضي عن بعض قصائده ، وأنكر البعض الآخر .

(١) مجلة الكتاب ـ العدد الممتاز اكتوبر ١٩٤٧

فعلي محمود طه ، كما يقول، شاعر مجيد ، حلو الأسلوب، جزل اللفظ وفي شعره موسيقى قلما تظفر بها في كثير من شعرائنا المحدثين ، وهو يُحسن الوصف والتصوير ، إذا وصف في رشاقة وخفة ، لا في تثاقل وإلحاح !

ومن عيوبه — كما يقول — أنه يسيء في القافية كثيراً ويخطىء في اللغة ، «ويجسم ما لا سبيل إلى تجسيمه ، ويغلو في ذلك غلوّاً فاحشاً »[1]

وتبعاً لهذه النقدات لم يرض الدكتور طه عن قصيدة « ميلاد شاعر »[2] لما فيها من المبالغة ، ورغب إلى الشاعر أن يلغيها عند طبع ديوانه « الملاح التائه » ! وأما قصيدة « غرفة الشاعر » ص ٢٨ فقد بلغت رضا الناقد

ولو سار الدكتور طه على هذا النقد الذاتي المتذوّق ، لما كان لنا عليه من سبيل ، ولكنه بعدئذ ، عاد ينقض ما نَسَجَ من آراء عن الشاعر المنقود إذ قال :

« انه شاعر مجيد حقّا ، ولكنه ما زال مبتدئاً ! وهو شاعر مجيد حقّا ، ولكنه في حاجة الى العناية باللغة وتعرّف أسرارها ! »

وهذا نقدٌ متاوج متأرجح ، لا يعطي فكرة واضحة ، ولا صحيحة عن الشاعر المنقود والقطع التي أعجب بها الدكتور طه ، ليست أجود قطعه .

وليس ريب ، أن علي محمود طه ، شاعر وصّاف مجيد ، وشعره في استواء واحد، فلا يحلق تحليقاً بعيداً ، ولا يهبط هبوطاً عميقاً ، إلاّ أنه يستر عاطفته ، ويكبح انفعاله الشعري، ويميل الى الأداء القوي الجزل ، فاذا وصف وصف محايداً ، دون إشراك عواطفه، إلاّ في القليل من قصائده ، وموسيقاه تشجي الأذن، ولا تهزّ القلب إلاّ قليلاً . وقد تؤثر حافظته في انتاجه الشعري

وفي ديوانه « الملاّح التائه » الذي تقدم ذكره ، قطع بارعة ، سها عنها الدكتور طه ،كما أغفل قطعاً يرقد تحتها الطبع ، ونوّه بقطع لا ينطلق منها عبير الفن ، ومن القطع البارعة التي أغفلها : « أغنية ريفية » ص ٤٦ ، « الله والشاعر» ص ٧٧ ، « النشيد » ص ٢٦ وهذه القطعة الأخيرة هي في اعتقادي القطعة الارجوانية في الديوان كله ، وفيها تتمثّل الرؤية

---

(١) كتاب « حديث الاربعاء » ص ١٦٧ الجزء الثالث الطبعة الاولى صدرت عام ١٩٣٤

(٢) ديوان ـ الملاح التائه ـ ص ٣

البصرية ، والأسلوب الفني السريع البعيد عن الترصيع اللفظي ، وهو يصف في هذه القطعة زورة طيف الحبيب ، فيقول :

عنـد ما ظللني الوادي مساءً كان طيفٌ في الدجى يجلس قربي
في يديه زهرةٌ تقطر ماء عرَفت عيني بها أدمع قلبي
قلتُ : من أنت ؟ فلبّاني مجيبا
نحن يا صاح غريبان هنـا قد نزلنـا السهل والليل الرهيبا
حيث ترعاني وأرعاك أنا قلت: يا طيف أثرت النفسَ شكا
كيف أقبلت ؟ فقل لي : من دعاكا ؟
قال أشفقت من الليـل عليـكا فتتبعت الى الوادي خطاكا
ودنا مني وغنّاني النشيدا فعرفتُ اللحن والصوت الوديعا
هو حبي هام في الليـل شريدا !

أما قصيدة « ميلاد شاعر » التي تمنى الناقدُ على الشاعر حذفها من الديوان ، فهي من القصائد الوصفية البديعة ، وقد نوّهنا عن جمالها ، في كتابنا « أدب الطبيعة »[1] وقطفنا منها هذه الأبيات في وصف مشهد طبيعي :

وهنـا جدولٌ على صفحتيه يرقص الظلُّ والسنا الوضّاحُ
وعلى حافتيـه قام يغنيـنا من الطير هاتفٌ صدّاحُ
وفراشٌ له من الزهر ألوا نٌ ومن رقّـق الشعاع جناحُ
دفّ في نشوة يناديه نوّا رٌ وعطرٌ من الثرى فوّاحُ
وهنـا ربوة تلألأ فيهـا خضرة العشب والندى اللمّاحُ
ونسـيم كأنه النفسُ الحا ئر تُصغي لهمسه الارواحُ !

وهذه القطعة كما يبدو للقارىء ، من أجود شعر الوصف وأجمله بالنظر لبراعة صورها البصرية والسمعية ، وتخيّر بحرها وقافيتها وجمال موسيقاها وطلب حذفها ، هو ضربٌ من التعنت والهوائية

---

(١) « أدب الطبيعة » للمؤلف سنة ١٩٣٧ ص ١١٧ و ١١٨

ولا مجال، في هذا المكان لتناول دواوين علي طه، التي صدرت بعد الديوان المتقدم ذكره، وهي «ليالي الملاح التائه»[1] والشوق العائد[2] و«زهر وخمر»[3] و«أرواح وأشباح»[4] «وشرق وغرب»[5]، وسنتناول بعض هذه الدواوين في مكان آخر، والملحوظ عامة أن أغلب شعر علي طه، وصفي غنائي، وموضوعاته رومانتيكية، تتناول وصف الطبيعة والغزل، ولم يهجر هذه الموضوعات إلا في ديوانه الأخير «شرق وغرب» إذ فيه قصائد وطنية واجتماعية ممتازة، كقصائده «إلى أبناء الشرق» ص ٦٩ ـ و «في صفوف المجاهدين» ص ١٥٤ و «على النيل» ص ٩٢ — و «مصر» ص ١٠٠ وهذه القصيدة نيفت على الخمسين بيتاً، وقد تناول فيها حالة مصر المشجية الراهنة، ومما جاء فيها قوله :

أحقـًا ما يُـقال شيوخُ جيلٍ ... على أحقادهم فيـه أكبُّـوا
وكانوا الأمس أرسخ من جبالٍ ... إذا ما زُلزلت قِممٌ وهَضْبُ
فما لهمو وَهتْ منهم حُـلومٌ ... لها بيد الهوى دَفْـعٌ وجذبُ
أأرحامٌ مقطعـةٌ وأرضٌ ... تَـعادى فوقهـا أهلٌ وَصحْبُ
وأسواقٌ تُـباع بها وتُـشرى ... ضمائرُ هنَّ للاهـواء نَهْـبُ
يطوفُ بهـا النفاقُ وفي يديه ... صحائفُ أُفـعمت زوراً وكِـذْبُ
يـكاد الليلُ أن ينسى دُجاهُ ... إذا نُـشرتْ ويأخذُ منه رُعْـبُ
تعالوا يا بني قومي تعالوا ... إلى حقٍّ وَحسْـبُ الشعبِ حسْبُ
هو الدستور منه جنىً قطفنـا ... ونهر حياتنا ملآنُ عَذْبُ
فما للشَّـربِ[6] والجانين ثاروا ... عليـه بعد ما طَـعموا وعبُّـوا
فأُهْـدِرَ مرة وأبيح أخرى ... وعيب، وما له عيبٌ وذنب
إذا ما الأكثرية فيـه فازتْ ... تحركت الدسائسُ وهي إلْـبُ
عجائبُ لم تَـقَـعْ إلاَّ بمصر ... وأحداثٌ لهنَّ يطيشُ لُـبُّ

(١) صدر في عام ١٩٤٠ (٢) صدر في عام ١٩٤٥ (٣) صدر في عام ١٩٤٣

(٤) صدر في عام ١٩٤٢ (٥) صدر في عام ١٩٤٧

(٦) الشرب بالفتح ـ القوم يشربون ويجتمعون على الشراب

ومثل هذا الشعر يُعد نقلة جديدة في اتجاه الشاعر من الشعر الرومانتيكي الخيالي، إلى شعر الحياة والواقع .

وعلى أي حال ، فان شعر — علي محمود طه — يطبع أكثره الكد ، وتتجلى فيه أعمال الاناة والروية وهذا ما يباعد بينه وبين الالهام الشعري في كثير من الاحايين ، ولو ترك نفسه على سجيتها ، ولم يروّئ في توشية قصائده ، ولم ينظر كما يقول الدكتور بشر فارس ، إلى من سبقه من الشعراء ، وحاسب قلمه على اللغة ، وترك المعاني المألوفة[1] لكان لشعره شأن وأي شأن .

* * *

وإذا كان الدكتور طه حسين قد وُفق في نقد « علي محمود طه » في كثير من النواحي فإنه في نقد الدكتور ابراهيم ناجي لديوانه « وراء الغمام »[2] ، قد خانه التوفيق ، فلقد كان نقده فقهيّـاً بحتاً ، دار حول الصياغة من الناحية اللغوية والنحوية ، دون النظر إلى روح الشعر وجوهره ، وما يخفق فيه من نبض وانفعال — حقاً إن الدكتور طه ، قد ذكر بعض حسنات ناجي ، إلا أنه أطاف حولها الضباب ، فكان أشبه بمن يمزج المُـرّ بالحلو ، وآية ذلك قول الدكتور طه : « إن ناجي شاعر مجيد ، ولكنه لن يكون شاعراً جباراً وناجي شاعر هين لين ، رقيق حلو الصوت ، عذب النفس ، خفيف الروح قوي الجناح إلى حدّ ما »[3] « وناجي شاعر حب رقيق ، ولكنه ليس مسرفاً في العمق ، وشعره أشبه بموسيقى الغرفة ، كما يقول الغربيون ، وهو موفق فيما اصطنع من الالفاظ، وموفق فيما اتخذ من الاساليب ، ومعانيه جيدة ، تصل أحياناً الى الروعة ، وان كانت تنتهي أحياناً الى الابتذال » ! « وهو على شيء من التكلف ، والحرص الظاهر على اقامة الوزن، أو اقرار القافية، وهو في حاجة الى أن يعني بلغته » ! وهذه الاحكام العامة قد يكون الناقد

---

(١) تراجع مثل هذه الآراء في مقالين منشورين بجريدة البلاغ ، بقلم أديب ناقد في ١٠ مايو ١٩٤٠ و١٧ يونيو ١٩٤٠ وهما للدكتور بشر فارس .

(٢) ديوان « وراء الغمام » للدكتور ناجي عام ١٩٣٤ ـ مطبعة التعاون (٣) « حديث الاربعاء » الجزء الثالث ص ١٧١

محقـاً في بعضها ، وقد لا يكون في البعض الآخر ، ولـكنه عند ما جاء يطبق أحكامه خانه التوفيق، وجانب النقد الفني السليم .

وآية ذلك ، أن الدكتور طه لم يجد في قصيدة « قلب راقصـة »[1] وهي من مفاخر الشعر المصري الحديث ، « من جديد» ! وانمـا « هي كلام مألوف قد شبع منه الناس » على حين نجد ناقداً جهيراً كالدكتور أبي شـادي يصف هذه القصيدة بتميزهـا بالروح الانسانية الرفافة ! والحق أن هذه القصيدة رائعة في عواطفها وانفعالاتها المتنوعـة ، وفي جمال صياغتها ، وخفة أسلوبها ، وناجي يصف فيها حالته قبل دخول أحد المراقص وحالته فيه ، وحال الراقصة في ألمها والجمهور في فرحه ، ولقائه لها ، وتعرُّف حالتها النفسية وهو لم ينظر اليها نظرة جمهور الناس ، بل نظرة إكبار ، وبدت لقلبـه الـكبير مطهرة ، وكيف لا تتطهر بنار الصبر ونار الألم !

ولا نستطيع في هذا المجال تسجيل كل القصيد، ولـكنـا نقطف منه بعض أجزائه ، ومن ذلك قوله يصف حال الجمهور المتفرج :

فقدوا حجاهم حينما طربوا ودووا دويّ البحر صخابا
فاذا استقروا لحظة صخبوا لا يملـكون النفس إعجابا

وقوله يصف شعوره عند رؤية الراقصة على المسرح :

من هاته الحسناء يا عيني ؟ السحر كلُّها وظلالها
كالطير من غصن الى غصن وثابة ، وثَبَ الفؤاد لها !

وقوله وهو ينتظر لقياها :

حان اللقاء بغادتي وأنا أخشى سراباً خادعاً منها
متلهفاً استبطىء الزمنـا وأظل أسأل ساعتي عنها !

وقوله عند ما لحها مشارفة للقياه :

من أنت يا من روحها اقتربت مني وخاطب دمعها روحي
صبته في كأسي وما سكبت فيه سوى أنات مذبوح !

---

(١) ديوان « وراء الغمام » ص ٣٦

ويختم القصيد الذي زاد على الخمسين بيتاً بقوله يصف فراقها له :

تمضي وتجهل كيف أكبرها إذ تختفي في حالك الظلم
روحاً ، إذا أمعت يطهّرها ناران : نار الصبر والألم !

وهذا القصيد الفريد في العربية ، أخذ ينثر الدكتور طه ، من حوله ذرات الغبار ، فنراه يتناول البيت التالي وهو مطلع القصيد :

أمسيت أشكو الضيق والأينا مستغرقاً في الفكر والسأم

فلا يجد نقداً يثيره حوله ، الا قوله « إن المفكر لا يسأم ! وفي البيت الذي يتلوه :

ومضيت لا أدري الى أين ومشيت حيث تجرني قدمي

لم تعجبه عبارة « تجرني قدمي » ! لأن المرء يجر قدمه ! وهي لا تجره ! والعبارة في اعتقادنا تصوير شعري بديع للسأمان المتحير الذي تجره قدمه ، لشرود عقله وجولانه لدرجة أن تكون القدم هي المسيرة .

وعلى مثل هذه النقدات سار الدكتور طه في نقد هذا القصيد وغيره ،متجاهلاً ما يشع فيه من شحنات عاطفية ، وانفعالات وثابة ، وأسلوب فني ، وموسيقى ارتكازية

وعجبٌ أي عجب ، أن يفوت هذا الناقد الكبير، اتجاه ناجي في قصيدته « الحياة »[1] إذ يصف فيها بعض مظاهر الحياة ودنيا الناس في جمال وتفلسف ومما جاء فيها قوله :

جلست يوماً حين حلّ المساء وقد مضى يومي بلا مؤنس
أريح أقداماً وهت من عياء وأرقب العالم من مجلسي

وقوله :

وارحمتاه للقوي الصبور يقضي الليالي في كفاح عنيف
وكيف لا أبكي لكدح الفقير أقصى مناه أن ينال الرغيف !

ويختم هذه القصيدة الفريدة بقوله :

يارب غفرانك إنا صغار ندب في الدنيا دبيب الغرور
نسحب في الأرض ذيول الصغار والشيب تأديبٌ لنا والقبور !

(١) ديوان « وراء الغمام » ص ٢٩

ولا نستطيع في هذا المجال تفنيد باقي نقدات الدكتور طه، وقد يرى القارئ أن هذه النقدات لم تكن موفقة حسب ، ولكنها بلغت درجة التحامل ، مما جعل الدكتور ناجي لقيس النفس — بعد هذا النقد ، برماً بالبيئة الأدبية ، وهو للآن لم يصدر ديوانه الثاني ، وفيه روائع أتينا بنفحات منها في هذه الدراسة ، ونترك باقيها ، لدراسة مستقلة .

* * *

وثالث من تناولهم الدكتور طه ، بالنقد الشاعر المصري « محمود أبو الوفا » وهو شاعر مخضرم ، حلو الموسيقى ، طلق الأسلوب ، وقد أخرج ثلاثة دواوين ، أولها « أنفاس محترقة » وثانيها « أشواق » وثالثها « الأعشاب »

ودار حديث « الأربعاء » للدكتور طه حول نقد الديوان الأول ، فقال عنه « أنه من النظم لا من الشعر ، وأنه يخلو من الشعر خلوّاً تامّاً » (١)

وهذه قالة مسرفة في الظلم ، فديوان « أنفاس محترقة » لم يخل من الشعر كما يقول ، بل فيه قصائد ننشق منها عطر الشاعرية الحقة ، ومن بينها نذكر على سبيل المثال قصيدته « أريد » ص ٥ — وهي موسيقية حلوة الرونق والماء — وقصيدته « أنفاس الزهر » (٢) وفيها تتجلى شاعرية أبي الوفا وطلاقته الأسلوبية ، وتأثره تأثراً اتجاهيّاً بشعر إيليا أبو ماضي ، وقد جاء فيها :

تعالي زهرة الوادي   نذيع العطر في الوادي
فتحملنا نسائمه   كما شاءت أمانينا
وتشدونا حمائمه   أغاني للمحبينا
ويزجينا الصبا والحب   من وادٍ الى وادي
تعالي زهرة الآس   نذيع الحب في الناس
فلا يصبح في الدنيا   سوى قلب على قلب
ولا نلقى امرأً يحيا   لغير العطف والحب
ونغدو زهرة الآس   شعار الحب في الناس

---

(١) كتاب «حديث الاربعاء» ص ٢١٣
(٢) ص ٩١

والذي يهزنا بخاصة في شعر هذا الشاعر انه مع ثقافته الأزهرية ، قد اتخذ أسلوباً مباشراً مبتدعاً سلساً سريع الحركة ، وقد وصفه الأستاذ فؤاد صروف بميزة السماحة والمطاوعة Spontaneity وهذا قول حق ، ويمكن تلمس هذه الميزة بوضوح في ديوانيه « الأعشاب » و « أشواق » وفي هذين الديوانين ، انتقل الشاعر نقلة جديدة ، وتلافى التجارب الشعرية القصيرة التي كثرت في ديوانه الأول ، واتجه الى موضوعات أوسع أفقاً ، ففي ديوانه أشواق تجد مثلاً قصيدته « الأسد السجين » وهي تجربة شعرية واسعة الأفق ، وقصيدته « الطائران » وهي تجربة خارجية سجل فيها مقابلة بين طباع الطير وطبائع البشر ، واستهل قصيدته الأسد السجين بقوله :

أهذا الليث ذو البطش الشديد يسام الضيم في القفص الحديد
عجبت لمنطق العصر الجديد أجل يا منطق العصر المجيد
لقد علمتني لغة العبيد

ويختمها بقوله :

ألا يا ليث لست أقول صبرا فقد جربت هذا الصبر دهرا
فلم ينفع وزاد العيش مرا ولكن ان قدرت وكنت حرا
فحطم كل هاتيك القيود

وليس ريب أن هذا الشاعر ، في طليعة شعراء مصر الغنائيين ، وسكوته الآن عن قرض الشعر وبخاصة الأغاني ، يعد خسارة أدبية كبيرة ، وأغلبنا يذكر أغنيته الحلوة العفيفة « عند ما يأتي المساء » (١) ولو تابع أغانيه ونوّع انفعالاتها ، لخدم البيئة المصرية أجل خدمة

* * *

وخطا النقد في مصر خطوة ثانية ، بظهور كتاب الدكتور محمد مندور « في الميزان » وضابط هذا الناقد في نقده ، — الذوق المستنير المدرّب ، والذوق هو كما يقول ، « خير حكَم » ، وهو ما اعتمد عليه ، أكبر نقاد العرب من أمثال ابن سلام الجمحي ، والآمدي ، والجرجاني وغيرهم ، ومما نادى به ، ج . لانسو G. Lanson ، عميد النقد في فرنسا المعاصرة »

أما عن مقياس القدامى الذوقي ، فقد تحدثنا عنه حديثاً عابراً في صدر هذه الدراسة

---

(١) ديوان « أشواق » ص ١١ .

وهذا المقياس يختل بحسب الأمزجة والنقد على مقتضاه قد يصير في كثير من الأحايين ، نقداً ذاتياً – وأما عن مقياس ، لانسو النقدي ، فهو يعتمد الاحاطة المستنيرة ، بالتاريخ الأدبي ، ولا يقنع بهذا بل يضم قيماً أخرى فلسفية ، وسيكولوجية واجتماعية ، وخلقية. (١)

وعلى هدي الذوق ، نقد الدكتور مندور الشعر الشرقي الحديث ، نقداً لم يتوخ فيه رأي لانسو ، لأنه قصر نقده على بعض شعراء الشرق ، وترك عدداً كبيراً من الموهوبين ، وكان الواجب ، أن يقيم نقده على دراسة مستفيضة للادب المعاصر . وجمهرة الموهوبين من الشعراء ، وإنا لنراه قد احتفى احتفاء فائقاً بشعر المهجر ، وسجل لبعض قصائدهم الخلود ووجد في الشعر المصري المعاصر ، ضعفاً فنيًّا . وهذه أحكام مطلقة ، وأخشى أن أقول بتراء .

ومحور تقديره دار حول الصياغة الفنية ، والموسيقى الآسرة ، الهامسة للقلوب و « الصياغة الفنية » ، كما يقول ، ليست مسألة تشبيهات ، ومجازات ، تتعلق بظواهر الأشياء بل هي خلق فني في صميم حقيقته ، وهي التي يرقد وراءها احتمالات لا حد لها تلتقط منها كل نفس ما تريد » (٢) — أما الموسيقى ، في تقديره ، فهي عنصر من عناصر الشعر ، بل جوهر من جواهره ، وقد أبان بعض نواحيها في ذكاء وعمق ، وزكانة

وعلى ضوء هذه الآراء ، نظر الدكتور « مندور » الى بعض قصائد أدباء المهجر ، فهتف باحساسها الرهيف وصداها الهامس ، وموسيقاها الرقيقة ، التي تتجاوب مع النفس — وذلك في مثل قصيدة — أخي — لميخائيل نعيمة — التي جاء فيها :

أخي ! إن ضج بعد الحرب غربيٌّ بأعماله
وقدّس ذكر من ماتوا وعظم بطش أبطاله
فلا تهزج لمن سادوا ، ولا تشمت لمن دانا !
بل اركع صامتاً مثلي بقلب خاشع دام
لنبكي حظ موتانا !

....

(١) رسالة « النقد والعلم » للدكتور بشر فارس في مقتطف ابريل سنة ١٩٤٤
(٢) كتاب « في الميزان » للدكتور مندور ص ٩٦

ونظر الدكتور مندور إلى قصيدة « يانفس » لالياس فرحات . فامتلا قلبه طرباً بموسيقاها الآسرة ونصح الادباء بالالتفات إلى هذه الموسيقى الجديدة التي أدخلها شعراء المهجر على موسيقى الشعر العربي ، وهذه القصيدة استهلها فرحات بقوله :

يا نفس ُمالك والانين ْ تتألمين وتؤلمين
عذبت قلبي بالحنين وكتمته ما تقصدين ْ

* * *

ونحن ، نُسلم بأن هذا نوع من الشعر الطريف المتجاوب مع النفس ، وهو إن صلح في النواحي الوجدانية والغزلية ، فلا يصلح في النواحي الآخرى ، مثل الوصفية ، والوطنية والاجتماعية ، والأسلوب الموحي الذي يطربه الدكتور مندور ، ليس هو ، الأسلوب الفني الشعري الوحيد بل هناك الأسلوب المباشر ذات الاثارة والقوة ولكل من الاسلوبين قدره من الوجهة الفنية ، وقد أوردنا في هذه الدراسة ، شواهد فنية لكل من الاسلوبين .

وأما عن الموسيقى الآسرة الهامسة التي يهتف بها الدكتور مندور فليست هي الموسيقى الوحيدة التي يُلوّن بها الشعر . وهذه الموسيقى لا تصلح في نواحٍ كثيرة ، مثل الحماسة والفخر والفرح والاعجاب وما إليها ، كما أن النغمات تختلف بين الهمس والجهر ، والشدة والرخاوة ، والضغط والقلقلة ، وليست العبرة بالهمس أو بالجهر ، إنما العبرة بالتناسب في أجزاء الاصوات وفي تجاوب النغم مع القلب أو الفكر ، أو معهما معاً .

وتبعاً لما أسلفنا ، نعتقد ، أن حكم الدكتور مندور على ضعف الحاسة الفنية في الشعراء المصريين غير قائم على أساس صلد ، لأن القصائد التي بنى عليها حكمه للعقاد وعلي طه ، ومحمود حسن اسماعيل ، قليلة ، ولا يجوز إقامة حكم عام عليها ، ولهؤلاء الشعراء قطع فنية لم يقع عليها الناقد ، لأنه لم يحط بجل شعرهم ، هذا من جهة ومن جهة أخرى ، فان الناقد ، لم يحط علماً بباقي الشعراء المصريين من أمثال الدكتور أبي شادي والدكتور ناجي ، والصيرفي ، وصالح جودت ومفيد الشوباشي ومختار الوكيل ، وفايد العمروسي ، وعبد الحميد السنوسي وعبد الحكيم الجهني ، وعثمان حلمي ، وابراهيم زكي ، واحمد رامي ، وعبد الرحمن صدقي

وكثيرون غيرهم ، وقد سجلنا لبعض هؤلاء الشعراء نماذج فريدة في هـذه الدراسة ، ولو اعترض بأن هؤلاء الشعراء ، ليس لهم شعر مهموس . فإن الحاسَّة الفنية لا تقاس بمثل هذا النوع فقط كما سبق قريباً ، ومع هذا فيمكن أن نجد ضالتنا في بعض قصائد الصيرفي في مثل قصيدتيه « تنهداتي» و « وحدة العمر » بديوانه «الشروق»[1] وقد جاء في الثانية :

ستختلف الحياة أمام عيني   تمر طيوفها وتغيب عني
وتفنى في محيط من تمني   وأحلام تلوح بكل لون

* * *

تعال فقد عرفت حدود نفسي   وأطمع أن أحقق طيف حدسي
فهل لك أن تذيب ثلوج يأسي   وتمزج خاطري بغدي وأمسي !

واذا تصفحنا نقد الدكتور مندور الشعراء الثلاثة الذين نقد شعرهم ، وهم علي محمود طه والعقاد ومحمود حسن اسماعيـل ، نجده نقداً يتمثل فيه عنف الحق حيناً ، وعنف الانفعال حيناً آخر ، فضلاً عن قصوره في الالمام بآثارهم كما قلنا ، — فأما عن علي محمود طه ، فقد تناول ديوانه « أرواح وأشباح » وترك بقية آثاره — أما عن أرواح وأشباح ، فقد نفر منها إحساسه، كما يقول ، وذلك لأن الشاعر تحدَّث فيهـا عن الأساطير اليونانية ، وهي شيء لا يجيده ، وأخذ يتساءل عن بعض عبارات لم يفهم لها معنى مثل « قمة الهاوية ا ويؤيد هذا الرأي الأستاذ « دريني خشبة» في مقالاته التي كتبها بمجلة الرسالة عن بعض شعراء الشباب المصريين ، فقال « إنه لم يستطع أن يهضمها » وإن كان قد طار إعجاباً بكثير من مقطوعاتها المتفرقة .[2] ونعتقد أن شعر علي طه المترجَّم في « أرواح وأشباح » يستأهل التقدير» ، ومن آياته : ترجمته لقُبرة « شيلي » — و « اللحن الرومي» وقد وفق فيه كل التوفيق ، ونقتطف منه الفقرة الأولى والثانية [3] التي يقول فيهما :

لا نجم ولا مصباحْ   يلمع في السـهل

---

(١) ديوان «الشروق » الاولى ص ٥٠ والثانية ص ٦١   (٢) مجلة الرسالة - ٣ يناير ١٩٤٤ و ١٤ فبراير ١٩٤٤   (٣) ديوان « أرواح وأشباح » ص ٢٦٥ و ٦٦

قد نامت الأرواح مقـرورة الظـلِ
مطمورة الأشـباح في مهـدها الثلجي
هـذا شعاع لاح يخفق في وهْـجِ
* * *
الحارس السـهرانْ قد فتّـحَ البرجا
يتـلو على النـيران أغنيـةَ الفولجا
واللهب السكرانْ يرقصُ في ناره
والنغم الفرحان يلهو بقيثـاره!

وأما دواوينـه الأخرى ، فيمكن التقاط درّة أو درّتين من كل ديوان ، ففي ديوانه « ليالي الملاح التائه » نجد قصيدته « الموسيقية العمياء» و « تاييس الجديدة» [1] وهـذه القصيدة الأخيرة طليقة وذات موسيقى ارتكازية ، ومما جاء فيها قوله :

روحي المقيم لديك أم شبحي ؟ لعبت برأسي نشوة الفرح
يا حانة الأرواح ما صنعت بالروح فيك صبابة القدحِ
ما للسماء أديمها كَـَـبُ ألفجر، أن الفجر لم يَلُـحِ
ولم البحيرة مثلما سُجِـرت أو لجرت من عرق منذبح

وفي ديوانه «زهر وخمر» تطالعنا قطع بديعة مثل «سارية الفجر» [2] و«حانة الشعراء» وهي من أجمل قطعه الوصفية التي تميّـز بها ، ومما جاء فيها قوله

هي حانةٌ شتى عجائبهـا معروشة بالزهر والقصب
في ظُـلّـة باتت تداعبهـا أنفاس ليلٍ مقمر السُّحُـب
وزهت بمصباح جوانبهـا صافي الزجاجة راقص اللهب
« باخوس» فيها وهو صاحبها لم يخلُ حين أفاق من عجب
قد ظنها والسحرُ قالبُها شيدت من الياقوت والذهب!

ولا نستطيع أن نسجل في هـذا المجال ، نماذج غير ما ذكرنا قريباً ، وفي ثنايا هذه

(١) ص ٢٠ ـ (٢) ص ١٦ـ ١٩

الدراسة ، — ونعود بعد ذلك الى نقد الدكتور مندور ، لديوان « أعاصير مغرب » للعقاد . وقد اقتصر الدكتور مندور على هذا الديوان دون باقي دواوين العقاد ، وعجب لمن يجرأون على تسمية ما جاء في الأعاصير شعراً ! لأنها نثرية في مادتها وفي أسلوبها وفي روحها ، ونثريتها — كما يقول مبتذلة مميكة (١)

وقد أثار هذا النقد الذاتي ، أحد رصفاء العقاد الأستاذ سيد قطب ، فردّ عليه في مجلة الرسالة (٢) وأتى بنموذج عده من روائع صديقه وهو « الكون جميل » والذي يقول فيه :

صفحة الجو على الزر قاء كالخد الصقيل
لمعة الشمس كعين لمحت نحو خليل
رجفة الزهر كجسم هزّه الشوق الدخيل
حيث يممت مروج وعلى البعد نخيل
قل ولا تحفل بشيء إنما الكون جميل !

وقد ناقش الدكتور مندور هذه القطعة بمجلة الرسالة نقاشاً مرّاً ذكيّاً ، ويبدو أن « قطب » لم يحسن الاختيار . فللعقاد في ديوان « أعاصير مغرب » بعض القطع الفنية الممتازة ، التي كان يمكن أن يدور النقاش حولها مثل قطعة « ترهبي » ص ٦٠ و « أكذبيني » ص ٤٦ أو « الصدار الذي نسجته » ص ٣٥ وهي — وفي رأينا — القطعة الارجوانية ، في الديوان سالف الذكر ، وقد جرت كالآتي ، في خفة وسلاسة وطلاقة :

هنا مكان صدارك هنا هنا في جوارك
هنا هنا عند قلبي يكاد يلمس حبي
وفيه منك دليل على المودة حسبي

* * *

ألم أنل منك فكره في كل شكة إبره
وكل عقدة خيط وكل جرّة بكره !

ه ه ه

هنا مكان صدارك هنا هنا في جوارك

(١) في « الميزان » للدكتور مندور ص ٧٠   (٢) مجلة الرسالة ٢١ يوليو ١٩٤٣

والقلب فيه أسير   مطوق بحصارك
نسجته بيديك   على هدى ناظريك
اذا احتواني فاني   مازلت في أصبعيك!

وهذه من القطع الفنية التي يزهو بها الادب المصري الحديث ، ولا نستطيع ايراد أمثلة أخرى ، فقد سجلنا للعقاد كثيراً من القصائد في هذه الدراسة .

* * *

وثالث من تناولهم الدكتور مندور من شعراء مصر المعاصرين الاستاذ « محمود حسن اسماعيل » فاعترف بطاقته الشعرية ، وعاب عليه قصور رؤيته الشعرية Poetic Vision و« طرطشة » عاطفته ، وبعد تعابيره عن الصدق، وإغراقها في الوهم ! ومما أخذه عليه مثل هذه التعابير « أضلع القمر » ! و « قلب القمر المجروح » ! و« انفطار قلب النسيم ولهاً بالاضواء » وغيرها من التعابير والاخيلة التي وقف أمامها مندور متسائلاً في سخر ؟

كيف يكون للقمر الهادىء البارد الحالم جروح ؟ وهل تصوير رقة النسيم تصوير مجتلب أم تجسيم لاحساس الشاعر ؟ وكأنما يأبى الدكتور مندور الاغراق في رمزية العبارة .

وعلى أي حال ، فأغلب نقدات مندور صائبة وبخاصة عدم وضوح تجربة محمود اسماعيل الشعرية أو قصور رؤيته ، ومع هذا ، فلا يجوز أن نغفل ما لهذا الشاعر من ديباجة مشرقة ولفظ متخير ، وطاقة شعرية قوية ، وبعض التجارب الشعرية الجيدة ، وفي ديوانيه « أغاني الكوخ » و « هكذا أغني » قطع جيدة تعد من التجارب الشعرية الطيبة . ومن ذلك قطعته « حاملة الجرة » ص ٣٠ و « القرية الهاجعة » ص ٣٤ و « النعش » ص ٦٢ وهي بديوانه « أغاني الكوخ » وقصيدته « لهيب الحرمان » بديوانه « هكذا أغني » . أما قصيدته « هكذا أغني » التي وسم الديوان بها ، فهي أصدق ناطق عن نفسه ، وقد شحنت بنفثات الشباب المتوثب المتعالى ، والملحوظ في شعر هذين الديوانين كثرة الاستطراد في المعنى الواحد ، والغرام باقحام النور والظلال والزهر والاوتار في قصائده ، حتى قصائد الحزن والرثاء لم تخل من هذه الالفاظ

ويعجبني اتجاه هذا الشاعر الى إحياء الطبيعة الصامتة والناطقة في ديوانه الاول ، وهو

في طليعة شعراء الشباب الذين تحدثوا عن الريف [١] ، وديوانه الأول خيرٌ في اعتقادي من الثاني من الوجهة الموضوعية ، لأن ديوانه الثاني مشحون بقصائد مدح لنفسه ولبعض رجالات مصر وذم لآخرين ، مما يدل على روح متوصلة لا تليق بالشباب الصاعد ذي المبادىء المبلورة ، ونسجل هنا قصيدة « النعش » وهو موضوع طريف ، تناوله تناولاً موفقاً إذ قال :

يا زورق الموت ماذا دهاك من ذي الحياة ؟
فرحت عجلان تجري لضجعة في فلاة

غادرت دنياك لم تحفل بضجتها حول الركاب ولا بالمدمع الجاري
يمشي اليتامى بأكباد ممزقة من الجوى ورحيل الموكب الساري
وللأرامل صرخات لها ضرم تحت الأضالع مشبوب من النار
لاحت مناديلهنَّ السود خافقة كأنما فصلت من حالك القار
كأنها في سماء الحزن أغربة تنعي حياتك في لهفٍ وإنذار !

ومما تقدم يتضح أن كتاب « الميزان الجديد » للدكتور مندور ، اتسم في نقده بالذكاء ولطافة الحس ورهافة الأسلوب ، وقد أغنى النقد بلمحات بارعة في الصياغة الفنية ، والموسيقى ولكنه اعتمد الذوق فقط في تقديره ، وهذا مما أثار عليه ثورة بعض الكتّاب والنقّاد ، فانبرى الأستاذ سيد قطب ، ينقد نقداته في شيء من الحدّة والتحامل ، وأخذت الغيرة الأستاذ « دريني خشبة » فدبج طائفة من المقالات بمجلة الرسالة يعرض فيها روائع الشعراء المصريين وخصَّ منهم بالذكر رامي وناجي وعلي طه ووقف الأستاذ « حسين الظريفي » المحامي العراقي ، يرد نقدات قطب ، وينزل الموسيقى منازلها ، فالموسيقى المهموسة تغلب على الموسيقى السورية والمهجرية ، والموسيقى الجهيرة تغلب على موسيقى العراق ، وأما الموسيقى المصرية فبين بين [٢]

---

(١) كتابنا « أدب الطبيعة » ص ١١٥
(٢) تراجع أعداد الرسالة الصادرة في عامي ١٩٤٣ ، ١٩٤٤

وبهذا أثارت نقدات الدكتور مندور في البيئة الأدبية الراكدة زوبعة ذكية ترمي لخير الأدب وتقدمه . وعزيز على النقد أن يحتجب هذا الرجل في خنادق السياسة ، وان تلتهم الصحافة قلمه الفنان .

وربما عدّت دراسة الدكتور « اسماعيل أدهم » لمطران من أقيم الدراسات النقدية التي ظهرت الآن [1] في تقصيها واستيعابها ، وهي في نظري ، تعد نقطة تحوّل من النقد الذاتي الى النقد الموضوعي العلمي ، ولو وهب الدكتور أدهم ديباجة عربية مشرقة لـكانت دراسته مثالاً يحتذى . ولـكانت أول دراسة نقدية رائعة أخرجت للعالم العربي .

والفكرات الرئيسية في هذه الدراسة هي « أن مطران أول من عمل على اخراج الشعر العربي من نطاق الذاتية والفردية الى باحة الموضوعية وميدان الحياة ، وهو أول رائد خرج على الطريقة الاتباعية الكلاسيكية الى الطريقة الابتداعية (الرومانتيكية) وإن ساير الاتباعية غالباً في الأسلوب [2]

« وأنه أول من أثر في شعراء الشرق سواء باتجاهاته أو شاعريته فمن تأثر به في مصر خليل شيبوب تأثراً تامًّا ، وفي سوريا عمر أبو ريشه ، وتأثر به شعراء المهجر تأثراً متفاوتاً وذكر من بينهم إيليا أبو ماضي » .

* * *

وتناول أدهم العناصر الأدبية في شعر مطران ، وهي العاطفة والخيال والفكر ، فذكر أن عاطفة مطران تمتاز بالعمق والاتساع والغنى ، وشعره العاطفي يغزر في مقتبل العمر ، وأما خيال مطران ، فهو العنصر الغالب في شعره ، ولهذا كانت قصائده الوصفية التصويرية رائعة ، وأما عنصر الفكر في شعر مطران ، فهو ميزة من ميزاته ، وهو بارز في شعره المتأخر ، وهذا العنصر ، "وإن كان وقف من حدة العاطفة فقد خلع عليها الثبات وأخفت صوت الموسيقى قليلاً ، وجعلها هادئة .

ومما يحمد لمطران ، نزوعه الواقعي في شعره ، وقصصه الشعرية المعبرة عن بعض

---

(١) نشرت هذه الدراسة بالمقتطف سنة ١٩٣٩ وطبعت على حدة

(٢) ص ٢٣ ـ بحث أدهم المشار اليه

وانفعات الحياة من دلائل هـذا النزوع ، وشعره القصصي كما يقول « أدهم » توفرت فيه أركان القصة من عرض وعقدة وحل المـقدة ، ومن نماذج قصصه « الجنين الشهيد » وهي لا مثيل لها في العربية » وقصة فتاة الجبل الاسود ، وقصة نيرون التي تمد من عيون الشعر القصصي [1]

وليس شك في أن مطران أثر في الحياة الادبية أثراً بليغاً ، وأن كثيراً من شعره امتاز بالطلاقة الفنيـة ووحدة القصيد ، ولـكن يلاحظ أن مطران أضاع كثيراً من بهاء شعره بتغليب الفكرة على العاطفة . ومن أمثلة ذلك ما جاء في قصيدته التي يصف فيها الاهرام حيث يقول :

إني أرى عدّ الرمال ههنا خلائقاً تكثر أن تعـددا
صفر الوجوه ناديا جباههم كالـكلأ اليابس يعلوه الذرى
محنية ظهورهم خرس الخطا كالنمل دبّ مستكيناً مخلدا
مجتمعين أبحراً منفرعيـــن أنهراً منحدرين صعـدا
أكل هذي الانفس الهلكى غداً تبني لفانٍ جدثاً مُـخلّـدا ؟!

* * *

فمثل هذه الابيات وأشباهها كثير في شعر مطران تطغى فيها الفكرة على العاطفة ، ولهذا لم يجد شعر مطران في البيئة الاولى التي عاش فيها تجاوباً مذكوراً .

وأغلب الظن أن طغيان الفكرة في كثير من شعر مطران قد ألجأه الى البحور الطويلة والنغم المستطيل الذي لا يثير هزة في النفوس ، ولا نبضاً قوياً في القلوب ، ولهذا لم تكن أنغام مطران من الانغام الجاذبة الآسرة .

وإذا كنا في بداية هذا البحث قد نوّهنا بقصيدة « المساء » وعددناها رائعة من روائع الشعر العصري ، فذلك لتمازج الوجدان والفكر والخيال والموسيقى فيهـا تمازجاً متناسباً قويّـا لا طغيان فيه لعنصر على عنصر .

ولا يفوتنا أن نلاحظ على الدراسة القيمة التي دبجها أدهم عن مطران أنهـا على استيعابها ودقة تناولهـا لعناصر شعر مطران ، لم تتناول مسألتين على غاية من الاهميـة

(١) كتاب رواد الشعر الحديث في مصر للاستاذ مختار الوكيل صدر عام ١٩٣٤

هما «الموسيقى» في شعر مطران، و«تجربة» مطران الشعرية ، أما عن الموسيقى ، فقد ألممنا إليها في هذه الدراسة ، وأما عن التجربة الشعرية فقد تفرد بها مطران على شعراء جيله من أمثال شوقي وحافظ ، وإن كانت له قصائد كثيرة تنبهم فيها تجربته الشعرية . ونذكر من القصائد التي تعد من التجارب الشعرية الفنيـة قصائد « المساء » وقد أتينا بفقرات منهـا « والحامتان » ، و « بدري وبدر السماء » وهذه القصيدة الأخيرة قد سجلناها في هـذه الدراسة [1]

ويتضح مما تقدم ، أن مطران قد حمل شعلة الابداعية منذ أكثر من أربعين عاماً وشعره يُعـد نقطة تحول في الأدب العربي المعاصر ، وقد اكتفى الرجل بأداء رسالته تاركاً للشباب تطوير الشعر الحديث ، وتجديده موضوعاً وأسلوباً ، وقد أزهرت لحسن الحظ براعم هذا التجديد ، فأخرج بعض شباب الشرق العربي نماذج فريدة في الشعر الابداعي والواقعي وقد صيغت بأسلوب مستقل ، وقد أتينا في هذه الدراسة ببعض هذه النماذج وما زلنا نطمع في الكثير ، على أن يكون أكثر تحرراً وطرافة وإصالة .

* * *

وواضح مما تقدم في هـذا البحث ، أن النقد في مصر كان في أول أمره نقداً متجنياً ، لا يعرف إلا الكشف عن المساوىء ، وكان أغلبه فقهيّـا يدور حول تشريح الأبيات ، والنظر في نحوها وصرفها ، ثم تقدم خطوة نحو الفنية ، وتماوج بين الذاتية والموضوعية ، وقد غرست بذور الواقعية فيه ولكن لم تظهر ثمارها إلى اليوم .

(١) تراجع ص ٥٥

البحث الثامن

« المذاهب الأدبية والنقدية »

ذكرنا في صدر هذه الدراسة أن مذاهب النقد هي: المذهب المدرسي أو الفقهي، والمذهب الفني ، والمذهب الواقعي أو الاجتماعي . وهذه المذاهب سايرت في الغالب المذهب الأدبي الاتباعي « الكلاسيكي » ، والمذهب الأدبي الابتداعي « الرومانتيكي » والمذهب الأدبي الواقعي ، وهناك مذاهب أدبية أخرى متفرعة من هذه المذاهب ، أو خارجة عليها ولكنها لم تصل درجة ما سبق من المذاهب أهمية وذيوعاً ، نقصر بحثنا على المذاهب الثلاثة التي سبقت قريباً

وقد اختلف الدارسون في تحديد خصائص المذهب الاتباعي ، فنهم من ذكر أن أبرز سماته : الصياغة المتقنة [1] ومنهم من عدّد خصائصه بالميل الى روح النظام والضبط والكبت والاعتماد على الفكر والقريحة دون الانفعالات [2] ومنهم من نظر الى خصائصه نظرة اجتماعية فارتأى أنه المذهب الذي يتقيد بميول السادة والرعاة ، وأن مزاجه مشتق من مزاجهم ، وعلى أي حال فهذا المذهب يجمع هذه السمات ، وهو المذهب السائد في كثير من البلاد الشرقية ولا زالت جمهرة أدباء الشرق تسجد سجدة الاجلال لاتجاهاته وأساليبه. ونعتقد أن الاستمساك بهذا المذهب أثر من رواسب العقل الباطني ، التي لا يُستطاع التفلت منها إلاّ بجهاد نفسي عنيف ، فإذا ألقينا نظرةً الى كثير من قصائدنا الحاضرة ألفيناها مطبوعة بالطابع القديم ، سواء في المنحى الموضوعي ، أو الأسلوبي ، فالمعاني لا تختلف

(1) T. S. Eliot— What is a classic P, 9 — 1944, (2) The Personal Principle — By D, S, Savage.

كثيراً أو قليلاً عن المعاني القديمة ، وموسيقى الأوزان القديمة هي بنت اليوم ، والروي الموحد أضحى وكأنما هو طبيعة ثانية ، لا يستطاع الخروج عنه !

وهذا التفاني في محاكاة الإتباعية ، هو بلا ريب ، خيانة أدبية للعصر المتحضر الذي نعيش فيه ، وفناء لشخصية الأدباء ، ولن تنمو ثروتنا الأدبية ، اذا اقتصرنا على هذا الاتجاه ، وصببنا تجاريبنا الشعرية في قوالب السلفيين ، وإنما تنمو ثروتنا — كما يقول الدكتور أبو شادي[1] — بالتعابير المستقلة والصياغة الجديدة البكر ، وتناول موضوعات العصر وواقعاته وأحداثه

ولو رحنا نقيم مقابلة بين شعر كثير من شعراء العصر الحديث ، مثل البارودي ، وحافظ وشوقي ، واسماعيل صبري ، والجارم ، وعبد المطلب ، والهراوي ، والزين ، وعلي الجندي ، والأسمر ، وغنيم ، وغيرهم وغيرهم ، وبين شعراء العرب أو الشعراء المصريين ، القدامى ، لما وجدنا اختلافاً في المعنى والمبنى ، وربما وجدنا في شعر القدامى شعراً أعلى وأسمى ، أبقى من شعر هؤلاء المحدثين ، وكأننا حاكينا الأقدمين في كلاسيكيتهم الضيقة لا العامة والانسانية ، وفرق هائل بينهما ، فالكلاسيكية العامة universal تنبع ، كما يقول T. S. Eliot[2] من قلم عظيم ، والكلاسيكية الضيقة لا تعيش الا في جيلها .

ولا نعدو الحق الصارم إذا قلنا إن معظم أعمال شعرائنا الكلاسيكية لن تعيش إلا في بعض أذهان المعاصرين ، ولن يحفل الناقد الفني بها . ولنضرب مثالاً أو مثالين من شعر البارودي وهو زعيم المذهب الكلاسيكي لنجلو هذا الغرام بالمحاكاة أو المجاراة ، وان راق شعره وبدا جديد الثوب ، فاسمع مثلاً الى هذا الاستهلال في احدى قصائده :

سواي بتحنان الأغاريد يطرب ... وغيري باللذات يلهو ويلعب
وما أنا ممن تأسر الخمر لبه ... ويملك سمعيه اليراع المثقب

فهذان البيتان ، ليس للبارودي فيهما الا براعة الصنعة أما المعنى ، وأما البحر وأما القافية فقد حاكى فيها الشريف الرضي في قوله :

---

(١) مجلة أدبي — للدكتور احمد زكي أبو شادي المجلد الاول يوليو سبتمبر سنة ١٩٣٦

(٢) What is a classic By T. S. Eliot P. 1

وقورٌ فلا الألحان تأسر عزمتي ‏ ‏ ولا تمكر الصهباء بي حين أشرب !

وإذا تعمقنا قصيدة البارودي الميمية التي جاء فيها :

ذهب الصبا وتوالت الأيام ‏ ‏ فعلى الصبا وعلى الزمان سلام

تالله أنسى ما حييت عهوده ‏ ‏ ولكل عهد في الكرام ذمام

الى قوله :

نلهو ونلعب بين خضر حدائق ‏ ‏ ليست لغير خيولنا تُستام

لوجدناها تجاري تماماً قصيدة أبي نواس الميمية في الفكرة والبحر والقافية ، بل في بعض الألفاظ فاسمع الى أبي نواس يمتدح محمد ابن الرشيد يقول :

يا دار ما فعلت بك الأيام ‏ ‏ لم تبق منك بشاشة تستام

عرم الزمان على الذين عهدتهم ‏ ‏ بك قاطنين وللزمان عُـرام(1)

ولا فضل للبارودي في مثل هذه الابيات ، ولا فضل لشاعر ما في المحاكاة ، انما الفضل للابتكار في المعنى وفي الأخيلة ، وان ارتدت الثوب الكلاسيكي ، أي أن الشاعر قد يقدر فنه بالكلاسيكية الجديدة New-clacissm — وللبارودي قصائد رائعة باقية نبعت من عقله أو قلبه ، وان ارتدت الثوب الكلاسيكي ، ومن ذلك قصيدته الوصفية البارعة ، في حرب كريد التي استهلها بقوله :

أخذ الكرى بمعاقد الأجفان ‏ ‏ وهفا السرى بأعنة الفرسان

والليل منشور الذوائب ضاربٌ ‏ ‏ فوق المتالع والربى بجران

أو قصيدته الوجدانية البديعة التي يصف فيها فراقه لبلاده عند نفيه والتي يقول فيها :

محا البين ما أبقت عيون المها مني ‏ ‏ فشبت ولم أقض اللبانة من سني

عناء ويأس واشتياق وغربة ‏ ‏ ألا بشدّ ما ألقاه في الدهر من غبن

فمثل هذه القصيدة وما سبقتها تضع البارودي في القمة ، أما القصائد التي كان يجاري بها العباسيين فلا فضل له فيها ، إلاّ فضل الصناعة والذكاء .

(1) العرام الحدة والشراسة

الشعر المعاصر
على ضوء النقد الحديث

بقلم
مصطفى عبد اللطيف السحرتي

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم
١٩٤٨

وإذا كان للبارودي عذر في مجاراة القدماء لأنه كان يشق طريقاً سابلة في عهد أدبي مظلم، فلا عذر لأدباء العصر من أمثال شوقي أو صبري أو الجارم، في محاكاة القدامى واستمراء التغذي على موائدهم، وبخاصة لأن هؤلاء الشعراء قد ثقفوا ثقافة غربية، فالأستاذ الجارم مثلاً مع ألمعيته لم يستطع التحرر من محاكاة الشعر القديم موضوعاً وصياغة إلا في النادر، حتى لنراه في أحد قصائده يلبس عقال البدوي القديم، ويرجّع قوله، وما يساغ بتاتاً لشاعر عصري أن يتزيا بهذا الزي أو يخاطب هذا العصر بلهجة بدوية آبدة، أو يكتفي بالغناء على الربابة في القرن العشرين لأن الأدب المعاصر لن يغنم فتيلاً بالصور المكرورة. وأي غنم له بمثل هذا القصيد «الى الامام»[1] الموجهة من الجارم الى المغفور له الأستاذ الشيخ محمد عبده، وقد استهلها بقوله:

المجد فوق متون الضمر القود   تطوي الفلا بين ايجاف وتوخيد

أية جدوى من بعث هذه الصياغة البدوية الخشنة؟ ولماذا سجاها الجارم هي وأمثالها من قصائد الأمداح التي لا تروق لأديب منوّر؟

وعجيب أن يغرم هذا الأديب بهذه المحاكاة، وبالصياغة الكلاسيكية البحتة، في موضوعات أغلبها مناسبات حتى أن قارىء قصيدته الوجدانية الحلوة «ما لي فتنت ...» ليأسى كل الأسى إذ يراه ينتكب عن مثلها، ولا يتابع أسلوبها الرقيق ومعانيها اللطيفة، وقارىء قصيدته «ضحك القدر» التي يروي فيها حالة أعمى يقود مبصراً في ضباب لندن ليعجب لعدم متابعة الرجل لمثل هذه التجارب الشعرية الحقيقية ذات الأسلوب الفني!.

ولهذا لم نكن مخطئين عندما قلنا في صدر هذه الدراسة إن قصيدة «ضحك القدر» هي التجربة الشعرية اليتيمة في الجزء الأول من ديوانه فاسمع إليه يقول فيها:

أبصرتُ أعمى في الضباب بلندن   يمشي، فلا يشكو ولا يتأوّهُ
فأتاه يسأله الهداية مبصرٌ   حيران يخبط في الظلام ويعمهُ
فاقتاده الأعمى وسار وراءه   أنّى توجّه خطوه يتوجهُ
وهنا بدا القدر المعربد ضاحكاً   ومضى الضبابُ ولا يزال يقهقهُ!

(١) ديوان الجارم بك الجزء الاول ص ١١٣، ١١٤

ولو سار هـذا الأديب على هذا النمط الشعري ، هو وزمرة الكلاسيكيين ، لتقدم الشعر في مصر تقدماً ملحوظاً ، ولكنه لم يفعل ، بل استمرأ الاتجاهات القديمة والصياغة القديمة ، وعلى هـذا الطراز تحت طائفة من الشعراء في مصر ، وخرجت بعض الدواوين في السنين الأخيرة يطبعها الطابع الحضري ، وتلونها نزعة التبعية والارتماء في أحضان السادة وذوي الجاه ! وآية ذلك ، ديوان « تغريدات الصباح » [1] للأسمر ، وهو ديوان طافح بالأمداح تذكرنا بعض قصائده المتذبذبة ، بالمتناقضات الاجتماعيـة في عصره ، دون أن يكون للشاعر مبادىء مبلورة ، فعلى حين نرى الشاعر يبغي امتاع نفسه والحافين حوله بشعره ، ويمتدح ذوي الجاه ، إذ بنا نراه يتحوّل الى أحد أبناء الشعب ويصفه في قطعة فنيّة لامعة « حنين القروي » [2] وهي من أرفع شعره — وعلى حين نجده يرتدي في إبان الثورة الوطنية ثوب الثائر ، فيصف المظاهرات ، ويصف شجاعة الشعب ، إذ به يرتدي ثوب الرجعية ، فيؤيد من ألغى الدستور ، وهذا التناقض هو مرآة عصره المتناقض ، الذي لم يستطع الشاعر أن يسمو عليه ، ولم يكن هذا الشاعر وحده ، فريسة لضغط المجتمع المخلخل الذي يعيش فيه ، بل كان كثير من الشعراء غيره . وهو مع تأثره الاتباعي ، فصياغته جزلة ، حلوة متماسكة الوحدة ، ومن شواهدها نذكر قصيدته التي وصف بها المظاهرات الوطنية في عام ١٩١٩ إذ قال :

ملاحمُ بالغـداة وبالعشيّ رعاك الله من شـعب أبيّ
مشى للحق أعزل غير صوتٍ يردده كزمجـرة الأتيّ [3]
فوا أسفا عليه وهو يقضي شهيداً بالرصاص وبالعصيّ
رماه الظالمون وما رماهم فويلٌ للضعيف من القويّ
رماه الظالمون فلو تراه رأيت مصارع الزهر النديّ
سلوه بعـد ما ارتشف المنايا أيشعر في مراقده بريّ
وليس بظامىء أبداً شهيدٌ سقى الأوطان من دمه الزكيّ

(١) ديوان « تغريدات الصباح » طبع عام ١٩٤٦

(٢) ديوان « تغريدات الصباح » قصيدة « حنين القروي » ص ١٨٨ (٣) الأتي — السيل

وتشهد الحقيقة المرّة ، أننا لم نتقدم بمثل هذا الشعر الاتباعي التقليدي خطوة ، ولم تزد ثروتنا الأدبية ذرة ، فاذا تصفحنا الشعر المصري في أيام الدولة الطولونية أي منذ عشرة قرون ، لا نجدُ فارقاً بين هـذا الشعر ، والشعر الاتباعي الحاضر ، فقصائد قمداق بن عمرو أو منصف الهذلي ، أو سعيد القاص ، تماثل تماماً قصائد شعرائنا الاتباعيين ، فلو أخذت قصيدة للشاعر المصري « سعيد القاص » وهو يشيد بأعمال الطولونيين ويأسف على أيامهم الزاهرة ، لما وجدت فارقاً بين القرن الثالث الهجري ، والقرن الرابع عشر ، ونقطف من هذه القصيدة [1] هذه الابيات :

طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها بفقد بني طولون والأنجم الزهر
فبادوا وأضحوا بعد عزٍّ ومَنْـعَـةٍ أحاديث لا تخفى على كل ذي حجـر
وكان أبو العبـاس أحمد ماجداً جميل المحيـا لا يبيت على وتر
كأن ليالي الدهر كانت لحسنها واشراقها في عصره ليلة القَـدْرِ ا

وتلقاء هـذه الحالة المشجية نرانا محقين إذا قلنـا إن الشعر المصري لن يتقدم إذا ظللنا على هذا الاتجاه الاتباعي ، وعلى هذه الصياغة المكرورة ، ولن تربى ثروتنا الأدبية إلاّ إذا جددنا الاتجاه وتناولنا موضوعات الحياة الراهنة ، وطعمنا أدبنا بالاتجاهات الغربية الحديثة ، وبمعنى آخر محدداً ، أن تكون اتجاهاتنا الشعرية غير اتجاهات القدامى ، فيتحول الغزل مثلاً من الضرب الرتيب على نجاء الحبيبة ، إلى الاعراب عن العواطف والانفعالات المتباينة ، وترك صور الحبيبات المطلقة الى صور محددة تنعكس فيها مماتهن وقسماتهن . [2] وأما الشعر الوصفي فيتحول إلى شعر رقيق الأخيلة فيه صدق وشمول . ونتحول تدريجيّـا من الشعر الذاتي إلى الشعر الموضوعي وإلى الشعر الانساني الواسع الأفق ، على أن يكون تناول هـذا الشعر تناولاً أصيلاً مستقلاً ، سواء أكان شعراً يلتزم القافية ، أم شعراً مرسلاً أو حرّاً .

وقد بدأ هـذه الخطوة ، الأستاذ خليـل مطران وعبـد الرحمن شكري والعقـاد ،

---

(١) راجع في هذا الصدد كتاب « في الادب المصري الاسلامي » للاستاذ محمد كامل حسين
(٢) راجع في هذا المنحى كتاب « من الادب المقارن » للاستاذ نجيب العقيقي ص ٨١ طبع عام ١٩٤٨

وأبو شادي ، وتبعهم بعض أدباء الشباب في مصر ، ويبدو لنا أن شعراء لبنان وسوريا خطوا خطوات واسعة في التحرر من الاتجاهات القديمة والصياغة التقليدية ، ونذكر على سبيل المثال نموذجين نقطفهما بدون اختيار أولهما من ديوان « عمر » للشاعر اللبناني غنطوس الرامي ، وثانيهما من ديوان « طفولة نهد » للشاعر السوري نزار قباني ، يقول غنطوس من قصيدة له في وصف الأعمى

ظلام ظلام ودنيا تنام
وليل أبد [1] بعيد الأمد
كثيف الغيوم بغير نجوم
وكيف يكون الضياء وصفو السماء والمساء ؟
وكيف يطل القمر ويصحو السحر في الشجر
وكيف تهمع الزهور ويجري العبير في الأثير
سواء سواء
وكل الوجود غمائم سود
ودنيا تنام بحضن الظلام !

ويقول « نزار » في قصيدته « حلمة » [2] ذات الصياغة الأصيلة ، والأخيلة الطريفة :

تهزهزي وثوري يا خصلة الحرير
يا مبسم العصفور يا أرجوحة العبير
يا حرف نار سابحاً في بُرْكتي عطور
يا كلمةً مهموسةً مكتوبةً بنور
حمراء ، بل حمراء بلْ لوّنها شعوري !

* * *

يا حبة الرمان جُنّي والعبي ودوري
ومزقي الحرير يا حبيبة الحرير !

---

(١) الابد = الدائم (٢) ديوان « طفولة نهد » ص ٧٧

فيمثل هذه الاتجاهات المتحررة، والأساليب الطريفة يتقدم الشعر المعاصر، ونذكر بخاصة الشعر المسرحي، وهو ناحية من نواحي الأدب البالغة الأهمية، والتي لم ينشط لها الشعراء إلاّ مؤخراً، وإذا كان قد ظهر لشوقي وأبو شادي وعزيز أباظه وسعيد عقل وغيرهم شعر تمثيلي، الاّ أن صياغته الغالبة هي الصياغة التقليدية، التي لم تتحرر من عبودية القافية، وإذا كان هؤلاء الروّاد شقوا الطريق السابلة للشعر المسرحي، فمن واجب أدباء شباب اليوم أن يهتموا اهتماماً فائقاً بهذه الناحية، متحررين من الصياغة الكلاسيكية الرتيبة التي تتعب الأذن وترهق الأعصاب كما يقول «جييو»[1]. وإذا أبى أدباؤنا إلاّ التقيد برواسب العقل الباطن من عشق الصياغة القديمة، والانبعاق في ميدانها، فاقرأ على تقدمنا الشعري السلام.

المذهب الابتداعي

والى جانب المذهب الاتباعي سالف الذكر، وجد المذهب الابتداعي في أوربا، وسايره طائفة من شعراء الشرق، ومن خصائص هذا المذهب، اللواذ الى التجربة الباطنية، والاهتمام بالمرائي الجمالية، والميل الى الخلق والاصالة، مع التحرر الأسلوبي، والتوجه الانفعالي.

وقد اتسمت أعمال كثير من أدبائنا بهذا اللون الابتداعي، وطبعت بطابع الذاتية والفردية والتأملية والروح الغيبي والصوفي والميل الى الرضا بالبؤس والواقع الزري، والقدرية وعدم التعقل والكآبة ونداء الموت، بل الفزع الى الانتحار في بعض الأحايين.

وقد تجلت مظاهر هذا المذهب الابتداعي، كما يقول دايتشي Daiches في مظهرين بارزين، الرجوع الى الماضي وذكرياته، واتخاذه مثلاً أعلى، واللواذ الى الطبيعة والاتصال بها بل الاندماج فيها[2] وهذان المظهران ثمرة من ثمرات فساد المدن، هذا الفساد الذي جعل الأدباء الحساسين، يذهبون الى الماضي حيناً والى الريف والطبيعة حيناً آخر، أو يتناولون الموضوعات التافهة التي لا صلة لها بالحياة.

---

(1) Les problemes contemporains d'Esthetique Par. J. M. Guyau p. 28.
(2) Litt. & Society — By Daiches. p 170

وهذه المظاهر والسمات ظهرت في أدب الابتداعيين في الشرق، فترشح لنا شعر ابتداعي ناضج، وشعر فج، ولم يخل شعر الاتباعيين من السمات الابتداعية كما نجد ذلك في شعر البارودي أو شوقي أو حافظ لأن الابتداعية لا تقتصر على عصر دون عصر كما يقول «لاسال أبر كرومبي» في كتابه الابتداعية [1] ولا يوجد شاعر عظيم لم تدف الابتداعية بجناحيها على صليمه الشعري.

وقد حفل الشرق في ربع القرن الأخير بعدد وفير من شعراء الابتداعية، في مصر ولبنان وسوريا والعراق والمهجر، وتجلت سماتها في قصائدهم، ولا يسعنا في هذا المجال، إلا تسجيل بعض النماذج لهذه السمات، وأظهرها الانطواء على النفس، والهرب من الواقع والطيران في دنيا الخيال وعلى ذكريات الماضي البعيدة والاندماج في مرأى الطبيعة أو التهويم فيما وراء الطبيعة.

ومن آيات هذا الهرب ملحمة «شاطىء الاعراف» للشاعر المصري محمد عبد المعطي الهمشري وملحمة «على بساط الريح» لفوزي المعلوف وهما يمثلان الابتداعية في هاتين الملحمتين أجلى تمثيل، ونقتطف الفقرة التالية من ملحمة «على بساط الريح» التي تشهد بفرار الشاعر من آلام الحياة وطيرانه في دنيا الأثير حيث يلتقي بالطير التي تتجمع لمقاتلته فيخاطبها بقوله:

لا تخافي يا طير ما أنا إلاّ شاعر تطرب الطيور لشعره
زارك اليوم ينشد الراحة في هذا السكون وسحره
فرّ عن أرضه فرارك عنها من أذى أهلها وتنكيل دهره

* * *

ومن آيات الحنين الى الماضي وذكرياته، نذكر قصيدة للشاعر المهجري «رشيد أيوب» [2] يقول فيها:

لقيتك لما نصبنا الخيام ألا تذكرين زمان اللقاء

Romanticism — By Lascelles Abercrombie. Second Edition p. 22 (1)

(٢) نشرت بمجلة الاندلس الجديدة ـ سبتمبر ١٩٣٦

فأسكرت قلبي بخمر الغرام وخلّفت نفسي بوادي الشقاء

ثم غبتِ

ألا اتذكرين بشط الغدير على صخرة قد جلسنا هناك

ولما انحنيت بصوت الخرير لحنتك في الماء مثل الملاك

حين لحتِ

ولما مشينا لنجني الورود بظل فراشاتها الحُوَّم

نسيتُ فودّعت هذا الوجود وقلت لأغصانها خيّمي

ثم نمت !

وأما شعر الطبيعة فوفيرٌ جدّاً في الأدب الشرقي ، والشعر الابتداعي منه هو الشعر الخيالي الجنّح ، أما الشعر الحقيقي في الطبيعة فلا يُعدّ ابتداعيّاً [1] ، ومن هذا الشعر الابتداعي في الطبيعة نسجل هذه الأبيات للشاعر المهجري « شكر الله الجر » من قصيدته « هيكل الطبيعة » وهي منشورة في ديوانه « زنابق الفجر » : [2]

رتلي يا طير ألحانك في هذي السفوحْ

هو ذا الليل وقد أهرم يمشي كالكسيح

هو ذا الفجر ، وها ريّاه في الوادي تفوح

ياله طفلاً على أرجوحة الأفق يلوح

هزّه من كوّةِ الراهب ناقوسٌ يصيح

ربّ ناقوسٍ بجوف الدير أشواقٌ تنوح !

وفضلاً عما تقدم ، فإن الشعر الشرقي يزخر بنماذج ابتداعية تمثل الفرار من الحياة ، والطيران إلى دنيا الوهم وما وراء الطبيعة ، وتمثل لهذه الظاهرة ببعض ما جاء في قصيدة « إلى الشاطىء المجهول » لسيد قطب ، من ديوانه الموسوم باسم القصيدة ، وهو فيها يعلو إلى عالم الوهم ، حيث يسبح على ضبابة شاردة وفي صياغة كلاسيكية يقول :

(1) Romanticism By Lascelles Abercrombie p. 59.

(٢) عن مجلة « العصبة » العدد ٥ ، يوليو ١٩٤٧

إلى الشاطىء المجهول والعالم الذي حننت لمرآه الى الضفـة الأخرى
إلى حيث لا تدري إلى حيث لا ترى معالمُ للازمان والكون تُستقرا !
إلى حيث « لا حيث » تميز حدوده إلى حيث تنسى الناس والكون والدهرا
أهوِّم في هـذا الخـلود وارتقي وأسلك في مرآه كالطيف إذ أسري
هنا عالم الأرواح فلنخلع الحجا فنغنم فيه الخلد والحب والسحرا !

والملحوظ إن جل شعراء المذهب الابتداعي، من ذوي النزعة الانطوائية، وتجاربهم الشعرية جُلُّها ذاتية، وهذا فارق ما بينهم وبين الاتباعيين، ومن آيات هذه الانطوائية، ما قرأناه للشـاب المصري « محمد منـير رمزي » وهـو شاعر رومانتي صرف وقد عاش عيشة رومانتية، ومات ميتة رومانتية، إذ بخع نفسه ونسجل له قصيـدته المتحررة « قبر الأحلام » :

« في غفلة من قلبي — جمعت الحطام المتناثر في حناياه — ورحت به بعيـداً عن رنين الضحكات، وفي قطعة من الليل — لم تمتد إليهـا الأغنيات المرحة — جثوت أحفر مثوى لأحلامي — ثم أهلت عليها التراب — بلـلته بدموعي — وعدت مغمضاً عيني — مختفياً عنها قبر أحلامي — وأسرعت نحو النهار، حاسباً إني سأخطر في الدنيا بلا أحلام »

وتبدو هذه الذاتية في أكثر خواطر الشعراء الابتداعيين وفي انفعالاتهم، وفي غزلهم فاسمع إلى هاتين المقطوعتين للشاعر اللبنـاني « أمـين نخلة » وهو يحدثنـا عن « الفم » « والشفة » حديثاً عجباً يقول في مقطوعته « فم » :

أنا لا أصدق أن هذا الأحمر المشقوق فم !
بل وردة مبتلة حمراء من لحم ودم
أكمامها شفتان، خذ روحي وعلمني بشم
إن الشفاه أحبهـا كم مرة قالت نعم !

وفي مقطوعة « الشفة » يقول :

في الأشرفية يوم جئت وجئتها نفسي على شفتيك قد جمعتها
ذقت الثمار ونكهة إن لم تكن هي نكهة العنب الشهيّ فأختها

ياقوتة حمراء غاصت في فمي وشقيقة النعمان ، قد نُـوِّلتُـها
ملساء مرَّ بها اللسان وما درى لولا تتبع طعمها لأطعتها
لولا نعومة ما بها وحنوُّ ما بي في الهوى للقمتها ولكتها !

* * *

ومن مظاهر هذه الذاتية أيضاً ما فاض به الشعر الشرقي عامة ، من الأنات والحسرات ، والرغبات الجنسية المكبوتة والشكوى من الزمان واليأس من الحياة بل مناداة الموت تخلصاً من الحياة ، وأ كثر ما نجد هذه المظاهر في يفوعة الشعراء ، حتى لتودي ببعضهم الى الخيبة أو الى نوع من العصاب أو الانتحار ، فديوان « خليل شيبوب » الاول كثير الأنات والتأوهات ، وديوان « ألحان الألم » لفايد العمروسي ، ديوان بكّاء ، وديوان « أغاريد » لمحمد فهمي لا يخلو من الحسرات والرغبات الجموح ؟ وكذلك « الزورق الحالم » لمختار الوكيل وديوان « صالح جودت » مليء باللهفات واللوعات . وديوان « الألحان الضائعة » لحسن كامل الصير في كثير الزفرات والآلام ، وكذلك ديوان عتيق الاول وكثير من دواوين شعراء البلاد الشرقية الأخرى ، لا تقل لوعة ولهفة وحسرة مما ذكرنا .

ومن شواهد هذه النازعات الرومانتية اليائسة القانعة ، نذكر شيئاً مما جاء في قصيدة « الليل » لخليل شيبوب ، وما جاء في قصيدة لعبد العزيز عتيق متأوهاً نائحاً منادياً الموت ، يقول الأستاذ خليل شيبوب :

أنا بين الأمراض والحسرات ذهبت صبوتي وضاعت حياتي
كم دعوت الممات دعوة يأس ٍ عالماً أن راحتي في مماتي

الى أن قال :

حبـذا الموت يا ظلام فاني تاعس الحظ قد سئمت حياتي

ويقول عتيق في هذا المعنى :

أواه من نفسي ومن زمني معاً أواه لم تجدي إذن أهّاتي
يا موتُ زُرْ فلبئس داراً لم نجد فيها سوى اللوعات والأنّات
ولربَّ موت يستريح به الفتى من شرّ عيش لجَّ في الأعنات

ومن شواهد اللهفات الغرامية الذليلة ، ما قرأناه لصالح جودت في مثل قصيدته « العيون الزرق » التي جاء في آخرها :

أيها الهاجر من غير سبب ‏ لو تجافي ، أنا راضٍ بجفاك

العيون الزرق والشعر الذهب ‏ ألجأتني يا حبيبي لهواك

أو ما جاء في قصيدة « حسرات »[1] لمحمد فهمي إذ قال :

أسمعت ثائر لوعتي وأنيني ‏ وسواكباً من مقلتي وجفوني

الليل ، عاد الليل أنّة ثاكلٍ ‏ والصبح ، ليس ضياؤه يعنيني

والصادحات على الغصون غناؤها ‏ نوحٌ يثير كوامني وشجوني

الى أن قال :

يا حُرقة الحسرات حسبُك فارحمي ‏ هذا الخفوق فداؤه يضنيني !

وعلى مثل هذا الطراز جرى الشاعر الغنائي « أحمد رامي » فعبَّر عن لهفات قلبه في مسكنة وذلة ، وملا الجوّ المصري أنيناً ونواحاً ، فاسمع إليه يقول من قصيدته « بين الصراحة والكتمان »[2]

نعم أهوى ولا أُخفي غرامي ‏ ومن شرف الهوى أني صريح

وأما إن سئلتُ هل اصطفتني ‏ سكتُّ فما استرحتُ ولا أريح

ومن لي أن أقول تعلقتني ‏ وقلبُ الغانيات مدًى فسيحُ

تلاقيني فتخلص لي نجيًّا ‏ وألمسُ حبها فيما يلوحُ

وتزدحم القلوب على هواها ‏ فتنكرني ولي كبدٌ قريحُ

ويدور رامي على هذا المعنى في كثير من قصائده وأغانيه ، كأنما حلا له أن يغنيَ حبه الضائع الذليل في قفص حديدي

ونحن نعجب من هذا الشاعر الذي حبس نفسه باختياره على هذه الأغاني المطلقة ، وقد كان في بدايته الشعرية سبّاقاً الى الشعر الاجتماعي والوجداني والطبيعي ، ونذكر له في هذه النواحي قصائده « اللقيط »[3] و « دمعة اليتيم »[4] و « قلعة صلاح الدين »[5] و « المزار

(١) ديوان « أغاريد » ص ٩٠ ‏ (٢) أغاني رامي ص ٢٠٦ ‏ (٣) ديوان رامي ص ٨١

(٤) الديوان ذاته ص ٨٤ ‏ (٥) الديوان ذاته ص ٣٢

السجين»[1] و«صفصافة على قبر غريب»[2] وغيرها من القصائد الفنية .

ولا ندري متى يعود الى دنيا الحياة ، ويتجه بشعره الى مختلف النواحي ، ويُطعّم الاغنية المصرية بالأغاني الغربية الفياضة بتنوّع الانفعالات والعواطف ويذهب ، كما يقول الأستاذ دريني خشبة[3] في التجديد الى أبعد من الحد الذي وصل إليه ، كأن يحاول مثلاً الاغاني القصصية البارعة Ballads التي حُرم منها الشعر المصري الحديث

* * *

وهذه النماذج القليلة التي أوردناها من الشعر المصري تمثل مظهراً من مظاهر الرومانتية مع تفاوت صياغتها بين الكلاسيكية والرومانتية ، وقد حفل الشعر الشرقي بكثير من الشواهد على الميل الرومانتي ، ومن أظهر شعراء الرومانتية : أبو القاسم الشابي ، وفوزي المعلوف ، وهذا الأخير رومانتي صرف كما سبق ذكرنا قريباً ، وأبرز شاهد على ذلك قوله وهو ينادي الموت [4]

والآن يا موت اليَّ اقترب   يا مرحباً بالموثق المُعتِق
معتق نفسي من قيود الأسى   موثق جسمي في المدى الضيّق
هاك شباباً ناضراً فاحتسبْ   وهاك قلباً نابضاً فاخنُقِ
لم يبق لي في الأرض من بُغيةٍ   ما الأرض إلاّ جنةُ الأحمق !

ولا يقف المذهب الرومانتي (الابتداعي) عند هذه الاتجاهات، بل أن أدباءه يتجهون كثيراً الى الشعر الجنسي والى طلب اللذات المصاحبة للآلام ، بل الى الخواطر المريضة المنحرفة ، وفي بعض الأحايين يتجهون الى موضوعات تافهة تضع بينهم وبين الحياة برزخاً واسعاً ، ومن الشعراء الابداعيين الذين تناولوا اللذات الجنسية في شعرهم عمر أبو ريشة ونزار قباني في سوريا ، وغنطوس الرامي في لبنان ، ومحمد رشاد راضي وكامل أمين والعوضي الوكيل في مصر ، وقد أتينا بنماذج لأكثرهم ، وهي نماذج شعرية بديعة متفوقة . ومن الشعراء الذين تناولوا الخواطر المنحرفة عدد ليس بالقليل ، ومن أمثلة هذه الخواطر ما جاء

(١) ديوان راي ص ٥٨ (٢) الديوان ذاته ص ١٢٥ (٣) مجلة الرسالة ٢٨ اغسطس سنة ١٩٤٤
(٤) من كتاب شاعر الطيارة فوزي المعلوف ص ٤٢ للبدوي الملثم — صدر عام ١٩٤٨

مثلاً في مقطوعة « مجنون » التي يقول صاحبها في سذاجة الطفل الجموح :

أصبحت والشر في جناني يهتف والشر في لساني
وصرت أستعذب المعاصي ورحت لا أحفل الأماني
برمت بالناس والزمان زهدت في الحب والحنان
سئمت حتى أخي وأختي ومن الى العيش أنجباني !

واسمع الى شاعر آخر، يشتاق الى المقبرة ويرى نوراً يشع منها ! ويحن الى زيارتها يقول :

هجع الانام ولم يزل بجناني شوق ملح دائم الثوران
يهفو لمملكة القبور وما حوت من ساكنين تربعوا بأمان
فنهضت أخطو شطرها متيمماً في لهفة مجنونة وحنان !
نور هناك يشع من جنباتها تعشو الى لمحاته العينان
وتهامس ملء الفضاء أحسه متردداً في مسمعي وجناني

ويختمها بقوله :

لله مقبرة ، يرفرف فوقها نور اليقين الساحر اللمعان
يا نفس صبراً إن طلبت جوارها فغداً تُرَيْنَ بها من السكان !

أما اتجاه أدباء الابتداعية الى الموضوعات التافهة ، والاعراب عن أبسط المرائي في حرية يأباها الاتباعيون ، فهو وفير في الشعر الغربي والشرقي الحديث ، ومن نماذج هذه الموضوعات نذكر على سبيل التمثيل « الحمامتان » لخليل مطران ، و « القطة اليتيمة » لأبي شادي ، و « دفة قديمة » لشكري ، ومقطوعة « الفنجان » أو الكلب « بيجو » للعقاد ، والقط « ضرغام » للصيرفي و « الوردة الذابلة » للمازني ، و « الى دودة » لميخائيل نعيمة ،و « فراشتي » لرشيد أيوب ، و « الحجر الصغير » لإيليا أبو ماضي،و« رثاء زهرة» لفايد العمروسي و « الجمجمة » لابراهيم زكي ، و «رسالة » للدكتور حبيب ثابت، و«عيون القط» للعوضي الوكيل ،وأمثال هذه الموضوعات وأجناسها وأشباهها كثير في الشعر الرومانتي الحديث ، وهي قصائد فنية متفاوتة القيمة وقد تمتاز بالاحساس الجمالي ، والرهافة ، وقد

يُنعم بعضها بالخلود في رأي نقّاد الفن للفن ، ولـكن النقاد الواقعيين لايعدونها من العيون الأدبية وقد يقدّرونها لصياغتها ، ويبسمون لموضوعها ، بل يأسون لنفاد هـذه الصياغات الجميلة والطاقات الشعرية ، في مثل هذه المناحي التي لا ترسل إلى الدنيا إشعاعاً ولا إلى البيئة قوة وحياة .

ونكتفي في هذا الصدد بتسجيل قصيدتين مما أسلفنا قريباً ، لشاعرين لم نثبت لهما شيئاً في هذه الدراسة وهي قصيدة « رسالة » (١) وقصيـدة « عيون القط » (٢). الأولى للشاعر اللبناني الدكتور حبيب ثابت وهو شاعر عاطفي وله غرام بمثل هذه الموضوعات، وقد تناولها تناولاً فنيّـاً رائعاً ، قال :

رسالة في غرفتي نائمة ترجف رجف الطفلة الحالمه
فراشة بيضـاء هفهافة في ليـلة حائرة هائمه
حمـامة في الفجر طوافة صـدّاحة نواحة باسمه
أنشر طول الليل في غرفتي أوراقهـا العابقة الناعمه
وألثم الأسود من خدّها مناجيـاً أحرفه الواجمه
رسالة ألوانها في الدجى مُشِعّـةٌ في غرفتي القاتمه
ترسل نوراً مالئاً مخدعي ملاعباً أحـلامي الهائمه
بالله ، بالمـاضي ، بآلامه بالذكريات البيض والفاحمه
لا تكتبي! إن حروف الهوى قاسية يوم النـوى ظالمه

والثانية للعوضي الوكيل وفيها له خطرات فكرية نافذة ، وإن كانت تنقلاته غير مستملحة وموسيقاه غير موحّـدة ، وإنه يقول :

النور في عينيك كو ن لا نهائيٌ بعيـد
وأحسّ أني في الفنـا ء وأن عينيك الوجود
الـكون نورٌ شائعٌ وأرى عيونك بؤرته

(١) مجلة الجمهور اللبنانية العدد ١٠٧ سنة ١٩٣٩ ص ٢٣
(٢) ديوان « تحية الحياة » للعوضي الوكيل صدر عام ١٩٣٦

جمعته في أحداقها   جمع المشاعر لمعنه
صفو الضياء جمعته   في مقلتين ولمحتين !
وكأنني بك لم تقف   ترنو ، ولم انظر بعيني
وتظل كالقديس تبـسم حين لم يفتح شفه
وتكاد من ظمأ الحنين وفرطه أن ترشفه !

ونعتقد أن هذه الاتجاهات الرومانتية أثر من آثار الصوفية السلبية المتحكمة في الشرق ، كما أنها ثمرة من ثمار ، ضغط البيئة المحافظة ، التي تحكمها أقلية سعيدة هانئة ، والتي تنظر الى الأدباء والشعراء نظرة بعيدة عن الجد (١)

ولم يستطع الأدباء المتحررون الارتفاع على ضغط مجتمعهم ، فكانت أعمالهم تتوزع بين الرومانتية والواقعية ، وتتواكب على نفوسهم أطياف الهرب حيناً ، ودفقات الثورة حيناً آخر

ومن أبرز الشواهد على ذلك قصيدة « على ضوء النهى » للزهاوي ، وفيها يثور على صروف الحياة ، ويحاول مصارعتها ولكنه لا يقدر على الاستمرار في ثورته ، وعلى مصارعة البيئة أو الارتفاع عليها ، ولذا نراه يلقي سلاحه ، ويلوذ الى الطبيعة لتضمد آلامه وجراحه . اسمع اليه يقول :

ولقد تعسفت الحياة   فما أذلتني الصروف
وعلى خفاياها وقفت   فما أفادني الوقوف
ولقد أكون مصارعاً   لخطوبها وأنا الضعيف
أو مدلجاً في ليلها   والليل معتكر مخوف
ألأجل أن يلقى السعـادة واحد يشقى الألوف ؟!
ما أكثر الانسان حرصاً   وهو يشبعه الرغيف ؟

---

(1) Litt. & Society By Daiches — p. 195

عبء الحياة ولا تظن   بأنه عبء خفيف
ما زلت أحمله واني   ذلك الجسد النحيف
ماذا يفيد الجسم في   حاجاته عضو مؤوف
سأنام في حضن الطبيعة   فهي لي الأم العطوف !

وعلى أي حال فان الشعراء أمثال الزهاوي والرصافي وأبو شادي والشابي وعمر أبو ريشة ورشيد معلوف وجورج صيدح وقبلان مكرزل وغيرهم ، في توزعهم بين الأدب الرومانتي والواقعي قد مهدوا مرحلة الانتقال ، الى دنيا الواقع والحياة ، ونزلوا من أبراجهم الى أرض الاحياء ، وأكثر هؤلاء الشعراء لم ينهجوا نهجاً واعياً ، ولم يسيروا على مبادىء مبلورة ، وإنما كانت ثورة أغلبهم تفسيرٌ لتجارب باطنيـة ، قد تكون عارضة [1] — إلاّ أن الادب قد غنم منهم تجارب واقعية جديدة ، أو نفسية موحية مشرقة ، فرأيناهم يبذرون الثورة على الأوضاع الفاسدة ، ويتغنون بالآمال الوطنية ، ولا يكتمون فرحتهم بالحياة ، — فالزهاوي مثلاً رفع علم الثورة الهادئة في العراق ، وجاهد التزمت الديني ، ونادى بالتجديد في كثير من شعره ، ومن ذلك قوله :

سئمت كل قديم   عرفتـه في حيـاتي
إن كان عنـدك شيء   من الجـديد فهـاتِ

وقد خبّ الرصافي في هذه النواحي ، واحتفل كما احتفل حافظ ابراهيم في مصر بالواقع المحلي ، والشعر الوطني ، وتقريع بني وطنه ، فاسمع إليه مثلاً في قصيدته « ايقاظ الرقود » يقول :

الى كم أنت تهتف بالنشيد   وقد أعيـاك أيقاظ الرقود
فلست وان سددت عرى القصيد   بمجدٍ في نشيدك أو مفيد
لأن القوم في غيٍّ بعيد !
اذا أيقظتهم زادوا رقاداً   وان أنهضتهم قعـدوا وآدا
فسبحان الذي خلق العبادا   كأن القوم قد خلقوا جمادا
وهل يخلو الجماد من الجمود !

(1) Romanticism By Lascelles Abercrombie p. 156

وكذلك جرى أبو شادي في هذا التيار ، وتلوّن بعض شعره باللون الواقعي . ونذكر من قصائده ، « الديموقراطية » في ديوانه « مصريات »[1] و« الثالوث المقدس »[2] في ديوانه الأخير « عودة الراعي » وقد استهلها بقوله :

الجهـل والفقر والمرض   ثالوثنا الباطش المنيعْ
أعزه بيننـا الغرض   وصال يستعبد الجموعْ

وقد رأينا توجهاً من شعرائنا المصريين كهولاً وشباباً الى الناحية السياسية، فرأينا الدكتور ناجي تتفتح نفسه لهذه الناحية ، ورأينا علي محمود طه يترك رومانتيكيته الى الحياة الوطنية ويوفق في بعض شعره في هذه الناحية ، ورأينا صالح جودت يحاول هذه المحاولة ، وكذلك مختار الوكيل ، ولـكن نزعتهما الرومانتيكية غالبـة عليهما ، وشعرهما السياسي شعر محلي دفعت إليه أحداث عارضة ، وحبـذا لو اقتصرا على شعرهما الغزلي مسايرين طبيعتهما ، وقد أتينا بنماذج غزلية بديعة لصالح جودت، وقد يكون من المناسب هنا أن نتحدث قليلاً عن مختار الوكيل ، ومزاج مختار الرومانتي يتجلى في ديوانه « الزورق الحالم » الذي أخرجه في عام ١٩٣٦ ، حيث نجد قصائده ملونة باللون الغزلي حيناً ، وممتزجة باللون الطبيعي حيناً آخر، وكثير منها يزفر الألم والشجى، ونجد أمثلة لذلك في مثل قصائده « الى جانب المدفأة » و« غرفة الذكرى » ، و« الى السماء » و« الجدول الحالم » وهي من أجود قصائده في الديوان سالف الذكر ، وأما قصائده الجديدة فنذكر منها في « محراب الألم » و « نشوة الألحان » و « موكب الذكريات » ، وجلها تمثل روحه الرومانتي ، ونقتطف الفقرة الأولى من « نشوة الألحان » تلك النشوة التي تنثال الى قلب الشاعر الرومانتي وهو في حضرة الطبيعة يتسمع ألحانها وإنه ليقول فيها :

أنا في نشوةٍ من الأنغـام   فدعوني معانقاً أحلامي
أنا في صمتي الـكئيب قريرٌ   سابحٌ في عوالم من هُيامي
مستعيد في خاطري ما تقضى   من متاعٍ وشقوةٍ في غرامي
أي وحي منغم يتهادى   ويناجي الفؤاد في ابهام

(١) ديوان مصريات ص ٢١ (٢) للصدر ذاته ١٤١ .

لحنه ثائرٌ بداعب روحي وصداه معانقٌ الهامي !

وأما قصيدته « موكب الذكريات » فقد نيفت على المائة بيت وليست أبياتها في استواء واحد، وموسيقاها غير موحدة ونقطف منها هذه القدة

روضة الشعر كيف أزهارك اليوم وكيف الطيور في عذباتك

كيف حال البحيرة الضحلة الماء وكيف النخيل في جنباتك

كيف دوحاتك البواسق أسدلن شعوراً ، وكيف حال (مهاتك) !

تمتطي الفلك في البحيرة جذلى وتشم العبير من زهراتك !

وفي مثل هذه الموضوعات قد يجيد مختار لأنها تتساوق مع نفسه ، أما في الموضوعات الواقعية مثل قصائده « يا شرق » أو « بني النيل هبوا » أو « في موكب النصر » أو « بعد الحرب » أو « الى أخي » فلم يحالفه التوفيق ، لأنها لم تنبع من نفس بلورتها المبادىء السياسية ، ولهذا نجد عقله فيها يملي عليه دون قلبه فلا نحس عند تلاوتها بهزة ما وتأييداً لهذا نسجل الفقرة الأولى من قصيدته « أخي » وقد جارى فيها قصيدة ميخائيل نعيمه ، وفيها يقول :

أخي قد شاء رب الكون أن يجمع قلبانا

فأسكننا بوادٍ فاض بالخيرات ألوانا

وأجرى بيننا نهراً براح الخلد أحيانا

وأهدانا من الألسن ما نزّل قرآنا

ووحّدَنا على الأيام وجداناً وإيمانا

وأنزل في جوانحنا ، هوًى يغذو طوايانا !

فمثل هذا الشعر ، وان شاقنا موضوعه ، إلا أن صياغته لا تهزنا ونحن لا نطالب الشاعر الرومانتي ، ان يتحوّل الى الشعر الواقعي ، إلا إذا وجدت عنده القابلية ، والأس الحقيقي القائم على شعور مبلّور أصيل .

* * *

وربما وجدنا ضالتنا في شعر طائفة من شعراء الشرق من أمثال عمر أبو ريشة في سوريا وفيلان مكرزل في لبنان ، وشفيق معلوف ، وجورج صيدح في المهجر مع تفاوتهم في الصياغة ، واتحادهم في الاتجاه الرومانتي الواقعي ،

فأما عمر أبو ريشة ، فقد أمدنا ديوانه الجديد بتجارب موضوعية ملونة باللون الرومانتي ومن ذلك قصيدته « يا شعب » ص ٢٤٧ ، التي يقرع بها الشعب لسوء اختياره لرجاله في الانتخابات البرلمانية ، وقصيدته « عرس المجد » ص ١٤٥ . وثم قصيدة أخرى وجهها الى أحد رجالات سوريا ولم يذكر اسمه كان في صفوف المجاهدين ، ثم نقص على عقبيه وقد جاء فيها :

عرفتك في ميادين الجهـاد صليب العود ممتنع القيـادِ
تنازلك الخطوب فتزدريها وفي شفتيك بسمات العنـاد
فكيف تغيرت قدماك حتى هويت من الصلاح الى الفساد
أغرّك من متاع العمر عيشٌ دفيق الطيب ، مخضلّ الوساد
سل الأحرار هل حنت الكأس على ذُلٍّ حناجرها الصوادي ؟

ثم يقول :

تلاشت سكرة اللذات فاخلع على عرش المنى ثوب الحداد
لعمرك لن تنام على فراش تريحك فيه أشباح البلاد ! (١)

وأما قبلان مكرزل فقد طالعنـا في ديوانيه ، « الخلود » و « أنا طير شرود » بقطع رومانتية وواقعية بديعة ، وأحسن ما قرأنا له قصيدته « حلم في سجن » وهي قطعة متحررة بديعة الصياغة ، وقد أتينا بنخب منها في هذه الدراسة (٢) وكذلك قصيدته « صوت الشهيد » (٣) بديوان الخلود ، وقصيدته « لا تغضبي » (٤) التي ينتصر فيها لبنت الشعب العائشة في الكوخ حيث الحب والوفاء الحق ، ويزورّ فيها بجانبه عن عاشقته ساكنة القصر ، وانه ليقول في الفقرة الأخيرة منها :

يا جارتا لا تغضبي إن كنت لا أرعى الجميلا
لي من بنات الشمس عاملة غدوت بها قتيلا

---

(١) ديوان عمر أبو ريشة ص ١٤٣ ، ١٤٤
(٢) تراجع صفحة ٨٣ ، ٨٤ من هذه الدراسة
(٣) ديوان الخلود ص ٢٨ (٤) ديوان الخلود ص ٣٨

الكوخ أنشأنا معاً، نغزو الروابي والحقولا
كحمامتين إذا افترقنا عَلاَّ الدنيا هديلا
والكوخ علّمني الوفاء، فما أطيق لها بديلا
لا تندمي يا جارتي، أنا أكره العيش الذليلا
أنا لست ممن يسحبون على شقا الشعب الذيولا!

وأما شفيق معلوف، فقد أتحف العربية بقطع رومانتية، لا مجال لتسجيل شيء منها، وقد توجه مؤخراً الى الحياة، فصوّر الفلاح [1] في قصيدته المسماة بهذا الاسم تصويراً رائعاً إذ قال:

وفى الحياة ديونَها كَرَماً وما وُفيتْ ديونُه
ومضى تشقُّ الأرض قبضته بعزم لا يخونه
عرق الجهاد همى على عينيه فانطبقت جفونه
هلاَّ نظرت جبينَهُ كم فيه لؤلؤة تزينه
ضنّت عليه بالدموع عيونُهُ فبكى جبينه!

وأما جورج صيدح فيمدنا ديوانه «النوافل» بفلتات رومانتية وواقعية، وأسلوبه لا ابتداع فيه، وانما مزاجه الرومانتي يتجلى لنا في أمثال هذه القصائد «على قمة الجبل» و «شلال نياغرا» و «نعي الوالدة» ص ١١٦ وهي من أجمل قصائده وربما كانت قصيدته جولة ص ١٢٥ خير مثال على روحه الرومانتي وقد جاء في الفقرة الأخيرة منها قوله:

حولي الناس الى المال سعوا وأنا أسعى الى قنص خيال
عبثاً ساءلتُ نفسي هدنة ريثما أجمع ما يصلح حالي
كلما غامرتُ جاءت خيبتي من ونوب الشعر خطّاراً ببالي
فتراني قاعداً عن مطلبي أقطف الأحلام من روض الجمال!

(١) مجلة العصبة، سان باولو عدد يوليو ١٩٤٧

كما أن قصيدته « سل المهملات » ص ١٩٩ تعد تجربة شعرية بديعة الخواطر والمعاني وهي من موضوعات الرومانتية التي تهتم بالتجارب ذات الموضوعات العادية .

وقد اقترن بهذا المزاج الرومانتي ، ميل الى الحياة والواقع وفي هذه الناحية يعدنا ديوانه سالف الذكر، بطائفة من القصائد الواقعية مثل قصيدته الطليقة « يا مصر » و« جهاد فلسطين» و « تلك البلاد » ص ١١٥ التي جاء فيها :

لا يؤخذ استقلال شعب منحة ... بل عنوة من قبضة استبداد
ولكل شعب حقه في موطن ... أوصى به الأجداد للأحفاد
فليسمعوا صوت الديار تردّدت ... فيها الشكاية أيما ترداد
وليذكروا تاريخهم وليقرأوا ... تاريخنا في صفحة الآباد
دولٌ تدول ولا تزال عظاتها ... توحي لهم ولنا سبيل رشاد
ما أنفع الذكرى تهيب بقومهم ... أن يزرعوا خيراً ليوم حصاد
ما أنفع الذكرى تحث شعوبنا ... أن نستعيد مفاخر الأجداد !

وإنما أتينا بهذين النموذجين لصيدح ، لبيان توزعه بين المزاج الرومانتي والواقعي ، وما في شعره من معانٍ جديدة ، وإن كانت صياغته عادية لاجدّة ولا جزالة فيها ، وهو مطالب بأن يحاسب نفسه على هذه الصياغة حساباً عسيراً ، ونخشى أن لا يقوم بهذا الحساب لما طُبع عليه من حب للدعابة والميل الى المفاكهة ، هذا الميل الذي رأينا آثاره في كثير من شعره ، ومن آياته مثلاً قصيدته « ما السبب » ? التي يخاطب فيها أحد أصدقائه يقول:

ما ذا دهاك فصرت تا ... سي القلب يا « ديك الحطب » !
أما أنا فكما عهدت ... فتىً على الاخلاص شبّ
قلبي من الذهب المصفّى ... هل سمعت عن الذهب ?
لكن يحوم على الغواني ... كالفراش على اللهب !!

* * *

ونحن وإن وجدنا بذرات الاتجاه الواقعي تنمو في شعر طائفة من شعراء الشرق الابداعيين ، محاولة أن تبرز الى الحياة والنور ، لتكون قوة من القوى الاجتماعية الدافعة الى التقدم ، إذا بنا نجد من بين هؤلاء الابداعيين ، أفراداً ينكصون على أعقابهم،

ويخالفون عن بث روح التقدم والتحرر في المجتمع ، متأثرين بضغط البيئة المذبذبة ، أو سحر المادة ، ومن بين هؤلاء نذكر ، العقاد ، الذي بدأ حياته الادبية الاولى متحرراً في اتجاهه وآرائه ، وأسلوبه ، مترفعاً عن الامداح ، جامعاً في شعره ألواناً من الرومانتية والواقعية المتحررة ، ثم حوّله تيار الحياة الجارف عن طريقه الادبي القويم الى طرائق حلزونية ، فرأيناه يمتدح رجلاً كال له الهجاء ، ويهجو آخر كال له المدح ، ويتناقض في اتجاهاته متأثراً بتناقض البيئة ، ومن شواهد ذلك قصائده الاولى « المجد والفاقة » و« صلاة عابد المال » وهو فيهما يسخر بعبادة المال ، ويرى في الفاقة مع الشرف مجداً ، وفي قصيدته « يوم المعاد » [1] يشيد بإرادة الشعب ، ويمثل الشعب ، ويحمل حملات شعواء على معارضيه ، ومما جاء فيها قوله :

أين الذين تواصوا أمس وائتمروا وهللوا بينهم والشعب مكتئب
وأيقنوا بالمعالي واستخفهم من فرط ما سرهم من نأيك الطرب
أيبصرون ؟ فهذا منظرٌ جللٌ أيسمعون ؟ فهذا مسمعٌ عجب
ماذا يقولون ؟ ماذا يفترون غداً أخزاهم الله في الدنيا بما كسبوا

ثم يقول مشيداً بإرادة الشعب :

ما يبتغ الشعب لا يدفعه مقتدر من الطغاة ولا يمنعه مغتصبُ
فاطلب نصيبك شعب النيل واسمُ له وانظر بعينيك ماذا يفعل الدأبُ
ما بين أن تطلبوا المجد المعدَّ لكم وأن تنالوه إلاَّ العزم والطلب

وهؤلاء الذين رماهم بالخزي ، ارتمى في أحضانهم ، وكال لبعض رجالاتهم المدح ! والشعب الذي نادى بصوته وعرف قدره ، لم يعد له عنده قدرٌ ولا حساب . ويرجع هذا التبلبل والانحراف الى ضغط البيئة ، وانعكاس تناقضها على الادب ، والادباء ، والى تفسخ الادباء وعدم تبلور مبادئهم .

ولم نأت ، شهد الحق ، بهذا المثال ، انتقاماً ، ولكنما ابرازاً لظاهرة أدبية اجتماعية من مظاهر الرومانتية التي تميل بالادباء الى الهرب من الحياة واللواذ الى الخيال والوهم وتحملهم الى الانكماش والانطواء ، والفرار من المسؤولية ، ومن الدنيا الخارجية ، أو تدفع بهم الى

(١) ديوان العقاد ص ٢٧٨

تفيء ظلال الطبيعة أو تدعوهم الى التلذذ بالآلام ، والاخلاد الى اليأس ، أو تضطرهم أحياناً الى ممالأة ما يجري في المجتمع من ظلم ونفاق وملق واستبداد .

ولقد كان من آثار الرومانتية الوخيمة على الأدباء أن ثارت عليها جماعات أدبية جديدة كونت لها مذاهب جديدة ، نذكر منها ، المذهب الرمزي ، الذي عمل على التحرر الأسلوبي ، والتحرر من الايقاع الرومانتي ، وخرج شيئاً ما عن الموضوعات التقليدية والخلقية ونشد الجمال المثالي ، واستعان في التعبير على الابهام والايحاء ، ويمكن اعتباره أدباً مترفاً مقصوراً على فئة ارستقراطية مثقفة .

وكان المذهب السريالي ، الذي خرج على المذهبين ، الرومانتي والرمزي خروجاً مطلقاً ، فاعتمد على الحلم ونوازع العقل الباطن . وعبر عن تجاربه الشعرية دون مبالاة بالوزن أو التقفية ، واهتم بالتلقائية التعبيرية ، وكان له اهتمام بالحقل السياسي والاجتماعي ، ولكنه اهتمام سلبي ، واذا كان قد خرج رجاله عن العرف الجاري القائم على الكبت والخداع والنفاق الاجتماعي ، وعملوا على التخلص من الكآبة الرومانتية ،وآلامها الغريبة وتناقضاتها الاجتماعية ، فانهم عادوا الى الطفولة والى تناقضات الشخصية ، بمعنى أنهم عبروا عن نفوسهم تعبيراً تنعكس عليه شخوصهم غير المتزنة (١)

ولما كانت المذاهب الثلاثة السالفة لا نفع من ورائها للمجتمع البشري ، لأن المذهب الرومانتي مذهب مخدر ، قنوع ذليل ، والمذهب الرمزي مبهم لا يتجاوب معه إلاّ النوادر ، والمذهب السريالي ، مذهب سلبي في أهدافه ، مُلغز في أسلوبه ، فقد قام مذهب آخر ، هو المذهب الواقعي أو الاجتماعي ، ليكون قوّة فاعلة في المجتمع ، عاملة على التقدم الانساني ، وهو مذهب يتقدم الأحداث الاجتماعية ولا يتبعها ، فدوره — كما يقول — دكتور جون لويس John Lewis دور بنائي ، إذ أنه يعد المجتمع بالآراء ، ولهذه الآراء قوة على الجماعات وأثر في تقدمها الاجتماعي (٢) وهو ينكر العزلة والانفصال الرومانتي ، ويسخر من الأبراج العاجية ، وينشد التدخل ، والترابط ، والاتصال بالحياة اتصالاً مباشراً ، ويكشف عن الشخوص الحقيقية ، لا الوهمية ، وعن القيم الانسانية الباقية . وسنتحدث في البحث القادم عن أثر هذا المذهب في الشعر العرقي المعاصر .

(١) يمكن مراجعة كتاب « سريال » عن المذهب السريالي ، لمؤلفه الدكتور علي الناصر وأورخان ميسر

(٢) Modern quarterly Miscellany No 1.

﴿ المذهب الواقعي ﴾

والمذهب الواقعي هو، كما قلنا، المذهب الذي ينكر الانطواء والانكماش، والتحليق، في أجواء الخيال، والهيام بدنيا الطبيعة، والاستغراق في الاحلام والشرود، وعدم التعقل بل هو الذي يفتح ذراعيه لدنيا الناس، وعالم الحياة، وما يعج فيه من آلام وأفراح وأشواق وآمال وهنات وفورات .

وهو مذهب ليس بالجديد، فقد تناول بعض الاتباعيين في الشرق والغرب بعض نواحيه وحوّم عليه الابداعيون تحويماً خفيفاً، وطالعه المحدثون علاجاً متعدد النواحي، وبخاصة أولئك الذين خرجوا عن فرديتهم وتبلور لديهم الوعي الوطني والاجتماعي والانساني.

وليست صياغته، صياغة مباشرة بحتة، لا فنّ فيها كما يتوهم الواهمون، إنما هي صياغة مثيرة ومقنعة تهتم بالناحية الفنية، كما أسلفنا في صدر هذه الدراسة، والذين كتبوا في فلسفة الواقعية، يرون ضرورة الاهتمام بالناحية الشكلية . وفي هذا الصدد يقول — فردريك انجلز — أنه كلما خفيت آراء المؤلف، كلما كان هذا أدنى الى الفنية (١)

وقد ظهرت في الشرق العربي نفثات من الشعر الواقعي، متفاوتة في النوع والاتجاه، فنها ما غلب عليه اللون القومي أو الاجتماعي، ومنها ما غلب عليه الاتجاه العام أو الانساني، وصياغتها تتفاوت في الجودة والحساسية، فنها ما كانت صياغته مباشرة لا اثارة فيها، ومنها ما مسحت بظلال الفن .

ويستحيل علينا تأريخ هذا الاتجـاه الجديد في الشرق لأن هذا العمل يتطلب بحثاً مفرداً وجهداً شاقاً، وكل ما نستطيعه، هو أن نلمع الى طائفة من شعراء هذا المذهب ونسجل بعض نماذج لهم، ونذكر على سبيل المثال، الشاعر السوري « بدوي الجبل » والشاعر اللبناني رئيف خوري، والشاعرين العراقيين محمد مهدي الجواهري والسيد محمود الحبوبي والشاعر المهجري « الياس قنصل » وغيرهم كثيرون ومن هؤلاء، من عبر عن الواقع

(1) Materialistic Aesthetics By Karl Blankpe - The Modern Quarterly Summer 1946. p. 75

المحلي الذي لا بقاء له، ومنهم من عبر عن تجارب عامة باقية، وتعابير هؤلاء الشعراء تراوحت بين تصوير الواقع وبين الثورة عليه.

ومن نماذج هذا الشعر المتراوح بين المحلية والعمومية وبين التصوير الواقعي، والثورة على الواقع، ما قرأناه في ديوان «السهام»[1] لالياس فنصل وفي ديوان محمود الحبوبي العراقي[2] وفي كثير من قصائد الجواهري وضياء الدخيلي العراقي.

ومما جاء في ديوان «السهام» قصيدة «معاذ الله» ص ٤١ وهو فيها يتحدث عن أسباب التحلل في الحياة السياسية في الشرق، وفي الخنوع للغاصب، وقد جاء فيها:

أنرضى بالهوان ونحن قومٌ ملأنا صفحة التاريخ فخرا
بلينـا بالتخاصم وهو داءٌ عضالٌ ينخر الأخلاق نخرا
فأنهكنـا وغادرنا شعوباً ممزّقة تجر الغيـل جرا
ونحن أمام غاصبنا سجودٌ ننفـذ أمره سرّاً وجهرا
قيود الذل فلتكسر ويكفي على حمل الأذى والذل صبرا

وفي قصيدته «نشيد المجد» ص ١٧ نراه يدعو الى رفع نير الاضطهاد، ومجابهة الحياة في بأس وقوة شكيمة، وتطلع الى العلياء، وأنه ليقول:

إلى المجد سر واغنم أكاليل غاره بهمة جبّـار له الخـلد مأربُ
وكن قوة يعنو الجـلال لبأسهـا ويسبقها من سؤدد الفضل موكبُ

ثم يقول:

وإن بت مهضوم الحقوق ولم تثر فلست بذى نفس الى الله تـنـتسـبُ
براها ورقاها لتغـدو على الثرى خليفتـه وهو العزيز المغلبُ
وما الموت إلاّ الضعف والجبن والونى وما العيش إلاّ نيل ما أنت ترغبُ
وما النفس إلاّ عزة وكـرامة يظللها من طارف النبـل مذهبُ

* * *

والحبوبي في ديوانه المسمى باسمه، نراه في قصيدته يا «مصر» يتحدث الى المصريين

---

(١) ديوان السهام لالياس فنصل الطبعة الثالثة — صدر في عام ١٩٣٥

(٢) تفضل علينا بهذا الديوان عند طبعه، الاستاذ الاديب مشكور الاسدي

ويحذرهم من وعود الغاصبين ، ويصور فيها خلقهم وطرائق استعمارهم . وفي قصيدته « الحرية » يخاطب الحرية خطاباً قوياً ، ويناديها بالخروج من حجابها يقول :

طال انتظارك فاطلعي لنرى — عيشاً بلا ملل ولا سأم
والموت للأحرار أطيب من — عيش العبيد وذلة الخدم
نام الطغاة وههنا وهنا — مقل من الارهاب لم تنم

ثم يقول : فتبلجي كالشمس مشرقة — وتحدثي للناس من أمم
واسترجعي لهمُ حقوقهم — من كل مغتصب ومغتنم
ودعي الحجاب ومرقيه فكم — تبقين منه وأنت في حرم

وقد جرى الجواهري شوطاً بعيداً في تصوير الاحداث الاجتماعية ، والثورة عليها ، وربما عُدَّ في الوقت الحاضر ، أكثر شعراء الشرق احتفالاً بهذه الناحية ، وشعره كلاسيكي جزل ، محكم النسج ، وله جماله الخاص ، ولا يتسع المجال لتسجيل أكثر من نموذج واحد له نقطفه من ملحمته « عالم الغد » وهو ينظر الى هذا العالم بعين الخيال فيصوره معركة تقوم ، وتسفر عن دخان وضباب وتراب هي آثار المجاهدين ، والتي ستكون أداة من أدوات تغيير الأوضاع المتعفنة ، والشخوص المنحلة ، وقد استهلَّ هذه الملحمة بقوله :

عالم الغد يا رهين ضباب — ودخاناً من نفثة وتراب
وعجاج من المغاني الخراب — تحت أنقاضها وجوهٌ كواب
من شيوخ وصبية وكعاب
هي اذ حشرجت ورفت وجيبا — وخيالاً للملهمين خصيبا
أمس هذا الضباب كان قلوبا
نابضات بناخات الشباب — وهبات من الاماني العذاب
وهي للكون بعد صوت عذاب — بجناح المروَّع المرتاب
حلقت كالسحاب فوق السحاب
تمنع الشمس جذوة واشتعالا — ومشت في الثرى تهز الجبالا
يملأ الأرض غيظها زلزالا — تتحدى بثقلها الأثقالا

فتقبيل الطغاة والأقيالا والمهازيل في الحرير كسالى
عثرات تعرقل الأجيالا وبعوضاً على الدماء عيالا
تتهزّى من ماجن لعاب يتلهى بكأسه والشراب
ساقط فوق غيره كالذباب ذاهل عن دنو يوم الحساب
عصفت بالرءوس والأذناب من عبيد وسادة أرباب

وقد وقعت في يدنا مؤخراً مجموعة للشاعر ضياء الدخيلي العراقي يصور فيها حياة العراق الحاضرة وأحداثها ، ويبدو لنا أن هيامه بهذا المنحى ، جعله لا يُروِّي في التأدية ، ولا يهتم بسحر الصياغة ، وقد استلفتت نظرنا مقطوعته « اليتيمان » التي يقول فيها :

رقدا على جنب الطريق رداهما بؤس هو الملك المريع المرعب
مدنية هوجاء لا يلوي بها عطف الاخاء بها الجناة تغلبوا

وهذا الاتجاه الواقعي إن دلّ على شيء ، فأول ما يدل عليه هو شعور شعراء الشرق بوجوب الخروج من حياة الانكماش والعزلة ، وحمل حظ من المسئولية الاجتماعية ، ولا بد أن يصاحب هذا الشعور تجاوب حقيقي مع الأحداث الاجتماعية وفهم واسع لها والاعراب عن هذه الأحداث في قوة وجمال ، ولن يجود هذا الشعر اذا لم يتحدث الشاعر عن شعور دفاق وتجربة حقة دون التحدث بما يتخيله عن الناس أو عن آرائهم ، أو أن يعبر عما يسطر في الصحافة أو يدور على المنابر .

وقد سجلنا نموذجاً طيباً لشاعر مصري شاب بعنوان « اصرار »[(١)] وها نحن أولاء نسجل نموذجاً آخر للشاعر السوري « نذير الحسامي » بعنوان « تمرد »[(٢)] وهو نموذج بديع متحرر ، يمثل هذا الاتجاه تمثيلاً حقيقيًّا ، ولو خلا من كثرة الاستطرادات في تجربته ، لبلغ مرتبة فنية عالية ، ومما جاء فيه قوله :

أنا للكوخ وللسرداب ، لا للقصر فني
ولخفق الريح في الأسمال ترجيعي ولحني

(١) راجع صفحة ١٦ من هذه الدراسة (٢) نشر بمجلة الكاتب المصري — يوليو ١٩٤٦

لاحتضار النور في ليـل المساكين أغني
وخلاف القوت في بطن الفقير المتمني
ولأنـات الحزانى أهـدم الدنيا وأبني !

* * *

أنا للبؤس ، وفي البؤس أعاصيري وحزني
وعلى الغبن ، وفي الغبن نضالي وجني
أسكب القلب بأقداح المعنّى لا المغني
قلبي مني ، ولن يُشتق إلاّ البأسُ مني
أصيدٌ في الحق يعدو ، لم أخنه أو يخني !

وبمثل هذا الشعر نغرس بذور الواقعية الشعرية في الشرق ، وبه يخرج الشاعر الشرقي من قوقعته ، ويتصل بالحيـاة ، وتكبر شخصيته ، ويحمل بعض أعباء المسئولية الاجتماعية ، فيساهم في نقد فوضى المجتمع الشرقي ويعمل على شفائه من البلبلة الحاليـة ، وعلى مجاهدة جماعاته المتصارعة من أجل أنانيتها الخبيثة المنحرفة

ولا أمل في نهضة أدبية مزدهرة ، إلاّ بنهضة اجتماعية وحركة متحررة تقوم على أكتاف الادباء والشعراء . ولا أمل في كثير من الادباء كبار الاسنان الذين أخلدوا الى الجبرية ، ورضوا بالوضع الاجتماعي الظالم الذي آل بهم الى الفرار من دنيـا الواقع والانعزال عن مسايرة موكب الحياة.

والأمل معقود في الشباب الصاعد الموهوب ، الذي ارتفع بروحه الوثّـاب على أوضاع الحياة الحاضرة ، وتبلورت مبادئه الخلقية والروحية والاجتماعيـة ، وبأقلام مثل هذا الشباب يمكن أن ينهض الشرق نهضة أدبية اجتماعية رائعة . كما نهضت البلاد المتحضرة على نفثات أقلام أدبائها شباناً وكهولاً أحراراً .

ويمكن تتبع هذا الاتجاه الواقعي في شعر كثير من المحدثين أمثال « ادريس احمد بيرا » التركي ، أو لوريكا Loreca الشاعر الاسباني ، أو و . ه . أودين W. H. Auden الانجليزي أو فاليري بريسوف Valeri Bryusov أو مايا كوفسكي Mayakovsky الروسيين وغيرهم ، وكثير

من شعر هؤلاء المحدثين ، يتحدث عن الحياة الواقعية وحاجات البشرية ، ويعتمد الوضوح والسهولة والجمال في الاعراب عن التجارب الشعرية [1] وقد بلغ من شدة تعصب فلاديمير ما ياكوفسكي لهذا الاتجاه ، انه كان يرى ان الفن الذي يتحدث عن الحب والزهر والقصور ، فنٌّ زريٌّ ، وانه ليخاطب الكتّاب في إحدى قصائده فيقول : «ماذا في جعبتكم ؟ وما تكتبون؟ ان معاون أي محام ليجد الحياة أكثر شوقاً مما تجدون ، فهلاّ مللتم أيها السادة الشعراء الحب والزهر والقصور ، ولئن كان مثلكمُ الخالقين ، فاني لأبصق على فنكم ! » .

ولكي نعطي فكرة تقريبية للمذهب الواقعي ، نسجل هنا بعض النماذج من شعر بعض الشعراء الذين أسلفنا ذكرهم قريباً ليدرك القارىء ، ما تتحلى به من صدق وبساطة وجمال أداء وفي خروجها على الصنعة التقليدية وعلى الرؤية الرومانتيكية .

ومن هذه النماذج نذكر قصيدة «حب عامل» [2] لادريس أحمد بيرا وقد جرت كالآتي :

واجهت مائدتي مائدتها
ووافى الصباح خيبتي وحييتها
وانهمكتْ في عملها الى المساء دون أن ترفع رأسها
وفي صمت ، لبثت طوال النهار جادة عاملة

* * *

ومايضة [3] فتاة شابة مهذبة
أدواتها وكل مالها مرتب في مكانه
لا تضيع قلماً ، ولا تفقد ورقة
ولا تقوم بعمل الاّ بعد تدبر ودقة
وقد تتلاقى نظراتنا حيناً بعد حين
فتغطي الحمرة وجهها ، وتنكس رأسها
وتحتجب عيناها في ذؤابة شعرها الكثّ الفاحم

Horizon — The next Stage of Poetry — By Maurice Bowra — July — 1946 (1)
(٢) Poesie 46 – avril No 81 (٣) مايضة : اسم الفتاة التركية

وذات مرة ، طلبت مني كتاباً
فاخترت لها واحداً ، سطرت خطوطاً تحت بعض قطعه
ولا أدري كيف عرفت قصائدي
هنا وهنا ، دون أن تترك واحدة .

* * *

ويبدو لي أن اتفاقنا الودي قد انعقد
وليس أمامنا إلاّ انتهاء الحرب
حتى يتيسر العيشُ ، وتتغير الحال
وقد يزداد راتبي ، بمشيئة الله
وبهذا الأمل ، أحببتها وأحبتني !

* * *

ونقتطف بدون اختيار من الشاعر الانجليزي الواقعي و . هـ . أودين قصيدته « اللاجئون في غمة » [1] وهو يتناول فيها حال اللاجيء وآلام نفسه وشقائه ، وهو يجمع في قصيدته « خواطر بسيطة » ، ولكنها في مجموعها ، تثير شعوراً عامّاً مؤدياً الى العطف الحقيقي عليهم ، وفيها يقول :

لنقل إن هذه المدينة يسكنها عشرة ملايين نفس
بعضها تسكن القصور الجميلة ، وبعضها تسكن الشقوق
ومع هذا ، فليس فيها مكان لنا ، يا عزيزي ، ليس فيها مكان لنا

* * *

وكان لنا بالأمس وطن ، وظنناه ناعماً طيباً
ونظرة الى الخارطة نجده هناك
ولكن من المستحيل الذهاب إليه الآن يا عزيزي،من المستحيل الذهاب إليه الآن

* * *

وفي كنيسة قريتي ، تحت شجرة الشوحط العجوز [2]

Refugee in blues (١)
(٢) الشوحط : شجر دائم الاخضرار وهو بالانجليزية Yew

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وفي كل ربيع أراها تنمو وتزدهر
وجوازات سفرنا لا تتجدد ، يا عزيزي ، لا تتجدد

* * *

وقد ذهبت يوماً الى لجنة من اللجان ، فأعطوني كرسيّاً
وطلبوا إليّ في أدب ، أن أعود في العام القابل
ولكن أنّى نذهب اليوم ، يا عزيزي ، أنّى نذهب اليوم

* * *

ووجدت نفسي مرة في اجتماع عام ، فقام خطيب وقال :
لو تركناهم يدخلون ، فسوف يسلبون خبزنا اليومي
انه يتكلم عنك وعني ، يا عزيزي ، انه يتكلم عنك وعني !
وسار على مثل هذه الخواطر وفي الفقرة الأخيرة قال :
ومشيت في الغابة ، فرأيت العصافير على الأشجار
ليس لديها محترفون سياسيون ، وتغني كلها في سرور
وذلك لأنها ، ليست من الجنس البشري ، يا عزيزي ، ليست من الجنس البشري

* * *

ويطالعنا ڤاليري بريسوف ، الروسي بقطعته الفريدة « قاطع الحجر »(1) وهو يبذر فيها بذور التفكير ، والثورة الكامنة في قلب العامل من جهة ، ويظهر من جهة أخرى قدرة العامل ورضائه دون تفكير ، وهذه القطعة تجري في شيء من الرمزية على هيئة حوار متبادل أجراه الشاعر بين غني وعامل ويدور الحوار كالآتي :

يا قاطع الحجر ، يا قاطع الحجر ، يا لابس الأبيض
ما ذا تبني ؟ ولمن ؟
— هيه ، لا تضايقنا ، فعلينا أن نبني حسناً
فمن هذا الحجر ، نُقيم سجناً

* * *

يا قاطع الحجر ، يا قاطع الحجر ، يامن تسويه أجمل تسوية

(1) The Stonecutter — The Book of Russian Verse. Edited By c. M. Bowra p. 92.—1943

أي إنسان بداخل السجن ، سوف يشقى فيه ويهجى ؟
— لن يكون أخاك ، ولن تكون أنت أيها الغني
إذ أنك لن تعرف ، أبداً ، كيف تعرق

* * *

يا قاطع الحجر ، يا قاطع الحجر ، فمن إذن
سوف ينتحب فيه ، ويسهر في ظلامه
— قد يكون ابني ، أو عاملاً مثلي
وهذا هو الحمل الذي يقع على كواهلنا

* * *

يا قاطع الحجر ، يا قاطع الحجر
أتظن أن فكر السجين ، سيروح الى الذين هيأوا بناء السجن ؟
— هيه ، انظر ان المرقاة ليست موضعاً للدعابة !
نحن نعرف كل ما تذكر ، فلا تكثر

* * *

وقد وعى الشعر الروسي قطعاً ممتازة ملونة بهذا اللون ، ومن ذلك نذكر قصيدة « الجائع »[1] The Hungry One — لنيكولاي نيكراسوف وهي قصيدة وصفية بديعة عن الفلاح ، وقد جرت كالآتي :

يقف الفلاح ، بنظرة شاحبة ، وأنفاس لاهثة ، يتمايل ويترنح
ومن طعام الأهنة[٢] ، والخبز المصنوع من قشور الشجر ، تورم شكله ، وأظلم وجهه وتقززت عيناه وتخدرت روحه
وبخطوات وئيدة ، كما لوكان في نعاس ، يسعى الى حيث الجويدار[١] ينمو
وعلى حقله ، يلقي نظرة طويلة ، ويقف مغنياً أغنية صامتة ، « ترعرع ، ترعرع ، أيها الجويدار الرؤوم ، لقد عينتك ، وأنا راعيك
فهبني رغيفاً ، هائل الحيط ، وكعكة متماسكة ، كأمنا الارض

* * *

(1) The Book of Russian Verse — By Bowra p. 72
(٢) حشيشة البحر : Famine Food

وواضح من هذه النماذج الأربعة التي أسلفنا، أنها تصور الواقع، أو تثور عليه، وصياغتها مع سهولتها لم تفقد سحرها وأسرها، ومثل هذا الاتجاه لا يقدر عليه إلاّ الموهوبون ذوو الطاقة القوية والذين تبلورت مبادئهم الاجتماعية، أو أولئك الذين يمكنهم أن يتعمقوا الأشياء، ويغوصوا في أغوار الحياة، ويخرجوا من زبد الحقائق أفكاراً جوهرية، يصوغونها في صور حية. كما يقول جوركي، بل أولئك الذين اتقدت نفوسهم، واشتعلت أرواحهم، وانبثق اللهب في قلوبهم، كما يقول «بوشكين» رائد الشعر الرومانتي الواقعي في القرن التاسع عشر في قصيدته «النبي» التي يصف فيها الشاعر الثائر يقول: «جُلت في ظمأ روحيّ ملتهب، جُلت متعباً في وديان مقفرة، وعجبت اذ رفرف عليّ ملك مجنَّح، التقى بي في طريق متقطع، وبلمسة ناعمة كلمسات النوم، وضع أصابعه على جفنيّ، وفتّح عيني في اتساع، كما لو كانت عيني نسر مرتاع، ولمسَ أذني، فامتلأ جرساً ودوياً، وهنا رأيتُ اهتزاز الكون، وتطواف الملائكة والحيوان الزاحف والكرمة التي تعلو جانب الوادي — ثم اقترب من فمي واخرج في عنف لساني الآثم، الموشى بالغرور والمكر، وضغط على شفتيّ الواهنتين، وصوّب اليهما رمحاً، فسال الدم الأحمر على أصابعه وبهذا الرمح شق صدري، وأخذ قلبي المرتعب، ووضع مكانه فحمة متقدة، وضغط على الجرح المثخن — وهنا رقدت طويلاً كالموتى في الصحراء الواسعة واذ بي أسمع أخيراً صوت الله يقول: قم أيها النبي مشبعاً بتعاليمي، وكن كلك عيوناً وآذاناً، وسح فوق متن البحار والبراري واملأ قلوب البشر بالكلم الناري المتوهج»

* * *

وإنما وقفنا هذه الوقفة الطويلة نوعاً في باحة الشعر الواقعي لندفع قالة بعض أدبائنا الشرقيين الذين لا يزالون يعتنقون مذهب الفن للفن، والذين لا يطيب لهم العيش الا في السحاب والأبراج العاجية، والذين لا يرون الشعر إلاّ متعة، أو تحفة باذخة، وأنه لا هدف له الاّ أن يحدث فينا هزة وينقلنا الى عالم أسواره النجوم [1]

(١) تراجع مقدمة ديوان «طفولة نهد» للاستاذ نزار قباني

فهذه نظرة ضيقة الأفق يبسم لها الأدباء المحدثون ، ولا يقرونها ، لأنها تكبل الشعر وتقصره على دنيا الخيال ، وعالم الضباب ، وتجعله متخلفاً عن الفنون الرفيعة جميعاً ، تلك التي تتناول كل مظاهر الفكر والشعور والحلم والخيال ، والواقع والحياة

ونظرة فاحصة في الشعر العالمي في الوقت الحاضر ، تظهر لنا أن الشعر لا يتقمص ناحية واحدة ، وانما يلج جميع الأنحاء ، وموضوعاته غير مقصورة على دنيا الخيال والأحلام ، ولكنها تعتمد مظاهر المجتمع ودنيا السياسة والسيكولوجيا وعالم الكون والانسانية ، وتتناول هذه الموضوعات الجديدة بوسائل شعرية فنية، ولم يعد الشاعر في العصر الحديث ذلك الطفل غير المسئول — كما يقول دايتشي Daiches في كتابه « الأدب والمجتمع » ولا ذلك الانسان الذي يمتع فئة خاصة ويهدهد نفوسها بأغانيه . بل أصبح اليوم رجلاً يشعر شعوراً جديداً بالمسئولية ، وقوة حافزة الى الجهاد والكفاح في الحياة ، والهمال اللهب الوطني في الأمم المستعبدة . والدارس للأدب العالمي يجد أن أغلب الشعر الحديث يتجه الى الحياة والى البشرية (١)

وفي السنين العشرة الأخيرة توجه الشعر الى ناحيتين : الأولى التحدث عن مساوىء المجتمع ، والثانية التحدث عن العلاقة بين الفرد والمجتمع . ومن أشهر من تناول الناحية الأولى من الانجليز و . ﻫ . أودين ، ومن الروسيين بوريس باسترناك Boris Pasternak ، وفي أسبانيا رافائيل ألبرتي ، وغيرهم . ومن أشهر من تناول الناحية الثانية وهي الناحية السيكولوجية . ت . س . إليوت T. S. Eliot وييتس Yeats وغيرهما ، ولم يخل شعر هؤلاء المعاصرين وأمثالهم من التحدث عن الحب ومن الطبيعة ، مع اختلاف في الصياغة فنهم من مال الى الصياغة المتقنة الماهرة ، ومنهم من هام بالصياغة السهلة العادية المؤثرة والقليل منهم لاذ الى الصياغة الخفية الموحية

* * *

ومن هذه اللمحة الطائرة التي سقناها قريباً، يتضح أن الشعر العالمي لم يقتصر على ناحية دون ناحية ، ولم يقف عند مذهب دون مذهب . أما شعرنا الشرقي فقد تابع المذهب الاتباعي، وحاكاه كثيراً ، وتأثر المذهب الابتداعي ، وأخرج فرائد شعرية فيه . وأما المذهب الواقعي فلم يقربه إلا قلة من الشعراء ، وقد ظهر لبعض الشباب فلتات نوادر أثبتنا في هذه الدراسة منها مثالين بارعين أحدهما بعنوان « إصرار » للشاعر محمد كمال ، وثانيهما

(1) Horizon — The next Stage of Poetry — By Maurice Bowra.

بعنوان « تمرد » للشاعر نذير الحسامي ، وهناك شعراء آخرون أجادوا في هذه الناحية مثل رئيف خوري في مثل قصيدته « العبد » (١) التي جاء فيها :

أنا المضطهد الصارخ من أعماق حرماني
أنا الباني ولكني أنا المسلوب بنياني
أنا الإنسان ممسوخاً بيومي ، غير إنسان
أنا العائش كالميْت بلا قبر وأكفان
أنا الحافي ، أنا العاري أنا الجائع والظامي
سبيلي ملؤها الأشواك من خلفي وقدامي !

وترحيبنا بشعر الشباب في هذه الناحية وفي غيرها من النواحي التجديدية راجع الى تأميلنا في أن يتقدم بعضهم ريادة الحركة الشعرية التجديدية القابلة ، وليس هذا ببعيد فقد وضع في انجلترا الفتى توماس شترتون Thomas Chatterton بذرة الابتداعية في سن السادسة عشرة وتأثره شعراؤها الجهيرون (٢)

« الخاتمة »

وبعد ، فانا لنلقي القلم ، بعد هذه الجولة الطويلة في الشعر المعاصر وفي مذاهبه الأدبية والنقدية ، والنفس لم تدرك مناها في توفية كثير من شعراء الشرق حقهم . ولقد أبى رسم الدراسة علينا إيراد كثير من نماذجهم ، والترجمة لهم ، ولئن حرمت هذه الصفحات من درر كثيرة ، فلن نحرم هذه الدرر من التقدير ، وكفانا جذلاً روحياً ان حشدنا من النماذج الشرقية مجموعة ضخمة منوّعة تكاد تمثل الجو الفكري السائد في العصر الحديث . وتعد هذه المجموعة مفخرة للشعر الشرقي الحاضر ، إذ انها تزخر بألوان فريدة من الشعر تفوق مرات روائع الشعر العربي القديم ، بل مثيلاتها في الشعر الغربي الحديث

ولو أتيح لهذه الألوان الشعرية المنوّعة عربي متضلع في الأدب الغربي ، ونقل شيئاً من روائع مطران ، وايليا أبو ماضي ، وفوزي المعلوف ، وأبو شادي والجواهري والعقاد ، وناجي ، وعمر أبو ريشة ، وأمين نخلة ، وسعيد عقل ، وحبيب ثابت ، وبشارة الخوري ،

---

(١) مجلة « الجمهور » اللبنانية ، العدد الممتاز ١٠٧ — ١٣ كانون الثاني ١٩٣٩

(2) The Milk of Paradise By Forrest Reid P. 22

وميخائيل نعيمة ، ورشيد أيوب ، وشكر الله الجُر ، ونسيب عريضة ، والياس فرحات ، والياس أبو شبكة ، والصيرفي ،والشابي والتيجاني والهمشري وصالح جودت ، وبدوي الجبل ، وعلي الناصر ، ونزار قباني ، ونعمة قازان ، وفيلال مكرزل ، وفؤاد سليان ،والياس زخريا ، وصلاح لبكي ، وصلاح الأسير ، وعلي محمود طه ، وميشال عقل ، وعبد الرزاق محيي الدين ، والسماوي ، والصافي النجفي وغيرهم ممن ضمت هذه الدراسة ومن لم تضم ، لو أتيح لعربي مثقف غيور نقل مجموعة من روائع هؤلاء المحدثين لكان لها شأن خطير وأي خطير .

وقد يكون لمثل هذه المجموعة في لغتها أكبر الخطر ، إذا نشرت وذاعت في البلاد العربية لأنها تعاون معاونة حقة على التبادل الأدبي والتوجيه التجديدي ،موضوعاً وأسلوباً ، وتكون أولى بالدراسة والنقد من كثير من الشعر العربي القديم أو الاتباعي الحديث الذي أغرمت به الرجعية الأدبية في بعض البلاد الشرقية .

وليس ريب في أن الشعر المعاصر المتعدد النواحي يتطلب نقداً ذكياً سليماً متعدد النواحي وقد أبنا في هذه الدراسة تيارات النقد المختلفة وأساليب النقاد الملتوية ، ومنها يتجلى ضرورة النقد المثقف الذكي ، ومسئولية النقاد في إنصاف الأعمال الأدبية ورعاية كرامة الأدباء .

والحق أن عمل الناقد عويص شاق ، يتطلب كما ذكرنا في بداية هذه الرسالة ، ذكاء وحساسية وثقافة وأفقاً واسعاً ، فعمله لا ينتهي عند تصويب لفظة أو تقويم عبارة أو تصحيح هفوة عروضية ، كما قد يخيل لأصحاب المذهب الفقهي ، بل إنه يشمل النظر إلى العمل الأدبي نظرة فنية واسعة بالتأمل في تجربة الشاعر والتجاوب معه ومعرفة مدى توفيقه في أداء هذه التجربة ومواءمة الأداء للتجربة ، ثم النظر بعد ذلك في عناصر الصياغة من أخيلة ومعان وموسيقى ووحدة ، وفحص مثل هذه العناصر قد يوجب الرجوع إلى الماضي لتعرف مدى استقلال الشاعر وإصالته وأمانته وبعده عن التقليد أو المحاكاة أو الانتهاب من غيره ، ولا يقف عمل الناقد عند هذا الحد بل قد يحتاج الناقد في اكمال نقده إلى معونة السيكولوجيا وتعرف أثر شخصية الشاعر في شعره من الوجهة الموضوعية أو الأسلوبية ، ومعنى هذا أن الناقد لا يحصر نقده على المذهب الفني البحت ، بل يعتمد النظرتين التاريخية والسيكولوجية معاً .

ومن النقاد من لا يكتفي بهذه النظرات السابقة بل يدخل في تقديره أهمية الموضوع وينزله منازله بحسب تفاهة هدفه أو خطورته ، فالموضوع الذاتي أو الشخصي لا ينزل منزلة الموضوع العام أو الكوني ، أو الذي تتمثل فيه الطبيعة البشرية ، والموضوع الذي

يحوي أفكاراً مؤقتة عابرة ، لا يبلغ مكانة الموضوع الذي يحوي أفكاراً باقية . وهذه النظرات الجديدة ، هي نظرة النقاد الواقعيين ، فاذا ما أضيفت إلى النقدات الفنية السالفة ، كان لها قيمتها في التقدير الكامل للنقد الحصيف المعاصر .

وقد يرى القارىء أننا حاولنا في هذه الدراسة أن نوحد بين النظرات النقدية المختلفة فتحدثنا في إفاضة عن النقد الفني ، وطبقنا قواعده ومقاييسه على الشعر المعاصر ، ونظرنا إلى شعر بعض الشعراء نظرة سيكولوجية ، وطبقنا هذه النظرة على بعض نماذج مطران وبشارة الخوري وزكي مبارك وغيرهم . وفي ناحية أخرى من الدراسة حاولنا تطبيق المنهج التاريخي ، فقابلنا بين بعض قصائد شكري والعقاد وتركنا الحكم النهائي في قصيدتين لها لبحث الدارسين وقدمنا في صدر هذه الدراسة صفحات عن المذهب النقدي الواقعي ، وطبقنا بعض وجهاته على شعر حافظ ، ولم نشأ أن نقف عند هذه المذاهب النقدية ، بل تحدثنا حديثاً موجزاً عن المذهب الرمزي والسريالي ، وذكرنا أن لهذين المذهبين نظرة تختلف كثيراً عن النظرة الفنية أو الواقعية ، وهي نظرة لا تهتم بنقل التجربة للقارىء ، وتزري بالفكرة وباليقظة وتقدر الصنيع الأدبي أو الشعري بما يحوي من تجارب الحلم ، واللاشعور ، وما وراء الوعي ، وبتأدية الصنيع الأدبي تأدية تلقائية .

وبغية في إغناء الشعر المعاصر وتنويع ألوانه وزيادته غنى ، عنينا بعض العناية بالتيارات الأدبية الجديدة في الشرق مثل التيار الرمزي والسريالي والواقعي وحثثنا الشعراء ذوي الاستعداد والقابلية الى انتحاء هذه النواحي ، واستلهام الحلم والعقل الباطن حيناً ، وتناول مظاهر الحياة وواقعها حيناً آخر على قدر طاقتهم وأمزجتهم ووفاقاً لميولهم المنطوية أو الخارجية أو الجامعة بين الانطوائية والانبساطية . وأوردنا في هذه النواحي بعض النماذج لشعراء جهيرين برزوا فيها بروزاً كبيراً .

ونأمل بهذه البحوث الثمانية وبما وعت من نماذج مستقلة الصياغة أن يتوجه الأدباء وجهة تجديدية طريفة ، موضوعاً وأسلوباً ، وأن يقدر النقاد المسئولية الخطيرة الملقاة على كواهلهم ، وأن توأد ، الى غير رجعة ، تلك النقدات الذاتية المنحرفة أو الجزئية القصيرة النظر التي قامت على البيئة الأدبية في الشرق المتوقل لنهضة شعرية باهرة .

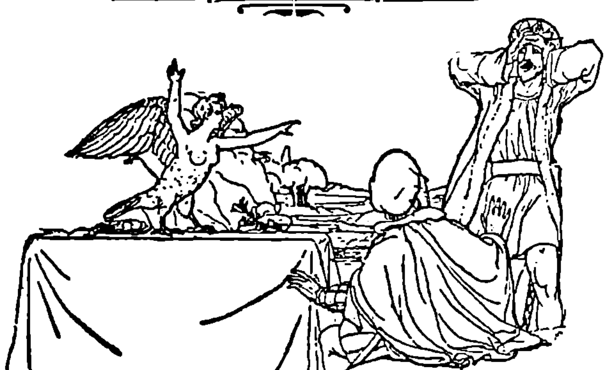
فهرس الموضوعات

العاصفة

للشاعر العالمي وليم شكسبير

نقلها الى العربية

أحمد زكي أبو شادي



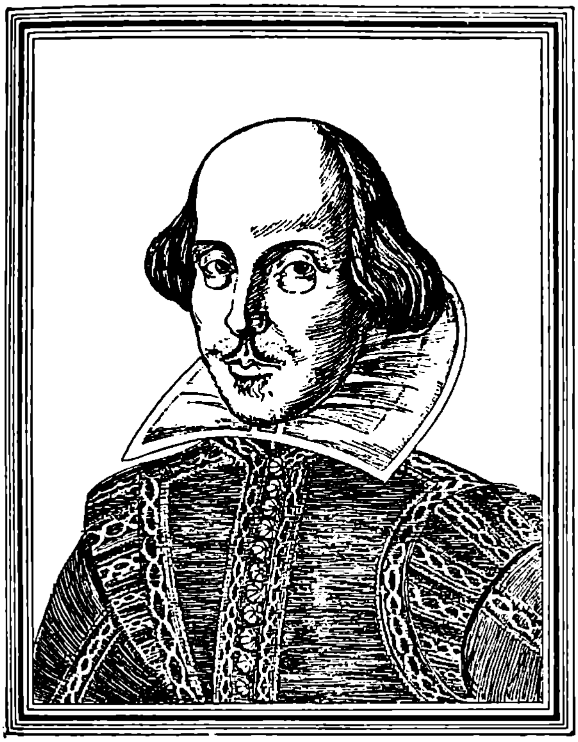
موضحة بطائفة من الصور الشهيرة

مطبعة المقتطف والمقطم

الطبعة الاولى

١٣٤٨ هـ — ١٩٢٩ م

عُنيتْ بنشرها أدارةُ مجلة « المقتطف »



وليم شكسبير

(نقلا عن حفر إ : هيبر طمسن)

« أعظم عقل خالق اشتغل بالنقل الدقيق لتفاصيل الوجود الحقيقي ».

« لشكسبير كل شيء صادر من نفسه، أعني من روحه ومن عبقريته، أحينما الظروف والمناسبات الخارجية لم تعط الا قليلا لتكوينه ».

النقّاد (تين)
H. A. Taine



شكسبير في أوج مجده
(مشرفاً على الحياة في لندن)

مقدمة الناشرين

لشكسبير من الحرمة الأدبية العالمية ما وضع مؤلفاته موضع التقديس ، وهذه المؤلفات الخالدة تدرس في جميع الأمم المثقفة . وكان لمصر وما زال نصيب وافر من العناية بهذه المؤلفات في معاهد الدراسة وفي دور التمثيل وفي مجال الصحافة الراقية . وقد اعتادت وزارة المعارف المصرية أن تخص طلبة الفرقة النهائية في مدارسها الثانوية كل عام بدراسة رواية شكسبيرية ، واختارت لهذه السنة الدراسية رواية (العاصفة) ، فخطر لنا حباً في فائدة قراء (المقتطف) من الطلبة — فضلاً عن جمهرة المتأدبين — أن نذيع ترجمة هذه القصة التمثيلية على شرط ان تكون ترجمة أمينة مستوعبة لروح ذلك الشاعر العبقري . واعتقدنا من مبدأ الأمر أن تحقيق ذلك أقرب الى النجاح اذا كان بقلم شاعر عصري متضلع من اللغتين الانجليزية والعربية . ثم اتفق أن عرفنا فيما بعد هذا العزم على نقل (العاصفة) الى العربية لدى الدكتور أبي شادي ، فرأينا أن نقرن امنيتنا في حسن نقل الرواية بأمنيته وبجلده الشديد في سبيل الاتقان ، راجين مع الدكتور أبي شادي أن تكون عنايتنا المشتركة بحسن إخراج هذه الرواية البديعة في ثوبها العربي محمودة النتيجة .

وسننشر تباعاً في (المقتطف) فصولها التمثيلية ، ثم نضيف اليها في طبعتها المستقلة ما لا يسمح به فراغ المجلة من الشروح والتحليلات الكثيرة التي لا بدّ منها .

القاهرة في ١٥ سبتمبر ١٩٢٩

تصدير

كنتُ اعتزمتُ أن أنقل نظماً الى العربية رواية (يوليوس قيصر) لشكسبير كفاتحةٍ لترجمة مؤلّفاته جميعها إذا ما وفّقني الحظُّ، وفعلاً شرعتُ في تلك الترجمة بنجاح رضيتُ ورضي عنهُ غيرُ واحدٍ من ادبائنا المعروفين، ثم تخلّيتُ عنه مضطرّاً بحكم شواغلي المتعدّدة، فضلاً عن العوامل المثبطة، حتى فوجئت برغبة نفر من الناشرين والمدرسين وطالبي الأدب الانجليزي ثم برغبة ناشري (المقتطف) في نقل رواية (العاصفة) نثراً الى العربية، فاستثار ذلك رغبتي القديمة وأقبلتُ على تلبية تلك الرغبة بشغف وتقدير.

وها هي ثمرةُ جهدي في النقل الامين متْبَعَةً في ختامها بدراسات متنوّعة أرجو أن تكون عوناً لدارسي هذه الدرامة الجميلة التي تُعَدُّ من لطائف شكسبير الفنّية. وقد اعتمدتُ في هذه الترجمة على شروح كثيرة فضلاً عن ملاحظاتي الخاصة، وآثرتُ طبعة نلسن لما فيها من الارشادات المسرحية المعينة للطلبة وللممثلين.

وعندي ان هذا الشاعر العالمي الخالد الذكر جديرٌ بأن تترجم رواياته شعراً مُرْسَلاً او شعراً حرًّا، وكلاهما مستطاعٌ لولا حقارة الجزاء من الناشرين أو من القارئين أو من جميعهم. ولكن اذا كانت ظروف البيئة ما تزال قاصرةً عن مكافأة الشاعر المجتهد المبتدع، فانَّ ذلك لا يُسيغ بحالٍ التهاونَ في الترجمة النثرية، وقد تكون على تواضعها قادرةً على انصاف فن شكسبير. وإني على هذا الأساس أعرض هذه الترجمة على أنظار القرّاء والنقّاد ؟

المترجم

أشخاص الدرامة

ألونسو — ملك نابولي

سباستيان — أخوه

بروسبيرو — دوق ميلان الحقيقي (الشرعي)

أنطونيو — أخوه : دوق ميلان المغتصب

فرديناند — ابن ملك نابولي

جنزالو — مشيرٌ قديمٌ أمينٌ

أدريان وفرانسسكو — من الاعيان

كليبان — عبد متوحش أشوه

ترنكيولو — مضحك

استيفانو — خادمٌ (وصيفٌ) ثملٌ

ربان سفينة

بحار ملاحظ (Boatswain)

ملاحون

ميراندا — ابنة بروسبيرو

آريل — روحٌ هوائيٌّ (طيف)

ايريس
سيريس
جونو
عرائس البحر
حصاد

} ممثلة في أرواح أوجن

أرواح أخرى في خدمة بروسبيرو

المنظر : سفينة في عرض البحر — جزيرة

وبعد ذلك أجزاء مختلفة من جزيرة

الفصل الاول

المنظر الاول

(على السطح الاكبر لسفينة في عرض البحر بالقرب من جزيرة مجهولة . وقد أخذت السفينة عاصفة مفاجئة جانحة بها الى الشاطىء . ويبدو وميض البرق منيراً ظلمة السماء القاتمة ، وتلمع الكرات المتفرقة متمايلة بجانب الساريات وحبال السفينة ، وتسمع ضوضاء عاصفة للرعد والبرق متعالية فوق زفزفة الريح والامواج ، وبينما ملاحظ السفينة يشق طريقه على ظهرها يبدو الربان عند حاجز مؤخرها).

الرُّبان — (صائحاً) — يا ملاحظ !

الملاحظ — (رافعاً بصره)—هنا يا سيدي : ما الطالع [1] ؟

الرُّبان — حسن [2] . . . بلّغْ الملاحين أن يقبلوا على العمل بحماسةٍ والاً جَنحَت بنا السفينة . أسرعْ ، أسرعْ !

(يذهب ثانياً نحو مؤخر السفينة نافخاً في صفارته ، فيندفع الملاحون جرياً على ظهرها)

الملاحظ — هايْ ياقلوبي [3] ! إعملوا ببشاشة، ببشاشة ياقلوبي ! استعدّوا ، استعدّوا ! اطووا الشراع الاعلى (يطير الملاحون الى الحبال) . تَـنَـبَّـهوا الى صفّارة الرّبان (مخاطباً العاصفة) : هُـبّي الى ان تنفجر رِيحُـك [4] لو أن لنا مجالاً كافياً !

(يصعد في فزع ألونسو وسيباستيان وأنطونيو وفرديناند وجنزالو وغيرهم قادمين من قراتهم)

ألونسو — أيها الدّارِي [5] القدير، كنْ حذراً . أين الرُّبّان ؟ (مخاطباً الملاحين) : مَـثِّـلوا الرّجال [6] .

الملاحظ — (ملولا) — أرجو الآن أن تَـبْـقَـى في القمرة .

---

(١) أي ما الخبر (٢) أي حسن أنك هنا (٣) يعني ياخلصائي أو يارجالي (٤) أي الى ان لا تستطيعي اكثر من غايتك ، لو أننا نملك المجال الكافي من البحر لسلامتنا (٥) الداري للسفينة بمعنى الملاحظ (٦) اي اظهروا أنفسكم شجعانا

(تسمع صفارة الربان)

أنطونيو — أين الرُّبان أيها الملاحظ ؟

الملاحظ — ألا تَسمعُهُ ؟ إنك تُفسد عملَنا . إلزموا قمراتكم . أنتم تساعدون العاصفة [1].

جنزالو — كلا ، يا سيّدي الطيب ، كنْ حليماً .

الملاحظ —(حانقاً) — حينما البحر حليمٌ ! لهذا السبب! ماذا يَعْني هذه الصّاخبات مِنْ اسم مَلكٍ ؟ الى القمرة ، سكوتاً ! لا تُزعجونا . (ثم يقفل راجعا) .

جنزالو (لاحقاً به) — أيها الرجل الطيب ، تذكّرْ برغم ذلك مَنْ تحمل على ظهر سفينتك

الملاحظ (مخادعاً) — ليس أحدٌ أُحبه أكثر من نفسي . إنك مشيرٌ ، فاذا استطعت ان ترغم هذه العناصر على السكوت وان تعمل على سلام الحاضر فلن نتناول حبلاً آخر . استعملْ سلطتك ، فاذا لم تستطعْ فمليك أن تُسديَ الشكر لأنك عشتَ الى هذا المدى ، وأعدَّ نفسك في قمرتك لمصيبة الساعة إذا ما وقعت . — (مخاطباً الملاحين) ببشاشة يا قلوبي الطيبة (ثم مندفعاً وسط جماعة الحاشية) : أقول لكم تخلّوا عن طريقنا (يندفع في طريقه) .

جنزالو — بي راحةٌ عظيمةٌ من هذا الرجل[2] ، ولا أرى على وجهه أمارة الغرق بل ان مسحته تُشعر بالمشنقة[3] . إثبتْ أيها القدر الطيب على شنقه : إجعلْ حبْل قِسْمَتهِ مَرْسَتَنا ، فان حبلَنا قليلُ الجدْوى ، أمَّا إذا لم يكن قد وُلِدَ ليشنقَ فان حالتنا شقيّةٌ !

(يذهب الاعيان الى قمراتهم ، ويعود الملاحظ صائحاً بأوامره الى البحارة)

الملاحظ — خفّضوا الشراع الاعلى ! فَوْراً ! أوْطأ ، أوطأ ! دعوها تجرّب الشراع الرئيسي . (يسمع صياح من القمرات) . الوباء على هذا الصياح ! إنهم أعلى صوتاً من الجو[4] أو من ندائنا .

(يعود سيباستيان وأنطونيو وجنزالو)

الملاحظ — أرجعتم ثانياً ؟ لماذا أنتم هنا ؟ أنسلّم ونغرق . ألديكم نزعة الى الغرق ؟

سيباستيان — الجُدَرِيُّ على رقبتك أيها الكلب النابح الكافر الشّرِس !

---

(١) هذا الخطاب موجه الى ألونسو وجنزالو والى غيرهما من الركاب الذين يبدون عند حرج الموقف ريثما يقون بل يعطلون البحارة بأسئلتهم وتوسلاتهم (٢) أي أني مطمئن اليه! (٣) اشارة الى المثل القديم : « من يولد لكي يشنق لن يناله الغرق » (٤) يقصد الريح والرعد : اي العاصفة.

الملاحظ — لتعملْ إذنْ .

أنطونيو — إخسأ أيها الكلب ! إخسأ أيّها السّفيه النّابح ! نحن أقلُّ خوفاً من الغَرَقِ عنك .

جنزالو — إنيّ ضمينُه أن لا يغرق ، ولو انّ السفينة ليست أقوى من قشرة جوزة !

الملاحظ (ماراً بهم) — وجّهوها الى الريح [١] ، الى الريح ! هيّئوا الشراعين [٢] ! الى [٣] عرض البحر ثانياً . وجّهوها هناك .

(يدنو صخب الامواج الكاسرة ويبدو البحارة مبللين تعسين وهم يكافحون متقهقرين على سطح المركب)

البَحّارة — كلُّ شيء فُقِد ! الى الصلوات ! الى الصلوات ! كلُّ شيء فُقِد !

الملاحظ — ماذا ؟ أيجب أن تبردَ افواهُنا ؟ [٤]

جنزالو — الملك والأمير في صلاتهما ! دعونا نساعدهم ، فحالنا مثل حالهم .

سيباستيان — إنيّ نافدُ الصّبر [٥].

أنطونيو (متميزاً غيظاً) — إنما نحن نُخَادَع في ارواحنا بسكّيرين [٦] : هذا الوَغْد الواسع الفم — (مخاطباً ملاحظ السفينة) — بودي لو رقدت غريقاً في عشر مرات من المدّ والجزر !

جنزالو — سوف يُشْنق بعد ، ولو حلفتْ كلُّ قطرةٍ من الماء ضدّ ذلك وتفتّحتْ لتبتلعه !

(تصطدم السفينة بالصخور ، وتعلو الضوضاء والارتباك أصوات عديدة صائحة في فزع)

أصوات — رحمة بنا ! — إننا نتصدّع [٧] ، إننا نتصدّع ! — وداعاً يا زوجتي ويا أولادي ! — وداعاً يا أخي ! — إنّنا نتصدّع ، إنّنا نتصدّع ، إنّنا نتصدّع !

أنطونيو — دعونا نهوي [٨] جميعاً مع الملك .

سيباستيان — دعونا نودعه (يذهبون الى داخل السفينة).

جنزالو — (متعلقاً بأمراس السفينة) — الآن بودي لو استبدل ألف فُرلنجٍ من البحر بإيكر [٩]

---

(١) يقابل ذلك في لغة شكسبير "Lay her a-hold" (٢) اي الشراع الامامي (fore-sail) والشراع الرئيسي (main-sail) (٣) اي سيروا السفينة الى عرض البحر ثانياً.
(٤) يعني : ألا مفر من الغرق فتنا لنا برودة الموت ؟ (٥) يعني لا صبر لي على الصلاة .
(٦) يعني : ما كان من موجب لفقد ارواحنا لولا هؤلاء السكارى. (٧) أي اننا نغرق (٨) نغرق.
(٩) الفرلنج مقياس طولي = ١/٨ ميل أو ٢٢٠ ياردة ، والايكر مقياس لسطح الارض أصغر من فدان.



الهرب من السفينة

(من نقش جورج رومني)



ميراندا

كما مثّلتها الليدي بنسن (Lady Benson)

ميراندا — « آه ، لقد عانيتُ مع اولئك الذين رأيتُهم يعانون » .

« العاصفة » صفحة ٩



العاصفة

من ارض قاحلة ، أو مَرْجٍ طويل، او رَتَمٍ أسمر [١]،أو بأي شيء . لِتَتحقَّقْ الأقدارُ التي فوقنا ! ولكن كم بودّي أن أموت ميتة جافة [٢] .

(يقفز كثيرون من فوق سطح السفينة طلباً للنجاة في خلال الهرج والمرج والذعر. وتشتعل كرات النار ذاهبة آتية حول المركب . وتتحطم موجة عظيمة على سطح السفينة فتميل على جانبها وتظهر فجأة زوبعة من الضباب فتحجبها عن الابصار) .

المنظر الثاني

(الجزيرة : امام خلوة بروسبيرو النافذة الى مرج عال يطل على البحر وقد حفتها اشجار الليم (٣) . وترى في ظلها اريكة سندبانية غريبة القطع جالسة عليها ميراندا . وترفع الستارة المحجبة مدخل المغارة فيرى بروسبيرو في حلته السحرية — وهي عبارة عن جلباب طويل من المخمل الاسود المعلم بابتداعات غريبة . وتشاهد ميراندا ذاهبة اليه مسرعة وهي في كرب عظيم) .

ميراندا — إذا كنتَ بفنّك يا والدي الأعزّ قد وضعتَ هذه المياهَ الجامحةَ في هذا الصّخب فهدّئها . فالسّماء تبدو ممطرةً قاراً منتناً ، حينما البَحْرُ معتلياً الى صدغ السّماء [٤] يطلق النار منها (تضغط يديها ببعضهما) . آه ، لقد عانيت مع أولئك الذين رأيتُهم يعانون . تلك سفينة جريئة — حاملة بلا شكّ أحدَ النبلاء داخلها — تحطّمتْ جميعُها تِشاراً . آه ، لقد قرع الصّياحُ صميمَ قلبي ، وهلك أولئك المساكين . لو كنتُ أحدَ آلهة القوّة لكنتُ جعلت البحرَ يغور في الارض قبل التهامه هكذا تلك السّفينة النّبيلةَ مع مَنْ حَمَلَتْ من الأنفس .

بروسبيرو — تمالكي نفسك : لا فزعَ بعد هذا : بلّغي قلبك الرحيمَ أنّه لم يَحدثْ ضَررٌ .

ميراندا — (محجبة وجهها بيديها) آه ، وَيْلٌ لليوم !

بروسبيرو — لا ضرر . لم أفعل شيئاً الاّ رعايةً لك ، لك ياعزيزتي ، لك يا ابنتي الجاهلة مَن أنتِ ، غيرَ عالمةٍ بَعْدُ مَنْ أكون ، ولا عارفة أني أفضلُ من بروسبيرو سيدِ الكهف الحقير (ترفع بصرها اليه) ووالدك الفقير كذلك .

ميراندا — لم تَطرقْ خواطري الرّغبةُ في زيادة المعرفة .

---

(١) رتم أسمر : brown furze — نبات شائك بذره كالعدس (٢) ميتة جافة : أي على الارض لا على البحر — وامثال هذا التعبير الشعري كثيرة في كتابة شكسبير ، وقد حرصنا على اثباتها (٣) lime trees . (٤) أي مناطحها .

بروسبيرو — هذا وقتٌ تنبغي عليَّ فيه زيادةُ إخبارِكِ. أعطيني معونتَكِ وارفعي عنّي حلتي السّحرية ، هكذا :

(يخلع بمعاونتها حلته ويضعها على المقعد او الاريكة)

(مخاطباً حلته) إلبثي هناكَ يافنيّ (ثم مخاطباً ابنته) إمْسَحِي دموعَ عينَيْكِ ، ولْتَنْعَمِي.
إنَّ مَشْهَدَ بقايا السّفينة المروّع الذي لَمَس الصميمَ من فضيلة الحنوّ في نفسك قد أمرتُ أنا بهيئته بأمانٍ بفضلِ تَبَصُّرٍ فنيّ بحيث لم يُفْقَدْ انسانٌ ، بل حتى لم تُفقدْ شعرةٌ من احدٍ ممن سمعتِهم يولولون على السفينة التي غرقتْ . إجلسي، إذْ ينبغي أن تعلمي الآن أكثر عن ذي قبل (يجلسان معاً).

ميراندا — كثيراً ما بدأتَ تخبرني مَنْ أنا ، ثم وقفت وتركتني لحب الاستطلاع بدون جَدْوى ، خاتماً قولك « بِتَمهَّلي : لم يَحِنْ بَعْدُ » .

بروسبيرو — لقد أزفتْ الساعةُ الآن ، ونفسُ هذه اللحظة تأمركِ أن تفتحي أذنَكِ ، فأطيعي وكوني متيقّظة. ألا تذكرين وقتاً قبل مجيئنا الى هذا الكهف ؟ لا أظنك قادرةً على هذا الذكر ، لانَكِ حينئذٍ لم تشبّي عن طوق ثلاث سنين.

ميراندا — أكيداً يا سيدي أستطيع ان أذكر .

بروسبيرو — بأي شيء ؟ بأيّ مسكن آخرٍ ، أو بأيّ شخصٍ ؟ أذكري لي أيّ شيء مِنْ خيالٍ بقي في ذاكرتك .

ميراندا (مترددة) إنّه بعيدٌ جداً ، وما تَضْمَنُه ذِكْرَايَ أقربُ الى الحُلم منه الى التّحقيق . . . . ألم يكنْ لي أربعُ أو خمس نساء[1] يُعْنين بي ؟



بروسبيرو — كنتِ تملكين هذا وأكثر منه يا ميراندا. ولكنْ كيف أنَّ هذا يَظلُّ حياً في ذهنك ؟ ماذا ترين خلافه في وَهْدة الزّمن الماضي المظلم ؟ إذا كنتِ تذكرين ما قَبْلَ مجيئنا هنا ، فلعلك ذاكرةٌ على أيّ حالٍ كيف جئتِ الى هنا.

ميراندا — ولكنَّ ذلك ما لا أذكر.

بروسبيرو — منذ اثنى عشر عاماً مضتْ ، ياميراندا ، منذ اثنى عشر عاماً ، كان والدك دُوقَ ميلان واميراً ذا بأسٍ.

ميراندا — سيّدي ، ألستَ أنتِ والدي ؟

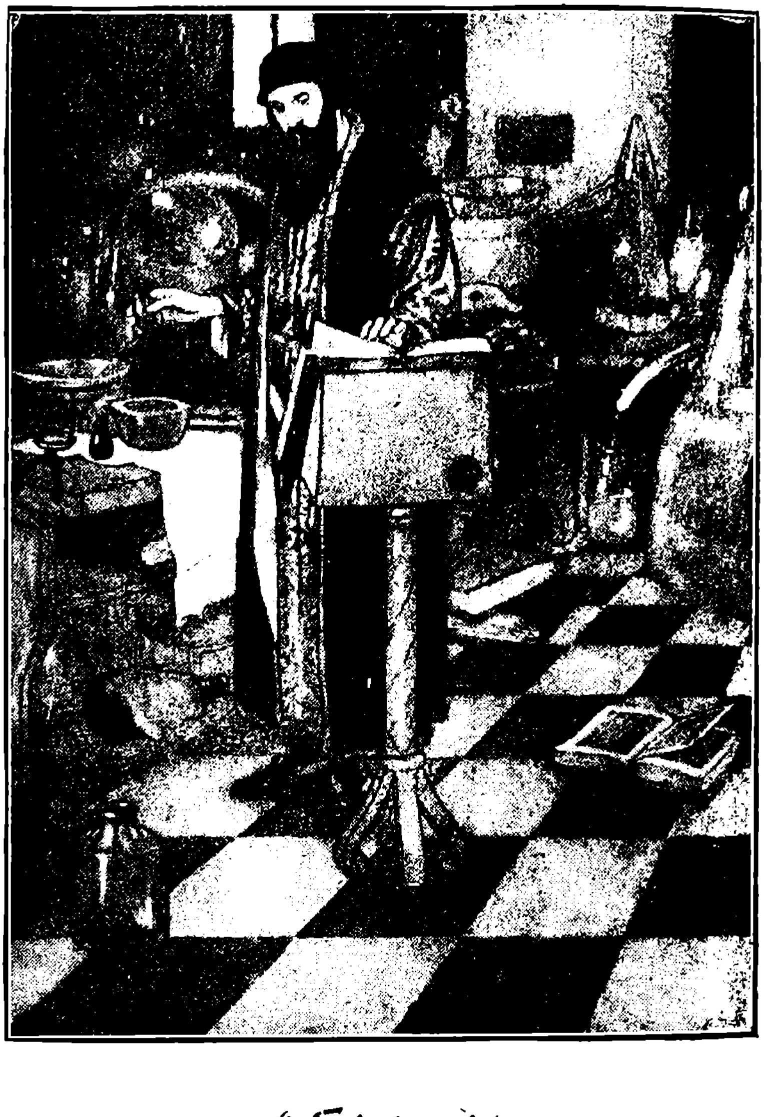
بروسبيرو — كانت أمُّكِ قطعةً من الفضيلة[2] ، وقد قالت

برسبيرو
(في زي دوق ميلان)

(١) تقصد وصيفات (٢) يريد مثالا للفضيلة.



بروسپيرو وميراندا
(يسائلها عما تذكره من ماضيها البعيد)



بروسبرو وسحره

« وصرت تدريجياً غريباً عن امارتي واجداً كلَّ لذتي في دراسة السّحر والفنون السرية »

إنكِ ابنتي. ووالدك كان دوق ميلان، وأنتِ وارثته الوحيدة لم تكوني أقلّ من أميرة.

ميراندا — يا للسماء! أيُّ شرٍّ نلنا[١] حتى برحنا هناك؟ أم هي البركة أننا انتقلنا[٢]؟

بروسبيرو — كلاهما، كلاهما، يا ابنتي. فبالمكيدة — كما تقولين يا ابنتي — نُفينا من هناك، ولكن بالعناية بُلّغنا هذا المكان.

ميراندا — آه، إن قلبيَ يَدْمي[٣] لذكر الحزن والعناء اللذين ذكّرتُكَ بهما ولم أكن أعرفهما. فأرجوك أن تخبرني يا والدي.

بروسبيرو — كان سبب ذلك أخي وعمّك المسمّى أنطونيو — وأدعوكِ أن تلاحظي كيف أنّ أخاً يمكن أن يكون غدّاراً الى هذه الدرجة! وهو الذي بعدكِ أحببتُ من الدنيا، وفوّضتُ اليه إدارةَ امارتي التي كانت في ذلك الوقت في طليعة الامارات، وكان بروسبيرو الدوق الأوّل، وكان على درجةٍ من الشهرة بعزّة النفس وبما عُنيَ به من الفنون الحرة[٤] بحيث كان منقطعَ النظير. تلك كانت كلَّ دراستي[٥]، تاركاً الحكومة لأخي. وصرتُ تدريجيًّا غريباً عن امارتي، واجداً كلَّ لذتي في دراسة السحر والفنون السرية. (تنظر ميراندا تجاه البحر) كان عمك الخائن — هل أنت متتبعةٌ ما أقول؟

ميراندا (منتبهة — بكل انتباه يا سيدي.

بروسبيرو — لما عرف كيف يجيب المطالبَ وكيف يرفضها، ومَنْ ذا يقدّم، ومن ذا يغلّ بسبب طموحه البالغ، أعاد خلقَ مَنْ كانوا رجالي، أو بدّلهم، أو شكّلهم من جديد، بفضل حيازته لمفتاح الموظّف والوظيفة. وهكذا أعدَّ جميعَ القلوب في الامارة للنغمة التي تشوق اذنه، بحيث صار الآن ذلك اللبلابَ الذي غطى جزعَ إمارتي وامتصّ منه نضرتي. أنتِ غيرُ مصغيةٍ اليَّ.

ميراندا — إنّي مصغيةٌ يا سيدي الكريم.

بروسبيرو — أرجوكِ ان تتبّعيني.... فبتركي هكذا الغاياتِ الدنيوية متوجّهاً بكلّيتي الى العزلةِ والى تهذيبِ عقلي بما أرْبَى قدْراً عندي على التقديرِ العامِ، وذلك بسبب تأثير هذه العزلة، استثرتُ في نفس أخي الخاتل طبيعةً شريرة. وكانت ثقتي — مثل الأب البار — مولّدةً من أخي غدْراً مضادًّا في جسامته لمبلغ ثقتي الخالصة، التي كانت بغير حصر، وكانت تعويلا بغير حدٍّ. فلما سُوِّدَ هكذا —

(١) تريد أية جريمة أصابتنا (٢) أم من خيرنا أننا هاجرنا (٣) ينفطر (٤) يريد عوامل الثقافة كالاديبات والموسيقى والنقش (٥) يريد كل شغلي. والمقصود بالامارة الدوقية.

وليس ذلك بما انتجه دخلي فقط ، بل وبما يمكن ان تبتزّه سلطتي عداهُ — كان مثل مَنْ يعتقد حقّاً ، مِنْ تكرار روايته، ما جعل ذاكرته به أثيمة ، حينما صدّق كذبَ نفسِه ، فاعتقد فعلاً انه الدّوقُ بعينه [١]. كان ذلك من جراء النيابةِ عنّي ، ومن انفاذ مظاهرِ الواجبات الملكية ، مع ما يصحب ذلك من الحقوق ، ومن أجل ذلك كان نموُّ طموحهِ . . . أأنتِ مصغيةٌ ؟

ميراندا — إنّ روايتك يا سيدي تَشْفي من الصّمم .

پروسپيرو — ولكيْ لا يبْقى حجابٌ ما بين الدور الذي لعبه والشخص الذي مثّل الدّورَ لأجله ، صمَّم على أن يكون دوقَ ميلان . وأمّا عنّي — انا الرجل المسكين — فانّ مكتبتي كانت دُوقيّةً رحبةً كافيةً لي . فحسبني حينئذٍ غيرَ كفء لشؤون الملك الدنيوية [٢]، وكان على درجةٍ من الظمأ الى السلطة بحيث تآمر مع ملك ناپولي، عارضاً لجزاء لمعاونته إيّاه أن يدفع اليه جزيةً سنويةً، وأن يُقدّم اليه الطاعةَ ، وأن يخضع تاجَ إمارته الى تاج الملك، وهكذا يميل بالامارة التي ما خنعت من قبل — أسفاً يا ميلان المسكينة — الى غاية الخنوع الخسيس .

ميراندا (متأثرة ساخطة) — أيّتها السموات !

پروسپيرو — تأمّلي أحواله وما حدث، ثم خبريني هل يمكن أن يكون هذا أخاً.

ميراندا (متألمة) — إني أرتكب خطيئةً إذا لم أفكر تفكيراً نبيلاً في جدّتي ، فربما حملت أرحامٌ صالحةٌ أولاداً فاسدين.

پروسپيرو — وأما عن صفقته : فانّ مَلِكَ ناپولي — الذي كان عدوّاً لدوداً لي — أصغى الى ما عرضه أخي عليه ، وقبلَ — لقاء الجزية (ولا ادري كم هي) ولقاء الطاعة وغير ذلك من الفوائد — أن يخلي عاجلاً الدُّوقيةَ منيّ بتاتاً ، وأن يمنح أخي ميلان الجميلة ويخلع عليه جميعَ المعالي . وبناء على ذلك جُنّد جيشٌ غادرٌ ، وفي ليلة شاءها القدرُ فتح أنطونيو أبوابَ ميلانَ ، وفي سكون الليل هرع عُمّاله المختارون بنا — أنا وأنت التي كنت تبكين.

ميراندا (مروعة حزينة) — أسفاً ، يا للرّحمة ! إنّي وإنْ كنتُ لا أذكر كيف بكيت حينئذٍ سأرجّع البكاء ثانياً . إنّه لإلماعٌ يعصر عينيّ بكاءً .

پروسپيرو — إصْغي فترةً أخرى ، وبعد ذلك سأبلغ بك ما يشغلنا الآن ، فلولاه

---

(١) يعني أنه بتكرار كذبه صار يعتقد هذا الكذب حقاً ، وهكذا جعل ذاكرته آثمة بتصديق كذب نفسه حتى تصور فعلا انه الدوق بعينه ! (٢) يريد العملية .

لكانت هذه القصةُ وَقِحةً [١].

ميراندا — لماذا لم يقتلونا في تلك السّاعة ؟

روسپيرو — أحسنتِ في سؤالك يا بُنيَّتي ، فان قصّتي تستثير ذاك السؤال. ياعزيزتي، إنهم لن يجرؤوا على ذلك بسبب المحبة الغالية التي حملها شعبي لي ، ولا على وَسْمِ عملهم بالدم، ولكنّهم بألوان أصفَى نقشوا غاياتهم الشنيعة . وبالاختصار أسرعوا بنا الى ظهر مركب ، وحملونا بضعة فراسخ [٢] في عرض البحر ، حيث أعدّوا رِمّةَ راقودٍ [٣] ، بلا حبال ولا سارية ولا شراع ولا صارٍ ، حتى أنّ ذات الفيران بغريزتها هجرته،وثمّةَ ألقَونا لنبكيَ الى البحر الذي كان يزمجر لنا ، ولنتنهّدَ الى الرياح التي كانت شفقتُها في استجابتها لتنهدنا مودّةً مؤذيةً .

ميراندا (متأثرة متألمة) — أسفاً . أيّة مشقةٍ كنتُ لكَ حينئذ !

روسپيرو — كلاّ ، بل كُنتِ مَلَكاً حفظني . لقد كنتِ تبسمين — مُشْرَّبَةً بعزْمٍ سماويٍّ — حينما فرشتُ البحرَ بدموعي المالحة المعصورة تحت عِبْئي المرهِق، فرفعتِ في نفسي شجاعةً باقيةً للثبات ازاء الحوادث .

ميراندا — وكيف بلغنا الشاطيء ؟

روسپيرو — بالقدرة الالهية كان لدينا بعضُ الغذاء وبعضُ الماء العذب من نبيلٍ ناپوليّ يُدعَى جُنزَالو، عطفاً منه علينا حينما اختِير رئيساً لتنفيذ هذه الفِعْلة ، كما أعطانا حُلَلاً ثمينةً وأنسجةً كَتّانيّةً ، وأمتعةً ولوازمَ كانت عظيمةَ الفائدة لنا بعد ، كذلك بدافع رأفته ولعلمه أنّي أعشق كتبي أمدّني من خزانة كتبي الخاصة بمجلّدات أقدّرها فوق دوقيّتي .

ميراندا — كم بودّي لو رأيتُ ذلك الرجل مرّةً !

روسپيرو — والآن أنهضُ [٤] (يلبس حلته السحرية حينما تقوم ميراندا ظانة منه انه انتهى) . إجلسي هادئة واسمعي آخر أحزاننا البحريّة.[٥] هنا في هذه الجزيرة حلَلْنا ، وهنا كنتُ أنا استاذَ مدرستكِ الذي أفادكِ اكثر مما يمكن أن

---

(١) يريد انه بغير تناول موقفها الحالي من هذه القصة يكون ما سرده من ماضيها لا موجب له ولا معنى

(٢) الفرسخ (league) يساوي ثلاثة أميال . (٣) a rotten carcass of a butt هذا هو تعبير شكسبير الوصفي لذلك البرميل القديم التالف

(٤) يريد جاء دور انتصاري ، وهو تعبير التبس على ميراندا نفسها ، حاسبة انه فرغ من روايته فتقوم متابعة اياه، ولكنه يطلب اليها أن تجلس وتسمع بقية حكايته . وهذا ما يستخلص من سياق الرواية في ضوء الشروح الدقيقة لأعلام الشكسبيريين.

(٥) أي ما قاسياه من البحر .

تستفيده أميراتٌ —لهن وقتٌ أوفَى لساعات اللهو—من معلمين ليسوا على مثال عنايتي بك .

ميراندا (مقدرة لجميله) —شكرتك السماوات من أجل ذلك . والآن ارجوك يا سيدي أن تخبرني عن حجتك في إثارة هذه العاصفة البحرية ، فانَّ هذا السؤال ما زال ينبض في ذهني ؟

بروسپيرو —إعلمي إذنْ الى هذا الحدّ : أنَّ القدرَ الكريمَ بسبب حادثةٍ غريبةٍ جداً، هيّأ يا سيدتي العزيزة إحضارَ اعدائي الى هذا الشاطئ . وانّي بسبب عرفاني لحوادث المستقبل أجد أنَّ أوْجَ مجدي مترتبٌ على نجمٍ مباركٍ اذا لم أنشدْ نفوذه الآن وأغفلته فانَّ حظوظي سوف تتدلّى الى الأبد . هنا كفّي عن أسئلةٍ أخرى .

(يبدأ برقية ميراندا لتنام)

بروسپيرو— أنتِ مائلةٌ الى النوم، هذا خمولٌ حميدٌ فأطيعيه : إني أعرف انك لاتستطيعين غير ذلك .

(تنام ميراندا)

تعالَ قريباً يا خادم ، تعالَ . انّي على استعدادِ الآن . اقتربْ يا آرْيل، تعالَ .

(يظهر آريل)

آرْيل —كلُّ التحيات اليكَ أيّها السيّد العظيم ! سلامٌ أيها السيّد الخطير! إنّي قدمتُ لأُجيبَ أشهى رغباتك سواء كانت لأطير ، أو لأسبحَ ، أو لأغوصَ في النار، أو لأركبَ على السُّحب المتجعّدة ، فانَّ آرْيل ومواهبَه تحت أمرك القويّ الواجب .

بروسپيرو —هل أنفذتَ تماماً أيها الطيفُ إحداثَ العاصفةِ التي أمرتُكَ بها ؟

آرْيل — بكلّ دقةٍ . لقد نزلتُ بسفينة الملك ، فكنتُ آناً على رأسها ، وآناً على وسطها، على ظهرها ، في كلّ قمرةٍ، فأشعلتُ الدّهشةَ . واحياناً كنتُ أنقسم فأشتعل في أماكن عديدة : فعلى الصّاري الأعلى وعلى قرايا الاشرعة [١] وعلى مقدم السفينة كنت أشتعل متفرقاً جليّاً ، ثم كانت اجزائي تلتقي وتتحد . وما كانت بروقُ جوپيتر المؤذنة بقصف الرّعد المروّع بأمثل ولا بأروع للبصر منّي . وكانت النّارُ وقصفُها الكبريتي الراعد كأنها تحصر نفسَ (نبتون)[٢] العظيم

(١) قرايا الاشرعة = yards مفردها قرية) ، والقَرِيَّة : عود الشراع الذي يجعل في عرضه من اعلاه (٢) نبتون : اله البحر .



آرْيِل

(تصوير تمثيلي بديع لهذا الطيف السّحري)

البطش وتجعل أمواجه الجريئة تضطرب . نعم ، كان رمحه الرهيب الثلاثي الشوكات [١] يرتج .

بروسبرو — يا خادمي الروحي الشجاع ! من ذا كان ثابت الجأش ، راسخاً ، الى حد أن ذلك الهياج لم يصب عقله ؟

آرِيل — لم يوجد فرد الا وشعر بحمى الجنون ومثل بعض حيل القنوط . وجميعهم ما عدا البحارة وثب الى المياه الثائرة هاجراً السفينة . وحينئذ كنت شعلة نار ، فاذا بفرديناند ابن الملك وشعره واقف — لا كالشعر بل كالقصب — أول واثب الى الماء صائحاً : « إن جهنم خالية ، وجميع الشياطين هنا » !

بروسبرو — ذلك خادمي الروحي الطيب . ولكن ألم يكن ذلك قرب الشاطئ ؟

آرِيل — بالقرب منه يا سيدي .

بروسبرو — ولكن هل هم جميعاً آمنون يا آريل ؟

آرِيل — لم تهلك ولا شعرة ، ولم تكن على أرديتهم المتحملة [٢] أية لطخة ، بل كانت أبهج من ذي قبل . وكما أمرتني لقد شتتهم حول الجزيرة في زمر متفرقة . وأنزلت ابن الملك وحده تاركه يتبرد من الهواء بتنهدات في ركن غريب [٣] من الجزيرة ، جالساً ويداه في هذه العقدة الكئيبة .

(يطوي ذراعيه على بعضهما)

بروسبرو — قل لي ماذا صنعت بسفينة الملك وبالبحارة وبقية الاسطول [٤] .

آرِيل — سفينة الملك في أمان بالميناء — في ذلك المخبأ العميق ، حيث أهبتني مرة عند منتصف الليل لأحضر الندى من جزر برمودا التي ما تزال حانقة [٥] ، فهناك خبئت . وأما البحارة فمن إنهاك اعبائهم الثقيلة ، وتحت تأثير رقية — مضافة الى عناء جهدهم — قد تركتهم نائمين .



فردينانر

(جالساً وحيداً في ركن منعزل من الجزيرة)

---

(١) هو الطريدنت trident رمز قوة نبتون (٢) يعني التي قاومت نزعة البلل لتلطيخها .
(٣) أي في ركن غير مطروق (٤) يريد السفن التي صاحبت سفينة الملك (٥) اشارة الى ما اشتهرت به هذه الجزر من الرطوبة ومن هياج البحر حولها .

وأمّا عن بقية الاسطول الذي شتّتُّـهُ فقد اجتمعتْ وَحداتهُ ثانيةً ، وهي بالبحر الابيض المتوسط ، متّجهةً حزينةً نحو نابولي ، وبفكرة أنها رأتْ سفينةَ الملك تتحطم وشخصَهُ العظيمَ يهلك .

پروسپيرو — آرْيل ، لقد أنجزتَ مأموريتك تماماً ، ولكنْ ما نزال بعضُ العمل . فما هو الوقت من اليوم ؟

آرْيل — بعد منتصف اليوم . (١)

پروسپيرو — على الاقلّ بساعتين ، فالوقت بين السادسة ، وينبغي الآن أن نُنفقَهُ معاً بغاية الحرص .

آرْيل — أهناك كَدٌّ آخر بَعد ؟(٢) من حيث انك تسبب لي عناءً ، فَلْتَـدعْني أذكرك بما كنتَ وعدتَ به ولم يُنْجَزْ الآن .

پروسپيرو — (حانقاً) — كيف الآن ؟ أمهمومٌ ؟ ما ذلك الذي لا تستطيع سؤالَه ؟

آريل (جريئاً) — حرّيتي .

پروسپيرو — قبل أن ينقضي الوقت(٣) ؟ كفى !

آريل — أتضرَّع اليك . تذكَّرْ أني قمتُ لك بخدمةٍ قيّمةٍ ، ولم أقل لك كذباً ، ولم أرتكبْ أخطاء ، وخدمتُـكَ بغير شكوى أو تذمُّر : وأنت قد وعدتَ بأن تتجاوزَ لي عن عام .

پروسپيرو — أنسيتَ أنتَ من أيّ عذاب قد حرَّرتُـكَ ؟

آريل — كلاّ .

پروسپيرو — بل أنتَ نسيتَ ، وأنت تعدُّ من المشقّة أن تطأ عقيقَ البحر(٤) العميق ، وأن تجري على ريح الشمال الحادة ، وأن تؤدّي لي خدمةً في عروق الارض(٥) حينما يجمّدها الجليد .

آريل — كلاّ ياسيدي .

پروسپيرو — أنت تكذب أيها الشيء الخبيث ! أنسيتَ الساحرة الدّنسة سيكوراكس التي انحنتْ كالطّوق من الهَرَمِ والحسدِ ؟ أأنت نسيتَها ؟

آريل — كلاّ ياسيدي .

پروسپيرو — بل أنتَ نسيتَ . أين وُلِدَتْ هي ؟ تكلّم ، أخبرني .

---

(١) أي ان اكثر من نصف اليوم قد انقضى. (٢) أي هل من عمل جديد (٣) أي قبل الأوان (٤) يقابل ذلك في الاصل : 'tread the ooze of the salt deep' (٥) أي متغلغلا فيها.



كليباتره

(كما مثّله السير فرانك ر. بنسن)

آرييل — في الجزائر ، ياسيدي .

بروسبيرو — أوه ، أكذا كانت ؟ ينبغي عليَّ مرة في كل شهر أن أردِّد سيرتك الماضية التي نسيتَها . إنَّ تلك الساحرة الملعونة سيكوراكس التي نُفيتْ من الجزائر — كما تعلم أنت — من أجل شرور متعدِّدة وأعمال سحرية شنيعة لأي سمع آدمي ، لم تُجازَ بالموت بفضل عملٍ واحدٍ فعلتْهُ (١) . أليس هذا صدقاً ؟

آرييل — بَلى ، ياسيِّدي .



الجيزبون أم كاليبان

بروسبيرو — هذه الجيزبون الغائرةُ العينين أُحْضِرَتْ هنا مع طفلٍ (٢) ، وهنا تركها البحَّارة . وأنت ياعبدي — كما تدعو نفسك الآن — كنتَ حينئذٍ خادمَها ، كنت طيفاً رقيقاً جداً لا تحتمل تنفيذَ أوامرَها الغليظة الفظيعة ، رافضاً مشيئاتها العظيمة ، فانها حبستْكَ بمعونة خدمها (٣) الاقوياء — حين هياجها البالغ — في شجرةٍ صنوبرٍ منشقَّة . وفي ذلك الشقِّ بقيتَ متعذِّباً سجيناً اثنى عشر عاماً ، وفي اثناء ذلك الزمن ماتت وتركتك هناك حيث كنتَ تنفث أنينَكَ سريعاً متوالياً كما تتوالى ضَرَباتُ عجَل (٤) الطاحونة المائية . حينئذٍ كانت هذه الجزيرةُ خاليةً بتاتاً من السكان ، وكان الساكنُ الوحيدُ ابنها الذي ولدتْه هنا ، وهو شيء كالجَرْوِ المشوَّهِ لم يُشرَّفْ بصورةٍ آدميةٍ .

آرييل — نعم ، ذلك كليبان ابنها .



(كاليبان : يعدّ الطعام لسيده وابنته)

بروسبيرو — ايها الغبي . . . . هذا ما أقوله عنك . هو ذلك كليبان الذي أستبقيه الآن في خدمتي . أنت أعلم بأيِّ عذاب قد وجدتك فيه . لقد كانت أنَّاتك تدعو الذئاب الى العُوَاء وتنفذ الى صدور الدِبَبَةِ

(١) يشير الى نصيحتها الى حاكم الجزائر (حينما كان يحاصرها اسطول الملك شارلس الخامس سنة ١٥٤١م) بالمقاومة تسعة أيام أخرى وحينئذ تنقذ المدينة ، فتحققت نبوءتها (٢) هذا التعبير باعتبار ما سيكون لانها كانت حينئذ حاملا كما يستنتج من الرواية (٣) يعني الابالسة . (٤) أي دواليبها .

الدّائمة السّخط. لقد كان تعذيباً يُلـقـى على من يُقـضـى عليه، وما كان لسيكوراكس أن تنقضـه ، فكان فنّـي أنا — حينما قدمتُ وسمعتـكَ — الذي جعل شجرةَ الصنوبر تَنفغر، وأطـلـقـكَ منها .

آريل (ذليلاً)— أشكرك يا مولاي.

پروسپيرو — إذا تذمّرتَ أكثر فانّي سأشقّ سنديانةً ، وسوف أثبتك في جوفها المُعَقّـد حتى تقضي في عُـوائك اثنى عشر شتاءً .

آريل (نادماً) — صفحاً يا مولاي . سأكون مطيعاً للأمر ، وسوف أؤدي واجباتي الطّيفيّـة هادئاً .

پروسپيرو — إفعلْ ذلك ، وأنا أعتقك بعد يومين .

آريل (فرحاً) — ذلك مولاي النبيل ! ما الذي سأعمله ? قل لي ماذا ، ما الذي سأعمله ?

پروسپيرو — إذهبْ وتشكّـلْ بهيئة عروسة البحر ، ولا تكن عرضة لنظر سواك وسواي، بل كن خافياً لكلّ عينٍ أخرى . خذْ هذه الهيئة[1] واذهبْ ، ثم عُدْ فيها الى هنا : إذهبْ إذنْ بنشاط !

(يختفي آريل فيتجه پروسپيرو الى ميراندا)

پروسپيرو — استيقظي ، يا عزيزة قلبي ، استيقظي ! لقد نمْتِ جيداً ، استيقظي !

ميراندا — إنّ غرابة قصتك بَثّتْ النّعاسَ فيّ .

پروسپيرو — انفضي ذلك. تعالي . سنزور عبدي كليبان الذي لن يردّ علينا بجوابٍ طيّب.

ميراندا — إنهُ وغدٌ يا سيدي ، ولا أحب أن أُلقيَ نظري عليه .

پروسپيرو — ولكن في ظروف كهذه لا يمكننا أن نستغني عنه : إنّـه يجهّز لنا نارنا، ويجلب لنا الحَطَبَ ، ويشتغل بِخِدَمٍ نافعةٍ لنا .

ماذا ، هو ! يا عبد ! كليبان ! أنتَ يا كُدْيَة[2] أنتَ ! تكلّمْ.

كليبان (مجيباً من مغارته القريبة) — يوجد حطبٌ كافٍ في الداخل .

پروسپيرو (مخاطباً كليبان) — أقول لك أُخرجْ ! يوجدٌ عمل آخر لك . تعالَ أيها السلحفاة ! الى متى[3] ?

(يظهر آريل في شكل احدى عرائس البحر)

(١) يريد الزيّ (٢) يقابلها في الاصل كلمة *earth* بمعنى *clod* أي كديةٌ وهي الارض الصلبة الغليظة أو الصفاة الضخمة الشديدة (٣) أي الى متى ستبقى في الداخل ?



آريل

يتلقّى الاوامر من بروسبيرو

(العاصفة) صفحة ١٨

بروسبيرو (مخاطباً آريل) — طيفٌ جميلٌ! يا آريلي الرشيق. أنصتْ الى كلمة في أذنك (يسر اليه بها).

آريل — مولاي، سوف تُنجَز. (يختفي).

بروسبيرو (مخاطباً كليبان الذي لم يظهر بعد) — أيها العبد المسمومُ(١)، يا ابن الشيطان نفسه، أخرج!

(يظهر كليبان عابساً، وتراه ميراندا فتبتعد عنه)

كليبان (مهمهماً) — ليسقط عليكما الندى الخبيث كأسوأ ما فرشته أمي بريشة غراب أسحم من مستنقعٍ وبيل! لتهبَّ عليكما ريحُ الغرب الجنوبيّ حتى يَبثّر كلاً منكما.

بروسبيرو — من أجل هذا تأكّدْ بأنك الليلة ستعاني تشنّجَ عضلاتك، وغرزاً جانبيًّا حابساً أنفاسك، وأغوالاً(٢) تتمرن عليك في سعةِ الليل حيث تعمل، فتقرصك بكثافةٍ مثل كثافة تخاريب العسل(٣)، كلّ قرصة ألدغُ من لسع النحل التي صنعتها.

كليبان — لا بُدَّ من تناول غذائي. هذه الجزيرةُ مِلكي عن أمّي سيكوراكس، وأنت أخذتَها منّي. لمّا قدمتَ أولاً كنتَ تدلّلني وعُنيتَ كثيراً بي، وكنتَ تُعطيني ماءً فيه توتٌ(٤)، وكنت تعلّمني كيف أُسمّي الأنوارَ الكبرى والصغرى التي تُشعّ في النهار والليل، وعند ذلك أحْبَبْتُكَ ودللتُكَ على جميع خواصّ الجزيرة: العيون العذبة، والحُفَر المالحة، والأرض القاحلة والمُمْرِعة. فلأُلعَنْ لأدائي ذلك. لتسقطْ عليكَ كلُّ طلاسم سيكوراكس من ضفادع وخنافس ووطاويط! فانّي أمثّل كلّ رعيّتك هنا، حينما كنتُ أولاً مَلِكَ نفسي، والآن أنت تودِعني في هذا الصخر الصلد بينما أنت تحرمني بقيةَ الجزيرة.

بروسبيرو — أيها العبد الكذوب الذي تحرّكه السّياط لا الشفقة! لقد عاملتكَ (برغم انك قذارة) بعنايةٍ إنسانيةٍ، وأسكنتك في كهفي الخاص حتى حاولتَ أن تهتك شرف طفلتي(٥).

كليبان — أُوه هُوه، أُوه هُوه! يا ليته تمَّ! لقد منَعْتَني، ولولا ذلك لملأتُ هذه الجزيرة بنسل كليبان!

بروسبيرو (مشمئزاً حانقاً) — أيها العبد الكريه الذي لا يَثْبُتُ عليه أيُّ طابع من الخير

(١) أي الخبيث (٢) أغوال — *hobgoblins*، يقابلها في الاصل *urchins*.
(٣) تخاريب العسل — *honeycomb* (٤) لعله نوع من الشراب او النبيذ، كما كان يحضّر في ذلك العهد.
(٥) الاشارة الى هذه المحاولة ورد كليبان محذوفان من « طبعة الجلوب — *Globe Edition* ».

نظراً لاستعداده لكل سوء . إنّي أشرفتُ [1] عليك ، وتحمّلتُ عناءً في تعليمك النطقَ ، وعلّمتُكَ في كل ساعةٍ شيئاً أو آخر . ولمّا لم تعرفْ أيُّها الوحش مُرَادَ نفسك ، بل كنتَ تلغط كشيءٍ في منتهى البهيمية ، منحتُ أغراضَك الكلمات التي تجعلها فصيحةً . ولكنَّ جنسكَ الدنيءَ — ولو أنكَ أنتَ تعلّمتَ — كان فيه ذلك العنصرُ الذي لا يتسنّى للنفوس الصالحة أن تستقرَّ معه ، لذلك اعتُقِلتَ بحقٍّ في هذا الصّخر ، حينما كنتَ تستحق أكثر من السّجن .

كليبان (متمرداً في هيئة القرفصاء) — أنتَ علّمتني اللّغةَ ، وربحي منها هو أن أعرف كيف ألعن . ليقضِ عليك الوباءُ الأحمر لتلقيني لُغتك !

پروسپيرو (واقفاً عليه) [2] — يا بذرة الخيزَبون ، إذهبْ من هنا ! أحضرْ لنا وقوداً ، وخيرٌ لك أن تعجّلَ ، فانَّ عملاً آخر ينتظر تلبيتَك . أتهزّ كتفيْكَ أيها الخُبْثُ؟ [3] إذا أنتَ أهملتَ أو لم تعملْ برغبةٍ ما آمرُكَ به فسوف أعذّبك بتشنّجات الهرَم ، وسوف أملأ عظامَكَ كلّها بأوجاعٍ ، وسأجعلك تزأر حتى ترتعد البهائمُ عند مغارتك .

كليبان (متذللاً) — لا ، أتضرّع اليك . (متمتماً لنفسه) عليَّ أن أطيع فانَّ فنّه [4] على درجة من القوة بحيث يقدر أن يسيطر على إلهي اللعين (سيتيبوس) [5] ويجعله رقيقاً له .

پروسپيرو — اذهب ياعبد من هنا . (يذهب كليبان) .

(تسمع موسيقى ، فيسحب پروسپيرو ميراندا الى داخل الكهف ، ويعود آريل الى الظهور — غير منظور من أحد سوى پروسپيرو — وهو يلعب بموسيقاه ويغني . ويتبع آريل فردينا ند مسحوراً بموسيقاه)

أغنية آريل

تعالوا [6] الى هذه الرّمال الصّفراء ، ثم أمسكوا بأيدي بعضكم بعضاً وأظهروا الخضوع الرشيق [7] ، وتبادلوا التحية تقبيلاً حينما البحر يهدر برفق ويكفّ عن هياجه . أرقصوا بأناقة هنا وهناك ، وعليكِ أيتها الأطياف اللطيفة أن تُردّدي في نغمات متسلسلة . (الاطياف) سمعاً سمْعاً !

---

(١) أشرفت عليك : أشفقت عليك (٢) أي معاينه (٣) أو : أتهز كتفيك خبثاً (٤) فنه : يريد سحره (٥) كان معبود البتاجونيين (*Patagonians*) في الجزء الجنوبي من اميركا الجنوبية ، وهم شعب بائد تقريباً ، ولعل عبادة ذلك المعبود انتقلت الى الجزائر . (٦) يجوز استعمال صيغة التثنية بدل الجمع باعتبار أن الغناء موجه الى فردينا ند وميراندا وحدهما ، ولكن تلبية الاطياف لا تعزز هذا الشرح . (٧) أي الدلال .



بروسبيرو (مخاطباً كليان) : « اذهب يا عبد من هنا »

(عن نقش هنري فيوسيلي
عضو الاكاديمية الملكية بلندن)



فرديناند
يصغي الى الموسيقى السحرية

الاطياف المجيبة (من جهات مختلفة في وقت واحد) — بَاوْ — وَاوْ .
آرْيل — كلاب الحراسة تنبح .
الاطياف المجيبة (من جهات مختلفة في وقت واحد) — بَاوْ — وَاوْ .
آرْيل — سَمْعاً سمعاً ! إني أسمع صوت الديك العظيم المتبختر يصيح : كُوك — آ — دِيدِلْ — دُو .
فردیناند (ناظراً حوله في دهشة) — أين يمكن ان توجد هذه الموسيقى ؟ في الهواء أم في الأرض . لقد سكتتْ ، وأكيدٌ أنَّها تخدم إلهاً للجزيرة . حينما كنتُ جالساً عند الشاطئ أندب باكياً موتَ والدي الملك كانت هذه الموسيقى تتسلل بجانبي على المياه ، مهدّئةً في آن من هياجها ومن انفعالي بنغمها الحلو ، ومن ثَمّةَ تبِعتُها ، بل الأحْرىَ أنَّها اجتذبتني. ولكنها الآن غابت. لا ، لقد بدأت ثانياً.
آريل (يبتعد عن الكهف مغنياً) — على بُعد خمس قرارات في البحر يرقد والدك ، وقد تحوّلتْ عظامهُ الى مرجان ، وصارتا لؤلؤتين ما كانتا عينيه ، ولا شيءٌ منه يزول إلاَّ ويصيبه من تغيير البحر ما يُحوّله الى شيء أثمن وأبدع . وفي كلِّ ساعةٍ تدقُّ عرائسُ البحرِ جرسَ جنازته .
(الاطياف المجيبة) — دِنْج — دُنْج
آريل — سمعاً ! اني أسمعها الآن : — دِنْج — دُنْج بِلْ
فردیناند — إنّ كلمات الأغنية تذكر والدي الغريق. هذا ليس صنعَ مخلوقٍ ، وليس أيَّ صوتٍ تملكه الأرض . إني اسمعها الآن فوقي .
(يقود بروسبيرو ميراندا من الكهف بغير أن يراهما فرديناند ، اذ بيد بروسبيرو عصاه السحرية)
بروسبيرو (مخاطباً ميراندا) — إرْفَعي ستارةَ عينيكِ الهُدبيَّة وقولي ماذا تُبصرين هناك.
ميراندا (مبهوتة) — ما هذا ؟ أطيفٌ ؟ يا رَبُّ ، كيف يتطلّع حوله ! صدّقني ياسيّدي انّه ذو مَظْهَرٍ شُجاع . ولكنّه طيفٌ .
بروسبيرو — لا يابُنَيَّة ، إنّه يأكل وينام ، وله من الحواس مثل ما لنا . هذا الشهم الذي تبصرينه كان في السّفينة المحطّمة ، ولولا أنّه مصطبغٌ بعضَ الشيء بالحزن — والحزنُ سُوسُ الجمال — فلعلك كنت تَدْعِينَه حَسَنَ المنظر. لقد فقد أقرانه ، وهو شاردٌ الآن يُفتّش عنهم .
ميراندا (معجبة به) — بل لعلّي أدعوه شيئاً إلهياً ، فاني ماأرى شيئاً طبيعياً على مثل هذا النُّبل .

بروسبيرو (مخاطباً نفسه على جانب) — الأمرُ سائرٌ — على ما أرى — كما تُزجيه نفسي .
أيها الطيف ، أيها الطيف الجميل[١] سوف أحررك من أجل هذا[٢] في غضون يومين

فرديناند (وقد لحظ ميراندا) — بكلِّ تأكيدٍ هي الإلهة التي ترعاها هذه النغمات !
(مقترباً محيياً) أتوسل إليكِ ضارعاً أن تخبريني إذا كنتِ ستبقينني في هذه الجزيرة ، وألتمس منك أن ترشديني كيف يكون تصرفي هنا . ورجائي الأول — وإن يكن آخر ما أقول — هو أن أسألك أيتها الأعجوبة أأنت عذراء أم لا ؟



فرديناند

(وهو يحيي ميراندا التي حسبها إلهة الجزيرة)

ميراندا — لا أعجوبة ياسيدي ، ولكني بالتأكيد عذراء .

فرديناند (مندهشاً) — لُغتي ! ياللسماوات ! إني خير من يتكلمون هذه اللغة ، لو أني الآن حيثما يتكلمونها .

بروسبيرو (متظاهراً بالعبوسة) — كيف ؟ أخيرهم ؟ ماذا تكون الآن لو أن ملك نابولي سمعك ؟

فرديناند — أكون بالضبط كما أنا الآن ، مندهشاً لأن أسمعك تتكلم عن نابولي . إنه حقاً يسمعني ، ولأنه يسمعني تراني أبكي . أنا شخصياً أمثل نابولي التي ما كفت عن البكاء بعينيَّ منذ رأيتُ عند الجزر والدي الملكَ يغرق .

ميراندا — أسفاً ، يا للرحمة !

فرديناند — نعم ، صدقيني ، وكلُّ أعيانهِ ماتوا ، وبينهم دوق ميلان وابنه الشجاع[٣] .

بروسبيرو (محدثاً نفسه على جانب) — ان دوق ميلان وابنته الاكثر شهامة يمكنها مناقضتك لو ان الوقت الآن كان ملائماً لذلك . لقد تبادلا النظرات عند أول مشهدٍ . يا آريل اللطيف ، سأطلقكَ لأجلِ هذه الحسنة .

بروسبيرو (مخاطباً فرديناند بتقطيب وآخذه الى جانب) — كلمة أيها السيد الصالح . أخشى أنك ادعيتَ ما لا صحة له[٤] ، كلمة .

ميراندا (على جانب تراقبهما) — لماذا يتكلم والدي بهذه الخشونة ؟ إن هذا ثالثُ رجلٍ رأيته بتاتاً ، واولُ من تنهدتُ أبداً لأجله . أيتها الشفقةُ حركي والدي

---

(١) يعني آريل (٢) أي من أجل هذا النجاح (٣) يعني ابن انطونيو ، وهو دوق ميلان المتصب واخو بروسبيرو الدوق الشرعي (مما يجهله فرديناند طبعاً) . ولكن ذكر هذا الابن لا وجود له في بقية الرواية . (٤) أخشى أنك ارتكبت شططاً .

لميل في مُتَّجَهي .

فرديناند (عائداً اليها) — آه ، إذا كنتِ عذراء ولم يَخرجْ عنكِ حبُّكِ فسأجعلكِ ملكة نابولي .

پروسپرو — تمهَّلْ[١] يا سيدي ! كلمة واحدة اخرى .

(كلاهما يتجاهله)

(يخاطب نفسه على جانب) كلاهما في أسر الآخر ، ولكنّ هذا العمل السريع يجب أن أجعله صعباً لئلاّ يكون الفوزالسهل الهين مؤدّياً الى اعتبار المكافأة هيّنة[٢] .

(مخاطباً فرديناند) كلمة أخرى . (بلهجة شديدة من التأكيد) إني أطلب اليكَ أن تكون ملتفتاً إليّ . أنت هنا مغتصبٌ الاسمَ الذي لا تملكه ، ووضعتَ نَفسَكَ على هذه الجزيرة جاسوساً لتغنمها مني — أنا السيّد عليها .

فرديناند (متنبهاً له) — كلاّ ، فاني رجلٌ .

ميراندا (متجهةً الى والدها) — لا يمكن أن يُقيمَ شرٌّ في هيكلٍ مثل هذا . فاذا كانت روحُ الشرِّ لها سكنٌ جميلٌ كهذا فانّ الطيبات تحاول أن تسكنَ معها .

پروسپرو — (مخاطباً فرديناند) إتبعني . (مخاطباً ميراندا) لا تُدافعي أنت عنه ، إنه خائنٌ . (مخاطباً فرديناند) تعالَ (وهو ينحي ميراندا الى جانب) سأغلّ رقبتك وقدميْك معاً ، وسوف تَشرب ماءً من البحر ، وسيكون غذاؤكَ محارَ الجداول والجذورَ الذابلة وقشورَ جوز البلّوط حيث تَرجَّح . (برفع عصاه) إتبعني .

فرديناند (متقهقراً) — كلاّ ، سأقاوم هذا الإضمارَ حتى يكون خصمي أقوى مني .

(يستل سيفه ، ولكنه لا يستطيع أن يتحرك من تأثير السحر)

ميراندا — آه ، يا والدي العزيز . لا تجازفْ بمعاندته طويلاً ، فانه رقيقٌ وليس جباناً .

پروسپرو (مخاطباً ميراندا في صورة غضب متصنع) — ماذا ؟ أأنتِ يا من عند قَدَمي تكونين معلّمتي ؟

(متقدماً نحو فرديناند) — إرفعْ سيفَكَ أيها الخائن الذي يتظاهر ولكنه لا يجسر على الضَّرب[٣] ، لانّ ضميرك استولى عليه الإثمُ استيلاءً . أُخرجْ من موقفِ حراستك ، فانّي أستطيع هنا أن أجرّدك بهذه العَصَا ، (برفع عصاه) ، وأجْعَلَ سلاحَكَ يَسقط .

ميراندا (متعلقة به) — أتضرَّع اليك يا والدي .

---

(١) ترجمة Soft المستعملة بمعنى Softly ، ويجوز ان تكون بمعنى يافع غر ، والتفسير الاول أقوم
(٢) بخسة (٣) يتحداه ليظهر له عجزه .

بروسبيرو — إيّاك عنّي ! لا تتعلّقي بملابسي .

ميراندا — سيدي كُنْ رحيماً ، سوف أكون كفالته .

بروسبيرو (متخلصاً منها) — صَمْتاً ، فانّ كلمةً واحدةً أخرى ستجعلني أعنّفك إنْ لم أبغضْكِ . ماذا ! أمحاميةٌ عن محتالٍ اصَهٍ ! أنت تظنين أنهُ لا يوجد أقْرانٌ له ، وذلك لأنك لم تُشاهدي غيره وكليبان . إنّكِ فتاة حمقاء ! ليس هذا بالنسبة الى معظم الرجال سوى كليبان ، حينما هم بالنسبة اليهِ كالملائكة .

ميراندا — إنَّ عواطفي إذنْ متواضعةٌ جداً ، فليس لي مطمحٌ في رؤية رجل أحسن منه .

بروسبيرو (ملتفتاً الى فردينا ند) — هيّا . إخضعْ . إنَّ أعصابك في طفولتها ثانياً ولا توجد قوّةٌ فيها .

فرديناند (مذهولاً) — هي فعلاً كذلك . إنَّ نَخْوَتي مُقَيَّدةٌ كما لو كنتُ في حُلم . ليس فقدانُ والدي ، والضَّعفُ الذي أشعر به ، وموتُ جميع أصدقائي ، لا ولا وَعيدُ هذا الرجل الذي أُخْضِعْتُ له ، الاَّ أمراً هيناً لي لو أني أرى من سجني مرةً كلَّ يومٍ هذه الفتاة : وليستعملْ الأحرارُ جميعَ جوانب الارض الأخرى ، إذْ لديَّ فراغٌ كافٍ في مثل هذا السجن !

بروسبيرو (على حدة) — إنها ناجحةٌ [١] . (الى فردينا ند) هيَّا معي . (الى آريل) لقد أحسنتَ صنعاً ياآريل الجميل . (الى فردينا ند) إتبعْني . (الى آريل على جانب) إسمعْ ما أريد أيضاً منكَ أن تَفْعَلَهُ لي .

ميراندا (مسرعة الى فردينا ند) — كُنْ مطمئناً . إنَّ والدي ذو طبيعة أحسن ياسيدي مما يَتَجَلَّى في كلامه . إنَّ ما صدر الآن عنه غيرُ مألوفهِ .

بروسبيرو (مخاطباً آريل) — لتكنْ حرًّا كرياح الجبل ، ولكنْ عليكَ أن تنفّذ تماماً دقائقَ أوامري جميعها .

آريل (منحنياً) الى المَقْطَع [٢] .

بروسبيرو (مخاطباً ميراندا) — تعالي ، إتْبَعيني . لا تُدافعي عنه .

(يمضي فيتبعه فردينا ند وميراندا . ويقف آريل مشيعهما ببصره برهة ، ثم يختفي)

انتهى الفصل الاول

(١) يعني ما اتفق وآريل عليه من خطة لانماء الحب ما بين فردينا ند وميراندا .

(٢) يعني الى مقطع كل كلمة . وهو تعبير يماثل قولنا : « بالحرف ، أو حرفياً » .

العاصفة

للشاعر العالمي وليم شكسبير

نقلها إلى العربية

أحمد زكي أبو شادي



موضحة بطائفة من الصور الشهيرة

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم



آرييل السجين

كما تركته الساحرة سيكوراكس (ام كليبان) في شجرةٍ صنوبر منشقة حيث بقي في ذلك الشقّ يئنُّ ويتوجَّع اثنى عشر عاماً ، الى ان طوّح البحر بروسبيرو الى الجزيرة فسمع تأوّهاتهِ وخلَّصَه بفضل علومهِ السّحريةِ .



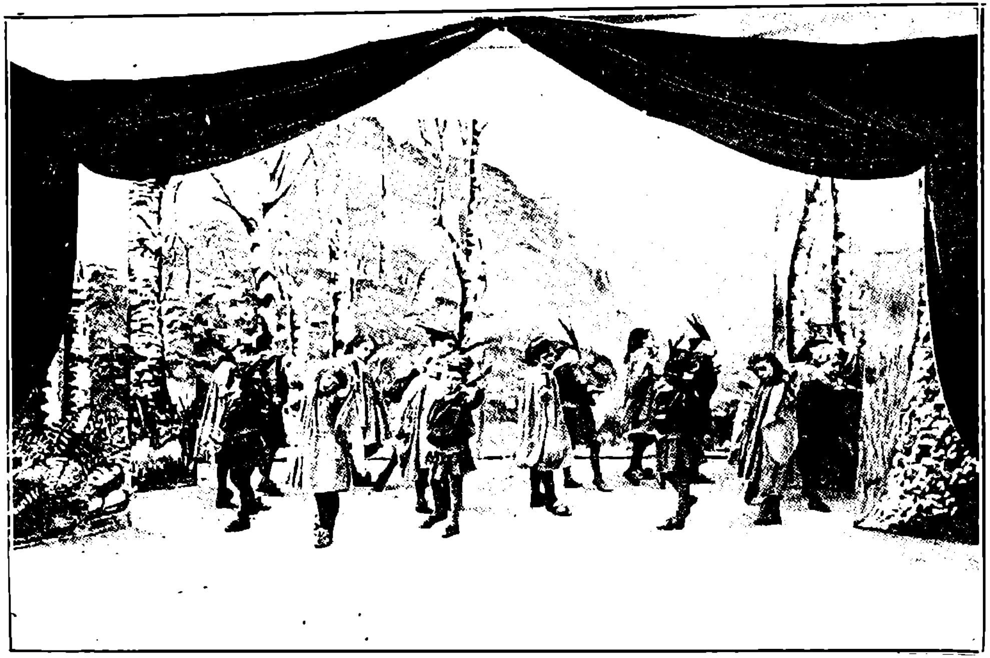
آريل في سفينة الملك

آريل — « . . . لقد نزلتُ بسفينة الملك ، فكنتُ آناً عى رأسها ، وآنا على وسطها ، على ظهرها ، في كلّ قمرةٍ ، فأشعلتُ الدهشةَ . واحياناً كنتُ انقسم فأشتعل في اماكن عديدة : فعلى الصاري الأعلى وعلى قرايا الاشرعة وعلى مقدم السفينة كنت أشتعل متفرقاً جَلِيًّا ، ثم كانت اجزائي تلتقي وتتّحد » .



فردينانر على الشاطىء

يصغى الى اغنية آريل الساحرة ، ويُشَاهَد آريل في السماء على قَوْس قزحٍ عازفاً على الهَرْب (الجنك) بينما تباعه من الاطياف تَردّ عليه .



أغنية آريل

آريل — « تعالوا الى هذه الرمال الصفراء . . . . . . »

الاطياف — « سمعاً ، سمعاً ! »



ألونسو الغريق

(تصوير لأغنية آريل التي يوهم بها فردينا ند انّ والده غريق في قاع البحر)

آريل — « على بُعْدِ خمس قرارات في البحر يرقد والدك ، وقد تحوّلت عظامُه الى مرجان ، وصارتا لؤلؤتين ما كانتا عينيه ، ولا شيء منه يزول الاّ ويصيبه من تغير البحر ما يحوّله الى شيء اثمن وابدع . وفي كل ساعه تدقّ عرائسُ البحرِ جرسَ جنازته » .

صفحة ٢٤



فردیناند فی دهشة

(يتبع آريل مبهوتاً ومفتوناً بموسيقاه السحريّة)

فرديناند — « انّ كلمات الاغنية تذكر والدي الغريق . هذا ليس صنعَ مخلوق ، وليس أيّ صوتٍ تملكه الارضُ . إني أسمعُها الآن فوقي »

(العاصفة) صفحة ٢٤

"٦"



فرديناند في أسر پروسپيرو

فرديناند (عاجزاً عن تجريد سيفه) — « إنّ نخوَتي مُقَيَّدَةٌ كما لو كنتُ في حُلمٍ » .



ميزانرا العاشقة

(تُفكّرُ ولهانةً في حبيبها الاسير)

الفصل الثاني

المنظر الاول

(يمثل هذا المنظر جزءاً آخر من الجزيرة عند حافة غابة عظيمة . ويبدو ألونسو ملك نابولي جالساً على شجرة ساقطة ووجهه مدفون بين يديه ، وقد نال منه الحزن المعظم لاعتقاده أن ابنه فرديناند غرق مع السفينة المحطمة . وقد التف به جنزالو وأدريان وفرانسكو وغيرهم من الحاشية ، وكلهم باذل على غير جدوى أقصى ما في وسعه من عزاء له على فقده ابنه . ووقف بمعزل قليل عن الباقي اخوه سباستيان وأنطونيو دوق ميلان المتصب يتكلمان معاً بصوت خافت ويتبادلان ملاحظات السخرية)

جنزالو (مخاطباً ألونسو) — أتضرَّعُ اليكَ يا سيِّدي أن تكون قريراً ، فلديك — كما لدينا جميعاً — سَبَبٌ للحبور ، إذ أنَّ نجاتنا أبعدُ كثيراً عن خسارتنا[1] . إنَّ سببَ بليَّتنا مألوفٌ ، ففي كلّ يوم تُصيبُ زوجةُ أحدِ الملاّحين ، أو بعضُ السَّفَّانين[2] وصاحبُ البضاعة مثلَ ما نُعاني من بَليَّةٍ . ولولا المُعجزةُ — أعني نجاتَنَا — لما وُجدَ الاَّ قليلون بين الملايين يتكلمون مثلنا . إذنْ عليكَ يا سيِّدي العزيز أن تَزِنَ بعقلٍ حُزْنَنا وعزاءَنا .

ألونسو (غاضباً) — أرجوك أن تَدَعَني في سلامٍ[3] .

سباستيان (مستهزئاً) — انّه يتلقَّ العزاء مثلَ تلَقّي الثّريدِ البارد .

أنطونيو — المُعَزّي لن يَتَخَلّى عنه هكذا .[4]

سباستيان — أنظر ، إنّه يمَلأُ ساعةَ فِطْنَتِهِ ، ولسوف تَدُقُّ تدريجياً[5] .

جنزالو — سيّدي ، . . .

سباستيان — واحد : عُدُّوا .[6]

جنزالو — متى كان كلُّ حُزْنٍ يُرَحَّبُ به فانَّ ما يُقَدَّم اليه يَعود ثَمَّةَ الى المُرَحِّبِ . . .

---

(١) أي أربت ربحاً على خسارتنا (٢) أصحاب السفن (٣) أي أن لا تتكلم (٤) هذا عتاب موجه من أنطونيو الى سيباستيان نظراً لملله السريع من وعظ اخيه ألونسو (ملك نابولي) الحزين وتأسيته. (٥) يعني أنه يستجمع قواه مثل ساعة على وشك أن تدق (٦) كأنه يؤذن بأن ألونسو على وشك أن يتكلم ، وقد بدأت ساعة ذهنه المشحوذ تدق !

سيباستيان (صائحاً) — دُلاَراً [١] .

جنزالو (منتهره) — حقيقةً يغدو لديه دُلاَراً [٢] . لقد نطقتَ بأصدق مما أردتَ !

سيباستيان — لقد أخذتَ ذلك أخذاً جديّاً أكثر مما قصدتُ .

(يعود جنزالو الى مخاطبة الملك ، حينما يتحادث أنطونيو وسيباستيان معاً بأصوات خافتة)

جنزالو — وبناءً على ذلك يا مولايَ . . .

أنطونيو (ساخطاً) — سُحْقاً ، يالَـه مِنْ مُسْرِفٍ بلسانه .

ألونسو (متذمراً) — أتوسل اليك أنْ تكفّ .

جنزالو — حسنٌ ، لقد انتهيتُ ، ولكنْ مع ذلك . . .

سيباستيان (مقاطعاً) — فسوف يتكلم .

أنطونيو — مِنْ أجل رهانٍ طيّبٍ : أيهما يبدأ بالصيّاح [٣] — هو أم أدريان ؟

سيباستيان — الدّيكُ المسنُّ !

أنطونيو — الدّيكُ العاتقُ [٤] !

سيباستيان — اتّفَقْنَا . والرّهانُ ؟

أنطونيو — قَهْقَهَةٌ [٥] !

سيباستيان — هذه صفقةٌ !

أدريان — مع أنّ هذه الجزيرةَ تلوح قَفْراً . . . .

سيباستيان (مقهقهاً) — ها ، ها ، ها !

أنطونيو [٦] — إذنْ دُفِعَ لك الرِّهانُ !

أدريان (متابعاً حديثه عن الجزيرة) — غَيْرَ صالحةٍ للسُّكْنَى وتقريباً ممتنعةً [٧] .

سيباستيان — مع ذلك . . .

---

(١) الدلار (*dollar*) ، عملة أميركية تساوي مائتي مليم وربع المليم ، فهو يقابل الريال المصري تقريباً

(٢) الدلار هنا بمعنى الضيق والكرب وأصلها الانجليزي **dolour** ، وحوار جنزالو مبنى على التلاعب اللفظي بالمعنى على ما ترى (٣) يريد بالصياح ما يماثل صوت الديك . وقوله : « من أجل رهان طيب » متعلق بمحذوف تقديره « أسألكم » . (٤) الديك الصغير — ***Cockerel*** (٥) أي ضحكة طيبة .

(٦) في طبعة الجلوب (وهذه يشرف عليها اشرافاً عاماً الشاعر الكبير السير هنري نيوبولت (***Sir Henry Newbolt***) نجد أن أنطونيو هو الذي يقهقه ، وأن سيباستيان هو الذي يتبع ذلك بنكتة قائلا : « اذن دفع لك الرهان » ، وهذا عكس ما في طبعة اكسفورد وكامبردج التي نقلنا عنها

(٧) أي غير مطروقة لوعورتها .

أدريان — مع ذلك . . .

أنطونيو (ساخراً) — لا يمكنه أن يفوتها ! (١)

أدريان (مستمراً في حديثه) — فلابدَّ أنها ذاتُ اعتدالٍ (٢) جذّابٍ رقيقٍ لذيذٍ .

أنطونيو (مقاطعاً لاجل النكتة)—إنّ « اعتدال » (٣) كانت فتاةً رشيقة !

سياستيان (مقاطعاً ايضاً) — آه ، وجذّابة ، كما حكم عن علمٍ واسعٍ !

أدريان (مستمراً) — إنّ الهواء يتنفس علينا (٤) هنا بغايةٍ من الحلاوة .

سياستيان (مقاطعاً أيضاً) — كأنّ له رئتيْن تالفتيْن !

أنطونيو (معاوداً مزاحه) — أوكأنّما طيِّبةٌ مُستنقَعٌ (٥) !

جنزالو — هنا كلُّ شيء نافعٍ للحياة .

أنطونيو (ساخراً) — حقيقةً ، ما عدا أسباب الحياة !

سياستيان — لا شيء ، أو قليلٌ من تلك .

جنزالو — ما أنْضَرَهذا العُشْبَ وما أشدَّهُ ! ما أخْضَرَهُ ! (٦) .

أنطونيو (عائداً الى سخره) — إنَّ الارض مُلْتَاحَةٌ (٧) أكيداً .

سياستيان (مازحاً) — مع عَيْنٍ (٨) خضراء فيها .

أنطونيو — لم يَفُتْ شيئاً كثيراً . . . .

سياستيان — كلا ، إنّه يخطيء في الحقيقة (٩) بتاتاً .

جنزالو — ولكنَّ النُّدْرَةَ لذلك هي — وهذا حقّاً يكاد يكون أبعدَ من أن يُصَدَّق —

سياستيان (مقاطعاً) — ككثيرٍ من النوادر المكفولة (١٠).

جنزالو (متمماً ملاحظاته) — هي انَّ ثيابنا التي غَمَرَها الماء ، كما وقع لها ، تَستبقي برغم ذلك جِدَّتها ، وتُشْرِقُ كأنّها مصبوغةٌ حديثاً ، بدل تلطيخها بالماء المِلحِ .

أنطونيو — لو أنَّ أحدَ جيوبهِ فقط استطاع الكلامَ ألم يكنْ يقول إنّه يكذب ؟ !

سياستيان — دائماً ، أو يُجيّب (١١) زُوراً بلاغَهُ .

---

(١) يريد « اللازمة » على لسان سياستيان « مع ذلك » . (٢) يرمي الى جوها . وقد وضعنا لفظ « جذاب » مقابل *Subtle* بمعنى « محتال » أي « مغو » (٣) تلاعب بكلمة « اعتدال » وتصرف بها كاسم علم . وفي أمثال هذا الموقف تتجلى مقدرة شكسبير الفكاهية بصورة طبيعية لاتصنع فيها . (٤) أي يتنسم . (٥) أي مجتمع ماء طحل كريه الرائحة ! ، « وطيب » بمعنى عطر . (٦) يشير الى امتلائه وحسن نموه وروائه . (٧) يعني انها سمراء قاحلة . (٨) أي ولها صبغة خضراء — يريد ملازما أنها خصبة ممرعة . (٩) أي يسلك سبيل الخطأ في تعرفها . (١٠) أي المؤكدة (١١) ***pocket up*** بمعنى يخفي ويكتم أي يجن ، وهذا مثال آخر للتلاعب اللفظي الذي ينزع اليه شكسبير من أجل النكتة.

جنزالو — أرى أنّ ثيابنا الآن على مثل جِدّتها عند ما لبسناها أولاً في افريقيا ، في زواج ابنة الملك الحسناء — كلاريبيل [١] — بملك تونس .

سيباستيان (ممتعضاً ساخراً) — كان زواجاً حلواً ، وها نحن نفلح جيداً في عودتنا .

أدريان — إنّ تونسَ لم تَنعمْ [٢] قبلاً بمثلِها مَلِكةً عليها .

جنزالو — لم يحدث منذ عصر الأرمَلة ديدو [٣] .

أنطونيو (مدهوشاً) — أرْمَلَة ! الوباء عليها ! كيف تدخَّلتْ تلك الأرمَلة ؟ [٤] الارمَلة ديدو !

سيباستيان (لائماً أنطونيو) — ماذا لو أنه قال « الأرْمَل إينياس [٥] » أيضاً ؟ ! يا ربّ يا لطيف ! كيف تتلقّ ذلك ! [٦]

أدريان — أقُلْتَ « الارمَلة ديدو » ؟ أعِدَّ لي دراسةً عن ذلك : فانها كانت في قرطاجنة ، لا في تونس .

جنزالو — تونس هذه ، يا سيدي ، كانت قرطاجنة [٧] .

أدريان — قرطاجنة ؟

جنزالو — أؤكّد لك أنّها قرطاجنة .

أنطونيو (ساخراً) — إنّ كلمَتهُ أقْوَى من الهَرْبِ [٨] المُعْجِز .

---

(١) أي في عرس ابنة ألونسو ملك نابولي . (٢) لم تسعد (٣) مؤسسة مدينة قرطاجنة على ما يقال سنة ٨٥٠ قبل الميلاد في عهد الفينيقيين . وقد كانت متزوجة بعمها ، فلما قتل بنت مدينة قرطاجنة بثروته ثم صارت ملكتها وبقيت أرملة . ولكن الشاعر فرجيل في « انيادته » يصف ديدو واقعة في حب اينياس ، ثم يصفها منتحرة غب فراقه . (٤) أي كيف تطرقت الى الحديث أو ما شأنها وحديثنا ؟ (٥) اينياس — هو ابن أنكيسس ***Anchises*** : ملك دردانس ***Dardanus*** (على جبل ايدا ***Ida***) ووالدته أفروديت ***Aphrodite*** ، وقد التقت بأنكيسس على جبل ايدا فأحبته وكان نتاج هذا الحب اينياس ، وهذا بدوره عشقته أثناء تجواله في مدينة قرطاجنة الملكة ديدو . وقد جعله فرجيل بطل « انيادته » . (٦) أي ما أغرب تلقيك لتلك الملاحظة . (٧) تبعد خرائب قرطاجنة عن تونس مسافة أربعة اميال تقريباً . (٨) الهرب ***harp*** هو القانون القديم ، ويمتاز عادة بتفتح اطاره حيث لا ظهر له ، ويوقع على اوتاره بالأصابع ، وكان معروفاً عند قدماء المصريين والأشوريين والعبرانيين وغيرهم . ولعل المراد « بالهرب المعجز » هرب أمفيون ***Amphion*** السحري الذي رمى به الحجارة المتهدمة بمدينة طيبة فقامت وحلت في بناياتها ، وكأن شكسبير يريد أن يقول على لسان أنطونيو إن جنزالو الذي يستطيع أن يوحد مدينتين (تونس وقرطاجنة) لذو كلمة أقوى من هرب أمفيون المعجز الذي لم يفعل أكثر من بناية مدينة واحدة ! وسيرة أمفيون الميثولوجية طويلة ومشهورة في كتب الاساطير ودوائر المعارف فلتراجع . هذا وربما كان المقصود « هرب ابولو » — اله الشمس وظهير الشعر والموسيقى والعرافة والبناء عند الاغريق والرومانيين — ذلك الذي جعل من تأثير نغماته السحرية حيطان مدينة طروادة تنتصب ، ومما يعزز هذا التفسير رد سيباستيان على أنطونيو بقوله « انه رفع الحائط والبيوت أيضاً » ، أي خلافاً لأبولو الذي رفع لطروادة حيطانها فقط .

سباستيان (ساخراً) — انّـه رفع الحائط والبيوت أيضاً .

أنطونيو — أيَّـةُ مسألةٍ مستحيلةٍ سيذلّـلها بَعْـدُ ؟

سباستيان (متمراً في سخره) — أرى أنّـه سيحمل هذه الجزيرة في جيبه الى بيته ، وسوف يعطيها الى ابنه كتفّـاحة !

انطونيو (هازئاً) — وينثر بذورَها في البحر فَـيُـخْـرِج جزائرَ أخرى !

جنزالو (ملتفتاً الى الملك) — آيْ ! [١]

انطونيو (ساخراً) — أجل ، في وقتٍ كافٍ [٢] .

جنزالو (مخاطباً الملك) — مولايَ ، كنّا نتحدَّث بأنَّ ثيابَـنا تبدو الآن كأجدّ ما كانت عند ما كنّـا في تونس ، في عرس كريمتك — الملكة [٣] الآن .

أنطونيو — وأندرُ [٤] مَنْ قَـدِمَـتْ هُـناكَ .

سباستيان — تجاوزوا — أتوسَّـل إليكم — عن الأرملة ديدو [٥] .

أنطونيو — أُوه ، الأرملة ديدو ! نعم ، الأرملة ديدو [٦] .

جنزالو (مخاطباً الملك ألونـسو) — أليستْ يا مولايَ أُصْـدَتي [٧] على مثل جِدَّتِـهَـا في أوّلِ يومٍ لبستُـها ؟ أعني . . . نوعاً ما ،

أنطونيو (مقاطعاً ، مازحاً) — لقد أُحْـسـنَ في صيد ذلك « النوع » [٨] !

جنزالو (متماً سؤاله) — عند ما لبستُـها في عُـرس كريمتك ؟

ألونسو (رافعاً رأسه) — إنّـكَ تُـكَـدّسُ هذه الكلمات في أُذني ضـدّ معدةٍ حِـسّـي [٩] . بودّي لو أني لم أزوّجْ ابنتي هناك ! لأني بقدومي [١٠] مِنْ هناك فُـقِـدَ ابني ، وفي اعتباري هي أيضاً فُـقِـدَتْ ، فهي جدُّ نائيةٍ عن إيطاليـا حتى أني لن أراها ثانياً. (محولا نظره) آه يا وارثي على نابولي وميلان [١١] أيُّ سَمكٍ غريب قد تَـخذَ منك طعامَـه ؟

فرانسكو (متقدماً اليه) — مولايَ ، لعلّـه يَـعيش [١٢] : إنّـي رأيتُـه يَـضرب اللُّـجج [١٣]

(١) بمعنى اكيداً — يصدر عنه هذا الهتاف وقد لحظ تيقظ الملك من غفوة حزنه ، وفي الوقت ذاته مؤمناً على كلام زملائه الذي لم يكن منتبهاً الى معناه ، نظراً لانصراف تفكيره الى الملك . . .
(٢) ترجمة سياقية لقوله : « *Why, in good time* » — اشارة الى فكاهة استنبات الجزر .
(٣) ملكة تونس . (٤) يشير الى جمال ابنته الفذّ . (٥) أي عن ذكرها . (٦) يوافق على ترك سيرتها . (٧) ترجمة *doublet* ويقابل الاصدة ما يعرف عصرياً « بالصديري » (٨) هذا تلاعب معنوي آخر بكلمة « نوع » من أجل النكتة. (٩) أي مثل تكديس الغذاء في المعدة الرافضة له.
(١٠) بعودي (١١) يندب ابنه فرديناند حاسبه قد غرق (١٢) ربما كان حياً (١٣) اي يغالبها.

تحته ويمتطي صهواتها . كان يطأ الماء ويلقي بعداوته جانباً [١] ، وقارع بصدره أكثر اللجج انتفاخاً التي لاقته . وأبقى رأسه الباسل فوق الأمواج الخاصمة ، وكان يجذف نفسه بذراعيه المتينين — في لطم شديد — الى الشاطئ ، الذي انحنى فوق قاعدته [٢] التي أخلقها الموج ، كأنما يطأطئ لينجده : إني لا أشك في أنه بلغ اليبس حياً .

ألونسو (مطرقاً رأسه) — كلا ، كلا ، لقد مضى [٣] .

سيباستيان (مقترباً منه ، لائماً) — مولاي ، لك أن تشكر نفسك على هذه الخسارة العظمى ، لأنك أبيت أن تسعد أوربتنا [٤] بكريمتك ، وآثرت أن تخسرها لافريقي ، الى حيث نفيت هي على الأقل عن ناظرك الذي لديه سبب كاف ليبلل ما عليه من حزن .

ألونسو (مستاء) — أتوسل إليك أن تسكت .

سيباستيان (متابعاً لومه) — لقد سجد لك ، وألح عليك خلاف ذلك منا جميعاً ، وتلك النفس الجميلة ذاتها [٥] كانت تزن — ما بين الاشمئزاز والطاعة — لدى أي طرف من المنجم [٦] عليها أن تطرق . أخشى أننا فقدنا ولدك الى الأبد : وفي ميلان ونابولي أرامل — بسبب إخراج هذا المشروع [٧] — أكثر من الرجال الذين نقدر على موافاتهن بهم لتأسيتهن : فالغلطة تعود اليك .

ألونسو (متألماً) — كذلك اعظم الخسارة .

جنزالو (معاتباً سيباستيان ومقصيه عن الملك) — يا مولاي سيباستيان ، إن الحقيقة التي تتحدث بها ينقصها بعض الكياسة والوقت الملائم لذكرها فيه : إنك تدلك القرحة حينما ينبغي عليك أن تحضر اللصقة .

سيباستيان (في لهجة احتقار) — حسن جداً .

(يعود سيباستيان الى أنطونيو فيتأنفان الحديث على جانب)

أنطونيو (مستهزئاً بجنزالو) — وكأخص الجراحين [٨] .

---

(١) أي لا يبالي بطغيان الماء (٢) يريد جرفة الشاطيء العالية المنحنية : أي حواشيه التي أكلها الماء (٣) لقد فقد (٤) بلادنا الاوربية (٥) يريد ابنة ألونسو . (٦) المنجم (**beam**): الحديدة المعترضة في الميزان التي فيها لسانه. (٧) أي بسبب زواج ابنة ألونسو في بلاد غريبة. (٨) ترجمة: "***And most chirurgeonly***"، والكلمة الاخيرة كانت ذائعة في عصر شكسبير ككثير من الكلمات الأخرى التي لا تستعمل الآن أو قد تبدلت صياغتها .

جنزالو (مخاطباً ألونسو) — إنّه جوٌّ كدِرٌ منبث فينا جميعاً [١]، يا سيدي الكريم، حينما نراك مكتئباً.

سباستيان (مندهشاً) — جَوٌّ كَدِرٌ؟

أنطونيو (هازئاً بجنزالو) — كَدِرٌ جدًّا.

جنزالو — لو أنّ لي استعمار [٢] هذه الجزيرة يا مولاي . . .

أنطونيو (هازئاً) — لكان بذرَ فيها بذور القريص [٣]!

سباستيان (ساخراً مثله) — أو الحُمَّاض [٤] أو الخُبَّاز [٥]!

جنزالو (مستمراً) — وكنتُ ملكاً عليها فما الذي أصنعه؟

(يتناوب سباستيان وأنطونيو السخر من جنزالو تعليقاً على ملاحظاته)

سباستيان — تنجو من السُّكر للافتقار الى النبيذ!



جنزالو (المشير القديم للملك ألونسو) يتحدث اليه معزياً، حينما سباستيان (أخو الملك) وأنطونيو (دوق ميلان المغتصب) يتفاكهان استهزاء بجنزالو لأجل الترويح عن الملك الحزين لتوهمه فقد ابنه فرديناند

جنزالو — كنت في حكومة المملكة الحرّة [٦] أنفّذ جميعَ الاشياء بالمضادّات [٧]: فانّي

(١) أي تصير لنا الدنيا مظلمة. (٢) مقابلة *plantation* وهذه يرمي بها شكسبير الى اكثر من الزراعة، ولعل استعمار ألصتر في ذلك العهد (١٦٠٨ — ١٦١١ م.) أوحى اليه هذا التعبير (٣) *Nettle-Seed*، يتلاعب أنطونيو بتعبير جنزالو حاملا كلمة «استعمار» على معنى الزراعة (٤) الحماض عشبة ورقها كالهندباء منه حامض ومنه مرّ = *docks* أو *rumex*. (٥) الخباز = *mallows*. (٦) حكومة المملكة الحرة = ترجمة *The Commonwealth* (٧) أي على عكس المألوف الآن، والظاهر ان شكسبير نحا هذا النحو في التعبير على لسان حال جنزالو متأثراً بنهج مونتين *Montaigne* في قطعة من مقالته الموسومة (*Of the coniballes*) التي ظهرت طبعتها الانكليزية سنة ١٦٠٣ م ثم أعيد طبعها في سنة ١٦١٠ م، وقد حرصنا على اثبات هذا الاسلوب الكلامي المفكك المطابق للحال كما شاءه شكسبير، وذلك تبعاً لمبدئنا في ترويض اللغة لنقل نسق شكسبير البياني نقلا اميناً صيانة لخواصه ومميزاته حتى يستهدي بها من يشاء من النقاد وطلبة الادب وعلماء مقارنة اللغات.

ما كنتُ أسمح بأيّ نوعٍ من التجارة، ولا باسم قاضٍ. الرسائلُ يجب أن لا تُعرَفَ. الثرواتُ والفقرُ والاستخدامُ معدومةٌ. التعاقدُ، والملكيّةُ والتعاقُبُ وتحديدُ الأرض والفلاحةُ ومزرعةُ الكَرْمَة [1] معدومةٌ. لا استعمالَ للمعدن، ولا للحنطة، ولا للنّبيذ، ولا للزيت. لا مهنةَ: كلُّ الرجال عاطلون، كلُّهم، والنّساءُ أيضاً — ولكنْ بريئاتٌ طاهراتٌ. لا مَلكيّة...

سيباستيان (مقاطعاً) — وبرَغم ذلك يَودُّ أن يكونَ مَلِكاً!

أنطونيو (ساخراً) — إنَّ النّهايةَ الاخيرةَ لحكومة مملكته الحرّة تَنْسَى البدايةَ!

جنزالو (مستمراً) — جميعُ الاشياء الشائعة يجب أن تَنْتِجَ بغير عَرَقٍ ولاجُهدٍ. لن ارْضَى الخيانةَ [2] ولا الجريمةَ، ولا السّيفَ، ولا الحَرْبَة، ولا المُدْيَةَ، ولا البُندقيّةَ [3]، ولا العَوَزَ إلى أيّةِ آلةٍ. ولكنْ على الطّبيعة أن تُخرِجَ من نَوْعِها الذاتي كُلَّ رخاءٍ وكلَّ وَفْرَةٍ لتغذية رعيّتي البريئة.

سيباستيان — ألا زواجَ ما بين رعاياهُ؟

أنطونيو (متهكماً) — لا أحدَ [4] يا رجلُ، جميعُهم كَسَالَى أدنياء.

جنزالو (مستمراً) — سوف احكم، يا مولاي، باتقانٍ يَفْضُلُ العَصْرَ الذّهبي [5].

سيباستيان (متهكماً) — فليحيَ جلالته [6]!

أنطونيو — ليحيَ جنزالو مَديداً!

جنزالو (متبعاً حديثه) — و... (ملاحظاً انصراف الملك عنه) أتكترث بي [7] يا مولاي؟

ألونسو — أتوسّل اليك، كَفَى: إنك لا تتكلم شيئاً لي [8].

جنزالو — إني مُصَدِّقٌ جلالتك تماماً [9]، وفعلتُ ذلك لكيْ أهيّء فُرصةً [10] لهذين السيّدين (ملتفتاً الى أنطونيو وسيباستيان) اللذين لهما رئاتٌ حسّاسَةٌ ورشيقةٌ، بحيث أنّهما دائماً اعتادا أن يضحكا من لا شيء....

أنطونيو — ذلك [11] أنت مَنْ كُنّا نَضحك عليه!

جنزالو (متهكماً) — ذلك أنّي في هذا النوع من الطّيشِ المَرِحِ لا شيَ بالنسبة اليكما: وإذنْ فلكما أن تستمرّا وتضحكا بَعْدُ مِنْ لاشيَ!

---

(١) مزرعة الكرمة *vineyard* (٢) يعني خيانة الحكومة (٣) يريد ادوات الحرب (٤) اي لاأحد متزوج
(٥) العصر الذهبي — كما تخيله شعراء الاغريق والرومان — عصر الطهارة والسعادة والراحة في الحياة.
(٦) يعني جنزالو. (٧) يريد: أأنت منتبه الي؟ (٨) يريد: اني غير ملتفت الى شيء مما تقول.
(٩) أي مؤمن بما أعلنت. (١٠) أو عذراً. (١١) تعود على لا شيء.

أنطونيو (ساخراً من رد جنزالو) — أيَّةُ ضَرْبَةٍ ثَمَّةَ أعْطِيَتْ [١] !

سباستيان (متهكماً ايضاً) — إذا لم تَقع مُفَرْطَحة [٢] بطولها.

جنزالو — أنتما سيِّدان مَعْدَنُهُمَا الشجاعة. ولو استمرَّ القمرُ خمسةَ أسابيع بغير تَغيُّر لوددتما انتزاعَه من دائرته !

(يدخل آريل — غير منظور — موقعاً موسيقى مهيبة)

سباستيان (متهكماً بامتعاض) — كنا نفعل ذلك ، ثم نذهب لصيد الوطاويط [٣] !

أنطونيو — لا ، يا مولايَ الكريم [٤] ، لا تكنْ غضِباً.

جنزالو (ناعساً) — كلاَّ ، إنِّي ضمينٌ لكَ [٥]. لن أخاطر بحصافتي بهذا الضعف. هل لك أن تضحكَ لي [٦] لأنامَ ، فانِّي ثاقِلٌ جدًّا [٧] ؟

أنطونيو — نَمْ إذنْ واسمعْنا.

(يرقد الجميع مسحورين بموسيقى آريل ، ما عدا ألونسو وسباستيان وأنطونيو)

ألونسو (مدهوشاً) — ماذا ؟ جميعهم سريعاً هكذا نائمون! بودّي لو أنَّ عينيَّ بذاتيهما تُغمِضان [٨] أفكاري. (بعد لحظة) إني أجدُهما نازعتين الى فعل ذلك.

سباستيان (متقدماً الى اخيه الملك ألونسو) — باذنكَ ياسيِّدي [٩] ، لا تُغْفِلْ دعْوَتَه [١٠] الثقيلةَ [١١] فقلَّما يزور الحُزْنَ ، وحينما يفعل فهو مُعَزٍّ.

أنطونيو — كلانا يامولايَ سيحرس شخصَكَ حينما تأخذُ راحتَكَ [١٢] وسنراقب صَوْنَكَ.

ألونسو — أشكركما. (بعد لحظة) ثَقْلَةٌ عجيبةٌ [١٣] !

(ينام ألونسو ويختفي آريل)

سباستيان (دهشاً) — ما أغْرَبَ هذه السِّنَةَ المتملِّكةَ إيَّاهم !

أنطونيو — إنّه نوعُ الجوِّ [١٤].

(١) اعطيت: صوبت ، يريد: يا له من رد قاهر أو مفحم (٢) أي خرقاء غاشمة (٣) كرياضة. يريد صيد الطيور ليلا (٤) الطيب (٥) أي اني كفيل لك بان لا أغضب (٦) في الاصل الانكليزي اكتفاء التبس على بعض الشراح فظنوا المعنى «هل لك أن تضحكني» بدل « تضحك لي » ، وهذا خطأ لان جنزالو يستثقل نكات سيباستيان وصاحبه ويعتبرها منومة ! (٧) أي أحس بالثقلة وهي النعسة ثالبة (٨) تحبسان (٩) صيغة تأدب في خطابه الى الملك ، وهي ترجمة «Please you, Sir» ويجوز ترجمتها: « ليرضك ذلك » على تقدير ان الاصل الكامل هو «Let it please you» (١٠) يعني النوم (١١) يعني الملحة (بتشديد الحاء) اي الملحفة ، او الجالبة الثقلة اي السنة الغالبة (١٢) حينما تنام سنحرس سلامتك (١٣) يشير الى الفتور المدهش المتغلب عليه ، والى شعوره بالنوم الثاقل (١٤) اي تلك طبيعة الجو.

سيباستيان — لماذا لا يُطْبِقُ إذنْ أجفانَنا ؟ إنّي لا أجد نفسي متهيّئاً[١] للنوم.

أنطونيو — ولا أنا . إنّ حواسّي رشيقةٌ[٢] . لقد رقدوا معاً جميعاً كأنّما على اتّفاقٍ ، وسقطوا كأنّما بفعلِ صاعقةٍ . (يسرّ اليه في قصد وعزم). ماذا يمكن ، يا سيباستيان الفاضل ؟ أوّه ، ماذا يمكن ؟ — (قاطعاً كلامه) لا أكثر : — ومع ذلك ... إخال أني أرى على وجهك ما ينبغي أن تكونَ أنتَ : إنّ الفرصةَ تخاطبك و ... (ناقراً باصبعه قائم سيفه) [٣] إنّ تخيّلي القويَّ يلمح تاجاً هابطاً على رأسك .

سيباستيان (حادجه بنظره) — ماذا ، أأنت مستيقظٌ[٤] ؟

أنطونيو (محولا بصره عنه) — ألا تسمَعُني أتكلّمُ[٥] ؟

سيباستيان — إنّي اسمعُكَ ، وأكيداً هذه لُغَةُ سُبَاتٍ ، وانّك تتكلّم من نومك. ماذا كنتَ تقول، إن هذا سكونٌ[٦] غريبٌ: أنْ تَنامَ بعينين محدِّقتَيْن[٧]، واقفاً ، متكلّماً ، متحرّكاً ، ومع ذلك في نوم عميق هكذا !

أنطونيو (ملاقياً نظرته) — يا سيباستيان النّبيل ، إنك تَدَعُ حَظَّكَ ينام — بل يموت — إنك تغفو حينما أنت تستيقظ[٨] !

سيباستيان (بادئاً يستشف مرمى أنطونيو) — انك تَغِطُّ جَلِيًّا ، ويُوجَد مَعْنى في غطيطك .

أنطونيو — إنّي اكثرُ جِدِّيَّةً من مألوفي ، ولا بدَّ أنك كذلك اذا ما اكترثتَ بي ، فاذا فعلتَ تُثَلِّثُكَ[٩] ذلك .

سيباستيان — حَسَنٌ ، إني ماءٌ واقفٌ[١٠] .

أنطونيو — سأعلّمكَ كيف تجري !

سيباستيان — إفعلْ ذلك ، فبلادتي الوراثية تلقّنني الجَزْرَ[١١] !

انطونيو (متكلماً بسرعة واهتمام) — أوّ ، لو عرفتَ كيف أنّكَ تُراعِي

---

(١) نازعاً او ميالا (٢) اي يقظة نشيطة (٣) اي مقبضه : **Sword-hilt**
(٤) كانه يريد ان يقول : أأنت ايضاً نائم ؟ (٥) يريد : أليس هذا برهاناً كافياً على اني يقظ
(٦) استراحة او نوم (٧) محدقتين : ***wide open*** (٨) يقول له على سبيل التحريض : بل انت الذي ينام حتى في يقظته ويدع الفرصة تفلت من يده (٩) اي رفع منزلتك ثلاث مرات ، اي صيرك ملكا (١٠) ساكن لاجزر له ولا مد، يريد ان يقول: اني سأتلقى ملاحظاتك كالغدير الساكن مستمداً لان اجري في اية ناحية تدفعني الريح اليها اذ لاجزر لي ولا مد (١١) كانما يقول له : لاأمل في دافعية حثك اياي لاني بليد بطبعي، وكلمة « الوراثية » هنا بمعنى التكوينية .

الغَرَضَ [١] حينما أنت تَسخَرُ منه ! كيف أنك بتجريده تزيده اكتنافاً [٢].
أكيداً ذلك ما يفعلُ الغَرْقى غالباً قُربَ القاعِ مَسوقين بخوفهم أو بلادتهم [٣].

سباستيان — أضرَعُ إليكَ أن تَستَمِرَّ . إنَّ وضْعَ عينِكَ وخَدِّكَ يُعلنان أمراً [٤] منكَ ، وتوليداً في الواقع يُسبِّب لك تَصَلُّقاً [٥] كثيراً لِيُنتِجَ .

أنطونيو — هكذا ، ياسيّدي : مع أنَّ هذا المَوْلى الضَّعيفَ الذاكرة، هذا (مشيراً الى جنزالو باحتقار) الذي سيبقى كما هو قليلَ الذكرِ عند ما يُدفَنُ [٦] ، كاد هنا يُقنِعُ — إذْ أنَّه رُوحٌ للاقناع، ويدعي فقطانه يُقنع! — (كاد يُقنِعُ) المَلِكَ بأنَّ ابنَه حيٌّ، انَّه محالٌ أن لا يكون قد غرق كما هو محالٌ أنَّ ذلك الذي ينام هنا [٧] يعوم.

سباستيان — لا أملَ عندي في أنه لم يغرق.

أنطونيو — أُوه ، ما أعظمَ الأملَ الذي عندك من ذاك الا « لا أمل» ! «لا املَ» في ذاك الطريق هو في طريقٍ آخر «أملٌ سامٍ جداً» حتى أنَّ الطُّموحَ لا يَستطيع أن يَرشُقَ ما خلفه بنظرِهِ [٨] الاّ وشكٌّ في جديدٍ هناك ! [٩] أتُسلِّم معي بأنَّ فرديناند غرق ؟

سباستيان — لقد مضى [١٠] .

أنطونيو — إذنْ أخبرني : مَنْ هو الوارث التالي لناپولي ؟

سباستيان — كلاريبيل .

أنطونيو (مزعزعاً رأيه) — هي تلك ملكة تونس : هي تلك التي تسكن على بُعد عشرة فراسخ من الحياة الانسانية: هي تلك التي لن تستطيع الحصولَ من ناپولي على رسالة الاّ اذا

---

(١) يريد: أنت تعزز هذه الامنية بتعبيرك حينما تهزأ بها. وللاصل الانكليزي تفاسير مختلفة اغلبها نتيجة التعمل وعندنا ان هذه الترجمة بهذا المعنى هي الاصح، وقد راعينا الاصل حرفياً ومعنوياً، ومثل هذا الاختلاف الشرحي واقع في مواطن كثيرة من القصة، مما دعانا مراراً في كل صفحة الى مراجعة تفاسير كثيرة قبل الاستقرار على صيغة الترجمة المختارة وعلى معناها (٢) اي كلما اخليت ذهنك منه حمت حوله، وهذا شأن الغرقى الذين لا يستطيعون التخلص من قاع البحر بعامل الخوف أو البلادة ؛ فكلاهما لا يدفع الخطر .

(٣) هذه الجملة الاخيرة بمثابة تأمين على ملاحظة سيباستيان عن البلادة وعواقبها . وكلمة الغرقى يقابلها في الاصل « الرجال المنحطون » اي الذين ينالهم جزر البحر. (٤) اي شأناً خطيراً

(٥) التصلق: ألم الوضع الشديد. والمراد بقوله «وضع عينك وخدك » تحديج نظرته: *fixed look* وصفرة خده البارز الزاوية عن عزم واهتمام (٦) أي انه ان يذكر بعد موته باكثر مما يذكر هو الاشياء الاخرى في حياته ! (٧) مشيراً بازدراء الى جنزالو الذي يقول عنه ان مهمته الوحيدة ادعاء الاقناع

(٨) اي يرسل نظرة نافذة الى خلفه (٩) اي على اعتبار ان هذا غاية مرمى الطموح التي يفقد ما بعدها كل وضوح، بحيث ان ما يكتشف بعد ذلك يكون باهتاً غامضاً ومشكوكا فيه ! (١٠) مات .

كانت الشمس بريداً — فان ساكنَ القمر بطيءٌ جداًّ — حتى تصير ذقونُ المواليدخَشِنةً وقابلةً للحلاقِ : هي تلك التي من لَدُنها [١] ابتلعنا البحرُ جميعاً وإن لفظ بعضَنا ثانيةً ، لكي نمثل بذلك القدَر فصلاً يُعَدُّ له ماضى استهلالاً ، وما سيلي في عَهدتك وعُهدتي [٢] .

سيباستيان (قلقاً) — أيَّةُ نفايةٍ هذه [٣] ! كيف تقول أنت ؟ حقيقةٌ انّ ابنةَ أخي ملكةُ تونس، كذلك هي وارثةُ ناپولي، وبين كلا القطرين يُوجَد بعضُ المسافة .

أنطونيو — مسافةٌ كلُّ ذراعٍ [٤] منها يبدو صائحاً: «أنّى لكلاريبيل تلك أن تَقيسَنا [٥] عائدةً الى ناپولي ؟ لِتَبْقَ في تونس، ولتدعْ سيباستيان يستيقظ [٦] » . (مامحاً) هَبْ أنَّ هذا الذي أمْسَكَهُمْ الآن كان الموت ، فانّهم ما كانوا حينئذٍ أسوأ حالاً من حالهم الآن ! يوجد ذلك الذي يستطيع ان يحكم ناپولي كخير ما يحكمها به هذا الذي ينام ، وأعيانٌ يستطيعون أن يُثرثروا بوفرةٍ وبغير حاجةٍ مثل جنزالو هذا . إني شخصيًّا أقدر أن أجْبُلَ غراباً أعصم [٧] على مثل ثرثرته العميقة [٨] . آه ، لو أنك تحمل الذّهنَ الذي أحمله [٩] ! فأيُّ نوم يكون هذا لِتَقَدُّمِكَ ! أتفهمني ؟

سيباستيان — أظنّ [١٠] أني فاهمٌ .

أنطونيو — وكيف تعتبر قناعتَكَ حظَّكَ الطّيبَ [١١] ؟

سيباستيان — إني أذكر أنكَ قد عزَلْتَ أخاك [١٢] پروسپيرو .

أنطونيو — حقٌّ : وانظر كيف أنَّ خلَابي مُستقرَّةٌ عليَّ وأكثر إحكاماً [١٣] عن ذي قبل : كان خُدَّامُ أخي حينئذ زملائي [١٤] ، أما الآن فهم رجالي [١٥] .

---

(١) اي « بعودتنا » من لدنها ، واغفال ذكر ذلك من الاصل الانكليزي — على سبيل الاكتفاء — أدى الى اضطراب كثير في الشروح ، وعندنا أن هذا هو التفسير الصحيح (٢) أي أن المستقبل في ايدينا وعلينا ان نصمم على ما يخصه (٣) أي هذيان هذا! (٤) ذراع = cubit = ٤٥٧٢ ر٠ من المتر (٥) تمر فوقنا (٦) أي ينتبه الى ما يواجهه من مطمح خطير (٧) له حمرة في رجله ، والاصل اطلاقه على الغراب الذي في احد جناحيه ريشة بيضاء أو الذي في احد رجليه بياض (٨) أي على التظاهر بالحكمة (٩) أي تشاطرني في ما يدور بخلدي (١٠) يخيل الي (١١) اي كيف تنظر رغباتك القانعة الى الحظ الطيب الذي يعرض نفسه عليك ؟ (١٢) أي اغتصبت مكانه وخلافته (١٣) وأكثر لياقة (١٤) أي في حكم الأنداد او المساوين لي — my equals (١٥) خدمي .

سباستيان (متهيباً) — ولـكنْ ، . . . لضميرك (١) .

أنطونيو (ساخراً مغرياً) — آي (٢) ، يامولاي أين يَقِرُّ هذا (٣) ؟ فلو كان خَصَراً (٤) لألجأني الى خُفّي ، ولكني لا أحِسُّ هذا المعبودَ في صدري. إنَّ عشرين ضميراً تحول بيني وبين ميلان لَتَتَقَنَّدُ (٥) وتذوبُ قبل أن تماكسني! هنا يرقد أخوك غيرَ مُفَضَّلٍ على الأرضِ التي ينام عليها (٦) لو أنّه كان ذلك الذي هو يُشبه الآن : أي الميت الذي أستطيع أن أضعَه في مرقده الى الأبد بثلاث بوصات من هذا الفولاذ (٧) الطيِّع ، حينما أنت صانعاً هكذا (يمثل ضربة السيف التي يريدها) ربما استطعتَ أن تضع ـ لنومه الخلد الى الأبد ـ هذا اللّقمةَ القديمة (٨) (مشيراً الى جنزالو): هذا السّيرَ (حكمةَ) (٩) الذي يجب أن لا يلوم مَسْلَكَنا. وأمّا عن الباقين جميعاً فسوف يتلقون الايحاء (١٠) كما تلعق الهِرَّةُ لَبَناً ، وسوف يخبرون عن الساعةِ لأيِّ شغلٍ نقول نحن أنه يلائم السَّاعة .

سباستيان (مصمماً على اقتراح انطونيو) — إنَّ مسألتك (١١) ياصديقي العزيز ستكون سابقتي، فكما نلتَ أنت ميلان فسأبلغ نابولي . انتزعْ سيفَكَ : ضربةٌ واحدةٌ ستحرّرك من الجزية التي تدفعها ، وأنا الملك سوف أُحبّك .

أنطونيو — لِنَسْتَلَّ معاً ، وعند ما أرفعُ يدي إصنعْ مثلي لتهويَ به (١٢) على جنزالو .

سباستيان — أُوه ، ولكنْ كلمةٌ واحدةٌ (يتحدثان معاً على حدة) .

(يظهر آريل غير منظور للمتآمرين)

آريل (كأنه يوجه الخطاب الى جنزالو النائم) — إنَّ سيّدي — بواسطة فنّه (١٣) — يَتَطَلَّعُ (١٤) الخطرَ الذي أنت ياصاحبه فيه، ويَبعثني الى هنا لكيْ تصونَ حياتهم (١٥) وإلاّ مات تدبيرُه (١٦) .

---

(١) تعبير المضطرب . يريد ان يقول : ولكن كيف الحال بالنسبة لضميرك ؟ (٢) بمعنى واأسفاه!
(٣) يعني ضميره. و« يقر » بمعنى « يوجد » — *lies* (٤) الخصر هو الشرث أي تصقيع الاصابع وورم بشرتها وتشققها — *kibe* أو *chilblain* (٥) تتجمد كالقند (*candy*) وهو سائل قصب السكر وما يماثله اذا جمد. يريد ان: تخدعني بصلابتها ولا بليونتها (٦) أي ليس بأحسن منها
(٧) يريد السيف (٨) اشارة الى ثرثرته التي كانها هي مضغ دائم ! أو اشارة الى أنه بقية فاسدة من الماضي العتيق (٩) يستعمل « حكمة » اسم علم سخراً من جنزالو الذي يدعي دائماً انه رب الحكمة والعقل ، والتعبير الانكليزي هو *Sir Prudence* (١٠) أي الاغواء (١١) يشير الى اغتصاب انطونيو دوقية أخيه بروسبيرو وارساله اياه الى حيث يلقي حتفه (١٢) اي بسيفه (١٣) سحره
(١٤) يعرف مقدماً : يتنبأ به *foresees* (١٥) يريد : حياة ألونسو واوفيائه (١٦) والا فسد مشروعه.

(يغني آريل في أذن جنزالو) : —

بينما أنتَ في غطيطٍ تنَـامُ
يَغنمُ النّـابهُ[١] التـآمرُ وقتَـهْ
فاذا كنتَ مَنْ يُـراعِي الحياةَ
فانفضْ النومَ واحترسْ: إصْحَ! إصْحَ[٢]!

أنطونيو — إذنْ هيا بنا نفاجيء[٣] معاً .

(يستل كلاهما سيفه)

جنزالو (مستيقظاً، منتصباً على قدميه) — الآن أيتها الملائكةَ الأبرار احفظوا الملك.

(يستيقظ الجميع)

الونسو (دهشاً) — ماذا ، كيف الآن ؟ هُـوْ ، أيقاظ ! (مخاطباً أنطونيو) لماذا أنت مُسْتَلٌّ[٤] ؟ لماذا هذا النظرُ المَرُوعُ الشّاحبُ[٥] ؟

جنزالو — ما هي المسألة[٦] ؟

سيباستيان (مسترجعاً حواسه) — بينما كنّا واقفين هنا لنضمنَ راحتَكَ سمعنا الآن دويًّا خاوياً من الخُوارِ كَجُؤَارِ الثيران، أو بالأحرى كزئير السّباع: ألم يُوقِظْكَ؟ لقد قرع أذني بفظاعةٍ شديدةٍ .

ألونسو — لم أسمعْ شيئاً .

أنطونيو — أُو ، كان أزيزاً ليُرْعِبَ[٧] أُذْنَ هَوْلَةٍ[٨] ، وليحدثَ زلزلةً ! أكيداً إنّه كان زئيرَ عَرْجَلَةٍ كاملةٍ من السّباع[٩] .

ألونسو — أسمعتَ هذا يا جنزالو ؟[١٠] .

---

(١) ترجمنا هذه الاغنية نظماً مرسلا على سبيل المثال لما ذكرناه في تصدير القصة (ص ٤) عن ترجمة (يوليوس قيصر) وسيجد القاريء عند المقارنة بالاصل ان هذه الترجمة لا تقل امانة عن الترجمة النثرية.
(٢) النابه : المستيقظ — من نبه ينبه (كغنم يغنم) نبهاً (بضم النون وتسكين الباء) ويقابلها في الاصل *open-eyed* (٢) الامر من صحي يصحى (كاقي ياق) (٣) نعجل (٤) تعبير اكتفاء — أي مستل سيفك (٥) أي كصفرة الموتى من الذعر (٦) ما هو الخبر أو ماذا جرى؟
(٧) أي كافياً لان يرعب (٨) جبار شنيع — *monster* (٩) *a whole herd of lions* والعرجلة تطلق خاصة على جماعة السباع، كما يقال قطيع من الغنم أو رعيل من الخيل (١٠) معنى هذا اما سؤاله عن سماع ذلك الصوت المروع الذي تحدث عنه سيباستيان وأنطونيو، واما سؤاله عن رأيه فيما قالا، كانه لا ينتظر ان يكون جنزالو قد سمع شيئاً لاختلاف ملامحه عن ملامحهما البادي عليها الخوف والتأثر.



آريل يوقظ جنزالو

آريل (مغنياً في اذن جنزالو) — بينما انتَ في غطيطٍ تامٌ
يَغنمُ النّابهُ التآمرُ وقتَهُ !

جنزالو — أقسمُ بشرفي يا مولايَ أنّي سمعتُ طنيناً ، وكان هذا عجيباً أيضاً ، فأيقظني. وقد هززتُك يا مولاي وصحتُ : فلمَّا تفتَّحتْ عيناي رأيتُ سلاحيهما مسلولَيْن . كانت هناك ضوضاء ، هذا محقَّقٌ . إنّ الأفضلَ أنْ نقفَ على حِراستِنا [1] ، او أن نغادرَ هذا المكانَ : هيَّا نَشْهَرُ أسلحتَنا [2] .

(يجرد الجميع سيوفهم)

ألونسو — هلمّوا نتأى عن هذا المكان ، ودعونا نواصل البحثَ عن ولدي المسكين .

جنزالو — لتحفظْه السماء من هذه الوحوشِ ! إذْ من الموكَّد أنّه في الجزيرة .

ألونسو — تقدَّموا .

(يمضون تابعين جنزالو وشاهرين السيوف)

آريل — سيعرف مولاي پروسپيرو ما الذي صنعتُ ، فامْضِ يا مَلِكُ [3] آمناً ناشداً ولدَك.

(يختفي آريل، ويبدو اثر ذلك المنظر الثاني)

---

(١) أي أن نأخذ حذرنا ، وهذا التعبير الانجليزي — كتعابير كثيرة غيره — قابل للصياغة العربية اذا ماعنينا بها ، فهو مثال لما نسميه « بالتعابير المتداولة ». ومن الجائز — ترجمة ***humming*** بطنطنة (الموسيقى) بدلا من طنين على اعتبار ان جنزالو يذكر كالحالم نغمات آريل (٢) سيوفنا (٣) يعني ألونسو.



المنظر الثاني

(يمثل هذا المنظر امتداداً تفراً موحشاً من الشاطيء ، ويشاهد كاليبان ماشياً حذاءه، حاملا عبئاً نقيلا من الحطب ، ثم يلقي هذا العبء الى الارض فيسمع هزيم رعد).

كاليبان (في اعياء ساخطاً) — لِتَسْقُطْ على پروسپيرو جميعُ الأوبئةِ التي تَمتصُّها الشمسُ من الرَّدَاغِ [١] والنِّجالِ [٢] والسُّهوبِ [٣] ، ولْتجعلْه مَرَضاً بوصةً بوصةً [٤] (يسمع رعد) . إنَّ شياطينَه تسمعُني ، وبالرغم لا بدَّ من حاجتي الى اللَّعن ! [٥] (ينظر حوله خائفاً) ولكنَّها لن تَقْرُصَني ، ولن تُخيفَني بمشاهدِ الأغوالِ [٦] ، ولن تَرْتَئِسَني في الحَمْأَةِ [٧] ، ولن تقودَني مثل الوَقَصِ المتَّقدِ [٨] مُضَلِّلةً في الظلامِ عن نَهْجي ، ما لم يكن قد أمَرَهَا . بَيْدَ أنها تُطْلَقُ عليَّ [٩] لكلِّ تافهةٍ : فأحياناً مثلَ القِرَدَةِ التي تكشّر وتَضحك [١٠] ازائي وبعد ذلك تعضّني ، ثم أشباهَ القنافذ التي ترقد واقعةً في طريق قدمي العاري وتُصَعِّدُ أشواكها عند وَقْعِ قدمي [١١] وأحياناً تَحْدِق بي كلّي أفاعٍ تَفِحُّ [١٢] بألسنتِها المشقوقة فتدفعني الى الجنون .



(كاليبان تخيفه القنافذ الشيطانية)

(يبدو ترنكيولو)

كاليبان (خائفاً) — أُنظرْ الآنَ أُنظرْ ! ها قد أقبل أحدُ شياطينه، ولكيْ يُعذِّبَني لِتَباطُئي في حَطْبِهِ [١٣] . سأرقد مُنطرحاً لعلّه لا يُبالي بي [١٤] .

---

(١) الرداغ (***bogs***) جمع الردغ وهي الارض الدائمة الابتلال ذات الوحل الشديد (٢) النجال (***fens***) جمع النجل ،وهي المستنقعات السطحية الناشئة عن نز الارض (٣) السهوب — ***flats*** — البطاح (٤) أي : ولتحول جسمه قطعة قطعة الى مرض مجسد (٥) أي لا أستطيع أن اقوم شفقي بلعنه ، او لا أستطيع الا أن العنه (٦) ***urchin-shows*** (٧) ولن تطوح بي أو تقلبني في الموحل الكريه — ***nor pitch me i'the mire*** (٨) ***firebrand*** — الحطب الصغير المشتعل الذي تشيع به النار: اشارة الى خرافة قديمة عن النيران المضللة اذا ما قبست من النجال (٩) تغرى بي لكل ذنب تافه (١٠) يقال لصوت القرد « الضحك » كما يقال لصوت الهرة « المواء » .

(١١) أي قبيل وضعي قدمي على الارض (١٢) تصوت : ***hiss*** (١٣) من الفعل « حطبه » بمعنى أتاه بالحطب ،وهذا غير الاحتطاب أي جمع الحطب (١٤) أي يمضي بنيران يلحظني.



كليبان يثور بهيئة

وكأنهُ سخطٌ على پروسپيرو الذي يجشّمُه هذا العناء ، وفوقه آريل يَتَسمَّعُ لَعَناتِهِ لسيّدهِ .



كليبان يعاقب

مثال آخر من ترويع آريل لكليبان

(يرقد كاليبان ويغطي نفسه بعباءته)

ترنكيولو (ملتفتاً حوله) — لا توجد هنا أجمةٌ [١] ولا فسيلٌ [٢] مطاقاً لتمضي بأيّ جوّ [٣] ، حينما زوبعةٌ أخرى تغلي [٤] . إني أسمعُها تُغنّي [٥] خلال الرّيح . (ناظراً الى السماء) هناك نفسُ السحابة المُدجنة [٦] ، وهنالك قلعةٌ تبدو كالمنجنيق [٧] الدّنِس [٨] الذي يؤذن بأن يُهرِق سائله . فاذا رعدتْ — كما فعلتْ — فلستُ أدري أين أُخبّيء رأسي . هناك نفسُ السحابةِ لا تستطيع الاّ أن تسقط [٩] ملءَ الدّلاءِ [١٠] . (يعثر بكاليبان) ماذا لدينا هنا ، أرجلٌ أم سمكة ؟ أحيٌّ أم ميْتٌ ؟ سمكةٌ : إنّه يفوح كالسّمكة : إنها رائحةٌ سمكيّةٌ عتيقةٌ جدًّا [١١] ! نوعٌ ليس من اجْدَرِ الهَيْقِ [١٢] ! (يسير حول كاليبان) سمكةٌ عجيبةٌ ! لو كنتُ الآن في انجلترا — كما كنت مرةً — وحصاتٌ على رسم هذه السمكة فقط ، فما من غبيّ مُستروح هناك الاّ ويعطى قطعةً من الفضّة [١٣] : هناك يصلح هذا الهولةُ لأن يكون إنساناً [١٤] . أيُّ وحشٍ غريب هناك يصلح لأن يكون إنساناً ، وحينما لا يجودون بدُيْطٍ [١٥] لاغاثةِ سائلٍ أعرج ينفقون عشرةً ليرَوْا هنديًّا [١٦] ميّتاً . (يمعن النظر في كاليبان) له ساقان كالآدمي ! وزِعْنِفتاهُ كساقين ! (يكز كاليبان ، ثم يهتف متحمساً)

(١) الاجمة (*bush*) : الشجر الكثير الملتف (٢) الفسيل (*shrub*) صغار الشجر (٣) أي لتهب بوطأته = لتحمي من قوته = لتصلح ملاذاً منه (٤) أي تتهيأ للعصوف (٥) أي تهف . يقال هفت الزوبعة تهف هفاً وهفيفاً اذا سمع صوت هبوبها (٦) المظلمة المكفهرة .
(٧) القلعة : السحابة الضخمة . والمقصود بالمنجنيق هنا راقود النبيذ ! (٨) القذر الكريه .
(٩) تنصب (١٠) *by pailfuls* ، اي وبلا منهمراً . وماذا لدينا هنا بمعنى ماذا لقينا هنا .
(١١) يريد انها رائحة خبيثة كرائحة السمك المنتن (١٢) أي انه قديم نتن . والهيق (*hake*) هو ما يسميه العامة *Poor John* أي جون المسكين ، وهذا الاسم العامي استعمله شكسبير . وهو سمك نتن وقدد شبيه بالقد *Cod fish* (١٣) أي للتفرج عليه داخل المعرض مجتذباً اليه بصورته المنقوشة . وغبي مستروح ترجمة : *a holiday fool* (١٤) أي يعدونه انساناً . كذلك يجوز استبدال كلمة انسان بكلمة ثري لاحتمال الاصل الانجليزي كلا المعنيين ، ويذهب بعض الشراح الى ترجمة *make a man* بمعنى *make a man's fortune* أي يحرز ثروة انسان (١٥) الديط (*doit*) : عملة هولاندية حقيرة تساوي نصف فارذنج تقريباً ، وتقابل الفلس في تعبيرنا العربي ، ويضرب المثل بها في التحقير والاصغار (١٦) يريد احد هنود امريكا الشمالية . ولعل شكسبير يشير الى الهنود الامريكيين الذين استحضرهم الى انجلترا السير مارتن فوربشر *Sir Martin Forbisher* في سنة ١٥٧٦ م ليشاهدهم مواطنوه .

بذمّتي (١) لقد تَحَمَّسْتُ ! سأطلق (٢) الآن رأيي : لن أوقفه (٣) أكثر : هذا ليس بسمكةٍ بل جزَريٌّ (٤) أصيبَ بصاعقةٍ . (يسمع رعد) ويلي ! لقد عادت الزوبعةُ ! خيرُ طريقةٍ لي هي أن أتسلّلَ تحت بُرْدِهِ (٥) (يفعل ذلك) لا يوجد ملجأ آخر بالقرب من هنا (٦) . الشّقاءُ يُعرّف الانسانَ رفقةَ نومٍ غريبةٍ (٧). سأسكنُ هنا حتى تنقضي ثُمالةُ (٨) الزوبعة. (يسحب عباءة كليبان فوقه)

(يدخل استيفانو مغنياً وفي يده زجاجة)

استيفانو — لن أراني أسبح في البَحرِ في البَحْر * ولكن هنا على الشّطِ موتي (٩)
هذا لحنٌ خسيسٌ جدًّا ليُغنّى في جنازة رجل (١٠) ! حسَنٌ ، هذه عزائي !

(يشرب ، ثم يغني)

الربّان والغاسل (١١) والملاحظ (١٢) وأنا ، والمِدفعيّ ورفيقه (١٣) أحببنا مُولي ومرغريت وماريان ومارجري ، ولكن لم يحفل أحدٌ منا بكيت إذ كان لها لسانٌ قاطعٌ يصيح بالملاح : « إذهبْ الى الشنق ! » لم تعشق (١٤) القطرانَ ولا القارَ ، فالى البحر يا أولاد (١٥) ودعوها تذهب الى الشنق ! هذه نغمةٌ خسيسةٌ أيضاً ، ولكن هنا عزائي ! (يشرب) .

كليبان (يئن تحت عباءته) — لا تعذّبني . أوه .

استيفانو (وقد رأى الحولة كليبان فتراجع) — أيُّ شيء هذا ؟ أعندنا أبالسة هنا ؟ أتُلقون الحِيَلَ علينا بذلك أيّها المتوحّشون والهنود (١٦) ، ها ؟

---

(١) صيغة قسم (٢) سأذيع (٣) لن أطيل بعد كتمانه (٤) أي من ابناء الجزيرة *islander*
(٥) لعل هذه هي مقابلة الكلمة الاسبانية الاصل *gaberdine* التي استعملها شكسبير ، وان ذكر معجم وبستر الاممي (*Webster's International Dictionary*) ان اصل كلمة « جبردين » مجهول .
(٦) أي في هذه الجيرة (٧) أي يلجئه الى مزاملة من لا يود في مرقده. (٨) ثمالة — *dregs* ، اشارة الى وصفه السابق لانسكاب المطر كانصباب الخمر من الراقود (٩) الترجمة النثرية لهذه الاغنية : « لن أذهب الى البحر الى البحر ، هنا سأموت على الشاطيء » (١٠) يعني نفسه
(١١) الغاسل *Swabber* المسؤول عن غسل سطح السفينة ونظافتها (١٢) الملاحظ أو الداري — *boatswain* (١٣) مساعده (١٤) لم تستطع احتمال (١٥) يا رفاق (١٦) أي : أتتحايلون على ارهابي بالظهور في شكل الابالسة أيها المتوحشون والهنود ؟

(يتقدم بشجاعة نحو كاليبان وترنكيولو) إني لم أنجُ من الغرق لأُرَوَّعَ الآن بأرجلك الأربع ، فقد قيل : «لن يستطيعَ أقومُ رجل كانَ ، يمشي على اربع أرجل ، أن يجعله يسلّم أرضه (١) » ؛ وسيقال هكذا ثانياً (٢) ما دام استيفانو يتنفّس من منخريه !

كليبان (حينما يجاهد ترنكيولو ليتغطى أكثر من قبل بالعباءة) — الشيطان يعذّبني ، أوه !

استيفانو — هذا هولةٌ من الجزيرة ذو أربع أرجل مصابٌ — كما أفهم — ببرداء (٣). من أين تعلّم هذا الشيطان لغتنا ؟ سأعطيه بعض الاسعاف ، إنْ لم يكن الا لذلك (٤). لو استطعت شفاءه واستبقاءه أنوساً (٥) واستصحبته الى نابولي فانّه يكون تقدمةً (٦) الى أيّ امبراطور مشى على سِبْتِ (٧) البقر (٨).

كليبان — لا تعذّبني ، أضرع اليك . سوف أكون أسرع في استحضار خطَبي .

استيفانو — انه في نوبته الآن فلا يتكلم متعقلاً . سيذوق من زجاجتي ، فاذا كان لم يذق قطّ خمرةً من قبل فسوف تقترب من رفع نوبته (٩). إذا أنا استطعت شفاءه وإبقاءه أليفاً فلست متقاضياً كثيراً جدًّا لأجله ، بل سيدفع ثمنه من يناله (١٠) ، وسيكون ذلك كاملاً (١١).

كليبان — أنت لم تعذبني حتى الآن الا قليلاً ، لكنك ستفعل فوراً . إني أعرف ذلك من ارتعاشك (١٢) : الآن پروسپيرو يؤثّر عليك .

استيفانو — تحوّلْ الى جانبك (١٣). افتحْ فمك . هنا ذلك الذي سوف يكسبك اللغة (١٤) أيها الهِرُّ : افتحْ فمكَ ، هذا سيهزّ اهتزازك (١٥). إني استطيع أن أنبيك ، وسيكون هذا تماماً (١٦) : لن تقدر أن تميّز صديقك (١٧) !

---

(١) يتزحزح أو يتخلى عن مكانه أي يتقهقر والمراد بأقوم رجل أكمل الرجال تكويناً وأكيسهم (٢) وسيكرر هذا الحكم (٣) البرداء (*ague*) : الحمى مع البرد (٤) أي كرامة لمعرفته لغتنا (٥) *tame* — مستأنساً أليفاً (٦) هدية (٧) *neat's-leather* ، والسبت أصلاً جلد البقر خاصة مدبوغاً ، ويجوز التوسع في استعماله على ما يماثله من جلود (٨) أي من لا يحتذون الا سبت البقر — اشارة الى عظمة ظهورهم (٩) أي فسوف تكون أدنى الى ابرائه ، وهذه ملاحظة طبية من شكسبير لان من يدمن الخمر قلما يستفيد منها طبياً اذا ما اعطيت له دواء في مرض (١٠) يريد أنه وان بالغ في الثمن الذي يفرضه مهما عظم — فلن يكون ذلك في الواقع مبالغة اذ من المستحيل أن يكون ثمنه غالياً بالنسبة الى ابرائه (١١) وسيكون ثمناً تاماً . وكلمة *Soundly* في الاصل بمعنى *thoroughly* (١٢) أي ان هذا الارتعاش من مس السحر (١٣) كلمة *ways* في الاصل بمعنى *Sideways* أي جانبياً (١٤) أي الفصاحة (١٥) أي سيرعش (بمعنى سيهز) ارتعاشك : أي سيقضي عليه (١٦) أي : وسيكون هذا الشفاء تاماً (١٧) يعني سيتمشى هذا الشراب في رأسك فلا تدري شيئاً ولا تميّز .

افتحْ فكّيكَ ثانياً . (يرغم كاليبان على الشرب) .

ترنكيولو — يجب أن أعرف ذلك الصوت. يجب أن يكون — ولكنّه غَرِقَ ، وهذه شياطين ! أوه ، إحْمِني [١] !

استيفانو (ثملاً) — أربع أرجل وصوتان : هُولَةٌ غايةٌ في التّأنُّق! صوتُهُ الأماميُّ هو الآن ليتحدَّثَ خيراً عن صديقه ، وصوته الخلفي ليلفظ أقوالاً خسيسةً ولينتقصَ. سأعينه على بُرَدَائِهِ ولو أبذلُ لشفائه كلَّ الخمرة التي في زجاجتي. تعالَ (يسقيه ثانية) آمين [٢] ! (يأخذ الزجاجة معه متجهاً الى الطرف الآخر) سأصبّ قليلاً في فك الآخر (يبحث عن الرأس الأخرى — رأس ترنكيولو)

ترنكيولو (دهشاً وقد تبين وجه صاحبه) — استيفانو !

استيفانو (مندهشاً خائفاً) — أيناديني فك الآخر ؟ ! (متقهقراً مرعوباً) الرحمة ، الرحمة ! هذا شيطان ، وليس بهُولةٍ : سأتركه ، فليست عندي ملعقةٌ طويلةٌ [٣] !

ترنكيولو (مخرجاً رأسه متوضحاً) — اذا كنتَ أنت استيفانو فالْمُسْنِي وتحَدَّثْ إليَّ فانّي ترنكيولو — لا تكنْ خائفاً — صديقك الحميم ترنكيولو .

استيفانو (بين الشك والاطمئنان) — اذا كنتَ أنت ترنكيولو فلتقدَّمْ [٤] : سأجرّكَ من ساقيْكَ الصغيرين [٥] (يقبض على عقبيه) فاذا كان أيُّها [٦] ساقيْ ترنكيولو فهما هاتان [٧] . (يجره حتى يظهره) أنت ترنكيولو بالذات أكيداً . (مغتبطاً) كيف جئتَ لتكونَ [٨] مَقْعَدَ [٩] هذا العِجْلِ القمريّ [١٠] ؟ !

ترنكيولو (يهم بالوقوف) — حسبتُه قُتِلَ بصاعقةٍ [١١] . ولكن ألم تغرقْ أنت يا استيفانو ؟ أرجو الآن أن لا تكون غريقاً ! هل انقشعتْ الزوبعةُ [١٢] ؟ إنّي خبأتُ نفسي تحت بُرْدِ هذا المَسِيخ المَيْتِ خوفاً

---

(١) احفظني يا الهي ! (٢) يقول آمين ايذاناً باكتفائه بما اسقاه ، كأنما شرب الخمر صلاة العافية له ! (٣) اشارة الى المثل الانجليزي القديم القائل : « من وجب عليه أن يأكل مع الشيطان لا بد له من ملعقة طويلة » أي ليدون على بعد كاف عنه في أي حوار ! (٤) فتعال الى الامام . (٥) يدل تعبيره هذا على أنه ما يزال يشك في صدق حديثه متوهماً أن المدثر أمامه كائن واحد له أربع أرجل (اثنان صغيرتان وأخريان كبيرتان) ورأسان ! (٦) يريد : أي هذه السيقان (٧) اشارة الى عرفانه شكلهما (٨) كيف وقع لك ان تكون . . . . (٩) وفي طبعة اخرى « تحت » ومقابل مقعد في الاصل —*Siege* (١٠) الهولة الذي مسخه تأثير القمر في زعم القدماء = *moon-calf* (١١) أي حسبته أصعق (١٢) هل زالت وانكشفت ؟



تأملات استيفانو

استيفانو (ثملا) — « أربعُ أرجلٍ وصوتان : هُولَةٌ غايةٌ في التأنُّق ! »

من الزّوبعة . وهل أنت حَيٌّ يا استيفانو ؟ (يعانقه فرحاً) هيه يا استيفانو ، لقد نجا نابوليّان [١] !

استيفانو (مترنحاً) — أتوسَّل إليكَ أن لا تُدَوِّرَ بي [٢] ، فانّ معدتي غير ثابتةٍ [٣]

كليان (على ناحية) — هذا شخصان بديعان اذا لم يكونا شيطانيْن . (ناظراً الى استيفانو) ذاكَ إلهٌ شجاعٌ ويحمل شراباً عَلَويّاً [٤] ! سأركع له !

استيفانو (متعجباً) — كيف نجوتَ ؟ كيف بلغتَ هنا ؟ أقْسِمْ بهذه الزجاجة [٥] كيف وصلتَ إلى هنا . أمّا أنا فنجوتُ على راقودٍ [٦] من الصَّهْبَاءِ [٧] كان الملاّحون قدألقوه عنظهر السفينة ، قَسَماً بهذه الزّجاجة التي صنعتُها من لحاءِ شجرةٍ بيديَّ شخصياً منذُ طُرِحْتُ على الشاطيء [٨] !

كليان (متثاقلا في وقوفه) — أقسمُ على تلك الزجاجة أن أكون تابعك الخاص [٩] ، فانّ الشراب غيرُ أرضيٍّ [١٠]

استيفانو (مخاطباً ترنكيولو) — هاكَ ، أقسِمْ إذنْ كيف نجوتَ .

ترنكيولو — عُمْتُ الى الشاطيء يارجُلُ مِثْلَ بَطَّةٍ : إني استطيع أن أعومَ كبطَّةٍ ، وإنّي لأُحَالِفُ (على ذلك) .

استيفانو (عارضاً عليه الزجاجة) — هاكَ قَبِّلْ الكتابَ [١١] ! ولو أنّكَ تستطيع أن تعومَ مثل بَطَّةٍ ، فانك مخلوقٌ مثلَ إوَزَّةٍ !

ترنكيولو (بعد أن يعب جرعة طويلة) — أُوه استيفانو ، أعندك أكثر من هذا [١٢] ؟

استيفانو — الرّاقود كلّه يا رجل : إنَّ قَبْوي [١٣] في صخرٍ بقرب شاطيء البحر وثَمَّةَ خمري مُخَبَّأةٌ . (يتمشى) (يلمس كليان قدميه) كيف الآن يا عِجْلَ القَمر [١٤] ! كيف حال بُرَدَائِكَ ؟

(١) رجلان من نابولي (٢) تدور بي — *turn me about* — تجعلني أدور (٣) غير مستقرة أي نازعة الى التقيؤ (٤) سماوياً ، يريد انه اله جريء نزل من السماء حاملا شراب الآلهة ! (٥) كأنها الانجيل الذي يحلف عليه ! (٦) دن كبير : *butt* (٧) الصهباء (*Sack* أو بالاسبانية *Seco*) خمرة العنب الابيض ، وهي من النوع الجاف في تعريف المتخصصين .

(٨) من الصعب أن نحكم هل هذا القول اضطراب مخمور ، أو أن ما يسميه الزجاجة هي قارورة خشبية صنعها بنفسه من لحاء شجرة (٩) عبدك الوفي (١٠) أي ليس من صنع البشر بل هو شراب الهي (١١) يريد الزجاجة. وفي هذا التعبير اشارة الى تقبيل الانجيل في المحاكم الانجليزية قبل الشهادة (١٢) ألديك مقدار آخر من هذا الشراب ؟ (١٣) قبو : مخبأ (١٤) ياهولة !

كليبان — ألم تسقط [١] من السماء ؟

استيفانو — نازحاً عن القمر ، أؤكد لك . كنتُ الرّجلَ الذي في القمر في وقتٍ ما [٢] ! (يشرب) .

كليبان — لقد رأيتك فيه وانّي لأعبدك : إن سيّدتي أرتني ايّاكَ وكلبك وشجيرتك .

استيفان — تعالَ ، اقسِمْ على ذلك ، قبّلْ الكتابَ [٣] : سأجهّزه عاجلا بمحتويات جديدة [٤] : إحلفْ !

(يقف كاليبان ليأخذ الزجاجة منه ثم يشرب)

ترنكيولو — قسماً بهذا الضياء الباهر [٥] هذا هُولة سطحيّ جداً [٦] ! كنت خائفاً منه ! هولة ضعيف جداً ! الرّجل الذي في القمر ! يا له من هولةٍ مِيقان [٧] مسكين جدّاً ! (يراه قد انتهى من شرب جرعة كبيرة) نغبة [٨] طيّبة يا هُولة ، في صدقٍ مجاملة !

كليبان (مميداً اليه الزجاجة) — سأريكَ كلّ بوصةٍ خصبةٍ من الجزيرة، وسأقبّل قدمَك : أتوسّل اليكَ أن تكونَ إلهي !

ترنكيولو — قسماً بهذا الضّوء [٩] إنّه هولةٌ ختّالٌ وسكّير جدّاً ! حينما ينام إلهُهُ سيسرق زجاجته !

كليبان — سأقبّل قدمَكَ ، وأقسم أني تابعك [١٠] .

استيفان — تعالَ إذنْ ، اركعْ واحلفْ .

ترنكيولو — سأضحكُ نفسي حتى الموت من هذا الهولة الجروي الرأس [١١] . إنّه هولةٌ سافلٌ جدّاً . أستطيع أن أجد في قلبي دافعاً لضربه ...

استيفانو — تعالَ ، قبّلْ .

ترنكيولو — ولكنّ ذاك الهولة المسكين في سُكْرٍ : إنّه هولةٌ شنيعٌ !

---

(١) ألم تهبط . (٢) اشارة الى الخرافة القائلة بأن مظهر جبال القمر ما هو الا صورة رجل يحمل مصباحاً ومعه كلبٌ وعوسجة ، وانه يمثل اشماع القمر (٣) كناية عن امره بالشرب من الزجاجة (٤) سأملأ الزجاجة سريعاً بخمر أخرى . (٥) يقسم بنور الشمس بعد ان انقشعت الزوبعة ، أو لعله يقسم بنور القمر الذي أومئ اليه في حواره مع كاليبان ، والاول هو الارجح (٦) فارغ ، مكين (٧) المصدّق (credulous) ، من لا يسمع شيئاً الا آمن به . (٨) نغبة : جرعة . (٩) ضوء النهار (١٠) عبدك . (١١) puppy—headed monster ، أي الغبي مثل الجرو ، كما قال الخنزيري الرأس pig-heade للبليد ...

كليان (ناهضاً ومخاطباً استيفانو) — سأريكَ أحسنَ العيون [١] ، سأقطف لك التُّوتَ، سأصطاد لك السمك وسأحتطب لك كفاية . الطاعون على الطاغية الذي اخدمه لن أحمل له شَذَباً آخر [٢] بل سأتبعك أيها الرجل المدهش [٣] .

ترنكيولو (هازئاً به) — إنّه هُولَةٌ سخيفٌ جدًّا في خَلْقِهِ العَجَبَ من خمّير مسكين [٤] !

كليان (مخاطباً استيفانو) — أضرَعُ اليكَ أنْ تَدَعني أوردكَ [٥] حيث ينمو التُّفاحُ البَرّي [٦] ، وسأنبشُ لكَ بأظافري الطويلةِ جَوْزَ الخِنزير [٧] ، وسأريك عُشّ قِيقٍ [٨] ، وأعلّمك كيف توقع في الشَّرَكِ المَرْمَرِيَّ [٩] الرشيقَ ، وسأمضي بكَ الى البُنْدُقِ المُوقِر [١٠] ، وأحياناً سأحضر لكَ زُمَّجَ الماءِ [١١] الصَّغيرَ من الصَّخرِ . هل لك أن تمضي معي [١٢] ؟

استيفانو — أتوسل اليك الآن أن تتقدَّمنا في الطريق بلا قولٍ آخر . [١٣] (مخاطباً ترنكيولو) ترنكيولو ! من حيث أنَّ الملكَ وجميع رِفقتنا عداه [١٤] قد غرقوا ، فسَنَرِثُ هنا [١٥] : هنا . إحملْ زجاجتي . يا رفيقي ترنكيولو ، سنملؤها رويداً رويداً ثانيةً [١٦] .

كليان (يغني ثملا) — وداعاً سيّدي [١٧] — وداعاً ، وداعاً !

ترنكيولو (مشمئزاً منه ساخطاً) — هُولَةٌ نبّاحٌ ، هُولَةٌ مخمورٌ [١٨] !

---

(١) اعذب الينابيع (٢) *I'll bear him no more sticks* (٣) ايها السيد البديع . (٤) خلقه = رؤياه ، وخمير *drundkard* والعجب = الاعجاب ، يريد ترنكيولو ان يسخر من اعجاب كاليبان باستيفانو . راجع قوله السابق : هذان شخصان بديعان اذا لم يكونا شيطانين

(٥) اوردك : احضرك : *bring thee* (٦) *crabs = crab apples* (٧) جوز الخنزير *pig-nuts* او جوز الارض *earth-nuts* عبارة عن ارومة *root* تؤكل ، وتحبها الخنازير فتنبشها ولذلك سميت «جوز الخنزير» — شأنها شأن الطرطوفة *truffle* أي الكمأة اوقلقاس الكلب لافتتان الكلاب بنبشها (٨) عش قيق — *jay's nest* عش ابي زريق (٩) *marmoset* نوع صغير من القرود الاميركية طويل الذيل والشعر (١٠) *clustering fiberts* (١١) زمج الماء — النورس *Sea-mells* ، وأظهر آراء الشراح ان *Scamels* الواردة في اصل الرواية مصحفة اثناء النسخ من هذه الكلمة (١٢) هل لك ان تصحبني ؟ (١٣) ولا تزد على هذا الكلام . (١٤) وكل جماعتنا معه . والرفقة = جماعة المرافقين = *Company* (١٥) فسنتولى على الجزيرة (١٦) رشوة ثمل ليجعله يحمل الزجاجة بدلا عنه ! ويجوز استبدال « رويداً رويداً » بكلمة تكراراً . (١٧) يعني بروسبيرو (١٨) أي : ياله من هولة نباح مخمور .

كليبان (مستمراً في غنائه) — لن أقيمَ سُدوداً أخرى من أجل السمك [١]، ولن أستحضرَ الوقودَ عند الطلب [٢]، ولن أمسَح [٣] الجِـواءَ [٤] ولن أغسل الأطباقَ : بَانْ، بَانْ، كا — كَلِيبَانْ [٥]، له الآنَ سَيِّدٌ جديدٌ [٦]، له رجلٌ جديد [٧]. الحرّية، هِيِ — دِيْ، الحرّية، الحرّية! هِيْ دِيْ [٨] ! الحريّة !

استيفانو (موقفاً جلبته) — هِيهِ، أيها الهُولةُ الشُجاعُ ! تَقدَّمْنَا في الطريق.

(يتبعانه حذاء الشاطيء)

تسدل الستار على الفصل الثاني



---

(١) يريد ان أضع الحواجز بعد الآن على الجداول لاجل صيد السمك (٢) عند ما يأمر بروسبيرو (٣) مسح هنا بمعنى سحاً أو حك — *scrape* (٤) الجواء ***trencher*** — المراد به الطبق الخشبي المألوف في البيوت الانجليزية لوضع الخبز عليه (٥) يقطع اسمه في غناء سكره بسبب ما لديه من فواق ***hiccough*** (٦) يريد استيفانو (٧) أي خادم جديد — يريد نفسه بعد خبرته الجديدة للشراب وتعرفه لاستفانو (٨) هتاف فرح مثل ***hurrah***.

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صروف و الدكتور فارس نمر

قيمة الاشتراك — في القطر المصري جنيه مصري واحد وفي سورية وفلسطين والعراق ١٢٠ غرشاً مصرياً وفي الولايات المتحدة ٦ دولارات اميركية وفي سائر الجهات ٢٦ شلناً

اشتراك الطلبة والمدرسين — قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بقيمة الاشتراك وبشهادة من رئيس المدرسة تكون ٨٠ غرشاً مصرياً في مصر و٩٥ غرشاً مصرياً في الخارج

الاعداد الضائعة — الادارة لا تعد بتعويض المشتركين ما يضيع من اعدادهم في الطريق ولكن تجتهد ان تفعل ذلك

المقالات — لا تقبل المقالات للنشر في المقتطف الا اذا كانت له خاصة ولا يعد قلم التحرير بارجاع المقالات التي لا تنشر فنرجو من حضرات الكتاب ان يحتفظوا بنسخة من المقالات التي يرسلونها

العنوان — ادارة المقتطف بالقاهرة — مصر

AL-MUKTATAF

An Arabic Monthly Review of Current Science and Literature.

Published in Cairo Egypt

Founded 1876 by Drs. Y. Sarruf & F. Nimr

SUBSCRIPTION PRICE : Egypt & the Sudan 1 L.E. or 5 Dollars
Foreign 120 P.T. or 6 Dollars



اناء رخامي منقوش



اناء خزفي بديع

درتان من درر فن « المايا » وجدتا في اميركا الوسطى

انظر صفحة ٤٩٢

العاصفة

للشاعر العالمي وليم شكسبير

نقلها إلى العربية

أحمد زكي أبو شادي



موضحة بطائفة من الصور الشهيرة

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم



التحفة الخادعة وعملها

تدخل جملةُ أطيافِ عجيبةِ الصُوَر آتيةً بتحفةٍ وترقصُ حولَها بحركاتٍ رشيقةٍ للتحيّةِ مُومئةً الى الملكِ ومَنْ معه ليتناولوا الطعامَ.



كليبان يعاقب

كلّما كان كليبان يتوانى في واجباته كان بروسبيرو — الذي فقد كلّ عطفه عليه لما تحققه من خسّة طبعه — يدعُ لآريل عقابه، فكان هذا وتباعُه يتشكّلون بصور حيوانات مخيفة تماكسه وترعبه.



التحفة الخادعة وحملتها

ألونسو — «امنحينا حرّاسكِ الابرارَ أيّتها السّماوات . . . .»



آريل يضلل . . .

استيفانو — « تقدَّمْ ياهُولَةُ ، سوف نتبع .   بودّي لو رأيتُ هذا الطبّالَ ،   إنّه يلقي بها عنيفاً »



مصادمة جميلة

بين حبّين من أندر العواطف



ميراندا الحزينة

(مستسلمةً للوجدِ واليأسِ في ساعةِ ضَعْفِهَا)



آريل رسول النقمة

في هيئة عقاب هائلة

يظهر آريل في صورةِ عُقابٍ هائلةٍ تَنْضَرِج نحو المائدة وتَدِفُّها بجناحيْهَا الغُدافيْن ، وبحيلةٍ خارقة تختفي التُحفةُ التي عليها . ويرى هنا پروسپيرو في جبَروتهِ السّحريِّ مُطلاً عليها غير منظور لألونسو واتباعهِ



فردیناند یکد

ميراندا — « أسفاً ، الآن ، أضرع اليكَ أن لاتَـكُـدَّ هكذا » .

الفصل الثالث

المنظر الأول

(أمام كهف بروسبيرو . يرى فرديناند آتياً مجتازاً المروج حاملا جذلا ثقيلا ، حتى يبلغ قرب الكهف فيلقي به الى الارض)

فرديناند — تُوجَد ألعابٌ رياضيَّةٌ شاقَّةٌ ، فاذا بما فيها من حُبورٍ يَدْفَعُ[1] مَشَقَّتَها ، وبَعْضُ صُنُوفِ الحَقَارة قد تُنْفَذُ بِنُبْلٍ ، ومعظمُ الشؤون الفقيرة تُشير الى غاياتٍ سَرِيَّةٍ . هذا واجبي الدنيءُ[2] يكون ثقيلاً لي كما هو كريهٌ لولا أنَّ السيدةَ التي أخدمُها تُحيي ما هو مَيْتٌ ، وتجعل كُدُودِي[3] مَسَرَّات: آه، إنَّها ألطفُ عَشْرَ مراتٍ (في لُطْفِها) من والدِها في فظاظته ، وهو مكوَّنٌ من غَلاظَةٍ[4] . يجب عليَّ أن أنقلَ بِضْعَةَ آلافٍ من هذه الأَجْذَالِ[5] لأُكَدِّسَها على مَضَضِ الانذار : إنَّ سيدتي الرقيقةَ[6] تبكي حينما تراني أَكُدُّ ، وتقول : مثل هذه الحقارة لم يوجد لها مثلُ هذا المنفِّذ[7] . إنِّي أنسى[8] : ولكن هذه الأفكار الحلوة تُنعش فعلاً مجهوداتي كأنِّي لا شُغلَ لي حينما أَكُدُّ .

(ينحني على أجذاله فاذا بالستارة التي تغطي باب الكهف ترفع ، واذا بميراندا تخرج منه وترسل لمحة عاجلة خلفها ، واذا بوالدها يتبعها على الاثر غير منظور لها ولا لفرديناند بفضل قوته السحرية) .

---

(١) يجعلنا ننساها . (٢) أي الذي يناسب أصاغر الناس — يشير الى ما يسخره فيه بروسبيرو. (٣) *labours* أي أشغالي الشاقة . (٤) أي أن درجة لطفها في قياس اللطف عشرة أضعاف شراسة والدها بمقياس الفظاظة، في حين أنه مكون من غلاظة متناهية . وهذه القطعة مثال من اسلوب شكسبير المركز الذي تتمثل قوته وروحه في نقله كما هو (٥) الاجذال جمع الجذل (بكسر فسكون) اصول الحطب العظام *logs* . (٦) ترجمة *sweet* اذ لا يناسبها أن تترجم «الحلوة» في هذا المقام كما يدل السياق . وقوله على « مضض الانذار » — *upon a sore injunction* — اشارة الى انذار بروسبيرو له بالعقاب الصارم اذا قصر في تكديس هذه الاجذال في الوقت المعين (٧) الفاعل (٨) أي اني أنسى أن علي أن أعمل فوراً لئلا يضيع مني الوقت فأستأهل العقاب الصارم .

ميراندا (ذاهبة الى فرديناند ، متأثرة لحالته) — أسفاً ، الآن أضرع إليكَ أن لا تَكُدَّ هكذا : بودّي لو أن البرق أحرقَ تلك الأجذال التي حُتِّمَ عليكَ تكديسُها ! أتوسّل اليكَ أن تحُطَّ هذه الخشَبَةَ وتستريحَ : عند ما تحترق هذه فستبكي[١] لأنّها أنهكتكَ. إنّ والدي مكبٌّ على الدرسِ[٢] ، فأرجوك الآن أن تريحَ نفسكَ. إنّه ليُؤمَنُ[٣] لِمَدَى هذه السّاعات الثلاث.


ميراندا تتوسل الى فرديناند أن يدعها تنقل الأجذال ويستريح هو !

فرديناند — آه ، يا سيّدتي العزيزة جدًّا ، ستغربُ الشّمسُ قبل أن أتمّمَ ما يجب عليَّ أن أجاهدَ لعملِهِ.

ميراندا — لو انّكَ تجلسُ فانّي أحمل أجذالكَ البُرْهَةَ : أتوسّل اليك أن تعطيَني ذلك فأنقله الى الكُدَاسةِ[٤].

فرديناند — كلاَّ ، أيّتها المخلوقةُ[٥] الثمينةُ. أوثر أن أشُقَّ أطنابي[٦] وأن أكسرَ ظهري على أن تكابدي مِثْلَ هذا الخِزْيِ حينما أجلس كسولاً[٧] بجانبك.

ميراندا — (متحايلة) — إنّه ليناسبني جدًّا كما يناسبك : وانّي أهل لانجازه بسهولةٍ أعظم كثيراً ، لأنّ إرادتي الحسنةَ له ، وارادتك مضادّةٌ إياه.

بروسبيرو (في ردائه السحري على ناحية ، ناظراً اليها بعطف وغير منظور) — دودةٌ[٨] مسكينةٌ ، لقد أُعْدِيتِ[٩] ! هذه الزيارةُ تُثبتها[١٠].

ميراندا — — إنك تبدو منهوكاً.

---

(١) اشارة الى تصويت الجذل المحترق عند ما يتبخر ماؤه وتخرج عصارته التي كأنها الدموع ، وهو تعبير شعري قوي مناسب للمقام. (٢) منهمك في دراساته السحرية. (٣) أي ان مفاجأته لتؤمن مدى الثلاث الساعات التالية ، أو: ان انهماكه في المطالعة مضمون في هذه المدة. (٤) الكداسة = *pile* = أي رصيص الأجذال. البرهة = برهة راحتك. (٥) تعبير ألفة ومحبة واعزاز ، وكأنما يقول : أيها الكنز النادر (٦) أوتار جسمي — ***my sinews*** (٧) جباناً. (٨) هذا التعبير في اصل استعماله المجازي للاحتقار ، ولكنه مستعمل في هذا المقام للعطف والاشفاق. (٩) أي اعديت بالحب. (١٠) تثبت عدوى الحب.



بروسبيرو في اعمائه السحري

فرديناند — كلاّ يا سيدتي النبيلة ، انّه لَصُبْحٌ ناضرٌ[١] لي حينما تكونين بالقُربِ ليلاً . إنّي أتوسّل اليك (أن تخبريني) — على الأخصّ كيما أذكره في صَلَوَاتي — ماهو اسْمُكِ ؟

ميراندا — ميراندا . — (محولة نظرها عنه) آهِ ياوالدي ، لقد نَقَضْتُ تحذيرَكَ[٢] في قولي هكذا[٣] .

فرديناند (ذاهباً اليها) — أيْ ميراندا المُعْجَبُ بها[٤] ! أكيداً ذُرْوَةُ الاعجاب[٥] ! إنكِ لَتُساوين أغلى ما للدّنيا[٦] ! كم مِنْ سيّدةٍ رَمَقْتُها بأحسن رعايةٍ ، وكثيراً ما أوْرَدَتْ سمعي اليَقِظَ الأسْرَ نَغَمَةُ ألسنتهنّ . الفضائلَ شَتّى أحببتُ جُملةَ نساءٍ[٧] ، ولكن لم اتَعَلّقْ احداهنّ مُطْلَقاً بمثل هذا الرُّوح الممتليء[٨] الا ووجدتُ أن نقصاً فيها كان يتصادم مع أنبل ما حازتْه من رشاقةٍ وأوْرَدَها الخيبة[٩] : أمّا أنتِ ، آه أنتِ ، الكاملة والفريدة هكذا ، فمخلوقة من أحسن ما لكلِّ مخلوقٍ !

---

(١) مشرق (٢) broke your hest وكلمة «نقض» في العربية مقابلة لنظيرتها الانجليزية في الاستعمالين الاصيل والمجازي ، فتأتي بمعنى كسر كما تأتي بمعنى خالف . (٣) في ذكري ذلك . (٤) أي التي تستأهل أن يزفّ اليها الناس اعجابهم ومحبتهم . (٥) أي أكيداً أنت تمثلين أسمى ما يمكن أن يصل اليه الاعجاب. (٦) أنفس ما تحوزه الدنيا . (٧) أو يمكن ترجمتها هكذا : الفضائل خاصة أحببت خاصة من النساء ، على اعتبار ان كلمة several معناها خاصة أو متميزة . (٨) بمثل هذا الحب الكامل . (٩) ويجوز ترجمتها هكذا : لم أجد احداهن أبداً بمثل كمال نفسك الا ووجدت فيها رذيلة تتصادم مع فضائلها فتهزمها . وسبب الاختلاف في تقدير المعنى تركيز الاسلوب وان كان في هذه القطعة صافياً . وعندنا ان سياق الكلام تناسبه الترجمة التي اخترناها.

ميراندا — إنّي لا أعرف واحدةً مِنْ شِقّتي [١] ، ولا أذكر وجهَ امرأةٍ سوى وجهي مِنْ مرآتي ، وكذلك لم أرَ ممن يجوز لي أن أسمّيهم رجالاً أكثر منكَ [٢] — أيها الصّديق المخلص — ومن أبي العزيز . فأمّا عن ملامح الناس خارجاً [٣] فانّي عديمة الخبرة بها [٤] ، ولكن قَسَماً بعفّتي — وهي الجوهرة التي في بائنتي [٥] — إني لا اشتهي رفيقاً في الدنيا سواك ، ولا يستطيع التخيّل أن يمثل صورة بجانب ذاتك لأحبها .... ولكنّي بالأخرى [٦] أثرثر جامحةً جدًّا [٧] ، وأنسى بذلك وصايا والدي .

فرديناند — إني في منزلتي [٨] أميرٌ يا ميراندا ، بل أظنّ أنّي مَلك [٩] — وإنْ بودّي أن لا أكون هكذا ! — وما كنتُ لأحتمل هذا الرّقّ الخشَبي [١٠] أكثر من معاناتي ذُبابَ الجيفةِ يُعدّد فيّ [١١] ، فاسمعي روحي يتكلم : في اللحظة التي رأيتك طار قلبي لخدمتك ، وثمّة يقيم ليجعلني عبداً لها [١٢] ، ومن أجل خاطرك أنا ذا حاملُ الجِذْلِ الصّبور [١٣] .

ميراندا — أتحبّني ؟

فرديناند — أيتها السّماء ، ايتها الأرض ، كوني شاهدةً على هذا الصوت وتوّجي ما أعلن بنتيجةٍ كريمةٍ [١٤] اذا تحدّثتُ صادقاً ! واذا كان قولي أجوفَ [١٥] فاقلبي [١٦] خيرَ ما وُعِدْتُ الى شرٍّ ! إني — الى أبعدَ مِنْ جميع الحدود لكلِّ شيء آخر في الدنيا — أحبّكِ وأقدّرك وأحترمك .

ميراندا (باكية) — إني لَغَبيّةٌ في بكائي لما أفرح منه .

بروسبيرو (لا يزال غير منظور) — مصادمةٌ جميلةٌ بين حُبّين من أندر العواطف ! أمطري أيّتها السّماواتُ النّعمةَ [١٧] على ذلك [١٨] الذي ينمو بينهما !

فرديناند — لماذا انت تبكين ؟

---

(١) أي من بنات جنسي — *one of my sex* . (٢) أحداً غيرك . (٣) أي خارج الجزيرة او في جهات أخرى (٤) فاني جاهلة تماماً لها . (٥) وهي أثمن ما ازف به . (٦) ترجمة *something* بمعنى *rather* في هذا المقام . (٧) *too wildly* ، أي بلا حساب .
(٨) في درجتي الاجتماعية الطبيعية (٩) اشارة الى تخوفه من غرق والده الملك . (١٠) يريد استعباد بروسبيرو اياه لحمل الأجذال . (١١) يعيثه كما يفعل بالجيفة . (١٢) أي لهذه الخدمة . (١٣) *log- man* (١٤) أي باستجابة عاطفة . (١٥) خادعاً ، أو بعيداً عن الاخلاص . (١٦) لحولي . (١٧) البركة (١٨) الشعور : الحب.

ميراندا — لِعَدَم أهْلِيَّتي التي لا تجرُؤ على عَرْضِ ما أرْغَبُ في أن أُعْطِيَهُ ، وأقَلُّ كثيراً عدم جُرْأتِهَا على أخذ ما سأموتُ إن حُرِمْتُهُ . — ولكنَّ هذا (١) عَبَثٌ ، وكلما حاولتْ (عواطفي) أن تحجبَ نفسَها أظهرت حَجْماً أكبر (٢) . وإذنْ (فلتذهبْ) أيها الدّهاء الخجول (٣) ! وحَشِّيني أيتها البراءةُ السّاذجةُ الطاهرةُ ! — أنا زوجتُكَ إذا أردتَ أن تتزوَّجَ بي ، فاذا لم تشأ فاني أموتُ خادمتَكَ : فلعلك تأبى أن أكون قرينتك (٤) ، ولكنّي سأكون خادمتك سواء أردتَ أم لم ترد .

فرديناند — سيدتي وأعزُّ الناس عندي ! — بل أنا خادمُكِ الذليلُ الى الأبد .

ميراندا — زوجي إذن ؟

فرديناند — نعم ، بقلبٍ تَوَّاقٍ كَتَلَقّي العبدِ للحريةِ : هاكِ يدي !

ميراندا — ويدي ، وفيها قلبي : والآن وداعاً حتى نصف ساعة من الآن.

فرديناند — ألفَ ألفٍ (٥) .

(تعود ميراندا الى الكهف . ويمضي فرديناند حاملا جذله)

بروسبيرو — إنّي لمسرور جدًّا ، لأنّي وإنْ لم أكن مثلَهما وقد بُوغتَا بكلِّ شيء ولكن فرحي لن يكون أعظمَ بأيّ شيء . فلأذهبْ الى كتابي (٦) ، إذْ عليَّ بَعْدُ — قَبْلَ موعد العشاء — أن أنجز شُغلاً كثيراً يَخصّ ما بيدي .

(يتبع ميراندا)

---

(١) أي قولها هذا الذي تستتر به عواطفها الدفينة وأمنيتها . (٢) أي كلما أردت أن أستر نزعات حبي بكلمات حيائي شعرت في نفسي بازديادها وكبر حجمها . (٣) تحايل العذراء الحيية . (٤) زميلتك . (٥) ألف ألف وداع . (٦) الى كتابي السحري .

المنظر الثاني

(جزء آخر من الجزيرة، حيث يشاهد كاليبان واستيفانو وترنكيولو ماشين مترنحين في صحبة السكر المستولي عليهم. ويقف استيفانو ليرد جدياً باهتمام على احتجاج ترنكيولو ضد كثرة الشرب من بقية الخمر التي في الزجاجة)

استيفانو (غاضباً) — لا تُكلّمْني ، حينما يفرغ الرّاقودُ سنشرب ماءً ، ولا قطرةً قبل ذلك [1] . وإذنْ هيَّا نتشجع ونَغْتَالهم [2] ! (رافعاً الزجاجة الى فم كاليبان) إشربْ نخبي أيها الخادمُ الهُولَةُ !

ترنكيولو (متظاهراً بالاحتشام والوجاهة ، ولكن مشفقاً عليهما) — أيها الخادم الهُولَةُ ! يا غباوةَ هذه الجزيرة ! يقولون إنه لا يوجد سوى خمسةٍ على هذه الجزيرة : نحن ثلاثة منهم ، فاذا كان الاثنان الآخران بمثل عقولنا (يترنح) فسوف تترنح الدولة !

استيفانو — إشْرَبْ أيها الخادمُ الهُولَةُ حينما آمرُكَ : إن عينيْكَ مُثَبَّتتان [3] تقريباً في رأسِكَ .

ترنكيولو — أين يَجبُ أن تُثَبَّتَا خلا ذلك ؟ [4] أكيداً يكون هُولَةً شجاعاً ، لو أنَّهُمَا ثُبِّتَتَا في ذَيْلِهِ !

استيفانو — لقد أغْرَقَ رَجُلِي الهُولَةُ لسَانَه في الصَّهباءِ [5] : أمَّا عنّي فانَّ البحر لا يستطيع أن يُغْرِقَني ! إنّي عُمْتُ قبل أن أستردَّ الشاطئ خمسةً وثلاثين فرسخاً — سواء أكثر أو أقل [6] . قَسَماً بهذا النور سوف تكون أنت نائبي العسكري [7] أو حاملَ عَلَمِي ! (كلاهما يترنح) .

ترنكيولو (ساخراً) — نائبُكَ العسكريُّ اذا اخترتَ [8] ، لكنّه ليس حاملَ عَلَمٍ [9]

---

(١) ولن نشرب قطرة من الماء قبل ذلك . (٢) تعبير البحارة عند ما تهاجم مركب أخرى . وكل معناه هنا : الى الأمام لمهاجمة خصمنا (يريد زجاجة الخمر !) .
(٣) *almost set* — أي صارتا ثابتتين أو مسجدتين (والاسجاد ادامة النظر مع سكون كاسجاد بصر الميت) من أثر السكر . (٤) يدىء ترنكيولو فهم غرض استيفانو اما عمداً وتغابياً لأجل المزاح والتهكم واما غباوة منه . (٥) أي لا يستطيع النطق من سكره . (٦) أي عمت زهاء خمسة وثلاثين فرسخاً (نحو مائة ميل) قبل رجوعي الى البر ثانية. (٧) دليلي الحربي *my lieutenant*. (٨) اذا استحسنت .
(٩) لانه ثمل قلق .

استيفانو (متعلقاً به) — لن نَهربَ [١] يا مسيو هُولَةْ !

ترنكيولو (ساخراً بهما) — لا ولن تَمشيَا أيضاً ، بل ستكذبان[٢] كالكلابِ ومع ذلك لن تقولا شيئاً .

استيفانو (منبهاً كليبان) — يا عِجْلَ القَمرِ ، تَكَلَّمْ مرَّةً في حياتك [٣] ، اذا كنت عجلاً قريناً صالحاً !

كليبان — كيف حال سموّكم؟ دَعْني ألعق حذاءَكَ . لن اخدمَه[٤]، فليس هو ببطل.

ترنكيولو (مهدداً كليبان) — أنت تكذب أيتُها الهُولَةُ الافّاكُ : إني في حالةٍ تَصْدِمُ الشُرْطيَّ . [٥] لماذا ، أيَّتها السَّمكةُ المُلْتَخَّةُ [٦] ، أنتَ ، هل وُجِدَ أبداً رجلٌ جبانٌ كان شرب وفْرَةً كهذه من الصّهباءِ مثلي أنا اليوم؟ أترتجل كذبة شنيعةً وأنت فقط نصْفُ سمكةٍ ونصْفُ هُولَةٍ ؟ !

كليبان (مخاطباً استيفانو) — أنظرْ كيف يَهْزأُ بي ! أتدَعُهُ ياموْلايَ ؟

ترنكيولو — يقول «مولايَ» ! أهولةٌ ويكون ساذجاً [٧] هكذا !

كليبان (مخاطباً استيفانو) — أنظرْ ، أنظرْ ثانياً ! عضّه حتى الموت ، أتوسّل اليك !

استيفانو (في عظمة ملكية) — ترنكيولو ! صُنْ لساناً طيّباً في رأسك[٨] : إذا برهنتَ أنك متمرّدٌ[٩] — فالشجرةُ التاليةُ ! [١٠] إنّ الهُولَةَ المسكينَ رعيّتي ولن يتحمَّلَ إهانةً .

كليبان — أشكر مولايَ النّبيل . هل لكم[١١] أن تستمعوا مَرَّةً أخرى الى الدَّعْوَى التي رفعتها اليكم ؟

استيفانو — وحَقِّ مريم [١٢] سأستمع : أجْثُ وأعِدْهَا ، أمَّا انا فسأقف، وكذلك سيقف ترنكيولو . (يتغلب على ثمله فينجح في الوقوف وعليه سيماء الفخر بهذا النجاح !)

---

(١) أي لن نهرب من العدو ! (٢) أي ستقولان كذباً . وكذلك بمعنى ستعجزان عن السير (أو سترقدان) ، وفي هذا التعبير تلاعب لفظي بالمعنى (تورية) . يقال كذب الرجل السير بمعنى عجز عنه . فالكلمة مستعملة بمعنييها . (٣) أي اذا كنت لم تتكلم بتاتاً من قبل . (٤) يريد بروسبيرو . (٥) يعني أن روحي الثملة لها من الجرأة والولوع بالمصادمة ما يكفي لدفع أي انسان حتى رجل الضبط! (٦) الملتخ = deboshed ونظيرتها العصرية debauched = أي السكران الذي لا يتماسك ولا يتمالك (الاصمعي) . (٧) يريد أبله (٨) أي في فمك ، يستعمل المؤلف الكل بديلا عن الجزء ، ومراده : كن مؤدباً (٩) اذا اتضح انك عاص . (١٠) أي : فالشجرة التالية موضع شنقك . (١١) يخاطبه بصيغة التفخيم. (١٢) ترجمة Marry أي By Mary = وحق العذراء مريم .

(يظهر آريل ، ولكن خافياً عليهما)

كليبان (هاوياً على ركبتيه) — كما أخبرتكم سابقاً إنّي تابعُ طاغيةٍ ساحرٍ سَلَبَني الجزيرةَ خُدْعةً بدهائِهِ .

آريل (مقاطعاً ومقلداً صوت ترنكيولو) — أنتَ تكذب ! [1]

كليبان (مزمجراً نحو ترنكيولو) — أنت تكذب أيها القرد المُهَرِّج[2]، أنت : بودّي لو أنَّ سيّدي البطلَ يُبيدُكَ ! أنا لا أكذب .

استيفانو — ترنكيولو ! اذا أنت ازعجتَه [3] مرةً أخرى في قصّتهِ فسأخلع[4] بهذه اليد بعضَ أسنانكَ .

ترنكيولو (مستغرباً) — لماذا ، إنّي لم أقُلْ شيئاً !

استيفانو — اسكتْ إذنْ وكفَى . (مخاطباً كليبان) استمر .

كليبان — أقول إنّهُ بالسّحراستولى على هذه الجزيرة ، إنّهُ أخذها مني .فاذا ثأرتْ عظمتُكَ منه—فاني أعلم أنكم تجرُؤون ولكنّ هذا الشيء(مشيراً الى ترنكيولو) لا يَجرُؤ —

استيفانو (مقاطعاً) — ذلك جدُّ مُحقَّق .

كليبان — ستكونون سيّدها[5] وسأخدمكم[6].

استيفانو — وكيف الآن يُبَيْكَرُ[7] ذلك ؟ ألا تستطيع أن تُحضِرَني الى ذلك الشخص ؟

كليبان — أجلْ ، أجلْ يا مولاي : سأسلّمه اليكَ وهو نائمٌ حيث تستطيع أن تدقَّ مسماراً في رأسهِ !

آريل (مقلداً صوت ترنكيولو الذي لا يسمعه) — أنت تكذب ، أنت لا تستطيع .

كليبان (منقلباً على ترنكيولو ثانية) —أيُّ عَقعَقٍ أبْلَهٍ[8]هذا ! أنتَ أيهّاالرُّقْعِيُّ

---

(١) يقضي تأثير آريل السحري بأن لا يسمع ترنكيولو مقاطعته حينما يسمعها الآخران ! (٢) المخلط في حديثه بما يضحك (٣) قاطعته وضايقته: (٤) يستعمل هذه الكلمة بعظمة ملكية بمعنى « سأعزل » !
(٥) مولى الجزيرة وصاحبها . (٦) وسأكون عبدكم . (٧) بمعنى يحاط بالبيكار ***to be compassed*** اي يحدد ويحقق — ***to be accomplished*** . ولعل هذا التعبير الهزلي المفخم الذي يمليه سكر استيفانو المتوهم الملك والعظمة أقرب الى غرض شكسبير ، وان كان الخطاب موجهاً الى متوحش مثل كليبان لا يفهم ما هو البيكار ، ولذلك أردف هذا السؤال بسؤال آخر مفسر له. (٨) ***bied ninny*** أي شبيه لباسه بريش العقعق (***magpie***) المرقش ، وذلك لأن ترنكيولو كان يلبس بحكم وظيفته (مضحك الملك) ذلك اللباس المرقش أي المتعدد الالوان .

السّافل (١) ! (مخاطباً استيفانو) إنّـي لأضرعُ الى عظمتكم أن تلكموه لكماً وتأخذوا زجاجتَه منه : فحينما تغيب تلك (٢) فلن يشربَ شيئاً سوى الماءِ المِلحِ (٣) ، إذْ أنّي لن أدُلّه أين توجَدُ الينابيعُ السّلسالة (٤).

استيفانو — ترنكيولو ! لا تجْرِ الى خطرٍ أبعد : قاطعْ الهُولة بكلمةٍ واحدةٍ بعدُ، وأنا بهذه اليد أطردُ الشّفقةَ خارجَ الباب (٥) وأصنعُ منك سمكاً مُدّخَراً (٦) !

ترنكيولو (مندهشاً) — لماذا، ماذا صنعتُ ؟ لم أفعل شيئاً. سأذهب بعيداً .

استيفانو — ألم تقلْ إنّه كَذَبَ ؟

آريل (هاتفاً في أذن استيفانو ومقلداً صوت ترنكيولو) — أنتَ تَكْذِبُ !

استيفانو (غاضباً) — أأنا كذلك ؟ خُذْ هذا ! (يضرب ترنكيولو) وبما أنك تحبّ هذا فلتكذّبْني مرةً أخرى !



استيفانو يضرب ترنكيولو حينما آريل فرح بعاقبة دسه وكاليبان يقهقه .

ترنكيولو (متخلصاً من ضربه) — إنّي لم أكذّبْ . أتجرّدتَ عن عقلك وسمعك أيضاً ؟

---

(١) *scurvy patch* : أي أيها المنغل المنحط ، وقوله الرقعي اشارة الى رقع ثيابه كما تقول الشرطي لرجل الضبط لأنه أعلم نفسه بشرط (أي علامة) خاص يعرف به (٢) لحينما يفقد الزجاجة . (٣) ماء البحر = *brine* . (٤) *the quick freshes* . (٥) أي أتخلى عن الرحمة . (٦) يطلق اعتياداً هذا الاسم (السمك المدخر = *stock fish*) على القد المجفف غير المملح (*dried cod*) ، ويريد استيفانو أن يقول : «سأضربك كما يضرب القد المجفف قبل غليه في الماء !» ، واستعمال مثل هذا التعبير على لسان استيفانو المحتك بالبحارة غير مستغرب ، ولا يسعنا الا الاعجاب بمعلومات شكسبير المتنوعة المستمدة من ألوان الحياة وادخاره اياها في ذهنه ثم الاقتباس منها في المناسبات الصالحة لها في تقصه على ألسنة شخوصه .

الجُدَرِيُّ على زجاجتك ! هـذا ما تستطيع الصّهباءُ والسّكرُ أن يَفعَلا .
المُرّانُ[١] على هُولَتِكَ ، ولْيأخذْ الشيطانُ أصابعَكَ .

كليان — ها ، ها ، ها !

استيفانو (عائداً الى كليان) — الآنَ عَجِّلْ بحكايتك . (محذراً ترنكيولو)
أرجوكَ أن تبتعد أكثر من هذا .

كليان — إضربْه كفايةً : وبعد زمنٍ قليل سأضربُه أنا أيضاً !

استيفانو — قِفْ أبعدَ مِنْ هذا . (الى كليان) هيّا[٢] ، تَقَدَّمْ[٣] .

كليان — لماذا[٤] ، كما أخبرتُ عظمَتكم مِنْ عادتِهِ أن ينامَ بعد الظَّهيرَةِ : فهناك[٥] يمكنك أن تَمْتَخّه[٦] بعد أن تَستَولي على كُتُبِهِ[٧] ، أو أن تَدْمَغَ بجذْلٍ جُمْجمتَه[٨] ، أو أن تَبْقِرَهُ[٩] بوتَدٍ ، أو أن تحلقِمَهُ[١٠] بمُدْيَةٍ . تذكّرْ أوّلاً أن تحوزَ كُتُبَهُ ، لأنّه بدونها محْضُ أبلهٍ مثلي ، لا ولنْ يملك طيفاً واحداً ليتسلَّطَ عليه :[١١] فجميعهامثلي تَمْقُتُهُ مَقْتاً متأصّلاً . أَحْرِقْ فقط كُتُبَهُ[١٢]. إنّ لديه أدواتٍ فاخرةً[١٣] — إذْ هو يسمّيها هكذا — وعند ما يكون له بيتٌ سيزينه بها جميعاً . وما يستدعي غاية التقدير العميق هو جمالُ ابنته ، وهو نفسه يقول انها عديمة النظيرة : إنّي لم أرَ بتاتاً امرأةً غير سيكوراكس أمي وغيرها ، ولكنهاتفوق جداً سيكوراكس كما يفوق الأعظم الأحقر .

استيفانو — أهي غانية جميلة الى هذا الحدّ ؟

---

(١) المران (*murrain*) التهاب وبائي للرئة وغشائها المصلي في البهائم ، ويعرف كذلك « بالجائحة » . (٢) ترجمة *come* ، وهي هنا في موضع الحث على الكلام لادعوة للاقتراب اذ ما يزال كليان جاثياً وهو يسرد قصته . (٣) أي تقدم برواية قصتك .
(٤) كلمة اعتراضية للتنبيه . (٥) أي في غرفة نومه . (٦) أي تخرج مخه . (٧) كتبه السحرية التي هي مصدر قوته لأنه بارشادها يستطيع أن يسخر الشياطين . (٨) *batter his skull* ، والدمغ هو الهشم البليغ للجمجمة . (٩) تشق بطنه . (١٠) تحز حلقومه = *cut his wezand*. (١١) أي جميع الاطياف أو الأرواح السحرية . (١٢) استعمل شكسبير كلمة فقط هنا استعمالاً مزدوجاً لتعلقها بكلمة «أحرق» وبكلمة «كتبه» في آن واحد ، فالمستفاد من قوله « أحرق فقط » تحتيم الاحراق ، والمستفاد من قوله « كتبه فقط » حصر الاهتمام فيها . (١٣) فاخرة = *brave* اي أشياء بديعة متميزة بغرابتها وفوائدها

كليبان — أجل ياموﻻيَ ! إنّـي لضمينٌ [١] .

استيفانو — أيّـها الهُـولَةُ ! سوف أقتل هذا الرّجلَ ، وستكون كريمتُـه وأنا مَلِكاً ومَلِكةً — (ليبق الله حظوظَـنا !) — [٢] وسيكون ترنكيولو وشخصُـكَ نائبيْ مَلكٍ . أتستحسن هذه المؤامرة ياترنكيولو ؟

ترنكيولو — بديعة !

استيفانو — أعْـطِني يدَكَ : إنّـي آسفٌ لِضَـربِي إيّـاكَ ، ولـكنْ ما دمتَ تَـعيشُ فاحفظْ لساناً طيّباً في رأسِكَ . (يتصافحان بغاية الوقار !)

كليبان — في غضون نصف الساعة هذه سيكون نائماً : هل لك أن تَـقْـضِـيَ عليهِ إذَنْ ؟

استيفانو — أجَـلْ ، بشرفي .

آريل (على جانب) — سأبلّـغُ هذا الى سيّـدي .

كليبان — إنك تجعلني مَـرِحاً ، إني لممتلئٌ سروراً : دعنا نكون طَـرِوبين : هل لك أن تُـنْـشِـدَ النشيد المتلاحق [٣] الذي علّـمتني إيّـاهُ منذ بُـرهةٍ قصيرةٍ فقط ؟

استيفانو — عند طلبك يا هُـولَـةُ سألبي المعقول ، أيَّ شيءٍ معقول . هلمَّ يا ترنكيولو ، دعنا نغنّـي . (يغنى)

إضحكْ منهمْ واسخَـرْ منهمْ
واسخرْ منهمْ واضحكْ منهمْ
إنّمـا الفِـكـرُ حُـرٌّ ! [٤]

كليبان — تلك ليست النغمة .

(يعزف آريل هذا اللحن على طبلة (٥) جانبية ومزمار)

استيفانو (محملقاً حوله ، دهشاً متبلبلا) — ما هذه الأنشودة النّـظيرة ؟

ترنكيولو — هذا هو لحن نشيدنا المتلاحق ، تَعزفُـه صورةُ « لا شخصٍ » [٦] !

---

(١) توجد رواية اخرى لردكاليبان في طبعة اكسفورد وكامبردج وهذا نص ترجمتها : «أجل يا مولاي ، سوف تصير زوجتك ، اني لضمين ، وسوف تلد لك نسلا شجاعاً ». (٢) ترجمة *save our graees*
(٣) *the catch* ، أي الذي يشترك في غنائه اكثر من فرد ، فيتبع كل الآخر بغنائه في جزء معين منه ، وهكذا تتلاحق أجزاؤه . (٤) كأنما يريد باغنيته أن يقول : ماذا يدعونا الى العناية بهم ؟ لن نطأطيء رؤوسنا لهم أبداً فان عقولنا ملك لنا ، ولنا أن نقول ما نشاء . (٥) الطبلة هي الطبل الصغير = *tabor* ، والمألوف أن يضرب عليها بمضرب واحد نفس العازف على المزمار . (٦) أي يعزفه خيال غير منظور . وفي قوله «لاشخص» اشارة الى صورة شخص تمثيلي مضحك اسمه «لاشخص» في رواية تمثيلية هزلية عنوانها (لا شخص وشخص ظاهر — *Nobody and Somebody*) ظهرت سنة ١٦٠٠ م . وما تزال صورته ترسم على ألواح الحانات .

استيفانو (متجهاً بخطابه الى الهواء) — اذا كنتَ انساناً فأظهِرْ نفسَكَ في صُورتك، واذا كنتَ شيطاناً فخذها[١] كما تشاء .

ترنكيولو (زاحفاً على الأرض) — واغفرْ لي خطاياي !

استيفانو — إنَّ مَنْ يموت يدفع جميعَ الدّيون : إنّي أتحدّاك[٢] . (يسقط شفقةً علينا[٣] !

كليبان — أأنت خائفٌ !

استيفانو (متظاهراً بالشجاعة) — كلاّ ، ياهُولَةُ ، لستُ أنا[٤] .

كليبان — لا تكنْ خائفاً . إنَّ الجزيرة ممتلئةٌ بجلَبَةٍ[٥] ، وبأصواتٍ ، وبألحانٍ عَذْبَةٍ تمنح الحُبورَ ولا تَضرُّ. وفي بعض الاحيان كانت تُطنطن ألفُ آلةٍ عازفة حول أذنيّ ، وأحياناً أسمع أصواتاً تجعلني[٦] أنامُ ثانيةً إذا كنتُ وقتئذٍ أفقتُ بعد نَوْم غَرِقٍ[٧] ، وحينئذٍ في احتلامي[٨] كان يُخَيَّلُ اليَّ أنَّ السُّحبَ تَتَفَتَّحُ وتَكشِفُ ثَروةً على وشك أن تَهبطَ عليَّ ، بحيث أنّي متى استيقظتُ نُحتُ تَلَهّفاً على أن أحلم ثانيةً .

استيفانو — سوف تثبتُ لي هذه أنها مملكةٌ بديعةٌ حيث سأنال موسيقايَ بلا ثمن !

كليبان (مذكراً) — حينما يُهلَكُ پروسپيرو .

استيفانو — سوف يتمّ هذا في وقت قريب[٩] .إنّي أذكر القصّة.

(يمضي آريل وهو ما يزال يعزف)

ترنكيولو (منتصباً على قدميه) انَّ الصوتَ آخذٌ في الابتعاد ، هيا نَتْبَعُهُ وبَعْدُ نُنجز عَمَلَنا .

استيفانو — تَقَدَّمْ ياهُولَةُ ، سوف نَتْبَعُ . بوَدّي لو رأيتُ هذا الطَّبَّال[١١] ، إنّه يُلقي بِها عنيفاً[١٢] .

ترنكيولو (مخاطباً كليبان) — أأنتَ ماضٍ[١٣] ؟ إني سأتبع استيفانو . (يتجهون الى داخلية الجزيرة تابعين موسيقى آريل ، ويرفع الستار عن المنظر الثالث).

---

(١) أي فتصرف بهيئتك وخطتك كما تشاء . (٢) يعني : اذا أنت قتلتنا فاننا ندفع ثمن ذنوبنا جميعاً وننجز ما علينا ، فأنا أتحداك أن تصنع أسوأ ما تريد . (٣) يصيح هكذا حينما يتملكه الروع . (٤) لست أنا الذي يخاف . (٥) يريد بأنغام مختلطة (٦) أي تستهويني (تستميلني) الى أن أعود الى النوم . (٧) بعد نوم عميق. (٨) *in dreaming* (٩) ترجمة *by and by* بالمعنى الذي أراده شكسبير . (١١) *laborer* . (١٢) ترجمة *he lays it on* = أي أنه يلقي بضرباته على الطبلة بسرعة وقوة = أي انه يتقن الضرب عليها . (١٣) يسأله هذا السؤال لأنه يعلم ان كليبان يؤثر التوجه فوراً الى پروسپيرو لقتله.

المنظر الثالث

(مشهد مخرفة (١)، وقد أقبل من الغابة كل من ألونسو وجنزالو وأدريان وفرانسسكو وغيرهم في كلال واعياء من طول السير ، وعلى أثرهم سيباستيان وأنطونيو)

جنزالو (مستلقياً بفتور) — قَسَماً بسيّدتنا الصغيرة [٢] إني لا أستطيعُ الذهابَ أبعدَ مِنْ هذا يا مولاي . إنّ عظامي الهَرِمَةَ تُوجِعُني: هذا تِيهٌ مَشَيْنا [٣] فيه حقيقةً خلالَ خُطوطٍ مستقيمةٍ ودوائرَ ! إذا سمح صبرُكَ فانه يعوزني حتماً أن استريح .

(يجلس الجميع فوق العشب او فوق الاغصان القافلة [٤] حينما يبقى أنطونيو وسيباستيان بمعزل قليل عن الباقي)

ألونسو — أيها السيّدُ الهرم، لا أستطيع أن ألومَكَ أنا الذي شخصيًّا تملّكني السّأمُ [٥] حتى أخْمَلَ هِمَّتي [٦]: إجلسْ واسترحْ . حتى هنا [٧] سأتخلّى عن أملي ولن أبْقيه أطولَ لمتملّقي : لقد غَرِقَ مَنْ نَنْشُدُهُ هكذا لكيْ نَجِدَهُ ، والبَحْرُ يَهْزَأُ ببحثنا الخائبِ على اليَبْسِ [٨]. وإذنْ ، فلنعتبره ميتاً [٩] .

أنطونيو (مخاطباً سيباستيان على جانب) — إنّي لقريرٌ جدًّا بتجرّدهِ هكذا من الأمل . إيّاكَ — من أجل فَشَلِ مَرَّةٍ — أن تَدَعَ [١٠] العَزْمَ الذي صَمَّمْتَ على إنفاذهِ .

سيباستيان (الى انطونيو على جانب) — سننتهز الفرصةَ الآتيةَ كليًّا .

أنطونيو (الى سيباستيان على جانب) — فلتكنْ الليلةَ ، لأنهم الآن مُرْهَقُون [١١] بطوافهم فلن يأخذوا بل لن يستطيعوا أن يأخذوا مثل الحذر المستطاع عند ما يكونون مجدَّدين [١٢] .

سيباستيان (الى انطونيو على جانب) — أقول الليلة ، ولن أزيد .

(تسمع موسيقى مهيبة غريبة)

(١) *a woodland glade* أي ممر بين أشجار الغابة. (٢) تعبير تقديس — يريد العذراء مريم. (٣) وقعنا. (٤) الجافة الميتة . (٥) غلبني الفتور . (٦) حتى بلدت حواسي . (٧) أي منذ هذه اللحظة. (٨) لأن البحر أغرقه وهو وحده يعرف مكانه . (٩) ترجمة سياقية لقوله : «*Well, let him go*». (١٠) أي تتنازل عن . (١١) منهوكو القوى (١٢) نشيطين اثر الراحة .

ألونسو — أيّـةُ موسيقى هذه ؟ استمعوا يا رفقائي الاعزّاء !

جنزالو — انها لموسيقى عذبةٌ مدهشةٌ !

(يطل پروسپيرو من عل غير منظور للملك وحاشيته. وتدخل جملة اطياف عجيبة الصور آتية بتحفة(١) وترقص حولها بحركات رشيقة للتحية ، وبعد ما تومئ الى الملك ومن معه ليتناولوا الطعام تنصرف . أما الملك وحاشيته فينتصبون على اقدامهم ذعراً) .

ألونسو — امنحنا حرّاسَكِ الأبرارَ أيّتها السّماواتُ . ماذا كانت هذه ؟

سيباستيان — هذا «خيالُ ظلٍّ» حيٌّ [٢]. الآن سأعتقد وجودَ وحيدةِ القرونِ [٣]، وبأن في بلاد العرب شجرةً وحيدةً هي عرشُ العنقاء [٤] حيث تحكم الآن عنقاءُ فريدةٌ هناك .

أنطونيو — سأعتقد كليهما ، وكلُّ ما عداهما ينشد الاعتقادَ به عليه أن يأتي اليَّ فأشهد حالفاً أنـه حقيقي : لم يكذب السيّـاحُ أبداً [٥] ولو أنّ المغفّـلين في وطننا يدينونهم! [٦]

جنزالو — لو انّـي ذكرتُ الآن هذا في نابولي أكانوا يصدّقونني ، لو أنّـي قلـتُ انـي رأيت جزَرِيّين كهؤلاء — إذْ أكيداً هؤلاء هم سكانُ الجزيرة — الذين وإنْ كانوا ممسوخي الصُّورة الأّ انك تلحظ أنّ آدابَهم أرقُّ طبيعةً من كثيرين بل من أيٍّ بين جيلنا الانساني .

پروسپيرو (على جانب) — أيُّها السيد الأمين [٧] ، لقد احسنتَ القولَ ، فانّ بعض الحاضرين منكم أسوأ من الأبالسة .

---

(١) *banquet* — التحفة : طعام الزائر وما يتحف به من البر واللطف . (٢) أي ليس مجرد ألا عيب بل هو مؤلف من أحياء — *a living drollery* . « وخيال الظل » هذا هو المعرض الهزلي المعروف المحبوب عند العامة . (٣) *unicorns* — و«وحيد القرن» هذا هو حيوان من حيوانات الأساطير ذكره كتاب الاغريق والرومان ، ومن أوصافه ان جسمه ورقبته مثل جسم ورقبة الحصان ، وله قرن معتدل يتلولب عند منتصف جبهته طوله ذراع ، وله لحية كلحية التيس وسيقان كسيقان الغزال ، وذيل كذيل الاسد ، وقيل ان لقرنه قوة مانعة لتأثير السموم ومضادة للتشنج والصرع اذا ما شرب الانسان بكوب مصنوع من هذا القرن ! (٤) العنقاء (*Phoenix*) طائر خرافي قيل انه يعيش وحيداً خمسمائة سنة (وقيل ٦٦٦ سنة) في عزلة على شجرة عجيبة خاصة به في بلاد العرب ، وانه ينتحر على جاحمة من الاخشاب العطرية ثم يعود الى الحياة متناسخاً من رماده . والمظنون أن شكسبير قرأ «ترجمة بليني — *Translation of Pliny*» لهولاند الصادرة سنة ١٦٠١ م وفيها ذكر وصفي لما يقال عن العنقاء .
(٥) كان يضرب المثل في المبالغة بقصص السياح في ذلك العهد ، وكثير من هذه القصص طبع في زمن شكسبير ، وجلها مشبع بالأكاذيب والخرافات المضحكة ، لا سيما ماظهر منها في اسبانيا بعد اكتشاف كولمبوس لأميركا . (٦) يحكمون عليهم حكماً صارماً . (٧) المخلص الصادق .

ألونسو — لن أُسرفَ في تَعَجُّبي من مثل هذه الاشكال ، ومن مثل هذا الايماء ، ومن مثل هذا الصوت المعبرّ — وان أعوزَها [١] استعمال اللّسان — عن نوعٍ من الخطاب الصامتِ الجميل .

بروسبيرو (على ناحية) — المديحُ عند الافتراق [٢] .

فرانسسكو — لقد تلاشوا [٣] بطريقةٍ غريبةٍ .

سيباستيان — لا يعنينا هذا مُذْ تركوا خَلْفَهم تُحفَتهم [٤] ، فانّ لنا مَعِداً . هل يطيب لكم أن تتذوّقوا مما هنا ؟

ألونسو — لستُ أنا (الذي يتذوق منها) .

جنزالو — ثِقَةً ، [٥] يا مولايَ . حينما كنّا صبياناً ، من ذا الذي كان يعتقد وُجُودَ جبليّين [٦] لهم من الأغْبَاب [٧] مثلما للثيران، الذين تتدلّى من أعناقهم مَزاوِدُ [٨] من اللّحم ؟ ، أو أنه كان يوجد أناس كأولئك الذين قامت رؤوسُهم في صُدورهم ؟ ! فهذا الآن مما يأتينا بضمانةٍ صحيحةٍ له كلُّ من يدفع واحداً لخمسةٍ [٩] .

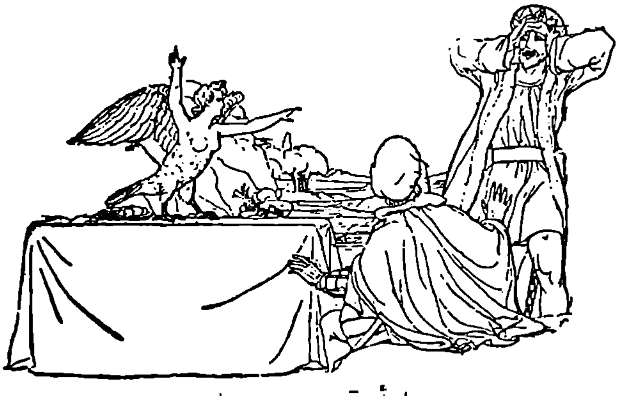
ألونسو — سأنهض [١٠] الى المائدة وأتغذّى ، ولو كان آخر غذائي : لا يهمّني ، إذ أشعر أنّ أحسنَ عيشي مضى. يا أخي ، ويا سيدي الدوق ، هلمّا واصنعا مثلي .

(رعد وبرق. يظهر آريل في صورة عقاب هائلة تنضرج (١١) نحو المائدة وتدفها (١٢) بجناحيها الغدافين (١٣) ، وبحيلة خارقة تختفي التحفة) .

---

(١) أي الاشكال الطيفية . (٢) هذا مثل قديم معناه : لا تمدح مضيفك متعجلا لئلا ينشأ لديك من الاسباب قبل انتهاء ضيافته ما يدعو الى انتقاص مديحك ! (٣) اختفوا عن النظر . (٤) أطعمة الضيافة = *viands* . (٥) في الحقيقة . (٦) سكان جبال . (٧) الغبب ما تثنى وتدلى من لحم العنق من أسفل = *dew lapp'd*. (٨) مزاود = *wallets* — اشارة الى المرض بتضخم الغدة الدرقية (= سلعة العنق : *goiter*) عند سكان جبال الألب .

(٩) أي كل سائح — اشارة الى نظام تأمين السياح على أرواحهم قبل سفرهم في عهد الملكة اليصابات أو الى استغلالهم أموالهم رهاناً اثناء رحلتهم . وكان يختلف رسم التأمين باختلاف خطورة السياحة ، وربما كان واحداً لاثنين في حالات استثنائية ، ولكن الرسم المألوف كان واحداً لخمسة . وقد كانت السياحة عاملا مهماً في حياة الشعوب في زمن شكسبير ، فلا غرابة اذا استعمل مثل هذا التعبير. (١٠) سأقبل عليها . (١١) تنضرج : تنحط من الجو كاسرة . (١٢) تدفها : تضربها (١٣) الغدافين : الطويلين الوافرين.



مفاجأة آريل للملك وحاشيته

آريل — أنتم ثلاثة رجال للشر سبّب القَدَرُ — الذي مِنْ أدواته دُنيانا هذه وكلّ مافيها — أن يَقيئكم البحرُ الذي لن يُتخَمَ[1]، وعلى هذه الجزيرة التي لا يَسكنها الانسانُ، إذْ إنكم بين النّاس أقلُّهم جَدارةً بالحياة. لقد خَبَّلْتُكم[2]، (يبدو على ألونسو وسِباستيان وأنطونيو الانفعال والتهيج) وحتى مع مثل هذه الشجاعة[3] يشنق الناس نفوسهم ويُغرقونها!

(يجرد ألونسو وسِباستيان وأنطونيو سيوفهم . ويقف الآخرون مندهشين)

أيّها الحَمْقى! إنّي ورُفَقائي رُسُلُ القَدَر: إنَّ العناصرَ التي تتألَّف منها سُيوفكم لَيُمكنُها أن تَجرحَ الرّياحَ الزّفزافةَ[4]، او أن تقتلَ بطعناتٍ يُسخَرُ مِنها المياهَ المُطَّرِدَةَ الالتئام[5] بمثل السهولة في إنقاص بَعْضِ زُغابَةٍ[6] مِنْ ريشي: كذلك أقراني الرُسُلُ لا يُكْلَمُون[7]. ولو استطعتم الأذى فانَّ سيوفكم الآن جِسَامٌ[8] لقواكم، ولن تُرْفَعَ. ولكنْ تذكروا — لأن ذلك هو شأني معكم — أنكم أنتم الثلاثة عزلتم مِنْ ميلان پروسپيرو الصّالح، وعرّضتموه للبحر الذي كافأه هو وطفلته البريئة: مِنْ أجلِ تلك الفعلةِ الشنيعة أثارتْ القُوَى[9] — مؤجّلة لا ناسيةً[10] — البحارَ والشواطئ بل جميعَ الخلائقِ ضدّ طُمأنينتكم[11].

(١) أي النهم المستجيع دائماً — اشارة الى أن البحر أنفسهم غذاء له في حين أنه جراف لا ينتهي من الأكل ولا يبقي شيئاً، وهذا مبالغة في تصوير قبحهم وفي تحقيرهم . (٢) أي جننتكم وأفسدت عقولكم . (٣) التهيج والجراءة . أي أن هذه ليست جراءة سليمة، بل شجاعة مريضة دافعة الى الانتحار ! (٤) *the loud winds* — يشير الى استلالهم سيوفهم. (٥) أي التي تلتحم وتبرأ كلما طعنت. (٦) *dowle* = جزء أو نتفة من زغابة - *particle of down* (٧) لا يُجرحون = *invulnerable*.
(٨) عظيمة ضخمة، أي ثقيلة = *too massy* . (٩) الآلهة. (١٠) مؤجلة العقاب لا مغفلة له .
(١١) راحتكم وسلامتكم.

لقد أثكلتُكَ ابنَكَ يا ألونسو ، وهي تُعلِنُ بواسطتي دماراً متمهّلاً [١] أسوأ مما يمكن أن يكون عليه الموتُ مرّةً ، وسوف يصحبكم ويصحبُ مسالككم خُطوةً خُطوةً . ولن يحميكم شيءٌ من غضبها — وإلاّ وقعَ هنا في هذه الجزيرة القفرِ الموحشةِ على رؤوسكم — سوى حسرةَ القلبِ [٢] وحياةٍ نقيّةٍ مقبلةٍ .

(يختفي آريل في الرعد، ثم تعود الاشكال السحرية على نغمات الموسيقى الهادئة وترتقص باشارات السخرية والجهامة [٣] وتخرج حاملة المائدة)

پروسپيرو (غير منظور وغير مسموع لألونسو وجماعته) — لقد مثّلتَ جريئاً شكلَ هذه العُقَاب يا آريلي ، وكانت لها رشاقةٌ ملتهمةٌ [٤] ، ولم تُبدّلْ شيئاً من إرشادي في ما نُدِبْتَ لتقولَه: وكذلك بمحاكاةٍ صادقةٍ للحياةِ وبانتباهٍ نادرٍ نفّذ رُسُلي الأصاغرُ واجباتِهمْ المُنوّعةَ. إنَّ تعاويذي السّاميةَ [٥] ناجحةٌ ، وهؤلاء أعدائي جميعاً قُيّدُوا في ذُهولِهِمْ [٦] . إنّهم الآن طوع بأسي ، وسأتركهم في هذه النوبات ريثما أزور الشاب فرديناند — الذي يحسبونهُ غريقاً — وكذلك محبوبته ومحبوبتي العزيزة [٧] . (يختفي) .

جنزالو (مخاطباً الملك) — أستحلفك بما هو مقدّسٌ ، يا مولايَ ، لماذا تقفُ هكذا بهذه الحَمْلَقَةِ الغريبة ؟

ألونسو — أوُّ ، إنّه هائلٌ هائلٌ [٨] ! يُخيَّلُ إليَّ أنَّ اللُّججَ تكلّمتْ ونبّأتني به [٩] ، وأنَّ الرياح تغنّيه ، وأنَّ الرعد — ذلك الأرغن العميق اللحن المروّع — يُعلن اسمَ پروسپيرو : لقد أعلنَ جُرْمي في صوتِ « قرارٍ عَميقٍ [١٠] . من أجل ذلك استقرَّ ابني في قاعِ البحرِ ، وسوف أبحث عنه الى ابعد مما يَسْبرُ المِرْجاسُ [١١] وسأرقدُ معه مُوحَلاً . (يخرج حاملا سيفه).

---

(١) موتاً متباطئاً يعذبكم . (٢) الندم. (٣) with mocks and mows.

(٤) اشارة الى الخفة في اخفاء جميع التحفة التي كانت على المائدة . (٥) أي القوية .

(٦) في يأسهم وجنونهم . (٧) يعني ميراندا . (٨) أي مروع خارق للطبيعة = monstrous . (٩) أي بجرمه (شرح ديتون) . (١٠) ترجمة سياقية لقوله : It did bass my trespass (١١) plummet .

سيباستيان (في سورة جنون) — ليأتِ في وقتٍ شيطانٌ واحدٌ فقط [١] وأنا أحاربُ فيالقَها !

أنطونيو (في مثل حالة سيباستيان) — سأكون ظهيرَكَ !

جنزالو — إنّ ثلاثتهم قُطعَ بهم [٢] : والآن يَعَضّ جُرْمُهمْ العظيمُ نُفوسَهم كالسّمّ يُمْهَلُ طَويلاً ليعملَ بَعْدُ. أضرع اليكم [٣] يا من لهم مفاصلُ لَيّنةٌ أن تتبعوهم سريعاً وتَمنعوهم مماقد يَستثيرهم هذا الخَبَلُ [٤] اليه .

أدريان — إتبعوا ، أتوسّل اليكم . (يخرج وملبوه معجلين).

(تسدل الستار على الفصل الثالث)

(١) أي لتأت الشياطين واحداً واحداً. (٢) *desperate* : أي قنطوا فتملكهم اندفاع اليأس.
(٣) يخاطب من معه من الشبان . (٤) الاضطراب الذهني = *ecstasy* .

العاصفة

للشاعر العالمى وليم شكسبير

نقلها الى العربية

احمد زكى أبو شادى



موضحة بطائفة من الصور الشهيرة

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم



(من تصوير جوزيف رايت)

پروسپيرو — « لقد نسيتُ تلك المؤامرة الدّنسة بين الوحش كليان وحلفائه »

(العاصفة) صفحة ٧٣

الفصل الخامس

المنظر الاول

(امام كهف بروسبيرو قبيل الساعة السادسة مساء ، وقد مر زهاء ثلاث ساعات منذ الفصل الاول . يخرج بروسبيرو من الكهف لابساً رداءه السحري ، وحاملا عصاه ، وخلفه آريل يتبعه)

بروسبيرو — الآنَ يَتجَمَّعُ مَشْرُوعي نحو قِمَّةٍ [١] : فَرُقَايَ [٢] لا تَنْثَلِمُ [٣] ، وأطيافي تُطيعُ ، والوقتُ يَمْضي بعجلتهِ [٤] صاعداً [٥]. كيف النهار ؟

آريل — في السّاعةِ السادسةِ ، وقد قاتَ يا مَولايَ إنَّ عملنا يجب أن ينتهي عند هذا الوقتِ .

بروسبيرو — لقد قلتُ ذلك عند ما بدأتُ أُثير العاصفةَ [٦]. قُلْ لي يا طَيفي [٧]، كيف حالُ الملِكِ وأتباعِهِ ؟

آريل — محبوسون معاً على نَفسِ الحالِ التي أُمِرتَ بها [٨] عند ما تَركتَهم . جَميعُ السُّجناءِ يا سيّدي في مَخرَفِ اللّيمِ الذي يحمي صَومَعَتَك من الجوّ [٩]، ولن يستطيعوا التحرُّكَ حتى تُطلِقَهم [١٠] . الملكُ وأخوه وأخوكَ ماكثون الثّلاثةُ مُشَتَّتِي البالِ ، والبقيةُ في حزنٍ عامرٍ مُفعَمين [١١] بالحسرةِ والرُّعبِ ، وعلى الأخصِّ يا سيدي ذلك الذي

---

(١) استعمل شكسبير مثل هذا التعبير الغريب — اشارة الى النضوج — في روايتيه (رتشارد الثاني) و (هنري الرابع) . (٢) *my charms* = حيلي السحرية . (٣) *crack not* = لا يصيبها الخلل . (٤) بعربته . (٥) لا ينوء بأعبائه التي لا بد من حوادثها في خلاله . وكلمة *carriage* التي ترجمناها بكلمة « عجلة » كانت تستعمل سابقاً بمعنى « عبء » وبمعنى « حمل العبء » ايضاً . (٦) راجع صفحة ١٦ س ٧ ، و ص ١٨ س ٩ . (٧) *my spirit* = ياخادمي الطيفي (٨) *as you gave in charge* — وهذا التعبير ورد خمس مرات في كتابات شكسبير . (٩) *weather-fends your cell* ، وكلمة « *fends* » هنا بمعنى *defends* ، ولا يعرف عن شكسبير استعماله لهذه الكلمة في موضع آخر . (١٠) حتى يفك عنهم سحره . (١١) *brimful* .

دعوتـه « المـولـى الهـرمَ الصّـالِـحَ جُـنْـزالو » ، فعبـراتـه تجري على لحيته مِـثلَ قـطـرِ الشّـتاءِ مِـنْ طـنـوف القَـصَـبِ[1]. إنَّ رُقـيَـتَـكَ تؤثّـر فيهم بشدّة بحيث أنكَ لو أبصرتـهم الآن لرقّـتْ عواطفُـك[2].

بروسبيرو — أتظنّ ذلك أيها الطّـيف ؟

آريل — لو كنتُ آدميًّا يا سيدي لرقّـتْ عواطفي .

بروسبيرو — وعواطفي سترقّ . أيكون لك — وما أنت الاّ هواء — تأثّـر[3] وشعورٌ بكرْبهم ، ولا أكون أنا الذي مِـنْ نوعهم — والذي أستمرىء تماماً استمراءهم الحادّ[4] ، وأتأثّـر تأثُّـرَهم[5] — أكثر نوعاً[6] منك عليهم ؟ إنّـي وإنْ طُـعِـنْـتُ بآثامِـهم البالغةِ[7] في الصّـميم[8] الاّ أني سأشارك[9] حجايَ الأنبل[10] ضدّ غضبي[11] ، فانّ العمل الفذّ في الفضيلة لا في الانتقام . أمّـا وقد صاروا نادمين فان يكون الاندفاع الوحيد لغرضي امتدادٌ آخر حتى ولا لعبوسةٍ . إذهبْ وأطلقهمْ يا آرْيل : فسأبطل رُقايَ ، وسأردّ اليهم حواسَّهم ، وسيكونون أنْـفُـسَـهُـمْ[12] .

آريل — سأحْـضِـرُهمْ يا سيدي . (يذهب آريل متجهاً الى مخرف الايم) .

بروسبيرو —[13] إيهِ يا عُـمّـارَ التلالِ[14] والجداول والبُحيرات الساكنةِ والجِنان[15] ،

---

(١) ***eaves of reeds*** — أي ان دموعه تتساقط فوق لحيته كتساقط قطرات الثلج الذائب (اشارة الى شيخوخته وبياض لحيته) فوق السقف المصنوع من القصب (أو من القش) .
(٢) لرثيت لهم . (٣) ***touch*** بمعنى ***sensibility*** ، وكثيراً ما يستعملها شكسبير كما ترى في ريتشارد الثالث وماكبث ، الخ . (٤) ***relish all as sharply*** — أي أشاركهم كل المشاركة في حدة حسهم (٥) هذه الترجمة التي نراها مناسبة مبنية على اعتبار كلمة ***passion*** فعلاً وليست اسما ، أي أقاسمهم عواطفهم . ويندر ان يستعمل شكسبير هذه الكلمة فعلا وان جاءت هنا ملائمة . (٦) اكثر عطفاً . من ناع ينوع نوعاً بمعنى مال وانعطف . وقد استعمل شكسبير كلمة ***kind*** بمعنى نوع ، وكلمة ***kindlier*** بمعنى اكثر عطفاً وشفقة ، وهو تلاعب بديعي باللفظ كما ترى ، مما كان مستحسناً في ذلك الوقت . وقد جاء اللفظ العربي مقابلا للاصل الانكليزي . (٧) ***high wrorgs*** ، وكلمة ***high*** تقابل الكلمة اللاتينية ***altus*** بمعنى الشاهقة وكذلك بمعنى العميقة ، وقد رأينا ان نترجمها بكلمة « البالغة » . (٨) ***to the quick*** — أي صميم نفسي .
(٩) سأحالف (١٠) ***my nobler reason*** (١١) ***fury*** — بمعنى غضب او نقمة .
(١٢)وسيعودون الى ماكانوا عليه . (١٣) وجه الانظار كل من الناقدين واربرتون (***Warburton***) ومالون (***Malone***) وغيرهما الى ان شكسبير متأثر في نظم ومعاني هذه الفردية القوية بترجمة جولدنجز لتأليف أوفيد الموسوم « بالتحولات » : (***Golding's Translation of Ovid's Metamorphoses***) التي ظهرت سنة ١٥٧٦م صفحة ١٩٧ — ٢١٩ والمقارنة بينهما تعزز ذلك (١٤) ***elves of hills***: سكان التلال من الجن . (١٥) بمعنى الغابات الصغيرة المبهجة بتنسيقها — ***groves*** (وقد ورد مفرد هذه الكلمة سابقاً بمعنى مخرف : أي الممر بين الاشجار) .

وأنتنّ يا مَن تَطارِدْنَ على الرِّمال بأقدامٍ عديمةِ الأثَرِ(١) (نبتون)(٢) في جَزْرِهِ ، وتَطِرْنَ(٣) منه حينما يعود(٤) ، وأنتنّ يا أنصافَ الدُّمى(٥) اللّواتي في ضياءِ القَمَرِ تَصنعن الحُلَيْقاتِ الخضراءَ الحامضةَ(٦) فلا تقضمُها الشّاةُ ، وأنتنّ يا مَنْ لَهوُهنّ(٧) أن تَصنعْنَ عراهينَ مُنتصفِ الليل ، وتبتهجنَ لسماع ناقوسِ المساء(٨) المهيب : بعونكنّ — وإنْ كُنتنّ ضعيفات في استقلالكنّ(٩) — غَشَّيْتُ(١٠) شمسَ الهَجيرة(١١) واستدعيتُ الرياحَ الثائرة(١٢) ، وأشعلتُ حرباً عجّاجةً بين البحرِ الأخضر والقبّةِ اللازورديّة ، وأعطيتُ الرّعدَ المهوبَ القاصفَ ناراً ، وفَلَقْتُ بالّوطةَ (جُوف)(١٣) الضّخمةَ بنفس صاعقته(١٤) ، وجعلتُ الطودَ الراسيَ(١٥) يرتجف(١٦) ، وقلعتُ من أشواكه(١٧) الصَّنَوْبَرَ والشَّرْبينَ ، وعند أمري أيقظتْ اللّحودُ رُقودَها ، وتَفتَّحَتْ وأخرجتْهم بسحري البالغ الصَّولة . ولكنّي أتخلّى هنا عن هذا السِّحر العنيف(١٨) . وعند ما أحتاج الى بعض الموسيقى السّماوية — وذلك ما أريدُه حتّى في هذا الوقتِ — لتؤثر في حواسّهم وفق غايتي التي من أجلها كانت هذه الرّقية الهوائية(١٩)

---

(١) اشارة الى خفتها ورشاقتها — يخاطب عرائس البحر الجنيات . (٢) اله البحر ، والمقصود هنا البحر ذاته . (٣) *fly him* بمعنى *fly from him* على تقدير حذف حرف الجر ، ويهربن منه . (٤) أي في حالة مده . (٥) *demi-puppets* — يريد يا اشباه الدمى . (٦) ماتزال هذه تدعى بالخواتم السحرية (*fairy rings*) وهي عبارة عن دوائر صغيرة زاهية باهتة اللون تظهر في المروج ، وكان القدماء يعدونها ناشئة عن رقص الجنيات ليلا . اما سببها الحقيقي فراجع الى نمو نوع من الفطر (*mushroom*) . (٧) تسليتها — *pastime* (٨) *curfew* (وهي مأخوذة من الفرنسية *couvre-feu* وترجمتها الحرفية « غطـ النار ») وهو الناقوس الذي كان يدق عند المساء بأمر وليم الفاتح تنبيهاً الى اطفاء النيران . وكان الناس في ذلك الزمن يعتقدون أن الارواح والجنيات يسمح لها بان تمرح طليقة بين وقت جرس المساء والصياح الاول للديك قرب الفجر . فاذا دق ناقوس الليل فرحت الجنيات والارواح لانه اذن لها بانطلاقها وحريتها تلهو وتعبث كما تشاء . (٩) وكذلك بمعنى قائدات ضعيفات اذا لم يكن ارشاده . (١٠) *bedimmed* حجبت . (١١) الشمس المستوية في كبد السماء (*noontide sun*) . (١٢) أي التي ترفض أن تلبي سوى من له سلطان عليها . (١٣) جوف : جوبيتر ، ومذ كان معدوداً المتسلط الاسمى في السماء فان الصواعق كانت رهن مشيئته . (١٤) أي باحدى صواعقه . وشجرة البلوط مقدسة عند جوبيتر لانه كان أول من علم الناس ان يعيشوا على جوز البلوط (*acorns*) . (١٥) *strong-based promontory* . (١٦) اشارة الى زلزلته . (١٧) *plucked up and by the spurs* = واجتثثت . ويريد « بأشواكه » فروع أصوله أي جذيراته وهو استعمال مجازي غريب . (١٨) *rough magic* — اشارة الى عواقبه الهائلة . (١٩) نسبة الى الاطياف الهوائية .

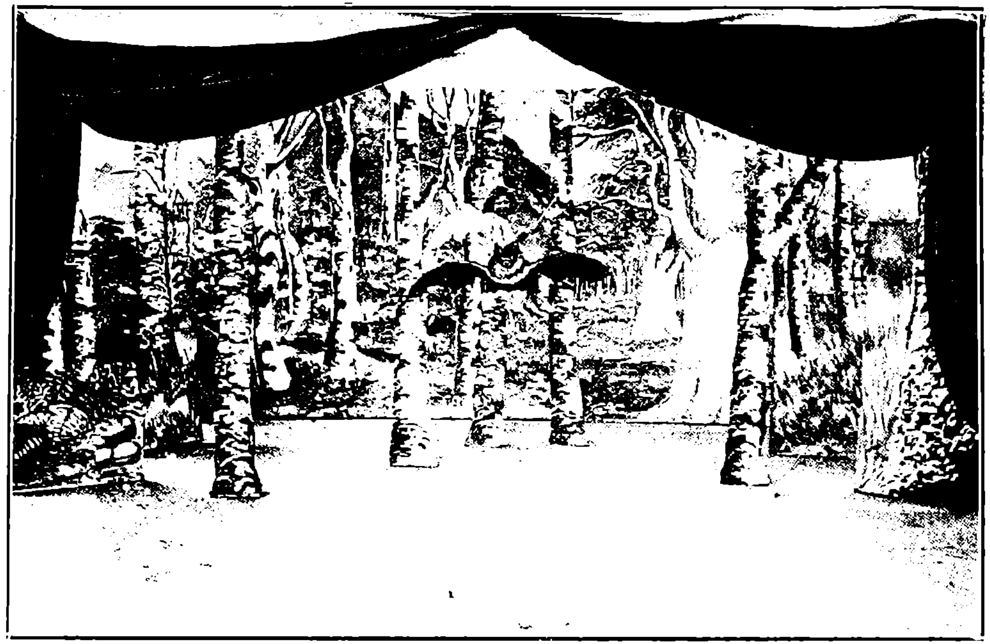
(يرسم دائرة سحرية واسعة بعصاه) فسأكسر عصايَ [١] وسأدفنها على بُعْدِ بِضْعِ قامات [٢] في الأرضِ ، وسأغرق كتابي [٣] الى أعمق مما سَبَرَ الفادنُ [٤] . (تسمع موسيقى شجية)

(يعود آريل متقدماً، يتبعه ألونسو في حركة المجنون مصحوباً بجنزالو ، ثم سيباستيان وأنطونيو في حالة مماثلة يصحبهما أدريان وفرانسيسكو . ويدخلون جميعاً الدائرة السحرية التي رسمها بروسبيرو، وثمة يقفون مسحورين، واذ يلحظ بروسبيرو ذلك يخاطب اولا ألونسو المتهيج ثم يوجه خطابه الى الآخرين كلا بدوره).

بروسبيرو — لِيَشْفِ عقلَكَ نَغَمٌ شجيٌّ وخيرُ [٥] العَزَاءِ لخيالٍ مضطربٍ [٦] ، إذْ لا جَدْوَى منهُ الآن ، وقد أُغْلِيَ [٧] طيَّ جُمجمتِكَ ! هناكَ قِفْ [٨] ، فانكَ بُرقيةٍ مُوقَّفٌ . أيْ جنزالو القدّيس ، أيها الرجل الشريف — إنَّ عينيَّ المتآلفتين عَطْفاً على مشْهَدِ عينيك [٩] لَتُسْقِطَان دموعاً رقيقةً [١٠] . (يحول وجهه عنه لحظة اخفاء لعاطفته). (مخاطباً نفسه) إن الرقيةَ تذوب [١١] سريعاً ، وكما يتسلّل الصباحُ الى الليل [١٢] مذيباً الظّلامَ ، فكذلك حواسّهم الناهضة [١٣] بدأت تطارد دواخن الجهالة [١٤] التي تحجب مداركهم الصافية . (ينظر ثانية الى جنزالو ويخاطبه) أيْ جنزالو الصالح، يا منقذي المخلص [١٥] ، ويا أيها السيّد الوفيّ لمن أنت تابعٌ ! سوف أجْزِي نِعَمَكَ مُوَفّياً [١٦] بالقولِ والعَمَلِ معاً . (مخاطباً ألونسو)

---

(١) عصاه السحرية . (٢) *fathoms* ، والقامة تساوي ستة اقدام . (٣) كتاب سحره
(٤) أي الى أبعد مما بلغ المسبار من غور . (٥) وعلى تفسير آخر: «الذي هو خير العزاء» على اعتبار ان كلمة *and* مستعملة تقديراً لـ *which is* . (٦) *unsettled fancy* — وقد استعمل وصف الغليان الادمغة أو ما يقرب من ذلك في رواية « قصة الشتاء » وفي رواية « حلم ليلة منتصف الصيف » ، وكذلك استعمل فيهما *fancy* بمعنى *imagination* . (٧) المقصود بقوله « أغلي » أن عقله صار عديم التمييز . (٨) لا تنفك عن الدائرة المسحورة .
(٩) ترجمة *even sociable to the show of thine* أي المتأثرتين بمرآها .
(١٠) ترجمة *fall fellowly drops* — وكلمة *fall* بمعنى *let fall* أي لتدمعان مزاملة لدمعك
(١١) تبطل . (١٢) أي يغير عليه . (١٣) المستيقظة (١٤) *ignorant fumes* أي ضباب الغفوة والذهول . (١٥) أو « ياحافظي الامين» .
(١٦) *home* بمعنى *thoroughly* على اعتبار ان كلمة *home* تشعر بالنهاية المأمولة سواء نظر فيها الى معنى البيت أو الى معنى الوطن («فالهوم» عند الانجليز ، حرم مقدس . وهذا الاستعمال كرره شكسبير،



أغنية آريل

صورة تمثيلية بديعة لهذه الاغنية المعدودة من لطائف الشعر الليريكي في اللغة الانجليزية

لقد عاملتني وابنتي يا ألونسو بغاية القسوة ، وكان أخوك ظهيراً في العمل .
(مخاطباً سيباستيان) وها أنت الآن يا سيباستيان تُقرَصُ مِنْ أجلهِ (١) .
(مخاطباً أنطونيو) أيْ لحمي ودمي ، أنتَ (٢) يا شقيقي الذي أضفتَ الطَّمعَ (٣) وطَرَدْتَ الرَّحمةَ والفِطرةَ (٤) ، يا مَنْ وَدَدْتَ مع سيباستيان — الذي آلامهُ الدفينةُ (٥) من أجلِ ذلك بالغةٌ — أن تقتل هنا مليكَكَ : إنّي لَمُسَامِحُكَ ، ولو أنك عديمُ الانسانية (٦) .
(متحدثاً الى نفسه على جانب) لقد بدأ تفكيرُهُمْ يَعُبُ (٧) وسيغمر المَدُّ الدَّاني عن قريبٍ شاطئ التعقّلِ الذي هو الآن دَنِسٌ مُوحِلٌ .
لا أحدَ منهم ينظر اليَّ بعْدُ أو يستطيع أن يَعرفَني . (مخاطباً آريل)
آريل ! أحضرْ لي القبّعةَ والمِغْوَلَ (٨) اللّذيْن في كهفي : سأطرحُ سِتْري (٩) وأعرض نفسي كما كنتُ قبْلاً في ميلان . عَجّلْ يا طيفُ فستغدو طليقاً قبل زمن طويلٍ .

(يبادر آريل خفيفاً الى الكهف ويعود على الفور بالمغول والقبعة والمعطف القصير . فيلقي بروسبيرو جانباً رداءه السحري ويساعده آريل وهو يغني على لبس ما احضره من الكهف)

آريل —

أمصُّ الزّهرَ حَيْثُ النَّحْلُ يُلْفَى * وأرقدُ طيَّ ناقوسِ الربيعِ (١٠)
وأهجعُ — حين نَعْقِ البُومِ — فيه * وفوقَ جَناحِ خُفَّاشٍ أطيرُ
وراءَ الصَّيْفِ في أبْهَى سُرورِ
سأحْيَا الآنَ في أوْفَى حبورٍ * وتحتَ النَّوْرِ مِنْ غُصنٍ تَدَلَّى (١١)

(١) تعاني بسبب فعلك = *pinch'd for't* — اشارة الى ألم الضمير .
(٢) يستعمل شكسبير هنا على لسان بروسبيرو الضمير « *you* » بدل « *thou* » فالاول يدل على الاصغار أو على الالفة (حسب المناسبة) بعكس الثاني الذي يستعمل في مواقف التفخيم او الاحترام
(٣) كنت مضيفاً له في نفسك ومرحباً به . (٤) *nature* — يريد الشعور الانساني الطبيعي
(٥) الباطنة . (٦) *unnatural* . (٧) *swell* — يرتفع كمد البحر
(٨) *rapier* = نصل طويل . (٩) *I will discase me* — أي سأخلع رداء تنكري.
(١٠) — *cowslip's bell* ويسمى ايضاً « زهر الحقل » .(١١) يكره آريل الرشيق الشتاء البارد المغم ، وكذلك يريد عند ما يولي الصيف أن يذهب في أثره كما تدخل السنونة (*swalow*) الى الاراضي الدافئة . وأشار آريل الى الخفاش مطية له ، لان الخفاش مشهود في ليالي الصيف ولو انه ليس من الطيور الضوارب (*migratory birds*) .



آريل الطليق يتعقب الصيف — كما تخيل — طائراً على جناح خفاش في ضوء القمر !

پروسپيرو (ملاطفاً آريل) — ماذا ، هذا آرْيلي الظريف ! سأفتقدك[١] ، ولكنْ مع ذلك ستنال الحرّيةَ . (انم الآن لبسه في هيئة دوق ميلان) هكذا ، هكذا ، هكذا[٢] . إذهبْ الى سفينةِ الملكِ غيرَ منظورٍ[٣] كما أنتَ . هناك ستجد الملاّحين نياماً تحت المخازن[٤] . فمتى أيقظتَ الرّبانَ والملاحظَ فادفعْ بهما الى هذا المكان ، وحالاً أرجوكَ .

آريل — سأعُبُّ[٥] الهواءَ الذي أمامي وسأعود قبل أن يدقَّ نبْضُكَ مرّتين . (يختفي عن النظر)

جنزالو (في خبال) — كلُّ العذابِ[٦] والعناءِ[٧] والحيرةِ والدّهشةِ يقطن هنا : لِتُخْرِجْنا هاديةً قوةٌ سماويّةٌ من هذا الاقليمِ المخيفِ[٨] !

(١) *I shall miss thee* — سأشعر بوحشة فراقك . وقوله « ماذا » نداء ترحيب واعزاز
(٢) يظهر رضاءه عن آريل الذي أحسن إلباسه ثياب الدوقية بعد ان نزع عنه رداءه السحري .
(٣) متخفياً . (٤) *batches* . (٥) سأتجرع سريعاً — يريد سأشق الهواء اندفاعاً .
(٦) *tormnte* ، أو الالم . (٧) *trouble* ، او الكرب . (٨) من هذه الارض المرعبة .



حلم آدیل

سأحيا الآن في أوفَى حُبورٍ * وتحت النَّوْرِ مِنْ غُصن تَدَلَّى



حلم آزيل

وفوق جناح خفّاشٍ أطيرُ * وراء الصيف في أبهى سرورِ

پروسپيرو (مواجهاً ألونسو) — تأمَّلْ — يا سيّدي الملك — دُوقَ ميلان المَضِيمَ
پروسپيرو : ولأجل زيادة الوثوق من أنَّ أميراً حَيًّا يُخَاطِبُكَ الآنَ أعانِقُ جِسْمَكَ [١] ، وأقدّم إليك وحاشيتك ترحيباً قلبيًّا .

ألونسو — سواء أكنتَ هو أم لم تكنْ ، ام أنكَ حِيلةٌ سحريّةٌ [٢] لتخدعَني [٣] كما خُدِعْتُ قبلاً ، لستُ ادري : إنّ نبضَكَ يدقّ كنبضٍ ذي لحمٍ ودمٍ ، ومنذ رأيتُك وكَرْبُ ذهني يزول ، فانّي أخشى أنّي كنتُ معه في قبضة الجنون . إني لأشتهي ذلك [٤] ، واذا كان لهذا أيُّ وجود [٥] فانّه قِصّةٌ غايةٌ في الغرابة . إنّي أتخلّى عن دوقيتك وأضرع اليك أن تصفح لي عن خطاياي . ولكنْ كيف يكون پروسپيرو حيًّا وفي هذا المكان ؟

پروسپيرو (مخاطباً جنزالو) — دَعْني أولاً أيُّها الصّديقُ النبيلُ أعانق شيخوختَك التي لا يمكن أن يُقَاسَ شَرَفُهَا ولا أن يُحْصَر . (يعانقه)

جنزالو — لا أستطيع أن أُقسِمَ هل هذا كائن أو غير كائن [٦] !

پروسپيرو — ما زلتَ تتذوق [٧] بعضَ خوادع الجزيرة [٨] التي لا تدعك تعتقد بصحّة الأشياء. مرحباً بكم يا أصدقائي جميعاً ! (على جانب مخاطباً سيباستيان وأنطونيو) وأمَّا أنتما أيها الزّوجُ من الأسياد [٩] فلو أني شئتُ لاستطعتُ هنا أن أوجّه [١٠] غضبَ جلالته عليكما ولأثبتُ [١١] أنكما خائنان: على أني في هذا الوقت لن أبوح بقصتكما [١٢] .

سيباستيان (على جانب) — الشيّطان يتكلّم فيه [١٣] .

---

(١) أضمك اليّ ضماً حسياً . (٢) *trifle* بمعنى *a trick played by enchantment* (٣) *to abuse me*. (٤) *this must crave* على تقدير ضمير المتكلم — أي أتمنى أن تكون رؤياك وما أحس به من التعافي حقيقياً . (٥) *an if this be at all* — أي اذا لم يكن مجرد حلم ، وكلمة *an* بمعنى *if* ، واستعمال حرفين للشرط تلو بعضهما هو للمعاضدة والتأكيد.
(٦) ليس في وسعي أن أجزم أهذا حقيقة أم خيال .
(٧) أي تتأثر بها . (٨) *subtilties o'the isle* — يريد مؤثرات سحرها .
(٩) تعبير اصغار بمعنى « أيها السيدان » . (١٠) *pluck* بمعنى *direct* ، وكانت في عهد شكسبير تستعمل مجردة من معنى العنف الذي اكتسبته الكلمة فيما بعد. (١١) *justify* بمعنى *prove* ، وقد ورد هذا الاستعمال كذلك في رواية « قصة الشتاء ». (١٢) تعبير اصطلاحي « بمعنى ان افشي سراً». (١٣) تعبير اصطلاحي بمعنى « هو يتكلم بلسان الشيطان » أي ان الشيطان من أعلمه بذلك .

بروسبيرو — كلاّ [١] . (مخاطباً انطونيو) وأمّا عنكَ أيّها السيّد المتناهي في الخبث الذي بدعوتي إيّاه أخاً قد يُنَجِّسُ فمي فاني أعفو عن جريرتك الفاحشة [٢]، بل عن جميعها [٣] ، وأُطالبك بدوقيتي التي أعلمُ أنك — مُرغَماً — لابدَّ لك من أن تعيدها .

ألونسو — إذا كنتَ أنتَ بروسبيرو فأنبئنا بتفاصيل نجاتك ، وكيف التقيتَ بنا هنا — نحن الذين منذ ثلاث ساعات [٤] مَضَتْ [٥] قُوِّضْنا [٦] على هذا الشاطىء حيث فقدتُ — ما أحدَّ نفطَةَ هذه الذكرى [٧] ! — ولدي العزيزَ فرديناند .

بروسبيرو — إني لممتلىء حزناً [٨] لذلك يا سيّدي .

ألونسو — الخسارة لن تُعوَّضَ ، وقد أعلن الصَّبرُ أنّها جاوزتْ علاجَها [٩] .

بروسبيرو — أُوثر أنْ أظنّ [١٠] أنكَ لم تَنشدْ معونتَه [١١] ، فانّي بنعمته الرقيقة [١٢] في مثل هذه النكبة نلتُ معونتَه السّنيةَ فهدأت قانعاً .

ألونسو — (دهشاً) — وأنت خسارتك مثلها !

بروسبيرو — هي فادحةٌ كما هي حديثةٌ [١٣] ، ولجعل هذه الخسارة الغالية محتملةً عندي وسائل أضعف كثيراً مما تستطيع أن تُهيبَ به لعزائك لأنّي فقدتُ بنيّتي .

ألونسو (متأثراً) — إبنةٌ ؟ يا للسّماوات ! ليتهما الآن معاً يعيشان في نابولي، الملكَ والملكةَ هنالك! لوكانا لرضيتُ أن أوحَّلَ [١٤] في ذلكَ القاعِ النّضّاضِ [١٥] حيث يرقد ولدي [١٦] . متى فَقَدْتَ ابنتكَ ؟

---

(١) تأكيد لوعده بعدم الاباحة بتآمر سيباستيان وأنطونيو سابقاً على حياة الملك ألونسو ويجوز ان يكون قد سمع تعليق سيباستيان فأنكره . والشرح الاول اقرب الى المعقول .

(٢) *thy rankest fall* (٣) بل عن جميع جرائمك . (٤) يعتمد الشراح الذين يرون أن وقائع الرواية استغرقت ما بين ثلاث واربع ساعات على مثل هذه الاشارة في صلب الرواية .

(٥) *since* بمعنى *ago* . (٦) تعبير للملاحين بمعنى « نكبنا بتحطيم سفينتنا » — *wrecked*

(٧) ما اشد ألمها الواخز . (٨) *woe* بمعنى *full of sorrow* (٩) أي هي أبعد من أن يأسوها الصبر الذي اعان عجزه .

(١٠) أي أغلب ظني . (١١) معونة الصبر . (١٢) *soft grace* — برحمته الجليلة .

(١٣) استعمل كلمة *late* بمعنى *recent* . والمألوف في عصرنا الحاضر استعمال " *of late* " أو "*lately*" للدلالة على قرب العهد . (١٤) *mudded* — أن أدفن في الوحل . (١٥) *oozy bed* — يريد قاع البحر . (١٦) يشير الى ابنه فرديناند الذي يتوهم غرقه ، حينما بروسبيرو يخادعه موهمه ان ابنته ميراندا غرقت كذلك ، حتى يفاجئه فيما بعد بمنظرهما جيين على اتم وداد ، وذلك مبالغة في اسعاده .



بروسبرو يظهر فرديناند وميراندا

وهما يلعبان الشطرنج

ميراندا — « ياسيدي العزيز أنت تغالطني ! »



فرديناند مغازلاً ميراندا

فرديناند — « كلاَّ يا حبيبتي العزيزة ، لا أغالطك ولا من أجل الدنيا »

بروسبيرو — في هذه العاصفة الأخيرة . (ناظراً الى الآخرين) ألاحظ أنّ هؤلاء السّادةَ يَعجَبون[١] لهذا اللقاء كثيراً، الى حدّ أنّهم ابتلعوا صَوابَهم وقلّما يحسبون عيونَهم تؤدّي وظائفَ حقّةً أو أنَّ كلماتهم نفَسُهم[٢] الطبيعيّ : ولكنْ ثِقوا — كيفما كان دَفْعكم عن صوابكم[٣] — بأن بروسبيرو هو ذلك الدّوقُ بعينه الذي طُرِدَ منْ ميلان وأُنْزِلَ بأعجوبةٍ على هذا الشاطىء — حيثُ قُوّضتُمْ — ليكون السيّدَ عليه . لن أزيدَ على هذا ، فانّه تاريخُ يومٍ فيومٍ[٤]، وليس أُقصوصةً[٥] لِفَطورٍ ، ولا مما يلائم هذا اللقاءَ الاول . (مخاطبا ألونسو) مرحباً بك يا سيدي ! هذا الكهفُ بلاطي . (يتجه الى مدخل الكهف) هنا لدي اتباع قليلون، ولكن ليس لي رعايا في الخارج . أرجو منك أن تدخلَ[٦] . ومن حيث أنك قد رددتَ اليَّ دوقيّتي فسأكافئك بصالحةٍ مثلها ، وعلى الأقل سأبرز أعجوبةً ترضيكَ[٧] بقدر ما أرضتني دوقيّتي.

(تسدل الستارة الداخلية لفترة قصيرة)

المنظر الثاني

(هذا المنظر تكملة للمنظر السابق وهو تقسيم عرفي لا وجود له في التأليف الاصلي، ولكنه يلائم الاخراج العصري ويناسب تشويق النظارة واراحتهم والممثلين قليلا . وترفع الستارة الداخلية عن نهاية المشهد السابق في مواقف الممثلين السالفة الذكر واذا ببروسبيرو يزيح الى جانب ستراً عن داخل كهفه فتبدو ميراندا وفرديناند جالسين يلعبان الشطرنج)

ميراندا — يا سيدي العزيز ، انت تغالطني[٨] !

فرديناند — كلاّ يا حبيبتي العزيزة ، لا أُغالطُكِ ولا منْ أجْلِ الدنيا[٩] .

---

(١) admire بمعنى *regard with wonder* كما كانت تستعمل في العهد الاليصاباتي ، اي دهشين منه . وهو استعمال حرفي للكلمة اللاتينية *admirari* بمعنى يعجب: *to wonder* . (٢) نطقهم — استعمل كلمة *breath* بمعنى *speech* .

(٣) *justled from your senses* — كيفما بلغ بعدكم عن الرشاد . (٤) أي تاريخ طويل متسلسل لايام عديدة . (٥) *relation* بمعنى *story* — يريد ليس حديث مؤانسة على مائدة الفطور .

(٦) *look in* — تنظر داخلها ، وهو تعبير اصطلاحي . (٧) *content ye* — تبهجك .

(٨) *play me false* — تخدعني لاعباً . (٩) أي ولو كانت كلها غنما لي ازاء ذلك .

ميراندا (مداعبة) — أجلْ ، لك أن تُحاجَّ [١] من أجل عشرين [٢] مملكة ، ومع ذلك أُسمّيها لعبةً عادلةً !

ألونسو (متهيباً تصديق ما يرى) — إنْ ثبتَ أنَّ هذا من رُؤى [٣] الجزيرة فسأكون مَنْ فقد ابناً عزيزاً مرّتين . (يلحظه الحبيبان فينهضان)

سيباستيان — إنها لمعجزةٌ في غاية التفوّق [٤] !

فرديناند (متقدماً اليهم مفعماً بالفرح) — ولو أنّ البحار تهدّد إلاّ أنّها رحيمةٌ ، وإنّي قد لعنتُها بغير سبب . (يركع عند قدمي ألونسو) .

ألونسو — الآن كلُّ البركاتِ من والدٍ قديرٍ تحُفُّ بكَ ! إنهضْ وأنبئني كيف جئت الى هنا .

ميراندا (متقدمة في شيء من الحياء) — يا للعجب ! كم مِنْ خلائق بديعة هنا ! ما أجملَ الناسَ [٥] ! يا للدّنيا الجريئة الجديدة التي تحوي فيها أمثالَ هؤلاء القوم !

بروسبيرو — إنّها جديدةٌ لكِ .

ألونسو (مخاطباً فرديناند) — مَنْ هذه الفتاة التي كنتَ تلعب معها [٦] ؟ ان أقدم تعارف لكَ لا يمكن أن يكون عمره ثلاثَ ساعات [٧] : هل هي الإلٰهةُ التي فرّقتْنا ثم جمعتنا هكذا معاً ؟

فرديناند — سيّدي ، إنَّها إنْسيَّةٌ ، ولكنّها بعنايةٍ غير بشريةٍ [٨] صارتْ لي : إنّي اصطفيتُها حينما لم أكن أستطيع سؤالَ والدي عن مشورته ، ولم أكن أحسبُ أن لي والداً [٩] . هي بنتُ دوق ميلان هذا الشهير ، والذي سمعتُ كثيراً بصيته ولكن لم أرَهُ قبلاً ابداً ، والذي تلقّيتُ منه حياةً ثانيةً [١٠] ، وهذه السيدة تجعله والداً ثانياً لي . (تذهب ميراندا اليهما) .

ألونسو (آخذاً يدها) — أنَا الآن والدُها . ولكنْ ، آهٍ ما أغربَ وَقْعَ طلبي المغفرةَ مِنْ طِفْلتي !

---

(١) *wrangle* بمعنى حاج او خاصم = *quarrel* — اي لك ان تغالط من أجل عشرين مملكة ومع ذلك أعد منا لطتك حقاً وعدلا ! ويجوز استبدال كلمة « أجل » بكلمة « ومع هذا » .
(٢) *score* ، وكذلك بمعنى رهان : *wager* . (٣) من اطيافها السحرية . (٤) خارقة .
(٥) *mankind* — الجنس البشري . (٦) تلاعبها الشطرنج . ويجوز ان تكون كلمة *maid* هنا بمعنى حورية .
(٧) تعزيز آخر لنظرية استغراق حوادث الرواية زهاء ثلاث ساعات من بدء العاصفة التي في مستهلها .
(٨) *Immortal Providence* — يريد بمشيئة الهية . (٩) حينما لم يدر بخلدي انه لا يزال على قيد الحياة . (١٠) يريد محبوبته وتجديد حياته بانقاذه من الهم القاتل .

روسبيرو — هنا يا سيّدي قِفْ [١] : لا تَدعْنا نُحمّل ذاكرتَنا عبئاً قد انقضى.

جنزالو (متقدماً اليهم) — لقد بكيتُ في وجداني [٢] ولولا ذلك لتكلّمتُ قبل هذا . أطِلّي أيتها الآلهةُ وألقِ على هذين العروسين [٣] إكليلَ بركتِك ! فانك أنتِ [٤] التي خططتِ أمامَنا الطريقَ الذي أتى بنا الى هنا .

ألونسو — أقول « آمين » يا جنزالو .

جنزالو — هل طُرِدَ ميلان [٥] مِن ميلان لكي يصيرَ نَسلُه [٦] ملوكاً على نابولي ؟ ألا فلنبتهجْ ابتهاجاً فوق مألوف الفرح ، ولنسجّله بالذهب على عُمُدٍ خالدةٍ : في رحلةٍ واحدةٍ وجدتْ [٧] كلاريبيلُ زوجَها في تونس ، وفرديناند — أخوها — وجد زوجةً حيث كان هو مفقوداً ، وَوجد [٨] پروسپيرو دوقيتَه في جزيرةٍ فقيرةٍ [٩] ، ونحن جميعاً وجدنا أنفسَنا حينما لم يكن رجلٌ منا نفسَه [١٠] !

ألونسو (مخاطباً فرديناند وميراندا) — أعطياني يَديْكما . (يتناول يديهما) ليبق الحزنُ والهمُّ شاملاً [١١] أبداً قلبَ من لا يَودُّ لكما الغِبطةَ !

جنزالو — ليكنْ ما تقول ! آمين !

(يعود آريل وخلفه الربان والملاحظ دهشين)

جنزالو (مخاطباً ألونسو) — أُه ، يا سيّدي ، أنظر يا سيدي ! هنا عددٌ آخر منّا [١٢] : لقد تنبأتُ أنّه ما دامت مشنقةٌ على الأرض فلا يمكن أن يغرق هذا الشخص [١٣] !

(مخاطباً ملاحظ السفينة) الآن أيها اللعّانُ [١٤] الذي طردتَ العنايةَ [١٥] من ظهر السفينة ، أليست لك لعنة [١٦] على الشاطيء ؟ أليس لك فم على اليابسة ؟ ما نبؤك ؟ [١٧]

---

(١) اي « هون عليك » ، او « مهلا » ، او « يجب ان تقف عند هذا الحد » . (٢) *inly wept* — لقد انتحب قلبي فأرنّ علي . (٣) *couple* . (٤) مخاطباً الآلهة . (٥) *chalk'd forth* بمعنى *marked out* اي أوضحت .

(٥) اي دوق ميلان (پروسپيرو) — وحذفت كلمة « دوق » اكتفاء . (٦) *his issue*

(٧) نالت . (٨) استرد . (٩) نائية ضئيلة أسباب العون . (١٠) لم يكن مالكا حواسه

(١١) *embrace*. (١٢) من رجالنا . (١٣) راجع الفصل الاول ، ص ٧ .

(١٤) *blasphemy* — وهو استعمال للاسم المجرد في موضع الاسم الوصفي بمعنى *blasphemer*

(١٥) يريد العناية الالهية — كأنما تخلت عن السفينة وأهلها وتركتهم للغرق سخطاً على شتائم ملاحظها القبيحة ! (١٦) *oath* بمعنى *curse* . (١٧) ماذا لديك من خبر ؟

الملاحظ — خبرالأنباءِ أننا وجدنا في سلامةٍ مليكنَا وحاشيته ، وثانياً سفينتَنا — التي اعتبرناها منذ ثلاث ساعات [١] فقط مصدوعةً [٢] — متينةً [٣] ومُعَدَّةً [٤] ومُجَهَّزةً بجراءةٍ كحالِها حينما أقلعنا بها الى البَحْرِ أوّلاً [٥] .

آريل (مخاطباً بروسبيرو على جانب) — لقد قمتُ بكل هذه الخدمة يا سيدي منذ ذهبتُ.

بروسبيرو (الى آريل ، معجباً به) — يا لَكَ مِنْ طَيْفٍ تِعْجَابَةٍ [٦] .

ألونسو (ناظراً الى بروسبيرو) — هذه ليست حوادثَ طبيعية . إنها تتفاقَمُ [٧] من غريبٍ الى أغرب . (مخاطباً الملاحظ) قل لي كيف جئتم الى هنا ؟

الملاحظ — لو كنتُ أحسب يا سيدي أنّي مستيقظٌ تماماً [٨] لحاولتُ أن أُنبئَكَ. لقد كنّا نياماً كالموتى [٩] وكنا جميعاً مُوثَقين [١٠] تحتَ المخازن — ولاندري كيف سُجِنّا — حيث الآن فقط [١١] أُوقِظنَا بأصواتٍ شتّى غريبةٍ من زئيرٍ وزعيق وعُواء وجلجلةِ سلاسل وضوضاء أُخرى متنوّعة ، وإذا بنا نُحَرَّرُ تَوّاً [١٢] ، وثَمّةَ رأينا مِن جديدٍ سفينتَنا الملكيةَ الفاخرةَ الشّجاعةَ بعدّاتها الكاملة ، ورُبّانَنَا يرقص فرحاً لرؤيتها [١٣] . وفي لحظة [١٤] — إذا شئتَ أن تدعوَها [١٥] — بل في حُلمٍ فُصِلْنَا منهم [١٦] وأُتِيَ بنا الى هنا في ذهولٍ [١٧] .

آريل (هامساً الى بروسبيرو على جانب) — أأَحْسِنَ تنفيذُ ذلك ؟

بروسبيرو (هامساً الى آريل على جانب) — بشجاعةٍ [١٨] يا طيفي النشيط [١٩] . سوف تغدو طليقاً.

ألونسو — إنَّ هذا لتيهٌ [٢٠] يماثل في غرابتهِ أيًّا سَلَكه رجالٌ ، وانّ في هذا الأمر ما تجاوز ما يمكن أن تدبّره [٢١] الطبيعة . لا بدّ من وَحْيٍ ليصحّحَ معرفتَنا [٢٢] .

بروسبيرو — سيدي ومولاي [٢٣] ! لا تزعجْ [٢٤] ذهنكَ بطَرْقِ غرابةِ [٢٥] هذا

---

(١) glasses بمعنى hours. (٢) split بمعنى wrecked : محطمة و gave out بمعنى declared = أعلنا أنها تالفة . (٣) tight متماسكة الاجزاء غير ناضحة . (٤) yare .
(٥) اي أنها استعادت جدتها وعدتها يوم رحلتهم الاولى . (٦) My tricksy spirit — اي ممتلىء اعاجيب وحيلا . (٧) strengthen بمعنى increase in strangeness . (٨) في وعي التام
(٩) of sleep = asleep . (١٠) clapp'd . (١١) but even now بمعنى only just now
(١٢) straightaway (١٣) to eye her أو capering اي لرؤيتها على هذه الحالة الجميلة من التجديد
(١٤) on a trice = in a moment suddenly . (١٥) so please you ترجمة .
(١٦) من رفاقنا (١٧) moping — وكذلك بمعنى في غباوة او مرغمين او مسلوبي الارادة.
(١٨) بمهارة. (١٩) my diligence بمعنى my diligent spirit. (٢٠) maze — معضلة محيرة . (٢١) ما يصح ان تكون مسؤولة عنه . conduct هنا مستعمله في موضع conductor .
(٢٢) اي لابد من الهام فوق البشر ليفسر لنا عجائب ما بلوناه . (٢٣) my liege (٢٤) infest بمعنى troube « لا تقلق خاطرك » او « لا تشغل بالك » . (٢٥) with beating on the strangeness

الأمر . ففي ملاءمة مختارة — وستسنح قريباً — سأشرح لك على انفراد [١] ما سيظهر لك محتملاً [٢] عن كل من هذه الحوادث . فالى أن يحين ذلك سَرَّ عن نفسك وظُنَّ خيراً بكل شيء . (هامساً على جانب الى آريل) تعالَ هنا يا طيف ! حرِّر كليبان ورفيقيه واحلُل الرُّقية [٣] . (يختفي آريل) . (يعود الى مخاطبة ألونسو) كيف حال مولاي الجليل ؟ لا يزال مفقوداً [٤] من جماعتك بضعةُ فتيان لا تذكرهم أنت .

(يعود آريل سائقاً الى الداخل كليبان واستيفانو وترنكيولو في ملابسهم المسروقة)

استيفانو (ثملا) — ليتحايلْ [٥] كلُّ رجلٍ للباقي جميعاً ، ولا تدعوا أيَّ رجل يُعْنَى بما يخصُّه ، فكلُّ شيء مجرَّدُ حَظٍّ . كوراجيو [٦] ، أيها الهولةُ العربيد ، كوراجيو !

ترنكيولو (وقد لحظ الحاضرين) — اذا كان هذان اللذان ألبسهما في رأسي جاسوسَيْن [٧] حقيقةً ، فها هنا مشهدٌ مليحٌ !

كليبان (واقفاً مذهولا) أيْ سيتيبوس [٨] ! هذه أطياف جميلة حقّـاً ! ما أجمل سيدي ! إني لأخشى أن يُعذّبَني [٩] .

سباستيان — ها ، ها ! ما هذه الأشياء [١٠] يا مولاي أنطونيو ؟ أيمكن أن يبتاعهم المال [١١] ؟

أنطونيو — محتملٌ جدًّا ، فأحدهم محضُ سمكةٍ [١٢] ولا شك أنه يُتَسَوَّق [١٣] .

بروسبيرو — توسَّموا [١٤] شارات [١٥] هؤلاء الرجال يا سادتي ثم قولوا اذا كانوا أوفياء [١٦] . فهذا الوغدُ الأشوهُ [١٧] كانت والدته ساحرةً وكانت على درجةٍ من البأس بحيث تستطيع أن تتسلَّط على القمر ، وتنشيء مدّاً وجزراً [١٨] وتستغني عن قوته [١٩] في أوامرها . هؤلاء الثلاثة سرقوني ، وهذا نصفُ الشيطان [٢٠]

---

(١) *single I'll resolve you* (٢) راجحاً ممكنا . (٣) *untie the spell*.

(٤) غائبا . (٥) ليدبر — *shift* بمعنى *make plans* . وهو في الواقع يريد عكس ما يقول ، ولكن اختلط عليه المعنى والتعبير لسكره ! (٦) *corage* كلمة ايطالية معناها « الشجاعة » وقد استعملها شكسبير بدل نظيرتها الانجليزية على لسان استيفانو السكير رغبة في التفكهة المناسبة .

(٧) يريد عينيه . وهو يتكلم بلغة السكران الذي من طبيعته الهزل ، وناهيك بمضحك الملك !

(٨) معبود البتاجونيين الأكبر . (راجع الفصل الاول ، ص ٢٠) وهو معبود سيكوراكس ام كليبان ، والراجح ان شكسبير قرأ عنه في كتاب ايدن الموسوم « تاريخ السياحة » *Eden's History of Travel* وقد ظهر في سنة ١٥٧٧ م . وفي هذا الكتاب نجد مذكوراً ان القبطان ماجلان اسر باتاجونيين « فلما اكتشفا كيف خدعا جأرا كالثيران وصاحا بشيطانهما العظيم سيتيبوس لينقذهما »

(٩) *chastise* . (١٠) من هؤلاء الخلق . (١١) أمن الميسور ان نشتريهم بالنقود .

(١٢) ليس سوى سمكة — يريد كليبان . (١٣) يتسوق — *marketable* — اي يباع ويشرى وليس المراد انه مجرد سلعة بل اعجوبة . (١٤) تفرسوا — *mark*. (١٥) تحتمل كلمة (شارات) احد معنيين : اولهما الشارات التي يلبسها الخدم وتدل على اسيادهم ، وثانيهما الملابس التي ارتدوها . والمعنى الاخير انسب . فهي هنا تقابل *dresses* . (١٦) أمناء . (١٧) المسيخ . (١٨) جمع مد وجزر — *flows and ebbs,* . (١٩) عن قوة القمر المدية الجزرية . (٢٠) كليبان .

— فانه نغيل [١] — تواطأ معهم على اغتيال حياتي . لابدَّ أنكم تعرفون وتحوزون اثنين من هؤلاء الأشخاص [٢]، وأما هذا الشيء الداجي [٣] فاني أعترف بأنه حيازتي [٤] .

كليبان (خاراً على ركبتيه) — سأقرَص حتى الموت .

ألونسو (متفرساً) — أليس هذا استيفانو وصيفي السكير ؟

سيباستيان — إنه سكران الآنَ . أين وَجد الخمر ؟

ألونسو — وترنكيولو على أتمِّ ترنُّح [٥] . أين وَجدوا هذا الشرابَ الفاخر [٦] الذي ذهَّبهم [٧] (مخاطباً ترنكيولو) كيف وقعتَ في هذا الرِّيصار [٨] ؟

ترنكيولو — لقد كنتُ في ريصارٍ [٩] منذ رأيتُكم [١٠] آخر مرَّةٍ بحيث أخشى أنه لن يبرحَ عظامي . إني لن أخافَ إفسادَ الذّباب [١١] .

سيباستيان (متجهاً نحو استيفانو) — هيه ، كيف الحالُ الآن يا استيفانو ؟

استيفانو (متنحياً عنه، متذللاً) — اوه، لا تلمسني، إنّي لستُ باستيفانو بل أنا كتلةُ تشنّج [١٢] .

بروسبيرو — وددتَ أن تكون ملكاً على الجزيرة أيها المَولى [١٣] ؟ !

استيفانو — إذنْ لكنتُ ملكاً مُصاباً [١٤] !

ألونسو (مشيراً الى كاليبان) — هذا شيء كأغرب ما وقعتْ عليه عيني .

بروسبيرو — إنه غيرُ متناسب [١٥] في أخلاقه كما هو في خِلقته . (مخاطباً كاليبان) إذهبْ يا مَولَى [١٦] الى كهفي واستصحبْ زميليكَ ، وإذْ أنك تلوح نائلاً عفوي فأصلِحْه مُحسِناً [١٧] .

كليبان — آيْ [١٨] ، سأفعل هذا ، وسأكون عاقلاً بعد الآن وأنشد نعمتك .

---

(١) bastard : غير متجانس النسب . (٢) fellows — يعني استيفانو وترنكيولو. (٣) this thing of darkness — المنتسب الى الظلام — يريد كاليبان . (٤) أني مقر بأنه تابعي . (٥) reeling ripe . (٦) الشراب الاسمى او الاكسير الذي كان يعتبره الكيماويون القدامى قادراً على اعادة الشباب ومنح الخلود ، وهو على زعمهم يستحضر من الذهب .

(٧) الذي اكسبت وجوههم لوناً احمر ذهبياً . (٨) pickle — بمعنى المأزق. (٩) بمعنى مرق التخليل او المخلل — يشير الى اوحال البركة الآسنة ! (١٠) لم يقل (منذ رأيت جلالتكم) لانه لا يملك وعيه . (١١) fly blowing — يشبه نفسه باللحم المخلل (او المملح) الذي لا يخاف عليه من بيض الذباب فيه وافساده ، لان التخليل او التمليح يصونه .

(١٢) cramp بمعنى a mere mass of crump . (١٣) sirrah بمعنى sir ، ولكنها مستعملة في بروح الاحتقار . (١٤) a sore one — وكلمة (مصاب) هنا ذات معنيين : اولهما انه يكون مصاباً (مصيبة) على الرعية ، وثانيهما انه يكون مصاباً في عظامه نظراً لما عاناه من الاوجاع .

(١٥) disproportion — مشوه. (١٦) يا عبد — sirrah . (١٧) trim it handsomely أتقن حسن ترتيب الكهف . (١٨) أجل .

(مدمدماً ازاء استيفانو وترنكيولو) ماكان أشبهني بضِعْفِ ثلاثةِ حميرٍ في غباوتي لِحُسباني هذا السكيرَ إلهاً، ولعبادتي هذا الأبله الغبيّ [١] !

بروسپرو — هيّا انصرفوا !

ألونسو — اذهبوا وضعوا حِمْلكم [٢] حيث وجدتموه .

سباستيان — بل من حيث سرقتموه !

(يذهب كاليان واستيفانو وترنكيولو كسيري الخاطر (٣) الى الكهف)

بروسپرو (مخاطباً ألونسو) — مولايَ، إنني أدعو سموّك وتَبَعكَ [٤] الى كهفي الحقير حيث تأخذ راحتك في هذه الليلة الوحيدة التي سأنفق جزءاً منها في حديث لا أشكّ في أنهُ سيجعلها تمضي عاجلةً : هو قصّةُ حياتي والحوادث المتميزة [٥] التي مضتْ منذ مجيئي الى هذه الجزيرة : وفي الصباح سأمضي بكم الى سفينتكم وهكذا الى نابولي حيث أؤمّل أن أرى عرسَ حبيبنا العزيزين هذين يُحتفل به [٦]، ومن ثمّة أبرح الى ميلان معتزلاً حيث يكون قبري كلَّ ثالثِ خاطر [٧] .

ألونسو — إنّي أتوقُ الى أن أسمع قصّةَ حياتكَ التي لا بدَّ أنها تنال [٨] السّمعَ مدهشةً .

بروسپرو — سأفضي بكلّ شيء [٩]، وأعدُكَ ببحورٍ [١٠] هادئةٍ ورياحٍ مباركةٍ [١١] وإقلاعٍ سريع، بحيث تدرك العمارة الملكيةَ التي سَبقتْ بعيداً . (هامساً الى آريل على جانب) أيْ عصفوري [١٢] آريل، هذه عُهْدَتُكَ [١٣] . وبَعْدُ فانطلِقْ الى العناصرْ، ولتكنْ في خيرٍ .

(يتلاشى آريل في الهواء . ويدعو بروسپرو باشارة الآخرين الى أن يدخلوا كهفه)

بروسپرو — إذا سمحتم فاقتربوا مني [١٤] .

(يدخلون معه الكهف فتسدل الستارة الخارجية على الفصل الخامس)

---

(١) يشير بكلا الوصفين الى استيفانو، اذ انه لم يكن يبجل ترنكيولو، بل لم يكن على وفاق معه . (٢) *your luggage* — ما تحملون من ملابس عليكم .

(٣) *dejectedly* — في اكتئاب . (٤) *your train* — وحاشيتك . ولعله يعني أن يقول (جلالتك) بدل (سموك) . (٥) *particular* — اي الغريبة او النادرة . (٦) *solemnised*

(٧) مريداً اما ان خاطره الاول والثاني يعودان الى ابنته العزيزة وزوجها، واما ان التأهب للموت سيكون ماثلاً امامه تكراراً . (٨) تأسر — *take* بمعنى *captivate* اي تستولي على السمع

(٩) *I'll deliver all* — سأقص كل ما عندي . (١٠) استعمل الجمع في معنى المفرد.

(١١) *auspicious* = *lucky* = حسنة الطالع اي ملائمة . (١٢) *chick* — وهي اصلاً بمعنى فروج . (١٣) *thy charge* — هذا ما اعهد اليك به .

(١٤) *draw near* اي *come close to me* .

نشيد ختامي

(بعد لحظة قصيرة ترفع الستارة الخارجية فيظهر على المسرح بروسبيرو وحده منشداً هذا النشيد(١) خطاباً الى النظارة، وقد كسر عصاه وتخلى عن وسائله السحرية التي كان يسلطها على أطياف الجزيرة)

الآن قد خذلتْ رُقايَ(٢)، ومابَرَى مِنْ قوَّتي عندي يعود إليَّ
وهي الضئيلةُ (٣) . فالحقيقة أنني إمَّا السَّجينُ الآنَ طوعَ نفوذكم
أو شَطرَ نابولي أُعادُ ، فلا تَنُوا عنّي وقد أرْجَعتُ لي دُوقيَّتي
وصَفَحتُ عمَّنْ خانَني. لاتتركو نِي مُرْغَماً في ذي الأراضي القاحِلَة
بل أطلقوني مِنْ قيودِ عصابَتي (٤) بمعونةٍ تَنْدَى بها أيديكم
لا بدَّ من مَلْءِ القِلاعِ (٥) بِنَفحةٍ مِنْ لُطْفِ أنفاسٍ لكم في رحلتي
فاذا ضَنَنْتُمْ ضاعَ مَشْروعي سدًى وهو الذي منه مُلِئتُ حُبُورا
والآن صارَ يعُوزني الأطيافُ في أمرٍ (٦)، وفَنُّ السِّحرِ في تسخيرِ (٧)
فاليأسُ عُقبَى لي إذا لم أغْتَنِمْ إسْعافَ ما أرجو من الصلواتِ
فتشقُّ هاتِيكَ السماء مُهيبَةً بالإِلهِ رحمتنا (٨) لِمَحْوِ ذُنُوبي
فكما تشاؤونَ اغتفارَ ذنوبكم فدَعوا تسامُحَكُمْ (٩) يفكُّ قيودي.

(تُسْدَل الستارةُ على ختام رواية « العاصفة »)



(١) يرى فريق من الشراح ان هذا النشيد ليس من نظم شكسبير اذ كانت العادة ان يترك نظم الاناشيد الاستهلالية والختامية للفرق التمثيلية ذاتها، ويعززون هذا الرأي بضعف النظم في هذا النشيد، وهو حكم عام مبهم ، اذ الواقع ان شكسبير متساهل في نهاية الرواية، وهذا النشيد يتفق في قوته وفي روحه مع آخر ما كتبه .

(٢) *my charms* (٣) *most fatnt* . (٤) *bands* يريد عصابة أطيافه ، وقد تكون الكلمة بمعنى قيود *fetters*. (٥) قلاع السفن . (٦) *to enforce* . (٧) *to enchant* . (٨) *assaults mercy* — على تقدير حذف كلمتي *od of* اكتفاء . (٩) *indulgence* [illegible] .

في العلم الروحي الحديث

العجيبة الثامنة

بقلم

أحمد فهمي أبو الخير

مدير ادارة السينما بوزارة المعارف

الكتاب موضح بصور فوتوغرافية

الطبعة الاولى

مطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يكاد ينقضي قرن على « الروحية » بعد أن اتشحت ثوبها العلمي الجديد الذي حاكه دعاتها — علماء ووسطاء — ناصعاً مليئاً بالآيات البينات يدعمها التجريب العلمي الدقيق .

ومن الوسطاء الذين خضعوا لذلك التجريب العلمي الدقيق ذي الأسلوب القاسي سيدة بوسطن أو شهيدة بوسطن المعروفة باسم « مرجري » . وهي التي أخرست بتجاريبها ألسنة أشد العلماء الماديين عناداً ، وهي التي فضحت بحق « هوديني » عدوّ الروحية غفر الله له ، وتركته مدحوراً مغلوباً على أمره .

ولهذا كله سميت بحقٍ « العجيبة الثامنة » .

وكان على رأس جمعية البحوث الروحية الأمريكية في احدى فترات ذلك التجريب العلمي محام نابه بارع وقانوني ضليع هو العلاّمة وليم هـ . باطون William H. Button فلما نجحت تلك الاختبارات القاسية لم يسعه إلاّ أن يعلن اقتناعه بصدق الظواهر الروحية ، فقوبل من أهل الجمود بصيحة الاستنكار . وقال هؤلاء كدأبهم : خادع ومخدوع . وحدث ان قابل باطون فيما بعد الصحفي الإنجليزي البارز والداعية الروحي الكبير هانين سوافر Hannen Swaffer فسأله رأيه في ذلك الإستنكار ، فأجابه بما سبق أن أجاب به كثيرين وما نشره بعد في كتابه النفيس « قصتي الكبرى » الذي ظهر في أواخر سنة ١٩٤٥ ، قال : —

« اذكر دائماً أنك إذا وجدت في الطريق ماسة صغيرة فلك أن تهبها أو تبيعها دون أن تجني من ذلك همّاً ولا نصباً . ولكنك إذا وجدت كتلة ماسٍ كبيرة فان حياتك تصبح عبئاً ثقيلاً عليك . ذلك أن كثيرين من الناس سيقولون إنها زجاج لأنها من كبر

الجرم بحيث لا يمكن أن تكون ماساً ، على حين يحاول سرقتها واغتصابها منك كثيرون غير هؤلاء لتأكدهم من إنها ماسة حقيقية . وقد يطاردك رجال الشرطة . وقد تتهم بأنك سرقتها فتلاقي كثيراً من المزعجات . فإما ألقيتها في نهر وإما ألقيت نفسك فيه . وأنت الآن قد استكشفت حقيقة كبرى ، فان كنت لا تحب الحرب والكفاح فلك ذلك ، وإنما كان ينبغي أن تقرره قبل أن تبدأ بحثك وتقصيك . وأما وأنت رجل نزيه شريف فإنك لا بدّ فاعل ما أعلم أنك فاعله وهو أن تلصق بالحق وتتمسك به » .

والحقائق التي سيطالعها القراء في « العجيبة الثامنة » ليست من نسج الخيـال ، بل هي أحداث واقعية خاضعة لقوانين إلهية أزليّـة تسري وتعمل ، وقد أصبحت موضوع دراسات جامعية بدأت في جامعة بون Bonn في المانيـا وفي جامعة كمبردج في انجلترا ، ثم سرت الى الجامعات الأخرى في أوروبا وأمريكا . فليس سحراً ما سيطالعه قرّائي في الصفحات التالية بل نتائج حتمية لقوانين الله الأزلية الطبيعية التي تتكشف للعقل العلمي الفاحص آونة بعد أخرى وعلى قدر نضجه .

والله أسأل أن يلهمنا التوفيق والسداد

أحمد فهمي أبو الخير

القاهرة يوليه سنة ١٩٤٦
شعبان سنة ١٣٦٥

مفردات وشرحها

١ — إكتوبلازم Ectoplasm مادة تنبثق من جسوم الوسطاء وتساعد على إحداث الظواهر ، وقد وصل العلماء الى تحليلها ميكروسكوبيًّا والى تصويرها بالأشعة تحت الحمراء فوتوغرافيًّا وسينمائيًّا .

٢ — تلبثي Telepathy أي إيصال تأثيرات من أي نوع ، من عقل الى آخر بعيداً عن مجاري الحسّ المتعارفة .

٣ — جلاء بصري Clairvoyance أي قدرة الانسان على الرؤية بشكل يخالف العرف وبدون استعمال الحواس العادية فيخترق ببصره الحجب المعتمة ويرى ما وراءها متعدياً حدود الفضاء والزمن .

٤ — جلاء سمعي Clairaudience أي قدرة الانسان على ادراك التأثيرات الصوتية بما يخالف العرف ، وهو كزميله الجلاء البصري لا يتقيد بأبعاد الزمان والمكان .

٥ — سيكومتري Psychometry هي عند السيكولوجيين قياس مدة الحالات أو العمليات العقلية وشدّتها ، وعند الروحيين تقصي أثر شخص بطريق سلعة من سلعه . والمقصود هنا في هذا البحث هو التفسير الروحي لا السيكولوجي .

٦ — غيبوبة Trance حالة نوم أو لا شعور ظاهري تعتري الوسطاء الروحيين ويصحبها تغييرات فسيولوجية كتيبس الجسد مثلاً ، ويكون الوسيط في حالة استحواذ ، أي أن روحه تكون قد غادرت جسده مع بقائها متصلة به بحبل أثيري ، وفي نفس الوقت تكون روح أخرى قد هيمنت على جسده .

٧ — اختير التعبير «بحث روحي» مقابلاً للكلمتين الانجليزيتين "Psychical Research"



ش (١) مرجري (العجيبة الثامنة)

نقلا عن « موسوعة العلم الروحي » الانجليزية

العجيبة الثامنة

١ — تمهيد

يتحدَّث الأثريون عن عجائب الدنيا السبع التي أنشأها الأقدمون في سالف الأزمنة في جهات متفرقة في هذه الأرض ، وكلها من مبتكرات عقول رجال الفنون والعلوم والصناعات في تلك العصور الغابرة . أما العجيبة الثامنة التي نحن بصددها فهي بشر مثلنا — هي سيدة تمت على يديهـا أحداث جسام توطدت بها أركان أحدث العـلوم ، ونعني به العلم الروحي الحديث الذي شقَّ لنفسه الطريق في الوقت الحاضر حتى وصل الى الجامعات والمجامع العلمية المختلفة في كل من أوربا وأمريكا .

هي مسز مرجرى كراندون Mrs. Margery Crandon عقيـلة الطبيب الجرَّاح الدكتور ل . ر . ج . كراندون Dr. L. R. G. Crandon أستاذ الجراحة بمدرسة الطب بجامعـة هارفارد ، ومؤلف الـكتاب الحجة في موضوع العلاج بعد الجراحي Surgical after treatment هي وسيطة بوسطن الروحية الشهيرة التي خصها الله بقوى روحية تـكاد تـكون فذَّة ، والتي حباها الله فوق ذلك الخلابة والجاذبيـة والخلق السمح الـكريم والـكرم الحاتمي . اختبر وساطتها أفراد ولجان وجماعات ، وتعرَّضت في تلك الاختبـارات لقسوة ذلك « الأسلوب العلمي » المقول به أو بعبارة أصح ذلك « الهوس العلمي » الذي يخرج البحث العلمي عن القواعد والأصول ، وخرجت كما سيجيء من هذه الاختبارات كلها ناجحة مرفوعة الرأس ، وفازت بشهادة العلماء على صدق ظواهرها . وشذَّ عن ذلك جماعة التووا ، إما لظروف خاصَّـة بهم ، وإما لحقد أكل قلوبهم . ولم يتورَّع بعض هؤلاء حتى عن الدس الدنيء للتشهير بهـا كي يكسبوا من وراء ذلك شهرة على حسابهـا . ولا إخال نزعة الـكراهية التي سادت بعض

مختبري وساطتها إلاّ لنجاح هـذه الوساطة من جهة ، ولشهرة زوجهـا الطبيب ومهارته في صناعته من جهة أخرى . وناهيك بأولئك الذين اتخذوا الشك والتشكيك حرفةً لهم ، يريدون بذلك التظاهر بالدفاع عن آراء وقضايا ظنوها حاسمة . وهؤلاء يبدأون بافتراض أن كل شيء لا يتفق وتفسيرهم للقوانين الطبيعيـة المتعارفة لا بدّ أن يكون وهماً أو خداعاً وتدليساً . وكأن تلك القوانين الطبيعية المتعارفة هي كل القوانين التي على مقتضاها يسير الكون بشقيه المنظور وغير المنظور . واذا قرأت لهؤلاء النقّـاد ما كتبوا لمست تحيزهم ظاهراً . ووجدتهم يتلمسون الخطأ حيث يتوهمونه ، على حين يمرون بالبينة القاطعة ولا يشيرون اليها . وبذلك يحققون القول المأثور : ليس هناك من هو أشد عمىً من ذلك الذي لا يريد أن يبصر ، ولا من هو أشد صمماً من ذلك الذي لا يريد أن يسمع . وكما قال العـلامة شلر Prof. Schiller الاكسفوردي : « ان أقوى البينات لتخفق في إقناع العقل الراغب عن التصديق أو حتى الراغب عن التثقيف » .

ويقول هؤلاء المتشبثون بآرائهم إنما يرونه يخالف علمهم وما عرفوه عن صدق القانون الطبيعي ، فهم برغم رؤيتهم الظواهر تحدث مع كل الاحتياطات التي يتخذونها يرفضون قبول ما تنم عليه هـذه الظواهر من حقائق بحجة انهـا تخالف القوانين المتعارفة . والغريب أن بعض هؤلاء يعترفون فيما بينهم بصدق تلك الظواهر الروحية ، ولـكنهم يحجمون عن الجهر بذلك مخافة أن يضطرهم جهرهم بهـا الى التشهير بهم أو الى فقد مناصبهم ، إما بالاقالة ، وإما بالاستقالة ! وكأننا في القرون الوسطى !

ولو كانت مرجري امرأة فقيرة تستغل الوساطة في سبيل العيش لقلنا على الأقل ، ان طالب العيش ما تعدّى ، ولـكنها لم تكن تتقاضى على عملها الوساطي أجراً ، بل لقد كانت تبذل هي وزوجها من ثروتهما المتواضعة البذل الكثير في نشر العمل الصالح الذي كشفته لها الوساطة الروحية ، وهذا عدا ما كانا يبذلانه سرّاً في سبيل البرّ والاحسان على فقراء بوسطن .

ولطالما تجادل نقّـاد هذه الوسيطة الشهيرة بعضهم مع بعض . ولـكن هل استطاعوا أن يقيموا الدليل القاطع على وجود ثلم أو عيب في أعمالها الوساطية ؟ كلاّ . ويلاحظ أن بعض الذين لا تتسع صدورهم ولا عقولهم إلاّ لبحث العلوم المتعارفة فقط يعتبرون البحث في العلم

الروحي جريمة . فهم والكهنة الأقدمون سواسية . ونراهم يرفضون قبول الحقائق التي لا تتناولها علومهم والتي تعجز عقولهم وعلومهم عن تفسيرها . وكان هؤلاء يهاجمون مرجري مهاجمة قاسية ودنيئة في بعض الأحيان ، ولكنها كانت تتلقى كل ما كان يوجه اليها ببشر وترحاب . وكثيراً ما هزأت في رفق ورقة بأولئك الذين كانوا يجرحون أعمالها الوساطية بالكذب والدس والافتراء .

٢ — بدء وساطة مرجري وتنميتها

قرأ الدكتور كراندون ما كتبه العلامة الدكتور كروفورد Dr. Crawford أستاذ الهندسة الميكانيكية في جامعة بلفاست عن الأحداث التي تمت في الجلسات التي عقدها مع الوسيطة كيت جوليجر Kate Goligher، فتطلع إلى أن يجري هو وزوجته بحوثاً مشابهة .



ش (٢) صورة ستنسون ولتر شقيق مرجري « المتوفي » والروح المهيمن عليها

« نقلا عن مجلة سايكك نيوز »

وحدث أن زارت مرجري وسيطاً للجلاء البصري فحدثها عن أخيها ولتر ستنسون Walter Stinson الذى توفي سنة ١٩١١ في حادث من حوادث السكة الحديدية ، وكان عمره إذ ذاك ثمانية وعشرين عاماً . واستطاع الروح ولتر خلال وسيط الجلاء البصري ذاك أن يثبت شخصيته لشقيقته ، ولما تم له ذلك طلب إليها أن تعقد جلسات في منزلها . وفعلاً

عقدت الجلسة الأولى في مايو سنة ١٩٢٣ ، وظهرت وساطة مرجري بوضوح في هذه الجلسة ، لأن المنضدة التي استعملها الجالسون لم تهتز وتتأرجح إلاّ عند ما وضعت مرجري يدها عليها . وتعهد الروح والتر شقيقته فنمّى الوساطة عندها بالتدريج ، وكفلها بإرشاده ورقابته حتى استطاع إحداث الظواهر الروحية المختلفة على يديها كما سيجيء . وقد تضمنت هذه الظواهر الدّق ، والغيبوبة ، والتجسد ، والصوت المباشر ، والمجلوبات والمأخوذات ، وتكوين الأكتوبلازم بحيث يمكن تصويره فوتوغرافيًّا ، ومرور مادة خلال مادّة ، والكتابة بلغات مختلفة ، والرسائل المجزأة التي تعطى أجزاؤها لجماعات مختلفة تفصل بينها مسافات شاسعة ، فاذا ما ضمت الأجزاء كونت رسالة دقيقة مفهومة . وكان ولتر عدا هذا كله روحاً مخلصاً ناصحاً صادق النصح ، مجرباً مرحاً يملأ جوّ الجلسة سروراً إذا ما استشعر من الحاضرين ضجراً ، وكان في بعض الحالات يبتكر الاختبار ابتكاراً . فلما استتبت الوساطة سرعان ما أصبح المنزل رقم ١٠ بشارع لايم Lime Street ببوسطن مقصد العلماء والبحّاث ومزارهم يحجون إليه من كل صقع .

٣ — بصمة الابهام

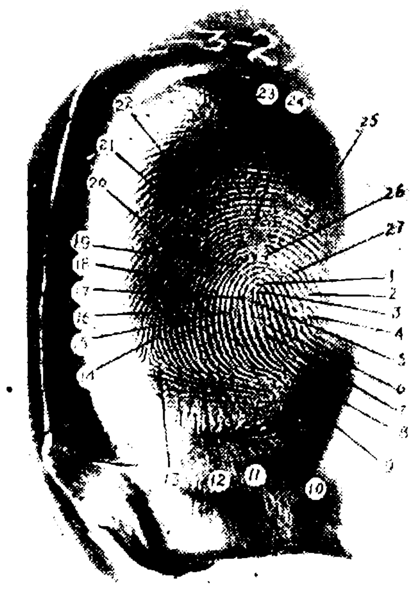
سأل الروح ولتر ذات يوم جلساء مرجري عن البرهان الذي يطلبونه لكي يثبت لهم أنه هو ولتر الذي كانوا يعرفونه وهو في الحياة الدنيا ، وأنه الآن يتابع الحياة في منطقة وجود أخرى في الكون ، فقالوا له « نريد بصمة إبهامك لأن بينة البصمة لا يمكن أن ترد » .

فلم يتوان ، وطلب إليهم أن يجيئوه بشمع وماء ساخن . وبدأ تجاربه في البصمات ، وأعطاهم مجموعة بصمات لا للابهام وحده بل لليد كلها . وقد كانت تجارب البصمات تلك مثار نقاش جديد لعلّ الأرواح كانت ترمي إليه ، لأنه كلما كثر نقاش رجال العلم كثر الحديث حول الروحية وزادت من ثمّ معرفة العالم العلمي لمرجري ووساطتها الفذة .

ولم يكن لمرجري دخل البتة في إحداث تلك البصمات كما قال الكابتن فايف Fife خبير البصمات في بحرية الولايات المتحدة في بوسطن ، لأن تلك البصمات حدثت مع اتخاذ أشد حيطة ممكنة . وقد كانت البصمات في مبدأ الامر موجبة أي من النوع العادي . وبعد ذلك

أعطى ولتر مختبري بصمته بصمات معكوســة الوضع، وهي التي تسمى بصمات المرآة .

وقد صارت تعطى البصمات سالبة ، تظهر فيها الخطوط البارزة غائرة والغائرة بارزة . وعدا هذا وجدت صورها المعكوسة في المرآة مطابقة للبصمات العادية . وقد بلغ عدد البصمات التي أعطاها ولتر ١٣١ بصمة ، وقد قام بتحقيق هذه البصمات كلها رجال الشرطة وتحقيق الشخصية في واشنجطن وبوســطن وبرلين وميونخ وفينّــا وسكوتلند يارد بلندن . وتمت المضاهاة على بصمة لولتر كان قد تركها على أحد أمواس الحلاقة ، وكان قد استعمله يوم وفاته في ذلك الحــادث الذي أودى بحياته . وأسفرت المضاهاة عن أن بصمة والتر وهو في عالم الروح كبصمته وهو في عالم المادة .



ش (٣) بصمة ابهام الروح ولتر

نقلا عن « موسوعة العلم الروحي » الانجليزية

وأراد أن يقطع الطريق على أولئك الذين يحترفون الشــك والتشكيك ، وهم الذين يشكون حتى في أنهم شاكون ، فطبع يديه المتجسدتين في الشمع مظهراً بصمات أصابعه كلها

وتمارين الكفين . ومع ذلك رأى دعاة الشك والتشكيك هؤلاء أن يجرحوا هذا أيضاً ، متجاهلين قيمة هذه التجربة مع أن مجرد حدوثها مع الرقابة الشديدة المفروضة أمر معجز في ذاته ، فلم يقولوا إن البصمات قد أعطيت بشكل خارق ، بل قالوا في جرأة غريبة إن البصمة ليست برهاناً قاطعاً على تحقيق الشخصية ! ! ولو كان صدقاً ذلك الذي يقولونه لكان معناه إنتهاء أمر بصمات الأصابع كوسيلة من وسائل تحقيق شخصية الجناة والمجرمين .

ورأى ولتر أن يرد على ذلك بتجربة اخرى حاسمة ساخرة . ذلك أنه لما توفيت في بافلو من تدعى فرانسس جراي Frances Gray إحدى قريبات مرجري ، في ليلة انعقدت فيها إحدى الجلسات ، جاء ولتر بروح هذه المتوفاة دون علم أحد من الحاضرين حتى بحدوث الوفاة ، وساعد على أخذ بصمتي ابهاميها الأيمن والأيسر . وما كاد ولتر ينتهي من ذلك حتى أخبر الحاضرين بالأمر ، فقام الدكتور كراندون على الفور واتصل تليفونياً بزوج تلك السيدة المتوفاة حديثاً ، وأخبره بما حدث في الجلسة ، وسأله أن يأخذ بصمتي ابهامي الجثة الأيمن والأيسر . وحينما ضاهى الخبراء بصمات الجثة ببصمات الروح في حجرة التحضير أعلنوا أنها متطابقة .

وثمة اختبار آخر من نوع آخر ، وكان اختباراً رائعاً . ذلك أن القاضي ستانتون هل الأمريكي Judge Stanton Hill كان من أعضاء تلك الدائرة الروحية . فلما رأى كثرة اللجاج والحجاج حول البصمات قام وسجل بصمته وهو على قيد الحياة ، وطلب أن تحفظ في سجل الى بعد مماته . وكان ذلك في سنة ١٩٢٧ . ثم دار الفلك دورته وتوفي القاضي هل بعد ذلك بثلاث سنين ، وجلسات مرجري تنعقد في مواعيدها . فلما مضت على وفاته ستة أسابيع حضر وهو روح متجسد في إحدى تلك الجلسات ، وعرّف الحاضرين بنفسه معلناً أنه جاء لكي يبرّ بوعده ، وطلب أن تؤخذ بصمته وهو روح . وفعلاً أخذت البصمة الجديدة وضوهيت بالبصمة المحفوظة فاذا البصمتان سواء !

ولما كانت هذه البصمات نوعاً جديداً ومدهشاً من براهين اثبات الحياة بعد الموت فقد هوجمت من مناهضي الروحية مهاجمة عنيفة ووضيعة في آن واحد . ورأت جمعية البحوث الروحية الامريكية أن تفحص الأمر ، واستخدمت لذلك رجلاً يدعى ددلي E. E. Dudley كان ملحقاً بخدمة الدكتور كراندون في المنزل ، طالبة اليه أن يساعد في إعداد المواد اللازمة

للجلسات . وفجأة أصدر هذا الرجل كتيباً صغيراً يقول فيه إن بصمة الابهام الأيمن لولتر تضاهي بصمة الابهام الأيمن لطبيب الاسنان الذي يعالج أسنان مرجري وأحدث هذا الكتيب بطبيعة الحال ضجة ، وسر مناهضو الروحية لذلك وتصايحوا ، وراحوا مقدماً وسلفاً ينعقون كالبوم والغربان .



ش (٤) مرجري واقعة في الغيبوبة وقد أمسك بيديها اثنان وترى أمامها يداً متجسدة للروح ولتر

نقلا عن مجلة « سايكك نيوز »

وازاء ذلك قررت جمعية البحوث الروحية الأمريكية أن تقوم بفحص شامل المسألة وانتهى فحصها إلى أن بصمة ابهام يمنى والتر التي اتخذها ددلي أساساً لدعواه الكاذبة موجبة لاسالبة كما قال . ومعنى هذا أن بصمة ابهام والتر لا يمكن أن تكون مطابقة لبصمة ابهام طبيب الأسنان . ولكن ددلي الكاذب المكدود لم يقف عند ذلك بل عاد يؤكد من جديد أن هناك شبهاً بين ابهام يد ولتر اليسرى وابهام يد الطبيب اليسرى . وأثبت الفحص مرة أخرى كذب هذا الادعاء ، لأن بصمة ابهام اليد اليسرى — وهي البصمة التي اتخذها ددلي وسيلة لتدعيم دعواه — كانت فذة لا مثيل لها بين مجموعة البصمات كلها التي طبعها ولتر . وليس من بين بصمات ابهام يسراه المحفوظة عند جمعية البحوث الروحية الأمريكية مايضاهي تلك البصمة المزعومة — وعلى ذلك قررت جمعية البحوث أن دعاوى ددلي «ما زالت مرفوضة

للفحص والدرس » . وعادت الجمعية فأعادت النظر في كل أعمال ددلي هذا التي كان أجراها لأنه أخطأ خطأً كبيراً وخطيراً في العمل الذي وكل اليه القيام به .



ش (٥) بصمة يد الروح ولتر

عن مجلة « سايكك نيوز »

ولما سئل ولتر عن رأيه في كل ذلك الذي زعموه قال انه زعم فاسد مضحك لأنه لا انطابق البتة بين بصمتي ابهاميه وبصمتي ابهامي طبيب الاسنان . وبعد ذلك أخذت بصمات كاملة بالمداد وبالشمع للطبيب ، وطلب الى ولتر أن يعطي بصمات كاملة ليديه الاثنتين في الشمع لاجراء مضاهاة . وفيما يلي بعض ما قالته جمعية البحوث الروحية الأمريكية في تقريرها عن هذه المسألة . قالت : —

« في سلسلة جلسات تعد من أهم الجلسات التي عرفت في البحث الروحي أظهر ولتر في شمع أعدّه له البحّاث عدداً كبيراً من بصمات كاملة أو جزئيـة لـكل من يديه اليمنى واليسرى » .

ومضى التقرير يقول انه قد تمّ تسجيل هذه البصمات بحضور اثنين من كبار رجالات العلوم وخبير في البصمات ، وكانت بصمات ولتر التي حصلوا عليها إذ ذاك مضاهيـة لنفس البصمات التي اعتاد طبعها في مختلف الجلسات السابقـة . وكانت في الوقت ذاته مخالفة تماماً لبصمات طبيب الأسنان .

وبذلك انتهت تلك التهمة التي جرت وراءها خيراً ، وأظهرت ما يمكن أن يواجه الوسطاء ويعترض سبيلهم ، ودلت على أنه كلما كان عملهم الوساطي أكثر اتقاناً واكمالاً كانت المعركة في سبيل الدفاع عنه أقسى وأعنف . وبالطبع لو كانت مزاعم ددلي تحققت لانهارت تجارب البصمات كلها ، ويكون باطلاً ذلك العمل المضني الذي قام به رجال تحقيق الشخصية في غير بلد بصدد بصمات ولتر ، وذلك لأن رجلاً ماجناً أو مأجوراً أعدّ كتيباً صغيراً حاول فيه — عن سوء قصد — أن يثبت أن بصمات الأصابع التي سجلها روح بالوسائل الروحية تطابق بصمات رجل له معرفة بالوسيطة وزوجها ، أو لأنها من زبائنه وعملائه باعتباره طبيب أسنان !

٤ — تحقيق عالم علمي

من البحّاث المحترمين الذين قصدوا منزل الدكتور كراندون لفحص وساطة مرجري العلامة الدكتور روبين جون تليارد Dr. Robin John Tillyard كبير العلماء الحشريين في الحكومة الاسترالية . وقد أراد أن يعقد بمفرده جلسة مع مرجري ، وكان في طلبه هذا شيء من الشذوذ وعدم اللياقة . ولكن اجابةً لرغبة سير أوليفر لودج Sir Oliver Lodge وكان من المعجبين بأعمال مرجري ومسلك زوجها الدكتور كراندون سمحت بعقد جلسة انفرادية مع الدكتور تليارد . وفيما يلي الخطاب الذي كتبه سير أوليفر لودج الى الدكتور كراندون في هذا الصدد حينما سأله الدكتور تليارد التوسط لكي يجاب طلبه : —

«إن تليارد يرى أن السماح له بجلسة انفرادية يعقدها مع مرجري في حجرة يعدها هو بنفسه يقلل من فرص اتهامه بالتآمر والتحالف ، وهو يظن أنه لو حصل على نتائج إيجابية تحت هذه الشروط فان المتشككين لن يستطيعوا اتهامه بالتآمر ، لأن ذلك سيكون اتهاماً سخيفاً نظراً لمركز الرجل باعتباره من رجال العلوم » .

ووافق الدكتور كراندون على ذلك ، وعقدت الجلسة في منزل طبيب لا يمت بصلة لدائرة كراندون الروحية . وأخذ تليارد على عاتقه فحص الملابس التي ارتدتها مرجري أثناء عقد الجلسة ، وقام فعلاً بفحصها فحصاً دقيقاً ، كما فحص كذلك كل الأدوات الخاصة بأخذ بصمات

الابهام . وجهز بنفسه الشمع الذي يستعمل في هذا الغرض بعد أن ميزه بعلامة خاصة . ثم أجلس مرجري فوق كرسي وشدّ وثاقها وربط ساعديها وراحتيها العاريتين بذراعي الكرسي ، ثم أحاط راحتيها بعد ذلك بأشرطة لصق ، كما ربط ساقيها وقدميها بقوائم الكرسي . وبعد أن حزمها بهذه الكيفية خطط حول الاربطة بقلم أزرق حتى إذا ما حركت الوسيطة يديها أو قدميها خلال الجلسة فضحتها بسهولة تغير مواضع الأربطة وعدم انطباقها على التخطيطات الزرقاء .

وعلى هذا النمط عقد تليارد جلسته الانفرادية مع مرجري ، وحصل على ثلاث بصمات لروح ولتر ، وبلغ من تأثره واقتناعه بصدق تجريبه أن كتب لسير أوليفر لودج بعد انتهاء الجلسة ببضع ساعات خطاباً قال فيه : —

« لقد كانت تلك الجلسة في نظري أعجب جلسة حضرتها . وأظن أن الترتيبات التي اتبعناها كانت قاسية من الوجهة العلمية ، ولكنها في الوقت ذاته سجلت أعجب النتائج في تاريخ البحث الروحي كله . ويخيل الي أنه يستحيل قطعاً أن يؤخذ على هذه النتيجة العجيبة أي ثلم أو نقص . ولقد كانت هذه الجلسة بالنسبة الي الغاية القصوى في بحوثي الروحية كلها . وأستطيع الآن أن أقرر أنه لم يبق بعد ذلك زيادة لمستزيد ، ومن ثمّ سأعود الى استئناف عملي الأصلي في علم الحشرات » .

وكان طبيعيًّا بعد أن أجرى هذا العالم الباحث تلك التجربة العلمية العظيمة الناجحة أن تتوق نفسه لاخبار اخوانه العلماء بما وفق إليه من كشف . ولهذا كتب الى مجلة « نايتشر Nature » العلمية بياناً مفصلاً لما تمّ في جلسته الانفرادية تلك مع مرجري ، وما تمّ كذلك في جلستين أخريين . وقد كان هذا منه أكبر عطاء يتقدم به للعلم ، سالكاً نفس الطريق الذي سلكه من قبل كروكس Crookes ورسل ولاس A. R. Wallace ولودج وجمهرة كبرى من البحّاث غير هؤلاء . ولكن مجلة « نايتشر » أبت أن تنشر رسالة تليارد أو أن تشير اليها بكلمة . وبعد ذلك بعامين كتب مقالاً آخر نشرته له هذه المجلة في عددها الصادر بتاريخ ٢٨ أغسطس سنة ١٩٢٨ ، وكان هذا المقال آخر ما كتبه في الموضوع ، وقد قال فيه :

« نتيجة لتجارب أخرى أجريت مع وسيطة بوسطن الشهيرة مسز كراندون (مرجري) أقرّر أن برهاناً علميًّا على الحياة بعد الموت قد أمكن الحصول عليه أخيراً » .

وفي شرح برهانه هذا بالتفصيل قال :

« ان فرص الغش والتدليس قد استبعدت بطريقتين : أولاهما فرض الرقابة التي تستدعيها طبيعة كل تجربة وذلك لتجنب تهمة الغش الصريح ، والثانيـة ابتكار تجارب هي في صميم طبيعتها إما أن تكون مستحيلة على الآدميين الذين على قيد الحيـاة ، وإما أن تكون قد تقرّرت استحالتها إذا اتبعت في اجرائها الوسائل المتعارفة . وقد أمكن اعادة اجراء هـذه التجارب القيمة بعـد القيمة ، وكانت النتائج واحـدة وانحصر ما أمكن الحصـول عليه من البراهين الرئيسية الدالة على بقاء الشخصية بعد الموت في الظواهر التي يستحيـل على بني الانسان الأحياء احداثها بالطرق المتعارفة ، سواء أ كانت عقلية أم جسمانية .

« وقد ثبت أن شخصيـة ولتر مستقلة عن شخصية الوسيطة ، وذلك لأن ولتر استطاع في ظلمة الظلام أن يتناول سلكاً دقيقة ، وأن يضعها في أماكن دون أن يصيبها أي تلف . بل استطاع كذلك أن يعرف ويختار أموراً لا يعرف شيئاً عنها أي شخص في الوجود ، فبرهن بذلك على أنه لم يعتمد على التلبثي أو ما يكون مخزوناً من المعارف فيما يسمونه العقل الباطن لأي انسان . وأخيراً استطاع أن يحدث في الظلام بصمات لابهامه في الشمع بأسرع مما يستطيعه رجل عادي في بهرة الضوء » .

وكانت كلماته الأخيرة في هذا الصدد : —

« رأيي الأخير هو أن ولتر ستنسون الذي توفي سنة ١٩١٢ قد أثبت بطريقـة علمية اثباتاً تامًّـا دعواه أن شخصيته باقية حيَّـة بعد موته الجسماني » .

ومن هذا يتضح أن تليارد قد تكلم في صراحة العـالم الصادق الواثق في بحثه وتقصيه الحقائق العلميـة التجريبية . وقد علقت « نايتشر » في مقالها الرئيسي في ذلك العدد الذي نشرت فيه مقال تليارد قالت : « إننا نحن أنفسنا نحتفظ بعقل مفتوح إزاء كل ما يعمل في سبيل تقدم العلم والمعرفة ، والوصول الى الحقيقة في جميـع مناطق النشاط الذهني » .

ثم قالت في نهاية مقالها ذاك : « ونحن وان كنا لا نقول ان تليارد قد صنع شيئاً كان

يجب على الرجل العلمي أن لا يصنعه ، إلا أننا نقول إنه إذا ثبت مرة أن روحاً يستطيع أن يبني من الاكتوبلازم حنجرة وتجويفاً حنكياً ، وأنه يستطيع أن يدفع بالهواء خلالها ليحدث صوتاً وكلاماً بمثل هذه الوسائل فإنه يكون من السهل قبول معظم الظواهر الخالفة للمألوف التي وجه إليها تليارد انتباهه » .

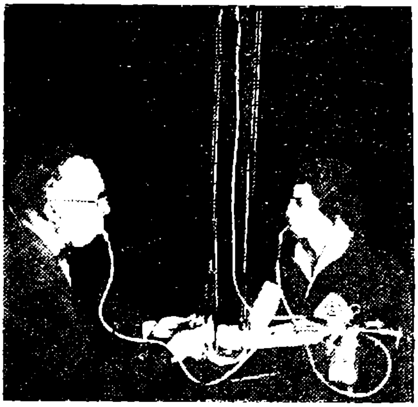
ترى ألم يبلغ « نايتشر » بعد أن تليارد وكثيرين غيره قد أثبتوا ذلك ؟ لقد بلغها دون شك لأن ظاهرة « الصوت المباشر » أصبحت كثيرة الشيوع حتى لقد قال الباحث الروحي دنيس برادلي Dennis Bradley في كتابه النفيس « حكمة الآلهة » : « ان التواصل مع الأرواح بأصواتها المباشرة في هـذا القرن سيكون في بساطة التواصل بالتليفون أو اللاسلكي » .

٥ — الصوت المباشر

بعد أن مضى على تدريب مرجري على الغيبوبة وتفوهاتها ما يقرب من شهرين سمع في ركن الحجرة البعيد عن مكان جلوسها صوت خافت مستمر كالبسبسة ، ثم جعل هذا الصوت يتزايد في الجلسات المتتالية حتى أصبح قريباً من الهمس ، واشتدَّ هـذا الهمس بحيث خيل لمستمعيه كأنما هو خارج من حلق رجل . ورأى كل من الدكتور كومستوك Dr.Comstock والدكتور كارنجتون Dr. Carrington وملكولم بيرد Malcolm Bird ، وهم من أعضاء لجنة مجلة سينتفك أمريكان Scientific American ، لفحص وساطة مرجري ، أن يضع يده فوق فم الوسيطة على التناوب في جلسات متعددة ، فلم يحل ذلك دون حدوث الهمس واضحاً . وكتبوا اشهاداً بذلك . ورأى المجرّبون المتحذلقون أن يملأوا فم الوسيطة ماء . فلم يحل هـذا الاجراء كذلك دون حدوث الصوت نفسه . وجرّبوا ذلك مرات ، وفي كل مرة كانت الوسيطة في نهاية الجلسة تنفث الماء من فمها الممتلىء به ، وما كان هـذا ليجيء من معدة الوسيطة فيما نظن . . . .

ولكن قطعاً لكل شك رأى الدكتور مارك رتشارد صن Dr. Mark Richardson أن يبتكر جهازاً لمنع الوسيطة من الكلام خلال حدوث ظاهرة الصوت المباشر من جانب الروح ولتر . ويتألف جهاز منع الكلام هذا كما في الشكل من أنبوبة ذات شعبتين في كل

شعبة طوف مضيء يطفو على سطح السائل الموجود في الشعبة . وتجلس الوسيطة ومعها مختبر واحد فقط ، وكلاهما ينفخ لـكي يجعل طولي عمودي السائل في الشعبتين غير متساويين فيكون سطحا السائل في الشعبتين غير متعادلين أي في مستويين لا في مستو واحد. وللحصول على ذلك يجب أن توضع الفوهة الزجاجية لـكل من الأنبوبتين بين الأسنان ، ويجب أن تغطى فيها ثلاثة ثقوب بالشفتين واللسان معاً . وبذلك لا تستطيع الوسيطـة أن تتكلم أو تصفر مثلاً ، لأنه إذا حدث ذلك انقطع النفخ وتعادل سطحا السائل ، وظهر الطوفان المضيئان في مستو واحد . ومع ذلك حدث أن تـكلم والتر بصوته المباشر ، ثم انطلق صفيره في الهواء . وقد تمّ هذا في كل مكان عقدت فيه مرجري جلسة . وقد أثبت استخدام هذا الجهاز البسيط أنه لا دخل البتة لفم الوسيطة في احداث الصوت .



شكل (٦) — جهاز منع الـكلام

تنفخ مرجري في إحدى شعبتيه وينفخ الدكتور رتشاردصن في الشعبة الأخرى

(عن كتاب « المذهب الروحي بين التأييد والمعارضة » وقد أصدرته جامعة كلارك)

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الدكتور رتشاردصن رأى أن يجري تجربته الأولى بهذا الجهـاز في غير منزل مرجري ، ولم يسمح لأحد بحضورها . وقد أصرّ على أن يجريها بمفرده مع مرجري . وأسفرت تجربته الأولى تلك عن نجاح باهر ، وأثبتت له أن الصوت لم يصدر عن جسم مرجري ، وانه مستقل عن كل ما يتعلق بالجانب التشريحي والفسيولوجي لجسمها ، وان يكن وجودها أثناء التجربة ضروريّـا :

ولكي يحدث هذا الصوت كان لا بدّ من حدوث تجسد من نوع ما. وانتهز والتر الفرصة المناسبة لكي يرى الحاضرين جهازه الصوتي هذا. وفعلاً أراهم اياه، وسمح لهم بتصويره بالفوتوغرافيا. وقال والتر انه في حالة اجراء تجربة الصوت مع وضع اليد فوق فم الوسيطة وأنفها لا بدّ له من وصل جهازه الصوتي هذا بأي جزء آخر من جسم الوسيطة، وأضاف أن ذلك يستنفد منه مجهوداً كبيراً يمنعه من احداث ظواهر أخرى في نفس الجلسة. وما جهاز والتر الصوتي هذا الا صندوق رنان أو ميكروفون من الاكتوبلازم المنبثق من جسم الوسيطة، وقد ظهر في الصورة الفوتوغرافية فوق كتفها الأيسر، موصولاً بأنفها بأنبوبة اكتوبلازمية.



شكل (٧) جهاز والتر الصوتي

عن كتاب «المذهب الروحي بين التأييد والمعارضة»



شكل (٨) جهاز والتر الصوتي

عن «موسوعة الملم الروحي»

أخذت الصورتان في جلستين مختلفتين

واخترع ثوروجود B. K. Thorogood جهازاً أدق وأحكم من جهاز رتشاردسن، وهذا الجهاز يتألف من صندوق مكعب الشكل صنع بحيث لا ينفذ الصوت إلى داخله، وقد صيغت جدرانه لهذا الغرض من سبع مواد مختلفة. ووضع بداخل ذلك الصندوق ميكروفون دقيق وحساس جداً يتصل بسلكين خارجين من الصندوق، ويتصلان بمكبر صوتي موضوع في حجرة أخرى بعيدة عن حجرة الجلسة. ووضع الصندوق في حجرة التحضير بعد أن أحكم

اغلاقه بالاقفال . وبدأت الجلسة . وبينما كان الجالسون لا يسمعون حديثاً في الحجرة لمع صوت ولتر خارجاً من مكبر الصوت البعيد ، مثبتاً أنه لا بدّ أن يكون قد وصل أولاً إلى ذلك الميكروفون الموضوع في الصندوق الذي لا ينفذ الصوت . وبذلك أمكن اثبات استقلال صوت ولتر اثباتاً تامـاً .

٦ — ظواهر أخرى تنفسية

لم تقتصر تجارب الدكتور رتشارد صن على الصوت فقط بل انه أجرى تجارب تنفسية أخرى ، فجاء بزجاجة ملئت لنصفها بماء الباريتا ، وجهزها بأنبوبة للنفخ ، ووضع الزجاجة بما فيها فوق رف على بعد ثلاثين بوصة من فم الوسيطة ، فلم يكن ميسوراً من ثمّ لهـا أن تنفخ فيها بفمها . وبدأ ولتر ينفخ فسمع صوت الفقاقيع في ماء الباريتا . ويلاحظ أن ذلك حدث وفم الوسيطة مشغول بالنفخ في جهاز الدكتور رتشاردصن سالف الذكر ، فهي من ثمّ لم تكن تستطيع الـكلام ولاالنفخ في ماء الباريتا . وقد تكون راسب أبيض هو كربونات الباريوم كما هو معروف لمرور غاز الـكربونيك الخارج من رئة الروح المتجسد الى محلول الباريتا .

وأعيدت التجربة مع عدم استخدام جهاز منع الـكلام اكتفاء بوضع اليد فوق فم الوسيطة وأنفها وقد أجرى الدكتور رتشارد صن هـذه التجربة بنفسه ولم يكن معه أحد وقت اجرائها . ووصل إلى نفس النتيجة .

ورأى ولتر أن يزيد في حيرة مختبريه ، فقال لهم ذات يوم إن أحـد زملائه الأرواح واسمه مارك Mark سينفخ في ماء الباريتا فيسمعهم صوت الفقاقيع ولـكن دون أن يتكوّن راسب . وتمت فعلاً هذه التجربة ، وفي نفس الوقت كانت مرجري تنفخ في جهاز الدكتور رتشاردصن ، وكان ولتر يتكلم ، وكان صوت الفقاقيع ظاهراً مسموعاً . ودلّ الفحص بعد ذلك على عدم تكوّن راسب في الزجاجة . ولما نفخ الدكتور رتشاردصن في زجاجة الباريتا ظهر الراسب الأبيض العادي ، فدلّ هذا على أن غازاً آخر غير غاز الـكربونيك هو الذي مرّ خلال الزجاجة في تلك التجربة ، وانه هو الذي أحدث تلك الفقاقيع التي كان لها صوت مسموع .

٧ – تسجيل صوت الروح ولتر واذاعته باللاسلكي

كان ولتر « الميت » شقيق مرجري أوّل روح يذاع له صوت على موجات الأثير ، وفيما يلي نص الرسالة التي أذاعها ذلك الروح : —

« يا أصدقائي ! لقد جئت اليكم اجابةً لرغبة بعض زملائي في عالم الروح لأسمعكم صوت رجل « ميت » .

« لقد كان يظن منذ سنين أن الوسيلة التي استخدمها في الكلام انما هي من عمل الشيطان وكان الوسطاء يقتلون ويحرقون . ولكنكم أنتم سرتم في مدارج التقدم فارتقيتم .

«عودوا إلى الاصحاح الأول من سفر أرميا وردّدوا الآية التاسعة عشر فيحاربونك ولا يقدرون عليك .

« ان كثيرين ممن يحضرون جلساتنا منكم يأخذون علينا أننا لا نجيء لكم من العالم الثاني بما هو ألزم لكم في حياتكم الحاضرة ولكنكم في الواقع تعرفون كل الأمور التي .... التي يجب أن تعرفوها . انكم لتعرفون تلك الأمور التي تجعل الحياة أكمل وأوفى وأحسن .

« ألا فاعلموا أن خير أمور الحياة أبسطها وأيسرها — ألا فأحبوا وعظموا كل ما يؤلف بين بني الانسان ويوفق بينهم » .

تلك كانت الرسالة التي أذاعها الروح ولتر بالراديو بعد أن سجلت كالمعتاد كما تسجل الاصوات في استوديوات التسجيل الصوتي . وقد نشرت صحيفة « بوسطن هرالد « Boston Herald » إذ ذاك تفاصيل ذلك في مقال لكاتب لها حضر التجربة من أولها الى آخرها وقد جعل عنوان مقاله « صوت روح في الراديو » . وفيما يلي نص هذا المقال : —

« لقد سجل صوت ولتر في ستوديوات هارلان. ف. هاسي Harlan F. Hussey الخاصّة بتسجيل الصوت خلال جلسة عقدت لذلك الغرض . وكنت أصغي لبعض الاسطوانات التي سجلها هذا المحل ، فإذا بهاسي نفسه يقول لي ، وقد تناول اسطوانة جديدة من درج الاسطوانات : « قد تكون سمعت هذه الاسطوانات جميعها ؛ أما هذه فإنك لم تسمعها من قبل » . ومضى يقص عليّ حكاية تسجيله صوت روح رجل ميت .

« قال ان شخصاً يدعى ددلي يمثل آل كراندون قد جاءه يوماً وأدلى اليـه بوصف دقيق لما تمَّ من أحداث هناك ، ولما يمكن أن يعمله . واقترح عليـه أن يحضر إحدى الجلسات . وفعلاً ذهب هاسي ومعه ابنته اديث Edith ليفحصا هذا الموضوع الغريب المقترح . وقال هاسي انه كان متردّداً بعض الشيء ، ولـكنه لما قابل الدكتور كراندون والسيدة زوجته أنس بهما ، وسره استقبالها إياه وهدأت نفسه اليهما .

« وصعد هو وابنته الى حجرة التحضير في الدور العلوي ، وهناك عقدت جلسة كان عدد الحاضرين فيها ستًّـا فقط ، هو وابنته والدكتور كراندون وزوجتـه ومرجري ومستر ددلي ذاك وأحد أساتذة هارفارد ، وقد نسي اسمه . وجلسوا كلهم سكوتاً في دائرة حول مائدة وفي ضوء ضعيف .

« وسرعان ما سمعوا صفيراً شديداً تلاه صوت الدكتور كراندون يقول : هالو ولتر هل أنت هنا ؟ فأجابه صوت خارج من حنجرة انسان قائلاً « نعم » . وبعدئذٍ تكلم الدكتور كراندون بشكل عادي قال « إننا يا ولتر سنسجل صوتك » وشرح له كيف سيتم هذا التسجيل

« وبعد ذلك قال هاسي انهم اتفقوا على أن تعقد في ستوديو التسجيـل ثلاث جلسات لهذا الغرض .

« وأعدّ هاسي حجرة صغيرة لـكي تعقد فيها الجلسات ، وأعدّ جهاز التسجيل في حجرة أخرى كبيرة ، وثبت الميكروفون في الحجرة الصغيرة حيث تعقد الجلسات . ولم تكن نتيجة التسجيل في الجلسة الاولى ملائمة ، فان الصوت لم يكن واضحاً باطراد ، وحدثت فترات صمت طويلة بين الجمـل . وبدأ ولتر التسجيل الاول بالصفير ثم قال « وهل يصح أن ننسى الصحب والمعارف القدماء ؟ » وقد كان صوته عالياً وواضحاً . وأخيراً مضى يتكلم في الروحية . وقرأ بعض المقطوعات الشعرية ، وقد سجلت كلها . ولم يتم تسجيل الرسالة إلاّ في الجلسة الثالثة ، وأجرى التسجيل في ضوء أحمر ضئيل . . .

« وحدث في الجلسـة الاخيرة حادث كان له تأثير عميق في نفوس أولئك الذين كانوا جالسين في الحجرة الخارجيـة . وهناك كان هاسي وابنته إديث وأحد الضيوف . وحينما أعدت العدّة للبدء في التسجيل وقف هاسي بالقرب من الباب ليتلقى إشارة البدء من أولئك

الموجودين في الداخل . فدفع الفضول بابنته وبالضيف أن يقتربا من باب حجرة التحضير وكان مغطى من الداخل بستارة سميكة من القطيفة . وكان يوجد في الحجرة الخارجية بيانو ، وكان الاتفاق تم على أن مس هاسي تعزف عليه متمشية مع صفير والتر . فحينما تمت الاستعدادات كلها لعلع صوت ولتر قائلاً : (حسن يافتاتي الصغيرة . اتركي الباب وخذي مكانك عند البيانو فإني على تمام الاستعداد) .

« ويقول هاسي انه لم يكن ميسوراً لأحد داخل حجرة التحضير أن يرى أين كانت هذه الفتاة واقفة » .

وإلى هنا ينتهي مقال « بوسطن هرالد » .

٨ — الوساطة العقلية

أنظر أيان شئت إلى أية ناحية من نواحي وساطة مرجري تجد بينات متنوعة من تلك التي يكثر من السؤال عنها مستريبو الروحية ومناهضوها الذين لا يشبعون من البراهين . وقد كان هؤلاء اذا ما حدثت ظاهرة مادية ملموسة جديدة يزدادون تعسفاً في التأويل ، ويعدون أنفسهم لتعليلات باطلة سخيفة ، فاذا ما باءوا بالخذلان طالبوا ببعض الظواهر ذات الطابع العقلي ، وهي ظواهر خلابة لم تستطع ماديتهم تفسيرها . فاذا ما تم حدوث هذه الظواهر عادوا فطالبوا بالظواهر المادية . ولقد رأينا مثلاً لتلك الظواهر المادية التي استطاع إجراءها ولتر ومرجري . وفيما يلي نماذج من الوساطة العقلية : —

(١) في إحدى الجلسات التي انعقدت في عشة الوسيطة في بوينت شيرلي Point Shirley بالقرب من بوسطن قال ولتر إنه سيجري تجربة جديدة ، وسأل كابتن جون . و . فايف Capt John. W. Fief أن ينتخب ستة أشخاص ويطلب إليهم أن يتفقوا فيما بينهم وهم جلوس في الساعة السابعة من الليلة التالية على كلمة أو سلعة يختارونها . وسيحاول ولتر أن يعطي هذه الكلمة أو إسم السلعة لمرجري ولوسيطة أخرى هي ساري ليتزلمان Sary Litzelman فقال فايف إنه سيكون على سفر هو وأسرته خلال نيو هامبشير New Hampshire وهو لا يعرف أين سيكون في الساعة السابعة . على أنه وعد أن يتفق مع جماعة من إخوانه على

كلمة يختارونها، وأن يمهروا بامضاءاتهم بياناً يوضحون به ما تمّ الاتفاق عليه . وقال فايف إنه سيتصل تليفونيًّا بمخازن التاجر فرنش French في رويالستون Royalston التي تبعد عن بوسطن سبعين ميلاً ، وسيدلي الى مدير تلك المخازن بالكلمة المختارة . ومن ثم كان لا بدّ أن يكلف شخص مختار بالذهاب الى ذلك المحل لكي يضاهي الرسالة بما سيتلقونه من مرجري .

وفي اليوم التالي قصد إلى منزل الوسيطة الريفي كل من مرجري وموريس باربانل Maurice Barbanell محرر « سايكك نيوز Psychic News » والسيدة زوجته ووليم ه. باطون William H. Button رئيس جمعية البحوث الروحية الامريكية ، وكان المسكن يتألف من مجموعة كابينات أقيمت في الغابة على بعد ميل من رويا لستون . وكانت تقيم هناك ساري ليترلمان وزوجها . وقد اختير مخزن فرنش مكاناً لتلقي الرسالة لأنه بالنسبة لكابينات مرجري أقرب مكان يوجد فيه تليفون . وسئل مدير المحل أن يستعد لتلقي الرسالة بالتليفون في الساعة السابعة مساءً . وقبيل السابعة بعشر دقائق جلست مرجري في إحدى الكابينات ، وجلست الوسيطة ساري ليترلمان في أخرى . وجلس مع مرجري باطون وباربانل وخادم مرجري الياباني ، وفيما هم جلوس كتبت مرجري الكلمتين "water melon" أي « بطيخ » . وجلست مسز باربانل في الكابينة الأخرى حيث جلست ساري ليترلمان فكتبت هذه نفس الكلمتين . وخلال اجراء هذه التجربة وقف الخادم الياباني يداعب كلب مرجري ، فجعل ينبح ، وطلبت مرجري الى خادمها اسكاته . ومع ذلك فان هذا الاضطراب الحادث من النباح لم يؤثر البتة في تلقي الكلمتين .

وانتقل باربانل بعد ذلك الى مخازن فرنش وهناك تلقى من مدير المحل ، وهو رجل يدعى ولكوكس Wilcox الرسالة التي سبق أن تلقاها ولكوكس هذا قبل ذلك ببضع دقائق ودوّنها . فلما فتح المظروف المختوم كانت الرسالة المكتوبة فوق قطعة من الورق بداخله هي "water melon" أي « بطيخ » . وشهد بذلك كتابةً كل من اشترك في هذا الاختبار .

هذه التجربة مدهشة ومقنعة معاً ، وهي على أقل تقدير تجربة فذّة على ظاهرة التلبثي التي هي في الواقع برهان على وجود الروح مهما تعسفنا في تأويلها . والواقع أن جميع الحالات البارزة التي من هذا الطراز تتبع نوعاً من الظواهر أحكم وضعه أولئك المقيمون في الجانب

غير المنظور ، يريدون به لفت الانظار والأذهان الى المدى الواسع الفسيح لتلك القوى التي تتكشف لنا وتظهر حين نطرح عنا ظهريًا ذلك التشبث أو التنطع المادي . ولا حاجة بنا الى القول بأن الارواح الحارسة المرشدة للوسطاء تساهم بقسط كبير في هذه الاختبارات . وقد دلت التجارب على أنه حين يحاول بعضهم اجراء هذه التجربة ، دون تلقي مساعدة من جانب الأرواح ، فانهم لا يصلون الى نفس النتائج الدقيقة إلاّ ان كانوا قادرين على طرح أرواحهم من أجسادهم طرحاً واعياً . وقد يستطيع الواحد منهم أن يلتقط كلمة مثلاً أو رسالة بأكملها ، ولكنا في وضعنا الحالي ، دون أن نكون خارج أجسادنا ناظرين في وقت واحد الى كل من جانبي الستار ، لا نستطيع أن نعين القدر الذي قامت به روح الوسيط — أو قواه الروحية ان راق هذا التعبير — وحدها دون مساعدة ومقدار المساعدة التي قام بها الروح المرشد المهيمن على الوسيط .

وتقول مرجري إنها في مثل هذه الحالة لم تعدُ أنها كانت آلة استخدمها ولتر بعد أن هيمن على يدها وكتب بها . وتقول زميلتها ساري ليتزلمان في وصفها الدور الذي قامت به في مثل هذه الحالة إن الروح المرشد لها أو المهيمن عليها ، واسمه شارلز Charles قد نقل رسالة ولتر وكأنما انعكست كتابته فوق مرآة . وقد صدقت مرجري وصدقت ساري فيما قالتا . والواقع أن الإختبارات التي أجريت فيما يسمى « الادراك الحسي الزائد Extra Sensory Perception ليست إلاّ اختبارات بدائية وفجة إذا هي قورنت بالاختبارات الأخرى الأرقى التي تمت على أيدي الوسطاء الموهوبين حين يعاونهم في العمل أرواح مرشدة . ويصعب العمل على الوسيط إذا انفرد به دون معاونة روح مرشد ، فبدلاً من أن يطرح الوسيط روحه لينقب ويبحث ويتقصى يذهب الروح المرشد ويرى ما هو جارٍ ثم يعود إلى وسيطه ويتحدث خلاله عما رأى . فالمسألة بسيطة كما ترى مهما كانت العمليات الخاصة بجمع المعلومات ثم الإدلاء بها . هي في الواقع مجرد امتداد للوسيلة العادية الخاصة بالتقصي والبحث : وما نعمله نحن في هذا الصدد يعمله أولئك المقيمون في الجانب الآخر بعد أن تحرروا من ذلك الجسد المادي الذي يعوقنا ويحد من مدى عملنا .

(٢) وفيما يلي مثل يبين ما يقوله بعضهم من أن الوسطاء يتخذون من تجارب

«الادراك الحسي الزائد» أو «القوة فوق المدركة Ultra Perceptive Faculty» هواية وتسلية و «الإدراك الحسي الزائد» أو «القوة فوق المدركة». هي المصطلحات العلميـة التي حلت محل حذلقة المتحذلقين الذين يتحدثون عما رأوا أن يسموه «الحاسة السادسة» دون أن يعينوا مركزها، وذلك إمعاناً منهم في إنكار النفس البشرية وإمكان اعتمادها على قواها ووسائلها الأولية.

ففي ذات يوم اشترى العلاّمة باطون مجموعتين من ورق اللعب، ثم ناولهما الى باربانل محرر «سايكك نيوز» ففضّ هذا غلافيهما ووجد بعد مضاهاة أوراق المجموعتين أن ظهور الأوراق متطابقة. وبعدئذٍ اختار منها خمساً وعشرين بطاقة مكونة لخمس مجموعات أوراق كل مجموعة منها من صنف واحد. وجلس باربانل وباطون وفايف بحيث يرون وجوه هـذه البطاقات وقد أمسك بهـا باربانل بحيث ترى مرجري ظهورها فقط، وهي واقفة على بعد سبعة أقدام منه، وفي غير تردُّد عينت تعييناً صحيحاً ٢١ بطاقة من الـ ٢٥. فلما مهدوا لها بتجربة ثانية نجحت في تسميتها كلها صحيحة، وحاولت ذلك مرة ثالثة ونجحت نجاحاً تامـًا.

ورأوا أن يجروا تجربة أخرى فجاءوا بخمس وعشرين بطاقة، وأمسكت بها مسز باربانل، ووقفت مرجري على بعـد ٢٥ قدماً، ووقف الباقون يرقبون. فسمت الوسيطة ٢٤ تسمية صحيحة عند أول محاولة. ولـكنها طلبت أن تحاول التسمية مرة أخرى، وكانت نتائجهـا كلها صحيحة. وقد كتب الحاضرون بياناً بما تمّ ووقعوه بامضاءاتهم.

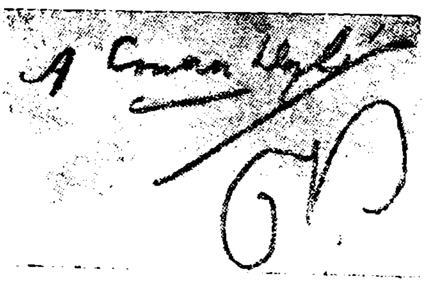
ألا تطابق هذه التجارب تلك التي أجراها العلامة الدكتور ج. ب. راين Dr. J. B. Rhine أستاذ السيكولوجيا في جامعة ديوك، والتي دوّنها في كتابه الفذ «الادراك الحسي الزائد» لحقق ظاهرتي التلبثي والجلاء البصري؟ انها تشبهها ولا شك، ويكاد يكون الأسلوب واحداً في تجارب البطاقات تلك. ولـكن بينما نرى البحّـاث الجامعيين يصفقون ويهللون لتجـارب الدكتور راين في جامعة ديوك Duke نرى قوماً آخرين ينكرون صدق هذه التجارب إذا قام باجرائها الوسطاء الروحيون في الجلسات الروحية العادية.

ويقول محرر «سايكك نيوز» بصدد هذه التجارب التلبثية التي قامت بهـا مرجري «ان ارتفاع النسبة المئوية لنجاح مرجري ودقتها ليزريان من شأن جهود طلبـة الدكتور

راين . ومع ذلك فان رجال العلم قد مجدوا راين وعظموه لبحوثه في السيكولوجيا الشاذة ، ولاستكشافه « الادراك الحسي الزائد » . وقد اعترف راين أخيراً بالروح .

٩ — توقيع كونان دويل من عالم الروح

المعروف عن سير آرثر كونان دويل Sir Arthur Conan Doyle الطبيب والقانوني والكاتب الأديب أنه كان من أكبر دعاة العلم الروحي الحديث ، وكان من أصدقاء الدكتور كراندون وعقيلته مرجري . فبعد انتقاله الى عالم الروح زار ، وهو روح ، دائرة مرجري الروحية غير مرة .



Doyle's spirit signature, and his
initials given upside down.

ش (٩) امضاء سيرآرثر كونان دويل من عالم الروح
وإذا جعلت عالي الصورة سافلها ظهر لك الحرفان الأولان C. D.
من الاسمين « كونان دويل »
(عن مجلة « سايكك نيوز »)

وحدث في إحدى زياراته تلك أن كتب بخطه وامضائه كلمة الاهداء على نسخة من أولى طبعات كتابه الأخير « حافة المجهول » . ولطالما كان الحاضرون في جلسات مرجري يسمعون هامساً يقول « هنا كونان دويل » . وكثيراً ما كان ولتر يقول للحاضرين ان كونان دويل كان موجوداً ، وإنه تواق لأن يساهم في العمل ويساعد بأي شكل . ويقول العلامة باطون إن كونان دويل كان يشعره دائماً بوجوده قبل حلول عيد ميلاده (ميلاد باطون) مهنئاً إياه على ما كان يعمله في سبيل الوسطاء . وحينما أراد أن يكتب كلمة اهداء على نسخة

من كتابه ويمهرها بامضائه وهو روح اقترح أن يتم ذلك خلال وليمة تقام احتفالاً بعيد ميلاد باطون ، حيث سيحاول أن يكتب كلمة الاهداء ويوقعها بامضائه ، فان نجح فيها وإلاّ فانه سيحاول ذلك في مناسبة أخرى .

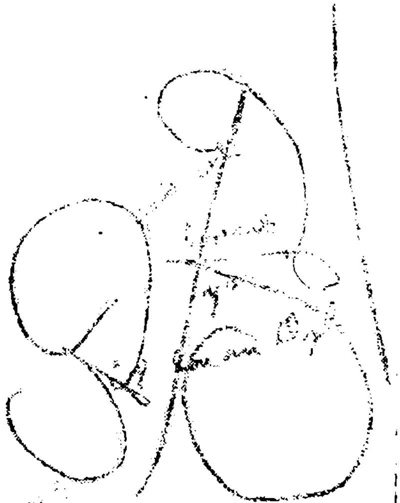
وقدمت مرجري نسخة من كتاب « حافة المجهول » وكانت هـذه النسخة آخر هدية قدّمها دويل اليها ، تسلمتها في اليوم الذي توفى فيه ، ولم يكن قد لمسها بيديه بل بعث بها الناشر مباشرةً الى مرجري طبقاً لتعليمات دويل . وأحست مرجري نهار ذلك اليوم ان لها ميلاً لأن تكتب بعض الـكتابة التلقائية ، وهي تلك الـكتابة التي تكتبها بعد أن تهيمن روح على يدها . وفعلاً كتبت هذه العبارة « في سنة ١٨٤٣ كتبت مقدمة لدكنز Dickens وسأوقع على كتابك . C. D. » . ويلاحظ ان الحرفين الفرنجيين C. D. هما الحرفان الأولان من اسم كونان دويل . وحار لذلك كل من باطون والوسيطة ، لأنهما يعلمان أن دويل لم يكن ولد سنة ١٨٤٣ ولـكن ما إن وافى المساء حتى جاء ولتر وطلب اليهما أن يتصفحا كتاب « أغنية عيد الميلاد » الموجود في مكتبة الدكتور كراندون . فلما تصفحاه وجدا فيه فعلاً صورة خطية للمقدمة مكتوبة في سنة ١٨٤٣ ، وقد وقعت بالحرفين C. D. وهذان الحرفان هما الحرفان الأولان من اسم شارلز دكنز Charles Dickens والغريب أنه يوجد شبه غريب بين خطي دكنز ودويل . وأدرك باطون على الفور ان اختيار تلك المقدمة يتفق ودعابة دويل لأنها احتوت على العبارة الآتية : —

« لقد حاولت في هذا الـكتاب المشجي الصغير أن أقدم شبح فـكرة لا تثير قرائي فتخرجهم عن الحد إزاء أنفسهم أو إزاء بعضهم بعضاً أو إزاء الزمن أو إزائي . وأرجو أن يرتاد كتابي داركم ارتياداً ساراً فلا يرغب عنه من يتناوله فيطرحه » .

ولا شك أن الدعابة هنا كانت في تشبيه الـكتاب بالروح الذي يرتاد جهة أو منزلاً .

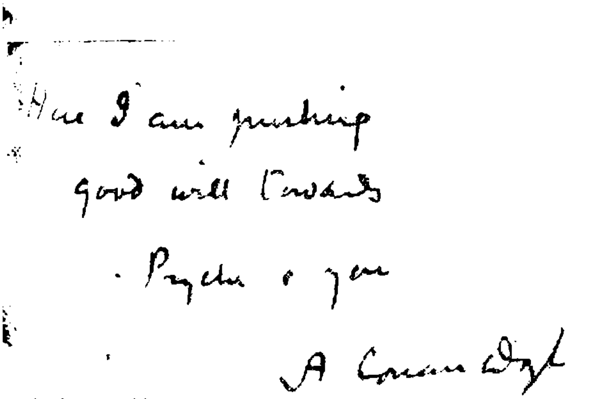
وبعد ذلك بيومين عقد باطون جلسة مع مرجري حضرها وندل موراي Windel Murray أحد المحامين النابهين في بوسطن ، ووضع كتاب دويل فوق المنضدة ومعه قلم رصاص وقلم أمريكاني . ولم يكن في الـكتاب إذذاك أية كتابة خطية إلاّ ما كتبه الدكتور كراندون بخطه . وأمسك موراي بيسرى مرجري ، وأمسك باطون بيمناها ، وتماسك كذلك وندل

وباطون بيديهما الطليقتين ، أي أنه في هـذه المجموعة الصغيرة لم تكن توجد يد طليقة . وسمع صوت على المنضدة ، وكأن شخصاً تناول كتاباً ومضت بعد ذلك خمس دقائق ، وإذا بولتر يعلن أن العملية انتهت .



Sir Arthur's spirit message, signature and initials on the title page of his book.

شكل (١٠) كلمة الاهداء يكتبها ويوقعها روح كونان دويل من عالم الروح
(نقلا عن مجلة « سايكك نيوز »)



Doyle's earthly writing and signature, reproduced for comparison.

شكل (١١) كتابة كونان دويل وامضاؤه وهو في عالم المادة حي يرزق
(نقلا عن مجلة « سايكك نيوز »)

وعند انتهاء الجلسة دقّ جرس التليفون ، وإذا بالوسيطة ساري ليترلمان تتكلم من قرية كبردج على مسيرة ثلاثة أميال من بوسطن ، فتقول إنها تلقت بالكتابة التلقائية من الروح المرشد لها رسالة تقول « إن ولتر قد أتى عملاً عظيماً حصل فيه على توقيع سير آرثر » وفعلاً تمّ التوقيع وزاد عليه ان كتب الحرفين الأولين بحيث كان عاليهما سافلهما ، أي أنه إذا أديرت الورقة بحيث جعلت حافتها العليا حافتها السفلى ظهر الحرفان واضحين . وفي جلسة أخرى كتب على الصفحة الأولى البيضاء من الكتاب عبارة الاهداء ومهرها بإمضائه هكذا : « مع صادق التمنيات لكم — ا . كونان دويل »

وبمضاهاة كتابة سير كونان دويل وهو روح بكتابته قبل أن ينتقل الى عالم الروح يتضح أن الخط واحد في الحالتين كما هو ظاهر في الصور .

ويلاحظ أن هذا كله قد تمّ والوسيطة تحت الرقابة التامة الشديدة. وقد كتب العلاَّمة باطون بصدد هذا الحادث يقول « يبدو لي أن الرقابة في هاتين الحالتين الخطيرتين كانت تامة ، كما يبدو لي كذلك أن بينة الخط نفسه بينة قاطعة مقنعة ومن غير سير آرثر يستطيع أن يتخذ من شارلز دكنز وسيلة لتحقيق شخصيته هو بمثل هذه اللباقة والمرح ؟ »

١٠ — مرور مادة خلال مادة

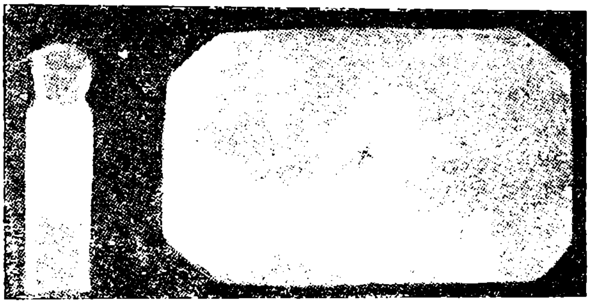
فيما يلي وصف لثلاث تجارب في هذا الصدد : —

(١) من التجارب المدهشة الفذّة التي أجراها الروح ولتر إخراج قنينة زجاجية من وسط كتلة من عجينة باريس ثم اعادتها إلى داخلها مرة أخرى تحت وسائل الرقابة الدقيقة ، وذلك دون أن تنكسر القنينة ودون أن تتفتت العجينة . وقد كانت هذه التجربة بالغة التعقيد ، واستغرقت الاجراءات فيها ما يزيد على سنتين . وقد أرسل كتلة العجينة تلك بما فيها الى منزل الدكتور كراندون رجل غريب لا يمت إلى آل كراندون بصلة . وهذا الرجل هو و . ب . منثورن W. B. Menthorn الصيدلي المقيم في بتوسكي بمتشيجان Petoskey, Michigan وقد كتب يقول ان بداخل تلك العجينة ثلاثة أشياء ، ولم يدل بأي إشارة يفهم منها أي شيء عن هذه السلع الثلاث . وجيء بهذه الكتلة إلى أولى الجلسات التي انعقدت بعد وصولها ، ووضعت هناك فوق منضدة ، وسئل ولتر عما بداخلها فلم يجب ، ولكن في نهاية الجلسة اختفت تلك الكتلة بشكل غريب ، ولم يقل ولتر أين أخفاها ولا كيف أخفاها . وبعد ذلك بأسبوعين قال « الآن أخبركم ماذا بداخلها . توجد فيها قنينة صغيرة تشبه قنينة حبوب كارتر للكبد ، وسلسلة فلزية صغيرة ذات سبع حلقات ، ويوجد بالزجاجة سداد من الفلين . وهذا هو كل ما أستطيع رؤيته في تلك الكتلة » .

وكتب الدكتور كراندون الى منثورن يخبره بما قاله ولتر . وكان جواب ذلك الصيدلي « إنه صادق مائة في المائة ، فالعجينة تحتوي على قارورة في حجم تلك التي وصفها ، وعلى قطعة من سلسلة ذات سبع حلقات ، وفيها كذلك قطعة من الورق عليها إسم مكتوب .

ومع هذا فإن الاختبار مدهش جدًّا » .

ومضى شهر آخر وكتلة عجينة باريس تلك مختفية أو هي لم تستعد بعد حالتها التجسدية الأولى ، حتى إذا انعقدت إحدى الجلسات سمع الحاضرون صوت خشخشة ، وكأنما الكتلة قد ظهرت من جديد وولتر يهزها فيسمع لها هذا الصوت . وقال ولتر إن هذا هو صوت السلسلة في داخل الزجاجة ثم مضى يشرح فقال « حينما تسلمتموها لم يكن للسلسلة هذا الصوت ، ولكني أرخيتها في داخل الزجاجة ، فقد كان بداخلها ورقة ملفوفة ، وقد تعقدت كلها كما أراد صاحبها ، ولذلك كانت قراءة الورقة أمراً صعباً » .



The bottle which Walter ex tracted from the plaster of paris block on the right.

شكل (١٢) كتلة عجينة باريس وبجوارها القارورة التي أخرجت منها بالوسائل الروحية دون كسر أو تلف

(نقلا عن مجلة « سايكك نيوز »)

ولا يفوتنا أن نقول إن خطاب منتورن لم يكن قد وصل بعد .

وظهرت الكتلة فوق المنضدة ، ولكنها اختفت ثانية في الليلة التالية . وفي جلسة تالية وضعها ولتر بين يدي الدكتور رتشاردصن . ثم أخذت منه وسلمت لآخر . وكان ولتر يشرح أعماله قبل أن تتم و يشعر بها الموجودون . وعند انتهاء هذه الجلسة اختفت الكتلة وفي الليلة التالية عقدت جلسة وعادت الكتلة فظهرت ، وبقيت على المنضدة شهراً كاملاً إلى أن أخفاها ولتر مرة أخرى قائلاً انهم حين يرونها ثانية « يكون ما بداخلها في خارجها» وظلت هذه الكتلة مختفية ستة شهور أخرى .

ولما عقدت جلسة بعد ذلك وفتشت فيها مرجري جاء ولتر وهيمن عليها ثم سلم الكتلة لسيدة كانت حاضرة تدعى مسز بيجلو Mrs. Bigelow قائلاً إنه أخرج منها قارورة الحبوب محتفظاً في داخل القارورة بالرقعة التي عليها الاسم المكتوب ، وصلت القارورة والرقعة التي فيها الى تلك السيدة ، وقال ولتر « لقد تركت السلسلة ذات الحلقات السبع في داخل الكتلة . وانكم لتستطيعون سماع صوت خشخشتها اذا أنتم هززتم الكتلة ، لأنها أصبحت حرة الحركة في الفضاء الذي كانت تشغله القارورة قبل الآن » . وفي الجلسة التالية التي انعقدت جاء ولتر بالكتلة ثانياً . وحين هزت سمع صوت خشخشة السلسلة بداخلها . وبعد ذلك بعشرة أيام أعاد ولتر الكتلة والزجاجة ، ووضعتا في درج وهناك بقيتا زمناً . وكان منشورن يبلغ أولاً فأولاً كل ما كان يحدث لهذه الكتلة ومحتوياتها .

ومضت بعد ذلك سبعة شهور أخرى وضعت الكتلة خلالها فوق منضدة في حجرة التحضير وتناولها كثيرون فسمعوا صوت خشخشة السلسلة بداخلها . ولكن بعد ثلاثة أيام اختفى صوت الخشخشة برغم هز الكتلة هزاً عنيفاً ، وقد فسر الروح ذلك بأن السلسلة قد ثبتت . وبعد ذلك بتسعة شهور صورت الكتلة والقارورة بالفوتوغرافيا . وأعيدت المجموعة كلها الى منشورن فلما وصل الطرد كانت القارورة قد اختفت . فهي إما أن يكون قد انعدم تجسدها خلال الانتقال أو تكون قد أعيدت الى مأواها في داخل الكتلة بالوسائل الروحية . فلما صورت الكتلة بالأشعة السينية ظهرت القارورة وظهر التجويف الذي كانت تشغله في الأصل ، وأما السلسلة فلم يعثر لها على أثر . وقال ولتر في الجلسة التالية انه اذا استمر منشورن يصور الكتلة بالأشعة السينية فان السلسلة قد تظهر ثانية في الداخل . ثم قال ان ورقة العنوان الموجودة بداخل الزجاجة مطبوع عليها كلمة كودين « Codeine » ثم عاد فقال ان الكلمة مكتوبة بخط صغير ، وان على هذه الورقة كلمة « منشورن » وبدت كأنها عنوان خطاب .

وأظهرت الصورة التي صورت بالأشعة السينية للكتلة أن القارورة موجودة بداخلها . وبعد ذلك وأمام لجنة مكونة من ثمانية أشخاص بينهم كبير الكهربائيين في بتوسكي Petoskey وكبير مهندسي شركة هناك كسرت كتلة عجينة باريس تلك ، وهي الكتلة التي كثر حولها

اللغط والحديث والتي لم يقع لغيرها ما وقع لها هي من الاحداث . وهناك وجدوا الزجاجة في وضعها المحكم داخل الكتلة ، ووجدوا على البطاقة التي في داخلها اسم « و.ب. منشورن » أما السلسلة فلم تكن موجودة .

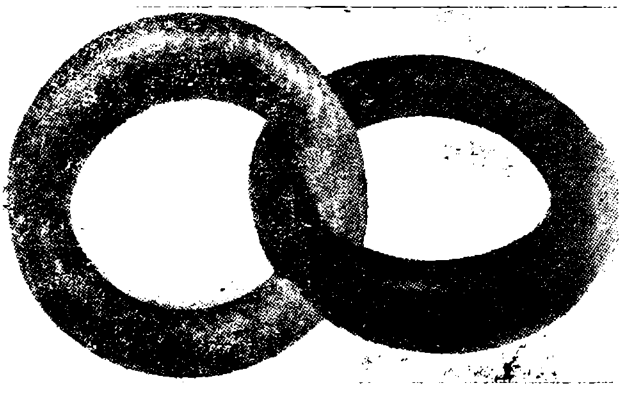
وفي جلسة عقدت بعد ذلك بأسبوعين في منزل الدكتور كراندون ببوسطن مرّر ولتر السلسلة بأيدي ثلاثة من أعضاء الدائرة ، وبعد ذلك بثلاثة أيام خلال انعقاد الجلسة قذفت السلسلة فسقطت فوق المنضدة . وسلط عليها نور أحمر فرآها واضحة جميع الموجودين — ولكنها في نهاية الجلسة اختفت من جديد . وقال ولتر إنها على أرض الحجرة في بقعة عينها . وهناك وجدوها فعلاً ، فبعثوا بها الى منشورن الذي جهر بأنه لم يجد صعوبة في تبين كل من الكتلة والسلسلة . وقال انه حين صنع الكتلة شكّلها وهي طرية لينة ، وترك قصداً بصمة ابهام يده اليسرى فوقها . وقد استطاع ان يتبين بسهولة بصمة إبهامه حين أعيدت إليه الكتلة ، وذلك لأن على إبهامه ندبة مميزة . أما البطاقة فكانت بطاقة للصيدلية مطبوع عليها اسمه وعنوانه . ولم تكن كلمة « كودين » ظاهرة .

(٢) بعد هذه التجربة الفذّة أجرت دائرة كراندون الروحية عدداً من التجارب على ظاهرة مرور مادة خلال مادة ، مع اتباع الوسائل والأساليب الاختبارية . واستعملت لذلك الغرض صناديق متينة محكمة الصنع ذات أقفال متينة . وكان المقصود تمرير أشياء الى داخل تلك الصناديق ثم إخراجها منها وهي مغلقة ومختومة ، أو إخراج أشياء تكون قد وضعت في الصناديق قبل إحكام غلقها دون كسر الصناديق وفض الأختام .

ففي الجلسة الأولى وضع العلامة باطون علامة على نصف ريال أمريكي ، وقد فحص الدكتور كراندون هذه العلامة . ووضعت قطعة النقود تلك في داخل صندوق من الورق المقوي ، ثم أغلق الصندوق بإحكام ولفّ فوقه شريط ووضع فوق الشريط أختام . ثم جيء بالصندوق ووضع على منضدة أمام مرجري . وبعدئذٍ استفسر باطون عما إذا كان ولتر يستطيع إخراج قطعة النقود تلك من جوف الصندوق . وما كادت تمضي بضع دقائق حتى أحسّ باطون بقطعة من قطع النقود توضع فوق معصم يده اليمنى ، وقد دفعت بعناية بين يده ويد الوسيطة . وأعاد ولتر التجربة في الجلسة التالية ، وأخرجت قطعة النقود المرة

الثانية . وأعيدت هـذه التجربة في جلسة ثالثة ، وكان الصنـدوق أحد صناديق السكر المصنوعة من الورق المقوي ، وقد لفّ بعناية بأشرطة اللصق ووضعت عليه علامات من الداخل والخارج ووضع بداخله قبل إغلاقه نصف ريال بعد أن وضعت عليه علامة مميزة . وفي نهاية الجلسة اختفى ووضع في مكانه بنس انجليزي .

وأجريت تجربة أخرى في الجلسة الرابعة . وحدث في نهاية هذه الجلسة أن وجدوا في الصندوق قطعة نقد صغيرة قديمة . وعرفوا فيما بعد أنها عملة رومانية قديمة ترجع الى عهد القنصل . وطلب إليهم ولتر أن يضعوا قطعة النقد هذه على المنضدة معلناً أنه سيدفع بها الى جوف صندوق آخر مقفـل كان على المنضدة . وكان مستر ثوروجود Mr. Thorogood الباحث الروحي المعروف قد أقفل هذا الصندوق واحتفظ معه بالمفتاح ، ولم يحضر هو هذه الجلسة . ووضع الصندوق تحت الحراسة الشديدة الدقيقة الى أن فتحه ثوروجود نفسه في الليلة التالية . وقد وجدت فيه قطعة النقد الرومانية تلك ومعها قطعة نقد انجليزية وأخرى ألمانية ، لم يرها الحاضرون قط من قبل كما دلّ على ذلك البحث والتحري .



شكل (١٣) الطوقان الخشبيان وقد تشابكا دون كسر بالوسائل الروحية

(نقلا عن مجلة « سايكك نيوز »)

(٣) وثمة تجربة أخرى تعتبر بحق من أهم التجارب الاختبارية في تاريخ الروحية على ظاهر مرور مادة خلال مادة ، وهي تجربة شبك (تعشيق) حلقتين من نوعين من الخشب

دون أن تصابا بأي كسر . وقد ظلتا متداخلتين كذلك زمناً طويلاً عرضة للناظرين إلى أن انهارتا فجأة فتفتتتا وانفصلتا .

وقد حدث أن زار هانن سوافر Hannen Swaffer الصحفي الخطيب والكاتب اللبق والداعية الروحي الشهير ، سنة ١٩٣٤ ، الدكتور كراندون في بوسطن فأراه باطون الحلقتين متشابكتين . وصلهما ولتر تلبيةً لطلب باطون الذي كان قد سأله برهاناً على القوة فوق العادية مضافاً اليهما العقل الذي يسيرها فيرى الناس آثارها في كل مكان . ولما قصد سوافر بوسطن بعد ذلك بزمن جره الحديث مع مرجري فعرج على تلك التجربة ، ودعته لرؤية الحلقتين . ولكنهما حين ذهبا لرؤيتهما وجداها انكسرتا .

ويرى بعض البحاث الروحيين أن البينة التي من هذا الطراز المادي تكون محدودة الزمن ، وأنه لا بدّ لكل فترة زمنية جديدة من بينة جديدة ، وانه لا يمكن أن تحفظ الهبات الروحية تلك في متحف أو معرض دائم لأن ذلك قد يقلل من التطلع الى بينات جديدة مقنعة . وحينما تقدم باطون إلى ولتر بطلبه أول مرة انتهت العملية في بضع دقائق . وقال باطون انه لا يمكن أن يتجنى متجنٍ فيقول إن العمل تمّ في هذه الحالة بالغش والتدليس ، لأنه لم تكن هناك فرصة لذلك .

وحينما سمع سير أوليفر لودج بهذا الاختبار اقترح وصل أطواق من نوع من الخشب الذي لا يمكن أن يدّعي معه حدوث غش وخداع . وتنفيذاً لرغبته أجريت التجربة على حلقة من الخشب الابيض وأخرى من خشب المغنة جهزهما هو بنفسه وبعث بها الى أمريكا . والغريب أن جميع الأطواق أو الحلقات التي أرسلت الى دائرة مرجري قد شبكت بسهولة ، ولكنها بعد ذلك تداعت وانكسرت بشكل غامض كما سبق أن وصلت بشكل غامض .

وقد كان ولتر يتخذ من هذه الأطواق وسيلة للتلهي . فأحياناً كان يرى الحاضرون في الجلسة تلك الأطواق وقد بدت وكأن أجزاء منها قد تآكلت . وأحياناً ترى مرجري على المنضدة نشارة ، وأن أجزاء من الأطواق قد اختفت . وأحياناً يرى الحاضرون تلك الأطواق تنكمش ثم تنمو ثانية . ولكن في نهاية الجلسة كانت الأطواق كلها إما أن تنكسر وإما أن تنفصل ، ولم يبق إلا الطوقان الأصليان ، وقد ظلا كذلك طويلاً وهما محفوظان في صندوق

زجاجي الى أن انكسر أحدها في النهاية . والظاهر أن المكونات الالكترونية لمادة الطوق الذي انكسر قد تأثر تماسكها بعملية إزالة التجسد ثم إعادته فانهارت في آخر الأمر .

١١ — المجلوبات الروحية والمأخوذات

هي نوع آخر من مرور مادة خلال مادة ، أي مرور مادة الشيء المجلوب أو المأخوذ خلال مادة الجدران . وقد رأينا لذلك مثلاً في اختفاء كتلة عجينة باريس ثم ظهورها ثانية ، والواقع أن تلك المجلوبات الروحية التي كان يجيء بها الروح ولتر في الجلسات قد أوقفت المتشككين في وساطة مرجري موقفاً لا يحسدون عليه . وكان من بين تلك المجلوبات بلورات وزهور وقطع معدنية بلغ وزن بعضها أحياناً بضعة أرطال وحمامة حية . وهنا نقف لنقول ان تمرير الأحياء خلال المواد الصلبة لم يقتصر على الحيوان بل تعدّاه إلى الانسان ، فقد حدثت تجارب على تمرير بعض الآدميين خلال الجدران والانتقال بها عبر مسافات شاسعة في أزمنة قصيرة ، وإن يكن ذلك لم يحدث في جلسات مرجري .

ويقول باطون انه حدث يوماً أن كان راكباً القطار مع مرجري في صالون خاص ، فأمسك بيديها وسألها عما إذا كان ولتر مستطيعاً أن يجيئهما بشيء من المجلوبات . وسرعان ما ظهرت فجأة على منضدة الصالون قطعة من تلك القطع البلورية . وهذا يذكرنا بما كان يتم على يدي المرحوم الشيخ سليم الطهطاوي من نوادر المجلوبات في قطار السكة الحديدية وغيرها .

ولأن تجيء في لحظة بشيء مادي كزهرة أو صندوق أو مبراة من أقاصي البلدان أو من قاع نهر أو بحر ، أو أن يختفي الشيء أمامك من صندوق مقفل أو حجرة محكمة الاغلاق أمر مدهش محير معجز لا يقبله الماديون . ولكن تبادل التحول بين الطاقة والمادة الذي كشفه العلميون أخيراً قد ألقى بصيصاً من النور على ذلك . والتفسير ان المادة المراد جلبها تتحوّل بالقوى الروحية الى إشعاع فتسير بسرعة الضوء أو اللاسلكي ، حتى إذا ما وصلت إلى المكان المراد نقلها إليه بعد اختراقها الجدران استحال الإشعاع مادة . وفي حالة المأخوذات تنعكس العملية ، فيختفي الجسم المراد أخذه بعد أن يتحوّل الى إشعاع غير منظور لكي يتجسد من جديد في مكان ما .

وقد كشف العلم الروحي الحديث أخيراً أن عملية تبادل التحول بين الطاقة والمادة تتم باستخدام الإشعاعات المعروفة في عالم الروح بالاشتراك مع مادة الاكتوبلازم التي تنبثق من جسوم الوسطاء. وقد أمكن تصوير ذلك فوتوغرافيًّا باستخدام الأشعة تحت الحمراء في التصوير، فظهرت صور توضح انعدام التجسد ثم إعادته. وقد تمّ ذلك في كمبردج على الوسيط جاك وبر J. Webber .

وفي صدد المجلوبات والمأخوذات في جلسات مرجري يقول الدكتور كراندون في محاضرته التي ألقاها في جامعة كلارك سنة ١٩٢٦ في موضوع « وساطة مرجري » ونشرتها جامعة كلارك في كتابها « المذهب الروحي بين التأييد والمعارضة » الذي ظهر سنة ١٩٢٧ ما يأتي:

« تتضمن هذه الظواهر إدخال جسم في حجرة مغلقة أو إخراجه منها. وهي ظواهر قد يصعب تصديقها، وتدل على وجود عالم ذي أبعاد أربعة، أو هي تتوقف على أحدث الآراء العلمية بخصوص المادة، وهو الرأي القائل بالطاقة وحركة الذرّات دون مصادمات، فيستطيع جسم صلب أن يمر خلال جسم صلب آخر . . . .

« وتوجد في وساطة مرجري عشرة أمثلة للمجلوبات ومثل واحد للمأخوذات، وقد تضمنت الأشياء المجلوبة حليًّا قديمة وزهوراً وحمامة حيّة. وكانت الظروف في كل حالة طيبة ومؤاتية. ولكن لكي تكون هذه الأحداث ذات قيمة علميّة وجب أن يتم حدوثها والوسيطة مشدودة الوثاق في زنزانة من السمنت. ويجب أن ينبني القول بصدق هذه الظواهر على ما يأتي: (١) تفتيش الوسيطة والجالسين والحجرة. (٢) طبيعة الشيء المجلوب وهل يمكن الحصول عليه بالوسائل العادية أو استخلاصه من الجسم بعد اخفائه فيه. وأن يتم تسليمه تحت وسائل الرقابة المبسوطة في الجلسات الروحية » .

١٢ — كتابة الغيبوبة

نوع من الكتابة التلقائية يحدث والوسيط واقع في الغيبوبة وفي غضون أسبوع واحد كتبت مرجري وهي واقعة في الغيبوبة، تسع رسائل بتسع لغات مختلفة، من بينها اللغة الصينية ولعلّ أغرب هذه الرسائل التي كتبتها مرجري هي تلك الرسالة الصينيـة التي ترى صورة زنكوغرافية لها هنا .

ولما سئل خبير باللغة الصينية أن يترجم هـذه الرسالة قال ان كاتبها قد اقتبس من كلام كونفوشيوس Confucius وتلميـذه يان تسي Yan Tse . وفيما يلي ترجمـة الـكتابة الأقل وضوحاً في الصورة وهي عن كونفوشيوس : —



Chinese automatic writing

شكل (١٤) الـكتابة الصينية التي كتبتها مرجري وهي واقعة في الغيبوبة

نقلا عن مجلة « سايكك نيوز »

« هل نقضت عهدي ؟ ألم انقح تعاليم معلمي ؟ يجب أن لا يغضب الانسان حين يجهل الناس أنه وافر العلم والمعرفة . ألا يمكن أن يكون حكيماً عاقلاً ؟ »

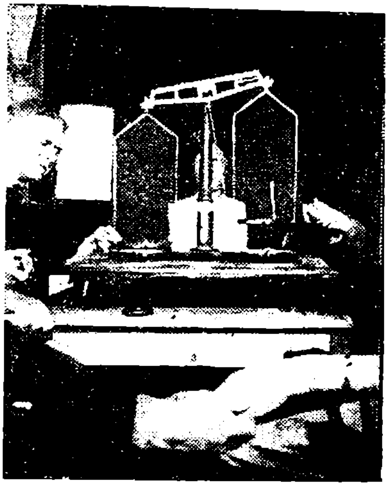
وأما الـكتابة الواضحة فترجمتها : —

قال يان تسي « ان الانسان القائم بواجبه نحو أبويه وأشقائه وشقيقاته لا يمكن أن يضايق من هم أعلى منه درجة ، ولا يمكن أن يحارب مليكه » .

١٣ — تجربة الميزان

وجاء المختبرون بميزان كيماوي ، ووضعوا في احدى كفتيه أثقال وظلت الاخرى خاوية ومع ذلك اتزنت الـكفتان وكأنما قد وضعت فيهما أوزان متساوية. وكانت التجارب في هذا الصدد تبدأ وتنتهي في الظلام ومرجري مشدودة الوثاق ومراقبة رقابة شديدة . ترى هل

اختلت موازين قوة الجاذبية هنا أم هناك شيء غير منظور أحدث التعادل بين الكفتين؟ لقد أضيء النور الأحمر لفترات زمنيـة استمرت من خمس الى خمس وعشرين ثانية، وظهر الميزان واضحاً، وكانت الكفتان متعادلتين. وقام الجالسون يمرّرون أيديهم فوق الكفتين وتحتهما وحول الميزان كله، فأثبتوا بذلك أنه ليست هناك ثمة خيوط استعملها أحد الجالسين. واستعمل الضوء الساطع الخاطف في التصوير خلال هذه التجربة. فأثبتت الصور الفوتوغرافية أنه لم يكن ثمّ اتصال ما بين أحد الحاضرين وبين الميزان المتزنة كفتاه رغم وجود أثقال في احديهما دون الأخرى. ولكن حينما استعملت عدسة من الكوارتز بدل العدسة الزجاجية العادية ظهرت في الصور الفوتوغرافيـة اسطوانة اكتوبلازمية موضوعة في الكفة الخالية فكانت السبب في احداث الاتزان.



شكل (١٥) تجربة الميزان: ترى مرجري واقعـة في الغيبوبة وقد أمسك بيديها اثنان. وقد أظهرت الكمرا الاسطوانة الاكتوبلازمية.

نشرت هذه الدورة في كتاب جامعة كلارك « المذهب الروحي بين التأييد والمعارضة » وفي « موسوعة العلم الروحي » الانجليزية

وكتب الدكتور تليارد العالم الحشري الذي تقدم ذكره الى العلامة الطبيب السيكولوجي الاستاذ مكدوجل McDougall بتاريخ ٦ مايو سنة ١٩٢٦ بصدد تجربة الميزان هذه يقول:

« ان هذه التجربة من أكمل التجارب التي يستطيع العقل البشري أن يبتكرها . واذا نظرنا اليها في ضوء الصور الفوتوغرافية التي أظهرت « الاسطوانة الروحية » موضوعة في الكفة الفارغة حكمنا بأنها بينة قوية جداً على صدق الظاهرة ومصدرها غير المادي » .

١٤ — هوديني ومرجري

لئن كان قد شاد بذكر مرجري ووساطتها رجال من أمثال لودج وريشيه ودويل بعد أن تبينوا عملها الروحي العظيم ، وكفاحها هي وزوجها وشقيقها « الميت » في سبيل دعم الروحية ونشر قضاياها ، فانها لم تعدم قوماً راحوا يشهرون بها لغير سبب . ولعلّ أظهر مثل لهؤلاء المناهضين هو الساحر هوديني غفر الله له .



شكل (١٦) مرجري في الصندوق الذي إبتكره هوديني الساحر . ويرى وقد أمسك هو بيسراها كما أمسك شخص آخر . بيمناها فلما تمّ حدوث الظواهر مع كل هذا وجد هوديني من الجرأة الصفيقة ما استطاع به ان يتهمها بالغش والتدليس
(نقلا عن « موسوعة العلم الروحي » الانجليزية)

وكانت وساطة مرجري مطروحة اذ ذاك على بساط البحث أمام لجنة مجلة « سينتفك أمريكان » . وحضر أعضاء هذه اللجنة جلسات مرجري ، وكان هوديني واحداً منهم ، واقتنع معظمهم بصدقها وبصحة التفسير الروحي ، وعجزوا عن تفسير الظواهر تفسيراً مادياً . والواقع أنهم كانوا في مراحل اقتناع متباينة . ولكن أنى لهوديني أن يعلن اقتناعه وقد

ظهر له من ينازعه الزعامة في عمل الأحداث العجيبة ؟ بل كيف يعلن اقتناعه بعد ان أعلن هو أنه سيحاول أن يحل لغز هذه الوسيطة ؟

ولهذا أعدّ العدَّة ، وبلغ من وثوقه من النجاح أن كتب قبل ذهابه الى بوسطن خطاباً إلى أحد أصدقائه بلندن يقول فيه : انه عن قريب سيفضح أمر هذه الوسيطة ، ويكشف للملأ خداعها وتدليسها . وقد كاد ينجح في مسعاه الخائب ، وذلك بارتكابه هو الغش والتدليس ، لولا أن تدخلت الأرواح في الأمر ، فكانت الفضيحة من نصيبه هو . وفي اعتقادي أن هوديني كان يكف يده عن ذلك او عرف أن أمره سيفضح . ووقفت أمريكا كلها ترقب نتيجة عمله .

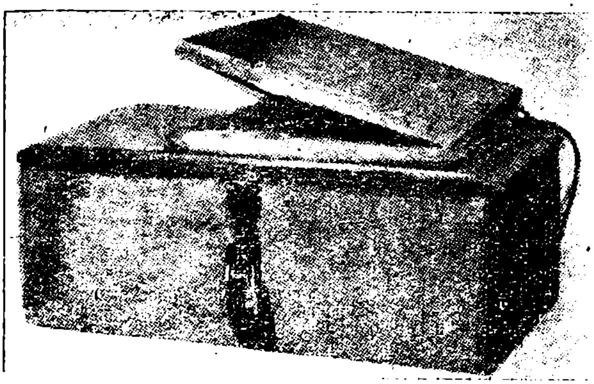
وساعد هوديني على وضع خططه أنه عرف مقدماً نوع الظواهر التي تحدث في جلسات مرجري ، والأمر الوحيد الذي لم يستطع أن يتلافاه هو تدخل الروح والتر ، ذلك الروح الحذر الأريب الذي كان متيقظاً لكل حركات هوديني ، ولم يشأ أن تكون شقيقته ضحية ريئة لهذا الساحر ، ولم يرض أن تكون مضغة في أفواه الناس ، يتناولونها بالاستهزاء والسخرية والتهكم الجارح ، ولذلك قلب لهوديني كل خططه رأساً على عقب .

وكانت أولى الظواهر التي ستختبر ظاهرة دق جرس كهربائي لا يتم الدق فيه إلا بالضغط على ساق خشبية بعيدة جداً عن متناول الوسيطة . فلما أطفىء النور وعمّ الظلام في الحجرة لم يدق الجرس كالمعتاد . وفجأة سمع صوت والتر يصيح في غضب قائلاً « لقد وضعت يا هوديني شيئاً يحول دون دق الجرس . انك يا هوديني ... » ومضى يوجه اليه أقذع السباب .

ولما أضيء النور وفحص الجرس الكهربائي وجدت قطعة من المطاط الذي يستعمل في مسح كتابة الأقلام الرصاص موضوعة بحيث تعوق حركة الرافعة التي تدق الجرس . وأبدى هوديني بطبيعة الحال جهله التام بذلك ، وما كان أقدر مثله على التجاهل . ولكن من هو ذلك الذي يجرؤ في الظلام على أن يعمل ذلك ، ولماذا لم يعمل ذلك الا في وجود هوديني ؟

وحذّره الروح مغبة الرجوع الى مثل هذا ، لافتاً نظره الى أن عناده الذي يدفع به الى التدليس أحياناً ، قد يجر عليه أوخم العواقب ، لانه لا يستطيع مقاومة القوى غير المنظورة ، وخاصة حين يتخلى المقيمون في الجانب الثاني عن مساعدته . ولكن سابق

خطاباته التي كتبها وبعث بها الى لندن ، والزهو الذي يملأ جنباته ، والأثرة وحب الشهرة كل هذا ملك عليه لبه ، ودفعه الى المضي في خطته العاثرة التي اختطها لنفسه . وكان في الجلسة التالية أسوأ حظًّا منه في تلك الجلسة . ذلك انه جاء بصندوق على بابه ثمانية أقفال حتى ليظن رائيه أنه صنع لكي توضع فيه غوريلا هائجة لا سيدة رقيقة وادعة كمرجري ولكن ربما كان «الأسلوب العلمي» الذي ينادي به بعض البحّاث الفاحصين يستلزم كل هذا وما كادت مرجري توضع فيه وتغلق الأقفال حتى فتحته على الفور القوى الروحية غير المنظورة . فألجم هذا الحادث غير المتوقع صاحبنا هوديني ، وسكت لا ينبس ببنت شفة ، ولكنه لم يصده عن ألاعيبه الماجنة .



شكل (١٧) الصندوق ذو الجرس
نقلا عن « موسوعة العلم الروحي » الانجليزية

وحدث لهوديني بعد ذلك ما هو أسوأ وأسوأ . فقد وُضعت السيدة من جديد في ذلك الصندوق ، وأحكم اغلاقه بعد اخراج يديها من ثقبين في جانبيه . ولوحظ أن هوديني لغير سبب ظاهر قد مرّر يده على ذراع السيدة ثم في الصندوق . وبعد إجراء بضع تجارب أُدخلت ذراعاها في الصندوق، ولم يبد منه خارجاً غير رأسها ، وانتظروا أن يدق الجرس بعد ذلك . وفجأة لعلع في الظلام صوت ولتر قائلاً : « هوديني ، أيها الوغد ! لقد وضعت مسطرة في الصندوق . . . أيها . . . أذكر أنك لن تعمر إلى الآبد ، وأنك لا بدّ ميت يوماً . . . » .

وأضيئت الأنوار على الفور ، وفحص الصندوق ، وإذا بالفاحصين يعثرون على مسطرة مطوية ، وكان المقصود أن يقول هوديني فيما بعد إن الوسيطة قد وضعت المسطرة بين أسنانها ، وضغطت بها على الساق الخشبية ، فضغطت هذه على زر الجرس فدق . ويتصايح الناس بعد ذلك في أمريكا ، ثم في العالم كله ، بأن هوديني قد فضح الدكتور كراندون وزوجته مرجري فقد ضبطهما وهما يرتكبان الغش والتدليس لاحداث الظواهر المزعومة ! وما كان لأحد أن ينقذ سمعة الرجل وزوجه بأحسن مما أنقذها به الروح ولتر .

وغلب هوديني على أمره ، وريع إزاء غضب الأرواح غير المرئية . ولما ذهب عنه ذهوله ، واستعاد وعيه من هذه الصدمة ، لم يجد بدًّا من الاعتذار بأن المسطرة لا بدّ أن يكون قد تركها أحد أتباعه في الصندوق عفواً ، وكان موقفه أمام الحاضرين مزريًا يدعو الى الاشفاق . ولكن هوديني لم يكن ليستحي من أحد في هذا العالم ولا في العالم الثاني . ولم يستطع إذ ذاك إلصاق التهمة بالدكتور كراندون وزوجته ، لأن هذين طلبا إليه أن يفتش الصندوق بعد دخول مرجري فيه فرفض ذلك وأصرّ على الرفض . وكان طبيعيًّا أن يرفض بعد تمرير يده في داخل الصندوق لغير سبب ظاهر كما مرّ بنا . وكان المفروض بعد ذلك أن يعترف بصدق هذه الوسيطة أو يسكت ليداري فشله ، ولكنه في جرأة غريبة أغرق أمريكا كلها بنسخ من كتيب صغير يقول فيه إن مرجري مخادعة وإنه كشف ذلك الخداع ، لأن مرجري قد دقت الجرس باخراج رجلها من الصندوق ، ثم الضغط بها على زر الجرس ! ونسي المسكين أن الجرس ظلّ يدق وقد أمسك به أحد الحاضرين في يده ، وظلّ يدق وقد سار به في الحجرة بعيداً جدًّا عن مرجري . فيا للجرأة الصفيقة !

الواقع أن هذه الحادثة لم تكن فضيحة لمرجري ، بل كانت فضيحة لهوديني نفسه ، وكانت ضربة قاصمة لظهره . وما كان من رجل مجلة « سينتفك أمريكان » وهو العالم مالكولم بيرد Malcolm Bird زميله في عضوية لجنة التحكيم التي اختارتها هذه المجلة لفحص ظواهر مرجري — لم يكن منه إلاّ أن اتهمه علانية ، وفي مواجهته ، بالغش والتدليس كحكم وعضو في لجنة التحكيم . وقد ذكر بيرد ذلك كله في كتابه النفيس « مرجري الوسيطة » قال : —

« لن أعلق بإسهاب على رواية هوديني لما حدث في جلسات مرجري التي حضرها .

والواقع أنه شاهد جملة أحداث لم يستطع أن يقدم لها تفسيراً سوى أنه أجرى مثلها . ونظراً لأنه لم يسلمّ بصحتها فقد اضطرّ أن يقدم لها هذا التفسير .

« وفي خلال الجلسة التي دقّ فيهـا الجرس الموضوع في الصندوق أخذت صورة فوتوغرافية ظهرت فيها المواضع النسبية لجميع أيدي الحاضرين وأقدامهم . وللصندوق وما الى ذلك ، كما ظهرت فيها أبعاد الصندوق . وحينما جاء هوديني ليدلي بتفسيره المحكم التلفيق عن كيفية حدوث ذلك الدق وجد أن الصورة الفوتوغرافية لا تتفق معه أبداً ولا تنطبق عليه بتاتاً . ولذا رسم بالقلم صورة تخطيطية مغيراً فيهـا حجم الصندوق وموضعه ، فزيف بهذه الوسيلة الوقائع كل التزييف .

« ولن أدلي هنا ببيان عن تفصيلات الغش الذي حاول هوديني ارتكابه مع هذه الوسيطة في زيارته التالية لها . وأكتفي بأن أقول إن شخصاً ما قد أحدث خللاً في صندوق الجرس جعله يحتاج لـكي يدق إلى ستة أمثال الضغط المعتاد ، وأن شخصاً ما قد وضع عمداً في قفص الوسيطة مسطرة مفصلية طويلة لـكي يظهرها بأنها إنما حاولت دق الجرس بها . وقد اتهمت هوديني كتابة وفي مواجهته بهذه الأعمال العدوانية الآثمة ، فلم يدافع قط عن نفسه . وكان مسلـكه الشخصي بالنسبة لهذه الجلسات أن يحول دون الحصول على بينة إيجابية تدل على الجرم الحقيقي ، ولـكن كان واضحاً كل الوضوح أن مرجري لم يكن في وسعها إتيـان شيء من هذا — حيث لم تكن لديها فرصة لإتيانه » .

* * *

وختمت جامعة كلارك كتابهـا « المذهب الروحي بين التأييد والمعارضـة » . ببعض ما ذكره هوديني في كتابه « ساحر بين الأرواح » مخافة أن تتهم بالتحيز والمحاباة . وقد قال العلامة هاري برايس Harry Price السكرتير الفخري لمجلس جامعة لندن للبحوث الروحية في كتابه « خمسون من سني البحث الروحي » عن كتـاب جامعة كلارك سالف الذكر بعد أن شاد بذكره وحثّ على قراءته : « في رأيي أن المستوى العلمي لهذا الـكتاب قد انحطّ باحتوائه على ما نقله من كتاب هوديني المسمى « ساحر بين الأرواح » الذي هو عبارة عن مجموعة حيل وألاعيب لا يجرؤ على استعمالها أي وسيط مدلس خارج مستشفى المجاذيب » .

١٥ – العلماء بين الاقدام والاحجام

لا ندري أيهما كان أكثر إيذاء لهذه الوسيطة الصادقة البريئة ، أهو رجل كهوديني أم عالم من طراز العلامة مكدوجل أستاذ السيكولوجيا بجامعة هارفارد إذ ذاك ؟ حقيقة ان مكدوجل اعترف بصدق الظواهر الروحية ولكنه سلك مع مرجري مسلكاً فيه كثير من الشذوذ . فهو بعد أن حضر خمسين جلسة من جلساتها ، وبعد امضائه عقب كل جلسة ، هو والحاضرون جميعهم ، بياناً بصدق الظواهر التي تمت تحت وسائل الرقابة العلمية الشديدة ، لم يشأ أن يبدي رأياً حاسماً مكتفياً بتلميحات مبهمة . ولم يستقم الأمر حتى بعد تدخل الدكتور دنجوال Dr. E. J. Dingwall, D. Sc. Ph. D. عضو جمعية البحوث الروحية البريطانية ، فإن هذا أيضاً كان يعترف بصدق الظواهر في أحاديثه الخاصة ويسكت لا ينبس بكلمة في الاجتماعات العامة . فلما انتدب من قبل جمعية البحوث الروحية البريطانية لفحص أعمال مرجري قدم تقريراً دافع فيه بشدة عنها وعن أعمالها . وكان مكدوجل كما قلنا أحد الذين اشتركوا في فحص أعمال هذه الوسيطة ، وكان يخشى الجهر بما تحقق منه . فبعث الى دنجوال خطاباً خاصاً كتب في أعلاه تلك العبارة المألوفة « سري جداً » . وقد نشرته فيما بعد جمعية البحوث الروحية الأمريكية بمجلتها في عدد يونيه سنة ١٩٢٥ بالصفحة رقم ٣٠١ ، وقد جاء في هذا الخطاب ما يأتي : —

« ان شهادتي في هذا الصدد ستكون فيما أرى عظيمة الخطر وخاصة في البيئات العلمية ، على حين أن تقريراً تكتبه أنت وحدك في صالحها لن يكون ذا أثر اذا لم أؤيده أنا . والراجح بل المؤكد ، أنك حين تقرر صدق الظواهر الاكتوبلازمية فان العلماء سوف يتهمونك بأنك شريك مرجري في المؤامرة . وعند ذلك تكون شهادتي أحسن دفاع وأصدق إثبات . وعدا هذا فما لا شك فيه أني سأقدم تقريراً لجمعية البحوث الروحية البريطانية . ومهما كانت وجهة النظر فانه يكون غير ملائم جداً أن يتباين تقريرك وتقريري عن نفس الجلسات ، أو ان يختلفا اختلافاً خطيراً . . . . إنك تجهر صراحة بأنك مقتنع بحقيقة الاكتوبلازم . هذا حسن في ذاته كيفما كان الحال ، ولكن يبدو لي أنك تحاول أن تجرفني معك » .

وقد علق الدكتور كراندون على ذلك بقوله « ان هذه العبارة المقتبسة تدل على مسلك

البحـاث ، فالمسألة لديهم لم تكن « ما هو الحق » بل كانت « ما هو الانسب كتابته في التقرير ؟ »

على أن مكدوجل كباحث عالم لم يطاوعه ضميره على المضي في هذا المسلك الجائر . فألقى أولاً في جامعة كلارك الأمريكية سنة ١٩٢٦ محاضرته الشهيرة « البحث الروحي كدراسة جامعية » . ثم مضى بعد الى أبعد من هذا فأصدر مجلته «الباراسيكولوجيا "Para Psychology" ونادى فيها بصدق الظواهر الروحية .

ولعلّ احجام بعض العلماء وأهل الرأي عن الجهر بآرائهم في هذا الصدد يرجع بالأكثر الى خوفهم من تشهير مناهضي الروحية بهم ، كما حدث لبعض الأفذاذ هنـا في مصر وقد جهروا به في أحاديثهم الخاصـة ، وان كان ذلك لا يصح أن يتخذ وسيلة للكف عن البحث العلمي . وخير ما نقدمه لهؤلاء هو الموقف الجريء الذي وقفه العلماء الروحيون البارزون. ونكتفي بذكر ما تمّ للعلامة سير وليم كروكس ، فانه لما وكل اليه فحص الظواهر الروحيـة سنة ١٨٧٠ قابلت الدوائر العلمية هذا الاتجاه بالترحاب ، وقابله بعضهم بالتهليل والتكبير . فلما جهر بأن الظواهر صادقة انقلب التهليل تجريحاً واستهزاءً . ويقول هو : —

« حينما أعلنت أنني قد اعتزمت فحص هذه الظواهر صادف إعلاني هذا موافقة عامة . فقال قائل ، إن آرائي تستحق التقدير العظيم ، وأبدى آخر الرضى التام ، لأن الموضوع على وشك أن يفحصه رجل مثقف تثقيفاً كاملاً . وقال ثالث : إنه قد سرّه أن يعلم أن المسألة الآن قد وكلت إلى عناية رجال لا يتأثرون ، ذوي عقول نيرة ولهم مكانتهم في عالم العلوم . وأكد رابع : أنه لا يمكن أن يشك أحد في أن كفاية مستر كروكس ستنهض بعملية فحص هـذه الظواهر دون محاباة البتـة . وكتب ظريف خامس يحدث قراءه فقال : اذا كان رجال من أمثال مستر كروكس يمسكون بتلابيب الموضوع فانهم لن يسلموا قط بصحة شيء ما لم يثبت لهم ، ومن ثمّ فسنعرف قريباً مقدار ما سنصدقه ونؤمن بصحته .

« وإخال ان هذه الملاحظات كلها قد تسرّع أصحابها كثيراً في إبدائها . والظاهر أنهم كانوا مفترضين مقدماً أن نتائج تجاربي ستكون متفقة وآراءهم التي اختمرت في صدورهم . ولم تكن رغبتهم في الواقع الوصول الى الحقيقة بل العثور على بينة جديدة تؤيد استنتاجاتهم

المقررة من قبل . فلما ظهر لهم أن الحقائق التي أسفر عنها البحث لا يمكن أن تتفق بآرائهم تلك انقلبوا على أعقابهم منادين بالويل والثبور وعظائم الامور . . . .

« وحاولوا أن يتملصوا من أقوالهم السابقة الدّالة على سالف وثوقهم بذلك العالم البحاثة ، فقالوا عن الوسيط هوم Home إنه ساحر ماهر خدعنا وخاتلنا . . . . ، و(ان مستر كروكس بنفس الاحتياط قد يفحص أعمال أي ساحر هندي) و(إنه لا بدّ لمستر كروكس أن يجيئنا بشهود أصدق قبل أن يظفر بتصديقنا إياه) و (ان الموضوع من السخف بحيث لا يصح النظر إليه بعين الجد والاعتبار) و (ان ذلك مستحيل وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون قد حدث) و (ان الحاضرين جميعهم قد نوّموا فتخيلوا أنهم يرون أشياء لم توجد في الواقع) » .

فما أشبه الليلة بالبارحة !

١٦ — الاظلام والاضاءة

رأينا فيما سردناه أن بعض الظواهر لا تتم إلاّ في الظلام أو في الضوء الأحمر . وكثيراً ما سأل ويسأل السائلون عن ذلك ، بل كثيراً ما اتخذه بعضهم حجة على الروحية لا لها ، وهذا برغم ما كشفه التصوير الفوتوغرافي والسينمائي بالأشعة تحت الحمراء في حجرات التحضير في ظلمة الظلام . والجواب على ذلك هو أن عمليـة سحب الاكتوبلازم اللازم لاحداث الظواهر من جسم الوسيط ، وتكوين تلك القضبان الاكتوبلازمية ليست سوى عملية حيوية قد تشبه إلى حدٍّ ما عملية الولادة . ولو فكرنا قليلاً لتبينا أن العمليات الحيوية جميعها تحدث في الظلام ، وفي الظلام فقط . فعمل المخ ، والتنفس ، وضربات القلب ، والهضم . والحمل — كل هذا يتم في الظلام . وبالاختصار ان من خواص الاكتوبلازم أنه يذوب في الضوء .

وعدا هذه العمليات الحيوية لدينا حالات إظهار اللوحات الفوتوغرافية ، فهذه لا تتم إلاّ في ضوء فاتر لا تتعدى شدّته شدّة الضوء الأحمر . ويلاحظ بجانب ذلك أن عملية إظهار الفوتوغرافيا الملونة لا تتم إلاّ في ظلام دامس . ومن ثمَّ فالحاجة الى الظلام أو الى الضوء الأحمر في التجارب الروحية ليست أمراً مستغرباً ، وهذا لا يستلزم من الباحث النزيه إلاّ بعض

الذكاء والكياسة لبسط رقابة معقولة حذرة أريبة خلال اجراء التجارب .

على أن الاعتماد على الحواس وحدها في الادراك قد يؤدي إلى الغرض في أحوال الحياة العادية فقط ، أما في بحث ظواهر حجرة التحضير فالواجب ألا يعتمد عليها الاعتماد الكلي . وقد أثبت العلم أن ذلك الذي يبدو لنا صلباً جامداً ليس كذلك في الواقع ، وان كل ذرّة من ذرات المادة عالم من البروتونات والالكترونات وما إليها من الجسيمات الاخرى ، وأن الجسم الصلب لا يحتوي إلا على جزء من مليون جزء منه من المادة . أما الباقي ففضاء يمكن أن يوازن نسبيًّا بالفضاء الكائن بين الاجرام السماوية . ولا تدرك أبصارنا من الأضواء إلاّ الطيف الذي يبدأ بالأشعة الحمراء وينتهي بالأشعة البنفسجية كما نرى في قوس قزح ، مع أن العلم كشف لنا إشعاعات أخرى في غير منطقة الطيف الضوئي المعروف. وترينا عدسة الكوارتز أشياء لا تراها العين العارية . ولا ترى العين كذلك الأشعة السينية وما اليها من الأشعة الأخرى العلاجية وغير العلاجية . وهذا عدا الأشعة الكهربية المستكشفة حديثاً والتي اذا سلطت على انسان أو حيوان أو جماد اختفى عن العين وعن عدسة الفوتوغرافيا كذلك. وناهيك بالموجات الصوتية الصامتة التي لا تدركها الأذن .

١٧ — وفاة مرجري

وانتقلت مرجري الى عالم الروح في نوفمبر سنة ١٩٤١ ، ورثتها الصحف الروحية أبلغ رثاء ، ولم تنعها من الصحف الانجليزية الكبرى الاّ صحيفة الديلي تلغراف اللندنية . وقد خسرت الروحية بفقدها وسيطة فذة في وساطتها . وكان قد سبقها الى عالم الروح زوجها الدكتور كراندون ، وكان انتقاله في سنة ١٩٤٠ . وعند وفاة زوجها كتبت الى محرر « سايكك نيوز » تنعي اليه زوجها بهذه الكلمات . وقد كتبتها فوق بطاقة من بطاقات البريد العادية قالت :

« لقد تركنا روا Roi ليقيم مع ولتر » .

وها هي ذي قد تركت هذا العالم لكي تقيم مع روا وولتر .

تلك هي « العجيبة الثامنة » . هي مرجري المثل الكامل للوسيطة الكاملة التي لم يبق

أمامها لكي يعترف مناهضو الروحية بصدقها إلا أن « تغلي نفسها في الزيت » كما يقول العلامة بول ملر Paul Miller في كتابه النفيس « موكب الروح » الذي صدر في لندن في شهر ديسمبر سنة ١٩٤٣ . وطويت بوفاة مرجري صفحة روحية مجيدة كم ودّ الروحيون أن لو ظلت منشورة فترة أخرى . على أن ذلك لا يمنع أن تطالع عالم المادة ، وهي في عالم الروح بصفحات أخرى تظل الى الأبد خفاقة .

١٨ — المسألة الكبرى

وبعد فماذا وراء هذا كله ، والى أي طريق يسوق الانسانية ؟ وتلك هي المسألة الكبرى التي يسعى الى شرحها العلم الروحي الحديث .

(١) فأما الظواهر أو الأحداث المادية التي تتم في حجرة التحضير فهي تجريب حسي حقيقي صحيح ، وأمرٌ واقع يجب أن يسلم به الانسان . وهي جزء من قصة معرفة الانسان بالكون ووقوفه على سر من أسراره .

(٢) وأما البحث الروحي فانه يثبت حقائق لا تتصل فقط بعالم المادة المحسوس بل بعالم آخر لا تدركه حواسنا ، وهذا العالم هو الدولة الروحية التي قوامها الشخصية الآدمية لا الجسد المادي . وان هذه المنطقة الخفية لتدعو الروّاد لاستكشافها طالبة اليهم أن يبحثوا في حقيقتها لكي يظهروها للملأ ، إذ أن فيها سر الخلود . وليس هناك ما هو أجل ولا أنبل من حلٍّ علمي سليم لمسألة بقاء الشخصية وبقاء الوعي بعد ذلك التغير الذي نسميه موتاً ، وهي تلك المسألة التي نسلم بها عن طريق الايمان ، والتي أصبحت والحمد لله أساس الدراسة التي أنشئت حديثاً في جامعة كمبردج العريقة .

(٣) وأما العلم المادي فقد أفلس عند حافة القبر ، ولا يقدم الدين من الوجهة العملية الا تعزية فاترة . وقد نجح العلم الروحي الحديث في قتل المادية ، كما ذهب كذلك باللاأدرية التي اتخذ منها بعض المتعلمين في الوقت الحاضر تكأة ومطية ، وأثبت أن الانسان روح قبل كل شيء ، وأن الكون كله في أصله روحي لا مادي ، واننا في حالة تطورنا الحالي لا ندرك منه الا الشق المادي الذي تترنم اهتزازاته وتتوافق مع اهتزازات أعضاء الحس لدينا ، وان الموت تغير بيولوجي وكيماوي لا أكثر ولا أقل .

(٤) وأما نقّاد العلم الروحي الحديث وكارهوه فهم سلالة تلك العصابة القديمة التي أرهقت أحرار المفكرين وأوسعتهم تعذيباً وتقتيلاً وحرقاً ، ولكنهم لعجزهم في الوقت الحاضر عن اتيان أعمال القسوة والوحشية مضوا يسممون العقول والأفكار بتلك النظريات المادية الملتوية حتى لقد ابتدعوا علماً سموه « علم النفس » ينكر وجود « النفس »

ولكن الروحيين على الرغم من كل هذا ساروا قدماً حاملين مشعل العرفان ، قائلين مع الرئيس روزفلت « ان أكبر صيد في العالم هو أن تحارب في سبيل مسألة غير متداولة ولا مشهورة حين تعرف أنك على حق فيها »

١٩ — المراجع Bibliography

1 — Cavalcade of The Spirit, by Paul Miller (1943).

2 — The Case for and Against Psychical Belief, Symposinm, edited by Dr. Carl Murchison, Copyright, 1927, by Clark University.

3 — Encyclopaedia of Psychic Science, by Dr. Nandor Fodor, L. L. D. (1933)

4 — Psychic News, numbers : 494, 495, 496, 497, 498, 499, 500, 501, 502, 503 (issued in 1941, 194?) .

فهرست

لواحق المقتطف الشهرية

المسرحية في شعر شوقي

تأليف

محمود حامد شوكت

ليسانس في الادب الانجليزي

ودبلوم معهد التربية العالي وماجستير في الآداب

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٧

تقديم

هذه رسالة في « المسرح عند شوقي » ، اطلع صاحبها على بعض المسرحيات الأوربية وما كتب حولها من نقد أثناء دراسته الجامعية ، وتوسع في هذه الدراسة بعد نهاية هذه المرحلة ، ثم اتجه إلى الأدب العربي يحاول دراسة ظواهره المسرحية واستقر في النهاية على ظاهرة منتظمة في تاريخه ، وهي بضع مسرحيات ألفها أحمد شوقي بك في الأعوام الأخيرة من حياته .

وكان على الباحث استيفاء البحث عن جميع هـذه المسرحيات ، من مطبوعة ومخطوطة وناقصـة ، ودراسة المسرح المعاصر ومدارسه ، ودراسة حياة الشاعر بمقوماتـها السياسية والاجتماعية والأدبية ، حتى يمهد السبيل لدراسة هذه المسرحيات دراسة ترتكز على أساس سليم ، ودراسة فنه المسرحي كمركب من عناصر تدور حول نواة رئيسية وتتطور في اتجاه خاص ، ثم توضيح تأثير هذه المسرحيات في كتابة الـكتاب من بعده .

وبذلك انقسم الموضوع إلى مقدمة عامة عن المسرح الأوربي ، الذي أخذ شوقي فـكرة مسرحه عنه ، ويزداد اتصالنا به يوماً بعد يوم . ثم عرض عام للظواهر المسرحية في الأدب العربي وتعليل عدم اكتمالها لصورها الفنية ، وعرض عام للمسرح المصري من أيام الحملة الفرنسية حتى عصر إسماعيـل . ثم لزم عرض أكثر تفصيلاً للمسرح المعـاصر لشوقي ، والذي مهد لظهوره بحيث تفاعل مع المقومات الأدبية للشاعر ، وتبع ذلك عرض لفن شوقي كمركب يدور حول وحدة ، ثم عرض مفصل لـكل مسرحية وقيمتها الفنيـة وتأثرها بغيرها ، ثم تأثير مسرح شوقي في المسرح الذي أتى بعده .

وكان من اللازم لاستيفاء البحث من الاطلاع على مخطوطات ومجلات ومسرحيات عفا عليهـا الزمن ، والاتصـال برجال المسرح ، وبمن اتصلوا بشوقي . ومن تخيل دقيق لبعض المسرحيات التي لم تعد تمثل حتى اليوم ليكون البحث على أساس صائب قدر الإمكان .

وقد كان المرجع الرئيسي الدائم حضرات الأساتذة المشرفين ، فلصاحب العزة الأستاذ احمد بك أمين ، ولحضرة الدكتور شوقي ضيف ، ولحضرة الدكتور صبري فهمي شكر عميق على الجهد والعطف والتشجيع والتوجيه القيم الذي شملوا به صاحب هذه الرسالة .

وللشاعر خليل بك مطران ولرجال الفرقة القوميـة فضل يشكر على إدلائهم بآرائهم فيما يتصل بالموضوع ، وللأستاذ حسين شوقي نجل الشاعر الشكر على المساعدة في الاطلاع على المخطوطات والإدلاء بالمعلومات التي تتصل بحياة الشاعر الخاصة .

المؤلف

مقدمة

المسرح الأوروبي

١ — المسرح اليوناني : منشؤه الغنائي . تطور المأساة وأهم كتابها . تطور الملهاة وأهم كتابها . المسرح الإغريقي وشكله . النقد المسرحي وكتاب الشعر لأرسطو. قيمته ومدلوله من الوجهة العامة والوجهة الخاصة .

٢ — المسرح الروماني : تقليده للمسرح اليوناني . انحطاط المأساة . تطور الملهاة . أثر الحياة الاجتماعية وطبيعة الشعب في انحطاط الأدب المسرحي . النقد وكتاب الشعر لهوراس .

٣ — المسرح في العصور الوسطى : المسرح الشعبي المتجول . المسرح الكنسي ونشأته . خلط النقاد والمؤلفين بين مذاهب الشعر الغنائي والشعر المسرحي . الكوميديا الإلهية لدانتي .

٤ — المسرح في عصر النهضة : الحماس للتراث الكلاسيكي . مظاهره في إيطاليا وفرنسا وانجلترا . سيطرة الآراء الكلاسيكية والمؤلفات الكلاسيكية . هبوط موجة الحماس وظهور الألوان المحلية في آداب البلاد المختلفة . التراث الكلاسيكي في إيطاليا وفرنسا : كورني وراسين وفولتير . المسرح الرومانتي في انجلترا : مارلو وشكسبير . انتشار المذهبين في أوروبا .

٥ — الدراسة الحديثة : النقد الكلاسيكي وسيطرته على النقاد حتى القرن السابع عشر . أوجييه ودريدن وحركة التحرر ، الدراسة الحديثة وبواعثها الاجتماعية . أهم خصائصها . النقد الحديث .

٦ — النقد المسرحي : الأسلوب العلمي وعلم النفس الحديث . القيمة الخارجية للمسرحية. الممثل والجمهور . القيمة الذاتية للمسرحية : الموضوع . الشخصيات . الحوار. صلة القيمة الخارجية بالقيمة الداخلية . تعاون المخرج والمسرح والممثل على تجسيم ما يصوره الكاتب . اتكاء النقد على المسرحية في تحديد قيمتها الفنية .

الفن المسرحي فن عريق في التاريخ ، متسع المدلول ، بعيد الأثر في النفوس ، يتخذ جذوره ، ويجتذب إليه عقول المؤلفين والنقّاد ، في كل أمة ينتقل إليها . ويرتفع خلال ذلك إلى آفاق إنسانية سامية خالدة .

وترجع صفحات تاريخ المسرح الأوروبي — كما رصدها مؤرخو المسرح — الى القرن الخامس قبل الميلاد ، إذ تطورت الأناشيد في بلاد اليونان ، تلك الأناشيد التي كان ينشدها الشعب الأغريقي في عيد إله الخمر باخوس إلى قصص مستمدة من التاريخ الشعبي ابتدأ بتأليفها اسخيلوس (٥٢٥ — ٤٥٦ ق . م) ووضع فيها حواراً مبسطاً ، ثم اكتسبت شكلاً دينيًّا مسرحيًّا على يد سوفوكليس (٤٩٥ — ٤١٦ ق . م) . ثم بلغت صورتها المسرحية الإنسانية الخالصة في مسرحيات يوريبيد (٤٨٠ — ٤٠٦ ق . م) .

فلنصوّر لأنفسنا صورة مسرحية من هذه المسرحيات تمثل في مسرح صغير يتسع لثلاثة من الممثلين ، يرتدون الأحذية المرتفعة واللباس الثقيل والأقنعة المصبوغة . ويغير الممثل ملابسه وشكله ليمثل شخصيات مسرحية مختلفة . ولنصوّر لأنفسنا جوقة موسيقية تنشد أناشيد دينية ، وتعلق على الحوادث المسرحية من آن لآخر تعليقاً غنائيًّا بين الفصول والمناظر التي لم توجد على المسرح الأغريقي . ولنصور لأنفسنا مدرّجاً يتسع للآلاف من المتفرجين ، ينحني في شكل حذاء الفرس حول المسرح ، ويتسع للآلاف من الناس وهم يشاهدون التمثيل من مدرجهم المنحوت في جانب الجبل .

ولنتأخر في الزمن قليلاً لنشهد نوعاً مسرحيًّا آخر غير المأساة ، انتقل إلى أثينا من صقلية ، وتطور فيها من الأفراح التي أقيمت في عيد إله الخمر ، ولنلاحظ تطورها من صور قصصية واقعية تعرض لنقد أناس وتذكر أسماءهم الواقعية ، إلى الصور النهائية لهذا النوع .

ولنسمه الملهاة ، التي تغفل الوقائع وتستمد صورها العـامة من الشذوذ الإنساني ، وتعرضه عرضاً فكاهيـاً ، كما ظهرت على يد مينا ندر (٣٢٠ ق . م).

ولننظر نظرة سريعـة إلى صفحات النقد في هذا العصر البعيد ، إذ صاحب التأليف المسرحي نقد كان لبعضه أثر خالد دائم المدلول . وتبرز من بين صفحات هذا النقد ، ما ذكره ارسطو في كتابه عن فنون الشعر ، اذ بحث فيه — بحثاً مجرداً نظريـاً فلسفيـاً — شعر المأساة وشعر الملحمة ، ويظن بعض النقاد أنه كتب جزءاً عن الملهاة لم يصل إلى أيدينا . وقد فصّل ارسطو في كتابه قيمته المسرحية الفنية من موضوع وشخصيات وحوار ، وقد استمرت آراؤه ذات أثر على عقول النقاد والمؤلفين حتى القرن السابع عشر الميـلادي ، ثم انقلب الحماس لها إلى ثورة متطرفة ، وإننـا ننظر إليه اليوم على أنه وثيقة تاريخية ، وأنموذج للروح العلمي الدقيق . ورغم عدولنا عن بعض آرائه ، وتحويرنا لبعضها ، فقد بقيت آراؤه الأساسية سليمة في جوهرها .

* * *

ولنطو صفحات القرن الخامس قبل الميـلاد من تاريخ المسرح ، ولنطو معها صفحات مجد أثينا وبلاد الاغريق ، ولنتبع دورة الحياة والحضارة إلى رومة حيث وجدت الحضارة اليونانية وطناً ثانياً أشرقت فيه ، إذ احتذى الرومان حذو الإغريق ونحوا نحوهم في مناهج حياتهم وأدبهم . على أن الأدب المسرحي لم يزدهر فيها ، إذ لم تسمح طبيعة الشعب الروماني الاجتماعية ، وميله إلى مشاهدة المناظر الحسية المثيرة كمصارعات الوحوش ، بتطور الجوانب المسرحية الفنية غير المحسوسة ، ولئن كان لذلك أثره في انحطاط المأساة ، فقد كانت الملهاة أسعد حظـاً إذ تقدمت مما وصلت إليـه المأساة ، وبرع في التأليف الـكوميدي بلوتس وتيرنس . على أن الملهاة الرومانية في أرفع صورها لم تتفوق على الملهاة الاغريقية الرفيعة ، ولم يضف نقاد الرومان كثـيراً إلى النقد المسرحي ، بل تطورت أساليب النقد إلى قواعد شكلية ، وتقليد مقيد لتعاليم اليونان القدماء ، فأتى كتاب النقد لهوراس (٦٥ — ٨ ق . م) تطبيقاً يضع القاعدة دون أن يسبقها التحليل والاستقراء كما نهج ارسطو ، فقسم الشعر في كتابه عن فنونه الى أنواع ، وبين بحوره وأوزانه . ووصف شخصيات المسرحية وفصول

الموضوع بأسلوب جامد حيث لم يصل القاعدة بمثال، واكتفى بالإشارة إلى النماذج الاغريقية وتقليدها تقليداً دقيقاً .

***

وانطوت صفحة الحضارة الرومانية بسقوط روما ، واستمرّ المسرح في شكل فرق تتجول في أنحاء أوربا دون أن تستقر في مكان واحد ، وتمثل مخلفات المسرحيات الكلاسيكية، وانحطاط الناس الخلقي، مما اضطر رجال الكنيسة إلى مقاومتها متخذة وسائلها في كل بلد ، وهكذا نشأ مسرح كنسي تمثل فيه مسرحيات دينية للوعظ والإرشاد، وبذلك تكوّنت المجموعات الدينية والخلقية . وأتت هذه المسرحيات ذات أهمية تاريخية أكثر منها أدبية ، إذ اختلطت فيها مذاهب الشعر الغنائي والشعر المسرحي والقصة . فسمى دانتي (١٣١٨م) قصته بالكوميديا المقدسة ، رغم أنها قصة ، وليست مسرحية، وعلل ذلك بأن بدايتها محزنة ونهايتها سعيدة . وتنطوي صفحة تاريخ المسرح بسرعة في أواخر العصور الوسطى، إذ ساد أوربا سبات عميق، وتقلصت مراكز الثقافة بالتدريج من الميدان الاجتماعي، وانحصرت بين جدران الأديرة، واقتصرت على جماعة قليلة من رجال الكنيسة الذين جمعوا بين الثقافة الدينية واللاتينية .

***

وظهرت معالم الأدب المسرحي من جديد إلى عالم الوجود حين هبت أوربا من سباتها في عصر النهضة ، وتخلصت من أوزار تقاليد العصور الوسطى وأغلالها ، وانتشر بين الناس حماس لكل ما هو كلاسيكي ، وكشفت الآفاق المنسيّة للحضارة الكلاسيكية . وقد بدأت موجة الحماس في إيطاليا ، وظهرت في النحت والتصوير خاصة ، ثم انتقلت إلى فرنسا، وظهرت في الهندسة والبناء خاصّة . ثم انتقلت إلى انجلترا حيث ظهرت في الأدب خاصّة . على أن أحد هذه الصور لم ينعدم في أي من هذه البلاد ، فقد تأثر الكتاب في إيطاليا بآراء الكلاسيكيين وحذوا حذوهم في الأدب شكلاً ومادة ، فترجمت كتب النقد لأرسطو، وعلق عليها النقاد وشرحوها ، ومن إيطاليا انتقلت إلى بقية أوربا .

ومن الطبيعي أن تهبط موجة الحماس للتراث الكلاسيكي بالتدريج ، وأن تبدأ الألوان

المحلية ، والمميزات الاجتماعية في الظهور . فنرى حركة التأليف المسرحي الكلاسيكي تنتقل من إيطاليا إلى فرنسا وتبلغ ذروتها في مآسي كورني (١٦٠٦ — ١٦٨٤ م) وراسين (١٦٣٩— ١٦٩٩ م) وفولتير (١٦٩٤—١٧٧٨ م) وملاهي موليير (١٦٢٢—١٦٧٣م) بصورها الكلاسيكية التي ورثها الفرنسيون عن اليونان والرومان ، رغم أنهم استمدوا الوحي في التصوير والتحليل الخلقي والاجتماعي من العصر .

ونزع المسرح الإنجليزي نزعة استقلال عن الأنواع الكلاسيكية ، فجنح عن البساطة إلى التعقيد في الموضوع ، وعن تجانس الشخصيات وقلة الحركة ، إلى تنويع متسع فيه حركة وحيوية ، وعن الشعر المقفى كوسيلة للحوار إلى الشعر المرسل عند الإنجليز ، وعن الاقتصار في المسرحية على موضوع يصور مأساة أو ملهاة ، إلى موضوع يجمع بينهما . وقد وصل المسرح الرومانتي إلى غايته في مسرحيات شكسبير (١٦١٦ — ١٦٥٤ م) .

وانتشر المسرح بصورتيه الكلاسيكية والرومانتية بعد ذلك الى أوربا ، على أن المسرح الرومانتي كان أوسع ذيوعاً وانتشاراً عن المسرح الكلاسيكي .

وصاحب هذا التأليف المسرحي نقد اتبع في شكله العام مناهج النقد الكلاسيكي ، سواء في انجلترا أو فرنسا . وفصل النقاد بين صفات الشعر الغنائي والشعر المسرحي. واتضحت لوازم المسرح من جمهور وممثل في لوحة النقد . وشاعت آراء أرسطو بعد أن اكتشفت النسخة العربية لابن رشد ، وترجمها هرمان إلى اللاتينية في القرن الثالث عشر ، واكتشفت النسخة الأصلية في القرن الخامس عشر . واستمر تأثير آرائه حتى القرن السادس عشر ، وأحيطت بهالة من التعظيم والتقديس في ايطاليا وفرنسا وإنجلترا . حتى ظهر في القرن السابع عشر أوجييه بفرنسا (١٦٧٠ م) ودريدن بانجلترا (١٦٣١ م)، وبينا مزايا المسرح الرومانتي ونجحا في تحرير عقول النقاد من السيطرة الأدبية للآراء الكلاسيكية . وانقلب التشيع لها إلى عداء اتضح في تمثيل أول مسرحية رومانتية مثلت في فرنسا ، وهي كرومويل لهوجو . على أن التطرف في المشايعة أو العداء انقلب إلى روية في الدراسة . ففصلت مزايا كل نوع على حدة وحددت قيمته ، وفصل النقاد بين المقتضيات التي تستدعيها أحوال اجتماعية وتقاليد دينية خاصة وبين ما يقتضيه المثل الأعلى الفني .

ونبلغ نهاية صفحات تاريخ المسرح في هذا النوع الجديد المعروف بالدراما الحديثة ، فنلحظ معه تطوراً اجتماعياً أظهر طبقة جديدة هي الطبقة الوسطى ، وانتقالاً في نظام الحياة بعد الثورة الصناعية وما أحدثته من مشاكل . فبدأ الفرد يبرز ويشعر بمكانته ، واتصل المسرح بالانقلاب الاجتماعي ، وسعى إلى تصوير مشاكل الحياة العادية . وما زالت الدراما ممثلة للنوع المسرحي اليوم ، ومن أعلام كتابها إبسن النرويجي (١٨٢٨ — ١٩٠٦م) الذي ابتدعها ، وشو الإنجليزي وتشيكوف الروسي (١٨٦٠ — ١٩٠٤م).

وساير هذا النوع الجديد حركة نقد متسعة النطاق في أوربا ، كديدرو (١٧١٣ـ ١٧٨٤م) ولسنج (١٧٢٩ — ١٧٨١ م) وكولردج (١٧٧٢ — ١٨٣٤ م) وهازلت (١٧٧٨ — ١٨٣٤م) وأدخل شليجل (١٧٥٧ — ١٨٤٥ م) المنهج المقارن في ألمانيا بألمانيا ، وبسطت المشاكل المسرحية على ضوء النتائج التي وصل إليها علم النفس ، والمسرح ولوازمه ، وانبعثت روح أرسطو العلمية التحليلية — للوصول الى الحقيقة المجردة — إلى الوجود . وتتشعب سبل النقد المسرحي وتتعدد صور تآليفه وأمكنتها وبواعثها . على أنها تعتمد بشكل عام على اعتبارات خارجية تميزه عن الفنون الأدبية الأخرى ، واعتبارات داخلية تتصل بتركيب المسرحية ، وبين هذه الاعتبارات جميعاً اتصال وثيق .

* * *

فالمسرح فن يحاكي الحياة محاكاة واسعة النطاق ، ولا يقلدها تقليداً مقيداً بالزمان والمكان الواقعين . وإنما يختار الكاتب عناصر ذات مدلول من الحياة ، سواء من شخصيات أو أحداث ، ويؤلف بينها في فكره ويحركها في عالم خيالي إلى نهاية محتومة ، فيقدم لنا صورة تمثل الحياة صافية من شوائبها وتفاصيلها ، ومسيرة إلى غاية قد لا نلمسها في الحياة . على أنه يشاركه في ذلك فنون أخرى من غنائية وقصصية . ولذا لزمت زيادة هذا التعريف بأن المسرح يقدم المسرحية لجمهور مجتمع في ظروف خاصة ، وله صفات نفسية خاصة ، فالكاتب المسرحي يقدم مسرحيته عن طريق وسائط هي المسرح والممثل . والممثل طاقة ، وللمتفرج طاقة . ووراء هذه العوامل ، عوامل عملية ، اقتصادية واجتماعية وسياسية ، يحسب لها الكاتب المسرحي حساباً خاصاً.

فقيمة المسرحية متصلة بالتمثيل المسرحي ، وهي مناسبة له ، على أنه لا يجب أن تعتمد المسرحيـة في نجاحها على الممثل والأدوات المسرحية وجمال المناظر . وإنما للمسرحية قيمة ذاتية منفصلة عن التمثيل . فالتمثيل والمنظر معتمدان على المسرحية . ويحدد الجمهور جانباً آخر من الوسيلة التي يرعاها الـكاتب المسرحي ، والطريق إلى الجمهور — كما بين علم النفس — هو الإيحاء في اللفظ والعبارة ، والاتصال به عن طريق عاطفته لا عقله ، ومخاطبة خياله ، والسعي إلى اجتذاب اهتمامه بالمفاجآت والتشبع بالحياة دون كلفة . وفي مقدمة العناصر ذات الحيوية في المسرحية، صور الصراع النفسي والحسي في الشخصيات ، وأولها هو خير الأنواع وأرقاها وأسماها .

* * *

وتنقسم المسرحية بعد ذلك إلى فصول ومناظر وشخصيات وحوار . ويستلزم العرض المسرحي تقسيم المسرحية إلى فصول يشغل تمثيلها ساعتين تقريباً . تعرض فيها الحوادث عرضاً تمثيليًّا ، وتركز حوادثه في كل فصل . ويجعل أرسطو للموضوع أهمية كبرى ، على أن للشخصيـات صلة قوية بالموضوع . وكلاهما يؤثر في الآخر ويتأثر به . ولا بد من انسجام هذا الموضوع وقوة تأثيره عن طريق هـذه الوحدة . ولا بد أن تتضح بدايته ووسطه ونهايته . وأن تتضح الأسباب والمسببات، فتعرض الافتتاحية في الفصل الأول ، سواء عن طريق حوار ، كما هي الحال عند شكسبير ، أو مفاجأة كما عند أسخيلوس . على أن الموضوع يتحرك بعد الافتتاحية مباشرة ، ويسير نحو الأزمة فالانقلاب ، فالاكتشاف أو التعرف . ولا بد من تشبع الحوادث بالحيـاة ، ولا بد من تمثيلها تمثيلاً يصل إلى الجمهور عن طريق عواطفه . ويستعين الـكاتب في ذلك بالمفاجأة والشك والصراع والتهكم المسرحي ، ويجب أن تتصل بالتطور الذاتي للموضوع والشخصيات ، لا أن تتوارد عن طريق الصدفة أو الافتعال

وتعبر الشخصيات عن الموضوع وتتحرك في مجاله وتؤثر فيه . ويكسوها الـكاتب بالحياة ويقابل فيما بينها، ويوجز في تحليلها ويركز، مستعيناً بالتلميح والإشارة والإيحاء لا الإطناب . ولا بدّ من أن تكون منسجمة الأقوال والأفعال ، صادقة التصوير .

وتعبر الشخصيات عن نفسها بالحوار، ولغة الحوار لغة فنية ليست كلغة الحياة العادية ، وهي إمّا شعر أو نثر أو شعر مرسل . على أن الشعر يغلب كتعبير للمأساة ، إذ هو أنسب الوسائل للتعبير عن العواطف والأهواء ، وعن موضوع المأساة. ويغلب النثر كأسلوب للملهاة إذ هي تتناول ما هو عقلي . على أنه قد يوجد الشعر في الملهاة والنثر في المأساة تبعاً لمكانته الشخصية أو دواعي الموقف ، وفي الحالين لا بد من أن تكون اللغة نقية صافية مرتفعة عن مستوى الحديث العادي .

وليس الحوار غاية في ذاته ، إذ يخضع لدواعي المسرح وسمات الشخصية ومعنى ذلك أنه لا يوجد لصفات غنائية خالصة . والكاتب المبتدىء يسعى الى إحداث التأثير المسرحي عن طريق الشعر دون التشخيص الجيد والتطور الداخلي للشخصيات والموضوع ، ويعتمد المنظر على المسرحية ، بمعنى أنه يوضح ويجسم ما تستدعيه الحوادث المسرحية . ويتعاون الممثل والمخرج ، وما يصور من مناظر وما يجهز من أدوات مسرحية، من إضاءة واصوات ، على إكساب المسرحية ثوب الحياة وتجسيم ما سعى الكاتب إلى تصويره في عالمه الخيالي الفكري .

المسرح المصري قبل شوقي

الباب الأول

١ — ظواهر مسرحية في الأدب المصري القديم

إشارة هيرودوت وبلوتارك إليه . اكتشافات كونتز وكورت وسليم بك حسن .
مميزاته الدينية . أهميته التاريخية . أسبقيته للمسرح اليوناني

ظلت صفحة الحضارة المصرية القديمة في طي الخفاء حتى كشفت عن بعض نواحيها الحفائر الحديثة بآثارها في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي . وترجمت أوراق البردى في متاحف برلين ولندن والقاهرة فوضحت لنا نواحي هذا الأدب العامة . على أن الأدب المسرحي خاصة لم يستكمل صورته بعد ، رغم إشارة هيرودوت المؤرخ الاغريقي وبلوتارك إلى وجود طقوس دينية قام بها الكهنة في المعابد ، وأكسبوها شبه عرض تمثيلي يستمد قصصه من قصة إيزيس وبحثها عن أوزيريس . وهذا التلميح كانت تعوزه الشواهد والأدلة . كما كان يقف عند الصورة البدائية للمسرح المصري القديم دون أن يوضح تطوره . واستمرت فكرتنا عن المسرح المصري القديم على هذه الصورة حتى تتالت الاكتشافات والبحوث التي قام بها إرمان وكونتز سنة ١٩٢٢ وكورت عام ١٩٢٨ وسليم بك حسن سنة ١٩٣٧ ودريتون، وتتلخص بحوث إرمان وكونتز وكورت كما ذكرها عبد القادر حمزة باشا [1] في أن إرمان عثر على نصوص تمثيلية تدور حول قصة حوريس وسيت ، واحتكام حوريس إلى جب يشكو إليه قتل سيت لأبيه أوزيريس . وتنتهي القصة ببعث أوزيريس إلى الحياة من جديد بعد أن انتقم حوريس له من سيت . واكتشف كونتز حجراً جنائزياً في أدفو ، أقيم لذكرى الموتى ، ونقشت عليه العبارة الآتية « إنني أتبع أستاذي وسيدي أينما سار

(١) على هامش التاريخ المصري القديم ج ٢ ص ١٧ — هامش .

دون أن أنصرف عن التمثيل ، فأنا أقف أمام أستاذي وسيدي وهو يمثل لأبادله الحوار ولأساعده . فاذا كان يمثـل دور الإله مثلت دور الملك ، وإذا أمات فإنني أحيي موتاه ».

واكتشف كورت نقشاً يمثل مشاهد من مسرحية دينية فرعونية مدونة على أوراق البردي في أربعين مشهداً ، تدور حول أوزريس وأيزيس وحوريس وعدوهم ست . وعثر دريتون على حوار صريح لمسرحية مصرية لامجرد مذكرات أو ملاحظات عنها . ويدور موضوعها حول مأساة حوريس ولدغ العقرب له ، وتوسل إيزيس إلى الإله توت لينقذ ولدها من الموت .

على أن أوسع دراسات للمسرح المصري القديم قد ظهرت على يد سليم بك حسن ، الذي عرض لأنواعها وفصلها بشكل واضح . وقد عثر على رسوم تمثل رئيساً لفرقة من الراقصين ينظر إلى ورق بردي بين يديه يراجع فيه حركات الرقص . [1]

***

وتدل هذه الشواهد على وجود التمثيل ذي المشاهد المسرحية في مصر القديمة كما تدل على أنه ابتدأ داخل المعبد ثم خرج إلى الشعب ليسليه بمعالجة بعض شؤون الدنيا . وكان يقوم بتمثيل المسرحيات ممثلون متجولون في أنحاء البلاد ، وكانوا يقومون بأداء بعض الرقص والغناء في الساحات أو في صحون الدور . وتدل هذه الشواهد على وجود أكثر من ممثل في فرقة واحدة ، إذ تحتاج على الأقل إلى شخص يقوم بدور الإلـه ، وآخر بدور التابع وثالث ليقوم بدور القاتل . وبذلك يكون فن التمثيل قد وجد بمصر القديمة قبل أن يوجد في بلاد اليونان . بل لا نستبعد صدق قول هيرودوت بأن المسرح الاغريقي قد استمدّ مقوماته الأولى من المسرح الديني الفرعوني . سيما أن العبادتين المصرية القديمة والإغريقية الأولى متشابهتان إلى حدٍّ كبير . فأوزيريس الإله المصري القديم وباخوس الإلـه الاغريقي يرمزان للخصب ونضرة الحياة . هذا بالرغم من أن المسرح الإغريقي القديم قد خرج إلى الحياة العامة وانفصل عن الدين ، بينما لم يخرج المسرح المصري القديم عن مجاله الديني ، كما تدل على ذلك الآثار التي بين أيدينا . وربما كشف البحث عن آثار أخرى تلقي ضوءاً على صفحات هذا المسرح وتطوره وأنواعه وأشكاله .

---

(١) الادب المصري القديم : ج ١ الباب الاول .

٢ — ظواهر مسرحية في الأدب العربي في العصور الوسطى

طويت صفحة الحضارة المصرية القديمة ودخلت مصر تحت حكم اليونان فالرومان . ثم فتحها العرب في أوائل القرن السابع الميلادي، ونشروا فيها أدبهم كما نشروا دينهم ، ودخلت في زمرة البلاد الإسلامية وصبغت حياتها بصبغة الحضارة الإسلامية .

ويعثر الباحث في تاريخ الأدب العربي في العصور الجاهلية والإسلامية الأولى على ظواهر أدبية تشبه إلى حدٍ كبير تلك الظواهر الأدبية التي تطوّر منها المسرح المصري القديم، والمسرح الإغريقي، والمسرح الأوربي في بدايته الثانية في عصر النهضة . فقد وجدت الآلهة ووجدت الأسواق التي تناشد فيها الشعراء والخطباء الشعر والخطب في مواسم معينة من السنة . وقد اجتمع الاغريق في أعياد دينية مشابهة احتفالاً بباخوس إله الخمر . بل عثر الباحثون على ظواهر مسرحية في العصور الاسلامية الأولى ذكرها السيد توفيق البكري [١] .

فوجد عند العجم بعد الإسلام ما يشبه المسرح ، إذ احتفل الشيعة من أنصار علي بن أبي طالب في يوم عاشوراء من كل عام بذكرى مقتله — وألفوا في هذه الذكرى رواية تمثيلية تبدأ بخروج الحسين من المدينة ، وتستمر حتى يصل إلى كربلاء وتنتهي بمقتله فيها . وسمى الأعجام هذا اليوم باسم « روز قتل » أي « يوم القتل » وحضر لمشاهدة الفصل الذي يقتل فيه الحسين رجال الدولة وعلى رأسهم الشاه ، حيث شاهدوا الحسين وعائلته كالعباس وجعفر وزينب وسكينة وكلثوم وأم ليلى ، وعمر بن سعد وغيرهم . ومثلت القصة في ساحة نصبت فيها الخيام ورسمت عليها شارات الحداد ، وبعدها ينشد على القوم مقتل الحسين شيخ بنغم محزن تهيج له عواطف السامعين فيبكون ويندبون وينوحون ، ثم يطوف عليهم الشيخ بقطعة من القطن يلتقط بها دموعهم، ثم يقطرها في قارورة تحفظ للاستشفاء بها عندما يعز الشفاء ، وينتهي التمثيل بإحراق أعشاش في جوانب الساحة التي مثلت فيها القصة على أنها كربلاء ، ويظهر في النهاية قبر الحسين مغشى بالسواد » . وذكر ظاهرة تمثيلية أخرى في القصة التالية : —

قال عبد الرحمن بشر (كان في زمن المهدي رجل صوفي ، وكان عاملاً عالماً لا يترك

(١) صهاريج اللؤلؤ صفحة ٢٥٨ .

أسلوباً ولا سبيلاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتهذيب الأخلاق، وتربية النفوس إلا فعله . وكان يخرج كل يوم اثنين وخميس الى جهة بخارج بغداد، فتجتمع عليه الخلائق من رجال ونساء وصبيان، فيصعد تلاً وينادي بأعلا صوت : « ما فعل النبيون والمرسلون، أو ليسوا في أعلى عليين » فيقولون « نعم » فيقول « هاتوا أبا بكر صديق » . فيتقدم رجل فيجلس بين يديه فيقول «جزاك الله خيراً يا أبا بكر عن الرعية» فقد عدلت فقمت بما أرضى الله، وخلفت محمداً صلى الله عليه وسلم فأحسنت الخلافة، ووصلت حبل الدين بعد حل وتنازع، وفرغت منه إلى أوثق عروة، وأحسن ثقة، وفعلت وفعلت » ويذكر ما قام به من جليل الأعمال . ثم يقول « اذهبوا به إلى أعلى عليين » . وينادي « هاتوا عمر » . ويتقدم رجل آخر فيقول: «جزاك الله خيراً».وهكذا يأتي عثمان وعلي ومعاوية ويزيد وعمر بن عبد العزيز ثم العباس ويحاكم كلاً بفعله) . وتشبه هذه الظواهر المسرحيات الأخلاقية التي أقامتها الكنيسة في بداية العصور الحديثة في فرنسا وانجلترا، حين مثل القسس قصصاً مستمدة من التاريخ الديني لتهذيب النفوس ومحاربة المسرح الشعبي البذيء بوسائله .

ولم يخل الأدب المصري الشعبي في أيام المماليك من مثل هذه الظواهر التمثيلية . وكثر ذلك في روايات خيال الظل إذ نزعت إلى تمثيل قصة عن طريق الحوار . وقد كشف بول كاليه عن قصص كاملة كانت تعرض بطريقة خيال الظل، وتشتمل على محاورات تدور حول حوادث القصص[1] . وذكر أن هذا النوع كان ملهاة الطبقات العليا قبل أن يكون ملهاة الطبقات الدنيا وتتوارد أخبار هذا النوع من الأدب في تاريخ العصر الأيوبي خاصة . فتذكر هذه المراجع أن صلاح الدين الأيوبي ووزيره القاضي الفاضل قد شهدا مشهداً من خيال الظل عام (٥٦٧ هـ) ١١٧١ م . ويذكر ابن إياس أن السلطان جقمق أصدر أوامره في عام (٨٥٥ هـ) ١٤٥١م بحرق كل الشخصيات التي ظهرت في خيال الظل . كما ذكر أن السلطان محمد أبا السعادات طرب كثيراً لفكاهات خيال الظل لممثلها أبي الخير أثناء المولد النبوي عام (٩٠٤هـ) ١٤٩٨م . وقد اجتذب هذا النوع من التسلية السلطان سليم الأول بعد فتحه لمصر، إذ حضر رواية تمثل إعدام طومان باي، واصطحب معه الممثل إلى اسطنبول. وتعتمد هذه القصص على

(١) مجلة الادب والفن — عدد ٣ — ١٩٤٤ ص ٦٠

الحوار، وقد استعملت الزجل أسلوباً لها أحياناً ، والشعر أحياناً ، والسجع أحياناً . فكتب الشيخ مسعود وعلي النحلة وداوود العطار روايات زجلية . وكتب ابن دانيال روايات بالشعر والسجع. واتخذت هذه الروايات مواضيعاً من الحياة المعاصرة وفي حوادثها وشخصياتها. ففي رواية (غريب وعجيب) تعرض شخصيات مختلفة لثلاثين نوعاً من الرجال الذين عاشوا في أسواق القاهرة ، ووصف كل رجل مهنته بطريقة فكاهية تذكرنا بطريقة الشاعر جيوفري تشوسر الانجليزي في القرن الخامس عشر في (قصص كانتربري) حيث عرض شخصيات متنوعة خلال القصيدة . ولابن دانيال رواية أخرى هي (طيف الخيال) وبطلها هو الأمير وصال وتابعه طيف الخيال الأحدب القصير . ويحلل الكاتب هاتين الشخصيتين تحليلاً طريفاً ، فيظهر مواطن الضعف في الشخصية الأولى ومواطن الشذوذ في الشخصية الثانية . ويعرض لنواحي اجتماعية عامة . وموضوعها اجتذاب الخاطبة للأمير بعروس موهومة ذات جمال ومال فيجدها شوهاء حين يتزوجها .

وهذه الروايات بسيطة في موضوعها وأشخاصها وحوارها لتلائم ذوق العامة ومستوى إدراكها .

على أننا لا نستطيع أن نقطع بوجود أدب مسرحي في الأدب العربي . ونكاد نشعر بوجود حائل حال دون تطور هـذا الفن في العصور الجاهلية والإسلاميـة سواء في الآداب الشعبية أو الآداب العربية الراقية . وإذا رجعنا الى العصور الجاهلية وجدنا عبـادة أوثان وآلهة كما عند الاغريق . وإذا انتقلنا الى العصر العباسي لمسنا اتصال الأدب العربي بالآداب الكلاسيكية . واتصل الأدب العربي بالآداب الاوربيـة حين انتقل المسلمون إلى الأندلس فلم يوجد في الأدب العربي فن تمثيلي مستقل عن الشعر الغنائي ، واضح المعالم ، بين السمات . سنجد بعض أسباب ذلك في العوامل الاجتماعية الخاصة بالعصر، ومنها ما ذكره الاستاذ زكي طليمات من أن الوثنية الجاهلية الاولى بدائية مبنىً ومعنىً ، فهي هزيلة التركيب ، ضحلة الغور لم تبلغ التناسق والتكامل الاغريقي ، ولم تحي وتكتسب أبعاد انسانية ومدلولاً فنيًّا يوحي بالجمال [1] وعلى ذلك لم يكن من الممكن أن يوجـد مسرحي ديني ، ثم مسرح دنيوي يعني

(١) التمثيل ولماذا لم يعالجه العرب مجلة الكتاب نوفمبر ١٩٤٥ ص ١٠١

بشؤون الآلهة والناس . هذا إذا أضفنا إلى ذلك قسوة الحياة الجاهلية التي شغلت الإنسان عن الترف الفكري وبحث القيم المثالية العليا .

ووجد دين جديد بسيط التركيب لا إبهام فيه ولا تعقيب . وقد عمل أنصاره على محو الآثار الجاهلية مادية ومعنوية محواً تامًّا سيما الأوثان . وبذلك وضع حد لما كان يمكن أن تتطور إليه الوثنية الجاهلية . ولم يخف الدين الجديد كرهه لفنون النحت والزخرفة وما يقوم على تقليد مظاهر الطبيعة ونسخ نواحيها المختلفة، هذا إلى انصراف المجتمع الإسلامي إلى نشر مبادئه ومناهضة أعداء دينه . وصار القرآن محور الأدب في العصر الأول وطبع بطابعه التفكير الإسلامي، وشغلت الديانة الجديدة الواحدية المبسطة المتقشفة بمناهضة الوثنية ذات الآلهة المتعددة، وما اتصل بها من طقوس، ووضعت مكانها شعائرها البسيطة، ومعنوياتها القوية .

واستمرّ هذا الاتجاه في العصر الأموي حتى العصر العباسي . وابتدأ الاتصال بالآداب الإغريقية من القرن الثاني حتى القرن السادس للهجرة ، وفيه ترجمت العلوم والمعارف المختلفة ، ولكننا لا نجد فيها مسرحية واحدة مترجمة . وتلك ظاهرة تدعو إلى التساؤل عن التغاضي عن الاطلاع على النوع المسرحي في الأدب الإغريقي . ويعلل الأستاذ أحمد بك أمين هذه الظاهرة بقوله : « لقد كان تأثير الآداب الكلاسيكية في الأدب العربي ضعيفاً إذا قيس بتأثير الفلسفة والعلوم اليونانية . وإن بعض أسباب هذه الظواهر هو أن الفلسفة والعلوم عالمية . والأدب قومي . والفلسفة نتاج العقل ، والعقل قدر مشترك بين الأفراد والأمم وإن اختلفوا في أنصبائهم منه ، والمنطق الذي يضبط هذه العلوم يستسيغه عقل الناس جميعاً . أما الأدب فلغة العواطف . وليس للعواطف منطق يضبطها . والأدب ظل الحياة الاجتماعية . ولكل أمة حياة اجتماعية خاصة تمتاز بها عن حياة الأمم الأخرى في أشكالها ومراميها . من أجل ذلك تذوّق العرب منطق أرسطو، وطب جالينوس، وإلياذة هوميروس. وسبب ثالث يصح أن يكون ، هو أن الأدب اليوناني أدب وثني فيه آلهة متعددة ، وفيه عبادة أبطال ، والذوق العربي حين ترجمت هذه الكتب ، ذوق مسلم لم يستسغ هذا النوع من الأدب الوثني »[1] .

(١) ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٥٩

ومن الواضح أن أقوى هـذه الأسباب هو السبب الديني وإحساس العربى بأنه ليس بحاجة إلى الاستزادة من أدب غريب لايستطيع تذوّق آثاره . بحيث أنه لم يتأثر في جوهره حين انتقل إلى الأندلس . فقد نظرت قرطبة وأشبيلية دائماً إلى بغداد والشرق حيث الوطن الاول . ورغم تأثر العرب بالفنون الغربيـة في البناء والزخرفة والنحت والتمثيل والرسم والموسيقى وأثروا فيها ، إلا أنهم لم ينهجوا نهجاً أدبيًّا جديداً في تعبير مبعثه عقيدة مخالفة لعقيدتهم. فما زال الاسلام ملأ قلوبهم وعقولهم وموجهاً لآدابهم.

وقد سيطرت هذه النزعة الاسلاميـة العـامة ، والاتجاهات الادبيـة ، على الآداب الاسلامية في أنحاء الامبراطورية العربية، وتعدى تأثيرها إلى الآداب الشعبية.

٤ — المسرح المصري الحديث

لم يظهر المسرح المصري الحديث بمعناه الحقيقي بمصر إلا حين اتصلت بأوروبا إتصالاً وثيقاً تعدى الناحية السياسية إلى الناحيـة الاجتماعية والثقافية . وقد تهيأ ذلك عند مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ ، كما ذكر الأستاذ حسين شفيق[١]. فقد أحضر نابليون معه بين رجال البعثة الفرنسية اثنين من كبار الموسيقيين الفرنسيين ، ويسمى أحدهما فيلوتو والآخر ريجل . وقد عني نابليون بونابرت بشئون التمثيل كما يستدل على ذلك من رسالة كتبها إلى الحكومة الفرنسية يطلب فيها إرسال فرقة من الممثلين للتمثيل بمنزل كريم بك ببولاق ، وقد عثر الأستاذ حسين شفيق على رسالة كتبها فيلوتو إلى الجنرال مينو بالاسكندرية قال فيها : « كلفت بأمر القائد العام أن أسألك أن تبذل الجهد في مساعدتنا على إتمام مسرح التمثيل الذي تقرر إنشاؤه هنـا ، فأرجو أن ترسل إلينا ما عندك من الآثار والأدوات الفرنسية » . [٢]

ويذكر التاريخ اسم الروايتين اللتين مثلتا به وهما « الطمأنينة » و« زيليس وفلكور » أو « بونابرت في مصر » وانطوت صفحة هـذه الفترة برحيل نابليون عن مصر وخروج الحملة منها سنة ١٨٠١ إذ لم يؤثر هـذا المسرح في الحياة المصرية المعاصرة . ومن المرجح أنه وجد لأجل تسلية الجنود والضباط الفرنسيين بمصر ، ولم يقصد به إدخاله في الحياة القوميـة المصرية .

ولم تصب الفنون شيئاً كثيراً من رعاية محمد علي باشا ، اذ احتكر مجهوده تكوين جيش قوي منظم ، ودارت إصلاحاته في معظمها حول لوازم الجيش من صناعة وزراعة وتعليم . وانصرف بعد ذلك إلى تدعيم ملكه ، وتوسيع سلطانه ، فكان الفن — ومنه المسرح والتمثيل — شبه كالي في ذلك العصر .

وتبدأ صفحة تاريخ المسرح الرئيسية في مصر في عهد الخديوي اسماعيل أي بعد منتصف

---

(١) التمثيل في مصر : مخطوط : فصل التمثيل في عهد الحملة الفرنسية .

(٢) » » » » » »

القرن التاسع عشر . إذ جنح اسماعيل باشا إلى نقل مظاهر الحياة الأوروبية إلى مصر ونواحي حضارتها المختلفة .

وحظي التمثيل والغناء بعناية خاصة من جانبه . فافتتح مسرح (الكوميدي) عام ١٨٦٩، حين احتفل بافتتاح قناة السويس في هذا العام أيضاً . ثم أنشأ مسرح الأوبرا عام ١٨٧١ ومثل في هذه المسارح جماعة من الممثلين والممثلات أحضرهم من أوروبا . ويحفظ لنا التاريخ اسم أول مسرحية مثلت بدار الأوبرا ، أمام ضيوف مصر الأجانب وهي مسرحية (ريجوليتو) . وعهد إسماعيل باشا إلى فردي — الموسيقار الإيطالي — بوضع موسيقى لأوبرا مصرية ، كلف العلامة الفرنسي ماريت باشا بتأليفها ، وهي المسرحية المشهورة (عائدة) وقد ألفت باللغة الإيطالية . وطبع على غلافها ما يأتي (عائدة — أوبرا في أربعة فصول وسبعة مناظر من تأليف ا . غيسلانسوني وتلحين الكومنداتوري ج فردي . كتبت بأمر سمو الخديوي بمسرح الأوبرا ، وستمثل بالقاهرة لأول مرة في ديسمبر ١٨٥١ ، وعدد صفحاتها ٩٥ صفحة صغيرة ، ومنها نسخة بدار الكتب المصرية . وترجمت المسرحية بعد ذلك إلى اللغة الفرنسية . ثم ترجمت الى اللغة العربية سنة ١٨٦٨ م و (١٢٨٨ هـ) بواسطة أستاذ التاريخ بدار العلوم وصاحب جريدة وادي النيل ويدعى أبو السعود أفندي .

ولا نعلم عن الشخصية التي كتب إسمها على هذه النسخة كثيراً ، فهي شخص آخر غير مريت باشا . على أنه توجد وثائق تاريخية تثبت اشتراك مريت باشا في التأليف ، فهو الذي استخرجها من أوراق البردي . وقد كتب الى أخيه في ٨ يونيو سنة ١٨٦٩ يقول : « هل تصدق أني وضعت أوبرا عظيمة يؤدي فردي موسيقاها ، ثم تمثل في مسرح القاهرة في فبراير القادم ؟ إن الخديوي ينفق مليوناً — لا تدهش ولا تسخط — فإن ما أقوله صحيح حقاً » . وورد في كتاب له يضم طائفة من رسائله وذكرياته الخاصة واسمه (خطابات وهدايا) ما يثبت اشتراكه في وضعها وتوفيقه في إخراجها .

وقد استدعى مريت باشا أخاه ليساعده على إعداد الرواية التي اعتزم عرضها في شتاء سنة ١٨٧٠ على مسرح الأوبرا المصرية . ولم يتم تمثيل المسرحية كما كان مقرراً لها إذ لم يتم إعدادها ، ومثلت بدلاً منها في نوفمبر سنة ١٨٦٩ مسرحية « ريجوليتو » التي وضعها فردي .

وهبّ حريق في دار الأوبرا في الليلة التالية وأتلف بعض أثاثها وأرجائها.

ومسرحية عائدة مأساة تدور حول عائدة ابنة ملك الحبشة الأسيرة في مصر ورداميس قائد جيش فرعون ، وهي مأساة تنشأ من حيرة عائدة بين هواها ووطنها ، وحيرة راداميس بين هواه ووطنه وهي مليئة بالمواقف الانسانية وبصور من الصراع النفسي ، وتدبر العقدة وتحل ببراعة فائقة .

وشيد إسماعيل بعد ذلك مسرح الأزبكية، وشجع الفرق التمثيلية ، وصرف لها اعانات. فانتشرت المسارح الأهلية منذ ذلك الوقت . وانقضى عهد إسماعيل وتطور المسرح من بعده، وأتت إلى مصر فرق من الممثلين والممثلات من سوريا يمثلون روايات مترجمة ، مثل فرقة أبو خليل القباني ومارون وسليم النقاش .

وقد انحدر إلينا التمثيل والتأليف المسرحي العربي ، كما يذكر الأستاذ زكي طليمات ، من سوريا بحكم اتصالها بأوربا عن طريق التجارة وتعدد الهجرات بين أهلها و بين دول الغرب. ويرجح الأستاذ حسين شفيق ، أن أولى محاولات التمثيل المسرحي العربي هي مسرحية (البخيل) التي كتبها وأخرجها وأشرف على تمثيلها مارون النقاش سنة ١٨٤٨ ، وتبع هذه المسرحية بمسرحيتين هما (أبو حسن المغفل) و (الحسود) . وللأولى أصل معروف وهو مسرحية موليير (سيد من الطبقة الوسطى) ، ولم يعرف النقاد بالضبط مرجع المسرحيتين الباقيتين رغم ما يدل عليه التركيب من صبغة غريبة .

ونظرة عامة إلى مسرحيات مارون النقاش تدل على أنه لم يترجم هذه المسرحيات ترجمة دقيقة ، وإنما عرّبها بما يتفق واللغة والذوق المحلي — وجارى هذا الذوق في وضع مقطوعات غنائية خلالها تغنى مصحوبة بعزف الموسيقى.

وأغلب الظن أن التمثيل قد انتقل بعد ذلك إلى مصر على يد سليم النقاش من أخيه الذي ورد الى مصر في عصر إسماعيل بعد إنشاء الأوبرا . ومثــل أمام الجمهور المصري مسرحيات مشابهة للمسرحيات السابقة ، وهي في معظمها مسرحيات مأخوذة عن المسرح الفرنسي ومترجمة بأسلوب لم يخل من بعض الركاكة مثل (أندروماك) و (الظلوم) .

وقد عاصر هذه الفرقة كاتب مصري من أصل اسرائيلي هو يعقوب بن روفائيل أو صانو

أبو نضارة . وقد أنشأ سنة ١٨٧٠ ، بمعاونة الخديوي إسماعيل، أول مسرح عربي بالقاهرة. ولقبه إسماعيل بلقب موليير مصر ، وشجعه على العمل، فألف اثنتين وثلاثين رواية هزلية غرامية منها ما هو في فصل واحد، ومنهـا ما هو في خمسة فصول . ومسرحياته معربة عن مسرحيات موليير وبعض المسرحيات الاوربية ، مع صبغها بصبغة مصرية ناجحة حوّرت لتتفق والذوق المصري ، حتى استعملت اللغة العامية في المسرحيات المنقولة . على أنه نجح إلى حدٍّ كبير في جعلها تتصل بالمجتمع المعاصر ونقد عيوبه . وبذلك يكون أول واضع للمسرح الفكاهي الانتقادي رغم لغته العامية .

* * *

ويبرز من بين كتّاب المسرح أحمد أبو خليل القباني الذي وضع مسرحيات مقتبسة من التاريخ العربي ، وأدخل فيها الكثير من الأناشيد ومناظر الرقص في دمشق . واضطهد من اجل ذلك اضطهاداً شديداً ، فانتقل إلى مصر بمسرحه الذي يشبه المسرح السابق من ناحية الصنعة والأسلوب ، ويختلف عنه من ناحيـة اقتباس مواضيعه من التاريخ العربي والأدب الشعبي . وأتت مسرحياته أضعف في حبكتها وسياقها من المسرحيات الاولى ، إلاّ أنه كان أرق لغة من المسرحيـات السابقة ، فاستعمل السجع والنثر والشعر دون شرط ولا قيد : ويعتبره بعض النقاد أول كتاب المسرح الغنائي العربي .

وهكذا أتت المرحلة الأولى للمسرح المصري من سوريا ورسمت الصورة العامّـة والمثل الأعلى للاتجاه المسرحي الغنائي ، متوخيـة سهولة الموضوع وتأليف الأغاني وسهولة الحوار والانتفاع بالموسيقى .

فبعد أن ابتدأت النهضة المسرحية، وتعددت المسارح الأهلية، مثل دار التمثيل العربي التي أسسها ومثل بها وغنى فيها سلامة حجازي ، وجدت مدرسة من المترجمين والمؤلفين في مصر . ففريق نهج منهج الترجمة مستعملاً اللغـة العامية وسيلة للتأليف ، وفريق استعمل الزجل ومصّـر فصول المسرحية ومناظرها ووضع فيها أناشيد تغنى ، وفريق ثالث نهج منهج المسرحيات المستمدة من التـاريخ العربي والأدب الشعبي مستعملة اللغة العربيـة الفصيحة والسجع والنثر وسيلة أدبية لها غنى بالمجتمع يستمد منه مواضيع مسرحياته . ويمثل الفريق

الأول محمد عثمان جلال ، والفريق الثاني حامد الصدر وإبراهيم الطرابلسي ، ويمثل الفريق الثالث فرح أنطون وابراهيم رمزي ومحمد تيمور .

ويمكن تقسيم التأليف المسرحي بشكل عام إلى مسرحيات غنائية ومسرحيات اجتماعية .

أما المسرحية الغنائية فقد عملت على تطورها وشيوعها عوامل اجتماعية . فقد شاع في المجتمع المصري في أواخر القرن الماضي وبعد بداية القرن الحاضر الغناء والموسيقى واشتهر أمر المغنين والموسيقيين ، مثل عبده الحامولي والشيخ سلامه حجازي وغيرهما . وأقبل الجمهور على سماع حفلات المغنين اقبالاً قوياً . وساير المغنون والموسيقيون هذه العاطفة رغم اعتماد الموسيقى في الأعم الأغلب على صوت المغني ، ولم تستقل بنفسها وتتبع قواعد فنها . وشجع هذه النزعة الغنائية ما صحب القصص الشعبي كقصص عنترة وأبي زيد الهلالي من توقيع على القيثارة . وغذت هذه القصص بما يصاحبها من غناء ساذج بسيط وموسيقى فطرية ، عاطفة الشجن الشرقي والشعبي القريبة من النفوس . وكان من المناظر المألوفة أن يجتمع نفر من الناس إلى قصَّاص يقص قصص الشجعان والأبطال ، وينوّع في صوته وينشد ويغني ويحاكي الشخصيات وألوان الحوادث التي يروي عنها . وانعكست هذه الاتجاهات في ميول الجمهور في المسرح المعاصر وأبرزها الغناء والموسيقى . سيما وأن المسرح في بدايته قد ساير ذوق الجمهور وخضع لذوقه . وخير من يمثل هذا الاتجاه سلامه حجازي ، الذي انتقل من الغناء الى المسرح ، وصحب معه شخصيته كمغنٍّ ، وافتتح دار التمثيل العربي ليغني بها ويمثل . على أنه غنى كثيراً ومثل قليلاً . ونظرة إلى مسرحه تدلنا على عناية بمظاهر المسرح من مناظر جميلة وملابس للممثلين رائعة ، كما تدل على اعتماده الكبير على الغناء والتلحين لا على فن التمثيل . ويرى الأستاذ سليمان بك نجيب أنه أول من وضع أساس المسرح المصري الشعبي . إذ لم يكن المسرح قبله على جانب كبير من الأهمية . كما كانت القيادة فيه لأبناء سوريا وبناتها ، وقد حفظ لنا التاريخ أسماء فرق أخرى تشبه فرقة سلامه حجازي من حيث الصنعة والاتجاه ، كفرقة عزيز عيد واسكندر فرح .

وكتب لهذه الفرق جمهور من المؤلفين والمترجمين وعنوا في تأليفهم وترجمتهم بميول الجمهور وطبيعة الممثلين والمسرح . فاتخذ البعض الزجل أسلوباً للترجمة حتى يفهمها العامّة ،

واتخذ البعض السجع والشعر أسلوباً للترجمة والتمصير ، ملاحظاً بذلك ميل الجمهور ومعظمه ممن نشأ على الثقافة الأزهرية . ويمثل الفريق الأول محمد عثمان جلال الذي عني بأن تتخلل مسرحياته (أدواراً تغنى) ، وقال في مقدمة مسرحيته « وجعلت نظمها يفهمه العموم ، فان اللغة الدارجة أنسب لهذا المقام ، وأوقع في النفس عند الخواص والعوام » وهذه بداية مترجمة هي (أفغانية) تمثل صنعته .

أغا ممنون أنا الملك اللي بصحيك يا صبي قوم شوف يا أركاس اللي حلّ بي
أركاس يه . د الملك جالي يصحيني صحيح وله بتصحى قبل ديكنا ما يصيح
النور شقشق والناس ما صحت وكل أبواب الخيم ما اتفتحت
ياريت على دا يكون الريح طلع ويكون ربى للدعا مني سمع
أغا ممنون سعيد في الدنيا اللي يرضى بالقليل ولا يكون زي الملك حمله تقيل
يعيش متهني براحة السر دوم والرزق من ربه يجيله يوم بيوم

ويلاحظ في الترجمة أن المترجم لم يتقيد بالأصل الذي ترجم عنه وانما مصَّر الشعر تمصيراً قويًّا ، كاد أن يفقدها صبغتها الأصلية ، كما أنه اتخذ الوحدة في شطرتى البيت ، كما في الأصل الفرنسي . وترجم على هذه الطريقة « النقلاء » لموليير ، و« طرطوف » تحت اسم « الشيخ متلوف » له أيضاً و « هرنان » تحت اسم « حمدان » .

وبينما اتخذ محمد عثمان جلال الزجل وسيلة أدبية موسيقية تعبر عن الحوادث والشخصيات واتخذ نفر آخر من المترجمين والمؤلفين السجع والشعر أسلوباً موسيقيًّا آخر للتأليف والترجمة ومن ذلك مسرحية « عائدة » ترجمة خليل النقاش وهذه بدايتها تمثل صنعته .

رادامس : ليت في هذي الحروب ألتقي ما اشتهي ثم أحظى بحبيبي وعذابي ينتهي
الكهنة في داخل المعبد ينشدون

أيها الفتاح هبنا نعمتك ورحيم أنت أظهر عظمتك
أيها الفتاح يا نعم النصير أنت في حال براياك بصير
أهدنا سبل الهدى نعم المصير وأضل الخصم وابذل رحمتك

رادامس لنفسه : آه لو أوحت الآلهة بانتخابي لاكتمل سعدي ، وعساها مع ذلك نعم

قصدي ، ها هو ذا رمفيس رئيس الكهنة خارج من لدن الآلهة بكل استعجال فلنسأله عما يكونون أوحوا إليه بانتخابي قائداً للجيش في النزال ، فتكون قد صدقت أحلامي ، فأبلغ قصدي ومرامي » .

فما زالت الميزة الغنائية الموسيقية مسايرة للصنعة المسرحية ، وتجاري بذلك ميول الجمهور ، وطبيعة الممثل والمسرح المعاصر . ويمكننا أن نضع في هذه المجموعة تراجم (الأمير المنفي) و (تاجر البندقية) و (الليلة الثانية عشر) و (البر وهملت) ترجمة اسكندر فلدس ، وكامل حنين عن شكسبير ، و (العاطفة والانتقام) لميشو دومنياك وترجمة أنطون زكري ، و (فتح الأندلس) لمصطفى كامل وهو طالب بالحقوق (سنة ١٨٩٢ م ١٣١١ هـ) و (الهنا بعد العنا) لعبد الله فكري (١٩٠٢ م — ١٣٢١ هـ) وتدور حول اسلام عبد الله مينو ، و (الظلوم) لسليم خليل النقاش (١٩٠٢ — ١٣٢١ هـ) وقد طرد بسببها من مصر ، إذ ظنّ الخديوي إسماعيل أنها تعرّض به . (وحسن الوفا والظهور بعد الخفا) لحامد الصدر ، وابن زيدون وولادة لابراهيم الطرابلسي سنة ١٨٩٨ م — و (حسام الدين الأندلسي) لسعيد الطرابلسي سنة ١٨٩٥ وغيرها . وليست تواريخ المسرحيات هي تواريخ تمثيلها وانما هو تاريخ طبعها عقب تأليفها بقليل أو كثير .

ويمكننا اعتبار هذه الفترة من التاريخ المسرحي المصري فترة المسرح الغنائي الذي تمر به كل أمة في بداية تاريخها المسرحي ، بحيث يغلب فيها جانب الموسيقى واللغة والألفاظ على جانب الإجادة المسرحية . ولكنها مرحلة مهدت لظهور مسرح على جانب من الرقي الأدبي . وحدث ذلك في مصر حين أقبل المثقفون على التمثيل مثل عبد الرحمن رشدي ، وعزيز عيد . على أن مؤرخي المسرح يعتبرون جورج أبيض بداية المسرح الجديد ، فقد أتى من فرنسا حاملاً معه طرقاً جديدة في الإلقاء والإخراج والتمثيل ، متأثراً في ذلك بدراسته في فرنسا ، في مسارح الكوميدي فرانسيز وغيره . وكوّن حوله فرقة من الشباب المثقف ومنهم أفراد كانوا من قبل في فرقة سلامه حجازي ، مثل عبد الرحمن رشدي وزكي طليمات بك وفؤاد سليم . وارتقى التمثيل في مسرحه ارتقاء كبيراً إذ مثل خير المسرحيات المترجمة والمصرية . ويمكن اعتبار مسرحه بداية المسرح الاجتماعي الذي جنح عن التمثيل الغنائي إلى

تمثيل مسرحيات نثرية اجتماعية . فترجمت له مسرحيات موليير ومسرحيات شكسبير ، وألفت له مسرحيات شرقية . فكتب له فرح أنطون (مصر الجديدة ومصر القديمة)، وإبراهيم رمزي مسرحيات (الحاكم بأمر الله) و (البدوية) و (قلب المرأة) .

وهكذا مهدت الحركة المسرحية الغنائية لظهور مسرحيات على جانب من الرقي الأدبي تمثل نواحي المجتمع المعاصر ، وتستمد منه أحداثها وشخصياتها، وتعنى بإبراز المغزى الراقي والتحليل النفسي والقيمة الأدبية والانسانية، ومن هذه المسرحيات مجموعة كتبها محمد تيمور مثل (العشرة الطيبة)(وعبد الستار أو الهاوية). ومنها مسرحيات أخرى لإبراهيم رمزي مثل (بنت الإخشيد) و (دخول الحمام) و (صرخة الطفل) ومسرحيات عباس علام مثل (الشريط الأحمر) و (شقاء العائلات) و (آلاموّد) ، ومسرحيات حسين رمزي مثل (الضحايا) و (طريد الأسرة) . وتمتاز هذه المسرحيات من الناحية المسرحية بعمق الدراسة وجودة حركة الحوادث المسرحية وبساطة الموضوع وخلوه من الحشو ، وقوة الصبغة المحلية فيه ، وترتيب الفصول والمناظر . ولو أن العمل في تحليل الشخصيات وسبر شعورها وعواطفها ما زال في بدايته ، وإنما يأتي ذلك نتيجة للخبرة المكتسبة بالمران الطويل في هذا الفن الشاق .

وهذه مسرحية (مصر الجديدة) لفرح أنطون . ويظن أنها أول مسرحية شرقية عصرية في تأليفها وحوادثها وتمثيلها . وتعد ديباجة لتاريخ نهضة التمثيل الشرقي الجديدة . وقد مثلتها في الأوبرا لأول مرة فرقة جورج أبيض في ٥ من أبريل سنة ١٩١٤، ولاقت اقبالاً شديداً من الجمهور .

وقد كان في سبيل المسرح عقبات استطاع الكتاب تذليلها إلى حد كبير . وأولى هذه العقبات هي اللغة . فهي الوسيلة الأدبية التي تتحدث بها الشخصيات . وقد عبر كاتب المسرحية السابقة عن هذه المشكلة بقوله « واذا كانت الرواية تأليفاً وإنشاء ، وموضوعها شؤون من لغتهم المحكية باللغة العربية العامية ـ ولا أقول شجونهم ـ إذ ليس لكتاب البلاد القريبة منا أحد أحق في الكلام في هذه الشئون...وإذا جعلنا لغة هذه الروايات اللغة العربية الفصحى خرجنا عن الطبيعة التي ما أنشئت الرواية التمثيلية إلاّ لتقليدها ، وخالفنا الواقع في شكله وصورته . وفي هذا هدم لأصل من أصول التمثيل الاساسية ، وكيف يستطاع

مثلاً جعل (خريستو) في مصر الجديدة ينطق باللغة الفصحى وهو أعجمي ، وما يكون رأي مشاهدي هذه الرواية إذا سمعوا فيها نساء قهوة الرقص وباعة الصحف والخادمين والخادمات والبرابرة والسكارى المترنحين، بل والسيدات في خدورهن، ينطقون باللغة الفصحى .

ثم نرى من وجه آخر أننا إذا جعلنا تأليف الروايات التمثيلية الاجتماعية باللغة العامية حرصاً على تقليد الطبيعة كل التقليد، كما هي وظيفة دور التمثيل والمراسح، وقعنا فيما هو أشد وأنكى : وقعنا في إحياء العامية وإضعاف الفصحى ، وهذا أمر يأباه كل من ذاق لذة هذه اللغة الجميلة التي جرى حبها هذا مجرى الدم في المفاصل ، وما كنت لأرضى بأن يكون الشروع في أمر كهذا الأمر على يدي » .

وانتهى الكاتب إلى اختيار أمر وسط ، فاصطلح كما ذكر على جعل أشخاص المسرحية يتكلمون تبعاً لتربيتهم ومعارفهم وأحوالهم ، فتتحدث أشخاص الطبقة العليا بالفصحى وأشخاص الطبقة الدنيا بالعامية، ولكل عذوبة وحلاوة ، وللغة الفصحى جمال وجلال يصلح المواقف العالية والحوادث الفاجعة . على أن ذلك أدى إلى مشكلة أخرى، فلا يعقل أن يرد السيد على خادمه ، أو الخادم على سيده بالعامية والفصحى معاً ، فجنح الكاتب في هذه المواقف إلى ما سماه « الفصحى المخففة والعامية المشرفة » .

وأما العقبة الثانية فهي الجمهور الذي اعتاد رؤية المسرحيات المفعمة بالغرائب والعجائب والمبالغات والعناصر الشرقية والمحسنات والغناء والموسيقى ، مما شغل الكاتب عن الدرس السيكولوجي الدقيق ، في حادثة واحدة متماسكة من جميع جوانبها ، وتخرج جوانبها من بعضها خروج الأزهار من أكمامها مما جعله يوسع لوحة مسرحياته طولاً لا عمقاً ، وجعل عام مواضيعه متشعبة متنوعة مع وجود عنصر وحدة فيها ، فقد جعل فكرتها الأساسية وجوب الإقدام والعمل والنشاط والجد حتى في أحايين اللهو ، كما ذكر في مقدمتها بوضوح .

وتلك أول مسرحية فعالة سمت إلى حل مشكلة اجتماعية يصح أن نسميها بالدرامة الحديثة . وتبعها في هذا الباب مسرحيات نهجت منهجها من حيث الاتصال بمشاكل المجتمع وإحكام العقدة والأزمة ، والتطور والحل، وشخوصها حية ذات أبعاد ، بين أمزجتها وبيئاتها مقابلة فيها كثير من الصدق ، على أنها لم تبلغ من التعقيد الفني وعمق المدلول وخلوده نصيباً عظيماً .

الباب الثاني

المسرح عند شوقي

الفصل الاول

١ — شوقي (١)

عاصر شوقي فجر هذه النهضة المسرحيـة وتطوراتها المختلفة منذ عهد إسماعيل حتى عهد الملك فؤاد . وتأثر فنه بأحداث العصر السياسية الخارجيـة . ويذكر الدكتور محمد حسين هيكل باشا انه ولد بباب اسماعيل وشب في حماه . ودرس في مصر إلى نهاية المرحلة الابتدائية فالثانوية ، ثم درس عامين بمدرسة الحقوق ، فعامين بمدرسة الترجمة ، ثم أرسل على نفقة الخديوي توفيق إلى فرنسا ليتم علومه فيها عام ١٨٧٧ ، ثم قضى عامين في مونبلييه ، زار انجلترا في أثنائهما حيث مكث فيهـا شهراً . ومرض فاستشفي بالجزائر مدة أربعين يوماً ، ثم رجع إلى باريس ودرس فيها عامين آخرين وعاد الى مصر سنة ١٨٨١ ، ومكث فيها حتى نفي إلى برشلونه بإسبانيا سنة ١٩١٥ ، وأمضى فيها نحواً من خمسة أعوام ثم رجع إلى مصر . وساح في الشرق وأوربا وتركيا وتوفى بمصر عام ١٩٣٢ .

وتأثرت شخصيته بالعوامل السياسية الخارجية ، وفي مقدمتها تركيا أو كما سميت في القرن التاسع عشر بالرجل المريض . فقد صارت هذه الدولة مطمعاً لدول أوربا . وقد حاول محمد علي باشا أن يستولي عليها ، فوقفت الدول الغربيـة أمامه وحطمت الأسطول المصري . وسلخت عن تركيا معظم ممتلـكاتها فاستقلت عنها اليونان وبلغاريا . وكانت تركيا على وشك أن تترك أوربا كلية لولا قيام الحرب بين تركيا وروسيا عام ١٨٥٦ ، فاستطاعت أن تحتفظ بذلك الجزء الصغير حول القسطنطينية ومضيقي البسفور والدردنيل . وأحدثت هذه الأحداث أثرها في الشرق

(١) مقدمة الشوقيات ج ١ ص ٣٣٠

الإسلامي عامة ومصر خاصة ، ونظروا إليها نظرة القبلة الدنيوية، فكان السلطان رمزاً للخلافة الإسلامية وشخصت الأنظار إليه في عطف ظاهر واتخذ صراعه مع الدول الغربية شكل حرب صليبية جديدة أو حرب بين الشرق وبين الغرب . وقد عبر شوقي عن هذه الحوادث تعبيراً قويًّـا مخلصاً بحكم الدم والدين واللغة .

أما من حيث العوامل السياسية الداخليـة التي أثرت في عقليـة شوقي وفي فنه فهي الحركة القوميـة المصرية التي ابتدأت بظهور العلماء في عهـد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ حتى خروجهـا ، ثم في عهد محمد علي باشا ، واتساع أفق هذه النهضة في عهد الخديوي إسماعيل ، واتصال مصر بأوروبا اتصالاً قويًّـا مباشراً ، وازدياد هذه القومية بالتدريج أثناء الاحتلال الانجليزي لمصر منذ سنة ١٨٨٢ ، وأذكاها العهود التي نكثتها انجلترا بعد دخولها مصر ، وعزل الخديوي عباس حلمي عند قيام الحرب العظمى الأولى ، ونفي زعماء مصر ومفكريها خلال الحرب حتى حصلت مصر على اعتراف مبدئي باستقلالها فيما يعرف بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ . وكان من الطبيعي أن تلاقي هذه الحركات صدًى في نفوس شعرائها وكتّـابها ومفكريها .

وإذن فقد تأثرت نفسية شوقي بالبلاط الذي نشأ فيه، وتربى تربية مترفة، وأخلص للعرش الذي شمله برعايته فأخلص له، كما تأثرت بحبه للأتراك . وقوّى من ذلك صلة الدم التركي الذي جرى في عروقه . كما تأثر بالقومية المصرية التي شاهد نموها ، فظهرت هذه النزعات جلية واضحة في ديوانه ومسرحياته . فقد عبر عن رأيه في الخلافة كمهبط الحكمة والإلهام، وموئل الإسلام ، وتحدّث عنهم أكثر مما تحدث عن العرب بحكم قوة الدم وصلته بالخديوي، وتحدّث بعـد ذلك عن مصر وآثارها ، وافتخر بمجدها ، وأسف على فترات ضعفها ، على أننا نلمس بوضوح أنه التهب حماسـة من أجل الترك أكثر مما التهب من أجل مصر ، وعنى بالجامعة الدينية الإسلامية أكثر مما عنى بالوطنية المصرية .

وتأثر شوقي بالنهضة الأدبية التي بدأت بمصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، حين التقت مخلفات الثقافة الفرعونية والاغريقية واللاتينية والعربيـة والتركية ، وابتدأ صهرها البطيء في كيان الشخصية المصرية ، الرحيبة الجوانب ، المتعددة النواحي : وساعد على

ذلك الأزهر بما فيه من مخلفات التراث العربي ، والصحافة ولغتها المبسطة التي هبطت إلى مستوى العامة غير المتحذلقة ، ممن ساعدت الحركة القومية على إعلاء مداركهم وتفتق أذهانهم للملاحظة وصقل عقولهم بالألفاظ السهلة المؤثرة . وصاحب هذه الحركة نهضة للآداب المصرية والعربية من كتّاب وشعراء ، وإحياء للقصص الشعبي وأساطيره ، ووجدت الموسيقى الشرقية ، وابتدأ تطورها في ذلك العهد ، وقد ظهر أثر هذه العوامل في المسرح المعاصر بوضوح .

ومن البديهي أن تظهر في مسرح شوقي الذي انعكست فيه آثار تركيته بمحاولته الدفاع المستمر عن الملوك وتبرير أعمالهم وإحاطتهم بهالة من الجلال والعظمة والمدح ، كما انعكست آثار إسلاميته المتسعة الأفق ، والعناية بتغليب الفضيلة على الرذيلة ، سواء في نفوس الملوك أو الشخصيات الأخرى ، فدافعت كليوباترة عن نفسها ، ودافع الأمويون عن سياستهم ، وكفّر فرعون مصر عن آثامه ، وانتحرت ابنته ندماً . ومن الواضح أن شوقي أظهر حسناتها بكثير من المبالغة وصوّر عيوبها بكثير من المداورة . وتظهر النزعة الإسلامية جلية حين يقبل قائد الأسطول الروسي إلى علي بك لمساعدته ضد أعدائه ، فيرفض مساعدة من يخالفه في الدين ولا تظهر مصريته واضحة جلية بشكل فعال اذ شغل عن ذلك بالدفاع عن الملوك، ولم يستطع تصوير الشخصية المصرية أو حياة الشعب ، أو تصوير آماله وآلامه، أو التعبير عما يجيش في نفسه إذ عاش في عزلة عنه، وإنما لجأ إلى التاريخ والأدب، واختار منه ما لاءم مزاجه وطبعه من ملوك وشعراء .

وقد حاول وهو شاب أن يؤلف للمسرح ، كما تدل على ذلك القصة الآتية : يقول الأستاذ احمد عبد الوهاب أبو العز[1] « في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣٠ ، جاء أفندي بهذا المظروف ، ففتحناه فإذا فيه رواية علي بك الكبير ، تأليف الفقيد من ثلاثين سنة . وقال لي إقرأ لي بعضاً منها . فقرأت له صحيفتين قال على أثرها ، لو أعطاني ربي الصحة ، بدّلتها بأخرى . ثم كتب المسرحية التي بين أيدينا اليوم . ولم نعثر على هذه المسرحية . على أنها تدل على شيئين هامين ، أولها وجود فكرة التأليف المسرحي في نفس الشاعر منذ شبابه ، وثانيهما أنه لم يعجب

---

(١) ص ٩٧ اثنى عشر عاما في صحبة امير الشعراء .

بهذه التجربة الأولى فعزم على تغييرها، وحقق ما عزم عليه رغم أهميتها التاريخية، وانصرف عن ذلك بتأليف بعض القصص وقصائد الشعر التي نشرها في ديوانه (الشوقيات). وربما كان لعدم رقي الجمهور الثقافي أو وجود المسرح المصري والممثلين المصريين أثر في ذلك، وربما أن الشاعر آثر جانب المحافظة على جانب التجديد، ولم يأنس في نفسه القدرة بعد على التأليف المسرحي الذي يحتاج إلى دراسة وخبرة وصبر من جانب المؤلف.

على أنه اتجه إلى التأليف المسرحي في الأعوام الأربعة الأخيرة من حياته، فألف سبع مسرحيات لم يتم الأخيرة منها، حين ارتقى مستوى المسرح والجمهور واتسع نفوذه ونشاطه، وكثر الإقبال عليه،وتشجيع الناس له، والدعوة إلى التجديد الأدبي. ولكنه وقد مارس الشعر الغنائي التقليدي لمدة طويلة، لم يستطع أن ينتقل إلى التأليف المسرحي طفرة. فاتجه إلى الغناء. ثم انتقل إلى المسرح حاملاً معه تقاليد فنه الغنائي القديم، وحاول أن يكيفه المسرح، واعتمد على مقومات هذا الشعر الغنائي في إحداث التأثير المسرحي، ولم يترك الاعتماد على الشعر في مسرحياته،وإنما تطور في نطاقها فنه المسرحي، مثل إحكام الموضوع وجودة التشخيص وبراعة إدارة الحوار.

* * *

٢ — شعره الغنائي

جوهره: رواسب الشعر الغنائي العربي مادة وشكلا. تطوره في مجال موسيقى من تقليد وتوليد إلى تجديد. نواحي التقليد والتوليد تبلغ ذروتها في الاندلس. التجديد ومناحيه ودواعيه الاجتماعية. النواحي التي جدد فيها شوقي. القصص والحكاية. أدب الحياة الخاصة والادب المسرحي.

نشأ شوقي في عصر تلقى ما خلفه المغول من بقايا التراث العربي، وحاول أن ينفخ فيه روح الحياة بعد أن علاه الصدأ. وقد ابتدأت حركة الإحياء من قبله على يد محمود سامي البارودي باشا.

ثم استمرت حتى بلغت ذروتها في شوقي وحافظ، وكان المثل الأعلى للشاعر أن يطلع على شعر الفحول من شعراء العرب ويتشبع بأساليبهم وروحهم، وينهج مناهجهم، ويعارضهم ويحاول مجاراتهم والتفوق عليهم إن أمكن. ولم يكن هم الشاعر أن يجدد على طريقتهم

التقليدية ، إذ لم تتغير نظم الحياة الاجتماعية بعد تغيراً جوهرياً كما حدث بعد ذلك بقليل ، وما زالت الأغراض التقليدية من مدح وهجاء، وفخر وغزل، وغيرها من أغراض الشعر العربي مسالك يطرقها شعراء هذا العصر .

وتتضح آثار هذه المرحلة في شعر شوقي الأول كما هو بين أيدينا في الشوقيات ، فقد تعدّى شوقي التقليد والتوليد من البحور والأوزان ، إلى المعاني يقتبسها أو يستوحي منها أو يحوّرها . وقد أوضح نقّاده نواحي هذا التقليد في قصيدته التي تبدأ بقوله.

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب ... وينصر دين الله أيان تضرب

بمقارنتها ببائية أبي تمام وهو يمدح الخليفة . كما أوضحوا نواحي هذا التقليد في سينيته التي استوحى فيها من سينية البحتري، وكذلك في فائيته التي استوحى فيها من فائية أبي العلاء ، كما تتضح في معارضاته لنهج البردة وميمية البوصيري ، واقتباسه لمعاني المتنبي على وجه الخصوص ، على إنه تتضح بالرغم من ذلك سمات ذاتية الشاعر في ذلك الاختيار الخاص للألفاظ ذات الرنين الموسيقي ، والمشبعة بالعناصر والتقاسيم الغنائية التي تحدث رخامة وطرباً وتتشبع بالعاطفة . كما نعثر في هذه القصائد الأولى على معانى من ابتكاره تتخلل ثنايا هذه القصائد .

وحين نفي شوقي إلى الأندلس بلغت مرحلة التوليد في نفس الشاعر ذروتها ، واشتملت نفسه بما شعرت به من عوامل الحزن والوحدة والاغتراب ، وبما شاهده من آثار العرب في الاندلس ، واتسع أفق شعره ، وعارض في قصائده قصائدَ البحتري في إيوان كسرى ، وابن زيدون وابن عباد والخطيب وغيرهم من شعراء الاندلس ، ونلمس في هذه القصائد حرارة قد لا نلمسها في قصائده الأولى .

وحين عاد من الاندلس إلى مصر، نرى تغيراً واضحاً في أغراض شعر شوقي ؛ فقد تغيرت الأحوال الاجتماعية وتطورت تطوراً سياسيًّا وأدبيًّا . فقد خُلع الخليفة وتولى آخر مكانه وظهر في مصر وعي قومي ، وقامت ثورة سنة ١٩١٩ وطالب زعماء مصر بالاستقلال ونالوه ، وافتتح البرلمان ووجدت الأحزاب ونودي بالاصلاح الاجتماعي والسياسي والأدبي ، وبرزت إلى الوجود مشروعات ترمي إلى إصلاح التعليم والزراعة والمشروعات الاقتصادية ، وزاد

اتصال مصر بالحضارة الغربية ، وظهرت طبقة من الكتاب الذين تثقفوا بثقافتها ، فوجد تنافس واحتكاك بين مدرستين من مدارس الأدب، هما مدرسة تتعصب للقديم وتكره الجديد ، وأخرى تدعو للتجديد وتضيق بالقديم .

وكان لهذه العوامل على شوقي أثر واضح جلي، إذ نلمس فيه قلة في الشعر التقليدي إلا ما ولدته الظروف الاجتماعية المرغمة ، ومعظمها من شعر الرثاء . وضاق شوقي بشعره القديم فسعى إلى التجديد ، وصنع قصائد في القصة وفي حياته الخاصة وفي الأدب المسرحي وفي الشعر الغنائي الشعبي .

على أن التغيير نال الموضوع أكثر مما نال جوهره . فقد مارس شوقي الشعر على مناهج خاصة،ورسخت هذه الأساليب في ذهنه واستقرت ، ولم يكن بمرونته الأولى حين قويت الدعوة إلى التجديد ومجاراة دواعي العصر ، فدخل شوقي ميادينه الجديدة حاملاً معه رواسب شعره الغنائي الذي مارسه نيفاً وأربعين عاماً، ورواسب الشعر العربي الذي يكون عنصراً هاماً في شعره الغنائي .

فنلمس في شعره القصصي، وفي شعر الوصف، كما ورد في قصائده عن النحل وروما وآثار مصر، وشعره في الملوك والسلاطين ، وقصائده في النيل والأندلس ، وآثار شعره في الوطنية الذي اشتعل في الأندلس ، وشعره في الحكمة والتماسه لغرائبها منذ صباه ، وخبرته الواسعة بالحياة الاجتماعية ، ومدائحه للملوك كوسائط الإصلاح ، وعلى أيديهم تتقدم الدول بالعلم والأخلاق ، وشعره في أسرته ورثائه لما حوله من عوامل طبيعية غير متكافئة ، وشعره الديني الذي يصدر عن إيمان وعقيدة تعتز بالإسلام وتقدسه وتفخر به وتذود عنه ، وتنتقد أهله لتركهم تعاليمه ، وظهرت آثار ذلك كله في شعره المسرحي، الذي تطور من نظام في الحوار يشبه القصائد ، ويعرض لغزل أو وصف أو رثاء أو مدح أو غناء ، كما تظهر في عنايته باستكمال النواحي الشكلية للشعر الغنائي العربي دون أن يجدد فيها . وتبلغ صفات شعره الغزلي ذروتها في مقابلات العشاق التي لا تكاد تخلو منها مسرحية من مسرحياته ، كما في كليوبترة، ومجنون ليلى،وعنترة ، وصفات شعر الحكمة واستخلاص العظة حين تحدث الكارثة

في مآسيه جميعاً . وتتخللها مقطوعات في وصف البحر أو القتال ، أو تصوير صراع نفسي، أو أسباب فساد الأمة إلى غير ذلك .

ورجع شوقي إلى قصيدته الأولى عن كبار الحوادث في وادي النيل يستمد منها مواضيع لمسرحياته عن مصر القديمة . فيقول فيها عن قمبيز

لا رماك التاريخ يا يوم قمبيز ولا طنطنت بك الأنبـاء

وقص فيها قصة فرعون وكيف أتى به قمبيز ذليلاً ، ولكنه أحاطه بهالة من العظمة ، فجعله يبكي لا لأن ابنته حملت جرة ، وإنما لأنهم أتوه بصديقه ذليلاً . وكذلك عرض شوقي كليوبترة فيها فقال عنها :

فقضى الله أن تضيع هذا الملك أنثى صب عليهـا الوفاء
تخذتها روما الى الشر تمهيداً ، وتمهيـده بأنثى بلاء

وقص فيها قصة الصراع بينها وبين أكتافيوس ثم انتحارها .

ثم انتهى إلى أبطال الغزل العربي في الأغاني ، فاستمد منه موضوعات عن الهوى هي مجنون ليلى وعنترة ، مما يتصل بالشعر الغنائي العربي بأواصر قوية .

***

٣ — مسرحياته

حاول شوقي وهو شاب أن يؤلف للمسرح ، إذ ألف وهو طالب في فرنسا مسرحية علي بك الكبير ، كما تدل على ذلك القصة التالية . يقول مترجمه أحمد عبد الوهاب أبو العز « جاء أفندي بهذا المظروف ففتحناه فاذا فيه رواية علي بك الكبير تأليف الفقيد من ثلاثين سنة ، وقال لي إقرأ لي بعضاً منها ، فقرأت له صحيفتين قال على أثرها ، لو أعطاني ربي الصحة بدلتها بأخرى »[1] ثم كتب المسرحية التي بين أيدينـا اليوم ، وما زالت النسخة الأولى عند أهل شوقي . وتدل هـذه الظاهرة على شيئين هامين ، أولها وجود فكرة التأليف المسرحي في خلد الشاعر منذ شبابه ، كما تدل على أنه لم يعجب بهذه التجربة الأولى فعزم على تغييرها في بعض مواضعها وحقق ما عزم عليه .

(١) اثنى عشر عاماً ص ٩٧

وانصرف شوقي عن التأليف المسرحي إلى التأليف الغنائي ، الذي شمل قصصاً خرافية على ألسنة الطيور والحيوانات ، كما شمل قصصاً من التاريخ رمي بها إلى استخلاص العظة والعبرة ، اذ لم يألف الذوق العربي بعد هذا الضرب من الأدب المسرحي المكتوب باللغة الراقية ، فآثر أن يوجه الميل للقصة والتصوير التشخيصي الى الشعر الغنائي

على انه اتجه إلى التأليف المسرحي في الأعوام الأربعة الأخيرة من حياته ، فألف سبع مسرحيات لم يتم الأخيرة منها ، ولا ريب أنه دفعه إلى ذلك عوامل أهمها رقي مستوى المسرح قبل أن تنافسه الخيالة عام ١٩٣٤ ووجود الوعي القومي بين أفراد الشعب المصري وإقبالهم على المسرح كمركز من مراكز الدعاية القومية ، وما صادف ذلك من رجوع جورج أبيض من أوربا ، وتكوينه لفرقته الجديدة لتمثل في الأوبرا ، وما كوّنه يوسف وهبي من فرق تمثيلية تمثل في المسارح المختلفة ، هذا الى امتداد حركة الدعوة الى التجديد الأدبي وازدياد الحملة على التقليد ، أصاب شوقي رذاذها . فكان عليه ، وهو أمير الشعراء الذي كرّم في الأوبرا سنة ١٩٢٧ أن يضرب بسهم في هذا الميدان الجديد .

على أنه وقد مارس الشعر الغنائي نيفاً وأربعين عاماً ، كان عليه من الصعوبة بمكان أن يكيّف نفسه للمسرح ومطالبه ، إذ قلّت مرونته وحدة ذهنه ، وهي صفات لازمة للشاعر المسرحي ، فاتجه إلى تأليف الأغاني أولاً ثم انتقل الى المسرح حاملاً معه تقاليد فنه القديم ومقوّماته ، واعتمد عليه في إحداث التأثير المسرحي رغم ما في ذلك من عيب واضح ، وتطوّر فنه تطوراً بطيئاً في حدود هذا النطاق الغنائي ، معظمه نتيجة لاتصاله بالمسرح ورجاله ، وازدياد خبرة الشاعر بملامسته لمطالبه ، واستشارته لأهله ، وإدراكه لما يستهوى جمهوره من عناصر .

على أن هذا المسرح المعاصر في جملته وأدواته وممثليه وجمهوره لا يحقق المثل الأعلى المسرحي . فقد عنى هذا المسرح ببهجة المناظر وروعة ملابس الممثلين أكثر مما عنى بالمطالب الفنية الراقية المسرحية وأولها إجادة التمثيل . وكان التمثيل في جملته خطابي النزعة ، يستهوي الجمهور بالشعر وما فيه من خيال أو عاطفة أو موسيقى ، وما يتخلله من غناء . وتغذى الجمهور بهذا الغذاء الرخيص ، وظن أن ما قدّم له تمثيل حقيقي ، إذ لم يرفعه الممثل والمسرح

إلى تذوق ما هو أرقى فنيًا وأنقى جوهراً وأرفع قدراً . ولم يستطع بعد ذلك أن يميز الغث من السمين . ولم يحاول شوقي رغم دراسته للأدب الأوربي رفع مستواه الفني وترقية ذوقه التمثيلي .

ولا يظهر أثر ما قرأ وشاهد من مسرحيات أوربية من فرنسية وإنجليزية أثناء دراسته بأوربا في شعره إلا بشكل عام . فقد استهواه من المسرح الفرنسي بساطته وسمو شعره كما كان مسرح راسين وكورني ، واستهواه من المسرح الانجليزي السلسلة التاريخية القومية التي نظمها شكسبير في تاريخ بلاده القومي مثل الملك هنري الرابع وهنري الخامس والملك لير وغيرها . ثم جنح في النهاية إلى كتابة مسرحيات تتصل بحياة المجتمع المعاصر .

ويتضح أثر المسرح الغنائي المعاصر بمدارسه المختلفة التي رأسها سلامه حجازي ، وأخذه عنه معظم كتاب المسرحيات الشعبية المعاصرة له ، بحيث شاع الغناء على المسرح في تلك المقطوعات التي تتجمع وتتفرق في ثنايا مسرحياته ، والتي قصد بها غاية غنائية خالصة ، وبالعناية بمناظر العشاق ومحاوراتهم العاطفية .

وتفاعل هذان العاملان مع مقومات شعر شوقي الغنائي ، بحيث بلغ المسرح الغنائي ذروته فيه ، وصارت النواة الغنائية محور فنه بأجمعه ، وبها وعن طريقها انتقل إلى الممثل وأثر في الجمهور . ومن هذه النواة تنبع حسنات فن شوقي وعيوبه ، فهذه الأغاني امتداد لما كتبه الشاعر من مقطوعات غناها المغنون ، ونظرة إليها وإلى تركيبها تبين ما روعي فيها من قيم غنائية صوتية موسيقية ، وتعبيرها عن عاطفة هي الحب عامة ، وتتشبع به تشبعاً عالياً ، ويعبر بعضها عن عواطف شائعة بين النفوس : ففي نشيد الحب والحياة في مصرع كليوباترة يعبر عن الحب ، وفي نشيد الموت يعبر عن الموت ، وفي نشيد القبور يعبر عن الموت في مجنون ليلى ، وقد توجد أناشيد للمدح كما في قمبيز حين يمدح فرعون ، أو للعرس كما في علي بك حين يتزوج آمال ، وعنترة حين يتزوج بعبلة ، على أنها تشترك جميعها في التشبع بالعاطفة وبالقيم الموسيقية لتناسب الغناء . ولنضرب المثل بنشيد الحب والحياة في مصرع كليوبترة ، يغني إياس :

غننا بالشوق أو غنِّ بنا   نحن في الحب حديث بعدنا
رجّعت عن شجونا الريح الحنون   وبعينينا بكى المزن الهتون
وبعثنا من نفاثات الشجون   في حواشي الليل برقاً وسنا

قد لا يكون في هذه الأبيات معنى واضحاً عميقاً ، على أنه يتضح الاختيار الدقيق للألفاظ ذات الرخامة في الصوت ، وتتكرر الحروف بصورتها الهجائية أو ما يناسبها من حركة صوتية . حتى تحدث نغماً موسيقياً اشتهر به شعر شوقي عامة . ففي البيوت الأربعة الأولى يتكرر حرف الواو وتتكرر الفتحة كما يتردد حرف النون . هذا إلى اتحاد القافية في الشطرات الثلاث الأولى من كل بيتين ، واتحادها في القافية في الشطرتين الرابعتين من كل بيتين.

ولم تقف النزعة الغنائية عند حد الغناء ، وإنما تكون لحمة الحوار ونسيجه الرئيسي ، كما يظهر من عناية شوقي باستكمال الأوزان والبحور ، واتخاذ هذه الأوزان والبحور من الصيغ التقليدية الشائعة في الشعر الغنائي العام ، وتظهر جلية في المسرحيات الأولى ، ولا تنعدم في المسرحيات الأخيرة ، أنظمة الحوار التي تقترب من نظام القصيدة العربية مبنىً ومعنىً . وتطول في أماكن الوصف ، والرثاء ، والشكوى ، والغزل ، وتدور حوادث الفصول في العادة على هذه الصور ومثلها من صور الشعر الغنائي ، ويخفف من عيوبها المسرحية ما يتخللها بين الفصول من حوار متقطع ، تشترك فيه شخصية أخرى أو شخصيتان غير الشخصية المتحدثة ، فتقلل من هذه النزعة الخطابية ، إن القيت على مسامع الجمهور ، أو النزعة الغنائية إن غنيت أمامه . وتتناسب هذه النزعة تناسباً عكسياً مع قدرة شوقي المسرحية ، فيكثر اعتماده عليها في إحداث التأثير المسرحي ، دون اعتماده على الشخصيات والحوادث المسرحية في مسرحياته الأولى ، ويقل كلما ازدادت قدرة الشاعر على تحريك الموضوع ، والتأثير بوسائل المسرح الخاصة . على أن هذه النزعة التي خلطت بين الصفة القصصية الغنائية ، التي تعتمد على الحكاية والخطابة ، والصفة المسرحية التي تعتمد على الشخصية والحادثة ، بحيث يكون الحوار تعبيراً لازماً ، وعنصراً اقتضاه المقام . ولجأ شوقي ، كما لجأ المسرح الغنائي ، إلى وسائل مسرحية خارجية لإحداث تأثير مسرحي ، واجتذاب اهتمام جمهوره ، فأكثر من المناظر التي تضيف أهميتها المسرحية ، بينما تتصف بروعة المنظر ، كما في مناظر الولائم

والحفلات الراقصة والموسيقية . وبلغت درجة كبيرة من الأهمية حيث تضعف الحركة المسرحية ، كما في المنظر الثاني من الفصل الأول في مسرحيتي مصرع كليوبترة وقمبيز والمنظر الأول من الفصل الأول في مسرحية علي بك . وعيب مثل هـذه المناظر أنها تصرف انتباه الجمهور عن الموضوع الرئيسي والتطور الذاتي لحوادث المسرحيـة الدقيق ، لقلة اتصالها بالمسرحية وموضوعها وشخصياتهـا . فهي وسائل غير جيدة يلجأ إليها الـكاتب البادىء الذي يعتمد على أدوات مسرحية خارجـة عن تطوّر الموضوع الذاتي ، من داخل طبائع الشخصيات ، بحيث يكون كل تأثير مسرحي مثير نتيجة لأزمة خاضعة لهذا التطوّر . وقد قلت هـذه العيوب إلى حدّ كبير تبعاً لازدياد خبرة الشاعر المسرحية كما في علي بك الـكبير وعنترة والست هدى ، على أنها لم تنعدم تماماً .

وتأثر شوقي بالمسرح الانجليزي ، وشـكسبير خاصة كما يظهر في مسرحيته الأولى وهي مصرع كليوبتره ، إذ استوحى من هـذه المسرحية بعض المنـاظر ، كمناظر لقاء أنطونيو وكليوبترة ، ومنظر موت أنطونيو ، ومنظر موت كليوبترة ، ويوضح الفرق بينهما توضيحاً جليّـا الفارق بين مذهب شوقي ومذهب شكسبير ، أو المذهب الغنائي القصصي والمذهب المسرحي التمثيلي . وتلك ظاهرة من ظواهر الاقتباس التي يبدأ بهـا الكاتب حياته ، وهي تتضح أيضاً في اقتباس الشاعر لبعض شعر مسرحيته الثانية وشخصياتها وحوادثها من الأغاني ، وان مقارنة بين أوجه الشبه في شعر المجنون الذي ورد بالأغاني وشعره كما ورد في مسرحية شوقي ليؤكد هذه النزعة الغنائية في الشاعر .

إذا أضفنا إلى هـذه الاتجاهات نفسية الشاعر الاجتماعية ، من اتصال بحيـاة البلاط والملوك ، ومدحهم ردحاً طويلاً من الزمن ، والتغني بآثارهم ، ومن نزعة إسلاميـة عامة لا تشعر شعوراً قويّـا بالوطنية المصرية ، وإنما بنزعة إسلامية قوامهـا القومية التركية على الأصح ، ومن نزعة غنائيـة اتصلت بحياة الشعراء في الأدب العربي في تاريخه الطويل ، أمكننا أن نتنبأ باتجاهات مسرح شوقي عامة ، بل وأمكننا التنبؤ بنواحي الإجادة والتقصير فيه ، فهو يجيد حيث خبر وعلم مما يصف من شخصية أو حوار ، كما في الملوك والملـكات ، ويقصر حيث لم يعلم ولم يخبر ، كما يحدث حين يصف الجمهور وعامة الشعب ، بل لا يكاد يعـلم

عنهم شيئاً ، نتيجة عزلته عنه ، إلاّ في مسرحية أخيرة ، هي ملهاته الوحيدة التي اتصل بشخصياتها وحوادثها فأجاد تصويرها إلى حدّ كبير.

وإن شاعراً اتخذ النواة الغنائية أساساً لمسرحه ، لينتج مسرحاً ذاتيًّا فيه من شخصيته الكثير. ولم يحاول شوقي أن يختفي وراء مواضيعه أو شخصياته أو حواره ، وإنما تظهر فيها ذاتيته وآراؤه وأهواؤه بشكل واضح .

* * *

استمدّ شوقي موضوعات مسرحياته الأولى من التاريخ . فموضوع مصرع كليوبترة مستمد من تاريخ مصر القديم ، وموضوع مجنون ليلى مستمد من التاريخ الإسلامي في عهد بني أمية ، وموضوع قمبيز مستمد من تاريخ مصر القديم ، وموضوع علي بك الكبير مستمد من التاريخ الإسلامي في عهد المماليك ، وموضوع عنترة مستمد من تاريخ العصر الجاهلي ، أما موضوع أميرة الأندلس — وهي المسرحية النثرية الوحيدة التي ألفها — فمستمد من التاريخ الاسلامي في الأندلس على عهد بني عباد في نهاية حكم ملوك الطوائف وأوائل عهد المرابطين . ويأخذ البعض على شوقي سوء اختيار بعض هذه الموضوعات في عصر ذكر أنه يدافع فيه عن القومية ويساير الشعور القومي . إذ اتسع التاريخ المصري القديم والإسلامي لصفحات بطولة ناصعة مشرقة . ويأخذ عليه البعض سوء دفاعه حيث أراد الدفاع ، كما حاول حين دافع عن كليوبترة ، ويأخذ عليه البعض عجزه عن فهم طبيعة المصري المستمرة خلال العصور ، وصوره شعباً جاهلاً لا حياة فيه ، يسير في ركاب المنتصر، وينقلب على المهزوم . وفي هذه المآخذ الكثير من الصدق ، ومنشؤها انعزال الشاعر عن حياة الشعب من جهة ، وتغلب عاطفته نحو الترك على عاطفته نحو مصر من جهة أخرى . وإنما وجه اهتمامه في المسرحيات التاريخية التي تدور حول الملوك إلى تصويرهم مدافعاً عنهم ومحاولاً ستر عيوبهم ، ، وإكسابهم صفة البطولة والنبل . وكان الشاعر موفقاً أكثر من ذلك في مسرحياته التي اختار الشعراء أبطالاً لها ، فهو يعرضه لحياة شاعر مثله من السهل أن يتفهم وسائله ونفسيته وصوغ حواره ، ومن السهل أن يدير عواطفه حول نواة واحدة هي الهوى ، وإنشاء الغزل . كما في مجنون ليلى وشبيهتها عنترة . وزاد توفيقه حين ترك

التاريخ وجنح إلى الحياة يستمد منها مباشرة صور الناس كما تراهم وتحسهم في الحياة، وما يحدث لهم من وقائع إنسانية عامة.

على إنه يهمنا العرض المسرحي للموضوع. ولعله من الخير أن نفرق بين مذهبين من مذاهب الفنون، هما مذهب القصة ومذهب المسرح. إذ يعتمد فن القصة على السرد والإطناب والتحليل، فيوصف المجال الذي تتحرك فيه الشخصيات ويفصل في بيئاتها وعوامل الوراثة فيها. ذلك لأن القصة يقصد بها القارىء الذي يتسع وقته للمقارنة والموازنة والتحليل والتعليل. أما في المسرح فيختار من هذه المجموعة الكبيرة أكثر الحوادث مدلولاً ومغزًى، وأقواها تأثيراً، ويضعها في فصول ومناظر مركزة، تجمع مدلول الموضوع، والحوادث بين طياتها عن طريق التمثيل المباشر، كما لو أنها تحدث لأول مرة. بحيث يتطور الموضوع من داخل الشخصيات، وتتحرك الشخصيات مع حوادث الموضوع في انسجام. وتؤدي الحوادث إلى الأزمة الكبرى التي تنتهي بحل، فالمسرحية أزمة تعرض وتتوتر وتحل. ولا بد من اتفاق الحوادث وصفات الشخصية. وخير موضوع ما تطور من داخل شخصياته. وما ذلك إلاّ لأنّ المسرحية تمثل عن طريق ممثلين أمام جمهور، لا يتسع وقته للتحليل والتعليل، وإنما يتابع المسرحية بعواطفه أكثر مما يتابعها بعقله، ولا بدّ من اجتذاب انتباهه من بداية المسرحية إلى نهاية بالحوادث المفعمة بالحياة، المركزة المدلول.

وإنا لنقابل في مسرح شوقي ما يدل على عدم اعتبار لهذه الفروق الأساسية. منشؤها عناية الشاعر بالصفات الغنائية، بحيث صرفت اهتمامه عن لوازم المسرح. وإنما عني باستكمال البيوت والأوزان، وفي تطويل الحوار حتى طغت صفاته الغنائية، على صفاته المسرحية وأفقدت هذه العوامل الشخصيات الكثير من حيويتها، وجعلتها جامدة لا حياة فيها، سيما في أبطال المسرحيات، حيث تدخل شوقي في تعبيرها، فلم تترك لتعبر عما بها، وإنما تكلم شوقي من ورائها، بشكل خطابي يقص ولا يمثل. وكثيراً ما سبب هذا الاسترسال الغنائي تفكك الشخصية واضطرابها، كما سبب تفكك الموضوع وضعفه من الناحية المسرحية.

على أن هذه العيوب التي ظهرت قوية في المسرحيتين الأولى والثانية وهما مصرع كليوبترة ومجنون ليلى، قد قلّت بالتدريج في المسرحيات الأخيرة، وتدرّج فن شوقي بازدياد خبرته

المسرحية ، فوضحت الأزمة في المسرحية الثانية ، وازدادت في المسرحيات التالية على التوالي ولو أنها لم تكتمل تماماً .

ولشوقي أسلوب متشابه في تأليف مسرحياته ، فالموضوع يتكوّن في العادة من خمسة فصول كما في مجنون ليلى ، أو أربعة كما في مصرع كليوبترة ، أو ثلاثة كما في الست هدى .
ويبدأ الفصل الأول في العادة بتمهيد تلخص فيه بعض الشخصيات الثانوية الموقف ، وتوضح علاقة البطلين ببعضهما ، وتظهر بعد ذلك الشخصيات الرئيسية أمام الجمهور لتمثل هذه العلاقة . ويبدأ الموضوع في التطور في الفصل الثاني . وتحدث مأساة البطل الثاني في الفصل السابق للأخير ، ومأساة البطل الرئيسي في الفصل الاخير ، أو تتوتر العقدة ، وتحل في الفصل الاخير إذا كانت المسرحية ملهاة . ويبث الشعر في فصول المسرحية الاولى ألواناً بهجة عن طريق الشخصيات الثانوية ، ويتدرج نحو الاظلام حتى يبلغ نهاية ذلك في فصل المأساة ، مستعيناً بالأدوات المسرحية الخارجية في إحداث تأثيره ، أكثر مما يستعين بتحليل نوازع الشخصية والتعمق في سبر غورها ، والتدسس إلى تحليل عواطفها .

ولعلّ ذلك راجع إلى ذلك الحيز الضيق الذي حصر شوقي نفسه فيه . فقد قيد نفسه بحدود التاريخ يستمد منه مواضيع فنه . ومن المتعذر إحياء الشخصية التاريخية ، ويحتاج ذلك إلى مهارة وقدرة لا تتوفر للشاعر المبتدىء . والشخصيات التاريخية أقرب إلى الأنواع منها إلى أفراد واضحة الملامح ، بينة الصفات ، كما نجد في الشخصيات التي تعيش في الحياة ، فهي حية نابضة متميزة ذات فردية . ووفق شوقي في العثور على هذا المفتاح الهام للمسرح حين جنح للحياة ، يستمد منها مواضيع مسرحياته في المسرحية الاخيرة ، وهي الست هدى ، لأول مرة ، ولكنه لم يمهل ليؤلف المسرحيات التالية وهي البخيلة التي أتمّ بعضها وعلي الكبير التي لم يبدأ في تأليفها .

وحاول شوقي أن يزاوج بين موضوعين في مسرحياته أحياناً كما فعل كتّاب المسرح الرومانتي ، فيساير الموضوع التاريخي في مصرع كليوبترة موضوع مبتدع يوازي الموضوع التاريخي ، ويخفف من ثقل أعبائه ، ويقابل بين تبعات الملوك وحرية الأفراد العاديين ، ويطيل الموضوع وحوادثه . وكذلك يساير الموضوع التاريخي في علي بك موضوع آخر مبتدع ،

ويتشابك الموضوعان وتكسب نهاية الموضوع المبتدع الموضوع التاريخي نهاية مخففة الوقع، إذ تتصل حظوظ علي بك ومصيره بحظوظ آمال ومراد، ويتطوّر الموضوعان معاً ببراعة لا نلمسها في المسرحية الأولى. على أن هذا الموضوع الثانوي يبلغ أحياناً درجة من الحياة والجودة لا يبلغها الموضوع التاريخي.

وتكثر في مسرح شوقي مناظر العشاق، وتبرز فيها العواطف ويلتهب الشعر، وهذه المناظر تعجب الجمهور لشيوع هذه العاطفة بين الناس على اختلاف درجاتهم، وتكثر في الفصول أيضاً مناظر الصراع الحسي، وتقل مناظر الصراع النفسي، ولو أنها لا تنعدم. والنوع الأول أقل جودة من الناحية الفنية من النوع الثاني. فيوجد مثل هذا الصراع النفسي في كليوبترة، بل هو لب مأساتها، ولكنه لا يتضح تماماً. وكذلك يوجد في أنطونيوس. ويتضح قليلاً في ليلى وحيرتها بين هواها وواجبها. ويبلغ غايته وذروته في آمال، حيث يتصارع في نفسها اخلاصها لزوجها واخلاصها لهواها. أو بين دواعي الخير ودواعي الشر. أما مناظر الصراع الحسي فشائعة في المسرحيات، ففي المسرحية الأولى صراع بين أنطونيو واكتافيو، وفي مجنون ليلى صراع بين قيس وآل ليلى، وبين زياد ومنازل، وفي علي بك صراع بين محمد بك وبينه، واصطدام بين علي بك وسعيد. ويبلغ غايته في عنترة حيث يتكرر بصورة ملحوظة لا تخلو من المبالغة

وتوجد مناظر الولائم والحفلات في كل مسرحية تقريباً، كالغناء والرقص والولائم وعيبها أنها تشغل حيزاً كبيراً في تطور الموضوع، بحيث تصير حشواً يفسد الموضوع الدقيق التطوّر. وبها يعتمد الشاعر على أداة خارجية لاحداث التأثير المسرحي الدقيق.

أما في مناظر الموت فيمهد لها بإثارة روح المأساة في الجوّ بالتلميح به عن طريق الشعر وحشد أدوات مسرحية خارجية كأزهار وأفاعي، وقبور وجرحى على المسرح، وتعبر الشخصية في هذا الموقف عامةً عن عواطف متقاربة، في جملتها بكاء الأهل والأحبة والوطن مما يشابه شعر المؤلف في الرثاء إلى حدّ كبير.

ونكاد نتبع تياراً فكاهيًّا في مسرح شوقي يبتدىء بصورة أولية في المسرحيات الأولى عن طريق اللفظ أو المنظر الجسمي للشخصية، ويتطوّر حتى ينبع من الموقف والشخصية والمزاج في المسرحية الأخيرة.

والشخصيات المسرحية عند شوقي بسيطة التركيب قليلة التعقيد ، بل قد تبلغ بها البساطة إلى حد انعدام الملامح وضياع السمات، أمام تيار السيل الغنائي الذي يفقدها الكثير من حيويتها، وصدق تصويرها، بحيث لا نجد فيها ما نجد فيمن نحسهم ونعاشرهم من الأحياء .

وتدفع الشخصية في العادة عاطفة عامة توجه تفكيرها وسلوكها ونوازعها ، بحيث تظهر أفعالها وأقوالها منسجمة معها، ودالة عليها وموضحة لها . فتوجه أنطونيوس عاطفة الحب ، كما توجه قيساً . وتوجه تمييز صفات مضطربة ، فيوجهه الجنون المتقطع في بداية المسرحية ، ثم يستولى عليه ندم وحب في نهاية المسرحية . وتدفع علي بك فكرة التبذير نحو المأساة .

ولمسرحيات شوقي في العادة بطلان أحدهما رجل والآخر امرأة . وتتحكم المرأة في مصير الرجل الى حدٍّ كبير ، كما في مصرع كليوبترة، ومجنون ليلى، والست هدى . وفي البطل عيب تنفذ منه المأساة اليه . فكليوبترة لا تعبر بوضوح عن حبها لوطنها، وحبها لأنطونيو ، ولا تستقر على جانب منهما ، فهي أمام المصريين مصرّية تدافع عن مصر ، ومع أنطونيو عاشقة له متفانية في حبه . وظل هذا التردد موجوداً حتى نهاية المسرحية دون أن تتماسك شخصيتها بل كثيراً ما ترتبك وتضطرب . حتى إذا ما فشلت ، انتحر انطونيو ، وانتحرت بعده دون وضوح الدوافع والبواعث التي تتمشى مع سياق المسرحيـة . وأنطونيو عاشق ولا تظهر أعماله وأقواله نفسية الجندي الباسل كما يصفه من حوله . وحظ ليلى خير من حظ كليوبترة . فهي بدوية عاشقة ، على انه قام في نفسها صراع ، كان من الممكن أن يحلل تحليلاً شائقاً كما حلل في نفس جوليت، إذ يتضح حيرتها بين واجبها نحو هواها ، وواجبها نحو التقاليد التي تتمسك بها . فيؤدي بها هذا الصراع النفسي الى الكارثة ، ويموت قيس بعدها . وقيس كأنطونيو عاشق ، بالغ الشاعر في اظهار سيطرة هذه العاطفة على أموره، بحيث تخرج عن مألوف الحياة أحياناً . وعنترة عاشق أيضاً ، وعبلة عاشقة . على أن عنترة أوضح في قسماته وشخصيته من سابقيه ، فظهرت آثار البيئة المحلية فيه، كما قويت ألوان عبلة وسماتها . فعنترة محب بدوي عفيف، وعبلة فتاة بدوية خشنة جريئـة . على أن قوة عنترة تصور أحياناً بصور خارقة خارجة عن مألوف الحياة . ولا تبرز الأزمة أمام الجمهور على المسرح، ويسترسل في انشاد الشعر في معظم أجزاء المسرحية . وعلي بك محسن كبير ، يؤدي به الكرم الى

فقد الخزانة ، وانفضاض أعوانه من حوله، ومما يؤدي به الى التماس المعونة من غيره، وآمال صورة حقة بما يبرز فيها من صراع نفسي بين ميلها الى مراد ، واخلاصها لزوجها، وقد انتصر ضميرها على هواها بسرعة . وهي أكثر حياة من ليلى وكليوبترة . أما قمبيز فهو صورة مضطربة من أهواء متضاربة، من جنون إلى ندم إلى حب مفاجىء . ونتيتاس تظهر وتختفي وتضطرب في أقوالها ولا تنسجم مع نفسها في أفعالها . وكذلك نفريت التي تظهر في بداية المسرحية مظهراً لا يتفق وانتحارها في النهاية . ولعلَّ أبرع نساء شوقي في تصويرها هي الست هدى التي تحيا حقًّا ونكاد نلمسها بين من نعاشرهم من الناس ، فهي عجوز ترث ثروة من يطمعون في مالها واحداً إثر الآخر ، ممن يلتمسون مالهـا ، حتى إذا ماتت لم تترك شيئاً لزوجها الأخير . .

ولعلَّ شخصيات شوقي الثانوية أقرب الى الحياة من أبطاله ، إذ لم يحاول أن يرفع من شأنها بشعر مصطنع ، أو يتدخل في طريق تعبيرها الحر عما يخالجها، كما تدخل في شخصياته الرئيسية . ولم يحاول شوقي بتر أحد جوانبها ، كما بتر كليوبترة مثلاً حين حلل نفسيتها من وجهة نظر دفاع وتبرير عن كل عمل تعمله . وإنما تحيا الشخصية بنواحي الضعف، كما تحيا بنواحي القوة ، وربما كان تحليل نواحي الضعف أكثر قدرة على إحيائها وإكسابها أبعاداً إنسانية . وربما تكسب بعض التفاصيل التافهة الشخصية حيوية وقوة .

ومن هذه الشخصيات الثانوية الحية أتباع الأبطال . فأوروس تابع وفي لأنطونيوس ، كما يتبع قيساً زياد ، وعنترة داحس ، وكما تفي هيلانة وشرميون لكليوبترة ، وعفراء لليلى . وتدع هذه الشخصيات الثانوية الأبطال يفصحون عما في نفوسهم ، ويكون الحوار طبيعيًّا يكشف مغالق عواطفهـا حين توجد هـذه الشخصيات الثانوية وتشترك فيه . والنساء في العـادة أكثر عطفاً على سادتهنَّ من الأتباع ، على أنها جميعاً تكاد تكون نوعاً واحداً ، فهي مرتبطة بهذه الشخصيات الرئيسية وتستمد كيانها وأهميتها تبعاً لاتصالها بها .

ولهـذه الشخصيات أدوار تظهـر وتختفي دون استمرار في المسرحيـة ، فزينون وأنشو في مصرع كليوبترة ، وابن ذريح وهنـد في مجنون ليلى ، والماشطة والجواري في علي بك الكبير ، ووفد قمبيز ، وكلها شخصيات ثانوية تظهر لتؤدي عملاً ما ثم تختفي . ويقوم

بعضها في العادة بتبادل فكاهات لفظية تثير في الجوّ روح المرح والفكاهة . فهي كاللون في يد الرّسام ، تعطي الصورة لوناً بهيجاً . على أن بعضها أداة تهكم حين يظهر في نهاية المسرحية بصورة محزنة كابن ذريح في مجنون ليلى ، وإياس في مصرع كليوبترة .

ومن هذه الشخصيات صورة أنذال المسرحية ، كأولمبوس في مصرع كليوبترة ، وزياد في مجنون ليلى ، وتاسو في قمبيز . وأبو الذهب في علي بك ، وصخر في عنترة . وهي تهزم في النهاية جميعاً ، بل أن شوقى قد يعاقبهـا بالقتل كما في أولمبوس وزياد وتاسو ، ونفريت ، فنعتبر بتراً قد يكون غير طبيعي وفيه بعض الشذوذ والمفاجأة

ومن هـذا تتضح طبيعة الشخصيات عند شوقي ، فهي شخصيات بسيطة التركيب قليلة الألوان ، ضحلة الغور . ولعلّ الشاعر لم يقصـد إلى عمق التحليل، إذ وجه اهتمامه إلى النظام دون النواحي الأخرى للإجادة المسرحيـة ، مما حدا إلى اضطرابها أحياناً . يقول الأستاذ عباس محمود العـقاد : « وغني عن الإبانه أن هـذه الروايات التي نظمها شوقي خلت من الشخصيات ، والتبست فيها ملامح الأبطال أيما التباس . مع أن كلها أو بعضها تاريخية ليس في تحضيرها وتصويرها فضل كبير بالنسبة إلى فضـل الإنشاء والإبداع ، [1] ويرجع هذا إلى انعـدام شخصيته في شعره . والواقع أن شخصيات شوقى المسرحية سطحية التحليل حقـًا ، ولـكن مرجعها إلى الاتجاه الغنائي الذي اندفع فيه الشاعر، وضحى في سبيله بالقيمة المسرحية ، والمثـل الأعلى للـكاتب المسرحي أن تختفي شخصيته من المسرحيـة ، ويدع الشخصيات تدير الحوار وتحرك الموضوع بصورة طبيعية، وتعكس عالماً كأنه عالم الحياة .

وتنقسم شخصياته إلى أنواع ذات مثل عليـا إصلاحية رغم اختلاف هـذه الأنواع . فالبطل في العادة يمتاز بصفات نبيلة . فهو بطل في الحرب كأنطونيو وعنترة ، أو مثل أعلى في الوفاء والمروءة والشجاعة ، وهي صفات بدوية تتضح في عنترة، وضرغام، وزياد ، وفرعون، وضاهر ، يقابل هذه الصفات النبيلة ناحيـة ضعف تنفذ المأساة إلى الشخصية منها — إذا كانت المسرحية مأساة . على أن البطل قد يكون شاعراً ، وتصير هذه الميزة صفة البطولة فيه. ومن أجل ذلك نسب شوقى إلى كليوبترة الشعر ، وصار قيس بطل البادية لمرة ، وكذلك

(١) شعراء مصر وبيئاتهم : ص ١٦٥ — ٢٦٦

عنترة . ولا تخلو صحبة الملك من شاعر يمدحه ويمجده وينشده . أما إذا كان البطل امرأة، جعل شوقي محور حياتها عاطفة الحب، وأقام بجواره حائلاً يمثل الواجب . وكثيراً ما ينسب إلى البطلة صفات أقرب إلى صفات الذكر . فكليوبترة بطلة سياسية ، رغم هواها . وليلى عاشقة، ولكنها تتمسك بواجبها . وتتيتاس تحب، وتجد في أداء الواجب مهرباً لها من حب يائس . وقد حرص شوقي على عدم خروج نسائه على تقاليد الاسلام بشكل واضح ، فيحيط ملوكه وملكاته وأبطاله بهالة من العظمة والعفاف .

وشعراء شوقي يحسنون الشعر ويسترسلون فيه استرسالاً قد يفسد الحركة المسرحية أحياناً سواء كانوا أبطالاً من شخصيات محترفة . ويدور شعرها بهذه الصور حول الهوى كما في مصرع كليوبترة، وليلى، وعنترة ، أو الفخر أو الحماسة أو الرثاء كما في مسرحياته كلها. ويصحب الشاعر في العادة مغنٍ يغني بعض المقطوعات . وقد يصاحبه مضحك يثير الفكاهة بألفاظه كانشو ومقلاص .

وللبطل تابع تفنى شخصيته في سيده ، ويخلص له اخلاصاً تامًّا ، ويتيح له الفرصة للتحدث عما يجيش بنفسه . فأوروس وزياد وداحس شخصيات تتبع الأبطال وتعطف عليها عطفاً يكاد يشبه عطف الأم الرؤوم ، والأنثى الحنون . وقد ترتبط مصائرها بمصائر أبطالها كما في أوروس الذي ينتحر قبل سيده ، أو تفنى لذة حياته بفنائه كما في زياد . وللبطل أيضاً منافس يحرص الشاعر على أن يكون غير كفء لمنافسة البطل ، فزينون منافس مضحك لأنطونيو ، ومنازل منافس، أدنى مرتبة من قيس . وصخر غير كفء لمنافسة عنترة ، وضرغام هو المنافس الوحيد الكفء لمنافسة عنترة ، ويحرص الشاعر على أن يقتل في معركة ليخلو الجو لعنترة .

***

أما ذلك العنصر المسرحي الذي اعتمد عليه شوقي في حواره ، فهو الشعر الغنائي وزواسبه . وجوهر الشعر الغنائي العربي لغة منمقة تعني بالتشبيه والاستعارة والبديع والأخيلة البعيدة المآخذ أحياناً ، والمعاني الطريفة ، وكل ما من شأنه أن يوفر الألوان الخيالية التي تنفذ الى أحاسيسنا وخيالنا . ولم يفكر شوقي مليًّا في جوهر هذا القاموس

التقليدي ، وفي وسائل تكييفه المسرح . ولم تقف هذه المشكلة عند البحور والأوزان أو القوافي ، وإنما تتعدى الشكل إلى الجوهر ، إذ يعتمد الحوار المسرحي على التحليل النفسي العميق للشخصية والموقف ، ويخضع خضوعاً تامـًا للتمثيل بحيث يعبر عما يجول في نفس الشخصية من جهة ، ويساعد على تحريك الحوادث المسرحية نحو الأزمة الكبرى . فالحوار والشعر وسيلة لا غاية في ذاته : وسيلة إلى تجسيد الشخصيات وإحيائها ، حتى نلمسها بارزة الملامح .

وإنه ليقابلنا في مسرحيات شوقي الأولى صور من الحوار تركيبية المبنى ولا تكاد توجد بينها تلك الوحدة الحية التي تميز العمل الفني والمنتج المسرحي ، بحيث ترتبط ملامح الحوار بأواصر السببية ، ويعم عنصر الوحدة النابع من الشخصية . وسيقابلنا في المسرحيات الأولى كمصرع كليوبترة ، ومجنون ليلى ، استرسال غنائي ينزلق فيه المؤلف بسهولة، فيفلت زمام تصوير الموقف والشخصية ، والتطور السريع المتوتر للحركة المسرحية من يده . وستقابلنا أنظمة من الحوار تكاد تشبه القصائد الغنائية مبنىً ومعنىً ، من وصف أو شكاة أو نجوى ، أو رثاء ، أو مديح أو قصائد غنائية . وهي خيوط ابتدأ منها فن شوقي واتجه لم يستطع أن يتخلص منها عند ما ازدادت خبرته المسرحية ، ولم يتخلص منها إلا حين ترك المسرح التاريخي إلى المسرح الاجتماعي في مسرحيته الأخيرة ، حيث تدل الدلائل على أن الشاعر إنتبه إلى الأسس المسرحية وغير اتجاهه الأول، فأخضع الحوار للحوادث والتشخيص. ولسوء الحظ لم يؤلف إلا مسرحية أتمها ولم يطبعها ، ومسرحية أخرى لم يتمها ولم يطبعها . وما زالت نسختها الناقصة عند أحد المعجبين به (الدكتور سعيد عبده) .

ولقد خدع شوقي بالنجاح الذي لاقاه مسرحه حين مثل على المسرح . وإعجاب الناس به . على أن هـذا الجمهور المعجب ، والمسرح الممثل لمسرحياته كان من هـذا النوع الذي اعتاد مشاهدة المسرحيات الغنائية وسماع الغناء والطرب بسماع الألفاظ والأخيلة ، فقـد كان كل هذا الجمهور المثقف ذا ثقافة أزهرية ، ولم يخلق بعد الناقد والمؤلف الذي اطلع على المسرح الغربي تأليفاً ونقداً وتعريفاً . وإنما كانت تلك الحركة الجـديدة ناشئة حين كتب شوقي للمسرح ، وربما غير رأيه واتجه اتجاهاً آخر لو تأخر به الزمن قليلاً .

وقد نجحت مسرحياته للأسباب التي نجحت من أجلها المسرحيات الغنائية ، ففيها شعر مطرب ، وأغان تغنى ، ومناظر تبهر ، وقصص مستحدثة لم يسبق إليـه في المسرح الشعري الراقي . على أنه لبث مسرحاً مترفاً خاصـًا عكس أنواع العيوب التي ظهرت في المسرح الغنائي. لقد ضحى في سبيل هذا الامتياز بالقيم المسرحية الفنية ، وما كان من الممكن أن يحدث من

عمق في التصوير والتشخيص والمدلول . على أنه لا بدّ من الإشارة إلى جهد الكاتب الذي بذله حتى يكيف شعره الغنائي للمسرح ، وقد كان مجهوداً جباراً حقّا . فقلت النزعة إلى إنشاء القصائد بالتدريج ، وازدادت مرونة الحوار وقصرت الأوزان والبحور وبيوت الحوار ، بازدياد خبرة الشاعر المسرحية واتصاله برجال المسرح ومشاهدته لمسرحياته . وأسه لحاجات الجمهور . وهو اجتهاد اعتمد فيه المؤلف على ذكائه ، وربما هدته دراسة قليلة إلى الأسس القويمة .

وصاحب تطور هذه النزعة تطور آخر في فن شوقي المسرحي ، فقد زاد اعتماده على صور الصراع النفسي في الشخصيات ، والحوادث الناجمة عن تطور الموضوع ، وتصوير شخصيات بدأت ملامحها بالبروز إلى حدّ ما ، ووردت صور من المفاجآت وصور من التهكم المسرحي ، وازدياد في الحركة المسرحية والتمثيل ، ولو أن النواة الغنائية ما زالت محور هذا الفن . فقد وضع شوقي لنفسه أساساً لم يستطع أن يفلت من زمامه . ولم يفطن إلى ما في هذا الأساس من عيوب .

* * *

على أنه رغم هذه العيوب فشوقي هو أول رائد وضع أساس الشعر التمثيلي الراقي ، وترك لمن بعده مهمة إتقان نواحي المسرح الأخرى . يقول الدكتور طه حسين « أما عن التمثيل فقد غنى وأطرب وأثر ولكنه لم يمثل ، لأن التمثيل لا يرتجل ارتجالاً ولا يهجم عليه . وإنما هو فن يحتاج إلى الشباب والدرس والقراءة . وتمثيله صورة تنقصها الروح ، وإن حببها إلى الناس ما فيها من براعة الغناء . وربما أتى بالمعجب لو انه اطلع على كتابات قدماء الاغريق ، كما اطلع على كتابة قدماء العرب ، فاطلع على إلياذة هومر وأوديسته ، واطلع على فنهم التمثيلي . على أنه لا ينكر أنه منشيء الشعر التمثيلي في الأدب العربي . » (1)

حقّا لقد بذل شوقي مجهوداً جباراً في إنتاج تمثيليات في هذه السنوات الأربعة من حياته ، وتطور فيها فنه تطوراً سريعاً بازدياد خبرته ، فكثر الاقتباس والتقليد في المسرحيتين الأولى والثانية ، ثم استقل الشاعر بنفسه في مسرحيته الثالثة والرابعة والخامسة ، بحيث ترك الاقتباس واكتفى بالتاريخ ، ثم كمل استقلاله بنفسه حين خالف التاريخ كلية إلى الحياة يستوحي منها .

[يتبع]

---

(١) حافظ وشوقي ص ٢٢١

المسرحية

في شعر شوقي

— ٢ —

تأليف

محمود حامد شوكت

ليسانس في الادب الانجليزي

ودبلوم معهد التربية العالي وماجستير في الآداب

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٧

الفصل الثاني

مصرع كليوباترة

المسرحية والتاريخ

غير شوقي في بعض الحوادث التاريخية لهذه المسرحية ووجه المسرحية بحيث تدافع كليوباترة عن سياستها . وينقسم النقاد فريقين حول علاقة الكاتب بالتاريخ : ففريق يرى أن الكاتب المسرحي مبدع مبتكر يخلق ويصوّر دون التقيد بحقائق التاريخ ، وله من الحرية ما يمكنه من مسايرة منطق الحوادث الروائية وطبيعة الجمهور . ويرى فريق آخر بأن الكاتب الذي يستمد موضوعه من التاريخ ويسمي المسرحية باسم تاريخي لا بد أن يتقيد بحوادث التاريخ ولا يخرج عليها .

والواقع أنه من التطرف التمسك بأحد الرأيين . وإنما نطالب الكاتب المسرحي الذي يستمد حوادثه من التاريخ بأن يحافظ على منطق التاريخ العام، ومنطق حوادثه الهامة، فيحفظها دون تغيير . فلا يغير الكاتب في الحوادث الرئيسية أو الشخصيات الرئيسية ، وإنما يبتكر ويبدع فيما عدا ذلك من ترتيب لهذه الحوادث بحيث يبرز الأزمة ويحلها حلاً مسرحياً شائقاً، ويبتكر ويبدع في إحياء الشخصيات ، وإلباسها أثواب الحياة ، فيتدسس إلى عواطفها وأهوائها وبواعث سلوكها بحيث تحيا أمامنا على المسرح . وبذلك يلتقي التاريخ والفن فلا ينقض أحدهما الآخر وإنما يكمله بطبيعته . والمثل الأعلى للكاتب المسرحي أن يخرج صور الحوادث والأشخاص إخراجاً موضوعياً يبرز فيه الصورة كما تتراءى لنفسها في الحياة ، ويتركها تسلك وتحاور على سجيتها وطبيعتها ، تبعاً لفهمه لها منذ البداية ، دون أن يفسدها بتدخله في أفعالها وأقوالها فيفقدها وحدتها الحية ، وشخصيتها التامة الكاملة .

وقد غير شوقي ثلاث حوادث رئيسية في المسرحية : فقد قرر التاريخ أن كليوباترة قد فرت من أكتيوم غدراً منها بأنطونيو، وصوره شوقي على أنه حدث يتمشى وسياستها التي

رمتها نحو روما ، وهي التفرقة بين أنطونيو وأكتافيو ، وتركهما يتحاربان حتى يضعف هأنهما وتظهر قوتها هي . ولم يذكر التاريخ فرار كليوباترة من معركة الإسكندرية البرية ، بينما قرر شوقي أنها فرت تمشياً مع هذه السياسة . وقرر التاريخ أن كليوباترة قد أرسلت الى أنطونيو من يبلغه بانتحارها فانتحر، بينما يرى شوقي غير هذا . وأوجد شخصية أخرى هي أولمبوس الذي يتولى إخبـار أنطونيو بذلك . وقد ذكر شوقي في النظرات التي كتبت بإيحائه في نهاية المسرحية بأنه فعـل ذلك دفاعاً عن كليوباترة ، وهو كما نعلم مخلص للبلاط يحاول الدفاع عن عيوب الملوك عامة ويبرر أخطاءهم . على أن هذا التغيير التاريخي لم يصحبه قيمة فنية تعوض عنه، فقد أضر بتصوير شخصية كليوباترة بحيث لا نعلم من أقوالها أو أفعالها أهي عاشقة لأنطونيو أم مخلصة لمصر . فهي حين تتكلم أمام أهل مصر وطنية ، وحين تقابل أنطونيو تتكلم كعاشقة له . وتظهر في بداية المسرحية عدوة لروما وأهلها وتتخلى عنهم ساعة الشدة وفي نهاية المسرحيـة تتذكر أنطونيو، وإنه ليقابلنا في الحديث الواحد تناقض بين هواها وواجبها ، فلا نعلم أيهما محور شخصيتها . وكثيراً ما ترتبك شخصيتها حين يظهرها وطنية على طول الخط فلا يفصل بوضوح في تعبيرها عن هواها حتى بعد ان مات أنطونيو وحين تنتحر، أو يجعل نواة شخصيتها صراع بين الهوى والواجب ، ويبرز هـذا الصراع في كليوباترة كما يبرز في أنطونيو ، ولم يتخذ أساسـه تغلب الهوى على الواجب كما صوره شكسبير في « أنتوني وكليوباترة » أو جون دريدن في مسرحيته « كل شيء في سبيل الحب ». أحد هذه المحاور الثلاثة ممكن وطيب أما بعضها أو كلها فيحدث خلطاً لا يؤدي إلا إلى ضعف الشخصية واضطرابها والمبالغة في تبرير عيوبهـا وافتقادها أبعاداً انسانية حية وطبيعية . ولنضرب لهذا مثلاً بحديث أنطونيو إلى تابعه قبل انتحاره فيبدأ ، بقوله : —

روما حنانك واغفري لفتاك ... أو أن منـك وآه ما أقساك

روما سلام من طريد شارد ... في الأرض وطن نفسه لهلاك

انه الذي بالأمس زنت جبينه ... بالنـار عقك جهـده وعصاك

الأمهـات قلوبهن رقيقة ... ما بال قلبك لم يلن لفتـاك (ص ٧١)

وينتهي فيها بقوله : —

صفحاً كليوباترا قربت زلة   قد كنت تغتفرين حين أراك
حتى إذا حمّ القضاء وراعني   عطل المقاصر من بهاء حلاك
ضحيت بالدنيا وقلت رخيصة   وبذلت أيامي وقلت فداك

ولا يقتصر هذا الازدواج المتناقض بين عاطفتين متناقضتين على أنطونيو ، وإنما يرد في حديث كليوباترة قبل أن تنتحر . فتقول في بداية حديثها : —

اليوم أقصر باطلي وضلالي   وخلت كأحلام الكرى آمالي
وصحوت من لعب الحياة ولهوها   فوجدت للدنيا خمار زوال (ص ١٢١

وتقول في نهايته : —

يا ابنتي ودي هاتا   زيناني للمنية
غسلاني طيباني   بالأفاويه الزكية
ألبساني حلة تعجب   أنطونيو سنية
من ثياب كنت فيها   أتلقاه صبية (ص ٢٤)

فهو جامع أيضاً لعاطفتين متناقضتين ليس من المحتمل أن توجدا في الحياة في الحديث العادي . وقد كان من الممكن أن يحال شوقي شخصيتها كمصرية وطنية لو أنه جعلها تتخذ من جمالها وسيلة تفتن بها أنطونيو واكتافيو كما فتنت يوليوس قيصر من قبل، على أن يدعها تعمل بإيجابية أكثر من تلك السلبية المطلقة التي تقفها أمام صراع أنطونيو واكتافيوس .

فصول المسرحية

وتنقسم المسرحية عند شوقي إلى فصول أربعة : يرتفع الستار في الفصل الأول عن نشيد ينشده العامة خارج قصر الملكة ، ويتغنون فيه بانتصار موهوم . وينتقل الحوار إلى غرفة المكتبة ويدور بين رجالها ، ويعلقون على هذا النشيد تعليقاً عدائياً يذكرون فيه هزيمة الأسطول وخديعة الملكة لشعبها ، ويعلقون على هذا ويعرضون بعلاقتها الآثمة مع أنطونيو . وتحضر الملكة فتقص على القوم فرارها من أكتيوم ، وتبسط سياستها أمامهم ثم تدخل لتصلي ، على أن أهل المكتبة ما زالوا في موقفهم العدائي منها . ويختتم المنظر بنشيد ديني .

حقّـاً قدم لنا الفصل الأول الشخصيات الرئيسية . ولخص لنا الموقف، إلاّ أن الأزمة لم تتضح بوادرها واتجاهاتها تماماً . ولم يخل الفصل من استطراد غنائي يلخص بوسائل القصة ما يجب أن يمثل تمثيلاً مسرحيّاً ، كما يقص حابي ما رآه بالأمس (ص ٢) . وتبسط كليوباترة سياستها وما فعلته في أكتيوم بهذه الطريقة . وهذا اتجاه سيخترم منهج شوقي كله .

ولذلك لزم وجود منظر آخر يتمم المنظر الاول نرى فيه أنطونيو ونلمس العلاقة الفعلية بين البطلين والاتجاه الواقعي للمسرحية . ويمهد لظهور أنطونيو وكليوباترة معاً ظهور حابي وهيلانة الذين تفاجأهما كليوباترة وأنوبيس، وتكشف الملكة عن حبهما، وتسأل أنوبيس أن يباركه، ثم يدور الحديث حول المعركة الدائرة على أسوار الإسكندرية وانعدام أخبارها . فالمقدمة للموضوع الرئيسي لا تبين طبيعته تماماً . وإنما تظهر عليها مسحة التكلف . ويدخل جندي من جنود أنطونيو ليعلن انتصار سيده ، ويتبعه سيده في موكبه الظافر ، وهنا يحدث ما يناقض ما ذكرته كليوباترة في بداية المسرحية . إذ تستقبله كليوباترة استقبال العاشقة ، ويشكو إليها أنطونيو هواه وما أبلاه في الحرب ، ويعبر خيانتها له ، وفرارها من المعركة عبوراً قد يثير دهشتنا . ولكن هكذا أراده شوقي شخصاً لا يستطيع مقاومة الحب أو يصبر عنه ، وعاجزاً عجزاً تامّـاً عن سلواه والبعد عنه وتبريره بشتى الوسائل ، وقد يبدو هذا غريباً عما يصف به أنطونيو نفسه ، ويصفه به أتباعه ، كرجل حرب، وبطل قتال ، ويبدو غريباً أيضاً أن تمرّض كليوباترة بروما والرومان طول المنظر، وهم ضيفانها ، وتعتمد عليهم في محاربة اكتافيو ، وتعلم أنه من مصلحتها كسبهم إلى جانبها في هذه الآونة . ولكن أراد شوقي أن يستعجل الأزمة بأي شكل فيجعلهم يعبرون عن عدائهم لها، ويجعلهم يضمرون لها الشر . وبهذا ينتهي المنظر الثاني .

ويغلب على الظن أن منظر مطارحة الهوى بين حابي وهيلانة، وبين كليوباترة وأنطونيو، قد أغرى شوقي فاسترسل فيه استرسالاً أفسد التطور الدقيق للموضوع ، إرضاء للجمهور الذي تجتذبه هذه المناظر العاطفية . على أن هذا الإغراء قد أضرّ بالقيمة الفنية للفصل .

وفي الفصل الثاني ترفع الستار عن منظر الوليمة ، وتكثر مناظر الغناء والرقص ، ويأتي

العرّاف يقرأ الأكف ، على أننا نستطيع أن نلمس اتساع الأزمة التي ظهرت بوادرها في الفصل الأول وآفاقها ، إذ يقرر الرومان الانصراف عن قائدهم الضعيف الخاضع لأهوائه . ويلهو العاشقين لهواً قد يظهر غريباً في كليوباترة كما أرادها شوقي ، ويستمتعان بالطعام والشراب والغناء ومشاهد الرقص . ويقرأ العرّاف لهما الأكف دون أن يعبأ بالغد القريب. وقد ورد في هذا الفصل نشيدان أحدهما عن الخمر ينشده الشاعر ، والآخر هو نشيد الحب والحياة ، وقد نسبه شوقي إلى كليوباترة ، فجعل منها شاعرة ، حتى يجد النشيد لنفسه مكاناً في الفصل مع ما فيه من استرسال غنائي خارج عن التطور الدقيق للحوادث . بل ويزيد في اظهار كليوباترة بمظهر العاشقة . ويخرج أولمبوس ويعلن القواد عن بوادر التمرد : وهكذا ينتهي الفصل بحيث يطغى المنظر بما فيه من غناء ورقص ، على الحركة والتطور المسرحي . ولعل شوقي قد دفع إلى ذلك مساقاً بميول الجمهور كما نلمسها في المسرح الغنائي .

ويفاجأ الجمهور في الفصل الثالث بهزيمة أنطونيو دون أن يلمس تطوّر الحوادث بين الفصل الثاني والثالث . ولعلّ شوقي قد لمس ذلك وحاول أن يخفف من وطأته ليجعل المنظر يتردد بين داخل المعبد وخارجه حتى لا يقتصر المنظر على شخصيتين تتحدثان لمدة طويلة ، بينما امتلأ الفصل السابق بالشخصيات. فيرى الجمهور أنطونيو وتابعه أوروس ، وأنطونيو يشكو نكد طالعه ، وأفول نجمه ، وخجله من فراره ، وأوروس يعزيه ويحاول تخفيف وقع الكارثة . ثم يناجي روما وكليوباترة في حوار طويل (ص ٧١) وهو أقرب إلى القصيدة التي تلقى منه إلى حوار يمثل ، وقد استعان عليه الممثل أول مرة بالغناء . وهو علاج خارجي لا يخفف من عيبه المسرحي . ويرتد المنظر إلى داخل المعبد حيث يناجي أنوبيس أفاعيه في حديث عن العلم والسموم . وهو متشائم من بني البشر . ويدخل حابي معلناً هزيمة أنطونيو ، وهنا يبرز شوقي الذي دافع عن كليوباترة كملكة فعالة (هي السيف والآخرون العصى) ويتهم حابي كواحد من (فرسان المقال) رغم وطنيته وثورته على ملكته ، ورغم عدم وجود ما يؤيد محاولة كليوباترة الدفاع عن مصر في المسرحية ، ورغم اخلاص حابي لوطنه ومحاولته جمع حزب مصري من زملائه .ويعطي أنوبيس لحابي ترياقاً للسم ، بطريق الصدفة ، إذ ربما احتاج إليه . ثم تدخل الملكة لتتحدث عن هزيمة أنطونيو ، وتسأل أنوبيس الهداية

والنصح فيلح عليها أنوبيس بالانتحار صونًا لتاج مصر، ويعدها بإرسال الأفعى إليها ساعة الخطر مع حابى . ويرتد المنظر إلى خارج المسرح حيث يعثر الجنود على أنطونيو الجريح فينتقل إلى داخل المعبد ، ويكتشف أن كليوباترة ما زالت حية ، ويموت بين ذراعيها . ويحضر أكتافيوس ويراها لأول مرة ، ويتأكد من موت أنطونيو ثم يخرج .

ويظهر التفكك وضعف الحبكة المسرحية في هذا المنظر لتردده بين داخل المعبد وخارجه، سيما إذا تصورناه على خشبة المسرح ، ويلوح بعض التقدم في تحريك الحوادث وجمع الشخصيات بصورة لم تظهر في الفصلين الأولين من المسرحية كما يقل هنا الاسترسال الغنائى.

* * *

وفي الفصل الرابع تناجي كليوباترة أنطونيو الراحل ، وتقص لوصيفتيها خبر فشل سياستها التي لم يلمسها الجمهور لمسًا قويًا في طور التنفيذ على المسرح . وتحكي لهما عن مراوغة أكتافيو لها، ويدخل حابى ومعه السلة وتشتد حبكة الفصل بالتدريج، ويستجمع شوقي قدرته على النظم ويستعين بما على المسرح من أدوات خارجية تبث في الجو روح المأساة لظهور الأزهار الذابلة وسلة الأفعى والنساء الباكيات، ويغني إياس نشيد الموت وتودع كليوباترة آلها ووطنها في حديث طويل (ص ١٢٠) ثم تنتحر وتنتحر معها وصيفتاها، على أن حابى وأنوبيس يدخلان في هذه اللحظة وينقذان هيلانة، وينصرف حابي وهيلانة إلى طيبه، ويرثى أنوبيس كليوباترة ، ويدخل أكتافيوس وأولمبوس ، وتلدغ الحية أولمبوس، ثم يرثى أكتافيوس كليوباترة ويخرج وتسدل الستار على أسف أنوبيس والدعاء لروما بالشر .

وعيوب هذا الفصل هي عيوب الفصل الثانى من استرسال غنائى قوي يستعان على تمثيله بالغناء والاستعانة بأدوات خارجة عن تطور الحوادث وتحليل العواطف تحليلاً دقيقاً عميقاً، لا تحليلاً سطحيًا . على أن قدرة الشاعر تبلغ أقصى درجاتها فيه ويرتفع الشعر إلى أوجه وتبلغ فيه قوة التأثير قمتها بما حصل عليه شوقي قبلاً من خبرة سابقة في الرثاء . وما خبر في الحياة من حكمة وفلسفة تبلورت في نهاية الحياة .

حلل شوقي شخصياته تحليلاً ذاتيًا أكثر منه تحليلاً موضوعيًا، وتتفاوت نسبة ذاتيته في شخصياته تبعاً لقرب هذه الشخصية من عواطفه، وبذلك أتت الشخصيات مركبة من بعض نواحيها وبعض نواحي مزاج شوقي وفلسفته وآرائه السياسية والخلقية، بنسب متفاوتة.

فقد سكب شوقي الكثير من عواطفه في كليوباترة كملكة تمثل عرش مصر الذي اتصل به شوقي وحاول الدفاع عما يشينه، مادحاً لمحاسنها مبرراً لمساوئها. فهي كملوك مصر الذين يحبهم شوقي وان انحدروا من أصل أجنبي إلا أنهم تمصروا واتخذوا مصر وطناً ثانياً. وقد حاول شوقي جهده أن يهب كليوباترة كل فرصة للدفاع عن نفسها، والتعبير عن محاسنها، والإشادة بفضلها، على لسان من حولها، سواء تزلفاً منه أو حقيقة، ماراً مروراً طفيفاً على أخطائها. ولعل هذا هو مصدر اضطراب الشخصية وتحليلها على طريقته التركيبية التي تضيف صفة إلى أخرى، لا الطريقة التحليلية التي تشخص الصفة الرئيسية، وتحلل الصفات الأخرى من حيث اتصالها وتأثرها بهذه الصفة الرئيسية. وكليوباتره ملكة مصرية. فهي تقول:

أموت كما حييت لعرش مصر وأبذل دونه عرش الجمال (ص ٢٥٥)

وتقول أيضاً:

موقف يعجب العلا كنت فيه بنت مصر وكنت ملكة مصر (ص ١٥٩)

وهي ذات جمال يقول عنها زينون حين ألقاها أنه

يطأطىء رأساً لمجد النبوغ ويخفض رأساً لمجد الجمال (ص ١٤)

ويقول أنطونيو لها حين يلقاها

ردي على هامتي النار الذي سلبت فقبلة منك تملوها هي النار (ص ٣٤)

ويذكرها حين ينتحر بقوله:

لما لقيتك في الجمال وعزه قهرت قواي الظافرات قواك (ص ٧١)

ويذكرها وهو يحتضر بقوله :

كليوباتره زودّيني قبلة من ثناياك العذاب الشهيات (ص ٩٥)

وتقول عنها هيلانه : لم يحو شمسين الفلك (ص ٥)

ويقول عنها أنوبيس : شعاع المدائن نور القرى (ص ٢٨)

ويقول حبرا عن كفها : هذه كف إلّه جاء في زي النساء (ص ٥٢)

وتقول هي عن نفسها : وأنا المهاة وقد ملأت قاعا (ص ١٠٢)

وتقول عن عشاقها :

يموتون بي عشقاً ويشقون بالهوى فكم من حياة في يدي ومات (ص١١٥)

فالجمال صفة لازمة لها أراد شوقي أن يبرزها بقوة ، ويضاف إلى هذه الصفة صفة أخرى هي البيان فيقول عنها حابي . —

لسياس إنك قد سمعت حديثها كالسحر في الآذان حين يدار (ص ١٢)

ونسب إليها المؤلف المقدرة على قرض الشعر فيقول لها أنطونيو

وقولي الشعر علويًّا كما كنت تقولينا (ص ٤٠)

ويقول إياس :

غنني شعر ملاكي غنني شعر الإله (ص ٥٢)

وهي مغرمة بالقراءة فيقول عنها زينون :

تنسى ملكها بلقاء الكتب أو تنسى هواها (ص ٦)

وقد أراد لها المؤلف أن تكون أمًّا تحس عواطف الأمومة بقوة فتقول عن أولادها :

وقد اشتهي عيش الذليل لأجلهم فلا المجد يرضى لي ولا النبل يسمح

هذا جانب المادحين ، وقد اختصت بذمها جماعة ألقوا على عرضها التهم جزافاً وهم الرومان وحابي . فيقول حابي عن أهل الأسكندرية أنهم :

هتفوا لمن شرب الطلا في تاجهم وأصار عرشهمو فراش غرام (ص ٢)

وقال أترضى ان يكون سرير مصر قوائمه الدعارة والبغاء (ص ١٠)

ويقول عنها قائد روماني : قد اجترأت على روما البغي (ص ٤٢)

ويقول عنها أنطونيوس لاولمبوس .

صرّح أبن قل غدرت قل جددت بقيصر الثالث دولة الهوى (ص ٦٠)

وقد لخصت هي هذه التهم في قولها :

يقولون أنثى أفنت العمر في الهوى بهيمية اللذات والشهوات (١١٥)

وتدافع عن هذه التهم بقولها :

ولكن عشقت العبقرية طفلة وفي الغافلات البله من سنواتي (ص ١١٥)

وعاد حابي الذي أتهمها يقول أنها « أشرف الناس إحساناً ووجدانا »

ولم يبق إلا الرومان ، ومن الطبيعي أن يتهموها في عرضها .

ولكليوباترا جوانب أخرى تتلخص في حبها للحياة فهي تحب اللهو وتعشق وتفنى فيه وتضيف إلى ذلك كبرياء الملكة ووقارها . فهي تقول لأنطونيو :

أمض معي في لذة اليوم ودع همّ الغد (ص ٣٩)
لا نبالي إذا صفت بعدها ما يكدر

وتلهو حتى تصبح « سكرى تمثر في خليج عذارها » (ص ٥٨)

وهي تحب أنطونيو وتذكره في موتها فتقول للموت :

سر بي إلى أنطونيو في نضرتي ورواء جلبابي وزينة حالي (ص ١٢٢)

وتقول لوصيفتيها : ألبساني حلة تعجب أنطونيو سنية (ص ١٢٤)

على أنها رغم ذلك متدينة تهتف قائلة لأنوبيس :

صلّ من أجلي ولا تنس صغاري في صلاتك (ص ١٥)

كما تقول : إن الصلاة على شدة الزمان معينة (ص ٩١)

وهي ملكة ذات كبرياء . تقول وتفخر قائلة :

فإن تك بي خشية في النساء فلي جرأة الملكات الكبر (ص ٨٤)

وقد علم البرية أن تاجي عنته الشمس والأسر العوالي (ص ١٢٣)

وتقول للعرّاف خاتم الأيام أولى باهتمام العظماء (ف ٥٢)

وتقول وهي تودع الدنيا :

وقد اشتهي عيش الذليل لأجلهم فلا المجد يرضى لي ولا النبل يسمح (ص١٢٠)

وهي رغم ذلك رحيمة القلب تقول لوصيفتها :

أنت لي خادم ولكن كأنا في الملمات أهل قربى وصهر (ص ١٧)

وتتقن أساليب السياسة فتقول لأوروس :

الحرب فنك أوروس والسياسة فني (ص ٣٧)

ويلخص أنوبيس شخصيتها في قوله :

بفتي رجولتك للضحية والفدى فوجدت عندك فوق ما أنا راضي

إن تصبحي جسداً فنفسك حرة وعلاك سالمة وعرضك ناجي

سيقول بعدك كل جيل منصف ذهبت ولكن في سبيل التاج

حقًا إن كليوباترا متعددة الجوانب . على أنه يحق لنا أن نتساءل ما هي كليوباترا . وهل نشعر بها كائناً حيًا ؟ إنا لا نشعر بوجود شخصيتها ، ولا بالعاطفة الرئيسية التي تقودها . وما العبرة بتعدد الصفات والنواحي ، وإنما العبرة بتناسقها في ذات واحدة حول صفة تهب الشخصية كياناً . وقد أضاعها شوقي بمحاولته الدفاع عنها حين وصفها بالصفات الجيدة الطيبة ، وبتر الصفات الخبيثة . والإنسان الطبيعي مزيج من هذا وذاك .

تأتي بعد ذلك شخصية أنطونيو . وقد صوره شوقي بطلاً أعجزه الحب وسلبه الرجولة والشهامة ، وقد بالغ في تصوير ذلك إرضاء لشعور الجمهور لا إرضاء لنفسه وفنه ، ويذكر حياته الأولى قبل أن يتصل بكليوباترا بقوله :

فهمة قلبي في شراب وصبوة وهمة نفسي في علاء ومفخر (ص٧٤)

ويقارن بينها وبين حياته الثانية بقوله عن كليوباترا :

أخرجت أمري واختياري من يدي وتركتني نفساً بغير ملاك (ص ٧٢)

ولا نكاد نلمس فيه صفات الجندي التي تحكي عنه ،وقد وصفه بها كثيرون ، وتقول عنه كليوباترا أنه جيش « بمفرده في الروع جرار » (ص ٣٦)ويسميه حبرا إله الحرب (ص٤٨) ويسميه أوروس « إله الوغى » (ص ٦٧) ويقول له :

وقد كان سيفك غول السيوف وكانت قناتك غول القنا

وكدت إذا الموت أفضى إليك تحديته فانثنى القهقرى (ص ٦٧)

ويقول عنه جندي روماني أنه « هيكلاً عزّ في الرجال ضريبا »

قد عرفناه خير من هزّ رمحاً أو نضا صارماً ولاقى الحروبا (ص ٩٢)

وتسميه كليوباترا : محور الأرض وميزان الشعوب (ص ٩٥)

ويقول عنه أوكتافيوس : « سيفاً لروما باتراً » (ص ١٣٥)

وتقول كليوباترا: أنه غفور طيب القلب «وكم حقدت ثم أصبحت كأن لم تحقد» (ص ٣٩)

وتقول عن بشاشته :

ليس العبوس سنة لوجهك الطلق الندي (ص ٣٩)

ولكن لا نرى أنطونيو يعمل حتى نحس بهذه الصفات في كيانه ، ونحس بوجوده حيًّا ، وهي عيوب يشترك فيها مع كليوباترا .

ويظهر حابي بعد ذلك مثالاً للشباب الوطني الممتلىء بالحماس ، القليل العمل ، كما يريد المؤلف أن يصوره ، وقد شاء أن يجعل منه أداة تدافع عن كليوباترا بعد أن أتهمها . ويصوّر أنوبيس بصورة الوطني المتشائم . وتظهر وطنيته حين تطلب منه كليوباترا أن يصلي من أجل ولدها فيقول :

أزيس كيف أصلي على ابن يوليوس قيصر

أبوه عالٍ ولكن فرعون أعلا وأكبر (ص ١٥)

أما بقية الشخصيات من الوصيفات وأولمبوس فهي شخصيات ثانوية ، تظهر وتختفي أثناء المسرحية وتساعد الشخصيات الرئيسية على التعبير .

ولعله يجدر بالإشارة أن نذكر أن الشخصيات الثانوية أقرب إلى الحياة من أبطال شوقي، وقد زاد انسجامها، إذلم يقف في طريق تعبيرها الحر عن نفسها نزعة أخلاقية أو وطنية، أو تدخل من جانب المؤلف ، وعنها صدرت العناصر الفكهة والحركة والحياة والانسانية كما في أوروس وهيلانة وأنوبيس . ولم يتكلف الشاعر إكسابها صور العظمة والنبل المفتعل، ويقابل زينون الشيخ المحنك المجرّب الماكر حابي الشاب الصريح النظري المتحمس ، كما يقابله أيضاً أنوبيس المتشائم العملي ، وتقابل كليوبترا العاشقة هيلانة العاشقة أيضاً . وأولها يحف بحبها الاثم، ولا يحف حب الثانية إثم ، وحبذا لو اتجه فن شوقي إلى إبراز مثل هذه المفارقات ، مكسباً مسرحيته العمق في التشخيص وصحة المدلول .

الحوار

وقد تسببت معظم هـذه الأخطاء عن نوع الحوار الذي ارتضاه شوقي لفنه . وعيوب حوار المسرحيـة هي عيوب الكاتب البادىء الذي ما زال يتلمس الطريق ولم يكتشف بعـد الوسائل المسرحية النوعيـة التي يؤثر بها الكاتب المسرحي من عرض للأزمة وتطورها وتفاقها وحلها أو تشخيص وفلسفة ، وإنما يقارب حوار هـذه المسرحية نزعة القصيـدة والأناشيد المفتعلة إلى حدٍّ كبير، وقلة المرونة في تبادل الحوار، فتكاد تتوالى القصائد وتلقى بشكل خطابي . ولئن أطربنا منهـا موسيقى الشعر وجودة الوصف والغزل والرثاء والشكاة والعتب ، ولـكن ما هي قيمتها المسرحيـة التمثيلية الفنية ؟ — لعله من الخير أن نقارن بين فصول مشتركة من مسرحيـة « مصرع كليوبترا » « لشوقي » « وأنطونى وكليوبترا » لشكسبير لنرى ما كسب شوقي وما خسر بمذهبـه الغنائى ، وما كسب شكسبير وما خسر بمذهبه المسرحي التمثيلي.

بين مسرحية شوقي ومسرحية شكسبير

ألف شوقي مسرحيته في عصر خاص، وتأثر بأحداث خاصة اجتماعية ومسرحية ، وألف شكسبير مسرحيتـه في عصر خاص ، وتأثر بأحوال اجتماعية ومسرحية خاصّة . على أن للمسرحية قيمة فنية عامّـة من حيث تحقيقها لمطالب الفن المسرحي الرفيع، ومن حيث قيمتها الإنسانية العامّـة . ولا بدَّ حين المقـارنة من التخلص من العوامل البيئية الخاصّـة قدر الامكان ، وبنائها على أسس المسرحية، أي كمسرحية تمثل أمام الجمهور وعن طريق ممثلين وعن عرض الموضوع المسرحي وتحليل الشخصيـات وما بلغ ذلك من عمق ، وعن ارتباط الحوار بالشخصية والموقف وقيمته الأدبية والمسرحية، وعن القيمة العامة للمسرحية في تاريخ الأدب المسرحي عامة . ومذهب شوقي كما سبق القول مذهب غنائى يسترسل في نظم الشعر الغنـائى ويحاول التأثير في الجمهور والارتفاع به عن طريق الشعر أكثر منـه عن طريق التشخيص والعرض المسرحي للموضوع . ومذهب شكسبير مذهب التصوير المباشر للحقائق عن طريق عرض الموضوع عرضاً مسرحيًّـا كأزمة تتطوّر وتتوتر وتحل ، بحيث يحدث هـذا التطوّر

من داخل الشخصيات ، وينسجم معها فتؤثر حوادث الموضوع في سلوك الشخصيات وتؤثر الشخصيات في تحريك حوادث الموضوع كوجهين لعملة واحدة . ويعبر الحوار تعبيراً طبيعيًّا عما يقتضيه الموقف معبراً عن أهواء هذه الشخصيات العميقة وعواطفها كما تخرج الحرارة عن النار،والرائحة من الزهور . وقد دفع مذهب شوقي صاحبه إلى الخلط بين وسائل القصة وهي السرد والتفصيل والاسترسال ، بينما ساعد مذهب شكسبير صاحبه على أن يبتدع ويحلل في حدود ما اقتضاه المسرح . وقد وقفت في سبيل شوقي حياته الغنائية وتكوينه لأساليب خاصة لم يستطع أن يتخلص منها وهو في أواخر حياته ، ولم يستطع أن يكوّن دراسة عميقة جديدة لأسس فنه ، بينما ساعد شكسبير على اتقان فنه المسرحي حياته المتصلة بالمسرح من تمثيل وإخراج منذ بداية حياته . ولم يكن الشعر الغنائي عنده إلاّ مخرجاً ثانويًّا لعواطفه الجياشة، بل إن قصصه الطويلة الغنائية الأولى تعتبر مقدمة لميوله المسرحية قبل أن تصقل أو تهذب . وقد عبر فيها عما يجيش في أعماق قلب الانسان . يضاف الى ذلك عبقرية نادرة في تفهم أعماق القلب البشري وقدرة فذة على تصورها في لوحة ملسمة الشخصيات ، متسعة الأفق في الفلسفة والمدلول.

وبداية المسرحية في العادة شاقة عسيرة في تأليفها . وقد بدأها شوقي في مسرحيته بداية غنائية ولم تعرض عرضاً مسرحيًّا خالصاً . فيتردد الحوار الآتي بعد نشيد العامة بين حابي وديون : —

حابي : اسمع الشعب ديون كيف يوحون إليه
ملأ الجو هتافاً بحياتي قاتليه
أثر البهتان فيه وانطلى الزور عليه
يا له من ببغاء عقله في أذنيه

ديون : حابي سمعت كما سمعت وراءني أن الرمية تحتفي بالرامي
هتفوا لمن شرب الطلا في تاجهم وأصار عرشهمو فراش غرام
ومشى على تاريخهم مستهزئاً ولو استطاع مشى على الأهرام

حابي : أتذكر يا ديون إذ انطلقنا إلى الميناء نلتمس الهواء

وكان البحر كالميت المسجّى وكان الليـل الميت الرداء
ديون : نعم وهناك آنسنا سحاباً وراء الليل جللت السماء
فقلت انظر ديون ترى الجواري يطأنَ الماء همساً والفضاء
وأقبلت البوارج بعد عطلٍ سوائب لا دليل ولا حداء
رجعنَ رجوع فرسان أصابوا من الغزو الهزيمة والبلاء
فلم نسمع لملاّح هتافاً يبشر بالقدوم ولا نداء
حابي : فماذا قلت :
ديون:(قلت)ديون إنى أرى الأسطول بالويلات جاء
دخول الظافرين يكون صبحاً ولا ترجى مواكبهم مساء
فلما أصبح الصبح انتبهنا نرى الأسطول أزين ما تراءى
تبرّجت البوارج بعد عطلٍ وهزّت في ذوائبها اللواء
وردّد في المدينة أن روما عفـا أسطولها ومضى هباء
فضجّ الناس بالبشرى وكدّوا حناجرهم هتافاً أو دعاء
هداك الله من شعب بريء يصرّفه المضلل كيف شاء (٢)

هذا شعر طيب النسج حقـًا ، ويلخص تلخيصاً جيداً ما حدث وما مضى . ولـكن هل حلل شخصية كل من المتكلمين تحليلاً يجعلنا نحسهما كائنين حيين لـكلٍّ شخصيته ؟ وهل مثل الحادثة أمام الجمهور تمثيلاً مسرحيًّا ؟ أغلب الظن أن شوقى قد اكتفى بالحوار عن الحركة في معظم المواقف ، وجعله يصور الحوادث ويصف الشخصيات . فلنحاول إذن أن نوضح ذلك بتمثيل الحادثة تمثيلاً مباشراً ، وعرضها عرضاً مسرحيًّا تبرز فيه سمات الشخصيات وتحيا على المسرح وتبرز أعماق المواقف وتجلو خوافيها . هذه بداية مسرحية شكسبير : —

فيلبو : كلاّ . فقـد اجتاز هتر قائدنا الحدود . أنظر إلى هاتين العينين الجميلتين وقد لمعتا كالمشتري فوق خضم القتال وحشد الجنود ، وها هما تتوددان إلى هـذا الجبين الأسمر ،

وهكذا أصبح قلب القائد الذي حطم لوحات الصدر من درعه في الميدان كيراً تبرد به هذه النورية شهوتها . أنظر هاهما مقبلان (يدخلان) .

كليوباترا : إذا كان ما تزعم حباً فاشرح لي مداه .

أنتونى : ما أفقر حباً يحصى ويعد .

كليوباترا : سأقيم حداً أرى به مبلغ هواك .

أنتونى : إذن فاكشفي عن سماء أخرى ، وأرض غير هذه الأرض (يدخل رسول قيصر)

كليوباترا : إستمع إليه فلربما أتى بغضبة من فلفيا . ومن يدري — ربما حمل إليك أمر قيصر ونهيه لتفعل هذا وذاك ،وتفتح قطراً وتترك أقطاراً،وإلا اتهمتك .

أنتونى : كيف يا محبوبتي ؟ .

كليوباترا : إستمع إليه يا أنطوني . فربما كانت أخباراً من قيصر أومن فلفيا أو منهما معاً . ادع الرسل . أتستحي ؟ لعمري في حمرة وجهك إكرام قيصر، أم تراها من لوم فلفيا القاسية ؟

أنتونى :لتذب روما في مياه التيبر . وليطو صرح الامبراطورية العريض . الملك من طين ، ومن الطين يغتذي النـاس والبهائم . ولانبل ما في الحياة أن نتعانق ، ولتر الدنيا كيف نقف وحدنا دون نظير .

كليوباترا : يا للـكذبة الرائعة . ولِمَ تزوّج فلفيا ولم يحبها ؟ أتخالني بلهاء ؟

أنتونى : ولـكن حين تدفع كليوباترا ، وحب الهوى ، وساعتها الناعمة ... ولـكن لم تكدر صفو الزمن بأحاديث العتاب أو تفقد لحظة من الحياة دون لذة ؟

كليوباترا : إسمع الرسل أولاً .

أنتونى : أيتها الملـكة المعاندة التي يزينها كل فعل : حين تلوم وحين تضحك ، فيظهر كل ما فيها جميلاً . لن أسمع الرسل . وسنجول الليلة في أحياء المدينة نرى أنماط الخلق فلقد رغبت في ذلك (يخرجان) .

ديمتريوس : أو يستخف أنطونيو بقيصر إلى هذا الحد ؟

فيلبـوس : أحياناً يا سيدي ، حين لا يكون أنتونى . ويقصر عن السموّ الى مرتبة هذا الاسم النبيل .

ديمتريوس : لقد ما آسف . فإنه يحقق كلام العامة وكذبهم في روما ، وما آمل في الغد خيراً من هذا صاحبتك السعادة . (ظ — م) (ص ٢)

تصوّر بعد ذلك بدايتي المسرحيتين على المسرح . ففي مسرحية شوقي تتبادل الحديث شخصيتان وتنشدان الشعر لتلخيص الموقف . وفي مسرحيـة شكسبير يتنوّع الحوار بين الشخصيات فتتحدث شخصيتان حديثاً يبرز شخصيتهما كجنديين لا يعجبهما أنتونى العاشق وإنما ينظران فيه الى أنتونى الجنـدي ، ولا يفهمان لحبه معنى . ثم ينقضي هـذا الحوار القصير ليدخل أنتونى وكليوباترا ويمثلا تمثيلاً مباشراً هذا الحب ، فنلمس كما يلمس الجمهور، عمقه وسعته وسموه ، يضحي في سبيله بالملك ويرتفع في عالم لا يرتفع إليـه الآخرون ، وتنكشف فيه أعماق قلب أنتونى وأعماق قلب المرأة في كليوباترا بتنوعه وتعقده في نفسها اللعوب . حتى إذا ما علمنا ماهية حبهما اكتمل المنظر دورته فيخرجان وتعود الشخصيتان الأوليتان في حوار بما يتفق وشخصياتهما . ثم حدثني ، ألم تلخص هـذه الأسطر القليلة الأزمة وبوادرها وتدفع الحركة وتمهد للمنظر الثانى وتحوي من عناصر التنوع وعمق التحليل وسعة اللوحة من تصوير لحب في مجال عدائى ، ثم انظر إلى بداية شوقي التي تصوره في مجال عدائى فترى فيما اتجه إليه شوقي من محاولة التأثير بالشعر وكيف حال دون أن يتقن ما أتقنه شكسبير ؟ إن الشخصيات عنـد شكسبير حية تنبض بالحياة أمامنا ، ونشعر بنواحي قوتها وضعفها أحياء مثلنا ، ولا تجد هذه الحياة في شخصيات شوقي الجامدة الخشبية . وقارن بين المناظر المشتركة في المسرحيتين هي ليست بالقليلة لترى هـذه الصفات تتكرّر وتتفرّق في ثناياها . فقارن مثـلا بين أنطونيو يرجع منتصراً إلى كليوباترا في المسرحيتين ليتضح فرق المذهبين . ونقتطف من هذا المنظر الحوار الآتى : —

أنطونيو : لقد طاردناهم . هلمّ بأحدكم ليخبر الملكة بقدومنا . وفي الغد قبـل أن تطلع الشمس نسكب الدم الذي نجا اليوم منا . شكراً لـكم فقد حاربتم كما لو كان كل منكم أنتونى وحاربتم كما لو كان كل منكم إله . هيا إلى المدينـة وتحدثوا إلى أصحابكم وأزواجكم بما فعلتم . ولسوف يمسحون بدموع الفرح جراحكم

(تدخل كليوباترا)

يا أنهار العالم ، طوّقي بساعديك عنقي . واقفزي بجمعك إلى قلبي . وامتطي صهوة أنفاسي .

كليوباترا : ياسيد السادة . أيها العباب اللانهائي . أتأتي باسماً من شباك العالم الأعظم .

أنطونيو : يا بلبلي . لقد طاردناهم إلى مهادهم . أي فتاتي . لئن امتزج المشيب ببعض من أدكن الشباب فلنا عقول تغذي أعصابنا وتكيل للشباب صاعاً بصاع . انظري إلى هـذا الرجل واحملي إلى شفتيه يدك الحبيبة . قبلها أيها الجندي فقد حاربت كإله ينتقم من البشر .

فها هو أنطونيو الجندي لا يكافح إلا من أجل حبه الذي صار نواة روحه ، وغاية أعماله فانتصاره الحربي انتصار لحبه ، ونشوة ظفره نشوة حبه ولا يفقد شخصيته الرئيسية في موقف من المواقف مهما تعددت خيوطه وتشابكت أطرافه .

ولنقارن بينه وبين مقتطفات وردت في مسرحية شوقي تقابل هذا المنظر ، يقبل أنطونيو منتصراً إلى كليوباترا فتلقـاه ويسألها أن تقبله فتقبله . فتقول له :

اليوم تعلم روما أن ضرتهـا ... تقلد الغار من تهوى وتختار
اليـوم تعلم روما أن فارسها ... جيش بمفرده في الروع جرار
أنطونيو ، سيدي هل نحن في حلم ... أسالم أنت لا أسر ولا عار

أنطونيو : أسر وهمت كليوباترا أتظفر بي ... كأس المنايا على الأبطال دوار
لو كنت شاهدتني والحرب جارفة ... والصف تحتي بعد الصف ينهار
قد جن تحتي جوادي فهو عاصفة ... وجن كفي بنصلي فهو إعصار
رأيت حملة صدق غير كاذبة ... لا السيل يحملها يوماً ولا النار
لما صدمت جناحيهم وقلبهمو ... عن الخيام ومن أوكارهم طاروا
وما وجدت لأكتافيو وقادته ... ريحاً ولم أتبين أيه ساروا
ومالت الشمس أو كادت فراجعني ... شوق إليك قديم الداء سوار
حتى رجعت ولو أني طردتهمو ... لبات أكتاف عندي وانقضى الثار (ص ٣٦)

تظهر صعوبة هذا الحوار على المسرح إذا تصورناه ملقى من فم الممثل مما فيه من الحركة رغم ما فيه من جودة شعرية وطرب بالألفاظ . فهو حوار يدور بين شخصيتين اثنتين في المنظر كله ، ويطول دون أن يتنوع أو يكشف عن حقيقة جديدة في الموقف أو جانباً من جوانب الانسان العميقة . وهو يلخص تلخيصاً سطحيّاً ما يدور من حوادث النفوس ونوازعها .

وسنلمس في مسرحية شكسبير صوراً من التعقيد المسرحي النوعي الذي لا ينتبه إليه شوقي ويثير بها شكسبير في مسرحيته عوامل معنوية تحدث أصداء في المسرحية وتثير وسائل تهكم مسرحي عام، وإحدى صور هذا التعقيد هي العرّاف . فقد اتخذه شكسبير أداة ترمز إلى غموض القدر وعجز الشرق الصوفي الخيالي أمام الغرب العملي ، وتكررت ألفاظه فوسعت الأفق المسرحي حتى اتصلت عناصرها بعناصر الكون ، وزادت من عمق مدلول الحوادث وسمتها الإنسانية، فيذكر العرّاف لأنطونيو أن حظه يتضاءل كلما اقترب من قيصر « فابتعد عنه » ، ويرد أنوبيس على العرّاف في بداية المسرحية « مصيري ومصير جماعتنا هو أن نشمل حتى النوم » بينما يقول العرّاف لأنطونيو :

حياتي في يديه والناس يحيون قسرا
إن شئت عمرت نهاراً أو شئت عمرت دهرا

ويقول لكليوباترا : ملكتي يومك في الأيام منشور اللواء
خطر العز عليه ومشى فيه الأباء
ثم يتلوه بقاء لم يطاوله بقاء

فذلك شعر غنائي أكثر منه شعر مسرحي ، يتصل بالشخصية التي تتحدث عنه ، وقد يعجب القارىء ولكن لا يصلح للمسرح الذي يرمي إلى تمثيل الحوادث تمثيلاً يخاطب عقل المتفرج وخياله وعواطفه كما يخاطب سمعه ، بل أكثر مما يخاطب سمعه .

ولنقارن بعد ذلك بين منظرين جمع لهما المؤلفان عبقريتهما وقدرتهما على التصوير والتأثير حين تتوتر الأزمة إلى أعلى نقطها ، وتبرز شخصيات المأساة إلى أسمى مراتبها ، فيسطع نورها قبل أن تنطفىء . ولنبدأ بالمقارنة بين منظري انتحار أنطونيو في المسرحيتين:

أنتوني : ضاعت آمالي وخانتني هذه المصرية الدنيئة ، واستسلم أسطولها للعدو ، وها هم رجالها يقذفون بقبعاتهم إلى أعلى كمن يلقى صديقاً غائباً . أيتها العاهرة ثلاثاً ، قد باعتني إلى هذا المحدث الجديد . دعهم يهربون وسأتم أعمالي بعد أن أحطم السحر .

أيتها الشمس . لن أرى المشرق بعد اليوم ، وسأصالح مجدي الآن . أو ينتهي كل شيء هكذا ؟ فتذوب قلوب تبعت قدمي ، وحققت أمانيها فيّ ، لقد خانوني . وأنت أيتها النفس الكاذبة والساحرة الخطيرة ، من أجل عينيها أثرت الحرب ، يا من دعوتها ملكتي وصدرها تاجي ومهادي . لقد خدعتني (تدخل كليوباترا) —

ابتعدي أيتها الساحرة أو تنالك يداي بالأذى ، اخرجي أو تنالين ما تستحقين أو أشوّه نصر قيصر . دعيه ينالكِ ويعرضكِ على غوغاء روما الصاخبين . وليأخذكِ درة في تاج نصره ، ويعرضكِ كما تعرض الوحوش على العامة ، وتخدش أكتافيا وجهك بأظافرها . (تخرج كليوباترا)

أما زلت تشهدني يا إيروس — قد نرى أحياناً سحابة نحسبها وحشاً ، وبخاراً نحسبه أسداً ، أو نمراً ، أو قلعة مشيدة ، أو جبلاً متشعباً ، أو صخرة هائلة ، فيسخر الوهم من أعيننا . أرأيت هذه الظواهر ؟

إيروس : نعم يامولاي :

أنتوني : أيها التابع الطيب ، هكذا مولاك الآن . لكني لا ألمس هذا الشخص فيّ لقد خضت الحرب من جرائها . ولقد ظننت أن بيدي قلبها إذ كان قلبي بيدها لقد ضاعت مني واتصل مصيرها بقيصر . وصار مجدي نصراً للعدو . لا تبكي يا إيروس . فقد بقيت لنا أنفسنا لنقضي على أنفسنا (وحين تخبره ماريان بموت سيدتها يقول) :

أماتت ؟ إذن أنزع الدرع يا إيروس . لقد انقضى عبء النهار الطويل ، وعلينا أن ننام . دعني ، إنزع الدرع يا إيروس ، فان يمنع درع آشيل انهيار

جوانبي، جانبي انشقا وحطما هذا الهيكل الواهن ، إليك عني يا إيروس فلست الآن جنديًا ، تداعي أيتها الأشلاء المرضوضة . دعني يا إيروس ، سألحق بكِ يا كليوباترا . كل زمن يمر عذاب . لقد خبا السراج . سأقضي وأنهي الأمور وأفسد عمل قيصر . ولن يحطم العنف إلاّ العنف . إيروس . سآتي يا ملكتي . إيروس سنخطو يداً في يد، وندع الأشباح تنظر وتتبع . إيروس .

إيروس : ما يريد مولاي :

أنتوني : لقد صحبني العار منذ ماتت كليوباترا . وتحتقر الآلهة دناءتي . قد قسمت العالم بسيفي وصنعت بيدي ملكاً على ظهر البحر . والآن تعوزني شجاعة امرأة وعقل سيد . لقد أقسمت يا إيروس حين يدلهم الخطب — وقد ادلهمّ الآن — أن تقتلني . فافعل فقد حان الوقت هيا ودع الدم يجري في وجهك .

إيروس : أوَ أفعل ما لم تفعله السهام المعادية وأخطأت ولم تصب ؟

أنتوني : إيروس . أتحبس في نوافذ روما ؟ وترى مولاك مكبلاً بالحديد ، يحني هامته ويخترم العار وجهه وأمامه قيصر الظافر ؟

إيروس : لن أرَ هذا اليوم .

أنتوني : إليّ إذن ، لن تشفيني إلاّ الجراح ، انزع سيفك الأمين .

إيروس : عفواً يامولاي .

أنتوني : ألم تعدني بذلك حين أطلقت سراحك ؟ أم كان ولاؤك حدثاً طارئاً ؟ انزع سيفك .

إيروس : إذن فأدر عني وجهك النبيل ، فقد كان قبلة العالم أجمع . ها قد نزعت سيفي .

أنتوني : فافعل ما سللته من أجله .

إيروس : وداعاً أيها السيد العظيم . سأطعن الآن .

أنتوني : الآن يا إيروس .

إيروس : ولِمَ إذن ؟ هنا الموضع فأهرب من الجزع (ينتحر) .

أنتوني : لأنت أنبل مني ثلاثاً . منك تعلمت ما أفعل . لقد سبقتني في معرض النبل .

سأجري الآن إلى الموت كروح يسعى إلى سرير العرس . وسيموت تلميذك يا إيروس تلميذك (ويطعن نفسه) ما ذا ؟ لم أمت . (ينقل الى كليوباترا) .

كليوباترا : أيتها الشمس إظهري واحرقي مدارك .

أنتوني : سلاماً ، لم يحطم قيصر أنتوني وإنما تغلب أنتوني على نفسه .

كليوباترا : هذا ما يجب أن يكون فلم يخضع أنتوني أحداً غيره ولكن واحزناه .

أنتوني : إنني أموت يا مصر ، وقد سوفت في موتي حتى أنال من آلاف القبل القبلة الأخيرة — لا تحزني أو تندبي نهايتي . عيشي على الماضي حين عشت سيد العالم . ها أنا لا أموت جباناً .

كليوباترا : يا أنبل الناس كيف تموت ؟ ألا تعبأ بي ؟ هل أبقى هنا في هذا العالم الجامد الذي لا يفوق في غيبتك حظيرة ؟ لقد ذاب تاج الأرض وإكليل الحرب وعماد الجند وتساوى الفتيـة والفتيات بالرجال . لقد زالت الفوارق ولم يبق تحت القمر الراحل ما تحيا به . وهل أنا إلاّ امرأة تقودها عاطفتها كمن تبيع اللبن وتؤدي أحقر الشئون ؟ لقد قذفت الآلهة بصولجاني ، كان عالمنا كعالمهم حتى سلبنا من جوهرتنا . والآن كل شيء عدم والصبر بلاهة ، أمن الاثم أن ألج باب الموت الخفي ؟ كيف يا نسائي ؟ الشجاعة لقد خبا السراج وانطفأ . الصبر يا قوم ، سندفنه ونعمل ما هو جريء نبيل ، سندفنه في موكب روماني ، هيا فقد برد ذلك الهيكل الذي حوى تلك النفس الكبيرة ، لم يبق لنا يا نسائي من صديق إلاّ العزم والموت .

نرى في هذا المنظر البطل في بؤرة الاهتمام تحلل عواطف وتسير إلى نهايتها المحتمة نحو المأساة سيراً نفسيًّا متماسكاً . وتحبك الحركة المسرحية وترتب المفاجأة ويتبادل الحوار فيطول ويقصر تبعاً لحاجة الموقف، وتجرى عواطف الشخصية فتنمو عناصر المنظر وتتطور نحو النهاية، ولننتقل بعد هـذا إلى نظير هذا المنظر في مسرحية شوقي . ها هو أنطونيو مهزوم يخاطب تابعه بقوله :

أوروس إني جهـدت مضياً ومسني الضر والـكلال

قل بنا نستريح قليلاً من قبل أن يدهم الرجال (يجلس منهوكاً)

اوروس
ماذا دهاني حتى نسيت مكاني
كان الملوك عبيدي فصرت عبد الحسان
ولست أول حر استعبدته الغواني
ولم أر كالحرب استراح قتيلها وأفضى إلى القيد الأسير المقيد
ولكن شقي الحرب والمصطلى بها إذا انفضت الحرب الطريد المشرد
ولولا اختلاف الحرب بالناس لم يهن عزيز ولم ينزل على القيد سيد

فيرد عليه أوروس قائلاً:

وقارك قيصر لا تجزعن وخلّ المقادير تجر المدى
فما أنت أول نجم أضاء ولا أنت أول نجم خبا
أما لك أنطونيو أسوة بيوليوس قيصر أين انتهى
رأيتك والحرب تبلو الكماة فاشهد كنت إله الوغى
وقد كان سيفك غول السيوف وكانت قناتك غول القنا

ويخبره أوروس بموت كليوباترا فيقول:

يا للسماء انتحرت أين أين ولم؟ وكيف كان ذاك؟ ومتى

اولمبوس: مررت بالقصر ضحى اليوم فلم أجد له نظماً ولا حسناً يرى
بدا لعيني خلاء موحشاً غير عويل هنا وهنا

انطونيو
انتحرت يا للخبر ويا لقسوة القدر
إن الأمور انتقلت من خطر الى خطر
ما غدرت وإنما أنا الذي بها غدر

ويناجي كليوباترا بعد ذلك في قصيدة تبلغ واحداً وثلاثين بيتاً كما يناجي روما ويعرض لماضيه. ويحدث بينه وبين أوروس ما حدث في مسرحية شكسبير. وينتقل إلى كليوباترا فيقول:

قد تداعى محور الأرض وميزان الشعوب

مال كالشمس جمالاً وجلالاً في الغروب
أيها المجروح لو تدري جروحي وندوبي
أيها الذاهب قد آن عن الدنيا ذهوبي
أيها الخالص وداً ليس ودي بالمشوب
عن قريب ينطوي القبر علينا عن قريب
كللوه بالرياحين وبالغار الرطيب
أيها الجند مات قيصر فابكوا معي السيد الجسور الوهوبا
شبكوا ساعديه من فوق صدر كان في الروع بالمنايا رحيبا (ف ٣)

إلى آخر هذه القصيدة البليغة في رثائها ، الضعيفة في تركيبها المسرحي . لم يراع فيها دراسة الموقف دراسة فنية عميقة ، ولم تعتبر مطالب الممثل والجمهور والإجادة الفنية في التحليل والتشخيص والحوار . ونفقد هنا التدرج الإنساني نحو الاستعداد للموت ، والتطور في تحليل العواطف بحيث تؤدي إلى حدوث الكارثة . ولا نجد في استجابة كليوباترا لهذا الموقف استجابة إنسانية تكشف عن موقفها من أنطونيو بوضوح، تستبين منه دقائق الصور وخلجات النفوس . وتنتهي المقارنة بعرض موت كليوباترا في كل من المسرحيتين .

ففي مسرحية شكسبير يلمس الجمهور استعداد كليوباترا الموت ويحسون بالنهاية آتية لا ريب فيها وترتفع رويداً رويداً إلى مرتبة القديسة التي تتطهر . تهيب كليوباترا بوصيفتها قائلة :

كليوباترا : اليّ بردائي وتاجي فبين جنبي تختلج آمال الخلود. لن يمس خمر مصر هذه الشفاه هلمى يا إيراس ، إخال انطونيو ينادي ويقوم من مضجعه يمدح مقالي ويسخر من قيصر . ها أنا يا زوجي جديرة بهذا الاسم . أنا هواء ونار ، تركت عناصري الأخرى للتراب. هلمي اليّ واسلبيني بقية من حرارة . وداعاً شرميون طويلاً (تقبل إيراس فتسقط ميتة) أو أملك الصبر في فمي — أهكذا تموتين ؟ واذا كان الموت سهلاً سريعاً هكذا فان وخزته كوخزة حبيب . أترقدين ساكنة ؟ إذن فلا يستحق العالم وداعاً .

شرميون : انفجري أيتها السحب الكثيفة . ها هي الآلهة تبكي .

كليوباترا : يا لدناءتي . ستقابل أنتوني قبلي . وسأفقد قبلة هي سمائي . إليّ أيها الثعبان القاتل وفك عقدة حياتي بنابك القاطع . ولو نطقت لسميت قيصر حماراً لا يفقه

شرميون : أيتها النجمة الشرقية .

كليوباترا: سلاماً سلاماً . ألا ترين ابني على صدري يدفع مرضعته للنوم ؟

شرميون : تحطمي وانفرجي .

كليوباترا : حلو كالبلسم — لين كالهواء اللطيف — أنطونيو — إليّ أيها الآخر (تموت) (ف ٥)

وفي شوقي تستعد للموت في قصيدة واحدة طويلة ترثي فيها نفسها وتذكر موتها فداء لمصر وتخاطب الإسكندرية ، ثم تتناول الأفعى وتنتحر . فهي قصيدة طويلة لا نجد فيها التدرج النفسي نحو المأساة ، وإنما يتارجح المأساة . عن طريق الشعر .

والفرق بين المنهجين واضح ، وهو أن شكسبير قد قرر لمسرحيته عالماً منسجماً يدور حول فكرة وفلسفة واحدة ، هي الهوى والتضحية في سبيله ، لم يختلف في ذلك انطونيو أو كليوباترا . وبذلك وضع لها قاعدة تتصل بنفوس النـاس وتهوي إلى أعماقهم . وصور الموضوع تصويراً إنسانيًّا شمل الكون وقارن فيه بين الغرب العملي والشرق الذي لا يعترف بالمادة . وملأ هذا العالم بأنماط عديدة من الناس وحللها هذا التحليل العميق البارع المعقد فأنطونيو يضحي بمجده وهو يعلم بضعفه ، ويهجر أكتافيا إلى كليوباترا وهو يعلم أن ذلك سيثير عليه سخط الرومان . وصوره متصـلاً بكليوباترا اتصالاً يجذبه إليهـا كما يجذب المغناطيس الابرة . وتظهر كليوباترا بمظهر المرأة التي تجمع في ذاتها حواء المتنوعة المغرية المعقدة الغامضة التي لا تفهم وربما لم تفهم نفسها . وأكسبها قولاً وفعلاً يتصف بالحيوية الشديدة . وأدار حول الـكوكبين الرئيسين شخصيـات ثانوية تقابل بين أهوائهما ويرتفع البطلان بالتدريج نحو المأساة فيصير الموت نصراً لا هزيمة ، ومجداً لا ضعة ، وتتحرك في أثناء ذلك من عالم من الرموز وتتشبع اللغـة بألفاظ الذهب والفضة واللآلىء والشموس والأقمار في تعبيراتهـا . وترى في هذا العرض الزائل من مال وجاه توافه بجانب هذه القيمة

الروحية الكبرى وهي الحب . هذا إلى تعقيد الموضوع والتشخيص وروعة اللغة وتطور الشخصيات مع انسجامها واتساع الأفق والمدلول الذي يحتضن عالم المسرحية ، فارتفعت المسرحية إلى قمة الوجود وهبطت إلى أعماق قلب الإنسان .

وربما اطلع شوقي على مسرحية شكسبير كما تدل على ذلك بعض الدلائل مثل أسماء بعض الشخصيات ومشابهة بعض الفصول والمناظر ، على أنه كان اطلاعاً عابراً سريعاً لم يدعه يتفهم أصولها ومراميها . وكانت النتيجة أن عني بشعره أكثر مما عني بشخصياته وموضوعه ولوازم المسرح والجمهور، ولم يعن بالقيمة الفنية العامة للمسرح، فاضطربت بعض الشخصيات الرئيسية لكليوباترا ، وفقد الموضوع تطوره المسرحي الدقيق من أزمة تتوتر وتحل ، وشخصيات ينبع من داخلها الموضوع وتحلل تحليلاً نفسيًّا عميقاً وسعى إلى التأثير في نفس جمهوره بوسائل هي الشعر آناً ، وأدوات مسرحية خارجية آناً آخر .

على أن عيوب هذه المسرحية هي عيوب الكاتب البادىء الذي يتلمس الطريق في تجربته الاولى، ولم يكتشف بعد طريق الكاتب المسرحي الماهر إلى نفوس الجمهور، أو يضع يده على وسائل إجادة الموضوع المتماسك والمفاجآت والشخصيات وإخضاع الحوار لها بشكل يرضاه قواعد هذا النوع من الفنون .

الفصل الثالث

مجنون ليلى

يتطور فن الكاتب المسرحي المبتدىء تبعاً للخبرة التي يكتسبها نتيجة لاتصاله بالمسرح والممثل والمخرج وتبعاً لاحتكاكه المباشر بالتمثيل ، مما يوضح له مطالب فنه بالتطبيق العملي ، فالى أي حد تطوَّر شوقي الشاعر الغنائي إلى شاعر مسرحي ، وإلى أي حد أثَّر شوقي الشاعر الغنائي في شوقي الشاعر المسرحي ، وإلى أي حد تطوَّر فن المؤلف في مسرحيته الثانية من حيث اتصالها بمطالب المثل والمسرح والجمهور ، وإلى أي حد اتفق عرض الموضوع وتحليل الشخصيات وإدارة الحوار مع المثل الأعلى للمسرحية ، وإلى أي حد تقدمت في منهجها على منهج مسرحيته الأولى ؟

سنلمس في مسرحية شوقي الثانية أوجه شبه بالمسرحية الأولى تصلها بها ، في تطور الموضوع وتقسيم فصوله ومناظره العامة ، على أننا سنلمس تطوراً في الصناعة المسرحية في تحليل الشخصيات وانسجامها وتطورها نحو المأساة ، ووضوح الأزمات والتحايل على إخفاء العيوب المسرحية في الحوار الغنائي باختيار موضوع يعرض لقصة هوى شاعر غنائي مثله ، في مجال من الشخصيات تعجب بالشعر وتنشده وترويه ، وأورد في ثناياه أناشيد ينشدها شعراء ومغنون سعوا إلى زيارة الشاعر . فالشعر مصدر البطولة في قيس ، ومصدر إعجاب الشخصيات الأخرى به ، والشعر مصدر خلود هذه المسرحية بما يصف من هوى متأجج في نفس البطل . وقد اجتذب الشعر أعداء قيس وأصدقاءه على السواء ، إذ يحسده منازل على براعته فيه ، ويأمر به أبا ليلى فيرويه عنه كارهاً ويستهوى به زوج ليلى ، ويسعى من أجله ابن عوف لينيل قيساً ما اشتهى ، ومن أجل الشعر يقصد الشعراء قيساً للتعرف به والتودد اليه ، فلا بد أن يجتذب الجمهور المسرحي ويدعوه إلى الاعجاب بالمسرحية

ولكن الشعر في المسرحية الجيدة لا يقصد لذاته . وانما هو وسيلة لادارة الحركة

المسرحية ، وحوادث الموضوع ، ووسيلة للتعبير عما يجول في أعماق الشخصيات حتى تتحرك نحو الأزمة ، فإلى أي حد حقق شوقي هذه المطالب الرئيسية ؟

اقتبس شوقي حوادث هذه المسرحية وبعض الحوار من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني،واختار من روايات الرواة والشعر المنسوب لقيس بعضاً منها دون أن يحوّر فيه كثيراً ، وأغلب الظن أنه اختار أكثرها طرافة وغرابة ، لا أكثرها تمشياً مع العادي من منطق الحياة والناس. واختار الرواية التي رواها بعض الرواة،وهي أنّ قيساً كان يهوى ليلى، وأحبها منذ كانا حبيبين يرعيان مواشي أهليهما ، ولم يزالا كذلك حتى حجبت عنه ، فأنشد في هواها شعراً ، واشتهر أمر هذا الهوى وذاك الشعر بين الناس ، ثم حيل بين قيس وبين ليلى ، فلما خطبها خيرت ليلى بينه وبين خطيب آخر هو ورد بن محمد العقيلي ، فاختارته وتزوجته على كره منها فيئس منها وشرد في البادية . وأكسب شوقي بعد ذلك القصة نهاية مسرحية هي يأس ليلى أيضاً ، وموتها، ثم علم قيس بذلك ومات .

وأورد شوقي في ثنايا هذه القصة ما اشتهر به قيس من عجائب وغرائب ، فقد ذكر ما رواه البعض من أن عمر بن عبد الرحمن بن عوف والى صدقات بني كعب وقشير والحرمين وحبيب عبد الله ، فنظر إلى المجنون قبل أن يستحكم جنونه وكلمه وأعجب به ، وسأله قيس أن يخرج به إلى آل ليلى وقال له « أكون معك في هذا الجمع ، فأرى في صحبتك ، وأتجمل في عشيرتي بك ، وأفخر بقربك ، فجاؤا رهط ليلى وأخبروه بقصته ، وأنه لا يريد التجمل به وإنما يريد أن يفضحهم في امرأة منهم يهواها ، ورفضوا وساطته فانصرف ابن عوف وانصرف قيس منفرداً عارياً لا يلبس ثوباً إلاّ خرقه ، ويخط في الأرض ويلعب بالتراب والحجارة ، ولا يجيب أحداً سأله عن شيء ، فإذا أحبوا أن يتكلم أو يثوب الى عقله ذكروا له ليلى فيقول ، بأبي هي وأمي . ثم يرجع إليه عقله فيخاطبونه ويجيبهم ويأتيه أحداث الحي فيحدثونه عنها وينشدونه الشعر والغزل . فيجيبهم جواباً صحيحاً وينشدهم أشعاراً قالها حتى وفد عليهم في السنة الثانية بعد عمر بن عبد الرحمن ونوفل بن مساحق ، فنزل مجمعاً فرآه يلعب بالتراب وهو عريان فقال له « ياغلام ، هات ثوباً » فأتاه به فقال لبعضهم « خذ هذا الثوب وألقه على ذلك الرجل » فقال له « أتعرفه جعلت فداك ؟ » فقال لا »

قال « هـذا ابن سيد الحي . لا والله ، ما يلبس الثياب ولا يزيد على ما تراه يفعل الآن . وإذا طرح عليه شيء قذفه . ولو كان يلبس ثوباً لـكان في مال أبيه ما يكفيه . فحدثه عن أمره فدعا به وكلمه ، فجعل لا يقبل شيئاً يكلمه به . فقال له قومه : « إن أردت أن يجيبك جواباً صحيحاً فاذكر له ليلى » ، فذكرها له وسأله عن حبه إياها . فأقبل عليـه يحدثه بحديثها ، ويشكو إليه حبه إياها ، وينشده شعره فيها . فقال له « الحب صيـّرك إلى ما ترى ؟ » قال « نعم ، وسينتهي إلى ما هو أشد مما ترى » فعجب منه وقال له « أتحب أن أزوجكها ؟ » قال « نعم ، وهل إلى ذلك من سبيل ؟ » فقال « انطلق معي حتى أقدم على أهلها بك وأخطبها عليك وأرغبهم في المهر لها » . قال « أتراك فاعلاً ؟ » قال « نعم » . قال « أنظر ما تقول » . قال « لك عليّ أن أفعل ذلك » ودعا بثياب فألبسه إياها وراح معه المجنون كأصح أصحابه ، ينشده ويحدثه ، وبلغ ذلك رهطها فتلقوه في السلاح . وقالوا له « يا ابن مساحق » لا والله ، لا يدخل المجنون منازلنا أبداً أو يموت . فقد أهدر لنا السلطان دمه » فأقبل بهم وأدبر فأبوا فلمـا رأى ذلك قال المجنون « ننصرف » فقال له المجنون « والله ما وفيت لي بالعهد » قال له . « انصرافك بعد أن آيسني القوم من اجابتك أصلح من سفك الدماء » .

ومن هذه القصص الغريبـة الغير مألوفة ما ذكره الرواة عن قصة النار . قيل لقيس : « ما أعجب شيء أصابك في وجدك في ليلى ؟ » . قال « طرقنا ذات ليلة ضيفان ولم يكن عندنا لهم أدم فأرسلني أبي إلى منزل أبي ليلى وقال لي . أطلب لنا منه ادماً فأتيته ، فوقفت على خيامه ، فصحت به ، فقال ما تشاء ؟ فقلت طرقنا ضيفان ولا أدم عندنا لهم ، فأرسلني أبي نطلب منك أدماً ، فقال ياليلى ، اخرجي إليه النحى ، فجعلت تصب السمن فيـه ، ووقفت نتحدث ، فألهانا الحديث وهي تصب السمن وقد امتلأ القعب ولا نعلم جميعاً ، وهو يسيل حتى انتقعت أرجلنـا بالسمن ، قال فأتيتهم ليلة ثانيـة أطلب ناراً وأنا متلفع ببرد لي ، فأخرجت لي ناراً في عطبة ، فأعطيتها ووقفت نتحدث فلما احترقت العطبة خرقت من بردي خرقة . وجعلت النار فيها ، وكلما احترقت خرقت أخرى واشتبكت بها النار حتى لم يبق عليّ من البرد إلاّ ما أداري عورتي » .

ومنها أيضاً قصة الظبي ، قيل للمجنون أي شيء رأيته أحب إليّ ؟ قال « ما أعجبني شيء قط فذكرت إلاّ سقط من عيني ، وأذهب ذكرها بشاشته عندي . غير أني رأيت مرة ظبياً فتأملته وذكرت ليلى ، وجعل يزداد في عيني حسناً . ثم إنه عارض الذئب وهرب منه فتبعته حتى خفي عني فوجدت الذئب وقد صرعه وأكل بعضه فرميته بسهم فما أخطأت مقتلاً . وبقرت بطنه فأخرجت ما أكل منه ثم جمعته إلى بقية سلوى ودفنته وأحرقت الذئب » .

ومنها أيضاً قصة حج قيس إلى الكعبة قالوا : بعد أن رفض أبو ليلى تزويجه من ليلى أيس منها وزال عقله جملة . وقال الحي لأبيه حج إلى مكة وادع الله عزّ وجلّ له ، فلعل الله أن يخلصه من هذا البلاء . فحجّ أبوه . ولما صاروا بمنى سمع صائحاً في الليل يصيح ياليلى فصرخ صرخة ظنوا أن نفسه قد تلفت فيها فسقط مغشيًا عليه . فلم يزل حتى أصبح ثم أفاق حائل اللون ذاهلاً . ثم قال له أبوه « تعلق بأستار الكعبة واسأل الله أن يعافيك من حب ليلى » . فتعلق بأستار الكعبة ثم قال « اللهمّ زدني حبًا وبها كلفاً ، ولا تنسيني ذكرها أبداً » فهام حينئذٍ واختلط عقله فلم يضبطه . قالوا . « فكان يهيم في البرية مع الوحش ولا يأكل إلاّ ما ينبت في البرية من بقل ، ولا يشرب إلاّ مع الظباء » .

ووردت غير ذلك أخبار عن لقاء قيس وليلى في حي الزوج الجديد .

* * *

واعتمد شوقي على هذه الأخبار التي لم يطمئن إلى صدقها صاحب الأغاني ، والتي لا تتمشى والمألوف من أمور هذه الحياة التي يحياها الناس . ففي الفصل الأول يظهر ابن ذريح في حي ليلى ويمهد في الحديث عن أمر قيس بحديث مع أهل الحي عن أخبار السامة والصحراء وعن الحياة في البادية والحضر . ويسوق الحديث عن الشعر إلى التحدث عن قيس ويروي خبر الظبي ويدعو ابن ذريح ليلى إلى الاهتمام بشأن قيس ، فتوضح ليلى له حقيقة مشكلتها منذ البداية فهي عاشقة لقيس ، مقرة بمبادلتها إياه هذا الحب ، على أنها لا تستطيع الزواج به لتشبيبه بها فتقول :

أنا بين إثنتين كلتاهما النار فلا تلحني ولكن أعني
بين حرصي على قداسة عرضي واحتفاظي بمن أحب وضني

وينصرف السامرون ، فيخلو المسرح للقاء قيس وليلى وتمثل قصة النار . فيحترق كم قيس وهو في نشوة نجواه لها ، ويغمى عليه ، فيقبل المهدي والدليل ، فتزيد العقبة القائمة بين زواجهما وضوحاً ، ويحث المهدي قيساً على الانصراف حتى لا يسمع القوم تشبيبه بها .

وهذا الفصل جيد من الوجهة المسرحية إذا قارناه بالفصل الأول في مصرع كليوبترا ، فقد قدّم للجمهور الشخصيات الرئيسية ، ولخص الأزمنة والحوائل القائمة ، وصحب العرض المسرحي عرض تمثيلي متنوع الحوادث فيعقب التمهيد تمثيلاً للموقف يجعل الجمهور يلمس الأزمة لمساً ولا يكتفي بسماعها ويبين بوضوح أمزجة الشخصيات وبواطنها ومحاور سلوكها. ويصحب الحوار الحركة المسرحية بصورة لم توجد في مسرحية شوقي الأولى .

* * *

على أننا نقابل النزعة الغنائية في الفصل الثاني من المسرحية ، ونلمس ضعفها المسرحي وهدفها الغنائي . فكما ورد في مصرع كليوباترا مناظر تعتمد في تأثيرها في نفوس الجمهور على الغناء والرقص والموسيقى ، بحيث تطغى هذه التأثيرات على الحركة المسرحية والتطور الرئيسي المباشر للموضوع ، كذلك ترد في هذا الفصل أناشيد الحوار وطرائف الأطفال دون أن تتصل اتصالاً مباشراً قويـّـا بالموضوع . فبعد أن تظهر بلهاء الجارية ، ومعها الذبيحة التي قرأ عليها العرّاف تمائمه ، ويرفض قيس أن يذوقها ، تظهر جماعتان من أطفال الحي ، وتتغنى الجماعة الأولى بهواه ، وتشـيد بفضله كشاعر ، وتذم الجماعة الثانية هواه وتشيد بإثمه ، وينصرف الجماعتين تابعه زياد ، ثم يغمى على قيس ويعثر عليه ابن عوف وهو مار بالطريق فيعرفه . ثم تمر قافلتان تنشد كل منهما نشيداً يعبر عن العاطفة الدينية في الجمهور ويشيد بالحسين . ويذكر اسم ليلى في أحدها فيصحو قيس ، ويحاور ابن عوف ويسأله أن يتوسط من أجله لدى آل ليلى . فيتبرّع ابن عوف بذلك .

ويظهر في هـذا الفصل صفات ضعف شوقي العام في فصله الثاني ، إذ يكثر فيه الحدو الغنائي ويقل العمل المسرحي الرئيسي . على أن الغناء في هذه المسرحية أكثر اتصالاً بالموضوع وبجاله ، من الغناء المجرد في مصرع كليوباترا ، ففي هذه المسرحية اتخذ وسيلة . ولو أنها واهية لا يقاظ قيس بينما يحتال عليه المؤلف في المسرحية الأولى فينشد الشاعر نشيد الحر

ويجعل من كليوباترا شاعرة ينشد لها المغني نشيد « الحب والحياة » وتبدأ الحركة المسرحية من نهايته .

وفي الفصل الثالث يبلغ الركب حي ليلى ، ويبدأ بتشجيع ابن عوف لقيس الذي يوشك أن يغمى عليه . فيظهر المهدي الذي يلوم ابن عوف على توسطه لقيس . ويستهوي ابن عوف بعض أهل الحي إلى جانب قيس ، فبينما تسعى جماعة أخرى إلى الفتك بقيس يحول المهدي دون ذلك ، ويبرز منازل خطيباً يريد أن يؤلب القوم عليه ، ثم يكشف بشر عن خبيئة نفسه ، وينتهي أمر منازل بمبارزة بينه وبين زياد خلف المسرح يختفي بعدها منازل ويذكر شخص أن آخر سيصير زوج ليلى هو ورد ، وينتهي الفصل بتأكيد هذه الحادثة ، وهي زواج ليلى منه وانصراف ابن عوف فاشلاً حانقاً . وينصرف قيس وهو موشك على الجنون وينتهي الفصل بإظهار ليلى لندمها على شرعها في رفض الزواج بقيس .

وفي هذا الفصل تبرز الأزمة الكبرى ويتحرك الموضوع بعدها نحو المأساة . وهو مليء بالحركة وعناصر التشويق كما في اختلاف القوم في أمر قيس . وبه صراع حسي واضح بين منازل وزياد ، وصراع نفسي غامض في نفس ليلى في نهاية الفصل ، وحبذا لو كان أكثر منه المؤلف وقلل من الصراع الحسي الأول . فالصراع النفسي أعمق أثراً وأجل قدراً من الصراع الخارجي المحسوس ، كما أن القضاء على منازل بهذه الصورة يبدو مفتعلاً إلى حد كبير فزياد في حبه ويشاركه في رأيه كثيرون ، ولا يبدو الموت عقاباً عادلاً له . على أن هذا المنظر لا نظير له في المسرحية الأولى كما سبق القول .

ويرتفع الستار في الفصل الرابع عن منظر من مناظر الجن بالقرب من ديار بني ثقيف ، وفي مقدمتهم الأموي شيطان قيس الذي يريد أن يحتفي بقدومه . والذي يخبر قومه بقصته ، ويقبل قيس ويحيط به الجن ، ويتحدث اليهم قيس الذي يقتنع بوجود شيطانه بعد أن كان ينكره ، ثم يسأله عن الطريق إلى ديار بني ثقيف فيدله عليها . هذا في المنظر الأول من الفصل . أما المنظر الثاني فيقبل فيه قيس الى دار ليلى ويلتقي مع زوجها الذي يمهد له لقاءه بها . ويلتقي قيس بليلى ويغريها بالفرار معه فترفض رغم حبها له ، ورغم ما لاقت في سبيله فيثور عليها ويهجرها . ويشتد اليأس المكبوت في نفس ليلى ، ويقوى الصراع النفسي فيها فتصرع

إلى منيتها . وتحدث المأساة بعد هذا الفصل خلف الستار .

ويعيب هذا الفصل ظهور الشياطين قبل ظهور قيس . والشياطين شخصيات مسرحية رديئة إذا ظهرت بشكل قاطع ، فهي لا ترى في الحياة. وربما أمكن تعليل وجودها بعد ظهور قيس على أنها أوهام عقله السقيم . وقصتها مع سليمان في بداية الفصل حشو لا يلزم للموضوع الرئيسي وكان من الممكن اختصاره بحيث تبرز فيه ناحية الشر الذي يدفع قيس إلى إغراء ليلى ، ويوحي له بهجرها ، فيكون تمهيداً طريفاً لحوادث المنظر الثاني ومشيراً الى الكارثة المقبلة . ويبرز في نهاية الفصل نهاية الصراع في نفس ليلى ، ويلمح للكارثة بقوة لم تظهر في مصرع كليوباترة . وحبذا لو كان المؤلف تعمق في تصوير هذه النوازع الانسانية وجعلها محور تطور الموضوع .

وتحدث مأساة قيس في الفصل الخامس . فيظهر على المسرح قبر ليلى ، ومناظر العزاء . ثم ينصرف القوم ويقبل الغريض وابن سعيد وأمية وسعد ، وفيهم المغني والشاعر ، ويتحدثون حديثاً يبعث على التشاؤم بما يذكر من القبور والموتى . وينشد الغريض نشيد وادي الموت ثم ينصرفون ، ويقبل قيس وحده ، ويقابله بشر ويعزيه . ويفاجأ قيس بنبأ موت ليلى فيغمى عليه عند قبرها ، ويدخل في دور الاحتضار الأخير ، ويرثي نفسه وليلى ويسب شيطانه ويناجي ظبياً سارحاً ، ويظهر ابن ذريح ويرثي ليلى ثم يحتضر قيس ويموت.

وفي هذا الفصل، كما في فصل موت كليوباترة في المسرحية الأولى، يستجمع الشاعر مقدرته الغنائية ، ويعتمد على أدوات مسرحية خارجية ليحدث عن طريقها التوتر المسرحي الحزن ، ويثير في الجو روح المأساة . ولم يتقن المؤلف بعد التدرج إلى الكارثة ، عن طريق تحليل الشخصيات ، وتطورها النفسي الطبيعي نحوها ، وإنما صبغ الشعر بروحه . وقد كان من الممكن أن نلمس حدوث الكارثة لوجود عيب في نفس قيس تنفذ منه المأساة إليه لا أن تلقى تبعتها على الشيطان في نهاية المسرحية ، فيقول قيس له : —

إذهب وإن لم أدر روح أنت ·أم شبح
كنت قرين السوء لي وكنت شر من نصح
لولاك ما بحت بما خدش ليلى وجرح

فعرض الموضوع في هذه المسرحية ، رغم الاسترسال الغنائي ، قد تقدم إلى حدّ كبير عنه في مصرع كليوباترا ، وتقسيم فصولها وحركتها وانسجامها ، فهي أقرب إلى المثل الأعلى من المسرحية الأولى ، على أنه لم يصور بعد التطوّر الدقيق لأزمة تتوتّر وتحل عن طريق التحليل النفسي العميق للشخصيات ، بل إن بعض الشخصيات قد صوّر تصويراً لا يتفق والواقع العادي من الحياة ، وكلها لم تبلغ بعد التعقيد الفني والعمق الإنساني البعيد ، ولم يزل الشعر رائد الشاعر الأول .

وأضرت الحوادث التي اقتبسها الشاعر من الأغاني والخاصّة بشخصية قيس والتي قامت على الكثير من الإحالات . يقول الدكتور طه حسين عن حب قيس « يظهر هذا الحب دائماً بصور غير مألوفة ولا ملائمة للطبيعة البشرية ، حتى طبيعة العشاق المدلهين ، فلست أعرف عاشقاً أغمي عليه كما أغمي على قيس ابن الملوح ، ولست أعرف عاشقاً شهق وزفر كما شهق ابن الملوح وزفر . كان يكفي أن تتحدث إليه ليلى بحديث يشعره أنها تحبه ليسقط على وجهه مغشيًّا عليه . وكان يكفي أن يذكر له شيء عن ليلى يدل على أنها تحبه أو يدل على أنها تعرضت لمكروه ليسقط على وجهه مغشيًّا عليه ، وكان يقضي حياته كلها أو أكثرها ساقطاً على وجهه أو هائماً على وجهه . وقصة المجنون سخيفة ضعيفة مملوءة بالإحالة والمبالغة لا يستطيع الناس أن يؤمنوا بها أو يطمئنوا إليها مهما يكن حظهم من السذاجة . وكيف يريدني على أن أومن بهذا الخبر الذي يزعم أن المجنون وقف يتحدث إلى ليلى وفي يده نار فأخذت النار تحرق برده حتى أتت عليه ، ونالت من جسمه ، وهو لا يشعر ؟ ثم كيف تريد على أن أصدق أن هذا الرجل جنّ وانتهى به الجنون إلى أن يهيم على وجهه ويستأنس بالوحش »

والواقع أن شوقي قد أجهد نفسه في أن يجعل محور شخصية قيس عبقريته كشاعر يفتن الناس بشعره ، ويبدو قيس منسجماً حين تصير هذه العبقرية محور شخصيته ، على أنه لم يبرأ تماماً من نوبات الجنون واستحالات الأخبار التي أصابت شخصيته بالضعف المسرحي ، وأخرجتها عن مألوف الحياة . وقيس ضعيف يبالغ في وصف ضعفه الشاعر ، ويقصد حين يوصف بالجنون ، فهو مهما نال منه العشق لا يضعف ضعفاً يدفعه إلى فعل ما نسبه إليه . وقد انتقد الرواة هـذه الصفات والحوادث التي رويت عن المصدر الأصلي،واحتاط صاحب

الأغاني في إيرادها . وكان على شوقي أن يفكر مليًّا قبل إيرادها وجعلها محوراً لشخصية بطله . وكان من الممكن أن يكون العاشق في حدود العقل ، ويظهر بهذا المظهر في بداية المسرحية كما في قوله :

إذا طاف قلبي حولها جنَّ شوقه   كذلك يطغى الغلة المنهل العذب

وقوله عن تداويه بقول الشعر :

فما أشرف الايفاع إلاّ صبابة   وما أنشد الأشعار إلاّ تداويا   (ص ٨)

وتمكن منه حب ليلى حتى رأى ملامحه فيما يرى من كائنات فيقول :

فمالي لا أحقق غير ليلى   وإن كثر السواد لدى حماها (ص ٥٢)

وكانت ليلى أسلم في تصويرها وأكثر انسجاماً من قيس من ناحية ، وكليوباترا من ناحية أخرى ، وقد اتخذ لها المؤلف صورة واضحة في ذهنه ، ولو أنه لم يتعمق في سبر أغوارها . على أنها اكتسبت ألواناً واضحة ، فهي فتاة بدوية موزعة بين إخلاصها لهواها وإخلاصها للتقاليد ، على أنها تنسى أحدهما حين تنغمس في الآخر ، فتنسى هواها حين تعطى الفرصة للفصل في أمرها . وتنسى التقاليد حين تخلو إلى قيس ولا تراها العيون . ومشكلتها واضحة في أقوالها للناس . فتقول لابن ذريح :

أنا بين اثنتين كلتاهما النـــار لا تلحني ولكن أعني   (ص ١٤)

بين حرصي على قداسة عرضي   واحتفاظي بمن أحب وضني

وتقول لابن عوف عن قيس :

إنـه   منى القلب أو منتهى شغله

ولكن أترضى حجابي يزال   وتمشي الظنون على صدله ؟   (ص ٧٨)

وتستقر على حال بعد الأوان فتقول لقيس :

كلانا قيس مذبوح   قتيـل الأب والأم

طعينان   بسكين   من العـادة والوهم

وتقول لنفسها :

أبقيس وبي هوى عبقري   يسلب العقل من ذويه ويردى

علة البيـد من قديم وداء   ضاع فيه الرقى وحار المفدى

ما ملاحاه حين يقتل إلا من عفاف ومن وفاء بعهد (ص ١٢)

على أنها تحيا أمامنا حين تتنازعها الدوافع المتضاربة ، ويبرز الصراع النفسي في داخلها ، وهو قليل في المسرحية كما في قولها :

رباه ماذا قلت ماذا كان من ذنب الأمير الأريحي وهاني
في موقف كان ابن عوف محسناً فيه وكنت قليلة الإحسان
قالوا انظري ما تحكمين فليتني أبصرت رهدي أوملكت عناني
ما زلت أهذي بالوساوس ساعة حتى قتلت اثنين بالهذيان (ص ٨٢)

وعند ما يسير هذا الصراع إلى نهايته المحتومة تشير إليه بقولها :

قلبي من اليأس حين حل به أحس يا ورد أنه انصدعا
المتمني بالعيش منتفع ولن ترى يائساً به انتفعا
القدر اليوم والقضاء على حربك قيس وحربي اجتمعا (ص١٢٢)

والمهدي صورة أوفر حظًّا من عناصر الإنسانية من البطلين . وتحيا فيه صورة البادية المتعددة الجوانب . وهو شيخ يمثل تقاليد البادية ويحافظ عليها ويقدرها ، وعنه ورثت ليلى صفاته ، على أن إنسانيته دائمة الظهور . فهو يحب قيساً رغماً عنه ويقول له وهو في غيبوبته :

أبا المهـدي عـوفيت ويا بورك في عمـرك
أراني شعـرك الو يل وما أروي سوى شعرك
كما لذ على الكره كلام الله المشرك (ص ٢٩)

وهو رؤوف بقيس يمنع عنه الأذى ويقول لقومه حين يريدون الفتك به : —

لا — دم قيس دمنا لا نقربه يكفيه منا أننا نخيبه
ونصرف الأمير عما يطلبه (ص ٥٤)

ويقول في ذلك أيضاً : —

دم الود والقربى وإن كان ظالماً عزيز علينا أن نراه يسيل (٧٣)

ويعطف على ابنته فيرد على ابن عوف حين يلومه على قسوته بابنته : —

أأظلم ليلى ؟ معاذ الحنان متى جار شيخ على ماله (٧١)

ويضحي بهذه التقاليد ويندم على تمسكه بها بعد أن تموت ليلى ويسبق السيف العذل .
ومنازل صورة لا بأس بها للمنافس ويكشف عن ذاتيته منذ البداية بقوله عن قيس : —

عدوي المبين وما بيننا ولا بين صاغيينا جفا
هام بليلى وهامت به لقد كنت أولى بهذا الهوى
وإني لأبدي إليه الوداد وأخفي له في الضلوع القلى (١٨)

ويستمر على هذه الصورة في المسرحية حتى يلقى حتفه ، محتفظاً بصفاته الرئيسية .

على أن تصوير الشخصيات ما زال بسيطاً ، تسير فيه الشخصيات العواطف الشائعة العامة ولا ينفذ المؤلف منها كثيراً إلى ما وراء سطحها وعناوينها ، ولم يسع إلى تحليل نوعي دقيق للشخصية . فلا نرى في قيس العاشق إنساناً خاصاً ، أو في ليلى إنسانة خاصة تميز كلاً بين أفراد النوع من عشاق البادية ، بل لا نرى فرقاً كبيراً بين هوى كليوباترا وهوى ليلى ولا تظهر في شخصياته تلك الخاصية التي نجدها في « روميو وجوليت » لشكسبير من حيث نوعية التشخيص والتحليل ، بحيث ننفذ إلى ما وراء النوع من فرد خاص فنلمس فيه كائناً حيّاً كالكائنات التي تعيش بيننا ، وتحتفظ بإنسانيتها في كل عصر . وأين قيس من روميو الشاب الخيالي الذي أحب في أول حياته لمجرد الفكرة ، حتى استقرت عواطفه فجأة حول جوليت ، الفتاة الساذجة التي تهوى فجأة ، وتحب حبّاً بسيطاً ساذجاً عنيفاً — ابن عدو بيتها — وأين تلك الصفة النوعية التي نجدها في باريس من منازل ، لقد شغل شوقي عن هذا العمق في التحليل والتعقيد الفني بالانصراف إلى الشعر ، غير مدرك لهذه الآفاق الواسعة البعيدة المدلول .

الحوار

وبينما حافظ شوقي على الصور الأصلية للحوادث التي اقتبسها من الأغاني وحافظ على بعض الشخصيات الرئيسية وصورها العامة ، حصر ابتكاره الرئيسي في التوجيه الغنائي للحوار ، وورد في المسرحية بعض شعر المجنون ، إمّا بأصله وإما مشطوراً ، وإمّا استوحى منها فاحتفظ بروحها وأعاد صياغتها . وما زالت الإجادة الغنائيـة مثله الأعلى ، وما زال محور مسرحه نظم الشعر على نظام القصيدة شكلاً ومادّة . بحيث لا يمكن التمييز بين ما ألفه شوقي

من حوار وما اقتبسه من شعر غنائي . فاللون الغنائي لون مسرحه بأجمعه . فمن صور الحوار التي اقتبسها الشاعر من الأغاني ما قاله قيس : —

أبى الله أن تبقى لحي بشاشة　　فصبراً على ما شاءه الله لي صبرا
رأيت غزالاً يرتعي وسط روضة　　فقلت أرى ليلى تراءت لنا ظهرا
فيا ظبي كل رغداً هنيئاً ولا تخف　　فإنك لي جار ولا ترهب الدهرا
وعندي لكم حصن حصين وصارم　　حسام إذا أعملته أحسن الهبرا
فما راعني إلا وذئب قد انتحى　　فأعلق في أحشائه الناب والظفرا
ففوقت سهمي في كتوم غمستها　　فخالط سهمي مهجة الذئب والنحرا
فأذهب غيظي قتله وشفى جوى　　بقلبي أن الحر قد يدرك الوترا

وورد في المسرحية على هذه الصورة في قول بشر عن قيس : —

رأيت غزالاً يرتعي وسط روضة　　فقلت أرى ليلى تراءت لنا ظهرا
فقلت له يا ظبي لا تخش حادثاً　　فإنك لي جار ولا ترهب الدهرا
فما راعني إلا وذئب قد انتحى　　فأعلق في أحشائه الناب والظفرا
ففوقت سهمي في كتوم غمزتها　　فخالط سهمي مهجة الذئب والنحرا

ومن صوره ما قاله المجنون لزوج ليلى يسأله عنها : —

بربك هل ضممت إليك ليلى　　قبيل الصبح أو قبلت فاها
وهل رفت عليك قرون ليلى　　رفيف الأقحوانة في نداها

وورد في قول قيس في الفصل الرابع من المسرحية بصورته الأصلية ، ومن ذلك أيضاً ما قاله قيس وورد في الأغاني والمسرحية قوله : —

وأجهشت للتوباد حين رأيته　　وكبر للرحمن حين رآني
وأذريت دمع العين لما رأيته　　ونادى بأعلى صوته فدعاني

ومما حوّر شوقي في صورته الأصلية ، أو استوحى منه شعراً ، ما ورد في الأغاني على هذه الصورة ، وهو من قول قيس : —

إذا ذكرت ليلى عقلت وراجعت   عوازب قلبي من هوى متذهب

وقوله : —

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى   فهيج أطراف الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما   أطار بلبي طائراً كان في صدري

وورد في المسرحية في قول قيس : —

ليلى منادٍ دعا ليلى نخفّ له   نشوان في جنبات الصدر عربيد
ليلى انظروا البيد هل مادت بأهلها   وهل ترنم في المزمار داود
إذا سمعت اسم ليلى ثبت من خبلي   وثاب ما صرعت مني العناقيد (ص٢٤)

وما ورد في كتاب الأغاني في قول قيس يصف ليلاه : —

وعلقتها غراء ذات ذوائب   ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا   إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم (١٢)

وورد في المسرحية على هذه الصورة ، كقول قيس يغري ليلاه بالهروب من زوجها :

أخذنا وأعطينا إذ البهم ترتعي   وإذ نحن خلف البهم مستتران
ولم نك ندري يوم ذلك ما الهوى   ولا ما يعود القلب من خفقان (١١٤)

وما ورد في الأغاني على هذه الصورة قول قيس في يائيته : —

أراني إذا صليت يممت نحوها   بوجهي وإن كان المصلى ورائيا (٦٨)

وورد في قوله في المسرحية يصف هواه : —

إذا الناس شطر البيت ولوا وجوههم   تلمست ركني بيتها في صلاتيا (٥٢)

وتبين هذه الشواهد الاتجاه الغنائي في الحوار في هذه المسرحية . وتعلل التصور المسرحي في إدارته ، كما تبين سبب البساطة في تحليل الشخصيات والبطء في تحريك الموضوع ، وتبين المثل الأعلى الذي سعى شوقي إلى بلوغه ، وهو التأثير عن طريق الشعر الذي يخاطب العاطفة ، ويطرب بما يتشبع به من صفات موسيقية .

على أن الحوار قد زاد في المرونة في هذه المسرحية ، ولئن عثرنا في مواضع متفرقة على استرسال في إنشاد الشعر ، يبرره حيناً تنفيس قيس به عما يجول بنفسه ، وما يشعر به من

حزن أو وجد أو يأس ، ولا يبرره حيناً إلاّ ارضاء الجمهور الذي يحب سماع الأغاني كما في الأناشيد التي تنشد لذاتها فتكون حشواً مسرحيًّا ، إلاّ أنه بشكل عام قد أتى أكثر اتصالاً بمواقف الموضوع، وتطور حوادثه ، وأتى قصير البحور والأوزان ، قليل الأبيات في الحوار الواحد ، ويحتال على العيوب الغنائية بالغناء بدلاً من الإنشاد .

ولا عجب أن بقيت هذه المسرحية من بين مسرحيات شوقي تمثل حتى اليوم . فموضوعها إنساني ، متصل بتاريخ العرب ، وشخصياتها بدوية طريفة ، وشعرها يستهوي النفوس ، ولو لم تبلغ بعد عمقاً في التحليل واتساعاً في لوحة التصوير ، والتعقيد في سبك الحوار ، وادارة الحركة المسرحية في شكل أزمة واضحة تتطور نحو المأساة من داخل نفسيات المسرحية. فقد شغل عنها شوقي — على ضرورتها المسرحية — بالحوار وإنشاد الشعر الذي يتصل بالشخصيات ، وإنما تكون الشخصيات والحوادث وسيلة إليه ، وبلغ التوفيق بين هذه العناصر المسرحية والأدبية غايته في مآسي شوقي في هذه المسرحية .

على أنه لا يجب المبالغة في تقدير قيمتها ، فما زالت مسرحية العشاق التي كتبها شكسبير ، والحوائل التي سببت حدوث هذه المأساة، تضع أمامنا صورة لما قد ترتفع إليه مسرحية تمثل هذا الجانب من الحياة . وقد كان شوقي شاعراً غنائيًّا انتقل إلى المسرح ، وكان شكسبير مثلاً اتصل بالمسرح من بداية حياته . ووفق كل منهما بقدر ما هيئت له ظروف الحياة من نجاح .

على أنه من الواضح أن هذه المسرحية تقدمت في منهجها الفني تقدماً كبيراً على منهج مصرع كليوباترا . وإننا لنعثر فيها على مناظر يكثر بها الاستطراد الغنائي ،وأغلبها في الفصل الثاني من كل مسرحية ، كما نعثر على حشو لا يضير المسرحية حذفه ، كمنظر قيس والجن في بداية الفصل الرابع . والمنظر الذي يتحدّث فيه قيس مع شيطانه في نهاية الفصل الخامس ، والجزء الذي يلتقي فيه مع عفراء ويدور الحديث حول الذبيحة . وبذلك يتطوّر الموضوع تطوّراً سائغاً لا حشو فيه . ويمكننا حينئذٍ أن نلمس بين المناظر صلة ، وفي الحركة سرعة، دون أن تفقد المأساة كثيراً من قيمتها .

وينبغي أن نشير إلى مناظر مسرحيـة تتجمع وتتفرّق في ثنايا المسرحية ، وهي مناظر

قوية التأثير لمدلولها الإنساني الدائم ، وتكثر عند لقاء قيس بليلى ، إذ يجتمع فيها — إلى قوة الشعر والموسيقى قوة العاطفة المتقدة ، وإدراك الجمهور للحائل بين قيس وليلى ، فيصبغ على هذا اللقاء صورة حزينة ، ومثل هذا المنظر منظر متكرر أيضاً حين يلتقي قيس بليلى في ديار بني ثقيف ، وينكشف القناع عن قلبيهما فيفصحان عما يجدان ، وما زال الجمهور يشعر أيضاً بالحائل بين الشخصيتين ، ويزيد التوتر نظراً لخطورة هذا اللقاء في المجال العدائي الذي توجد فيه الشخصيتان .

وتبدو في هذه المسرحية أولى بوادر شعور شوقي بلوازم التأثير المسرحي ، وأحسن الطرق إلى الوصول إلى نفوس الجمهور . تدل على ذلك مناظر الصراع من نفسي داخلي وحسي خارجي . وتكثر مناظر الصراع النفسي في نفس ليلي وقيس ، وتزيد من حيويتهما حين تصطدم في نفسيهما الأهواء ، كما تفعل ليلى حين تخير بين قيس أو ورد، فتختار ورداً مطيعة صوت عقلها ، ثم تندم ، ثم ينبعث صوت قلبها المكبوت بعد ذلك فتنفث ألمها في تصوير صراع ما زال في أولى صوره الفنية ، وسنرى تطوره فيما بعد في آمال وسنلمسه أيضاً في نفس ليلى حين يهجرها قيس في نهاية الفصل الرابع غاضباً فينتهي بها الصراع إلى غايته المحتومة وهي الموت .

ونرى صوراً من الصراع الحسي عند ظهور منازل ، وكشفه عن خبيئة نفسه ، ونرى استمراراً لهذا النزاع مع امتزاجه بتهكم مسرحي لجهل قيس به ، حتى يبلغ غايته في الفصل الثاني ، حين يجاهر منازل به ويلقى حتفه نتيجة له . وسنرى صوراً لهذين النوعين من الصراع في مسرحية شوقي التالية ، وهي قمبيز ، بعد أن مهد لها المؤلف في هذه المسرحية . وسنرى صورة له في مسرحية شوقي التالية وهي علي بك الكبير . لا سيما في المناظر التي يجتمع فيها مراد وآمال .

ولكن هل غير شوقي نواة مسرحه ؟ وهل صار الحوار نتيجة للتعبير عما يجول في نفوس الشخصيات ، أم لا يزال يدفعها ويجرها إلى نهاياتها ؟ أغلب الظن إن الشعر ما زال رائد شوقي الأول . وإنما سعى إلى توفير شخصيات ذات ملامح عامة لم يسم إلى تفصيلها ، والتعمق في تحليلها ، وما زالت غايته الشعر الجيد الأخاذ ، ولم يحكم شوقي توضيح الأزمة ومفاجأة الجمهور بها بعد أن تتطور تطوراً نفسياً دقيقاً .

على أنه قد اتجه الى ذلك في هذه المسرحية التي فاجأ فيها بشر قيساً بخبر موت ليلى ، ثم تعجل موت قيس بعد ذلك بعض التعجل .

الفصل الرابع

قمبيز

لم يكن حظ هذه المسرحية من النجاح والتوفيق في التأليف والاخراج ما بلغت من ذلك المسرحيتان الأولى والثانية . فقد أنقذ المسرحية الأولى ، وهي مصرع كليوباترا — على عيوبها — الأناشيد الغنائية والشهرة التاريخية ، والموضوع ، وبعض المناظر التي تدور حول مقابلات العشاق وأحاديث العواطف ، ونجحت المسرحية الثانية لاندماج العناصر الغنائية في الموضوع المسرحي إلى حدٍّ كبير ، وتطور الموضوع تطوراً فاق تطور الموضوع الأول من الناحية المسرحية .

بينما ظهرت أماكن الضعف في منهج شوقي في هذه المسرحية ، وأفلت من يده زمام الموضوع ، فاضطربت المناظر والفصول واختلطت الشخصيات وكثر الحشو في المناظر والحوار وتفكك الموضوع ، وانعدمت الصلة بين أجزاء كثيرة من الحوار ، واتسم بصفة النظم الغنائي ، وانعدمت الصفة المسرحية إلى حدٍّ كبير ، رغم استعانة الشاعر برجال المسرح والمخرجين على إصلاح عيوبها — وترجع أهم أسباب هذا الاضطراب في المسرحية إلى اختيار الموضوع أصلاً ، فشوقي يحتال احتيالاً على تصوير مأساة قمبيز حيث يدير فيها دفة الحوادث من انتصاره لانتحاره . فيحدث في سبيل ذلك التواء في الحوار ، وانعدام في التطور المنطقي والسيكولوجي بين أجزاء الموضوع وبين الشخصيات .

وأكثر فصول المسرحية اضطراباً هو الفصل الأول . إذ يعلن فيه خطبة قمبيز لابنة فرعون ، وتتقدم نيتيتاس لتفدي بنفسها بلادها ، وترضى بالزواج على أنها ابنة فرعون لتدفع عن مصر شر العجم . هذا في المنظر الأول . أما في المنظر الثاني فيبارك رجال قمبيز الخطبة ، وفي المنظر الثالث يرى رجال وفد قمبيز في مصر الترف والضعف ويتحدثون عن آثار

مصر ، ثم يختفي بهم رجال فرعون ، وتكشف لنا نيتيتاس عن دافع آخر يدفعها للتضحية بنفسها ، وهو حبها اليائس لتاسو والتماسها في هذا الزواج مهرباً .

يتخلل هذا العرض العام ما يشتت انتباه الجمهور عن متابعة الشخصية الرئيسية والموضوع الرئيسي ، فيرى أمامه في المنظر الأول نفريت ونتيتاس وتاسو وفرعون ، ثم يعرض أمامه في المنظر الثاني مجموعة أخرى من الشخصيات ، ويعرض أمامه مناظر مختلفة للرقص والغناء ويكثر فيها الحديث عن الطعام ، ووصف الآثار المصرية وسحرها ، وغير ذلك من أحاديث جانبية تطغى على تطوُّر الموضوع الرئيسي ، فالمؤلف قد استرسل في تحليل البيئة الخارجية ونسي شخصيته الرئيسية ونرى في ذلك عيباً وهو الشاعر الغنائي الذي يرى في الشعر غاية ، ويضحي في سبيله بمطالب المسرح الرفيعة الأخرى من تحليل نفسي يكون فيه الشعر وسيلة ، ولا بدَّ من إزالة ما في هـذه المناظر الثلاثة من حشو حتى يستقيم الموضوع ، وتتضح فيه بوادر الأزمة ، ويقتصر الحوار على إظهار رفض ابنة فرعون الذهاب إلى فارس ، وعزم نتيتاس على إفتداء وطنها بنفسها ، ورفعه فوق ما بينها وبين تاسو ، فذلك يقلل من قيمتها الوطنية ، ويحط من شأن تضحيتها بنفسها ، ويحذف ما شغل به شوقي مادة فصله الثاني من حشو غنائي وموسيقى ورقص ، فهو لا يساعد على تطور الحركة المسرحية بشكل مرضٍ .

ونرى نتيتاس في الفصل الثاني في قصر قمبيز في مدينـة سوس الفارسية ، تستعيد في بدايته الملـكة حبها لتاسو ، ثم تسرد حلماً يمهد لدخول فانيس ويبين عزمه على خيانة مصر ، ويدخل قمبيز وقد اكتشف حقيقة الملـكة ، ويجابه قمبيز الملـكة بفانيس ، فتتحول من الانكار إلى محاولة منعه عن غزو مصر ، بالوعيد تارةً وبالرجاء تارةً أخرى . ويدخل رسول يعلن موت أمازيس فرعوناً القديم ، وتولية ابسماتيك مكانه . وبذلك صار الغزو أمراً واقعاً لا مفر منه .

ليت الأحداث والحوار ارتبطا بهذا التطور المباشر للأمور ولم يتخلله استرسال وحشو قصد به الإسهاب والتطويل والإطناب حيث مست الحاجة إلى الايجاز والتركيز . وقد كان من الأصلح لنيتيتاس أن تصير شخصيتهـا محورها الوطن وفدائه ، ويحذف الجزء الذي تستعيد فيه حبها لتاسو فهو مفتعل مصطنع ، وضار أكثر منه نافع ، إذ يقلل من قدر

التضحية في أعيننا . ولعله من الأصلح كذلك حذف الحشو الذي يدور حول ألوان الطعام والشراب الذي تناولته الملكة ، وهو غير لائق بشخصيتها ومكانتها ، ولا يناسب المقام الذي يدور فيه . وبذلك يتطور الموضوع الرئيسي وتتجلى أزمته .

ويعرض في بداية الفصل الثالث من المسرحية مناظر متعاقبة مفككة عن الموت ، تفرض فرضاً من الخارج على الشخصية والتاريخ والموضوع إرضاء لعواطف المؤلف الوطنية وعواطف الجمهور ، ولإنهاء المسرحية بطريقة ما ، رغم قصرها عن بلوغ الغاية الفنية الرفيعة . وفي المنظر الأول تلقي نفريت بنفسها في النيل نادمة على أنانيتها القديمة ، وفي المنظر الثاني يتحاور بعض الفتية العابثين مع عجوز لعوب ، ويتحدثون عن ظلم جند الفرس للمصريين بعد الفتح ، واغتصابهم للممتلكات وانتهاكهم للحرمات . ثم يظهر قمبيز ويحضر أمامه أسرى النوبة ، ويفك وثاقهم فيرقصون له ويغنون ، فيوزع عليهم الهدايا . ثم يؤتى أمامه بفرعون مكبلاً ، ويدور بينه وبين فرعون حوار يكشف عن شجاعة فرعون ، ويثور قمبيز بالتدريج فيأمر بقتل فرعون ، ويحضر تاسو أمامه وتدخل نيتيتاس فتعجب بانقلاب تاسو الى بطل وطني . ويفرح تاسو حين يسمع ذلك ، ويأمر قمبيز بقتله ويطعن فانيس بعد ذلك بخنجره ، ويتبعه بقتل شيخ فارس سأله التأني ، ويأمر باحضار أبيس ، ويثور لرؤيته ، ويطعنه بخنجره أيضاً ، ثم يبلغ جنونه ذروته فترقص أمامه أشباح قتلاه ويختلط عليه الأمر فيطعن نفسه ويموت ، ويندب أهل فارس قمبيز . ويندب كهنة مصر آبيس .

وعيوب هذا الفصل هو اعتماده في التأثير على سلسلة الأحداث المثيرة التي تملأ المسرح بالقتلى ، دون اتصالها اتصالاً منطقياً بالتطور النفسي للشخصيات والحوادث في بداية المسرحية . فكيف تطورت نفريت وتاسو من الأنانية إلى حب الوطن ؟ وكيف ظهر فرعون الجديد أبياً ؟ — لا توجد حلقات هذا التطور ، ولعله من الخير أن يحذف حديث قمبيز عن نيتيتاس واستنجاده بها فهو مفتعل وقمبيز في نشوة جنونه .

وقد أحدث هذا الاضطراب في الموضوع اضطراباً في الشخصيات والحوار تناقضاً في الأفعال والأقوال . فنيتيتاس الوطنية المخلصة في بداية المسرحية تقول عن قمبيز :

صدقت تتا هو زين الشباب   إله القنا قمر الغيهب

إذا غلبت في القتال الملوك   وفي السلم عزّ فلم يغلب
يسيطر كالشمس سلطانه   على مشرق الأرض والمغرب
ولكن متى ياترى دلهت   بنات الفراعين بالأجنبي (ص ١٩٩)

كيف ينسجم هذا الحوار مع قولها عنه « نمر الفرس الخشن » (ص ٥٣) . وقوله هو عن نفسه « أنا وحش أنا غول » (ص ٨٨) ؟

وكيف يدور بين الملكة والوصيفة حوار عن الطعام بعد أن يفزعها حلمٌ تقصُّه على خادمتها ؟ — تقول الوصيفة بعد أن تقص الملكة حلمها الرهيب :

رؤياكِ يا سيدتي من نفسها مؤوّله
نالتك من عشاء أمس ثقلة وبيله

فتقول الملكة : ماذا أكلت مع قمبيز   وما قدم له ؟

الوصيفة : كان العشاء ملكتي مائدة مجلله (ص ٦٣)

وتصف ألواناً من الطعام لا يصح أن تثير فضول ابنة فرعون ، فقد ذاقت مثله وأشهى منه ، مما ورد وصفه في بداية المسرحية . ثم إنها قد شهدته وأكلت منه ، ومن المستبعد أن يطيب لها الاستماع إليه وهي مشغولة البال بحلمها الرهيب .

وكيف يتفق عزم نيتيتاس على التضحية بنفسها في سبيل وطنها في بداية المسرحية ، لتدفع عن مصر شر العجم ، كما في قولها لفرعون وابنته : —

أتيت أفدي بنفسي البلاد   وأدفع عن مصر شر العجم
فإنكِ أن ترفضي يزحفوا   كزحف الذئاب ونحن الغنم (ص ٥)

وتذكر في بداية الفصل لنفريت : —

آمون قد مدَّ إليك   وإلى الوادي يده
وقد كفى مصر البلاء   والخطوب المرعده
وكفى من ربوعنا   نار المجوس الموقده (ص ٤)

ثم تتنبأ بعد ذلك في نهاية الفصل بالغزو كأنه حقيقة آتية لا ريب فيها فتقول : —

أفيقي بنت فرعون   فما يزهو بك السكر

غداً تذرو رياح الفر ... س من موتاك ما تذرو
غداً يصبغ من شط ... الشط بالدم النهر
غداً يهتك عن أربا ... بك الحراب والستر
فما تاسو وفتيان ... كتاسو في الحمى كثر
هم النحل وإن هابوا ... لقائي وأنا الزهر (ص ٥٠)

ويظهر هذا التناقض أيضاً في أقوال الوفد الفارسي ، فيقول أحدهم في بداية المسرحية عن خطبة بنت فرعون لقمبيز : —

خطبنا إليهم أمس بنت مليكهم ... فما كان إلاّ الاحتقار جواب
وأهفق أهلوها وقالوا حمامة ... دعاها إلى الوكر السحيق غراب (ص١٤)

ويدور بين رجال الوفد الحوار الآتي : —

الأول : أعلمتم ما ذا يردد في القصر ؟ ... وماذا يقال همساً ووحيا ؟
الآخر : أهازل أنت ؟ .
الأول : بل سمعت حديثاً ... إن يكن مفترى فماذا علينا
آخر : إنه يهذي ... دعوه كاذبٌ لا تسمعوه
آخر : ما الذي زخرف
الثاني : . . . ألقت ... كذبة الأجيال فوه
يزعم الملكة نفريت ... إبنة الملك أمازس
ترفض السير مع الو ... فد إلى أقطار فارس (ص ١٧)
آخر : ما خطبه ما يدعي ... امض بنا لا تسمع
آخر : يقول فرعون مصرا ... لم يرض قمبيز صهرا
الثاني : من أمازيس ما الأميرة ... ما مصر؟ أفي الأرض من بقمبيز يهزا
أهذا خبر يروى ؟ ... غبيٌّ أنت والله
أتحت القبة الزرقا ... ء من يسخر بالله

وكيف يتنبأ رجال الوفد في بداية المسرحية بالغزو المقبل ، الذي يبنى سببه على اكتشاف قمبيز لحقيقة نيتيتاس ويقولون في بداية المسرحية : —

أحدم : فما أنت سوى جنـة هي الخلد وطيفه في الخلد
يهب عليهـا غداً عاصف من الفرس أنى تمشي حصد
ثالث : صدقت أخا الفرس قلت الصواب غداً يعصف الفرس أو بعد غد (ص ١٧)

وهل يتفق الحوار الذي يدور بين أتباع قمبيز وموقف يدور فيه قمبيز ويفتك بمن حوله ولا يطمئن أحد منهم على حياته؟ ويدور موضوع هذا الخلو عن الضمير بين اثنين : —

رستم : وأين منزلة الضمير ؟

حيدر : . . . . موضع من الجسد
أنظـر هنا يا رستم القلب وها هنـا الكبد
وها هنا الضمير بين القلب والـكبد عقد
رستم : هنا الدجاج والحمام هاء هنا بلا عدد
حيدر : والبط والإوز والحمـام والدند
وكل ما تسرق أو تخطف من هـذا البـلد

فهذه الأحاديث لا تتفق والمواقف التي تقال فيها ، وتسبب تضارباً في الشخصيات التي تفوه بها ، إذا أضفنا إلى ذلك تصوير شوقي لفرعون كغاصب للعرش بشكل لا يناسب كرامة الملوك، وتصويره لابنته بصورة الفتاة الآنيّـة ، وتاسو بصورة الغبي المضيع الوفاء في بداية المسرحية، وتغييره لهذه الصور في نهاياتها حتى تتمشى وميوله كشاعر بلاطي شكلاً لا روحاً، وتصويره لأفراد الشعب بهذه الصورة الهازلة ، أمكننا إدراك بعض أسباب سقوط هذه المسرحية بعد تمثيلها لأول مرة ، وأمكننا إدراك دوافع النقد العنيف الذي قوبلت به من النقاد المعاصرين، وقد انصب معظمه على تصوير عيوب المسرحية من الناحية الأدبية والقومية.

فأخذ عليه الأستاذ عباس محمود العقاد مآخذ أدبية هي اضطراب النظم في فم الممثل الواحد في الموقف الواحد ، والتصرف في وزن أسماء الأعلام ، والتجاوز في الفصل والوصل والهمز، والتحقيق والمقصور والممدود . هذا من الناحية الأدبية . أما من الناحية التاريخية فقد أخذ عليه في شيء من العنف غير قليل ، الخروج على بعض حوادث التاريخ ، وسوء تصوير حياة أهل مصر القديمة (قمبيز في الميزان ص ١٦) .

أما عن العيوب الأدبية فمن السهل الاعتذار لها بأنها ليست عيوباً بالمعنى الدقيق ،

إذ يتمسك الناقد بالشكل في صياغة الحوار دون جوهره . وليس من الخطأ أن يتلوّن الحوار تبعاً لتغير العواطف الجياشة في نفس الشخصية ، بل إننا نلوم شوقي في مسرحياته الاولى على تمسكه ببحر واحد ووزن وقافية واحدة ، في حوار طويل المدى ، يتسم بانتقاله بمواقف متباينة متعاقبة ، على أن يبحث عن وسيلة تكسب هذا التغير في الشكل وحدة في الجوهر العام ، فالحوار في المسرحية وسيلة لا غاية : وسيلة إلى التعبير عما في نفس الشخصية ، ونريد بها أن تكون وسيلة مرنة طيعة لا جافة صلبة . وحبذا لو لم يقتصر شوقي على ذلك في تلك الأسطر القليلة التي أحصاها عليه الناقد ، واتخذها أسلوب مسرحه عامة مع تهذيبها ومحاولة اتخاذ البحر وحدة الحوار دون القافية ، مقارباً بذلك الشعر المرسل في الأدب المسرحي الغربي ، وربما أدى ذلك إلى التخفيف من وطأة النزعة الغنائية وإلى توجيه مسرحه في اتجاهه الصحيح .

وأما عن تغير صور أسماء الأعلام والقصر والمد فلا لوم على كاتب يفعل ذلك لضرورة فنية . فاللغة وسيلة تتكيف للضرورات الفنية الشعرية بشكل لا يؤدي بها إلى الإبهام .

اما عن الخروج على حوادث التاريخ العام ، فقد ذكر أن الشاعر غير مقيد بتفاصيل التاريخ ، وإنما مطالب بتحقيق روحه العامّة ، ويبتكر في حدود الحوادث البارزة من الحوادث الأخرى والشخصيات ما يساعده على إبرازها في صورة فنية خاصة . ومقياسنا فيما يذهب إليه من تحليل وتعليل هو الصدق المساير لمنطق الحوادث والطبيعة البشرية واحتمالات سلوكها ، ورائدنا ورائده في ذلك القلب البشري الذي يتدسس إلى جوانبه ويحلل نوازعه ويؤلف منها وحدة منسجمة حية . فالفن فن لأنه لا يقلد الطبيعة تقليداً حرفيّاً ، وإنما يبرزها في صورة فنية بها من الابتداع والخيال أشياء غير قليلة ، وإنما يخضع خياله لمنطق الحياة في صورها وأشكالها ، بحيث تبرز لنا الصورة الفنية وكأنها قطعة من الحياة نقية مصفاة من الشوائب .

وإذا طبقنا هذا الكلام على الحوادث التاريخية والمسرحية في قمبيز ، تجاوزنا عن الكثير مما أحصاه الناقد في أخطاء المسرحية ، على أننا نأخذ على المؤلف الافتعال في إيراد صور الانتحار في نهاية المسرحية ، فهي صور تبدو غير طبيعية أمام الجمهور المسرحي . كما نأخذ

عليه عجزه عن تفهم حياة الشعب التي لم يتقن معرفتها وصورها . ونتفق مع الناقد في قصور الشاعر عن إبراز نواح وطنية قومية كانت بين سمعه وبصره فيما لديه من حقائق تاريخية . فلم يؤيد التاريخ ، ولم يستلزم خروجه عليه ضرورة مسرحية فنية ، ولم يسع إلى ذلك وهو يبرز صوراً وطنية قومية، بل إن ما نسبه شوقي إلى مصر وأهلها من فرعون وابنته وشعبه وحاشيته هو صفات الضعف والليونة ، ولم يكن المرتزقة من الجنود اليونانية في جيش مصر فقط ، وليست هي سبب الهزيمة، وإنما كانت في جيوش الفرس أيضاً . ولم تكن مصر ضعيفة كما صوّرها شوقي ، وإنما يذكر التاريخ ، ويذكر الأستاذ العقاد ناقد شوقي ، أن دارا أراد غزوها فأحجم عن ذلك لقوتها ورغم انضمامها لأعدائه وحين أراد قمبيز ذلك أعد لغزوها عدة عظيمة ، فجعل لكل فارس مصري ستة من فرسانه ، وأتى بأسطوله ومشاته . على أنه احتال رغم ذلك في دخول مصر ، فوضع في مقدمة جيشه ما قدسه المصريون القدماء من حيوانات . ولم يصبر المصريون على حكمه بعد الفتح وإنما قاموا بثورات عديدة وكافحوا الفرس طويلاً حتى استقلوا . بل حضر دارا الأول بعد قمبيز إلى مصر وسعى إلى التقرب منهم وقتل واليه لغلظته ، وبنى معبداً لآمون، واشترك في موكب الحزن على أبيس هذا من ناحية وطنية المصريين .

أما من ناحية الشخصيات الوطنية فقد فاض تاريخ القدماء لأحمس المصري بالملح التي اشتهر بها أهل مصر والفكاهة التي وصفوا بها . ولم يقتل وهاب رع ولم يكن ساقيه . ومن السهل معرفة سبب تهاون شوقي في إبراز هذه الصور ، إذ لم يحس الوطنية المصرية بشكل قوي يجعله يرى المصري الخالد الدائم في كل العصور .

وكان من الممكن معالجة أمر قمبيز وجعله نواة جيدة للمسرح لا بهذه الصورة المزرية المجنونة التي تتصرف على المسرح تصرفاً شاذاً غير متوقع ، عن طريق تحليل أقره التاريخ وأشار إليه الناقد لشوقي وهو إدمانه على تناول الخمر . وعن طريق هذا الإدمان يمكن تعليل نوبات الصرع والجنون التي انتابته ، حتى إنه قتل ساقيه ليثبت لقومه أن يده لم تصبها الرعشة بعد .

ولم يثبت ثبوتاً قاطعاً إلقاء المصريين لعروس حية في النيل ، فقد أنكر هيرودوت ذلك

وأشار أن المصريين رمزوا إلى ذلك بتماثيل من الطين، ووجدت أمثالها في مقابرهم ومدافنهم وكان حريّا به أن يدافع عن تلك الخرافة لا أن تقرن نتيتاس تضحيتها بها، وكأنه أضرّ من حيث أراد أن ينفع.

* * *

على أنه لا ينكر أن المؤلف قد أنفق جهداً كبيراً في تأليف هذه المسرحيـة فهي أول مسرحية يؤلفها ويعتمد فيها على التاريخ وحده، ويستقل بنفسه إلى حدّ كبير وبينما كانت أمامه مسرحية لشكسبير استوحى منها في مسرحية مصرع كليوباترة في المناظر والشخصيات والألوان العامة، وبينما كان أمامه كتاب الأغاني ونظم المجنون فيه يستعين به على سبك تطور الحوادث وتأليف الحوار وإدارته، اعتمد في هذه المسرحيـة على ما اكتسب من خبرة في المسرحيتين الأولى والثانية، وما اكتسب من خبرة بعد اتصاله بالتمثيل والممثلين والمخرجين فأتت المسرحية في ثلاثة فصول كثر فيها الحشو والاستطراد واختلط الحوار واختلطت الشخصيـات في أماكن شتى، وحاول الشاعر إبراز صورة ترضي الشعور القومي فأخفق، إلاّ أننا نلمس في ثنايا تلك العيوب بعض محاسن وتقدماً في أسلوب تأليف الشاعر، وخطوة تبين تمكنه بالمسرح، وبداية شعوره بلوازمه ومقتضياته الخاصّة، فبين هـذه الصور المضطربة مناظر منتظمة متفرقة تقوم على الصراع النفسي أو الصراع بين الشخصيات، وترتفع إلى درجة ما من السمو، ويدور فيها الحوار كما يدور حوار مسرحي سريع متشبع بالحركة.

ومن ذلك صور الصراع بين نتيتاس وقمبيز في فارس. فهي متقدمة تقدماً ملحوظاً على صور الصراع في مجنون ليلى بين منازل وزياد، وتتصف بصفة طبيعية ميزت الصراع بين ليلى وابن عوف، وهو صراع يجمع بين الصفة الحسية والعقلية، بين صراع الجسم وصراع العقل. ويتسم بسمة حزينة تجعله أعمق في النفس أثراً مما يتعلق به من نتائج تتصل بالمأساة الأصلية. ومن ذلك أيضاً صورة الصراع بين قمبيز وفرعون وهو صراع عقلي يجذب انتباه الجمهور ويتصل بنفسه ويعمق فيه تأثيره. ففيه صراع بين القوة الظافرة

والكبرياء المهزومة . وهي صورة لا تخرج على ما اتصف به فراعنة مصر من كبرياء واعتزاز بالنفس :

كما أن المفاجأة الأخيرة في المأساة تمثل تمثيلاً مسرحيًّا ، ولا تلخص تلخيصاً ، أو توصف وصفاً فنلمس تطور قمبيز — رغم خشونة وصف هذا التطور — نحو المأساة ، ولا نكتفي بسماع الشعر ، وإنما نرى صوراً لنفوس إنسانية تتصل بنفوسنا على المسرح ، وتلك خطوة كبرى في تقدم فن شوقي المسرحي . وقد مهد لها في مجنون ليلى بوصف التطور النفسي الذي طرأ على ليلى في المسرحية السابقة حتى وصل بها الصراع إلى تحطيم نفسها . دون أن نرى أو نلمس ما يحدث بين الفصول من أحداث هامة ، يجب أن تمثل أمام الجمهور وذلك صميم الفن المسرحي .

* * *

ويجدر بنا أن نشير إلى الجانب الفكاهي في مسرحية شوقي فقد قام معظمه في مصرع كليوباترا على فكاهة لفظية تدور بطريقة مصطنعة بين شخصيات محترفة ، مثل أنشو المضحك ، وزينون العجوز ، وقام معظمه أيضاً في مجنون ليلى على قصص يدور بين ابن ذريح وبشر حول أخبار قيس . ويبرز الجانب الفكاهي في هذه المسرحية من طبيعة الشخصيات بصورة ضعيفة . فتثور الفكاهة بين الفتية والعجوز . فالعجوز تحاول إغراء الفتية بجمالها وتزعم محاولة بعض الناس إغراءها ، ووصفها بما ليس فيها ، والفتية يعابثونها ويسخرون منها . تلك صورة نراها حولنا وتتكرر كل زمن ، وهي في هذه المسرحية بصيص من فكاهة الشخصية ستستكمل صورتها وتبلغ غايتها في المسرحية الأخيرة وهي «الست هدى» .

وهذه المسرحية تمثل مرحلة الانتقال من طور إلى طور في فن شوقي الذي لم يؤت فسحة من الوقت للتطور الواسع . وتقف هذه المسرحية بين مسرحياته الأولى التي وضحت فيها السمات الغنائية وضوحاً أفسد الشخصيات وتطور الموضوع المسرحي ، بحيث يختفي ، ما يجب أن يمثل على المسرح وراء الستار، وينشد على المسرح ما كان يجب أن يختفي ، وبين مسرحياته التالية التي يبرز فيها الحركة المسرحية على المسرح فتمثل الحوادث تمثيلاً ، ولا يكتفي بوصفها وإنشادها ، وتحيا فيها الشخصيات إلى حدٍّ كبير ، فنحس في نفوسنا عواطف

ونوازع نفسها حية تتردد في جوانبها الآمال والآلام وتصطدم بينها الأهواء ، وتبرز فيها صفات البيئة ، وتمتاز بها أمزجة خاصة .

* * *

ولكن هل تخلص شوقي في النهاية من شيطان الغناء ؟ لقد بقيت رواسبه في هذه المسرحية : فما زالت عنايته بالنظم رائده الأول ، وغايته الأخيرة ، ولا نرى في الشخصيات عمقاً نفسيًّا ، وليس الحوار وسيلة للتعبير عن العواطف الدقيقة للنفس البشرية ، وإنما اكتفى شوقي في ذلك بوصفها بأوصاف عامة وعناوين عريضة في شعر خلاّب مفعم بالاستطراد الغنائي ، ولم يتعمق شوقي كثيراً في داخل هذه النفوس وإلى ما وراء هذه العناوين .

وبينما اتكأ فيها في بعض المواضع على مواقف طرقها في مسرحياته السابقة كمواقف العشاق ، كتاسو ونفريت ، وتاسو ونيتيتاس ، بعد أن جرّب ذلك بين كليوباترا وأنطونيو ، وحابي وديلانه في المسرحية الأولى بصورة بدائية ، ثم توسع في مسرحيته التالية، فأفاض في وصف المواقف الغرامية بين قيس وليلى، وصارت وحدة التأثير في مسرحيته. وسنرى في هذه المسرحية بوادر جديدة للتأثير المسرحي في مسرح شوقي ونواحي أكثر جودة من الناحية الفنية ، تبرز بسهولة طبيعية ، وهي ازدواج الصراع النفسي مع الصراع الحسي ، وشيوع النوع الأول ، واتقان المفاجأة والتهكم المسرحي والتطوّر المنطقي والنفسي للحوادث ، وسنرى هذه المناظر في « علي بك الكبير » و « عنترة » على أن في هذه التجربة الحاضرة بوادر تصوير مثل هذه المناظر ، ففي موت قمبيز مفاجأة غير طبيعية التطوّر سنراها أكثر اتقاناً في نهاية علي بك الكبير » و « عنترة » . وفي « قمبيز » صور من الصراع سنراها أكثر تطوّراً في آمال ، وسنراها واضحة السمات بين عنترة وأهل عبلة وخصومه .

وفي بعض مناظر هذه المسرحية قوة وانسجام في الحوار ونظام في تحليل الشخصيات ، وخلو من الحشو والاعتماد على الشعر في التأثير وحده ، فنرى في المسرحيات

القادمة تطوّراً أكثر انتظاماً للشخصيات والحوادث ، وخلوّها من الحشو إلى حدٍّ كبير وصغرى اعتماد الشاعر — إلى جانب الشعر — على وسائل المسرح العامة .

وقد كان لعنف النقد الذي قوبلت به هذه المسرحية تأثير محفز على الشاعر ، فاستنهض عزمه للاجادة والتجريب من جديد ، بل والتجريب في تأليف أنواع أخرى غير المأساة الغنائية فيما بعد ، كما في « أميرة الأندلس » وهي تجربة في المسرحية النثرية ، وفي « الست هدى » وهي تجربة في الملهاة الغنائية . وان في ضيق المدة التي تطور فيها فن المؤلف المسرحي لشاهد على ما لاقى من جهد ، وما تجشم من عناء .

المسرحية
في شعر شوقي

— ٣ —

تأليف

محمود حامد شوكت

ليسانس في الادب الانجليزي

ودبلوم معهد التربية العالي وماجستير في الآداب

مطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٧

الفصل الخامس

علي بك الكبير
أو دولة المماليك

تتفوّق هذه المسرحية على المسرحيات السابقة من النواحي التمثيلية ، فقد قلّ فيها الاستطراد والحشو إلاّ في مواضع استرسلت فيها الشخصيـة في التعبير عن عواطفها ، وذلك في مواضع قليلة من المسرحية ، كما يحدث حين يشكو علي بك من خيانة أعوانه له ، وتتردد آمال بين الواجب والهوى . وقد برزت فيها ألوان الشخصيات الى حدّ لم يظهر في المسرحيات السابقة، وانسابت الحوادث انسياباً طبيعيـّا ، وتطورت تطوراً متصلاً ، تخللتها عناصر مسرحيـة تؤثر في الجمهور بالتشويق والتحليل والمفاجـآت والتهكم في حدود الاحتمال الطبيعي للسياق . ويرجع ذلك إلى أسباب أهمها أنها مسرحية أعاد كتابتها الشاعر في الأعوام الأخيرة من حياته حين ألّف للمسرح . وقد أشار مترجم حياة الشاعر الى هذه الاعادة الثانية المسرحية في كتاب (اثنتي عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء) للاستاذ أبو العز . وثانيها العناية التي بذلها الشاعر في مؤلفاته الجديدة التي ألفها عقب نقد مسرحيته السابقة . وثالثها أنه قدّمها الى لجنة في مسابقة عامة لاختيار أفضل المنتجات المسرحية كما ذكر في مقدمة مسرحيته . ورابعها أنه وفق بالصدفة الى موضوع يناسب العرض المسرحي دون تغيير أو تبديل جوهري في الموضوع التاريخي .

وتذكر المراجع التاريخية كيف تغلب علي بك الكبير بذكائه ومهارته على غيره من المماليك وكيف استطاع أن يكون شيخاً للبلد عام ١٧٦٢ ، وكيف أعلن استقلال مصر عن الأتراك عام ١٧٦٩ ، واتخذ لنفسه لقب السلطان ، ويذكر التاريخ كيف قوّى نفسه باتحاده مع والي عكا ، وكيف أرسل حملات استولت على اليمن وجدة ومكة وشبه جزيرة العرب . وحين انتوى

فتح سوريا عام ١٧٦٩ أرسل أحب أتباعه إليه ، وهو محمد بك أبو الذهب مع جيش لفتحها وأراد بذلك أن يأمن على سلامة ملكه وملك خلفه والي عكا من السلطان . وقد نجحت هذه الحملة ، واستولت على غزة ونابلس والقدس ويافا وصيدا ، واستولت على دمشق بعد أن حاصرتها . على أن الأتراك استطاعوا أن يكسبوا بالسياسة والدهاء ما فقدوه في الحرب ، واستمالوا إلى جانبهم محمد بك أبا الذهب ، ومنّوه بتوليته على مصر ، فغادر محمد بك سوريا إلى صعيد مصر ليستمد لمحاربة علي بك . واستطاع أن يجتذب اليه الكثير من أتباعه . وسافر علي بك إلى حليفه والي عكا ليجهز جيشاً يسترد به ملكه — على أن محمد بك أبا الذهب دس له في الطريق من دهمه وأسره فمات في الأسر بعد أيام سنة ١٧٧٣ ثم صار أبو الذهب شيخاً على مصر من بعده .

وبنى شوقي مسرحيته على الجزء الأخير من هذه الحقبة . فبدأ بخيانة أبي الذهب لعلي بك وانتهى بوفاة علي بك وانتصار أبي الذهب .

وفي الفصل الأول يظهر علي بك ويتزوج آمال بعد أن يعجب بإبائها وشممها . ثم يضطر إلى الرحيل الى الشام ليعد عدته لمحاربة أبي الذهب ، تاركاً زوجته الجديدة حتى يعود ظافراً . ويدخل مراد بك الشاب ويحاول إغراء آمال فتصده عنها . ويكتشف مصطفى والد آمال أن مراداً ابن له قد باعه من قبل ، ولكنه لا يبوح بسره ، وإنما يكتفي بإبعاد مراد عن ابنته .

وهذا الفصل سليم من الناحية المسرحية ، إذ تقدم فيه أمامنا الشخصيات الرئيسية ، وتوضح بوادر الازمات ، وينتهي الفصل بمفاجأة . ويتخلل الحركة فيه بوادر أزمتين ، تتصل الأولى منهما بالموضوع التاريخي العام ، وتتصل الثانية بالموضوع الخيالي . ويندمج الموضوع التاريخي بالموضوع الخيالي اندماجاً يجذب انتباه الجمهور منذ البداية ، وتتخلل هذا الفصل بعض ألوان فكاهية لا تعوق سيره وتمثلها الماشطة وجواريها ، ويعتمد معظمها إمّا على التلاعب بالالفاظ ، وإما على المنظر الخارجي والصفات الشاذة للشخصيات . ويتخلله أيضاً نشيد غنائي قصير لا يعطل سير العمل بشكل محسوس كما حدث في المسرحيات السالفة رغم قيمته الغنائية الخالصة .

وينتقل المنظر في الفصل الثاني إلى عكا حيث تحمل شمس — جارية آمال إلى علي بك خبر

انقلاب أعوانه عليه ، ومحاولة مراد الاعتداء على زوجته . ويحاول سعيد الفتك بعلي بك بإيعاز من أبي الذهب فيفشل ، وينكشف لعلي بك عن حقيقة مجيئه ونوايا صيده . ويحاول قائد الأسطول الروسي التدخل في جانب علي بك . فيرفض علي بك الاستعانة بمن يخالفه في الدين والقومية . ويعد علي بك وحليفه الشيخ ضاهر العدّة وحدهما لغزو مصر .

وهو فصل سريع الحركة يعتمد في التأثير على المفاجأة ، ويحرص على التطور الثنائي للتاريخ والخيال ، وتأثرها ببعضهما . وتتمشى حوادثه مع روح العصر من محاولات الاغتيال ، والتعصب الديني والقومي ، كما تمهد أحداثه لحدوث الأزمة في الفصل الثالث .

ويبدأ الفصل الثالث بعرض صور للحياة في عصر المماليك في مصر ، تقوم على الفوضى والاضطراب والسلب والنهب واغتصاب الحقوق ، والغدر والخيانة ، والسير في ركاب المنتصر ونسيان فضائل المهزوم ، ونعلم بهزيمة الشيخ ضاهر والي عكا ، ويظهر علي بك جريحاً ، فيكشف الياسرجي لمراد وآمال عن العلاقة بينهما ، ثم يموت . ويعلم علي بك بهذه العلاقة قبل أن يموت كما يعلم بها أبو الذهب .

ولا تحدث الأزمة في هذا الفصل دون تمهيد لها في بداية المسرحية ، وإنما تتطوّر في نطاق الاحتمال، ولو أن المناظر الأولى لا صلة بينها وبين التطوّر الدقيق للموضوع . وتحدث الهزيمة خلف الستار ، على أنّ العرض العام للفصول والمناظر يبين تقدّم شوقي الكبير في التأليف المسرحي ، وازدياد خبرته بوسائله ، ويمتزج بهذا العرض التحليل الإنساني للشخصيات ، ولو أنه لم يبلغ بعد عمقاً وغوراً بعيدين ، وإنما ينحصر في التحليل الذي يدور حول معاني تتصل بمعاني الشعر الغنائي التقليدي عن قرب أو بعد .

وما زالت الشخصيات المسرحية بسيطة التركيب والملامح ، وتتركب من الأهواء التي اتصفت بها الشخصيات المسرحية الأولى في مركب جديد . على أن لها ألواناً غير مختلطة أو متضاربة كما اختلطت وتضاربت في المسرحيات الأولى . ولعلّ مرجع ذلك إلى وضوح صورها التاريخية في ذهن المؤلف قبل أن يعمل فيها خياله .

فعلي بك بطل يجمع بين صفات نبيلة وعيب تنفذ منه المأساة إليه . وهو صورة متسقة منسجمة لأنطونيو وفرعون ، وهو أوفر من كليهما حياة لقربه من التاريخ القومي من

جهة ، وصلته بالتاريخ التركي من جهة أخرى ، ويتصف علي بك بصفات النبل وصفات الضعف ، وفي مقدمتها صفة الكرم .

فهو يقول لوكيله عن نفسه . —

أجل نحن أطعمنا الفقير ولم يكن   له في قصور المترفين طعام
ونحن أشبعنا ابن السبيل ولم يكن   يبل له فوق الطريق ادام
ونحن حضنا اليتيم نمسح دمعه   وآواه منا محسنون كرام
ترى الزاد مبذولاً وفي كل ساحة   يتامى قعود حوله وقيام (ص٣٨)

كما أنه مصلح اجتماعي حاول إصلاح التعليم وبناء المستشفيات والملاجيء فيقول .

ونبني فركنٌ للثقافة والحجا   يشاد وركنٌ للصلاة يقام
ودار يوامي البؤس فيها ومنزلٌ   تداوى جراحات به وسقام
ونرفق بالعجماء نأسو جراحها   تقات على ساحاتها وتنام (ص ٣١)

على أن ذلك قد أدى به إلى أمرين ، أولهما فقر الخزانة ، فيقول له وكيله :

إنّ الخزانة أصبحت   بنداك كالحجر الخرب
الفضة انفضت وما   قد كان من ذهب ذهب
رمضان راح بنصفه   والنصف راح به رجب (ص ٣٠)

وثانيهما استغلال أتباعه لطيبة خلقه وانفضاض أعوانه من حوله فيقول لبشير :

صبرت طويلاً يا بشير فما جلا   ولا زال الصبر الجميل مصابي
ولو أنّ رزئي بالغريب احتملته   ولكن بأهلي نكبتي وعذابي
يطاردني في الارض من دبّ في يدي   وربي في حجري وهبّ ببابي
ومن طلب الدنيا بيأسي وسطوتي   فلما حواها في يديه سطا بي
ومن عشت أبنيه وأمر ركنه   فصير هدمي شغله وخرابي (ص٣٤)

ويكرر علي بك شكاته في أحيان كثيرة من المسرحية ، فيتذكر انقلاب اعوانه عليه فيقول لبشير :

ولكن أمور قد جرت وحوادث   بنقلة دنيا أو تبدل حال

خانني من كان عند إشارتي — يصول بجاهي أو يعيش بمالي
وعقّ الذي ربيت في حجر نعمتي — ووطأت أكتافي له وظلالي
تألف أصحابي وألب شيعتي — عليّ وأغرى بالحروب رجالي
لقد جئت بابن ليس لي فكأنما — أتيت بأفعى من سحيق تلال
تفرّق عني النـاس إلاّ بطانتي — ولم يبق حولي اليوم غير عيالي
سأمضي وما عندي لهم إن تركتهم — سوى قوت أيام وخبز ليالي
وقد زعم الناس الغنى في خزانتي — أتى من حلال تارةً وحرام (ص٣٨)

ونكاد نرى شوقي خلف هذا الحوار ، ونلمس مدائحه للملوك وإشادته بأعمالهم بين ثنايا سطوره ، ونرى فيه أصداء لشكاة أبطاله السابقين في المسرحيات الاولى ، فنرى فيه ألواناً من شكاة أنطونيو وكليوباترة وحزنهما وأسفهما على انقلاب الحظ ، مع أنه — على عيوبه — أقل اصطناعاً وتكلفاً من الصور الأولى للحوار ، وما زالت به بقية محاولة استثارة العاطفة عن طريق الشعر ، وما فيه من استرسال وإطناب في إنشاده ، لزيادة التوتر المسرحي .

ونكاد نرى في تطوره صفات النجم الآفل ، فهو يشعر بالخاتمة وهي تدنو ، وبه صفات من الخلق العربي الشهم الكريم ، والعطف على من حوله . فقد رفع آمال من مرتبة الإماء إلى مرتبة زوجة الوالي . ونعجب منذ البداية بشخصيتها الأبيـة ، ذات الروح الوثابة التي تأبى أن تعامل معاملة الرقيق ، فتقول لعلي بك :

سيدي غير شأننا بك أولى — هـذه السوق لم تلق بجلالك
تشترى النفس أو تباع على الأرض — ولم يرض في السماء المالك — ص ٢٤

وهي جريئة صريحة لا تخشى أن تقول لأبيها أمام الوالي :

قف ، أنت عبد المال يا أبتي — تلقي البريء لأجل المال في النار
لا سيدي . لا . أبي . لا تذكرا ثمناً — فلست مخلوقة للبائع الشاري — ص ١٧

وهي فتاة ذات كبرياء وأنفة تقول لمراد حين يعرض بها كرقيق :

سـيدي من عنيت ؟ — قل لي بمن عرضت ؟

فيقول مراد : — أعني المليحة الحسناء

فتقول له . سيدي إننا حرائر ما زلنا .

أمام هذه الصفات لا يملك علي بك إلا أن يعجب بها ، وسيقول لها :

لله الله يا آمال أنت كبيرة   وكل كبير النفس سوف يسود

فداؤك نفسي هذه نفس حرة   وهذا إباء ما عليه مزيد   ص ٤

ولا يملك إلا أن يتزوج بها .

على أنهما يتحركان في بيئة قويت فيها عناصر الشر والخديعة ، وتعددت فيها رسلهما . فنرى في أبي الذهب والياً يعرف كيف يصرّف الأمور بالدهاء والخداع حيناً ، وبالمال حيناً آخر . وهو رجل واقعي عملي لديه الغـاية تبرر الوسيلة ، وهو يقابل في ذلك علي بك الذي أبى لاسترداد ملكه — الاستعانة بقائد الأسطول الروسي . ونلمس هـذه الصفات في مواقف كثيرة يظهر فيها . فيقتل مملوك مملوكاً آخر أمامه لسبب تافه فيقول له :

لا ترع قد كان من حزب علي   كفيتنيه فقول اليوم ما كان يلي

هيا احملوا جثتـــه   هيا اذهبـــوا بالرجل   ص ٩٧

ويخادع والي عكا ويراوغه فيتظاهر بالعفو عنه إعجاباً به ، بينما يدبر له في الخفاء وسائل التخلص منه ويعلم ضاهر ذلك منه ويقول :

ذلك الغدر والمماليك فيهم   من قديم الزمان غدر وختل   ص ١٠٩

وتبرز من صور الشخصيات صورة للوفاء والجرأة — حتى ساعة الهزيمة — في شخصية الشيخ ضاهر والي عكا . فهو يجاهر أمام الوالي الذي ظفر بقوله .

أسروني ولو بقيت طليقاً .

محمد بك :   ما الذي كنت صانعاً ؟

فيقول له :   كنت تبلو

كيف أبني اللواء حول حليفي   وأرم الصفوف إذ تضمحل   ص ١٠٨

وتتحرك إلى جانب هذه الشخصيات صور أخرى لشخصيات ثانوية كالجلاب والماشطة والجنود ومراد ووالي عكا ، وقد مست مسّـا خفيفاً أبرز طبائعها العامة إبرازاً طفيفاً لم يحرمها قدراً ما من الحياة .

وصحب تطور الحوادث والشخصيات حوار يتصف بالصفة المسرحيـة في معظم أنحاء المسرحية ، سيما في المواقف التي يطمئن فيها الشاعر إلى قوة تأثير الموقف والشخصية ، فيصير الحوار تعبيراً سهلاً طبيعيـاً لا كلفة فيه . على أن رواسب الاتجاه الغنائي ما زالت تلوح في بعض أماكن الحوار التي يحاول فيها المؤلف أن يضفي على خطورة الحادثة وشدة انفعال الشخصية تعبيراً غنائيـاً رقيقاً ، فيقوده إلى المبالغة والاسترسال ، ويظهر التكلف والحشو ، ويكشف شوقي المسرحي عن شوقي الشاعر الغنائي بشكل واضح . وسنجد صوراً لهـذا الاسترسال بعد أن نتجاوز الأغنيـة الأولى التي يغنيها عشاق ، وفيهـا يذكر بلاده وهي تبدأ بقوله :

كوخ وراء الجبـال مكلس بالجليـــد (ص ٤)

والنشيد الآخر الذي يغنيه حين يعقد علي بك آمال ويبدأ بقوله :

غداً يعقد للوالي على الحسناء آمال (ص ٢٩)

فهما صورتان للنزعة الغنائية الصريحة ، في مسرحيات شوقي ، ويتصفان بما تتصف به أغانيه من تشبع بالموسيقى والعاطفة ، وقيامها بوظيفة غنائية خالصة في المسرحية ، ولا يتصلان بتطور الحوادث أو صفات الشخصيات أو يساعدان على تقدم حركة المسرحية ،

فقد عرفنا أن شوقي جارى بذلك المسرح المعاصر ، وتأثر بميل الجمهور إلى سماع الغناء واتبع مزاجه الخاص . على أننا سنلاحظ فيها قصراً وخفة في الأداء واتصاله – الى حدٍّ ما – بالموضوع ، لا يظهرها بمظهر التكلف .

ولنصل بعد ذلك إلى صور هذه النزعة في حديث علي بك قبل أن يبارح قصره ويبدأ بقوله : —

سلامٌ على قصر الإمارة والغنى وايوان سلطاني ودست جلالي (ص ٣٧)

فهي قصيدة طويلة كرر فيها المؤلف ما قالته الشخصية ص ٣٧ و ص ١١٧ من المسرحية ، وعيب مثل هذه الأحاديث الطويلة خلوها من الحركة المسرحية ، بحيث تتعب الممثل في الأداء وتثقل على أسماع الجمهور . ولنلحظ أن وزن هذا الحديث وصورته هي التي اتخذتها كليوباترة لحديثها الطويل قبل أن تنتحر وعن طريقها يحاول الشاعر إثارة جو الحزن والأسف

عن طريق الشعر ، لا عن طريق الحركة المسرحية وتمثيل الحوادث تمثيلاً مباشراً .

على أن مثل هذه الأحاديث لا تشيع وتكثر في هذه المسرحية ، كما شاعت وكثرت في المسرحيات الأولى ، وقلت بقدر واقتصرت على الأحاديث السريعة الحركة ، المتصلة بالشخصية والحادثة ، وتشبعت بالحيوية واكتسبت صفة طبيعية ، رغم طولها أحياناً فتقول آمال لنفسها بعد أن طردت مراداً .

ويح لي ويح قد قسوت عليه　　وتجاوزت في المروءة حدي
ما الذي استوجب الأمير وما　　أذنب حتى رددته شر رد
ويح قلبي يحبه . كذب القلب　　وبعداً لحب إلف بعد

فهي إنسان طبيعي ، ولم يحاول المؤلف تجريدها من تنازع العواطف ، ولم يحاول أن يصورها بصورة مصطنعة تتمشى مع قواعد الأخلاق ، ففي الحياة قد يغرينا الشر كما يغرينا الخير .

وآمال فتاة تزوجت بشيخ ، ويحاول مراد غوايتها ، وهو فتى جميل . على أن عاطفتها الخلقية تثور لهذه الفكرة ، فتقول لنفسها :

هو مستهتر مشى على حجراتي　　وتناسى أمانة الزوج عندي
لا . بل القلب شغله بمراد　　هو شغلي من الحياة وقصدي
رب ما لي أحس نحو مراد　　شغفاً زائداً ولوعة وجد
وحناناً كأنه رقة العشق　　جرى في دمي ولحمي وجلدي

وتتضح في هذا الموضوع صورة للصراع بين الهوى والواجب ، حتى تتغلب فيها عاطفة الواجب فتقول :

لا ورب الجلال والحق آمال　　ارجعي للصواب آمال جدي
أنت من أمة تصون حمى الزوج　　وتقضي حقه وتؤدي
ربي لا تجعل العلاقة إلا　　من سلام إذا التقينا وورد
رب إن البلاء مني قريب　　وأرى حفرة وأخشى التردي
رب لا تقض أن أخون عليا　　كيف أهوى على هوى الزوج عندي (ص١٨)

بل شعر المؤلف أن تغير العاطفة يستدعي تغييراً في التعبير ، فيصبغ عزمها وتصميمها بصبغة خاصة يتغير فيها الوزن والقافية ، فتقول آمال في نهاية الحديث :

لا . لا . رويدك يا آمال لا تثني   على الأمير ولا تجـزيه طغيانا
واحمي حمى الليث في أيام غيبته   إن اللباة تحوط الغاب أحيانا
أما هو الزوج يرعى حق غيبته   وتجعل الحرة الفضـلى له هانا
لقـد أقامك في محرابه ملـكاً   لا تجعلي الملك المهدي شيطانا (ص١٨)

ونستطيع أن نلمس هذا التردد بين العاطفتين يتكرر بطرق مختلفة في الحوار ، وكأنما شعر المؤلف بقوته فأطنب فيه بعض الإطناب ، وسنرى في هذه النزعة في النهاية صورة أروع من الصراع في نفس ليلى بين الهوى والواجب ، فقد سبقت صورته الأولى في شكل بدائي في كليوبترة ، وهي موزعة بين أنطونيو ومصر في أكتيوم ، وسنرى فيهـا حرصاً من المؤلف على جعل العنصر الخلقي المثالي يتغلب في النهاية.

ونلمس مثل هذا الصراع في نفس علي بك في مواضع خاصة ، فيثور في نفسه صراع بين الضمير والواجب ، وبين العاطفة والشهوة إلى الانتقام حين يقابله قائد الأسطول الرومي ويعرض عليه خدماته . فيقول علي بك لنفسه :

مالي قصـدت وتركيا مقهورة   والروس حولي يخطبون ودادي
أسطولهم بيدي وقائدهم معي   سأصيب جندي عنـده وعتادي
لا يا علي ، رويداً في الغضب ، إتئد   ما تلك خطة حكمة ورشـاد
ماذا جنت مصر عليّ وأهلهـا   إن الجناة عليَّ هم أولادي

وفيه تتضح سمات الصراع السابق وتطوره في المسرحيات الأولى ، وفيها لا يكاد شوقي يحس بوجوده رغم تنازع عاطفتين قويتين متناقضتين في نفس أنطونيو وفي نفس كليوباترة وفي حديث كل منهما قبل الفصل في أمر نفسه وإقدامه على الانتحار ذكر للوطن يمثل جانب الواجب ، وذكر للحبيب يمثل جانب الهوى . وقد ورد الصراع بشكل بارد متتابع لا حرارة فيه ، رغم وجود فرصـة نادرة لتمثيله ، وإنهائه بانتصـار الجانب الإنساني العاطفي ، أو الانتحار على أنه مهرب من هذا الصراع ، فيحيا المنظر وتحيا الشخصية .

وإننا لنرى كيف تقل بيوت الحوار وتتحرك بسرعة، وكيف يتجزأ البيت الواحد أكثر من ذي قبل مسايراً بذلك منطق الحوادث، ومنطق الشخصيات فتقل العناية باستكمال جوانب الحوار والبيوت والقافية، وإيراد التشبيهات والمبالغات المصطنعة، واشتراك أكثر من شخصية واحدة في الحديث في المنظر الواحد، وتنوع المناظر في الفصل مع وحدتها العامة، وعدم تفكك أوصالها. ونرى فيها مفاجآت تتوزع في ثنايا المسرحية بشكل لا يخرج على المحتمل والمناسب، كما في محاولة سعيد اغتيال علي بك، ومنظر مقتل عيش بك، وكما في المفاجأة الكبرى حين يكتشف مراد علاقته بآمال، وفيه تحل الأزمة التي عقدت في بداية المسرحية، وفي ثناياها عرض الموضوع التاريخي.

على أنه من المناسب للتمثيل حذف حديث لا يحتمل أن ينشده جريح يودع الدنيا، فعلي بك الكبير قد جرح، وهو مشرف على الموت، وليس من المحتمل أن يخاطب مراداً خطاباً فلسفيا عن أسباب ضعف المماليك وحاجتهم إلى الاتحاد، فذلك شوقي يبرز من بين شخصياته سافراً، ويحاول أن يستخرج العظة من التاريخ تمشياً مع أسلوبه الخلقي. ولكن هذه العظة لا تتضح إلا بعد تطور للحوادث وبعد انقضاء زمن طويل. وربما كان من المناسب حذف منظر الجند في عكا في بداية الفصل الثاني، ففيه يستعرضون الحرب ومضارها وفيها يبرز المؤلف سافراً أيضاً ويدع شخصياته تتحدث عما لا يتصل اتصالاً رئيسيا بالموضوع، وهو أقرب إلى الحشو منه إلى منظر من المسرحية.

على أن هذه المسرحية تبين تقدماً في فن شوقي المسرحي، من حيث وجود عناصر المفاجأة والتهكم المسرحي، وتطور الموضوع من عقده إلى حل، ووضوح ملامح الشخصيات وسهولة الحوار ومرونته، وتعدد لوحة الشخصيات. فماذا أسقطها في التمثيل بعد أن مثلت لأول مرة عقب تأليفها؟

يرجع ذلك إلى اختيار الموضوع من حقبة لا تتصل بتاريخنا القومي اتصالاً قويا دائما، إذ يعرض أمام الجمهور صفحات عصر مملوكي، حكام مصر فيه أجانب عنها، وتعرض أمامهم ما استلزم تصويره في العصر من ولاة يتنازعون على الحكم من أجل الحكم، ولا يتصلون بالشعب المصري اتصالاً قويا. فقد كان ذلك نصيب محمد علي الكبير بعد ذلك

ببضع عشرات من السنين . وعرض المؤلف أمام الجمهور صوراً لبيع الرقيق وشرائه ، وصوراً للنهب والسلب والخيانة والغدر . بل صوّر المؤلف الشعب تصويراً غير عميق ، إذ صوّره بصورة شعب جاهل يسير في ركاب المنتصر وينقلب على المهزوم ، رغم ما أسداه إليه من خير . ويكاد يجمع مؤرخو هذا العصر على أنه كان عصر هدم واستنزاف ، لا عصر بناء وإصلاح في تاريخ مصر . بل لا يقارنون به عصراً آخر من تاريخ مصر في نزعة الهدم لا نزعة البناء . وقد اقتصر شوقي على تصوير الملوك والحكام والقادة دون أن يجنح إلى تصوير حياة الشعب فيصور نفسه وآلامه وآماله ، ولكن حكم على ذلك منشأ شوقي وحياته . ولو عاش بين الشعب كما عاش حافظ ابراهيم — معاصره — لتغيرت وجهات نظره ، وأتيح لنا الاطلاع على مسرحيات من نوع آخر ، ولأقبل على التأليف إقبال المندفع من داخل نفسه ، تدفعه فكرة ، وتسيره عاطفة صادقة عميقة ، ولأنتج لنا مسرحيات تحمل طابع الحرارة والشيوع .

على أن الباحث لا يسعه الا أن يرى في هذه المسرحية مناظر جذابة تجتذب الجمهور وجودة فنية تقدمها على المسرحيات الأولى . ففي نهاية الفصل الأول يرى الجمهور بوادر الأزمة بوضوح ، وتطورها السريع في الفصل الثاني ، وحلها في نهاية الفصل الثالث ، فلا يرتخي توتر اهتمامه بمتابعة المسرحية . ويرى فيها تقدماً فنيًّا في مناظر مهد لها في مسرحياته الأولى ، فيجتذب اهتمامه مناظر الصراع بين آمال ومراد ، وقد سبقه نظيره في مصرع كليوباترة بين هيلانة وحابي ، وبين قيس وليلى ، ويدور الصراع حول حب يعترض سبيله حائل قوي . ويجتذب اهتمام الجمهور منظر الصراع بين علي بك وسعيد حين يكاد علي بك أن يقضي على خصمه ، وقد سبق هذا المنظر نظيره في المسرحيات الأخرى ، فهناك صراع بين قيس أو على الأصح زياد تابعه وبين منازل ، وبين ابن عوف وبين آل ليلى . ويجتذب انتباه الجمهور الصراع الأكبر بين علي بك ومراد بك ، ويتوقع الجمهور انقلاب حظوظه وتمتزج المفاجأة الكبرى في النهاية بنوع من التهكم المسرحي . إذ يعلم الجمهور بالعلاقة بين مراد وآمال ، بينما تجهلها الشخصيتان المسرحيتان ، وقد سبقه نظيره في مصرع كليوباترة ، حين تتحدث كليوباترة إلى أنوبيس عن حظوظ أنطونيو والجمهور ويعلم الجمهور أنه قد انتحر ، وله

نظره في « مجنون ليلى » حين يتحدث بشر إلى قيس معزياً وهو يجهل أن ليلى قد ماتت ، بينما يعلم الجمهور ذلك . على أنه قد خط هـذا الصراع بمهارة تقدمت خطوات على قدرة الشاعر في المسرحيات الأولى .

بل إن المسرحية لتترك في نفس الجمهور معنى أعمق ، ومدلولاً أبقى أثراً ، فقد يتصارع الخير والشر ويتغلب الشر أحياناً . وقد يفعل المـال في النفوس فعل السحر فيشتري القلوب والضمائر . على أن تلك القيم الخلقية لا تتحقق إلاّ في مجال اجتماعي خاص . وقد كان في المجال الاجتماعي في عصر المماليك المضطرب ، ميداناً يجعل من الممكن تحقيق هذه القيم ، بل يجعل منها المثل الأعلى للناس .

فلئن عابت هذه المسرحيـة بعض العيوب العامة ، ففيها تقـدم ملحوظ في فن شوقي المسرحي .

الفصل السادس

عنترة

بين مجنون ليلى وعنترة وشوقي صلة روحية قوية . فالمجنون — كعنترة — شاعر يسير كل منهما عاطفة الهوى . ويعتمد فنهما على الغزل في جوهره ، ويستمد كلٌّ منهما امتيازه من البراعة في إنشاد الشعر . على أننا نلمس في المسرحية الجديدة عمقاً في التعبير العاطفي للشخصيات ، وإبرازاً لألوان البيئة ، ووضوحاً لمعالمها ، واستجابة الشخصيات لهذه البيئة وفيها تخصيص يقابل العمومية في التعبير والأداء في المسرحية الأولى . ونلمس في المسرحية الثانيـة حركة قد يبالغ في إظهارها الشاعر أحياناً ، وقد قلت الحركة إلى حدٍّ كبير في المسرحية الأولى . وموضوع المسرحيتين متشابه ، فهو صراع عاشقين مع حوائل . وبينما تتحطم الشخصيتان في المسرحيـة الأولى لوجود حائل روحي قوي من التقاليد تتمسك به إحدى الشخصيتين ، وتنتصر الشخصيتان في المسرحية الثانية لعدم وجود هذا الحائل الروحي ، ويستطيع البطلان تحطيم الحوائل المادية المجسمة وهم آل عبلة . ونلمس في حوار هـذه المسرحية مرونة وتنوُّعاً وعمقاً لم نجده في المسرحيات الأولى .

وقد رجع شوقي ثانية إلى الأغاني يقلب صفحات البطولة فيه ، فاستهوى مزاجه كشاعر قصة شاعر آخر هو عنترة ، الذي اتصف بصفات البطولة ، وصار قطعة من الأدب الشعبي بما نسج حوله من أقاصيص الشجاعة . واتخذ من عنترة بن شدَّاد الذي لقب بالفلحاء لتشقق في شفتيه ، بطلاً لمسرحيته وبنى موضوعه على ما ذكره الرُّواة عنـه ، من أن أباه احتقره لسواد بشرته ، ولأن أمه كانت حبشية ، وأبعده أبوه ، ثم ادعاه حين أغارت بعض أحياء العرب على بني عبس وأصابوا منهم ، واستاقوا إبلهم ، فتبعهم عنترة في جمع من عبس . وقال له أبوه . كرّ يا عنترة . فقال له : العبد لا يحسن الكرّ ، وإنما يحسن الحلاب والصر .

فقال له أبوه « كرّ وأنت حر » : وقيل إنّ أباه ادعاه حين أغارت عبساً على طي، وأصابوا منهم أنعماً . فلما أرادوا الغنيمة قالوا لعنترة « لا نقسم لك نصيباً مثل أنصبائنا لأنك عبد » وطال بينهم الخطب حتى كرّت عليهم طيّ ، فاعتزلهم عنترة . قال « أو يحسن العبد الكر ؟ » فقال له أبوه « العبد غيرك » واعترف به فكرّوا فاستنقذ النعم. واشترك عنترة بعد ذلك في حروب داحس والغبراء، وفيها أغار على بني نبهان، واطرد لهم طريدة وهو شيخ كبير ، وجعل يرتجز وهو يطردها . ثم تبعه وزر بن جابر النبهاني في فتوة ، فرماه وقال : «خذها وأنا ابن سلمى » وتحامل عنترة الرمية حتى أتى أهله ومات : ويذكر البعض أنه مات في حرب مع طي ، بعد أن سقط من على فرسه ، واختبأ في دغل فرماه بعضهم بسهامه . وقيل إنه مات وهو في سفر حين هبّت عليه ريح من صيف فأصابته وقتلته . على أن هذه القصة قد امتلأت بما نسجه حوله خيال الأدب الشعبي من حوادث البطولة ، وأنشد له المنشدون الرجز والشعر، وقصوا قصته في مجالس العامة . وصار مثلاً أعلى للعاشق الشجاع العفيف البدوي الجريء .

واستجاب مزاج شوقي لهذه القصة ، واتخذها موضوعاً لمسرحيته صوّر في ثناياها البادية الجاهلية ، وحياة الغارات والحروب والشعر والصيد . وصوّر ذلك في أربعة فصول ، قسم فيها كل فصل إلى منظر ، وكل منظر إلى عدد عديد من المشاهد التي تتغير تبعاً لظهور شخصية جديدة أو لتغير في الحوادث . وقد انتفع من هذا التقسيم في تنويع الحوار ، وأقلع عن الاندفاع في تيار الشعر الغنائي والاسترسال فيه . ففي الفصل الأول يظهر عنترة ويشكو هواه ، ويمر عليه فتية من الحي يعلقون على شدة بأسه وضخامة جسمه ، ثم يهتف هاتف بطلوع النهار ، وتنشد فتيات الحي نشيد الصفا وهنّ يملأن جرارهنّ . ثم يظهر صخر إنه يسعى لخطبة عبلة ، التي لا تريد بغير عنترة بديلاً وتهوى صخراً فتاة أخرى هي ناجية ويغير اللصوص فجأة على الحي فلا يتحرك عنترة إلا حين يصل إلى مسامعه استنجاد عبلة به ، فيخلصها من أيدي اللصوص ، ويشكو إليها هواه ، ثم يدخل عبده حاملاً ما اصطاده عنترة ثم يصطدم عنترة بصخر فيدور بينهما حوار ينتهي بانصراف الأخير مهزوماً .

ويشبه هذا الفصل الفصل الأول من مسرحية مجنون ليلى ، ففيه يتلخص الموقف ،

وتظهر العوائق في سبيل حب عنترة وعبلة ، ويلمس الجمهور بأس عنترة وقوته الجسمية وقوة سحر بيانه . وهو فصل يحدث فيه التأثير بالوسائل المسرحية بعد أن اقتصرت في المسرحيات السابقة على الإنشاد والتلخيص ، ويرتفع الفصل نحو ذروة ثانوية يتوتر فيها ثم يحل ، على أن يترك العقدة الكبرى دون حل بعد ، ففيه مفاجآت ذاتية ، أهمها خطف عبلة ومداهمة الحي ، وموقف الشك الذي يقفه عنترة من الدفاع حتى يخف لنجدة عبلة . وفيه حوادث تمثل تمثيلاً حيّاً مباشراً بدل أن كانت تقص وتحكى من قبل . وقد تعرّض المؤلف لتصويرها بصورة عامّة في مسرحيته السابقة وهي « أميرة الأندلس » ولعله لمس قدرتها على التأثير في نفس الجمهور ، وشهد لها رجال المسرح الذين استشارهم بقوتها . كما عني بإبراز صورة البطولة في عنترة ، وهيأت له الظروف التي يصير فيها محور اهتمام الجمهور .

وفي الفصل الثاني يخطب صخر عبلة بشكل جدي ، فيوافق أبوها على الخطبة ، ولكنه يشترط عليه أن يكون رأس عنترة صداقاً لها . وتستشار عبلة في أمر زواجها منه فترفض بعنترة بديلاً . ويعرّض أبوها على الفور بعنترة ، وفي هذه الآونة يظهر عنترة وقد ساق أمامه إبلاً كانت متجهة إلى ملك فارس . ويلتقي عبلة فيبثها هواه من جديد .

وفي هذا الفصل ، كما في مجنون ليلى ، يتحرّك الموضوع نحو الأزمة ، وتبرز الحوائل ، ويصير نجاح البطلين مشكوك فيه . فيبرز منافس لعبلة كما ظهر منافس لقيس ، على أن احتمالات نجاح عنترة وعبلة في أمرهما قوية . فالبطلان مجمعان على تحقيق هدفهما ، مهما قام في سبيله من حوائل . ومعظمها يزول أمام القوّة الجسمية ، وعنترة كفء لأن يتغلب عليها . على أن فيه مناظر لم يكن هناك بدّ من تكرارها ، وهي مناظر لقاء عبلة وعنترة ، وما يحدث فيها من شكاة . فهي مناظر متحدة متجانسة في شخصياتها وموضوعها ، ويحتال المؤلف حتى تبرز بصورة مختلفة في أسلوب عرضها . ففي كلا الفصلين ينتهي المنظر بلقاء عنترة وعبلة ، وبدليل محسوس على شجاعة عنترة وبأسه وصيده وغنمه .

ويبدأ الفصل الثالث بظهور عبلة غيرى تشك في حب عنترة لها . ثم يقبل عنترة فيتحقق مما تجد وتقتنع هي بصدق عاطفته نحوها . ويحاول العبدان اغتياله ، فيصرخ فيهما دون أن يدير وجهه إليهما ، فيسقط أحدهما ميتاً ويفر الآخر . ثم يظهر في الحي منافس

آخر لعنترة ، وهو ضرغام ، ويطلب الزواج بعبلة ، فيطلب منه الأب رأس عنترة صداقاً لها ، فيغضب ضرغام ويلوم والد عبلة على غدره . ثم يقابل عنترة مقابلة الحر للحر ويكشف له عن غرضه ، ويحكي لهما دار بينه وبين والد عبلة ، ويحتكم عنترة وضرغام إلى عبلة لتختار واحداً منهما ، فترضى بعنترة ، وتحدث غارة على الحي ، وبهذا ينتهي المنظر الاول . أما في المنظر الثاني فيقتل ضرغام ويقتل رستم قائد الفرس .

وتبدو في هـذا الفصل مناظر مكررة لجأ إليها المؤلف ليطيل في مسرحيته . فضرغام شبيه بصخر ، ويلقى ما لاقاه صخر . ولا يفترق عنـه إلا أنه عربي نبيل وخصم شريف . وهنك عبلة في حب عنترة يبدو مصطنعاً قليلاً . ومنظر الصراع الآخر بين عنترة وضرغام وجيوش الفرس المغيرة ، منظر سبقت صوره حين خلص عنترة عبلة من المغيرين ، واضطر إليه المؤلف اضطراراً ليضع نهاية لشخصية ضرغام ، الذي اضطر إلى قتله لعـدم ضرورة وجوده في المسرحية بشكل دائم ، كما يقتل قائد الفرس حتى تنتهي قصـة الإبل التي ساقها عنترة . فهذا الفصل ليس بضروري جداً لتطوّر المسرحية ، وان تنقص قيمتها إذا حذفت ويبدو غير طبيعي أن يموت عبدٌ من صرخة .

ونعود إلى تطور الموضوع الأصلي في الفصل الرابع . وفيه تقام الأفراح لصخر في حي بني عامر ، وتزف ناجية إليه على أنها عبلة . ثم يظهر عنترة ومعه عبلة الحقيقية في نفر من قومه . ويكشف عن حقيقة الأمر . وتقوم بينه وبين الجمع مبارزة يتغلب فيها عليهم واحداً واحداً . ثم يرغم عنترة صخراً على التزوج بناجية ، فيتزوج بها غير كاره ، ويتزوج هو بعبلة . وبهذا تنتهي المسرحية .

وهذا الفصل هو الذي تحل فيه الأزمة . والمفاجأة طيبة ، ولو أنه كان من المستحسن أن يمهد لها بإظهار منظر يوضح ما فعله عنترة ، حتى يستطيع مسايرة حوادث الفصل الأخير بشوق وانتباه ، لما فيه من تهكم مسرحي . ويعلم الجمهور سلفاً بقوة عنترة الخارقة في النزال وقد تكررت أمامه صوراً كثيرة منه مما يجعله غير مدرك لقوته ، إذ فقد عنصر الجدة فيه على أن ما به من حركة ومناظر صراع وأفراح لا يفقده طرافته تماماً

والشخصيات في هـذه المسرحية أكثر انسجاماً ووضوحاً في الملامح من شخصيـات

المسرحيات السابقة ، وصار الشعر فيها تعبيراً طبيعيًّا في كلام عنترة ، ولم تفسد الحركة المسرحية بالاسترسال الغنائي كما حدث من قبل . وفي عنترة صورة للمثل الأعلى للأبطال في الجاهلية ، والمثل الأعلى الشعبي . فهو بطل ضخم الجسم ، مهول القوة إلى درجة خارقة . وهو فصيح ينشد الشعر الذي ينصب في تيارين رئيسين أولهما الغزل وثانيهما الفخر . ويتصف بصفات خلقية أهمها النبل والمروءة والشهامة . وهو بطل قد تقدم كثيراً على بطل مجنون ليلى ، وصار مركباً في شخصيته ومعقداً في عواطفه . وزال من قيس جانب الضعف ، فصار قوة وبأساً وشجاعة في عنترة وبقي منه جانب الاخلاص للهوى . وفيه بعض من حريز بطل الأندلس في أميرة الأندلس ، وهو صورة منه ؛ فهو بطل صراع وحرب وقتال . على أن قوته تبدو غير طبيعية في كثير من المواضع ، وقد بالغ المؤلف في وصفها وهوّل من شأنها ، فعنترة منتصر على الوحش والناس مهما كثر عددهم ، وصرخ مرة فقتل عبداً بصرخته . وتميل عبلة إليه لصفات الشجاعة والبيان فيه ، فيقول لها .

ليت افتتانك لم يكن بشجاعتي وبفضلها
أو ليت حبك لم يكن لقصائدي ونبلها (ص ٦)

وهاتان الصفتان هما محور شخصيته ، وتبرزان بوضوح في المواقف المختلفة التي يوجد فيها ، فقد اقتبست عبلة الكثير من صفاته ، وتأثرت به في الجرأة وقوة البيان ، وتظهر شجاعتها حين تقابل اللصوص وتدافع عن نفسها ، فهي مسلحة بخنجرها دائماً ، وتقول حين يدهمها اللصوص :

خنجري أين خنجري اليوم مني هو ذا خنجري تعال أعني
حط عفافي وحام عن قوس العز ى ورد اللصوص عني (ص ١٧)

وتقول لعنترة حين يلقاها على قارعة الطريق وحدها :

ربى معي وبصيري تحتي وهذا السلاح . (ص ٨٧)

وهي تعجب بعنترة من أجل هذه الصفات . فتقول له :

كل يوم يقال عنترة أردى كميًّا وقام عن ضرغام (ص ٣٨)

وتصوّر مثلها الأعلى في الزوج بقولها :

أريد أجلاداً هديدة القوى   وساعداً خشناً كجلمود الصفا   (ص ٧٢)

وهو مثل أعلى هعمي أيضاً ، وتقوم خطيبة في بعض العرب تدعوهم للوحدة تحت لواء عنترة ببلاغة نادرة .

وهي تحتقر في صخر عكس هذه الصفات ، فتقول عنه لعنترة :

جبانٌ ذليلٌ جاء عبساً وماءها   يعرض للإفك المذارى ويفضح

فهي صورة من ليلى في حبها ، ولكن ليس فيها جانب تقليدي محافظ ، وكما يختلف عنترة عن قيس تختلف هي عن ليلى

ومالك والدها صورة من المهدي الذي يتمسك بالتقاليد ، إلا أنه ينقصه نبله وحبه لابنته ، ولا يريد أن يزوجها بعبد أسود جرياً على سنة التقاليد ، ويسعى للغدر والفتك به فيدس له العبدان ، ويؤلب عليه صخراً ، ويحاول أن يؤلب عليه ضرغاماً . على أن ضرغاماً صورة للبدوي الشهم الكريم الذي يعترف بمزايا خصمه ، وهو عفيف في حبه ، شجاع يحترم عنترة لمثل هذه الصفات ، وينازله منازلة الشريف والحر للحر ، ويدافع عن عنترة في غيبته رغم أنه منافسه . ويقول لمالك حين يحاول إثارة غيرته :

لم لا أخافه ؟   تخاف وترجى في الرجال الفضائل
وإن ابن شداد وان ذاع بأسه   فتى ملء برديه عفاف ونائل
... لا لست حاسداً   ولا أنا للنار الأكولة حامل
أأحسد من يحيي العفاف بماله   ويأوي اليتامى ظله والأرامل
أأحسد من لا يعصم البيد غيره   إذا زحفت من أرض كسرى جحافل
أأحسد من لا يعصم البيد غيره   إذا افترقت تحت الملوك القبائل ص٩٧

وهو صريح يقول لعنترة ببساطة عن مقصده حين يسأله :

« جئت أخطبها » . فيقول عنترة . « ما أجمل الصدق لم يلبس بإنكار » (ص١٠٢)

وحين ترفض عبلة الزواج به ، ويغار على الحي ، ينصرف ضرغام إلى ملاقاة المغيرين مع عنترة وهو لا يكتم له حفيظة . ويلاقي حتفه في القتال .

وصخر صورة مناقضة لعنترة أو ضرغام . فهو جبان ، وحين يغار على الحي يهرب ، فيقول في أحدها :

الحياة الحياة النجاة النجاة
الفرار الفرار القفار القفار (ص ١٦)

ويخشى بأس عنترة فيقبل ناجية زوجاً له وهو يقول :

قبلت يا خلم إن قبلت عامر
مرهم بما شئت أنت هنا الآمر (ص١٣٦)

ولقد انتفع شوقي بتلك الأقسام العديدة التي أدخلها في تقسيم الفصول إلى مناظر ، ثم إلى مشاهد صغيرة في تصريف الحوار . فزادت المرونة ، وقلّ الاسترسال الغنائي وظهر فيه لون الشخصية ، وعبر عن الموقف تعبيراً فيه عمق في العاطفة وصدق في التعبير. فعنترة شاعر يتحدّث غزلاً وفخراً أو يفيض شعره بالحماسة . وقد يجمع بين هذه الصفات جميعاً في مواضع . يقول عنترة في بداية المسرحية :

سلي الصبح عني كيف يا عبل أصبح وأين يراني نجمه حين يلمح
أفي خيمتي كالناس أم في بيوتكم أبث الخيام الشوق وهو مبرح
أقبل أطناب البيوت وربما تلفت عن منهلة الدمع تسفح
أرى بوقوفي في ديارك راحة كما يستريح ابن السبيل المطرح
أبوك غرير القلب لم يعرف الهوى ولم يدر ما يأسو القلوب ويجرح (ص ١)

. . . .

أحيد عن الساري لكي لا يريبكم وأقدي كلاب الحي عني فتنبح
فياعبل قد طال التنائي وظله متى بتدانينا الحوادث تسمح

إذا قارنا هذا الحوار من حيث صلته بالموقف والشخصية بحوار الأبطال ونجواها لنفسها في المسرحيات الأولى ساعة الانفعال العاطفي لمسنا في هذه الأبيات تركيزاً في التعبير والتركيب وقوّة الاتصال بهما أكثر من ذى قبل . وسنرى كيف تنوّع الحوار واتخذ صورة أخرى ذات وزن وقافية وموضوع مختلف ، يبين إدراك الشاعر لعيوب الاسترسال في الحوار ، واعتماده على الشعر في التأثير ، دون أن يتصل بدواعى الموقف والشخصية . بل يحاول أن يخفي عجزه وراء سيل من الشعر المتدفق الذي يعبر عن نفسه

أ كثر مما يعبر عن الموقف المسرحي . فيصعد عنترة بعد حديثه إلى ربوة ويقول :

يا ليت حبك عبل لي حب القطاة لشكلها
أو حب قبرة الصفا لأليفها وخلها
أو مثل حب نجيبة مجنونة في خلها
ليت افتتانك لم يكن بشجاعتي وبفضلها
أو ليت حبك لم يكن لقصائدي ولنبلها (ص ٦)

لقد انتقل شوقي من طور الذاتية في التعبير إلى طور الموضوعية فيها ، فابتدأ في إبراز الصور كما تتراءى لأنفسها ، وكما تستجيب لدواعي البيئة ، وتتلون بألوان العاطفة وتلك خطوة كبرى في تطور فن الشاعر ضنراها تبلغ ذروتها في مسرحيته الأخيرة . وعبر الحوار عن الشخصيات وألوانها ضعفاً وقوة ، وتجزأت بحوره وأوزانه وتعددت قوافيه ، ولم يعد الشعر متماسكاً بإيرادها متجانسة . ويتضح ذلك في المناظر العديدة في أنحاء المسرحية حيث تكثر الحركة ، كما في المنظر الذي يصور سطو اللصوص على خيمة عبلة ، ومواقف الصراع والنزال ، وحين رأى المؤلف أنه لا مناص من حديث طويل ، احتال على ذلك بتنويع القافية والبحر . وفيه يسأل أهل عبلة عن مكانة صخر بين قومه قبل أن يتزوج عبلة يقول مالك . —

مالك : أصيخوا لي . أصاحبكم شجاع فعبلة تبغض الرجل الجبانا
أحدهم : كليث الغاب إقداماً وكرا إذا اعتقل المهند والسنانا
مالك : أصيخوا لي . أصاحبكم جواد فعبلة تبغض الرجل البخيلا
أحدهم: يكاد ندى يديه حين يهمي ينسى حاتم السمح المنيلا
مالك : أصيخوا لي . أصاحبكم جميل فعبلة تبغض الرجل الذميما
أحدهم : ألم تره . ألم تنظر إليه إذن لم تبصر الملك الكريما (ص ٥٣)

واحتال على إكسابه عنصر التشويق بإشباعه بالفكاهة التي تنبع من المبالغة في وصف خصال صخر ، وهو كما يعلم الجمهور ، من قبل يتصف بعكس هذه الصفات ، ولكن هكذا طبيعة الخاطبين . وسيتطور هذا الجانب الفكاهي ويتسع فيما بعد في المسرحيات الفكاهية .

وإذا نظرنا إلى الأناشيد الغنائية، وجدناها تتلون بلون الموقف، ولا توجد لذاتها كما كانت من قبل، ففي الفصل الأول يمهد نشيد الفتيات حول البئر لظهور صخر وحديثه معهن وفي نهاية المسرحيـة يغنى نشيد في حفـلة عرس. وأتت الأناشيد خفيفـة لفظاً وتركيباً، وسريعة في حركتها. ومن الممكن استغلالها في توضيح جانب من البيئة الجاهليـة. ولعل الشاعر قد استباح لنفسه حرية التعبير والتصوير، فلم يخضع لمراجعة، وسمح لخياله بالاسترسال فلم يقتبس من شعر عنترة أو يتكىء عليه إلاّ في القليل، وهو لا يكثر منه في هذا الشعر القليل الذي يأتي به. بل لم يتعد بضعة أبيات وردت في نهاية المسرحية في حديث عنترة وهي:

لم أنس ذكرك والرماح تسيل من درعي وتصبغ مشفري بالعندم
(ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي)
فضيت اعتنق الرماح لأنها خطرت كأسمر قدك المتقوم
(فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم) ص١٢٢

وتشبعت فصول المسرحية ومناظرها بالمواقف التي تجتذب الجمهور وتساير ذوقه، وفي مقدمتها مناظر العشاق التي لم تكد تخلو منها مسرحية من مسرحيات شوقي، فالحب عاطفة عامة مشتركة في النفوس، بل يعتبر البعض أنها محور الحياة ودعامتها. وقد لمست يد المؤلف هذه المناظر في مسرحياته السابقـة، وازدادت خبرته بتصويرها فأكثر منهـا في هذه المسرحية. ويرتفع في هذه المناظر مستوى شعر البطل، ويستمد شوقي الوحي فيها من قدرته الغنائية وخبرته بمطالب الغناء وانشاد الشعر الغزلي. ونلمس في شعر عنترة عمقاً وتخصيصاً لم نجدها في شعر العشاق السابق. وتكثر فيها أيضاً مناظر الصراع، بل معظم هذه المسرحية قائم على صراع حي خارجي، وقليل من الصراع العقلي. وهو يتجمع ويتفرق في ثنايا المسرحية حينما يلقى عنترة خصوماً، وحينما يريد الشاعر إظهار جانب الشجاعة والبطولة فيه. وقد قادت هذه المظاهر الشاعر الى المبالغة والتهويل في ابراز هذه الصفة في البطل. فهو أبداً منتصر يفتك بأعدائه ويتلاعب بهم كما يتلاعب اللاعب بقطع الشطرنج. وقد اختفت الأزمة إلى حدّ كبير في ثنايا الشجاعة والبأس الجارف، ولا يظهر الجمهور بقلق

على مصير البطل بعد أن شاهده في منظرين من مناظر صراعه . وحبذا لو اقتصرت هذه المناظر على المنظر الأخير الذي يصارع فيه عنترة رجال فارس ويردي فيه قائدهم . ووجه اهتمامه قليلاً الى تحويل الموضوع من تطور خارجي للحوادث الى تحليل داخلي للشخصيات بحيث يلمس الجمهور فيه نوازع البطل من هوى وعزم يسير حركة الموضوع ، ويبرز الأزمة والحل ، ويمثل العمل تمثيلاً دقيقاً .

ولكنه شيطان الشعر الغنائي الذي كان يجتذب شوقي وهو يصور شخصياته وأحداثه فيصرفه عن التعمق في تحليلها ، وإكسابها صفة التخصيص فيميزها بين أفراد نوعها ، وحدا به الى الغاية بجودة الشعر فاتصل بنفسه أكثر مما اتصل بقلوب شخصياته . على أننا نلمس في هذه المسرحية غاية ما وصل اليه فن شوقي في تحليل الشخصيات والحوادث ومسايرة الموضوع لطبائعهـا ، وظهور ألوان البيئة فيه إلى حد غيّـر شخصياته ووضح ملامحها الى حدّ كبير قياساً الى فنه في مسرحياته الأولى .

ولم تمثل هذه المسرحية مرات متعددة كما مثلت بعض مسرحيات شوقي رغم احتمال نجاحها لصلتها بالمثل العليا الشعبية وحياة العامة من ناحية ، وجودة شعرها من ناحية أخرى . وربما رجعت معظم أسباب ذلك إلى تطلبهـا لأنواع خاصة من الممثلين وأنواع خاصة من الممثـلات وأدوات كثيرة تتصل بالحياة العربية الجاهلية ، وأدوات تستعمل في مواقف الصراع المختلفة . وربما رجع ذلك إلى تأخرها الزمني في المسرحيات التي ألفها الشاعر . على أنهـا أقرب المسرحيات العربية تمثيلاً للحياة العربية وفترة المعيشة فيها . وتصوير مثلها العليـا ، سواء من جانبها الاجتماعي ومثله العليا من قتال وشجاعة ومروءة ، أو جانبها الأدبي من إنشاد الشعر الرفيع . وبتحوير غير عظيم في بعض المناظر والاستغناء عن بعضها يمكن للمخرج إخراج مسرحية جيدة متماسكة منسجمة .

الفصل السابع

أميرة الأندلس

مسرحية نثرية

هذه هي المسرحية الوحيدة التي كتبها شوقي نثراً . أوحى بموضوعها إليه – فيما يرجح – زيارته لإسبانيا عقب الحرب الكبرى الأولى حين نفي إليها . فبعد أن ألف مسرحيتين تتصلان بالتاريخ المصري القديم : وهما مصرع كليوبترا وقمبيز ومسرحيتين تتصلان بالتاريخ العربي وأبطاله الشعراء : وهما مجنون ليلى وعنترة ومسرحية تتصل بتاريخ مصر في عهد المماليك وهي علي بك الكبير اتجه الى ذلك الركن العربي الذي وصلت إليه الحضارة الاسلامية . فكتب مسرحية نثرية عن الأيام الأخيرة لبني عبّاد في أشبيلية قبل غزو المرابطين لها .

ويأتي ترتيب هذه المسرحية في التأليف بعد علي بك الكبير ، كما يضعها مؤرخه . وتدل الدلائل الأدبية بها على صحة هذا الوضع . فقد امتزج بالموضوع التاريخي في مسرحية علي بك موضوع غير تاريخي اتصل به وتتطوّر معه وانتهى بعده . على أنه لم يندمج معه اندماجاً كليّـاً ، ويتصل بحوادثه اتصالاً وثيقاً إلاّ في هذه المسرحية . فقد ساير الموضوع التاريخي الرئيسي موضوع خيالي واندمج فيه وحرّك حوادثه وأكسب نهايته صبغة تتفق ومجراه .

وقد حدا الشاعر إلى ذلك طاقته الخيالية الشعرية ، وسعيه إلى التخفيف من وقع الكارثة التاريخية . ويدور الموضوع الخيالي ، كما دار في مسرحية علي بك الكبير ، على عاطفة الحب ومحوره لقاء العشاق وقيام حوائل تحول دون تحقيق آمالها حتى تتهيأ ظروف اللقاء ويتحقق

الأمل . بينما صار الموضوع التاريخي سيره الأصلي دون أن يحوّر فيه الشاعر إلاّ في نهايته الخيالية ، وقد اتصل الموضوعان ببعضهما اتصالاً موفقاً منتظماً خلال الفصول الخمسة التي تنقسم إليها المسرحية . ففي الفصل الاول تقص بثينة على أتباعها خطورة موقف أخيها في قرطبة ، وخطورة موقف أبيها في أشبيلية . كما تذكر قصة لقائها بحسون التي التقت به في سوق الكتب . وبهذا ينتهي المنظر الأول . أما في المنظر الثاني فيقتل المعتمد رسول ملك الاسبان لقحته . وفي المنظر الثالث تزيل بثينة خصاماً طارئاً بين أمها الرميكية وأبيها المعتمد

ويقدم لنا هذا الفصل ، على تعدد مناظره ، الشخصيات الرئيسية ، ويلخص لنا الموقف ويبين بوادر الأزمات ، وبداية الاتجاهات التي ستنهجها الحوادث ، وتشعرنا بصور من اليأس الذي يسود البلاط ، وتضعف من الأمل في حل هذه الأزمات . ويعتمد هذا الفصل على التصوير التاريخي لحياة الملك وأهله ، وانحلال ملكه وكرمه وقوته اليائسة أمام ملك الاسبان فهو يقتل رسوله ، وهو يعلم أنه لن يستطيع مقاومته .

وتتضح أحوال المجتمع المضطربة في الفصل الثاني ، نرى فيه صوراً للحروب الداخلية والاضطرابات الاجتماعية ، نرى حريز بطل الأندلس ، وشقيق ملك الإسبان أسيراً له ، ونعلم أنه حمل معه كنوز طليطلة في سرج عاطل . ولا يخفى حريز أمره ، ويسطو بعض اللصوص على الخان بعد أن يخدروا القوم ، إلاّ واحداً كان صائماً ، ويكون السرج العاطل من نصيبه ، فيعثر على الجواهر في داخله فيفوز بها .

ويتسع الفصل الثاني لإبراز الحياة في العصر ، وفي ثناياه يعثر ابن حيون على الكنز ، وهذه بداية تطور الموضوع الخيالي ، وعلى نتائجه تتوقف نهاية الموضوعين معاً . وبينما لا يوجد في الفصل الاول أزمة أو مفاجأة قوية ، إذ يعتمد معظمه على العرض والتخليص وتقديم الشخصيات ، يمتاز الفصل الثاني بما فيه من حركة في الموضوع ، ومفاجأة يرتفع الفصل إليها ، وتجتذب انتباه الجمهور رغم أنها تبدو غير محتملة الوقوع ، إذ تحدث بطريق الصدفة البحتة . ولكن لم يقصد شوقي إلى تصوير موضوع يتطوّر تطوراً داخلياً وإنما يجعله يتطور تطوراً خارجياً ، فيرى عوامل تخضع للصدفة ، بل كثيراً ما تتخلل أساليب القصة أساليب العرض المسرحي .

وفي الفصل الثالث ينقذ ابن حيون ، صاحب الكنز ، أبا حسون من الإفلاس ، ويبقي له على بيته الذي أوشك أن يبيعه . ويكتشف حسون أن زائره هو ابن غصين وهي بنت المعتمد ، ويبادلها حبًّا بحب .

وهكذا يتحرك الموضوع الخيالي في الفصل الثالث ، وتبدو فيه حركة وحياة ، وتظهر فيه مفاجآته وأزماته الصغرى ، فهو جيد من الناحية المسرحية . على أن عيوبه هي عيوب الفصل الثاني ، وهي اعتماد الموضوع على عنصر الصدفة في حل أزماته . وليست الصدفة قانوناً شاملاً للحياة ، وإنما تخضع الحوادث في الحياة المادية لعناصر السببية ، ومن الشخصيات وطبائعها تتجه الأعمال والأفعال .

وفي الفصل الرابع يجتاح ابن تاشفين أشبيلية ، ويعزل المعتمد ، وينقله سجيناً هو وأسرته إلى قلعة بأغمات ، ويستبيح رجاله المدينة وهكذا نرجع في هذا الفصل إلى الموضوع التاريخي ، الذي بدأ في الفصل الأول ، وتتطور حوادثه تبعاً للحقائق التاريخية ، وهو فصل أقرب إلى نهاية المأساة منه إلى نهاية الملهاة .

على أن الشاعر ، يجمع في الفصل الخامس بين الموضوعين ويصلهما ليخفف من حدة تأثير نهايتها . ففي المنظر الأول يعثر والد حسون على بثينة عند قائد مغربي ، ويخلصها منه ويهرب بها مع ابنه حسون . وفي المنظر الثاني تقصد الجماعة « أغمات » حيث يقيم المعتمد الأسير مع أهله . وفي المنظر الثالث تفاجىء بثينة أهلها بظهورها ، وتقص على القوم قصتها ويوافق المعتمد على تزويجها من حسون . ويظهر ابن حيون ويهب المعتمد ثلث ثروته وحسون ثلثاً آخر مع بثينة ، ويبقي له ولأبي الحسن الثلث الثالث . وبذلك تنتهي المسرحية

وهذا الفصل فصل المفاجئة الكبرى التي يظهر فيها ابن حيون . على أن عيبه هو عيب الموضوع عند شوقي بشكل عام ، إذ تتطور الحوادث تطوراً خارجيًّا في الموضوع الذي ابتكره الشاعر ، وتكثر به عناصر الصدفة بل تتحكم في تسييره . والموضوع القوي يتحرك حركة منسجمة تتضح فيها الأسباب والنتائج وتتصل اتصالاً قويًّا ، وتبرز الأعمال سائرة لأمزجة الشخصيات وصفاتها .

وهذه الشخصيات عامة في تركيبها ، وهي أقرب إلى الأنواع منها الى الأفراد المتمايزة

الملامح في النوع الواحد . فالمعتمد ملك عربي شاعر يشعر بشعور العربي في غضبه وكرمه وشجاعته . وهو شاعر استهوت قلبه فتاة جميلة بشعرها فتزوجها ، وقد أقبل على اللهو اقبالاً ضيع ملكه . وبثينة ابنته فتاة فيها من كليوباترة حبها للأدب والعلم ومن آمال فضيلتها ، ومن ليلى هواها ، على أنها أقربهم جميعاً للحياة ، وهي — كأمها — أقرب إلى خلق أفراد الشعر ، فقد ورثته عنها ، وفيها من أبيها حبها للعلم . وابن غالب صورة لا بأس بها لليهودي الذي يفقد كياسته في سبيل المال ، وبقية الشخصيات الخيالية متصفة بصفات عامة ، فابن حيون متدين كريم ، وحسون وأبوه كرماء مهذبون ، وفيهم جميعاً صفات العرب من حب للهو والأدب والمروءة والشجاعة ، وهي صفات العربي وقد عبر عنها شوقي تعبيراً قويًّا ذاتيًّا .

وقد كان هدف شوقي على ما يبدو هو العناية باللغة أولاً وآخراً أكثر من عنايته بالتحليل والتصوير للشخصيات . وقد اتجه الشاعر في أواخر حياته إلى استعمال السجع ، وهو أسلوب وسط بين الشعر والنثر — في أفكاره وأساليبه . فتعبيراته مقسمة تقسيما موسيقيًّا لوحظ فيه حسن الصياغة ، وعباراته تدور حول التشبيهات والأخيلة البديعة . فجانبها الجمالي متفوق على جانبها العلمي التحليلي المنطقي .

ولم تخل المسرحية من آثار أسلوب شوقي المنثور في كتابه هذا ، ففي حوار المسرحية بعض السجع ، سيما حين تشتد عواطف الشخصيات ، وحين يطول الحوار ، فيحتال شوقي على تخفيف وقعه على الجمهور ، وتسهيل مهمة الممثل ، بإيراده بالسجع على أن المؤلف لم يكثر منه وظل أسلوب الشاعر من حيث الأداء واضحاً ، فهو يطنب في تفصيل الفكرة الواحدة في الحوار الواحد ، ويعبر عنها بطرق مختلفة تختلف فيها التشبيهات وتتزن الموسيقى تقول الأميرة (ص ١٥)

« ياويح أبي لقد نظرت إليه وهو في قصر السوسان الضيق الصغير بقرطبة فوجدته كئيباً متململاً ، كأن تلك السقوف المنخفضة لم تكن تليق برأسه العالي ، وكأن تلك الحجرات الضيقة لم تتسع لعينه السماحة . وكأنما كان يرى الزهراء أولى بأن تقله ، وأجدر بأن تظله ، وهناك دنوت حتى صرت خلفه . . . » .

وهذا مثال آخر من قولها: (ص ١٦)

«ملك جديد أضيف إلى ملك اشبيلية . ما أصغر المضاف والمضاف إليه، أنظر ابن عباد إلى العرش كيف صغر ، وإلى الصولجان كيف قصر ، وإلى الملك كيف اختصر ، وتأمل الحكم في قرطبة كيف رد اليوم بالمعتمد ، ومجلس الناصر كيف شغل بابن عباد » .

وهذا مثال ثالث من قول المغربي . (ص ٨٢)

« ولكني مزمع سفراً شاقّاً بعيداً . وما يدري ما وراء الغربة من الفجاوات ، وما تدري نفس بأي أرض تموت » . وقوله (ص ٨٢) ما أنا بالمساوم ولا بالرجل الذي يلتمس الفوائد لنفسه من مصائب الناس ، ولكني جئت أخطب إليك الدار ، وأجعل مهرها وما أقدر أنا لا ما تقدر أنت ولا الناس » .

ومثال آخر من قول ابن حيون (ص ١٠٨ — ١٠٩) .

« إعلم أيها الملك أن هذا الضيف الذي نصرته ونصرك ، وحالفته وحالفك ، وقاتلت معه قتالاً يبقى حديث الدهر هو أهلٌ لأن يقدرك ... وأنصح لك أن لا توطىء الأرقم سريرك وأن تقطع السيف قبل أن يقطعك ، وأن تقبض من فورك على ضيفك فتسجنه ولا تطلقه ، حتى يأمر جنوده بمغادرة الأندلس بره وبحره ... » .

وحين يطول الحديث لاحتوائه لقصة يسترسل المؤلف في الحديث ، ويحاول أن يكسوه بالعبارات البليغة ، قالبلاغة ، من رصانة الألفاظ إلى ارتفاع الأسلوب ، وسيلة المؤلف للتخفيف من عبء الثقل المسرحي لهذا الاطناب اللغوي . والأمثلة على هذه الأحاديث التي تحكي عن الحادثة دون أن تمثلها تمثيلاً مسرحيّاً كثيرة ، فيقص أحدهم على الملك قصة أبي الحسن وإفلاسه (ص ٣٤) وتذكر بثينة قصة حب أبيها لأمها بشكل لا يخلو من تكلف (ص ٥٢) ويقص ابو القاسم قصة حبه لزوجة لمعتمد ، وتركها إياه (ص ٥٨) . وعيب مثل هذه الأحاديث الطويلة أنها لا تؤدي الغرض الذي وجدت من أجله ويضعف التأثير المراد بها لعدم تصويرها بالوسيلة المسرحية المناسبة ، فالجمهور يضيق ذرعاً بالأسلوب الخطابي ولا يتابع الحوادث بعقله ، وإنما يتابعها بحواسه وعواطفه أكثر من متابعتها لعقله ، والوسيلة إلى ذلك بالتصوير المسرحي التمثيلي للحوادث لا بالحكاية عنها . ويشعر الجمهور

بسرعة بهذا العيب ، ويمل هذا النوع من الحديث ، فيفقد قيمته ومدلوله الذي توخاه المؤلف بالرغم من بلاغة تعبيره .

على أنه من الانصاف أن يقرر قلة مثل هذه المنــاظر التي تعتمد على الحوار وحده في المسرحيــة ، فاذا استثنينا الفصل الأول الذي تلخص فيــه الأزمات بوسائل القصة ، نرى معظم مناظر المسرحية الأخرى وقد صور فيها الحوار سهلاً سريعاً ، واللغة مجزأة لا تنساب ذلك الانسياب اللغوي الذي لمسناه في الفصل الأول . بل نرى الفصل والمناظر وقد انسجم تركيبها ووضحته الأزمة فيهــا ، ثم تلتها المفاجأة . ومن هــذه المناظر الجذابة مناظر لقاء حسون وبثينة المتنكر حتى يكتشف حسون حقيقتها وحقيقة عواطفها نحوه ، وفيهــا شبه من مناظر لقاء العشاق في المسرحيــات الأولى . ومن هذه المناظر الجذابة منــاظر الصراع والأبطال ، وكثيراً ما يحكى عنها ، إلاّ أنها تصور تصويراً تمثيليّــا في الفصل الثاني ، حين يبرز حريز ومعه بطرس الأسير وستمهد هذه المناظر لمناظر الصراع في مسرحية عنترة ، بل سيتسع فيصير محور موضوع المسرحية ، ومحور شخصية عنترة ، ومن هذه المناظر الجذابة تلك المناظر الــكثيرة التي تتطور تطوراً منتظماً نحو المفاجأة ، ففي نهــاية كل فصل من الفصول الأخيرة يتحرك الموضوع نحوها ، والجمهور على علم بتطورها ويزيد من اهتمامه بها ما فيها من تهكم مسرحي .

ولولا الاسترسال البــلاغي الذي يوازي الاسترسال الغنائي في المسرحيــات الغنائية السابقة والتطور الخارجي لحوادث الموضوع ، حيث تتدخل فيه عوامل الصدفة لاكتملت جوانبها . على أن هــذه المسرحية ، رغم رقي لغتها تصلح للتمثيل بتعــديل بسيط في بعض مناظرها واختصار الحوار في بعض الأماكن ، والاقتصار على تلك المنــاظر التي تستعرض الموضوع استعراضاً تمثيليّــا ، وهي كثيرة بعد الفصل الأول .

على أنه ينبغي أن نشير إلى اتساع في ناحية من نواحي فن الشاعر ، وهو الجانب الفكاهي . فقد اعتمدت الفكاهة في مسرحياته الحزنة على شخصية محترفة ترسل الفكاهة وقد يمسها لون المأساة مسّــا خفيفاً . ففي مصرع كليوبترة يقوم أنشو بذلك ، وفي مجنون ليلى يقوم بشر بهذه الوظيفة في بداية المسرحية ، وفي هذه المسرحية يقوم مقلاص بذلك .

على أن الشخصية الفكهة ذات حدين ، إذ تنقلب عناصر الفكاهة فيها إلى صورة من صور التهكم المسرحي المتسم الأذى ، فهي أداة للضحك والبكاء . فأنشو في نهاية المسرحية يبكي عندما ينقلب مصير القصر وأهله من فرح إلى حزن ، وبشر بمصير وسيلة حزن في جنون ليلى ، فهو رسول موت ليلى إلى قيس ، ومقلاص يعلم أنه صديق الأميرة ولكنه صديق من أجل صفات لا يسر هو منها كثيراً . ومقلاص يرسل العظة في الفكاهة ، ويطلق السخرية مختفية وراء ستار مكانته كمضحك للملك . وهذه الشخصيات المحترفة تفتح قلبها للجمهور على حقيقته ، وتكشف عن انسانية عواطفها . وتجدر الإشارة إلى جانب الفكاهة الذي يكشف عنه مقلاص في هذه المسرحية ، وهو أوسع جوانب الفكاهة في المسرحيات التي ألفت من قبل ، وتتنبأ بما سيؤلفه الشاعر بعد ذلك من ملاهي محورها هذا الجانب المضحك للحياة . وسنرى امتداد هذه الناحية في الست هدى .

ولم يتبع شوقي تأليفه في المسرح النثري بعد هذه المسرحية ، ولعله لمس صعوبة هذا النوع من التأليف المسرحي . فالشعر أداة التعبير عن العواطف ، ومن السهل الوصول إلى نفوس الجمهور عن طريقه . وقد عولجت مواضع الاسترسال الغنائي فيه بالغناء المسرحي ، ولعله أدرك قصر النثر عن تأدية هذه الوظيفة ، فهو أثقل على السمع ، وأصعب في الإنشاد من الشعر ، إذ ينقصه عنصر الموسيقى ، ويبدو تشبعه بالعاطفة مصطنعاً .

ويرى بعض النقاد أن الشعر هو الوسيلة المناسبة للتعبير عن العواطف ، وان النثر يعبر عن الأفكار العقلية المنطقية العلمية الصالحة الملهاة .

وقد اجتذب موضوع هذه المسرحية أقلام بعض كتاب القصة المنثورة ، فاعتمد عليه علي الجارم بك في قصة «شاعر ملك» (عدد ٦ من سلسلة اقرأ) وقد أخذ حوادث القصة من المصدر الاول وهو تاريخ المقري في كتابه « نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب» ومن المرجح أنه قرأ مسرحية شوقي ، ووجد في موضوعها قابلية للعرض القصصي ، واتساعاً للتصوير والتحليل ، فكتب قصة منسجمة متسعة اللوحة ، صور فيها جوانب العصر ، ونفسيات الشخصيات ، تصويراً تفوّق على تصوير شوقي إلى حدّ كبير .

الفصل الثامن

الست هدى

ملهاة

لأول مرة في مسرحيات شوقي نرى مسرحية تنبع حوادثها من شخصياتها ، ويتطوّر موضوعها من طبائع هذه الشخصيات وأمزجتها في إنسجام لا حشو فيه ولا استرسال. ولم يكن ذلك نتيجة تطور في فنه ، ملاحظة الجمهور والوسائل المسرحية للاتصال به ، أو ترتيب الفصول والمناظر والمفاجآت والأزمات ، وإنما يرجع إلى اتجاه الشاعر إلى الحياة يستمد منها الوحي والإلهام في التشخيص والتصوير . ففي الحياة لمس الشاعر الناس يحيون أفراداً كالجزر في بحر متسع ، لكل فرد ذاتية ، وسلوك تتفق مع هذه الذاتية . ومن هذه الذاتيات ينتج سلوك يستطيع الكاتب المسرحي الفذ أن يصوره في مسرحية توضح ناحية من نواحي السلوك الإنساني كما تظهر في هذه الذاتية، وتلك ظاهرة هامة أساسية في تطوُّر فن الشاعر ، خلف فيها التاريخ والتصوير لشخصيات أدركها وأحسَّ بها إحساساً عامًّا دون أن يتجاوز في تحليلها الى ما وراء عناوين التاريخ وأوصافه العامة التي لا تميز فرداً عن فرد أو شخصية عن شخصية .

وعاشت شخصيات هذه المسرحية حول شوقي في حي الحنفي بالسيدة زينب ، حيث عاش حقبة من الزمن ، وتلك صور من الحياة في أواخر القرن الماضي في هذا الحي الشعبي ، وأناسه تزخر بها المسرحية وتحيا فيها الشخصيات . لقد وصل الشاعر أخيراً إلى مفتاح الأدب المسرحي ، وهو الإنسان كما يعيش جده وهزله ، وكما يوجد في بيئة يستجيب لها ويسلك فيها والحياة زاخرة بالصور الإنسانية ذات المدلول الطريف العميق ، يجلوها الكاتب وينقبها ويحركها في عالم خيالي إلى نهاية تبعاً لطباعها وسلوكها ، فتبرز صورة مصغرة للطبيعة البشرية

وعالمها أمام الجمهور ، بارزة المعاني واضحة السمات ، تشخيصاً وتصويراً .

فقد عرض شوقي في مسرحيته ، قصة سيدة مزواج حريصة ، تزوجت بعدد من الرجال الذين أتوا إليها طمعاً في مالها ، رغم أنها عجوز كبيرة الجسم ، ومات أزواجها قبلها واحداً في أثر الآخر وورثتهم هي .

ففي الفصل الأول تستعرض السيدة مع جارتها أزواجها التسعة الذين تزوجتهم ، وكل زوج ذو شخصية وطبع مستمد من الصور التي وجدت في الحياة الواقعية . وعرضت لمهنة كل زوج ورأيها فيها . ثم يحضر آخر الأزواج ، وهو محام مفلس سكير فيسبها ويريد إكراهها على إعطائه النقود . فترفض إعطاءه شيئاً فيحاول أن يستعمل العنف فيشير عليه كاتبه باستعمال الحيلة ، ويذهب هو إلى سيدته فيخبرها بأن زوجها على وشك الإفلاس ، وقليل من المال يصلح حاله ، فترفض السيدة وهي ثائرة لإهانة زوجها لها ، وتثور ثورة المحامي ، فتستغيث السيدة بنساء الحارة فيحضرن ويضربن المحامي ، وتطلقه السيدة إذ أن عصمتها بيدها ثم تطرده .

وفي الفصل الثاني تتزوج برجل ريفي ضخم الجثة ، وتعرض صفاته أمام الجمهور عرضاً فكاهيًّا تصف فيه حركاته وسكناته ، ويستدين الزوج أملاً في تسديد ديونه من الميراث ، وفي الفصل الثالث تموت الزوجة ، وتلوح بوارق الأمل أمام الزوج فيتملقه الناس ويفد المعزون . ويترحمون على المتوفاة ، ومنهم الفقهاء واللصوص والفقراء الذين اتخذوا العزاء مهنة لاشعور فيها ولا إخلاص . وتفض الوصية في النهاية ، ويقرأ القوم فيها أن الزوجة قد وهبت بعض ثروتها لقبر الرسول ، والبعض الآخر للخدم والجارات ، فيمسك الدائنون بالزوج ويتناولونه بالضرب .

ومثل هذا الموضوع ناجح على المسرح ، ففي الفصل الأول تعرض اتجاهات الحوادث وتقدم الشخصيات ويلخص الموقف وتصور بوادر الأزمة . وفي الفصل الثاني يتحرك الموضوع نحو الأزمة ، وفي الفصل الثالث تحدث المفاجأة الكبرى والانقلاب المسرحي .

وتتسع اللوحة لتصوير نماذج من الشخصيات الحية وتعرض عرضاً أو تمثل تمثيلاً مسرحيًّا ، وكلها مستقاة من الحياة وتنبض بها ، وتكاد تلمس في كل منها سمة خاصة مميزة

تكسبها الحياة والقوة ، وتشعرنا بأننا نحس بوجودها ونلمسها كما نلمس الشخصيات التي نراها حولنا ، وتعيش فيما بيننا بل في أعماق نفوسنا بعض منها .

فالبطلة سيدة جاهلة عجوز ، تعلم أن الناس تسعى إليها لمالها ، فهي حريصة عليه لا تفرط فيه ، وإنما تمني كل من حولها من جارات أو خادمات أو أزواج بما ستهب له في الوصية ، دون أن تبذل له شيئاً . وهي سيدة كسائر النساء ، يتقدم بهن السن فلا يعترفن بالزمن ، فالسيدة هدى زادت على الأربعين ، ولكنها تزوجت أزواجاً تسعاً ، زوجاً زوجاً ، وما زالت في العشرين . وتكاد تزعج حين تفاجأ بحديث عن عمرها . تقول السيدة لزينب الجارة :

الست : أنت يا زينب الوفية بالعهد .

زينب : ولمَ لا أفي وخيرك عندي

نحن من أربعين عاماً على خير جوار بين اثنين وود

الست : لا بل العهد لا يزيد على الـ عشرين خلي حسابه لا تعدي

اسمعي زينب اسمعي يا صديقتي لك هذا الدبوس

زينب : لي أنا

الست : بعدي

أنا أعطيت كل صاحبة شيئاً وأنصفت في الوصية جهدي (الفصل ١- ص ١)

ولعلها تخشى جاراتها وتخشى أقاويلهم وتهكمهم على تعدد زواجها رغم كبر سنها . فتقول :

يقولون في أمري الكثير وشغلهم حديث زواجي أو حديث طلاقي

يقولون أني قد تزوجت تسعة وأني واريت التراب رفاقي

وما أنا عزريل وليس بعالم تزوجت لكن كان ذاك بمالي (١- ص ٢)

وتستعرض في ثنايا حديثها قصة هؤلاء الأزواج استعراضاً يصورهم تصويراً جيداً من ناحية ، ويكشف عن نفسها من ناحية أخرى ، فتذكر ما أعجبها فيهم ، وتبين ما تهوي نساء العصر في أزواجهن من مزايا . وهي أوصاف تخترقها الفكاهة التي تنبع من الشخصيات وعاداتها الشاذة عن المألوف في السلوك الاجتماعي ، فأول الأزواج مصطفى .

حين يمشي تظنه نخلة المرج ماشية

ولحيـــة ســوداء مكاوية مـــدورة
رحمـة الله عليـه لم يكن يطلب مالي
لم يكن يعنيه من ذاك سوى قبض الإجارة
مات فكدت أموت حزناً وكان عمري عشرين عاما
ثم تزوجت بعد خمس فنذا يرى فعلتي حراما

فهو زوج غير مادي . ولذا وافقها طبعه . أما الثاني فقد كان مفلساً سيء السلوك تقول عنه :

وزوجي الثاني علي ما كان بالصالح لي يا ليتني لم أقبل
ذاك لمالي اختارني واخترته لمـاله
ما كان إلاّ مفلساً وقعت في حباله
يرحمه الله وكان ذا بخر وكان إن يقعد وإن يقم نخر
وان مشى تخرج أصوات أخر
يرحمه الله لقد عشنا معا من السنين الصاخبات أربعا ثم مضى لربه لا رجعا
رحمـة الله عليه جن بالنسل جنونا
ثم لما مات ما خـلف لي الا ديونا
ومات لم تبكه عيوني وكان عمري عشرين عاما
ثم تزوجت من سواه فنذا يرى فعلتي حراما

وزوجها الثالث عمدة جنّ بمالها لا بها ، وكان قذراً تصفه فتقول :

وكان إن تنخما أرسلها الى السما فلست تدري ما رما
وكان يحط رجلاً فوق رجل ويسرح فيهما يده طويلا
ويخرج من أصابعه خيوط من الأوساخ يبرمها فتيلا

وكان الرابع أديباً لم يعجبها وهي المرأة الشعبية التي تهوى في زوجها ضخامة الجسم والقوة والبأس ، ولا تهتم بما يقوله عن بناء شخص أو هدمه ، على أنه .

كان إن أفلس لا يسألني إلاّ ريالا

فهو قنوع طيب .

وزوجها التالي يوزباشي متقاعد كبير لم تمكث معه إلا ثلاث سنوات . وطلقته ولم يزل منها عشرون عاماً . ثم تزوجت بموظف لم ينظر إليها وإنما نظر إلى حليها وذهبها والزوج التالي فقيه أعجبت به لأنه أدبها وأخضعها ، ورأى ترابا عالقا بجبهتها فظنها أطلت من النافذة فضربها فأعجبت بغيرته عليها . على أنها كرهت منه اهتمامه بمالها ، ثم تزوجت بمقاول اشتغل في الحجارة والجير ، وعاشت معه عامين ثم طلقته ، وزوجها الأخير محام عاطل كبير ، وبعده يتحرك الموضوع في هذا العرض المكتظ . ونرى فيه شخصيات تذكرنا بشخصيات الشاعر الانكليزي تشوسر في قصته « حجاج كانتربري » وفي كلا العرضين نرى شخصيات عديدة تفصح عن مهنها وعاداتها افصاحاً فكاهياً .

وإذا انتقلنا من هذه الشخصيات الى شخصية المحامي وتابعه نرى المحامي شخصاً يسب ويصخب ويلعن وهو يرتقي السلم سكراناً فيصيح يدعو زوجته بقوله :

أأنت بومتي هنا ؟

الآن يا جيزة الحي أريك من انا

ولم ترد عليه فيقول :

هدى هدى أين هدى أين العجوز البالية
أين مضيت بومتي أين ذهبت خفتي
خداك منفدمان قد أصبنتا وأذناك عقربان من قنا
وحاجباك والخطوط فيهما كدورتين اكتظتا من الدما
وبين عينيك نفار وجفا عين هناك خاصمت عيناً هنا

وهكذا في زوجها الثاني الريفي ، ثم في شخصيات المعزين من أهل الحي فالفقهاء الذين امتهنوا تلاوة القرآن كحرفة تدر المال ، ومن المعزين اللصوص الذين يترحمون على الفقيدة ، ويسلبون أدوات القهوة ويدسونها في جيوبهم ، والمتملقون للزوج الذين يتوددون إليه دون معرفة سابقة حتى اذا ما فضت الوصية انقلبوا شامتين .

ونلمس في هذه المسرحية خضوع الحوار خضوعاً يكاد يكون تاماً للحوادث

والشخصيات . فيقل فيه الاسترسال الغنائي والحشو في المناظر والفصول : وإنما يندمج مع الموضوع والشخصية في وحدة مؤتلفة . ولن نلمس فيه ذلك الحوار الطويل الشبيه بالقصيدة المتحدة في البحر والقافيـة ، وإنما نلمس مرونة قوية جداً في إدارته ، وتنويع بحوره وأوزانه تبعاً لموضوع الحديث أو اختلاف العاطفـة ، دون أن تفقد الشخصية المتحدثة مميزاتها ، أو تتغير معالمهـا . ففي بداية المسرحية تلخص الست هدى علاقاتها بأزواجها وحياتهـا معهم في حديث طويل على الجمهور ، لا يحس بطوله لأنه يعبر تعبيراً مناسباً عن الموقف ولا يحس بملل من الشعر فيه إذ تختلف البحور والأوزان ، بل تخترم الحوار عناصر الفكاهة المتتابعة المتلاحقة التي تنبع من الموقف والشخصية بدل أن كانت تنبع من التلاعب بالألفاظ في المسرحيات الأولى :

ولم يعد في المنـاظر والفصول حشوٌ لا لزوم له . وإنما تتتابع الفصول الجذابة الممتلئة بالحيـاة والحركة فلا يرتخي توتر اهتمام الجمهور ، فيسر الجمهور برؤية الشخصيات الشعبية الشاذة ، وتصطدم أمزجتها فيثور من ذلك الضحك . ومن ذلك المنظر الذي تلتقي فيه الست هدى بزوجها ويتشاجران فتستغيث بنساء الحارة وتستعين بهم على طرده ، ومن ذلك وصفها لأزواجها ، ومن ذلك الانقلاب النهائي في نهاية الفصل الثالث حين يكشف الموقف عما لا يتوقعه القوم ، ومع ذلك يتمشى مع مجرى الحوادث السابقة ويتفق مع احتمالات تطورها ، في كل موقف من هذه المواقف عنصر فـكاهة .

على أن هذه الفكاهة قد نبعت من منابع مختلفة . فبعضها ينبع من أمزجة الشخصيات التي فيها ناحية شذوذ وتتصف معظم الشخصيات الرئيسية بالمراءاة واظهار خلاف ما تبطن . فالسيدة بخيلة حريصة على المال ، وهي عجوز لا تعترف بكبر سنها . والحامي يلوم زوجته على قبحها وهو مفلس مُعِل — والأزواج والمعزون كلهم مراءون يتظاهرون للسيدة بالحب والتودد ، بينما هم في الواقع ، وكما تعلم هي يحبون مالها . وتلك أرقى عناصر الفكاهة في المسرحية لصفاتها العقلية . يلي ذلك مناظر تنبع منها الفكاهة لاصطدام الشخصيات ، على شذوذها ، اصطداماً تستعمل فيه وسائل خارجة عن الشخصية والحادثة فتثير الضحك . وهذه الوسائل تستعملها الملهـاة الرخيصة . وتكثر في المسرحية في مناظر الاشتباك حين تستعمل النعال

والمكانس وتنطلق فيها الألفاظ المضحكة المثيرة التي تطلقها الشخصيات الرخيصة .

على أن هذا لا يمنع من أن هذه المسرحية هي درة انتاج شوقي في الملهاة ، وخير مسرحياته جميعاً في سبك الموضوع والقدرة على التشخيص وإدارة الحوار إدارة مسرحية ، فقد ابتدأ فن شوقي في المسرحيات الأولى بمحاولة الاجادة في عرض فصول الموضوع ، ثم سعى الى إكساب الشخصيات لوناً عاماً ، وانتهى باخضاع الحوار لها في مسرحيته الأخيرة . وبقي عليه أن يتدرّج في رفع القيمة الفنية لمسرحه فيتطور معه من مسرح خارجي أسير الحوادث الخارجية إلى مسرح داخلي يسيره التطور الداخلي للشخصيات . ولم يمهل القدر شوقي للتأليف المسرحي فيما بعد إذ لم يتمم مسرحيته التالية وهي « البخيلة » التي استمد موضوعها أيضاً من الحياة المحيطة به . لقد وضع المؤلف في النهاية يده على مفتاح التأليف المسرحي ، وهبط من المسرح الغنائي المترف الذي يرتفع إليه العامة والجمهور ، إلى الجمهور يعطيه صوراً للحياة من حوله ، تعرض عرضاً مسرحيّاً شائقاً .

الفصل التاسع

المسرح بعد شوقي

أعقب وفاة شوقي حركة متسعة الأفق في الترجمة والتأليف المسرحي . وتأثرت الترجمة بالتأليف والتأليف بالترجمة . وأعيدت ترجمة المسرحيات الغربية وتوخى المترجم الدقة والرقى الأدبى في ترجمته . وقد عكف على ترجمة هذه المسرحيات أقلام انقطعت لها ، ومن بين هذه المسرحيات المترجمة ما يأتى

طرطوف	لموليير	ترجمها	أحمد الصاوي محمد	عام ١٩٣٣
سنا	لكورني	»	خليل مطران	١٩٣٣
جرنجوار	لبانفيل	»	صبري فهمي	١٩٣٣
أندروماك	لراسين	»	طه حسين	١٩٣٥
البخيل	لموليير	»	محمود مسعود	١٩٣٣
لير	لشكسبير	»	ابراهيم رمزي	١٩٣٣
ترويض النمرة	»	»	»	١٩٣٣
عدو الشعب	لإبسن	»	»	١٩٣٣

وتمتاز الترجمة الجديدة بأمانة لم تتوفر في التراجم الأولى على أنه من الواضح أن التراجم الجديدة لم تستهو الجمهور كما استهوته التراجم التي عربت لتلائم ذوقه — ولم يكن رفيعاً دائماً — ولم يتذوق الترجمة الجديدة إلا الخاصة من المثقفين . ويزداد هذا الجمهور المثقف زيادة بطيئة ، وبازدياده يزداد عدد من يعني بالقيم الفنية للمسرح . وقد زاد اتصال مصر بالثقافة الغربية بعد الحرب العظمى الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨ ، وقوي عقب الحرب العظمى الثانية ١٩٣٩ — ١٩٤٥ .

وكانت نتيجة ذلك أن انتشرت كتب تعنى بالتمثيل والممثلين ، عملية ونظرية ومنها مجلات « المسرح » لمحمد عبد المجيد حلمي و « المسرح المصري » لاسماعيل وهبه . وكتب محمود خليل كتاباً عن فن التمثيل ١٩٢٤ ، وألف مسرحية « سلامه وسلمى » وهي تمثيلية غنائية تصور أخلاق العرب وعاداتهم . وكتب عثمان حمدي سنة ١٩٢٧ كتابه « في عالم التمثيل » وترجم « هملت » لشكسبير و « الملاحات الفضية » استوارت وشنج . وأصدر محمد تيمور كتابه « حياتنا التمثيلية » وفيه أرخ فيه المسرح المعاصر ، وألف مسرحيات مثل عبد الستار أو الهاوية . وألف توفيق الحكيم « سر المنتحرة » و « نهر الجنون » و « رصاصة في القلب » و « الخروج من الجنة » و « أمام شباك التذاكر » ، ونشر مقالات عن المسرح لتوجيهه . وقد جمع بعضها في كتابه « تحت مصباحي الأخضر » . وبدار الكتب مسودة الكتاب « مفكرة في التمثيل » لحسين شفيق ، تعرض لتاريخ التمثيل في الشرق والغرب .

على أنه لم يسلك مسلك شوقي في التأليف المسرحي الغنائي أحد من الكتاب من بعده مباشرةٍ . وإنما اتجه المسرح نحو التأليف المسرحي النثري بشكل عام ، ويمثل هذا الاتجاه بوضوح الأستاذ توفيق الحكيم . ثم ظهر بعد شوقي بنحو من خمسة عشر عاماً كاتب نهج منهج شوقي في كتابة المسرحية الغنائية ، وهو عزيز أباظه باشا ، فألف مسرحيته الأولى « قيس ولبنى » وقد مثلت في دار الأوبرا الملكية في نوفبر عام ١٩٤٣ ، وألف مسرحيته الثانية ، التي مثلت بالأوبرا أيضاً عام ١٩٤٥ .

وبين المؤلف الجديد وبين شوقي شبه قوي لا يخطىء ، فقد ابتدأ كل من الشاعرين حياته الفنية بالتأليف الغنائي ، فكما ألف شوقي « الشوقيات » ، أخرج عزيز أباظه ديوانه « أنات حائرة » ، ثم اتجه كلاهما إلى المسرح ، وابتدأ بكتابة المسرحية التاريخية الغنائية .

وقد اطلع المؤلف الجديد على مسرحيات أوربية ، كما اطلع على مسرح شوقي . وتدل الدلائل على أنه قد استفاد مما وجه إلي شوقي من نقد ، فاستطاع أن يتلافى ما وقع فيه شوقي من مزالق إلى حد كبير . وقد أدى اتصاله المباشر برجال المسرح إلى عنايته بأسس المسرح والتشخيص وتمثيل الحوادث تمثيلاً مباشراً ، وابراز تطور الموضوع نحو الأزمة ثم حلها ، وللشاعر الجديد حساسية وإرهاف في المشاعر يمكنه من تصوير منابع الحزن تصويراً عاطفيـًّا

رفيقاً ، وقد ظهرت بوادر هذه الحساسية ، وقدرته على التحليل النفسي ، وألوان عواطفه المشبوبة ، وقدرته على تصوير العواطف والأهواء في ديوانه الأول .

وقد ساعد على ذلك ما حدث له في حياته الخاصة بوفاة زوجته . وأثار ذلك نفسه إلى التعبير الفني عما يجيش بنفسه ، ووجد في الأدب مخرجاً . فليس الشعر لديه ترف وزينة ، وإنما هو تعبير صادق لعواطفه التي أذكتها حوادث حياته الخاصة . وإننا لنلمس ذلك في المواقف المسرحية التي يظهر فيها محب محروم ، أو هوى متقد ، أو ذكرى وشكاة وحسرة على سعادة فائتة .

وحذا المؤلف حذو شوقي في إحياء تراث الأدب العربي فألف مسرحيته الأولى « قيس ولبنى » التي تشبه من وجوه كثيرة مجنون ليلى . على أن المؤلف اتكأ على رواية أخرى إنسانية محتملة الحدوث والتطور . وهي على تشابهها في بعض المواقف والشخصيات قد اتجهت اتجاهاً صحيحاً يتفق ومطالب المسرح . فقسم مسرحيته في فصول خمسة ، عرض فيها قصة قيس بن ذريح مع لبنى التي أحبها وتزوجها ، ثم أرغمه أبوه وأمه على تطليقها ، فتلفت نفسه ، وتزوج غيرها وتزوجت غيره وهما على حبهما ، ثم التقيا ثانية وتزوجا من جديد . وصور الموضوع عن طريق شخصيات واضحة المعالم والسمات ، ترجو له البراعة في التعمق في تحليلها وتعقيدها . ففي الفصل الأول تتحدث لبنى مع جارتها عن أخبار قيس ويتحدث والدها ابن حزم عن شؤون السياسة ، وفي النهاية يقبل قيس ومعه ابن عتيق ، الذي يتوسط له من قبل الحسين لدى آل لبنى ، فتقبل الوساطة ويتزوج قيس ولبنى . وفي الفصل الثاني يمرض قيس ويبلّ من مرضه ، وتبدأ بوادر الأزمة في الظهور ، فيظهر والداه سخطهما على لبنى التي استأثرت به ، وتحتج الأم بأنها لا تنجب نسلاً ، وما يزال الوالد والوالدة بولدهما حتى يطلق زوجته كارهاً . وفي الفصل الثالث يشرد قيس في البادية وترحل لبنى إلى ديار أهلها ، وقيس يشهد رحيلها بقلب متصدع . وفي الفصل الرابع نلمس الحب في نفس العاشقين ما زال قوياً ، ويهدر دم قيس ثم يعفى عنه ، وتعلم لبنى في النهاية بزواجه . وفي الفصل الخامس يلتقي قيس ابن الملوح بقيس ابن ذريح ويلتقي بهما ابن عتيق ، ويقابل الجماعة زوج لبنى الجديد ، وهو كثير بن الصلت الذي يشتري منهم مهراً ويدعوهم الى

خيانه . ويحس العاشق إحساساً غامضاً بلقائه بلبنى ، يلتقي بها ويعاتبها وتعاتبه ، ويتوسط مجنون ليلى وابن عتيق لقيس لدى كثير ، وما يزالان به حتى يحكم لبنى في الأمر ، فتكشف عن مكنون عواطفها ، فيطلقها زوجها ، ويلتقي العاشقان من جديد .

فقد قسمت الحركة المسرحية ووزعت في فصول خمسة متصلة ، ولا يفاجأ الجمهور بمنظر دون أن يلمس بوادره من قبل ، وتسير الحركة بانتظام في كل فصل ، كأن كل فصل مسرحية صغيرة تتطور نحو أزمة صغرى وتحل وتحوي في نهايتها بوادر الأزمة التالية ، ويحرك الموضوع ويتطور تطوراً طبيعيًّا انسانيًّا محتملاً في الفصل الثاني والثالث حتى يبلغ الأزمة الكبرى في الفصل الرابع ، وتحل الأزمة في الفصل الخامس . وهكذا نرى موضوعاً ذا قيمة إنسانية خالدة يتطور نحو أزمة تحل مما لم نلمسه في مسرحية شوقي بوضوح

ونرى سمات شخصيات المسرحية واضحة المعالم ، ولو لم تكتسب التعقيد والعمق الفني بعد . ولبنى عاشقة نلمسها حية وتشعر بخلجات نفسها ووحدة عواطفها . والأم تشعر بشعور الأم نحو ولدها الوحيد ونحو زوجته التي تنافسها في حبه وتغار منها وما تزال بابنها حتى يطلقها ، وعزّة فتاة صريحة متفكهة تعرف ما تكنه نفس صديقتها ، وتحاول أن تحيله مزاحاً . وقيس عاشق موزع بين أهله وزوجته ، يحييه ذلك الصراع الدائم في نفسه ، ويكاد يحطمه ولا يستطيع منه مهرباً ، حتى تتدخل شخصية أخرى لتنقذه . ونلمس في ذريح والد قيس حنان الأب على ولده ، وضعفه أمام زوجته ، وطاعته لما تشير به . ومالك صورة من منازل في مجنون ليلى ، على أنه صورة أقرب صدقاً إلى نماذج الحياة البشرية في غيرته وضعفه وحيرته وسلوكه . وتسير حول هذه المجموعة مجموعة أخرى من الشخصيات الثانوية ، كطارق ومطيع وقيس بن الملوح ، وكثير ، فنرى فيها كائنات حيّة على ضيق مجالها . ففي هذه اللوحة نماذج حية قصد الكاتب إلى تصويرها وتحليل نفوسها تحليلاً دقيقاً مثابراً ، ولم يدفعه عن ذلك الاسترسال الغنائي الذي اجتذب إليه قلم شوقي ، فزلّت قدمه في مواضع كثيرة عن الطريق السوي إلى التأليف المسرحي .

ولا نلمس في الحوار حشواً واسترسالاً قصد به الشعر لذاته وإنما هو حوار يقتضيه الموقف فهو قصير حين يوجد التوتر النفسي والمفاجأة ، وهو طويل حين تحس الشخصية

ويحتاج الموقف إلى التنفيس العاطفي دون اطناب مخل وتتخلل الحوار أغانٍ متصلة بالموضوع وملوّنة بلونه دون أن تفسد تطوره وحركته .

وألف المؤلف بعد ذلك مسرحية ثانية هي « العباسة » عرض فيها لقصة البرامكة والزواج الصوري لجعفر والعباسة ، وتحوله إلى زواج غير صوري ، والمؤامرات التي تدبر للبرامكة حتى تودي بحتفهم ، وإنا نلمس في هذه المسرحية التي مثلت ولم تطبع بعد ، صفات فن الشاعر كما ظهرت في مسرحيته الأولى .

على أن الحركة المسرحية الظاهرة لا تتضح ولا تتوفر في كتاباته كما تتضح الحركة المسرحية النفسية ، بل يوجد من المناظر ما يكاد يدور حول الحوار النفسي الخالص . ومن الشخصيات ما لا تحلل عواطفه تحليلاً عميقاً معقداً ، وإنا لنرجو من شاعرنا ، وقد مهد له شوقي الطريق بتكييف الشعر للمسرح ، وبعد أن استطاع هو أن يتقن توزيع العمل المسرحي في الفصول والمناظر ، ان يكثر من المشوّقات والمفاجآت والحركة التي تزيد المسرحية حيوية ، فنحن نعيش في الحياة بإدراكنا وعواطفنا وأعمالنا ، وكل من هذه النواحي متصل بالنواحي الأخرى وناتج عنها . ونرجو لشاعرنا ألاّ يتردد في أن يختتم مسرحيته بنهاية مفجعة إذا لزم الأمر ، فقد اضطرّ في المسرحية الأولى أن يساير عاطفة الجمهور ، لينهي المسرحية نهاية سارّة ، فتأتي بما لا يتفق وحياة العرب وما لا يساير منطق الحوادث .

ولم لا يذهب شاعرنا إلى الحياة الواقعية ويضع يده على ما يكتظ فيها من صور حيّة رائعة ، وفي الحياة ألوان من آلام الناس وآمالهم وترهاتهم ونزواتهم ، والناس في الحياة يعيشون أفراداً متمايزة ، معقدة مركبة ، فليعش شاعرنا بين أفراد الشعب وليحي حياته إذا أراد لنفسه مسرحاً انسانيّاً خالداً ، يحمل لواء رسالة كتاب الانسانية الخالدة .

خاتمة

على أن مسرحنا ما زال في بدايته . ويتعرض لمنافسة الخيالة لرخص أسعارها ووفرة إنتاجها . وتحاول الدولة أن تعين فرق المسرح وتشجع مؤلفيه ، ويحاول النقاد أن يرفعوا من شأنه في كل مناسبة في الصحف والمجلات . ولا غرو فهو فن أكثر تمثيلاً للحياة ، وإشباعاً للنفوس ، وهو يمثل الحياة تمثيلاً حياً بأبعادها الثلاثة ، مما لا يتوفر للخيالة .

ولكن المسرح فن شعبي ، منبعه نفوس الناس ، وموجه إلى الشعب ، فلم يذهب كتابنا إلى بطون التاريخ ويتكلفون عناء ومشقة في استخراج موضوعاتهم وإحياء شخصياتهم ، وأمامهم ميدان الحياة فسيح ؟ إن في الرجل العادي ، وفي الحياة اليومية لمآسي وملاهي توحي بالمبدع . فليعش كتابنا بين الناس ، وليحيوا حياة الناس ، وفيها ما فيها من آمال وآلام ، وليتغنوا بالنفس الإنسانية الخالدة إن أرادوا لفنهم خلوداً .

والئن صار لنا مثل هذا المسرح الشعبي ، فلسوف نتركه ينمو ويتأصل .

مراجع

١ — المسرح الأوربي :

a — Theory of Drama : A. Nicoll
b — European theories of Drama : B. H. Clark.
c — Dramatic values : C. Montague.
d — Tragedy : A. Thorndike.
e — Principles of comedy and dramatic effect : Fitzgerald·
f — A history of literary criticism in the renaisance : J. E. Spingarn
g — Poetics : Aristotle (translated by Butcher & Bywater) .

٢ — المسرح المصري القديم :

ا — على هامش التاريخ المصري القديم . عبد القادر حمزة باشا جـ ٢ ص ١٧ (طبعة دار الكتب المصرية عام ١٩٤١)

ب — الأدب المصري القديم . سليم بك حسن جـ ٢ الفصل الأول (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . ١٩٤٥)

ج — مذكرة في التمثيل . حسين شفيق : مخطوطة بدار الكتب

٣ — ظواهر مسرحية في الأدب العربي المصري : —

ا — فجر الاسلام : الأستاذ أحمد بك أمين ج ١ (لجنة التأليف)

ب — صهاريج اللؤلؤ : السيد توفيق البكري . فصل الوفاقات في العادات .

ج — المواعظ والاعتبار : المقريزي ج ٢

٤ — المسرح المصري الحديث : —

ا — حياتنا التمثيلية : محمود بك تيمور ج ٢ (الاعتماد سنة ١٩٢٢)

ب — مجلة المسرح . محمد بليغ — السنة الأولى

٥ — مسرح شوقي :

ا — شعراء مصر وبيئاتهم ا للاستاذ عباس محمود العقاد .

ب — قمبيز في الميزان . » » »

ج — إثنى عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء للاستاذ محمد عبد الوهاب أبو العز .

د — أبولو : عدد خاص عن شوقي عام ١٩٣٢ .

هـ — حافظ وشوقي . طه حسين بك .

و — المقتطف : نوفمبر وديسمبر ١٩٣٢ : مقالات للاساتذة إسماعيل مظهر ، ومصطفى صادق الرافعي ، وسامي الجريديني .

ز — مسرحيات شوقي . (الست هدى : مخطوطة)

فهرست

ابراهيم الأبياري

رسالة الشاعر

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر

المتنابزون

الأخطل - الفرزدق - جرير

التقى المسلمون في « صفين » شيعتين ، إحداهما تظاهر « عليًّا » والأخرى تناصر معاوية . واستحرّ القتل بينهم حتى بلغ أشدّه ليلة الهرير ، فرفعت المصاحف ، ونادى الشاميون: كتاب الله بيننا وبينكم . ويصدقك النجاشي بن الحارث حين يقول :

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا ⁂ عليه كتاب الله خير قرانِ

ونادوا عليًّا يابن عمّ محمد ⁂ أما تتقي أن يهلك الثقلان.

وانتهى الفريقان الى تحكيمٍ جرّ إلى خروج خارجة على عليّ وبقيت الأمور الى اضطراب أخمس نفراً من الخوارج : ابن ملجم ، والبُرك، وزادويه ، أجمعوا أمرهم على أن يقتلوا عليًّا ، ومعاوية ، وابن العاص .

ويشاء القدر أن يُصمي ابنُ ملجم ويُشوي صاحباه . ويخلو معاوية بالحسن ، فينزل له الحسن عن الأمر جنوحاً للسلم وحقناً للدّم . ولكنه لا يلبث أن يتجرّعها مسمومة فتفري أحشاءه فرياً لا يخطو معه إلى شفاء .

ويدخل معاوية الكوفة خليفة ، فيرغب إليه الراغبون ، ويصوِّب صوبه الطامعون . وينحاز عنه آخرون ممن لهم هوى في بني هاشم .

* * *

ذلك أمر الناس والأخطل وصاحباه الى ظهور . ويدركه الأخطل سابقاً . وتصل الأيام حبله بحبل يزيد بن معاوية ، ومعاوية مع الملك يُصرّفه . ويرى الأخطل الأسباب تُسريده على أن يحيا لهذا البلاط فيحيا له .

ونحب أن نَرُدَّكَ الى بيان ووضوح ، فنذكر لك أن صوت الراغبين عن معاوية أخذ يعلو . وعدا شعراؤهم طورهم . وكان لمعاوية حِلم ضُرب به المثل . فوثب عبد الرحمن بن حسان وثبته التي هاجت يزيد حين سمع له شعراً في التشبيب برملة أخته . واستعدى عليه أباه فلم يُسعده .

ولم يجد يزيد من شيعته غير كعب بن جعيل التغلبي ، وكعب تمنعه حنيفيته أن يقول في الأنصار . فيضم يزيدُ إليه الأخطلَ ، وما عليه من حرج أن يقول :

لعن الإلَـه بني اليهود عصابةً   بالجزع بين جُـلاجل وصرارِ

(جلاجل وصرار : موضعان)

قوم إذا هدر العصيرُ رأيتَـهم   حمراً عيونهم كجمر النـارِ
ذهبت قريش بالمكارم والعُـلَى   واللؤم تحت عمائم الأنصار
فذروا المعالي لستمُ من أهلها   وخذوا مساحيكم بني النجّـار

(المساحي : جمع مسحاة ، وهي آلة يقشر بها)

واذا نسبت ابن الفُـريعة خِلتَـهُ   كالجحش بين حمـارة وحمار

(ابن الفريعة : حسان بن ثابت)

وثارت ثائرة الأنصار واستنصفوا معاوية ، وهمّ معاوية أن يفعل، فحمى يزيد الأخطل ودفع عنه . وكانت التي بلا بها الأخطلُ يزيد . فلما أمن معها العطب وذاق الأمن أجرى لسانه بشكره :

ولولا يزيد ابن الملوك وسَيبُـه   تجلَّـلت حدباراً من الشر أنـكدا

(الحدبار : الناقة المهزولة)

وكم أنقذتني من جَرُورٍ حبالـكم   وخرساءَ لو يرمى بها الفيل بلَّـدا

(الجرور : البئر العميقة . والخرساء : الداهية . وبلد : لصق بالارض لما دهاه)

أبا خالد دافعت عني عظيمة   وأدركت لحمي قبل أن يتبددا

(أبو خالد ، كنية يزيد)

وأطفأت عني نار نعمان بعد ما   أغذّ لأمرٍ عاجز وتجرّدا

(النعمان، هو ابن بشير الانصاري . وكان رسول الانصار الى معاوية في شأن الاخطل . وأغذ : أسرع . ولأمر عاجز ، أي شديد يعجز صاحبه)

ولما رأى النعمان دوني ابن حُرّة   طوى الكشح إذ لم يستطعني وعَرّدا

(طوى الكشح : أضمر العداوة . وعرد : هرب)

وما وجدت فيها قريش لأمرها   أعفّ وأوفى من أبيك وأمجدا

وأصلب عوداً حين ضاقت أمورهم   وهمّت معدٌّ أن تخيم وتخمدا

(معد ، يريد العرب . وتخيم : تجبن)

فأصبحت مولاها من الناس بعده   وأحرى قريش أن يهاب ويحمدا

فأقسمت لا أنسى مدى الدهر سيَبه   غداة الليالي ما أساغ وزوّدا

(ما أساغ ، أي ما أساغني ريقاً ، أي فرج كربتي . وزود ، أي زودني بخير)

هذه واحدة عرف فيها الأخطل أيْد صاحبه ومُنّته ، وأحسّ أنه يأوي إلى ركن شديد . ثم أترى الأخطل ، وهو بين هاشمية وأموية ، يختار غير من اختاروه ؟

عرف ذلك الأخطل فنصّب نفسه للامويين شاعراً يذود عنهم ، ومن وَرائه قومه يشدون أزره ، وينصرون من ناصر . ولم تكن تلك الأيام التي خاضوها مع القيسيين في مرج راهط إلاّ تثبيتاً لملك المروانيين ، وتثبيطاً لمن هموا بهم وأرادوا أن يديلوا عليهم .

ويعرف الأخطل أيادي قومه فيضمنها شعره في عبد الملك :

بني أمية قد ناضلت دونكم   أبناءَ قوم هُمُ آووا وهم نصروا

(يشير الى هجائه الانصار)

أفحمت عنكم بني النجار قد علمت   عُليا معد وكانوا طالما هدروا

(عليا معد : قريش . وهدروا : أكثروا من الكلام)

حتى استكانوا وهم مني على مَضض   والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر

وقد نُصرتَ أمير المؤمنين بنا   لما أتاك ببطن الغُوطة الخَبرُ

يُعرّفونك رأس ابن الحباب وقد   أضحى وللسيف في خَيشومه أثرُ

(ابن الحباب ، هو عمير بن الحباب ، وهو الذي كان يؤلب على عبد الملك وقتله تغلب انتصاراً للامويين)

والحارث بن أبي عوف لَعِبْن به ... حتى تعاوره العِقْبان والسُّيَرُ
وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصاً ... فبايعوك جهاراً بعد ما كفروا
فلا هدى الله قيساً من ضلالتهم ... ولا لعا لبني ذكوان إذ عثروا

(لا لعا لبني ذكوان ، أي لا أقامهم الله . وذكوان : رهط عمير بن الحباب من سليم)

ولا الضبابَ إذا اخضرت عيونهم ... ولا عُصيَّة إلاّ أنهم بشر

(اخضرت : اسودت . وعصية : بطن من سليم)

وقد أصابت كلاباً من عداوتنا ... إحدى الدواهي التي تخشى وتنتظر
أما كليب بن يربوع فليس لهم ... عند التفارط إيراد ولا صدَرُ

(التفارط : التقدم الى الماء)

ومضى عبد الملك وخلفه ابنه الوليد . ولأمرٍ ما يفقد الأخطل ما كان له عند من سبق، ولا يعود مشفَّعاً في أمور قومه وخاصته . ولا يملك هو فكاكاً مما شدّ نفسه إليه، ويبقى على ولائه للأمويين فيقول مستعطفاً :

بني أمية قد أجدت فواضلكم ... منكم جيادي ومنكم قبلها نَعمي
فإن حلفت لقد أصبحت شاكرَها ... لا أحلف اليوم من هانا على أثم
وقد علمتم وإن أصبحت نائيكم ... نصحي قديماً وفعلي غير متهم
لقد خشيت وشاة الناس عندكم ... ولا صحيح على الأعداء والكلِم

وتنوبه وقومه الغرامات ، وتؤده الآئدات فلا يملك غير أن يشكو :

وإنّها معشر نابت علينا ... غرامات ومُضلمة كؤودُ
وعضّ الدهر والأيام حتى ... تغيَّر بعدك الشَّعر الجديد

(أي شاب)

* * *

ويحملها الأخطل سنين خمساً عجافاً ، لم يملك فيها غير لسان المستعطف توافيه بعدها منيَّته فيمضي بقول جرير :

زار القبور أبو مالك ... فكان كألأم زوّارها

سَتبكي عليه دَرومُ العشاء خبيثٌ تَنسُّم أسحارِها

(الدروم : التي تدور بالليل وتتبع القبيح)

تنوح بناتُ أبي مالك بسُوقِ النصارى وزَمّارِها

* * *

ولنترك الأخطل الى حين . ولنأخذ معك في حديث الفرزدق .

فهو ، كما في حفظك ، أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة ، دارميٌّ ، تميمي . لأبيه وجده ذكرٌ بين الأجواد . فيروون أن صعصعة بذل من ماله في فداء ثلاثين موءودة . وقد ذكرها له الفرزدق وأكثر في مثل شعره :

وجدي الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأدِ

وعرفت لغالب كف نديّة وبِرٌّ بالأضياف تحدّث به الفرزدق في رثائه له :

نعم أبو الأضياف في المحل غالبٌ إذا لبس الغادي يديه من البَرْدِ

وما كان وقّافاً على الضيف مُحجماً إذا جاءه يوماً ولا كابيَ الزَّنْد

وكان إذا ما أصدرتْه مكارم وساور أخرى غير مُجتنح الورْد

*

ومن حيث بدأ الأخطلَ بدأ الفرزدق . وإن كادت سوابق الحوادث لتجنح به الى غير ما شُغل به . فقد عُرف مَيلُ قومه الى الأخذ بناصر « عليّ » فيما ثار بينه وبين عائشة . واستبان هواهم العلوي حين تقسمت الأهواء بين « علي » ومعاوية . وكانت لغالب على « عليّ » وفدة مَقدمه الكوفة وفي يده ابنه الفرزدق . ويروون أن « عليّا » حبّب الى الأب أن يأخذ ابنه بحفظ القرآن .

علويّة لاينال منها إلاَّ وقْفةُ « لضبة » أخوال الفرزدق إلى صفوف عائشة يوم الجمل .

وما آلت الكلمة لمعاوية ، واستوى ولاته على الكوفة ، حتى جرى الدارميون قوم الفرزدق فيمن جروا يبايعون . ولعلهم اشتروا الأمن بكلمات لاتجد لها صدى في القلوب .

وما نعرف للفرزدق علوية صريحة إلاَّ مع قوله يمدح زين العابدين :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحلُّ والحرمُ

هـذا ابن خير عباد الله كلهم ... هـذا التقي النقي الطاهر العلمُ
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهلَه ... بجدّه أنبياء الله قد ختموا

ومنها :

من يشكر الله يشكر أوليّة ذا ... فالدين من بيت هذا ناله الأممُ
يُنمى الى ذروة الدين التي قصرت ... عنها الأكف وعن إدراكها القدمُ
مشتقة من رسول الله نبعته ... طابت مغارسه والخِيم والشيَمُ

ومنها :

من معشر حبهم دينٌ وبغضهم ... كُفر وقربهم منجى ومُعتصمُ
مقدَّم بعد ذكر الله ذكرهم ... في كل بدء ومختوم به الكلمُ
إن عُدّ أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل من خير أهل الأرض قيل همُ

*

وقد أغضبت هذه «هشاماً» فحبسه . ففزع الفرزدق بقوله فيه :

رأيت بني مروان يرفع ملكهم ... ملوك شباب كالأسود وشيبها
بهم جمع الله الصلاة فأصبحت ... قد اجتمعت بعد اختلاف شعوبها

ومنها :

عسى بيدي خير البرية تنجلي ... من الأزمات الغبر عنا خطوبها
إذا ذكّرت نفس ابن مروان صاحبي ... ومروان فاضت ماء عيني غروبها
رأيت بني مروان إذ شقّت العصا ... وهرّ من الحرب العوان كليبها
شفوا ثائر المظلوم واستمسكت بهم ... أكف رجال رُدّ قسراً شغوبها
جزى الله خيراً من خليفة أمة ... إذا الريح هبت بعد نوء جنوبها

ويقنع هشام منه بهذا فيعود الى برّه ويخلي سبيله .

ولا نكاد نعرف للفرزدق غير هذه يلفتنا فيها الى هاشميته . أما سائر شعره في مدح الامويين ، جرى معهم من شبه الى دبه فأكثر :

إذا لاقى بنو مروان سلّوا ... لدين الله أسيافاً غضابا
صوارم تمنع الاسلامَ منهم ... بوكل وقعهنّ بمن أرابا

بهنّ لقوا بمكة ملحديها ومسكن يحسنون بها الضرابا

(يشير الى الوقعة التي كانت بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير في مسكن موضع قريب من اوانا على نهر دجيل)

فلم يتركنَ من أحدٍ يصلي وراء مكذّب إلاّ أنابا

قال في ملوكهم ملكاً بعد ملك، لم يقصر ما ملك أن يطيل، ولم ينقص ما قدر أن يبني.

مدح عبد الملك ، وهو عنه بعيد ، ما وفد عليه ولا ضمه مجلسه ، فقال :

يأيها الراكب المُزجى مطيته يريد مجمع حاجات الأراكيب

إذا أتيت أمير المؤمنين فقل بالنُّصح والعلم قولاً غير مكذوب

ويذكر صولته وما عرف لآله من بطش أرغم الخارجين عليه :

أما العراق فقد أعطتك طاعتها وعاد يعمر منها كل تخريب

أرض رميت إليها وهي فاسدة بصارم من سيوف الله مشبوب

فالأرض لله ولاّها خليفته وصاحب الله فيها غير مغلوب

بعد الفساد الذي قد كان قام به كذّاب مكة من مكرٍ وتخريب

(يريد عبد الله بن الزبير الذي ادعى الخلافة بمكة ومالأه نفر من العراقيين)

*

ومدح الوليد بن عبد الملك وما زاره ولا وطىء أعتابه :

اليك أمير المؤمنين أنختها الى خير من حُلّت له عُقد الرّحل

إلى خيرهم فيهم قديماً وحادثاً مع الحلم والايمان والنائل الجزْل

ورثت أباك الملك تجري بسمته كذلك خوط النبع ينبت في الأصل

كداود إذ ولى سليمان بعده خلافته نُحلاً من الله ذي الفضل

يسوس من الحلم الذي كان راجعاً بأجبال سلمى من وفاء ومن عدل

ثم ينتهي من مدحه الى النيل من خصومه وتسفيه ما هموا به :

فمن ذا الذي يرجو الخلافة منهم وقد قمت فيهم بالبيان وبالفضل

فبينت أن لا حقّ فيها لخاذل تربص في شك وأشفق من مَثْل

(المثل : التنكيل)

وقد خذلوا مروان في الحرب وابنه أباك وأدلوا فيهما مع من يدلي

ثم يصل ما انقطع ويعود الى مروان :

ففزت بما فازا به من خلافة وزدت على من كان قبلك بالخَصْلِ

بعافية كانت من الله جللت مشارقها أمناً الى مغرب الأمْلِ

(الامل : منقطع حبال الرمل . يريد أقاصي الحدود)

وكنت المصفى من قريش ولم يكن لوطئك فيهم زيغ كعب ولا نعلِ

ويخرج الى سليمان بن عبد الملك مادحاً سائلاً :

يابن الخلائف لم نجد أحداً يبقى لحرّ نوائب الدهر

إلاّ الرواسي وهي كائنة كالعهن وهي سريعة المرّ

أحييت أنفسنا وقد هلكت وجبرت منا واهيَ الكسر

فلقدْ عززنا بعد ذلتنا بك بعد ما نأبى من القَسر

ويؤم ساحة عمر بن عبد العزيز في مثل ما أمّ له سليمان من قبل :

وساقنا من قسا يزجي ركائبنا اليك منتجعُ الحاجات والقدر

(قسا : موضع بالعالية)

وجائحات ثلاثٌ ما تركنَ لنا مالاً به بعدهنّ الغيث ينتظر

ثنتان لم تتركا لحماً وحاطمة بالعظم حمراء حتى اجتيحت الغرر

(الحمراء : السنة الشديدة)

فقلت كيف بأهلي حين عضّ بهم عامٌ له كل مالٍ مُنعِق جزَر

(منعق : ما يصاح به . وجزر : مباح للذبح)

عام الى قبله عامان ما تركا مالاً ولا بلّ عوداً فيهما مطر

*

فصُحبتها قِبَل الأخيار منزلةً والطيبي كل ما التاثت به الأزر

(التاثت به : التفت)

سيروا فإن ابن ليلى من أمامكم وبادروه فإن العُرف مُبتدر

وبادروا بابن ليلى الموت إنّ له كفين ما فيهما بخل ولا حصر
أليس مروانُ والفاروقُ قد رفعا كفّيه والعود ماء العرق يعتصر

*

ويلي هشام الأمرَ والفرزدق قد خلّف الثمانين أو كاد ، فيحبو إليه من العراق ، وبقلبه أن هشاماً لا يزال واجداً عليه لمدحه زين العابدين . فايتربصها ويلات إن لم يسع إليه بكيل له المديح :

يقول بنيّ هل بك من رحيل لقوم منك غير ذوي سوام
فتنهض نهضة لبنيك فيها غنىً لهمُ من الملك الشآمي
فقلت لهم وكيف وليس أمشي على قدميّ ويحكم مرامي
وهل لي حيلة لكمُ بشيء إذا رجلاي أسلمتا قتامي
رمتني بالثمانين الليالي وسهم الدهر أصوب سهم رامي
أقول لناقتي لما ترامت بنا بيد مسربلة القتام
أغيثي مَن وراءكِ من ربيع أمامك مرسلٍ بيدي هشام
يدي خير الذين بقوا وماتوا إماماً وابن أملاك عظام
به تحيا البلاد ومن عليها من النعم البهائم والأنام
عمدت إليك خير الناس حيّاً لتنعش أو يكون بك اعتصامي
الى ملك الملوك جمعت همّي على المتردفات من السّمام
يداك يدٌ ربيع الناس فيها وفي الأخرى الشهور من الحرام
فإن الناس لولا أنت كانوا حصى خرز تساقط من نظام
وبشرت السماء الأرض لما تحدّثنا بإقبال الإمام

وما نريد أن نشق عليك فنعرض لك غير هذا مما مدح به الأمراء والقادة والسادة . فالخطب فيه يسير ، ولنا فيه بعد جرير حديث .

*

ويكاد جرير يشرك الفرزدق عمره ، فقد انتهى معه إلى العام الذي قضى فيه ، لم يهنأ بالحياة بعده إلاّ أياماً أربعين أو ثمانين .

لـكنه لم يبدأها معه ، فنحن نعرف الفرزدق يوم صحب أباه إلى « عليّ » . ونعرف مولد جرير بين العامين الثامن والعشرين والثاني والثلاثين ، ويكاد يدلنا هذا على أن الفرزدق سبق جريراً بسنين لا تزيد على العشر كثيراً .

*

والأمر هنا صورة منه هناك مع الفرزدق ، فقد عاش جرير للمروانيين يذكرهم فيشيد :

يا آل مروانُ إن الله فضّلكم فضلاً قديماً وفي المسعاة تقويمُ
قومٌ أبوهم أبو العاصي فأورثهم جُرثومةً لا تساميها الجراثيمُ
قد فات بالغاية العليا فأحرزها سامٍ خروجٌ إذا اصطكّ الأضاميمُ
يحمي حماهُ بجرّارٍ له لجبٍ للأرض من وأده فيها هماهيمُ
ما الملكُ منتقلٌ منكم إلى أحدٍ ولا بناؤكم العاديّ مهدومُ

ويقول في عبد الملك يمدح ويسأل :

تعزّت أم جزرة ثم قالت رأيت المُوردين ذوي لقاح
تعلل وهي ساغبةٌ بنيها بأنفاسٍ من الشّبم القراح
سأمتاح البحور فجنبيني أذاة اللوم وانتظري امتياحي
ثقي بالله ليس له شريكٌ ومن عند الخليفة بالنجاح
أغثني يا فداك أبي وأمي بسيبٍ منك إنك ذو ارتياح
فإني قد رأيت عليّ حقّـاً زيارتيَ الخليفة وامتداحي
سأشكر إن رددت عليّ ريشي وأثبتَّ القوادم في جناحي
ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

ويعلك الوليد بن عبد الملك فلا ينسى نصيبه من برّه وعطائه :

إني لمعتمد الخليفة زائراً وأراه أهل زيارتي وتعرُّضي
ليس البريّ كمن تمرّض قلبه فأنا المشايع قلبُه لم يمرضِ
فوثقتُ ما سلم الخليفة بالغنى ليس البحور إلى الثماد البُرّضِ

(البرض : الماء القليل)

بحرٌ تفيض له سجالٌ بالندى وإليه جارية البحور الفُيَّضِ

يجزيك ربك حسن قرضك إنه حسن المعونة واسع المتقرّض
والله قدّر أن تكون خليفةً خيرَ البرية وارتضاك المرتضي

ويمضي الوليد ويخلفه سليمان ، فينهض اليه منشداً :

سليمان المبارك قد علمتم هو المهديُّ قد وضح السبيلُ
أجرت من المظالم كل نفسٍ وأدّيت الذي عهد الرسول
صفت لك بيعة بثبات عهدٍ فوزن العدل أصبح لا يميل
إذا ابتدر المكارم كان فيكم ربيع الناس والحسب الأثيل
علوتم كل رابية وفرع وغيركم المذانب والمجهول

*

وما يستقر عمر بن عبد العزيز حتى يتعجله البرّ ، جاعلاً من المدح سبيله :

إن الذي بعث النبي محمداً جعل الخلافة في الإمام العادل
قد نال عدلك من أقام بأرضنا فاليك حاجة كل وفد راحل
اني لآمل منك خيراً عاجلاً والنفس مولعة بحب العاجل
والله أنزل في الكتاب فريضة لابن السبيل وللفقير العائل

*

ويخلف يزيدُ عمرَ فلا يعيا عن القول :

لما ملكت عصا الخلافة بينت للطالبين شمائل ونجارُ
ساس الخلافة حين قام بحقها وحمى الذمار فما يضاع ذمار
ويزيد قد علمت قريش أنه غمر البحور الى العلا سوّار
وعروق نبعتكم لها طيب الثرى والفرع لا جعد ولا خوّار
إن الخليفة لليتامى عصمة وأبو العيال يشفه الإقتار

ومن بعد يزيد هشام وجرير على بابه ينشد :

لو ان الله فضّل سعي قوم صفت لكم الخلافة والعهودُ
على مهل تمكن في قريش لكم عظم الدسائع والرّفود
هشام الملك والحكم المصفّى يطيب إذا نزلت به الصعيد

يعم على البرية منك فضل ... وتطرق من مخافتك الأسود
وإنْ أهل الضلالة خالفوكم ... أصابهم كما لقيت ثمود

*

وهكذا لم يخص جرير خليفة دون خليفة . شأن سابقيه . واتصل بعد هذا بأمراء بني أمية وقوادهم . كما لم يضن على نفر من وجوه القوم بما جادت به قريحته . فمدح العباس ابن الوليد وسلمة بن عبد الملك والحجاج والجنيد بن عبد الرحمن المري . وعبد الله بن عمرو ابن عثمان والمهاجر بن عبد الله الكلابي ونفراً آخرين .

* * *

هذه صفحات ثلاث ، جمعت لك فيها عن الشعراء الثلاثة أكثر ما يعنينا عنهم، وخلفت ناحيةً نقائضهم التي عُـرفت لهم وشاعت عنهم ، حتى إن محدثاً يكاد لا يذكرهم إلا بها . فتلك هائجة من الشر خلقتها المنافسة بين ابني العم : الفرزدق وجرير . وأذكى الناس نارها . ولا يفوتك ما حبا الملوك به من فعل أو قول ، وما أثنوا به وعابوا . فلمثل هذا افترق الناس ولا يزالون يفترقون .

ولا أُنصبك كثيراً إذا عرّفتك قبل هـذا أن الفرزدق كان ينزع الى الهجاء صباه . هاجى غير واحد . ثم زهد في الشرّ وهمّ أن يحبس نفسه للقرآن يتدبره . وإذ به يُحرّك لما عافه ، وينتهي إليه أن الشر بين جرير والبعيث المجاشعي قد استشر ، وأن جريراً نال من البعيث في حرمات قومه .

فيهب لجرير ولسانه ينشد :

أنا الضامن الراعي عليهم وإنما ... يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي
ولو ضاع ما قالوا : ارْعَ منا وجدتهم ... شحاحاً على الغالي من الحسب الجزْل
ولست إذا ثار الغبار على امرىء ... غداة الرهان بالبطيء ولا الوَغْل
ولولا حياء زدت رأسك هزمةً ... إذا سُبرت ظلّت جوانبها تغلي

ثم يتحمّى للأمر ويكشف عن قناعه ، فيقول :

دعاني ابن حمراء العجان ولم يجد ... له اذ دعا مستأخراً عن دعائيا
فنفّست عن سَمّيه حتى تنفّسا ... وقلت له لا تخش شيئاً ورائيا

أرحتُ ابن حمراء العجان فمرَّدت   فقارته الوُسطى وان كان وانيا

ثم يجري الشر الى مداه يزّور أواره ، وقد أشرت الى بعضه . ويخوضه الأخطل بعد ما عاش صدر عمره لا يأبه له ، وينحاز الى الفرزدق . فيسمع الناس لثلاثتهم ما شئت من إسفاف لا ضابط له من حياء .

*

تلك الصفحة ، وإن اتصلت في الحين بعد الحين ببعض ما نُـريد الشعراء له ، إلاّ أنك تجدها هنا أمراً خرج الى المهاترة ، وملك زمامه الجهل ، وكاد يكون إشباعاً لشهوات ، ومن فيض النزوات .

ونحن ـ وإن رأينا الإسراف فيه قد حجز القوم عن الالتفات الى غيره بعض الشيء ـ لا نطلب مثله سبباً من أسباب دراستنا هنا . فما كان كما قلنا — جلّهُ للذود عن حرمات والدفاع عن حوزات . ولكنه كان للشر الذي صيغت منه الطبائع . فلندعه لمن شاء أن يعرف الأخطل والفرزدق وجريراً شتّامين عيّابين . فتلك دراسة تحلو لمن أحب أن يعرف النفوس كيف تخلص للخير وكيف يغلبها الشر .

*

وما حدّثناك عن هؤلاء الثلاثة ، ونحن نعرض عليك صورهم وألوان قولهم ، إلاّ لنعود إليهم هنا معقبين . فثلاثتهم كما رأيت عاشوا في ظل الدولة الأموية منتصرين لها .

أما عن الأخطل فقد عرفت كيف بدأ . وأنه قد أُقحم على الأمر إقحاماً — وما أظن الأخطل كان يحمِّل نفسه ، وهو من تعلم ، أن يهجو الأنصار ، وما أرادها شاعر مسلم . وقد لقي بسببها شيئاً حين أمكن منه معاوية ، لكنه وجد يدَ يزيد فقوي بها وتبدّل خوفه أمناً .

عندها رأى الأخطل أن يختار مكانه الغانم ، وكان قومه إليه ، والدولة الأموية مع بدئها تنبئ الحوادث أن الأمور إليها . فمضى يمكّن لنفسه لدى سادتهم ، يمدحهم ويمدح من اتصل ، ويهوّن من شأن أعدائهم والخارجين عليهم .

غير إنا نراه كان لا يقول برأي حين قال في الخلاف القائم ، وأنه جرى على رأي المسلمين المنتصرين لبني أمية :

فالله لم يرض عن آل الزُّبير ولا ... عن قيس غيلان حبًّا طال ما حَربوا
يعاظمون أبا العاصي وهم نفرٌ ... في هامة من قُريش دونها شَذب

ثم يقول :

همُ سعوا لابن عفان الإمام وهم ... بعد الشماس مرَوْها ثمت احتلبوا
حرباً أصاب بني العوّام جانبها ... بعداً لمن أكلته النار والحطب

*

ويقول :

هم الذين أجاب الله دعوتَهم ... لما تلاقت نواصي الخيل فاجتلدوا
ليست تنال أكفُّ الناس بسطتهم ... وليس ينقُض مكرُ الناس ماعقدوا
ويوم صفّين والأبصار خاشعة ... أمدهم اذ دعوا من ربهم مدد
على الألى قتلوا عثمان مظلمة ... لم ينههم نشدٌ عنه وقد نُشدوا
فَثَمَّ قرَّت عيون الثائرين به ... وأدركوا كل تَبل عنده قود
فلم تزل فيلق خضراء تحطمهم ... تنعي ابن عفان حتى أفرخ الصَّيَد

(أفرخ : سكن. والصيد : الكبر)

وأنتم أهل بيت لا يوازنهم ... بيت إذا عُدَّت الأحساب والعُدد
وإن سألت قريشاً عن ذوائبها ... فهم أوائلها الأعلون والسند
والمسلمون بخير ما بقيت لهم ... وليس بعدك خير حين تفتقد

بمثل هذا قال الأخطل في الأمويين . وما نريد أن نجمع له كل ما قال . ولكنا نجتزئ منه بما يدلنا على ما أراد.. أراد الاخطل لنفسه صلة يقوى بها ويحمي ذويه من أن يجار عليهم أو ينال منهم .

هذا هو الأخطل حين بدأ . ورأى قومه وصنعهم بقيس ، وكانت قيس حرباً على بني مروان . فعدا مقامه الأول إلى مقام المشارك فى التمكين للدولة برماح قومه وأسنتهم فيقول :

لقد علمت تلك القبائل أننا ... مصاليت جذّامون آخية الشّغب

فان تك حرب ابنيْ نزار تواضعت   فقد عذرتنا في كلاب وفي كعب
وفي الحُـقب من أفناء قيس كأنهم   بمنعرج الثرثار خُـشب على خُـشب
وهنّ أذقنَ الموت جزءَ بن ظالم   بماضية بين الشراسف والقُـصب
لعمري لقد لاقت سُليمٌ وعامرٌ   على جانب الثرثار راغية البـكر

وقد ذكرنا لك شيئاً في مثله قبلُ . وتنتهي الأمور بالأخطل إلى ما كان يخشى . فاذا الوليد يجفوه، ولم يجد الأخطل غير أن يقبع ويقنع بأن يقول :

ولقد علمتم وإن أصبحت نائيكم   نصحي قديماً وفعلي غير متّـهم

ثم إذا فدحته وقومه المغارم يقول :

وعضّ الدهر والأيام حتى   تغير . بعـدك الشّـعر الجديد

* * *

يقولون وَفَـى الأخطل لسادته في الرخاء والشدّة . وأقول لقد اختار الأخطل النفع وشراه بلسانه . فلما فقده لم يملك أن يقول على المنع كما قال على الاعطاء . وكان حين اشترى له ولقومه حكيماً ، ولكنه لم يكن حين حُـرم على شيء من الجرأة والشجاعة . فقنع بتلك الأبيات القليلة وكتم ما يشكو وما يضيره .

كنا نريد أن نراه مع الوفاء لسادته يقول فيما نابه في البأساء ، بقدر ما قال عندما أصاب في النعماء .

لِمَ لم نسمعه يتجه إلى الوليد يحدّثه مفيضاً عما أضاره وآذى قومه، ولِمَ نراه انكسر وتخاذل واختفت كلماته الأولى حين كان يخـاطب عبد الملك فيُـدل ببلاء قومه ، وبدا الأخطل غير الأخطل في خطابه للوليد حين يقول :

وقد حلفتُ يميناً غير كاذبة   بالله رب ستور البيت ذي الحُـجبِ
وكل موفٍ بنذر كان يحمله   مضرّجٌ بدماءِ البُـدن مُـختضب
إن الوليد أمين الله أنقذني   وكان حصناً إلى منجاته هربي
أتيتـهُ وهمـومي غير نائمـةٍ   أخا الحذار طريد القتل والهرَب
فآمن النفسَ ما تخشى وموّلها   قَذْمَ المواهب من أنوائه الرُّغُـب

(القذم : الكثرة والرغب : الكثيرة الواسعة)

وهم ذرى عبد شمس في ارومتها ... وهم صميمهمُ ليسوا من الشّذَب
وكان ذلك مقسوماً لأوّلهم ... وراثةً ورثوهـا عن أبٍ فأب

وإلى هذا قوله :

حلفت بمن تساق له الهدايا ... ومن حلّت بكعبته النذورُ
لقد ولدت جذيمة من قريش ... فتاها حين تحزبها الأمور
وأكرمَها مواطن حين تبلى ... ضرائبها وتختضب النحور
وقد علمت أُمية أن ضغني ... اليها والعداةُ لها هزيرُ

(ضغني ، أي ميلي وشوقي)

وأني ما حييت على هواها ... واني بالمغيب لها نصورُ
فمن يكُ قاطعاً قرناً فاني ... لفضل بني أبي العاصي شكور
ولكني أهاب وارتجيكم ... ويأتيني عن الأسد الزئير

ثم قولهُ :

لقد حلفتُ بما أسرى الحجيج له ... والناذرين دماءَ البُدْنِ في الحرَم
لولا الوليد وأسبابٌ تناولني ... بمنٍّ يوم اجتماع الناس بالثَّلم

(الثلم : موضع)

إذاً لكنت كمن أودى ووذّأه ... أهلُ القرابة بين اللحد والرَّجمِ

(وذّأه : غيبه)

أهلي فداؤك يومَ المحرمون بها ... مُقاسمُ المال أو مُغضٍ على ألم
إن ابن مروان أسقاني على ظماءٍ ... بسَجْلٍ لا عاتمٍ ريثاً ولا خَذِمِ

(السجل : الدلو . والعاتم : المبطيء بالعشاء . والخذم : المقطوع)

الى أن يقول :

فهم هنالك خير الناس كلهم ... عند البلاء وأصباهم على الكرم
لولا بلاؤكمُ في غير واحدة ... اذاً لعمتُ مقام الخائف الزَّرم

(ازرم : المنقطع)

أسمعتكم يوم أدعو في مُسودَّأة   لولاكمُ شاع لحمي عندها ودمي

(المودأة المفازة)

أتستطيب هذا من شاعر تريده لرسالة ؟ وكم هو مفيد على هذا الاسراف في المدح والدعاء ؟

وقد يقول قائل : أشِرْ بغير هذا إن ملكتَه . ونكاد نملك الجواب حين نقول : قد نؤمن أن الأخطل رأى الخير في أن يكون الأمر الى بني أمية ، وقد نراه رجا لآله الدَّعة حين وصل حبلهم بحبل الأمويين . فكان عليه مع هذا الرأي أن ينتصر له ، ولذلك الرجاء أن يمكِّن لأسبابه . فقال يُعزّ بقوله ولاة الحق ويُهوِّن من خصومهم ، وأثنى على من رجا لقومه عندهم خيراً فأطاب .

نحن لانلقاه هنا ، ولكنا نلقاه حين خذله الوليد وغمطه ماله وما لآله ونسي سابقتهم عنده . فوقف له الأخطل يستغفر عن غير ذنب ، ويعتذر دون جريرة ، في قول الخانع ، وذلة المستخذي . طامعاً أن ينصفه إسرافه ويردّ عليه ما فقده إغلاؤه .

وكان الأخطل فيما يقال محبّـاً لما يدين به . وقد رأيت ما ناله مع عشيرته من حرج ، ورأينا نحن أن الوليد هدم للنصارى كنيسة . وارتفع لسان جرير يهنىء الوليد بما فعل ، أو قل يكيد للأخطل فيما يقول :

إن الكنيسة كان هدم بنائها   قسراً فكان هزيمة للأخرم

فما عرض الأخطل لجرير في هذه ، ولا رفع صوته يبصر الوليد بعقبة ما فعل ، ولا قال في الحرج إلا بلسان المستعتب الوجل .

إن قلت : خاف البطش والتنكيل . قلنا : قد فقد شجاعة الداعي ، وقوّة جنانه .

وإن قلت : أراد أن يأخذ اللين الى غايته مطية . قلنا : فرِّق لنا بين اللّين والضعف .

ثم لنعد الى المدح نتعرّفه ، وأحب أن أقفك على رأيي فيه . فأنا أعد المدح يَجْزي الشاعر ، لا ليُجزى عليه . وفرق عندي بين كلمة أشكر بها وأخرى أسأل فيها الناس رفداً وعوناً .

وأين كان الأخطل من الرأيين . لقد حمّله يزيد هجاء الأنصار ، فغفرناها له وقلنا :

شاعر يريد أن يهيّيء له ولقومه ويختار . وأمكن منه معاويةُ وكاد الأنصار ينالون منه ، فاستنقذه يزيد فشكره . فقلنا : واجب عليه أداؤه . وجرى على الأمويين يمدحهم ملتفتاً لقومه . فقلنا : أصاب حين عدّد لقومه مآثرهم .

ومالت به مائلة حين سلك بالمدح غير مسلكه وجعل منه مطيّة السائل أو وسيلة المستجدي . ثم خلص شعره المدح بقوله في غير الملوك والملوك ، متخطياً القصد في الشكر الى الاسراف فيه . أتذكر قوله إلى شقراء وزوجها وكانا أكرماه وأنزلاه :

لعمرك ما لاقيت يوم معيشة من الدهر إلاّ يوم شقراء أقصرُ
حوارية لا يقرب الذم بيتها مطهرة يأوي إليها مطهر
وبيتٌ كظهر الفيل أكثر حشوه أباريقه والشارب المتقطر

فقلنا : زلّت بالأخطل القدم .

ما أردنا أن يكفر الناس بالنعم ، وأن يجحدوا الأيادي . وإنما أردنا أن يصان الشعر عن الابتذال . وما على الشاعر ، وهو من الناس ، أن يشكر بلسانهم في كلمة من كلامهم لا في بيت يسير عنه ويُسعد عليه، يخص فيه المطعمين بالكثير مما لا ينهضون له .

وما على الشاعر ألاّ يمدح إلاّ مجازياً . فذلك أعف له وأدعى إلى أن يُسبق إليه .

وما على الشاعر أن يقصد فيما يقول جانب الحق والنصف والقصد . فالناس على نهجه وحيث اتجه .

✿

وإذ قد أخذنا في المدح فبيّنا الرأي فيه فنحن إلى وقفة قصيرة مع الفرزدق وجرير نتم بها الحديث عن الثلاثة .

يكاد الشاعران يجمعهما رَسَن وتؤلف بينهما غاية ، لا يصرفك عن ذلك تلك الهاجة التي هاجت بينهما ، فما خلقت فيهما غير شر ولا أسمعتنا إلاّ إخاشاً شُغل الناس به حيناً ولا يزالون يشغلون ، فريقٌ يرى فيه زاداً يقوى به إن ضرمت ضارمة ، وفريق يسمعه أو يقرؤه لينساه ، وهم الذين يريدون ألسنتهم على العفة وأنفسهم على النقاء .

وليس شيءٌ غير الهجاء فارقاً سوى تلك البارقة التي ومضت بُرَيهة ثم اختفت . لعنى علوية الفرزدق التي لفظها أبياتاً ثم تاب عنها في قصائد .

وبعد هذا فالشاعران مدّاحان وقفا لملوك بني أمية بالمرصاد يمدحان من استخلف ورثيان من مات . وان شئت فقل انهما خلعا رأيهما وهواهما وراءهما ، وجرى في رأي الامويين وهواهم . تحس ذلك في موقف الفرزدق من آل المهلب ، فهم عند قوله :

لأمدحنّ بني المهلب مدحة   غراء ظاهرة على الأشعار
مثل النجوم أمامها قمر لها   يجلو الدجى ويضيء ليل الساري
ورثوا الطعان عن المهلب والقرى   وخلائقاً كتدفق الانهار

ما رضي عنهم الأمويون وبسموا لهم . فاذا استحال رضى سادته سخطاً ، سخط هو الآخر وأسرع يقول في يزيد بن عبد الملك بعد صلب يزيد بن المهلب :

غلبتم الناس بالحق الذي لكمُ   عليهمُ وبضربٍ غير تعذير
لقد عجبت من الأزدي جاء به   يقوده للمنايا حينٌ معزور
حتى رآه عبادُ الله في دَقَل   منكّساً وهو مقرونٌ بخنزير

(يشير الى ما كان حين صلب يزيد بن المهلب وعلق معه خنزير وزق خمر)

*

وتراه راضياً عن عمر بن هبيرة ما ضمن ابن هبيرة الرضى عند أوليائه ، فيقول فيه الفرزدق :

لقد علمت وعلمُ المرء أصدقه   من عنده بالذي قد قاله الخبر
أن ليس يجزيء أمر المشرقين معاً   بعد ابن يوسف إلاّ حية ذكر
أغر يستمطر الهُلاكَ نائله   في راحتيه الدم المعبوط والمطر
وكم نحالك من الآباء من ملك   به لذبيان كان الورد والصدر
أنت رجائي بأرضي انني فرق   من واسط والذي نلقاه ننتظر

ثم تعبس الوجود فيعبس وجه الفرزدق ويجد قلباً قاسياً ولساناً طيعاً فيقول فيه :

إن الفزاري لا يشفيه من قرم   أطايب العيْر حتى ينهش الذكرا
لو أنها ضربت في القبر ميتها   بنو فزارة بالجُردان لانتشرا
لو انها منعت منه وقد طبخت   أمّ الفزاري أير العير لانتحرا

وترى جريراً مع هذا النهج إلاّ ما تنكر فيه الفرزدق لمن صفا له ، يفرط في المدح حتى لنكاد نحس أن قلبه بالممدوح عالق، وان هوى ضمه إليه، فيمضي الممدوح وما جفَّ تراب قبره ، ولا جفّ معه مداد ما قيل فيه ، وإذا بجرير على باب الخلف في مثل ما كان مع السلف .

ودرِب الرجل مع هذا أن يكون صاحب رأي ، فهو مع ما عددنا عليه ، لم يكن مطعوناً عليه نزعته ، ولم يوزّع هواه مع هوى غيره .

ونحسب أن الهجاء شغله أن يلتف حول فكرة، وأن مدحه هذا كان عدّة له في هجائه. ولعله أراد أن يقوى بممدوحيه ويعزّ بهم على خصميه .

وقد ترى رأينا حين تسمع أن ثلثي شعر جرير كان في الهجاء ، والثلث الباقي كان المدح والفخر والنسيب والوصف والعتاب والشكوى والرثاء .

وأنه هجا الأخطل بما يدنو من خمس وعشرين قصيدة ، وخصّ الفرزدق بما يصل إلى المائة .

هذا بال بلبلة الخصومة فعاش لها ، ولم يصف إلاّ في القليل لهذا الذي حدّثناك عنه.

وبعد فما كان أحوج هذا العصر الى غير هؤلاء من الشعراء ، ينصحون ولا يمدحون ويبصّرون ولا يقرظون ، ويرون ثم يملكون بشجاعة على القول .

أما هذا النفر الذين عنى بهم الأمم ، ويصاب بهم السادة ، والذين لا همّ لهم إلاّ أن يزينوا البطش ، ويجملوا النكاية ، ويمتدحوا سوارات الغضب . فما أشقى الأزمنة بهم .

أحسب لو أن الألسنة التي زينت للأمويين إنكاءهم في خصومهم ملكت أن تخفف من غلوائهم وتردهم الى حلم ما باء الأمويون الى نكال تجرّعوه غصصاً على أيدي العباسيين حين انتهى إليهم الأمر ، ولما سمعوها مُرّة على لسان سديف يخاطب السفاح :

جرّد السيف وارفع العفو حتى لا ترى فوق ظهرها أمويّا

أبو تمام والبحتري

(١٩٢ — ٢٣١) — (٢٠٦ — ٢٨٤)

هذان ديوانان لشاعرينا : أبي تمام حبيب بن أوس ، والبحتري الوليد بن عبيد بن يحيى . وكلا الرجلين طائي . أدرك ثانيهما أولهما وما أن أنشده من شعره حتى قال له :

قد نعيتَ إلي نفسي ، فما يخلدي أن أعيش وقد شبّ في طيء مثلك. ويروون أن أبا تمام لم يُعَمّر بعدها غير عام .

فأنت ترى أن الحياتين متصلتان ، أو أن حياة البحتري امتداد لحياة أبي تمام ، فما ودّع شاعر حتى قام في إثره شاعر ، على الطيّ والغرار ، بدأ من حيث انتهى سلفه ، ومضى وكأنه الصدى ، يصل ما انقطع . ونحن في تفصيل ذلك آخذون .

*

فقد نشأ أبو تمام يمدح المأمون [1] أول خليفة لقي . بقصيدته التي يقول فيها :

أللهُ أكبر جاء أكبر من جرت فتعثرت في كنهه الأوهامُ
من لا يحيط الواصفون بوصفه حتى يقولوا وصفُه إلهام
من شرّد الإعدامَ عن أوطانه بالبذل حتى استطرف الإعدام

(الإعدام : الفقر . واستطرف : صار مالا طريفاً ، أي جديداً) .

وتكفّل الأيتام عن آبائهم حتى وددنا أننا أيتام
يتجنب الآثامَ ثم يخافها فكأنما حسناته آثام
إن المكارم للخليفة لم تزل والله يعلم ذاك والأقوام
كتبت له ولأوّليه قبله في اللوح حتى جفّت الأقلام

(١) ولي المأمون من سنة ١٩٨ — ٢١٨ هـ

فبنو أبيك على نفاسة قدرهم فيهم وإنهم هُمُ الأعلام
متواطئو عقبيك في طلب العلا والمجد ثَمتَ تستوي الأقدام

يغني المأمون بهذه وأبو تمام لم يَعدُ نصف العقد الثالث إلاً بقليل . ويخلفه المعتصم ؛ ويمتد حكمه الى سنة ٢٢٧ . وتعمر تلك السنين الثمانية ، بفتوح ثمانيــة فيجد أبو تمام مجال القول فسيحاً . فهو هنا يهنئه بفتح عمورية :

السيف أصدق إنباء من الكتب في حدّه الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظمٌ من الشعر أو نثرٌ من الخطب
فتحٌ تفتَّحُ أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القُشب
يا يومَ وقعة عموريّة انصرفت عنك المنى حفلاً معسولة الحلب

(حفلا : مجتمعة) .

ما ربع مية معموراً يطيف به غيلان أبهى رُبى من ربعها الخرِب
خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تُنال إلاً على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رَحِم موصولة أو زمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بها وبين أيام بدرٍ أقربُ النسب

* *

وهو هنا يهنئه بإحراق الأفشين :

الحق أبلج والسيوف عَوارِ فحذار من أُسد العرين حَذارِ
ملكٌ غدا جارَ الخلافة منكمُ والله قد أوصى بحفظ الجار

. . . .

لله من نار رأيتُ ضياءَها ضاق الفضاء به على النظّار
مشبوبةٍ رُفعت لأعظم مشرك ما كان يرفع ضوءها للساري
صلّى لها حيًّا وكان وقودَها ميتاً ويدخلها مع الفجّار

يا مشهداً صدرت بفرحته الى ... أمصارها القصوى بنو الأمصار
رمقوا أعاليَ جذعه فكأنما ... وجدوا الهلال عشية الإفطار
واستنشقوا منه قُتاراً نَشْرُهُ ... من عنبر ذفر ومسكِ داري

(داري : نسبة الى دارين بلد معروفة بالمسك)

فالأرض دارٌ أقفرت ما لم يكن ... من هاشم ربٌّ لتلك الدار
سور القُران الغُرُّ فيكم أُنزلت ... ولكم تصاغ محاسن الأشعار

*

وهو في هذه يهنئه بأخذ بابك :

آلت أمور الشرك شرَّ مآلِ ... وأقرَّ بعد تخمّط وخيال

(التخمط : التكبر)

غضب الخليفة للخلافة غضبة ... رخصت لها المهجات وهي غوالِ
فلأذربيجان اختيال بعد ما ... كانت معرَّس عبرة ونكال
أطلقتها من كيده وكأنما ... كانت له معقولةً بعقال

. . .

يا يوم أرشق كنت رشق منيّة ... للخرميَّة صائبَ الآجال
أسرى بنو الاسلام فيه وأدلجوا ... بقلوب أُسد في صدور رجال
ما طال بَغْيٌ قطُّ إلاَّ غادرت ... غلواؤه الأعمارُ غير طوال
فاسلم أمير المؤمنين لأمة ... أبدلتها الإمراع بالإمحال
أمسى بك الاسلام بدراً بعد ما ... مُحقت بشاشته محاق هلال
ألبسته أيامكَ الغُر التي ... أيامُ غيرك عندهنَّ ليالِ

هذا سوى مدائح خصه بها ، أطنب فيها وأشاد .

*

ويخلف الواثقُ المعتصمَ عامَ وفاته سنة ٢٢٧ فينهض إليه أبو تمام يهنئه ويعزيه بأبيه:

ما للدموع تروم كل مَرام ... والجفن ثاكلُ هجعةٍ ومنامِ

يا تربةَ المعصوم تُربُك مودَع ماءَ الحياةِ وقاتلَ الإعدامِ
هدمت صروف الدهر أطول حائط ضُربت دعائمه على الإسلامِ
ما دام هارونُ الخليفةَ فالهُدى في غبطةٍ موصولةٍ بدوامِ
إنا رحلنا واثقين بواثق بالله شمس ضحى وبدر تمامِ
ما أحسب القمر المنير إذا بدا بدراً بأضوأ منك في الأوهامِ
إن الخلافة أصبحت حجراتها ضُربت على ضخم العطاء همامِ

وغير المأمون والمعتصم والواثق أمراء ووزراء وقوّاد وسادة ، أكاد أحصي منهم ثلاثين ؛ منهم أحمد بن المعتصم ، وخالد بن يزيد الشيباني ، والحسن بن سهل ، وأبو سعيد الثغري ، وابنا وهب : الحسن وسليمان ، ومحمد بن الهيثم ، وأحمد بن أبي دواد ، والرافعي موسى بن ابراهيم .

قال في بعضهم، مادحاً ومعاتباً ما يُربي على الأربعين قصيدة ، وأظنه أبا سعيد الثغري . وفرّق الباقي من مدائحه بين بقيتهم وفق ميله وهواه .

*

ثم هو بعد هذا له مراثيه التي لم يبخل بها على الكثرة ممن وصلته بهم صلة .

وتجيء بعد مراثيه أهاجيه، وما بنا حاجة إلى أن نقف عندها طويلاً . وما يعنينا منها أن الرجل مدح مَن هجا ، وهجا بعض من مدح ، وما هو بمُلايم . وحياة كل انسان حافلة بمثل هذا ، وأبو تمام منا معشر الناس . ولكنه من النفر المعدود عليهم كلماتهم . وقد كان في مكنته أن يمضي دون هذا ، فيحبس مديحه عمن هجا ، وهجاءه عمن مدح ، ولكنه لم يفعل .

وقد مرَّ بك حديث أبياته في إحراق الأفشين ، ويجمل بنا أن نورد لك بعض قوله في مدحه :

بذَّ الجلاد البذّ فهو دفينُ ما إن به إلاّ الوحوش قطينُ

(البذ : موضع)

لم يقرهذا السيف هذا الصبر في هيجاء إلاّ عزّ هذا الدينُ

قد كان عذرةَ مغرب فافتضها بالسيف فحلُ المشرق الأفشين
ما نال ما قد نال فرعونٌ ولا هامانُ في الدنيا ولا قارون
فليشكر الاسلام ما أوليته والله عنه بالوفاء ضمين

وإن لم يكن قد مرَّ بك شيء مما مدح به مالك بن طوق ، فسنذكر هنا بقوله فيه :

يا مالك ابن المالكين ولم تزل تدعى ليومي نائل وعقابِ

كي نعقب عليه بهجائه له :

فرحلت منقطع القرينة لم أربع على رسم ولا طللِ
متمسكاً من مالك بقوًى ضعفت وسائلها عن الأمل
فلأغرينَّ به سوائم سر ح الشعر من رجزٍ ومن رمل
متوجهاً لهجائه أبداً وهجاؤه أمرٌ عليَّ ولي

هذا مالك ، ولأبي تمام فيه أكثر من خمس مدائح . وثمَّ رجل آخر نختم به حديث الهجاء لا الحديث عن أبي تمام ، هو عياش بن لهيعة ، فقد قال فيه يمدحه :

رأيت لعياش خلائق لم تكن لتكمل إلاَّ في اللباب المهذَّبِ
له كرم لو كان في الماء لم يغض وفي البرق ما شام امرؤ برقَ خلَّب

وقال فيه :

لي حرمة بك أضحى حق نازلها وقفاً عليك فدتك النفس محبوسا
كم دعوة لي إذا مكروهة نزلت واستفحل الخطب يا عيَّاش يا عيسى
لله أفعال عيَّاش وشيمته تزيده كرماً إن ساس أو سيسا

ثم يتنكر له فتسمع إليه يقول :

ستعلم يا عيَّاش إن كنت تعلم فتندم إن خلاَّك جهلك تندم
أبى لك أن تأبى المخازي كلها أبٌ أندرمليٌّ وجدٌ معلم
وقمت عليك الظن حتى كأنما لديك الغنى أو ليس في الأرض درهم

ويقول فيه :

صدَّق مقالته إن قال مجتهداً لا والرغيف فذاك البر من قسمه

وإن هممت به فاتتك بخبزته   فإنها قطعة من لحمه ودمه

* * *

ثم يموت أبو تمام، ويموت بعده الواثق بعام. وينهض بالأمر المتوكل، فيخلو به البحتري خمسة عشر عاماً، هي سنو حكمه، مادحاً، ويكادون يحصون له في ذلك أربعاً وعشرين قصيدة، جُلّها من المطولات، هذا عدا مرثية لم ينس في آخرها أن يهيء لنفسه عن سيخلفه في قوله:

وإني لأرجو أن ترد أموركم   الى خلف من شخصه لا يغادره
مقلَّب آراء تخاف أناته   إذا الأخرق العجلان خيفت بوادره

*

ويخاف المستنصر أباه المقتول. ولكن الثائرين بأبيه لم يمهلوه إلاّ ريثما يُعدّون له شربة مسمومة. فمات بها. وما أُنس بالحكم غير أشهر ستة. وقد وجدنا للبحتري فيه قصيدته التي يقول له فيها:

تبسَّم عن واضح ذي أشر   وتنظر من فاتر ذي حوَر
ولما ادلهمت دياجيرها   تبلَّج فيها مكان القمر
بحزم يجلّي الدُّجى والعَمى   وعَزم يُقيم الصَّغا والصَّعر

(الصغا: الميل. والصعر: ميل في الوجه)

ولكنا نجده يتخلف عن رثائه. ونجده يمدح المستعين بعده ولا يشير الى المنتصر وما ناله، في قليل ولا كثير. بل نراه يقول للمستعين:

بقيت مسلَّماً للمسلمينا   وعشت خليفة لله فينا
فقد أنسيتنا بذلاً وعدلاً   أبوَّتك الهُداة الراشدينا
أراد الله أن تبقى معاناً   فقدَّر أن تُسمَّى مستعينا

وتبلغ مدائحه فيه الأربع، وتقصر حتى تكاد القصيدة تُعد أبياتها دون العشر. ويشغب الموالي على المستعين، فيشتري منهم حياته بنزوله عن الملك لأخيه المعتز بعد سنين ثلاث وبضعة أشهر. ويحمل المعتز العبء محتالاً في تدبيره. ويمد يد الصنع له

أساءوا الى أخيه . ويأبى البحتري أن يحتال هو الآخر، فالمستعين لم يمت ، ولكن الأمر خرج من يده ، والخليفة الجديد يده في يد أعدائه ، حيلةً منه أو رأياً رآه . فماذا يقول البحتري وهو القائل أمس ما مرّ بك . اسمع اليه وهو يقول للمعتز :

ألا هل أتاها أن مظلمة الدُّجى تجلَّت وأن العيش سُهِّل جانبه

وأنّا رددنا المستعار مذمَّماً على أهله واستأنف الحق صاحبه

يريد بالمستعار : المستعين . ولكن أيتركه عند هذه أم يزيده من فضله ؟ هذا ما سيتجلى لك في قوله :

متى أمّل الديّال أن تصطفى له عرى التاج أو تُثنى عليه عصائبه

فكيف ادّعى حق الخلافة غاصبٌ حوى دونه إرثَ النبي أقاربُه

بكى المنبر الشرقي إذ خار فوقه على الناس ثورٌ قد تدلت غباغبه

وما نريد أن نحزن النفوس الوفية ، فنضم الى هذا غيره .

*

وينتهي أمر المعتز على ما انتهى اليه أمر أخيه من قبل فيعزل ، ثم يراد به الشر فيقتل، وينطلع بهذا العبء المهتدي . فلايلتفت البحتري الى رثائه ويتجه للمهتدي يقول :

بارك الله للخليفة في الملـــك الذي حازه له المقدار

رُتبة من خلافة الله قد طا لت بها رِقبةٌ له وانتظار

طلبتهُ فقراً إليه وما كا ن له بها ساعةً إليها افتقار

علم الله سيرة المهتدي بالله فاختاره لما يختار

وغيرُ الملوك مدح البحتريُّ فأطال . وخصَّ بعضهم بأكثر من مدحة . وكان ذلك شأنه مع ابن المدبر وابن ثوابة وغيرهما .

وفعل فعلة أبي تمام فالتي مدحه وهجاؤه عند بعض من قال فيهم . ويحضرني شاهدي على ذلك قوله في ابن ثوابة يمدحه :

أناشد الغيث كي تهمي غواديه   على العقيق وإن أقوت مغانيه
على محل أرى الأيام تضحك عن   أيامه والليالي عن لياليه
بنو ثوابة أقمارٌ إذا طلعت   لم يلبث الليل أن ينجاب داجيه
يقفون هَدْيَ أبي العباس في سنن   يرضاه سامعه الأقصى ورائيه

. . . .

وباخلين سلونا عن طلابهم   سلوان صبٍّ تمادى هجر مصبيه
تكشفنا عنهم نعمى فتىً شرفت   أخلاقه وطما بالعُرف واديه
موفَّر القدر لم تغمض مهابته   ونابهَ الذكر لم تُغمض مساعيه

ثم قوله فيه يهجوه :

ترون بلوغ المجد أن ثيابكم   يلوح عليكم حسنُها وبصيصها
وليس العلى دُرّاعة ورداؤها   ولا جُبَّة موشيَّة وقميصها

* * *

هذان هما الشاعران أبو تمام والبحتري ، لا ينقصكما عنهما إلاّ القليل مما يتصل بما أوردنا . قالا كثيراً ، ولكن في همٍّ واحد ، هو أن يُعرفا بقُدرتهما على القول ، وتجويدهما للعبارة ، وما رزق الله من خيال ، وآتى من سعة أفق .

وقد مضى أبو تمام مبكراً ، وما عاصر غير المأمون والمعتصم من الخلفاء ، ثم تلك الكثرة من السادة والقوّاد .

وقد رأيناه في كل ما صدر عنه بادياً في غير رأي له ، ولا فكرة استقامت عنده عن الحياة التي يعيش فيها . وما عدا أمرُه عن أن يعيش مُسعِداً لسانه لكل حادث أو طارئ يقول فيه واصفاً مفصلاً ماكان .

وكذلك كان شأنه مع السادة والقوّاد والأصحاب ، مع تفرقة في المنازل والمراتب . وعلى قدر برّهم به كان شعره فيهم .

وقد ذكرنا لك شيئاً عن المدح ونصيب الشاعر منه في كلمتنا عن الأخطل والفرزدق وجرير ، ونرى أن أبا تمام كان الى هؤلاء الثلاثة وأربى عليهم فيما أخذناهم عليه .

*

وما كان البحتري — كما قلنا في البدء — غير صدى لأبي تمّام . جرى في سبيله ولزم ما لزمه سلفه . وقد يكون في مضي أبي تمام تعجّلاً ما يجعلنا معه مترفقين عاذرين ، وإن كانت الأربعون غير قليلة على النابهين ليعجموا عود الحياة وينفذوا الى ما تنطوي عليه . فيكون لهم معها رأي وتوجيه .

ولكن ما عُذرنا للبحتري وقد بلغ من العمر أرذله . وشُغلت الدولة أيامه بحوادث جسام . أقساها ذلك الشغب الذي استطالت اليه فيه الى الملوك ، نعرف أن الموالي الذين جلبهم المعتصم كانوا نواة هذا الشر . ولكن هذا وإن كان أكثر الشر فليس كله . فالأمور تشير الى أن سياسة الدولة كانت في اضطراب ، وأن الفساد لعب بأصولها .

فأين كان شاعرنا ؟ هو في شغل عن الحديث عن هذا بمدح ينال به رضى وجاهاً ، وهجاء يخوّف به خصومه ، ويشفي حسيكة نفسه.

*

وما أحب أن أختم الحديث عن البحتري دون أن أقول إن تفريطه في هذا الواجب وكان بملكه ، يقفه غير بعيد مع الذين أساءوا وأثموا . وهل لا ترى الإثم فيمن يرى الموالي الذين زعزعوا أركان الدولة يوماً أعداء فيقول فيهم :

ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي   درى الفاتك العجلان كيف أساوره

ثم يحجم ويجبن حين يرى أمرهم استشرى فيزلف إليهم غير ناطق عن دين : فيقول :

أما الموالي فجند الله جمّلهم   إن ينصروك فقد قاموا بما احتملوا
بقاؤهم عصمة الدنيا وعزهم   ستر على بيضة الاسلام منسدل

ردوا المَـمار وتابوا عن خطيئتهم   فيه إلى الله والإثم الذي فعلوا
خطيئة لم تكن بدعاً ولا عجباً   قد خطئت أنبياء الله والرسل

*

اللهمّ هذا ضرب من الشعراء، يُراد أحدهم على القول فيقول، ويُؤجر للامر وضده فلا يجد حرَجاً، ما دام عمله بيانه أن يصور الباطل حقّاً والحق باطلاً. وما أحسب أبا نواس كنفسها ويضطرب نظام الأمر فيها بغير هؤلاء الذي يؤمنون بغير ما يقولون، أو لا يملكون مع الايمان شجاعة على القول والإفصاح.

المتنبي

٣٠٣ — ٣٥٤

إن شئت أن نذكرك به ، فهو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي . حمل أبوه الماء للناس في الكوفة ، لحارة بها اسمها كندة . وولد بها المتنبي فعرف فقيل له : الكندي .

وكان الغلام على فطنة ، والأب على أهبة ، فغشي الفتى مجالس العلماء ، يحدوه ميله ويعينه عون أبيه الى أن أفاد ما أراد ، وأضب على ما أحب .

أما عهده فهو ما تعرف ، خلافة عليلة تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وولاة نهازون غنامون اقتطعوا لأنفسهم ما هم عليه ، فشت الأمر بعد التئام ، ووهنت الحال في هذا الانقسام . ونشطت للإسماعيلية دعوة ، وهبت للقرامطة ثورة . فأحيط بالدولة من كل مكان ، وتوالت عليها النذر . وآن أن ينهار ذلك البناء الشامخ الذي طاول العلياء فطالها .

قد أومن أن تلك الدولة التي أظلها يوماً علم واحد ، وغبرت دهراً يدبر سياستها البيت العباسي . كان من الخير أن تعيش ، لكل ناحية منها استقلالها بأمورها ، لها ملكها أو رئيسها ، وبيدها سياستها ونظامها ، وهي بأخيرة تجتمع مع هذا البيت أو غيره على أمر يكفل لتلك الأمم والدول القوة والشوكة ، فلا تضار ناحية في غفلة عن الأخرى ، ولا يراد بطرف سوء إلاَّ كانت الأطراف الأخرى في عونه ونجدته .

ولكن الذي لا أومن به أن تنحل هذه العقدة المستمرة إلى قوى واهية ضعيفة لا اتصال بينها ، ولا تملك إحداها أن تصمد لعدوان ، أو تقف لأهون المغيرين شأناً . وهي مع هذا تأبى إلاَّ أن تحيا على غير صلة وضامة .

ذاك حديث لا تعدّه عليّ نفثة مصدور وفرجة مكروب ، ولكني أردته وأردت رأيي فيه لأناقش المتنبي الحساب في حدوده .

***

صدّق أو كذّب تنبي المتنبي ، ودعوته نفراً من فتيان الكوفة الى الايمان به نبياً. فقد دخل الفتى السجن على منكرة شاعت له ، هي عندي نزوة دينية ، أو أشبه بتلك التي تملك رؤوس اليافعين مستهل حياتهم الفكرية فتكون مرة خروجاً على القواعد ، ومرة جحوداً للعقائد . أما أنها كانت عند المتنبي نبوّة ، وأن معجزتها كانت تلك الآيات الملهلة النسج التي حفظوها له « والنجم السيار ، والفلك الدوّار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفي أخطار ، امض على سننك واقفُ أثر من قبلك من المرسلين ، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه . وضل عن سبيله » فذلك ما لا يليق بعقل ، سيما وأن القوم عرب ، وأن المعجزة شيء أريد محاكاة القرآن

ونحن إذ نذكر له هذه نريد أن نعرّفك به فتىً غير الفتيان ، يملك أن يقول وأن يدعو لما يقول . وكانت أولى ظواهر تلك النفس . ولكنه ما ضمه السجن حتى برأ مما فعل . وقال يستعطف الوالي :

دعوتك لما براني البلاء وأوهن رجليّ ثقلُ الحديد
وقد كان مشيهما في النعال فقد صار مشيهما في القيود
تُعجِّل فيَّ وجوب الحدود وحدّي قُبيلَ وجوب السجود

(أي انه لما تجب عليه الصلاة فيجب عليه الحد)

فدلّنا على مدى صبره على أمره وجلده لما يحمل .

*

وبعدُ ، فقد رأى المتنبي أن يبدأ حياته شاعراً مع الشعراء ، فهم يقصدون الملوك والأمراء . ويلوذون بالبلاطات ، فليصل حبله بمن أحب . فمدح منهم كثرة . وكان فيمن اتصل به معاذ بن جبل في اللاذقية . ولكنه ما فتىء أن برم به فرحل عنه الى سيف الدولة ابن حمدان .

وكان بباب هذا الملك الحلبي جمهرة من الشعراء اختصّ بهم ، منهم أبو فراس ، والسري الرفاء ، والنامي ، والببغاء ، والوأواء .

هنا استقرّت تلك النفس الوثابة حيناً من الدهر تصبح وتمسي لربها سيف الدولة حامدة شاكرة ، في كل أوبة وروحة ، وقومة وقعدة . وما نريد أن نذكر كثيراً ، فثلث الديوان لابن حمدان ، وإليك شيئاً من ذلك . فهذا قوله يهنئه بعيد الأضحى :

هو البحر غُص فيه اذا كان ساكناً ... على الدُّر واحذره اذا كان مزبدا
تظل ملوك الأرض خاشعة له ... تفارقه هلكى وتلقاه سجَّدا
وتحيي له المالَ الصوارمُ والقنا ... ويقتل ما تحيي التبسم والجدا
هنيئاً لك العيد الذي أنت عيده ... وعيد لمن سمَّى وضحَّى وعيَّدا
ولا زالت الأعياد لُبسك بعده ... تسلّم مخروقاً وتُعطى مجددا

ثم يذكر نفسه فيستنصره على حساده :

أزل حَسد الحُسّاد عني بكبتهم ... فأنت الذي صيّرتهم لي حُسَّدا
إذا شدَّ زندي حسنُ رأيك فيهم ... ضربتُ بسيف يقطع الهام مُغمدا
أجزني اذا أنشدت شعراً فإنما ... بشعري أتاك المادحون مردّدا
ودع كل صوت غير صوتي فإنني ... أنا الطائر المحكيُّ والآخر الصدى
وقيدت نفسي في ذراك محبة ... ومن وجد الاحسان قيداً تقيدا
إذا سأل الإنسان أيامه الغنى ... وكنت على بُعد جعلناك موعدا

هذا قليل يدل على كثيره . كان هم الشاعر في كله أن يستخلص الممدوح لنفسه، ليجتمع اليه خيره ، أثرة منه أو وثبة — إن شئت سميتها — أو طموحاً .

*

ويجد المتنبي على سيف الدولة لأنه لم يكن معه على ابن خالويه فيتركه الى دمشق ثم الى مصر حيث كافور الإخشيدي .

وكان كافور — وهو من تعلم — حريص على أن يضم بلاطه ما تضمه البلاطات ، وأن يرى بين يديه صفوة من الشعراء يقولون فيه فيشيع له كما شاع لغيره .

*

وأحب ألاّ أمضي عن هذه دون أن ألفتك الى ما قدّرَ به الملوكُ الشعراءَ ، فقد رأوا فيهم شيئاً يجملون به ، فكما يجلب الملك اليه المختارَ من الرياش يبدو فيه قصره رائقاً ، فتجري به الأحدوثة المستطابة ، كذلك عليه أن يضم اليه تلك الأبواق الناطقة ، وعليه أن ينتقي أعذبها صوتاً وأقدرها صوغاً . فإن فعل فهو آمن أن تَحُط به على الجوزاء ، ما ملك معيناً من ذهب ويداً كريمة سخية.

ويحلُّ المتنبي بساحة كافور ، وهو يطمع في الكثير ، فكافور راغب فيه ، ثم هو واثب على المُلك فمنتزعه من ابن سيّده بعد أن سقاه السم . فرجا هنا المتنبي ما لم يرجه عند سيف الدولة وظن بالأيام خيراً ، وبدأ يبيع ليشتري ، ويعطي ليأخذ ، ومدح كافوراً بقصائد منها قوله :

أقِلَّ اشتياقاً أيها القلب ربما رأيتك تصفي الود من ليس صامتا
خُلقت ألوفاً لو رجعت الى الصبى لفارقت شيبي موجع القلب باكيا
ولكن بالفسطاط بحراً أزرته حياتي ونصحي والهوى والقوافيا
وجُرداً مددنا بين آذانها القنا فبتنَ خفافاً يتّبعنَ العواليا
تجاذب فرسان الصباح أعنة كأن على الأعناق منها أفاعيا
قواصد كافورٍ توارك غيره ومن قصد البحر استقلَّ السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه وخلت بياضاً خلفها ومآقيا
أبا المسك ذا الوجهُ الذي كنت تائقاً إليه ، وذا اليوم الذي كنت راجيا
أبا كل طيب لا أبا المسك وحده وكل سحاب لا أخص الغواديا
يُدلّ بمعنى واحد كل فاخر وقد جمع الرحمن فيك المعانيا
إذا كسب الناس المعالي بالندى فإنك تعطي في نداك المعاليا

ويكشف له عن بعض أطماعه عنده فيقول :

وغير كثير أن يزورك راجلٌ فيرجع ملكاً للعراقين واليا
فقد تهب الجيش الذي جاء غازيا لسائلك الفرد الذي جاء عافيا

وبغير هـذه مدح المتنبي كافوراً ، ولبث يسأل وكافور يمطل . ولم يجد الأمور الى خير ، فخرج عنـه هارباً ، وأرسل كافور في طلبه فلم يدركه . وكأنه عزّ عليه أن يقول في كافور ما قال أو أن يخيب ظنه ويسوء تقديره ويرجع بصفقة المغبون ، فاهتمت نفسه، فقال يهجوه ، وكان يوم ارتحل يوم عرفة :

عيـدٌ بأية حالٍ عدتَ ياعيـد ... بما مضى أم لأمرٍ فيـك تجديدُ
أما الأحبـة فالبيداء دونهم ... يا ليت دونك بيداً دونها بيد
يا ساقييَّ أخمرٌ في كؤوسكما ... أم في كؤوسكما همٌّ وتسهيـد
أصخرة أنا مالي لا تحركني ... هذي المدام ولا هذي الأغاريد
إني نزلت بكذابين ضيفهم ... من القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدي وجودهم ... من اللسان فلا كانوا ولا الجود
لا يقبض الموت نفساً من نفوسهم ... إلاّ وفي يده من نتنها عود
أكلما اغتال عبدُ السوء سيده ... أو خانه فله في مصر تمهيـد
صار الخصيّ إمام الآبقين بها ... فالحر مستعبدٌ والعبـد معبود
نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... فقد بشمن وما تفنى العناقيـد
العبـد ليس لحرٍّ صالحٍ بأخٍ ... لو أنه في ثياب الحر مولود
لا تشتر العبد إلاّ والعصا معه ... إن العبيـد لأنجاسٌ مناكيد
ما كنت أحسبني أحيا الى زمن ... يسيء بي فيه عبدٌ وهو محمود

*

ولم ينزل المتنبي حلب أنفة منه أن يعود الى سيف الدولة عن غير دعوة أو شيء آخر، فقصد بغداد ومكث فيها حيناً تركها بعده الى ابن العميد وزير ركن الدولة . ولبث في ظله يمدحه ويثني عليه .

حتى اذا ما دعاه عضد الدولة يستزيره ، ودّع الشاعر هذا الى ذاك ، حيث الأمل أقوى والرجاء أشد . وقد نال المتنبي عنده كثيراً فمدحه وأطنب . ولـكنه آثر العودة الى بغداد

وفيما هو عائد اليها كان مقتله عند دير العاقول ، بالقرب من النعمانية

***

كن أنت الشاعر وسل الأيام أن ترجع بك الى تلك الفترة ، أو أن تنقل تلك الفترة بما فيها اليك وحدثنا حديثك . كأني بك تلقي اليّ :

لا بارك الله لي في لسان ولا قول إن لم أجردها لتقويم المعوج من تلك الحياة التي لم تطلع لها شمس الا على انهيار ، ولم تغب الا على مثله.

ومالي أكدّ ذهني وأجهد مقولي في إطراء أو هجاء ، لغنم أريده ، وأمل أنشده ، والمجتمع من حولي يعوزه كلمة ويتطلع الى داعية . ومالي يغريني الذهب وتستنهضني المناصب والمجتمع من حولي أغنى وأبقى .

وأين ما يذكرني الناس به من شمم ، وقد وفدت على كافور طامعاً ، ومدحته كاذباً .

وأين الشمم من نفس تستهويها الدعوة ذات المتاع فتهجر ابن العميد إلى عضد الدولة.

ليقل الناس إن المتنبي شاعر ، ولكنهم لن يقووا على أن يقولوا أنه حمل عبئه في الحياة لذلك المجتمع الذي يعيش بينه، فأشار هنا ونصح هناك . ولكنه جرى وراء حظه يريد أن يدركه كاملاً .

ويبقى له ما صدر من أبيات جرت مجرى الحكم ، صدرت عنه في بعض ما ألم ، فلعبت في النفوس صقلاً وتهذيباً .

وهذا شيء نرغب في الكثير منه لحماية الأنفس من الزلل . ولكنه إلى جانب ما كنا نرجوه من المتنبي قليل .

لقد نبت المتنبي حيث الكثرة من النـاس يعيشون لأنفسهم ، يثب الطامعون من الولاة والجند الى ما يطمعون فيه، فينالون في غير خوف ولا حذر . فعاش المتنبي لما عاشوا له ، ينتصر بلسانه ويبغيه سلاحه الى ما يريد ، ، فخانه الجد وفقد الكثير من السياسة .

هـذا هو المتنبي الطامع ، وما عليه اذا كان غير شاعر ، أو قل اذا كان شاعراً لغير رسالة .

أما رسالته فنا نحن الى تبيينها وتحديدها، ولكننا جهدنا أن نرى من شعره شيئاً يلتفت فيه الى ما حوله مما لا يعنيه، ولكن يعني الأمة التي هو منها، فلم نجده.

وفي بعض ما هجا به كافوراً شيء من هذا الرأي، لو أنه صدر عنه لغير ترة وثأر، ثم في بعض حكمه شيء آخر ولكنه كان يريد نفسه. ولو أنه لم يضق بما ناله. ترى أكان يضيق بما نال الناس فيقول؟

نريد أن يحمي الشاعر نفسه عن التبذل، ونريد أن تكون البيئة التي يعيش فيها الشاعر هي أفقه، يعنيه أمرها، إن خيراً وإن شراً، فيلتفت إليها جاهداً فيما ينهض بها، ونريده بعد ذلك شجاعاً جريئاً لا يهاب شيئاً.

أبو العلاء المعري

وُلد أبو العلاء أحمد بن عبد الله بمعرّة النعمان — من أعمال حلب — سنة ٣٦٣ هـ

وكُفّ بصره عن علّة ، لم تكن غير الجدري ، سنة ٣٦٧ هـ

وكانت له الى بغداد رحلة سنة ٣٩٨ هـ ، ومنها عودة ، وما جاوز مكثه فيها سنة وسبعة أشهر .

ثم لزم المعرّة لم يبرحها ، وضمه منزله الى أن خرج منه محمولاً الى رمسه سنة ٤٤٩ هـ

وكان للرجل رأي في الحياة تعرفه . فقد عاش نباتيّـا زاهداً قانعاً باليسير عمراً يقدره من أدركه بخمس وأربعين سنة .

وتضطرب الرواية عن دين أبي العلاء ، فهو شاكٌّ أو ملحد هنا ، مؤمن نقي السريرة هناك .

هـذا ما نريده لك الآن عنه . أما عصره فما هدأت اضطراباته . وقد عرفت حلب الحمدانيين والفاطميين والروم ، وداست جيوشهم أرضها ، غازية مغزوة . ما ذاقت حلب وما حواليها خلال ذلك طمأنينة ولا دعة .

وإليك تلك الكلمة ننقلها عن ابن العديم مثلاً مما كان . قال : « سنة ثمان عشرة وأربعمائة . فيها وصل الأمير أسد الدولة صالح بن مرداس الى حلب . وأمر باعتقال مشايخ المعرّة وأماثلها . فاعتقل سبعون رجلاً في محبس الحصن سبعين يوماً . وذلك بعد عيد الفطر بأيام . وكان أسد الدولة غير مؤثر لذلك . وإنما غلب تادرس على رأيه ، وكان يوهمه أنه يقيم عليهم الهيبة . ولقد بلغنا أنه خاطبه في ذلك ، فقال له : أقتُل المهذب وأبا المجد — يعني أخا أبي العلاء — بسبب ماخور ؟ ما أفعل !

وقد بلغني أنه دُعي لهم في آمد وميافارقين ، وقطع عليهم ألف دينار ، واستدعى

الشيخ أبا العلاء . فلما حصل عنده في المجلس ، قال له الشيخ أبو العلاء : مولانا السيد الأجل أسد الدولة كالسيف القاطع ... فقال صالح : قد وهبتهم لك أيها الشيخ . ثمّ قال أبو العلاء بعد ذلك :

تغيبت في منزلي برهة ستير العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمر إلاَّ الأقل وحُمَّ لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعاً الى صالح وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام وأسمع منه زئير الأسد

*

وإذا ذكرنا أبا العلاء الشاعر ذكرنا له ديوانيه : سقط الزند ، واللزوم ، كان أولهما لشبابه ، والثاني لما بعد ذلك .

وكما كان أولهما أيضاً وصلة بينه وبين الناس ، مدح فيه ورثى وشكر . [كان ثانيهما لشيء أسمى من ذلك وأجل . فجعله وصلته الى نفسه ، فتحدث اليها وتحدثت اليه . وهكذا جاءت اللزوميات غير السقط .

وقد تحدث الينا أبو العلاء في مقدمة السقط فذكر أنه لم يكن من طلاب الرفد والصلة . وفي الحق إنه لم يمدح فيه الاَّ القليل من الناس صدْرَ عمره ، قبل أن يعتزلهم الى محبسه ، كما أنه لم يمدحهم لعطاء ولا نائل ، وما قبل هدية ولا صلة من شريف ولا وضيع .

ويكاد يصف لك أبو العلاء نفسه في هذه الكلمات : « وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب ، ولا أتكثر بلقاء الرجال . ثم يقول : « ويحسن الله جزاء البغداديين ، فقد وصفوني بما لا أستحق ، وشهدوا لي بالفضيلة على غير علم ، وعرضوا عليَّ أموالهم عرض الجد ، فصادفوني غير جذل بالصفات ، ولا هش الى معروف الأقوام » .

وشيء آخر ، فان الوزير الفلاحي كتب الى عزيز الدولة أبي شجاع فاتك ، متولي حلب وأعمالها ، بحمل أبي العلاء الى مصر ، ليبني له دار علم . وسمح بخراج معرة النعمان له في حياته وبعده .

ونهض عزيز الدولة الى معرة النعمان واجتمع بأبي العلاء ، وقرأ عليه كتاب الوزير .

فاستمهله أبو العلاء . ثم كتب الى الوزير يستعفيه من ذلك . فأعفاه . وكان مما قاله :

كأنما غانةٌ لي من غِنىً فعدٌ عن معدن أسوان
مرتُ برغمي عن زمان الصبا يعجلني وقتي وأكواني

وأخيراً فهذا قوله :

لا أطلب السيب من الناس بل أطلبه من خالق السيب
ويشهد الأول أني امرؤ لي جسد يفرق في عيبي
تضرب أضراسي وظني بها التعطيس بالكدس في جيبي
ويليَ مما أنا فيه وجل الأمر عن ويح وعن ويب

وحسبنا في غنى عن أن نضع تحت بصرك مثلاً من شعره ، مما قال هنا أو هناك . فقد عاش أبو العلاء لغير ما عاش جل الشعراء له ، وما جرى لما جروا له . وفرغ لنفسه ثم لرأيه في الحياة يصوغه شعراً .

فقد حمل أبو العلاء نفساً كبيرة ، ما الى ذلك شك . وصان قوله عن أن يُشترى ولسانه عن أن يؤجره ، وما الى ذلك شك أيضاً .

وقد نشدنا مثل ذلك فيمن حدثناك عنهم ، فلم نجدهم أبلوا بلاءه ، ولا عدوا عَدْوه .

وإذاً فقد أخذ أبو العلاء نفسه بما يأخذ به أصحاب الرسالات ، وسلك مسلكهم ، ولكن أي رسالة حمل وأدّى ؟

ذلك ما نحب أن نحدثك فيه .

نحن إذ ننشد الشاعر ذا رسالة ، لا نلزمه وجهة ولا قصداً . ولكنا نلزمه البعد عما يحيا له الطامعون في جاهٍ ونشب ، ثم نلزمه ألاّ يسلك بنفسه مسالك الزلل فيعيش مأجوراً، ونلزمه أن يقول قوله للحق الذي يدين به لا لما يريده الناس عليه ، ونلزمه أن يرى المتربة في ظل إيمانه بنفسه خيراً من الغنى في ظل إيمانه بالناس .

ذلك أول ما نراه مع الشاعر ذي الرسالة ، أما بعد هذا فقد يرى هو أن من الحق عليه أن يؤدي رسالته في هذا السبيل ونراها نحن في غيره . ذلك شيء نؤمن أن الخلاف فيه بيننا وبين الناس واقع .

ولنلتفت عن هذا، حتى لا يطول بنا الأمر، الى أبي العلاء لنرى أي الرسالتين كانت أولى به. أتلك التي حملها، أم أخرى كانت له فصدف عنها ؟

أمّا التي حمل فهي آراؤه وما دعا إليه من رحمة بالحيوان، وزُهد في الحياة، وشيء آخر لم يُعرف عنه في وضوح. وأما التي لم يحمل فتهيئة النفوس، وإعداد الخواطر لنهضة اجتماعية يخرج منها قومه الى عزّة وأمن.

ولو سلمنا له بالأولى، وقلنا ذلك استعداد النفس وتلك طبيعتها، فلن ننسى له أنه فَقَد شيئاً من صفات « الشاعر ذي الرسالة » يكاد يكون خطيراً.

أتعرف لِمَ اضطرب الناس في أمره فلم يعرفوا رأيه في وضوح، وفات الناس أن يلقنوا عنه تعاليم ومبادىء ؟ ذلك لأن أبا العلاء لم يكن شجاعاً جريئاً. ولو أنه رزق هذه لكشف للناس عما يدين، ولمضى وقد بَيّن. ولكنه رضي لنفسه هذا، أو أن الخوف حبس لسانه عن أن يجري بما يدين. فقضى وما أتمّ ما حمل.

ولو رأينا أنه كان للثانية أولى. فأبو العلاء لم يحمل ما يجب له. وأنه أساء إلى من حوله إذ شغلهم عن الأهبة بما يكوّن الشعوب ويبني الأمم، بالحديث عن أشياء لم تُكشف فيعرف الرأي فيها، ولم تُترك فيراح الناس إلى غيره مما عنّاهم وأثقلهم، وكانوا في حاجة معه إلى مُبصّر يُبصّر وحادٍ من الشعراء يجمع الناس وراءه الى حيث الحرية والخلاص.

خاتمة

الأمور إلى ثلاث : رأس ولسان ويد .

فمع الرأس التدبير . ولا نجاح لتدبير إلاّ إذا رُزق لساناً مُفصحاً ، يمكّن له في الأذهان ، ويُعبّد له السبل إلى القلوب ، وعلى قدر ما تؤتى الألسنة من بيان تكون إصاخة المصيخين ، واستجابة المستجيبين .

وباليد تستحيل الفكرة حقيقة في حضارات مشيدة ، ونظم مُقامة ، وسياسات تكفل بسطة وسعة وأمناً ورفاهية .

فاذا سلمت هذه الثلاثة سلم كل شيء ، ومضت الأمور إلى خير .

وإذا اعتلّ الرأس وسلم اللسان بقي البُرء مرجوّاً والسلامة مأمولة . فالألسنة كما هي للأيدي محركة ، فهي للرأس مقومة ، بما تدل على مساءة في الرأي ، وتكشف عن عور في التدبير .

ففي سلامة اللسان السلامات كلها ، وفي علته العطب لجميعها . فهو ان اعتلّ مفسدة للتدبير يسيء الحديث عنه، فيعرفه الناس في غير صورته فلا يرضونه ، ويميل بالأيدي فيصرفها عن نصرته ويجمعها على حربه .

وإنما أردت باللسان القول في لونيه : شعره ونثره . فما أحقنا بتنشئة الألسنة تنشئة سليمة تضمن في كل ما يصدر عنها الخير والسلامة .

آن أن نعرف للقول شأنه ، وأن نستقصي السبل ونتحرّى المناحي في أن نهيء له ما نضمن به ما نريد .

نحن لا زلنا نعرف الأمور بمظاهرها العارضة . فنعرف المعلم في حسن تلقينه ،

والطبيب في يده الآسية ، وجرعته الشافية . ونعرف المهندس فيما يشيد فيجيد ، ونعرف الصانع فيما يبدع ، والزارع فيما ينتج . ونظن أن عند هذا تنتهي رسالاتهم .

وما درينا أن على المعلم أن يقتطع للتوجيه من وقته وجهده مثل ما يخص به التلقين، وأن على الطبيب إحياء الروح الصحية في النفوس ودعوة المسئولين في جهد لا يفتر الى إحقاق دعوته . وعلى المهندس أن يرى لأمته ما تظهر به ناهضة حية . وعلى الصانع والزارع أن يرى لهما من نتاج اليد ما يدعم ركناً ويسد نقصاً .

فأنت ترى أن الحياة ليست الى تلك الحركة الآلية تعتمد ، بل هناك هذا النوع الذي كشفنا عنه وسميناه رسالات .

أما عن رسالة الشاعر فقدقدمت في هذا الـكُـتَـيِّـب جمعاً من الشعراء ، عرضت لهم عرضاً سريعاً ، أردت فيه أن أقول رأياً في ضوء فكرتي عن الشعر . أما الفكرة فلا أظنني بمخالف عليها . وأما الرأي فهو ما رأيت وقد يرى غيري غيره . وأنا فيما أرى ويرى الناس متفقون على الفكرة في انه لكل شاعر رسالة ، مختلفون إن اختلفنا على الرسالة ولونها .

فاذا صحَّ هـذا فنحن الى عودة بنظرة الى دراسة الأدب جديرون ، فالأدب اليـوم يدرس نصوصاً ودراسات .

وأحب أن يُحمَّل درس النصوص جميع ما يتصل بالأسلوب والمعنى ، من قوة وضعف ، وإجادة وإسفاف . حتى اذا ما استقامت نصوص الشاعر أو الكاتب في الأذهان ووضحت للفكر . جاءت الدراسة فعرضت لبيئة الشاعر عرضاً مفصلاً . فكشفت عن نظام العصر . واتجاه الرأي فيه ، وقالت لنا عن مهام المصلحين وما عليهم . وعرّفتنا أثر الشاعر ونصيبه ومشاركته في ذلك .

نعم ، علينا أن نفعل ذلك لنخلق في الأدب جيلاً جديداً لا نقنع منه بالقول المعسول واللفظ الطيب ، بل نطلب منه بعد هذا الرسالة التي يينت شيئاً عنها . والرسالة لا تقوم إلا على شجاعة وثبات ودين . فنحن مطالبون هذا الجيل الذي نريد من الأدباء أن يكون هذا وغيره مما يتصل به جزءاً من رسالتهم

وأكاد أقول آسياً إن الأدب العربي بعُـد كثيراً عن هذا الغرض والتفت الى التنميق

جهده . وقد ذكرت سبب ذلك صدر هذا الكتيب . وقلت إن النقد هو الذي خلق الأدباء هذا الخلق .

ألا فليكن لنا نهج في النقد جديد لنظفر بلون من الأدب جديد نمكن فيه للأدب بأن يتبوأ مكانته ويحل محله .

وعند هذا أقف بعد اعتذاري عن أخطاء في الطبع ، وإجمال كنت أرجوه تفصيلاً ولكني اذا ذكرت أن الكُتَيِّب أكاد أكون أمليته على الطابع ،وأني لم أملك نسخة للإعداد وأخرى للمراجعة، رجوت الى القارىء أن يقبل مني العذر ويسأل له ولي التوفيق والسلامة .

الفهرست

جلال مظهر

أميرة بابل

ترجمة عن فولتير

١

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم
١٩٤٧

الفصل الاول

التنافس الملكي لنيل يد فورموزانتا

كان ملك بابل ، بيلوس العجوز ، يظن أنه أعظم إنسان على وجه البسيطة . ذلك ما قاله رجال حاشيته ، وما أثبته علماء التاريخ . ونحن نعلم أنّ قصره وحديقته مقامان على بعد فراسخ قليلة من بابل ، تمتد بين الفرات ودجلة اللذين يرويان تلك الشواطىء الساحرة . أما واجهة القصر فتبلغ ثلاثة آلاف قدم بيد أنها تكاد تنطح السحاب وكذلك أفريزه فقد سُوِّر بأعمدة من الرخام يبلغ ارتفاعها خمسين قدماً ، تقوم من فوقها تماثيل فخمة لكل الملوك وعظماء رجال الدولة ويتألف هذا الافريز من صفين من الآجر تغطيهما طبقة كثيفة من الرصاص تخترق الأرض بعمق اثنى عشر قدماً . وغرست الأرض فكانت حرجة عظيمة من أشجار الزيتون والبرتقال والليمون والنخيل والكاكاو والقرفة ومجموعة من شجر المنثور ، حجبت أشعة الشمس أن تنفذ الى مماشيها وممراتها .

تتدفق مياه الفرات وتنساب من مئات من الخلجان ترفع إليها المياه بمضخات ، محدثة في الحديقة مجار طولها ستة آلاف قدم فضلاً عن مئة ألف نافورة قلما يدرك ارتفاعها . ومن ثمت تعود كل تلك المياه الى الفرات . ولم تكن حدائق سميراميس التي بهرت آسيا من بعد ذلك بأجيال ، غير تقليد واهن لتلك الأعاجيب القديمة . ذلك بأنه في زمن سميراميس كان كل شيء قد بدأ يفسد بين الرجال والنساء .

أمّا أعجب ما كان في بابل وطغى على كل ما سواه ، فإبنة وحيدة للملك تدعى فورموزانتا كانت صورها وتماثيلها المثال الذي نحت براكسيتيلس على غراره في العصور التالية تمثالي أفروديت وزهرة مديتشي .

بالسماء ! أي بعد بين الأصل والتقليد .

وكان الملك بيلوس يفخر بابنته أكثر مما يفخر بملكه . كانت تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً وأصبح من الضروري أن يحظى بها زوج يستحقها . ولكن أين يوجد ؟

هناك نبوءة قديمة بأن فورمازانتا لن تكون إلاّ من نصيب من يستطيع أن يطوي قوس النمروذ . وأمّا النمروذ هذا ، فكان قناصاً ذا قوة وعنفوان ببركة الآلهة وقد خلّف قوساً

من الأبنوس صنع في « دربنت » طوله سبعة عشر قدماً بابلونيّـا . كان أشد صلابة من حديد القوقاز، ولم يستطع كائن بشري أن يثني هذا القوس العجيب من بعده .

وقيل أيضاً بأن الساعد الذي يستطيع أن يثني هـذا القوس قد يقتل أسداً ضارياً مخيفاً ينطلق عليـه في ملاعب بابل . ولم يكن هذا كل شيء ، فإنّ ثاني القوس وقاهر الأسد، لا بدّ متغلب على كل منافسـيه ، بله أنه يكون حكيماً ، مبصراً ، متوقد الذهن ، فاضلاً، يثير دهشة كبيرة في أنحاء الـكون .

لم يتقدم غير ثلاثة ملوك كان لديهم من الشجاعة ما كفى لأن يدعي كل منهم أنه كفء لفورموزانتا : فرعون مصر ، وشـاه الهنـد ، وخان الاسقوثيين الأكبر . فحدد الملك بيلوس يوم المنازلة ومكانهـا في أحد أطراف الحديقة حيث الاتساع العظيم الذي تكتنفه مياه دجلة والفرات عند تلاقيهما . وأعدّ حول الدرج مسرح من الأبنوس مستدير الشكل يتسع لخمسة آلاف مشاهد ، ووضع عرش الملك في واجهة المسرح بحيث يظهر ومعـه فورموزانتا يحف بهما جميع رجال البلاط . وذات اليمين وذات الشمال ، بين العرش والمسرح ، أقيمت عروش أخرى ومقاعد للملوك الثلاثة ، ولـكل الملوك الآخرين الذين رغبوا في شهود تلك الحفلة الفخيمة .

كان فرعون مصر أول من وصل ممتطياً عجل أبيس وفي يده قيثـارة إيزيس ، ومن ورائه ألفا كاهن مدثرون بلباس من الـكتان الأبيض أنصع من الجليد ، ثم ألفا خصي فألفا ساحر ، فألفا محارب .

وسرعان ما وصل ملك الهند في عربة يجرها إثنى عشر فيلاً ، ومن ورائه حاشية أكبر عدداً وأبهى منظراً من حاشية فرعون مصر .

وكان ملك الاسقوثيين آخر من وصل منهم ، وقد امتطى نمراً أليفاً مهيباً يطاول بقامته أي فرس فارسي أصيل . ولم يكن له من شيء اللهمّ إلاّ فرسانه المختارين ، وقد طمست هيبته وجلالته على مظهر منافسـيه ، وظهر ذراعاه البيضاوان العاريتان في قوّة وصلابة ، وكأنهما قادرتين على أن تحنيا قوس النمروذ .

تقدّم ثلاثتهم وانحنوا في جلال أمام الملك وإبنته فرموزانتا .

أهدى ملك مصر الأميرة تمساحين من أرهق تماسيح النيـل ، وبفروسين ، وحمارين وحشيين وفأرين مصريين وجثتين محنطتين وكتاب هرميس العظيم، معلناً بأن تلك الأشياء أندر ما في العالم .

أما ملك الهند فقدّم إليها مئة فيـل يحمل كل منهم قلعة من الذهب مطلوّة بالذهب

الماس ، ووضع عند قدميها كتاب الثيدا منسوخاً بيد إكماكا نفسه .

وكان ملك اسقوثيا أمياً ، فاكتفى بأن يهديها مئة من جياد الحرب الأصيلة ، أضفى على كل منها كسوة جميلة من فراء الثعالب السود .

واقد بدت الاميرة أمام محبيها مغضية من نظرها، واستلقت مسترخية في مقعدها بدلال، اعتبر في ذلك الزمن منتهى التواضع والأدب .

أمر الملك بيلوس الملوك أن يجلسوا في العروش التي أعدت لهم، ثم قال لو كان لي ثلاث بنات لجعلت ستة من الأنفس سعداء في هذا اليوم . ثم أمر المتنافسين أن يضربوا قرعة فيما بينهم ، أيهم يكون أول من يحاول أن يلوي قوس النمروذ . فوضعوا أسماءهم المنقوشة في خوذة من الذهب ، فظهر اسم ملك مصر أولاً ، ثم من بعده إسم ملك الهند ، فلما رأى ملك اسقوثيا القوس ومنافسيه ، لم يبد شيئاً من الأسف أنه ثالثهم .

وفي خلال ذلك قدم عشرون الفاً من الخدم ومثلهم من الوصيفات الجميلات . وخالطوا بغير نظام صفوف المشاهدين يوزعون الحلوى والمرطبات . وقد ثبت في روع جميع الناس بأن الآلهة لم تنصب أولئك الملوك الاهم إلا لاقامة الولائم والحفلات في كل يوم على أن تكون مختلفة المناظر منوعة الاساليب ، وأن الحياة أقصر من أن تنصرف الى غرض آخر ، وأن المنازعات القضائيـة والدسائس والحروب ومشاحنات اللاهوتيين التي تستغرق حيـاة الانسان ، إنما هي أشياء ممقوتة غير معقولة ، وأن الانسان قد خلق للذة والسعادة ، وانه إذا لم يكن قد خلق لهذا ولم يصور على هذه الحقيقة، لما مضى يبحث عن اللذائذ بشهوة غير منقطعة، وأن جوهر الحيـاة الانسانية ان ننصرف الى ملذاتنا وأن كل ما عدا ذلك غباء وجهل أمّـا هذه الفضيلة الرقيقة فلم تجادل فيها حقيقة من الحقائق .

وإذ كانوا يعدون الأسباب التي توجه مصير فورموزانتا ، ظهر في طرف الحلقة شاب أجنبي يمتطي خرتيتاً ومعه وصيفه يمتطي خرتيتاً آخر وعلى يده يجثم طائر كبير . وقد داخلت الدهشة قلوب الحراس إذ آنسوا في هذا الزائر شخصاً تنبعث منه ريح القدسية . فقـد كان له وجه أدونيس على جسم هيرقل . فاجباه السوداوان وجدائله الجميلة كان ينبعث منها جمال لا عهد لبابل به ، حتى لقد أثار اعجاب الحضور ، فهبّ المسرح بأكمله لمشاهدة ذلك الزائر الأجنبي ونظر اليه نساء البلاط بأجمعهن نظرات كلها دهشة واعجاب، حتى ان فورموزانتا التي ظلت حتى ذلك الوقت مغضية من نظرها ، رفعت عينيهـا وعلت وجهها حمرة الخجل ، وبهت الملوك الثلاثة وعلا وجوههم الاصفرار . ولما قرن الحضور هذا الأجنبي بفورموزانتا صاحوا قائلين . « ما من شاب آخر في العالم قد بلغ جماله مبلغ جمال الاميرة » .

سأله الحجاب مأخوذين بالعجب عما اذا كان ملكاً ؟ فردَّ بأنه لم ينل ذلك الشرف وانه من بلد أجنبي حضر مدفوعاً بالفضول ليرى هل هناك ملك هو كفء لفورموزانتا. ثم توجه لحيا بيلوس وابنته والملوك الثلاثة ثم الحضور وذلك بكل احترام وتبجيل . واقتيد الى الصف الاول من المسرح فاستقر في مقعده يعلوه شيء من حمرة الخجل ، ورقد الخرتيتان عند قدميه وجثم الطائر فوق كتفه وجلس وصيفه الى جواره ومعه حقيبة صغيرة .

بدأت المنافسة وأخرج قوس النمروذ من جرابه الذهبي ، وتقدم مشرف الاحتفالات العام ومن أمامه عشرين يقرعون الدفوف ، ومن خلفه خمسين وصيفاً وسلم القوس لفرعون مصر . فأمر كهنته ان يباركوه ثم سنده على رأس عجل آبيس من غير أن يشك في أنه سيحظى بأول نصر . فنزل الى ساحة الميدان ثم حاول مستجمعاً كل قواه ومضى يتلوى محدثاً حركات كانت سبباً في إثارة الضحك من الجميع ، وشاركتهم في ذلك فورموزانتا ، فإنها لم تقو على حجب ابتسامة ارتسمت على ثغرها .

وإذ ذاك تقدم نحوه رئيس حجابه قائلاً . « دع جلالتك هذا الشرف الخسيس الذي قوامه قوة الأعصاب والعضلات ، فانك سوف تنتصر في كل شيء ما عدا هذا ، فسوف تقهر الأسد حيث أنك تملك بركة إيزيس . إن أميرة بابل سوف تكون لمن هو أحكم المتنازعين وأنت تحل الطلاسم . انها ستتزوج أفضلهم ، وأنت كذلك . فقد تعلمت على أيدي كهنة مصريين ، وأكرمكم سيصبح زوجها . وقد أهديتها أرهق تماسيح وأجمل فأرين من فئران الدلتا . وتملك كذلك عجل أبيس وكتب هرميس، أندر أشياء في الوجود . فلا أمل لأحد في أن ينازعك فورموزانتا .

فقال ملك مصر « أنت على حق » ثم عاد الى عرشه .

أعطي القوس بعد ذلك الى ملك الهند الذي ظلت يداه مخمشتان من أثر الجهد أربعة عشر يوماً، ولكنه تعزّى عن ذلك بأن ملك إسقوثيا سوف لا يكون أسعد منه حظاً .

ثم أخذ ملك الاسقوثيين القوس بدوره ، وقرن القوة بالمهارة ، فظهر أن القوس بدأ يلتوي بين يديه ، فلواه قليلاً ولكنه عجز أن يحنيه وقد أعجب المشاهدون بطلعته، فالوا إليه وودوا لو أنه ينتصر ولكنهم حزنوا لاخفاقه ، إذ قام في روعهم أن الأميرة الفاتنة سوف لا تتزوج .

نزل الى الميدان ذلك الشاب المجهول وقدم نفسه الى ملك اسقوثيا قائلاً « لا ينبغي أن تندهش جلالتك لعدم تمام نجاحك ، فان هذه الأقواس الابنوسية تصنع في بلادي ولها طريقة خاصة تستعمل بها ، ولهذا تكون قدرتك على ثنيه قليلاً أعظم من قدرتي لو أني

قوسَّنه تماماً. ثم أخذ سهماً وثبته في الوتر، وطوى قوس النمروذ ورمى بالسهم خلف الأبواب صفقت ملايين الأيدي للأعجوبة، ودوت بابل بهتاف الاستحسان، وأجمع النساء على أنه حظ سعيد أن يجمع شاب بين جمال الصورة وقوة البدن، ومن ثمت أخرج من جيبه قرصاً صغيراً من العاج وكتب فيه بقلم من الذهب وثبته في القوس وقدمه الى الاميرة بكثير من الكياسة أخذت بلب الحاضرين، ثم عاد الى مكانه بين وصيفه وطائره. ولقد ذهلت بابل والملوك الثلاثة، في حين لم يظهر على الشاب الاجنبي أي علامة من علامات الاهتمام لما قد حدث.

زادت دهشة فورموزنتا عند ما قرأت على القرص العاجي المثبت في القوس هذه الأسطر المكتوبة بالكلدانية الفصحى:

« إن قوس النمروذ هذا، هو قوس الحرب، أما قوس الحب فقوس السعادة، فأيهما تملكين؟ بفضلك أصبح هذا الاله القاهر سيد الأرض. ان ثلاثة ملوك أقوياء، بل ثلاثة متنافسين يقدم كل منهم متطلعاً لارضائك، ولست أدري أيهم يفضله قلبك؟ ولكني أعلم أن من تفضلين سيغار منه الكون »

لم تر الأميرة أي شيء من الغضاضة في تلك القصيدة الغزلية، ولكنها كانت موضع النقد من بعض رجال البلاط القدماء، والذين قالوا بأنه لو وجد بيلوس وفورموزانتا في الأعصر القديمة لشبه هو بالشمس ورقبته بالبرج، وشبهت هي بالقمر وصدرها بكيل كامل من القمح. وزادوا الى ذلك بأن الأجنبي فاقد التصور وأنه قد خرج على قواعد الشعر الجيد. ولكن السيدات حكمن بأن القصيدة في منتهى الفراهة، وعجبن من رجل يجمع بين استخدام القوس بهذا العنفوان وذلك القدر البالغ من الحصافة.

وقالت وصيفة شرف الأميرة: « سيدتي، أي قدر من الذكاء والفطنة قد بددت في هذا المكان. وما الفائدة التي سوف يجنيها هذا الشاب من ذكائه ومهارته في معالجة قوس النمروذ.

أجابت فرموزانتا « ليثير بنفسه الاعجاب ».

صاحت الوصيفة « آه. قصيدة غزلية أخرى، ثم يصبح محبوباً ».

وبعد أن استشار الملك بيلوس عقلاء مملكته، أعلن بأن هؤلاء الملوك الثلاثة ولو أنهم أخفقوا في معالجة قوس النمروذ، فإن ابنته برغم ذلك لا بدّ من أن تتزوج، وإنها سوف تكون من نصيب ذاك الذي يقهر الأسد العظيم الذي كان قد أعدّه خصيصاً لذلك واحتفظ به في حريته.

رأى ملك مصر الذي بذل في سبيل تعليمه كل ما استكنّ في مصر من الحكمة أنه

من المضحك أن يعرّض ملكاً نفسه لشراسة وحش في سبيل أن يتزوج ، وذلك برغم أنه يعتقد أن لنيل فرموزانتا قيمة لا تقدر . على أنه كان يعتقد أن الأسد لو أنشب فيه أنيابه ، فانه لن يستطيع أن يتزوّج هذه البابلية الحسناء . وبرأيه أخذ ملك الهند وانتهى أمرهما بأن ملك بابل يتخذهما هزواً وأنه أصبح واجباً عليهما أن يستدعيا الجند لتأديبه ، لاسيما وأن لديهم من الأتباع من يعتقدون أنه من الشرف الأكبر أن يموتوا في سبيل أسيادهم ، وذلك من غير أن تسقط شعرة واحدة من رأسيهما المقدستين . وبعد ذلك يكون من الهين عليهما أن يخلعا ملك بابل عن عرشه ثم يضربا قرعة : أيهما ينال فورموزانتا الفاتنة .

وبعد أن عقدا ذلك الاتفاق أرسل كل منهما رسولاً الى قومه في طلب ثلاثمئة ألف مقاتل حتى يستطيعا نيل فورموزانتا .

ومع هذا ، نزل ملك إسقوثيا بمفرده إلى الميدان ، يحمل سيفه ، ولم يكن في الحقيقة مدفوعاً بحب فورموزانتا وإنما كان حب العظمة والمجد اللذان دفعاه على القدوم الى بابل . وقد كان مصمماً على أن يظهر أنه إذا كان كل من فرعون مصر وخان الهند شديدي التبصر حتى أنهما لا ينازلان الأسود ، فان عنده من الشجاعة ما يحمله على ألا يرفض النزال ، وأنه سوف يصلح ما خدش من شرف ديادمس . وقد أبت عليه شجاعته الخارقة أن يقبل استمداد العون من غيره ، فتقدم بمفرده محصناً بخوذة مموهة بالذهب ، ومظللة بذيول ثلاثة جياد ناصعة البياض كالجليد .

أطلق عليه أسد من أضخم وأشرس الأسود التي تعيش في جبال الانتيلبانية ، ولاح للحضور أن مخالبه المخوفة قادرة على تمزيق الملوك الثلاثة إرباً في لحظة وان بلعومه يكفي لازدرادهم جملة . اندفع البطلان الفخوران في عجلة التهور وسورة الغضب كل منهما في اتجاه الآخر . فأنشب الأسقوثي الشجاع سيفه في فم الأسد المغرور فارتطم حد السيف باحدى أسنان الأسد القوية السميكة التي لا يخترقها من شيء ، فكسر . وكاد سيد الغاب ، وقد هاجه جرحه وصيره أكثر شراسة وضراوة ، أن ينشب مخالبه في جنبي الملك .

كانت الكارثة التي حلت بالملك الشجاع سبباً دعى الشاب الأجنبي أن ينزل الى ساحة القتال في سرعة البرق الخاطف ويحز رأس الأسد في مهارة فائقة أشبه بالمهارة التي رأيناها في فرساننا ، وهم يحزون رؤوس الدمى السود في المناورات الحربية .

ثم أخرج صندوقاً وقدمه الى ملك إسقوثيا قائلاً : ستجد جلالتك في هذا الصندوق نباتاً من حقيقة النجل الأصيلة التي تنمو في بلادي وهي تلئم جروحك الملكية في لحظة . ان المصادفة فقط هي التي حالت انتصارك على الأسد ، فبسالتك وجرأتك ليستا مما لا نقدّر الدهر

إستقوى على الملك شعور الاعتراف بالجميل أكثر مما إستقوى عليه شعور الحقد، نعانق منقذه بعطف وحنان، وشكره ثم عاد الى مقعده ليضع النحل على جراحه .

أمر الاجنبي وصيفه أن ينزل رأس الاسد من نافورة عند أسفل الدرج ، فلما زالت آثار الدماء ، أخرج من جيبه آلة حديدية صغيرة وأفرغ مكان الاسنان الاربعين ووضع مكانها أربعين جوهرة متساوية الحجوم . ثم عاد السيد الى مكانه بتواضعه المعروف وأعطى رأس الاسد الى الطائر الجميل وقال: احمل هذه الهدية الصغيرة وضعها عند قدمي فورموزانتا.

جنح الطائر في طريقه وهو يحمل ثمرة النصر المرعب في إحدى مخلبيه وقدمه الى الاميرة، ثم أحنى رقبته في تواضع ظاهر وربض بين قدميها . بهرت الجواهر أعين الذين شاهدوها ، فلما كان غير معروف حتى في بابل العظيمة ، فالزمرد ، والياقوت الاصفر والازرق ، والاحجار الجرانيتية الياقوتية اللون كانت لا تزال حتى ذلك الوقت أعظم ما يتزين به . ولقد داخل بيلوس ورجال بلاطه دهشة عظيمة ، كما أثار الطائر الذي قدم الهدية في نفوسهم دهشة أعظم . فقد كان في حجم النسر، ولكن لم تكن عيناه كعيني النسر مخيفة جبارة ، بل كانت ناعمة حنوناً ، وكان منقاره وردي اللون يشبه بعض الشيء فم فورموزنتا ، وتماوج في رقبته ألوان قوس قزح، ولكن ببهاء أعظم وروعة أكبر . وقد غشي ريشه لون الذهب متدرجاً في الف من الظلال المتباينة ، وكأن قدميه كانتا خليط من الفضة والارجوان . وأما ذيول تلك الطيور التي كانت في يوم ما تجر عربة يونوس، فلم يكن جمالها ليقرن بجمال ذيل ذلك الطائر الفريد الذي يعز نظيره

استأثر الطائر والجواهر بما انبعث في قلوب أهل الحاشية من الاستحسان والدهشة والفضول . جثم الطائر على أحد الاعمدة بين الملك والاميرة ، فربتت الاميرة عليه وأمرت يدها على ريشه ثم قبلته ، فقابل رعايتها بمزيج من السرور والاحترام الظاهر ، فلما ضمته رد تحيتها ناظراً اليها بعينين تفيضان حباً وحناناً ، فأعطته بسكويتاً وفستقاً فتلقاها بمخلبيه الفضيين وحملها الى منقاره بدلال يعجز عنه الوصف .

وبعد أن اختبر بيلوس الجواهر بانتباه وفطنة،انتهى الى انه ما من أحد قدم لابنته مثل تلك الهدية الفاخرة ، وانه يجب أن تعد هدايا أعظم وأنفر لذلك الشاب الاجنبي،من تلك التي أعدت لثلاثة الملوك الآخرين وقال « ليس من شك في أن هذا الشاب الصغير ابن ملك الصين أو ابن ملك تلك الرقعة من الارض التي سمعت عنها وتسمى أوروبا ، أو أفريقية ، تلك التي يقال انها بالقرب من المملكة المصرية » .

ومرطان ما أرسل رئيس خدمه ليتحسس ذلك الأجنبي : أهو امبراطور أم ابن أحد من ذوي الامبراطوريات السالفة . وكيف لا وهو يملك ذلك الكنز المدهش وقدحضر وحده بخادم وحقيبة !

وبينما رئيس الخدم يتجه نحو الدرج إذا بوصيف آخر يصل ممتطياً خرتيتاً ميمماً نحو الأجنبي ويقول إن والدك « أورمار » قد اقترب من نهاية الحياة ولقد حضرت لأنبئك بذلك .

رفع الفتى عينيه إلى السماء فانحدرت منهما دموع فياضة وقال « لنرحل » .

وبعد أن قدم رئيس الخدم التحية لقاهر الأسد ومهدي الاربعين جوهرة وصاحب الطائر الجميل ، سأل وصيفه . « من أي مملكة والد هذا البطل الملكي؟ » .

فقال الوصيف « إنّ والده راعي غنم كبير السن محبوب من كل مواطنيه » .

وفي أثناء الحديث قال الفتى لرسول الملك وقد ركب الخرتيت :

« سيدي : تعطف واجعلني أسجد عند قدمي الملك بيلوس وابنته ، إذ يجب أن أضرع إليها عساها تضفي على ذلك الطائر عناية خاصة ، ذلك بأنه كالأميرة نادر الوجود» . ولما انتهى من كلامه اندفع بخرتيته كالبرق الخاطف يتبعه وصيفاه واختفوا عن الأنظار في لحظة .

لم تتمكن فورموزانتا أن تمنعه من بكائها ، وظهر على الطائر تأثر بالغ عند ما أدار نظره بوله الى حيث كان يجلس صيده وبدا على نظراته حنوّ بالغ كأنما هو قد صمم على تكريس حياته لخدمة الأميرة،عند ما أنسها تربت في عطف بيدها الجميلة على منقاره .

على أنّ أعظم ما أثار دهشة الملك بيلوس،علمه بأن هذا الشاب الخارق ابن راعٍ . فلم يصدق ما سمع وأرسل من خلفه رسلاً سرعان ما عادوا ليخبروه بأن الخراتيت الثلاثة التي ركبها أولئك الفتيان يعسر اللحاق بها . ذلك بأن سرعتهم كان يجب أن تصل الى مئة ميل في اليوم الواحد .

أخذ كلٌّ يفكر في تلك المخاطرة العجيبة ، وراحوا يحدسون ويضربون في الظنون . أيمكن لابن راع أن يهدي أربعين جوهرة كبيرة ؟ وكيف تأتى له أن يركب الخرتيت ؟ إنّ ذلك قد ملأهم دهشاً وعجباً ، في حين أن فورموزانتا وقد أخذت تدلل طائرها ، غمرها شعور عظيم بالخشية والاعجاب .

الفصل الثاني

كان لفورموزانتا إبنة عم تدعى الديا ، لا تقل عنها جمالاً وفتنة ، فكانت وسيمة الطلعة بهية المحيا ، وقد قالت لها ذات يوم :

« يا إبنة العم ، إني لا أبالي أن يكون نصف الإله هذا ابن راعٍ أو سواه ، ولكني أظنه قد أتمّ كل الشروط المفروضة لزواجك . لوى قوس النمروذ ، وقهر الأسد . ثمّ ان له نصيباً كبيراً من الذكاء والفطنة ، فقد ارتجل لك قصيدة غزلية رائعة ، كما أظن أنك لاتنكرين أنه أكثر الرجال كرماً بعد أن أهداك أربعين جوهرة كبيرة ، وله الطائر الذي هو أكثر الأشياء غرابة على وجه الأرض . وأن فضيلته لا يمكن أن تدانيها فضيلة ، مذ رحل توّاً حال علمه بمرض أبيه ، بالرغم من أنه كان يجب أن يبقى ليمتع نفسه بصحبتك . وقد تحققت النبوءة في كل تفاصيلها ما عدا الوقت الذي ينتصر فيه على منافسيه . غير أنه فعل أكثر من هذا اذ أنقذ حياة منافسه الوحيد الذي يخشاه . في حين أنه عندما يكون التنافس موجهاً الى الاستعلاء على الاثنين الآخرين ، اعتقد أنك لاتشكين في أنه سينتصر عليهما بسهولة » .

فقالت فورموزانتا « إن كل ما تقولين هو حق ، ولكن أمن الممكن أن يكون أعظم الرجال وربما أحبهم جميعاً ابن راعٍ ؟ »

قالت وصيفة الشرف التي شاركتهما الحديث بأن لقب الراعي كثيراً ما يخلع على الملوك فيدعون رعاة ، لأنهم يتصلون برعاياهم اتصالاً وثيقاً ، وأنّ تلك الكلمة صدرت بغير شك من الوصيف عن طريق المزاح المبغوض . فإن هـذا البطل الشاب لم يتهيأ بكامل عدته عند حضوره الا ليظهر أن حذقه الشخصي وحده أعظم وأفخر من استعراضات الملوك الفخمة .

فلم تبد الأميرة بعد ذلك أي رأي ، بل عمدت الى الطائر في حنان تقبّله آلاف القبل .

وأعدّت مع ذلك وليمة عظيمة للملوك الثلاثة ولباقي الأمراء الذين حضروا تلك الحفلة ، وكانت الأميرة وإبنة عمها تحييان ضيوفهما ، ووزع الملك من الهدايا الفخمة ما يناسب عظمة بابل . وبينما كانت الموائد تعد للحضور ، جمع بيلوس مجلس استشارته للتباحث في أمر زواج

فورموزانتا الجرائة . ومضى يعبر للمجلس عن رأيه متخذاً سمة سياسي من كبار السياسيين، فقال :

« تقدمت بي السنون ، ولست أعرف الآن الطريق الأفضل لاتباعه إزاء ابنتي ، أولئن من العرسان أقدمها ، فمن يستحقها ليس إلا راعياً حقيراً ، وملكا مصر والهند بهما جبن ، وأفضل الثلاثة عندي هو ملك الأسقوثيين، إلا أنه لم يتم أي شرط من الشروط اللازمة، وسوف نستشير النبوءة مرة ثانية ، وأتباحث معكم في نفس الوقت ، وسننتهي بعظيم السرور الى ما ترشدنا إليه النبوءة . ذلك لأن الملك لا يجب أن يتبع شيئاً غير ما تمليه الآلهة الخالدة.

وتوجه إلى المعبد فأجابته النبوءة في كلمات قليلة كالعادة « ان ابنتك سوف لا تتزوج إلا بعد أن تطوف كرة الأرض » ، فعاد بيلوس وقد تملكته الدهشة وردد هذه الكلمات على مسمع من مجلس استشارته .

على أن احترام النبوءات العظيم الذي كان متغلغلاً في نفوس الوزراء ، جعلهم يوافقون بالاجماع ، أو على الأقل تظاهروا بالموافقة ، لا لسبب الا لهم إلا أنهم أساس الدين وعماده، وان العقل يجب أن يلغى أمام إرادتهم ، فمن طريقهم سلط الملوك على شعوبهم . وبغير النبوءات لا يبقى من فضيلة أو راحة في الأرض .

وفي النهاية وبعد تأدية أعظم مظاهر الاحترام لهم ، انتهوا الى أن هذه النبوءة مغيبة ولا ينبغي ان تطاع ، فليس هناك من حماقة أشد من أن تهيم الى مكان مجهول، إمرأة صغيرة وعلى الأخص ابنة ملك بابل العظيم ، وان هذه هي الوسيلة المحققة لمنعها من الزواج ، وإلا أنشأت لنفسها علاقات خفية مخجلة . وعلى الجملة فإن هذه النبوءة معدومة النهى .

قال أصغر الوزراء سناً، ويدعى أوناداس ، فقد كان أحسن تفكيراً من الآخرين ، بأن النبوءة بغير شك لا تقصد إلا هجرة دينية ، وتطوع ان يكون رائد الأميرة . فوافق المجلس على فكرته ولكنهم رغبوا جميعاً في أن يكونوا رفقاءها . وبعد ذلك صمم الملك على أن ترحل الأميرة في الطريق المؤدي الى بلاد العرب ، ثلاثمئة فرسخ ، حتى تنتهي الى المعبد الذي اشتهر قديمه بتهيئة الفتيات الصغيرات للزواج السعيد ، يرافقها في الرحلة رئيس المجلس . وبعد ذلك قاموا لتناول العشاء .

الفصل الثالث

حفل ملكي لتكريم الضيوف الملكيين

وتكلم الطائر بفصاحة مع فورموزانتا

في وسط الحدائق وبين خليجين من خلجانها ، أقيم بهو إهليلجي الشكل قطره ثلاثمئة قدم ولون سقفه أزرق لازوردي ، رصع بنجوم من الذهب ، وضعت بحيث تمثل كل الصور السماوية والسيارات وكل منها في مكانه الصحيح . وكان هذا السقف يدور دورة القبة السماوية بآلات بلغت من الخفاء مبلغ تلك القوة التي تدير القبة السماوية . ويضيء الحديقة وبهو الطعام مئة الف شعلة في داخل اسطوانات من البلور الفاخر . وأقيم مقصف مدرج فيه عشرين ألف آنية خزفية وصحن ذهبي . وفي مواجهته وعلى درج آخر ، جلس عدد كبير من الموسيقاريين ، كما أعدّ درجان آخران يبدّانه زينة وفخامة ، أحدهما مليء بفواكه الفصول الأربعة ، والآخر حوى مشارب بلّورية تتلألأ فيها أنواع الخمر المنتقاة .

أخذ الضيوف أماكنهم حول مناضد قسمت الى حنيات مناسبة رصعت بالأحجار الكريمة فكانت تشبه الثمار أو الزهور . وجلست فورموزانتا الفاتنة بين ملكي مصر والهند ، كما جلست ألديا الوديعة إلى جانب ملك اسقوثيا وجلس حوالي ثلاثون أميراً الى جانب كل منهم فتاة من أجمل فتيات المملكة . واتخذ ملك بابل مكانه في الوسط مواجهاً ابنته وقد ساوره خيالان ، حزنه لعدم تمكنه تزويجها ، والآخر سروره لأنها ما زالت معه . وقد استأذنت فورموزانتا أن تضع الطائر الى جانبها على المائدة ، فسمح لها الملك بذلك .

واستمرت الموسيقى تعزف طول وقت الطعام . فسنحت بذلك لكل أمير فرصة ان يحدث صاحبته . وقد جمع ذلك الاحتفال بين أسباب السرور وأسباب العظمة ، وفي أثناء الطعام تقدم أحد الخدم بلحم متبل ووضعه أمام فورموزانتا ، فأبدت رغبة في أن يرسل ذلك الصنف الى جلالة والدها لأنه من مفضلاته ، فسرعان ما أمسك به الطائر وحمله بطريقة خارقة وقدمه للملك . ولما لم يكن أحد قد شاهد شيئاً أعجب من ذلك ، دلّله الملك وربت عليه كما تفعل الأميرة ، ثم طار عائداً إليها ناشراً في أثناء طيرانه ذيلاً جميلاً أخاذاً كما مد

جناحيه الكبيرين بما فيهما من مختلف الألوان الزاهيـة ، وبهر الكل ريشه الذهبي، حتى لم تبقَ عين إلا وقعت عليه ، ووقف الموسيقاريون بلا حركة ، وامتنع على آلاتهم أن ترسل بالألحان المؤتلفة، ولم يشتغل أحد لا بالأكل ولا بالكلام ولم يعد يسمع غير همس شامل معبر عن الدهشة والاستغراب ، ومضت أميرة بابل تقبله طول وقت الطعام غير مبالية ان كان في العالم ملوك . فعاود الغيظ والكراهية ملكي مصر والهند وملأ قلبيهما الحقد مضاعفاً، وصمما على ارسال ثلاثمئة الف مقاتل لطلب الثأر.

أمّا ملك أسقوثيا فقد شغل بعداعبة الأميرة ألديا وقد حمله كبر نفسه ان يزدري بغير حقد انصراف الأميرة فورموزانتا عنه، فأبدى نحوها من الاستهانة أكثر مما أبدى من الاحتقار: وقال لصاحبته . «اني أسلم بأنها جد رشيقة ، ولكنها تظهر لي كأنما هي إحدى النساء اللواتي يتِهنَ اعجاباً بجمالهنّ ، ويتصورنَ بأن الرجال قد ملكهم شعور الامتنان والشكر اذا تنازلنَ فظهرنَ في المجتمع . واني لأفضل امرأة لينة الجانب رقيقة الاحساس وأتغاضى عن قبح وجهها ،على هذا التمثال البديع . ولكِ يا سيدتي من الجمال ما لها ، وأنتِ على الأقل تتلطفين بالحديث مع الاجانب ، وأقول لك باخلاص كرجل اسقوثي أني أفضلك على ابنة عمك».

لم يكن الاسقوثي مصيباً في نظرته لفورموزنتـا ، فانها لم تـكن ذات أنفـة وكبرياء كما يظهر عليها ، ولـكن تلقت الأميرة ألديا تلك الـكلمات بشيء من الاستحسان . وأغلب الظن انهما تركا المائدة وكلٌ منهما راضٍ عن كلام الآخر ، مليء بالثقة نحوه . وبعد العشاء تريض الضيوف في خمائل الحديقة ، فلم يغفل ملك اسقوثيا والأميرة ألديا في العثور على مكان منفرد . ولما كانت ألديا سليمة النية فقد عبرت عن ذات نفسها للأمير قائلة :

«اني لأكره ابنة عمي ، ولو انها تفوقني فتنة وجمالاً ، وقدر لها أن تـكون على عرش بابل.وهذا العرش في الحقيقة يجب أن يؤول اليّ شرعاً ، ذلك اذا كان في الـكون حق. لأني انحدر من الفرع الأقدم لمائلة النمرود وفورموزانتا تنتمي للفرع الأحدث ، فقد نزع جدها جدي عن العرش وقتله» .

فسأل ملك إسقوثيا ، أهذه هي حقوق الوراثة في بيت بابلونيا المالك ؟ وما اسم جدها هذا؟

«إنه كان يدعى ألديا كما أدعى، وكما كان يدعى والدي ، الذي نفي مع أمي، الى أحد أطرف الأمبراطورية ، وبعد ان ماتا ولم يعد بيلوس يخشى من شيء ، رغب في أن أرَبّـبَ مع ابنته، ولـكنه صمم ألا أتزوج أبداً .

قال الملك : « سوف أنتقم لك ولوالديك ولجدك ، وسأكون المسؤول عن زواجك ،

وحيث اني سأتناول غداً طعام الغداء مع بيلوس، فانتظري بعد غد في الفجر ، فسوف أرحل بك، ثم أعود على رأس ثلاثمئة الف مقاتل وأعيد اليك حقوقك » . فوافقت الهديا على ذلك وافترقا بعد ان تعاهدا بشرفهما ألاّ يخوننا العهد .

أما فورموزانتا العزيزة ، فأمرت قبل أن تهجع الى فراشها بشجيرة برتقال في غلاف من الفضة ،وأن توضع إلىجانب فراشهاليجثم عليها الطائر . وبعد أن اسدلت ستائر مخدعها بقي وقت غير قصير وهي تحاول عبثاً أن تنام . فقد كان قلبها خفاقاً وخيالاتها ثائرة ، فالبطل الاجنبي ما زال ماثلا في وهمها وكأنها تراه يقذف السهم بقوس النمروذ . توهمته وهو يقطع رأس الاسد ، ثم رددت قصيدته ، وأخيراً مثل لها وقد امتطى الخرتيت شاقـا طريقه في وسط الجموع . فلم تتمالك نفسها وفاضت منهـا العبرات واكتنفتها الاشجان والهموم تأثراً من تلك الخيالات فصاحت : « هلاّ أراه بعد اليوم ؟ أسوف يعود ؟ »

رد الطائر من أعلا الشجيرة « نعم سوف يعود ، أيمكن ان يراكِ احد، ثم لا يرغب في أن يراكِ مرة ثانية » .

«يا للسماء ! يا للقوى الابدية ! ان طائري يتكلم الـكلدانية الفصحى» ثم رفعت الستائر وانحنت على فراشها وقالت .

« هل انت الـه هبط الى الارض ، أم أنت أوروماسدس الاكبر يختفي في ذلك الاهاب الريشي الجميل ؟ ان كنت هو ، فأعد إليّ ذلك الهاب الخلاب ! »

رد الطائر «لست إلاّ حيواناً مجنحاً ، ولـكني ولدت في زمان كانت لا تزال تتكلم فيه الحيوانات ، حيث كانت الطيور والحيات والحمير والخيل والغرافين تتفاهم بلا كلفة مع الانسان. وما كنت لأتكلم امام الناس لئلاّ يقول نساء الشرف في بلاطك إني ساحر،ولن أبوح عن نفسي لغيرك » .

حسرت فورموزانتا عن الـكلام أمام هذه الاعاجيب ساكرة بالدهشة مليئة بالرغبة في القاء مئة سؤال جملة، وفي النهاية سألته عن عمره فقال « سبعة وعشرون ألفاً وتسعمئة سنة وستة أشهر ، فإن عمري يبدأ مع انقلاب الاعتدالين الصغير الذي حدث منذ ثمانية وعشرين ألف سنة من سنيكم ، وهناك انقلابان أبعد زمناً من ذلك ، وبذا فهنالك كائنات أقدم مني . تعلمت الـكلدانية خلال احدى رحلاتي منـذ اثنتي وعشرين ألف سنة وقد تذوقت هذه اللغة . وأمّـا اخواني الحيوانات الاخرى فقد أمسكوا عن الـكلام في أقاليمكم هذا » .

« ولماذا ياطائري القدمي » ؟

« وا أسفاه ! ذلك لأنّ الناس قد عوّدوا أنفسهم على أكل لحومنا بدلاً من مخالطتنا

وتهذيب أنفسهم معنا . يا للهمج ! ألا يكفي لإقناعهم بأننا اخوانهم أن لنا نفس الأعضاء، ونفس العواطف ونفس المطالب والرغبات ولنا فوق ذلك ما يسمونه النفس كما لهم ، فلا يجب أن يطبخ ويؤكل إلا الفاسد الشرير . فإننا الى حدّ بعيد اخوانكم ، لأنّ الكائن الأعظم القادر على كل شيء ، الحي السرمدي ، قد عقد عهداً مع الانسان ، وبكل وضوح أدخلنا في نفس المعاهدة وقد نهاكم عن ترتيب أنفسكم على لحومنا كما نهانا عن مص دمائكم » .

« إنّ خرافات لقمان ، التي ترجمت الى لغات كثيرة ، ستظل الشهادة الأبدية الخالدة على المعاملة التي جريتم عليها معنا منذ زمان بعيد ، وتبدأ كل تلك الخرافات بعبارة ، « عندما كانت تتكلم الحيوانات » .

« وإنه لحقّ أن كانت هناك أسر منكم لا تزال تحتفظ بالتحدث الى الكلاب . ولكن رفضت الكلاب أن تجيب عليهم منذ أن أجبروهم بالسياط ، على الخروج معهم للصيد وإشراكهم في جريمة قتل اخواننا القدماء ، الأيائل والظباء والأرانب ، والحجال ، كما لا يزال لديكم قطعاً شعرية تكلمت فيها الخيل ، وفي كل يوم يحدثهم الحوذية ، ولكن بطريقة همجية وبعبارات مهينة . ولذلك كرهتكم الخيل كرهاً شديداً بعد أن كانت تظهر لكم كثيراً من المودّة والعطف » .

« إنّ أكمل الرجال هم مواطني الأجنبي الذي تعجبين به ، وهي المملكة الوحيدة التي ظلّ فيها نوعكم يبدي الاحترام والكرامة لنوعنا ويتحدثون إلينا ، وفوق ذلك فهي المملكة الوحيدة في العالم التي يقيم فيها الرجال العدول » .

قالت فورموزانتا « وأين تقع مملكة عزيزي المتنكر ؟ ما اسم امبراطوريته ؟ لأني لن أصدق بعد ذلك إنه ابن راعٍ ، كما لا أصدق أبداً إنك خفاش ! » .

ردّ الطائر قائلاً « إنه عند بلاد الكنجيين الذين يسكنون الشاطىء الشرقي لنهر الكنج أناس عقلاء وفضلاء ممتنعين على أعدائهم . وصديقي يدعى « أمازان » وليس بملك ولست أعرف عما اذا كان يقبل أن يذل نفسه فيصير ملكاً . إنه يحب مواطنيه حباً كبيراً ، وهو راعٍ مثلهم ، ولكن لا تظنّي أنّ هؤلاء الرعاة يشابهون رعاتكم ، الذين يلبسون الخرق البالية ويرعون أغناماً أجمل منهم أردية ، وفوق ذلك يئنون تحت حمل الفقر والعوز وأخيراً يدفعون الى السلبة والنهّاب نصف أجورهم السنوية الدنيئة التي يتقاضونها من أسيادهم . وأما الرعاة الكنجيون فقد ولدوا متساوين ، ويملكون قطعاناً لا حصر لها تنتشر في حقولهم الفسيحة ، ترعى على الخضرة الغزيرة ، ولا يقتل شيء من هذه القطعان أبداً ولا تؤكل ، لأن ذلك جريمة مخيفة في تلك المملكة . فانهم لا يقتلون أو يأكلون أي مخلوق يتنفس

وإن صوف تلك الأغنام أفضل وأكثر جودة من الحرير وفيه تنحصر أعظم متاجر الشرق. وتنتج أرضهم فوق ذلك كل ما يمكن أن يكون موضعاً لإشباع رغبة آدمي . فتلك الجواهر التي كان لأمازان كل الشرف أن يقدمها إليك ، هي من منجم له . والخرتيت الذي شاهدته متغبياً إياه ، هو الحيوان الذي يركبه الكنجيون عادة . فإنه أكثر الحيوانات زهواً وأشدها تخويفاً . وفي نفس الوقت أودع حيوان يزين وجه الأرض . فمئة خرتيت وعليها مئة فارس كنجي كافية لتشتيت جيوش لا حصر لها ، فقد أقدم ملك من الهند منذ قرنين مضيا لغزو تلك الأمة وكان ذلك جنونه منه. فقد تقدم يتبعه عشرة آلاف فيل،ومليون محارب وقد كانت الخراتيت تخرق أجسام الفيلة بقرونها،كأنها الخرز الذي أشاهده مرشقاً في «البروشات» الذهبية الموضوعة فوق خوانك . وأمّا فرسانهم فكانوا يخرون تحت رماح الكنجيين كأنما هم نبات الأرز يحصده رجال الشرق . وأسر الملك مع ستة آلاف رجل ، وأجبر على أن يستحم في مياه الكنج المفيدة للصحة ، واتباع نظام المملكة الذي لا يبيح لبشري أن يأكل غير الخضروات التي جعلتها الطبيعة بسخاء غذاء لكل مخلوق يتنفس . أما أولئك الذين يتغذون باللحوم ويدمنون الخمور ، فقد استحرت دماؤهم ، ونمتت عقولهم في مئات من المناحي المختلفة ، وأصبحت نهمتهم منصبة على اهراق دماء اخوانهم واتخاذ كثير من السهول الخصبة مدافن تحوط كنائسهم .

أما علاج ذلك الملك من مرضه فقد استغرق ستة أشهر كاملة ، وبعد أن فحصه الاطباء ووجدوا نبضه عادياً ، أعلنوا ذلك للجمعية الكنجية ، ومن ثمت تبع المجلس نصيحة الخراتيت. وبكل انسانية أرسلوا ملك الهند الى بلاده ومعه رجال بلاطه البلهاء وفرسانه الضعفاء العاجزين،وقد جعلهم هذا الدرس القاسي أكثر تعقلاً . ومنذ ذلك الحين والهنديون يحملون كل احترام وتبجيل للكنجيين ، كما يحترم جهلاء الرجال الذين يرغبون في التفقه ، الفلاسفة الذين لا يطاولونهم .

قالت الأميرة «أوافقك يا طائري العزيز،ولكن،أيتبع الكنجيون دين؟ألهم دين خاص.؟»

قال الطائر «بكل تأكيد ، فنحن نجتمع لنبذل الشكر الى الله في الأيام التي يكتمل فيها القمر . الرجال في معبد كبير صنع من خشب الأرز ، والنساء في آخر ، لكيلا تختلط صلواتهم ، وتجتمع الطيور في خميلة ، وذوات الأربع في سهل ، ونشكر الله على كل الخيرات التي منحنا اياها،وعندنا على الأخص ببغاوات تعظ بقدرة فائقة».

«هذه هي صورة من بلد عزيزي أمازان ، فهناك أقيم ، وصداقتي له كبيرة كذلك الحب الذي ألهمك إياه. فإن وثقت بي فسننطلق معاً لنزوره» .

قالت الأميرة : «انها الدعوة في الحقيقة رقيقة منك يا طائري العزيز » وهكذا كان رد الاميرة وقد وضحت على فمها ابتسامة رقيقة ، وهي تحترق رغبة في تلك الرحلة ، من غير أن تجرأ على التصريح بذلك .

قال الطائر «اني أخدم صديقي ، ولا يعدل سعادتي بحبك الا سروري العظيم بمساعدتي اياك».

خيل لفورموزانتا من فرط سرورها أنها ارتفعت عن الارض ، كان كل ما رأت في ذلك اليوم وكل ما ستري وكل ما سمعت وخاصة ما شعرت به في قلبها قد أنعشها انتعاش أولئك المسلمين السعداء عندما يشعرون بأنهم قد تحللوا من كل صلاتهم الارضية ، فيخيل اليهم انهم قد بلغوا السماء السابعة وهم في أحضان حوريس ، تحوط بهم العظمة السماوية والرحمة الالهية .

الفصل الرابع

ملك مصر يقتل الطائر ، وتفر ألديا مع ملك اسقوثيا

أمضت فورموزانتا الليل تتحدث عن أمازان ، وأخذت تدعوه براعيها، ولم تعد تدعه بأي اسم آخر . ومنذ ذاك الوقت أصبح اسم الراعي والحبيب : لفظين تستعملهما جميع الأمم مترادفين بغير تمييز .

سألت فورموزانتا الطائر عما اذا كان لأمازان أية خليلة ؟ فلما أجابها الطائر بالنفي ، شعرت بأنها في ذروة السعادة والهناء . وسألته تارةً أخرى كيف يمضي حياته ؟ فعلمت ، وقد غمرها الانشراح ، بأنه ينفق كل وقته في عمل الخير ، وفي خدمة الفنون ، وكشف أسرار الطبيعة ، وتهذيب نفسه . وتارةً أخرى أرادت أن تعرف إن كانت طبيعة نفس حبيبها من نفس طبيعة طائرها ؟ ولكن كيف يحدث هذا وقد عاش الطائر نيفاً وعشرين ألف سنة ، في حين أن حبيبها لم يعدُ الثانية عشرة أو التاسعة عشرة من عمره . ومن ثمَّ ألقت على الطائر مئات الأسئلة المشابهة لهذا ، فكان يجيب عليها بقدر من الحكمة أثار فضولها . وأخيراً غلب النعاس أجفانها وأسلمها الى خيالات الأحلام الجميلة التي توحي بها الآلهة ، والتي في بعض الأحيان تفوق الحقيقة ذاتها ، ويندر أن تفسرها الفلسفة الكلدانية برمتها .

تأخرت فورموزانتا في الاستيقاظ ، وكانت الشمس قد علت في كبد السماء عند مادخل والدها الملك غرفتها . فقابل الطائر جلالته بأدب زائد ، ومشى أمامه ، وخفق بجناحيه ، ومدّ عنقه ثم جثم على شجيرة البرتقال . أما فورموزانتا فجملتها الأحلام أكثرفتنة وجمالاً فجلس الملك على فراشها وانحنى عليها حتى اقتربت لحيته الكبيرة من محياها وضمها في حنان ، ثم حدثها قائلاً :

« يا بنيتي العزيزة ، انك لم تتمكني بالأمس من العثور على زوج يوافق رغباتي ، ومع ذلك يجب ان تتزوجي . ان في ذلك سعادة أمبراطوريتي . وقد استشرت النبوءة التي تعلمين انها لا تخطىء ابداً ، وانها توجه كل اعمالي ، فوجدت رغبتها في ان تجوبي العالم ، وعلى ذلك يجب أن تبدئي هذه الرحلة .

عجباً ! الى الـكنجبين بدون شك ! ولـكنها أحست بحماقتها لما تفوهت بهذه الـكلمات العاجلة ، وحينئذٍ رد عليها الملك،وكان يجهل الجغرافيا جهلاً تامـًّا، عما تعني بالـكنجبين ! ولـكنها استطاعت بسهولة ان تغير مجرى الحديث . وبعد ذلك أخبرها الملك بأنها يجب ان ترحل في حجرتها وانه عين كل الاشخاص الذين سير افقونها وهم رئيس مستشاري الدولة، ورئيس الحجاب ، ووصيفة شرف ، وصيدلي والطائر ، وجميع الخدم اللازمين .

كانت فورموزانتا الى حين وصول أمازان والملوك الثلاثة ، تعيش في قصر أبيها عيشة لا طعم لها . فإنها لم تغادره مرة واحدة وفقاً لتقاليد السلوك المتبعة مع من كنّ في مثل منزلتها . ولذلك سرت كثيراً لخروجها في حجرة بعيدة ، ومضت تحدث نفسها : من ذا الذي يدري ؟ لعل الآلهة توحي لأمازان بنفس الرغبة في الذهاب الى نفس المعبد . فيسعدني الحظ برؤيته مرّة ثانية ؟ ثم فكرت والدها بكل غبطة قائلة بأنها كانت دائماً تحمل في نفسها حبًّا دفيناً للقديس الذي سوف تزوره .

أقام الملك بيلوس في ذلك اليوم حفلة غداء فاخرة للرجال من ضيوفه ، وقد كانوا صحبة غير متجانسة ، منهم الملوك ، والأمراء ، والوزراء ورؤساء الدين ، وفي قلب كل منهم غيرة متقدة نحو صاحبـه . ومضوا يزنون كل كلمة تخرج من أفواههم ، فلا يرسلونها إلاَّ بعد أن يزنوها جيداً ويتقصوها ، حتى لقد ملـكت كل منهم خشية مفرطة من صاحبه أولاً ، ثم من نفسـه ثانياً . وكان جو المائدة مظلماً كئيباً رغم أنهم أسرفوا في احتساء الخمر . أمَّا الأميرتان فقـد بقيتا في حجرتيهما ، تفكر كل منهما ، وتتأمل رحلتها العظيمة ، وتناولتا الغداء في حرمهما الصغير . وبعـد الغداء خرجت فورموزانتا تتجوّل في الحديقة بصحبة طائرها الذي كان يتنقل بين الشجيرات ناشراً ذيله الجميل وريشه القدسي ليدخل في نفسها السرور .

أمر ملك مصر ، وقد لعبت برأسه الخمر وإن لم يثمل ، أحد وصفائه أن يحضر له قوساً وسهماً . وكان الملك في الحقيقة أقل الرُّماة حذقاً ومهارة في مملـكته . فإنه عندما يقذف بسهم يكون الهدف آمن الأهداف . ولـكن في تلك اللحظة كان الطائر الجميل مندفعاً في الجو بسرعة تضارع سرعة السهم ، فلم يسـتطع أن يتفاداه ، ووقع بين يدي الأميرة يتخبط في دمه ، وعاد المصري الى مكانه مرسلاً ضحكة ملؤها السـفه والحماقة . وأمَّـا فورموزانتا فصدعت حجب السماء بأنـّاتها ، وانحدرت منها الشئون فياضة ، ومزّقت شعرها وضربت صدرها ، وعندئذٍ قال لها الطائر المحتضر في صوت خافت هزيل : « أحرقيني ، ولا تتواني عن حمل حطامي الى شرقي مدينة عدن القديمة ، وعرّضي رمادي للشمس فوق عمود صغير

من القرفة والقرنفل » . وما إن قال ذلك حتى أسلم الروح .

أغمي على فورموزانتا وقتاً غير قليـل ، ولم تفق إلا لتنفجر عيناها بالدمع وقلبها بالأنات . أمّـا أبوها الذي شاركها حزنها واستنزل اللعنات على فرعون مصر، فلم يشك في أن هذه الحوادث إنما هي نذير بحوادث أعظم . وسرعان ما ذهب يستشير النبوءة ، فأجابت « من كل شيء أثر : حياة وموت ، أمانة وخيانة ، خسارة وربح ، سعود ونكبات » . ولم يفهم الملك ولا أعضاء مجلسه أي معنى لهذه الاجابة ، ولـكنه اكتفى في النهاية بأنه قد أتم واجبات العبادة .

كانت فورموزانتا خلال هذا الوقت قد تبللت بالدموع وأتمت مراسم الجنازة للطائر كارمتها ، وصممت أن تحمل بقاياه الى بلاد العرب مخاطرة بحياتها من أجله ، فجمعت تلك البقايا في آنية صغيرة من الذهب مطعمة بالياقوت الاحمر والجواهر ، بعد أن نزعتها من فم الأسد القتيل.

أواه ! لو أنها تحرق ملك مصر البغيض حيّـا بدلاً من أن تقوم بهذا الواجب المحزن ! هذه كانت رغبتها لـكنها تعزت عن ذلك فقتلت تماسيحه ، وبفروسيه ، وحماريه الوحشيين ، وفأريه ، وألقت بجثتيه المحنطتين في الفرات، ولو أنها تملك عجلة آبيس لما توانت في ان تفرط عليه.

أثارت هذه الاهانة غضب ملك مصر ، فأرسل في الحال يطلب رجاله الثلاثمئة ألف ، ولما رأى ملك الهند أن حليفه قد رحل ، أرسل هو أيضاً في نفس اليوم لرجاله ، وفي نفسه أن يضم الثلاثمئة ألف هندي الى الجيش المصري . وفرّ ملك اسقوثيا في الليل مختطفاً ألديا وهو أبعد ما يكون رغبة في أن يحارب في سبيلها على رأس ثلاثمئة ألف إسقوثي ، ويعيد حقوقها في وراثة عرش بابل، حيث أنها تنحدر من الفرع الأكبر لعائلة النمروذ .

ورحلت فورموزانتا الفاتنة بقافلة المجرة في الثالثة من الصباح، وهي تمني نفسها بالذهاب الى بلاد العرب لتتم آخر إرادة لطائرها العزيز مؤمنـة أنّ عدل الآلهة سوف يعيد إليها عزيزها أمازان ، وقد أضحت الحياة بدونه عبئاً لا يحتمل .

عند ما استيقظ ملك بابل ووجد أن الجميع قد رحلوا صاح :

« هكذا انتهت الاحتفـالات العظيمة ! فأي فراغ مؤلم قد خلفوا عندما مضوا على عجل مسرعين » . وما لبث أن انتابه غضب ملـكي السمات، لما علم أن الأميرة ألديا قد اختطفت فأمر أن يحضر إليه وزراؤه في الحال، وأن يجتمع مجلس مشورته ، وبينما هم يتأهبون لذلك لم ينس إستشارة النبوءة ، غير أنه لم يفز منها إلا بكلمات أصبحت من الشهرة بحيث سمت

جميع انحاء العالم منذ ذاك الوقت ، فقد قالت « عند ما يهمل الأهلون تهيئة بناتهن للزواج ، فإنهن يزوجن أنفسهن » .

وصـدرت في الحال الأوامر بتوجيه ثلاثمئة ألف مقاتل الى ملك إسقوثيا . وعندئذ أشعلت نار حرب مهولة كان سببها تلك المسرات التي أقيمت في أعظم حفل عرف على وجه الأرض . وأصبحت آسيا المركز الذي تخترقه أربعة جيوش عداد كل منها ثلاثمئة ألف رجل . وجلي أن حرب طروادة التي أدهشت العالم بعد ذلك بعدّة عصور ، لم تكن إلاّ لعب أطفال اذا هي قرنت بهذه الحرب . ولـكن ينبغي أن نعي أنّ عراك الطرواديين لم يكن له من سبب إلاّ امرأة هرمة خسيسة الأخلاق ، حاولت أن تختطف مرتين ، في حين ان حربنا هذه ثلاثية الأسباب : فتاتان ، وطائر .

توجه ملك الهند لقاء جيشه في طريق متسع كامل النسق عند كشمير ، ويؤدي رأساً إلى بابل . وفرّ ملك إسقوثيا مع ألديا عبر الطريق الجميل الذي يسلم إلى جبل إيموس . امّا هذه الطريق الجميلة فقد تلاشت في طيّات الزمن الماضي بسبب سوء ادارة الحكومات . واتجه ملك مصر نحو الغرب على ساحل البحر المتوسط الصغير الذي كان يسميه العبرانيين الجهلاء في ذلك الوقت بالبحر الأعظم .

وتبعت فورموزانتا الطريق المؤدي الى البصرة ، وكانت تكتنفه أشجار النخيل الباسقات فتمده بظل دائم ، وثمر خلال كل الفصول . وكان المعبد الذي ستؤدي واجبات العبادة فيه في البصرة نفسها . وكان القديس الذي أقيم له هـذا المعبد ، على نفس صورة القديس الذي عبد بعد ذلك في لـمـشـاقوس ، وقد أصاب نجاحاً كبيراً في تهيئة الأزواج للفتيات الصغيرات. والواقع انه القديس الاقدس في آسيا كلها .

وفي الحقيقة لم يكن لفورموزانتا أية رغبـة في الذهاب لقديس البصرة ، بل انحصرت كل رغبتها في أن تحظى بعزيزها الراعي الـكنجي ، وبالحري حبيبها أمازان . فاقترحت أن تبحر من البصرة ثم تلقي برحلها في أرض الحجاز لتنفذ ما أوصى به طائرها الميت.

لم تكد فورموزانتا تدخل الى فندق جميل حيث أعدّ لها أتباعهـا كل أسباب الراحة ، حتى علمت بأن ملك مصر قد سبقها اليه . فانه لما علم من عسسه بالطريق الذي تيممته ، بدّل طريقه في الحـال تتبعه حاشيته العظيمة ، حتى وصل الى الفندق ، فترجل عن جواده وأقام حراساً على جميع الأبواب ، ثم توجه الى غرفة فورموزانتا حيث بادرها قائلاً .

« أيتها الآنسة ، إنك المرأة التي أجد في طلبها ، لـكنك لم تلقِ اليّ بالاً عند ما كنت في بابل . إنه من العدل أن تعاقب الهوائيـات ذوات الكبر والتعاظم . هل لك أن تتلطفي

وتتناولي معي عشاء اليوم ، على أن يكون تصرفي معك معادلاً رضائي عن تصرفك ؟ »

أدركت فورموزانتا أنها الجانب الأضعف ، ورأت أنه من الحكمة ورجاحة العقل أن يتصرف الانسان بحسب الظرف الذي يحيط به ، فصممت على التخلص من ملك مصر بحيلة بريئة ، ونظرت إليه من طرف عينيها تلك النظرة التي عرفت فيما بعد ذلك من العصور « بغمز العين » ومضت تحدثه برقة ، وأدب وتواضع ، ودلال ، وجملة أخرى من ضروب الفتنة تكفي لأن تخلب أعقل العقلاء ، وتخدع أنبه الناس .

« أعترف يا سيدي أني اغضضت دائماً من نظري عند ما شرفت أبي الملك بزيارتك ، لكنت أشعر ببعض عواطف تختلج في نفسي وخشيت أن تنم عنها سذاجتي ، وكنت أرتجف خوفاً من أن يلحظ أبي ومنافساك ، تفضيلي إياك ، وإنك لجدير به . أمّا الآن فأستطيع أن أعلن عن عواطفي ، فأقسم لك بالعجل آبيس الذي لا أحترم من شيء في العالم أكثر منه بعدك ، بأن اقتراحك فتنني . وقد تشرفت بمؤاكلتك بصحبة والدي ، وسوف يزيد شرفي بأن أواكلك على انفراد مرة ثانية ، على أن يشاركنا في الشراب رئيس حجابك ، فقد تبين لي في بابل أنه محدث بارع . ولدي قدر جيد من خمر شيراس المشهور . وستصيبان منها . إني لأنظر اليك نظرتي لأعظم الملوك ، وأحب الرجال » .

غيرت هذه المناقشة من رأي ملك مصر ، فقبل مشاطرة رئيس حجابه له في الشراب ، ثم مضت الأميرة تقول بأن لها رجاء آخر هو أن يسمح لها بالتحدث الى صيدليها الخاص ، معقبة بأن النساء دائماً تنتابهن بعض الأوجاع الخفيفة التي تتطلب العناية ، كأ بخرة في الرأس مثلاً ، أو اضطرابات في القلب أو مغص في الأمعاء وما شابه ذلك من الأمور التي تستدعي الرعاية والمساعدة . وأني لأشعر أني في حاجة الى الصيدلي وآمل ألا ترفض لي طلباً ، إن دلّ على شيء ، فإنما يقوم شهادة على ثقة منك بسيطة بشخصي » .

أجاب الملك « إني أعرف الحياة جيداً ، ولا أرفض الك مثل هذا الطلب العادل ، فسآذن للصيدلي أن يقدم لك خدماته حتى يحين وقت العشاء ، ولقد يخيل إليّ أن الرحلة قد أنهكتك بعض الشيء ، وانك تحتاجين الى إحدى وصيفاتك ، فاستدعي أحبهن الى قلبك . واني بعد هذا كله رهن أوامرك وطوع مشتهياتك » ثم انصرف .

حضر اليها الصيدلي ووصيفة تدعى « إرلا » وكانت الأميرة تثق بها ثقة عمياء فأمرتها باحضار ست زجاجات من خمر شيراس مع العشاء ، وأن تسقي كل الحراس الذين أمرهم ملك مصر أن يقبضوا على ضباطها من ذلك الخمر . ثم أمرت الصيدلي أن يضيف الى الزجاجات عقاراً مخدر كان يحتفظ به ولا يفارقه ، ومن شأنه ان يسلم بمن يتعاطى منه شيئاً الى

نوم عميق أربعة وعشرين ساعة . فأطاعها الصيدلي بثقة تامة . ومن ثمت عاد الملك بعد نصف ساعة ومعه رئيس حجابه . وكان حديث العشاء مرحاً ، فشرب من الزجاجات كاملة ، معترفين بأنه لا يوجد في مصر مثل هذا الخمر . كذلك لم تفشل الوصيفة في القيام بمهمتها ، ولم تتناول الأميرة قطرة واحدة قائلة أن طبيبها أمرها باتباع نظام خاص . ثم لابسهم نوم عميق .

كان رئيس الحجاب يلبس لحية مستعارة من أجمل اللحى التي تليق برجل في مثل منزلته ، فانتزعتها فورموزانتا بمهارة فائقة ، وحاكتها في شريط من القماش ولبستها ، وارتدت لباس الكاهن ، وزينت نفسها بكل أوسمة الشرف التي له . وأخذت إرلا ثوب حافظ الأثواب الكنسية للاله إيزيس ، وبعد ان تحلت فورموزانتا بأريقه وجواهره ، غادرتا الفندق بين صفوف من العسكر يغطون في نوم أعمق من نوم أسيادهم ، وقد أعد لها خادمها عند الباب جوادين ، غير انها لم تتمكن ان تصحب معها اي من ضباط حاشيتها حذر ان يمنعهم حارس الباب الاكبر .

مرت فورموزانتا وإرلا بين صفوف من الجند مختلفة الرتب ، وقد ظنوا ان الأميرة الكاهن الأعظم ، فكانوا ينادونهـا بقولهم « يا أبي المحترم » ويسألون الغفران . وبعد اربعة وعشرين ساعة وصلتا الى البصرة قبل أن يستيقظ الملك ، وخلعتا ما تنكرتا به من الثياب ، خشية ان يبعث لباسهما بعض الشك في الناس

ومضتا تستعدان للسفر بسفينة كاملة العدة شطر بواغيز هرمز عند شواطىء عدن الجميلة في الحجاز . وكان لحدائق عدن شهرة فائقة اذ كانت في ذلك الوقت موطناً لأعاظم بني البشر ، وقد نسقت على غرار الحقول الالوزية ، وحدائق هسبريدس ، والجزر السعيدة وقد تخيل الناس ان في تلك الأقاليم الدفيئة لا يوجد هناء اعظم من الظلال الوارفة والنهيرات الهامسة ، وأن يعيش الانسان دائماً في السماء مع الخالق الاول ، وأن يتجول في جنة الفردوس ، مثلهم كمثل اولئك الذين يثرثرون من غير ان يفهم بعضهم بعضاً ، أولئك الذين ليس لهم آراء معينة او تعبيرات واضحة .

عندما بلغت الأميرة ارض عدن ، صرفت كل همها الى اقامة المراسم الجنائزية التي طلبها طائرها العزيز ، ثم جمعت بيديها الجميلتين بعضاً من القرفة والقرنفل ، ولشد ما كانت دهشتها إذ رأت عند ما نثرت حطام الطائر من فوق هذه المحرقة الجنائزية ، انه اشتعل من تلقاء نفسه وبسرعة عظيمة . لم يظهر في مكان الحطام شيئاً اللهم الا بيضة كبيرة خرج منها الطائر الجميل أكثر بهاء وروعة من ذي قبل ، فكانت تلك اللحظة من أسعد لحظات حياتها ، إذ لم يكن من شيء أعز عليها من طائرها ، الا مرمى رغباتها ، ذاك الذي كان دائماً فوق آمالها .

قالت الأميرة « أرى بوضوح أنك بذاتك العنقاء التي طالما سمعت عنهـا ، واني لأكاد أنفني فرحاً ودهشة ، بيد أني لا أعتقد في بعثك ، لـكن من حسن حظي ان اقتنع بذلك.

قالت العنقاء « البعث في الحقيقة أحد الاشياء البسيطة في الوجود ، فانه ليس بشيء أكثر من ان نولد مرتين ، وكل شيء في الـكون أثر من آثار البعث ، فاليساريع تنبعث فراشات ، والبذرة في الأرض تتولد منها الشجرة ، وكل الحيوانات التي تدفن في التراب تستحيل زروعاً وحشائش تربب بها حيوانات أخرى ، فتتحول بسرعة عظيمة جزءاً من جوهرها . إن كل الذرات التي تؤلف الأجسام تنقلب موجودات مختلفة ، وفي الحق انني الـكائن الوحيد الذي تفضل « ارمزد » وبعثني في صورتي الأولى .

أجابت فورموزانتا وقد شملها منذ اللحظة الأولى التي شهدت فيها أمازان والعنقاء ، جو من الدهشة والعجب : « أستطيع بكل سهولة أن ادرك ان الخالق الاول قادر على أن يخرج من بقاياك عنقاء على تمام الشبه بك ، أما أن تعود ذات الشخص ، وبنفسك الاولى ، فذلك ما لاأستطيع أن افهمه بجلاء . خبرني ما الذي حل بنفسك بعد أن جعلت بقاياك في جيبي بعد موتك »

قال « تأملي لحظـة واحدة ، أليس من الهين على ارمزد العظيم أن يستمر في التأثير على ذرة واحدة من جثماني ، ويعيد اليّ الحياة ؟ فقد سلبني من قبل ذلك الحاسة والفكر والذاكرة ثم وهبني اياهم مرة أخرى . وسواء أوضع سره في ذرة من النار الاولية كامنة في جثماني أو في مجموع أعضائي ، فتلك مسألة في الحقيقة ليست ذات بال . إن الانسان كالعنقاوات لا يعرف مستقبل الحياة ، ولـكن السر الذي وهبني إياه الخـالق الأول هو لا عادتي اليك . عجباً ! وأن أعيش تلك الثماني وعشرون الف سنة التي يجب أن أحياها قبل بعثي المقبل بصحبتك وبصحبة عزيزي أمازان » .

قالت الأميرة « تذكر يا عنقائي العزيز ما خبرتني به في بابل وان انساه ، والذي يبعث في نفسي الأمل في ان ارى من أحب مرة أخرى . ولا بد لنا من ان نزور الـكنجيين معاً ، فمن الضروري ان اعود إلى بابل ومعي امازان » .

قال « هذا ما صممت عليه ، وليس لدينا لحظـة نضيعها عبثاً . ويجب ان نبحث عن امازان من اقرب الطرق ، وذلك بطريق الجو . فان لي غرفينيز من اصدقائي ، على امد مئة وخمسين الف فرسخ من هنا ، وسأكتب اليهما رسالة يحملها بريد الحمام ، وسوف يصلان قبل المساء . ولدينا من الوقت ما يتسع لصنع هودج بأدراج يمكن ان تحفظي فيها كفايتك من الطعام . وسوف تتميز ووصيفتك براحة تامة فيه . ان هذين الغرفينيز من اضخم أنواع جنسهما ويستطيع كل منهما ان يحمل احد عمودي الهودج في مخالبه ، ولا شك في ان الوقت ثمين جداً » .

وفي الحال ذهبت فورموزانتا مع الطائر الى متجر من معارفه ليصنع لهم هودجاً ، فأتم عمله في أربع ساعات ، واحتفظوا في ادراجه ببعض ارغفة صغيرة وفطائر افضل مما في بابل من مثلهما ، ونزر من الليمون الكبير والتفاح والكاكاو والفستق ، وخمراً عدنية تفضلها على خمر شيراس ، كتفضل هذه على خمر سوريتام .

وصل الغرفينان عدناً في الوقت المحدد ، وكان الهودج مريحاً خفيفاً ، على صلابته ومتانة بنائه . فأخذ كل من فورموزانتا وايرلا مكانهما فيه وحمله الغرفينان في مخالبهما وكأنهما يحملان ريشة، واتخذا مقصدهما نحو الكنج في سرعة سهم يشق الهواء . وكان العنقاء يطير خلفه ، مرة ويجثم على حافته اخرى ، ولم يتوقف الغرفينان غير مرة واحدة ليتزودا بالماء وليتناول المسافرتان بعض المرطبات .

وصل الركب بعد لأي الى مملكة الكنجيين ، فخفق قلب الأميرة بالحب والأمل والسرور واهبط العنقاء الهودج امام بيت امازان ، فعلموا انه رحل منذ ثلاث ساعات ولا يدري احد أي الاقطار اراد .

لم تكن هناك من كلمات حتى في لغة الكنجيين تعبر عن مدى خيبة امل فورموزانتا صاح العنقاء « يا حسرتاه ! هذا ما كنت اخشى ، ان ثلاث الساعات التي امضيتها في الفندق على طريق البصرة مع فرعون مصر الشقي ، ربما كانت ثمناً لسعادتك بقية الحياة . واني اخشى تماماً ان نفتقد امازان بلا امل في العثور عليه » .

سأل العنقاء هل يمكن ان يقابل ام امازان ، فأجابه الخدم ان زوجها قد مات منذ يومين ولا يمكنها ان تكلم احداً . واذ كان للعنقاء بعض النفوذ ، أدخل الأميرة الى قاعة استقبال فاخرة ، يغشى جدرانها خشب البرتقال المطعم بالعاج .

قام رعاة أمازان من الرجال والنساء في أكسية بيض طويلة مذهبة الأطراف ، يقدمون لها مئات من طيب المأكل في آنية مسطحة من الخزف ، بريئة من الأقذار والعفن ، كالأرز والساغو والشعرية والمكرونة ، والعجة والبيض ، واللبن والقشدة والجبن ، وصنوف أخرى مختلفة ، مع خضروات وفواكه لذيذة الطعم فريدة في نكهتها ، ليس لها من نظير في الأقاليم الاخرى ، كما قاموا بتقديم سوائل مرطبة تفضل أفخر أنواع الخمر .

وبينما كانت فورموزانتا تستلقي على فراش من الورد ، وتتناول من الطيبات التي قدمت إليها ، إذ بأربعة من الطواويس تتناغى مرحة مهللة ، طفقت تروّح عليها بأجنحتها الزاهية وأخذ مئتا طير ومئة راعٍ وراعية يرتل كل منهم أنشودة مختلفة عن الأنشودة التي يرتلها الآخر ، وانطلق مع أغنيات الرعاة جمع من الشراهير والبلابل والزقيقات يرصلن بتغنيات

العالية . حينئذٍ اعترفت الأميرة ، أنه لو كان هناك من عظمة تزعظمة بابل لتضاءلت أمام جلال الطبيعة في بلاد الـكنجيين ، وبينما كانت هذه الموسيقى المحببة الجميلة ترسل أنغامها الشجية كانت الدموع تنهمر من عيني الأميرة ، فقالت للآنسة إرلا :

« إنّ هؤلاء الرعاة والراعيات والبلابل والزقيقات، لمتحابون جميعاً . أمّا أنا فمحرومة من البطل الـكنجي الذي إليه تتجه كل عواطفي وأفكاري . وبينما كانت تلك المقـارنات تتخايل أمامها كانت دموعها المنهمرة تتخطى ما قام في نفسها من ضروب العجب والانذهال».

ثم تقدمت العنقاء الى أم أمازان قائلةً : « لا يمكنك ياسيدتي أن تحجبي رؤية أميرة بابل فإنك تعلمين ...

قالت « نعم . أعلم كل شيء ، وحتى مخاطرتها في الفندق وهي في الطريق الى البصرة . إنّ طائراً أسود قص لي هـذا الصباح كل ما حدث ، فكان له من سيء الوقع ما أجنّ ولدي وحمله يغادر منزل والديه » .

قال « ألم تعلمي أن الأميرة أعادتني الى الحياة » .

أجابت « لا ياطفلي العزيز ، إنّ الطائر الأسود أخبرني بموتك الذي لا يتعزى عنـه . فقد تأثرت كثيراً لتلك الخسارة ، ولموت زوجي ، ولترك ولدي منزله في هـذه العجلة . فأمرت أن يغلق بابي في وجه الجميع . هذا ما أخرني عن إدخال الأميرة ، وقـد شرفتني بزيارتهـا . على انّ لديّ من الأمور الهامة ما أود أن أحيط الأميرة علماً به وأود لو شهدتَ الحدث .

وذهبت لترى الأميرة في غرفة أخرى . وكانت تتعثر في خطاها ، فقد بلغت من العمر قرابة ثلاثمئة سنة ، لـكن لا يزال للجمال عليها طابع له روعة ، تدلنا على أنها عندما كانت في الأربعين أو الخمسين بعـد المئتين ، لابدّ وأنها كانت ذات حسن عظيم . وقابلت فورموزانتا في احترام عظيم يشوبه جو من التلهف والحزن أثار في نفس الأميرة كثيراً من الطرب والانشراح .

عزّتها فورموزانتا في فقد زوجها فقالت الأرمل : وا أسفاه ! إنّ هنالك أسباباً لحزنك على فقده أكثر مما تتصورين .

ردّت فورموزانتا « إني متأثرة بدون شك فإنه والد ... » ومنعتها عبراتها عن تتمة الكلام . ثم استطردت قائلة « قمت لأجله بهذه الرحلة ، التي نجوت من أخطارها بأعاجيب ، وبسببه تركت أبي وأعظم بلاط على وجه الأرض ، وعانني ملك مصر الذي أمقته . ثم بعد أن افلت من عبوديته ، واخترقت الجو بحثاً عن الرجل الوحيد الذي احبه ، لم اكد اصل

حتى فرّ مني » ! ثم انحدرت على خديها دموع حزينة، وسكتت.

قالت أم امازان « عندما امرك ملك مصر وانت في الطريق الى البصرة ، وتناولت معه العشاء ، ثم ملأت له كأساً طافحة من خمر شيراس ، ألم تلحظي طيراً اسود بالغرفة ؟ .

قالت الأميرة « نعم . أتذكر الآن انه كان بالغرفة طير اسود لكني لم اعره أدنى انتباه. ولقد أتذكر الآن انه عند ما همّ ملك مصر بأن يقبلني طار من النافذة مرسلاً صيحة عالية، ثم اختفى » .

« واأسفاه ! هذا يا سيدتي سبب شقائنا ، فقد أرسل ابني هذا الطائر الأسود ليوافيه بأخبارك وبصحتك وبكل ما يحدث في بابل ، ثم اقترح أن يذهب إليك سريعاً ويلقي بنفسه عند قدميك ويكرّس بقية حياته لخدمتك . إنك لا تعلمين مقدار حبه لك وحدبه عليك. فإن كل الكنجيين محبون مخلصون ، لكن ولدي أكثرهم عاطفة وأشدهم اخلاصاً . فلما وجدك الطائر الأسود تمرحين في الفندق مع ملك مصر والكاهن اللئيم ، ثم شاهدك تعانقين هذا الملك الذي قتل العنقاء والذي يحمل له ولدي كرهاً دفيناً ، طار عنكما وقد ملكه مقت عظيم من جراء خطئك الجسيم ، وعاد اليوم فأخبرنا بكل شيء» .

« يا للسماء ! إنه لموقف حرج . ففي نفس الوقت الذي كان فيه ولدي يندب فقد والده والعنقاء الحكيم ، أخبرته بأنه ابن عمك عصباً» .

« يا لله ! إبن عمي ! أيمكن هذا يا سيدتي ؟ كيف يكون ذلك ؟ ألهذا القدر سعيدة أنا بقرابته ، وشقية بخصامه ؟

قالت الكنجية « إن ولدي ابن عمك ، وسوف أقنعك بذلك ، إلا أنه لن ينسى الألم الذي أثاره في نفسه معانقتك ملك مصر » .

صاحت فورموزانتا الفاتنة « أقسم به يا عمتي العزيزة ، وبكل القوى الأرزدية ، أن تلك المعانقة كانت بريئة تماماً من الإثم . وهذا برهان قوي لاثبات حبي لولدك ، فلأجله خالفت والدي وبسببه رحلت من الفرات الى الكنج ، ووقعت بين يدي فرعون مصر الخسيس ولم أتمكن من الافلات منه إلا بالخديعة ، ثم إني لأدعو بقايا العنقاء التي كانت في جبي للشهادة ، . لكن كيف يكون ولدك وقد ولد على شواطىء الكنج ابن عم لي ، وقد حكمت عائلتي على شواطىء الفرات قروناً عديدة ؟ »

قالت الكنجية المبجلة « إنك تعلمين ان عمك الأكبر ألديا كان ملكاً لبابل وأن والد بيلوس انتزع منه العرش . وتعلمين أن ألديا هذا كان له ولد يدعى ألديا كذلك ، فلما طارده والدك ، فرّ الى مملكتنا واتخذ اسماً مستعاراً ، وتزوج مني فأنجبت له الأمير الصغير ألبا-

امازان ، أكثر الناس جمالاً وشجاعة وكرماً ، ولكنه الآن أكثرهم تعاسة وشقاء ؟ . ذهب الى حقل بابل مأخوذاً بجمال الفتاتان ، فشغف بك منذ رآك ، وحزن الآن لاعتقاده بأنك خنته ، وربما لا أراه بعد ذلك » . ثم أفضت إليها بجميع أنساب عائلة الدنيا . لكن فورموزانتا لم تبد أي اهتمام بذلك .

قالت فورموزانتا « عجباً يا سيدتي ! ألنا أن نبحث عن الغرض الذي يحرك رغبتنا ؟ إن قلبي يصدقك تماماً . ولكن أين الدنيا أمازان ؟ أين قربي ؟ أين ملكي أين حياتي ؟ اي الطرق اتبع ؟ فأجد في اثره ، وسأبحث عنه في كل كرة خلقها الاله الازلي ، والتي يكون امازان اذا هبطها أزين ما فيها . سأذهب الى سهل والدرع والدبران . سأذهب وأفضي له بحبي واقدمه براءتي »

ثم إن العنقاء برأ الأميرة من الجريمة التي نسبها اليها الطائر الأسود ، إلا انه من الضروري ألا يظل امازان مخدوعاً وينبغي ان يعثر به . فأوفدت الطيور في كل فج ، ورحلت الخراتيت الى كل صقع ، ثم وصلت الأنباء اخيراً بأن امازان في طريقه الى الصين .

قالت الأميرة : « حسن ، إذن لنرحل الى الصين ، فسأبحث عنه متحدية كل صعوبة وكل خطر ، فالرحلة ليست طويلة وآمل أن اعيد اليك ولدك في اربع عشرة يوماً على الأكثر » .

وعندئذٍ انحدرت الدموع من عيني الأميرة وأم امازان ، ثم تعانقتا في حنان صدر من اعماق قلبيهما ، وسرعان ما امر العنقاء بعربة يجرها ستة خراتيت ، وجهزت ام امازان ألفي جواد نفرسانها من الكنجيين ، واهدت الأميرة آلافاً من الجواهر النادرة . امّا العنقاء فقد ساءه الحادث المنكر الذي تسبب فيه الطائر الأسود بحمقه ، فأمر جميع الطيور السود ان تغادر البلاد . ومذ ذاك لم ير واحد منها على شطئان نهر الكنج .

الفصل الخامس

طواف فورموزانتا في الصين واسقوثيا

بحثاً عن أمازان

حملت الخراتيت فورموزانتا وإيرلا والعنقاء الى كمبالو عاصمة الصين في أقل من مئة أيام ، وكانت تلك المدينة أضخم من عاصمة بابل وتختلف في ظاهرها عنها كل الاختلاف ، وأصبح من المحتمل أن تبعث تلك المناظر المختلفة والاحوال الغريبة بعض السلوى في نفس فورموزانتا لو لم يستحوذ أمازان على انتباهها جملة .

لما علم أمبراطور الصين أن أميرة بابل على أبواب المدينة ، أرسل في الحال أربعة آلاف مأمور صيني في أثواب الاحتفالات لاستقبالها ، فانحنوا خضعاً لديها وتقدموا اليها برسالة كتبت بأحرف من الذهب على نسيج من الحرير الارجواني . وحينئذٍ قالت فورموزانتا أنها لو ملكت أربعة آلاف لسان لما تأخرت في أن تشكر كل منهم ، أما وان ليس لها غير لسان واحد ، فإنها تأمل أن يكتفوا بأن تشكرهم إجمالاً . ثم وجهوها الى حيث كان الامبراطور باحترام عظيم .

كان الامبراطور أحكم وأعدل ملوك العالم وأكثرهم حبًّا للخير ، فهو أول من فلح حقلاً صغيراً ، زرعه بيديه الامبراطوريتين ليجعل من الزراعة عملاً شريفاً عند رعيته . وثانياً يخجل أن قوانين كل البلاد الاخرى قد قصرت العقوبات على الجرائم فحسب ، أما هو فأول من نص في قوانينه على ثواب للفضيلة والخير . وبادر فنفى عصابة من البنزيين هبطت من أطراف الغرب آملة أن تفلح في أن تجبر الصينيين على أن يفكروا كما يفكرون ، فخلطوا بالثروة والتشاريف تحت ستار الدعوى بالعمل على تلقين الحقائق ، وقد برر طردهم بتلك الكلمات التي سجلت في السجلات التاريخية للامبراطورية :

« يمكنكم أن تفعلوا هنا كل ما فعلتموه من أضرار خارج بلادي . حضرتم لتلقنوا مذاهب الاضطهاد لأكثر الأمم تسمحاً على وجه الارض . ولقد أردكم ثانية حتى لا اضطر أن أعاقبكم ، ولسوف تساقون الى حدود مملكتي بعظيم الاحترام ، مزودين بكل

الحاجبات التي تلزمكم حتى تصلوا الى حدود نصف الكرة التي هبطتم منها . فأرحلوا بسلام إن استطعتم ان تكونوا رسل سلام ، ولا تعودوا » .

سمعت اميرة بابل تلك الكلمات ورأت ذلك الحزم ، فغمرها الانشراح ، وتأكدت تماماً من حسن استقبالها في البلاط حيث انها كانت بعيدة كل البعد عن أي مذهب من مذاهب التعصب . وتفضل أمبراطور الصين حينما تناول معها طعام الغداء وجهاً لوجه،أن يتحاشى الرسميات الثقيلة . ولما قدمت له العنقاء دللها بلطف وأجلسها على مقعده . وتوسلت اليه الأميرة أن يبحث عن أمازان في مدينة كمبالو ، وأفضت اليه خلال ذلك بمشاعرها غير مخفية تلك العاطفة الجارفة التي تحرق قلبها شوقاً نحو هذا البطل الشاب .

قال امبراطور الصين« انه شرّف حاشيتي بزيارته ، ففتنت بهذا الأمازان اللطيف. والحق انه في أشد حالات الكرب والضيق ، ولكن رقة حاشيته وكرم خلقه ، ولا شك ، أشد تأثيراً من كربه وضيقه . ليس من رجالي المخلصين من هو اعظم منه قدرة ، ولا من رجال الدين عندي من يفوقه معرفة ، ولا من رجالي العسكريين من يبزه في المهارة الحربية او البطولة . فلو اصابني سوء الحظ وخذلني النسيان والهانكتي ورغبت في ان أكون غازياً ، لما طمعت في شيء طمعي في ان يكون امازان على رأس جيوشي . ولن يداخلني ادنى شك في اني سأفتح الكون كله . ولشد ما آسف اذ كان الحزن في بعض الأحيان سبباً لفشله» .

قالت فورموزانتا بكثير من الانفعال والحزن مازجهما ريح من التأنيب واللوم«عجباً ! لِمَ لَمْ تدعه ليتناول طعام الغداء معي ؟ لشد ما صدمتني . أتوسل اليك ان ترسل في طلبه حالاً» .

اجاب امبراطور الصين « انه رحل في الصباح الباكر، ولم اعرف وجهته » .

التفتت فورموزانتا للعنقاء وقالت : « هل رأيت في حياتك من آنسة هي أتعس مني ؟ ثم استطردت حديثها مع الامبراطور قائلة : « كيف سمح لنفسه أن يغادر بلاطكم العظيم فجأة ، هذا البلاط الذي اعتقد ان الانسان يجب ان يمضي فيه حياته » .

قال الامبراطور : « اسمعي حقيقة الأمر : أحبته إحدى فتيات العائلة الجليلات حبًّا جنونيًّا ورغبت في مقابلته ظهر اليوم ، إلا أنه رحل في الفجر تاركاً لها هذه القصاصة التي كان ثمنها فيضان جارف من الدمع » .

« أيتها الآنسة المغوانية الحسناء ، إنك التستحقين قلباً لم يقدم من قبل على مذبح آخر . إني أقسمت للآلهة الخالدين ألا أحب أحداً غير فورموزانتا ، أميرة بابل ، وأعلمها كيف يقهر الانسان رغبات قلبه بالتنقل والرحلات . ومن سوء الحظ أنها استسلمت لفرعون مصر

الخسيس ! إني لأتعس الرجال ! فقدت أبي ، والعنقاء ، وضاع أملي في حب فورموزانتا ، فتركت أمي في كرب وغم وضيق ، وهجرت منزلي ووطني ، ذلك بأني لم أحتمل البقاء لحظة واحدة في المكان الذي بلغ سمعي فيه أن فورموزانتا تحب سواي ثم أقسمت لأجوبن العالم ، وأكونن مخلصاً . فاذا انا حنثت بوعدي ، فقد تحتقرينني ، وقد تعاقبني الآلهة ، فاختاري يا سيدتي حبيباً آخر وكوني مخلصة مثلي » .

صاحت فورموزانتا الجميلة « يا للعجب ! اعطني هذا الكتاب العجيب ان فيه بعض العزاء ، ثم إني لسعيدة برغم سوء حظي . أمن أجلي يتبرأ أمازان من قرب أميرة الصين ! ليس في العالم من هو أشد منه ثباتاً وعزماً . إنه زودني بأثمن مثل أعلى . والعنقاء تعلم أني لست في حاجة اليه . كم هو قاس أن يحرم انسان من حبيبه ، تلقاء معانقة منحت بعفاف حقيقي . لكن خبرني الى أين ذهب ؟ تلطف واعلمني . لسوف أرحل في الحال » .

أخبرها الامبراطور أن حبيبها أخذ طريقه إلى اسقوثيا ، على ما وصل اليه من التقارير . فجهزت الخرانيت في لحظة ، واستمرت فورموزانتا في رحلتها مع العنقاء ووصيفتها إرلا وحاشيتها ، بعد أن حباها الامبراطور بكثير من العطف .

عندما وصلت اسقوثيا بان لها إلى أي حد تتباين الحكومات ويختلف الافراد ، وأنهم سيظلون على اختلافهم وتباينهم ، حتى تمحو العقول الكريمة ، التي حملت مشاعل النور ، شيئاً بعد شيء ، تلك السحابة السوداء التي كست الارض أجيالاً كثيرة والى أن تنبت في الأقاليم الهمجية نفوس عظيمة يكون لها من الاحتمال والقوة ما يكفي لقلب البهائم أناسي .

ليس في اسقوثيا مدناً ، ومن ثمت ليس فيها فنون رفيعة ، لا يرى هناك من شيء غير الحقول الشاسعة الفسيحة حيث تعيش القبائل في الخيام والصوامع ، فكان لتلك المناظر من الوقع ما أفعم نفس الأميرة اشمئزازاً وروعاً . فلما سألت في أية خيمة أو صومعة يقطن الملك ، علمت أنه رحل منذ ثمانية أيام على رأس ثلاثمئة الف فارس ليهاجم عم الأميرة ألدبا الفاتنة التي فرت معه .

صاحت فورموزانتا « ماذا ! أفر مع ابنة عمي ، ما كنت لأتصور مثل ذلك . ثم ماذا ! أأصبحت ابنة عمي ملكة ، وكانت تسعد السعادة كلها في توددها الي ، ولم أتزوج بعد ؟! ثم توجهت لساعتها شطر صومعة الملك تدفعها رغبة خاصة .

أضفت مقابلتهما في مثل هذه الأقطار البعيدة ، والحوادث التي افضت بها كل منهما للأخرى على هذه الاحاديث نوعاً من الجدة ، جعلتهما تنسيان أنهما كانتا على بغض ، وحل في نفسيهما محل العطف الحقيقي ضرب من الوهم المادي ، فتحاضنتا والعبرات في مآقيهما .

ثم بدت منهما ظواهر دلت على الخلاص وتمامه ، فلما يكون لهما من مثيل بين جدران القصور .

تذكرت ألديا الحسناء والوصيفة إرلا ، وأهدت فورموزانتا من جلود الزبايز الثمينة . فأهدتها فورموزانتا تلقاء ذلك بعض الجواهر . أمّا الحرب بين الملكين فكانت موضوع الحديث بين النـاس . وقد رثينا لمصير الجنود الذين اجبروا على خوض غمارها ، وذهابهم ضحية لشهوات الأميرين ، ذلك في حين ان شخصين كريمين قد يفضان ما بينهما من شحناء في اقل من ساعة ، من غير أن تسقط رأس واحدة . ولكن مدار الحديث كان عن ذلك الأجنبي الذي فهر الاسود ، وأهدى أثمن الجواهر في الـكون ، وكتب القصائد الغزليـة ، ثم ارتد أنمس الرجال وأهتمام ، لانه آمن وصدق بما نقله اليه طائر أسود .

قالت ألديا « إنه أخي العزيز » .

صاحت فورموزانتا إنه حبيبي ، ولا أشك في إنك رأيته ، ألا يزال هنا ؟ إنه لن يغادرك يا ابنـة العم فجأة كما غادر ملك الصين ، اذ انه يعلم انه اخوك » .

« أرأيته يا لله ! « نعم : أمضى اربعة أيام كاملة معي . عجباً يا إبنة العم ! ما أشد لومي على أخي لانه قولاً مريضاً قلب عقله رأساً على عقب . انه يطوف العالم هائماً بغير غاية . تخيلي عظيم ذهوله لقد رفض مقابلة أجمل وأفتن امرأة في اسقوثيا ، ثم رحل بعد أن ترك لها كتاباً أدخل في نفسها اليأس وتوجه لزيارة السّـمـريـين .

صاحت فورموزانتا مهللة « أشكرك يا إلهي ، رفض آخر في سبيلي ! إن حظي لمن السعادة بحيث يكون دائماً فوق آمالي ، كذلك سوء حظي فقد فاق كل أوهامي ومخاوفي . أعطني هذا الـكتاب الساحر ، فسوف أرحل في أثره وكلي ثقة به . وداعاً يا إبنة العم . أما زال بين السمريين وسأطير وألحق به » .

اعتقدت ألديا أن إبنة عمها لا تزال في اضطراب أشد من اضطراب أخيها . ولما كانت قد وعت بنفسها نتائج ذلك الوباء المعدي ، وانها بذاتها قد تركت مباهج بابل وعظمتها من أجل ملك اسقوثيـا ، وأنّ النساء دائماً يهتممن عن هذه الحماقات التي هي من أثر الحب ، أحست بكرب فورموزانتا وغمها ، فتمنت لها رحلة سعيدة ، ووعدتها بأن تدافع عنها لدى أخيها إذا أسعدها الحظ برؤيته مرة ثانية .

الفصل السادس

فورموزانتا تتابع رحلتها

غادرت أميرة بابل والعنقاء إسقوثيا ، وسرعان ما وصلا امبراطورية السمريين ، وتدعى الآن روسيا . وهي في الواقع دولة يقل عدد سكانها عن إسقوثيا ، إلا أن رقعتها تفوق منها اتساعاً وامتداداً .

دخلت الأميرة مدينة عظيمة بعد سفر أيام قلائل ، تلك المدينة التي عمل دائماً على ترتيبها وتفخيمها فيما بعد ذلك أسرتها المالكة . ووقع في ذلك الحين أن كانت الامبراطورة تتجول في ممتلكاتها عند الحدود الاوربية الاسيوية ، تتفقد أحوال رعيتها بنفسها ، وتعالج منازعاتهم ومشاحناتهم فتسويها بحكمتها وعدل أحكامها .

حينما علم حاكم المدينة الأعلى بقدوم السيدة البابلية والعنقاء ، لم يتوان لحظة واحدة في أن يقوم لها بكل ما كان في مراسم دولته من وسائل التشريف والتكريم ، متأكداً أن الامبراطورة ، وهي أكثر أباطرة العالم كرماً وأدباً ، ستنشرح وتبتهج عندما تعلم ، أنه استقبل بالعظمة والإكبار سيدة شريفة مبجلة ، ما كانت لتستقبل بأقل من ذلك ، لو أن الإمبراطورة نفسها كانت في المدينة .

أضيفت الأميرة في القصر وأقيمت لها واجبات الضيافة بكثير من الأبهة والبهاء ، وكان الحاكم السمري وهو فيلسوف طبيعي عظيم ، ينتهز الفرص التي تأوي فيها الأميرة للراحة ليحادث العنقاء ويسلي نفسه بمنافشته . أخبره العنقاء أنه زار بلاد السمريين خلال إحدى رحلاته . ثم قال : كيف تحدث هذه التغييرات في مثل هذا الوقت القصير ؟ فلما كنت هنا منذ ثلاثمئة سنة ، لم ألحظ غير الطبيعة الجامدة بكل ما سيها ، أما الآن فأدرك أن هنا فناً وصناعة ورقة وعظمة .

قال السمري : « بدأ هذا الانقلاب الضخم رجل واحد ، والآن توجهه الى طريق الكمال امرأة واحدة ، هي سيدة تعظم في تشريعاتها إيزيس المصرية ، أو سيريس اليونانية ، وكان معظم المشترعين الأسف وسوء الحظ من ضعيفي الإدراك خاملي العقول ، فكانوا يجنحون الى الاستبداد ، فيصبح فهمهم وإدراكهم للممالك التي يحكمونها متعذراً عسيراً

لقد كان ينظر كل منهم الى جنسه على أنهم البشر المختارون على وجه الأرض ، وأن واجبهم أن يناصبوا الآخرين العداء . كوّنوا معاهد ، وأدخلوا عادات،وأسسوا معتقدات استأثروا بها لأنفسهم . إن المصريين الذين بلغت شهرتهم ذلك القدر البالغ من العظمة بتلك الأكوام الهائلة من الأحجار المدعوة الاهرام ، قد حقروا أنفسهم بخرافاتهم الدينيـة الهمجية ، واحتقروا كل الأمم الأخرى على أنهم أنجاس ملوّثون . ورفضوا أي نوع من الاحتكاك بهم ومعاشرتهم ، وليس من المصريين ، غير أولئك المتصلين بالبلاط والذين هم يعلمون بأخلاقهم وعادات الدهماء مَنْ يقبل ان يأكل في صحن استعمله اجنبي . وكذلك كان كهنتهم قساة غلاظاً،وافعالهم مناقضة للعقل . إذ أنه من الأفضل والحالة هذه ألاّ توجد قوانين بالمرة ، وان نتبع تلك الاحساسات التي ثبتتها في قلوبنا الطبيعية من خير وشر ، على أن تخضع الرعية لمثل هذه النظامات الجائرة ».

«أما امبراطورتنا فاتخذت نظاماً يخالف ذلك النظام تماماً ، واعتبرت انه لزام على كل ممتلكاتها التي تتوحد مع جميع الأصقاع الواقعة بين المدارين ، وعلى أن يكون اتباع هذه القواعد مع جميع الذين يقطنون تلك الأصقاع ، لزام وفرض . وكان أول قانون ، بل القانون الجوهري من قوانينها ، هو التسمح الشامل مع جميع الأديان وازال العقاب الصارم جزاء أي خطأ يرتكب . وأدركت بعبقريتها النفاذة أنه مهما اختلفت أساليب العبادة الدينية فالفضيلة واحدة في كل مكان . وبهذا المبدأ وحّدت بين شعوبها وبين جميع أمم الأرض ، ولن يمضي وقت طويل حتى يعتبر السمريين أن الاسكندناويين والصينيين اخوانهم في البشرية . ولم تكتف بهذا بل صممت أن تنشىء هذا التسمح العظيم الذي هو أشد رباط للصلات الاجتماعية ، مع من يجاورها من الأمم ، فأضفى عليها لهذا لقب « أم الشعب » ولوانها استمرت على هذا ، إذن لأضفى عليها لقب المنعمة على الجنس البشري »

« كان الرجال قبل هذا الزمان إذا آنسوا في أنفسهم قوة وجبروتاً ، هبطوا بقبائلهم وجيوشهم على الممالك الأخرى ، يخربونها وينهبون ما فيها ويشربون من دماء الأطفال الذين في الواقع منحدرون وراثة من آبائهم وأجدادهم . ومما يؤسف له شديد الأسف ان هؤلاء القتلة كانوا يلقبون أبطالاً ، كما تعتبر سرقاتهم من الأعمال العظيمة الباهرة . لكن انتحت امبراطورتنا الى العظمة وسيلة تخالف تلك الوسائل تماماً ، فأرسلت بجيوشها ليكونوا رسل السلام ، لا لتحول بين الرجال وبين التخريب والهدم ، بل لتجبرهم على أن يحب كل منهم صاحبه وان يكون عوناً له . وكان شعارها دائماً نشر لواء الأمن والاطمئنان العام ».

فتن العنقاء بكل ما سمع من هذا الرجل النبيل ، فقال إنه بالرغم من أنه عاش في هذه

الدنيا مرمة وعشرين ألف سنة وستة أشهر، لم يرَ لهذا مثيلاً . ثم استنبأ بعد ذلك عن صديقه أمازان واستفسر عن اخباره، فروى عنه السمريون أخباراً تشابه تلك التي سمعتها الأميرة من الصينيين والاصقوثيين، فقد كانت خطة أمازان الدائمة أن يفر من أي بلاط يزوره في اللحظة التي يبدو على أية سيدة أنها شاهدته ورغبت في أن تأتلف به. فأخبر العنقاء فورموزانتا في الحال بهذا المثال الحي من اخلاص أمازان، وهو اخلاص زاد من دهشته، إذ انه لم يتصور أن أميرته سمعت به أصلاً .

توجه أمازان الى اسكندناوه، حيث سر من مناظر لا زالت تثير في نفسه الدهشة والعجب. شاهد في تلك المملكة، الحرية والملكية تعيشان جنباً الى جنب، وتلك حال لا يخالها تشاكل ما عليه الممالك الأخرى، فهناك يشارك فلاحو الأرض، النبلاء وكبار الأعيان في التشريع. لكن مما زاد في دهشته أنه رأى في مكان آخر ما يفوق هذا عجباً وبُعداً عن كل مألوف: أمير تلحظ فيه الشباب الفذ والعدل والاستقامة، وقد اكتسب سلطته الملكية بتقربه الى شعبه والتوثيق لذلك بكل طريق مستطاع .

ثم إنه شاهد خلال رحلته فيلسوفاً على عرش سرماتيا، كان الأجدر به أن يسمى ملك الفوضى، لأنه كان يرأس مئة ألف من صغار الملوك. كان صوت أحدهم يكفي بأن يلغي ما صمم عليه الجميع. إن الصعوبة التي لاقاها إيلوس في أن يلزم الرياح العاتية حدودها الطبيعية، لم تكن لتقرن بالصعوبة التي يلاقيها هذا الملك في التوفيق بين نفوس رعيته المشوشة المتنافرة. وكان ايلوس هذا ربان سفينة ماهر محاطة بأعاصير أبدية، إلا إنها لم تغرق، لانه كان ربّاناً ماهراً .

إخترق أمازان تلك الممالك المتباينة المختلفة تمام الاختلاف عن بلاده، إلاّ أنه أعرض عن كل ما أظهر النساء نحوه من الحب والتودد، بالرغم من القلق الدائم الذي كان يساور نفسه من معانقة فورموزانتا لملك مصر، مصمماً أن يضع لها مثالاً رائعاً للاخلاص الفريد .

أمّا الأميرة فكانت تتبعه دائماً عن قرب، ونادراً ما تخلفت عن تأثره يوماً واحداً أو يومين، ذلك من غير أن يكل أحدهما أو يفقد الآخر دقيقة واحدة في اقتفاء أثر صاحبه.

جاب أمازان قارة المانيا الفسيحة، حيث لحظ هناك وقد ملك عليه العجب كل شعوره وإحساساته، ذلك التقدم الذي أنتجه العقل والفلسفة في الغرب، حتى أنّ أمراءها كانوا فطنين أذكياء حتى لقد أصبحوا قادة الفكر والحرية. ولم يعتمدوا في تعليمهم على أناس يرغبون في أن يخدعوهم، أو هم بأنفسهم مخدوعين، وبهذه الوسيلة شبوا على معرفة الآداب البشرية واحتقار الخرافات .

فقد أبعدوا عن دولهم تلك العادة التي لا معنى لها ، والتي أنهكت وأفقرت البلاد الجنوبية ، والتي كان من مقتضاها أن يدفن في سجون كبيرة مظلمة ، عدد من الأنفس لانهاية له من كلا الجنسين ، وقد فصلوا عن بعضهم البعض فصلاً أبديًّا ، وأقسموا على أن لا يتواصلوا بصورة ما . وساعد هذا الجنون على تخريب الأرض وتحويلها بلقعاً يباباً بطريقة تقصر عنها أشدّ الحروب وأعتاها .

وعلى العكس من تلك النظامات الهمجية ، المنافية لقوانين الطبيعة ونفع المجتمع أصبح أمراء الغرب هم المحسنون على أبناء جلدتهم فأبطلوا شروراً مضرة ، هدّامة منبوذة ، وعلى الجملة أقدم الرجال في تلك الأصقاع الفسيحة على تحكيم عقولهم ، بينما لا تزال العقيدة الراسخة بين الناس في كل مكان آخر ، أنهم لن يحكموا إلاّ بالقياس على جهلهم .

الفصل السابع

زيارة أمازان للبلد الأبيض

وصل أمازان باتافيا بعد جولته في ألمانيا ، ولقد خفف كثيراً من هواجسه الدائمة ما لحظه من شبه واهن بين أهلها ، ومواطنيه الكنجيين السعداء . لحظ هناك الأمن والحرية والمساواة مع التسمح الديني . أمّا نساؤها فمن اللواتي لا يبالين الحب ، فلم تبد له أيهنّ شيئاً من العواطف ، ذلك الشيء الذي لم يصادفه من قبل ، بيد أن الحقيقة ، أنه لو أظهر ميلاً للتعرف بهنّ لما تمنعنَ على الرغم أنه لم يكن ليشعر نحوهنَّ بأدنى ميل . فإن أفكاره كانت بعيدة عن غزو قلوبهنَّ ، وكادت تلحق به فورموزانتا في هذه الأمة البليدة الجامدة ، لو لم يرحل قبل وصولها بلحظات .

سمع أمازان البتافيين يمدحون جزيرة ما تدعى البلد الأبيض ، فدفعه حب الاستطلاع أن يبحر وخراتيته على سفينة اليها ، فساقتهم الى هنالك ريح شرقية لطيفة في ساعات قليلة ، وقد فاقت هذه البلاد شهرة مدنية صور والاطلنطيس .

تبعته فورموزانتا الفاتنة الى ضفاف الفولجا والفستولا والإلب والويزر كما لو كانت تقتفي الأثر ، ولم تتأخر عن لحاقه يوماً أو يومين ، حتى وصلت سريعاً الى مصب الرين حيث يلتقي بمائه في المحيط الألماني .

وهناك علمت أن حبيبها قد أبحر تواً الى البلد الأبيض ، فتذكرت أنها رأت السفينة التي أبحر بها فلم تمالك نفسها وأرسلت صيحات الفرح التي أثارت كثيراً من دهشة النساء البتافيات ، غير متصورات أن يكون شاب صغير مسبباً لمثل هذا الطرب العظيم . كذلك شاهدن العنقاء ، لكن بقليل من الانتباه ، حتى قدرنَ ثمن ريشه بأنه لا يبلغ من القيمة مبلغ ريش بطهم وطيورهم المائية الأخرى .

واستأجرت اميرة بابل سفينتين تنقلانها وكل حاشيتها الى تلك الجزيرة السعيدة التي سوف تحوي بعد قليل ، موضع رغباتها الوحيد ، وجوهر حياتها وإله حبها .

هبت ريح عاتية من الغرب في اللحظة التي رسى فيها امازان الخاص على ساحل البلد الأبيض الذي يكتنفه البحر ، كما عاقت سفن الأميرة البابلية في اللحظة التي تأهبت فيها للإبحار ،

فاستولى عليها حزن عميق ، فتوجهت الى غرفتها وعزمت على البقاء هناك حتى تهدأ الرياح ، إلا انها استمرت على عنفها ثمانية ايام متوالية . وقد استخدمت الأميرة خلالها وصيفتها إرلا في قراءة قصص خرافية لتسليتها ، وهذه القصص لم يكتبها البتافيون في الواقع، لكنهم لما انهم ذوي صلة تجارية بالعالم ، فقد تاجروا كذلك في العقل كما يتاجرون في سلع البلاد الأخرى، واشترت الأميرة من بائع الكتب « مارك ميديل راي » كل الروايات التي كتبها الاوزونيـون والولشيون والتي قضت الحكمة بأن يحظر بيعها لتلك الأمم حرصاً على إغناء جيرانهم البتافيين وتوقعت الأميرة ان تجد في هذه الروايات شيئاً من الشبه بمخاطراتهـا ، فيخفف ذلك بعض همومها وأشجانها . فكانت وصيفة الشرف تقرأ والعنقاء ينتقد ويبدي ملاحظاته ، ولما لم تجد الأمـيرة أقل شبه بين ما جاء في رواية « فتاة الريف السعيدة » او رواية «صوفا» او رواية « تانسية » وبين مغامراتها ، كانت تستوقف القارىء في كل لحظة مستفسرة عن حال الريح .

الفصل الثامن

أمازان يغادر البلد الأبيض

ركب أمازان عربته يجرها خراتيته الست ميمماً شطر عاصمة البلد الابيض وقد اتجهت كل افكاره خلال ذلك الى عزيزته الأميرة ، بيد انه لحظ على مسافة قريبة عربة قد إنطمرت في حفرة صغيرة ، وراح الخدم يطلبون النجدة من كل مكان بينما جلس صاحب العربة في مقعده يدخن غليونه بهدوء عظيم من غير ان يظهر عليه اي ملل او ضجر ، وكان اسمه لورد « وَتْ ـ ذِنْ » في اللغة التي ترجمت منها هذه المذكرات وترجمته « ثم ماذا » .

فزع امازان لمساعدته ، فأعاد العربة بمفرده الى وضعها الصحيح ، ذلك بأن قوته مقيسة بقوة بقية الرجال ، كانت فائقة فذة . لم يلق لورد « وَتْ ـ ذِنْ » اليه بالاً ، غير انه قال « رجل قوي الأصلاب وحق الرب » وعندئذٍ حضر بعض الجيران فلما لم يجدوا داعٍ لحضورهم طغى عليهم انفعال شديد فأخذوا يسبون الأجنبي ودعوه بالكلب الغريب ، وتحدوه المبارزة والملاكمة .

أمسك أمازان في كل يد بأربعة منهم ودفعهم عنه عشرون خطوة ، فلما رأى الآخرون ذلك ، رفعوا قبعاتهم وانحنوا أمامه باحترام عظيم ، وطلبوا منه أن يقبل تكريمهم له بنخب يشربه معهم . فكلفهم ذلك الاحتفاء مبلغاً من المال لم يدر بخلدهم مثله . وحينذاك نظر اليه لورد « وت — ذن » بعين الاعتبار والاجلال ودعاه لتناول الغداء معه في منزله الريفي الذي يبعد نحواً من ثلاثة أميال ، فلما قبلت دعوته ، ركب مع أمازان عربته تاركاً العربة الخدم

وبعد ربع ساعة نظر لورد « وَتْ — ذنْ » الى أمازان وقال « كيف حالك (وهي عبارة في الواقع لا تنقل للذهن أي معنى) لديك ستة خراتيت بديعة » . ثم استمر يدخن غليونه

أخبره الرحالة بأن خراتيته كانوا دائماً في خدمته ، وقد أحضرهم من بلاد الكنجيين وبذلك اختلق سبباً ليطلعه على حقيقة أمره مع اميرة بابل ، وقبلتها المشئومة لفرعون مصر فلم يحر الآخر أي جواب، غير مبال إذ كان هناك في العالم مثل هؤلاء ، كملك مصر وأميرة بابل

صمت اللورد ربع ساعة أخرى ثم سأل صاحبه مرة ثانية « كيف حالك » وهل عند الكنجيين أي نوع من الهواء الجيد؟

رد أمازان بأدبه المعتاد قائلاً إنهم لا يأكلون إخوانهم على شطآن الكنج . ثم شرح له ذلك المذهب الذي سمي بعد ذلك بقرون كثيرة بالفلسفة الفيثاغورية ، وأما اللورد فأخذه النوم في تلك الأثناء ولم يستيقظ إلا وهو في منزله.

وكان متزوجاً من فتاة صغيرة جميلة ، أضفت الطبيعة عليها نفساً فيها من الحيوية ودقة الاحساس ، بقدر ماكان في زوجها من القبح والبغضاء . وقد حضر في ذلك اليوم لتناول الغداء معها بعض الأسياد الذين تلحظ فيهم اخلاقاً وطباعاً متباينة ، ذلك بأن تلك البلاد ظلت في حكم الأجانب دائماً،فأدخلت الاسر التي وفدت مع الأمراء الغزاة عاداتها وتقاليدها المختلفة ، فكان في هذه الجماعة فئة لهم مشارب مستحبة ، واخرى فائقة العبقرية ، وقلائل استعمقوا في الدرس .

ولم يكن لسيدة المنزل شيئاً من ذلك التكلف الثقيل والتواضع المصطنع الذي كان وصمة في جبين نساء البلاد ، فانها لم تكن لتخفي بنظرة احتقار او صمت متكلف ، ضعف خيالها وافكارها ، او بتلك الحيرة الوضيعة عندما تفتقد المرأة شيئاً تتحدث فيه . فلم تكن هناك من إمرأة مثلها تستميل السمع بحديثها .

قابلت أمازان بكياسة وادب كانا وفق طبيعتها تماماً ، فجمال هذا الأجنبي ، والموازنة الاختيارية التي لم تستطع الافلاع عنها بينه وبين زوجها القبيح ، لم تزد من سعادتها او ثناءها ورضاها شيئاً .

وعند الطعام ، أجلست السيدة أمازان الى جانبها واخذت تقدم اليه صنوفاً من «المبار» فأخبرها بأن الكنجيين لا يغتذون مطلقاً بشيء تلقى من الآلهة هبة الحياة السماوية . وكانت حوادث حياته الأولى واحوال الكنجيين وتقدم الفنون والدين موضوع المحادثة الطيبة المستطاب طوال وقت الطعام الذي استمر حتى المساء ، حيث كان لورد «وت — ذن» لا يفعل شيئاً اللهمّ إلا جذب الزجاجة اليه وطلب الهواء .

بعد الغداء ، والسيدة تصب لهم الشاي ، وما زالت تشبع عينيها بالنظر الى الأجنبي ، طرق حديثاً طويلاً مع أحد اعضاء البرلمان ، وكلّ يعلم انه حتى في ذلك الحين كان هناك برلمان يدعى « ويتناجنموت » او جمعية العقلاء ، واستفهم امازان عن المعاهد والقوانين والعادات والآداب وقوات الجند والفنون التي ظفرت بالبلاد الى ذلك القدر البالغ من العظمة ، فردّ عليه عضو البرلمان قائلاً .

« إننا ظللنا عراة لوقت طويل برغم ان إقليمنا ليس حارّاً . كذلك استعبدنا اناس

حضروا من بلاد « زحل » القديمة التي يرويها التيبر ، الا ان الأذى الذي ألحقه بعضنا ببعض ، فاق كثيراً كل ما قاسيناه من غزاتنا الاولين .

إنّ عصور التهتك والرذيلة عقّبت عليها عصور من الهمجية والاضطراب إن في بلادنا من الاضطراب والقلق ما يفوق اضطراب ذلك المحيط الذي يكتنفنا، فقد ضرجتها وخضبتها بالدماء خلافاتنا الحزبية ، وسقط كثير من الرؤوس المتوجة بطريقة قاسية ، كما قضى اكثر من مئة امير من اصحاب الدم الملكي حياتهم على المقصلة ، بينما كانت تنتزع قلوب اشباعهم من صدورهم وتلقى في وجوههم ، وعلى الجملة فإنه من اختصاص الجلاّد ان يكتب تاريخ جزيرتنا نظراً لأن هذه الشخصية هي التي فصلت في كل قضايانا الهامة .

ومن اجل ان تكمل تلك الأهوال ، لم يمض غير قليل حتى ظهر رجال يلبسون مئزراً سوداً . وآخرون يلبسون قمصاناً بيضاً فوق ارديتهم ، فاستبدوا واعتدوا ، غير متسمحين ، ونجحوا في إشراك الأمة في جنونهم، ومن ثمت انقسمت بلادنا حزبين : القتلة والمقتولين ، والسفاحين والمسفوحة دماؤهم ، والنهاب والعبيد . كل ذلك باسم الله وفي سبيل الوصول الى الله .

من ذا الذي كان يتصور ان تنبت من خلال تلك الهوة الفظيعة وعماء الانقسام والنزاع والقسوة ، والجهل والتعصب ، حكومة يحق ان يقال الآن إنها أبرع الحكومات في العالم وأكملهنّ . ذلك ما حدث . فعلى هذه الامة الحربية التجارية الذكية المستنيرة ، يقوم امير ذو ثراء وشرف قادر كل القدرة على الخير ، عاجز كل العجز عن الشر ، ذلك بأن النبلاء من ناحية وممثلي الشعب من أخرى ، يشاركونه التشريع .

وقد رأينا انه بحكم قَـدَرٍ مُـقَـدّرٍ من الاحداث ، والحروب الأهليـة والاستبداد والشقاء ، قد خربت البلاد عند ما جنح ملوكنا الى التفرد بالسلطة الاختيارية الاستبدادية ، بقدر ما ساد بيننا الأمن والثراء والسعادة الكلية عنـد ما اكتفى الأمير بسلطة محدودة . واختل النظام عنـد ما كنا نتقاحن ونتناقش في الأشياء والأسرار الخفية ، لكن تلك الفوضى قد انتهت عند ما عاد الينا جزء من الصواب جعلنا نحتقر هذه الاشياء . والآن تنشر اساطيلنا الظافرة أعلامنا على جميع البحار ، وأمّـنت القوانين أرواحنا وأموالنا ، فلا يمكن لقاضٍ ما ان يفسرها بطريقة استبدادية ، ولا يجوز له ان يتخذ قراراً بدون الأسباب الداعية له ، وقد نعاقب قاضياً كما لو انه كان قاتلاً ، اذا هو حكم على شخص بالاعدام من غير إعلان القرائن والملابسات التي تثبت إدانته والقانون الذي أصدر حكمه بمقتضاه .

كنا في الواقع على الدوام منقسمين حزبين ، يكتب كل منهما ضـد الآخر ويدس له ،

إلاّ أنهما يتحدان إذا دعت الضرورة الى التسلح دفاعاً عن الوطن او الحرية ، ولن يسمح أيهما بأي تعدٍّ على أمانة القوانين المقدسة . فهما في تكارههما أشبه بالمحبين الغيورين اللذين يمتلكان نفس المرأة وفي نفس كل منهما الحسد والبغض نحو الآخر .

ومن منابع عبقريتنا السامية التي بها أوضحنا ودعمنا حقوق الانسان الطبيعية ، ذهبنا بالعلوم الى ذروة العُلا التي يمكن ان يبلغ اليها الانسان . فالمصريون الذين تظاهروا بنبوغهم في الميكانيكا ، والهنديون الذين يعتقدون بأنهم من عظام الفلاسفة ، والبابليون الذين يفتخرون بأنهم رصدوا النجوم على تمادي ثلاثين الفاً واربعمائة سنة ، والاغريقيون الذين كتبوا كثيراً وقالوا قليلاً ، كل اولئك لا يعرفون في الحقيقة شيئاً إذا قُرِنوا بأضعف علمائنا الذين درسوا اكتشافات اساتذتنا . وقد استنبطنا من أسرار الطبيعة في خلال مئة سنة ، ما لم يستطع النوع البشري الحصول على مثله في مئة عصر .

هذا بلاغ كامل عن حالتنا الحاضرة ، فلم أخف عنك لا الحسن ولا الذميم ، لا معراتنا ولا أمجادنا ، ولم أبالغ في شيء .

غمر أمازان من هذا الحديث رغبة ملحة في ان يتفقّه في تلك العلوم السامية التي تكلم عنها صديقه . ولولا هيامه بأميرة بابل ، وواجبه نحو أمه التي هجرها ، وحبه لوطنه ، تلك الاشياء التي تملكت كل قلبه السقيم ، لأصبح سروره عظيماً لو انه مكث بقية حياته في البلد الأبيض . ولكن قبلة ملك مصر المشؤومة لأميرته لم تكن لتزايل فيعقله فراغاً يؤهل به لدرس العلوم العويصة المبهمة : قال « أعترف بأني قطعت على نفسي عهداً وثيقاً بأن أجوب العالم ، وأهرب من نفسي » .

تكلم أمازان بأسلوب لطيف ، وكان صوته ساحراً فتاناً ، كما كان كل سلوكه نبيلاً يستميل الانتباه ، حتى ان سيدة المنزل لم تتمكن من مقاومة رغبتها في ان تسعد منه بحديث خاص بدورها . فأرسلت إليه رسالة غرام صغيرة تعبر بأجل المعاني عن رغبتها تلك ، فكان لأمازان من الشجاعة ما مكّنه من مقاومة اغراء الجنس اللطيف مرة أخرى ، واتباعاً لعادته ، كتب للسيدة رداً اكاه الاحترام ، مبيناً عن تدميه قسمه ، والعهد الوثيق الذي أخذه على نفسه ليُعلّم اميرة بابل كيف تقهر عواطفها كما يقهر هو عواطفه . وبعد ذلك جهز خراتيته ورحل الى باتافيا تاركاً الجماعة في اندهال وتعجب من أمره ، والسيدة في دهشة عميقة . ومن فرط تطرابها سقط منها خطاب أمازان ، فقرأه لورد « وَتْ ذِنْ » في الصباح .

قال هازاً أكتفيه : « ما أثقل وأسخف ما في هذا » ثم بادر بالخروج لصيد الثعلب مستصحباً جماعة من جيرانه السكارى .

كان أمازان قد ابحر ومعه رسماً جغرافيًّا أهداه اليه الرجل المثقف الذي تحدث اليه في منزل لورد «وت ـ ذن» وتملكته دهشة عظيمة لما رأى أكبر جزء من الأرض مرسوماً على قطعة صغيرة من الورق .

حملقت عيناه وجالت خيالاته في هذا الرسم الصغير ، فرأى الرين ، والدانوب والبـ التيرول وتعينها بأسمائها المختلفة ، وكل البلاد التي كان عليه أن يجتازها ، وبالأخص حدق في رسم بلاد الـكنجـيين وبابل التي رأى فيها عزيزته الأميرة ، كما حدق في البصرة ، التي قبلت الأميرة فيها ملك مصر تلك القبلة الشنعاء ، فبكى وانحدر الدمع من عينيه لتلك الذكرى التعيسة ، وقد سلم بما قال رجال البلد الأبيض ، أولئك الذين أهدوه العالم مصغراً ، بعد ان حقق فعلاً أن سكان التاميز كانوا أفضل الف مرة من أولاء الذين يقطنون ضفاف النيل او الفرات او الـكنج .

الفصل التاسع

مغامرة تعيسة في بلاد الغال

ظل أمازان على اخلاصـه المتين لأميرة بابل طوال رحلته ، وخـلال كل المقاطعات التي جابها ، ولو أنه كان دائم الحقد على فرعون مصر . وصل هذا المثل الحي على ثبات العزم الى عاصمة بلاد الغال ، وكانت المدينة كغيرها تخضع دواليك للهمجية والحمق والجهل والبؤس ، وكان أول اسم أطلق عليها هو « قذر ووحل » ثم صرف عليهـا بعد ذلك اسم إيزيس لأن عبادة إيزيس كانت قد وصلت الى هناك وتألـف أول مجلس شيوخ لها من جماعة من البحارة وقد مكثت أمداً طويلاً رازحة تحت العبودية خاضعة لفتك أبطال الجبـال السبعة . وبعد ذلك بعصور استوطن رقعتها الصغيرة أبطال من اللصوص هبطوا عليها من أقاصي ضفاف الرين . وأمـا الزمن الذي من شأنه أن يغير كل شيء ، فقد استحدث منها مدينة نصفها جميل بهي والآخر مضحك همجي بعض الشيء — وكذلك كان طابع قاطنيها — وكان يقطن تلك المدينـة ما يربو على مئة الف نسمة على الأقل ، انصرفوا جميعاً الى اللهو والتشاحن ، على أن هؤلاء المتعطلين هم الذين كانوا يحكمون أذواقهم في الفنون التي يبتدعها غيرهم كما أنهم كانوا يجهلون كل ما يحدث في البلاط على الرغم من أنهم لا يبعدون عنه أكثر من أربعة أميال كانت عندهم بمثابة ستة آلاف ميل على الأقل . فقد كان للحفلات السارة والتفاهات والمرح ، الاعتبار

الفرد في حياتهم، حتى لقد أصبحوا يحكون كالأطفال الذين تسخّروا عليهم بالدّمى حتى يمتنع بلاؤم . ولو أنهم تأملوا في الفظائع التي خربت بلادهم منذ قرنين مضيا أو ذكروا تلك العصور المرعبة التي قتل فيها نصف الأمة النصف الآخر استجابة لحماقات الجدل والسفسطة ، قالوا في بساطة إن هذا لم يكن عملاً محكماً : ومن ثمّت اندفعوا توّاً مجددين ألهياتهم وضحكهم مرددين الانغام .

وبقدر ما كان المتعطلون متأدبين دمثين لطفاء ، لوحظت فروق كبيرة هائلة بينهم وبين أولئك الذين شغلتهم الأعمال .

كان من بين رجال الأعمال ، أو كما دمغهم البعض ، عصبة من الجامدين ذوي المزاج السوداوي ، أخلاقهم مزيج من السخافة واللؤم ، ويكفي مرآهم أن يذيع البؤس والشقاء ، ولو أنهم أولوا شيئاً من السلطان ، إذن لقلبوا العالم رأساً على عقب . إلا أن أمة المتعطلين استطاعت بالغناء وبالرقص أن تجبرهم على الانزواء في كهوفهم المظلمة كما تسوق الطيور المغردة تلك الخفافيش الناعقة الى جحورها وخرائبها .

كان حفظة التقاليد الهمجية القديمة ، تلك التي صرخت منها الطبيعة فزعة مروعة ، فئة من أصحاب الأملاك ، لم يأبهوا بشيء اللهمّ إلا مأثوراتهم التي أكلها الدود . فانهم اذا ما اكتشفوا عادة حمقاء أو مكروهة ، اتخذوا منها قانوناً مقدساً . ومن هذا العرف الخبيث الذي حدّ من جرأتهم على التفكير بأنفسهم ، عمدوا الى استرجاع معرفتهم من حطام تلك الأيام التي لم يكن يفكر فيها من أحد ، فكان ذلك سبباً في أن تعيش بقايا من خلائق ممضة في عاصمة اللهو والسرور . ومن ثمّت لم يكن هناك أي تناسب بين الجرائم والعقوبات . فكان ينزل بالمتهم ما يوازي الف ميتة ، لحمله على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها .

وكان الشباب يعاقب على الطيش وتجاوز المألوف ، بنفس القسوة التي يعاقب بها القاتل العادي أو قاتل الأب . فاحتج المتعطلون بشدة على هذه القيود ، غير أنهم في اليوم التالي لم يفكروا في ذلك مطلقاً ، بل أخذوا يفكرون باخلاص في ألهيات جديدة .

شهد هؤلاء الناس جيلاً بأكمله يتوارى ، بلغت فيه الفنون درجة من الكمال فاقت كثيراً أكبر الآمال المتوثبة النارية المزاج . وقد عاد الاجانب الى هناك كما كان الأعرب بابل ، ليفتتنوا بالآثار الهندسية العظيمة وأعاجيب فلاحة البساتين ، والمجهود العظيم الذي بذل في النحت والرسم ، كما فتنتهم قطع موسيقية كانت تصل الى القلب من غير أن تخدش الآذان .

ولو أننا تحدثنا عن الشعر الحقيقي ، ذلك الشعر المؤتلف الطبيعي ، الذي يخاطب القلب تماماً كما يخاطب العقل ، أمكن أن نقول بأنه لم يكن معروفاً لدى هذه الأمة قبل هذا العصر

السعيد. وقد كشفت أنواع جديدة من البـلاغة عن مفاتن عظيمة هائلة وذخرت المسارح على الأخص بالتحف التي لم تدانها أمة أخرى ، وعلى الجملة انتشر الذوق السليم في كل مهنة حتى لقد ظهر بين الدروديين كتّاب عظام .

إنّ كثيراً من أشجار الغار التي فرّعت وامتدت الى السماء ، سرعان ما ذوت في أرض مـجهدة. فلم يبق منها غير عدد قليل ، حال لون أوراقها وتولى خضرتها الاصفرار . على أن هذا الفساد أو الانحلال الذي انتابها ، لم يكن له من سبب الاهمّ إلاّ سهولة استنباتها ، والجهل الذي حال دون إنتاج الطيبات وامتلاء المبرّزين واكتظاظهم بما أقعدهم ، والجنوح الى مالا يغني من جوع . كما أنّ الخيلاء والغرور قد محيا من الفنون ما أعاد عصور الهمجيّة . وكانت هذه الخيـلاء ، التي اضطهدت الرجال ذوي العبقرية والمزايا الحقيقية ، سبباً في أن يخرجوا من أوطانهم مشردين . إنّ الشفافير المؤذية ، قد طردت النحل المنتج .

قلما بقي من الفنون الطيبة أثر ، وقلما عاش شيء من العبقرية الصحيحة . أمّا الترهات العقلية فحصرت في التفكـر فيما هو صواب أم خطأ مقيساً ذلك كله على تصورات عصر بائد . وفسد الأمر ، حتى تطاول الطـلاء الذي يطلي لوحة الاعلان فمضى ينقد أعمال كبار المصورين ، والمأفون الذي يقف لينشف المداد السائل أمام رئيس يرقم في أوراقه، نتاج أعاظم الكتّاب

إنّ الجهل وفسـاد الذوق لهما أيضاً طُـلاّؤهما . فالشيء الواحد يتكرّر في مئة مجلد تحت عناوين مختلفة . وأصبح كل عمل أدبي إمّـا قاموساً وإمّـا نشرة .

ولقد اعتادت صحيفة «دروديه» أن تنشر مرتين في كل أسبوع وقائع أمة غير معروفة مستها الشـياطين ، وتتكلم في معجزات سماوية وقعت في أكواخ يسكنها شحاذون من الرجال والنسـاء . وظهر من منبوذي الدّروديين من اشتمل بالسواد ، وفيهم استعداد لأن يموتوا غيظاً أو جوعاً ، ومضوا يعبرون عن آلامهم في مئات من المـكتوبات المختلفـة ، عما كين من أنهم لم يصبحوا بعـد قادرين على مخادعة النوع البشري ، لأن هذا الامتياز قد أضفي على بعض من الماعـز جللت بأثواب رمادية . كما ان بعض كبرائهم قد استخدموا في تجبير قذوف امتازت بالنيل من الأعراض

كان أمازان على تمام الجهل بهذا ، ولو أنه أخبر به، لما نظر إليه إلاّ بقليل من الانتباه ، حيث لم يشـغل كل أفكاره غير أميرة بابل ، وملك مصر وذلك العهد الوثيق الذي لا يمكن أن تنتهك له حرمة . وهو أن يحتقر كل ما يتقرّب إليه به النساء من أنواع التدلل والاغواء في أي مملكة يسوقه إليها اليأس .

كان الرعاع الجهلاء ، وقد فاق فضولهم كل حدود الطبيعة والعقل ، يحتشدون لوقت طويل

حول خرائبه.» أمّـا النساء اللبيبات فكنّ يدفعنَ أبواب مخدعه عنوةً ليتأملن شخصه » .

أبدى أمازان بعض الرغبـة في أن يزور البلاط ، لـكن أخبره بعض المتعطلين الذين كانوا يذهبون الى هنالك من وقت لآخر، بأن هذه العادة أصبحت خارجة تماماً على آداب السلوك ، وأنّ الأحوال قد تغيرت تغييراً كبيراً ، وأنّ جميع الملاهي انحصرت في المدينة . ثم دعوه لتناول العشاء مع سيدة طبّقـت فطنتها ومواهبها آفاق الأقاليم الأجنبية، وقد زارت هذه السيدة كل البلاد التي جابها أمازان . وأمّـا هذه السيدة فسرّت أمازان سروراً عظيماً كما اغتبط بالحفاوة التي لاقاها في منزلها حيث شهد حرية مكفولة بالوقار وسروراً بلا جلبة ، وسكوناً بلا غضاضة، وفراهة بلا زهو . وفي اليوم التالي تناول غداءه مع جماعة أقل بهجة، غير أنها كانت أكثر تعطشاً للهو ، وكلما زاد رضاه عن مضيفيه زوّدهم رضاءه به . فوجد أن نفسه قد انحلت كالنباتات العطرية ، التي تذوب شيئاً فشيئاً عنـد درجة حرارة معتدلة ، فتنبعث منها الروائح الزكية .

وذهب معهم أمازان بعد الغداء الى احدى أماكن اللهو العامة ، وكان فتّـاناً ساحراً يخلب الألباب، إلاّ أنه كان متهماً رغم ذلك من الدروديين . ذلك بأنه كان يحجب عنهم معظم مستمعيهم ، وكان ذلك مثاراً لحقدهم وبغضهم . وأما العرض فكان مزيجاً من أشعار مستحبة الى أغان جذّابة مشجية، الى رقصات باهرة تعبر عن خلجات النفس وتكشف عن مفاتنها وإلى غير ذلك مما يخلب العينين خداعاً . ولم يكن هذا النوع من اللهو الذي كان يحوي كثيراً من المناظر والأشكال معروفاً إلاّ باسم أجنبي فكان يدعى بالأوبرا ، وهو إسم دلّ أوّلاً في لغة العمل على معاني العناية والاكباب والانتاج والجهد والبذل . سحر هذا العرض أمازان وفتنه كما اجتذبتـه فتاة مغنية بصوتها وما كان يبدو عليها من دلال . فقدم له رفاقه تلك الفتاة العبقرية ، فأهداها ملء قبضته من نفيس الجوهر ، فـكان من شدّة افتتانـها وعظيم شكرها أن أبت أن تفارقه بقية يومها ، فتناول معها ومع رفاقها طعام العشاء وكان مستطاباً مستحبّـا ، فسلبته الخمر يقظته فثمل . . . . فما أوهن الطبع البشري !

وصلت أميرة بابل في تلك الأثناء ، ومعها إيرلا والعنقاء والمثني فارس كنعجي ممتطين خرائبهم ، ومكثوا وقتاً غير قصير خارج أبواب المدينة قبل ان تفتح لهم ، وما إن وطأت أقدامهم أرض المدينة حتى سألت الأميرة ، هلاّ يزال أذكى وأجمل وأشجع وأوفى الرجال بالمدينة ؟ فانتهى الحرّاس على الفور إلى أنها انما تعني أمازان، فأرشدوها الى فندقه .

كم كان خفقان قلبهـا عظيماً ! ذلك الخفقان الذي هو دليل الحب . وغمر نفسها فرح يجل عنـه الوصف ، لأنها سوف ترى مرّة أخرى في حبيبها مثال الثبات على العزم ، وأن

يمنعها مانع من أن تدخل عليــه حجرته ، فرأت الستائر مرفوعة وشاهدت أمازان الفاتن نائماً وقد أنهكته الحر .

تلقاء ذلك عبرت فورموزانتا عن حزنها وخيبتها بصراخ عظيم دوت به أرجاء الفندق وأغمي عليهـا بين يدي إيرلا . وحالما استعادت يقظتهـا خرجت من تلك الغرفة المقوتة يغمرها حزن عميق جَلّـلهُ الغضب .

صرخت الأميرة الفاتنـة وقد غمرها سيل من الدمع : إيه أيتها السماء العـادلة ! عجباً يا أورمزد الجبار ! لمن وبمن خانني تلك الخيانة ؟ أهكذا يمكن من أن يصد أميرات كثيرات ثم يهجرني لرفقة بعض اللاهين من أهل الغال ! لن أصبر على هذه الاهانة .

ثم قالت : لن أراه بعـد اليوم ما دام ينبض لي عرق ، ولنرحل هذه اللحظة ولتجهز الخراتيت :

ناشدها العنقاء أن تبقى على الأقل حتى يستيقظ أمازان عسى أن يكلمه .

قالت الأميرة : أنه لا يستحق ذلك ، إنك لتثير غضبي وتتحداني بقسوة ، فربما ظن أني التي أرغب في لومه واني اسعى الى التفاهم معه ، فإن كنت حقيقة تكن لي حبـاً ، فلا تضف هذا الضيم إلى ما لحقني من إهانة .

ما كان للعنقاء أن يعصاها ، وهو يدين لها قبل كل شيء بحياته ، وحينئذ رحلت الأميرة بجانبها قالت إيرلا : الى أين أنت ذاهبة ؟

أجابت الأميرة : لا أدري ، فسنتبع أول طريق يصادفنـا ما دمت سأفر من أمازان الى الأبد . ثم إني لراضية .

أما العنقاء وكان أحكم من فورموزانتا لأنه كان متجرداً من أية شهوة ، فأخذ يطيب نفسها وهم في الطريق وذلك بأسلوب محبب جذاب قائلاً إنه من القسوة أن يعاقب إنسان بسبب خطأ ارتكبه غيره ، وأن أمازان ولا شك قدم لها دلائل تكفي لاثبات اخلاصه ووفائه ولهذا فن الواجب عليها أن تغفر له لحظة واحدة نسي نفسه فيها وهو مع جمعية طائفة . كما أنه أدخل في روعها أن هذا هو الوقت الوحيد الذي تحتاج فيه الى عناية أورمزد ، وأن تزود منه بالحب الدائم والفضيلة للمستقبل ليس إلا . وان الرغبة في التكفير عن خطئه بهذه الوسيلة سوف تجعله يتشامخ بنفسه ، وان هذا هو الطريق الوحيد الذي تزيد به من سعادتها ، وأن كثيراً من عظام الأميرات قد غضضن الطرف عن مثل هذه الأغلاط ، وأنه بعد كل هذا لا يوجد من سبب لذلك الحزن . وكان العنقاء ذا قدرة فائقة في فن الاغراء ، حتى أنه جعلها أميل الى الهدوء والاستسلام ، فبدأت تشعر بحزن عميق على تسرعها في الرحيل وخيل اليها

أن خراتيتها تجد في السير وتسرع ، لكنها لم تجرأ على العودة . وكان ما هجر من التضارب بين رغبتها في الصفح ورغبتها في اظهار غضبها ، وبين حبيبها وارضاء كبريائها ، عظيماً ، ومع ذلك تابعت خراتيتها السير واخترقت العالم وفقاً لنبوءة والدها .

أخبر أمازان عند ما استيقظ بوصول الاميرة ، ثم رحلتها ثانية هي والعنقاء ، كما أخبر بالغضب والاضطراب الذي بدا عليها ، والقسم بأنها لن تصفح عنه أبد الدهر .

قال أمازان : « اذن ، ليس من سبيل إلا أن أتبعها ، وأقتل نفسي عند قدميها » .

احتج رفاقه المرحين اللاهين على هذا القرار الخطير ، وقالوا بأنه يستحسن أن يبقى معهم فليس من شيء يضارع حياتهم السعيدة التي يقضونها بين رحاب الفنون والمسرات الدمثة اللطيفة ، معقبين على ذلك بأن كثيراً من الاجانب ، وحتى من الملوك ، من يفضلون هذه الراحة الفاتنة المستحبة للنفس على بلادهم وعروشهم . ثم ان عربته علاوة على ذلك بها عطب ويجري العمل بأخرى على أحدث طراز ، وان أفضل حائك في المدينة قد جهز له اثني عشر كسوة تطابق آخر ما ابتدع من أساليب التهندم ، وأن أكثر النساء دلالاً وجمالاً وأعظمهن اعتباراً في الهيئة الاجتماعية واللائي تعهد منازلهن أفتن المناظر التمثيلية ، قد عينت كل منهن يوماً تقيم له فيه حفلاً يجمع بين المتعة والمسرة واللهو . وأما فتاة الاوبرا فكانت في تلك الاثناء تشرب « الشكولاتة » ضاحكة منشدة مرنية نحو أمازان الجميل بعجب وافتتان ، حتى لقد خيل اليه بأنها ليست بأحلم من إوزة حمقاء .

إن الاخلاص والولاء والحمية وأيضاً العظمة والشجاعة ، كانت أخص عناصر أخلاق هذا الامير العظيم ، وقد روى لاصدقائه مجمل سياحاته وتعاساته التي ألمت به ، وأعلمهم بأنه من بناء عمومة تلك الاميرة وأفضى اليهم بسر القبلة التي جادت بها على ملك مصر ، فقالوا بأنها خزعبلات صغيرة غالباً ما يتغاضى عنها بين الاقارب ، والا مرت حياة الانسان في معوبة مستمرة .

غير أنه لا يمكن لشيء أن يزعزع ما صمم عليه من ملاحقة فورموزانتا . لكن لما كانت عربته على غير استعداد ، فانه أجبر على البقاء هنالك ثلاثة أيام بين المتعطلين الذين ظلوا ماكفين على ملذاتهم . وأخيراً استأذن منهم ، مودعاً معانقاً ، مهدياً اليهم بعضاً من جواهره عظيمة القيمة ، موصياً اياهم بالسعي دائماً وراء تفاهاتهم المستمرة وسرورهم الدائم ، اذا كان ذلك يزيد من سعادتهم وحبورهم . ثم قال « إن الالمان هم رؤوس أوربا المفكرة ، وان رجال البلاد البيض نهضوا ليكونوا رجالاً بمعنى تلك الكلمة ، وأما من في بلاد الغال فأطفال ، وأنا أحب أن ألهو مع الاطفال » .

الفصل العاشر

أمازان وفورموزانتا يتفاهمان

لم يجد المرشدون أدنى صعوبة في اتباع الطريق الذي سلكته الأميرة، فلم يكن مثار حديث الناس غيرها وغير طائرها الكبير، ذلك بأن الأهلين قد غمرهم إعجاب شامل بها. كذلك ما زالت شواطىء اللوار والدردوج والجارون والجيروند تدوي بضجيج عظيم من الاستحسان.

لما بلغ أمازان سفح جبال البرنيس أجبره درودينُو المملكة وحكامها أن يرقص بالدف، رضي أم أبى. وعند ما اجتاز جبال البرنيس لم يجد شيئاً غير المرح واللهو والسرور، فلو سمع هنا أو هنالك فلاح يغني فالنغم مقبض كئيب، وكان المواطنون يتخايلون في مشيتهم ويتهادون بوقار كبير ويتحلون ببعض الخرز وفي مناطقهم خناجر. وكان الناس يلبسون السواد ويبدو عليهم الحزن. واذا سأل خادم من خدام أمازان أحد العابرين سؤالاً لما أجيب إلا بالاشارات، واذا دخلوا فندقاً أخبرهم صاحبه بكل اختصار بأنه لا يوجد بالنزل شيء، ولكن طلبتهم يمكن أن يعثروا عليها على بعد أميال قليلة.

واذا سئل هؤلاء المتعبدون بالصمت: هل شاهدوا أميرة بابل الفريدة الفاتنة وهل قد مرت بهم، أجابوا باختصار أقل من المعتاد قائلين:

«نعم، رأيناها، إلا أنها ليست على هذا القدر من الجمال، فليس من جميلات إلا وهن سمر ملوحات، وهي تكشف عن صدر كأنه رخام ناصع البياض، وهذا أبعث الأشياء على الامتعاض، وقلما يعرف في إقليمنا».

تقدم أمازان نحو المقاطعة التي يرويها نهر بتيس، وهذه المملكة هي التي اكتشفها الصوريون منذ اثني عشرة الف سنة تقريباً، وذلك في الزمن الذي اكتشفوا فيه جزيرة أطلنطا الكبيرة التي غمرتها المياه بعد ذلك بقرون عديدة. زرع الصوريون بتيكا التي لم يفلحها أهلها مطلقاً، وذلك للفكرة التي كانت تخامرهم بأنها ليست مكانهم وموطنهم ليتدخلوا في أمورها، وأنهم لو زرعوها لهبط عليهم جيرانهم الغاليون، فيحصدون ما زرعوا. وقد أحضر

السوريون معهم بعض الفلسطينيين أو اليهود الذين جابوا منذ ذاك الحين كل إقليم يمكن أن يكسب فيه المال ، فتملك الفلسطينيون برباهم الفاحش الذي بلغ خمسين في المئة جل ثروات البلاد ، مما جعل سكان بتيكا يأخذونهم على أنهم من السحرة ، كما أن أولئك الذين كانوا يتهمون بالسحر حينذاك ، حرقوا بغير شفقة ولا رحمة .

ألقت أميرة بابل رحالها في مدينة كانت تدعى في ذاك الحين اشبيليه ، وعزمت أن تبحر في نهر بتيس لتعود الى بابل عن طريق صور ، فترى مرة ثانية والدها الملك بيلوس وتنسى إن أمكن حبيبها الخداع الغدار أو تطلب منه على الأقل الزواج . أرسلت الى فلسطينيين كانا يديران كل أشغال البلاط هناك ليزوداها بسفن ثلاث ، فأنجز العنقاء معهم الاتفاقات الضرورية واتفق على الأجر بعد قليل من النقاش .

كانت صاحبة الفندق متعبدة كبيرة ، أمّا زوجها الذي لم يكن أقل منها تديناً فكان منتفعاً من أعضاء محاكم التفتيش . ولذلك فإنه لم يخفق في أن يخبرهم أن بفندقه ساحرة وفلسطينيين تعاهدوا مع الشيطان متنكراً في شكل طائر كبير له منقار ذهبيّ .

لما علم المفتشون بأن السيدة تملك كمية كبيرة من الجواهر أيقنوا بلا جدل أنها من الساحرات ، فانتظروا حتى يخيم الظلام ليسجنوا المئتي فارس والخراتيت ، حيث أنهم باتوا في حظائر فسيحة . ذلك بأن المفتشين كانوا أدنياء جبناء .

وأسروا أميرة بابل وإرلا بعد أن أقاموا سدوداً ومتاريس عظيمة خلف الأبواب ، غير أنهم لم يتمكنوا من القبض على العنقاء الذي طار بسرعة فائقة وهو لا يشك في أنه سوف يقابل أمازان على الطريق بين بلاد الغال واشبيليه ، فالتقى به عند حدود بتيكا وأخبره بالكارثة التي ألمت بالأميرة .

حسر الغضب أمازان عن الكلام ، وسلح نفسه بدرع من الفولاذ مرصع بالذهب ، ورمح طوله اثنى عشر قدماً ، ومزراقين ، وسيف يدعى «الراعد» من شأنه أن يمزق كل ممزق بضربة واحدة كل ما يصادفه من الاشجار أو الحجارة أو الدروديين . ثم غطى رأسه الجميل بخوذة من الذهب يظللها ريش النعام والملشوز . وهذه هي البزة الحربية القديمة لآل مأجوج أعطتها له أخته ألديا عند سياحته في بلاد أسقوثيا . وامتطى خدمه القليلون ظهور خراتيتهم

فاه أمازان بهذه العبارات الحزينة وهو يحتضن عنقاءه العزيز : «أراني مُداناً . فلو أني لم أتناول غدائي مع تلك الفتاة العبقرية في الأوبرا ، في مدينة المتعطلين ، لما وقعت أميرة بابل في هذا المأزق المرعب . فهيا بنا إذن نطير الى المفتشين» . فهبط مدينة اشبيليه ، وكان يحرس أبواب الحظيرة التي سجن فيها المئتي فارس والمئتي خرتيت خمسعشرة مئة من الحراس

الاسبان ، ولم يسمحوا لهم بأي شيء من الطعام . وفي ذلك الوقت كانت جميع الاستعدادات قد أنجزت لقتل الأميرة ووصيفتها إرلا والصيرفيين الفلسطينيين .

وكان كبير المفتشين قد جلس فعلاً على المنصة في محكمته المقدسة يحيط به ملازموه من صغار المفتشين . وقد تجمع عدد غفير من الاشبيليين مكتوفي الايدي صامتين ، عند ما قدمت الأميرة وإرلا والفلسطينيين وأيديهم موثوقة الى ظهورهم لابسين ثياب الاعدام .

دخل العنقاء السجن من كوّة ، وبدأ الكنجيون يكسرون الأبواب من الداخل ، بينما حطمها أمازان الذي لا يقهر من الخارج ، وهجموا جميعاً الى الامام مسلحين وهم ممتطين خراتيتهم وعلى رأسهم أمازان ، فلم يجدوا صعوبة ما في قهر الحراس أو المفتشين ، فلقد كان كل خرتيت يخرق بقرنه إثني عشر دفعة واحدة ، وأمازان المرعد يمزق كل من يصادفه تمزيقاً .

وأخذ أمازان بطوق المفتش الأكبر من فوق منصته وقذف به على المحرقة التي كانت قد أعدت على بعد أربعين خطوة تقريباً ، كما ألقى عليها جميع الأعضاء الآخرين الواحد أثر الآخر . ثم ألقى بنفسه عند قدمي فورموزانتا : فقالت : « يا للعجب ، كم أنت فاتن محبوب ، وكم كنت أعبدك وأهيم بك وأتعشقك ، لو لم تخني بصحبة مغنية الاوبرا » .

وبينما كان أمازان يسوي ما بينه وبين الأميرة من سوء التفاهم ، وبينما كان رفاقه الكنجيين يلقون بالمفتشين على المحرقة التي بلغ لهيبها السماء ، اذ به يبصر جيشاً يقوده ملك مسن من فوق رأسه تاج ، ميمماً نحوهم في عربة يجرها ثمانية بغال طهمت بالحبال ، وتبعه مئة عربة أخرى ، كما كان في صحبتهم رجال ارتسم في وجوههم العبوس وقد امتطوا جياداً كريمة ، ومن وراء هؤلاء جميعاً يمشي جمع من الناس في هدوء ، وقد عولجت شعورهم بالدهون .

جمع أمازان رجاله الكنجيين من حوله في الحال وتقدم نحو الملك شاهراً حربته ، فلما أدرك الملك أمازان ، ترجل عن عربته الحربية وخلع تاجه ثم عانق ركاب أمازان قائلاً : « يا من أرسلته الآلهة ، أنت المنتقم للنوع البشري ، أنت مخلص بلادي . كان هؤلاء الذين طهرت منهم الأرض أسيادي . فكنت مجبوراً على الخضوع الى قوتهم الاجرامية ، ولربما انفض من حولي رجالي لو أني رغبت فقط أن أخفف من جرائمهم العظيمة . إني لأتنفس منذ هذه اللحظة ، وأسود ، وإني لمدين لك بهذا » .

ثم قبل يد فورموزانتا باحترام كبير ، وتوسل إليها أن تركب عربته ومعها أمازان وإرلا والعنقاء .

وتبعت فرق الخراتيت ملك بتيكا الى قصره ، أمّا الصيرفيان الفلسطينيان اللذان كانا

مازالا مطروحين خوفاً وفزعاً ، فقد رفعا رأسيهما .

كان من مقتضيات الوقار الذي ينبغي أن يضفى على ملك يحكم شعباً ، من أخص صفاته الفقر والقلة ، أن تسير بماله بخطى وئيدة ، فاتسع بذلك مجال الوقت لأمازان وفورموزانتا أن يرويا له كل مخاطراتهما ، وكذلك تحدث الى العنقاء ففتنه وكثيراً ما كان يعانقه . وأحيط الملك علماً وأدرك بسهولة كيف يجب أن يعتبر أناس الغرب همجيين وحشيين ، وهم يأكلون الحيوانات ولا يفهمون لغتها ، وأن الكنجيين وحدهم هم الذين حفظوا وصانوا طبيعة الانسان الاول . إلاّ أنه وافق على الأخص على أن أكثر البشريين همجية هم المفتشون الذين طهر أمازان الأرض من شرورهم ، وكان دائماً يشكر أمازان ويباركه . والآن نسيت فورموزانتا الفاتنة ما حدث في بلاد الغال تمام النسيان، ولم يعد يملأ روحها غير شجاعة وجرأة بطلها الذي صان حياتها وحفظها . وحينئذ تذوّق أمازان طعم السعادة ونشوة الفرح وأسكره الحب العظيم ، لمّا وقف على حقيقة معانقة فورموزانتا البريئة لملك مصر ولما أخبر ببعث العنقاء .

ثم تناولوا غذاءهم في القصر ، الاّ أن الطعام كان عديم المذاق رديئاً لأن طهاة بتيكا كانوا أردأ طهاة أوربا ، فنصح أمازان الملك بأن يرسل في طلب بعض الطهاة من بلاد الغال . وفي أثناء الطعام عزفت فرقة الموسيقى الملكية ذلك اللحن الشهير الذي سمي منذ ذاك الحين « مباذل اسبانيا » وبعد الغداء مضوا يتكلمون في المسائل العملية الهامة .

استفسر الملك من أمازان الجميل وفورموزانتا الفاتنة والعنقاء الرشيق عما ينتوون ؟ فأجاب أمازان بأنه سوف يعود الى بابل حيث أنه وارثها المنتظر ، ثم يطالب من عمه بيلوس يد ابنة عمه فورموزانتا الفريدة التي لا تبارى .

وقالت الأميرة : « إن ما عزمت عليه بكل تأكيد هو أن لا انفصل أبداً عن ابن عمي ، لكني أظنه يوافقني على أن أعود أولاً لأبي ، فانه لم يسمح لي الاّ بهجرة للبصرة وها أنذا قد طفت العالم هائمة » .

وقال العنقاء : « أما أنا فسأتبع الى أي مكان ، هذان الحبيبان الكريمان العاطفيان »

قال ملك بتيكا : « انكم جميعاً على حق ، لكن عودتكم الى بابل ليست من السهولة بحيث تتصورون ، إن أخبار تلك المملكة تصلني كل يوم ، بواسطة السفن الصورية ، والماليين الفلسطينيين الذين يتصلون بجميع أمم الأرض ، بأن جميع الناس يحملون سلاحهم ميممين شطر الفرات والنيل . وقد أعلن ملك إسقوثيا حق وراثة زوجته على رأس ثلاثمئة الف فارس كما خرب ملكا مصر والهند شواطىء دجلة والفرات ومع كل منهم ثلاثمئة الف رجل أخذاً بثأرهما من الملك بيلوس جزاء الاستهزاء بهما . وأما ملك الحبشة فغزا مصر

وتمونها بجيش عدته ثلاثمئة الف رجل ، وذلك في غيبة ملكها . وأما ملك بابل فليس لديه سوى ما يقدر بستمئة الف رجل للدفاع عن نفسه .

ثم استطرد الملك قائلاً إنه يعترف بأنه لما سمع بهذه الجيوش التي تدفقت من الشرق وعلم بعظمتها وفخامتها ثم قارنها بجنده العشرين الفاً أو الثلاثين الفاً الذين يشق عليه تغذيتهم ويصعب كساؤهم، تصور أن نصف كرة الأرض الشرقي إنما وجد قبل نصفها الغربي وانه يخيل اليه أن الغربيين انما وثبوا فجأة بالأمس من جوف الهباء والهمجية .

قال أمازان : « ان المحدثين يامولاي غالباً ما يتفوقون على أولئك الذين بدأوا الشوط أولاً ، ويُظن عندنا أن الانسان إنما خلق بادىء ذى بدء في الهند ، ولكني لست على يقين من ذلك » .

ثمّ وجّه ملك بتيكا كلامه الى العنقاء سائلاً : « وماذا تظن في ذلك » .

قال العنقاء : « مولاي : إني لصغير السن جداً حتى الآن لأعرف شيئاً عن القدم ، فقد عشت فقط حوالي ستمئة وعشرين ألف سنة ، غير أن والدي الذي لبث في الدنيا خمسة أضعاف هذا السن أخبرني بأنه علم من والده أنّ البلاد الشرقية كانت دائماً أكثر سكاناً وثروة من البلاد الأخرى ، كما علم أيضاً من أسلافه بأن تولد جميع الحيوانات إنما بدأ على ضفاف الكنج . أما أنا فما داخلني غرور جعلني أعتقد بهذه الفكرة ، ولا يمكن أن أصدق بأن ثعالب البلاد البيض وفئران جبال الألب وذئاب الغال قد تنسلت من حيوانات بلادي ، كما لا أعتقد أنّ أشجار التنوب والبلوط في بلادك قد تولدت من شجر الكاكاو أو النخيل الذي بالهند .

قال الملك : « ولكن من أين انحدرنا إذن ؟ » :

قال العنقاء : « لا أعرف ، إنما كل ما أريد أن أعرف هو متى يصلح الامر ما بين أميرة بابل الفاتنة وعزيزي أمازان » :

قال الملك : « كثيراً ما تساءلت ، أمن الممكن أن يقهر بخراتيه المئتين جيوشاً كثيرة تبلغ عدة كل منها ثلاثمئة ألف رجل » ؟ .

قال أمازان : «ولمَ لا ؟ وعندئذٍ أخذ ملك بتيكا بقوة هذا السؤال :— « لمَ لا »— إلاّ انه كان يتصور بأن الرفعة والسناء وحدهما غير كافيين للاستقواء على جيوش لا حصر لها .

فقال : « أنصحك بأن تتوجه الى ملك الحبشة ، فلي صلة بهذا الأمير الأسود عن طريق عملائي الفلسطينيين وسأزودك بخطاب توصية اليه ، وحيث انه في عداء مع ملك مصر فانه

سينشط كثيراً بمحالفتك التي سوف تزيده قوة . وأستطيع ان أساعدك بألفي سياف شجعان، ويجب عليك أن تعتمد على نفسك فتستخدم كثيراً من الرجال الذين استوطنوا سفح البرنيس ويدعون الفسقون . فما عليك الا أن ترسل أحد محاربيك ممتطياً خرتيتاً وتزوده بقليل من الجواهر حتى يترك كل فسقوني قصره وأعني صومعته التي ورثها عن أبيه ليكون في خدمتك ، فانهم أشداء أقوياء أمناء . وبينما أنت تنتظر وصولهم ستقيم تلك المهرجانات لتعد السفن . فاني أعجز عن أن أؤدي اليك حق الشكران على الخدمات التي أديتها الي » .

ولقد أحس أمازان بنشوة السعادة لما إستعاد فورموزانتـا وأنس بحديثها في هدوء وطهر بفتنة الحب الصافي ، تلك الأشياء التي تعدل في قوتها ، قوة الشهوة المشبوبة .

وسرعان ما وصلت جيوش الفسقون الفخورة المرحة وهم يرقصون على أنغام الدفوف . وكانت جيوش بتيكا الباسلة قد استعدت ، فعانق الملك العجوز الملوح اللون الحبيبين وزود السفن بكميات كبيرة من الأسلحة والفراش والصناديق الضخمة ، والأغطية ، والملابس السود ، والبصل والدجاج ، والاغنام والدقيق وخاصة الثوم . وتمنى لهم سفراً سعيداً وحبـاً ثابتاً وانتصارات متعددة .

لم تكن حينذاك قرطاجة الفخورة ذات قوة بحرية ، ولم يكن يقطنها غير بعض النوميديين الذين اتخذوا من تجفيف الاسماك على أشعة الشمس حرفة لهم . وكانوا يجوبون الشاطيء من بيزاقينة وصورتة والقطنان الخصيبة التي قامت عندها مدينة قورينة ومدينة خرصونيز العظيمة .

وصلوا أخيراً تجاه المصب الاول لنهر النيل المقدس ، وكانت تستقبل فعلاً جميع سفن الامم التجارية عند نهاية هذه الارض الخصيبة في ميناء كانوبوس ، ولم يعلم أحد إن كان الإلـه سهيل قد أسس هذه الميناء أم كان السكان هم الذين صنعوا هذا الالـه ، أم كان النجم سهيل قد أضفى اسمه على المدينة ، أم كانت المدينة هي التي خلعت هذا الاسم على النجم ؟ وكل ما كان معروفاً عن ذلك هو أن المدينة والنجم كلاهما قديم جداً وهذا كل ما يمكن أن يعرف عن أصل الاشياء مهما كانت طبيعتها .

رأى ملك الحبشة في هذه البقعة من الارض — بعد أن أخضع مصر — أمازان القاهر وفورموزانتا المعبودة ينزلان الى البر ، فقام في نفسه اعتقاد بأن أحدهما هو إلـه الحرب والآخر إلـه الجمال. قدم اليه أمازان كتاب التوصية الذي كان يحمله من ملك اسبانيا . وفي الحال قام ملك الحبشة بتكريمهما وذلك بأن أقام لهما مهرجانات فخمة كان لا بد منها وفقاً لعادات عصور البطولة .

ثم تشاوروا في الطريقة التي يهيئان بها الحملة الحربية لاخضاع جيوش ملك مصر الثلاثمئة الف ومثلهم لكل من أمبراطور الهند وخان الاسقوثيين الأكبر الذين كانوا يحاصرون مدينة بابل العظيمة الفخورة المليئة بالشهوات .

حينئذٍ قال المثني إسباني الذين أحضرهم معه أمازان بألا شأن لهم بملك الحبشة وفكه لحصار بابل ، بل يكفي عندهم أن أمرهم ملكهم بالتوجه لانقاذها وأنهم قادرون كل المقدرة على القيام بهذه الحملة .

وقال الفسقونيون بأنهم كثيراً ما قاموا بمثل هذه المهمات من قبل وأنهم بمفردهم لسوف يقهرون المصريين والهنديين والاسقوثيين وانهم لن يتحركوا إذا لم يوضع الاسبانيون في حرس المؤخرة .

لم يسع المئتي كنجي إلا أن يتضاحكوا من ادعاءات محالفيهم ، وأصرّوا على أنهم بمئة خرتيت يمكنهم أن يهتلوا ويبيدوا كل ملوك الارض . وعلى أثر ذلك هدأتهم فورموزانتا الجميلة بحكمتها وعظتها الساحرة الفاتنة ، وقدم أمازان للملك الأسود جنوده الكنجيين وخراتيته ورجاله الاسبان والفسقونيين وطائره الجميل .

كان كل شيء على تمام الأهبة للسير من طريق ممفيس ، فهليوبوليس ثم ارسنويه وفترا وارتميتس وسور وأفامين، لمهاجمة الملوك الثلاثة وتتبع هذه الحرب الخالدة التي لا تنسى والتي ان قرنت بها أي حرب قامت بها البشرية، لما كانت بالقياس عليها إلاّ تفاهات .

رددت الشهرة بألسنتها المئوية تلك الانتصارات التي حازها أمازان على الملوك الثلاثة برجاله الاسبان والفسقون والخراتيت ، ورد فورموزانتا الفاتنة الى أبيها ، وأعتق نساء حاشيتها من قبضة ملك مصر ، وأعلن خان اسقوثيا الاعظم نفسه أميراً تابعاً له وعجل زواجه من الاميرة ألديا . وأمّا أمازان القاهر الكريم فأعلن بأنه ولي عهد مملكة بابل، ودخل المدينة يحف به النصر ومعه العنقاء بحضور مئة ملك من أتباعه . وكان الاحتفال بزواجه أضخم وأفخم من الاحتفال الذي أقامه الملك بيلوس من قبل ، وكان مما قدم على المائدة العجل آبيس مشويًّا ، كما كان ملك مصر وملك الهند ساقيا العروسين . وكفى أن هذا العرس قد أشاد به خمسمئة شاعر من شعراء بابل العظام .

مجمع اللغة العربية الملكي

تقرير خاص

بطريقة تأليف المعجم التاريخي الكبير للغة العربية

وضعه

الأستاذ ا . فيشر

عضو المجمع

مطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٩

تقرير خاص

بطريقة تأليف المعجم التاريخي الكبير للغة العربية

وضعه الاستاذ ا . فيشر عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

إني أرى وأقترح بصدد وضع المعجم ما يأتي بيانه :

لا ينشأ المعجم على أساس بقية المعاجم العربية التي نشرت قديماً وحديثاً ، ولا يقتدى بأسلوبها بل يمتاز عنها بأشياء مهمة تعرف مما هو آت : —

المقصد الأول : في أنواع محتويات المعجم

أن يجمع ويكون في المعجم بمقتضى خير منهاج لعلم اللغة العصري :

ا — جميع الألفاظ وصيغ الألفاظ والتراكيب والمعاني المختلفة للألفاظ الواردة في الكتب العربية التي لها أهميتها بين المؤلفات العربية القيمة أي في القرآن الكريم ، وفي الحديث النبوي الشريف ، وفيما جادت به قرائح الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين وأشهر المولدين نحو أبي فراس والمتنبي وأبي العلاء المعري والعباس بن الأحنف وابن الرومي وابن المعتز والبحتري وأبي تمام وأبي نواس وعمر بن الفارض وغيرهم ، وفي مجامع الأمثال الفصيحة وفي أخر كتب أيام العرب والسير والتواريخ وتراجم الرجال والنساء ، وفي أجود مجاميع الأدب ، وفي كتب كل فنون العلم الموثوق بها والمعتمد عليها ، وكذا في كتب البردي وفي الكتابات المنقوشة والكتابات التي على النقود .

ولا يغفل عن قراءات القرآن الكريم والروايات الجيدة المخالفة للروايات الواردة في نصوص الكتب المطبوعة ولو أمكن أن يودع المعجم كلمات كل الكتب العربية بلا استثناء

لكان حسناً غير أن المؤلفات العربية أكثر من أن يمكن ملاحظتها ومراعاتها كلها . فلذلك لا بدّ من أن يقتصر على أشهر الدواوين وكتب علية المؤلفين وثقات المصنفين .

ب — جميع الكلمات والتراكيب والمعاني التي وردت في خير المعاجم العربية الكبيرة نحو الصحاح والمخصص ولسان العرب وتاج العروس وغيرها وهي مفقودة في متون الكتب المذكورة في فصل (ا) على شرط أن لا يعدمها ما يشهد بصحتها .

ح — الكلمات والتراكيب والمعاني التي يتضمنها تكملة ر . دوزي للمعاجم العربية .

R. Dozy. Supplément aux dictionnaires arabes.

ولكن يلزم أن تراعى أيضاً البحوث الانتقادية لفليشر على هذا التصنيف .

H. L. Fleischer. Studien uber Dozy's Supplément.

ى — الكلمات والتراكيب والمعاني المبينة في المجموعات والفهارس الأبجدية التي نشرها مستعربون منفردة أو ملحقة بمتون كتب ودواوين شعر طبعت باعتنائه نحو تصانيف :

فنيان E. Fagnan, additions aux dictionnaires arabes.

وفون كريمر A. Von Kremer. Beiträge Zur arabischen Lexikographie, Lexikographische Notizen nach neuen arab. Quellen

وديغويه J. De Goeje, Glossarium Tabarianum

Glossaria ad Bibliothecam Geographorum arabicorum.

وبوفن A. A. Bevan. Glossary to the Naka'id of Jarir and al-Farazdak; Selected Words of the [illegible].

Some Contributions to Arabic Lexicography.

وغير هذه كثيرة يطول هاهنا تعدادها .

وليفهم أن الكلمات والتراكيب والمعاني التي تقدّم الكلام عليها في فقرتي (ح) ، و(ى) قد أثبتها كلها المؤلفون المشار اليهم بشواهدها .

المقصد الثاني : في طريقة جمع محتويات المعجم

تكون طريقة جمع الكلم والتراكيب والمعاني المذكورة في المقصد الاول كما يأتي ذكره : يفرد لكل كلمة وتركيب ومعنى جذاذة خاصة بها وفيها على اليمين بين هلالين الكلمة

المخصوصة كما هي في المصدر الذي أُخذت منه وعلى اليسار عند الأفعال ماضيها وعند الأسماء واحدها مرفوعة وفي أعلاها أصلها وفيها علاوة على ذلك ذكر الجملة أو البيت الذي هي منه جزءاً أو كلاً اذا اقتضى الحال ذلك وتفسير الكلمة وذكر قائلها والمصدر مع رقم الصفحة والسطر في المنثور ورقم القصيدة أو القطعة أو البيت في المنظوم . وهاك مثلاً :

وقف

(قِفَا) وَقَفَ

معروف . لا يتعدى هنا

(to stop ; s'arrêter)

امرؤ القيس : المعلقة بيت ١

بكى

(نَبْكِ) بَكَى

معروف

(to weep ; pleurer)

امرؤ القيس : المعلقة بيت ١

من

(مِنْ) مِنْ

من للتعليل : معروف

(because of ; à cause de)

امرؤ القيس : المعلقة بيت ١

ذكر

(ذِكْرَى) ذِكْرَى

اسم لذكر بالقلب . معروف

(rememberance ; réminiscence)

امرؤ القيس : المعلقة بيت ١

حبب

(حَبِيـبٌ)   حَبِيبٌ

بمعنى حبيبة أي محبوبة

(a beloved woman ; une femme chérie)

امرؤ القيس : المعلقة بيت ١

نزل

(وَمَنْزِلِ)   مَنْزِلٌ

مكان النزول . معروف

(temporary quarters of nomads, camp; habitation temporaire de bedouins)

امرؤ القيس : المعلقة بيت ١

ومن البديهي أن لا منفعة في تقييد الكلمات المتداولة والكثيرة الدوران المرّة بعد المرّة . ولكن لا بدّ من أن تؤخذ من مصادر عدة ليعلم بأحكام دائرة استعمالها ومدة تداول الألسن إياها ، ويفهم من هذا أنه يجب أن ترتب جميع الجذاذات بعد الفراغ من إعدادها بحسب الحروف الهجائية تمهيداً لتصنيف المعجم .

المقصد الثالث : في ترتيب المعجم

١ — لا يكون الترتيب الأبجدي للمعجم على أسلوب الجوهري في إيراد الكلم على اعتبار أواخر أصولها ، بل يكون على اعتبار الحرف الأول والثاني كما هو ترتيب مجمل اللغة للإمام ابن فارس ، والمفردات في غريب القرآن للشيخ الراغب الأصفهاني ، وأساس البلاغة والفائق وكلاهما للإمام الزمخشري ، والمعرب في ترتيب المعرب للإمام المطرزي ، والمصباح للإمام الفيومي ، ومحيط المحيط وقطر المحيط كلاهما لبطرس البستاني ، وأقرب الموارد لسعيد الخوري الشرتوني ، ومختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر الرازي بترتيب محمود خاطر بك ، وغيرها .

وقد أصاب الزمخشري حيث يقول عن طريقة الترتيب هذه في ديباجة أساس البلاغة :
« وقد رتب الكتاب على أشهر ترتيب متداولاً ، وأسهله متناولاً ، يهجم فيه الطالب على

طلبته موضوعة على طرف الثمام وحبل الذراع ، من غير أن يحتاج في التنقير عنها الى الايجاف ، والإيضاح ، والى النظر فيما لا يوصل إلاً بأعمال الفكر إليه ، وفيما دقق النظر فيه الخليل وسيبويه » .

ب — ويكون في كل مادّة على وجه سهل المراس على كل مطالعي اللغة العربية أولاً جميع أبنية الأفعال ، وأخيراً جميع أبنية الأسماء . ويتقدّم في كلا النوعين كل بناء مجرّد كل بناء مزيد فيه ويصير على هذا النمط مثال المادة الثلاثية تقريباً .

أبنية الأفعال

فَعَلَ	أَفْعَلَ	إِفْعَلَّ	إِفْعَنْلَلَ
فَعِلَ	تَفَعَّلَ	إِسْتَفْعَلَ	إِفْعَنْلَى
فَعُلَ	تَفَاعَلَ	أَفْعَالَّ	
فَعَّلَ	إِنْفَعَلَ	إِفْعَوْعَلَ	
فَاعَلَ	إِفْتَعَلَ	إِفْعَوَّلَ	

كذلك تتابع أبنية الأفعال في المعاجم وكتب الصرف المطبوعة في الأقطار العربية ويسمي المستعربون فَعَلَ فَعِلَ فَعُلَ البناء الأول للفعل وفَعَّلَ البناء الثاني وفاعَل البناء الثالث وهلمّ جرًّا الى افعنلى وهو عندهم البناء الخامس عشر .

فَعْلٌ	فِعَالٌ	فُعْلَى	تَفْعِيلَةٌ
فِعْلٌ	فُعَّالٌ	فَعَلَى	تِفِعَّالَةٌ
فُعْلٌ	فِعِّيل	فَعْلاَءُ	مِفْعَلٌ
فَعَلٌ	فُعِّيل	فُعْلاَءُ	مَفْعَلٌ
فَعِلٌ	فَعُول	فَعْلاَن	مَفْعِلٌ
فِعَلٌ	فُعُّول	فُعْلاَن	مِفْعِلٌ
فِعِلٌ	فَعَلٌّ	فِعِلاَّن	مُفْعُلٌ

فُعُلٌ	فَعِلٌ	فَعُلانٌ	مِفْعَال
فُعَلٌ	فِعَلٌ	فَعَلانٌ	مِفْعِيلٌ
فَعُلٌ	فِعِلٌ	فَعَلُوت	مَفْعُولٌ
فَاعِلٌ	فِعْلَةٌ	فَعَلُوتي	مَفْعَلَةٌ
فَاعَلٌ	فَعَلَةٌ	أَفْعَلُ	مَفْعِلَةٌ
فَعَال	فَعْلَة	أَفْعِلٌ	مَفْعُلَةٌ
فِعَالٌ	فَعَالَة	أَفْعُول	مِفْعَلَةٌ
فُعَالٌ	فُعَالَة	إفْعِيلٌ	مُفْعُلَة
فَعِيلٌ	فَعْلَةٌ	تَفْعُلٌ	مِفْعَالَةٌ
فُعَيْل	فَعُولَةٌ	تُفْعَل	مَفْعُولَةٌ
فَعُول	فُعُولَةٌ	تَفْعَال	مَفْعُولاء
فُعُول	فَعُّولَةٌ	تِفْعَال	يَفْعَلٌ
فَاعُول	فِعِلَّةٌ	تَفْعِيل	يَفْعِيلٌ
فِيعَال	فُعُلَّة	تَفْعُول	يَفْعُول
فُعَّلٌ	فِعْلَى	تِفِعَّال	
فَعَّالٌ	فَعْلَى	تَفْعَالَةٌ	

وقس على ذلك بقية أبنية الأسماء لأنها مما يطول ذكره .

وإن كل واحد من هذه الأبنية الفعلية والاسمية يكون صدر فقرة منفرة في المعجم ويجب أن يضاف الى أبنيـة ماضي الأفعال الثلاثية أبنيـة مضارعها واني أستحسن الطريقة التي قد سلكها صاحب أقرب الموارد في وصف هذه الأبنية وقد بينها في الفصل الأول بكتابه بالقول الآتي :

الباب الأول : باب نَصَرَ يَنْصُرُ وعلامته (ن)
« الثاني : باب ضَرَبَ يَضْرِبُ « (ض)
« الثالث : باب قَطَعَ يَقْطَعُ « (ع)
« الرابع : باب عَلِمَ يَعْلَمُ « (ل)
« الخامس : باب كَرُمَ يَكْرُمُ « (ر)
« السادس : باب حَسِبَ يَحْسِبُ « (س) وهو قليل

وأرى أن يستعمل المجمع في معجمه هذه العلامات نفسها أو علامات شبهها .

ويجب ثانياً أن يضاف الى أبنية الأفعال الثلاثية أبنية مصادرها متتابعة .

ويجب ثالثاً أن يضاف الى الأسماء المفردة أسماء جموعها المتنوعة .

وان أكثر اللغويين قد أغفلوا في معاجمهم الأبنيـة المقيسة المضطردة مثل اسم المرة واسم النوع ومصادر ما فوق الثلاثي واسم التفضيل وأفعال التعجب وجمع السلامة بقسميه للعلم بطريقة أخذها . والأحسن أن تذكر للاستئناس .

ولا جرم أن المعجم بهذا الترتيب سيكون سهل المأخذ غير متعب لمن يحتاج الى التنقير عن أية كلمة فيه .

المقصد الرابع : في قواعد المعجم غير المذكورة

هذه القواعد هي :

ا — أن تضبط كل كلمات المعجم بغاية التدقيق والتحقيق ، إمّا بذكر مثال مشهور عقيبها ، وإمّا بالنص على حركات حروفها .

ب — أن يثبت كل كلماته وتراكيبه ومعاني كلماته المختلفة بشواهد لها بأن يضاف اليها أسماء الأصول التي أخذت منها مع ذكر مؤلفيها أو شعرائها والصفحة والسطر أو القصيدة والبيت . وأما الكلمات الكثيرة الدوران فيكفي أن يضاف اليها الشواهد المهمة الدالة على خواصها وزمن استعمالها ودائرته مزيداً عليها علامة مُصْطَلَحة تشير الى كثرة تكررها . وأما الكلمات القليلة الوجود فالأحسن أن تعدد كل المواضع التي وجدت فيها .

جـ — أن يوسم كل الشواهد التي أخذت من الشعر بنجيمة أو علامة مثلها ليعرف من المعجم الفرق بين لغة النظم ولغة النثر .

د — أن ترتب الشواهد دائماً بحسب تواريخ الأصول التي اقتبست منها ليظهر عند الاطلاع حياة الكلمات وتاريخها . ولا بدّ من ذكر عمر الأصول صراحة اذا اقتضى الحال ذلك حتى لا يبقى مجال للشك .

هـ — أن يجعل لكل من المُعَرَّب والدَّخيل من الكلام علامة مصطلحة. وأن يبين أصله بدقة اراميًّا كان أو عبريًّا أو يونانيًّا أو لاتينيًّا أو فارسيًّا أو تركيًّا أو فرنسيًّا أو انجليزيًّا الخ ... .

و — أن يعرف على قدر الامكان كل نبت وحيوان تعريفاً كافلاً أفراده عن جميع مشاركاته في الجنس، وأن يفسر اسمه أيضاً بما يعرف به من الأسماء العامية الشائعة بين الأمم .

ز — أن تفسر كل الاصطلاحات الحديثة بأسمائها العلمية الدورية .

المقصد الخامس : في نقل محتويات المعجم الى لسان أوربي

أقترح أن يضاف الى كل كلمة وتركيب للمعجم لزيادة منفعته وانتشاره ، ترجمة موجزة انجليزية أو فرنسية .

الثلث الأول من مادة :

أخذ

(يأخذه أخذاً (Lane ٢/٢٨) وتأخاذاً (للمبالغة ، ر Lane ٢/٢٨ ، ٣٢ والأعشى ٣٦— ٦، اذ صـ ٢ سـ ١٣ تحت) ومأخذاً (ر الأغاني جـ ٣ ، ٨١ و ١٠ ، اذ صـ ٢ ـ ٧ ـ و٦ × تحت) والأمر منه خذ ، وفي ل جـ ٥ ، ٢، ٩ عن ابن سيده « وقد جاء على الأصل فقيل أوخذ » ونقل أبو حيّان أن وخذ لغة في أخذ (ر Lane ٢/٢٨ ، ٣٤)

« أخذ شخص أو حيوان أو شيء شخصاً أو حيواناً أو شيئاً » وردت أخذ هذه على وجوه كثيرة حقيقية ومجازية وهي :

(١) — أخذ كذا بقوة أو بحيلة

ويشتمل هذا الوجه على المعاني الآتية :

١ — أمسك شخصاً أو شيئاً ، قبض عليه (باليد أو بالذراع أو بالأسنان ونحوها)

To seize, lay hold of, grasp with the hand, the teeth, etc. Saisir (avec la main, les dents, etc.)

شد القرآن ٤٤،٤٧ : خُذوه فاعتِلوه الى سواء الجحيم — ٦٩، ٣٠ ، ٣١ : خذوه فغُلّوه ثم الجحيم صلّوه. — ٢٠،٢١ : قال خذها ولا تخف . — طرفة ١٩ — الى ٢١ لا ترى إلاّ أخا رجل * آخذاً رِقرناً . — النابغة ذيل ١٧ — ٢ : وأخذتها قسراً وقلت لها اقعدي . — أبو ذئيب — ١٠—١٦ : ألفَيْتَ أغلبَ من أُسْدِ المَسَدُّ ...*... أخَذَتهُ عَفْرٌ وتطريح . — حسّان ١٤٧ — ٣ : أخذنا الفروع وأجتثثنا أصولها . — معجم الحديث ٢٤/٢،٢٧ (ط ، دّجه) : فأخذ صفوان السارق. — ٢٥/٣١ (خ، م،ت، جه) : ان الله ليملي (وقرىء يمهل) للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ٢٤/٢،٢٩ (خ ، م ، ن: اذا أرسلت كلبك وسمّيتَ فأخَذَ فقَتَلَ . — عمر ١٣ — ١٤ : كلهم مأمور * أن يأخذوك . — العسكري ج ١/١٢،١٠ والميداني ج ١،٢٢ ، ١٢ : أخذه أخذَ سَبُعةٍ. وكذلك القرآن ٢٨،٤٠و٥١،٤٠. — القحيف ٢١ — ٥ . — معجم الحديث ٢٥ /٢، ٢٢ (دي) . ٧، /٢،٨ (حم) . — الميداني ج ١،٢٣،٤٠ . ج ١ ، ٥٦،٢ — المتنبي ٩٧ — ٣٣ . و غ. + +

وقد تعدّى أخذ هذه بالباء فيقال «أخذ بشيء» . ر صه تحت .

٢ حاز شيئاً

To get into one's hand, appropriate. = S'approprier.

شد : المفضليات ٣٥ — ١٧ : فلم تَظْلِم بأخْذِكَ ما تشاء . الطبري ج ١ ،١٨٥٤،٣ : أمْسِكُوا علينا ما أخَذْتُم من أرْضِنا ووَفِّروا ما جمعتم :

٣ — ذهب بشيء ظلماً أو غصباً

To take (property) wrongfully, or by violence. = Prendre (de la propriété injustement ou de vive force.

شد : القرآن ٢ ، ٢٢٩ : ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئاً . — ٤،٢٠ فلا تأخذوا منه شيئاً،أتأخذونه بُهْتاناً وإثماً مبيناً ٢١٠ : وكيف تأخذونه وقد أفْضَى

بعضكم إلى بعض . ١٨ ، ٧٩ : وكان وراءهم مَلِكٌ يأخذ كل سفينة غصباً . — الخنساء ٦٨ ، ٩ اذا تعدّى * ليأخذ حق مقهور بقسر . — ١٥٠ ، ١١ : اذا تعدى * ليأخذ حق مظلوم. — NPAF رقم ٨ سـ ٩ وانه أخذ ماله نَبَـطِـيٍ . سـ ١٣ : فانظر من أخذ ماله . — معجم الحديث ١٧،٢/٢٤ (خ ، م) من أخذ شبراً من الأرض ظلماً فانه يُـطَـوَّقُـهُ يوم القيامة من سَـبع أرضين .

ر « أخذ شيئاً ظلماً أو غصباً من شخص » صـ تحت

٤ — قبض على شيء في الحرب ، غنمه

To seize, capture in war (booty) — S'emparer, se saisir de qc. à la guerre.

شد القرآن ١٥،٤٨ : اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها . — ١٩،٤٨ : ومغانم كثيرة يأخذونها . ٢٠ : وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها . — الأعشى ٣٦ — ٦ : ليَـعُـودَنْ لِـمَـعَدْ عِكَـرُها * دَلَـجُ الليـل وتأخذُ المِـنَـح . — ذو الرمة ٦٧ — ٥٣ : هجائنَ . . . . * أخذنا أباها يوم دارة مأسَـل . — حماسة الـ ٢٣٢ — ٦ : حتى نجوتُ ولما يأخذوا سَلَبي — الطبري جـ ٣ ، ١٠١٩ ، ٣ : وأخذوا لِجُـمَـيْـدٍ مائة بدرةٍ أموالاً . وغ .

٥ — أسر شخصاً ، سباه .

To take captive, make prisoner. — Faire prisonnier.

شد : القرآن ٩ ، ٥ : فاقتـلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم . ٨٩،٤ : فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم . — ٩١،٤ : فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم . عنترة ٥ — ٤ : أن يأخذوك تكحلي وتخضبي . — ٥ — ٧ : أن يأخذوني عنوةً * أقرن الى شر الركاب وأجنب . — ٢١ (المعلقة) — ٤٠ : فانني * طبّ بأخذ الفارس المستلئم . — الأغاني * جـ ٣ ، ٨١ ، ٨ : ان تأخذوا أسماء موقف ساعة * فمأخذ ليلى وهي عذراء أعجب ، سـ ١٠ : كمأخذنا حسناء كرهاً (اذا عروة ٥٩ ، ١١ و ١٨ ، ٦) . — المبرّد ٧٤٣ ، ٥ : أُخِذْنَ حريرات وأبدين مِجْـلدا . — وكذلك المتلمس ٦ — ١١ . — الخنساء ١٠٨ ، ١٢ . — المتنبي ٢٢٥ — ١٥ — ابن سعد جـ ١ ق ٢ ، ١٦،٢٠ جـ ٢ ق ١ ، ١٤ ، ٩ . جـ ٢ ق ٢ ، ٤ ، ١٧ . وغ . ++

٦ — صاد ، (أمر حيواناً برّيّاً)

To catch, capture (a wild beast) = prendre, attraper (un animal sauvage.)

شـ : ابن سعد ج ٢ ق ١ ، ١١٤ ، ٢٧ : ثعلب في جحر ان أقمت عليه أخذته . — الفرزدق ١٣١ ، ١٢ : ومن يبتليهم وقد أخذوا ذئباً فأوثقوه

٧ — تَغَلَّبَ (على بلد ، أرض) ، فتح (بلداً ، أرضاً)

To take (a town), conquer (a country). = Prendre (une ville), conquérir (un pays)

شـ : ابن سعد ج ٢ ق ١ ، ٨٣ ، ٤ : لما افتتح النبي صلعم خيبر أخذها عنوة . الطبري ج١ ، ١٨٥٤ ، ٥ : كان وجهه الى نجران حتى أخذها .

٨ — غلب ، قهر (ناساً ، جيشاً ، عدوّاً)

To overcome, subdue. = Soumettre, subjuguer.

شـ : الطرماح ٧ — ١٤ : أن نأخذ الناس لا تدرك اخيذتنا . — المتنبي ٤٨ — ١٧ أعجب بأخذكه . — ٢٢٨ — ١٦ : لقد أقدموا لو صادفوا غير آخذ . — ٢٢٩ — ٣ : وأخذ للحواضر والبداوى * بضبط لم تعوّده نزار . — ٢٣٢ — ٣٥ : ما يشك اللعين في أخذك الجيشَ .

٩ — حبس (مجرماً)

To arrest, apprehend. = Arrêter, appréhender.

شـ القرآن ١٢ ، ٧٦ : ما كان ليأخذ أخاه . . . إلاّ أن يشاء الله . — آ ٧٨ : فخذ أحدنا مكانه . — آ ٧٩ : معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده . — معجم الحديث ٢/٢٦ ، ٩ (د) في البكر يؤخذ على اللوطية قال يُرجَم . — طهمان ٨٤ ، ١٣ (س السكري) : فأخذ طهمانُ فرُفِعَ الى الوليد بن عبد الملك .

١٠ — منع شخصاً ، كفّه

To hold back, impede. = Retenir, empêcher.

شـ : البخاري ج ٣ ، ٣٥٩ ، ١٩ (ك ٦٥ سو ٦٦ بـ ٢) : فأخذتني والله أخذاً كسرتني عن بعض ما كنت أجد .

١١ — حجز (على مال).

To seize (property) by distraint. = Saisir, opérer la saisie (de propriété).

ش : الطبري ج ٢ ، ١٣٠٧ ، ١١ : فأخذها (أي ألف الحُصن) .

١٢ — طعن في شخص

To assail (with the tongue). = Assailir (avec la langue).

ش : Lane ٢٩ / ١ ، ١٨ : أخذه بلسانه . — ل ج ٤ ، ١١٢ ، ٨ : أخذتنا بالجود وفوقه (.« فانما هي مبالغة وتشنيع »)

١٣ — تمكن من شخص أو حيوان فقتله

To slay, to kill. = Tuer

ش : القرآن ٤٠ ، ٥ وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه . — حسان ١٤٠ — ٧ : ما لقتيل الذي أغدو فآخذه * من دية فيه يعطاها . ـ ٢١٦ ـ ١٥ : نقتلهم والسيوف تأخذهم * أخذاً عنيفاً . ـ ذو الرمة ٣٠ ـ ٣٩ : أخذنا على الجفرين آل محرّق (في الشرح : أخذنا قتلنا) . ـ معجم الحديث ٢٩ / ١ ، ٩ (خ ، م) : فكل فانّ أخذ الكلب ذكاة

١٤ — أهلك واستأصل (ناساً)

To extirpate, exterminate. = Extirper, exterminer.

ش : المتنبي ١٨٧ ـ ٣٦ : والضرب يأخذ منكم فوق ما يدع .

١٥ — عاقب ، عذّب

To punish, chastise = Punir, chastier.

ش : القرآن ٦ ، ٤٤ : أخذناهم بغتةً فاذا هم مُبْلِسون . ـ ١١ ، ١٠٢ : وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ؛ إن أخذه أليم شديد .ـ١٣، ٣٢ و٤٠ ،٥: ثم أخذتهم فكيف كان عقاب . وغَ في القرآن ، يكثر استعماله خصوصاً في السور المكية . ـ البخاري ج ٣ ، ٣٢٠ ، ١٨ (ك ٦٥ سو ٣٨ بـ ٣) فأخذهم الله يوم بدر ـ معجم الحديث ٢٦/ ٢ ، ٢ (حم) ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه .

ر « أخذ شخصاً أو ناساً بعذاب ونحوه » صـ تحت .

١٦ — غلب ، قهر بمعانٍ مجازيةٍ أي :

(١) خلب ، أعجب

To fascinate, captivate = Fasciner, charmer.

ش : Lane ٢٩ / ٢ ، ٣٦ : أخذ الثوبُ المزخرفُ القلوبَ مأخذه .

ر « أخذ بقلبه » صـ تحت .

(٢) أسكر (الشرابُ)

To intoxicate, (drink). = Enivrer, (boisson).

ش : ٢٨/٣،٣٤ : أخذ الشراب الرأس .

ر « أخذ الشراب برأسه » و « أخذ فيه الشراب » و « أخذ منه الشراب »

صـ و و تحت .

(٣) نوم وما شبه

To overwhelm (sleep). = Gagner, (sommeil)

ش : القرآن ٢ ، ٢٥٥ : لا تأخُذُه سِنَةٌ ولا نوم . ـ المفضليات ١٦ ـ ٨٥ : سِنَةٌ تأخذها مثل السُّكْر . أبو نواس ٢٦٥ ، ٧ : ثم لما شرَّبوها * أخذت أخذ الرقاد . ـ ابن سعد ج ٢ ن ٢ ، ٣٢ ، ٢١ فلم يأخذه النوم . ـ ج ٢ ن ٢ ، ٦٠ ، ١٩ : فبينما هم كذلك أخذتهم نعسة . ـ Dozy ج ٢ ، ١٩٦ / ٢،٨ : فأخذتني عيني فنمت ثم انتبهت .

١٧ — أصاب شخصاً (أمراض ، آلام ، ضعف بدني)

To befall, attack, (diseases, infirmity). = Prendre, attaquer (maladies, faiblesse)

ش الحطيئة ٨ ـ ٤٢ : ويأخذه الهُداج . المفضليات ٤٠ ـ ٢١ : في حرور . . يأخذ السائر فيها كالصَّفَى . ـ معجم الحديث ٢٤ / ٨١ (م ، د) : فأخذه مِثلُ الموت . ـ ٢٥ / ١،٢٢ (ع ، ط) : وكان أبو بكر اذا أخذته الحمى يقول . . . ـ ٢٥ / ١ ، ٢٤ (ن) : أخذته سُعْلة . ـ ٢٥ / ١ ، ٢٦ (ح ، جه) : أخذته بحة شديدة . السيرافي ٣٠ ، ٨ : اذا أخذ القلوب كالأفكل . ـ ابن سعد ج ١ ن ١ ، ٤ ، ١٣ فأخذه من الرعدة أفكل . ـ ج ٢ ن ٢ ، ٣١،١٢ : كانت تأخذ رسول الله صلعم الخاصرة . ـ ل ج ٤ ، ١٤٦ ، ١٨ : أخذه بطنه وكذلك ابن سعد ج ١ ن ٢ ، ٥٦ ، ٢٤ وص ٥٧ ، ٢ . ـ البخاري ج ٣ ، ١٠٨،٦ ك ٦٤ ب ٣٤)

وجـ ٣ ، ٢٩٦ ، ١٢ (ك ٦٥ سو ٢٤ بـ ٦) . جـ ٣ ، ١٠٩ ، ١٢ (ك ٦٤ بـ ٣٤) . جـ ٣ ، ٣٠٧ ، ٩ (ك ٦٥ سو ٣٠) . جـ ٤ ، ٦٠٥٧ (ك ٧٦ بـ ٢٥) . ـ الجامع جـ ٢ ، ٨٦ ، ٢٧ . وغـ .

وقالوا على طريقة الاطلاق « أخذ » مبنيًّا للمفعول بمعنى :

اختنق أو شبهه

To be taken by a choking attack. = Avoir une attaque de suffocation.

شـ : البخاري جـ ٢ ، ٣٤١ ، ٢ و ٣ (ك ٦٠ بـ ٨) ، فلما دخلت (سارة) عليه (أي على الجبار) ذهب يتناولها بيده فأُخِذَ (في الشروح : أي اختنق حتى صار كأنه مصروع أو نحوه) . ـ ابن سعد جـ ١ ق ١ ، ٢٣ ، ٢٠ وماـ يـ : فضبث (الجبارُ) بيده وأُخِذ أخذة شديدة . ـ الطبري جـ ١ ، ٢٦٨ ، ١١ وماـ يـ : فلما دخلت (سارة) عليه فرآها أهوى اليها يتناولها فأخذ أخذاً شديداً .

١٨ — عرا شخصاً (حركات نفسانية)

To overcome, (emotion). = Prendre, (emotion).

شـ : القرآن ٢٤ ، ٢ : ولا تأخذكم بهما رأفة . امرؤ القيس ٣٦ ـ ١٤ : اذا أخذتها هزّة الرّوح . ـ الحماسة ١٣٥ ، ٣ : وتأخذه عند المكارم هزة . ـ معجم الحديث ٢٥/١ ، (خ) والبخاري جـ ٤ ، ٣٢٧ ، ١٢ (ك ٨٧ بـ ٣٢) فأخذتني غضبة فلطمته . ـ ابن سعد جـ ٢ ق ١ ، ٥٦ ، ٥ : فأخذهم من ألم ما أخذهم . النهاية جـ ١ ، ٢٠٨ ، ١ : وفي حديث ابن سعود رضـه.... فأخذني ما قَدُم وما حَدُث . يعني همومه وأفكاره القديمة والحديثة . — الطبري جـ ١ ، ١٤٦٢ ، ٣ و جـ ٣ ، ٢٤٤٨ ، ١٨ : قالت عائشة : فأخذني ما قَرُب وما بَعُد لما يبلنا من جمالها (أي جمال زينب بنت جحش) . ـ جـ ٢ ، ١٠٨٣ ، ٩ : أخذه ما تقدم وما تأخر . المغرب للمطرزي في ما قدم أخذه ما قرب وما بعد، وأخذه المقيم والمقعد أي الهم (ر بخصوص هـذه العبارات ١ . فيشر في ZDMG جـ ٦٢ ، ٢٨٠ ، ١٧ وماـ يـ A. Fischer

١٩ — أصاب ، اعترى (ناساً بليةٌ ، عذابٌ ، لومةٌ)

To befall, (disaster, punishment) to strike, (blame). = Frapper (désastre, châtiment, blâme)

شـ : القرآن ٧ ، ٧٨ . ٩١ . ١٥٥ و ٢٩ ، ٣٧ : (فـ) أخذتهم الرجفة . ـ ٢٩ ، ١٤ :

فأخـذهم الطوفان . ـ ٢ ، ٥٥ و٤ ، ١٥٣ و ٤٤،٥١ : فأخذتـكم (ـ ـهم) الصاعقة . — ١٧،٤١ : فأخذتهم صاعقة العذاب . ـ ١١ ، ٦٧ . ٩٤ : وأخذ (ت) الذين ظلموا الصيحة ـ ١٥ ، ٧٣ . ٨٣ و ٢٣ ، ٤١ : فأخـذتهم الصيحة . ـ ٧ ، ٧٣ و ١١ ، ٦٤ : فيأخذكم عذاب أليم (قريب) ، وأمثال ذلك ١٦ ، ١١٣ و٢٦ ، ١٥٦ . ١٨٩ . (هذه المواضع كلها في سور مكيـة الاّ قليلة) . ـ معجم الحديث ٢٥ / ٢ ، ١ (خ ، م) : فأخذتهم سَنة . ـ ٢٥ / ٢ . ٢٩ (جـه) : إلاّ أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم . ـ ٢٦ / ٢ ، ٢٣ (جـه) : أقيموا حدود الله في القريب والبعيد ولا تأخذكم في الله لومة لائم . ـ المبرد ٥٢٢ ، ١٤ : لا تأخذه فيك لومة لائم .

٢٠ — أصاب (ناساً المطرُ وأمثاله)

Surprise, (rain). = Surprendre, (pluie)

ش : البخاري ج ٤ ، ١٠٩ ، ٨ (ك ٧٨ ب ٥) : أخذهم المطر . ـ معجم الحديث ٢٥ / ١ ٣٣ (خ) : أخذتهم السماء فدخلوا في غار . الهذليون ٦٢ ـ ٤ وأبو ذؤيب ٣٠ (ب) ـ ٤ : وأقصر ولم تأخذك مني غمامة (سحابة) * يُـنَـفّـر شاءَ المقلمين خواتُـها (وهو من المجاز) ـ ابن دريد ٥٠٣٤ × : أهـلـكَ والليلَ ما يُـرى إلاّ أنه قد أَخذَه المطرُ ـ ٣٨ ، ٢ × : أخذتنا السماء بِدَثٍ . ـ ١٥٣٩ : أخذنا جارُ الضبع .

٢١ — سحر

To enchant, bewitch. = Fasciner par des enchantements, ensorceler

ش : الفاخر ١٣٤ ، ١٨ : قولهم أخذته الأخذة . قال الفراء : الأخذة السحر الخ .

٢٢ — ظفِـرَتْ شخصاً ، وقعت عليه (العينُ ، الطرف)

To see, fall upon, (eye) = Apercevoir, (œil)

ش : ل ج٦ ، ١٩٣ ، ٤ : وتقول العرب : . . . . وما ظفِـرَتـكَ عيني منـذ زمان أي ما رأتك وكذلك ما أخذتك عيني منذ حين . ـ المبرد ٤،٨٨ : فلم تأخذ عينُـه أحداً غيري (ر ـ ٧ فلم تقع عينه إلاّ عليَّ) . ـ المقامات ١٧٨ ، ٢ × : أخذ طرفي رُفقه . ـ وللكلمة مبالغة في هذا المعنى في :

٢٣ — جَهَّرَت شخصاً (العين)

To regard as worthy of notice or respect, (eye). — Regarder avec intéret, admiration, (œil)

شـ : ل جـ ٢، ٢٢١، ١٧ : وجَهَّرَ الجيشَ والقوم . . واجتهرهم : كثُروا في عينه ... وكذلك الرجل تراه عظيماً في عينك . وما في الحي أحد تجهره عيني أي تأخذه عيني . ـ ـ معجم الحديث ٢٦ / ٢ ، ٢١ (د) : وكانت امرأة مُـلاّحة تأخذها العين . ـ ابن سلام ٢٥ ، ٢١ : وكان سعيد لا تأخذه العين . ـ ابن قتيبـة ٣٢١ ، ١٤ : ما أخذتك عيني . ـ الطبري جـ ٢ ، ٩٧٧ ، ٦ : تأخذها العين . ـ جـ ٢ ١٣٥٦ ، ٩ : تأخذه العين .

(ب) أخذ كذا بغير قوة أو حيلة

(ا) المفعول به شيء ماديّ

هذا الوجه أفشى استعمالاً ويشتمل على المعاني الآتي ذكرها .

٢٤ — تناول شيئاً (باليد سواء ذكرت اليد أو لم تذكر)

To take (with the hand) —Prendre saisir (avec la main).

شـ : القرآن ٢ ، ٢٦٠ : قال فخذ أربعة من الطير . ـ ٧ ، ١٥٤ : ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح . ـعنترة ١٤ ـ ١ : خذوا ما أسأرَتْ منها قداحي . ـ حاتم ٦٦ ـ ٥ : ويأخذ رايات الطعان بكفه . أمية ٢٩ ـ ١٩ قال خذه (أي الكبش) وأرسِـل ابنك . ـ لبيد ٦ ـ ١١ : فمنهم سـعيد آخذ لنصيبه (وروى بنصيبه) . المتنخـل ٣ ـ ١١ : تلك بأخذها (أي الخمر) الأيدي السواطي . عمر ١١٤ ـ ١٠ : وأخَـذْتِـهِ (أي الكتاب) بعد الصدود تَـكَـرُّهاً . البخاري جـ ٢ ، ٣٥٥ ، ١٥ : تأخذ حوتاً . . . فأخذ حوتاً . الجامع جـ ٢ ، ٩٧ ، ٢٠ : كان يأخذ الرُّطبَ بيمينه والبِـطِّـيخَ بيساره . الـكنوز جـ ٢، ٤٧، ٢٩ (ت) كان إذا أمّ أخذ شماله بيمينه . ابن سعد جـ ٢ ق ١ ، ١٢ ، ٢ : وأخذ رسول الله صلعم سهمه مع المسلمين . العسكري جـ ١ ، ٢٧٩ ، ١٣ × والميداني جـ ١ ، ٢٠٥ ، ٤ : خذ ما صفا

ك ـ أبو نواس ٣٢٩ ، ٩ : أدرها (أي الكأس) وخذها . المتنبي ـ ١١٤ ـ ٢ : ثم أخذ الكأس وقال : وأخذتُها فلقد تركت الأخرما . وهلّج

وقد تعدّى أخذ هذه أيضاً بالباء فيقال « أخذ بشيء » بمعنى تناوله . ر ص تحت .

وأخذ هذه في مواطن كثيرة زائدة ، ليس المراد بها فعل الأخذ ولكن زيادة بالتصوير للحال والتأكيد للقصة .

This أخذ is often used in an almost pleonastic way. = C'est أخذ souvent presque pleonastique.

ش : القرآن ٢٨ ، ٤٠ و ٥١ ، ٤٠ : فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمّ . النابغة ٧ ـ ٢٥ أخذ العذارى عقدها فنظمنه . البخاري ج ٣ ، ١٤٤ ، ٢٠ (ك ٦٤ ب ٥٣) : أخذ سعد بن أبي وقاص ابنَ وليدةِ زمعة فأقبل به الى النبي صلعم . ـ ج ٣ ، ١٦٢ ، ١٠ ك ٦٤ ب ٦٥) وج ٤ ، ١٠ ، ١ (ك ٧٢ ب ١٢) : فأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه فنصبه . ـ ج ٣ ، ٤٥٧ ، ٤ (ك ٦٧ ب ١٢٣) : فأخذَ حصيرٌ فحُرقَ فحُشي به جرحه . الجامع ج ٢ ، ٩٧ ، ٢٢ : كان يأخذ المسك فيمسح به رأسه . ابن سعد ج ١ ن ١ ، ١١ ، ٨ فأخذت الملائكة آدم فغسلوه وحنطوه وحفروا له قبراً . ـ المتلمس ، شرح ٢٨ ، ٢ : فأخذ المتلمس كتابه فرمى به في الخليج . ـ وكذلك البخاري ج ٤ ، ٢٢٦ ، ٨ (ك ٨١ ب ٢٤) و ٢٧٢ ، ١٣ (ك ٨٣ ب ٢٢) . ـ ابن سعد ج ١ ن ٢ ، ١٧ ، ٢ . ـ الطبري ج ١ ، ٣١٥٩ ، ٨ . وغ .

٢٥ لبس (ثوباً ، سلاحاً ، زينة)

To put on (garment, ornament, weapon) . = Mettre (vêtement, ornament, arme).

ش : معجم الحديث ٢٧ / ١ ، ٢٩ (د) : خذ عليك ثوبك ولا تمشوا عراة . ـ البخاري ج ٣ ، ٣٥٩ ، ١٣ : فأخذ رداءه . ـ ٣٦٠ ، ٤ : فأخذت ثوبي . ـ القرآن ٧ ، ٣١ : يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا . ـ الكنوز ج ١ ، ١١٠ ، ١١ : خذوا زينتكم عند كل مسجد النعلَ والخاتمَ . ـ عمر ٢٥٨ ـ ٣ : خذ السيف واشتمل عليه . ومن المجاز القرآن ١٠ ، ٢٤ أ : اذا أخذت الارض زخرفها وأزينت . ـ المقامات ٢٧٩ ، ٤ : الى حديقة أخذت زخرفها وأزيّنت . . . الميداني ج ١ ، ٢٧ ، ٣ : أخذت

الأرض زُخاريّها . ـ الأصمعي ٢٤ ، ٣ : ويقال عنـد ذلك : قد أخذ النّـبت زخارفه وزخرفه . ـ الأساس في مـ ر : ومن المجاز . . . . . أخذت الأرض زخاريّـها . . . ، وأخذ النبت زخاريّـه . وكل أمرٍ تمّ واستحكم فقد أخذ زخاريّـه مَثَـلٌ عندهم . وتقول: النبت اذا أصاب رِيّـه أخذ زخاريّه . ـ ل ج ٥ ، ٤٠٩ ، ٢ : وأخذ النبـات زخاريّه أي حقه من النضارة والحس ر Lane م زخر وصه زُخْـرُف.

٢٦ — شرب

To drink. = Boire.

شد : حسّان ١٧٧ ـ ٦ : والشُّـربَ لا تدمن وخذ معروفه. ـ حماسة البـ ١١٧ ـ ١: ألاً تأخذوا لبناً . ـ

٢٧ — تناول شخصاً ، آواه ، أجاره .

To take a. o., to take a. o. under one's care, protection. = Prendre q., prendre q. sous sa garde, protection.

شد : الفرزدق ٢٢٨ ، ٢ × : فقلت له هب لي ابن أمي . . . . فقال نعم خذه . ـ في الشرح ١٩٦ ، ٤ × وخـذوا صاحبنا فداووه . ـ الطبري ج ١، ١٦٧٧ ، ١٠ : تلكم صاحبتكم في بني جمح اذهبوا فخذوها . فذهبوا اليها فأخذوها . ـ القرآن ٢٠ ، ٣٩ : فليلقه (أي موسى) اليمُّ بالساحل يأخذه عدوٌّ لي وعدوٌّ له ـ ابن سعد ج ١ ق ٢ ، ٧٣ ، ٨ فقال (رسول الله صلعم) . . . أتأخذوني بما فيّ يا معشر همـدان ؟ لبيد ٤٧ — ١٢ لو يأخذون المزنـما

٢٨ — (تزوّج امرأة)

To marry (woman). = Epouser (femme).

شد : البخاري ج ٣ ، ٤١٨ ، ١٠ (ك ٦٧ ب ١٦) : وأخذوا غيرها من النساء . ـ معجم الحديث ٢٢٤ / ٢ ، ١١ (د) : لما أخذ رسول الله صلعـم صفية أقام عندها ثلاثاً .

٢٩ — اشترى شيئاً (بثمن كذا)

To buy a. th. (for such and such a price). = Acheter qc. (à un tel prix).

شد : البخاري ج ٤ ، ٣٤٥ ، ١ (ك ٩٠ ب ١٤) : نخاف أن يأخذ الجارُ الدار بالشفعة

ـ ٤٠٤ ، ١٥ (ك ٩٣ ب ٤٨) : ورجل يبايع رجلاً بسلعة بعد العصر فحلف بالله لقد أُعْطِيَ بها كذا وكذا فصدّقه فأخذها ولم يعط بها . ـ ٣٤٦ ، ٨ (ك ٩٠ ب ١٥) : فان طلب الشفيع أخْذَ الدار بعشرين ألف درهم وإلاّ فلا سبيل له على الدار . ـ ج ٣ ، ١٣٢ ، ١٣ (ك ٦٤ ب ٣٩) : انا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والصاعين بالثلاثة. معجم الحديث ٢٥ / ١ ، ٩ (م ، جه) : فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا . الميداني ج ١ ، ٢٠٤ ، ١٧ . خذه ولو بقرطي مارية . الأغاني ج ١٣، ٧٩، ٤ : أيام تأخذها (أي الخمر) وتعطي في أباريقِ الرصاصِ .

٣٠ — اقترض شيئاً

To borrow. = Emprunter.

ش : معجم الحديث ٢١ / ٢ ، ١٤ (ع ، جه) : من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله . ٢٥ / ١ ، ١٨ (ت ، جه ، حم) : على اليد ما أخذت حتى تُؤَدِّي

(ب) المفعول به شيء غير مادي

٣١ — نال ، حصل على (صفة ، مزيّة ، رتبة ، منزلة)

To acquire, obtain (attribute, quality, rank). = acquérir obtenir, (attribut, qualité, rang)

ش : حماسة الب ١ ـ ١ : وأخذي الحمد بالثمن الربيح . ١٠٢١ ، ٢ : فإن استطعت فخذ بشيبك فضله . المتنبي ١١١ ـ ١٦ . بصير بأخذ الحمد في كل موضع . ـ نقائض جا ١٤ ـ ٣ والطبري ج ٢ ، ٢٧٨ ، . لا يأخذون المُلك إلاّ غصبا

وقد تعدى أخذ هذه أيضاً بحرف الباء . ر ص تحت .

٣٢ — حافظ (على أمر وما شابهه)

To observe (command, law. = Observer commandement, loi).

ش : البخاري ج ٣ ، ١٣٨ ، ١٨ (ك ٦٤ ب ٤٧) وإنما يؤخذ من أمر رسول الله صلعم الآخِرُ فالآخِرُ .

ويعدّى وجه أخذ هذا كثيراً بحرف الباء . ر صه تحت .

ثم الثلث الأول من مادّة أخذ

جـدول

الـكتب التي نقلنا عنها الشواهد وبعض الملاحظات
مع ذكر الأسماء المختصرة والرموز

ابن دريد — كتاب صفة السحاب والغيث وأخبار الروّاد وما حمدوا من الكلأ لابن دريد في مجموعة « جرزة الحاطب وتحفة الطالب » (أو Opuscala Arabica باعتناء و . وريث (W. Wright) ليدن (Leyden) ١٨٥٩

ابن سعد — كتاب الطبقات الكبير لابن سعد باعتناء أ . ساخو (E. Sachau) وغيره من المستشرقين . ١٤ قسماً في ٩ مجلدات ليدن (Leiden) ١٩٠٤ — ١٩٢٨

ابن سلاّم — طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي . باعتناء ى . هل (J. Hell) ليدن (Leiden) ١٩١٦

ابن قتيبة — كتاب الشعر والشعراء (أو) طبقات الشعراء لابن قتيبة . باعتناء م . ى . ده غويه (M. J. de Goeje) ليدن (Lugd. -Batav.) ١٩٠٤

ابن قيس الرقيات — شعر عبيد الله بن قيس الرقيات مع ترجمة المانية . باعتناء ن . رودوكاناكيس (N. Rhodokanakis) فين (Wien) ١٩٠٢

أبو خراش — ديوان شعر أبي خراش أنظر «الهذليّون»

أبو دهبل — شعر ابي دهبل الجمحي باعتناء ف . كرنكو (F Krenkou) طبعة مفردة مستخرجة من مجلة الجمعية الآسيوية الملكية البريطانية (Jour. of the Asiat. Soc.) اكتوبر ١٩١٠

- ديوان أبي ذؤيب مع ترجمة المانية . أنظر « الهذليون »
- كتاب النوادر في اللغة لأبي زيد الانصاري . باعتناء سعيد الخوري الشرتوني بيروت ١٨٩٤
— ديوان أبي كبير الهذلي من ترجمة فرنسية . باعتناء ف. بايراكتارفيج (F. Bajraktarevic) طبعة مفردة مستخرجة من المجلة الأسيوية الفرنسية (Jour. Asiat.) جزء ٢١١
— لامية أبي كبير الهذلي مع ترجمة فرنسية . باعتناء ف. بايراكتارفيج (F. Bajraktarevic) طبعة مفردة مستخرجة من المجلة الأسيوية الفرنسية (Journ. Asiat) جزء ٢٠٣
— ديوان أبي نواس مشروحاً بقلم محمود واصف . مصر المطبعة العمومية ١٨٩٨
- شعر الأخطل . باعتناء أنطون صالحاني (A. Salhani) بيروت ١٨٩١
— الشذر الذهبي في شعر الأخطل التغلبي . باعتناء أنطون صالحاني (N. Salhani) بيروت ١٩٢٥
— أساس البلاغة للزمخشري . جزآن . طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤١ هـ ـ ١٩٢٢ / ١٩٢٣ م
— ديوان شعر أسامة بن الحارث مع ترجمة المانية . أنظر « الهذليون »
— كتاب النبات والشجر للاصمعي . باعتناء ا . هافنر (A. Haffner) في مجموعة « البلغة في شذور اللغة » (أو) «Dix anciens traités de philologie arabe» باعتناء ا . هافنر و ل . شيخو (L. Cheikho) بيروت ١٩٠٨
— مجموع أشعار العرب . باعتناء ف ا كفاردت (W. Akwardt) ٣ أجزاء برلين (Berlin) ١٩٠٢ — ١٩٠٣ ج ١ : الأصمعيات وبعض قصائد لغوية

الأعشى — كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير ميمون بن قيس الأعشى والأعشين الآخرين باعتناء ر. جاير (R. Geyer) لندن (London) ١٩٢٨

الأغاني — كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، ٢٠ جزءاً بولاق ١٢٨٥

الأغاني — كتاب الأغاني تأليف أبي الفرج الأصبهاني، طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة طبع منه حتى الآن ٦ أجزاء ١٣٤٥ هـ - ١٣٥٤ ١٩٢٧ - ١٩٣٥ م

الأغاني — الجزء الحادي والعشرون من كتاب الأغاني باعتناء ر. أ. برينو (R. E. Brunnw) ليدن (Leyden) ١٨٨٨[1]

امرؤ القيس — ديوان امرؤ القيس الكندي. من ضمن «كتاب العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين» (أو The Divans of the Six Ancient Arabic Poets (Ennâbiga, Antara, Tharafa, Zuhair, Alqama and Imruulqais) باعتناء ف. اكفاردت (W. Akwardt) لندن (London) ١٨٧٠

أميّة — المقاطيع المعزوّة الى أمية بن أبي الصّلت مع ترجمة ألمانية. ف شولتس (F. Schulthess) ليبزج (Leipzig) ١٩١١

أوس — شعر أوس بن حجر مع ترجمة ألمانية باعتناء. ر. جاير (R. Geyer) فين (Wien) ١٨٩٢

أوس — تصحيح طبع ديوان أوس وزيادة عليه: بعناية. أ. فيشر (A. Fischer) في مجلة الجمعية الشرقية الالمانية (Zeitscher, d. Deutsch. Morgenl Gesellsch) جـ ٤٩ صـ ٨٥ — ١٤٤ و ٦٧٣ — ٦٨٠

البخاري — كتاب الجامع الصحيح للبخاري. ليدن (Leyden) ١٨٦٢-١٩٠٨ ٤ أجزاء جـ ١ — ٣ باعتناء. ل. كريل (L. Krehl)، جـ ٤ باعتناء ت. ف يونبول Th. W. Juynboll

---

(١) قد شك احمد زكي العدوي في أن هذا الجزء من كتاب الاغاني (الاغاني جـ ١ تصدير ص ٤٩)

البكري	— كتاب معجم ما استعجم تأليف أبي عبيد البكري. بعناية ف. فيستنفلد (F. Wustenfeld) جزءان . باريس — جوتينجن ١٨٧٦ — ١٨٧٧
البلاذري	— كتاب فتوح البلدان للبلاذري باعتناء م . س ده غويه M. J. de Goeje ليدن (Lugd Batav.) ١٨٦٦
ت	— صحيح الترمذي الامام
التاج	— شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس : لمرتضى الزبيدي ١٠ أجزاء . مصر المطبعة . الخيرية ١٣٠٦—١٣٠٧
الجامع	— الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير للسيوطي . جزءان . مصر . المطبعة . الميمنية ١٣٢١ . وبالهامش كتاب كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق للمناويّ
جران العود	— ديوان جران العود النّميري . طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٥٠ هـ ١٩٣١ م
جرير	— ديوان جرير . جزءان . مصر المطبعة العلمية ١٣١٣
جه	— سنن ابن ماجه الامام
حاتم	— ديوان حاتم الطائي مع ترجمة المانية . بعناية ف . شولتهس (F. Schulthess) ليبزج (Leipzig) ١٨٩٧
الحادرة	— ديوان شعر الحادرة مع ترجمة لاتينية . باعتناء ج . هـ أنجلمان (G. H Engelmann) ليدن (Lugd. Batav) ١٨٥٨
الحارث	— ديوان شعر الحارث بن حلزة ماخلا معلقته المشهورة . انظر «عمرو ابن كلثوم»
حسّان	— ديوان حسان بن ثابت . بعناية هـ . هيرشفلد (H. Hirschfeld) (ليدن ـ لندن) (Leyden—London) ١٩١٠
الحطيئة	— ديوان الحطيئة . بعناية س . جولدزيهر (F. Goldzher) ليبزج (Leipzig) ١٨٩٣

الحطيئة — ديوان الحطيئة . باعتناء أحمد بن الأمين الشنقيطي . مصر مطبعة التقدم ١٣٢٣

حم — مسند ابن حنبل الامام

الحماسة — كتاب أشعار حماسة ابي تمام مع شرح التبريزي . وله ترجمة باللغة اللاتينية باعتناء ج . ف . فريتاغ (G. W. Freytag) ٣ أجزاء . بون (Bonnae) ١٨٢٨ — ١٨٥١

حماسة الب — كتاب الحماسة تأليف البحتري . باعتناء ل . شيخو (L. Cheikho) طبع مفرد مستخرج من مجلة (Mélanges de la Faculté Orientale) ج ٣ — ٥ باعتناء ل . شيخو (L. Cheikho) بيروت ١٩١٠

خ — صحيح البخاري الامام

الخنساء — أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء . باعتناء ل. شيخو L. Cheikho بيروت ١٨٩٦

د — سنن أبي داود الامام

الدرّة — كتاب درّة الغوّاص في أوهام الخواص للحريري . بعناية هـ . توربكه ليبزج (Leipzig) ١٨٧١

دي — مسند الدارمي الامام

ذو الرّمّة — ديوان شعر ذي الرّمّة . باعتناء ك.هـ.هـ. مكارتني C.H.H. Macartney كيمبردج (Cambridge) ١٩١٩ م — ١٣٣٧ هـ

رؤبة — مجموع أشعار العرب . باعتناء ف . اكفاردت (W. Akwardt) ٣ أجزاء . برلين (Berlin) ١٩٠٢ — ١٩٠٣ ج ٣ : ديوان رؤبة ابن العجاج

زهير — ديوان شعر زهير بن أبي سلمى . من ضمن « كتاب العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين » انظر « امرؤ القيس »

ساعدة — ديوان شعر ساعدة بن جؤية (انظر الهذليون)

— ديوان سلامة بن جندل مع ترجمة فرنسية . باعتناء . ك . هوارت (C. Huart) طبعة مفردة مستخرجة من المجلة الآسيوية الفرنسية (Journ. Asiat.) يناير — فبراير ١٩١٠

— ديوانه . بعناية . ل . شيخو (L. Cheikho) بيروت ١٩٠٩

— الكتاب لسيبويه . بعناية هـ . درنبورج (H. Derenbourg) جزءان باريس (Paris) ١٨٨١ — ١٨٨٩

— فصل في ضرورة الشعر ، مستخرج من شرح كتاب سيبويه للسيرافي ومطبوع في الترجمة الالمانية لكتاب سيبويه التي نشرها . ج . يان جزءان برلين Berlin ١٨٩٥ — ١٩٠٠ ج ١ ايضاحات ، صـ ٢٧ — ٥٥

— سيرة رسول الله صلعم رواية عبد الملك بن هشام عن . . . . محمد بن اسحاق بعناية . ف . فيستنفلد(F. wustenfeld) ٣ أجزاء . جوتنجن (Göttengen) ١٨٥٨ — ١٨٦٠

— شرح قصيدة كعب بن زهير المسماة « بانت سعاد » لابن هشام الانصاري باعتناء س. جويدي (J. Guidi) ليبزج (Leipzig) ١٨٧١

— ديوان الشماخ بن ضرار بشرح أحمد بن الأمين الشنقيطي . مصر مطبعة السعادة ١٣٢٧

— كتاب تاج اللغة وصحاح العربية تصنيف الجوهري . جزءان . بولاق ١٢٨٢

— موطأ الامام مالك

— تأريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري . باعتناء م.ي. دي غويه (M. J. de Goeje) وغيره من المستشرقين . ١٥ جزءا . ليدن (Lugd. Batav) ١٨٧٩ — ١٩٠١

— ديوان شعر طرفه البكري . من ضمن كتاب العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين « أنظر » امرؤ القيس

الطِّرمّاح	— كتاب فيه جميع ديوان الطرماح . انظر « طفيل »
طفيل	— شعر طفيل بن عوف الغنوي . ويليه كتاب فيه جميع ديوان الطرماح كلاهما مع ترجمة انكليزية . بعنـاية ف . كرنكو (F. Krenkow) لندن (London) ١٩٢٧
طهمان	— ديوان شعر طهمان بن عمرو الكلابي . في مجموعة « جرزة الحاطب وتحفة الطالب » انظر « ابن دريد »
عامر	— كتاب ديوان شعر عامر بن الطّفيل . انظر « عبيد »
عبيد	— كتاب ديوان شعر عبيد بن الأبرص . ويليه كتاب ديوان شعر عامر ابن الطفيل ومعهما ترجمة انكليزية . باعتناء ج . ليئل (Ch. Lyall) لندن ، ليدن (London-Leyden) ١٩١٣
العجاج	— مجموع أشعار العرب باعتناء ف. الفاردت (W. Akwardt) ٣ أجزاء برلين (Berlin) ١٩٠٢/١٩٠٣ جـ ٢ : ديوانا الأراجيز للعجاج والزّفيات
عروة	— شعر عروة بن الورد ومعه ترجمة المانية . بعنـاية ت . نولدكه (Th. Nöldeke) جوتينجن (Göttingen) ١٨٦٣
عروة +	— ديوان عروة بن الورد مع شرح ابن السكيت . بعناية بن أبي شنب (Mohamed Ben Chenab) باريس . الجزائر Paris—Alger ١٩٢٦
العسكري	— كتاب جمهرة الامثال لأبي هلال العسكري . على هامش « مجمع الأمثال » للميداني طبع مصر المطبعة الخيرية ١٣١٠
علقمة	— ديوان شعر علقمة التميمي . من ضمن « كتـاب العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين » انظر « امرؤ القيس »
عمر	— ديوان شعر عمر بن أبي ربيعة . بعناية ب . شفارتس P. Schwartz قسمان . ليبزج (Leipzig) ١٩٠١—١٩٠٩
عمرو بن ق	— شعر عمرو بن قميئة مع ترجمة انكليزية باعتناء ك . ليئل (Ch. Lyall)

كيمبردج (Cambridge) ١٩٠٩

عمرو بن ك — ديوان شعر عمرو بن كلثوم ما خلا معلقته المشهورة . ويليه ديوان شعر الحارث بن حلزة ما خلا معلقته المشهورة . بعناية ف . كرنكو « F. Krenkow » طبعة مفردة مستخرجة من مجلة « المشرق » . بيروت ١٩٢٢

عنترة — ديوان شعر عنترة العبسي . ضمن « كتاب العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين » . انظر « امرؤ القيس »

الفاخر — كتاب الفاخر تأليف المفضّل بن سلمه الكوفي . باعتناء ك . أ . ستوري « C. A. Storey » ليدن « Leyden » ١٩١٥

الفرزدق — ديوانه . مع ترجمة فرنسية . باعتناء . ر . بوشره « R. Boucher » جزءان . باريس « Paris » ١٨٧٠ — ١٨٧٥ وهو غير كامل

الفرزدق — الجزء الثاني من ديوانه . طبع بالتصوير الشمسي . باعتناء . ي . هل « J. Hell » جزءان . ميخن « München » ١٩٠٠ — ١٩٠١

القاموس — المحيط الفيروزابادي . موشى الحواشي بطراز نصر الهوريني وغيره ٤ أجزاء . مصر . المطبعة الحسينية ١٣٣٠

القحيف — ما بقي من شعر القحيف العقلي . مع ترجمة انكليزية بعناية ف . كرنكو « F. Krenkow » طبع مفرد مستخرج من مجلة الجمعية الأسيوية الملكية البريطانية « Journ. of the R. Asiat. Soc. » ابريل ١٩١٣

القرآن — القرآن الشريف طبع مصر المطبعة الأميرية ١٣٤٧

القطامي — ديوانه مع ملاحظات باللغة الألمانية . بعناية ي . بارت (J. Barth) ليدن « Leiden » ١٩٠٢

قيس — شعر قيس بن الحطيم مع ترجمة المانية . باعتناء ت كوالسكي « Th. Kowalski » ليبزج « Leipzig » ١٩١٤

كثيّر — ديوان كثيّر عزة مع شرح باللغة العربية . بعناية هـ . بيرس

« H. Pérés » جزآن . الجزائر—باريس « Alger-Paris » ١٩٢٨/١٩٣٠

الكميت — الهاشميات للكميت بن زيد الأسدي مع ترجمة المانية . بعناية ي . هوروفيتس « J. Horovitz » ليدن « Leiden » ١٩٠٤

الكنوز — كتاب كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق للمناوي . انظر « الجامع »

ل — لسان العرب لابن منظور ، ٢٠ جزءاً . بولاق ١٣٠٠ — ١٣٠٧

لبيد — ديوان لبيد العامري رواية الطوسي . باعتناء يوسف ضياء الدين الخالدي . فين (Wien) ١٨٨٠

لبيد + — ترجمة المانية لأشعار ديوان لبيد التي طبعها يوسف ضياء الدين الخالدي (انظر « لبيد ») بعناية ا. هوبر (A. Huber) وتصحيح ك . بروكلمان « C. Brockelmann » ليدن « Leiden » ١٨٩١

لبيد ++ — قطعة ثانية من ديوان لبيد مع ترجمة المانية بعناية أ. هوبر « A. Huber » وتصحيح ك . بروكلمان « C. Brockelmann » ليدن « Leiden » ١٨٩١

م — صحيح مسلم بن الحجاج الامام

المبرّد — الكتاب الكامل للمبرد . باعتناء و . فريجهت « W. Wright » جزءان . ليبزج « Leipzig » ١٨٧٤_١٨٩٢

المتلمس — ديوان شعر المتلمس مع ترجمة المانية . بعناية ك . فولرس « K. Vollers » ليبزج « Leipzig » ١٩٠٣

المتنبي — ديوان أبي الطيب المتنبي . شرح الواحدي باعتناء ف . ديتريتسي « F. Dieterici » برلين « Berolini » ١٨٦١

المتنخل — ديوان شعر المتنخل . انظر « الهذليون »

المجمل — الجزء الأول من مجمل اللغة لابن فارس مصر . مطبعة السعادة ١٣٣٢ ﻫ ١٩١٤ م لم يطبع غيره

المراثي — رياض الأدب في مراثي شواعر العرب . بعناية لويس شيخو . الجزء الأول في شواعر الجاهلية . بيروت ١٨٩٧ لم يطبع غيره

المسعودي — كتاب التنبيه والاشراف . وهو الجزء الثامن من « المكتبة الجغرافية العربية » (Bibliotheca Geograph, Arab) باعتناء م . ي . دي غويه « M. J. de Goeije » ليدن « Ludg - Batav. » ١٨٩٤

معجم الحديث — المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي عن الكتب الستّة وعن مسند الداريّ وموطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل . بعناية . أ . ي . فنسنك « Wensinck » ولفيف من المستشرقين . طبع منه الى الآن ٤ فصول . ليدن « Leiden » ١٩٢٣ــ١٩٣٥

المعلقات — كتاب السموط السبعة المعلقات مع شرح منتخب . باعتناء . ف . ا أرنولد « F. A. Arnold » ليبزج « Leipzig » ١٨٤٠

المعلقات — القصائد « أو » المعلقات العشر وهي السبع المعلقات وقصيدة الأعشى اللامية وقصيدة النابغة الدالية وقصيدة عبيد بن الأبرص البائية . مع شرح التبريزي . باعتناء . ك . ي . ليئل Ch. J. Lyall كلكتة « Calcutta » ١٨٩٤

معن — شعر معن بن أوس مشروحاً . بعناية . ب . شفارتس P. Schwarz ليبزج « Leipzig » ١٩٠٣

المفضّليّات — ديوان المفضليات جمع المفضل الضّبي مع شرح وافر للانباري ، ٣ أجزاء جـ١ المتن العربي . جـ٢ ترجمة انكليزية . جـ٣ فهارس . جـ١ و٢ باعتناء . ك . ل . لايل « Ch. J. Lyall » أوكسفورد « Oxford » ١٩٢١ / ١٩١٨ جـ٣ باعتناء أ . أ . بفن « A. A. Bevan » لندن « London » ١٩٤٤

المقامات — كتاب المقامات للحريري مع شرح مختار . باعتناء سلفستر ده ساسي « Selvestre de Sacy » الطبعة الثانية باعتناء « رينود ودرنبورج » Reinaud, Derenbourg جزءان . باريس Paris ١٨٤٧ / ١٨٥٣

مقطعات — مقطعات مراثٍ لبعض العرب ضمن مجموعة « جرزة الحاطب وتحفة

الطالب «أنظر ابن دريد»

الميداني — كتاب مجمع الأمثال للميداني . جزءان . بولاق ١٢٨٤

الميداني + — مجمع الأمثال للميداني . ج ١ و ٢ من مجموعة « أمثال العرب » « Arabic Proverbia » مع ترجمة لاتينية ٣ أجزاء . بعناية ج . ف . فريتاغ (G. W. Freytag) بون « Bonnae » ١٨٣٨_١٨٤٣

ن — سنن الامام النسائي

النابغة — ديوان شعر النابغة الذبياني . ضمن «كتاب العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين» أنظر «امرؤ القيس»

نابغة ش — ديوان نابغة بني شيبان . طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٥١هـ ١٩٣٢ م

نقائض جأ — نقائض جرير والأخطل تأليف ابي تمام . بعناية انطون صالحاني « A. Salhani » بيروت ١٩٢٢

نقائض جف — كتاب نقائض جرير والفرزدق . بعناية أ . أ . بفن « A.A. Bevan » ٣ أقسام قسم ١ و ٢ : المتن العربي ، قسم ٣ : الفهارس ومعجم مختصر لألفاظ المتن الغريبة . ليدن « Leiden » ١٩٠٥_١٩١٢

النهاية — النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤ أجزاء . مصر . المط . العثمانية ١٣١١

الهذليون — أشعار الهذليين الموجودة في النسخة اللغدونية بعناية ي . ج . ل . كوزه جارتن « J. G. L. Kosegarten » الجزء الأول لندن « London » ١٨٥٤

الهذليون + — أشعار الهذليين ، ما بقي منها في النسخة اللغدونية غير مطبوع . مع ترجمة المانية ضمن ج ١ من « Skizzen und Vorarbeiten » أبحاث استعدادية تأليف ي . فلهوزن « J. Wellhausen » برلين « Berlin » ١٨٨٤

الهذليون ++ — مجموع دواوين من أشعار الهذليين مع ترجمة ألمانية . باعتناء ي. هل « J. Hell » جزءان ج ١ . ديوان أبي ذؤيب . هانوفر ١٩٢٦ ج ٢ أشعار ساعدة بن جؤية : وأبي خراش والمتنخل وأسامة بن الحارث. ليبزج Liepzig « Berlin » ١٩٣٣

ياقوت — كتاب معجم البلدان تأليف ياقوت الحموي الرومي . باعتناء ف . فيستنفيلد « F. Wustenfield » ٦ أجزاء . ليبزج « Leipzig » ١٨٦٦ — ١٨٧٣

يزيد — مقاطيع ليزيد بن معاوية مع ترجمة ألمانية . ضمن مجموعة « Escorial-Studien » (أبحاث أسكوريالية) تأليف ب . شفارتس « P. Schwarz » جزء ١ . ستوتجارت « Stuttgart » ١٩٢٢ لم يطبع غيره .

اليعقوبي — تأريخ ابن واضح المعروف باليعقوبي بعناية م . ت هوتسما « M. Ch. Houtsma » جزءان ليدن « Lugd-Batav » ١٨٨٣

ذيل للقواميس العربية . R. Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes (دوزي) « Dozy » مجلدان . ليدن « Leyden » ١٨٨١

(مصنفات صغيرة) « H. L. Fleischer, Klenere Schriften » = (فليشر) « Fleischer » ٣ أجزاء . ليبزج « Leipzig » ١٨٨٥ — ١٨٨٨

(اسلاميات) مجلة للبحث عن ألسن الشعوب الاسلامية وتاريخها وعمرانها Islam = Islamica ليبزج Leipzig منذ ١٩٢٥

معجم عربي انجليزي — E. W. Lane, An Arabic-English Lexicon = (لين) Lane ٩ أجزاء لندن وأدينبورج London-Edinburgh ١٨٦٣ — ١٨٩٣

كتابات على البردي NPAF = Neue arabische Papyrus des Aphroditofundes عربية جديدة من الكتابات المكشوفة في افرديتو . باعتناء ك . ه . بكر

C. H. Becker في مجلة « الاسلام » Der Islam جـ ٢ صـ ٢٤٥ — ٢٦٨

PERF=Papyrus Erzhezog Rainer, Führer durch die Ausstllung دليل معرض الكتابات على البردي الفينيقية المعروفة بيابيرس الارشيدوق رينر. باعتناء كاراباجك « J. Karabacek » فين « Wien » ١٨٩٤

P. Hied. III = Veröffantlichungan aus der Heidelberger Parus—Saminburg III. Papyrus Schott-Reinhardt I. مطبوعات صادرة من مجموعة الكتابات على البر الكائنة في هيدلبرج . قسم ٣ الكتابات المعروفة ببابيرس شوت—رينهاردت . جزء باعتناء ك . هـ. بكر « C. H. Becker » هيدلبرج ١٩٠٦

MO= Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gasellschaft مجلة الجمعية الشرقية الألمانية ليبزج « Leipzig » منذ ١٨٤٦

ب

رموز أخرى

آ = آية
المط = المطبعة
نـ = أنظر
بـ = باب
جـ = جزء
ر = رجع
سـ = سطر
سو = سورة
شـ = شاهد، شاهدات، شواهد
ش = شرح
صـ = صفحة
عـ = عمود
ك = كتاب
مـ = مادّة
مط = مطبعة
نـ = نصف
وغـ = وغيرها (أي وغير هذه الشواهد)

ومآ شـ = وما أشبهه (— ها، — هم الخ)
ومآ يـ = وما يليه (— ها)
وهلج = وهلمّ جرًّا

a. o. = any one
a. th. = any thing
q = quelqu'un
qc. = quelque chose

= ترمي الى ان العبارة التي تقع أمامها واردة للعبارة المتقدمة على معنى واحد. أعني أن العبارتين مترادفتان

الصليبان اللاتينيان ++ يشيران الى كثرة استعمال الكلمة أو التراكيب بالمعنى نفسه

. . . ترمي الى ان كلاماً ترك

النجمة * تقع بين مصراعي بيت شعر

الصليب الرومي المنحني الصغير × وراء رقم سطر «مثلاً» «٥ ×» معناه : من تحت

دليل المراجعة

أما الأرقام في الاستشهادات فمثلاً : —

القرآن ٤٤ ، ٤٧	يعنى : القرآن سورة ٤٤ آية ٤٧
عروة ٥٩ ، ١١	يعني : عروة صفحة ٥٩ سطر ١١
الأغاني ج ١٨ ، و ٢١٠ ، ١٠	يعني : الأغانى ج ١٨ صفحة ٢١٠ . سطر ١٠
طرفة ١٩ — ٢١	يعني : طرفة قصيدة رقم ١٩ بيت ٢١

Lane ٢٨ / ٢ ، ٣٢	يعني Lan صفحة ٢٨ عمود ٢ سطر ٣٢
ابن سعد ج ١ ن ـ ٢ ، ٢٠ ، ١٦	يعني ابن سعد جزء ١ نصف ٢ صفحة ٢٠ سطر ١٦

معجم الحديث ٢٤/ ٢،٢٧ (ط ، د ، جه) يعني معجم الحديث صفحة ٢٤ عمود ٢ سطر ٢٧ «عن موطأ مالك وسنن أبي داود وسنن ابن ماجه»

جوته

شاعر الالمان الأكبر

بقلم الدكتور محمد عوض محمد

الأستاذ بكلية الآداب في الجامعة المصرية

وناقل « فوست » الى العربية

ملحق المقتطف

ابريل ١٩٣٢

Al-Muktataf

جوته

١٧٤٩ – ١٨٣٢

JOHANN WOLFGANG VON GOETHE

للدكتور محمد عوض محمد

الاستاذ بكلية الآداب ومعرب فوست

اليوم يحتفل الناس بذكرى جوته ، ولا نرى الاحتفال بذكراه قاصراً على المانيا ، بل قد تجاوزها الى غيرها من اقطار العالم ، فلقد كانت روح جوته روحاً عالمية ، وكانت نظراته متجهة أبداً الى العالم بأسره ، لاتبالي ما اختلاف المكان والزمان ، وتستمد روحه الوحي من حضارة الشرق والغرب ، ومن الثقافات القديمة والحديثة ، وكان أكبر أركان الايمان في نفس جوته هو وحدة العالم من غير تقيُّدٍ بموضع أو زمن

ولقد نقف اليوم هنيهة لنذكر جوته وآثاره ، ونستعرض في خيالنا مؤلفاته وأعماله ، ثم نتساءل أيها أجل شأناً وأعظم خطراً : أأشعاره الغنائية ، أم قصصه ورواياته ، أما كتاب فاوست الأول والثاني ، أم رسائله وأبحاثه العلمية ، أم أعماله الادارية كوزير في ڤيمار ... لقد كتب جوته أشعاراً غنائية لايعادلها في عذوبة اللفظ ودقة المعنى أشعار . وكتب قصصاً مسرحية ان لم تبلغ مستوى شكسبير ، فانها لم تقصر عنه كثيراً . وكتب مؤلفه الهائل فاوست الذي يشغل في الأدب العالمي مكاناً فذّاً . وكتب «ديوان الشرق والغرب» لجمع بين روح الحضارتين الشرقية والغربية ، ثم ان له بعد هذا كله أبحاثاً علمية قيمة واستكشافات خطيرة . وكانت ادارته للأعمال التي اضطلع بها وهو وزير ڤيمار إدارة حازمة موفقة . ولكن أكبر أثر خلّفه جوته هو سيرته وحياته . لا كتبه ومؤلفاته . وقد عبَّر مِرْك Merck عن هذا المعنى فقال ان الحياة التي عاشها جوته أبدع من الاشعار التي كتبها .. فالقارىء الذى يريد أن يطالع أجل آثار جوته وأعظمها يجب أن يدرس حياته من مبتداها الى منتهاها .. وللأسف لا يسمح المقام هنا بالالمام بهذه السيرة الحافلة الا إلماماً يسيراً .. دون الاشارة الى كتبه ومؤلفاته إلا عرضاً

* * *

ولد يوهان ڤولفجانج جوته في اليوم الثامن والعشرين من مارس سنة ١٧٤٩ ، في مدينة فرانكفورت على الماين . وهي من أقدم المدن الالمانية ومركز عظيم للتجارة وللمال . وبالرغم من ان والده من ذوى اليسار ، فان الاسرة لم تكن تمُتُّ إلى أصلٍ أرستقراطي . فقد كان جده

حائكاً نزل بمدينة فرانكفورت ، وزاول فيها مهنته ، حتى جاءه الطالع السعيد في صورة زوجة نصَف تملك فندقاً يدرُّ عليها رزقاً حسناً . فانقلب الحائك الماهر الى مدير فندق ، ومن هذه الزوجة وُلِدَ له ولدان ، أصغرهما يوهان كاسپار جوته وهو والد الشاعر

اذاً فان جد جوته كان حائكاً ، في وقت كانت الحياكة معدودة من أحقر المهن . ومن لطيف المصادفات أن تكون هذه المهنة قد انجبت لالمانيا اثنين من أكبر رجالها . أولهما شاعرنا والثاني الرئيس إيبرت أول رئيس للجمهورية الالمانية ، الذى كان يدير دفتها في أشد الاوقات في تاريخها حرجاً . ومن المهم أن نذكر هذه الحقيقة ، أي أن جوته من أصل وضيع لانها تفسر لنا أن طبقة الاشراف في ڤيمار لم تكن راضية عن الحظوة التي نالها الشاعر لدى دوق ڤيمار . ولم تزل مصرة على عدم رضاها عن هـذا الدخيل حتى منح الزائدة المعروفة von فصار الشاعر يدعى von Goethe

أما والد جوته فقد تَعَمَّدَ أبواه أن يحسنا تأديبه وتثقيفه حتى يستطيع أن يعوض في ناحية التعلم ما كان يعوزه من ناحية الوراثة . وقد درس الحقوق والشريعة ونجح في دراسته النجاح كله . ثم لم يزل يرتقي في السلم الاجتماعي حتى أصبح يعدُّ من أرقى الطبقة الوسطى في فرانكفورت ، واستطاع أن يتزوج من أسرة شريفة . وقد تم هذا الزواج عام ١٧٤٨ ، وكان شاعرنا أول ثمرة من ثمراته

نستخلص من هذا كله ان جوته قد ولد وسط شيء كثير من الرخاء واليسار . حقيقةً ان أباه لم يكن من كبار ذوي المال . ولكنه كان في رخاء جعله دائماً بعيداً عن الحاجة ، فعاش الشاعر حياته الطويلة لم يعرف الفقر يوماً ولم يمارس الشدة .. واذا كانت هذه الشدة مُعَلِّماً لابدَّ منه للنبوغ ، فان جوته قد حرم هذا التعليم ، ولكننا نبحث عن أثر هذا الحرمان في حياته وأشعاره فلا نجد له أثراً .. فلقد كان محسناً يكتم إحسانه ، وكان شديد الألم لما قد ينزل بغيره من المحن والشدائد ، وفي أشعاره في غير موضع رنات حزن عميق ومواقف تستدرُّ الدمع . فان طبعه الحسّاس أغناه عن تجربة الشقاء تجربة فعلية

كذلك من الغريب أن هذا الفتى ، ربيب الغنى ، وأليف النعمة ، القادر على أن يعيش عيش النعومة والرخاء ، قضى حياته في جد ودأب ، يعمل بهمة لا تعرف السآمة ، وهو أغنى الناس عن الدأب والسعي .. تلك أيضاً ظاهرة قد تبدو غريبة في الشخصيات المألوفة ، ولكن ليس فيها غرابة في شخص تدفعه روحه أبداً الى العمل وفي صدره شهوةٌ الى الجد والسعي أقوى من شهوة النهم الى الطعام والشراب فكان طول حياته يرهق نفسه بالعمل حبّاً في هذا الارهاق لا من أجل ثمرة يجنيها ، أو فائدة يستفيدها ، بل كان دينه الذي يدين به السعي من أجل لذة السعي ، والدأب حبّاً في الدأب

على أن سعة العيش التي نشأ فيها جوته قد كان لها أثرها الطيب في حياته . فقد لقي وهو صبي كل عناية ورعاية ، وتلقى دروسه الأولى في منزل أبيه حيث لقنه المعلمون اللغات اللاتينية واليونانية والايطالية والفرنسية ، وهذا كله تحت اشراف والده .. وقد ألف الناس أن يسمعوا أن طفولة النوابغ من الرجال كانت طفولة عادية، لاتنم على ما سيئول اليه الطفل فيما بعد من العظمة والنبوغ . ولكن جوته من غير شك قد خرج على هذه القاعدة — على فرض أنها قاعدة — فقد كان طفلاً نابغاً استطاع أن يكتب أربع لغات أجنبية عدا لغته الأصلية ولم يتجاوز الثامنة من عمره . وكان في التاسعة يكتب قصصاً صغيرة ليسلي بها أخاه الصغير يعقوب ولما بلغ العاشرة احتلت فرانكفورت جنود فرنسية، وأنشىء فيها مسرح تمثل فيه الروايات الفرنسية. وكان جوته يختلف الى هذا المسرح وانتهى به الاعجاب بالروايات الفرنسية الى دراسة الأدب الفرنسي دراسة مطولة ، والى كتابة قطعة ضعيفة خيل اليه انها تشابه تلك التآليف المسرحية

انجلى الفرنسيون عن فرانكفوت في سنة ١٧٦١ وعاد جوته الى الدراسة المنتظمة في دار أبيه . وأخذ يتلقى دروساً في الرياضة والموسيقى والرسم . فأما الرياضة فلم يستطع أن يسير فيها خطوة ، وكذا لم يستطع أن يتقن الموسيقى رغم ما بذله في سبيل ذلك من جهود . وأما الرسم فقد تقدم فيه خطوات حسنة وبقي طول حياته يمارسه من آن لآن ، ولاتزال آثاره في هذا باقية محفوظة ، وإن لم تصل الى مرتبة عالية من الاتقان . وكذلك عاد الى دراسة اللغات فتعلم الانكليزية . وكان في مدينة فرانكفورت عددٌ عظيم من اليهود لهم لهجتهم الخاصة فحاول جوته أن يتعلمها، وهي لهجة تشتمل على مزيج من اللغة الالمانية المحرفة واللغة العبرية . فألحّ جوته على والده أن يساعده على تعلم العبرية فسمح ابوه بذلك فقطع فى دراستها شوطاً حسناً بحيث استطاع ان يدرس التوراة باللغة الاصلية .وقد تركت هذه الدراسة أثراً عميقاً في نفسه

كان فى طبع جوته ناحية تختلف تماماً عما ألفنا أن نراه أو نسمعه عن الألمان . فان الخلق الالماني مشهور بأنه ميّال الى الجلد والصبر ، والتعمق فى دراسة ناحية واحدة من النواحي العلمية أو العملية ، والانقطاع الى فهم موضوع واحد ، ولهذا كان التخصص من الميزات الكبرى للالمان . فيحصر الرجل منهم نفسه فى دائرة محدودة يقتلها بحثاً واستقصاء، حتى يكون له فيها الكلمة العليا والرأي السديد . والى هذا الطبع يرجع الفضل فى نبوغ الألمان فى مختلف نواحي الحياة .. كان فى طبع جوته على العكس شيء كثير من القلق ، يأبى عليه الاستقرار على شِرْعة واحدة ينهل منها، ومورد واحد يعكف عليه. كان طبعه القلق يدفعه أبداً الى ورود مناهل جديدة والتماس جهة أخرى تتجه اليها نفسه الحائرة وقلبه الهائم ثم لايكاد يتجه هذا الاتجاه الجديد حتى يتركه الى غيره. وهذا كان ديدنه طول عمره . ولهذا قلما انقطع الى مؤلَّف واحد إلا زمناً يسيراً ، ثم يتركه ويأخذ فى معالجة غيره ثم يترك الادب والشعر فجأة وينصرف الى العلوم

الطبيعية أو اللهو واللعب والملذات ولهذا كله نرى أن مؤلفات جوته اما أن تكون قصيرة كتبها وفرغ منها في زمن وجيز ، أو كتب طويلة قضى في كتابتها سنين عديدة يتركها ثم يعود اليها أو قطع (Fragments) ابتدأها ثم تركها دون أن يعود اليها

ورغبة جوته هذه في الانصراف الى أمر جديد قد كان من آثارها معالجته موضوعات كثيرة سواء أثناء تعليمه في منزل أبيه أو دراسته في الجامعة أو في الحياة نفسها ، ولقد يرى بعض الناس أن جوته لو قصر همه على الشعر وحده أو الادب وحده لنبغ فيه نبوغاً أجلى وأسمى مما وصل اليه فعلاً .. وهذا القول له وجاهته. على أن من أكبر مميزات شعر جوته أنه يتناول نواحي شتى من الحياة وكان من المستحيل عليه اخراج هذه الصور المتعددة لولا ان عبقريته متعددة النواحي مختلفة المشارب

* * *

نعود الى سيرة شاعرنا . فقد أخذ يكتب الشعر بشكل جدي وهو في الرابعة عشرة ، وفي تلك السن بدأت الحلقة الاولى من صلاته الغرامية وكان غرامه بفتاة طاهرة صالحة ذات قلب مملوء تقوى وايماناً قد تركت في نفسه أثراً حسناً . وفي شهر اكتوبر سنة ١٧٦٥ أرسله أبوه الى ليبتسك ليدرس في جامعتها وهو بعد فتىً في السادسة عشرة من عمره . وصل الى هذه البلدة وصدره ملتهب شوقاً لتعرُّف جميع نواحي الحياة . وقلبه تواق لورود مناهل العلم. وجيبه ممتلىء بما يحتاج اليه من مال ، بل وبأكثر مما تدعو اليه الحاجة . وكانت هذه المرة الاولى التي استنشق فيها نسيم الحرية بملء رئتيه . ولم تكن الرقابة الوالدية في وطنه فرانكفورت رقابة شديدة ولا قاسية . ولكن الحرية التي وجدها في ليبتسك حرية كاملة لاتشوبها شائبة، فأخذ يمرح في بحبوحتها ماشاء له المرح والصبى

وكان والده مصرًّا على أن يدرس ولده القانون قبل كل شيء وأن يحرز في دراسة القانون تفوقاً ، وله بعد هذا أن يجول جولاته في أية دراسة أخرى . فحين وصل جوته الى ليبتسك قابل أستاذ القانون وتلقى منه النصائح التي يجود بها الأساتذة في مثل تلك المواقف . ولكن الفتى جوته قال لاستاذه في شيء من الحياء انه مولع بالأدب واستأذن في أن يسمح له باروا غليله هذا بدلاً من الانصراف التام الى القانون . غير أن الاستاذ أفهمهُ أن الأدب شيء تافه يجب ألا يأبه له طالب جادٌّ في دراسته . وقد حاول جوته اولاً أن يُخلص في التفرغ للدرس ، فكان في الفترة الاولى مقبلاً على المحاضرات التي أوجبتها عليه دراسة القانون . غير أنه مالبث ان ادركه السأم وفترت همته وعاد لا يواظب على الدرس . ولعل تجاربه هذه هي التي أملت عليه فيما بعد ذلك الحوار البديع بين الطالب وابليس كما يراه القارىء في كتاب فَوْست

لم يلبث جوته أن انصرف عن دراسة القانون الى دراسات أخرى استطابها ، وأضاف الى

حبه للأدب غراماً جديداً بالتاريخ الطبيعي وبالطب . وقد ظهر ولعه بهما فيما بعد بأجلى مظاهره . على أن جامعة ليبتسك لم تحظ من جوته الا بشطر يسير من زمنه، وأما الشطر الاكبر فكان يصرفه في معهد الفنون الجميلة حيناً . وفي اجتياز سبل الحياة المختلفة خيرها وشرها ، وفي التشبيب بأبنة صاحب الفندق الذى كان يتناول فيه طعامه واسمها أنيت شونكوبف (Anent Schoenkopf) وفي كتابة الاشعار والقطع التمثيلية . ففي أيام ليبتسك هذه نظم روايتين : Die Laune des Verliebten (مزاج العاشق) و Die Mitschuldigeu (زملاء في الجريمة) وهاتان القطعتان هما أقدم شيء لدينا مما كتبه جوته . لأن كل ما كتبهُ قبل ذلك فقد . . وأكثره حرقه هو بيديه . ولهاتين القطعتين منزلة خاصة في حياة الشاعر اذ نرى منهما الى أي علوٍ قد حلق طائر شعره وهو بعد فتى في السابعة عشرة من عمره

وفي صيف سنة ١٧٦٨ أصاب جوته مرض شديد اضطره الى أن يعود الى فرانكفورت بعد أن قضى في ليبتسك ثلاثة أعوام أحرز فيها الشيء الكثير من تجارب الحياة ، والشيء القليل من الدراسة الجامعية . دام مرضه هذا زمناً فلم يتم شفاؤه إلاّ في أوائل سنة ١٧٧٠، وعندها رأى والده أن قد آن له أن يعود الى دراسة القانون دراسة جدية ، وان يعكف على هذه الدراسة حتى يحصل فيها شهادة عالية ولعل هذا الاصرار من جانب الوالد على ان يتعلم جوته القانون مع قلة رغبته فيه هو الامر الوحيد في تربية جوته الذى يصح أن يكون موضعاً للنقد. ولكن يجب ألا ننسى أن الوالد مع اعجابه بأشعار ولده أراد أن يعده لمناصب الحكم قبل كل شيء ولهذا كانت الدراسة القانونية واجبة . ففي شهر ابريل من تلك السنة أرسل الفتى وقد جاوز العشرين إلى الجامعة مرة أخرى . وفي هذه المرة اختار له أبوه جامعة ستراسبورج . وقد أوجدته الصدفة وسط جماعة من طلبة الطب والعلوم . فأثار حديثهم كامن رغباته في دراسة المباحث المتعلقة بهذه العلوم . ورغم مثابرته على دراسة الحقوق كان يصرف جزءاً عظيما من وقتهِ في دراسة التشريح والنبات والكيميا ... وبالطبع لم ينس نصيبه من دراسة الأدب .وهكذا نرى جوته في درسه شأنه في جميع أطوار حياته ، لاينقطع الى دراسةٍ واحدة ، ولا يصبر على طعام واحد. وإن نعجبْ فعجبُنا من فتى يجد من وقته متسعاً لكل هذه الدراسات المتباينة ، التي استطاع أن يضرب فيها جميعاً بسهم ، ويبلغ في كثير منها مرتبة حسنة وهو مع هذا كله لايعدم وقتاً يقضيه لدى معلم الرقص ليتقن هذا الفن من جهة ، وليشبب بابنتي المعلم في الوقت نفسه

وللمدة التي قضاها جوته في ستراسبورج شأن خاص في سيرته فهنا استطاع بعد لأي ان يحصل على شهادة دكتور في الحقوق أوشهادة تقرب منها وامكنه بهذا أن يُقِرّ عَيْن والده ويزيح عن عاتقه عبئاً ثقيلاً . وفي ستراسبورج التقى جوته بهردر « Herder » ولازمه ملازمة

التلميذ المخلص . وكان هردر قد اشتهر بمؤلفاتٍ في أصول الأدب وأخذ يَبُثّ في جوته تعاليمه التي يدين بها ، وتنحصر هذه الجهود في توجيه جوته نحو الأدب القومي والشعر القومي، كما يبدو في التوراة وأشعار هوميروس وأوسيان وشاكسبير وأراه أن أولَ واجب على الشاعر الألماني أن يلتمس الالهام من الروح الجرمانية ممثلة في تاريخ ألمانيا. وفي الميتولوجيا التيوتونية.
وكان جوته مستعدًّا لهذه الآراء ، لأنه قد تأثر حتى من قبل التقائه بهردر بتلك الروح القومية وكان مصدر هــذا التأثير دراسته لفن البناء القوطي ، مُمَثَّلاً أبدع تمثيل في كاتدرائية ستراسبورج فقد كان يتأمل هذا البناء الشامخ طويلاً ، ويمعن في التأمل فيه ، حتى انتهى الى تفضيل الفن الجرماني في البناء على الفن اليوناني واللاتيني . وقد يَعْجب القارىء المصري من أن شاعراً عظيماً يتأثر فكره بتأمله لبناء من الابنية وقد يصعب علينا أن نتصور أن أحد شعرائنا قد يتأثر اذا أطال التأمل في مسجد السلطان حسن أو الهرم الأكبر ، ومع ذلك فقد كان لدراسة الفن القوطي مُمَثَّلاً في بناء تلك الكنيسة أثرٌ عظيمٌ في تفكير جوته .
وقد ترتب على هذا كله قيام نهضة في ألمانيا جرمانية الصبغة تنفر كل النفور من القيود الثقيلة التي مبعثها الاعجاب بالأدب القديم ، والفن القديم . وهذه الحركة هي التي أطلق عليها اسم Sturm und Drang وهما لفظان تصعب ترجمتهما . ومعناها بالتقريب «الثوران والاندفاع».
اذاً فان من أكبر ثمار المدة التي قضاها في ستراسبورج ، ان بعثت في جوته هــذه الروح الجرمانية التي نرى اثرها فيما بعد في روايتهِ المسرحية الجليلة جوتس Gotz

كذلك في اثناء دراستهِ في ستراسبورج تعرف جوته بأسرة رجل قسيس من خيار الناس يسكن قرية صغيرة قريبة من المدينة اسمها سيزنهايم Sesenheim ولم يكد يعود مرة اخرى الى زيارة تلك الأسرة حتى شغفتهُ فريدريكا بريون ابنة القسيس حبًّا . . في تلك الآونة كانت علاقاته بعلم الرقص وابنتي المعلم قد انتهت. وكان قلبه فارغاً من كل علاقة غرامية. فلم يكن بد من ان يهيم بتلك الفتاة الطاهرة ، وتحوَّل الهيام سريعاً الى التفكير في الزواج ، وحين وصل الامر الى هذه الغاية التي لا بدَّ أن ينتهي اليها ، اذا الصلة قد انقطعت ، والتقدم السريع قد انقلب الى تقهقر بانتظام . هذه الظاهرة : التردد في التقيد بقيود الزواج سنراها المرة بعد المرة في حياة جوته ولهذا يحسن بنا ان نقف قليلاً لنلخصها هنا :

الحقيقة ان جوته لم يكن في يوم من الايام عاشقاً متيماً . حقيقةً انهُ كانت تبدو عليهِ كل علائم العشق المبرح ، فكان يكثر من الزيارة الى سيزنهايم ، ويقضي الساعات الطوال في منزل فردريكا ، وتظهر عواطفه في اشعار بديعة لا يشك قارئها في ان قد أثارها الحب الصحيح الخالص من كل شائبة ، ولكننا نراه حين يبلغ الامر الى نتيجته الطبيعية وحين توشك شجرة الحب ان تؤتي ثمرها ، يصوب نحوها رياح جفاء وابتعاد لا تلبث ان تذويها وتقتلها . والحقيقة التي

لا مناص من استنباطها ان جوته لم يكن يحب حبًّا مبرحاً . بل كان يحب ان يرى نفسه محبًّا متيماً او مغرماً بأن يرى نفسه مغرماً . فاذا جاءت الساعة العصيبة تذكر ان قيد الزواج قد يعوقه عن المعالي . وان تجارب الحياة المقبلة قد تهديه الى علاقة خير من هذه العلاقة . فيتلمس في البعد شفاءً من جراحه . فلا يلبث البعد والشباب والغنى واللهو ان تنسيه لوعته وتشفيه من كل سقم . . وهكذا كان.وعاد في اغسطس سنة ١٧٧١ الى وطنه فرانكفورت ، وهو الآن الدكتور فولفجانج جوته المحامي الناشيء

وعقب وصوله الى موطنه اخذ يشتغل بجد في رواية « جوتس » . وانتهى من كتابتها في اوائل العام التالي . هذه الرواية المسرحية التي اثارت ضجة كبرى عند ما نشرت في سنة ١٧٧٣ قد تبدو لنا اليوم اقل من مستوى الشاعر الذي كتب فاوست وولهلم مايستر.ولكنهُ كتبها وهو في الثالثة والعشرين ، وأخرجها في طراز جديد أثار اهتمام الامة الالمانية . وقد تعمد ان يسبغ على هذه الرواية الثوب الجرماني ويبث فيها روح الثورة على التقاليد القديمة، والوحدات الكلاسيكية المعلومة . ولهذا كان لها صدًى عظيم في عالم الادب . ونحن قد نتوهم اليوم انهُ من العجيب ان تحدث ضجة في المانيا لأن شاعراً من شعرائها اراد ان تسود الروح الجرمانية ، وجاهد مجاهدة الابطال في هذا السبيل . هذا يبدو غريباً لأول وهلة . ولكن لنذكر ان ملك بروسيا فردريك الاكبر المعاصر لجوته كان يحتقر الادب الجرماني والفن الجرماني ، ولا يتكلم في بلاطه بغير اللغة الفرنسية ولا يسود في بيئتهِ غير الادب الفرنسي . فاذا كان الناس على دين ملوكهم فأي جهاد هائل كان محتماً على امثال جوته وشيلر حتى يبثوا الروح الجرمانية في الادب الالماني ؟

لم ينشر كتاب جوتس للناس الاَّ عام ١٧٧٣ . وقبل ذلك بسنة ذهب جوته الى وتسلار وهي مقر محكمة الاستئناف العليا ، للتمرن على الاعمال القضائية . وهذا الجزء من حياة جوته معروف للقارىء المصري فلا حاجة للاطالة فيهِ . فهناك تعرف جوته بكستنر خطيب شرلوت بوف وهام بهذه الخطيبة اشد الهيام ، وما كان هيامه بها شديداً الى هذا الحد إلاَّ لأنها مخطوبة بعيدة المنال . ولو كانت حرةً وقبلت الزواج منهُ لولّى الادبار ، ولاذ بالفرار ، كما فرَّ من فردريكا بريون من قبل وكما فرَّ من ليلي شونمان من بعد

وعاد بعد شهور الى فرانكفورت وأخرج في عام ١٧٧٤ ثمرة عشقه لشرلوت بوف : وهذه الثمرة هي كتاب « آلام فرتر » الذي يعرفهُ الجميع والذي بلغ في سرعة الذيوع والانتشار ما لم يبلغهُ كتاب آخر لجوته، ولو ان حماسة الناس قد فترت بعد ذلك ، وأصبح كتاب « فرتر » وليس له ذلك المقام الكبير في الادب الالماني . على ان أثره في حياة الشاعر كان عظيماً فقد ذاع بهِ صيته وحلقت رايته في سماء الشهرة وكان لهذا شأنهُ في حياة الشاعر بعد ذلك

من النواحي الطيبة في اخلاق جوته انهُ كان يتلمس الهداية ابداً على يد المرشدين الذين يسوقه حظه الى صحبتهم . وقد وفقه طالعه الحسن الى صحبة ثلاثة رجال في فترات مختلفة في حياتهِ ، وهؤلاء الثلاثة هم هردر ومِرْك وشلر . وقد سبق لنا ان ذكرنا مقابلته لهردر في ستراسبوج وأما شلر فسنعود الى ذكره فيما بعد ، أما مرك هذا فرجل اديب ناقد من النوع الذي يَشْحَذُ ولا يكاد يقطع ! وكان له اتصال متين بكثير من كبار الكتّاب والشعراء ، وكانت نصائحه لهم عامة ولجوته خاصة باعثةعلى زيادة الانتاج واحسانهِ . وقد تعرف اليه جوته عقب عودته من ستراسبورج وكانت بينهما مودة متينة ولو انها فترت قليلاً فيما بعد

كان هردر ومرك كلاهما اكبر من جوته سنّا . ونظراً لانقطاعهما الى دراسة النقد الأدبي، كانا من غير شك اعلم منه بهذا الموضوع . وكانا يبذلان له النصح في شيء من غطرسة المعلم، وكان يقبل هذا كله منهما رغم ما جبل عليهِ من الكبرياء والغرور . وكان يتقبله احياناً بشيء من المضض واحياناً لا يذعن اليه. ولكن لا شك في ان رغبته في تثقيف نفسه من جهة وحبه لهما من جهة اخرى ، واخلاصهما له من ناحية ثالثة . كل هذا جعله ينتفع بما بذلاه لهُ من النصائح

بعد ان اخرج جوته كتاب ڤرتر بزمن يسير ساقه القدر وهو في فرانكفورت الى صداقة فتاة في السادسة عشرة من عمرها اسمها انا شونمان Anna Schonemann وأطلق هو عليها اسم ليلي Lili . وهي ابنة رجل من ذوي اليسار ومن كبار اصحاب المصارف في فرانكفورت. ولا نريد ان نطيل شرح علاقة جوته بليلي ، فحسبنا ان نذكر انها كانت تكراراً لما حدث له مع فردريكا، ولو انهُ في هذه المرة قد اضاف عنصراً جديداً وهو الخطبة الرسمية التي تمت رغم معارضة اهل الخطيبة والخطيب ، ولكن هذا العنصر الجديد لم يغير كثيراً من سير القصة سيرتها الاولى . فقد احجم جوته في الساعة الاخيرة ثم سافر في رحلة يصحبه الاخوان المستهتران ستولبرج الى سويسره . وهو يزعم انهُ مسافر ليرى هل يستطيع الصبر على فراقها . وعاد من سفره وقد خمدت الجذوة المستعرة وهان عليهِ فسخ الخطبة

***

في عام ١٧٧٥ كان جوته قد بلغ الستة والعشرين ، وقد اصبح اسمه بفضل ما اخرجهُ من الشعر الغنائي البديع ، وبفضل كتابيهِ «جوتس» و«ڤرتر» ، حديث الاندية الادبية في المانيا بل وفي كثير من الاقطار الاوربية الاخرى واجمع الناس على انهُ قد نبغ في فرانكفورت شاعر مبدع ، بلغ على حداثتهِ شأواً بعيداً في عالم الادب . ففي تلك السنة حدث لجوته حادث غير مجرى حياته . وهذا الحادث الخطير هو التقاؤه بكارل أوجست دوق ڤيمار .. كانت المقابلة الاولى بينهما في كارلسروهي Karlsruhe في ولاية بادن في اثناء رحلة

جوته الى سويسرة ،وهناك تعارفا ، ودعا الدوق جوته لزيارة ڤيمار ، ثم مرّ كارل اوجست بعد ذلك بفرانكفورت وهو عائد مع زوجته الشابة الى ڤيمار ، فقابل جوته مرة ثانية . واعاد الكرة بأن دعاه بالحاح لزيارته . وقد نصح مرك تلميذه بالقبول ، ولكن الوالد كان ممانعاً ، ونصح لجوته بأن الاقتراب من الامراء غير محمود العاقبة ومثَّل لهُ بما جرى بين ڤلتير وفردريك الاكبر وكيف انتهت علاقتهما الى الشقاق والخصام .. وبعد تحريض والحاح قبل الوالد كارهاً ان يزور جوته ڤيمار ويقضي فيها « بضعة اسابيع » .. هذا ما اراده الوالد الشيخ ، ولكن المقادير ارادت ان يذهب جوته الى ڤيمار فيجعل منها وطنهُ الدائم طول الحياة ومثواه بعد الوفاة

* * *

كانت دوقية ساكس ڤيمار قسماً صغيراً من تلك الاقسام السياسية المستقلة التي كانت المانيا منقسمة اليها . وهي الآن جزء من جمهورية تورنجيا ، وڤيمار ، عاصمة الدوقية ، بلدة صغيرة على نهر الإلم ، احد روافد الإلب ، من البلدان القديمة في المانيا ذات طرقات ضيقة ، من بقايا بلدان العصور الوسطى — وكان سكان الدوقية قليلين يعيش اكثرهم من الزراعة ، وحالتهم لا تختلف عن حالة الفلاحين في اوربا في العصر السابق للثورة الفرنسية . ومع ان موارد الدوقية ضئيلة جدًّا فانها اصبحت بفضل همة اميرها مجتمع كثير من العلماء والادباء والفنانين ، فكان بلاط ڤيمار لا يضارعهُ في هذا الا بلاط بوتسدام مع الفارق العظيم بينهما ، وهو انهُ بينما فريتس (فردريك الاكبر) لم يكن يرحب الاَّ بالثقافة اللاتينية ، ولا يتكلم في بلاطه الاَّ بالفرنسية ، فان الثقافة المنتشرة في بلاط ڤيمار المانية بحتة ورجالها جميعاً من الالمان. ومع ان بلاط ڤيمار فقير جدًّا اذا قورن ببلاط بوتسدام، فانهُ مع هذا لم يكن دونهُ بكثير بل لقد كانت شمس العبقرية فيهِ من غير شك أسطع، واثره في الادب الالماني والثقافة الالمانية خيراً وابقى

كانت بلدة ڤيمار على صغرها جذابة لمن يرغب في عيشة الهدوء والطمأنينة، والمناظر الطبيعية التي تحدق بها على درجة عظيمة من الجمال، فمن جدولها المتدفق ومروجها اليانعة الى غاباتها المنتشرة وحديقتها الكبرى التي عني جوته بامرها عناية خاصة ، حتى جعلها من خير الحدائق واحسنها . وفوق هذا فانهُ على مقربة منها مدن شهيرة مثل يينا ذات الجامعة وإيرفورت، وكذلك جبال تورنجيا ليست بعيدة منها . والى هذه الجبال كان جوته كثيراً ما يذهب هو وكارل اوجست للتنزه والرياضة، وقد بنى لهما كوخاً صغيراً بالقرب من إلمناو لكي يبيتا فيهِ على اعالي الجبال

وعلى صغر هذه الدوقية وبساطتها ، فانها كانت عالماً قائماً بذاته ، فكان بها امارة وعرش وحاشية وحكومة ، وكان يؤمها من آن لآن كثير من الاشخاص ذوي الشأن. واستطاع اميرها الصغير ان يجتذب اليها عدداً كبيراً من اعلام الادب والفن والعلم وكان اهل القصر انفسهم على جانب عظيم من الثقافة . ومن اهم الافراد البارزين في هذه البيئة الدوقة الوالدة أماليا أم

كارل أوجست وصديقة فيلاند الذي تعلمت منهُ اليونانية ودرست عليهِ الادب القديم. وكانت تحسن الموسيقى والتأليف الموسيقي عدا حبها للهو والمسرات — وقد رحبت بمقدم جوته وكانت تكاتب امه تباعاً. ومن اكبر المقربين اليها ويلاند Wieland من متوسطي شعراء المانيا ومن كبار أدبائها. وهو الذي تولى تعليم كارل اوجست وتأديبه. ومن اهم نساء حاشيتها الآنسة كروتر، قَيْنَةُ القصر Hoff sangerin التي كانت تمثّل الادوار الغنائية في القطع التمثيلية التي يقوم بها بعض كبار الحاشية، وكذلك كان هنالك ادباء كثيرون نذكر من بينهم سِكِنْدُرف مترجم آلام ڤرتر الى الفرنسية وبَرْتوخ مترجم سِرْفَانتس، وأما هِرْدر صديق جوته واستاذه في الادب فجاء الى ڤيمار بعد جوته بقليل، وقد استدعاه الدوق بناء على رجاء جوته ليكون إمامَ القصر وواعظه

اما الاميرة لويز دوقة ساكس ڤيمار وزوجة كارل اوجست، فكانت تختلف عن أماليا بانها على حداثة سنها ذات طبع يميل الى الجد، والمحافظة على التقاليد، والبعد عن اللهو والترف. ولا تعمل الا كل ما يليق بمقامها ومركزها. وهذا بخلاف زوجها الدوق الفتى، الذي كان ينفر من التقاليد، ويحب اللهو والمرح وقد كان هذا احياناً سبباً في شيء من الفتور بينهما لكنهما كانا عادةً على صداقة ووئام

الى هذه البيئة جاء جوته في نوفمبر سنة ١٧٧٥ وهو شاب في السادسة والعشرين وكارل اوجست فتىً في الثامنة عشرة، لكن كان الامير على حداثة سنه نافذ البصر، يعرف كيف يقدر النبوغ وكيف يجتذب النابغين اليهِ. ولم يمضِ الا قليل حتى اصبح هو وجوته صديقين حميمين وبقيا كذلك مدى خمسين عاماً. وكان يتخاطبان من غير كلفة، وقد يبيتان في دار واحدة، وفي حجرة واحدة، ويقضيان معاً ساعات طوالاً، يتجاذبان فيها الحديث لا عن الفن والادب فحسب، بل وعن شؤون ڤيمار ووسائل اصلاحها. وقد كان كلاهما مولعاً باللهو والمرح والمجون. فكانت الاسابيع الاولى لجوته في ڤيمار ممتلئة بأنواع العربدة واللهو البريء وغير البريء، والفكاهات اللفظية والعملية، يمارس كل هذا هو والدوق بروح لا تعرف المسئولية ولا التقاليد، وكانا كثيراً ما يختلطان بالعامة من مزارعين وعمال، وقد يقضيان الليلة في وسط مناجم إلمناو يرقصان مع بنات العمال الى سويعات الفجر

على ان هذا اللهو وان شغل جزءا عظيماً من وقتهما فانهُ لم ينسهما العناية بالشؤون العامة. والنشاط الهائل الذي امتاز بهِ كل منهما كان مساعداً لهما على ممارسة ناحيتي الجد واللهو على السواء. وويلاند مع اعجابه بجوته وبالدوق، أبدى اسفه الشديد على ان يصرف جوته وقته في هذه الترّهات، بينما الواجب يقضي بصرفه في جلائل الاعمال. والحقيقة ان جوته لم يُخرج في السنين الاولى بڤيمار مؤلفاً يستحق الذكر. ولكن يجب الا ننسى انهُ قد اكتسب تجارب كثيرة كان

لها من غير شك اثرها فيما اخرجه من الآثار فيما بعد ، وفي الغالب ان كثيراً من كتبهِ التي ظهرت بعد ذلك كان في هذه المدة في دور « التفريخ » فانهُ يقول في احدى رسائله انهُ رغم اعماله الكثيرة في خدمة الدوق كان لا يعدم الوقت اللازم لمتابعة دراساته الادبية والعلمية، عدا انهُ بالطبع لم ينسَ نصيبه من الدنيا

وقد عرض عليهِ دوق ڤيمار منصباً يعتبر في ڤيمار من ارفع المناصب ، بمرتب ١٢٠٠ دولار اي نحو ٢٠٠ جنيه من نقود هذا الزمان . وكان هـذا مبلغاً لا يستهان به في تلك الازمنة وفي دوقية فقيرة كامارة ڤيمار

وتعيين جوته في هذا المنصب وجعله عضواً في المجلس الاعلى ، والحظوة الكبرى التي نالها عند كارل اوجست — كل هذا حرّك ألسنة الحاشية بالشكوى المرة ، من هذا الدخيل الذي لم يتدرج مثلهم من أصغر المناصب الى ماهو أرقى منها والذي حرمهم بلوغ المرتبة التي يطمحون اليها . ولكن كارل أوجست ردّ على احتجاجهم بأن وجود مثل جوته عنده شيء يحسَد عليهِ . وبأن كفايته وعبقريته أمر معلوم للناس جميعاً ، وانه لا يعلم في جميع المتطلعين الى هذا المنصب من يدانيه في تلك الكفاية ، وانهُ (أي الدوق) احزم وأعقل من ان يجعل مجرد الاقدمية سبباً لحرمانه من خدمات مثل الدكتور جوته

بهذا الرد الحاسم أخرست الألسنة ، وازدادت المودة والالفة بين الدوق وبين جوته ، الذي أصبح ساعده الايمن والقيت اليهِ الآن مقاليد الكثير من الاعمال الادارية في الدوقية ومنح الدوق جوته داراً صغيرة ذات حديقة غناء على نهر الإلم (اسمها جارتنهاوس Gartenhaus) وبات بديهيًا أن جوته قد جاء الى ڤيمار ليقيم بها وما دام كارل أوجست حاكمها فهيهات ان يسمح له بالابتعاد عنها طويلاً

وهنا لا بد لنا ان نقرر ان المنصب الذي أسند الى جوته لم يكن مجرد وسيلة لابقائه في ڤيمار ومنحهُ مرتباً يتمكن بواسطته من متابعة دراسته وتآليفه ، لم يكن بعبارة اخرى منصباً فارغاً من غير واجبات ولا أعمال مرهقة . بل كان منصباً يقوم شاغله بأعمال جدية في الدوقية . وتأبى على جوته همته إلاّ أن يضطلع بأضعاف الاعباء التي يقوم بها صاحب ذلك المنصب عادة فان اخلاصه لكارل أوجست بهِ وثقة كارل اوجست ، كل هذا كان من شأنه ان يجعل جوته يتولى شطراً عظيماً من مهام الدوقية ، وان يرهق نفسه بالعمل من اجل صديقه ومولاه . فنراه مثلاً يقوم بادارة الفنون وبالاخص المسرح والتمثيل ، وبادارة الحربية والمالية حيث كان يضطر لان يقف في وجهِ الامير الذي يحب التبذير شأن الامراء . وبتنظيم المدينة وحدائقها ، وكثير من المشروعات التي ترمي الى اصلاح حالة الاهالي ، وبادارة مناجم إلميناو (Ilmenau) التي كانت معطلة ، وكان هو سبب افتتاحها مرة اخرى . ويظهر ان اضطلاعه

بكل هذه الاعباء وبغيرها مما لا يمكن حصره من اعمال الدولة ، ومضافاً اليهِ مشاغله الادبية والعلمية والقلبية — كل هذا قد آدَهُ حمله بحيث رثى له حتى كارل اوجست وكان يقترح عليهِ من آن لآن ان يأخذ له قسطاً من الراحة ، لكن جوته لم يلتمس الراحة الاَّ في سنة ١٧٨٦ حين سافر الى ايطاليا بعد ان قضى عشر سنوات في هذا الجد والدأب

قلنا ان جوته في هذه السنوات العشر ، كانت له عدا أعماله الادارية ، مشاغله الادبية والعلمية والقلبية . فأما اعماله الادبية ، فقد كان لا يفتأ ينظم الشعر الغنائي ويؤلف قطعاً تمثيلية من اجل مسرح فيمار . ونذكر من بين هذه القطع رواية ايفجنيا مكتوبة نثراً — وقد نظمها شعراً بعد ذلك وهو في ايطاليا — وكذلك رواية « انتصار الحساسية » « Triumph der Empfindsamkeit » . وهذه القطعة مهزلة الغرض منها السخرية بالعواطف السخيفة ، وقد اضطر جوته لكتابتها لكي يقلل تأثير كتابه آلام فرتر الذي كان سبباً في حلول مصائب بكثير من ضعاف الاحلام ، وكانت تبلغ جوته أخبارهم فتتألم نفسه لذلك. واضطر أخيراً لكتابة تلك القطعة لعلها تحدث اثراً يذهب بأثر كتابه الاول

وعدا هذه القطع فان جوته من غير شك كان يعمل أو يفكر في مؤلفات اخرى مما ظهر فيما بعد

واما مشاغله العلمية فانهُ في هذه الفترة كان يشتغل كثيراً بالعلوم الطبيعية حتى اهتدى الى كشف عظيم في التشريح ، وهو الاهتداء الى عظم ما بين الفكين (Os Intermaxillare) وكذلك كان يدرس شيئاً عن فن البناء وتنظيم المدن وهندسة الحدائق ليطبق هذا في اصلاح فيمار وتجميلها

اما مشاغله القلبية في هذه السنين العشر فتدور حول شخص مدام فون شتاين . وهي من كبار سيدات قصر فيمار وزوجة احد كبار ضباط الحرس ولم تصبح بينها وبين زوجها صلة بعد ما ولدت له سبعة اولاد . كانت شارلوت فون شتاين حين رآها جوته امرأة في الثالثة والثلاثين قد مارست الحياة حلوها ومرها . وفهمت طبائع الرجال وخصالهم . وكانت فوق هذا على جانب عظيم من الادب والثقافة العالية . وفي شخصها لقي جوته امرأة لم يرَ مثلها من قبل ، فان صلاته الى وقت نزوله فيمار كانت دائماً بفتيات لم يتجاوزن العشرين كان يجتذبه اليهن ما هنَّ عليهِ من صباحة وطلاوة وبهاء وشباب غض . لكنهن كنَّ دونهُ ثقافة وتربية وعقلاً وعلماً . أما مدام فون شتاين فكانت اكبر منهُ بسبعة اعوام ، ولكنها كانت امرأة ناضجة عقلاً وذكاءً وأدباً . قادرة على ان تشاطره احلامه مهما بعدت ، وافكاره مهما سمت ، وتواسي جروحه ، وتعجب بقوته وترثي لضعفه ، فكانت له بمثابة الصديقة والشقيقة والحبيبة ، وبالرغم من انها لم تكن على شيء كثير من الجمال فقد اولع بها جوته ولم يفتر حبهُ لها طول هذه السنوات العشر ، وقد علمت — وهي سيدة العارفين — انها ان سلمت لهذا الفتى النزق بكل ما يشتهي فسرعان ما يسأمها ويفقدها وتفقده ، لكنها عرفت كيف

تبقى جذوته مستعرة ملتهبة ، وكيف تستبقي حبه واجلاله لها عشر سنين طوال.. وبليتوفسكي يقول ان علاقتهما بقيت طاهرة نقية ، ولو ان غيره يزعم غير ذلك . وعلى كل حال فقد كان نفوذها على جوته عظيماً وصالحاً ولم يتلاشَ هذا النفوذ الا بعد عودته من ايطاليا

***

كان جوته دائماً يتوق الى رؤية ايطاليا ، ولم يتحقق حلمه هذا الا في سبتمبر ١٧٨٦ حيث غادر الدوق وحاشيته وسافر متخفياً الى تلك البلاد الجميلة حيث الشمس لا تحجبها السحب وحيث الآثار الرومانية تنطق بالعظمة الخالدة . وقد اخذ يتنقل بين مدن ايطاليا المختلفة من اقصاها شمالاً الى صقلية جنوباً . وكل منها مفعم بالذكريات وبدائع الفن الخالد . لكنه كان مغرماً بروما بنوع خاص ، والذين يعرفون المدينة الابدية يفهمون سر هذا الغرام ، فهنا الفى جوته نفسه امام عظمة تلك الحضارة الهائلة التي لم ينقص مر السنين من رونقها وبهائها ووجد فيها مثيراً لوحي جديد . وكذلك وجد فرصة لأن يتعلم الدروس التي تلقنها الاسفار في بلاد تختلف عن بلاده الاختلاف كله . وعدا هذا فانهُ اصاب في ايطاليا فراغاً وسكوناً وهدوءاً وما كان اشد احتياجه اليهِ بعد تلك السنين المضنية

دامت هذه الرحلة نحو العشرين شهراً ، عاوده في اثنائها غرامه بالفن والتصوير ، فأضاع وقتاً كثيراً في محاولات غير مجدية ، فانهُ ما كان ولن يكون رساماً ماهراً . . ولكن بجانب هذا قد اتم نظم ايفجنيا وإيجمونت. وشرع في نظم تاسو وهذه الثلاث من احسن رواياته التمثيلية

اجمع الكتاب على ان رحلة ايطاليا تعتبر نقطة هامة في حياة جوته. فانها بصرف النظر عما تعلم منها اعطته فرصة طويلة لان يتبصر في امر نفسه وان يفكر في مآله وحياته ، وكان نزق الشباب قد اخذ في الزوال وحل محله شيء من الوقار والرزانة والنضوج ، ورأى وهو في ايطاليا انه لن يستطيع ان يعود الى تلك الحياة التي كان يحياها في ڤيمار ، حيث كان جانب عظيم من وقته ضائعاً في تافه الاعمال . ولهذا كتب الى كارل آوجست من ايطاليا قبيل العودة يلتمس منهُ ان يعفيه من الواجبات الصغيرة التي كانت تقيد يديه ، وتلتهم جزءاً عظيماً من وقتهِ ، حتى يستطيع ان يفرغ للناحية الجدية من جهوده العلمية والادبية . وكان كارل اوجست عند حسن ظن جوته به ، فأعطاه سؤله ، واعفاه من رآسة المجلس الاعلى ، ومن الادارة الحربية ، واستبقى جوته بمحض رغبته ادارة الاعمال العلمية والفنية بما في ذلك ادارة المسرح

عاد جوته الى ڤيمار في يونيه سنة ١٧٨٨ ، وقد لاحظ الجميع في خلقه شيئاً من التغير فقد الفوه الآن جاداً وجافاً في طبعه ، متحفظاً في شيء من الفتور اوالبرود. لاحظت هذا التغير مدام فون شتاين ، ورأت انهُ لم يبقَ في قلبه نحوها تلك الحرارة وذلك الشغف اللذين الفتهما منهُ. وقد خاطبتهُ في ذلك فلم تجدِ المخاطبة ، ثم لامتهُ وانبتهُ فما اصلح هذا اللوم من الموقف

شيئاً . والحقيقة ان جوته ، الذي عاد من ايطاليا ، غير جوته الذي عرفته هذه السيدة ، ولو انصفت لأدركت الموقف الجديد ، وعلمت ان امامها اليوم جوته الرجل لا جوته الفتى ، وان عليها ان تعامله معاملة جديدة تتفق والموقف الجديد ، لكنها اصرّت على اتهامه بالتقصير والاهمال ، وانكر هو هذه التهمة ، وبعد قليل انقلب الجفاء بينهما الى قطيعة وهجران حينما تعرف جوته الى كرستيانا ڤولبيوس التي صارت زوجاً له فيما بعد

* * *

في يوليو سنة ١٧٨٨ كان جوته يتمشى في حديقة ڤيمار فتصدت له فتاة حسناء وناولتهُ كتاباً تلتمس فيهِ مساعدة اخٍ لها اديب بائس في بلدة يينا القريبة..هذه الفتاة هي كرستيان ڤولپيوس ، التي صارت اولاً خليلة جوته ثم حليلة لهُ. وكانت فتاة من طبقة فقيرة . والبون شاسع بين مركزها ومركزه الاجتماعي . لكنها على جانب عظيم من حسن الخلق والخلُق ولا يعوزها الادب والتربية ، ولو انها لم تكن في هذا لتدنو الى مدام فون شتاين او غيرها من نساء البلاط . ويقال ان جوته اراد ان يتخذها زوجاً فأبت لعلمها ان هذا يحرج مركزه ، فان الحاشية لم ترضَ عن علاقة جوته بها ، وحسبت هذه العلاقة عاراً عظيماً . وقاطعتها حاشية البلاط مقاطعة تامة . ولم يقبلوا ان يروها بينهم ، فكانت لا تصحب جوته الى القصر ولا ترافقه في الحفلات ، ومع انها كانت تصاحبهُ الى يينا . فيقدمها الى اصدقائهِ وعارفيهِ ،كانت ابواب ڤيمار ابداً موصدة امامها . وكانت صداقتهما موضع نقدٍ مرٍّ وطعن شديد في جوته لخروجهِ ، هذا الخروج الشنيع ، على العرف والتقاليد

ولم يلق جوته نقداً لأي عمل من أعمال حياته مثل الذي لقيه من حبه لكرستيانة . ويقول شيفر أحد مؤرخي جوته : ان الأمة لم تغفر لأكبر شعرائها هذا الخروج على العرف والعادة ، وهذه العلاقة النصف الزوجية كانت سبباً كبيراً في قلة تقدير الناس لأخلاق جوته، وفي الحكم بأحكام قاسية عليه وعلى تآليفه . » .. الى هذا الغلو يذهب المجتمع في استهجان من يخرج على تقاليده !

وبالطبع أمام هذا النقد المر لم يستطع جوته أن يعقد زواجه رسميًّا . ولكنه أعلن غير مرة أن كرستيان زوجه في كل شيء ماعدا الرسميات . وفي أول عام ١٧٨٩ ولدت له ولده الأول أوجست . فبعد ذلك أسكنها وأمها في الدار التي يسكنها وأصبح الجميع ينظرون اليها كزوجته

لم يزل الكتّاب الذين ألّفوا في سيرة جوته — وكثير ماهم — بين مستهجنٍ وناقدٍ ومتسامح في نقدهِ لهذا الحادث الخطير في حياة هذا الرجل الخطير . كانت كرستيانة مليحة الصورة ، جذابة جداً . وعاقلة ومدبرة ومغرمةً به . ولكنها كانت ازاءهُ وضيعة النشأة قليلة التعليم . ومما يؤسف له ، من غير شك ، أن جوته لم يوفق الى زَوجَةٍ تناسبه من جميع

الوجوه بحيث لا يستحي من مصاحبتها له في المجتمع الذي يعيش فيه .. ولكنه ان لم يجد فيها ضالته كلها ، فأنه من غير شك وجد فيها كثيراً مما تهواه نفسه من الجمال والبساطة وطيب الخلق وسرعة الفهم . ولم يكن — وهو الذي احتقر العرف والتقاليد طول حياته — بالذي يبالي بما يقوله البلاط وأهله . وقد بقي جوته سعيداً جداً بعلاقته بها زمناً طويلاً . وكانت مساعدة له على انتاجه العلمي والادبي . فاليها يرجع الفضل في إخراجه القصائد المعروفة بأسم « المنظومات الرومانية » وهي من أبدع ما نظم .. حقيقة أنها ساءت حالها فيما بعد . ولكن لم يكن معقولاً ان يتنبأ جوته بهذا

***

في السنين التي عقبت « زواج » جوته هذا انصرف برغبة وحماسة تكادان تشبهان الجنون الى الابحاث العلمية . فأخرج رسالته الفذة في تطور النبات Metamorphosis der Pflanzen وهي من غير شك كشفٌ جديد في هذا العلم .. وأعقبها برسائل أخرى دونها في المنزلة العلمية كرسائله في البصريات والرياضيات والالوان وغيرها . وقد بقي جوته منغمساً في هذه الشهوات حتى انتشله منها شلر ووجههُ بعنف نحو الادب . وقبل ان نتدرج الى ذكر اجتماعه بشلر يجب ان نشير الى الحوادث التي شغلته قبيل ذلك . في عام ١٧٩٠ سافر جوته للمرة الثانية الى ايطاليا لكي يصحب الدوقة أماليا ويرافقها في عودتها . ولم يكن لزيارته الثانية لايطاليا في نفس جوته من الأثر ما كان للزيارة الاولى . فان الرحلة كانت محدودة المدى . والاحوال مختلفة عما كانت عليه من قبل ، وعقب عودته الى ڤيمار كان العالم السياسي في اوروبا يموج بعضه في بعض ، فقد ثارت فرنسا ثورتها وزعزع عرش البربون ، فثار ثائر ملوك اوروبا اذ رأوا العرش تنتهك حرمته والصولجان يحطم ، والحقوق الملكية المقدسة تداس وتمتهن . عزَّ هذا على أصحاب العروش . فجرد هؤلاء « الحلفاء » جيشاً ليدافع عن الحق الملكي المشروع ، تلقاء هذه الاعتداءات البذيئة من العامة والسوقة

وقد يتساءل القارىء وما لجوته وهذا كله ؟ لم يكن جوته بالرجل الذي يأبه للحقوق الملكية المقدسة ، ولم يكن يعطف على الثائرين بعد ما رأى من انتهاكهم للحرمات ، وكان أحب اليه ان يجلس في داره ليفند آراء نيوتن الرياضية ، ويحلل الألوان . ولكن لسوء حظه كان ملك بروسيا أحد الحلفاء واختار كارل أوجست قائداً لفيلق من فيالق بروسيا ، ولدوق ڤيمار ولع عظيم بالجيش ، كما له ولع عظيم بجوته . فطلب من جوته ان يصاحبه . وما كان جوته ليرد لكارل أوجست سؤلاً . فصاحبه في تلك الحرب وكان يقضي أكثر وقته في تجاربه العلمية يفحص العظام ويراقب الألوان ، ويدرس النبات . وكان سروره عظيماً حين تمت هزيمة « الحلفاء » . لا حبًّا في انتصار الثائرين . ولكن حبًّا في العودة الى درسه وعمله ، وكتب إثر

عودته الى أحد اصدقائه يقول : « أعود الآن الى منزلي لكي ارسم من حولي دائرة محكمة لايدخلها غير الحب والصداقة والعلم والفن . ولست أشكو من الماضي فقد تعلمت منه الشيء الكثير النافع » وهكذا صمم جوته ان يعكف على اعماله الأبدية العالمية ، غير مكترث بتلك الزوابع السياسية التي تجتاح وجه اوروبا

كانت عودة جوته الى ڤيمار في اواخر سنة ١٧٩٤ ، وفي مايو من السنة التالية كان جوته في ڤينا ليسمع محاضرة عن النبات في دار جمعية التاريخ الطبيعي . فالتقى بعد المحاضرة بشلر ، وهو إذ ذاك استاذ التاريخ بها ، ثم تحادثا قليلاً بعد المحاضرة . ومن ذلك العهد توثقت الرابطة بينهما وازدادت صداقتهما قوة على مر السنين

ان صداقة جوته وشلر فريدة في بابها يكاد لا يكون لها نظير في تاريخ الأدب لأية امة في أي عصر . ويصعب على الانسان ان يتصور شاعري المانيا العظيمين المتنافسين . وقد ارتبط قلباهما برباط الحب والإخلاص ، حتى لقد كان جوته يقول ان اسعد ظروف حياته هي التي مكنته من مقابلة شلر . ولأول وهلة يخيل للمرء ان تلك الصداقة متعذرة لما بين الرجلين من الفروق:

كان جوته في الخامسة والاربعين وشلر دونه بعشر سنوات . وكان جوته ربيب النعمة حليف الغنى، قد بسم له الحظ طول عمره . بينما شلر قد نشأ في فقر وعاش في فاقة وكان دائماً في ضنك وضيق . كان جوته صحيح الجسم قوي البنية وشلر بعكس ذلك . وكان جوته يعشق الطبيعة والحقيقة أي انه ريالست (واقعي)، بينما شلر كان يرمي بخياله بعيداً يلتمس المثل العليا اي انه ايديالست (كمالي) . وكان جوته يشتغل في اول النهار. وشلر يعمل في الظلام الى ما بعد منتصف الليل .. ثم أليس المعقول ان تتنازع شلر عواطف الحسد حين يقارن بين حال جوته وما هو فيه من بسطة في الرزق وحالته هو إذ يضطر لان يجتزي بالشيء اليسير وبينما جوته يسكن في منزلين رحيبين في ڤيمار ، يكتفي شلر بغرفتين في احدى الدور الصغيرة ؟ ...

على ان هذه الاختلافات بين الشاعرين لم تقم حائلاً دون التأليف بين قلبيهما برباط من الصداقة النادرة .. وذلك لأن كلاهما كان يقدر ما للآخر من المزايا ويعجب بمواهبه ، ويجد منه فهماً وتقديراً لكل فكر وكل حس وكل بادرة تبدر منه؛ ثم بعد هذا كله فقد كان يعتقدان ان لديهما رسالة جليلة يؤديانها الى العالم فهل مثل هذين يجدان من وقتهما فراغاً للتفكير في الحسد والبغضاء ؟.

في عام ١٨٠٠ جاء شلر الى ڤيمار واقام بها .. وقد حاول الكثير ان يبذر شيئاً من النفور بينهما ، فأخذ الناس يتعصبون : فريق لجوته وفريق لشلر . وقد رد عليهم جوته بأنه اولى بهم ان يحمدوا الله ان لديهم شاعرين لا شاعراً واحداً. وقد حاول اهل حاشية ڤيمار بتمجيد شلر والاحتفال به ان يوغروا صدر جوته عليه . فلم يتم لهم شيء مما ارادوا . ان صداقة هذين

الرجلين قلعة حصينة لم تؤثر فيها قنابل الدسائس ولا اغارات النميمة

كانت هذه الصداقة بين الشاعرين أهم شيء في تاريخ كل منهما . فكانت تلك السنين من أسعد سني حياتهما. وكان انتاجهما عظيماً ، ليس له نظير في أي جزء آخر من عمرهما ، لا من حيث المقدار ولا من حيث الجودة . وقد كان كل منهما يقبل نصح الآخر ، فيكمل كل منهما نقص صاحبه . وعاد الى جوته نشاطه الادبي، على ما صرح بذلك في كتاب الى شلر يقول فيه : « لقد خلقتَ لي شباباً جديداً وأرجعتني مرة أخرى الى القريض بعد ان باعدت بيني وبينه »

بدأ هذا التعاون الادبي باصدار مجلة ادبية Die Horen ، وبعد ذلك أخذا ينشران مئات من الرباعيات في نقد معاصريهم واسمها Xenia . وفي سنة ١٧٩٧ أخذا يتنافسان في تأليف قصائد قصصية من النوع المعروف باسم Ballade : وجوته ولو انه يعترف بأسبقية شلر في هذا النوع من التأليف ، قد اخرج في تلك السنة تلك القصائد البديعة « عروس كورنت» والارلكونج . في هذه الفترة أخرج شلر خير رواياته التمثيلية مثل « والنستاين » و « ماريا ستوارت » ، و « ولهلم تل » . واخرج جوته « ولهلم مايستر » ، و « فاوست الاولى » ، وهرمان ودوروتيا . عدا كثيراً من القصائد والمقطوعات

هذا التعاون الفكري الجليل بين الشاعرين قد رفع صداقتهما الى مستوى قل أن تسمو اليه صداقة . وأصبح جوته يعتقد ان وجود شلر أمر لازم لوجوده هو . لهذا لا نعجب اذا علمنا ان قد خانه جلده ، واستولى عليه جزع شديد حينما علم بوفاة شلر في مايو سنة ١٨٠٥ وهو لم يتجاوز السادسة والاربعين .. وكتب جوته الى تسلتر يقول : « ان نصف حياتي قد بان عني » . ولم يعرف عن جوته أنهُ حزن لفقد عزيز أو موت ولد او قريب حزنه على فقد شلر : وقد بكى من اجله مُرَّ البكاء ، وهو الذي كانت تأبى عليه كبرياؤه ان يبدي جزعاً او حزناً بين ايدي الناس . وعبثاً حاول ان يجد سلواناً في الدراسة او التأليف . فأن فكره قد خمد وجذوة ذكائه قد انطفأت على اثر هذه الكارثة

في شهر اكتوبر التالي لوفاة شلر . دارت المعركة المعروفة بين نابليون واعدائه بالقرب من يينا وجاءت فرقة من الجنود الفرنسية فاحتلت ڤيمار انتقاماً من كارل أوجست لأنه ، وان لم يحارب ضد نابليون ، عاون أحد القواد بأن اقرضهُ نقوداً في وقت الحاجة وآوى بعض الجرحى من الضباط البروسيين .. وقد تصدَّت لنابليون الدوقة لويز ، وبررت موقف زوجها والتمست من نابليون ان يرأف بأهل الدوقية ولم تزل به حتى لان ، وانجلى العسكر عن ڤيمار

وقد غضب جوته أشد الغضب إذ رأى هذا الظلم موجهاً الى صديقه وسيده مع انهُ لم يقم الاَّ بما يوجبهُ الشرف ويحتمهُ الواجب. أحسَّ جوته بأن الحال عصيبة وانه أولى به ان يضم اليه جميع اقربائه والمخلصين له . فقرر ان يعقد قرانه على كرستيانه . وتمَّ ذلك بعد معركة

يبنا ببضعة أيام، بعد ان عاشرها معاشرة الزوجة سبعة عشر عاماً . وبعدما ولد له منها ولده أوجست وكان عمره وقت الزواج الرسمي ستة عشرة سنة وكان جوته يخشى انه اذا حدث له شيء في تلك الازمنة الخطيرة ، فالاولى ان يترك زوجته وابنه في حال طبيعية . وبالطبع قد أثار هذا الزواج عاصفة انتقاد بين بعض أهل ڤيمار . ولكن أكثر اصدقائه هنأوه على هذه الخطوة الحميدة التي نظم بها حاله المنزلية . وقد هنأته امه التي كانت دائماً معجبة بكرستيانه وقد احبتها منذ البداية

بعد ذلك حسنت علاقة دوق ڤيمار بنابليون . وفي خريف سنة ١٨٠٨ كان نابليون في إيرفورت على مقربة من ڤيمار . وفي يوم ٢ اكتوبر استدعى جوته اليه . ولما وصل اليه كان الامبراطور يتناول فطوره . ومعه تاليران ودارو وبعض حاشيته . فسأل جوته عن سنه وكان قد بلغ الستين فقال الامبراطور انك احسنت الاحتفاظ بقوتك . ثم اخذ يتحدث عن الأدب فانتقد كتاب محمد لڤلتير ومدح آلام فرتر وقال انه قرأها سبع مرات ثم انتقد بعض اجزائها . وانتهى الحديث بعد ان استمر ما يقرب من الساعة . وبعد ان خرج جوته التفت نابليون الى من معه وقال تلك العبارة المشهورة . „ Voila' un homme ! «

بعد هذه المقابلة بأيام كان نابليون في ڤيمار في حفلة اقيمت له . وتحدث طويلاً الى جوته وويلاند . واقترح على جوته ان يؤلف شيئاً يمثل فيه يوليوس قيصر وعظمته والخيرات الهائلة التي كان منتظراً ان يغمر بها العالم لو لم يقض عليه . وكذلك دعاه لان يزور باريس . فاظهر رغبته في ذلك ولولا تقدم سنه لنفذ هذه الرغبة من غير شك . وقبل سفر نابليون من ايرفورت أنعم بنيشان اللجيون دونير على كل من ويلاند وجوته

في سنة ١٨٠٩ اخرج جوته قصة جديدة يصعب ترجمة عنوانها Wahlverwandschaftean (قرابة الاختيار) وقد نشأت هذه القصة عن حادث جديد في حياة جوته . وهو حبه لفتاة اسمها مِنّا هرتسليب ، متبنّاة احد اصدقائه ، وقد رآها وهي طفلة ونمت وكبرت امام عينيه ثم انتهى حب الطفلة الى حب الفتاة . ولكنهُ امسك نفسه وكظم حبه ، واعيدت الفتاة الى المدرسة برهة لكي تنجلي عمايته . ومقدرة جوته على ان يحب وان يبعث الحب في غيره قد لازمته طول حياته . ففي مارينباد التقى بفتاة احبها وأحبته في سنة ١٨٢١ وهو اذ ذاك قد جاوز السبعين . وقد اراد ان يتزوج منها لولا ان خشيَ العنت والسخرية

وفي سنة ١٨١٠ اخذ يؤلف كتابه «الحقيقة والخيال» Dichtung and Wahrheit الذي اخرجهُ في ثلاثة اجزاء وضمنه سيرة حياته من اولها . واتمام هذا الكتاب الخطير كان من اهم الاعمال التي شغلتهُ في السنين الاخيرة من عمره . في سنة ١٨١٣ حزن جوته حزناً شديداً لوفاة ويلاند ، ورأى عقد اصدقائهِ وأحبائهِ ينفرط جوهرة اثر جوهرة فبعد هردر قضى شلر ثم الدوقة أماليا ثم امه . والآن يذهب ويلاند فيزداد شعوره بالوحدة والوحشة

في عام ١٨١٣ تحالفت دول اوروبا على نابليون ، وفي اواخر السنة انهزمت الجيوش الفرنسية في معركة ليبتسك وفي العام الثاني كان نابليون سجيناً في جزيرة إلبا ، وقد خسر العرش والدولة بأسرع مما احرزهما .. هذه الحوادث الجليلة التي ارتجت من اجلها اوروبا ، قد كان لها اثرها في نفس جوته وفي حياته ، لكنها اثرت فيه تأثيراً خاصاً . لم يكن في صدر جوته لنابليون بغض ، بل كان يجله ويتوقع له النصر .ولم يشارك كثيرين من الألمان في بغضهم له وحقدهم عليه . فكانت نظرة جوته الى هذه الحوادث نظرةً فلسفية عالمية لا نظرة الوطني مدفوعاً بشعوره لوطنه . . ولهذا هاله ان يرى هذا النجم المتلألىء يسقط هذا السقوط الفجائي وهذا الطود الشامخ تتداعى اركانه وتنقض جوانبه

وهنا لابدّ لنا ان نشير الى التهمة التي اتهم بها جوته ، وهي انه كان مارقاً من دين الوطنية وانه لم يكن في قلبه عطف على المانيا . وانصافاً لجوته يجب ان نذكر القارىء بأنه كان مخلصاً اشد الاخلاص لوطنه المختار «فيمار» ، وكان حنقه شديداً على نابليون من اجل غضبه على كارل اوجست الذي كان جوته يتفانى في الاخلاص له والذود عن حوضه .. اما انه لم يكن ذا شعور وطني الماني ، فليذكر القارىء ان المانيا في عصر نابليون كانت عبارةً جغرافيةً ليس لها مغزى سياسي ، وكانت مقسمة الى مائة جزء كل منها مستقل عن الآخر ،وكان نابليون هو العامل الاكبر في ايجاد فكرة الوحدة الالمانية. فقد وحّد الالمان بغضه ، والرغبة في التخلص من نير استعباده . فهل من العدل ان يلام جوته وهو في الستين من عمره على انه لم يستشعر البغض لمن لم يلحقه منه اذى ،ولم يظهر العطف على فكرة اوجدها هذا البغض؟ ان جوته الذي كانت روحه عالمية ، والذي قضى حياته في تأديب نفسه على ان تنظر الى الامور من ناحية عالمية ، لايجوز ان يطلب منه وهو كهل ان يثور كما يثور طلبة المدارس من اجل فكرة كان يرى ان تحقيقها بعيد

ولهذا لم يكن غريباً انه في تلك السنين العصيبة : سنين إلبا ووترلو ومؤتمر فينا تحوّل جوته عن اوروبا تماماً وتركها وراءه ظهرياً . والتفت يلتمس وحياً جديداً ومثاراً جديداً للخيال والشعر بأن اخذ يدرس أدب الشرق ، وبنوع خاص الادب الفارسي والعربي . اخذ يدرس شعر حافظ الشيرازي مترجماً الى الالمانية واخذ يستعين ببعض المستشرقين على الاستزادة من هذا البحر الفياض

وهكذا نرى جوته وهو شيخٌ في السادسة والستين من عمره يقبل على الدرس اقبال التلميذ ، بحماسةٍ وحرارة نتمنى مثلهما لكل تلميذ . واخذ يدرس القرآن وكان إعجابهُ بهِ لا حد له . ولسوء الحظ لم يكن جوته قد درس العربية أو الفارسية . واذا كان هذا مبلغ اعجابه بالادب الفارسي والعربي مترجمين — والترجمة تشويه لا مفرَّ منهُ — فكيف يكون تأثره لو اتيح له قراءة تلك النصوص في اصولها ؟

كانت ثمرة هذه الجهود كتاب بديع سماه ديوان الشرق والغرب . ضمنهُ كثيراً من الصور الشرقية مرسومة بريشة غربية .وقد اضاف الى الاشعار شروحاً يصف بها حالة الشرق وتاريخه مما يعين القارئ على تفهم ما جاء في الديوان . وهذا الكتاب ، ولو انهُ يشتمل على قصائد من ابلغ ما جادت به قريحة جوته ، فانهُ ليس من كتبه الشائعة المتداولة ، نظراً لان معانيه يحيط بها عادة غشاء من الغموض ؛ فالكتاب اذن للخاصة لا للعامة شأنه في هذا كشأن الجزء الثاني من فوست

* * *

ولقد متع الله جوته بعمر طويل . وكانت السنين الاخيرة كلها هدوء وسكون.فقد خففت عنهُ اعباء اعماله الرسمية . وكان يقضي معظم وقته في منزله ،الذي اصبح حقيقة كعبة القاصدين يحج اليها الراغبون في رؤية الشيخ الوقور ، ولقد كان جوته في كهولته على شيء كثير من الهيبة وهنري هاينه بظرفه المعهود يقول لنا انهُ كان يؤلف الجمل التي يريد ان يقولها ! حتى اذا كان في حضرة المشترى (جوته) لم يحر كلاماً ، اللهم الاَّ عبارة ، قالها في ارتباك وحياء ، عن شجيرات البرقوق التي رآها في طريقه بين يينا وفيمار . . .

وكان الزائرون من جميع الطبقات . فمنهم الامراء والوزراء ألمان وغير المان، كانوا يحضرون في صحبة دوق فيمار.ومنهم الادباء والشعراء امثال هاينه وتاكرى . ومنهم ايضاً الفضوليون الذين لا تخلو ديار كبار الناس منهم . على ان حياة جوته اذ ذاك لم تكن مجرد زيارات وحفلات بل لقد كانت حافلةً بنشاط كثير . فقد اتم في هذه السنين الاخيرة الجزء الثاني من كتاب ولهلم مايستر وكتاب الحقيقة والخيال. والكتاب الثاني من فوست. وهذا الاخير لم يتم تأليفه الاَّ في سنة ١٨٣١ .. وهو معتبر عند الخاصة اجل شيء كتبهُ جوته . وقد اوصى الشاعر بألاَّ ينشر الاَّ بعد وفاته ، ولهذا بقي في يده الى آخر لحظة يزيد فيه ويعدل فيه ما شاء . والى الاسبوع الاخير من حياته كان جوته يكتب او يملي الرسائل الادبية والعلمية ويتعقب سير التفكير العلمي في المانيا وفي اوربا بكل يقظة وانتباه

وكان حافظاً لكل قواه الى النهاية ، وبرغم ضعف سمعهِ.قد بقي نظره صحيحاً سليماً

* * *

كانت دار جوته في شيء من الوحدة ، ولكن تحسنت هذه الحال في عام ١٨١٧ اذ تزوج ولده أوجست من فتاة من اذكى فتيات فيمار اسمها أوتليا. ولكن السرور بهذا الزواج قد شابه وفاة زوجه كرستيانه في العام التالي . وقد كان حزنه عليها شديداً . ومن رزق عمراً طويلاً كعمر جوته لا بد ان يعاني مرارة فقد الاصدقاء والاحباب . ففي عام ١٨٢٧ ماتت مدام فون شتاين . وفي يونيو ١٨٢٨ مات الصديق الاكبر كارل أوجست ، وصاح جوته

اذ بلغه نعيه : الآن قد ضاع كل شيء « Nun ist alles vorbe » وفي فبراير سنة ١٨٣٠ ماتت دوقة فيمار وفي اكتوبر توفي ولده أوجست وهو في ايطاليا . وكان موته ضربة أليمة . وبعد وفاته جاءت زوجته أوتليا بأطفالها وأقامت في دار جوته . فكان له من وجودهم بعض السلوان . في وقت بات فيه حقيقة وحيداً بعد ان درج أصدقاؤه واقرانه

* * *

في اغسطس سنة ١٨٣١ كانت الحفلات قد اعدت من اجل عيد ميلاد رجل ألمانيا الاكبر . وفراراً من هذه الحفلات ذهب جوته الى إلميناو ليقضي مدة يسيرة ريثما تنتهي الضجة. وحين وصل الى تلك البلدة صعد الى المرتفعات المجاورة ونزل بالكوخ الصغير الذي قضى فيهِ مع اصدقائهِ اياماً سعيدة . وحين دخل الى الكوخ رأى مكتوباً على جدرانه سطوراً قد خطها هو بقلمهِ منذ ستين عديدة وهي :

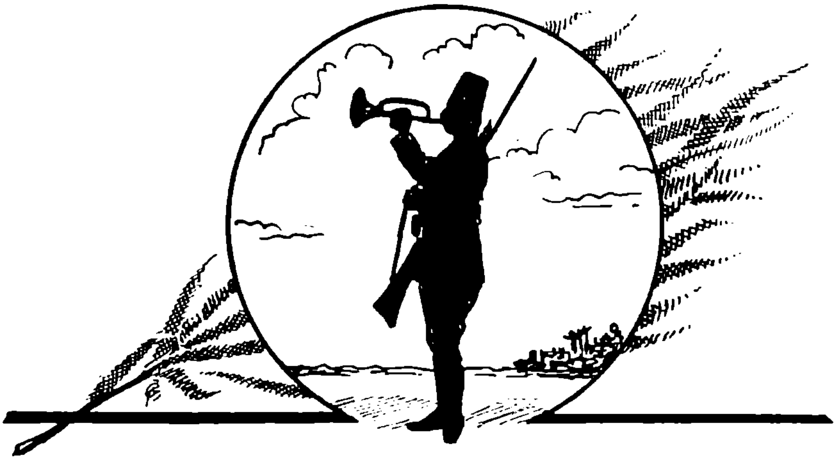
Ueber alle Gipfeln
Ist Ruh,
In allen Wipfeln
Spùrest Du
Kaum einen Hauch;
Die Vögelein schweigen im Walde·
Warte nur, balde
Ruhest du auch.

وهي ابيات لا بد ان تقرأ وتفهم في لغتها الاصلية ، ومع ذلك فانا نعالج ترجمتها في شيء كثير من التردد

في ذرى الأطوادِ صمتٌ شاملٌ
وسكون غشيَ الكون الفسيحْ ..
خيّمَ الصمت على الغاب ، فلا
صوتُ طيرٍ فيهِ او نسمةُ ريحْ .
كلُّ شيء مستريحٌ هادئٌ
وقريباً انت ايضاً تستريحْ

طالع جوته هذه السطور ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، دموع أثارتها ذكراه لاحبابهِ واصحابهِ : ولايام فتوتهِ وشبابهِ ، فأطرق مليّاً وردّد السطر الاخير «وقريباً انت ايضاً تستريح»

وحقيقة كانت النهاية قد اقتربتَ ففي ظهر اليوم الثاني والعشرين من مارس ١٨٣٢ قضى نحبه في داره بفيمار بعد ان لازم الفراش أياماً قلائل : وقد دفن الى جنب صديقه الخالد شلر

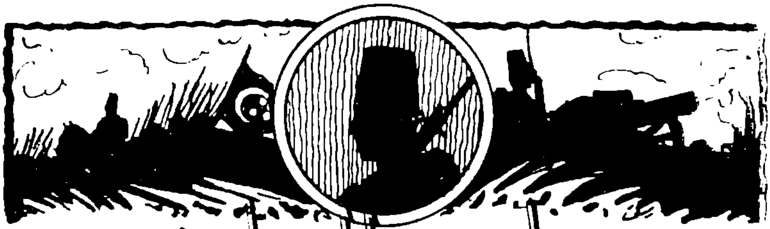


ما هى السياسة

الواجب انتهاجها للنهوض بقوات الدفاع المصرية وزيادتها
مراعين مساحة مصر وعدد سكانها وثروتها وموقعها الجغرافي

لللصاغ عبد الرحمن زكى
مدير الشؤون العامة بوزارة الدفاع وامين المتحف الحربي

الجيش السليم فى الأمة السليمة



ما هي السياسة

الواجب انتهاجها للنهوض بقوات الدفاع المصرية وزيادتها
مراعين مساحة مصر وعدد سكانها وثروتها وموقعها الجغرافي

للصاغ عبد الرحمن زكي
مدير الشؤون العامة بوزارة الدفاع وامين المتحف الحربي

١ — الارض التي ندافع عنها

تتألف الدولة المصرية من الوحدات الجغرافية السبع الآتية :—
١ — وادي النيل والدلتا ٢ — الفيوم ٣ — قناة السويس ٤ — الصحراء الغربية
٥ — الصحراء الشرقية ٦ — شبه جزيرة سيناء ٧ — جزائر البحر الاحمر
ومساحتها في مجموعها ٢٤٢٧٦٠٠٠٠ فدان فتبلغ ١/٣٠ من مساحة افريقيا .
تبلغ مساحة مصر حوالي ١٫٠٢٠٫٠٠٠ كيلو متر مربع منها ١/٣٠ صالح للزراعة (أي ٧٫٣٠٠٫٠٠٠ فدان) والباقي أراضٍ صحراوية قاحلة يسكنها قليل من الاعراب الرحل

تبلغ مساحة وادي النيل والدلتا ٣٢٫٠٠٠ كيلو متر مربع
تبلغ مساحة الصحراء الغربية ٧١٠٫٠٠٠ كيلو متر مربع بالفيوم
تبلغ مساحة الصحراء الشرقية ٢٢٢٫٠٠٠ كيلو متر مربع
تبلغ مساحة شبه جزيرة سيناء ٥٦٫٠٠٠ كيلو متر مربع

وتمتد مصر من الشمال الى حدها الجنوبي نحو ١٠٧٣ كيلو متراً ومن الغرب الى الشرق نحو ١٢٢٦ كيلو متراً فهي تشغل رقعة من الارض تفوق مساحة اي دولة أوربية اذا استثنينا روسيا . ويبلغ طول الشاطىء المصري ٢٤٠٠ كيلو متر تقريباً (١٣٠٠ ميل بحري)

﴿ وادي النيل والدلتا ﴾ تبلغ المساحة التي تزرع او يمكن زرعها في القطر المصري

٠٠٠ر٣٠٠ر٧ فدان منها في الوجه البحري ٠٠٠ر٩٠٠ر٤ والباقي وقدره ٠٠٠ر٤٠٠ر٢ فدان (اي نصف الوجه البحري) هو أراضي الوجه القبلي الصيفية والحوضية[1] . ولقد استقر الرأي على ترك مساحة قدرها ٠٠٠ر٢٠ فدان من بحيرات المنزلة وادكو لمصايد الأسماك وبذلك تصبح المساحة التي تصلح للزراعة فعلاً ٠٠٠ر١٠٠ر٧ في الوجهين . والمساحة المزروعة حاليًّا (احصاء ١٩٣٧) مقسمة كالآتي ٠٠٠ر٣٠٠ر٣ في الوجه البحري و ٠٠٠ر٢٠٠ر٢ في الوجه القبلي منها ٠٠٠ر٠٠٠ر١ يشملها الري الصيفي و ٢٠٠٠٠٠ر١ مليون يشملها الري الحوضي . من ذلك نرى انهُ من الواجب التفكير جديًّا في إضافة ٠٠٠ر٤٠٠ر١ فدان من الوجه البحري من الأراضي البور الى الأراضي المنزرعة . وتحويل ٠٠٠ر٢٠٠ر١ فدان في الوجه القبلي من الري الحوضي الى الري المستديم وتحويل ٠٠٠ر٢٠٠ فدان في الوجه القبلي تروى في مدة الفيضان فقط الى الري المستديم وتحويل مساحة قدرها ٠٠٠ر٤٥٠ فدان في الوجه القبلي من ري الحياض الى الري المستديم — كل هذا لكي نجد الارض الصالحة الوافية لسكن المصريين الذين يزداد عددهم ازدياداً كبيراً

﴿ مديرية الفيوم ﴾ تقع مديرية الفيوم الخصبة في منخفض من صحراء لوبيا على بعد ٩٠ كيلو متراً جنوب غربي القاهرة. وهي وان كانت خارجة عن حوض وادي النيل ولكنها تروى من مياه النهر بواسطة ترعة بحر يوسف وتبلغ مساحة الفيوم ٤١٣٠٠٠ فدان وعدد سكانها ٦٠١٩٠١

﴿ قناة السويس ﴾ تشق قناة السويس منطقة من ارض مصر الشرقية بين مدينة السويس ومدينة بورسعيد وتصل البحرين المتوسط والأحمر او بالحري المحيطين الاطلسي والهندي. ويحدها من الشرق سهل الطينة وسيناء ومن الغرب بحيرة المنزلة ومديرية الشرقية والصحراء الغربية وتخترق في سيرها البحيرة المرة وبحيرة التمساح وبحيرة البلاح . ثم تسير في محاذاة بحيرة المنزلة الى بورسعيد وطول هذه القناة ١٧١ كيلو متراً اي ١٠٦ أميال وقد أعدت منطقة عند مدخلها مساحتها ٢٠٠ر١ كيلومتر وعمقها ١٣ متراً للسفن الكبيرة وانشئت على القنال ثلاثة « كبار » متحركة تصل شاطئيها أحدهما بالآخر

﴿ الصحراء الغربية ﴾ تمتد الصحراء الغربية من النيل الى حدود لوبيا وتشغل ⅔ مساحة الدولة المصرية وهي تشتمل على عدة واحات أهمها :—

(١) ذكر سعادة فؤاد باشا أباظه في تقرير له ان مساحة الاراضي المنزرعة هي ٣٨١ر٣٦١ر٥ فداناً ومساحة الاراضي المزروعة (أي قابلة للاصلاح والزراعة) هي ٠٤٤ر١٤٣ر٢ فدانا ومساحة المنافع العمومية (غير مزروعة) هي ٨٢٦ر٨١١ فداناً وان جملة مساحة الاراضي المزروعة بأقسام الحدود (الصحراوات الغربية والجنوبية وسيناء) ٥٤٨ر٥٠٦ والاراضي المزروعة بمحاصيل وأشجار النخيل ٤٣٣ر٢٨٢ فداناً ومساحة المراعي ١٢٥ر٢٢٤ فداناً

واحة سيوة	وتعدادها	٤٠٠٠	نسمة
الواحة البحرية	«	٦٤٠٠	«
واحة الفرافرة	«	٦٧٠	«
والداخلة	«	١٩٥٠٠	«
والخارجة	«	٩٦٠٠	«

وهذه متصلة بوادي النيل بخط سكة حديد

وفي وسعنا ان نضيف الى ما تقدم ان هذه الواحات منخفضات مأهولة وهناك منخفضات اخرى غير مأهولة وقاحلة أهمها منخفض القطارة ، وقعره على ١٣٤ متراً تحت سطح البحر

﴿ الصحراء الشرقية ﴾ تمتد الصحراء الشرقية من النيل الى قناة السويس والبحر الاحمر وتبلغ مساحتها ٢٢٣٠٠٠ كيلو متر مربع وهذه الصحراء تكاد تكون محرومة من ينابيع المياه الطبيعية وأهم الآبار تكفي سكان هذه الصحراء في اماكن تقطنها جماعات البدو كما هو الحال في الصحراء الغربية . وهؤلاء يقطنون الاماكن الصغيرة بالقرب من البحر الاحمر حيث مناجم الفوسفات والبترول في القصير (تعدادها ٤٧٨٠ نسمة) وسفاجة (٣٥٠) والغردقة (٣٨٩٠)

﴿ شبه جزيرة سيناء ﴾ تبلغ مساحتها ٦١٠٠ كيلومتر مربع ومياهها وافرة لما يتجمع منها في باطن الأرض وأهم مدنها العريش (١٠٠٠٠) نسمة والطور (٣٥٠) وابو زنيمة وغيرها

﴿ فضل الصحراء ﴾ في الوطن المصري مساحة كبيرة من الأرض الصحراء. ومصر مدينة الى هذه الصحراء بوجودها . ففي الزمن القديم في ابان تكوين الشعب المصري والحضارة المصرية كانت هذه الصحراء هي العامل الأقوى في منع العدوان عن مصر وهي الوسيلة التي مكنت المصريين من أن يندمجوا ويصيروا شعباً ممتازاً بخصائصه وحضارته . ولا تزال منزلة الصحراء في الدفاع عن مصر اليوم مثلما كانت من آلاف السنين . فهي جزء من الوطن المصري لا ينفصل عنه الا ولحقه الخسران(١).

في الحرب الكبرى الماضية استهدفت مصر لهجوم الألمان والأتراك عليها من الصحراء الشرقية والصحراء الغربية . والآن تواجه مصر في الصحراء الغربية مثل الذي واجهته في الحرب الماضية في الصحراء الشرقية

غير ان وسائل القتال تبدلت فقد كان اعتماد المغيرين في تلك الحرب على الرجال والمدافع والسيارات المدرعة وكان اعتماد المدافعين على مثل ذلك وعلى البوارج ولم يكن للطائرات مقام

(١) الدكتور محمد عوض محمد استاذ الجغرافية لجامعة فؤاد الاول من مقال له في جريدة « الجهاد » في « جغرافية مصر »

في القتال بعد . اما اليوم فالاعتماد الأكبر هو على الطائرات والمعدات الميكانيكية الأخرى وفي مقدمتها الدبابات والسيارات المدرَّعة

﴿ جزائر البحر الاحمر ﴾ ليس لها من الناحية الاقتصادية منزلة خاصة ولكن لها من الناحية العسكرية مكانة لا تنكر وأهم هذه الجزر الاشرفي وجوبال وشدوان وجفاطين وزبرجل وفي خليج العقبة ثلاث جزائر وهي تيران والسنافر وفرعون ويطلق على جزيرة شدوان « صخرة جبل طارق مصر »

٢ — موقع مصر

ان تاريخ العالم السياسي هو سلسلة من المطامع حرَّكتها شهوة التسلط على بلاد ذات رزق موفور أو ذات موقع منيع ، ومصر تتمتع بهاتين النعمتين فوقعها يشغل الزاوية الشمالية الشرقية من افريقيا وتمتد من البحر المتوسط شمالاً الى خط عرض ٢٢ جنوباً . وغرباً من خط طول ٢٥ الى البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء في خط ممتد بين رفح والعقبة

امتازت مصر في وضعها الجغرافي بكونها أهم موقع يتحكم في القارات الثلاث افريقيا وآسيا وأوربا . وهذه المزية ليست راجعة الى عهد شق قناة السويس وحسب ، بل هي متغلغلة في القدم . وبفضل هذا الموقع الممتاز كان الغزاة يتخذون مصر قاعدة للتوسع في فتوحاتهم غرباً وشرقاً

وحينما غزاها بونابرت كان أهم غرض يرمي اليه هو كفاح البريطانيين وحرمانهم استخدامها في مواصلاتهم الى الشرق . وكان في نيته بعد أن يوطد مقامهُ فيها أن يستولي على ممتلكاتهم الشرقية . ولم يفت البريطانيين ذلك فبادروا بالمساعدة على اخراج الفرنسيين منها بعد أن دمروا أسطول بونابرت في معركة أبي قير

ولما حفرت قناة السويس ارتفعت منزلة مصر وقد عارضت بريطانيا العظمى في حفر القناة قبل البدء فيه ولكنها بعد أن تمَّ فتحها اشترت أسهم خديو مصر في شركتها

فمن الطبيعي أن تهتم بريطانيا العظمى بسلامة هذا الشريان الحيوي في مواصلاتها الامبراطورية ووقايته من كل ضرر يصيبهُ . كما تهتم مصر نفس اهتمام بريطانيا بصيانة القناة لوقوعها في أرضها

لذلك كان من الحيوي ربط مصالح مصر بمصالح الامبراطورية البريطانية بعقد معاهدة التحالف الحالية

ان مصر ستصبح مع أسبانيا صاحبة مركز ممتاز في السياسة الدولية وسيكون لها شأن في الصراع على التوازن في البحر المتوسط وسيكون شأن مصر أهم من شأن اسبانيا الآن لأنهُ

اذا كانت اسبانيا قائمة على باب من أبواب هذا البحر فانهُ في استطاعة مصر أن تربض على قلبه بيدها وهي الحارس الوحيد على نقط الاتصال بين هذا البحر وبين البحار الشرقية .

٣ — السيادة البحرية

مصر منذ أقدم عصورها الى اليوم واقعة تحت تأثير السيادة البحرية . فمصر الفراعنة لم تسد الا عن طريق سيادة اسطولها خلال الاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة عند ما كان لا ينافسها منافس من دول البحار في البحرين المتوسط والأحمر وحافظت مصر على مكانتها في عهد البطالمة لما كان الاسطول المصري أقوى اساطيل البحار . فلما انتقلت تلك السيادة الى روما استولت بدورها على مصر . وفي العصر الاسلامي — ولا سيما في العصر الطولوني والفاطمي والأيوبي — كان لمصر شأنها العظيم في تاريخ العالم لسيادتها البحرية ايضاً

فلما بزغ نجم آل عثمان واستولوا على القسطنطينية ظهر اسطول العثمانيين بكبريائه فقضى على اساطيل الدول المجاورة الى ان جاء دورهم في التدهور وخلفهم المماليك والبنادقة واسبانيا والبرتغال ثم ظهر في الافق البطل الكبير محمد علي . فسادت مصر زمناً لان أسطولها كان لا يضعف امام اساطيل البحر المتوسط . إلا أن مقام فرنسا البحري لم يطل أمده فقد انتزع الانكليز منها سيادة المياه ولقبت بريطانيا سيدة البحار فلما فازت به كان من الطبيعي ان تنتفع بريطانيا بموقع مصر بعد سلسلة من الوقائع البحرية ابتدأت بموقعة الطرف الأغر (ترافلجار)

رأينا مصر في جميع العصور الى اليوم تتأثر بمبدأ سيادة البحار (البحر المتوسط) سواء أكانت مصر هي سيدة الموقع ام غيرها . وعند ما نتكلم عن موقع مصر يجب ان لا ننسى هذا المبدأ مبدأ سيادة البحر Sea Command فنه بدأت المسألة المصرية في القرن التاسع عشر

لذلك كان استيلاء الانكليز على مصر او احتلالهم او نفوذهم ثم محالفتهم وصداقتهم . . الخ من اهم اركان تدعيم الأمبراطورية البريطانية . واذا وقفت مصر موقف العداء او وقعت في أيدي اعداء الانكليز أصبح موقعها مهدداً للامبراطورية وشوكة مميتة في طريقها حتى ولو كانت تسيطر عليها حكومة محايدة . بينما مصر الحليفة لسيدة البحار تؤلف أهم عقود البناء العسكرية في تلك الناحية من العالم القديم الذي يربط المملكة المتحدة بممتلكاتها في الشرق

ان جبل طارق ومالطة وقبرص وفلسطين تؤلف سلسلة من الحصون والقواعد والمستودعات الحربية . وما دامت هذه في قبضة دولة بحرية قوية فانها تستطيع أن تسيطر بقوتها على البحر المتوسط

ولما كانت قوة السلسلة في أضعف حلقاتها ، فان مصر تكون مصدر خطر على بريطانيا اذا خرجت من نطاق الصداقة البريطانية فمن الطبيعي ان تمنع انكلترا انزلاق مصر نحو خصومها .

ومن المحتمل البعيد ان تكون مصر ثانية دولة بحرية كبيرة لتستطيع وحدها أن تتولى السيادتين البرية والبحرية في هذه المنطقة من سطح الارض

من اجل هذا المبدإ تنظر الى الدفاع عن مصر كأنه مسألة قوة بحرية لدولة صديقة قبل كل شيء ومن هذا الوقت الى وقت ما . . . يجب ان يرتبط مصير وادي النيل بالدولة البحرية القوية. ان مصر لن تكون كتلك الثمرة الناضجة على الشجرة التي التف حولها النهمون في انتظار سقوطها على الأرض ليلتهمها الجوعان اليقظ . وعلى أساس سيادة البحر يجب ان تشيد قوات الدفاع المصري

٤ — سكان مصر

يبلغ عدد سكان القطر المصري بحسب الاحصاء الأخير ١٥٫٩١٤٫٣٧٨ نسمة منهم ٩٩٪ يسكنون وادي النيل والفيوم ومنطقة قناه السويس والباقي مبعثر في الصحارى وشبه جزيرة سيناء وتبلغ نسبة عدد السكان ٤٥٠ نسمة في الكيلو متر المربع من وادي النيل . وينمو سكان مصر باطراد سريع فقد كان في عام ١٨٥٠ — ٤٫٦٠٠٫٠٠٠ نسمة وآل في عام ١٨٩٢ الى ٨٫٦٥٠٫٠٠٠ وأصبح في عام ١٩١٧ — ١٢٫٧٥٠٫٨٨١ وصار في الاحصاء الأخير ١٩٣٧ — ١٥٫٩١٤٫٣٧٨ نسمة فلو استمر الحال في الزيادة على هذه النسبة تضاعف عدد سكان مصر بعد ٦٠ سنة وقد يبلغ نحو ٥٠ مليوناً بعد قرن من الزمان لذلك نجد انفسنا امام الحقائق الآتية :—

(١) — زيادة كبيرة ومستمرة في نمو السكان مع العلم بأن معدل المواليد والوفيات والزواج في مصر أعلى منهُ في بلدانٍ أخرى فنحن في غنى عن وضع سياسة لنمو السكان او عمل اجراآت خاصة لزيادة النسل عملاً بالعبارة Be fruitful and multiply التي يُعمل بها في بعض الدول الاوربية كايطاليا والمانيا . فالزيادة الطبيعية مستمرة بدون تشجيع كما اننا لا نطالب بتخفيف ضغط السكان بوسائل ما

(٢) حيث ان زيادة السكان مستمرة فيجب كذلك التفكير في الموارد التي تكفل لجميع الأهالي مستوى مريحاً من المعيشة بقدر ما تبيحهُ الوسائل الأقتصادية والصحية مع مراعاة ان يكون العدد كافياً للدفاع عن كيان الوطن في كل وقت وبحسب الظروف الدولية

(٣) زاد سكان مصر حوالي ٦٠٪ عما كانوا عليه منذ اربعين عاماً (١٨٩٧—١٩٣٧) فاذا راعينا هذه النسبة فسيكون عدد سكان القطر المصري حوالي ٢٥ مليون نسمة حوالي سنة ١٩٨٠ اذا فرضنا ان الأحوال الصحية لم تتحسن وهذا غير ما ننتظره ونتوقعهُ . فالمفروض ان تتحسن تلك الأحوال وترتقي كثيراً عما هي عليه الآن . فضلاً عن نموّ الموارد الصناعية

ولكن مع هذا النمو الكبير في السكان يلاحظ ان الارض الزراعية قد زادت في المتوسط

نحو ٧ ٪ فقط وجميعنا يعلم ان الفلاح المصري حالتهُ لا تزال سيئة جداً

(٤) ان البلاد تستطيع في المستقبل ان تتسع لزيادات اخرى في السكان خصوصاً عند ما يتم اصلاح الاراضي الزراعية في شمال الدلتا مثلاً البور منها والتي سيحوَّل ريها الى ري دائم فتدخل مساحات كبيرة في نطاق الارض الزراعية ودخولها الآن متوقف على اتمام مشروعات تانا والبرت . واصلاح منطقة السدود . . . الخ مع ما ينتج من تعلية خزان اسوان وخزان جبل الاولياء مما يضمن ٨ مليارات في الامتار المكعبة من المياه وبذلك تعد للزراعة مئات الآلاف من الأفدنة في الشمال في جهات نائية تقل فيها الأيدي العاملة

(٥) لاحظ الأستاذ كليلاند ان ثلثي سكان القطر المصري اي ٦٥ ٪ منهم يقل عمرهم عن الثلاثين بينما نجد هذه النسبة في انكلترا وفرنسا ٥٠ ٪ في عام ١٩٣٠ او ٥٣ ٪ في عام ١٩٣١

(٦) نجد أنفسنا امام حقيقة مؤلمة فان ٩٠ ٪ من أهل القطر المصري في حاجة الى العلاج الطبي . وقد بلغ سوء الحالة الصحية ان المتقدمين للقرعة العسكرية لا يصلح منهم للخدمة دون علاج سوى ٤ ٪ و١٦ ٪ منهم يصلح للخدمة بعد معالجته بينما ٨٠ ٪ لا يصلح قط ونجد ان هذه النسبة في بريطانيا العظمى هي ٣٦ ٪ صالح للخدمة و٢٢ ٪ في حاجة الى العلاج و ٤١ر٥ ٪ غير صالح للخدمة العسكرية . ففي مصر ١٢٠ر٠٠٠ أعمى و١٤ر٥٠٠ر٠٠٠ مصاب بالتراخوما و ١٠ ملايين مصاب بالبلهارسيا والانكلستوما هذا فضلاً عن الامراض الأخرى الشائعة ومن الحظ الحسن ان مصر بلد زراعي ولذلك فأثر ضعف الصحة العامة فيها غير محسوس كما لو كانت بلداً صناعيـًّا . ومع ذلك فان العامل الزراعي المصري في حالة صحية غير مرضية

﴿ السكان والثروة الأهلية ﴾ مصدر الثروة في مصر الزراعة . فنهر النيل المبارك يمنح مصر كل عام ما يزيد عن ٩٠ مليوناً من الأمتار المكعبة من الماء تروي مساحة تبلغ ١٢ر٥٠٠ ميل مربع ويبلغ ما يستعمل من هذه المساحة للزراعة ٦٤ ٪ او ما يقرب من ٥ر٥٠٠ر٠٠٠ فدان وفي الوسع زيادتها الى ٧ر١٠٠ر٠٠٠ اذا تمكنا من تنفيذ بعض مشروعات الري . فتنتج الارض محصولاً ونصف محصول لكل فدان مما يجعل قيمة الاراضي الزراعيـة تعادل ٨ر٥٠٠ر٥٠٠ فدان من ذات المحصول الواحد . وقد يمكن رفع ذلك الى ما يعـادل محصول ١١ر٤٣٠ر٠٠٠

واذا بحثنا الايراد الأهلي وتوزيعهُ على السكان وجدناها في عام ١٩٣٥ قدرت بمبلغ ١٨٥ مليون جنيه اي بمعدل ١٢ جنيهاً لكل مصري ولا شك ان هذا المبلغ ضئيل جداً اذا قابلناهُ بمثله في الممالك الأخرى ففي بلاد السويد يبلغ معدل إيراد الفرد نحو ٦٠ جنيهاً (١٩٣٥)

في عام ١٩٣٥ استولى ٥ر١ ٪ من مجموع السكان على نصف الايراد الأهلي المذكور اي

ان ٢٣٢٫٠٠٠ رجل نال كل منهم ٤٢٠ جنيهاً بينما لم ينل كل رجل من باقي السكان سوى ستة جنيهات و٤٠٠ مليم . فاذا قسمنا ٣١ ٪ من مجموع الأفدنة (نسبة الذين يملكون اقل من خمس افدنة نحو ٩٣ ٪ من مجموع الملاك وبلغت نسبة ما يملكون ٣١ ٪ من مجموع الاراضي) على سواد الشعب وهو ٩٣ ٪ من السكان ، فان نصيب الفرد لا يتعدى مبلغ اربعة جنيهات في العام ومعنى ذلك ان الأسرة المصرية العادية التي قوامها خمسة أشخاص تتفاوت ميزانيتها السنوية بين ٢٠ و ٣٢ جنيهاً

هذه الارقام تبين بجلاء ان القطر المصري لم يكشف بعد الموارد اللازمة لاعالة عدد من السكان أكبر من العدد الحالي . بل في الواقع ان هذه الموارد لا تكفي السكان كما هم الآن . فما بالك اذا تضاعف عددهم حوالي عام ١٩٩٠ وبقيت الحالة الصحية على ما هي عليه الآن؟

﴿ الحل ﴾ إن عدد سكاننا في الحال وفي المستقبل يكفل لنا جيشاً كبيراً فيجب وضع برنامج لهذا المستقبل والعمل عملاً جدياً لترقية مستوى المعيشة قبل تنفيذ أي مشروع وطني فنرفع الايراد الاهلي غير ناسين عدد السكان . وليس هنا مجال البحث في ابتكار الوسائل التي تكفل رفع الثروة الاهلية وانشاء منافذ للعدد الزائد من السكان عن طريق الهجرة أو إسكانهم في الاراضي التي تعمر ولكن في ميدان التجربة مجال كبير للنجاح

٥ — موارد الرفاع

مصر بلاد غنية بطبيعتها ولكن شعبها فقير لأن أكثر من ٩٠ ٪ منهم مسخرون بأزهد الأجور لخدمة اصحاب الأراضي ورخص اليد العاملة الى أدنى حد جعل البون شاسعاً بين الفقر والثروة

يرى البعض ان أكبر عناصر قضية الدفاع الوطني هو المال . ومع ان المال عنصر جوهري ولا بد من انفاق مال طائل في اعداد معدات الدفاع وشراء ما يلزم من سلاح وذخيرة ومعدات قتال ، والانفاق على الضباط والجنود وبناء الثكنات ومدّ الطرق العسكرية وسواها ، فهناك عناصر اخرى لا تقل منزلةً وشأناً عن المال

في مقدمة هذه العناصر تنبيه الرأي العام الى ضرورة الانتقال من الحالة التي نحن فيها الى الحالة التي يتعين علينا فيها انشاء جيش قوي يؤدي واجب الجيوش الحديثة في هذا العصر

﴿ الثروة الزراعية ﴾ يمكن تقسيمها بوجه عام الى نوعين :—

خامات زراعية . لا نتردد في تأكيد اعتقادنا بوفرتها مع الثروة الحيوانية وفي الكشف الآتي نبين اهم المزروعات الزراعية

أهم محصولات مصر الزراعية عام ١٩٣٩

الغلة	المساحة المنزرعة	المحصول	متوسط محصول الفدان بالأردب
القمح	١٫٤٤٦٫٣٥٥	٨٫٨١٢٫٢٦٧	٦٫١٥ (١)
الأذرة الشامي	١٫٥٤٧٫٥٤٩	١٠٫٨٨١٫٠٠٠	٧٫٠٣ (٢)
الأذرة الرفيعة	٤١٢٫٢٤٥	٣٫٨١٨٫٠٠٠	٩٫٢٦
الشعير	٢٦٢٫٩٤٦	١٫٩٨٤٫٧٠٤	٧٫٥٥ (٣)
الأرز	٥٤٦٫٨٧٠	٩٥٠٫٠٠٠ (ضريبة)	١٫٧٣٧ (٤)
الفول	٣٨٤٫٥٨١	١٫٩٧٤٫٠٣٩	٥٫١٣ (٥)
الحلبة	٨٣٫٢١٠	٣١٩٫٩١٠	٣٫٨٤
البصل	٣٥٫٠٧١	١٫٩٩٧٫٣٨١	٧٫٥٠
العدس	٨٠٫٩٥٩	٣٩١٫٩١٥	٤٫٨٤
الفول السوداني	٢٣٫٧٥٦	٢٢١٫٠٠٠	٩٫٣٢
قصب السكر (٩٣٨)	٦٨٫٢١٦	١٤٦٫٢٢٠٫٥١ قنطار	٧٥١

﴿ الثروة المعدنية ﴾ أهمها الحديد الذي يعتبر أساساً لأغلب الصناعات الكبرى . وهو —او بالحري أكاسيد الحديد— موجودة بكثرة في الصحاري المصرية وأهم بقاعه شبه جزيرة سيناء وفي وادي الدب وابو مروة في الجزء الشمالي من الصحراء الشرقية وفي وادي ابو جريدة على مسافة من الطريق القديم بين قنا والقصير وفي الجزء الجنوبي الشرقي من الصحراء الشرقية على مقربة من شاطىء البحر شمال رأس بناس وفي الواحات البحرية والخارجة . وفي منطقة اسوان . ومن الابحاث المتتالية التي قامت بها مصلحة المناجم والمساحة وبعض الأفراد يستنتج ان مصر لا يعوزها معدن الحديد، وان مقادير كبيرة من ركازه توجد في بعض الجهات وبها نسبة جيدة من الحديد ولكن عقبة المواصلات يجب تذليلها . لأن هذا الحديد يحتاج الى فحم ونفقات نقل الفحم من بلاده الينا ليست أمراً سهلاً ولو أتيح لصناعة الحديد ان تقوم في هذه البلاد لكان في الوسع انشاء صناعة أنواع مختلفة من الفولاذ بفضل ما يوجد من الخامات المعدنية الأخرى كالمنجنيز والكروميوم . . . الخ وحاجة الصناعة الحربية اليه لا تنكر

كذلك مقادير الرصاص والزنك لا بأس بها والنحاس والفوسفات والنيكل

ولكي تنمي موارد ثروتنا ونخلق جيلاً صناعيًّا وننشىء صناعات حربية لا يستهان بها يجب

(١) الاردب = ١٥٠ كيلو (٢) الاردب = ١٤٠ كيلو (٣) الاردب = ١٢٠ كيلو
(٤) الضريبة = ٩٣٤٫٥ كيلو (٥) الاردب = ١٥٥ كيلو

ان لا نضيع الفائدة من وجود المعادن في بلادنا فهي جزء عظيم الشأن من ثروتنا وعلينا ان لا نعتمد في حياتنا على الزراعة فحسب . بل نحن لا نكاد نعتمد الاّ على صنف واحد منها . لذلك وجب علينا ان نعمد جادين لوضع وتنفيذ برنامج معدني صناعي لعشر سنوات[(١)]

﴿ الصناعات الكبرى ﴾ ان الحالة الجديدة التي تواجهها مصر — وقد أصبحت مسؤولة عن اعداد قوات كبيرة للدفاع تحملنا على مضاعفة جهدنا لتحقيق تحويل مصر الى بلد صناعي فان مطالب الدفاع الحربية سواء في البر او في البحر او الجو توجب قيام الصناعات المختلفة . ولا سيما المتصلة منها بالضروريات الحربية . وقيام الصناعات الكبرى في بلد ما يقتضي ان تتوافر له عوامل من حيث رؤوس الأموال والأيدي العاملة وطرق المواصلات وما الى ذلك من الظروف التي يجب ان تلائم كل صناعة على حدتها . على ان حاجتها الرئيسية هي :—

أولاً : الى القوة المحركة — الوقود

ثانياً : الى المواد الخام الاولية

لا غنى في جميع الصناعات الكبرى عن قوى ميكانيكية محركة ، وهذه في حاجة الى احد الأشياء الآتية : —

١ — الفحم ٢ — البترول ومشتقاته ٣ — مساقط المياه

١ — ففيما يتعلق بالفحم الحجري فقد أثبتت البحوث في المائة السنة الأخيرة عدم التعويل على وجوده في مصر وعلى ذلك نغفلهُ من حسابنا عند تقدير ما في البلاد من وقود

٢ — النفط او البترول (هو عصب الحرب) ، هذا السائل بفضل ما يستخرج منهُ من مواد كالبنزين والكيروسين وزيوت الديزل والمازوت هو من أهم أنواع الوقود وتستعمل منتجاته المختلفة في ادارة شتى الآلات . وحظ مصر من هذه المواد أحسن من حظها في الفحم الحجري وان كانت المقادير التي تنتجها الحقول المصرية لا تزال أقل من حاجة القطر الآن وأقل كثيراً مما يحتاج اليه لو انتشرت الصناعات

وقد انتجت حقول النفط في مصر عام ١٩٣٥ حوالي ٢٣٠ الف طن متري . واذا أضيف الى هذه ما يرد الينا من الخارج فاضت مقادير كبيرة تتمون بها البواخر المارة بقناة السويس كما تصدر منهُ مقادير الى الخارج . ويتضح من هذا ان ما تنتجهُ المعامل المحلية من البنزين يكفي حاجة القطر وان كان لظروف خاصة يستورد مقادير خاصة للاستهلاك المحلي وبصدر مقادير من اصناف أخرى من الانتاج المحلي . أما الكيروسين فنحن في حاجة الى استيراد مقادير كبيرة الاّ اذا أتيح استكشاف موارد مصرية جديدة

(١) براجع بحث لصاحب الدولة اسماعيل صدقي باشا — المقتطف يوليو ١٩٢٢

كذلك الحال في شأن زيت الديزل المستعمل في الآلات التي شاع استخدامها في اغلب المنشآت الصناعية الحديثة فان الناتج منهُ محليًّا أقل من استهلاك القطر ولذلك تستورد منهُ مقادير كبيرة

أما فيما يختص بالسولار والمازوت فان الناتج منهُ محليًّا يزيد عن حاجة البلاد فاذا استوردت منهُ مقادير كبيرة من الخارج كان ذلك لتموين البواخر التي تمر بالموانىء المصرية

والاسفلت يزيد الناتج منهُ عن حاجة البلاد

ومع ان هذه الارقام تبعث على الاطمئنان من حيث تموين البلاد بما تحتاج اليه من منتجات البترول فان الامر يدعو الى وضع سياسة بترولية تراعى فيها الاحوال المقبلة ويراعى معها العمل على توفير المخزون منها بالبلاد تفادياً مما عساهُ ان يحدث في حالة الحرب او الاضطراب الذي يؤدي الى انقطاع الوارد من الخارج ولو بصفة مؤقتة (١)

٣ — مساقط المياه وتوليد الكهرباء — تصلح بعض الخزانات والقناطر المقامة على مجرى النيل لتوليد الكهرباء . ويجري البحث منذ سنوات في دراسة مشروع خزان اسوان ومساقط بعض القناطر الاخرى وهذا المشروع لا يكون اقتصاديًّا الاَّ اذا سار مع مشروع صنع السماد من الخزان جنباً لجنب بحيث يستهلك هذا المصنع الجزء الاكبر من القوة المتولدة

واذا كان مشروع توليد الكهرباء في منخفض القطارة قد يبدو للبعض خياليًّا في الوقت الحالي فقد لا يطول الزمن الذي يصبح فيه مشروعاً قابلاً للتنفيذ (٢)

﴿ الميزانية ﴾ نصف ايرادات الميزانية تأتي من الضرائب الجمركية التي قدر لها في الميزانية لعام ١٩٤٠ مبلغ ١٨٫٥٣٥٫١٠٠ جنيه بينما كل ما يأتي من الاموال المقررة هو ٦٫١٦٤٫٣٠٠ جنيه ولهذه المقارنة مغزى كبير فان الضرائب الجمركية على خلاف الضرائب العقارية الثابتة هي رسوم غير مباشرة من النوع المتقلب (Fluctuating) الذي يتغير بتغير الأحوال الاقتصادية فهي كما قد تعلو تهبط هبوطاً كبيراً فنصبح ونمسي واذ بثروتنا الجمركية قد نقصت الى حدٍّ يتعذر معهُ التوفيق بين الدخل والخرج (٣) . فكيف لنا الانفاق على الجيش ؟ اذن لا يصح ان نستند الى الضرائب الجمركية لموازنة الميزانية المصرية ولا علاج لذلك الاَّ ان يكون لنا ضرائب ثابتة مباشرة غير الضرائب العقارية والرسوم القضائية والسكك الحديدية والتليفونات والبريد ... الخ لتكون هذه الضرائب الثابتة هي الدعامة الحقيقية لميزانية الدولة وأهمها ضريبة الدخل وضريبة التركات وغيرها وتنمية موارد الثروة الأهلية

---

(١) من بحث للدكتور حسن باشا صادق وزير الدفاع الوطني في محاضرة بالمجمع المصري للثقافة العلمية

(٢) دولة حسين سري باشا — راجع محاضرة عن هذا المشروع في مجموعة محاضرات المجمع المصري للثقافة العلمية عام ١٩٣٥ (٣) محمود المنجوري — كتاب اتجاهات الاقتصاد الجديد في مصر ص ٩٨

مصروفات ادارية

هل نستطيع أن نوفر شيئاً من مرتبات الموظفين ؟ لقد خبر بعض الفنيين من رجال وزارة المالية هذه المسألة فرأوا ان توفير الحكومة مبلغ ٣٤٨٥٠٠٠ من اعتمادات مرتبات الموظفين البالغة ١٤٠ ر ٣٦٧ ر ١٣ في ميزانية ١٩٣٩ — ١٩٤٠ يقتضي منها أن تلجأ الى الحل الآتي : —

أولاً — الغاء طائفة من الوظائف الكبيرة التي تكاد تكون وظائف شرف لا أكثر وبذلك يتوفر لدى الخزانة ما لا يقل عن ١٠٠٠٠٠ جنيه سنويًّا . ثانياً — تخفيض ٢٠ ٪ من مرتبات موظفي الدرجات الأولى والثانية والثالثة والرابعة وبذلك يتوفر للخزانة ما لا يقل عن ٣٠٠٠٠٠ جنيه سنويًّا . ثالثاً — خفض عدد وظائف الدرجات الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة بنسبة ٢٠ ٪ ثم خفض مرتبات الموظفين الباقين في هذه الدرجات بنسبة ١٥ ٪ وبذلك يتوفر للخزانة ٠٠٠ ر ٦٢٣ ر ٢ جنيه. رابعاً — خفض عدد وظائف المستخدمين الخارجين عن هيئة العمال بنسبة ٢٠ ٪ دون خفض المرتبات فيتوفر للخزانة نحو ٥٠٠٠٠٠ جنيه خامساً — خفض مرتب الوزراء بنسبة ٣٠ ٪ فيتوفر للخزانة بذلك نحو ١٢٠٠٠ جنيه فلو تم تخفيض مرتبات الموظفين على هذا الأساس لبلغ مجموع ما يمكن توفيره ٣٤٨٥٠٠٠ جنيه في العام دون أن يختل نظام العمل (١)

هذا فيما يتعلق بالاقتصاد من مرتبات الموظفين عموماً وفي الوسع الغاء بعض الوظائف الكبيرة الزائدة عن الحاجة والاستغناء عن بعض الوزارات واعادة تنظيمها مصالح أو ادارات والغاء معظم مصروفات التمثيل السياسي التي تكلفنا كل عام مبالغ كبيرة دون أن نجني من ورائها مغنماً فضلاً عن القضاء على مظاهر الترف والاسراف التي أصبحت معروفة ثم تحريم المشتريات الكمالية

﴿ النتيجة ﴾ يبدو مما أوردناه تضخم المصروفات العامة واضحاً في مصر ولا سيما في العشرين السنة الاخيرة وهذا الازدياد هو مظهر للتطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ولا بد منه

ان ميزانيتنا في وضعها الحالي لا تستطيع مواجهة الالتزامات الخاصة بتسلح القرن العشرين ومن الضروري تعديلها تعديلاً جوهريًّا لكي نستطيع الانفاق على قوات الدفاع الوطني

٦ — الامة قبل الجيش

في وسعنا أن نقول أن الجيش المصري يستطيع ان يضطلع وحده بمهمة الدفاع عن الدولة المصرية بعد ١٦ عاماً تقريباً على ان تظل المحالفة البريطانية المصرية قائمة لأن الدول الصغيرة

(١) من مقال نشر في مجلة المصور عام ١٩٣٩

مهما تكن قوية لا تستطيع ان تقف وحدها حيال الامم القوية اذا ما اعتمدت عليها ولا بد للنجاح في انشاء قوات مصرية للدفاع من ان تكون لنا غاية مرسومة يجمع عليها الرأي العسكري والسياسي والاقتصادي تسعى الحكومة الى تحقيقها مهما يختلف لون الحكومة القائمة بالأمر. وان تكون السبل التي تسلكها مرنة قابلة للتوسع والتعديل

﴿ اعداد الأمة ﴾ أصبح النهوض بشئون الجيش وحده لا يحقق مقتضيات الدفاع الوطني فلا بد من ان تسير جميع مسائل الاصلاح جنباً الى جنب

ففي الوقت الذي نفكر فيه في توسيع جيشنا واعداده اعداداً فنياً صحيحاً يجب اعداد العدة لزيادة الانتاج الأهلي والثروة العامة ، ورفع مستوى صحة الشعب وتعديل برامج التربية في مدارسنا لكي نخرج جيلاً مشبعاً بمبادىء الوطنية السامية

١ — ﴿ تربية الروح ﴾ اشترط حلفاؤنا ان نقوي جيشنا قبل ان تجلو جيوشهم عن وادي النيل وحبذا لو اشترطوا علينا اصلاح تربيتنا

كل واجب يدعو اليه الوطن انما هو واجب مكلفة بأدائه المرأة قبل سواها . فالأم هي الداعية الأولى لتوطيد النظام العسكري لانهُ الوسيلة الوحيدة لحماية الاستقلال

فمن اذن يحمي بلادنا غوائل الاطماع غير جيل ناشىء مقبل تهيئهُ المرأة الآن بتربيتها

اذن اعداد الشعب للنظام الجديد يجب ان يتقدم كل عمل آخر

فاذا اريد الاقتصار على تكبير الجيش وتعزيز سلاح الجو وشراء اسطول صغير بالقدر الذي تسمح بهِ البلاد ، فهذا لا يفي بحاجة الدفاع الوطني على اساس ثابت

الاعداد الروحي يجب ان يشمل في الحال جميع طبقات المصريين وعلى الأخص الجيل الجديد الذي يجب ان يعلم ان عليه مهمة عظيمة . هي مهمة الدفاع عن مصر

﴿ الجسم ﴾ ويلي الاعداد الروحي اعداد جيل قوي سليم من الامراض والاوبئة يستطيع ان يضطلع باعباء الدفاع ويكون له من قوة افراده وما يتمتعون بهِ من حقوق وامتيازات ما يبعثهم على بذل الارواح في هذا السبيل

اي ان انشاء جيش منفصل عن سائر الامة كما كان الامر لا يكفل بلوغ الغاية فلا بد من اعداد أساس متين

فاذا اريد ان تكون مصر من القوة بحيث تستطيع الدفاع عن سلامتها وجب ان لا يقتصر السعي على الجنديين والضباط وما يتصل بهم من مدارس وثكنات وسيارات وتعيينات بل يجب ان تشمل آلة الدفاع الوطني الشعب كله حتى تصبح مصر قوية وحتى يكون وراء الجيش شعب يشد ازره و يعززه بالقوة المعنوية والمادية لأن الجيش السليم في الأمة السليمة A Sound Army is in a Sound Nation

والدفاع لا يشتمل على ناحية الجيش فقط الا لهذا نظرنا الى الجيش كأنه اداة الدفاع عن البلاد بدون اشراك الدعائم الأخرى وهو نظر خاطئ . فالدفاع الوطني يحتاج الى اجسام سليمة كما يحتاج الى سيارات ودبابات ومدافع . بل ان حاجته الى الرجال ذوي الأجسام الصحيحة ليس دون حاجته الى السيارات والمدافع والدبابات

فالدعامة الأولى ترتكز على الرجال . جنوداً وضباطاً اقوياء جسماً وعقلاً وروحاً وبتفاعل الجسم والعقل والروح واتحادها نفوز بشبان يصلحون للجندية . فالخلق ينشأ بالتربية وتقوية الأجساد تكون بكفالة المسكن الصحي والطعام الجيد وتقريب وسائل العلاج في متناول جميع الطبقات . والعقول السليمة نتيجة التعليم القويم

والتربية تقوم عليها وزارة المعارف بعد الأم وتوفير وسائل الطب والعلاج من اخص شؤون وزارة الصحة . والتعليم العسكري تتولاه وزارة الدفاع

ولا يستطيع ان ينكر هذه الحقائق اشد المتحمسين للدفاع الوطني . الا اذا اريد القول ان الجيش يستطيع ان يحقق مهمته بدون ان يتصف رجاله بالفضائل الوطنية . وباهمال جميع موارد الثروة المحلية وتجنيد الأصحاء للجيش والمرضى للقوات الاحتياطية . ان قصر الجهد كله أو اكثره على الشؤون الحربية المحض، ينطوي على نقص في برنامج الدفاع الوطني لأنه لا يؤدي بنا الى الغاية المرجوة . فهو يقدم لنا جيشاً قد يكون مخصصاً له خمسة ملايين من الجنيهات المصرية في ميزانية الدولة . ولكنه يكون فقيراً في روحه المعنوية فقيراً في صحته ورجاله وربما ضعيفاً ايضاً في تسلحه المادي وننتهي الى النتائج التالية .

اولاً — تحقيق الدفاع القومي على وجهه الصحيح يكون باعداد الرجال القادرين الأقوياء كما يكون باعداد السلاح والذخيرة . ثانياً — جعل التربية والتعليم على اسس وطنية . ثالثاً — لاعداد هؤلاء يجب بذل العناية الفائقة بشؤون الصحة العامة ورفع مستوى المعيشة . رابعاً — العمل على زيادة الانتاج الأهلي والبحث عن موارد جديدة للثروة

هل الجيش ضروري

ليس هنا مجال التعرض للجدل الذي اثير في السنوات الأخيرة حول لزوم الجيوش للامم . ولسنا نستطيع ايضاً ان نبحث موقف بعض الدول (الدنمارك) مثلاً التي خفضت قواتها الدفاعية الى العدد الذي يكاد يكفي للمساهمة في اقامة الأمن وحراسة المرافق العامة . فاننا مؤمنون بأن الجيش لازم للبلد لزوم المدارس . وهو في مصر ألزم منه في أي مكان آخر . وحسبك ان تقارن المواطن المصري عند دخوله « لواء الأساس » به عند انتهاء خدمته العسكرية لترى ان

الجيش مدرسة تسدي إلى الامة أجل الخدمات ليس من الناحية الحربية فحسب ، بل من ناحية التربية العسكرية والبدنية والعقلية والنفسية كذلك

ان الجيش أفضل مدرسة لتربية الأخلاق ولذلك أمني نفسي بأن يمر بهذه المدرسة كل مصري قادر على الخدمة . ان الضابط يستطيع بل يجب ان يصبح المربي والمقوّم الحقيقي لنشئنا التي غدت اليوم مجبرة على المرور من باب الثكنة العسكرية

﴿ الظروف المحيطة بالدفاع الوطني ﴾ إن سياسة الدفاع المصرية مبنية على التزامات المعاهدة البريطانية المصرية الى ان تنتهي مدتها و نستنتج من هذا الوضع نتيجتين :—

النتيجة الأولى : ان مصر أصبحت حرة في أمورها وأمور جيوشها وتسلحها

النتيجة الثانية : ان اعباء الدفاع عن سلامة مصر أصبحت ملقاة على عاتق مصر بصفة أصلية وعلى بريطانيا باعتبارها معاونة فقط

وما دامت مهمة بريطانيا فيما يتصل بالدفاع عن مصر — كما حددتها معاهدة تحالفنا معها — مهمة معاونة فقط ، فالواجب ان نتدرج في العمل لتقوية الجيش تدرجاً سريعاً ليصل كل منا — انكلترا ومصر — الى النصاب المخصص له في مضمار الدفاع بعد ١٥ عاماً . فيؤدي جيشنا وحده مهمة الدفاع ، لا استناداً الى جيش دولة أجنبية . وعلى الرغم من خطورة الظروف المحيطة ببلادنا والأحوال الدولية لا تزال خطواتنا بطيئة في التسلح وفي اعداد احتياطي الجيش والطيران معاً ، ولا نرى من ناحية المال عقبة في سبيل ما أعددناه (١) . وقد رأينا ان نقيس حالتنا بحالة أقطار أخرى قريبة الشبه بنا من حيث ميزانيتها ومواردها وعدد سكانها . ففي تركيا — ١٧٥٫٠٠٠ جندي و٢٠ الف ضابط وما يقرب من ٥٠٠ طائرة وفيها — ١٠٫٠٠٠ ضابط وميكانيكي . ونحن نعلم ان ميزانية الدولة التركية تعادل ٤٣ مليون جنيه (١٩٣٩ — ١٩٤٠)

وفي إيران ٣١٫٥٠٠ جندي و١٦٢٢ ضابطاً و٢٠٠ طائرة و٩٠٠ ضابط وميكانيكي لقوة الطيران وميزانيتها العامة لا تتجاوز ١٤ مليون جنيه مصري

تلك هي حال الأقطار التي رأينا الاستشهاد بها للشبه بينها وبين بلادنا وميزانية بلادنا في عام (١٩٤٠ — ١٩٤١) بلغت ٤٧ مليون جنيه

(١) لما كنا نقارن بعض المسائل المصرية بشبيهتها في تركيا ، نورد هنا ان مساحة تركيا هي ٢٩٤٠٠٠ ميل مربع منها ٢٩١٠٠٠ ميل اراضي زراعية منها ٤٨٣٠ ميلا مربعاً مزروعة اشجاراً وشجيرات و٣٤١٠٠ ميل مربع غابات والباقي اراضي غير مزروعة ويبلغ عدد سكان تركيا طبقاً لتعداد سنة ١٩٣٥ — ١٦٫١٥٨٫٠٠٠ نفس اغلبيتهم العظمى (نحو ٨٥٫٠ ٪) يشتغلون بالزراعة . وهكذا نرى دولا ليست في غنى مصر ولا اكثرمنها نفوسا ومع ذلك استطاعت ان تنشىء جيشا كافيا للدفاع عن سلامتها ولم تكن مقدرة مصر المالية في عهد محمد علي الكبير او عدد سكانها اعظم مما هي الآن . ومع ذلك كان لمصر جيش قوي منظم استطاع ان يصون البلاد من الاعتداء وان يعين الدولة العلية في حرب المورة وكريت وحروبها ضد روسيا وان يعيد اليها الحجاز وان يهاجم تركيا ويغلبها وذلك بغير ان يعقد قرضاً دولياً ما

ان دفاع انكلترا عن مصر او النهوض بأكبر قسط منه غير مأمون العواقب . فقد تضطر الى ان تسترد جنودها من مصر لسببٍ استراتيجي هام . فتصبح مصر مجردة من معظم اسباب الدفاع وهذا الاحتمال لا بدَّ من ان يحسب حسابه مهما يقل من شأن مصر كطريق يصل بين أجزاء الامبراطورية . ومن المسلم به ان تهيؤ مصر لاستيفاء أسباب الدفاع العسكري في الوقت العصيب الذي نعيش فيه يجب ان ننتهز فرصة للعمل بنشاط وهذه الفرصة لن تعود

فما هو مجال النشاط وعلى أية قاعدة نؤسسه ؟

يؤسس مجال نشاطنا على قواعد وطنية متينة قوامها القواعد التي مرَّ ذكرها في صفحة ١٤ من هذا البحث وشعارها الجيش السليم في الأمة السليمة

٧ — القواعد التي تؤسس عليها الجيش

انتهينا من شرح المسائل المتعلقة بمساحة مصر وموقعها وعدد سكانها ومواردها الزراعية والمعدنية والثروة الأهلية وميزانية الدولة ثم عرجنا على اعداد الأمة للحرب . والآن ننتقل الى بحث أهم القواعد التي ينهض عليها تنظيم قوات الدفاع البرية والجوية

﴿ ١ — الخدمة العسكرية ﴾ اشتراك جميع طبقات الأمة في تأدية الخدمة العسكرية وتدريب الشبيبة على الاعمال الشبيهة بالعسكرية من طلبة وموظفين وعمال وزراع .. الخ وذلك يتطلب قلب نظم التجنيد الحالية وهي عتيقة لا تتفق مع روح العصر

نرى ان يمحى الاعفاء ويلغى البدل العسكري معاً . وان يطلق عنان الجندية في الأمة فيجند كل مكلف من كل بيئة فيها وكل محيط . فتنتشر الروح العسكرية المنظمة في البلاد ، ويؤدي ذلك الى ازالة الاستثناء والتمييز بين الطبقات ، فيمكن الاستفادة من الشبان المتعلمين المجندين فترات قصيرة في تعليم الأمة تعليماً الزامياً كما فعلت تركيا

ونرى مؤقتاً عدم الغاء البدل النقدي دفعة واحدة بل نرفع قيمته الى خمسين جنيهاً ثم الى أكثر من ذلك قبل الغائه نهائياً . وبذلك نضمن ضم عدد اكبر من المتنورين الى صفوف الجيش

ونرى خفض مدة الخدمة العسكرية من خمس سنوات الى ثلاث فقط

ولتشجيع الخدمة العسكرية يجب ان لا يسمح لأي مصري بالالتحاق بخدمة الحكومة او الشركات او مزاولة حقوقه المدنية الا اذا أثبت انهُ أدى الخدمة العسكرية او مدة التدريب العسكري في المعاهد العالية

ولا يعفى طلبة الجامعة او المعاهد او غيرهم من رجال الاعمال من الخدمة العسكرية لكن تجزأ مدتها لهم بما لا يتعارض دراستهم

﴿ ٢ — الطيران ﴾ مصر مع ما خطته في سبيل ترقية سلاحها الجوي ما زالت أقل دول البحر المتوسط قوة جوية وبلادنا هدف جيد للطائرات وعلى مسافات قصيرة من القواعد الجوية الأجنبية فبورسعيد تبعد عن رودس ٤٢٥ ميلاً تقطع في ساعة وأربعين دقيقة وتبعد عن طبرق ٣٦٠ تقطع في ساعة و٢٧ دقيقة تقريباً ومن السويس الى اقرب نقطة على ساحل اريتريا ٨٠٠ ميل تقطع في ٣ ساعات و١٢ دقيقة وبين الخرطوم واديس ابابا ٦٠٠ ميل تقطع في ساعتين و٢٤ دقيقة على أساس اقصى السرعة الجوّية المعروفة الآن

تستطيع مصر تدريجيًّا ان تصل بقواتها الجوية بعد ١٦ سنة الى امتلاك ٥٠٠ طائرة برية وبحرية متنوعة الاطرزة للقتال وقاذفات القنابل والاستكشاف وحاملات الجنود . . . الخ من طائرات للتعليم . على ان تصل كفاءة رجالها من ملاحين ومدفعيين وميكانيكيين وهابطي المظلات الى درجة فائقة من التدريب لا تقل عن زملائهم الأوربيين على ان يصبح الدفاع الجوي كاملاً عن المدن والمرافق الحيوية

وتتحكم العوامل الآتية في انشاء القوات الجوية وصيانتها : —

١ — وفرة المال وكثرة المواد الأولية وكثرة المصانع والآلات والأدوات اللازمة لها وكثرة الحظائر والمطارات المشيدة تحت الارض وكذلك مخازن البترول

٢ — عدد عظيم من الطيارين واحتياطي لهم وكثرة المدربين والمعلمين والصناع والميكانيكيين والمهندسين . وهذا ما ينقصنا مع تشجيع فكرة الطيران في الأندية الرياضية والمعاهد ونشر الدعاية الجوية وتشجيع صنع نماذج الطائرات بانشاء مسابقات وجوائز

﴿ ٣ — الجيش ﴾ نضع برنامج التوسع العسكري على اساس النواة الحالية للجيش على ان تتوفر فيها قوة التسلح والروح المعنوية وسرعة الحركة . وبعد الاطمئنان على كفاءة هذه القوة ومتانتها الفنية في جميع الاسلحة نعمل على زيادتها سلاحاً ورجالاً بمعنى ان لا ننشيء وحدة ما قبل الأسلحة التي ستدرب عليها فنصل في عام ١٩٥٥ الى جيش تعداده مائة الف

ولكي نعطي فكرة عن قوة تسلح الفرقة في العتاد الحربي (War-Materials) نضرب مثلاً بالقوات الفرنسية التي دخلت الحرب عام ١٩١٤ ولم تنل النصر وما آلت اليه (من ناحية التسلح) في عام ١٩١٨ لما نالت النصر الحاسم (نقلاً عن مجلة اسلحة الجيش البريطاني عدد مايو ١٩٢٧) ونحن لا نرى ما يدعونا الى مقارنته بتسلحنا الحالي فهو مدون في البيانات المصرية

ومن هذه المقابلة سنرى ان العتاد الحربي والتسلح هو الفوز او الفشل كما ان كفاءة الجيش تقاس بقوة النار وكميتها الجهنمية (وفرة الذخيرة وجودتها) لا بعدد الجند والضباط

عند نشوب الحرب في سنة ١٩١٤

القوات الفرنسية	مدافع آلية خفيفة	مدافع رشاشة	دبابات	٧٥ ملليمتر	مدافع ثقيلة	طائرات
٢٥٠٠٠٠٠	—	٢٠٠	—	٣٩٠٠	٣٠٠	٢٠٠

وفي أوائل عام ١٩١٨ صار التسلح كالآتي

٢٨٠٠٠٠٠	٤٧٠٠٠	١٨٠٠٠	٢٥٠٠	٥٦٠٠	٥٢٠٠	٣٢٠٠

من هذا البيان نرى أن الزيادة اشتملت على التسليح الثقيل والمتوسط والأسلحة الصغيرة كما أضيفت الدبابات الى وسائل الهجوم. هذا فضلاً عن تكدس الذخيرة والمعدات الحربية في المخازن

والجيش المستعد تمام الاستعداد يجب أن يطمئن الى ما يشمله

أولاً — من عقول ذكية تدير آلة الحرب وتتركز في قيادة هيئة أركان الحرب. ثانياً — معاهد للدراسات والابحاث المتصلة بالعتاد الحربي والعمل على تقدمها علميًّا وصناعيًّا . ثالثاً — مصانع وافية لصناعات الحرب المتنوعة. رابعاً — تدريب الوحدات على استخدام أنواع العتاد الحربي بتفوق في جميع أحوال القتال وكذلك تمرين الاحتياطي على استعمال جميع انواع الأسلحة بتفوق

وقد اقترحنا تعميم الخدمة العسكرية الاجبارية مع تخفيض مدتها . وعلى ذلك سيكون من السهل انشاء احتياطي عام للجيش يبلغ عدده حوالي المليون وهؤلاء يدعون كل عام للتمرن مدة شهرين على ان يوزعوا على الاسلحة المختلفة فلا تقتصر أعمال الاحتياطي على أعمال المشاة

وتنظيم قوات الاحتياطي يجب أن يقوم بهِ ضباط من الجيش العامل من رتبة صاغ فما فوق أما بقية الرتب فيملؤها الضباط من كادر الاحتياطي نفسه والذين سينتهون من طلبة الجامعة (تدريب فرق الضباط) وبذلك يزداد عدد المواطنين الذين يتمون هذه الخدمة ويكونون على استعداد للدفاع

ولا يمكن ان يوافق احد على أن يقوم بتدريب الاحتياطي ضباطٌ احيلوا الى المعاش منذ عشرات السنين . ويمكن أن يمد الاحتياطي بما يلزمهُ من الضباط العظام الموجودين حالاً في الجيش العامل . وفيما يلي اقسام وهيئات مساعدة للاحتياطي العام (فضلاً عن القوات المرابطة) — احتياطي مساعد — احتياطي للطوارىء (من الفنيين وأصحاب المواهب الخاصة بين ٣١ و٥٥ سنة) — قوات متطوعة من الطلبة للأعمال الخفيفة (المراسلات والتليفونات — بلوكات للدفاع المدني) أعمار رجالها بين ٣٦ و ٦٠ سنة — قوات المرابطين لمساعدة احتياطي قوة الطيران الملكي — احتياطي آخر متطوع — احتياطي مساعد قوات أسراب المناطيد — الحرس المدني الجوي — احتياطي الخدمات الطبية (نساء ورجال) — قوات المراقبين ضد الغارات الجوية — قوات المطافىء وأخرى مساعدة — قوات الاسعاف — قوات البوليس . ومعنى هذا تنظيم

أفراد الدولة رجالاً وشباناً وفتياناً وفتيات وتدريبهم على اعمال الحرب في قوات منظمة

﴿ ٤ — القوات المرابطة ﴾ يجب أن لا نخدع أنفسنا فواردنا الحالية ضئيلة وجمهورنا فقير النفس والى ان نصل الى درجة تبعث على الرضا في موارد ثروتنا وفي درجة الرقي النفساني علينا أن نقنع بوسيلة تحقق بعض أغراضنا العسكرية

وفي إنشاء القوات المرابطة ما يحقق لنا أمل تكوين قوات مدربة على الاعمال العسكرية الاولية والنظام . فنستخدمها في حراسة المرافق الحيوية والثكنات والمخازن والمستشفيات والمطارات والقناطر والسكك الحديدية . . . الخ وغيرها من الأعمال المساعدة للجيش العامل في حظيرة البلاد لا خارجها وتقوم على أساس تدريب الذكور بين سن الـ ١٩ والـ ٢٤ الذين يزيدون عن حاجة الجيش العامل

ونظام القوات المرابطة اذا عني بتدريبها تدريباً فنيًّا على أيدي مدربين منتخبين من الجيش قوة مساعدة للقوات الاحتياطية للجيش ومن السهل الاستفادة بها عند الحاجة فاذا أمكن تدريب ٢٤٠٫٠٠٠ من المرابطين سنويًّا استفدنا من هذا النظام مزايا لا عدلها من النواحي العسكرية والصحية والاجتماعية . ونكون قد خطونا به خطوة نحو المساواة في الخدمة العسكرية وتغيير الحالة المعنوية تغييراً أساسيًّا . وعن طريق القوات المرابطة نستفيد فائدتين

الأولى — معاونة الجيش العامل في حالة الحرب بعدد كبير من الجنود الذين سيقومون باعمال عسكرية لا غنى عنها في الدفاع الوطني

والثانية — في أيام السلم اداة للاصلاح الاجتماعي ولتقويم الأبدان والنفوس واستخدام الأيدي للانشاء والتعمير . ونرى أنه يجب أن لا تقل مدة تدريب الجندي المرابط عن ستة أشهر وهي أقل مدة للتدريب العسكري التام فضلاً عن تدريب بعض المنتخبين منهم على قيادة السيارات والموتوسيكلات وأعمال التليفون و التطهير

﴿ ٥ — الاسلحة والذخيرة ﴾ ان الاتفاق على وحدة الاسلحة بين الجيشين البريطاني والمصري لا يمنع مصر من صنع الذخيرة في مصانع تنشئها داخل البلاد . لذلك نرى أن لا تفوتنا العناية بانشاء صناعة الاسلحة والذخيرة بأنواعها قبل التفكير في زيادة الجيش . فاليد العاملة والرأس المدبرة والمال اللازم موفورة لصناعة الذخيرة(١) وان كنا نرى ايفاد مائة من الصناع المتعلمين للتمرين والعمل في مصانع الأسلحة الأجنبية والبدء في العمل بموجب مشورة خبراء بريطانيين يساعدهم لفيف من الضباط والمهندسين

ان المواد الكيميائية وأخصها الحمض الكبريتيك والحمض النتريك يمكن توفيرها في البلاد

(١) اشترت وزارة الدفاع الوطني خلال العامين الاخيرين ما يعادل انشاء مصنعين عظيمين

باستخراجهما من النترات والكبريت الخام بعد استيرادها من الخارج لامداد جميع الصناعات وخصوصاً صناعة الذخائر. كذلك استخراج مادة الجلسرين من فضلات المصابن المصرية بعد عمل الصابون وهي غنية بها فاذا تم تنفيذ مشروع توليد الكهرباء من مسقط المياه بخزان اسوان حصلنا على هذا الحمض من النترات المستخرجة من نيتروجين الهواء والكهرباء

وأما حمض الكبريتيك فيمكننا استخراجه من المعادن الموجودة في المناجم المصرية بشكل (كبريتورات). فاذا تعذر علينا الحصول عليها بهذه الطريقة استخرجنا هذا الحمض من الكبريت الخام الذي يسهل علينا استيراده من اليونان او ايطاليا[1] هذا مع العلم بأن في كفر الزيات مصنعاً له

والقطن هو اهم مواد المفرقعات وهو بخلطه مع الحمض النتريك يولد نترات القطن (النتروسللوز) والقطن موجود طبعاً وستستفيد المصانع من آلاف القناطير السكرتو وكذلك من الضروري انشاء مصنع على الأقل للاسلحة الصغيرة ونعلم انه سيكبدنا مالاً وفيراً في البداية لكنه سيعود علينا بأعظم الفوائد وأهمها فسح مجال العمل لعمال مصريين وسد حاجة مصر والبلدان الحليفة المجاورة الى الاسلحة والذخيرة

﴿ ٦ — التعليم العسكري ﴾ الغرض من التعليم العسكري رفع مستوى ضباطه وضباط صفه وجنوده ثقافيًّا وعسكريًّا وهذا لا يتم الاَّ بترقية المعاهد العسكرية وما يدرس فيها بواسطة أكفأ العقليات الموجودة في الجيش

لذلك يجب توحيد التعليم في الجيش بجملته تحت اشراف ادارة للتعليم العسكري بريًّا وبحريًّا وجويًّا تمثل فيها عناصر الجيش المختلفة وتكون فيها لجان لوضع البرامج ودرسها اولاً بأول

والتعليم العسكري — يتناول تعليم الضباط — تعليم ضباط الصف — تعليم الجنود

تقوم الكلية الحربية الملكية بتعليم وتدريب الطلاب الضباط الذين يتخرجون للجيش ولكنها لا تقوم بتربيتهم تربية عسكرية. فهي ثكنة كبيرة يعنى فيها بصحة الطلبة وتعليمهم مبادىء النظام والعلوم العسكرية لكنها لم تحقق كل ما ينتظر منها في غرس الفضائل العسكرية. ويجب ان يكون همها الأول تربية النفس على الفضائل العسكرية وهذه يجب غرسها ولست أبالغ اذا قلت انني أرى تخصيص السنة الاشهر الأولى لغرس هذه المبادىء على ان تلقى محاضرات عامة يتولاها اخصائيون في جميع سني الدراسة. هذه التربية العسكرية هي التي تكوّن الجندي وليست العلوم وحدها فهذه يمكن تلقينها بواسطة الكتب بخلاف الأخرى فهي « تربية »

والعلوم العسكرية الموضوعة في البرنامج الحالي لا وجه لا نتقادها على شرط ان يعلمها ضباط اكفاء يفهمون انهم مسئولون عن نتيجة تعليمهم في الجيش. لذلك يحتاج هذا التشديد الى ان

(١) الدكتور جبرائيل بحري بك — من حديث له مع مندوب مجلة المصور

لا تقتضي مدة الدراسة أقل من ثلاث سنوات . ليس كل ضابط يصلح لأن يكون مدرساً فالواجب ان يمضي الضابط الذي يقع عليه الاختيار حوالي ستة أشهر في معهد التربية العالي لاستماع محاضرات في علم النفس والتربية .. الخ وذلك في اثناء قيامه بالدراسة او يندب الاخصائيون في التربية لالقاء محاضرات على الضباط المدرسين

الكتابة والمناقشة والبحث — هذه الثلاثة يجب ان يتدرب عليها الطالب في اثناء التعلم فاذا تخرج عرف كيف يكتب ويناقش ويعلم ويبحث ويطلع

التوسع في برنامج الجغرافية العسكرية عمليًّا وبالمشاهدة بواسطة الرحلات والمعسكرات السنوية وبالسينما هذه يجب ان تكون أهم وسائل التعلم في الكلية الحربية

ننتقل الى الخطوة التالية وهي تعلم الضباط الممتازين ذوي الشخصية الجيدة في كلية أركان الحرب. والمرشحون لها تطبق عليهم شروط كثيرة يجب مراعاتها ويستحسن ان يكونوا ممن خدموا على الأقل عشر سنوات وتؤهلهم عقلياتهم للاضطلاع بمهمة (ضابط عالم محترم) ويجب ان لا تقل مدة الدراسة عن عامين ويشترط ان يقدم كل خريج رسالة هامة في اي موضوع عسكري تناقش فيها لجنة عسكرية فنية

مدارس الضباط العظام وهذه تهيء الضابط من رتبة البكباشي فما فوق للاضطلاع بقيادة الوحدات الكبرى ومدتها ستة أشهر يكون المرشحون لها ممن يجيدون اللغة الانكليزية على الأقل ولا يرقى الى رتبة البكباشي الا من يمتاز في برنامج هذه المدرسة

مدرسة فن القيادة (School of Leadership) — لليوزباشية القدماء مدتها ثلاثة أشهر تلقى فيها على الضباط محاضرات في التربية العسكرية والقيادة وعلم النفس وأثر ذلك في الجنود ومعاملتهم ودراسة مشاهير رجال الحرب في جميع العصور وعوامل نجاحهم . فعنصر فن القيادة يكاد يكون معدوماً الآن في برنامج تربيتنا العسكرية

كلية الدفاع الوطني — لا يزيد عدد طلبتها عن عشرة منتخبين بين اكفاء ضباط اركان الحرب الذين لا تقل رتبتهم عن قائم مقام ويسمح لاثنين يرشحهم رئيس هيئة أركان الحرب من الضباط الممتازين بالاندماج في هذه الكلية مع اثنين من كبار الموظفين الاخصائيين في شؤون سياسة الدولة العليا واقتصادياتها ممن يرشحون لتقلد مناصب هامة في الحكومة

وفي هذه الكلية تدرس المسائل المتعلقة « بالاستراتيجي» وبادارة الحرب وتسيير دفتها سياسيًّا وماليًّا واقتصاديًّا ونفسيًّا . وباختصار بكل ما له ارتباط بالدفاع عن الدولة من تعليم وتربية وتموين وتجارة وصناعة حربية ومدنية وثروة وتوجيه الامة . . الخ

تأتي بعد ذلك المدارس الفنية العالية والمتوسطة لأسلحة الطيران والصيانة والمدفعية والهندسة

العسكرية والاسلحة الصغيرة والاشارة والسواري الخ. وهذه مسؤولة أمام قوادها لأنهم سيمدونها بالرجال الصالحين للحرب وموطن انتقادها يدور حول كفاءة مدرسيها ودقة نظامها

ننتقل الى مدارس ضباط الصف وهذه تخرج السلسلة الفقرية للجيش، وأرى ان لا يلتحق بهذه المدرسة سوى الحائزين على شهادة الكفاءة او الدبلومات المتوسطة بعد خدمتهم في الجيش عاماً على الاقل فلا يمضون مدة دراستهم في المدرسة في الطوابير والتمرينات الابتدائية كما هو الحال الآن بل يوجهون لدراسة العلوم والمواد العسكرية اثناء العام الدراسي على ان لا تزيد مدة التمرينات اليومية على ساعتين وأرى العناية بتربيتهم النفسية . وحبذا اليوم الذي نرى فيهِ طبقة من ضباط الصف جديرين بالاحترام كما نرى ضباط الصف الأوربيين

﴿ مدرسة الكتّاب العسكريين ﴾ من حسن الرأي ان نسعى الى «عسكرة» الموظفين المدنيين بوزارة الدفاع الوطني وذلك بتخريجهم من مدرسة الكتاب العسكريين وأرى ان مدة الدراسة فيها قصيرة وبرنامج دروسها ضعيف . فالواجب اعادة النظر فيهِ وحبذا لو أُنشىء بالمدرسة فرع لحملة دبلوم التجارة المتوسطة يمنحون رتب صولات بعد ترقيتهم للقيام بالأعمال الفنية والحسابية في ادارة الرئاسات وأقسام الوزارة

﴿ مدارس الأورط ﴾ لا فائدة مطلقاً منها في وضعها الحالي . ومن العبث وضع اقتراحات خاصة بها فمن الرأي ان يكون الجيش آلة لمحو الأمية فيتعلم جميع جنود الجيش بوسائل منتجة يعود بعدها الجندي الى قريته ملماً بالقراءة والكتابة ولا تحقق هذه الفكرة بدون الغاء بعض الأعمال العسكرية الشاقة التي لا فائدة منها والطلبات المتعبة التي يستطيع عدد قليل من الجنود القيام بها

﴿ مدارس لتعليم الحرف الصغيرة ﴾ في تركيا يتدرب الجنود اصحاب الحرف على ممارستها في أثناء الخدمة أو التدريب على أشغال مماثلة لها فلا يكونون عالة بعد انتهاء خدمتهم العسكرية على الدولة ويمكن الاخذ بهذه الفكرة ولو بمقياس صغير . اما المدارس الفنية الاخرى التي يشترك فيها الضباط والجنود فلا اقترح شيئاً جديداً لها وحبذا لو عمل على توسيع نطاق الالعاب الرياضية في الجيش لتعم روح الجماعة والالفة بدلاً عن روح الاثرة والكراهية

﴿ ٧ — تنظيم وزارة الدفاع الوطني ﴾ لم تصل وزارة الدفاع الوطني في تنظيم أعمالها المالية الى المستوى المنشود وهذا راجع الى أسباب شتى (١)

﴿ ٨ — المواصلات الداخلية ﴾ من الضروري بذل جهود نشيطة لاستكمال النقص في شبكة المواصلات بريًّا ونهريًّا. ونهر النيل من عوامل النقل الهامة ولحبذا لو انشىء اسطول

(١) تحاشى الكاتب ذكرها في المقتطف

نيلي صغير يستخدم للنقل وقت الحاجة . ويجب الاكثار من الطرق لانها خير من مضاعفة خطوط السكك الحديدية وهذه أهداف يمكن تدميرها وتعطيلها وأهم الطرق العسكرية التي نحتاج اليها هي التي تربط بين شاطىء البحر الاحمر ووادي النيل وفي الحدود الجنوبية بين اسوان وحلفا على أن تكون متينة التأسيس لتتحمل النقل الحربي الحديث ومتسعة ومزودة بمحطات الوقود والمياه وقطع التغيير

﴿ ٩ — البعثة العسكرية البريطانية ﴾ القاعدتان اللتان قام عليهما التحالف المصري البريطاني خاصاً بالجيش هما

اولاً — جعل الجيش مصرياً بحتاً وتحريره من كل سيطرة بريطانية

ثانياً — الانتفاع ببعثة عسكرية بريطانية للتدريب والتعليم والمشورة عند الاقتضاء وليس هناك ادنى شك في حاجتنا الى بعثة عسكرية لتنظيم شئون الجيش المصري وتعليمه وهـذا التنظيم يستغرق مدة لا تقل عن عشر سنوات

فنقترح أن يكثر ضباط البعثة العسكرية الفنيون من المحاضرات الفنية تلقى على ضباط الاسلحة الملحقين بها وكتابة رسائل في الموضوعات العسكرية وتشجيع المناظرات. ونرى أن يدوّن كل ضابط من البعثة شهرياً ملاحظاته عن السلاح الملحق به

﴿ ١٠ — دراسة مصر والبلدان المجاورة ﴾ أرى ان تعنى ادارة العمليات الحربية ممثلة في القسم الجغرافي بدراسة جغرافية القطر المصري دراسة وافية . . . . الصحارى والشواطىء والجزر والبحيرات والوديان . .... الخ فاننا لم نصل بعد الى مستوى راق في معرفة بلادنا حق المعرفة من الناحية الحربية كالمستوى الذي وصل اليه غيرنا ، وتتحقق فوائد هذه الدراسات بايفاد الرحلات العلمية والقاء المحاضرات والبعثات القصيرة ويجب ان تتضمن هـذه الرحلات البلاد المجاورة كشرق الأردن وفلسطين وسوريا والعراق وتركيا وأقاصي السودان وجزر البحرين الاحمر والابيض واليونان وايطاليا

﴿ ١١ — الانتفاع بالعناصر البدوية ﴾ ويجب ان لا يغيب عن بالنا الانتفاع الى أقصى حد ممكن بالعناصر البدوية في الصحاري المصرية ويأتي ذلك عن طريق ترقية احوالهم الاجتماعية والصحية فهم عون كبير لقوات الدفاع ولاسيما في حرب العصابات فيؤلف منهم سرايا شبه منظمة مدربة تدريباً جيداً على الاعمال العسكرية في الصحاري وبذلك نربح شيئين : — قوات مسلحة تؤيدنا وتحسين احوال فئة من الشعب المصري تعيش في الواحات والبراري عيشة القرون الوسطى

﴿ ١٢ — الحصون والاستحكامات ﴾ لا أرى ان مصر في حاجة الى صرف الاموال

الطائلة في بناء الخطوط التي من طراز الحصون المستديمة في اية منطقة على مثال خط ماجينو مثلاً ولكن يستعاض عنها ببناء نقط دفاعية ذات اعماق في المناطق العسكرية الحيوية في الحدود الشرقية والغربية والجنوبية وكذلك الجنوبية الشرقية (البحر الاحمر) . وبناء الحصون تمليها السياسة الدفاعية ولكن أرى ان تكون سياستنا هجومية في تمرينها ومناوراتها وهذه تتطلب الاكثار من المركبات الميكانيكية والدبابات الى اقصى حد . ان الحصون لا تحمي البلدان ولكن الرجال هم الذين يحمونها

﴿ ١٣ — الملحقون العسكريون ﴾ يجب من الآن تدريب فئة من الضباط الذين لا تقل خدمتهم العسكرية عن عشر سنوات على اعمال الملحقين العسكريين . وأرى ان يكونوا من ضباط اركان الحرب والمخابرات العسكرية ممن يجيدون اللغات الاجنبية ويجب ان لا تقل رتبة الملحق عن صاغ لانهُ يمثل (عسكرية الأمة) ويجب ان يكون متصفاً بصفات عالية ومثقفاً وذا مؤهلات خاصة . وأرى البدء بنظام الملحقين العسكريين في البلدان المجاورة أولاً

﴿ ١٤ — اللغات الأجنبية ﴾ من الأسف ان تكون نسبة المتضلعين من اللغات الاجنبية (ما عدا الأنكليزية) ضئيلة جداً بين ضباط الجيش فلا تتجاوز واحداً في المائة ويجب ان ترفع هذه النسبة الى ٥٪ بأفعل الوسائل كمنح المكافآت المالية وتشجيع الاجازات الطويلة في الخارج (عام مثلاً) ومنح علاوة خاصة للغة وهكذا . الجيش المصري في حاجة الى عدد من الضباط الذين يجيدون اللغات الألمانية والايطالية والفرنسية واليونانية والتركية وبعض اللهجات الافريقية ومن الغريب أن لا تنجح وسائل الاغراء التي استعملت لتعليم اللغات الأجنبية منذ عامين

﴿ ١٥ — قوات الدفاع عن السواحل ﴾ لا بدَّ من اعادة انشاء نقط مدفعية للسواحل بين السلوم ورفح . كان عدد الحصون الساحلية في عصر محمد علي بين الاسكندرية وبور سعيد خمسين وما زال ينتفع باكثرها الى الوقت الحاضر . كذلك تقام نقط مدفعية ساحلية ضد الغارات على شاطئ البحر الاحمر من السويس الى بور سودان ويقام بعضها في الجزر الهامة التي في البحر الأحمر . ولقد انشئت نقط دفاعية متعددة في الاسكندرية ونقط مراقبة على الساحل . ومن حسن الحظ أن توجد منطقة ممتدة بين المنزلة والبرلس وادكو ورشيد وأبو قير ومربوط معززة بالعراقيل الطبيعية كالمستنقعات والبحيرات لا تسمح لرسو السفن الحربية

﴿ ١٦ — الجيش المصري في السودان ﴾ ان الاحوال الحاضرة جعلت للسودان منزلة عظيمة ولا بدَّ أن تكون القوات العسكرية المتعاونة كافية لحمايته

﴿ ١٧ — المال ومراقبة المشتريات ﴾ رائدنا الأول عند توسيع جيشنا ان يتم هذا التوسع بأقل ما يمكن من النفقات نظراً للظروف التي نعيش فيها .

وان كل زيادة في الرجال لا يسبقها ورود الأسلحة والعتاد من أحدث طراز لا قيمة لها ولا تنتج الا انهاك الميزانية دون ان تستفيد منها البلاد فائدة ما

نصت المعاهدة البريطانية المصرية على وجوب توحيد الأسلحة والنظم العسكرية بين الجيشين ولكن ذلك لا يعني الكرم والاسراف فيما نريد مشتراه . كانت مشتريات الجيش المصري قبل عام ١٩٣٧ من الأسلحة والمهمات محدودة وفي نطاق ضيق جداً ولكنها ازدادت زيادة كبيرة في عهد الجيش الجديد فارتفعت الاعتمادات المخصصة لها من بضعة آلاف الى الملايين

ولمواجهة هذا الموقف الجديد يجب ان نفرض مراقبة دقيقة على مشترياتنا وان نعتمد على انفسنا في ذلك واضعين امامنا هذا المبدأ الاقتصادي . نشتري أفضل المصنوعات وأرخصها

﴿ ١٨ — ميزانية الدفاع الوطني ﴾ ان انفاق ملايين الجنيهات على الدفاع الوطني لا يعد خسارة من الوجهة الاقتصادية على ان يتم هذا الصرف بمعرفة ووطنية . ان الجانب الأكبر من هذه النفقات سيصرف في مصر ويروّج اسواقها وينعش صناعتها وتجارتها فهناك الوف الشبان سيعملون في اسلحة الجيش كجنود وضباط ومهندسين وأطباء وعمال . وهناك المصانع المصرية للغزل والنسج والمتاجر تمد الجيوش بحاجتها . وهناك الروح العسكرية — روح الطاعة والنظام — تسود ابناء الأمة وتساعد على تقويم الأخلاق ولكن يجب ان لا يساعد الجيش على التبذير

بلغ مجموع اعتمادات الدفاع الوطني لعام ١٩٤٠ — ١٩٤١ — ٨٠٠ر٦١٤ر٦ جنيه يضاف اليها ٧٨٤ر١٩٧ جنيهاً كمصاريف أخرى تقوم بها وزارات اخرى على نفقة الدفاع الوطني وأول ما يصادفنا هو الباب الأول الخاص بالماهيات والاجور والمرتبات ويبلغ ٨٨٠ر٤٦٧ر١ جنيهاً . وأرى انه من الممكن توفير مبلغ جسيم اذا ألغيت معظم علاوات الضباط(١) فتقتصر على عدد محدود من الضباط ويخفض بدل المراسلة والسايس ويقتصد في عدد الضباط العظام في الوحدات وفي المصالح وعلى الأخص في رتب (القائم مقام والأميرالاي) ويجب ان يكون هناك تناسب بين الوظيفة والرتبة التي يتقلدها شاغل الوظيفة كقائد بلك النقل مثلاً وقائد بلك الأعمال الطبية الميداني وما أشبه فهو في الأول صاغ وفي الثاني قائم مقام . لماذا لا يكون يوزباشي وصاغ

فاذا انتقلنا الى المباني العسكرية تساءلنا هل لنا سياسة مرسومة للمباني العسكرية ؟ الجندي المصري لا يحتاج الى مبان كالتي يحتاج اليها الجندي الأوربي لانهُ لا يعيش في مثلها قبل تجنيده ولا يعيش فيما يشابهها بعد انتهاء خدمته ، ولقد بنيت بمئات الآلاف من الجنيهات مبان فخمة من ثكنات ومستشفيات ومخازن ، في مناطق معينة كان الأجدر ان تشيد في داخلية البلاد . لست أعارض في بناء مبان ضخمة للمصانع والورش والمدارس والمخازن . كل هذا نحتاج اليه ، لكنني أعارض في بناء ثكنات جديدة ما دام من المنتظر ان تخلي القوات البريطانية ثكناتها للجيش

(١) العلاوات الاضافية في الجيش المصري تكلف الخزينة العامة ١٢٤٠٠٠ جنيه في السنة

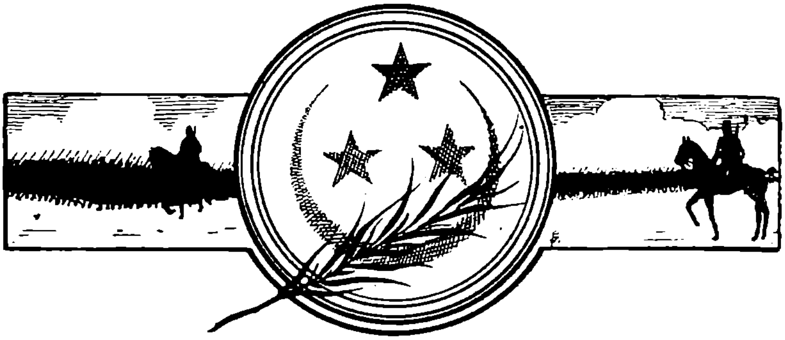
المصري وفي السنوات المقبلة يمكن التعسكر خارج المدن فالمعروف ان الجيوش لا تعيش داخل المدن بل تقيم في مناطق الحدود والصحارى لتتدرب

﴿ ١٩ — العمل في الورش العسكرية ﴾ تكاليف العمل في جميع الورش العسكرية باهظة اذا قيست بالاثمان التي تصنع بها في الورش المحلية فان الدولاب او الكرسي او السلاحليك الذي يصنع في سلاح المهمات أغلى ثمناً من مثلها المصنوع محليًّا . وتصليح البندقية والسيارة أو مدفع المكينة في سلاح الصيانة يكلف الحكومة مبلغاً مرتفعاً . ومرجع هذا الاسراف الى فساد الطرق التي تتبع في المشتريات وخزنها واستهلاكها وانعدام مراقبة الانتاج اليومي للعمل والعمال وهذا يحتاج الى صناع مهرة أكفاء يفهمون الواجب الوطني ويقدرون معنى الاشراف . كذلك ارتفاع الاجور اليومية التي يتناولها الصناع أمر واضح فضلاً عن انحطاط المستوى الصناعي للأغلبية . وحبذا لو أرسلت تلك الاسلحة مقدمي صنّاعها الى المصانع الأجنبية المحلية للوقوف على طرق العمل المنتج فيقتصد في أبواب المصروفات العسكرية . ويمكن الاقتصاد وتعديل الملابس العسكرية ومهماتها فيوفر الكثير من الاعتمادات

﴿ ٢٠ — الاسطول ﴾ نتكلم عن حاجتنا الى الاسطول لاتصاله بآلة الدفاع الوطني . ان مصر لا يحتمل أن تكون قوة بحرية كبيرة ولكنها تحتاج الى عدد من لاقطات الالغام وبعض المدمرات وطوافات لمراقبة السفن بين الموانىء المصرية وما بين مناجم الزيت بالبحر الاحمر والسويس لتأمينها من الغواصات(١) . ونرى ان يسبق انشاء اية قطعة بحرية لمصر ان توفد الحكومة مائة شاب لا تتجاوز اعمارهم ١٥ سنة ممن درسوا الصناعة الميكانيكية الى انجلترا للتدرب على الاعمال البحرية في السفن مدة ست سنوات على الأقل وتوفد حوالي الثلاثين طالباً بحريًّا للغرض نفسه ليساهموا مع غيرهم وليحضروا بأنفسهم السفن التي توصي عليها مصر اسوةً بما تعمله سيام وإيران وتركيا

﴿ الخلاصة ﴾ ذكرنا اهم الاعتبارات التي تبنى عليها آلة الدفاع المصري واضطرنا ضيق المقام الى اختصار التفصيلات المطولة ومع ذلك يجب ان لا يغيب عن بالنا ان الحرب الحديثة قد أملت علينا دروساً كثيرة سوف نرى أثرها بعد قليل . هذه الدروس سوف لا تتناول مبادىء الحرب كلها ولكنها ستتناول فلسفة الحرب ووسائلها بانقلاب عظيم فالعلم الحديث والمبادىء النفسية والأحوال الاقتصادية أدخلت عليها انقلاباً عامًّا سيشعر به كبار العسكريين . والذي وصل اليه الجيش المصري منذ عام ١٩٣٧ الى اليوم لا يعدو توسعاً في الاساليب التي كانت معروفة حتى عام ١٩١٨ فلابد من ان يصيبه التحول من الألف الى الياء برًّا وبحراً وهواء . ونحن لم نتعود بعد الطفرة ولكن لا بد منها اليوم فلا نكون محافظين الى حدود الجمود في آرائنا وأساليبنا ورجالنا .....

(١) راجع مقال « هل تحتاج مصر الى قوة بحرية ؟ » لليوزباشي البحري عز الدين عاطف بالعدد الخامس (المجلد الاول) من مجلة الجيش المصري



أقسام الجيش

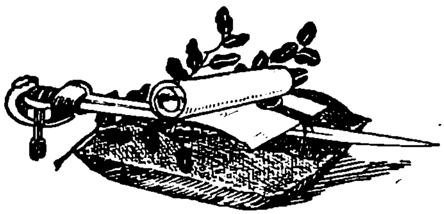
فيلق	Army corps
فرقة	Division
لواء	Brigade
آلاي	Regiment
أورطة	Battalion
بطارية	Battery
سرية	Company
فصيلة	Platoon
جماعة	Section

رتب الجيش

فريق	Lieut. general
لواء	Major—general
أميرالاي	Brigadier
قائمقام	Colonel
بكباشي	Lieut. colonel
صاغ	Major
يوزباشي	Captain
ملازم أول	Lieutenant
ملازم ثاني	Second Lieutenant

مدارس الجيش

١ — كلية أركان الحرب الملكية
٢ — الكلية الحربية الملكية
٣ — مدرسة الضباط العظام
٤ — مدرسة الهندسة العسكرية
٥ — مدرسة الصناعات الميكانيكية
٦ — مدارس الاسلحة الصغيرة
٧ — مدارس التربية البدنية
٨ — مدرسة الاشارة
٩ — مدرسة علم الصحة
١٠ — مدرسة الكتاب العسكريين
١١ — مدرسة ضباط الصف
١٢ — مدرسة الموسيقات
١٣ — مدارس الوحدات



لواحق المقتطف الشهرية

مايو ١٩٤٦

سبينوزا

حياته وفلسفته
عرضه وتحليل

تأليف
هنري سروبا

ترجمة
سليم سعده

« كل شيء في هذا المكان يضوع منه »
« عرف الامن ونكهة النظام والسرور »
« جيته »

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم
١٩٤٦

١ - عبقريته

لا شك في أن الانسانية فقيرة بجبابرة العقول ، والطبيعة شحيحة بالعباقرة الأفذاذ ، ولذلك فانا نراهم يجتازون العالم في مختلف عصوره اجتياز الظواهر الغريبة النادرة . انهم يتألمون وهم في الغالب منبوذون لا يُفهَمُون .

وسبينوزا هو أحد هؤلاء الرجال الذين قلما يجود الدهر بمثلهم ، فنفوسهم الأبية النبيلة تنأى بهم عن طغمة المتَنَذّلين الذين يبذرون الشر حولهم بدافع من نفوسهم وهم لا يعقلون . بيد أن الزمن — وهو الحكم النزيه العادل — كفيل بأن ينتقم لهم ويعقد عليهم لواء مجده فيظهرون .

تلك كانت حال سبينوزا الذي أبت حكمة بني جنسه أن تفهمه فأهملوه ، وعزّ على فطنة ذويه وآل عشيرته أن تعني به فأقصَوْه عنهم ونبذوه .

ان سبينوزا — بصفة خاصة — رائد جيته . فهل كان هذا الرجل عبقريًّا ، وهل كانت عبقريته فذة ؟ . . . إن « كانت » في كتابه « نقد الحكم » لا ينسب العبقرية إلاَّ للشعراء والفنانين . ولكن يلوح أن تعبيره هذا لا يقوم على أساس متين . فكل « خَلْقٍ » ذاتي ، أيًّا كان المجال الذي يتجلى فيه ، مرتبط — في الواقع — بالعبقرية . واننا لا نقصد بكلمة « خَلْقٍ » ما يشمل الوجود الذاتي والرؤيا العميقة والحدس والنظريات الجديدة التي لا يمكن — فيما بعد — تطبيقها على الحقيقة . يقيناً أن العبقرية لا تستوي عند من يقصر عمله ونتاجه على تنظيم الوقائع بطريقة واضحة منطقية ، والتعليق عليها بحكمة وهدوء دون أن ينفث فيها قليلاً من روحه أو يضيف اليها ملاحظة شخصية من نوع جديد ، ويقذف بها في اتجاه جديد أو يبذل في سبيلها مجهوداً شخصيًّا كبيراً . فمثل تلك الجهود تتطلب شيئاً من الثقافة العالمية وحسن الاستعداد . ويظهر أن « كانت » محق في نظريته من تلك الناحية . بيد أن الفيلسوف الذي يخلق يمتاز على الشعراء والفنانين ، إذ أن خياله أبعد مدى من خيالهم ،

وتلك الخيالة لا تقتصر فقط على حصر خطوط الحياة سواء أكانت تلك الخطوط واضحة أم غامضة ، وإنما ترمي أيضاً الى إدراك أعمق أعماق جوهرها . إن مخيلة من يقف جهوده على البحث والتنقيب في هذا الكل أو هذا الكون بطريقة دقيقة عميقة لهي ، بغير تهك أو مغالاة ، مخيلة عجيبة . ولقد أورد التلمود ذكر شيء من هذا القبيل . فقد حُكي أن أربعة من الحكماء دخلوا « الحديقة » ليندمجوا في أسرار الخليقة ففقد أحدهم بصره وأضاع الثاني رشده وفقد ذاكرته ، ومات الثالث ، ولم ينجح منهم إلاّ الرابع وهو «عقيبا» الرباني لأنه كان أديباً على جانب عظيم من أصالة الرأي وحصافة الفكر . إن الفيلسوف الذي يضم في مخيلته حيزاً في مثل اتساع الكون ، لهو بغير ما ريب عبقري . على انني أرى أنه لا يمكن إدماج عظماء الفنانين وفطاحل الشعراء ضمن فئة العباقرة إلاّ إذا كانت صدورهم مليئة بما يؤهلهم لذلك ، ولا أظنني مخطئاً إذا قلت بأن المؤلفات الخالدة التي خلفها شكسبير ورامبولدت وميشيل انج وسرفانتس وبيتهوفن وجيته تتكشف عن فلسفة مؤثرة عميقة .

ان سبينوزا عبقري ، ليس بصفته فنّاناً، ولكن باعتباره عالماً بما بعد الطبيعة . إن فيه شاعرية عميقة وحياة داخلية قوية . وتلك الشاعرية وهذه الحياة الداخلية تذكراننا بشخصية قلقة مضطربة كشخصية « هملت » ولكنها تبدو مرحة باسمة مرتاحة وهكذا تعلو شخصية سبينوزا على شخصيته ، لا سيما الجزء الخامس من كتاب « الأخلاق » وهو الجزء الصوفي البحت . وأكثر من ذلك فان المرء ليشعر — إذ يتعمق في دراسة حياة سبينوزا الروحانية الخاصة — بأنه يعيش في عالم من الصفاء لا مدى له ولا نهاية . إن مذهبه فيما بعد الطبيعة ، لا يقتصر على إرضاء الفضول البشري وجلاء أسرار الكون وتهدئة القلق الذي شعر بمثله عبقري مثل «پسكال» حيال عظمة الكون السامية وحقارة الذرات الضئيلة فحسب ، وإنما يتعدى ذلك كله إلى تطهير النفس وإسعادها في هذا العالم . « وليست الغبطة ثمناً للفضيلة ، ولكنها الفضيلة بعينها » .

إن الحب الروحاني الذي أوضحه سبينوزا بأجلى بيان لهو أسمى درجة لكل ما هو طيب انساني . ولقد أدرك تلك الدرجة جميع أولئك الذين وقفوا حياتهم على دراسة الأمور الروحانية البحتة ، بعد تجريدها من جميع العوامل المادية .

فهذا الحب الروحاني الذي يفرض وجود فضيلة أخلاقية فذة ، يحمل نوعاً من الشبه والتناسب مع أفكار المسيح . فكلاهما — المسيح وسبينوزا — قد نهلا من مورد واحد ، وكلاهما من سلالة مشتركة « تلك السلالة العظيمة التي تحتل مكانة خاصة في تاريخ المدنية بفضل الخدمات التي أدتها » .

كلاهما يواسيان النفس البائسة المكروبة ، وتعاليمهما في متناول جميع المكروبين المحزونين في هذا العالم . فالناحية الروحانية من عبارة المسيح : « إن مملكتي ليست من هذا العالم » لا تختلف في الواقع عن حب الله العميق الذي يقول به سبينوزا . إن المسيح وسبينوزا كانا بطلين في قدس الأقداس . ونزاهتهما وميلهما الى البؤساء المتواضعين دليل على تشيعهما لمذهب خيالي غير مألوف . ولكن اذا كانت الخرافة القائلة بألوهية المسيح تثير عاصفة من النقد في أيامنا ، فان سبينوزا أدنى الى مداركنا وأقرب الى عقولنا منها ، فكتاباته ونبل أفكاره وتفكيره إن كانت مما يصعب فهمها أحياناً ، إلا أنها تجعلنا نلمس بأصبعنا حياة الزهد التي كان عليها فيلسوف لاهاي . ثم إذا نحن فرضنا عدم وجود المسيح فان ذلك لا يمنع من وجود الحكيم « هيليل » للمقارنة بينه وبين سبينوزا .

إن الحماس الذي يتجلى في أيامنا لفلسفة سبينوزا يدل على أن مذهبه قائم على وجود خلود أبدي ، أو بعبارة أوضح ، وعلى حد تعبير سبينوزا ، إن لهذا المذهب مسحة الأبدية . ولقد طالما قرّر رينان بأن سبينوزا كان « أعظم الاسرائيليين العصريين » وان هذا العبقري كان « نبي عهده » « وأنه أعظم من تعمق في النظر الى الله » . وقد كتب جول لانيو — بعد شيلرماخر وجيته وهجل وشلينسج واسنج وجاكوبي الذين ينادون جميعاً بصوت واحد بأن سبينوزا هو رب الفكرة الحديثة — بأن مذهب ما بعد الطبيعة الاسبينوزي هو أقرب المذاهب الى العقل وأدقها علماً وأوضحها بياناً وأكثرها غزارة ودسماً » .

ولنجتهد الآن في أن ندرس عن كثب مختلف أدوار حياة سبينوزا وتطورات فكرته الثاقبة القوية .

٢ – حياته المعذبة

إنه لمن الصعب إيراد بيان دقيق عن حياة سبينوزا لجميع المصادر مستقاة إما من كولروس المترجم عن حياته وإما من شهادة أبناء الطائفة اليهودية بامستردام ، أو على وجه التخصيص من رسائله . إن حياة هذا الحكيم غريبة للغاية لما يتخللها من مواقف البطولة والنبل والورع والحب التي يسهل تمييزها في جميع كتاباته الفلسفية . ان عمله رسم لنا صورة طبيعية محسوسة لحكمته الحقيقية . أو لم يخلع على عمله الخالد اسم « الأخلاق » الذي من طبيعته تهدئة خواطر الضالين ومن ينتابهم القلق والوسواس إذا هم لم يفهموا الأمور على حقيقتها ؟ وهو وإن كان عالماً فذاً بما بعد الطبيعة إلاّ أنه كان لا يزدري كل ما يتعلق بالانسانية . ان علمه بما بعد الطبيعة وان كان في تركيبه معقداً ، إلاّ انه يرمي إلى الشرح والتفسير بطريقة خاصة ، ولا يقتصر في ذلك الكلام على نظام الكون بل يتعداه إلى الحديث عن الحياة ، تلك الحياة البسيطة التي تمر كل يوم، وهذا ما يجعل المذهب الإسبينوزي يلمس الحقيقة ويعبر عنها بطريقة محسوسة .

ولنرجع في بحثنا إلى سني دراسة سبينوزا كما تنم عنها الذكرى التي خلفهـا في معبد امستردام القـديم « اورشليم الجديدة » وفي مدرسة فان دِنْ إنْـد بقدر ما نستطيع أن نتخيلها من وصف كولروس ولوكاس . إن صوره تحمل إلى نفوسنا تأثير فتى هزيل ذي عينين سوداوين تنبعث منهما نظرات حادة نافذة ، وتعبران عن حياة داخلية قاسية صارمة وحالة نفسية قلقة نزّاعة إلى التأمل .

« كان سبينوزا – على حد تعبير كولروس ووصفه – متوسط القامة وسيم الوجه نحاسي البشرة جعد الشعر قاتمه ذا حاجبين كثيفين سوداوين . فكان يكفي النظر إليه للحكم بأنه من سلالة اليهود البورتغاليين . وكان قليل العناية بهندامه فما كان يرتديه يتساوى ولباس أبسط مواطنيه . وقد زاره يوماً أحد كبار مستشاري الدولة فألفاه وقد اتشح

« بمشمل » قذر جداً ، فعاب عليه ذلك وطلب منـه أن يعوّضه عنه ، فأجابه سبينوزا ، بأن الرجل لا تزداد قيمة إذا هو ارتدى « مشملاً جميلاً » وأضاف :

« ليس من الحكمة أن تحاط الأشياء التافهة الزهيدة بحلى ثمينة » . بيد أن سبينوزا لم يكن متعصباً لنظريته فيما يتعلق بالزي الى حد التقشف ، بدليل ما كتبه في أحد خطاباته : « ليس في إهمال اللباس أو عدم العناية به ما يكسبنا الحكمة لأن المغالاة في التظاهر بعدم العناية بالهندام قد يكون دليلاً على عقليــة مبتورة لا يمكن أن تجد فيها الحكمة الصحيحة مكانة خليقة بها ولا يجد العلم فيها إلاّ بلبلة وتشويشاً » .

أما لوكاس فانه يتحدّث عنه بلهجة غير هذه ، فهو يطنب في مدح ما كان عليه أستاذه من النظافة المتناهية وهي من الفضائل التي قلما توجد عند الفيلسوف .

وقبل أن نستعرض الأعمال التي ترتبط بدراساته والسنوات الدقيقة التي أعقبت مقاطعته للدين اليهودي ، يجب علينـا أن نقضي بما كانت عليـه عقلية الوسط اليهودي الذي حكم أفراده على سبينوزا .

ان الدين اليهودي الذي نعم في إسبانيا بعهد رخاء وسكون إبان الحكم الاسلامي حتى سقوط غرناطة بيد فردينان عام ١٤٩٢ ذاق الأمرّين على أثر إقصاء هذا الحكم عن شبه جزيرة إسبانيا . فقد استبدت محاكم التفتيش باليهود الاسبانيين فاستشهدوا بعـد أن طلب منهم أن يختـاروا بين اعتناق المسيحية وبين النفي ومصادرة أموالهم .على أن الكنيسة لم تضطهدهم ، والبابوات لم يناصبوهم العداء . ولقد طالما ضجوا بالشكوى من تصرفات محاكم التفتيش الوحشية معهم . وبجمل القول كان مركز اليهود في ذلك العهد مؤلماً رهيباً فقد طردوا من جنوا وذبحهم الوطنيون على ساحل إفريقية طمعاً في حليهم وأموالهم .ولقد مدّ بعضهم الرحالة كولومبوس بالمال للقيام بمغامرته— إذ انه كان من ملتهم وواحداً منهم— كما أن جماعة منهم رافقوه في سفينته وجازف غيرهم بحيـاتهم على سفن حقيرة ضئيلة صعدوا على ظهرها في المحيط الاطلنطي وتجنبوا سواحل فرنسا وانجلترا ويمموا شطر ساحل هولندا حيث قابلهم شعبها القليل العدد بمظاهر الترحاب والعطف . ففي غضون تلك المغامرة المحفوفة بالمخاطر التي تتجلى فيهـا صورة اليهودي التائه بأجلى معانيها ، هلك منهم عـدد كبير إما غرقاً وإما

بالأمراض والوباء . فتلك الرحلة الشاقة المليئة بالمخاوف والمخاطر تفسر لنا موقف اليهود العدائي من سبينوزا . ان الألم يلد الألم كما يلد حالة نفسية خاصة توعز بالخوف الدائم . وهذا الخوف يزداد إذا انتقل من الفرد الى الجماعة لأن مشاعرهم تكون أكثر يقظة وحساسية وتبادلاً خصوصاً إذا كان أفراد هذه الجماعة يمثلون أقلية ضئيلة . فلو أن الشعب الاسرائيلي كان في ارضه لما كان يرتكب مثل تلك النقيصة مع سبينوزا لأن شريعته في حد ذاتها مرنة نزيهة . وما كان ليرتكبها كما يقول أبراهمس ، لو أن منشه بن اسرائيل القبالي الشهير والرئيس الروحاني لليهود وصديق رامبراندت كان موجوداً إذ ذاك في هولندا ، إلاّ أنه كان في لندرا منهمكاً في مفاوضة كروموبل واقناعه ليأذن بفتح سواحل انجلترا ويسمح لليهود بالهجرة اليها .

والآن فلننظر كيف أبعد سبينوزا عن الطائفة اليهودية . لقد لجأ اليهود الى امستردام حوالي سنة ١٥٩٣ . وكان ضمن المهاجرين جد سبينوزا وأبوه اللذان تخلفا قليلاً في مدينة نانت قبل الوصول الى أمستردام . وكانت عشيرة سبينوزا من التجار وجده باروخ ابراهيم ميخائيل دي سبينوزا رئيس طائفة اليهود الاسبانيين والبورتغاليين عام ١٦٣٩ . وكان أبوه أحد رجال الطائفة البارزين رئيساً لجمعية الاحسان اليهودي والمدرسة اليهودية . وقد تزوّج مرتين فأعقب ثلاثة صبية وبنتين مريم ورفقه من زوجه الأولى المتوفاة عام ١٦٢٧ وصبيًّا هو باروخ الفيلسوف الذي ولد في أمستردام في (كزلف عام ٥٣٩٣ بحساب النتيجة العبرية) ٢٤ من نوفمبر سنة ١٦٣٢ ، من زوجه الثانية حنة دبوراه المتوفاة عام ١٦٣٨ .

وتلقى سبينوزا علومه الأولية في المدرسة العبرانية التابعة لطائفة كتير توارة وفي صومعة بيريرا « ياشيبا بريرا » وكان التدريس يبدأ مع الساعة الثامنة حتى الساعة الحادية عشرة ثم من الساعة الثانية إلى الخامسة ويتولاه إسحق دي فونسكا أبو آب ومنسى بن اسرائيل وشاؤل مورتيرا ، ويشمل درساً في اللغة العبرانية والتلمود والشريعة والفلسفة حيث كانت تدرس مذاهب وشروحات ابن ميمون وحسداي بن شبروت وابن جبريل وموسى القرطبي وابراهيم بن عزرا . وعلمه منسى بن اسرائيل أسرار « القبال » . ولكن خيل إلى سبينوزا أن تلك الدروس ليست وافية ولا كافية لإشباع رغبته وإرضاء ذهنه وفطنته ، وأراد أن

يتجاوزها الى ما فيه أرضاء ميوله العلمية . فلم يتردد في خوض ميدان البحوث والدراسات التي كانت تعد في ذلك العهد على هامش التعاليم المقرر من الطائفة . فدرس اللاتينية ، وهي اللغة التي كان يتخاطب بها جميع علماء ذلك العهد . وعلمه أبوه اللغتين الاسبانية والبورتغالية. وكان إلى جانب ذلك يعرف اللغتين الهولندية والألمانية مع قليل من الايطالية والفرنسية . ودرس الرياضيات والعلوم والفوزيقا والميكانيكا والفلك والـكيمياء والطب على فرانز فان دمبراند الشهير بغزارة علومه وسعة معارفه . ودرس كذلك مبدأ « النؤكلاصيك » الذي وضـعه القديس توما الاكويني للتقريب بين المبادىء اللاهوتيـة والمبادىء الفلسفية ، ومؤلفات ديكارت العظيم الذي ساعدته كثيراً على دراساته الشخصية . على أن هذه الدراسات العلميـة والفلسفية التي خاضها سبينوزا في شيء من المغالاة طبقاً لاتجاهات وميول عهد البعث الأدبي الثـائرة والتي تدل على بوادر القطيعة التامـة مع تعـاليم « المدرسة » (وعلينا أن نذكر جيوردانو برونو وديكارت وجليليو) ، هذه الدراسات قد أثارت في ذهن الفتى سبينوزا أفكاراً لا تتناسب مع تعاليم الملة اليهودية وصوابها ووشى به اثنان من زملائه وأبلغا عن آرائه المارقة الملحدة وما هي عليه من الشبه مع آراء أوربيل اكوستا وأورابيا وقصا على أساتذتهما أن سبينوزا قد جهر بالقول بأن الملائكة ليست في الحقيقة إلاّ أشباحاً وإن النفس فانية ، وان الله ليس إلاّ نشوء الجسم وامتداده . ولا مرية في أن تلك الآراء وان لم يثبت صحة صدورها عنه ، قد آلمت حكماء الطائفة . على أنهم لم يحكموا على سبينوزا فوراً وإنما حاولوا أن يسترجعوه اليهم فعرض عليه مورتيرا جعلاً سنويّـا قدره الف فلورين نظير عدوله عن آرائه الجريئة . فأبدى سبينوزا اشمئزازه من من تلك الوشاية التي تشوّه أساس فكرته ولم يخف كراهيته لمساومته على حريته خصوصاً وأن الذي كان يساومه أستاذه الذي يشعر بالغيرة منه . وفي اليوم السابع من شهر يوليه لسنة ست وخمسين وستمائة وألف قضى مجلس الطائفة بحرمانه . وعلم قضاة أمستردام بتلك الواقعة وعدّ سبينوزا — من ذلك الحين — من ذوي الآراء الفاسدة والأفـكار الجريئـة السيئة . ولقد نجا بأعجوبة من طعنة خنجر صوّبها إليه أحد المتعصبين المتهوّسين .

كان سبينوزا في الثالثة والثلاثين من عمره عند ما هجر الأوساط اليهودية نهائيّـا ، وليس

شك في أن تلك العزلة قد أثرت في نفس مؤلف « الأخلاق » وأحدثت فيه شجواً عميقاً فالحياة في وسط المجتمع أحب — في بعض نواحيها — من العزلة التي تحمل العقل على التأملات العميقة .

يقول سبينوزا : « فيما عدا الرجال فاننا لا نعرف في الطبيعة أي شيء غريب تستطيع النفس بواسطته أن تهبنا شيئاً من السرور ونستطيع نحن من جانبنا أن نرتبط به برباط الصداقة أو بأية صلة اجتماعية غيرها . »

كانت نفس سبينوزا وديعة تتألم من الفضاء الذي يحيط بها ويكفي للدلالة على ذلك أن نورد العبارات الأولى من خطاب له يعبر فيه عن خلجات القلب واهتزازاته : « انها تملؤني حزناً وقلقاً . إن قلقي ما فتيء يزداد يوماً إثر يوم ولهذا السبب أرجوك وأستحلفك بصداقتنا ألاّ تمل من الكتابة اليّ طويلاً » .

ثم أنه لم يغادر الحظيرة اليهودية بغير مرارة وأسى ، فقد كانت له بمثابة حضن أمه . ومع احتفاظه بكنز هذا الحضن الثمين وطهره فإنه يرد على أولئك الذين لم يدركوا عبقريته من تلقاء أنفسهم في كتابه « نبذة في اللاهوت والسياسة » الذي أحدث هزّة عنيفة بعد ظهوره. وهذا ما حمل نيتشه على اهدائه هذه المقطوعة الشعرية :

« أيها الناظر الى « الكل في الفرد »
« أيها الحب الالهي ، السعيد بما يفكر فيه العقل »
« انزع حذاءك ! ان الأرض مقدسة ثلاث مرات ! »
« ولكن ، سرّاً ، تحت ستار هذا الحب »
« كانت تغلي مراجل حقد كمين »
« فعند رب اليهود يستتر حقد اليهود ... »
« أيها الناسك ! هل فهمتك ؟ ... »

وذهب بعد قطيعته ليقيم في حجرة عالية مطلة على طريق اوترردك بالقرب من أمستردام وهناك أخذ يتردد على منتدى « الكوليجان » وهي شيعة منونية كشيعة « الكواكرس » وسرعان ما أسس شبه منتدى لدراسة الأفكار لذاتها، قام فيه سيمون دفير يس بمهمة كاتم السر

وظلّ سبينوزا على اتصال متبادل مع أصدقائه في امستردام بكاتبهم بلا انقطاع. وكثيراً ما كانوا يلجئون إليه ويستوضحونه بعض المسائل الفلسفية العميقة. وفي غضون ذلك كان يكسب عيشه من قطع الزجاج وصقله للعدسات. وهو مدين بهذا الفن إلى معلوماته الرياضية وما فيها من تناسب وتناسق، ثم إلى تربيته العبرية القائلة بأن المهنة التي يمكن المرء كسب عيشه منها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالثقافة الخالية عن الأغراض أو بدراسة التوراة. ويتبين من المقدمة اللاتينية للكتاب الذي نشر بعد تحت اسم «بعد الموت» إنه باشتغاله في صقل الزجاج واعداده للتلسكوبات والميكروسكوبات قد برهن «على ما كان يستطيع أن يعمله في هذا الفن وانه لو لم يعاجله الموت في غير أوانه لأمكنه أن يقوم باكتشافات جليلة في هذا المضمار».

وكان له تلاميذ في الفلسفة وكذلك في اللغتين اللاتينية والعبرية. أما أصدقاؤه في عهد توجيهه أي بين ١٦٥٦ و ١٦٦٠ فكانوا بيتر بالنج وجاري جلس ولودفج ماير وسيمون جوستم وفرلس وجان ريوفرتس.

ولقد اعترف الراعي كورلوس أنه لا مجال للشك في أن سبينوزا قد تعلم شيئاً آخر في «مدرسة الشيطان» عن فرنسيس فان اند، وقد شعر بعاطفة حب نحو ابنته.

وفي سنة ١٦٦٠ انتقل للاقامة في رينسبورج بالقرب من ليد، والمنزل الذي كان يقيم فيه لا زال قائماً للآن، كما أن الشارع الذي يوجد فيه يحمل اسم الفيلسوف. إن الرغبة في العمل التي كانت تتأكله بلغت عنده غايتها حتى لقد قضى ثلاثة أشهر دون أن يظهر أمام الجمهور. وقضى سبينوزا في تلك المدينة خمس سنوات في عيش هادىء بسيط وتأملات سامية عميقة، وكتب رسالة في «إصلاح الادراك العقلي» وأخرى في «الأخلاق» على نحو ما تكتب البراهين الهندسية، انتهى من وضعهما عام ١٦٦٥. بيد أن تلك الغرة لم تنشر أبان حياته لما اتهم به — كما كتب إلى صديقه أولدنبورغ — من أنه أعدّ للطبع مؤلفاً يحاول أن يدلل فيه على عدم وجود الله. وقد انتهز تلك الفرصة بعض رجال اللاهوت الذين روّجوا تلك الاشاعة ورفعوا شكاية إلى الأمير والقضاة. ولم ينشر كتاب «الأخلاق» إلاّ عام ١٦٧٧، أي بعد موت الفيلسوف وفي نفس الوقت الذي ظهرت فيه نبذته عن «قوس قزح» ونبذة أخرى غير مستوفاة عن السياسة. وفي عام ١٨٥٢ نشر فان فولتين

على « نبذة صغيرة في الله والانسان » كتبت باللغة الهولندية ويمكن اعتبارها مذكرة تمهيدية لكتاب « الأخلاق » . وكتب كذلك مؤلفاً صغيراً عن القواعد التي يمكن بواسطتها حساب الحظ .

أما الكتب التي نشرت في حياته ، وأحدها تحت اسم مستعار ، فهي « مبادىء فلسفة ديكارت » عام ١٦٦٣ وقد وضعه خصيصاً لتلميذه الشاب البير دي بودج لأنه لم يشأ أن يطلعه على أسرار فلسفته الخاصة ، وذيله بنبذة عن « الفكر » ، ثم رسالة في « الدين والدولة » عام ١٦٧٠ . وقد ظهر هذا الكتاب ضمن فهرس الكتب المحظور بيعها ، فكان هذا الحظر عاملاً على رواج الكتاب وصاروا يتداولونه تحت أسماء مستعارة ، وكتبت عنه مؤلفات كثيرة لنقده ودحض ما جاء به .

وعظمت شهرة سبينوزا ، فأصبح على اتصال وثيق بذوي الحيثيات . فالى جانب هنري أولدنبرغ ، أول كاتم سر للجمعية الملكية في لندن الذي كان يراسله طويلاً ، كانت علاقته شديدة بستنو مؤسس الجيولوجيا الحديثة ، وهوجنس صانع العدسات ، وليبنتز الذي زاره عام ١٦٧٦ ، والدكتور لويس ماير ، والكونت تشيرنهوس . وقد كانت صداقته بجان دي ويت متينة واستمرت تلك الصلة زهاء خمس وعشرين سنة . وعندما قتل دي ويت وأخوه على قارعة الطريق بيد جماعة من الشعب إذ ظنوا أنهما السبب في هزيمة الجيوش الهولندية في حربها مع فرنسا عام ١٦٧٢ ، بكى سبينوزا بكاء الأطفال عند سماعه نبأ الجريمة ولو لم يُحَلْ بينه وبين عزيمته بالقوة لكان انتقل ، كما فعل انطونيوس عند مقتل قيصر ، إلى مكان الجريمة وندَّد بفاعليها . وبعد ردح قصير من الزمن استدعاه البرنس « دي كونديه » ، قائد الجيش الفرنسي ، إلى زيارته في معسكره ليهنئه على ثقة ملك فرنسا ومودته والجعل السنوي الذي قرر أن يمنحه إياه ثم ليقدم له بعض المعجبين به . ولما كان سبينوزا « أوربيّاً طيباً » أكثر مما كان وطنيّاً متعصباً ، فإنه لم يجد في تلك الدعوة غضاضة وسار إلى معسكر « كونديه » وعندما آب إلى لاهاي كان نبأ تلك الزيارة قد انتشر فثارت ضده عاصفة استياء هوجاء وخشي فان دن سبيك مضيفه أن يهاجم الشعب بيته . فطمأنه سبينوزا بقوله : « انني لأستطيع أن أبرىء نفسي وأمحو بها عن كل خيانة أوربية . . . فاذا أظهر الشعب أدنى

ميل لمضايقتك — ولو على سبيل التجمهر والصياح أمام منزلك — فانني أذهب اليه وأواجهه ولو لقيت حتفي منه كما لقيه المسكين ويت » . على أن الشعب عرف أن سبينوزا ليس إلاّ فيلسوفاً فقرر ألاّ خطر منه . إذ ذاك هدأ اضطرابه وسكن .

وأقام سبينوزا عدة سنوات في رينسبورج ثم انتقل منها للاقامة في فوربورج عام ١٦٦٣ . وفي سنة ١٦٧٠ قرر الاقامة في لاهاي بالذات حيث عقد أواصر صداقة متينة مع كثير من الاخوان الأوفياء من ذوي المكانة والنفوذ .

وكان يعيش عيشاً بسيطاً جداً قانعاً للغاية ، لا يرمي من ورائه إلى غاية أو غرض . فنفقاته اليومية كانت قاصرة على النذر القليل وهذا ما كان يساعده على العيش طيلة عامه في حدود ميزانيته . ويصف نفسه بأنه يفعل كما تفعل « الأفعى التي تضع ذنبها في فمها لتستريح » وكان سبينوزا — على الرغم من طبيعته الصوفية — لا يمتدح الزهد والتنسك ويتقبل الحياة مرحاً مسروراً . وقد كتب في ذلك : « إن الضحك وكذلك المرح والمزاح ألوان من السرور فهي والحالة هذه مستحبة في ذاتها ما دامت بغير إفراط . وليس ما يحول دون الاستمتاع بالملذات إلاّ عوامل وحشية وتطيّر كئيب . فهل يوجد خير من إقصاء الشجو والهموم لاخماد وطأة الجوع والظمأ ؟ تلك هي طريقتي وكل عقيدتي وايماني . وإذا نحن استثنينا الحسود فإنه لاتوجد أية ألوهية تسر من عجزي وألمي ، وليس أقدر منها على جعل دموعنا وزفراتنا وخوفنا ، وغيرها من مظاهر ضعفنا الباطن ، بمثابة فضيلة فينا . وإن الأمر لعلى عكس ذلك ، فبقدر تعاظم السرور الذي يبدو فينا ، وبقدر تعاظم درجة الكمال التي ننتقل إليها ، تكون نسبة اشتراكنا في الطبيعة الالهية كبيرة . وإذن فمن الحكمة كما كنت أقول ، أن يستعين المرء في غذائه وتجديد قواه ، بأطعمة شهية وشراب لذيذ مع مراعاة الاعتدال في تناولها ، كما يستعين أيضاً بالعطور وينعم بالنباتات الزاهرة والرياحين والزينة والموسيقى والألعاب الرياضية والتمثيل وما أشبه ذلك من الأشياء التي يستطيع كل انسان أن يتمتع بها بغير ما اضرار بالغير » .

ولم يكن سبينوزا بعيداً عن الحياة السياسية أو غير مكترث بها . فمغامرته في هذا السبيل كادت أحياناً تودي بحياته . وقد شق طريقه في هذه الحياة على الرغم من الحزم الذي توقع

عليه ولـكنه لم يكن يطمع في جاه أو ثروة . ومن تلك الناحية كانت حياته شـديدة الشبه كثيرة الملاءمة بحيـاة الطبقة الراقية الارستوقراطية وبالروح السـائدة في بني اسرائيل والأنبياء وعظماء الرجال الذين سموا بأفكارهم وأعمالهم الجليلة والمكابيين ويسوع. وقد رفض هبة ألفي وخمسمائة فلورين قدّمها له صـديقه سيمون دي فريس من ثراة تجار امستردام . وعند ما عرض عليه المذكور بعد ذلك أن يخلف له ثروته بأ كلها ، أقنعه سبينوزا بأن يترك جميع ما يملكه لأخيه . وعنـد وفاة التاجر اتضح انه حدد في وصيته أن يمنح سبينوزا معاشاً سنويّـا قدّره بستمائة فلورين تؤخذ من ريع أملاكه فحاول سبينوزا مرة أخرى التخلص من تلك الهبـة قائلاً : « ان الطبيعة تقنع بالقليـل وما دامت حالها كذلك فتلك هي أيضاً حالي » . على انهم حملوه في النهـاية على قبول ثلاثمائة وخمسـين فلورين في كل عام . وضمن له صديق آخر ، هو جان دي ويت كبير قضاة الجمهورية الهولندية مائة فلورين معاشاً من الدولة . وفي النهاية عرض عليه الملك العظيم لويس الرابع عشر بنفسه معاشاً بشرط أن يهديه سبينوزا المؤلف الذي سيضعه . فرفض سبينوزا هذا العرض في قالب مفرغ باللباقة والـكياسة . كما رفض منصب محاضر في جامعـة هايدلبرج وأجاب على ذلك العرض المغري بما يأتي :

« لو انني شعرت من نفسي بميل يدفعني يوماً الى شغل منصب التدريس لما رغبت »
« نفسي في غير المنصب الذي يعرضه عليّ سمو الحاكم بواسطتكم لاسيما وان سموّ الأمير »
« قد تنازل وسمح لي بحرية التفلسف . ناهيك مما أشعر به من رغبة في العيش في بلد »
« يحكمه أمير يعجب الكل بحكمته . بيد انني لم أشعر أبداً بدافع الى التدريس ولذلك »
« لم أستطع أن أحمل نفسي على انتهاز تلك الفرصة الطيبة . ان أول ما أفكر فيه هو »
« انني سأضطر الى التخلي عن أبحـاثي الفلسفية اذا أنا انقطعت الى تعـليم النشء . »
« ومن جهة أخرى فانني أجهل الحد الذي ستقف عنده حرية آرائي الفلسفية حتى »
« لا أظهر بمظهر من يحاول أن يعكر صفو دين الدولة الرسمي ... فأنت ترى إذن »
« ياسيدي ، ان ما يمنعني ليس الطمع في حظ أوفر ولـكن هي راحتي وطمأنينتي »
« التي يجب أن أقيها وأصونها بتجنب الدروس العامة . »

كان سبينوزا يجلس أمام مكتبه منذ الفجر فيعمل ويتأمل . فلا يقطع قطعة من الاسطوانة الزجاجية بعامته إلاّ « ويستأصل فكرة من المذهب العظيم الذي كان كامناً في خبيئة نفسه بحالته الطبيعية دون أن يهذّبها أو يصقلها »

وكان يترك حجر المسن من وقت لآخر ليجلس الى جانب زائريه في البهو الكبير . وأحياناً كان يدخن غليوناً مع الرسام الشهير فان دن سبيك ويتحدث معه عن الرسم ، اذ أن سبينوزا كان يعرف الرسم ولديه كراسة مليئة بالصور . وكان كذلك يرسم صور من زاروه من مخيلته .

ولم يطل أمد تلك الحياة المضطربة القلقة . وكان مصاباً بسل وراثي . فاستسلم مع الأسف لموت مبكر عاجل ، على الرغم من أنه كان يكتب الصفحات المؤثرة الدقيقة في معنى الحياة وفوائدها . ولكنه كان يخشى على أشهر مؤلفاته « الأخلاق » من الضياع أو العبث به عقب موته . فوضع أصول هذا المؤلف النفيس في مكتبة صغيرة لديه وسلم مفتاحها الى مضيفه وسأله أن يحمل المكتب بما فيه الى جان ريو ورتز الناشر في أمستردام إذا ما حمّ الأجل المحتوم . ومات الفيلسوف في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الأحد الموافق ٣٠ فبراير لسنة ستمائة وسبعة وسبعين وألف وهو في الرابعة والأربعين من عمره بين ذراعي صديقه الوفي ، الدكتور لويس ماير . وحمل جثمان الفيلسوف ، بعد أربعة أيام إلى المعبد حيث صلى عليه الراعي كوردس ثم نقل النعش إلى المدافن حيث وضع في حفرة عمومية . وقد بكاه كثير من الناس لأن كثيراً منهم أحبوه لوداعة أخلاقه بقدر ما أجله العلماء لحكمته . وانضمّ عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين ورجال القانون إلى جموع الشعب في تشييع الراحل الى مقره الأخير .

وأرسل صديقاه لويس ماير وهولر جميع مؤلفاته التي لم تنشر الى ناشر كتبه ريو ورتز في أمستردام سرّاً فظهرت كلها في نهاية السنة التي مات فيها أي عام ١٦٧٧ تحت عنوان « أوبرا بوستوما » بقلم ب . د . س . وكانت تشمل « الأخلاق » و « النبذة السياسية » و « اصلاح الادراك العقلي » و « رسائله » و « الأجرومية العبرية »

٣ - مصادر المذهب الاسبينوزي

انه لمن أهم الأمور — قبل التبسط في تحليل دقيق لمذهب سبينوزا — أن نستظهر، على قدر المستطاع، جميع نواحي إلهامه، إذ أن كثيراً ما يُساء فهم فلسفة سبينوزا، وكثيراً ما تطبق تلك الفلسفة بطرق منوعة متباينة، وأحياناً تكون في تطبيقها خاضعة لمزاج من يدرسها واستعداده الشخصي. فالماديون والروحانيون والعلماء والمفكرون الأحرار لا يترددون في أن يسندوا إليها، كل بحسب طريقته، صفات غريبة عنها على الرغم، طبعاً، من تحبيذهم لها أو اشمئزازهم منها. على أن ما هو أعظم من ذلك هو أنهم يحاولون الجزم بتبعية تلك الفلسفة لاحدى الأقيسة. ولكنهم يخطئون كثيراً في فهم سبينوزا.

لا شك في أن سبينوزا قد تأثر كثيراً. ولكن، أي مفكر يستطيع القول بأن ما أورده كان — على الاطلاق — من ابتكاره الشخصي دون أن يلجأ — ولو عن غير عمد — إلى أفكار أخرى مطابقة لأفكاره تماماً؟ على أنه قلَّ أن تحافظ تلك الأفكار على صبغتها الأصلية عند العالم المتعمق في النظريات، لأنها تتأثر وتتحوَّل في دماغه تحولاً عميقاً فتنشأ نشوءاً جديداً وتتضخم بحصة جديدة من الأفكار المستحدثة. وهذا ما يفسر لنا الشخصية الخلاَّقة في سبينوزا. فالى جانب العلاقات المعنوية التي تربطه بطبيعته إلى تلك المدرسة أو سواها، يوجد سبينوزا بالذات كما توجد عبقريته الخاصة، والابتكارات الفردية التي يخلقها الفنان الذي يمثل عمله عروقه التي يسري فيها دمه ونفسه، والذي لا يبدي استعداداً ما للامتزاج بغيره أو الاندماج به.

ومع ذلك فإذا نحن حاولنا أن نشرح المذهب الاسبينوزي بتحليل مستفيض دقيق. فلا شك في أنه يمكن اكتشاف عناصر مختلفة يحتمل تقسيمها تيارين واضحين بينين، الفلسفة اليهودية وفلسفة ديكارت. إن أصول علمه بما بعد الطبيعة، والتبلّر الذاتي لتأملاته السامية، تقوم كلها على أساس يهودي جوهري. أما الأسلوب، أو إذا شئنا، الكيفية

التي يقدم بهـا قيامه في مظهر واضح جلي ، فلا شك في أنه مقتبس عن مبدإ ديكارت . إن الرجل ، مهما كانت ملكة التشبه فيه قوية ، لا يستطيع بتاتاً أن يعدو أساس كيانه الذي ترتبط به أليافه بنواة وراثية خاصة . ان جميع الأفكار الجديدة التي يكتسبها لا تندمج فعلاً ما لم يكن بينها وبين تلك النواة نوع من التجانس . فالجديد يلحق بالقديم بصفة وقتية بحيث يسهل تمييزه وفصله . ولا يمكن أن يمتزج بالقديم تماماً إلاّ إذا اكتسب نوعاً من القوة المرتبطة بمدة زمنية بعيدة المدى لا تقل في نسبتها عن عدة أعقاب .

وإذن، فيما يتعلق بالمذهب الاسبينوزي، يجب أن نبدد في الحال خطأ يخال أنه سيظل متأصلاً في أذهان بعض الشراح البارزين ، فمذهب سبينوزا برمته هو ، في نظرهم ، عبارة عن مذهب ديكارت مع بعض الاختلاف وبعض المغالاة . ولكن إذا نحن تناولنا الأشياء في ذاتها، أي إذا نحن أعدنا الحكم إلى الموضوعية بعد أن نتوارى أمام الوقائع ، وهذا ما يجب على كل باحث منقب أن يعمل به — فاننا لا نلبث أن نلاحظ أن سبينوزا ، في خصائصه وذاتيته ليس مريداً لديكارت ، وأن هناك هوّة سحيقة بعيدة الغور تفصل بين الفيلسوفين . إن ديكارت من أتباع الاستقرار الاجتماعي وسبينوزا من أتباع التطور الاجتماعي : إن الأول « عقلي » يتقيد بكل ما هو جلي بين وبكل ما يمكن أن يتحول إلى رياضي بحت وبكل ما هو كمّي يمكن تمييزه، في حين أن الثاني متصوف ومذهبه العقلي ملطّف ويلوح كأنه آلة للتفسير الحسن . إن سبينوزا عالم بحث بما وراء الطبيعة وهو يرمي في منهجه إلى ادراك التمة في الحال والوصول إلى « الكل الأعظم » ، إلى الكون ، إلى الله ، في حين ان ديكارت الذي بدأ من البسيط ليصل إلى المقصد دون أن يحيد عن المنظور والمحسوس ، قد ترك الألوهية للاهوتيين وقصر عمله على أن يشرح شرحاً واضحاً ، بعد فترة لا شك طويلة ، حقيقة قوله « إنني أفكر وإذن فأنا موجود » ، والحركة الحيوية التي تنشأ عن هذا القول . وقد كتب سبينوزا الى اولدنبورغ : « تسألني عن الأخطاء التي ألاحظها على فلسفة ديكارت وفلسفة باكون ؟ إنني وإن كنت لم أتعوّد الاشارة الى أخطاء الغير الا أنني أسلم برغبتك . إن أول الأخطاء وأعظمها هو انهما بعيدان تمام البعد عن معرفة السبب الأول في جميع الأشياء

وأصلها . والثاني هو انهما لا يعرفان حقيقة طبيعة النفس البشرية . والثالث هو أنهما لم يدركا السبب الحقيقي في الخطإ » .

ان « بروشار » قد ميز تماماً علاقة سبينوزا بالفكرة اليهودية وإن كان يمكن إبداء بعض التحفظات على ما كتبه عن « رب » اسبينوزا ، فقد قال : « لا يجب أن يغرب عنا أن طريقة مدرسة الاسكندرية في فهم معنى الألوهية وتصورها كما أخذها سبينوزا عن أساتذته اليهود والعرب ، مرتبطة منذ نشأتها بالدين اليهودي . فالفكرة اليهودية قد انتقلت إلى العالم الغربي بواسطة « فيلون » في بدء عصرنا . فوجود مثل هذا التجانس الطبيعي كان لا بد أن يحمل سبينوزا على البحث عن مدارك من هذا القبيل . فما كاد يكتشف عند خلفاء أفلوطين تلك الطريقة في فهم الله وتصوره وملاءمتها لمداركه وتفكيره ، حتى استأنف سيره في تلك الطريق مع بقائه وفيًّا لروح جنسه . ومما لا شك فيه أن أسس منهجه وكذلك روح ذلك المنهج قائمة على فكرة يهودية على الرغم مما طرأ عليها من تعديل واضافة . « فربُّ » سبينوزا هو « يهوه » مع كثير من التحسين في طريقة فهمه وكيفية تصوره » .

لقد قرر هوفدنج صراحة كما قرر جوئيل ، « ان سبينوزا لم يكن ديكارتيًّا على الاطلاق ولكنه درس كثيراً تعاليم ديكارت ، واستعان بالكثير من أفكاره ، واستخدم جزءاً من مصطلحاته الفنية » . ولا شك في أنه أخذ عن ديكارت طريقة ترتيب الحقائق وتنظيمها مسلسلة وهي تلك الطريقة التي تبدأ « بعرض الأفكار واضحة جلية وتظهر قوة الإدراك وغزارة الفهم بواسطة خلق العلوم الرياضية وعلم الطبيعة » . فديكارت هو الذي علمه « أن اكتساب اليقين سابق لاكتشاف المنهج » . وعلى هذا الاعتبار يلاحظ برونشفيج أنه « إذا كان المعنى الظاهر عند سبينوزا مقتبس عن ديكارت فإنه « يعتبر متمماً للمعنى الظاهر عند ديكارت بفضل ما أضافه إليه من الافكار الجريئة » . على أن جول لانيو ، الاسبينوزي المدقق ، يشرح لنا بحذق ولباقة أنه « يجب فهم المنهج » أو بالأحرى نفس سبينوزا حتى يمكن الوصول إلى فهم أهمية الحوار الأول ، واستنتاج حصة المذهب الديكارتي منه وهي تكاد تكون معدومة ، وحصة المذهب اليهودي وحصة المسيحية وهي الراجحة ، في تكوين الشخصية » . إن الفرق بيّن بين سبينوزا وديكارت : ويستطرد لانيو :

« ان ديكارت يبدأ بالشك في حين أنه لا يوجد أثر للشك عند سبينوزا ، فهو منذ أن وضع مبداه ، متعمق في الايمان، وذلك لأن كل ما فيه نتيجة للشعور والاختبار الداخلي».

إن « سعيه وراء الوحدة المطلقة يهودي النزعة » ومنهجه يعد في جوهره « انتقاماً » للفلسفة العامة وللفلسفات اليونانية والشرقية والمسيحية من المذهب الواقعي الفرنسي. إن شك ديكارت الوقتي ليس في الحقيقة الا نبذاً تاماً وقطيعة كلية للعادات البشرية. ودخل سبينوزا الميدان وبين أن الفكرة العلمية ستكتسب من دخوله أكثر مما ستخسره. وإلى جانب ذلك فان أساسه الديكارتي الذي يرتبط ، بوجه خاص « بالمقال عن الاسلوب » يتغلب ، على حد ملاحظة فرودنتال ، على جميع ما استعاره من الفلسفة المدرسية.

وإنه ليظهر أن جيوردانو برونو إذ يتمسك بأن « المبدأ الاول لانهائي في جميع خصائصه وبأن إحدى تلك الخصائص هي الامتداد ، يعد مصدراً غير مباشر للاسبينوزية. إن بايل كان يدلل على أن افتراضه شبيه تمام الشبه بالاسبينوزية . . . » ليست عظمة الله وما يتبعها عقيدة أقل إلحاداً عند جيوردانو برونو منها عند سبينوزا. فكلاهما من أشد أنصار الوحدة». ان النقد الحديث مع سيجورات وأفِنَاريُوس« قد بين أوجه الشبه، إلى حد ما . بيد إنه لم يستطع أن يميز أيها يحمل البرهان على تأثير « برونو» عليه تأثيراً خاصاً. إن وراء برونو وسبينوزا يوجد مذهب الأفلاطونية الحديثة « الذي أثرت روحه في علم ما بعد الطبيعة الذي يدرسه رجال اللاهوت اليهود، أول أساتذة سبينوزا » إن « برونو»، على حد الملاحظة الصادقة الواردة في الموسوعة اليهودية ، قد استلهم الوحي بغير ما ريب ، من الكباليين الذين يدينون بمذهب الحلول، أي أن الله موجود في الكون وليس هو علة انتقال

ومع ذلك فان جوئيل يُلح في تلك الفكرة وهي أن سبينوزا ليس ابن«البعث» أومريد ديكارت. إن قرابته يهودية بنوع خاص. إن مؤلف « الأخلاق » يستشهد بأسماء بعض حكماء اليهود كيهوذا البهار وحصداي كرسكا ، وجرسونيد وابن ميمون الذين اقتبس عنهم. وقد استكفى سبينوزا بكثير من أعمال هؤلاء المفكرين وغيرهم كراشي وابن عذرا واستعان بها دون أن يأتي على ذكرهم. إن تمييز الخصائص عند سبينوزا وكذلك نظرات هذا الفيلسوف عن الخليقة وعن الإرادة الحرة وعن حب الله وعن مذهب القدرية قد ورد ذكرها في « النور

الالهي» الذي أنشأه حصداي . وبالاجمال فان جوئيل يضيف «كل ما أمكن أن يزهر في دراسة سبينوزا النظرية يمكن أن يميز عند كرسكاس» . ففي الحب الروحاني يلاحظ جوئيل أيضاً أن سبينوزا قد اقتبس عن كرسكاس ، فيما يتعلق بالحب ، وعن ابن ميمون كل ما هو خاص بالادراك والفهم . إن سبينوزا ، على غرار حصداي كرسكا ، يعارض ابن ميمون وأرسطو. على ان هذا لم يمنعه من الاقتباس من مؤلف «دلالة الحائرين[1]» لاسيما في رسائله عن الشكل الانساني فبعض فقراتها تقوم دليلاً قاطعاً على تأثير ابن ميمون عليه تأثيراً كبيراً .

وهناك أيضاً مصدر يهودي هام لجأ إليه سبينوزا واستقى منه كثيراً من العناصر لارتباطها ببحوثه فيما بعد الطبيعة ، وهو « الكبال » . وفيلسوف كفلوبورج لم يجهل ذلك أو ينكره حيث يقول : « لقد قرأت كذلك لبعض الكباليين ووقفت على ترهاتهم وأباطيلهم ودهشت كثيراً لجنونهم »

إن روحانيته تمتاز بطابع خاص . ولاشك في أن هذا الطابع كان يحول دون استساغتها للناحية الخيالية التي تنطوي عليه الرموز الكتابية وما يحيط بها من الأوهام . بيد ان تصوفه ، وكثيراً من نواحي مذهبه وأركانه الهامة ، مشتقة بغير ما ريب ، أو قل ما يكون بغير ما شعور بالواقع أو تعمد ، من « الكبال ». إن الصورة التي وضعها للكون لا تخلو من بعض الشبه مع ما تصوره به العوالم . كما ان فكرته عن الحلول شبيهة بفكرة النشوء ، ومن ناحية أخرى خاصة. فان اللانهائي عنده شبيه بالأزلي . إن الأزلي في عرف «الزوهار» الذي يوجب الانبساط والامتداد يؤدي « في انحطاطه إلى الفكرة أو إلى المادة ولا يخرج عن كونه انحطاط للفكرة بالذات » . وفي ذلك يكتب سبينوزا : « وهكذا فإن نوع الامتداد وفكرة هذا النوع ، ليسا إلاّ شيئاً واحداً ، ولكن يعبر عنهما بطريقتين مختلفتين ، وهذا ما يخيل إلى بعض العبرانيين انهم رأوه كما ترى الأشياء خلف الغمام »

وإنه ليكفي أن نورد نبذة من موسى كوردويرو ، مفسر «الزوهار» المبدع ، للوقوف على ما يوجد من التقارب بين المذهب الاسبينوزي والكبال : « إن الخالق يؤلف بذاته المعرفة، والذي يعرف، والشيء المعروف . وفي الواقع أن طريقته في معرفة الشيء لاتقوم على

(1) Guide of the Perplexed

تطبيق فكرته على أشياء خارجة عنه . ولكنه ، بفضل معرفته لذاته وعلمه بذاته ، يعرف كل ما هو كائن ويرى كل ما هو موجود . فلا يوجد شيء إلاّ إذا كان متحداً معه ويوجد في جوهره الذاتي » .

وقد قال سبينوزا كذلك : « لا يوجد أي سبب ، سواء أكان خارجاً عن الله أو في ذاته ، يدفعه إلى العمل إن لم يكن كمال طبيعته » .

ويخال أيضاً — ونحن نورد ذلك في منتهى التحفظ — ان سبينوزا قد تأثر قليلاً بحوار الحب الذي ألفه ليون العبري (مؤلف نشر عام ١٥٣٥)

إن جميع المصادر التي جئنا بها تتضمن ،في الواقع ، أشياء قليلة عن المذهب الاسبينوزي فهذا المذهب ، في مجموعه يتجلى لنا كمجهود عظيم وبناء ضخم . والواقع أن سبينوزا تأمل طويلاً في الليالي الطويلة التي أرقها وما قرأه لم يكن ذا تأثير كبير عليه . إن قوته الخلاقة المتجلية في كتاباته تدل على بدعة نادرة ،خصوصاً إذا كانت ترمي الى دائرة معقدة فسيحة تشمل الكون بأسره .

٤ – الاسبينوزية

إن الفائدة النظرية من فلسفة سبينوزا تقوم في الواقع على اعتبار « الكل » وعلى علم « ما بعد الطبيعة » واقعي يرمي الى تفسير أصل الأشياء وكل ما يبلبل العقل الحائر . فهو لا يستسلم لأي كذب أو اختلاق أو أي تقريب أو أي شك أو أية هزيمة . ليس علم ما بعد الطبيعة في نظره مكاناً متشعب الطرق يخشى الضياع فيه ، فهو قائم على قواعد صحيحة مختمرة ذات قيمة علمية وثيقة صارمة غير قابلة لأي نزاع كالقواعد الرياضية البحتة . على أن نقطة البدء في تلك الفلسفة يترك في ذهن من يدرسها بعض الغموض على الرغم من متانة العمل وجلائه في ارتباط براهينه وايضاحاته . ويجب ، لفهم سبينوزا ، ألاَّ يكتفى بالتقمص في روح هذا الفيلسوف أو جسّها بتأمل دقيق طويل ، ولكن يجب ألاَّ تفوت الذاكرة ، ان التركيب الحكيم ذا النظم الرياضية الذي يتجلى به عمله — وأخص بالذكر مؤلفه العظيم « الأخلاق » — ليس في الواقع إلاَّ وسيلة عظيمة خصصت لتبديد بعض الأخطاء الشائعة في عصر تجلت فيه ثورة العقل البشري تحت مراقبة العقل السامي الفعَّالة . إن سبينوزا أحد أتباع النهضة المتحمسين ومن أشياع ذلك الجو الثوري الذي عاش فيه رجال أمثال كوبرنيكوس وجاليليو وبرونو وجيلبرت وهارفي وبويل وديكارت وهوجنس وبسكال وليبنتز ونيوتن . إنه يخول للعقل دوراً رئيسيًّا ما دام أنه لا يتردد في إخضاع مراقبة الكتب المقدسة لتصديق العقل . على ان ذلك في الواقع ليس إلاَّ وسيلة ظاهرة بعيدة عن أن تذلل الصعوبة الملازمة لفلسفة سبينوزا . لقد كان سبينوزا وسيظل في ذاته متصوفاً حدسيًّا . فوراء جميع الخطوط الجميلة المنتظمة أو الهندسية التي تملأ بوجه خاص كتاب « الأخلاق » يتوارى العقل الملتهب الفائر ذو القوة الكامنة ، عقل النبي الذي يدرك الألوهية والكائن الكلي عن طريق الرؤيا أو الالهام أو نوع من التجانس مع الأشياء . ومثل هذا الخلق يعيد إلى الذاكرة ، من تلك الناحية ، استعداد الخالق الحقيقي والفنان العبقري . إن سبينوزا يلتقي ،

عند تلك النقطة ، وعلى الرغم من لهجته الشديدة في نقد الكتب المقدسة ، بعبقرية أخرى هي عبقرية « پسكال » الرجل الذي وقف حياته على مدح إلـه ابرهيم واسحاق ويعقوب ، لا إلـه الفلاسفة .

فلا يمكن، والحالة هذه ، تفهم المذهب الاسبينوزي إن لم يراع أساسه وهو إلهامي بحت وصادر عن روح طالما انكمشت على نفسها وحياة داخلية شديدة قاسية ، إلاّ أن سبينوزا يريد أن تكون خليقته محسوسة ملموسة وأن تلبس الروح جسماً سليماً قويًّا ليجيب داعي القلب بغير مشقة أو عناء . وإذن فهو يحاول أن يجمع بين الروح الملهم والروح العقلي . وانا لنجد ، من تلك الناحية أيضاً ، بعض الشبه مع اتجاه نظرية پسكال . إن الذين يخضعون الاسبينوزية للتفكير العقلي البحت هم ، في نظرنا ، مخطئون . فالتصوف ، كما بيّنا آنفاً ، لا ينفي العقل كلية .

إن علم ما بعد الطبيعة الذي يقول به سبينوزا لا يقف عند حد إرضاء الذهن البشري بحل المواضيع التي يخال أنها من المعضلات التي يستعصى حلها . وإنما هو يرمي كذلك الى نتائج أخلاقية تعزي أولئك الذين ناؤوا تحت عبء الوساوس والهموم . إن مذهب سبينوزا هو ، قبل كل شيء ، فلسفة الحياة ويرتبط بصلة وثيقة إلى منشئه اليهودي الذي يرجع في جوهره إلى تعاليم حكيمة تتناسب ، مع الأسف ، والحياة الوقتية الزائلة .

إن سبينوزا بكتابه « الأخلاق » يدخل بنا دفعة واحدة في صميم علم ما بعد الطبيعة وحقيقته، ويجعلنا نتصل اتصالاً مباشراً مع الكائن الرئيسي الأعظم ومع الجوهر ومع الله، ثم يرجع بنا ، دون أن نشعر ، إلى الأرض لنتبين امتداد الكائن ، أو بعبارة أخرى ، كل ما ينبثق من الكائن الرئيسي الأعظم لكي نتفهم الناحية العاملة المحسوسة الصحيحة للشيء الرئيسي ، وبعد أن يطلعنا على تعدد ووفرة الكائنات المحسوسة الملموسة التي يأهل بها الكون يؤوب بنا الى القمّة ويربطنا بالكائن الاسمى ويجعلنا نلمس جلاله بأصبعنا فيضعنا هكذا في وسط الأبدية . لم تتصور عبقرية بشرية مشهداً يمثل هذا الجمال السامي مطلقاً . وبتعبير آخر بعد أن يضيء لنا الطبيعة بأسرها وكل ما يتفرع منها ، والكائنات لاسيما الرجل بجميع شهواته وانعطافاته العقلية ، وبعد أن يبرز جميع القوة الالهية الأبدية التي

تؤثر في عالم الروح وفي عالم المادة ، يدعونا سبينوزا إلى إمعان النظر في نفوسنا وفي كل شيء من الوجهة الأزلية . وإنه بذلك يبدد ما يقلقنا من شكوك إذ يجعلنا نشعر بأننا نكوّن وحدة مع الكائن السرمدي اللانهائي .

فلنجتهد في أن ندرس عن كثب جمال تلك الفكرة وغناها في مختلف أدوارها وأطوارها .

١ — طبيعة المعرفة

ان سبينوزا ، بما عرف عنه من شدة الاهتمام بصحة ما يؤكده من الحقيقة والبحث عن الحقيقة ، يشرح بفراسة لا تني الانفعال ، سلسلة مبادىء ، لم تتم ، مع الأسف ا عن تنظيم الادراك العقلي . وان الانسان ليرى فيها ، كما يرى في جميع كتاباته وفي جميع نظرياته ، روح الفنان ، روح سبينوزا تتلألأ وتتجلى في اتحاد غرضين متباينين تمام التباين : فمن جهة ، العالم بما بعد الطبيعة الذي يقدر ، في كل ما يعالجه ، منابت الاشياء وقيمتها الاصلية والكائن في جميع عظمته وسلطانه، ومن أخرى، المهذبُ الاخلاقي الذي يراعي دائماً الحرية والسعادة والغاية والحياة الداخلية السعيدة .

وهكذا فإن فيلسوف لاهاي ، قبل أن يشركنا في المنهج الذي لا بد من وجوده لتقدير الأمور على وجهها الصحيح ، يعترف لنا بتواضع بمقدار ما لقيه من عناء وتفكير ليتوصل إلى اكتشاف هدوء النفس وحالتها الطبيعية . ولقد كتب :

« لقد علمني الاختبار أن أغلب المصادفات التي تقع في الحياة العادية وهمية باطلة »
« ولقد كنت أرى انه لا يوجد بين الأشياء ، التي كانت لي سبباً أو مادة للخوف ، »
« شيء واحد يتضمن في ذاته خيراً أو شرّاً إن لم يكن بنسبة التأثير الذي يثيره في »
« الروح . ولقد اعتزمت في النهاية أن أبحث عما إذا كانت هناك مادة يصح اعتبارها »
« خيراً حقيقيًّا يسهل تبادله وتستطيع النفس أن تتأثر بواسطته بعد أن تزهد في كل »
« شيء آخر : خيراً تكون ثمرة اكتشافه أبدية والاستمتاع به أبدية من السرور »
« المستمر السامي ، فلت بأني قد اعتزمت في النهاية : حقًّا لقد كان يخال لأول وهلة »

« أن من الطيش وضعف التمييز محاولة فقد شيء موثوق به في سبيل الحصول على »
« شيء غير مؤكد . لقد كنت أعلم جدّ العلم ما هي الفوائد التي يمكن استخلاصها من »
« الشرف والثروة وأنه كان يجب عليّ أن أكف عن السعي وراء تلك الفوائد إذا أنا »
« شئت أن أقف عنايتي على السعي وراء مشروع آخر جديد : فإذا كان هذا المشروع »
« يتضمن السعادة التامة كان لا بد لي أن أعدل عن تملكها ، وبالعكس إن لم يتضمن »
« هذا المشروع تلك السعادة فلا ريب في أن قصر اهتمامي على تلك الفوائد وتمسكي بها »
« يجعلني أفقدها كذلك . إن نفسي إذن كانت قلقة لتعلم إذا كان في الامكان، وبطريق »
« المصادفة ، اشادة حياة جديدة ، أو على الأقل الحصول على يقين بامكان حدوث ذلك »
« بدون تغيير في نظام حياتي القديم أو في سيرها العادي . ولقد طالما حاولت ذلك عبثاً . »
« إن المصادفات التي يكثر وقوعها في الحياة ، تلك التي يعتبرها الرجال بمثابة أسمى »
« أنواع المتاع ، كما يتبين ذلك من جميع أعمالهم ، ترجع في الواقع إلى ثلاثة أمور : »
« الغنى والشرف ولذة الحواس : وإذن فكل أمر من تلك الأمور الثلاثة يلهي »
« العقل عن كل فكرة خاصة بأي نوع آخر من أنواع الخير . ففيما يختص باللذة »
« فان النفس تتعلق بها كأنها وجدت نوعاً من الخير تستريح إليه . فهي إذن محرومة »
« إلى أبعد مدى ، من التفكير في أي خير آخر . ومن جهة أخرى فإن اللذة يعقبها »
« حزن عميق . وهذا الحزن إن لم يقف تيار الفكر ، فإنه يعكر صفوه ويضعفه . »
« وأما السعي وراء الشرف والثراء فإنه لا يقل تأثيراً على النفس . فأما السعي وراء الثراء »
« خصوصاً إذا كان البحث عنه لذاته ، فلأن المرء في هذه الحالة ، يحله مكانة الخير »
« الأسمى . وأما السعي وراء الشرف فلأنه يستحوذ على العقل ويتفرد به لأنه »
« لا يمكن التخلي عن اعتباره شيئاً طيباً في حد ذاته واعتباره بمثابة الغاية التي تؤول »
« اليها جميع الأعمال . »

إن المرء ليشعر ، في تلك السطور الملتهبة التي تعمدنا اقتباسها من كتابه « اصلاح الادراك العقلي » ، بالحياة المكتئبة ، والنزاع الداخلي عند هذا الفيلسوف الذي يجتهد في أن يمهد لنا طريق السعادة النادر. فالغنى والشرف والمجد ولذة الحواس لايجب أن تشغل كل

تفكير الحكيم. إن الافراط فيها مضر سيء العاقبة. على أن سبينوزا، إن كان قد هجر بعد تفكير طويل عميق « شرًّا أكيداً في سبيل خير محقق » فإنه لا ينحاز الى تشاؤم « سفر الجامعة »[1] الذي يعد جميع هذه الأشياء زهواً باطلاً.

ويستطرد سبينوزا: « أما إذا سعى المرء وراءها باعتبارها وسائل، فانها لا تتجاوز حدًّا محدوداً وإنها بالعكس، تساعد كثيراً على بلوغ الغاية ».

ومع ذلك فإن سبينوزا يرمي إلى الحصول على تلك الطبيعة الممتازة، ويعمل ما في وسعه كما كتب، لكي يحصل عليها كثيرون معه، إذ أنه كان يعد العمل على أن يعلم الكثيرون تماماً، ما هو واضح في نظره، جزءاً من غبطته، بحيث يتفق إدراكهم العقلي ورغبتهم تمام الاتفاق مع إدراكه العقلي ورغبته. إن ما يهم في نظر سبينوزا هو « إمكان التفكير جديًّا » وهذا يسمح لنا أن نتطلع إلى الحب الذي يتجه إلى شيء سرمدي لا نهائي، ويغذي النفس بفرح طاهر « فرح لا تشوبه أية شائبة حزن أو عجز، مرغوب فيه إلى أبعد مدى وأهل لأن يبحث عنه الإنسان بكل قواه ».

فبعد أن يمعن النظر في الصيغ المتعلقة بالادراك الحسي « المكتسب بالسمع أو بواسطة دليل اتفاقي مطلق التصرف » والادراك الحسي » المكتسب بالخبرة الوهمية، أي بالخبرة التي لم يحددها الادراك العقلي و « الادراك الحسي حيث جوهر الشيء يستنتج من شيء آخر » و « الادراك الحسي الذي يفهم فيه الشيء من مجرد جوهره أو بمعرفة سببه المقبل » فإن سبينوزا يلاحظ أن « الإدراك العقلي، بقوته الطبيعية، يتكوّن من وسائل فكرية يضاعف بواسطتها قواه لينجز أعمالاً فكرية أخرى » ومن تلك الأعمال الأخيرة يستخلص « وسائل أخرى أي القوة لاستطراد بحثه والسير فيه إلى الأمام، ويستمر هكذا في التقدم والنجاح حتى يدرك قمة الحكمة ».

إن الفكرة الصحيحة، كما يراها سبينوزا، هي شيء يختلف عن الشيء الذي يسبب الفكرة: فالدائرة شيء وفكرة الدائرة شيء آخر. إن فكرة الدائرة ليست شيئاً ذا محور

---

(١) سفر من اسفار العهد القديم: جاء في أوله ... باطل الاباطيل الكل باطل. ما الفائدة للانسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس الخ.

ومحيط كما للدائرة ، وبالمثل فإن فكرة الجسم ليست هي الجسم بالذات . وحيث أن الشيء في ذاته يختلف عن الفكرة، فلسوف تكون في ذاتها شيئاً يمكن معرفته، أي أن الفكرة مادامت ذات جوهر صريح ، فيمكن أن تكون موضوع جوهر آخر واقعي . وهذا الجوهر الآخر الواقعي يمكن أن يصبح بدوره ، إذا اعتبر لذاته ، شيئاً حقيقيّاً يمكن إدراكه ، وهكذا إلى ما لا نهاية » . إن الفكرة الصحيحة في ذاتها تستلزم اليقين فهي مرتبطة « بالجواهر الواقعية للأشياء » وتلك الجواهر يفهمها الادراك العقلي فهماً تامّاً . هنا تتجلى غرابة المذهب الاسبينوزي . إن العقل، ما دام متمتعاً بالأفكار الحقة ، لم يعد خاضعاً لأي شك . وسبينوزا يبتعد ، عند هذه النقطة ، عن قواعد ديكارت . ويلح بأن الفكرة « يجب أن تتفق تمام الاتفاق مع الجوهر الصريح المناسب لها » بحيث «أن عقلنا ، لكي يستعرض أمامنا منظراً من مناظر الطبيعة ، يجب أن يفرق لنا بين جميع أفكاره وبين الفكرة التي تمثل منشأ وأصل الطبيعة بأسرها ، بحيث تكون تلك الفكرة كذلك منشأ الأفكار الأخرى » . وإذا وقع ، فيما بعد ، «أحد السفسطائيين في الشك بالنسبة للحقيقة الأولى بالذات وبالنسبة لجميع الحقائق التي نستنتجها تبعاً لمبدأ تلك الحقيقة الاولي الأساسي ، فان هذا الشخص ، كما يقول سبينوزا بغير تردد ، إما أنه يتكلم ضد ضميره ، وإما وجب علينا الاعتراف بأنه توجد طائفة من الرجال عميت بصيرتهم وعقولهم تماماً ، سواء أكان ذلك منذ ولادتهم أم أن الاعتبارات ، أي بعض العوارض الخارجية ، قد صيرتهم كذلك » .

على أنه لكي يمكن تمييز الفكرة الصحيحة الحقة ، يجب ، تبعاً لمنهج سبينوزا ، تجنب الفكرة الكاذبة والفكرة الصورية والفكرة المريبة . وكذلك فيما يتعلق بوجود الله أو أي كائن عليم بجميع الأشياء « فان هذا الكائن لا يستطيع مطلقاً أن يختلق أية بدعة كاذبة » ويقول سبينوزا « انني لمجرد علمي بأنني كائن ، لا أستطيع أن اختلق بدعة كاذبة بالنسبة لوجودي أو عدم وجودي . وإنني لا أستطيع كذلك أن أتخيل فيلاً يمر من شق إبرة ، ولا عند ما أعرف طبيعة الله ، أن أتصوره باعتباره موجوداً أو غير موجود ، ويجب التسليم بمثل ذلك فيما يتعلق بالخيال الذي تتعارض طبيعته مع الوجود . وإننا عند «ما نعرف طبيعة الجسم لا يمكننا أن نختلق فكرة ذبابة لانهائية، أو عندما نعرف طبيعة الروح، فاننا لا نستطيع

كذلك أن نختلق فكرة روح مسطحة الشكل ، وإن كنا نستطيع أن نعبر بالألفاظ عن أي شيء نريد » . وعلى هذا الاعتبار « فالعقل الذي يعكف على شيء مختلق وبطبيعته باطل ليفحصه ويعرفه ثم يستنتج ما يجب استنتاجه طبقاً للنظام العادل ، يجعل بطلان هذا الشيء واضحاً جليّاً » .

إن سبينوزا يقرر بأن « الفكرة الحقة » لا تميز فقط عن الفكرة الباطلة باشارة خارجة عن جوهر الشيء ولكنها تميز بصفة خاصة بإشارة داخلة في جوهر الشيء . فإذا فرضنا مثلاً أن أحد العمال قد فكر في عمل منظم ، فسيان لم يوجد هذا العمل أو انه لن يوجد مطلقاً ، فهذا لا يمنع أن تكون الفكرة صحيحة وأن تلك الفكرة تظل كما هي سواء وجد ذلك العمل أو لم يوجد » . إن الفكرة الحقة ، في نظر سبينوزا ، هي « تلك التي تتضمن بصفة ظاهرة جوهر مبدإ لا علة لوجوده ولكنه معروف لذاته وبذاته » . أو بعبارة أخرى : أن صورة « الفكرة الحقة يجب أن تكون داخلة في تلك الفكرة حتى بدون علاقة بسواها وهي لا تسلم بأن الموضوع يعتبر كعلة ، ولكن يجب أن تكون تابعة لقوة الادراك العقلي وطبيعته بالذات » . ويلاحظ سبينوزا فوق ذلك بأننا إذا أردنا أن نصل الى الحقيقة فان الواجب يدعونا الى عدم استخلاص نتائج من تصورات مجردة لأننا نتعرض الى الخلط « بين ما هو في حدود الادراك العقلي وبين ما هو في حكم الحقيقة » . إن الخطأ « ناشيء عن عدم معرفة العناصر الأولية للطبيعة بأسرها ، ويلي ذلك أن الانسان يتصرف بغير نظام ويخلط الطبيعة بالقواعد المجردة ، وحبذا لو كانت صادقة ، فيشوش بذلك على نفسه ويقلب نظام الطبيعة » . إن أصل الطبيعة يرجع إلى الجوهر الذي « يجب أن يكتسب من الأشياء الثابتة الخالدة وكذلك من النواميس المنظمة التي تحدث جميع الأشياء الغريبة ، وتنسق بموجبها . الحقيقة ، أن هذه الأشياء العجيبة المعرضة للتغيير تخضع تمام الخضوع للأشياء الثابتة ، ولا يمكن لهذه الأشياء العجيبة أن توجد أو تعرف بدون الأشياء الثابتة » .

وينتج عن ذلك أن أسمى صورة للمعرفة في نظر سبينوزا هي التي ترجع الى الأصل — خصوصاً عنـد ما يلجأ الى الأشياء العجيبة المحسوسة وليس الى التصورات المجردة — الى النوع الثالث ذلك الذي يسميه العلم الايحائي . ان هذا النوع من المعرفة « يبدأ بالتفكير

التام بالجوهر القاطع لبعض خصائص الله ويتحول الى معرفة جوهر الأشياء معرفة تامة » .
ويرى سبينوزا ان الادراك الحسي للاشياء ، في صورة الأبدية ، هو الذي يؤلف هيكل الفلسفة . وهو يقول في ذلك : « ان ادراك الأشياء في صورة من الخلود هو إذن ادراك الأشياء من حيث انهـا تدرك ذاتها كأنها حقيقية بفضل جوهر الله أعني ان هـذه الأشياء تشمل الوجود بفضل جوهر الله. وهكذا فأن روحنا ، من حيث انها تُـدْرَكُ لذاتها وتُـدْرِكُ الأشياء بنوع من الخلود ، تتمتع بمعرفة الله وتعرف أن تكون » .

ويتضح من تلك الاعتبارات ان التأليف الاسبينوزي المندمج بطبيعتـه بتأمل داخلي ويمتزج بالأشياء المحسوسة والأشياء الملهمة ، يُكوّن جوهراً عاملاً حيًّا فعّالاً لأنه لا يخرج عن كونه رمزاً للحقيقة ومن نوعها . انه يقصي عن محيطه العلل النهائية ما دام لا يكف عن خلق ذاته بذاته أو عن التحرك داخليًّا ، فحرية الفكر والعقل البارزة في سبينوزا هي التي تهيئنا الى تفهم « فلسفته » وهي الفلسفة « الصحيحـة » كما تُـعدنا الى تفهم مؤلفه الرائع « الأخلاق » الذي نظّـمه طبقاً للقواعد الهندسية التي طالما نوّه عنها في كتابه « إصـلاح الادراك العقلي » .

٢ — الله

لقد تبين لنا ان سبينوزا اعترف لنا بصراحة تامة ، في الصفحـة الأولى من كتابه « اصلاح الادراك العقلي » بعلة قلقه ، وهذا ما كان يثير فيه الرغبة في الوصول الى حيـاة سعيدة . ولا يمكن اكتشاف تلك الحياة إلاّ اذا أدركنا بصفة ، تامة ، معنى « الحق » على صحته وخصوصاً أصل الأشياء . فعند ما نُـكوّن فكرة واضحة محدودة ، عن « الـكل » وعند ما نصل الى أعماق الـكائن ، وعند ما نستطيع بفضل جهود مضنية ، أن نميز « بأعين الروح » ذلك الـكائن السرمدي اللانهائي غير المجزأ والـكائن بغير كائن ، عند ما يتم لنا ذلك إذ ذاك لا يكون هناك داعٍ لوجود مثل هذا القلق . لا شك في أن الوصول الى تلك الطريق لا يخلو من عناء كبير . وقد توقع سبينوزا ذلك حيث يقول : « إذ كانت الطريق التي أوضحتها والتي تقودنا الى ذلك ، محفوفة بالمتاعب الشاقة فليس العسير فيهـا بأهون . » فتلك الطريق

تستلزم ذكاءً روحيًّا عظيماً وهذا الذكاء في موضوعه يعد من النظام الالهامي .

وهكذا فان سبينوزا ، بعد أن يبين الطريقة لادراك الفكرة الحقة الكاملة يقدّم لنا عقب ذلك مباشرة أشق نواحي علمه بما وراء الطبيعة وهي الناحية التي تتناول البحث في الكائن في ذاته وتتعلق بالكائن الذي يدبر كل شيء وبالله وبالكون وتتطلب أوفر قسط من التأمل العميق .

وإذن فان سبينوزا يشرح لنا معنى الكائن الذي يدبر كل شيء بما يأتي :

« إنني أعني بالجوهر ما كان بذاته ويُدرَك من ذاته . أي الذي ادراكه لا يحتاج الى إدراك شيء آخر يجب أن يكون مكوّناً منه » .

« والله ، ذلك الكائن اللانهائي ، ليس إلاّ جوهراً مؤلفاً من خصائص لانهائية تعبر كل خاصة منها عن جوهر أبدي ولانهائي » ففي تفسير الجوهر يوجد معنى الكل ومعنى الكون الاسبينوزي .

ان الجوهر الذي يفرض في ماهيته الثبات وعدم التغير كما يفرض الخلود فهو عبارة عن طبيعة « يهوه » الأصلية . « أنا الكائن الكائن » . ولو ان سبينوزا يستعير تلك العبارة من الفلاسفة المدرسيين ، إلاّ انه في الواقع يدعم بتلك العبارة « الادراك العقلي عند قدماء العبرانيين » . ان الجوهر هو الذي يعتبر محور علمه بما بعد الطبيعة في نظره . انه مفرد إذ لا يمكن أن يوجد في الطبيعة جوهران من طبيعة واحدة أو من خاصة واحدة » . انه سبب في ذاته أي ان « ماهيته تشمل الوجود حتماً » أو بعبارة أخرى ان طبيعته هي أن يوجد ثم انه « لا نهائي حتماً » . وبهذا المعنى فان الله واحد فرد لأنه لا يوجد « في الطبيعة سوى جوهر واحد . وهذا الجوهر لانهائي على الاطلاق » وبمعنى أيضاً « ان كل ما هو كائن ، كائن في الله ولا يمكن لشيء بغير الله أن يوجد أو يُدرك » ان الله يعمل « بمجرد ضرورة طبيعته : انه السبب الوحيد الحر » انه سبب كائن فعّال وليس سبباً لتحويل الأشياء من شيء الى شيء . وزيادة على ذلك فان الله « ليس سبباً فعالاً في الوجود فقط ، ولكنه كذلك في ماهية الأشياء » . فمن ضرورة طبيعته الالهية « يجب أن تشتق أشياء لا سبيل الى حصرها في أشكال لا يمكن حصرها ، اعني كل ما يمكن أن يقع تحت ادراك عقليّ لانهائي » .

ان هذه البيانات المختلفة التي تميز الجوهر الفرد أو الله بطريقة قاطعة لصادرة عن تركيز عقلي عميق وتفكير طويل . ان سبينوزا لا يكتفي بالاشارة اليها أو شرحها في شكل مبادىء أو تفسير أو عروض ، فهو يغربلها بدقة نادرة مستعيناً على ذلك بالمنهج الهندسي الذي تكاد تكون دقته المنطقية الصارمة معصومة عن الخطأ .

أن الكل ، الذي يلقب بالله ، يفرض ، في نظر سبينوزا ، وجود حقيقة خارجية ، وتمسكاً صارماً في القدرية وفي القوة الكامنة التي لا تكف عن العمل . لم يجد فيلسوف لاهاي عناءً كبيراً في أن يحارب — في كثير من اللباقة — مختلف الأغلاط الخاصة بالادراك التام لأصل الأشياء . وهذه النقطة المختلفة ناشئة عن عدم فهم مبدإٍ فهماً صحيحاً تامّـا ، أو عن ذكاء محدود قليل النمو عاجز عن التوغل في ميكانيكية الكل . ان الرجال بطبيعتهم يجنحون الى الحذر والخوف وقلّ أن يذهبوا في تفكيرهم الى مدى أبعد مما يسلم به المنطق فلا يتخطون درجة المعقول على حد تعبير ليفي بروهل ، فهم في حاجة الى كائن شديد البطش قوي العزيمة على أن يكون كائناً محسوساً شبيهاً بهم يمكن تمييز أعماله الى حدّ مّـا . وأن يكون في مكنته أن يأتي العجائب ويصنع المعجزات وأن يظهر شفقته بكرم وسخاء وأن يقوم بأودهم ويمد حاجتهم وأن يكلأهم برعايته ويذود عنهم ويحميهم من غائلة الوحوش الكاسرة وآفات الطبيعة . وفي مستوى أرقى فهؤلاء الرجال يدهشون حيال نظام الأشياء وحيال تركيب أعضائهم التي تدل بأجزائها المتناسقة على وجود صبغة عقارية للعلة الغائية . وان تلك العلة تتخذ في نظرهم شكلاً هندسيّـا متناسق الأجزاء والمقاطع مصدره الله الذي ينحصر اهتمامه في تبسيط الحياة وما تحويه من الأشياء وجعلها لطيفة مستحبة . ولكن سبينوزا يضرب ضربة قاتلة ذلك الاله الشخصي المخلوق على صورتنا والناشىء عن تصورات مخيلتنا المحمومة لأنه يرى في ذلك شبهاً بمذهب القائلين بالتجسد الالهي . انه يعلو على تلك الخيالات الوهمية والمخيلة العادية . ان ربّ سبينوزا لا يفرض الخير ولا الشر . ان ميزته الأصلية والثابتة تنعكس في ميكانيكا دائبة الحركة وفي كل ما تحويه الطبيعة . انه يتحد بذاته مع الطبيعة . لم يعد يبقى في هذا القياس موضع للفرض أو للابتهال الى رحب رحيم أو للعلة الغائية ما دام وجوده يفرض وجود السلطة والقوة وما دام لا يكف عن العمل ، أو لخلود

الفرد ما دام الخلود مندمجاً بالجوهر الكائن بذاته الأبدي اللانهائي : ذلك الفرد لا يمكن اعتباره خالداً إلاّ من حيث انه يؤلف عنصراً متحداً مع الجوهر ، ما دامت ماهية هـذا الفرد تجيء من قوة الادراك اللانهائي أو القوة المدركة في الله وهي ضرب من الفكرة لا حدّ له ولا غاية ، كما ان جسمه يجيء من الامتداد بواسطة نواميس الحركة .

وقد كتب سبينوزا : « لا بدَّ أن جميع الأشياء قد تسلسلت من طبيعة الله التي يفرض فيها بأنها موهوبة ، وانها قد تعينت بالضرورة التي لطبيعة الله الى الوجود وإحداث بعض الأثر بطريقة خاصة » .

أو بعبارة أخرى كما يكتب الى أولدنبرغ : « انني لا أُخضع الله الى أي نقد أو أوجه له أي طعن ولكنني أدرك الأشياء باعتبار انها مرغمة على السير وراء طبيعة الله » .

ان سبينوزا يستخلص معنى الحياة من طبيعة الله . فهي « القوة التي بموجبها تستمر الأشياء في المحافظة على كيانها » وتلك القوة ملازمة لله حيث انها « ليست إلاّ ماهيته » . وبما أن « تلك القوة تمتاز عن الأشياء بالذات ، فاننا نقول بكل وضوح ان الأشياء بذاتها تعيش وتحيا » .

ولكن هل الأشياء مخلوقة ؟ ان سبينوزا يتبع في كلامه عن هـذه النقطة نفس مبدأ خلود الله ، فيرى ان الخلق ، عملية لا تشترك فيها أسباب غير العلة الفعالة ، أي ان الشيء المخلوق هو الشيء الذي لا يفرض لوجوده وجود شيء قبله غير الله . وهو يكتب بهذا المعنى الى أولدنبورغ : « ان الرجال لم يخلقوا ولكنهم قد تناسلوا وان أجسامهم كانت توجد قبل ذلك وان كانت مصنوعة على أشكال غير هذه » . جميع الأشياء فيما عدا الله ، كائنة دائماً بواسطة قوة الله أو جوهره » . وجاء في كتاب « الأخلاق » : توجد في الله منذ الأزل فكرة عن كل جسم بشري .

وهكذا فان وحدة الجوهر تفرض فهماً وإدراكاً عاماً ، فهي العنصر الذي يتجلى في كل صفة . « ان نظام الأفكار وتقاربها هو نفس نظام الأشياء وتقاربها » . غير ان الذي تألم له معاصرو سبينوزا ، فيما كتبه عن وحدة الجوهر ، هو قوله بأن « الامتداد هو صفة الله » . أو بعبارة أخرى ما يقوله من أن الله قابل لان يندمج مع جسم وبذلك يكون قابلاً للتجزئة

والانفعال . ولكن سبينوزا يلاحظ على ذلك انه « إذا أريد فحص المسألة رؤي بأن جميع هذه النتائج المستحيلة التي يريدون أن يستنتجوا من ورائها أن الجوهر الممتد نهائي لا يشتق مطلقاً مما يظن بأنه كمية لانهائية ولكن مما يظن بأن تلك الكمية اللانهائية قابلة للقياس ومؤلفة من أجزاء نهائية ، فلا يمكن إذن أن يستنتج من هذه النتائج المستحيلة إلاّ أن الكمية اللانهائية ليست قابلة للقياس ولا يمكن أن تتألف من أجزاء نهائية » . ان « الجوهر الجسمي، من حيث هو جوهر، لا يمكن أن يجزأ » . وبعبارة أخرى ، يقول سبينوزا « إذا انعدم جزء واحد من المادة فكل الامتداد لا يلبث أن يتلاشى ». ففي نظره، المادة وحدة تذكر بالألوهية عند العبرانيين ، تلك الألوهية الموضحة « بالزوهار » حيث المادة والادراك العقلي تصيران الى عنصر واحد . ان المادة لا تفرض ، من تلك الناحية ، الا نوعاً من نظام روحاني ، ولذلك يقرر سبينوزا بأن « الامتداد اللانهائي والفكرة .. مجتمعان مع خاصيات أخرى لانهائية ليست الاّ أعراضاً للكائن الفرد الأبدي اللانهائي الموجود بذاته . وانا نؤلف من كل ذلك كما تقدم ، فرداً ووحدة ، وتلك الوحدة ليس في الامكان تصور شيء ما بدونها » ثم يضيف ذلك الشرح الواضح : « ان الدائرة الكائنة في الطبيعة وفكرة الدائرة الكائنة أيضاً في الله، هي شيء واحد بعينه يفسر بواسطة خصائص مختلفة ، وهكذا سواء أكنا ندرك الطبيعة تحت صفة الامتداد أو تحت صفة الفكرة أو تحت أية صفة أخرى ، فاننا نجد نظاماً واحداً بعينه أو نفس اقتراح الأسباب بعينه، أو بمعنى أوضح فاننا نجد أن نفس الأشياء تتعاقب . فاذا كنت قد قلت ان الله هو السبب في فكرة ، في فكرة الدائرة مثلاً باعتبار انه فقط شيء ممتد ، فان دافعي الوحيد الى مثل هذا التعبير هو أنه لا يمكن ادراك الكائن الحقيقي لفكرة الدائرة الا بواسطة صيغة أخرى في التفكير تعتبر بمثابة السبب القريب لتلك الصيغة وانه لا يمكن ادراك تلك الصيغة الجديدة بدورها الا بواسطة صيغة أخرى كذلك وهكذا حتى اللانهائي ، بحيث انه طالما اعتبرت الأشياء صيغاً للتفكير صار من الواجب علينا أن نفسر نظام الطبيعة بأسرها أي امتزاج العلل بصفة الفكرة وحدها ، واذا اعتبرت هذه الأشياء صيغاً للامتداد فان نظام الطبيعة بأسرها يجب أن يفسر كذلك بصفة الامتداد

وحدها وهكذا أعني للصفات الأخرى . ولذلك فان الله بصفته مكوّناً من صفات لا نهاية لها هو في الحقيقة السبب في كيان الأشياء كلها كما أنها كائنة بذاتها » .

والى جانب هاتين الصفتين ، الفكرة والامتداد ، اللتين يميزان بوضوح مذهب وحدة الوجود عند سبينوزا ، يجب أن يضاف مظهر آخر له أهمية عظيمة في فكرته وهو الخاص بالطبيعة الفعالة الخالقة والطبيعة المنفعلة المخلوقة . أما الأولى فانه يعني بها « ما هو كائن في ذاته ويدرك بذاته أو بعبارة أخرى صفات الجوهر التي تدل على ماهية أبدية لانهائية أو الله طالما انه معتبر بمثابة سبب حر » . وبالطبيعة المنفعلة المخلوقة فان سبينوزا يعني « كل ما هو ناشيء من ضرورة طبيعة الله أو بعبارة أخرى من طبيعة كل صفة من صفاته أو أيضاً جميع صيغ صفات الله ما دامت تعتبر كأشياء موجودة في الله ولا يمكنها ، بدون الله ، أن توجد أو تدرك » .

وهكذا فان الادراك العقلي أو الفعل ، سواء أكان محدوداً أو لانهائيّاً ، وكذلك الارادة والرغبة والحب وغيرها ، يجب أن ترجع الى الطبيعة المنفعلة المخلوقة لا الى الطبيعة الفعالة الخالقة ، وبعبارة أخرى فان الطبيعة الخالقة هي خلاصة جوهر « الكل » أو « الكائن » الأسمى وما ينشأ عنه .

وبهذا المعنى فان ما ينتج من الطبيعة المنفعلة المخلوقة ، مهما كان فعالاً ، هو في الحقيقة منفعلاً بالنسبة للعنصر الأساسي للطبيعة الفعالة الخالقة التي تحتّم القوة الفعالة البحتة. انالجوهر يتساوى هنا مع الطبيعة . ان الطبيعة المخلوقة ، على عكس الطبيعة الخالقة ، هي التي ترتبط بالطبيعة المنفعلة العامة أو الأعراض أو المخلوقات (ما تحتوي عليه الطبيعة من أشجار وماء وكل الأشكال الخارجية لكائناتها) التي « تتعلق رأساً بالله أو التي خلقت بواسطته في الحال » والتي «لا تعرف منها أكثر من اثنين وهما : الحركة في الطبيعة والادراك العقلي في الاشياء المفكرة » ، وكلاهما « يظل ثابتاً لايتغير وأبديّاً» . ولهذا السبب كتب سبينوزا الى أولدنبورغ ان «الله هو السبب الفعال لجميع الأشياء » .

وهكذا نرى أن الغرض من تلك الفروقات المختلفة هو أن تعطينا فكرة واضحة عن أدق نقطة في علم ما بعد الطبيعة عند سبينوزا . إن جميع الاجزاء الخاصة بمبدأ ، مرتبطة

بعضها ببعض . ولا يمكن فهم الطبيعة البشرية في مختلف علاقاتها بالكائنات دون الوقوف سلفاً على أصل الأشياء و « الوحدة السامية » التي تستلزم وجود وفرة العدد أي وجود الرحم للغزير النسل . إن الله ، كما يراه سبينوزا هو ذات « النظام الثابت الذي لا يتغير للطبيعة أو بعبارة أخرى ، تسلسل الأشياء الطبيعية وتناسقها » . انه « لا يوجد أي سبب ، خارج عن الله أو في الله ، يدفعه الى العمل إن لم يكن كمال طبيعته الذاتية » . ولم يجد سبينوزا أي عناء ، وقد بدأ من الذات الالهية أو من ذلك « الكل » في أن يبين لنا مما تتألف منه طبيعة النفس في مختلف ظواهرها العادية .

٣ - الطبيعة البشرية

بعد أن خبر سبينوزا الكائن في ذاته ولمس بأصبعه سر كيانه فانه ينزل عن القمة التي كان واقفاً عليها ، ويترك لحظة معبد الجمال والنور الساطع ، حيث يمكن لعين الانسان أن تتأثر وتذهل ، لكي ينظر عن كثب فيما اذا كانت جميع الأشياء تتناسق وترتبط ، وإذا كانت الأجزاء توازي الكل . وفيما اذا كانت الطبيعة المنفعلة المخلوقة تتولد فعلاً من الطبيعة الفعالة الخالقة . وبالاجمال فيما اذا كانت الالوهية عامة شاملة لجميع الكائنات وموجودة في كل مكان على حد ما كان يراها هو بنظرته العميقة النادرة . وبدأ إذن بدراسة الكائن المحسوس الذي يعد أهم الكائنات بالنسبة للكائنات الأخرى ، وهو الرجل الذي هو قطعة من لحم ، والذي هو أقرب الكائنات من الطبيعة الالهية من ناحية إدراكه العقلي . وفي النهاية قال سبينوزا : « إن الرجل يفكر » فما هي الفكرة ؟ إن الفكرة « صفة من صفات الله أو بعبارة أخرى ان الله شيء مفكر » . انها « تعبر عن ماهية جوهر الله الأبدي اللانهائي » . « إن للنفس البشرية معرفة تامة لماهية جوهر الله الأبدي اللانهائي » . ولكن لا يجب أن ننسى أن للرجل حجماً أو جسماً . فهلاً تكون هناك ذاتان متباينتان ، الروح والجسد ، شبيهتان بالصفتين الفكرة والامتداد اللتين تحدثنا عنهما فيما سبق ؟ لقد رأينا كيف أن سبينوزا يذلل الصعوبة بشأن الامتداد . وهنا أيضاً سيبدد فيلسوف لاهاي الالتباس الخاص بالجسم . فهو يقول عنه « انه صيغة تعبر عن ماهية جوهر الله » . حيث أن ماهية الجوهر هذه ترتبط « بالشيء الممتد بكيفية مؤكدة ومحددة » وبتعبير آخر ، « ان الغرض من الفكرة التي تؤلف النفس البشرية هو الجسم أعني نوع من صيغ الامتداد الكائن بالفعل وليس شيئاً آخر » .

إن النفس البشرية صفة لله لأن الله شيء مفكر ، والجسم البشري هو الله لأن الله شيء ممتد . وزيادة على ذلك فان المعرفة أو الفكرة في النفس البشرية ملازمة لله ، انها تعيش « في

الله بنفس الطريقة وتتعلق بالله بنفس طريقة الفكرة أو معرفة الجسم البشري » .

وهكذا فان الطبيعة البشرية تؤول إلى ماهية جوهر المجموع بواسطة الأعراض التي ترتبط رأساً بصفات الله . لا حاجة في علم ما بعد الطبيعة عند سبينوزا إلى ابراز المادة والعقل إذ أنه لا يعقل أن الفكرة ترتبط بجزء من المادة ، أو ان النفس ، كما يريد ديكارت ، تكون مرتبطةبالغدّة الصنوبرية . ان الطبيعة البشرية لا تحتمل مزيجاً غير مرتبط وغير معين ، فهي لا تقوم إلاّ على وحدة داخلية . انه لا توجد في الرجل قوتان عاملتان مستقلتان . إن النفس تبدأ وتنتهي مع الجسم وعلتها قائمة بعيداً عنها ، في أعراض أخرى محدودة للفكرة مطابقة لأعراض الامتداد التي هي علل الجسم . إن غرض الفكرة التي تتألف منها النفس البشرية هو الجسم أعني عرضاً من أعراض الامتداد الموجود في الفعل » . وسبينوزا يوضح ذلك بعبارات أوضح : « أما فيما يتعلق بالنفس البشرية فإنني أعتقد أيضاً بأنها جزء من الطبيعة : أعتقد حقّاً أنه توجد في الطبيعة قوة تفكير لانهائية ، وان تلك القوة تحوي ظاهريّاً في لانهائيتها الطبيعة بأسرها حيث أن الأفكار الخاصة التي تؤلفها ترتبط ببعضها بنفس الكيفية التي ترتبط بها أجزاء الطبيعة التي كوّنتها تلك القوة المفكرة — . والى جانب ذلك فإنني أعتبر النفس البشرية كأنها نفس تلك القوة التفكيرية ليس باعتبارها لانهائية وتدرك الطبيعة كلها ، ولكن باعتبار أنها تدرك فقط شيئاً نهائيّاً هو الجسم البشري : هكذا أدرك النفس البشرية كأنها جزء من الادراك اللانهائي » .

ومع ذلك كله فإن سبينوزا يضيف ، فيما يتعلق باتحاد النفس بالجسم ، « انه ليس في مقدور أحد أن يكون فكرة ثانية أعني واضحة » دون أن يعرف قبل ذلك طبيعة جسمنا . فلهذا الجسم ملامح مشتركة عند أشخاص آخرين يحيون ويعيشون جميعاً بدرجات مختلفة . وإذن « ففكرة كل شيء ، أيّاً كان هذا الشيء ، كائنة في الله ، والله هو سبب تلك الفكرة بنفس الكيفية التي هو السبب فيها في فكرة الجسم البشري . وهكذا كل ما قلناه عن الجسم البشري يجب حتماً أن يقال هنا عن فكرة كل شيء مهما كان » . وعلى هذا الاعتبار بدت الطبيعة بأسرها ، في نظر الفيلسوف ، كأنها فرد واحد « تتغير أجزاؤه ، أعني جميع الأجسام التي تكوّنه ، إلى تغييرات لانهائية دون أن يحدث أي تغيير في الفرد بأكمله » .

ونلاحظ أيضاً أن جميع خصائص النفس تتفرّع من ذلك التفسير : « النفس هي فكرة الجسم » والفكرة ، من حيث أنها عرض من التفكير [طبيعة الفكرة لا تشمل بأي حال تصور الامتداد] لا تتألف من « رسم صامت على لوحة ». إن الفكرة ، وهي عرض من صفة إلهية ، أي خارجة عن النفس ، تؤيد من نفسها وجود موضوعها ، « وتعززه ما دام هذا الوجود لم يستبعد بوجود فكرة أخرى : وليس الوضع هو الذي يجب أن يفسر ولكن هو النفي ، وهذا النفي يفسر نفسه بما فيه من تأكيد لما للسبب الذي أدى إلى استبعاد الفكرة المنفية . وإذن ففكرة الجسم ليس انعكاس هذا الجسم ولكنها وضع وتأكيد وجوده في الفكرة . ثم إن هذه الفكرة مكوّنة أيضا كتكوين الجسم بعينه ، وفردية النفس ، مع اختلاف الادراك الحسي الذي تشتمل عليه تلك الفردية ، ليست من طبيعة أخرى تختلف عن طبيعة الجسم »

ومن جهة أخرى ، النفس باعتبار أنها عرض نهائي ، فإن فكرتها نحو ذاتها وفكرتها نحو الجسم وفكرتها نحو الجسم الخارجي كلها أفكار ثابته لا تتغير . أعني أن النفس تجهل العلة أو السبب في هذه الأفكار . أنها « لا تعرف الجسم البشري بعينيه ، ولا تعلم بأنه موجود الاّ من أفكار العواطف التي يتأثر بها الجسم » وبعبارة أخرى ، ان النفس تعرف الاجسام الظاهرة ما دامت تحدث تأثيراً على جسمها هي بالذات ، وهكذا يصير مفهوماً بأن الادراك الحسي لهذه الأجسام الظاهرة موقوف على طبيعة جسمنا . إن الذاكرة أو التصور تنشأ عن استمرار التأثير . ويقول سبينوزا « اذا تصادف أن يتأثر الجسم البشري مرة بجسمين أو بأجسام كثيرة في وقتٍ واحد ، فبمجرد ما تتصوّر فيما بعد أحد هذه الاجسام فانها ستذكر الأجسام الأخرى في الحال » .

ولكن الرجل ، في تلك الحالة ، بصفته كائناً نهائيّا وبصفته يخضع للمدة ، فانه لا يستطيع أن يفهم مجرى الطبيعة التي يخضع لها ، ولا أن يبتغي الأعراض النهائية ، لأن تلك الأعراض في ذاتها مبهمة : « اننا لا نستطيع أن نعرف عن مدة الأشياء الخاصة الخارجة عنا إلاّ أنها كثيرة التغيير غير ثابتة » .

ولذلك فان إرادة الرجل في نظر سبينوزا محدودة . وهو يقول : « لا توجد في النفس أية إرادة مطلقة أو حرة » . إن النفس مسيرة إلى إرادة هذا أو ذاك ، بسبب ، وهذا

السبب مُسَيرٌ أيضاً بسبب آخر، وهذا السبب الآخر مسيّر بدوره بآخر وهكذا الى اللانهائي».

وبعبارة أخرى ، إن النفس لا تفرض أي حل أعني « أي تأكيد ولا أي نفي خارج عن التأكيد أو النفي الذي تحتوي عليه الفكرة بإعتبار أنها فكرة » . فاذا كانت الارادة ، باعتبار أنها تفرض استمرار الفكرة في الضمير ، هي الرغبة التي هي «ماهية الرجل بعينها» فإن تلك الرغبة ليست في ذاتها وسيلة وجدانية . ليس من الضروري للغرائز ، التي تتمدد في جهود مبهمة متعددة ، أن تفعل بواسطة الرغبة . وكذلك فان الضرورة ، التي تدير جميع الكائنات والتي تتحد بالطبيعة الإلهية ، لا تمنح أية حرية للرجل . على أن سبينوزا يسلّم بالرجل الحر ولكن بمعنى أضيق ، عند ما « يعيش الرجل طبقاً لأوامر العقل » ، أو « أن يكون مسيراً بواسطة العقل وحده » . وإذن ، ذلك العقل يحتّم ، في نظر سبينوزا ، المعرفة الثالثة ، وهي المعرفة التي تسمح « بمعرفة الله» ، أو « الفضيلة السامية »، وسهولة فهم النفس بالنسبة لذاتها . إن الخطأ ، بحسب هذا المذهب ، لا يمكن أن يعزى إلاّ لعدم وجود الفكرة الحقة ، فهي فكرة متغيرة غير ثابتة ، ما دامت لم تستبعد ولم تُنف بواسطة فكرة ثابتة غير متغيرة. والحقيقة ، كما يقول سبينوزا ، «إن الرجال يفكرون في نفس الشيء أو يفكرون في أشياء مختلفة ، بحيث أن ما يُظن بأنه خطأ أو ابهام في الغير ، ليس كذلك » . إن الخطأ من مستلزمات الكائن البشري ، وهو بغير ما شك يشبه الشهوة التي تعتبر من جهتها من ضروريات النظام الطبيعي . ولذلك فهو لا يحكم على الخطأ عند الرجل ولا يقبل أن يعزى هذا الخطأ ، كما يريده ديكارت ، إلى الإرادة البشرية . إنه يبين أن الطبيعة البشرية قد جعلت هكذا ، وانها آلية أو روحانية تقع تارةً في الخطأ وتارةً تبحث عن الحقيقة . وهكذا فإن معرفة إرادة حرّة تعمل طبقاً لغاية ، ومعرفة الخير والشر ، ليست إلاّ وهمية غامضة في هذا المذهب الذي تنفي طبيعته الجوهرية وكليته كل فرض أو احتمال . لهذا السبب يبدو سبينوزا حليماً نحو بعض الأخطاء المثيرة ، التي لا تغتفر للرجل إذ انه بصفته عاقلاً يكتفي بأن يلاحظ ويشاهد الناحية الملموسة من شهوة الفرد سواء أكانت تلك الشهوة سارّة أم ضارّة

إن تلك الشهوة تظهر في التحليل الدقيق الذي يجريه سبينوزا — ذلك العالم الفذّ فيما وراء الطبيعة وعلم النفس ، الماهر في استكشاف دخائل النفس وخلجاتها، سواء أكانت هادئة

رقيقة أو عاصفة ثائرة — تلك الشهوة إذن تظهر في أشكال متنوّعة وفيرة ، تساعد على تكوين فكرة ثابتة جلية عن طبيعة الرجل الغريبة — إن هذا الرجل لا يجب اعتباره في الطبيعة بمثابة « دولة في وسط دولة » ، إنه غير خاضع للتصرف المطلق ، كما توهمه ديكارت . إن فضائله ورذائله مرتبة بقوّة الطبيعة المشتركة . ولهذا السبب لا يتردّد سبينوزا في معالجة عواطف الرجال وأعمالهم كما يعالج المهندسون المسائل الهندسية ، أي بتحكيم العقل بكل شدة ، كما لو كانت تلك العواطف والأعمال خطوطاً ومسطحات وجماد . إن الطبيعة هي بعينها في كل مكان ، « وفضيلتها ومقدرتها العملية واحدة ، وهي بعينها في كل مكان ، أي أن الشرائع وقوانين الطبيعة ، التي يقع كل شيء ويتحول من شكل لآخر ، هي واحدة دائماً وفي كل مكان ، ثم إن معرفة الطريق القويم لطبيعة الأشياء ، أيّـا كانت يجب أن يكون أيضاً واحداً وأن يكون هو بعينه : وهذا أيضاً بواسطة شرائع الطبيعة وقوانينها العامة » . وإذن « فعاطفة الحقد والغضب والحسد وغيرها ، المعتبرة في ذاتها ، تخضع كبقية الأشياء العجيبة ، لنفس ضرورة الطبيعة ونفس فضيلتها » .

وإذ ذاك فان سبينوزا ، بعد تفسير السبب الثابت الذي لا يتغير « وهو الذي يمكن فهم تأثيره أو معلوله بوضوح وجلاء بذاته » والسبب غير الثابت القابل للتغيير أو الجزئي « وهو الذي لا يمكن فهم تأثيره أو معلوله بذاته » يشرح ماهية الحب والحقد والفرح والحزن والغضب والشفقة والضراعة وغيرها . إن النفس البشرية خاضعة « عند ما تكون غير عاملة إلى تغييرات كبيرة فتارة ترتفع الى درجة كبيرة من الكمال وطوراً الى أقل منها ، وتلك الشهوات تفسر لنا شعور السرور والحزن » إن السرور ليس « الا شهوة تصل النفس بواسطته الى كمال أسمى » . والحزن « شهوة تمر بواسطة النفس الى كمال أقل » . وفي وسط هذا النظام الفكري ، فإن الرغبة التي « تتولد من الحزن أو السرور أو الحقد أو الحب تسمو بقدر سموّ الشعور » .

ولكن الكائن ، من حيث أنه يقترب أو يبتعد من القوة الإلهية ، « فانه يرمي الى الاستمرار في كيانه » ولا يمكن أن يتحطم الا بواسطة كائن آخر . إن الثبات يتألف من ارتباطه المباشر . وهذا الارتباط بذاته يولد في أولى المشاعر غير العاملة : كالجوع في الجسم

وهو ماهية الرجل ،وفي النفس الرغبة وهي ليست الا تأييداً وميلاً ملازماً للفكرة التي تعد بدورها وضعاً للذات . وبهذا المعنى، فان المعلولات تؤثر على جسمنا سواء لتسهيل الجهود المستمرّة في الكائن ، سواء « لتنكد عليه » : ومن ذلك ينتج شعوران « السرور » وهو فكرة (غير كاملة) زيادة الكمال في الجسم، و « الحزن » وهو فكرة نقص كماله : إن « الحب » يتولد عند ما تضاف إلى فكرة السرور فكرة (غير كاملة) السبب الذي يظن أنه أوجد تلك الفكرة ، و « الحقد يتولد في نفس الظروف عند ما يقترن الحزن بفكر السبب الذي أوجده » .

إن الحب والحقد يمكن أن يكونا موضع « تقلب» . إن الحقد الذي نشعر به نحو فرد مثلاً ، قابل لأن يتحول نحو أمة بأسرها . إن شرائع المخيلة التي توحي الينا صور الأشياء تحدث نفس المشاعر التي توجدها تلك الأشياء بعينها . ومن هذا ينشأ الأمل والخوف القائمان على أساس السرور والحزن . والأمل والخوف يصبحان بدورهما اطمئناناً ويأساً إذا كنا نشك في السرور والحزن في مستقبل الأيام ، ومن هذا أيضاً ينشأ الارتياح والأسف. إن فعل المخيلة يمتد أيضاً إلى أمثالنا فإننا نشعر نحوهم بعطف أو شفقة ، « وهو الحزن الذي يشعرنا به حزن أمثالنا ، أو بالمجاراة عند تحملنا صورة الرغبة الموجودة عند أحد أمثالنا على الشعور بنفس تلك الرغبة » . ثم إذا نحن قمنا بجهود « لتصبح الكائنات المماثلة لنا شبيهة بنا ، أي لكي يشاطرونا أحقادنا وحبنا » ، فرغبة الطمع هذه التي تصادف عقبات هي السبب في عدد كبير من الأحقاد فتصبح حسداً بعامل سنة المخيلة التي تحملنا نحب الشيء الذي يحبه أمثالنا ، ولكن الحقد الذي ازداد « بتأثير حقد متبادل » فيمكن « استئصاله بواسطة الحب » .وإلاّ كما يقول سبينوزا « فإن الحقد الذي ذلله الحب تماماً يتحوّل الى حب ، فلهذا السبب يصير الحب أعظم مما يكون عليه لو لم يتقدمه الحقد » .

هكذا نرى كيف يدور دولاب العواطف الضعيفة التي تفرض الاستعباد عند الرجل . إن سبينوزا إذ يتغلغل منقباً في الطبيعة البشرية بدقة ومهارة نادرة ، يكشف عن خبيئة النفس ، وهي الكائن النهائي الذي يوجد تحت رحمة اللانهائي وتحت سلطة تفوق الطبيعة البشرية ، وتحت رحمة النزعات ، إذا صحّ هذا القول ، الذاتية في الطبيعة ، تعبث أعاصير الأهواء » فيكره ما كان يحب ، ويحب ما كان يكره ، تحت تأثير المعلولات الخارجية » . وبالاجمال فان عواطف هذا الكائن النهائي محدودة وخاضعة لسير الطبيعة العام .

٤ ـ الحياة الابدية

ان الرجل مع ذلك ينجو ، الى حدٍّ ما ، من الضغط أو من تقبيد الاختيار الصارم من جانب الآلهة « الطبيعة » . ان له أفكاراً ثابتة لا تتغير ، وإذ ذاك فهو يستطيع أن يعمل وألاَّ يكون عبداً لشهوته ، وأن يسلك الطريق الوعرة التي تؤدي الى قمة السعادة ، وإلى الهناءة الداخلية ، والى معرفة الله معرفة دقيقة ، والى الفضيلة . هنا يفيض علينا سبينوزا من رحيق الحياة ويشركنا في الحب العظيم وأسرار الكمال والنور . ان تأملات هذا المفكر العبقري ، الذي طالما سهر الليالي وتألم بهدوء وبدون علم أصدقائه والمعجبين به ، تتجلى في عظمتها وغنى مواردها ، كالسحر في الفن ، عند ما يطرق في النهاية الحديث عن الجزء الخاص بالخلود حيث يتضح جليًّا أنه يحاول جهده ليشركنا مع الكائن الأسمى ، وان يلقننا التصوُّف ، والروحانية البحتة التي يقوم عليها مؤلفه « حب الله » .

فلننظر كيف يدرك الرجل تلك السعادة . يجب أن يكون « هذا الغصن المفكر » كما يقول باسكال ، حرًّا ، وبعبارة أصح ، أن يكون دليله العقل بحسب المعنى الأسبينوزي ، أعني ثابتاً لا يتغير . إن سبينوزا يقول لنا إن الرجل الحر الذي يتبع ارشاد العقل « لا يعمل للخديعة بتاتاً ولكنه يعمل دائماً بحسن نية » . ويضيف إلى ذلك قوله إن الرجل الحر « الذي يقوده العقل هو أكثر حرية في المدينة التي يعيش فيها طبقاً للناموس المشترك منه في العزلة حيث لا يخضع إلاّ لنفسه » . إن الرجل الحر عند ما يعرف نفسه ويعرف « عواطفه بوضوح وجلاء » فإنه يحب الله ، ويزداد هذا الحب بقدر ازدياد معرفته لنفسه ومعرفته لعواطفه » . إن « هذا الحب لله يجب أن يحل في أكبر مكان من النفس » . ولكن ليس لله « شهوات وهو لا يشعر بأية عاطفة سرور أو حزن » . وهكذا فإن سبينوزا يبعد كل مظهر من مظاهر التجسد الالهي ويرجع بنا إلى محوره الأساسي الذي يتعلق من ناحية ما بعد الطبيعة ، بالكل وبالمادة و « بما هو في ذاته ومُدرك في ذاته » وإنه لذلك لا يمكنه « الحقد

على الله » فالذي « يحب الله لا يمكن أن يأتي بمجهود ليحمل الله على حبه » . إن الحب نحو الله « لا يمكن أن يفسد لا بعاطفة حسد ولا بعاطفة غيرة وإنه ليزداد نمواً واشتعالاً بقدر ازدياد عدد الرجال المرتبطين بالله بنفس رباط الحب » . فهذا الحب نحو الله « الذي يعتبر بمثابة سرور مصحوب بفكرة الله » ينشأ عن معرفة ثابتة غير متغيرة لعاطفتنا، ويستلزم كمال شخصنا وسلطته. وبعبارة أخرى إنه منحدر من النفس التي – بواسطة الجسم والأشياء التي لها نوع من الأبدية – « لها علم بالله وتعرف بأنها في الله وتدرك نفسها بالله » إن الأبدية هي ماهيـة الله حيث إنها تشمل الوجود الضروري . في هذه الظروف يكون النوع الثالث من المعرفة ، ذلك النوع الذي يستطيع وحده أن يدفعنا إلى حب الله العقلي ، تابعاً للنفس التي تستلزم الأبدية بماهيتها . في هـذه الحالة « يكون حب الله الروحاني ، الذي يتولد من النوع الثالث للمعرفة أبديـًا » . وبعبارة أخرى يكتب سبينوزا :

« إن حب النفس الروحاني لله هو حب الله بعينه وهو ذلك الحب الذي يحب به الله نفسه ليس بصفة كونه لانهائيـًا ولـكن باعتبار أنه يمكن تفسيره بماهية النفس البشرية المعتبرة من الوجهة الأبدية ، أي إن حب النفس الروحاني لله هو جزء من الحب اللانهائي الذي يحب الله به نفسه » .

ويستنتج سبينوزا من ذلك :

« إنه لا يوجـد شيء في الطبيعـة يتعارض مع ذلك الحب الروحاني ، وبتعبير آخر ، لا يوجد شيء يمكن أن يحطمه . »

وهكذا ، وبفضل ذلك الاعتبار للأشياء من الوجهة الأبدية ، يجتـاز سبينوزا جميع العقبات والموانع رويداً رويداً، ويحل جميع الصعاب ويسير بنا بتقدم محسوس مطرد ، إلى النعيم الدائم، وهذا النعيم هو في ذاته الفضيلة ، والطمأنينة، وهو ذلك السرور الذي ينشأ عن مشاهدة نفوذنا وسلطتنا في العمل ، وهي التي « تتألف من حب الله » ، الذي يعتبر النوع الثالث من المعرفة الذي يستلزم الأبدية منبعه ».

إن فكرة سبينوزا تتجلى في وقت واحـد ، كما أسلفنا ، تحت مظهرين مزدوجين : متافيزيقي وأخلاقي . إن القلق الذي يشعر به الانسان لا يمكن تبديده إلاّ إذا عرف أصل

الأشياء ومنشأها . ومتى توصل الى ماهية الأبدية وكيفية دورانها ومكانتها ، فما الذي يتبقى للرجل الذي يكون حلقة في تلك الشبكة العظيمة التي تتألف منها الطبيعة ، سوى بضع شرائع حكيمة لا مناص منها لقيادة حياته ؟ ستكون الأخلاق ، وهي متوفرة في طبائع إسرائيل وعاداته ، أسمى ما تتوج به أعمق الدراسات النظرية وأكثرها تجرداً فيما يتعلق بما بعد الطبيعة . إن سبينوزا لا يهمل الوجهة العملية من الحياة اليومية . إنه يحب الحياة وهو الذي كتب :

« إن الرجل الحر لا يفكر في شيء ما وأقل الأشياء التي يفكر فيها
هو الموت ، وحكمته لا تأمل لا في الموت ولكن في الحياة »

وهكذا فإنه يعمل على غرار الذين ، من أبناء جنسه ، قد تأملوا في الحياة وفي حب متبادل بين الرجال . ويقول سبينوزا :

« إن الرجال الأحرار وحدهم هم الذين يعترفون لبعضهم بالجميل » .

تلك هي عظمة وعمق تلك الفلسفة التي يخال أنها تتحدّى الزمن بحداثتها المطردة وبحثها بإخلاص عن الحقيقة . إن سبينوزا يقول لنا إن هذا المذهب مفيد للحياة الاجتماعية لأنه يعلم ألاّ « يحقد المرء على أحد، ولا يحتقر أحداً، ولا يسخر من أحد، ولا يغضب على أحد، ولا يحسد أحداً . ويعلم أيضاً كل امرء أن يكون مرتاحاً إلى ما لديه وأن يساعد جاره لا بدافع الشفقة النسائية أو التحيز أو التطير ، ولكن بدافع العقل وحده » . لا يمكن أن يتصوّر الانسان فكرة أنضج وأرحم من تلك الفكرة فهي تجعل الرجل سعيداً بالتأمل وراحة النفس . إنه لا يستلزم العزلة، ولكن فضيلة « التقوى » التي ترمي إلى إقصاء المنازعات بفضل تصرّف معقول وجلب السلم إلى الرجال . إن الحكيم لا يستنكف الحرص ، والذي « يعمل ما استطاع على تلافي احسان » الجهال ، ويتلافى الأخطار ، يصل بتلك الطريقة إلى الهدوء والطمأنينة ، وإلى حياة التأمل الهنيئة السعيدة ، وإلى تلك الغبطة التي تميز حب الله الروحاني .

٥ – حضارة المذهب الاسبينوزى وتأثيره

لقد وقفنا مما تقدّم على الصفات المميزة لتلك الفكرة الفنيــة التي جمعت في أغراضها الــكون بأسره أو الــكل . وقد لاحظنا كذلك ان فلسفة سبينوزا ليست غريبة عن شجون الحياة اليومية الكثيرة التي تشغل الانسانية . إنها ترمي ، تحت مختلف مظاهرها .المتافيزيقية والأخلاقية والنقدية إلى إيحاء حلول موفقة وارشاد من أزعجهم القلق إلى حد الإضناء،ومن يتألمون في داخليتهم وهم صامتون . إن سبينوزا إذ يتوجه بحديثه في مؤلفه الشهير « نبذة في السياسة » إلى عطف « القارىء الفيلسوف » لا يخشى أن يحطم من أساسها العقائد التي لا تتفق مع النور الطبيعي،ولا مع ذكاء الأشياء الوقاد . إن التطير هو الذي يصعب استئصاله من نفوس الدهماء.ولقد كان هذا التطير السبب الأوحد « في كثير من الاضطرابات والحروب الطاحنة » . وكان سبينوزا لا يتردّد في نقد الـكتب المقدســة نقداً شديداً عند ما يتناولها بالفحص الدقيق وحرية الرأي والتفكير بغير ما تحيز أو تحايل . وهكذا كان يبدّد كثيراً من الأغلاط والأخطاء . « ليس للمعرفة الملهمة غاية غير الطاعة » . ثم إنه يشهر بالجشــع السافل والطمع عند من يدّعون نشر الايمان بالله وهو يقول :

« لقد رأيت مراراً عــدّة ، رجالا يفاخرون بتعاليم الدين المسيحي ، أي تبادل الحب والاخلاص بين الجميع ، رأيتهم وهم يتنازعون فيما بينهم ، ويتناحرون بحــدّة وسوء نية متناهية،ولا يخفون عن بعضهم أمارات الحقد والضغينة،بحيث كان إيمانهم يتجلى من هــذه العواطف أكثر من تلك » .

إن الغبطة الحقيقية ، ليست من حظ البعض دون البعض الآخر وهي كيسوع لا تستثني أحداً . « وإذن فمن يُســر من ضرر الغير فهو حسود لئيم لا يعرف المحبة ولا السكينة في الحياة الحقيقية . »

وإن في شعور الانسان بالسرور من اعتقاده بأنه أرفع مكانة من غيره لهو جهل بالغبطة الحقيقية . فهذا السرور « الصبياني » لا يمكن أن « يتولد إلاّ من الحسد ومن قلب شرّير » وفي « نبذة في السياسة » يقرر سبينوزا — على عكس ما كان يراه هوبس — إن « أصلح الحكومات هي التي يقضي الرجال حياتهم في ظلها في وئام تام، وهي التي تراعى شرائعها بغير تمرد أو خروج عليها » . ويلاحظ أيضاً ان السلام « ليس في عدم وجود الحرب فقط، فهو أيضاً فضيلة، تجد أصلها ومنبتها في قوة النفس » .

إن هذا المذهب الذي يرتبط في الظاهر بأماني الانسانية ينتصر على الزمن . فهو عصري لانه لا يفرض أي استثناء بين الرجال ، ولانه يفرض ، طبقاً لأسس الفلسفة ، وجود الحب والاخاء . ويقول برونسفج إن فلسفة سبينوزا « تفقد صفة التعبير عن مذهب ضمن سلسلة المذاهب التاريخية لتصبح شيئاً يشعر به من الداخل وتؤيد صحتها بنفسها لأنها مفهومة » .

وآخى سبينوزا في المانيا وغيرها من أعظم الشخصيات البارزة . ففي هذا البلد نشرت نظرية سبينوزا ومبادئه الاخلاقية لقد أثر المذهب الاسبينوزي على العبقرية الالمانية بدافع الجاذبية ، وبدافع الايحاء معاً كنموذج ومحرك . وقد كتب ليفي بروهل أن الجيل الجديد وهو جيل هردر ويعقوبي وجيته « لا يكتفي بإسناد العقائد الدينية الى المبادىء العقلية البحتة، كما كان يرضى به آباؤه. فإلى جانب بومجارتن ولامبرت ومندلسوهن ، بل وإلى جانب أمثالهم من الفرنسيين والانجليز، كان سبينوزا بمثابة عملاق . لقد أدركوا أنه لم يتخذ من الفلسفة مهنة أو سلاحاً أو للتدريس ، ولكنه اتخذها أداة للتأمل في الحق من ناحيته الأبدية . ولم يكن في مقدور ڤولتير ولا هيوم ولا روسو أن يقيسوا أنفسهم به . فقد كان من بيئة عقلية أخرى » ويدلل يعقوبي على أن المذهب الاسبينوزي كان أساسيًّا لقيام مذهبه، وانه يتجلى كدين أي أنه « مذهب الكائن الأسمى وعلاقات الرجل بهذا الكائن » . وشليرماشر تكلم عن « القديس سبينوزا » ، ونوفاليس عن « الرجل المتشبع بالألوهية » وهيجل يقول بإخلاصه المعتاد : « لكي يكون الانسان فيلسوفاً يجب عليه أن يكون سبينوزيًّا أولاً » . ويقرّر جيته « إن أهم ما قيدني هو النزاهة غير المحدودة التي تتلألأ حول كل فكرة من أفكاره » .

لقد كان تأثيره عظيماً على علم ما بعد الطبيعة في المانيا . وهذا التأثير تجلى بشكل قاطع في مذهب ليبنيتز . وقد تأثر كذلك المفكرون في بلاد أوربية أخرى بالاسبينوزية سواء في عالم السياسة،أو في عالم الدين،أو في عالم ما وراء الطبيعة والأخلاق وعلم النفس،بل وفي ثقافة العلم البحت .

ولقد صاح رينان بعبارات مؤثرة عند الاحتفال بإقامة تمثال سبينوزا : الويل لمن يمر ويوجه اللعنة الى هذا الوجه الرقيق المفكر . لسوف يهدي الجميع من فوق تلك المنصة إلى طريق السعادة التي اكتشفها . وسيأتي يوم بعد مرور أجيال يقول الرجل الذي يمر به إلى نفسه : « هنا رؤي الله عن كثب » .

ليس مظهر الطبيعة العظيمة التي ترمي إلى اللانهائي والأبدي هو المظهر الكامن في سبينوزا،وانما الذي يكمن فيه بوجه خاص ،كما أسلفنا في بدء هذه الدراسة ، هو الحب الذي يستلزم الرحمة والشفقة،ويتطلب الحنان والحياة السعيدة .



نوامس المقتطف الشهرية

فك الاغلال

بحث في الثقافة التقليدية وعلاقتها بالتربية القومية

بقلم اسماعيل مظهر — ظهر مع مقتطف يناير ١٩٤٦

الالوهية والفكر

بحث في العقائد المألوفة

مترجم بقلم اسماعيل مظهر عن لورد بلفور

وهو بحث مثبت للالوهية نافٍ لما يدعيه بعض الماديين

من ان في المادية الطبيعية قصداً اوما يشبه القصد

ظهر مع مقتطف فبراير ١٩٤٦

الفريد ده موسيه

شاعر الحياة والالم

بقلم الاستاذ صلاح الدين الشريف ظهر مع مقتطف مارس ١٩٤٦

الازهر بين الماضي والحاضر

بحث في تاريخ الازهر الشريف وتطوره ومنزلته العلمية

والدينية واتصاله بحياة الاسلام من قلم الاستاذ منصور

علي رجب المدرس بكلية اصول الدين

مع مقتطف ابريل سنة ١٩٤٦

سبينوزا

حياته وفلسفته — عرض وتحليل —

تأليف هنري سرويا — ترجمة سليم سعده

يظهر مع مقتطف مايو ١٩٤٦

اطلبها مع مقتطف مايو وثمن النسخة ١٠ قروش

موسكو — برلين — لندن

تاريخ سياسي لفترة ما قبل الحرب العالمية الثانية

بقلم عصام الدين حفني ناصف — يظهر مع مقتطف يونيو سنة ١٩٤٦

فلسفة الوجود

شوقي

ONTOLOGY

the philosophy of the physical Universe

تأليف

نقولا الحداد

مطبعة المقتطف والمقطم

١٩٥٠

أهدي الكتاب

الى ابني العزيز الدكتور فؤاد الحداد الكيماوي

ذكرى مناقشاتنا في أعماق الذرّة وأقاصي

الكون الأعظم

فلسفة الوجود

هذا العنوان كبير على هذا الكتاب .

لولا أن الكتاب أسرفوا في استعمال فلسفة : فلسفة الجمال ، وفلسفة الحب ، وفلسفة الألوان الخ ، ماجرؤت على استعمالها لهذا الموضوع الذي هو أجدر من غيره بهذا اللقب الشريف

كان التعمق في المعرفة العلمية يعتبر فلسفة ، حتى الى زمان نيوتن وبعده . فكان كل ما كتب نيوتن عن الجاذبية والنور والطبيعة الخ .. يعتبره علماء عصره فلسفة : على أن علماء العصر الأخير رأوا أن كل ما يجوز الامتحان العملي والاختبار المعملي يحسبونه علماً . ولذلك نقلوا كثيراً من المواضيع الفلسفية القديمة الى دار العلم ولم يتركوا ، للفلاسفة إلا ما يسمونه « ما وراء الطبيعة » ـ وهذه كلمة مبهمة أيضاً ـ ومواضيع الفلسفة الأدبية Ethics كالحق والعدل والحرية ، والسبب والمسبب ، والعلل والمعلولات الخ .. ومع ذلك نقلت هذه أيضاً الى دار العلم . وإذن صارت الفلسفة ثانوية بالنسبة الى العلم . وبهذا الاعتبار ألقينا على هذا الكتاب وشاح الفلسفة ، مع اعترافنا بأنه يضفي عليه كثيراً

السلك الذي نظمت فيه حلقات هذا الكتاب هو « سنة الجاذبية » . وبهذا الاعتبار تكون الجاذبية علة كل حركة في الوجود ، هي « القوة القصوى » المحركة الأكوان . وإذا شاء المؤمن فهي في يد الله ، هو ضابط الجاذبية . وهو محركها ، وما هي إلا « الموتور » في يده تعالى . وهو تعالى يمنحها القوة التي هي ينبوع كل القوى .

معظم نظريات هذا الكتاب خاصة بي ، لم أقتبسها من مؤلف آخر . ولذلك يحتمل أن يكون فيها ما يقبل الشك أو الاعتراض أو النقد . فامتن لمن ينتقد

نقولا الحداد

الوجود

تمهيد

الوجود مادّة متحركة في حيّز (مكان)
المكان عرض أوّلي عيّنته المادة
والزمان عرض ثانوي ، هو مقايسة المكان بالحركة[1]
فكأن الوجود مبني من ثلاثة عناصر . المادة ، والحركة ، (الزمان) ، والمكان
هذه العناصر مختلفة الطبع كل الاختلاف . واختلافها يهيء تنظيم البناء وتنويعه.

انحلال كتل الكون الى ذرات أولية متماثلة (فوتونات أي ضويئات) يدل على أن أصل المادّة (الهيولي) شكل واحد متعدد الذرات أو الذريرات . ذرة واحدة لا تبني كوناً غير نفسها .

ذرات عديدة متماثلة تبني كوناً واحداً بسيطاً لا تمايز بين أجزائه .

ولكن حدوث حركة الذرّات في المكان يؤدي الى تنويع الأبنية الكونية .

فالكون على صوره العديدة المختلفة الأشكال مكون من هذا الثالوث : المادة والحركة والحيّز.

هل يكفي لبناء الكون مجرد وجود هذا الثالوث ؟

نرى تشابهاً في صور الكون واشكاله . ثم نرى ارتباطاً بين أجزائه وجماعاته . فتقيم هذه الرؤية في ذهننا وجوداً آخر معنويّاً لهذا الارتباط وذاك التشابه، وهو وجود نظام تصاغ بمقتضاه صور الكون واشكاله — هو هندسة الكون .

هذا النظام هو تكافل عناصر الثالوث المذكور ببناء الكون، على أساليب تضمن ارتباط أجزائه والتدرّج في تطوراته درجات متصل بعضها ببعض

(١) في فصل « الزمكان » في كتابنا هندسة الكون حسب ناموس النشوء » شرح وافٍ لنظريتي المكان والزمان

وهنا تلوح في بالنا الأمور التالية : —

١ — هندسة النظام تستلزم عملية تنظيم

٢ — التنظيم يستلزم وجود أعضاء نزوعة للنظام، تتنظم في جسم

٣ — وجود الاعضاء يستلزم أن تكون ذات شخصيات (ذاتيات)

٤ — النظام يستلزم وجود منظم ..

فهندسة الكون ، أي نظامه، تقتضي وجود أعضاء نظامية وتنظيم ومنظم . فأين نجد هذه الثلاثة ؟

* * *

الأعضاء النظامية هي عناصر الثالوث المذكورة آنفاً التي لا يمكن وجود واحد منها مستقلاً عن الآخرين : المادة وجدت متحركة في حيز . فالعناصر المذكورة متوقفة بعضها على بعض . وفناء أي واحد منها فناء لجميعها .

والتنظيم ظاهر في أن جميع أجزاء الكون سائرة على قانون أنظمة واحد، نافٍ للفوضى نفياً مطلقاً .

أما المنظم فهو ما يتعذر إدراكه . هل هو طبيعة في ذرات المادة نفسها ؛ أو هو فاعل مستقل عنها ؟

المادة نفسها تثبت وجودها لعقليتنا بنفسها . وتثبت أيضاً أنها هي منشأ عقليتنا . لأن عقليتنا منفعلة بها . وأما الفاعل المستقل فليس ما يثبت وجوده لنا . وإنما افترضناه ، لأنه تعذر علينا أن نفهم كيف يمكن أن يكون المنظم طبيعة في ذرات المادة .

فإذا قلنا ان المنظم الحر الإرادة هو طبيعة في ذرات المادة نفسها غير مستقل عنها تعددت الإرادات الحرة بتعدد الذرات . فان اتفقت كلها على نظام واحد استوى كونها حرة وكونها غير حرة . لأن لا معنى للحرية إلا بوجودها الى جنب قيد . وان استقل كل منظم بمقتضى حريته كان شكل الوجود فوضى ولا نظام . وان افترضنا إن ارادات الذرات متماثلة فيما تريد ، ولذلك اتفقت على نظام واحد ، قام الشك في حريتها ، لاننا لا نتيقن إنها حرة إلا باختلاف ما تريده . ولذلك يتعذر علينا فهم أن ذرات المادة نفسها نظمت نفسها، كما أنه يتعذر علينا أن نفهم أنها أوجدت نفسها ، أو خلقت نفسها .

وإذا افترضنا ان المنظم مستقل عن الثالوث المادي الذي ذكرناه ، وإنه فاعل فيه بحسب مشيئته ، فكأننا نقلنا مشكلة الخلق من المادة إلى منظم المادة . وتبقى المشكلة مشكلة .

فإذاً . مسألة السببية Causation تقف هنا حيث لا نستطيع أن نستكشف مسبباً

للوجود المادي ولا لنظامه . هنا يقف العقل عاجزاً ، لأنه يستحيل عليه أن يفهم أكثر مما ينفعل به . وهو لاينفعل بأكثر من فعل المادة نفسها فيـه . لا يستطيع أن يتخطى الى الفاعل البدائي (أي الصلة الأولى) ، الذي يفعل فيها ويصوغها في نظامها.

العقل نتيجة تفاعلات مادية ، كأنه ظاهرة من ظاهراتها ، أو نوع حركة من حركاتها . فاذا توقفت أو تعطلت هذه الحركة انتفى العقل بتاتاً . فهو كالنور الصادر من الشمس ، فإذا سكنت كل حركة في الشمس انقطع انبعاث النور . لذلك لا يستطيع العقل أن يستقل عن المادة وينفصل عنها ، ويقيم بذاته في مقام يستطيع منه أن يشرف على المادة ويتبين أصلها وفصلها .

إذن فقدرة العقل في الإدراك محدودة ضمن دائرة ظاهرات المادة التي هو واحد منها، فيستحيل عليه أن يخرج من دائرة الظاهرات ويتغلغل في أعماق كنه الجوهر . هذا المستحيل هو أعظم المستحيلات على العـقل البشري من ناحيته . وأبسط أسرار المـادة المحجبة من ناحيتها .

فمن ذلك نرى أن العقل، على عظـمه بين ظاهرات المادة ، وعلى تعاليه فوقها للإشراف عليهـا (على الظاهرات) هو ضعيف جداً ، وحقير وعاجز عن استكناه جوهر المادة . لا يستطيع في هذا الاستكناه إلاّ التكهـن اعتماداً على قوة الاستدلال والاستنتاج القابلة الخطاء .

* * *

إذن فلـكي نستطيع أن نجعل بدءاً للبحث، أي أن نعين النقطة لأول خطوة فيه، يجب أن نفترض فرضاً يتوسط بين الفرضين السابقين . وهو أن النظام نفسـه عنصر من عناصر الوجود غير مستقل عنه . هو رابع العناصر الثلاثة التي رأيناها موادّ البناء الأولية . أي أن الوجود مبني من أربعة أشياء : - المادة . الحركة . المكان . النظام . أعني أن سبب وجود النظام هو نفســه سبب وجود ذلك الثالوث سواءاً أكان ذاتيـاً أم من فعل فاعل مسـتقل. إن الذي خلق الثلاثة خلق الرابع أيضاً . خلق أربعة لا ثلاثة فقط . فالوجود رابوع لا ثالوث .

* * *

هنا يتجلى لنا سؤال ذو شأن عظيم : — هل كان ممكناً أن ينتظم الـكون نظاماً آخر غير نظامه الحالي الذي نعرفه ؟ أم إنه يستحيل أن يكون له نظام آخر غير هذا ؟

إن كان الأمر الأول ممكناً كان المنظم حرّاً (سواء كان ذاتاً من خواص المادة أو مستقلاً عنها) وقد اختار هذا الشكل من الأنظمة دون اشكال أخرى. ويحتمل أنه متى انتهى عمر هذا النظام يعود فينظم نظاماً آخر.

ولكن الظاهر لنا من سلسلة السببية، أي سلسلة النظام التي كل حلقة منها سبب لحلقة أخرى بعدها — الظاهر لنا من هذه السلسلة أنه لا يحتمل أن يكون للكون إلاّ نظام واحد، وهو النظام الذي نعرفه له الآن. اللهمّ إلاّ إذا كان ثمّت منظم مستقل حر الارادة في وسعه أن يجعل له نظاماً آخر لو شاء. وهو ما لا مبرر لافتراضه أكثر من المبرر لافتراض أن هذا الرابوع المادي موجود كما هو بنفسه.

وإذا كان ذاك الغرض لا يمتاز على هذا بشيء سوى أنه يزيد حلقة في سلسلة السببية بلا داعٍ، فالأفضل أن نبتدىء من فرض أن الوجود وُجد مهيّئاً لهذا النظام. وبعبارة أخرى أقرب منالاً: إن المادة وجدت متحركة، في حين أنها نزوعة إلى هذا النظام. النظام رابطة الثلاثة.

ولأننا لا نستطيع أن نتصوّر نظاماً غير هذا، فهو إذن طبيعة في المادّة نفسها أو نسجية فيها.

الباب الاول

النظام المادي

ما هو النظام العام ؟

أولاً — عملية التنظيم العام تجري على ثلاثة أشكال : —

١ — التجمع ٢ — الدورية ٣ — التفرع

ثانياً — حاصل هذا التنظيم أطوار متنوعة في أبنية الوجود. حصل منها الى الآن ما يأتي :

١ — تكون الذرات فالجزيئات
٢ — تكون السدم والاجرام والسيارات
٣ — تكون الخلايات من الجزيئات في فرعي الحياة
٤ — حدوث العقل الفردي
٥ — حدوث العقل الاجتماعي
٦ — والله أعلم ماذا يحدث بعد هذه الخمسة

ثالثاً — الشخصية

بحثنا يمضي في هذه المواضيع المتداخلة . نبحث أولاً في عملية التنظيم . ثم نفصلها في كلٍّ من حاصلاته الخمس .

ولا يخفى أن اشكال عملية التنظيم تجري معاً متكافلة . ففي حين يحدث التجمع يكون دوران الوحدات الذرية وغيرها حادثاً أيضاً . وفي الوقت نفسه يحدث التفرع .

فاذا ابتدأنا بشرح التجمع فلأنه بطبيعة الحال أول ما يلفت النظر .

التجمع

درجة التجمع الأولى — التجمع الذري

١ — التجمع الابسط — تكون البروتون (الكهرب)
٢ — التجمع البسيط — تكون الكهيرب (الالكترون)
٣ — التجمع المركب — تكون الذرة البسيطة
٤ — التجمع المركب — تكون الذرة المركبة
٥ — مركب المركب — تكون الجزيء

الدرجة الثانية تجمع التجمع

١ — التكتل
٢ — تكتل التكتل

عملية التجمع

الفصل الاول

التجمع

الدرجة الاولى — التجمع الذري

إن أول خطوة في نشوء الكون هي تجمع ذرات الايثر (أو بالأحرى فوتونات المادة أي ضويئاتها، ان كانت الفوتونات غير ذرات الايثر) — من تجمعها في كهارب وكهيربات تتكوّن الذرة (١)

الفوتون (الضويء) على حد علمنا، أبسط وحدة في المادة، أي ان ربوات الفوتونات التي تشغل حيّز الوجود (المكان Space) متماثلة. فكيف تجمع بعضها في صنفي جماعتين مختلفتين — جماعة البروتونات (الكهارب) وجماعة الكهيربات (الالكترونات). جماعة البروتون (الكهرب) ١٨٤٠ ضعف جماعة الكهيرب. وجماعة الكهيرب تعد عشرة آلاف فوتون (ضويء). وكل كهرب يقابله كهيربه.

قلنا آنفاً ان الحركة في الحيز من جوهريات عناصر الوجود. فالفوتونات تحركت متجاذبة فتجمعت في جماعاتها. والتجاذب طبيعة فيها، أو هو سجيتها كما خمّناه إذ لم نجد له سبباً غير هذا. فكيف تجمعت مبدئيّاً على شكلين: كهرب وكهيرب؟ لماذا لم تتجمع مبدئيّاً على شكل واحد أو ثلاثة أشكال أو أكثر؟

هذا ما يتعذر علينا فهم سببه: على انها لو تجمعت على شكل واحد لما تنوعت مركباتها. فحدوثها على شكلين كفل تنوعها. ولا لزوم لتجمعها على ثلاثة أشكال أو أكثر. ولو تعددت أشكالها لتفاقمت أنواعها جدّاً.

نكاد، في تحدد تجمعها على شكلين فقط: كهرب وكهيرب، لا شكل واحد، ولا ثلاثة أشكال أو أكثر، نلمس المنظم الحرّ الإرادة الحكيم التدبير

(١) أنظر كتابي «عالم الذرة والطاقة الذرية» الفصل الاول
وقد ترجمنا كلمة بروتون بكهرب وكلمة الكترون بكهيرب. وفي هذا الكتاب نستعمل الاصل تارة والترجمة أخرى لكي يبقى القارىء على علم بالاصل العلمي، حتى اذا صدفها في قراآت أخرى لا تكون البروتونات والالكترونات غريبة عنده

١ — التجمع البسيط — تكون البروتون (الكهرب)

رأينا في ناموس الجاذبية [1] إن الجذب الى المركز في جسم يدور على محوره يكفل تزاحم الأجزاء حول المركز الى حدٍّ معين . وبعد هـذا الحد لا يكفل ارتباط الأجزاء السطحية فيه لسبب عامل آخر غير الجذب، وهو عامل الدوران المحوري الذي يقاوم الجذب، فيتغلب الدفع عن المركز على الجذب إليه (Centrifugal أكثر من Centripetal) وقد علمنا من ناموس الجاذبية أيضاً أن الدوران المحوري ابتدأ منذ ابتدأ التجمع . وعلمنا أيضاً أن قوّة الجذب تنقص كمربع البعد . وعلمنا أن قوّة التجاذب مناسبة لكتلة الذرّات المتجاذبة . فإذا راعينا هـذه الحقائق جميعاً معاً أمكننا أن نتصوَّر أن قوّة التجاذب الفوتوني لا تستطيع أن تضبط حول مركز واحد أكثر من عدد معين من الفوتونات متزاحمة حوله على شعاع Radius معين مقرّر . وقد اكتشف العلم حديثاً إن هذا العدد هو ١٨،٤٠٠،٠٠٠ فوتون . فما زاد عليه تنفضه قوّة الدوران المحوري البعيدة عن المركز . لأن قوّة الجذب عند آخر الشعاع تصبح ضعيفة بالنسبة الى قوة النفض . فحجم الفوتون، ووزنه ، وتزاحم الفوتونات في جسم كروي ، وسرعة الدوران المحوري — كل هذه قررت أن لا يزيد البروتون عن ١٨ مليون و٤٠٠ ألف فوتون .

٢ — التجمع الابسط — تكون الكهيرب (الالكترون)

هكذا تكوّن البروتون . فكيف تكوّن الكهيرب ؟ (الالكترون)

الكهيرب هو جماعة فوتونات (١٠ آلاف فوتون) كانت منجذبة الى مركز البروتون مع ما انجذب إليه من الفوتونات . ولكن قوّة التشريد عن المركز أبعدتها عنه . وجعلها التموج الأيثري الحادث من دوران الكهرب المحوري تدور حول الكهرب على بعد مناسب حسب قانون التسارع . فتجاذبت في فلكها وتجمعت في الجماعة التي نسميها كهيرباً ، وهي بنوبتها تدور حول مركز الكهيرب دوراناً محوريّاً أيضاً . ودورانها هذا مع دورانها في فلكها جعلها أقل كثافة من الكهرب (البروتون) بحيث تساويه حجماً مع إنه ١٨٤٠ ضعفاً منها كتلة . لذلك يعتبر الكهيرب (الالكترون) أكثر تعرضاً للتفتت أو التفكك من البروتون (الكهرب) كما هو معلوم من أن معظم أشكال التشعع غير الكهرطيسي هي من صنف جامّـا . وهو فوتونات لا تعبئة كهربائية فيها .

---

(١) أنظر ناموس الجاذبية في كتابنا فلسفة التفاحة أو جاذبية نيوتن

٣ — التجمع المركب — تكون الذرة البسيطة

رأينا آنفاً أنه متى تكوّن البروتون(الكهرب)تكوّن معه كهيرب (الكترون) . فمن البروتون المفرد وكهيربه تتكوّن أبسط ذرة في الوجود وهي ذرّة الهيدروجن . والغالب إنها أول ذرّة تتكوّن في بدء التجمع الفوتوني. ولذلك هي أكثر الذرّات عدداً في السُّدُم المتكاثفة .

بدء التجمع لا يستلزم أن يكون دائماً تكوُّن البروتونات علة لتكوُّن الالكترونات . فقد يحتمل أن تتكون أولاً جماعات لا هي بروتونات ولا هي الكترونات . وإنما لاتلبث أن تتجمع هذه الجماعات ، فتتكوّن منها بروتونات بحكم سرعة دورانها المحوري التي هي سرعة مقررة أو مستقرة Constent . وتسبّب دوران جماعتها المحوري بسرعة مناسبة لها ولعدد الفوتونات المتجمعة . والجماعة لا يستتب كيانهـا إلاّ إذا كان عددها ١٨ مليوناً وذات شعاع (نصف قطر) طوله واحد من ١٢٥ مليون من القيراط، ويحتمل أن تتكوّن الكترونات وبروتونات . ولكنها لا تلبث أن تتجمع وتتمازج في بروتونات

٤ — التجمع المركب — تكون الذرة المركبة

سنرى فيما يأتي في هـذا الفصل أن عملية التجمع المستمرة تنتج ضغطاً على الأجزاء المتزاحمة حول المركز . فلنسلم الآن أن من مقتضيات التجمع الضغط . وان هـذا الضغط المتتابع من ذرات على ذرّات يحدث أمرين معاً :

أولاً : إن الالكترونات التي تحت الضغط تضعف سرعتها في أفلاكها حول بروتوناتها فتهبط الى بروتوناتها[1] . وبسبب الضغط نفسه لا تستطيع البروتونات أن تشرّدها عنها بقوّة التشريد عن المركز Centrifugal ، لأنها هي نفسها قلت سرعتها أيضاً . وهذه الحال هي ما نسميه الحياد الكهربائي Neutrality . أي أن البروتون المتحد مع الكترونه ليس في حالة التعبئة الإيجابية — هو النيوترون Neutron

ثانياً : إن هذا الضغط نفسه يحدث انضمام بعض البروتونات الى بعض، فتتداور بعضها حول بعض بحكم التموّج الأيثري الذي يحدثه فيما بينها ، وتصبح كأنها جماعة أو أسرة واحدة. يحدث هذا الإنضمام بين بروتونات مختلفة في سرعة الدورة المحورية وفي الإتحاد الكهربي، أي ان بعضها معانقة الكتروناتها وبعضها غير معانقتها . هـذا الإختلاف يسهل تجمعها في أسرة واحدة . ولولاه لتعدد تجمعها ، ولكان غير مستتب

هكذا تكوّنت الذرّات المركبة من بروتونين فأكثر ، وتعدّدت حتى بلغت الى ذرّة

(١) كما أن الطائرة تسقط إذا خفت سرعتها — نفس السبب

الأورانيوم ذات الـ ٢٣٨ بروتوناً ، والبلوتونيوم ذي الـ ٢٣٩ بروتوناً .

لذلك نرى في الشمس وأمثالها من الأجرام أن الذرات الثقيلة توجد غالباً حول المركز لأنها تحت الضغط الشديد . والخفيفة توجد بعيدة عنه . وربما وجدت هناك ذرات أخرى أثقل من الأورانيوم لا توجد انداد لها في أرضنا . ولهذا نرى أن الذرات الثقيلة هذه متى برحت من تحت الضغط صارت عرضة للتفكك بواسطة الإشعاع الموجي Radiation ، لأن كل تجمع يكون أكثر عرضة للتفكك كلما كان كبيراً ، كما سنرى .

ووجود الأورانيوم وسائر الذرات الثقيلة في أرضنا يدل على أنها ولدت في الشمس حين كان تكاثفها كافياً لإنشاء ضغط كافٍ لتكوين هذه العناصر الثقيلة . ولذلك نرى أن مقادير هذه العناصر الثقيلة على الأرض قليلة جداً بالنسبة الى مقادير العناصر الخفيفة . لأن الأرض وسائر السيارات تولدت من قشرة الشمس السطحية حين لم يندفع من وسطها الى سطحها الا القليل النادر من العناصر الثقيلة . وكلما تقادم الجرم يشتد الضغط بتقلصه فتتكون فيه ذرات عديدة البروتونات ، لا وجود لمثيل لها في أرضنا . أكثف الذرات عندنا الأورانيوم ووزنه الذري ٢٣٨ وفيه هذا العدد من البروتونات والنيوترونات . ولكن في قلب الشمس من الذرات ما هو مركب من أضعاف هذا العدد من البروتونات ، قد يناهز السبع مئة بروتون في ذرة واحدة . وفي بعض الأجرام أكثر من ذلك . ولا يخفى عليك أنه كلما كثر عدد البروتونات في الذرة أصبحت عرضة للتفكك والتشعع إذا خف الضغط عنها .

وسنرى أن الضغط لا ينتج تكون الذرات المركبة فقط ، بل ينتج شيئاً من الفوضى بين البروتونات والالكترونات أيضاً ، بحيث تنقطع الروابط فيما بينها في بعض الأحوال فتصبح الالكترونات متشردة بين البروتونات بلا نظام .

٥ — مركب المركب

في كتابنا عالم الذرة شرحنا كيفية تكون الجزيئات من ذرات مختلفة شرحاً كافياً فليراجع هناك .

في المركبات المعدنية لا تتجاوز ذرات الجزيء بضع عشرة ، ولا تبلغ هذا العدد الا في النادر . ولكن المركبات العضوية (النباتية والحيوانية) تبلغ ذرات بعض جزيئاتها بضع مئات . وسنلم بها في موضعها .

***

رأينا فيما تقدم أن الجزيء مركب من ذرات والذرة من بروتونات والكترونات .

وهذه من فوتونات ، أي أن التجمع هنا خطا ثلاث خطوات . والائتلاف في كل منها شديد بحيث ان المركبات متماسكة في الجزيء الواحد تماسكاً متيناً ، يجعلها متمايزة غير ملتبسة في التجمع الأكبر الذي يتألف منها كما سترى .

الدرجة الثانية = تجمع التجمع

يعتبر الجزيء نظاماً تامـاً قائماً بنفسه مستقلاً بتحركه ، وبين عناصره تجاذب تام قوي يحفظ كيانه . وإنما يحتمل أن يتفاعل مع جزيء آخر أو أكثر . فينشأ من تفاعلهما جزيء جديد أو جزيئات جديدة أو أكثر . ولـكن مهما حدث من التفاعل فلا بدَّ من تجمع الذريرات في جزيئات إلاَّ نادراً (في بعض العناصر الراسخة كالأرجون) . وكذلك لا بدمن ارتباط البروتونات بالألـكترونات، إلاَّ حيث كان الضغط شـديداً محدثاً فوضى

فالتجمع الراسخ هو تجمع الفوتونات في الجزيء على ٣ درجات كما رأيت . هنا قوى التجاذب أشد جداً منها في التجمعات التالية .

١ — التكتل

الجزيئات ، والذرات التي لم تتألف بعد في جزيئات، أو لم يتيسر لها هذا التألف، وان كانت مستقلة بنظامها الداخلي ، فنظامها هذا لا يمنع انها تنتظم في نظام آخر أعم وأكبر ، بحيث لا يستطيع أي جزء (أو أية ذرة) أن يستقل بحيزه استقلالاً تامـاً بين ملايين اوربوات الجزيئات المجاورة له، ما دام متحركاً (دائراً) في حيزه كـكل جزيء غيره ، وما دام البحر الأيثري يتموَّج بحركة كل جزيء وتصادم أمواجه كل جزيء . فالجزيئات والذرات، بتداخل هذه الحركة الموجية، مختلطة الحيزات متبادلتها متجاذبة متدافعة حسب سنة الجاذبية. لذلك وهي تتكون ، تحتشد في حيز أكبر متجاذبة الى مركز واحد مزدحمة حوله ازدحاماً تتوقف شدته : ١ — على عدد الذرات التي تتجاذب متكتلة في كتلة واحدة مستقلة عن كتل أخرى مثلها، يفصل بينها حيزات رحيبة : (٢) على قربها الى المركز . وهذا الزحام هو سبب الضغط الذي أشرنا اليه آنفاً . وهو يساوي عدد ذرات الـكتلة مقسوماً على الشعاع (نصف القطر) $\frac{ذ}{ش}$ ونسبه في مناطقه كمربع البعد . فـكلما كان عدد الذرات عظيماً والشعاع قصيراً كان الضغط أشد . وإذا راعينا الزمان في أمر هذا الزحام ، كما راعينا المكان ، أدركنا أن الضغط لا يستمر على وتيرة واحدة، بل يشتد رويداً رويداً حول المركز، وباشتداده تتألف ذرات وجزيئات جديدة كثيرة البروتونات، كما أنه تتفتت جزيئات أخرى وتتيه الـكتروناتها بلا نظام .

حين تتكوّن الذرّات والجزيئات في أثناء هذا التكتل الذي نحن بصدده ، يحدث هذان التجمعان متعاصرين ، فقد لا يسبق أحدهما الآخر ، وإن كان ثمت سبق فهو لتكوّن البروتونات والالكترونات . ولا يلبث أن يليه الشروع بالتكتل . وفيما يكون التجمع الأول والتجمع الثاني (تجمع التجمع) حادثين لا يفرغ الحيز من فوتونات غير متيسر لها التجمع بسبب عرقلة التجمعات الأخرى لها .

فالسُدُم المنفصلة بعضها عن بعض هي التكتلات التي نصيفُها و نعلل وجودها أو نشوءها ، وهي في أول عهدها مؤلفة خليطاً من بروتونات مجرّدة من الكتروناتها ، ومن الكترونات منفصلة عن بروتوناتها ، ومن ذرات تامة التكوّن ، ومن جزيئات تامة التكون أيضاً ، ومن فوتونات حائرة لم تتألف بعد . وكلما تقادم عهد السديم ازداد عدد جزيئاته وذرّاته ، وقلّ عدد بروتوناته المجردة والكتروناته التائهة وفوتوناته الحائرة .

٢ — تكتل التكتل

الكتلة المتكونة على هذا النحو ، المستقلة بحيزها ، المنفصلة من جاراتها ، تكوّن نظاماً تامّاً قائماً بنفسه ذا مركز تتجاذب ذراته اليه من كل ناحية ، ومحور تدور حوله حسب سنة النسارع

ولكن استقلالها بنظامها لا يمنع أن ترتبط بنظام آخر اكبر وأعم ، بسبب ان هذه الكتل (وهي لا تزال متجاورة) ينازع بعضها بعضاً كأنها تغزو بعضها بعضاً . فتتغلب كبيرة على صغيرة ، وتجذبها إليها ، أو ترجح جاذبية واحدة على جاذبية أخرى فتسلخ منها نطفة ، أو كتلة . وهكذا تصبح الكتلة مجموعة كتل كل واحدة منها ذات نظام خاص لها ، وجميعها مشتركة بنظام واحد عامّ ، تتجاذب فيه الى مركزها ، وتدور حوله دورة أخرى غير دورتها على نفسها ، كما سنشرحه في محله . وفي المجرّة كثير من هذه الكتل المستقلة بنظامها من ناحية ، والمشتركة بنظام المجرّة العام ، كالنظام الشمسي والنظم العنقودية والكوكبات Constalations

٣ — قوى روابط التجمع

نظرة اجمالية فيما تقدّم من الشرح ترينا السنة العامة لروابط التجمعات المختلفة ، أو تتجلى لنا فيها سنة الجاذبية كأنها القوة الوحيدة التي تربط هذه التجمعات المختلفة .

نلاحظ أن التجمعات الأولى الدقيقة : الكهارب والكهيربات أمتن من التجمعات الثابتة : الذرّات وهذه أمتن من التجمعات الثالثة : الجزيئات . ذلك لأن فوتونات البروتون

أشد تقارباً من فوتونات الالكترون ، وفوتونات الاثنين أكثر تقارباً من الكهارب والكهيربات في الذرّة ، وتقارب هذه أكثر من تقارب الذرّات في الجزيء . وبحسب قانون الجاذبية قوة التجاذب تشتد كمربع البعد عن المركز . وبناء عليه أمتن التجمعات تجمع فوتونات البروتون وأضعفها تجمع الذرّات في الجزيء لذلك حل الجزيء وتفتيته أسهل من حل الذرّة . وحل هذه أسهل من حل الكهيرب ، فالكهرب، كما هو معلوم .

ولذلك أيضاً نرى أن القوّة الصادرة من حل الكهرب أعظم جدّاً جدّاً من القوّة الصادرة من حل الكهيرب ، اذ تيسر تفتيت كلٍّ منهما . وإلى الآن لم يتيسر إلاّ تفتيت الذرّة ثم تفتيت نواتها الى بروتونات والكترونات متفرقة . وقد ظهر أن القوّة الصادرة من تفتيت الذرة عظيمة جدّاً فما بالك في القوّة التي تصدر من تفتيت البروتون والالكترون إذا تيسر تفتيتهما صناعيّاً واعتقال القوّة الصادرة منهما واستخدامها -- وقد تيسر هذا في القنبلة الذرية كما يعلم القارىء في كتابي « عالم الذرّة » حيث يتضح كيف أن تفتيت الذرّة يصدر قوة

نحن نعرف القوّة الصادرة من حلّ الذرّة، أو بالأحرى من فصل كهيرب واحد منها ونقله إلى ذرّة أخرى، وهي قوّة الكهرباء التي تحولها الى قوة ميكانيكية باستخدامها في مغنطة الحديد . وكذلك نعرف القوّة الصادرة من حل الجزيء إلى ذرّات تتبادلها الجزيئات المختلفة ، وهي قوّة الكهرباء الكيماوية في البطاريات . ونعرف جيداً ان القوّة الأولى أضعاف أضعاف القوة الثانية .

نسمي النظام الذرّي نظاماً كهربائيّاً لأنّ الذرات تتبادل كهاربها تبادلاً متتابعاً نسميه تياراً كهربائيّاً . ونسمي النظام الجزيئي نظاماً كيماويّاً لأن الجزيئات تتبادل ذرّاتها مقايضة، فتتحوّل من صنف الى صنف . ولكن هذه التسمية لا تدل على تنوّع التجاذب بين الوحدات المتجاذبة سواء كانت فوتونات أو بروتونات أو الكترونات أو ذرّات أو جزيئات . فالتجاذب واحد فيها جميعاً . وسنته واحدة وهي ناموس الجاذبية بعينه . وإنما الفرق بين التجاذبات في هذه المذكورات إنما هو في حدة الجذب بسبب تقارب الوحدات أو تباعدها . ليس سوى هذا

وإذا تجاوزنا النظر في الذرّة والجزيء إلى النظر في أنواع التكتل المختلفة نرى قوة التجاذب أصبحت أضعف جدّاً لشدة تباعد الجزيئات بعضها عن بعض ككتل الغاز وكتل السوائل وكتل البلورات وكتل سائر الجوامد ، فهذه سهل حلها جدّاً ، ولذلك فالقوة الصادرة من حلها ضعيفة جدّاً بالنسبة إلى القوة الصادرة من حل الذرات . حسبك أن تقارن

القوّة الصـادرة من الآلة البخارية بالقوّة الصادرة من المولد الكهربائي ، بمراعاة مقدار المواد المستخدمة لكل من العمليتين ، فترى الفرق الهائل .

ونحن نسمي قوة التكتل بجاذبية الملاصقة وجاذبية الالتصاق والجاذبية الشعرية ونحو ذلك . وما خرجت عن كونهـا الجاذبية، العامّـة بعينها وإنما هي ضعيفة جدّا هنـا لتباعد الذرات والجزيئات جدّا بالنسبة الى تباعد وحدات الذرّات.

وإذا انتقلنا الى عالم السُّدُم والاجرام رأينا قوة التجاذب في منتهى الضعف بحيث تدع جسيمات الكتل الغازية متفرقة وكتل السدم والاجرام مبعثرة مشتتة ، وهي أميـل الى التباعد منهـا الى التقارب ، كما هو معـلوم من تمدد الحيز الكوني وانتفاخه ، وتفتت السدم والمجرّات في الفضاء اللامتناهي .

الفصل الثاني

الدورية Rithm

فبما كان التجمع حادثاً على اختلاف أنواعه ، المتماصرة كانت الحركات الدورانية جارية للقيام بمهمة التجمع . أي ان التجمع كان يحدث بحركات دورانية . ولذلك لا نرى بدًّا من شرح نظام الدورية قبل استئناف الشرح لأطوار التنظيم الأخرى :— الحياة ، والعقل ، والاجتماع — التي هي ضروب أخرى من التجمع بأساليب الحركات الدورانية ، كما سيتضح جلياً حين بحثنا فيها .

١ — الاستدارة

ولا بدّ أن يكون القارىء قد لاحظ في متن كتابنا « جاذبيـة نيوتن » ان الحركة التي يقتضيها التجمع إنما هي ذات صفتين : الأولى انتقال قدر من المادة من حيز محدود بها الى حيز آخر . والثانية ان هذا الانتقال لا يكون في حال من الأحوال في خط مستقيم بالمعنى الأقليدوسي (أقصر مسافة بين نقطتين ، ولا يلتقي طرفاه) بل يكون في خط منحنٍ يلتقي طرفاه في محيط دائرة ، أو يكون قوساً من دائرة . فالحركة التي يحدثها تجمع وحدات المادة وتوزعهـا هي تنقل الوحدات من نقطة الى نقطة مجاورة حسب قاعدة المقدار (الـكونتم Quantum) على التوالي بحيث يتكوّن من النقط المتجاورة التي تتنقل عليهـا المادة في خط منحن . ولذلك يتراءى لمخيلتنا أن حيز مجال الجسم المتحرك من طبعهِ منحنٍ . والحقيقة أن تحرك المادة الطبيعي هو الذي رسم حيّـزه أو خططه[١] منحنياً ، لأن المـكان Space من طبيعة المادة نفسها ، وتحرك المادة من نقطة الى أخرى في المـكان ابتدع الزمن كما علمت في مقدمة هذا الباب . فلو انتفت المادة بتاتاً لفنّي معها المـكان والزمن جميعاً .

ولا يمكن أن تكون الحركة في خط مستقيم للاسباب التالية :—

١ — الانحناء . لأن المادة (المتحركة) ليست كتلة غير متناهية بل هي كتلة محدودة المقدار . فلو تحركت أجزاؤها أو وحداتها في خطوط مستقيمة مختلفة الاتجاهات لتشرّدت

---

(١) حجم الـكون الاعظم بحساب ادينغتون وبحساب آخرين يقفي النور في تطويفه ١٣٢ الف مليون سنة

في الفضاء اللامتناهي، ولما حدث شيء من تجمعاتها التي نشاهدها . ولو تحركت جميعاً في اتجاه واحد بسرعات متفاوتة لحدث هذا التشرد نفسه . ولو تحركت في اتجاه واحد بسرعة واحدة لكان سكونها وتحركها سيين إذ ليس ما يميز النسبة بين الحالتين .

٢ — لأن المادة ليست كلاً غير مجزأ أو غير قابل للتجزؤ ، بل هي أجزاء أو وحدات متعددة متجمعة وجماعات وحدات مؤلفة للكل . فلا مقتضى لأن تتحرك كلها جملة واحدة . ولو كانت تتحرك جميعها معاً حركة واحدة ما كان من فرق بين كونها كلاً قابلاً للتجزئة، وكونها كلاً غير قابل لها . إذاً كونها كلاً نظامياً مؤلفاً من وحدات مختلفة متحركة في اتجاهات مختلفة يستلزم أن يكون تحركها في خطوط منحنية بحيث تتلاقى أطرافها . وتحركها في خطوط منحنية هو الذي أنقذها من التشرد الذي يفضي اليه التحرك في خطوط مستقيمة .

٣ — الكروية : لو كان تحرك المادة في خطوط مستقيمة لأفضى تشردها في الخطوط المستقيمة الى أمرين : الأول ان يكون الحيز المادي غير متناهٍ ، والواقع المعروف الآن إن الحيز المادي متناهٍ وهو ذو حجم محدد [1] . الثاني أن يكون الوجود المادي فوضوياً خلواً من النظام . ونحن نرى الواقع نظاماً تاماً متقناً .

فاذن ، تحرك المادة في خط مستقيم في مجتمع منظم أمر مستحيل . أو ان المجتمع المنظم كما عرفناه يلزم أن تكون الحركة فيه في خط منحنٍ حتماً ، وإلاّ فقد نظامه وتفكك تجمعه . وتحركه في خط منحن يستلزم أن يكون ذا مركز تتم حوله دائرة الخط المنحني، لأن الخط المنحني مهما كان انحناؤه قليلاً أو كثيراً لا بدّ أن ينتهي بدائرة أو شبه دائرة متشاكلة Symetrical بالنسبة الى المركز كالدائرة الاهليليجية مثلاً . ومن الدوائر يتكون السطح الكروي فالجسم الكروي . وإذن فالكروية حتمية لكل جسم متناهٍ منظم حول مركز .

وإذا راعينا السنة الأساسية وهي ان سبب الحركة «الجاذبية العامة» ، وان أجزاء المادة تتحرك متجاذبة حول مركز، لا يبقى عندنا وجه للاعتراض على حتمية انحناء خط الحركة

وإذا كان الجسم أو الذرة أو كل وحدة مادية متحركاً في خط منحنٍ يتم بدائرة فاذاً يكون تحركه دورياً ، أي أنه يجري أدواراً متعاقبة باعتبار أن كل دور هو تحرك الوحدة في دائرة أو شبه دائرة تامة أو قوس محدود من دائرة . ولهذا سميت الحركة المادية التي هي أحد أشكال التنظيم «الدورية» اطلاقاً على كل حركة في خط منحنٍ سواء كان التحرك

---

(١) وكما يتضح لك جيداً من فصل الزمكان في كتابي النسبية

في دائرة تامة أو في بعض الدائرة في قوس فقط كحركة الرقاص (Pendulam)، أو اهتزاز الوتر أو التموج الخ ...

إذاً فبحثنا في الدورية يشمل كل حركة مادية في كل مكان وزمن . ولأن التحرك في خطٍ منحنٍ هو نزوع الى الدوران حول مركز ، فالبحث يتناول فن الدوران الذي ابتدعته الطبيعة — وتكاد كلمة الطبيعة تكون مبهمة . وانما نعني بها هنا تكامل عناصر الوجود الأربعة : المادة والحركة (الزمانية) والمكان والنظام .

٢ — أساليب الدورية — الدوران

وجدت الهيولي أو خُلقت ذات سجيتين رئيسيتين :

١ً — ذريرات أو فوتونات تتجاذب أو تتقارب بعضها الى بعض .

٢ً — كل ذريرة أو فوتون يدور على نفسه .

السجية الأولى ، التقارب ، كانت السبب الرئيسي للتجمع .

السجية الثانية ، الدوران ، كانت السبب الرئيسي للتفرع .

الدوران نوعان :

١ً — الدوران المحوري Rotation وهو خاصة كل وحدة من وحدات الهيولي كالفوتون والبروتون والكهرب ، وكل جسم متماسك الاجزاء كتلة واحدة كالأرض وسائر السيارات والأجرام . فأي جسم من هذه يدور كله جملة واحدة على محوره

٢ً — الدوران المركزي Revolutional وهو خاصة كل جسم أو وحدة مادية كالكهرب أو السيار أو الجرم أو الكوكبة Constalation يشترك مع أجسام أو وحدات أخرى ، هي الدوران حول مركز عام لها جميعاً . وفي الوقت نفسه يكون الجسم دائراً على نفسه الدورة المحورية .

٣ — أشكال الدورية أو الدوران

للدوران شكل رئيسي . وهو دوران الذرات أو الوحدات حول مركز . وإنما هذا الدوران يستلزم أن تكون الذرات في سطح واحد في دائرة لكي تستطيع الوحدات أن تتساوق في دورانها حول المركز ، كدوران السيارات حول الشمس في أفلاك تكاد تكون في لوح واحد (قليلة الميل بعضها على بعض) . وإنما معظم كتل التجمعات كروية أو شبه كروية . فاذا كانت وحداتها جميعاً تدور حول المركز وجب أن تتقاطع دوائر دورانها

فتتصادم في تقاطعها، ويأول تداورها الى فوضى مدمرة . ولذلك إذا كانت كتلة الجسم أو الجرم كروية أو شبه كروية ، جعلت وحداتها تدور متساوقة حول مراكز متعددة ، بحيث أن نقط تلك المراكز تؤلف خطاً واحداً مستقيماً هو المحور الذي تدور حوله جماعة الوحدات كتلة واحدة

فاذاً عندنا نوعان من الدوران :

١ً — الدوران المركزي Rotational الذي تدور فيه جميع وحدات الجسم أو الجرم حول مركز واحد فقط . وهذا الدوران لا يمكن أن يكون في جسم أو نظام كروي ، بل في نظام قرصي كلوح دائرة ولهذا يكاد يكون لا وجود له ، أو أنه محول الى دوران محوري

٢ً — الدوران المحوري وهو الذي تدور فيه كتلة الجرم الكروي برمتها حول محور بين قطبي الكرة كدوران الأرض على محورها .

ولما كانت السرعة تختلف باختلاف البعد عن المركز كانت وحدات النظام الواحد ، تتساوق في دورانها تساوقاً متفاوت السرعات ، أقربها الى المركز أسرعها . فمن هذا القبيل عندنا ثلاثة أنواع من الدوران .

١ — الدوران المتساوق وهو الذي تدور فيه كتلة النظام أو الجرم المؤلفة من وحدات عديدة متماسكة — تدور جملة واحدة كدوران الأرض على محورها . وهذا لا يكون إلاَّ في الأجسام أو الأجرام الجامدة كسيارات النظام الشمسي والالكترون والبروتون .

٢ — الدوران المتفاوت في نظام واحد كدوران السيارات حول المركز (الشمس) ودوران كتل السُدُم حول مركزها، ودوران كتل النجوم الغازية . وفي هذه الحال تكون الكتل الأقرب الى المركز أسرع بحكم سنة الجاذبية .

٣ — الدوران المتداور . أو التداور، وهو ان يكون النظام الواحد مؤلفاً من أنظمة جميعها تدور حول مركز واحد دوراناً متفاوتاً . وفي الوقت نفسه كل نظام فيها يدور حول مركزه أو على محوره دوراناً آخر مستقلاً عن الدوران العام ، كأنظمة الكوكبات العنقودية ونحوها .

٤ — ومنه تداور التداور وهو تعدد درجات الأنظمة في نظام أكبر كالمجرة، حيث تكون أنظمة مركبة كالنظام العنقودي دائرة في الوقت نفسه في نظام أعظم .

٥ التذبذب — هو دوران ناقص غير تام كتذبذب الرقاص واهتزاز الوتر والتموج الخ— . فكل ذبذبة إنما هي قطاع من دائرة أو قوس من محيط دائرة .

٤ — الدورانات الرئيسانية

١ — الدوران المحوري Rotation

كل ذرّة أو جسم، سواء كان بسيطاً أو مركباً، متماسك الأجزاء من الفوتون الى السديم، يدور على محوره. لأن الدوران طبيعة في حركة المادة كما سيتضح في ما يأتي:

أصغر أجزاء المادة، الفوتون (الضوي‌ء) مخلوقٌ يدور على نفسه، أي ان الدوران طبيعة فيه. وجميع الفوتونات تدور في اتجاه واحد. فبحكم الطبيعة مجموعة الفوتونات المتماسكة تماسكاً متيناً في البروتون والالكترون تضطر مجموعة كلٍّ منهما ان تدور على نفسها، حول محورها، أي إنها تكتسب خاصّة الدوران من أجزائها (وحداتها). وكذلك تكتسب الذرّة خاصّة الدوران هذه من كهاربها وكهيرباتها. والجزيء يكتسبها من ذرّاته، والغازات والسوائل تكتسبها من جزيئاتها، والحركة البرونية Brownian Motion المعروفة برهان قاطع على دوران السوائل جملة بدوران جزيئاتها.

والبرهان الأعم على صحة هذه النظرية، أي نظرية ان الأجزاء تكسب الكل الذي يؤلف منها خاصّة دورانها، هو أنه إذا انحلت كتلة الكل إلى أقسام أو أجزاء، سواء كانت أجزاءها الأصلية أو أقسام كتلية صغرى، توزعت خاصة الدوران (الذي كان للكل) على أقسامه أو أجزائه توزعاً متناسباً مع الأقسام، لكل منها حصته على قدره. وهذه السنة الطبيعية معروفة عند علماء الطبيعة ومؤيدة بالاختبارات والامتحانات، وللقارىء أن يدرسها في متون الطبيعيات تحت عنوان القوة الدورانية Angular Momentum. وهي سنة ذات شأن عظيم تلعب أدواراً مهمة في عمليات التجمع والتفرع، وما يحدث فيهما من دوران محوري ودوران مركزي Orbital كما سيتضح في غضون هذا البحث. ولذلك نرجو من القارىء أن يحفظ في باله ماذا يراد « بالقوة الدورانية »

نحن نبني بحثنا في خواص الدوران وأساليبه على الفرض الاعمق، وهو ان الفوتون (أصغر وحدات المادة) خلق مزوداً بنزعتين أو بقوتين: القوة الدورانية وقوة التجاذب. بهاتين القوتين أو النزعتين تتجاذب الفوتونات بعضها الى بعض متداورة بعضها على بعض، حتى اذا كانت مجموعات متماسكة (كهارب أو كهيربات) كانت المجموعة كلها تدور على نفسها

فعبارة « المادة المتحركة » التي تكرر ورودها في هذا البحث، أو عبارة « تحرك المادة » المرادفة لها يراد بها « المادة الدوارة » اذ لا حركة للمادة الا حركة الدوران المحوري والمركزي، وهي علة التحرك.

٢ — التقلص يزيد سرعة الدوران المحوري

أية ذُرَيرة مؤلفة من فوتونات لا بدَّ أن تدور على نفسها في نفس الاتجاه الذي تدور فيه فوتوناتها على أنفسها. وسرعة دوران الذرَّة ، أو أية ذريرة، تتوقف على مقدار تماسك فوتوناتها فيها . أي كلما كانت الفوتونات متقاربة متماسكة كان حجم مجموعتها أصغر ، وكانت فيه أكثف ، وبالتالي كان دوران المجموعة المحوري أسرع. وبالعكس كلما كانت الفوتونات قليلة التماسك في الذرة ، أي قليلة الكثافة كان لكل فوتون قدر من الدوران الذاتي المحوري، ومنح قدراً آخر للمجموع — الذرَّة — فيكون دوران المجموع أبطأ . بعبارة عامة كلما تقلصت الذرَّة بشدة تقارب فوتوناتها وتماسكها كانت أسرع .

الأرجح ان هذا قانون عام لكل جسم أو جرم مهما كان نوع « تجمعه » ذرَّة أو جزيئاً أو كتلة الخ وهو أن السرعة س تناسب الكثافة ك

أي $\frac{س}{ك} = \frac{سس}{كك}$

فإذا فرضنا س سرعة الكهيرب (الالكترون) . ك كثافته ، وسس سرعة الكهرب (بروتون) ب كثافته فبحسب هذا القانون لنا : —

$$\frac{س}{ك} = \frac{سس}{ب}$$

وهو معلوم أن كثافة الكهرب (البروتون) تساوي ١٨٤٠ كثافة الكهيرب (الكترون) أي أن ب = ١٨٤٠ ك

فإذاً

$$\frac{س}{ك} = \frac{سس}{١٨٤٠ك}$$ اذن

١٨٤٠ س = سس أي أن سرعة الكهرب (البروتون) تساوي ١٨٤٠ سرعة الكهيرب (الكترون) في الدوران المحوري

لذلك لا بدع أن تسبب سرعة الكهرب أو النواة (مجموعة الكهارب) سرعة دوران الكهيرب الفلكي (في مداره حول النواة)

(ان كان هذا القانون صحيحاً يجب أن ينطبق على دوران جميع الاجرام . واذا ثبت أنه منطبق عليها جميعاً أمكن استخراج أي من الحجم أو الكتلة أو سرعة الدوران أو الكثافة إذا عرف إثنان منها فقط. لان الكثافة تساوي عدد الوحدات مقسوماً على الحجم)

٣ — الدوران المركزي Revoluticnal

إذا كان الجسم مؤلفاً من وحدات ، ذريرات أو ذرات أو جزيئات الخ غير متكاثفة وقليلة التماسك فيما بينها ، كالشمس أو السُّـدَيمة أو السديم ، فلا يتسنى له أن يدور ككتلة واحدة دوراناً محوريّـا، ولاسيما إذا كان كبيراً . حتى لو ابتدأ حياته بالدوران المحوري فلا يلبث أن يفقد هـذا الأسلوب من الدوران لأنه واقع تحت عوامل مختلفة تمزق وحدته أو كتلته وهي : —

أولاً :ان دورانه ككتلة واحدة على محوره يُحرج مناطقه المتطرفة أن تقطع مسافات طويلة بسرعة فائقة، ولا سيما إذا كان كبيراً جدًّا . وقد تكون السرعة هناك أكثر من سرعة الذرّات في دورانها المحوري الخاص بها، فلا تستطيع الذرات المتطرفة أن تجاري المجموع في تلك السرعة فتتخلف عنها . وإذا كان المجموع يجاري تلك المناطق المتطرفة في السرعة التي تحتملها كانت سرعة المناطق الداخلية القريبـة إلى المحور بطيئة جدًّا لا تصبر عليها ذرّاتها المتزاحمة هناك، بل تعجل في الدوران المركزي مخالفة سائر المناطق التي حولها . وفي كلتا الحالتين تكون النتيجة حتماً اختلاف المناطق في سرعة الدوران

ثانياً: إن قلة تكاثف المجموع أو لطافته أو قلة تماسك أجزائه، لتباعد ذرّاته وذريراته بعضها عن بعض، تخوّل قانون التسارع أن يفعل فعله بتوزيع السرعة على للمناطق حسب بعدها عن المركز ، أي ان المناطق القربى الى المركز تكون بحكم هـذا القانون أسرع دوراناً من المناطق البعيدة . وإذن لا يبقى ذلك المجموع دائراً كتلة واحدة بل يصبح طبقات مستقلة بعضها عن بعض في دورانها وسرعاتها . وهـذا هو الحادث في النظام الشمسي ونظام الكوكبات ونظام المجرة، أي أن وحداتها القريبة للمركز سريعة والبعيدة بطيئة[1]

ثالثاً: إن قانون الجاذبية القاضي بأن الجذب ينقص كمربع البعد عن المركز يجعل الطبقات المتطرفة أقل خضوعاً لقوّة الجذب المركزي وأكثر خضوعاً لقوّة التجاذب المتجاور. أي أن قوة تجاذب الذرّات المتجاورة تتغلب على قوّة الإنجذاب نحو المركز العام . فتشرع

---

(١) وذلك بحسب قانون التناسب بين السرعة والبعد عن المركز كما شرحناه في كتابنا فلسفة التفاحة أي جاذبية نيوتن صفحة ٧١ $\frac{\text{س}^2}{\text{سس}^2} = \frac{\text{شش}}{\text{ش}}$ ومؤداها أن نسبة مربع سرعة السيار الواحد الى مربع سرعة السيار الآخر كنسبة بعد الثاني الى بعد الاول

كل جماعة من الذرات تستقل بحركاتها بعض الاستقلال عن المركز، وتكوّن لنفسها مركزاً خاصّـا تتداور حوله مع بقائها دائرة حول المركز العام، كما هو الحال في الكوكبات Constelation ، بالنسبة الى المجرّة Qalaxy

رابعاً: إن الضلع الأول من ناموس الجاذبيـة ، وهو قوة الجذب نحو المركز، يكون أقوى تحكماً بالمناطق القربى الى المركز منه بالمناطق القصوى ، فتلك تتقلص نحو المركز، وأقربها اليه أشدها انكماشاً نحوه وأكثرها ازدحاماً . ولذلك يتفسخ الجرم (سديماً كان أو نجماً غازياً) الى طبقات منفصل بعضهـا عن بعض . وقد يتهابط بعض القربى الى المركز على بعض، تاركة الطبقات القصوى وراءها تحت سلطة من قوة التجاذب فيما بينها أضعف من سلطة الجذب العام نحو المركز، فتتقطع كتلاً على نحو ما ذكر في (ثالثاً) — كما حـدث في نشوء سيارات النظام الشمسي . وتفسّخ الجرم الى طبقات على هـذا النحو يخول قانون المسارعة أن يفعل فعله، أي ان الطبقات القربى الى المركز تدور حول المحور أسرع من الطبقات البعيدة بحسب هذا القانون .

خامساً : إن تقلص الجرم (أو تقلص طبقاته) يزيد سرعته المحورية . أي كلما تقلص الجرم أسرع دورانه حول المحور Rotation لأن قيمة الحركة الدورانية Angular Momentum التي تملكها الذرات تبقى لها في الحيز الأضيق كما كانت لها في الحيز الأوسع، ولذلك يصيب منها حيزاً معيناً بعـد التقلص أو قدراً أكبر مما كان يصيبه قبل التقلص ، لذلك فالمناطق الأشد تقلصاً تكون أعجل دوراناً من المناطق الأقل تقلصاً . ولذلك ينتهي الأمر في « رابعاً وخامساً » كما شرحناه في « ثالثاً » أي بتقطع الطبقات الى كتل تدور حول المركز العام، في حين أنها تدور كل واحـدة على نفسها دورة محورية كسيارات النظام الشمسي أو كوكبات المجرة .

سادساً : إن الضلع الثاني من ناموس الجاذبية أي التشريد عن المركز Centrifugal force تساعد الطبقات القصوى ان تتشرد عن المحور . كما أن الضلع الاول (قوة الجذب الى المركز) تساعد المناطق المحورية ان تتقارب الى المركز . فتكون النتيجة ان الجرم الاصلي بعد ان كان كرويّـا يتفلطح فيقصر محوره جدّاً وتطول أشعته (انصاف أقطاره) المعامدة لمحوره الى أن يصبح كالقرص . وحينئذٍ تضعف جدّاً جاذبية حواشي القرص وتقوى قوة التشريد في الحواشي . فتتناثر كتل منها وتصبح أجراماً مستقلة تدور حول المركز الأصلي بالسرعة التي يؤذن بها قانون التسرع . أو قد ينتثر بعضها في الفضاء الى أن يصادف جوّاً جاذبيّـا آخر فيلتحق به.

نرى مما تقدم أن الدوران المركزي نشأ من الدوران المحوري بسبب تفاعل ضلعي الجاذبية : الجذب نحو المركز والتشريد عن المركز، وبسبب فعل « التموج الحلزوني » الذي يحدث التشريد عن المركز والذي يحدث التفاوت في السرعة بنسبة البعد عن المركز ، كما شرحناه في فصل تعليل سر الجاذبية في كتابنا فلسفة التفاحة أو جاذبية نيوتن .

بعد هذا الشرح لأحوال الدورانين المحوري والمركزي صار سهلاً ايضاح عملية التفرع المضادة لعملية التجمع . لأن عملية التجمع تقوم بفعل الضلع الأول من ناموس الجاذبية (الجذب) الذي يكون فيه الدوران محورياً بحتاً . وعملية التفرع تقوم بفعل الضلع الثاني (التشريد) الذي يكون في الدوران مركزياً متفاوت السرعة بنسبة البعد عن المركز . ولذلك . فيما نحن نشرح عملية التفرع نكون في الوقت نفسه شارحين عملية التداور، أي تداور الكتل المستقلة حول مركز عام ، فضلاً عن دورانها حول محاورها .

الفصل الثالث

التفريع أو التفرُّع

١ — تعليل التفرع

إذا حفظت في بالك أحوال الدوران الست أو قوانينه التي شرحناها آنفاً، ولا سيما قانون ازدياد السرعة بازدياد التقلص ، واشتداد الازدحام في المناطق القربى الى المركز، وقلة الكثافة في المناطق القصوى، وتفاوت السرعة بسبب قانون المسارعة، سهل عليك أن تتصوَّر وتفهم كيف تتولد السُّدَيمات من السُّدُم والنجوم من السُّدَيمات والسدم أيضاً ، وكيف تتحوَّل السديمات إلى كوكبات عنقودية الخ .

ولايضاح هذا تصوَّر سديماً عظيماً، كما كانت المجرَّة، على أثر انفصاله عن السدم الأخرى المجاورة له (المجرات) — تصوَّرْهُ يدور على نفسه دورة محورية بطيئة بالنسبة الى عظمته (قد تستغرق مئات الملايين من السنين) بسبب قلة كثافته أي بسبب لطافته المتناهية تحت تأثير قوَّة الجاذبيــة المتبادلة بين أجزائه . فترى بحسب ما علمته من نواميس الحركة : أولاً أن قوَّة الشرود عن المركز Centrifugal force تجعل محوره يقصر رويداً عن قطره الاستوائي ، فيتحوَّل تدريجاً من شكل كروي اي شكل قرصي سميك جدًّا في أوائل عهد هذا التحول . ثانياً أن قوة الجذب إلى المركز Cenrtipetal من جهــة والاشعاع [1] من جهة أخرى يجعلانه يتقلص رويداً . ويكون أشــد التقلص أقرب إلى المركز تحت تأثير هذين العاملين . ثالثاً ، إن هذا التقلص (أي صغر الحجم) مع بقاء «القوة الدورانية» على حالها ، أي من غير نقص فيها يجعلان الدورة المحورية أسرع في منطقة التقلص الأشد

ينجم عن ذلك أن هذا السديم لا يبقى دائراً على محوره كتلة واحدة بل تختلف سرعة الدوران باختلاف إبعاد الطبقات عن المحور ، أسرعها أقربها إليه . وفي خلال هذا التطور يحدث أمر آخر وهو تهابط الطبقــات القربى إلى المركز دون الطبقــات القصوى . لأن الطبقات القربى تكون تحت تأثير الجاذبية المركزية الأشد ، والطبقات القصوى تكون من

---

[1] «الاشعاع Radiation هو تناثر الفوتونات والقوريرات من أي جرم في الفضاء . وسنجعل له كتيباً خاصا قائماً بذاته

جهة تحت تأثيرها الأضعف ، ومن جهة أخرى تحت تأثير جاذبية السدم الأخرى المجاورة مهما كانت بعيدة، إذ يفعل فيها كفعل المد tide (كما يفعل القمر في الأرض) فتحفظها بعيدة عن المركز الأصلي فيما تكون الطبقات القربى هابطة إليه . فيتسع المجال بين القسم المتقلص والقسم المتخلف، ويشرع هذا علك استقلاله عن ذاك رويداً .

ينتج عن هذا أيضاً أن الطبقات القصوى تصبح حلقات حول السديم كحلقات زحل . ويكون تأثير التجاذب بين أجزاء هذه الحلقات أقوى من الجذب المركزي الداخلي ، والجذب الخارجي من ناحية السدم المجاورة . وتحت تأثير تجاذبها الذاتي تتقطع الى كتل تتجاذب أجزاء كل منها إلى مركز فيها . وهذه بنوبتها تتقلص بأسرع من تقلص الأم لصغرها : أولا لأن اشعاعها أيسر فأسرع . وثانياً لأن قوتها الدورانية أضعف .

كل كتلة من هذه الكتل تستقل بدوران محوري خاص بها يجعلها في بدء حياتها كروية الشكل . وفي الوقت نفسه تستمر في دورانها المركزي حول الأم بأبطأ جداً من الطبقات الهابطة نحو المركز .

هذا التطور الذي حدث للطبقة القصوى من السديم يتوالى على كل طبقة دونها على هذا النحو تماماً ، وبنفس العوامل التي ذكرناها . فكل طبقة تتخلف بنوبتها عن الطبقة التي دونها ، حتى متى قلَّ فعل الجذب المركزي الأصلي فيها عن فعل تجاذب أجزائها تقطعت الى كتل . وكل كتلة تستقل بدوران محوري خاص تحت تأثير تجاذبها المركزي الخاص بشكل كروي ، ولكنها تستمر بدورانها حول الأم على نحو ما فعلته سالفاتها التي بعدها

على هذا المنوال يتقطع السديم الى سُدَيمات وكل سُديمة قائمة بنفسها ذات دوران محوري خاص بها ، وذات دوران مركزي حول مركز الأم بالاشتراك مع أخواتها ، كأنها سيارات حول بقية السديم الأصلي ، في حين يتقطع معظم السديم على هذا النحو الى أن يتبقى منه الشيء القليل حول المركز ، فيصبح هذا الشيء القليل تحت تأثير جذب السديمات التي تولدت منه أشد من تأثير جاذبيته الذاتية ، فتتنازعه هذه السديمات وتمزقه الى كتل أخرى مثلها .

في أثناء هذا التطور المتوالي الذي يستغرق ملايين السنين تكون السديمات بنوبتها متقلصة تدريجاً تحت فعل العوامل نفسها التي كانت تقلص السديم الأصلي . فتتسع الرحاب التي بينها ، وبالتالي يضعف تجاذبها نحو مركز السديم ، الأصلي ، وتتغلب قوة الشرود عن المركز ، ويستمر تباعدها بعضها عن بعض ، كأنها تعود تتوزع على الحيز الذي كانت تملأه

حين كانت سديماً واحداً لطيفاً عظيماً ، ولكنها تتوزع فيه كرات متقلصة تاركة بينها رحاباً فسيحة

لما كانت سديماً واحداً لطيفاً كانت ككتلة واحدة تدور على محور واحد . فلما تقطع السديم اليها أصبحت كل واحدة منها تدور على محورها الخاص ، وفي الوقت نفسه تدور دوراناً مركزياً[1] حول نقطة متوسطة بينها بحكم تجاذبها بعضها الى بعض، وقد تكون هذه النقطة خالية لا سديمة فيها ولا جرم . وبحسب سنة المسارعة الجاذبية تكون أقربها الى المنطقة المركزية أسرع سيراً حول هذه المنطقة ، وأبعدها أبطأها، كما هي الحال في المجرة وكل نظام دوراني، كالنظام الشمسي والنظام المنقودي الذي سيرد وصفه.

***

بقيت مسألة ذات شأن لا يجوز اغفالها : وهي أن دوران السُّدَيمات المركزي حول مركز السديم الأصلي الذي تقسم اليها يقضي بتغلب قوة الشرود عن المركز على قوة الانجذاب اليه ، ويفضي الى تحول مجموعة السديمات من شكلها الكروي الأصلي الى شكل قرصي بحيث يصبح قطرها المحوري الأصلي أقصر جداً من قطرها القرصي .

إذا كنت قد تصوَّرت بجلاء تطوُّر السديم الكبير وتحوُّله الى سُدَيمات كما وصفنا تكون قد رسمت في ذهنك شكل مجرَّتنا[2] كما هي الآن أو بالأحرى منذ صارت سُدَيمات حبلى بنجوم وشموس . كانت مجرتنا هذه سديماً عظيماً كرويَّ الشكل، ثم صارت مجموعة سُدَيمات تشغل حيزاً قرصيّاً محوره نحو خمسي قطرهِ ، وهي تدور حول مركز المجرَّة بسرعات متفاوتة حسب البعد عن المركز . وفي الوقت نفسه كل منها تدور على محورها .

وإذا علمت أن الكون الأعظم كان أوقيانوساً من ذرَّات المادة أدركت كيف إنه تقطع على نحو ما تقدم وصفه وبنفس العوامل إلى ملايين السدم ، كل سديم منها يُعدُّ مجرَّة كمجرتنا . وجميعها تدور في هذا الأوقيانوس حول مركزه الأوحد بسرعات متفاوتة بمقتضى ناموس الجاذبيــة . وبالوقت نفسه كل سديم منها يدور على نفسه دورة محورية خاصَّة بهِ .

(١) الدورة المركزية هي التي يدور فيها الجرم حول مركز لا حول محور وهو ما يصحب تدوره

(٢) نقول مجرتنا لان الكون الاعظم الذي ليس وراءه كون آخر ، يحتوي على مليوني مجرة كمجرتنا التي هي اكبر المجرات في رأي بعض أقطاب العلم

٢ — درجات الدورية

الى هنا رأيت ثلاثاً من درجات الدورية المركبة من صنفي الدورانين الأصليين البسيطين المحوري والمركزي :

١ — الكون الأعظم (الجامع جميع المجرات) يدور على نفسه دورة مركزية .

٢ — سُدُم تدور متساوقة متسابقة حول مركز الكون الأعظم . وبالوقت نفسه كل سديم منها يدور حول نفسه . فلكل سديم دورتان : محورية ومركزية .

٣ — سُدَيمات تدور متساوقة متسابقة حول مركز السديم الأصلي الأعظم . وبالوقت نفسه كل سُدَيمة تدور على محورها . وبالوقت نفسه أيضاً السديم الأكبر (مجموع السديمات) يدور بها جميعاً حول مركز الكون الأعظم . إذن لكل سديمة ثلاث دورانات : — دورة محورية ذاتية، ودورة سديمية عامة، ودورة كونية أعم .

نترك الآن الدرجتين العُظميين الأوليين ونعود الى الدرجة الثلاثية — الى السُدَيمة . فإذا تصورناها تتطوّر كما يتطوّر أبوها السديم الأصلي تحت تأثير العوامل نفسها، وفي مثل تلك الظروف والأحوال، فهمنا جيداً كيف تقطعت الى مجموعات نجوم والى نجوم منفردة مستقلة .

يغلب أن تكون قوة الشرود عن المركز أفعل العوامل في تقطيع السديمة الى نجوم، لأن هذه القوة تسرع بتحويل شكلها الكروي الى شكل قرصي ، قبل ان تتمالك قوة الجذب الى المركز بتقليصها . أي ان التحول القرصي يكون أسرع من التقلص . ولذلك تتناثر كتلها من محيطها تناثراً ، وكل كتلة منتثرة تتحول الى نجم يدور على محوره فيما هو لا يزال يدور حول مركز السُدَيمة

في مجرتنا كثيرٌ من المجموعات النجمية التي تسمى عناقيد كروية Globular Cluster هذه المجموعات العنقودية كانت في الأصل سُدَيمات ثم تحولت الى نجوم. على أن العنقود النجمي لا يزال يدور على نفسه ، أي ان نجومه تدور متساوقة حول مركزه كما كانت السُديمة التي انحلت اليه تفعل قبل أن تنحل ، وفي الوقت نفسه كان كل نجم منها يدور على محوره ولم يبق من سُدَيمات مجرتنا بلا انحلال إلاّ نحو ٢٠ سديمة لا تزال في دور التفكك . ويندر أن تجد في المجرة نجماً مستقلاً بدورته،وسيره غير مشترك بعنقود من العناقيد أو كوكبة من الكوكبات، وهذه العناقيد أو الكوكبات تختلف باختلاف أحجام السُّدَيمات التي اشتُقَّت منها . وقد يبلغ عدد النجيمات في العنقود الواحد أكثر من ١٥٠ الف نجم .

نرى مما تقدّم ان النجم في الدرجة الرابعة من الاشتقاق،أي هو ابن سُدَيمة وحفيد سديم،والسُّديم هو ابن الكون الأعظم.لذلك للنجم أربع حركات أولاً : دورته المحورية. ثانياً : دورته مع اخوته حول مركز العنقود أوالكوكبة . ثالثاً:سيره مع العنقود في دوران هذا حول مركز المجرّة . ثم رابعاً: سيره مع المجرة في دورانها حول مركز الكون الأعظم

وقد يتاح للنجم في ظروف لا محل لشرحها هنـا ان ينقسم الى نجمين متساويين أو متفاوتين حجماً وكتلةً ، وحينئذٍ يسمى النجم المزدوج Binary Star ، وكلٌّ من هاتين الفلقتين يدور حول مركز الثقل (التجاذب)الذي بينهما . (والأرجح أن القمر مشتق من الأرض يوم كانت في حالة السيولة على نحو انشقاق النجم المزدوج . لأن القمر لايدور على نفسه بالنسـبة الى الأرض بل وجه واحد منه مواجه الأرض دائماً ، وكذلك لأن حجمه بالنسـبة الى الأرض كبير $\frac{1}{46}$ إذا قورن بأحجام أقمار السيارات الأخرى بالنسبة الى أمهاتها . وإذا تباعد شطر النجم المزدوج كثيراً يصبح كل شـطر منهما يدور على نفسه . وإذا كان أحدهما أصغر جدّاً من الآخر جعل يدور كسيار أو قمر حول الآخر . يظن أن نحو ثلث النجوم مزدوجة — بناءً على ما تقدم تعتبر الأرض مع قمرها نجماً واحداً مزدوجاً

وقد يطرأ على النجم وهو في حالته الغازية ما يسلخ منه نطفات تظل تدور حوله ، وثمّ تدور على نفسها أيضاً ، فتكون سيارات حوله كالنظام الشمسي . وهذا نادر جدّاً في رأي السير تجايمس تجنز . فالسيارات هي الجيل الخامس في التوالد من الكون الأعظم . ولذلك يكون للسيار خمسة أصناف دوران :١ — حول محوره — ٢ — حول شمسه —٣ — هو مع شمسه حول المركز العنقودي — ٤ — هو مع شمسه وعنقوده حول مركز المجرة ثم ٥ — هو مع المجرة حول مركز الكون الأعظم . وأخيراً يأتي جيـل الأقمار المتولدة من السيارات وهو الجيل السادس الذي له ٦ دورات ، صار القارىء فاهماً ترتيبها من سياق الحديث .

* * *

هنا ينتهي الاشتقاق لأن الأقمار صغيرة جدّاً في حالة جمود فلا يمكن أن تتفسّخ الى أولاد أقمار ، من السـيارات نفسها بعدأن صارت في حالة الجمود لا يمكن أن تسـتمر في الاشتقاق كما نعلم من حالة سـيارات شمسنا . لا اشتقاق في حالة الجمود على الإطلاق . لا يكون الإشتقاق إلاّ في حالة الغازية أو السيولة . الإشتقاق المزدوج لا يكون إلاّ في حالة السيولة .

مجمل البحث وصفوته:

الدوران (أو الدورية) يلعب دوراً عظيم الشأن في عملية التنظيم الكوني . وقد رأيت أن علته هي « الجاذبية – الدافعية » هي محدثة كل درجاته التي سردناها آنفاً . وفيما كانت قوة الجاذبية تجمّع ذرات الفوتون في كتل كانت تجزىء البحر الأيثري الفوتوني إلى سُدُم. وكذلك فيما كانت تمعن في هذا التجميع الى كتل صغرى كانت تجزىء السدم الى سُدَيمات. وهذه إلى نجوم الخ . فالعملية كانت عملية تجميع وتفريع في وقت واحد

على أن هذه العملية لم تتم بمجرد جذب فقط بخط مستقيم نحو المركز ، وإلا لتجمعت كل ذرات الكون حول نقطة واحدة أو في مركز واحد. ولكنها تمت بجذب دوراني أي بجذب في خطوط منحنية حلزونية تبتدىء من مركز وتنتشر الى المحيط . وهذا الجذب الدوراني هو علة الدافعية كما عللناه في محله . فحين نفكر بالجاذبية يجب أن نتصوّر الدورانية خاصة لها أو طبيعة فيها ، وبالتالي هي طبيعة في المادة . وبغير هذه الخاصة لم يكن ممكناً أن يحدث التجمع والتفرع .

ثمَّ أن فعل هذه الجاذبية الدورانية لا يقتصر على احداث التجمع والتفريع فقط ، بل يحدث التشتت أيضاً الذي يتسع به نطاق الحيز المادي ، كما شرحناه في كتابنا « هندسة الكون حسب سنة النسبية » ؟ لأن قوة الجاذبية تقتضي تقلص الجرم أو الجسم . وكلما تقلصت الأجرام اتسعت الرحاب بينها ، فيقل التجاذب بينهما جميعاً . وبتقلصها يعجل دورانها المحوري ويصبح دورانها المركزي (حول المركز المشترك بينها، أسرع مما يوازن تجاذبها ،لا لأن الدوران أسرع، بل لأن التجاذب قلَّ ، فتشرد بعضها عن بعض ، وهكذا يتسع نطاق الحيز المادي

٣ — الدوران الحلزوني

علمت في تعليل سر الجاذبية ان التموج الجاذبي ينتشر بشكل حلزوني ، وانتشاره على هذا الشكل هو سبب الضلع الدافعي من ضلعي الجاذبية ، وبالتالي هو سبب تناسب سرعة الجرم في دورانه المركزي مع بعده عن المركز . وإذا أنعمت النظر فيما تقدم لحظت أن الدورية لا تعيد نفسها ، يعني أن الدوران لا يتكرر في المكان في نفس الدائرة . لأن الدوران لا يكون في مركز ثابت بل في مكان هو نفسه دائر متنقل . وبعبارة أخرى لا يتم الجرم دورته في الفضاء في دائرة، بل في شكل حلزوني . فلا دائرة تتم باتصال طرفيها بل تلتف في حيز غير حيزها السابق . وسبب ذلك تعدد أصناف الدورانات كما شرحناه ، واشتراك المكان والزمان في العملية .

ولايضاح هذه النقطة نضرب القمر مثلاً . فهو فيما يدور حول الأرض لا يرسم في

الجو الشمسي دائرة كاملة (كما يرسم في الجو الأرضي) بل يرسم دائرة حلزونية، لأن الأرض تسير به حول الشمس. فلا يتم دورة حول الأرض الا وقد انتقلت الأرض به ملايين الأميال. فدورته الثانية في حيز آخر. ومع ذلك ليست في دائرة تامة، بل في خط لولبي. وفيما هو يدور في الخط اللولبي حول الشمس تكون الشمس نفسها دائرة مع سياراتها في كوكبتها العنقودية، فتجعل سيره في الفضاء في خط لولبي مركب معقد. وكذلك دورة الكوكبة العنقودية في قرص المجرة تزيد تعقد دورة القمر في الفضاء، كما أن دورة المجرة في الكون الأعظم تضاعف ذلك التعقد في خط سير القمر وسير الأرض وسير الشمس الخ

أضف الى هذا التركيب الدوراني المعقد تعقيداً آخر ناجماً عن توسع أفلاك الأجرام من صغيرها الى كبيرها في دورانها. فما من جرم إلا وفلكه يتسع (في الغالب) في كل دورة بعد أخرى بحيث يبتعد عن مركزه (وفي بعض الأحوال يضيق). فالأرض لا تدور في نفس فلكها كل عام، بل في فلك أوسع قليلاً. وفي رأي بعضهم أن قطر فلكها يزداد في العام متراً واحداً. وعلى تمادي الأعقاب قد تشرد الأرض عن شمسها. وهكذا شأن كل قمر وسيار وكل نجم وكل عنقود وكل مجرة. فالكون بحسب رأي هوبل ولامتر ودي ستر يتمدد ويتسع (كما شرحناه في كتابنا النسبية وفي فلسفة التفاحة).

فاذاً لا يمكن أن نقيد أية حركة في الكون نفسها، لأن مكانها وزمانها يتغيران. وإذاً لا تكون فصول السنة الارضية بعد ألف عام أو ألوف الأعوام كما هي الآن، لا في حرها ولا بردها ولا رياحها ولا زرعها وغلالها ولا ناسها ولا وحوشها، ولا ولا، الى ما لا نهاية له.

٢ — الحركة القوسية

ذكرنا بين سلسلة أنواع الدوران « الحركة القوسية » أي الحركة في جزء من دائرة كحركة رقاص الساعة مثلاً Pendulum فالرقاص يسير في قوس ثم يعود في نفس القوس ذهاباً واياباً. فاذا جمعت الاقواس طرفاً الى طرف تكونت منها دائرة نصف قطرها طول حبل الرقاص. وإذا كان رقاص الساعة لا يرسم دائرة كاملة فنتيجته أن يحرك دولاباً في دائرة كاملة كما هو معلوم.

الموجة هي نوع من الحركة القوسية. هي جزء من دائرة، لانك لو وصلت أطراف الموجات من قمة الى قمة بعضها ببعض لتكون منها دائرة. يطلق هذا القول على كل نوع من أنواع الأمواج: — الموجة الكهرطيسية (كالنور)، وموجة الصوت، وموجة الماء، وموجة الحبل الذي تهز طرفه بيدك. وشعاعة النور التي تسير في جو جاذبي تسير منحنية في قوس أيضاً. وإذا استقرت كل حركة في الكون فمهما تراءت لك خطاً مستقيماً تجدها دائرة أو جزء دائرة. ولا سبب لهذه الدورية الا فعل سنة الجاذبية.

الباب الثاني

النظام الحيوي

الفصل الرابع

ماهي الحياة

بسطنا كفاية قوانين التنظيم في العالم المادي غير الحيوي في عناصره الثلاثة : — التجمع والتفرع والدوران : والآن نتقدم لبسط هذه العناصر في العالم الحيوي، فنرى لها أساليب أخرى تختلف في الغرض عن أساليبها في العالم المادي ولكنها تتفق في الجوهر مع هذه .

ولاستيفاء هذا البحث وتسهيل بسطه لذهن القارىء لابدّ من تفسير سر الحياة بقدر ما تؤذن به ظاهراتها المادية . فما هو سر الحياة ؟

١ — كيف نشأت الحياة

أكثر الذين بحثوا في أصل الحياة فرضوا أو ظنوا أنها ذات مستقلة عن الجسم الحي، ولكنها تمثل فيه،فصوّبوا كل همهم إلى تعليل نشوئها، وتأثروها في الأحياء الدنيا إلى أحقر الجراثيم ، ففرضوا أن الجرثومة الواحدة متسلسلة عن أخرى ، ولم يهتدوا إلى جرثومة تولدت من تلقاء نفسها ، ولكن العقل يقول لا بدّ لها من أول او أصل

ومهما يكن من أمرهم فالحياة درجة من درجات الرقي . فماذا كان قبل الحياة فاشتقت منه الحياة ؟ ظن بعضهم أن الحياة مسلسلة من البلورات ، لأنهم رأوا في هذه شيئاً من خصائص الحياة كالنمو والتولد وانتهاء النمو عندهذا الحد،رأوا أن البلورة تتكوّن إذا كان في السائل المشبع مادّة القابل للتبلور بلورة صغيرة تتجمع حولها المواد فتزيدها حجماً إلى أن تستوفي حجمها . ثمّ تشرع بلورة أخرى تتكوّن الى جنبها . وهكذا دواليك حتى يصبح السائل قليل الاشباع فيكف التبلور .

ولكن بين البلورة والجرثومة الحية بوناً عظيماً . البلورة تنمو من الخارج بإضافة المادة إليها ، ولكن الجرثومة تنمو من الداخل بما تمتصه من الغذاء من الخارج : ثم أن الجرثومة تتوالد بالانقسام الواحدة الى اثنتين . والبلورة ليست كذلك . بل تتكوّن من نفسها مستقلة عن أختها ، الجرثومة تفرز فضلاتها عن نفسها ، والبلورة ليس لها فضلات إلى غير ذلك. ثمّ ان البلورات لا تولد ، إلاّ في محلول بارد. ولكن الجرثومة لا تتولد إلاّ في سائل ذي حرارة متوسطة فوق الصفر وتحت الغليان .

* * *

إنّ معظم الأحياء الدنيا موجودة في البرك والمستنقعات حيث الماء راكد . وهو أمرٌ يدل على أن الحياة نشأت في الماء الآسن ، أو الوحل . وقبل أن تنشأ الحياة كانت الطبيعة بفعل حرارة الشمس ونورها تنشىء الحامض الكربوني والنشادر والحامض الأميني. وهذه لا تحتاج إلاّ الى الكربون والهيدروجين والنتروجين والأكسجين . فتكوّنت المواد الكربوهيدراتية أولاً بشكل هلامي (جلاتيني) ثمّ اشتقت منها المواد الزلالية . والراجح أن المقادير الصغيرة كانت تتكتّل بفعل تجاذب فيما بينها ، وكانت تنمو إلى أن تتكوّن حولها قشرة جامدة بفقد قليل من الماء في ظاهرها ، حتى إذا زاد نموها انفجرت القشرة وانقسمت الكتلة الى كتلتين . ثمّ تشرع كل كتلة تنمو إلى أن تضخم ، فتنشق الى كتلتين وهكذا دواليك . هكذا كانت أول كتلة تحوّلت الى جرثومة .

وكانت بعض العناصر تشترك في هذه العملية كالفوصفور والصوديوم والبوتاس والمنازيا وغيرها . والفوصفور مشتق من فوصفات الجير (الكلس) وليس ما يمنع أن يتحوّل جزء منه الى الحامض الفوصفوري فيدخل محلوله إلى نواة الجرثومة .

وهو معلوم ولا سيما للكيماوي الذي يفهم جيداً علاقة الطاقة بالمادة أن امتصاص الهلامة للمركبات البسيطة القابلة التحوّل وائتلاف داخلها بها ، جعلا الهلامة مخزناً للطاقة . أي أن بعض المواد المتفاعلة تفاعلاً كيماويّاً تصدر حرارة (طاقة) كما يحدث في احتراق الكربون وتنفس الحيوان . وبعضها تمتص الحرارة وتدّخرها كما يحدث عند تحوّل المواد الغذائية في الأجسام الحية . فإذا كانت كتلة الهلام أو الجرثومة في اثناء تفاعل مركباتها مع المركبات المتطرّقة الى داخلها تدّخر حرارة تارة وتبثها تارة أخرى، اقتضى أن تكون لها حركة ذاتية بين تقلص وتمدد لتغير التوازن فيها . ومهما كانت الحركة بطيئة وبسيطة فإنما هي حركة .

٢ — سر الحياة في الكربون

١ — الحياة ألفة كيماوية

الحياة نشوء آخر يختلف في ظاهراته كل الاختلاف عن نشوء الأجسام المادية غير الحية. هو درجة ثانية من درجات الوجود أعلى من درجة المادة « الميتة »، كأنه كون آخر مستقل في ذاتيته وطبيعته كل الاستقلال عن الكون المادي. ولكنه بالحقيقة مادي الجوهر والحركة، بمعنى أن الجسم الحي مؤلف من ذرات المادة، ولكن بنظام آخر يختلف عن نظام المادة. فهل هو متمش على نفس سنن الطبيعة الأساسية كالجاذبية والألفة الكيماوية؟ أم أن له سنناً أخرى خاصة به؟

الظاهر لنا أن الحياة، لأنها قائمة بالمادة، هي خاضعة لنواميس حركة المادة. وإذن حركتها مستمدة من نفس القوى الفاعلة في المادة — جاذبية وألفة كيماوية — وحركتها ذاتية بمعنى أنها تختزن القوة المادية، ثم تتصرف بها تصرفاً خاصاً يلائم كيانها. وحركتها نتيجة هذا التصرف. وهذه الحركة نوعان. حركة في داخل الجسم الحي بين أجزائه، شائعة في النبات والحيوان. وحركة تنقل الجسم الحي كله من حيز الى حيز. وهي خاصة بالحيوان على الغالب. فما هو سر الحياة الذي هو مستودع القوة الحيوية؟ وما هو مصدر هذه القوة؟

لا نعرف وجوداً للحياة كما نعرفها الا على أرضنا. فلا شأن لنا بها إذا كانت موجوة في جرم آخر، سواء كانت هناك بنفس الخواص التي نعرفها هنا أو كانت تختلف عما نعرفه

نعرف ان الجسم الحي مهما كان نوعه مؤلف من جزيئات Molecules عديدة الذرات جداً ليس لها مثيل بكثرة ذراتها في سائر جزيئات الغازات والسوائل والجوامد، لا على الأرض ولا فيما أستدل عليه في الأجرام الحارة وفي الأجرام البـاردة، من أنواع الذرات والجزيئات. فكأن سر الحياة مودع في الجزيء العديد الذرات. فنبحث عنه في هذا الجزيء.

الجسم الحي من أبسط أنواعه: الأميبا، إلى أكثرها تركباً وتعقداً، الانسان، مؤلف من ثلاثة أصناف من المركبات الكيماوية، وكل صنف منها عديد الأنواع بتعدد أنواع الخليات. وهي:

أولاً — الكربوهيدرات (النشائيات ونحوها وسلاسل البارافينات وسلاسل الكحل الخ) وجزيئاتها تحتوي على بضع ذرات الى بضع عشرة ذرة. وهي الوقيد الذي تصدر منه القوة لاصدار الحركة.

ثانياً — الدهنيات ونحوها. وجزيئاتها مؤلفة من عشرات الذرات. وهي وقيد

آخر مدّخر، ولا سيما في الأحياء المنوعة الأعضاء الوظيفية .

ثالثاً — البروتاينيات (الزلاليات) . وجزيئاتها مؤلفة من مئات الذرّات أو ألوفها في بعض الأحيان . وهي هيكل بنية البروتوبلاسم الذي هو جوهر الحياة الأول .

يلحق بهذه الثلاثة الماء . وهو الوسط الذي تتنقل فيه جزيئات المركبات الحيوية ، فضلاً عن إنها تتحد أحياناً بجزيئات منهُ .

ولا نعرف في الطبيعة جزيئات مؤلفة من ذلك العدد العظيم من الذرّات إلاَّ في الجسم الحي . وفي غيره لا يتجاوز عدد ذرات الجزيء البضع أو البضع عشرة ذرّة . إذن سرُّ الحياة هو في الجزيئات العديدة الذرات . فلنبحث عنهُ في ذرات هذه الجزيئات لكي نعلم في أيّ منها مقامه .

٣ — عناصر الحياة

التحليل الكيماوي يرينا أن أصناف هذه المركبات الثلاثة العديدة الأنواع مؤلفة من أربعة عناصر رئيسية فقط، أي من أربعة أصناف من الذرات وهي الهيدروجين والأوكسجين والنيتروجين والكربون . وأما ما يرى فيها من العناصر الأخرى — الكلسيوم والصوديوم والبوتاسيوم والمغنيزيوم والحديد وأملاحها الكلورات (كلوريد) والفصفات والسلفات والنترات والكربونات الخ فوظيفتها ثانوية وسيطة Catalysis : فلنرَ أي هذه العناصر الأربعة ذو الشأن الأهم في تأليف الجزيئات العديدة الذرات .

أما الهيدروجين والأوكسجين وحدهما فلا يتألف منهما إلاَّ بضعة أنواع من الجزيئات لا يزيد الواحد منها على أربع ذرات . وإذا دخل النيتروجين معهما أو مع أحدهما فلا يتألف منها جزيئات تزيد على بضع ذرات أيضاً ، حتى لو دخلت عناصر أخرى ثانوية غير هذه الثلاثة فلا يناهز عدد الذرات في الجزيء الواحد بضع عشرة ذرة . ولكن إذا نزل الكربون الى الميدان رأيناه يؤلف مع العناصر الثلاثة التي نحن بصددها جزيئات تعدُّ ذراتها بالمئات وأحياناً تتجاوز الألف . فاذاً في الكربون سر الحياة .

(هذه ملاحظة وردت عرضاً في كتاب « الكون الغامض » تأليف السير جيمز جينز ولكنهُ لم يشرح هذه النظرية)

فماذا في هذا العنصر - الكربون - من الخواص أو المزايا التي تخوله القدرة على تكوين البروتاينيات والكربوهيدرات والدهنيات التي تتألف منها الخلية الحية Cell ؟ . فلنبحث في كلٍّ من هذه العناصر الأربعة

هـ = الهيدروجين ذو بروتون والكترون واحد حر

و = الأوكسجين ذو ١٦ بروتوناً و ٨ الكترونات حرة ما عدا المتحدة ببروتوناتها وهي النيوترونات

ن = النيتروجين ذو ١٤ بروتوناً و ٧ الكترونات حرة ما عدا المتحدة ببروتوناتها وهي النيوترونات

ك = الكربون ذو ١٢ بروتوناً و ٦ الكترونات حرة ما عدا المتحدة ببروتوناتها وهي النيوترونات

فلنضرب صفحاً عن البروتونات لأن الألفة الكيماوية التي تؤلف الجزيئات لا تتوقف على عدد البروتونات في الذرة الواحدة بل على عدد الالكترونات الحرة فيها فقط

وسنعلم من مقال « فناء المادة » في هذا الباب ان الكهيربات (الالكترونات الحرة) تدور حول النواة (مجموعة البروتونات) والنيوترونات في مناطق : الأولى معدة لالكترونين فقط . والمنطقة الثانية التي بعدها معدة لثمانية الكترونات . ولا شأن لنا بالمنطقة الأولى ولا بالمناطق التي بعد الثانية . لأنه ليس في أيٍّ من هذه العناصر الأربعة ما يشغل أكثر من المنطقة الثانية . ولأن المناطق الأخرى التي بعدها خاصة بعناصر غير عناصر الحياة .

إذن الالكترونات التي تدور في المنطقة الثانية هي :—

في الاكسجين ٦ يبقى محل لالكترونين (٢) في المنطقة الثانية (شفع أي زوج)

في النتروجين ٥ يبقى محل لثلاثة الكترونات (٣) في المنطقة الثانية (وتر)

في الكربون ٤ يبقى محل لأربعة الكترونات (٤) في المنطقة الثانية (شفع)

فلعلَّ كون الكربون شفعي الالكترونات الموجودة وشفعي الالكترونات الناقصة لتتمة المنطقة ، هو الأمر المسهل له الاتحاد بالعناصر الأخرى مهما اختلف عدد الذرات في الجزيء ، يساعده على ذلك الاكسجين الشفعي الالكترونات أيضاً ، ويساعدهما الهيدروجين لاتمام ما ينقص المنطقة من الالكترونين في تأليف الجزيء ، ولا سيما متى دخل النتروجين فيه وهو وتريُّ الالكترونات . وبهذا التسهيل يتضح تآلف الذرات الثلاث باستقرار ومن دون تقلقل . مثال ذلك في الحامض الكربوني (كربون داي اوكسيد = ك و ٢) الذي يدخل جزيئهُ كثيراً في المركبات الحيوية ، يأتلف الكربون مع الاكسجين فيشرك كلاً منهما بالكترونين من الكتروناته الأربعة ، وتصبح المنطقة الثانية لكل منهما تامَّة . والجزيء يستقرُّ بهذا الاشتراك متعادل الشحنة الكهربائية ، ولا يتفكك إلاَّ اذا طرأ عليه جُزَيْء آخر ، فيندمج الاثنان معاً في جزيء جديد .

وإذا أنعمت النظر في مركبات الكربوهيدرات والدهنيات وجدت ان ائتلاف الكربون

والاكسجين يحدث على هذا النحو . وفي حالة ان الجزيء ينقصه الكترون واحد يدخل الهيدروجين بالكترونه، والهيدروجين مطواع يدخل بالكترونه في معظم الجزيئات لاتمام النقص . (هذا بحث دقيق جداً لا يكفي التوسع فيه وشرحه مقال أو أكثر)

وأما النتروجين فلأنه وتري الالكترونات (٣ في المنطقة الثانية) فغالب الظن أن ائتلافه مع الجماعة لا يسهل إلاً بتعدد الذرات الكثيرة في الجزيء الواحد، بحيث يستطاع تأليفُ جزيئات متعادلة الشحنة الكهربائية . ولذلك لا يدخل إلاً في تألف البروتايينات التي تعد ذرات الجزيء الواحد فيها بالمئات .أوأن اندماجه فيها سبب تعدد ذرّاتها . ولكنه لا يدخل في الكربوهيدرات والدهنيات ، لأنه بدخوله يجعل الجزيء عديم الاستقرار كما يستدل من معظم مركباته إذ يظهر فيها قلقاً دائماً لا يكاد يستقر في مركب منها . فكأن قوة ألفته Affinity ضعيفة جداً (خلافاً للكربون) فلأقل طارىء يتنافر مع العناصر الأخرى ويتركها أو تتركه . ومن أبسط الأمثلة على ذلك النشادر Ammonia وهو مركب من نتروجين واحد وثلاثة هيدروجينات = ن هـ ٣ — ولكنه في هذه الحالة لا يمكن أن يوجد مستقلاً لأن ألكتروناته في المنطقة الثانية ٣ والكترونات الهيدروجينات الثلاثة ٣ والمجموع ٦ فتبقى المنطقة ناقصة الكترونين ويبقى الجزيء إيجابيًّا غير متعادل . لذلك لا يوجد النشادر مستقلاً البتة ، بل لا بدَّ من اتحاد جزيئه بجزيء آخر كجزيء الماء مثلاً ليكوّن منهما هيدروكسيد الأمونيوم ذائباً في الماء (ن هـ٣ + هـ ٢ و = ن هـ ٤ • هـ و) ومجموع الكتروناتها جميعاً ١٦ تشغل منطقتي الأكسجين والنتروجين ، مع ذلك يبقى هذا النتروجين الشاذ المتمرد قلقاً لا يطيق التقيد بأخويه ، فيتطاير بشكل ن هـ ٣ من الماء كما نعلم من رائحته التي لا تطاق ويفلت بانحلال الجزيء برمته . والنشادر موجود أيضاً كضلع Radical في البولينا Urea ولذلك يشعر برائحته في المباول التي طرأ عليها الاختمار المفكك له .

ومن الأدلة على قلق النتروجين وتمرده أنه داخل في المواد المفرنقعة كالنيتروجليسرين وتراي نيتروتالبين وغيره» وهوسبب افرنقاعها ، لأن الافرنقاع ليس إلاّ تنافره مع الذرات الأخرى وإفلاته منها، فتتفكك الجزيئات الى ذرات تتمدد بسرعة فائقة وهي سبب الضغط »

٤ — وظائف العناصر

يستدل مما تقدّم : أولا ، إن وظيفة الأكسجين والهيدروجين في الحياة إيجاد الوسط (الماء) الذي تنتقل به الحركة ، ثم اشتراكهما مع الكربون في إيجاد الوقيد الذي هو مصدر القوة فالحركة .

ثانياً : إن وظيفة الكربون جمع العناصر الأخرى معه وربطها بالألفة الكيماوية لبنيان هيكل الجسم الحي على اختلاف أنواع خلياته من الميكروبات المتنوعة ذات الخلية الواحدة Unicellular الى ما فوقها من الأحياء المتعددة الخليات Multicellular ولولاه لما تألف جزيء حيوي .

ثالثاً : فيما أن وظيفة الكربون البناء تكون وظيفة النتروجين الهدم (من غير اطلاق معنى الهدم) وهي وظيفة ذات شأن لازمة للحركة والنمو ولتطور حياة الخلية . فمعظم عملية دخول « الغذاء » الى الخلية وتمثيله فيها ثم خروجه منها بشكل مختلف عن شكل دخوله (أي عملية التحول Anabolism) يتم بتقلقل النتروجين في مركبات البروتايين المختلفة . فمنذ ولادة الخلية الى أن تزول تحدث تحولات كيماوية متنوعة عديدة متوالية تتجدد بها حياتها ، تحدث بواسطة الكربون وتقلقل النتروجين

في اثناء هذه التحولات التي تحدث بسبب تقلقل النتروجين يحدث تأكسد الكربوهيدرات وأحياناً الدهنيات ، أي احراقها . والنتيجة حرارة والحرارة صورة من صور الطاقة كما تعلم . وليس ذلك فقط بل أن تقلقل النتروجين وتنقله من شكل جزيء الى شكل جزيء آخر يحدث التأين Ionisation أي انسلاخ بعض الكهارب من الجزيئات وحدوث شحنات كهربائية سلبية او إيجابية ، ولا سيما في الجهاز العصبي إذ يمكن استكشافه هناك وإثبات وجود تيار كهربائي ضعيف فيه . وحدوث هذا التيار هو من جملة مصادر القوة والحركة في الخلية وسائر أعضاء الجسم

٢ — حركة الحي

بقي أن نبحث قليلاً في كيفية حدوث الحركة في الحي أو على الأقل في خلية الحي

ابتدأ البروتوبلاسم ، أول اشكال الحياة ، هلامي القوام (جلاتينيا) بسيطاً ذا نوع واحد من أنواع البروتايينات . وتألفت جزيئات هذه البروتايينات بسيطة جداً ، أبسط ما يمكن أن يكون من هذا الصنف من المركبات الكيماوية الرباعية (ذات العناصر الاربعة) تألفت تحت تأثير نور الشمس وحرارتها المعتدلة وتأثير الفوتونات المنتشرة منها ، وسائر أنواع التشعع مما لا بدّ ان يحدث التأين في هذه العناصر تارة بعد تارة . فهذه العوامل المختلفة تؤدي الى سلسلة التركبات الكيماوية المختلفة التي منها البروتايين

٥ — حدوث حركة الحي

وابتدأت جزيئات البروتايين متصلة بعضها ببعض لما فيها من لزوجة وبواسطة جاذبية الملاصقة Cohesion . فلا تنحل في الماء ولا تذوب فيه ، وإنما ينفذها الماء ويتخللها Osmosis

بما فيه من مركبات كيماوية بسيطة كالحامض الكربوني مثلاً ، وبعبارة علمية « مضللة » ، تمتصه (١) وتمتص معه ما يذوب فيه من المركبات والذرات اللازمة لها لكي تتمثل فيها وتنبذ منه ما لا حاجة لها به .

ولا يخفى أن عملية الامتصاص والنبذ هذه تستلزم حركة انتفاخ وضمور متعاقبين في الجسم الهلامي . وبين هـذه الحركة وما في البيئة المائية (الحياة ابتدأت في الماء) من الحركة الميكانيكية تفاعل لا بدَّ منه . أي لا بد من حدوث تفاعل بين الجسم الحي وبيئته أخذاً ورداً ، أو امتصاصاً ونبذاً . وفي اثناء هذا التفاعل الطبيعي Physical يجري السائل في غضون الخلية أو خلالها حاملاً مواد خارجية مختلفة كالحامض الكربوني والأملاح من كربونات ونترات الخ . وفيما هـذا السائل يتسرَّب الى غضون الخلية تحدث تفاعلات كيماوية متوالية بين المواد التي يحملها وبين جزيئات الخلية . تحدث هذه التفاعلات باستمرار ما دامت مواد جديدة تدخل وما دام النتروجين ينشز من جزيء الى جزيء ، وما دام الكربون يتفنن في تجديد الجزيئات بحسب الذرات التي ترد إليه . وفيما يحدث هذا التفاعل الكيماوي يكون من نتائج التحولات انفلات بعض الذرات من المركبات بحالتها الغازية وهـذه الحالة تحدث الإنتفاخ والضمور المتعاقبين اللذين أشرنا إليهما سابقاً . وبالتالي يحدث مجرى سائلي في غضون الخلية .

فترى أنه ما دام الامتصاص يُـدخِـل الى جسم البروتوبلاسم جزيئات جديدة وأحياناً ذرات أيضاً فهذا التفاعل الكيماوي يحدث باستمرار على التوالي وبسرعة . ففي كل هنيهة يحدث حل وتركيب في الخليـة مجددان لحياتها ونموها . فتخرج منها جزيئات وذرات قد استغنت عنها كما دخلت إليها جزيئات وذرات اندمجت فيها اندماجاً كيماويّـاً . فكأن البروتوبلاسم معمل كيماوي دائم العمل — الحل والتركيب — ما دامت الخلية تستطيع أن تمتص من البيئة وتنفث فيها

لماذا هذا الامتصاص وهذا النبذ ؟ هو غاية وسبب معاً . هو خضوع للتفاعل الكيماوي — الألفة الكيمية — الجاذبية .

ولأن سطح الخلية الكروي الخارجي ملابس للبيئة ، والتفاعل الأول يقع بينه وبينها ، فلا بد ان تكون جزيئاته مختلفة ولو بعض الاختلاف عن جزيئات داخل الخلية . وطبيعة هذا التفاعل تجعل ذلك السطح كغلاف أمتن مما هو ضمنه وأقبل للامتصاص . وهكذا تقضي سنَّـة التطور أن تكون وظيفة هذا الغلاف الامتصاص والنبذ ، وحماية الداخل

(١) والصواب تجتذبه

من التفاعلات المنافية لمصلحة الخلية التي لا يستطيع داخلها أن يتوقاها كما يستطيع الغلاف اتقاءها . وهكذا يصير جسم الخلية ذا عضوين مختلفي الوظيفة . الخلاف الذي وصفناه. والنواة التي وظيفتها الرئيسية العمل الكيماوي المنمي بالتجديد والتحول Metobolism & Katabolism و بينهما مجرى السائل الذي يحمل المواد الداخلة و المواد المنبوذة .

وما دامت البيئة المختلفة ذات عوامل مختلفة في أحوال مختلفة ، فلا بدّ من تنوع مناطق الجسم أو أجزائه بوظائف مختلفة ، لكي تقابل مفاعيل البيئة وتنتفع بها . وهذا التفاعل المنوع يسبب تنوعاً يضاهيه في العمليات الكيماوية . وكذلك تتنوّع جزيئات الأجزاء المختلفة الوظائف. كذا نشأت أصناف البروتايينات والكربوهيدرات والدهنيات على تمادي الزمان بحكم قانون التطور . ففيما كانت الجزيئات تتجمع في هلام كانت تتنوّع في بروتوبلاسم

* * *

ليس غرضنا من هذا الفصل الاسترسال في وصف العمل الحيوي والتطورات التي تتعاقب على البروتوبلاسم وتنتج أنواعاً . فان هذا البحث من خصائص البيولوجيا . وإنما غرضنا أن نستقصي سرّ الحياة الى أعمق ما يستطاع . وفيما استقصيناه من بيئة الذرات الاربع التي تتألف منها جزيئات البروتوبلاسم، لم نجد إلاّ تفاعلات كيماوية متوالية متعاقبة خاصة بالعناصر الأربعة، تحت تأثير حرارة معتدلة وتأثير تشعّعات الشمس المختلفة . وقد رأينا أن الدور الأهم في هذه التفاعلات هو الدور الذي يلعبه الكربون، لأنه لولاه لما أمكن تكوّن البروتايينات ، ويليه في خطر الشأن الدور الذي يلعبه النتروجين بنشوزه وشذوذه

فهل سر الحياة هو في الألفة الكيماوية التي تتلاعب بهذه العناصر الأربعة ، أم هو في هذه الألفة مع شيء آخر يستخدمها ولا زلنا نجهله ؟ . ربما كان الكيماوي يقتنع بأن الألفة الكيماوية هذه كافية لاصدار الحياة لأنه لا يرى شيئاً آخر غيرها وراءها . وربما كان غير الكيماوي لا يرتاح الى هذا التعليل فتبقى الحياة سرّاً غامضاً له . فاذا صحّ أن الحياة ألفة كيماوية بين ٤ عناصر خاصة تحت تأثير حرارة خاصة وتشععات خاصة أيضاً ، فتكون قد ظهرت على الأرض صدفة ، أي غير مقصودة في الوجود المادي ، ولا هي مضمرة في الفوتونات التي تألفت منها البروتونات والالكترونات .

وأما القول أن وراء العامل الكيماوي عاملاً آخر سماه برغسون Elan Vital أي « الحماسة الحيوية » فما هو إلاّ تعبير آخر لمعنى العامل الحيوي ، ولكنه لا يفسر هذا العامل بل يبقى به غامضاً كما كان .

الفصل الخامس

التجمع والتفرع الحيويان

أما وقد انتهينا من بيان ان الحياة ليست إلاّ عملاً كيميًّا محصوراً في أربعة عناصر برئاسة الكربون ، فنعود الآن إلى تطبيق الحياة على قواعد التنظيم جميعاً : التجمع والتفرع أولاً ، ثم الدورية ثانياً .

١ — عملية التجمع والتفرع كيماوية وآلية

رأينا في عملية تنظيم الكون المادي ان التجمع والتفرع جريا معاً جنباً الى جنب . وان هذه العملية كانت آلية (ميكانيكية) — كانت مجرد تجمع ذرات في جماعات كبرى تربطها الجاذبية العامّة . ثم تفرّعت الى جماعات صغرى بفعل الدوران . والجاذبية علة الدوران كما علمت .

وأما عملية التجمع والتفرع في الحياة فكيماوية، فضلاً عن كونها ميكانيكية أيضاً . وأما التآلف الكيماوي على الاطلاق (حيوي وغير حيوي) الذي كان يحدث في تجمع العوالم فكان عارضاً — كان نتيجة ، لم يكن ذا شأن في تجمعها وليس له يد فيها ، اللهمّ إلاّ في تجمع الجزيء ، بل كان يصفي الغازات من السوائل وهذه من الجوامد . وكان التجمع الميكانيكي سابقاً وممهداً له . على أن هذا التآلف الكيماوي المذكور هو ذو اليد الطولى في التجمع والتفرع الحيويين . والجاذبية سبب كلٍّ من هذين التجمعين ، لأن الألفة الكيماوية ليست إلاّ شكلاً من أشكال الجاذبية أرقى من شكلها العام . نقول إنه أرقى بمعنى انه أتى بعده مركباً معقداً . وهذا بسيط . ثم ان الألفة الكيماوية في التجمع الحيوي أرقى من الألفة الكيماوية العامّة، لأنها أتت بعد هذه أكثر تركباً وتعقداً.

رأينا في عملية تجمع السدُم وتفرعها الى سُدَيمات واجرام أن التجمع لا يمكن أن يستمر الى أن المجتمع الواحد يلتهم كل مادة هيولية في الكون ويصبح الكون كله كتلة واحدة متقلصة . وإنما يبلغ التجمع الى حدٍّ لا يعود يستطيع بعدهُ أن يلتهم مزيداً لأن قوة الجاذبية تضعف عند محيطه المترامي . وهناك ينتهي حد التجمع بحجم لا يقبل المزيد، وثمّ تبتدىء عملية التفرع إذ تتقطع طبقات الجرم السديمي الخارجية الى قطع طبقة بعد طبقة

على نحو ما وصفناه في محله . أما التجمع الحيوي فيختلف عن هذا إلاّ في بلوغه الى حدٍّ معين لا يتجاوزه . وهاك بيان الخلاف .

الخلية البروتوبلاسمية هي أول درجة من درجات التجمع الحيوي . فهي لم تتكوّن من تجاذب ذرات متجاورة تجمعت حول مركز جاذبي متبادل بينها . بل تكونت من سلسلة تفاعلات كيماوية متوالية بين جزيئات يربطها « مبدأ حيوي » مجهول الذاتية مودع في عنصر الكربون على ما نحو ما بسطناه آنفاً . وهذه الجزيئات المرتبطة بالمبدإ الحيوي تضم اليها جزيئات من الخارج وتدمجها في نفسها الى أن تبلغ كتلتها حدّاً معيناً من الكبر فلا تعود تتجاوزه . عند ذلك الحد تعتبر ناضجة . فلا تضم لنفسها جزيئات جديدة إلاّ تأهباً لانقسامها الى خليتين جديدتين كل منهما بنوبتها تضم اليها جزيئات وتدمجها فيها الى أن تبلغ حد النضوج المذكور ، حيث تنشق الى خليتين أخريين . وهكذا دواليك الى ما شاء الله

فترى ان التجمع الحيوي يحدث باغتنام جزيئات من خارجه وادماجها في نفسه تدريجيّاً، خلافاً للتجمع السديمي الذي ليس إلاّ تضامّ ذرات متجاورة بحكم قوة الجذب فقط .

ثم ان بلوغ التجمع السديمي حدّه يتوقف على استطاعة قوة الجذب الاستمساك باقاصي طبقات السديم بتغلبها على قوة التشريد عن المركز . وأما بلوغ التجمع الحيوي حدّه فلا يتوقف على قوة جذب ولا على قوة دفع، حتى ولا على قوة ألفة كيماوية ، بل على استطاعة الخلية الاحتفاظ بالجزيئات الكامنة للقيام بشخصيتها

ثم ان التفرع السديمي يحدث عند عجز قوة الجذب المركزي عن مقاومة قوة التشريد المتوقفة على سرعة الدوران المركزي ، فتستقل الكتل المتطرفة منه بتجاذب فرعي بينها وتنفصل جماعات فرعية قائمة بنفسها . أما التفرع الحيوي فلا يتوقف على قوة التجاذب ولا على قوة التشريد ، بل على نضوج الخلية بحيث لا تعود هذه تستطيع الاحتفاظ بالمزيد ، أو لا تحتاج الى مزيد للقيام بشخصيتها فتنشق الى اثنتين .

إذا اعتبرنا عملية التجمع والتفرع تطوراً . فالتطور السديمي تألب جماعة ثم تقلصها بفعل الجذب وتفاوت طبقاتها بدرجات التقلص تبعاً لقانون البعد عن المركز ، ثم تقسم الطبقات المتطرفة الى جماعات . وأما التطور الحيوي فعمل كيماوي يجتذب الجزيئات من الخارج الى الداخل ثم يوزعها في الداخل . واللاحق منها يطرد السابق . فالعملية إذن عملية امتصاص وافراز في وقت واحد تخرج بها الجزيئات المفرزة مختلفة اختلافاً كليّاً عن الجزيئات التي دخلت ممتصة .

٢ — تجمع التجمع الحيوي

تتوالد الخليات بالتقسيم المشار اليه آنفاً وتتضاعف عدداً على التوالي ، فتبلغ في عهد قصير ألوفاً بقدر ما تسمح لها البيئة الى أن تصبح جماعة كبيرة . فاذا لم تسمح لها البيئة بالتفرق والتشتت ، كما لو كانت في مستنقع راكد ، بقيت جماعة متعاونة . وفي هذه الحال تختلف ظروف أفرادها بحسب مواضعها في تجمعها . فالتي في الحواشي والأطراف تكون ذات حظ أوفر من الامتصاص والافراز . والتي في الداخل تقتبس حاجتها من الممتصات . وعلى التمادي تصبح الجماعة متعاونة في حياتها، وبالتالي أشد أرتباطاً بعضها من بعض — تصبح أخيراً كجسم واحد متعدد الخليات كالهيدرا Hydra . هكذا ينشأ حي مؤلف من خلايا حيوية ذات عدة بروتوبلاسمات[1] ، وعلى التمادي يختص كل فريق من هذه الخلايا بوظيفة من وظائف العمل الحيوي، كالامتصاص والهضم والافراز الخ ، كأنها جماعة اشتراكية فرقت الأعمال فيما بينها ، وتقاسمت نتاج أعمالها .

لا ترى في المجتمع السديمي مثل هذا التنويع في الوظائف . فالجماعات أو الفروع الصغيرة كالأمهات الكبيرة ذات طبائع وسجايا متماثلة .

ثم إن لهذا التجمع المركب الحيوي (تجمع الخليات والتصاقها) حداً يبلغه أيضاً فلا يتجاوزه ، حتى متى بلغت الجماعة إليه وصارت ناضجة ، انفصلت منها خليات لتنشىء بنوبتها جماعة جديدة ، (كما هو معروف في عمليات التناسل المختلفة) بنفس الطريقة التي نشأت فيها أمها . أي بالإمتصاص من الخارج والاندماج في الداخل والنقسم الخليّي (الخلوي) .

على هذا النحو نشأت أنواع الأحياء من أحقرها الى أعلاها . فتعددت أصناف الخلايا البروتوبلاسمية بتعدد الوظائف اللازمة لحياة كل نوع . تنوعت الأحياء تحت فعل عوامل البيئة من الخارج وعوامل الحياة من الداخل . وإذا بنا نرى هذه الأحياء العديدة الأنواع تجمعات خليات مختلفة — جماعات . وكل جماعة منها مجموعة جماعات أيضاً كما نرى في الأحياء العليا . أنظر الى الفرد منها تره مجموعة أجهزة — هضم ، عصب، تنفس ، دورة دموية الخ — وكل جهاز منها مجموعة جماعات من الخليات المختلفة بنيةً وسجيةً .

ترى مما تقدم أن التجمع الحيوي الكيماوي أكثر تركباً وتعقداً من التجمع المادي الميكانيكي في الأجرام والسدم،وتفرعه عديد التنوع جداً . أنواعٌ لا تحصى متدرجة في سلم

(١) البروتوبلاسم هو المادة المزجية بين النواة والغلاف

التطور من الهيدرا الى سائر المائيات فالصدفيات الى الضفدعيات إلى الفقاريات فاللبونات إلى أشباه الإنسان حتى الإنسان .

فما هو الفرق الجوهري بين نوعي التجمع المادي الميكانيكي والحيوي الكيماوي ؟

الأول ضم وتوسع في الحيز تحت سيطرة الجاذبية .

والثاني إدماج واقتسام للحيز تحت فعل الألفة الكيماوية وتحت سيطرة المبدإ الحيوي الدفين سره في الكربون — إن كان هناك مبدأ حيوي غير العامل الكيمي. ثم ان الأول يجمع الذرات والجزيئات من غير تضامن فيما بينها ، يجمعها في جماعات ، الى أن يستنفذها كلها ، فلا يبقى في الكون إلا رحاب خلاء بين جماعات شبه أبدية مقصورة على الحركة الدورانية .

وان الثاني يتصيد الذرات الأربع من الهواء والماء والتراب ويدمجها في جماعات الى اجل قصير ، حتى متى أفرغت طاقتها في سبيل حياة الجماعة اطلقتها الى الفضاء . وبعد أن يستخدم طاقتها في عملية النمو والتوالد يطلق طاقتها أيضاً . والجزيئات المطلقة تكتسب طاقة جديدة من المتشععات (فوتونات) الواردة من الشمس وتهيئها للإندماج ثانية في خليات حيوية أخرى . وهكذا دواليك .

ثم ان الأول يتلاشى بالاشعاع التدريجي على تمادي الزمان من غير أن يفقد شخصيته .

والثاني ينحل متى توقف العمل الحيوي فيه ، إما لطوارىء خارجية ، أو لانتهاء أجل الحيوية فيه بتسلط عوامل هادئة، فتشتت أجزاؤه أو ذراته عاجلاً

٣ — اشكال التجمعات الحيوية

وقد رأينا التجمعات المادية بسيطة الذرات والجزيئات ولا تتخطى ستة أجيال : من السدم الى الأقمار كما علمت . ولكن التجمعات الحيوية مركبة الجزيئات في اشكال لا يحصى عددها، ولا سيما في الأحياء العديدة الخليات . فلكل عضو من أعضاء الحي صنوف عديدة من أشكال الخليات . خذ خيطاً من خيوط العصب تجده ذا لباب وغلافين . وكل منها ذو صنف خاص من الخليات يختلف عن صنف غيره . وقس على العصب أنواع العضل المختلفة في كل جهاز من أجهزة الجسم المتعددة . فلو أحصيت اشكال الخليات في أصناف الأحياء المختلفة لوجدتها تعد بمئات الألوف . وحاصل القول ان التجمعات الحيوية متعددة الأشكال .

وكل يوم ينشأ شكل جديد منها وينقرض شكل قديم ، بمقتضى سنة التطور تحت عوامل البيئة .

ثم ان التجمعات الحيوية سلسلة من الأجيال لا تكاد تحصى ولا تكاد تنتهي. تتبدل وتتعاقب على مرور الزمان. وتتغير وتتطور على مدى الدوران. وبهذا التطور نشأت ولا تزال تنشأ أصناف أحياء مختلفة لا اعداد لها. فينقرض بعض منها بتغلب بعض فيما ينشأ بعض آخر. وما يسمونه المبدأ الحيوي هو السلك الذي تنتظم فيه التجمعات الحيوية جميعاً بفعل الألفة الكيماوية. وأما التجمعات السديمية فسلكها الجاذبية العامة فقط. والألفة الكيماوية هي صورة من صور الجاذبية.

وكان من أهم نتائج النشوء والتطور أن تفرعت الحياة الى فرعين رئيسيين: النبات والحيوان، ثانيهما يعيش على حياة الآخر. وهذا يعيش على حساب العناصر الاربعة تحت تأثير تشعع النور والحرارة. النبات يختزن جانباً كبيراً من الطاقة (القوة) التي يصطحبها، والحيوان ينفقها في حركته.

فانظر ما أعجب عمل الألفة الكيماوية في العناصر الأربعة التي تكونت منها ملايين أصناف الأحياء وعشرات ألوف أنواع الجزيئات. بل ما أعجب فعل الكربون الذي هو واسطة الإئتلافات العديدة بين العناصر الأربعة. وانظر الفرق العظيم بين التجمعات المادية والتجمعات الحيوية.

وما دمنا نجهل ماهية هذه «القوة الحيوية» ولا ندري إلا ان ظاهرات الحياة Phenomena هي ظاهرات كيماوية بحتة، فيحق لنا أن نزعم أن مبدأ الحياة هو في كيمياء الكربون مع شركائه العناصر الثلاثة الأخرى، وسيطرته عليها في تأليف البروتايينات والدهنيات والكربوهيدرات فسر الحياة كيماوي خاص بالكربون واخوانه. هذه مزية للكربون ليست لغيره من العناصر الارضية. كما أن المغنطيسية مزية للحديد ومجاريه (في ترتيب العناصر) الكوبلت والنكل. (وهما أضعف منه مغنطيسية). وكما ان الاشعاع Radioactivity مزية العناصر العليا — أسرة الراديوم.

فكأن الطبيعة منحت بعض العناصر هذه الخواص الثلاث الممتازة: الحياة: المغنطيسية: الاشعاع، وهي أهم ظاهرات الطبيعة وأعظمها عجباً. وبها تتجلى لنا الطبيعة في هيكل جلالها وهيبتها.

الفصل السادس

مقام الحياة في الكون

١ — هل الحياة غاية الوجود ؟

كان الفلاسفة والعلماء المفكرون حتى أواخر القرن الماضي يعتقدون ان سر الحياة «قوة حيوية» أجنبية عن المادة ، ومسيطرة عليها ومحدثة العمليات الكيماوية التي تحدث في كل خلية مفردة أو مشتركة مع خليات أخرى Molticelular ، كأن هذه القوة معمل كيماوي عظيم ينتج ألوف أصناف المركبات العضوية Organic نباتية وحيوانية . وبناءً على هذه العقيدة رفعوا شأن الحياة الى أن جعلوها الغاية القصوى من الوجود . أي ان الكون المادي وُجدَ لكي تنشأ الحياة فيه ولكي تستخدمهُ في ظاهراتها — وُجد لأجل خاطرها .

فهل في أشكال الموجودات وظاهراتها ما يؤيد هذه العقيدة ؟ بنظرة عامّة في نشوء العوالم ، كبيرها وصغيرها ، وتطوُّراتها ، يظهر لنا أن الحياة لم تكن غاية الوجود المادي البتة، بل جاءت عرضاً على الأرض ، لأن الظروف الملائمة لها وُجدت عرضاً أيضاً . ليس الأمر كذلك فقط ، بل ان الوجود المادي لم يحبل بها لكي يتمخضها ، ولا خطرت له ببال، إذا تصوَّرنا له ارادة حرَّة ، بل بالأحرى إذا تعمقنا في البحث رأينا أن الوجود المادي عدوٌّ لدود للحياة ، لا يراعي لها شأناً ولا رغبة ولا مصلحة ، ولا يحسب لها قيمة . واليك البيان:

الحياة محدودة بحدين من درجات الحرارة : بين درجتي الجليد والغليان . وبعد هذين الحدين تتلف الخليات الحية وتهلك حيويتها ، وبالتالي لا تنشأ بتاتاً ، حتى ان نمو الاحياء وتوالدها متوقفان على درجات الحرارة الوسطى بين ذينك الحدين، المصحوبة بالأشعة الضوئية

وجاراتها القريبة . فهل في العوالم أجرام كأرضنا لا تتراوح الحرارة فيها بأقصى من ذينك الحدين .

الفلكيون الذين درسوا السيارات درساً دقيقاً وجدوا ان الظروف اللازمة للحياة غير موجودة في غير الأرض ، بل بالعكس وجدوا أنه يحتمل قليل الاحتمال وجود شكل من الحياة في المريخ يختلف بعض الاختلاف عن شكل الحياة في أرضنا ، أو إنه يختلف عنه أكثر مما يشابهه .

أما في النجوم فلا أمل بوجود الحياة بتاتاً لأنها كلها في حالة الغازية . وقلَّ ما هو منها في حالة السيولة أو حالة المزيج من السيولة والغازية . وحرارتها تفوق حرارة الأرض ألوف بل ملايين الأضعاف . بقي الأمل في أن يكون لبعض تلك النجوم القصية سيارات كسيارات أرضنا ، ربما صلح بعضها للحياة كصلاحية الأرض لها . ولكن الكيفية التي تولَّدت السيارات بها من الشمس تذهب بهذا الأمل وتقطع كل رجاء

لقد ثبت بالأدلة العلمية اليقينية أن السيارات لا تولد من الشموس بقانون طبيعي . وليس في سنن الاشتقاق الجرمي إلاَّ سنة الاشتقاق السديمي الى سديمات فإلى نجوم ، وسنة اشتقاق النجوم المزدوجة Binary stars . وجميع هذه على ما نعلمه ، لا تزال في حالة الغازية والسيولة، ودرجات حرارتها عالية جداً . وقد ثبت أيضاً أن تولد السيارات كنطفات صغيرة من شموس كبيرة بحيث تبرد عاجلاً (نسبيًّا) لا يكون إلاَّ بعارض طارىء كما حدث في توالد السيارات من الشمس (١) . وهذا العارض الطارىء نادر الحدوث جداً قد لا يحدث لواحد من مئة مليون نجم وكل مئة مليون سنة مرَّة (حسب رأي السير تجايمس تجينز) لسببين : الأول ان رحاب الفضاء الخالية من الأجرام بين نجم ونجم واسعة جداً. فاذا كان معدل المسافات بين النجوم كالمسافة التي بيننا و بين أقرب نجم لنا (ألفاقنطورس)

---

(١) وهو مرور جرم ضخم على مقربة من الشمس فسلخ منها بقوة الجذب قدراً كما يسلخ القمر من الشمس قدراً . وهو ما نسميه المد والجزر . ولما ابتعد ذلك الجرم عن الارض بقي القدر المسلوخ من الشمس يدور حولها ، إلى ان تقطع الى سيارات . ولهذه النظرية تفصيل جميل شرحه السير تجايمس تجينز في كتابه « النجوم في مسابحها »

وهي نحو ٤ ستين ثانوية وخمس ، فلا أمل في أن يقترب نجم الى نجم آخر اقترابا كافيا لتأثير الجاذبي فيهما بحيث ينشيء مدا وجزرا إلا في مصادفة نادرة جدا جدا. الثاني : أن الأجرام في قرص المجرة تسير متفاوتة في اتجاه واحد دائرة حول مركز المجرة بسرعات متفاوتة كما تدور السيارات حول الشمس . فعلى تلك الأبعاد السحيقة التي بينهما ينقطع الأمل بأن يصادف مرور نجم آخر بحيث يحدث كل منهما مدا يسلخ منه نطفات صغيرة فتتجمد سيارات دائرة حوله

٢ — الحياة مقصورة على الارض

فلذلك يغلب الظن أن شمسنا هي الوحيدة في عالم المجرة التي تلقحت باقتراب نجم آخر إليها فولدت سياراتها ، وأرضنا هي الوحيدة التي صلحت لتمخض الحياة وإن كانت هذه الصدفة قد طرأت لجرم آخر فهيهات أن تكون الظروف المناسبة للحياة متوفرة لها كما توفرت لأرضنا . وان كانت ظروفها مناسبة أو مقاربة لظروف أرضنا ، فإن كان ثمت عمل كيماوي ينتج شيئاً كالحياة التي نشأت على أرضنا ، فظاهراته تختلف كل الإختلاف عن ظاهرات حياتنا .

زد على ذلك أن دهر الحياة على الأرض قصير بين دهور التطورات الأرضية . فقد سبقه دهر النارية فدهر السيولة ، فدهر التجمد الذي كانت الحرارة فيه لا تزال فوق درجة الغليان أمداً طويلاً ثم سيليه دهر البرودة والجليد ، وهو أطول دهور الأرض وبعده دهر الفناء المتشعي الطيء جدا ، وهو أطول من دهورها جميعاً .

فعمر الحياة على الأرض قصير جدا بالنسبة الى عمر الأرض ، وبالأحرى بالنسبة الى عمر الشمس وسائر النجوم .

فترى مما نقدم أن العالم المادي يتطور تطورات مختلفة ليست من مصلحة الحياة ، بل بالعكس هي تطورات قاضية على الحياة . فإذا تبينت طور الحياة من خلال تلك الأطوار تراءت لك لمعة لمعت مصادفة في مجرى الوجود كأنها فلتة شاذة

فلو كانت غاية الوجود انشاء الحياة وخدمتها ووضع نفسه كاداة بين يديها ، ما انحصرت

الحياة في الأرض ، وهي أقل من ذرّة في الأكوان . ولا انحصر نشوء الجرم الصالح للحياة بسيار واحد حول شمس واحدة ، ولا كان عمر الحياة كلحظة من زمن الوجود .

فإذا حسبنا عملية الحياة مجداً وفخراً في الخليقة فمجرتنا وسائر المجرات غير شاعرة بهذا المجد الذي لا ينطفىء لمعانه لدى لمعان أمجادها السموية . وانما للأرض وحدها أن تفتخر وتتمجد بأن هـذه العملية العجيبة (في نظر العقل البشري) كانت من حظها وحدها . وكانت مهداً لنشوء العقل الذي هو أعجب منها وأمجد، ويمكن أن نسميه فخر الوجود كله

فعلى سطح هـذا السيار الأرضي وحده نشأ مصادفة أعجب آيات الخليقـة وأغربها وأمجدها — الحياة . ثم العقل . ثم العقل الاجتماعي . ثم ؟ ... ماذا ؟

[يتبع]



فلسفة الوجود

ONTOLOGY

Philosophy of the Physical Universe

تأليف

نقولا الحداد

مطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٩

الفصل السابع

الدورية في الحياة

١ — التكرار عمل دوري Rithm

ليست الدورية في الحياة دوراناً حول مركز في جوّ جاذبي . وإنما هي تكرار كل عملية حيوية مراراً لا يحصى عديدها في أمدٍ طويل . تعاد العملية نفسها المرّة بعد المرّة، ولا يحدث فيها تغيُّر إلاّ بعد زمن طويل بحكم تأثير البيئة . ولا يشعر بهذا التغيُّر إلاّ بمقارنة جديدهِ بقديمهِ ان أمكنتك المقابلة . وهذا هو المراد بالتطوُّر .

على أن الدورية على هذا النحو تتضمن العمل الجاذبي في أدق مجاريها — العمل الجاذبي في الذرات بين الالكترونات والبروتونات . ولولاه لما أمكن حدوث الدورية على الاطلاق. إذ لا يخفى عليك أن الدوران الكهربي (الالكتروني) حول النواة في الذرة والجزيء هو سبب كل حركة . هو الحركة الأولى الصادرة مباشرةً من ينبوع الطاقة — القوة الجاذبية — فحيثما وجدت عملاً دوريًّا فتعقبت علّتهُ بلغت الى دوران الكهيربات حول النوى . يتضح ذلك في ضرب الأمثلة بأهم أنواع الدورية وأظهرها .

في أبسط الخليات الجرثومية ترى تحت المجهر (المكرسكوب) مجرًى بين نواة الخلية (بروتوبلاسم) وغلافها يجري فيه سائل دائر حول النواة . الى هذا السائل تدخل من الخارج المواد المغذية للخلية ، وتخرج منه الى الخارج المواد التالفة ، التي انتهى عملها في حياة الخلية . يدور هذا السائل بفعل انقباض جانب من الخلية وتمدُّد جانب آخر بالتناوب . وهذا التناوب في الانقباض والتمدُّد ناتج من تعاقب العمليات الكيماوية التي تحدث تباعاً في النواة وغلافها وما بينهما من اتصالات، والعمليات الكيماوية هذه نتيجة التآلفات الكيماوية المتعاقبة بين الذرّات ، وما هي إلاّ الجاذبية في أفلاك الذرّات .

لسائل كل خلية من الخلايا المتنوعة المفردة أو المتجمعة الملتحمة هذه الدورية العامة، وبين الخلايا المتجمعة الملتحمة Multicelluler مجارٍ أخرى لسوائل التي تحمل غذاء الخليات الوارد إليها من الخارج، وتحمل مفرزاتها الصادرة من الداخل . وهذه المجاري تحدث بمثل الأسلوب الذي يجري به السائل في بطن الخلية ، أي بتقلص الأقنية من الخليات وتمددها ، بفعل ما يحدث فيها من العمليات الكيماوية المتعاقبة .

وأظهر دورية من دوريات السوائل التي تطوف في الأجسام الحيّة الدورة الدموية في الحيوانات ذات الدماء، فهي تندفع من القلب الى الشرايين وإليه من الأوردة . وفي القلب والشرايين والأوردة صمامات تنفتح لمرور التيار الدموي وتنقفل لمنع ارتداده . ناهيك عن أن تجاويف القلب تنقبض وتتمدّد لدفع الدم واستقباله ، والشرايين والأوردة تتقلص وتتمدّد بالتعاقب ، بشكل موجي دوري Ritlım لتساعد على دفع التيـار في مجراه . فترى أن عملية الدورية هنـا مركبة معقدة ، تشترك فيها جماعات متعددة من أصناف الخلايا المختلفة . والمحرّك الرئيسي فيها الجهاز العصبي .

والتيار العصبي نوع آخر من أنواع الدورية يشبه كثير الشبه التيار الكهربائي . (والراجح أنه نوع منه) فهو دورة موجية ، تبتدي من أحد أطراف الجسم مثلاً بسبب تفاعل مع البيئة، وترحل رحلة موجية في سلك العصب الحساس، إلى أن تبلغ الى مركز عصبي في الدماغ ، ثم ترتد منه على العصب المحرك الى أن تصل الى عضل العضو الذي وردت منه أولاً ، فتحرك العضل .

التنفس عمل دوري .

الهضم عمل دوري .

التناسل عمل دوري أيضاً وهو أكثر الدوريات تركباً وتعـقداً لأنه يتضمن جميع عمليات الحياة من الولادة الى النمو الى التوليد حتى الموت

٢ — طواف الذرات في الاحياء

وربما كان العمل التمثيلي في الجسم Anabalism أهم أنواع الدورية في الحيـاة وأدقها وأعظمها تعـقداً . تصور جزيئاً Moleule كالحامض الكربوني دخل إلى خليـة نباتية واندمج فيها مع جزيئات أخرى من الماء وغيره، فتألف منهـا جزيء كربو هيدراتي . فاستعملت الخلية ما في هذا الجزيء من طاقة بحلها إياه إلى جزيئات أخرى تطلقها في الفضاء، ثم تدخل هذه الجزيئات المحولة من ذلك الجزيء الى خلية أخرى في حيّ آخر، وتندمج في جزيئات أخرى . وهكذا دواليك . فلو أمكنك أن تتبع ذرّة من ذرات الكربون أو غيره في تنقلها ، فقد تراها تطوف من خلية الى خلية ومن حيّ إلى حيّ إلى ما شاء الله .

فطواف الذرّات على هذا النحو هو علة تعاقب الخليات في نسيج الحيّ ، وعلة تعاقب الأفراد من النوع الواحد من الأحياء في توالدها ، وعلة تفرع الأحياء الى أنواع – ذرات طائفة تتمثل كل حين بعـد آخر بشكل جديد على مرور الزمان . والزمان يطوي هذه

الأشكال العديدة في أذياله دوراً بعد دور بأساليب مختلفة لا تحصى. هذه الأساليب هي دورانات مختلفة مركبة معقدة متجددة، مبتدعة الصور والأشكال.

لا تجد في الأكوان المادية (غير الحيوية) كالسدم والأجرام مثل هـذا الطواف الذري المنظم الذي يظهر جماعات الذرات في اشكال عديدة متنوعة كأنها صنعة فنـان. لا تجد في السُّدم والأجرام طوافاً ذريـا إلاّ بشكلٍ كأنـه فوضوي لا قاعدة له ولا نظام.

هذا الدوران الذري الذي يجمع الذرات ويفرقها على التوالي، جمع مراراً عديدة كثيراً من ذرات الـكربون، مع ما تحتاج إليه من أخواتها الذرات الثلاث الأخرى، في نبات وحيوان حتى انشغلت كل ذرَّة منهـا (ما عدا جانب من كربونات العناصر المعدنيـة كالـكلس الخ ...) في خليات عديدة على التعاقب. فـكأن كل ذرَّة اشـتغلت بعملية الحياة ملايين المرات التي لا تحصى.

العمل الحيوي استنفد كل ما على الأرض من ذرات الـكربون الحرة، وما دفن منها تحت الثرى بسبب العوامل الجيولوجية، وهي تبعث الآن من مدفنهـا فحماً حجريّـًا، وتطلق وقيداً لتعود الى الحياة في النبات والحيوان. هذه دورات كبيرة عامة تشمل كل ما على سطح الأرض وطبقاتها منـذ صلحت الأرض للحياة. وقد تكررت هذه الدورية ملايين المرات، وسـتتوالى ملايين أخرى الى أن تذوب الشمس، وتنخفض الحرارة الى حدّ لا تستطيع الألفة الـكيماوية عندهُ أن تجمع العناصر الأربعة وتفرّقها.

ان عمل هذه الألفة الـكيماوية عجيب. تـكاد هذه الألفة تتجلى لنا ذات قدرة ذاتية بارعة، وذات ارادة حرة متفننة تتراءى لنا كأنها تتلاعب بأربعة من عناصر الطبيعة دون ال ٩٢ عنصراً الأخرى. فتؤلف من ذرّاتها كل يومٍ أشكالاً مادية حيوية جديدة على مرور الزمان، حتى إذا جعلنا نصف هـذه الأشـكال ونـعلل تسلسلها، بذلنا من المجهود ألوف أضعاف ما نبذله في وصف أجزاء الـكون المادي وحركاته وروابطه — ذلك الكون العظيم العديد العوالم الذي لا يكاد عالمنا الحيوي الأرضي هذا يحسب نقطة وهمية فيه.

ذلك الـكون عظيم في ضخامة مادته، وعظيم في رحاب حيزه، وعظيم في انهار زمانه الجارية في مجاري الوجود. وأما عالمنا هذا الحيوي فبالرغم من ضآلة مادته وحيزه ومجرى زمانه وقصره، فهو أعظم من ذاك جدًّا في تنظيمه، وأعجب جدًّا في أنظمته. فالبيولوجي والبكتيريولوجي والهيستولوجي والفسيولوجي الخ .. يرون من أعمال الحياة وتفاعلاتها المتنوعة العديدة العجيب العجاب الذي لا يرى الفلـكي الطبيعي معادلاً له لا في الـكم ولا في الـكيف. إن متحف تاريخ الحياة القصير يحتوي على صور مختلفة لا يفرغ العقل البشري

من استعراضها . وأما متحف تاريخ الأكوان الذي يكاد يكون غير متناهٍ فني وسع العقل ان يستعرضه في فترة من العمر .

٣ — الالفة الكيمية سر الحياة

فلماذا هذا العالم الحيوي الصغير أعظم فنوناً من ذلك الكون الأعظم ؟ في حين أن كلا العالمين من مجتمعات مادة واحدة — فوتونات فبروتونات فالكترونات وذرات وجزيئات — تُرى أين السر ؟

لا بدَّ ان يبدر الى ذهن القارىء ان السر هو في الألفة الكيماوية المختصة بالعناصر الأربعة التي هي عتاد الحياة،فهي أقدر من الجاذبية العامة في التجميع والتفريغ وتنويع الدوريات كما رأيت في غضون هذا البحث . ولكن هذه الألفة الكيماوية موجودة في جميع الأجرام التي تجمعت من السدم الشفافة . ففي الشموس ترى عناصر متعددة لا وجود لمثلها في أرضنا ، وترى جزيئات مؤتلفة منها وبعضها كما في أرضنا ، وما هذه الألفة الكيماوية إلاَّ ضربٌ من الجاذبية .

أجل إن الألفة الكيماوية موجودة هناك.ولكن ليس السرُّ في وجودها بل في قيودها. فهي لا تستطيع في أي جرم غير الأرض ان تؤلف حياة من عناصرها الأربعة ، لأن الحرارة هناك شديدة جداً لا تدع للألفة الكيماوية أن تلعب أدوارها الحيوية في بعض بسائط الجزيئات . وفي الأجرام التي بردت وجمدت كأقزام النجوم المزدوجة لا تستطيع الألفة الكيماوية ان تلعب أدوارها الفنية العجيبة لعدم وجود الحرارة الكافية لعملها . ما وجدت مسرحاً لها إلاَّ أرضنا . ربما وجدت مسارح أخرى مثلها لا ندري ، لأن عملها الحيوي لا يحدث إلاَّ حيث تتراوح الحرارة بين الجليد والغليان ، وحيث توجد أشكال المادة الثلاثة : الجمود والسيولة والغازية في جوٍّ هوائي يشمل اوكسيجناً، وفي بحر مائيٍّ يشمل هيدروجناً ، وحيث الكربون والنتروجن مبعثران في الأشكال الثلاثة

من أين هذه الحرارة المعتدلة في الأرض ؟

ليست من حاصلات الأرض لأن الأرض باردة جامدة لا تشع إلاَّ النزر اليسير من حرارتها . وإنما الحرارة الواردة من الشمس تموّن الأرض بحرارة كافية للعمل الحيوي، لا أقل ولا أزيد مما هو لازم . فالالفة الكيماوية التي تلعب أدوارها على مسرح الأرض الحيوي تعتمد على ما تجود به الشمس من الحرارة من غير تفريط ولا افراط ، أو غير تبذير ولا بخل . ولولا وجود الشمس على بعد كافٍ لارسال ذلك القدر من الحرارة اللازمة ما استطاعت الالفة الكيماوية ان تنتج الحياة البتة .

وما هي الألفة الكيماوية ؟ أليست فرعاً من الجاذبية العامة ؟ اليست بنتها وربيبتها ؟ فلا بدع في أن الجاذبية العامة التي هي علة الدوران والتشعع تجعل الشمس ترسل الى الفضاء أشعة فوتونات حاملة طاقة وقوة دورانية، فيصيب منها الأرض رشاش يمنح عناصر الحياة الأربع قوة التجاذب (التآلف) والدوران . فالألفة الكيماوية الحيوية مستمدة من الجاذبية العامة . وانحصارها في مجال قصير من الحرارة الشمسية سمح لها أن تلعب أدوارها الفاتنة وتتفنن بها . لم يكن ذلك عن قصد من الشمس ولا من مجيء الأرض عمداً الى ظروف مهيئتها ملعباً لهذه الأدوار، وانما هي الصدفة الغريبة التي لا ندري ان كانت مفعول ارادة مستقلة حرة — حسبنا أن نعلم أننا حيثما رأينا صورة من صور الوجود مألوفة أو غريبة وجدنا هنا الجاذبية تعمل عملها تجميعاً وتفريعاً دوريين

ولكن هل يقف عملها هنا ؟

إذن كيف نشأ العقل ؟

٣ — ما هي الحياة التي نراها ؟ وكيف نراها

في بحثنا الآنف عنها لم نجد الا ألفة كيماوية تشتغل في ٤ عناصر . فأين الحياة إذن ؟ أهي الألفة الكيماوية ؟ لا . لأننا نعرف ألفة كيماوية بين عناصر أخرى، ولكن ليس فيها حياة . فما هي الحياة إذن ؟

لم يتيسر لنا الا هذا الجواب : —

ما هي الا ظاهرة خاصة بتآلف هذه العناصر الأربعة . وما هي هذه الظاهرة ؟ هي صور تركبات كيماوية متعددة من عناصرها الأربعة . إذن لا ذاتية ولا شخصية للحياة قائمة بنفسها (اذا لم تكن ثمت ذاتية خفية وراء هذه الظاهرات) . هذا الكتاب الذي تطالعه مؤلف من العناصر الأربعة وغيرها . فالعناصر ليست الكتاب . وانما تجمع العناصر متآلفة على هذا الشكل هو الكتاب . فالكتاب صورة من صور تجمعها . والبيت الذي تقيم فيه مبني من مواد مؤلفة من عناصر أخرى . فالعناصر ليست البيت وانما تجمعها على هذا الشكل هو البيت . فالبيت صورة من صور تجمعها . كذا الحياة ظاهرة من ظواهر المادة لا المادة نفسها . فهل العقل كذلك ؟

الباب الثالث

النظام العقلي

الفصل الثامن

ما هو العقل

١ — سر العقل

العقل في بحثنا عنه يتجلى لنا أنه ليس ظاهرة من ظاهرات تجمع العناصر ، بل هو ظاهرة من ظاهرات حركاتها ، هو ضرب من ضروب حركات المادة . والحياة ضرب من ضروب تجمعاتها .

أما سر الاثنين الأعمق فغامض

وإذا كان سر الحياة غامضاً فسر العقل أغمض منه مئة مرة .

إذا كان العقل كما نظن حركة في مادة الحياة فهو قد نشأ مع الحياة رفيقاً لها منذ بزوغها، بسيطاً في عهد بساطتها، مركباً في عهد تركبها .

٢ — شعور وشهوة وإرادة وتعقل

العقل شعور . ثم شهوة . ثمّ إرادة . ثم تعقل . ثم تفكير . ثمّ تصور . ثم تذكر . ثم تخيل . ثم تفلسف .

في أبسط صور الحياة (الميكروب) كالأميبا مثلاً العقل شعور فقط بسيط جداً . وإنما في هذا الشعور جرثومة كل ظاهرة من ظاهرات العقل . الأميبا تصدم ذرة رمل فتصد عنها ، ولكنها لا تصد عن حويصلة داي أتوم Diatom ، بل تلتف عليها وتغلفها وتلتهمها . وكرية الدم البيضاء تصدم أية كرية أخرى فتصد عنها ولكنها تصدم ميكروباً مرضياً سبحياً (ستربتوكوك) مثلاً فتلتف عليه وتلتهمه . أفليس هذا شعوراً في الأميبا تميز به بين ذرة الرمل والداي أتوم ؟ وشعوراً في الكرية البيضاء تميز به المكروب

المؤذي من الجرثومة الصالحة ؟ فأين منشأ هذا الشعور ؟ هل هو الألفة الكيمية فقط ، أم هناك شيء آخر معها نجهله ؟

نصعد درجة أو بعض درجات في سلّم أنواع الأحياء الى النبات الصياد مثلاً . فنرى هناك زهرة ماكرة مفتوحة تشتهي هوامة لكي تهتضمها ، فتظل مفتوحة الى أن تنقض ذبابة على ما فيها من رحيق مغرٍ لها ، فتنطبق هذه عليها وتهتضمها . لو وقعت عليها ذرّة من التراب ما أطبقت عليها . فهنا شعور يميز بين الذبابة والذرّة الترابية ، وشهوة تتحين فرصة وقوع الذبابة . فهل السر في الألفة الكيمية بين الزهرة والذبابة ؟ لا شك أن للألفة العمل الاول في هذا التصيد . ولكن للشعور والشهوة عملاً آخر أيضاً علاوة على الألفة .

فما الشعور وما الشهوة ؟ لا نرى إلاّ حركتي انبساط وانقباض في كل من الأميبا والكرية البيضاء والزهرة : فما سبب هذه الحركة ؟ سببه عمل كيماوي أيضاً ، ولكن ليس بسيطاً بل هو عمل مركب معقد ، تمخض عليه مصادمات جزيئات لجزيئات ، وخليات لخليات ، في ظروف خاصة لا يسهل إيضاحها.

نرتقي درجات أخرى في سلم أنواع الأحياء فنرى العنكبوتة أو الرتيلاء تنسج شبكة لتصطاد بها ذبابة تأكلها . فهنا نرى شعوراً وشهوة وإرادة وتفكيراً وتعقلاً نراها بسيطة محصورة في أسلوب واحد ، هو عملية التصيُّد .

نترقى الى الحيوانات الفقارية فنرى جرثومة التفكير والإرادة والتعقل أوضح وأنضج بأساليب مختلفة . وكلما ترقينا الى جهة الإنسان في سلم الأحياء رأينا القوى العقلية أظهر وأوضح وأنضج وأوسع دائرة بالأساليب .

فلا نستطيع أن نقول أن العقل ابتدأ من هذه الدرجة في سلّم الأحياء . ابتدأ مع الحياة وتطوّر بتطورها إلى أن بلغ القمة في الإنسان .

٣ — الجهاز العصبي مقام العقل

في بسائط الحياة العقل بسيط جدّاً ، شائع في جسم الحي (يدعونه غريزة) ولكنه كان كلما تنوّعت أعضاء الجسم وتخصصت لوظائفها الحيوية كان العقل ينحصر في ناحية من نواحي الأعضاء ، إلى أن انحصر في الجهاز العصبي في الحيوانات العليا . وكان كلما توالى التطوُّر تعددت وظائف الجهاز العصبي بتعدد أقسامه ، حتى أصبح هذا الجهاز في الانسان عالماً عظيماً ، متعدد الأعضاء ، متعدد الوظائف ، يسيطر على الجسم كله ، وعلى أعمال الجسم الداخلية والخارجيـة . فأين العقل الاسمى ؟ هذا السؤال لغزٌ لا نكاد نجد له حلاً .

ان الظاهرات تدلنا على ان مقام العقل هو في الجهاز العصبي فقط . ومركزه الرئيسي في الدماغ . ولكن ما هو ؟

نبحث عنه في أعماق الدماغ ، فلا نجد إلاّ حركات في مراكز الدماغ وسائر الجهاز، متوافقة في اتجاهاتها متكافلة في مآلها ، الأمر الذي لا يمكن حدوثه إلاّ بتواطؤ بين ملايين خليات الجهاز وتعاونها وتكافلها .

فكلما حدث شعور حدثت حركة في جميع الخليات التي يمرّ فيها هذا الشعور . هذه الحركة تتم بسلسلة تفاعلات كيماوية تعدّل فيها الخليات جانباً من جزيئاتها وذراتها كأنها تتجدد تجدداً تحوليًّا Anabolic . كذلك كل تفكير أو تصور أو ارادة الخ تتم بسلسلة تفاعلات كيماوية في الخلايا الدماغية المخصصة للتفكير أو التصوّر أو الارادة الخ . فلذلك نتصوّر الجهاز العصبي معملاً كيماويًّا عظيماً ، تحدث فيه تفاعلات كيماوية بين الجزيئات والذرات سريعة متعاقبة متعددة تعدّداً لا يتصوره العقل .

٤ — الافعال العقلية تفاعلات كيمية

البرهان العملي على أن الأفعال العقلية المختلفة إنما هي حاصل حركات التفاعلات الكيماوية في الخلايات الدماغية ، هو انه في حالة الاجهاد العقلي تكثر في بول المجهد أملاح الفوصفات ، لأن النشاط الدماغي يستلزم نشاطاً في التفاعلات الكيماوية . وهذه التفاعلات تستورد كثيراً من ذرات الفوصفور لتستخدمها في جمع الطاقة وتصدرها في انفاقها . وفي حالة الراحة العقلية تقل جدًّا أملاح الفوصفات في البول .

لا يرتاح عقلنا الارتياح التام لذلك التفسير لحركة الخليات الدماغية التي يكون من مركب مجموعها العقل أو قوى العقل . لأن أقل تأمل في المسألة يستحضر في ذهننا اللغز الأعمق والأعقد وهو : ان هذه الحركات تحدث في ملايين الخلايات الدماغية متعاقبة متوافقة متساوقة في حركاتها ، لكي تؤدي الى مصير واحد أو غاية واحدة . فما الذي جعل ملايين الخليات هذه تتفق على أسلوب واحد من الحركة لغاية واحدة ؟ أهي موجة ماجت في الجميع ؟ فما هو مصدر هذه الموجة ؟

لا يبعد أن تكون حركة موجية قد شاعت بين جميع خليات المركز أو خليات المراكز الدماغية المختصة بها، على أثر صدمة شعورية من الخارج مثلاً للعصب الحساس، فأحدثت تأيناً كهربائيًّا Ionisation ، وهو انتقال كهيربات من ذرة الى ذرة وانتقال ذرات من جزيء الى جزيء بتيار كهربائي . وهو ما يسبب التفاعل الكيماوي أو التحولات الكيماوية بين الذرات في كل جزيء يمرّ به ذلك التيار ، وبالتالي يُحدث تحولات

في الخليات Metabolism ، وهذا التحول المتتابع المتسلسل ينتج الحركة العقليـة التي نحن بصددها .

هذا تفسير معقول للحركة الفكرية الصادرة من تفاعل خارجي على نحو ما بسطناه . ولكن هناك من الحركات الفكرية التي تحدث من غير طارىء خارجي ، تفكير محض كالتفكير الفلسفي أو التفكير الفني . تصوّر عالماً يخلو بنفسه في غرفته ليحل مسألة علمية أو قضية رياضية . ففي هذه الحال ليس ثمت من محرض خارجي يحرك خليات دماغه للتفكير . ليس العامل إلاّ ارادة ورغبة في التفكير كما يتراءى لنا . فمن أين صدرت هذه الحركة الفكرية .

يتراءى لنا ان هناك ارادة حرّة ورغبة في التفكير والاعنات الذهني لحل القضية . ولكن الحقيقة ان وراء تلك الارادة وهاتيك الرغبة سلسلة محرّضات ، تكاد تقضي على الحرية التي نفتخر بها . وليس هنا محل لبحث هذه القضية فنكف عنها ، ونعكف على بحثنا الخاص بنشوء الحركات الفكرية ، على افتراض ان الارادة والرغبة وجدتا حاضتين على البحث والتفكير .

فعملية التحول الخلوي (نسبة الى خلية) [1] دائمة في كل عضو من أعضاء الجسم ، ودائمة على الأكثر في خُليّات الدماغ . ففي كل لحظة تتجدد جزيئات في الخليات وتندثر جزيئات وتتأيّن ذرات أيضاً . فلا يستحيل أن تصدر الخُليّات من تلقاء نفسها تفكيراً . والتفكير يتسلسل سلسلة لا تنقطع إلاّ بطروء طارىء . كما ان التحول الخلوي سلسلة لا تنقطع . وكل حلقة من السلسلة تستوجب صدور حلقة أخرى تليها . فمتى ابتدأت سلسلة التفكير في اتجاه خاص تفضي أخيراً الى الغاية ، وهي حل المسألة أو تكوين الفكرة .

وتصوّر أيضاً شخصاً فنيّا شاعراً أو مصوراً يستنبط شيئاً فنيّا جميلاً . فخليات دماغه الفنية تتحول على التوالي تحولات تنتج حركة فكرية فنية على نحو ما وصفناه . لذلك ترى ذا الفن كيفما فكر كان الغالب في تفكيره فنيّا ، لأن جانباً من خليات دماغه تهيّأ على تمادي الزمن لاصدار الفكر الفني ، إلاّ متى كان المحرك صادراً من الخارج ، فيشغل الخليات الأخرى لاصدار الفكر الملائم .

٤ — القوى العقلية العليا

التفكير الداخلي المحض طبقة عليا من العقل ، تستنبطه الخليات من تلقاء نفسها ، بمجرد تحولاتها الذاتية الفسيولوجية ، حسبما تعودت بفعل الطوارىء الداخليـة كالتدريب والتهذيب ، فضلاً عن الشعور الحسي والنوابض النفسانية المحرضة . لهذه الطبقة العليا

---

(١) استشفل صيغة هذه النسبة بلفظ « خليي » . المصدر العرفي المدقق

من التفكير الفلسفي والتفكير الفني أعمال عجيبة تضع العقل تاجاً على رأس الحياة ، كما أن الحياة تاج على رأس المادة الكربونيتراوكسيهدروجينية .

فنظريات الفلاسفة والعلماء المستنتجة من ظاهرات الطبيعة هي حجار كريمة في ذلك التاج . وكذلك الفنون الجميلة البارزة في الشعر والرسوم ونحوها هي جواهر أخرى فيه، حتى جميع ظاهرات التمدن في سائر أدواره هي جواهر أخرى فيه أيضاً. فما أعظم العقل! — العقل الذي ألبس سطح الكرة الارضية حلة بهية مزركشة من معالم المدنية ، تذهل العقل الفردي بجمالها وأساليبها التي لا تحصى — حلة بديعة جعلت هـذا السيار الارضي يفتخر على جميع سيارات الشمس بل يفاخر جميع اجرام السماء بجمال له وليس لهن .

٥ — هل العقل ذاتية قائمة بنفسها — العقل وظيفة من وظائف الدماغ

ليس الغرض في هذا الفصل البحث السيكولوجي . وانما الغرض الاساسي تبيان أن هذا العقل السامي المتوج للحياة هو نتيجة إلفة كيماوية تتلاعب بعناصر أربعة في الدماغ تلاعباً متنوعاً لاحد له .وإذا لم يكن العقل حركة خُلَيِّيَّة بفعل الالفة الكيماوية فماذا يكون؟

إذا كان العقل ذاتاً مستقلة عن المادة ، ولكنه حالٌ فيها يستخدمها للاتصال بالطبيعة عن طريق الحس العصبي ، وجب أن يبقى بذاتيته فيما لو عجزت المادة الدماغية عن خدمته لسبب من الاسباب يجب أن يبقى له على الاقل تفكيره وتعقله وتذكره الى غير ذلك ، مما لا يحتاج فيه الى خدمة المادة الدماغية . فلماذا تتعطل خواصه هذه بتاتاً وتقف قواه عن العمل في حالة النوم العميق مثلاً أو في حالة التخدير ؟

قد تقول انها لا تتعطل بل تبقى عاملة عملها ، بدليل حدوث الأحلام في المنام . فاذا كان النوم عميقاً فلا يتذكر المرء أحلامه متى صحا . . . ولكن ما قولك فيما اذا تخدَّر الدماغ بمخدر فلا يبقى احساس ولا تفكير . فأين يكون العقل حينئذٍ ؟ ولماذا ينقطع عن التفكير بتاتاً ؟

في حالة السكر والجنون المطبق يكون الكلام خالياً من الوزن والتعقل والمنطق — يكون هذياناً . فاذا لم يكن العقل حركة فكرية صادرة من تحولات خليية ، فلماذا يختل بفعل الخمر وأمراض الدماغ الجنونية ، إذا كان مستقلاً عن المادة الدماغية ؟

يقودنا الموضوع الى مسألة الروح باعتبار انها وعاء العقل ، (إذا صحَّ قول المعتقدين بها) وانها ذات مستقلة عن المادة تنفصل عنها عند الموت، فأين تكون الروح في حالة الغيبوبة، أو في حالة السكر والعربدة ؟ وكيف تعود الى مقامها في الدماغ متى انقضت الغيبوبة؟ ولماذا لا تتذكر أفعالها في حالة العربدة ؟

هل يمكن تفسير الأقوال والافعال في حالة السكر، الا أن التحولات الخليية أصبحت فوضوية غير نظامية ، فأصبحت الحركات الفكرية التي تنتجها فوضوية غير نظامية أيضاً . لا نستطيع أن نعلل التفكير على اختلاف صنوفه نظامياً أو غير نظامي إلا بأنه حركة ناتجة من التحولات الخليية .

يذهب الروحيون أو بعضهم إلى أن الروح هي جسم غير هيولي . هي جسم إيثري ، أي انه مؤلف من ذرات الأيثر على مثال الجسد الهيولاني ، حتى متى انحل هذا بقي ذاك والعقل حال في ذاك . فهو تعليل جميل . ولكن لا برهان عليه إلا ما يزعمونه من مخاطبة الأرواح بعد الموت . وهو زعم لم يثبته اختبار صادق أمين . خال من مجرد دعوى ذويه ، وأوهامهم التي ما وقعت تحت امتحان خصومهم إلا ظهر بطلانها .

مما يؤيدون به دعواهم هو مسألة توارد الخواطر أي Telebathy . ولكن التوارد هذا يعلل بالاتصال الأيثري بين مراكز الأدمغة المتباعدة بواسطة الأمواج الكهرطيسية على نحو طريقة الراديو ، فهو أمر معقول جداً . فإذا ثبت كان حدوثه ممكناً بين الأحياء لا بين الأحياء وأرواح الموتى . لأن ثبوته هكذا يستلزم إثبات وجود الروح المستقلة عن المادة أولاً .

إذا صح أن العقل هو نتيجة حركات الخليات الدماغيـة فقوانين التجمع والتفرع والدورية فيه هي نفسها التي بسطناها في الحيـاة . تجمع خليات خاصة في الجهاز العصبي وتفرعها إلى خليات متنوعة بحسب تنوع وظائفهـا . ذلك لأن العقل حركة خليات كما تبسطنا به .

الفصل التاسع

العقل الاجتماعي

١ — هو تموج كهربائي

رأينا فيما تقدم ثلاثة عوالم في الكون . الأول : عالم المادة المؤلفة من الفوتون (أو فوتون الأيثر) والشاغلة حيز الكون وزمانه . والثاني : علم الحياة الشاغل ما بين سطح الأرض والجلد (الهواء) . والثالث : عالم العقل الذي هو حركة خصوصية من حركات الحياة . والآن نرى عالماً أعلى ، هو عالم عقل الاجتماعي .

إذا كان العقل تاج الحياة ، فالعقل الاجتماعي هو قمة هذا التاج .

كما أن العقل الفردي هو نتيجة تركب الحركات الحادثة في ملايين خُليات الجهاز العصبي، المتوافقة في اتجاه واحد لغاية واحدة ، هكذا العقل الاجتماعي هو تركب الحركات الحادثة في ملايين الأفراد المتوافقين في اتجاه واحد لغاية واحدة .

ليس المقام مقام بحث في أنظمة الاجتماع البشري. ولكن دارس علم الاجتماع (والمطلع على مجلدي « علم الاجتماع » اللذين أصدرناهما بهذا العلم منذ بعض سنين) يفهم أن المراد بالعقل الاجتماعي هو اشتراك الجمهور في عقيدة دينية أو رأي سياسي أو في زي واحد أو تقليد واحد ، بحيث يسددون جميعاً أفعالهم إليه . وهذا يستلزم أن تكون عقيدتهم الفردية قد صيغت في قالب واحد تقريباً ، كأنهم يفتكرون فكراً واحداً ، ويشتهون غاية واحدة، ويتعاونون في الحصول عليها . لذلك نرى أنه إذا صدرت فكرة من مركز واحد رئيسي كحكومة أو سلطة دينيـة أو جمعية أو حزب أو شبه رئيس، كزعيم أو عالم أو ذي فن أو مخترع أو نابغـة مبتكر — إذا صدرت من أي مركز كهذه المراكز حركة نظام أو رأي أو بدعة أو فن جديد ، انتشرت حركة هـذه الموجة على جميع العقول الفردية ، وهزتها كلها هزة واحدة ، وطبعت فيها الفكرة نسخاً متعددة كما تطبع عبارتها على الورق . فكأن الفكرة فكرة عقل جماعة .

يستفاد مما تقدم أن العقل الاجتماعي هو مجموعة عقول فردية مصوغة صياغة واحدة في بيئة واحدة ، تتحرك معاً في اتجاه واحد كما تتحرك ملايين ذرات المادة معاً ، في جرم

واحد ، حول مركز واحد ، بسرعة واحدة ، لارتباط جاذبي فيما بينها وبين المركز . فالفكرة أو الرأي الاجتماعي هو المركز الذي تحوم من حوله عقول الجماعة بقوة جاذبية ذلك الرأي لها . وانتشار الفكرة الصادرة من مركز عبقرية أو زعامة الى الأفراد هو كانتشار الموجة في الجو الجاذبي الى جميع الجهات ، بحيث يصدم كل عقل يصيبه فيحركهُ ليدور حول الفكرة نفسها .

ليس هـذا التشابه بين تجاذب الذرّات نحو المركز وبين تجاذب العقول نحو الفكرة تشابهاً مجازياً ، بل هو حقيقي لأنّ القوة الجاذبة واحدة في النوعين، بالرغم من التباين العظيم في الشكل .

رأينا الحركة الفكرية في الدماغ الواحد تموّجاً في جميع الخليات ، لأن الجوّ الكهرطيسي الذي تسبح فيه ذرات الخليات يتموّج بفعل ذرات المركز الدماغي ، فيحرك ذرّات الخليات جميعاً وينتج فيها حركة واحدة ، وتأيناً Ionisation واحداً وتحوّلاً Anobolism واحداً، وهذه الحركة هي التفكير العقلي .

كذلك نرى خليات الدماغ الواحد في المركز الاجتماعي — الزعيم أو العبقري — حين تنتج فكرة أو رأياً تحدث في جوها الكهرطيسي أمواجاً تسير في أسلاك الجهاز العصبي وتصدر الى الخارج في شكلين . الأول : صوت اللفظ الكلامي الذي تنتقل أمواجه الهوائية الى الآذان ، فالأدمغة ، وتحدث نفس الفكرة فيها . والثاني في شكل حركات عضلية كالإشارات الكتابية ونحوها ، وهذه تصدر أو تعكس أمواجاً نورانية تنتقل الى العيون فالأدمغة ، وتحدث فيها الحركات الخليية التي تصدر نفس الفكرة — تلك عن طريق العين، وهذه عن طريق الأذن .

فنرى ان التموج الكهرطيسي هو الوسيط الموجي الذي تنتقل فيه أمواج الفكرة من دماغ الى أدمغة عديدة . اذن الحركة الفكرية تنتشر في جو كهرطيسي كانتقال النور والحرارة الخ ، سواء في الدماغ الواحد أو في جماعة أدمغة .

٢ — العقل مركز التموج

الفكر إذن صورة من صور القوة (الطاقة) . وقوته تمتاز بكونها قوة تنظيمية ، أو قوة سيطرة تسيطر على قوى المادة، بمعنى انها إذا تسددت الى قوة مادية طوعت حركتها طبقاً لها . فالفكرة الصادرة من مركز زعامة أو مركز ابتكار نبوغ ، اذا انتشرت أوعزت الى عقليات أخرى أن تتحرك بفكرات مماثلة لها . فقوة هذه الفكرة المركزية لم تتوزع على العقليات العديدة ، وانما هي أثارت قوى العقليات العديدة لكي تحذو حذوها. فالفكرة

التي نشأت في هذه العقليات العديدة طبقاً للفكرة المركزية ،كانت تحركاً بقوة العقليات نفسها ، بايعاز الفكرة المركزية . فالفكرة المركزية . هي « كالزنبلك » الذي يحركه الميكانيكي بقوة ضعيفة ، فيطلق العنان للآلة الميكانيكية أن تدور بالقوة المودعة فيها ، لا بقوة الزنبلك . ما كانت حركة الزنبلك إلاّ ايذاناً لها بالدوران .

بهذه القوة الفكرية الممتازة يقود الزعيم القوم والقائد الجيش ، وكلاهما بحمسان الجماعة لفعل الأفعال العظيمة . وما كانت قوته الفكرية إلا ايعازاً لقوى الجماعة أن تفعل الفعل الموعز به .

ثم ان هـذه القوة الفكرية تمتاز بكونها تُـخزَن ولا تضمحل . ففيما نحن نقرأ مثـلاً تعاليم موسى أو عيسى أو محمد تنشط في أدمغتنا التفكيرات بمبادىء هؤلاء الانبياء والرسل وننشط نحن للتحدث بها ، أو الـكرازة وللعمل بموجبها . وفيما نحن نشاهد آثار الأقدمين التي هي مخزونات فكراتهم ينشط فينا التفكير بها ، وقد نضع مثلها ولو بتعديل وتنقيح : وفيما نحن نقرأ تاريخ نيرون تنشط فينا أفـكار الحنق عليه . ففكرة الأنبياء والرسل وفـكرات الأقدمين الأثريين ، وفكرة نيرون — كانت قوة مخزونة كلما عرضت لنا أثارت فينا فـكرات تقتضيها .

فاذا كانت ثمَّـت أرواح خالدة فهي هذه الفـكرات المخزونة الخالدة في الـكتب والرسوم والآثار التي تثير فينا فـكرات مضارعة لها أمس واليوم وغداً الى ما شاء الله ان تبقى الحياة على الأرض تنتج عقولاً .

٣ — رد فعل العقل على الحياة والمادة

فهمنا أن العقل فرديّـا أو اجتماعيّـا هو نتيجة تفاعل الذرّات الأربع في خليات الدماغ — التفاعل الـكيماوي المتواصل السريع بلا انقطاع — فما انقطع في شخصية حيّ إلاّ بعد أن تناولته أحياء بعده . بقي أن نعلم أن للعقل تأثيراً على المادة الحية أو التي بلا حياة — وهو رد فعل عظيم — هو تأثير الحي في البيئة . فلا يقتصر هـذا التأثير على فعل العقل السامي (عقل الانسان) بل يعم سلسلة العقول من أدناها إلى أعلاها . ولـكن أضعفه في الدنيا منها وأقواه في العليا .

الجيولوجي ينبئنا عن التغييرات التي حدثت على سطح الأرض . حدثت بفعل الحياة الدنيا . فالمرجان أنشأ جزراً في البحار . والغابات تستمطر السماء حيث لم يكن مطر من قبل. وأمطارها جرت أنهاراً وسيولاً جرفت الأتربة من الأعالي الى الأسافل . تكفي هـذه الاشارة المختصرة الى تطوير الحياة للبيئة كرد فعل لتطوير البيئة للحياة .

واذا صعدنا الى العقل البشري وجدنا تأثيره في المادة عجباً عجاباً . العقل سيطر على كثير من نواميس الطبيعة فطوّعها واعتقلها واستخدمها، سيطر على تيارات الكهارب واستولد منها نوراً وقوة ميكانيكية ، كما سيطر على حرارة البخار،فاستولد بواسطتها هذه القوة، فضلاً عن التيار الكهيربائي .

لا متسع لوصف ما فعله العقل البشري من التطورات المادية على سطح الأرض . كيفما التفت وفكرت وجدت نماذج هذه الأفعال العجيبة التي أنتجتها القوى العقلية . وإذا اطلعت على ما اكتشفه العقل من أسرار الطبيعة ، وعلل ظاهراتها في الأرض والسماء وتحت الأرض وما وراء السماء ، دهشت لمقدرة هذا العقل .

والفلسفة هي عقل اسمى . هي عقل العقل .

٤ — أنظمة التجمع والتفرع والدوران العقلية

فيما تقدم من البحث فهم القارىء ان العقل خاضع لسنة التجمع والتفرع وسنة الدوران أيضاً .فالعقل الفردي هو مجمع حركات ملايين الخليات الدماغية في أسلوب واحد منتج فكرة واحدة قائمة بذاتها . والعقل الاجتماعي هو تجمع حركات عقليات الأفراد في أسلوب واحد منتج رأياً أو عقيدة واحدة .

وفيما الفكرة الواحدة تنتشر ، تتفرع الى فكرات مختلفة فيما بينها بعض الاختلاف كثيراً أو قليلاً . ومن ذلك نشأ الاختلاف في التصورات والأفكار والآراء حتى في صيغ القول . فمع أن الجماعة تتجمع على نظرية واحدة أو عقيدة واحدة ، تراها في ذهن كل واحد منهم ذات شكل خاص يختلف شيئاً عن الشكل الذي في ذهن الآخر . وقد تتباين في بعض الأذهان تبايناً كلياً بحيث أن النظرية الواحدة تنفلق الى نظريتين ، أو بضع نظريات فرعية كعقيدة الاشتراكية مثلاً ،فهي عدة نظريات مفترقة بعضها عن بعض بحسب ميول الفئات أو الأشخاص البارزين . وكذلك الأمر في العقائد السياسية كالديموقراطية مثلاً ،فهي فروع مختلفة باختلاف الهيئات الحكومية وعقائد المتفلسفين فيها .

فترى أن التفرع الفكري مصاحب للمجتمع العقلي على الدوام . تجمع العقول على فكرة عامة وتتباين في وجوه هذه الفكرة .

أما التنظيم الدوراني العقلي فهو ظاهرة انتشار الفكرات . فكل فكرة صادرة من مركز ابتكاري هي مركز حركة الانتشار . الفكرة تنتشر من المركز الى عقول الجماعة . فكأن العقول في تأثرها منها تدور حول هذا المركز . فكأنها نظام شمسي قائم بذاته

ولأن العقل نتيجة تركب معقد — تركّب حركات خليات دماغية، هي نتيجة تركب جزيئات عديدة متنوعة، وكل جزيء هو مركب ذرات عديدة، فمراكز الفكرات عديدة لا تكاد تحصى. والدورانات عديدة بتعدد المراكز، يقاطع بعضها بعضاً ويصادم بعضها بعضاً. فالعالم العقلي هو بحر متمدد أشكال الأمواج تعدداً لا يحصى، بحيث يتعذر عليك أن تتبع دورة حركة فكرية وأن تهتدي إلى مركزها.

* * *

رأينا أننا كلما صعدنا درجة في سلم ارتقاء العوالم الكونية رأينا التنظيم أكثر تركباً وتعقداً، وأشكال الأنظمة أكثر تعدداً. ففي العالم المادي لا نرى إلا ست درجات أنظمة «تجمعية — تفرعية»، ذات ست دورانات بسيطة متداخلة، يمكنك أن تميزها بعضها عن بعض وتظفر بمركز كل منها. وفي العالم الحيوي ترى ثلاثة أنظمة مُتدخلة متمايزة: نظام كل من الذرات الأربع. ثم نظام جزيئاتها. وهذا متفرع الى ألوف الفروع البروتابينية والكربو هيدراتية والدهنية. ثم نظام البروتوبلاسم. وهذا متفرع الى ألوف الفروع بمقتضى وظائف الأنسجة المؤلفة منها. ولكل من هذه الأنظمة دورانه الخاص الممتاز به. حتى إذا جئنا الى النظام العقلي ولا سيما العقلي الإجتماعي لا نعود نظفر بنظام مستقل. لأن النظام العقلي يبتدع كل هنيهة نظاماً فرعيّاً جديداً. كل فكرة هي نظام فرعي قائم بنفسه. وبالتالي نستطيع أن نميز دوراناً عن آخر.

٥ — نظام الادبية

قلنا أن العقل الاجتماعي هو قمة تاج الأنظمة الكونية. فهل ثمت نظام آخر فوقه أرقى منه؟

نعم هو نظام الأدبية. «أدب النفس». الأخلاق. هذا النظام ترصيع لتاج العقلية. هو التنظيم الأعلى الذي يعصم النظامين: العقلي والحيوي من الفوضى ويقيهما من الفساد، هو الذي يجعل التنظيم مطرداً ومتجهاً إلى المثل الأعلى.

الأدبية تنظيم لتصرف الحي أو سلوكه بحيث يجعل هذا التصرُّف الحيّ متقياً الأخطار المهددة لكيانه، ومنتفعاً من البيئة: طبيعية واجتماعية، حرصاً على بقائه. يجعله مطاوعاً للبيئة القاسية العتية التي لا تطاوعه، ومكيِّفاً البيئة اللينة التي تطاوعه تكييفاً يقدره في أن يدرأ الشر وينتفع بالخير. الأدبيـة إذاً هي التعقل الأسمى. الفضيلة. هي تاج العقل الاجتماعي.

نشأت هذه الأدبية مع الحياة كنشوء العقلية معها منذ أبسط أدوارها ، أي منذ نشوء الخلية المفردة ، وترقت معها حتى بلغت الى درجة الإنسانية . فهي بسيطة مع الحي البسيط ، ومركبة معقدة مع الحي الأعلى المركب المعقد .

الأدبية إذن عالم خامس من عوالم الكون : — المادة . الحياة . العقل الفردي . العقل الاجتماعي . الأدبية .

٦ — فماذا بعد هذه ؟

هل يقف التطور الكوني عند هذا الحد ؟

لا نظن . بل نعتقد أن التطور مطرد ، مستمر . لا ندري ماذا يأتي بعد الأدبية من الأنظمة الكونية الرئيسية . ولكننا ننتظر أن يكون في قلب الطبيعة حلقات جديدة من سلسلة الأنظمة، نجهل شكلها وأسلوب حركتها وغايتها ، ستبرزها الطبيعة في لوحة المستقبل

نعتقد ذلك لاننا رأينا أن العقل ما رسا على سطح المادة فقط ، بل جعل يبني طبقات فوقها . ففي الاحياء الدنيا كانت الغريزة البسيطة كافية للحرص على البقاء . هي ضرب من الفهم . هي فهم داخلي فقط متفاعل مع عوارض البيئة . نقول انها فهم داخلي لأنه كان يكيف خليات أعضاء الحي بحسب ما تقتضيه البيئة . ثم ارتقى في الاحياء العليا فصار فهماً خارجياً أيضاً مضافاً الى الغريزة. صار من جهة يكيف الحي بمقتضى البيئة . ومن جهة أخرى يكيف البيئة ما استطاع لكي تطاوع الحي . في الدرجة الأولى الحي الأدنى آلته أعضاؤه فقط. وفي الدرجة الثانية الحي الأعلى لم يكتف بأعضائه آلةً له ، بل استنبط آلات خارجة عنه كالعدد الميكانيكية. وغيرها يستخدمها في الحرص على بقائه . وقد نجح في استنباط الآلات الخارجية حتى كاد يستغني عن استخدام بعض آلاته العضوية . وقد بطل عمل بعضها بهذا الاستغناء. فلا يدب على الأربع ولا يستعمل أخمص قدمه كفاً للقبض ككف يده كبعض أشباه الانسان . ولا يجتر ، ولم يعد يستطيع الركض السريع، ولم تبق له مخالب الخ . لأن آلته أغنته عن كل هذه .

ثم ارتقى الفهم في الأحياء العليا أيضاً درجة أخرى إذ صار يدرك أن له ادراكاً وصار يفهم الفهم . وصار يعلل ويفسر ويتفلسف ، أي صار له عالم عقلي قائم بذاته مجرد عن المادة. فكثير من غرائزه تحولت الى تعقل مستند الى الاختبار والى استدلال واستنتاج من مجرد التفكير بتحليل الظاهرات .

هنا نشأت درجة التجريد Abstraction . والرياضيات أعظم وأظهر نموذج للتجريد هذا

فما أدرانا أن ينشأ من هذا التجريد الذي هو أعلى ظاهرات العقل عالم آخر ليس لنا الآن أقل تصور عنه ؟ ما أدرانا أن يصبح الفهم العادي في المستقبل البعيد كغريزة في الإنسان، فيولد الطفل فاهماً أموراً كثيرة كما يولد الآن، وهو يفهم أن غذاءه في ثدي أمه فيرضعه بلا تعلم. ما أدرانا أنه في المستقبل البعيد يولد وهو يفهم مبادىء الرياضيات والطبيعيات كأن هذا الفهم شيء طبيعي في خليات دماغه ، سجيّة من سجاياها . وما أدرانا أن شعوره الداخلي يرتقي إلى حد أن يفهم معنى الجاذبية بلا إرشاد ولا تعلم . وما أدرانا أنه في ذلك الزمان يفهم النسبية بالبديهة كما يفهم الآن أن القيمتين اللتين كل منهما تساوي قيمة ثالثة هما متساويتان .

وما أدرانا أن يقوى التيار الكهربائي في أعصابه فيفهم التموج الكهرطيسي فهماً طبيعيًّا ، وحينذاك لا يبعد أن يصبح التفاهم عن بعد بلا واسطة ظاهرة (على نمط الراديو) شيئاً طبيعيًّا في الناس ؟ إذ تصبح أدمغتهم شديدة الإحساس بالأمواج الكهرطيسية الصادرة من أدمغتهم . وحينئذٍ يبزغ عالم سادس من عوالم الكون لا نعرف الآن كيف نصفه .

ما أدرانا ان الجهاز العصبي يقوى جدًّا في الإنسان الى حد أن يتحوّل الإنسان كله الى كتلة أعصاب تكون مقاماً لهذا العالم السادس الذي نتكهن بحدوثه، ولا ندري الآن كيف تكون ظاهراته . كل هذا ممكن كما أمكن صدور العقل العجيب من خليات الدماغ . فليس لسنة التطور الحيوي حدٌّ تقف عنده على نحو ما رأينا في درجاته الآنفة الذكر .

إن ما مرّ من عمر الحياة الى الآن ، أي منذ صارت الأرض صالحة لها ، ليس إلاّ دور الحداثة ، وان ما بقي من عمرها ، أي الى حين لا تعود الأرض صالحة لها ، عدّة أضعاف دور الحداثة . فإذا كانت الحياة في دور حداثتها قد أنتجت عقلاً فلسفيًّا واجتماعيًّا وأدبياً وفنًّا أيضاً ، فهل يمكن أن يتوقف تطوُّرها ويستقر على حاله الحاضرة في ما بقي من عمرها الطويل ؟ ولماذا ؟ وإذا كان لا بدّ من استمرار التطوُّر بصورة لا ندري ماذا تكون ، أفلا يسير هذا التطوُّر بحسب سنة التسارع ، أي انه يكون أعجل فأعجل في المستقبل . وإذا صدقت هذه النظريات فكم من العوالم ستتلو عوالم العقل والاجتماع والأدبية في الدهر الداهر ؟ . طوبى لمن يعيشون في دور كهولة الحياة ؟ .

الفصل العاشر

الشخصية

في « تفصيل النظام العام » في أول الكتاب ذكرنا ثلاثة تفصيلات : ١ – عملية التنظيم العام — ٢ — حاصل هذا التنظيم ، أي أطوار الأنظمة — ٣ — الشخصية .

انتهينا من الأولين ، ولم نتعرّض فيهما بتاتاً للثالث ، وهو من الوجهة الفلسفية من الأهمية بمكان . وقد أصبح بعد شرح التفصيلين السابقين سهلاً تبيانه بإيجاز وبوضوح .

١ — الشخصية المادية

لكل تجمع شخصية خاصة به تميزه عن الأجزاء التي تألف منها وعن كل تجمع آخر ، يختلف عن الأجزاء التي تألف منها كثيراً أو قليلاً ، بقدر ما بين أجزائه من قوة الارتباط وما فيه من عدد الوحدات .

فحيث تكون قوّة الارتباط هي الجاذبية العامة ، فلا يكون الاختلاف بين الكل وأجزائه إلاّ في الأعراض الظاهرة كالشكل الهندسي ، والحجم والوزن ونحو ذلك . مثلاً البيت لا يختلف عن الحجارة التي بني منها إلاّ بهندسته وحجمه وزخرفه . وبلورة أي ملح من الأملاح لا تختلف عن الجزيئات التي تألفت منها إلاّ بشكلها الهندسي المتشاكل Symmetrical . والبحر لا يختلف عن جزيئات الماء إلاّ بكونه خضمّاً عظيماً ذا تموّج، ولا فرق بين ان يكون بحراً أو أوقيانوساً أو بحيرةً .

ولكن اذا كان الرابط بين أجزاء التجمع شحنات كهربائية كان الاختلاف بين الكل وأجزائه أعظم مما ذكرنا ، وصار للعدد حينئذٍ شأن في الشخصية أيضاً .

فالذرة تختلف عن كل من البروتون والالكترون (الكهرب والكهيرب) بكونها متعادلة الشحنة الكهربائية في حين أن البروتون ايجابي والالكترون سلبي .

ثم ان لعدد الأجزاء شأناً عظيماً في الشخصية . فكل من ذرّة الهيدروجين وذرّة الهيليوم ذات شحنة كهربائية متعادلة . ولكن الأولى تشتمل على بروتون واحد والكترون واحد فقط . والثانية تشمل على ٤ من كل من البروتون والكهرب فطبيعتهما

يختلف كل الاختلاف : الأول قابل الالتهاب (أي يتأكسد . يحترق) والآخر لا يقبله — لا يتأكسد . واختلاف الذرات في عدد ما في كل منهما من البروتونات والالكترونات والنيوترونات هو سبب اختلافها في الطباع والخواص . فما في الذرّة من عدد البروتونات والالكترونات والنيوترونات ، وما يستلزمه من كمية الشحنات هو الذي يعين لها شخصيتها التي تعرف بها،وهو الذي يجعل طبيعتها تتميز عن طبيعة غيرها .

وإذا انتقلنا الى التجمعات التي يكون الارتباط فيها « إلفة كيماوية » وجدنا الاختلاف بين الكل وأجزائه أعظم مما ذكرنا آنفاً . جزيءالماء يختلف اختلافاً كلياً عن كل من ذرتي الهيدروجين والاوكسجين اللتين يتألف منهما : يختلف في طبيعته أيما اختلاف : هوسائل وهما غازان . ناهيك عن طباع أخرى يباينهما فيها . وما من مركب كيماوي من أملاح وعضويات يظهر فيها الجزيء شيئاً من طباع الذرات التي تألف منها . فشخصية أي جزيء بعيدة كل البعد عن شخصية أي ذرة من ذراته، شخصية السكر مثلاً تختلف عن شخصية كل من الكربون والهيدروجين والأوكسجين .

٢ — الشخصية الحيوية

نتقدم الى الخليات الحيوية التي يشترك فيها الرابط الحيوي (للمبدأ الحيوي المجهول) مع الرابط الكيماوي في ادماج الجزيئات المختلفة في جسم خلية ، فنجد ان الشخصية الحيوية لا تقل تأثيراً عن الشخصية الكيماوية . فحين تطلع على ظاهرات الخلية من الوجهة الهيستولوجية،أي تكونها الطبيعي،لا يتمثل لك دهنها وزلالها ونشويتاها . وانما تتمثل لك نواتها وقناتها المحتوية على سائلها (بلاسما) وغلافها وتيار سائلها الخ ، ولا تبدو لك طبيعة الخليات التي تتألف الخلية منها إلاّ في التحليل المعملي الذي تنحل فيه الى جُزَيئاتها.

فالخلية بعيدة في السجية والطبع عن الجزيئات التي تتألف منها ، مع ان شخصية كل خلية تتوقف على أنواع الجزيئات التي تتألف منها،وعلى عدد ما فيهـا من كل نوع . هذا ما يميز بين خلية عضل وخلية عصب وخلية كبد وخلية جلد الخ .

٣ — الشخصية العقلية

ثم نتقدم الى العقل . العقل كما تقدم القول هو حركة جماعة خليات ناتجة عن سلسلة عمليات كيماوية متتابعة في كل خلية . ولكل قوة من القوى العقلية مركز خاص لها في الجهاز العصبي والدماغ على الأخص . فشخصيتها تتوقف على شخصية ذلك المركز المؤلف من خليات عديدة متنوعة ، ومهيأة لكي تحدث تلك الحركة العقلية الخاصة .

فمجموعة حركات الخليات المتنوعة هي التي تكوّن شخصية تلك العقلية ، كالتصوّر مثلاً أو التذكر أو الاستدلال الخ . وليس بين تلك القوة وخليات المركز من تشابه البتة لا في الطبيعة ولا في الشكل . فالشخصية العقلية قائمة في تآلف حركات الخليات الكيماوية

* * *

إذا تقدمنا الى المجتمع الانساني الذي يتألف عقله الاجتماعي من عقليات الأفراد نجد اختلافاً بين عقل الجماعة وعقل الفرد، ولكنه ليس الاختلاف العظيم الذي نجده بين الجزيء وذراته ، أو بين الخلية وجزيئاتها . بل هو أضعف، لضعف الرابطة بين عقليات الأفراد ، وهي الرابطة « الأدبية » . لذلك لا نجد الفرد يفنى فناءً تامًّا في الجماعة كما تفنى الذرة في الجزيء . قد يشتد هذا الرباط الاجتماعي في المستقبل ويصبح المجتمع أشد توثقاً ، فتبرز شخصيته بروزاً أتم . حينئذٍ يفنى الفرد في الجماعة ، كما يفنى الجندي في الفيلق ، ويفقد كثيراً من حريته وارادته .

ترى مما تقدم أن الجاذبية التي هي ينبوع كل قوة وعلة كل حركة في الوجود قد صاغت من أعداد الوحدات المختلفة شخصيات مختلفة متمايزة ، من ذرات وجزيئات وخليات وعقليات وغرائز الخ ، فجعلت الكون قطعة فنية بديعة عجيبة .

الباب الرابع

قضايا فلسفية

ننظر الآن الى الكون الأعظم ككل بقطع النظر عن أجزائه

الفصل الحادي عشر

العلل والمعلولات

١ً — هل لحلقات هذا الكون التي شرحناها سلك واحد تنتظم فيه من أدناها البحر الفوتوني ، الى أعلاها ، العقل الاجتماعي وأدبيته ؟

لا نرى هذه الحلقات تشترك بشيء سوى قوة الجاذبية . هذه القوة عاملة في كل حلقة من الحلقات الست التي أجلناها آنفاً . وفيما سوى ذلك فكل درجة من درجات التطور الكوني عالم مستقل بظاهراته وتنظيمه مع تشابه النظم في مجملها :

فالأجرام تجمع بلا تركب ، والجزيئات تجمع وتركب ، بحيث ان المركب يختلف في ظاهراته عن الأجزاء التي تركب منها . وتركبها يكاد يكون ثابتاً أو قليل التغير .

وفي الحياة تجمع وتركب متعدد معقد دائم التحول والتنوع ، وتحرك ملازم للتركب والتحول .

وفي العقل تجمع وتركب وتحول ، وتحرك خليات سريع .

وفي الجميع يمكنك أن تتقصى الجاذبية .

٢ — ما هو كائن فلا بد أن يكون

هل التطورات الطارئة في هذه العوالم ناتجة حتماً ؟ أو كان ممكناً أن يُنتج الكون المادّي غير هذه العوالم التي نتجت منه ؟

إذا كانت طبيعة الكون المادي تستلزم حتماً نشوء تلك العوالم التي شرحناها كانت هـذه العوالم مضمرة في كل فوتون من فوتونات المـادة . أي أن طبيعة الفوتون نزوعة

للنشوءات التي نشأت منه . وإذا كان الأمر كذلك وجب أن تكون أجزاء الكون متماثلة تمام التماثل في كل مكان وزمان ، ووجب أن تكون الحياة ، وتاجها العقل ، في كل جرم من الأجرام . وبالتالي وجب أن تكون الأجرام متشابهة حجماً وحرارة وتشععاً الخ . ولا تفاضل بينها ولا تفاوت ولا تباين ، لأنها جميعاً متجمعة من فوتونات ذوات طبيعة واحدة . والواقع غير ذلك فاننا نرى جماعات المادة مختلفة الأحجام والأعمار والكثافة ونشاط الحركة . نرى أن التجمع في كل جرم أو جسم ينشيء بيئة خاصة ، تؤدي الى ظاهرات خاصة ، تختلف عن بعض ظاهرات جرم آخر خاصة به . فإذاً ، ما نراه من اختلاف ظواهر أجزاء الكون ليس نتيجة نزعة عامة في الفوتون ، بل هو نتيجة تجمعات الفوتونات على أنماط مختلفة غير مقصودة ولا مضمرة فيها . هي اعراض تلك التجمعات . وكل نمط يفضي إلى نوع أو أنواع من التطورات والظاهرات . وكل ظاهرة هي نتيجة لظاهرات عديدة سبقتها مجتمعة ، لا لسبب متسلسل من سبب أول في الفوتون . لذلك كان محتملاً أن يكون للكون المادي عوالم غير هذه العوالم ، تختلف عن هذه ولو بعض الإختلاف . ولا ندري كيف تكون . فالكون إذن متطور بلا تقيد في تطوراته سوى تفاعل السوابق المباشرة له . فليس له مجرى خاص اختطته له طبيعة خاصة بحيث لا يستطيع أن يحيد عنه . . ولو كان له مجرى خاص لا تأنيَ له لأمكن للعقل البشري أن يرى هذا المجرى حاضراً ومستقبلاً كما يراها وماضياً بكل ضبط وبلا خطإ ، ولكانت أساليب التطور بسيطة جداً لا تمتورها استثناءات واستدراكات عديدة مختلفة كما هي الحال .

ان مجرى التطوُّر الكوني متعرج متفرع متنوِّع .وفروعه يعارض بعضها بعضاً . وكلما تقدمت في الزمان تواتر تعارضها وتفرعها وتعرّجها ، الأمر الذي يجعل التطور تحت حكم المصادفات أكثر مما هو تحت حكم التنسيق المتسلسل — يجعل النتيجة الواحدة مسببة عن أسباب متعددة مجتمعة ومتقاطعة ، لا عن سبب واحد يجعل المجرى ملتوياً غير مطرد في خط مستقيم . ان تفرع مجاري التطور وتنوعها وتعرضها وتقاطعها، هي التي تجعل بعض الظاهرات متباينة متعاكسة ، كدوران بعض أقمار السيارات عكس دوران الأقمار الأخرى في الاتجاه ، وكنشوء جزيئات وذرات في نجوم وأجرام ليس لها وجود في أجرام أخرى ، ونحو ذلك .

لو كان سبب التطورات الكونية سجية من سجايا الفوتون لاقتضى أن يكون لكل فوتون سجية خاصة به تختلف عن سجية غيره . والمعلوم أن الفوتونات متماثلة تمام التماثل . فليس سبب تلك التطورات إلاّ تعدد الفوتونات ، وتجمعها في جماعات متعددة ، بفعل

تجاذبها ودورانها . فالفرق بين جماعة وأخرى هو في عدد الفوتونات وكثافتها وسرعة دورانها (بسبب الجاذبية كما علمت) . هذه هي أسباب اختلاف جماعاتها في الخواص. وهذا الاختلاف سبب الاختلاف في نتائج تفاعلها — تطوراتها . فالسر في اختلاف اشكال الجماعات وتطوراتها هو في العدد والكثافة والحركة في الحيز – هو عدد الفوتونات في جماعة، والحيز الذي تشغله الجماعة بكثافة خاصة بها وسرعة حركتها . فبين عدد الفوتونات وحيز كثافتها تلعب الجاذبية أدوارها المختلفة في التطور

فما هو كائن لم يكن بد من كينونته

٣ — سلاسل الاسباب والنتائج

هل النتائج والأسباب سلسلة متصلة بحيث أن لكل نتيجة معينة سبباً خاصاً لا ينتج غيرها وهي لا تنتج عن غيره ؟ وبالتالي يمكن التنبؤ عن النتائج من معرفة الأسباب

السببية طبيعة حتمية في جاذبية الذرات — فوتونات أو مجموعات فوتونات . التجاذب يجمع الذرات . والدوران يفرّع تجمعاتها . فلذلك لا يمكن أن يحدث حادث الا من جراء حادث آخر أفضى اليه . لا يمكن أن يحدث حادث من تلقاء نفسه . ولا يمكن أن ينتهي حادث بنفسه ، لأن القوة لا تفنى ، بل لا بدّ أن يفضي الى حادث آخر . فالحوادث سلاسل متصلة . ولما كانت الحركات المادية متعددة ومتنوعة كثيراً ، ومتجاورة في الحيز يصادم بعضها بعضاً، كانت كل حادثة نتيجة لعدة عوامل متصادمة أفضت اليها . فلا يمكن أن تعثر على حادثة نتجت من عامل واحد فقط .

لذلك لا نتيجة نتجت من سبب واحد، بل من عدة أسباب تضافرت على انتاجها . وينذر أن تستطيع الاحاطة علماً بجميع الأسباب التي أفضت اليها ، بل يكاد يستحيل ذلك. وبقدر ما نعرف من الأسباب للنتيجة الواحدة يمكننا أن نحسن التنبؤ عنها . فالحكم الأرجح في التنبؤ عن النتيجة يتوقف على العدد الأوفر من الأسباب (أو العوامل) التي نعرفها . فاذا استطعنا أن نحيط علماً بجميع الأسباب بلا استثناء ظفرنا بمعرفة النتيجة المطلقة . ولكن هذا أمرٌ يكاد يكون مستحيلاً يمكن الفلكي أن يقدم لك جدولاً عن مواعيد الكسوف الشمسي أو الخسوف القمري لبضع مئات أو ألوف من السنين لا إلى أبد الآبدين . وكلما تمادى في تعيين المواعيد البعيدة قلّ التطابق بين حدوث الكسوف وميعاده المحسوب . لماذا ؟ لأنه لا يستطيع أن يحيط علماً بجميع حركات الأفلاك العديدة المتفاوتة في دورياتها Rithm . وحاصل القول أنه لا نتيجة واحدة لسبب واحد فقط . وإنما هي نتيجة لمجموعة عوامل متعددة متعارضة غير متساوقة تمام التساوق .

يلزم عن هـذا ان النتائج والأسـباب ليست سلسلة واحـدة متصلة مترامية ماضياً ومستقبلاً ، بل هي سلاسل لا تحصى متشابكة معقدة بحيث انك لا تستطيع أن تسلسل حادثاً الى أن تصل راجعاً الى سببه الأول . فبما أنت تسلسله لا تلبث ان ترى السلسلة متفرعة طرداً وعكساً ، أي تراها متفرعة الى أسباب من ناحية ومتفرعة الى نتائج من ناحية أخرى فتتيه في شبكة الأسباب والنتائج .

لذلك لا يبقى عندك شك في أن النتيجة الواحـدة بنت المصادفة التي اجتمعت عندها العوامل المتعددة المفضية إلى تلك النتيجة . فالصدفة التي نعنيها لا تنفي السببية وإنمـا هي مآل تعدُّد عوامل السببية . ولأننا لا نعرف العوامل نقول انها صدفة .

٤ — سبب سلاسل السببية

إذا كانت الأسباب المتعددة سلاسل متفرعة ، فلا بدَّ ان تـكون متفرعة من سلسلة واحدة ، أو من أصل واحد . فما هو السبب الأصلي ؟

سلاسل السببية — الأسباب والنتائج — متعددة تعدُّداً لا يحصى ولا يحصر . ولـكنك تستنتج بوضوح من غضون أبحاثنا الماضية إنها كلها ترجع الى خاصتين رئيسيتين في أصل المادة — أي الفوتون — وهما التجاذب والدوران . المادة = فوتونات متجاذبة دوّارة . فيمكنك أن ترد كل حركة أو حادث في الـكون ، فبما أنت متتبع راجعاً ، الى أي سلسلة من سلاسل العوامل التي تقدمته — ترده الى هـذه العلة الأصلية — التجاذب والدوران .

وقد لا ترتاح الى الوقوف هنا بل تسائل : — ما علة هذين التجاذب والدوران .

٥ — العلة الاولى

ما هي العلة الأولى التي أحدثت التجاذب والدوران ؟

أضف الى هذين الأمرين المادة أيضـاً وقل : ما هي العلة الأولى التي أبدعت المـادة وأحدثت تجاذبها ودورانها ؟ لأن إحداث التجاذب والدوران ليس أسهل من خلق المادة . فالذي يستطيع أن يحدث تجاذبها ودورانها يستطيع أن يخلقها أيضاً . فالمادة اذاً موجودة ولها هاتان السجيتان . فلا تسل .

في تعليل العلل والمعـلولات ، وتفسير الأسباب والنتائج ، حتى في ظاهرات الطبيعة الثانوية نبلغ أحياناً الى نقطة أو نقط لا نجد عندها سبباً حتميـاً لنتيجة حتمية . فنـكاد نشعر ان للذرة هناك ارادة حرّة . مثال ذلك : تنبثق من الشمس (وسائر الاجرام) فوتونات

بسرعة النور يصيب أرضنا منها رشاش. ومن هذا الرشاش ما يصيب سطح بركة أو غدير. فبعض أمواج هذه الفوتونات تنعكس عن سطح الماء الهادىء وترتد الى أعيننا بدليل أننا نرى طيفنا في الماء، ونرى سطح الماء نفسه. وبعضها يخترق الماء وينعكس عن قعر البركة أو قعر الغدير، بدليل أننا نرى الحصى في القعر. فالفوتونات متماثلة لا تباين بينها، والموجات كذلك. فما الذي جعل هذه الفوتونة (أو موجتها) ان ترتد عن سطح الماء الى أعيننا، وتلك الفوتونة تخترق الماء وترتد عن القعر الى أعيننا ؟ ألست تشعر كأنّ لهذه ارادة حرّة تختلف عن ارادة تلك، فأرادت غير ما أرادته تلك ؟

لا بدّ أنه يتعذر عليك أن تتصوّر للفوتونة الواحدة ارادة حرّة فتقول: لابدّ من سبب لتخالف الفوتونتين في المصير. وإنما نحن نجهل هذا السبب. إذن مهما برعنا في تعليل الظاهرات وردها إلى أسبابها، فلا بدّ أن نبلغ الى نقطة يتعذر علينا عندها التعليل. فنقول إن العلة الأولى مخبوءة وراء هذه النقطة. وبعضنا يسميها الله.

ثمّ افرض أننا بمواظبتنا على البحث والإستقراء والإمتحان اهتدينا الى عاملين مختلفين سبّبا افتراق الفوتونتين في المصير: الواحدة انعكست عن سطح الماء، والأخرى عن قعر الغدير: فلا نلبث أن نشعر أن هناك سبباً أقصى لذينك العاملين نجهله، فنضطر أن ننقل العلة المجهولة من وراء تلك النقطة التي اكتشفنا عندها العاملين، الى وراء نقطة اختلاف هذين العاملين — أي موضع سبب اختلافهما.

بعد هذا التمثيل نعود الى موضوع العلة الأولى التي نحن بصددها. أمكننا أن نرد أسباب ظاهرات الكون الى عاملين رئيسيين: تجاذب ذرّات المادة ودورانها. والى اليوم لم نستطع أن نعلم سببهما. ولذلك نحن مضطرون أن ننقل عرش العلة الأولى الى ما وراء هذين العاملين ونقول: إن العلة الأولى — القوّة القصوى — هي التي أوجدت بحر الفوتونات من العدم بأسلوب لا نفهمه أو لا نستطيع تصوره. فجعلت كل فوتونة تدور على محورها، وجعلت الفوتونات تتجاذب متداورة حول مركز عام - الى ما هناك من تجمع وتفرع كما علمت.

أراك متململاً كأن نظرية «العلة الأولى» كما بسطناها لك غير مقنعة لعقلك. تكاد تقول: مَنْ أوجد هذه العلة الأولى التي تستطيع المستحيل ؟ أي إيجاد شيء من لا شيء؟.

صه: هل يمكنك أن تنتهي من الأسئلة ؟ إذا علمت أن علة عليا خلقت هذه العلة الأولى ؟ ألا تسأل: «ومن خلق هذه العلة العليا ؟» — الى ما لا نهاية له من الأسئلة ؟ إذن أنت حرّ بين أمرين. فاختر أحدهما.

أما أن تفرض أن ما وراء الكون المادي علة أولى لا سابق لها أوْجدت هذا الكون كما تراه وكما علمته ، وتكم فم عقلك عن التساآل المتسلسل اللامتناهي : أو أن تستغني عن هذه العلة الأولى التي لا تحل المسألة وتقف عند هذه النقطة : ان الوجود = مادّة متجاذبة دوّارة موجودة (أو واجبة الوجود) ولا لزوم لموجد لها . لأنه إذا كان لا بدَّ من وجود موجد لها وجب أيضاً أن يكون لهذا الموجد موجدٌ أيضاً، ولا بد من موجد له الى ما لا نهاية له من تسلسل الإيجاد : واذا قلت ان هـذا الموجد واجب الوجود ولا لزوم لموجد له ، فلماذا تزيد سلسلة الوجود حلقة لا حاجة بك إليها ؟ ولماذا لا تقول إن المـادة المتجاذبة الدوارة واجبة الوجود ولا لزوم لموجد لها :

لا أفهم ما الداعي لفرض العدم ثم إيجاد المادة من العدم . لا أفهم لماذا نعقّـد المسألة بفرض العدم سابقاً للوجود . لا أفهم لماذا استنبطنا فـكرة العـدم . ولا أدري ماذا نعني بالعدم . ومن يستطيع أن يفهمنا ما هو العـدم ؟ أليس طبيعيـًّا وبديهيـًّا أن نقول أن الكون « موجود » بلا سبب ، بل أن وجوده هو العلة الأولى لـكل حدثان فيه . ولا معنى لفكرة العدم بتاتاً . « الـكون موجود » والسلام .

٦ — العقل الاول

لعلك تقول ان هذه المادة المتجاذبة الدوارة غير عاقلة . ولـكن تنظيم هذا الـكون يدل على وجود عقل فوقه منظم له . فالعلة الأولى تمتاز على المادة بكونها عاقلة . ولذلك لا بد من افتراض وجودها علة لوجود المادة ، واحداث تجاذبها ودورانها .

أراك تجعل للعقل شأناً أعظم من شأنه الحقيقي في هذا الـكون الأعظم .

لقد علمت ان العقل السامي (الانساني) ليس الاّ حاصلاً من حاصلات كتلة خليات حيوية — هي الدماغ ، أعني انه وليد أربعة عناصر من عناصر المادة الأرضية . فمهما تراءى لك شيئاً عظيماً فما هو الا تفلة تفلتها الهيولي صدفة ، على هذا السيار الأرضي . فهل تريد أن نجعل هذه التفلة انموذجاً لعقل يدبر الـكون برمته ؟

فاذا كان للـكون مدبر كما نود فلا نفرض له عقل شبيه بعقل الانسان الذي لم يكن الاّ لمعة ضئيلة في الـكون كلمعة الحـباحب في الليل الدامس . فاذا شئت ان تسمي مدبر الأكوان قوة عاقلة فحذار أن تتوهمه ذا عقل من طبيعة عقلك . وإلا عجز عن ادارة هذه الاكوان مهما عزوت لعقله من السمو .

إن مدبر الاكوان قوة لا تدرك ولا توصف وتسميتها بالعقل (الذي يعد عقل الانسان انموذجاً له) تحط من قيمتها .

هي قوة قصوى مجهولة ، يستحيل على العقل البشري ادراكها أو وصفها ، لأنه ليس إلا لمعة في بحر نورها يتلاشى فيها . وإنما يحس العقل البشري بوجود مقرها وراء الجاذبية إذا لم تكن هي بعينها .

سبب توهم ان القوة المنظمة الكون ذات عقلية من طبيعة العقل البشري، هو اننا نحسب التنظيم من مقتضيات العقل، فنعتقد العقل ينظم، وان العقل يحكم بين النظام والفوضى. وهذا خطأ . العقل لم يوجد النظام ، ولا هو الذي استنبطه وإنما النظام استنبط العقل، فالعقل حين يدرك النظام يكون كالمرآة التي صنعها الانسان ورأى خياله فيها . فالعقل مرآة النظام الطبيعي ، والنظام خلق العقل مرآة له ليرى طيفه فيه .

في نهاية الفصل التالي تعلم سبب محدودية القدرة العقلية .

الفصل الثاني عشر

اللانهايات الثلاث

ذكرنا في أول الكتاب أن الوجود ذو ثلاثة عناصر : المادة والمكان والزمان . والآن نود أن نعرف هل هذه العناصر متناهية ! أي هل لكل منها قدرٌ مقرر ؟ أم هي غير متناهية ، يعني لا بداية لها ولا نهاية

١ — لا نهائية المادة

علمنا أن أبسط أجزاء المادّة وأصغرها هو الفوتون (الضّوءي) الذي يساوي ١٠ آلاف منه ألكتروناً واحداً ، أي أن الإلكترون مؤلف من ١٠ آلاف فوتون وسينحل إليها (أنظر صفحة ١٥٦ من كتاب جينز The New Back ground of Science)وإلى الآن لم نكتشف إن كان الفوتون يتجزأ إلى جسيمات أصغر منه ، فهو في نظر العلم الحديث « الجوهر الفرد » الذي لا أصغر منه ولا يقبل التجزئة .

ولكن لما كان أي جسم من أجسام المادة مهما كان صغيراً ذا ثلاثة أبعاد ، أي طول وعرض وسماكة ، فلا بدّ أن يكون الفوتون هكذا ذا ثلاثة أبعاد · لأن الذرة مؤلفة من ملايين الفوتونات ، والجزيء مؤلف من الذرّات ، والقلم الذي في يدي مؤلف من جزيئات ، وهو ذو ثلاثة ابعاد ، فلا بد أن تكون الأجزاء التي تألف منها ذات ثلاثة أبعاد أيضاً : وإلاَّ فكيف يمكن أن يتكوَّن جسم ذو أبعاد من أجسام لا أبعاد لها ؟

وبناء عليه يمكن أن يُقطع الجسم من أحد ابعاده ، ولو بالعقل إن لم يتيسر ذلك بالفعل . فيمكننا أن ننصف (بالعقل) الفوتون ، ثم أن ننصف كلاً من نصفيه . وهكذا دواليك الى ما شاء الله ، ما دام للفوتون قوامٌ ماديٌّ ذو ابعاد

إذن فالمادة قابلة التجزئة الى ما لا نهاية ، أو هي مؤلفة من جسيمات لا نهاية لها في الصغر . هذه هي اللانهاية الأولى

٢ — اللانهاية المكانية

علمنا أن عالمنا الحالي تألف في الأصل من فوتونات ضوئيات كانت تملأ حيزاً عظيماً في الفضاء . وعلمنا أن الذرات ثم السُّدم تجمّعت من هذه الفوتونات بفعل خاصتين من خواصها ، وهما التجاذب والتداور (الدوران) . وهذا يستلزم ان هذه الجسيمات والأجسام تشغل حيزات محدودة ، وبالتالي نفهم أن بينها رحاباً مختلفة السعة والمدى .

فجميع الاجرام من كواكب وشموس وكوكبات ومجرات تتداور في الفضاء بعضها من حول بعض حسب سنة الجاذبية . وبحسب هذه السنة نفسها تتقارب الأجسام والأجرام. وبمقتضاها ينبغي أن تطبق بعضها على بعض . ولكن هناك عاملاً آخر يصد هذا الإطباق. ففيما كانت ذريرات المادة تتجمع وتتكاثف ، كانت كلما تلبدت في مكان تنطبق الكهيربات على الكهارب ، فتتنافى كهربتاها الإيجابية والسلبية وتتفتتان إلى فوتونات لا شحنة كهربائية فيها ، وتنطلق إشعاعاً في الفضاء بشكل حرارة ونور كما هو معلوم (وقد شرحنا هذا في كتابنا « عالم الذرة ») . وبهذا الاشعاع يصغر حجم الجرم فتضعف قوة جاذبيته لغيره. واستمرار عملية الإشعاع في كل الاجرام يضعف قوة الجاذبية العامة ، فتقوى « الدافعية » Cetrifugal force أي قوة الإبتعاد عن المركز . وهذا الإبتعاد ، يأول الى تباعد الأجرام والمجرات بعضها عن بعض . وهذا هو الواقع المشاهد الآن في الأرصاد الفلكية كما أثبته الفلكي الكبير هوبل مدير مرصد جبل ويلسن .

فالمشاهد الآن أن الكرة الكونية العظمى (مجموعة المليوني مجرة) الشاملة جميع الأجرام والمجرات تتمدد وتتسع على نحو تمدُّد فقاعة رغوة الصابون إذا نفخت فيها . أعني أن الحيز الذي تشغله العوالم المادية الآن ينتفخ على حساب الفضاء الفارغ . فاذا استمر هذا الإنتفاخ فإلى أي حدّ يبلغ ؟ هل هناك حدٌّ يصده ؟ وان كان هناك حد فما وراء ذلك الحد ؟ بعبارة أخرى هل للفضاء الحالي مدى محدود يشتمل الأجرام الشاردة فيه ؟ وماذا وراء فسحة الفضاء . وهل لها وراء ؟ وما وراء هذا الوراء ؟ يمكننا أن نسأل هذا السؤال إلى الأبد ولا ننال جواباً ، لأننا لا نقدر أن نتصوَّر لهذا الفضاء بداية ولا نهاية مهما تطوّح تخيلنا في استقصائه .

هذه هي اللانهاية الثانية الخاصة بالمكان — الحيز — الفضاء

٣ — اللانهاية الزمانية

علمنا فيما تقدم أن العوالم المادية تكوَّنت من تجمع الفوتونات التي هي ذريرات أثيرية كما يظن. ثم جعلت أجرامها تتقلص بفعل الجاذبية والدوران ، وهذا التقلص أفضى الى انضغاط ذريراتها ، وانطباق إلكتروناتها على بروتوناتها ، وتفتتها إلى فوتونات تنطلق في الفضاء تشععاً . وفي الوقت نفسه كانت الرحاب بين السُّدم والاجرام تتسع ،فتضعف الجاذبية بينها وبالتالي تتباعد ، ومنطقة الوجود المادي تنتفخ . يعني فيما كانت الذرات في الجرم الواحد ينضغط بعضها بعضاً وتشع فوتونات، كانت الوحدات السديمية والجرميَّة تتباعد .

الوجود المادي الآن في شدة هذا الدور : تشعع مستمر تذوب به الشموس والأجرام

ذوباناً . وعلى التمادي تفنى هذه الأجرام وتذهب فوتونات في الفضاء ، في بحر الإيثر أو الفوتونات . فهي من الإيثر والى الإيثر تعود . وأخيراً يصبح الحيز الكوني اوقيانوس إيثر كما كان في الأصل . ثم ماذا ؟

يعود الوجود المادي يكرر سيرته: يعود الى التجمع فالتشمع الذي تذوب فيه الأجرام كما تقدم شرحه . وهكذا دواليك من دور الى دور . فكم مرّة مثل هذا الدور ؟

هذه العملية — عملية النشوء من الإيثر ، ثم الى الفناء في بحر الإيثر، استغرقت بلايين لا تحصى من الدهور . ولا يُعلم كم تكررت منذ الأزل وكم ستكرر الى الأبد .

وهنا نسأل : متى ابتدأ الأزل ومتى ينتهي الأبد ؟

ماذا كان قبل الأزل ؟ وماذا يكون بعد الأبد ؟ هل للأزل قبل وللأبد بعد ؟

لا قبل ولا بعد . ولا بداية ولا نهاية . هو السرمد الذي لا أول له ولا آخر، هذه هي اللانهاية الثالثة . في الفصل القادم تفصيل علمي لهذا

٤ — العقل في اللانهايات

هنا ينبري الفيلسوف المتبحر في فلسفة ما وراء الطبيعة فيسأل : هل يستطيع العقل البشري ان يتصوّر النهاية تارةً واللانهاية تارةً أخرى ؟ وكذلك البداية واللابداية ؟ أو بالاحرى المحدودية واللامحدودية ؟

إذا شاء العقل ان يتصوَّر لهذا الفضاء العظيم شكلاً كروياً أو أي شكل هندسي آخر، كان كأنه يجعل له حدًّا لكرويته أو شكله ويفرض له قياساً مقرّراً . فإذا تصور له هذا الشكل بدر له في الحال أن يتخطى ذلك الحدّ الى ما وراءه . لا يستطيع أن يقتصر على تصوّر حدّ من غير أن يتمادى الى ما وراء ذلك الحدّ ، والى ما وراء ورائه . لأنه لا يستطيع أن يتصوّر في خياله حدًّا للفضاء ما لم يبدر له أنّ لذلك الحدّ وراء . فيتخطاه الى ذلك الوراء .

اذاً لا يستطيع العقل أن يتصوّر النهاية، ولا ان يتصور اللانهاية. وكذلك الأمر في البداية واللابداية. لا يستطيع أن يرسم في خياله صور لأحد الوجهين . واذا حاول ذلك خبلته الحيرة

أليس غريباً ان هذا العقل الذي اكتشف الى الآن معظم أسرار الكون يعجز عن ان يفهم سر النهاية أو اللانهاية ، أو ان يفصل بينهما ، أو ان يوفق بينهما ؟

العقل يبحث عن سر الحياة ، ويرى أن هذا البحث مستطاع . ويؤمل أن يقبض على هذا السر . وكذلك يبحث عن أصل العقل نفسه ، ويرى أنه يكاد يدرك سر العقل ومصدره . وطالما حار في أمر الكهرباء وسرها الى أن قبض على سرها أو كاد . ولكن مهما تبحر في

تفهم اللانهاية واللابداية لا يرى بارقاً من الأمل في فهمها ، يرى لغزاً لا ينحل أو يستحيل حله . فلماذا ؟

هل سبب هذه الاستحالة في اللانهاية نفسها، أو في العقل الذي يغزوها فيعود مندحراً ؟

٥ — العلة في العقل نفسه

العقل يستمد تصوراته من العالم المادي الخارج عنه بواسطة المشاعر الخمس ، وأهمها البصر ، فجميع المعلومات التي علمتها عقولنا عن العوالم الكونية وردت اليها عن طريق البصر ، بواسطة التموجات النورانية وأخواتها من الأمواج الكهرطيسية . وفي كثير من المرئيات القصية والدقيقة نستعين بالآلات البصرية المختلفة كالمقراب (التلسكوب) والمجهر (الميكروسكوب)والمطياف (السبكتروسكوب) . ومن هذا الطريق عرفنا نهاية الحيز المادي أو حدوده . فما ليس مادياً لا يمكن أن يتجاوز المحسوس المنظور مباشرةً ، أو بواسطة الآلات البصرية . فهو اذاً محدود بالدماغ الذي ينتجه، وبالجهاز العصبي الذي يعاون الدماغ في انتاجه .

واللانهاية التي نحن بصددها تتجاوز حدود المادة التي نشأ الدماغ منها ، فمصدر العقل منه . فلذلك يستحيل على العقل المحدود بالمادة ان يتطاول الى ما وراء المادة (ما وراء الطبيعة) حسبه انه استطاع أن يشمل حيّز المادة . وإما أن يتخطاه الى اللانهاية ، وهي أوسع منه ، فهو حكم منطقي سخيف أخرق .

اللانهاية خارجة عن دائرة المحسوس ، لا تقع تحت الحواس ولا تتأثر بها المشاعر الدماغية والعصبية . فكيف يمكن أن يدركها العقل ؟ وهو لا يتناول معلوماته إلا عن طريق المشاعر . فاذاً هذا العقل الذي نتبجّح به وبعظمته وقدرته وشموله ، هو صغير جداً بالنسبة الى الوجود اللامتناهي . ولا يمكن أن يشمل الصغيرُ العظيمَ .

فلذلك حين نقول « عقل الله » ننسب لله عقلاً من شكل عقلنا وطبيعته ، ونقول أنه أعظم من عقلنا . ولكن مهما عظم لا يدرك اللامتناهي ما دامت طبيعته كطبيعة عقلنا . و ان قلنا أن طبيعة عقل الله تختلف عن طبيعة عقلنا ، فاذاً ليس هو عقلاً بل هو شيء آخر لا نعلم ما هو ، فليس لنا أن نتكلم عن المجهول المطلق ، ولنكف عن محاولة تعريفه. وإلاّ فنحن نحقره بدل ان نقصد تعظيمه . فلندعه في عالم المجهول المطلق .

إن الانسان لما عجز عن إدراك اللامتناهي في حين كان يتوق الى معرفة أسرار الوجود استنبط هذا المجهول ، ونسب اليه قدرة وعلماً أعظم من قدرتهِ وعلمهِ .

فالحقيقة أن المجهول والجاهل هما الانسان نفسه .

الفصل الثالث عشر

الأزل والأبد – السرمد

بداية الكون المادي ونهايته (١)

رأينا في عرض هذه الفلسفة أن الوجود المادي هو « المادة المتحركة » التي بدونها لا نستطيع أن نتصور المكان والزمان . فالحيز الذي تشغله المادة هو الذي يحدد المكان ، وما وراءه مجهول في حكم العدم . وتحرك المادة على التوالي هو الذي يعين الزمن في تصورنا. فليس قبل وجود المادة وتحركها زمن ، وليس بعد سكونها زمن . فالمكان والزمان نسبيان للمادة وحركتها . فهل المادة أزلية أبدية ، أو لها بداية ونهاية ؟

إذا قلنا إنها أزلية أبدية وقعنا في مشكلة « اللانهاية » التي يتعذر على العقل تصورها والتي تناقض « نظرية الحدوث » . ونظرية الحدوث هذه تنص على أن « الكون حادث متغير» . والحدوث والتغير يستلزمان البداية والنهاية . وإذا قلنا انها ذات بداية ونهاية انحصر بحثنا في « متى » — متى وجدت والى متى تبقى ؟ وما هي طبيعة التغير التي تطرأ عليها منذ البداية الى النهاية ؟

١ — الازلية والابدية في الميثولوجيا

أما انها ذات بداية ونهاية فقد لاح للعقل البشري منذ قديم الزمان كأنه أمرٌ بديهي. نرى ذلك في ميثولوجيا جميع الأمم التي كان لها قسط وافر من الحضارة والتفكير العلمي والفلسفي . فان جميع هذه الميثولوجيات القديمة تنص على بداية للكون وبعضها تشير الى نهايته . ولذلك سببان : الأول تعذر تصور اللانهاية على العقل . والثاني (وهو سبب نظنه ظنًّا) هو ما لاحظه القدماء من التغيرات الطارئة على الوجود المادي . وفي كتب الوحي في الشرق الأدنى نصوص صريحة على بدء الخليقة المادية وانتهائها بساعة المعاد، حتى لا يبقى الا العالم الروحي .

ذلك ما يستفاد من الميثولوجيات وكتب الوحي . وأما ما يستفاد من الفلسفة والعلم

(١) هذا الفصل نشر في أحد أعداد الهلال منذ بضع عشرة سنة . وهو تبسط في الفصل السابق .

فمبني على ملاحظات علمية تكاد تكون في حكم الحقيقة ، وعلى اختبارات علمية عملية هيهات أن تند عن الحقيقة . وإذا طرقنا الموضوع من ناحية العلم آثرنا أن نبحث أولاً في الأدلة على أيلولة الكون المادي إلى الانقضاء — الأدلة المستخرجة من الحقائق العلمية المشار إليها . ثم يسهل علينا أن نعود ثانياً الى كيفية بدئه ونشوئه .

٢ — النهاية — اشتقاق الاجرام من السدم

أما ان الكون حادث متغير فقد قرره العلم تقريراً لا مشاحة فيه . فالسديم الذي هو مجتمع عظيم من المادة في الحالة الغازية اللطيفة جداً ، يتقلص تدريجاً فيما هو يدور على نفسه، وتزداد سرعة دورانه كلما تقلص . وفي خلال ذلك يكون بعض أجزائه أسرع تقلصاً من أجزاء أخرى ، فتتكون منها النجوم وتنفصل عنها. وتستمر كل نجمة في تقلصها مستقلة. وفي اثنائه قد تنفلق الى نجمتين متلازمتين في دورانهما (ولذلك أسباب وتعليلات لا يسعها المقام) أو تنتثر منها أجزاء تدور سيارات حولها — وهو نادر — وهكذا يتجزأ السديم الى أجرام متفاوتة الحجم والتكاثف، وبالتالي يتجمد بعضها قبل بعض.

وهنا لا بد أن يلوح في البال هذا السؤال :

« ما هو سر هذا التقلص ؟ وماذا يحدث في خلاله ؟ » .

أما سره فهو قوة التجاذب بين أجزاء المادة حول مركز مشترك بينها . وأما ما يحدث في خلاله فهو انطلاق القوة من المادة متشععة (Radiating) في شكل أمواج حرارة ونور ، وتوزعها في الفضاء . ولما كان علماء العصر قد برهنوا على أن المادة والقوة شيء واحد، أو أن القوة هي المادة متحركة ، فهذا التشعع أو الإشعاع إنما هو اندثار كهارب المادة ونواها متحولة إلى أمواج نور وحرارة . إذن سر هذا التغير الذي نحن بصدده هو ذلك الإشعاع الموجي الذي ينتج عنه أن كل جرم ينقص مادة وقوة في أثناء اشعاعه

وبناءً على حساب السير تجايمس تجينز أحد أعاظم علماء العصر، والذي نستمد منه زبدة هذا المقال، أن الشمس تنقص في كل يوم ٣٦٠٠٠٠ طن بسبب الإشعاع الصادر منها . والاجرام المتجمدة كالسيارات أقل اشعاعاً . فالأرض تنقص في اليوم ٩ أرطال فقط

أما اندثار الكهيرب والنواة الذي هو سر الاشعاع فسببه التحول الدائب في ذريات المادة . وفي أرضنا نماذج كثيرة له . ومنها تحول عنصر الاورانيوم الى ثوريوم ثم اكتينوم ثم الى الراديوم ، وهذا الى عنصرين آخرين أبسط منه وهما الهيليوم والرصاص . وفي أثناء هذا التحول ينطلق شيء من القوة اشعاعاً ، وتصبح مادتا هذين العنصرين أقل وزناً من وزن العنصر الأول ، الذي انحل إليهما بسبب ما خسره في الاشعاع . على هذا النحو تنفلت

القوة من الاجرام في خلال تحولات متواليـة تذوب الأجرام رويداً كذوبان الثلوج في الربيع .

٣ — ناموسا القوة

بعد هذا البيان الموجز يلوح لدارس الطبيعيات أن يعترض قائلاً : إذن كلتا المادة والقوة آيلتان الى الفناء ، وهو نقيض ما ينص عليه علم الطبيعيات من أن المادة والقوة غير قابلتين للفناء ، . وللتوصل الى جواب مقنع على هذا الاعتراض لا بدّ من سلسلة بحث طويل في طبيعة التحول الذي أشرنا اليـه لا محل للتبسط به هنا ، فنقتصر على أول حلقة في هذه السلسلة ، وهي البحث في بعض نواميس القوة من حرارة ونور .

(الناموس الأول) أن القوة تتحول من شكل الى شكل ، فالقوة الكيمياوية الكامنة في الوقود تتحول الى حرارة تدفع السفن والقطرات والسيارات الخ . والقوة الكامنة في أطعمتنا تتحول الى قوة عضلية . وقوة حرارة الشمس ونورها تتحول في النبات الى قوة كامنة تظهر في الوقود والطعام المشار اليهما آنفاً ، وقس على ذلك . فبحسب هذا الناموس ، القوة لا تفنى بل تتحول من شكل الى شكل . ولأن هذا الناموس شامل جميع الأجرام يلزم عنه أن القوة الموجودة في الأجرام جميعاً لا تفنى ، وكيفما تحولت تبقى قيمتها كما هي . فلو جمعت القوات التي تشععت وتوزعت في الفضاء الى القوات الباقية في الأجرام لساوى مجموعها مجموع القوات التي كانت في السدم منذ تكوّنت الأجرام . وقد يلوح للقارىء كما لاح لكثيرين أن هذه القوات المتشععة في الفضاء يمكن أن تتألف من جديد سُدُماً على التوّ تتولد منها أجرام جديدة . وهكذا يبقى الكون في استمرار الى الأبد .. ولكن ناموس القوة الثاني يتدارك هذا الظن .

(الناموس الثاني) القوة غير قابلة للفناء من حيث كميتها . ولكنها قابلة للتحوُّل من شكل الى شكل كما تقدم القول . على أن هذا التحوُّل الذي هو نواة الناموس الثاني يتخذ اتجاهاً واحداً فلا يرتد الى اتجاه معاكس له . وتسهيلاً لتفهم هذا القول نعبر عن الاتجاه بالانحدار من أعلى الى أدنى . فالقوة اذا نزلت من أعلى الى أدنى في تحولها لا تعود تصعد من أدنى الى أعلى . مثال ذلك النور والحرارة هما شكلان من أشكال القوة (بل هما الشكلان الرئيسيان) ، فقدر معين من النور يمكن أن يتحول الى قدر مساوٍ له من الحرارة . ولكن هذا القدر نفسه من الحرارة يستحيل أن يتحول الى قدر مساوٍ له من النور ، بل الى أقل . والباقي يشع أمواجاً في الفضاء . هـذا مثل خاص لقاعدة عامّة ، وهي أن القوة المتشععة Radiating تميل دائماً الى التحول من أمواج قصيرة الى أمواج أطول (إذ لا يخفى عليك

أن الاشعاع يحدث في شكل أمواج) . مثال ذلك: التألق Fluorescence يزيد موجة النور طولاً . فالمادة المتألقة (أو التي يحدث النور العابر فيها تألقاً) كبعض الأحجار الشفافة أو كزيت البرافين مثلاً ، تمتص أشعة النور من جهة وتبرزها من جهة أخرى أطول أمواجاً، يدخل النور في سائل البرافين أبيض فيخرج أزرق . ولو أدخلت فيه نوراً أزرق لخرج منه أخضر أو أصفر . فالتألق يحول النور الأزرق الى أخضر فأصفر فأحمر (والأحمر أطول الأمواج) ولكنه لا يحوّل الأحمر الى أصفر فأخضر فأزرق (وهو أقصرها موجة)

فالقوة المتشععة اذا تحولت من موجة قصيرة الى موجة طويلة لا تعود تتحول بالعكس من طويلة الى قصيرة . وتعتبر الموجة القصيرة أعلى منزلة في سلم الأمواج لأنها أسرع . وتعتبر الطويلة أدنى منزلة لأنها أبطأ ، كما هي الحال في السلم الموسيقية مثلاً .

هذه هي قاعدة تموج القوة المتشععة في كل حال ، وتحت أي ظرف وأي سبب .

بناءً على ما تقدم ينبغي ألاّ ننظر الى القوة من حيث الكم فقط ، بل من حيث الكيفية أيضاً . ان مجموع القوة في الكون لا ينقص بل يبقى كما هو . وإنما تحول القوة من حال الى حال يستمر في اتجاه واحد ولا ينعكس بتاتاً . هذا هو ناموس القوة الثاني . ولكن ليس كل ما تقدم شرحه هو كل ما يعنى بهذا الناموس الثاني ، بل هناك شيء آخر جوهري لا بدّ من بسطه .

٤ — عاملية القوة في حياة الاجرام

إن القوة عامل جوهري في بناء المادة الكونية ، وفي حياة الأجرام منذ نشوئها الى انقراضها . فتحولها من أعلى إلى أدنى كما تقدم بيانه إنما هو تحول عامليتها (أي عملها) من أقوى الى أضعف ، أو من أنفع الى أقل نفعاً . قد يمكن أن يسهل على القارىء فهم هذا الناموس اذا مثلناه بماء يجري من جبل الى الساحل في مجرى متعرج . فهو يجري في مجرى مائل الى تحت تارة ، ثم في مجرى أفقي تارة أخرى . ثم في مجرى مائل الى تحت وهلمّ جرّاً . ولكنه لا يستطيع أن يجري في سبيل مائل الى فوق من أسفل الى أعلى ، بل يستمر جارياً من أعلى الى أسفل ، الى أين ؟ — الى البحر حيث ينتهي جريه .

هكذا القوة تتحول من حال أعلى فاعلية الى حال أدنى . ولكن لهذا التحول نهاية ، وهو بحر الفضاء . فالكون المادي وهو يشع أمواج القوة (١) الى الفضاء لا يستطيع أن

(١) القوة ممتطية ذريرة النوتون الخالي من الشحنة الكهربائية، ففي تلك قوة فكأنها تلك فوتوناً، وهو فتات القدرة كما علمت

يستمر في إشعاعها الى الأبد، لأنه يندثر رويداً بشكل أمواج شعاعيـة ، الى أن يضمحل في ذلك البحر الفضائي العظيم الذي هو أدنى أشكال التحول . وهناك تنتهي حياة الكون وتنتهي حياة القوة العملية . القوة كلها باقية في ذلك البحر ولكنها فقدت «خاصة التحول »

قد يلوح في بال القارىء أن مجرى القوة المنحدر من ذرات المادة في سلسلة تحولات الى أن يبلغ الى بحر الفضاء ، يحتمل أن يعود من ذلك البحر مكوِّناً عالماً مادياً آخر، فتعيد القوة الكرّة ثانية من أعلى الى أسفل على نحو ما فعلت سابقاً — كما إن ماء النهر المنحدر من أعالي الجبال الى البحر يعود فيصعد بخاراً في الهواء، ثم يهطل مطراً على الجبال ويعود الى جريه السابق . وهكذا دواليك الى ما لا نهاية له .

ولكن هذا قياس مع الفارق . النهر يستمر في جريه ، ما دامت المياه ترتفع بخاراً في الهواء وتنهطل مطراً . ولكن ما الذي يرفع الماء بخاراً ؟ — حرارة الشمس . فما دامت الشمس ذات حرارة فالبخار يرتفع والمطر يهطل والنهر يجري . فأين العامل الذي يرفع القوة من بحر الفضاء بحيث تستأنف عملهـا ثانية ؟ لا نعرف قوة أخرى ترفع القوة (التي هبطت الى اوقيانوس الفضاء)الى مقامها الأول ، لكي تستأنف إنشاء الكهارب والنوى وتأليف الذريرات في سُدُم الخ وتعود الى نمط التحول النازل الذي بسطناه آنفاً . فقياس « تنازل القوة » الى مجرى الماء غير تام من هذه الوجهة . ناهيك بأن الشمس التي حرارتها ترفع الماء ستذوب في المستقبل إذ تنطلق كل حرارتها ونورها إشعاعاً في الفضاء . وهكذا مصير كل جرم هـذا المصير يحتمه ناموس القوة الثاني . ويؤيد هـذا الناموس الإختبارات العلمية الصادقة . وليس في نواميس الطبيعة ومظاهرها ما يؤيد مظنة عودة القوة إلى مقامها الأول واعادتهـا الكرة ثانية ،كما يتكهن بعض أهل العلم .

وأما متى تبلغ العوالم المادية هذا المصير ففي امكان الحاسبين من العلماء أن يقدروا له أجلاً بملايين ملايين السنين . وإنما يقال بالإجمال إن ما بقي من عمره أكثر مما مضى . فهل ينتج مما تقدم أنه « لا أبد » للوجود المادي بل هو متناهٍ ؟ .

إذن ماذا سيكون بعـد ، هل يستقر الوجود المادي على هذا النحو — ماذا يمنع أن يتجدد الدور ؟

٥ — البداية — عمر الاجرام

فيما تقدم كنا ننظر الى الأمام في مراحل المادة ونتبين أنباءها في مستقبل الزمن الى أن تضمحل . كنا نرى قدر المادة ينقص بالاشعاع، ونستنتج أن نهاية هذا الإشعاع اندثار آخر ذريرة من المادة . فإذا التفتنـا الى الوراء وجعلنا نتبين أنباء ماضي الزمن نرى أن مادة

الأكوان كانت أكثر قدراً مما هي الآن . وكلما توغلنا في تبين الماضي رأينا الاجرام ألطف مادة وأكبر حجماً، وأكثر قدراً وجملتها أكثر وزناً . ولو كان المقام ذا سعة لكنا نبين أن أوزان النجوم كما بلغت إليه الآن لا تتفق مع تقدير عمر لها أكثر من ٥ الى ١٠ ملايين مليون سنة . وقبل ذلك كانت كلها في الحالة السديمية .

قدّر العلماء هذا العمر للنجوم منذ ولادتها من السدم بناء على درس وزن النجم وحجمه ، ومقدار سطوعه ، وما يخسر من وزنه بالاشعاع كل عام ، ومقدار تباعد الجرم الواحد عن الآخر الى غير ذلك من الاعتبارات التي لامحل للتبسط فيها هنا . وإنما نذكر طريقة واحدة بسيطة لحساب عمر النجم منذ ولادته من السديم — نذكرها لكيلا يظن القارىء أن علماء الفلك الطبيعي يتكهنون تكهناً في تقدير أعمار النجوم من غير حساب وعلى غير قاعدة .

فلنتصوّر الآن أن الشمس والنجم قنطوروس الأول Proxima Centaurus الذي هو أقرب النجوم إلينا شرعا يتكوّنان من السديم متجاورين . ثم جعل كل منهما يتقلص فصارت المسافة بينهما تتسع رويداً رويداً إلى أن صارت الآن نحو ٤٫٢٧ سنين نورية أي ٢٥ مليون مليون ميل . فاذا كنا نعرف معدل تقلص الشمس [1] وتقلص قنطوروس كل عام أمكننا أن نعلم كم من السنين مضى منذ ولادتهما الى الآن ، بقسمة المسافة بينهما على معدل تقلصهما السنوي . بمثل هذا الحساب مع ادخال اعتبارات أخرى وحسابات أخرى تختص بالاشعاع والسطوع ونقص الحرارة والنور الخ استطاع العلماء أن يقدروا نحو ٥ — ١٠ ملايين مليون سنة .

٦ — عمر السدم والذرات

وقبل أن تولد الاجرام كانت الذرات Atoms متكونة في السدم منذ عهد أطول جداً من أعمار النجوم . فمتى ائتلفت النواة (البروتون) والإلكترون في الذرة ؟ — هذا دهر من أدهار تطور المادة الكونية ، وليس بالسهل تقدير سنيه . لقد حسبوا وزن كثير من السدم، وعرفوا أن السديم المسمى « المرأة المسلسلة » .Andromida 31 M يزن قدر ٣٥٠٠ مليون شمس كشمسنا ، ومجموع الضياء الساطع منه يساوي سطوع ٦٦٠ شمساً . وبناء على هذا التقدير ، ولاعتبارات أخرى تختص بالنسبة بين الوزن والسطوع، قدروا أن عمر الذرة في هذا السديم نحو ٨٠ مليون مليون سنة . وكذلك حسبوا وزن السديم ، المسمى

(١) قطر الشمس يتقلص ميلا واحداً كل ٢٥ عاماً . خذ للشمس نصف المسافة أي نصف القطر واحسب

N. G. 4594 يساوي وزن ٢٠٠٠ مليون شمس ،وسطوعه يساوي سطوع ٢٦٠ شمساً. فقدروا عمر الذرة فيه ١١٠ ملايين مليون سنة. فالمعدل الأوسط لتكوُّن الذرة نحو ١٠٠ مليون مليون سنة منذ تكونها في السديم الى اليوم.

لا نستطيع أن نستمر بالتوغل في الماضي وفي تصور أشكال المادة ، لأننا كلما تقهقرنا الى الوراء مرحلة نجد المادة في كل دور سابق أكثر قدراً أو زنة منها في كل دور لاحق. فإذا استمررنا بهذا التوغل الى ما لا نهاية له ، اقتضى أن يكون وزن مادة الكون في الأزل ما لا يستطيع العقل تصوره ، ولا يمكن أن يتفق مع نواميس الطبيعة. لا بدَّ أن نصل في التقهقر الى حد من كثافة المادة،لا يمكن أن تكون قبله أكثف منها في الحيز الذي تشغله.

بلغنا في التقهقر في سلم الماضي الى الدور الذي بدأت فيه الذرة تتكوَّن في السديم من النواة والكهيرب. فماذا كان قبل ذلك الدور ؟

٧ — يد القوة القصوى

لا نستطيع أن نتصوَّر شيئاً قبل ذلك الدور إلاَّ أن الحيز (الفضاء الكوني) كان مملوءاً سدماً لطيفة جدًّا كلطافة الأيثر (وإذا شئت فهي الأيثر بنفسه) وكانت منتشرة فيه، ومنها نشأت نوى الكهارب والكهيربات غير مؤتلفة في ذريرات ، بل بقيت منثورة مبعثرة متفرقة بلا انتظام. ولا يمكن أن يكون هذا الدور أزليًّا ، فلا بدَّ أن يكون قد سبقه دور آخر أو بضعة أدوار كانت فيه المادة والقوة تتأهبان للانتظام. ومهما تقادم هذا الدور فلا يكون أكثر من ٢٠٠ مليون مليون سنة. وماذا كان قبل ذلك ؟

قلنا اننا لا نستطيع أن نتصور أزلية للوجود المادي ما دمنا نرى له تطوراً من حالة الى حالة. فلا بد أن نسلم بأن «قدرة قصوى» عينت جيزاً متناهياً من الفضاء ، ثم أفرغت فيه قدراً متناهياً من الهيولى (أصل المادة) التي نشأت منها النوى والكهيربات. وإذا كنا نسلم بأن المادة والقوة شيء واحد وجب أن نتصور أن قوة مشعة ذات أمواج أقصر ما عرف من الامواج الى الآن وأسرعها كانت في البدء ، ولم تكن أطول من جزء من ١٣ الى يساره ١٣ صفراً (فعلامة الكسر العشري، هكذا ١٣ ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ر٠) من السنتيمتر، وهي أقصر الأمواج المعروفة وأسرعها.

هذه الموجة تسحق الكهرب والكهيرب إذا سُلطت عليهما في بعض الأحوال، وتنشئهما في بعض الأحوال الأخرى، كما هو ثابت بالاختبار العملي العلمي — يجب أن نتصور قوة بهذه الشدة أفرغت في ذلك الحيز الفارغ وجعلت تتبلور أو تتجمد في كهارب

كهيربات تألفت منها الذريرات فيما بعد . من هذه القوة المتجمدة تكونت السدم اللطيفة التي كانت تملأ الحيز المعد لها . ومن كهاربها وكهيرباتها تألفت اجرام بعدئذٍ . أو يمكننا أن نتصور (بحسب تعبير السير تجايمس تجينز) ان الله ملأ الحيز أيثراً أو فوتونات، ثم حركه بأصبعه، فجعلت ذريرات الأيثر أو الفوتون تتألف منها الكهيربات والبروتونات. منذ ذلك الحين ابتدأ المكان وابتدأ الزمن .

نرى مما تقدم اننا لا نستطيع ان نتوغل في الماضي بلا نهاية لأن نواميس المادة تمنع هذا التوغل . ومهما توغلنا فلا نستطيع أن نتملص من تصور قوة قصوى بدأت الوجود. ولكن هل هذه «القوة القصوى» هي نفس القوة التي كتبت بأصبعها لوحي موسى الحجريين ، وهي التي قست قلب فرعون على موسى وشعبه ؟ لا نستطيع أن نتصور إلا أن هذه القوة القديرة الغامضة السر أودعت في الحيز الكوني مادة السدم مشفوعة بقوى التجاذب والدوران . ومن ثمَّ شرعت ذريرات المادة تتحرك بهذه القوة، وبتحركها صارت تتألف في كتل ، ثم صارت تتطور على نحو ما تبسطنا به .

فلو تصورنا أن ذريرات المادة متفرقة في الفضاء المقدر لها تفرقاً متساوياً في كل ناحية لكان في كل سنتيمتر مكعب منها جزء من ١٥ وإلى اليسار ٣١ صفراً ، ثم علامة الكسر العشري الى اليسار — ذلك من الجرام بحسب حساب العلامة هوبل . وان تصورنا ان المسافات بين كل واحدة والأخرى من الذريرات الأثيرية متساوية ، فقوة التجاذب بينها متوازنة ، ولذلك تبقى ساكنة ، فلا بد من قوة أجنبية عنها تحركها لكي يختل هذا التوازن إذ يصبح بعضها أقرب الى بعض . وعندئذٍ يحدث التجاذب فتتكتل المواد وثم تتكوَّن الأجرام . انظر الفصل الأول في التجمع ، وانظر أيضاً الفصل التاسع : « تطور الكون » من كتابنا « فلسفة التفاحة أو جاذبية نيوتن » .

ما هي الغاية القصوى

بعد كل هذه الفلسفة نسأل : ما الغاية القصوى من كل هذه الضجة أو « الهيزعة » الكونية التي تطويها الاحقاب والدهور ولا تنتهي . نترك هذا الموضوع لفيلسوف يؤلف فيه كتاباً ضخماً . والسلام على من اتبع الهدى .

الفصل الرابع عشر

في ما وراء الوجود المادي

Metaphysic

موضوع كتابنا هذا هو الوجود الماديّ . بقي أن نسأل هل يوجد وجود آخر غير مادي، كما زعم بعض المفكرين المتبحرين المتفلسفين ؟ فلنرَ .

الروح وعالم الارواح

١ — بماذا نحس

أعرف وأحس أن لي جسداً مركباً من عناصر مادية كيماويًّا كسائر الحيوانات والنباتات، وأعرف أن هذا الجسد يتغذى من تلك العناصر وينمو ويلد كما ولد ويموت . وبين الولادة والموت يتحرك حركات ذاتية بقوة فيه يستمدها من غذائه . والعلماء يسمون هذه القوة حياة .

وأعرف اني أحس وأشعر وأفتكر وأتذكر وأستنتج . وأعرف اني أعرف . ومجموعة هذه الأفعال تسمى عقلاً .

— إذن أعرف وأحس أن فيَّ ثلاثة أشياء : جسد وحياة وعقل . وأشعر بوجود هذه الأشياء فيَّ مختلفة بعضها عن بعض . وأرى أن شخصيتي مركبة من هذه الأشياء الثلاثة ، وأعلم أن هذه الأشياء مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً، وان أي خلل يطرأ على أحدها يخل الاثنين الآخرين . تنمو هذه الثلاثة معاً وتهلك معاً . أعلم كل ذلك جيداً بوضوح وبغير التباس في فهمه .

ولكني أعرف أنه ليس فيَّ شيء آخر رابع يتميز عن هذه الثلاثة كما تتميز هي بعضها عن بعض ، وان هذا الرابع من ضروريات ذاتيتي بحيث إني اذا فقدته فقدت ذاتيتي كلها برمتها . هذا شيء لا أشعر به .

وإنما قيل لي منذ حداثتي أن لي روحاً (أو نفساً) وان هذه الروح مستقلة عن الجسد بحيث إنها تبقى بعد فنائه . والآن وقد تعلمت مبادىء العلوم المادية والجسدية والعقلية

وطالما كثيراً ، صرت أفكر وأبحث عن هذا الشيء الرابع الذي سموه لنا روحاً فما هي الروح ؟

هذا السؤال كنت أوجهه الى بعض المعتقدين بالروح فبعضهم يقول : هي الحياة. وآخر يقول : هو العقل . وآخر يقول: أنه شيء مستقل عن الجسد والحياة ، ولكنه يحمل العقل وما احتواه من أفكار وتذكارات.

٢ — التفنيد

أما ان الروح هي الحياة فلا قيمة لهذا القول، لأنه لا يفيد عن الروح سوى أنها لفظة مرادفة للفظ الحياة ، والحياة لا تزال سراً غامضاً . ولا يرضاه الخلوديون لأن لحياة الفرد نهاية بالموت ، كما ان لها بداية بالولادة أو بتكون الجنين . فمتى مات الفرد اضمحلت الروح — إذا كانت هي نفس الحياة . وإذن لا تكون الروح المرادفة للحياة شيئاً رابعاً في شخصية الانسان

وأما القول ان الروح هي العقل فيستلزم أن تكون الروح عرضة لخطر الفناء بموت الجسد، لأن العقل نفسه مرتبط بالجهاز العصبي الذي هو بعض الجسد . بل ما هو إلا مجموعة أفعال ننعتها بالعقلية، وهي بالحقيقة من مفاعيل خُليّات الدماغ التي تتعاقب فيها التفاعلات الكيماوية ، بين ذرات العناصر التي تؤلف منها تلك الخليات و بين جُزَيئاتها . وماوظيفة الخليات الدماغية إلا اصدار تلك الأفعال العقلية . فالعقل ليس ذاتية بل هو عمل أو وظيفة للدماغ .

وأما أسباب تلك التفاعلات التي تسبب تلك الأفعال العقلية ، فلم تزل قيد البحث عند الفزيكو سيكولوجيين ، أي علماء العقل ووظائف أعضاء الجسد . ولا بدَّ أن يتوصّلوا يوماً من الأيام الى تعليل كيفية صدور الأفعال العقلية تعليلاً فزيولوجيّاً (جسديّاً) .

فيستفاد مما تقدم أن العقل ليس ذاتاً قائمة بنفسها ، بل هي عمل دماغي يبطل بانحلال الجسد . فاذا كانت الروح عقلاً فهي فانية بفنائه .

٣ — البراهين على وظيفة الدماغ

وهنا يطالبنا القارىء بالبرهان على أن الأفعال العقلية ليست إلاَّ نتيجة تغيرات في خلايا الدماغ وسائر الجهاز العصبي بسبب تفاعلات كيمية فيها ، وإن وظيفة الدماغ اصدار تلك الأفعال . فالبرهان الايجابي منوط بتوفيق الأبحاث العلمية الفزيكو سيكولوجية في المستقبل . ولكن عندنا الآن أدلة واضحة وجازمة على صحة هذه الدعوى

فأولاً : إن هـذا العقل العجيب أمره ينمو مع نمو الجسد ، بل ينمو متأخراً عنه (إذا صحت نسبة النمو الى الأفعال . والتعبير الأصح هو أن هـذه الأفعال العقلية تتعاظم وتتنوّع وتتعقد مجاراةً لنمو الجسد) . فالجنين خالٍ من العقل حتى من الإحساس . والطفل في بدء شعوره أو احساسه لا يختلف إحساسه عن إحساس بعض النباتات . ولا يبتدىء أن يميز بين الأشياء إلاَّ بعد بضعة أشهر،ولا يتكامل نمو العقل الاَّ بعد بضع عشرة سنة . اذاً ،العقل خاضع لنفس السنن البيولوجية (المادية الحيوية) التي يخضع لها الجسد .

ثانياً : إنه في حالة راحة أعضاء الجسد في النوم يكون العقل كأنه غير موجود . أي أن الأفعال العقلية كالتفكير والتذكر الخ تكون متوقفة تماماً ، كما تتوقف حركة أدوات العمل، لأنَّ خليـات الدماغ متوقفة عن الحركة حينئذٍ . وإن لم تتوقـف عن الحركة تماماً كما في الأحلام مثلاً ، فتكون خـليّـات الأسلاك العصبية متوقفة عن الحركة . فيفكر الحالم وهو نائم ، ولـكن أسلاكهُ العصبية لا تنقل هذه الحركة لا ذهاباً ولا إياباً . ولهذا لا يعرف الحالم أنه يحلم إلاَّ حين يستيقظ ، إذ تتحرّك خليـات أسلاكهِ العصبية ، وتتنبّـه الى أن ماكان يراه في النوم لم يكن حقيقة واقعة فعلاً ، بل كان مجرّد أوهام .

ففي النوم دليل على أن الأفعال العقلية هي نتيجة قيام الخليات الدماغية بوظائفها . فلما توقفت هذه الخليات عن الحركة توقفت الأفعال العقلية أيضاً ، ولم يبق شيء يسمّى عقلاً .

ثالثاً : في حالة التخدير بالـكلوروفورم ونحوه تتوقف معظم مراكز الدماغ عن العمل بتاتاً ، ويتوقف عمل الأسلاك العصبية الممتدّة من الدماغ والحبل الشوكي الى سطح الجسد، ويفقد الإنسان رشـده وإحساسه وشعوره فقداً تامـاً كأنه ميت ، فلا يحس بألم ولا بلذةٍ ولا يفكر ولا يتذكر . ومتى زال فعل المخدر عنه تنبه ، وشـعر كأنه كان في عالم الفناء ، فعاد الى عالم الحياة . يختلف شعوره هـذا عن شعوره عند صحوهِ بعد النوم . وفي أثناء غيبوبته بفعل المخدر قد يتكلم كلاماً لا تعقّـل فيه . فيهذر ويهرف ويهذي ، كأن بعض مراكز دماغه الخاصـة بالنطق لم تتخدر تماماً . فتبقى تبدي حركات ذاتيـة ميكانيكية كما يبدي ذيل الورل حركات ذاتية بعد قطعه وفصله عن جسمه . مما تقدّم يُستدل على أن الأفعال العقلية ، إنما هي نتيجة أفعال مراكز دماغيـة ، تحدث بفعل تفاعلات كيماوية في خلاياها .

رابعاً : قد يطرأ طارىء مرضي كالزهري مثلاً على أحد المراكز الدماغيـة فيعطله ، وبالتالي يتعطل معه الفعل العقلي الذي هو وظيفة ذلك المركز . فقد يتعطل المركز الخاص بالذاكرة مثلاً فينسى الشخص كل ماضيه . أو يتعطل مركز التعقل فيصبح الشخص أبله إلى

غير ذلك من النواقص العقليـة التي تنتج من تعطل مراكزها الدماغية — ولا يخفى ما في ذلك من الدلالة الساطعة على أن ما نسميه قوى عقلية ، إنما هو نتيجة حركات فقط تصدر من خلايا المراكز الدماغية .

وقد يولد الشخص وفي دماغه شيء من النقص ، فيعيش مختل العقل كل عمره . وقد يعجز الطب عن علاجه .

خامساً : بعض العقاقير تفعل في بعض خليات الدماغ (افعالاً خاصة) ، فتجعل بعض الأفعال العقليـة مضطربة أو شاذة كالخمرة والحشيش مثلاً . وظواهر أفعالها معروفة. وهنـاك عقار يدعى سكوبولامين Scopolamin يؤثر في بعض مراكز الدماغ ، فيعرّض الشخص الى فضح أسراره .

فيما تقدم كفاية على أن الأفعال العقلية إنما هي أفعال خلايا الدماغ . وما نسميه عقلاً ليس إلا مجموعة هـذه الأفعال ، تصدرها وظائف المراكز الدماغية . فمتى توقفت حركات الدماغ بسبب النوم أو التخدير أو المرض أو الموت لا يبقَ شيء يدعى عقلاً .

إن كان العقل ذاتاً مستقلة عن الجسد والدماغ، فأين يذهب بجميع قواه أو خواصه في حالة النوم أو التخدير ، ثم يعود عند الصحو ؟

فإذا سلمنا أن الروح هي العقل نفسه فإذاً هي فانية بتوقف الحياة وبفناء الجسد. لأن الأفعال العقلية تتعطل بتعطل فاعلها . والروحانيون لا يسلمون بفناء الروح

٤ — ايثرية الروح

يزعم بعض الروحيين ان للانسان جسماً ايثرياً مندمجاً في جسده المادي ، حتى اذا تعطلت حياة الجسد المادي (بالموت) انسلخ منه الجسم الايثري واستقل عنه. وهذا الجسم الايثري هو الروح .

فما هي خواصّ هذا الجسم الأيثري، إذا كان هو الذاتية التي تبقى للإنسان بعد موت جسده ؟ فهل يتقلـد هذا الجسم وظائف دماغ الجسد العقلية ؟ وكيف يمكن ذلك ؟ وقد ظهر لنا من البحث الآنف أنه حيث لادماغ مادي فلا يوجد عقل بتاتاً ، لأن العقل ليس ذاتاً بل هو عمل . فلا تفكير ولا تذكر ولا استنتاج ولا غير ذلك مما نسميه قوى عقلية — أو على الأصح تسمى أفعالاً عقلية — إذاً ، ذلك الجسم الأيثري ليس إلا هيكلاً يبقى بعد الجسد ، كما يبقى الهيكل العظمي بعد بلى اللحم والدم — هذا ان صحّ ان له وجوداً . ولا برهان عندنا أن له وجوداً .

نحن نستطيع أن نثبت أن لنا جسداً مادياً مؤلفاً من بعض عناصر كيماوية . ونستطيع أن نثبت أن لنا حياةً هي من مفاعيل الائتلاف الكيماوي لتلك العناصر . وأما

كيف تصدر هذه الحياة من ائتلاف تلك العناصر ، فهو أمر لا يزال قيد بحث العلم العملي الاختباري المعملي . وقد يكتشفه العلم في المستقبل القريب أو البعيد . ونستطيع أن نثبت أن ما نسميه قوى عقلية ، إنما هو أفعال وظائف المراكز الدماغية .

نحن نستطيع كل ما تقدم . ولكننا لا نستطيع أن نثبت أن للانسان هيكلاً ايثريّـا ينقلد شخصيته تقلداً تامّـا بحيث تبقى هذه الشخصية تامة بعقليتها ، بعد تعطل وظائف الجسد بتعطل أدوات الحياة ومراكز الدماغ . ليس عندنا أي برهان على وجود هذا الهيكل ، ليس عندنا شعور أو احساس بوجود هذا الهيكل فينا بتاتاً . وما هو إلاّ فرض لتفسير وجود شيء سموه روحاً . ولكنه فرض بلا برهان . وفي طوق كل انسان أن يفرض الف فرض لتعليل ما يدعيه . ولكن العقل لا يسلم بفرض بلا برهان .

والايثر نفسه لا يزال فرضاً غير يقيني ، إذ لا برهان علمي معملي على وجوده . وما فرضه العلماء الاّ لتعليل بعض الظاهرات الطبيعية . وإذا أمكنهم أن يعللوا تلك الظاهرات بدونه استغنوا عنه .

ونظرية النسبية تقول انه يستغنى عنه لأن الظاهرات الطبيعية تتعلل بها . ولا يعتبر الايثر حقيقة علمية ثابتة ، إلاّ إذا أمكن اثبات وجوده بعمليات معملية ، كما يثبت وجود الراديوم والهيليوم والفيتامين مثلاً .[1]

وإذن وجود الهيكل الأيثري الروحاني للجسد الانساني فرض محض ضمن فرض آخر بلا برهان ، ولو ثبت وجود الايثر ثبوتاً علميّـا يبقى الهيكل الايثري الروحاني فرضاً معلقاً لا يقر له قرار في فضاء الوهم والخيال ، إذ لا أدلة على وجوده مع الجسد بتاتاً . ما هو إلاّ خيال شعري جميل في مخيلة الروحانيين .

٥ — تطور الروح

ننظر الى نظرية ايثرية الروح نظرة اخرى من ناحية التطور . أصبحت نظرية التطور الدرويني حقيقة راهنة عند العلماء ، حتى ان اللاهوتيين سلموا بها ، وقالوا انها سنة طبيعية من جملة السنن التي سنها الله لخليقته .

فاذا كان للانسان روح تتمثل بهيكل ايثري متداخل في جسده ، ففي أي دور من أدوار تطور الحياة شرع ذلك الهيكل الايثري يتكوّن مع الجسم المادي ؟ فعندنا الإنسان النندرثالي كان قبل الإنسان الآدمي . وكان قبلهُ ستة أصناف أناس متفاوتون في التطوّر . وقبـل

---

(١) على الرغم من ذلك يعتقد الكاتب أن الايثر واضح الوجود . وقد يتوثق العلم لاثباته لانه أنجح فرض لتعليل الظاهرات الطبيعية .

الإيناس السبعة في سلم التطور كان أشباه الإنسان — الغورلا والشمبانزي الخ . وكان قبل هؤلاء القرود على اختلاف أنواعها . وكان قبلها غيرها حيوانات تدرّجت في سلم التطوّر من الميكروب فما بعد كما يعلم ذلك جيداً دارس البيولوجيا . ففي أية درجة من درجات التطوّر ابتدأ وجود الروح ؟ أو ذلك الهيكل الأيثري ؟

وإذا عيّنا الدرجة التي ابتدأت عندها الروح، فيجب أن نحدد الفاصل بين الدرجتين ونقدم تفسيراً بيولوجيّاً لكل من الدرجتين . وفي تدرج الأحياء في سلم التطور لم يوجد أي فاصل ظاهر بين درجةٍ ودرجة ، لأن التطور ليس توثّباً بيّناً ، بل هو شبه استمرار

أما الظاهرات « الشبه عقلية » أو « الشبه عصبية » فتبتدىء منذ أول درجة من درجات الحياة . فجرثومة الأميبه مثلاً إذا صدمت ذرّة رمل انكمشت عنها . ولكن إذا صدمت جرثومة Diatom « داي أتوم » مدّت منها نواتاً تقبض عليها وتغلفها وتهضمها . فهنا شبه احساس أو شعور . والدودة التي تعيش في بطن الطين اذا انكشف عنها التراب تململت لوقوع أشعة الشمس عليها . وكلما ترقّيت في ملاحظة الأحياء وجدت الشعور أقوى حتى يكاد يظهر في الحيوانات العليا كأنه عقل بسيط . فهل تصح نسبة الهيكل الايثري لجميع هذه الأحياء . هل للدودة والقرد والغورلا أرواح كالإنسان ؟

وإذا حدّدنا الطور الذي ابتدأ فيه الجسد الإنساني أو « الشبه انساني » يندغم فيه ذلك الهيكل الأيثري الروحاني ، فهل كان هذا الهيكل يتطوّر بتطوّر الجسم الحيوي البيولوجي ؟ أو أنه جاء لأول وهلة هيكلاً روحانيّاً تامّاً ، يتحمل المسئولية الأدبية والدينية، ويتقلد الحرية ويتصرف بأعماله وأفعاله مختاراً ؟ أو أن أدبيته تتطور بتطور العقل ، أي بتطور الدماغ ووظائفه العقلية .

٦ — مادية الايثر

بقي نظر آخر في المسألة وهو أن الأيثر الذي فرضه العلماء لتعليل الظاهرات العلمية ، ان ثبت وجوده كان ضرباً من المادة يختلف عن عناصرها بدقة ذراته . وقد اعتبر بعض العلماء الأيثر نفس الفوتون الذي ينحل إليه الكهيرب (إلكترون) حين اصطدامه بالكهرب (البروتون) ، وصدور القوة منهما لمعة شعاع . ويقول السير تجايمس تجينز ان الكهرب ينحل الى عشرة آلاف فوتون . وليس للفوتون شحنة كهربائية . وهو آخر ما تنحل إليه دقائق المادة .

فإذا صح الظن أن الايثر هو فوتونات فيكون هذا الأيثر مادة . والروحانيون يقولون إن الروح شيء غير مادي . وإذن فالروح أو الهيكل الأيثري جسم ماديّ لطيف جداً .

والمادة تشغل حيزاً في المكان وتتحرك في الزمكان (أي المكان الزمان) .

وإذا كانت تلك الهياكل الروحانية مؤلفة من هذا الأيثر ، فلا بدّ أن تشغل حيّزاً أي مكاناً في الفضاء الأيثري . فهل تبقى فيه أجساماً هيكلية سابحة في الفضاء ، أو أنها تنحل فيه الى فوتونات تمتزج مع فوتونات الأوقيانوس الفوتوني كما يمتزج ماء النهر بالبحر . وإن بقيت هياكل كما تكونت فما الذي يوطد قوامها ويحفظها من الإنحلال الى الأبد ؟

وإذا تمادينا في تصوّر هذه الهياكل الأيثرية الروحانية بدت لنا أسئلة عديدة عن وجودها وخلودها وتمتعها ، إلى غير ذلك مما يحار الفكر فيه .

وأغرب ما تعجز المخيلة عن تصوره هو علاقة ذلك الهيكل الايثري الروحاني بالجسد المادي العنصري الكيماوي . وأغرب من هذا أيضاً التفاعل بين الهيكلين من غير أن يحسه الانسان أو يشعر به . وأغرب من هذا وذاك اتصال الدماغ الانساني بالهيكل الروحاني المجرد عن المادة ، أي بعد موت الجسد من غير اعتبار للزمان والمكان عن يد وسيط يستحضر ذلك الهيكل ، ولو كان يبعد عنه ملايين الفراسخ النورانية ، أي لو اتفق ان كان ذلك الهيكل الروحاني في الطرف الآخر من الكون .

فمهما كان لدماغ الوسيط من قوة الاتصال اللاسلكي (على مبدإ الراديو مثلاً) فلا يمكن أن يكون أسرع من الاشعاع الكهرطيسي (كالنور) فكيف يمكن أن يتصل بهيكل الشخص الذي يبتغي الاتصال به ، على بعد المسافة السحيقة التي يعجز العقل عن تصورها ؟

***

وخاتمة القول إننا لا نستطيع أن نسلم بلا برهان بوجود هيكل روحاني سواء أكان إيثراً مادياً أو غير مادي ، بحيث ان هذا الهيكل يؤثر في الدماغ والدماغ يؤثر فيه ، ويتفاعلان ، وهما من طبيعتين مختلفتين كل الاختلاف ، ولا سيما اذا صحّ أن الهيكل الروحاني غير مادي .

ما دمنا لا نحس بالروح كما نحس بالجسد والحياة والعقل وكما نحس بالكهرباء والمغنطيسية ، أيضاً فلا نستطيع أن نسلم بصحة فرض الروح . نريد برهاناً ان تعذر الشعور .

يقول بعض المناقشين بهذا الموضوع : اذا كنت لا تحس ولا تشعر ولا تجد برهاناً فلا تستطيع أن تنكر ، لأنك لم تحط علماً بكل شيء . فما تجهله لا تستطيع أن تنكره .

فهل منطق أسخف من هذا المنطق ؟

أجل لا يحق لي أن أنكر ما أجهله اللهمّ ان كان ثمت أشخاص آخرون يعلمونه . وهل

يحق لك أن تفرض ما تجهله أنت ، فهل يستطيع هؤلاء المناقشون أن ينبئونا ماذا علموا وماذا فهموا، وكيف علموا وكيف فهموا ، لكي نفهم نحن أيضاً.

أليس غريباً أن تطلب مني أن أعتقد بالمجهول كأنه شيء موجود وأنت نفسك أشد جهلاً به مني ؟ .

إذن تستطيع أن تفرض ألوف الفروض وتعطي لكل مفروض اسماً ، ثم تفرض عليّ الاعتقاد بوجودها من غير أن تحدد ماهيتها على الأقل . هل تستطيع؟ وتبرهن لي هذه الماهية هذا منطق أسخف من السخافة .

إذا كنت لا تفهم سر هذا المجهول فكيف علمت بوجوده .

تحاول أن تثبت لي وجود الروح وخلودها ، فأرجو أن تفهمني أولاً ما هي الروح لكي أعلم ما ذا تريد أن تثبت ، وإلا فكأنك تريد أن تثبت لي وجود الأحرف الثلاثة . ر . و . ح . وهي لا تحتاج إلى إثبات . هي موجودة بين الحروف الأبجدية ـ اه

والنتيجة : — انه لا يوجد شيء وراء الوجود المادي سوى الفراغ اللامتناهي — العدم

بقي بحث في موضوع الخلق نكشف عنه رحمة باداقول السفير

عالم الذرة
أو
الطاقة الذرية

ATOMIC ENERGY

بقلم
نقولا الحداد

مطبعة المقتطف والمقطم بمصر
١٩٤٨

استهلال

عالم ما بعد القنبلة

بعد ساعة أو بضع ساعات من سقوط القنبلة الذرية على هيروشيما كان الجنس البشري كله مدهوشاً جزعاً من هذا الحادث الهائل المفاجيء — أجل مفاجيء — من ألوف الطائرات ترمي ألوف الأطنان من المتفجرات فتدك أحياء المدن حيًّا حيًّا إلى طيارة واحدة ترمي قنبلة واحدة تزن رطلاً واحداً ، فتدك مدينة واحدة عظيمة في لحظة واحدة دكًّا هائلاً — خبر لا يكاد يُصدَّق . ولكن العالم كله صدَّقه ، لأن هوله لمع في جميع البلدان وأتام البرهان وحتَّم الإيمان وضعضع البهتان . والمرء يجزع من خوارق الحدثان التي تمثل في مخيلته قصص الجان .

يقيناً انتقل العالم من عناء مناوشة المتفجرات فوقع تحت سلطان الذرة الحاسم ، بكلمة واحدة من لسان الأورانيوم خرَّت اليابان على ركبتيها ضارعة مستغيثة تلتمس الرحمة والرفق

لو وُفِّق مخترعو قنبلة الذرة منذ شرعوا في محاولة صنعها لخرَّت ألمانيا ساجدة منذ سنة ١٩٤٠ وحُقِنت دماء كثيرة .

أصبح البشر الآن خائفين على مدنيتهم أن تبيد بتاتاً ، وعلى جنسهم أن ينقرض كما انقرض قبله الدينوسور وحيوانات أخرى

صار الناس يحسبون حساب المستقبل الجديد — نعم سيكون المستقبل كله جديداً . وسيصبح حاضرنا كأنه ماضٍ ، من قبل التاريخ ، كما كان العصر الحجري بالنسبة الى عصر ما قبل التاريخ .

عصر مجد الكيمياء انقضى ، وجاء عصر سؤدد الذرة الكهربي ، وأصبح اكتشاف الكهربائية درجة للصعود إلى عالم الذرة ، كما صار عصر البخار كالحمار لدى عصر الطيار .

القنبلة الذرية لم تفتتح فصلاً جديداً في كتاب العلم ، بل فتحت دائرة معارف جديدة ،

وفتحت فصلاً جديداً في الثقافة ، وسيضاف الى مناهج الدراسة في الجامعة منهاج جديد للتخصص في « علم الذرة » .

في عام أو بضعة أعوام سيرى طلبة الطبيعة والكيمياء لديهم كتاباً مطولاً في علوم الذرة — بناؤها وتركيبها وتحليلها ووظائف أعضائها وقواها ومفاعيلها إلى غير ذلك . ولا بدَّ من دراستها ، لأنها ستصبح السبيل الوحيد لفهم الالفة الكيميائية والتيار الكهربائي ولتبسيط الكيمياء والكهرباء . وسيلقب الناجح في علم الذرة بكاوريوس الذرة أو أستاذ الذرة أو دكتور الذرة ، وأخيراً فيلسوف الذرة .

مسكين طالب العلم في العصر الجديد ، سيمتد عمر دراسته عاماً أو عامين أو أكثر لدراسة علم الذرة .. لا تجزعنَّ يا بنيَّ ، لأن الحقائق متى وضحت سهلت الدراسة .

لا يصح أن نسمي هذا العصر الجديد عصر الأورانيوم ، لأن تحطيم الذرة لاستخراج الطاقة منها لن يقتصر على الأورانيوم وحده بل سيتناول العناصر الاخرى الواحد بعد الآخر . اليوم تحطم الاورانيوم وبعده الرصاص ، ثم الحديد ، ثم الكربون ، وربما تحطم الهيدروجين أخيراً .

ستتحطم ذرات القلم الذي في يدي ، وذرات الورق الذي بين يديك ، وذرات الكرسي الذي تقعد عليه . ستكون كل الذرة في الكون قابلة التحطيم ، كما أن ذرات عناصر الشمس متحطمة تباعاً ومنتثرة حطامها في الفضاء فوتونات أو ضُوَيْئات . ولولا حطام ذرات الشمس المتناثرة في الفضاء لما رأينا نوراً ولا دفئنا بحرارة . لسوف تذوب الشمس حطام ذرات في الفضاء ، كما يذوب الشمع أمام النار . وكذلك سيكون مصير جميع الأجرام أن تتناثر كلها فوتونات في الفضاء اللامتناهي . هي من الأثير وإلى الأثير تعود . وربما تجدَّد تكوُّن الكون بعدئذٍ في دورة أخرى ، والله أعلم .

سيصبح تحويل معدن إلى معدن أسهل من تحويل اللبن إلى كونشوك ، والقطران إلى روائح وألوان . ثم تكون القوة أطوع ليد الإنسان من الكلب الامين أو الحصان الودود . قد يمكن الانسان أن يطير حول الكرة الأرضية تحت شمس الظهر ، ويبقى تحت شمس الظهر حتى يجد نفسه قد عاد إلى مطاره ولا يخزن معه من القوة إلاَّ قدر الحمصة في علبة سجاير .

وكذلك يستطيع بزورقه أن يمخر البحار الخمسة بقوة هـذه الحصة ، ويطوف جميع بقاع الأرض في سيارته بقوة هذه الحصة .

وسيرى حصات الاورانيوم أو البلوتونيوم أو الراديوم أو غيرها تدير معامل الصناعات على اختلاف أنواعهـا . نعم سيرى الانسان نفسه سيد الطبيعة بالفعل — يهيج البحـار ويسكـنها ، ويجري الأنهار ويحبسها ، ويستنزل الأمطار ويكفها — يتصرف بالطبيعة كالآلـه

ولـكن وا أسفاه سيبقى هنـاك شيء لا يستطيعه الإنسان . يسيطر على الأورانيوم ويتسلط على المعادن ويعتقل القوة العظمى ، ولـكن هناك شيئاً لا يستطيعه . لا يستطيع أن يملك عنان الطبع البشري ! يستطيع أن يقهر قوات الطبيعة ، ولـكنه لا يستطيع أن يقهر شهوته . يستطيع أن يكبح جماح الحر والبرد والريح والبحر والعاصفة ، ولـكنه لا يستطيع أن يكبح جماح رذيلته وشروره .

يكون سيد المادة ، ولـكن شهوته تبقى سيدته !
يشمخ على عوامل الطبيعة ، ولكن نزعاته تشمخ عليه !
يركب متن الطاقة الذرية ، ولكن شيطان أهوائه يمتطيه !
يحطم الذرة ، وأخيراً الذرة تحطمه !

أصبح الإنسان الحيواني عنـد مفرق طريقين : إما أن يعقل ويعتقل القوة الذرية فيستخدمها لتمتعه ، أو أنه ينتحر بها ...

المدنية الآن في نشوة من خمرة انتصارها على الطبيعة ، فإن استطاعت أن تصحو من هذه النشوة قبل أن تهوى إلى هاوية الفناء ، وأن تجعل النظم الاجتماعيـة والسياسية علماً بقواعد وأصول لتسير عليها ، كما جعلت السنن الطبيعية علوماً لها ، نشأت مدنية جديدة في فردوس من السعادة لا يفرغ منها .

اليك هذا الـكتاب .هو أول كتاب[1] في علم الذرة باللغة العربية فاقرأ واغتفر اغلاطه وتكرّم بالارشاد إليها .

نقولا الحداد

(١) لقد صدر قبله كتاب او كتابان ولكنه كتب قبل كل كتاب ولم يسعفه الحظ أن يطبع في حينه

الفصل الاول

ماهي الذرّة

١ — العناصر الكيمية

الوَحدة هي الجسم الذي يتألف من أفراده المتماثلة جسم أكبر منها . الانسان وَحدةٌ في المجتمع . أي أن المجتمع يتألف من وحدات الإنسان . وجسم الإنسان ، وكل حيّ ، يتألف من وحدات هي الخلايات الحيوية Cells . والخلية وكل مادّةٍ من مواد الأرض (والنجوم أيضاً) تؤلف من وحدات طبيعية تسمى جزيئات Molecules كاللحم والعظم والخشب والتمر والتراب والحجر والهواء والماء . والجزيء مؤلف من وحدات كياوية عنصرية تسمى ذرّات

جزيء البترول أو السكر أو النشا مؤلف من الهيدروجين والاوكسجين والكربون. وجزيء اللحم مؤلف من هذه ومعها النتروجين . وجزيء الحجر مؤلف من الثلاثة الأول ومعها الكلس وغيره . وهكذا ألوف جزيئات المادة مؤلفة من وحدات تسمّى ذرّات .

آخر ما توصل إليه علم الكيمياء إن الذرات التي تتألف منها جميع المواد الأرضية ٩٢ نوعاً وكل نوع يسمّى عنصراً . وحاصل ما تقدّم أن الذرّة في عرف الكيميين هي الوحدة المادية الأولى . وكانت الى آخر القرن الماضي تسمى « الجوهر الفرد » الذي لا يتجزأ Atom وهذه كلمة يونانية معناها « لا ينقسم »

ولكن في أوائل هذا القرن ظهر للعلماء الكهربائيين أن الذرّة ليست الجوهر الفرد الذي لا ينقسم لأنها مركبة من جُسيمات أو ذريرات ، وانها تتجزأ إليها كما سيأتي بيانه لكل عنصر من العناصر ذرّته الخاصة به . ووظيفة الكيمياء لا تتجاوز عالم الذرّات

وتختلف ذرّات العناصر بعضها عن بعض بخاصتين أساسيتين : أولاً وزنها ، وأخفها ذرة عنصر الهيدروجين ، وقد جعل وزنها مقياساً لأوزان جميع العناصر . فوزن ذرّة الهيليوم مثلا أربعة أضعاف وزن ذرّة الهيدروجين والكبريت ٣٢ والفضة ١٠٨ والذهب ١٩٧ والأورانيوم ٢٣٨ وهو أثقلها جميعاً . وثانياً تختلف بعضها عن بعض بالفتها الكيمية . وهذه الإلفة هي الرباط الذي يربط ذرّة بذرة أو بذرات كما يعلم العالم الكيماوي .

ولكن ما هي الألفة الكيمياوية ؟ هي إسم لمسمّى كان مجهولاً . ربما علم في غضون بحثنا في هذا الكتاب.

إن جميع مواد الكرة الأرضية مؤلفة من ٩٢ عنصراً ، منهما إثنان لا يزالان مجهولين ولكن خواصهما معروفة . فاذا اهتدي إليهما وجدا مطابقين لها، ويحتمل أن يكتشف العلماء عناصر أخرى . والراجح أن جميع هذه العناصر أو بعضها موجودة في كثير من الاجرام السماوية . وقد يوجد في بعض الأجرام عناصر لا وجود لها في أرضنا أو لم يكتشف في أرضنا . والعلماء اكتشفوا الهيليوم في الشمس قبل أن يكتشفوه في أرضنا

وقد لوحظ أن بين هذه العناصر الـ ٩٢ ثلاث جماعات مختصة بظاهرات طبيعية مختلفة . الجماعة الأولى جماعة المواد الحيوية . وهي الهيدروجين والاوكسيجين والكربون والنيتروجين (وهناك بعض أملاح ثانوية في تركيب الخلايا الحيوية) فأجسام جميع الأحياء من ميكروبات ونباتات وحيوانات مؤلفة منها . والجزيئات المؤلفة أساسيًّا منها تشتمل على عدد كبير من الذرّات . قد يبلغ الجزيء الواحد ألفي ذرّة . في حين أن جزيئات العناصر الاخرى لاتتجاوز بضع عشرة ذرّة . وأقل جزيء يشتمل على ذرّتين مختلفتين أو متماثلتين كحامض الهيدروكلوريك من هيدروجين وكلور

الجماعة الثانية : هي الجماعة التي لها خاصية الجذب والانجذاب المغنطيسي . وهي الحديد والكوبلت والنيكل .

الجماعة الثالثة : هي العناصر ذات النشاط الاشعاعي Radio-activity وأهمها الراديوم ثم الاورانيوم والاكتينوم والثوريوم . وهي أهم العناصر لنا في هذا الكتاب .

وكل جماعة متجاورة العناصر في جدول العناصر ما عدا الجماعة الأولى . فالعضو الأول منها الهيدروجين بعيد عن اخوته الثلاثة قليلاً

٢ — تشريح الذرة

منذ أواخر القرن الماضي ظهر أن الذرّة ليست الجوهر الفرد كما كان يعتقد الكيماويون لأن الاختبارات العلمية باطلاق التيار الكهربائي في وسط من الغاز اللطيف الرقيق ودراسة أشعة الطرف السلبي من التيار المسمى « كاثود » أظهرت أن هناك جسيمات أو ذريرات أصغر أو أقل وزناً نحو ١٨٤٠ مرة من وزن ذرة الهيدروجين نفسها وانها ذات شحنة كهربائية سلبية ، فسماها جونستن ستوني مكتشفها « الكترونا » ونحن نترجمها كهيربا . وبعد التحقيق رأى تومسن أن هذا الالكترون موجود في كل ذرة من ذرّات العناصر الكيمية . والذرات تختلف باختلاف عدد الكتروناتها (كهيرباتها) . والقوة التي تحفظ هذه الالكترونات في الذرة بقيت تحت الحدس والتخمين .

ويحسب هذه النظرية الالكترونية الحديثة كل ذرة تؤلف من نواة صغيرة ثقيلة نسبياً وقطرها نحو جزء من ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ من السنتيمتر حجماً يحيط بها فراغ قطره نحو جزء من ١٠٠٠٠٠٠٠٠ جزء من السنتيمتر [1] تدور فيه الكترونات حول النواة كما تدور الكواكب حول الشمس . والنواة معبأة بعدد صحيح من الشحنات الكهربائية الايجابية وقيمة كل منها ١٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ من الكولب والكولب هو الوحدة الكهربائية (اقرأ عنه في أحد كتب الطبيعيات أو الكهرباء) وكل الكترون يحمل شحنة كهربائية سلبية (أي مكهرب) بهذه القيمة أيضاً . وعدد الالكترونات الدائرة حول النواة يساوي عدد الشحنات الايجابية التي في النواة . فلذلك تعتبر الذرة كلها متعادلة الشحنة Neutral

وفي سنة ١٩١١ ظهر للورد رذرفورد من تجاربه أن هذه الجسيمات الصغيرة تعبر بسرعة فائقة في أية مادة حين تنقذف من العنصر ذي النشاط الاشعاعي كالراديوم مثلاً . فأدّى هذا الاكتشاف الى أن الكهربائية الايجابية مركزة في نواة متوسطة في الذرّة . وهي ذات حجم صغير جدّاً بالنسبة الى الحيز الذي تشغله الذرّة نفسها . وليس ذلك فقط بل أن معظم

---

(١) انظر نبذة ٣ من فصل ٣

كتلة الذرة هي في هذه النواة . والالكترون (الكهيرب) يتحرك دائراً في جو الذرة على بُعدٍ سحيق من نواتها (بالنسبة الى أحجام النواة والكهارب) . الكهيربات أي الالكترونات تدور في أفلاك حول النواة بقوة جاذبية في جو النواة تسمى Electrostatic ما هي ؟ الله أعلم

٣ — ألفا ، بيتا ، جا

إذا أمررت أشعة الراديوم بين قطبين مغنطيسيين ترى أن بعض هـذه الأشعة تنكسر فتميل الى القطب السلبي . ولما كانت الأقطاب المتخالفـة تتجاذب والمتماثلة تتدافع إذن فانحراف الشعاعة الى القطب السلبي يدل على إنها إيجابية الشحنة وإنها صادرة من نواة الذرة لأن النواة تحتوي على ذريرات (بروتونات) إيجابية تسمى كهارب . وهي نوى الهيليوم الذي ينطلق من الراديوم في إثناء تشععه . فسموها « أشعة ألفا » (حرف ألف باليونانية) ورأوا بعضها تميـل الى قطب المغنطيس الايجابي . فهي إذن ذريرات مشحونة شحنة كهربائية سلبية . فسموها أشعة بيتا (وهي حرف ب باليونانية) هي ذريرات الالكترونات (الكهيربات) السريعـة . وبعضها لا تميل الى هنـا ولا الى هناك . إذن لا شحنة فيها . فسموها أشعة جمّـا (حرف ج باليونانيـة) وهي تشععات كهرطيسية كالأشعة السينية . (أشعة رنتجن) .

ومن هذه الثلاث أشعة جمّـا وحدها تسمى في الراجح تشععات Radiations أو Rays وهي تفعل فعل الذريرات لقصر موجاتها (كأن كل موجة ذريرة) فذريرة جمّـا أو شعاعة جمّا تسمى « فوتون » وهو « المقدار » كونتم Quantum الذي قال به بلانك .

وعلى العموم ذريرات جمّـا أي أشعتها أشد نفاذاً في الأوساط او الاجسام من أشعة « الفا » و « بيتا » . ومع أن هاتين أقل نفاذاً فلهما طاقة قوية جداً بالنسبة الى الحجم الذري ألوف أضعاف الطاقة الذرية التي في جزيئات الغاز وفي التفاعلات الكيمية .

وقد أظهر رذرفورد أن ذريرات أشعة « الفا » الصادرة من الراديوم اذا صدمت صفحة معدنية عبر معظمها الصفحة كما تعبر البراغش شبكة معدنية . وعبرت بعضها مائلة في زاوية منفرجة الامر الذي يدل على أنها صدمت في طريقها جسيمات أثقل منها أي أثقل من

ذريرات « الفا » نفسها . فمن هذه العملية ومن عمليات أخرى استنتج رذرفورد أن الذرة تؤلف من الالكترونات ظهر بعدئذ انها تدور حول نواة صغيرة جداً ولكنها ثقيلة جداً بالنسبة الى الالكترون ١٨٤٠ مرة . ومن هذه الامتحانات ظهر أن الالكترونات سالبة الشحنة الكهربائية وان الشحنة الموجبة مركزة في النواة (انظر نبذة ١ من فصل ٧).

ومن ثم صاغ رذرفورد تلميذ طومسن ومعه لورنتز نظرية الالكترون . ولكنها كانت نظرية غامضة لم تتوضح فيها قيمة الالكترونات وعددها بالنسبة لقيمة النواة ، الى أن جاء أحد تلاميذ رذرفورد الفتى النابغة موزلي H. G. T. Mosely المأسوف عليه [1]

وكان في سنة ١٩١٣ أن موزلي اكتشف اكتشافه العظيم الشأن وهو ما يأتي :

كان موزلي اذا قذف أي عنصر كيماوي برشاش من الكترونات الراديوم (بيتا) مثلاً أو من قطب الكهرباء السلبي Cathode صدرت منه أشعة سينية (أكس) فكان يقيس أمواجها ويدونها بواسطة المطياف (سبكتروسكوب) أي أنه أتى على جميع العناصر تقريباً بهذه العملية . ولاحظ أن بين أرقامها تناسباً تصاعديًّا مع أوزانها . ورأى أن الجذر المربع لطول موجة الهيليوم مضاعف الجذر المربع لطول موجة الهيدروجين . وهي تأتي فوقها في جدول الوزن الذري . والجذر المربع لطول موجة الليثيوم ثلاثة أضعاف الهيدروجين . وهو أثقل من الهيليوم . وجذر البريليوم (٤) أضعاف . والبورون (٥) والكربون (٦) وهكذا دواليك الى الاورانيوم وجذر طول موجته (٩٢) . رأى أن هذه النسبة التصاعدية متمشية مع الوزن التصاعدي في جدول الاوزان الذي أحصاه مندليف الكيماوي الروسي المشهور منذ سنة ١٨٦٩ من غير تعادل بين الوزن الذري والرقم الذري التصاعدي كما يرى لاول نظرة في الجدول المذكور في آخر الكتاب .

هذا ما حققه موزلي عمليًّا بقياس الموجات . وكان اكتشافه هذا العظيم الشأن معبداً

(١) كان موزلي جندياً في الحرب العالمية الاولى ، وقد قضى نحبه في الخندق في ميدان غليبولي في حملة الدردنيل في ١٠ اغسطس سنة ١٩١٥ . واعتبر قتله أعظم خسارة عالمية . لانه لو بقي حياً لانتج في العلم... الله أعلم ماذا . ألا تباً لمن جنده أو لمن لم يحمه من خطر الحرب بوظيفة كتابية في الجيش ينفع فيها أكثر من الجندي المقاتل . ولكن هكذا شاءت حماقة رجال الحرب .

الطريق الى نظرية بنية الذرة ، ومؤيداً للجدول الذي رتب النابغة مندليف فيه العناصر بحسب خواصها الكيماوية فجاء مطابقاً له كل المطابقة .

وأهم من هذا وهذا أن فندن بروك الهولندي استخرج من عملية موزلي بالعمليات الرياضية نظرية شحنة النواة . وهي أن رقم كل عنصر كما استخرجه موزلي دلّ على قيمة الشحنة الايجابية في نواة الذرّة . أي أن الشحنة في نواة الهيدروجين واحد وفي نواة الهليوم (٢) وفي الليثيوم (٣) الخ . ومن ثمّ كان عدد الالكترونات مطابقاً لعدد الشحنات في النواة . وبهذا تكون الذرّة كلها متعادلة . لأن كل الكترون يقابله بروتون في النواة .

يظهر مما تقدم أن اكتشاف موزلي كشف عن خواص كثيرة في باطن الذرّة ووسع دائرة البحث في علائق الالكترونات بالنواة . فأولاً أظهر كيف تُوزَّع الالكترونات في جوّ الذرّة حول النواة . وثانياً كيف تكون بنية النواة نفسها . فان أوزان العناصر غير متفقة مع أرقام شحناتها . فبينما نرى وزن الهيدروجين واحداً وشحنته الايجابية أو السلبية واحداً نرى وزن الهيليوم (٤) وشحنته (٢) ووزن الليثيوم (٧) وشحنته (٣) الى أن نصل الى اليورانيوم فنرى وزنه ٢٣٨ م وشحنته ٩٢ أي أن الاوزان غير مناسبة للشحنات .

ثالثاً ، وهو متفرّع من (ثانياً) هل كل وحدة سلبية (الكترون) في الذرة تقابل وحدة ايجابية فيها حقيقية ؟ يعني هل النواة مؤلفة من ذريرات ذات شحنات ايجابية أو كلها ذريرة واحدة ذات شحنات متعددة ايجابية ؟ سنرى فيما بعد شرح هذه الأسئلة .

٤ — مناطق الالكترونات

في سنة ١٩١٦ تقدّم كيماويان اميركيان هما ج . ف . ليويس Lewis وأرفن لانجمور Langmowr بنظرية تقول بأن الكهربات مترتبة حول النواة في أفلاك بعضها وراء بعض كأنها في أغلفة كروية يشتمل بعضها بعضاً كطبقات البصلة . تصور هذه الطبقات وهمية تسبح في كل طبقة منها كهيربات (الكترونات) تدور في أفلاك حول النواة كدوران الكواكب السيارة حول الشمس .

النواة في مركز هذه الطبقات الاوسط . تصورها في قلب كرة وهمية . وفي محيط هذه

الكرة الأولى يدور كهيرب الهيدروجين أو كهيربا الهيليوم . ثم حول هذه الكرة كرة ثانية تدور في سطحها من ١ الى ٨ كهيربات لثمانية عناصر من الليثيوم إلى النيون . ثم تحيط بهذه كرة ثالثة تسير فيها ٨ كهيربات لعناصر أخرى . ثم كرة رابعة لثمانية عشر كهيرباً . ثم كرة خامسة لثمانية عشرة كهيرباً . ثم كرة سادسة ل ٣٢ كهيرباً. ثم سابعة تحتمل ٣٢ أيضاً ولكن ليس فيها إلاّ ٦ كهيربات منها كهيربات الاورانيوم . ومجموعها هكذا.

أول منطقة تحتمل من كهيرب واحد الى ٢							
٢	«	«	«	«	«	«	٨
٣	«	«	«	«	«	«	٨
٤	«	«	«	«	«	«	١٨
٥	«	«	«	«	«	«	١٨
٦	«	«	«	«	«	«	٣٢
٧	«	«	«	«	«	«	فيها ٦ فقط

٢٦ كهيرباً غير موجودة في السابعة وتحتمل ٣٢ المجموع ٩٢

بقي ان نعلم موقع كل كهيرب في منطقته . فقد تصوره ذانك العالمان في كل زاوية من شكل هندسي وهو المكعب فله ٨ زوايا وزواياه في سطح كروي . بهذه النظرية قد يمكن ان تُفسَّر أمور كثيرة — ومنها : أولاً تكرار الخواص الكيماوية الدورية التي نبهت مندليف الى ترتيب العناصر في جدوله . فترى مثلاً ثلاثة عناصر متشابهة في خواصها الكيمية كل التشابه وهي ليثيوم وصوديوم وبوتاسيوم لأن لكل منها كهيرباً واحداً في منطقته الخارجية. فالليثيوم مثلاً له في المنطقة الاولى كهيربان. وفي الثانية كهيرب واحد . وللصوديوم ٢ في الأولى و ٨ في الثانية وواحد فقط في الثالثة الأخيرة . وللبوتاسيوم ٢ في الاولى و ٨ في كل من الثانية والثالثة وواحد في الرابعة الأخيرة . فترى ان في كل منطقة أخيرة من مناطق هذه العناصر كهيرب واحد فقط . وسنرى فيما يلي ان الالفة الكيمية تتوقف على المنطقة الاخيرة لكل عنصر. أما المناطق التي ضمن الاخيرة لا شأن لها في الائتلاف الكيماوي .

٥ — الالفة الكيمية

ثانياً : بهذه النظرية تتعلل الالفة الكيمية . فالعنصر الذي تنقص منطقته الخارجية عدداً من الكهيربات يستوفيها من اتحاده بعنصر آخر في منطقته الخارجية وهو العدد الذي ينقص ذاك . مثال ذلك نرى في منطقة الصوديوم الخارجية كهيرباً واحداً فقط وفي منطقة الكلورين الخارجية ٧ فاذا ائتلفا (في كلوريد الصوديوم) اندمجت منطقة ذاك بمنطقة هذا فأصبحت المنطقتان منطقة واحدة ذات (٨) كهيربات يشترك فيها العنصران .

كذلك للكربون (٦) كهيربات (٢) في المنطقة الاولى و (٤) في الثانية. وللاوكسجين (٨) منها (٢) في الاولى و (٦) في الثانية ينقصه (٢) فيها . فاذا انضم الى ذرة الكربون ذرتا أوكسجين كان النقص في الاثنتين معاً (٤) وهي ما ينقص الكربون . فاذا اتحدت الذرات الثلاث اشتركت الثلاث في منطقة أخيرة ذات (٨) كهيربات . وكان لنا غاز الحامض الكربوني .

يظهر مما تقدم أن الذرة تأخذ كهيربات أو تعطي كهيربات بحسب ما عندها منها في المنطقة السطحية الأخيرة . ففي حالة الصوديوم والكلورين مثلاً للاول في منطقته الاخيرة كهيرب واحد وللكلورين (٧) . فهذه المنطقة أقوى من تلك . فهذه تأخذ وتلك تعطي الواحد الأعزل الذي عندها . ومعنى ذلك بعبارة أخرى أنه اذا كانت المنطقة الاخيرة قليلة الكهيربات تتركها لأختها . وإذا كانت كثيرتها وينقصها بعض تأخذ ما قلّ عند تلك . يعني «من كان له يعطى ويزاد،ومن ليس له يؤخذ منه ما معه » .

هذه هي الألفة الكيماوية وبها تتعلل جميع المركبات الكيماوية . هي نظرية جميلة ولكنها لا تتفق مع نظرية التموجات الشعاعية التي لا بد لها من تحرك الكهيربات أو دورانها في أفلاكها كما ذهب اليه لورنتز .

والدكتور نيل بوهر الدنمركي Niel Bohr تلميذ روذرفورد أنشأ نظرية لبناء الذرة يمكن أن تتفسر بها الموجات الشعاعية . وهذه النظرية تقتضي توزيع الكهيربات في طبقات مناطق كما قال لانجمور وليويس ، ولكن ليس في زوايا مربعات كما قالا بل في أفلاك تدور فيها الكهيربات في سطوح كروية بعضها أفلاك مستديرة وبعضها في أفلاك اهليلجية أي

بيضية الشكل كثيراً أو قليلاً . نرى كل ذرة كأنها نظام شمسي نواتها تقوم مقام الشمس والكهيربات سياراتها . وسطوح الأفلاك مائلة بعضها على بعض أكثر من ميلان سطوح الأفلاك الشمسية .

٦ — أفعال أفلاك الالكترونات

الأطياف الموشورية Spectrum تنشأ من اضطراب أفلاك الالكترونات[1] الخارجية. وأشعة اكس تنشأ من اضطراب الالكترونات التي حول النواة . وخواص الذرة الكيماوية قائمة في الكتروناتها الخارجية كما سبق القول . وتركب المركبات الكيمية ينتج عن تغير ترتيب الالكترونات الخارجية في الذرات .

وبناءً عليه إذا ظهرت الطاقة في الاحتراق أي التأكسد Oxidation أو الانفجار أو في اية عملية كيماوية تظهر على حساب هذه الترتيبات الالكترونية ولا تأثير للتفاعلات الكيماوية في نوى الذرات . اي ان نواة الذرة لا تتأثر بالتفاعلات الكيمية لان هذه مقتصرة على فلك الكهيربات الخارجي فقط .

(١) نستعمل احيانا اللفظ الاجنبي الكترون بدل الكهيرب والبروتون بدل الكهرب لكي يبقى القارئ متذكراً الاسم العلمي الاصيل مع الاسم العربي

المترجم

الفصل الثاني

بنية نواة الذرة

انتهينا من تشريح بدن الذرة أي الطبقات الكروية التي حول النواة والكهربات التي تدور فيها . نأتي الآن الى قلب الذرة نفسها أي نواتها . والنواة أهم عضو في الذرة كما سنرى .

١ — البروتون والنيوترون

كان روذرفورد أول من غزا النواة فيما كان يدرس أشعة الراديوم . ففيما كان يطلق من الراديوم أشعة (ألفا) الى ذرات بعض العناصر، بدا له ان في النواة سجية أو مبدأ إيجابي الشحنة . فسمى الذريرة الايجابية بروتوناً ونحن نترجمها كهربا . وثبت له ان شحنة البروتون تساوي بالقيمة شحنة الالكترون . ففي نواة الهيدروجين شحنة ايجابيـة مقابل شحنة الالكترون السلبية التي في فلكها . فذرة الهيدروجين أبسط الذرات وأخفها . وأما ذرات العناصر الأخرى التي تحتوي على عدد من الالكترونات في أفلاكها ، ففي نواتها بروتونات إيجابية مساوية لها في الشحنة . كل الكترون يقابله بروتون في النواة . وهكذا تبقى الذرة متعادلة . فاذا نقصت الكتروناً لسبب ما صارت إيجابيـة الشحنة . أو اذا نقصت بروتوناً صارت سلبية الشحنة . وكلما ارتفعت في سلم العناصر وجدت النوى البروتونية وأفلاكها الكهيربية أكثر تعقيداً .

وقد ظهر لمشرحي الذرة ان وزن البروتون ١٨٤٠ مرة تقريباً كوزن الالكترون . فكأن وزن الذرة انما هو في نواتها ولا قيمة لوزن الكتروناتها . والذي أدهش علماء الطبيعة ان حجم البروتون الثقيل ثلث حجم الالكترون الخفيف الذي لا يكاد يكون ذا وزن . ذاك متكاثف

جدًّا وهذا متلطف جدًّا . فكأن هذا كرة من غاز خفيف جدًّا لقاء كرة من حديد .

على ان العقدة المهمة هي في عدم التناسب بين أوزان الذرات وشحناتها الكهربية . مثلاً للهيليوم شحنتان سلبيتان في كهربيه وشحنتان إيجابيتان في كهربيه (بروتونيه) . ولكن وزنه أربع مرات كوزن الهيدروجين (الذي هو وحدة الوزن للعناصر) فهل فيه ٤ بروتونات ؟ إذن لماذا فيه كهربان فقط . كذلك الليثيوم وزنه سبعة أي في نواته ٧ كهارب ولكن ليس في جوه إلا ٣ كهيربات . فكيف ذلك ؟

قالوا في أول تشريح الذرة ان كل كهيرب ايجابي (بروتون) يجب أن يقابله كهيرب سلبي وإلاَّ انتفى التعادل في الذرة . وإنما بعض الكهيربات في أفلاكها وبعضها مقيمة مع كهاربها في النواة . ففي حالة الهيليوم مثلاً كهيربان في الفلك وكهيربان في النواة مع كهيربين . وفي حالة الليثيوم ٣ كهيربات في الفلك و ٤ كهيربات مع ٤ كهارب في النواة وهكذا . والكهيرب الذي مع كهربه في النواة متعادل الشحنة . فاذاً في النواة (كهارب مع كهيربات) متعادلة.

وإنما يعترض على هذه النظرية ان الكهيرب اذا التقى بكهربه تنافيا وامحقا كتنافي الايجاب والسلب . ولكنهم تداركوا هذا الاعتراض بأن الكهرب الذي لا كهيرب له في الفلك يعتبر خالي الشحنة بتاتاً فسموه نيوتروناً Neutron أي متعادل . فما يزيد في وزن الذرة عن رقمها الذري يحسب نيوترونات . وأما وزنها كله فهو كل ما فيها من بروتونات ونيوترونات جميعاً .

مثال ذلك الكبريت وزنه ٣٢ ورقمه الذري ١٦ يعني في أفلاكه ١٦ كهيرباً وفي نواته ١٦ كهرباً مقابلة لها . والباقي الزائد في النواة ١٦ نيوتروناً . والحديد وزنه ٥٦ منها ٢٦ بروتوناً و٣٠ نيوتروناً ومقابل البروتونات ٢٦ الكترونا وهكذا دواليك .

بحسب طبيعة التنافي بين الايجاب والسلب لم يمكن قبول نظرية ان النيوترون هو بروتون في النواة معانق الكترونه، لانهما في هذه الحالة يتنافيان وينفرط عقدهما الى فوتونات (ضويئات) تذهب في الفضاء هباءً منثوراً . لذلك جنحوا أخيراً الى تسمية البروتون الذي لا شحنة فيه نيوتروناً (Neutron) خالي الكهربة .

٢ — النظائر

وللنيوترون فضائل كما سترى في سياق حديثنا وأولها تفسير لغز « النظائر » فما هي النظائر ؟

نرى في جدول العناصر عناصر كثيرة ليست أوزانها أعداداً صحيحة بل فيها كسور أي ليست أوزانها مضاعفات وزن الهيدروجين . خذ مثلاً الليثيوم وزنه ٦،٩٤ ، المغنيزيوم وزنه ٢٤،٣٢ ، الكلورين ٣٥،٤٥ حتى الهيدروجين نفسه كسري الوزن ١،٠٠٨

وتعليل هذا الاختلاف بحسب نظرية النيوترون أن النواة اذا زيد عليها نيوتروناً واحداً أو أكثر وبقي عدد الكتروناتها هو إياه ، يزداد وزنها واحداً ، ولكن يبقى تصرفها الكيماوي كما هو لا يتغير . يزداد وزنها ، ولكن شحنتها تبقى كما هي لا تتغير . مثال ذلك الهيدروجين الثقيل (ديوترنيوم) يختلف عن الخفيف بأن في نواته نيوتروناً علاوة على بروتونه ولكنه ذو الكترون واحد كالخفيف . ولذلك يتشابهان كل التشابه بتصرفهما الكيماوي . فهما نظيران لعنصر واحد . فالمزيج منهما وزنه الذري ١½

كذلك المغنيزيوم بعض وزنه ٢٤ وبعضه ٢٥ بنسبة ٣٢ الى ٦٨ فهما نظيران والمزيج منهما بهذه النسبة وزنه ٢٤،٣٢ وسلوكهما الكيماوي واحد لأن عدد الكتروناتهما هو هو ، والفرق بينهما أن في الواحد نيوتروناً زيادة . في الواحد ١٢ وفي الآخر ١٣

من هذا القبيل الاورانيوم له ٣ نظائر بأوزان ٢٣٤ و ٢٣٥ و ٢٣٨ بنسبة ٠،٠٠٦ ،٠،٧و٩٩،٣ على التوالي . جميع هذه النظائر تسلك كيماويًا سلوكاً واحداً لأن لكل منها ٩٢ الكتروناً في أفلاكها على السواء وسر الألفة الكيمية في الالكترونات الخارجية كما علمت آنفاً . وبسبب هذا التشابه الكيماوي سموها نظائر

اذا كانت ذرة ما كذرة الراديوم مثلاً تنفث ذريرة « ألفا » التي كتلتها (أي وزنها) ٤ ورقمها الذري ٢ تصبح ذرة عنصر آخر تحت الراديوم (لا يزال مجهولاً) وهذه الذرة ناقصة عن الراديوم ٤ وزنات ورقمها الذري ناقص ٢ فاذا انبثق من النواة الأصلية ذريرة « بيتا » (الكترون) وانضم الى الكتروناتها زاد الرقم الذري واحداً وبقي رقم الكتلة الذرية

كما هو . ففي مثل هـذه التغيرات في الذرّة تصدر أشعة جدًّا (فوتونات) . وهي التي نترجمها (ضويئات)

العناصر التي تنفث ذريرات وتتغير وتتفتت من تلقاء نفسها تعتبر غير راسخة البنـاء وتسمى« نشيطة الاشعاع» . والعناصر المختصة بهذه المزية أي نفث ذريرات« الفا» و«بيتا» هي ذات الأرقام الذرية العالية وذات الـكتل الثقيلة كالأورانيوم والاكتنوم والثوريوم والراديوم هي ذات النواة الكثيرة التعقيد . وندرت العناصر غيرها التي تنفث ذريرات وأشع

٣ — ارتباط ذريرات النواة

في الذرّة طاقتان من الطاقة أو القوة تعمل بين هـذه الذريرات . الأول طاقم القوات الـكهربائية المتدافعـة بين الشحنات الايجابية . والثاني قوات التجاذب القصير المدى بين جميع الذريرات .

هذه القوات المتجاذبة غير مفهومة ، أو انها مفهومة بعض الفهم . ومن العبث البحث فيهـا إلاّ لمن يطمع بأن يكتشف أسراراً . يكفي أن نقول أن أفعال هذه القوات الجاذبة والدافعة مجتمعة بحيث أن اجتماع النيوترونات والبروتونات في النواة ثابت غـير متقلقل (يعني لا تنافر بينها يفككها) . واذا كانت النيوترونات والبروتونات قليلة العدد تكون أكثر رسوخاً ، متى كانت أعـدادها متساوية تقريباً . وأما في النوى الـكبرى فنسبة النيوترونات اللازمة لثبوت النواة أكبر

وأخيراً نرى في نهاية جدول العناصر الدوري لمندليف الرومي عدد البروتونات يقارب التسعين (٩٢) وعدد النيوترونات يقارب المئة والخمسين فلا نرى نواة ثابتة تمام الثبات . بعض هـذه النوى الثقيلة كالأورانيوم أو الاكتنوم أو الثوريوم ثابتة تقريباً بدليل طول حياتها ونواة الراديوم أكثر تقلقلاً

اذا تكوّنت نواة غير راسخة تكوناً صناعيًّا بإضافة نيوترون أو بروتون زيادة على ما فيها تتحوّل الى نواة ثابتة . والمستغرب أن هـذا التحول لا يحدث بحذف بروتون أو نيوترون بل بحـذف بوزترون أو الـكترون . (والبوزترون هو الـكترون ، أو بوزن الالـكترون . ولـكنه إيجابي لا سلبي الشحنة كما سترى فيما يأتي بعد)

والظاهر أن البروتون في النواة يحوّل نفسه الى نيوترون بحذف بوزترون منه حامل شحنته . كما أن النيوترون يحوّل نفسه الى بروتون والـكترون بفسخ نفسه إليهما بفعل طارىء عليه . وحينئذٍ في خلال هذا التحول تنقذف الذريرة الخفيفة المكهربة (المشحونة سلباً) .

وكأنه في هذه الحالة تنسلخ من البروتون ذريرة بقدر الالـكترون، ولكن تأخذ معها شحنته الايجابيـة وهي البوزترون كما تقدم القول ، ويصبح البروتون نيوتروناً . وفي الحالة الثانية يحدث العكس أي ينسلخ من النيوترون المتعادل ضلعه السالب أي الالكترون والباقي بروتون موجب . وهذا ما يقوي الظن بأن النيوترون كان في الأصل بروتوناً معانقاً الكترونه تعادلا بلا شحنة .

وأول من لاحظ البوزترون الأستاذ اندرسون في المعهد التكنولوجي في كاليفورنيا . واكتشف أن كتلته بقدر كتلة الالـكترون أي $\frac{١}{١٨٤٠}$ من البروتون ولكن شحنته ايجابية . ولا أهمية له سوى أنه ذريرة منتثرة من نواة أثناء الاشعاع الاصطناعي . ويقال انه لوحظ وجوده في الأشعة الـكونية (انظر نبذة ٤ من الفصل الثالث)

١

الفصل الثالث

الابعاد والاحجام والمقادير

١ — رحاب أفلاك الذرة

قلنا سابقاً أن حول الذرة مناطق متتابعة يغلف بعضها بعضاً كالطبقات البصلة مثلاً والكهيربات تدور في هذه المناطق . فلا بد أن يلوح للقارىء أن هذه المناطق متباعدة عن النواة وبعضها عن بعض . ويغلب في ظنه انها متباعدة أبعاداً متساوية على نسبة حسابية. والحقيقة أنها متباعدة على نسبة هندسية مربعية أي انها ليست هكذا .

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
بل هكذا	١	٤	٩	١٦	٢٥	٣٦	٤٩

أي أن المنطقة الثانية تبعد عن النواة ٤ أضعاف المنطقة الأولى . والثانية ٩ أضعافها والرابعة ١٦ ضعفاً والخامسة ٢٥ والسادسة ٣٦ . والسابعة ٤٩

ولعلّ هذا النظام من مقتضيات ناموس الجاذبية الذي تضعف بموجبه قوة الجسم كربع البعد عن المركز . ويقال أن هذا التفاوت المربعي يسبب اختلاف الطاقة في الكهارب، ويسبب أيضاً انتثار الكهارب من العناصر الثقيلة المشعة كالراديوم وزملائه .

٢ — الدوران

الدوران هو سجية خاصة في المادة من ذريراتها الى أجزائها . ويزعم بوهر وغيره أيضاً أن أفلاك الكهيربات (الالكترونات) غير تامة الاستدارة ، بل هي اهليلجية كثيراً أو قليلاً حسب طوارىء الطاقات الواردة الى جو الذرة الكهرطيسي أو الصادرة عنه.

وقد يخطر هذا السؤال على البال : هل الكهارب في المنطقة الواحدة تدور متساوقة في دائرة واحدة كأنها درر في سلك ؟ الغالب أنها تدور في أفلاك متقاطعة ومائلة بعضها

على بعض لأنها كلها سلبية متدافعة فلا تستطيع أن تتساوق بعضها وراء بعض في مدار واحد بل تتخذ مدارات متقاطعة [1]

ويقول أكثر علماء الذرة أن الكهيرب وهو دائر في فلكه يدور على نفسه أيضاً في اتجاه دورانه الفلكي كدوران الأرض على محورها وهي دائرة حول الشمس . ويقال إن النواة أيضاً تدور على نفسها في اتجاه دوران الكهيربات الدائرة حولها كما تفعل الشمس فتدور على محورها في اتجاه دوران الكواكب . وجميع اجرام السماء تدور هكذا في اتجاه واحد وعلى محاورها في نفس الاتجاه . ويقال ان الكهارب (البروتونات) أيضاً تدور على محاورها في اتجاه دوران النواة حتى ان الفوتونات التي تنفرط من الذريرات تدور على محاورها بنفس الاتجاه . وجزيء السوائل يدور ويتحرك بسرعة ٥٠٠ متر في الثانية كما يقول السير جينز - الدوران سنة في الطبيعة كالتجاذب .

٣ — أحجام الذرات وأوزانها

لا يخفى على القارىء ان الجزيء مهما كان كبيراً لا يمكن أن يرى بواسطة أقوى مجهر (ميكروسكوب) فكم بالحري الذرة والكهرب والكهيرب والفوتون ؟ — لا يمكن أن يدركها بصر . أكبر جزيء كجزيء البروتايين مثلاً الذي يحتوي على أكثر من ٢٥٠٠ ذرة هو أصغر من أقصر موجة من موجات النور . ولتمثيل هذا الصغر نقول اذا كبرنا نقطة ماء إلى حجم الأرض كانت جزيئاتها كالبرتقالات .

الجزيئات تختلف حجماً كاختلافها في عدد ذراتها . وأصغر جزيء هو الجزيء المؤلف من ذرتين أو ثلاثة كجزيء الماء . وأكبر الجزيئات هي جزيئات الاحياء . وهي متفاوتة الاحجام كتفاوت عدد الذرات فيها . والذرات مختلفة الاحجام باختلاف عدد ذريراتها فيها .

قطر جزيء الهيدروجين المركب من ذرتين ، وهو أصغر العناصر ، يساوي واحداً من ١٢٥ مليون من القيراط (القيراط ٣ سنتيمترات تقريباً) . وقطر جزيء النشا يقارب نحو واحد من عشرة ملايين من القيراط . وجسيم أدق المسحوقات يجب أن لا يقل عن مئة ضعف من جزيء النشا لكي يمكن أن يرى بأقوى مجهر (أنظر ٢ فصل أول)

---

(١) انظر آخر الفصل الثالث

حجم الذرة يتوقف على قدر ما فيهـا من الكهيربات الدائرة حول نواتهـا . يعني بحد الذرة المنطقة الأخيرة من مناطق كهيرباتهـا . وبناءً عليـه أصغر ذرة هي ذرة هيدروجين وأكبرها ذرة اورانيوم أو بلوتونيوم وبالطبع ذرة الأورانيوم أكثر تعقداً من سائر الذرات . وإنمـا الزيادة في الحجم لا تناسب زيادة التعقيـد . والظاهر ان ازدياد الحجم في الذرات المعقدة تستوجب زيادة الحشك في الذرة . فذرة الاورانيوم مرّتان ونصف كحجم الهيدروجين مع ان فيها ٢٣٨ + ٩٢ ذريرة . وقطر ذرة الهيدروجين واحد من ٢٥٠ مليون من القيراط . ومعنى هذا ان قطر ذرة الاورانيوم واحد من ١٠٠ مليون من القيراط .

وأصعب تقدير للحجم تقـدير حجم الكهيرب (الكترون) . على ان الأستاذ مليكان الاميركي الحائز جائزة نوبل جزاء مباحثه في الطبيعيات واختباراته مقدار الشحن الكهربائي في (الكهيرب) أمكنه ان يخمن ان حجم الكهيرب جزء من ١٠٠ الف جزء من حجم ذرة الهيدروجين . فيكون قطره اذن جزء من ٢٥ ترليون من القيراط .

(راجع أول نبذة في الفصل الاول)

البروتون كما تقدم القول أصغر من الكهيرب حجماً ولـكنه أثقل منه ١٨٤٠ مرة . على ان قطره جزءًا من ١٨٠٠ جزء من قطر الكهيرب

النيوترون يقارب حجم البروتون

الكهيرب يتفتت إلى عشرة آلاف فوتون ونترجمه « ضوئي » فكم يكون حجم الفوتون وكم قطره ؟

كتلة الهيدروجين تساوي ١،٦ × $١٠^{٢٤}$ أي ضع أمام العـدد ٢٣ صفراً . هـذا من الجرام . أي مليون مليون مليون مليون ذرة هيدروجين تزن ١،٦ جرام . وكتلة الكهيرب $\frac{١}{١٨٤٠}$ من كتلة البروتون (نواة الهيدروجين) فاحسب كم هي من الجرام .

شحنة نواة الهيدروجين الكهربائية تساوي واحداً من٤،٧٧ × ١٠ عشر مرات من وحدة الالكتروستاتك وكذلك شحنة الكهيرب ، بيد إنها سلبية وشحنة النواة ايجابية .

علمنا أن الذرة وكهاربها تشغل حيزاً كما تشغل الشمس وسياراتها ، وان مساحة حيز الذرة بالنسبة الى كهيرباتها ١٠ آلاف مرة كمساحة حيز النظام الشمسي بالنسبة الى شمسه وكواكبها .

وبعبارة أخرى نسبة أبعاد الكهيربات عن نواة الذرة الى أحجام النواة وكهيرباتها عشرة آلاف مرة كنسبة ابعاد السيارات عن شمسها الى أحجام الشمس وسياراتها .

قطرة محيط الذرة ١٠٠٠٠٠ مرة كقطر النواة فتأمل ما أوسع الفراغ .

على ان نسبة الفوتون أصغر أجزاء المادة الى الانسان كنسبة الانسان الى كرة الكون العظمى التي تشمل بلايين بلايين الاجرام، ولا يعبرها النور بأقل من عشرة آلاف مليون سنة. الانسان وسط تقريباً بين أعظم عظائم الكون وأصغر صغائره . فما أعجب هذا الكون . نقول مع داود النبي « ما أعجب أعمالك يارب كلها بحكمة صنعت » . ترى هل أدرك داود هذه العظائم وهذه الصغائر ؟ لا . وإنما أدرك ان الكون عجيب فأراد أن يعبّر عن عظمة الله وقدرته بهذا التعجب الى أن قال « السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه » وهذا أبلغ الشعر وأبدعه

* * *

هذه أحجام وحيّزات ومساحات وأوزان لا يتصورها العقل . ولولا الحسابات الرياضية لما أمكن التعبير عنها . تُفهَم ولا تُتَصور . فسبحان الخالق .

٤ — الذريرات التي تتألف منها الذرة

هذه هي الجسيمات التي تتألف منها الذرة : —

نواة تشتمل على كهارب (بروتونات) ونيوترونات موجبة بلا شحنة أو هي متعادلة ، وكهيربات سالبة (الكترونات) . هي جسيمات جوهرية أساسية وفي السنين الأخيرة اكتشف العلماء جسيمات أخرى في الذرة عارضة ولكنها تلعب أدواراً ذات شأن في بنية الذرة . وهي :

١ — بوزترون وهو الكترون ايجابي لا سلبي لأنه بوزن الالكترون وبحجمه يظهر في الذرة حرّاً الى أن يلتقي بالكترون سلبي فيتنافيان . وينحلاّن الى فوتونات . وهو يشتق من البروتون نفسه ولهذا يحمل معه شحنته . ويصدر في اثناء شعاع الذرّات أي ذوبانها الشعاعي .

٢ — الميزون Meson وقد يكون تارةً إيجابيّاً كالبروتون وتارةً سلبيّاً كالالكترون وكتلته بقدر ٢٠٠ مرة ككتلة الالكترون ، فاذا كان إيجابيّاً فهو شظية من البروتون وأن

كان سلبيّاً فهو مجموعة الكترونات يظهر وقتيّاً في اثناء اشعاع الذرات ذات النشاط الاشعاعي كالراديوم واخوته، وفي اثناء تفاعل ذرّة الاورانيوم المتسلسل كما سيأتي عند بيانه فيما بعد . ومدة وجوده بعض أجزاء المليون من الثانية ؟ وقد لوحظ بعلاقته مع رذاذ الأشعة الكونية. ولأسباب قوية يعتقد أنه يلعب أدواراً ذات شأن عند تفاعل النيوترون والبروتون في نطاق النواة . ولعله من متولدات انفجار الكهارب والكهيربات عند التقاء الموجب والسالب

٣ — نيوترينو الذي لا بدّ أنه يظهر في اثناء انقذاف أشعة الالكترونات . وهو متعادل أو لا شحنة فيه ، وكتلته صغيرة بالنسبة الى البروتون

ان النواة تعتبر خليطاً من البروتونات والنيوترونات والالكترونات .ولكن هذه الجسيمات الزائدة هي من حاصلات ذوبان الذرّة الشاعة ، أي انحلالها .

وحاصلات انفلاق الذرة كما ستری .

ولما اكتشف الهيدروجين الثقيل صنع منه الماء الثقيل لازومه في تخفيض سرعة النيوترون في القنبلة ويسمى ديوترون . وهو ذو شحنة واحدة ايجابية وكتلته تساوي بروتونين .

وجسيم « الفا » ذو ٤ وزنات بروتون ، منها نيوترونان . وهو ذو شحنتين ايجابيتين . ويستعمل قذيفة لتحطيم الذرّة

جدول أعضاء الذرة

الاسم	وحدة الكتلة البروتون	الشحنة بوحدة البروتون
بروتون	١	+ ١
الكترون	$\frac{١}{١٨٤٠}$	— ١
نيوترون	١	صفر
بوزترون	$\frac{١}{١٨٤٠}$	+ ١
ميزون	$\frac{١}{١٠}$	صفر
نيوترينون	$\frac{١}{١٨٤٠}$	صفر
ديوترون	٢	+ ١ } استعملا
جسيم « الفا » هليوم	٤	+ ٢ } للضرب

٥ — عوالم الذرة

بقيت اعتبارات أخرى من المستلزمات الطبيعية لبنية الذرة . لعلّ العامي لا يعلم أن جميع مواد الكون الارضية والسماوية هي أخلاط أو أمزجة أو مركبات كيماوية من الذرات لا تكاد تحصى . لا مادة في الكون تؤلف من غير ذرّات الـ ٩٢ عنصراً وربما وجد في بعض الاجرام عناصر ليست موجودة في أرضنا .

وهي أي المادة تظهر في صور وأشكال مختلفة حسب العناصر التي تركبت منها والقوة التي ربطتها. فمنها غازات كغازات الهواء الذي نتنفسه ، وسوائل وموائع كالزيت والحوامض والمياه وهي تعد بالألوف . والجوامد كتبلورات الحجارة والمعادن وعضويات النبات والحيوان تعد بألوف الألوف والملايين .

جميع ذرّات هذه المواد مؤلفة من كهارب وكهيربات ونيوترونات . وهذه كلها مؤلفة من فوتونات (ضويئات) .

حدود جسم الذرة هي فلك الكهيربات الاخير المحيط بجميع طبقات الافلاك المحيطة بالنواة .

سرعة الكهيربات في مناطقها حول النواة تضاهي سرعة النور (٣٠٠ ألف كيلو متر بالثانية) .

لا سكون في دار الذرة

دوران الذريرات والذرة هو سر الطاقة التي في الذرة . وهو علة الشحنتين الكهربائيتين أو هما من طبيعة واحدة . أو هو صفة أساسية للهيولى التي هي من أصل المادّة .

القوة التي تربط الاعضاء بعضها ببعض هي قوة التجاذب بين الشحنات المتخالفة وتسمى Electrostatic . هذا التجاذب سرّ غامض . وقد يُفهم في المستقبل . هذه القوة تشبه قوة الجاذبية بين الاجرام . وقانونهما واحد . ولعلهما مبدأ واحد . وانما قانون التجاذب في الذرة يقتضي وجود الشحنة الكهربائية ايجاباً وسلباً . ولا يظهر ذلك في النظام الشمسي (١) بهذه القوة تدور الكهيربات في أفلاكها . ولكن هنا عقدة واحدة عسيرة الحل

(١) يمكن أن تعتبر قوة الدافعة المضادة للجاذبية في النظام الشمسي مقابلة للسلبية المضادة للايجابية في النظام الذري

وهي الكهيربات من شحنة واحدة سلبية . فيجب أن تتدافع حسب قانون الكهرباء والمغنطيس . ولهذا هي متباعدة في أفلاكها . والغالب أن تكون الأفلاك في سطوح متقابلة لا في مستوى واحد لكيلا تتصادم الكهيربات . وهذا الأمر يتفادى اقتراب بعضها من بعض في أثناء الدوران . وأما الكهارب وهي من شحنة ايجابية متجمعة في الوسط (النواة) فكيف لا تتدافع ولا تتباعد بعضها عن بعض . بل بالأحرى ما الذي يربطها بعضها ببعض في النواة في حين أن شحنا تها تستلزم التدافع ؟ هذا سر لم يعرف حتى الآن .

ليس بين جسيمات الذرة وملايين الذرات وملايين الجزيئات تماس . بل هي متباعدة بفعل « قوة الدافعة « Centrifugal force كما انها مترابطة بقوة الجاذبيـة وانما هي غير متماسكة لكي تكون لها حرية الحركة والدوران والتذبذب . احتمال الانضغاط في بعض الكتل الغازية والسائلة والجمادية يدل على أن بين الذرات والذريرات فسحات خالية إلاّ من الجو الكهرطيسي .

الفصل الرابع

الطاقة والقوة

١ — الحركة

حوض ماء كبير في جبل ، لمائه قوة مضمرة هي قوة الثقل ، قوة الجاذبية . فاذا فتحنا كوة الحوض لكي يجري الماء الى بئر عميقة تفرغه على جهاز لادارة حجر الرحى ، أو الى أنبوب يفرغ على جهاز لتوليد الكهرباء ظهرت الطاقة المضمرة بشكل قوة ظاهرة تعمل عملاً : تدير الدينمو مثلاً . أين مصدر هذه القوة ؟

الماء في الحوض ثقل بسبب الجاذبية . وهذا الثقل هو الطاقة المضمرة . ولكن هذه القوة لا تظهر للعمل الا اذا انفتحت كوة الحوض وجرى الماء بقوة الجاذبية لادارة حجر الرحى . فالجاذبية هنا مصدر القوة (الطاقة)

كيف وجد الماء في الحوض فوق سفح الجبل أو الوادي ؟ ـ حرارة الشمس بخرت ماء البحر . فارتفع الماء بخاراً في هواء الجو المتمدد بفعل الحرارة حتى أشبع الهواء منه . ثم هبطت الحرارة فتقلص الهواء ، فانعصر ماء البخار منه ، فهبط الى الجبل بقوة الجاذبية أيضاً وتجمع بعضه في الحوض .

فترى مما تقدم أن عاملين تعاونا على رفع الماء ثم اسقاطه : حرارة الشمس وقوة الجاذبية

الرياح تهب وتندفع من هنا ومن هناك الى هنالك بفعل الحرارة والجاذبيـة أيضاً . الهواء البارد يتقلص دون الهواء السخن . فذاك إذن أثقل من هذا فيدفعه أمامه بقوة الجاذبية . وهذا يندفع فوقه لأن الثقيل يرسب الى تحت والخفيف يطفو فوقه . وهكذا يكون في الهواء ريح سفلية ثقيلة تأتي من الشمال حيث البرودة . وريح علوية خفيفة تهب من ناحية خط الاستواء الى الشمال لتحل كل منهما محل الاخرى . فترى هنا أيضاً عاملي الجاذبية والحرارة يعملان معاً في اثارة الرياح .

حاشية : ورد في صفحة ١٢ عبـارة « الاسم العلمي الاصيل مع الاسم العربي المترجم » ووقعت لفظة « المترجم » تحت السطر ، والحقيقة انها تكملة للعبارة .

أما قوة الجاذبية فظاهرة لنا في سقوط الأجسام متجهة نحو مركز الأرض حيث مركز الجاذبية ، وفي دوران السيارات حول الشمس ، ودوران الأجرام حول مركز المجرة .

وأما قوة الحرارة فسرٌّ في ذرات الشمس . وهناك مقام بحثنا . ولعلنا اذا تعمقنا في البحث وجدنا أن سر هذه القوة هو الجاذبية أيضاً : الجاذبية التي تجذب الكهيربات نحو النواة فتجعلها تدور على محاورها حول النواة . وقد سموها لنا Electrostatic Force ولعلها نفس الجاذبية العامة ، وانما تختلفان شكلاً وتتفقان قانوناً . كلتاهما تنقصان كربع البعد

هنا قد يسأل القارىء سؤالاً وجيهاً والجواب عليه جميلٌ فكهٌ : لماذا يسقط الجسم من فوق متجهاً الى المركز والقمر لا يسقط على الأرض متجهاً الى مركزها ؟ لماذا هذه تدور حول المركز والجسم الساقط كالنيزك مثلاً لا يدور حول الأرض بل يهبط ؟

والجواب أن الجسم أو الجرم المندفع يسير بحكم الطبع في خط مستقيم . ولكن اذا كان على مقربة من مركز جاذبي استماله هذا المركز اليه، فيدور حوله اذا كانت قوة اندفاعه وقوة الجاذبية متساويتين، الا إذا كان قريباً جداً فيسقط متجهاً الى مركز الأرض .

يستفاد مما تقدم أن القوة تظهر بشكل جسم متحرك بسرعة معينة في مدة معينة . والسرعة مضروبة بكتلة الجسم تساوي العمل الذي تعمله القوة — هو الزخم Momentum[1]

نأتي الآن الى الطاقة الموجودة في الحرارة المستمدة من الجاذبية الكهربائية المقيمة في ذرات الشمس المتهيجة الثائرة .

أين الطاقة في الذرة ؟

بحسب قانون نيوتن الثاني يتحرك الجسم في خط مستقيم . فاذا فعلت فيه قوة (غير قوة حركته الأصلية) غيرت سرعته أو اتجاهه أو كليهما .

يعني أن الظاهر لنا هو الحركة . وأما القوة فشيء لا نراه ولا نحس به إلا بواسطة الحركة . ونحن اعتدنا أن نقيس القوة بمقدار الحركة أو بمقدار ما تجهده عضلاتنا في تحريك الأجسام . فاذا رفعت جسماً وزنه مئة رطل قلت ان في عضل ذراعك قوة مئة رطل

واذا كان الحصان يجر عشرة قناطير على عجلة في طريق مستوٍ بسرعة ٥٠ متراً في الدقيقة،

---

(١) ترى شرح هذا في كتابنا « فلسفة التفاحة » أي جاذبية نيوتن (راجع ملحق مقتطف يوليو سنة ١٩٢٦)

هي سرعته الاعتيادية ، قلنا أن في عضلات ذراعه قوة عشرة قناطير في دقيقة .

واذا كانت سيارة تسير في دقيقة حاملة عشرة قناطير قلنا أن لمحركها Motor قوة حصان واحد في دقيقة

فسافة حركة الجسم في مدة معينة ووزنه يدلان على قدر القوة التي حركته .

* * *

نأتي الآن الى الطاقة الموجودة في الحرارة المستمدة من الجاذبية الكهربائية Electrostatic المتركزة في ذرات الشمس الثائرة .

أين الطاقة في الذرة ؟ ستظهر في البحوث القادمة

٢ — منشأ القوة

وحاصل ماتقدم إن منشأ القوة الطبيعي هو طاقة ضوء الشمس أو حرارتها والماء المنحدر، ثم التفاعلات الكيمية وأهمها احراق الحطب والفحم والبترول . هذه كلها تطلق الطاقة من جراء ترتيبات الالكترونات الخارجية في الذرة . ومثل هذا الترتيب يحدث في أجسامنا لتموينها بالطاقة اللازمة لها .

الاحتراق ينتشر دائماً ذاتياً ، فان توليع المشيم بلهيب عود الثقاب يصدر من عود الثقاب حرارة شديدة كافية لالهاب طرف المشيم، فتصدر منه حرارة كافية لالهاب ما جاوره، وهكذا دواليك الى أن يلتهب المشيم كله بحكم عدوى المجاورة

على أن التفاعلات في نوى الذرة ليست كتفاعلات الاحراق التي نحن بصددها تماماً . فلا الطاقة التي تصدر منها ولا الذريرات الحديثة المتكونة منها كافية لاحداث هذا « التفاعل المتسلسل » . ولكن يمكننا أن نتصوّر تفاعلات في النواة نفسها بين جسيمات أو ذريرات من نفس النوع الذي أنشأها، وبعدد كافٍ لنشر هذا التفاعل المتسلسل (أوسلسلة التفاعلات)

٣ — مقياس القوة

تقاس القوة قياساً عادياً بالرطل أو الجرام . ولكن تقاس علمياً بوحدة أساسية ثابتة تسمى بالعرف العلمي دَين Dyne وهو مقدار القوة التي ترفع جراماً واحداً سنتيمتراً واحداً في ثانية واحدة

واذا كانت قوة ترفع ٥٥٠ رطلاً الى ارتفاع قدم واحدة في ثانية واحدة سميت قوة حصان واحد يعني ان قوة الحصان تساوي ٥٥٠ رطلاً قدماً بالثانية .

تظهر القوة بأشكال مختلفة . ولكنها في كل شكل تعمل على نحو ما تقدّم . من أمثلة أشكالها : — في لتر البنزين قوة مضمرة ، أي طاقة ، تسيّر السيارة خمسة كيلو مترات في مدة عشر دقائق مثلاً . يعني في الدقيقة العاشرة يفرغ البنزين وتقف السيارة .

٤ — المادة والقوة شيء واحد

حتى هذا العصر كان العلم يثبت لنا أن المادة تتحول من شكل الى شكل ولكنها لا تفنى وكذلك الطاقة تتحول من حال الى حال ولكنها لا تفنى . وبناء على هذه النظرية كان اليقين ان المادة شيء والطاقة شيء آخر ، الى أن أظهر صافي البحوث في الذرة أخيراً إنهما شكلان لشيء واحد . لأنه اكتشف انه يمكن أحياناً تحويل الطاقة الى مادة والمادة الى طاقة . يمكن تحويل القوة من شكل الى شكل بالوسائل الميكانيكية ، فتحول الغازولين الى قوة سيارة أو محرك Motor يشغل « طلمبة » لرفع الماء ، أو لاصدار نور من مصباح كهربائي ، أو اصدار حرارة من مدفأة .

وكان اينشطين أول من قال بوحدانية المادة والقوة . وقال أيضاً إنهما متساويان . فما معنى ان الشيء يساوي نفسه إذا كان واحداً . وسنرى في نبذة ٣ فصل ٧ البرهان الذي استند عليه اينشطين وسائر العلماء . (أنظر أيضاً ٢ في الفصل السادس أو ٣ فصل ٧ أيضاً)

ولا يخفى ان عقلنا لا يمكنه أن يتصور هذه النظرية فيما نحن نشاهد أن المادة وهي ساكنة هي غير القوة التي تحركها . فيجب إذن تنقيح هذا القول لكي يكون معقولاً

ان ما ظهر من تفتيت الذرة الى أدق أجزائها ، أي الى فوتونات غير مكهربة (لأن كهربة الذرة تلاشت بتنافي قطبيها الايجابي والسلبي) أرانا ان الفوتون (الضوي ء) الذي هو وحدة المادة الأولى الصغرى يحمل قوة أو طاقة تناسبه ، أعني أن قدرها على قدره [1] فعشرة فوتونات مثلاً تحمل عشرة أقدار من الطاقة . وبهذا المعنى يكون الفوتون الذي هو مادة مساو أو معادل للطاقة Equi elant . وبهذا المعنى قال اينشطين أن القوة تساوي المادة مضروبة بمربع سرعة النور ، وهي سرعة الفوتون ، لأن النور فوتونات منتثرة من الجسم المنير . وهذه هي معادلته بنصها $E = Mc$ باعتبار أن E هي الطاقة و M هي المادة و C هي سرعة النور . والنور هو أسراب فوتونات .

بناء على هذه المعادلة : في كيلو جرام واحد من أية مادة (أورانيوم مثلاً) من الطاقة ٢٥ بليون كيلو واط ساعات وهذه الطاقة تساوي جميع القوات الكهربائية المستمدة في الولايات المتحدة لمدة شهرين (انظر الفصل الحادي عشر)

(١) أنظر كتاب ١ The Atom G. p. Thomson الفصل ١٢ صفحة ١٥٩

الفصل الخامس

الكهرطيسية

١ — الجو الجاذبي

تظهر في اللاسلكي والراديو وما من صنفهما قوة تسمى كهرطيسية Electromagnatic أي كهربائية مغنطيسية . فما هي ؟

المغنطيس يجذب الحديد بقوة الجاذبية المغنطيسية كما يجذب مركز الارض الحجر الساقط بقوة الجاذبية العامة . كيف يحدث هذا الجذب عن بعد ولو قليل ؟ . لقد افترض فاراداي (العالم الانكليزي الذي اشتغل مدة طويلة بالابحاث في المغنطيس والكهرباء) ان هذا الجذب يحدث بواسطة بين المتجاذبين سماها «الجو المغنطيسي الجاذبي» Magnatic field و «الجو الكهربائي» Electric field . وهذا الجو ليس تعليلاً لظاهرة الجذب بل هو تسمية لها فقط . والظاهرة لا تزال غامضة . والقوة التي نحن بصددها والتي نرى مفاعيلها في الحركة باقية سرّاً غامضاً محجوباً ، ليس عن بصائرنا فقط بل عن أفهامنا أيضاً . هي لغز .

نحن لا نرى القوة ولا نشعر بها بمشاعرنا . وانما نحس بحركة الجسم الصادرة عنها . هذا اللغز اقتضى فرض وجود الاثير لاجل تعليل انتقال هذه القوة بأمواج اثيرية . ولا يمكن تعليل الموجات الكهرطيسية الاّ بهذا الفرض . يبقى فرض الاثير مقبولاً الى أن يتوفق العلم الى تعليل آخر لانتقال الطاقة أو القوة في الفراغ .

كذلك شأن الجاذبية الكهربائية : إذا فركنا قضيباً من زجاج بنسيج من الحرير تكهرب الزجاج . وكذلك إذا فركنا شمع الاختام بصوف الفراء تكهرب الشمع . وكلا الزجاج والشمع يجذبان شيئاً . فاذا أدنينا الى كل منهما قشة خفيفة جذبها . على أننا نسمي كهربة الزجاج ايجابية وكهربة الشمع سلبية ، وهي تسمية اصطلاحية . ولهذه الكهربة جو جاذبي كجو المغنطيس .

قانون التجاذب المغنطيسي والكهربائي واحد ، وهو : ١ً — أن قوة التجاذب تتناقص كربع البعد . و ٢ً — الجسمان الممغنطان أو المكهربان يتنافران أو يتباعدان إذا كانا من قطب واحد ، أي كلاهما ايجابيان أو سلبيان وإلاّ فيتجاذبان .

٢ — الشحنة الكهربائية

دراسة ظاهرات الكهربائية أدت الى الحكم بأن البروتون (الكهرب) مشحون شحنة كهربائية ايجابية ، والالكترون (الكهيرب) مشحون شحنة سلبية . والأمر كذلك في مغنطيستهما . ولذلك كل منهما محوط بجوٍّ كهربائي وجوّ مغنطيسي مندمجين . ومن هنا جاءت تسمية الجوّ الكهرطيسي Electromagnatic field .

بناءً على هذا تعتبر الذرة متعادلة الشحنات ما دام عدد بروتوناتها مساوياً لعدد الكتروناتها وتفاعلهما متوازناً . وانما تسمى « متأينــة » Ionized إذا خسرت أو كسبت الكترونات وانتفى التعادل فيها . إذا خسرت الكتروناً أو أكثر صارت ايجابية الشحنة . وان كسبت الكتروناً أو أكثر صارت سلبية الشحنة . ولكن ربحها أو خسرانها نيوتروناً لا يغير شحنتها كما هو مفهوم ، لأن النيوترون خالي الشحنة غير مكهرب .

اذا كان جسم ما يظهر ذا جوّ مكهرب كان المعنى أن جميع الذرات في سطحه قد تكهربت ، أي خسرت أو ربحت على نحو ما تقدم . فقضيب الزجاج المفروك بالحرير يتكهرب إيجابيًّا لأنه يخسر الكترونات اذ يأخذها من الحرير . وشمع الأختام متى فرك بصوف الفراء يصبح سلبي الشحنة لأنه كسب من صوف الفراء الكترونات .

التيار الكهربائي في سلك هو انتقال الالكترونات من ذرة الى ذرة في السلك متنقلة في مجاريها بين الذرات بالملايين أو البلايين في كل ثانيــة . والجوّان الكهربائي والمغنطيسي حول السلك المكهرب انما هما نتيجة اندماج جوّي الالكترونات الجارية في السلك نسمي الجوّ الكهرطيسي .

هذه الكهرطيسية موجات ذات طاقة تنطلق في الفضاء كموجات الصوت وإليها يرجع الفضل في اللاسلكيات .

٣ — الاشعة الكهرطيسية

في سنة ١٨٧٣ كان جايمس كلارك مكسويل البحاثة والرياضي العظيم يدرس الكهربائية والمغنطيسية مستمراً بأبحاث سلفه فارادي الذي كان أول من أعطى التأثير الجاذبي عن بُعد اسم «الجو الجاذبي» — الكهربائي والمغنطيسي. وأكتشف أن النور هو من نوع الجو الكهرطيسي (الفوتوني). فناقض نظريته كثير من العلماء لأنها لم تندمج في عقليتهم، الى أن قام هرتز سنة ١٨٨٧ وعكس تيار الحملة عن مكسول ضد العلماء المناقضين له لأنه استطاع أن يحدث أمواجاً أثيرية بواسطة كهربائية، وأن يثبت أن النور أمواج كهرطيسية

ولا غرو أن يستغرب العلماء وغيرهم أن يكون النور أمواجاً . وانما يزول هذا الاستغراب اذا افتكروا أن النور شيء وأمواج النور شيء آخر، كما أن الصوت شيء وأمواج الصوت شيء آخر . الصوت هو شعور عصبي فدماغي تحدثه أمواج الصوت الهوائية التي تقرع طبلة الأذن . فلولا العصب السمعي لما كان صوت ، لما كان إلاّ أمواجاً في الهواء لايتأثر بها الأصم . كذلك النور هو شعور في العصب البصري تحدثه أمواج النور اذ تقرع شبكية العين . فالأعمى لا يتأثر بهذه الأمواج على الرغم من انها تصدم مقلته ، ولكنها لا تحدث نوراً فيها، لأن النور شعور عصبي دماغي عن طريق عصب الشبكية وهي معطلة في الأعمى.

فأنواع الأمواج المختلفة بالطول وعدد الذبذبات في الثانية مثلاً كثيرة جداً في الصوت، ولكن عصبنا السمعي لا يتأثر منها كلها فلا نسمع الا مجالاً محدوداً من سلالم الصوت . وما دونه وفوقه لا نسمع . كذلك للأمواج الكهرطيسية ٦٢ سلماً كسلالم الصوت الموسيقية ولكننا لا نرى منها الا سلماً واحداً وهو سلم النور . وهو واقع في وسط الاثنين والستين سلماً تقريباً . وأما بقية السلالم فلا نراها ولا نشعر بها وانما نعرفها بواسطة الآلات التي نكشف عنها كأشعة رنتجن مثلاً .

٤ — الامواج الكهرطيسية

جميع هذه الأمواج المختلفة ذات سرعة واحدة (٣٠٠٠٠٠ الف كيلو متر بالثانية) وانما تختلف بطول الموجة وعدد الموجات في الثانية . فاذا كانت طويلة كان عددها أي عدد ذبذباتها في الثانية قليلاً . وإذا كانت الموجة قصيرة كان عدد ذبذباتها في الثانية كثيراً . ولذلك اذا ضربت طول الموجة بعدد موجاتها في الثانية كان الحاصل حتماً ٣٠٠ الف كيلو متر — عدد ثابت لا يتغير .

قلنا آنفاً أن أشكال الأمواج كسلالم الموسيقى، يعني أن عدد موجات أعلى السلم مضاعف عدد موجات السلم الذي تحته باطراد . وهكذا الأمر في الأمواج الكهرطيسية بلا اختلاف. ألوان الطيف الشمسي السبعة هي درجات سلم النور من السلالم الكهرطيسية . هو السلم الوحيد الذي نراه . فعدد موجات كل درجة منه مضاعف عدد موجات الدرجة المطابقة لها في السلم الذي فوقه ونصف عدد موجات الدرجة المطابقة في السلم الذي تحته .

وسلالم الأشعة ٦ قبائل متدرجة من أطولها الى أقصرها : فالقبيلة الأولى الطويلة الأمواج هي قبيلة « هرتز » اسم مكتشفها ، ومنها أمواج الراديو الذي نتمتع به .

الثانية — أمواج الحرارة أو أمواج ما تحت الاحمر .

الثالثة — أمواج النور المنظورة .

الرابعة — أمواج ما فوق البنفسجي .

الخامسة — الأشعة السينية (أشعة رنتجن مكتشفها) .

السادسة — أشعة (جما) الصادرة من الراديوم والعناصر الأخرى النشيطة الاشعاع كاليورانيوم والثوريوم والاكتينوم .

وأما أطوال الأمواج فتراوحة تراوحاً غريباً عجيباً . أطولها عدة أميال في السلم الاول وأقصرها أمواج «جما» الراديومية .وهي جزء من ٢٠ مليون بليون من تلك في السلم الثاني والستين . ولا بدع في هذا التفاوت العظيم ما دام الطول في السلم الواحد مضاعف الطول في السلم الذي تحته . نصّف طول كل درجة ونصّف نصفها الى آخره تصل الى ذلك الرقم الغريب المدهش فتزول دهشتك . كذلك ضاعف عدد الموجات في درجات السلم الاول وهي ٨٥ بالثانية . ثم ضاعفها في درجات السلم التالي دواليك الى السلم الاخير تجد عدد الدرجة الأخيرة نحو ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ في الثانية

والأشعة الكونية التي أثبت ميليكان وجودها فحسبها أشعة طاقة ، هي أقصر مما تقدم، وتعتبر الدرجة السابعة من قبايل الامواج

بعبارة أخرى : اذا اعتبرنا السلم النوراني الذي لا نرى سوى أشعته بأعيننا سلماً تامـاً (وهو كذلك)كانت بقية الموجات تقاس عليه . فكلما تكرر مضاعف له بعدد الموجات حسبناه سلماً تامـاً قائماً بذاته طرداً وعكساً . ولذلك نرى أن جميع درجات الأشعة تنقسم الى ٦٢ سلماً. ويقال أنها تبلغ الى السبعين . فتأمل ما أقل ما نراه من أنواع الأمواج وهو $\frac{1}{62}$ منها.

الفصل السادس

مصدر الطاقة أو القوة

١ — التموج الايثري

الكون هو مادّة وقوة وحركة . ولانتقال حركة المادة فرضوا ، كما قلنا آنفاً ، وجود الايثر المالىء الفضاء الذي تتحرك فيه الطاقة أو القوّة بشكل أمواج

ومادّة الكون كلها مجموعة ذرات . والذرّة وحدة غير قابلة الانقسام طبيعيّاً أو كيماويّاً كما علمت

والطاقة موجودة بشكل أمواج مختلفة الطول والعدد بالثانيـة وقد عرفت أشكالها : أمواج حرارة ، وأمواج نور ، وأمواج كهرباء ، وأمواج مغنطيس . فالشكل الميكانيكي منها الظاهر Kinetic والمضمر Potontial

على أننا لا نعرفها ولا نلمسها كما نلمس المادة . هي شيء غامض لا نقدر أن نتصوره قائماً بذاته . نعرفها بشكل حركة في المادة ، أي مادّة متحركة . وانتقال القوة أو الحركة من جسم الى جسم ولا سيما عن بُعد استلزم أن يفرضوا وجود الأثير متموّجاً بالقوة وناقلاً الحركة ، كتحويل القوة من شكل الى شكل ، وكانتقالها من جسم الى جسم ، وكانتقال الحرارة والنور من الشمس الى الارض ، وكتحول الحرارة الى حركة والى كهرباء ، وهذه الى حركة وهذه الحركة الى نور الخ

ولذلك صار من الضروري افتراض أن الايثر مالىء الفضاء ومالىء كل فراغ بين أجزاء المادة وبين ذرة وذرة وذريرة ، وفي رحاب الذرات . هو حوض أيثر . وأمواج الطاقة تترحل بواسطة الايثر . هذا ما يعتقده كثير من العلماء

على أنه لما انكشف أن الذرة تتجزأ كهربائيّاً ، وإن كانت لا تتجزأ طبيعيّاً وكيماويّاً ،

وأن أجزاءها كهارب وذريرات ايجابية موجبة وسالبة ومتعادلة ، انتقل البحث العلمي الى حقل الطاقة والقوة، لأنه ظهر أن الطاقة موجودة في جسم الذرة نواة وكهرباً ، وإنها تنتقل بشكل موج أثيري . ولهذا كان مقدار الطاقة ، الكونتم Quantum ، يُعبَّر عنه بالموجة الكهرطيسية كما ستعلم فيما بعد (نبذة ٤ من هذا الفصل) وكل موجة هي مسافة تحرك الفوتون الحامل الطاقة

٢ — القوة تزيد وزن الكتلة

في الطبيعيات مبدأ قانوني وهو أن لابدَّ من عمل يعمل إذا أريد حلّ أي تركيب راسخ الى أصوله . وهكذا اذا كان تجمع نيوترونات وبروتونات متماسكاً راسخاً فلابدَّ من استخدام قوة لتفريق ذريراته بعضها عن بعض . واذا صحَّ أن الطاقة والكتلة متوازنتان أو متعادلتان فاذاً مجموع كتلة النواة المتماسكة الراسخة يجب أن يكون أقل من كتل البروتونات والنيوترونات المنفصلة بعضها عن بعض في النواة (أنظر ٤ الفصل الرابع . وانظر نبذة ١ فصل ٧) لأن الطاقة التي مزقت النواة تفرقت على الأجزاء التي انحلت هي إليها ، فزادت كتلتها على كتلة الأصل . وبعبارة أخرى ان هذا الفرق في الكتلة يعادل القوة التي مزقت كتلة النواة وتشتتت في أجزائها . وهو المسمَّى « طاقة الربط » . وهذا ما حمل اينشطين وزملاءه أن يقولوا أن الطاقة والمادة شيء واحد (انظر نبذة ٣ فصل ١٢)

ان نظرية الالكترون فتحت السبيل الى نظرية التموجات الكهرطيسية على اختلاف أطوالها وذبذباتها من موجات الراديو الطويلة الى أقصر أمواج جمَّا الراديومية .

وقد ظهر للباحثين أن موجات الراديو هي نتيجة تدفُّق الكهيربات طرداً وعكساً الى الامام والى الوراء في أي ممرّ كهربائي (أي موصل للكهرباء Conductor) وفي أطراف الاجهزة اللاسلكية Antenna كجهاز الاذاعة اللاسلكي

لكل كهيرب جو كهرطيسي . وذبذبات الكهيربات هذه في أفلاكها في أي موصل كهربائي كالسلك مثلاً تحدث اضطراباً ينطلق في الفضاء الاثيري بشكل موجات كهرطيسية .

وطول الموجات يتوقف على الجهاز الذي يحدث فيه التذبذب

محطة اللاسلكي التي تصدر أطول أمواج الراديو تستعمل الموصل الكهربائي السلكي

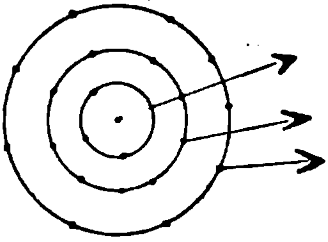
الذي يستطيل عدة أميال . وأما موجات الراديو القصيرة فتصدرها محطة ذات جهاز ذبذبي قصير جداً

٣ — مصادر الموجات

تعدُّ موجات الراديو ثاني موجات الأشعة التحت حمراء . والمعتقد أن هـذه الموجات تنتج من ذبذبات الجزيئات والذرات لا ذبذبات الكهيربات . وهو معلوم أن حرارة الجسم مقياس مقدار ذبذبات جزيئاته أو ذراته

حينما تسخـن جسماً يمتص الجسم من الحرارة التي هي موجات اثيرية كما علمت طاقة (أي قوة) . وهذه الطاقة تحدث تحرك الجزيئات والذرات وتجعلها تتذبذب بسرعة . فاذا ترك الجسم في حاله هذه يبرد رويداً ، أي أن الجزيئات تشرع تخسر الطاقة التي امتصتها وتبطىء ذبذبتها تدريجياً .

موجات النور المنظور أقصر من موجات الحرارة . وللبحث عن مصدرها نبحث في داخل الذرة نفسها ، لأن المعتقد الآن : أولاً أن موجات النور ناجمة عن حركة الكهيربات (الالكترونات) ضمن ذرات المادة . تصدر من حركات الكهيربات في فلك الذرة الأخير المحيط بجميع أفلاكها . ثانياً أن الموجات السينية تصدر من أقرب الكهيربات الى النواة . ثالثاً أشعة جا (موجاتها) تصدر من داخل نواة الراديوم وغيره من العناصر الاشعاعية كالاورانيوم .



١ ـ موجات جا
٢ ـ موجات الأشعة السينية
٣ ـ موجات النور

موجات الحرارة الاعتيادية تصدر من تذبذب الجزيء والذرة كلها برمتها .

٤ — المقدار Quantum

الطاقة مقيمة في هذه الموجات أو هي الموجات نفسها . الموجة حاملة طاقة أي قوة . ولكن الموجة أو الطاقة لا تسير باستمرار كخيط لا ينقطع . بل تصدر في دفعات متوالية

متعاقبة . كما أن الموجة ذات طول محدود بين قمة وقمة . كذلك بينهما مقدار معين من القوة ينبض نبضات متعاقبة متساوية كتعاقب الموجات . وقد اكتشف هذه النبضات مكس بلانك سنة ١٩٠٠ وسماها كونتم Quantum ونحن نترجمها بكلمة « مقدار » .

كلما كانت الذبذبات الموجية عديدة في الثانية وقصيرة كانت مقادير القوة عديدة أيضاً. والعكس بالعكس. ولذلك ليست « المقادير » متساوية في الحجم بل تختلف باختلاف « مقادير » الذبذبات

ولهذا نرى مقدار القوة في أشعة اكس أكبر منه في أشعة النور العادي . على أن كل مقدار يساوي عدداً ثابتاً من الطاقة يسمى « ثابت المقدار » مضروباً بعدد الذبذبات الموجية في الثانية . وقد اصطلح العلماء على تسميته « ثابت بلانك » اكراماً لمكتشفه .

ثابت بلانك هو وحدة الفعل الذي تفعله القوة ، أي وحدة القوة مضروبة بالزمن (الثواني) . وقد اصطلح العلماء على التعبير عنه بحرف h وهو يعتبر الآن إحدى الكميات الأساسية العلمية العالمية .

أما قيمة هذا « الثابت » فهي جزء واحد من ٦٥٥ مضروباً بعشرة ٢٧ مرة من « الارج »(١) والارج هو اسم لاصغر وحدة للقوة . وليس هنا محل لبيان حساب هذه الوحدة .

وكان من نتائج نظرية بلانك هذه الظن أن أشعة النور (وكل أشعة موجية) هي ذريرات موجات منفصلة بعضها عن بعض ولكنها متلاحقة . وكل ذريرة قوة هي « المقدار » الذي نحن بصدده . وقد سمى اينشطين وزملاؤه هذه الذريرة « فوتوناً » ونحن نترجمها بكلمة « ضويء » . فهذه الذريرة الشعاعية بصفة كونها مادية تسمى « فوتوناً » وبصفة كونها موجية تسمى « مقداراً » .

يقول السير تجايمس تجينز في كتابه الكون الغامض « انه اذا أطبق الكترون على بروتون تنافت شحنتاهما الكهربائية وتفتت الالكترون الواحد الى عشرة آلاف فوتون» . فبناء على هذا الحساب يتفتت البروتون الى نحو ١٨٤٠ مضروبة بعشرة آلاف . ومثله النيوترون لان كتلة كل منهما نحو ١٨٤٠ مرة ككتلة الالكترون

(١) وبعبارة أخرى h = ٦٥٥ وراءها ٢٧ صفراً سلبياً هكذا = ٦٫٥٥ × (١٠)$^{-٢٧}$

الفصل السابع

فلق الذرة

الى هنا انتهينا من تشريح الذرة كلها وتشريح نواتها باعتبار أنها الهيولى (أصل المادة) واستكناه مصدر الطاقة فيها . فصار علينا أن نبحث في كيفية استخراج الطاقة منها واستخدامها ، وهو أهم غايات العلم وأمانيه .

المادة لا تهم الانسان كثيراً ، وانما هي الطاقة التي تهمه — الطاقة في دماغه والطاقة في بدنه والطاقة في غذائه والطاقة في عقله والطاقة في مصنعه وفي جميع أعماله ووسائل انتقاله ، وأخيراً الطاقة في يد شيطانه الشرير ـ القنبلة .

وهنا نلفت نظر القارىء الى أجزاء الذرة ذات الشأن في مصدر الطاقة . وأهم هذه الاجزاء : —

أولاً : النيوترون الذي هو القذيفة التي تقذف بها النواة لتفتيتها الى فوتونات حاملة طاقة

ثانياً : نواة عنصر الاورانيوم القابلة للتفتت أكثر من غيرها من العناصر .

ثالثاً : عنصر البلوتونيوم الذي دخل على عالم العناصر في خلال عملية التفتيت. ولم يكن موجوداً في الطبيعة من قبل على الارض . وهو كالاورانيوم قابل للتفتت .

١ — تحول ذرة الى أخرى

كان رذرفورد أول من أحكم التجارب التي ترينا كيف تحدث التغيرات في نواة الذرة فتحولها من نواة الى نواة أخرى وبالتالي من ذرة الى ذرة كما كان الكيماويون القدماء يريدون أن يحولوا النحاس الى ذهب . وقد جرب رذرفورد تجاربه في معمل كافندش في جامعة كمبردج سنة ١٩١٩

الى ذلك الحين كان معلوماً أن نوى ذرات بعض العناصر الثقيلة كالراديوم والثوريوم والاكتينوم والاورانيوم تنفث من تلقاء نفسها ذريرات من نوع الفا الايجابية الشحنة

(راجع نبذة ٣ من الفصل الأول). وكان معلوماً أن ذريرة «الفا» أي جسيم «الفا» هو نواة ذرة غاز الهيليوم (المؤلفة من كهربين ونيوترونين وكهيربين) التي فقدت كهيربيها . وذريرة «الفا» تنقذف بسرعة فائقة كعشر سرعة النور التي هي ٣٠ الف كيلو متر بالثانية. فخطر لرذرفورد أن يستعمل هذه الذريرات «الفا» كقذائف ذرية. وكان قد لاحظ أن أشعة «الفا» أو «ذريراتها» الصادرة من الراديوم يتغير اتجاهها إذا عبرت في لوحة رقيقة من معدن الميكا ، وهو معدن شفاف يتشظى اذا دق.. ولاحظ مساعده جيجر أنها كانت تنحرف انحرافاً أكثر اذا عبرت غشاء من الذهب ، ولاحظ أيضاً انها كانت في بعض الاحيان ترتد عن الذهب من غير أن تعبره.

ثم خطر لرذرفورد أن يملأ أنبوبة زجاجية بغاز النيتروجين . ثم وضع في وسط الانبوبة حبيبة صغيرة من الراديوم . وغطى طرف الأنبوبة بغطاء معدني رقيق . ووضع وراءه حجاباً قابل التألق (إذا وقعت عليه أشعة قصيرة الموجات فترتد عنه طويلة الموجات وتظهر فيها ألوان تبهج النظر) . ونظر فيه بميكروسكوب فرأى شرارات ضوء تدل على أن نوعاً من الذريرات أطول موجاً من موجات «الفا» تقرع الحجاب . فعلم أنها كهارب (بروتونات) ايجابية ككهرب ذرة الهيدروجين . وفهم من هذا أن ذريرات «الفا» التي كانت تصدم نوى النتروجين الموجود في الأنبوبة سلخت منه كهرباً واحداً ، وهو نواة الهيدروجين كما لا يخفى . وهكذا قالوا ان روذرفورد حطم الذرة (انظر ٣ فصل ١) . ولم تكن النتيجة هذا التحطيم فقط بل أدى الأمر الى تركيب ذرة أوكسيجين من نوى بعض ذرات النيتروجين . ذلك أن بعض ذريرات «ألفا» علقت في نواة النيتروجين فطردت منها كهرباً وحلت محله وتحولت النواة الى نواة أوكسجين هكذا : —

في كتلة ألفا ٢ كهرب و٢ نيوترون و ٢ كهيرب = ذرة هيليوم

نعبر عن الكهرب بحرف ك وعن الكهيرب بحرفي كه وعن النيوترون بحرف ن

(٢ ك + ٢ ن + ٢كه) (ذرة هيليوم) + (٧ ك + ٧ ن + ٧ كه) (ذرة نيتروجين) — (ك + كه) = (٨ ك + ٨ كه + ٨ن) ذرة أوكسجين + ن + حرارة (قوة) يعني نيتروجين + هيليوم = أوكسجين + هيدروجين. وبالاختصار نيتروجين + هيليوم — هيدروجين =

أوكسجين + حرارة (قوة)

وبأرقام الأوزان الذرية هكذا : —

١٤،٠٠٨ ٠ وزن النيتروجين

٤،٠٠٣ ٤ وزن الهيليوم

١٨،٠١١ ٤ المجموع اطرح منه : —

١٦ وزن أوكسيجين

١،٠٠٨ وزن هيدوجين .

١٧،٠٠٨ المجموع

١٧،٠٠٨ ٠

١،٠٠٣ ٤ الزائد الباقي يزيد على وزن هيدروجين . أين ذهب ؟ — ذهب حرارة وهي الطاقة التي صدرت من هذا التحول (الافرنقاع) ذهبت فوتونات حاملة قوة بشكل حرارة

٢ — فلق الذرة بالنيوترونات

ذريرة « ألفا » فلقت نواة النيتروجين ، ولكن ذريرة النيوترون أفعل منها فلقاً وتحويلاً من ذرة الى ذرة أخرى

صرّح كوري وجوليوت في سنة ١٩٣٤ أن بعض العناصر (البورون والمغنيزيا والالومينوم) اذا قُذِفت بذريرات «الفا» (الموجبة) تستمر تنفث بوزترونات برهة بعد القذف (راجع ن ٣ ف ٢) . وستعلم كيف ينتج البوزترون (ن ٢ ف ١١)

واستنتج فرمي الايطالي من هذا ان النيوترونات الخالية الشحنة تخترق نواة الذرة ، ولا سيما نوى ذرات العناصر الثقيلة ، لأن هذه النوى تدفع البروتونات وذريرات « الفا » عنها لأنها إيجابية مثلها . والشحنات المتماثلة تتدافع . ولكن النيوترون لأنه بلا شحنة (أي غير مكهرب) يمكنه أن ينفذ في النواة فلا تستميله ذريراتها ولا تدفعه عنها . فلا جاذبية ولا دافعية بينها وبينه

ولهذا السبب كان همّ العلماء المشتغلين بصنع القنبلة أن يضربوا عنصر الاورانيوم بذريرات النيوترونات

وقد استنتج فرمي أن نواة الذرة التي تطلق عليها ذريرة نيوترون كانت تعتقل (تمتص) النيوترون أو تبتلعه فتصبح بعده نواة غير راسخة أي متقلقلة . وتضطر أن تفرز منها الكترونا لكي تستعيد رسوخها بتعادل شحنتيها . فتصبح نواة جديدة أعلى رقماً في عددها الكتلي (أي وزنها) وأعلى رقماً في كمها الذري (شحنتها) اذ ينشق النيوترون الى بروتون والكترون ، كما يُظَن انه كان في الأصل . فاذا حدث هذا الحادث للاورانيوم الذي وزنه ٢٣٥ ورقمه الذرّي ٩٢ يصبح وزنه ٢٣٦ ورقمه ٩٣ وهو النبتونيوم الذي اكتشف في أثناء عمليات الذرة . ولكنه لا يثبت أكثر من هنيهة لأنه يستضيف نيوتروناً آخر ويتحوّل الى بلوتونيوم[1] كما سيأتي بيانه .

وكان المظنون قبلاً ان ما يسمى نيوتروناً الآن هو بروتون انضمَّ إليه ألكترونه واتحدا فأصبحا ذريرة واحدة متعادلة[2] ولكن فرمي أظهر أن هذا النيوترون المتعادل أو الخالي الشحنة هو ذريرة واحدة في الأصل قائمة بذاتها غير مركبة من بروتون ايجابي وألكترون سلبي،لأنه لو كانت الحالة هكذا لا نتفت شحنتاهامعاً ولانفرطتا الى فوتونات كما سبق القول (انظر آخر الفصل السابق) . وفي بعض الاحوال ينشأ من هذا التحويل مقدار عظيم من الطاقة . ولكن نواة الذرة من الصغر المتناهي بحيث أنها لا تستهدف إلا نادراً للقذيفة بنسبة واحد الى خمسين ألفاً . ولذلك يعتبر القذف خسارة أكثر مما هو مكسب

في سنة ١٩٣٩ قبيل نشوب الحرب ظهر لهاهن[3] انه إذا قذفت نواة الاورانيوم بقذيفة نيوترونات تحوَّلت من حال الى حال أي انشقت الى ذرتين خلافاً لما فعلت قذيفة روذرفورد. فهذه طردت عن النواة قطعة صغيرة واحدة منها ، ولكن قذيفة هاهن النيوترونية شطرت نواة الاورانيوم الى شطرين متساويين تقريباً كما سترى فيما يلي

(١) أنظر أيضاً رقم ٦ نبذة ٥ من هذا الفصل

(٢) صفحة ١٤٦ من كتاب Atom للاستاذ G. P. Thomson

(٣) Hahn عالم ألماني فر من المانيا من وجه هتلر الاحمق الى أميركا واشتغل مع العلماء في صنع القنبلة .

٣ — التفاعل المسلسل

وقد سمي هذا التحطيم « تشطيراً » أو « فلقاً » وبه كانت القوة الصادرة عنه شديدة جداً نحو عشرة أضعاف القوة الصادرة بالطرق الاخرى للتحطيم .

على ان اكتشاف هاهن هذا لم يكن ذا أهمية عظمى لو لم يكتشف جوليوت الفرنساوي زوج بنت مدام كوري (مكتشفة الراديوم) انه في عملية الفلق المذكورة كان كلما تدخل نيوترون في نواة الاورانيوم لفلقها صدر نيوترونان أو ثلاثة أو أكثر فتفعل في النوى المجاورة كفعل سالفتها . وهذا الاكتشاف أدَّى الى صنع القنبلة ، لأنه اذا كان كل من الثلاثة نيوترونات الصادرة من القذيفة الأولى تدخل بين ذرات الاورانيوم فكل منها تفلق الذرات المجاورة فتصدر من كل ذرة نيوترونين أو أكثر تفلق غيرها وهكذا دواليك الى أن تنفلق جميع الذرات . وعلى هذا النحو يتضاعف عدد النيوترونات الصادرة على التوالي بلا نهاية . وكل نيوترون أهل لأن يفلق ذرة أورانيوم ويصدر قدراً كبيراً من الطاقة . وقد سموا هذا الفعل المتوالي « التفاعل المتسلسل » Chain Reaction

متى ضبط النيوترون ذرة الاورانيوم ودخل في النواة تقلقلت النواة لفقد التوازن في بنيتها ، وحدث فيها ارتجاج عنيف ، فتنشق الى نواتين تسميان شطرَي الاشتقاق أو فلقتي الانفلاق ويخرج منها نيوترونان أو أكثر كما تقدم القول .

لنفرض ان ذرة الاورانيوم انفلقت الى ذرة تنك (tin) وذرة انديوم Indium ووزنهما يقارب وزن الاورانيوم . ولكن النيوترونات التي في الاورانيوم تزيد على حاجتهما فالزائد يخرج حراً . هكذا

وزن ذرة الانديوم ١١٥ فيها ٦٦ نيوتروناً
« « التنك ١١٩ « ٦٩ «

٢٣٤ ١٣٥

ولكن وزن ذرة الاورانيوم ٢٣٥ فيها ١٤٣ نيوتروناً .

الفرق بالوزن بروتون واحد و ٨ نيوترونات

فما ينفصل عن الذرتين الفلقتين وهو بروتون واحد و ٨ نيوترونات يندفع منفتتاً فوتونات بقوة عنيفة بشكل حرارة ونور هائلين . حرارة تضارع حرارة الشمس في مركزها (٤٠ مليون درجة من مقياس سنتغراد) ونور ساطع كنور الشمس عند سطحها

أو يمكن ان تنشق ذرة الاورانيوم الى كادميوم وانتيموز هكذا :

وزن الكادميوم	١١٢ ، ٤١	فيه ٦٤	نيوتروناً تقريباً
« الانتيمون	١٢١ ، ٧٧	« ٧١	«
	٢٣٤ ، ١٨	١٣٥	
ولكن وزن الاورانيوم	٢٣٥	١٤٣	نيوترون
	١	٨	

الفرق يندفع فوتونات حرارة ونور

(راجع نبذة ٤ فصل ٤)

٤ — طبيعة الفلق

لاحظ العلامة فريش والعالمة السيدة مايتر خصلتين في بيئة النواة : الاولى أنه ليس بين عدد النيوترونات والعدد الذري (عدد البروتونات) تناسب يعني أنه ليس كلما ارتفع عدد البروتونات ارتفع معه عدد النيوترونات بقدره بل بأزيد . يكون عدد النيوترونات دائماً أكثر من عدد البروتونات في الذرة الواحدة بعد الهليوم . الثانية ان « طاقة الربط » (١) (التي تربط الذرات بعضها ببعض) في كل مجموعة ذريوات تبلغ أشدها في النوى المتوسطة في جدول العناصر . افرض أن نواة الاورانيوم الذي وزنه ٢٣٨ ، وهي أعلى نواة في الجدول كما نعلم ، انشقت الى نصفين . فاذا غضضنا النظر عن كتلة النيوترون التي استعملناها لفلق النواة كان لنا نواتان كلٌّ منهما رقمها الذري ٤٦ وكتلتان كلٌّ منهما ١١٩ وزنة . ولكن ليس الواقع كذلك لأن للنظير الأثقل من البلاديوم (الذي هو في وسط الجدول ورقمه ٤٦) وزناً قدره ١١٠ لا ١١٩ يعني أن تنصيف الوزن لم يؤدّ الى تنصيف الشحنة ويعني أن عدد البروتونات تنصّف ولكن وزن الكتلة كله لم يتنصّف بل جاء أنقص ٩ وزنات عن النصف كما رأيت

فمن ذلك نستنتج أن كلاًّ من هاتين النواتين المتخيلتين يجب أن تطرد تسع نيوترونات

(١) أنظر نبذة ٢ فصل ٦

لكي يستتب قوامها وتصير نواة بلاديوم . ان ٤ نيوترونات في كل نواة يجب أن تحول نفسها الى بروتونات بنفث ٤ ألكترونات منها الى أفلاك الذرة . وبذلك تصبح نواة تلك ذات كتلة بوزن ١١٩ وعدد ذري ٥٠ ، أو أن حدوث هذين التحويل والنفث (^{119}) مما يؤدي الى نشوء اثنتين من النوى مستتبتين ثابتتين كما لاحظ هاهن وستراسمان فعلاً إن نظائر باريوم (العدد الذري ٥٦ لكل منهما) كانت حاصل الانفلاق .

يحدث الانفلاق بحيث تنتج منه فلقتان غير متساويتين كتلة ، نحو ١٤٠ و٩٠ مع نفث بعض نيوترونات وانحلال الكترونات بفعل النشاط الاشعاعي الى آن تستتب النوى بما بقي لها من الذريرات بعد ذلك النفث

وقد ظهر من حساب قوة الربط أو « طاقة الربط » إن تجديد هذا الترتيب الذري الذي نحن بصدده يؤدي الى كتلة أحط من كتلة النواة الأصلية التي للاورانيوم . وهكذا لابد من انطلاق مقدار كبير من الطاقة لحدوث هذا الانحطاط — من هذا تفهم سر نشوء الطاقة أو القوة بانفلاق الذرة

إذن فتنطوي عملية الفلق على ثلاث ظاهرات .

١ — انطلاق طاقة أي قوة — ٢ انبثاق أنواع من النشاط الاشعاعي من الذرة (أورانيوم مثلاً) ، ٣ — امكان تفاعلات النيوترونات المتسلسلة

وانطلاق الطاقة يمكن أن يظهر نفسه في القوة العاملة Kinetic البادية من شظايا أو فتات الانفلاق وتفتيت تلك الذريرات الحاملة من الانفلاق بشكل نشاط اشعاعي (فوتونات)

وامكان « التفاعل المتسلسل » يتوقف على ما اذا كانت النيوترونات تنبثق فعلاً . وهي مسألة تستلزم بحثاً ضافياً فيما يلي :

• — معلومات العلماء الاخيرة •

في أوائل عهد اشتغال العلماء في أميركا في استصدار الطاقة من الذرة وفي اختراع القنبلة الذرية كانت معلوماتهم ما يلي : —

١ — ان العناصر التي كانت تقذف بالنيوترون لفلقها أو شقها الى فلقتين متساويتين تقريباً ثلاثة : الاورانيوم والثوريوم والبروتو اكتنوم . والشظايا التي انتثرت منها كانت نظائر لعناصر في وسط جدول العناصر متوالية من اسيلينيوم رقم ٣٤ الى الانتانوم رقم ٥٧

٢ — كان معظم هذه الشظائر أو الفلقات التي انفلقت إليها تلك العناصر متقلقلة غير مستتبّة تتحلل بفعل النشاط الاشعاعي بفيوض Emanations متتابعة من جسيمات بيتا (ألكترونات) الى سلسلة من عناصر مختلفة مستتبة

٣ — لهذه الشظايا التي تفتت إليها العناصر المتشظّية طاقة فعلية (قوة) شديدة

٤ — كان الثوريوم والبروتو اكتنيوم ينفلقان أو يتشظيان بضربهما بالنيوترونات السريعة (سرعة ألوف الأميال بالثانية . أقل من سرعة النور)

٥ — وأما فلق الأورانيوم فكان بقذفه بالنيوترون السريع أو النيوترون البطيء ذي السرعة الحرارية . وكان النيوترون الحراري (البطيء) يفلق على الخصوص نظيراً Esotop واحداً من نظائر الأورانيوم وهو الذي وزنه الذري ٢٣٥ ولكنه لا يفلق النظير الذي وزنه ٢٣٨ . وأما النيوترون السريع فكان أقل حظاً في فلق النظير ٢٣٥ من النيوترون الحراري البطيء .

٦ — كان النيوترون إذا قذف عند سرعة خاصة الى الأورانيوم ٢٣٨ يقع أسيراً عنده حين عبوره فيه ، فيمتزج في نواته ويحوّله الى أورانيوم ٢٣٩ ، ولكنه لا يفلقه .

(اورانيوم ٢٣٩ هو الذي عثر عليه في أثناء عمليات اختبارات الذرة وسمي نبتونيوم)

٧ — الطاقة التي تحصل في أثناء فلق ذرة الأورانيوم كانت بالتقريب ٢٠٠ مليون الكترون فولت .

٨ — كانت النيوترونات السريعة تنبثق من عملية الفلق

٩ — كان المعدل الأوسط للنيوترونات التي تنطلق في أثناء فلق الذرة بين واحد وثلاثة

١٠ — النيوترونات السريعة تفقد طاقة باصطدامها « الصلب العنيف » غير المرن بنواة الأورانيوم من غير أن تنفلق النواة .

٦ — النيوترون البطيء

ذكرنا آنفاً النيوترون البطيء وهو أهم عامل في فلق الذرة وتحطيمها . فما هو ؟ وكيف يحصل ؟

في سنة ١٩٣٣ اكتشف الدكتور انريكو فرمي الايطالي أن بعض نوى الذرات التي قذفت بنيوترونات أمكنها أن تعتقل بروتوناً وتدمجه فيها فتصبح « نظيراً » لعنصر الذرة الاصلية . وأصبحت أثقل منها طبعاً . على أن نظيراً كهذا لم يكن في كثير من الاحوال سلباً متيناً بل كان متقلقلاً ينفلق الى عناصر أخف منه بانفصال ذريرات منه على التوالي بيد أن فرمي اكتشف اكتشافاً أهم . فقد وجد أن اعتقال النيوترون يكون أكثر احتمالاً اذا جعلت شعاعته بطيئة بامرارها في الماء أو البارافين أو أي سائل غني بالهيدروجين (كالماء الثقيل) . وفيما يلي نرى أهمية النيوترون البطيء

حتى الآن كان العلماء الطبيعيون يقذفون الذرات بسيل من البروتونات أو أي ذريرات ايجابية الشحنة كأشعة «الفا» بغية الحصول على سيل من القوة أسرع وأكثر . وكان هذا ضرورياً لكي تستطيع القذائف الايجابية الشحنة أن تشق طريقها الى نواة الذرة ضد القوة الدافعة التي في ايجابية الذرة نفسها ، إذ لا يخفى أن الشحنتين المتماثلتين تتدافعان . ولذلك كان هذا متعذراً . ولكن لما كان النيوترون متعادلاً أو بلا شحنة لا يتأثر بشحنة الذرة الايجابية في النواة فاذا كان بطيئاً يستطيع أن يدخل في النواة توّاً بلا اعتراض من الكتروناتها السلبيـة ولا بروتوناتها الايجابية

وقد نجح فرمي نجاحاً باهراً في تحويل النوى من حال الى حال بقذفها بالنيوترونات البطيئة على نحو ما تقدم . ومن جملة تجاربه الناجحة بهذا الصدد أنه ابتدع من الاورانيوم عنصراً ليس له وجود بين العناصر الـ ٩٢ رقمه الذري ٩٣ ، أي أن فيه بروتوناً زيادة عن الاورانيوم وهو النبتونيوم المذكور آنفاً ولكنه غير ثابت بل هو متقلقل ينفث أو تصدر منه طاقة . هذه فضيلة النيوترون البطيء ولولاها لكان يدخل ويخرج من غير أن يفعل شيئاً . ولذلك عوّلوا في صنع القنبلة على قذف الاورانيوم بالنيوترون البطيء وكانوا يستعملون لابطائه الماء الثقيل [1]

بعد هذا الشرح عن الذرة وأجزائها صار للقارىء أن يطالب بمعرفة الاورانيوم . فما هو الاورانيوم ؟

(١) ولما اكتشف جواسيس انكلترا معملاً في نروج لاصطناع الماء الثقيل خاف الحلفاء ان يكون الالمان مشتغلين في اصطناع القنبلة الذرية . فغزت طائرات انكلترا ذلك المعمل مرتين . في المرة الاولى ذهبت ضحايا كثيرة . وفي الثانية نجحت في تدمير ذلك المعمل بخسائر أيضاً

الفصل الثامن

الأورانيوم

أصبحت كلمة أورانيوم اليوم على الألسنة كما كان اسم القنبلة على الآذان قبل ان يأخذ طريقه الى عالم النسيان . وقد تصير بهاراً في الأفواه كأسماء روزفلت وتشرتشل وستالين . ذلك لأن الخاصة والعامة سمعوها مقرونة بالقنبلة الذرية التي روّعت الجنس البشري . فعسى أن يسمعوها مقرونة بالعمل المنتج والقطار الناقل والباخرة والطائرة الخ .

الاورانيوم هو جوهر القنبلة الذرية ، فيه مكمن القوة الكونية العظمى . فيمكن أن يكون في يد عزرائيل كنذير ، أو في لسان جبرائيل كبشير ، كما يشاء هذا الانسان الطيب والشرير .

الأورانيوم ملك العناصر الكيمية ، كالأسد ملك الوعر وكالنسر ملك الجو . هو كذلك لأنه قائم في قمة سلسلة الذرات العنصرية . هو أثقل العناصر ، يزن ٢٣٨ مرة كوزن الهيدروجين الذي هو أخف العناصر . هو أثقل من الحديد ٤ ½ مرة . وأثقل من الرصاص مرة ونصف مرة . والرصاص آخر حفدائه والراديوم رابعهم والاكتينوم ثالثهم والثوريوم ثانيهم . وزميله هو الأورانيوم الثاني الذي يزن ٢٣٥ ، على أن هذا الليث أقوى من ذلك الأسد

عنصر الاورانيوم الكيماوي موجود في تربة تسمى بتش بلاند ومعناه المزيج القاري (نسبة الى القار وهو الزفت) وفي مزيج آخر يسمى كرتوتيت وهو خليط من عناصر أخرى معه . بعضها من أسرته كالثوريوم والاكتنيوم وأنواع الراديوم الثمانية . ثم الباريوم والسلكا ومركبات الرصاص والحديد والكلس والمنازيا والمنغنيز والبزموت الخ .

ظهر للمحققين ان قشرة الأرض التربة الصخرية تحتوي على مقادير غير قليلة بنسبة ٤ الى ١٢ بالمليون من الثوريوم .

وأهم مناجم المزيج المذكور في جوشيمتال في تشكوسلوفاكيا وكورن وول في الولايات المتحدة ، وفي كندا وروسيا وأسوج ونروج ، وفي كاتنبي في الكونغو البلجيكية . وفي جنوبي أستراليا وفي البرتوغال .

يوجد حيث يوجد الراديوم حفيده بمقادير أكثر من الراديوم . لأن انحلال الأورانيوم الى حفدائه ولا سيما الراديوم يستغرق ألوف ملايين من السنين .

الأورانيوم التي معدن أبيض ألين قليلاً من الحديد . وقلما يتمغنط . يحترق بالاوكسيجين في حرارة ١٧٠ سنتغراد فينتج من احتراقه أوكسيد الأورانيوم .

في سنة ١٨٩٦ اكتشف العلامة الفرنساوي هنري بكرل القوة الاشعاعية التي في هذا المزيج، إذ عرض للتشعع الضئيل الذي يبدو منه في الظلام، صفحة فوتوغرافية ملفوفة بورق اسود، فظهر عليها التأثير النوراني . وثبت له ان للأورانيوم قوة الاشعاع . وبعد ذلك ظهر ان للراديوم المتسلسل من الأورانيوم اشعاعاً أقوى جداً من اشعاع الأورانيوم نفسه . ثم كشفت مدام كوري وزوجها بيير الراديوم في المزيج القاري المذكور آنفاً .

هذا الاشعاع هو مادة ذات قوة تظهر بشكل حرارة ونور يصدران من العنصر نفسه . ومعناه ان العنصر يذوب رويداً بسبب هذا الاشعاع كما يذوب الشمع المضيء فيتحوّل الى عنصر آخر كما يتحوّل الفحم المحترق إلى رماد .

نسبة اشعاع الراديوم الى الأورانيوم كنسبة واحد الى ٣ ملايين و ٤٠٠ ألف . وعمر الأورانيوم نحو ٨٠٠٠ مليون وبتدقيق بعضهم ٦٧٥٠ مليون سنة ، وعمر الراديوم نحو ٢٢٨٠ سنة . وقد استنبط بعض العلماء لحساب أعمار العناصر الشاعة طريقة تقريبية

لا يخفى أنه كلما نقص حجم العنصر الشاع قلّ ما يفيض منه من الأشعة ، لأن الاشعاع يناسب الحجم . فمتى بلغ العنصر الى نصف حجمه يكون قد قضى ٣ أرباع عمره . فاذا كان الراديوم مثلاً قد قضى ١٥٨٠ سنة حين أصبح نصف حجمه فاضرب هذه السنين في ١٠٤٤٣ فيكون لك نحو ٢٢٨٠ سنة وهي عمر الراديوم حين يفنى ولا يبقى منه إلاّ الرصاص

فالرقم ١،٤٤٣ هو العدد الثابت الذي يضرب به عمر كل عنصر متى ذاب الى نصفه لكي يعلم عمره ، فالاورانيوم بعد ٤٦٧٧ مليون سنة يصبح نصف حجمه الأول . اضرب هذا العدد ب ١،٤٤٣ فيكون لك ٦٧٥٠ مليون سنة . وهو عمر الاورانيوم حين يذوب نهائياً ولا يبقى منه إلاَّ البروتو اكتنوم والثوريوم والاكتنوم ثم الراديوم [1]

ومن عجائب هذا العنصر سيد العناصر أنه يؤلف منه عنصر أعلى منه وأثقل وزناً وأكثر شحنة ، وفي صنع القنبلة الذرية أكثر فائدة هو البلوتونيوم . فما هو البلوتونيوم :

حاشية : اسم الاورانيوم مشتق من أورانوس وهو الكوكب السابع من أنجال الشمس . وقد انتبه له مكتشفه العلامة كلابروث منذ سنة ١٧٨٩ تكريماً لاسم هرشل الفلكي العظيم الذي اكتشف السيار السابع المذكور سنة ١٧٨١ واستعار لكوكبه هذا الاسم . استعاره من اسم أحد الآلهة في ميثولوجيا اليونان . فهذا الاسم المحظوظ انتقل من عالم الالوهية الوهمي الى عالم الوجود المرصود . ثم الى عالم الذرة غير المنظور . وله في كل عالم من هذه العوالم قوة عظيمة وأصغرها اقواها . ترى هل الشيطان مقيم في هذه الذرة

وقد اختار الفلكيون للسيار الثامن من أنجال الشمس اسم نبتون اله البحر فانتبه علماء الذرة لعنصر نبتونيوم . كما اختار الفلكيون للسيار التاسع اسم بلوتو اله العالم الاسفل . فانتبه علماء الذرة لعنصر بلوتونيوم وكلاهما في ميثولوجيا اليونان . ولا يخفى ان جميع أسماء السيارات مقتبسة من أسماء آلهة في الميثولوجيا اليونانية .

(١) أستخرج من كتاب Extra phamocopia Merindal صفحة ١٩٤٣

عالم الذرة

أو

الطاقة الذرية

والقنبلة الذرية

ATOMIC ENERGY

بقلم

نقولا الحداد

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر

١٩٤٨

الفصل التاسع

البلوتونيوم

هذا العنصر دخيل على العناصر الكيماوية . وزنه الذري ٢٣٩ ورقمه الذري ٩٤ . وهو يستعمل كالاورانيوم للانفلاق واستصدار الطاقة . وانما يصطنع من الاورانيوم ٢٣٨ الذي لا فائدة منه في صنع القنبلة أو استخراج الطاقة .

١ — حصول البلوتونيوم

ثبت وتحقق أن اعتقال الاورانيوم ٢٣٨ للنيوترونات يفضي على الارجح بفيضين متواليين من أشعة بيتا (الـكترونات) الى تكوين نواة ذات وزن ٢٣٩ ورقم ذري ٩٤ ، وبمراعاة نظرية العالمين بوهر وهويلر في فلق الذرة اذ هذه النواة تنفث ذريرة (الفا) الراسخة، وانها تنفلق اذا قـذفت بنيوترونات حرارية بطيئة Emanations

وبعد حين ظهرت أهمية هذا الانفلاق الحراري (بفعل النيوترون البطيء) في « التفاعل المتسلسل » على هذا النحو : — (على اعتبار أن « أو » ترمز عن أورانيوم و « ن » ترمز عن نيوترون و « نب » عن نبتونيوم و « بلو » عن بلوتونيوم و « الـ » عن الـكترون ، وان العدد السابق للعنصر هو رقمه الذري واللاحق هو وزنه) فيكون لنا : —

٩٢ « أو » ٢٣٨ + . ن ١ ← ٩٢ « أو » ٢٣٩ ← ٩٣ نب ٢٣٩ + ١ « الـ »

٩٣ نب ٢٣٩ ← ٩٤ بلو ٢٣٩ + ١ « الـ »

ومعنى هذا أن الاورانيوم ٢٣٨ لما أضيف اليه ، أو هو اعتقل ، نيوترونا بطيئا صار أورانيوم ٢٣٩ من غير أن يزاد عليه الـكترون

ثم التقط الـكترونا فصار نبتونيوم ٢٣٩ وصار رقمه الذري ٩٣

ثم أضيف الى النبتونيوم نيوترون آخر بطيء فصار بلوتونيوم ٢٣٩ ورقمه الذري ٩٤

وثبت أن نواة البلوتونيوم ممكنة الانفلاق بفعل النيوترونات الحرارية البطيئة (أنظر نبذة ٤ من هذا الفصل التاسع)

٢ — عملية فلق النواة

اذا فلق نيوترون نواةً وأنتج هذا الفلق أكثر من نيوترون واحد فعدد الفلقات يزداد زيادة عظيمة باطلاق مقادير كثيرة جداً من الطاقة . فالمسألة مسألة امكانيات أو أرجحيات. فان النيوترون الذي يتولد في عملية الفلق (١) يمكن أن ينفلق (٢) يمكن أن يفلت بتاتاً من الاورانيوم، أو (٣) يمكن أن يعتقله الاورانيوم في عملية ليست تفضي الى الفلق،(٤) أو يمكن أن يعتقله الاورانيوم غير النقي . فمسألة ما اذا كان الانفلاق المتسلسل يحدث أو لا يحدث تتوقف على نتيجة تنافس بين هذه العمليات الاربع .

إذا كان ضياع النيوترونات في الأحوال الثلاثة الاولى أقل من زيادتها في الحالة الرابعة يحدث « التفاعل المتسلسل » ، وإلاً فلا . وأية حالة من الحالات الثلاث الاولى يمكن أن تكون راجحة بتدبير تكون فيه النيوترونات الحاصلة من الانفلاق غير كافية لاستمرار التفاعل (الانفلاق) . مثال ذلك : اذا حدث ان الحالة الثانية — اعتقال الاورانيوم للنيوترون من غير حدوث انفلاق — كانت كثيرة الأرجحية . فلا يحتمل حدوث « التفاعل المتسلسل » ترى مما تقدم ان حدوث التفاعل قليل . يكاد يكون نادراً .

زد على ذلك تعقيداً آخر يجعل « التفاعل المتسلسل » قليل الاحتمال وهو ان الاورانيوم الطبيعي هو مجموعة . ثلاثة نظائر بأوزان ٢٣٤ و ٢٣٥ و ٢٣٨ بنسبة ٠٠٠٦ ، ٠٠٧ ، و ٩٩،٣ على التوالي . وقد ظهر أن ارجحية الحالتين (٢) و(٤) تختلف باختلاف هذه النظائر. وكذلك تختلف باختلاف النيوترونات في مختلف الطاقات . فمقدمة المشروع هي في تقليل الاحتمالات الثلاثة الاولى وتلافي مفاعيلها ما أمكن .

٣ — انفلات النيوترون والحجم المحدود

يمكن تقليل عدد النيوترونات التي تفلت من مقدار من الاورانيوم بتعديل الحجم وشكل الكتلة المطلوب احداث الانفلاق المتسلسل فيها .

المعلوم رياضيًا ان أي جسم كروي يكون سطحه مناسباً لمربع نصف قطره ، وأي

حجم كروي يكون مناسباً لمكعب نصف القطر. فانفلات النيوترونات من قدر من الاورانيوم عائد الى مساحة السطح المشار اليه او يكون متوقفاً عليه. ولكن اعتقال النيوترون بعملية الفلق أو الانفلاق يحدث في جميع الكتلة. ولهذا يعود أمره الى حجم الكتلة، أي يتوقف عليه بناءً عليه كلما كان مقدار الاورانيوم كبيراً كان انفلات النيوترون أكثر احتمالاً من اعتقاله. وبالتالي يقل أو يمتنع « التفاعل المتسلسل ». ان فقدان النيوترونات باعتقالها في حالة عدم الانفلاق عائد الى حجم الكتلة كانتاج النيوترون باعتقاله في حالة الانفلاق.

الحجم المحدود لكتلة الاورانيوم المراد حدوث « التفاعل المتسلسل » فيها (أي انفجارها) هو الحجم الذي ينتج نيوترونات حرة بقدر ما يخسر من النيوترونات المعتقلة في حالة عدم الانفلاق. وبعبارة أخرى اذا كان الحجم أصغر من الحجم المحدود فلا يحدث « تفاعل متسلسل » ولا يحتمل أن يكون الحجم المحدود كثيراً جداً.

وقد رؤي أن الحجم المحدود هو بين كيلو جرام ومئة كيلو من الاورانيوم ٢٣٥. وهذا المقدار هو ما يجب أن يُنفصَل من ١٤٠ مثلاً من أمثاله من الاورانيوم الطبيعي ذي النظائر الثلاثة. وهنا كانت العقدة الصعبة جداً عند صانعي القنبلة. فانظر كم طن من هذا الاورانيوم وكم طن من البقش بلاند (المزيج القاري) يلزم لاستخراج قنبلة. وكم تكون عملية هذا الاستخراج صعبة.

قُضيت السنون الخمس في عملية الاستخراج والفصل (مصدر فصّل)

ظهر مما تقدم أن النيوترونات البطيئة أكثر أرجحية لاحداث الانفلاق في نوى الاورانيوم ٢٣٥. ولكن النيوترونات المنبثقة في خلال الانفلاق ذات سرعة فائقة. فاذاً يمكن القول أن التفاعل المتسلسل » يمكن أن يحدث من تلقاء نفسه اذا كانت النيوترونات التي تنبثق من النواة في خلال الانفلاق أكثر من التي تعتقل أو التي تمتصها النواة نفسها. فاذاً أرجحية الاعتقال في حالة الانفلاق أو في حالة عدم حدوث الانفلاق تتوقف على سرعة النيوترونات. ولسوء الحظ ان سرعتها التي في حالة الاعتقال عند عدم الانفلاق أرجح. هي السرعة المتوسطة في معدل سرعة النيوترونات المنبثقة في خلال عملية الانفلاق، والسرعة التي ترجح فيها الاعتقال في حالة الانفلاق.

الفصل العاشر

الوسيط

١ — فكرة الوسيط

خطر لبعض علماء الطبيعة أنه يمكن أن يمزج الاورانيوم نفسه بمادة وسيطة بحيث أن النيوترونات السريعة في حالة الانفلاق تنخفض سرعتها بعد أن تنبثق من الاورانيوم نفسه، وقبل أن تندفع الى نوى الاورانيوم. فوقع الاختيار على توسيط واحد من العناصر الاربعة: الهيدروجين أو الديوتريوم (الهيدروجين الثقيل) أو البريليوم أو الكربون

ولا يخفى أن عمليــة تخفيض سرعة النيوترون تقتضي أن يكون الاصطدام مرناً بين الذريرات الفائقــة السرعة والذريرات الساكنة، يعني ليس عنيفاً صلباً. ولذلك اختيرت العناصر الخفيفة المذكورة آنفاً.

وقد اقترح العلامتان فرمي الايطالي وزيلارد أن يُستعمل الجرافيت (وهو الفحم الحجري المضغوط) كوسيط لاجل «التفاعل المتسلسل». وكانت نظريتهما أن يودع القدر اللازم للحجم المحدود لكتلة الاورانيوم بين مشبكات من المادة الوسيطة كالجرافيت هذا مثلاً. ولهذه المشبكات التي تشبه الغرابيل ميزة أفضل جداً من الدقائق البسيطة التي يراد بها عزل كتل الاورانيوم بعضها عن بعض.

وقد سمي المشبك الفحمي أو أيّا كان نوعه «الوسيط المخفّض السرعة» (انظر ٣ فصل ١١) رئي أن خير الوسطاء لتخفيض سرعة النيوترونات هو الديوتوريوم (الهيدروجين الثقيل) ولكنه قليل جداً فهو موجود مع الهيدروجين الاعتيادي بنسبة واحد الى ٥٠٠٠

حتى سنة ١٩٤٠ لم يستخرج منه الا بعض لترات في أميركا للتجارب العلمية. وكان في نروج معمل خاص لاصطناع الماء الثقيل منه يتولاه الالمان. وقد ظُنّ انهم كانوا يشتغلون

في صنع القنبلة الذرية . ولكن لما عرف الانكليز به غزوه بطائراتهم مرتين الى أن دكوه الى الحضيض

وأما البريليوم فموجود في أماكن كثيرة بمقادير قليلة . وكان في السنين الأخيرة يستعمل ممزوجاً مع عناصر أخرى للصناعة . وفي سنة ١٩٤٠ استخرج منه في الولايات المتحدة نحو سبعين رطلاً .

أما الفحم الجرافيت فكثير جداً في أميركا وغيرها ، وتستخرج منه مقادير عظيمة . ولهذا اعتبر أقرب الوسطاء تناولاً . على أن هناك بعض الصعوبة في الحصول على القدر اللازم من النقي الصالح منه

للاورانيوم ٢٣٨ مزية امتصاص النيوترون أو اعتقاله السريع وتخفيض سرعته بحيث يرتفع وزنه الى ٢٣٩ ويتكوّن منه البلوتونيوم . ولكن لا يحدث هذا النيوترون فيه انفلاقاً. ولذلك لابدّ من افراز الأورانيوم ٢٣٥ من كتلة الأورانيوم الطبيعي (ذي النظائر الثلاثة) وهو فيه بنسبة ١ ÷ ١٤٠ وهنا قامت عقبة في السبيل صعبة المرتقى لأن للنظيرين تصرفاً كياويّاً واحداً فلا يمكن فرزهما بالحيل الكيماوية ، بل لابدّ من حيل أخرى في العلم الطبيعي. وهي ما أشغلت علماء القنبلة الذرية بضع سنين .

٢ — الديوترون

كان العلماء الى هذا العهد يستغربون كل الاستغراب ان جدول العناصر يثب وثباً من وزن الى وزنٍ . مثال ذلك : أن وزن الهيدروجين واحد لأن فيه بروتوناً واحداً ، ووزن الهيليوم ٤ لأن في نواته أربعة :— بروتونين ونيوترونين . فما السر في الانتقال من واحد الى أربعة ، مع ان الشحنة الكهربائية انتقلت من واحد الى اثنين — والى ٦ لليثيوم والى ٩ للبروميوم الخ . مع ان الشحنة انتقلت من واحد الى ٢ الى ٣ الى ٤ الخ فما زاد في الوزن عن الشحنة كان نيوترونات . السر انكشف في نتائج أبحاث العلاّمة شدويك .

فبما كان شدويك وأعوانه يُجرون تجاربهم اكتشفوا النيوترون ،واكتشافهم هذا جعل الأستاذ هرولد أوراي H. Orey في جامعة كولومبيا يعتقد ان للهيدروجين نظيراً ثقيلاً يختلف عن الهيدروجين الاعتيادي، بأن فيه نيوتروناً، فزاد وزنه، ولكن شحنته لم تزد ،

اعتقد انه موجود في الطبيعة ولكنه لم يُكتشف بعد . واستنتج من هذا انه لا بد ان يوجد ماء ثقيل أيضاً مركب من هذا الهيدروجين الثقيل . ولذلك شرع هو وأعوانه منذ سنة ١٩٣٢ في البحث عن هذين الثقيلين الى أن عثروا عليهما . وقد سُمّي الهيدروجين الثقيل ديوتوريوم ، والماء الثقيل ديوترون . فهل كان شدويك يدري ان هذا الماء الثقيل ضروري لتحطيم الاورانيوم أو لصنع القنبلة ؟

وفي سنة ١٩٣٤ لم يكتف روذرفورد باكتشاف أوراي، بل برهن هو وأعوانه على انه يوجد ذرة هيدروجين أثقل ثلاثة أضعاف من ذرة الهيدروجين المعتاد أي ان فيها ٢ نيوترون و ١ بروتون ، وان نواتها تزن ٣ مرات وزن الهيدروجين . ثم اكتشف العلماء أخيراً انه يوجد هيليوم خفيف أيضاً أي ان فيه بروتونين ونيوتروناً واحداً . والهيليوم المعتاد فيه ٢ بروتون و٢ نيوترون . إذن فوزن العناصر الذري لم يثبت وثباً كما كان يُظَن بل هنا عناصر غير معروفة تملأ الوثبات الأخرى في جدول العناصر قد تتحقق على هذا النحو .

٣ — اصطناع الماء الثقيل

قلنا ان الديوتوريوم (الهيدروجين الثقيل) من خير « الوسطاء » لتخفيض سرعة النيوترون، لأنه قليل الامتصاص ،وإنما علته إنه قليل الوجود . ولما كان الأوكسيجين أقل امتصاصاً للنيوترون (أو اقل اجتذاباً له) كان خيراً ان يجعل منه ومن الديوتوريوم ماء ثقيل لقضاء هذا الغرض .

يمتاز توسيط الماء الثقيل على الجرافيت في تخفيض سرعة النيوترون بكونه أكثر تخفيضاً لسرعته وأقل امتصاصاً له من الجرافيت . ولذلك يمكن أن يعمل أي نظير للتفاعل المتسلسل من مزيج الاورانيوم والماء الثقيل للحصول على عدد أكثر من النيوترونات البطيئة وبحجم أصغر من حجم نظير الجرافيت .

٤ — كيف ينشأ البلوتونيوم

بعد شرح كيفية الوسيط الذي يقلل سرعة النيوترون لكي لا يخترق ذرة الاورانيوم وينفر منها، بل هي تمتقله لكي يحوّلها من حال إلى حال من أورانيوم الى بلوتونيوم، صار في وسعنا ان نفهم كيف ينشأ البلوتونيوم .

هب إننا أحدثنا « تفاعلاً متسلسلاً » في مشبك من الاورانيوم الطبيعي المحتوي على النظائر الثلاثة بوسيط من الجرافيت مثلاً . فحين يبدأ « التفاعل المتسلسل » تأخذ النيوترونات تنبثق في اثناء انفلاق الاورانيوم ، فيعتقل الاورانيوم ٢٣٨ بعضها (أي أنها تدخل في نواه) من غير أن يخترقها (بل النوى تعتقلها) . وهذا الاعتقال يزيد وزن الاورانيوم ٢٣٨ فيجعله ٢٣٩ . وكل ذرة منه تنفث ذرية بيتا (ألكترون) فتصبح الذرة ٢٣٩ وزنة و٩٣ رقماً ذرياً أي شحنة. فسموا هذه الذرة الجديدة نبتونيوم . أما ذرية « بيتا » المذكورة فقد اشتقت من النيوترون نفسه وصارت ألكتروناً تدور في آخر أفلاك الذرة وأصبح النيوترون نفسه بروتوناً .

على أن نبتونيوم هذا لا تطول حياته بعض الثانية ، بل هو بنوبته ينفث من أحد نيوتروناته ذرية « بيتا » أي ألكتروناً آخر فيبقى وزنه ٢٣٩ ، ولكن رقمه الذري يصبح ٩٤ وقد سموه بلوتونيوم (راجع نبذة ١ من فصل ٨) . يحدث هذا التحول ببعض بطء فيستتب به المولود الجديد : عنصر البلوتونيوم

على أنه يشرع ينفث أيضاً ذرية « بيتا » ويعود ينحل الى أورانيوم ٢٣٥ بطريقة النشاط الاشعاعي (كما ينحل هذا الى بروتوا كتينوم فالى ثوريوم فالى أكتينيوم فراديوم) فاذا استمر ذلك التفاعل برهة حتى يتولد منه قدر كبير من البلوتونيوم يؤخذ مزيج هذه العناصر ويُعزل منه عنصر البلوتونيوم « الضيف » بسهولة بالوسائل الكيماوية ، لأن خواصه الكيمية تختلف عن خواص الاورانيوم ، ويصفى حتى يصلح للاستعمال « للتفاعل المتسلسل » في كتلة قابلة الانفجار — القنبلة

فترى أن امتصاص أورانيوم ٢٣٨ النيوترون أو اعتقاله أفضى الى الانفلاق بجعل « التفاعل المتسلسل » كمصدر للنيوترونات . وان اعتقال الاورانيوم ٢٣٨ يفضي الى تولد البلوتونيوم . ومزية البلوتونيوم انه أسهل جداً عزلاً من المزيج

ظهر لنا فيما تقدم أن هناك ثلاث طرق لأجل الحصول على التفاعل المتسلسل : ١ ــ استعمال الوسيط ــ ٢ ــ أو الحصول على أنقى ما يمكن من النظير ٢٣٥ ــ ٣ ــ أو الحصول على البلوتونيوم.

وظهر أيضاً أن البروتواكتينوم والثوريوم ينفلقان كالاورانيوم اذا قذفا بنيوترونات سريعة. واما الاورانيوم ٢٣٥ وحده يمتاز بشدة حساسيته للنيوترونات البطيئة

٥ — استخراج البلوتونيوم

كان الغرض الأقصى من العمل المعملي توليد البلوتونيوم في أثناء عملية « التفاعل المتسلسل » البطيئة الخاضعة لسيطرة العامل المعملي . ولذلك كان لا بد من معرفة العلاقة بين القوة التي بها يشتغل النضيد Pile (أي المزيج من الاورانيوم أو بالاحرى نضيد المشبك والاورانيوم) ومقدار ماتولده من البلوتونيوم.

والنضيد يجب أن يصدر نيوترونات بقدر ما يخسر منها . فكلما اعتقل الاورانيوم نيوتروناً حرارياً بطيئاً أو امتصه ينبثق نيوترون آخر لقاءه . لا بد من واحد من هذه النيوترونات لاحداث السلسلة . فاذا كانت جميع النيوترونات الزائدة تدخل متغلغلة الى نواة الاورانيوم ٢٣٨ لكي تولد بلوتونيوم فلا بد أن يتولد بلوتونيوم عند كل انفلاق . وكل انفلاق يطلق طاقة بقدر ٢٠٠ مليون الكترون فولت — يحدث هذا باطلاق فوتونات :

٦ — كيمياء البلوتونيوم

قلنا أن البلوتونيوم ليس نظيراً من نظائر الاورانيوم بل هو عنصر قائم بذاته ، وإنه لهذا يختلف عن الاورانيوم في طبيعته الكيماوية اختلافاً بيناً . على أنه من هذا القبيل أقرب الى الاورانيوم منه الى غيره من جماعة العناصر الاخرى النشيطة الاشعاع النادرة مثل الثوريوم والاكتنيوم . ويعتبر البلوتونيوم ثانيها في الندور بعد الاورانيوم .

وله نوعان من الاوكسيد أي أنه يتحد مع الاوكسيجين اتحادين مختلفين . وتجهيز بعض الاملاح منه مثل سلكات البلوتونيوم ودراستها أفضيا الى امكان عزله من كداسة الاورانيوم أو مزيجه ، بالتحليل الكيماوي . وفي سنة ١٩٤٢ أصبح هذا العنصر الجديد مفهوماً كيماوياً كسائر العناصر في الجدول الذري شحنةً ووزناً .

الفصل الحادي عشر

التفاعل المتسلسل في نضيد

لقد علمت ان النضيد Pile أو الكداسة هو ايداع الاورانيوم ٢٣٥ أو البلوتونيوم أو كليهما بين طبقات مشبكات الوسيط الذي يخفض سرعة النيوترون كالجرافيت أو الماء الثقيل أو أي وسيط آخر، لاحداث «التفاعل المتسلسل» بغتة في قنبلة للتدمير، أو تدريجيًا، ان أمكن لاستصدار الطاقة تباعًا واستخدامها في الأعمال الميكانيكية النافعة.

١ — الاصطدامات

واليك كيفية حدوث ذلك في النضيد نفسه: — ان العملية التي تحدث في النضيد تتوقف على مرور النيوترونات في كتلة المادة، وعلى طبيعة اصطدامات النيوترونات بنوى الذرات المصدومة.

١ — الاصطدامات التي بها تتشتت النيوترونات وتفقد مقادير من طاقتها. وهي أولاً اصطداماتها العنيفة غير المرنة بنوى الأورانيوم. ثانياً اصطدامات النيوترونات المسرعة أو المعتدلة السرعة — الاصطدامات المرنة غير العنيفة — بنوى مادة «الوسيط» الخفيفة. فهذه الاصطدامات تخفف طاقة النيوترون الى حد يجعله بطيئاً (حراريًا).

٢ — الاصطدامات التي يمتقل بها النيوترون في نوى الأورانيوم أو البلوتونيوم. وهي إما: أولاً إنها تحدث بانفلاق النواة وتنتج حاصلات الانفلاق ونيوترونات إضافية. أو ثانياً إنها تنتج انشاء نواة جديدة تنحل بالنشاط الاشعاعي الى عنصر يزن ٢٣٩، أي نبتونيوم الذي ينتج بلوتونيوم.

وأم الاصطدامات الثانية في النضيد هي التي بين النيوترونات والأورانيوم ٢٣٥. ولكنها لا تقتصر عليها بل ان منها ما يحدث انفلاقاً في الأورانيوم ٢٣٨ ذا طاقة عظيمة وانفلاقاً حراريًا في بلوتونيوم ٢٣٩ أي بطيئاً.

٢ — صدور الطاقة

واصطدامات كهذه تحدث بالنيوترونات المتفاوتة الطاقة . وإنما يغلب ان تحدث بالتي طاقتها فوق طاقة الدرجة الحرارية .

تحدث سلسلة التغيرات هكذا

٩٢ أور ^{٢٣٨} + ١ نيوترون = ٩٢ أور ^{٢٣٩} + جمّا (فوتونات طاقة)

ثم ٩٢ أور ^{٢٣٩} + ١ الكترون = ٩٣ نبتونيوم ^{٢٣٩} مدة ٢٣ دقيقة

٩٣ نبت ^{٢٣٩} + ١ نيوترون = ٩٤ بلوتونيوم ^{٢٣٩} — الكترون + أشعة جمّا (فوتونات طاقة) مدة يومين و ٨ ساعات .

ثم يأخذ البلوتونيوم يذوب بالنشاط الاشعاعي رويداً الى فوتونات طاقة كزميله الاورانيوم .

تنبيه — الأرقام السابقة للعنصر هي أرقام شحنة أو أرقام الكترونات دائرة في أفلاك الذرة . والأرقام اللاحقة هي أرقام وزن النواة .

* * *

ثم ان الاصطدامات التي تمتقلها النواة من غير أن تحدث انفلاقاً تعتبر ذات شأن، لأنها تفقد نيوترونات معتقلة تحدث في المادة (الوسيط) كشبّك جرافيت في الاورانيوم ٢٣٥ وفي كدر أو « عكارة » الموجود مع الاورانيوم ، أو في حاصلات الانفلاق ، أو في البلوتونيوم نفسه. فترى ان هناك أسباباً عديدة لاخفاق النيوترون في عمله .

ولما كان غرض « التفاعل المتسلسل » ان يولّد بلوتونيوم فنود أن يمتص أو يعتقل بعض النيوترونات التي في أورانيوم ٢٣٨ وهي الزائدة عمّا يلزم منها لاحداث الانفلاق ثم « التفاعل المتسلسل » .

٣ — فلقتا نواة الاورانيوم

انفلاق نواة الأورانيوم الى فلقتين متساويتين نادر جداً . معظم الفلقات هي بين ١٣٤ و ١٤٤ وزناً و ٥٥ و ٩٠ شحنة وهي العناصر : باريوم ١٣٧ ولانثانوم ١٣٩ ، وسيريوم ١٤٠ ، ونيوديميوم ١٤٤ وفلقات أخرى بين ١٢٠ و ٩٠ .

من حاصلات الانفلاق جماعتان : جماعة ثقيلة ذات كتل تتراوح بين ١٢٧ و ١٠٤ وزناً وجماعة خفيفة تتراوح بين ١١٥ و ٨٣ وهي من « النظائر » المتقلقلة غير الثابتة. وهي تذوب بالنشاط الاشعاعي بانبثاق ذريرات بيتا (الكترونات) تصحبها تشععات جمّا (فوتونات) لكي تكون أخيراً نوى راسخة . وانصاف حياة الذريرات التي تتولد بين أعلاها وأدناها تتراوح بين كسور الثانية وسنة أو أكثر. وكثير من المهم منها نصف حياتها حول شهر

الفصل الثاني عشر

الطاقة المنطلقة

١ — عملية اينشطين والتحويل

ملت أن كهارب الذرة في النواة متماسكة بقوة كهربائيـة (غير مفهومة جيداً) وقوة ماسك هذه متفاوتة كتفاوت العناصر بالوزن والشحنات .

إذا فمثنا أن تحوّل نواة الى نواة أخرى ذات « طاقة تماسك » أقوى من « طاقة ماسك »[1] الاولى فلا بدّ أن يحدث نقص في الكتلة المتحوّلة . والذي نقص ينطلق شكل طاقة (فوتونات)

وشاءت الطبيعة أن النوى التي فيها أقوى قوة للتماسك تكون في وسط جدول العناصر دوري (جدول مندليف تراه في آخر الكتاب) أو أقرب ما يكن في وسطه. فيكون عندنا طان من التحويل ينطلقان قوة : الاول تحويل النوى الخفيفة الى نوىً ثقيلة . والثاني عكس فيبتديء بالتحويل من الطرف الاخير الثقيل من جدول العناصر لكي تحوّل النوى ثقيلة الى خفيفة

وأقوى مصادر القوة الذرية هو تأليف الهيليوم من الهيدروجين . ويعتقد العلماء أن ذا التأليف هو العملية الاساسية التي تصدر بها القوة من الشمس . ويؤملون ان اطلاق قوة بتحطيم النوى الثقيلة وتحويلها الى نوى خفيفة ممكن جداً عاجلاً .

وفي سنة ١٩٣٩ قذف هاهن [2] العالم الالماني ذرة أورانيوم بنيوترون بطيء [3] . فظهر له في النتيجة عنصر الباريوم . فاستغرب العلماء دعواه واستجنوه لانه الى ذلك الحين

(١) أو طاقة ربط أنظر نبذة ٤ فصل ٧

(٢) هاهن عالم ألماني . وكان هو ومساعدته ليزمايتنر قد فرا من المانيا الى مكان آمن في أوروبا

(٣) أنظر نبذة ١ فصل ٩

لم يحدث في انشطار ذرة الاورانيوم الا تفتتت بعض نواتها . فكيف ينفلق منها أو ينشق عنصر قريب وزناً من منتصف الوزن الذري للاورانيوم وهو ٢٣٥ ووزن الباريوم في جدول الوزن الذري ١٣٧ . ولكن تكرار التجربة أثبت هذا الواقع وظهر أن العنصر الآخر الذي انشطر إليه الاورانيوم هو كريبتون Krypton ووزنه الذري ٨٢

ووزن الباريوم	= ١٣٧	ورقمه	الذري	٥٦
ووزن الكريبتون	= ٨٢	»	»	٣٦
المجموع	١١٩			٩٢
ولكن وزن الاورانيوم	٢٣٥	»	»	٩٢
الفرق الزائد في الوزن	١٤	وهي نيوترونات منفصلة .		

ولا فرق في الشحنة . أما البروتونات فلم يفقد منها شيء . انطلق بهذه العملية ١٤ نيوتروناً . تفتتت كلها أو بعضها الى فوتونات طاقة — حرارة ونور

فهنا ترى أن النواة الأثقل وزناً انفلقت الى نواتين خفيفتين وجاء مجموعهما أخف من نواة الاورانيوم المنفلقة . فذلك الفرق في الكتلة ذهب طاقة عظيمة في الفضاء

هذا تحقيق للقاعدة السابقة . فان الفلق كان في الطرف الأثقل في جدول العناصر أي الاورانيوم حيث « ضوابط التماسك » أضعف، وفي وسط الجدول الضوابط أقوى .

وقد حسبت القوة الصادرة من هذا الفلق فاذا هي ٢٠٠ مليون ألكترون فولت . أمر لا يصدقه العقل . ولكنه واقع . واذا حسبناه بالفوتونات ففي النيوترون نحو ١٨ مليون فوتون اضربها بـ ١٤ نيوترون فلك ٢٥٢ مليون . والرقمان (أي ٢٠٠ و ٢٥٠) متقاربان : ولذلك يمكننا أن نقول أن الفوتون هو الكترون فولت . وحساب رقم القوة هذا يدل على أن في رطل من الاورانيوم من القوة ما يساوي قوة ٢٠ مليون رطل من الفحم

٢ — البوزوترون

ورد في نبذة ٢ الفصل السابع ذكر البوزترون . فما هو وكيف ينتج .

فيما كان الدكتور اندرسون في معهد التكنولوجي في كاليفورنيا يستعمل جهازاً لاستظهار مر الاشعة الكونية اكتشف ذريرة تتصرف تصرف الالكترون بكل نوع

سوى انها ايجابيـة الشحنة . فسماها الـكترون ايجابي . والآن تسمى « بوزوترونا» . وفي خلال البحوث والتجارب رأى ان أشعة « جا »، وهي متعادلة لا شحنة فيها، يمكن أن تتحول الى ألـكترونين أحدهما ايجابي والآخر سلبي . وهو أمرٌ غريب لان وجودهما معاً يقضي بفنائهما معاً ولا يبقى إلاّ فوتونات، فـكيف ذلك ؟ هذا سر من الأسرار التي لا تزال غامضة . وقد ظهر بالفعـل أن اصطدام البوزترون بالالـكترون ينتج طاقة أي قوة . وكذلك ظهر أنه حين تحطيم الذرة بواسطة الجهاز الخاص بالتحطيم المسمى سيكلوترون يرى بين الشظايا بوزيترونات .

وفي سـنة ١٩٣٤ كانت ايرين كوري وزوجها جوليو يدرسان ظهور البوزترون في أثناء قذف الالومنيوم بذريرات « الفا »". ولما توقفا عن القذف دهشا اذ رأيا أن الالومنيوم لا يزال يفيض بوزترونات على حد فيض الأشعة من الراديوم . وكان واضحاً أن ذريرات «الفا» حوّلت شكل الالومنيوم الى نظير له Esotop كان ينفث أشعة كنفث ذريرات الراديوم

وقد أظهرت الدراسات والتحليلات المتوالية أنه حين يقذف الالومنيوم بذريرات « الفا » كان ينشيء ذرات فوصفور . وفي أثناء ذلك يصدر نيوترون. ولـكن هذا الفصفور غير ثابت بل ينشق الى سلـكا Cilicon وبوزترون .

رأى القاريء أن هذا البوزترون غير موجود في بنية الذرة الأساسية . فمن أين جاء وكيف نشأ ؟

في أثناء تفتيت الذرة أو تفتتها يحتمل أن يفقد البروتون الـكترونه المتعاقد معه فيتحول الى نيوترون متعادل ، أو بالعكس قد يكسب النيوترون الـكتروناً فيتحول الى بروتون . وحينما يتحول البروتون الى نيوترون ينشأ بوزترون ويخرج من معمعة التحول . وحين يتحول النيوترون الى بروتون ينشأ الـكترون ويخرج من المعمعة .

ترى من كل ما تقدم أنه في خلال تغير الذرة تتولد ذريرات مختلفة . مثلاً اذا فقدت النواة نيوتروناً نقص وزنها وانما تبقى بروتوناتها والـكتروناتها كما كانت. فتتحول الذرة الى « نظير » آخر لها . واذا فقدت بروتوناً نقصت وتحوّل العنصر الى عنصر آخر دونه وزناً وشحنة . ومن الغريب أن هذا ما يحدث حين تنفث النـواة بوزيتروناً لأن هذا يعني أن بروتوناً تحول الى نيوترون .

فاذاً البوزترون هو هطية من البروتون . ولهذا يحمل شحنته الايجابية .

وأخيراً إذا افلتت شعاعة «بيتا» (أي الـكترون) كان المعنى أن نيوتروناً تحول الى بروتون ، أي أن الشحنة في النواة زادت وارتفعت الذرة درجة في جدول العناصر

٣ — فرز الاورانيوم

في آخر سنة ١٩٤١ نقل معمل هذا التنضيد الى جامعة شيكاغو حيث كانت عدة نظريات لمشروع القنبلة يدرسها جماعة من علماء المعادن بإدارة الدكتور ارثر كبتون . وكان أول هذه النظريات وأهمها الحصول على الاورانيوم نقياً وبمقادير كبيرة كافية . وقد اشترك في هذا العمل علماء عدة من الشركات الـكهربائية ومعاملها . وكانت الجهود موجهة الى اصطناع البلوتونيوم . ولا تسل عن المساحات التي تخصصت للمعامل ولا عن المعامل الضخمة العديدة .

وكانت المهمة العظمى والصعبة هي استخراج الاورانيوم ٢٣٥ من مزيج الاورانيوم الطبيعي المشتمل على النظائر الثلاثة وهو نحو واحد في ١٤٠ منها . وقد تعينت لهذا العمل الشاق لجنات مختلفة . وله عدة طرق معقدة لا محل لشرحها في هذا الكتاب

وكان أهم العدد التي استعملت لتركيز الاورانيوم بطريقة الـكهرطيسية ما اصطنعه له الدكتور لورنس وهو جهاز يسمى سيكلوترون . ثم لقب «كالوزون» وهو اسم مختصر من مركب « كاليفورنيا يونيفرستي » سيكلوتروز (سيكلوترون جامعة كاليفورنيا) وهو أضخم جهاز مغنطيسي صنع . ويزن ٤٩٠٠ طن

ولا تسل عن وصف معمل القنبلة الخاص والعناية في مكانه ليكون بعيداً عن الانظار والاخطار ولـكي تحفظ سريته الى اليوم . جعل تحت رئاسة الدكتور اوبنهمير ويعاونه العلماء الألمعيون العظام في لوس الاموس بولاية نيومكسيكو .

وكانت مهمة العلماء الأخيرة تحديد حجم القنبلة ، أو بالأحرى المقدار اللازم لها من الاورانيوم أو البلوتونيوم لأن دراسة المشروع أفضت الى أن هناك حجماً محدوداً لأصغر حجم يمكن أن ينفجر وهو نحو ٢٠ رطلاً . ودون هذا الحجم لا يصلح للانفجار . ثم ان كتلة الأورانيوم يجب أن تكون مغلفة بغلاف من الجرافيت (الـكربون المضغوط) لـكيلا تتسرب منها النيوترونات وتذهب سدى من غير أن تحدث «سلسلة التفاعل» المشار اليها آنفاً

هذا مجمل ما يمكن أن يقال في الذرة وقنبلتها وكيفية انفجارها والقوة الهائلة التي تصدر منها . وأما الآلات والعدد والقواعد الميكانيكية فهي السر الباقي في حوزة علمائها والمحفوظة في معملها تحت يد الحكومة الاميركية الى أجل غير مسمى .

الفصل الثالث عشر

الانفجار

١ — الانفجار المتسلسل

كل ما تقدم كان استعداداً لاصطناع قنبلة هائلة تطلق على العدو لكي يجزع منها ويخرّ على ركبتيه جاثياً ويترجى الصلح ، وهكذا كان بعد ضرب هيروشيما وكازاناجي ، أو لاصطناع جهاز تُستصدرُ به الطاقة للعمل المنتج لفائدة البشر . ولكن لسوء الحظ نجح الغرض الأول قبل الثاني . نجح الشر قبل الخير . وغلب الشيطان الملاك . فهل هذا مآل السنن الطبيعية ؟

لا يخفى على القارىء ان ذرات العناصر العليا الثقيلة ذات النشاط الاشعاعي تنفجر على التوالي الواحدة بعد الأخرى انفجاراً فردياً من تلقاء نفسها ، كما نرى في الراديوم الذي هو أعظم فيضاً للشعاع من سائر العناصر الشاعّة . نراه في الظلام ذا وميض متتابع ونحسّ بحرارة فيه . ولو كان عندنا مِسماع يقوّي الصوت جداً كما عندنا منظار يقوّي النظر لكنا نسمع « فرقعة انفجار » ذرات الراديوم حتى الاورانيوم أيضاً .

فما تقدم من بحثنا علمنا ان ما كان يخترعه العلماء في كاليفورنيا هو احراج ملايين ذرات الأورانيوم والبلوتونيوم ان تنفجر كلها دفعة واحدة . وقد توفقوا الى قذف نضيد هذين العنصرين بذريرات النيوترون بحيث يحدث فيها « انفجاراً متسلسلاً » أي كل نيوترون يفجر نواة فيصدر بانفجارها نيوترونات أخرى . وكل واحد من هذه تفجر نواة مجاورة فيصدر منها نيوترونات تفعل كسابقتها . وهكذا دواليك الى أن ينفجر معظم الذرات أو كلها . يحدث ذلك بسرعة لا يتصورها العقل في ثانية أو بعض ثوان .

مع ذلك يتخلف فريق كبير من الذرات فلا ينفلق ولا ينفجر . وقد لوحظ عند تجربة

القنبلة في صحراء نيومكسيكو ان بعض الذرات كانت تنفجر وهي متذوفة في الجو بفعل الانفجار الاصلي بعد ان انتفضت مع منفجرات القنبلة .

٢ — مقدار القنبلة

ان عدد النيوترونات التي تتحرك في القنبلة يتزايد بدون حد فيحدث الانفجار على شرط ان تكون كتلة الاورانيوم أكبر من أدنى الحدّ المعين . فان كانت أصغر منه فأكثر النيوترونات التي تصدر من انفلاق النوى تفلت من الكتلة من غير ان تشق نوى أخرى وتذهب سدًى . وقد قيل قبلاً ان أصغر قدر القنبلة من ٢٠ الى ٦٠ رطلاً من الاورانيوم وهو مقدار لا يزيد عن كرة قطرها نحو ١٥ سنتيمتراً مكعبة، لان الاورانيوم أثقل من الماء ١٣ مرة .

ان هذا الاضطراب الذي تحدثه قذائف النيوترونات في داخل الذرة يحطم كل شيء في الذرة حتى الكهارب والكهيربات وينفتها الى فوتونات . ففي كل كهيرب ١٠ آلاف فوتون والفوتون هو وحدة طاقة . ولما كان الكهرب يساوي ١٨٤٠ كهيربا فهو يساوي إذن ١٨،٤٠٠،٠٠٠ فوتونا . واذا كان في ذرة الاورانيوم ٢٣٥ كهربا ونيوترونا و٩٢ كهيربا فهناك ١٨٤٠٠٠٠٠ × ٢٣٥ + ٩٢٠٠٠٠ = نحو ٤٣٤٣ مليون فوتون تقريبا . هذا في ذرة واحدة . فاذا كان في الجرام مليون مليون مليون مليون ذرة فاحسب كم فوتون في الجرام الواحد . أضيف الى العدد السابق الاخير ٢٤ صفراً يعني ٢٤ مضروبة بعشره ٣٢ مرة .

وقد علمت ان الفوتون هو القوة أو حاصل القوة . فهما كانت هذه القوة صغيرة فاذا انتفضت هذه الملايين من الفوتونات دفعة واحدة فكم يكون انفجارها هائلاً .

أما الانفجارات التي كانت تحدث في القنابل غير الذرية كقنبلة T. N. T. فكانت تحدث بالطاقة التي تنتج عن التغيرات الخارجية في منطقة أفلاك الالكترونات أي في الجزيئات . طاقة كياوية لا طاقة كهربية . والطاقة التي تنشأ من الفعل الطارىء على نواة الذرة فهي ملايين المرات أقوى من الطاقة الطارئة على الكهيربات من الخارج .

لم نعد نحسب مقدار الطاقة بحساب الطاقة الصادرة من احراق الفحم أو الغازولين . ولا انفجار المنفجرات الكياوية كالديناميت والبارود ونحوها، بل نحسبه بحساب الطاقة التي

تحدث حرارة كحرارة الشمس التي هي مصدر كل حركة وحياة على الأرض . القنبلة الذرية من نوع القنابل الشمسية التي تصدر حرارة الشمس كل يوم وكل دقيقة وثانية بلا انقطاع .

لذلك القنبلة التي يزيد حجمها عن البيضة والتي تزن نحو ٢٠ رطلاً تحتوي على طاقة تساوي عشرين الف طن من T. N. T (التراي نيتروتالبين) وهو أقوى المتفجرات التي استعملت قبل القنبلة الذرية . وبالحساب ترى ان أوقية من الاورانيوم ٣٥ تنفض مليون طن من الصخر الى علو مئة قدم في الهواء .

لا يخفى انه ليس جميع نوى الاورانيوم تنفلق في عملية « التفاعل المتسلسل » بل نحو ٥ بالمئة منها تكفي لاحداث الانفجار الشديد المدمر ، وهي تصدر حرارة بقدر ٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ سنتغر من كل كيلو من الاورانيوم تعادل ٣٠٠ طن من T .N. T.

فاذا اقتضى تدمير المانيا ٥٠٠ ٠٠٠ طن من T. N. T. فطن واحد من الاورانيوم ٢٣٥ يكفي لقضاء هذه المهمة الشريرة . وقد حسب اينشطاين ان في ذرات كأس ماء من الطاقة ما يسير باخرة كبيرة مسافة الاوقيانوس الاتلنتي .

٣ — كيف يحدث الانفجار

هنا صار للقارىء الحق بأن يسأل كيف يحدث الانفجار ، كيف تنفجر القنبلة الذرية .

عرف القارىء ان القذيفة التي تقذف بها نوى الاورانيوم هي ذريرات النيوترون البطيء . ولاصدار هذا النيوترون جهاز يسمى سيكلوترون عظيم الشأن . (وقد ورد ذكره في نبذة ٤ فصل ١١) والسر كل السر في عملية اصدار النيوترون بواسطة هذا الجهاز . وهو السر الذي يطلب بعض دول الحلفاء الاطلاع عليه .

تطلق النيوترونات على الاورانيوم فتشق نوى ذراته الى نيوترونات وبوزيترونات . وبعض النيوترونات تعلق في ذرات الاورانيوم فتحولها الى ذرات نبتونيوم ، وهذه تتحول الى بلوتونيوم (كما علمت سابقاً) فيشطرها النيوترون الى نيوترونات وبوزيترونات وبروتونات والكترونات . وكلما تولد نيوترون فعل بذرات الاورانيوم كما فعل سلفه وفلق الذرات التي حوله ونتج من فلقها نيوترونات مع ذريرات أخرى . وهذه بنوبتها تفعل في

مجاوراتها كما فعلت سالفاتها . وهكذا دواليك الى أن تنفتت مع ذرات الأورانيوم وهذا ما سمي التفاعل المتسلسل

ترى ان ذرات الأورانيوم تكون في أثناء هذه العمليات في فوضى لا مثيل لها — اضطراب وشغب وثورات تنفث في أثنائها جميع الذريرات بروتونات والكترونات وبوزيترونات الى فوتونات . والفوتونات خالية الشحنة ، ولكنها حاملة طاقة . وفي اصطلاح اينشطين وبعض زملائه هي الطاقة بعينها . والمادة في نظره قد فنيت — كل ذلك يحدث في بضع ثوان .

نعود الى قول اينشطين : — ان المادة والطاقة هما شيء واحد (انظر ٢ ن . فصل ٦) ولا ندري مامعنى هذا التوحد ونحن نعرف ان المادة وهي متحركة تعتبر ذات طاقة أو قوة . والمادة شيء والحركة شيء آخر . والطاقة سبب الحركة . فلا نفهم كيف تكون المادة والطاقة شيئاً واحداً . ونعلم أيضاً ان القوة التي حركت المادة مستمدة من قوة الجاذبية بين الأجرام وبين الذريرات . والجاذبية سجية في الهيولى (اصل المادة) ولا تزال هذه السجية سراً على الرغم من معرفة قوانينها . فنحن في بحر أسرار . (ترى في آخر الكتاب فصلاً قائماً بذاته في وحدانية القوة والطاقة)

نعود الى حكاية فعل النيوترونات العجيب بالنوى — كل ذلك يحدث بمثل البرق وتنطلق الفوتونات بسرعة كسرعة النور وبحرارة كحرارة الشمس — ألوف درجات من مقياس الحرارة — هذا ما حدث في تجربة القنبلة وفي هيروشيما وفي ناجازاكي .

وهـذا ما يحدث كل لحظة في كتلة الراديوم والأورانيوم وسائر العناصر ذات النشاط الاشعاعي في حالتها الطبيعية، أي أن هذا الانفجار يحدث في ذراتها من تلقاء نفسها، تنفجر ذرة بعد ذرة . ولو تسنى لنا سماع يسمعنا الصوت الخافت كما تسنى لنا مجهر يرينا الميكروب الخفي لسمعنا أصوات انفجار الذرات التدريجي في حالتها الطبيعية . يذوب الراديوم على هذا النحو تدريجيًّا . ففي مدة ١٥٨٠ سنة يصبح جرام الراديوم نصفه . والأورانيوم يذوب نصفه في ٤٥٠٠ مليون سنة تقريباً . وقد توفق العلماء الى قاعدة لحساب عمر العنصر كله وهو أن نضرب عمر نصفه بهذا الرقم ١،٤ فيكون لك عمره كله

نصف عمر الراديوم ١٨٥٠ × ١،٤ = ٢٢١٢ سنة عمره كله . ثم نصف عمر الأورانيوم ٤٥٠٠ مليون سنة × ١،٤ = ٦٣٠٠ مليون سنة

يتطاير الراديوم وكل عنصر شعّاع ذرات منفجرة الى فوتونات تنطلق في الفضاء نوراً وحرارة .

تصوّر أن هذه الملايين البلايين من ذرات الاورانيوم التي تقضي ملايين السنين في تناثرها التدريجي — تصوّرها تنفجر كلها دفعة واحدة في ثانية واحدة . فماذا تكون القوة التي صدرت عنها .

ألا تستغرب أن القنبلة التي بقدر البيضة دكّت مدينة ؟

وهنا يسأل القارىء : كيف يكون هذا ؟

انطلقت بلايين وربوات الفوتونات دفعة واحدة بسرعة النور ٣٠٠،٠٠٠ كيلو متر بالثانية نفضت الهواء الذي حولها ، بهذه السرعة التي يعجز العقل عن تصورها ، الى جميع الجهات . والهواء ضغط هذا الضغط العنيف بهـذه السرعة على كل ما حوله من أرض وأعالي وأبنية فدكّها ، وأشجار فاقتلعها . ثم أن الحرارة الصادرة مع الفوتونات أحرقت كل ما يحترق وصهرت كل ما ينصهر وبخّرت كل ما يتبخّر . فلا تعجب . هذا هو الجحيم

وهنا يسأل سائل أيضاً : من أين جاءت هذه القوة الهائلة التي دكت المدينة الى الحضيض ، وما هي قيمتها ؟

والجواب أن سر هـذه القوة في السرعة والـكتلة معاً . أي انه في الـكتلة سر هذه السرعة سرعة انقذاف الفوتونات الهائلة ٣٠٠ ألف كيلومتر بالثانية . وإليك الايضاح .

كتلة × سرعة = زخماً = Momentum

الـكتلة وزن المقدار من المادة . والسرعة مدى انقذاف المقدار بالثانية . والزخم هو شدة الانقذاف وهي القوة .

القوة التي في الفوتون هي وحدة الطاقة العامة . وقد حسب إينشـطاين الطاقة في جرام واحد من ذرات الاورانيوم بـ ٢١ ألف مليون سعـر Calory والسعر هو مقدار الحرارة اللازمة لرفع حرارة جرام (١) ماء درجة واحدة من مقياس سنتغراد . وهذا يساوي حرارة ٣ ملايين طن فحم . فتأمل كم تكون الحرارة التي تحملها فوتونات الـكهرب الواحد وكهيربه وكم يكون سطوع النور الصادر منها .

(١) وأحياناً كيلو جرام . أنظر قاموس وبستر

النتيجة

هذا ما يمكن أن يقال عن نظرية الطاقة الذرية بكل ما يمكن من التبسيط . وأما العمليات التكنيكية والميكانيكية فخارجة عن نطاق هذا الكتاب . فلا يمكن أن تشرح بكتاب كهذا ولا تفهم الا بالرسوم . ومع ذلك لا تفهم جيداً بها . تفهم جيداً اذا وقفت في المعمل لدى العدد والآلات ، وكان ثمت عالم فني مختص يشرح لك ويجري العمل لديك ، اللهم اذا كان مأذوناً أن يفعل .

ومع ذلك فيقول كاتب كتاب « الطاقة الذرية » الرسمي لحساب الحكومتين الاميركية والبريطانية : — « إن أبحاث الطبيعيات النظرية وطبيعيات الاختبارات في النواة وكيمياء فروع التعدين غير مستوفاة (في كتابه) لأن هناك بعض نقط مهمة لا يمكن البحث فيها بسبب أن سرية المشروع تحظره » صفحة ١٢٣ من الكتاب المذكور .

ويلاحظ القارىء أن في سياق الحديث بعض النقط الفنية عويصة قد يتعب ذهنه في انعام النظر فيها . اذ لا يمكن التوسع في تبسيطها لأنه يستلزم مضاعفة صفحات الكتاب ، وللكتاب مجال محدود لا يسمح بذلك التوسع . فللقارىء أن يتجاوز هذه النقط إذا لم يشأ التريث للتفهم

الفصل الرابع عشر

تجربة القنبلة

في ٦ يوليو سنة ١٩٤٥ في مكان من صحراء في نيومكسيكو أقيم برج من أضلاع الحديد الضخمة . وكان الجو مكفهراً والمطر ينهمل والبرق يومض من حين الى آخر . وكانت القنبلة الذرية الأولى التي كلفت الحكومة الأميركية ٥٠٠ مليون جنيه ، وعمل ١٠٠ الف رجل مدة ٥ سنين ، موضوعة على قمة هذا البرج الشاهق . وكان العلماء المراقبون متفرقين على أبعاد حول البرج تتراوح بين ١٠ الى ١٦ كيلو متراً منه . ولم يكن هؤلاء المراقبون يعلمون ماذا سيحدث من هول متى أديرت المفاتيح الكهربائية في وقت معين لاطلاق القوة الجهنمية المودعة في تلك القنبلة ، حتى اذا صحت حساباتهم حسمت الحروب التي أضلت البشرية ، وابتدأ عصر جديد للمدنية والانسانية العالمي اما اطراداً في الرقي السريع أو فناء للجنس البشري . والقاضي بين هذين المصيرين هو الضمير العالمي

وكان عشرات العلماء متجمعين في مراكز مراقبتهم المتفرقة هنا وهناك حول برج الجحيم ، وقلوبهم خافقة من شدة الجزع لاحتمال أن الانفجار الهائل المنتظر ينسفهم مع ماينسفه . كانت ساعة رهيبة لهؤلاء العلماء كأنها ساعة الحشر . أيعاقبون على نتيجة عملهم المدمّر أم يثابون على حسن قصدهم ؟

وقبيل الاجتماع كان أحدهم البريجادير جنرال طوماس فاريل قد وقّع الايصال باستلام القنبلة . وكان الاجتماع تحت مراقبة الدكتور باشر Basher فهو الذي عيّن الأشخاص كلاً لوضعه في المراقبة مع التعليمات اللازمة . فكانوا كأنهم آلات لتسجيل المشاهدات

في ١٤ يوليو رفعت القنبلة الى قمة البرج الحديدي ثم أجريت العمليات اللازمة للإيذان لها بأن تمثل دورها . ويا له من دور :

واتصل بالبرج الجهاز اللاسلكي اللازم لإحداث الانفجار وجميع الآلات اللازمة لتسجيل ما يحدثه لأجل الغرض العلمي .

وتعيّن لهذا العمل الرهيب العجيب الصباح الباكر من ١٦ يوليو . وكان على الدكتور أوبنهيمر ، الذي كان مشرفاً على جميع الأعمال في صنع القنبلة ، أن يرفع الستار عن هذه المأساة الفاجعة وهو على بعد ١٦ كيلو متراً من البرج في أصلح مركز للمراقبة .

في الساعة الثالثة من الصباح جلست فرقة المراقبين في مراكزها . وعلى الرغم من مشاكسة الطقس تقرر الاجراء في الساعة الخامسة والنصف صباحاً . وكان الدكتور اليسون يعلن كل هنيهة ما بقي من الوقت باعطاء الاشارة اللاسلكية ، لأن جميع مراكز المراقبة كلها مجهزة بالراديو لاستقبال الاشارة : — فكان يقول : الباقي ٢٠ دقيقة . الباقي ١٥ دقيقة الباقي عشر دقائق ... وفي الدقيقة الثانية الباقية أمر جميع المراقبين أن ينطرحوا على الأرض ووجوههم نحو البرج . وكانت الفترات بين هذه البلاغات كأنها قرون من الزمن والقلوب خافقة والنبضات أقصر من اللحظات . وأصبحت اللحظات أجيالاً . كانت الدقيقة الاخيرة أطول من ساعة . ولم يكد أوبنهيمر والجنرال فاريل يتنفسان . وكان كل يصلي الى الله في ضميره .

وعلى الرغم من أن هؤلاء العلماء كانوا متأكدين ان حسابهم الدقيق مضبوط وان التجربة ستأتي طبق الحساب كان الشك حينئذٍ يتطرّق الى أذهانهم ، فان لم تصح التجربة كانت الخيبة أشد وبالاً عليهم من شر الانفجار . أيذهب مجهود الألوف من الرجال من علماء ومهندسين وصنّاع وعمال في كل ضرب من ضروب الفنون والصناعة والحياة وبلايين الدولارات عبثاً ؟

وأذاع أوبنهيمر الباقي من الوقت بالثواني : ٤٥ ثانية ، ٤٤ ثانية ، ٤٣ ثانية ، ٤٢ الى ان تحرك الخل الذي يؤذن باشتغال الآلات المعقدة المتعاقدة من تلقاء نفسها ، ولم تعد لاوبنهيمر سلطة عليها . وورد على أجنحة الأثير الى أجهزة الراديو لجميع مراكز البلاغ الأخير ، « الآن » . وعلى الأثر سطع في الآفاق نور يعمي الأبصار ، والمراقبون الذين وجهوا أبصارهم مقدّماً الى سفح الجبل وهم منبطحون على بعد ٣ أميال أطبق الضوء الفادح

أجفانهم حتى غرقت عيونهم في قعور محاجرها . بعد برهة صمت قصفت رعود لم يعرفوا مثلها من قبل . هل الارض زلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها ؟ أم الجوّ كله فقع ؟ . الصوت أبطأ جدًّا من النور ، وكان الهواء المضغوط بفعل انفجار الذريرات واندفاع الفوتونات بسرعة النور قد طرح على الأرض شخصين كانا واقفين خارج دائرة المرقب .

كان موج في شبه غيم ٍ ضخم صاخب متعدد الالوان ، مرتفع أكثر من عشرة كيلومترات مالىء ذلك السهل . كان كأنه بخار يغلي في الجو . بعد دقائق قليلة تحوّلت الالوان العديدة الى لون رمادي لما انكشح ذلك الجوّ الغيمي لم يروا عيناً ولا أثراً لذلك البرج الحديدي . ذلك الحديد لم ينصهر فقط بل تبخّر وصار غبار ذريرات في الفضاء كأنها أفكار سكرى متضاربة في الأدمغة . ورأوا فَوَّهَـةً كفوهة البركان حيث كان البرج قائماً يشير الى أجرام السماء .

وكان أول الانفجار نورٌ يفوق نور الشمس سطوعاً اضعافاً . نورٌ لا تطيقه العيون . وكان المراقبون قد وضعوا النظارات السوداء لكي تقاوم هذا السطوع الدافع . روى أحدهم انه بعد ٤٠ ثانية من هذا الفيض النوراني ارتجّ المكان وماج الجوّ وماد الهواء وقصف الرعد المصمي وصعد شبه الغيم بسرعة الى طبقة الجوّ التحت العليا صبرستراتوفير Substratoier في ٥ دقائق . وحدث في الجوّ انفجارات أخرى أخف وقعاً في الآذان من الانفجار الأصلي . كأن بعض الذرات التي لم تنفجر في الانفجار الاولى أتمت مهمتها في الجوّ . وصعد هذا الغيم في أول الامر الى علو شاهق بشكل كرة ثم بشكل قبة ثم تحوّل الى شكل مظلة مترامية الارجاء على عمود ضخم جدًّا . ثم تقاذفته الرياح فمزقته تمزيقاً ثم شرّدته في جميع الجهات العلوية أباديد .

* * *

ووصف الجنرال فاريل فعل القنبلة بقوله :

« انه فعل لم يسبق له نظير ، مدهش ، فخم ، جميل ، مرعب ، لم يسبق لاحد من البشر أن يعمل عملاً أو يصنع صنعـةً لها هذه الظاهرة بهذه القوة الهائلة حتى ولا الطبيعة أرتنا مثلها . وغرقت دائرة الافق في نور فاقع يفوق حدة أضعاف نور الشمس في رائعة النهار . وتراقصت

ألوان الطيف الشمسي من ذهبي وأرجواني وأخضر وأزرق ورمادي وبنفسجي . وأنارت كل قمة وسهل وكهف ونجوة وشق في الأرض حتى انها تمارقت الى الخفايا بجمال بديع لا يمكن أن يوصف اذا لم يبصر . هو حلم الشاعر العبقري » .

« بعد نصف دقيقة طرق مسامعنا ذلك الرعد القاصف . وكان ضغط الهواء شديداً على الصدور والأشياء جميعاً . فرجّ الجو والأديم والهضاب . ليس في وسع الكلام مهما كان بليغاً أن يصوّر ما رأينا وسمعنا لمن لم يسمع ولم يرَ » .

* * *

لما هدأ الجو قليلاً تصافح أقطاب العلم جنود القنبلة مهنئين بعضهم بعضاً بنجاح الصنيع الذي استنفد مجهوداتهم على اختلاف أنواعها . وكأن حملاً ثقيلاً نزل عن مناكبهم . وقال كلٌّ منهم : « هكذا » . وقال فاريل : « لا يهمنا ماذا يكون بعد الآن . كلٌّ يعلم أن المهمة علمية وقد قضيت بنجاح تام . لم تبق الطاقة الذرية ولا تحطيم الذرة أسراراً مخبأة في أحلام العلم النظري . لقد برزت الى عالم الواقع »

لم يحدث في تطبيق العمل على العلم تطبيق كهذا منذ جعل الانسان يعلم ويتفلسف ويعمل. هذا العمل العظيم ولد يافعاً . فمتى شب كيف يكون ؟ قوة عظيمة صارت في يد الانسان الآن ألخير أم للشر ؟ ان هذا في ضمير الانسان لا في وجدان العلم .

إن هؤلاء الذين بذلوا كل مجهود عقلي وكل نشاط عضلي وعرضوا أجسامهم للخطر الأخير وهم خائفون أن تخفق تجربتهم لم يبتغوا من وراء صنعهم هذا إلّا الخير للجنس البشري . فاذا أتى شرّاً فالذنب ذنب شياطين البشر . ان هذا الصنع فاتحة عصر جديد للانسانية . وفي طوق البشر ان يوجهوه الى الخير .

ثم حزم العلماء آلاتهم وعددهم وأجهزتهم وردوها الى مستودع القنبلة حيث تبقى سرّاً للحكومة فقط . ومضوا الى الفوهة التي خلّفها الانفجار . فكان البرج حيث شاهدوا الانقلاب الذي حدث ، وسجلوا وصفه ، وأضيف التسجيل الى المحفوظات السرية .

لو لم يكن الانفجار في الصحراء لكانت نكباته عظيمة .

ومما يذكر من عجائب هذا الانفجار أن امرأة عمياء كانت في بلد أبوكرك على بعد عدة أميال من ساحة الانفجار . فلما سطع النور صاحت : « ما هذا » . كأنها رأت نوراً .

وكان تأثير ضغط الهواء ودوي الانفجار واضحين للناس على بُعد ١٦٠ ميلاً من جميع النواحي وعلى بعد ١٠٠ ميل ارتجت المنازل وتكسر الزجاج . ورئي الانفجار في الجو على بعد ١٥٠ ميلاً

بعد حين عاد الجو كالحاً مقطباً كأنه غاضب على الانسان الذي أزعجه برهة من الزمن .

الفصل الخامس عشر

القنبلة تزور هيروشيما وكازاناجي

بعد ٢١ يوماً من تجربة القنبلة في صحراء نيومكسيكو في ٥ أغسطس سنة ١٩٤٥ ذهب الغزاة بأختها إلى هيروشيما إحدى مدن اليابان . فكانت الهدف الأول للسلاح الذري الجديد. تَعدُّ هيروشيما من السكان ٣٤٣ ألفاً . وهي من أهم مستودعات السلاح في جزيرة هونشو المركز الرئيسي في الأرخبيل الياباني . وعند شاطئ منها جزيرة النور المكرَّسة للإلهة بنتين وإحدى عجائب اليابان الثلاث .

كانت هيروشيما مخزن الذخيرة الأعظم الذي تتسرَّب إليه ومنه الذخائر ، وأهم مرفأ للجنود الراحلين والراجعين ، ومركزاً عظيماً لمعامل الأسلحة . لذلك كانت أهم هدف للزائرة الجديدة .

كانت القلعة الطائرة الكبرى من طراز ٢٩ ب المسمَّاة إينولاجاي في مارياناس تفتخر أنها تحمل في صدرها وسام القنبلة الذرية من طراز الاورانيوم المعدل النفيس . وكان بين فرسانها الكبتن وليم بارسونس من شيكاغو أحد الخبراء الذين حملوا التصميم « الميكانيكي » للقنبلة، والكولونل بول تيبت من ميامي فلوريدا ، السواق ، والماجور القاذفُ توماس فري من مكسفيل كارولينا . هؤلاء الثلاثة فقط كانوا يعلمون أية هدية ثمينة يحملون لليابان — وهل أثمن من الاورانيوم . وأما زملاؤهم الآخرون السبعة فما كانوا يعرفون إلا أنهم ماضون برسالة خطيرة الشأن . ولكن ما هي ؟ لم يعلموا . لم يعرفوا ان رسالتهم كانت مما ينتجه العلم الحديث تقدمة لمذبح المريخ إله الحرب . لم ينتج العلم أعظم منها منذ اختراع البارود .

وانسابت إينولاجاي في الجو اللطيف من ماريناس الى هيروشيما من غير أن يطرأ عليها طارئ . كان الطقس صافياً والشمس ساطعة . ولما بلغت الى الهدف رآه الطيارون بوضوح

ولم ينشط أحد من اليابانيين لاعتراض القلعة الطائرة ولا أطلقوا عليها قنبلة مطاردة .

ولما اقتربت الى السمت فوق الهدف أطلقوا سراح القنبلة . وكانت الساعة ٩ وربع قبل الظهر في ٥ أغسطس . وكانت القنبلة تتأرجح (والصواب تترجح) بهابطة (براشوت) . فأذنت الهابطة للطيارين ان يبرحوا بسرعة بقلعتهم مسافة كافية من غير أن يتعرضوا لخطر الانفجار . وعلى الرغم من هذه الوقاية وارتفاع الطائرة الى علو شاهق كان الخطر الشديد يحف بهم كما استـُدِلَّ على ذلك من التجربة في نيومكسيكو . ولكي يتلافى الكبتن « تبت » الخطر عطف الطائرة بزاوية حادة صُعُـداً ، وانطلقت المحركات بسرعة بارقة .

* * *

رميت القنبلة المنفجرة بقوة تضاهي ٢٠ ألف طن من الديناميت المسمى T. N. T. أي تري نيترو تالين . فقذفت القنبلة الى السماء غيمة من الغبار الى ارتفاع ١٢ كيلومتراً في دقيقتين . فكانت كأنه بخارٌ يغلي .

قال الكبتن بارسونس : « لما ألقينا القنبلة أسرعنا ، ما استطعنا لكي نجعل الانفجار وراءنا عدة أميـال . وبسبب سطوع الشمس لم يكن نور القنبـلة قادحاً كما كان في صحراء نيومكسيكو » .

ولما رأى الطيارون ضخامة الانفجار في جوّ هيروشيما صرخوا : « يا الله » ولم يحدث ارتجاج في الطائرة أكثر مما يحدث عادة حين تنطلق قنبلة مضادة للطائرات — طبعاً لأنهم أصبحوا على بعد أميال من مصدر الانفجار .

وكان طيارون كشافون طائرين على بعد ١٧٠ ميلاً من هيروشيما فرأوا لمعان الانفجار والدخان المغطي الأفق كأنه كرة من نار، أو الشمس عند الغياب . مضت أربع ساعات والدخان يغطي المدينة فلم يتسنَّ التصوير الفوتوغرافي لما حدث من الدمار .

* * *

وتكهرب العالم بالنبأ المدهش الصادر من البيت الابيض في وشنطون ومن وزارة الحربية نبأ بحادث لم يكن للعالم علم به من قبل ولا خطر على خاطر . أذاعه الرئيس ترومان بالراديو فتلقاه العالم بدهشة عظيمة .

لم يصدق الأميركيون الخبر أولاً . ولكن رواية التجربة في نيومكسيكو وقصة الكارثة في هيروشيما تكررت بالراديو لهم فعلموا أن القصة ليست خيالية .

ومرت بين الساسة روح الزهو والاعتقاد بأن القنبلة ستنجي الشبان والأبناء من ويلات الحرب . ولكن لم تظهر روح الزهو والاعجاب في خطبة الرئيس ترومان ولا في بلاغ وزير الحرب هنري ستمسون . وانما كان في البلاغ ان السلاح الجديد سيكون العامل القوي في تقصير أمد الحرب مع اليابان .

*

* *

ورأى الرئيس ترومان أن يؤثر في نفوس اليابانيين فقال : « النهاية لم تأت بعد . ان هاتين القنبلتين ليستا الا بدء انتاج القنابل الذرية . وفي الطريق انتاج قنابل أضخم وأقوى وأفتك . اننا باذلون الجهد لكي نمسح كل مستودع حربي عن وجه كل مدينة في اليابان . وسندمر المرافىء والأحواض والمعامل والمصانع والمواصلات . ألا فليتأكد اليابانيون أننا سنهدم كل قوة حربية لهم » .

الغريب أنه في اليوم التالي أذاع راديو طوكيو أن الضرب بهذا السلاح ليس عملاً انسانيًّا وانه غير قانوني ولا فائدة منه (١) .

وأذاع راديو اليابان أن قوة هذه القنبلة المدمرة انتشرت على مساحة واسعة جداً . فالناس الذين كانوا خارج المنازل احترقوا أحياء بحرارة شديدة لا توصف والذين كانوا داخل الدور قتلوا بسقوط الأبنية عليهم .

لا عجب أن يحترق كل شيء لأن الحرارة كانت كحرارة الشمس عند سطحها . والحرارة التي تصهر الحديد وتبخره لا بدع ان تجعل الاجساد فحماً .

وبعد انجلاء الغيم أو بالأحرى الغبار الذي انقذف كالغيم الى الجو حامت الطائرات الكشافة وأخذت صوراً فوتوغرافية دلت على ان الدمار كان من زخم الانفجار والحريق وقد حدثا معاً في وقت واحد . وبعض الحريق تجاوز مركز المدينة الى الأطراف والضواحي

(١) المؤلف : ترى هل كان اليابانيون يعرفون الانسانية والقانون يوم كانوا ينظمون بالاسرى الابرياء وبالاهالي المستكنين ؟

قليل من الابنية وبعض الجدران في وسط المدينة سليمة لم تتهدّم وبعضها مبنية من الاسمنت المسلح . وفي المدينة ٢٨ جسراً أكثرها لم يتهدم . وقد أظهرت الصور الفوتوغرافية ان النطاقات الحديدية التي تحتها تصدّعت وتمّحت وتلوّت .

وقد روى اليابانيون ان القتلى كانوا نحو ١٠٠ ألف .

* * *

في اليوم الثالث بعد ضرب هيروشيما قاد الماجور جنرال سويني القلعة الطائرة «جرايت ارنست» والتي قنبلة ذرية على ناجازاكي . وكان فعلها هناك أشد من فعل أختها في هيروشيما ، ولأنها انفجرت على مقربة من الارض حفرت فوهة عظيمة . وعلى الرغم من أنها دكت ربع ميل من ميناء كيوشو كان تدميرها أعظم من تلك .

في خلال أسبوع سلمت اليابان بشروط بوتسدام بلا قيد ولا شرط .

وعلى أثر اعلان الرئيس ترومان النبأ أعلن المستر تشرتشل خبر أن المانيا كانت تشتغل في صنع القنبلة الذرية ولكنها لم تنجح قبل انكسارها النهائي . فلو نجحت . . . وقال أثر خلف تشرتشل : « الحمد لله ان العلم الاميركاني بزّ العلم الالماني »

وكان قلم المخابرات البريطاني لا يكف عن استكشاف المصانع الالمانية التي يظن أنها تشتغل بالقنبلة الذرية . وكانت انكلترا ترسل قاذفات القنابل الى المعامل الالمانية التي كانت تصنع القنابل الصاروخية لتدمرها، فدمرتها ودمرت معها معامل القنبلة الذرية الالمانية .

* * *

هذه هي الخطوة الأولى في السلاح الذري الجديد . خطوة تفضي إلى تطور جديد في الحرب . بينه وبين التطوّرات السابقة بون عظيم شاسع .

هذا السلاح الهائل في بدء طفولته . وهو ككل اختراع قابل للتحسين والضخامة والعظمة . وقد قيل حديثاً ان معمل القنبلة يصنع الآن قنابل فعلها الف ضعف القنبلة التي عرفناها . وسيقال غداً ان قنبلة هيروشيما أصبحت طرازاً قديماً جدًّا .

يقال ان القنبلة التي دكت هيروشيما وناجازاكي لم تطلق من طاقة الاورانيوم أكثر من جزء من ألف مما فيه . فاذا تحسّن الاختراع فلا بدع أن تصنع قنبلة يستخدم كل ما فيها من الطاقة فتكون أفعل ألف مرة من القنيلة الطفلة .

وأميركا تبني قلاعاً طائرة أضخم ثلاث مرات من القلعة الطائرة التي حملت القنبلة إلى هيروشيما . وستكون أسرع منها، وفي إمكانها ان تقوم من أي مطار في أميركا إلى أي مكان في العالم وتعود إليه .

ويفكر العلماء والمهندسون ان تقذف القنبلة بجهاز طائرة بغير قائد ، كالقنابل الطائرة الألمانية . وإذا نجح المشتغلون بالذرة في استخراج الطاقة من غير انفجار للاغراض الصناعية فترسل القنبلة إلى هدفها بقوتها الذاتية . أو ترسل بقوة اللاسلكي أو بجهاز التلفون الرائي Television بحيث يرى هدفها وهي ترى أيضاً موجهة الى هدفها فلا تضل عنه . ترسل إليه تواً .

كل هذا يفكرون فيه الآن على مظنة أن الامم لا تعرف ان تتفق على السلام، ومخافة ان تعود الى الحرب لئلا تؤخذ أميركا على غرة وتلوم نفسها لغفلتها .

ولكن السواد الأعظم من البشر ومن الأمم يكرهون الحرب وصاروا يتمنون الهداية الى السبل للابتعاد عنها . فدعنا نحن ننصرف عن التفكير بحرب مقبلة ونوجه نظرنا الى استعمال الطاقة الذرية في الأعمال السلمية من صناعية واقتصادية الخ .

الفصل السادس عشر

طاقة الذرة للحياة السامية

استغل العلم طاقة الذرة للحرب والدمار .

فالمتبادر الى الذهن أنها يمكن أن تستعمل للصناعة والأعمال الانسانية أيضاً . لقد أصبحت طاقة الذرة في اليد . ولكن بكل أسف ليس للانسان السيطرة التامة عليها . لا يستطيع الآن الانسان الذي قبض عليها ان يتحكم فيها . لا يمكنه ان يطلقها تدريجياً بمقدار وزمان لكي يستخدمها على هواه اذا حلّ قبضته عنها قليلاً أفلتت منها دفعة واحدة فلا يمكن استخدامها إلاّ للتدمير . فلكي تستعمل للتعمير لا بدّ من اختراع طريقة لافلاتها رويداً والسيطرة عليها .

وقد يظن أنه صار في امكان الذين اصطنعوا القنبلة من الذرة ان يجدوا الطريقة للسيطرة المطلقة عليها واستخدامها بالمقدار الذي يريدون ، وانه يمكنهم هذا بسهولة . والحقيقة لا . ان استخراج الطاقة للتعمير ليس أقل صعوبة من استخراجها للتدمير . وقد يكون أصعب . وقد لا تكون نفقاته أقل ، لأن العلماء لا يعرفون الآن عن الذرة وبنيتها وفعائلها أكثر مما كانوا يعرفون عنها قبل أن شرعوا يشتغلون بالقنبلة الاّ قليلاً جداً .

قد يتراءى للبعض أن المراد باستخدام الذرة للصناعة استخدام طاقتها رأساً . ولكن العلماء يظنون غير هذا . حتى الأمس كنا نستعمل الفحم والبترول لاستصدار البخار الذي نستخدم قوته في أكثر الأعمال . ثم تنبهنا لقوة الكهرباء فاستعملناها . ولكنها لا تغنينا عن قوة البخار بل لا بد من استخدام قوة البخار لاستخراج قوة الكهرباء . وهكذا لا بدّ من استخدامهما لاستخراج الطاقة الذرية للغرض الذي تتوخاه .

ماذا صدر من الذرة حين القيت قنبلتها على هيروشيما ؟

صدر منها نور ساطع وحرارة جهنمية . فضالتنا هذه الحرارة ، لأن القوة أو الطاقة موجودة فيهـا . وأما النور فعرض عارض . فاذا أمكننا أن نقبض على الحرارة الكامنة في الذرة ونطلقها بمقدار تدريجاً أمكننا أن نستعملها ونبدأ الآلة البخارية . ثم نستعمل هذه لتوليد الكهرباء . ثم نستعمل الكهرباء لأعمالنا العمرانية . فكأننا أبدلنا طاقة الذرة بطاقة الفحم والبترول . ولكن أي طاقة ؟ — في الذرة من الطاقة قدر ما في الفحم مليونان ونصف مليون مرة . في رطل أورانيوم قوة ألف طن من الفحم أو قوة ٧٠٠ طن من البترول .

فما الطريقة لاعتقال حرارة الذرة والسيطرة عليها واستخدامها بمقدار كبير أو صغير ووقت معين حسب المراد ؟

* * *

إذا توفق العلماء إلى اعتقال حرارة الذرة أمكن السفينة أن تمخر الأوقيانوس مدة سنة بقدر برتقالة من الأورانيوم . وتكتسب الفسحة التي يشغلها الفحم أو البترول .

ولما كانت كتلة الأورانيوم اللازمة لاطلاق الحرارة لا يجوز أن تقل عن عشرين رطلاً من الأورانيوم . فالسيارة لا تستهلك في حياتها هذه الكتلة . تتلف هي قبل أن ينفد وقيدها .

وهنالك من العلماء من يفكرون باستخدام ذرة عناصر أخرى غير الأورانيوم ، حتى إذا نجحوا باعتقال طاقتها كانت السيطرة عليهـا أسهل من السيطرة على طاقة الأورانيوم . يحلم بعض العلمـاء انه يمكن تحطيم ذرة كل عنصر من عناصر الطبيعة الاثنين والتسعين . لماذا يمتاز الأورانيوم بهذا الشرف وحده ؟ لماذا لا يكون للحديد أو النحاس أو الكبريت مثلاً

على الرغم من أن العلم استطاع أن يخترع القنبلة الذرية لا تزال معلوماته عن الذرة أقل من مجهولاته منها . هـذه حالة الكهرباء ، استخدمها الانسان كما استخدم الحمار والجمل والجواد . ولا يزال يقال انه يجهل سرّها الصميم

حتى الآن لا يزال العلماء يتحيرون كل الحيرة في القوة التي تتماسك بهـا الكهارب في النواة . أصبح غلاف الذرة المحيط بالنواة مفهوماً أكثر من النواة والكهيربات مثلاً . ان شحنات الكهيربات السلبية في كرة الذرة مساوية لشحنات الكهارب الايجابية في نواة الذرة . ولـكن من حيث القوى الكهربائية لا ينتظر أن يكون للنواة وجود محسوس لأن

كهاربها ونيوتروناتها مضغوطة معاً، مع أن القوى الكهربائية الايجابية توجب عليها أن تتدافع وتتفكك بعنف وتقضي على النواة أن تطير خارج الذرة متفتتة . ولذلك يستدل أن هناك قوة شديدة تعمل في تلك الفسحات الضيقة بين الكهارب ضمن نطاق النواة . وقد سموا هذه القوة « قوة التماسك » أو « قوّة الربط » ولكن التسمية ليست تفسيراً لحقيقة . هذه القوة يجب فهمها والسيطرة عليها واستخدامها

اذا نجح اختراع الطاقة الذرية لاستخدامها في الصناعة وجميع لوازم المدنية بأي الطرق رخصت جداً القوة اللازمة للمعامل والنقل والنور الخ وصارت في متناول يد كل واحد . وفي هذا رجاء المجتمع . والغالب أنه يستغنى حينئذٍ عن الفحم والبترول . وبالتالي يقل تنازع الامم لها وتبطل الحرب أو تخف حدّة التنازع بين البشر . ويتحوّل التعدين من مناجم الفحم الى مناجم الاورانيوم وسائر العناصر الاشعاعيـة التي يمكن استخراج الطاقة منها ، وقد تكون وافرة فلا يقتضي استخراجها مجهوداً كبيراً . وبالاجمال يقال أن المعايش تتوفر وأسبابها تسهل والناس يتمتعون براحة أكثر من الآن

وبعض الاقتصاديين والساسة يخشون أن الفحم والبترول ينفدان من العالم . فبأي وقيد يستخرجون الطاقة ؟ هل يعود العالم الى طاقته القديمة وبساطة معيشته .

لا . فليحيَ الاورانيوم أو أي عنصر ينتج الطاقة الذرية . وربما كان توفر الطاقة بين الأمم من أفعل العوامل لتقرب الشعوب بعضها الى بعض وسيادة المودة بينهم . فيستقر النظام الديمقراطي الشعوبي الذي تنتظم به الأمم في حكومة عليا واحدة فتتدارك الحروب بينها الى الأبد .

الخاتمة

من الاثير والى الاثير يعود

ان الانفجار الذي حدث في صحراء نيومكسيكو حين تجربة القنبلة ، والانفجار الذي حدث في هيروشيما وناجازاكي ، والانفجار الخافت البطيء الذي يحدث في الراديوم ولا نسمعه وفي الأورانيوم وغيرهما من العناصر المشعة — كل هذا يحدث مثله كل ساعة في الشمس وجميع النجوم المتقدة . والنور والحرارة اللذان يأتياننا من الشمس وغيرها من أعماق الفضاء هما نتيجة انفجارات ذرية تتناثر من تلك الاجرام فوتونات حاملة الطاقة أشعة بشكل حرارة ونور . هي فوتونات ذريرات أورانيوم وغير أورانيوم . هي ذرات كل نوع من الذرات الشمسية كما علمت .

هي أشعة النور التي نستضيء بها، وهي الحرارة التي نستدفيء بها ، والتي تبعث الحياة في النبات والحيوان والانسان . وجميع أنواع الاحياء تتغذى من فوتونات الشمس .

جميع النجوم والأجرام السموية والسدم تجري هذا المجرى في الاشعاع وتذوب رويداً رويداً فيما هي تنتشر في الفضاء وتمتزج في أوقيانوس الاثير اللامتناهي .

وإذا صح رأي بعض العلماء أن هذه الفوتونات إنما هي ذريرات أثيرية وان الاثير هو بحر فوتونات . فمادة هذه الأكوان اذن أصلها من الاثير وأخيراً الى الاثير تعود

تذوب جميع الاجرام في بحر الاثير الى أن يستوي ذلك البحر الخضم ويهدأ ويطمئن ساكناً . وثمت تكون نهاية العالم الهيولاني .

ثم يشاء الله فيمد يده ويحرك بأصابعه ذلك الأوقيانوس الاثيري . فتعود الفوتونات تتجمع وتتكوّن كهارب وكهيربات . وتتكوّن بها ذرات وجزيئات . وتعود هذه الذريرات والذرات الى حركتها الدورانية التي بدأها أصبع الله . وتعود إليهما قوة الجاذبية التي

تتكاثف بهـا في سدم واجرام ونجوم وشموس ، وتعود العوالم الى صيرتها الاولى. وهكذا لايكون في خليقة الله لاأزل ولاأبد ولا بداية ولا نهاية الى ما شاء الله : سرمد غير متناهٍ

* * *

رأينا فيما تقدم ان أحد أجزاء المادة أي الفوتون هو أقوى أجزاء المادة . فسبحان الله الذي جعل أصغر الصغائر أقوى القوات .

وظهر لنا أيضاً ان العقل البشري الصغير استطاع أن يفكك الذرة ويطلق فوتوناتهـا . فهو إذن أقوى من المادة ذرة كانت أو فوتوناً . ولكنه بكل أسف ضعيف جداً أمام شهواته . أضعف شهوة تحكمه وأقل هوى يسيطر عليه .

يؤمل المتفائلون خيراً ان يتوفق العقل البشري لاختراع مخترعات أخرى تزيد في تمدنه وهناءته إذا أحسن استعمالها . ولكن الجنس البشري لم يعد في حاجة إلاَّ إلى اختراع واحد فقط يكفل له سعادته ، هو اختراع أخلاق مستمدة من السماء ، يحتاج الى قنبلة الهية سماوية تنسف شهواته البهيمية وتمحق أطباعه الجهنمية . حينئذٍ تطهر البشرية من أدرانها وتسعد الانسانية . وتتصل الارض بالسماء وتنقضي الحروب .

نقولا الحداد

المادة والطاقة

أقنومان في واحد

ملحق للفصل الرابع من هذا الكتاب (١)

من مستغربات اينشطين العلامة العظيم قوله : أولاً أن المادة تزداد كتلة كلما ازدادت سرعةً . وثانياً أن المادة والطاقة شيء واحد . وكل من الغرابتين تتوقف على الاخرى ، أو بالأحرى الثانية تتوقف على الأولى .

حقاً إن هـذا القول لغريب في نظر القارىء العادي . لأنه يرى أن الجسم الثابت في مكان ما (أي ليس متحركاً) ليس فيـه أثر للقوة . ولـكي يتحرك لابدَّ من أن تأتيه قوة من الخارج وتصدمه فيتحرك . ولذلك يظهر له بالتأكيد أن المادة شيء وأن القوة شيء آخر . وأما قول اينشطين ذاك ، فيتراءى له سخافة مستهجنة . ولهـذا ننقل ما قاله اينشطين بهذا الصدد في سياق الفصل الخامس عشر من كتابه « نظرية النسبية » : —

« إن حركة المادة السريعـة لا تقل جداً عن سرعة النور التي هي منتهى السرعة في الوجود المادي ولهذا تعتبر سرعة النور « السرعة المطلقة » . ونحن نرى هذه السرعة المادية الفائقة في الـكهارب والأيونات Electrons and Ions . ومهما كانت سرعة هذين الصنفين مقاربة لسرعة النور فانها لا تبلغها . ولا بدَّ من أن تكون أقل منها مهما عظمت القوة أو الطاقة التي تعجلها

« إن المسألة التي تهمنا في هـذا البحث هي كيف تتوقف طاقة كتلة من المادة على السرعة ... أهم نتيجة ترتبت على النسبية الخاصة هي افضائها الى ادراك ماهية الـكتلة ... قبل اكتشاف ناموس النسبية كانت العلوم الطبيعية تعترف بنوعين من الخلود (أي عدم الفناء) مستقلين كلٌ منهما عن الآخر : خلود المادة وخلود الطاقة (أي عدم قابليتهما للفناء أو الزوال) المـادة لا تفنى بل تتحوَّل من حال الى حال . والطاقة لا تزول بل تتحول من صورة الى صورة . (كذا كان رأي علماء الطبيعة) الى أن ظهر ناموس النسبية فأثبت أن

(١) نشر هذا الفصل في مقتطف فبراير سنة ١٩٤٨

كلاً من هذين النوعين من الخلود هما خلود واحد » — أليس لأن المادة والطاقة شيء واحد ؟

وهنا يشرع اينشطين بعملية رياضية في إثبات هذا القول الى أن يصل الى القول « بأن الجسم (أي جسم) صفراً من القوة (أي لا قوة له) ولكن تكون له طاقة مضمرة Potential متى كان ثابتاً (لا يتحرك) ومتى شرع يتحرك تصبح له طاقة (بقدر حركته)، وطاقته تزداد بازدياد سرعته ... » .

« ان كتلة الجسم الاستمرارية Inertial ليست ثابتة المقدار على حال واحدة . وإنما تتغير بتغير طاقته . ان كتلة الجسم تعتبر مقياساً لطاقته » . وكذلك ازدياد سرعته يعتبر مقياساً لازدياد طاقته . الى أن قال « ومن هذا يفهم أن ناموس خلود كتلة الجسم هو نفس ناموس خلود طاقته — ناموس واحد لكليهما » إذن فهما شيء واحد

وحاصل القول أن لا كتلة مادية بلا طاقة تتضمنها . وكذلك لا طاقة في الوجود بلا مادة تظهر بها . ويؤيد هذا القول أنه ما ظهرت الطاقة في معادلة رياضية في الطبيعيات إلا مقرونة بالمادة ، أو هذه بتلك

ولإيضاح هذا الناموس المزدوج بمثل واقعي نلفت النظر الى الأجسام الساقطة بحسب قانون جاليليو : « كلما هبط الجسم ازدادت سرعته » وبالتالي تزداد طاقته أو قوته . فهو قبل أن يهبط كان مرتكزاً في مكانه ولا قوة له ، فلما ابتدأ يهبط شرع يسرع وقوته تظهر ؟ وكلاً من سرعته وقوته تزدادان معاً كلما أمعن في الهبوط : لما كان مرتكزاً في مكانه لم يسحق شيئاً . ولكن لما هبط سحق ما هبط عليه إن كان هذا قابلاً للانسحاق . ومعنى هذا أن قوته صارت كثيرة وعنيفة لما وقع على المكان الذي هبط إليه .

يظهر ذلك أكثر وضوحاً في مهابط الماء التي تستخدم قوتها لعمل من الأعمال كإدارة حجر الرحى مثلاً ، أو ادارة الآلة المولدة للكهرباء . فالماء الذي يهبط في أنبوبة من علو قامتين تكون قوته أربعة أضعاف قوته اذا هبط من قامة واحدة . ويكون عمله أيضاً أربعة أضعاف . فعندما كان يهبط كان يتسارع . وفيما كان يتسارع كانت طاقته تزداد أيضاً بنفس النسبة . فالمادة والطاقة إذاً متماثلتان تمام التماثل في تزايدهما . وبالتالي في تزايد الكتلة أيضاً . هما أقنومان في واحد .

هذا فحوى قول اينشطاين . فاقرأ ماذا يقول السير جايمس جينز (وهو أحد

أساطين العلم الستة في العالم) في كتابه : « العوالم من حولنا » في صفحة ١٨٩ : « ... كان حجر الزاوية في علم الطبيعيـات في القرن التاسع عشر الذي هو بقاء المادة أو خلودها Indistructibility من جهة وبقاء الطاقة من جهة أخرى قد بطل بطلاناً تامـّـا وأقيم مقامه ناموس آخر وهو بقاء ذاتية واحدة Entity هي المادة والطاقة . بطل أن تكون كل من المادة والطاقة على حدة خالدة البقاء أو متغيرتين (لا بل هما تتغير ان معاً من حال الى حال لأنهما شيء واحد) .

الى أن يقول : — « ان الحرارة والنور والـكهرباء كلها مؤلفة أو مكونة من الطاقة (كذا) . ونظرية عدم فناء المادة تؤيد هذا القول . أي أن المادة نفسها تصير (بالتحول) شكلاً من أشكال الطاقة هـذه » (أي أن المادة والطاقة معاً تتحولان بالتشعع الى حرارة ونور وكهرباء) .

« هذه الطاقة التي تنشيء الحيـاة على الأرض : — النور والحرارة اللذان يحفظان الأرض دافئة ويجملان دفئها علة غلتها لاطعامنا واختزان نور الشمس وحرارتهـا في الفحم والحطب — كل هذه تنشأ من فناء المادة أي حلـّها ، وإذابتها بواسطة الاشعاع (وهو فناء الـكهارب والـكهيربات بانطباقها بعضها على بعض وتنافي ايجابيتها وسلبيـّتها الـكهربائيتين وصدور الاشعاع Radiation الذي هو فوتونات بشكل حرارة ونور . هذا هو معنى أن المادة تفنى كذرات مكهربة ولـكنها تبقى كفوتونات (ضوَيئات) غير مكهربة وإنمـا هي ذات مادة وطاقة معاً (وهي المادة الطاقية أو الطاقة الماديـّة) .

« ان الذريرات التي في الشمس والنجوم إنما هي قوارير طاقة (فوتونات مادية) وكل قارورة عرضة لأن تنكسر وتـُراق طاقاتها في الفضاء (نوراً وحرارة) . ومعظم الذرات التي تكوّنت منها الشمس والنجوم وابتدأت حياتها بها قد لعبت هذا الدور (في الانفجار الى فوتونات بالاشعاع) وكان لها هذا المصير . والذرات الباقية في الاجرام سيكون لهـا هذا المصير أيضاً . أي إنها تذوب رويداً بالاشعاع وتحوّله الى حرارة وضوء (فوتونات) »

يقول « تجينز » ان هـذا الذوبان يحدث بانحـلال الذرات فتتحول الـكبرى منها إلى صغرى كتحول الاورانيوم إلى هيليوم ورصاص ، وفيض شعاعي ، والفيض الشعاعي هو طاقة بشكل حرارة ونور هكذا .

أوقية أورانيوم = { ٠،٨٦٥٣ رصاص
٠،١٣٤٥ هليوم
٠،٠٠٠٢ تدمع طاقة (فوتونات) }

المجموع ١،٠٠٠٠ أوقية أورانيوم

يعني أن أوقية الأورانيوم متى ذابت نهائيـاً الى هليوم ورصاص نقصت جزئين من الألف من وزنها . وهو الذي ذهب شعاعاً طاقياً بشكل حرارة ونور .

ليس أصرح من هذا البيان لاثبات أن هذا الذي نقص هو مادة بشكل طاقة أو طاقة بشكل مادة هما شيء واحد بلا نزاع .

***

ولنرَ ما قاله السير أدينغتون أستاذ الفلك في جامعة كمبردج ورئيس المرصد الفلـكي . وهو لا يقل مقاماً علميّـاً عن جينز . قال في كتابه « طبيعة العالم المادي » The Nature of the Physical Universe في صفحة ٥٠ ، « كلما اقتربت سرعة المـادة من سرعة النور ازدادت كتلتها إلى ما لا نهاية له . ولهذا يستحيل ان تحمل المادة تسرع بسرعة النور وهذه النتيجة تستنتج من قانون الطبيعيات الكلاسيكية . وازدياد الكتلة تحقـق بعملية تجريبية للسارعة إلى أعلى درجة من السرعة »

وفي صفحة ٥٩ يقول « إن أشعة بيتا التي تنفثها العنـاصر النشيطة الاشعاع كالراديوم إنما هي ألكترونات مندفعة بسرعة ليست أقل من سرعة النور كثيراً . والامتحان العملي أظهر ان كتلة ألكترون واحد من هذه الالـكترونات الفائقة السرعة هي أعظم من الالكترون الساكن (غير المتحرك) . ونظرية النسبية تنبـأت عن هذا الازدياد في الكتلة، وأبانت قيمة توقف هذه الزيادة على السرعة . والزيادة التي نشأت من الكتلة ببطء إنما هي نسبية متوقفة على تحديد الكميات البسيطة للطول والوقت »ولا محل للتمثيل الذي ينصه أدينغتون على هذا القول . فهو مسهب ومعقـد .

نقولا الحداد

جدول مندليف

وقد أغفلت منه الكفاءة الكيماوية وغيرها مما لا يهم غير الكيماوي

الهيدروجين لم يدخل في أية فئة لانه مستقل بخصائصه.

الرقم الذي فوق العنصر هو رقمه الذري ويدل على عدد الالكترونات.
والرقم الذي تحته هو ثقله النوعي بالنسبة الى الهيدروجين

	فئة ٠	فئة ١	فئة ٢	فئة ٣	فئة ٤	فئة ٥	فئة ٦	فئة ٧	فئة ٨		
١	٢ هيليوم ٤٫٠٠	٣ ليثيوم ٦٫٩٤	٤ بريليوم ٩٫٠٢	٥ بورون ١٠٫٨٢	٦ كربون ١٢	٧ نيتروجين ١٤٫٠٠٨	٨ أوكسيجن ١٦	٩ فلورين ١٩			
٢	١٠ نيون ٢٠٫٢	١١ صوديوم ٢٢٫٩٩٧	١٢ مغنيزيوم ٢٤٫٣٢	١٣ اليومينوم ٢٦٫٩٧	١٤ سيليكون ٢٨٫٠٦	١٥ فوصفور ٣١٫٠٢٧	١٦ كبريت ٣٢٫٠٦٤	١٧ كلورين ٣٥٫٤٥٧			
٣	١٨ ارجون ٣٩٫٩١	١٩ بوتاسيوم ٣٩٫٠٩٦	٢٠ كلسيوم ٤٠٫٠٧	٢١ سكنديوم ٤٥٫١٠	٢٢ تيتانيوم ٤٨٫١	٢٣ فاناديوم ٥٠٫٩٦	٢٤ كروميوم ٥٢٫٠١	٢٥ منجانز ٥٤٫٩٣	٢٦ حديد ٥٥٫٨٤	٢٧ كوبلت ٥٨٫٩٤	٢٨ نكل ٥٨٫٦٩
٤		٢٩ نحاس ٦٣٫٥٧	٣٠ زنك ٦٥٫٣٨	٣١ جاليوم ٦٩٫٧٢	٣٢ جرمانيوم ٧٢٫٦٠	٣٣ ازرنيخ ٧٤٫٩٦	٣٤ سيلينيوم ٧٩٫٢	٣٥ برومين ٧٩٫٩٢٦			
٥	٣٦ كربتون ٨٢٫٩	٣٧ روبيديوم ٨٥٫٤٤	٣٨ سترونيوم ٨٧٫٦٣	٣٩ ايتريوم ٨٨٫٩	٤٠ زركونيوم ٩١	٤١ كولومبيوم ٩٣٫١	٤٢ مولوبدنوم ٩٦	٤٣ مازوريوم ؟	٤٤ روثنيوم ١٠١٫٧	٤٥ روديوم ١٠٢٫٩١	٤٦ بالاديوم ١٠٦٫٧
٦		٤٧ فضة ١٠٧٫٨٨	٤٨ كدميوم ١١٢٫٤١	٤٩ انديوم ١١٤٫٨	٥٠ تنك ١١٨٫٧	٥١ انتيمون ١٢١٫٧٧	٥٢ تلوريوم ١٢٧٫٥	٥٣ يود ١٢٦٫٩٣٢			
٧	٥٤ زنون ١٣٠٫٢	٥٥ كازيوم ١٣٢٫٨١	٥٦ باريوم ١٣٧٫٣٧	٥٧ لانثانوم ١٣٨٫٩	٧٢ هافنيوم ١٧٨٫٦	٧٣ تانتالوم ١٨١٫٥	٧٤ تنجستون ١٨٤	٧٥ رميليوم ؟	٧٦ أوسميوم ١٩٠٫٨	٧٧ إريديوم ١٩٣٫١	٧٨ بلاتين ١٩٥٫٢٣
٨		٧٩ ذهب ١٩٧٫٢	٨٠ زئبق ٢٠٠٫٦١	٨١ ثاليوم ٢٠٤٫٣٩	٨٢ رصاص ٢٠٧٫٢٠	٨٣ بزمت ٢٠٩	٨٤ بولونيوم ٢١٠	٨٥ ؟			
٩	٨٦ نيتون ٢٢٢	٨٧ ؟	٨٨ راديوم ٢٢٧٫٩٥	٨٩ اكتينيوم ٢٢٨	٩٠ ثوريوم ٢٣٢٫١٥	٩١ بروتو-اكتينيوم ٢٣٤٫٢	٩٢ أورانيوم ٢٣٨٫١٧	نبتونيوم	٩٤ بلوتونيوم ٢٣٩		

تعليق على جدول مندليف Mendelejeff

يرى القارىء ان العناصر التي تلي عنصر لانثانوم وتسبق عنصر الهافنيوم وهي من رقم ٥٨ الى رقم ٧١ في السلسلة أهملت لأنها معروفة باسم العناصر الأرضية النادرة . وهي معزوفة كغيرها وتشبه لانثانوم فلا مواضع خاصة لها في الجدول وفي فئاته .

الأرقام المتسلسلة التي فوق كل عنصر تدل على الشحنات التي في نوى العناصر أو عدد الالكترونات . ولم يقصد مندليف بها هذا القصد . فما هي إلاّ ترقيم للعناصر على التوالي لأنه هو رتبها بحسب أوزانها الذرية . فالأرقام ترتفع حسب ارتفاع الاوزان .

والأرقام التي تحت كل عنصر هي قيم أوزانهـا الذرية باعتبار ان ذرة الهيدروجين هي الوحدة للوزن ، هي وزنة واحدة .

والغريب ان موزلي لما جعل يستخرج شحنة كل عنصر من العناصر بطريقته التي اكتشفها كان يرقم كل عنصر بعدد ما فيه من الشحنات . فجاءت أرقام شحنات موزلي مطابقة كل المطابقة لأرقام مندليف المتسلسلة . وهذا التطابق كان أدمغ برهان على صحة النظريتين :ـ نظرية مندليف في الخواص الكيماوية ونظرية موزلي في الشحنات الكهربائية . ويجب ان تتطابقا لأن الخواص الكيماوية متوقفة على الشحنة الكهربائية .

اصلاح أغلاط مطبعية

نرجو من القارىء ان يصححها بقلمه في مواضعها

صفحة	سطر	
١٢		في آخر الصفحة « المترجم » بفتح الميم هي تتمة السطر الذي قبلها
١٤	٩	كهيربين ، والصواب كهربين
٢٣	١٦	احذف الحرف ـ من
٣٠	١٦	من ، صوابه منه
٣٢	١٧	نصّف ، صوابه نصّف (بكسر الصاد)
٤١	١٢	ضبط ، صوابه خبط
٤٨	١٢و١٣	فاقتبسه ، صوابه فاقتبسه
٥٠	١٧	مجموعة . ثلاثة ، صوابه حذف النقطة من بينهما
٥٠	٢٤	يكون ... مناسباً ، صوابه يكون سطحه مناسباً
٦٤	١٦	اضيف، صوابه أضف
٨٨	٥	ثقله النوعي ، صوابه وزنه الذري
٨٨	٢٥	بولونيوم ، صوابه بلوتونيوم

مصادر الكتاب

(١) تقرير الحكومة الأمريكية الرسمي :
وهو بحث عمومي في كيفية استعمال الطاقة الذرية للأغراض الحربية تحت رعاية حكومة الولايات المتحدة الأميركية

By H. D. Smyth.

(2) The Atom, by G. P. Thomson.

(3) Atomic Energy in the Coming Era by David Dietz

(4) Why Smash Atom's by A. K. Solomon.

(٥) دراسات مختلفة في مؤلفات أساطين العلم أمثال

السير جايمس جينز

السير ادينغتون

السير أوليفر لودج

العلامة برتراند رسل

العلامة اينشطين

فهرس تفصيلي

فهرس أبجدي

للمؤلف

مؤلفات علمية

هندسة الكون حسب ناموس النسبية Relativity
فلسفة التفاحة أو جاذبية نيوتن
Newton's Gravitation
عالم الذرة أو الطاقة الذرية Atomic Energy
علم أدب النفس Ethrics
علم الاجتماع (جزآن) Sosciology

مؤلفات اقتصادية واجتماعية

الاشتراكية
الحب والزواج
ذكراً وأنثى خلقهم
مناهج الحياة
شعوب أوربا (مترجمة)
تاريخ أساس الشرائع الانكليزية (ترجمة)

روايات الاتحاد العربي

فرعونة العرب عند الترك
جمعية اخوان العهد
وداعاً أيها الشرق

روايات مختلفة

القدس (ممتازة)
ثورة في جهنم
حواء الجديدة (طبعة ثالثة)
آدم الجديد
الصديق المجهول

الحقيبة الزرقاء
عين بعين
أسرار مصر
العالم الجديد
نبية لبنان
حركات السيدات في الانتخابات او اي هو ابني
ثورة عواطف
من عرابي الى زغلول
فاتنة الامبراطور
زغلولات مصر
أين الكنز يا شرلوك هولمز (مترجمة)
الامبراطورة تيودورة (نشرت في هلال يناير سنة ١٩٤٤)

روايات نشرت في اللطائف المصورة

المنطاد المنتقم
زغلول مصر
زغاليل مصر
فتاة آل عثمان
تحت راية مصطفى كمال
فتاة الاناضول وانهزام اليونانيين

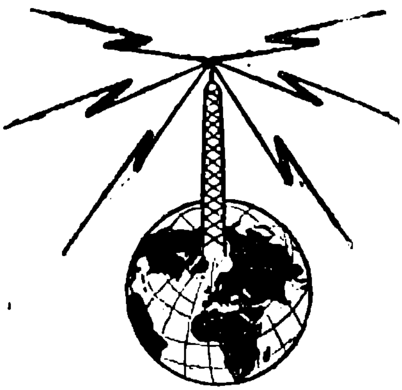
روايات مترجمة نشرت في مسامرات الشعب

حب في ثورة (الاصل لدماس)
عقد الملكة (جزآن) «
الزهرة الحمراء (الاصل للبارونة اورزي)
الحرب الجوية
المقرب (بتصرف)
زوجة بالاسم

كتب للمؤلف معدة للطبع

فلسفة الوجود
الديموقراطية — مسيرها ومصيرها
اسحق نيوتن
العزلة في رأس الجبل (مناقشات أخلاقية)
ليت الشباب يعود (فلسفات في قصة)

دولة نساء : تمثيلية أو رواية
خالد بن الوليد : « «
الحب الذهبي : « «
الكنز القيصري أو دوقة في مصر : رواية
سر الكنز : رواية



ليت الشباب يعود

ذاتيتان في شخص واحد

تأليف

نقولا الحداد

مطبعة المقتطف والمقطم

١٩٥٠

تقدمة

هذا الرجل المزدوج

هذا رجلٌ متمتع بعمرين في زمنين متعاقبين . وعاش بشخصيتين متناوبتين في حياتين نبادلتين . تقلب في أولاهما بين الحظوظ والخيبات الى أن قارب الكهولة . فتمنى أن يجدد لحياة لكي يصلح الغلطات فاستجيب تمنّيه . وعاد يستأنف الحياة الثانية من جديد من بل الصبى . فما كانت الحياة الثانية بأصح من الأولى ، ولا أقل منها أغلاطاً . لماذا ؟

اختبر القضاء والقدر، والحرية والاختيار ، وحار بين الحظ والسعي، وتردد بين الخير لشر، وتحيّر بين الثواب والعقاب، وتعلل بين الغنى والفقر، وشهد الحرب بين إلـه المال إلـه الخير .

وبقي في الحياتين لا يدري هل هو مسيّر أم مخيّر، ضاع بين الجبرية والقدرية[1] . نش ونوقش فيهما فما استقرَّ يقينه على الراجحة منهما .

في هذا الكتاب دراسة فلسفية في هذه المواضيع التي لا يزال البشر يتجادلون فيها نذ بدء الخليقة الى اليوم .

نقولا الحداد

---

(1) الجبرية فرقة من الفرق الاسلامية قالوا لا قدرة للعبد أصلا، لا مؤثرة ولا كاسبة ، بل هي بمنزلة الجمادات ما يوجد منها . والقدرية هم جاحدو القدر والذين يقولون أن كل عبد خالق لفعله، ولا يرون الكفر والمعاصي قدر الله تعالى

ليت الشباب يعود

الفصل الاول

الوسيط

قال الراوي : —

في ذات يوم كانت لي مشكلة في دار البريد في القاهرة . وكان الموظف نعيم النعماني يعالج مشكلتي ، وقد توسمت فيه الإخلاص والعدالة في حل المشكلة، فشكرت له أمانته وطيبة قلبه من كل عواطفي . ولما علم إني أشتغل بتجارة الواردات السورية طلب مني صفيحة من زيت الزيتون النقي . وفي اليوم التالي أرسلت اليه الصفيحة حسب العنوان الذي أعطانيه .

وما هي إلا بضعة أيام حتى فاجأني السيد نعيم في نيوبار حيث اعتدت ان أتنحى مساء من عناء العمل اليومي وعاتبني قائلاً : أهكذا ياعزيزي يوسف ترسل صفيحة الزيت ولا ترسل معها « فاتورة » بالثمن ؟

قلت : الحمد لله ان ذنبي يقف عند هذا الاهمال المقصود ، لأني قدمت الصفيحة هدية ، فأرجو ألاّ ترفض الهدية .

فكاد يستشيط وقال : بل أردها غداً . وفهمت أنه لن يقبلها هدية . فقلت إذن آخذ ثمنها بلا ربح ، وعسى أن أستطيع خدمتك بأمر آخر .

وما لبثنا أن صرنا صديقين . وفيما نحن نتحدث بأمور لا طائل تحتها ، كأننا نقتل الوقت تحت لواء الصداقة ، ورد على لسانه ذكر بهيج بك رحمي ، فقلت : أتعرفه ؟

قال : اشتغلت معه برهة طويلة في دار البريد في الاسكندرية وأعرف أسرته جيداً . فهل تعرفه ؟

قلت أعرف عقيلته السيدة وديعة إذ كانت تصطاف مع أهلها في بلدتنا في لبنان ، وهي سيدة فاضلة لطيفة .

قال : وبهيج بك رجل فاضل أيضاً وله منصب كبير في مصلحة البريد . إذاً تعرف أهل السيدة وديعة أيضاً . وتعرف الآنسة فريدة .

فاختلج فؤادي بين ضلوعي كأنه كان ينفضها عنه فضغطتها عليه وقلت فاضماً : نعم أعرفها . ألم تزل عند أختها ؟ كيف حالها ياترى ؟

قال : أنها لآية في الأدب واللطف والذوق، فازداد انتفاض قلبي وشعرت أن السيد نعماً محدثي يسمع نبضات دمي في عروقي فقلت : والجمال أيضاً . أليست جميلة، أليست منزلتها في الجمال كمنزلتها في الأدب واللطف والذوق .

قال : متوسطة في الجمال . لا تعد آية فيه

قلت في نفسي : ليت هـذا الغبي — لاأقول ليت له عيني لكي يرى . بل ليت له فؤادي لكي يحس بخفقانه . ثم قلت له: إذا كانت آية في الأدب واللطف والذوق ، فهي آية في الجمال أيضاً . ما هو الجمال ؟ أليس هذه الخصال ؟

ففهم نعيم ما في قلبي من وجد وقال : بلى حقيقة ، ولعلها جميلة ، لو لم تكن عليلة

قلت مضطرباً . ألم تزل عليلة . هي عادت الى الاسكندرية لكي تكون تحت رعاية طبيبها . أفما استطاع طبيبها أن يشفيها ؟

فضحك النعماني وقال : ان مرضها روحاني يا أستاذ يوسف . لا يستطيع أعظم طبيب أن يشفيها حتى ولا طبيبها لأن داءها جاء عن يد طبيبها

فبغت وقلت : كيف ذلك ؟

قال ان ذلك الطبيب خطبها وهي في أحسن صحة عقلية وجسدية . وبقي يتردد على بيت بهيج بك صهرها شهوراً ، وهم يطلبون إليه أن يقترن بها ، وهو يسوف لأعذار منسوجة نسج الديباج ، ولكنها لا تستر جسماً، فكانوا يصبرون . وفي ليلة وضحاها انقطع الدكتور عن زيارتهم وافتقدوه فلم يجدوه . وبحثوا عنه فقيل لهم أنه باع عيادته ورحل الى نيويورك حيث له أخوة هناك موفقون وهو لم يكن موفقاً في الاسكندرية . مضى ومضت أشهر وهو لم يكتب لهم كلمة. فانقطع أمل الفتاة وسقمت لفشلها في الحياة .

— إذاً كانت تحبه حباً جماً إذ فقدته

— لا أظن أن سبب فشلها فقد هذا الخطيب بل فقد حبيب آخر ، فقدته بسبب هذا الطبيب .

قلت : هذا غير معقول .

قال إلى هنا لم أعد أعرف مزيداً. وانما هناك رواية أخرى شبه سرية .

قلت مجفلاً : ماذا ؟

— يقال أنه تكلل عليها وفي اليوم التالي هجرها وسافر بلا وداع . ولكنني لا أظن أن هذه الحكاية صحيحة .

قلت : ألا تزال في الاسكندرية . أما عادت الى أهلها في بيروت ؟

قال : لا أظنها تعود . لأن أخاها فريداً جاء الى الإسكندرية وأسس محلاً للصياغة وتجارة المصوغات والساعات . وأظن أن أبويه سيتبعانه قريباً .

* * *

عدت في تلك الليلة الى منزلي أحمل على

منكبي أحمال ذكرياتي السابقة الثقيلة .

بعد أيام معدودة كنت حسب عادتي جالساً في نيوبار . أستعرض ذكرياتي الماضية فأرى حلوها مراً وجميلها قاتماً، وإذ فاجأني صديقي البريدي نعيم النعماني وفي محياه أمارات بشر، فحيينا تحيات الأوداء الأوفياء وقال : هل تعلم أن عقيلة يهيج بك رحمي هنا في القاهرة الآن ؟

قلت : أجل علمت أمس اذ شرفتني بزيارة في محل تجارتي . ثم تغدينا معاً في مطعم الحاتي .

قال باسماً : عسى أن أخبارها كانت سارة لك .

قلت : لا بد أنك أعرف بأخبارها مني وبينك وبين أسرتها صداقة قديمة حميمة .

قال : أجل لقد عرفت منها كل شيء يهمك ويسرك .

قلت : ما ذا عرفت ؟

قال : عرفت ما كتمته عني في اجتماعنا السابق اذ لم يكن من داعٍ للتنويه به .

قلت : ما ذا ؟ ما هو ؟

قال : عرفت ما كان بينك وبين أسرة السيد خليل منسى الصائغ أبي فريدة من صداقة، وما كان بينك وبين ابنته من حب وخطوبة

فانتفض قلبي حتى شعرت أنه ينضغط بين ضلوعي . فتجلدت وقلت : وبالطبع عرفت كيف فسخت الخطوبة بسبب دخول شخص ثالث بيننا هو الطبيب الذي ذكرت لي حكايته في اجتماعنا السابق

قال : إن ما روي لي ورويته لك عن تدخل الطبيب لم يكن صحيحاً . نعم كان الطبيب يعد نفسه بزواج فريدة ولكنهم لم يمنوه بها . فلما ضاق ذرعاً رحل الى أميركا

فضحكت وقلت : بالطبع لا يحسن بهم أن يقولوا الآن إلا هكذا .

قال : ثق يا عزيزي يوسف انه لم يعقد زواج الدكتور بتاتاً ، ولك أن تتحقق ذلك من سجل الزواج . فلك أن تعتبر أن ذلك الطبيب لم يدخل بينك وبين آل منسى وان خطوبتك لا تزال قائمة .

قلت : أرى يا عزيزي أنك موفد من قبل السيدة وديعة أخت فريدة لأجل وصل ما انقطع ، فلا تؤاخذني اذا قلت لك أنك لست أبرع منها بوصل المنقطع . لأنك لا تعرف كيف ابتدأت صلتي بفريدة وكيف انتهت . ولعل وديعة نفسها وأبويها لا يعرفون أيضاً . ولو كنت تعرف فلعلك لا تكلف نفسك عناء السعي المشكور في هذا العمل المبرور

فقال : حقاً إني لا أعرف ولا أدري إن كان ما روي لي كان الواقع بعينه .

قلت : إذن فلا بأس أن تسمع الحكاية بحذافيرها لكي تعلم ان كنت تصلح قاضياً في هذه المسألة أو وسيطاً كريماً . ليس في الحكاية ما يجب أن يكون سراً مكتوماً . عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء . فاعرف .

الفصل الثاني

برعمة الحب

وشرعت أروي له حكايتي : —

في السادسة عشرة من العمر تبتدىء برعمة الحب تفتق الكم لكي تتفتح الزهرة، ولذلك كان قلبي حائماً كالنحلة على زهرات الفتيات ، لا يلبث أن يستقر على زهرة حتى يفر عنهـا الى أخرى طامعاً بحلاوة أشد . وكان في جيرتنا فتاة تدعى سلمى بنت حليم الزعفراني . وكانت أكثر اعتراضاً في سبيل حياتي من سائر فتيات الحي، فكنت أظن اني أحبها . ولكني كنت دائماً أتشوف الى غيرها . أما هي فكانت على الرغم من حشمتها وتصونها لا تستطيع أن تكتم حبها لي

منذ تلك السنة جعل أبي يصطحبني معه الى مصر لكي يدربني على تجارته . وهي تجارة الحاصلات اللبنانية والسورية من زيت وزيتون وقمر الدين الخ، ويعودني السفر ومعالجـة الشراء والبيع ويعرفني « بالزباين » . ولما عدنا من أول رحلة عدت مفتوناً بجمال من شاهدت في مصر من النسوة من غير تخصيص . فلم تعد فتاة من فتيات البلدة تتصباني . كنت متقداً حبـاً ولكنه حب بلا حبيب . أين الحبيب . لا أدري . أية من رأيت من الفتيات كنت أهواهـا . ولكن إذا غابت عن بصري ذهب من قلبي هواها، وأقام فيه هوى آخر، حتى سلمى الزعفراني التي كانت أحبهن الى قلبي لا يمكث هواها يوماً واحداً في نفسي بل هـو يتردد علي كتردد الربيع بين الفصول الأربعة .

كنت أحس أني عصفور طائر من فنن الى فنن ، متنقل من دوحة الى دوحة ، كأن الأرض لا تسعني والجو ضاق بي والهواء يقذفني الى السماء . كنت أراني شيئاً ممتازاً في الوجود، ولكن ما هو هذا الشيء . لا أدري . كنت أظن أن العـالم مخلوق لي ، لا أنا مخلوق له . لله من غـرور الصبا الذي كان يتبخر في دماغي ويتطاير منه عجباً وخيلاء وزهواً .

في الصيف الثامن عشر من عمري كنت أشاهد كل يوم بعد يوم فوجاً من المصطافين في بلدتنا التي تعد من أجمل المصايف . وفي ذات يوم شاهدت أسرة قادمة الى المتنزه وهي أم وابن وابنة . فما وقع بصري على الفتاة حتى شعرت لأول مرة في حياتي بهزة في بدني كلـه لم أعرفها من قبل . لا أكون قائلاً مجازاً اذا قلت انها هزة كهربائية رجت بدني كله ووجف بها فؤادي في صدري

شعور لم يطرأ عليّ من قبل . فلم أفهمه، أول مرة في حياتي هفا قلبي لامرأة على هذا النحو . وقعت عيناي على عينيها فلم أستطع أن استرد بصري إلاّ حين حدقت بي فأغضيته، كأن في نظرتها قوة أطبقت أجفاني فأعرضت ومضيت متجاوزاً طريقها . ولكني ما لبثت أن تقهقرت كأن قوة تردني لكي أرى ما في ذلك الهيكل الانساني من حبائل ربطتني به، وجعلت تجذبني اليه، بقي نظري يشيع ذلك الهيكل حتى استقرّ الثلاثة في موضع حسن في المتنزه . فما رفعت قدماً الاّ كانت خطوة الى ذلك المقام على الرغم من تهيبي ذلك الأقنوم . ولما اقتربت الى المكان خفت أن تفر الظبية من قحتي في الارتداد لمواجهتها، فحاولت أن أرجع، ولكن قدميّ أصرّتا على الدنوّ الى مقربة من مجلسها . فجرأت نفسي وجلست لدى ذلك الثالوث المقدس .

أجل أحسست أن ذلك الأقنوم موطن الطهارة والقداسة والنعمة . ويحي ! أبنظرة واحدة تهب كل عاطفة فيّ . أين كانت هذه العاطفة الغريبة كامنة ؟ لم أعهد من قبل أن في الوجود مايقلقل جسماني، ويثير وجداني، ويزلزل ما بين ضلوعي .

رأيت قبل ذلك الحين فتيات وسيدات كثيرات وعطفت وملت وهويت. ولكن كهذا الهوى لم أحس .

ألعلّ هذا ما يسمونه حبّاً أو عشقاً أو غراماً أو تدلهاً أو ولهاً أو شغفاً ؟ ان هذا الوله يوهن قوّة الارادة ، يضيع الاستقلال الشخصي ، يقتل الحرية . لذلك شعرت أني أصبحت ولا اختيار لي . رأيت أني غدوت مقيداً بذلك المكان ومرتبطاً بذلك الهيكل الروحاني .

بذلت جهدي ألاّ أخالسها البصر مخافة نفورها . ولكن ما من مرة نظرت اليّ شزراً الاّ اصطادت مني نظرة على الرغم من تمملي الاعراض تحايداً لنفارها

ما عدنا من ذلك المتنزه إلاّ وقد تحدّثت العيون . أعلى تفاهم أم على تجاهل ؟ لا أدري أعلى تلاؤم أم على تباين ! ألله أعلم

تتبعت ذلك الثالوث الى أن توارى في داره حين كانت الدار نفسها تتوارى في حلك الليل .

رجعت من ذلك المعبد الذي اكتشفته مسائذٍ ، وكنت لا أراه قبل ذلك المساء إلاّ مباءة للفئران والجرذان اذ كان خالياً من السكان

وعلمت ليلتئذٍ من أمي أن ذلك المنزل ملك السيد خليل منسى الصائغ الذي يشتغل بفن الصياغة في بيروت ويتاجر بالمصوغات وان هذه الأسرة أسرته تصطاف كل صيف في ذلك البيت . وان اسم الفتاة فريدة وإسم أخيها فريد . أين كانت فريدة هذه؟ لم أرها في صيف سابقاً . لعلّ برعمها لم تتفتق من زهرتها قبل ذلك الصيف

من تلك الليلة دبّ الهوى الأفلاطوني في فؤادي . منذ ذلك المساء اعتبرت أني دخلت في دور جديد من الحياة الروحية ، أو دخلت في دور جديد من العمر . منذ ذاك استيقظت فيّ غريزة المطامع ، وتنبهت نمرات الآمال منذ ذاك . ادركت أني إنسان وان الإنسان مخلوق للجهاد ، وأن النشاط الذي يشعر به إنما هو أداة للجهاد

في تلك الليلة تعاظمت الآمال وتجسمت الأماني . ولكن الطريق إليها لا يزال مجهولاً . بيد إني اكتشفت أن فريدة هي الباب للدخول الى رحبة الأماني .

في تلك الليلة كان طيفها ماثلاً أمام مخيلتي واضحاً في حلك الليل ، حتى بعد أن أغفيت كان لا يزال يخطر في مخيلتي .

أتطلب ياعزيزي مني وصفاً لذلك الأقنوم الملائكي ؟ لالزوم لذلك الوصف... ليس في الكون جمال كجمال ذلك الأقنوم في نظري ، فإن كنت في بدء الخليقة أو في نهايتها فلا يرتسم في مخيلتي غير ذلك الجمال . هو الأول والآخر . وإن عبرت الكون من طرفه الى طرفه الآخر فلا يروق لعيني غير ذلك الجمال .

إذا شئت أن ترسم جمال فريدة فانسخه عن مخيلتي . أنظر في حدقة عيني تَرَه

ما هو الجمال ؟

هو خيال ينطبع في جرثومة الحياة فيجعلها روحاً .

هو شعاع ينعكس عن جوهر الروح فيجعلها حبّاً .

هو جوهر يقترن بالحب فيلد سحراً .

وما هو الحب ؟

هو نبضة تتغلغل في الجماد فتجعله كهرباء ، وفي النبات فتجعله إحساساً ، وفي الإنسان فتجعله شاعراً حساساً ، وفي النفس فتجعلها خالدة . والخلود المطلق للألوهية . والله محبة . والمحبة تربط أجزاء الكون وتحركها جميعاً .

الحب يخلق الجمال ليتغذى به

الجمال وُجد . والحب وُجد . ولكن هل وسم هذا الحب قلب فريدة . قلت لنفسي حينئذٍ ان جواب هذا السؤال هو شغلك الشاغل يا يوسف منذ الغد

لله من الحب . يسهل الصعاب ويذلل العقبات . فما انقضى اليوم التالي حتى صرت وفريدٌ أخوها معرفتين بعد أن كنا نكرتين الواحد للآخر . وفي اليوم الثالث صرنا صديقين بعد أن كنا غريبين . وفي اليوم الرابع صرنا حميمين ونحن من سنٍّ واحدة تقريباً . وفريدة جاءت على رأس فريد بلغة المواليد . وصرنا نجتمع أكثر الأمساء في المتنزه . وصارت لي جرأة على الحديث مع فريدة تارةً ومع أمها أخرى . وصارت بيننا مودّة ظاهرة مبطنة بشغف خفي . وحين ينعقد اللسان تتخاطب العينان وتتفاهم الروحان .

***

وكان يتردّد على الأسرة في المتنزه شابٌّ كان في السنة الأخيرة في كلية الطب الأميركية في بيروت . وهو كثير الدعوى ثقيل المنجهية،مغرور بنفسه وجماله وخفة روحه ، وروحه أثقل من رضوى . ولم يكن يحلو له الكلام إلا باللغة الانكليزية التي كنت أجهلها أو لا أعرف منها إلاّ نزر الألفاظ . ومتى كان هذا الدعي موجوداً معنا يحتكر الحديث مع فريدة بهذه اللغة الاجنبية . فكان كأنه الذئب ينهش في أحشائي، أو المفرنقعات ترجّ أعصابي ، أو قصف الرعود يقرع دماغي .

من ذا يقول أن الحسد رذيلة ؟ ومن لا يقول أن الغيرة فضيلة ؟ ومن يقول أن البغض إثم والحقد خطيئة ؟ إذا كنت لا أعرف سعادة في الحياة إلاّ بمجالسة فريدة ومغازلتها أفلا أعذر إذا مقتُّ ذلك الطفيلي الذي يشاغلها عني، وحقدت عليه ؟ أفلا أبغضه وأتمنى فناءه ، إذا كانت الدنيا تنازع بقاء ؟ — غفرانك اللهمّ

لما سمعت فريدة تكلم ذلك الثقيل بالانكليزية هبت في نفسي غريزة الغيرة . اشتهيت أن أعرف هذه اللغة لكي أفهم ما ذا يقولان ، ولكي أكلم فريدة بها . آليت على نفسي أن أتعلمها ، واتفقت مع معلم المدرسة عندنا أن يعلمنيها،وشرعت أقضي معظم النهار في الدرس والتحصيل ، وقد صحّ فيّ قول القائل « الحب رباني وعلمني الأدب » .

ما انقضى الصيف حتى تفاهمنا فريدة وأنا فيما بيننا ، تفاهماً سريّاً بأننا حبيبان . وتعاهدنا على أن نكون زوجين متى حان الزمن المناسب وهو غير بعيد .

وعادت فريدة الى مدرستها وفريد الى مدرسته وأنا الى مدرسة غرامي وهيامي وصبابتي في يقظتي ومنامي . ولما كنت أعرف أصول اللغة العربية معرفة كافية، وكنت أطالع كتب الأدب والشعر جعلت أنظم الأشعار تشبيباً بفريدة

اكتشفت أن الاسترزاق في هذا العصر لا يسهل إلاّ بقدر ما للانسان من العلم والمعرفة ، وإن استيسار الأمور في بلادنا لا يكون إلاّ بمعرفة بعض اللغات الأجنبية. كأن الله الذي ضرب علينا الذل والمسكنة بسبب كسلنا وبلادتنا قضى بأن لا نحصل رزقنا من بين أيدي مستعمرينا إلاّ إذا خاطبناهم بلغاتهم. فما أمكننا أن نضطرهم أن يتعلموا لغتنا،ولكنهم تمكنوا أن يضطرونا أن نتعلم لغاتهم . لذلك عزمت أن أستعد لدخول الكلية الأميركية في بيروت .

أرجو ألاّ تكون يا عزيزي نعيم قد مللت سماع قصتي هذه التي لا تهمك .

فقال : كلا البتة. اني مستلذ سماع هذه القصة التي أرى فيها دروساً اجتماعية وأخلاقية فاستمع الى حديثك الى النهاية

فاستطردت وقلت : في تلك السنة

حدث حادثان خطيران في حياتي : الأول أن أبي توفي بحمى خبيثة — رحمة الله عليه — كان حصني وملاذي ، فتركني في ارتباك وترك لي أمّا وأختاً أصغر مني . لا بل وضعني أمانة في يد الله تعالى . لقد فعل لنا أكثر من الواجب عليه . فعلمني ما استطاع أن يعلمني ودرّبني بقدر ما أذن له اختباره . وترك لنا شيئاً من الأملاك العقارية لايكفينا ريعه إلاّ إذا قتّرنا في المعيشة . ولماذا نقتّر وقد أورثني صحة وعقلاً وعضلاً ؟

أما الحادث الثاني فهو أن حليم الزعفراني أبا سلمى كان في الولايات المتحدة الأميركية من جملة المهاجرين المرتزقين ، فكتب الى زوجته يستقدمها إليه مع ابنته سلمى ، لأنه كان ناجحاً في تجارة المطاط هناك ، فصعب الفراق على سلمى جداً وشكت لي ألمه وقالت: هل يسهل عليك يا يوسف أن نفترق ؟ أما أنا فأذوب حسرةً وأسًى . لماذا لا نعقد زواجنا وندع أمي تسافر وحدها الى أبي ؟

ولم تكن سلمى تعلم ما ذا كانت منزلة فريدة الصائغ من فؤادي . فحملت على قلبي حملة استعطاف بدموعها حتى كادت تصهره شفقة وعطفاً . فحاولت أن أعتذر لها بأني لست في ظروف تسمح لي بالزواج بعد أن مات أبي وتركني غير مستعد الاستعداد الكافي للارتزاق . ولذلك آليت على نفسي أن أتعلم في الكلية (الجامعة) الأميركية في بيروت لكي أستعد لمسترزق أحسن .

واجتمعت بي مراراً لتقنعني بأسبابها وتستميلني بغرامها وتستعطفني بعبراتها . ولكن هناك صنماً آخر كنت أعبده . وقد استقرّ في هيكل قلبي وليس في مكنة سلمى ان تحطمه . ولما يئست سلمى من اقتناصي قالت بلغة اليائس « ألا تذهب معنا لكي تودعنا في بيروت الوداع الأخير »

قلت اذهب بلا شك . ولماذا تحسبينه الوداع الأخير ؟ من يدري ؟ فلعلنا نلتقي بعد حين .

والله يعلم إني كنت أمكر عليها لكي أخفف من لوعتها بتجديد الأمل . ولكني كنت أجترم جريمة بهذا التأميل لا مغفرة لها

فأجهشت بالبكاء وقالت : « لا . لا . لا . بل تشيعني في بيروت الى مقبرة الغرام » . وارتمت على ذراعي . فقبلتها قبلة حارّة . فانتعشت . وقالت : إذن أظننا نلتقي بعد ؟

قلت مموّهاً كاذباً : قد أهاجر الى أميركا .

قالت : إذن سأستقبل الشمس والقمر كل يوم وكل ليلة على أمل أن تكون قادماً معهما .

* * *

وتوارت السفينة في الأفق .

تراءت لي سلمى صاعدة الى العلى لا مبارحة في البحر الخضم . وشعرت أني هبطت الى الدرك الأسفل لما انقطع حبل

الانفصال بيننا . شعرت به هبوطاً رضَّ هيكلي وسحق قلبي وأطار لبي ، وأقلت ضميري وجعل يقرعني قرعاً أعمى بصيرتي .

أما ظلمت سلمى التي أخلصت الحب قدر ما يستطيع الانسان اخلاصاً . وهل أثق أن تخلص فريدة هذا الاخلاص ؟ « البعد جفاء » . بعد أسابيع تضاءل خيال سلمى في مخيلتي الى أن تلاشى — أجل تلاشى تجاه طيف فريدة .

* * *

انتهت سنتي المدرسية بنجاح تام .

ولما طلعت أسرة الصائغ الى مصيفها في بلدتنا كعادتها كانت معها السيدة وديعة أخت فريدة ، وعلمت أنها عقيلة صديقك بهيج بك رحمي الموظف في مصلحة البريد في الاسكندرية كما تعلم . وقد جاءت من القطر المصري في ذلك الحين لكي تصطاف مع أهلها .

عدنا نتردد الى المتنزَّه المعهود . وعاد ذلك الطبيب الدخيل الى فضوله وتدخله في أحاديثنا وأسمارنا ، كأنه لا يجد جماعة غير جماعتنا تصبر على تطفله . وقد زاده حصوله على شهادة الطب في تلك السنة عنجهية وإعجاباً بنفسه . وهو لا يصبر الى أن يمتدح الحضار عامه بل هو يتمادى بالاطناب بمعارفه ووصف الأمراض التي عالجها ، وفعل فيها العجائب ، حين أنه لم يمض الشهر بعد انتهائه من الدراسة . وإنما هو يعزو لنفسه غرائب الأعمال الطبية والجراحية منذ كان طالباً ، حتى إنه كان يتدارك أغلاط أساتذته . كاد غروره هذا يستثير نزقي ، وأوشك فضوله ان يستفزني للقذع بسخفه ، وكان يوقد نيران غيظي ظني بأنه يضمر مطمعاً بيد فريدة . وكان يسعر حنقي ما يتراءى لي أحياناً من مجاملة الأسرة له . وخفت أن يستميل حبه فريدة اليه . فجعلت نفسي تحدثني بدراسة الطب . ولكن هناك بضع سنين قبل أن أظفر بشهادة الطب ، فهل تمهلني فريدة هذه المدة .

انقضى الصيف وعدت الى الكلية وما لبثت أن فجعني حادث لا تطيقه نفسي ولا يهدأ بعده روعي وهو أن وديعة أخذت أختها فريدة معها الى الاسكندرية لكي تقضي شتاءً عندها . فكنت في ذلك العام في كمد وفي حسرة

وكنت قد أخذت منها عهداً بأن تكاتبني عن يد أخيها . فكتبت لها في أول شهر مرتين ثم مرة في كل من الشهرين التاليين فردت على خطاب واحد ، وبعد ذلك لم تعد ترد بحجة اكتفائها بما تكتبه لأخيها وتذكرني فيه . وقبل أن ينتهي العام قاطعتني بتاتاً ولم تعد تذكرني في كتبها لأخيها على الرغم من عتابي الرقيق لها ، واستعطافي المتذلل في رسالة أخيرة ارسلتها اليها .

منذ ذلك الحين شعرت ان قلبها تغير عليَّ . وكدت أذوب غمًّا . وصبرت على

هذا المرض الى أن عادت في أول الصيف والتقينا في الصيف حسب العادة . وعاتبتها عتاب العاشق الخائب . فأفصحت عما في نفسها وقالت بتطويل وتردد ما فحواه : ان هناك سبباً صحياً وجيهاً يضطرها أن تنقض العهد الذي بيننا . فألححت في طلب بيان هذا السبب الصحي . فقالت بعد تردد: مرضت في الاسكندرية مرضاً خطراً هو النزف ، وطال عهده ، ولم أشف الشفاء التام حتى اليوم . ولذلك قال الطبيب ان الزواج خطر لي ، فرأيت ان الذمة والشرف يوجبان عليَّ أن لا أغشك ، لأن زواجنا يكون وبالاً علينا كلينا .

فشكرت لها هذه الصراحة وقلت أعاهدك اني أبقى محبك وحدك الى أن يصرح الطبيب بزوال الخطر . فحاولت أن تقنعني أن معاهدة كهذه ليست حكمة من قبلي ، وان الأفضل أن نبقى حرين الى أن يقرر الله تعالى أمراً حسناً لكلينا .

وخطر لي أن يكون الطبيب الذي دخل بيننا هو ذلك الطبيب الفضولي الثقيل على الرغم من أنها سمت لي طبيباً آخر مشهوراً في الاسكندرية .

وانتهى الصيف وفريدة وأنا في مثل جفاء . وعرف أهلها ما كان من صرم حبل الحب بيننا وقطع العلاقة . وقبل أن يهجم الشتاء عادت فريدة الى الاسكندرية ضيفة على أختها مرة أخرى بدعوى أنها لا تستغني عن علاج طبيبها الذي درس مرضها .

وآليت على نفسي أن أستمر بالدرس الى أن انتهي من دراسة الطب . قررت أن أكون يوماً دكتوراً ممتازاً طائر الصيت لكي تندم فريدة على تركي وتعود اليَّ . فانظر ماذا يفعل الحب . الحب كالايمان ينقل الجبل من مكان الى مكان .

* * *

ما انتهت السنة المدرسية حتى ضاق صدري . علمت أن فريدة لن تأتي في ذلك الصيف مع اختها للاصطياف . ورأيت أن سني الدراسة التي أمامي متطاولة تكاد حياتي تنقضي كمداً قبل أن تمضي السنون : حياة شوق . وحياة وجد . وحياة جوى . وحياة غرام بلا لقاء . وحياة لوعة بلا إبتسامة حبية تطفئها . ثورة نفس لا تخمد . كيف تطاق حياة كهذه . ولماذا الحياة التي لا تطاق ؟ أما من فرج لهذا الكرب ؟

كان مورد الرزق الشحيح يقذفني من الدراسة الى العمل . لكي يقذفني من لبنان الى مصر حيث استأنف المسترزق الذي دربني عليه أبي . أحقيق أن الارتزاق كان يدفعني الى مصر ، أم ان نجم فريدة كان يجذب نجمي اليها ؟

لا . لا . لست من الضعة بحيث أنقاد بخيط جاذبية وهميّ الى فريدة . أذهب الى القاهرة فأكون في طريق الريح التي تحمل أنفاسها . ولكني لا أكون في مرمى بصرها

لئلا تترفع بها خيلاؤها عليَّ . إذن فأكون في القاهرة . ويعرف أهلها أني هناك . وهي ستعرف أيضاً . وثمت نرى أي الجرمين أقوى جذباً للآخر .

أقول لك الحق يا عزيزي نعيم . كانت تلك مكابرة كاذبة مني . ما برحت الى مصر إلا منقاداً بخيط حب فريدة الذي لا ينفصم

تأهبت في ذلك الصيف بشحنة من الحاصلات لرحلة الى القاهرة حيث يكثر زبائن أبي . وسافرت .

وعلى أثر وصولي الى القاهرة كتبت الى فريد منـي الصـائغ أنبئه برحيلي وبعنواني بحجة الصداقة المتينة التي بيننا ، على أمل أن يرسل عنواني لاخته عسى أن تكتب لي . فرد رداً موجزاً بعد حين ليبرأ من العتب . ومضى الشهر إثر الشهر وفريدة لم تكتب . فكتبت لها اخبرها إني في القاهرة . فما أجابت فصحت مقاطعتها لي . وحق يأسي وامتد أساي . وجعل جواي يقرض احشائي . وإذا عزَّ الأمل فماذا يقوم مقامه غير الصبر . فأنعم الله بالصبر .

ورأيت إني اذا عدت الى لبنان فقد يقضي الغم عليَّ . ورأيت في منازه القاهرة شيئاً من التسرية عن نفسي . فآثرت أن أبقى فيهـا . ولعلَّ قربها من الاسكندرية مكنني فيها . كتبت الى ابن خال لي في بلدتنا ان يتبضع البضاعة ويشحنها لي لقاء عمولة . وأرسلت اليه المال الذي معي لهذا الغرض . وجرت المعاملة بيننا مجرى حسناً واستتبت تجارتي وشرعت تتسـع رويداً وأنلت منها نجاحاً .

وكانت نفسي تحدثني أحياناً بأن أذهب الى الاسكنـدرية بزيارة لبيت بهيج بك رحمي صهر فريدة . ولـكن عزة النفس كانت تردعني ردعاً عنيفاً . ولا سيما لأني لست واثقاً أن يرحب آل رحمي بي . ولذلك حرَّمت على نفسي المضي الى الاسكندرية حتى لأي سبب آخر لئـلا تظن فريدة اني أسعى اليها .

ولعلها نبذتني نبذ النواة .

الفصل الثالث

الحبل المنقطع

هــذه يا عزيزي نعيم قصة صلتي بآل خليل منسي الصائغ وبالآنســة فريدة . وعندك باقيها وهو فاجعة لي كما علمت وكما رويت لي . أفليسـت فاجعة ومأساة يا أخي ؟

وكان نعيم منصتاً لي كل الوقت يسمع ولا ينبس ببنت شفة الى أن قال : لماذا تحسبها مأساة وهي لم تنته بعد

قلت : انتهت . وأنت علمت كيف انتهت،وان كنت مفوَّضاً بأن تتوسط فيها فأرجو منك أن تستعفي من هذه المهمة . وقد حاولت السيدة وديعة أمس أن تعيد المياه الى مجاريها ، فعادت وهي مقتنعة أن القناة التي تجري فيها المياه قد التوت ولم يعد ممكناً أن تستقيم

قال : ولــكن فريدة قد اعتدلت . . .

فأجبت وأنا أكاد أغص بكلامي : لم يعد لي شأن بفريدة بعد أن صدق ظني بعلاقتها مع الطبيب الفضولي وهتكت كل عاطفة فيَّ

كذبت فريدة عليَّ بمرضها . ضحكت عليَّ باعتذارها ، مكر بي حبهـا . غشني لطفها . نافقت عليَّ نظراتهـا . خدعتني ابتساماتها . هزىء بي كحل عينيهـا ودعج مقلتيها . سخر مني دلالها . لعبت عليَّ دوراً هائلاً بتكسر أجفانها ، وبلعثمة لسانها ، وبحرِّ أنفاسها وتنهداتهـا ، يوم قالت لي متوردة الخدين خجلاً : ان بها داء النزف ، وأنها لا تستحل أن تحمِّلني معها عبء مرضها . فشكرت لها حينئذٍ طهارة ضميرها وصراحتها، وأكدت لها أني مستعد لتحمل هذا العبء ، أصرَّت على الإباءة ، وقالت نبقى صديقين .

يا لها من صداقة لم تتحمَّل شطاط المكان فرسخاً ولا طي الزمان أمداً . تنوسيت في عام . ودفنت في حلك الليالي ، فلم يعد يعرف لها تاريخ ولا مقام

* * *

لطالما ألمعت الى أن ذلك الطبيب الطفيلي سيأخذ من لبهـا فـكرةً . فكانت تهزأ بهذه المظنة ولطالما حذرتها من يلمعية (١) ذلك الفضولي فقـد تهوَّر في خداعـه . فـكانت تتبرَّم من ذلك التحذير أو أنها كانت تستنكف أن تحذَّر .

ها قد وقعت فيما حذَّرتها ، وغفلت عما نبهتها . فماذا قالت حين هجرها ذلك النذل بلؤم، هل خطرتُ لها على بال،و تذكرت مني كل مقال : على أي حال ليس لفريدة عهد ولا وفاء . كانت تسبح حيث تطوف بها الأهواء، لا قلب إلا كتلة لحم يتدفـق فيها تيار دم منها وإليها . لا دماغ إلا كـتلة رمادية اللون تتعاقب عن صفحات أليافها صور الخيالات بلا تسلسل

(١) اليلمعي الذي يخلط الصدق بالكذب

ولا ارتباط كما تتعاقب الصور المتحركة.

ولا حواس إلاّ أجهزة أعصاب تنقل صور المحسوسات الى تلك الصفحات حيث تنطمس في طبقات الخيالات بعضها فوق بعض إذن ، أين مركز الحب في جسمانها .

أين نبضة الوجد في وجدانها .

أين هبة الهوى في مشاعرها .

أين حرقة الجوى في أحشائها .

لا حب ولا وجد ولا هوى ولاجوى.

ليس هناك إلاّ شهوة مادية — تبرّج وتمويه ألوان وأزياء ونفاسة دمقس

ليس هنـاك إلاّ صنم قنيص ظاهرهُ مرمرّ أصمّ . فكيف يكون قلبهُ .

يا لضياع ذلك الحب — حبي — الذي كان كشـعاع الشمس يغمر فريدة بحرارة الشوق على القرب والبعد سواء ، وبضياء الفكر الذي كان يلقي على صفحات الخيال صور حركاتها وسكناتها .

يا لضياع ذلك الغرام الذي كان هيكلها يسبح في بحر اثيره فأراه مثال الجمال الروحاني.

ويالضياع ذلك الهيام الذي كان يطوف بي في الفضاء حتى إذا عثرت فيه على ملاك اقول هذا هو فريدة بعينها .

ويا لضياع تلك الاماني التي لاحت فيها أشباح السعادة السموية . ضاعت الحقائق فاضمحلت معها الخيالات والأوهام .

***

وكان نعيم يسمع رثائي هذا وتأبيني لحبي مدهوشاً لا يتكلم. ولعله لم يعد يدري ماذا يتكلم

فقال : اني يا أخي أعذرك وأنت الآن في منتهى الانفعال . فخيرٌ لك أن تلجأ الآن الى ملهى تموّه فيه عن نفسك ، عسى أن تنسى ذكرياتك الماضية التي كنت أنا السبب في استذكارهـا . فأرجـو أن تعذرني وتؤذن لي أن أفارقك الى الغد في مثل هذا الوقت وفي هذا المكان .

ومضى . وعدت الى منزلي وأنا أحس غمومي مطبقة على صدري تكاد تزهق روحي

تمزقت سحب الخيالات والأوهـام وظهرت شمس ذكريات الحب الأول . انجلى طيف سلمى الزعفراني في مخيلتي كأنها لم تفارقني إلاّ اليوم . ياللحسرات . ياللغموم ! أين أنا من سلمى الآن وبيني وبينها بحر ومحيط . فأين نبتون الـه البحر يقلص الأوقيانوس لكي يضع القاهرة ونيويورك في صعيد واحد . انقطع حـبل هذا الأمل منذ انقطع حبل الاتصـال يوم الوداع . وكم كنت قاسياً يوم ورد لي خطاب من سلمى فلم أجاوبها عليه لأني حسبت المجاوبة خيانة في حب فريدة . لم أكن مقيداً بوعد لسلمى وانمـا كنت مقيداً بعهد لفريدة . أكذلك يكون جزاء الاخلاص .

علمني أبي الصدق . فأضرني الصدق. لو كاتبت سلمى حينئذٍ لكان لي اليوم سبيل الى الاتصال بها اذ تيقظ حبي القديم لها .

هل أقول تبّـا للإخلاص ؟

الفصل الرابع

لغز الحب

في مساء اليوم التالي وافاني صديقي نعيم النعماني الى نيوبار في الميعاد. ولما جلس قلت: لعلك موافيني لكي تعيد الكرة علي مشفقاً.

قال باسماً: كلا البتة. لقد فارقتك أمس وأنا لا أرى وجهاً للشفاعة. وقد أزلتُ الستار على الموضوع منذ أمس كما أزلته أنت، وانما وددت أن اطمئن على هدوء نفسك إذ فارقتك وأنت في ثورة نسائية عنيفة جداً

قلت: أشكر لك عاطفتك الشريفة ياعزيزي. أنت أكثر خبرة مني. فهل يمكنك أن تقول لي كيف يمكن أن يرتد صدى الحب الشديد غشاً وخيانة»؟ أو على الأقل فتوراً ثم انحرافاً؟

فأطرق برهة غير وجيزة ثم رفع رأسه ونظر فيَّ قائلاً: يلوح لي يا صاحبي أنك تريد أن تطبق الحب على الهندسة ـ هندسة الفعل ورد الفعل

فضحكت وقلت: أليس الحب سنّة طبيعية؟ فيجب أن يتمشى على السنن الطبيعية

قال — حسناً. وتتوقع أن يكون لكل حب صدى

قلت — نعم

— ماذا كان صدى حب سلمى بنت الزعفراني لك؟

لو ثقبت دماغي رصاصة حينئذ لما صرعته كما صرعت قلبي طعنة نعيم هذه. أحسست بدوار في رأسي. كاد يعمي بصري. فوضعت رأسي بين كفي مطرقاً واستعرضت مخيلتي سلمى وأيامها ووداعها الأليم. وبعد برهة رفعت رأسي وقلت. حقاً ان حب سلمى لم يرتد مني صداه إليها. ولكن بين الحبين فارقاً. لم أعاهد سلمى. ولكن فريدة عاهدتني.

فضحك نعيم وقال: ليس في سنة الحب يا عزيزي كلام ولا عهود ولا مواثيق ولا عقود. وإنما فيه برق يومض ورعد يقصف وشهاب يلمع ونار تتقد. لا سلطان للسان على القلب. تحب من غير أن تتكلم. وتفهم الحب من غير أن تسمع صوته. تتكهرب بالحب من غير أن تلمسه. الحب أمواج روحانية بين قلب وقلب. تصدرها نبضات القلب الواحد فتصدم القلب الآخر فيتخافقان

قلت: حسناً ما بال قلب فريدة لم يحس بموجات نبضات قلبي.

قال — سل قلبك لماذا لم يحس بموجات نبضات قلب سلمى

قلت: عاد الآن يحس

قال: وعاد قلب فريدة يحس

قلت : « في الصيف ضيعت اللبن » الحب يا عزيزي ضربٌ من الجاذبيـة كتجاذب الأجرام السـموية . والجرم الأكبر يجذب الجرم الأصغر . يتجاذب جرمان ، فاذا مرَّ جرم ثالث أكبر منهما على مقربة من أحدهما اجتذبه وخلّف الآخر وحده شريداً . . .

وقد كان بيني وبين فريدة جذبٌ قويٌّ . ولـكن لما قرب ذلك الطبيب الضخم بطبه اجتذب فريدة الى أن أصبحت بيننا مسافة بعيدة جدًّا . وقوّة الجذب تضعف كمربع البعد ، فلم يعـد في الإمكان أن نتجاذب . ولعل جرماً آخر أضخم من فريدة جمالاً أو مالاً أو كليهما مرَّ على مقربة من الطبيب فاجتذبه عنهـا . هكذا الحب جاذبيـة بين متجاذبين

ففكر صـديقي برهة مبتسماً ثم قال : ولماذا لا تقول أن جاذبية الحب ضربٌ من المغنطيسية يكون فيه معدنان مغنطيسيان متقابلين فيتجاذبان . فاذا تدابرا تنافرا . فاذا تقابلت أنت وفريدة تجاذبتما . وإذا بقيتما متدابرين بقيتما متنافرين .

قلت : ولـكن إذا عاد المغنطيسان متباعدين جدًّا ضعف قوّة الجذب كمربع البعد كما لا يخفى عليك .

قال : ولـكن لا تنسَ أن للموجات الـكهرطيسية تأثيراً عن بعدٍ سحيق . وللقلوب النابضة موجات كهرطيسية كالموجات اللاسلـكية تؤثر في قلوب أخرى فتجعلها تنبض مثلها كما يجاوب الراديو نبضات الاذاعة

ففكرت هنيهة ثم قلت : تكاد توقعني في حيرة . أتريد أن تقول لي ان القلوب لا تتنابض إلاّ قلبٌ لقلب ؟

قال : نعم الحب نبضة من قلب لا ينبض لها إلاّ قلب واحدٌ مثله . وأعني أن لكل قلبين لغة خاصة ليست لغيرهما .

قلت عجباً ! أليس الحب غريزة شائعة في كل القلوب بلغة واحدة

قال : بلى الحب الحيواني غريزة كما تقول والانسان والحيوان الأعجم فيـه سواء . ولـكن هذا الحب الذي يسميه البشر عشقاً أو ولهاً أو هياماً ، أو تدلُّهاً هو حب آخر علاوة على ذاك ، وإلاّ لما كان عندك فرق بين سلمى وفريدة .

قلت إنك تطرحني في وعر من شعاب هذا الموضوع لاحدود له .

قال : أجل ان الموضوع لـكذلك

قلت : أرجوك أن تتبسـط في هـذا الموضوع لـكي تنشلني من وهدة هذه الحيرة . ما هو الفرق بين الحبين .

قال : الحب الأول هو شهوة غريزية شائعة في جميع الأحياء يثيرها فيها النضوج . وفي الأحياء الراقية يثيرها أيضاً جمال الطبيعة . وكان كلما ارتقى الحيوان ارتقى معـه الجمال فاشتدَّ به الحب حتى صار شوقاً فغراماً ال[illegible] آخر ما تعلمه من تعابير الحب وأصنافه .

قلت : ما الفرق بين الحب الشهواني

البسيط والوله المتعاظم .

قال : ذاك مفعول الغريزة وهذا اختراع المخيلة . كلما ازددت حباً أو شغفاً سما تخيلك لجمال الحبيب . كنت تبغي وصالاً فأصبحت تطلب خيالاً . تكاد تغفل ذاك وتتشبث بهذا .

قلت : أمر غريب .

قال : أجل إنه لغريب ولهذا سُمّي الهوى العذري . الهوى العذري هوى غريب لا يعيش إلا هنيهات التخيل فقط . متى كان الحبيب بعيد المنال تولى شأن حبه الخيال . يتمتع العاشق بصورة جمال المعشوق بدل تمتعه بذاتيته تقوم الصورة مقام الذات ما دامت الذات ممنوعة، فمتى حضرت الذات تبدد الهوى العذري بخاراً . وبرز الهوى الغريزي . فحريٌّ بذاك الهوى ان يسمى الهوى المكري بدل الهوى العذري

فأطرقت مفكراً بحديثه مستغرباً فلسفته الى أن قلت : هل لك أن تقول لي الآن أين أنا من مراحل الحب هذه !

قال : لقد عبرتها كلها . وأنت تتنقل بينها كل يوم . تكون في حب غريزي فاذا بك انتقلت الى حب روحاني ، فالى هوى عذري . فكلما قرب الحبيب اليك كان حبك حيوانياً . وكلما ابتعد عنك صار حبك روحانياً .

بعد تفكير هنيهة قلت : هناك جميلات عدة فلماذا يقيد العاشق قلبه بحب عذري واحد ، لا يروي غلة ولا يشفي علة .

قال : في نظر العاشق ليست الجميلات في طبقة واحدة من الجمال . فهو يطمح الى أجملهن في نظره، وكلما امتنعت عليه تعاظم جمالها في نفسه ، فيتعاظم حبها في قلبه حتى يصبح هوى عذرياً ، وحينئذٍ يكون أقوى سلطاناً من الحب الحيواني . ولكن هذا الهوى العذري لا يتسلط عبثاً بل يمنح الحب الحيواني قوة هي أضعاف قوته . ألا ترى ذلك في الفرق بين الحيوانات والبشر ؟

قلت : حقاً ان الهوى الروحاني هو أقوى حب . أصبحت الآن أحب سلمى الزعفراني فوق كل حب وهي بعيدة عني ولا أعلم أين مقرها وماذا كان مصيرها . أصبحت أعبد طيفها ، أحب خيالها الذي يلوح في بالي، أتلذذ بذكرياتها الماضية . يا لله ما هذا الحب !

قال : وفريدة الآن أقرب اليك جداً وهي في منال يدك .

أجل : أما قلت ان الحب الروحاني أقوى من الحب الحيواني . لم تعد فريدة مركز حبي . لقد بعدت فريدة عني جداً بمكرها وخداعها . دعها للقضاء والقدر . وأنا مثلها للقضاء والقدر . كل منا في اتجاه خاص : مغنطيسان متدابران .

***

وافترقنا نعيم وأنا على هذا القرار .

الفصل الخامس

الثعالب

فيما كنت في البنك أستصدر حوالة مالية تعرفت بالموظف القائم بالأمر إذ تلطف معي جداً . ورأيته بعد ذلك يمر بالقهوة التي اعتدت الجلوس فيها فدعوته لفنجان قهوة . وصرنا بعد ذلك صديقين . وفي خلال الحديث شكوت له من سوء حالة المنزل الذي أنزل فيه مع إني أدفع أجرة حسنة . فقال لي : اذا شئت أن تسكن معنا فعندنا لك غرفة منفردة مستوفية جميع وسائل الراحة . فسررت من هذا الاقتراح قبلته شاكراً .

في المنزل أب مسن يدعى صديق الكرومي وزوجته وابنهما نسيم هذا وثلاث فتيات صغيرات . والظاهر أن السيد صديق تزوج متأخراً . فقد شاخ وأولاده لا يزالون صغاراً . وكان خياطاً . وقد قل عمله بسبب شيخوخته . ولذلك سُرَّت الأسرة بوجودي معها إذ أحمل شيئاً من عبء أجرة المنزل . وما لبثت أن أصبحت كواحد من الأسرة . واشتدت أواصر الصداقة بيني وبين نسيم وأهله .

وبعد حين من الزمن شعرت أن في البيت اضطراباً ولوائح غم ولفحات هم ، والسيدة عبلة زوجة الشيخ صديق تذرف دموعاً . فسألتها : ما الخبر يا سيدتي

قالت : أزمة لا أدري كيف تنفرج

قلت : لكل أزمة منفرج . فما هي أزمتك ؟

قالت : قرر الأطباء أن عند زوجي قرحة في فم المعدة ، ولا علاج لها إلا العملية العاجلة أو القبر ، وليس عندنا الخمسون جنيهاً أجرة الجراح وكراء المستشفى

قلت : طيبي نفساً وقري عيناً . الخمسون موجودة .

قالت : ألف شكر يا عزيزي . ولكن يجب أن نفكر بوفاء هذا الدين أيضاً .

قلت : هذا أمر غير عاجل . العاجل هو العملية . ولكي يكون بالك مرتاحاً أتقاضى هذا الدين على مهل أقساطاً زهيدة كل شهر من أجرة سكناي معكم

فكانت الأسرة في سرور عظيم لتفرج هذه الازمة . وبعد مدة النقاهة عاد السيد صديق الكرومي الى بيته سليماً معافىً شاكراً لله ولي .

وكان ثمت سر لا أفهمه وهو أن سليم الصافي أخا السيدة عبلة زوجة صديق تاجر أجواخ . وكان في امكانه أن يفرج غمة أخته وصهره . فلماذا لم يفعل ؟ لم أجد تفسيراً لهذا السر الا ما علمته من أن لسليم على صهره ديناً من ثمن أجواخ لم

يستطع صديق إيفاءها ، فلم يرد أن يضيف ديناً الى دين لم يوف . والأنانية حمته من تأنيب الضمير .

على أن ديني لم يوفَ ولم أصر على استيفائه لأني رأيت أن مورد صديق ضئيل وماهية ابنه نسيم من البنك ليست كافية أيضاً لسد عجز نفقات الأسرة . فبقيت أتجنب ذكر الدين لكيلا تنجرح عواطف الأسرة . وما زلت أدفع أجرة غرفتي .

***

وفي ذات يوم أعطيت نسيماً خمسين جنيهاً لكي يدفعها للبنك وديعة باسمي كالعادة ، لكيلا أضيع وقتاً في الذهاب الى البنك . وفي آخر الشهر ورد لي بيان البنك عن حسابي فيه وليس فيه ذكر للخمسين جنيهاً . فاستغربت الأمر ومضيت تواً الى البنك وسألت عنها الموكل في الأمر فقال . لم يرد المبلغ للبنك من أحد قط . قلت إذن نسيم تصرف به ولم يقل لي . أظن أن الطريقة المثلى لاستيفاء هذا المبلغ منه أن ألتمس من البنك أن يستقطع من ماهية نسيم قسطاً كل شهر .

فقال الموظف : البنك لا يستقطع قرشاً من ماهيته لحسابك وإنما يقطع رجله من الدخول الى البنك . فأنصح لك أن تسوي المسألة معه مباشرة من غير علم البنك لئلا تؤذيه ولا تنفع نفسك . وسأنصحه أنا أيضاً أن يتلافى الأذى لنفسه ولك .

لا تدع أحداً يعلم بشيء من هذا .

فقلت له أشكر لك نصحك لي وله . لا أريد أن يؤذى الفتى وهو يكاد يكون وحده عماد البيت .

***

ورجعت الى السيدة عبلة أم نسيم ورويت لها تفاصيل ما كان . فكادت تجن من الأسف ، وشرعت تحاول أن تقبل يدي استغفاراً لابنها . فطيبت خاطرها .

ولما سئل نسيم عن سبب جريمته هذه قال إن عليه ديناً اضطر أن يوفيه على أمل أن يرجو مني أن أحسب المبلغ ديناً عليه ويكتب لي صكاً به . وإنما كان يتحين الفرصة المناسبة لهذا الرجاء . فعذرته بعض العذر . ولكنني لم آخذ منه صكاً . وشعرت أني إذا أصررت على استيفاء المبلغ أرتكب جريمة ضد هذه الأسرة المسكينة ، فمحوت المبلغ من ذاكرتي بتاتاً ... كأني مسؤول عن مظالم الزمن للناس أو جور القدر على البشر

علمني أبي أن أحسن معاملة الناس لأن حسن المعاملة شرط للنجاح . ولكنه لم يعلمني أن أتجاوز حسن المعاملة الى التضحية . وها قد أحسنت بل تصدقت فجوزيت خساراً

لله من أحكام أدب النفس الخائبة

تحسن يساء اليك . إذن أسيء فيحسن اليك

والضمير ؟

الضمير الذي رباه الوالدان ؟ من يستطيع كم فمه

***

في ذات يوم بعد حين جاءني سليم الصافي أخو عبلة وخال نسيم الكرومي وقال ، أنت يا سيد يوسف شاب ذكي مثقف طيب القلب جداً كما نعرفك وكما يقول الناس عنك . فعلى مَ تضيع وقتك ومجهود شبابك في تجارة قليلة الربح وسخة متعبة ؟ اقترح عليك اقتراحاً نافعاً لك ولي . لقد اختبرت أنا تجارة الأجواخ . والربح فيها أضعاف أرباح البدالة (البقالة) . فاذا صفيت تجارتك وأضفت رأس مالك الى رأس مالي واشتغلنا معاً وجدت أرباحك مضاعفة .

وما زال يقنعني بهذه الشركة حتى اقتنعت واشتركنا .

وقد صدق حساب سليم ورأيت أن أرباحنا تتضاعف وسررت بحسن النتيجة . ولما ثقل الشغل علينا قال سليم : أظن أن ابن أختي نسيماً (الكرومي) يفيدنا جداً اذا استخدمناه كاتباً حاسباً . وهو متقلقل في البنك حيث أجره ضئيل . وفي الوقت نفسه يمكننا أن نستقطع من ماهيته الدين الذي لك عليه وعلى أبيه وقد طال عهده .

قلت لقد محوت ذلك الدين من دفتري ومن ذاكرتي . فلا تذكرني به . لا بأس أن نستخدم نسيماً وندفع له ماهيته كاملة محبحة لأن معظم عبء الأسرة واقع على كاهله .

***

مضى على شركتنا بضع سنين كانت ناجحة . ولكني كنت متمعضاً من شريكي سليم لأني كنت ألاحظ عليه تلاعبه أحياناً . وكان هو يتمعض أيضاً من ملاحظاتي . ولما لم يعد يحتملها طلب الي أن نحل شركتنا . فأجبته الى طلبه .

واقتسمنا البضاعة وسوينا الموازنة باقتسام النقد والديون . وبقي له عليّ دين نقدي . واتفق في ذلك الحين أن تاجراً اشترى مني شروة بقيمة ١١٦ جنيهاً بالنسيئة بصك (كمبيالة) . فكتب نسيم الصك حسب العادة ووقع عليه المدين . ثم حولت هذا الصك الى سليم الشريك المنفصل من قيمة ما بقي له من الدين عليّ . انفصلنا على وفاق وبقينا صديقين .

وما لبث نسيم أن انفصل عني وانحاز الى خاله .

ورام سليم أن يوسع تجارته فاشترى واستدان . وفي ذات يوم التمس مني أن أضمنه في دين بقيمة ألف وخمسمائة جنيه . فلم أتردد في ضمانته لأني لم أر في معاملته لي ما جعلني أوجس منه .

***

-ولما استحقت الكمبيالة على ذلك المدين بقيمة ١١٦ جنيهاً فاذا البنك يطالبه بألف

ومائة وستة عشر جنيهاً (١١١٦) فجن الرجل لما رأى الكمبيالة ناطقة بهذه القيمة وهو قد وقع عليها بقيمة ١١٦ فما كان منه إلا أن أبلغ النيابة حالاً بتهمة التزوير. وما كان من النيابة إلا أن قبضت علي. ولما استجوبني وكيل النيابة قلت أن المبلغ بقيمة ١١٦ جنيهاً فقط. ولا أدري كيف حصل التزوير. وأما سليم فادعى أني حسبت الكمبيالة عليه بقيمة ١١١٦ كما قبضها من البنك. وأظهر في دفاتره بيان الحساب الذي نسوى بيننا وفيه قيد الكمبيالة بهذه القيمة، فظهر للنيابة أن التزوير حدث عندي على الرغم من اعترافي بالمبلغ الحقيقي وبإنكاري أني لم أسدد لسليم إلا ١١٦ جنيهاً فقط وأن الألف تسددت بضاعة. وكان الخطأ مني إني وثقت بأمانة سليم واستقامته. ولم آخذ منه «مخالصة» بيننا تنص على ما أعطى وما أخذ.

فسلامة نيتي وثقتي بسليم زجا بي في السجن.

وفيما كنت في السجن أساوم محامياً للدفاع عني كان سليم يبدد بضاعته ويهرب ماله ويرتب دفاتره. ولما استحق الدين الآخر الذي ضمنته عليه لم يكن له ما يوفي فعاد الدائن إلي.

وبواسطة دفاع المحامي خرجت من السجن بكفالة مالية ووجدت نفسي في حالة إفلاس. فقدمت دفاتري للمحكمة.

وأخيراً أثبت التحقيق أن الكمبيالة المزورة كانت بخط نسيم ابن أخت سليم وان الألف التي أضيفت إليها كانت بخطه أيضاً. ولكن مع من تواطأ نسيم هذا؟ أمع خاله أم معي؟ بقي هذا سراً للقضاء. فحكم القاضي على نسيم بالجريمة وبرأ خاله. وحكم علي بدفع المبلغ كله. ولولا اعترافي بالصدق أي أن أصل الكمبيالة ١١٦ فقط وظهور حسن نيتي وبراعة المحامي لبقيت في السجن بضع سنين.

هذا كان جزاء طيبتي وحسن نيتي وخدمتي للانسانية وعطفي على آل الكرومي. فما أصدق القول «اتق شر من أحسنت إليه»

ولما نظر القاضي في قضية تفليستي وبسطت له جميع ملابساتها ووجد أن ما عندي من المال والبضاعة يغطي الدين الذي علي قال في حكمه: «لم أجد في مدة قاضويتي تفليسة أشرف من هذه التفليسة»

وخرجت من المحكمة وليس عندي من رأس المال غير هذه الشهادة الثمينة من القاضي العادل. وهي حسبي والله نعم الوكيل يوم الدين.

ولما حدثت هذه الخيانات خرجت من بيت الكرومي مشفقاً على أولئك الصغيرات، واستأجرت منزلاً صغيراً ووضعت فيه الأثاث الضروري واستقللت في سكناي

وبعد تصفية تجارتي وإيفاء المطلوب مني بحسب القانون بقي معي من النقد قدر

زهيد أستعين به ريثما أتوفق الى تدبير آخر لمرتزقي .

***

لاح لي أن أبي كان مخطئاً يوم علمني أن الاحسان للناس خير سبيل الى السعادة، لأن فيه سلاماً للضمير، وسروراً للنفس ليس بعدها سرور . وأنا لم أجد فيهما إلا خسراناً واساءة لي

وقد تعلمت من معاملة سليم الصافي وابن أخته نسيم الكرومي أن الناس متى عثروا على شخص طيب القلب حيّ الضمير اكتشفوا لقطة يسهل عليهم استغلالها وهضمها بلا عناء . فالرجل الرجل هو الذي يغنم الفرص ليكون هاضماً لا مهضوماً . وميت الضمير يلتهم الضمير الحي . والطالح حلَمٌ يعيش على دم الصالح . والخبيث خطر ينبت على الثمرة الشهية ليتغذى بها .

لماذا لا أكون حلَماً أو خطراً فاستغلَّ خير غيري . ولكن كيف أستطيع أن أفعل وسيف الضمير مسلول فوق عنقي ؟

الفصل السادس

الانسان الضاري

بعد ان خرجت من المحكمة عكفت مساء الى إيوان فندق الكونتننتال حيث اعتدت أن أجلس في بعض الأحيان مع بعض الأصحاب لكأس من الشاي أو القهوة ، وجلست وحدي في زاوية بعيدة عنها أحاسب نفسي على ماضيَّ .

عند ذلك جاءني صديق حميم هو الأستاذ صلاح عادل المدرس في كلية الحقوق وجلس معي وهنأني ببراءتي وعزاني بخسراني ووعدني لو يستطيع أن يساعدني بشيء . فشكرت له عطفه وقلت : ناهزت الاربعين من العمر . ولكني كنت أحس أني مقارب الشيخوخة لأن النكبات التي مرَّت بي منذ الصبا الى هذا الحين أهرمتني : اخفاق في الحب لم يخفقه قيس ليلى .

خيبة في الصداقة لم يخبها يوسف الصديق في اخوته .

والخداعُ في أمانة الصحاب لم ينخدعها المسيح في أمانة يهوذا .

أحببت بكل جوارحي فكوفئت بخيانة
صادقت وصدقت فخُدعت .
أحسنت فأُذيتُ .
وآسيت فأُلمت .
تصدَّقت فنُهبت .
عطفت فقسي عليَّ .

ترى ماذا أسأت حتى كوفئت هذه المكافآت الرديئة ؟

أجل كسرت قلب فتاة أحبتني وأحببتها في عهد الصبا تدعى سلمى الزعفراني ، أيمكن أن تكون هذه النكبات عقاباً لي لأني خيبت أمل سلمى ؟ ....

ولكني لم أعد سلمى أي وعد حتى أقول إني أخلفت لها وعداً أو نكثت لها بوعد .

هذا عالم لا يعيش فيه الصديق والأمين أو المخلص . ان الذين نفعتهم من التجار وغير التجار والأصدقاء لم أرَ واحداً منهم يؤاسيني في نكبتي ، لئلا يضطروا أن يعرضوا عليَّ مساعدة . ولعلُّ كثيرين منهم ما زالوا يظنون أني مرتكب جريمة التزوير ، وإني ما نجوت إلاَّ بمهارة المحامي . ولعلَّ بعضهم كانوا يتسلون في أحاديثهم بتفاصيل قصتي ويزخرفونها بأباطيلهم .

وكان صديقي صلاح يسمع رثائي لنفسي مطرقاً من شدة تأثره واشفاقه عليَّ . ولما سكت متنهداً رفع نظره اليَّ وقال : —

لقد روى لي الأستاذ حلمي محاميك قصة تفليسك ، وهو آسف جداً للحيف الذي وقع عليك فجئتك لا لكي أواسيك لأنك لم تخسر في قضيتك إلاَّ المال . والمال في

منال يدك تحصله بقليل عناء . وإنما جئتك لكي أهنئك بالشرف الذي منحكه القضاء البشري . وما كانت شيمة القضاء البشري أن تمنح شرفاً لأحد . بل القضاء يحكم على المجرم بعقوبته ويتفضل على البريء بالاقرار ببراءته — قطعت الألسنة التي تشمت بك ياعزيزي، ماهي إلاّ ألسنة الأفاعي تقطر سمّاً

فقلت : لم أرَ يا أخي إلاّ ألسنة تقطر عسلاً . ولم أدر ان في العسل سمّاً إلاّ اليوم . لأني كنت معوّلاً على الآية الانسانية القائلة : « ظن بالناس خيراً الى أن يبدو لك منهم شرٌ » .

فهزّ رأسه وقال : أنا أنصح لك يا أخي أن تعكس هذه الآية التي تظنها انسانية وما هي إلاّ شيطانية . ظنّ بالناس شرّاً الى أن يثبت لك الخير منهم . إنك ترى نفسك على الأرض بين أناس من الانس تظنهم انسانيين وما هم بإنس انسانيين . ليس على الأرض إلاّ فيالق من الجن الشياطين يعيثون في الأرض فساداً ، وأسراب من الملائكة الأبرار يفرّون من أمامهم الى الكهوف لتختبئهم والى الأدغال يستخفون فيها. وأما فوق الأرض فلا ملائكة ولا تحت الأرض أبالسة . وما الأبالسة إلاّ هؤلاء الذين تراهم على سطح الأرض بشراً وما هم بشرٌ. ما زالوا كما نشأوا حيوانات تتنازع البقاء .

فقلت : إني أستغرب قولك هذا وأنا أعتقد ما علمته من أقوال الحكماء والكتاب أن تنازع البقاء الشائع بين البهم في المملكة الحيوانية تحوّل الى تعاون وتكافل للبقاء والارتقاء في المملكة الانسانية . وبه تفوّق الانسان على الحيوان

فقال ضاحكاً : أجل هذه سنة التطور التي تسمى أحياناً سنة الارتقاء . فلا يخفى عليك أن هذه السنّة قلما تكون نقضاً للموجود ، بل يغلب أن تكون إضافة الى الموجود . إن للحشرة جهازاً هضمياً ، وللزحافة جهازاً هضمياً ، وللانسان هذا الجهاز أيضاً . ولكن الزحافة أضافت الى جهازها الهضمي هيكلاً عظمياً وجهازاً عصبياً، والانسان أضاف الى هذه الأجهزة كلها جهازاً دماغياً عقلياً أيضاً . أعني انه لما ارتقى الانسان الى هذا الحد لم يتخلَّ عن جهاز الحشرة الهضمي، ولا عن هيكل الزحافة العظمي، ولا عن جهاز البهيمة العصبي، بل أضاف الى كل هذه دماغاً يعقل .

وهكذا لما ارتقى الانسان لم يتخلَّ عن بطش الوحش الضاري، ولا عن فتك الذئب، ولا عن خبث الصل ، ولا عن مكر الثعلب، ولا عن لؤم ابن آوى ، ولا عن خساسة الخنفسة، ورثاء الحرباء، ونفاق الرتيلاء، وغدر الهرة ، الى ما هنالك من رذائل الحيوانات. فهذا الحيوان الذي تسميه بشراً راقياً ، لم يغير تطوره طباع حيوانيته بل لوّنها بألوان البشرية ، وطلاها بطلاء الانسانية . تحت هذه الانسانية التي تغرك بجمالها وطهارتها،

تكمن طباع البهيمية الرذيلة ، حتى إذا تهيج الطبع الحيواني برزت تلك الأخلاق الشريرة ، فلا تؤمن يا عزيزي لمحاسنة الناس ومجاملاتهم وودهم وكرمهم لأنهم مازالوا حيوانات ضواري .

فتعجبت من كلام صاحبي هذا وقلت : ولكنك يا عزيزي سهوت عن الاخلاق . الانسان ارتقى جداً عن الحيوان ، ليس بجهازه العصبي الدماغي العقلي فقط ، بل بأخلاق بنيت بها المدنية الحاضرة . فهل تستطيع أن تتصور مدنية بلا اخلاق . وما معنى التطور إذا لم يترق البشر في الأخلاق والطباع ، كما نموا في الأبدان ، وتطوروا في الأدمغة ، وارتقوا الى أعلى عليين في العقول . ومن أين جاءت لهذا الانسان الذي لانزال نحسبه حيواناً ضارياً ، أخلاق المحبة والرحمة والرفق والعدل والأنظمة السياسية والقضائية والقوانين الخ .

قال ضاحكاً : لقد فكرتني بأغرب نوع من أنواع المكر الانساني الذي يتفوق به الانسان على كل مكر حيواني . هذه القوانين التي تستنصر بها ، هي أبلغ أنواع المكر . ما لزوم هذه القوانين التي يتبجح بها الانسان ، ويتعالى على الحيوان الأعجم إذا كانت الأخلاق قد ارتقت الى المحبة والرحمة والرفق والعدل . أليست هذه القوانين والمحاكم والقضاء والاحكام شهادة ناطقة صادقة على أن الانسان شرير الطبع لا يزال متخلقاً بأخلاق الثعلب المكار ، والصل الخبيث ، والخنفسة الخسيسة ، والحرباء المرائية الخ ، وقد زعم انه اخترع القضاء والقوانين لكي يتلافى هذه الشرور .

قلت : إذاً في خلق الانسان ميل الى تلافي الشرور ، ولذلك اخترع القضاء والقوانين لتلافيها .

فقهقه وقال : وهل تلافاها ؟ أم زادها شراً على شر ؟ هل ترى في القوانين انصافاً وفي القضاء عدالة ؟ . هل أنصفت القوانين الضعفاء من الاقوياء ؟ . هل جعلت بؤس المعدم يقف ليصد بطر الثري ؟ ألا تحكم المحكمة عليك بالحبس إذا اختلست قرشاً وبغرامة قروش إذ جرحت شخصاً جرحاً بليغاً . كأن المال المسروق أعز جداً من البدن المجروح . وهل هذه القوانين فرقت العدالة على الناس بالسواء ؟ أليس بين الناس تفاوت في التمتع بالعدالة ؟ فاذاً هذا القضاء وهذه القوانين لم تتلاف شرور البشر ، ولم تكبح جماح الطباع الحيوانية التي لا تزال مصاحبتهم من عهد الفهد الشرس ، والذئب الفاتك ، والثعلب اللئيم ، والصل الخبيث الخ . الانسان يا صاحبي حيوان ضار عاقل ، وعقله رقى ضراوته ، وعظم خبثه ، ومكره ولؤمه ، وقوى بطشه وفتكه .

فقلت : انك يا صاحبي تجعلني أمقت هذا الانسان وأهرب منه . ولكن الى أين ؟

قال : تهرب الى الحذر والايجاس منه .

لا تظن أن ما تسميه تطوراً نسخ من هيكل الانسان صورة الحيوانية الشريرة، أو لطف جوهر البهيمية المفترسة . بل بالأحرى تطورت فيه هذه الحيوانية أيضاً ، فتطور المكر الى نفاق، وتطوّرت الحيلة الى دهاء، وتطورت الشراسة الى فظاعة ، وتطورت القوّة الى ظلم ، وتطوّر الميل الى جشع، والشوق الى نهم ، والحب الى شهوة . فما تسميه ارتقاء في الإنسان إنما هو ارتقاء في الحيوانية والبهيمية أيضاً، ارتقاء في الشراسة ارتقاء في التنكيل والتفظيع . أجل لا يزال هذا الإنسان حيواناً . فاعلم أنك تعامل حيوانات، نعم حيوانات تعامل . والحيوانات ضربان : ضوار وأنعام . وذئاب وأغنام . وأفاع وحمام. فان كنت غنمة كنت غنيمة للذئاب ، أو حمامة كنت فريسة للثعالب والأفاعي ... لقد كنت يا عزيزي غزالاً نشيطاً سريع الجري . فلما غفلت انقضت عليك الأسود والذئاب وجعلت تنهشك ، لا أقول لك كن ذئباً لكي تنهش وتشبع ، أو أسداً لكي تفتك وتتخم ، وانما أقول لك ابق غزالاً نشيطاً لكن يقظاً . ولا بأس أن تكون حمامة وديعة . ولكن حاذر أن تغمض عينك عن الأفاعي والثعالب لئلاّ تسطو عليك فتفترسك .

لا تكن نعجة ساذجة، وإلاّ فالضواري لك بالمرصاد . وإنما كن جاموساً مستعداً للنطاح اذا سطت عليك الأسود والنمرة

إعلم يا عزيزي أن أولئك الضواري لا يقصدون الى الأفيال ذوات الخراطيم التي تصفع وتصرع ، ولا الى الجواميس ذوات القرون التي تبقر البطون ، بل يقصدون الى الأغنام الصالحة ، والأنعام المسالمة، لكي يفتكوا بها .

كلما ظهرت منك طيبة القلب أغرت هؤلاء الأشرار الخبثاء أن يحوموا حولك ليقتنصوك . فلا تبالغ في الطيبة. ولا تغالِ في التسامح لئلاّ تكون فريسة للطامعين الغاصبين . فإن تسامحك مع آل الكروي أطمع نسيبهم سليم الصافي أن يغدر بك .

لا تعتمد على القوانين في الحرص على نفسك ورزقك ، فهي أوراق صماء عمياء، لا قوّة لها بنفسها لكي تحميك . ولا تعتمد على منفذي القوانين ، فما هم إلاّ من طينة هؤلاء البشر الضواري الذين حذرتك منهم .

الفصل السابع

من عالم الغيب

وكنا قد جلسنا في الصف المشرف على الطريق في الكونتيننتال كعادتنا نشاهد السابلة . وما هي إلاّ دقائق حتى ألفتت نظرنا سيدة برزت من باب الفندق المظلم ، يمكن أن تخاطب بلفظ « سموّك » إذا لم تخاطب « بذات الجلالة » لم يشاهد في الشرق مثل ذلك السموّ الأرستوقراطي . وافت تتهادى بحلتها السندسية الأنيقة كالطاووس في إبّان تنفشه . وفي أذنها وعنقها وأصابعها من الجواهر ما يموّل مصرفاً (بنكاً) . وفي محجريها مقلتان تتدفقان أشعة تخترق الصدور وتبهر العيون ، وثغرها يومض بروقاً تخطف الأبصار .

جلست على كرسي فخم أنيق كأنه معدٌّ خصيصاً لها . ثم أطافت نظرها في المكان ورمت ببصرها الى الميدان . واستوقف ناظريها مجتمعُنا ، ونحن مأخوذان بتلك الأشعة السماوية لا نستطيع أن نرد بصرنا عنها ، كأنَّ أشعة مقلتيها أسلاك ذهبية اشتبكت بأحداقنا واعتقلتها . وأوسعتنا تحديقاً إذ لاحظت انبهارنا . وحملقت قليلاً ، فارتدَّت أبصارنا مسحورة

لم يمكننا أن نحكم في أية سنّ هي . فقد تكون كاعباً ، أو صبية ، أو في شرخ الشباب الناضج ، أو أول الكهولة .

بعد دقائق أقبلت عليها من باب الفندق فتاة أخرى لا ندري أملاكٌ هي أم إنسٌ . سبحان من أبدع . ليس لقلم قدرة على وصف ذلك الجمال الروحاني . تقدمت إليها ووضعت كفها على كتفها وجعلت تكلمها همساً . ترى هل هما شقيقتان ؟ أم الثانية بنت الأولى ؟ الله أعلم .

هي دقيقة وإذا بسيارة ضخمة عظيمة القدر قد وقفت أمام سلم الفندق . فألفتت الأنظار واستوقفت المارّة للتفرّج عليها ، لأنه لم يوجد في مصر في ذلك الزمان سيارات إلاّ لسموّ أمير البلاد ، ولقليل من الأمراء والكبراء ، لأن اختراع السيارة كان ابن ذلك العهد . ومشت المرأتان الى السلم ، فتناول يديهما حوذيان وأنزلاهما الى السيارة فصعدتا إليها واستوتا فيها شمسين في أفق واحد . وكان ذلك من شواذّ الطبيعة . ودرجت السيارة تستوقف المارة الى أن توارت .

وبقينا نحن برهة نتحدَّث في ذلك الجلال البهيّ . من أي ملكوت هي (أوهما) ؟ أإنكليزية ، أو أميركانية ، أم أفرنسية ... أي نوع انساني . رجح لنا أنهما أميركيتان ، لأن هذا الترف الباذخ نادرٌ في غير الأميركانيات الثريّات .

* * *

لجأت في تلك الليلة الى سريري وذانك الاقنوانان السماويان لا يبرحان من مخيلتي. هل نبض حبٌ جديد في قلبي ؟ هل تعشق الارضُ الشمسَ ؟ لا بل تعبدها لأن لها منها الحياة .

أما تبتَ عن الحب يا هذا ؟ هل أتعرّض لحبيبة أخرى في بقية الحياة؟ وهل بقي من الحياة ما يسع حبًا .

وكان حديث صديقي صلاح لا يزال يتردّد في ضميري، حتى خُيّل لي أن هذا العالم المسمى ملكوت الانسان ما هو إلاّ مملكة الشيطان أو مستعمرته . لو وقعت عظة صلاح في نفسي موقع القنبلة في البيت لدكتها . شرعت نظريتي في البشر تتغير ، وفي العدالة تتعدّل، وفي الأخلاق تتطوّر .

آه . ليت الشباب يعود .. لعلي أصلح أغلاطي، وأجدّد كفاحي، وأرمي بهِ الى الفلاح، حسب عظة صلاح .

* * *

في المساء التالي رأيتني ماضياً الى ايوان الكنتيننتال بقوة لا تقاوَم . لا أدري من أي جوّ نزلت عليّ تلك القوة فساقتني رغم أنفي الى ذلك الفندق لأني لم أعد في حالة تسمح لي بالتمتع بلذة الحياة ، ما دام القلب مفعماً غمًّا، والصدر مطبقاً همًّا.

جلست في موضعي المعتاد ، وكأنّ أجفاني معقودة بأسلاك متصلة تارة بذلك الكرسي، وتارة بباب الفندق الواسع الذي بدت الملكة منه أمس .

يا لله ! ما أعجب عجائبك يا ربُّ ، لأول نظرة في ذلك الباب الرحيب ، بدت ذات الجلالة تتهادى بثوب أبيض ناصع، لا أدري من أي نسيج هو، لا ديباجة فيه سوى عنمةٍ منمقة من البياض أيضاً . بدت كأن الشمس أطلت في كبد السماء من بين الغيوم فقشعت السحب من حولها ، وكأنّ الجلد كله ظهر بياض نهار لا تغشاه نطفة من غمام .

وتقدمت وجلست على كرسيها يسند ظهرها ظهرُهُ المخملي المائل الى الوراء . وشرعت الأحجار النفيسة تتألق في أصابعها وأذنيها وعنقها وتاج شعرها .

وأرسلت أبصارها الهوينا هنا وهناك، تستكشف الجلاّس، وتتبين حركات الناس ، وما وقع نظرها في ناحيتي بل تجاوزها . ولماذا تختصني بنظرة بين عشرات الناس ومئاتهم وألوفهم . حقًا إني لغريرٌ بأن أفكر بصلةٍ بيني وبينها سوى صلة الجوّ يحوينا كما يحوي جميع الناس .

سبحانك اللهمّ الحاجب أسرار الكون، والمغلق غوامض العالم . ما هي إلاّ هنيهات حتى تقدّم اليّ الساقي (الجرصون) وقال : « تلك السيدة الجالسة وحدها في اليمين تدعوك اليها »

فحملقت فيه وقلت : أنت غلطان، ليس اياي من هي تدعو .

قال : « بل أنت هو . لقد أرشدتني اليك بصراحة ووضوح .

— من هي ؟

— لا أعرف عنها شيئاً سوى أنها سائحة عظيمة . ربما كانت أميركية .

— قل لها أن تأتي الى هنا ان كانت في حاجة اليّ .

فتردد الساقي وقال : لا أظن أحداً في الدنيا يجاوب هكذا على رجاء سيدة عظيمة كهذه حتى ولو كان ملكاً . لقد أبلغتك الرسالة وأنت حرٌّ فيما تفعل.

وانثنى الساقي في سبيله، وتقدمت اليها وانحنيت لديها . فبسطت يدها مرتفعةً . فما شعرت إلاّ رأسي ينقض على تلك اليد العاجية وفمي ينهب قبلة من سلامية تلك الكف وهي في كفي. وقلت بالانكليزية : إني في خدمتك يا مولاتي إن كان الساقي لم يخطىء في استدعائي اليك .

فأجابت بالانكليزية الفصحى. لم يخطىء، إياك دعوت . تفضل اقعد

وأشارت الى الكرسي المقابل لها والخوان بيننا . فقعدت . وقالت باسمة : لماذا كنت أمس واليوم تحدق فيَّ بلا انقطاع؟

قلت: كيف عرفتِ أني كنت محدقاً فيك؟

قالت : رأيتك كذلك

قلت : اذاً كنت تنظرين فيَّ بلا انقطاع فلماذا ؟

قالت بابتسامة ساطعة وبخيلاء : تحديقك بي ألفت نظري فوددت أن أتبين غايتك .

— حسنٌ . فماذا تبينت من غايتي ؟

— بقيت غايتك سراً لي. فلماذا لا ترد نظرك عني .

— عجباً . أما طاف نظرك على جانبيك فرأيت كل الأحداق من حولك تمنطقك . فلماذا تخصينني وحدي بهذا السؤال ؟ وهل للشمس أن تقول للسيارات لماذا توجهنَ أبصاركنَّ اليَّ ؟

فتبسمت ابتسامة لمعت كوميض برق وقالت : وما شأن الناس بي حتى إذا جلست برهة هنا امتلأ المكان جلاّساً .

قلت : للهِ درك يا سيدتي. وهل يستطيع الجلاّس أن يفلتوا من حبائل هذا البهاء المغنطيسي ؟ هل يقدر السيار أن يخرج من منطقة الجاذبية ؟

فقهقهت قهقهة لطيفة وقالت : أظنك بين السيارات زُحل .

قلت : ما الذي أظطنك هكذا؟

قالت ضاحكة: لأن أكاليلكَ النورانية تستهوي الراصدين .

قلت : ليتني كنت عطارداً لكي أكون أقرب السيارات الى الشمس .

قالت: فولكان أقربها . أفلا تتمنى أن تكونه .

قلت : ألا خوف من الاحتراق في مكان فولكان .

قالت : احترق فولكان وانتهى أمره وصار جمرة

فتجرأت وقلت : وأنا قد احترقت وصرت جمرة حب.

قالت: أظنك جمرة حب أوشكت تنطفىء

وازددت جرأة وقلت : إذا نفخت فيها نسمة حياة أذكيتها إذ لم تزل فيها بقية من حياة الحب غير قليلة .

قالت: أتتوقع مني نسمة حياة أم دمعة حب؟

قلت : منكِ النسمة ومني الدمعة .

قالت : وهل عندك دموع ؟

قلت : أليست لي عينان بغدتين دمعيتين

فحملقت فيَّ وقالت : أحقيقي أن لك عينين تدمعان .

قلت : كيف لا ؟ ألست في موكب العشاق أحمل العَلم ؟

قالت : إنك مدينٌ لي بعشر دمعات . فلماذا لا توفيها إذن ؟

فحملقت فيها مندهشاً وقلت : متى كان هذا وأين ؟

قالت ضاحكة : أتنكر الدين هرباً من الوفاء . أم أن دمعك فاض، أو أن غدده جفت ؟ هل بكيت في حياتك ؟

وكنت أنعم النظر عسى أن أتوسم فيها سحنة كنت أعرفها فغيرها الزمان. وقلت: البكاء ليس شيمة الرجال يا سيدتي .

— إذن تصرُّ على عدم ايفاء الدمعات.

— كلاَّ . لا أصر ، وإنما يظهر لي أنك تبغين أن تمنحيني عشر لوحات لكي تتقاضي مني عشر دمعات بدلها .

لا أظلمك يا سيدي. تطبق الآية الذهبية: «كما تريدون أن يفعل الناس بكم فافعلوا أنتم بهم هكذا أيضاً».

اشتدت حيرتي بهذه المرأة إذ لم يخطر لي أني رأيت في حياتي امرأة أجنبية تكلمني بالانكليزية الفصحى قبل هذه . فقلت : لعلك يا سيدتي مخطئة . فما غريمك أنا .

فقهقهت ونطقت بالعربية : لست مخطئة البتة . إني أكلم السيد يوسف المنَّابي .

فلما رنت في أذني اللهجة اللبنانية حملقت فيها وتوسمت السحنة القديمة من خلال ذلك البهاء . وقلت : سلمى ؟ .... الزعفراني ؟ أحقيقة أرى أم حلماً .

فقالت : بل حقيقة سلمى ترى ، عقيلة توم ستنفورد ملك الكوتشوك في الولايات المتحدة الأميركية ، صاحب مئتي مصنع للمطاط على اختلاف مصنوعاته .

فأجفلت وقلت . إذن لم يخطىء ظني إني في حضرة ملكة الآن . فعذراً ومغفرة لما يمكن أن أكون قد ارتكبت من سوء السلوك .

قالت : لقد تركت عرش المملكة الى حين وجئت الى الشرق لأجل معين. وسنبرح قريباً الى لبنان . أفما أنت ماضٍ الى هناك لصيفيةٍ .

— قد أمضي .

عند ذلك أقبلت الفتاة الصغيرة فعرّفتني بها قائلة « مس دورا ستنفورد ابنتي » . ثم عرّفتها بي : — « المستر يوسف العنابي صديق قديم » اسبقيني الى السيارة يا عزيزتي

فمضت الفتاة وقلت لسلمى : ألا تمهلين هذا الملاك ريثما نتبرّك به هنيهة ؟

فقالت : أتريد أن تستذرف منها أدمعاً كما استذرفت من أمها، إنها غصنٌ رطيب. أتستحل أن تهصره ؟

فقلت هل يمكن العود الصلب وهو عند جذع الدوحة أن يقرب من الغصن النضير في أعلاها يا سيدتي . قُطعت اليد قبل أن تهصره ! لو كنتُ فنناً لدناً وارفاً لكنت أظلل هذا الغصن النضير بأوراقي لكيلا تلفحه حرارة الشمس : آه . ليت الشبابَ يعود.

فقالت : ليتك كنت فنناً .هل تنفع ليت ؟

فقلت : لقد انقضى عهد نضارتي ياعزيزتي ولكن عهد نضارتك طال، فما أغرب أسرار هذا القدر بالله كيف عرفتني وخفيت عني ؟

فضحكت وقالت : عرفتُ كل شيء عنك . وأنتَ لاتدري ، إني عينتُ ملاكاً يرعاك ويتسقط أخبارك .

فقال : أحقيق أنك عرفت بسقوطي أيضاً .

فقالت مثلك لايسقط . إسمح لي الآن، فإن ابنتي تستبطئني في السيارة ، يجب أن نلتقي في لبنان .

* * *

عدت في ذلك المساء الى منزلي الصغير أترنح من نشوةٍ لم أستطع تفسيرها .هذه امرأة كانت عشيرتي في أيام الصبا ، عشرة جيرة غير قصيرة . كنت أعطف عليها ولم أدر أنها كانت مدلّهة بي إلاّ حين قضى القدر أن ترحل الى أميركا . لم أدر أنها مدلهة لأن تربية الحشمة في ذلك الجيل وفي ذلك العهد كانت تغلق قلبها على سرّ حبها . ولما فوجئت بالفراق انفضّ ختم ذلك القلب فباحت بذلك الحب .

ذهبَتْ الى أميركا فحوّلت البيئة مجرى حياتها . فبدلاً من أن تكون زوجة يوسف العنابي البدّال صارت زوجة توم ستنفورد ملك المطاط المليوني ، تبذخ وتترف وتبطر أكثر من ملكة . وقد منحها الله بدائع الجمال وروائع الجلال . فما شأني بها، وما مطمعي منها ؟ ولماذا تتصباني اليوم وهي ذات بعل عظيم الشأن ؟ ألعلّ الحب الجديد لم يطمس الحب القديم ؟ ولماذا أصبو إليها وأنا متدحرج الى هاوية الهوان ؟

ويحي ان هذه المرأة تضرم نار وجدي من جديد لكي تتلهى بولوعي وتستوفي حقها من دموعي . لعلها تهيج الغرام بي لكي تتمكن من الانتقام . لا أستطيع أن

أنكر عليها هذا الحق ولا أستطيع أن أمنعه عنها .

آه ! ليت الشباب يعود .

في الصباح التالي تناولت من البريد رسالة ففضضتها فإذا هي منطوية على حوالة منها بألف جنيه، وعلى كلمتين مختصرتين أيضاً تقول فيهما أنها تقدم هذه القيمة الزهيدة إذ لعلي في حاجة إليها الآن . فلا ينبغي أن أشعر باحتياج . الى اللقاء .

قضيت توًّا بالحوالة الى الفندق لكي أردَّها لها فقيل لي أنها وبنتها برحتا الى الأقصر . فبعثت بالحوالة إليها مع كلمة شكر بليغة لفحتها نسمة حب .

وعدت الى منزلي شاعراً بتوعك فجنحت الى سريري على نية أن أتجنب في اليوم التالي حضور « المزاد » المؤلم في متجري حيث يتناهب التجار بضاعتي استيفاءً لديونهم .

* * *

في اليوم التالي ما إن ارتفعت الشمس عن رأد الضحى حتى دخلت على مخدعي سعادُ بنت صدّيق الكرومي الكبرى وهي في نحو الثالثة عشرة من العمر وارتمت على سريري عند قدميَّ باكية بكاءً مرًّا . فأجفلت وقلت : ماذا بك يا سعاد ؟ هل من خدمة لكم فأقضيها إن كنت أستطيعها ؟

قالت وهي لا تزال تشهق : نعم يا سيدي يوسف . تقبلني خادمة عندك من غير أجر .

قلت : لا تصلحين خادمةً يا بنيتي . وعندي حسن البربري كافٍ لخدمتي . وقد لا أحتاج له لأني شاعر بمقدم مرض يقتضي مضيُّ الى المستشفى .

قالت : لقد وقفت نفسي أمةً لك مدة حياتي، سواءً في المستشفى أو بعد عودتك منه . لأني لم أعد أطيق الإقامة في بيت كنتَ فيه كريماً فخرجتَ منه مكلوم النفس . ولم أرَ ملجأً لي إلاّ العبودية لك . لم تغمض لي عين منذ فهمت جيداً ما كان من أمر ذويَّ لك . فرحماك لا تصدَّني .

فقلت : سمعاً يا بنيتي سعاد . لم أبقَ أنا ذلك الانسان الذي تعهدينه كريماً . لقد علمني صديقي الفيلسوف أمس أن الإنسان حيوان ضار . فأنا اليوم ذئب أو أفعوان . فلا تقربي اليَّ

فقالت : لا تستطيع يا سيدي أن تغير طبعك الكريم لأن معلمتي علمتني أمس أن من شبَّ على خلق شاب عليه .

فقلت : أنت الآن ملاك طاهر، وما أنا بقديس، فلا تجربي شهواتي الحيوانية . عودي الى أهلك . وقد غفرت لأخيك وخالك منذ كنت كريماً قبل أن صرت حيواناً ضارياً .

قالت : لن أعود الى الجحيم، لأن الذئب والأفعوان اللذين تدَّعيهما صارا عندي ملاكيْ رحمة لي . لقد أخذت من محفظة خالي وهو نائم هذه الورقة بمائة جنيه لكي

أوفي بها بعض ما لك علينا من الفضل .

فصحت بها : ويحك : أمالخالك تسرقين ؟

فقالت كلا . بل هذا بعض مالك ، فخذه واجعلني أنا بعض مالك الآخر .

فقلت : عني يا فتاة . ردي الورقة لخالك . عودي حالاً . والجئي الى دير اذا شئت الهرب من جهنم .

ونهضت من سريري وقذفت بها وبورقتها معها من الباب .

وما هي إلا بعض الساعة حتى دخلت عليّ عيلة أم سعاد وارتمت عند قدميّ ناحبة

فقلت : لماذا جئتني يا امرأة ؟

قالت : جئت لكي تلطمني بنعلك لطمات متوالية الى أن تقضي عليّ . فقد كنتُ من أسباب آلامك .

قلت : أتريدين مني أن أسامح نسيماً ابنك ، وان أتوسل الى القضاء ان يعفو عنه فقد سامحته حين أساء . وأما القضاء فلا يقبل شفاعة .

فقالت وهي لا تزال تجهش : إن ثقتي العظمى بطيبة قلبك أرسلتني اليك لكي أرجو منك ان تتدارك سقوط سعاد في يد القضاء برد ورقة المائة جنيه التي أخذتها من محفظة خالها وقدمتها لك ، وهي كانت تظن أن خالها يتسامح ويغضّ النظر عنها فاذا هو يهددها باستدعاء الشرطي . فبربك تكرم بالورقة وخذ بدلها سعاد خادمة لك .

فقلت : لقد رفضت سعاد وورقتها وطردتها من منزلي الذي أصبح مربض وحش ضار . فعودي يا سيدتي مطمئنة على مال أخيك وعرض بنتك . إني مريض الآن وربما صار مصيري غداً الى المستشفى وبعده الى قضاء الله .

ومضت المرأة آسفةً شاكرة داعية .

الفصل الثامن

الملاك الحارس

انتصف الليل وأنا أتقلّب على وثير الفراش ، بل على أشواك الغم . وقد أطبقت على صدري أطواد الهم من الجانبين الى أن صدّتها سنةُ الكرى فنمت غراراً . ولا أدري متى صحوت ، فبما أنا أردد بيتاً من الشعر إعجاباً به نظمته في حلمي ، فرمت ان أكتبه لئلاّ أنساه .

الى يمين سريري مكتب صغير عليه ورق وأقلام . فتلمست الورق وقلم الرصاص وجرت أصابعي بالقلم على الورق من غير أن أرى شيئاً . وكتبت بيت الشعر في الظلام معتمداً على ارشاد اليد . وعدت استلقي على الفراش ورغبت أن أكرّر بيت الشعر فاذا بي قد نسيته . عجباً . كيف أنساهُ ؟ إذاً فعلت حسناً إذ كتبته ، وإلاّ ضاع في عالم الخيال الفسيح فكأني ما نظمته . العلي لم أكتب بل توهمت أني كتبت . فمددت يدي الى الزر الكهربائي المتصل بالسرير وضغطته ، فضاء المصباح . وما أغرب ما قرأت فيما كتبت .

« ألا ليت الشباب يعود يوماً

لأخبره بما فعل المشيب »

فضحكت على نفسي وقهقهت حتى كدت أظن ان في جيرتي من سمعني فاستجنني .

لعلّ عفريت الوهم ضحك على ذقني في غفوة قصيرة ، إذ احتلس من عالم الشعر بيتاً قديماً مشهوراً شائعاً ، ودسّهُ في مخيلتي ، وأوهمني أنه من بنات أفكاري . تبّاً له من مداعب سمج .

لله من اضغاث الأحلام ما أثقلها في قلاقل المنام .

ثم ضغطت الزر الكهربائي لكي أطفىء المصباح . ولكن الضوء لم يخبُ بتاتاً بل تضاءل حتى صار كأنه نور جمر في وطيس .

وأجلت نظري في الغرفة لكي أتبيّن مصدر الضوء الضعيف الذي بقي بعد اطفاء النور الكهربائي . فبدا لي على الحائط أمامي ظل جسم انساني مطموس . فجزعت . ولكن أين الجسم المظلّ .

تلفت هنا وهناك فلم أر شيئاً . ثم عاد نظري الى الظل فاذا به طيف يتضح رويداً حتى صار مجسماً . فاقشعرّ بدني ووجف قلبي . ماذا عسى أن يكون هذا ؟

ثم تقدم هذا الطيف حتى توسط الحجرة وظهر على كتفه جناحان وتراءى لي روحاً ملائكيّاً متجسماً ، فهدأ روعي قليلاً إذ شعرت أنه روح خير . وبقيت صامتاً أنظر فيه وأتبيّن خلقته الجميلة الى أن قال :

هل أنست لي ؟

قلت : من تكون ؟

قال : أنا ملاكك الحارس لك . ألا تعلم أن لكل انسان ملاكاً يحرسه ؟ فان كان الانسان صالحاً كان ملاكه ملاك خير ، وإلا

فلاك شر .

فقلت متنهداً : وهل تراني صالحاً أستحق الخير وقد تراكمت عليَّ الغموم الجهنمية ، وأوشكت أن أنتحر ؟

— لماذا تنتحر ؟

— ألا ينتحر من خاب في مطامح الحياة ، وضلَّ في مسالكها ؟ لعلَّ الله ناقم عليَّ . أكاد أندفع الى منيتي .

قال : إذن لماذا كنت تردد في أيام الأمس « ليت الشباب يعود » ؟ كأنك تريد استئناف الحياة ثانية . فقد رقَّ الباري الرؤوف لك ، فأوفدني اليك . فهل تريد استئناف الحياة ثانية حقيقة ؟

قلت : حمداً لربي . نعم كنت أعني استئناف الحياة من جديد ، لكي أصلح أغلاطي الماضية التي ساقتني الى الشبور الذي أنا فيه الآن ، عسى أن أعيش عيشة أخرى راضية سعيدة . ولكنني يئست من هناءة هذا العالم لأني أراه مفعماً بالشرور والمحن ، وقد أصبحت حياتي كلها جحيماً فيه فصرت أود هجرانه .

قال : الجحيم على الأرض ليس أبديًّا فاما أنك تهلك فيه محترقاً ، أو أن تتمحص فيه فتخرج منه طاهراً نقيًّا .

قلت : أجل . اني هالك لا محالة . أمسي مسائي الأخير وأنا في حالة افلاس مجرد لي من كل متاع إلاَّ الشرف . فقد قال القاضي الذي نظر في قضية افلاسي انه لم يرَ في تاريخ القضاء تفليسة شريفة كتفليستي . على أن هذا الشرف الذي يكسوني لا يستر عاري عن عيون الناس . غداً يباع متجري بالمزاد العمومي ولا أرى مخبأً لي من فارة هذا المزاد آمن من مخبإ الانتحار

قال : إنك في الطرف الأقصى من الشباب ولم تتخط الى الكهولة بعد . وما زلت في عنفوان الجسم السليم وصحة العقل الناضج أمامك نصف العمر — أطاله الله لك — فتستطيع أن تظفر بمستقبل سعيد مجيد . ولا بد أن يكافئك الله على فضائلك .

قلت : أرى المستقبل كالسراب يمشي سراعاً عني لا إليَّ . فلا أظنني أستطيع لحاقه والظفر به .

قال : لا تقنط من رحمة الله يا عزيزي ما دمت رجلاً صالحاً .

قلت : إن صلاحي هذا الذي تنوه به ياسيدي هو الذي اجتذب محنتي اليَّ كما يجتذب العسل الذباب الخبيث . والا فلعله صلاح أنت وأنا مخدوعان به ، أو انه ليس الصلاح اللازم لهذا العالم . والأرجح أن لهذا العالم صلاحاً غير الصلاح الذي أرضعتنيه أمي وغير الذي طبعه أبي في نفسي بقدوته ، فليتني أعود غلاماً فأجدد سيرتي بالنمط الأصلح لهذا العالم — ولكن ...

« ليت وهل تنفع شيئاً ليت
ليت شباباً بوع[1] فاشتريت

---

(١) كذا ورد عن الشاعر والصواب « بيع »

قال : ان « ليتك » لنافعة يا عزيزي . فلا مستحيل عند الله القادر الذي يستطيع أن يجعل الماضي مستقبلاً ، قم أنت الآن فتى يافع . جدد حياتك واصلح أغلاطك وعش عيشة راضية جزاء صلاحك .

فاضطربت ووثبت في الحال منذعراً ونظرت في المرآة ودهشت إذ رأيت طيفي فيها طيف فتى ، لا طيف رجل على باب الكهولة كما عهدتني . لا شاربان ، ولا عارضان ، ولا بدن ضخم ، ولا شعرة بيضاء في رأسي ولا خشونة في إهابي ، بل رأيت طيف فتى لم يخضر عارضاه بعد ، ولا كثف شارباه . أسيل الخدين ، وضاء المقلتين ، ساطع المحيا ، مشرق الثغر ، نحيف القامة لطيف الروح . ارتددت جازعاً .

قال : أليس هذا ما سألته ؟

فقلت : في لأي متردداً : — بلى

قال : إن الله سبحانه وتعالى استجاب سؤلك ، فهل ندمت ؟

قلت : ولا أزال مبهوتاً : كلا . . . ولكن ...

قال : ماذا ؟

قلت بعد صمت دقيقة : هل أجد أبي وأمي عادا الى قيد الحياة ، كما كانا معي في حداثتي ؟

قال : أنت طلبت الشباب لنفسك ، لا عودة أبويك من عالم الأبدية اليك . هل تبتغي أن يعود كل ذلك الزمن الغابر بأشيائه وناسه وأحداثه كما كان حين كنت يافعاً ؟ أو هل تريد أن ترجع خاتمة القرن التاسع عشر بسنيها ولياليها وشموسها وأقمارها ووقائعها ؟ أم تريد ان يجعل القادر على كل شيء كل ماضي الكون العظيم مستقبلاً لأجل خاطرك ؟ أم هل تريد أن يرجع الله عقرب ساعة الكون الى الوراء ربع قرن ؟ أو أن يمحو الله صفحة من صفحات سفر الأدهار ، أو أن يطويها لكيلا تنشر بتاتاً ؟ أو أن ينزع تلك الصفحة منه لأجل « ليتك » ؟ أين تريد أن يلقي تلك الصفحة ؟ أفي جيب الفضاء السحيق العميق ؟ أم في رحاب العدم اللامتناهي ، أم تريد أن يخلط « ورق » الكون في مندمج « الزمكان » أي (الزمان المكان) لأجل سواد عينيك ونعومة خديك

فقلت مقاطعاً ضارعاً : مهلاً يا سيدي حلماً يا ملاكي الحارس . لا أريد غير ما يريد الله . فلتكن مشيئته تعالى . وإنما أراني أستقبل الصباح ، ولست أنا ذلك الرجل الذي يعرفه بعض الناس ، بل أنا ولد مجهول . ولم يرني أحد بعد ، فلا يعرفني أحد حتى ولا من كان يعرفني . فكأني جئت من عالم الغيب . كيف أخرج من مخدعي وكسائي أصبح يسعني مرتين ، أو يسع شخصين مثلي .

قال : متى لبسته ترَه قد تقلص مثلك لكي يسعك مرة واحدة .

طغت حيرتي على ذهني . وبعد هنيهة قلت : — اني أراني كالطفل غريب في

العالم ، لا أدري كيف أتدبّر . ان العبد المعتوق من سيده أصلح للحياة مني .

قال : لماذا ؟ معك عمر ١٧ سنة بجميع مؤهلاتها التي كانت لك في ذلك العمر وأكثر منها . ومعك فوق ذلك اختبار ربع قرن، واذا شئت فمعك معونة الله . أما كفاك كل ذلك عدة للجهاد في مضمار الحياة ؟ من في سنك له مثل مالك ، هل تنقصك شجاعة ؟ أعطيكها ، ابتدىء في الحياة كفتى صحيح الجسم والعقل والضمير،وحاذر أن تحيد عن الصراط المستقيم . وحاذر أن تخدَع كما خدعت . تنبهك لمكايد الناس لا ينقض فضيلتك . احذر أن تدع أحداً يعرف لك ماضياً غير ماضي الصبوة ، وحياة قبل حياتك الجديدة وإلاّ فتزول عنك هذه النعمة . اطلبني عند الضرورة القصوى تجدني . قل في ضميرك: « ملاكي كالانيل، إني في حاجة الى نصيحة منك » . فألبيك. سلام الله عليك.

قلت : مهلاً لي سؤال خطير الشأن . كيف أستطيع أن أحايد شرور الأشرار وأنا دائماً أفرض أن جميع الناس أخيار قبل أن أختبرهم .

قال : بل يجب أن تفرض أن الناس كلهم أشرار،وعليك أن تختبرهم لكي تكتشف خيارهم . لاتعاملهم كأشرار ، وإلاّ أسأت الى أفاضلهم . عاملهم كلهم كأفاضل وحاذر منهم كلهم كأشرار . لا تستسلم قبل أن تتحقق وتتأكد أن لا احتيال عليك . كن مستقيماً يقظاً . ولكن طيب القلب بلا سذاجة . وإلاّ طمع الأشرار في استغلال سذاجتك .

قلت : سمعاً يا سيدي الملاك ان ما اكتشفته مما اختبرته في هذا العالم هو أن لا سبيل الى النجاح والسعادة فيه إلاّ بالحيلة والخداع والنفاق لاختلاس حقوق الغير.وأراني لا أستطيع أن أصحح أغلاطي الماضية إلا بانتهاج هذا النهج، وإلا فسأعود الى ارتكابها ثانية . لا أرى الفائزين في الحياة إلاّ أشراراً . ولا أرى الأفاضل إلاّ مخفقين . فدعني أخرج من هذا العالم لأني لا أريد أن أعيش فيه خائباً .

قال : لك ما تشاء . فاخرج منه إن كنت لاتريده شاباً جديداً. والسلام عليك

ولم يمهلني ملاكي لسؤال آخر بل تلاشى ظله رويداً. وفي دقيقة امّحى تماماً . وساد الظلام في مخدعي .

* * *

تراجعت حتى اصطدمت بالسرير فاستلقيت عليه ذاهلاً مخبولاً . أحلماً كان هذا أم حقيقة واقعية . أطيف هذا في مخيلتي يهزأ بي : هذا حادث خارق للطبيعة فلا يمكن أن يكون حقيقة. ماهو إلا وهم ،هو حلم ألم أزل أنا في حلم أم في يقظة الآن . فماذا طرأ على عقلي حتى خُيِّل لي هذا الوهم ؟

ضغطت زر الكهرباء . ضاء المصباح . فإذا بي أرى نفسي غير ما كنت أعهد .

لمست خدّيّ وسائر وجهي، فإذا هو أملس ناعم لا عذار فيه ولا عارض

وجفت. خفت. خفق قلبي بين ضلوعي، وتهيّبت أن أقف تجاه المرآة مرّة ثانية

وأخيراً؟ الى متى الخوف والتردد؟

تشجعت ونزلت عن السرير وتقدمت متردّداً الى المرآة. جزعت إذ رأيتني غلاماً كما أراني ذلك الشبح نفسي. أرى بعيني رأسي حقيقـةً لا وهماً. أحقيق أن ذلك الملاك فعل بي كما قال؟ ويحي! أيمكن هذا؟ اختلط الأمر في عقلي؟ فحصت محتويات الغرفة فاذا هي كما أعهدها لم يتغير فيها شيء إلاّ أنا.

وكلما حدّقت في خيالي في المرآة تذكرت حوادث صباي التي كدت أنساها على مرور الزمن. تذكرتها حينئذٍ كأني مازلت غلاماً. وكأني أنا الآن في ذلك الحين. إذاً لم يمزح الطيف ... الملاك.

ولكني لا أزال أذكر أمسي وأمس أمسي ومتجري وقضية إفلاسي « وانتظار الدلالة » على بضاعتي غداً، وأصحابي ومعارفي وعلائقي معهم. فهل أصبحت شخصين؟ يوسف العنابي الكهل ويوسف العنابي الغلام؟ ضربت الحيرة في رأسي. صهرت دماغي. مزجت نخاعي بدمي. أدغمت صباي بكهولتي. يستحيل أن أكون اثنين. أنا واحد. ولكنني كنت أمس رجلاً على باب الكهولة. وفي هذا الصباح أنا غلام مراهق.

عجباً! أينمو الانسان الى تحت؟ أيتقدم إلى الوراء. أيرجع المستقبل الى الماضي، أم يأتي الماضي بعد المستقبل؟

أكاد أجن. رباه! أنقذني من هذه الحيرة.

***

تقدمت الى الشباك. فتحته. نظرت في الفضاء. فاذا الفجر يشق حلك الأفق. ويلاه. ماذا أفعل؟ كيف أخرج الى العالم وأنا غلام صغير والناس يعرفونني رجلاً كبيراً.

الصبح يدنو. يجب أن أفكر فيماذا أفعل. فتحت خزانتي. أخذت محفظتي. فتحتها فاذا فيها ورق العملة الذي كنت أعهده فيها. إذن فأخرج قبل أن يظهر أحد في سلم البناية. ومتى صرت في الشارع فلا أحد يشتبه بي، لأني أكون كأي واحد من الغلمان الذين في سني. ثم أمضي. ثم يفتقدون يوسف العنابي فلا يجدونه. يبحثون عنه فلا يعثرون عليه بتاتاً. يزعمون أنه انتحر بسبب افلاسه. طرح نفسه في النيل أو هام في الصحراء.

وضعت في حقيبتي (شنطتي) ما أحتاج اليه. وخرجت قبل أن يتضح الصباح، قررت أن أبرح الى الاسكندرية حيث لا يعرفني أحد. فذهبت تواً الى المحطة فركبت القطار الى الاسكندرية.

نزلت في فندق متوسط الحال. وفيما أنا أتلمظ الفطور جعلت أفكر فيماذا أفعل؟

ليت الشباب يعود

ذاتيتان في شخص واحد

تأليف

نقولا الحداد

مطبعة المقتطف والمقطم

١٩٥٠

الفصل التاسع

الحياة الجديدة

اختي في بلدتنا في لبنان ترملت منذ سنوات ولا ولد لها ، وقلما كنت أكاتبها لاني كنت مطمئناً عليها إذ هي تعيش من ريع أرزاقنا هناك . فبعد تفكير طويل كتبت لها الخطاب التالي .

« أختي العزيزة مريم

« أكتب اليك بعد مقاطعتي لك مدة طويلة . لم أكن ناسياً اياك . وإنما مشاغلي المضنية كانت مسؤولة عن هذا الاهمال . وكنت مطمئناً عليك لأني واثق بأن ريع أملاكنا يكفيك أن تعيشي في بحبوحة من الخير . والآن وقد بلغ ابني جميل أول الشباب أرسله اليك لكي يقضي بعض الربيع عندك ثم يصطاف . وان شاء فيتم الحول عندك . وقد أكتب له أن يدخل كلية بيروت الاميركية . وإن سنحت الفرصة فأنبعه في أول الصيف .

« وقد تستغربين أني لم أكتب لك عنه قبل الآن . لأنه كان كل الوقت في حضانة جدته أم والدته لأن أمه لم تمكث معي سوى مدة الحمل . وقد أخذها الله الى رحمته في مدة نفاسها . واتذكر اني كتبت لك في ذلك

[كذبت لم أكتب لها في هذا. فدعها تتوهم اني كتبت لها]

« وقد ماتت جدته بالأمس فرأيت أن أضعه تحت رعايتك . ولا ريب أنك تسرين به جداً . وتعطفين عليه كأنه ابن لك . وقد زودته بالمال اللازم

« أقبلك قبلات أخ مشتاق .

أخوك يوسف العنابي

بعثت بهذا الخطاب الذي كذبت فيه على أختي الى لبنان ، وانا شاعر اني انفض عني أحمال الهموم وأثقال المسؤوليات ، أخذت أحس أني فررت من ساحة حرب لا يفرغ الجهاد منها .

شعرت أن ذلك العجل الذهبي الذي صاغه هرون لبني اسرائيل لا يشبع شهوة ولا يروي غلة . ولكن ليس في هذا العالم موسى يحطمه .

إن الخير الذي بقي على سطح الكرة الأرضية بعد طوفان نوح يشبع عشرين ضعفاً من ملايين سكانها . ولكن ملايين الذهب وملايين نائبه الورق لا تشبع إنساناً واحداً .

لا يستطيع شخص واحد أن يستهلك من خير الأرض أكثر من حاجة إنسان . ولكن إنساناً واحداً يستطيع أن يبتلع كل أموال العالم

يمكن أي إنسان أن يستوفي حاجته من خيرات الأرض بلا قتال . ولكن انساناً

واحداً يبتغي أن يقاتل العالم كله لـكي يجمع خيرات الأرض كلها في بطنه

وداعاً أيها القطر الذي تهافتت أم العالم الجائمة إليه وهي تلتهم دمه ولما ينضب

* * *

وصلت الى بلدتنا بصفتي ابن يوسف العنانى أخ عمتي مريم ، واستقبلتني عمتي أختي (بحنوّ كحنوّ الأم).وانقضت بضعة أيام، وأنا أتنفس الصعداء،وأنفث الغم الذي حُشك في صدري في حياتي السابقة . وما لبثت ان سمعت إشاعة وفاة أبي(أنا) يوسف العنانى منتحراً كما قدَّرت .فقضيت مع عمتي أيام مناحة أليمةعلى المرحوم المغفور له والدي (نفسي) .

بعد حين جاءت سلمى الزعفرانى وابنتها الى البلدة بعد غياب طويل ، عشرين سنة ونيـفاً . ولم يسعني إلاّ ان أسلّم عليها باسم جميل ابن يوسف العنانى . فمزتني بأبي (أي بي نفسي) وأظهرت عطفاً عظيماً عليّ

وما انقضى شهر وأنا أنعم بعطف سلمى باعتبار أني (ابن صديقها) ودورا ابنتها حتى ورد لها الخبر المفجع عن وفاة زوجها المستر ستنفورد ، فتفجعتا عليه وبكتاه بكاءً مرًّا

لله من القدر المجهول . لما كانت سلمى مقيدة بزواج كان يوسف العنانى حرا يتوله بها غراماً ويتدلـه . ولما انحل قيدها وصارت حرة تلاشى يوسف العنانى من الوجود .

وما لبثت سلمى أن تأهبت للرحيل الى أميركا لـكي تضبط تركة زوجها التي تعد بمئات الملايين وترعى أشغاله . وحاولت أن تترك لي الفي جنيه مساعدة لي على الدراسة لما علمت اني عازم على دخول الـكلية . فأبيتها كل الاباءة . فقالت : ان أباك قبلك . فلست أقل شمماً وأنفة منه . وأما دورا فظهر عليها أسف لهـذا الفراق بعـد العشرة القصيرة التي تمازجت فيها أخلاقنا وميولنا وأمانينا .

عزمت أن أدرس الطب بغية أن أكون ذا مكانة سامية في نظر سلمى وابنتها دورا

أصبحت أنظر الى الماضي كأنه حلم عبر، وان الحقيقة في حياتي هي هذا الحاضر. حقـاً انى صرت ارتاب في حياتي الماضية، ولا سيما لأن ذكرياتى فيها صارت تتراءى لي كالظلال الضعيفة أو كأنها كانت أضغاث أحلام .

بقيت متحيراً في شأن ذاتيتي . أرانى شخصيتين في جسم واحد وعقل واحد. صرت أخاف الخبـل من اختـلاط هاتين الشخصيتين .

وماكان فراق سلمى ودورا إلاّ ليحرك فيَّ سجية الشعر ويثير في خاطري حاسة النظم. فـكنت كلما لاح طيفها في مخيلتي أشبب بهما وأتغزَّل بجمالهما، وأبث لواعج غرامي وأتلو شعري على رفاقي،فيدهشون لما فيه من رقة وطلاوة وحس بيان وسموّ معانٍ

وفيما كنت أدرس الطب قدَّمني أحد رفاقي نعيم الزهيري لقريبه الأستاذ خليل رامح صاحب جريدة « المصري الحرّ » في قاهرة مصر، اذ كان هذا في بيروت حينئذٍ لشاغل له. وهذا امتدح أشعاري ومقالاتي التي نشرت في بعض الجرائد والمجلات، وجعل يزيّن لي صناعة القلم. ثم جعل يرغبني في التحرير في جريدته حتى استهواني أو سحرني بأسلوبه ومنطقه الى أن وافقته. ثم مضيت معه الى مصر لكي أكون موظفاً في تحرير جريدته وأترك دراسة الطب. فكانت أول غلطة غلطتها في حياتي الثانية وسببها ميلي للشعر والأدب

وما انقضت بضعة أشهر حتى ملأت مركزي الأدبي بل أطففت عليه فوق جمامه. وفهمت من بعض القراء أن الجريدة ظهرت بعد انتظامي في سلك تحريرها بثوب قشيب وأخذت منزلة خاصّة في عالم الصحافة. وكانت بعض الجرائد والمجلات الصغيرة تتناقل بعض نبذاتي وأشعاري.

وبطبيعة الحال تعارفت وأكثر الزملاء من محرري الجرائد الأخرى. وكنا نتجمع في أحد المقاهي كل مساء حيث نتبادل الاحاديث والأسمار ونتطارح النكات والملح، ومع إني كنت أصغرهم سنًّا (كنت في الرابعة والعشرين في حياتي الثانية) صارت لي بينهم منزلة تفوق سني. وقد راق لي ذلك المعشر جدًّا. وما أسفت إلاّ على عدولي عن دراسة الطب.

وزينت لي تلك الأحوال الخافتة حولي أن أؤلف كتاباً في موضوع اجتماعي أخلاقي جعلت عنوانه: — « سكرات الحياة ويقظاتها ». وعرضته على بعض المكتبيين لكي يطبعه أحدهم وينشره فأعرضوا قائلين: ان سوق الكتب غير المدرسية كاسدة وألاّ يروج في سوقها إلاّ الروايات والهزليات. ورضي بعضهم أن يطبعه من غير أن يدفع ثمناً للتأليف. فأسفت كل الأسف على بوار العلم والأدب في الشرق العربي. فرغبت أن أطبعه على نفقتي لاعتقادي أنه سيروج اعتماداً على شهرتي. وكنت أظنها شهرة طبقت الخافقين، وهي شهرة خيالية لم تتجاوز المقهى الذي كنت اجتمع فيه مع بعض الزملاء.

لله من الغرور. خلق الانسان من تراب، فهل في التراب غرور، فنشأ معه في جبلته؟ وقاك الله داء الغرور.

واستنزف طبع الكتاب من المال على قلته ما لم تكن لي طاقة على دفعه كله، فبقيت مديوناً بقسم منه للمطبعة. وأودعت نسخاً منه في المكتبات لكي يباع « بالعمولة » فلم أستطع أن استوفي من المكتبات إلاّ المماطلة، لا الثمن ولا المثمن. فصرت أوفي الدين من ماهيتي. هكذا كان أجر القلم في سوق الأدب حينئذ. فمنذ ذلك الحين شرعت ثقتي بمجنى الأدب

تضعف ولا سيما لأن الجرائد لم تبلغ بعد مكانة الجرائد العالمية .

مضى العامان وصارت جريدتنا يومية بعد أن كانت تصدر مرتين في الأسبوع فتضاعف العمل، وبالتالي تضاعف المجهود . ولكن الأستاذ خليل رامح صاحب الجريدة لم يضاعف الأجر حتى ولا زاده أية زيادة . فبقيت ساكتاً عنه اعتماداً على ضميره. ولكن يظهر أن الضمائر لا تتحرك اذا لم يحركها محرك . وكنت أخجل أن ألمح الى هذا الموضوع .

وأخيراً تقدمت الى الأستاذ خليل رامح بكل رقة واستعطاف ، والتمست منه زيادة ماهية، فأبى أن يزيد بحجة أن اصدار الجريدة ضعفين كلفه من مصاريفها ضعفين

عدت في مثل يأس وندمت لأني عدلت عن دراسة الطب وضيعت بضع سنين من عمري الثاني في التحرير الماحل . آه لو درست الطب لكنت الآن طبيباً حراً وربما نلت توفيقاً كبيراً .

ورد اسم الراوي في هذه الرواية مرة يوسف النعماني وهو ويوسف العنابي شخص واحد — فاقتضى التنبيه

الفصل العاشر

خيبة ويا لها . . .

وكان من حسن حظي أن المنزل الذي كنت أسكن فيه كان ملك ثري كبير يدعى خليل الرحماني ، وهو يختلف عن سائر الأثرياء بثقافة عالية ، وخصال شريفة ليست إلا في القليل منهم . وما اتصلت به صلة الساكن مع المالك حتى امتدت الصلة بيننا الى صلة الصديق بالصديق . فكنا نقضي بعض أوقات الفراغ معاً في منزله ، أو في متنزه ، أو في مقهى معتبر : وما لبثت الصداقة ان استحكمت بيننا وأصبح كأنه مستشاري الذي أعتمد عليه لما كنت أرى فيه من أصالة الرأي والإخلاص .

في ذات مساء دعاني السيد خليل للسهرة عنده ، وابتدأ الحديث معي بالسؤال : كيف أنت وجريدة المصري الحر .

قلت : يلوح لي أني معرّض لخطر جسيم بسببها . فقد ورد لي خطاب اليوم بلا توقيع ينذرني به كاتبه بالقتل اذا كتبت شيئاً ضد اليهود . فاستغربت أن يوجه لي هذا الخطاب ولا يوجّه الى صاحب الجريدة لأنه المسؤول الوحيد . فهو يكتب وهو ينشر كل أسبوع مقالاً ضافياً عن احتيالات اليهود المالية كالبورصة والتجارة بالسندات بالنسيئة والتقسيط والربى والتأمين و « النصيب » الى غير ذلك فعرضت هذا الخطاب على الأستاذ خليل رامح صاحب الجريدة . فقال : لا تهتم به بتاتاً . ولم يشأ أن أقدمه للنيابة . ولا أدري لماذا هذه الحملة التي يحملها على اليهود .

قال الرحماني : أنا أدري . فهو يبتغي أن يسترضيه اليهود الماليون بمبلغ كبير من المال أو باشتراكات كثيرة بالجريدة وباعلانات كبيرة بدل سكوت .

قلت : ما ذنبي اذا كان خليل رامح صاحب الجريدة وهو يكتب .

قال : ذنبك أنك تكتب مقالات جميلة في الجريدة تجعل القرّاء يتهافتون إليها . وباتساع انتشارها تقوي دعايتها . فقيمة ما يكتبه الأستاذ خليل رامح كدعاية ضد اليهود أو دعاية لهم تتوقف على انتشار الجريدة الذي قلمك العامل الأول والأفعل فيه ، لذلك أقول لك يجب أن تكون لك حصة فيما يتقاضاه خليل من اليهود ولك أن تطالب بها

فضحكت وقلت : لو كان الأستاذ خليل يرى أن لي حقاً بمقاسمته مكافأة اليهود لأجاب رجائي يوم توسلت إليه أن يزيدني أجرة لقاء زيادة عملي .

قال : سمعاً يا عزيزي . ان لي اتصالاً ببعض اليهود الذين يتأثرون جداً مما تكتبه جريدة المصري الحر ضدهم . وهم يتأمرون

الآن مؤامرات شيطانية ضدها وضدك وضد رامح إذا لم يوافقهم هذا على أن يشتروها لكي يرضوا قلمه وقلمك رضاً لا تقوم لهم بعد قائمة.

فاستغربت أن تحدث المؤامرة وأنا لا أدري فقلت: ترى كم يدفعون ثمن الجريدة

قال: عرضوا أربعة آلاف جنيه وخليل رامح طلب ستة آلاف. ولسوف يدفعونها صاغرين.

قلت: وما رأيك؟ هل يحسبون قلمي من ضمن الصفقة

قال: كلا بل هم يقصدون أن يكسروه أولاً. فالثمن الذي سيقبضه خليل رامح هو ثمن جميع أقلام الجريدة، فعليك ان تطالب خليلاً بحصتك قبل أن يعقد البيع. قم اذهب إليه الآن.

* * *

بعد تردد طويل تجرأت وقصدت الى خليل في منزله وخاطبته في الأمر. فما أنكر أن اليهود يساومونه. وقال إنه لا يعقد البيع إلا إذا تعهدوا أن يدفعوا لي مكافأة حسنة عن مدة خدمتي في الجريدة، أو أن يبقوني في وظيفتي بماهية أكثر من ماهيتي

بيعت الجريدة واشتراها اليهود. وقبض خليل رامح ستة آلاف جنيه ثمناً لها. وبقيت أحرر في الجريدة، وقد أضافوا إليها ثلاثة محررين رئيسهم يهودي. وما لبثت أن شعرت إني مقيد اليدين لا حرية لي. وفي آخر الشهر أعطيت راتبي مع خطاب إقالة. فسألت عن المكافأة فقيل لي: طالب بها خليل رامح الذي خدمته.

وذهبت الى الأستاذ خليل أشكو له. فاستشاط وقال: يدفعون المكافأة رغم أنوفهم. اكتب لهم خطاب تهديد بقضية

بعد أخذ ورد وإحالة بين البائع والشارين واستشارة محام ضاعت المكافأة، وما كان خليل رامح أكرم خلقاً من اليهود. والمحامي قطع أملي لأنه ليس معي عقد اتفاق ضد واحد من الطرفين.

عدت بخفي حنين. حبطت آمالي. خامرني اليأس، عاتبت خليل رامح عتاباً مراً لأنه أغراني حتى جعلني أترك كلية الطب، وأضاع علي مستقبلي كله. فتنصل مني بخشونة وبلؤم، يا له من أناني شرير.

* * *

في إبان هذا القنوط قابلني صديقي الرحماني فرويت له ما حدث بيني وبين خليل رامح وأصحاب الجريدة الاجداء اليهود.

فقال: ليس خليل رامح رجلاً شريفاً يستدعيك من كلية الطب، ثم يبخسك حقك. هذا عمل رجل أناني لئيم.

قلت: إن هذا الرجل كافر لا دين له. ولا يخاف الله.

قال: أي الله تعني؟

قلت: الله؟ وهل للعباد غير الله واحد؟

قال نعم: هناك الله ذو ثلاثة أقانيم. والله

آخر واحد لا شريك له . والله ثالث كان رب الجنود يحارب آلهة أخرى. وهناك آلهة أخر للمجوس والهنود والصينيين وغيرهم. فأيهم هو الله خليل رامح ؟

قلت : أليست هذه الآلهة جميعاً إلهاً واحداً هو الله رب العالمين .

قال : نعم . لو جرد الناس آلهتهم من الخرافات التليدة في عقائدهم لظهرت لهم إلهاً واحداً . ولكن هذه الخرافات هي التي فرّقت الأديان . فأي دين تعني ؟

قلت : أليست كل الأديان تأمر بالخير وتنهي عن المنكر ؟ هذا الرجل لا يفعل خيراً ، بل يفعل منكراً ، إذاً فلا دين له

قال : ألا تعرف أناساً ينتمون الى دين ثم يأتون المنكرات .

قلت : بلى . ولكن هؤلاء كاذبون في دعوى التديّن بأي دين . فهم بلا دين .

قال : أوَلا تعرف أحداً من الناس يجاهر بالإلحاد ثم يفعل خيراً ، وقلما يأتي منكراً ؟

ففكرت هنيهة وقلت : أي والله ، أعرف ملحدين لا يكتمون إلحادهم كأنهم لا يريدون أن يغشوا الناس، وسلوكهم سلوك أهل الصلاح .

قال : إذن فلا تعتمد في اعتقادك بفضائل الناس على ما يبدو لك من تدينهم . ولا تسيء الظن ببعض الناس اعتماداً على ما تعلمه من كفرهم .

قلت متحمساً : تريد أن تقول ان الصلاح لا يأتي من الدين أو من التدين . فبأي حافز اذاً يأتيه الإنسان غير المتديّن .

قال المبادىء الأدبية غريزة في الانسان الاجتماعي ، وهذه الغريزة هي ما نسميه الضمير . فالانسان الاجتماعي يفهم الحق والصلاح سواء كان مؤمناً أو كافراً . ولكن شهواته تطمس الضمير والحق، فيعمل بمقتضى شهواته لا بمقتضى ضميره

قلت : ماذا تعني بغريزة الانسان الاجتماعي .

قال : أعني أن هذا الحيوان الانساني لما صار انساناً وشرع يتحضّر صار اجتماعيّاً متكافلاً . أي صار كيانه متوقفاً على التعاون مع اخوانه وقومه . وهذا التعاون لا يحدث إلا إذا اتفق الإخوان أو القوم على أن يجعلوا الحق أساس تصرفهم . فيعدلون فيما بينهم . وينصفون بعضهم بعضاً، ويصدقون ويكونون أمناء مستقيمين الى غير ذلك من مقتضيات الحق . وعلى تمادي الزمان أصبح هذا التفاهم بينهم ، والتعامل بمقتضاه غريزة في خلقهم الاجتماعي . وبالتالي صار شريعة لهم ، حتى اذا خالف أحدهم هذه الشريعة عاقبته الجماعة . اذا اطلعت على عادات قبائل المتوحشين والهمج وتقاليدهم تعلم ان الصدق في المعاملة بينهم عادة فيهم ، وهم لا يعرفون الهاً ولا يدينون بدين الا هذه الشريعة العرفية ، وحرصهم عليها هو الضمير الغريزي

والطبيعي فيهم . هذا هو مرادي بالغريزة الاجتماعية .

قلت : ألا ترى انه لا محيص من الدين لكي يقمع الشهوات ويحرك الضمائر ؟

قال : ليس الدين بقامع للشهوات ، ولا هو محرك للضمائر . وإنما تربية الناس منذ الصغر على تلك الشريعة الغريزية التي بسطتها لك هي التي تحيي الضمير ، وتعوّد المرء أن يقمع شهواته . فاذا كنت تربي الاحداث منذ الصغر على أن الصدق فضيلة تشرّف الانسان، وان الكذب رذيلة تسفله، وهي معرّة له، يشبون على هذه المبادىء ، ويصعب عليهم جدًّا أن يحيدوا عنها بعد ذلك إلاّ بحكم البيئة الاجتماعية الفاسدة. فهم يفهمون بالبداهة أن الجماعة لا تعيش بسلام وطمأنينة إلاّ بالحرص على جميع الفضائل . التربية تغرس الفضيلة في الناس والفضيلة هي الدين الحقيقي

قلت : ولكن ألا ترى أن الدين خير وازع للانسان عن الشر ويحمله على عمل الخير، لأنه يعده بالثواب، ويتوعده بالعقاب؟

قال : لو كان الأمر كما تقول لقلّت الشرور جدًّا الى حدّ الزوال . ولكنها لم تقل ، بل تتكاثر لسببين : أولاً لأن المؤمنين من الناس يتداركون الدينونة بالتوبة المؤجلة في هذا العالم ، ويطمعون برحمة الله في الآخرة . وثانياً لأن غير المؤمنين لا يعتقدون بآخرة ولا بثواب وعقاب، ولا يخافون إلاّ عقاب الحكومة. اذاً الوعد والوعيد لا يزعان الناس عن الشر، ولا يحملانهم على عمل الخير . وإنما يفعلون خيراً، ويتجنبون شرًّا، بحكم التربية التي توقظ فيهم غريزة الصلاح الاجتماعية كما شرحت لك آنفاً . وهي شريعتهم الدينية وهي ضميرهم . وهي الثواب الذي يبتغونه ، والعقاب الذي يخشونه. إذا درست تصرفات الناس جيداً رأيت أن معظم الذين يرتكبون الشرور هم من صنف الذين يصومون طويلاً ويصلون كثيراً . وان معظم الذين يفعلون الخير ، هم من صنف الذين لا يصومون، ولا يصلون . وربما كان أكثرهم غير مؤمنين . الفضيلة خلُقٌ . والخلق ابن التربية . لك أن تجد شواهد كثيرة على هذا الكلام في الأفراد الذين تعرفهم، وفي الأمم التي تعرف أموراً كثيرة عنها. فصاحبك رامح ليس فقط انه كافر بلا دين حتى غدر بك، بل هو غير مربّى على الأخلاق الشريفة ، والفضائل السامية . الدين لم يضطره أن ينصفك . ولو كان ذا أخلاق سامية لأنصفك .

الفصل الحادي عشر

أوهم حلم أم حقيقة يقظة

بعد هذه الخيبة اعتكفت في حجرتي وجعلت أستعرض ماضيَّ . فمرَّ في مخيلتي حلمي القديم ، وتجلت لي حوادثه كأنها حقائق . كدت أرتاب فيما أنا فيه . هل أنا الآن في حقيقة ، أم في حلم . أحقيقةً كان ذلك القديم، أم كان حلماً ؟

قامت في وجداني حياتان لي . أيمكن أن يكون للإنسان حياتان ؟ .. مستحيل لا بدَّ أن تكون إحداهما حقيقة ، والأخرى حلماً . خفت من دخل في عقلي . كيف أعرف الآن أني في حلم، أو في يقظة ؟ وإني في وهم أو في حقيقة؟ زعزع وجداني خفت من عارض جنون

بعد بضعة أيام جاءني صديقي خليل الرحاني الى مقهى كنت أنفرد في زاوية منه فقال : ما بالك مقاطعني يا عزيزي جميل .

فقلت متعملاً الابتسام : لست أبتغي مقاطعتك يا أخي، وإنما أبتغي أن أتحاشى أن أريك مني وجه اليأس بعد الخيبة التي لحقتني من جرَّاء انفصالي عن الجريدة .

فقهقه قائلاً : كل شيء فيك حميد ، إلاَّ هذا اليأس الذي تتطوَّح فيه . وهل رجل مستوفٍ جميع المؤهلات ييأس ؟ هلمَّ بهذا الى العالم بقلب شديد، وأمل وطيد، لكنها تقلب الدهر على رجل مثلك يمنحه حظاً سعيداً من الحياة .

فتشجعت وقلت ساخطاً : تقول حظاً سعيداً وأنت لا تعلم ماذا يضمر مفرِّق الحظوظ . إن توزيع الحظوظ يا عزيزي سرٌّ لا يعلمه إلاَّ موزِّعها .

واسترسلت في الموضوع بطلاقة وهو يسمع ساكتاً باسماً : أتعتقد أن الأرزاق توزع حسب الاستحقاق ؟ أي استحقاق ؟ الاجتهاد ؟ المؤهلات ؟ الذكاء ؟ الفضل ؟ الفضيلة الخ – أنت تعرف « نعيم البحم » يملك نصف شارع من الأبنية وريعه منه ثروة عظيمة . وهو يكاد يكون أميّاً،ولا يعمل خيراً، وإنما يبطر ويبذخ ويبدِّد . وإذا اختبرته تجده دون المعدل الوسط في الذكاء؟ وعنده كاتب للحسابات محصل للأجور مثقف، يبزه ذكاء وأخلاقاً . فهل ترى تقسيم الرزق عليهما كان عدلاً . وتعرف دافيد بروخ « المقطع الموصل » ، وقد أثرى من تعويضات شركات التأمين لحروقات متاجره، ومن تفاليسه المصطنعة،ومن مراباته الفاحشة ونحو ذلك . وقد تضحَّى على مذبح مطامعه الجهنمية فلان وفلان ممن تعرفهم. فهل هذه عدالة في تقسيم الأرزاق ؟

وقس على هذا وذاك ألوفاً لا ترى حظوظهم معادلة لاستحقاقاتهم . فمن ذا الذي يرشدنا الى سر تقسيم الحظوظ وقاعدته المثلى لكي نعلم ماذا يجب أن نفعل لننال حظّاً سعيداً . وأنت تعلم أني عملت صالحاً وفعلتُ

خيراً ثمَّ كوفئتُ شرًّا . نرى الجزاء في هذا العالم معكوساً. نرى أناساً يسلكون سلوكاً حسناً وهم في همٍّ ونصب وشقاء وآخرين يسلكون سلوكاً شريراً ولكنهم موفقون محظوظون

لا لا يا عزيزي خليل: ليس في الأرض ولا فوق الأرض عدالة . لا ينفع العلم ولا الذكاء، ولا النبوغ ولا الفضيلة ، ولا طيب القلب ، ولا سموّ الأخلاق — في الحصول على السعادة . وما أنت مخيَّراً بين ذكاء مع فقر، أو جهل مع غنى. قُسم لك الذكاء فقيراً كما يجده آخر غنياً . وقسم لك الغنى تخذه جاهلاً أو عالماً . أجل أن تقسيم الحظوظ سرٌّ لا يدركه إلا الرزاق علام الغيوب . يمنح من يشاء ويمنع من يشاء ولا تدري ما ذا يمنح وما ذا يمنع .هو سرُّ القضاء والقدر .

عفواً يا عزيزي خليل . أنت مستثنى من هذه القاعدة، قاعدة العدل، والخيار بين الغنى والذكاء والعلم والفقر . أنت صنو سليمان الحكيم . لقد ميزك الرزّاق بأن أعطاك الحكمة والمال والاخلاق السامية . فأنت أسعد خلق الله وأمثالك نادرون . أهنئك .

فضحك وقال : إن تلك الألوف من الأموال التي يبددها المرزوقون المسرفون السفهاء يا أستاذ ليست بدل ذكاء وعلم، إنما هي ثمن عدل بيع بخساً ، أو ثمن ظلم اشتري غالياً . فما كانت الألوف في زمن من الازمان أو مكان من الأمكنة لتنال بالبله أو بالغباوة أو بالجهل أو بالخساسة أو بالسفه أو بالكسل المطلق . وإنما كان ولا يزال كل جنيه ينال بتعب في عمل معادل له . ولكن لم يكن دائماً أن يناله من تعبَ فيه . فقد يتعب فيه زيد فيناله عمرو. فالجنيه حصل جزاء عمل مساوٍ له . ولاعبرة في من يملكه . أهو الذي تعب في تحصيله أو الذي اغتصبه منه. فأولئك الكسالى الأخساء، البله الأشرار، الذين يملكون الألوف والملايين لا يملكونها بدل ذكاء مفقود فيهم، أو بدل علم لم يحصلوا عليه، أو بدل أخلاق ينحونها حتى يحق لهم أن يحاسبونا ويقولوا هذا بذاك . وإنما نالوها بفضل خطأ فظيع في نظام المجتمع بسبب الفساد المتغلغل فيه . نالوها متجمعة من حاصل أتعاب الذين تعبوا في تحصيلها . وأنت تعلم جيداً انه اذا كان المال جزاء عمل فلا يعقل أن الذي جمع الملايين تعب في حياته في العمل تعباً يساوي تلك الملايين ولا جزءاً زهيداً منها . وإنما نظام المجتمع الفاسد سمح لزيد من الناس أن يستغل تعب عمرو. فالذين يتذمرون من سوء حظوظهم يلقون المسؤولية في توزيع الأرزاق على الرزاق أو على القضاء والقدر . وفي الوقت نفسه يبررون فساد النظام الاجتماعي ويبرئون منظميه من لؤم قصدهم في التنظيم . فليس الرزّاق ولا القدر مسأولين عن هذا الغبن في توزيع الحظوظ والأرزاق ، بل الناس أنفسهم مسؤولون عنه لأنهم لا يزالون ضواري ينهش بعضهم بعضاً. وما كانت هذه

الأنظمة الاجتماعية الا من أدوات هذا النهش، وأذكاهم أفسدهم خلقاً، وأبرعهم نهشاً

قلت : اذاً لا عدالة عند الرزّاق في توزيع الذكاء والأخلاق والحظوظ . ما ذنب المرء إذا ولد ناقصاً ذكاء وضعيفاً خلقاً وقليلاً حيلة . لا بدع إذن أن يتفاوت الناس تفاوتاً عظيماً في الغنى والفقر والسعادة والشقاء كما هم متفاوتون في الذكاء والبله ، وفي الأخلاق القويمة والفاسدة . فلا بدّ إذن أن يتفاوتوا في الحظوظ . وفي كسب الأرزاق ، وبالتالي نبقي المسؤولية على الرزّاق أو على القدر إذا شئت ، لأنه ليس في طوق المرء أن يولد ذكيًا فاضلاً ، أو قاصراً أو شريراً .

فقال : اعلم يا صديقي أن الناس ولدوا متقاربين جدًّا في الذكاء ، ولا عبرة بالنادر. ولكن البيئة الاجتماعية جعلتهم متفاوتين في الذكاء والأخلاق هذا التفاوت العظيم الذي تراه فيهم . وما ولد شخص إلاّ ولد معه ذكاء كاف لأن يحصل من الرزق ما يكفيه أن يعيش سعيداً ، كما يعش جميع سعداء الناس، اللهمّ لو كان نظام المجتمع قويماً عادلاً يخوله حق الانتفاع من ذكائه . وإنما هذا النظام الخبيث حرم الوضيع حق العلم والمعرفة، وحق الصحة والعافية، وحق القوة العقلية والبدنيـة، وحق الايمـان واليقين بالعدالة . ثم أذلـهُ وخبلهُ وأظنـه مولوداً عبداً قاصراً حقيراً ، لا انساناً حرًّا، فحدث هـذا التفاوت الذي تراه في الأرزاق والحظوظ . فليس إذن الرزّاق ولا القدر مسؤولين عن تقسيم العقول والذكاء بين الأنام . بل الناس أنفسهم مسؤولون عنـه لسوء نظامهم . ولو اعتـدل النظامُ وعدل لقلّ جدًّا التفاوت بين المواليـد في ذكاء العقول لأن لهذا النظام الفاسد الأعوج تأثيراً عظيماً في السلالات . ألا تعرف أفراداً من السلالات البشرية المنحطة نبغوا حين أتيح لهم أن يُـرَبّـوا تربية الراقين في قمة المدنية ؟ كان هذا نظام العالم ولا يزال هكذا حتى عصرنا الحـاضر . ولعلّ تطوُّرات المجتمع تغيره أو تعدله أو تنقحه كما كانت تفعل في الماضي . هذا هو نظام العالم الآن ، فعليك أن تسير مع تياره بمقتضى ذكائك وفطنتك، ولا تستسلم لعقيدة أن الحظوظ مُـنح من القدر وإلاَّ سحقك هذا التيار .

إنك مثقف وذكي فلا تعدم مسترزقاً سخيًّـا . ولقـد عثرتُ على وظيفة لك هي خـير ما تعمله . ان نديم السماك تاجر الأصواف والأجواخ « بالجملة » رجل طيب القلب جدًّا . وقـد صار مسنـا . وكان له شريك فانفصل عنه . وهو يحتاج الى مُـعين له في متجره . فذكرتك ووصفتـك له كما اعتقد فيك . فيود أن تشتغل معه في أول الأمر مستخدماً . فاذا رضي عن عملك بعد الاختبار فقد يشركك معه . والرجل خبير محنك تستفيد من خبرته كثيراً . وسيكون أجرك من أول يوم حسناً . سر على بركات الله

الفصل الثاني عشر

مكيدة جهنمية

لم تمض بضعة أشهر حتى كان السيد نديم السماك راضياً عني كل الرضى . كنت أضبط الحسابات والقيود واضحة ، وكنت أحسن المراسلات بالعربية وبالانكليزية الى منشستر وغيرها . وكنت أحسن معالجة البيع والشراء . ومحاسنة «الزبائن» ، وكان «الزبائن» يمتدحونني للسيد نديم وبعضهم يحسدونه عليّ . فتمسك بي ولم يقصّر في مكافأتي .

وقرب الصيف فاقترح عليّ أن أذهب الى منشستر لعقد صفقات مع المصانع كما اعتاد هو أن يفعل . فسُررت جداً من هذا الاقتراح ، وأكدت له أني سأقوم بالواجب خير قيام بإذن الله . وزوّدني بالتوصيات والمعلومات . وسافرت وقضيت الشغل كما ينتظر وتوفقت جداً .

وعدت من انكلترا بعد شهر ناجحاً . وكان السيد نديم راضياً كل الرضى عن رحلتي ونتائجها ، وأصبح يعتمد عليّ بجميع أشغال المتجر . ولما كانت صحته وسنّه تنذرانه باضطراره الى التقاعد عن العمل ، اقترح عليّ أن يشركني في تجارته برأسمال أربعة آلاف جنيه نصفها منه والنصف الآخر يضعه هو ويحسبه ديناً عليّ بفائظ قانوني على أمل إني أستهلكه تدريجياً من حصتي بالأرباح . فسرّني جداً هذا التدبير وجرينا عليه بانتظام .

وبعد عام من هذا التدبير توفي السيد نديم عن زوجة وصبيّ قاصر . فاتفقت معها على أن آخذ المحل كله على حسابي وان أوفيها المال في مدة أربع سنين . وكان المتجر ، حسناً والنتائج مرضية جداً .

* * *

وفي ذات يوم جاءني تاجر أعرفه وقدّم لي فتاة باسم لندا حائك وقال : علمت أنك في حاجة الى كاتب قدير يقضي لك أشغالاً مختلفة . فجئتك بهذه الآنسة وهي خير من يقوم بعملك . هي فتاة متعلمة جيداً ، العربية والافرنسية والانكليزية والخط المختزل والكتابة بالآلة الكاتبة . كانت تشتغل في مصرف (بنك) وتقوم بمهام جسام . ولكن المصرف لا يدفع الأجر مساوياً للعمل . جرّبها أسبوعاً ، شهراً ، أشهراً . وعيّن ماهيتها القدر الذي تشاء ، ونحن واثقون بذمتك .

فنظرت في الفتاة نظرة هفا معها فؤادي .

جمال بارع في ذكاء يشع من ناظريها ، نشاط باد في حركاتها ، سماحة في محياها ، قوة في فراستها ، وداعة في بسماتها ، ذوق في اناقة هندامها . لا أظنها تتجاوز الثانية

والعشرين من العمر. لم أتردد في قبولها. علمت أنها يتيمة الأب، وليس لها إلا أم بلا اخوة

ما هو إلا أسبوع حتى برهنت الفتاة على أنها أكفأ مما قال عنها مقدمها. ومشى العمل بانتظام، وحلت الفتاة عندي كما حللت أنا عند المرحوم نديم السماك، ونالت كل الرضى والعطف مني، والأجر المعادل لعملها وأزيد.

وما لبثت ان سحرتني هذه الفتاة ليس بذكائها وحسن عملها فقط، بل بوداعتها وطاعتها ورقتها ولطفها وأمانتها واخلاصها، الى أن انتهى هذا القرب بالحب. وهل يمكن أن ينتهي بغيره؟ والمكان والزمان يضماننا روحين. فلماذا لا يضماننا جسدين.

ولما شعرت أمها بما بدا بيننا من هوىً عذري، تدخلت بدهاء اللطف، وفرضت علينا الزواج فرض الأم للولدين. فما ترددنا به وعقدناه.

* * *

وعشتَ مع لندا زوجين متعاشقين متهنئين مشتركين في العمل متمتعين في الحياة السعيدة بصفاء تام بلا كدر.

وهذا الحب مع البعد في المكان والزمان بيني وبين سلمى ودورا أنسانيهما أو تناسيتهما. ولماذا أفكر بهما وبيني وبينهما أوقيانوس في المساحة، وأوقيانوس في الثراء، وأوقيانوس في الجاه، وغاب عن بصيرتي أن بيني وبينهما تجويف قلب فقط.

بعد حين شعرت بالوني والتعب والضعف لشدة الجهد في العمل. فاستدعت زوجتي الطبيب الذي تثق به ففحصني وقال: ليس فيك إلا ضعف عمومي من جراء التعب. ولا علاج للتعب إلا الراحة. فأنصح لك أن تغير الجو في أوروبا مدة صيف، وإلا فيشتد هذا الضعف ويتحول الى سقم عصبي قد لا تبرأ منه.

فتمسكت زوجتي بنصيحة الطبيب هذه، وألحت عليّ أن أذهب الى أوروبا لأتنزه وأنتهز الفرصة لزيارة المصانع وعقد طلبات معها. وتعهدت أنها تتكفل بإدارة المحل في غيابي كأني حاضر فيه. ووثقت بكفالتها هذه لما رأيته من مقدرتها. فانصعت لإلحاحها.

وقبل أن أسافر طلبت مني توكيلاً عاماً لكي تستطيع أن تصرف الأشغال في غيابي بسهولة، ولا تجد عقبات وموانع في سبيلها. فاستصوبت طلبها هذا، ومن يكون أخلص للمرء من امرأته التي تبادله الحب والطاعة. فأمضيت لها توكيلاً اصطنعته عند محامٍ تعرفه جيداً. ثم سافرتُ على بركات الله مطمئناً على عملي كل الاطمئنان.

* * *

قضيت في أوروبا ثلاثة أشهر أروح فيها النفس، وأدرس المصانع والتجار. وزوجتي كانت تكتب لي من حين الى آخر ان كل شيء سائر على ما يرام.

ولما اكتفيت من السياحة عدت. فاذا رأيت

رأيت السماء أطبقت على الأرض، وجهنم نفذت سطح الأرض عنها، ونطحت السماء بروقيها. وأنا مسحوق بين الطبقتين، محترق بين الروقين، غريق في مصهور السموات والأرضين.

ماذا أكون غير ذلك وقد وجدتُ متجري تحت تهديد الإفلاس، والمحتالين عليَّ حائمين حولي، يتوقعون القضاء على مرتزقي حتى لا تقوم بعد ذلك لي قائمة — من هم ؟

رأيت حولي شمعون الحائك وعصابته نفس الأشخاص الذين طردوني من جريدة المصري الحرّ وقد ملكوها. أعملوا معاولهم لهدم تجارتي وانتهابها.

وبلاه ! ما الذي جاء بهؤلاء إليَّ يا لندا ؟ ما شأنهم ؟ من شمعون هذا ؟

قالت : هذا ابن عمي.

فذهلتُ... هذا ابن عمك ؟؟؟ ويحك ! أيهودية أنتِ ؟ وكيف تكالبنا في الكنيسة المسيحية ؟

قالت بكل برودة : كان أبي غفر الله له يهوديًّا. وأما أمي فسيحية، وقد ربتني مسيحية.

— وبأي حقّ يبغي شمعون ابن عمك الحجز على تجارتي.

— بصفة كونه مدير الأشغال في شركة جريدة « المصري الحرّ » ؟

— شركة « المصري الحر » ؟

— نعم صارت شركة عظيمة لأنها أصبحت جريدة تجارية إعلانية بورصيَّة. وارتفعت أسهمها فنصح لي ابن عمي شمعون أن أشتري أسهماً منها. فاشتريت قسماً كبيراً من الأسهم حتى يكون لنا الحق الأول في مجلس ادارتها وتتولى أنت تحريرها. وقد دفعتُ قسماً من ثمن الأسهم ...

فقلت على الفور ... ونزلت قيمة الأسهم وليس عندك ما يغطي ثمن أسهمك. فحجز شمعون على تجارتي. أليس الأمر هكذا ؟

— نعم هبطت قيمة الأسهم فالجريدة أفضل من تجارتك لأن أرباحها ...

فصحت بها : تبًّا لك من خبيثة شيطانة. كيف تفعلين هذه الفعلة الشنعاء يا لئيمة والجريدة لا تساوي شروى نقير. لقد لعبوا هذه اللعبة وأنت مالئتهم لكي يغتصبوا مالي انتقاماً مني، وأنا لم أسيء إليهم بشيء فيما كتبه خليل رامح عنهم.

قالت : ألا يعجبك أنني رددت الجريدة لك وهي حائشة الآن على الاعلانات وعلى أخبار البورصة والتجارة والأسواق

— تبًّا لك. هل أنا فيلسوف بورصة يا شقية حتى تهيئي لي هذا المنصب. لقد ضحكوا عليكِ ولعبوا عليَّ دوراً ابليسيًّا عن يد تغفلك ولؤمك يا غبية، أم أنت متواطئة معهم ؟ قولي لي. ما هي قرابتك للطبيب الذي نصح لي بالسفر الى أوروبا ؟

— هو ابن عم أبي

وماهي قرابة المحامي الذي كتب التوكيل لك

— هو أخو الطبيب

— ويحي ويحي. لقد حبكت المؤامرة حبكاً شيطانياً . ألا لعنة الله عليكم جميعاً من أبالسة .

وقابلت شمعون متهيجاً : ما هذه الفعلة الخبيثة يا هذا . تغايبونني ثم تكيدون لي كيد أهل الجحيم .

فقهقه الخبيث وقال : هذا من بعض أفضالك يا أستاذ .

لله منكم لؤماء . أما اقتنعتم أنه لم يكن لي حرف في تلك المقالات التي كانت بقلم خليل رامح ؟

— كان هو يفكر وأنت تحرر . أليس كذلك يا أستاذ ؟ عد الى تحرير الجريدة غداً .

— تخربون بيتي ثمّ تستعبدونني أيها الأشرار . خليل رامح قبض الستة آلاف وانصرف من أمام وجوهكم الى السودان وتركني لنقمتكم يا ملاعين.

— ستلتقي به نقمتنا هناك يا أستاذ

كنت أتكلم مستشيطاً وهو يتكلم مقهقهاً

***

وعدت الى لندا : زوجتي : هاتي ابسطي لي الحالة الآن، ماذا لي وماذا عليّ وما الصافي.

قالت تجارة الأصواف زالت وحلّ محلها اسهم شركة « المصري الحرّ » ألا يعجبك هذا التحويل

طار عقلي . كدت أجن : — ويحك يا شقية . لقد سألت عن أسهم الجريدة فقيل لي انها تساوي فوق الصفر قليلاً لقد هدمت حياتي هدماً . أين الأسهم هاتيها لكي أحرقها .

قالت بكل قحة : تحرقها ؟ ألك هي حتى تحرقها ؟

— لمن اذاً يا لصة ؟

— لي . هي باسمي

فما تمالكت أن لطمتها وصحت : أخرجي من أمام وجهي يا خبيثة . انك طالق مني . تكليل الكنيسة لنا باطل غير قانوني لأني خُدِعت بزواجك

— وهل تظن أني أريد البقاء زوجة لك بعدهذا السخط ؟ أنا أرفع قضية طلاق عليك وأطالبك بتعويض... وخرجت كما يخرج ابليس عند ذكر اسم الله تعالى .

وقمت أبحث في البيت عماذا باعت وماذا بقي . فلم أجد الاّ ضروريات السكنى . ولكني عثرت في الخزانة على محفظة فيها مائة جنيه. فاستغربت وأدركت انها حفظتها لكي تنقذها من التصفية . وظهر أنها نسيت أن تأخذها حين خرجت . ولا بدّ أن تعود لكي تأخذها . إذن أنا في حاجة اليها أكثر منها . والله لن أدعها تدخل هذا البيت بتاتاً .

تركت تجارتي في يدي السلطة القانونية يتناهبها الناهبون. لم تبقَ لي . فلماذا أهتم بها ؟

الفصل الثالث عشر

بين النعيم والجحيم

اعتكفت في منزلي لأني شعرت بحمى شديدة أحمّى مرض هي، أم حمّى غضب وغيظ؟ ما كنت أظن أن هذه المخلوقة التي انتشلتها من اليتم وأحببتها وأحسنت إليها ووثقت بها وسلمتها مالي كما سلمتها قلبي — ما كنت أظن أنها تخونني هذه الخيانة الشيطانية، وتتفق مع تلك العصابة الشريرة المنتقمة مني. لعلها كانت ألعوبة بين أيديهم ولا تدري.

ويلاه: ما أشر الانسان، وما أمكره ما رأينا فكراً ثاقباً الا في الشر. ولا توسمنا عبقرية الا في الأذى والضرر، ما رأينا نابغة في الصلاح، وعبقريًّا في الفضيلة، اللهمّ إلاّ نوابغ العلم. ولكن واأسفاه ان نوابغ الشر يحولون فوائد العلم الى الأذى كالحرب ونحوها. فما أشر قلب هذا الانسان. يا لضياع هذا العقل العجيب بين أيدي الأخلاق الشريرة. يا لخيبة ذلك العقل العظيم القدير الذي زين الله به الانسان، وجعله دون قليل من الملائكة. ولكن الانسان كفر بنعمة الله، وأنزل نفسه دون الأبالسة.

***

جاءني صديقي الرحماني لأني أبلغته أني مريض. ودهش لما بسطت له حالتي التي فوجئت بها بعد عودتي من أوروبا. وقال ليس بعيداً أن مسألة زواجك من لندا كانت مدبرة للوصول الى هذه النتيجة الشريرة.

فتنهدت وقلت: آه. أجل

ما مقامي بأرض نخلة إلاّ

كمقام المسيح بين اليهود

آه ليتني أعود الى حياتي الأولى. فقد كانت أهون مصائب من حياتي الثانية. لقد أخطأت في هذا الاستبدال

فاستغرب صاحبي قولي هذا وقال: ماذا تقول؟ ألك حياتان أولى وثانية؟

فأمسكت نفسي وقلت: لا. لا. إني أهذي من شدة فعل الحمى. أرجو منك أن تسعى بنقلي الى المستشفى اذا رأيت أن حالتي المرضية سيئة.

استدعى الطبيب فقال هذا: انه ليس في الجسم ما ينذر بخطر مرض عضال. هي ثورة نفسية عصبية شديدة. ولسوف تخمد، وأرشدت صديقي الى المائة جنيه التي عندي في الخزانة لكي ينفق منها عليّ في المستشفى

***

ما ان خرج صديقي الرحماني حتى أدلهمت الحجرة في عيني، وظهر فيها شبح نوراني مجنح. فدهشت ثم قلت من هذا؟ قال. هل نسيتني؟ ملاكك كالائيل.

أما ذكرتني منذ برهة قصيرة ؟ سمعتك تتذمّر من حياتك الثانية ، وتتمنى حياتك الأولى . هل اكتفيت من الثانية ؟

– الثانية شرٌّ من الأولى يا ملاكي . ملأى من المصائب والشرور .

— بل قل انها ملأى من الأغلاط أيضاً . لقد تذمرتَ في حياتك الأولى من كثرة أغلاطك التي جرَّت عليك مصائبك، وكنت تزعم أن عذرك فيها جهلك ، وعدم اختبارك . وتمنيت عودة الشباب لكي تعيش حياة جديدة تصحح فيها أغلاطك، لكيلا تقع في مصائبها . ولما كنت رجلاً طيب القلب صالح النفس أجبنا سؤلك . فقضيت العمر الجديد وأنت ترتكب مثل الأغلاط التي ارتكبتها في حياتك الأولى بأوسع مدى،وأشد فعل،وأسوإ حال. فاذا تريد بعد الآن ؟

هل تريد حياةً ثالثة تصلح فيها أغلاط الثانية، ثم رابعة تصلح فيها أغلاط الثالثة، وهكذا دواليك الى ما لا نهاية له، كأنك تحتال على مجدد الأعمار لكي تنال منه أعماراً تستغرق الأبد ؟ أما كفى أنك عشت عمرين، واختبرت العالم اختبارين ؟ . أما اهتديت الى أسباب اخفاقك ، وعلل أغلاطك ؟ هل هي في العالم أم فيك ؟

قلت : تفضل اجلس على الكرسي وأجبني مرتاحاً . أليس عندكم عالم آخر غير هذا العالم ؟

جلس وقال : هذا عالم البشر لا يعيش فيه إلاّ البشر . أتريد أن يخلق الباري تعالى عالماً خاصًّا بك لا شرور فيه ولا آلام ولا أحزان ؟ إذن أنت لا تطلب ثواباً بجزاء صبر،وعناء جهاد . بل تريد أن تكون حجراً أصم لا يعاني،ولا يثاب، ولا يعمل صلاحاً، ولا يجازى على صلاح . فهل تريد أن تتحوّل الى حجر ؟

فصحت : لا. لا . رحماك دعني في كياني أحس وأشعر.

— أتريد أن تكون نباتة ؟ فمن النبات ما يحس

— لا . بربك دعني في كياني أحس وأفهم وأعقل .

— إذاً تريد أن تكون فيلسوفاً . إذاً أنت فيلسوف

— أريد أن أفهم هذا العالم فهماً تامًّا وأتدارك شروره

— إذاً فتريد أن تكون بعض إلـه لكي تفهم بعض أفكار البشر، ونيات الناس ومكايدهم المضمرة . هذا الصنف من الخلائق خاصٌّ بعالم الأملاك، فليس لك فيه نصيب، أنت مخلوق في ملكوت الإنسان . وهذا الملكوت مخلوق بين عالمين ضدين يتنازعانه : عالم الملائك الأبرار،وعالم الأبالسة الأشرار. ولذلك يجمع الأضداد ، ففيه الخير ، وفيه الشر ، وفيه المسرّة،وفيه الألم،وفيه الفرح، وفيه الحزن .

قلت : أتمنى أن أكون في زاوية من هذا العالم البشري المختلط خيراً وشراً : في زاوية حيث يكثر الأخيار والأبرار، لكي أعيش بينهم مرتاحاً من مكايد الأشرار .

قال: إذن أنت تريد السماء لا الأرض فانتظر

قلت : كنت قديماً على أهبة أن أنتحر لكي أخلص من جحيم هذه الأرض فقطعت أنت عليَّ الطريق إلى السماء اذ حلتَ دون انتحاري

قال : ليس الأجل في يدك حتى تقطعه أو تصله كما تشاء . بل هو في يد موزع الآجال . كان يجب أن تبقى في عالمك تجاهد فيه لكي تنال جزاء لك في الآخرة .

— لماذا لا يكون العالم خالياً من الشر؟

— إذا كان خالياً من الشر فيكون هو والفردوس سيّين . فلا لزوم لأرض ، ولا لسماء، ولا لجحيم ولا لنعيم

— لماذا لا يكون الأمر كذلك ؟

— إذا كان الأمر كذلك فتكون الحياة بلا غاية ، ولا لزوم لها ، الأجل بضعة عقود من السنين غير تامة الهناءة يحيا الانسان ؟ ان حياة قصيرة كهذه لا تستحق أن يحياها الانسان

— لماذا لا يكون ثمت نعيم بلا جحيم

— اذا كان نعيم بلا جحيم ، فلا يكون ثواب ، جزاء صلاح لأن النعيم ثواب ، ولا بدَّ من عمل الصلاح للحصول على ثواب . وكيف تشعر بلذة النعيم اذا لم تذق مرارة الجحيم ولوهنيهة . وبضدها تتبين الأشياء، لا يشعر الأبرار بهناءة نعيمهم ، إذا لم يروا الأشرار يتعذبون في جحيمهم.

— ولا لزوم لصلاح ،ولا لثواب له ، ولا لشر ، ولا لعقاب له .

— إذا لم يكن صلاح ولا ثواب ، فلا تكون ثمت حياة حساسة عاقلة . وحينئذٍ نعود فنعرض عليك أن تكون جماداً لا يحس ولا يعقل .

— بل أود أن أكون إنساناً يحس ويعقل، وأن تقف أنت الى جانبي حارساً لي من شرور هذا العالم ما دمت أنت ملاكي الحارس كما تدعي . تردني عن عمل الشر إذا أوشكت أن أرتكبه، وتعصمني عن كل خطاء وإثم، وتحفظني من كل أذى . وإلا فما معنى أن تكون ملاكي الحارس ؟

— تعني أنك تتنازل عن حريتك وتسلمني زمام نفسك،وتجعلني مسئولا عنك أمام ديانك . فأي فضل لك تستحق عليه ثواباً . وأي فرق بينك وبين الدودة .

— وهل أنا حرٌ حقيقة ؟

— أنت كما تشعر .ألا تشعر أنك حرٌ ؟

— بلى وأحياناً أشعر اني غير حرَ

وحينئذٍ سمعت جرس الباب يطن.فقال قم استقبل زائراً الآن، ودع حديث الحرية الى حين آخر .

ثم ابتدأ الضوء يبدد ظلماء المكان تدريجاً، وشرع طيف الملاك يختفي رويداً الى أن عادت الغرفة جلية لي كما كانت قبلا . فقمت وفتحت الباب . وما أدهش ما رأيت :

الفصل الرابع عشر

مغنطيسان مصطدمان

يا لغرابة ما رأيت ، دهشت
من أنتِ
— ويك أتنساني ؟ أتنسى سلمى ؟
— سلمى الزعفراني .الصديقة القديمة ؟
فجعلت أفرك عيني لكي أتحقق هل أنا في حلم أم في يقظة . في أية حياة أنا الآن ؟ خفت أن تستجنني هذه المرأة فجاريت الظرف الذي أنا فيه . قالت : — بل صديقتك الجديدة سلمى عقيلة ستنفورد .

جعلت أحملق فيها وأجيل نظري الى أن فرطت مني كلمة كأني أكلم نفسي: لعلي عدت الى حياتي الأولى أو حلم الحب القديم

— حياتك الأولى ؟ هل تهذي ؟

— أجل ذلك الحلم القديم الجميل السعيد في تلك الحياة القديمة السعيدة. نعم. سلمى سلمى ان لقاءك في الكونتيننتال بعد غياب طويل ردَّ لي سعادة كنت أفقدها . آه : ما أجمله حلماً ، وما أسعده وهماً . حقّاً لا سعادة حقيقية إلاّ في الأحلام ، ولا لذة تامّة إلاّ في الأوهام . أي نعم هاتي لي سعادتي ياسلمى ، أطيلي حلمي السعيد يا سلمى ، مددي زمن منامي . أكثري من أوهامي السارة يا سلمى .

— سلامة عقلك يا يوسف ، أي حلم هذا الذي تعني ؟ إنك في يقظة النهار وانتباه العقل . اصح من غفلة الحمى ، وتذكر حديث الالقاء في الكونتيننتال يا يوسف .

يوسف ؟ همست لنفسي : يوسف ؟ إذاً أنا الآن في حياتي الأولى التي ردني لها الملاك . وما أنا « جميل » في حياتي الثانية. إذاً الثانية هي الحلم وقد تيقظت منه . أو ان ملاكي ردَّ لي الحياة الأولى لأني ندمت على استبدالها . ويلاه ! أنشوانٌ أنا ؟ أم أنا مخبول ؟

ثم قلت على مسمع سلمى : إني يا سيدتي في خبل، في ذهول. تبّاً لهذه الحمى . أحقيقة إنك سلمى الزعفراني ؟ أين كنتِ وكيف جئتِ ؟

فقالت : عدْ إلى رشدك يا عزيزي . ما أنت في حلم، ولا وهم، أنا سلمى الزعفراني وقد ودعتني في ميناء بيروت يوم هاجرت الى أميركا مع أمي وتركتك دموع الفراق، وهناك وجدنا أبي ناجحاً بتجارة المطاط ، وذا صلة بستنفورد ملك المطاط . فأحبني ستنفورد ووضعني في الجامعة لكي أتعلم . ثم تزوجني . ثم عدت الى الشرق حنيناً الى الوطن . وبحثت عنك فقيل لي إنك في القاهرة . وعيَّنت « مخبراً » يبحث عنك

ويستقصي أخبارك ، الى أن اجتمعنا في الكونتيننتال . وكان بيننا من عتاب وذكريات ما كان . وسرعان ما علمت إنك في أزمة افلاس، فأرسلت اليك حوالة تستعين بها لوقت قصير، وتحفظ كرامتك ريثما تدبر تدبيراً آخر يرد لك مكانتك . معي مال كثير أضع قسماً منه تحت تصرفك . فلماذا رددت الحوالة ؟ أعزة نفس تجاهي ، وترفّع عليّ أنا التي أحببتك حبّاً جمّاً ؟ والحب لا يُبذل يا عزيزي بل يرفع . فارهو الآن .

— إذن أنا في يقظة الآن . إذن سلمى تتعطف الآن . سلمى تنسى الأسى الذي نالها من اعراضي في عهد الصبا، وتنسى الدموع التي استذرفها صدي . ما أطيبك يا سلمى . لست أندم على ذلك الاعراض الذي أبكاك يوم الوداع ، فقد أفرحك في زمن النوى الطويل ، لو استجاب يوسف العنابي رجاءك حينئذٍ لما نال ستنفورد يدك ، ولما تمتعت بجاه ستنفورد وغناه . فاهنئي . إنما أنت جديرة بالهناءة والسعادة . وأما أنا فخليق بالشقاء والبؤس ، وأخيراً بالفناء المهين

— بل أنت جدير بالحياة الطويلة السعيدة ، ولست أنت الذي يتكلم الآن . الحمى تتكلم . يجب أن تنقل الى المستشفى . سأدبر أمر انتقالك اليه عاجلاً . نم الآن هادئاً .

* * *

وما ان نهضت من مقعدها حتى قرع الباب ففتحته . وما كان أشد دهشتي حين رأيت فريدة الصائغ الحبيبة القديمة التي اجتذبتني في أيام الصبى من سلمى . رأيتها تدخل وجرى بين الحبيبتين الحديث :

قالت سلمى مُنعمة النظر فيها : ألا تكونين أنت الآنسة التي اعترضت في سبيلي مرةً قبل هذه ؟

ورأيت فريدة تحملق فيها وقالت : عجباً لا أتذكر أني رأيتك قبل الآن لكي أتذكر السبيل الذي احتكرته لنفسك فاعترضتك فيه . السُبل كثيرة وواسعة لجميع الناس، فلا أحد يعترض أحداً .

فقالت سلمى : الناس لا يعترضون بعضهم بعضاً لضيق السبيل بل لسبق الوصول . دفعتني في قديم الزمان الى الوراء فهل وصلت الى الهدف المؤمل في هذا الأمام ؟

ورأيت فريدة تتنهد وهي تتبين سلمى وقالت : آه ! ما زلت جادّة الى الهدف ولمّا أصلْ . ألا تكونين السيدة التي سابقتني اليه قديماً، وقد سبقتني اليه أخيراً . لقد سمعت إنك وصلت الى هدف آخر ممتع . فما بالك تعودين الى الهدف الأول . أتطمحين الى الهدفين معاً ؟

فقالت سلمى : وقد سمعتُ إنك طمحت قبلي الى هدف آخر فطمحت قبلي الى هدفين ، فلماذا تستنكرين عليّ هذا الطموح ؟

فقالت فريدة متألمة : لست أنكره يا عزيزتي عليك . وإنما أحسدك عليه . لقد

تلك الأمنيتين . وأما أنا فخسرت المطمعين، أنت تتمتعين بقلبين ، وتنعمين بحبين ، وأنا أشقى بخيبتين، أفلا تتفضلين أن تتنازلي عن أصغر نعمائك إنصافاً لي ؟ وتكونين سيدة الكرماء كما أنك سيدة الكبراء .

— اني أرثي لك يا عزيزتي ، وأخلي لك الجو لكي تروّي ظمأ قلبك من رحيق الحب وانما لا تنكري عليّ عطفي على هذا القلب الطيب الذي لوّعته كوارث الحدثان وغِيَر الزمان .

وهنا تقدّمت سلمى إليّ لكي تصافحني مودّعةً ، ودسّت تحت مخدتي شيئاً لا أدري ما هو ومضت مسرعةً .

ملاك دخل ، وملاك رحل .

تقدّمت فريدة وكأن باب الفردوس انفتح وتدفق النعيم الى داري ، ونهضت في سريري أتبينها .

وحملقت فيّ تتبين الترحاب في ابتسامتي ، والسعير في خدّي ، والنشوة في ترنحي ، وجست يدي ووضعت مقياس الحرارة في فمي .

أدركت أن حُمّاي تكاد تطلق الزئبق من طرف مقياس الحرارة ، وقالت: اضطجع في سريرك يا عزيزي ولا تزعج نفسك .

فاضطجعت ، ولما نزعت المقياس من فمي ونظرت فيه متجهمة قلتُ : ما الذي دفعك الى هذا الوطيس الذي ألتهب فيه ؟ فهل جئت لكي تطفئيه، أو لكي تحترقي فيه ؟

قالت — جئت لأحد الأمرين ، فأيهما تشاء .

قلت : لا تستطيعين أن تطفئي الهشيم الملتهب، فخيرٌ لك أن تبتعدي عنه إذ لا فائدة لك من احتراقك فيه ، بعد قليل يصبح الهشيم رماداً .

قالت : سأطفيء الهشيم وأرده عشباً نضيراً في مرجةٍ مخملية خضراء

قلت : هل تستطيعين أن تحيي العظام وهي رميم ؟

قالت : الإيمان يستطيع

قلت : هل بقيت عندك حبة خردل منه ؟

قالت عندي ما ينقل الجبل من هنا الى هناك .

قلت : أين كانت خردلة الإيمان هذه يوم كنت أغالب الزمان، ويكافحني الحدثان، وأنا في مسيس الحاجة الى قوّة إيمان

قالت : كانت مزروعة ، وأخيراً نبتت خردلة الحب حُرّةً طاهرة نقية .

قلت : أجل طاهرة نقية ، ثمّ لفحتها ريح سموم

قالت : أجل لفحتها ولكنها لم تجففها، فعادت واعتدلت وأثمرت إيماناً قوياً يشفيك مريضاً ويحييك ميتاً

فتبرّمت وقلت : « في الصيف ضيعت اللبن » يا هذه

قالت : ضيعتُ اللبن ، والآن وجدت العسل .

— أوَما علمتِ أني أفلست؟

— أوَ ما علمت أني فديتك؟

— فديتني ؟ كيف ؟

— وفيت دينك واسترددت تجارتك لك

— ويحك ! لا تدرين ما ذا تفعلين

— أدري انني ضننتُ بكرامتك واستنكرت هوانك .

فاستبقيت لك حريتك . لست بمشتريتك بمال ، بل بقلب ان كنت تبيع

— لله منكِ بارعة في الدهاء، كما أنتِ بارعة في الجمال . كنت أعرف الثاني، وأجهل الأول . فأنى لكِ هذا ؟ ومن علّمكِ ؟

قالت : علمنيه الأستاذ الأعظم رامي السهام (إلَـه الحب)

قلت : وهل منحكِ الأستاذ الدبلوم ؟

قالت : نعم ولكن ينقصه توقيعك عليه

فتبسمت ملء شفتي ، وانعقد لساني .

فقالت ألا تسامح ؟ ألا تصفح ؟

قلت : لك عليَّ فضل عظيم ، فكيف أحقد ؟

— أي فضل تعني ؟

— لولاكِ لما درست اللغة الانكليزية ولا دخلت الكلية ، لولاكِ لما صرت إنساناً

فانحنت عليَّ وخطفتُ منها قبلة لأول مرة.

وقالت ، طب نفساً وقرَّ عيناً، وهون عليك فستتمتع بالعافية عاجلاً ، إني ذاهبة لكي أستدعي لك الطبيب ، وسأمرّضك بنفسي

ثم خرجت وتركتني ذاهلاً مما قالت : وفت ديني . أي دين ؟ أدين شمعون ؟ هذا حلم حديث لا علم لها به . وهي كانت في حلمي القديم . فهل عنت دين سليم الصافي ؟ فهو حلمٌ قديم ... هل لا أزال في الحلم القديم ؟ ربّما أنقذني من هذا الخبل . ان عقلي يتقلقل في دماغي .أظنني في بدء جنون

الفصل الخامس عشر

هل ما قدّر يكون؟

دخل صديقي الرحاني وجسّ نبضي، وجسّ حرارتي، ووضع مقياس الحرارة في فمي. ثم فحصه وقال: لقد هبطت حرارتك الى الثمانية والثلاثين والنصف، إذا لم تهبط غداً الى السبعة والثلاثين فآخذك الى المستشفى. لقد دفعت للمستشفى عشرة جنيهات عربوناً لغرفة حسنة، والأرجح أننا لا نحتاج إليها. أما التسعون جنيه الباقية فأردها الى خزانتك في محفظتها، إذا تكون غداً في حالة جيدة إن شاء الله

قلت: ان زيارة فريدة خطيبتي في حياتي الأولى أنعشتني جداً فتحسنت حُمّاي.

فقال صديقي مجفلاً: خطيبتك في حياتك الأولى؟ هل لك حياتان، أم إنك عدت الى الهذيان؟

— وي. وي. معذرة يا عزيزي. أتكلم في حلم. فلا تحاسبني على تخريفي. ان الحمّى تريني أشكالاً وألواناً. أظن الأفضل ان تنقلني الى المستشفى في الحال على كل حال. فإن بقيت أهذي فانقلني الى مستشفى الأمراض العقلية، لأن دماغي أخذ يتهدّم ومراكزه يختلط بعضها ببعض، وأليافه جميعاً تندمج كتلة واحدة. آه يا عزيزي الحميم النصوح المخلص. فقد ضعضعت الحمى عقلي.

وطفقت أبكي وهو يؤاسيني الى أن نمت وتركني ومضى. لا أدري في أي هزيع من الليل، وأنا في إبّان إغفاءتي، شعرت بقوة تهزّ جوانحي، فإذا بي أرى شبح ملاكي واقفاً لدى سريري بشكل نوراني بديع في حلك الليل. فجلست في السرير وقلت: أهلاً يا ملاك الرحمة.

فقال: لقد عدت الى حياتك الأولى، ثم ما لبثت إن حسبتها حلماً. وحسبت الثانية الحقيقة. وأسفت لضياع ما كان في تلك من حب لفريدة، وحب لسلمى. فها أنت الآن على مفرق الطريقين بين الحياتين. فأيتهما تريد، وأيتهما تختار، لتتمة العمر فيها؟

قلت: كلتاهما عندي سيّان. اخفاق في الحياتين وخيبة في الحبين. وإنما أتمنى أن أفهم شيئاً واحداً. لماذا تطابقت الحياتان؟ هل لو عشت حياةً ثالثة....

فقاطعني قائلاً: — ستطابق الثالثة الثانية، والأولى أيضاً، وهلمّ جرّا.

قلت: إذن لا فائدة من التجربة والاختبار. حيث لا حرية في الاختيار. فكأنّ ما قدّر يكون

— لا شأن للحرية في هذه المطابقة.

قلت: إذن أين السر في هذه المطابقة؟

قال: السر في جبلتك أولاً. ثم في بيئتك

ثانياً . إذا تشابهت الجبلتان والبيئتان تشابهت النتيجتان . إذا تغيّر أحد الجانبين تغيرت النتيجة . نفس الطبيعة والمزاج والأخلاق في نفس البيئة تنتج نتيجة واحدة . وإنما السمكة في الماء سمكة ، وفي البر زحافة ، وفي الهواء طير . فأنت في تقلبك على حياتين لم تتغير جبلتك ، ولا تغيرت بيئتك ، فلا يمكن أن تختلف حالتاك اختلافاً جوهريـاً .

قلت : إذن الطبيعة تلعب في الانسان كما تشاء فلا اختيار له .

قال : ليس للطبيعة مشيئة ولا اختيار ، وإنما هو تفاعل بين مزاج الانسان وأخلاق الطبيعة ، أو إذا شئت فقل بين اخلاق الانسان ومزاج الطبيعة .

قلت : إذن الانسان لا يستطيع أن يغير شيئاً في مصيره . فزاجه والطبيعـة يقرران مصيره .

قال : بل يتغير مصير الانسان إذا قضت ارادته أو ظروفه بتغير بيئته . وقد يمكن تغير بعض مزاجه أيضاً بتغير بيئته .

قلت : إذا كان مصيره يتوقف على بيئته فهل للانسان مشيئة في جبلته وبيئته ؟

قال : في جبلته لا مشيئة له . هي قضاء أزلي ، ولا ارادة له في القضاء . وأما بيئته فله حرية في تغييرها ، والانتقال من بيئة الى أخرى ، ومن وسط الى آخر ، ومن معشر الى معشر .

قلت : إذا لم تكن لي مشيئة في جبلتي فاذاً أنا غير حر .

قال : نعم لست حرّاً في إنشاء جبلتك ، إنما هي ارثٌ لك من سلالتك مزاجك ، طبعك ، خُلُقك — كل هذه ليست منك ، هي مسلسلة من سلالتك ، فليس لك سلطة على إنشائها ، ولكنك حرٌ في اختيار بيئتك ، ولا سيما بعد أن تخرج من حضانة والديك ، ومصيرك يرجع الى حريتك في هذا الاختيار

قلت : ما دمتُ لا إرادة لي فيما يتوقف عليه مصيري ، وهو مزاجي وخلقي حتى بنية جسدي فما أنا حرٌ ، ولدت قاصر العقل فلا يمكن أن أصير فيلسوفاً مهما غيرت بيئتي . أو ولدت ذكيـاً ، فيمكن أن أكون نابغة أينما كانت بيئتي . فاذاً ارادتي جزء من جبلتي . فليس لي سلطة عليها ، فما أنا حرٌ في أن أجعـل نفسي ذكيـاً أو أبله . أعني أن ما يتراءى لي من حرية الارادة ليس إلا وهماً أو خداعاً للضمير والوجدان ، هـذه حرية مقيدة ، هذه سخافة

قال : ما قلته الآن هو الحقيقة ، لا حرية لك في نشأتك ، ذكيـاً كنت أو أبله ، عصبي المزاج أو هادىء الخلق الخ . وانمـا أنت حرٌ الى حدٍّ في تصرفاتك ، وبقدر هذه الحرية أنت مسؤول ، فلا تتنصّل من مسؤوليتك . في حياتيك تطابقٌ في حوادثهما الرئيسية ، لأن مزاجك غالب على ارادتك في تصرفاتك ، فأنت طيب القلب فلا تستطيع أن تكون رديء النفس . لذلك أحسنت الظن بالناس

في الحياتين فوقعت في حبائل الناس في الحالتين . ولكن الحياتين لم تتطابقا في الحوادث الثانوية لأن حرية ارادتك لعبت فيهما دورين مختلفين فتغيرت النتيجة بعض التغير .

فتضجرت وقلت : ما دام في جبلتي عناصر جوهرية كخلقي ، ومزاجي ، وبنية جسدي ولا حرية ارادة لي فيهما ، فما أنا مسؤول عن تصرفاتي الثانوية التابعة لسلطان جبلتي . وما دام هذا العالم ملآناً من الخير والشر ، وفيه مسالك الى الخير والشر لا تحصى ، فالانسان عرضة للوقوع في الأغلاط والأوزار . وما من أحد مهما كان موفقاً في مزاجه وأخلاقه يستطيع أن ينجو من الوقوع في الخطأ والوزر . إذن ليس من العدل أن يدان ويعاقب .

قال : يدانُ على قدر ما له من الحرية في تصرفاته لا قدر ما له من التوفيق في مزاجه .

— : —

الخير والشر

قلت : ولماذا يكون في العالم شر ؟ وكيف نشأ الشر ؟

قال : لا بدَّ من نشوء الشر ، لأن الحركة طبيعية في الأكوان ، وسببها قوة التجاذب التي هي طبيعية في الهيولى أصل المادة . وما دام بين أجزاء المادة تجاذب فلا بدَّ من حدوث تصادم أو تفاعل بينها . هذا هو أصل الشر . ففي العالم الانساني تحرك مستمر لأن فيه قوة الأميال والأهواء ، وبعبارة أخرى قوة الشهوات ، فأفراده وجماعاته متجاذبة متنافرة ، وبالتالي متصادمة أيضاً ، فالشر ضربة لازب له ، والتصادم مؤلم ، والألم عقاب . وعلى قدر شدة التصادم أو خفته تكون الدينونة .

قلت : هل للانسان يد في تخفيف التصادم .

قال : نعم لتعقله الذي اختصَّ به دون جميع الكائنات عمل في تحايد التصادم . فهو المسؤول .

قلت : إن التصادم في الطبيعة المادية أو الأخلاقية أو كل تصادم إنما هو خارج عن حركة الفرد . هو حادث كوني عالمي لا يستطيع أي انسان أن يسيطر عليه ، ولا على أقل حركة منه . ولأن لحوادث الكون تدخلاً في أعمال الانسان ، فلا ارادة للانسان فيما يفعله ، بل هو مجبر على فعله ، وان كان يشعر انه حر ، وما هو بحرّ . وبالتالي فما هو مسؤول . وحاصل القول اني أود أن أعلم سبب نجاحي أو اخفاقي في الحياة ، هل كان طوع ارادتي ؟ هل هو متوقف على الاجتهاد والسعي ، أو على التوفيق ؟ على أيهما يتوقف ؟

قال : يتوقف على كليهما ، تارة على هذا وأخرى على ذاك ، أنت لا تستطيع أن تمنع القَدَر اذا أغرق السفينة ببضاعتك ، وانما تستطيع أن تسلم من خسارها ، اذا أمَّنت

عليها في شركة تأمين ، ولا تستطيع أن تمنع شح الموسم في فصل القيظ ، ولكنك تتلافى الحاجة اذا كنت تقتصد ، وتكنز المؤونة ليوم المحل والقحط ، ولا تستطيع أن تتلافى الخسارة اذا أنزل القدر الأسعار لطارىء لم يكن في الحسبان ، ولكنك تتدارك الافلاس اذا أنعمت النظر في الصكوك قبل أن توقع عليها ، لكي تتأكد انها لا تحتمل التزوير ، او انها مطابقة لما وافقت عليه ، فاذا كان عندك بضائع حين تشب الحرب كان ذلك توفيقاً ، وان حدث صلح فجأة وتخزنك مكتظ بالبضاعة الغالية ، كان ذلك نحساً لك . فليس لذكائك شأن في أية الحالتين . وانما لكي تكون مرجح النجاح يجب أن تعتمد على الذكاء في كل حال ، ولا تتوكل على التوفيق . ليس لك يد في القدر ، وانما لك حرية في أعمال الفكر والاجتهاد . ولكل مجتهد نصيب .

— ألف شكر لنصائحك يا سيدي الملاك الفيلسوف .

* * *

عند ذلك سمع جرس الباب يقرع فقال : قم استقبل زائراً ، وفي اللحظة نفسها اختفى ، ورأيت مائع نور الصباح قد جرى في حجري فقمت وفتحت الباب ، فاذا بي أشعر بصدمة ردتني الى الوراء صريعاً

الفصل السادس عشر

شيطان وملاك

هذه صدمة من الصدمات التي قال عنها ملاكي الآن ، رجعت مسرعاً الى سريري مترنحاً من صداعي، ومحترقاً من سعير الحمى في بدني ، دخلت عليَّ لندا زوجتي المطلقة، دخلت بخفة روحها ، وابتسامتها المعتادة ، وقالت : سمعت يا عزيزي أنك مريض . جئت أعودك ، كيف حالك ؟

— حالي كما تشتهين ، ماذا تشتهين ؟

— السلامة والعافية لك يا عزيزي، أنت رجل طيب القلب جداً ، ولكنك ساذج ، بل مغفل .

— حقاً إني مغفل ، وإلاّ لما سلمتك ذقني قبل أن أسافر الى أوروبا، كما سلمتك قلبي بعد أن قبلتك في مكتبي

- بل أنت كلب مخلص أمين

— أجل أخلصت لك ككلب أمين، وانقدت لك كحمار يتقدم الى البردعة من تلقاء نفسه متى رآها في يدي صاحبه لكي يضعها على ظهره ، ويقف لديه ويمتطيه .

فقهقهت وقالت : تعيش يا حماري، لقد قلت ما كان يجول في ضميري . أنت حمار ذكي . ولكنك لست معنفصاً ، ولا «ملحلحاً» يا عزيزي ، والاّ لكنت أمنحك لقب جواد نبيل، يقف الى جنب فارسه حالما يستوقفه .

— لله من كيدك يا امرأة ، لماذا لم تظهر هذه البراعة منك من قبل ؟ فقد ظهرت لي كالحمامة الوديعة الطاهرة .

— من حسن البراعة أن لا تظهر البراعة إلاّ في حينها يا عزيزي .

- ولماذا جئت ونحن الآن مطلقان، وصار بيننا حواجز ؟

وأدارت وجهها الى الخزانة وفتحتها ، ورأيتها تأخذ منها محفظة النقود ، فنهضت لكي أردعها ، ولكن قوتي خانتني ، وهي ارتدت الى الوراء قائلة : لا تزعج نفسك يا عزيزي ، أنت مريض جداً ، وضعيف القلب ، نم في سريرك ، ولا تجاهد لئلا يشتد مرضك

وأضجعتني في سريري رغم أنفي وألقتني فيه ، وأنا واهي القوى وقالت : لأجل هذا جئت ، لقد أودعت المحفظة هنا وفيها مائة جنيه . ولكني لا أرى فيها إلاّ تسعين .

قلت : أجل لقد شعرت بشيء من الشكر لك إذ فصلت لي من تركتي مائة جنيه لكيلا أضطر أن أتسوّل لأجل النفقة في المستشفى بعد هذا الخراب

قالت : لا أظنك في حاجة الآن الى أكثر من العشرة التي سرقتها من المحفظة . أمّا أنا فإني في حاجة ماسة إليها كلها

ثم أودعت محفظة النقود في شنطتها (حقيبتها)

فقلت: ويحك يا سليطة، خافي الله يا لصة. إني مريض وليس معي فلس واحد، فكيف تتركينني هكذا ولا سند لي، والمال الذي أخذته هو مالي

قالت: البركة بجمعية الرفق بالحيوان تهتم بك ربما تدفنك في خرابة إذا لم تشف، فلا تحمل همّاً، سأتلفن للجمعية لكي يأتي مندوبها إليك. ثم الآن.

ودفعتني بيدها اذ نهضت، فوقعت على السرير واهياً

— لله منك يا قاسية، لا رحمة ولا شفقة ولا عطف يا ظالمة.

— لست تجد أعطف من فؤادي على الدينار يا غبي، كلي عواطف للفلوس، كلي حنوٌ على المال، تذرف دموعي أسىً إذا رأيته يبذل بهوان.

قلت المرء يعطف على ولده لأنه منه وله وقد رباه، ويبذل نفسه لأجله، وأما أنت فلم تبذلي جهداً أو تعباً لأجل هذه الفلوس، اختلستها اختلاساً. فلماذا تعطفين عليها؟

قالت: ان أحبَّ مال للانسان وأهيج لعواطفه هو مال يحصل عليه اختلاساً أو احتيالاً. وأما الفلوس التي يتعب ويشقى في تحصيلها فلا تستحق عنايته ولا حبه. بل تستحق نقمته عليها وكرهه لها. ولهذا ينفقها ابتذالاً، أو يبذلها بحرارة لأجل حاجته ولذلك لا يلتذ بها. وأما الفلوس التي يحصل عليها بالاحتيال والاختلاس وبغير نصب فهي مقدسة، يحافظ عليها بكل قوته ويختزنها ويسهر عليها ويحميها ويذوب أسىً إذا فقد ذرة منها. عمرك الله هل رأيت ركام الأموال في المطابخ، أو في خزائن الملابس، أو في رياش القصور أو المنازل لأجل التمتع والتنعم، أم تراها في قلاع المصارف للادخار ولتضخيم الثروات. وهل رأيت المصارف والخزائن والحافظ مكتظة إلا بمال السحت؟. وهل رأيت ترفاً إلا بمال الحرام؟. وهل رأيت بطراً إلا بالمال المبتز من طبقة المعوزين. وهل رأيت الصدور منتفخة إلا بأوصاب المغامرين؟. وهل رأيت شظف العيش إلا للناس المعانين في العمل الشاق؟ لولا هؤلاء يا عزيزي لم يكن ثمت بطرون مترفون. ولولا بذل العاملين عرق القربة لما امتلأت بطون المصارف والخزائن. فالناس يا عزيزي صنفان: صنف يكدح ويشقى، وصنف يحتال على ذاك ويختلس منه ويتمتع على حسابه. صنف يبذل جهداً فينحل ويسقم، وصنف يدخر وينتفخ ويسمن. فأنت من الصنف الأول يا عزيزي فاشق. وأما أنا فلا أريد أن أكون إلا من الصنف الثاني. فلا تلمني إذا ادخرت وتمتعت على حسابك. ومن أقرب إليَّ منك لكي أخصه بهذه السخرة؟ ومن أخضع رقبة منك لكي أثقل كاهله؟

بهذا الوقر ؟ عسى أن تشفى لكي نعود الى تبادل الشقاء لك ، والتمتع لي ، والغُرمَ لك والغُنم لي . نم يا حبيبي نم .

فصحت بها في إبان ارتفاع حرارتي، وتصاعد الدم الى رأسي : ألا لعنة الله عليك يا هذه . هل كنتُ في حاجة الى هذه المحاضرة الجهنمية منكِ ؟ ألا ضمير لكِ ، ألا قلب حب عندك ؟ ألا عطف روح بعد عشرة بضع سنين، يا أفعى، يا ثعلبة، يا رتيلاء؟

فقهقهت وقالت : ضمير يا مغفل ؟ أين الضمائر يا غبي . لقد عُرضت في سوق تنازع البقاء فكسدت وبارت، وتعفنت وفسدت، إن هذه الضمائر التي لا تزال لسذاجتك تؤمّل منها خيراً قد أصبحت بؤرة مراآة، وحمأة مخادعات، ومستنقع نفاقات. وأما قلوب الحب التي تتلهف اليها فقد أصبحت أوكار مماذقات . وأما تلك الأرواح التي تنشد عطفها فقد أصبحت أرواح جبن ، أو رياح أنانية تصفر في أجواف أصنام . فاذا كنت تتوقع نجدة من الضمائر فاطلبها من جوّ الملائكة . أو إذا كنت تنتظر من القلوب حبّاً، فاطلبه ممن تبذل له قلبك لكي يأكله ويهضمه، أو إذا تمنيت اخلاصاً من الأرواح، فلا تجد أخلص مني لك في كشف هذه الحقائق لبصيرتك بصراحة .

فصحت : ألا تبّاً لكِ . لقد قلبتِ لي الكون ظهراً على بطن يا فاجرة، فأريتِني جحيماً أشد عذاباً من عذاب الأرض . لقد جعلتِ يا شقية هدف هذا النعيم أبعد عني من المثل الأعلى ، وأريتِني بمنظار التهويل مصير الجحيم أقرب اليّ من رحم البركان . تبّاً لكِ لقد صورتِ لي الكون مملوءاً شرّاً يا خبيثة فلم يعد يظهر فيه خير . كيف يتقدم العالم على أجنحة الشرور يا شيطانة ؟

قالت ضاحكة هازئة : الخير؟ هي ه هي ه : الشر ؟ قه قه ، الخير والشر يا عزيزي نسبيان . فما هو شرٌّ لك هو خيرٌ لي . وما هو خير لزيد هو شر لعمرو . وإذا لم يخسر فلان فلا تكسب فلانة . وإذا لم تفلس أنت فلا أثري أنا . وإذا لم يضعف جرجس فلا يسمن كوهين. وهكذا الدنيا خير وشر، يتبارزان في معمعان العمران ، أو يتناوبان دورات الزمان ، كما يتعاقب النيران . فلا تحزن يا عزيزي إذا رأيت شرّاً مستطيراً هنا، فان هناك خيراً متدفقاً . والمهارة في هذه الحياة هي أن تجري الى ناحية الخير قبل أن تدهورك ناحية الشر . اركض الى ناحية الربح ، قبل أن تهبط في هاوية الخسران . هل ارعويت؟

— ويحك يا شريرة . هل أرعوي بهذه التعاليم التي لا تستقيم لا في دنيا ولا في آخرة. ولا تنفع في نعيم ، ولا في جحيم

— هذه هي تعاليم هذا العالم يا عزيزي، هذه شريعة تنازع البقاء الذي هو قسطاس هذا العالم . فلا تتعب نفسك في تغييرها، لقد سبقك كثيرون الى اصلاح العالم، فما

أعطوا العالم الا تعاليم تزيده تعقيداً ، وشرائع تزيده آثاماً ، ونواميس تزيده ذنوباً . ولولا الشريعة لم تكن الخطيئة . كم نبي، وكم رسول، وكم معلم، وكم مصلح، ظهر في هذا العالم ؟ فهل قلت الشرور أم كثرت؟ هل كانت حروب العصور الغابرة أفظع من الحروب الحاضرة ؟ وي . وي كلما تقدمنا في الزمان، اشتدّت مصائب العمران ، كان الإنسان في عصر الحمار والبغل والحصان ، أقل خوفاً من ويلات الحروب منه في عصر البخار ، والكهرباء، واللاسلكي، والطيران . العالم كما نراه الآن يصلح للإنسان كما جُبل الانسان عليه ، فلا تتعب نفسك في اصلاح العمران، بل اجتهد في اصلاح طبيعة الانسان ان كنت تستطيع، وإلا فاطلب الخير لنفسك، من وراء الشر لغيرك ، هذا هو ناموس النسبية العمرانيـة الأخلاقية . السلام عليك والى الملتقى ان بقي عندك ما يجذبني إليك.

***

وقبل أن تخرج لندا دخلت دورا بنت سلمى فظنتها ملاكي الحارس : كيف ظهرتِ في هذا العالم الثاني ؟

استقبلتها لندا استقبال الأفعى لحواء وقالت : أهلاً وسهلاً بالملاك السماوي ، ألملك رسول خير لهذا المريض المسكين . انه في حاجةٍ الى العطف الى الشفقة ، الى المعونة ، الى المال .

فنظرت فيها نظرة ساذجة وقالت : أشكر لطفك وعطفك ، يا سيدتي . إني لهذا جئت .

فقالت لندا على دورا وهمست في أذنها كلاماً لا أعلم ما هو ، فأجابت دورا بكلام مسموع : كوني مطمئنة لا أدعه يحتاج الى شيء ، ولا لأحدٍ البتة .

ومضت لندا ، وتقدمت دورا ، وأنا أشعر أن لهيباً ينـدلع من وجهي ، وعلى الرغم من سعيرهِ المحنت قائلة : سلمت يا عزيزي ، فديتك يا روحي .

— من أين جئتِ يا ملاكي الطاهر ؟

— من العالم الجديد ، جئنا لزيارة شرقنا ومشاهدتك .

— لقد حلت البركة ، ولسوف تكون الخاتمة سعيدة لك ، بعد النعيم السماوي .

— لسوف أشفى ونتمتع برهة هنا وفي لبنان ان شاء الله . من هذه المرأة الحنون التي كانت عندك ؟

— هي الأفعى الرقطاء الحنون على حواء، هي الحية الخبيثة العطوف على زوجة آدم ، هي الثعلبة الروّاغة الشفوق على آدم ، هي الصل اللداغ الرؤوف الذي يتسلل بين نسل آدم ، هي ذئب المال المفترس ، هي ضبع الفلوس الساطي على فراخ الثروات ، هي كل أذى، هي الشيطان الرجيم . ما ذا همست في أذنك هذه اللعينة ؟

فضحكت دورا وقالت : لا تبالِ بها ولا بما قالت . لقد فهمتُ من وصفك هذا

لها ما هي ، لن يكون لها بعد الآن يدٌ في شؤونك ، غداً تعود لك تجارتك ، طب نفساً وقرّ عيناً .

— من أي سماء هبطتِ ؟ ومن أي عالم ملائكي قدمتِ يا جنة فؤادي ؟ متى جئتِ ؟

— جئت مع أمي منذ شهر، وسننتظر الى أن تشفى ، وثمّ نبرح جميعاً الى لبنان لقضاء الصيف هناك .

— أتمنين يا دورا ، إنك تجددين لي حياةً أخرى، أراك قد أصبحت عبلة مملوءة البدن، وازددتِ نضارة وملاحة . فيالغبطة من يستحق عطفكِ ورضاكِ

— ليس غيرك أحد يستحقهما ان كانا شيئاً ذا قيمة .

— آه لا أراني شيئاً ذا قيمة يا عزيزتي : المال فقدته ، الصحة ساءت، العقل تضعضع، حتى السمعة تلوثت. لم يعد فيَّ شيء يحبب بي يا دورا، فعلى مَ تضيعين قيمة شبابك وهناءة مستقبلك في جيفة تتكلم ؟

— صه : لا تقل هذا . ضاع كل شيء ، ولكن الشرف باقٍ الى الأبد ، وسقم الجسد ، ولكن طيبة القلب سليمة . والفكر تزلزل ، ولكن الجوهر حيٌّ خالد . سوف تتعافى وتبني الجسد والعقل والسمعة والمقام، بناءً أشمخ مما كان . شدّ حيلك واعتصم بطولك . كيف تشعر الآن ؟ ألست أحسن حالاً .

وجسّت يدي ونبضي ، فشعرت أن العافية جرت في عروقي ، ودبّت في بدني ثم قالت : أظن الحمى منخفضة ، والأفضل أن ننقلك الى المستشفى ، سأهتم بالأمر

ودسّت شيئاً تحت المخدة ومضت على وعد العودة

***

ما ان خرج هذا الملاك الطاهر ، حتى دخلت لندا الشيطان الرجيم،وقالت مبتسمة بسمة الثعلب : لا ريب أنك أحسن حالاً الآن يا عزيزي ،وقد قاربت الشفاء .

وكالقرد الخاطف دسّت يدها تحت المخدّة واختطفت الفلوس التي وضعتها دورا قبل أن تخرج .وقالت: بكم تفضلت حبيبتك التي كنت تكتم خبرها عني ؟ خمسمائة جنيه فقط ؟ هذا هو ثمنك الذي دفعته عنك ؟ لست أبيعك بأقل من خمسة آلاف . قل لها إنك أغلى من هذا جدّاً .

وكانت قوتي واهية فلم أستطع أن أقاومها ، فقلت لعنة الله عليكِ من ابليس رجيم . ألا تخافين الله يا شيطانة، ألا ترهبين نقمة الله القدير ياكافرة؟

فقهقهت ورفعت يدها بالفلوس التي اختطفتها وقالت : هذا هو الإله الذي أخاف ، هذا هو الإله الذي أعبد ، هذا هو الإله العظيم الذي أحفظه في قدس أقداس خزائني ، هذا هو اللوحان الحجريان اللذان كتب الله فيهما بأصبعه

وصاياه العشر ، ووضعهما موسى في تابوت العهد . الى اللقاء يا عزيزي ، سأعود لكي أقبض بقية ثمنك أيها العزيز الغالي . قل لحبيبتك انها لن تظفر بك بأقل من خمسة آلاف جنيه لن أدعها تهنأ يوماً بك إلا بالخمسة آلاف

فسخطت بها : تبّاً لك يا لعينة ، كيف تطيب نفسك يا خبيثة وأنت وصلصال التراب سيّان . ان هذا المال الذي تنهبينه وتدّخرينه لا يفدي نفسك في الآخرة يا شقية

فقهقهت وقالت : لا زلت جحشاً ساذجاً ، ليتك كلب ذكي ، فلعلك تفهم أن نعيم الحياة إنما هو في هذه الدنيا ، وان للآخرة الموهومة طريقاً غير طريق النعيم الدنيوي يسير فيه القاصدون الى تلك الآخرة . وهو مملوء أشواكاً وعثرات وحشرات ونكبات ، فلك أن تسير فيه حتى متى وصلت الى باب الآخرة ورأيته مقفلاً تعود اليّ فأعطيك مفتاحه . أشتري لك مفتاحه ببضعة فلوس ياغبي .

— ويحك يا تعسة . اذا كنتِ لا تؤمنين بالآخرة ، أفلا تؤمنين بالشيخوخة والهرم والعجز والموت .

— اله المال العظيم يساعدني ويقوّيني حينئذٍ يا جاهل .

— خسئتِ ، اله المال لا يستطيع أن يرد عنك عذاب المرض وملل العجز ، لا يشفيك من الداء العضال والضجر الطويل . حينئذٍ يطلبين الراحة في الموت فلا تجدينها ، يا بهيمة كل هذا المال يقف فوق رأسك يرثيك لأنك اعتصمت به ، وهو لا حول له ولا طول ، تنادينه فيهزأ بك ، تستغيثين به فيسخر من عبادتك له ، ان ربيع سرورك لقصير ، ولكن خريف عذابك طويل

— فقالت ببرود : ان إلهي الذهبي الحنون ، يحميني من الشيخوخة والهرم ، ويشفيني من المرض ، وينقذني من الألم . ان إلهي المحبوب ، يجعل أيامي الطويلة كلها ربيع هناءة وسرور .

— والموت يا تعسة ؟ هل نسيتِ عزرائيل

— لا . لم أنس عزرائيل . ألقمه بعض مالي ، فيعفُ عن روحي . لن أموت .

— والقبر يا مغرورة ؟ ماذا تلقمينه متى أقبل عليك فاغراً فاه ؟

— ألقمه تابوتاً من ذهب ، مرصع بالحجارة الكريمة .

— والدود يا مسكينة ؟ جائع الى لحمك النتن ، ولا يعيش إلاّ فيه .

— أدفعه بالحنوط يافيلسوف .

— إذن أنتِ وإلهك من التراب ، والى التراب تعودان . وفي الآخرة متى وقفتِ أمام الديان ماذا تقولين ؟

— الآخرة قبل القبر ياجاهل لا بعده ، الثواب والعقاب قبل الموت ياغبي ، الثواب لي والعقاب لك .

— أتنتظرين ثواباً يا فاجرة . أي مبرة فعلتِ ؟

— لا ريبَ ان دياني مُسعِدٌ لي ثواباً عظيماً يا عزيزي، لأني عبدته عبادة صادقة في قدس أقداس هيكله .

— في أي هيكل عبدته يا شقية :

— في هيكل البنك حيث تكدَّس زابين الأموال . فهو يثيبني النعيم في آخر الحياة ، لأني مجَّدتهُ ، وسبحت له وقدَّست اسمه .

— تمجدينه بالشهوات الجسدية ، ثم تنتظرين منه نعيماً ؟ لقد غفلت عن نعيم الروح في العالم الثاني .

— تقول الروح ؟ حتماً إنك مغفل ، دع نعيم الروح الخيالية لك ، ودع لي نعيم الشهوات الجسدية . ان الٓهي قد ضمن لي كل مسرَّة جسدية حتى الدقيقة الأخيرة من الحياة ، وسينصب لي تمثالاً من ذهب يُكتَب تحتهُ « القديسة لندا »

— عني يا لعينة ، الى هيكل خبثك ودعارتك ، والفظي روحك الى صقر وبئس المقرّ .

***

تركتني الشيطانة ، والحمى تشويني شيًّا ودمائي تغلي وتفور، ودماغي يتمدد ويتقلص، ومخيلتي كالسينما تستعرض الصور المعقولة وغير المعقولة ، الى أن ضقت ذرعاً وقلتُ : إلٓهي ارحمني ، ربي ارأف بي ، ملاكي الحارس خذ بيدي .

وإذا ملاكي منتصب أمام عيني يقول : لبيك . ماذا تريد ؟

قلت : أود ان أعلم . هل أنا في يقظة الآن أم في منام ؟

قال تكون فيما تشاء . ان شئتهـا مناماً فأنت في أضغاث أحلام ، أو يقظة فأنت في حقيقة بلا أوهام .

قلت : منذ هنيهة ، كانت عندي زوجتي الخبيثة في حياتي الثانية ، فهل أبقى في حياتي الثانية أو أعود الى الأولى ؟

قال : هذا أمر يخصك وحدك ولك وحدك الخيار فيه .

قلت : ألقت لندا عليَّ دروساً زعزعت وجداني ورجَّت ضميري ورأيت فيها ان الذين يفعلون حسناً في هذه الدنيا يشقون ، والذين يفعلون شرًّا ينجحون ويهنأون . أليس هذا هو الواقع ؟

— بلى هو الواقع الغالب .

— إذن ما سبب هذا الجزاء المعكوس في هذه الدنيا ، النعيم للاشرار ، والجحيم للأبرار ؟

فقال مقهقهاً : سببه أنتم أيها البشر المتحذلقون . سببه نظامكم الذي جعل المال سيّداً لكم ، واشباعاً لمطامعكم ، لولا هذا المال الذي ألّهتموه وعبدتموه لما كان من لزوم لوصايا الله العشر . هذا المال هو سبب الشرور لأجل الحصول عليه، وبسببه تكذبون وتسرقون وتقتلون وتزنون وتشهدون زوراً وتنهبون بعضكم بعضاً ، به

تستعجلون الجحيم ، فأسرع الجحيم اليكم على الأرض. انبذوا المال وعيشوا بالعمل فتنتفي الجرائم، وينقرض الشقاء، وتعم السعادة.

قلت : إذا كنت لا أستطيع أن أقلب هذا النظام، فلماذا لا أحذو حذو الأشرار، لكي أتمتع كما يتمتعون ؟

قال : تعني أنك تريد أن تعيش فوق الشريعة والقانون ، وغيرك يعيش تحت سلطتهما لكي تستغل لنفسك احترام غيرك للحق . تريد أن تطلق العنان لسنة تنازع البقاء .

قلت : لا بأس في ذلك إذا كنت أفوز باللذة .

قال : إذا كنت ضعيفاً تجاه قوي يحرمك القوي تمتعك، فبمن تلوذ وبمن تحتمي والى من تلتجيء لكي تدرأ شره عنك ؟ لا ملاذ لك الا القانون ، ومنفذ القانون . فلا غنى عنهما لردع القوي عن الضعيف

قلت : وإذا كان منفذ القانون نفسه هضاماً للحقوق ، فماذا يفعل القانون وهو بلا حول ولا طول ؟

قال : تبقى المسؤلية على عالمك لأنه نفض عنه الاخلاق .

قلت : إذا كانت الأخلاق تسبب لي شقاء فلماذا اعتصم بها ؟ لماذا لا أنهب مع الناهبين، واغتصب مع المغتصبين، وأظلم مع الظالمين ؟ إن بعض الناس استطاعوا أن يبتزوا أموال آخرين . فهم يتمتعون بمال السحت ويتنعمون بمال الحرام، ولا يستطيع القانون أن يردعهم ولا منفذ القانون ان يعاقبهم ، مع أنهم أضعف بدناً ، أو أصغر عقلاً من الذين ابتزوا أموالهم ، بل هم أشر قلباً، وأوسع حيلة . وزوجتي كانت منهم، وخير قدوة لهم .

قال : إن العالم الذي لا احترام فيه للقوانين آئل الى الفوضى والدمار . فأنت حر أن تعيش تحت جناح النظام والقانون، أو في عالم الفوضى ، أو أن تنتحر حين تخرج من تحت سلطة القانون ، ولا تجد حامياً آخر لك .

***

ثم تلاشى ملاكي في عالم الغيب، وتلاشى معه وجداني ، فلم أعد أعي لا الحياة الأولى ولا الثانية .

الفصل السابع عشر

أيقظة أم منام ؟

الانسان بلا وجدان جسم يتحرك ، لاعقل ولا روح . الدودة أنبه منه ، الدودة تعرف طريقها وتقصد الى طعامها وتتحايد مهالكها . أما الجسم المتحرك بلا عقل فلا يأمن الوقوع في التهلكة .

لا أدري كم يوم مرّ عليّ وأنا أغبى من دودة . أدري أني تنبهت إذ الممرضة تخزني بابرة آلمتني قليلاً . نظرت فيها فأنعشتني ابتسامتها . وقلت : أفي يقظة أنا أم في حلم ؟

فقالت : وي . وي . أعدت الى حديث اليقظة والحلم ؟

قلت : أجل اني في شك من وجودي الآن. أصاح أنا إذ أراكِ فتاة لطيفة حنونا، أم أنت خيال في مخيلتي حتى إذا صحوت لا أعود أراكِ

فقهقهت وقالت : أنا كما ترى . لقد هبطت حماك وشفيت من سرسامك، وصحوت من هذيانك ، وقلت هذرمتك فاطمئن .

— ترى في أي الحياتين أنا الآن، الأولى ؟ أم الثانية ؟

قالت : هل عدت تخرّف وتهرف . حاذر فقد سمعت أمس همساً بأنهم سينقلونك الى مستشفى الأمراض العقلية إذا بقيت تهذي وتخلط في الكلام. أنت الآن تدخل في دور النقاهة . فاربأ بنفسك .

وخرجت مقفلة الباب فقلت : رحماك ربي . عطفك ملاكي .

***

وما أن تفوهت حتى انتصب أمامي ملاكي، فاذا هو الآن مهوب الروعة، جليل السحنة . وقال هل ارعويت ؟

قلت : اكتنفتني الحيرة يا سيدي، إني في بلبال دائم ، لم يبق لي مطمع في هذه الحياة المرّة .

— تعني الحياة الثانية التي طلبتها ، أم الأولى التي مقتها .

— كل منهما أمرّ من الأخرى . أود أن أخلص من تداولهما اياي .

— هل صحّ عزمك على الرحيل الى الأبدية ؟

— أظن هناك حياة هادئة . أليس كذلك ؟

— تتوقف على يقينك وهدوء نفسك. لا أضمن لك شيئاً هناك .

— هل يوجد مصير آخر غير تلك الأبدية

— لا يمكنني أن أفيدك شيئاً بهذا الصدد،

ليس في طوق عقالك أن يفهم شيئاً مما هو وراء هذا العالم قبل أن تخرج منه ، متى خرجت من هنا تعلم ما هناك .

— إذن ما وراء هذا العالم مجهول ، أفلا يجزع الانسان من المضي الى المجهول ؟

— إذن ، تخاف أن ترحل من هذا العالم الوقتي الى العالم الأبدي .

— إذا كنت قد مللت هذا العالم الزمني الذي له نهاية ، أفلا أجزع من العالم الأبدي الذي لا نهاية له ؟ لله ما أرهب الأبد الممل . ألا يمكن أن نعلم : ماذا بعد الأبد؟

— ليس للأبد بعد .

— أحقيق أن في الأبد نعيماً .

— خذ نعيمك معك من هنا إذا شئت

— إذن كان لي نعيم هنا فلأبقَ هنا إذن .

— هنا نعيمك ينقضي، وهنالك لا يزول إن استطعت أن تصحبه معك .

— في الأمر شك إذن ؟

— نعم الأمر أمرك .

— أظنه خير لي أن أبقى هنا أتمتع بنعيمي لأني أخاف من رهبة العالم المجهول، ولا أضمن أني آخذ معي نعيماً من هنا الى هنالك .

— منذ هنيهة كنت تقول : انك تود ان تتخلص من الحياة هنا ، فاذا بك تعدل عن التخلص منها .

— النفس عزيزة يا سيدي . الحياة محبوبة يا مولاي .

— منذ هنيهة كنت تقول انها مرة، فهل عدت تستلذها ؟

— أؤمل أن أجد حلاوة فيما بقي منها

— حسن اذاً تعتمد على الأمل .

— آ . ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل .

— وإذن تكتفي بلذة الأمل الى أن ينقضي العمر .

— ويلاه ! ألا يمكن تحقيق أمل قبل انقضاء العمر ؟

— هذا يتوقف عليك . فقد نلت من الحياة عمرين واختبارين . فاذا لم تستفد منهما في تحقيق آمالك ، فاخفاقك يكون ذنبين تعاقب عليهما عقابين .

— أحقٌّ هذا ؟

— وهبك نجحت وهنئت . أحقٌّ ان تكافأ بثوابين ؟ لقد عشت حياتين، ولكل حياة ثوابها وعقابها .

— إني قانع بحياة واحدة ، فأيهما تمنحني لتتمة العمر ؟

— أنت تختار لا أنا ، ولك ان تتقلب بين الحياتين كما تشاء .

— لا . لا . رحماك . ان هذا التقلب أقض مضجعي .

— عجباً : من يحصل على هذا الخيار غيرك — ان يعيش الانسان حياتين يتنقل بينهما بمطلق حريته ؟

— حياتين ؟ الواحدة حقيقية والأخرى وهمية ، وأنا مضعضع العقل بينهما .

— أنت طلبت حياةً أخرى فأعطيت

— يستحيل أن تكون احـداها إلاّ وهماً أو حلماً . وقد أصبحت لا أدري أيتهما الحقيقية ، وأيتهما الوهمية . فكفى ضعضعة للعقل بينهما يا سيدي الملاك ، أرجو ان ترشدني الى الحقيقية منهما .

— الحياة التي تستطيبها هي الحقيقية .

— ويلاه ! لا أزال ضائعاً ، بربك اهدني

— أعطيت عقلاً كاملاً . فاهتدِ . لقد انتهت مهمتي ، اني مودعك الى الابد .

وتلاشى من أمام عيني فيما أنا استغيث به

***

يقول الكاتب : وقد عدته غير مرّة في مستشفى الأمراض العقلية ، وكان كل مرة يسألني أفي حلم أنا الآن ، أم في يقظة؟

فأوعزت الى الطبيب أن يبذل جهده الفني في اقناعه بأنه في يقظة ، لكي يزول سبب وجوده في المستشفى

وعلى الرغم من خروجه من المستشفى سليماً معافىً ، وفي أحسن حال ، ما زال كلما رآني يسألني : « أحقيقة » اني في يقظة أم في حلم؟

للمؤلف

مؤلفات علمية

هندسة الكون حسب ناموس النسبية Relativity
فلسفة التفاحة ، أو جاذبية نيوتن
Newton's Gravitation
عالم الذرة أو الطاقة الذرية Atomic Energy
فلسفة الوجود Ontology
علم أدب النفس Ethics
علم الاجتماع (جزآن) Sosciology

مؤلفات اجتماعية واقتصادية

الاشتراكية
الحب والزواج
ذكراً وأنثى خلقهم
مناهج الحياة
شعوب أوربا (مترجمة)
تاريخ أساس الشرائع الانكليزية (ترجمة)

روايات الاتحاد العربي

فرعونة العرب عند الترك
جمعية اخوان العهد
وداعاً أيها الشرق

روايات مختلفة

القدس (ممتازة)
ثورة في جهنم
حواء الجديدة (طبعة ثالثة)
آدم الجديد
الصديق المجهول
الحقيبة الزرقاء
عون بعين
اسرار مصر
العالم الجديد
نبية لبنان
حركات السيدات في الانتخابات، أو اي هو ابني
ثورة عواطف
من عرابي الى زغلول
فاتنة الامبراطور
زغلولات مصر
أين الكنز يا شرلوك هولمز (مترجمة)
الامبراطورة ثيودورة (نشرت في هلال يناير سنة ١٩٤٤)
دولة سيدات في مملكة نساء
ليت الشباب يعود

روايات نشرت في اللطائف المصورة

المنطاد المنتقم
زغلول مصر
زغاليل مصر
فتاة آل عثمان
تحت راية مصطفى كمال
فتاة الاناضول وانهزام اليونانيين

روايات مترجمة نشرت في مسامرات الشعب

حب في ثورة (الاصل لديماس)
عقد الملكة (جزآن) »
الزهرة الحمراء (الاصل للبارونة اوروزي)
الحرب الجوية
الغرب (بتصرف)
زوجة بالاسم

كتب للمؤلف معدة للطبع

الديمقراطية — مسيرها ومصيرها
اسحق نيوتن
العزلة في رأس الجبل (مناقشات أخلاقية)

خالد بن الوليد : تمثيلية أو رواية
الحب الذهبي: » »
الكنز القيصري أو دوقة في مصر : رواية
سر الكنز : رواية

من مؤلفات المؤلف للبيع
في ادارة المقتطف

م	
٤٠	هندسة الكون على سنة النسبية
٢٠	عالم الذرة — الطاقة الذرية
١٢	فلسفة التفاحة أو جاذبية نيوتن
٢٠	ليت الشباب يعود (أروع رواية)
٢٥	فلسفة الوجود
٢٠	دولة سيدات في مملكة نساء

دولة السيدات

في مملكة النساء

تأليف

نقولا الحداد

مطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٩

دولة سيدات

في

مملكة نساء

أما سمعتَ أيها القارىء بالأمازونيات ؟ أو ما عرفت شيئاً عن تاريخهن ؟ أو قرأت أساطيرهن ؟ . فقد حدَّث هيرودوتس المؤرخ اليوناني المشهور عن أصلهن وفصلهن وعرفنا منه أنهن قبيلة من الإناث المحاربات كانت تقطن في بنطس في آسيا الصغرى على شاطىء البحر الأسود . وكانت ذات مملكة مستقلة تحت سيادة ملكة من أصل شريف منها . وكانت عاصمتها تاميسيرا على ضفة نهر ترمودون حسب نص هيرودوتس .

وكانت الأمازونيات يزحفن من تلك المملكة لمحاربة أهل سيتيا وتراقيا وشواطىء آسيا الصغرى وبحر ايجه . وكنَّ أحياناً يتطرقنَ الى سوريا وبلاد العرب حتى مصر .

ويقال في أصلهن أنهن قدمنَ إلى مدينة ترمودون من بالوس ومايوتوس على بحر أزوف (قزبين) ويقال أنهن حاربنَ مع الاسكندر الكبير

ولم يكن يؤذن لرجل أن يقيم في مملكتهن يوماً واحداً . وإنما لكيلا ينقرضنَ كنَّ يزرنَ مدة أسبوع في السنة قبيلة الجاريجاريين في مملكة جارجاريا المجاورة لبنطس مملكتهن . فالذكور الذين يلدنهم بعد هذه الزيارة يقتلنهم أو يرسلنهم إلى آبائهم إذا كنَّ يعرفنهم . وأما الإناث فيحتفظنَ بهن وتربيهن أمهاتهن . ويعلمنهن الزراعة والصيد وفن الحرب (بحسب قول المؤرخ سترابو) . راجع دائرة المعارف البريطانية .

ورد في الياذة هوميروس إنهن غزونَ ليسيا فهزمهن بيليريفون . وهاجنَ الفريجانيس الذين انتصر لهم بريام حين كان لا يزال غلاماً على الرغم من أنهن أخذنَ جانبه ضد الاغريق تحت قيادة ملكتهن بنتسيليا التي قتلها أخيل (أو أشيل) .

كنَّ يعبدنَ اريس إله الحرب وإله تراقيا والإلهة ارطاميس إلهة النور العذراء والإله أجكس إله القوة . وكانت أزياؤهنَ وعاداتهن وتقاليدهن يونانية تقريباً .

وسترى في هذه القصة الغريبة الحوادث العجيبة التقاليد ان القوانين والشرائع التي

تناقض الطبيعة البشرية لا يمكن أن تطاع طاعة تامة بصدق واخلاص، ولا أن تنفّذ إلاّ بالإكراه. فلا يمكن أن تقوى الآلهة على الإله كيوبيدون (إله الحب) لأن هذا الإله يجاري قوة الله الواحد الأحد الذي قال: «أثمروا واكثروا واملأوا الأرض».

وسترى أيضاً أن البشر في العصر الميثولوجي كانوا عن غير قصد ينفذون نبوءات الكهنة أو الكاهنات اللواتي كنّ يزعمنَ أنهن نبيّات بوحي من الآلهة. يعني أن الناس كانوا متى سمعوا بنص نبوءة يتوجهون إلى تحقيقها من تلقاء أنفسهم، وهم يعتقدون أنهم يفعلون ذلك بدافع من الآلهة بقوة حافزة في داخلهم، كأنّ ما يفعلونه قضاء إلهي مبرم لا بدّ من حدوثه.

وعند التحقيق في حوادث النبوءات كان المحققون يستنتجون ان تلك التكهنات النبوية كانت مكايد ينصبها الكهنة والكاهنات والأشخاص الذين يتصلون بهم وبالهيكل كهيكل دلفي الذي اشتهر بنبوءاته التي كانت تتحقق بعض التحقيق لأنها كانت مبهمة. وكان المقضي عليهم بمقتضاها يساعدون على تحقيقها منساقين بتأثيرها في أنفسهم.

وسترى في سياق هذه الرواية العجب العجاب من دهاء الكهنة أو الكاهنات ومقدرتهم في التأثير على الأشخاص والجموع فاقرأ: —

الفصل الاول

في الهيكل

كان الفصل آخر الصيف وكان الوقت عيد الحصاد تحتفل فيه الكاهنات ثم سيدات الدولة على رأسهنّ الملكة وبقية الأمة وراءهنّ، في هيكل أجكس اله القوة وأرس اله الحرب. وهو هيكل فخم رحيب ووراءه دير الراهبات متصل به. ومن الدير يدخلنَ من باب خلفي الى قدس أقداس الهيكل.

وفي مقدم الرحبة مذبح للمحرقات وفيه موقد. وفي جهات الهيكل الأربع أعمدة ضخمة مزخرفة بنقوش بديعة. وفي زاويتي الرحبة قاعدتان مرتفعتان لتمثالي الالهين اجكس وأرس

وما أن سمع الحشد الموسيقى الرخيمة من وراء قدس الأقداس حتى ارتفع الستار الذي يحجب قدس الأقداس عنهم وبدت رئيسة الكاهنات ووقفت في الصدر والمذبح أمامها وتوالت وراءها الكاهنات صفين الى جانبي الهيكل ثم شرعنَ يرقصنَ رقصة العيد الوقورة ثم دخلت الملكة من يمين الرحبة تتبعها بطانتها المؤلفة من أربع وصيفات. ثم دخلت

من شمال الرحبة هيئة الحكومة المؤلفة من ست وزيرات . ووقفن مقابل صف الملكة لدى المذبح والجمع قدام المذبح .

وكانت رئيسة الكاهنات تلبس جلباباً من الدمقس طويلاً الى ما فوق القدمين قدر عشر سنتيمترات بنفسجي اللون واسع الأكمام ذا منطقة حمراء . وعنقها مطوق بطوق أحمر وعلى رأسها قلنسوة بنفسجية تتدلى منها قدتان حمراوان من الأطلس الفاخر ، تتدليان على الخدين حتى العنق .

وفي أيسر منطقتها خنجر صغير ذهبي القبضة والغمد مرصع بالجواهر ، وفي يدها صولجان ذو شعبتين بحربتين . وفي قدميها حذاء بسيور . وأما سائر الكاهنات فكن يلبسن كالرئيسة بيد أن لون الجلباب أبيض . وماهو أحمر في زي الرئيسة هو أسود في زي الكاهنات ، ولهن خناجر صغيرة أنيقة .

أما ثوب الملكة فكان قصيراً الى وسط الساق تحت الركبة بخمسة عشر سنتيمتراً ولونه أرجواني ، وعلى رأسها اكليل من ورق الغار الصناعي . وفي منطقتها الصفراء الذهبية خنجر ذهبي مرصع وفي يدها قوس وسهم جميلان .

وكانت أثواب حاشيتها كثوبها ، وانما كان لونها وردياً فاتحاً . وليس معهن خناجر ولا قسي ولا سهام . وعلى رؤوسهن عصائب مزركشة .

وكانت رئيسة الحكومة تلبس كالملكة ، وانما اللون أزرق فاتح . وفي جبهات العصابات ورقتا غار أو ورقة واحدة حسب الرتبة . وفي أقدامهن شبه صنادل .

وأما سائر سيدات الأمة فكانت أثوابهن بيضاً .

***

ولما انتظم الجمع وانتهى رقص الكاهنات رنم الجمع كله هذه الترنيمة بلحن شجوي يشعر بجلال المقام . والراجح أن النغم كان نهونداً أو عجماً .

(١) الترنيمة ـ

فيك يا عيد الحصاد رمز خيرات البلاد
نجتني اللذات مما قد زرعنا من جهاد

كم دفنا الحب ميتاً نال في الترب الحياة
من دفين البزر جاء حيوان ونبات

قوّة الأحيـاء فيضٌ فاض من قلب أجكس
وبه في الحرب نلنـا النصر من كف أرِس
قوّة قـد حرّرتنـا من خنوع للرجال
فتمتعنـا بخـير الـ زرع والضرع الحلال

وكانت رئيسة الراهبات والملكة تنحنيان نحو المذبح كلما انتهى دور من الترنيمة، فتحذو جميع الهيئات حذوهما .

وبعد انتهاء الترتيل . برزت رئيسة الكاهنات من صدر قدس الأقداس نحو متر الى الرحبة وأشارت بيدها إشارة إسكات فصمت الجمع صمتاً تامًّا لسماع نطق الهيكل من فم الكاهنة العظمى . ثم نطقت الكاهنة التي إلى يمين الكاهنة العظمى (الرئيسة) بصوت جهوري بكل تؤدة .

«سمعاً وإصغاءً لنطق الهيكل المقدس لأمة أجكس إلـه القوّة وارِس إلـه الحرب . نبوءة العام الجديد لأمّة الأمازونيات العظيمة التي دوّخت الأقطار وخاضت البحار . أمّة الإناث التي نفضت عن عنقها نير الذكور . أمة المحاربات التي حطمت قوس كيوبد إلـه الحب وتقلدت خنجر أجكس إلـه القوّة وأحرزت قوس أرس إلـه الحرب ونالت إكليل الإستقلال المطلق .

« سمعاً وإصغاءً لنطق الهيكل المقدس . واستيعاباً لمعناه » .

وهنا تقدّمت رئيسة الكاهنات خطوتين الى الأمام ونطقت بكل تأنٍ بصوت جهوري

« الويل إذا تخطى جسر نهر ثرمدون قمر ساطع حين يكمد القمر اللامع » .

ثم سكتت نحو نصف دقيقة وقالت : « والويل ثم الويل إذا انتصر كيوبد إلـه الحب على أجكس وأرِس حين يقترن القمران » .

وفيما رئيسة الكاهنات تتلو هذه النبوءة كانت الملكة والحاشية ورئيسة الحكومة ينتفضنَ فرقاً . ولما انتهى نطق الهيكل حدث لغط في الجمع وكنَّ يتهامسنَ : — « الويل الويل، لماذا الويل» .

وقالت أمازونيا رئيسة الحكومة بصوت مسموع : « ما ذا ارتُكب في مملكة بنطس الزاهرة المجيدة من الآثام حتى تُنْذر بالويل والثبور ؟ » .

وفي أثناء ذلك انحنت رئيسة الكاهنات ٣ انحناءات ببطء لدى المذبح ثم عادت الى قدس الأقداس وخرجت من الباب الخلفي إلى الدير وحذت سائر الكاهنات حذوها .

وقبل أن تتوارى الكاهنة الأخيرة أسرعت أوجستينا سيدة القضاء، أي وزيرته، وأمسكت بثوبها وهمست في أذنها قائلة .

« بحق الإلـهين اجكس وارس يا سيدتي الكاهنة ملفينا استوضحي الهيكل المقدّس عن بواعث هذه النبوءة الرهيبة »

على أن ملفينا أفلتت من يدها مسرعة لتلحق موكب الراهبات من غير أن يبدو عليها استياء كأنها تعدها وعداً صامتاً .

أما الملكة فكانت في شديد الاضطراب وقد أمرت أن يخرج الجمع كله حالاً . فجعلت النسوة يخرجنَ . ثم قالت الملكة للحاشية والوزيرات بصوت مهدج : إن الهيكل المقدّس ينذر مملكة بنطس الظافرة بويل رهيب . ويلاه أية جريمة فظيعة ارتُكبت هنا فأغضبت الإلـهين العظيمين أجكس وارس .

فقالت أوجستينا سيدة القضاء : لعلّ في الخفاء يا مولاتي سعاية لتولية كيوبيد إلـه الحب منصب الألوهية في بنطس إلى جانب الإلهين العظيمين .

فقالت الملكة بنزق : أبداً . لا يمكن أن تعيش يدٌ تنصب تمثالاً لكيوبد إلـه الحب في هيكل اجكس وأرس، بل تعيش اليد التي تحطم تمثالاً لكيوبد .

فقالت أمازونيا رئيسة الحكومة : ان امتزاج الزيت بالماء لأيسر جدًّا من وقوف كيوبد وأجكس أو أرس في هيكل واحد .

فقالت أوجستينا سيدة القضاء : ألا يخشى أن يبنى في الخفاء هيكل لكيوبد ويعبد فيه سرًّا ؟ .

فصاحت الملكة بنزق : الويل لمن تُدخل هذه البدعة إلى بنطس .

فقالت أوجستينا : إذن يجب أن تضاف إلى دستور الدولة مادّة تقيد الحرية الدينية . والاّ فلا عقاب بلا قانون .

فقالت أمازونيا : هذا التقييد مفهوم من مضمون الدستور نفسه .

-- ماذا في الدستور يحرم عبادة كيوبد الـه الحب ؟

إن الأمة الأمازونية أخذت حريتها بالقوة لا بدلال الغرام . ولذلك شادت هيكلاً لأجكس اله القوة . لأن أجكس يمنح القوة، وكيوبد اله الحب يبددها في ساحة العشق . ولذلك تـحرّم عبادته في بنطس

فقالت فلومينا وهي مديرة الشرطة والأمن : ويحكنّ ! ان الدماء التي أراقتها جداتنا في سبيل تحطيم نير العبودية للرجال ثمناً للحرية والاستقلال أعاضنا عنها أجكس قوة

ونشاطاً وظفراً في الحروب . فماذا يمنحنا كيوبد إذا بذلنا قواناً على مذبح عبادته :

فقالت أمازونيا : لا يمنحنا الا عبودية للرجال وذلاً في صحبتهم وهواناً في مقارنتهم.

فقالت فلومينا سيدة الأمن ، أجل ماانتصرت أمة في حرب إلا بتأليه أجكس . وما انكسرت أمة في قتال إلا منذ ألهت كيوبد .

فقالت الملكة : أي وحق أرس ما رمى كيوبد سهماً على بطل إلا صرعه . وما رمى أجكس سهماً على صعلوك إلا جعله بطلاً . وعندنا الشاهد على ذلك انطونيوس كليوبترا واكتافيوس خصمه .

فقالت اوجستينا : لذلك أقول يجب أن يكون القانون صريحاً في تحريم عبادة كيوبد.

فاستشاطت الملكة قائلة . من هي المرأة التي تجسر أن تقيم تمثالاً لكيوبد في بيتها أو تبني له هيكلاً في بنطس .

فقالت فلومينا : هي المرأة الخائنة

فقالت أمازونيا : هل في بنطس امرأة تجرأ على ارتكاب الخيانة العظمى ؟

فقالت الملكة بصوت متهدج : كلا البتة ان سيف النقمة مصلت فوق كل عنق يشرئب الى هيكل كيوبد . ان هذا الهيكل في مملكة جاريجاريا لا في بنطس جارتها. وفي جاريجاريا فقط نقدس كيوبد ونعبده أسبوعاً واحداً فقط لتجديد النسل . وأما في بنطس فلن يقام معبد لكيوبد لكي لا يبنى ضريح للحرية ويُنصب ضريح للاستقلال. هذا هو دستور الدولة الأمازونية الصريح. وكل امرأة في بنطس تعرف هذا القانون بالبديهة ولا تجرأ ان تخالفه .

فقالت أمازونيا رئيسة الوزارة : لعلَّ بعض سيدات الدولة لم يعلمن حتى الآن أن العداء الذي نشأ أخيراً بين حكومتنا وملك جاريجاريا كان سببه أن ذلك الملك كان يحاول ادخال عبادة كيوبد الى بنطس لكي يمهد السبيل الى تبادل الصلات بين القطرين . ولا يخفى عليكن ما في ذلك من خطر على استقلالنا واحتمال وقوعنا تحت نير العبودية للرجال، كما كانت جدات جداتنا من زمان قبل التحرير. وما نطق الهيكل اليوم الا نذير بهذا الخطر . فحذار من تسهيل السبيل لعبادة كيوبد وتفشي الحب والغرام في قلوب الأمة .

فقالت الملكة : أجل ان نطق الهيكل اليوم انذار مروِّع يحتاج الى درس وتفسير والى تقرير الخطة التي تتدارك ويلاته — فالى ديوان الدولة حيث ينعقد المجلس الرسمي . يجب أن تكون الجلسة سرية . وحذار أن تتسرب كلمة من نطق الهيكل ونتيجة البحث فيه الى الأمة لئلا تتضارب الأقاويل والأراجيف والتخرصات والاشاعات التي تحدث اضطراباً وقلقاً وقد تفضي الى فوضى . فالى ديوان الدولة أيتها السيدات

وفيما هنّ يخرجنَ كانت فلومينا ضابطة الأمن تقول . ان ما تحاذرنَ قد حدث . فما خرجت الأمة من الهيكل الاّ والنسوة يتقوّلنَ

— ٢ —

وما ان خرجت سيدات الدولة حتى ظهرت رئيسة الكاهنات في رحبة الهيكل والى جانبها ملفينا الكاهنة المحبوبة عند الرئيسة والتي تعتبر كأنها كاتبة سرها. وهي التي أمسكت بها آنفاً أوجستينا وطلبت منها الاستيضاح عن سبب انذار الهيكل وكانت ملفينا تقول : يظهر يا مولاتي ان بنطس المجيدة قد انغمست في حمأة الجرائم حتى كان نطق الهيكل اليوم مروّعاً

فقالت الرئيسة بصوت أجش ضخم كعادتها : أجل الويل لمملكة بنطس من عبادة كيوبد إلـه الحب . لأن أجكس إلـه القوّة غيور لا يطيق شريكاً له في ألوهيته وأرس مستمد القوة منه في الحروب . فإذا سيطر كيوبد على بنطس غضب الإلـهان واستردّا قوّتهما منا وذلت الدولة ووقعت تحت نير العبودية للرجال من جميع القبائل. فالويل للفاجرات الويل للمنغمسات في الشهوات .

— ويحهنّ . وهل لكيوبد جرأة على أن يغزو مملكة نبطس وهي في حماية الإلـهين العظيمين اجكس وإرس ؟

— ان كيوبد يسرح ويمرح الآن خلسة في بنطس فالويل للأمازونيات إذا استوى كيوبد في هيكل . فلسوف يتبوأ عرش بنطس قمر يكسف الشمس .

— واويلتاه . وا سوء المصير

— إنّ الهيكل لمنتقم شر نقمة . وستعلم اللواتي يرحبنَ بكيوبد أي منقلب ينقلبنَ عليك يا ملفينا إن تراقبي الدار والأديار والأسواق والأسوار . فإني أحسب حساباً للغزاة السريين الأشرار .

— ٣ —

... 'وجستينا كامنة في الهيكل تسمع الحديث ولا تراها الرئيسة ولا ملفينا . فما ان خرجت الرئيسة حتى نادت همساً : ملفينا ملفينا ملفينا .

فارتدّت ملفينا الى الوراء متخلفة عن الرئيسة وقالت: ليس غير ما سمعت من فم الرئيسة .

— أليس في وسعك تسقط الأخبار السرية عما حدث في بنطس مما أفضى الى هذا النطق الرهيب ؟

— ليس في وسعي اليوم. ولكن المفهوم أن النطق جرى بسبب أن الحب يلعب

أدواراً سرية في بنطس مع انه محرَّم على الأمازونيات كل التحريم الاّ في جاريجاريا في أسبوع واحد فقط كما تعلمين،حيث تذهب الأمازونيات الى هنا لعبادة كيوبد لتجديد النسل

— هذا معلوم . وقد مضى ذلك الأسبوع المقدس منذ شهر . فهل تظنين أن أحد العشاق قد تبع عشيقته سرّاً ولا يزال متخفياً في بنطس . أولا تعتقدين ان الحدود بين بنطس وجارجاريا فاصلة بالفعل بين ساحات الغرام وساحات الصيام .

— بحسب شريعة الدولة يجب أن تكون الحدود خالية من مسارح الغرام .

فقالت اوجستينا مازحة هـازلة : أي نعم . كما يخلو الجو من رطوبة الماء متى كانت الشمس ساطعة . حتى إذا غابت الشمس وانسدل الظلام تقاطرت[1] الرطوبة ندى على الأزاهر

ولا يخفى على القارىء من سياق هذا الحديث ان الراهبة والوزيرة هما على رأي واحد ولهذا يستاذنان هذا الحديث ، ولهذا هما صديقتان تتساران بعض الأحيان . فقالت ملفينا مزكية قول وزيرة القضاء ضاحكة . ولذلك نرى الغرام دائم التقاطر هناك على أزاهر القلوب أليست هذه طبيعة الحُسباحب أي سراج الليل لا ترى عشاقها في ضياء الشمس الباهر بل في ضياء غرامها تحت جنح الظلام . .

فقالت اوجستينا مستطيبة هذا السجال الشعري :

— إذن حيث لا تقع أشعة الشمس تتلاقى قلوب العشاق تحت أشعة الغرام فلماذا تلام ؟

— فقالت ملفينا جادة : اذا ضعفت أشعة شمس الدولة عند الحدود فهل يضعف صوت الشريعة الزاجر ؟

— بل قولي صوت الطبيعة الآمر

— انما فارس الشريعة نشأ لكي يكبح جماح جواد الطبيعة . هذه حكمة الآلهة في صيانة قوى الأمة الأمازونية

فقالت أوجستينا محتجة : حاشا للآلهة أن ترتكب حكمة هوجاء كهذه ، اذ لا فائدة من القوى المحبوسة ، أيبلغ الجواد الى آخر شوطه وهو حبيس في اسطبله ، لابدَّ من اطلاق قواه لبلوغ هدفه ، والطريقة القويمة لتصريف القوى هي الحب

فقالت ملفينا مناقشة : يجب أن يكون الحب تحت سلطة القانون لأنه مسرافٌ نزقٌ متهورٌ

— وتنازع الحياة يستلزم النزق والاسراف والتهور، فلا حياة بلا حب

---

(١) سالت قطرة قطرة .

ويحك الحب عدوّ استقلالنا ، لو اعتنقنا عقيدتك هذه لوقعت بنطس فريسة للاعداء

فقالت أوجستينا هازئة مقهقهة : حبذا الأعداء ! من هم الأعداء ، أليس أقرب قبيلة لنا قبيلة جاريجاريا ؟ وفيها آباؤنا واخوتنا وبنونا ، وقد ازدحمت بالذكور الذين نلدهم ونرسلهم الى آبائهم . وقلت عندهم الأناث ، وازدحمت بنطس بالإناث اللواتي نلدهنّ ونستبقيهنّ . فاذا غزانا أهل جاريجاريا كنا نحن مفترساتهم لا هم مفترسونا

— الويل لك أتريدين أن نفترس أقرب الناس الينا

— وما قولك اذا كانوا يغتبطون كل الاغتباط بهذا الافتراس ؟

— فقالت ملفينا متباهلة : يا لك من مماحكة . أيغتبطون في ان تكون بنطس معارك أبطال تتدفق فيها دماؤهم كالانهار ؟

فثارت أوجستينا مازحة : أي نعم يغتبطون في أن تكون بنطس معارك غرام تتدفق قلوبها بدماء الحب

وقالت ملفينا متمادية بالتباله ومستلذة هذا النقاش

— أوه — أهذه المعارك تعنين

— أي نعم . معارك الاحداق والمهج .

— هذه معارك لا نستطيع نحن الانتصار فيها . ينتصر فيها الرجال ونصبح لهم فيها إماءً ورقيقات .

— بل يكون النصر لنا حتماً . يدخل رجال جاريجاريا الى بنطس مغزوين لا غازين ويكونون لنسائها غنائم لا غانمين .

— إن تقاليدنا وتواريخ جدّاتنا تشهد ضد هذه الاماني التي تمنينّ النفس بها . فما اعتصبت جداتنا ضد الرجال الاّ لكي يسحقنَ نير العبودية لهم . فهل تريدين أن نعود الى ذلك النير الثقيل .

فقالت اوجستينا جادّة — أسف ان للتقليد سلطاناً على عقلك يا عزيزتي . عند الاختبار تجدين رجال هذا الزمن في معارك الغرام أسارى ونساءه آسرات .

— وقينا من شر نظريتك يا سيدة القضاء . أما كانت معارك الغرام تحتدم في أزمان جداتنا القديمات ؟ فلماذا كانت جداتنا أسيرات لا آسرات، ورقيقات لا سيدات

فقالت اوجستينا جازمة — كلاّ لم تحدث معارك الغرام في زمن جدّاتنا لأنهن كنّ أسيرات وكان الرجال يتمتعون بهنّ بغير اقتناص كما يتمتعون بأكل الغنم والفراخ والحمام بلا اصطياد . جدّاتنا قمنَ بنصف المهمة التي كتبت في سفر تحرير المرأة . هنّ حررننا من

العبودية للرجال . فبقي علينا أن نستعبد الرجال، ولا سلاح لاستعبادهم الا سهام كيوبد

فقالت ملفينا مضطربة : ويلكِ أخاف ان كيوبد اله الحب يعيث غراماً الآن في البلاد ويريش سهاماً إلى الأكباد إذا كانت سيدة القضاء تمادى بهذه الفلسفة . . آخ اني أحس بوقع سهم . فمن أية ناحية ريش هذا السهم الى هنا ،(ووضعت يدها على قلبها تتحسس) .

فقالت أوجستينا : طبيعي ان يعيث كيوبد في بنطس ويرش السهام على الدوام لأن الحب جوهر الطبيعة ، فاذا عاث الجوهر في البلاد كان عيثه زهراً جميلاً وثمراً يانعاً .

— ولكن الحب في شريعتنا جريمة يا سيدة القضاء والعدل ، فكيف نتقي هذه الجريمة

— هو جريمة في شريعتنا ولكنه فضيلة في سنة الطبيعة . ولا قبل لنا على مناهضة الطبيعة فيما هو فضيلة في شريعتنا

— ولكن الشريعة نشأت لمقاومة الطبيعة .

— حقاً ما تقولين . فلنرَ أيهما تغلب وتفوز أخيراً يا عزيزتي الكاهنة التقية النقية. بالطبع لا تقصي نقاشنا هذا على رئيستك الكاهنة العظمى وإن كانت قد أوصتك أن ترقبي حوادث كيوبد في بنطس، أثق أنكِ لا تقصين عليها هذا الحديث لأنك شريكة فيه.

عند ذلك باغتهما وقع أقدام . فالتفتتا الى حيث كان الوقع فاذا رئيسة الكاهنات بادية وهي تقول بصوت جهوري :

« في الغد يكمد القمر ويُمتقل الحب . فارقبي القمر يا ملفينا » .

ثمّ توارت وملفينا أجفلت وقالت : ويحي لقد سمعت كل حديثنا . وسينزل الويل علينا

— لا تخافي . هل سجدتِ لكيوبد ، إذن لم تعصي الشريعة . فلماذا تخافين ؟

وأسرعت أوجستينا الى القصر لكي تحضر مجلس الدولة .

الفصل الثاني

في دار الدولة في قصر الملكة

تركنا الملكة في الفصل الآنف تأمر بعقد مجلس الدولة في بهوها ، وهو يحتوي على مقاعد من خشب السنط مزخرف من الطراز اليوناني القديم . وفي وسطه منضدة من خشب مزخرفة وقد جلست الملكة أمامه وجلست حوله سائر سيدات الدولة، ما عدا الوصيفات وحاشية الملكة طبعاً .

وعلى أرض البهو أبسطة جميلة أغريقية الطراز وفي الزوايا مناضد عليها تماثيل وأزاهر

أمام التماثيـل . وعلى الأبسطة فراء . وقسي وسهام وخناجر وحراب ورماح معلقـة في الجدران .

— ١ —

وقد افتتحت الملـكة الجلسة بورع قائلة : إن إنذار الهيكل لرهيب ياسيدات

فتلتها أمازونيا رئيسة الوزارة بالقول : لا بدّ أن في بنطس الآن جريمة سرية مدنـسة قدسية شريعتها . فيجب تطهير البلاد منها . وإلاّ نزل الويل بالبلاد . وما الويل الذي يخشى منه إلاّ ضياع استقلالها ووقوعها تحت نير العبودية لدولة جارجاريا الطامعة فيها .

فقالت الملـكة : طبعاً . لا إنذار إلاّ تجاه جريمة ، فالأمر الذي يجب تحقيقه هو الجريمة نفسها .

فقالت فلومينا مديرة الشرطة : طبيعة الجريمة ظاهرة يا مولاتي في نفس انذار الهيكل وهي « الويل إذا انتصر كيوبد إلـه الحب على أجكس إلـه القوّة » فالجريمة جريمة حب . وبأكثر وضوح هي جريمة اجتماع حبيبين في بنطس

فقالت أوجستينا متفلسفة . كيف يكون الحب جريمة ونحن لولاه لما وجدنا .

ففسرت أمازونيا رئيسـة الوزارة : ليس الحب جريمة الا في بنطس وأما في جارتنا جاريجاريا فلا .

فقالت أوجستينا متململة — لا أفهم كيف يكون ناموس طبيعي جريمة هنا وفضيلة هناك . أليست بنطس جزءاً من الطبيعة .

— أمرك غريب . هل الطبيعة دستور بنطس ؟ وهل سنّـت الشرائع إلاّ لمقاومة الطبيعة .

— دستور بنطس لا يحرّم الحب . لا يحرّم إلاّ دخول الذكور إلى البلاد .

— ويحرّم الحب فيها أيضاً . لأن اباحة الحب تتضمن إباحة دخول الرجال . ودخولهم خطر على الاستقلال الذي اشترته جدّاتنا بدمائهن .

فتدخلت الملـكة بين أوجستينا وأمازونيا حسماً للنزاع في سر الحب وقالت : يجب أن نفسر نطق الهيكل كلمة كلمة لـكي نحدد الجريمة التي اقتضت هذا الإنذار المروّع .

فقالت فلومينا : التفسير واضح يا مولاتي . القمر الساطع رمز لشيء . فهل يمكن أن يكون رمزاً إلاّ للرجل .

فقهقهت أوجستينا متهكمة وقالت : ألا يحتمل أن يكون رمزاً لحمام أو لغزال أو لتيس سيعبر الجسر .

فقالت فلومينا ساخرةً : لا ريب أن ضياء عيني تيسك يخسف القمر .

— ومن ذا يقول أن الظباء والحمام والتيوس لا تعشق . الحب كالدم جارٍ في كل عرق من عروق الطبيعة .

فشقّ على الملكة التمادي بالجدال في موضوع الحب كأنه يحرك فيها شجوناً وهو ما تريد تجنبه في هذا المقام . فقالت يجب أن نبحث لماذا يغضب الإلـه إذا مرّ ذلك القمر الساطع على الجسر حين يكمدُ القمر، إذا كان المراد بالقمر الساطع رجلاً ، مع أن دخول أي رجل إلى بنطس في كل حال يُعد جريمة .

فقالت فلومينا مستدركةً : ولكن ليست كل جريمة تغضب الإلـه هذا الغضب المنذر بالويل والثبور . والظاهر من النطق الهيكلي أنّ الإلـه يغضب إذا اتفق مرور ذلك الرجل الجميل على الجسر حين اكمداد القمر . فيجب أن نبحث عن المراد باكمداد القمر .

فقالت أوجستينا متفلسفة : الأمر واضح . ليس تفسير اكمداد القمر بخسوفه أبعد عن العقل من تفسير القمر الساطع بالرجل الجميل .

— ومروره على الجسر حينئـذٍ نذير بدخوله إلى بنطس بجريمة الحب التي تغضب الإلـهين .

فقالت الملكة متردّدة : إذاً عليك بالقبض على الرجل الذي عناه الإنذار قبل أن يمر على الجسر ساعة اكمداد القمر، أي خسوفه . وإذا مرّ قبل الخسوف أو بعده فلا ويل

فقالت الوزيرة أمازونيا نازقة بصوت عالٍ وهي تخبط المنضدة بيدها : يجب القبض عليه واعتقاله ومقاصته ورفيقته بالموت على كل حال . فاليوم رجل وغداً رجال وبعد غدٍ اقيال وأخيراً أمراء ، وحينئذٍ على عرش الدولة يا رحمان يا رحيم ، وللاستقلال نار الجحيم ولكنّ للجميع العبودية

وكانت الملكة تختلج عند سماع هذا الانذار فقالت مضطربة : أجل يجب قطع دابر الذكورة من بنطس وإلاّ وقعت الأمة الأمازونيـة تحت نير العبودية للرجال . على ملفينا القيمة على الأمن أن تتخذ التدابير الكافية للبحث عن أي ذكر في بنطس .

فقالت أمازونيا بحزم : ويجب أيضاً مراقبة جسر ثرمودون حول ميعاد خسوف القمر واعتقال كل امرأة تمرّ عليه وتحرّي أمرها .

فقالت الملكة متلعثمة : وسأنزل العقاب الشديد بكل امرأة يثبت أن لها صلة برجل متخفٍّ في بنطس لتكون عبرة لمن تجرأ على تدنيس شريعة الأمازونيات . إني حريصة على استقلالهنّ كحرصي على عرشي .

فهتفت المؤتمرات : « تعيش الملكة » ثلاثاً.

ثم قالت أوجستينا : إذن يجب أن نتحقق موعد خسوف القمر فقد يكون قريباً .

فقالت الملكة مؤمّنة على كلام وزيرة العدل : على جريجوريا وزيرة الشؤون الاجتماعية استدعاء المنجمة الآن لاستفتائها .

« فخرجت جريجوريا لقضاء هذه المهمة واستمرّت الملكة تقول : حذار أن تتسرّب كلمة من هذا المجلس الى الخارج لئلاً تضج البلاد بالأقاويل والأراجيف التي يمكن أن تحدث شغباً . بقيت الفقرة الثانية من نطق الهيكل « الويل ثم الويل إذا انتصر كيوبد على أجكس إلـه القوة حين يقترن القمران » .

فقالت فلومينا سيدة المحافظة على الأمن : الظاهر من هذا النص أن المراد بالقمرين القمران المذكوران في الفقرة الأولى : القمر الساطع والقمر المكمد .

فقهقهت أوجستينا وقالت متهكمة : أي نعم : اضبطي قمر الأرض الساطع لئلاً يفرّ إلى قمر السماء المكمدّ ويقترن به .

فقالت الملكة متحققة أمراً يهمها . ألاً يحتمل يا سيدات أن يكون المراد باقتران القمرين مرور الرجل على الجسر مع حدوث الخسوف في وقت واحد ؟

فقالت أوجستينا : عفو مولاتي . إذا كان هذا هو المراد فالفقرة الثانية تكرار للأولى ونطق الهيكل يُجلّ عن التكرار الفضوليّ أو التوكيدي لأنه أكيد بلا توكيد .

فقالت أمازونيا رئيسة الوزارة باسمة : هذا كلام شخص حقوقي قانوني منطيقي . إذن فلا بدّ أن يكون المراد اقتران ذكر وأنثى في بنطس على كل حال .

فقالت فلومينا كأنها تتشفى : أجل الويل لهما . هذا تدنيس للشريعة . يجب أن يشاد هيكل حقير لكيوبد ويحرق الجرمان على مذبحه لكي يختنق كيوبد بدخان ضحيته .

فقالت أوجستينا ساخرة : وحينئذٍ يجب أن تعيني حارسات تراقبن ذلك الهيكل ليلاً وتحصينّ الأمازونيات اللواتي يدخلنّ خلسة اليه ويسجدنّ لإله الحب .

— واجعلي فوق باب الهيكل سيفاً يسقط على كل عنق يشرئب إلى داخله .

— حاذري أن يقع سيفك خطأً على عنقكِ يا عزيزتي .

— سيفي لا يخطئ . لا يقع إلا على كل من تمدّ عنقها الى هيكل الغرام .

فقالت الملكة متململة من هذا الحديث كأنها هي المقصودة فيه : — إذن فعليك يا فلومينا أن تستخرجي القرينين من مخبئهما ولو كانا في أعماق الخفاء .

فعادت أوجستينا الى لباب الموضوع وقالت : إذن يجب أن نفهم ماذا عنى الهيكل

بالقمرين لكي نعلم ان كانا يصبحان رمزاً للعاشقين . ليس في السماء إلا قمر واحد . فما هو القمر الآخر .

فقالت فلومينا : الجواب عند المنجمة . فهلاً قليلاً فان جريجوريا قد خرجت لاستدعاء المنجمة .

— ٢ —

لم يمض وقت طويل حتى جاءت جريجوريا مصطحبة المنجمة وانحنتا باحترام كلي لدى جلالة الملكة وسائر الوزيرات . وكان تحت ابط المنجمة درج من رق الغزال يشتمل على علوم الأفلاك والتنجيم . فأمرتها الملكة بالجلوس على مقربةٍ منها . وسألتها : هل لكِ أيتها العالمة أن تنبئينا متى يقع الخسوف القادم

فحلت المنجمة الثوب الأطلسي عن الرق ونثرت الدُرج مسافة ذراعين منه . وجعلت تحملق فيه الى أن قالت : « بحسب تقويم بطليموس سيد الفلكيين وأمير المنجمين يقع الخسوف القادم في موعد تمام البدر القادم » .

فقالت أوجستينا : — عمر القمر الآن عشر ليالٍ ...

فقالت الملكة : اذن بعد ٤ أيام يقع الخسوف

فقالت المنجمة : من غير بد

فسألت الملكة محققة : هل تعرفين في الفلك قمراً ثانياً ؟

— كلاً وحاشا يا مولاتي . لا تسمح الآلهة إلاَّ بقمر واحد يقرر صنفاً واحداً من الطوالع .

— صنفاً واحداً من الطوالع ؟ أي صنفٍ ؟

— صنف الطوالع الغرامية يا مولاتي .

فاختلجت الملكة واختلجت معها جميع الوزيرات مرتبكات وقالت الملكة : يا للعجب . هل للقمر تأثير في العشق

— القمر نفسه عاشق يا ذات البهاء .

— يعشق من ؟

— يعشق الشمس يا سيدتي . وهل يجد القمر في الفلك عشيقة أجمل من الشمس ؟

— أمرٌ غريب . كيف يعشق القمر الشمس ؟

— أما رأيت يا ذات الذكاء الباهر القمر يقترن بالشمس حين كسوفها . ولا يفارقها إلاّ بعد عناق طويل يبثها فيه غرامه .

وكانت جميع الوزيرات مبهوتات من كلام المنجمة . فقالت اوجستينا : أعزّك الله يا ذات العلم الواسع . إذن يُعنى بانكساف الشمس اقترانها بالقمر . وإذا قيل اقتران القمرين فماذا يُعنى

فقالت المنجمة محلقة مشرئبة العنق : من يقول هذا القول البديع ؟ إنه لشعر ساحر

— لعلّ الهاً قاله . لا أتذكر

— المجد لهذا الاله . إنه لتعبير بديع يراد به الشمس والقمر جميعاً . لعلّ هيلاس اله الغناء والشعر قاله

— هل تعرفين في ميثولوجيا إحدى الأمم نصّاً على أن الشمس والقمر متعاشقان ؟

— في ميثولوجيا غلاطيه انهما عاشقان . وفي ميثولوجيا كبدوكيا انهما اخوان . وفي ميثولوجيا فورنثيا ان الكوكبة اندروميديا ولدتهما وتركتهما فاقترنا . نعم اخوان اقترنا

— متى يحدث الكسوف التالي .

وكانت المنجمة تحملق في درجها وتقول . « بحسب تقويم استاذ التنجيم بطليموس يقع الكسوف التالي يوم ميلاد القمر التالي .

— إذن بعد ....

— بعد ١٨ يوماً كاملة .

فقالت الملكة مضطربة تريد الخلاص من المنجمة . شكراً لك أيتها العالمة الجليلة . لك المكافئة اللائقة بعلمك جزاء افاداتك .

ونهضت المنجمة وانحنت باحترام كلي ثم خرجت .

— ٣ —

حدث اضطراب شديد على أثر خروج المنجمة . وجعلت الوزيرات ينظرن بعضهن الى بعض كأنهن يتساءلن الى أن قالت فلومينا : — يالله . اخوان يقترنان ؟ أليس هذا شرّ فظيع

فقالت اوجستينا : هذا فظيع هنا ولكنه جائز في فورنثيا . دعينا من تطبيق الشرائع الآن . لقد انجلى لي نطق الهيكل جيداً الآن وهو أن الويلين ينزلان على بنطس إذا اقترن الاخوان المتعاشقان حين كسوف الشمس . أجل ان اقتران الاخوين أعظم جريمة تزلزل بنطس

وكانت الملكة مبهوتة تفكر فيما جرى من الحديث فقالت : ويحهما أيقترنان في بنطس ؟

— ان العاشقين يا مولاتي ليسا بعيدين عن هذه العاصمة

فاستشاطت الملكة مختلجة واجفة وقالت متلعثمة : الويل ثم الويل لهما . سأجعلهما عبرة للأجيال القادمة

فقالت جريجوريا كاتبة سر الملكة : يمكن حدوث هذا القران الفظيع خطأ يا مولاتي

— وهل يغتفر الاهانا هذا الخطاء ؟ ان دستورنا تدارك حدوث اقتران الأخوين خطأ إذ حتم على كل امرأة أن لا تعرف الا قريناً واحداً لها فترسل اليه مولودها إذا كان ذكراً وتحتفظ به إذا كان أنثى . وهكذا تستطيع أن تنذر بناتها من الاقتران ببنيه . لذلك يجب تدارك حدوث هذا الخطأ لئلا تنقض الويلات على بنطس . على فلورينا أن تجمع كل دهاء السماء والأرض لكي تعتقل ذينك العشيقين قبل حدوث الخسوف تداركاً للويلات الرهيبة . وعلى كل منكن أيتها الوزيرات أن تفعل ما يجب عليها في اكتشاف هذه الجريمة الهائلة، وإلا فالدولة تتداعى والمملكة تغزى والحرية تقتل والاستقلال يدفن في اعماق البحر . لقد أعذر من أنذر، وسيكون الانتقام من اللواتي يحاولن بناء هيكل لكيوبد في بنطس انتقاماً لا تطيقه نفس بشرية . سلام عليكن .

وجعلن ينحنين أمام الملكة ويخرجن .

وفيما هي في صحن الدار همست ملفينا في إذن أوجستينا : ما قولك بعظة الملكة .

فقالت أوجستينا : هل تستطيع أن تقول غير ما قالت :

— ٤ —

أرفض المجلس والملكة دخلت الى جناح قصرها وجلست على مقعدها تفكر فيما سمعت وفيما جرى في الهيكل، وفي نبوءة الكاهنة الكبرى، وقد استوى الهم على نفسها وجثم على صدرها كابوس الغم . ثم جعلت تحلل النبوءة بنفسها .

لقد انحصر تفسير نطق الهيكل في أمرين صريحين : الأول مرور رجل على جسر ترمودون في حين خسوف القمر . وهذا أمر تداركه أسهل من السهل . والثاني اقتران الأخوين في حين كسوف الشمس . وهذا يمكن تداركه إذا نجحت فلومينا في اعتقال أحد الأخوين . حين مروره على الجسر . ولكن من هما الأخوان . لا يمكن أن يكون افريدس أحدهما . وهب إن هذا الاقتران وقع في بنطس فانا بريئة منه ،والويل لا يقع في القصر .

ثم تقدمت نحو باب حجرة السر وفتحته ثم نادت أفروديت . أفروديت . أفريدوس أفريدوس .

فجاءها من وراء الحجرة فتىً في زي فتىً روماني يتشح بوشاح عريض طويل أنيق وإلى جانبه خنجر جميل صغير . وينحني باحترام وببشاشة ويقول : لبيك يا مليكة فؤادي

وعانقته عناقاً عنيفاً ثم قالت : ما ألذّ وأجمل أن أراك بزي الفتى الجميل والحبيب المعشوق يا أفريدس . يا لقوة الجمال في هاتين الساعدين المفتولتين .

قالت هذا وهي قابضة على ساعديه .

ويا لقوة السحر في هاتين المقلتين الوضّاءتين . ويا لقوة الشعر في هاتين الشفتين العندميتين . ويا لقوة الضياء في هذا المحيّا الساطع . أخاف أن تكون القمر الساطع . ويا لقوة البهاء في هاتين الوجنتين المتوردتين .

وكانت تلمس بأناملها جميع هذه المذكورات .

ثم أردفت : يا لقوة الشباب في هذا القد العادل .

وضمته إلى صدرها ثانيةً وقبلته قبلة النسيم للغصن .

ثم أفلتته . ولكنها لم تستطع ان تفلت من بين ذراعيه ولا شفتاها من شفتيه كأنه لا يرتوي ولا هي ارتوت.

وعادت تقول : اغتبط أيما اغتباط إذ أراك قمراً طالعاً بزي الشاب النبيل . ولكن أشفق أن ينمّ عليك زيك في حين غفلة . فعد وتزيّا بزي الوصيفة أفروديت لئلا تباغتك إحدى الوصيفات فيفتضح الأمر .

فقال أفريدس : ولكني كما أمرتِ أتجنب الاختلاط بالوصيفات تحامياً للفضيحة .

هذا التجنب حتم على كل حال حتى في حالة تنكرك . إذ لا يمتنع ان تصادفك إحداهنّ على حين غفلة . فعد والبس لباس أفروديت.

— أخشى حسدهنّ لي لتمييزك إياي عليهنّ . يعرفنني وصيفة حديثة العهد في بلاطك باسم أفروديت .

— لقد أوهمتهنّ إنك فتاة من سلالة تتصل بالأسرة المالكة ففقأت بهذا الايهام عيون الحاسدات .

— ولكن ما الذي طرأ حتى صرتِ ترغبين في اختلاطي بهنّ.

— أشفق عليك من مللك في وحدتك في انتظاري ، حين أكون مشغولة بمهام الدولة.

— لا أشعر بملل وحدة لأني في غيابك أنظم الشعر لأبث فيه غرامي لكِ

— أما كفى ما في هذين اللحظين من السحر حتى تضم اليها سحر الشعر . انكَ قاتلي بما في هذين الناظرين من السحر . ادخل الآن الى خدرك وتنكر بزي الوصيفة وهلمّ اليّ

فدخل الى مخدعه وهي بقيت تغازل نفسها ، يا للهوى يا لشعلة الغرام في الفؤاد . كلما نفخها جبروت الملك لكي يطفئها صب عنفوان الشباب زيتاً عليها ليزيدها ضراماً ... ا ... آه ... طلبت السعادة في انتصارات الحروب فوجدتها لا تزيد على نبضة واحدة ضعيفة بين نبضات الغارات المنيفة في المعارك . توسلت اليها في مطاردات الصيد فما أصبت منها إلاّ علقة من قلب غزال تتخم معدة الجسد . وأما معدة النفس فبقيت جائعة . فتطلبت السعادة في سلطة الملك فما وجدت الاّ سلسلة مشاكل ومشاغل لا تنتهي . عبثاً بحثت عن سعادة في أي ناحية من نواحي الحياة . . . آه . فما وجدتها الاّ في الحب . تبّاً لدستور بنطس الذي يجعل الحب جريمة . فكأنه يحرّم الحياة . اذا قتل الحب فماذا يبقى من هدف للحياة ... آه ... الحب . الحب الحب . هو اله الطبيعة الذي لا يجحد . هلمّ اليّ يا كيوبد اله الحب . اني ملكة عبادك بل أنا خادمة هيكلك ..

عند ذاك جفّلها قرعٌ على الباب الخارجي . ففتحته وإذا أمها الشمطاء العمياء تبدو منه فقالت مبغوتة : ماذا دعاك الى هذه المفاجأة يا أماه .

فقالت أمها : — صه . لا تدعي افريدس يأتي الى هنا قبل أن أملي عليك نصيحتي

— نصيحتك ؟ بأي شأن يا أماه ؟

— بشأن المجلس الذي ارفضّ منذ برهة . فان أذنيّ العمياء مرهفتان — استوعبتا كل حوار جرى بينكنّ من وراء الباب

— كانت جلسة سرية يا أماه.

—.اتودين أن تكتمي أسرارك عن أخلص الناس لكِ ؟ عن أمكِ ؟ عن والدتك الساهرة على سلامتك وسلامة عرشكِ ؟

فقالت الملكة خافقة الفؤاد متلعثمة — أجل أنتِ أم ، بل أنت الملكة الأولى . وستبقين الأم التي لا غنى عن نصائحها .

— فاجأتك قبل أن ترسمي أية خطة بشأن افريدس . فماذا نويتِ أن تفعلي

— نويت أن أحتم عليه الاعتكاف في القصر لا يخرج منه كعادته للصيد الى أن ينقضي موعد انذار الهيكل .

— أي سبب تنتحلين لهذا التحتيم .

— لم أفكر بعد بتلفيق سبب له .

مهما لفقتِ من أسباب فلا يطمئن . وإذا اشتدّ قلقه أفضى الى فضح سره . فما هو بالأبله لكي يطاوع طاعة عمياء . ان الاحتفاظ به هنا في القصر غير مأمون العاقبة .

— إن تنكره متقن جداً يا أماه فهو يحلق عارضيه وشاربيه كل يوم مرتين . وإلى الآن لم يكتشف أحد سره

منذ اليوم ستكون العيون محلقة جداً يا بنتي

— لا يتسنى لأحد أن يتدخل بشؤون قصري.

— لاتدرين ماذا تكون عاقبة التدقيق في التحقيق الذي قررتنه . فاذا وقعت الشبهة على افروديت تتبعت الجاسوسات افريدس الى أعماق قصرك .

فقالت الملكة مضطربة : ورأيك الحكيم يا أماه .

— رأيي أن يخرج افريدس حالاً من القصر بأية حجة من غير أن يرتاب بسبب . دعيه يسبقك الى قصر الصيد على الحدود حيث ابتدأ تعارفكما . حتى متى صار هناك توعزين إليه أن يتريث موعوداً بأن تستدعيه بعد حين اذا لم تلحقي به .

— أماه . ويلاه . لا أطيق فراقه يوماً واحداً

— أشعر بحسرتك فقد نكبت بها في شبابي أحياناً . ولكن أتطيقين ضياع عرشك إذن ؟

— ويحي كلاهما متعادلان في الميزان

— وكليهما تخسرين

— يمكن أن يسلما كلاهما إذا منحتني دهاءك .

تحتاجين إلى دهاء عظيم يا بنتي لأني أحس أن مكيدة هائلة مدبرة ضدك . فحاذري .

— ويحي . أي مكيدة تحسين ؟

عجباً . ألا تشعرين أن نطق الهيكل مبني على تسرب أسرار القصر إليه . لأن جواسيس الهيكل يجسن أعماق الزوايا والكهوف . ولعلّ رئيسة الكاهنات علمت بأمر افريدس فنطقت بنبوءة الهيكل بناءً على هذا العلم

فقالت الملكة متفجعة : ويلاه . إذن . دبري تدبيراً ينقذني من هذه المكيدة الهائلة يا أماه من غير أن يفقدني التدبير أفريدس . هو قري الذي لا أحتمل غيابه يوماً واحداً .

— العروش يابنتي . لا تثبت على أساس العواطف الرملي . يجب أن تكون لك ارادة أصلب من الجلمد . يجب أن تقصي أفريدوس عنك الى آخر الشهر أي الى ما بعد حدوث الخسوف والكسوف . وثم نرى ماذا يكون بعد اخفاق نبوءة الهيكل .

فقالت الملكة متضرعة : أماه كيف يمكن السمكة أن تعيش في الوحل إذا نضب الماء . وكيف يعيش العصفور في أناء لا ينفذ اليه الهواء . وكيف يهتدي الجدي الى أمه إذا انحجب عنه الضياء ؟ وكيف يحيا الحي إذا انقطع عنه الغذاء والضياء والهواء والماء يا أماه،

أحين أبلغ الى قمة جبل الغرام أتزحلق الى وادي الفراق . لا أطيق يا أماه . يجب أن أتبعه على الأثر .

— حاذري أن تفارقي العرش في إبان هذه الأزمة الدولية الهيكلية لئلا تقعي فريسة للمكيدة .

— أفٍ . أفٍ . ليت هذا العرش لم يكن ولا كانت متاعبه ومصائبه ... آه .. ما أسعد الراعية في جاريجاريا وحبيبها يعزف لها على قيثارته . وما أسعد الفلاحة في قورنثية وهي تشد بحبل رفش حبيبها . وما أسعد الحاصدة في كبدوكية وحبيبها يعرقل منجلها بمنجله مداعباً . كرهت العرش يا أماه .

— أشفق عليكِ . حاذري التفريط بالعرش يابنتي . لأن حياتك مقترنة ببقائه . ولدت ذات عرش ولم تولدي فلاحة ولا راعية . كوني حازمة لئلا تضيّعي الملك والعرش والحبيب والحياة جميعاً . استدعي أفريدوس وأبلغيه تعليماتك .

وخرجت الوالدة لاتلوي . وبقيت الملكة تناجي نفسها ! واويلتاه كيف أستطيع فراق ذلك البدر الساطع . هل تستطيع عيناي الغمض وهو بعيد عني . كل يوم أقضيه إلى جنبه يزيد غرامي به . كذب الشعراء الذين يقولون دوام الوصال يورث الملال . لعلهم لم يذوقوا طعم الحب . فكيف يبدعون التشبيب والغزل والنسيب . آه . ولكن لا بدّ من إبعاده ريثما يمر زمن الانذار بالويل . فيا قلب تحمل الفراق على أمل اللقاء .

ثم فتحت الباب ونادت أفريدوس .

ودخل أفريدوس فاذا هو أفروديت إلهة الجمال ، لا يمكن أن تظنه شاباً ، لأنه أتقن زي الحسناء من كل وجهة ، فتلقته الملكة باشّةً متهللة وأخذت بيده وطوّقت خصره بذراعها وتمشّيا معاً وهي تقول : الى ينبوع السرور . وهو يقول لها : لبيك يا بحر البهجة والحبور .

فقالت : أليس البحر متجمعاً من الينابيع فكيف لا يتعاظم ويتدفق على مرور الزمن كأنه لا ترويه الينابيع .

— الينبوع ياعزيزتي سلسال قطرات صغيرة تتلاشى في البحر الخضم فلا تزيده مقداراً .

فقالت بعد صمت هنيهة وتأمل وتفكير في ما هي فيه من بلبال . أفريدوس من أين تأتي مياه الينابيع .

— إنها قطرات المطر تتغلغل في الأرض ثم تتفجّر من منافذها .

— ومن أين يأتي المطر .
— من فيض الآلهة .
— أي الآلهة .
— مطر السرور من فيض كيوبد إلـه الحب. أتنكر أن الحب مصدر كل سرور وسعادة ؟
— لا أنكر .
— إذن فلماذا لا تبنين هيكلاً لكيوبد .
فأجابت بدلال وابتسام ساطع : بنيت .
— أحقيقي ! أين !
فأشارت الى قلبها وقالت : هنا . بنيت هيكلاً واحداً لمتعبد واحد .
فقال أفريدوس متدللاً أيضاً : كيوبد إلـه جميع البشر فكيف تحصرين عبادته في هيكل واحد لمتعبد واحد ؟
— أتريد هيكلاً يشترك بالعبادة فيه كل الناس .
— كذا تكون الهياكل . يجب أن تبني هيكلاً لكيوبد في بنطس يقصد اليه كل الناس .
— أنت تعلم أن لا محل له في بنطس . ولا سلطة لي في غيرها .
— حينما تبنين هيكلاً لكيوبد تنقاد السلطة اليك صاغرة .
— تغضب أمتي .
— غضب كاذب .
— كيف يكون كاذباً وهو يزعزع عرشي .
— بل يثبت عرشك . لأني أعلم عباد كيوبد في بنطس أشد حرارة غرام من عباده في اي مكان آخر .
— لو بني هيكل هنا لهدمنه في دقيقة وحملن مكانه قاعاً صفصفاً .
فقهقه افريدوس قائلاً : ليتك تمتحنين الأمر فترينهن يترامين اليه ترامي الفراش على المصباح .
— يرمينني منه بسهام مسمومة .
— يرمينك بأغصان الورد امتناناً وشكراً .
— هذه مجازفة يا أفريدوس لا أجسر ان أقدم عليها .
— ليس في الأمر مجازفة . يبنى الهيكل في الحدود قرب قصر الصيد الذي اجتمعنا فيه لأول مرة من غير أن يعلم من بناه . وحينئذٍ ترين الأمازونيات يتهالكن في التردّد اليه

خلسة وبعد حين جهاراً. وفي زمن غير طويل يتلاشى العداء الذي حدث بين دولتي بنطس وجاريجاريا بسبب الدسائس. وثمَّ يتواتر القران بين الأمازونيات والجاريجاريين. وأخيراً يتحوَّل الخصام الكاذب بين الأمتين الى ولاء صادق. وثمت يتسنى ضَمُّ العرشين في عرش واحد تتبوئينيه أنتِ.

— وي. وي. وي. لقد شططتَ كثيراً يا إفريدوس. تزين لي حلماً لا أتصوَّر تحقيقه حتى ولا في السماء السابعة. فكيف يمكن ذلك.

فقال افريدوس جادًّا: تقترن ملكة بنطس بملك جاريجاريِ...

فقالت مبغوتة غاضبة: ويحك. أتخادعني بحبك لكي تزين لي قراناً بملك جاريجاري وقد صار ملككم عدوًّا لدوداً لأسرتي. إذن كنت تتصنع الغرام بي تصنعاً لكي يكون السبيل الى اتحاد العرشين وضمّ المملكتين بزواج ملكي أكون فيه أمة لا سيدة. لا. لست أصبر على هذا الخداع لحظة.

فقال افريدوس بدلال وشمم. أتبلغ منك السذاجة أن تفهمي من مقالي قرانك بغيري؟ هل ترين فيَّ العاشق النذل الذي يسخر عشقه أو يؤجره لقضاء مأرب لغيره.

فقالت مبهوتة. إذن كيف يتحد العرشان بهذا القران وأنت تقول أنك من سلالة الكهنوت لا من سلالة ملكية؟

— هل تجهلين أن السلالات الملكية مشتقة من السلالات الكهنوتية في كل أمة. إذن فلا بدع أن يصير ابن كاهن كبير ملكاً.

— هل مُسخ ملك جاريجاريا إلى خنفسة حتى لا تحسب حساباً لمقاومته.

— أجل في جاريجاريا سلطة العرش مستمدَّة من سلطة الكهنوت. والشعب الجاريجاري ضاق ذرعاً من قانون دولتكنَّ الذي أفضى على مرور الزمن إلى تكاثر الذكور في جاريجاريا وتجمع الأناث في بنطس. لأن الأمازونية التي تقارن جاريجاريًّا في ربيع المغازلة إذا ولدت بنتاً احتفظت بها أو ذكراً أرسلته الى أبيه. فأصبحت بنطس مملكة نساء وجاريجاريا مملكة رجال قلت فيها النساء. وكثيرٌ من الشبان لا يجدون لهم زوجات. وجميع الآلهة تستنكر هذا التفريق. وكيوبيد يتضجَّر منه. فإلى متى هذا الفسق المنافي لسنة الطبيعة؟

وكانت الملكة تفكر في منطق أفريدوس هذا وتزنه وترى الصواب فيه إلى أن قالت: تكاد تريني سعادةً لا أتصوَّر وجودها حتى في عالم الآلهة. هذا اقتراح خطير الشأن، يجب البحث فيه مليًّا قبل تقريره والبحث في خططه قبل تنفيذه. لذلك أود أن تذهب

الليلة إلى قصر الصيد في الحدود وتنتظرني هناك الى أن أوافيك بحاشيتي للصيد . وهناك يخلو لنا الجو ونتفاوض في رسم الخطة الضامنة النجاح

فأجاب افريدوس مبتهجاً ، لماذا لا أبقى هنا ثم اذهب مع الحاشية ؟

— صرت أخشى انفضاح أمرنا . فأود أن تسبقني بدعوى أنك موفد لتهيئة أجهزة الصيد . وهناك سيرونا الوصيفة المخلصة الحارسة قصر الصيد والقيّمة عليه تكون في خدمتك .

— لا أرى موجباً لهذا التدبير العاجل . لعلك تريدين بهذا التدبير اقصائي عنك .

— كلاّ البتة . بالعكس . أود أن أضمن بقاءك إلى جنبي إلى الأبد . لا تسيء الظن بي وأنا أعبد كيو بيد فيك . اذهب الليلة إلى قصر الصيد وانتظرني هناك .

— كم عمر انتظارك ؟

فضحكت ملء فمها وقالت : بعض الأسبوع

— أبعد غد ؟

— أو بعده فلا تضجر .

— بدأ الضجر منذ الآن

— راعِ القمر فهو شعاع الحب بين قلبينا

— ساري القمر مكمّداً حيث لا تكونين موجودة تمدينه بضيائك .

فقالت مجفلة : إذن فلا تساهر القمر بل ناجِ الشمس في النهار فهي جمرة الحب بين قلبينا .

فقال متضرعاً — بربك لا تبطئي لئلا تحرق تلك الجمرة قلبي فلا تجدين حين اللقاء إلاّ رماده

فقالت ضاحكة : اذهب أعدّ جوادك . فالشمس على وشك المغيب . تبلغ إلى قصر الصيد في ضحى الغد إذا لم يخنك الجواد .

ثم تلاثما ملاثمة الوداع وخرج الى الاسطبل

الفصل الثالث

في دار القضاء

في دار القضاء بهو رحيب أنيق فيه مقاعد من خشب السنط مزخرفة زخرفة أغريقية جميلة ،وفي وسطه منضدة من نفس الخشب . وإلى جانبي مقدم البهو عمودان ضخمان يتوسطهما تمثالان للإلهين إجكس وارس وقد علق في الجدران ، حراب وسيوف وقسي وسهام .

(١)

وكانت أوجستينا سيدة القضاء أو وزيرة العدل جالسة لدى المنضدة وفي يدها رق القانون تنشره رويداً كلما قرأت لنفسها بعض أسطره .وما هي إلاّ هنيهة حتى دخلت أودينا الشرطيّة الكبرى أو ذات الرتبة العالية بثوب خاص يدل على رتبتها،وفي يدها رمح قصير ذو حربة. وضربت الأرض بكعب رمحها ضرباً خفيفاً . فالتفتت إليها أوجستينا وسألت : هل جدّ شيء بشأن المعتقلات التسع على جسر ترمودون ؟

— عثرنا على عاشرة يا سيدتي مشتبه بها في فندق التاجرات،فاعتقلناها منذ ساعة

— أية شبهة ظهرت فيها

— أعدم يمناي إذ لم تكن رجلاً جاريجاريئا متنكراً.

— وي . وي . اذاً عثرنا على القمر الساطع

فقالت اودينا باسمة: بل على القمر القاتم يا سيدتي . وأما القمر الساطع فما هو الأ المعتقلة السابعة التي أصرّت على عدم الاقرار بهويتها لأن الشبهة قويت عليها .

فاشرأبت اوجستينا مهتمة وقالت : ماذا بها من دلائل الشبهة .هل كذبت بحقيقة شخصيتها

— بل حقيقتها كذّبت شخصيتها .

فابتسمت اوجستينا وقالت : كيف ؟ هل شرعت تتحوّل من صنم الى انسان ؟

— لا . لم تزل صنماً لايتحول . وانما . أليس هذا هو الصباح الثاني لاعتقالها .

— بل مضت عليها ليلتان ونهار في المعتقل هنا . فماذا ظهر من كذب شخصيتها ؟

فقالت أودينا مداعبة ومشيرة الى خدها : وجنتا الصنم كذبتا كذباً صراحاً .

— هل اصفرّ أحمرها وجلاً ؟

— بل اخضرّا ورقاً.

فقالت اوجستينا ضاحكة : تبًّا لكِ . أتعنين أن شيئاً أخضر نبت فيهما .

— أي وربي . نبت فيهما عذاران ... أ ... جيلان .

— ويكِ . أعذاران ؟ أشعرٌ نبت فيهما كما يبدو في خد الفتى .

— نعم . إذ لم يتسنَّ له أن يحلق منذ وقع أسيراً الى اليوم . فتأملي أن ترى شبحاً في ثوب مرأة أنيق وعلى خديه عذاران وعلى شفته شارب

وجعلت اوجستينا تقلبُ الرق في يديها وقالت :أماهي سابعة اللواتي قبضت الشرطيات عليهن حين مرورهن على جسر ترمودون حين خسوف القمر ؟

— بلى هي . هي

— هل علمت متى عبرت المتنكرة العاشرة على الجسر .

— لا . لأن ذلك المتنكر لم يبت في الفندق إلاَّ أمس . وقد جاء اليه متأخراً ولم يخرج منه الى أن اعتُقِلَ

— آتيني بهذا المعتقل العاشر أولاً . وحافظي على السابع جيداً ريثما انتهي من التحقيق مع ذاك أولاً .

وبعد أن خرجت اودينا جعلت سيدة القضاء تخاطب نفسها :

حقًّا . لم يكن نطق الهيكل عبثاً . سنرى أي الدواهي في صدرَي هذين الرجلين المتنكرين . هل لهما غرض واحد أم انهما لا يلتقيان عند غرض واحد

وفي الحال دخلت أودينا تقود رجلاً متنكراً بثوب امرأة وفي يديه غلٌ (سلسلة حديدية) متصل بطوق في عنقه وعلى وجهه لثام تبدو من خلاله عينان حادتان . لأن السجن في نفس الجدار .

ثم أشارت أوجستينا الى أودينا أن تخرج . ورفعت أوجستينا اللثام عن وجهه فبدا لها رجل في آخر سن الشباب دميم الوجه ذو أنف أشم . وجلست وهو بقي واقفاً أمامها وسألت كيف دخلتِ الى البلد من غير أن تشتبه بك امرأة أمازونية أو شرطية الحدود لكي تصدك عن الدخول .

فقال بأنفة وكبرياء : دخلت مستتراً بغلس الليل الماضي .

— أين كنت في نهار أمس .

— كنت ماراًّ في الحدود

— كيف جرؤت وأنت تعرف أن قانون الامازونيات يحرّم دخول الرجال الى بنطس تحت طائلة القصاص .

خاطرت مضطراً لأمر ليس فيه مساس بقانون البلاد .

فقالت بنزق : ما هو ؟

— لي حبيبة جاريجارية يأباها عليّ أهلها . وقد اضطهدوها لأجلي . فلجأت الى عاصمة بنطس وجئت أبحث عنها لكي نتفاوض بتدبير موافق لكلينا .

— وي وي . لقد أصبحت بنطس ملجأ العشاق . . . ما اسمك يا هذا وما اسم حبيبتك ؟

— مولاتي أرجو أن تعفيني من هذا السؤال . العادة عندكنّ أن الهاربات اليكنّ بسبب غير مشين يلجأنَ الى الهيكل . وكنت مزمعاً أن أقصد اليه لكي أسأل عن حبيبتي هناك، فاعتقلت قبل أن يأتي الليل . فأرجو أن تسمحي بارسالي الى الهيكل وهناك يثبت صدق دعواي

— لا أجيب طلبك الاّ إذا اعترفت بهويتك وهوية حبيبتك .

— مولاتي اعتقد أن قضاء الأمازونيات الجليل التريف يسمح لي بكتمان هويتي وهوية حبيبتي حرصاً على كرامتنا. وأظن ان ابلاغك امري الى قداسة كاهنة الهيكل الجليلة يريحك ويريحني من عناء التحقيق .

وهنا نادت اوجستينا اودينا وقالت لها رديّ هذا المعتقل الى كنّه ثم تعالي .

وخرجت اودينا بالمعتقل وشرعت أوجستينا تكتب على رقٍّ صغير :

« الى سيدتي الورعة المبجلة رئيسة الكاهنات في دار القضاء

«عندي رجل جاريجاري متنكر معتقل يزعم أن له حبيبة لاجئة الى الهيكل فراراً من اضطهاد أهلها لأجله . ويأبى أن يبوح باسميهما . فاذا كانت عندك هذه الفتاة فأرجو أن ترسليها مخفورة الى دار القضاء لأجل التحقيق في دعوى هذا المعتقل »

اوجستينا

سيدة القضاء

ثمّ لفت الرق وربطته بشريط أحمر . ولما عادت أودينا قالت : أرسلي هذه الرسالة الى الهيكل . ثمّ آتيني بذات العذار، لأنه يلوح لي أن هذا المتنكر الآخر الذي كان في الفندق ليس القمر الساطع الذي مرّ على الجسر حين اكمداد القمر .

— حتى ولا نيزك هابط يا سيدتي .

— أجل أظن أن ذات العذار هي بيت القصيد .

— نعم هي بيت القصيد الذي يصعب تفسيره .

— هل حاولت استنطاقها ؟

— لم أستنطق منها إلاَّ لفظة « لا » فهي مغرمة بهذين الحرفين كأن اللغة كلها مجتمعة فيهما .

فقالت أوجستينا ضاحكة : أوه . كثيراً ما تجتمع اللغة كلها في حرفين .

— أفي حرفين بلا معنى كحرفي « لا »

— لا بل كحرفي حاء وباء ففيهما كل معاني الوجود

— اي وربي . فيهما كل لاهوت كيوبيد وفلسفته . ليتك تشرحينهما يا سيدتي

— آتيني بذات العذار لعلي أتوفق إلى شرحهما .

— ٢ —

وما هي إلا دقائق حتى عادت أودينا بفتىً بثوب امرأة أمازونيــة مغلولة اليدين والسلسلة متصلة بطوق في عنقها، وعلى ظهرها جعبة سهام وعلى كتفها الأيسر قوس معلقة للدلالة على إنها كانت في الصيد . فقالت أوجستينا دعيني يا أودينا استوحي الفلسـفة من التي أشرت إلى مصدرها

فخرجت أودينا . وكانت أوجستينا تتفرَّس في المتنكرة المعتقلة جيداً معجبة بجمالها . ثمَّ أشارت إلى مقعد لدى المنضدة وقالت آمرةً : — جلوساً

فقعدت المتنكرة . واستأنفت أوجستينا التحقيق : أتأسف يا ذات العذار إن دار الإعتقال خلو من موسى تحلق بها عارضيك . ولكنك لو أنبأتني منذ أول ساعة أنك اعتدت الحلاقة كل صباح وكل مساء لاختلقت لك موسى من أعماق الخفاء . فعذراً . اين الموسى التي كنت تحلق بها عارضيك فآتي بها إليك .

فتبرَّم الفتى ولم يجب بكلمة

— عذرت اقلالك من الكلام أمس إذ كانت رئيسة الشرطة تحقق معك لأن الحياء من طبع النساء الجاريات مجاريات المتحصنات . ولكن الإقلال من الكلام الآن إنما هو جبن لا يليق بالرجال الجاري مجاريين الذين تربطنا بهم أوثق صلة : صلة الدم . فمعظمهم آباؤنا واخوتنا وأولادنا . هل تريد أن تنكر شهادة هذا العذار اليانع ؟ (قالته بابتسامة)

— لا أنكره

— حسناً . ولماذا كنت تحصده كل يوم وهو نصف حسن الفتى الجميل ..

- لأنه مستنكرٌ في بنطس

— ومن هي المرأة التي لم تستنكر وجودك معها بدونه

— لا أعرف امرأة أمازونية لا تستنكر وجود رجل معها في بنطس

فقالت باسمةً ابتسامة شعاعية : أما كنت تأوي إلى منزل امرأة حسناء ؟

— لا

— أين كنت تبيت ؟

— في السجن

— وقبل السجن

— كنت في الحدود

فقالت سيدة القضاء أوجستينا متدللة مبالغة في الابتسام : من هي المرأة السعيدة التي كانت تتوقع قدومك إليها ؟

— لا أدري

— إلى أين كنت تقصد إذن ؟

— إلى أي فندق في هذه العاصمة .

— لماذا قدمت ؟

— لأجل النزهة . ولمفاخرة رفاقي في مشاهدة عاصمة مملكة النساء التي لم يدخلها رجل

- هل كنت تجهل القانون الأمازوني الذي يحرّم على الرجال الدخول الى مملكة النساء وعقاب مخالفته ؟

— كنت أعلمهما ولهذا تنكرت

— أما حسبت حساب الافتضاح وهذا المصير الذي انتهيت إليه ؟

— ان طيش الشباب يخطىء الحساب يا سيدتي

وكانت تحملق في عينيه باشة الى أن قالت : لا يطل من هاتين المقلتين إلاّ سحر بابل . أمن أصل بابلي أصل سلالتك ؟

— ربما

- لا أرى في هذه النظرات الخالبات طيشاً : بل أرى ذكاء يضارع البهاء الذي يشع من هذا المحيّا الوضّاح . فلست أقتنع أنك غبي لا تحسب حساب وقوعك تحت الشبهة . أعتقد أنك لم تقدم على هذه المجازفة إلا اعتماداً على قوّة تنقذك . فما هي ؟

فقال الفتى متبسماً : ما هي إلاّ رحمة القضاء بي

— لقد صحت فراستي. لم تطمع برحمة القضاء بك إلاّ اعتماداً على شفاعة قوية بك. فما هي ؟
— ما هي إلاّ شفاعة القضاء نفسه
— يلوح لي أنك عظيم الأمل بتسامح القضاء. ففي مقابل أية محمدة تمني نفسك بعطف القضاء ورحمته.
— التسامح يا مولاتي في مقابل محمدة لا يُعدّ رحمةً بل هو جزاء للمحمدة. لأن المحمدة ثمن له. فأنا آمل برحمة القضاء لأني شاعر بأنه مفعم « رحمةً وعطفاً بلا ثمن »
فقالت أوجستينا متهللة كأنها أصابت غرضاً في نفسها ؟ ولكن قانون الأمازونيات صارم (مشيرة الى رق القانون الذي في يدها وناشرة منه بعضه) .
— القانون كتابة بكماء في رقعة صماء . والقضاء ينشره ويطويه كما يشاء
حينئذٍ شعرت أوجستينا بفيض الشعر في مخيلتها وقالت متغزلة : يخيل لي أنك توكل هذه النظرات الساحرة بأن تشل اليد التي تنشر القانون . ثم لفت الرق كما كان وردّته الى موضعه إذ كان الفتى يجيب باسماً : إذن لم يخب أملي برحمة القضاء .
— هل كانت تلك المرأة المسبية بهذه اللواحظ تطمع برحمة القضاء بك .
— عسى أن تعثري على امرأة كهذه فتسألينها
— ما خاب ظني في سحر هاتين المقلتين الفاتنين . سحر يشق الطريق الى الدهاء . سؤال آخر . هل تتفضل بالاجابة ؟
— أشكر لسيدة القضاء الموقرة لباقة تحقيقها التي فرشت طريق الاجابة بزهور العطف واللطف ، وأطلقت لساني من قيد الاعتصام بالصمت كلما أنذر السؤال بخطر الوقوع في الفخ . فتفضلي بالسؤال :
— هل تتوقع أن الحسناء التي كانت تتوقع نعيم اللقاء بك تقبل الرحمة بك من يد القضاء ؟ (تشير بيدها)
— جواب هذا السؤال يا سيدتي في فم المستقبل.
فقالت أوجستينا متململة : ما أسعد حظ تلك المعشوقة العاشقة التي يختم حبك لها باب أسرارها بختم لا يستطيع أحد فكه . ترى هل هي جديرة بهذا الاخلاص
أشكر حسن عقيدتك بأسيرك يا مولاتي . هل عندكِ دليل على وجود عاشقة لي معشوقة؟
فتنهدت أوجستينا وقالت متحسرة : أعرف عاشقة لك: لا أدري إن كانت معشوقة لك (تعني نفسها)
فقال الفتى مختلجاً : ما أتعس المعشوق الذي يجهل السعادة التي هو فيها .

فردّت اوجستينا : وأتعس منه العاشقة التي غمضت عينا عشيقها عن ملامح غرامها .

— تبًّا لهذا العشيق . أأعمى هو ؟

فوقفت أوجستينا متئدة،فوقف هو أيضاً وقالت : سلمت عيناه . بربك أتعلم كيف يفهم فرخ الحمام شوق قرينته الحمامة له ؟

فأجاب الفتى متردداً : أظن انه متى هدر لها أحسّ قلبه ينبض نبضاً قويًّا كنبض قلبها أعني أن القلبين يتخافقان .

— اذا كنت أنت لا تحس هذا الاحساس فبربك هات يدك لعلك تحسه .

وأمسكت بيده ووضعتها على أيسر صدرها . وهو استردّها بكل لطف ففهمت هي من استردادها اباءته ثم قالت :

ما أشقى الحمامة التي لم ينبض قلب الفرخ مع نبض قلبها . آه لقد كانت حياتك في يديّ فأصبحت وحياة قلبي في يديك أيها الفاتن الفاتر . امنحني نظرة حب وبسمة غرام وفي ليل ونهار تكون مطلقاً الى الحدود .

ثم قبضت على كفه كأنها تريد ضمه الى صدرها وقالت إن القضاء مرنٌ في يدي . أصدر حكمي باطلاق سراحك بدعوى أنك فتى طائش لم تقدّر العواقب حق قدرها . ولم يثبت عليك سوء قصد . فهل تسمح الآن ....

وهمت به،ولكن اودينا باغتتها قبل أن تنال مأرباً منه وقالت : بلاغ رسمي يا مولاتي

فارتدّت اوجستينا مبغوتة وقالت : أدخلي هذه المتهمة الى الحجرة السرية وأوصدي الباب دونها . واستدعي ناقلة البلاغ

ففعلت أودينا كما أمرتها سيدة القضاء ثم أومأت لها هذه أن تخرج من حيث أتت .

— ٣ —

ما هي إلاَّ دقائق معدودة حتى دخلت جورجيا رئيسة وصيفات الملكة وانحنت باحترام كلي لسيدة القضاء وقالت : السلام على سعادة وزيرة القضاء .

— سلاماً . وسمعاً وطاعة للبلاغ الملكي الشريف

فقالت جورجيا بوضوح وصراحة : بلسان جلالتها أسأل : ماذا بدا من الشبهات في أمر المعتقلات .

— ظهر بينهنّ رجل متنكر ليس في العير ولا في النفير . ما هو إلاَّ جحش لا يعرف كيف « يبرطع » . ثم ظهر آخر متنكراً . وهو فتى قلبه طامور أسرار ، وأنا مجدة في استخراج أسراره .

— وي . وي . وي. فتىً متنكرٌ ؟ هذا ما كنا نتوقعه . بأي زي .

— بزي صيادة

فقالت جورجيا مازحةً : أغزالةً كان ذلك التعس يطارد ؟

فقالت اوجستينا تعقب على مزاح جورجيا بمزاح فظيع : لعله كان يطارد أفعى .

— أأحمق هو حتى يطارد أفعى الى قلب بنطس ؟ لا بدّ انه كان يطارد حمامة كانت تستدرجه الى أن وقع في الفخ

— الى الآن لم يبدو منه أن له صلة بحمامة ولا بغزالة . يزعم أنه جاء للتفرج والنزهة

— أجاء هذا الشقي لكي « يتفرّج » على حمامته كيف يحزّ عنقها وينتف ريشها

— ينكر أية صلة له بأنثى

— اتبلغ منك السذاجة يا سيدتي الوزيرة إلى حد أن تصدقي زعمه بعد أن قضيت عمراً في خدمة القضاء ؟ أرجو عدم المؤاخذة على هذه الجسارة مني

— خمسة عشر عاماً لم أر في خلالها أحداً طائشاً طيش هذا الفتى الأحمق .

— بلسان جلالة الملكة أقول : يجب أن تتحققي الى أن تكتشفي المرأة التي له صلة بها.

— قد يكون الفتى صادقاً فيما يقول . وليست له صلة بامرأة

— يجب أن تخلقي له صلة بامرأة لكي تتم نبوءة الهيكل بجريمة ، ولكي يتم العقاب ويرتفع ويل الهيكل عن البلاد .

— إن كان لا بد من ذلك ففي طوقي أن أجعل دار القضاء دار تمثيل جرائم ومنصة لتنفيذ الاحكام بالاعدام أيضاً لكي يرضى الهيكل .

— لماذا تكلفين نفسك كل هذا العناء . كلفيها نصفه فقط . ففي قبضة يدك الآن أحد المجرمين فاختلقي له شريكة بالجريمة واقضي عليهما .

— حتى ولو كانا بريئين ؟

— ان كان هذا بريئاً فاعدامه لا يسوء أحداً . ولا العالم ينقص فرداً واحداً قبل ميعاد نقصه. وفي كل دقيقة يأتي للعالم بدل ما ينقص منه .

— ولكن عدل القضاء غير عدلك .

— دعي هذا العدل. ففي بلاط الاحكام يتلوّن العدل . السلام عليك .

ثم خرجت جورجيا مرحةً . وما إن خف وقع أقدامها حتى استدعت أوجستينا أودينا رئيسة الأمن .

— ٤ —

ودخلت أودينا فبادرتها أوجستينا : أما سأل أحد عن المتهمة السابعة ؟

فأجابت أودينا ضاحكة : أذات العذار تعنين ؟ من تجسر أن تسأل عنها وتعرض نفسها للشبهة . ماذا اكتشفتِ من أسرار وفيها الحاء والباء المحتويان على الوجود المطلق .

فقالت أوجستينا . إني اكتشفت في صدرها أبا هول مصريّـا ، وفي عينيها سحراً بابليّـا ، وفي ثغرها شعراً هوميروسيّـا يونانيّـا . وفي قلبهـا حكمة سليمان العبراني . وفي نفسها شمم بلقيس بلميرا . وفي رأسها ذكاء أوقتافيوس الروماني .

— لله درها . إذن هي مجموعة أمم .

—أجل مجموعة الأمم وقعت في قبضة القضاء اليوم .آتيني بها من الحجرة السرية التي أودعتها فيها .

وفيما أودينا عائدة من الحجرة السرية بالفتى قالت : أشعر باختلاج في قلبي يا سيدة القضاء . أمن سحر بابل هذا يا ترى .

فقالت أوجستينا : لا تنسي أن تقفلي الباب وراءك . ثم أشارت للفتى أن يقعد فقعد وقالت : من العبث التساآل عن هويتك يا هذا ، لأنه لا ينتظر من متّهم أن يصدق في جواب

فقال : إني في إعجاب عظيم يا سيدتي بفهمك الحقائق من غير سؤال .

— أتظنني فاهمة الحقيقة منك تمام الفهم ؟

— لا أدري ما هي الحقيقة التي فهمتها عني يا مولاتي .

— أعني انك من الطبقــة التي تمتطي الجياد وتحمل النجــاد وتصارع الآساد وتنازل الأبطال وتبارز الأقيال .

لقد سبقتِ فقررت يا سيدتي أنك لا تنتظرين مني جواباً جازماً بهـذا الشأن فأخاف أن أجيب جواباً جازماً فتنخدعين بصدقي .

— يقيناً لا يهمني من أنت ما دام القانون عنـدنا لا يميز بين الأشخاص . حسبي أن المتّهم أمامي بشخصه جسداً وحياةً وعقلاً وروحاً . أجبني على سؤال واحد فقط بلا مراوغة ولا مواربة لأن الأمر باستنطاقك جازمٌ ، من هي المرأة التي تتصل بها ؟

— تضطرينني يا سيدتي أن أعود الى صمتي السابق بعـد أن أطلقت لباقتـك العنان للساني واستوفى تحقيقك حقوقه .

— أجل ، لا أرجع بوعدي لك أن أفسّر ذنبك بالطيش والتهوّر لتبرئتك . ولـكن

انجاز هذا الوعد لا يمنعني من الاستقصاء عن المرأة التي لك صلة بها . فإذا لم تبح باسمها وهويتها فلا بدّ من انزال العقاب الشديد بك . وهذا ما أريد أن أتداركه ولو بتضحية مني

— شكراً لعطفك الذي لا يقدر بثمن . إذن اختصري الطريق وأحكمي بالعقاب الآن ولا مقتضى لانزعاج كلينا بالتحقيق العقيم .

ووقفت وأمسكت بإذنه وقالت : لله منك عنيداً مكابراً . حاولت انقاذك فعاونت القدر على معاكستي .

وطوّقت خصره بذراعها وهمّت أن تضمه الى صدرها ، وإذا بأودينا تفاجئها قبل أن تفعل ، فانتفضت الى الوراء بهزّة كأن تياراً كهربائيًّا نفضها ، وكأن تياراً عصبيًّا كاسح وجهها وصفّره وقالت : ماذا عمى يا أودينا ؟

— ٥ —

— بلاغ رسمي ياذات القضاء والدينونة والصفح والمغفرة .

فقالت أوجستينا وهي تبتغي أن تختلق عذراً لسبب وقوفها الى جنب الفتى . وأمسكت بيده وقالت : أدخلي ذات العذار الى حجرة السرّ هذه .

وبعد أن نفذت هذا الأمر قالت لها : أدخلي جورجيا ناقلة الأمر الملكي .

فدخلت جورجيا وحيت التحية الرسمية . فقالت أوجستينا : أمر جلالتها ؟

— هل اعترف الفتى بشيء .

— حاولت أن أجرّعه مقيّئاً عسى أن يتقيّأ اعترافه الصادق ، فلم أنجح ولا أظنني أنجح

— تهديه بالحكم بالموت . وإن أصرّ على الكتمان فأصدري الحكم واسميه نصه . وان بقي مصرًّا فارسلي نص الحكم الى جلالتها .

— سمعاً وطاعة .

ثم خرجت جورجيا وبقيت أوجستينا تكتب الحكم الى أن دخات أودينا فأمرتها أن تأتي بذات العذار .

فقالت أودينا : أفّ من عذارها . لقد أزعجنا كثيراً يا سيدتي ، ليتك تأمرين بحصده فقالت أوجستينا مازحةً . وإذا خلقناه فماذا يبقى من فلسفة كيوبيد التي تودين درسها يا غبيّة .

دخلت أودينا الى الحجرة السرية ثمّ عادت بالفتى قائلة ، يكاد هذا العذار يصبح مرجة زمردية اللون .

وخرجت أودينا بإشارة من ذات المعالي الوزيرة ، وهذه تلقت الفتى بابتسامة مشرقة وقالت : لم يبقَ في قوس الصبر منزع يا عزيزي المتهم . ولم يعد في وسعي احتضانك . كلما أطال القضاء الأجل قصَّره القــدر . ولا حيلة في القدر الإلـهي إلاَّ حيلة واحدة وهي أن تتقيأ اسم شريكتك في عبادة كيوبيد المحرمة في بنطس، لكي تشفى من دائك المميت . فما قولك .

— لا يموت الإنسان يا سيدتي مرتين . وأما في هذا التحقيق العقيم فقد مت ثلاثاً، ولتكن الرابعة خاتمة الموتات

فقالت أوجستينا بائسة عابسة : إذاً اسمع

وقرأت : « حكمت دار القضاء الأمازوني على المعتقلة السابعة من معتقلات الرابع عشر من هــذا الشهر التاسع اللواتي اعتقلنَ على جسر نهر ترمدون ، لأنه ظهر أنها فتىً متنكر بزي أمازونية، ولم يقرّ عن شريكته بجريمة عبادة كيوبيد المحرمة في بنطس . حكمت عليه دار القضــاء بالموت برمي السهام في قلبه إلى أن ينضب دمه . ولا يقيه من هــذا الحكم إلاّ اقراره عن شريكته قبل التنفيذ . »

ثمَّ استدعت أودينا وأمرتها أن تدخل الفتى الى كنّــه في الغرفة اليسرى . ففعلت أودينا كما أمرت . ثم لفت أوجستينا رقّ الحكم وختمته . وقالت لأودينا : ارسلي هذه الوثيقة الى القصر حالاً . لم يبقَ لهذا المنكود الحظ إلاّ أن يستهدف قلب الملكة لسهامه عسى أن تنفتق لها حيلة لانقاذه

— ٦ —

بعد قليل جاءَت أودينا إلى سيدة القضاء تبلغها أن رئيسة الحكومة أمازونيا جاءت لمقابلة أوجستينا . فوقفت أوجستينا تقول : على الرحب والسعة بالرئيسة الموقرة :

ودخلت أمازونيا وحيت فأخلت لها أوجستينا كرسيّ الرئاسة، ولما استقرَّت قالت : بلغ إليَّ أن الذي وقع في الفخ رشاً الى جانبي أنفه جعبتان للسهام ».

وختمت كلامها بضحكة وزارية .

فأجابت أوجستينا أيضاً بضحكة قضائية . أجل جعبتان لا تفرغان من السهام . كلما راش سهماً منها بدا آخر

— أود أن أستهدف واحداً منها

فنادت أودينا وقالت الينا بذي العذار

فقالت أودينا : أف. وغداً بذي الشاربين وبعد غدٍ باللحية

فقالت أمازونيا : يقال إنه ابن كيوبيد . وقد جاء ليثير فتنة في بنطس لقلب الحكومة الأمازونية .

فقالت أوجستينا : وفي وسعه أن يشعل بنطس بنار الجحيم

ثمّ عادت أودينا تصطحب الفتى . فرفعت أمازونيا نظرها فيه ثمّ قالت : حاشا لله ما هذا بشر ، إن هـذا إلاّ كيوبيد بعينيه . وقالت يقولون أنك ابن كيوبيد ، أحقيقي ، أنت كيوبيد بعينه ؟

فقال مبتسماً : إن لم أكن كيوبيد أو ابنه فإني من سلالته

— ويقال أنك جئت لكي تثير فتنةً في بنطس . أحقيقي هذا القول أم افتراء ؟

— على سيادتك التحقيق

والتفتت أمازونيا الى أوجستينا وسألت : بماذا اعترف هـذا الساحر العاثر الحظ ؟ سمعاً يا هذا . نحن هنا نجحد السحر والشعر أيضاً .

فقالت أوجستينا : عبث استخراج الدر من بحر بلا قرار

وسألت أمازونيا : من هي المفتونة الخائبة الأمل التي تشاطرك الجريمة يا هذا ؟

— أية جريمة ياسيدتي الجليلة ؟

— جريمة الحب العظمى

— الحب يا سيدتي فضيلة للانسان حتى للحيوان، فكيف تصمينه بوصمة الاجرام

— هو جريمة في بنطس . وجريمة مقدسة في غيرها . وعقابه عندنا شديد ، أعيذك منه

— لماذا الحب جريمة في بنطس دون غيرها

— لأنه خطر على استقلال المرأة . ألا تعلم هـذا من تاريخ الأمازونيات . أما علمت أنهنّ لم يتحرّرن من العبودية للرجل إلاّ بجحدهنّ الاله كيوبيد وصد سهامه . أوَلا ترى انه حيث يباح الحب تكون المرأة أمةً للرجل الجائر ؟

— لا يا سيدتي حيث يباح الحب تكون المرأة محبوبة والمحبوب معزور . وأما حيث تكون المرأة أمة للرجل فلان الحب قتيل وكيوبيد دفين

— ألا ترى أننا نحن الأمازونيات مستقلات لأننا نكفر بكيوبيد اله الغرام ؟ آه يا للغرام كم أشقى قلوباً .

فقال الفتى محتجّاً : أأنتنّ مستقلات ؟ لا وربي . ما أنتنّ إلاّ « عبدات » رقيقات اسيرات لهيكلكنّ، منسحقات تحت أقدام كهنوته . انتنّ ممقوتات كما تظننّ ولا حرّات

كما تعتقدنَ، ولا تفهمنَ معنى الحرية .

— ما هي الحرية التي تتبجح بها ؟

— هي تلبية نداء الطبيعة بلا كبت ولا قمع . الطبيعة تعزف ونحن نغني . نحن نحب والطبيعة تضحك لنا . نحن ننظم الشعر والطبيعة توحي لنا الخيال الجميل . نلحن والطبيعة قيثارتنا . ماذا عندكنّ ، من هذه المطربات المعجبات يا من تدّعين الحرية والاستقلال ؟ عندكنّ أوتار بلا أنغام وأشعار بلا ألحان، ووقع بلا رقص، وسماء بلا شموس ولا أقمار . ما أنتنّ حرّات حتى ولا رقيقات بل أنتنّ رمم أموات، وأصنام بلا حياة . أنتنّ بنات الطبيعة وقد خرجتنّ على الطبيعة . مهما تمردتنّ عليها تبقينَ فيها تحت سلطانها . فاذا كنت يا سيدتي تعملين لخير الأمة الأمازونية وسعادتها ومجدها فشيدي هيكلاً فخماً لكيوبد في بنطس تحج اليه الأمازونيات مع قرابينهنّ جهاراً، حيث تحل عليهنّ نعمة الحب السعيد.

وكانت أمازونيا وأوجستينا مصغيتين متهللتين كأنهما تسمعان أنشودة الغرام على قيثارة هلاس ، ومحياهما يطفحان بشراً . فقالت أمازونيا : وي وي . كأني لم أجيء الى هنا لكي أحقق، بل لكي أسمع كرازة بعقيدة الحب

— أجل يا سيدتي . الحب ينبوع السعادة والسرور . والقلب بلا حب كالغصن اليابس . هو أول الأغصان التي تتحوّل الى رماد اذا لفحها اللهيب ، وأول ما تنقصف إذا كسحتها الريح . وأما القلب المفعم حبّا كالغصن الذي تحميه رطوبته من الاحتراق وتنقذه مرونته من الانقصاف، بل هو الغصن الرطيب الذي تكسوه أزاهره في الربيع، وتثقله ثماره في الصيف .

— كفى يا هذا ما نحن في مباراة أشعار . دع هذا الهذيان .

فقاطعها قائلاً : أعلم يا سيدتي أنك لا تحسين ما أقول ، فلو كان الى جنبك زوج وفي حضنك طفل لكنت تفهمين هذا الهذيان . ما أنت إلاّ الغصن اليابس الذي ينقصف من هبوب ريح هذياني .

— كفى كفى . إذن حقيقي انك ابن كيوبد، وقد جئت لكي تضرم نار فتنة هنا .

— إذا كانت الدعوة الى عبادة كيوبد تسمى فتنة فقد صدق القول اني جئت لكي أطلق النساء الأمازونيات من أسرهنّ الى ساحة حريتهنّ، وأرشدهنّ الى كيفية استعباد الرجل بالحب والاخلاص .

— صه لقد انجلى لنا جرمك بشهادة لسانك . فلا تعفى من العقوبة إلاّ إذا كنت تبوح باسم شريكتك فيه .

— استنكف جدًّا أن أشتري العفو بشهادة زور

— على من تعتمد في انقاذك من الحكم الرهيب؟

فقال الفتى باسماً : على سهم من سهام كيوبد الهي

— لا حول لكيوبد ولا طول في بنطس .

فقال — يرمي سهامه من جاريجاريا فتقع في قلب بنطس

ووقفت أمازونيا كأنها غاضبة وقالت باسمة : يا سيدة القضاء ان لهذا الفتى صلة بمكيدة هائلة . فاذا لم يعترف بها لكي يكافأ بالعفو فلا بد أن تحكمي عليه بالموت الأحمر أو الأسود . السلام عليك

فقالت أوجستينا واقفةً :لقد صدر الحكم يا مولاتي

وخرجت أمازونيا ظافرة مرحاً ومترنحة أسفاً .

— ٧ —

وما أن خرجت رئيسة الحكومة أمازونيا حتى دخلت أودينا وفي يدها رقّ وقالت: رسالة من الهيكل يا سيدتي ردٌّ لرسالتك

ودفعت الرق لأوجستينا وخرجت توًّا

وفضت أوجستينا الرق . وقرأت :

« من رئيسة الكاهنات الى حضرة سيدة القضاء .

« عندي في الهيكل خمس لاجئات لأسباب مختلفة . وبعضها مجهولة ـيكتمنَ ذواتهنَّ وليس للهيكل أن يبتزها منهنَّ ابتزازاً . فأرجو أن ترسلي المعتقل الى هنا عسى أن يتعرَّف على حبيبته ان كانت بينهنَّ » .

وفكرت أوجستينا مليّـاً،ثم كتبت الرد هذا :

« سيدتي الجليلة رئيسة الكاهنات . حسب ايعازك أرسل اليك المعتقل لكي تتحققي صدق دعواه . ثم أرجو أن ترديه الى دار القضاء بحيث لا يكتشف أمره أحدٌ »

ثم استدعت أودينا وأمرتها أن تأخذ الرسالة مختومة وذلك المعتقل الذي قبض عليه في الفندق الى الهيكل .

وما إن خرجت أودينا حتى دخلت جورجيا رئيسة وصيفات الملكة.فبغتت أوجستينا وقالت : خيرٌ ان شاء الله .

— جلالة الملكة قادمة الآن متنكرة لكي تحقق مع الفتى المجرم العنيد الذي صدر

الحكم عليه . يجب أن تخلي دار القضاء من الانس والجن لكيلا يعلم أحدٌ بوجودها هنا . استحضري الفتى واحبسيه في هذه الحجرة الى أن تدخل جلالتها عليه من غير أن يعرف من هي التي تحقق معه . لعلها تستطيع أن تستخرج سرّه من أعماق قلبه .

ألقت جورجيا هذه الرسالة وانثنت راجعة من غير أن تسمع كلمة من سيدة القضاء . فاضطربت أوجستينا وانهمكت واستخرجت الفتى بنفسها من الحجرة السرية وقالت : إني بريئة من دمك يا هذا، لقد حاولت انقاذك . ولكن عنادك جنى عليك . بقي لك خيط ضئيل من الرجاء ، ان شئت أن تتشبث به . إني تاركتك الى المحققة الأخيرة قبل تنفيذ الحكم . فعسى أن ترعوي وتربأ بنفسك .

وخرجت وأقفلت الباب وراءها . فجعل الفتى يخاطب نفسه قائلاً : إني أعتصم بغوث إلهي كيوبد من هؤلاء المرائيات اللواتي يعبدنه بقلوبهنَّ ويلعنّه بشفاههنَّ ، قبل أن يرميني بسهم واحد مُسْدَمٍ .

— ٨ —

ما هي إلاّ هنيهة حتى انفتح الباب بغتةً ودخلت الملكة بثوب عاميةٍ ، ثم ارتدَّت مذعورة لما وقعت عيناها على عيني أفريدوس وأجفلت إذ رأت عذاره . وترنَّحت واهية القوى . وأما أفريدوس فبهت واختبل، لأنه لم يكن البتة يظن أن الملكة تأتي الى دار القضاء للتحقيق .

وبعد لأيٍ قالت وهي تتبينه : ويحي . أأنت المعتقل ؟

فقال أفريدوس : بلى أنا هو الذي لم تجد الملكة أفضل وسيلة لنبذه إلاّ أن تلقمه لأنياب القضاء العاتي .

فحملقت فيه ذاهلةً : ويلي ! وأغلالٌ في يديك وعنقك ؟

وأمسكت السلسلة كأنها تتحقق .

— نعم . هذا هو جزاء اليدين اللتين كانتا تضمان هذا الهيكل الملائكي الى الصدر المتدفق غراماً لكي يرتوي من سعادة الحب الطاهر .

فقالت الملكة متفجعة : وسجن أيضاً في كنٍّ المجرمات ؟

— وهل غير كنٍّ الكلب أليف للعاشق الذي جعل صميم فؤاده سريراً للملكة تتقلب فيه على وثير الحب

فقالت وكأنها لاتفهم ماذا تقول وجالت كالمجنونة : أيمكن أن يكون هذا قضاء الهيكل

— يا للمكر. أتعزين هذه النقمة لقضاء الهيكل وأنا ماثل في دار قضائك أستوحي كيوبيد إلـهي أن يلهمني أجوبة التمويه التي لا تستفيد منهـا سيدة القضاء شيئاً يقرب الظن الى الملـكة

فقالت وقد لطمت خديها وتركت كفيها عليهما : وا حرباه أهو الغدر الغشوم أم غضب الآلهة ؟

— لا هذا ولا ذاك . وانما اتخمت الملكة من وليمة الحب فرأمت أن تغير ألوان الطعام فقذفت بالبقية الباقية من طعام الوليمة الى دار القضاء لـكي تحرقها هذه في فرن الاجرام

— صه: كفى تقريعاً لي في إبان أزمتي ويأسي

— وي ! أزمة ؟ : حبيب الملكة العزيز بالأمس أذل المجرمين اليوم . وهو يهيأ ليقدم أضحية على مذبح الانتقام من ملاك الغرام

صمتاً عن هذا العتاب المر . كيف اعتقلت وعهدي بك في قصر الصيد تنتظرني

— اذا كنت غبيـاً صابراً على وعدك لموافاتي الى قصر الصيد فقلبي ليس غبيـاً ولا يطيق صبراً . وإذا كان جسمي طينة حقيرة لا تهمر بالذل فنفسي سماوية لا تحتمل الهوان . وإن كانت سلالتك ملـكية فسلالتي الـكهنوتيـة ليست أحط منها . ما كان إقصائي عنك يكلفك سوى إعراضة واحدة فلا تعودين بعدها ترين وجهي إلى أن أقضي بداء غرامي المبرح

— ويك حسبي هـذه الـكارثة فلماذا تضاعف وقرها على نفسي بهذا التقريع ؟ قل أين اعتقلت ؟

— على جسر نهر ترمودون

— وكان القمر ..... ؟

— في أبان خسوفه .

فترنحت الملـكة وهي تقول : ويحي . ويحي . الويل . الويل . . . ما الذي جاء بك الى الجسر وقد أمرتك أن تنتظرني في قصر الصيد

— القلق عليك والشوق إليك

— الشوق فهمته . والقلق لماذا ؟

— لأني فهمت أنك عدلت عن الصيد . فخفت أن يكون قد ألمَّ بك حادث سوء

— لم أقل لأحد إني عدلت عن الصيد . فما الذي أقام الشك في ذهنك بوعدي أن أوافيك ؟

— سيدونيا حارسة القصر، وكانت أول من لمحت الى عدولك عن الصيد بدعوى طروء مشاغل سياسية .

فقاطعته الملكة : تبًا لها . كيف تقول هذا ولم أوعز به لها ولا لأحد ؟

— طبعاً رابني قولها فبرحت مدّعياً لها إني ماضٍ الى الصيد ومؤكداً لها أني سأعود مساء حتماً . ولكني توجّهت الى جهة العاصمة أتنسّم أخبار الحقيقة عن قدوم حاشيتك . فما رحلت مرحلةً إلاّ تسقطت من أنبائك خبر عدولك عن الصيد . وما زلت أتقدم وأتنسّم هذا الخبر بعينهِ إلى أن وقعت في الفخ الذي نصبته لي على الجسر حيث اعتقلتني ٤ شرطيات شاهرات الخناجر البرّاقة عليَّ . وجرّدنني من سلاحي وجئن بي الى السجن . فماذا تظنين يخطر لي سبباً لاعتقالي ؟

وكانت الملكة شديدة الاضطراب والحنق وقالت : ولكني أرسلت ملدافي بعدك لكي تؤكد لك أني ذاهبة الى قصر الصيد، على قصد أن أتأكّد أنك منتظرني . فعلمت ملدافي من ميدونيا إنك متغيب في الصيد فتركت لك معها خبر ازماعي على الذهاب الى القصر وإيعازي بأن تبقى فيه منتظرني . فلو رجعت أدراجك لوجدت أوامري مطمئنتك. فلا أدري كيف تسرعت .

وتفجعت باضطراب شديد وهي تقول . الويل الويل الويل .

وأفريدوس لا يفهم ما معنى هذا الويل لأنه لم يعلم بخبر نبوءة الهيكل ولا رامت الملكة أن تنفره بهذا الخبر . فقال حينئذٍ : أي ويل أعظم مِن أن أفهم إنك أوعزتِ باعتقالي لأن وعدك الكاذب باللحاق بي لم ينجح في اقصائي .

فصاحت الملكة كالمجنونة : الويل الويل. وافجيعتاه ! لم أقل إني عدلت عن الصيد . فكيف انتشرت هذه الأشاعة الكاذبة ؟ لا ريب إنها من تدابير الإلَـه لكي تتم نبوءة الهيكل ، فواحرباه وانكبتاه .

وما زال أفريدوس لايفهم سر هذا التفجع والويل فقال :

— ماذا كانت نبوءة الهيكل ؟ لم تخبريني بها .

— يا للهول . كانت عبور رجل على الجسر حين خسوف القمر .

فقهقه أفريدوس وقال : ما هذه نبوءة ، إن هذه إلاَّ مكيدة من كاهنات الهيكل .

— اذا كانت هذه المكيدة قد أتقنت هذا الاتقان الغريب العجيب ، فالكاهنات أعظم من الآلهة . ولذلك يجب أن نخشى غضبهنَّ .

— ان تطيرك بتخريفهنَّ ساعد مكيدتهنَّ . أو ان مكيدتهنَّ أنتجت وهمك الذي

وافق تدجيلهن . لو لم توعزي لي أن أسبقك الى القصر ما حدث عبوري على الجسر بتاتاً ولتم خسوف القمر وانقضى حين لا أزال في قصرك هنا عبد غرامك وأسير بهائك.

— ولكني لم آمرك أن تذهب الى قصر الصيد على الحدود إلاّ لكي أفسد نبوءة الهيكل .

فقال أفريدوس مقهقهاً : — ياله من افساد للنبوءة ! ان قصر نظرك أفسد إفسادك لها

فقالت متنهدة : — لا حيلة في تدابير الإله الناقم على غرامنا ، أعني التدابير التي أتمّ بها نبوءة الهيكل . ويلي لقد نفذ المقدور .

— إذا صدقت عقيدتك فقضاء الآلهة لا مردّ له . ليت سيدة القضاء أفهمتني ولو تلميحاً عن نبوءة الهيكل فكنت أرجوها أن تستنزل كل ويلات غضب الاله عليّ لكيلا يقع منها شيء لا على العرش ولا على الأمة .

— ويحك . هذا هو الويل الأعظم الذي أبذل كل شيء لكي اتداركه . آه . لاأدري ماذا أفعل . عدمت الحيلة . ونضب معين الدهاء .

— لماذا هذا التفجع يا سيدتي ، ولم تقع عليك شبهة

لأني لا أستطيع أن أهرّبك من غير أن أثير الشبهة بي .

— لا أهرب ولن أهرب .

ولا أستطيع أن اختلق مبرراً لاطلاق سراحك

— اليس عجباً أن تستطيع سيدة القضاء ما لا تستطيعه الملكة ؟

فأجابت الملكة متغيظة : ماذا تستطيع سيدة القضاء ؟

— تستطيع أن تنتحل المبرّر لإطلاق سراحي . تزعم أن التحقيق لم يسفر إلاّ عن طيش هذا الفتى ورعونته ، لأنه لم يدخل الى بنطس متنكراً إلا لكي يشاهد عاصمة الأمازونيات .

— أأوجستينا قالت هذا القول ؟ . إذن لماذا حكمت عليك ؟

— لأني لم أقبل شروطها .

فقالت الملكة مرتعشة : ماذا كانت شروط تلك الماكرة ؟

— ماذا تكون شروط المرأة التي كان في قبضتها فتىً تداعبه كما تداعب الهرّة الفأرة؟ أو بالأحرى كما تداعب الغزالة الغزال .

— وي وي أحقيق أن تلك الماكرة كانت تنوي أن تفعل ما تقول :

— لا أدري ان كانت تستطيع التصنّع الى حد أن تحملني على تصديق وعدها .

وكانت الملكة تفكر مليّا ثم قالت : يا لمعاندة القدر. كان القدر كالسيف ذي الحدين يجرح من الجانبين . أنا أبحث بالتشديد في التحقيق لأني لم أكن أعلم أن القدر رماك في يد القضاء . وأنت تردّدتُ على قلب متلهف . فاتفق الأمران على قضاء صارم .

— هل كنت تعذرين مطاوعتي لمساومة أوجستين لو علمتِ إني أنا الواقع فريسة بين براثن القضاء . وان نجاتي تتوقف على قبولي شروطها ؟ .

فقالت مرتبكة : — نعم ... لا بل . لكن لا بأس . ماذا كان في الأمر لو قبلت ثمّ حنثت ؟

فقال افريدوس مستهجناً : أوه لو كان الحنث شيمتي أفما كان التحقيق الدقيق خطراً عليك ؟ إذ يحتمل أن أخون عهدك أيضاً لكي أنجو من الموت.

— أوه . ويلي . وهذا ما يجعل الموقف الآن أعقد من عقدة الاسكندر. وا نكبتاه ! من لي بسيف الإسكندر لحل العقدة ؟

— الأمر بسيط . لا تهتمي بأمري . دعيني لرحمة القدر

— ويلاه . كيف أؤمّن للقدر وقد بدرت بادرته الهائلة . الحكم بالإعدام . لا أستطيع تصوره

— اعتبري علاقتنا الماضية حلماً قصيراً وانقضى

— كيف ينقضي وهو مطبوع في مخيلتي ولا يمكن الزمان أن ينسخه ؟

احسبي حساب الموت مقدّراً لكل إنسان ! واتركيني لنقمة القضاء قبل أن تثار الظنون .

فقالت مضطربة : مستحيل أن أسلمك لنقمة القضاء

— لم يبقَ إلاّ هذا السبيل لإنقاذ حياتك وعرشك .

وما الجدوى من الحياة بلا حب . وما لذّة العرش بلا حبيب . وا لوعتاه . لا أسلمك للقضاء ولا لنقمة الهيكل إلاّ وأنا معك أتلقى هذه النقمة الهائلة بصدري لكيلا أراها منقضّة عليك . آه دعني أعزي النفس في إبان يأسها .

ثمّ طوّقت عنقه بساعديها وقالت . سأستكد قريحتي لاختراع وسيلة للفرج .

ثمّ فتحت الباب واستدعت أوجستينا وقالت :ردي هذا المعتقل إلى كنه وعودي إليّ فانحنت أوجستينا وقادت المعتقل الى الحجرة السرية حيث كان حبيساً. ولما عادت قالت الملكة يلوح لي أن لهذا الفتى سرّاً عميقاً . ولا بدّ من استخراج سره من صدره لذلك يؤجّل إعدامه لئلاّ يدفن سرّه معه . انتظري مني أمراً باستدعائه إلى قصري عسى

أن أوفق الى حيلة لاستقصاء سره

— الأمر أمرك يا مولاتي . توفقنا الى القبض على أسير آخر يا مولاتي .

— أسير آخر؟ ما ذا علمت من أمره ؟

— ادّعى أن حبيبته فرّت من اضطهاد أهلها لأجله ولجأت إلى الهيكل . فخاطبت رئيسة الكاهنات بشأنه عسى أن تكون دعواه صادقة . فطلبته الرئيسة الى الهيكل لكي تعرضه على اللاجئات .

فبدا على الملكة بشرٌ وقالت : من يدري ؟ ألا يحتمل أن يكون هذا هو المقصود بنبوءة الهيكل . أود أن تشدّدي النكير في التحقيق معه ولا تثقي بدعواه هذه . فما هي إلاّ للتمويه .

وخرجت الملكة . وما لبثت أن طلبت ذات العذار إلى قصرها فأرسلته أوجستينا مخفوراً وهي تقول له : جرّب سهامك حيث أنت ماضٍ

الفصل الرابع

ننتقل الآن الى الهيكل حيث نشاهد ألاعيب رئيسة الكاهنات في هذه الحوادث التي أحدثتها نبوءة الهيكل . وهناك نرى الرئيسة واقفة لدى المذبح تتمتم . وإذ دخلت عليها ملفينا كاتبة سرها . ودفعت إليها رسالة قائلة : هذه الرسالة كانت مع شرطيتين تحرسان معتقلة مغلولة .

فضت الرئيسة الرسالة التي أرسلتها إليها سيدة القضاء أوجستينا مع المعتقل الآخر كما علم القارىء . ثمّ قالت لملفينا : أدخلي المعتقلة إلى هنا .

فأدخلتها ملفينا وأمرتها الرئيسة أن تنتظر مع الشرطيتين أوامرها . ثمّ رفعت اللثام عن وجه الأسيرة . وارتدت إلى الوراء مبغوتة متجهمة . إذ رأت وجه الرجل المتنكر المعتقل وقالت . من ؟ الكاهن جيهول ؟ . ويحك ! معتقل ؟ لماذا ؟ وأين ومتى !

— في فندق التاجرات في هذا المساء .

— لماذا عدت إلى الفندق ؟

— لكي أتأكد اعتقال القمر الساطع

— أما تأكدت ارتداده قبيل الخسوف ؟

كنت أحتال لحمله على الارتداد الى أن اقترب الى الجسر

— إذن لماذا فضولك في الدخول إلى المدينة ؟

— لأني لم أتأكد إن كان قد اعتقل حتى ولا ان كان قد عبر

— كيف كانت صلتك إذن ناقصة ؟

— لم تكن ناقصة بل كانت متقنة جداً . رشوت سيدونا حارسة قصر الصيد بسهم من سهام كيوبيد . وأوعزت إليها أن تدع افروديت المزيفة تفهم ان الملكة لا تنتظر أن تأتي للصيد، لأنه يقال أن مشكلة سياسية نشأت حديثاً فأشغلتها . فعاد المتنكر باسم الوصيفة افروديت مدّعياً أنه سيمضي نهاره في الصيد وسيعود حتماً في المساء . وكنت أسبقه وأنا أزرع أمامه في مراحل طريقه مثل ذلك القول الكاذب الذي يفهم منه أن الملكة عدلت عن الصيد لمشاغل سياسية طرأت عليها . إلى أن رأيته في أول غلس الليل على ظهر جواده يجوس القرية التي قبل الجسر . وبعد ذلك ضيّعته . ولم أعد أدري هل عبر الجسر أم لم يعبره . ثمّ عدت إلى قصر الحدود . فما وجدت له أثراً، فرجعت أمس الأمس ودخلت المدينة في الغسق، ونزلت في فندق التاجرات لكي أتجسس عسى أن أظفر بخبر عن اعتقال فأطمئنّ .

فقالت الرئيسة هازئة : مرحى مرحى . لقد ظفرت بأغلال اعتقاله هذه .

وأمسكت سلسلة يديه وهزّتها لكي تجلجل .

فقال جيهول : كنت قلق النفس يا مولاتي ولا أطمئنّ إلاّ بالعلم باعتقاله

— أتكون بكراً لرئيس كهنة ولا تطمئن نفسك لنبوءة الهيكل ؟ أم تظن أن هيكل بنطس أقل علماً بالغيب من هيكل جاريجاريا ؟

عفواً يا مولاتي . إن جهادي في سبيل اقتناص عرش جاريجاريا من وارثه الطائش الأهوج طوّح بي الى هذا المصير

— هذا جزاء شكك بقدرة هيكل بنطس على معاقبة الحمق والطيش . وعلى وضع الحق في نصابه الذي يحتفظ به . إن هذه الأغلال جزاء ضعف ايمانك بوعد هيكلي أن يؤيد هيكلك في احباط مكيدة ضم العرشين وتمزيق الدستورين ! ستبقى هذه الأغلال في يديك وعنقك الى أن تحبط المكيدة وينقلب الاحمقان .

— قد ينفذ فيّ حكم القضاء قبل الحبوط المرجو . أفليس في وسعك يا مغيثتي أن تخلقي لي عاشقة من اللاجئات الى هيكلك لكي تؤيد دعواي وتسوّغ عذري في دخولي الى المدينة متنكراً ؟

فأجابت الرئيسة بأنفة وسخرية : إن اللسان الذي ينطق بالنبوءات ينعقد عن النطق بالأكاذيب يا ذا القداسة الكهنوتية .

فقال جيهول وهو يحني هامته ذلاً وانكساراً : إن حكمك يا سيدتي أشد وقراً من حكم القضاء . وأنا الآن في حاجة شديدة لنصحك في ورطتي هذه لا الى قضائك الصارم .

ليس عندي نصيحة مقدسة . فمالك الا أن تستصبح الهالشر عسى أن يلهمك الاصرار على كذبك الى أن ينسج لك القدر مخرجاً من هذا المأزق .

ثم ردت اللثام على وجهه وصفقت فدخلت ملفينا وأمرتها أن ترد المعتقلة (جيهول) الى الشرطيتين اللتين جاءتا به ثم أن تعود اليها، وألا تفتح لهن باب الخروج الا متى أمرت بهذا . ولما عادت أمرتها أن تستدعي اللاجئة ذات العصابة السوداء . ولما مثلت ذات العصابة السوداء بين يديها قالت لها ، لست احتم عليك أن تعترفي بهويتك إذا كنت تأبين الاعتراف بها . وإنما أسألك سؤالا ربما كان من صالحك الصدق في الجواب عليه .

فانحنت الفتاة وقالت متذللة : لا بأس يا مولاتي إذا كان الجواب لا يقتضي أن أطلعك على بغيتي من الالتجاء الى هيكلك فأصدقك فيه .

— هل كنت مضطهدة لأجل حبيب فلجأت الى هيكلنا محتمية من الاضطهاد .

فأجابت الفتاة متنفسة الصعداء : نعم

هنا شاب متنكر معتقل فادعى أن له حبيبة لجأت الى بنطس من جراء الاضطهاد لأجله فهل تؤيدين دعواه لكي تنقذيه .

فأجابت الفتاة بلهفة : أحقيقي ؟ أظنه حبيبي . أؤيد دعواه . أين هو ؟

فضحكت الرئيسة على الرغم من عبوستها : أسمح لك أن تريه من غير أن يراك لئلا يكون هذا الخبر قد أضل قلبك . ألقي النقاب على وجهك وانظري من خلال السجف الى أن أعرضه على نظرك .

فاستترت الفتاة وراء ستار الأقداس وهي توصوص والنقاب على وجهها ثم خرجت الرئيسة وعادت بجيهول . ورفعت اللثام عن وجهه، وهو لا يدري لماذا . ثم ردت اللثام على وجهه وخرجت به . ثم عادت . فبدت الفتاة من وراء الستارة وقالت :

— لا لا يا سيدتي . لست أستطيع هذا التزوير على نفسي

— ولكن ما قولك إذا كان يستطيع انقاذك من الاضطهاد ورد حبيبك لك .

— لا أستطيع هذا التزوير ولو كان الرجل يستطيع إنقاذي . ليس هذا حبيبي الذي يأبى هذا التزوير علي لأسباب أنا أعلمها .

— هل يمكنك أن تخبريني هذه الأسباب

— لا يا مولاتي لقد قلت لك من أول الأمر أني لا أستطيع جواباً لما قد يفضح أسراري .

لا بأس . فلا أحرجك . عودي إلى خدرك متمتعة بحماية الهيكل .

ثمَّ نادت ملفينا وقالت لها : خذي هذه الى خدرها ولتمض الشرطيتان بمعتقلها .

ثمَّ قالت لنفسها : وسيبقى في عقاله إلى أن يُشهد اقتران القمرين وانقضاض الويلين .

لله من دهاء هذه الكاهنة

الفصل الخامس

— ١ —

نعود بالقارىء الآن الى قصر الملكة وندخل به إلى بهو رحيب مستوفي الرياش كما يمكن أن يتصوَّر القارىء قصر ملكة . والشباك المطل على حديقة غناء يسرح فيها النظر بين نجوم الأرض ثمَّ نجوم السماء في الليل، وشمس النهار صارت فوق الأفق . ولو كان لفلكي ذلك الزمان منظار عظيم يقرِّب مسامير السماء لرأى القمر مظلماً على مقربة من الشمس ويكاد يهجم عليها هجوم العاشق الى حبيبته .

من ذلك البهو باب خاص يدخل منه الى حجرة الملكة . وفي هذه الحجرة كانت الملكة جالسة على مقعد طويل عريض . وقد دخلت عليها جورجيا أولى الوصيفات وقالت ان أوجستينا سيدة القضاء تستأذن بالإمتثال .

فأمرت أن تدخل وقالت لنفسها : ما وراء هذه الداهية من خبر شؤم .

ودخلت أوجستينا وانحنت فتصنعت الملكة الابتسام وقالت . هل اقتلعت ولو حصاة من مخ ذلك الشاب الهرم الذي يدعي أن له حبيبة لاجئة إلى بنطس .

— ليس في ذلك المخ المائع إلا صلصال لا يصلح للبناء

— أما عرفت من أي طينة ذلك الصلصال

— لا أرى إلاَّ أنه من طينة الأكواخ .

— مهما كانت طينته قذرة فلابدَّ أن تكون ذات سلالة . أما تفل اسماً له ؟

— بل تفل اسم سدرون وهو اسم أفرغ من عقم أمله بالعثور على حبيبته اللاجئة الى بنطس .

— ألا يمكن أن يكون هو القمر الساطع المقصود بنطق الهيكل .

فقالت أوجستينا كاظمة ضحكتها . مولاتي لم يكن جو بنطس مظلماً في زمن من الأزمان كما هو مظلم منذ طلع هذا القمر الأسود

— لا يعني نطق الهيكل سواه . فيجب عصره في التحقيق إلى أن يتضح كل ما في صدره من أسرار .

— مولاتي . يستحيل أن يكون هو المقصود بنطق الهيكل وإلا لقبضت عليه الشرطيات . إن نطق الهيكل أصدق على الفتى ذي العذار منه على ذلك الشاب الدميم . فإن كان ممكناً نحت تمثال لمكيدة من هذا الشخص الدميم فمن ذي العذار ينحت برج مكايد .

فامتعضت الملكة وقالت متجهمة : — لقد أفرغت جعبة الحيل في استخراج أسرار ذي العذار فوجدت مخه رقاً منفوخاً خالياً إلا من الطيش والحمق والرعونة .

فهزت أوجستينا رأسها هازئة وقالت : طبعاً لا تصدقين جلالتك تظاهره بالنبالة . فإن وراء الأكمة ما وراءها .

ثم قدمت لها رقاً وقالت : تفضلي يا مولاتي شرفي وثيقة الحكم بإعدامه بإمضائك الشريف

فذعرت الملكة من هذه المفاجئة وقالت : ويك : لماذا هذا التعجل وإلى الآن لم يثبت الجرم على الفتى ؟

— ذلك أمر جلالتك وقد تسجل الحكم .

كادت الملكة تتفتت من شدة الغيظ ، وبذلت مجهوداً عصبياً عظيماً في كظم غيظها . وفكرت في إبان يأسها ثم قالت مرتبكة : — لم يزل عندنا متسع من الوقت للتحقيق معه عسى أن نبلغ إلى ضميره .

— لقد نفد كل أسلوب للتحقيق يا مولاتي ، ولم يبق إلا أحد أمرين . اما تشريف الحكم بامضائك ان كان مستطاعاً ، أو اصدار العفو عنه إن كان مرغوباً .

قالت هذا القول وهي تبتسم ابتسامة لؤم ، كأنها شاعرة بموقف الملكة الحرج . فسخطت الملكة وقالت : يستحيل أن يعدم قبل أن يبوح باسم المرأة الشريكة له في جرمه . ولكن هل تجدين مبرراً للعفو ؟

— ربما كان المبرر ممكناً يا مولاتي قبل أن صارت العاصمة تغلي بثروة الأمة كالقدر على وطيس حام . أصبحت العاصمة الآن كالمسرح الذي يتوقع المشاهدون فيه ظهور الأبطال بذاهب الصبر . الأمة تلح باصدار بيان عن أسرار هذا الاعتقال

فقالت الملكة مرتبكة : رأيك بالبيان ؟

— لا يخمد الأفكار الثائرة إلاّ التصريح بإقرار الفتى عن المرأة التي يتصل بها، أو إعلان الحكم عليه بالإعدام لإصراره على النكران

وقد أحست الملكة أن أوجستينا هذه وزيرة القضاء تبتغي أن تزيد موقفها تحرّجاً . ولكن الملكة وجدت منفذاً للفرج في قول أوجستينا وقالت : إذاً دعيني أحقق معه مرة أخرى فأعرف كيف أحجج، ولا فائدة من اعدامه إذا بقي سرّه دفيناً في صدره . أتركي لي صورة الحكم هنا ريثما انتهي من التحقيق الأخير .

— وإنما دبري يا مولاتي تدبيراً ناجعاً يسكن هياج الأمة . فالأمة الآن مثرثرة . وعما قليل مزمجرة . وثمّ ثائرة. لقد أخلصت البلاغ والنصح يا مولاتي . إذنك بالانصراف

— ٢ —

وما ان انصرفت أوجستينا حتى نقر الباب الأوسط المؤدّي الى داخل الجناح ، ولا يدخل منه أو يخرج إلا خاصة الملكة . فنهضت الملكة وفتحت الباب وبدت منه أمها العجوز. ولما قادتها الى مقعدها قالت الأم : أين نحن من الويل الأول الآن يا بنتي .

فقالت الملكة ناحبة متوجعة متوافعة على ذراعي أمها الضريرة : نحن فيه الآن يا أماه

فقالت الأم مرتبكة : أفي هذا القصر موقعهُ ؟

— نعم يا أماه .

فقالت الأم : ويلاه . أتعنين أن المعتقل هو أفريدوس .

— هو بعينه .

— وايلتاه . أما قلتِ إن ملداني أكدت لك أنه لا يزال منتظرك في قصر الصيد ؟

— إذا كان القدر معاكساً فلا ينجح الحذر. لقد ملّ أفريدوس الانتظار في القصر ! فعاد لكي يتحرّى سبب ابطائي . فقُبض عليه وهو يمرّ على الجسر وتمت فيه النبوءة . واأسفاه !.

فقالت الأم مضطربة : وأقرّ الشقي بالحقيقة ؟ ؟

معاذ الله . فهو أنبل من أن يشرك غيره بجرمه .

— الحمد للإله . إذاً لم يقع الويل بعد .

— ويحي : أي ويل أعظم من أن يصدر الحكم عليه بالاعدام ؟

فقالت الأم متحمسة .نفذي الحكم عليه حالاً تداركاً لوقوع الويل الأعظم.

فأجابت الملكة ساخطة : يا لكِ من ظالمة :

— أعليه أنت مشفقة أم على نفسك وعرشك . بالقضاء العاجل عليه خلاص نفسك ، وبهلاكه راحة قلبك .

— لله من قلبك الصلد الجلمد أبالقضاء عليه خلاصي ؟ وماذا يبقى لي من سعادة بعد ؟

— يبقى لك عرشك الأسنى يا حمقاء

— يا لك من ظالمة جائرة . ألا ترينَ أن العرش بلا حب ظلام دامس، والعرش بلا حبيب ليل بلا بدر . والحياة بلا حب لا تختلف عن الموت إلاّ بالملل والسأم . آه واشقوتاه !

— بئس غرامك هذا . إنك بهذا الجنون فاقدة العرش والحبيب جميعاً . وتنفيذ الحكم ينقذ أولها وينقذك .

فقالت الملكة وكأنّ بها نوبة جنون : ويحكِ لا أقنع إلاّ بسلامة ثانيهما.

— سلامة أفريدوس تكلفك حياتك ياغبية . أتهرّبينه . أتعفين عنه . كلا الأمرين يغضبان الهيكل عليكِ ويهيجان الأمة ضدكِ .

فارتمت الملكة على المقعد خائرةً وقالت : أماه دبريني في نكبتي . أين ذكاؤك . أين دهاؤك .

— لقد فقدت نصف ذكائي وثلاثة أرباع دهائي منذ تنازلت عن العرش لكِ بسبب فقد نظري . لو بقيت في عرشي عمياء لكنت في حكمي أحدّ منك بصراً . لقد بسطتُ لك تدبيري فلم تذعني .

فأجفلت الملكة : ماذا ؟ ان أنفذ حكم الاعدام بأفريدوس ؟ هذا مستحيل . مسكينة أنت . لقد حرمكِ إلهك نعمة الحب فصمّ قلبكِ عن نبضاته . يجب أن يبقىَ أفريدوس ولو فقدت العرش . هل فهمت .

— وتفقدين حياتكِ أيضاً . وحياته لا تسلم . فنصيحتي الأخيرة . أن تضحي بواحد من الثلاثة خير من التضحية بالثلاثة معاً . حياتك وحياته والعرش . ضحّي بحياته يبقَ لك حياتك والعرش .

فسخطت الملكة سخطاً عظيماً وصرخت صراخاً شديداً : عني يا أماه . إذا لم يكن عندكِ غير هذه النصيحة التعسة فدعيني أتلقى الويل المنقضّ عليّ بشجاعة الملكة .

حينذاك دخل أفريدوس من باب السر بثوبه الأمازوني . وقال : النصيحة الخالصة ما قالت أمك الموقرة أيتها الملكة . دعيني أمضي الى دار القضاء حيث أتلقى بسرور النقمة المنقذة لك من الويل .

فقالت الملكة بأمر محتوم : مكانك. الى بيت سرك . فللزمن رأي وفي صدره نصائح
فعاد أفريدوس الى وجاره صاغراً .

— ٣ —

وبقيت الملكة بعد خروج أمها وأفريدوس وحدها. ولو وضع ميزان الحرارة على جبهتها حينئذٍ لارتفعت حرارته الى الخمسين . تكاد تنفجر غمّاً وهمّاً . لم يعد القصر يسعها بل الجوّ لم يعد يتحمل حرّ أنفاسها . انتفخ رأسها حتى كاد يصطدم بالجدران حولها . عدمت الحيلة . لم تعد ترى بدّاً من التضحية بنفسها أولاً . وبعد ذلك يبقى أفريدوس والعرش في ميزان القدر الأعمى .

وفي إبان أزمتها طرقت جورجيا الباب ثم دخلت إذ سمعت صوت الملكة بالاذن

— مولاتي . هنا فتاة جارية تتوسل الى إذن جلالتك بالامتثال بين يديك لأمر لا تريد أن تفضي به الى سواك .

فرفعت الملكة رأسها عن صدرها وقالت لنفسها : « عسى مع هذه الفتاة فرج » . ثم فكرت قليلاً ثم قالت : قولي لها إن الملكة مشغولة عن مقابلتك وإنما كلفت رئيسة ديوانها أن تسمع سؤالك » . دعيها تدخل من غير أن تشعر أني أنا الملكة. بل يجب أن تعتقد أني رئيسة الديوان. حاذري ان تدعيها تفهم أني الملكة . هل فهمت أنت ؟ .

فهمت كل الفهم يا مولاتي . يجب أن تفهم أنكِ رئيسة للديوان وانك بأمر الملكة تسمعين سؤلها .

— حسن جدّاً .

ثم بعد قليل أدخلت جورجيا امرأة بثوب عادي كأثواب الأمازونيات وتركتها لدى الملكة ومضت . وانحنت المرأة قليلاً لدى الملكة، أو مندوبة الملكة. فسألتها الملكة: ما اسمك

— اسمي أنيدون

— لقد امرتني جلالة الملكة بأن اهتم بسؤالك جد الاهتمام لأنها مشغولة جدّاً فليس في وسعها أن تقابل أحداً في هذه الأيام . فماذا ترومين ؟

— شكراً جزيلاً لجلالتها ولك يا سيدتي . نمي اليّ أن الفتى المعتقل هنا في القصر يزعم أنه خاطر بنفسه في الدخول الى بنطس ليبحث عن خطيبته اللاجئة الى هذه العاصمة من اضطهاد أهلها بسببه . فهل تؤذن جلالتها أن أقابله ؟

— إن الدخيل المدّعي هذه الدعوى معتقل في دار القضاء . فهناك اطلبي مقابلته .

فقالت انيدون — رأيت ذلك المعتقل هناك فما هو فتاي يا سيدتي فاذا أذنت جلالتها لي بمقابلة الفتى الذي هنا انتفى كل قصد سيء من وجوده في هذه العاصمة وخرج منها بريئاً

— لا أظن أن هذا الفتى المعتقل هنا هو خطيبك . لأني لا اعتقد أن خطيب أية امرأة يخاطر بنفسه في الدخول متنكراً الى بنطس لكي يبحث عن خطيبته وهو يعلم العقوبة التي يستحقها .

فقالت أنيدون باسمة : أعذر خطأ حكمك هذا يا سيدتي لأنك أنت أمازونية لا تعرفين ما هو الحب .

فقالت الملكة المتنكرة . أعرف أن الحب .. هو . هو . هو . ماذا ؟

— هو يا سيدتي القوة التي تجعل المخاطرة حتى الموت في سبيل الحرص على الحبيب ألذّ من النصر في الحروب وأمجد من فتح الممالك وقنص العروش .

فقالت الملكة مدهوشة قلقة — هل أنت واثقة أن خطيبك يحبك هذا الحب ؟

— إذا كان المعتقل هنا هو اياه فلا يبقى عند جلالة الملكة شك بأنه يحبني هذا الحب والا لما خاطر هذه المخاطرة. ولذلك يصبح ذنبه بسيطاً . وجلالة الملكة النبيلة القلب تصفح عنه ، وتؤذن لنا أن نخرج من المملكة بسلام متمتعين بنعمة الحب

وكانت الملكة تسمع هذا الكلام وقلبها يخفق وجداً ، وعصبها ينتفض حقداً أو غضباً . أيكون أفريدوس خادعها ويلعب عليها دوراً اذا صدقت هذه الفتاة فيما تقول ؟ فتجلدت وقالت: هل تسمحين أن أقول لجلالتها من أية أسرة أنت لكي تتضح لها درجة سؤالك من الأهمية .

— هي أني من أسرة الكهنوت فهل تسمح الملكة ؟

فقالت الملكة باضطراب يكاد يفضح قلبها : أظنها تسمح . ولكن لماذا تضطهدك أسرتك لأجله . هل هو وضيع الأصل .

— أرجو من سيادتك اعفائي من جواب يُطلب منه هو

— لعلّ جلالتها تشترط هذا الشرط للإيذان بالمقابلة .

— إن الحب يا سيدتي كالموت يجعل جميع الناس سواءً في المقام. فان كان أحدنا أوضع من الآخر ارتفع الى مقامه . الحب يرفع لا يضع يا مولاتي . ليتكِ تعرفين ما هو الحب لكنتِ تشعرين أن سماح جلالتها لي بمقابلة خطيبي أعظم فضيلة تتحلى بها الملكة .

أصبحت الملكة بعد اعترافات انيدون على نار . صارت تود أن تعلم الحقيقة من فم

أفريدوس فقالت : انتظري إذن خارجاً في الرحبة الى أن تسمعي ثلاث صفقات فتدخلين .

فخرجت أنيدون حسب أمر الملكة واستدعت أفريدوس على الأثر من حجرته .

وسألته:هل ادعيت في التحقيق في دار القضاء أن لك خطيبة لاجئة الى الهيكل من اضطهاد أهلها بسببك ؟

— لم أدّعِ شيئاً حتى ولا أني موجود في الوجود . ما كنت لقاء الأسئلة التي كانت تلقى عليّ الا كالعصفور الذي يفر قبل أن تقع عليه اليد التي ترميه بالحبوب

— هنا فتاة جاريجارية تزعم أن الفتى المعتقل هنا يدّعي هذه الدعوى وتود مقابلته فهل تقابلها ؟

— أود أن أراها خلسة أولاً لأعلم من هي .

— هي في الرحبة، اختلس نظرة منها من خلال الباب

فوصوص افريدوس من خصاص الباب ثم ارتد مبغوتاً وقال : أرجو أن تسمحي لي بأن أختلي بها اختلاء تامّاً .

— إذن صفق ٣ صفقات فتوافيك .

ثم خرجت من الباب الآخر وقالت تكلم نفسها قلقة : أيمكن أن يخدعني ؟ وبقيت خلف الباب توصوص وتتسمع

وصفق أفريدوس ودخلت الفتاة . فقال مبغوتاً : أنيدون ؟ ويحكِ . ما الذي قذف بكِ الى عاصمة بنطس وأنت ابنة أحد كبار الكهنة المعززة في خدرها .

— مثل نفس السبب الذي قذف بك اليها أيها الأمير .

— صه . صه . لست معروفاً هنا بالأمير فلا تذكري هذه الكلمة . كيف تعلمين أن السببين متماثلان ؟

— هل يكون لدخول فتى الى مملكة بنطس من سبب غير سبب الحب ؟

— وي . وي . هل أنت واثقة أن حبيبك تبعكِ الى عاصمة بنطس .

— بل أنا تبعته .

— أفي بنطس ملجأ العشاق الأمين ؟

— كلا . لا أجهل انه ملجأ خطر . وقد جئت لإنقاذه من الخطر الذي وقع فيه .

— من غشك بأنه هنا في القصر

— لم أنغش البتة

— أعلم أنه ليس هنا أحد سواي

— وإياك طلبت أن أقابل

— أنيدون . ماذا تعنين ؟

— لم تتح لي فرصة أبوح فيها لك بسهم وقع في فؤادي

فقال خائر القوة كاليائس . آه . وآه : لعلك أشد مني تعساً بهذا السهم

— أتعد ذلك السهم تعساً وأنا أعده سعادة ؟

وكأن أفريدوس يخشى أن تكون الملكة متسمعة من خصاص الباب ، فجذب أنيدون إلى ناحيةٍ بعيدة وقال : لا ترفعي صوتك فللهواء آذان وعيون . انك لتعسة لأن الخصام الذي احتدم أخيراً بين الكهنوت والعرش في جاريجاريا أضاع عليكِ الفرصة التي كنت تتوخينها . آسف جداً إن الفرصة سنحت لكِ متأخرة يا أنيدون

لا بأس لم ينقص تأخرها من شعوري بالسعادة التي أتوخاها منها

— هذا الشعور الجميل لا يقل من أسفي يا أنيدون

— لم آت لكي أنتزع شيئاً عن غبطة قلبك يا سيدي الأمير

فأجفل افريدوس من كلمة الأمير وأشار لها بالكف عن ذكره . واستمرت تقول : بل جئت لكي أتدارك ما يمكن أن يثلم هذه الغبطة .

— ما الذي يثلمها فتتداركيه ؟

جئت لكي أبلغك أن جيهول ابن رئيس الكهنة كان يتتبعك متجسساً حتى الى هذه العاصمة .

فقال افريدوس منفعلاً متغيظاً : ويح ذلك اللئيم ! يتتبعني متجسساً ؟ ألا تباً له

— ألم تصدق بعد أنه وأباه اختلقا العداء بين دولتي بنطس وجاريجاريا وأوغرا الصدور بعد تصافيها ، لكي يقلبا عرش ابيك الملك ويتبوأ جيهول وتصبح أنت منفياً متشرداً ؟ فلما علم جيهول أنك متنكر في بنطس انتهز الفرصة لتدبير المكيدة الهائلة ضدك ، ولهذا جئت لكي أنذرك قبل أن يتداعى عرشك ويهبط انقاضاً

وكان افريدوس ينتفض من الغيظ فقال ، شكراً . وهل جيهول الآن في هذه العاصمة ؟

— نعم . معتقل فيها بصفة كونه متنكراً . وأشعر أن الهيكل البنطسي يتحيز له لكي ينقذه من عقاب هذه الدولة لأنه إبن الكاهن الأكبر . والكهنة متضامنون في في كل مكان . وأما أنت فعلى مَ تعتمد في النجاة

— لا تهتمي بنجاتي يا عزيزتي . فما هي مطمعي . وأما إذا كنت أنت في حاجةٍ الى خدمة

فقاطعته قائلة — لم أجيء لأجل نفسي بل لأجلك . فأستطيع أن أشهد مزكية دعواك

إذا كنت تدعي أنك ما جئت إلى بنطس إلاّ لتبحث عني لحمايتي من اضطهاد أهلي ، فادّع هذه الدعوى وأنا أزكيها وأؤكدها ونخرج كلانا سالمين

— أشكر قصدك : إنك تفترضين افتراضاً يستحيل عليّ أن أقبله

— لا تظن أني أتوسّل بهذا التدبير الى تقييدك بعهد . إني مقتنعة أن مرمى حظي أقصر جدًّا من مطمع قلبي . لست أبتغي مكافأة

— شكراً ياأنيدون . يستحيل أن أتذرّع إلى النجاة بواسطة العاطفة . لا تهتمي بأمر نجاتي . أنصح لك بالعودة الى خدرك الشريف الطاهر في دار كهنوت جاريجاريا عسى أن يقيّض لك كيوبيد حظًا أسعد وأمجد . امضي بسلام

وتراجعت ذليلة بائسة منكسرة النفس متنهدة ثم انحنت وخرجت وأقفل الباب وراءها

— ٤ —

وما أن خرجت انيدون حتى دخلت الملكة منفعلة شديد الانفعال وقبضت على ذراعه وهزّته قائلة : — ويحك ! أعليّ أنا ملكة بنطس تلعب هذا الدور الهائل ؟

فأجاب افريدوس بكل برودة وبابتسام : أجل انه لدور غرام هائل . ياذات الجلالة . سينقش تاريخه على ضريحي كدرس عجيب للعشاق

— صه . أغرام خداع ينقش على ضريح أمير منتحل صفة الكاهن ؟ هل فقدت صولتك أيها الأمير حتى تتوسل بصولة الكهنوت الى فؤاد ملكة ؟ أم أن سياستك الأفاكة امتطت متن الغرام لكي تضمن الفوز في المعركة وكسب العرش البنطسي

— تؤدة وحلماً يا مليكتي . لما رماني إلهي بسهم حبك وأنت متنكرة بثوب فلاحة في الصيد كنت أشعر أني واضع عرشي في حب فلاحة نابغة في الصيد . وما دريت أن إلهي جعل قلبي عرشاً لملكة . ولما أصاب ذلك السهم نفسه فؤادك كنت تظنين أنك باذلة نفسك في سبيل غرامك بفارس مغوار . فلما اكتشفت أن سهم إلهي الذي نفذ في فؤادي نفذ في فؤاد الملكة التي بين عرشي وعرشها خصومة أشفقت أن يدنس دم الخصومة ذلك السهم . وخفت أن تفسري ذلك الغرام الصادق بالتحايل السياسي . فانتحلت رتبة الكهنوت لنفسي دفعاً لهذه المظنة وتحاشياً لنفورك متريثاً الى أن تسنح الفرصة الملائمة لبسط الحقيقة لك طاهرة من الدنس سالمةً من لطمة الغش ... لدي دولة الغرام يا عزيزتي تضمحل دولة جاريجاريا ودولة بنطس . وفي عرش الهوى يا حبيبتي يفنى عرش بنطس وعرش جاريجاريا معاً . فإن كنت تحسبين انتحالي

صفة الكهنوت خدعاً لك في فن السياسة،فهو إخلاص في فن الغرام. فسرّى خداعي هذا بما تشائين اللهمّ إلاّ الخداع في الحب. إني أحبك.إني أعبدك ،سواء على صهوة الجواد أو في حقل الفلاّحة أو على العرش. لم يبق العرش ولا الحكم مطمعي. فقد التهم الحب إكل مطمع. فإذا تسنّى لي أن أضمن بقائي إلى جنبك كل العمر،ولو في كهف، أتنقل على العرش وأبصق على الدولة.

فقالت الملكة والبشر يطفح من محياها. اما بقيت فلذة من فؤادك مع هـذه الفتاة الكهنوتية ؟

— لم يبق معها من فؤادي إلاّ ومضات الشفقة عليها. مسكينة. خائبة الأملين.

— الأملين ؟ ما هما ؟

— نعم. أمل حبي لها وأملها بإنقاذي. أما استوعبتِ من مكان تجسسك علينا أنها اقترحت عليّ أن أدعي إني في بنطس باحثٌ عن حبيبة لاجئة،وإنها تؤيد دعواي ؟ فخرجت يائسة حتى من هذا الأمل.

— ألا ترى اقتراحها وسيلة لائقة لانقاذك ؟

— أيليق بأمير أن يسخّر قلب فتاة بسراب الأمل لانقاذ نفسه ؟ أيليق بأمير الغرام أن يعلل فؤاد فتاة برجاء الحب الكاذب تذرعاً لنجاته؟إذا أبيت اقتراح هـذه الفتاة أفلا أصبح مديناً لها بعطفة قلب ؟ أو لا تصبح هي شاعرة بهذا الدين وآملة بإستيفائه وإن كانت لا تطالب به ؟ أو لا يتلطخ وشاح حبي لك ولو بنقطةٍ سوداء ؟ وأخيراً كم يكون تمنين أهلها ثقيلاً على عاتقي ؟ ...

ونقر الباب فأسرع أفريدوس إلى حجرة السرّ

ففتحت الملكة الباب وإذا جورجيا تقول: رئيسة الكاهنات تطلب مقابلة جلالتك.

فارتبكت الملكة وقالت كأنها تكلم نفسها: ماذا تريد هذه الشيطانة الآن ؟ ماذا في طيلسانها أو طي لسانها ؟

فقالت جورجيا مضطربة أيضاً. تقول إن عندها بلاغاً من الهيكل مباشرة.

فجزعت الملكة ولم يسعها إلاّ أن تقول: سمعاً وطاعةً وخضوعاً للهيكل.

ولم تنتظر الكاهنة الإذن فدخلت وانحنت للملكة وقالت بصوت جهوري ضخم: الويل على الأبواب إذا لم تتداركه التضحية.

عند ذلك وقعت الملكة على المقعد منصعقة. وفي الحال خرجت رئيسة الكاهنات. وما لبث أفريدوس أن دخل من باب الحجرة السرية قلقاً مضطرباً.

وجلس أفريدوس إلى جنب الملكة عاطفاً عليها ممسكاً بكفيها وقال : فديتك يا نعيمي السرمدي . (وبعد هنيهة قال) عسى أن تكوني قد اقتنعت إنه لم يبق لنا إلا الفرار الليلة من هذا القصر الى القصر الجاريجاري .

فتشددت الملكة قليلاً وقالت: الويل لي . كيف الفرار من الويل الذي أنذر به الهيكل؟ أما سمعتَ انذار رئيسة الكاهنات الأخير الآن ؟

— يا للسذاجة . أوَ ما سمعتِ خبر انيدون منذ برهة أن جيهول ابن رئيس كهنة جاريجاريا هو المدبر المكيدة بالتواطؤ مع الرئيسة .

— رئيسة الكاهنات لسان الهيكل . والهيكل مقام الإلـه . فهي تتكلم بلسان الإلـه . واشقوتاه !

فقال أفريدوس مقنعاً : إذا فررت معي خاب تدبير الكهنوت وأخفق انذار الهيكل وحبطت المكيدة على مدبريها . فلا بدَّ من تقرير الأمر الليلة وإلاَّ فات كل تدبير .

فقالت الملكة يائسة : لو قبلت أنت اقتراح الفتاة أنيدون لنجوت بنفسك .

— لو شئت النجاة وحدي لما احتجت الى تدبير فتاة حتى ولا الى تدبير ملكة . ان قوائم جوادي الأربع تصل الى الحدود قبل بصره . أستطيع أن أفرَّ في رائعة النهار . وأبرع فارسة عندك لا تستطيع أن تنال مني لمحة عين .

— لماذا لا تفرّ .

— عجباً . ألم تفهمي بعد إني لا أهتم بخطة تضمن سلامتي بل بالخطة التي تضمن سلامتك أولاً .

— دعني للقدر ولدهاء أمي

— لا أثق بالقدر ولا آمل بدهاء أمك بعد الذي ظهر من استنكارها لحبنا .

— لعلك تعذرها إذا علمت انك أمير جارجاريا الوارث عرشها

— حاذري أن تبوحي لها بهذا السر لئلاّ يشتد ايجاسها تخوّفاً على العرش الذي تنازلت عنه لك حذار . فهي الخصم الألد .

فقالت الملكة مستسلمة لليأس : إذن أنا أستسلم للظروف مهما كانت سيئة جزاء لتورطي . فارحل أنت ولا تقاسي نقمة الآلهة. هي ويلات واقعة حتماً لا مفرّ لي منها لأن نبوءة الهيكل صادقة

— يا للسذاجة . ليس لعقل أن يرى حادثاً قبل وقوعه. فما نبوءة الهيكل إلاّ مكيدة

ضدك . فإذا فررت كذبت النبوءة وخابت المكيدة . وإذا بقيت هنا كنت أنت المتممة للنبوءة في نفسك. يستحيل أن أدعك للظروف

فقالت ملتمسة خيطاً من الأمل : إذن فماذا ؟

— عندي خطتان . ولك الخيار في إحداها . إما أن أمضي الى ساحة الاعدام . وفيها تنزل ويلات هيكلكِ عليَّ وحدي وتسلمين بعرشك ولأمتك . أو أن تفري معي الليلة ويستحيل على أية قوة أن تنال منك . فاختاري إحدى الخطتين .

— لا هذه ولا تلك .

— فقال بحزم جازماً . إذن أنا اختار . أرجو أن تسكني في حجرتك الى أن تنسيك إياي ألاعيب الأقدار ومكايد الهيكل..

ثم هجم الى ناحية الخروج . ولكنها أسرعت وصدته صارخة : مكانك .

— دعيني أخرج . أوجستينا استبطأت الأمانة . والأمة تلحف بطلبها .

— لن تخرج . أنا الملكة صاحبة الأمر والنهي .

— الموت أعلى سلطاناً من سلطانك . وأمره فوق كل أمر . وهو يدعوني.واستبقائي هنا الى الغد أصبح قضاءً مبرماً على حياتك وعرشك، فدعيني أفتديهما .

تبًّا له من افتداء يقض مضجعي . كل حياتي التي أصبحت مفعمة بؤساً . آمرك أن تمتطي جوادك في أول الليل وتقذف به إلى ما بعد الحدود . وهكذا نسلم كلانا .

— أنت ملكة وأنا ملك أيضاً . آمرك أن تمتطي مطهمك وتقذفي به أمام جوادي الى حيث عرش النعيم يتوقعك بذاهب الصبر .

— يتوقعني تمام نبوءة الهيكل .

— إذا أطعت أمري لاتتم نبوءة الهيكل، فان لي هيكلاً ينقذك من خرافة هيكلك .

— ويلي ماذا يكون بعدي ؟

— يالك من ساذجة . أإلى الآن لم تدركي قيمة الخطة التي تسلم بها حياتك وحياتي، وتحصلين بها على عرش أمجد من عرشك وأسعد ؟

وفكرت الملكة مليًّا . ثم قالت . ويحي . وبماذا تقذفني ألسنة الامازونيات بغير نعت الخائنة؟

— أجل ولكن قلوبهنَّ تصفك بنعت السعيدة . في الجهر يقلنَ تبًّا لها من خائنة، وفي اجتماعاتهنَّ السرية يقلنَ : هنيئاً لها بما يرشه اليها كيوبد من سهام لذات الحب

— يا لها من لذات لا تذوقها الامازونيات الاَّ بالحلم

—أما أنت فتذوقينها باليقظة . يبقى العرش الجاريجاري متقلقلاً الى أن تستوي أنت عليه . والدولة تبقى قلقة الى أن تقبضي على صولجانها . هلمَّ انتقلي من هذا العرش المملوء من المخاوف والانذارات الى العرش المطمئن الوطيد .

— والشعب الجاريجاري ماذا يقول ؟

— يغتبط عظيم الاغتباط إذ يعد جلوسك على عرشه انتصاراً لالهه .

— ودسائس كهنتكم ؟

— تحبط لدى انتصار الههم .

— وهل يجهل شعبك ماذا يكون حقد الأمازُونيات وغضبهنَّ وهنَّ اللاواتي قد دوَّخنَ الأقطار وفتحنَ الأمصار .

— تنحل قوتهنَّ حالما يبرز كيوبد لهنَّ بسهامه

— ويحي من ينقذني من غضب اجكس وأرس العظيمين ؟

— لا يتجاوز غضبهما حدود بنطس . وسحر كيوبد يخبلهما ويشل عضلات الأمازونيات كما شل عضلاتك . فاعتنقي دين كيوبد فهو أقوى الآلهة وأوسعها سلطاناً وأفعلها سحراً وأمنحها للسعادة والهناء . هو اله جميع البشر . ابدلي الهاً باله وعرشاً بعرش وحياة سعادة بحياة بؤس .

— وأفقد عطف أمتي وحبها وأتعرض لحقدها .

— بل تكسبين عطف شعب آخر مع عطف أمتك التي ستتوسل بك الى اعتناق دين كيوبد والتمتع بنعمة الحب التي تجود بها يد الطبيعة .

— ويلي . وغضب كاهنات الهيكل ؟

— يبقى كالريح تصدم الصخر الجامد والصخر لا يكترث لأن الأمة تتمرد على الكاهنات اللواتي كنَّ عقبة في سبيل انصياعهنَّ الى صوت الطبيعة الموسيقي .

— يا لك من ساحر خالب تكاد تزين لي الفردوس في الفلك السابع .

— أجل إن ذلك الفردوس مفتوح الباب للترحاب بك يا حبيبتي . فلنمضِ اليه حالما ينسدل الظلام .

— ٦ —

في هــذه الساعة الحرجة نقر الباب ، فأجفلا وأسرع افريدوس الى الحجرة السرية . وتقدّمت الملـكة الى الباب ففتحته وإذا بأوجستينا فيــه . فقالت لها الملـكة بصوت متهدّج : ادخلي

ورأت أوجستينا محيّـا الملـكة متورّداً وعينيهــا مضطربتين كأنها كانت في معركة خصام حاد ولمـا تنتهِ بعد . فانحنت باحترام وارتباك فبادرتها الملكة : ما وراءك يا أوجستينا

فقالت متلعثمة : ورائي يا مولاتي أمة تطالبني بالأمانة التي ائتمنتك عليها .

فقالت الملـكة مرتعدة وجلة : الأمانة ؟

نعم — الفتى المتنكر ذو العذار

فأجابت الملـكة متشددة : وما هو شأن الأمة ؟

— الأمة تنفذ الدســتور يا مولاتي . وتريد أن ترى شريكة الفتى بالجريمة ، أو أن يقتل الفتى قصاصاً لجريمته .

— عجباً . هل انتقل حق الحـكم من العرش الى سواد الأمة . ما هــذا التطاول من الأمة على ملـكتها ؟

— الأمة تخاف غضب الآلهة قبل غضب الملـكة .

— والملـكة حريصة على استرضاء الآلهة على الأمة . يجب أن تترك الأمة التدبير للملـكة ولسيدات الدولة . إذهبي وطمئني الأمة بهذا .

— لم يبقَ للأمة قياد يا مولاتي . فبذا أن تشرفي أنت من قصرك وتلقي كلمة اطمئنان

ففكرت الملـكة قليلاً ولم ترَ مخرجاً من هــذا المأزق إلاّ بالوعد فقالت : سأفعل. أخرجي أنت سكّني ثائر الأمة بهذا الوعد

وخرجت أوجستينا وبقيت الملـكة تحدث نفسها : ويلاه : الأزمة تشتد . وهذه الخبيثــة أوجستينا تزيدها وقداً بلؤمها . لم يبقَ للتسويف نفع . يجب بت الأمر عاجلا قبل أن يحدث الـكسوف إن كان وقوعه مؤكداً . ويجب تدارك الويلين ولو بالتملص من سلطة الهيكل .

ثم فتحت الباب الأوسط المؤدي الى حجرة أمها . ونادت أمها . فلبّت الأم في الحال فبادرتها قائلة ، أماه . في فمك فصل الخطاب إذا خففت من غلوائك ورجعت بتذكاراتك إلى أيام صباك أيام ثورة الطبيعة البشرية .

— لقد كنت في صباي أشد صلابة مني في شيخوختي العمياء . فلا تستنجدي بشيخوختي الهامدة . ولا تنتظري مني تحبيذاً لخطة خرقاء

فتنهّدت الملكة لشدّة غمها وقالت : لقد دبرت خطة أسلم بها وهي أن أترك أفريدوس لرحمة الهيكل لأن الكهنة يعطفون بعضهم على بعض . وإنما أود أن أمهد للأمر بالتشفع به لدى رئيسة الكاهنات أولاً .

— خطة لا بأس بها . ربما كانت أسلم عاقبة من أي خطة أخرى .

— ولكن الأمة ثائرة . وأود تهدئتها ريثما استرضي الهيكل على افريدوس . وأوجستينا تنصح لي أن أشرف على جمهرة الأمة من شرفة القصر وألقي فيها كلمة لتهدئة ثائرها . فماذا تكون الكلمة يا أمّاه ؟

— حاذري أن تشرفي على الأمة وهي متجمهرة ثائرة . لأن الجمهور مجنون فاقد العقل والاتزان . أرسلي حكمتك الى الأمة بلسان رئيسة حكومتك أمازونيا . ولتلقها أمازونيا باستخدام سلطتك الشرعية بتؤدة وحكمة

— وماذا تكون كلمتي يا أماه ؟

— الوعد

— أي وعدٍ أستطيع تنفيذه

— الوعد الكاذب الذي لا تريدين أن تبرّي به يا ساذجة . وما هو إلاّ هدنة ريثما يسكن ثائر الأمة . لكي يتسنى لك أن تنفذي خطتك

— بأي وعدٍ كاذب أستطيع أن أملك هدنة اليوم فقط

— بوعد أن تسلمي الأمة غريمها لكي تفتك به .

— ويحي من وعدٍ يتزلزل به هيكل عظامي . أشكر رأيك يا أمّاه

— ولكنك لن تبري بالوعد . متى سكن ثائر الأمة نفكر بخطة .

وقادت الملكة امها إلى باب حجرتها وأدخلتها فيها . ثمّ استدعت جورجيا كاتبة أسرارها وأمرتها أن تستدعي أمازونيا رئيسة الحكومة

— ٧ —

وقبل أن تلبي أمازونيا الدعوة استدعت افريدوس من حجرة السر وقالت: لم يبقَ عندي من خطة إلاّ الفرار يا عزيزي . فلنستعدّ له حالما تفرنقع المتجمهرات ونختلس الطريق في أول الليل

فابتهج افريدوس وقال مرحاً . لقد انتصر الحق على الباطل . كيوبد إلـه حق . إلـه الطبيعة الفياضة بالسعادة والهناء .

فقالت الملكة . ولكن الشمس ستنكسف قبل مجيء أول الليل وعندها يحل الويل فما التدبير .

— عندي التدبير . فمهلاً قليلاً

وعندئذٍ نقر الباب . فأسرع افريدوس الى حجرة السر . وأذنت الملكة فدخلت جورجيا وقالت: إن السيدة أمازونيا جاءت من تلقاء نفسها

— فلتدخل

فدخلت أمازونيا وانحنت لجلالة الملكة فبادرتها الملكة بالسؤال : ما وراءك ؟

— تحرّج الأمر يا مولاتي لم يعد في وسعي ضبط الأمن . الأمة ثائرة تريد القضاء على الخونة قبل أن تنزل ويلات غضب الإلـهين حين يقترن القمران .

فقالت الملكة واجفة متظاهرة بالشجاعة . أبلغي الأمة أن غداً فصل الخطاب وفيه تنزل العقاب على الخونة . استعملي حكمتك في تهدئة خواطر الأمة وتبديد الجمهور

فانحنت أمازونيا وقالت الأمر أمر مولاتي . سأرى ماذا في مقدوري أن أفعل. ليتني أنجح .

ثم خرجت أمازونيا . ودخل توّا افريدوس وقال لقد أعددت المطهمين الأولين .

— لا نحتاج الى شيء غيرهما . في الصباح نكون في قصر الحدود وفي أول الليل نبرحه .

— لا نؤجل السير الى عاصمة جاريجاريا . لئلاً تدركنا مطارداتنا .

— لا يشعرنَ بفرارنا إلاّ صباحاً . فلا خوف من مطاردتهنّ لنا . أود أن أدخل جاريجاريا ليلاً بعد أن تكون قد سبقتني لاسترضاء أبيك .

— أبي يغتبط عظيم الاغتباط بقدومك، ويتنازل لي عن العرش حال وصولك لأنه يحسب قدومك انتصاراً لآلهه .

واسعادتاه إذا صح هذا الحلم . وداعاً يا بنطس .

— لا تودعيها فستعودين اليها مكرمةً محبوبة وملكة .

— هلمّ أعانقك عناق القران يا ينبوع السعادة والهناء . أظن يجب أن تبرح بنطس بأسرع ما يستطاع لئلاً يحدث الكسوف ونحن هنا فتتم نبوءة الهيكل فيقع الويل .

فقهقه أفريدوس وقال: إن نبوءة هيكلك، ولو كسفت الشمس، خائبة. إذ لا صلة بين الكسوف

وحوادث الأرض . ما هذه النبوءات التي تصدر عن الهياكل إلاّ خداع للشعوب . أنا ابن كاهن وأعرف كيف أبي يؤثر على الشعب باصدار النبوءات . لا تعلقي أهمية على نبوءة هيكلك فما هي إلاّ قسم من الدسيسة المتبيّتة ضدك والمكيدة المنصوبة حولك .

عند ذلك نقر الباب . فأجفلت الملكة وقالت : داهية جديدة . أسرع الى كنّك .

— ٨ —

ففتحت الباب الملكة واذا جورجيا تقول لها : رئيسة الكاهنات يا مولاتي :

فتجلدت الملكة وقالت : مرحباً بها . لا ريب إن الإله أوحى اليها إني في حاجة الى مقابلتها السعيدة . مقابلة موفقة بإذن الإله .

وما خرجت جورجيا حتى فتحت الملكة الباب الأوسط واستدعت أمها بسرعة . فحضرت وهمست لها : أظن أن الخطة موفقة جداً يا أماه لأن رئيسة الكاهنات قدمت من تلقاء نفسها كأن الآلهة أوحت لها خيراً .

فقالت الأم متململة : وقتنا الآلهة من مفاجآت كاهناتها . إني أتوقع شراً من هذه الخبيثة .

فقالت الملكة مضطربة شديد الاضطراب . أرجو أن تساعديني يا أماه في اقناعها بأن تأخذ أفريدوس غداً اليها لكي يقدم التوبة في الهيكل وتصفح الآلهة عنه .

فقالت الأم : تصفح الآلهة أو تنتقم سيان عندنا . يكفي أن نطهر العرش من هذا الرجس وهنا : دخلت رئيسة الكاهنات .

— ٩ —

واستقبلت الملكة رئيسة الكاهنات بكل بشاشة وترحاب ، فانحنت الرئيسة قليلاً وقالت ، تحية لصاحبة الجلالة .

فقالت الأم . وسلام لقداسة سفيرة الهيكل المبجلة . لا ريب ان قدومك أيتها الموقرة بشير الرحمة . وبواسطة سموك يكف الآلهة عن الغضب وتوسلك يستدرك غضب الآلهة . قررنا ان نضع بين يديك وتحت رعايتك المعتقل المتنكر الذي لم يسفر التحقيق معه الاّ عن هوج وطيش . ولا غرض له سوى مشاهدة عاصمة الأمازونيات .

فأجابت الكاهنة وهي جامدة في مكانها لا تبدي حراكاً وقالت بصوت جهوري . فليحضر . فليحضر .

فقالت الملكة بتضرع. لقد ظهر يا ذات القداسة أنه من أسرة الكهنوت ولهذا يستحق عطفك.

فأجابت الكاهنة بصوت جهوري شديد. فليحضر حالاً.

فاستدعت الملكة افريدوس من حجرة السر. فدخل بثوب رجل وانحنى باحترام كلي واستدعت الكاهنة كاتبة سر الملكة جورجيا فحضرت وقالت لها. استدعي الكاهنة التي اصطحبتها معي

فما ترددت جورجيا في أن دعت الكاهنة التي كانت في معية رئيسة الكاهنات المطلوبة. فنزعت رئيسة الكاهنات الثوب عن الكاهنة المزيفة فبدا جيهول بزي كاهن بثوب أسود وعلى رأسه قلنسوة لاغطاء لها وإنما لها أربع زوايا

فانذعر افريدوس بعض الذعر. ولكنه تجلد وتشجع وأما الملكة فانذعرت وارتجفت ووجهت الكلام الى جيهول قائلة، هل تعرف هذا المزعوم انه كاهن جاريجاري

فقال جيهول: كاهن جاريجاري؟ ما هذا كاهناً. وإنما هو أمير جاريجاريا يا مولاتي.

فوجهت كلامها الى افريدوس: هل تنكر هذا الكلام؟

فقال افريدوس بشدة بأس وقوة. لا لست كاهناً. أنا أمير جاريجاري وزوج ملكة بنطس الشرعي حسب شريعة كيوبد ـ الملكة التي ستتوج ملكة على جاريجاريا أيضاً.

فصرخت أم الملكة بملء شدقيها: ويلكما. ويلكما. انتما اخوان من بطن واحد وصلب واحد. سر لايدريه أحد سواي.

فقالت رئيسة الكاهنات. والويل يدريه أيضاً

ربما كانت الرئيسة لاتدريه وانما ادعت هكذا لكي تتم النبوءة وتنتصر الرئيسة النصر المبين.

عند ذلك صرخت الملكة صرخة شديدة وانطرحت على ساعدي أمها: ويلاه. ويلاه! الويل وكان القمر قد شرع يتدرج ببطء على قرص الشمس وكاد يغطيه.

فقال افريدوس متداركاً. وماذا في الأمر. بعض أمراء الأمم يتزوجون اخواتهم وقد تزوج بعضهم اخواتهم كبطالسة مصر. وابن آدم تزوج بنت آدم. وبنت لوط تزوجت اباها ورزقت منه ولداً.. وهناك الف شاهد على زواج الاخوة والاخوات.

الأم. ويلكما. ليس لهم شريعة هيكل ينزل الويلات على الاخوين المقترنين

فقال أفريدوس. مع ذلك لا أصدق دعواك. فقد كنت معارضة زواجنا بكل شدة فانتحلت هذا السبب لكي تحولي دونه.

وقالت الرئيسة القمران يقترنان. انظروا الآن ... والويلان ينقضان.

من غرائب الاتفاق ان الكسوف حدث في تلك الساعة . فمن من الخرافيين لا يصدق ان نبوءة الهيكل تمت .

وصرخت الملكة صرخة تفجع وهي تنظر الى الشمس مكسوفة : الويل الويل الويل .

واستلت خنجرها بكل سرعة وطعنت به قلبها . وقعت صريعة .

في ابان هذا الويل دخلت أمازونيا ثم تبعتها جورجيا ثم أوجستينا ثم فلومينا وبعض حاشية الملكة . وجزعن من جراء هذه المأساة وانعقدت ألسنتهن عن الكلام . وأي كلام يطرأ عليهن . والأم تفجعت وصاحت بالويل والثبور الى أن قالت : يا لنقمة الآلهة فطالما حاولت أن أتدارك هذا الويل . ولكن مقدرني خانتني .

وقالت الكاهنة بصوت جهوري : القمران يقترنان والويلان ينقضان .

وعندها تناول أفريدوس الخنجر من يد الملكة القتيلة وهزه وهو يقول بصوت جهوري بكل تأن . تبا للاله الذي يجعل شريعته فوق شريعة الطبيعة ، ويحسب الحب جريمة يعاقب عليها بالموت . فلسوف تمتص الطبيعة ذلك الإله كما يمتص الهواء الدخان والبخار . ولسوف تعاقب الأجيال القادمة خدمة ذلك الإله الجاحد الحق والطبيعة بالحديد والنار . معك يا زوجتي إلى عالم الحق والحقيقة . وهجراً لعالم الغباوة والضلال .

ثم طعن صدره وخر على رجلي الملكة قتيلاً

ثم قالت الكاهنة . القمران اقترنا . والويلان انقضا ونبوءة العرش صدقت . انظروا الشمس مكمدة .

وحينئذٍ تم كسوف الشمس وسكنت الطيور في أوجارها . والحيوانات لجأت إلى أوكارها . واضطرب الجو ونفخت الريح .

وقالت أمازونيا : لقد انتصر إجكس وإرس على كيوبد وسلم عرش بنطس وحفظ استقلال مملكة الأمازون .

وقالت الكاهنة : تولي يا أمازونيا عرش بنطس فأنت أولى من يتولاه الآن .

وقالت أوجستينا : إذا لم ترش يمين كيوبد سهاماً فلا يبقى ذكور ولا أناث ولا بطون.

(تمت)

تمثيلية

ألفت هذه الرواية تمثيلية . فيمكن ردها تمثيلية بكل سهولة . الفصول الخمسة فصولها . وأرقام النبذ مناظرها . ولا موجب لتعديل شيء فيها

للمؤلف

مؤلفات علمية

هندسة الكون حسب ناموس النسبية Relativity
فلسفة التفاحة أو جاذبية نيوتن
Newton's Gravitation
عالم الذرة أو الطاقة الذرية Atomic Energy
علم أدب النفس Ethics
علم الاجتماع (جزآن) Sosciology

مؤلفات اجتماعية واقتصادية

الاشتراكية
الحب والزواج
ذكراً وأنثى خلقهم
مناهج الحياة
شعوب أوربا (مترجمة)
تاريخ أساس الشرائع الانكليزية (ترجمة)

روايات الاتحاد العربي

فرعونة العرب عند الترك
جمعية اخوان العهد
وداعاً أيها الشرق

روايات مختلفة

المهندس (ممتازة)
ثورة في جهنم
حواء الجديدة (طبعة ثالثة)
آدم الجديد
الصديق المجهول
الحقيبة الزرقاء
موت بسين
سرار مصر
العالم الجديد
نبية لبنان
حركات السيدات في الانتخابات،أو أيّ هو ابني
ثورة عواطف
من عرابي الى زغلول
فاتنة الامبراطور
زغلولات مصر
أين الكنز يا شرلوك هولمز (مترجمة)
الامبراطورة تيودورة (نشرت في هلال يناير سنة ١٩٤٤)
دولة سيدات في مملكة نساء

روايات نشرت في اللطائف المصورة

المنطاد المنتقم
زغلول مصر
زغاليل مصر
فتاة آل عثمان
تحت راية مصطفى كمال
فتاة الاناضول وانهزام اليونانيين

روايات مترجمة نشرت في مسامرات الشعب

حب في ثورة (الاصل لديماس)
عقد الملكة (جزآن) «
الزهرة الحمراء (الاصل للبارونة اورزي)
الحرب الجوية
العقرب (بتصرف)
زوجة بالاسم
١١ مجلداً من مجلة النساء والرجال

كتب للمؤلف معدة للطبع

فلسفة الوجود
الديمقراطية — مسيرها ومصيرها
اسحق نيوتن
العزلة في رأس الجبل (مناقشات أخلاقية)
ليت الشباب يعود (فلسفات في قصة)

خالد بن الوليد : تمثيلية أو رواية
الحب الذهبي: « »
الكنز القيصري أو دوقة في مصر : رواية
سر الكنز : رواية